www.Maktbah.com

الحرب والسلم

ليو تولستوي

المجلد الأول

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

الفارابي

www.Maktbah.com

ليُو تولستوي

الحرب والسلم

أليانة العصور الحديثة

المجلد الأول

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكتاب: الحرب والسلم ـ المجلد الأول
المؤلف: ليُو تولستوي
المترجم: فارس غصوب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-237-6

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

www.Maktbah.com

الجزء الأول

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

ذات صباح من شهر حزيران ١٨٠٥، بعثت أنا پاڤلوڤنا شيرر، وصيفة الأمبراطورة ماري فيودوروڤنا المحظية، أحد الخدم الذي كان يلبس بزة رسمية ذات لون أحمر وبيده بطاقات دعوة إلى جميع معارفها، وتتضمن ما يلي: «إن كنت ترغب في تمضية سهرة لا ترعبك في منزل مريضة تعيسة وليس لديك ما تقوم به أفضل من ذلك، فسأكون سعيدة جداً، سيدي الكونت أو أميري، أن ألتقيك بين الساعة السابعة والساعة العاشرة»

آنيت شيرر

منذ بضعة أيام، تعرضت أنّا پاڤلوڤنا إلى نوبة سعال أطلقت عليها اسم «كريب» وذلك لكي تضيف مفردة جديدة لم تستخدم حتى الآن وليست شائعة... فكانت هذه النوبة حجة التنويه بالمرض في بطاقات الدعوة.

كان أول من حضر حفلتها الأمير بازيل، وهو شخصية معروفة راقية.

وكان يلبس ثياب البلاط الرسمية المزدانة بالأوسمة وجوارب من الحرير، تظهر ساقيه من خفين رشيقين، وقد أشرق وجهه ذو القسمات الخادعة.

رحّبت به أنّا پاڤلوڤنا بما يلي:

«إن جنوا ولوك، يا أميري هما الآن إقطاعيتان تابعتان لملكية عائلة بوناپرت. أبلغك أنك إن لم تعلمني أننا سنعلن الحرب أو استمررت في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تلطيف الأعمال الفاحشة لهذا الدجال فسوف أتنكر لك ـ وإني لأنفذ ما أقول. وبعد ذلك لن تكون صديقي ولا خادمي المطيع كما تقول. أجل، مرحى مرحى، هل أرعبتك؟ تفضل بالجلوس وهات ما عندك من أخبار».

أجاب الأمير غير مكترث لهذا الاستقبال.

ـ يا له من كلام لاذع!

هذه، كانت آراؤه، وهو يفكر في تلك اللهجة الفرنسية التي يستخدمها رجال البلاط المرموقون، مضيفاً إليها نبرة متعالية، ومخارج ممطوطة يستعملها الذين قضوا حياتهم في المجتمعات المخملية، وكانوا ذوي حظوة في البلاط.

خفض رأسه المعطر وقبّل يد أنّا پاڤلوڤنا، ثم جلس برشاقة على الكنبة.

وأردف قائلاً بلهجته تلك وبصوت فيه عدم اكتراث، وهو أقرب إلى التهكم خلف ستار من اللياقة والأدب:

ـ فليطمئن صديقك أولاً، ثم كيف حالك يا صديقتي الغالية.

فأجابته پاڤلوڤنا:

ـ وهل تطيب نفس الإنسان إن كان يتعذب معنوياً؟ وهل يستطيع الإنسان الاحتفاظ بهدوئه في هذه الأيام إذا كان من أصحاب القلوب الطيبة؟ أظن أنك ستبقى عندي في هذه السهرة؟

ـ وسهرة المفوضية الإنكليزية؟

نحن في يوم الأربعاء يجب أن أكون هناك أيضاً ستجيء ابنتي لترافقني.

ـ أعتقد أن الحفلة أُجّلت اليوم. أصارحك بأن كل هذه المظاهر والسهرات أصبحت مصطنعة وتافهة.

أكد الأمير الذي كان مثل الساعة دقة يقدم اقتراحات كالمعتاد، وهو الدعي ينزعج جداً إذا اتخذت بشكل جدي.

www.Maktbah.com

ـ لو عرفوا أنك ترغبين في ذلك لغيّروا موعدها بالتأكيد.

ـ لا تقلقني! قل لي ماذا قرروا بصدد رسالة نوڤوسيلتسوف أنت على علم بكل شيء.

قال لها الأمير بأسلوب بارد:

ـ ماذا يمكنني أن أقول؟ لقد اتخذوا قراراً بإضرام النار في السفن لأن بوناپرت أحرق سفنه، ومن المحتمل أن نحذو نحن نحذوه.

يتحدث الأمير بازيل دائماً بلهجة ممطوطة كأنه يمثل دوراً حضّره بدقة مراراً وتكراراً سلفاً. وكانت آنّا پاڤلوڤنا على عكسه مندفعة جداً وملؤها الحماسة رغم بلوغها الأربعين من العمر.

وصارت الحماسة عندها ميزة معروفة، وقد كانت تظهر حماستها رغماً عنها كرمى لأصدقائها. فالابتسامة الرقيقة تظهر باستمرار مشرقة على وجهها، رغم التنافر بينها وبين تقاسيم وجهها، شأن الأطفال ـ توحي بأنها تعترف بخطأها الذي لا يمكنها أن تتراجع عنه ولا أن تصححه.

وأثناء حديثها، غضبت آنّا پاڤلوڤنا على السياسة وصاحت بقوة وسخط:

ـ لا تخبرني شيئاً عن النمسا، أنا لست مطّلعة على الحقيقة، لكن النمسا لا ترغب في الحرب أبداً ولا تريدها. فهي خائنة لنا. على روسيا فقط تتوقف مهمة خلاص أوروبا.

إن سيدنا المحسن على علم بالمهمة الكبيرة التي عليه أن ينجزها وسوف يكون مخلصاً لهذه المهمة. هذا هو الشيء الوحيد الذي اعتقده صحيحاً. إن أمبراطورنا العظيم عليه أن يقوم بأهمّ دور في العالم. إنه رجل كبير النفس شهم لا يتخلى الله عنه إطلاقاً. سيقوم بمهمته على أكمل وجه ويخنق الثورة التي هي اليوم أشد خطراً ورعباً بعد أن جسّدها هذا السفاح الدجال. يجب علينا الآن وعلينا وحدنا أن نقيم العدالة. على من يمكننا الاعتماد؟ على إنكلترا بعقليتها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التجارية إنها لا تفهم عظمة وجلالة الأمبراطور ألكسندر. فهي لم تتخلّ عن مالطة. إنها تحتج باستمرار وتتهمنا بإخفاء النيات السيئة. هل تعرف ماذا قالوا لنوڤوسيلتسوف؟ لا شيء! لم ولن يدركوا نزاهة أمبراطورنا وأنه لايبغي كسباً ذاتياً بل يريد للعالم بأسره كل ما هو جيد. ماذا كان وعدهم؟ لا شيء! لن يبرّوا بوعودهم ولو قطعوها على أنفسهم! صرّحت بروسيا أن بوناپرت لا يقهر. فإذا صدَّقنا هذا القول يعني أن أوروبا برمتها لن تصمد أمام جيوشه.

أنا لا أفهم أيّ كلمة من هلوسات هاردنبرغ أو هوغويتز. إن بروسيا على الحياد يعني شركاً مؤكداً. أنا أؤمن بالرب وحده بالمهمة السامية التي يقوم بها أمبراطورنا الكبير، فهو منقذ أوروبا!

أنهت كلامها فجأة وابتسمت لحماستها. فقال الأمير مبتسماً: لو أنك أرسلت غير وينتزنجيرود المحبب لكنت حظيت بموافقة ملك بروسيا... يا لبلاغتك المدهشة! هل تقدمين لي قدحاً من الشاي؟

ـ حالاً.

وأردفت تقول وقد هدأت:

ـ عندي بهذه المناسبة شخصيتان بارزتان في هذا اليوم. هما الڤيكونت مورتمارت المؤيد لأسرة مونتمورانسي عن طريق عائلة روهان، وهو اسم بارز في فرنسا ومن أفضل المهاجرين، ثم الكاهن موريو. هلّا تعرفت إلى هذا العبقري؟ هل تعرفت إليه. إن الأمبراطور بذاته قد رحّب به؟

ـ سأكون سعيداً بمعرفته!

وأردف برشاقة كمن تذكر شيئاً أساسياً هو الدافع لزيارته:

بالمناسبة، صحيح أن الأمبراطورة الأم تؤيد بقوة ترشيح البارون دو فونك للسكرتارية الأولى في ڤيينا؟ إنه مفلس هذا البارون، على ما يظهر.

كان الأمير بازيل يودّ أن تكون هذه الوظيفة لابنه، بينما استغل بعضهم وساطة الأمبراطورة ماري فيودوروڤنا، لفرض البارون فيها.

www.Maktbah.com

قالت ببرودة:

ـ لقد أوصي بالبارون دو فونك إلى الأمبراطورة الأم عن طريق شقيقتها.

عندما تحدثت آنّا پاڤلوڤنا باسم الأمبراطورة بدت على وجهها علامات احترام وتفخيم مخلصين لا يوجد فيهما أي شك، وقد اتخذت مثل هذا الطابع التفخيمي مراراً عندما تتحدث عن تلك الشخصية المرموقة التي ترعاها.

وتابعت تقول وقد اسودت مجدداً نظرتها:

تكرمت جلالتها وأغدقت على البارون تكريماً بالغاً.

سكت الأمير سكوتاً مطبقاً، لأن آنّا پاڤلوڤا وهي ذات حسّ مرهف وطباع عريقة في أمور البلاط، أرادت أن تفهم الأمير بأنه تخطى حدود الاحترام في حديثه عن امرئ هو بحماية الأمبراطورة، باللهجة عينها التي استخدمها وأرادت في الوقت نفسه أن تشعره بالخيبة التي أصابته، فقالت:

ـ أما فيما يتعلق بعائلتك، فإن ابنتك قد أصبحت راشدة وهي لافتة للأنظار، هل تعرف ذلك؟ إنها كضوء النهار.

وللتدليل على شكره، انحنى الأمير قليلاً.

وبعد برهة من السكوت، اقتربت آنّا پاڤلوڤنا من الأمير مبتسمة بلطف وكأنها تقول له إن المسائل الاجتماعية والسياسية تمهد السبل للمناجاة الودية الحميمة.

ثم تابعت:

ـ غالباً ما أفكر أن الحياة مجحفة في توفير السعادة.

وأردفت وهي مقطبة حاجبيها بلهجة صارمة:

ـ لماذا وفر لك القدر ولدين فاتنين عدا أناتول الصغير الذي لا يروقني أبداً ـ هما على هذا القدر من الجمال؟ وأنت غير مكترث لهما ولا تستأهلهما.

فأجابها الأمير:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ ما حيلتي؟ ربما يقول لافاتر[١] إنني أفتقر إلى الحنوّ الأبوي.

فأجاب الأمير:

ـ كفى سخرية. أريد التحدث إليك بجدية هلّا عرفت أنني غاضبة من ابنك الصغير؟

وغطت وجهها سحابة من الهمّ وتابعت.

ـ دار الحديث عنه في حضور صاحبة الجلالة الأمبراطورة ـ وهذا الكلام بيننا ـ لقد أخذتهم الشفقة عليك.

لم يجب الأمير فحدجته بنظرة قاسية، فقطّب حاجبيه وقال:

ـ ماذا أستطيع أن أفعل برأيك؟ لقد وفرت لتثقيفهما كل ما يمكنني. فهما أحمقان. هيپوليت أحمق هادئ أما أناتول فهو أحمق عربيد.

وابتسم متبرماً كعادته، وبرزت على شفتيه علامات الغضب، وقال:

ـ هذا هو الفرق بينهما.

فأجابت وهي تنظر إليه بعينين ناعستين:

ـ لماذا ينجب الناس أمثالك أولاداً؟ لو لم تكن أباً لما وجدت ما آخذه عليك.

ـ أنا خادمك الوفي. أبوح لك وحدك بأن أولادي هم قيود وجودي ومصدر عذابي. هكذا أرى الأمور. ماذا تطلبين مني بعد؟

سكت وأشار بيديه متابعاً حديثه، مستسلماً لمصيره المشؤوم بينما غاصت آنّا پاڤلوڤنا في التفكير:

ـ ألم تراودك فكرة تزويج «أناتولك»، هذا الابن الضال؟ يقال إن العانسات لديهن هوس بالزواج. أنا لم أشعر بمثل هذا الضعف. لكنني أعرف

---

(١) لافاتر، فيلسوف وشاعر سويسري ولد في زيوريخ وهو مبتدع علم الفراسة. (المترجم).

www.Maktbah.com

فتاة حوّل والدها حياتها إلى جحيم: إنها إحدى أميرات ڤولكونسكي، وهي قريبة لنا.

كان جواب الأمير إشارة من رأسه برهن بها ببداهة الإنسان الراقي عن استيعابه الهدف والعرض. ثم تابع آراءه المحزنة يقول:

ـ هل تعرفين أن «أناتول» هذا، يكلفني أربعين ألف روبل سنوياً؟

سكت برهة ثم تابع يقول:

ـ ماذا لو استمرّ الوضع خمس سنوات على هذا النحو؟ هذا ما يناله المرء عندما يكون أباً. هل أميرتك شابة ثرية؟

ـ والدها ثري بقدر ما هو بخيل. يسكن في الريف، إنه الأمير ڤولكونسكي، الذي ترك الخدمة منذ عهد الأمبراطور المرحوم الملقّب بملك بروسيا. إنه متقد الذكاء لكنه سيئ المعشر. وابنته المسكينة تعيسة جداً ولها شقيق تزوج حديثاً بليزمينن، وهو مرافق كوتوزف. أنا بانتظاره هذا المساء.

وفجأة، أمسك الأمير بيد محدثته، وأدناها فكادت تلامس الأرض، وقال:

ـ إسمعي، عزيزتي أنيت، اهتمي بهذه المسألة وسأكون خادمك المطيع إلى الأبد. (أ. ب.د) كما يكتب وكيلي في تقاريره. إنها ثرية ومن عائلة مرموقة، وهذا ما أتمناه.

وانحنى بحركاته الأنيقة التي يتميز بها على يد وصيفة الشرف ليقبلها. وأخذ يهزها وهو جالس على كنبته يتأملها.

قالت آنّا پاڤلوڤنا واجمة:

مهلاً، هذا المساء سأتحدث إلى ليز زوجة ڤولكونسكي الشاب. ربما تمكنت من النجاح في هذه المسألة، وسيكون ذلك بمثابة تدريبي الأول كعانس، في إقامة أول زواج لفرد من عائلتك.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

ازدحمت قاعة استقبال منزل آنّا پاڤلوڤنا بالمدعوين. فتلاقت فيها نخبة الطبقة الأرستقراطية في بيترسبوغ من كل الأعمار والمشارب شخصيات تربط بينها صلة الحسب، رغم الفرق في الوظائف واختلاف الآراء. وصلت هيلين الفاتنة، ابنة الأمير بازيل لترافق والدها إلى حفلة السفارة الإنكليزية، ترفل في ثيابها الخاصة بالحفلات التي تنمّ عن الثراء المترف الذي تتمتع به. ودخلت الأميرة الشابة الصغيرة پولكونسكي التي ذاعت شهرتها كأجمل امرأة بين نساء پيترسبورغ وأوفرهن فتنة، وقد تزوجت في الشتاء الفائت، وهي الآن تنتظر مولوداً، مما جعلها تستنكف من حضور الحفلات العامة والظهور فقط في الحفلات العائلية الحميمة. ثم وصل الأمير هيپوليت، نجل الأمير بازيل برفقة مورتمارت، وقدّمه للحضور. ثم دخل الأب موريو يتقدم لفيفاً من وجهاء القوم ونخبة أهل الثراء.

وكلما وصل مدعوّ تسأله آنّا پاڤلوڤنا: «هل رأيت خالتي؟» و«هل تعرفت إلى خالتي؟». ثم تتنقل وعلى وجهها علامات الرزانة والجدية وتذهب إلى عجوز، قصيرة القامة، مزينة بشرائط ضخمة، خرجت، عند وصول المدعوين، من غرفة مجاورة، فتقدّمهم إليها وهي تجيل ببصرها بينهم وبين «الماتانت» وبعدها تنسحب على الفور.

ويتقدّم كل مدعوّ بتهانيه التقليدية، وبكلام لائق بالمقام، بصدد عمتها تلك غير المعروفة، ولا أحد يشعر بحاجة إلى التعرف إليها، فتعلن آنّا پاڤلوڤنا

www.Maktbah.com

بشكلها المتطير موافقتها على الإطراء. وكانت «الماتانت»[1] تبدأ حديثها مع المقدّمين إليها، بكلمة تقليدية عن صحتهم، وصحتها وصحة جلالة الأمبراطورة التي هي اليوم أفضل حالاً، والشكر لله، وبدأ كل مدعو ينسحب مستأذناً دون أن يظهر تلهفاً من باب المجاملة والآداب، ويتنهد كمن تخلص من عبء عسير، فلا يعود يراها طوال السهرة.

وفي كيس صغير، مدبَّج بالذهب، حملت الأميرة ڤولكونسكي أشغالها، وكان طيف من الزغب يظلل شفتها العليا الفاتنة، وهي قصيرة قليلاً لكنها تنفرج بعذوبة وتشكل بانضمامها إلى السفلى تشذراً أكثر فتنة. وتلك العيوب البسيطة، الشفة القصيرة والفم المنفرج، تزيدها جاذبية كما هي الحال لدى النساء الجميلات. وكل من يتأمل تلك الأم المنتظرة، المفعمة بالحيوية، وهي تحمل أعباءها بنشاط، يشعر بالفرح يغمر قلبه. فدقائق معدودة بصحبتها كافية ليشعر الشباب والكهول المتضجرون أنهم أصبحوا مثلها نشاطاً. وكل من رأى وهو يتحدث إليها، وعاين أسنانها البيضاء، يعتقد أنه في تلك السهرة، أكثر رقة من أي وقت مضى. وهكذا كان يعتقد سائر المدعوين.

وراحت الأميرة الصغيرة تدور حول الطاولة بخطى واثقة وفي يدها كيس أشغالها ثم جلست على مقربة من السماور الفضي ترتب ثوبها بتأن، كأن الأمر يتعلق بحفلة سمر ستتذوقها مثل كل المحيطين بها، ثم فتحت حقيبة اليد وكأنها توجه كلامها إلى كل شخص من حولها:

ـ لقد جئت حاملة معي أشغالي.

ثم وجهت حديثها إلى ربة البيت قائلة:

ـ إياك يا آنيت أن تدبري لي حيلة ماكرة، كتبت لي تقولين إنها سهرة صغيرة، فانظري إلى تبرجي المتواضع.

---

(١) «خالتي» بالفرنسية، لغة الطبقة الأرستقراطية في روسيا. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ومدت ذراعيها لتريها ثوبها الأشهب الموشى بالخرز، والذي يحيط به شريط عريض يمتد حتى أسفل الصدر.

فأجابت آنّا پاڤلوڤنا:

ـ بلا مجاملة يا ليز، أنت أجمل من يحضر دائماً.

وأردفت ليز موجهة كلامها إلى أحد الجنرالات بلهجتها الرقيقة:

ـ هل عرفت أن زوجي قد هجرني مؤثراً عليّ الموت.

ثم توجهت إلى الأمير بازيل:

ـ لماذا هذه الحرب؟ قل لي؟

ودون أن تنتظر جواباً، اتجهت نحو هيلين الفاتنة ابنة الأمير بازيل.

فهمهم هذا في أذن آنّا پاڤلوڤنا يقول:

ـ يا لها من شخصية جذابة، هذه الأميرة الصغيرة!

وبعد برهة من وصول الأميرة، دخل شاب متين البنية، ذو جثة ضخمة، حليق الرأس، يضع نظارتين، وسراويل فاتحة اللون من أحدث طراز، وفراكاً بلون القرفة وصدارة عالية. وهذا الشاب الضخم هو الابن غير الشرعي للكونت بيزوخوف الشخصية الشهيرة على عهد كاترين الثانية والذي قضى آخر أيامه في موسكو. لقد نشأ الشاب خارج البلاد ورجع منذ حين إلى روسيا ولم ينخرط في الجيش. كانت تلك السهرة أول عهده بالظهور في المجتمع الراقي.

استقبلته ربة المنزل بالتحية التي استقبلت بها أقل الناس شأناً من المدعوين. وأشفعت آنّا پاڤلوڤنا استقبالها له ببعض التبرّم الذي يظهرعلى وجه المرء عندما يصادف أمراً مزعجاً مع ما يحيط به. وهذا الشاب الضخم يجمع بين البساطة والذكاء، وهذه الميزة التي يتمتع بها هي سبب النفور الذي استقبل به. بالإضافة إلى ذلك، شكله العام الذي أثّر كثيراً في نفوس الرجال الموجودين.

www.Maktbah.com

قالت آنّا پاڤلوڤنا بعد أن تبادلت نظرة قلقة مع «الماتانت»، وعرّفتها إلى الزائر الجديد.

ـ جميل منك يا سيد پيار أن تزور مريضة مسكينة.

غمغم پيار ببعض الكلمات غير المفهومة بينما كانت نظراته تحدج وجوه المجتمعين بوقاحة. حيّا الأميرة الصغيرة بابتسامة لطيفة كما يحيي المرء أحد أصدقائه المقربين. ثم اقترب من العمة. ولم يكن قلق آنّا پاڤلوڤنا بدون مبرر، إذ إن السيد پيار ترك العجوز اللطيفة قبل أن تنهي حديثها عن جلالة الأمبراطورة.

استوقفته آنّا پاڤلوڤنا خائفة وقالت:

ـ هل تعرفت إلى الأب موريو؟ إنه شخصية مرموقة.

ـ أجل، سمعت عن تصميمه على السلم الدائم، إنه مشروع يثير الفضول، لكنه ليس عملياً.

قالت آنّا پاڤلوڤنا، وهي ترغب في الكلام:

ـ هل تعتقد ذلك؟

وأرادت أن تعود إلى واجباتها كربة منزل. لكن پيار ارتكب خطأ يتناقض مع خطأه الأول تماماً. ففي المرة الأولى، غادر محدثته قبل أن تنهي حديثها، والآن يستوقف محدثة ثانية رغم إرادتها. ثم وقف أمام آنّا پاڤلوڤنا، مطأطئ الرأس، مباعداً ما بين ساقيه الضخمتين، يعرض عليها الأسباب التي تجعل تصميم الأب موريو خيالياً تماماً.

قالت آنّا پاڤلوڤنا مبتسمة:

ـ سنتكلم عن ذلك فيما بعد.

وتركت الشاب الذي لا يعرف كيف يتصرف، وعادت تقوم بواجباتها كمضيفة، وكلها عيون وآذان صاغية، حاضرة لكي تتدخل في أي حديث إذا وجدت أن حدّته قد خمدت. مثل معلم النسيج، يروح ويجيء مشرفاً على

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أنواله وماكناته، فإذا سمع صريراً أو ظهر خلل ما، أسرع إلى مكان العطب يصلحه، فيوقف هذا ويحرك الآخر. هكذا كانت آنّا پاڤلوڤنا تجول في قاعة الاستقبال تقترب من الحلقات الصامتة فتثيرها، ومن الجماعات الصاخبة تهدئ من حدّتها. فتلقي كلمة هنا، أو تنقل شخصاً إلى هناك؛ لكن تلك العناية الفائقة وذلك النشاط لم ينجحا في إزالة الكآبة التي أحدثها حضور پيار. تابعته بنظرة قلقة، فرأت أنه يتجه إلى الحلقة التي تحيط بمورتمارت ثم ينتقل إلى حيث يتحدث الأب موريو بإسهاب. وكانت حفلة آنّا پاڤلوڤنا الأولى التي يحضرها پيار الذي درس خارج روسيا. وهو يعرف أن «أضواء» پيترسبورغ على موعد للتلاقي فيها. كان شبيهاً بالغلام في دكان بائع الدمى، ينظر إلى كل شيء بإعجاب. كان يخشى أن تفوته بعض البحوث الرصينة التي يمكن أن يستفيد منها، فلما وجد بعض الشخصيات المعروفة تتحلّق حول الأب موريو، انضمّ إلى المجتمعين، يصغي إلى روائع فكرية، وكانت المناقشة مستعرة، متحيناً الفرصة للإدلاء بوجهة نظره.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

سارت الأمور على أفضل حال في سهرة آنّا پاڤلوڤنا. سارت الدرارات بانتظام ودقة في كل أرجاء المصنع، باستثناء «الماتانت» التي لم يبق أحد تتحدث إليه إلا سيدة مسنّة ذات وجه نحيل جرّحته الدموع غير مرتاحة إلى الوسط اللامع الذي هي فيه. انقسم المدعوون إلى ثلاث جماعات: الأولى، أغلبيتها من الرجال يتزعمها الأب موريو. الثانية ضمت الشباب وسطعت فيها الأميرة الفاتنة هيلين إلى جانب الأميرة الجميلة پولكونسكي، وقد تورّد وجهها. والثالثة، ضمت آنّا پاڤلوڤنا ومورتمارت.

ومن دون أي شك كان الڤيكونت الشاب أنيق المظهر دقيق القسمات والأساليب اللطيفة، ويعتقد أنه شخصية مرموقة، لهذا السبب لم يترفع عن إرضاء فضولية مجموعة النبلاء الذين يلتفون حوله بتهذيب وتصرفات لائقة. كما أن آنّا پاڤلوڤنا قدمته إلى المدعوين بما يليق به من اعتبار. وكما أن الطاهي البارع يقدّم للزبائن طبقاً يعتبره من أشهى الطعام لو قدّم في مطعم قذر لأثار الاشمئزاز، على هذا النحو، قدّمت آنّا پاڤلوڤنا للمدعوين الڤيكونت الشاب أولاً ثم الأب موريو كما تقدم أطباقاً من الطعام انتقتها بعناية فائقة وتدقيق.

جرى الحديث، بادئ ذي بدء، عند جماعة مورتمارت عن إعدام الدوق دانجين[1].

(١) الدوق دانجين ابن لويس هنري جوزيف، وقد اختطف من الأراضي الألمانية تنفيذاً لأمر بوناپرت وأعدم رمياً بالرصاص ١٨٠٤

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وقال الڤيكونت مؤكداً أن الدوق ذهب ضحيَّة قلبه الطيب، وفي إعدامه موجبات تتعلق بحقد بوناپرت.

وحدِّثنا بذلك يا ڤيكونت.

وأنّا پاڤلوڤنا هي التي هتفت بتلك الجملة، وقد راقها أن في: «حدِّثنا بذلك يا فيكونت» على بساطتها، وقعاً يحمل بين طياته، أسلوب التحدث على طريقة الملك لويس الخامس عشر.

انحنى الڤيكونت احتراماً للمتكلمة، وقد بدت على ثغره ابتسامة شفافة. فبادرت آنّا پاڤلوڤنا فوراً إلى تشكيل حلقة حول الڤيكونت الشاب، ودعت الموجودين إلى الاستماع إلى حديثه.

قال لأحدهم:

كان الڤيكونت معروفاً بصورة خاصة من قبل سمو الدوق...

وإلى آخر.

ـ إن الڤيكونت محدث لبق...

وإلى ثالث تحضه بقولها:

ـ سرعان ما يعرف المرء الرجل الممتع الصحبة...

وهكذا قدمت الڤيكونت سلواناً لمجتمعها الراقي، على أبهى مظهر، كما يقدم طبق من اللحم المشوي، وقد ذر عليه البهار والمشهيات.

وابتسم الڤيكونت ابتسامته الرقيقة، واستعد للبدء بحديثه.

هتفت آنّا پاڤلوڤنا بالأميرة الجميلة التي كانت على مقربة منها، وسط فريق من المعجبين:

تعالي هنا يا عزيزتي هيلين.

نهضت الأميرة هيلين، وعلى ثغرها ابتسامة مشعة، ابتسامة المرأة الجميلة المكتملة الأنوثة، التي كانت تشرق على وجهها منذ أن دخلت قاعة

www.Maktbah.com

الاستقبال. مشت وسط الرجال الذين راحوا يفسحون لها في الطريق وهي تجر وراءها ثوبها الموشى بالزهور، فيحدث حفيفاً خافقاً، واختالت مزهوة بكتفيها البضتين، وشعرها المتموج، وجواهرها المتلألئة، شامخة الرأس، لا أحداً بنظرتها، وابتسامتها تغمر الموجودين. وبدت كأنها تراعي أن يتأمل كل منهم قامتها الفارعة، وكتفيها المنسجمتين، وجيدها وظهرها العاريين، البارزين من خلال فتحة الثوب، حسب مبتكرات ذلك العصر. اقتربت من آنّا پاڤلوڤنا وكأنها تجر وراءها كل روعة الحفلة. كانت هيلين على قسط كبير من الجمال، بعيدة عن أسباب التبرج، تبدو مشفقة من سلطان جمالها المفرط وكأنها تبحث عبثاً عن وسيلة تخفف من طغيانه.

كان كل من يراها لا يتمالك نفسه عن القول.

ـ يا للجمال!

وعندما جلست أمام مورتمارت، وطلعت عليه بابتسامتها، أجفل الڤيكونت وكأن الدهشة عقلت لسانه. وأطرق مبتسماً.

قال وهو ينحني:

ـ سيدتي، إنني مشفق على وسائلي في حضرة الجمال الطاغي.

لم ترد الأميرة على إطرائه، وأسندت ذراعها إلى نضد صغير، وانتظرت مبتسمة. بقيت طوال المدة التي استغرقتها وقائع القصة، منتصبة الجسد، ترتب ثنيات ثوبها، أو تتأمل ذراعها المستديرة البديعة، التي كان ثقلها على النضد يخفق في تشويه شكلها الشهي، وعنقها الفتان، الذي كانت تعانقه قلادة ألماسية. وفي المواقع المثيرة من القصة. كانت عيناها تشخصان إلى وجه آنّا پاڤلوڤنا مستفهمتين، فتنقل هذه انطباعاتها بإخلاص. لكن تقاطيع وجهها سرعان ما تنبسط بابتسامة ملائكية.

تركت الأميرة الصغيرة مائدة الشاي على أعقاب هيلين، وهي تصيح:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ انتظريني ريثما آخذ أشغالي.

ثم توجهت إلى الأمير هيپوليت:

ـ فيمَ تفكر؟ جئني بحقيبتي اليدوية!

أحدث تأهب الأميرة للانتقال من مكانها، وما أشفعته بحديث وبضحكات وزعتها على الذين حولها، لغطاً في جماعة مورتمارت، فلما جلست بين أفراد الجماعة الجديدة، ورتبت زينتها، قالت وهي تستعيد أشغالها:

ـ هكذا. لقد أخذت مكاني. يمكنك أن تبدأ قصتك.

وتبعها الأمير هيپوليت، حامل الحقيبة، في حلها الجديد، وجلس على مقعد على مقربة منها.

كان بين «هيپوليت الجذاب» وشقيقته هيلين الفاتنة شبه واضح، لم يمنع أن يكون الشقيق بشعاً جداً، رغم تشابه القسمات: كانت قسمات هيلين مشعة دائماً بتلك الابتسامة الفتية، التي تشع حبوراً، وتنمّ عن استمتاع ببهجة الحياة. على عكس شقيقها الذي كانت قسماته مظلمة، وقد انسدل عليها حجاب من الغباوة، فأصبحت تدل على زهو متجهم، ثابت، وكان تكوين هيلين الكامل الذي أبدع الفنان في صياغته وتركيبه، يتناقض مع جسم هيپوليت النحيل. فكان وجهه متقلصاً دائماً تحيط بأنفه وفمه وعينيه خطوط تدل على شراسة طبعه. أما ذراعاه وساقاه، فكانت تتخذ على الدوام وضعيات منفرة.

لم يكد يجلس في مقعده، حتى بادر إلى تثبيت نظارتيه، وهي الحركة الملازمة التي بدونها لا يستطيع البدء بالحديث.

قال مستفهماً:

ـ هل هي قصة أشباح؟

فأجاب المحاضر حائراً وهو يهز كتفيه:

ـ لا يا عزيزي.

قال الأمير معللاً سؤاله:

ـ لأنني أكره قصص الأشباح.

كانت لهجة الأمير تدل على أنه لا يتوخى الدقة في كلامه وأنه يعرف معاني أقواله بعد أن يصرفها. وكان يتحدث بتأكيد، حتى أن المستمع يحار في اتخاذ عباراته على محمل الرشد. كان يرتدي جوارب حريرية، وينتعل خفين، ويرتدي «فراكاً» أخضر قاتماً، وتحته سراويل اصطلح على تسميتها: فخذ جنية مروعة.

تمكن الڤيكونت أخيراً أن يقص الحكاية بحماسة تتناسب وخطورتها. ولم تكن القصة جديدة أو غريبة. وخلاصتها أن الدوق دانجين الذي قدم سراً إلى پاريس، لزيارة الدوموازيل جورج، وجد عندها بوناپرت الذي كان حائزاً عطف الممثلة الشهيرة. فانتاب بوناپرت إغماء، جعله تحت رحمة خصمه، الذي رفض الإفادة من الفرصة. وسبب نبله ذاك مقتله بعدئذ، لأنه بإغضائه عن قتل بوناپرت في إحدى النوبات التي كان فريسة لها، ترك لبوناپرت إمكانية رسم الخطة للانتقام من الدوق بإعدامه.

كانت القصة مثيرة، وبخاصة في الجزء الذي يصف لقاء الخصمين المفاجئ. وقد أحدثت هذه الناحية تأثيراً في السيدات. فصاحت آنّا پاڤلوڤنا وهي تستفسر الأميرة الشابة بنظرة من عينيها:

ـ جميل جداً، أليس كذلك؟

فغرزت إبرتها في أشغالها، دلالة على أن تلك القصة الممتعة لا تسمح بالاستمرار في عملها، وقالت موافقة:

ـ رائع.

ابتسم الڤيكونت للأميرة شاكراً إياها على إطرائها الذي قدّره جيداً، وأراد استعادة الحديث؛ عندما لاحظت آنّا پاڤلوڤنا أن الشاب الذي خشيت

twitter @baghdad_library

سوء تصرفه واقتراف حماقة ما، هو الآن في نقاش صاخب مع الأب موريو، أسرعت فوراً إلى الجبهة المهددة.

والحق يقال إن السيّد پيار كان حينئذ يتباحث مع الأب موريو حول التوازن الأوروبي وشرع يعرض على الشاب مشروعه عن السلم الدائم، وقد أخذ بحماسة الشاب الساذج.

كان الأب موريو يقول:

ـ لا يوجد علاج إلا التوازن الأوروبي وحقوق الأفراد. فإذا تزعمت دولة عظمى كروسيا، الموصوفة بالبربرية، حلفاً هدفه إيجاد التوازن في أوروبا فيمكنها أن تنقذ العالم.

ـ وكيف ترى هذا التوازن؟

أراد پيار أن يتابع حديثه، لكن التفاتة حازمة من آنّا پاڤلوڤنا أرغمته على السكوت.

وسألت الأب موريو:

ـ كيف تجد المناخ هنا؟ هل تستطيع أن تتحمله؟

فانطبع وجهه بطابع اللطف الذي يتميز به بحضور السيدات، وقال:

ـ إن جمال هذا المجتمع الذي أسعدني الحظ أن أكون فيه، وقد أذهلتني ميزاته ورقيه، حتى أنني لم أفكر قطّ في المناخ.

وتحاشت آنّا پاڤلوڤنا أن تترك پيار والأب موريو معاً فجذبتهما إلى حلقتها لتتمكن من وضعهما تحت رقابتها الحازمة.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

في هذه الأثناء، وصل إلى غرفة الاستقبال، ضيف جديد هو الأمير الشاب أندريه پولكونسكي، زوج الأميرة الشابة. إنه بهيّ الطلعة، متوسط القامة، ذو قسمات جامدة. وكلّ ما فيه، حتى نظرته القاتمة، واتزان مشيته، يدل على أنه نقيض عنيف لحيوية زوجته الرشيقة. وكان يعرف بدون شك زبائن أنّا پاڤلوڤنا وأحاديثهم ولم يكن يميل إلى أحد من أولئك الأشخاص المملين، بمن فيهم زوجته التي ما إن لمحها حتى أشاح بوجهه عنها فوراً.

وبعد أن قبّل يد أنّا پاڤلوڤنا، أخذ يتأمل وجوه المدعوين بعينين نصف مغمضتين.

سألته أنّا پاڤلوڤنا:

ـ هل انضممت إلى صفوف المقاتلين يا أميري؟

فأجاب پولكونسكي بالفرنسية محاولاً تقليد أبناء «السين».

ـ اختارني الجنرال كوتوزوف مرافقاً له...

ـ زوجتك ليز؟

ـ ستبقى في الريف.

ـ ألا تخجل لحرماننا زوجتك الفاتنة؟

صاحت الأميرة تنادي زوجها، بلهجتها اللعوب.

ـ أندريه لو سمعت القصة الرائعة التي رواها الڤيكونت لنا الآن عن بوناپرت الدموازيل جورج. ليتك سمعتها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قطب الأمير حاجبيه وأشاح بوجهه عنها. وفي تلك اللحظة اقترب منه پيار، الذي كان يتابعه منذ دخوله بنظرة ودية، وأمسك بذراعه. فلم يستدر پولكونسكي، ولكن وجهه اتخذ طابع الاشمئزاز من ذلك المتطفل. لكنه ما كاد يشاهد وجه پيار المبتهج، حتى ابتسم بدوره مرحباً:

قال:

ـ كيف!... هل بدأت تتأقلم مع الأوساط المخملية أنت أيضاً!

فأجاب پيار:

ـ كنت أنتظر رؤيتك. هل يمكنني أن أدعو نفسي إلى تناول العشاء عندك؟

ـ قال هذه الجملة الأخيرة بصوت منخفض لكي لا يشوش على الڤيكونت الذي يجتر قصته العتيدة.

فأجابه الأمير أندريه مقهقهاً:

ـ لا، مستحيل.

بينما كانت يده التي تضغط على يد پيار، تشعره بأن الدعوة للعشاء طبيعية لا تستوجب توكيداً.

أراد أن يضيف بضع كلمات، غير أن الأمير بازيل وابنته نهضا في تلك اللحظة، فاضطر الشابان إلى إخلاء الطريق لهما.

قال الأمير بازيل مخاطباً مورتمارت، وهو يشد على ذراعه بحركة ودية ليمنعه من النهوض لوداعه:

ـ اعذرني يا عزيزي الڤيكونت. لقد أفسدت حفلة السفارة الإنكليزية المزعجة وأفسدت عليّ سروري، فأُجبرت على مقاطعتك.

ثم نظر إلى آنّا بافلوفلنا قائلاً:

ـ إنني متأسف جداً إذ اضطر إلى مغادرة سهرتك الرائعة.

شقت هيلين طريقها بين صفي المقاعد، وهي على أحسن حال من

www.Maktbah.com

الإشراق. فلما وصلت إلى حيث يقف پيار، راح هذا يتأمل جمالها بعينين بدا فيهما إعجاب شبيه بالهلع.

قال پولنسكي:

ـ إنها فائقة الجمال.

فغمغم پيار مؤكداً.

ـ نعم إنها رائعة الجمال.

أمسك الأمير بازيل بذراع پيار والتفت إلى آنّا پاڤلوڤنا قائلاً:

ـ أتمنى أن تدجني لي هذا الدب. إنه يسكن عندي منذ شهر، مع ذلك فأنا أراه للمرة الأولى في المجتمع. إن رفقة النساء الذكيات لا يضاهيها مثيل في تهذيب نفوس الشباب.

وعدت آنّا پاڤلوڤنا مبتسمة بأن تهتم بپيار، الذي كانت تعرف صلة القربى التي تربط أباه بالأمير بازيل.

أسرعت السيدة العجوز التي كانت في رفقة «الماتانت» لتلحق الأمير بازيل الذي اختفى عند الردهة من وجهها الذي قعرته الدموع، كالوقار الذي يتطلبه ذلك الوسط، وحل محله القلق.

قالت وهي تركض وراء الأمير:

ألا يوجد لديك ما تقوله لي بشأن بوريس يا أميري، أنا لا أستطيع البقاء في پيترسبورغ أكثر مما مكثت.

وعلى الرغم من أن الأمير كان يستمع إليها بشكل خال من التهذيب، يدل على نفاد صبر، كانت السيدة المسنّة تبتسم له بلطف لكي يصغي إلى كلماتها، حتى أنها في إلحاحها أمسكت بذراعه.

وقالت ضارعة:

ـ لن يكلفك التحدث عن ابني كثيراً. إن حكمة منك، ويدخل ابني بعدها في فرقة الحرس.

twitter @baghdad_library

أجابها الأمير بازيل:

ـ سأبذل جهدي، يا أميرة، صدقيني. لكنه من الصعب بالنسبة إلي أن أتحدث إلى الأمبراطور. إنني أوصيك أن تتصلي بروميانتسيف، عن طريق الأمير جولستين سيكون ذلك أقرب إلى النجاح.

كانت تلك السيدة العجوز، وهي واحدة من أميرات دروبتسكوي تحمل أكبر الأسماء في روسيا. لكن الفقر اضطرها إلى اعتزال المجتمعات، ففقدت علاقاتها السالفة. وجاءت إلى بيترسبورغ على أمل الوصول إلى وعد بنقل ابنها الوحيد إلى ملاك الحرس. وقد حضرت إلى تلك الحفلة دون أن تدعى إليها، بغية لقاء الأمير بازيل هناك. وكانت هذه الغاية وحدها هي التي جعلتها تصغي بصبر نافد إلى قصة الفيكونت. وقد أرعبها جواب الأميرة في بادئ الأمر، إذ أفصح وجهها الذي ظل محتفظاً ببقايا جمالها الغابر، عن انفعال يشوبه الذعر. وسرعان ما استعادت ابتسامتها وازداد ضغطها على ذراع محدثها بعصبية مكتومة.

قالت:

إصغ إلي يا أميري. أنا لم أسألك قطّ معروفاً، ولن أسألك منّة.

أنا لم أذكرك قطّ بالصداقة التي كان أبي يكنها لك. لكنني أستحلفك الله أن تتوسط الآن من أجل ابني...

ثم تابعت بكلمات متلاحقة قائلة:

ـ إنني أعتبرك المحسن الكريم الذي غمرني بمعروفه. لا تغضب، اعطني وعداً فقط. لقد قابلت جوليستين فرفض...

واستطردت مبتهلة محاولة الابتسام رغم الدموع التي تغمر مآقيها!

ـ كن ذلك الفتى الطيب الذي كنته من قبل.

صاحت الأميرة هيلين التي كانت تنتظر أمام الباب، وقد أدارت رأسها الجميل فوق كتفيها الرشيقتين:

www.Maktbah.com

ـ أبتاه، سوف نتأخر عن الموعد.

كان النفوذ في «العالم» الراقي ذخيرة يجدر الاحتفاظ بها، وإلا، فسرعان ما تتبخر فيفقر صاحبها. لذلك كان الأمير بازيل شديد الشح على ذخيرته تلك، قلما يمد يده إليها، وهو على ثقة أنه لو حاول صرفها في التوسط لمصلحة كل من يلتمسون منه وساطة ما، وجد نفسه عاجزاً عن سؤال أي شيء لمصلحته الشخصية. مع ذلك، فإن نداء الأميرة دروبتسكوي الملح، خلق في نفسه شيئاً من التبكيت والتعنيف الخفي. لقد تفوَّهت الأميرة العجوز بالصواب: إن أباها كان صاحب الفضل، فهو الذي قاد خطوات بازيل الأولى في طريق الرفعة التي بلغها. أضف إلى ذلك أنه لاحظ من تصرفات تلك السيدة أنها من النسوة أو الأمهات اللواتي يتابعن السير وراء غايتهن، ويعملن المستحيل في سبيل تحقيقها، حتى إذا تعثرن بقصبة أو تصدى لهن كائن، أشبعنه لوماً وتعنيفاً في كل لحظة، فكان هذا الاستنتاج الواضح سبباً في حسم الموضوع.

وتابع بلهجة مرحة كان معروفاً بها، تخللتها سحابة من التعب:

ـ عزيزتي آنّا ميخائيلوفنا، يستحيل عليّ تقريباً إرضاؤك. مع ذلك سأبذل المستحيل لأثبت لك ودي وتمجيدي لذكرى المرحوم والدك واحترامي له. أعدك بأن ينقل ابنك إلى سلك الحرس. فهل يرضيك ذلك؟

ـ يا صديقي الطيب، إنك محسن وصاحب الفضل علينا! لم أكن أنتظر منك غير ذلك. كنت أعرف أنك طيب.

انحنى الأمير يحاول الانسحاب؛ فقالت الأميرة العجوز:

هناك كلمة أخرى، أرجوك.

ترددت برهة ثم أردفت:

ـ عندما ينتظم في سلك الحرس، أرجو أن تتفضل بالسؤال من ميخائيل ايلاريونوفوتيسن كوتوزوف ـ هو صديق لك ـ أن يدخله في عداد مساعديه. وعندئذ سأقر عيناً ولن أسألك...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ابتسم الأمير بازيل لهذا المشروع الجديد.

ـ لا يمكنني أن أقطع لك وعداً. لو أنك تدركين مدى المضايقات التي يتعرض لها كوتوزوف منذ أن عيّن «جنرالاً أعلى» لعذرتني. لقد قال لي هو بالذات إن كل نسائنا الفاضلات في موسكو، تآمرن عليه ليدخل أبناءهن في عداد مساعديه.

ـ لا، لا، يا صديقي الطيب، يا صاحب الفضل، لن أتركك قبل أن تعطيني وعداً...

كررت هيلين الجميلة بنفاد صبر:

أبتاه، سوف نصل متأخرين.

فأجاب الأمير:

ـ إلى اللقاء، أترين أنني على عجلة من أمري.

ـ اتفقنا إذن. ستتحدث إلى الأمبراطور.

ـ بدون شك. أما كوتوزوف، فإنني لا أعد شيئاً بصدده.

فألحت الأميرة بابتسامة فتاة لعوب، ابتسامة متنافرة مع تقاطيع وجهها التالف بقدر ما كانت أليفة مع ذلك الوجه من قبل:

ـ بلى، بلى. يا بازيل.

من الواضح أنها تناست كلياً سنها المتقدمة وأنها لجأت كعادتها، إلى كل مواردها الأنثوية السابقة. لكن ما إن خرج الأمير، حتى استعاد وجهها طابع البرودة التي كان موسوماً بها. عادت تلتحق بالمدعوين المتحلقين حول الڤيكونت الذي كان يتابع خطابته، وتصنعت الإصغاء إلى أقواله، متحينة لحظة الانصراف، وقد أصبحت تتوق إليها، بعد أن أنجزت مهمتها.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

استقصت آنّا پاڤلوڤنا قائلة:

ـ ما قولك إذن في أضحوكة التنصيب الأخيرة في ميلان؟ ومهزلة سكان جينس ولوك الجديدة، اللذين جاءا يرفعان ولاءهما إلى السيد بوناپرت المتربع على عرش، معلنين عواطف الأمم وتمنياتها! مدهش! أليس كذلك؟ بل يكاد يثير الجنون! حتى ليظن أن العالم أجمع قد فقد عقله.

طافت ابتسامة على وجه الأمير أندريه وحدق إلى وجه آنّا پاڤلوڤنا بنظر ثاقب. قال مردداً كلمات بوناپرت:

ـ نعم «لقد أعطانيها الله والويل لمن يلمسها» Dieu me la donne; gare à qui la touche فاتناً وهو يردد هذه الكلمات.

وعاد يكرر هذه الجملة بالإيطالية Dio mila do. Na, gue a chi la tocca

وتابعت آنّا پاڤلوڤنا تقول:

ـ آمل أن تكون هذه العملية هي النقطة التي يطفح بها الكيل. أصبح الأمراء لا يطيقون احتمال هذا الرجل الذي يهدد كل شيء.

فقال الڤيكونت بلهجة هادئة.

ـ الأمراء... إنني لا أتحدث عن روسيا بالطبع. الأمراء يا سيدتي! ماذا فعل الأمراء للويس السادس عشر، للملكة، أو لمدام اليزابيت؟

تابع بحماسة وانفعال.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ لا شيء! صدقيني، إنهم الآن يلاقون عقابهم على خيانتهم لمسألة آل بوربون الأمراء؟ إنهم يوفدون رسلاً يحملون تهانيهم للمغتصب:

ندت عن صدره زفرة حقد عميقة، واعتدل في مجلسه مجدداً ثم التفت الأمير هيپوليت، وكان حتى الآن محتمياً وراء نظارتيه ليتاح له تأمل الڤيكونت على هواه، إلى الأميرة الصغيرة فجأة، وطلب إليها إبرة راح يرسم بها على الطاولة شعار أسرة كوندة، ثم أخذ يفسر لها رموزها باندفاع وكأنها سألته ذلك، بينما كانت الأميرة تصغي إليه والابتسامة مشرقة على وجهها.

وتابع الڤيكونت بحماسة متزايدة، شأن الرجل الذي لا يأبه للإصغاء إلى الآخرين ويتبع ما عدا ذلك، سياق آرائه وحده، في المسألة التي يلم بها جيداً ويتفهمها أكثر من سواه.

إذا لبث بوناپرت على العرش عاماً آخر، فإن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد. فالدسائس والقسوة والنفي والتنكيل، كل ذلك سيدمر المجتمع الفرنسي، وأقصد المجتمع الراقي، تدميراً لا رجعة بعده، وعندئذ...

وهز كتفيه دلالة على اليأس، وأنهى حديثه تلك النهاية الصامتة. وهمَّ پيار، الذي أثار ذلك الحديث اهتمامه، أن يدلي بدلوه فيه. غير أن آنّا پاڤلوڤنا التي كانت تراقبه بشدة، لم تترك له مجالاً للحديث.

شرعت تقول بذلك الطابع الخطير، الذي كانت تضفيه على وجهها كلما تحدثت عن الأسرة الأمبراطورية:

ـ أعلن الأمبراطور ألكسندر أنه سيترك للفرنسيين حرية انتقاء نوع الحكم. إنني واثقة أنه إن يطح بالمنتصب، وينقذ الأمة منه، فسيلقي الشعب بنفسه بين ذراعي حاكمه الشرعي.

قالت آنّا پاڤلوڤنا هذه الجملة الأخيرة إرضاء لشعور المهاجر النبيل.

قال الأمير أندره:

www.Maktbah.com

ـ لا أظهر ذلك. لقد سارت الأمور شوطاً بعيداً، كما يؤيدني في قولي سيدي الڤيكونت، حتى أصبح متعذراً إحياء الماضي من طيات النسيان.

فتدخل پيار قائلاً وقد قفزت الدماء إلى وجنتيه:

ـ أريد أن أقول إن الطبقة النبيلة كلها، قد انضمت إلى بوناپرت.

فأجاب الڤيكونت دون أن يرفع ناظريه إلى پيار:

ـ إن هذه آراء بوناپرتية. من الصعب على المراقب الآن، استنباط عقلية البلاد الحقيقية، وهي على حالة البلبلة الحاضرة.

قال الأمير أندره، بابتسامة هازئة:

ـ لقد قال الأمير بوناپرت: «لقد دللتهم على طريق المجد، فلم يسلكوه، فلما فتحت لهم ردهاتي، أسرعوا إليها زرافات زرافات»... ولست أدري إلى أي مدى حق له أن يقول مثل هذا القول.

كان الأمير أندره لا يشعر بميل إلى الڤيكونت الشاب، لذلك كان يهدف إلى إيلامه بإيراد أقوال بوناپرت وتأييدها، ولو كان يتظاهر بعدم التحدث إليه.

أجاب الڤيكونت معقباً على أقوال الأمير:

ـ ليس له أي حق في التلفظ بتلك الأقوال. منذ إعدام الدوق، كف المعجبون به، أتفهم، عن التطلع إليه بتلك النظرة التي يمجد الإنسان بها أحد أبطاله.

وأردف موجهاً حديثه إلى آنّا پاڤلوڤنا بصورة خاصة:

ـ حتى ولو أنه كان بطلاً في نظر البعض، فإنه منذ إعدام الدوق، ازداد عدد الشهداء في السماء واحداً كما نقص عدد الأبطال، فخسرت كذلك بطلاً.

قابلت آنّا پاڤلوڤنا وصحبها تلك الكلمات بابتسامة مؤيدة، استطاع پيار في إثرها أن يحشر نفسه في الحديث، دون أن تستطيع آنّا پاڤلوڤنا التصدي له لمنعه من إثارة المواضيع غير اللائقة التي كانت تخشاها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال السيد پيار:

ـ إن إعدام الدوق دانجين كان ضرورة حكومية. وفي رأيي إن «ناپليون» يتحمل وحده مسؤولية هذا العمل، قد أوردت دليلاً واضحاً على سمو نفسه وعظمتها.

غمغمت آنّا پاڤلوڤنا مروعة:

ـ رحماك يا رب، رحماك!

وقالت الأميرة الصغيرة وهي مبتسمة دائماً، وقد ازدادت تعلقاً بأشغالها:

ـ كيف ترى يا سيد پيار أن القتل دلالة على عظمة النفس.

وانطلقت آيات الدهشة، من مختلف الحناجر والأفواه.

بينما صاح الأمير هيپوليت وهو يضرب على فخذه، متحدثاً بالإنكليزية:

ـ إنها نظرية قاضية!

أما الڤيكونت، فقد اكتفى بهز كتفيه مستعيضاً بتلك الحركة عن كل جواب تنازل بالرد به على أقوال پيار.

سرح پيار نظره بين السامعين من خلال نظارتيه ومن فوقهما، فكانت نظرة جواب منتصرة.

تابع يقول مغامراً بكل شيء مندفعاً بلا مبالاة وراء فكرته:

ـ سأشرح الأمر. لقد فر آل بوربون أمام الثورة وسلموا البلاد للفوضى. أما ناپليون، فإنه على العكس، استطاع أن يفهم الثورة وأن يسيطر عليها. فما كان يستطيع والحالة هذه، أن يضع حياة فرد واحد في الكفة المقابلة لكفة المصلحة العامة.

قالت آنّا پاڤلوڤنا محاولة تسوية الأمر:

ـ لو أنك انتقلت يا سيد پيار إلى الطاولة الثانية...

لكن پيار كان كالعاصفة التي أفلتت من عقالها، لا يسمع ولا يصغي.

www.Maktbah.com

استطرد معقباً:

ـ أجل. إن «ناپليون» عظيم لأنه استطاع السيطرة على الثورة. لقد خنق سيئات الثورة وأبقى على جوهرها الطيب: مساواة المواطنين وحرية القول والصحافة. ولهذه الأسباب وحدها، استولى على السلطة العليا.

فقال الڤيكونت مناقشاً:

ـ بدون أي شك لو أعاد السلطة، بعد الحصول عليها، إلى أصحابها الشرعيين بدلاً من أن ينتهز فرصة وصولها إلى يديه لارتكاب جريمة قتل، لأسميته رجلاً عظيماً.

ـ إن ذلك مستحيل أصلاً. إن الأمة لم تعهد إليه بمقاليدها إلا لينقذها من آل بوربون. ولأنها رأت فيه رجلاً عظيماً... لقد كانت الثورة خطوة جبارة...

كان پيار بإصراره على إبداء رأيه يعبر عن رغبته العميقة في إبداء الرأي النزيه بعيداً عن الاعتبارات الأخرى، مدفوعاً بحماسة الشباب.

كررت آنّا پاڤلوڤنا غاضبة:

ـ الثورة خطوة جبارة؟ إعدام الملك والتجاوز على سلطته؟ هلّا انتقلت إلى الطاولة الأخرى بعد كل هذا...

ألمح الڤيكونت مع ابتسامة لطيفة:

ـ العقد الاجتماعي!

بينما انطلق پيار يدافع عن نفسه!

ـ أنا لم أخص إعدام الملك بالقول... إنني أتحدث عن الأفكار...

فقاطعه الڤيكونت بابتسامة هزء وصوت ساخر:

ـ نعم، أفكار السلب والقتل وقتل الملوك...

ـ إن هذه الحوادث، ولا أفكر أبداً في إنكار وقوعها، لا تشكل كل الثورة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وأهدافها. إن روح تلك الثورة هي حقوق الإنسان، وإلغاء التقاليد البالية والمساواة بين المواطنين. لقد أقام ناپليون هذه المبادئ بكل معانيها.

قال الڤيكونت بمقت، وقد قرر أخيراً أن يشعر ذلك الغر بكل السخف الذي في تلك الآراء التي يتشدق بها:

ـ إن الحرية والمساواة وكلمات طنانة استغلت بشكل بشع. من الذي لا يحب الحرية والمساواة؟ لقد كانت منذ الأزل من تعاليم سيدنا المخلّص. ولكن هل جعلت الثورة الرجال أكثر سعادة؟ على العكس. إننا نحن أولاء الذين أردنا الحرية وناپليون هو الذي دمرها.

كان الأمير أندره يجيل بنظره باسماً بين پيار والڤيكونت ثم إلى وجه ربة المنزل. كانت هذه، رغم ممارستها تقاليد المجتمعات وإتقانها ضبط أعصابها، قد فقدت بادئ الأمر، كل سيطرتها على أعصابها وكادت تعلن سخطها وتنكبها سبيل المضيفة اللبقة. لكنها عندما وجدت أن الڤيكونت مورتمارت ظل محتفظاً بهدوئه إزاء آراء الشاب الدنسة، تلك الآراء التي فات أوان خنقها، استعادت شجاعتها ولجأت إلى الهجوم.

قالت تنفيذاً لخطتها الجديدة:

ـ ولكن يا سيدي پيار العزيز، كيف تفسر لجوء رجلك العظيم إلى إعدام دوق بل لنقل، رجل عادي، مخلوق إنساني بسيط، دون أن يحاكم الرجل التعيس أو أن يكون مذنباً؟

فعقّب الڤيكونت:

ـ وإنني أيضاً أتوق إلى معرفة التفسير الذي سيقدمه السيد عن حادثة «١٨ برومير» أليس في ذلك الحادث ما يشبه دور المشعوذ؟ إنها شعوذة لا تشبه إطلاقاً تصرف الرجال العظام.

وأردفت الأميرة الصغيرة التي سرت رعشة ظاهرة في كتفيها:

www.Maktbah.com

ـ والسجناء الذين قتلهم في أفريقيا؟ إنه لأمر مريع!

فأيد الأمير هيپوليت قائلاً:

ـ لقد أحسنت القول، إنه دنيء.

حار السيد پيار في من يصغي إليه، لذلك اكتفى بأن راح يتأمل معارضيه مبتسماً. أبدلت ابتسامة پيار سحنته إذ تحول وجهه الذي كان يحتفظ أبداً بتقاطيعه الخطيرة الكئيبة إلى وجه طفل يفيض براءةً، على عكس ما جرت العادة عليه عند ذوي القسمات الوقورة الذين لا تختلف تقاطيع وجوههم إذا ما ابتسموا. كان پيار في ابتسامته تلك، أشبه بالطفل الذي يطلب الصفح.

استنتج الڤيكونت، الذي يرى پيار للمرة الأولى، أن ذلك الثوري المتعصب، تنحصر خطورته في كلماته فحسب. فساد صمت عام.

عندئذ قال الأمير أندره مثيراً الموضوع مجدداً:

ـ كيف تريدون منه أن يجيب عن كل السائلين معاً؟ أنا أعتقد، على العموم، أنه يجب أن تحوي أعمال رئيس دولة ما، طابع الإنسان العادي وطابع قائد الجيش إلى جانب صفات الأمبراطور.

صاح پيار مؤيداً وقد سرّه ذلك الدعم الذي هبط عليه على غير انتظار.

ـ طبعاً، طبعاً.

استطرد الأمير أندره محاولاً التخفيف من عدم خرق پيار:

ـ يجب أن تعترف بأن ناپليون، بوصفه إنساناً، رجل عظيم في موقعة جسر آركول ومستشفى يافا حيث مد يده إلى الموبوئين ولكن... ولكن تصرفات أخرى صدرت عنه، يصعب ولا شك تبريرها.

أشار الأمير أندره بعد ذلك إلى زوجته ونهض مستأذناً. لكن الأمير هيپوليت نهض فجأة وانتصب بقامته الفارعة، داعياً بحركات من يده، أن يجلسوا جميعاً للإصغاء إلى ما سيقول:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بدأ يقول:

ـ لقد قصَّ عليّ بعضهم اليوم، حكاية موسكوفية رائعة، أرى ألّا أحرمكم الاستمتاع بها. أرجو أن تعذرني يافيكونت إذ ينبغي أن أقص الحكاية باللغة الروسية وإلا فقدت روح النكتة.

وبدأ الأمير يتكلم الروسية بلغة سقيمة، حتى ليخيل إلى من يستمع إليه، أنه فرنسي لما يمض عامه الأول في روسيا بعد. مع ذلك، فقد أصغى إليه استجابة للرغبة التي أعرب عنها بكل شخصيته.

ـ ثمة سيدة في موسكو، شديدة الخجل، شاءت أن تستخدم خادمين ليقفا على الحاجز الخلفي من عربتها. وألحت أن يكونا طويلي القامة، وتلك كانت رغبتها. والمسألة تتعلق بالذوق، وكانت لديها وصيفة طويلة القامة أيضاً. قالت...

وهنا توقف الأمير هيپوليت وراح يبحث عن الجمل التي ستساعده على التعبير وإتمام القصة، وتابع:

ـ قالت... نعم قالت للوصيفة: «يا ابنتي، البسي ثوب الخادم الأحمر الرسمي، وتعالي معي وراء العربة، لنقوم بالزيارات».

وانفجر الأمير هيپوليت ضاحكاً قبل أن يشعر المستمعون برغبة في الضحك. فكانت ضحكته المسبقة ذات أثر سيئ على عكس ما كان يتوقع بينما تنازل بعض الأشخاص، ومن بينهم آنّا پاڤلوڤنا والسيدة العجوز. بإبداء ابتسامة...

ثم تابع:

ـ فمضت. وهبت ريح عاتية فأطارت قبعة الوصيفة. فتهدل شعرها الطويل على كتفيها...

www.Maktbah.com

وانتابته موجة ضحك عنيف استطاع خلالها أن يتمتم: «فعرف كل الناس أن...» دون أن يستطيع إتمام حكايته!

وهكذا انتهت الحكاية الرائعة. وعلى الرغم من أن أحداً لم يفهم لمَ روى تلك «النكتة» ولا لسبب إصراره على سردها باللغة الروسية، فإن آنّا پاڤلوڤنا والآخرين، قدروا للأمير هيپوليت حسن تصرفه، لإزالة الوجوم والامتعاض اللذين أحدثهما حديث السيد پيار الشائك. وتبعثر النقاش والحديث بعد ذلك، واقتصر على شؤون الحفلات الراقصة التي أقيمت والتي ستقام، والمراقص والمناسبات التي يمكن للمجتمعين أن يلتقوا خلالها في الأيام المقبلة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس

شرع المدعوون بمغادرة المنزل بعد أن قدموا، كل بدوره، احترامهم وتهانيهم لآنّا پاڤلوڤنا على حفلتها الرائعة. غير أن پيار أخفق في مجاراة الآخرين. ـ كان بجسده الضخم وقامته الطويلة وبنيته المتينة ويديه الحمراوين ـ لا يعرف كيف يدخل أحد «الصالونات» بقدر ما كان يجهل كيف ينسحب منه. أي إنه لم يكن يعرف توجيه بعض العبارات اللبقة قبل مغادرته الحفلة البهيجة. وكان إلى جانب ذلك ساهماً بعض الشيء. حتى أنه لما نهض يغادر قاعة الاستقبال تناول بدلاً من قبعته، قبعة مثلثة لأحد الجنرالات وراح يعبث بزينتها حتى رجاه صاحبها أن يعيدها إليه. لكن سذاجته وطيبة قلبه، كانتا ضماناً كافياً لستر جهله وشذوذه في الأوساط الراقية. وهكذا منحته آنّا پاڤلوڤنا المغفرة عن أخطائه وقذفته بإشارة من رأسها.

قالت تودعه:

ـ آمل أن أراك قريباً. وآمل كذلك أن تكون قد أبدلت آراءك يا سيد پيار بانتظار اللقاء التالي.

فاكتفى بالانحناء ومعاودة الابتسام جواباً عن قولها وكأنه يقول: «إن آرائي هي بانتظار ولكن انظري أي شاب شجاع أكون». وبدا على الموجودين، اعتباراً من آنّا پاڤلوڤنا عينها، لقد فسروا ابتسامته على هذا النحو.

راح الأمير أندره في الردهة وهو مستدير الظهر للخادم ليضع له معطفه

www.Maktbah.com

على كتفيه، يلقي أذناً صاغية كثرثرة زوجته مع الأمير هيپوليت، الذي كان ينظر إليها بقحة من خلال نظارتيه ويتفرس في تقاطيعها.

قالت الأميرة الصغيرة موجهة حديثها إلى آنّا پاڤلوڤنا:

ـ عودي إلى قاعة الاستقبال يا أنيت. ستصابين بالبرد.

ثم أضافت بصوت خفيض وهي تودعها:

ـ لقد اتفقنا...

كانت آنّا پاڤلوڤنا قد وفقت خلال السهرة، في الإسرار إلى ليز، بأنها تفكر في منح أخت زوجها، خطيباً يضاهيها في المركز، ممثلاً في شخص الأمير أناتول. فعقبت آنّا على قول الأميرة بلهجة مماثلة:

ـ أنا أعتمد عليك يا عزيزتي. أكتبي لي وأخبريني كيف ينظر الأب إلى هذا الموضوع. إلى اللقاء.

وعادت إلى الغرف الداخلية.

انحنى الأمير هيپوليت ليهمس إلى الأميرة بكلمات في أذنها. وكان ثمة خادمان ينتظمان، أحدهما خادم الأميرة وبين يديه (شال) والآخر تابع للأمير يحمل «رودنجوتا» وكانا يرقبانهما وهما يتحدثان بالفرنسية ويتظاهران بفهم تلك الكلمات رغم جهلهما التام باللغة الفرنسية. وكان من عادة الأميرة أن تتكلم وهي تبتسم وتصغي وهي فاغرة الفم تتصنع الدهشة.

قال الأمير هيپوليت:

ـ أنا سعيد لعدم ذهابي إلى حفلة المفوضية. إن المرء يضجر هناك. إن سهرتنا هنا كانت ممتعة جداً أليس كذلك؟

فأجابت الأميرة وابتسامة تطوف على شفتيها:

ـ يقولون إن الحفلة الراقصة ستكون فيها أجمل نساء المجتمع.

فقال الأمير هيپوليت معقباً ضاحكاً:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ لن يحضرنها كلهن لأنك لن تكوني موجودة.

وانتزع الدثار من يد خادمها بشيء من العنف، وأخذ يساعد الأميرة على وضعه. فلما انتهى من مهمته، أبقى يديه برهة وكأنه يطوق الأميرة بهما. ولم يكن من السهل التنبؤ بحقيقة الدوافع لتلك الحركة؛ أكانت مبيتة أم من باب الخطأ. لكن الأميرة أفلتت من يديه برشاقة وهي تبتسم، والتفتت إلى زوجها. كان الأمير أندره، يبدو تعباً وعيناه نصف مغمضتين.

سأل زوجته وهو يشملها بنظره:

ـ هل أنت جاهزة.

ارتدى الأمير هيپوليت «رودنغوته» بسرعة، وكان من أحدث طراز ينسدل حتى كعبيه، أسرع يتبع الأميرة وهو منزعج من طول المعطف. فلحق بها أمام الباب الخارجي، يساعدها خادمها على الصعود إلى عربتها.

صاح بصوت أجش لتصرفه في ذلك المساء:

ـ إلى اللقاء أيتها الأميرة!

انزوت الأميرة في ركن العربة المعتم وهي ترتب ثوبها، بينما راح الأمير أندره يحسن وضع سيفه ليجلس إلى جانبها. كان الأمير هيپوليت يزعجه ببشاشته وتصرفه.

قال له الأمير أندره بلهجة جافة ليفسح له في الطريق:

ـ اسمح لي يا سيدي.

وأردف الأمير پولكونسكي بلهجة وديعة مغايرة للهجته الأولى:

ـ إنني أنتظرك يا پيار.

وضرب الحوذي الخيول بسوطه فقفزت تجر العربة بضجة وصخب، بينما لبث الأمير هيپوليت أمام الباب، يضحك تلك الضحكة المتقطعة، بانتظار الڤيكونت الذي كان قد وعده بإعادته إلى مسكنه.

www.Maktbah.com

ولما جلس الڤيكونت إلى جانب الأمير هيپوليت قال:

ـ إذن يا عزيزي، إن أميرتك الصغيرة رائعة! رائعة جداً.

ثم قبل أطراف أصابعه وتابع:

ـ وفرنسية تماماً...

فانفجر هيپوليت ضاحكاً بينما تابع الڤيكونت قائلاً:

ـ إنك، لو علمت، مرعب بطابعك البريء الذي تتصنعه. أنا أشفق على زوجها، ذلك الضابط الصغير، الذي يتظاهر وكأنه ولي عهد!

فقال الأمير هيپوليت وهو يغرق في الضحك مجدداً:

ـ كنت تزعم أن النساء الروسيات لا يساوين النساء الفرنسيات، وفاتك أن الأمر منوط بحسن التصرف في معاشرتهن.

دخل پيار ـ شأن الخبير بمسالك البيت المطلع على عادات أهله مكتب الأمير أندره قبل أن يدخله ذاك، وارتمى على كنبة بحكم عادته، ومد يده إلى أول كتاب وقعت عليه، وكان «تأويل» قيصر، وراح يتصفحه كيفما اتفق، معتمداً بمرفقيه على الكنبة. وعندئذ دخل أندره.

ابتدره هذا وهو يفرك راحتيه الصغيرتين:

ـ لقد أثرت الآنسة شيرر في هذه الليلة حتى أنها ستقع فريسة للمرض بدون شك؟

فاستدار پيار بكل جسمه ليبتسم للأمير بوجهه المنبسط، فندّ عن الكَنبة صرير تحت ثقل وزنه. قال وهو يلوح بيده بلا مبالاة:

ـ أتدري بأن مشروع هذا الـ«موريو» جدير بالتنبية لولا أنه يخطىء فقط في الوسائل التي ستؤمن تنفيذه... إن السلم الدائم ممكن التحقيق ولكن... لست أدري كيف أعبر عن رأيي... على كل حال، ليس التوازن السياسي هو الوسيلة المنشودة.

twitter @baghdad_library

كانت تلك البحوث السلبية لا تستلفت اهتمام الأمير أندره. قال مستفسراً:

ـ اعلم يا عزيزي أنه لا يمكن للمرء أن يفصح دائماً عن سريرته وحقيقة آرائه. هل قررت أخيراً الانخراط في سلك فرسان الحرس أم في السلك السياسي؟

تربع پيار على الكنبة وأجاب:

ـ لست أدري حقيقة ماذا سيكون من أمري. إنني أرى أن كلاً من هاتين الناحيتين تعبس بوجهي ولا تشجعني.

ـ مع ذلك، يجب أن تسلك اتجاهاً محدداً بأن أباك ينتظر.

كان پيار قد أرسل إلى خارج البلاد منذ أن بلغ العاشرة تحت رعاية مدربه ومرشده وكان من الآباء الروحيين. فلمّا بلغ العشرين من عمره استدعاه أبوه إلى موسكو، وأعفى المرشد من مهمته وقال لابنه:

«إمض الآن إلى پيترسبورغ، وانتق لنفسك المركز الذي يحلو لك، وستراني موافقاً سلفاً على انتقائك. ها هي ذي النقود اللازمة، وإليك رسالة توصية للأمير بازيل. اتصل بي دائماً وأطلعني على كل جديد، وسأساعدك في كل ما يقتضي التدخل والمساعدة». وقد أمضى پيار نيفاً وثلاثة أشهر وهو يفكر في انتقاء المركز الذي يتعشقه؛ لذلك راح أندره يسأله رأيه.

قال پيار وهو يمر بيده على جبينه فجأة، وأفكاره عالقة بالأب موريو:

ـ لا شك أنه ينتمي إلى محفل ماسوني.

فاستوقفه الأمير بإشارة من يده وتابع:

دعك من هذه الترهات ولنتحدث بجدية. هل بحثت مسألة الحرس الراكب؟

ـ كلا. لكنني أهدهد فكرة واتتني في هذه البرهة، أود أن أعرضها عليك.

www.Maktbah.com

إننا الآن في حرب مع ناپليون. ولو أن الحرب كانت حرب تحرير، لكنت أول من انخرط في عداد المحاربين. أما وإننا سنكون سائرين على أعقاب بريطانيا والنمسا ضد أقوى رجل وأعظم رجل في العالم... فإن هذا لا يروقني.

اكتفى الأمير بهز كتفيه جواباً عن تلك الآراء الصبيانية. كان يشعره بتلك الحركة، بأن أقواله لا تستحق جواباً أفضل من ذلك الجواب. إذ ماذا كان يستطيع أن يقول جواباً عن مثل تلك الاستنتاجات الساذجة؟ وأخيراً قال:

ـ لو أن كل محارب كان يسير مدفوعاً بمبادئ يؤمن بها، لما وقعت حرب أبداً.

فأجاب پيار معقباً:

ـ ولكان الأمر خيراً وأفضل!...

ابتسم الأمير موافقاً وقال:

ـ لا شك. لكن ذلك لن يحدث أبداً.

ـ إذن، لماذا تذهب إلى الحرب؟

ـ لماذا؟ الحقيقة لست أدري. لأنه يجب أن أذهب. ثم لأنه.

وتردد الأمير برهة ثم تابع:

ـ لأن الحياة التي أعيشها هنا لا تروقني.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

انتفض الأمير شأن النائم الذي أوقظ في غير رفق عندما تناهى إلى مسمعه حفيف ثوب في الغرفة المجاورة، واتخذت قسمات وجهه الطابع الذي كانت عليه في حفلة آنّا پاڤلوڤنا، بينما أصلح پيار من جلسته، دخلت الأميرة وكانت قد أبدلت ثوبها الرسمي، بآخر منزلي. لكنه لم ينقص شيئاً من رشاقتها. فنهض الأمير وقدم لها مقعداً وهو يرحب بها، فتهالكت جالسة عليه.

قالت باللغة الفرنسية، كعادتها:

ـ أتساءل دائماً كيف لم تتزوج أنيت حتى اليوم. إنكم جميعاً حمقى أيها السادة، لأنكم لم تظفروا بها. اعذروا حديثي، ولكنكم لا تفقهون شيئاً في شؤون النساء... يا لك من مشاكس يا سيد پيار.

أجاب پيار دون أن يفضح ذلك الارتباك الذي يعرو عادة كل شاب عندما يتحدث إلى سيدة شابة:

ـ كنت منذ حين أخاصم زوجك لأنني لا أفهم سبباً لرغبته في الذهاب إلى الحرب.

انتفضت الأميرة، وقد أصيبت في أدق عواطفها. أجابت:

ـ إن هذا ما دأبت أقوله له بدوري! إنني لا أستطيع أن أفهم السبب الذي يجعل الرجال عاجزين عن الاستغناء عن الحرب. ما هو السبب الذي يجعلنا، نحن النساء، لا نشعر بأية رغبة في ذلك؟ هيا، كن محكماً. إني أكرر على مسامعه بأنه هنا مساعد لعمه، وأن مركزه ممتاز وأن كل الناس يقدرونه

www.Maktbah.com

لقد سمعت منذ أيام عند آل أبراكسين، سيدة تسأل! «أهذا هو الأمير أندره الشهير؟».

وأردفت تقول ضاحكة:

ـ أقسم لك بشرفي على ذلك! إنه يُستقبل أفضل استقبال أينما ذهب. إن في مقدوره أن يصبح تابعاً للأمبراطور. إنك تعرف أن جلالته وجه إليه الحديث بكل انشراح. لقد كنا نقول، أنيت وأنّا، إن من السهل تدبير الأمر ليصبح تابعاً للأمبراطور. فما رأيك؟

سأل پيار دون أن يجيب عن السؤال، لأنه ألقى نظرة على وجه الأمير فاستنتج أن الحديث لا يعجبه.

ـ متى ستذهب؟

قالت الأميرة بلهجة الطفل الذي أفسده الدلال، تلك اللهجة التي كانت تستعملها في حفلة أنّا پاڤلوڤنا وهي تتحدث مع هيپوليت، والتي كانت لا تتفق مع ذلك الجو العائلي الذي كان پيار يبدو جزءاً منه.

ـ لا تحدثني عن ذلك الرحيل، لا تحدثني عنه! لا أريد أن أسمع كلمة عنه. عندما فكرت منذ حين في أنني سأضطر إلى قطع كل علاقاتي العزيزة... ثم هل تعرف يا أندره؟

وغمزت زوجها ونظرت إليه خلال أهدابها نظرة حافلة بالمعاني وأردفت تغمغم وهي ترتعد:

ـ إنني خائفة، خائفة.

فنظر إليها الأمير بدوره وكأنه أذهل لوجود شخص ثالث في الغرفة معه ومع پيار، وسألها بلباقة:

ـ ممَ تخافين يا ليز؟ لست أفهم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ كذلك هم الرجال: أنانيون! نعم، نعم. إنكم أنانيون... إنه يهجرني لمجرد هوى، والله يعلم السبب، وينفيني وحيدة في الريف.

فقاطعها الأمير أندره بلطف:

ـ مع أبي وأختي! أرجو أن لا تنسي ذلك.

ـ سأظل مع ذلك وحيدة بدون أصدقائي... ورغم هذا فإنه يريدني ألّا أكون خائفة!

ارتفع صوتها وبدت شفتها القصيرة التي كانت تسبغ عليها طابعاً من الوداعة تحمل الآن شبهاً قوياً بالحيوانات القاضمة. سكتت وقد قدرت أنه من غير المستحب أن تلمح أمام پيار إلى أن حالة الأمومة التي تنتظرها، هي السبب الوحيد في انفعالها.

قال الأمير على مهل دون أن يشيح بنظره عنها:

ـ لست أفهم حتى الآن ماذا يخيفك.

احمر وجه ليز فصاحت وهي تلوح بيدها، دلالة على نفاد صبرها:

ـ آه يا أندره، لشد ما تبدلت. لقد تبدلت تبدلاً خطيراً...

ـ لقد منعك طبيبك من السهر، فيحسن بك أن تستريحي.

لم تجب ليز، لكن شفتها القصيرة المظللة ارتعشت فجأة، بينما وقف الأمير وراح يذرع الغرفة بلا مبالاة.

كان پيار يلقي عليهما خلال عدسات نظارتيه نظرات كلها دهشة. تظاهر أنه ينهض لمغادرة المكان، غير أنه أبدل رأيه وعاد إلى مقعده.

قالت الأميرة الصغيرة فجأة وقد شوّه وجهها الجميل تقلص باك:

ـ لا يهمني حضور پيار وإصغاؤه. لقد مرّ عليّ وقت طويل أردت خلاله أن أسألك: لم تبدلت كل هذا التبادل تجاهي يا أندره؟ ماذا جنيت؟ إنك انخرطت في الجيش، وفقدت كل شفقة عليّ، فلماذا؟

www.Maktbah.com

صاح الأمير:

ـ ليز!

كانت تلك الكلمة تحمل رجاء وتهديداً في آن وبخاصة، كانت تبرز تأكيداً بأنها ستندم على ما تقول لكنها استرسلت، تتدفق الكلمات من فمها متسارعة:

ـ إنك تعاملني كمريضة، أو كما تعامل طفلاً. أنا أرى ذلك بوضوح. فهل أنت أنت، لم تتبدل عما كنت عليه منذ ستة شهور؟

صرخ الأمير بلهجة حاسمة:

ـ ليز، كفى أرجوك.

نهض پيار الذي كان انفعاله وتأثره يزدادان باطراد، واقترب من الأميرة. كان يبدو على استعداد للبكاء، لشدة ما كان يؤلمه منظر الدموع:

ـ هدئي روعك يا أميرة. إنك تتخيلين أشياء وهمية. إنني أنا الآخر تعرضت لمثل هذا... لأني... كما ترين... آه، اعذراني. إن وجودي غير مرغوب فيه بينكما. اهدئي أرجوك... إلى اللقاء.

أمسك پولكونسكي بذراعه مستوقفاً وقال:

ـ لحظة واحدة يا پيار. أعتقد أن الأميرة من الطيبة بحيث أنها لن تحرمني من سروري برفقتك.

غمغمت الأميرة خلال دموع الغضب التي عجزت عن تبديدها:

ـ بدون شك، لن تحرمك. إنه لا يفكر إلا في نفسه.

كرر الأمير بصوت يوحي بنفاد صبر صاحبه:

ـ ليز!

بدت الأميرة منقلبة الهيئة: تبدد شكل السنجاب الغضوب وحلّت محله أمارات ذعر محزن يستدر الرثاء. وألقت عيناها الجميلتان نظرة مختلفة إلى

twitter @baghdad_library

الأمير، فيها عبارات الخضوع، بينما انطبع وجهها بطابع الكلب المذعور، الذي جاء يبصبص قرب سيده، محني الرأس.

تنهدت وقالت:

ـ رباه، رباه!

وأمسكت أطراف ثوبها بيدها، واقتربت من زوجها، فقبلت جبهته. فنهض وانحنى على يدها بوقار كما يفعل المرء مع السيدات الغريبات، وقال:

ـ خالتي مساء يا ليز.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

سكت الصديقان، فلم يجرؤ أحدهما على البدء بالحديث. كان پيار يرقب الأمير أندره الذي كان يخفي عينيه بيده.

قال هذا أخيراً وهو يتأوه:

ـ هيا بنا نتناول العشاء.

ونهض متجهاً نحو الباب.

دخل الصديقان إلى غرفة طعام أنيقة تنبئ بذوق رفيع. كان كل ما فيها من مفروشات، وفضيات، أوانٍ، وخزف، يحمل طابع الجدة الذي يدل على حداثة إنشاء المنزل. وبينما كانا يتناولان الطعام، توقف أندره فجأة، وأخذ رأسه بين يديه وهو فريسة انفعال لم يشهد پيار صديقه في مثله من قبل. وقال بلهجة الرجل الذي قرر أخيراً أن ينفث ما في صدره.

ـ لا تتزوج أبداً يا صديقي. تلك هي النصيحة التي أقدمها لك. لا تتزوج قبل أن تتأكد أنك لن تستطيع أن تفعل غير ذلك. وقبل أن تنقشع عن عينيك سحابة تعلقك الغريزي بالمرأة التي عشقت، التي تكون قد أعمت بصيرتك وجعلتك لا تراها على حقيقتها. إنك بغير ذلك على خطأ مروع لا يمكنك تلافيه. تزوج متأخراً بقدر ما تستطيع، وليكن عندما تصبح غير صالح لأي شيء.. وإلا فإن كل ما في نفسك من نبل وعظمة وطموح، سيتبدد. سترى نفسك كذلك غائصاً في ترهات وسخافات... نعم، سترى نفسك كذلك! لا تنظر إلي بمثل هذه الدهشة... إذا كانت في نفسك آمال للمستقبل، وتزوجت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قبل تحقيقها، يجدر بك عندئذ أن تستعد للحداد على طموحك. لأنك ستشعر في كل خطوة، بأن الأبواب كلها مغلقة في وجهك، باستثناء أبواب الأبهاء «والصالونات» حيث ستكون معدوداً كأول سخيف، أو كأول خادم في البلاط... نعم، إن الأمر كذلك.

وشفع جملته هذه بإشارة أبلغ من الحديث.

نزع پيار نظارتيه، واتخذت سحنته طابعاً جديداً مضيئاً بالذكاء، وأخذ يتأمل صديقه بذهول.

أردف الأمير أندره:

ـ إن زوجتي مخلوقة رائعة، نادرة بين النساء اللواتي لا يخشى المرء معهن على سعادته. مع ذلك، رباه، كم أعطي وبكم أضحي لأكون غير متزوج بها! إنك أول من أبثه هذه النجوى، والوحيد الذي سيسمعها لأنني أحبك.

وكلما استغرق الأمير في الحديث، ازداد بعداً عما كان عليه في قاعة استقبال آنّا پاڤلوڤنا، حيث كان متهالكاً على مقعده يغمغم ببعض العبارات باللغة الفرنسية، وأمارات التعب واضحة في عينيه نصف المغمضتين. كانت عضلات وجهها العابس كلها، تنتفض بانفعال، وعيناه اللتان كانتا منذ حين خابيتين، تشعان في تلك اللحظة ببريق مضطرم. كانت بلادته في الحالات الطبيعية تتحول في تلك اللحظات من الانفعال المرضي، إلى لون من جنون التيقظ:

تابع يقول:

ـ أيدهشك أن تراني أتحدث بهذا الشكل؟ إنها كما ترى مأساة حياتي. إنك تحدثني عن بوناپرت ومركزه، ولكن بوناپرت كان حراً عندما تابع هدفه حتى حققه. لم يكن يفكر إلا في غايته، وبذلك وصل إليها. إنك إذا ارتبطت بامرأة، كنت أشبه بالمحكوم عليه، المغلول إلى سلسلة. فقل الوداع أيتها

www.Maktbah.com

الحرية، والكفاءات والآمال؛ واقبع في ظل وخز الضمير، لأنك ستفقد هذه المزايا بشكل نهائي. إن المنتديات والهذر والحفلات والغرور والبؤر الاجتماعية، هي الدائرة الكريهة الفاسدة، التي لا أعرف كيف أخرج منها. وهذا هو السبب الذي من أجله أذهب إلى الحرب، إلى أعظم حرب، إلى أعظم الحروب، وأنا لا أعرف شيئاً لأنني لا أصلح لشيء. إنني لطيف جداً. ولاذع جداً! وهكذا يصغون إليّ راضين عند آنّا پاڤلوڤنا. آه! من ذلك المجتمع الأحمق الذي لا تستطيع زوجتي عنه ابتعاداً، أولئك النسوة اللواتي... ليتك تعرف مَن من أولئك النسوة الراقيات... وكل النساء! إن أبي على حق. إن المرأة عندما ترى على حقيقتها، لا تزيد عن كونها أنانية، محدودة خرقاء. لكنها في المنتديات تضفي على نفسها لوناً آخر. غير أنّك إذا أمعنت النظر فيها، وجدتها لا شيء، لا شيء، لا شيء!

ثم تابع يقول ناصحاً:

ـ لا تتزوج يا عزيزي، لا، لا تتزوج.

قال پيار:

ـ كيف! أهو أنت الذي تحكم على نفسك بالعجز، وتزعم أن حياتك محطته! لكن هذا لأمر عجيب! يمكنك أن تتطلع إلى كل شيء، وأنت..

لكنه لم يعقب. كان صوته يدل بوضوح على التقدير العميق الذي يكنه لصديقه، وعلى أي مستقبل زاهر يعتقد أنه بالغه.

كان پيار يتساءل: «كيف يستطيع أندره أن يخفض من قيمة نفسه!» كان الأمير أندره بالنسبة إلى پيار مثالاً للكمال. ألم يكن يرى فيه الصفات الممتازة التي كان پيار ـ لا يملك منها شيئاً، والتي كان يعتقد أنها كلها مدينة لفضيلة هامة، وهي سمو النفس؟

كان پيار معجباً بالهدوء الذي يبديه الأمير في علاقاته مع الأشخاص

twitter @baghdad_library

من مختلف الطبقات، وببداهته، وتنوع معلوماته، وغزارة علمه، وهو الذي قرأ كل شيء، وعرف كل شيء، وألمّ بكل شيء. أضف إلى ذلك قدرته على العمل والإبداع. وإذا كان پيار قد شعر من قبل بدهشة لميل صديقه إلى التحليق الفلسفي، الذي بلغ عنده الذروة، فإنه كان يرى في ذلك الشرود لوناً من السمو، أكثر مما كان يعتبره نقيصة مرذولة.

ولكي تسير العربة سيراً حسناً، يجب الاعتناء بتشحيم عجلاتها، كما أنّ أشد العلاقات صراحة وأعمقها بحاجة إلى رعايتها بالمديح.

قال الأمير أندره:

ـ إنني رجل مقضي عليّ... ولكن ماذا يجدي الحديث عني؟ سكت برهة ثم تابع مبتسماً لفكرة ما أشعرته ببعض العزاء:

ـ لنتحدث عنك أنت.

انبسطت أسارير پيار، عندما طافت تلك الابتسامة على وجه صاحبه. وقال مشرق الوجه، خليّ الفكر:

ـ وبماذا أتحدث عن نفسي؟ من أنا؟ ابن سفاح!

واحمر وجهه إثر تلفظه بتلك الكلمة، وأردف:

ـ رجل لا اسم لي، ولا ثروة... ومع ذلك...

لم يتم جملته، بل غير سياق أفكاره وتابع:

ـ إنني حر راض عن نفسي. وبهذه المناسبة، عندي ما أسألك رأيك فيه جدياً.

نظر الأمير إلى صديقه بعينين حانيتين، غير أن تلك النظرة الودية كانت دليلاً واضحاً على رفعة شأنه. قال:

ـ إنك عزيز عليّ قبل كل شيء. لأنك، بين كل أفراد عالمنا، مخلوق حيّ.

www.Maktbah.com

فانتق أي مركز تشاء. ولكن كفّ عن الاختلاط بآل كوراغين. فهل هنا بغيتك، تلك الحياة التي تشبه حياة الصور المتحركة.

قال پيار وهو يهز كتفيه:

ـ ماذا تريد يا عزيزي؟ إن النساء يا عزيزي هن النساء!

ـ النساء الراقيات لا بأس بهن. أما نساء كوراغين، فهن نساء وخمر! في الحقيقة إنني لا أفهمك.

كان پيار، وهو الذي يسكن عند الأمير بازيل، قد راح يرود البؤر التي قاده إليها أناتول هذا، هو الذي يعمل أبوه على تحسين سلوكه، بتزويجه أخت الأمير أندره.

قال پيار كأن فكرة طارئة قد راودته:

هل تعلم بأنني أناقش نفسي منذ مدة بعيدة، وأخرج بمثل هذه النتيجة؟ إن هذا اللون من الحياة يمنعني من التفكير ومن اتخاذ أي قرار. إنني أشعر بآلام في رأسي، وبجفاف في كيس نقودي... لقد دعاني الليلة أناتول. لكنني لن أذهب.

ـ أتقسم بشرفك؟

ـ أقسم بشرفي.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة صباحاً، خرج پيار من منزل صديقه. كانت ليلة بيضاء لا مثيل لها إلا في پيترسبورغ في شهر حزيران. استقل پيار عربة وأراد الذهاب إلى مسكنه، لكنه كلما ازداد اقتراباً منه، ازداد شعوره بالعجز عن قضاء ساعات جميلة، تشبه الغسق أو الفجر، أكثر مما تشبه الليل، النوم والراحة. كان البصر يمتد بعيداً في تلك الشوارع المقفرة. تذكر پيار وهو في طريقه أن جماعة المقامرين الذين كانوا سيجتمعون تلك الليلة عند أناتول كوراغين، ينهون سهرتهم عادة بكؤوس من الشراب يليها لون من التسليات التي كان يقدرها.

وأخذ يحدث نفسه: «ماذا لو مررت على منزل كوراغين؟ لكنه تذكر الوعد الذي أعطاه للأمير أندره. وشعر كذلك فجأة، كما يحدث للأشخاص فاقدي الاتزان، برغبة ملحة في تذوق هذا النوع من الحياة الفاسدة. فأعد عدته واتخذ قراره. بدا له أنه مرتبط بموعد مسبق مع أناتول، وأن العهد الذي قطعه للأمير أندره، يفقد قيمته إزاء الوعد المسبق. راح يفكر: إن كل وعود الشرف تلك لا قيمة لها، لأنها أشياء شرطية، تفقد اعتبارها عندما يفكر المرء أنه قد يموت غداً، أو أنه سيجد نفسه في موقف، يفقد فيه حتى الشعور بالشرف وبقلة الشرف. كان ذلك النوع من المناقشة والحكم مألوفاً عند پيار، وبسببه كانت مشاريعه تتبدد. وهكذا ذهب إلى منزل كوراغين؟

وصل أمام البناء الفسيح الملاصق لثكنة فرسان الحرس، حيث كان

www.Maktbah.com

يسكن أناتول، فتخطى پيار المدخل المضاء وصعد السلم، فوجد الباب مفتوحاً. لم يصادف أحداً في الردهة التي كانت الزجاجات الفارغة مبعثرة في أرجائها، والمعاطف تتدلى على المشاجب، والأحذية الواقية للأخفاف ملقاة بدون انتظام، كانت رائحة الخمر تفوح في المكان، وأصوات صخب بعيدة تبلغ المسامع. لا شك أن اللعب والعشاء كانا قد انتهيا، غير أن المدعوين ما كانوا قد تفرقوا بعد.

خلع پيار معطفه ودخل الغرفة الأولى، حيث كانت بقايا الطعام لاتزال على الطاولة. وكان هناك خادم يفرغ في جوفه بقايا الأقداح، في منجاة من العيون. وكان ضجيج ضحك وصياح، ووقع أقدام وهمهمة دب، ترتفع بوضوح من الغرفة الثالثة، حيث كان حوالى عشرة شبّان، واقفين أمام نافذة مفتوحة، يصخبون ويهذرون، بينما راح ثلاثة آخرون يعبثون مع دب صغير، فيحمله أحدهم من سلسلة ويوهم الباقين بإلقائه عليهم.

صاح صوت:

ـ إنني أراهن بمائة روبل على ستيڤنس!

ـ دون أن يتمسك بشيء، أليس كذلك؟

ـ وأنا أراهن على دولوخوف! كن شاهداً يا كوراغين.

ـ هيا دعوا الدب جانباً إن في الموضوع رهاناً.

ـ دفعة واحدة، أليس كذلك؟ وبدون ذلك تحدث الخسارة!

صاح صاحب الدعوة، وهو شاب جميل يرتدي قميصاً شفافاً، مفتوح الياقة:

ـ هو لا! إليّ بزجاجة. أياكوف، إليّ بزجاجة!

ولما وقع نظره على پيار، صاح:

ـ لحظة واحدة أيها السادة. هوذا صديق قلبي، ها هو ذا بيتروشا العزيز!

twitter @baghdad_library

صاح صوت يتناقض باتزانه مع كل الأصوات المخمورة:

ـ تعال إلى هنا، واحكم في الرهان.

كان المتكلم ضابطاً في فيلق سنميونوفسكي قصير القامة، ذا عينين لونهما أزرق فاتح.. ويشاطر أناتول في مسكنه.

قال پيار وهو يسرح نظرةً لاهية حوله:

ـ ما هو الموضوع الذي تبحثون؟ إنني لا أفهم شيئاً.

ـ انتظروا، إنه ليس ثملاً. هو لا، إلي بزجاجة! اشرب قبل كل شيء.

وبينما راح پيار يعب قدحاً إثر قدح، كانت عيناه ترقبان من زاويتهما، وجوه المدعوين السكارى؛ الذين تجمهروا قرب النافذة، وأذناه تصغيان إلى أقوالهم. كان أناتول يتابع صب الخمرة في القدح وهو يشرح له أن دولوخوف تراهن مع أحد المدعوين: الإنكليزي ستيڤنس؛ وهو ضابط في البحرية؛ على أن يشرب زجاجة من الروم دفعة واحدة؛ وهو جالس على حافة هذه النافذة من الدور الثاني؛ وساقاه متدليتان إلى الخارج.

قال أناتول وهو يقدم لپيار القدح الأخير:

ـ هيا، انزع سدادة الزجاجة! لن أدعك قبل أن تنتهي من شربها!

فأجاب پيار وهو يدفعه جانباً:

ـ كلا إن في ما شربته الكفاية!

واتجه نحو النافذة:

أمسك دولوخوف بذراع الإنكليزي وراح يخاطب المدعوين مخصصاً بينهم أناتول وپيار، شارحاً بدقة شروط الرهان.

كان دولوخوف، شاباً في الرابعة والعشرين، أميل إلى القصر، ذا شعر أجعد وعينين تمتازان بزرقة فاتحة. كان ككل ضباط المدفعية، حليق الشارب، فكان فمه، وهو الجزء الأكثر تعبيراً في وجهه، يبدو مكشوفاً، يظهر خط

www.Maktbah.com

الانحناء فيه بدقة رائعة. الشفة العليا تنطبق على الشفة السفلى الغليظة مشكلة زاوية حادة كلها، بينما لبثت الزاويتان تظهران ضحكة مزدوجة ثانية، فكان تكوين ذلك الوجه، المتفق مع تلك النظرة التي لا تخلو من وقاحة معنوية، يستوقف الانتباه. وكان ذلك الشاب محروماً من الثراء والعلاقات السامية. مع ذلك، فقد كان يشارك أناتول في مسكنه، ويلقي بالمال من النوافذ! كان يحسن فرض احترامه على أناتول وكل الآخرين، يشرب وكأنه قربة هائلة، فلا يفقد اتزانه أبداً. وكان كوراغين ودولوخوف أميري الشبيبة اللامعة في پيترسبورغ.

بعد أن أتيا بالزجاجة، راح الخادمان المروعان بثورة الهرج والنصائح التي كانت تلقى إليهما من كل مكان، يحاولان جاهدين إنزال إطار النافذة، ليستطيع دولوخوف الجلوس على حافتها الخارجية، فاقترب أناتول بخطورة الغازي. كان في مظهره ما يدل على رغبته في تحطيم شيء ما.

أبعد الخادمين جانباً وراح يجذب الإطار بقوة. لكن هذا لم يلن تحت الضغط ولو أن جانباً من زجاج النافذة قد تحطم.

قال پيار:

ـ هيا، جرب أنت أيها الرجل القوي.

أمسك پيار بمراقي الإطار وجذبها فكاد يخلع النافذة كلها.

صاحب دولوخوف آمراً:

ـ إخلعها. وإلا فإنهم سيدعون أنني استندت إلى درفة أو إلى جزء منها.

ـ قال أناتول:

ـ إن الإنكليزي ينفخ أوداجه أليس كذلك؟ هل انتهيت من النافذة؟

فأجاب پيار:

ـ لقد انتهيت.

twitter @baghdad_library

راح يرقب دولوخوف وهو يتقدم من النافذة والزجاجة في يده. فكان يرى منها السماء الصافية حيث يختلط ضياء المساء مع طلائع النهار.

قفز دولوخوف إلى النافذة والزجاجة في يده وصاح آمراً:

ـ اصمتوا.

كان واقفاً على حافة النافذة ووجهه إلى المتفرجين. فسكت الجميع استجابة لرغبته. أردف قائلاً بلغة فرنسية ركيكة ليفهم الإنكليزي:

ـ إنني أراهن بخمسين روبلاً أو بمائة إذا شئت!

فقال الإنكليزي:

ـ بل بخمسين.

ـ ليكن، أراهن بخمسين روبلاً على أنني سأتجرع زجاجة روم دفعة واحدة، وأنا جالس في هذا المكان، وانحنى ليدل على المكان الذي سيجلس فيه، دون أن يستند إلى شيء... هل اتفقنا؟

فقال الإنكليزي:

ـ اتفقنا.

التفت أناتول إلى ستيفنس، وأمسك بزر «فراكه» ثم هبط بنظرته نحوه، لأن الإنكليزي كان قصير القامة، وراح يكرر عليه بالإنكليزية شروط الرهان. غير أن دولوخوف استنفر مجدداً انتباه الموجودين وهو يقرع بزجاجته على طرف النافذة وصاح:

ـ اصغوا إلي! دقيقة واحدة! اصغ يا كوراغين: إذا قام بعضكم بمثل هذا العمل، فإنني سأدفع له مائة روبل. هل فهمتم؟

أشار الإنكليزي برأسه أن نعم، دون أن يفهم من إشارته أنه يوافق على ذلك الرهان الجديد أم لا. راح يشير بالحركات والإشارات إلى أنه فهم

www.Maktbah.com

المراد، غير أن أناتول لم يدعه قبل أن أنهى إليه الترجمة الحرفية للشروط، أقوال دولوخوف كافة. أسرع شاب في مقتبل العمر، نحيل الجسم، جندي بسيط في الحرس، كان قد خسر تلك الليلة في المقامرة، إلى النافذة وأطل إلى الخارج. صرخ وهو يتأمل بلاط الشارع من عل:

ـ هو! هو! هو!..

زمجر دولوخوف وهو يدفع الجندي نحو الغرفة:

ـ استعد!

فقفز الجندي وقد أربكه المهمازان فكاد يسقط على الأرض.

وضع دولوخوف الزجاجة على حافة النافذة لتكون في متناول يده، ثم تسلق النافذة بحذر. اعتمد بيديه على الإطار ودلى ساقيه إلى الخارج، ثم اختار مكاناً مناسباً فجلس وأفلتت يداه الإطار. التفت يميناً ويساراً، وأمسك بالزجاجة. وعلى الرغم من أن خطوط النهار كانت قد وضحت، فإن أناتول جاء بشمعتين أشعلهما، ووضعهما إلى يمين دولوخوف وشماله حتى يستطيع المراقبون رؤية أية حركة تصدر على يديه، فأضاء بذلك قميص المراهن الأبيض، وشعره الأجعد، وجعله هدفاً ميسور المراقبة. واحتشد المتفرجون، والإنكليزي في المقدمة، يتطلعون بلهفة. وكان پيار يضحك دون أن يتفوه بكلمة. وفجأة اندفع أكبر الموجودين سناً وعلى وجهه أمارات الغضب، صاح وهو أكثر الحاضرين اتزاناً:

ـ إنه جنون أيها السادة. سوف تدق عنقه!

وهمَّ بإمساك قميص دولوخوف ليمنعه من القيام بما هو في سبيله، لولا أن أمسك به أناتول وقال:

ـ لا تمسه لأنك ستخيفه... فيسقط من حالق. وعندئذ... هن؟...

twitter @baghdad_library

أدار دولوخوف رأسه ليصحح من وضعيته اعتماداً على يديه، وقال وهو يدفع الكلمات خلال شفتيه المطبقتين:

ـ إذا شاء أحد أن يتدخل في شؤوني فسأجعله يقفز من هذا الفراغ، لنبدأ الآن!

استدار نهائياً نحو الشارع بعد أن تخلى عن كل سند، وبقي في جلسة على حافة النافذة المنحرفة إلى الخارج، والزجاجة مرفوعة إلى فمه، وذراعاه إلى أعلى ليحافظ بهما على توازنه. كان أحد الخدم منحنياً يجمع حطام الزجاج المتناثر، فبقي في وضعيته المنحنية، وعيناه شاخصتان إلى النافذة تلتهمان ظهر دولوخوف وانتصب أناتول على مدى قامته وراح يحملق بعينيه. أما الإنكليزي، فراح ينظر حوله وهو يعفر وجهه. وراح الشاب الجندي يحتمي في زاوية، وقد تهالك على كنبة وأدار وجهه إلى الجدار؛ بينما غطّى پيار وجهه بيده وقد علت شفتيه ابتسامة منسية، تعبر عن الذعر. وجمد المتفرجون، فرفع پيار يده عن عينيه: كان دولخوف متحفظاً بوضعيته تلك، لكنه كان شديد الانحناء إلى الوراء، حتى أن خصلات شعره كانت تلامس ياقة قميصه. كانت الزجاجة تفرغ من محتوياتها، مرغمة رأس المراهن على الانحناء أكثر فأكثر، رافعة معها اليد التي تقبض عليها، وهي تهتز بحكم المجهود الذي يبذله صاحبها. أخذ پيار يحدث نفسه: «ما أطول هذه الفترة!» خيل إليه أن نصف ساعة قد انقضت منذ أن بدأ دولوخوف شرب الروم. وفجأة، قام دولوخوف بحركة عنيفة إلى الوراء: كانت رعدة عصبية تحرك ذراعه بما يكفي ليفقد الجسد المتمركز على الحافة المنحدرة اتزانه. راح يتأرجح بمجموع جسده: الرأس والذراع المتزايدة الاهتزاز بتأثير المجهود المبذول. وكادت اليد الأخرى تمسك بإطار النافذة. لكنها انكمشت في آخر لحظة. فأغمض پيار

www.Maktbah.com

عينيه من جديد، وقرر يفتحهما بعد ذلك. لكنه شعر فجأة بحركة غير اعتيادية حوله، ففتح عينيه متسائلاً. شاهد دولوخوف وقد سحب وجهه وبان السرور عليه، واقفاً على حافة النافذة.

صاح معلناً نجاحه، وهو يلقي بالزجاجة إلى الإنكليزي الذي تناولها قبل أن تسقط على الأرض:

ـ إنها فارغة!

وقفز دولوخوف إلى أرض الغرفة تنبعث من فمه رائحة قوية، طغى فيها الروم على كل الخمور الأخرى التي تناولها من قبل. صاحوا به من كل صوب:

ـ مرحى! يا للرجل المتين! إنه لرهان رائع!

بينما أخرج الإنكليزي كيس نقوده وراح يعد المبلغ. وبقي دولوخوف يرمش بعينيه دون أن ينبس بكلمة واحدة.

وفجأة اندفع پيار نحو النافذة وصاح:

ـ أيها السادة، من يعقد رهاناً معي؟ سأفعل ما فعل دولوخوف. بل إنني لا ألح في صدد الرهان! اعطوني زجاجة روم وسأشربها على حافة النافذة. هيا إلي بزجاجة! زجاجة!

ابتسم دولوخوف وصاح مشجعاً:

ـ هيا، امض في عزمك!

غير أن الاعتراضات انبعثت من جانب. صاح قائل:

ـ ماذا أصابك؟ هل جننت؟ هل تعتقد أننا سندعك تنفذ عزمك؟ أنت الذي تصاب بدوار لمجرد صعودك السلّم!

صرخ پيار وهو يضرب الطاولة بقبضة يده:

ـ كلا، كلا! إلي بزجاجة، زجاجة! سأفرغها!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتسلق النافذة. فقبضا على ذراعيه، لكن ذلك الجبار سرعان ما تخلص من معارضيه وأبعدهم عنه، فانكمشوا أمام قوته.

قال أناتول:

ـ لا، لن تستطيعوا حمله على العدول. انتظروا؛ سوف أجعله يتراجع، اسمع، إنني أقبل المراهنة معك ولكن غداً. أما الآن، فلنذهب إلى لرس...

فصاح پيار:

ـ حسناً، هيا بنا! ولنأخذ معنا الدب ميشكا.

وحمل الدب وراح يدور به في فراغ الغرفة.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

وفى الأمير بازيل بوعده الذي قطعه للأمير دروپتسكوي في حفلة أنّا بافلوفنا بشأن ابنها الأوحد بوريس، إذ وافق الأمبراطور الذي تحدثوا إليه عن الفتى أن ينقل استثنائياً إلى ملاك الحرس مكان حامل العلم في فيلق سيميونوفسكي. غير أن أنّا ميخائيلوڤنا لم تستطع رغم كل الجهود والمحاولات أن تجعل ابنها يقبل في دائرة أركان حرب كوتوزوڤ، لا بصفة مساعد ولا كملحق عادي. فانتقلت إلى موسكو، بعد انقضاء فترة قصيرة على الحفلة، التي أنفذت الشطر الأول من خطتها فيها، ونزلت عند أقاربها الأغنياء: آل روستوڤ، الذين درجت عادتها على الحلول بينهم؛ والذين نشأ عزيزها بوريس في بيتهم منذ طفولته؛ وظل يقطن عندهم، حتى أصبح أخيراً حامل العلم في فيلق الحرس؛ بعد أن كان في الجيش. وكانت فرقة بوريس قد بقيت في موسكو؛ بانتظار أن تلحق بالفيلق الذي غادر پيترسبورغ في العاشر من شهر آب في طريقه إلى رادزيويلو.

وكان آل روستوڤ يحتفلون ذلك اليوم بعيد القديسة ناتالي؛ التي كانت ربة المنزل وابنتها الصغرى تحملان اسمها. فكان رتل متواصل من العربات الأنيقة، متوقفاً منذ الصباح أمام مسكنهم في شارع بوڤارسكايا الشهير في كل موسكو. وفي غرفة الاستقبال؛ كانت الكونتيسة روستوڤ بصحبة ابنتها البكر، وهي فتاة رائعة الجمال، تستقبل السيل المتدفق من الزوار. كانت الكونتيسة؛ في الخامسة والأربعين من عمرها؛ ذات وجه نحيل يضفي عليها مسحة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

شرقية، أرهقتها اثنتا عشرة ولادة متتابعة، وترك طابع الكد على قسماتها. كانت حركاتها التعبة وأسلوبها البطيء في الحديث نتيجة لذلك الإرهاق، تعطيها لوناً من الوقار يفرض الاحترام. كانت الأميرة دروپتسكوي، نظراً للألفة التي بينها وبين أصحاب الدار، تستقبل المدعوين كما لو كانت في بيتها، وتزكي الحديث. أما الشبان من آل المنزل، فكانوا منصرفين عن الجو الرسمي. وكان الكونت يستقبل المدعوين داعياً إياهم إلى تناول العشاء.

كان يقول:

ـ تشرفت جداً يا عزيزتي أو يا عزيزي، وقد درجت عادة الكونت على أن يخاطب الجميع بيا عزيزي أو يا عزيزتي دون استثناء أو تقدير لمركز الشخص الاجتماعي، إنني أشكرك باسمي الشخصي وأشكرك باسم اللتين نقيم الحفلة من أجلهما. لا تتخلف عن العشاء لأنني سأعتبر ذلك إهانة لي يا عزيزي. أرجوك بإخلاص وأدعوك باسم كل العائلة.

كان يوجه هذا القول إلى الجميع بصرف النظر عن كل الاعتبارات، دون أن تتبدل تعابير وجهه المنتفخ البشوش الحليق بتأنق، ويصافح الجميع بتلك اليد القوية وهو يكرر انحناءة إثر أخرى. وكلما شيع زائرة عاد قرب التي أو الذي بقي في قاعة الاستقبال فيدني مقعداً، بيسر الرجل الذي يحب أن يحيا حياة جميلة ويستمسك بهذا الشرط، ويجلس بنشاط متباعد الساقين، ممدداً يديه على ركبتيه. وهو ينتقل ببشاشة ومرح، يبدي تنبؤات عن الطقس، يعطي النصائح حول الصحة تارة بالروسية وأخرى بالفرنسية، فرنسيّته البغيضة المطبوعة بالجرأة. ثم يعود ثانية، رغم تعبه، فيرافق الأشخاص، بحرص رب المنزل الذي يضحي بالكثير في سبيل إتمام واجباته، فيودع الزائر وهو يكرر دعوته للعشاء، ويسوي بيده، شعيراته الشهباء المبعثرة على رأسه الأصلع. وكان

www.Maktbah.com

أحياناً، عند عودته من الردهة، يقوم بجولة بين بيت النباتات وجناح الخدم، ليدخل إلى قاعة الطعام الكبرى، التي تغطي قطع الرخام جدرانها وأرضها، فيعاين الطاولة المهيأة لثمانين مدعواً، ويلقي نظرة على أعمال الخدم، الذين كانوا يحملون الأطباق والأواني الخزفية والفضية، ويرتبونها على الطاولة، أو يبسطون عليها الأغطية المطرزة؛ فينادي ديمتري ڤاسيلييڤيتش وهو نبيل أخنى عليه الزمن فأصبح يشرف على المؤونة وشؤون مالية الكونت، فيقول له: انتبه ياميتا، وافتح عينيك. اسهر على أن يكون كل شيء على أكمل وجه. ويضيف عندما يتأمل الطاولة الجبارة ذات الأطراف التي تسمح بتبديل طولها وفق رغبة صاحبها وعدد المدعوين، بنظرة ابتهاج: ممتاز! عال! إن المائدة المنسقة تنسيقاً جميلاً، هي الأساس الأهم في حفلات الطعام. هيا، هذا حسن!... ويعود إلى غرفة الاستقبال وهو يتنهد بارتياح.

أعلن تابع الكونتيسة بصوت مدو:

ـ ماري لڤوڤنا كاراغين وابنتها!

فقالت الكونتيسة بعد لحظة تردد، وبعد أن غمست اصبعها في علبة سعوطها المذهبة، التي تحمل صورة زوجها:

ـ ستسقمني الزيارات هذه وتقتلني هيا، لنستقبل هذه المتطرفة، أدخلها.

كانت بتلك اللهجة الآمرة، التي خاطبت بها التابع، كأنها تقول: «خلصني من ذلك، ما دمت موجوداً!».

دخلت سيدة بدينة، مترفعة الحركات، تتبعها ابنتها، بوجهها الممتلئ المشرق، ترفلان في أثوابهما.

قالت أصوات نسائية بحماسة تقاطع بعضها بعضاً، وتمتزج بحفيف من الأثواب وضجيج القواعد:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ عزيزتي الكونتيسة، لقد مضى زمن طويل... لقد كانت ملازمة فراشها، طفلتي المسكينة... في حفلة آل رازوموفسكي... والكونتيسة أبراكسين... لقد كنت سعيدة جداً...

وهكذا بدأت الثرثرة الطبيعية الاعتيادية، التي تطوف بالموجودين للوهلة الأولى ريثما تنهض المضيفة محدثة لجباً وتقول «إنني مفتتنة بزيارتك... صحة الماما... والكونتيسة أبراكسين...» ثم يمر الصخب وحفيف الأثواب حتى يبلغ الردهة، وهناك ترتدي السيدة المشيعة دثارها وترتحل. تبدأ الحديث، فيدور حول الحدث الأول في المجتمع الراقي، وهو مرض العجوز الثري الكونت بيزوخوف، الذي كان من أجمل رجال عهد كاترين الثانية، والذي تصرف ابنه غير الشرعي پيار، بتلك الطريقة المخجلة، في حفلة آنّا پاڤلوڤنا شيرر.

قالت الزائرة الجديدة:

ـ إنني أرثي للكونت المسكين. إنه في حالة المرض التي هو فيها، يتعرض لخطر الموت متأثراً بأفعال ابنه الطائشة.

سألت الكونتيسة متظاهرة بأنها تجهل تلك القصة التي سمعتها أكثر من خمس عشرة مرة:

ـ أية تصرفات طائشة؟

فأردفت الزائرة تقول:

تلك هي قطوف التثقيف في هذا العصر، لقد ترك هذا الفتى لنفسه، عندما كان في الخارج، وها هو الآن في پيترسبورغ يرتكب، كما يقال، حماقات مروعة، حتى أن الشرطة اضطرت إلى إبعاده.

صاحت الكونتيسة بدهشة:

ـ صحيح!

www.Maktbah.com

فتدخلت الأميرة دروبنتيسكوي قائلة:

ـ لقد أساء انتقاء أصدقائه، فلم يجد خيراً من ابن الأمير بازيل، وآخر يدعى دولوخوف. لقد ارتكب ثلاثتهم، كما يقال، شتى أنواع الموبقات. ونجم عن ذلك أن عوقب دولوخوف بإنزال رتبته من ضابط إلى جندي. وأن أبعد بيزوخوف الشباب إلى موسكو. أما أناتول كوراغين. فقد اضطر إلى مغادرة پيترسبورغ، ولولا تدخل والده، لانتهت قضيته إلى ذيول خطيرة.

سألت الكونتيسة مستفهمة:

ـ ولكن ماذا فعلوا حتى استحقوا هذا؟

فأجابت الزائرة بلهجة التأكيد:

ـ إنهم أشقياء حقاً، وعلى الخصوص دولوخوف، رغم أنه ابن ماري إيفانوفنا دولوخوف، وهي شخصية محترمة... تصوري أن ثلاثتهم قد حصلوا، والله أعلم بالمكان، على دب، أرادوا حمله معهم في عربة إلى حيث يقطن بعض الممثلين. فلما تدخل رجال الشرطة بغية إعادتهم إلى صوابهم، اصطدموا بضابط القسم، فألقوه أرضاً، وربطوه ظهراً إلى ظهر مع الدب في نهر «الموييكا» فراح الدب يسبح حاملاً ضابط الشرطة على ظهره.

صاح الكونت مقهقهاً:

ـ تصوري موقفه يا عزيزتي.

ـ يا له من أمر مريع! ما الذي تراه مضحكاً في الأمر يا كونت؟

لكن النساء أيضاً لم يستطعن رغم تلك الملاحظة الإبقاء على سيماء الجد في وجوههن.

استطردت مدام كاراغين:

ـ لقد لاقوا مشقة كبيرة في إنقاذ المسكين. تصوروا صانع تلك الفضيحة هو ابن الكونت سيريل ڤلاديميروڤيتش بيزوخوف إنهم يزعمون أنه جمّ

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التهذيب والذكاء. هذه هي الحدود التي تقود إليها الثقافات في الخارج. آمل أن لا يستقبله أحد هنا رغم ثرائه. لقد أرادوا أن يقدموه إلي فقلت: كلا، شكراً إن عندي بنات.

سألتها الكونتيسة وهي تنحني عليها:

ثروته! ولكن أين تلك الثروة؟

وتظاهرت الفتيات الشابات بعدم الإصغاء، بينما استطردت الكونتيسة: ليس للكونت سيريل إلا أولاد غير شرعيين كما أعتقد. ولن يُستثنى پيار هذا من ذلك.

قالت مدام كاراغين بلهجة مستهزئة:

ـ أولاد غير شرعيين! أعتقد أن للكونت أقله عشرين واحداً!

واعتقدت الأميرة دروبتيسكوي أن الفرصة مؤاتية لإظهار علاقاتها ومعلوماتها. فقالت بصوت خفيض، وعلى وجهها أمارات توحي بأنها تعرف الأصول والفروع.

ـ إليكم المسألة: إن سمعة الكونت سيريل معروفة، وبدون شك إنه لا يعرف عدد أبنائه، لكن پيار هذا مفضل من بينهم.

ـ أتعرفون أن هذا العجوز الأنيق كان في العام الماضي على أحسن حال، وإنني لم أر قط أجمل منه رجلاً؟

فأجابت الأميرة دروبتيسكوي وهي تعود إلى موضوعها.

ـ أوه، لقد تغير كثيراً. كنت أقول إذن إن پيار مفضل ومقرب إليه. ولقد عُني بتثقيفه، وكتب بشأنه إلى الأمبراطور... فإذا وقعت فاجعة، وهو في أرذل العمر، حتى أنهم استدعوا لوران من پيترسبورغ، فإن ثروته، وتعدادها أربعون ألف نفس وعدد من الملايين، ستؤول حتماً إلى پيار ويسبب ذلك خسارة الأمير بازيل الذي يعتبر وارثاً مباشراً عن طريق زوجته، كما حدثني بنفسه.

www.Maktbah.com

إن معلوماتي إذن مستقاة من مصدر ثقة. أضف إلى ذلك أنني، عن طريق أمي، أعتبر حسب العرف المتبع في بريطانيا، حفيدة الكونت سيريل، ويعتبر بوريس ابنه بالمعمودية.

تفوهت بجملتها الأخيرة دون أن يبدو عليها أنها تتعمد أمراً من وراء ذلك.

قالت مدام كاراغين.

ـ إن الأمير بازيل هنا منذ البارحة في جولة تفتيشية كما يقال.

فأجابت الأميرة:

ـ أجل، ولكن التفتيش، والحديث بيننا، ليس إلا حجة. أما سبب سفره الحقيقي، فهو مرض الكونت سيريل الخطير.

صاح الكونت روستوف فجأة:

ـ لقد تحدثت بالصدق يا عزيزتي. إن الحكاية مضحكة.

لكنه عندما رأى الزائرة لا تستمع إليه، مال إلى الفتيات الشابات، وتابع قائلاً:

ـ لا شك أن موقف الضابط المسكين كان مضحكاً.

وشفع قوله بإشارات من يديه، للدلالة على مدى سخط الضابط. وانفجر ضاحكاً ضحكة مدوية، ضحكة رجل أمضى كل عمره بين الطعام الجيد، والشراب الأجود فتجاوب لها جسده السمين المنتفخ.

ثم اختتم حديثه:

ـ لقد اتفقنا إذن. سوف ننتظرك لتناول العشاء معنا.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

ساد السكوت لحظة. فلم تتمكن الكونتيسة من إخفاء دلائل الارتياح الذي ستشعر به، إذا ما غادرتها الزائرة، رغم الابتسامة المشجعة التي كانت توقفها عليها.

أخذت الآنسة كاراغين تستفسر أمها بنظراتها، تتهيأ لمغادرة المكان، عندما ارتفع فجأة وقع خطوات متسارعة، آتية من الغرفة المجاورة، ثم ارتطام مقعد منقلب، وفجأة فتح الباب، وظهرت على عتبته فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، تخفي وراءها شيئاً في طيات ثوبها القصير، المصنوع من قماش «الموسلين الثمين». توقفت الفتاة في مكانها، وقد أدهشها أن تكون اندفعت في ركضها إلى ذلك المكان. وفي اللحظة نفسها، بدا وراءها طالب ذو ياقة خمرية اللون، وضابط من الحرس، ثم فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وفتى يرتدي سراويل قصيرة، ذو وجنتين ممتلئتين.

قفز الكونت فوراً، وراح يتأرجح في مشيته، ويلف ساقاً على ساق، ويباعد بين ذراعيه، ليقطع الطريق على الفتاة. صرخ وهو يضحك:

آه، ها هي ذي بطلة حفلتنا! يا فتاتي الصغيرة العزيزة!

وتصنعت الكونتيسة الغضب وقالت:

ـ هناك وقت لكل شيء يا عزيزتي.

وأردفت تخاطب زوجها:

ـ إنك تفسدها كثيراً يا إيلي.

www.Maktbah.com

قالت مدام كاراغين:

ـ مرحباً يا عزيزتي، أهنئك.

ثم أردفت تخاطب الأم:

ـ يا لها من فتاة لطيفة!

لم تكن الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين، والفم الكبير، على شيء من الجمال، ولكنها كانت تنفجر حيوية. كان انطلاقها في المشي قد بعثر خصلات شعرها الأسود، المنسدل إلى الوراء، وأبرز كتفيها الناحلتين تحت ثوبها. كانت ذراعاها الدقيقتان عاريتين، وساقاها النحيلتان، تبرزان خلال سراويل من «الدانتيلا» تصل حتى حذاءيها المكشوفين. كانت في تلك السن الباسمة التي لا تكون الفتاة فيها طفلة ولا تكون الطفلة فيها في مصاف الفتيات الشابات، أفلتت من الكونت وأسرعت تخفي وجهها المتورد في ثوب أمها، التي لم تفلح ملاحظتها القاسية في ترويعها. كانت ولا شك تفكر في أمر مضحك مثير، إذ إنها أخرجت من بين طيات ثوبها لعبة وغمغمت قائلة:

ـ ألا ترين؟ لعبتي... ميمي... ألا ترين؟

وعجزت الصبية ناتاشا عن متابعة حديثها، إذ اجتاحتها موجة الضحك التي سرت منها إلى الآخرين، عندما أطلقت ضحكة رنانة، تجاوبت أصداؤها في القاعة، واستجاب لها الموجودون بمن فيهم الزائرة ذات المظاهر المتعالية.

قالت الأم وهي تتصنع الغضب:

ـ اذهبي، اذهبي، واحملي معك هذه السماجة.

ثم خاطبت مدام كاراغين قائلة:

ـ إنها صغرى بناتي.

سألتها هذه متقربة:

ـ قولي لي يا صغيرتي ناتاشا، هي قرابتك مع هذه الميمي؟ إنها بلا ريب ابنتك؟

twitter @baghdad_library

كانت تعتقد أنها بذلك السؤال تتقرب من الفتاة. لكن دعابتها السمجة لم ترق ناتاشا التي ألقت عليها نظرة قاتمة دون أن تجيب.

وفي تلك الأثناء، احتلت الشبيبة: بوريس، وهو الضابط ابن الأمير درويتسكوي، ونيكولا، وهو الطالب ذو الياقة الخمرية وابن الكونت البكر، وسونيا ابنة أخت الكونت، وبيتروشا الصغير، وهو أصغر أبنائه، مكانها في القاعة. كانت وجوههم تطفح بالابتسام، رغم أنهم بذلوا جهوداً كبيرة لكبت ضحكاتهم، احتراماً للرسميات التي يقتضيها الموقف.

كان يبدو على وجوههم بوضوح، أنهم كانوا في تلك الغرف البعيدة، غارقين في مشاريع أكثر تسلية، ألف مرة مما عليه الحال في القاعة، من ثرثرات ولغط، وحديث عن الطقس وعن الكونتيسة أبراكسين وآخر الفضائح، كانوا يتبادلون نظرات متآمرة وهم يكتمون ضحكاتهم.

كان الشابان الضابط والطالب، صديقين منذ الطفولة، وكان كلاهما يتمتع بجمال فتّان. لكنهما كانا يختلفان اختلافاً واضحاً. كان بوريس طويل القامة، أشقر، ذا تقاطيع دقيقة متناسقة. أما نيكولا، فكان على العكس، قصير القامة، أجعد الشعر، ذا سحنة مشرقة مطبوعة بحمية شديدة. كانت شفته العليا مظللة بشارب خفيف أسود. احمرَّ وجهه عندما دخل إلى القاعة، وراح يحاول عبثاً تبرير سلوكه. أما بوريس، فكان على العكس. استعاد هدوءه بسرعة وعاد إليه مرحه، فراح يروي القصة بصوت ملؤه المجون. قال إنه عرف تلك «الميمي»، صبية جميلة سليمة الأنف. لكنه ولدهشته وجدها بعد خمس سنوات، قد شاخت بسرعة، حتى أنها حطمت جمجمتها. وبعدئذ ألقى على ناتاشا نظرة لم تستطع هذه احتمالها، فاختلست نظرة إلى وجه أخيها الذي كانت ضحكته مكتومة تهز جسده بعنف، وهو مغمض العينين. وفجأة قفزت هاربة من

www.Maktbah.com

القاعة، وقد فقدت السيطرة على نفسها نهائياً. لكن بوريس لم يتحرك. قال يخاطب أمه:

ـ كنت تريدين الخروج للنزهة يا أماه. فهل أجهز لك العربة؟

وابتسم لأمه ابتسامة محببة ردتها له من فورها بأجمل منها. وقالت:

ـ هو ذاك. اذهب واقطر الخيول إليها.

ومضى بوريس بخطوات هادئة يبحث عن ناتاشا. أما الشاب القصير، فإنه جرى على أعقابهما وعلى وجهه آيات التبرم، شأن من أغضبه بعضهم، بإزعاجه في غمرة أعماله الهامة، بتفاهات!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

لم يبق في القاعة ممثلاً عن الشبيبة عدا الآنسة كاراغين وابنة الكونتيسة البكر، التي كانت أكبر من شقيقتها بأربع سنوات، وتقلد حركات المسنين، إلا نيكولا وابنة عمه سونيا، تلك السمراء النحيلة، رقيقة العود، التي كانت تحيط رأسها بضفيرة ثقيلة من شعرها دارت حوله دورتين، وجاءت تنعقد أخيراً عند منبت الشعر. كان جلدها زيتوني اللون، على عكس ظهوره الصارخ عند عنقها وذراعيها العاريتين، اللتين أهزلتهما «العصبية» لكنها لم تكن خالية من الجاذبية. كانت خفيفة الظل، لدنة الأعضاء، تعطيها بعض الحركات التي لا تخلو من مكر، مظهر القطة الصغيرة التي لاتزال خشنة بعض الشيء، ولكنها في المقابل، تبشر بمستقبل ينبئ بأنها ستصبح هرة فتانة. تظاهرت بأنها تشعر باهتمام بالحديث العام الدائر في القاعة، لكنها لم تستطع التأثير في أحد، بأن تجعل ابتسامتها التي كانت منطبقة على شفتيها تشعر بذلك الاهتمام، وخصوصاً أن تبادل النظرات بينها وبين ابن عمها، تلك النظرات التي كانت ترمقه بها خلال أهدابها الطويلة، أظهر بوضوح أن القطة الصغيرة لم تمكث هناك، إلا لتمرح مع ابن عمها الذي يتعشق حياة الجيش، حالما يحذوان حذو بوريس وناتاشا، فيخرجان بدورهما من القاعة ليختليا معاً، مضللين الكبار، الذين يتحدثون في قاعة الاستقبال.

كان الكونت العجوز يحدث السيدة كاراغين مشيراً إلى ابنه:

ـ نعم يا عزيزتي. ها هو صديق بوريس. لقد رقي صديقه إلى رتبة ضابط،

www.Maktbah.com

فلم يرغب «نيكولاي» في البقاء متخلفاً، لذلك أهمل دراسته وأباه العجوز، والتحق بالخدمة يا عزيزتي. كان ينتظره مركز ممتاز في الإدارة، يبشر بمستقبل باهر. يا لها من صداقة جميلة، أليس كذلك؟

قالت مدام كاراغين:

ـ يزعمون أن الحرب قد أعلنت.

فأجاب الكونت:

ـ إنهم منذ زمن يتشدقون بهذا القول، حتى باتت أعصابنا مرهقة من كثرة التكرار...

وكرر ملمحاً إلى جملته الأولى:

ـ يا للصداقة الجميلة، أليس كذلك؟ لقد دخل في فيلق الخيالة.

لم تستطع مدام كوراغين التخلص من ورطتها إلا بهز رأسها. فابن نيكولا يجيب بدلاً عنها في شيء من الاحتداد، إذ بدا تفسير أبيه لسلوكه على شيء من القسوة. قال:

ـ ولكن، لا علاقة للصداقة بالأمر. إن الجيش يجتذبني. وهذا هو السبب.

وألقى على ابنة عمه وعلى الآنسة كاراغين نظرة، فأيدتاه كلتاهما بابتسامة.

قال الكونت وهو يهز كتفيه:

ـ إن الكولونيل شويبرت مدعو لتناول العشاء عندنا. إنه قائد فرسان پاڤلوغراد. عندما ينهي عطلته سيأخذ ابني الشقي معه، ماذا أستطيع أن أفعل؟

كان يتكلم بلهجة مازحة، لكنه كان واضح الانشراح للحادث الوشيك.

قال الابن:

ـ أكرر عليك القول يا أبي، إنك إذا كنت لا ترغب في ذهابي، بقيت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلى جانبك. غير أن الحظيرة العسكرية هي وحدها التي تروقني. إن السياسة والإدارة لا تصلحان لي، لأنني لا أستطيع إخفاء عواطفي.

لم يكف لحظة، خلال هذا القول، عن النظر إلى الفتيات بتظرف الشباب الجريء. وكانت القطة الصغيرة تلتهمه بنظراتها، تكاد ترتمي عليه، وتكشف عن طبيعتها المكبوتة.

قال الكونت العجوز:

ـ لا بأس، ذلك حسن! يجب على كل حال أن يتبع طموحه! إن بوناپرت هو الذي يدير رؤوسهم جميعاً: ملازم أول يصبح أمبراطوراً! هذا هو حلمهم، أليس كذلك؟ ليكن، على مشيئة الله!

أنهى الكونت كلماته دون أن يلاحظ الابتسامة الساخرة التي بدت على شفتَي مدام كاراغين.

وتحول موضوع حديث الكبار إلى بوناپرت وقضاياه، فانتهزت جولي، ابنة مدام كاراغين، هذه الفرصة، والتفتت إلى روستوف الشاب تقول بحنان:

ـ كم كان مؤسفاً أنك لم تحضر الخميس المنصرم إلى حفلة آل أرخاروف! لقد ضجرت كثيراً بدونك!

جلس نيكولا بجانب جولي التي لم تكن تقل عنه ابتساماً. كان حديثها قد أرضى غروره، فجلس إلى جانبها، وعلى شفتيه تلك الابتسامة، ابتسامة الشباب الماجن، وراح يتحدث معها حديثاً خاصاً، لم يلحظ خلاله أن تظرفه المتبذل كان وقع الحسام في قلب سونيا التي كانت تتحرق من الغيرة، وتحاول عبثاً إخفاء ما بها بإظهار الوداعة والانشراح. وفجأة، رفع عينيه إلى وجهها: وعندئذ صعقته سونيا بنظرة تتصارع العاطفة فيها مع الغضب، ثم أمسكت دموعها بجهد بالغ، واستبقت على شفتيها طيف ابتسامة وغادرت القاعة،

www.Maktbah.com

فخبت حماسة نيكولا دفعة واحدة. قطع حديثه مع جولي حالما أتيح له ذلك دون أن يخدش شعورها، ومضى وعلى وجهه أمارات القلق يبحث عن سونيا.

قالت أنّا ميخائيلوڤنا مشيرة إلى نيكولا الذي يغادر القاعة:

ـ كم تبدو أسرار الشبيبة مفضوحة! إن قرابة العمومة جوار خطر!

فقالت الكونتيسة، عندما خبا الإشعاع الذي تسلل إلى القاعة مع الشبان الذين غادروه:

ـ نعم.

ثم أجابت عن سؤال لم يكن أحد قد طرحه عليها، بل كانت تشعر بإلحاحه يؤرقها:

ـ كم من مزعجات وقلق احتملنا حتى باتوا اليوم يشيعون في نفوسنا بعض البهجة! ثم إن هذه البهجة يفسدها الخوف. أي إننا نقضي حياتنا كلها في العذاب. لأن في مثل هذه السن، يتعرض الشبان والفتيات لأشد المخاطر.

قالت الزائرة:

ـ يتوقف الأمر على تربيتهم.

أجابت الكونتيسة وهي تتصور أن أولادها لا يخفون عنها سراً شأن كثير من الأمهات:

ـ لا شك! لقد كنت دائماً صديقة أولادي. وهم يثقون بي ثقة عمياء. سأكون أبداً موضع سر فتياتي. أما نيكولا، فإنه بطبيعته الثائرة مرغم على أن يرفه عن نفسه على شكل ما، ككل الشبان. لكنه لا يمكن أن يتجاوز الحدود كأولئك السادة في پيترسبورغ. إنني واثقة بذلك.

وأيدها الكونت بقوله:

ـ نعم، إنهم ذوو طبيعة ممتازة. وكلمة «ممتازة» هذه، كانت تعطي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكونت حلّاً لكثير من المسائل الشائكة؛ صدقي إنه يريد الالتحاق بقطعات الخيالة! ماذا تريدين مني أن أفعل يا عزيزتي؟

قالت مدام كاراغين:

ـ يا لها من مخلوقة رائعة، ابنتك الصغرى! إنها جياشة كالبارود.

فقال الكونت:

ـ نعم كالبارود. إنها تشبهني. ويا لجمال صوتها، يا عزيزتي! صحيح أنها ابنتي، ولكن الحقيقة هي الحقيقة. ستصبح مغنية حقيقية. سالوموني الثانية. إننا نعطيها دروساً على يد إيطالي.

ـ أليست في سن مبكرة بعد؟ يقال إن دروس الغناء في مثل هذه السن تتلف الصوت.

صاح الكونت:

ـ كيف مبكرة؟ ألم تتزوج أمهاتنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة؟

وقالت الكونتيسة، وهي تعلن ابتسامة مشرقة لأم بوريس:

ـ وها هي ذي ببوريس! افتحي عينيك قليلاً!

وعادت إلى شاغلها الرئيسي في الموضوع تابعت:

ـ لو أنني شددت المراقبة عليها وضعتها من... لكان الله وحده يعرف ماذا يمكن أن تفعل في الخفاء معه. (كانت تريد أن تقول إنهما كانا سيتعانقان). أما على هذه الحرية التي أطلقها لها، فإنني أعرف كل مشاريعها. إنها تأتيني كل مساء لتقص عليّ كل ما يقع لها في النهار. قد أكون مخطئة في تصرفي الذي قد يفسدها، لكنني لا أكثرت. إن هذا خير من النتائج الأخرى على ما يبدو لي. لقد راقبت البكر مراقبة شديدة من قبل.

فقالت البكر، الكونتيسة ڤيرا الجميلة، باسمة:

ـ نعم، لقد نُشّئت على نمط مختلف تماماً.

www.Maktbah.com

كانت الابتسامة التي من عادتها أن تجمل الوجوه، تضفي على ڤيرا لوناً عكسياً غير طبيعي، منفّراً تقريباً. كانت ڤيرا جميلة، ذكية، مثقفة وحسنة التربية. وكان لصوتها وقع جميل. مع ذلك، فإن ملاحظتها، رغم ملاءمتها وصحتها، ألقت على السامعين وشاحاً من الفتور. فنظروا إليها جميعاً، ابتداء من الكونتيسة ومدام كاراغين، نظرة مستغربة.

قالت مدام كاراغين:

ـ إن الأمهات يسعين دوماً إلى تنشئة أبكارهن بكل تدقيق وعناية.

قال الكونت:

ـ آه نعم يا عزيزتي. إذ ما فائدة الإنكار؟ لقد تصرفت كونتيستي الصغيرة حيال ڤيرا بعناية فائقة.

ثم تمالك نفسه وأردف، وهو يغمز ابنته بنظرة ودٍ لطيفة:

ـ ثم إن التجربة نجحت نجاحاً باهراً.

نهضت الزائرات ووعدن بالعودة لتناول العشاء.

قالت الكونتيسة، بعد أن شيعتهن حتى الباب:

ـ يا لها من تصرفات سخيفة، هل يسمح للمرء بالبقاء كل هذا الوقت! لو بقين وقتاً آخر لنبتت لهن جذور هنا؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

اختبأت ناتاشا في بيت النباتات ولم تذهب بفرارها الأهوج بعيداً، تنتظر بوريس، وراحت تستمع إلى الضجة المتعالية من القاعة. أدركها الملل فراحت تريح ساقاً وتعتمد على الأخرى، وقد نفد صبرها وكادت تبكي. وفجأة، تناهى إلى سمعها وقع خطوات متزنة، لا بطيئة ولا سريعة، عرفت ناتاشا منها أن فتاها يقترب من مكانها. فاختبأت وراء أصص الزهور.

في منتصف الحديقة الشتوية وقف بوريس، وراح يتفحص أركانها بعينيه وينفض الغبار عن كمه بطرف سبابته، ثم اقترب من المرآة الكبيرة، أخذ يتأمل طلعته البهية فيها. بقي برهة أمام المرآة، ثم ابتسم ومضى إلى الباب الآخر. كادت ناتاشا تناديه. لكنها فكرت برهة وقالت في سرها: «كلا، ليبحث عني!». ولم يكد بوريس يغادر بيت النباتات حتى دخلت سونيا فجأة، محمرَّة الوجه، تتمتم خلال دموعها. همت ناتاشا للوهلة الأولى أن تلقي بنفسها على عنق ابنة عمها، لكنها تمالكت أعصابها من جديد، وراحت من مخبئها، تراقب سير الحوادث بسكون المتآمرين. شعرت بسرور لم تعهد مثله من قبل، وهي تتأمل تتابع الأحداث دون أن يراها أحد. رأت أن سونيا، التي لم تكف عن البكاء، ترقب بلهفة باب القاعة، الذي لم يلبث نيكولا أن بدا على عتبته.

ركض نحوها، وهو يقول:

ـ سونيا، ماذا بك؟ هل يجوز لك أن...

فأجابته، وهي تبكي:

www.Maktbah.com

ـ ليس بي شيء! دعني، ليس بي شيء، دعني.

ـ بلى، إنني أعرف ما بك.

ـ أتعرفه؟ حسناً، هذا أفضل!.. إمضِ إلى صديقتك الأخرى!

أمسك نيكولا بيدها، فلم تمانع، وكفت عن البكاء. فقال:

ـ سونيا!... كلمة واحدة فقط. إنك تتخيلين أشياء سخيفة. هل يجوز لنا أن نتعذب من أجل هذه التفاهة؟

بقيت ناتاشا جامدة في زاويتها، ملتمعة العينين، مبهورة الأنفاس، تراقب ذلك المشهد بلهفة.

راحت تتساءل: «ترى، ماذا سيحدث؟».

استطرد نيكولا قائلاً:

ـ سونيا، ماذا يهمنا العالم؟ ألست كل شيء بالنسبة إلي؟ سوف أثبت لك ذلك.

ـ إنني لا أحب أن تتحدث هكذا.

ـ عذراً. لن أعود إلى مثله.

ثم جذبها إلى صدره وقبّلها.

فقالت ناتاشا في مخبئها تحدث نفسها: «آه! كم هذا لذيذ!» فلما غادرت سونيا بيت النباتات بصحبة نيكولا، غادرت مكانها، تبحث عن بوريس.

قالت له بلهجة فيها طابع الجد والمكر:

ـ بوريس، تعال. لدي ما أقوله لك. تعال من هنا. من هنا...

وعادت معه إلى الحديقة الشتوية وجذبته إلى حيث كانت مختبئة وراء أصص الزهور، فتبعها بوريس باسماً. قال:

ـ حسناً، ماذا هناك؟

كانت شديدة الانفعال، متحفزة العواطف، فراحت تفحص ما حولها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعينيها. ولما وقع نظرها على دميتها التي كانت ملقاة على أحد الصناديق، التقطتها وقالت له:

ـ قبّل ميمي.

لم يجب بوريس، لكنه كان يدقق بمحبة في وجهها المتيقظ.

قالت، وهي تلقي بدميتها بعيداً:

ـ ألا تريد؟ إذن، تعال من هنا.

وتغلغلت بين النباتات، وهمست:

ـ اقترب، ازدد قرباً!

أطبقت بيديها الاثنتين على أشرطة ثوبه، وراح وجهها المحموم يزداد خطورة.

تمتمت، وهي تكاد تبكي من الانفعال:

ـ وأنا، ألا تريد أن تقبلني؟

وشفعت قولها بغمزة مغرية.

فاحمر وجه بوريس، وقال:

ـ كم أنت مضحكة!

انحنى على ناتاشا، فازداد وجهه احمراراً، لكنه لم يجرؤ على تقبيلها.

وفجأة، قفزت فوق أحد الصناديق، واستطاعت أن تنوف عليه. وعندئذ، ألقت بذراعيها العاريتين حول عنقه أسفل رأسه. وأرسلت شعرها إلى الوراء بحركة عنيفة من رأسها، ثم أكبت بوجهها عليه وقبلته في شفتيه.

ونفرت اثر ذلك بين أصص الزهور، وانتظرت عند الطرف الآخر من الغرفة، مطرقة الرأس.

قال بوريس:

ـ ناتاشا، إنك تعرفين أنني أحبك ولكن...

www.Maktbah.com

فقاطعته قائلة:

هل تحبني؟

ـ أجل، أنا أحبك. لكنني أرجوك ألّا نعود إلى مثل ذلك... لننتظر أربع سنوات أخرى، وعندئذ سأطلب يدك.

فكرت ناتاشا برهة، وقالت وهي تعد على أصابعها:

ـ ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر، ستة... ليكن! اتفقنا؟

كان السرور يشرق على وجهها الذي عاد إلى بهائه.

قال بوريس:

ـ اتفقنا!

فقالت الفتاة:

ـ إلى الأبد؟ حتى الموت؟

وأمسكت بذراعه وهي شديدة البهجة، وراحت ترافقه في طريقها إلى مخدعها.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

أنهكت تلك الزيارات المملة الكونتيسة روستوف، فأمرت الحاجب بألّا يدخل عليها أحد، على أن يدعو كل الزوار الذين سيتقدمون بتهانيهم، دون تفضيل، إلى تناول العشاء على مائدتهم ذلك المساء. كانت تتلهف على البقاء وحيدة مع صديقة طفولتها، الأميرة دورپتسكوي، التي لم تكن قد تحدثت إليها بحرية منذ أن رجعت من پيترسبورغ. وبقيت أنّا ميخائيلوڤنا تحتفظ بعذوبة تقاطيعها التي لم تخل من طابع الشكوى، وقربت مقعدها من زميلتها. قالت:

ـ سوف أتحدث إليك بكل إخلاص. إننا لانزال صديقتين حميمتين كما كنا من قبل، أليس كذلك؟ إنني أقدر صداقتك من أجل ذلك.

واسترقت نظرة إلى حيث كانت ڤيرا وتوقفت. فضغطت الكونتيسة على يد صديقتها وقالت تحدث ابنتها الكبرى التي لم تكن بدون شك شديدة العطف عليها:

ـ ڤيرا، ألا تستطيعين الفهم؟ ألا تشعرين بأن وجودك بات فائضاً؟ اذهبي إلى حيث شقيقاتك أو...

لم تستعذب ڤيرا الملاحظة، لكنها مع ذلك لم تعترض إلا بابتسامة فيها لامبالاة. قالت وهي تنهض:

ـ لو نوهت لي بذلك من قبل لكنت الآن بعيدة عن هنا، يا أماه.

وبينما كانت تجتاز غرفة الجلوس ذاهبة إلى غرفتها، توقفت عندما رأت

www.Maktbah.com

أمام كل نافذة اثنين يتناجيان، فابتسمت بمرارة. كان نيكولا جالساً إلى جانب سونيا، يقرأ عليها باكورة نظمه الذي استلهمه منها. أما بوريس وناتاشا فكانا يتجاذبان أطراف الحديث. سكتوا جميعاً عند ظهور ڤيرا، وراحت الفتاتان العاشقتان تنظران إليها بضيق، دون أن تذهب البشاشة عن وجهيهما. وبدا ذلك المشهد المؤثر متنافياً مع ذوق ڤيرا التي قالت موبخة:

ـ كم مرة رجوتكما ألّا تمسا أشيائي. إن لكما غرفتكما الخاصة.

فأجاب نيكولا متوسلاً، وهو يغمس الريشة في المحبرة التي حاولت رفعها من أمامه:

ـ لحظة واحدة فقط.

قالت ڤيرا:

ـ لا شك أن الذوق يعوزكم. إن دخولكم إلى القاعة مثلاً لم يخجلكم. لقد شعر الجميع بالخجل لتصرفكم.

كانت الملاحظة محقة. رغم ذلك، أو لعله بسبب ذلك، لم يجب الأربعة إلا بتبادل النظرات.

تابعت ڤيرا:

ـ ثم في مثل سنكما، أية أسرار يمكن أن تكون بينكما، أو بين ناتاشا وبوريس؟ إن هذه إلّا سخافات وترهات!

تدخلت ناتاشا في الموضوع وسألتها بلطف وهي مستعدة لمقابلتها باللطف:

ـ ماذا يعنيك كل هذا، يا ڤيرا؟

ـ إن كل هذا سخيف، وإنني لأخجل منك. ما معنى هذه الأسرار؟

أجابت ناتاشا في شيء من الانفعال:

ـ لكل أسراره. إننا لا نتدخل في شؤونك مع بيرج وما تفعلينه معه!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أجابت ڤيرا:

ـ لا ينبغي إلا هذا! وكأن في سلوكي ما يؤخذ عليه! انتظري قليلاً، سوف أقول «لماما» كيف تتصرفين مع بوريس.

قال بوريس:

ـ إن ناتالي ايلينيتشا تتصرف تصرفاً لائقاً معي. إنني غير مستاء من تصرفها.

قالت ناتاشا بصوت متهدج من الانفعال:

ـ اصمت أنت يا بوريس، إنك شديد «الدبلوماسية» وقد بدأ هذا يزعجني!

وكانت كلمة «الدبلوماسية» شائعة ومن أحدث طراز بين الأولاد، الذين كانوا يعطونها معنى خاصاً.

أردفت تهاجم ڤيرا بشدة قائلة:

ـ ماذا تريد مني هذه؟ إنك لا تفمهين شيئاً، إنك لم تحبي أحداً قطّ، إنك محرومة من القلب. إنك لست إلا مدام دوجانليس، وهذا كان اللقب الذي اصطلح نيكولا على إطلاقه على أخته لتجريحها، إن غاية سرورك هي التسبب بالمضايقات والإساءات إلى الآخرين. هيا اذهبي إلى بيرج، وتظرفي ما شئت معه...

ـ إنني، على كل حال، لا أركض وراء شاب أمام المدعوين.

قال نيكولا:

ـ ها قد بلغت غايتك من الكلام. إنك أسففت بحقنا جميعاً، ولقد أفسدت مرحنا... هيا بنا إلى غرفة الأطفال.

ونفر الأربعة وكأنهم رف طير مذعور. فلاحقتهم ڤيرا بقولها:

ـ بل إنكم أنتم الذين وجهتم إلي إسفافاً وحماقات، إنني لم أخاطب أحداً بمثلها.

www.Maktbah.com

وتعالت من وراء باب الغرفة المغلق أصوات هازئة تقول:

ـ مدام دوجانليس! مدام دوجانليس!

لكن ڤيرا الجميلة لم تبال بذلك. لقد أرضاها أنها أحنقتهم، فابتسمت وتوقفت أمام المرآة تصلح من غطاء رأسها (إيشارب) وزينتها. ولمّا انعكس بهاء وجهها على صفحة المرآة، ازداد إشراق وجهها وتزايدت برودتها.

خلال ذلك، كانت الصديقتان تتناجيان في القاعة. كانت الكونتيسة تقول جواباً عن حديث الأميرة:

ـ آه، يا عزيزتي. إن في حياتي أيضاً كثيراً من الأشواك. إننا إذا بقينا على ما نحن عليه من إنفاق، لن تلبث ثروتنا حتى تنضب. والخطأ في هذا خطأ النادي وطيبة قلبه. إننا لا نعرف الهدوء حتى في الريف: حفلات وصيد وقنص والله يعرف ماذا أيضاً!... ولكن ما فائدة التحدث عني؟ أنبئيني كيف تتدبرين شأنك؟ أتدرين يا أنيت أنني أعجب بك غالباً؟ امرأة وحيدة وفي مثل سنك، تذهب من مكان إلى آخر، من موسكو إلى پيترسبورغ، فتحدث الوزراء وكل أفراد الطبقة الراقية، وتجد دائماً اللهجة المناسبة.. حقاً إنني معجبة بك. إنني لأرتبك لو وجب علي فعل ذلك.

أجابت الأميرة:

ـ آه، يا عزيزتي! اشكري الله على أنه أراد لك أن تبقي جاهلة. ألم الترمل، وشقاء الوحدة، وعلى ذراعيك ابن تحبينه حتى العبادة.. إن التعاسة مدرسة ممتازة.

وقالت في شيء من الفخار:

ـ إن دعواي قد هذبتني. إنني عندما أضطر إلى مخاطبة شخصية مرموقة أرسل إليه كلمة على بطاقة: «إن الأميرة فلانة، ترغب في رؤية سيدي فلان أو

twitter @baghdad_library

فلان». ثم أستقل عربة وأذهب إلى حيث أراه، وأعيد الكرة مثنى وثلاثاً، حتى أظفر بما أريد. إن ما يقوله الناس وما يتخرصون به عني لا يهمني أبداً.

ـ ومن التمست من أجل بوريس؟ ها هو ذا ضابط في الحرس، بينما صغيري نيكولا قد انخرط صف ضابط فقط في فيلق الخيالة. إن ابني لا يجد من يدعمه. مع من تحدثت بشأن ابنك؟

قالت أنّا ميخائيلوفْنا بلهجة متباهية:

ـ مع الأمير بازيل. يا له من رجل ظريف! لقد قبل طلبي من فوره وتحدث إلى الأمبراطور...

ـ نسيت الأميرة، وهي تتحدث عن انتصارها، مبلغ التوسل والإهانة التي لحقت بها والتي يرجع إليها الفضل في نجاحها.

سألت الكونتيسة:

ـ الأمير بازيل؟ ألم يهرم بعد؟ إنني لم أره منذ أن كنا نتقابل في حفلاتنا لدى آل روميانتسيف. قد يكون نسيني...

وأردفت بابتسامة من يحيي ذكرياته العذبة:

ـ لقد كان يغازلني!

أجابت أنّا ميخائيلوفْنا:

ـ إنه لا زال كعهدك به، لطيفاً. إن العظمة والمراكز الجليلة لم تبدِّل شيئاً في نفسه. لقد قال لي: «إنني آسف إذا كنت لا أستطيع من أجلك شيئاً كثيراً، ولكن مريني يا أميرتي العزيزة، أمتثل». نعم، إنه رجل ودود وقريب ممتاز... إنك تعرفين يا ناتالي حبي لولدي، وتعرفين أنني لا أتراجع عن شيء في سبيله.

سكتت برهة، ثم أضافت بلهجة حزينة وبصوت خفيض:

ـ ولكن للأسف، أراني في وضعية مريعة. إن دعواي لاتزال حيث هي،

www.Maktbah.com

لم تتقدم، وهي تستنفد كل ثروتي. وإنني الآن لا أملك شروى نقير لأدفع لابني بوريس تجهيزاته.

ـ وأخرجت منديلها لتجفف دموعها واستطردت:

ـ إنني في حاجة إلى خمسمائة روبل لهذه الغاية بينما لا أملك إلا خمسة وعشرين روبلاً. تلك هي وضعيتي... إن أملي الوحيد هو عند الكونت سيريل بيزوخوف، فإذا ما شاء أن يساعد ابنه في المعمودية، إنه عرَّاب بوريس إذا كنت لا تعلمين، وإجراء مرتب معين له، فإن كل جهودي تكون قد ذهبت سدى، لأنني لن أستطيع تجهيزه.

راحت الكونتيسة بدورها تشاطرها البكاء. لم تتلفظ بكلمة واحدة ولكنها كانت تفكر!

تابعت آنّا ميخائيلوڤنا تقول:

ـ إنني أحدث نفسي غالباً، ولعله حديث سيئ، فأقول: إن الكونت سيريل يعيش وحيداً في زاويته، وهو وافر الثراء... فلمَ يعيش إذن؟ إن الحياة ليست إلا عبئاً بالنسبة إليه. أما في سن بوريس...

قالت الكونتيسة:

ـ سوف يترك له ولا شك شيئاً.

ـ علم ذلك عند الله، يا صديقتي الحميمة! إن الرجال الأغنياء والسادة الكبار أنانيون بفطرتهم. على كل حال، سأذهب مع بوريس لأتحدث إليه بصراحة. ليتحدثوا عن تصرفي بما يشاؤون، لست مبالية، لأن مستقبل ولدي يتوقف على ذلك.

ونهضت، وتابعت:

ـ إن الساعة الآن الثانية، وحفلتك تبدأ في الرابعة. إن لدي ما يكفي من الوقت.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واستدعت ابنها فوراً شأن السيدة التي عادت تواً من العاصمة وهي تعرف قيمة الوقت وانصرفت تشيعها الكونتيسة حتى الردهة.

وهمست في أذن الكونتيسة محاذرة أن يسمع ابنها:

ـ وداعاً، يا صديقتي الطيبة. تمني لي حظاً سعيداً.

وظهر الكونت في تلك اللحظة، فقال وهو على باب غرفة الطعام:

ـ أتذهبين لزيارة الكونت سيريل، يا عزيزتي؟ إذا كانت صحته أفضل، أرجو أن تدعي السيد پيار باسمي. لقد جاء قبل هذه المرة إلى منزلنا ورقص مع الأولاد. لا تنسي دعوته، يا عزيزتي. لقد وعد «تاراس» أن يتجاوز حدود ما عرفناه عن براعته حتى الآن. سوف نرى. إنه يزعم أنه سيقدم لنا الليلة عشاء يفوق ما كان يمكن أن يقدمه الكونت أورلوف بالذات وأنت تعرفين حفلات الكونت أورلوف، صديق كاترين المفضل الذي ينهي الآن أيامه في أملاكه الشاسعة في «سان سوسي» قرب موسكو.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

«عزيزي بوريس» قالت الأميرة لابنها بينما انطلقت عربة الكونتيسة روستوف، التي استقلتها الأميرة دروبتسكوي وابنها، في طريق نُشر عليه التبن، ودخلت إلى حديقة فندق بيزوخوف الذي كان الكونت مقيماً فيه وقالت مردّدة وهي تسحب يدها من ثنية كمها وتضعها على يد ابنها بحركة لطيفة مفعمة بالحنان والخجل. كن رفيقاً وحذراً إنه عرَّابك ويتوقف مستقبلك كله عليه. تذكر ذلك يا ولدي، وكن رفيقاً كما تحسن أن تكون.

فأجابها بوريس ببرودة:

ـ لا يعود هذا الخنوع بشيء من الفائدة... لكنني مع ذلك أعدك أنني سوف أمتثل نزولاً عند رغبتك.

رآهما الخادم يهبطان من عربة تدل على أن أصحابها من السادة المبجلين، وراح يحدق بوقاحة إلى وجه الأم وابنها، اللذين دخلا مباشرة إلى الشرفة دون أن يبلغا عن قدومهما، ووقفا بين صفين من التماثيل الجميلة. وبعد أن نظر إلى ثوب السيدة بإشفاق، سألها الخادم عما تريد وهل ترغب في رؤية الكونت.

وعندما عرف أنها تريد مقابلة الكونت، أبلغها أن سعادته سيئ الصحة لا يستقبل أحداً.

قال بوريس بالفرنسية: فلنذهب إذاً.

ـ يا صديقي!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قالت الأم بلهجة متوسلة وهي تلمس ذراعه ولعلّها بتلك اللمسة كانت تستوحي الهدوء أو شحذ الإرادة.

سكت بوريس؛ وأخذ يستفسر أمه بنظره دون أن يخلع معطفه. فقالت هذه تخاطب الخادم بلهجة لبقة يا صديقي الطيب، أعرف أن الكونت سيريل ڤلاديميروڤيتش مريض جداً... ومن أجل هذا جئت... لن أزعجه... أريد فقط أن أرى الأمير بازيل سيرغيـڤيتش، وأعرف أنه هنا. فتفضل بإبلاغ وصولنا إليه.

فشدّ الخادم حبل الجرس بشراسة، واستدار يقول لخادم آخر ظهر على الباب يرتدي سراويل قصيرة: إن الأميرة ترغب في مقابلة الأمير بازيل.

كان الخادم الثاني يطل من فوق الحاجز استجابة لنداء الجرس. فلما أنهى إليه الخادم الأمر، عاد إلى الداخل. أما الأميرة فراحت تسوي ثوبها وترتبه وهي واقفة أمام إحدى مرايا البندقية الشهيرة، كانت معلقة على الجدار، ثم راحت تصعد السلم، المغطى بقطع السجاد النفيسة، ببسالة رغم حذاءيها الباليين.

قالت لابنها، وهي تضغط على يده مجدداً:

ـ لقد وعدتني، يا عزيزي، فلا تنس.

فتبعها بوريس بهدوء مطأطئ الرأس ودخلا إلى بهو يؤدي إلى غرفة الأمير بازيل.

فلما وصلا إلى وسط القاعة، همّا بالسؤال من خادم عجوز بادر لاستقبالهما. لكن أكرة أحد الأبواب أديرت، وظهر على عتبة الباب الأمير بازيل بملابس المنزل، لا يزين صدره إلا وسام واحد، معلق على سترته المخملية. كان يودع شاباً أسمر، أسود الشعر، هو الطبيب لوران الذي استقدم من پيترسبورغ.

سأله الأمير:

www.Maktbah.com

ـ أهو إيجابي؟

فأجاب الطبيب، وهو يلفظ الكلمات اللاتينية على الطريقة الفرنسية:

ـ يا سيدي الأمير، إن الحال خطير ولكن...

ـ حسناً، حسناً...

وعندما رأى أنا ميخائيلوڤنا وابنها، استأذن الطبيب وتقدم منهما بوجه طافح بأمارات الاستفهام. وفجأة امتلأت نظرة الأميرة بكآبة حزن عميق، فلم يخف ذلك التحول المفاجئ على بوريس، الذي وجد صعوبة كبرى في إخفاء ابتسامته.

قالت الأميرة دون أن تبالي بالنظرة الباردة الجارحة التي كان الأمير بازيل يحدجها بها: أية مناسبات سيئة شاءت أن تجمعنا من جديد، يا أميري... كيف حال مريضنا العزيز؟ وانتقلت تلك النظرة إلى بوريس، الذي انحنى بأدب. غير أن الأمير لم يلق بالاً إلى تحيته، واستدار إلى آنّا ميخائيلوڤنا، فأجاب عن سؤالها بغمغمة وهزة رأس لا تبشران بخير عن صحة المريض.

صاحت الأميرة: يا الله! إن هذا مريع، إنه مخيف...

ثم استطردت وهي تشير إلى بوريس:

ـ أقدم إليك ولدي بوريس. لقد ألح في أن يحضر بنفسه لشكرك.

ـ فعاد بوريس إلى الانحناء مجدداً بتأدب واحترام.

استطردت الأميرة تقول: ثق تماماً يا أميري أن قلبي كأم لن ينسى لك أبداً ما فعلته من أجلنا.

وأخيراً قال الأمير، وهو يصلح من وضع ياقة سترته:

ـ إنني سعيد يا آنّا ميخائيلوڤنا الطيبة لأنني استطعت أن أحسن إليك.

قدر أن عليه، هنا في موسكو، أن يعامل محميته بشيء من الترفع لأنه وحيد معها. وقدر أيضاً أن تكون وسائله الآن أكثر جلاءً مما كانت عليه في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بيترسبورغ عندما كانت في حفلة أنيت شيرر. فقال لبوريس بلهجة حازمة:

ـ كن ضابطاً ممتازاً، يجب أن تكون جديراً بـ... إنني سعيد جداً من جهتي... هل أنت في عطلة هنا؟

ضمّن الأمير بازيل جملته الأخيرة أقصى ما في طاقته من مظاهر العظمة. فأجابه بوريس دون أن يبدي تردداً إزاء لهجة الأمير المرتفعة المهينة أو الرغبة في متابعة الحديث:

ـ إنني يا صاحب السعادة أنتظر الأمر لألتحق بمركزي الجديد. كانت لهجته متزنة حتى أن الأمير راح ينظر إليه باهتمام.

ـ هل تسكن عند أمك؟

فأجاب بوريس، دون أن ينسى إضافة كلمة: صاحب السعادة:

ـ إنني أسكن عند الكونتيسة روستوف.

فتدخلت أنا ميخائيلوڤنا قائلة:

ـ أتذكر إنه إيليا روستوف الذي تزوج ناتالي شينشين.

فقال الأمير بصوته وحيد النغمة: أعرف، أعرف. إنني لم أستطع قطّ أن أفهم كيف أن ناتالي وافقت على الزواج بهذا الدب! إنه شخص سخيف ومضحك تماماً، ومقامر، كما يقال.

فأردفت آنّا ميخائيلوڤنا بلهجة وابتسامة دمثتين، وكأنها توافق على حكمه على الرجل، ولكنها تلتمس منه الصفح عن عجوز مسكين:

ـ لكنه رجل باسل جداً، يا أميري. وعادت تسأل بعد لحظة صمت ساعدتها على أن تطبع وجهها بطابع ذعر عميق:

ـ ما رأي كلية الطب؟ وتقصد الطبيب..

فقال الأمير: هناك أمل ضئيل.

ـ وأنا التي كنت مزمعة على شكر «عمي» على كل ما أحاطني وأحاط

بوريس به من عطف وحسن التفات... وأضافت بعد حين، وكأن الخبر سيسر الأمير بازيل معرفته:

ـ بوريس هو ابنه في المعمودية!

فقطب الأمير حاجبيه وراح يفكر ولا شك في أنه سيرى في هذين الدخيلين دعيين آخرين في ميراث الكونت بيزوخوف. وأدركت آنّا ميخائيلوڤنا ما يجول في خاطره، فبادرت تطمئنه بقولها:

ـ إنني إذا كنت هنا، فما ذلك إلا لمحبتي «لعمي» وإخلاصي له. وعادت تضغط على كلمة عمي بتأكيد لبق. إنني أعرف عقليته النبيلة الصريحة. لكنني أعرف أن الأميرات وحدهن إلى جانبه. وهن شابات صغيرات في السن...

واقتربت منه لتهمس في أذنه بصوت خفيض:

ـ هل قام بآخر واجباته، يا أميري؟ كم هي غالية هذه اللحظات الأخيرة! فإذا كانت صحته متدهورة إلى هذا الدرك السيئ، فيجب حتماً إعداده. ولا شيء أخطر من هذا.

وتابعت تقول بعد فترة صمت، وهي تشفع قولها بابتسامة عذبة: إنك تعرف يا أميري أننا، معشر النساء، نعرف كيف نتصرف في ظروف عصيبة كهذه. يجب أن أراه. إنه واجب مؤلم لكنني تعودت الألم.

وفهم الأمير، كما حدث من قبل في حفلة أنيت شيرر، أن من الصعب التخلص من آنّا ميخائيلوڤنا. فقال:

ـ إن مقابلتك له، يا آنّا ميخائيلوڤنا العزيزة، قد تثقل عليه. لننتظر حتى المساء لقد أكد الأطباء أنه ينتظر نوبة...

ـ من المستحيل أن ننتظر، يا أميري! فكر، إن هذا الأمر متعلق بخلاصه... كم هي مؤلمة واجبات المسيحي...

فتح باب الجناح الخاص وخرجت منه واحدة من الأميرات وهي ابنة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أخت الكونت، ذات وجه بارد عابس، تعطي ساقاها القصيرتان اللتان تحملان قامتها الطويلة نوعاً من الغرابة للناظر المتفحص. التفت الأمير بازيل إليها، وقال: حسناً! كيف حاله؟

فقالت ابنة الأخت، وهي تتفرس في وجه أنّا ميخائيلوڤنا وكأنها تنظر إلى سيدة مجهولة: لايزال كما هو. إن هذا الضجيج، كما تعلم... ورمقت الزائرة بنظرها ولم تعقب.

اقتربت هذه منها خفيفة الخطى، وقالت بتودد:

ـ عزيزتي، لم أكن أعرفك. لقد وصلت الآن وإنني في خدمتك لمساعدتك على العناية «بعمّي»...

ثم رفعت عينيها إلى السماء بإشفاق وتابعت: إنني أتخيل مدى ألمك.

لم تتعطف الأميرة بالجواب ولا بمجرد الابتسام، وانسحبت فوراً. فنزعت أنّا ميخائيلوڤنا قفازيها وراحت تجلس على مقعد وثير وكأنها في «أرض محتلة» ودعت الأمير بازيل إلى الجلوس بقربها. ثم قالت تخاطب بوريس وهي تبتسم:

ـ سأرى الكونت عمي، يا بوريس، فامض إلى لقاء پيار خلال هذا الوقت يا صديقي. ولا تنس أن تبلغه الدعوة التي وجهها إليه آل روستوف...

ثم أردفت تحادث الأمير:

ـ إن آل روستوف يدعونه لتناول العشاء لديهم. اعتقد أنه لن يذهب، أليس كذلك؟

فأجاب هذا بلهجة حادة: لم لا يذهب؟ سأكون سعيداً إذا خلصتني من هذا الفتى.. إنه لا يتحرك من هنا رغم أن الكونت لم يطلبه حتى الآن مرة واحدة. ولم يسأل عنه أو يعرب عن رغبته في رؤيته.

وهزّ كتفيه ودقّ الجرس. وجاء خادم يقود بوريس من باب آخر يؤدي إلى سلم جديد، إلى حيث كان پيار كيريلوڤيتش.

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

كان پيار قد عاد من پيترسبورغ، بعد أن أبعد من هناك لاشتراكه في شد وثاق ضابط القسم إلى ظهر الدب.

كانت تصرفات پيار ونمط الحياة التي اندمج فيها في پيترسبورغ قد منعاه من اختيار السبيل الذي يرتضيه للبلوغ إلى مستقبله المنشود. فقد كانت القصة التي رووها عند آل روستوف عن تصرفه، حقيقة لا زيف فيها.

كان واثقاً بأن القصة ستثار في موسكو، فتعطي الأوساط النسائية، التي كان على أسوأ العلاقات معها، مادة غنية للحديث، تساعد على النيل منه وإفساد علاقته بأبيه. مع ذلك، فإنه لم يتردد في المثول فوراً في حضرة أبيه. فوجد الآنسات الثلاث في غرفة الاستقبال، وهو مركز اجتماعهن المفضل. كانت كبرى الأميرات، وهي التي شهدناها منذ حين تتقابل مع أنّا ميخائيلوڤنا فتعاملها تلك المعاملة المهينة، فتاة صارمة، طويلة القامة، تعنى عناية خاصة بملابسها. وكان دأبها القراءة بصوت مرتفع.

كانت الأميرتان الأصغر سناً تشتغلان في أعمال الإبرة على مناسج صغيرة. كانتا لطيفتين، تشبه إحداهما الأخرى حتى أن كثيراً من الناس كانوا يخلطون بينهما، لولا «حسنة» كانت على وجنة إحداهما. حياهن پيار تحية مهذبة. لكنهن استقبلنه وكأنه شبح أو مصاب بالطاعون. توقفت الكبرى عن القراءة وحملقت بعينيها في وجهه بذعر دون أن تتفوه بكلمة. واتخذت الثانية موقف أختها الكبرى، فنقلت التعابير التي كانت مرتسمة على وجهها

twitter @baghdad_library

بكل أمانة، وأظهرتها على وجهها. أما الثالثة، تلك التي كانت «الحسنة» التي على وجهها تميزها من شقيقتها، فقد انحنت على منسجها لتخفي ابتسامتها، وقد تأكد لها أنها ستشهد موقفاً ممتعاً يتفق مع مزاجها المرح. سحبت خيطها الصوفي وراحت تتظاهر بالاهتمام بنقوشها وترتيبها، وهي تجهد في كبت قهقهة من الضحك.

قال پيار: عمي صباحاً، يا ابنة عمي. ألا تعرفينني؟

ـ بلى، إنني أعرفك جيداً، نعم جيداً جداً.

سأل پيار، دون أن يرتبك رغم أسلوبه الفاشل الطبيعي:

ـ كيف حال الكونت؟ هل أستطيع رؤيته؟

ـ الكونت يتألم جسدياً وعقلياً. وإنني أرى أنك قمت بكل ما يجب لمضاعفة آلامه المعنوية وزيادتها خطورة.

كرّر پيار سؤاله: هل أستطيع رؤية الكونت؟

ـ إذا أردت أن تقتله أو أن تعجل في نهايته، فإنك ولا شك تستطيع أن تراه. ثم أردفت تخاطب شقيقتها لتنوه لپيار بأنهن كن يعملن للتخفيف من الآلام التي كان هو يثيرها وكأنه يتلذذ بزيادة حدتها.

فخرجت أولغا، وبقي پيار ينتظر برهة ثم انحنى للشقيقتين وهو ينظر إليهما وقال:

سأرجع إلى غرفتي، ولكما أن تبلغاني عندما يتيسر لي أن أراه.

وانسحب من القاعة تشيعه ضحكة ذات «الحسنة» المجلجلة التي كانت، رغم قوتها، تعتبر مكتومة مراعاة للظرف الدقيق المحيط بصاحبتها.

وصل الأمير بازيل في اليوم التالي وأقام في منزل الكونت. فاستقدم پيار وقال له:

يا عزيزي پيار، قال له إذا تصرفت هنا تصرفك في پيترسبورغ فإن نهايتك

www.Maktbah.com

ستكون سيئة. هذا كل ما أقوله لك. إن الكونت مريض جداً، فلا تحاول أن تراه أو أن تتصل به.

ومنذ ذلك الوقت، لم يعد أحد يهتم ببيار الذي لازم غرفته في الطابق الثاني من الفندق.

عندما دخل بوريس عليه، كان پيار يذرع غرفته بعصبية وانفعال، فيتوقف حيناً في إحدى الزوايا ويحدق من فوق نظارتيه إلى الجدار، أو يقاتل بذراعه عدواً غير منظور، وكأنه يشطره بسيف شطرين، ثم يعود إلى مشيته التي تتخللها حركات عنيفة من الذراعين وهزات من الكتفين وكلمات متفككة لا ارتباط بينها.

ـ لقد عاشت بريطانيا، وحكم على پيتْ[1] بوصفه خائناً للأمة ولحقوق الأشخاص بـ...

كان يقول مشيراً بإصبعه إلى لا شيء، وكأنه يهدد عالماً خفياً، وهو مقطب الحاجبين.

كان يرى نفسه في تلك اللحظة، «ناپليون» بالذات، سيد لندن بعد اجتياز المانش إلى وبريطانيا في تلك المحاولة الخطيرة، والحكم على پيت بعقوبة لم يجد وقتاً لتحديدها، لأنه توقف عندما رأى ضابطاً شاباً، مهيب الطلعة، يدخل إلى غرفته فجأة. لم يعرف بوريس للوهلة الأولى لأنه تركه صبياً في الرابعة عشرة من عمره، فنسيه تماماً. مع ذلك، فقد استقبله مصافحاً ببشاشة ومبتسماً له بمحبة، مدفوعاً بطيبة نفسه الطبيعية.

لم تنسني؟ قال بوريس بلهجته المتزنة، وهو يقابل ابتسامته:

لقد جئت أنا وأمي، لنقدم تمنياتنا للكونت، لكن قيل لنا إنه مريض.

---

(١) ويليام پيت وزير دولة بريطاني، عدو الثورة الفرنسية، أخفق في إنقاذ الاقتصاد الإنكليزي. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فأجاب پيار، وهو يتساءل أين ومتى رأى هذا الشاب من قبل:

ـ نعم، إن صحته ليست على ما يرام. إنهم يزعجونه غالباً.

أدرك بوريس أن پيار لم يعرفه. مع ذلك ظل ينظر إلى عينيه دون ارتباك، ودون أن يقدم نفسه إليه. قال بعد فترة صمت طويلة أزعجت پيار:

ـ يرجوك الكونت روستوف أن تتناول الغداء عنده بعد قليل.

ـ آه، كونت روستوف! صاح پيار مسروراً.

إنك إذن ابنه إيلي، تصور أنني لم أعرفك للوهلة الأولى. هل تذكر نزهاتنا على جبل العصافير مع مدام جاكو... إن ذلك ليس قديم العهد.

فأجابه بوريس بهدوء، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مواسية لا تخلو من السخرية: إنك تخطئ إنني بوريس بن بوريس ابن الأميرة درويتسكوي. أما الكونت روستوف الشاب فاسمه نيكولا وأما إيلي فهو أبوه. وأنا لم أتعرف إلى مدام جاكو من قبل..

هزّ پيار رأسه وراح يلوح بيديه، وكأنه يطرد نحلاً أو ذباباً.

ـ آه! إنني أخلط بين الأشياء، إن لي عدداً كبيراً من الأقارب في موسكو!.. أنت إذن بوريس. حسناً، اتفقنا... ما رأيك في احتلال پولونيا. إن الإنكليز لن يصمدوا طويلاً إذا اجتاز ناپليون بحر المانش؟ أعتقد أن المسألة ممكنة التنفيذ شريطة ألّا يرتكب ڤيللنوف حماقات وأخطاء!

بوريس الذي لا يقرأ الصحف. لم يكن يعرف شيئاً عن احتلال پولونيا ويجهل حتى اسم ڤيللنوف.

إن الحفلات والولائم تشغلنا هنا أكثر مما تشغلنا السياسة. قال بلهجة ساخرة. لذلك لا أستطيع أن أكوّن رأياًبصدد قضية أجهلها. إن موسكو مدينة المهذارين قبل كل شيء. إنهم لا يتحدثون الآن إلا عن الكونت وعنك. إن النميمة طبع متأصل في النفوس.

www.Maktbah.com

ابتسم پيار ابتسامته البريئة. كان ينتظر أن يحدثه بوريس بكلمات قاسية يندم على قولها. غير أن بوريس نطق بكلماته بصوت واضح وهو لا يني يحدق إلى عيني پيار بجرأة. تابع يقول:

ـ نعم، إن الثرثرة عمل الموسكوڤيين الوحيد. إنهم يتساءلون الآن لمن سيترك الكونت ثروته، رغم أنه قد يعيش حتى بعد أن نموت نحن، وهو الأمر الذي أتمناه من صميم قلبي.

ـ نعم، إن كل هذا مزعج ومؤلم. قال پيار، وهو يزداد خوفاً من أن ينزلق بوريس في منحدر خطر.

احمرّ وجه بوريس دون أن تتبدّل لهجته: يمكنك أن تصدق أن كل الناس يأملون أن يبلغوا نصيباً من ثروته، بل إن عدداً منهم قد أصبحت الفكرة في رأسهم ثابتة.

ها قد وقع المحظور، فكّر پيار في سرّه. بينما تابع بوريس:

ـ أود بهذه المناسبة أن أبلغك، تفادياً لأي سوء تفاهم، أنك تخطئ خطأ فادحاً إذا وضعتنا، أمي وأنا، في عداد هؤلاء الناس الذين حدثتك عنهم. إننا فقراء جداً. لكنني أستطيع أن أؤكد لك ـ أقله باسمي ـ أنني لا أعتبر نفسي قريباً لأبيك لمجرد كونه غنياً. وأننا، لا أمي ولا أنا، لا نتسول ولا نتقبل أبداً شيئاً منه.

بقي پيار فترة قبل أن يفهم؛ وفجأة أمسك بيد بوريس واحمرّ وجهه خجلاً.

هل هذا ممكن؟ صاح... من الذي يفكر في هذا؟..

كان پيار يريد طمأنة بوريس وتهدئته. غير أن هذا الأخير قاطعه ليهدئ من ثائرته بقوله:

ـ إنني مسرور لأنني قلت لك ذلك. فاعذرني إذا أزعجك قولي. آمل ألّا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أكون قد أهنتك. إن مبدئي هو التحدث بصراحة... حسناً، أي جواب أحمله إلى آل روستوف؟ هل تقبل دعوتهم؟

وبعد أن تخلّص بوريس من هذا العبء الثقيل استعاد هدوءه وأحسن تصرفاً في إيضاح اللبس الذي قد يحيط به في بال الآخرين.

ـ أصغ إلي، قال پيار وقد استعاد هدوءه، إنك مدهش، إن ما قلته لي منذ حين جيد جداً. إنك لا تعرفني ولا شك. لقد انقضى زمن طويل لم نر بعضنا خلاله... زمن يعود إلى الطفولة. لذلك فقد كان بمقدورك أن تعتقد أنني..

أنا أفهمك، صحيح أنني لم أكن لأتصرف على هذا النحو لأن الشجاعة كانت تنقصني، لكنني راض عما قلت وسعيد بمعرفتك.. إن ما خمنته بصددي غريب!

سكت برهة، ثم أردف ضاحكاً: هذا لا يهم. سوف نتعرف إلى نفسيتنا فيما بعد بشكل أوضح.

وضغط على يده بشدة وتابع: هل تعرف أنني لم أر الكونت بعد؟ لم يستدعني.. رغم أن حالته الصحية تقلقني كثيراً.. لكن ما العمل؟ سأل بوريس، وهو يضحك: تعتقد إذن أن اجتياز المانش من قبل ناپليون أمر ممكن؟

أدرك پيار أن بوريس يغير الحديث ويوجهه وجهة أخرى.

ولما كان الموضوع الذي تطرق إليه يستأثر بكل اهتمامه وميله، فقد راح پيار يشرح مثالب المحاولة ومحاسنها، شرح الخبير المتعمق. وجاء خادم من قِبل الأميرة يستدعي بوريس، فوعده پيار قبل ذهابه أن يحضر مأدبة روستوف ليتاح له الاختلاط به، وشد على يده مصافحاً وهو ينظر إليه من خلال نظارتيه بتودد. فلما ارتحل بوريس، عاد پيار يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. لكنه بدلاً من أن يحارب خصوماً مجهولين وأن يقاتلهم، كان يبتسم مبتهجاً، لذكرى الشاب البهي، الذي تتساوى بداهته بطلاقة لسانه. وراح پيار يعيد في نفسه، ـ شأن كل

www.Maktbah.com

الشباب عندما يناقشون في خلواتهم آراء عرضت لهم ـ رغبته في أن يصبح صديق بوريس، استجابة للشعور الذي شعر به نحوه، والذي كان يلح عليه بالتقرب من الضابط الشاب.

كان الأمير بازيل يشيع الأميرة وهي تجفف دموعها بمنديلها:

ـ إنه أمر مريع، وشوشت، لكنني سأقوم بواجبي مهما كلفني ذلك. سأسهر عليه عندما يقتضي الأمر، إذ لا يمكن أن ندعه يقضي دون أن يعترف. إن اللحظات ثمينة جداً. ماذا تنتظر الأميرات؟ لعلّ الله يلهمني سبيل إعداده لملاقاته. وداعاً. يا أميري، وليساعدك الله!

ـ الوداع، يا عزيزتي، أجاب الأمير بازيل.

وغادرها ورجع عائداً إلى منزله!

وبينما كانت تصعد إلى العربة مع ابنها، راحت تحدثه، قالت:

ـ إنه في حال محزن. لا يستطيع التعرف إلى أحد تقريباً.

سأل بوريس:

ـ أود أن أعرف بدقة النيّات المبيتة نحو پيار، لأنني لا أعرف من الأمر شيئاً. ما هي الترتيبات المنوي اتخاذها بشأنه؟

الوصية ستطلعنا على كل شيء، يا صديقي... إن مصيرنا متوقف عليها.

ـ وما الذي يجعلك تعتقد أنه سيترك لنا شيئاً؟

ـ آه يا صديقي، إننا في فقر مدقع وهو غني جداً!

ـ لكن هذا لا يفسر الأمر، ليس سبباً كافياً، أعترف لك يا أمي!

ـ يا إلهي، يا إلهي إنه مريض! كررت الأميرة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

بقيت الكونتيسة روستوف فترة طويلة في القاعة وحدها، بعد ذهاب أنّا پاڤلوڤنا وابنها. ولم تلبث أن حزمت أمرها على شيء فقرعت الجرس.

لكن الوصيفة أبطأت في المثول في حضرتها، مما أسخطها وأثار حفيظتها، فلما أعادت القرع ودخلت الوصيفة، صاحت بها بغضب:

ـ ماذا يعني هذا، يا عزيزتي؟ إذا «شئتم» ألّا «تقوموا بواجبكم» فسأعرف كيف أجد «لكم» مكاناً آخر!

كانت الكونتيسة ثائرة متألمة لحزن صديقتها الأميرة وفقرها المخجل. وكانت دلائل غضبها تتجلى في أسلوب كلامها مع خادمتها ـ لغة الجمع ـ وفي إضفاء لقب «عزيزتي» عليها.

ـ أرجو أن تسامحيني، سيدتي. قالت معتذرة.

ـ أطلبي إلى الكونت أن يتفضل برؤيتي.

وصل الكونت بعد قليل يتمايل في مشيته كعادته، وعلى وجهه أمارات الجد والاهتمام. ابتدرها قائلاً:

ـ آه يا عزيزتي الكونتيسة الصغيرة! يا للطعام الفاخر الذي سنقدمه! لقد تذوقته بنفسي. إنني أحسنت صنعاً بإعطائي ألف روبل لتاراسكا. إنه يستحقها!

جلس قرب زوجته وشعره الأبيض متمرد على رأسه، واعتمد مرفقيه على ركبتيه وقال:

ـ ماذا تريدين، يا عزيزتي الكونتيسة الصغيرة؟

www.Maktbah.com

ـ حسناً، إليك ما أريد، وابتسمت وهي تشير بسبابتها إلى صدارة زوجها، وقالت: ما هذه اللطخة التي على صدارتك؟ إنها بدون شك من مرق الطعام! وعاد الحزن يخيّم على وجهها فأردفت: إليك ما أريد: إنني في حاجة إلى المال..

فأخرج الكونت حافظة نقوده، وهو يقول:

ـ حالاً، حالاً... آه، أيتها الكونتيسة الصغيرة...

لكن الكونتيسة الصغيرة قاطعته قائلة:

ـ ذلك أنني في حاجة إلى أكثر من المعتاد، إلى خمسمائة روبل. وراحت تدلك بمنديلها المصنوع من قماش «الباتيست» اللطخة التي على صدارة زوجها. فقال هذا:

ـ فوراً يا عزيزتي... فوراً.

وصاح شأن من تعود أن يسرع الناس تلبية لأول نداء يصدر عنه:

ـ هولا، ليأت أحد! ابعثوا في طلب ميتينكا.

ودخل ميتينكا بخطواته الخفيفة، وكان فتى فقيراً تعهده الكونت وأقامه أميناً على منزله فقال له الكونت:

ـ إسمع يا عزيزي، ائتني بسبعمائة روبل، نعم سبعمائة روبل. واحذر أن تكون أوراقاً قذرة أو ممزقة كما حدث في المرة الأولى. أريدها جديدة، لأنها للكونتيسة.

فعقبت الكونتيسة، وهي تتنهّد: نعم، أرجو ذلك، يا ميتينكا. إعمل على أن تكون جديدة ونظيفة.

سأل ميتينكا:

ـ متى تريدها، يا صاحب السعادة؟

ولما رأى أن الكونت بدأ يتنفس بصعوبة، وهو نذير غضبه، أردف يقول:

twitter @baghdad_library

لا تنزعج. لقد أسأت الفهم. إنك تريدها فوراً. أليس كذلك؟ نعم، نعم. أحضرها وأعطها للكونتيسة.

فأسرع ميتينكا بخطواته المتلصصة. فقال الكونت بعد خروجه:

ـ يا له من كنز ثمين! إنه يعرف دائماً كيف يتدبر الأمر. إنني أمقت أن يعترضني معترض، لأنني أعتقد أن كل شيء ممكن تنفيذه عندما تتوافر الرغبة الصادقة.

قالت الكونتيسة:

ـ آه من المال، يا كونت! كم يسبب المال آلاماً في هذا العالم! ليتك تعلم مدى حاجتي إلى هذا المبلغ التعس.

فقال الكونت، وهو يقبل يد زوجته قبل أن يعود إلى مكتبه:

ـ نعم يا عزيزتي الكونتيسة الصغيرة، نحن نعرف سخاءك.

ولما عادت أنا ميخائيلوڤنا من زيارتها للكونت بيزوخوف، كان المبلغ قد أصبح في حوزة الكونتيسة، وقد وضعته على نضد قريب وغطته بمنديلها. غير أن انفعال الكونتيسة واضطرابها لم يخفيا على عيني أنا ميخائيلوڤنا الحاذقة.

ـ ما أخبارك، يا عزيزتي؟ سألت الكونتيسة.

ـ آه من الحال السيئة! إن حالته سيئة للغاية، حتى إنني لم أستطع البقاء إلا دقيقتين ولم أحدثه إلا بكلمتين!

مدت الكونتيسة يدها إلى النضد فجأة، وقالت:

ـ أنيت، بحق السماء لا ترفضي.

احمرّ وجهها بما يتناقض وخطورة قسماتها المهزولة التي عملت بها يد السنين تخريباً وترميماً واضحين.

فهمت أنّا ميخائيلوڤنا غاية صديقتها، فانحنت تتحين الوقت المناسب لترتمي على عنقها تقبله. قالت الكونتيسة:

www.Maktbah.com

ـ هذا المال أعطه إلى بوريس من جانبي ليعد تجهيزاته.

بكت آنّا ميخائيلوفْنا وهي تعانق الكونتيسة، فشاركتها هذه في البكاء. لماذا بكتا؟ لطيبة قلبيهما وللتفاهم الوثيق الذي يربط بينهما، وبكتا لأن المال، ذلك الشيء الحقير، قد تدخل شخصاً ثالثاً في صداقتهما التي تعود إلى أيام الطفولة؛ وكذلك بكتا أسفاً وهما تفكران في شبابهما الضائع... لكن الدموع كانت غالية عليهما! كانت تفرج عن كربتهما وتواسيهما.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

يحيط بالكونتيسة روستوف وبناتها، عدد من المدعوين في القاعة الكبيرة، وكان الكونت قد رافق الرجال إلى مكتبه ووضع تحت تصرفهم مجموعته الثمينة من الغلايين. وكان يخرج من وقت إلى آخر ليستعلم عما إذا كانت «هي» قد وصلت. كان آل روستوف ينتظرون وصول ماري دميترييـڤنا أفروسيموڤ الملقبة بالتنين الرهيب.

وهي امرأة محرومة من الثراء والألقاب، لكنها استطاعت أن تشق لنفسها طريق الشهرة بفضل صراحتها المخيفة وبدانتها. كانت ماري دميترييـڤنا معروفة من العائلة المالكة في موسكو كلها وپيترسبورغ. وكانت تروى عنها أقاصيص في المدينتين تجعل الناس يعجبون بها ويسخرون سراً، ويهابونها دون أن يجدوا جرأة على بهتها بسخريتهم.

كانوا يدخنون في مكتب الكونت ويتحدثون عن الحرب. كانوا يعرفون أن الحرب قد أعلنت رسمياً، غير أن أحداً لم يقرأ بعد الصيغة الرسمية لإعلانها. وكان الكونت جالساً على كنبة شرقية بين اثنين من المدخنين، لا يدخن ولا يتحدث، بل يحني رأسه تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، ويراقب مدعويه بسرور، ويصغي إلى مناقشاتهم بانتباه واهتمام.

كان أحد الاثنين يرتدي اللباس المدني، ذو وجه أجعد، نحيل البنية، أجرد، ذو مظهر أنيق رغم تقدمه في السن. وكان يجلس على الطريقة الشرقية، وفي زاوية فمه مبسم من الكهرمان، يجذب خلاله أنفاساً متلاحقة وهو يغمز

www.Maktbah.com

بعينيه. وكان هذا الرجل الناضج واحداً من أبناء عم الكونتيسة، اسمه شينشين، وهو أعزب عجوز يعتبر في أندية موسكو لساناً سليطاً.

ينظر الكونت إليه نظرة توحي بتفوقه على محدثه الآخر، الذي كان ضابطاً في الحرس، مورَّد الوجنتين، شديد التأنق، مهتماً جيداً بهندامه، يمسك بغليونه في منتصف فمه محاذراً تبديل مكانه، وتمتص شفتاه القرمزيتان خلال القصبة نفخات خفيفة من الدخان، يرسلها من فمه على حلقات متلاحقة رقيقة. كان هذا الزائر هو الملازم أول بيرج، من فيلق سيميونوڤسكي، الذي كان عليه أن يلتحق بالجيش مع بوريس، والذي كانت ناتاشا تسميه: «خطيب ڤيرا» إمعاناً منها في إثارة أختها الكبرى وكان الكونت كله آذاناً صاغية وعيوناً متوثبة. وكان أجمل ما يستأثر بانتباهه بعد لعب[1] الورق هو الإصغاء إلى حديث الثرثارين، خصوصاً عندما يكون سبب إثارة اثنين من أبلغ المحدثين.

كيف تتصرف مع كل هذه الأشياء، يا ألفونس كارلوڤيتش الموقر؟ قال شينشين بسخرية. وقد كان يجمع بين الكلمات القروية والعامية في الروسية وبين العبارات المنتقاة باللغة الفرنسية.

ـ كلا يا پيوتر نيكولاييـڤيتش، إنني أزعم فقط أن سلاح المدفعية يعطي فوائد أكثر مما يعطيه سلاح الفرسان. خذ حالتي مثلاً...

كان بيرج يتحدث بلهجة دقيقة هادئة ومهذّبة، لكنه لا يتحدث إلا عن نفسه. فإذا دار الحديث حول مواضيع أخرى لا علاقة له بها، سكت هادئاً، ولا يبدي أو يحدث حوله أي امتعاض، ولو استمر على سكوته ساعات طويلة. أما إذا كانت شخصيته موضوع الكلام والبحث، فعندئذ يستفيض ببلاغة وطلاقة، والسرور بادٍ على محياه.

---

(١) في الأصل تعبير Jeu de boston، ويراد بذلك لعبة «الباصرة» (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

«هذه هي حالتي، پيار نيكولاييـڤيتش، لو كنت مثلاً في سلاح الفرسان وفي رتبتي الحالية كملازم أول، فإنني ما كنت لأتقاضى أكثر من مائتي روبل كل ثلاثة أشهر، بينما يزيد مرتبي حالياً في سلاح المدفعية على المائتين والثلاثين روبلاً».

وابتسم بيرج وهو ينظر إلى شينشين والكونت، شأن الرجل الذي لا يشك أبداً في أن خصوصياته لا تشكل أقصى رغبات أنداده من البشر.

بعد فترة سكوت تابع حديثه: أضف إلى كل ما قلت أنني، بانضمامي إلى سلاح الحرس، أكون مرموقاً، وتكون المراكز الشاغرة أكثر حدوثاً مما هي عليه في سلاح المدفعية. ثم ألا ترى، يا پيوتر نيكولاييـڤيتش، أنني ما كنت لأستطيع شيئاً بمائتين وثلاثين روبلاً لو كنت في سلاح الفرسان؟ أما في وضعي الحاضر، فإنني أدخر مرتبي بل أرسل منه إلى أبي.

ومجدداً، انبعثت من فمه حلقات من الدخان. وقال وهو ينقل مبسمه إلى زاوية فمه الأخرى: إن المثل يقول: إن الألماني ينسج الخزّ من سوق القمح.

وغمز بعينيه الكونت فانفجر هذا ضاحكاً. وأسرع عدد آخر من المدعوين، اجتذبهم مرح شينشين وحماسته. أما ابيرج فلم يعبأ بالسخرية، بل ازداد انطلاقاً في حديثه، وراح يؤكد أن انتقاله إلى سلاح الحرس أكسبه مرتبة تفوّق بها على أقرانه، وأنه في أوقات الحرب يكون قائد السرية شديد التعرض للخطر، وبذلك تتاح له، هو بيرج، إمكانية الارتقاء إلى رتبة رئيس، بوصفه أقدم ملازم في الفرقة.

هذا إلى جانب الحب الذي يتمتع به من أفراد الفيلق كافة، ورضاء أبيه عن وضعه الحاضر. وكان بيرج، وهو يصرح بكل هذه الأمور، يشعر بمرح حقيقي وسرور، كانا يجعلانه مرتاباً في أن يكون للآخرين أية مصالح غير

www.Maktbah.com

مصالحه الشخصية. فقد كانت لهجته المتزنة، بالإضافة إلى أنانيته الساذجة، تخفف من غلواء المستمعين.

ـ حسناً يا عزيزي، هناك شيء واحد أثق به، وهو أنه بمقدورك أن تفتح لنفسك الطريق سواء كنت في المشاة أو في الخيالة.

وأنزل شينشين قدميه على الأرض، وتناهض وهو يقول لبيرج مربتاً كتفه:

ابتسم بيرج، بينما راح الكونت ومدعووه يغادرون المكتب للانتقال إلى القاعة.

كانت الفترة التي تسبق إعلان موعد الغداء، والتي جرت العادة ألّا يثيروا خلالها مناقشات طويلة، بينما يحاولون التظاهر بأن سكوتهم وجمودهم، لا يرجعان إلى لهفتهم على الانتظام حول الطاولة. كان المضيفون ينظرون إلى باب القاعة ويتبادلون النظرات بين الحين والآخر، بينما يحاول المدعوون جاهدين معرفة سبب التأخير، وهل مرده انتظار أصحاب الوليمة وصول قريب رفيع المقام أو تمهلهم ريثما ينضج لون معين من الطعام تأخر الطهاة في إعداده.

دخل پيار وحده وجلس على أول كنبة بتصرفه الأخرق معرقلاً بجلوسه وصول المدعوين إلى القاعة. حاولت الكونتيسة أن تدخل معه في حديث، لكنه أجاب عن كل أسئلتها بكلمات مقتضبة، وهو ينظر من وراء نظارتيه، باحثاً عن شخص معين. فسبّب تصرفه تشويشاً عاماً شعر به كل الحاضرين باستثنائه هو.

كان كل المدعوين يتأملون بفضول ذلك الفتى الوديع، ويتساءلون كيف استطاع متثاقل مثله أن يعتدي على ضابط پوليس.

ـ هل وصلت الآن؟ سألته الكونتيسة.

ـ نعم يا سيدتي. أجابها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ ألم تر زوجي بعد؟

ـ كلا، سيدتي، قال مبتسماً...

كنت في باريس على ما أعتقد؟ إنه لأمر مثير، أليس كذلك؟

ـ مثير جداً.

حدجت الكونتيسة بنظرها أنّا ميخائيلوڤنا تستنجد بها لتحلّ عقدة لسان هذا الشاب. فاقتربت من پيار وسألته عن أبيه. لكنها لم تظفر منه إلا بأجوبة قصيرة غامضة.

ومن جهتهم، كان المدعوون الآخرون يثرثرون فيما بينهم، فيعلو لغطهم تارة، وينخفض أخرى. ويصغي المرء إلى آل رازوموڤسكي، ... لقد كان ذلك رائعاً... إنك ذات فضل... الكونتيسة أپراكسين تتردد على ألسنة المتحدثين. وفجأة نهضت الكونتيسة، وانتقلت إلى قاعة الاستقبال.

سُمع صوتها وهي تسأل:

ـ ماري دميتريـڤنا؟ أجاب صوت خشن: هي بالذات!

ودخلت ماري دميتريڤنا إلى القاعة.

باستثناء العجائز، نهضت كل الشابات والسيدات.

وقفت ماري دميتريـڤنا على عتبة الباب، وراحت تشمل الحشد بنظرة مترفعة، وهي تُسوي أكمامها بتؤدة، وكأنها تريد حسرها عن ذراعيها. كانت ضخمة الجثة، متينة البنية، يشمخ رأسها باعتداد بخصلات الشعر الأصهب التي تكلله.

قالت القادمة بصوت جهير حجب الضجيج المنبعث:

ـ عيداً سعيداً لسيدة المنزل وأولادها. قالت ماري دميتريـڤنا باللغة الروسية دائماً:

ـ وأنت أيها العجوز، إنك لا تجد كلاباً تضنيها بالصيد. لكنك يا صديقي

www.Maktbah.com

لن تستطيع إلا تقبل الواقع، لأن عصافيرك الصغيرة تنمو، وأشارت بيدها إلى الفتيات الصغيرات، فإذا شئت أم أبيت، يجب عليك أن تجد لهن أزواجاً. والتفتت إلى ناتاشا التي كانت تقترب منها بجرأة لتقبل يدها، وقالت:

أهذه أنت، أيتها «القوقازية»؟ وراحت تجري بيدها على شعرها ملاطفة وهي تناديها بكلمة «قوقازية»، التي درجت على إطلاقها عليها، وأردفت: إنك ماجنة يا فتاة، لكن ذلك يرضيني.

وسحبت من حقيبة يد ضخمة قرطين ذهبيين مصنوعين على شكل إجاصة، فأعطتهما للفتاة الصغيرة التي طغى السرور على وجهها، فأشرق واحمرَّ فرحاً. ثم استدارت تخاطب پيار مضفيةً على صوتها نبرة مرحة لا تتفق مع لهجته:

ـ آه، تعال يا عزيزي، تعال، تعال إلى هنا.

ورفعت أكمامها بحماسة وعادت تخاطب پيار، الذي تقدم نحوها وهو ينظر إليها ببراءة خلال نظارتيه:

ـ اقترب، اقترب! لقد كنت الوحيدة التي قالت لأبيك كل حقائقه عندما كان في أوج سلطته، فلا تنتظر مني أن أرتبك في حضرتك.

وصمتت صمتاً لم يجرؤ أحد على قطعه، لأن الموجودين أدركوا من سياق حديثها أن ما فاهت به حتى الآن ليس إلا استهلالاً له ما بعده.

أردفت بسلاطتها تقول:

ـ يا للفتى الوديع! إنه أمر مخجل... إن أباه على فراش الموت، والسيد يلهو ويعبث، ويتسلى بشد وثاق ضباط الپوليس إلى ظهور الدببة... إنه مخجل، يا فتاي! مخجل. يستحسن أن تنخرط في الجندية.

وأدارت له ظهرها، وقدمت ذراعها إلى الكونت الذي كان يجد صعوبة في كتم ضحكته.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قالت مستطردة:

ـ حسناً، لقد حان وقت الطعام.

سارت مع الكونت في الطليعة، تتبعها الكونتيسة متأبطة ذراع «زعيم» (كولونيل) في الجيش، وهو شخصية لها خطورتها لأن نيكولا كان سيلتحق بفيلقه تحت إمرته.

وجاءت آنّا ميخائيلوڤنا برفقة شينشين، وبيرج مع ڤيرا، بينما كان نيكولا يرافق جولي كاراغين، التي كانت مشرقة الوجه وتبعتهما أزواج أخرى على طول قاعة الرقص. أما الأولاد ومعلموهم والمربيات، فقد جاؤوا في المؤخرة دون ترتيب. أسرع الخدم وصدحت الموسيقى، بينما أخذ المدعوون أمكنتهم وسط ضجيج المقاعد الذي أعقبه السكون. ولم تلبث أصوات الملاعق والسكاكين ولغط الحديث أن حجب أصوات الموسيقى وطغى على وقع خطوات الخدم، وهم يسرعون في غدوهم ورواحهم. وفي الطرف الأقصى من الطاولة، جلست الكونتيسة وإلى يمينها ماري دميتريـڤنا، بينما جلست آنّا ميخائيلوڤنا وبقية السيدات إلى يسارها. أما في الجانب الآخر، فكان الكونت جالساً إلى يسار «الزعيم» ويمين شينشين والرجال الآخرين. وكان الشبان والفتيان الصغار يشغلون وسط الطاولة، ڤيرا إلى جانب بيرج وپيار إلى جانب بوريس، بينما في الجانب الآخر، احتشد الأطفال مع معلميهم ومربياتهم.

وكان الكونت لا يفتأ يملأ كؤوس جيرانه بالنبيذ، دون أن ينسى نصيبه منها، وهو ينقل نظره بين حين وآخر إلى زوجته وقلنسوتها المرتفعة ذات الأشرطة الزرقاء السماوية، التي تنعكس خلال زجاج الأواني البلورية المرتبة على الطاولة.

وكانت الكونتيسة تلقي نظرات حافلة بمعانٍ شتى على وجه زوجها عبر الطاولة، متخطية ثمار الأناناس، دون أن تنسى واجباتها كمضيفة لبقة. كانت

www.Maktbah.com

جمجمة زوجها ووجهه المحمرّان، يبدوان لها متنافرين مع لون شعره الأشهب. وكانت الأصوات في ركن السيدات خافتة، على عكس ركن الرجال، الذي كان النقاش فيه يحتدم أكثر فأكثر يعلو فيه بصورة خاصة صوت «الزعيم» الذي كان يشرب الكؤوس من دون مزج، ويأكل بنهم وشهية اتخذهما الكونت أمثولة طلب إلى مدعويه الاحتذاء بها. وكان بيرج مبتسماً يفسر لـڤيرا طبيعة الحب، تلك العاطفة السماوية التي لا علاقة لها بالأرض. بينما كان بوريس يطلع صديقه الجديد على أسماء المدعوين، ويتبادل النظرات المختلسة مع ناتاشا الجالسة قبالته. وكان پيار يتفحص كل هذه الوجوه الجديدة ويتحدث قليلاً ويأكل كثيراً، حتى إنه لم يستبعد من قائمة الطعام الحافلة، إلا لوناً واحداً فقط، ولم يرفض لوناً من الخمر مما كان رئيس الخدم يقدمه من زجاجته الملفوفة بالمنشفة. فكان يصغي بغموض إلى أسماء أنواع النبيذ المقدمة: «دري مادير، توكاي، نبيذ هنغاري، نبيذ الرين»، إلخ... وكان أمام كل مدعو أربع كؤوس من البلور النقي، تحمل شعار الكونت، وقد أعدت لأربعة أنواع مختلفة من الخمور. فكان پيار يقدم لرئيس الخدم أول كأس تقع عليه يده، فيملأها هذا له، ليفرغها في جوفه بفرح واضح، ويعود إلى تصفح وجوه المدعوين بنظرة تزداد التماعاً. وكانت ناتاشا، وهي تجلس قبالته، تنظر إلى بوريس، كما تنظر الفتيات في سن الثالثة عشرة، إلى الشاب الذي يعتقد أنهن يعشقنه، والذي تبادلن إياه قبلتهن الأولى. فكانت إحدى تلك النظرات تهيم ضائعة لتتوقف على پيار، الذي كان يشعر برغبة في الضحك، دون أن يدري له سبباً، كلما وقع عليه نظر تلك الفتاة المنتعشة اليقظى بوجهها الناطق الضاحك.

وشاءت الظروف أن يكون نيكولا بعيداً عن سونيا، يتحدث مع جولي كاراغين، وعلى وجهه تلك الابتسامة المغتصبة. وعلى الرغم من أن سونيا كانت تتظاهر بالابتسام هي الأخرى فإن الغيرة كانت تنهشها، فكانت تشحب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتحمر شيئاً فشيئاً، وتحاول التقاط نتف من حديثهما. أما المربية، فكانت تحضن الأطفال بنظرة قلقة، وهي على استعداد للانقضاض على أي منهم، إذا تجرأ على مقاومة رغبتها.

أما المعلم الألماني فقد كان يحاول بمشقة أن يخط في ذاكرته أسماء الخمور وأنواع الطعام، ليتسنى له وصف كل ذلك بأدق تفاصيله في رسالته المقبلة التي سيرسلها إلى ذويه في ألمانيا. فلما مرّ رئيس الخدم وراءه، حاملاً زجاجته الملفوفة بالمنشفة، دون أن يصب في كأسه منها، شعر بجرح في كرامته، لأنه أسيء فهمه فهو لم يكن يريد الخمر لإرواء عطشه، بل يود تذوق كل الأنواع، إرضاء لرغبة الاطلاع في نفسه وزيادة معلوماته!

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

احتدم الحديث أكثر فأكثر في ناحية الرجال. وكان الكولونيل (الزعيم) يؤكد أن الحرب قد أعلنت رسمياً في پيترسبورغ، وأن نسخة من مرسوم إعلان الحرب قد أرسلت بالبريد إلى حاكم موسكو العسكري، وقد اطلع على تلك النسخة بنفسه.

ما هو السبب الذي يجعلنا نحارب بوناپرت؟ أي شيطان أثيم يدفعنا إلى إعلان الحرب؟ لقد أخمد من قبل ثورة النمسا، وأخشى أن يكون دورنا قد حل.

استاء الزعيم، وهو ألماني طويل القامة، متين البنية، محمرّ الوجه، عسكري ووطني، لمزاعم شينشين، فأجابه بلكنة أجنبية ظاهرة:

ـ لأي سبب، يا سيدي العزيز؟ إن الأمبراطور يعرف السبب. إنه يقول في بيانه: إنه لا يستطيع البقاء متفرجاً على الأخطار التي تهدد روسيا، وإن سلامة الأمبراطورية وكرامتها والارتباطات...

وشدّد على هذه الكلمة وكأنه يشير إلى أنها تحوي مفتاح السر ثم راح، بذاكرة الرجل الرسمي التي لا تخون، يتلو المقطع الأول من البيان: «... ورغبة الأمبراطور المقررة في تحقيق السلم في أوروبا على قواعد متينة، دفعته إلى إرسال جزء من الجيش خارج الحدود الروسية، والارتباط بتعاقد جديد لينفذ رغباته وأهدافه». وأضاف قائلاً:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ هذا هو السبب، يا سيدي العزيز... ونظر إلى الكونت منتظراً موافقته على قوله وأفرغ كأسه في فمه بأسى. أجاب شينشين:

ـ هل تعرف المثل القائل: «من الخير أن يعنى المرء «بملفوفه» على أن يصاب بالنوائب والمحن»؟ إن هذا المثل ينطبق علينا انطباقاً كلياً. لقد كان سوڤوروف[1] جباراً قوياً، مع ذلك فقد هزم هزيمة نكراء. فأين نحن الآن من سوڤوروف، وأين مثله بيننا؟ إنني أتساءل وأسألك الجواب.

كان شينشين كعادته يقفز من الفرنسية إلى الروسية وبالعكس. أجابه الكولونيل، وهو يضرب الطاولة بيده:

ـ يجب أن نحارب حتى آخر نقطة من دمائنا، وأن نموت في سبيل أمبراطورنا إذا اقتضى الأمر، وأن نناقش الأمور على أضيق مدى ممكن.

وشدّد على المقطع الأخير، وأردف:

ـ نعم على أضيق مدى ممكن... وعندئذ سيسير كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟ وراحت عيناه تبحثان من جديد عن موافقة الكونت وتأييده. ثم استرسل قائلاً:

ـ إننا معشر الجنود القدامى نفكر بمثل هذه العقلية فقط؟... فما رأيك أيها الجندي الشاب!...

كان الكلام موجهاً إلى نيكولا الذي ما إن شعر بأنهم يتحدثون عن الحرب حتى أغفل صديقته واندفع، بكل حواسه، مصغياً إلى ما يدور من حديث حول هذا الموضوع. قال مجيباً عن السؤال بحماسة:

ـ إنني من رأيك تماماً.

ثم أزاح الصحاف والكؤوس من أمامه بجرأة الرجل الذي يتهدده خطر

(١) الكسندر سوڤوروف، أو ساڤاروف، جنرال روسي ولد في موسكو عام ١٧٢٩ وتوفي عام ١٨٠٠

www.Maktbah.com

ماحق، وأضاف: نعم، إنني مقتنع بأن على الروس إما أن ينتصروا وإما أن يموتوا كراماً.

كانت العبارة شديدة الوقع في ذلك الجو، لكنه شعر بعد فوات الأوان أنها لا تنسجم مع الجو كما لاحظ المدعوون، لذلك فقد بان عليه الارتباك. فقالت جارته جولي تؤيده: إن ما قلته رائع، جميل!

عندما سمعته سونيا، يتكلم على ذلك النحو، اقشعر جسمها واحمرّ وجهها. حتى إن عنقها لم ينج من تأثير القشعريرة، وغدا أرجوانياً.

وكان پيار يصغي إلى آراء الزعيم، فأيده بإشارة من رأسه وقال:

ـ إنه رأي سديد!

بينما صاح الزعيم، وهو يضرب الطاولة بقوة فاقت ما بدر منه في المرة السابقة:

ـ إنك جندي حقيقي، أيها الشاب!

غير أن صوت ماري دميترييـڤنا الخفيض ارتفع فجأة من الطرف الآخر للطاولة مجلجلاً. قالت تسأل العسكري الكبير:

ـ ما هذا الصخب؟ لمَ تضرب على الطاولة؟ مع من تظن نفسك الآن؟ هل تعتقد أنك أمام الفرنسيين؟

فأجاب الزعيم مبتسماً:

ـ أنا لا أقول غير الصدق. صاح بها الكونت من مكانه.

ـ كنا منهمكين في التحدث عن الحرب، يا ماري دميتريـيـڤنا. ذلك لأن ابني سيشترك فيها، هل تفهمين، ابني، نعم نيكولا.

فأجابت ماري دميتريـيـڤنا بصوت بلغ طرف القاعة الأقصى دون أن ترفعه:

ـ وماذا في ذلك؟ إن لي أربعة أولاد في الجيش. مع ذلك لست أبكي من

twitter @baghdad_library

أجلهم، لأننا جميعاً بين يدي الله: فهنا يموت حي وهو على فراشه، وهناك يحارب بعضهم دون أن يصاب بأي أذى، وهكذا...

ـ بدون شك، بدون شك...

وبعد هذا الفاصل، عاد كل من الفريقين إلى حديثه الخاص دون أن يعير ما يقوله الآخر التفاتاً. وفي تلك اللحظة، كانت ناتاشا تنظر إلى أخيها متحدثة وهو يقول لها: لن تجرئي على ذلك السؤال. كلا لن تجرئي..

وكانت تجيبه معتدة بنفسها: أجرؤ...

وأشرق وجهها بتصميم جريء. فنهضت وألقت نظرة على پيار تدعوه للإصغاء إلى ما ستقول، ثم التفتت إلى أمها وقالت بصوتها الطفولي، محاولة اجتذاب انتباه أمها والسامعين:

ـ أماه!

فسألتها الكونتيسة مذعورة: ماذا هناك؟

لكنها لما قرأت على وجه ابنتها بوادر محاولة خبيثة، نظرت إليها بقساوة ودعتها إلى الصمت بحركة من يدها. وأعقب ذلك سكوت. لكن الصغيرة ما لبثت أن انطلقت تسألها بلهجة حازمة: أماه، ماذا سيقدم لنا قبل انتهاء الطعام؟

لم تجد الكونتيسة مبرراً للغضب، بينما رفعت ماري دميترييـڤنا إصبعها مهددة وقالت:

ـ حاذري يا «قوقازية»، اهدئي!

فنظر المدعوون إلى الوالدين وموقفهما من سؤال ابنتهما ليتصرفا بما يتناسب والمقام. فإن غضبا أظهروا استياءهم، وإلا ابتسموا مسرورين.

فقالت الكونتيسة: انتظري لحظة!

ازداد صوت ناتاشا ارتفاعاً وقد تأكدت أن رعونتها هذه لن تسبب لها أي عقاب: أماه، ماذا سيقدم لنا قبل انتهاء الطعام؟

www.Maktbah.com

كان پيتيا الضخم وسونيا لا يكادان يكبتان ضحكتهما. أما ناتاشا فقد قالت لأخيها، وهي تطيل التحديق إلى وجه پيار: ها قد سألتها!

ـ ستقدم «البوظة»، لكنك لن تطعمي منها. قالت ماري دميتريـيـڤنا مجيبة.

ولما كانت ناتاشا متأكدة أنها لن تعاقب، تجرأت على الصمود أمام «التنين» بالذات. قالت:

ـ أية «بوظة»، يا ماري دميتريـيـڤنا؟ أنا لا أحبها مع الـڤانيليا!

ـ بل ستكون مع الجزر!!

فصاحت العابثة بصوت أشبه بالصراخ:

ـ غير صحيح! أي نوع من «البوظة»، يا ماري دميتريـيـڤنا؟ أي نوع؟ أريد أن أعرف...

فقهقه السامعون اعتباراً من ماري دميتريـيـڤنا نفسها، وحتى الكونتيسة، التي كبتت ما في نفسها. ولم يكن جواب «التنين المرعب» هو الذي أثار تلك العاصفة الهوجاء من الضحك، بل كانت جرأة الفتاة الخبيثة التي عرفت كيف تصمد أمام «التنين» في غير وجل، هي السبب.

ولما أبلغت أن «البوظة» ستكون بالأناناس، تظاهرت ناتاشا بالرضى. وطاف الخدم بالشمبانيا قبل تقديم «البوظة»، وعزفت الموسيقى، فمضى الكونت إلى زوجته يقبّلها، فجدد المدعوون تمنياتهم بمناسبة ذلك العيد، وفرغت الكؤوس، وشربت الأنخاب، أنخاب الكونتيسة والكونت وأولادهما.

ثم عاد الخدم إلى النشاط، وعلا صخب المقاعد وارتفع ضجيجها، وغادر المدعوون قاعة الطعام بالترتيب الذي نهجوا عليه عند دخولهم، مع فرق واحد: وهو أن وجوههم كانت محمرّة من أثر الخمرة المعتقة. وانتقلوا إلى القاعة الكبرى حيث مكث فيها الذين كانوا فيها من قبل، بينما قصد الرجال إلى مكتب الكونت ليعودوا إلى أحاديث ما قبل الطعام.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العشرون

توزّعت طاولات لعب الورق؛ ونظمت الجماعات، وانقسم الحاضرون بين القاعة الكبيرة والغرف الأخرى والمكتبة. كان الكونت يمسك بالأوراق على شاكلة مروحة، ويغالب النعاس الذي تسلط عليه، بحكم اعتياده النوم بعد الطعام. واجتذبت الكونتيسة الشباب والشابات إلى الأرغن والپيانو. فمضت جولي، استجابة للرغبة العامة، تعزف على الأرغن، ثم اتحدت مع الشابات ووجهن جميعاً دعوتهن إلى ناتاشا ونيكولا، ليشتركا في غناء قطعة ما، نظراً لما عرف عن موهبتهما في الموسيقى.

شعرت ناتاشا بالاعتداد لأنها عوملت كشخص كبير ودعيت للغناء بالإجماع، لكنها مع ذلك شعرت بشيء من الارتباك.

ـ ماذا سنغني؟ سألت.

فأجابها نيكولا: أغنية «النبع».

ـ حسناً، لنبدأ. تعال يا بوريس إلى هنا... أين سونيا؟

أسرعت ناتاشا تبحث عن صديقتها خارج الغرفة. فلم تجدها لا في غرفتها ولا في غرفة الأولاد، اعتقدت ناتاشا أنها ولا شك مختفية فوق الصندوق في الممشى.

لقد جرت عادة فتيات آل روستوف الصغيرات على الانـزواء فوق ذلك الصندوق، كلما أردن أن ينفثن عن صدورهن. وقد صدق حدسها، إذ إن سونيا، دون اعتبار ما قد يصيب ثوبها الجميل الوردي من أذى، كانت

www.Maktbah.com

مستلقية على صدرها على فراش من الزغب، مخطط قذر، عائد إلى المربية، وموضوع فوق ذلك الصندوق، وقد دفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي، اهتزت له كتفاها الدقيقتان العاريتان. تخلت ناتاشا عن بهجة العيد التي كانت فائضة على وجهها، والتي لم تبارحها طوال ذلك النهار، وشخصت أبصارها، وسرت رعشة في جسدها، وهبطت زاويتا فمها. صاحت:

ـ سونيا، ماذا بك؟... ماذا حدث؟...

وانقلبت سحنتها، تبعاً للتقلص الذي اعترى وجهها، فبدت شديدة البشاعة، وراحت تنتحب بدورها كطفل صغير، إلا لأن صديقتها تبكي.

حاولت سونيا أن ترفع رأسها لتجيب عن سؤال صديقتها، لكنها لم تجد القوة الكافية على ذلك، فراحت تزيد في البكاء ممعنة في إخفاء وجهها. جلست ناتاشا وهي باكية أيضاً على الفراش الأزرق، وأخذت صديقتها بين ذراعيها. وأخيراً، استعادت سونيا بعض شجاعتها، فنهضت وراحت تمسح دموعها، استعداداً لشرح ما يحزنها. قالت:

ـ سيذهب نيكولا بعد أسبوع... لقد تلقى أمر المسير العائد إليه.. لقد حدثني بذلك... لكنني لست أبكي من أجل هذا، ولكن... وأبرزت لها ورقة كانت تخفيها في يدها، عرفت ناتاشا من النظرة الأولى أنها تحوي الأبيات التي كتبها نيكولا بعد أن نظمها متغزلاً بسونيا.

ـ لكنك لا تستطيعين أبداً... بل لا يستطيع أحد أن يدرك مبلغ نبل نفسه!

ولما تذكرت تلك النفس النبيلة عادت إلى البكاء مجدداً. أردفت بعد لأي:

ـ إنك سعيدة... ولست أشعر بالغيرة منك... إنني أحبك وبوريس حباً جماً، وهو لطيف، ولا شيء يعترض زواجكما... أما نيكولا، فهو ابن عمي... وينبغي لنا الحصول على إذن خاص من الأسقف إذا أردنا الزواج... وهو

twitter @baghdad_library

يستطيع أن يرفض إعطاءنا الإذن الخاص... ثم إذا تحدث بعضهم إلى أمي، وكانت سونيا تعتبر الكونتيسة أماً لها وتدعوها كذلك، فإنها ستقول إنني أحطم مستقبل نيكولا، وإنني عديمة الشعور مع ذلك، يشهد الله، ورسمت إشارة الصليب على صدرها، على إنني أحب ماما وأحبكم جميعكم... لكن ڤيرا... ولكن لماذا؟ ماذا فعلت لها؟ إنني شديدة الاعتراف بجميلكم جميعاً حتى إنني على استعداد للتضحية بكل شيء من أجلكم، لكن ليس لدي شيء...

أخفت وجهها مجدداً بين راحتيها وعادت إلى الفراش. فراحت ناتاشا تعزيها، لكن وجهها كان ينبئ بأنها تفهم أحزان صديقتها بشكل صحيح.

صاحت فجأة، وكأنها اكتشفت سبب حزن ابنة عمها: سونيا! لقد تحدثت ڤيرا معك بعد الطعام، أليس كذلك؟

ـ نعم... إن هذه الأبيات كتبها نيكولا بيده، وقد نسخت بنفسي أبياتاً أخرى. وقد وجدتها على طاولتي، فقالت إنها ستعطيها «لماما»... ثم قالت لي إنني عاقة وإن ماما لن توافق أبداً على زواجنا وإنه سيتزوج جولي. ألم تري أنه كان يغازلها طوال النهار؟... ناتاشا، لم تعذبيني على هذا الشكل؟

ـ لا تصدقيها يا عزيزتي سونيا، لا تصدقيها. وعاد إليها البكاء. فأنهضتها ناتاشا وأحاطتها بذراعها وهي تبتسم خلال دموعها، وراحت تعمل على تهدئتها. تذكري حديثنا مع نيكولا في المنزل... هل تذكرين، ذات مساء بعد العشاء؟ لقد قررنا آنذاك كيف يجب أن نتصرف ليتحقق لنا المستقبل المنشود. لقد نسيت التفاصيل، لكن كل شيء سيسير على ما يرام. أتذكرين؟ إن أخا العم شينشين قد تزوج ابنة عمه لأبيه. ونحن، جميعاً تابعون لهذا التسلسل العائلي. إن بوريس يقول إن كل شيء سهل... لقد حدثته بكل شيء كما تعلمين... إنه لطيف جداً وذكي جداً... هيا، يا سونيا، لا تبكي يا عزيزتي، يا حبيبتي، وعانقتهما وهي تضحك، إن ڤيرا خبيثة، فلا تصغي إليها. لن تقول

www.Maktbah.com

شيئاً «لماما»، وسوف نسوي كل شيء. إن نيكولا هو الذي سيتحدث إلى ماما، تأكدي من ذلك ولا تفكري أبداً في جولي. وقبلت جبينها، فنهضت سونيا، وعادت الحياة إلى القطة الصغيرة فسطعت عيناها، وبدت على استعداد للقفز على رجليها، وللعب بكرة الصوف، وبكلمة موجزة، بدت القطة الصغيرة مستعدة للعودة إلى طبيعتها المرحة.

ـ أتعتقدين ذلك؟ حقاً؟ هل هذا وعد؟ قالت سونيا، وهي تسوي ما فسد من زينتها وشعرها بسرعة.

فأكدت ناتاشا قائلة، وهي تسوي خصلة من الشعر أفلتت من ضفيرة ابنة عمها: هذا وعد!

والآن، هيا بنا نغني «النبع» وراحتا تضحكان بمرح.

ـ هيا بنا. لكن ناتاشا توقفت فجأة، وقالت: أتعرفين، إن هذا الضخم پيار، الذي كان جالساً قبالتي على الطاولة، يبدو غريباً ومضحكاً.

وراحت مسرعة في الممشى! واندفعت سونيا على آثارها بعد أن نزعت الزغب العالق بثوبها وأودعت صدرها الضامر الورقة الحاوية على الأبيات الشعرية. تبعت ناتاشا، خفيفة الحركة، فلحقت بها قبل أن تغادر الممشى.

وبناء على طلب المدعوين، غنى الشبان والشابات الأربعة أغنية «النبع» فصفقوا لهم طويلاً. ثم غنى نيكولا وحده قصيدة كان قد تعلمها أخيراً:

عندما يلمع القمر في السماء الصافية
يفكر العاشق الحزين بقلق:
لا بد من وجود مخلوقة على الأرض.
يستجيب قلبها لنداء أشواقي،
وعلى أرغنها المرتعش،
تمرر أصابعها المرتعدة، وتدعوني بحب مدنف،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وهي مستعدة لاستجابة رغباتي الملتهبة.
وبعد انتظار يوم أو اثنين
سيفتح النعيم أبوابه...
أسفاً! إن أملك خائب،
وصديقك المسكين لن يكون بعد في الوجود!

لم يكن قد انتهى من أغنيته بعد، حتى كان الشبان في القاعة الكبرى يتأهبون للرقص، وكان أعضاء الفرقة الموسيقية يضبطون الإيقاع بأقدامهم استعداداً للشروع في العزف. خلال ذلك، كان شينشين في القاعة داخلاً مع پيار في بحث سياسي عميق أصبح بعد ذلك بحثاً عاماً. كان شينشين يرغب في استطلاع رأي شاب ناشئ تثقف خارج البلاد وعاد إليها بمعلومات جديدة. وكان پيار منزعجاً في مجلسه يريد التخلص من ذلك الجو المقبض. وما إن عزفت الموسيقى المقاطع الأولى، حتى دخلت ناتاشا واتجهت نحوه مباشرة. قالت الفتاة ضاحكة:

ـ لقد أوعزت إليّ أمي أن أستبقيك للرقص.

فنهض پيار، وقد احمرّ وجهه وقال:

ـ أنا أخشى أن أفسد الحركات الراقصة، لكنني أقبل إذا وافقت على أن تكوني أستاذتي...

واضطر إلى الانحناء ليستطيع إعطاء ذراعه القوية إلى الفتاة النحيلة. واستمر پيار يرافق فارسته طوال الوقت الذي لبثت الفرقة الموسيقية تعزف خلاله. وكانت ناتاشا تكاد تطير فرحاً، لأنها كانت تراقص «شاباً حقيقياً» عاد منذ فترة وجيزة من «الخارج»، فكانت تحاكيه في حركاته، وترافقه على مرأى من الموجودين، وكأنها سيدة كبيرة! ولما أعطتها إحدى الآنسات مروحتها راحت تستعملها وفق أحدث الأساليب الاجتماعية الراقية، دون أن يعرف

www.Maktbah.com

أين ومتى تعلمت تلك الأساليب، وهي تبتسم لـپيار من ورائها، وتتحدث معه بجدية.

وصدف أن كانت الكونتيسة روستوف تجتاز القاعة، فقالت تشير إلى ابنتها: ولكن ما هذا؟ انظروا إلى هذه!

ـ ثم ماذا، يا أماه؟ لم تسخرين مني؟ أية غرابة تجدينها في مظهري؟ فأجابت الفتاة، وقد صعد الدم إلى وجهها.

وعندما عزفت الموسيقى رقصة الأيقوسية الثالثة، ارتفع من المكتب حيث كان الكونت يلعب الورق مع ماري دميتريـڤنا، ضجيج مقاعد وجلبة خطوات إذ نهض الأشخاص المسنون، ومعظم المدعوين الذين شعروا بحاجتهم إلى الحركة وترويض أطرافهم، فأودعوا جيوبهم نقودهم وحافظاتهم، واتجهوا نحو قاعة الرقص على شكل مجموعة: كل فارس يرافق مراقصته.

فجاء الكونت مع ماري دميترييڤنا في الطليعة، وهما على أحسن مزاج. ثنى الكونت ذراعه وقدمها بأدب إلى مراقصته، ونصب قامته واتخذ طابع المرح متصابياً. ولما انتهت الحركة التصويرية الأخيرة من تلك الرقصة، صفق بيده، وهتف مشيراً إلى السيدة، مُحدّثاً عازف الكمان الأول: هل تعرف معزوفة «دانيللو كوبر»، يا سيميون؟

إنها رقصة الكونت المفضلة، رقصة أيام الشباب، رقصة تصويرية إنكليزية.

صاحت ناتاشا بكل قواها: انظروا إلى بابا! وأطلقت ضحكة مدوية امتلأت القاعة بصداها، وراحت تنحني فيلامس رأسها ركبتيها.

نسيت تماماً وهي في سياق مرحها أنها تراقص «شاباً حقيقياً».

والحقيقة أن كل مَن في القاعة بدأ يضحك، والجميع ينظرون إلى ذلك العجوز المرح الصغير، الذي كان إلى جانب مراقصته الضخمة، التي تفوقه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

طولاً، ويبرز رأسها اعتباراً من العنق فوق هامته، يكور ذراعيه، ويضبط الإيقاع، فيهز كتفيه، ويضرب الأرض بقدمه، وعلى شفتيه ابتسامة مرحة تضفي على وجهه بهجة وسروراً، لافتاً انتباه الحشد المتفرج إلى المشهد الممتاز الذي هو في سبيل عرضه عليهم.

وعندما صدحت الموسيقى بمطلع الرقصة الرشيقة، فتحت الأبواب كلها، وأطلت منها وجوه باسمة تتطلع بانتباه ولذة إلى ذينك الراقصين. فكان الخدم والرجال من جهة، والنساء من الجهة الأخرى، يراقبون جميعهم الكونت وهو يعود إلى أيام الصبا.

ـ إن سيدنا نسر حقيقي! صاحت الخادمة العجوز.

كان الكونت يرقص بفنّ وهو معجب بذلك! بينما رفيقته فكانت، سيئة الحركة، تفسد الرقصة دون أن تبالي بأخطائها. فكانت جثتها الضخمة الهائلة منتصبة ثابتة، وذراعاها الهائلتان منسدلتين بلا حراك إلى جانبها بإعطائها إلى الكونتيسة. ولم يكن إلا وجهها القاسي، الذي يمتاز بجماله، يتابع الرقصة بالفرح المنتشر على قسماته.

اتسعت ابتسامتها حتى كادت تشمل الوجه كله، ورأسها مرتفع إلى الوراء باعتداد. أما الكونت، فكان، على العكس، يرقص بكل جسده الممتلئ. لكنه على الرغم من أن كل حركة من حركاته الرشيقة وخطواته المتزنة البديعة كانت تثير إعجاب المتفرجين، فإن أقل حركة أو اهتزاز من كتفي ماري دميتريـﭬنا أو قدميها، كانت تحدث تأثيراً مماثلاً في نفوس المتفرجين، الذين كانوا مسرورين لرؤيتها في ذلك الوضع؛ تسخر جثتها الضخمة، وتتساهل رغم صلابتها المعروفة. وكانت الرقصة تزداد حيوية، حتى أن الراقصين الآخرين ما كانوا يستطيعون اجتذاب انتباه أحد. وعلى الرغم من أن الكونت وماري دميتريـﭬنا كانا محط أنظار الجميع، فإن ناتاشا كانت تتهافت على المدعوين

www.Maktbah.com

واحداً تلو الآخر فتجذب هذا من كمه وتلك من ثوبها، لتنبههم إلى «البابا» وهو على حاله تلك.

وكان الكونت خلال فترات من الراحة يتنفس بصعوبة، ويوحي للعازفين سواء بالإشارة أو بالقول أن يضاعفوا سرعة العزف، الأمر الذي كان يزيده نشاطاً؛ فيدور تارة على رؤوس أقدامه، وطوراً على كعبيه حول الراقصة البدينة. وأخيراً، وبعد أن قادها إلى مقعدها، قام بالحركة الأخيرة، بأن رفع ساقه المرنة إلى الوراء، معتمداً على ساقه الأخرى، وانحنى حتى أصبح جسمه زاوية قائمة على ساقه، ورسم بيده اليمنى دائرة متسعة انتزعت عاصفة من التصفيق التي كان صوت ناتاشا واندفاعها يبرزان خلالها.

كان الراقصان المجدان على آخر رمق فتوقفا وراحا يجففان أيديهما ووجهيهما بمناديلهما الفخمة.

ـ هكذا كنا نرقص في أيامنا. يا عزيزتي. صاح الكونت.

فأجابت ماري دميترييڤنا بعد أن استجمعت أنفاسها بصعوبة، وراحت تحسر الأكمام عن ذراعيها: هذا ما يسمونه «دانيللو كوپر».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

أصيب الكونت بيزوخوف بنوبته السادسة بينما كان المدعوون يرقصون «الإنكليزية» السادسة في منزل آل روستوف، وبدأ الموسيقيون يخطئون في الإيقاع لشدة التعب، والخدم والطهاة يهيئون العشاء. أعلن الأطباء ضياع الأمل الأخير. لذلك لجأوا إلى أخذ اعتراف المريض «ومناولته» وهو فاقد الوعي، وراحت الاستعدادات للمرحلة الأخيرة تُتّخذ، وسط الطقوس الدينية المرعية.

سادت الفوضى الطبيعية، في مثل هذه الظروف، الفندق كله، وأسرع متعهدو الدفن إلى الأبواب لاصطياد ذلك الصيد الثمين، فراحوا يحاصرون مداخل الفندق، ويختفون كلما وصلت عربة بعض السادة أمام الباب. وجاء حاكم موسكو العسكري بنفسه يودع صفي كاترين الثانية العتيد الوداع الأخير، بعد أن أقام مساعدوه وحجابه في الفندق، ليطلعوه على أخبار المريض وتطوراته.

عندما خرج الحاكم العسكري من غرفة المريض، ازدحمت قاعة الاستقبال الفخمة بالناس. بعد أن مكث مختلياً به نصف ساعة، نهض الموجودون في قاعة الاستقبال متطلعين. لكن الحاكم مرّ بين المحتشدين متجنباً الرد على تحياتهم، وعلى أسئلة الأقارب والأطباء ورجال الدين. وكان الأمير بازيل، الذي نحل خلال الأيام الأخيرة، يرافق الحاكم ويهمس في أذنه من حين إلى آخر ببعض الكلمات. ولما ودع الحاكم بعد أن شيعه إلى الباب،

www.Maktbah.com

عاد الأمير يجلس وحيداً في القاعة، وقد وضع ساقاً فوق ساق، وأسند مرفقيه إلى ركبته، ووضع رأسه بين يديه. ولم تمض برهة حتى نهض، وسار بخطوات عصبية لم يسبق أن ظهرت في مشيته من قبل، وهو يُلقي حوله نظرات قلقة فاجتاز الممشى الذي يفصل بين أجنحة المسكن وغرفه الداخلية، ومضى إلى مخدع كبرى الأميرات.

كان الزوّار أثناء ذلك يتحدثون بأصوات خفيضة في القاعة الكبرى، التي كان يضيئها نور خفيف. ومن حين إلى آخر، كان الباب المؤدي إلى غرفة المحتضر، يحدث صريراً خفيفاً كلما فتح ليخرج منه بعضهم، فتعود الآراء إلى الاحتدام، وترتفع الأنظار إلى وجه الخارج بقلق واكتئاب.

قال عجوز يرتدي ثياب رجال الدين، يخاطب سيدة بجانبه تصغي إليه ببراءة: إن لكل مخلوق أجلاً لا يستطيع تجاوزه.

فسألت السيدة وهي تضفي على أقوالها صبغة كنسية:

ـ ألم يفت الوقت بعد لتلقينه الصلوات الأخيرة؟

ولما كان يبدو على وجهها جهلها التام بما تقول أجاب رجل الدين مقسماً وهو يمر بيده على رأسه الأصلع، الذي ما زالت خصلات من الشعر مبعثرة في أطرافه: يا سيدتي العزيزة، إنه طقس ديني كبير.

وفي الطرف الأقصى من الغرفة، ارتفعت أصوات تقول: من هو هذا؟... الحاكم العسكري؟... يبدو شاباً! بل إنه تخطى الستين؟... يقال إن الكونت فقد القدرة على التعرف إلى الأشخاص... سوف يلقنونه الصلوات الأخيرة.

ـ إنني أعرف واحداً لُقن سبع مرات وعاش بعدها.

ـ خرجت ثانية الأميرات من غرفة المحتضر، وجلست قرب الطبيب لوران، الذي كان متكئاً على طاولة في جلسة مريحة، تحت صورة كاترين الثانية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أجاب عن سؤال يدور حول الطقس طرحته الأميرة عليه: جميل جداً يا أميرة. جميل جداً. إن القاطن في موسكو يعتقد أنه يعيش في الأرياف.

ـ أليس كذلك؟... هل نستطيع أن نعطيه ما يشرب؟

علت وجه لوران أمارات التفكير. سألها: هل أخذ جرعة الدواء؟

ـ نعم.

نظر لوران إلى ساعته وقال: خذي كأساً من الماء المغلي، وأضيفي إليه قليلاً من المسحوق الذي أعطيتك إياه.

وشفع قوله بحركة من إبهامه وسبابته، ليشير إلى الكمية الضئيلة التي يجب أن تضعها في كأس الماء.

قال طبيب ألماني لأحد المساعدين العسكريين: لم يسبق مثيل لهذه البادرة. إذ لم ينجح أحد قط بعد النوبة الثالثة.

فقال الضابط المساعد: لقد كان معنياً به عناية شديدة!

ثم أضاف هامساً:

ـ لمن ستؤول ثرواته؟

فأجاب الألماني بلغته الركيكة وهو يبتسم: لن ينقص الأدعياء والراغبون فيها.

شخصت عيون الاثنين إلى الباب الذي كان يصر من جديد، وتابعت الأنظار الأميرة، وهي تحمل للمريض الوصفة التي أشار بها لوران. فاقترب الألماني من زميله الشهير وسأله بفرنسية تظهر فيها رطانة أجنبية مضحكة: هل يطول به الأمر حتى الغد؟

زمّ لوران شفتيه، وراح يحرك سبابته أمام أنفه حركات سلبية، وقال ببطء:

ـ لا لن يتأخر أكثر من هذا المساء.

وشفع رأيه الحاسم بابتسامة مهذبة وابتعد.

www.Maktbah.com

كان الأمير بازيل يفتح الباب المؤدي إلى غرفة الأميرة، وكانت هناك شمعتان تحترقان أمام الصور المقدسة، فتعطيان ضوءاً شاحباً خافتاً، وتملأ المباخر والزهور الغرفة التي تتزاحم فيها الدواليب والمناضد والخزائن. وكان يُرى من وراء ستر من القماش، أطراف سرير مرتفع ذي فراش من الريش. فلما فتح الباب نبح كلبٌ صغير:

ـ آه، أهذا أنت يا ابن عمي؟

نهضت الأميرة ومسدت شعرها الذي جرت عادتها على ترجيله دون عقص ولا حزم، حتى وكأنه ملتصق بفروة رأسها. سألته: ماذا هناك؟ لقد أخفتني.

فأجاب الأمير وهو يتهاوى على المقعد الذي بارحته الأميرة: لا شيء. لقد جئت لأتحدث معك بأمور هامة يا كاتيش. رباه إن الحرارة عندك خانقة!... تعالي نجلس ونتحدث.

وكلمة كاتيش، هي التحريف لتصغير كاترين على الطريقة الفرنسية. وكاترين هو اسم الأميرة الكبرى.

قالت الأميرة وهي تجلس قبالة الأمير وعلى وجهها البارد برودة الصخر:

ـ ظننت أن أمراً قد وقع... كنت أريد النوم قليلاً يا ابن عمي، لكنني لن أستطيع.

ـ حسناً وماذا بعد، يا عزيزتي؟ طرح الأمير ذلك السؤال بعد أن استجاب لحركته الغريزية، التي درج عليها كلما استغرق في التفكير العميق، فأخذ يد الأميرة وأنزلها نحو الأرض. وكانت عبارته: «وماذا بعد يا عزيزتي» تحمل معاني كثيرة، كان كلاهما يفهمها دون حاجة إلى إعلانها وإظهارها.

راحت الأميرة تحدُج الأمير بعينيها الحزينتين، بنظرة تخلو من المعاني والتعابير، وقد انتصب جذعها الأعجف، الذي يعوزه التناسق مع ساقيها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

القصيرتين. هزت برأسها وألقت نظرة على الصور المقدسة وتنهّدت. وكانت تلك الحركة تعني إما شدة الحزن، وإما الرغبة في راحة تستحقها. غير أن الأمير اعتبرها دلالة على التعب، فقال مواسياً:

ـ هل تعتقدين بأن الحال ليست أليمة بالنسبة إلي أيضاً؟ إنني منهك كحصان البريد. رغم ذلك، يجب أن أتحدث معك حديثاً خطراً وهاماً.

سكت الأمير بازيل، بينما أخذت وجنتاه تتشنجان دورياً تشنجات عصبية، تُضفي على وجهه بشاعة ونفوراً، لم يسبق للمجتمعات الراقية أن شهدت مثلها عليه. كانت في عينه تعبيرات غير معهودة، إذ كان الخوف يتنازع فيهما مع الوقاحة. وكانت الأميرة تنظر بانتباه إلى الأمير بازيل، وهي تربت رأس كلبها الصغير، الذي حملته على ركبتيها، بيدين جافتين نحيلتين. بدا أنها لن تقطع الصمت ولو دام يوماً كاملاً. لذلك اضطر الأمير بازيل، بعد صراع داخلي مرير إلى البدء بالحديث. قال:

ـ إصغي إلي يا أميرتي وابنة عمي العزيزة كاترين سيميونوفْنا. يجب على المرء أن يفكر في كل شيء في ظروف كهذه. ينبغي التفكير في المستقبل وفيكن... إنني أحبكن جميعاً كما أحب أبنائي، وأنت تعرفين ذلك.

بقيت الأميرة جامدة الوجه، تتأمله بنظرتها القاتمة. بينما تابع الأمير دون أن ينظر إلى وجهها، بعد أن دفع نضداً صغيراً بحركة عصبية:

ـ وأخيراً يجب أن أفكر في أسرتي. إنك تعرفين، يا كاتيش، أنك أنت وأختيك وزوجتي، الوارثات الوحيدات المباشرات لثروة الكونت. إنني أعرف أنه يصعب عليك البحث في كل هذا، ويؤلمك مجرد التفكير فيه. إن ذلك هو شعوري كذلك. غير أنني يا صديقتي أقترب من الستين، ويجب أن أكون مستعداً لكل شيء. هل تعرفين أنني أرسلت في طلب بيار؟ لقد أصر الكونت على إحضاره وهو يشير إلى صورته.

www.Maktbah.com

راح الكونت يتفحصها بعينيه دون أن يتمكن من التأكد أنها تفكر فعلاً في ما قاله لها، أم أنها تنظر إليه نظرة مجردة.

أجابت: لا أطلب إلى الله يا ابن عمي إلا أمراً واحداً، وهو أن يشفق عليه، ويمنح روحه الطاهرة سلامة التحرر من...

فقال الأمير وقد نفد صبره، وهو يمر بيده على رأسه الأصلع، ويعيد النضد بانفعال إلى مكانه الأول: نعم بدون شك. ولكن... ولكن، إنك تعرفين أن الكونت حرّر وصية في الشتاء الأخير، جعل پيار بموجبها الوارث الوحيد لكل ثرواته وأملاكه، حارماً كل الورثة المباشرين الآخرين.

فقالت الأميرة بهدوء: وصايا، لقد حرّر أكثر من وصية! لكنه لم يستطع إقامة پيار وارثاً شرعياً. فپيار ابن طبيعي!

جذب الأمير بازيل النضد إليه، وضغطه إلى صدره بشدة، وراح يتحدث باندفاع وسرعة. قال:

ـ ما رأيك يا عزيزتي إذا كان قد حرّر ملتمساً إلى الأمبراطور؟ إن إقامة شرعية بنوة پيار ستمنح له ولا شك، نظراً إلى خدماته الجليلة السابقة للعرش!

ابتسمت الأميرة ابتسامة الذي يعرف أكثر مما يظن المتحدثون، بينما تابع الأمير ممسكاً بيدها قائلاً: إنني محدثك بأكثر من ذلك. لقد حصل على تأييد جهات مسؤولة متعددة على ملتمسه، لكنه لم يرسله بعد إلى الأمبراطور. غيرأن جلالته أعلم بسير الأمور وبرغبة الكونت. والأمر الآن متوقف على معرفة مصير ذلك الملتمس، وهل أبلغ إلى الأمبراطور أم أتلف. فإذا لم يكن قد أتلف بعد، وقضي الأمر، وتنهّد ليصبغ على عبارة، «قضي الأمر» المعنى الذي يهدف إليه، واطلعوا على وصية الكونت وملتمسه بين أوراقه، فإن رسالته سترفع إلى الأمبراطور بالتأكيد. وسينظر جلالته في طلب الكونت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعين الاعتبار، ويؤيد شرعية انتساب پيار إلى الكونت، فيصبح عندئذ الوارث الأوحد.

سألت الأميرة التي كانت ضحكتها تنبئ بأنها تصدق كل شيء إلا هذا: والقسم الذي يعود إلينا؟

ـ ولكن يا «كاتيشتي» المسكينة، إن ذلك واضح. سيصبح الوارث الشرعي، فلا يمكن أن تنالي شيئاً. فابحثي إذن عما إذا كانت الوصية والرسالة قد كتبتا، وإذا كانتا قد أتلفتا أم لا. فإذا كانتا منسيتين في مكان ما، لسبب من الأسباب، فيجب اكتشاف مكانهما مهما كلف الأمر لأن...

دون أن تتبدل نظرتها الجامدة، قاطعته الأميرة بابتسامة ساخرة، وصاحت: هراء! إنني امرأة وأنت تعتقد أن كل النساء سخيفات، إن لي من العقل ما يكفي لإقناعي بأن الابن غير الشرعي لا يمكن أن يرث... إنه ابن سفاح.

أرادت بهذه الكلمة أن تبين للأمير حقيقة پيار، لتثبت له فساد نظريته. غير أن الأمير لم يقتنع. قال يناقشها:

ـ ولكن يا كاتيش، كيف لا تفهمين، رغم ذكائك المتقد، أن الكونت إذا منح إذناً يسمح له باعتبار پيار ابناً شرعياً له، فإن هذا يصبح فوراً كونت بيزوخوف، والوارث الأوحد!... فإذا كانت الوصية والرسالة سليمتين لم تتلفا، لن يبقى لك إلا أن تعزي نفسك بأنك قمت بواجبك تجاه الكونت قبل وفاته، إلى آخر ما هنالك، وذلك واضح.

قالت الأميرة، بتلك اللهجة التي تعمد إليها النساء عندما يتعمدن إبراز شيء يعتقدن أن فيه ما يشير إلى الذكاء المفرط أو يتعمدن تجريح الشخص المخاطب به: أنا أعرف أنه حرر وصية. لكني أعرف أيضاً أن تلك الوصية لا قيمة لها. فهل تعتقد أنني حمقاء، يا ابن عمي؟

استطرد الأمير بلهجة منكدة:

www.Maktbah.com

ـ إذا كنت قد جئت للقائك، يا عزيزتي كاترين سيميونوڤنا المحبوبة، فإنني لم أهدف إلى مبارزتك بالفكر والدهاء، بل لأتحدث إليك عن مصالحك كما يتحدث المرء مع إحدى قريباته، مع قريبة حقيقية طيبة. إنني أكرر لك للمرة العاشرة يا عزيزتي، إذا كان الملتمس الموجه للأمبراطور، ووصية الكونت لمصلحة پيار، موجودين بين أوراقه، فإنك لا أنت ولا شقيقاتك يمكنكن أن تعتمدن على الإرث.

وإذا كنت لا تصدقينني، يمكنك السؤال من الأشخاص المختصين المسؤولين. لقد تحدثت منذ حين إلى ديمتري أونوويئيتش، وهو محامي الكونت، ولقد أيد رأيي بكليته.

ويمكن أن أفكار الأميرة اتجهت فجأة وجهة جديدة، إذ امتقعت شفتاها الرقيقتان، رغم تلك النظرة الثابتة التي لم تبارح عينيها الشاخصتين. فلما تحدثت، كان لصوتها وقع أدهشها، قبل غيرها، ما اعتراه من تأثر.

تابعت: سيكون الأمر على خير ما يرام، إنني لم أحلم بشيء ولا أحلم بشيء. ثم أبعدت الكلب الصغير من حضنها وراحت تسوي ثنيات ثوبها. وأردفت: هذه هي إذاً مكافأته لأولئك الذين ضحوا بكل شيء من أجله. لا بأس. إن هذا رائع. لست في حاجة إلى شيء، يا أمير.

فاعترض الأمير بازيل على قولها، دون أن تتنازل بالإصغاء إليه.

ـ لكنك لست وحيدة. هناك أخواتك.

ـ كان يجب أن أعرف من قبل أنني لن أحصد في هذا البيت إلا الحسد والرياء والعقوق. نعم، أسوأ أنواع العقوق.

سألها الأمير، وقد عادت التشنجات العصبية إلى وجنتيه، أقوى من المرة السابقة:

ـ هل تعرفين مكان الوصية؟

twitter @baghdad_library

ـ آه، كم كنت حمقاء! يا لها من حماقة أن يستسلم المرء للناس ويحبهم ويضحي بنفسه من أجلهم! إن النفوس الدنيئة وحدها، هي التي تنجح في هذه الحياة. إنني أعرف مصدر هذه المزعجات.

حاولت أن تنهض، غير أن الأمير استبقاها، فألقت عليه نظرة غضب، وبدا على وجهها أنها تخلت عن كل حسن ظنها في الجنس البشري.

ـ لم نخسر شيئاً بعد، يا صديقتي. إنك تذكرين، يا كاتيش، أن كل ذلك وقع فجأة، في لحظة غضب، وتحت تأثير المرض، ثم أهمل كل شيء ونسي. وواجبنا يا عزيزتي هو تصحيح هذه الخطيئة، وتخفيف عذاب ساعته الأخيرة، بأن نسمح له بإبطال هذه الظلامة، وألّا ندعه يموت وهو يفكر في أنه تسبب بآلام الناس وتعاستهم...

فعقبت كاتيش متممة حديثه: الناس الذين ضحوا بكل شيء من أجله...

وحاولت النهوض من جديد، فعاد الأمير يستوقفها مرة أخرى. أردفت وهي تتنهَّد: هذا هو الأمر الذي لم يقدره حق قدره البتة...

ثم أضافت:

ـ حسناً يا ابن عمي، إن هذا يعلمني بأنه ليس في هذا العالم مجال لانتظار المكافآت، بعد أن حرم العالم من الشرف والعدل. إن هذا العالم الدنيء ملك للخبثاء.

ـ هيا هدئي روعك. إنني أعرف قلبك الطيب:

ـ آه، كلا إنني لست طيبة.

كرر الأمير:

ـ أنا أعرف قلبك الطيب، وأقدر صداقتك، وأرجو أن تبادليني هذا الشعور الطيب. إهدئي ولنتحدث بتعقل، ما دام الوقت لم يدركنا بعد. لعل أمامنا يوماً كاملاً وقد تكون ساعة واحدة. حدثيني بكل ما تعرفينه عن الوصية. اذكري لي أين هي، إذ يجب أن تكوني على علم بذلك. سوف نطلع الكونت

عليها. لعله يكون قد نسيها، فيبدي رغبة في إتلافها. إعلمي جيداً أن رغبتي الصحيحة هي تنفيذ إرادته بكل أمانة وإخلاص، ومن أجل ذلك جئت إلى هنا؛ لقد أتيت لأساعدك وأساعده معاً!

ـ فهمت كل شيء الآن. أنا أرى الجهة التي تسبب كل هذه المضايقات، نعم إنني أرى بوضوح.

ـ لكن الأمر لا يتعلق بذلك، يا عزيزتي.

ـ إنها محميتك، عزيزتك الأميرة دورپيتسكوي، تلك المخلوقة اللعينة، تلك المرأة الذرية التي لا أرتضي بمثلها وصيفة لي...

إننا نضيع الوقت سدى...

ـ دعك من هذا! لقد تسللت إلى هنا في الشتاء الفائت، وروت للكونت عنا جميعاً أكاذيب مروعة، وبصورة خاصة عن صوفي، حتى إنني أخجل من إعادة أقوالها. فنجم عن ذلك أنه رفض رؤيتنا خلال مرضه، ولبث يبعدنا عنه خمسة عشر يوماً. أنا واثقة أنه كتب تلك الوصية الجائرة في تلك اللحظة. ولقد ظننت بكل سخف أن لا قيمة لها!

ـ ها قد وصلنا إلى النقطة الهامة. لمَ لمْ تحدثيني بهذا الأمر من قبل؟

ـ إن الوصية في حافظة أوراق جلدية، مع تعليمات أخرى. والحافظة موضوعة تحت وسادته. وعقبت الأميرة متغاضية عن الردّ على سؤال الأمير:

إنني الآن أرى الأمر بوضوح.

وصرخت غاضبة وقد خرجت عن طورها:

ـ إذا كنت أعترف بخطيئة أحمل وزرها، فإن خطيئتي الوحيدة ستكون الحقد الذي أحمله لتلك الحقيرة. ماذا تفعل هنا؟ لمَ تدخل إلى هذا المكان؟ إنني أسألك! ولكن صبراً، سوف أقول لها رأيي فيها، ولن أتحدث بصوت خفيض!

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني والعشرون

كانت عربة پيار التي أرسلت لنقله تقله وبصحبته أنّا ميخائيلوڤنا، التي قررت مرافقته، واعتبرت ذهابها معه ذا منفعة لها. بينما كانت الأحاديث تدور والمؤامرات تحاك في قاعة الاستقبال وغرفة الأميرة في فندق الكونت بيزوخوف. دخلت العربة فناء الفندق، ومرت على الطريق المفروش بالتبن، فخفت ضجيج عجلاتها. ولاحظت أنا ميخائيلوڤنا أن رفيقها الذي كانت تتوجه إليه بعبارات التعزية نائم في ركنه، فأيقظته وترجلت من العربة بصحبته. ولما صحا پيار، راح يفكر للمرة الأولى في المقابلة التي ستتم بينه وبين المحتضر.

لاحظ أن العربة وقفت أمام سلم الخدم بدلاً من وقوفها أمام المدخل العام. ولما ترجل منها بدوره، لاحظ أن رجلين في ثياب مدنية اختفيا مسرعين في ظلال الجدار. فتوقف لحظة، أتاحت له أن يرى عدداً آخر من الرجال، مختبئين في فراغات الأبواب وخلف الأعمدة. لكنه لم يعرهم التفاتاً، أسوة برفيقته أنا ميخائيلوڤنا وبالخادم المرافق.

وشعر الرجال المختفون كذلك بلا مبالاة القادمين، فسهل ذلك مهمتهم إلى حد كبير. تبع پيار رفيقته التي كانت تصعد بمرونة السلم الحجري الضيق، الذي ينيره ضوء خافت، وهي تحثه على الإسراع باللحاق بها. وعلى الرغم من أن پيار لم يفهم السبب الذي من أجله كان يذهب لمقابلة المحتضر، ولا الداعي لدخوله عن طريق سلم الخدم، فقد ظنّ أن لهفة أنا ميخائيلوڤنا وثباتها كانا كافيين لكي «يكون الأمر ضرورياً». ولما بلغ منتصف السلم، كاد يسقط

www.Maktbah.com

متدحرجاً إلى الأسفل، لاصطدامه بأشخاص يحملون دلاء، كانوا ينزلون السلالم بضجيج وصخب، تحدثهما أحذيتهم العالية. التصق هؤلاء بالجدار ليسمحوا له ولرفيقته بالمرور، دون أن تعبر وجوههم عن أية دهشة، لالتقائهم السادة على سلم الخدم.

سألت أنا ميخائيلوڤنا أحدهم: هل يوصل هذا السلم إلى شقة الأميرات؟

فأجاب الخادم بصوت مرتفع، وكأن المحاذير التي كانت تضطره إلى خفض صوته قد انعدمت: نعم. إن الباب الأيسر يقود إلى جناح الأميرات يا سيدتي الطيبة. ولما وصلا إلى البسطة، قال پيار متسائلاً: لعل الكونت لم يستدعني. ماذا لو قصدت إلى غرفتي الآن؟

توقفت أنا ميخائيلوڤنا لتسمح لـپيار باللحاق بها، وقالت وهي تلمس ذراعه كما فعلت منذ ساعات مع ابنها:

ـ آه، يا صديقي! ثق إنني أتألم مثلك. ولكن كن رجلاً.

فقال پيار، وهو ينظر إليها بوداعة خلال نظارتيه: الحقيقة إنني أحسن صنعاً بالذهاب إلى غرفتي والانسحاب فوراً.

انس الإساءات التي حدثت معك، واذكر أنه أبوك... ولعله في النزع الأخير وأطلقت زفرة، لقد أحببتك من فوري كما أحب ابني. فثق بي يا پيار، ولن أنسى مصالحك.

لم يفهم پيار شيئاً من مرامي حديثها، لكنه ازداد اقتناعاً بأن الأمر «يجب أن يكون كذلك». تبعها بدعة، وكانت قد شرعت تفتح الباب.

كان الباب يؤدي إلى ردهة، وقف في إحدى زواياها خادم الأميرات العجوز، ينسج جورباً من الصوف. لم يكن پيار قد دخل من قبل هذا الجزء من الفندق، أو فكر في وجوده. وظهرت وصيفة تحمل زجاجة ماء على طبق. فتقدمت أنا ميخائيلوڤنا منها، وسألتها عن غايتها، وهي تكرر عبارات:

twitter @baghdad_library

«أيتها الطيبة وعزيزتي». استفسرت عن صحة سيداتها، ثم قادت پيار عبر ممرّ مرصوف بالبلاط، كان الباب الأيسر فيه يؤدي إلى غرفة الأميرات. وكانت الوصيفة في عجلتها، والعجلة كانت على أشدها ذلك اليوم في الفندق، قد نسيت إغلاق ذلك الباب عندما خرجت منه، مما أتاح لـپيار ولأنا ميخائيلوڤنا، أن يلقيا نظرة لا إرادية على الغرفة ومحتوياتها.

شاهدا الأمير بازيل، يتحدث بصوت خفيض وباهتمام بالغ مع كبرى الأميرات. فلما وقع نظرهما على القادمين، ألقى الأمير نفسه إلى الوراء بحركة تدل على نفاد الصبر، بينما نهضت الأميرة فجأة، وصفقت الباب بقوة وغضب.

تلك الحركة تنافي الهدوء الطبيعي، الذي كانت كاتيش تظهر عليه عادة، وكذلك كان رعب الأمير لا يتفق مع هدوئه وخطورة حركاته، حتى أن پيار شعر بالفرق الشاسع، فوقف يسائل رفيقته بنظره. أما أنا ميخائيلوڤنا، فإنها لم تعرب عن أية دهشة بل اجتاحت وجهها ابتسامة غامضة، كانت إلى جانب الزفرة الثائرة التي ندّت عن صدرها، كل ما يشهد بأنها كانت تتوقع كل هذه الأمور.

قالت، وهي تسرع الخطى: كن رجلاً، يا صديقي. سوف أسهر بنفسي على مصالحك.

بقي پيار لا يفقه من تلك المعضلة شيئاً. كان يتساءل في سره: ماذا تريد أن تقول بعبارة: «سأسهر على مصالحك»؟ ولما لم يجد جواباً اكتفى بالقول: «إن الأمر يجب أن يكون كذلك».

وصلا إلى قاعة كبرى نصف مضاءة تتصل بقاعة استقبال الكونت عبر الممشى. كانت من تلك القاعات الفخمة التي يعرفها پيار جيداً والتي لم يكن قد دخل إليها إلا عن طريق السلم الكبير. وكان في وسط تلك القاعة مغطس فارغ، وكان الماء مسفوحاً على قطع السجاد حوله. مرا وهما في طريقهما

www.Maktbah.com

يمشيان على رؤوس أقدامهما، بخادم وشماس يحمل مبخرة. لكن هذين لم ينتبها إليهما. وأخيراً دخلا إلى قاعة الاستقبال التي يعرفها پيار تماماً والتي تمتاز بنافذتين على النمط الإيطالي ومخرج يؤدي إلى الحديقة الشتوية. وكان تمثال نصفي لكاترين الثانية يجثم فوق قاعدة من الرخام وصورة الكونت مسندة إلى قدمي الأمبراطورة الكبيرة.

وكان في القاعة جمع غفير من الناس يتحدثون بأصوات منخفضة، فلما دخلا توقف المتحدثون عن متابعة أحاديثهم وصوبوا إليهما نظراتهم التي راحت تتصفح وجه تلك السيدة الشاحب المهدم بالدموع وإلى جانبها ذلك الفتى الضخم الفارع الطول الذي كان يتبعها بسكون وهو مطرق الرأس.

وحلّت اللحظة الحاسمة فشعت قسمات وجه أنا ميخائيلوڤنا انعكاسات تنذر بحلولها. دخلت دون أن تترك پيار متظاهرة بمظهر السيدة رفيعة الشأن القادمة من پيترسبورغ التي عركتها الأعمال وتسلحت بنشاط جم لم تشعر بمثله من قبل. كانت في تلك اللحظة لا تخاف لقاء أحد، وخصوصاً أنها كانت تصطحب الشخص الذي طلب المحتضر رؤيته. ألقت نظرة سريعة على الحاضرين، فلما وقع نظرها على رجل الدين الذي درج الكونت على الاعتراف أمامه، اقتربت منه بخطى قصيرة متتابعة دون أن تبالغ في الانحناء أو بالتظاهر بشديد التضاؤل أمام مركزه الروحي، فتقبلت بركاته على تلك الصورة المحترمة وبركة مرافقيه من رجال الدين وقالت لهم: حمداً لله لأنكم جئتم في الوقت المناسب. كانت الأسرة تخشى أن يكون الوقت قد أصبح متأخراً...

ثم أضافت بصوت خفيض: إن هذا الشاب ابن الكونت. يا لها من لحظات مروعة!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واقتربت بعد حين من لوران، وقالت له: عزيزي الطبيب، إن هذا الشاب ابن الكونت... فهل هناك أمل؟

رفع الطبيب عينيه إلى السماء وهز كتفيه فكانت تلك الحركات أبلغ من كل جواب. حذت أنا ميخائيلوڤنا حذوه فهزت كتفيها ورفعت إلى السماء عينيها المغمضتين تقريباً، وبعد أن أطلقت تنهيدة عميقة، عادت تلحق بـپيار لتقول له بحنان ممتزج بالحزن والامتثال:

ـ لتكن لك ثقة برحمة الله.

وأشارت إلى كنبة رجته أن ينتظرها عليها، ومضت بهدوء إلى الباب الذي كانت الأنظار كلها شاخصة إليه، ففتحته بحذر وأغلقته وراءها.

مضى پيار إلى الكنبة التي أشارت إليها زميلته وقرر أن يطيعها في كل ما تريد. وما كادت أنا ميخائيلوڤنا تخرج من غرفة المحتضر، حتى تعلقت الأنظار بها متطفلة ومشفقة. ورأى پيار أن كل الموجودين يتهامسون ويشيرون إليه بطرف العين في شيء من الخوف واللوم. شعر بهم يظهرون نحوه عناية لم يعهدها من قبل: فالسيدة المجهولة منه، التي كانت مع رجال الدين، نهضت لتقدم له مكانها، والضابط المساعد التقط قفازه الذي سقط من يده وقدمه إليه، والأطباء سكتوا عند اقترابه، وفسحوا له في الطريق باحترام. أحبّ پيار بادئ الأمر أن يجلس في مكان آخر كي لا يزعج السيدة، وأراد أن يلتقط بنفسه قفازه، وتمنى لو تجنب لقاء الأطباء الذين لم يعترضوا سبيله، لكنه شعر فجأة بشعور غامض يوحي بأن من اللباقة أن تمر تلك الليلة بسلام، وأن يقوم خلالها بالأدوار التي تفرضها الظروف عليه، والتي ينتظرها الجميع منه، وبالتالي أن يتقبل من جميع الموجودين هذرهم وتعزياتهم.

وإذاً فقد سمح للضابط أن يعيد إليه قفازه وجلس في المكان الذي أخلته السيدة مباعداً بين يديه في جلسة بريئة تشبه وضع التماثيل المصرية. قرر في

www.Maktbah.com

نفسه أن كل هذه الأمور يجب أن تمر على هذا النحو وأنه، تجنباً لأي تصرف أخرق من ناحيته، يجب أن يتحاشى ذلك المساء كل ابتكار أو رغبة شخصية وأن يقنع بإطاعة من يوجهونه إطاعة عمياء.

دخل الأمير بازيل بعد دقيقتين مرفوع الرأس وعلى صدره ثلاثة أوسمة ذهبية. كان يبدو كأنه قد ازداد هُزالاً منذ حين، وكانت عيناه أكثر اتساعاً من جري العادة عندما راح يديرهما في القاعة ليعثر على پيار فلما وقعت عيناه عليه، اتجه نحوه مباشرة وأمسك بيده، وهو الأمر الذي لم يتعطف قطّ بعمله من قبل، هزّها بعنف كأنه يختبر مدى مقاومته وقال له:

ـ تشجع، يا صديقي. لقد طلب رؤيتك. وهذا أمر جيد.

تمنى الأمير بازيل أن يبتعد، لكن پيار ظنّ أن من المناسب أن يطرح عليه سؤالاً فقال: كيف حال صحة...؟

تردَّد قليلاً وهو لا يدري هل يجدر به أن يقول الكونت أو يقول أبي.

ـ لقد أصيب بنوبة جديدة منذ نصف ساعة. نعم لقد أصيب بنوبة جديدة، فتشجع يا صديقي...

واستعمل الكونت كلمة «ضربة» للدلالة على النوبة. لذلك فقد بقي پيار فترة طويلة وهو يعتقد أن الأمير بازيل أراد بكلمته معناها الحقيقي. كان عقله شديد الاضطراب قاصراً في تلك اللحظة عن إدراك مرمى تلك الكلمة، لذلك راح ينظر إلى الأمير بهلع حتى تبينت له أخيراً الغاية الحقيقية من تلك الكلمة.

ومضى الأمير بازيل على أطراف قدميه، بعد أن تبادل كلمة مع الطبيب لوران إلى غرفة المحتضر. وكانت تلك الطريقة في المشي جديدة عليه حتى أن كل جسمه راح يهتز تبعاً لخطاه. وجاءت كبرى الأميرات فتبعته وفي أعقابها عدد من الكهنة والشمامسة ورجال الكونت. وحدثت ضجة وراء

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الباب. وفجأة خرجت أنا ميخائيلوفْنا، وهي شاحبة الوجه، تحمل قسماتها طابع الشعور بالواجب، فأسرعت إلى پيار ولمست ذراعيه وهي تقول:

ـ إن الرحمة الإلهية لا تنفد ولا تنضب، ستقام الآن طقوس المسحة الأخيرة، فتعال.

تقدّم پيار بضع خطوات على السجادة السميكة، وبينما كان يجتاز الباب رأى الضابط المساعد، والسيدة المجهولة، وعدداً من الخدم يتبعونه وكأن الأمر قد أصبح في تلك اللحظة في غير حاجة للاستئذان.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والعشرون

تلك الغرفة الفسيحة التي تغطي أرضها قطع السجاد العجمي الفخم والتي قسمت قسمين بقوس مرتكز على أعمدة. كان پيار يعرف تلك الغرفة جيداً. وكان ضوء أحمر قوي، نور كنسي مثل الذي ينبعث خلال صلاة المساء، يضيء أقصى الغرفة المؤثثة بسرير كبير من خشب الأكاجو «شجرة كابلي» ذي ستائر حريرية، وبخزانة كبيرة محاطة بالصور. وتحت الإيقونات التي كانت زينتها الثمينة تلتمع تحت الأضواء كانت هناك كنبة كبيرة من نمط «ڤولتير» وقد غطي مسندها بالوسائد التي كانت أغلفتها النظيفة قد أبدلت منذ حين بأخرى جديدة. وعلى تلك الوسائد البيضاء كالثلج سُجّي جثمان الكونت بيزوخوف وقد لف حتى وسطه بغطاء أخضر نضير اللون. نظر پيار إلى ذلك الوجه النبيل، ذي الجبين العريض، الذي تحيط به هالة متناسقة من الشعر الأبيض، وإلى تلك القسمات التي يعلوها الاصفرار المشوب بحمرة خفيفة، والتي حفرت فيها التجاعيد أخاديد عميقة واضحة.

كانت يدا الكونت القويتان مسدلتين على الغطاء وراحتاهما إلى الأسفل. فركز بعضهم بين سبابته وإبهامه الأيمن شمعة أسندها خادم عجوز انحنى فوق المقعد. بينما أحاط الكهنة بالمقعد وهم يرتدون الألبسة المزينة، وكانت شعورهم تنسدل تحت تيجانهم المرصعة التي كانت على رؤوسهم. أخذوا يرتلون والشموع في أيديهم، ويطوفون ببطء ووقار. جلست الأميرتان وراء هذا الحفل، وفي يد كل منهما منديل تخفي به عينيها، بينما انتصبت أمامها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أختها الكبرى كانيش وعلى وجهها علامات العزم والدهاء، وراحت تنظر بدقة إلى الإيقونات وكأنها تريد القول بأنها إذا أشاحت ببصرها عما تنظر إليه فإنها لا تستطيع أن تسأل عما يصدر عنها. بقيت آنّا ميخائيلوڤنا شديدة الوقار واقفة أمام الباب وإلى جانبها السيدة المجهولة.

وقف الأمير بازيل من الجانب الآخر من ذلك الباب، على مقربة من الكنبة وراء مقعد مزين بالنقوش المحفورة ومغطى بالقطيفة، وقد أدار مسنده إلى ناحيته وأسند يده اليسرى إلى المسند حاملة شمعة مضاءة، بينما كانت يمناه ترسم إشارة الصليب على صدره كلما رفع عينيه إلى السماء أو لمس جبينه بيده.

كان وجهه ينبئ بخشوع واستسلام لمشيئة الله وكأنه كان يقول: «إذا كنتم تدركون شيئاً من هذه المشاعر فذلك شأنكم». ووقف وراءه الضابط المساعد والأطباء والذكور من الخدم يتزاحمون. لقد انتحى الرجال والنساء جانباً آخر كما في الحال في الكنيسة.

كان الحاضرون جميعاً يرسمون إشارات الصليب على صدورهم، فلا يسمع المرء إلا صلوات وطقوساً وترتيلاً خافتاً عميقاً متناسقاً تليه بين فترة وفترة زفرات وحركات أقدام. أعربت آنّا ميخائيلوڤنا عن أنها تفهم وتعي ما تفعل. اجتازت الغرفة الفسيحة حتى بلغت موقف پيار فأعطته شمعة أشعلتها له وراح، مأخوذاً بالملاحظات التي كان يلتقطها على وجوه الموجودين، يرسم بدوره على صدره إشارة الصليب مقتدياً بالآخرين.

كانت «صوفي» الأميرة الشابة ذات «الحسنة» والخدين الورديين واللهجة الساخرة، تتأمل پيار مبتسمة وتخفي وجهها وراء منديلها. عادت بعد فترة طويلة ترفع نظرها إليه ثم تضحك من جديد. كان يبدو عليها أنها لا تستطيع الامتناع عن النظر إليه ولا أن تنظر إليه دون أن تفقد وقارها، لذلك

www.Maktbah.com

فقد تسللت من مكانها واختبأت وراء أحد الأعمدة لتحمي نفسها من الإغراء ومعاودة الكرة.

توقف المرتلون فجأة بينما كان الطقس الديني في أوجه، وراحوا يتهامسون بينما التفت الخادم العجوز الذي كان يسند يد الكونت نحو السيدات ونهض واقفاً، فاقتربت آنّا ميخائيلوفْنا وانحنت فوق المحتضر وأشارت بإصبعها من وراء ظهرها إلى لوران أن يقترب. كان الطبيب الفرنسي مستنداً إلى أحد الأعمدة يرقب الحفل الديني دون أن يحمل في يده شمعة شأن ذوي الأديان المختلفة الذين يقدرون رغم اختلاف دينهم قيمة ما يدور أمامهم من شعائر يؤيدونها بشعورهم الديني دون أن يؤمنوا بها.

اقترب الطبيب بخطوات ثابتة ساكنة، خطوات الرجل الذي في مقتبل العمر، وانحنى على المريض فأخذ يده بين أصابعه البيضاء المعقدة وراح يتحسس النبض بصمت وانتباه. أسقي المريض شراباً. ثم عاد كل إلى مكانه، وعاد الكهنة إلى إحياء طقسهم الديني. لاحظ پيار أن الأمير بازيل ترك مكانه خلال تلك الفترة وبدلاً من أن يتجه نحو المريض مر من أمامه واقترب من كبرى الأميرات، وبعدئذ توجه كلاهما إلى السرير الكبير الضخم ذي الستائر الحريرية الذي كان يتوسَّط القاعة، واختفى كلاهما وراء باب المضجع ثم عاد كلاهما الواحد وراء الآخر حوالى نهاية الحفلة، ومضيا كل إلى مكانه. وكان پيار مقتنعاً بأن كل ما يدور أمامه ذلك المساء لا يمكن إلا أن يكون كذلك. ولهذا السبب لم يعلق على تلك الحركة وذلك التصرف أية أهمية تذكر.

اقترب أحد الكهنة من الكونت وتوقف الترتيل الديني، وهو في استلقائه لا يفضح بادرة واحدة من بوادر الحياة، فهنأه بالقداس الذي أقيم له وتكأكأ الموجودون كلهم حول الكونت. وسمع پيار ضجيج الأقدام وهمسات يطغى عليها صوت آنّا ميخائيلوفْنا وهي تقول:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يجب نقله إلى سريره إذ لا يمكن إجراء شيء وهو في مكانه هذا!...

وأحاط الأطباء والأميرات والخدم بالمريض إحاطة كلية، حتى أن پيار لم يعد يرى رأسه الشاحب المضرج بحمرة خفيفة والمكلل بشعر أبيض، ذلك الرأس الذي ظل ينظر إليه طوال الاحتفال الكنسي رغم أن نظرته كانت في كثير من الأحيان شاردة، خمن من حركات الأشخاص حول الكنبة أنهم يحملون المحتضر لنقله إلى سريره، وسمع صوت أحد الخدم يغمغم:

ـ أمسك بذراعي، سوف تدعه يسقط...

وأصواتاً أخرى تقول:

ـ من الأسفل... واحد آخر...

وارتفعت أصوات الخطى واللهثات وكأن الحمل كان أثقل من طاقة الحمالين.

مرّ حاملو الجثمان ومن بينهم آنّا ميخائيلوڤنا أمام پيار الذي تمكّن أن يلقي نظرة خاطفة من فوق الأعناق، فرأى هالة الشعر الأبيض الأجعد الذي يحيط برأس الكونت وكتفيه المتينتين العريضتين، وصدره المتسع الممتلئ وهم يحملونه من تحت إبطيه. كان دنو الموت لم يبدل شيئاً من ذلك الرأس الذي لا يختلف أبداً عن الذي رآه پيار منذ نيف وثلاثة أشهر عندما غادر موسكو إلى پيترسبورغ مع فرق واحد، وهو أنه كان في تلك اللحظة يهتز وفق خطوات حامليه، وكانت نظرته الحائرة الشاردة لا تعرف أين تتوقف.

عندما وصلت آنّا ميخائيلوڤنا، تعالى ضجيج خلال دقائق حول السرير ثم ابتعد الناس، فتلمّست ذراع پيار وقالت له: تعال. فتبعها حتى السرير حيث أجلس المريض عليه بشكل أدعى للاحترام والوقار، شكل يتناسب والطقس الديني الذي أجري له منذ حين. وكان عدد من الوسائد قد رصت وراءه لتجعل جذعه منتصباً، بينما بسطت يداه على طول راحتيهما فوق الغطاء الحريري

www.Maktbah.com

الأخضر على مسافة إحداهما من الأخرى. فلما اقترب پيار حدجه الكونت بنظرة من تلك النظرات التي لا يمكن لكائن حي في الدنيا أن يحدد قيمتها، فهي إما أنّها لا تعني شيئاً مطلقاً أكثر من حاجة الإنسان الذي يضطر إلى فتح عينيه أن يلقي ببصره إلى جهة ما، وإما على العكس، أن تكون محملة بالمعاني مفعمة بها.

توقف پيار متردداً لا يدري ماذا يفعل في ذلك الموقف، والتفت إلى رفيقته مستفسراً. فأشارت إليه بنظرها إلى المحتضر وزمت شفتيها على شكل قبلة، فتبع پيار النصيحة ومد عنقه على مهل متجنباً المس بالغطاء، وألصق شفتيه بيد المريض المكتنزة. لم تتحرك اليد ولم تتقلص عضلة واحدة في وجه المريض فعاد پيار يستشير آنّا ميخائيلوڤنا، التي أومأت له أن يجلس على المقعد قرب السرير فجلس عليه متأثراً، وعاد إلى الاستفسار بالنظر من آنا ميخائيلوڤنا عما إذا كان أحسن صنعاً بما فعل وفهم مرادها، فلما هزت له رأسها موافقة عاد إلى جلسته الكهنوتية الساذجة الشبيهة بالتماثيل المصرية وهو آسف جداً لرؤية جسمه الضخم يشغل كل هذا الفراغ، يحاول الظهور في أصغر حجم ممكن. ولما رفع عينيه إلى وجه الكونت، رأى أن هذا يحدق بثبات إلى المكان الذي غادره منذ حين محمولاً.

وأما آنّا ميخائيلوڤنا فكان مظهرها يدل على الأهمية البالغة التي تقلقها على تلك المقابلة النهائية بين الأب والابن، وبعد دقيقتين خالهما پيار ساعتين طويلتين، انتفض وجه الكونت الأجعد فجأة وازداد تقلصاً، والتوى فمه الجميل محدثاً صوتاً أجش غير واضح، وعندئذ فقط فهم پيار أن أباه على وشك الموت. راحت آنا ميخائيلوڤنا تتفحص حدقة المحتضر محاولة معرفة رغبته من نظرته. أشارت بيدها إلى پيار ثم إلى الشراب فالغطاء وغمغمت بصوت منخفض تلفظ اسم الأمير بازيل. غير أن قسمات وجه المريض وعينيه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت توحي بنفاد الصبر. قام بمجهود جبار لينبه الخادم الذي كان لا يفارق سريره من جهة القدمين.

غمغم الخادم: إن سعادته يرغب في أن نقلبه على جنبه الآخر.

وبدأ يحاول القيام بتلك المهمة الشاقة التي تقتضيه تحريك جسد ضخم كبير فاقد الإحساس، فنهض پيار ليساعده في مهمته.

وبينما كان پيار والخادم يبدلان وضعية الكونت، راح هذا يحاول عبثاً جذب ذراعه التي بقيت منسدلة لا حياة فيها وراء ظهره. ولعل المريض شاهد نظرة الذعر التي ألقاها پيار على ذراعه المشلولة أو أن فكرة أخرى خطرت في باله، لأنه راح يتأمل ذراعه الجامدة ثم وجه پيار المذعور ليعود بنظره إلى ذراعه. وأخيراً افتر ثغره عن ابتسامة غامضة لم تكن تتفق مع طالعه النشيط، بل تبدو سخرية مرة من عجزه التام. شعر پيار فجأة بانقباض في صدره ودغدغة في أنفه، وما لبثت الدموع أن انهمرت من عينيه.

في تلك اللحظة كان الكونت مستديراً بوجهه إلى الجدار يتأوه.

ووصلت إحدى الأميرات تحل محل أنا ميخائيلوڤنا، فقالت هذه لـپيار:

ـ لعله أغفى قليلاً، هيا بنا!

فتبعها پيار صامتاً.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع والعشرون

كان الأمير بازيل وكبرى الأميرات وحدهما في القاعة الكبيرة، وكانا جالسين قرب لوحة كاترين الثانية يتحادثان بحمية. لكنهما توقفا عندما شاهدا پيار ورفيقته.

غمغمت الأميرة: لا أستطيع رؤية هذه المرأة.

وخيل لپيار أن الأميرة أخفت شيئاً ما.

قال الأمير مخاطباً أنا ميخائيلوڤنا: إن كاتيش تقدم الشاي في القاعة الصغيرة فاذهبي إلى هناك يا أنا ميخائيلوڤنا وتناولي شيئاً، وإلا فلن تصمدي يا صديقتي المسكينة.

ولم يوجه كلمة واحدة إلى پيار، لكنه ضغط على ذراعه بحنان أسفل الكتف. واقتادت أنا ميخائيلوڤنا پيار إلى الغرفة الصغيرة...

كان الطبيب لوران واقفاً أمام طاولة محملة بأدوات الشاي وألوان الطعام الباردة، وقد انتظم حولها كل الأشخاص الذين قضوا الليل في الفندق. قال الطبيب وهو يفرغ كأسه الرقيقة المصنوعة من الخزف الصيني بجرعات صغيرة:

ـ ليس هناك ما يشحذ الهمة بعد ليلة بيضاء أكثر من قدح من هذا الشاي الروسي الممتاز.

كان يتحدث بحيوية دون أن يبدو عليه شيء مما يعتلج في صدره. تذكر پيار تلك القاعة الصغيرة المستديرة ذات المرايا والنضد. تذكر أنه كان في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

السنوات القديمة الماضية، عندما كان الكونت يحيي حفلات راقصة، يفضل الجلوس في هذا المكان ليراقب السيدات وهن في أبهى زينتهن، عندما يخطين بتيه أمام تلك المرايا التي تحيط بها أضواء مشعة، فيتأملن هندامهن وأكتافهن العارية، وأعناقهن التي تحيط بها الجواهر والماسات الفاخرة الثمينة، فتنعكس الأضواء عليها وتشع إشعاعات تخطف الأبصار. ورأى أن شمعتين بسيطتين كانتا تضيئان تلك القاعة الصغيرة بالذات بدلاً من أنوار أمس الساطعة، وأن أقداحاً وصحافاً مبعثرة على تلك النضد التي يحيط بها أشخاص من كل نوع، مرتدين الألبسة العادية، يهمسون في الظلام وهم يبرهنون بأقوالهم وإشاراتهم على أنهم لم ينسوا بعد الحدث الأليم الذي وقع منذ حين في غرفة النوم المجاورة. لم يأكل پيار شيئاً رغم شهيته القوية.

وبينما كان يلتفت إلى آنّا ميخائيلوڤنا ليسألها بنظرة كعادته، رآها تسير على أطراف قدميها نحو القاعة الكبيرة، فقدر من جديد أن الأمر «يجب أن يكون كذلك»، وقرر بعد لحظة تردد أن يتبعها. ولما تخطى الباب، رآها منتصبة أمام كاتيش وهي محتدمة معها بنقاش عنيف بصوت خفيض. كانت السيدتان تتكلمان معاً في وقت واحد.

قالت كاتيش، وهي مضطربة كما كانت منذ حين عندما صفقت الباب في وجه آنّا ميخائيلوڤنا: اسمعي، يا أميرة... أظنني أعرف ما هو محتشم وما هو غير محتشم.

غير أن آنّا ميخائيلوڤنا أجابت ملمّحة، وهي تقف بين مخاصمتها والطريق إلى غرفة النوم:

ـ فكري يا عزيزتي في إن تصرفك سيزعج عمنا المسكين الذي هو في أمسّ الحاجة إلى الراحة! إن التحدث معه في مثل هذا الوقت عن أشياء تخص هذا العالم بينما هيئت روحه للصعود إلى العالم العلوي...

www.Maktbah.com

كان الأمير بازيل جالساً على مقعده لافاً ساقاً على ساق كعادته، وكان حذاءاه المترهلان ينتفضان بحركات تشنجية، وقد اتخذا شكلاً غريباً، فكانا يبدوان عند أسفلهما أكثر عرضاً من حالتهما الطبيعية. وفيما عدا ذلك، كان يبدو عليه عدم الاهتمام بحديث السيدتين. قال:

ـ هيا، يا آنّا ميخائيلوڤنا الطيبة، دعي كاتيش وشأنها. إنك لا تجهلين مدى حب الكونت لها.

فقالت كاتيش تخاطب الأمير بازيل، وهي تشير إلى حافظة جلدية مرصعة كانت ممسكة بها في يدها: أنا لا أعرف شيئاً عما جاء في هذه الورقة. على كل حال إن الوصية الحقيقية موجودة في مكتب الكونت. أما في هذه الحافظة، فكل ما فيها عبارة عن ورقة لا قيمة لها.

وحاولت أن تتخطى آنّا ميخائيلوڤنا. لكن هذه قفزت قفزة كبيرة ولحقت بها، وعادت مجدداً تمنعها من متابعة السير.

قالت، وهي تستحوذ على الحافظة الجلدية بيد ثابتة تفصح بأنها لن تتخلى عنها بسهولة: إنني أعرف ذلك يا عزيزتي، يا أميرتي الطيبة، ولكني أرجوك بل أتوسل إليك أن لا تزعجي الكونت، وأن توفري عناء ذلك عليه. أستحلفك الله.

فضلت كاتيش ألّا تجيب لأنها لو فتحت فهمها لما نطقت بدون شك بكلمات ترضي آنّا ميخائيلوڤنا، لذلك قام بين المرأتين نضال صامت حول ملكية الحافظة، كانت آنّا ميخائيلوڤنا خلاله تقاوم بشراسة بينما بقي صوتها محتفظاً بلهجته المهذبة. هتفت تقول:

ـ پيار يا صديقي، تعال... أعتقد أنه ليس غريباً عن هذا الأمر العائلي. ما رأيك، يا أميري؟

twitter @baghdad_library

صاحت كاتيش فجأة، بصوت راعد، بلغت أصداؤه مسامع كل من كان في القاعة الصغيرة فأفزعت السامعين:

ـ ماذا يا ابن عمي، إنك لا تقول شيئاً! تحتفظ بالصمت بينما يعلم الله بأمر من يتدخل في شؤوننا، ويسمح لنفسه بإثارة فضائح على عتبة المحتضر!...

وتابعت بصوت غاضب: أيتها الدساسة!

وجذبت بكل قواها حتى أن آنّا ميخائيلوفْنا اضطرت أن تخطو إلى الأمام بضع خطوات وتقبض على ذراع الأميرة خشية أن تفلت الحافظة من يدها.

صاح الأمير بازيل باستغراب واستنكار: أوه! إن هذا شاذ! دعي الحافظة أقول لك!

فأطاعت كاتيش ذلك الأمر الحاسم وصاحت: أنت أيضاً!

لكن آنّا ميخائيلوفْنا لم تخضع للأمر. فقال الأمير:

ـ دعي ذلك أقول لك. إنني أتكفل بكل شيء. سأذهب بنفسي لرؤيته وسأسأله... نعم، أنا!... يجب ألّا تتقي بذلك.

فاعترضت آنّا ميخائيلوفْنا: ولكن يا أميري، لقد أقيم له منذ حين أكبر طقس ديني، فدعه في راحة. ما رأيك، يا پيار؟

كان الفتى قد اقترب منهما وراح ينظر بذهول إلى وجه الأميرة المنقلب السحنة، وخدي الأمير المتقلصين.

صرخ الأمير بازيل بحزم وقسوة: ستكونين مسؤولة عن كل ما يحدث. فكري في ذلك. إنك لا تعرفين ماذا تفعلين.

وصرخت كاتيش:

ـ أيتها المرأة الملعونة!

ثم ارتمت فجأة على آنّا ميخائيلوفْنا، وانتزعت الحقيبة من يدها. فأطرق الأمير بازيل برأسه وسقط ذراعاه إلى جانبيه.

www.Maktbah.com

فتح الباب في تلك اللحظة، ذلك الباب الرهيب الذي استأثر طويلاً بنظرة پيار، والذي كثيراً ما كان يوارب بهدوء، فتح في تلك اللحظة بعنف حتى اصطفق بالجدار. وظهرت ثاني الأميرات التي أسرعت إليهم وهي تضرب كفاً بكف وتصيح:

ـ ماذا تفعلون! إن الكونت يموت، ومع ذلك تتركونني وحيدة.

سقطت الحافظة من يدي كاتيش، فانحنت آنّا ميخائيلوڤنا مندفعة والتقطتها بقوة وركضت إلى غرفة النوم؛ فتبعها الأمير وكاتيش بعد أن سيطرا على اضطرابهما. ولم تمض لحظات، حتى غادرت كاتيش غرفة النوم شاحبة الوجه ممتقعته، تعض شفتها السفلى. فلما وقع نظرها على پيار، لم تستطع السيطرة على غضبها فصرخت في وجهه قائلةً:

ـ لينشرح صدرك. هذا الذي كنت تريده.

واختنق صوتها بالعبرات، فأخفت وجهها بمنديلها، وركضت مبتعدة.

وظهر الأمير بازيل بدوره مترنحاً في مشيته، وارتمى على الكنبة التي كان پيار جالساً عليها، وهو يحجب عينيه بيده. ولاحظ پيار أن وجهه شديد الارتعاش وأن ذقنه كانت ترتعد وكأنه واقع تحت تأثير حمى خبيثة.

قال الأمير، وهو يمسك بمرفق پيار: آه، يا صديقي!

كان صوته ينبئ بنبرة إخلاص وصراحة لم يعهد پيار مثلها فيه من قبل. وتابع الأمير يقول: آه يا صديقي، كم من خطيئة ترتكب وخدعة ودسيسة. وكل ذلك من أجل ماذا؟ لقد تجاوزت الستين، يا صديقي... وإنني... إن كل شيء ينتهي بالموت، كل شيء... والموت يا صديقي أمر رهيب.

اختنق صوته بموجة من البكاء والدموع.

خرجت آنّا ميخائيلوڤنا من الغرفة بدورها، واقتربت من پيار بخطوات خافتة وقالت تناديه:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ پيار.

فنظر إليها پيار مستفسراً، وإذا بها تنحني على جبينه تقبله وتبلله بدموعها. وقالت بعد لحظة سكوت: لقد قضى...

راح پيار يحدق إلى وجهها خلال نظارتيه، بينما أردفت تقول:

ـ ها، سأصحبك. حاول أن تبكي إذ ليس مثل الدموع ما ينفث الكرب.

قادت پيار إلى غرفة مظلمة، فسرّ هذا عندما رأى أن أحداً لن يرى وجهه، وتركته لحظة هناك ثم عادت لتجده معتمداً رأسه على ذراعه غارقاً في نوم عميق.

وفي صباح اليوم التالي قالت له: إنها خسارة جسيمة حلت بنا جميعاً، نعم يا عزيزي. إنني لا أتحدث عنك. لكن الله سيساعدك لأنك شاب وقد أضحت بين يديك الآن ثروة هائلة. لم تُفتح الوصية بعد. إنني أعرفك معرفة كافية تجعلني متأكدة أن الثروة المنتظرة لن تدير رأسك. لكن ذلك يفرض عليك واجبات جديدة فيجب أن تكون إنساناً.

بقي پيار صامتاً، فتابعت الأميرة تقول:

ـ ربّما أقول في المستقبل إنني لو لم أكن موجودة مساء أمس لكان الله وحده يعلم بما كان سيحدث. لقد كان عمي أول أمس يعدني بأن لا ينسى بوريس. لكنه لم يجد متسعاً من الوقت، فآمل يا صديقي العزيز أن تنفذ رغبة أبيك.

لبث پيار مشدوهاً لا يفهم شيئاً، واكتفى بالنظر إلى أنّا ميخائيلوڤنا وقد احمرَّ وجهه وبان الارتباك على قسماته.

عادت الأميرة دروپتسكوي بعد ذلك اللقاء والحديث، إلى منزل آل روستوف وأوت إلى سريرها. وبعد أن نالت قسطاً من الراحة، راحت تسرد على مدعويها ومعارفها تفاصيل دقيقة عن آخر لحظات الكونت بيزوخوف.

www.Maktbah.com

كان المرء، إذا أصغى إليها، يفهم من كلامها أن الكونت مات الميتة التي كانت هي نفسها تتمناها لنفسها، إذ إن نهايته كانت مثيرة للشعور بل عبرة للناس.

أعربت في حديثها عن تأثرها البالغ باللقاء الأخير الذي تم بين الابن وأبيه، حتى أنها لم تتمالك عندما فكرت في ذلك اللقاء من ذرف الدموع. ما كانت ترى أو تستطيع أن تميز الذي تصرف خيراً من الآخر في تلك المناسبة الأليمة: أكان الأب الذي تذكر كل الناس في تلك اللحظة الحاسمة وكل الأشياء المحيطة به، فوجه إلى ابنه كلمات آية في الحنان والعطف، أم پيار الذي صهره الحزن والألم رغم محاولته إخفاءهما بعناية كي يوفر على أبيه مضاعفة آلامه.

كانت آنّا ميخائيلوڤنا تقول: لقد كان المشهد أليماً لكنه لم يخل من الفائدة. إنه يرفع الروح ويسمو بها. إن رؤية رجال مثل الكونت العجوز وابنه البار تهز المشاعر.

وتناولت في حديثها أيضاً تصرفات كاتيش والأمير بازيل بلهجة فيها هجاء وتوبيخ. لكنها في تلك المرة كانت تتحدث بصوت خفيض، وسرية مطلقة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس والعشرون

منذ عهد پول الأول، حيث أُبعد الأمير نيكولا أندرييڤيتش پولكونسكي إلى أراضيه، يعيش في الريف مع ابنته ماري والآنسة بوريين الوصيفة المرافقة للأميرة الشابة. كان ينتظر في مقاطعته أليسياغوري أي الجبل الأقرع، وصول الأمير الشاب أندريه وزوجته من يوم إلى آخر، دون أن يغفل مع ذلك النظام الدقيق الذي يتبعه في بيته الكبير الذي يسكن فيه. وقد ظل الجنرال الأعلى، الأمير پولكونسكي، ملك بروسيا كما كان يسميه العارفون في الأرياف معتكفاً منذ ذلك الوقت. فلما فتح له العهد الجديد طريق العاصمتين، ظل مثابراً على انزوائه في أملاكه، زاعماً أن الأشخاص الذين يريدون لقاءه يستطيعون قطع أربعين ميلاً للوصول إليه حيث هو، في مقاطعة الجبل الأقرع. أما هو، فلم يكن في حاجة إلى شيء أو إلى أي شخص.

كان يصرح دائماً بأن البطالة والاعتقادات الخرافية كانت المصدر الأوحد لكل الشرور، وأن الفضيلتين الوحيدتين في العالم هما: الذكاء والعمل. فكان يشرف بنفسه على تثقيف ابنته وإنماء تينك الفضيلتين الأساسيتين في نفسها. استمرّ يعطيها دروساً في الجبر والهندسة حتى بلغت العشرين من عمرها، وجهد دائماً على ألّا يدعها تمضي فترة واحدة من أوقاتها دون عمل. وكان بدوره لا يهدأ أبداً: فكان يكتب مذكراته ويناقش ويحل مسائل رياضية عالية، ويصنع الأواني الفخارية، ويعمل في بستانه، ويراقب أبنيته الكثيرة لأنه كان بنّاء كبيراً.

www.Maktbah.com

كان وجوده منظماً بدقة، حتى في أدق المراحل واللحظات، لأنّ النظام هو الشرط الأساسي الأول في نشاطه وعمله، فكان بذلك يجلس إلى الطاولة في مواعيد ثابتة يراعي فيها ليس الساعة فحسب بل الدقيقة أيضاً. ولم يكن قط قاسياً، غير أن صلابته الملازمة التي لم تكن تفارقه قطّ، كانت توحي إلى من حوله ابتداء من ابنته وحتى أصغر الخدم احتراماً مخيفاً. لم يكن يستطيع فرضه أشد الناس قسوة.

وعلى الرغم من أنه كان محروماً من كل نفوذ جديد، فإن كل حاكم جديد للمقاطعة كان يعتقد عند وصوله أو قبل مغادرته المقاطعة ليحل محل سلفه، بضرورة الشخوص إلى منزل الأمير وتقديم تمنياته وواجبات الاحترام إليه. فكان ذلك الموظف الكبير يضطر إلى الانتظار في قاعة الاستقبال الفسيحة، أسوة بالمهندس والبستاني والأميرة ماري نفسها، ريثما تحين الساعة الثابتة لنهوض الأمير من فراشه، وعندئذ كان المنتظرون يشعرون، دون استثناء، شعوراً بالاحترام ممزوجاً بإحساس بالرهبة، عندما تفتح درفتا الباب الضخم المؤدي إلى مكتب الأمير ليبدو هذا على عتبته بشعره المستعار وقامته الصغيرة، قامة عجوز ذي يدين معروقتين وحاجبين أبيضين كثين يحجبان كلما قطبهما نظرته المشعة ببريق الذكاء والنشاط.

صباح اليوم الذي كان ينتظر وصول الزوجين الشابين ذهبت الأميرة ماري، إلى قاعة الانتظار كالعادة، في الساعة المعينة لتمنيات الصباح، ورسمت كالعادة إشارة الصليب على صدرها وقرأت دعاء صامتاً وابتهالاً سرياً. كانت كل صباح تدخل تلك القاعة وتبتهل إلى الله أن يؤازرها خلال المقابلة الرهيبة المتوقعة، فكان خادم عجوز ينهض دون ضجة فيستقبلها ويهمس لها قائلاً: تفضلي بالدخول.

كان دوي عجلة دائرة دورة رتيبة يسمع بوضوح من وراء الباب. جذبت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الأميرة بخوف مصراع الباب الذي كان يفتح بسهولة، وتوقفت على العتبة. فالتفت الأمير إليها، لكنه لم يتوقف عن عمله.

كانت غرفة الأمير الفسيحة تزدحم بعدد من الأشياء التي تحمل طابع الاستعمال الدائم. فالطاولة الكبيرة كانت تنوء بالكتب والمخططات، وخزائن الكتب العالية تعج بمحتوياتها، وفي قفل كل منها مفتاحه المناسب؛ وعلى نضد عال يصلح للكتابة إذا كان الشخص واقفاً، كان دفتر كبير مفتوحاً وبجانبه أدوات الكتابة. أما جهاز صنع الأواني الفخارية، فقد كانت الأدوات المختلفة المبعثرة فوق النشارة التي تغطي مساحة حوله، تشهد بنشاطه المستمر المتنوع المضبوط. كانت حركات ساقه على الدولاب وضغط يده النحيلة الثابتة يشهدان بالقوة الفائقة التي يمتاز بها الأمير في كهولته.

أدار العجلة بقدمه عدة دورات أخرى، ورفع ساقه عن المحرك ومسح «ازميله» وألقاه في جيب جلدي معلق إلى الجهاز، ثم اتجه نحو الطاولة، واستدعى ابنته، فقدم لها وجنته المتغضنة لتقبلها، وعلا صوته الصارم الذي تلطفه نظرة مفعمة بالحنان، قائلاً أن يباركها ـ لأن عادته جرت على استنكار مثل هذه الطقوس ـ.

ـ هل أنت على ما يرام؟... اجلسي إذن.

ودفع بقدمه مقعده الوثير وتناول دفتراً من دفاتر الهندسة وكتب بخط يده فيه. ثم تصفحه وهو يشير بظفره المتين إلى المقطع الذي يريد منها دراسته وحفظه: هذا هو واجبك غداً.

فانحنت الأميرة على الدفتر، بينما قال العجوز فجأة: انتظري... لدي رسالة لك.

وراح يبحث في جيب محدث في الطاولة عن الغلاف المنشود الذي كان يحمل كتابة نسائية.

www.Maktbah.com

ألقى الرسالة على الطاولة، فالتقطتها الأميرة بانفعال وضمتها إلى صدرها وقد احمرّ وجهها فجأة.

قال الأمير، وقد افتر ثغره عن ابتسامة باهتة كشفت عن أسنان صفراء متينة: أهي من «هيلوبيزتك»؟

فأجابت الفتاة بابتسامة ونظرة خجولة:

ـ أجل، إنها من جولي.

قال الأمير: سأدع رسالتين أخريين تمران، لكنني سأقرأ الثالثة. إنكن تكتبن لبعضكن سخافات أتوجس منها خيفة. لذلك سأقرأ الثالثة.

أجابت الأميرة، ووجهها يزداد احمراراً وهي تمد له يدها بالرسالة: يمكنك قراءة هذه، يا أبي.

فأجاب الأمير بلهجة حاسمة، وهو يبعد الرسالة عنه: الثالثة. قلت الثالثة!

جذب إليه دفتر الهندسة، ثم اتكأ على الطاولة وشرع يشرح وهو ينحني فوقه، مستنداً بإحدى يديه إلى مسند المقعد الذي جلست عليه ابنته:

ـ انتبهي يا آنسة، انظري إلى هذه المثلثات، إنها متساوية. لذلك اعتبري أن زاوية آب خـ....

كانت الأميرة، في جلستها تلك، تحسّ برائحة التبغ تنفذ إلى صدرها، وتشعر بالعفن الحاد الذي ينبعث من أجسام الكهول يختلط بأنفاسها. كانت ماري تختلس بين الحين والحين نظرات فزعة إلى عينيه الملتمعتين القريبتين من وجهها، لكنها لم تكن تفهم شيئاً لأن الخوف كان يمنعها من فهم شرح أبيها مهما بلغ من وضوح وإسهاب.

وسواء أكان الخطأ مصدره الأستاذ أم التلميذ، فإن ذلك المشهد يتكرر كل يوم: تضطرب عينا الفتاة وتعجز عن رؤية الأحرف والخطوط وسماع البيانات، فلا ترى إلا ذلك الوجه الصارم القريب من وجهها، ولا تحس إلا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بأنفاسه وبتلك الرائحة التي تنبعث منه، ولا تفكر إلا في الفرار بأسرع ما يمكن واللجوء إلى غرفتها لتدرس أمثولتها بهدوء، وتحل النظرية الهندسية باطمئنان. وكان العجوز يبرم بها وينفد صبره فيبعد المقعد ويقربه بصخب. لكنه في كل مرة كان ينتهي به الأمر إلى الثورة والانفعال والتأنيب، فيلقي بالدفتر إلى كل الشياطين!

أخطأت ماري في جوابها، فصاح الأمير العجوز وهو يلقي بالدفتر بعيداً ويستدير بغضب:

ـ هل يعقل أن تكون فتاة أكثر غباوةً منك!

غير أنه نهض، بعد ذلك، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم اقترب من ابنته وأخذ يداعب شعرها ملاطفاً، ثم عاد إلى مقعده وباشر يشرح نظريته مجدداً.

وبعد أن أخذت التلميذة ملاحظات على النظرية سجلها على الدفتر، استعدّت للخروج، فقال الأمير: يجب أن تكوني دؤوبة، يا أميرة. إن الرياضيات أهم شيء في الوجود إنني لن أسمح لك أن تكوني سخيفة كسيداتنا النبيلات في هذا العصر. سوف تشعرين بميل إلى العلوم الرياضية بعد قليل من الصبر.

ثم تابع، وهو يربت وجنتيها: وبذلك فقط تخرج الخرافات من رأسك إلى الأبد.

همت الأميرة بالخروج، لكنه استوقفها بإشارة، ووضع على النضد المرتفع كتاباً جديداً لم تقطع أوراقه بعد، وقال: وهذا أيضاً واحد من «مفتاح السر» ترسله لك صديقتك هيلوييز. إنه كتاب يؤيد العقيدة الدينية. إنني لا أتدخل في معتقدات أحد. وقد تصفحته فيمكنك أخذه. إذهبي الآن، إذهبي.

وربت كتفها، وأغلق بنفسه الباب وراءها.

رجعت الأميرة ماري إلى غرفتها وعلى وجهها أمارات حزن لم تكن

www.Maktbah.com

تفارقه، إنما كانت تضفي على ذلك الوجه محدود الجاذبية والفتنة ستراً من البشاعة. جلست إلى مكتبها الذي تراكم فوقه خليط من الكتب والدفاتر والمخطوطات يشهد بأنها على نقيض أبيها، لا تحب النظام الذي كان مهووساً به وألقت دفتر الهندسة جانباً، وراحت تفض الرسالة التي بعثت بها صديقة طفولتها المفضلة بصبر نافد لتطلع على ما أوردت فيها. ولا يفوتنا هنا أن ننوه بأن صديقتها جولي، هي بعينها جولي كاراغين التي مرّ بنا الدور الذي لعبته في حفلة آل روستوف.

كتبت جولي ما يلي:

«عزيزتي الصديقة الممتازة. الغياب أمر مخيف مرعب! لقد قلت دوماً إن نصف وجودي وسعادتي كامن في شخصك وإنه على الرغم من المسافة التي تفرق بيننا، فإن قلبينا متصلان برباط لا يُفصم. إن قلبي يتمرد على القدر فلا أستطيع، رغم المسرات التي تحيط بي والتي تساعدني على الترويح عن نفسي، أن أهزم وأبدد لوناً من الحزن الدفين الذي أحسّ به قابعاً في أعماق قلبي منذ فراقنا.

لِمَ يا تُرى لم نجتمع هذه المرة كما حدث لنا ذلك الصيف في غرفتك الكبرى على الكنبة الزرقاء، كنبة الاعترافات؟ لمَ لا أستطيع منذ ثلاثة شهور أن أحصل على قوى معنوية جديدة أستمدها من نظرتك شديدة الوداعة، شديدة الهدوء، وشديدة التعمق، تلك النظرة التي أحببتها حباً جماً، والتي يخيل إلي أنها ماثلة أمامي ساعة أكتب إليك هذه الرسالة!».

رفعت الأميرة نظرها، عند سماع هذا المقطع، إلى مرآة موجودة إلى يمينها في فراغ بين نافذتين. فعكست المرآة صورة هزيلة محزنة راحت عيناها المكتئبتان تتأملانها بكثير من الأسى. قالت في سرها: «إنها تمتدحني» وأشاحت بوجهها عن المرآة لتتابع القراءة. لكن جولي لم تكن تغدق المديح

twitter @baghdad_library

الكاذب على أحد وخصوصاً على صديقتها. إذ إن عيني الأميرة الواسعتين العميقتين كانتا أحياناً تشعان بإشعاعات دافئة تسبغ على وجهها النحيل جاذبية يعجز الجمال عن مثلها.

ولما كانت الأميرة ماري تعرف أن تلك النظرة الدافئة لا تشع من عينيها إلا في أوقات تكون فيها أبعد الناس عن التفكير في نفسها، لذلك كانت لا ترى تلك البادرة أبداً ولا تعتقد بوجودها. كانت ككل الناس تقريباً، إذا وقفت أمام المرآة، اتخذت طابع الترقب اللاإرادي الذي يرتسم عادة على كل وجه أمام المرآة، فكان ذلك الطابع يشوّه حسنها. وتابعت قراءة الرسالة:

«إن موسكو كلها تتحدث عن الحرب، وإن واحداً من أخوي أصبح الآن خارج البلاد، أما الثاني فإنه مع فرقة الحرس التي تتجه نحو الحدود. إن أمبراطورنا العزيز قد ترك پيترسبورغ وهو يرمي، على ما نما إلي، إلى تعريض ذاته السنية لخطر الحرب. فعسى أن يقدر الله أن يُسحق الوحش الكورسيكي الذي أقلق سلام أوروبا ودمره، من قبل الملك الذي أرسله الله لنا برحمته ملكاً وأمبراطوراً!

حرمتني هذه الحرب علاقات حبيبة إلى قلبي بصرف النظر عن أخوي اللذين يخوضان غمارها. ذلك أن نيكولا روستوف، الشاب الذي دفعته حماسته إلى الانخراط في الجيش وترك الجامعة، قد ذهب في عداد الذاهبين. ثقي يا عزيزتي ماري أنه على الرغم من سنه الفتية فإنني أستطيع أن أصرح لك بأن ذهابه سبب لي حزناً كبيراً. إن ذلك الشاب، وقد حدثتك عنه في الصيف الماضي، شديد النبل. نبل يندر أن يلاقي المرء مثله في هذا العصر حيث نعيش بين شيوخ في العشرين من أعمارهم. إنه طيب القلب جداً، صريح إلى أبعد الحدود. وهو نقي السريرة، شاعري الإحساس، حتى أن علاقاتي به مهما بلغت من تفاهتها وكانت عابرة، كانت أجمل المباهج التي مرت على قلبي

www.Maktbah.com

المفعم بالألم. سأحدثك ذات يوم عن كل ما تحدثنا به عند الوداع وما دار بيننا خلاله. إنه لايزال حتى الآن عالقاً في ذاكرتي لأنه حدث بالأمس القريب.

آه، يا صديقتي الغالية! إنني أغبطك لجهلك المباهج والآلام الممضة التي أتحدث عنها في هذه الرسالة. إنك سعيدة لأن المتأخرات في هذا المضمار هن دائماً الأكثر سعادة والأشد ساعداً وقوة! إنني أعرف تماماً أن الكونت نيكولا صغير جداً لا أمل لي في بناء آمالي عليه في شيء أكثر من الصداقة العادية، غير أن تلك الصداقة الهادئة الوادعة، وتلك العلاقات شديدة الطُهر والشاعرية، كانت كلها من متطلبات قلبي. ولكن لنترك هذا الأمر جانباً، ولنتحدث في غيره. إن الخبر الأخير الذي يشغل بال أهل موسكو جميعاً هو موت الكونت بيزوخوف الهرم وإرثه. تصوري أن الأميرات الثلاث لا يرثن إلا نزراً تافهاً، وأن الأمير بازيل حُرم من كل شيء، وأن السيد پيار قد ورث كل شيء وأصبح فضلاً عن ذلك، ابن الكونت الشرعي وبالتالي الكونت بيزوخوف، مالك أكبر ثروة في كل روسيا. إنهم يزعمون أن الأمير بازيل لعب دوراً مرذولاً في هذه القضية، وأنه انسحب عائداً إلى پيترسبورغ وهو حائر خجل.

«وبصراحة أقول لك إنني لا أفهم من هذه الأمور شيئاً، لكنني أرى وأعرف أنه منذ أن أصبح الشاب الذي كنا نعرفه تحت اسم السيد پيار فقط، كونت بيزوخوف مالك أكبر الثروات الروسية، فإنني أتسلى بالنظر إلى السيدات والأوانس ومراقبة التبديلات والتغيرات في اللهجات وأساليب التحدث التي طرأت على الأمهات اللاتي ينوْن ببناتهن، البالغات سن الزواج، حيال هذه الشخصية الجديدة التي ظلت تبدو لي رغم ذلك، كما كانت من قبل، سيدة مسكينة. ولما كانوا منذ عامين يزعمون دائماً أنني سأتزوج فلاناً أو فلاناً من المجهولين مني، فإن آخر إشاعة راجت في موسكو جعلتني الكونتيسة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بيزوخوف المنتظرة. لكنك تشعرين من دون شك بشعوري، وتعرفين أنني لا أفكر أبداً في مثل هذا المركز.

ولما كنا نتحدث عن الزواج فإنني أعلمك «أن العمة الجماعية» أنّا ميخائيلوفْنا أسرت إليّ أخيراً أن هناك مشروع زواج يتعلق بك يحاك في الخفاء. فهل تعرفين الزوج المنتظر؟ خمني. إنه ليس إلا ابن الأمير بازيل، الشاب أناتول الذي يفكر أبوه في إيجاد مركز رفيع له، وإقحامه في صلب المجتمع، بتزويجه فتاة غنية راقية. وقد وقع اختيارهم واختيار ذويه عليك. ولست أدري كيف تنظرين إلى الأمر، لكنني أظن أن من واجبي، رغم السرية التامة التي أحيط المشروع بها، أن أبلغك وأنذرك بما يقال وما يشاع عن زوجك المنتظر. إنهم يقولون إنه جميل جداً ورديء جداً. هذا كل ما أستطيع قوله وما أعرفه عنه.

«لقد ملأت الورقة الثانية من رسالتي، كفانا ثرثرة حتى الآن. وها إن أمي أرسلت في طلبي لأذهب معها عند آل ابراكسين. اقرئي الكتاب الديني الذي يبحث في شؤون العبادة والذي أرسلته إليك مع كتابي هذا لأنه شديد الرواج عندنا. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يحفل ببعض الأمور التي يصعب علينا فهمها بإمكانيتنا الإنسانية المحدودة، فإنه كتاب رائع تسمو النفس عند قراءته. وداعاً. احتراماتي للسيد أبيك وتمنياتي للآنسة بوريين. أقبلك كما أحبك.

جولي»

«**ملاحظة:** اطلعيني على أخبار أخيك وزوجته الصغيرة الفتانة».

فكّرت الأميرة ماري وابتسمت أخيراً، وهي شاردة الذهن، وانبسطت أسارير وجهها الذي أضاءه ذلك الإشعاع المنبعث من عينيها. نهضت فجأة واتجهت إلى مكتبها بخطوات ثقيلة، فأخذت ورقة، وراحت يدها تجري بالقلم عليها جرياً. كان الجواب الذي حررته ما يلي:

www.Maktbah.com

«عزيزتي وصديقتي الممتازة، لقد أحدثت رسالتك المؤرخة في ١٣ الجاري سروراً بالغاً في نفسي. إنك إذن ما زلت تحبينني يا جوليتي الشاعرية. والفراق الذي تتحدثين عن كل مساوئه لم يؤثر في نفسك أثره المباشر الطبيعي، لأنك لم تنسيني. إنك تشتكين من الفراق فماذا أقول أنا، وأنا المحرومة من كل من هم أعزاء على نفسي؟ آه! لو لم يكن لدينا الدين عزاء، لكانت الحياة لا تطاق، حزينة كئيبة.

لم توقعت مني نظرة صارمة عندما حدثتني عن إعجابك بفتاك الشاب؟ إنني على هذا الأساس، لست قوية لست قاسية إلا على نفسي. أنا أفهم هذه المشاعر التي تعتلج في نفوس الآخرين. ولما كنت لا أستطيع تأييدها. وخصوصاً أنني أشعر بها بنفسي، فإنني لا أحكم عليكم على ضوئها. يبدو لي أن الحب المسيحي فقط، حب المستقبل والآخرة، حب أعدائنا، هو الحب الوحيد الأكثر فائدة وجدارة. وهو أجمل حب وأنبل إحساس لا تستطيع العيون الجميلة وأثرها في نفس فتاة شاعرية عاشقة مثلك. أن تحدث مثلها.

«لقد بلغنا موت الكونت بيزوخوف قبل وصول رسالتك. وقد حزن أبي حزناً عميقاً لموته وقال: إنه كان قبل الأخير بين ممثلي القرن المشرق، وإنه الآن بات يتحين دوره، لكنه سيعمل ما في طاقته لتأخير حلول ذلك الدور ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ليحفظنا الله من ذلك البلاء المريع! أنا لا أشاطرك رأيك حول پيار الذي عرفته طفلاً، لقد كان يبدو لي دائماً ذا قلب ودود، وهذه الصفة هي التي أقدرها أكثر من غيرها في نفوس البشر. أما فيما يختص بإرثه وبالدور الذي لعبه الأمير بازيل، فإن الأمر ذو عناء ونصب للاثنين معاً. آه، يا صديقتي الحبيبة! إن كلمة مخلصنا الإلهي التي تقول: إن دخول جمل في سم الخياط أسهل من دخول غني ملكوت السماوات الرهيبة إلى في حقيقتها وصدقها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وإنني أشفق على الأمير بازيل وآسف من أجل پيار أسفاً أكثر عمقاً. لم يزل يافعاً، تبهره مثل هذه الثروة، فكم من مغريات سيتعرض لها بسببها! لو أنهم سألوني عما أفضله في هذا العالم على سواه من الأمور، لقلت إنني أرغب أن أكون أشد فقراً من أفقر المتسولين. ألف شكر يا صديقتي العزيزة على الكتاب الذي أرسلته إليّ، والذي هو في أوج رواجه عندكم. ولما كنت تنوهين بأنه يحوي، بين العديد من الأمور الطيبة التي فيه، شؤوناً لا يستطيع إدراكنا البشري بلوغ مداها، فإنه يبدو لي عبث الاستغراق وضياع الوقت في قراءة يصعب فهمها، يمكن أن تكون نتيجتها عديمة الجدوى. إنني لم أفهم قط سبب الولع الذي يبديه بعض الناس في تشويش مداركهم بالتعلق ببعض الكتب التي لا تخلع على نفوسهم إلا أطيافاً من الشكوك، فيسمو خيالهم ويعطيهم نفسية متطرفة، تتناقض والبساطة المسيحية.

لنقرأ الأسفار والإنجيل وأقوال الرسل. ولنترك البحث في محاولة التعمق في ما وراء ذلك من أسرار لأننا لا يجوز لنا، ونحن الخاطئين الحقيرين، أن ندخل أو أن نزعم أننا نستطيع الدخول في الأسرار الرهيبة المقدسة التي اختصت بها القدرة الإلهية، ما دمنا نرفل في ثوبنا الجسدي الذي يرفع بيننا وبين الواحد الأزلي ستاراً لا يخرق.

فلنكرس جهودنا إذن لدراسة المبادئ السامية التي خلفها مخلصنا الرباني وراءه لتكون سنتنا على هذه الأرض، ولنسع في إجادة القدوة وتأثر خطاه الشريفة، ولنضع نصب أعيننا أننا كلما اعتدنا إرهاق فكرنا البشري الضعيف كان ذلك أكثر تقبلاً من الله. لأن الله يستبعد كل علم لا يبلغ بالمرء إليه، وإننا كلّما حاولنا التعمق في الأمور التي طاب له أن يبعدها عن نطاق معرفتنا، أسرع في تقريبها وكشفها بروحه السامية.

«حدثني أبي عن الزوج المنتظر، لكنه لم يسهب، بل اكتفى بالقول إنه

www.Maktbah.com

تلقى رسالته وإنه ينتظر الأمير بازيل. أما رأيي في مشروع الزواج الذي يتعلق بي، فإنني أعتقد بأن الزواج سنة ربانية ينبغي للمرء أن يخضع لها. وإنني واثقة بأن الله القدير، إذا فرض علي واجب الزواج والأمومة، فإنه سيعطيني القوة الكافية لأداء تلك الواجبات بكل ما في طاقتي من إخلاص، دون أن أبالي بالاختيار الذي ستجتازه عواطفي حيال الشخص الذي سيصبح زوجي.

«سيحضر أخي إلى الجبل الأقرع مع زوجته لكنها بهجة قصيرة الأمد لأنه سيغادرنا بعدها ليشترك في الحرب التعيسة التي اندفعنا فيها، والتي لا يعلم إلا الله لماذا وكيف اشتركنا فيها. ولا يقتصر الحديث عن الحرب على وسطكم الحافل بالأعمال والمنتديات، بل إنه تعداه إلينا وسط أعمال الحقول وهدوء الطبيعة، كما يتصور أهل المدن حياة الأرياف.

إن الحديث عن الحرب قد بلغ إلينا وأحدث أثره السيئ الأليم. ولا يتحدث أبي إلا عن هجوم مضاد وما إلى ذلك من أمور لا أفهم منها شيئاً! وأمس الأول، بينما كنت أتنزه في شارع القرية كعادتي، وقعت نظراتي على مشهد أليم... لقد شهدت بأم عيني قافلة من المجندين الذين أدخلوا في أسلحة الجيش يغادرون القرية إلى مراكزهم التي تنتظرهم. ولو أنك شهدت مثلي حالة أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم، أولئك النساء الملتاعات اللواتي شهدن ذهاب رجالهن إلى الحرب، وهن ينتحبن، لاعتقدت معي أن الإنسانية نسيت قوانين مخلصها الرباني الذي بشر بالمحبة، تلك الإنسانية التي باتت تتنافس بينها وتتسابق في التقتيل والتدمير.

وداعاً يا صديقتي الطيبة العزيزة، ويحرسك مخلصنا الرباني وأمه شديدة القدسية برعايتهما القوية المقدسة.

ماري»

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قالت الآنسة بوريين الضاحكة بصوتها الرخيم الألثغ: آه! هل ترسلين رسالة، يا أميرة؟ لقد أرسلت بريدي. لقد كتبت إلى أمي المسكينة.

كانت المرافقة، الآنسة بوريين، فتاة لعوباً تجر في أعقابها عالماً من المرح والحبور يبدد الجو الثقيل المشحون بالأسى الذي تعيش الأميرة فيه.

تابعت الآنسة بوريين، وهي تخفض صوتها: يجب أن أخطرك، يا أميرة: أن الأمير تعرض اليوم لنقاش حاد مع ميشيل ايـڤانوف، وهو الآن معتكر المزاج، شديد التبرم. وقد رأيت أن من واجبي أن أخطرك بالأمر.

إن الآنسة بوريين تجد لذة فائقة في التحدث عن مزاج الأمير، حتى إنها عندما كانت تروي للأميرة ماري موضوع النقاش، كان صوتها العذب ينطق بالسرور الفائق. لكن الأميرة لم تكن من رأيها، إذ قالت تجيبها:

ـ رجوتك من قبل يا صديقتي العزيزة، أن لا تحدثيني أبداً عن مزاج أبي والحالة النفسية التي يكون عليها. إنني لا أسمح لنفسي أن أنتقده ولا أريد أن يفعل غيري ذلك.

وألقت الأميرة نظرة على المنبه، أنبأتها بأنها قد تأخرت خمس دقائق عن تطبيق برنامجها العملي. فانطلقت إلى القاعة ودرجت عادة الأمير على نشدان الراحة من الظهر وحتى الساعة الثانية. وكان على الأميرة ماري أن تمضي ذلك الوقت في دراسة الموسيقى الوترية وتطبيق دروسها على «الپيانو» الموجود في القاعة.

www.Maktbah.com

الفصل السادس والعشرون

وعلى صوت الشخير الذي اعتاد سماعه عندما يكون الأمير نائماً في غرفته الفسيحة، نام الخادم العجوز في مقعده. ومن الجناح الأقصى من البيت، كانت إيقاعات لحن خاص بـ: دوسك، وهو مؤلف موسيقي تشيكي كان ذائع الصيت في ذلك الوقت، تتكرر باستمرار وتكرار ممل، لشدة الصعوبة التي كانت تواجه العازفة في إجادة عزف ذلك اللحن الصعب، وتصل إلى أسماع الخادم العجوز خافتة، عبر العديد من الأبواب الضخمة المغلقة التي تفصل بين الجناحين.

توقفت عربتان، في تلك اللحظة، أمام باب الفناء، إحداهما مغلقة من طراز بيرلين والأخرى خفيفة مكشوفة من طراز بريتشكا. ترجل الأمير أندره من الأولى وساعد زوجته الصغيرة على النزول، ودعاها لتتقدمه في الممشى. فأخرج الخادم العجوز تيخون رأسه المغطى بشعر مستعار، من خلال فرجة قاعة الانتظار، وأبلغ الأمير الشاب بصوت منخفض أن أباه في قيلولته، ثم أغلق الباب. كان يعرف أن أي حدث مهما بلغت أهميته، حتى ولا وصول الأمير الشاب، لم يكن يعكر سير برامج الأمير وسياق ترتيب أوقاته. وكان أندره يعرف ذلك كما يعرفه تيخون تماماً، وقد أقنعته نظرة ألقاها على ساعته بأن الأمير العجوز لم يتبدل قط منذ أن بارحه آخر مرة. فقال لزوجته:

ـ بعد عشرين دقيقة، سينهض أبي، فلنمض الآن إلى جناح ماري.

لقد ترهلت الأميرة الصغيرة بعض الشيء، غير أن عينيها وشفتها القصيرة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المظللة بطيف من الزغب كانت تتخذ دائماً، عندما تبدأ الحديث، ذلك الطابع الوديع. أخذت تسرّح الطرف حولها ثم قالت لزوجها بمثل اللهجة التي كانت تخاطبه بها لو أنه كان قد رتب حفلة راقصة أو أقام عرضاً مغرياً:

ـ إنه قصر رائع، لنسرع، هيا، لنسرع!...

كانت تبتسم لكل من كان حولها، لزوجها، لتيخون، وللخادم الذي كان يقودهم. تابعت: إن ماري تتمرن على العزف، أليس كذلك؟ حسناً، يجب أن نفاجئها، فلا تثيروا صخباً...

كان الأمير أندره يتبعها وعلى وجهه طابع أنس يشوبه الغمّ. قال يحدث تيخون الذي تقدم منه وقبَّل يده: لقد هرمت، ياتيخون...

وبينما كانا على وشك الوصول إلى القاعة، حيث راح صوت المعزف يزداد وضوحاً، شاهدا فتاة صغيرة الحجم جميلة الوجه، تكاد تطير من الفرح، تخرج من باب جانبي. صاحت الشقراء في مرح: آه! يا لسعادة الأميرة. أخيراً... لقد وصلتما، يجب أن أخطرها.

فقالت الأميرة الصغيرة، وهي تعانق الفرنسية الشقراء:

لا، لا، وحق السماء... إنك الآنسة بوريين. لقد عرفتك فوراً لكثرة ما حدثتني عنك الأميرة ماري في رسائلها. إنها تكن لك حباً عنيفاً. هل تنتظر قدومنا؟

على باب قاعة الموسيقى، توقف الأمير أندره، حيث كان ذلك المقطع الشائك لا يزال يتكرر ويتردد بإصرار وعناد، وكأنه يطير أمام مشهد محزن يكاد يقع.

دخلت ليز، فانقطع اللحن في أدق مقاطعه، وتعالت صرخة، ووقع خطى ماري البطيئة، ورنين القبل. ولما حزم أندره أمره على الدخول، كانت شقيقته وزوجته، وقد انقطعتا عن رؤية بعضهما بعد أن أمضتا فترة قصيرة عقب زواج

www.Maktbah.com

أندره بليز، تضمّ الواحدة الأخرى بشغف، وترشقان القبل كيفما اتفق، بينما كانت الآنسة بوريين تضغط على قلبها، وهي تبتسم بغبطة، وتكاد تنخرط في البكاء أو تنفجر. قطب أندره حاجبيه وهز كتفيه، كما يفعل الهواة عندما تصك أسماعهم نغمة ناشزة، وأخيراً، أفلتت الأميرتان بعضهما، ولكن سرعان ما هوت كل منهما على يد الأخرى فأطبقت عليها وكأنها تريد تقبيلها، رغم ممانعة كل منهما لحركة الأخرى.

ثم عادتا إلى العناق مجدداً ولشديد دهشة الأمير أندره انخرطتا في بكاء مرير، وهما تتبادلان القبل. وحزمت الآنسة بوريين أمرها على البكاء، ونفذت عزمها. وما كان الأمير أندره يخفي انزعاجه، غير أن الأميرتين كانتا تجدان تلك المكاشفة القلبية أمراً طبيعياً. بل إنهما ما كانتا تظنان أن لقاءهما يمكن أن يتم على أبسط من ذلك الشكل.

ثم انتقلت الأميرتان من البكاء إلى الضحك، فقالتا معاً:

ـ آه! يا عزيزتي!... آه! ماري! لقد حلمت الليلة الماضية... ما كنت تتوقعين إذن... آه ماري! لقد هزلت... وقد استعدت أنت...

قالت الآنسة بوريين، وقد قدرت تدخلها ضرورة لازمة: لقد تعرفت فوراً إلى سيدتي الأميرة...

صاحت ماري: وأنا التي لم أكن أتوقع قط!... آه! أندره!... لم أرك من قبل.

وتعانق الأخ والأخت، فقال لها أندره إنها لا تزال تلك المنتحبة «إياها»، بينما ألقت «هي» نظرة طافحة بحرارة العطف خلال دموعها، نظرة كانت تشع من عينيها الدامعتين فتكسب وجهها جمالاً وبهاء.

خلال ذلك، كانت ليز مسهبة في الحديث. وكانت ابتسامتها الرائعة لا تفارق ثغرها بسبب استمرار هبوط الشفة العليا القصيرة على الشفة السفلى،

twitter @baghdad_library

وكشفها خلال هذه الحركة الرتيبة عن أسنانها البيضاء. راحت تروي حادثاً وقع لهما على منحدر سباسكوائي كان يمكن أن يكون ذا نتائج خطيرة بالنسبة إليها وهي في حالتها الحاضرة.

ثم انتقلت إلى التحدث عن شؤونها فقالت إنها تركت كل مستلزمات زينتها في بيترسبورغ، وإنها لن تجد هنا ما تظهر فيه، وإن أندره قد تبدل كثيراً، وإن كيتي أدوينيستوف قد تزوجت رجلاً عجوزاً، وإنهم وجدوا جدياً خطيباً لماري، ولكنها ستتحدث عن هذا الأمر فيما بعد. وكانت الأميرة ماري لا تنبس بكلمة خلال ذلك الحديث المطول، بل كانت عيناها المفعمتان بالحب والحزن شاخصتين إلى أندره، بينما كانت أفكارها تتبع اتجاهاً يختلف كلياً عن الوجهة التي كانت تسير فيها أحاديث ليز. وبينما كانت هذه تصف آخر الأعياد التي أحييت في بيترسبورغ، سألت ماري أخاها: هل ستذهب إلى الحرب، يا أندره؟

وزفرت زفرة أخرى، فانتفضت ليز وأجابت: نعم، منذ الغد.

ثم تابعت تقول: سوف يهجرني هنا، والله أعلم بالسبب، رغم أنه كان يستطيع أن يحصل على ترقية...

لم تنه جملتها حينما عادت الأميرة ماري، وقد كانت منسجمة مع أفكارها الخاصة، تقول لأخيها وهي تلقي نظرة ودوداً على قامته المتناسقة: إذن، هل ذلك محقق؟

فأبدلت ليز طابع وجهها وزفرت مرة ثانية، وقالت: نعم. آه إنه لأمر مخيف!...

انسدلت شفتها العليا فجأة فأطبقت على السفلى، وأدنت وجهها من وجه الأميرة وراحت تنتحب.

قال الأمير أندره، وهو يقطب حاجبيه: إنها في حاجة إلى الراحة. أليس

www.Maktbah.com

كذلك، يا ليز؟ خذيها إلى جناحك بينما أمضي للقاء أبي. كيف حاله؟ هل لا يزال كعهدنا به؟

فأجابت ماري بلطف: نعم، كعهدنا به. بل يبدو لي أنه ساء قليلاً عن ذي قبل. سوف تراه بنفسك.

سأل الأمير الشاب، وقد انفرجت شفتاه عن نصف ابتسامة تدل على أنه، رغم كل الاحترام الذي يكنه لأبيه، يعرف نقاط الضعف فيه: ألا يزال مولعاً بالأوقات الثابتة إياها، وجهاز صنع الأواني الفخارية، والنزهات في المماشي المشجرة؟

فأجابت ماري: نعم، لا يزال يصر على دقة أوقاته، ويغرم بجهازه وبالرياضيات، ودروس الهندسة التي يلقنها لي كل يوم.

كان صوتها الفكه، وهي تتحدث عن دروسها، يوهم السامع أن تلك الدروس كانت إحدى مباهجها الرئيسية المستظرفة!

وعندما أزفت ساعة نهوض أبيه النظامية بعد الدقائق العشرين جاء تيخون يستدعي الأمير الشاب للقاء أبيه الذي خرق نظام عاداته ابتهاجاً بقدوم ابنه، وتفضل باستقباله بعد فترة راحة الظهيرة! فلما دخل أندره إلى غرفة الزينة، كان الأمير العجوز جالساً على مقعد ضخم من الجلد، مرتدياً قميصاً، مسلماً رأسه لعناية تيخون لأنه كان أميناً على العادة القديمة، فكان يرتدي أبداً ثوباً موشى وينثر على شعره الذرور.

لم يدخل الأمير على أبيه كما كان شأنه في المجتمعات الراقية: شرساً متطيراً بوجه مكتئب، بل كان هاشاً شديد الحيوية، كما كانت عليه حاله عندما التقى لأول مرة صديقه پيار.

صاحت الأميرة لدى رؤية الشاب:

ـ هذا هو رجل الحرب! لقد صورت إذن لنفسك أنك ستهزم بوناپرت؟

twitter @baghdad_library

وهز برأسه بقدر ما كان تيخون، الذي كان يضفر الشريط الذي يثبت شعره، يسمح له به:

ـ حسناً، مثلك كمثل الآخرين. فاعمل ما في طاقتك. لأننا إذا لبثنا على ما نحن عليه من تصرف، سوف يجعلنا بعد حين في عداد أتباعه!

ثم أضاف، وهو يقرب له وجنته: مرحى!

كان الأمير العجوز يزعم أن النوم بعد الغداء من فضة، بينما النوم قبل الغداء من ذهب. وفي الحقيقة إنه كان على أحسن مزاج. ألقى نظرة جانبية نحو أندره، يظللها حاجباه الكثيفان المنسقان بعناية؟ فقبله هذا في المكان الذي عينه أبوه، لكنه لم يعقب على رأي أبيه، الذي درج على الاستهانة بعسكريي المدرسة الحديثة، وبصورة خاصة ببوناپرت.

قال الأمير الشاب وهو يتابع بنظره، بامتثال شديد، كل حركة من عضلات وجه أبيه العجوز: ها أنذا يا أبي. لقد أتيتك بزوجتي، وهي في حالة خاصة. كيف حالك يا أبي؟

ـ إن المرض، يا عزيزي، لا يدهم إلا الحمقى والفاجرين. ولما كنت ـ كما تعرف ـ عفيفاً زاهداً، كثير المشاغل، أعمل منذ الصباح وحتى المساء، فإن ذلك يجعلني في صحة جيدة.

فقال أندره مبتسماً: الحمد لله وشكراً.

ـ لا دخل لله في هذا الموضوع.

ثم عقب وقد عاد إلى سخريته المعتادة:

ـ هيا حدثني كيف علمكم الألمان التغلب على بوناپرت، بحسب الجديد المسمى «استراتيجيا».

فأجاب أندره بابتسامة وديّة تنبئ بأن ميول العجوز لا تمنعه من الإمعان في احترامه وقال:

www.Maktbah.com

ـ دعني أتنفس يا أبي. لست أدري بعد أين سنستقر.

فصاح الأمير وقد أمسك بذراعه وهو يجذب شريط شعره ليختبر متانته:

ـ بل على العكس، على العكس. إن مخدع زوجتك جاهز. سوف تأخذها ماري إليه. سوف تثرثران بكل سرور، لأن النساء لا هم لهن إلا الثرثرة. إنني سعيد باستقبالها. هيا اجلس ولنتحدث. إنني أفهم ماذا يفعل جيش ميخلسن، وكذلك جيش تولستوي... نزول متوافق. ولكن ماذا يفعل جيش الجنوب؟ سوف تبقى بروسيا حيادية ولا شك. ولكن ماذا عن النمسا؟ والسويد؟ كيف يمكن اجتياز پوميرانيا؟

وقف الأمير وراح يذرع غرفته يتبعه تيخون الذي كان يقدم له قطع الثياب المختلفة ليرتديها. فلم يستطع الأمير أندره أمام ذلك الإلحاح إلا أن يخوض في الحديث. بدأه في شيء من الضجر، لكنه ما لبث أن ثارت حميته وازداد اندفاعه، فراح كعادته، يخلط الكلمات الروسية بالكلمات الفرنسية، وأخذ يعرض على مسامع أبيه، خطة المعركة المقبلة:

سيهدد بروسيا جيش قوامه تسعون ألف رجل ليخرجها عن حيادها. وسوف يجتمع جانب من ذلك الجيش في سترالسوند بجيش السويد. وسوف ينشط للعمل في إيطاليا وعلى الرين مائتا ألف نمسوي ومعهم مائة ألف روسي. وسينزل في ناپولي خمسون ألف روسي وخمسون ألف إنكليزي. وسيكون مجموع الجيوش التي ستهاجم الفرنسيين، خمسمائة ألف رجل، وستعمل هذه الجيوش في نقاط مختلفة ومتنوعة.

كان الأمير العجوز، مستمراً في ارتداء ملابسه خلال الحديث وهو يتمشى في الغرفة. لم يكن يبدي أي اهتمام بما يشرحه ابنه من نظريات، بل كان يبدو وكأنه لا يصغي إلى قوله فلم يقاطعه إلا ثلاث مرات، وبصورة غير منتظرة أبداً. الأولى عندما صاح قائلاً:

twitter @baghdad_library

ـ الأبيض! الأبيض!

وكان معنى ذلك أن تيخون أخطأ في تقديم الصدارة المطلوبة. والمرة الثانية عندما توقف ليسأله: إذن، هل الولادة قريبة؟

ثم هز رأسه بعدئذ بلهجة المؤنب قال: في! في!... استمر، استمر.

وأخيراً، بعد أن انتهى أندره من حديثه، أرعد بصوت ناشز محطم يغني:

ما لبورغ يمضي إلى الحرب.

الله يعرف متى يعود.

عقب أندره مبتسماً: إنني لا أزعم أن ما عرضته على مسامعك هو المخطط المثالي الذي أحلم به، لكنني أروي لك ما سيكون. ولا شك أن لنابليون خطته التي تساوي هذه.

فقال الأمير العجوز مؤيداً: هيا، إنك لم تطلعني على شيء جديد. هيا إلى طاولة الطعام!

وراح يدندن مجدداً:

الله يعلم متى يعود...

www.Maktbah.com

الفصل السابع والعشرون

دخل الأمير العجوز، في الساعة المحددة لتناول الطعام، إلى القاعة وهو على أحسن زينة، فالتقى ابنته وزوجة ابنه والآنسة بوريين ومهندسه الخاص الذين كانوا ينتظرون قدومه حول الطاولة. وكان الأمير، انسياقاً مع هوى في نفسه، يتصل على طاولته ذلك المهندس عديم الشأن مضيفاً عليه شرفاً واعتباراً كان الأمير قليل الميل نحو اتحاد الطبقات، وكان يدعو إلى طاولته كبار موظفي المقاطعة في فترات بعيدة، مع ذلك فقط حلا له أن يظهر في شخص المهندس ميخائيل إيڤانوڤيتش الذي كان يمسح أنفه بين الحين والحين بمنديل ذي مربعات، إن كل الرجال متساوون على الأرض. وكان قد ألمح أكثر لابنه أن ميخائيل أيڤانوڤيتش لم يكن أدنى منهم مكانة في شيء فكان خلال أوقات الطعام، يوجّه حديثه إلى المهندس الصامت.

في قاعة الطعام الكبيرة ذات الجدران المرتفعة أسوة بكل غرف البيت كان أفراد الأسرة ينتظرون وصول الأمير. وكان خادم يقف وراء كل مقعد ورئيس الخدم واضعاً منشفته على ذراعه، يرقب المائدة، فيعطي بين حين وآخر أوامره بعينيه للخدم، بينما كانت عيناه القلقتان، تتبعان مشية عقارب ساعة الجدار البطيئة، وتنتقلان منها إلى الباب الذي سيدخل الأمير منه. كان أندره يدقق في إطار كبير مذهب، لم يره من قبل، يحوي شجرة ﭘولكنسكي السلالية، يرتبط بإطار آخر لا يقل عنه ضخامة، يحيط بصورة أمير مالك، جالس على عرش

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وعلى رأسه تاج، وهو، بدون شك، سليل روريك، وأصل أسرة بولكونسكي. كانت اللوحة سيئة التصوير تدل على أنها من صنع رسام مبتدئ.

كان أندره متعصباً أمام الشجرة السلالية يهز رأسه ضاحكاً وكأنه يعاين رسماً هزلياً «كاريكاتورياً».

قال لأخته التي كانت تقترب منه: إنني أتعرف إليه هنا!

فنظرت إليه ماري مأخوذة. لم تكن تفهم ما يدفعه إلى الضحك.

فقد كان كل ما يفعله أبوها، يوحي إليها باحترام عميق.

تابع أندره يقول: لكل إنسان ضعفه. كذلك فإن ذكاء متوقداً كذكائه قد أهرق في هذا العمل المضحك الغريب!

لم تكن ماري تتقبل حكماً هداماً مناقضاً كهذا الحكم، فهمّت تريد لومه والتعرض لأسلوبه، لولا أن ترددت الخطوات المتوقعة وعلا وقعها. ودخل الأمير العجوز بمشيته النشيطة الرشيقة، وحركاته الطليقة وكأنها تعترض على النظام الدقيق الذي يسير الأمور في البيت.

وفي تلك اللحظة دقت الساعة دقَّتين وردّدت القاعة صدى دقتين أخريين من الساعة المعلقة على جدارة. توقف الأمير وراحت نظرته العميقة القاسية تنتقل بين الموجودين حتى توقفت على زوجة ابنه. فشعرت هذه بذلك الشعور الذي يندمج القلق فيه بالاحترام، والذي يفرضه وجود الأمير على كل من حوله، وأحست إحساس الرعية المخلصة عند اقتراب الملك. لاطف الأمير العجوز ليز بأسلوب ينقصه التوفيق تدل على قصر باعه في مثل هذه المجاملات، فربت مؤخرة رأسها ومس شعرها بيده ثم قال بصوت أجش: إنني سعيد مفتون.

وبعد أن حدّق إلى وجهها مرة أخرى متفحصاً، أشاح بوجهه عنها فجأة ومضى إلى مكانه إلى الطاولة وهو يقول: خذوا أماكنكم، خذوا أماكنكم،

www.Maktbah.com

إجلس يا ميخائيل ايـڤانوڤيتش وأشار إلى زوجة ابنه أن تجلس بقربه، فأسرع خادم يحمل لها مقعداً إلى المكان المعين.

قال العجوز وهو يُشير إلى وسط زوجة ابنه: هه، هه! هذا يدل على الإسراع في الواجب. في! في!

وانفجر ضاحكاً ضحكته الجافة المكروهة، ضحكة تصدر عن فمه فلا تشاطره العينان فيها. تابع بإلحاح:

ـ يجب السير بأسرع ما يمكن، أسرع ما يمكن.

لم تسمع الأميرة الصغيرة كلامه، أو لعلها تظاهرت بأنها لم تسمعه كانت محتفظة بصمت قلق قطعته مرة لتجيب بابتسامة عن سؤال وجّهه الأمير إليها حول صحة والدها. ثم سألها عن معارفها وعندئذ عادت ليز إلى انطلاقها المعهود، فنقلت إليه تمنيات مختلفة وأفرغت ما في جعبتها من ثرثرات العاصمة.

فتمتمت: إن الكونتيسة آيراكيش، المسكينة، فقدت زوجها فبكته بكل ما في عينيها من دموع.

وبينما كانت ليز تزداد حماسة واندفاعاً، كانت نظرة الأمير إليها تزداد صرامة وقسوة، وفجأة أشاح بوجهه عنها وأدار لها ظهره وكأنه درسها كفاية، وراح يُحدث المهندس. حسناً يا ميخائيل ايـڤانوڤيتش، إن «بوناپرتنا» أصبح الآن في حال سيئ! وذلك بالإصغاء إلى ما يقوله الأمير أندره.

كانت عادته عندما يتحدث عن ابنه أن يشير إليه بالضمير المفرد الغائب.

أردف يقول: ستنقض عليه زوبعة ثلجية هائلة. ونحن الذين كنا نعتبره مخلوقاً خالياً من الكفاءة والإمكانيات!

وتساءل ميخائيل إيڤانوڤيتش في سره عن الوقت الذي استطاع «كلاهما» خلاله التحدث عن هذه الآراء حول بوناپرت. لكنه كان يعرف أن الأمير

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يستخدمه دائماً وسيلة لإثارة موضوعه المفضل. لذلك راح ينظر إلى الأمير الشاب بدهشة دون أن يعرف نتائج ذلك الموقف بالضبط.

قال الأمير العجوز لابنه وهو يُشير إلى المهندس:

ـ نعم، إنه ماهر جداً في أمور الحرب والخطط الحربية!

ودارت الأحاديث مجدداً حول الحرب، وبوناپرت، والقادة العظام ورجال الدولة المعاصرين. كان يبدو على الأمير العجوز أن كل زعماء العهد الجديد ليسوا فقط غلماناً صغاراً يجهلون حتى مبادئ الحرب والسياسة، بل إن بوناپرت أيضاً لم يكن إلا فرنسياً حقيراً، لم تكن انتصاراته لتدوم لو كان خصومه من طراز جريجوار الكسندروڤيش بوتيمكين[1] وسوڤوروف وكان كذلك مقتنعاً بأنه لم يكن في أوروبا في الوقت الحاضر عدوان ولا حرب جديرة بالاسم الذي يُطلق عليها بل إن الأمر كان مقتصراً على مشهد من مشاهد «كاراكوز» حيث الرجال يتظاهرون أنهم يقومون بدور جدّي. وكان أندريه يستقبل تلك السخرية اللاذعة بابتسامة مغتبطة، ويحاول بمكر أن يستزيد أباه منها، وقال يثيره:

ـ نعم إننا نحب دائماً تمجيد الوقت الماضي مع أن «سوڤوروڤك» سقط في الشرك الذي نصبه له «مورو»[2] ولم يستطع الخلاص منه كما أعلم.

صرخ الأمير العجوز وهو يُزيح صحفته من أمامه فيتلقفها تيخون برشاقة:

ـ من قال لك ذلك؟ من قال لك ذلك؟ سوڤوروف!... فكر قليلاً يا أمير أندريه؛ إنهما إثنان فقط: فريدريك سوڤوروف... مورو! لكن مورو كاد يقع

(١) «فيلد مارشال» مقرب من جلالة الأمبراطورة كاترين الثانية. (المترجم).

(٢) جنرال فرنسي حارب في إيطاليا، ثم أصبح قائداً عاماً لجيش الرين، وكاد يصبح منافس بوناپرت. (المترجم).

www.Maktbah.com

سجيناً لو أن سوڤوروف كان مطلق الحرية. غير أن يديه كانتا مغلولتين من قبل ضباط القيادة الألمان. سوف ترى هؤلاء الضباط الآن. إنهم يخدعون الشيطان نفسه حتى يجعلوه حماراً بليداً.

إذا كان سوڤوروف لم يستطع أن يتخلص، فهل تعتقد أن ميخائيل كوتوزوف[1] قادر على ذلك! كلا يا صديقي. إنكم بكبار ضباطكم الحاليين وحدهم لن تستطيعوا شيئاً ضد ناپليون. إنكم إذا شئتم هزمه، ينبغي لكم إيجاد فرنسيين «تنكروا نهائياً لأبناء قومهم، فينقضوا على أبناء قومهم». ولهذا السبب أرسلنا الألماني باهلين إلى أميركا، إلى يورك الجديدة «نيويورك حالياً» للبحث عن الفرنسي مورو.

كان بهذا القول يُلمح إلى العرض الذي تقدم به الروس إلى ذلك القائد الفرنسي للدخول في خدمة روسيا. أردف يقول: يا له من ضلال! هل كان بوتيمكين وسوڤوروف وأورلوف[2] وأمثالهم من الأجانب؟ كلا يا عزيزي. لقد فقدتم عقولكم جميعاً أو أنني عدت إلى عقلية الطفولة... ليساعدكم الله. وسنرى... بوناپرت عسكري كبير! هم!...

قال الأمير أندريه: أنا لا أزعم أن كل الخطوات التي اتخذت كانت مُجدية وممتازة، لكن رأيك عن بوناپرت يُدهشني. إضحك ما شئت، ولكنه عسكري كبير حقاً.

صرخ الأمير العجوز يستشهد بالمهندس الذي كان يهاجم قطعة الشواء، معتقداً أنه نُسي تماماً وأهمل في ذلك الحديث: يا ميخائيل ايـڤانوڤيتش، ألم أقل لك إن بوناپرت عسكري كبير؟ إنه هو الآخر يقول ذلك.

فأجاب المهندس: تماماً يا صاحب السعادة.

---

(١) جنرال روسي كان خصم ناپليون عام ١٨١٢

(٢) قائد عسكري روسي، توفي وهو مصاباً بالجنون أثر طرده من رحمة الامبراطورة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عاد الأمير يضحك ضحكته الجافة وقال: لقد ولد بوناپرت محظوظاً. إنه أولاً لديه جنود ممتازون. وهو لم يواجه حتى الآن إلا الألمان. فمن الذي لم يهزم الألمان؟ لم يهزمهم إلا أولئك الذين لم يريدوا أن يحتملوا عناء ذلك. لأن الألمان كانوا منذ أن أصبح العالم عالماً يُهزمون. إنهم لا يُجيدون إلا التناحر فيما بينهم. وعلى مثل هؤلاء الحمقى أقام بوناپرت مجده.

وراح الأمير العجوز يشرح بإسهاب الأخطاء الفنية الاستراتيجية التي يعزوها إلى بوناپرت. وأخذ كذلك ينتقد تصرفاته كرجل دولة. أما الابن فقد كان ممتنعاً عن إبداء أي اعتراض. لكنه كان يبدو على وجهه أنه رغم شرح أبيه وأقواله، فإنه لم يكن على استعداد ليغيِّر رأيه حول ذلك الموضوع. وكذلك كان الأب. لكن الأمير الصغير كان يتأمل بإعجاب سعة اطلاع العجوز على مجرى الأمور من الوجهتين السياسية والعسكرية في كل أوروبا، والطريقة الدقيقة التي كان يُعالج بها تلك الأمور رغم انزوائه منذ سنين طويلة في الريف.

قال العجوز معقباً: لعلك تتصور أن عجوزاً مثلي لا يمكن أن يفهم شيئاً في الأمور الحاضرة؟ إنك مُخطئ. إن هذه الأمور تقلقني حتى إنني لا أنام الليل بسببها. إذن أين ظهرت بوادر عسكريك الكبير في الآونة الأخيرة؟

فأجاب الابن: إن شرح ذلك يطول.

فصاح العجوز: حسناً، إمض إذن إلى لقاء بوناپرتك!...

واستدار نحو الآنسة بوريين وقال:

ـ يا آنسة بوريين، هو ذا مُعجب جديد بأمبراطورك القذر.

ـ إنك تعرف تماماً يا أميري أنني لست من أنصار بوناپرت.

فعاد العجوز يدندن بصوته الناشز: الله يعلم متى يعود...

وأعقبها بضحكة أكثر نشوزاً وهو ينهض عن الطاولة.

www.Maktbah.com

لم تنبس ليز بكلمة واحدة خلال هذه المناقشة بل كانت تُلقي نظرات مذعورة تارة على ماري وأخرى على أبيها. فلما انتهى الطعام، أمسكت بذراع ماري وأخذتها إلى غرفة مجاورة وقالت لها: إن أباك شديد الذكاء. ولعله بسبب ذلك يُشعرني بالخوف.

فأجابت ماري: أجل! إنه رجل طيّب!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن والعشرون

صمّم الأمير أندره على السفر مساء اليوم التالي. مع ذلك، فإن الأب حرصاً منه على نظام حياته، انسحب بعد تناول الغداء مباشرة، بينما ذهبت ليز إلى جناح ماري. أما أندره وبعد أن عاين عربته الخفيفة وموضع حقائبه وترتيبها، وأعطى الأمر بأن يُقطر الجواد إلى العربة، راح وقد ارتدى ثوب السفر ونزع الزينة التي تُحلى بها كتفاه، يُهيئ حاجاته الأخيرة بمساعدة خادم غرفته في المنزل الذي خُصص له.

لم يترك في الغرفة إلا الأشياء التي لا يتخلى عنها أبداً: صندوق صغير يحوي أدوات للزينة مصنوعة من الفضة، وغدارتين تركيتين، وحُساماً. وكان أبوه قد قدم له هذه الأشياء هدية بعد أن أتى بها من أوتشاكوف. فكان يحتفظ بتلك الهدية بعناية فائقة محزومة في قطع من القماش السميك.

جرت العادة أن يفكر كل رجل قادر على التخيل، عندما يطرأ على حياته رحيل مفاجئ، أو انتقال، أو تبدل في أسلوب الحياة، وأن تراود عقله أفكار شتى. لأن مثل تلك الساعة تكون صالحة جداً للبحث في الماضي وإقامة خطط للمستقبل.

كذلك كان الأمير أندريه في تلك اللحظة. كان عاقداً يديه وراء ظهره يذرع الغرفة من زاوية إلى أخرى وهو شاخص النظر يهز رأسه بشرود. ترى هل كان يُرهقه الذهاب إلى الحرب ويرعبه، أم كان يقلقه هجرانه لزوجته؟ لعله كان يفكر في كلا الأمرين معاً... وبينما كان على تلك الحال. تناهى إلى سمعه

www.Maktbah.com

وقع خطوات في الردهة فلم يزعجه أن يفاجئه أحد وهو على تلك الحالة من الشرود. توقف قرب المنضدة وراح يتشاغل في عقد غلاف صندوقه، واستعاد هدوءه وأمارات السكينة المعهودة، وأسدل على وجهه ذلك الحجاب الكثيف الذي لا يمكن للعين أن تستشف من خلاله أفكار صاحبه. كانت الخطوات الثقيلة تُشير إلى وصول أخته ماري.

قالت لاهثة وكأنها قطعت شوطاً وهي تركض: قيل لي إنك أمرت بتجهيز العربة. وأنا التي كنت أتحين الفرص للقائك وحيداً. إن الله يعرف متى سنلتقي من جديد. هل أزعجك قدومي؟

وأضافت وكأنها تُبرر سبب إلقائها ذلك السؤال: ذلك أنك تبدلت كثيراً يا أندريوشا.

وابتسمت وهي تنطق باسم التدليل العذب الذي درجت على إطلاقه عليه. ولعلها وجدت أن من الغرابة أن يكون هذا الشاب الجميل، ذو الوجه الصارم، هو نفسه أندريوشا، ذلك الفتى الماكر الهزيل الذي كان رفيق طفولتها.

سألها بعد أن أجاب عن سؤالها الأول بابتسامة: أين ليز الآن؟

قالت الأخت وهي تجلس على كنبة قبالة أخيها: إنها شديدة التعب حتى أنها نامت من فورها على كنبة في مخدعي. آه يا أندره! إنها امرأة أثمن من كنز! إنها طفل حقيقي غاية في اللطف. لقد شعرت بميل عنيف نحوها للوهلة الأولى.

لم يُجب أندريه، لكن قسماته فضحت سخرية ارتسمت على وجهه. فلم يخف ذلك على الأخت. قالت: لنكن متسامحين تجاه هفوات الآخرين الصغيرة، يا أندره. من الذي يخلو من هفوات؟ لا تنس أنها نشأت في بيئة صاخبة راقية، ثم إن حالتها ليست على ما يرام. يجب أن نضع أنفسنا مكان الآخرين فإذا فهمنا كل شيء صفحنا عن كل شيء، فكر في ما ينتظر المسكينة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عقب لون الحياة الذي ألفته. ستجد أن وضعها الحاضر مؤلم خصوصاً وهي التي ستفترق عن زوجها لتمكث وحدها في الريف.

راح أندريه يبتسم وهو ينظر إلى أخته كما يبتسم المرء للشخص الذي يعتقد أنه يقرأ أفكاره وقال: لكنك أنت أيضاً تعيشين في الريف يا أختاه، فلا تجدين الحياة رهيبة بهذا القدر.

ـ إن أمري مختلف، فدع عنك الحديث عني، أرجوك... إنني لا أستطيع التطلع إلى لون مختلف من الحياة لأنني لا أعرف غير حياتي الحاضرة. فكر قليلاً يا أندريه في الحزن الذي تتعرض له امرأة شابة عصرية تدفن نفسها في الريف، وخصوصاً أن «بابا» مشغول أبداً وأنا... أنت أدرى بمبلغ عجزي عن توفير ما تتطلبه سيدة عاشت في أرقى الأوساط. بذلك لن يبقى إلا الآنسة بوريين...

ـ أنا لم أستملح قط هذه الآنسة بوريين.

ـ لا تقل! إنها فتاة رائعة، شديدة الطيبة، تستوجب الرثاء والإشفاق. إنها محرومة من كل سند في الحياة، كل سند. وإذا شئنا أن نتكلم بصراحة قلت لك إنني في غير حاجة إليها، بل إنها تزعجني أحياناً. لأن طبيعتي المتطيرة لا تتفق مع مزاجها اللطيف المرح. ثم إنك لا تجهل ولا شك، أنني أزداد إغراقاً في تطيري. أنا أحب الوحدة... ثم إن أبي يحبها كثيراً وهو دائماً لطيف معها، كما هو إزاء ميخائيل إيڤانوڤيتش. لأنهما مدينان لفضله. وكما قال ستيرن[1]: «إننا نحب الأشخاص بسبب ما فعلناه في سبيلهم من خير، أكثر مما نحبهم بسبب عملهم الخير لنا». لقد التقطها أبي يتيمة في الطريق لكنها ذات قلب طيب. وأبي يحب طريقتها في القراءة. وهي تقرأ له في كل مساء، وتقرأ بشكل ممتاز.

---

(١) ستيرن، كاتب إنكليزي ساخر (١٧١٣ ـ ١٧٦٨). (المترجم).

www.Maktbah.com

سألها أندريه فجأة: ألا تعترفين يا ماري بأنك تتألمين أحياناً بسبب عقلية أبينا؟

ألقى ذلك السؤال على الأميرة ماري في حالة من الذهول أقرب إلى الرعب والخوف. قالت: ماذا تقول؟... أتألم؟... أنا؟...

ـ لقد كان صارماً أبداً، وقد أصبح كما أعتقد مؤلماً شديد الإيلام.

لعله كان يريد بتعبيره عن آرائه بهذا الشكل المتحرر وبالتحدث عن أبيه بتلك اللهجة، أن يربك أخته أو يروعها.

قالت ماري وهي تتبع سياق أفكارها أكثر مما تصغي إلى سير المحادثة:

ـ إنك فتى ممتاز يا أندريه، لكن في أحكامك لون من الإغراق، وإنها خطيئة عظيمة. هل يجوز للمرء أن ينتقد أباه؟ ولو أن ذلك كان مباحاً، فكيف يمكن أن يوحي رجل مثل أبي بغير شعور الاحترام؟ ثق إنني مرتاحة جداً وسعيدة جداً بقربه. إن غايتي الوحيدة هي أن تكونوا جميعكم سعداء كما أنا سعيدة.

فهز أندريه رأسه بتشكك وارتياب بينما تابعت ماري: إذا شئت معرفة الحقيقة يا أندريه، فثق إن ما يعذبني ويزعجني في أبي هو لامبالاته حيال الشؤون الدينية. لست أفهم كيف يمكن لعقلية نيرة كهذه أن تتيه إلى هذا الحد، فتمتنع عن رؤية ما هو واضح كضوء النهار. إن هذه الناحية هي كل ما يؤلمني بل إنني في الآونة الأخيرة اكتشفت بعض التقدم عنده: فقد أصبحت سخرياته أقل شدة. بل إنه وافق على استقبال أحد الرهبان والاستغراق معه في حديث طويل.

فأجاب أندريه بلهجة جمعت بين السخرية والمودة: إنني أخشى، يا عزيزتي، أن تحرقي أنت والراهب كل جهدكما عبثاً!

ـ آه يا صديقي! إنني لا أنفك أبتهل إلى الله وآمل أن يتقبل ابتهالاتي...

twitter @baghdad_library

ثم تابعت بعد سكوت يسير في شيء من الارتباك والخوف: أندريه، عندي رجاء حار أتقدم به إليك:

ـ ما هو رجاؤك يا صديقتي؟

ـ عدني أولاً أنك لن ترفضه. إنه لن يسبب لك أي عناء ولن تخجل منه. ثم إنك تسبغ علي بتقبله عزاء وسلواناً.

ثم تابعت وهي تلمس في حقيبة يدها شيئاً كان موضوع رجائها ولا شك، ولكنها ما كانت تريد إظهاره إلا بعد أن تحصل على كلمة أخيها وميثاقه: عدني يا أندريوشا.

وراحت تنظر إليه بعينين متوسلتين.

فأجاب أندريه وقد ضمن موضوع رجائها: بل إنني أعدك ولو كان فيه كبير عناء...

ـ لك أن تفكر كما تشاء لأنني أعرف أنك وأبي سواء حول هذا الموضوع. لكنني أتوسل إليك أن تفعل ذلك من أجلي. لقد حمله جدنا الأكبر، طوال غزواته وحروبه...

واستبقت يدها في الحقيبة لا تخرجها وعقبت: إذن هل تعدني؟

ـ طبعاً أعدك. ما هو الأمر الذي تريدينه؟

ـ أندريه، إنني أباركك بهذه الصورة المقدسة فعدني بأنها لن تفارقك أبداً. هل تعد؟

فقال أندريه: إذا كانت لا تزن أرطالاً ثقيلة، وكانت لا تجتذب عنقي بشدة إلى الأسفل، فإنني أود من صميم قلبي أن أدخل السرور إلى نفسك.

ولما شاهد ما ارتسم على وجه شقيقته من ألم.

عرف أن دعابته قد جرحت شعورها المرهف، فاستدرك بلهجة أخرى: بكل سرور، بل بسرور عظيم يا صديقتي.

www.Maktbah.com

قالت بصوت متهدج من الانفعال وهي ترفع راحتيها أمام أنظار أخيها بحركة محترمة، وعليها صورة مقدسة قديمة مسودة، يحميها إطار بيضوي جميل، معلقة بسلسلة فضية دقيقة الصياغة: سواء شئت أو لا، فإنه سينقذك ويعيدك إليه، لأن الحقيقة الوحيدة والعزاء الأوحد كامنان فيه.

ثم رسمت إشارة الصليب على صدرها وقبلت «الأيقونة» وقدمتها لأندريه وهي تقول: أرجوك يا أندريه، إفعل ذلك من أجلي...

كانت عيناها الواسعتان تشعان بذلك الوميض الدافئ الذي يجمل وجهها الهزيل الناحل. ولما همّ أندريه بأخذ «الأيقونة» استوقفته. أدرك مرادها، فرسم إشارة الصليب بدوره وقبّل الصورة المقدسة وهو بين ساخر ومنفعل، وقال وقد رقت عواطفه:

ـ شكراً.

فقبلته أخته في جبينه، وعادت تجلس على الكنبة وساد صمت عليهما.

قالت تقطع الصمت المخيم:

ـ كن طيباً كما أسلفت وطلبت منك لأنني أعرف أنك كنت كذلك أبداً. لا تقس في حكمك على ليز. إنها لطيفة جداً. إن مصيرها الحاضر غاية في الحزن:

ـ لم تكررين علي هذا القول يا ماري؟ هل قلت لك إنني آخذ على زوجتي مأخذاً ما، أم إنها تسبب إزعاجي؟

ظهرت على وجه ماري لطخات حمراء فسكتت وكأنها أخذت بخطئها. أردف أندريه:

ـ كلا. إنني لم أحدثك قط بشيء من هذا، لكنه نما إليك من بعضهم أليس كذلك؟ إن ذلك يزعجني ويؤلمني.

اجتاحت البقع الحمراء جبين ماري هذه المرة بعد أن صبغت وجنتيها

twitter @baghdad_library

وعنقها. كانت تريد أن تجيبه ولكن أرتج عليها، وظلت الكلمات محتبسة في حنجرتها. لقد خمن أخوها حقيقة ما وقع: إذ إن ليز كانت قد حدثت ماري بعد الطعام وسط نوبة من الدموع، بأنها تنتظر ولادة عسيرة تخشى ألّا تنجو منها. ثم شكت سوء مصيرها وشكت من زوجها وأبيه، وأخيراً أنهكتها الدموع فاستسلمت للنوم. وقد أشفق أندريه على أخته فقال:

ـ اعلمي جيداً يا ماري أنني لا ألوم زوجتي على شيء، وما لمتها من قبل ولن ألومها في المستقبل. ولا أستطيع من ناحيتي أن أوجه لنفسي لوماً على سلوكي حيالها، لأن تعرفي منطقي، ومعقول ونحن في مثل هذه الظروف الحرجة. مع ذلك إذا شئت أن تعرفي إذا كنت سعيداً وكانت هي الأخرى سعيدة أجبتك بصراحة أن: لا، لا، لا! أما ما هو السبب؟ فلست أدري...

ونهض فاقترب من أخته وقبلها في جبينها، كانت عيناه الجميلتان تلتمعان ببريق غير معهود، بريق مفعم بالتعقل وطيبة النفس، ولكنه لم يكن يوجه أنظاره إلى أخته، بل كان شاخصاً بها إلى الظلمات العميقة البادية خلال الباب المفتوح وراءها.

نهضت ماري فوقفت على العتبة وقالت: أندريه، ليتك آمنت، لكن توجّهت إلى الله طالباً إليه أن يمنحكما الحب الذي لا تشعران به، ولكانت ابتهالاتك قد قبلت:

ـ نعم، لعل ذلك صحيح!... إذهبي يا ماري سأتبعك بعد حين.

وجد أندريه نفسه فجأة في مواجهة الآنسة بوريين الضاحكة بينما كان يجتاز الممشى الذي يجمع بين الجناحين ليدخل إلى مخدع أخته، فكانت تلك المقابلة الثالثة من نوعها لذلك اليوم في أمكنة منعزلة. كانت الفتاة تبتسم أبداً ابتسامتها الحية البريئة.

www.Maktbah.com

قالت وقد احمرَّ وجهها وأطرقت بعينيها دون سبب ظاهر: لقد ظننتك في مخدعك.

اتخذ أندريه فجأة طابع الغضبان واكتفى بأن حدج الفرنسية بنظرة ثائرة ملؤها الاحتقار، جعلت الدماء تصعد إلى وجهها فتحيد عن طريقه دون أن تهمس بكلمة. فلما بلغ غرفة أخته، بلغ مسمعه صوت ليز العاتي، التي كادت تستيقظ حتى راحت تسرد سلسلة من الحوادث الجديدة، وكأنها كانت تريد استدراك الزمن الذي فاتها، والذي قضته في صمت مطبق. كانت تقول:

ـ تصوري يا ماري الكونتيسة سوبوف العجوز بأقراطها المزيفة وفمها المنضد بأسنان صناعية وكأنها تتحدى السنين... ها! ها! ها!

كان أندريه قد سمع زوجته تردد هذه العبارة بالذات وتعقبها بتلك الضحكة بالذات أمام غرباء للمرة الخامسة. فدخل دون ضجة. رأى ليز جالسة على مقعد وأشغالها في يدها، مستديرة متوردة الوجه تثرثر دون توقف وتستوحي ذكريات پيترسبورغ وحتى نتفاً من أحاديثها. سألها وهو يداعب شعرها عما إذا كانت قد استراحت من عناء السفر، فأجابته مقتضبة وعادت إلى ثرثرتها.

ستة أفراس تقطر عربة مكشوفة كانت تقف أمام الباب، وكان ليل الخريف شديد السواد، حتى إن الحوذي لم يكن يستطيع رؤية عريش العربة. وعلى الممشى المؤدي إلى المدخل، كان عدد من الناس يحملون المصابيح ويعملون، وكانت الأضواء تلتمع خلال كل نوافذ المسكن العليا، وقد تهافت الخدم في الممشى، وكلهم يرغب في تقديم تمنياته للسيد الشاب قبل سفره... أما أهل الدار وميخائيل ايڤانوڤيتش والآنسة بوريين وماري وليز، فقد كانوا ينتظرون في القاعة الكبيرة عودة الأمير أندريه من لدن أبيه الذي أعرب عن رغبته في لقائه على انفراد لوداعه.

twitter @baghdad_library

عندما دخل أندريه مكتب الأمير العجوز، كان هذا الأخير مرتدياً معطفاً منزلياً أبيض، احتفظ به خلال فترة وداع ابنه. وكان يكتب على ورقة وقد أثبت نظارتيه على أرنبة أنفه. استدار نحوه وقال: هل تذهب الآن؟

وعاد إلى كتابته. فقال الابن: لقد جئت أودعك يا أبي:

ـ حسناً قبلني هنا، وأشار إلى وجنته، شكراً شكراً.

ـ لأي شيء تشكرني؟

ـ لأنك تلتحق بالجيش في الوقت المناسب. يا للسعادة: إنك لا تتعلق بثياب امرأتك. إن الواجب قبل كل شيء فشكراً شكراً.

وظل القلم يجري على الورقة بسرعة حتى أنه كان يغرز فيها أحياناً أو يلطخها بالحبر. قال الأمير العجوز: إذا أردت أن تقول شيئاً فقله لأنه لن يزعجني.

ـ إن الموضوع متعلق بزوجتي... في الحقيقة إنني خجل إذ أتركها لك وأحملك مسؤولياتها:

ـ ما هذه الفلسفة؟ قل ماذا تريد أن تقوله.

ـ حسناً. عندما يحين وقت ولادتها، أرجو أن تستدعي مولداً من موسكو... إنني أصر على أن يكون بجانبها مولد عند ولادتها.

توقف الأمير العجوز وتظاهر بأنه لم يفهم، ثم حدج ابنه بنظرة قاسية فبدا أندريه مرتبكاً. قال الأمير الشاب: إنني أعرف أن الطبيعية إذا لم تساعد نفسها بنفسها فإن الإنسان لا يستطيع شيئاً حيالها. وإنني أعترف أن هناك حالة سيئة بين كل مليون حالة، ولكن ماذا تريد، تلك هي فكرتها... وكذلك هو رأيي. لقد أداروا رأسها وحلمت أحلاماً مزعجة، وبالاختصار إنها خائفة.

فغمغم العجوز وهو يُنهي رسالته ويوقع عليها توقيعاً ضخماً: هم!

www.Maktbah.com

هم!... ليكن! ثم التفت فجأة إلى ابنه وقال له وهو ينفجر ضاحكاً: إنها مسألة مزعجة أليس كذلك؟

ـ أية مسألة يا أبي؟

فأجاب الأب بلهجة مفعمة بالمعاني: زوجتك!

ـ لست أفهمك.

ـ والأسوأ يا صديقي الطيب هو أنه لا يمكن أبداً تبديل شيء. فلا تيأس، لن أتحدث بالموضوع إلى أحد، وأنت تعرف كيف تتصرف.

ثم أمسك بذراعه بيده الصغيرة النحيلة، وهزه وهو يحدجه بنظرة قاطعة تكاد تخترقه من جانب إلى آخر، ودوت ضحكته الباردة الجامدة من جديد. فأطلق الابن زفرة أثبتت للأب أنه أصاب الهدف في تخمينه، بينما عاد الأمير العجوز يطوي الرسالة ويختمها بخاتمه حسب طريقته المألوفة وقال: ماذا تريد، إنها جميلة!... فكن مطمئناً سوف أعمل اللازم.

لم يجب أندريه. كان مسروراً كما كان حزيناً لأن أباه استطاع أن يخترق سريرته ويحدس ما فيها. فنهض العجوز ومدّ الرسالة إلى ابنه وقال:

ـ إصغ. لا تقلق مطلقاً حيال زوجتك لأننا سنعمل المستحيل من أجلها. والآن هذه رسالة إلى ميخائيل إيلاريونوڤيتش، لقد كتبت له طالباً إليه أن يستخدمك في أهمّ المراكز وأن لا يستبقيك طويلاً في الأركان العامة لأن هذه المراكز سيئة مكروهة! طمئنه بأنني مازلت أذكره وأحتفظ له بمودتي القديمة، واكتب لي عندما يستقبلك. لا تمكث معه إلا إذا استقبلك استقبالاً يليق بك. إن ابن نيكولا أندرييـڤتش پولكونسكي، ليس بحاجة إلى أن يطلب منة من أحد، مهما سما مركزه. والآن تعال من هنا.

كان الأمير العجوز يتكلم بطلاقة عظيمة، حتى أنه ما كان يخرج نصف الكلمات. لكن أندريه كان معتاداً أسلوبه. قاده أبوه إلى خزانة فتحها وجذب

twitter @baghdad_library

درجاً فيها أخرج منه دفتراً مكتوباً بخطه الكبير ذي الأحرف الطويلة المشبكة وقال:

ـ لا شك إنني سأموت قبلك. فاعلم إنني سجلت مذكراتي في هذا الدفتر فيجب إعطاؤه إلى الأمبراطور بعد موتي. وإليك رسالة ووثيقة ملكية «جبل الشفقة» إنها جائزة ثمينة لذلك الذي سيكتب تاريخ معارك سوڤوروف، فينبغي أن تنقل هاتين الوثيقتين إلى المجمع العلمي. وهذه أخيراً ملاحظاتي الشخصية فاقرأها من بعدي لأنك ستفيد من قراءتها.

حاذر أندريه أن يقول لأبيه إنه ينتظر أن يعيش سنوات طويلة أخرى، لأنه كان يعتقد أن ذلك القول خطيئة يجب ألّا يقع فيها فاكتفى بأن قال ببساطة: ستنفذ كل رغباتك يا أبي،

ـ حسناً والآن وداعاً!

وقدم له يده ليقبلها ثم ضمه بين ذراعيه وتابع: تذكر شيئاً واحداً يا أمير أندريه: إذا قتلت فإن ذلك سيكون شديد الوقع والألم على قلبي العجوز...

ثم أبدل مكانه وقال بعد صمت: لكنني إذا علمت أنك لم تتصرف جديراً بابن نيكولا پولكونسكي، فإن ذلك سيكون عاراً عليك!

فأجاب الابن مبتسماً: كان يمكنك يا أبي ألّا تقول لي ذلك وأن تثق بأنني سأكون عند حسن ظنك.

فسكت العجوز بينما استرسل أندريه يقول:

ـ لي رجاء أتقدم به إليك يا أبي. إذا قدر لي أن أقتل وأنجبت زوجتي ولداً، فأرجو أن لا تبعده من هنا. إنني أريد، كما أسلفت لك أمس، أن يترعرع ويشب في ظلالك. إنني أرجوك بإلحاح أن لا تغفل ذلك.

فقال العجوز مقهقهاً: آه، آه! يجب ألّا أدعه لأمه أليس كذلك؟

لبث الرجلان لحظة يتبادلان النظر صامتين. كان الأب يحدق إلى عيني

www.Maktbah.com

ابنه وكانت ذقنه ترتعد ارتعادة خفيفة. قال فجأة: حسناً، لقد ودعنا بعضنا فامض الآن!

ثم كرر بصوت آمر وهو يفتح الباب:

ـ إمض!

تساءلت الأميرتان وهما تشاهدان أندريه خارجاً ووراءه شبح العجوز الغاضب، وهو في معطفه المنزلي ونظارتيه، وقد غفل عن وضع الشعر المستعار على رأسه: ماذا هناك؟ ماذا هناك؟

فلم يجب أندريه إلا بزفرة وقال لزوجته بلهجة فيها سخرية باردة:

ـ هيا!

كان يبدو أنه يدعوها بتلك الكلمة إلى إلقاء مرثياتها التي يتوقع أن تلقيها!

هتفت ليز وقد شحب وجهها وراحت تنظر إليه بارتياع: أندريه، أتذهب!

فأخذها بين ذراعيه. غير أن ليز أطلقت صرخة وهوت على كتفه مغشياً عليها. فخلص نفسه منها وسجاها بهدوء على كنبة وقال لأخته بصوت خفيض:

ـ وداعاً يا ماري.

ثم عانقها وقبلها قبلات أخوية قلبية وابتعد بخطوات سريعة.

لبثت ليز مسجاة على الكنبة تغسل الآنسة بوريين صدغيها بالماء. أما ماري فكانت تنظر، بعينين مغرورقتين في الدموع، إلى الباب الذي خرج منه أخوها، فرسمت إشارة الصليب باتجاهه، وعادت تهتم بزوجة أخيها.

وارتفع صوت من مكتب العجوز الغاضب يشبه طلقة الغدارة، ينبئ بأن العجوز المنفعل يتنخم في منديله. وما كاد أندريه يغادر باب المكتب ويبتعد عنه، حتى وورب الباب، وظهر الأمير العجوز بقامته الصارمة وهو في معطفه المنزلي الأبيض وقال: هل ذهبت؟ هيا، ذلك أفضل!

هز رأسه بلوم وصفق الباب وراءه. بعد أن ألقى نظرة غضبى على زوجة ابنه المغمى عليها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الجزء الثاني

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الأول

كانت القطعات الروسية في تشرين الأول عام ١٨٠٥ تُشغل عدداً من قرى ومدن الأرشيدوقية النمسوية وكانت قوات روسية أخرى تصل باستمرار وتتمركز قرب حصن «برونو» محدثة أضراراً كثيرة للسكان. وكان ذلك الحصن مركز القائد الأعلى كوتوزوف.

على بعد ربع ميل من المدينة كانت إحدى سرايا الجيش مستقرة، تنتظر وصول الجنرال القائد الأعلى في اليوم الحادي عشر من تشرين الأول. وكانت تلك السرية، رغم المشهد الطبيعي الغريب الذي يحيط بها، البساتين والأسوار الحجرية، سطوح القرميد، والجبال الرابضة على البعد، ورغم طبيعة السكان التي لا تقل غرابة عن المشهد الطبيعي، الذين كانوا ينظرون بفضول إلى هؤلاء الجنود، تحمل الطابع الذي تتسم به كل فرقة روسية على أرض الوطن عندما تنتظر تفتيش قائدها الأعلى.

مساء اليوم الأسبق، أبلغ ضباط السرية أن الجنرال القائد الأعلى سيحضر لتفتيش الفرقة المحاربة عندما تصل إلى آخر مرحلة من برنامج سيرها المحدد. وعلى الرغم من أن منطوق الأمر اليومي الذي صدر إلى قيادة الفرقة كان قليل الوضوح، حتى أن قائد الفرقة تساءل عما إذا كان ينبغي للجنود أن يكونوا في ثياب الميدان أو في ثياب الاحتفالات، فإن مجلس ضباط الكتائب قرر أن يكون الجنود في ثياب الحفلات على اعتبار أن هذا التصرف لا غبار عليه، وأن استعمال تلك الثياب في الغالب في مثل هذه المناسبات، خير من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إغفاله. وعلى هذا، فقد مضت الليلة دون أن يُغمض جفن في المعسكر، رغم أن الجنود كانوا قد أنهوا رحلة طولها ثمانية أميال.

كان الجنود يُلمعون تجهيزاتهم ويُعنون بزيهم العسكري، والرؤساء ومساعدو القيادة يحصون الرجال ويوزعونهم على مراكزهم، حتى أنهم كانوا في الصباح الباكر، قد جهزوا تلك الفرقة التي كان قوامها ألفي رجل، على شكل دقيق منظم، فكان كل جندي يعرف المكان الذي سيحتله والعمل الذي سيقوم به، وكانت كل التجهيزات نظيفة وكل الأزرار في أماكنها على الألبسة العسكرية. ولم يُعن الضباط بمظهر رجالهم الخارجي فحسب، فلو أن القائد الأعلى فكر في النظر إلى الألبسة الداخلية، لوجد أن كل جندي كان يرتدي قميصاً داخلياً نظيفاً، ولتأكد أن في كيس كل منهم الأشياء النظامية بعددها النظامي.

غير أن هناك أمراً واحداً كان يُشغل بال الضباط والجنود معاً: ذلك أن أحذية الجنود كانت ممزقة بالية، وكان النصف الأكبر منهم لا يملك أحذية إلا «البقايا» التي ظلت في أقدامهم. ولم تكن الخطيئة في ذلك تعود إلى آمر السرية. بل كان الخطأ يقع على كاهل مصلحة الإعاشة النمسوية «مهمات الجيش»، التي رغم المطالبات المتكررة والملحة، لم تُقدم شيئاً إلى الجنود الذين كانوا قد قطعوا أكثر من مائة وخمسين فرسخاً قبل أن يصلوا إلى ختام المطاف.

كان قائد الفرقة جنرالاً ذا حاجبين وسالفين تسلل إليهما المشيب. عريض الصدر، ضيق الكتفين، منكمش الجسم. كان لباسه الرسمي جديداً يحمل ثنيات ضخمة «وكتافتين» مذهبتين كانتا تساهمان في إظهار كتفيه منتصبتين. وكان ظهره على شيء من الانحناء، وفي خطوته بعض التراخي. كان يتنزه أمام جبهة الفرق، وكأنه سيد أتم من فوره أجل عمل قام به في حياته. بدا فخوراً

www.Maktbah.com

مُظفراً لقيادته فرقة تفانى من أجلها قلباً وروحاً. لكن مشيته المترددة، كانت تعطي فكرة أخرى تدل على تمسكه بنعيم الحياة وإغراء الجنس اللطيف.

قال يخاطب أحد قادة الكتائب وهو يبتسم ابتسامة كلها رضى: حسناً يا عزيزي ميخائيل دميتريش، أيها الباسل! لقد احتمل كلّ منا نصيب رتبته من أعباء الليلة الفائتة أليس كذلك؟ غير أن السرية كلها تبدو لي في أوجها كذلك ألست من رأيي؟

كان ضابط الكتيبة قد أجاب على قائده الأعلى بابتسامة لا تقل انشراحاً عن ابتسامته. فلما شعر أن الرئيس قد تطرق إلى المزاج الجميل أجابه ضاحكاً: إنني أعتقد أننا ما كنا لنقطب وجوهنا ونعبس ولو كنا في ساحة القتال!...

فقال الجنرال مستفهماً: هم؟...

ظهر فارسان في تلك اللحظة على برونو، حيث كان قد أقيم عليها مراقبون بانتظار وصول القائد الأعلى. كان أحدهما ضابطاً مساعداً والآخر خيّالاً قوقازياً، كانت القيادة العليا قد أرسلتهما إلى قائد السرية ليوضحا له أمر البارحة. أوضح الضابط المساعد الجنرال أن القائد الأعلى يرغب في رؤية السرية على ما كانت عليه حالها عندما وصلت إلى مكانها الحالي، دون أي تعديل أو تبديل. أي إنه كان يريد تفتيش الفرقة بلباس الميدان.

صباح أمس، تلقى كوتوزوف، أحد أعضاء القيادة المتحالفة «هوف كريجران» جاء من ڤيينا يرجوه ويستدعيه للقيام بعملية الالتحاق مع جين ماك[١] وجين الأرشيدوق فرديناند[٢]. ورأى كوتوزوف أن الالتحاق بذينك

---

(١) جنرال نمسوي طوّقه ناپليون فاستسلم دون قتال مع ثلاثين ألف محارب. (المترجم).

(٢) فرديناند الأول، أمبراطور النمسا، كان لا يزال أرشيدوقاً أثناء حملة بوناپرت. (المترجم).

twitter @baghdad_library

الجيشين غير مُجد لذلك فقد أراد أن يُظهر للجنرال النمسوي، بين العديد من الآراء المؤيدة لوجهة نظره الحالة السيئة التي بلغت إليها الجيوش الروسية القادمة من روسيا. ولهذا السبب وحده، كان يريد استعراض الوحدات القادمة التي كانت ستزيد اغتباطه كلما كانت حالته أكثر سوءاً.

ولما كان الضابط المساعد يجهل هدف قائد السرية، فقد نقل إليه رغبة القائد الأعلى في لقاء السرية على حالها التي كانت عليها عند بلوغها مرحلتها الأخيرة، وأنه في حال عدم تنفيذ تلك الرغبة، فإن القائد الأعلى سيكون شديد الاستياء. فهزّ الجنرال قائد السرية كتفيه، وأطرق برأسه وباعد بين ذراعيه، وقال بلهجة غاضبة يُحدث قائد الكتيبة:

ـ ها نحن في موقف سيئ! لقد قلت لك يا ميخائيل دميتريش إن المعاطف واجبة في الميدان. رباه، رباه!

وسار بخطى حثيثة وصاح بصوته الآمر: يا حضرات قادة الفصائل! أيها النقباء!

ثم استدار إلى الرسول وقال بلهجة امتثالية:

ـ هل سيصل سريعاً؟

فأجاب الضابط المساعد: خلال ساعة على ما أظن.

ـ هل نجد وقتاً كافياً لتبديل ألبسة الجنود؟

ـ لست أدري يا سيدي الجنرال.

تقدم الجنرال من الصفوف الأولى وأعطى أمراً بارتداء المعاطف. فجرى ضباط الفصائل بين الصفوف يبلغون الأمر، واهتم الرقباء واكتأبوا بسبب سوء حالة معاطفهم. ولم يلبث المربع المنظم الذي كان يضم جنوداً نظاميين، أن اعوجّ مدوياً. فالحركة بين الجنود عادت على أشدها: رفعوا أكياسهم عن

www.Maktbah.com

ظهورهم بضجيج مسموع، وأخذوا يعدون معاطفهم، وارتفعت الأذرع تدخل في أكمام المعاطف.

ولم تنقضِ نصف ساعة، حتى عاد المربع إلى الالتئام والسكوت بعد أن انقلب لونه من أسود إلى أشهب. وعاد الجنرال بخطواته المتثاقلة، يقف على مقدمة الفرقة ليعاين جنوده عن بعد. صاح بانفعال: ما هذا أيضاً؟ ما معنى ذلك؟

وتقدم بضع خطوات إلى الأمام وصاح: ليحضر رئيس الفرقة الثالثة.

ورددت الصفوف عبارة: قائد السرية الثالثة مطلوب للمثول أمام الجنرال!

بينما راح ضابط تابع يجري باحثاً عن الضابط المتأخر.

فلما بلغت الأصوات المرددة: «ضابط الفرقة الثالثة، إلى الجنرال!» مشوهة حتى أصبح النداء «الفرقة الثالثة للرئيس!» أو «الجنرال للفرقة الثالثة»!، الصفوف الخلفية، خرج الضابط المعني بالأمر من الصفوف. وعلى الرغم من أنه لم يكن في شرخ الشباب، ولم تكن من عادته الجري، فقد راح يسير جرياً نحو موقف الجنرال. لكن طريقته في الجري كانت متعثرة حتى أن طرفي حذائه كانا يصطدمان معاً بين آونة وأخرى. وكانت قسمات وجهه تحمل طابع القلق الذي يتجلى عادة على وجه التلميذ الذي طُرح عليه سؤال في مادة لم يكن قد قرأها. وكانت لطخات بيضاء تحلي أنفه المحمرّ من شدة الدلك، وفمه المرتعد لا يستقر على حال. فلما كاد يبلغ موقف الجنرال، أصبحت أنفاسه مبهورة وخطواته تزداد بطئاً.

حدجه الجنرال بنظرة من رأسه إلى قدميه، وصاح وهو يقدم فكه الأسفل دلالة على امتعاضه:

ـ ما معنى ذلك؟ لعلك تلبس جنودك عباءات بيضاء بعد قليل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وأشار بإصبعه إلى جندي كان يرتدي معطفاً يختلف لونه عن كل ما حوله من معاطف، وأردف: وأنت؟... أين كنت؟ نحن ننتظر القائد الأعلى بينما أنت تترك مركزك هم؟... سوف أعلمك كيف تجعل رجالك يبدون بمظهر حسن في أيام العرض!

كانت نظرات رئيس الفرقة شاخصة إلى قائده وهو يحيّيه بإصبعين لبثتا ممسكتين بحافة خوذته وكأنه لا يعرف من السلام إلا تلك الحركة.

عاد الجنرال يقول بصوت يجمع بين الشدة واللين: تكلَّم أخيراً! من هو المتنكر؟ أهو هنغاري؟

ـ يا صاحب السعادة...

ـ ماذا «يا صاحب السعادة»؟ يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة! فسر موقفك...

ـ إنه يا صاحب السعادة دولوخوف، الضابط الذي خفضت رتبته إلى جندي.

كان رئيس الفرقة يتحدث بوجل. فصاح الجنرال: دولوخوف! لقد جعلوا منه جندياً وليس مارشالاً على ما أعتقد. فلمَ إذن لا يرتدي ألبسة كل الجنود؟

ـ إن سعادتكم أجزتم له ذلك أثناء المسير.

فقال الجنرال وقد هدأت حدته بعض الشيء: أجزت؟ أجزت؟ إنكم جميعاً هكذا أيها الشبان: تقال لكم كلمة فـ...

ثم عاد إلى الاحتداد مجدداً وتابع:

ـ تُقال لكم كلمة فتجعلون منها... ماذا؟ هم؟ ألبس جنودك الكسوة المناسبة.

واقترب الجنرال من الفرق المحتشدة وهو يجر ساقه كعادته، دون أن

www.Maktbah.com

يعقب على قوله إلا بنظرة ألقاها على الضابط المساعد. كان من الواضح أن حالة الغضب التي كان عليها، تُدخل السلوان على نفسه.

كان يبدو عليه أنه يعتمد البحث بين أفراد السرية عن سبب آخر يفتأ غضبه. وبعد أن تقدم بملاحظة إلى أحد الضباط بسبب ياقته المستعارة التي لم تكن شديدة النظافة، وآخذ آخر لسوء انتظامه في الصف، وصل إلى الفرقة الثالثة.

ـ خمسة رجال تفصله عن دولوخوف الذي كان مرتدياً معطفاً يميل لونه إلى الزرقة. فصاح بصوت مكتئب: ما هذا الهندام؟ ساقك، أين ساقك؟.

فعدل دولوخوف وقفته ببطء وحدج الجنرال بنظرة جريئة. أردف الجنرال: ما معنى هذا المعطف الأزرق؟ انزع هذا... أيها الرقيب، ليبدل ثيابه هذا الـ....

فقاطعه دوخولوف بخشونة قائلاً: سيدي الجنرال، إنني مُلزم بتنفيذ الأوامر وليس باحتمال...

ـ اصمت!... ممنوع الكلام بين الصفوف!... اصمت!

فأتم دولوخوف جملته بصوت مرتفع واضح:

ـ ... وليس احتمال الإهانات.

تقابلت نظرات الجنرال ونظرات الجندي. فراح الأول يشد على حزامه بغضب دون أن يجرؤ على التفوه بجواب، وأخيراً قال: تفضل بتبديل هندامك أرجوك.

ومضى مبتعداً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

لقد جاء! صاح أحد المراقبين على الطريق!

احمرّ وجه الجنرال فجأة فأسرع إلى حصانه، وأمسك بالسيور بيد مرتجفة واعتلى صهوته. فلما استوى في مكانه، استل حسامه وأشرقت أساريره وقد علاها الحزم، وفتح فمه على زاوية استعداداً لإصدار الأوامر. وانتفضت السرية كالعصفور الذي ينفض ريشه، وتجمدت ساكنة كقطعة من الصخر.

صرخ الجنرال بصوت كالرعد تتجلى فيه أصداء الرضى الممزوج بالحزم حيال السرية والامتثال للقائد الأعلى: إس ـ تا ـ عد!

وعلى الطريق العريض المغروس بالأشجار، كانت عربة عالية من عربات ڤيينا، مطلية بلون أزرق فاتح، تقطرها ستة خيول، تتقدم مسرعة بصرير خافت وصخب مكتوم. وكان يرافقها حرس كرواتي. توقفت العربة أمام السرية حين كان كوتوزوڤ يتحدث بهدوء مع جنرال نمسوي جالس إلى جانبه بثيابه البيضاء التي كانت أشبه بلطخة وسط الستار الأسود الذي تشكله ألبسة الروس. ولما ترجل من العربة بخطاه الثقيلة، كان يبتسم إلى محدثه دون أن يبدو على وجهه أنه يهتم بالألفين من الرجال الذين كتموا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم إليه وإلى قائدهم المباشر.

دوّى أمر جديد، فتماوجت السرية وارتفع بين الصفوف صليل الأسلحة بالتحية النظامية، وأعقب ذلك سكون ثقيل قطعه صوت القائد الأعلى الخافت وهو يحيي الجنود، وصوت الجنود يدوّي مجيباً: «نتمنى لسعادتكم

www.Maktbah.com

صحة طيبة..»! وعاد السكون والهدوء من جديد. وبعد أن شهد القائد الأعلى العرض العسكري وهو في مكانه، راح يجوس خلال الصفوف مع تابعيه وهو يمشي جنباً إلى جنب مع الجنرال الأبيض.

وقائد السرية، الذي كان منذ حين واقفاً دقيقة جامدة يحيي بسيفه القائد الأعلى وهو يلتهمه بنظراته، يركض وراءه في تلك اللحظة منحني الجذع جاهداً في الامتثال لأية إشارة تصدر عن القائد الأعلى، مُبرزاً الدليل الواضح على أنه يقوم بكل واجبات المرؤوس حيال الرئيس بسرور يفوق سروره بالقيام بأعبائه كرئيس.

وكانت السرية تبدو على أفضل حال بفضل جهوده وحزمه حتى أنها كانت أهمّ السرايا التي وصلت إلى برونو. لم يكن بينها أكثر من مائتين وسبعة عشر مريضاً أو متخلفاً، ولم يكن فيها ما يستحق النقد أو القلق إلا مسألة الأحذية.

بين الحين والآخر يتوقف كوتوزوف ليوجه بضع كلمات لطيفة إلى الضباط الذين عرفوه خلال حرب تركيا، وكان أحياناً، يتحدث إلى بعض الجنود.

كان يهز رأسه بحرارة مرات عديدة خلال استعراضه القوات كلما وقع نظره على أحذية الجنود، فكان يُشير إلى الجنرال الأبيض النمسوي بلهجة من يقول: إنه لا يوجِّه اللوم إلى أحد، ولكنه لا يستطيع مشاهدة حال رجاله السيئة دون أن يشعر بالمضض. وفي كل مرة، كان قائد السرية يندفع إلى الأمام محاذراً أن تفوته أتفه ملاحظات القائد الأعلى وكلماته. وكان مرافقو القائد الأعلى يسيرون وراءه على مسافة تسمح لهم بالإصغاء إلى كل كلمة يفوه بها بصوت خفيض.

وكان تعداد المرافقين يقرب من عشرين رجلاً، كانوا يتحادثون بينهم

twitter @baghdad_library

ويسمحون لأنفسهم أحياناً بالضحك. وكان ضابط مساعد جميل يسير في أعقاب القائد الأعلى في الصفوف الأمامية من المرافقين. ذلك الضابط كان پولكونسكي. وكان إلى جانبه صديقه نيسڤيتسكي، وهو ضابط مديد القامة قوي البنيان متينه، بسّام ضاحك الوجه، بعينين دائمتي الاغريراق والجذل، كان يُضحكه ما يصدر عن ضابط مساعد آخر أسمر الوجه مرح لطيف. ذلك الضابط الأسمر، يحدج ظهر قائد السرية بنظرة ثابتة، ويقلد بكل جد ووقار كل انتفاضة وانحناءة تصدر عنه، فكان نيسڤيتسكي يضحك لذلك المشهد الطريف ويلكز رفاقه بمرفقه ينبههم إلى حركات ذلك الضحوك المسلي.

راح كوتوزوف يقابل بلا مبالاة ألوف العيون التي كانت تتابعه وكأنه لا ينفصل عن حدقاتها. فلما وصل قرب الفرقة الثالثة، توقف فجأة حتى أن تابعيه كادوا يصطدمون به بسبب توقفه الفجائي الذي ما كانوا يتوقعونه.

صاح القائد الأعلى محدثاً ضابط الفرقة الذي عرفه، والذي كاد المعطف الأزرق يسبب له عناء وتشويشاً: آه، آه! تيموخين!

وبدا مستحيلاً أن يتمكن المرء من الانتصاب أكثر مما انتصب تيموخين خلال فترة الاستعراض كلها. مع ذلك، فإنه وجد وسيلة مكنته من أن يضاعف انتصابه عندما سمع القائد الأعلى يوجه الحديث إليه، وكان بادياً عليه استحالة بقائه على ذلك الوضع المستعد وقتاً طويلاً، وفهم كوتوزوف الموقف تماماً. ولما كان لا يريد إلا خير قائد تلك الفرقة، فقد سارع بمغادرته ليسمح له باتخاذ وضعية تريحه، وشاعت ابتسامة على وجهه المكتنز الذي يشوهه جرح قديم.

قال لقائد السرية:

هذا زميل جديد «لإسماعيل»، إنه ضابط باسل! هل أنت مسرور منه.

فقفز الجنرال قائد السرية إثر انتفاضة، وخطا إلى الأمام خطوة وقال: شديد السرور يا صاحب السعادة العلية.

www.Maktbah.com

بينما نقل الضابط الأسمر المرافق للقائد الأعلى حركات قائد السرية كالمرآة الأمينة التي تعكس الصور الحقيقية للأشياء.

قال كوتوزوف باسماً: لكل منا نقاط في نفسه. أما هو فقد كان يُمالق باخوص[1] أكثر من اللازم.

واستمر في تفتيشه.

لم يتجرأ قائد السرية على الإجابة وهو الذي راح يسأل نفسه عما إذا لم يكن مسؤولاً فعلاً عن ذلك الضعف، وفي تلك اللحظة، أخذ الضابط المرافق الأسمر، لدى مشاهدته رأس قائد الكتيبة ذي الأنف الأحمر القرمزي والبطن المنتفخ المتصلب، يقلد تلك الشخصية تقليداً بلغ من إتقانه، أن نيسفيتسكي لم يستطع كبت ضحكة، مجلجلة. فالتفت كوتوزوف لكن الضابط الذي كان يتحكم في سحنته على هواه، أخذ في تلك اللحظة طابعاً جدياً خطيراً بريئاً ومحترماً، قلّ أن يشاهد مثله على وجه من الوجوه.

كانت الكتيبة الثالثة هي الأخيرة في الاستعراض والتفتيش فراح كوتوزوف يجهد فكره لتذكر أمر ما سها عن باله وعندئذ تقدم الأمير أندريه من صفوف المرافقين وقال للقائد الأعلى بصوت خفيض باللغة الفرنسية:

ـ لقد أوعزتم إليّ أن أذكركم بأمر «دولوخوف» الضابط الذي خفضت رتبته في هذه السرية.

سأل كوتوزوف: أين دولوخوف هذا؟

فلم ينتظر دولوخوف أن يستدعى عن طريق التسلسل حتى يمثل بين يدي القائد الأعلى، بل برز من الصفوف فوراً وجاء ينتصب بوضعية الاستعداد أمام

(١) إله الخمرة عند اليونان (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

القائد الأعلى، كان شاباً وضّاح المحيّا أزرق العينين، أشقر الشعر. وكان قبل ذلك قد استطاع استبدال معطفه الأزرق بمعطف الجنود الرصاصي.

سأله القائد الأعلى في شيء من الرقة: هل لك سؤال؟

قال الأمير أندريه: هذا هو دولوخوف!

ـ آه!.. حسناً آمل أن يردعك الدرس الذي تلقيته. فكن جندياً طيباً والأمبراطور رحيم شفوق، فإذا تصرفت تصرفاً حسناً فإنني أنا الآخر لن أنساك.

فشخص دولوخوف بنظره المشع إلى وجه الجنرال القائد الأعلى في كثير من الجرأة والحزم، كما فعل منذ حين إزاء قائد السرية، حتى وكانت تلك النظرة، قد مزقت حجاب التقاليد التي تجعل البون شاسعاً بين الجندي البسيط والقائد الأعلى الرفيع.

قال بصوت ثابت حازم:

ـ إنني لا أطلب من سعادتكم العلية إلا أمراً واحداً، وهو أن تعطى لي الفرصة لإصلاح خطيئتي، وإثبات تفانيّ لصاحب الجلالة ولروسيا.

عبس كوتوزوف فجأة وأشاح بوجهه، بينما أطلت من عينيه، تلك الضحكة الهازئة التي برزت منهما عندما التقتا رئيسه تيموخين منذ حين. ولعله أراد بذلك أن يقول: إن كل ما قاله دولوخوف وكل ما كان يمكن أن يقوله ليس إلا أشياء معروفة منذ زمن بعيد ومكررة بل في غير محلها، ثم مضى متجهاً نحو عربته.

تفرقت السرية إلى فرق صغيرة واتجهت نحو المعسكرات التي أقيمت لها على مقربة من برونو، حيث كان أفرادها يأملون الحصول على أحذية جديدة وألبسة مناسبة، وخصوصاً على الراحة المنشودة بعد تلك المراحل الطويلة من السير الشاق.

www.Maktbah.com

ولما راحت الفرقة الثالثة وعلى رأسها تيموخين تنظم صفوفها استعداداً للمسير، اقترب الجنرال، الذي جعلته سلامة عواقب التفتيش ميالاً إلى المرح، من الرئيس مُشرق الوجه وقال: آمل أ لّا أكون قد أزعجتك يا بروخو إينياتيتش؟ إنك تفهم... إن خدمة القيصر... إن المرء عندما يكون على رأس الفرق يفقد صوابه فلا يستطيع تنميق كلامه أو انتقاءه... لكنك تعرفني وتعرف أنني على استعداد لتقديم اعتذاراتي عند الاقتضاء... هيا، أقدم لك خالص شكري؟

ومد له يده، فأجاب الرئيس الذي ازداد أنفه احمراراً، بابتسامة كشفت عن فكه وفضحت نقص نابين تحطما بضربة من عقب بندقية في معركة إسماعيل: وكيف لا أفهم يا سيدي الجنرال!...

ـ وبهذه المناسبة، قل للسيد دولوخوف إنني لن أنساه وإنه يستطيع أن يطمئن إلى هذا الأمر، أخبرني ما وددت منذ زمن طويل أن أسألك عنه: كيف يتصرف؟ وما رأيك في سلوكه؟

ـ إنه دقيق جداً في الخدمة يا صاحب السعادة. أما عقليته...

فقاطعه الجنرال قائلاً: حسناً، أما عقليته؟

ـ إن ذلك يتوقف على الوقت يا صاحب السعادة. فهو شاب ذكي ومهذب أحياناً، وهو على عكس ذلك وحش ضار أحياناً أخرى. لقد كاد يقتل يهودياً في پولونيا...

ـ إنك على حق... ولكن يجب أن نُشفق على الشاب في محنته. إن له علامات عالية هامة... كذلك يمكنك...

فأجاب تيموخين وهو يُبرز ابتسامة تعني أنه فهم غاية رئيسه:

ـ أمرك يا سيدي الجنرال.

ـ جيد، جيد.

twitter @baghdad_library

مشى الجنرال إلى جانب الفرقة وأوقف حصانه إلى جانب دولوخوف وصاح بصوت تعمد أن يسمعه الجنود:

ـ حسناً، إن الأمر على ما يُرام... ليوزع على كل جندي كأساً من الخمرة من جانبي. شكراً للجميع وحمداً لله!

وتخطّى الفرقة ليقترب من أخرى، بينما راح تيموخين يقول لضابط مساعد له كان إلى جانبه: إنه رجل باسل يمكن التفاهم معه رغم كل شيء.

فأجاب الضابط الصغير: إنه «الملك الكبّا!» (ويقصد إنه طيب القلب).

كان ذلك اللقب قد أطلق على الجنرال من قبل أفراد سريته، وكان إلى جانب ما يحمله منِ معنى آخر لترجمة العبارة حرفياً، والذي يمكن القول بمقتضاها إنه ملك القلب، يحمل تورية يتفكه بها الجنود.

انتشر المزاح بين الجنود بعد أن عمّ الضباط جميعاً، فراحت السرية تسير بخطى نشيطة، والرجال يتبادلون الفكاهات على غرار: كانوا يقولون مع ذلك إن كوتوزوف أعور.

ـ لعلك تريد أن تقول إنه أعور العينين معاً!

ـ أنت مخطئ يا فتى. إن عينيه أحدّ من عينيك. لقد دقق في الأحذية والجوارب وتفحصها!

ـ آه! إنني يا فتاي، عندما عاين ساقي حدّثت نفسي بمثل هذا...

ـ هل رأيت النمسوي الذي كان معه... يبدو كأنه طُلي بالحبر. إنه أبيض كالدقيق. يا لشدة ما قضى من وقت في تلميع نفسه، ذلك الفتى!...

ـ هه، يا ڤيديا، ألم تسمعهم يتحدثون عن الوقت الذي سنقاتل فيه بوناپرت؟ لقد كنت قريباً منهم. يبدو أن بوناپرت في برونوف حالياً! (يعني برونو).

ـ بوناپرت في برونوف! من أين جئت بهذا أيها الغرّيد! إنك لا تعرف أن

www.Maktbah.com

بروسكو (ويقصد بروسيا) وحده هو المتعند في الوقت الحاضر وأن النمسوي يؤدبه ويسكنه. ومتى انتهى منه، فسيأتي دور بوناپرت. مع ذلك، تقول إنه في برونوف! إنك لست ذكياً يا فتى. ماذا لو أنك فتحت أذنيك أكثر من ذلك؟

ـ آه، من المشرفين على الإعاشة! أنظر إليهم يقيمون في القرية هناك. إنهم لن يهيئوا لنا الطعام قبل وصولنا.

ـ لن تحصل ولا على «بسكويته» أيها اللعين العجوز.

ـ ومن الذي أعطاك التبغ البارحة؟ هل تذكر ذلك أم لا؟.. خذ، خذ مع ذلك، وليباركك الله!

ـ ليتنا نتوقف فقط. ولسوف نسير هكذا مرحلة طويلة قبل أن نضع لقمة في فمنا.

ـ هل تريد أن يعطينا الألمان عربات؟ إن ذلك سيكون حتماً أمراً جميلاً.

ـ إننا هنا يا فتاي لسنا إلا حفاة الأقدام. لقد كنا حتى الآن فتيان التاج الروسي. أما الآن فليس... إلا الألمان!

صاح الضابط الرئيس:

ـ ليتقدم المغنون إلى الصفوف الأمامية.

فخرج من الفرقة حوالى عشرين رجلاً واجتمعوا في الطليعة. والتفت إليهم رئيس الفرقة الموسيقية وهز ذراعه وردد بصوت مدوٍ أغنية الجنود التي تبدأ:

أليس الفجر هذا.

الفجر الذي ينبلج؟

وتنتهي كما يلي:

نعم حتماً سوف نحصل

سوف نحصل على المجد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مع الأب كامانسكي...

نُظمت هذه القصيدة في تركيا، لكنها كانت تردد الآن في النمسا بتبديل بسيط في البيت الأخير، إذ استعيض بعبارة «الأب كوتوزوف» عن عبارة «الأب كامانسكي» التي كانت تنتهي بها في معركة تركيا.

وبعد أن انتهى الجنود من هذا المقطع الأخير، حركوا أيديهم بعنف وكأنهم يلقون بشيء إلى الأرض. ونظر قارع الطبل إلى المغنين نظرة قاسية شملتهم جميعاً، فلما أيقن أن عيونهم شخصت إليه، بدا كأنه يرفع شيئاً وهمياً فوق رأسه، شيئاً ثميناً غير مرئي، استبقاه لحظة مرفوعاً إلى الأعلى ثم ألقاه فجأة، بحركة يائسة إلى الأفق البعيد وقال:

آه، آه، يا كوخي.

يا كوخي الجميل...

وردَّد عشرون صوتاً بعده:

ـ يا كوخي الجديد!... بينما تقدم الضارب على الصنج إلى الأمام مهرولاً وراح رغم ثقل عتاده، يسير القهقرى وهو يحرك كتفيه بحركة دائرية ويقرع صنوجه بحركة تهديدية. أما الجنود فقد راحوا يضبطون الإيقاع بحركات أذرعهم، ويتقدمون بهمة عالية، وهم يضربون أقدامهم على الأرض.

وارتفع بعد قليل صوت عجلات العربة وصريرها، وصوت خيول تخب. كان كوتوزوف وتابعوه عائدين إلى المدينة. أشار الجنرال، القائد الأعلى، إشارة طلب فيها أن يمشي الجنود بخطوات حرة وكان وجهه ووجوه تابعيه مشرقة لسماعهم تلك الأغنية، ولرؤيتهم تلك القطعة المرحة الصاخبة، يقودها الراقص الذي يسير في المقدمة.

وفي الصف الثاني من ركبه، على الجانب الأيمن، كان جندي ذو عينين زرقاوين يلفت النظر بتصرفه الكيس الحماسي المتفق مع إيقاع الأغنية،

www.Maktbah.com

وبنظرة الإشفاق التي كان يُلقيها على كل من الفرسان المتعجرفين المواكبين لركب القائد الأعلى. كان يبدو مشفقاً عليهم لأنهم لا يسيرون في صفوف الفرقة. جاء أحد أولئك الضباط الفرسان متخلياً عن مكانه في الركب، واقترب من ذلك الجندي الذي لم يكن سوى دولوخوف.

كان جوكوف، ذلك المتخلف، تابعاً من قبل للعصبة التي كان يقودها ويرأسها دولوخوف. وكان قد لاقاه خلال الطريق وتجاهل وجوده. فلما رأى عطف كوتوزوف ولمس ميله إلى ذلك «الضابط المجرَّد من رتبته»، اقترب منه وعلى وجهه آيات من السرور.

سأله بصوت أراده أن يعلو على أصوات المغنين، وقد نظم خطوات جواده مع مشية دولوخوف: كيف الحال يا صديقي العجوز؟

أجابه دولوخوف ببرود: كما ترى.

كانت الأغنية الحماسية التي يسير على خطاها الجنود، تُضفي معنى خاصاً على لهجة جركوف المتواضعة وبرود دولوخوف المتعمد.

قال جركوف: إذن، هل الحال مع الرؤساء على ما يرام؟

ـ أنا لا أشكو من شيء. إنهم جميعاً رجال باسلون... كيف بحق السماء تسللت إلى الأركان العامة؟

ـ لقد نقلوني بصفة ضابط ارتباط.

وسكتا فترة مصغيين إلى الأغنية التي كان لحنها يثير الحماسة في القلوب:

لقد أطلق الصقر.

وطار من اليد اليمنى.

ولولا تلك الأغنية، لكان حديث الصديقين على نمط آخر.

سأل دولوخوف:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ هل صحيح أن النمسويين قد هزموا؟

ـ الله أعلم. ولكن يبدو لي ذلك حقيقة.

قال دولوخوف بصوت يتفق مع إيقاع الأغنية:

ـ ذلك أفضل.

ـ تعال لرؤيتنا ذات مساء. سوف نلهو على هوانا.

ـ إنكم إذن تتمرغون على الذهب؟

ـ تعال مع ذلك.

ـ مستحيل. لقد أقسمت ألّا ألمس الورق ولا الخمرة قبل أن تعاد إليّ رتبتي.

ـ ستعاد إليك في العملية المقبلة.

ـ عندئذ سنرى.

وعاد الصمت بينهما من جديد.

ـ إذا احتجت إلى شيء فتعال إلى الأركان، وسنحاول أن نخدمك.

أجاب دولوخوف بابتسامة هازئة:

ـ لا تعذبني إنني إذا احتجت إلى شيء ما أخذته.

آوه، إنك تعلم أن ما أقوله لك...

وأنا كذلك.

حسناً إلى اللقاء.

ـ انتبه إلى صحتك...

واستمرت الأغنية تعلو مقاطعها:

بعيداً، بعيداً جداً، نحو الوطن...

لكز جركوف حصانه فثار هذا، وبعد أن دار حول نفسه دورتين أو ثلاث دورات دون أن يهتدي إلى القائمة التي يجب أن يبدأ بها السير، اندفع خبباً على طول الفرقة على إيقاع الأغنية.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

دخل كوتوزوف إلى مكتبه بعد عودته من الاستعراض، يرافقه الجنرال النمسوي، بعد أن أعطى الأمر إلى أحد تابعيه، بأن يعرض عليه الأوراق المتعلقة بحالة الجنود القادمين من روسيا، والمخابرة الواردة من الأرشيدوق فرديناند الذي كان على رأس الطليعة. فلما جاء الأمير أندريه بالوثائق المطلوبة، رأى الجنرال القائد الأعلى وعضو القيادة العليا جالسين وراء طاولة يدرسان مخططاً. قال كوتوزوف وهو ينظر إلى پولكونسكي وكأنه يوحي إليه بالانتظار:

ـ حسناً! بينما تابع الحديث الذي كان يدور بالفرنسية. كانت لغته المهذبة ونبراته الواضحة، والعناية التي يبديها لتلفظ كل كلمة بوضوح، تأسر انتباه سامعه، وتبرهن على أنه يتلذذ بسماع أقواله:

ـ لو كان الأمر منوطاً بي وحدي أيها الجنرال، لكنت منذ زمن بعيد أجريت الاتصال مع الأرشيدوق وفقاً لرغبات جلالة الأمبراطور فرانسوا. ثق بشرفي إنني سأشعر براحة عميقة إذا أسلمت القيادة العليا لقائد أكثر دراية مني واستعداداً ومهارة. وأمثال هؤلاء القادة كثيرون في النمسا. إنني بذلك أتخلص من مسؤولية جسيمة. لكن ما يحدث يجعل الظروف تقهرنا يا جنرال.

وكانت الابتسامة التي شفع بها جملته الأخيرة توحي بالقول: «لك ألّا تصدقني إذا شئت، ولا يهمني إذا صدقتني أو لا، ولكن ليس بين يديك حجة تتذرع بها، وهنا جوهر المسألة».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وعلى الرغم من أن الجنرال النمسوي لم يكن مسروراً، فقد اضطر أن يدفع إلى كوتوزوف من نوع النقد الذي صرفه له. غير أن لهجته الشرسة، كانت تتنافى مع عروضه المعسولة:

ـ كلا، كلا. إن جلالته يقدر عالياً مساهمة سعادتكم في العمل العام، وأرجو أن تثق بذلك. لكننا نعتقد فقط أن الإمهالات الحالية تحرم الجيوش الروسية المظفرة ورؤساءهم المشاهير أكاليل الغار التي درجوا على اكتسابها والتحلي بها في ساحات القتال.

بدون شك، كانت تلك الجملة مهيأة سلفاً. فانحنى كوتوزوف وهو يبتسم قائلاً: إنني أقدر شخصياً. والرسالة التي شرفني بها صاحب السمو الأرشيدوق فرديناند منذ حين تؤيد رأيي، أن الجيوش النمسوية التي يقودها رئيس على جانب كبير من المهارة كالجنرال ماك، قد حصلت حتى الآن على نصر حاسم يجعلها بدون شك في غير حاجة إلى مساعدتنا.

عبس الجنرال، إذ على الرغم من أن هزيمة النمسويين لم تكن قد أعلنت رسمياً بعد، فإن الإشاعات الكثيرة المزعجة كانت تؤيدها، حتى أن جواب كوتوزوف بدا لهذا السبب نوعاً من السخرية. مع ذلك، فقد كان وجه القائد الروسي الأعلى يشع بابتسامة بريئة تؤكد براءة قصده. فقد كانت الرسالة التي أرسلها إليه الأرشيدوق فرديناند تصف الحالة الاستراتيجية بأنها ممتازة جداً.

قال للأمير أندريه: أعطني الرسالة.

ثم التفت إلى الجنرال النمسوي، فقرأ له المقطع التالي وقد تقلصت شفته بابتسامة تحمل شيئاً من الهزء:

«إن تركز قواتنا التي يبلغ عددها سبعين ألف رجل، قد أعد وأنهي على أفضل ما يرام، بشكل يجعل العدو يتعرض لهجماتنا إذا حاول اجتياز

www.Maktbah.com

«ليخ»[١] ويمنى بهزيمة مؤكدة. إننا باحتلال «الأولم»[٢] نحتفظ بأرجحية السيطرة على ضفتي الدانوب ونتمكن بذلك في كل لحظة أن نجتاز الدانوب إذا لم يحاول العدو اجتياز نهر «ليخ»، لنقطع عليه خط مواصلاته، وأن نعود إلى عبور الدانوب مرة أخرى، لنحول دون نجاح أية محاولة يقوم بها ضد حلفائنا المخلصين سوف ننتظر بصبر وبطولة أن ينتهي الجيش الروسي من استعداداته، وأن يتخذ استعداداته. وبعدئذ سوف نجد سهولة كبيرة بتهيئة المصير الذي يستحقه العدو باتحادنا معاً».

وعقب: تفضل بالاقتناع بصدق قولي.

وأطلق تنهيدة ارتياح، ونظر إلى الجنرال النمسوي. فأجاب هذا وقد رأى أن المزاح قد دام أكثر مما ينبغي، وأن من الأصوب بلوغ الغاية مباشرة:

ـ لا شك، ولكن يجب أن نتوقع دائماً أسوأ العواقب. إن سعادتكم تعرفون بدون شك هذه الحكمة القديمة.

وألقى نظرة بديهية على مساعد الجنرال. فقاطعه كوتوزوف بقوله: اعذرني يا جنرال.

واستدار نحو الأمير أندريه وأردف يحدثه: اسمع يا عزيزي. اذهب إلى كوزلوفسكي. واطلب إليه التقارير الواردة من جواسيسنا. هذه رسالة الأرشيدوق فرديناند. وهاتان رسالتان من الكونت نوستيتز. خذهما معك وكذلك هذه الأوراق لخصها جميعها باللغة الفرنسية، واحمل لي مذكرة واضحة تحمل كل معلوماتنا عن عمليات الجيش النمسوي... إنك تفهمني أليس كذلك؟... وعندما تنتهي من ذلك، أعط المذكرة إلى سعادته.

---

(١) نهر في باڤاريا يصب في الدانوب. (المترجم).

(٢) مدينة ألمانية على الدانوب استسلم فيها الجنرال ماك النمسوي مع ٣٠,٠٠٠ جندي. (المترجم).

twitter @baghdad_library

أشار الأمير أندريه برأسه إشارة يُفهم منها أنه فهم الغاية من الكلمة الأولى، ليس ما قاله رئيسه بلسانه فحسب بل كذلك ما كان يُضمره في نفسه. وجمع الأوراق وحيا ثم انسحب بخطوات رشيقة.

على الرغم من أن الأمير أندريه لم يكن قد مضى على مغادرته روسيا زمناً طويلاً، فإن سحنته وحركاته وتصرفاته خلت كلها من أثر الانهاك والتفاعل الذي كان مألوفاً عليها. كانت مهامّه الجديدة تستأثر بكل انتباهه. وتفتنه بشدة، حتى إنه لم يكن يفكر في الانشغال بما يقوله زملاؤه عنه. وكانت نظرته وابتسامته تمتازان بدعوة وود لم يعرفا فيها من قبل.

تلقى كوتوزوف رسالة الأمير پولكونسكي العجوز وهو في پولونيا فاستقبل الأمير الشاب استقبالاً طيباً، وعده بأن لا ينساه. وقد بر بوعده إذ اختصه بين كل الضباط المساعدين، فأخذه برفقته إلى ڤيينا، وسلمه هناك أكثر المهام خطورة. وكتب القائد الأعلى كوتوزوف إلى الأمير العجوز پولكونسكي رداً على رسالته قال: «إن ابنك يبشر أن يكون ضابطاً ممتازاً بفضل كفاءاته ودأبه ودقته. وإنني أعتبر نفسي سعيداً جداً إذ أرى مرؤوساً مثله تحت تصرفي».

كان زملاء الأمير أندريه في الأركان والجيش ـ لما كان الحال في پيترسبورغ ـ يشعرون حياله شعورين مختلفين، وينقسمون تبعاً لذلك إلى معسكرين. الأول وهو معسكر الأقلية، يعتبره شخصاً بارزاً خلق لمستقبل ومصير عاليين رفيعين.

وكان أعضاء هذا المعسكر يصغون إليه ويعجبون به ويسيرون على هداه. فيتظاهر أمامهم بدوره بمظهر البساطة واللطف. والثاني وهو معسكر الأكثرية، يعتبره بارداً جامداً مكروهاً. وكان أعضاؤه يبغضونه. لكنه كان يتصرف حيالهم بشكل لم يكونوا يستطيعون معه إلا أن يقدروه بل أن يرهبوا جانبه.

www.Maktbah.com

خرج الأمير أندريه من مكتب كوتوزوف، فمر بطريقه على غرفة الانتظار حيث كان زميله، المرافق المنوب كوزلوفسكي يقرأ كتاباً قرب النافذة.

سأله هذا: حسناً يا أمير؟

صدر الأمير بتحرير مذكرة تفسير سبب بقائنا دون نشاط.

فقال كوزلوفسكي: ولماذا؟

هز الأمير أندريه كتفيه دلالة على أنه لا يعرف السبب، بينما تابع زميله: هل من أخبار عن ماك؟

ـ كلا.

ـ إذا كان هزم حقيقة فستردنا أخباره.

قال الأمير أندريه موافقاً: بلا شك.

واتجه نحو الباب. غير أن هذا فتح فجأة بعنف وظهر على العتبة جنرال نمسوي، مديد القامة، في ثوب رسمي، يعصب رأسه بوشاح أسود ويحمل حول عنقه صليب ماري تيرنير، فتوقف الأمير منتظراً.

قال الجنرال القادم بلهجة تظهر أصله الألماني: الجنرال الأعلى كوتوزوف؟

ونظر حوله ثم اتجه فوراً نحو باب المكتب.

فأجابه كوزلوفسكي وهو يقف في سبيله بحركة عنيفة: إن القائد الأعلى مشغول. فمن يجب أن أبلغه عنه؟

حدج المجهول ذلك الضابط الصغير من عل وكأنه يقول:

«هل يعقل أن لا تعرف من أنا؟». فكرر كوزلوفسكي بهدوء:

ـ إن القائد الأعلى مشغول.

عقد النمسوي حاجبيه وارتعدت شفتاه قليلاً، فأخرج دفتراً صغيراً من جيبه وكتب على ورقة منه بضع كلمات بقلم الرصاص، ثم قطعها وأعطاها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لكوزلوفسكي وانطلق بخطوات سريعة نحو النافذة، وارتمى على مقعد هناك وهو يسرح طرفه فيمن حوله وكأنه يقول لهم: «لمَ تنظرون إليّ هكذا؟». وبعد لحظة مد عنقه وكأنه يهم بالنطق، لكنه استدرك نفسه فلم يصدر عن حنجرته إلا صوت غريب يشبه الدمدمة، سرعان ما خنقه أيضاً. وفُتح باب المكتب، وبدا على عتبته كوتوزوف. عندئذ نهض الجنرال المعصوب الرأس محنياً ظهره وكأنه يفر من خطر داهم، وأسرع بخطوات واسعة وقال بصوت أجش:

ـ إنك ترى ماك التعس!

بقي كوتوزوف للوهلة الأولى جامداً أمام الباب ثم اجتاح وجهه غضن مرّ كموجة على قسمات وجهه، فانبسطت جبهته وانحنى بامتثال مغمض العينين دون أن يتفوه بكلمة، وتنحى عن طريق ماك ليدخل ثم أغلق الباب بنفسه وراءه.

كانت الشائعات حقيقة: استسلم الجيش النمسوي كله الذي كان مجتمعاً قرب «الأولم». لم تمض نصف ساعة حتى كان الضباط المساعدون يحملون إلى رؤساء الوحدات تعليمات خاصة تُشير إلى أن الجيش الروسي سيخرج عن جموده ويلاقي العدو عما قريب.

لم يكن سير العمليات العامة في الأركان العامة، يشغل إلا عدداً محدوداً من الضباط، وكان الأمير أندريه في عدادهم. بعد أن رأى ماك واطلع على تفاصيل الهزيمة، إن الحملة قد فشلت تقريباً وإن النصر بات أبعد مما كان يُنتظر. تخيل المصير المزعج الذي ينتظر الجيش الروسي في ذلك الموقف الحرج، والدور الذي سيلعبه شخصياً في ذلك المصير، فأحس بسرور للإهانة التي منيت بها النمسا، تلك الدولة المتباهية. كان ذلك الشعور أقوى منه، وكان يمجد الفكرة التي خطرت بباله، والتي قدر على أساسها أنه سيشهد لأول مرة، أول لقاء بين الفرنسيين والروس منذ عهد سوڤوروف، بعد ثمانية أيام على

www.Maktbah.com

الأكثر. لم تكن غبطته لتخلو من شعور بالهلع والخوف من أن تتفوق عبقرية بوناپرت وتتغلب على الجيوش الروسية الباسلة، لأنه لم يكن يتوقع أن يرى بطله في خذلان.

أثارت تلك الأفكار عواطفه وقلبت كيانه وحفزته، فودّ أن ينسحب إلى غرفة ليكتب إلى أبيه رسالته اليومية. لكنه بينما كان يجتاز الممشى، اصطدم بزميله في غرفة نيسـڤيتسكي وبالمداعب جركوڤ اللذين كانا على حال من البهجة والحبور كعادتهما. استغرب زميله شحوب وجهه والتماع عينيه فسأله قائلاً:

ـ لمَ أنت مكتئب؟

ـ ليس هناك ما يبهج على ما أعلم.

ومن الجانب الآخر من الممشى، ظهر الجنرال النمسوي عضو القيادة العليا يرافقه الجنرال «ستروخ»، الملحق بأركان حرب كوتوزوڤ للإشراف على شؤون تموين الوحدات الروسية. وكان عرض الممشى كافياً لمرور الجنرالين دون عوائق. غير أن جركوڤ أبعد نيسـڤيتسكي بذراعه وصاح بلهجة تشف عن المبادرة المصطنعة قائلاً:

ـ ها هما!... ها هما!... تنحوا، أخلوا المكان، تنحوا!

أغضبت تلك البادرة من التلطف، الجنرالين القادمين. غير أن جركوڤ تقدم خطوة إلى الأمام وخاطب أحدهما بابتسامة بلهاء وبمظهر الرجل الذي لا يستطيع كتمان فرحه: لي الشرف بأن أقدم لسعادتكم تمنياتي المخلصة.

وانحنى أمامه انحناءة هزلية وهو ينزلق على قدم ثم على الأخرى شأن الأطفال الذين يتدرجون على الرقص. فحدجه عضو الأركان العامة النمسوي بنظرة صارمة. لكن ابتسامته البلهاء طمأنته، فلم يستطع إلا أن يمنحه لحظة من انتباهه، فأشار بطرف عينه إلى أنه يُصغي إلى ما يريد قوله:

twitter @baghdad_library

كرّر جركوف بوجهه المستبشر: تهانيّ الخالصة. لقد وصل الجنرال ماك في صحة طيبة باستثناء جرح طفيف هنا...

وأشار بإصبعه إلى جبهته.

فعبس وجه الجنرال وأدار له ظهره ومضى. ولم يكد يبتعد بضع خطوات حتى قال بالألمانية بصوت غاضب:

رباه يا للحماقة والسذاجة!

كان نيسـڤيتسكي يتلوى من الضحك، فأمسك بذراع الأمير أندريه غير أن هذا الذي أصبح وجهه ممتقعاً بعد شحوبه، دفعه عنه بغضب، واستدار نحو جركوف.

كانت دعابته السمجة بمثابة ضربة قاضية لأعصاب الأمير أندريه، الذي ضعضعت رؤية الجنرال ماك والهزيمة التي مني بها كيانه وروعة الفكرة التي تمثلها حول مصير الجيش الروسي. قال لجركوف بصوت حازم وقد ارتعدت ذقنه لفرط انفعاله: يا سيدي العزيز، إذا كانت مهنة المهرج تروقك، فإنني لا أستطيع منعك من مزاولتها. لكنك إذا سمحت لنفسك مرة أخرى بإظهار مثل هذا التهريج في حضرتي، فسأجد نفسي مضطراً إلى تعليمك وتلقينك مبادئ السلوك.

ذهل جركوف ونيسـڤيتسكي لأقوال الأمير أندريه، وراحا يتأملانه فاغرَيْ الفم متسعَيْ العينين. قال جركوف: ماذا حدث؟ لقد قدمت له تمنياتي ليس إلا.

فصاح بولكونسكي:

- إنني لا أناقشك فتفضل بالسكوت!

وأخذ نيسـڤيتسكي بذراعه، تاركاً جركوف جامداً في مكانه لا يدري ماذا يقول: قال له نيسـڤيتسكي:

www.Maktbah.com

ـ هدئ روعك يا عزيزي.

قال الأمير أندريه، الذي توقف لشدة انفعاله عن السير:

ـ أهدئ نفسي؟ ولكن من نحن إذن؟ أنحن ضباط نخدم قيصرنا ووطننا ونبتهج للنجاح المشترك ونأسف للخسارة المشتركة أم نحن خدم لا تهمنا قضايا أسيادنا إلا قليلاً؟...

وأضاف باللغة الفرنسية وكأنه يؤيد وجهة نظره.

ـ أيقتل أربعون ألف رجل ويحطم جيش حليفتنا، ونجد مع ذلك مادة للقهقهة؟ إن مثل ذلك يليق بفتى تافه كهذا الذي اتخذته صديقاً لك، ولكنه لا يليق بك، أجل لا يليق بك..

وتابع بالروسية متمماً: إن مثل هذه التسليات لا تليق إلا بالأغرار الحمقى.

وانتظر فترة معتقداً أن جركوف سيجيب عن أقواله. لكن هذا انسحب دون أن ينتظر المزيد.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

على بعد ميلين من برونو، كان فرسان پاڤلوغراد معسكرين وكانت الكوكبة التي انخرط في عدادها نيكولا روستوڤ تشغل قرية سالزنك التي خصص أفضل منزل فيها لرئيسها «الكاپتن دينيسوڤ» المعروف بين كل كتيبة الخيالة باسم «ڤاسكا دينيسوڤ». كان نيكولا قد التحق بتلك السرية في پولونيا. ومنذ ذلك الوقت ظل يشاطر الرئيس مسكنه.

في اليوم الذي قلب نبأ انهزام ماك القيادة العامة قلباً، في الحادي عشر من تشرين الأول كانت كوكبة الخيالة لا تزال تقضي أيامها بهدوء، وكأن أفرادها سادة أطربتهم حياة الريف. وعندما وصل روستوڤ، وهو في كامل ثيابه، ممتطياً جواده إلى سكن الرئيس بعد أن عاد من مهمة توزيع العلف، وجد أن دينيسوڤ لم يرجع بعد من سهرته التي قضاها مقامراً لدى أحد زملائه. ولما وصل إلى مرقاة البيت، أوقف جواده وطوح بساقه بحركة رشيقة مرنة. ولبث فترة معتمداً بجسده على الركاب وكأنه بارح السرج آسفاً، وأخيراً ترجل واستدعى الحاجب قائلاً:

ـ آه! بوندارانكو، هذا أنت أيها الباسل.

وأسرع الجندي عدواً استجابة لنداء روستوڤ الذي قال معقباً:

ـ خذ الجواد في نزهة يا صديقي الطيب.

كانت لهجته تدل على البهجة اللطيفة التي يستطيع الشبان الراقون المنحدرون من أرومات نبيلة إظهارها في ساعات سرورهم.

www.Maktbah.com

قال الجندي الصغير وهو يرفع شعره المتهدل بسبب الركض: كما تأمر يا صاحب السعادة.

ـ انتبه، ولتكن النزهة لطيفة.

أسرع جندي آخر في تلك اللحظة استجابة للنداء، غير أن بوندارانكو كان قد أطبق عنان الجواد. وكانت تلك المبادرة تدل على أن ذلك الضابط النبيل يعرف كيف يمنح المكافآت السخية، وأن خدمته تعود بالفائدة على من يتولاها. داعب روستوف حارك جواده ثم انتقل بيده إلى ردفه يربته، وظل يتأمله لحظة ثم قال في سره مبتسماً: «رائع! سيصبح جواداً رائعاً!» ورفع حسامه وراح يصعد السلالم ورنين مهمازيه يرافق كل خطوة من خطواته، وبرز صاحب المسكن على باب الاسطبل حاملاً مذراة. كان ألمانياً يرتدي صدارة من الصوف وقلنسوة من القطن. فلما رأى روستوف، طفح وجهه سروراً، وغمزه بعينه بمودة وكرر محيياً الشاب بسرور واضح:

ـ عم صباحاً، عم صباحاً!

فأجاب روستوف بصوت مهذب لطيف: هل بدأت تشتغل! ليحيى النمسويون! ليحيى الروس! ليحيى الأمبراطور ألكسندر!

كانت تلك العبارات هي ما سمعه بتكرار يردد على ألسنة الناس هناك، وكان يجد متعة في ترديدها على مسامع صاحب المسكن.

ضحك الألماني وخرج من اسطبله، فرفع قلنسوته وراح يلوح بها فوق رأسه ويصيح: وليحيى العالم أجمع!

فلوح روستوف بخوذته ضاحكاً وصاح بدوره: وليحيى العالم أجمع!

وعلى الرغم من أن هذين الرجلين اللذين كان ينظف أحدهما اسطبله والآخر يعود من مهمة توزيع العلف، لم يكن لسرورهما أي مبرر خاص، إلا أنهما كانا مع ذلك يتبادلان النظر ببهجة وسرور، ويتبادلان إشارات قلبية من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الرأس واليد ثم ينسحبان الألماني إلى اسطبله، وروستوف إلى البيت الذي يقطنه مع دينيسوف.

سأل روستوف خادم دينيسوف، وهو ماكر معروف في كل السرية: أين سيدك؟

ـ متخف منذ مساء أمس. لا شك أنهم نتفوا ريشه. إنني أعرفه تماماً: فهو عندما يربح يعود مبكراً منشرحاً. أما إذا لم يعد تلك الليلة، فمعنى ذلك أنه أنفق آخر درهم في جيبه وأنه سيعود غاضباً... هل أقدم لك القهوة؟

ـ لا مانع.

ولما عاد الخادم لاڤروشكا بعد عشر دقائق بالقهوة صاح قائلاً: ها هوذا، حذار من غضبه.

نظر روستوف من النافذة فرأى دينيسوف عائداً.

كان رجلاً قصير القامة أحمر الوجه، أسود العينين ملتمعهما، ذا شاربين كثين، وشعر غزير أجعد. وكانت سترته مفكوكة الأزرار، وسراويله هابطة بثنيات منسدلة، وقبعته مشوهة منحدرة فوق مؤخرة رأسه. كان مكتئب الوجه مطرق الرأس، يتجه نحو مرقاة المنزل.

صاح بصوت غاضب: لاڤروشكا، ارفع لي هذا يا بليد!

فأجاب صوت لاڤروشكا: إنني أدأب في رفع ذلك.

ولما دخل دينيسوف قال: كيف! هل نهضت؟

فأجاب روستوف: لقد عدت من مهمة توزيع العلف، ومررت على فراولين ماتيل.

صاح دينيسوف وهو يلثغ بشكل ظاهر: حقاً! يا عزيزي! لقد تعرضت لخسارة فادحة! إن المرء لا يخطر بباله شؤم كهذا، لقد بدأ الأمر فور ذهابك... هولا، أعطني شاياً!

www.Maktbah.com

كان وجهه عابساً، وفمه منفرجاً قليلاً تظهر خلال فتحته أسنانه القصيرة المتينة. راح دينيسوف يخلل شعره الكثيف الأسود، الشبيه بالغابة الملتفة، بإصبعه القصيرة الغليظة.

عاد يقول بعد أن مسح على جبينه ووجهه بيديه: يا لها من فكرة سيئة تلك التي حملتني على الذهاب إلى منزل ذلك الجرذ (والجرذ لقب أحد زملائهما من الضباط). تصور أنني لم أحصل على ورقة رابحة واحدة، ولا ورقة!

تناول الغليون المشتعل الذي كان الخادم يقدمه إليه، فعض عليه ثم ضرب به الأرض وهو يتابع شكواه: إنه ما كان يترك لي إلا أتفه الربح، أما الصفقات التي كانت تبشر بربح مضاعف، فقد كان يلتهمها وحده باستمرار.

كان التبغ المشتعل قد تبعثر في الغرفة دخاناً، فحطم الغليون وألقاه بعيداً وسكت فترة ثم قال مخاطباً روستوف، بعد أن خصه بنظرة نشيطة: ليت لدينا عدداً من النساء! ما العمل في هذا الجحر غير الشراب؟ آه! ليتنا دخلنا المعارك وحاربنا بشدة!...

وبلغت مسامعه أصوات خطى ورنين مهاميز تقترب من الغرفة، أعقبها سعال مستكين. فصاح: من هناك؟

فأجاب لاڤروشكا: إنه وكيل الضابط.

فازداد وجه دينيسوف اكفهراراً وقال وهو يلقي بكيس نقوده على الطاولة وفيه بضع قطع ذهبية: روستوف يا صغيري، عد ما في الكيس وخبئه تحت الوسادة.

وخرج للقاء القادم. فراح روستوف يعد المال الموجود في كيس النقود ويفصل القطع الذهبية القديمة عن القطع الحديثة بحركة آلية. بينما ارتفع صوت دينيسوف من الغرفة المجاورة يقول:

ـ آه، آه! تيليانين! مرحباً! لقد أصبت بإحدى هذه الخسارات...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ أين؟ عند بيكوف؟ عند الجرذ أليس كذلك؟ لقد كنت واثقاً بذلك.

ولم يلبث أن دخل الملازم تيليانين صاحب ذلك الصوت الرقيق، وهو ضابط من كوكبة روستوف.

وضع روستوف كيس النقود تحت الوسادة وضغط على اليد الصغيرة التي مدها الملازم إليه. كان تيليانين هذا قد نقل من سلاح الحرس إلى سلاح الخيالة لغير ما سبب ظاهر، وكان أصدقاؤه لا يحبونه رغم أنهم لم يكونوا واجدين عليه أي مأخذ. وكان روستوف بصورة خاصة يعجز عن إخفاء كراهيته الغريزية التي كان يُثيرها في نفسه ذلك الضابط، ولا يستطيع السيطرة على أعصابه.

سأل تيليانين: حسناً، أيها الفارس الشاب، هل أنت راضٍ عن المهر الذي بعته لك؟

كان تيليانين قد باع إلى روستوف فرساً صغيراً هو الذي شهدنا روستوف ينزل عن صهوته ذلك الصباح.

لم يكن ذلك الملازم ينظر إلى الأشخاص نظرة صريحة، بل كانت عيناه تائهتين أبداً من شيء إلى آخر مما يكون حوله.

أجابه روستوف: نعم، يبدو لي أنه حيوان جيد.

وعلى الرغم من أنه اشترى ذلك الفرس بسبعمائة روبل، رغم أنه لا يساوي نصف ذلك المبلغ، فهو لم يبد اعتراضاً.

وتابع يقول: لكنه يعرج الآن من قائمته اليسرى:

ـ لعل حافره قد أصيب. أمر تافه. سأريك كيف تعالج مثل هذه الحالات.

فقال روستوف متلهفاً على التخلص منه: إذن، سأستحضر الفرس:

ـ كما تريد. إنه ليس سراً. ولسوف تشكرني من أجل الفرس!

ـ حسناً، بيّن لي كيف تعالج هذه الحالات.

www.Maktbah.com

وخرج إلى الممشى ليعطي أوامر. أما دينيسوف، فقد كان واقفاً على عتبة الباب يصغي والغليون في فمه، إلى تقرير وكيل الضابط. فلما رأى روستوف، أشار بإبهامه من فوق كتفه إلى الغرفة التي بقي تيليانين وحيداً فيها وقال دون أن يعبأ بوجود وكيل الضابط: هوذا فتى لا يروقني!

فهزّ روستوف كتفيه وكأنه يقول: «ولا أنا، ولكن ما العمل؟».

وعندما رجع روستوف بعد برهة إلى حيث كان تيليانين، كان هذا لا يزال جالساً في مكانه جلسة اللامبالاة، يفرك يديه البضّتين الصغيرتين الواحدة بالأخرى فلما رآه عائداً نهض.

فكر روستوف في نفسه: «حقيقة إن في العالم رؤوساً لا تروق الناظر إليها بل تنفره».

سأل الملازم وهو يسرح طرفه الشارد حوله: حسناً، هل أمرت بإحضار الفرس؟

ـ نعم.

ـ لنذهب إلى حيث هو. لقد جئت أستفسر دينيسوف عن أوامر الأمس. هل هي معك يا دينيسوف؟

ـ ليست جاهزة بعد... أين تذهبان؟

ـ سأطلع هذا الشاب على طريقة معالجة حافر الفرس.

مضيا إلى الاسطبل، فأشار الملازم باتخاذ الترتيبات اللازمة لمعالجة حافر الفرس، ومضى إلى غرفته.

وعندما رجع روستوف، وجد دينيسوف جالساً والقلم في يده وزجاجة من الخمرة أمامه، وإلى جانبها قطع من المصير المحشو. فنظر إلى روستوف نظرة عابسة وقال:

ـ إنني أكتب «له».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ظهرت الغبطة على وجهه لأنه سيستطيع التعبير بالقول عما كان يود كتابته. واتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يعرض على روستوف محتويات الرسالة. قال: ألا ترى يا عزيزي أننا عندما نبغض إنساناً تخبو قريحتنا؟ إن الإنسان ليس إلا حقارة. لكنه عندما يحب يصبح إلهاً ويشعر بنفسه أنه نقي مثل أيام الخليقة الأولى... من هناك أيضاً؟

ولما رأى لافروشكا مقترباً صاح به: ليذهب القادم إلى الشيطان. ليس لدي الوقت لاستقباله!

فأجابه الخادم دون أن يتأثر بلهجته: من تريده أن يكون؟ إنه بدون شك وكيل الضابط الذي جاء يسترجع نقوده. لقد استدعيته بنفسك.

عبس دينيسوف وبدا كأنه يهم بالصراخ، لكنه سكت دون أن يتفوه بكلمة. ولم يلبث أن غمغم بين أسنانه: آه، تباً! كم بقي من مال في كيس نقودي يا روستوف؟

ـ سبع قطع جديدة وثلاث قديمة.

ـ يا لها من حالة قذرة!...

ثم صرخ في وجه لافروشكا قائلاً:

ـ ماذا تفعل متسمّراً في مكانك كجذع الشجرة؟... إبعث إليّ بوكيل الضابط.

قال روستوف وهو محمرّ الوجه: اسمع يا دينيسوف. إذا كنت في حاجة إلى المال فإنني أستطيع إقراضك ما تريد.

فغمغم دينيسوف: إنني لا أحب الاقتراض من أصدقائي. كلا إنني لا أحب ذلك.

فكرر روستوف: لكنني أقول لك إن المال متوافر معي. ونحن صديقان. إنني أعتبر رفضك تجريحاً لي.

www.Maktbah.com

ـ كلا شكراً.

واقترب دينيسوف من السرير ليأخذ كيس نقوده: أين وضعت كيس النقود يا روستوف؟

ـ تحت الوسادة السفلى!

ـ لا يوجد تحتها شيء.

وألقى دينيسوف بالوسادتين إلى الأرض دون أن يظهر كيس النقود بينهما!

ـ ما معنى هذا؟

قال روستوف: انتظر. ربما سقط عندما نفضت الوسائد.

ورفع الغطاء وهزة وفتّش في كل مكان. لكن الكيس قد اختفى.

ـ هل تُراني نسيت؟... لكن كلا. بل إنني فكرت في أنك تضع نقودك تحت وسادتك وكأنها كنز.. نعم، لقد وضعت كيس النقود هنا...

والتفت إلى لاڤروشكا وقال: أين الكيس؟

ـ حيث وضعته صدقني. إنني لا أعرف عنه شيئاً ولم أدخل قط وحدي إلى هنا:

ـ ولكن...

ـ إنك دائماً هكذا... تُلقي بأشيائك ذات اليمين وذات اليسار ثم تنسى أين وضعتها.

ـ أجل لكنني هذه المرة أذكر كأنها على الضبط لأنني فكرت في قضية الكنز... لا شك أنني وضعتها هنا...

رفع لاڤروشكا كل ما على السرير ونظر أسفله وتحت الطاولة وقلب الغرفة رأساً على عقب وسيده يتابع حركاته صامتاً. فلما انتهى الخادم من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التفتيش وباعد بين ذراعيه وقال إنه لم يجد شيئاً في أي مكان، التفت دينيسوف إلى روستوف وقال له: هيا يا عزيزي، لا تلعب علينا لعب التلاميذ...

شعر روستوف أن أنظار دينيسوف شاخصة إليه. فرفع عينيه فترة ثم عاد فأطرق وقد احمرّ وجهه، وبدأ صدره يعلو وينخفض انفعالاً وكأنه ركض شوطاً بعيداً، وشعر بغصة في حلقه.

أردف لاڤروشكا قائلاً: يجب أن يكون كيس النقود هنا لأن أحداً لم يدخل هذه الغرفة إلّا كما والملازم تيليانين. فزمجر دينيسوف وقد عبق وجهه بالدم ورفع يده استعداداً لصفع خادمه: وإذن، تدبر أمرك أيها المنافق، أوجد الكيس! الكيس فوراً وإلا فاحذر العواقب! سوف أنهال عليكم جميعاً بالضرب!...

تجنب روستوف نظر دينيسوف، فزرر سترته وعلق حسامه إلى منطقته وتناول قبعته. بينما دينيسوف يصرخ بانفعال متزايد وقد أطبق على كتفي لاڤروشكا واعتصره بشدة وهو يدفعه نحو الجدار: الكيس، أتسمع، الكيس فوراً!

فقال روستوف: دعه بسلام، إنني أعرف من أخذه.

واتجه نحو الباب دون أن يرفع نظره. فترك دينيسوف الخادم وفكر فترة. فلما أدرك غاية روستوف، استوقفه بذراعه وصرخ بشدة أبرزت عروق عنقه وجبهته: مستحيل! لن أدعك تقول ذلك. إنك تثير فضيحة يا عزيزي!...

إن الكيس هنا. سأسلخ جلد هذا الحيوان، لكنه سيجده.

كرر روستوف بصوت متهدج وهو يتجه نحو الباب: إنني أعرف من أخذ الكيس.

فاندفع دينيسوف نحو زميله محاولاً إيقافه وهو يصيح: لا تحاول شيئاً من هذا القبيل، قلت لك لا تحاول!

www.Maktbah.com

لكن روستوف أفلت منه وكأن دينيسوف ألدّ أعدائه، وحدجه بنظرة عميقة، مفعمة بالحقد، وقال بصعوبة وألم: زن كلماتك جيداً. لا يوجد في الغرفة سواي. فإذا لم يكن الكيس مع الآخر فمعنى ذلك...

ولم يستطع إكمال عبارته، فانصرف مهرولاً. صاح دينيسوف مشيعاً: ليركبك الشيطان أنت والآخرون معك!

مضى روستوف إلى حيث يقيم تيليانين فقال له خادمه: إن الملازم في الأركان.

ولما رأى وجهه المنقلب المتقلص قال يسأله: ماذا حدث؟

ـ لا شيء.

فأضاف الخادم قائلاً: لو أنك جئت قبل قليل لوجدته هنا.

امتطى روستوف أول حصان صادفه، ومضى إلى الأركان العامة في قرية مجاورة تبعد ميلاً أو أقل من سالزنك. وكان في تلك القرية خان يؤمه الضباط فرأى روستوف أمام الخان حصان تيليانين. ولما دخل، رأى الملازم جالساً إلى طاولة حافلة بالطعام والخمر. صاح تيليانين وهو يبتسم ويرفع حاجبيه:

ـ آه! ها أنت ذا أيها الشاب!

فتمتم روستوف بجهد واضح:

ـ ن ـ ع ـ م.

وجلس إلى طاولة مجاورة.

لم يتوجه إليه بأية كلمة لأن الخان كان يضم اثنين من الألمان وضابطاً روسياً آخر غيرهما. وكان السكون مخيماً فلا تسمع إلا قرع السكاكين على الأطباق وحركة فكي تيليانين وهو يمضغ الطعام. فلما انتهى هذا من طعامه. أخرج من جيبه كيس نقود مزدوجاً، ومد أصابعه المرفوعة بتأنق، فأخرج قطعة ذهبية وقال للنادل: أعد إليّ الباقي بسرعة!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت القطعة الذهبية جديدة، فنهض روستوف واقترب من تيليانين وقال بصوت جامد: دعني أرى كيس نقودك.

فمدّ تيليانين الكيس إلى روستوف وهو حائر النظر، مرفوع الحاجبين وقال وقد شحب وجهه فجأة: إنه كيس جميل أليس كذلك؟... نعم، نعم... انظر إليه أيها الشاب.

فحص روستوف الكيس والمال الذي فيه ثم راح يحدق إلى وجه تيليانين الذي أخذ في تلك اللحظة، يتظاهر بالدعة وهو لا يفتأ يسرح طرفه حوله. قال: عندما ندخل ڤيينا، فإن كل ما في كيسي سيتبخر. أما في هذه الأحجار الصغيرة القذرة، فإن المال لا يفيد في شيء... هيا، أعد إليّ كيسي أيها الشاب لأنني سأمضي.

لم يتفوه روستوف بكلمة. فاستطرد تيليانين: هل تناولت طعامك؟ إن المرء يجد طعاماً جيداً هنا... حسناً، أعطني الكيس ومد يده إلى روستوف واستعاد الكيس فأعاده إلى جيب سراويله بهدوء وهو يرفع حاجبيه بدون مبالاة. وكانت شفتاه المنفرجتان تبدوان كأنهما تقولان «إنني أضع كيسي في جيبي وهو أمر بسيط لكنه لا يخص سواي».

وأطلق تنهيدة، ووجّه إلى روستوف نظرة مختلسة من تحت حاجبيه المرفوعين وقال: حسناً ماذا تريد أيها الشاب؟

فاتصل الرجلان بتيار غير مرئي ربط بين نظريهما كالشرارة الكهربائية وانتقل من تيليانين إلى روستوف ثم من روستوف إلى تيليانين وبالعكس.

استمر ذلك الاتصال حوالى ثانية. وصاح روستوف وهو يمسك الملازم من ذراعه ويسحبه في شيء من القوة باتجاه النافذة: تعال إلى هنا...

ولما بلغاها، همس في أذنه: إن هذا المال يخص دينيسوف، ولقد أخذته...

www.Maktbah.com

فاحتج تيليانين: كيف!... كيف!... كيف تجرؤ؟...

لكن ذلك الاحتجاج كان يشبه في لهجته صرخة اليأس، وطلب الصفح والغفران. فلما سمع روستوف لهجة الملازم، أحس كأن عبئاً قد أزيح عن كاهله: لم يعد للشك مكان! شعر بالسرور وبإشفاق على ذلك التعس الواقف أمامه. غير أنه كان مرغماً على الاستمرار في القضية حتى النهاية.

غمغم تيليان وهو يتناول قبعته ويتجه نحو غرفة خالية: إن الله وحده يعلم ما سيظن الناس بنا. يجب أن نتفاهم...

فقال روستوف: إنني أعرف ما أقول، وأنا على استعداد للبرهان عليه.

فتمتم الملازم: ولكن... ولكنني...

كان وجهه ممتقعاً من الخوف، وعضلات وجهه كلها ترتعد. وكانت نظرته تائهة لا يجرؤ على رفعها إلى وجه روستوف. أخذ يحاول حبس النشيج في حلقه.

قال وهو يرتمي على طاولة هناك: كونت!... لا تضيّع شاباً... ها هو ذا المال الملعون خذه.

وألقى على الطاولة بالمال ثم تابع:

ـ إن لي أباً عجوزاً وأماً مسكينة...

أخذ روستوف المال وهو يتجنب النظر إلى وجه تيليانين، وهمّ بالانسحاب دون أن يتفوّه بكلمة. لكنه لما بلغ الباب، أبدل عزمه فعاد إليه وقال: رباه، كيف أمكنك أن ترتكب مثل هذه الفعلة؟

كانت عيناه مغرورقتين في الدموع. فاقترب منه تيليانين وقال: كونت...

فصاح روستوف وهو يتراجع إلى الوراء:

ـ لا تلمسني!... إذا كنت في عسر فخذ هذا المال. احتفظ به... وألقى كيس النقود على الطاولة وغادر الخان ركضاً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

اجتمع ضباط الكوكبة عند دينيسوف مساء ذلك اليوم، وراحوا يناقشون بحماسة.

قال أحد الضباط لروستوف الذي كانت الدماء المتصاعدة إلى وجهه قد أحالته قرمزي اللون: صدقني يا روستوف إنك مخطئ. يجب أن تقدم اعتذارك إلى العقيد.

كان المتحدث طويل القامة، أشهب الشعر، ضخم الشاربين، عميق تجاعيد الوجه. وكان قد حرم من رتبته بسبب أعمال تتعلق بالشرف وعاد فاسترجع رتبته بعد ذلك.

صاح روستوف: إنني لا أسمح لأحد أن يتهمني بالكذب! لقد قال إنني أكذب وإنني شوهت قوله، وإن الأمور يجب أن تتوقف عند ذلك الحد. إنه يستطيع أن يجعلني على رأس الخدمة كل يوم، وأن يفرض علي عقوبات عسكرية إذا حلا له ذلك. لكن أحداً لن يستطيع إرغامي على تقديم اعتذاري. فإذا كان بوصفه زعيماً يجد من غير اللائق أن يرضي كرامتي، فإنني...

فقاطعه الرئيس كيرستن بصوته الجهوري المنخفض وهو يفتل شاربيه الكبيرين: إهدأ يا عزيزي واصغ إلي. إنك تقول للزعيم إن واحداً من زملائك قد ارتكب سرقة، وتقول ذلك بحضور ضباط آخرين...

ـ وهل هو خطئي إذا كان هناك ضباط آخرون؟ يجوز أن التحدث في حضرتهم لم يكن ضرورياً، لكنني لست مداوراً سياسياً. لقد دخلت في

www.Maktbah.com

سلاح الفرسان لأنني كنت أظن أن الرقة وانتقاء العبارات ليست في شيء من الحسبان... لقد اتهمني بالكذب فليسحب كلمته!...

ـ إن كل ما تقوله صحيح ولا يوجد من يشك في شجاعتك، ولكن المسألة ليست هنا. سل دينيسوف: هل شوهد ضابط صغير يطلب اعتذاراً من زعيم؟

كان دينيسوف يقضم شاربه ويصغي إلى النقاش مكفهر الوجه، عازفاً عن التدخل فيه. فلما سمع سؤال الرئيس أجاب بإشارة نفي من رأسه. فاستطرد ذاك بإلحاح: هيا يا عزيزي. لقد كنت تتحدث إلى الزعيم عن تلك المسألة اللعينة بحضور ضباط آخرين، فأشار عليك بوغدانوڤيتش بالصمت ليقطع سياق حدثتك. «وهو الاسم الذي كان يطلق على الزعيم بين صفوف الضباط، واسمه الكامل كما سنرى هو: كارل بوغدانوفيتش شوبرت»

ـ أي إنه اعتبرني كاذباً.

ـ ليكن. لكنك تفوهت أمامه بحماقات ويجب أن تعتذر عنها.

فصاح روستوف: أبداً!

فأجاب الرئيس بصوت حازم: ما كنت أنتظر ذلك منك. إنك ترفض الاعتذار مع أنك يا عزيزي مذنب ذنباً كبيراً حيال الزعيم بقدر ما أنت مذنب حيالنا، وحيال السرية كلها، كان يجب أن تفكر في الأمر وأن تطلب المشورة منا فيما يجب أن تتبعه من تصرف. وبدلاً من ذلك، أفرغت ما في جعبتك دون حذر أمام ضباط آخرين! فماذا كان يستطيعه الزعيم إزاء ذلك؟ هل كان يستطيع أن يقدم ضابطاً للعدالة فيشوه سمعة السرية كلها؟ هذا هو رأيك، أليس كذلك؟ حسناً، إنه ليس رأينا. وقد أحسن بوغدانوڤيتش التصرف عندما زعم أنك لا تقول الصدق. إن قوله مزعج ولا شك. ولكن الخطأ ليس خطأه يا عزيزي. والآن عندما نرغب في خنق القضية، نراك على العكس تصيح فوق

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الأسطح، وترفض الاعتذار لمجرد الزهو. كيف تجد أن بقاءك في الخدمة كل يوم يشكل مهانة، ولا تستطيع أن تقدم اعتذارات إلى ضابط عجوز نبيل! إن بوغدانوڤيتش لا يخلو من عيوب، لكنه ليس أقل من زعيم عجوز باسل. ومع ذلك فإنك تتكدّر من قوله. ولكن ألا تجد أن تشويه سمعة السرية أمر خطير؟

وأخذ صوت الرئيس يتهدج وهو يقول: إنك ولا شك يا فتاي لست هنا إلا لفترة من الزمن لأنك ستنقل يوماً لتكون ضابطاً مساعداً في الأركان، فلا يهمك والحالة هذه ما سيحدث بعدك، ولا يزعجك على ما يبدو أن يقال «إن بين ضباط پاڤلوغراد لصاً!» أما نحن، فإن ذلك الأمر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلينا. أليس كذلك يا دينيسوڤ؟

بقي دينيسوڤ صامتاً جامداً يلقي على روستوڤ نظرات من عينيه السوداوين اللامعتين بين الحين والآخر. فتابع الرئيس: إنك لا تعرف غير الزهو ولا تريد أن تعتذر. لكننا نحن، معشر الجنود القدماء، لقد شببنا وهرمنا في السرية، ونطلب إلى الله أن يمنحنا شرف الموت فيها. لذلك فإن شرف السلاح ثمين عندنا، وبوغدانوڤيتش لا يجهل ذلك. آه! ليتك تعلم كم نستمسك بشرف السرية!... كلا يا صاحبي، إنك لا تتصرف تصرفاً لائقاً، إنك لا تتصرف تصرفاً طيباً! إنني لن أتفوه بغير الصدق ولو أزعجك ذلك! إنك لا تتصرف تصرف الرجل اللبق!...

ونهض الرئيس وأدار ظهره إلى روستوڤ. فصاح دينيسوڤ وهو ينهض عن مقعده: إنه لصواب! هيا يا روستوڤ، هيا!

كان وجه روستوڤ خلال ذلك يمتقع ويحمر، ثم يمتقع ثم يحمر مجدداً. وكان ينقل الطرف دورياً بين الضابطين. فقال:

ـ ولكن لا، أيها السادة، ماذا ستظنون؟... لقد كونتم عني فكرة سيئة... إنني أفهم ذلك... إن شرف السرية متأصل في أعماق قلبي أنا أيضاً... ولسوف

www.Maktbah.com

أبرهن على ذلك بالأعمال... وهو عندي بمثابة شرف العلَم... ليكن. إنني أعترف بأنني مخطئ... ـ واغرورقت عيناه في الدموع ـ نعم إنني مخطئ، مخطئ تماماً... فماذا تريدون غير ذلك؟

استدار الرئيس نحوه وقال وهو يربت بيده الضخمة كتفه:

ـ مرحباً يا كونت. هذا هو خير الكلام.

وصاح دينيسوف قائلاً: أرأيت، إنه فتى باسل. لقد قلت ذلك لك من قبل.

فتابع الرئيس: نعم يا كونت، إنني أفضل ذلك. فاذهب يا صاحب السعادة وقدّم اعتذاراتك.

كان الرئيس يعطي روستوف كل ألقابه وكأنه يكافئه على حسن نيته. فقال روستوف ضارعاً: سأعمل كل ما تريدونه أيها السادة. إنني لن أتفوه عن هذا الأمر بكلمة. ولكن لا تطالبوني بالله أن أقدم اعتذاراتي. إنني لست طفلاً أيها السادة لأسأل العفو...

ـ فانفجر دينيسوف ضاحكاً بينما قال كيرستن: أنت وشأنك. إن بوغدانوڤيتش حقود. ولسوف تدفع ثمن عنادك غالياً:

ـ أقسم لكم إنني لست عنيداً!... لا أستطيع أن أصف لكم شعوري... لكن الأمر، بكل صراحة، يفوق حدود طاقتي...

فعقب الرئيس: هيا، ليكن كما تشاء!... أين اختفى ذلك الحقير؟

فأجابه دينيسوف: لقد ادعى بأنه مريض. سوف يسرح غداً بعد تبادل التقارير.

ـ إن المرض وحده يفسر اعتكافه.

فزمجر دينيسوف بصوت ضار: سواء أكان مريضاً أم لا، فإنني سأقتله إذا وقع نظري عليه!

twitter @baghdad_library

ـ كيف، أنت!

وفي تلك اللحظة دخل جركوف فصاح الضباط:

ـ لقد صدر أمر الانطلاق أيها السادة. لقد استسلم ماك وأبيد جيشه.

ـ إلى الحرب، إلى الحرب! قدموا إليه زجاجة لقاء هذه البشرى. ولكن كيف جئت إلى هنا؟

ـ بسبب ماك اللعين. إنني لما رأيته عائداً، قدمت تهانيّ إلى الجنرال النمسوي. فشكاني هذا، وكانت نتيجة الشكوى أن أعدت إلى السرية... ولكن ماذا بك يا روستوف؟ إنني أراك على غير حالك!

ـ آه! يا عزيزي ليتك تعلم في أي بؤرة تردّينا منذ أمس.

جاء الضابط المرافق للزعيم في تلك اللحظة يؤيد الخبر الذي حمله جركوف: لقد كان أمر الحركة معطى ومحدداً في صباح الغد. صاح الضابط:

ـ إلى الحرب أيها السادة!

ـ شكراً لله. كفانا تعفناً حتى الآن!

www.Maktbah.com

الفصل السادس

في الثالث والعشرين من تشرين الأول، كان الجيش الروسي يعبر نهر إينس[1]. وكانت تُنقل المدفعية والقطعات العسكرية والأمتعة، تباعاً على طول مدينة «إينس» وعلى جانبي الجسر.

وانثنى كوتوزوف على ڤيينا يهدم الجسور وراءه. جسور «الإين»[2] في برونو والـ ترون[3] في لينز.

كان الوقت خريفاً والجو معتدلاً وممطراً. كانت «بطاريات» المدفعية التي تحمي الجسر وتشغل مرتفعاً مستديراً. وكان المشهد الذي يتيحه ذلك المرتفع، يضيق حيناً تحت ستار المطر الغزير، ويتسع حيناً آخر تحت أشعة الشمس، فكانت الأشياء البعيدة تبدو عندئذ واضحة، وكأنها طليت بطبقة من الدهان اللامع. والمدينة الصغيرة ببيوتها البيضاء وقرميدها الأحمر وكنيستها وجسرها الذي كان الجيش الروسي متمركزاً على جانبيه وموزعاً على قطعات كبيرة، تُرى بوضوح أسفل ذلك المرتفع. وعند المنعطف الذي يشكله نهر الدانوب في اندفاعه، كان المشاهد يرى بعض الزوارق وجزيرة وقصراً منيفاً وحديقة يحيط بها الماء، ماء نهر «الإينس» و«الدانوب» معاً. وعلى شاطئ النهر العظيم الأيسر، كانت مرتفعات خضراء وممرات زرقاء، قائمة في الأبعاد

---

(١) نهر إينس، من روافد الدانوب. (المترجم)

(٢) إين، من روافد الدانوب ينبع من سويسرا. (المترجم)

(٣) ترون، من روافد الدانوب يمرّ بعاصمة النمسا لينز. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الشاسعة المجهولة. وهناك أحراج تشبه الغابات البكر، تظهر وراءها أبراج دير كبير، بينما كان جنود الأعداء يظهرون وراء تلك المرتفعات بوضوح.

أمام «بطارية المدفعية»، على ذلك المرتفع، كان الجنرال قائد المؤخرة وضابط من بلاط جلالته، يرقبان الأرض حولهما بواسطة منظار مقرب. وإلى الوراء، كان نيسـڤيتسكي قابعاً في كمين هناك. لقد أقامه القائد الأعلى في عداد ضباط المؤخرة. وكان القوقازي الذي يرافقه، يقدم له قصعة مملوءة بقطع البسكويت وإناء فيه شراب. وكان نيسـڤيتسكي يطعم ضباط البطارية الذين يحيطون به مرحين، وبعضهم على ركبتيه، والبعض الآخر جالساً على الطريقة التركية فوق الأعشاب الندية.

قال نيسـڤيتسكي: إن الأمير النمسوي الذي شيد قصره هنا، ذكي، بعيد النظر. يا للمركز الرائع!... ماذا أيها السادة؟ ألا تأكلون؟

فأجاب أحد الضباط وهو فرِح إذ يتحدث إلى عضو هام في أركان حرب الجيش: شكراً جزيلاً يا أمير. في الحقيقة إن الموقع رائع. إننا عندما مررنا في الحديقة شاهدنا خادمين. يا له من قصر بديع!

وقال ضابط آخر يتوق إلى تناول قطعة أخرى من الحلوى لكنه لا يجرؤ على ذلك، فاضطر إلى التظاهر بتأمل المشهد: انظر أيها الأمير، أنظر إلى مشاتنا كيف بلغوا القصر. ها ثلاثة منهم هناك في ذلك الحقل، وراء القرية، يجرون بينهم شيئاً ما... إنهم يحاولون تطويق ذلك القصر، فليوفقهم الله.

فقال نيسـڤيتسكي وفمه الجميل الندي مملوء بالحلوى: هكذا يبدو لي. أما أنا شخصياً، فإنني أفضل أن أقوم بجولة إلى هناك.

وأشار بإصبعه إلى الدير ذي الأبراج الذي يبدو مرتسماً على الرابية. ثم ابتسم، فضاقت عيناه والتمعتا وتابع:

سيكون ذلك رائعاً، أليس كذلك أيها السادة؟

www.Maktbah.com

فانفجر الضباط ضاحكين وقال أحدهم: إن القضية قضية تخويف أولئك الراهبات المتدينات. يقال إن بينهن إيطاليات جميلات رائعات. إنني أعطي خمس سنين من حياتي، عن طيب خاطر، لقاء زيارة واحدة أقوم بها إليهن!

فقال أحد المدفعيين معقباً وهو يمتاز ببسالته وإقدامه: ثم إنهن ينزعجن في وحدتهن.

وفي تلك الأثناء، كان ضابط من الحاشية يشير إلى الجنرال بالنظر إلى نقطة ما. فسدد هذا منظاره إلى حيث أشار الضابط.

غمغم الجنرال وهو ينزل المنظار: لقد انتهى الأمر.

ثم هز كتفيه وأردف: نعم لقد استعدوا. سوف يطلقون قذائفهم علينا خلال عبورنا. ماذا ينتظر جنودنا؟

كانت العين المجردة من الجانب الآخر للنهر، تكتشف «بطارية» عدوة ارتفع فوقها دخان كثيف أبيض، وارتفع بعد ذلك دوي بعيد مكتوم، أعقبته حركة بين الوحدات الروسية. وقف نيسـڤيتسكي يتنفس ملء رئتيه، واقترب من الجنرال والابتسامة على شفتيه وقال يسأله:

ـ هل ترغب سعادتكم في تناول قطعة؟

فتجاهل الجنرال السؤال وقال: يا للمسألة اللعينة. إن رجالنا متأخرون.

ـ هل يجب أن نهبط يا صاحب السعادة؟

فأجاب الجنرال: هو ذلك. إذهب أرجوك.

وراح يكرر عليه الأوامر التي كان قد أصدرها من قبل بالتفصيل: قل للخيالة أن يعبروا آخر كل الفرق وأن يحرقوا الجسر كما أمرت من قبل، ولتفتش مرة أخرى المواد المشتعلة التي حددت أمكنتها.

فأجاب نيسـڤيتسكي: مفهوم.

twitter @baghdad_library

ونادى تابعه القوقازي الذي كان يمسك بعنان جواده، فأمر بحزم الذخيرة والزاد، واعتلى بخفة ظهر جواده رغم ثقل جسمه.

قال للضباط الذين راحوا ينظرون إليه باسمين: إنني ذاهب لزيارة المتعبدات كما ترون.

وسلك الطريق الملتوي الذي كان يصعد الرابية المرتفعة.

حسناً يا كاپتن، أرنا مدى قذائفك، هيا! لمجرد خداع العدو.

صاح الضابط آمراً: أيها المدفعيون، إلى قطعكم!

فأسرع المدفعيون والرماة فوراً إلى مراكزهم، وأخذوا يلقّمون المدافع. ودوى صوت آمر يقول:

ـ القطعة الأولى، أطلق النار! فتراجع المدفع الأول بعنف، وأرعد بصوت معدني يصم الآذان، ومرت القذيفة فوق رؤوس القطعات الروسية المحتشدة عند سفح التل، وهي تصفر صفيراً قوياً. لكنها انفجرت على بعد من العدو بعد أن أعلنت مكان سقوطها بسحابة خفيفة من الدخان.

عمّ الفرح القطعات الروسية لسماع الدوي، ونهض الضباط والجنود ليشاهدوا بأنفسهم حركات الجنود الآخرين التي كانت واضحة جليّة، تقابلها من الجانب الآخر الوحدات العدوة. وفي تلك اللحظة خرجت الشمس من وراء السحب الأخيرة، فكانت تلك الطلقة الوحيدة من المدفع، مختلطة مع بريق الشمس المشع، توحي للنفس ببهجة حماسية رائعة.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

وكان الأمير نيسـفيتسكي وسط ذلك الازدحـام، مستنداً إلى حاجز الجسر، يضحك وهو ينظر إلى تابعه القوقازي، الذي كان واقفاً على مقربة منه إلى ورائه، ممسكاً بأعنة جوادين عندما انطلقت قذيفتان فوق الجسر حيث كانت الحركة على أشدها.

وكلما راح يحاول التقدم، كان الجنود والعربات والحركة الدائمة الصاخبة تعيده إلى مكانه قرب الحاجز فلم يجد خيراً من الابتسام يعالج به مشكلته.

صاح القوقازي بجندي كان يدفع عربته الجنود المشاة ويهددهم بسحقهم تحت عجلاتها وسنابك الخيل: قل يا هذا، ألا تستطيع الانتظار قليلاً؟ يجب أن تترك المجال لمرور الجنرال، هل فهمت؟

لكن كلمة «جنرال» لم تُحدث أي أثر في نفس الرجل، الذي راح يصيح بالجنود الذين يعترضون سبيله قائلاً: احذروا يا هؤلاء! خذوا يساركم!

إلا أن «هؤلاء» كانوا يسيرون كتفاً إلى كتف، تتشابك حرابهم، ويتقدمون كتلة لا سبيل إلى تفريق أفرادها.

كانت أنظار نيسـفيتسكي تنتقل من النهر إلى الجسر، فتكتشف هنا وهناك مشاهد متماثلة. وإلى الأسفل، كان «الإينس» يدفع أمواجه الصاخبة متتابعة متلاحقة، لتتحطم وتشتبك مع الأوتاد المغروسة في مجراه لإقامة أبنية عليها، وإلى الأعلى، كانت أمواج هائلة تصطخب، أمواج بشرية، ولكنها متشابهة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مع أمواج المياه من حيث النتائج والاتجاه. كانت تلك الأمواج، سلسلة لا تنتهي من الأكياس والبنادق الطويلة والحراب والخوذات العسكرية بشعاراتها وأربطتها الحلقية، التي تظهر تحتها وجوه ذات خدود ضامرة وأخرى منتفخة، ثم غابة الأرجل المتخبطة في الأوحال اللزجة.

ومن حين إلى آخر كان أحد الضباط بمعطفه المميز، يظهر بين تلك الأمواج البشرية.

ومن وقت إلى آخر، تقع العين على إحدى عربات الضباط، أو من تلك التي تخصص نقل الأمتعة، وهي محملة ومغطاة بقماش سميك يحمي ما فيها ومن فيها فتبدو طافية، أشبه بجذع شجرة عائم في مجرى تيار جارف يتقاذفها على هواه.

قال القوقازي وقد يئس من التقدم: يُخيل إلى المرء أن الحاجز قد دمر فتدفقت المياه. هل يستمر هذا التدفق طويلاً؟

فأجابه مزّاح كان يمر في تلك اللحظة مرتدياً معطفه الممزق وهو يغمز بعينيه: إن العدد الذي سيمر قوامه مليون إلا واحداً!

وكان جندي عجوز، يسير متعقباً خطى المزّاح يقول لزميل له بلهجة مفجعة: إذا بدأ يطلق نيرانه علينا في هذه الساعة، فإننا سننسى حتماً أن نهتمّ بقملنا.

والضمير الغائب في هذه الدعاية يرجع إلى العدو.

مضى العجوز وجاء في أعقابه جندي يعتلي عربة ووراءه جندي يعدو على قدر طاقته ليلحق بالعربة السائرة ويبحث في محتوياتها. كان يصخب قائلاً: أين أخفيت جواربي أيها الحيوان السمج؟

وابتعد كما ابتعدت العربة، وتبعه جمع من الجنود يبدو عليهم السكر. وهم يضحكون مقهقهين. كان أحدهم يقول وهو يلوح بذراعيه. وياقة معطفه

www.Maktbah.com

مرفوعة تصل إلى شحمتي أذنيه: وفي تلك اللحظة يا فتاي الصغير كان بودي لو رأيته كيف أهوى بعقب بندقيته على أنفه فحطمها.

فأجابه آخر وهو ينفجر ضاحكاً: لا شك أن وجهه الآخر أصبح كفخذ الخنزير الشهي!

ومرّت هذه الجماعة دون أن يستطيع نيسـڤيتسكي أن يعرف من الذي أصبح «فخذاً» شهياً.

ومر نقيب مزمجراً: ليقال إن النار في أعقابهم! ألأنه أرسل قذيفة لم تنفجر، باتوا يعتقدون أنهم سيموتون عن آخرهم.

و«ألأنه» هذه تعني ألأن العدو طبعاً.

فأجابه جندي شاب ذو فم كبير، في كتمان ضحكته: إنني يا صديقي، عندما رأيت القذيفة تمر أمامي كدت أشيح ببصري.

وأردف فخوراً بأنه شعر بالخوف: نعم ولا شك أنني شعرت برعب مريع!

ومر هذان المتحدثان كذلك. وجاءت عربة تختلف عن سابقاتها. كانت عربة محلية يقودها ألماني من أهل المنطقة، يجرها جوادان وقد قطرت إليها بقرة جميلة ملونة ضخمة. كانت العربة تبدو متسعة كمنزل صغير تحمل أفراده، لأن ثلاث نساء كن جالسات على فرش فيها: عجوز وامرأة على يدها طفل، وفتاة متوردة الوجنتين. كانت تلك العائلة واحدة من عدد كبير أرغم أفرادها على إخلاء مساكنهم، ومنحت لهم تصاريح خاصة بالانتقال.

استدارت الأعين كلها تنظر إلى تلك الأسرة. وكانت البسمات توجه إلى المرأتين كلما تقدمت عربتهما ببطء بين تلك الجحافل، حتى أن الامرأتين الشابتين كانتا تبتسمان ابتسامة متشابهة تنم عن أفكار مثيرة.

صاح أحدهم بسائق العربة: ماذا أيها الأب المنتفخ، أتجلو عن المكان؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وقال آخر يسأل الألماني الذي كان مطرق الرأس، مكفهر الوجه، يحاول حث الخيول على الإسراع في السير: هل تبيع رفيقتك حقاً؟

وانبرى صوت آخر يقول: رباه كم هي مزينة!

ـ إنها خير رفيقة سكن، أليس كذلك يا ڤيدوتوف؟

ـ بل إننا رأينا أجمل منها يا فتاي.

وسأل ضابط ميدان وهو يقضم تفاحة ويبتسم ابتسامة جميلة لفتاة العربة: إلى أين تمضون هكذا؟

فأغمض الألماني عينيه وتظاهر أنه لا يفهم شيئاً. فقال الضابط وهو يقدم تفاحته للفتاة: خذيها، أتريدين؟

فتقبلتها الفتاة بلطف.

ظل نيسـڤيتسكي، كالآخرين، يحدج النسوة بعينيه طوال الوقت الذي استغرقه مرور العربة. فرأى أولئك الجنود وسمع أقوالهم ثم توقف الرتل كله.

كانت الخيول التي تجر العربة الأولى قد توقفت عند نهاية الجسر، ورفضت كما يحدث غالباً للحصان الحرون. وسبَّب ذلك التوقف المفاجئ تجمّد السيل العرم الذي كان يرى.

توقف الجنود وهم يحدقون إلى وجوه بعضهم بعضاً ويتدافعون، وكل منهم يحاول أن يتجاوز الآخر. واختلطت الأصوات:

ألا يوجد نظام؟ ماذا ينتظرون؟ ألم تنته من الدفع أيها الأحمق؟ أأنت على عجلة من أمرك إلى هذا الحد؟ عندما تشتعل النار في الجسر سيكون الأمر مسلّياً أكثر. ألا ترى أننا نكاد نسحق ضابطاً...

وبينما كان نيسـڤيتسكي مستديراً ينظر إلى أمواج النهر، سمع فجأة صوتاً جديداً يختلف عن الأصوات التي ألفها حتى تلك اللحظة. رأى كتلة هائلة تقترب مسرعة وتنقض فتسقط في النهر.

www.Maktbah.com

غمغم جندي قريب من هناك وقد استلفتت الضجة انتباهه: إنه الآن يهتم بنا. (العدو).

فأجاب آخر مازحاً: «إنه» يريد أن يجعلنا نسرع في عبور الجسر.

أيقن نيسڤيتسكي أن تلك الضجة الهائلة كانت نتيجة لقذيفة أطلقها العدو. ولما عاد الركب يسير، استوقف تابعه القوقازي وصاح به:

ـ إليّ بجوادي! هيا ابتعدوا من الطريق! دعوني أمر!

واعتلى صهوة الجواد بمجهود كبير وهو يكثر التأنيب ليشق لنفسه طريقاً، وراح يدفع حصانه غمار الجنود الذين راحوا يفسحون له في الطريق مختارين. لكن تلك الموجة البشرية ارتدت إليه فجأة، حتى أن أقرب الجنود إليه، كاد يسحق ساقيه مرغماً بفعل الازدحام.

وصاح صوّت أجش من وراء نيسڤيتسكي: هه! نيسڤيتسكي! هه أيها المنتفخ!

فاستدار هذا مستجيباً، وإذا به يرى على بعد خمس عشرة خطوة وراءه، فارساً أحمر، أسود، أجعد الشعر، استرسلت قبعته حتى استقرَّت في مؤخرة رأسه، وعلى كتفيه فروة مربوطة عند العنق، كانت الكتلة البشرية تفصل بينه وبين الفارس. لكنه لم يجد صعوبة في معرفته. كان هذا هو ڤاسكا دينيسوڤ. زمجر هذا الأخير وهو فريسة الغضب: قل لهؤلاء الأوغاد أن يفسحوا لنا في الطريق!

كانت حدقتاه الملتهبتان تدوران في محجريهما وتلتمعان كالشعلة المتوهجة. وكانت يده تهز حسامه في غمده وتلوح به. وكانت اليد حمراء كالوجه.

صاح نيسڤيتسكي مرحاً: آه! ڤاسكا! ماذا بك؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فزمجر دينيسوف بصوت كالرعد، وهو يكشف في غضبه عن أسنانه البيضاء: يستحيل مرور الخيالة.

وهمز جواده الأصيل الأسود بقسوة، ذلك الجواد العربي الذي يفخر به، والذي كان ينصب أذنيه كلما اندفع في غمار الحراب المشهرة، مذعوراً يغمره الزبد، وكأنه لا ينتظر إلا إشارة من فارسه ليقفز فوق الحاجز إلى النهر:

ـ يا لقطيع الخراف!... إفسحوا في الطريق أيتها الحيوانات!... أنت يا سائق العربة، قف وإلا مزقتك إرباً إرباً؟...

واستل سيفه من غمده، وراح يهدد المشاة تهديداً جدياً، فذعروا وراحوا يتدافعون ليفسحوا في المجال للضابط الفارس الغضوب حتى بلغ مكان زميله.

سأله نيسـڤيتسكي: كيف حدث أنك لست ثملاً؟

ـ آه يا عزيزي، إنهم لا يعطوننا الوقت الكافي لغسل المرافق! إنهم يتنقلون طوال النهار بين جانب وآخر. لنحارب إذا كان يجب أن نحارب! وإلا فالله يعلم معنى هذا التصرف!

رأى نيسـڤيتسكي الفروة الجديدة التي يتدثر بها الفارس ولبادة جواده فصاح: يا للشيطان! ما هذه الأناقة!

ابتسم دينيسوف وأخرج من جيب محفظته الجلدية منديلاً مضمخاً برائحة عطرية دفعه تحت أنف نيسـڤيتسكي وقال: إنك على حق لأننا في يوم المعركة! لقد حلقت لحيتي وتضمخت بالعطور بل أكثر من ذلك: لقد غسلت أسناني.

واستطاع هيكل نيسـڤيتسكي الضخم والقوقازي المرافق يؤذيهما تصميم دينيسوف وصيحاته وتوبيخاته، أن يُحدث أثره في النفوس، مما سهل عليهم أخيراً أن يشقوا لأنفسهم طريقاً ويبلغوا الجانب الآخر من الشاطئ حيث

www.Maktbah.com

لحقوا بموجة المدفعيين والقناصة الصاعدين، وهناك التقى نيسڤيتسكي الزعيم الذي جاء ينقل إليه الأوامر فأتم مهمته، وعاد على أعقابه.

بعد أن شق دينيسوف طريقاً لخيالته بمجهود جبار، انتحى جانباً ليراقبهم وهم يغادرون الجسر. وكان يضبط جواده بيد متراخية، ويمنعه من الاندفاع وراء الجياد الأخرى. ولم يلبث أن ارتفع وقع حوافر جياد على أخشاب الجسر، وإذا بالكوكبة منتظمة على صفوف رباعية وضباطها في المقدمة، تجتاز الجسر وتصعد الجانب الآخر.

كان المشاة خلال ذلك، يناضلون بين الأوحال ويرمقون الفرسان الرسميين الأنيقين بنظرة فيها عداء معروف عند أسلحة الجيش المختلفة.

صاح أحد المشاة: هؤلاء على أحسن حال، وكأنهم ذاهبون إلى عرض عسكري! فأجاب آخر.

ـ ماذا تريد منهم أن يفعلوا غير ذلك؟ إنهم لا يحسنون إلا هذا.

صاح أحد الفرسان مازحاً وقد رأى كيف تعثر بأحد المشاة فألقاه أرضاً: أنت يا دافع الحصى بقدميك، اجهد في أن لا تثير غباراً!

فأجاب الآخر وهو يمسح بكمه وجهه الملطخ بالوحل: نعم، هو كذلك. تظاهر بأنك تنقض وأنت على ظهر جوادك. لكنك لو سرت مرحلتين أو ثلاث مراحل والكيس على ظهرك لما كنت متبجحاً إلى هذا الحدّ.

وصاح عريف يمازح جندياً نحيلاً منحنياً تحت ثقل كيسه: قل لي يا يازيكين، أهو أنت الذي تليق بامتطاء صهوة جواد؟ وددت لو رأيتك!

فرد عليه أحد الفرسان قائلاً: إن خير ما تفعله هو أن تضع له عصا بين ساقيه، وبذلك يصبح فارساً جميلاً!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

بدأت فصائل المشاة والمدفعية التي كانت محبوسة عند مدخل الجسر، تتدفق منه الآن بسرعة كالسائل الذي يندفع خلال القمع. مرت العربات كلها وخف الزحام. وبلغ آخر جحفل الضفة الأخرى. ولم يبق إلا فرسان دينيسوف لمواجهة العدو. كان هذا ظاهراً من أعلى المرتفع المقابل. أما من الأسفل عند الجسر، فلم يكن مكشوفاً بعد، لأن النهر كان يسير ملتوياً في مضيق كانت جنباته تقطع الأفق على مسافة لا تقل عن خمسمائة متر، كانت من الأمام، مساحة غير مأهولة يجوس القوقازيون خلالها.

وفجأة ظهرت معاطف زرقاء ومدافع فوق تلك المرتفعات التي راح القوقازيون ينحدرون منها خبباً. كان ضباط دينيسوف وجنوده لا يفكرون إلا في ما هو كامن فوق الهضبة وينظرون باستمرار إلى تلك النقاط الظاهرة على الأفق، والتي كانت في حقيقتها كتائب عدوة منتشرة هناك غير أنهم يحاولون جاهدين أن يشيحوا بأعينهم عنها إلى ناحية أخرى، وأن يتحدثوا حول مواضيع ثانية. وبعض الظهر، تحسنت الحالة الجوية وسطعت الشمس، وراحت تسدل إشعاعاتها الوهاجة على الدانوب الرائع والهضبات القاتمة التي تضمه بينها.

وكان السكون شاملاً، ومن حين إلى آخر، كان بعض الخيالة يقطعون مسافة الفراغ الممتدة بين الكوكبة والعدو الذي كان قابعاً في أمكنته لا يصدر عنه صوت، إلا صيحات تتردد من حين إلى آخر، ونفير يؤكد وجوده. وكان

www.Maktbah.com

ذلك السكون يزيد في خطورة الخط المرعب الذي يفصل بين الجيشين العدوين، ذلك الخط الوهمي الذي لم يقطعه أحد من الجانبين.

وراح كل رجل يفكر: «على خطوة وراء ذلك الخط شبيهة بتلك الخطوة التي تفصل بين الأحياء والأموات، يقبع المجهول الذي يحدث الألم والموت. ولكن ماذا يجد الإنسان هناك؟ ومن يجد؟ ماذا هناك وراء ذلك الحقل وتلك الشجرة وذلك السقف الذي تسطع الشمس فوقه؟ إن ما هناك مجهول يود كل إنسان معرفته.

كان كل إنسان يخشى اجتياز ذلك الخط، ويشعر مع ذلك برغبة في اجتيازه. كان كل واحد يعرف أنه سيضطر إلى اجتياز ذاك الخط آجلاً أو عاجلاً، وأنه سيعرف ما هناك، كما يجب، ذات يوم، أن يعرف ماذا وراء الموت معرفة لا بد منها، مع ذلك فقد كان كل إنسان يشعر أنه صحيح الجسم متقداً حماسة ومرحاً، وأن من حوله كذلك ممتلئون صحة وقوة واندفاعاً». تلك هي إحساسات كل رجل أمام العدو. وتلك الإحساسات تعطي صورة خاصة بعد كل حادث، فتجعل المرء يستقبل ذلك الحادث بنشاط وتعطش.

بدت سحابة خلّفتها قذيفة انطلقت من فوهة مدفع وراحت تصفر فوق الكوكبة، على قمة المرتفع الذي يعسكر العدو فوقه. فتفرق الضباط الذين كانوا مجتمعين في بقعة واحدة، وأخذ كل منهم مكانه على رأس فصيلته. وكان الرجال يحاولون جهدهم استبقاء خيولهم منتظمة الصفوف. وخيم الصمت من جديد. كانت عيون الفرسان شاخصة إلى العدو البعيد، وإلى الرئيس تنتظر الأمر منه. ومرت قذيفة ثانية وثالثة. كانت تلك القذائف تستهدف الفرسان بدون شك، غير أنها طاشت بصفيرها الرتيب مارة فوق الرؤوس وسقطت في مكان ما وراء الكوكبة.

كان يبدو على الوجوه عدم الاهتمام بتلك القذائف، ولكن كلما تردد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

صوت المقذوف ودوّى، كان الرجال ذوو الوجوه المختلفة في ألبستهم الموحدة، يتوقّفون عن التنفس وكأنهم ينفذون أمراً صدر إليهم، ويرفعون أجسادهم معتمدين على الركب. كان كل واحد يتفحص زميله بزاوية عينه دون أن يدير إليه رأسه، محاولاً معرفة الشعور الذي أحدثه مرور القذيفة في نفسية زميله. وكان كل وجه، اعتباراً من وجه دينيسوف وحتى وجه نافخ البوق، يعبر عن الانفعال والعصبية، والصراع العنيف ضد النفس، فينظر ذلك التعبير في الخطوط الواضحة حول الذقون وعلى أطراف الشفاه. وكان الرقيب الأول ينظر إلى رجاله بوجه عابس ملؤه التهديد. أما التلميذ الفارس ميرونوف، فكان يحني ظهره أثر وصول القذيفة، بينما كان روستوف الواقف في الجناح الأيسر على حصانه الضعيف ذي المظهر الجميل مستبشر الوجه، وكأنه طالب استدعي أمام حشد غفير ليخضع لفحص، كان متأكداً أنه سيؤديه بتفوق وكانت نظرته المشعة تبدو وكأنها تشهد الناس على سكونه وهدوئه أمام قصف المدفعية. مع ذلك فإن الخط المعلن عن شعور جديد خطير ظهر رغماً عنه عند نهايتيْ قوس فمه.

صاح دينيسوف الذي كان يطير من جناح الكوكبة الأيمن إلى جناحها الأيسر متقداً: أيها التلميذ الفارس ميرونوفف، لم تدير رأسك إلى هناك؟ يجب أن تنظر إليّ أنا.

كان ڤاسكا دينيسوف بوجهه الممتلئ، ورأسه المتوج بشعر أسود، وقامته القصيرة الملفوفة، ويده المعقدة القصيرة المغطاة بالشعر، المتقلصة على مقبض سيفه المشهر، لا يختلف عما كان يبدو عليه عادة وخصوصاً في الأمسيات، بعد أن يكون قد أفرغ زجاجتين في جوفه. لكنه كان أكثر احمراراً من عادته. وكان رأسه منتصباً أشبه بالطيور التي تهم بابتلاع الماء الذي شربته، وجسمه ملقى إلى الوراء، تعصف ساقاه القصيرتان في جنبي جواده الأصيل

www.Maktbah.com

لكزاً دون إشفاق، فيهدب من جناح إلى آخر، ويلقي بصوت أجش الأمر بإعداد الغدارات. وجاء الرئيس الثاني «كيرين» للقائه فوق فرسه الضخم. كان كيرستين ذو الشاربين الكبيرين وقوراً كعادته، غير أن عينيه كانتا تسطعان أكثر من المعتاد.

قال يخاطب دينيسوف: ما فائدة تحضير الغدارات. إننا لن نشتبك مع العدو وسوف ترى.

فغمغم دينيسوف مزمجراً: يا للشيطان، لست أدري ماذا يفعلون؟

ثم صاح يخاطب روستوف بعد أن لاحظ الحبور الذي على وجهه: هه روستوف! ها إن اليوم المنشود قد أزف!

وشفع قوله بابتسامة مشجعة، وهو بادي السرور لشجاعة الفتى، بينما امتلأ قلب روستوف غبطة. وظهر ضابط المؤخرة في تلك اللحظة، على الجسر، فأسرع دينيسوف للقائه قائلاً:

ـ اسمح لي يا صاحب السعادة أن أهاجم. سوف أقذف بهم وأبددهم!

فغمغم الجنرال وقد قطب حاجبيه وكأنه يطرد ذبابة وقحة: إن الأمر كذلك، ماذا تفعل هنا حتى الآن؟ ألا ترى أن المستكشفين ينسحبون. أرجع رجالك.

تراجعت الكوكبة وخرجت سليمة من مدى القذف. وجاءت كوكبة ثانية كانت تستكشف حركات العدو، فمرت على الجسر يتبعها لفيف من القوقازيين هم آخر من تبقى من الفرسان.

كانت الكوكبتان تنسحبان نحو المرتفعات بناء على الأوامر. وكان الكولونيل كارل بوغدانوفيتش شوبيرت، الذي لحق بكوكبة دينيسوف، يسير الهوينا على جواده غير بعيد عن روستوف. وكان لا يلقي بالاً إلى الفتى، رغم أن ذلك اللقاء كان الأول بينهما، منذ جدالهما بصدد الملازم تيليانين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان روستوف يشعر أنه، بصفته في الخدمة، تحت مطلق تصرف هذا الرجل الذي أهانه والذي كان يعترف في تلك اللحظة بأخطائه التي ارتكبها حياله. فكان نظره لا يفارق كتفي الزعيم العريضتين ورأسه الأشقر وعنقه المحمرّ. كان يتصور أحياناً أن بوغدانوڤيتش يتظاهر باللامبالاة ليختبر شجاعته «هو» روستوف فعندئذ يشد قامته ويسرح حوله طرفاً متحمساً. ويظن، أحياناً، أن الزعيم بسيره بالقرب منه، يريد أن يبرهن له على شجاعته.

لكنه كان يتصور في بعض الأحيان أن الزعيم الراغب في معاقبته، سيلقي بالكوكبة في هجوم جنوبي، ليمد بعدئذ إلى روستوف الجريح، يداً مسترضية ويعلن أنه نسي ما بينهما من خصومة.

أسرع أحد الضباط المساعدين إلى حصانه متجهاً نحو الزعيم. كان ذلك الضابط المقبل هو جركوف الذي أصبح قوامه الممشوق معروفاً لفرسان پاڤلوغراد، رغم أنه منذ إقصائه عن الأركان العامة، لم يندمج بهم زمناً طويلاً. كان يقول إنه ليس شديد الحماقة لينخرط في صفوف الفرسان، بينما يستطيع ضمان ترقيته وهو في الأركان دون عمل يذكر. لذلك فقد سعى لنفسه حتى أصبح ضابطاً تابعاً للأمير باغراسيون الذي كان يقود مؤخرة الجيش. وكان في تلك اللحظة قادماً من لدنه لينقل أمراً إلى رئيسه السابق.

قال بوجه حزين وهو يتبادل النظر مع زملائه القدامى: أيها الزعيم، لقد صدر الأمر بالتوقف وإحراق الجسر.

فسأل الكولونيل بشراسة مستعملاً اللغة الروسية الركيكة: من الذي أعطى الأمر. كل ما أعرفه أن الأمير كلفني أن أقول لك إن على الفرسان أن يتراجعوا فوراً وأن يضرموا النار في الجسر.

وجاء ضابط آخر من الحاشية بعد جركوف يحمل ذلك الأمر بالذات. وجاء كذلك نيسـڤيتسكي الضخم الذي كان ثقل جسمه يهبط الجواد القوقازي

www.Maktbah.com

الصغير. صاح وهو على مسافة من الزعيم: رباه، يا كولونيل قلت لك أن تحرق الجسر ثم أراك لا تفعل شيئاً؛ إنهم على أشد الضيق في الأركان العامة، ينزعون شعر رؤوسهم من الغضب ولا يفهمون شيئاً من تصرفك.

أصدر الزعيم أمره إلى السرية بالتوقف، دون أن تبدو العجلة على تصرفاته، وأجاب قائلاً: لقد حدثتني عن المواد المشتعلة، أما عن حرق الجسر فإنك لم تحدثني.

كان نيسـڤيتسكي، خلال ذلك الوقت، قد أوقف جواده ورفع خوذته، وراح يمسّد شعره السابح في العرق بيده السمينة. قال دهشاً: كيف لم أحدثك عن إحراق الجسر يا سيدي العزيز! لمَ إذن وضعت عليه المواد المشتعلة؟

ـ عفواً يا سيدي ضابط الأركان. إنني أولاً لست «سيدك العزيز». وأخيراً إنك لم تحدثني بوجوب إحراق الجسر! إنني أعرف واجبي، ومن عادتي تنفيذ الأوامر حرفياً. لقد قلت إن الجسر سوف يحرق، أما من سيحرقه، فإنني ما كنت لأعرف ذلك بواسطة الروح القدس...

قال نيسـڤيتسكي وهو يشير بيده دلالة على الخضوع والامتثال: هيا!

ووقعت عيناه على جركوڤ فصاح: هه، جركوڤ! ماذا تفعل هنا؟

ـ مثل ما تفعل أنت، والفرق أنك مبتل كما ترى، فهل تريد أن أعصرك؟

أما شوبرت فقد كان يشعر بجرح في كرامته نتيجة لأقوال ضابط الأركان، لذلك فقد استمر يناقشه محتجاً:

ـ لقد قلت لي يا سيدي ضابط الأركان...

فقاطعه ضابط الحاشية قائلاً: لنسرع يا كولونيل وإلا فإن العدو سيقرب قطعاته ونصبح تحت رحمته...

سكت شوبرت مرغماً، وراح ينقل نظره بين ضابط الحاشية وجركوف وضابط الأركان الضخم فيزداد وجهه اكفهراراً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال بلهجته الوقورة التي تشعر بأنه يقوم بواجبه مهما تعرض لمخاصمات: ليكن! سأحرق الجسر.

وشدّ غضبه على جنبي جواده، إذ راح يضغط عليهما بساقيه القويتين دون رحمة، فطار الجواد به إلى المقدمة، وهناك أعطى الأمر إلى الكوكبة الثانية التي كان روستوف فرداً منها تحت أمرة دينيسوف، بالتراجع نحو الجسر.

فقال روستوف في سره وهو يشعر أن قلبه قد أطبقت عليه يد خفية راحت تعتصره: «هو ذاك، إنه يريد اختباري، حسناً، سأبرهن له على أنني لست جباناً»! وبدأت الدماء تضرج وجهه.

وعاد الخط الكئيب مجدداً إلى وجوه الخيالة المستبشرين، ذلك الخط الذي طبع وجوههم بالتهجم عندما دوت طلقات المدافع. وكان روستوف يحدج وجه خصمه وهو يتوق إلى اكتشاف أية بادرة تدعم ظنونه. غير أن نظرة الكولونيل الصارمة الوقور لم تلتق مرة نظرته. ارتفع صوت الزعيم آمراً، ورددت أصوات حول روستوف تقول: أسرعوا! أسرعوا.

بسرعة فائقة، وبين رنين المهاميز وصليل السيوف وصلصلة اللجم، ترجل الفرسان عن ظهور جيادهم وهم حيارى لا يدرون ماذا يفعلون. راحوا يرسمون إشارة الصليب، وقد أخذ منهم الخوف لبقائهم في المؤخرة. ونسي روستوف الكولونيل، وسلم حصانه الصغير إلى الجندي الذي يحرس الخيول، وشعر أن قلبه يدق بعنف جنبات صدره.

ومر دينيسوف وجسمه ملقى إلى الوراء على عادته هادباً جواده صائحاً مشجعاً. غير أن روستوف لم يعد يرى إلا الفرسان الذين كانوا يركضون حوله مرتبكين بمهاميزهم قارعين سيوفهم.

صاح صوت من ورائه: نقالة!

لم يفكر روستوف في معرفة السبب الذي من أجله تطلب النقالة، بل راح

www.Maktbah.com

يعدو بكل قواه محاولاً الوصول قبل سواه. لكن قدمه زلت في الطين اللزج عند مدخل الجسر، فسقط على يديه ومر الآخرون وتجاوزوه.

وسمع صوت الزعيم الذي كان يسير في المقدمة على صهوة جواده قرب الجسر ووجهه الوقور الطافح بالبشر: من الجانبين أيها الرئيس!...

التفت روستوف لينظر إلى خصمه وراح يمسح يديه الملطختين بالوحول بسراويله. أراد أن يتابع الجري مقدراً أنه كلما تقدم كان ذلك أفضل، لكن بوغدانوڤيتش صاح بصوت غاضب دون أن يعرفه أو أن ينظر إلى وجهه: من ذا الذي يسرع في منتصف الجسر؟ إلى اليمين! إلى الوراء أيها الفارس التلميذ!... ما فائدة التعرض للخطر أيها الرئيس؟

وأردف يخاطب دينيسوف الذي راح يتقدم ممتطياً جواده فوق الجسر متباهياً: ترجل يا دينيسوف.

فأجاب ڤاسكا دينيسوف وهو يستدير في مقعده على صهوة الجواد: إه! إن القذائف تجد دائماً من تصطدم به!

وقف نيسڤيتسكي وجركوف وضابط الحاشية بعيداً عن مرمى قذائف العدو، يراقبون تلك القبضة من الرجال بخوذاتهم الصفراء وستراتهم الخضراء ذات الأشرطة، وسراويلهم الزرقاء وهم ينشطون قرب الجسر وينقلون طرفهم عبر النهر، ليراقبوا المعاطف الزرقاء التي كانت تظهر على البعد والبطاريات المنصوبة التي كان يسهل تمييزها.

كان كل من الجنود الواقفين على الهضبة المطلة على النهر يتساءل بقلق وهو يرقب عن بعد اقتراب المعاطف الزرقاء والحراب وقطع المدفعية: «هل يجد الفرسان الوقت الكافي لإضرام النار في الجسر؟ هل سيهاجم الفرنسيون بسرعة ويسحقونهم تحت وابل رصاصهم؟».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال نيسـڤيتسكي: سيتعرض الفرسان لضرب عنيف! ها إنهم باتوا تحت رحمة قذائف العدو.

فقال ضابط الحاشية ملاحظاً: لقد أخطأ إذا استصحب كل هذا العدد!

ـ حقاً. إن اثنين من الفتيان كانا كافيين.

فاعترض جركوڤ بلهجته التي تثير الضحك دون أن يبدو على وجهه أنه راغب فيه: ما هذا القول يا أمير؟ رجلان! أتريد إذن أن يمر صليب القديس ڤلاديمير تحت أنوفنا؟ سوف تقع ضحايا نتيجة هذه العملية، غير أن السرية كلها ستمنح ذلك الوسام، وسيحمل بوغدانوڤيتش شريطة. إنه يعرف ماذا يفعل.

صاح ضابط الحاشية قائلاً: هه! سيفتكون بهم الآن بطلقات الرصاص!

وراح يشير إلى الأسلحة الفرنسية التي شوهدت تُسحب من المقدمة وتُقطر بسرعة لتوجه نحو فرسان الجسر.

وظهرت فوق الوحدات العدوة التي تضم المدفعية، ثلاث سحب متتابعة ولما ردد الصدى دوي الانفجار الأول، ارتفعت فوق القطعات العدوة سحابة رابعة. ودوى انفجاران متتاليان أعقبهما ثالث.

زمجر نيسـڤيتسكي وكأنه يحس بألم محرق: أوه! أوه!

وأمسك بذراع ضابط الحاشية وأردف: انظر، أنظر! هو ذا واحد قد سقط: اثنان على ما يبدو لي أليس كذلك؟

فقال نيسـڤيتسكي وهو يشيح بنظره عن المشهد: لو كنت القيصر لما خضت حرباً.

لُقمت المدافع الفرنسية بسرعة، وكذلك البنادق، وتهافتت المعاطف الزرقاء بخطوات سريعة نحو النهر، وارتفعت سحب أخرى ولكن على فترات غير منتظمة. ولعلعت طلقات البنادق. غير أن نيسـڤيتسكي لم يستطع تمييز

www.Maktbah.com

ما يحدث على الجسر في تلك اللحظة، إذ ارتفع فوقه غمام كثيف يشعر بأن الفرسان الروس هناك قد نجحوا في إضرام النار.

لم يعد رماة الأعداء يطلقون النار ليمنعوا إنجاز العملية، بل لمجرد أن أسلحتهم كانت محشوة، وأن أمامهم هدفاً يطلقونها عليه. وقد أفرغوا أسلحتهم ثلاث مرات قبل أن يستطيع الفرسان الروس اللحاق بخيولهم وامتطاءها، وطاشت الدفعتان الأوليان، أما الدفعة الثالثة فقد أصابت فصيلة من الصميم، فقتلت ثلاثة من رجالها.

في وسط الجسر، توقف روستوف لا يدري ماذا يفعل، لأن عقله كان مشغولاً بعلاقاته مع بوغدانوفيتش. ولم يجد حوله أحداً يلقاه بسيفه وهو الذي لم يكن يظن أن المعركة ستكون خلاف ذلك. وما كان يستطيع المساهمة في إضرام النار لأنه لم يكن يحمل المادة الملتهبة كالجنود الآخرين. لذلك فقد وقف في مكانه متردداً. وفجأة سمع فرقعة تشبه سقوط جوز ناضج، ورأى الفارس القريب منه يسقط إلى الأرض مزمجراً قرب السياج، فأسرع إليه مع بعض الجنود وعلا صياح أحدهم من جديد: نقالة!

أمسك أربعة رجال بالجريح وأنهضوه، فصاح هذا: أوه! أوه!... دعوني بحق السماء:

غير أنهم حملوه ووضعوه على النقالة.

راح نيكولا روستوف يحدق إلى النهر الكبير الذي كان يضيع في الأبعاد الشاسعة، وتأمل السماء التي كانت الشمس تبدو فيها كالكتلة المتوهجة، بدت السماء لناظريه شديدة البهاء في إشراقها البهيج! وأعجب بجلال الإشعاع الذي تعكسه الشمس. وبدا له ماء الدانوب البرّاق كالمرآة الصقيلة، بهياً رائعاً، وبدت له التلال التي تصبح قاتمة اللون كلما ازدادت إيغالاً في البعد وراء الدير، جذابة فرحة، والوديان غامضة وغابات الصنوبر تائهة وسط الضباب الخفيف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بمحاذاة الأفق البعيد!... هناك كان السلام والسعادة... أخذ روستوف يحدث نفسه: «لو أنني كنت هناك فقط، إذن لما طلبت شيئاً، ولما رغبت في شيء مطلقاً. كم من سعادة أجدها في نفسي وفي هذه الشمس... بينما أصغي إلى التأوهات الأليمة تتردد بقربي... وهذه العجلة وهذا الارتباك... رباه، ها إن أمراً جديداً قد صدر وكل الفرسان ينفرون إلى حيث لا يعلم إلا الله، فلأركض معهم إذن... ها هو ذا الموت فوق رأسي وحولي... لحظة واحدة ولن أرى بعدها هذه الشمس، وهذه المياه، وهذا الوادي...».

مرت سحابة غطت الشمس، فرأى روستوف نقالات أخرى أمامه، وعندئذ اتخذ الرعب الذي أحدثه في نفسه تخوفه من الموت، بحبه للشمس والحياة، وبدت كلها على وجهه في طابع القلق فغمغم: «آه يا رب، أنت يا من علوت في سمائك، أنقذني واغفر لي!»

أسرع الفرسان إلى خيولهم، فاكتسبت أصواتهم ثقة أقوى، واختفت النقالات من أمامهم، وصاح ڤاسكا دينيسوف في أذن روستوف: حسناً يا صغيري، هل استنشقت رائحة البارود؟

فقال روستوف في سرّه: «هيا، لقد انتهى كل شيء، لكنني لست إلا جباناً. نعم إنني جبان». وزفر زفرة عميقة وأخذ عنان جواده من الجندي الذي كان يحرس الخيل ووضع قدمه في الركاب.

سأل دينيسوف قائلاً: ماذا كان نوع السلاح؟ أهو الرصاص أم القذائف؟

فأجاب دينيسوف: لقد كان يجمع بين كليهما! لقد قمنا بعمل باهر! ولكن يا للمهمة القذرة! حدثني عن هجوم يطربني لأن في الهجوم ما يستطيع المرء أقله أن يصب عليه نقمة سيفه. أما عمل كهذا، فإنني لست أدري كيف أصفه. يقذفنا العدو برصاصة فندعه يتم قذفه جاعلين من أنفسنا هدفاً لمقذوفاته!

www.Maktbah.com

وانتقل دينيسوف نحو جماعة غير بعيدة عن روستوف تضم الكولونيل نيسـﭭيتسكي وجركوف وضابط الحاشية.

فكر روستوف في نفسه: «إن أحداً لم يلاحظ شيئاً، لكل ما اعتراني!» والحقيقة أن أحداً لم يلاحظ شيئاً، لأن كل واحد كان يعرف بمحض التجربة الشعور الذي يبعثه اللقاء الأول مع النار.

قال جركوف: سوف نرفع تقريراً رائعاً! لن أدهش إذا رُقيت إلى رتبة ملازم.

وقال الكولونيل بلهجة المنتصر: بلغ الأمير أنني أحرقت الجسر:

ـ وإذا سئلت عن الخسائر فماذا أقول؟

فأجاب الزعيم بصوت خفيض: خسارة لا تذكر. أصيب فارسان بجروح وقتل ثالث على الفور!

كان عاجزاً عن ضبط أعصابه وكتمان سروره. وبدت له الكلمة الأخيرة فائقة الجمال حتى أنه قالها بلهجة مرعدة والابتسامة تشع على شفتيه: قُتل فوراً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

كان بوناپرت يطارد جيش كوتوزوف عبر وادي الدانوب، فانثنى جيش هذا الأخير أمام مائة ألف جندي فرنسي، بينما عدد الجيش الروسي لا يزيد على خمسة وثلاثين ألفاً. وكان السكان يستقبلون المتراجعين المتقهقرين بنظرات عدائية تدل على أنهم لا يثقون بحلفائهم. شعر الجيش المتراجع بنقص في مؤونته، فاضطرت القيادة إلى استعمال الأساليب المنظورة في مثل هذه الحالات أثناء الحرب. ولم يكن يجيب على ضغط العدو إلا بمعارك من مؤخرة الجيوش الغاية منها تغطية انسحاب الجيش ومحاولة إنقاذ الأمتعة والمؤن؛ واشتبك الجيشان في «لامباغ» وفي «آمستيتش» و«ميلك». وبرهن الروس في هذه المعارك عن شجاعة ومقاومة اعترف خصمهم بهما.

مع ذلك فإن تلك المعارك الجريئة اليائسة لم تكن إلا لتزيد في سرعة التقهقر. وكانت الجيوش النمسوية التي نجت من هزيمة «أولم» واستسلام جيوش «ماك» والتي انضمت إلى الجيوش الروسية في «برونو»، قد انفصلت عنها. فوجد كوتوزوف نفسه على رأس وحداته الشخصية المنهوكة، فلم يجد سبباً للتفكير في الدفاع عن ڤيينا. وبدلاً من الهجوم المرتقب بحسب قواعد الفن الحربي الجديد المسمى «استراتيجيا»، والذي كانت خطته قد عرضت عليه خلال إقامته في ڤيينا من قبل قيادة الأركان العليا الحليفة، فإن كوتوزوف لم يجد لزوماً لإضاعة جيشه كما أضاع ماك جيشه في «أولم» بل رأى أن خير

www.Maktbah.com

ما يفعله لسلامة وحداته، إنما هو الاتصال بالوحدات الروسية التي وصلت من روسيا، رغم أن تلك الغاية لم تكن سهلة وممكنة.

توقف كوتوزوف في الثامن والعشرين من تشرين الأول، على ضفة نهر الدانوب اليسرى، بعد أن جعل النهر فاصلاً بينه وبين القطعات الفرنسية الرئيسية. وكانت الضفة اليسرى محتلة من قبل الجيش الذي يقوده مورتيه[1] وفي ٣٠ تشرين الأول، انقض كوتوزوف على جيش مورتيه وهزمه. وكسب الجيش الروسي للمرة الأولى أسلاباً: علماً ومدفعين. وأسر جنرالين. وللمرة الأولى منذ خمسة عشر يوماً، ظل الجيش الروسي خلالها يقاتل ليغطي انسحابه، تمكن أخيراً أن يحتفظ بساحة المعركة، وأن يجابه العدو ويُنزل به هزيمة نكراء. كانت وحدات الجيش متعبة، وقد أصبحت ثياب الأفراد أطماراً مهلهلة، وخسرت ثلث عددها بين قتيل وجريح ومتخلف ومريض.

ولما كانت المستشفيات وأبنية مدينة كريمز الكبيرة التي تحولت إلى مشافٍ تضيق بالمرضى، ترك كوتوزوف مرضاه الآخرين والجرحى على الضفة الثانية، بعد أن سطر رسالة ناشد فيها إنسانية العدو في معاملة الجرحى والمرضى. مع ذلك، فقد جاء التوقف في تلك المدينة، والانتصار على مورتيه داعماً لمعنويات الرجال.

وراحت الإشاعات المشجعة تسري في الجيش حتى بلغت الأركان العامة. فمن قائل إن وحدات النجدة تقترب، إلى آخر يؤكد أن النمسويين قد انتصروا بدورهم، وثالث يروج أن بونابرت قد استولى عليه الذعر فولى الأدبار.

بقي الأمير اندريه قرب الجنرال النمسوي شميدت طوال المعركة التي

---

(١) مارشال فرنسي (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قتل فيها هذا الأخير، وأصيب الأمير برصاصة خدشت ذراعه بعد أن قتلت جواده. وقد أكرمه الجنرال القائد الأعلى، فخصه بالذهاب إلى البلاط النمسوي لينقل خبر الانتصار إلى الملك، الذي انتقل مع حاشيته من ڤيينا التي كان الفرنسيون يهددونها، إلى برون. لم يكن الأمير ﭘولكونسكي تعباً، لكنه كان مضطرباً مثار العواطف ليلة المعركة. كان رغم بنيته النحيلة، يحتمل التعب أكثر من أيّ أمتن بنياناً منه. وقد وصل ليلتئذ إلى «كريمس» على صهوة جواده يحمل تقريراً من دوختوروڤ إلى القائد الأعلى كوتوزوڤ الذي أرسله لساعته إلى برون. فكان الاختيار الذي يقع عليه بانتقائه رسولاً يحمل الأخبار الهامة، يبشر بالإضافة إلى المزايا الأخرى التي يمتاز بها ذلك الاختيار، بترقية ومستقبل لامعين للأمير الشاب.

كانت تلك الليلة حالكة، والنجوم تسطع على صفحة السماء، والطريق يرسم خطاً أسود على أديم البراري الزاهية اللون، التي تغطيها طبقة من الثلج الذي ظل ينهمر طوال يوم أمس خلال المعركة. وبينما كان يقطع الطريق في عربة البريد الصغيرة، كانت أفكاره مشغولة في حوادث أمس الرهيبة. كان يستعرض أحياناً أخطار المعركة، وعبارات الوداع التي خصه بها القائد الأعلى وزملاؤه، وأحياناً يتمثل الأثر المفرح الذي ستحدثه أخطار المعركة والنصر الذي أحرز.

كان الأمير أندريه أمام تلك الأفكار، يشعر شعور الرجل الذي شاهد انبلاج الفجر، فجر سعادة ظل زمناً طويلاً يمضه الشوق إليها حتى تحققت بعد موجة انتظار مضنية، كان إذا أغمض عينيه، خيل إليه أنه يسمع صوت الطلقات النارية ودوي المدافع الذي اختلط بقعقعة العجلات وشعور النصر. وكان أحياناً يتصور أن الروس يدبرون فراراً، وأنه أصيب إصابة قاتلة فمات. لكنه كان يستيقظ منتفضاً ويتضح له بسعادة تداني سعادته في تخيلاته الأولى

www.Maktbah.com

البهيجة، أن خيالاته ليست حقيقة، وأنها على العكس تمثل صورة معكوسة، لأن الفرنسيين هم الذين لاذوا بالفرار. ومن جديد كان يتمثل ظروف المعركة والجرأة الغريبة التي أظهرها خلالها. وأخيراً نام وهو يهدهد تلك الأفكار الجميلة في مخيلته...

أعقب ذلك الليل الحالك ساطع النجوم، صباح مشع، فذابت الثلوج تحت حرارة الشمس، وراحت الخيول تخب مسرعة. بينما كانت الغابات والحقول والقرى المحيطة بالطريق، تمر أمام ناظريه بتشابه يربط بين مختلف تلك المشاهد. ولحق الأمير في إحدى مراحل تبديل الخيول بقافلة تضم عدداً من الجرحى الروس. كان رئيس القافلة متهالكاً في العربة الأولى، يصخب ويشتم جندياً شتائم قبيحة.

كان أولئك الجرحى التعساء، شاحبي الوجوه قذرين تحيط بأعضائهم المصابة الأربطة والضمادات. وكانوا محشورين في العربات الطويلة بمعدل ستة أو أكثر في كل عربة، تهتز دارجة على الطريق الحجري. كان بعضهم يتحدثون إذ بلغت مسامع الأمير بعض عبارات باللغة الروسية، والبعض الآخر يأكلون الخبز.

أما أولئك الذين كانت إصاباتهم خطيرة، فقد كانوا يتأملون، بصمت وبفضول المرضى المتواضع الصبياني، عربة البريد التي كانت تمر بهم مسرعة وتتجاوزهم.

أوقف الأمير العربة وسأل أحد الجرحى عن المعركة التي أصيب خلالها مع رفاقه. فأجاب الجندي: لقد جرحنا أول أمس في الدانوب.

فأخرج الأمير حافظة نقوده، وأعطى الجندي ثلاث قطع ذهبية وقال للضابط الذي اقترب منه في تلك اللحظة: إن هذا المال للجميع. تمالكوا قواكم يا أولادي. إن أمامنا كثيراً مما نعمل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سأل رئيس القافلة متلهفاً على الدخول في محادثة: حسناً يا سيدي الضابط، ما هي آخر الأخبار؟

فأجاب بعد أن أصدر أمره لسائق عربته بالمسير.

ـ جيّدة...

وراحت العربة تبتعد بالأمير متجاوزة قافلة الجرحى.

عندما دخل الأمير برون، كان الظلام مخيفاً. وكانت فوانيس الشوارع مضاءة والأنوار تشع من واجهات الدكاكين ومن وراء النوافذ المرتفعة على جانبي الطريق. والعربات الأنيقة تدرج على أرض الشارع المبلطة محدثة قعقعة. شعر الأمير فجأة أنه مندمج في ذلك الوسط الجذاب الذي يأخذ بمجامع قلوب العسكريين الوافدين من ساحات القتال. كانت تلك المرحلة الطويلة التي قطعها، وليلة الأرق التي مرت به، عديمة الأثر في أعصابه. فلما اقترب من القصر شعر بنشاط يفوق نشاطه بالأمس. كانت عيناه وحدهما تشعان ببريق محموم، وأفكاره تتلاحق بوضوح وسرعة خارقين.

استعاد في ذاكرته أدق تفاصيل المعركة، فلم تكن تلك التفاصيل غامضة مشوشة، بل كانت واضحة وضوح تقرير جديد بأن يرفع إلى مقام الأمبراطور فرانسوا، أخذ يشعر شعوراً مُسبقاً بالأسئلة العريضة التي ستطرح عليه، والأجوبة التي سيقدمها. راح يفكر في أنه سيدخل إلى حيث الأمبراطور فور إعلان اسمه. لكنه عند مدخل القصر، التقى موظفاً أسرع للقائه فلما عرف أنه رسول يحمل نبأ، قاده إلى باب آخر غير مدخل الشرف الذي دخل منه.

قال له الموظف: اتبع الممشى واستدر إلى اليمين، فستجد هناك الضابط المساعد المنوط به أمر الخدمة في هذه الساعة، وهو الذي سيدخلك مكتب وزير الحربية.

امتثل الأمير. وتمنى الضابط المنوب عليه أن ينتظر لحظة ريثما يحمل

www.Maktbah.com

النبأ إلى وزير الحربية. وعاد بعد خمس دقائق ينحني أمام الأمير انحناءة ملؤها الاحترام.

ويقوده عبر ممشى إلى مكتب الوزير، والظاهر أن الضابط المنوب أراد بإبدائه مثل ذلك التأدب تجاه الرسول الروسي، أن يُحبط كل محاولة لنبذ الرسميات جانباً. وكلما اقترب الأمير من مكتب الوزير، حلّ شعور الغضب محل التفاؤل والاستبشار.

تحول ذلك الشعور بالغضب إلى كراهية واشمئزاز ليس لهما ما يبررهما. غير أن شعور الأمير المبتكر، استطاع أن يقدم له أسباباً وجيهة تبرر كراهيته للضابط والوزير. كان يحدث نفسه مبرراً شعوره: «لا شك أن الذين لم يستنشقوا رائحة البارود يجدون أن النصر سهل المنال!» وعلى هذا، فإنه عندما دخل مكتب الوزير، كانت في عينيه نظرة محتقرة، وكانت خطواته قد أصبحت متثاقلة. وازدادت كراهيته عندما وجد أن الوزير بقي دقيقتين كاملتين منشغلاً عنه مغفلاً وجوده. كان هذا جالساً وراء منضدة كبيرة بين شمعدانين ضخمين من الشمع، ورأسه الأصلع بصدغيه الرماديين يلتمع تحت الضوء. كان يقرأ أوراقاً يسطر عليها ملاحظاته بقلم الرصاص. بقي منكباً على القراءة عندما فُتح الباب وعلت خطوات الداخلين وأصبحت مسموعة.

قال الوزير لضابطه المساعد: خذ هذا وانقله إلى من يلزم.

ولم يبد عليه أنه شعر بوجود الرسول.

أحس الأمير أندريه أن عمليات كوتوزوف لم تكن موضع اهتمام الوزير الرئيسية، وأنه كان يتعمد استصغار شأنه. فقال الأمير في سره: «مع ذلك، إنني لا أبالي...» أزاح الوزير الأوراق الأخرى وسوى منها رزمة بعناية، ثم رفع رأسه. كانت سحنته الساطعة بالذكاء تنبئ بشيء من العبقرية. لكنه عندما استدار نحو پولكونسكي، اختفت تلك المعالم الصارمة بحكم عادة مصطنعة:

twitter @baghdad_library

شاعت ابتسامة بلهاء على وجهه، ابتسامة طافحة بالخبث، عاجزة عن إخفاء ذلك المكر رغم مهمة صاحبها التي تجعله يستقبل يومياً عديداً من الملتمسين.

سأل الوزير: أأنت قادم من قبل الجنرال كوتوزوف؟ هل وراءك أخبار طيبة؟ هل تقابلتم مع مورتيه؟ وانتصرتم؟ لقد كان الانتصار في حينه!

وفض الرسالة التي كان كوتوزوف قد أرسلها إليه شخصياً. وبدا فجأة فريسة لهمّ شديد فصاح بالألمانية: آه يا رب، رباه! «شميدت»! يا للتعاسة! يا للتعاسة!

وبعد أن قرأ الرسالة وضعها على المنضدة، وراح يتأمل الأمير أندريه بنظرة ساهمة. قال: يا للتعاسة! أتقول إن المسألة حاسمة؟ مع ذلك استطاع مورتيه الإفلات.

سكت فترة مستغرقاً في تفكيره ثم تابع: سرني أن حملت أخباراً طيبة. لكن موت شميدت يجعلنا نعتبر أننا دفعنا ثمن الانتصار غالياً... إن جلالته سيرغب في لقائك حقاً ولكن ليس اليوم. أشكرك. اذهب واسترح ودعني أراك بعد الاحتفال عند المخرج. على كل حال سوف أخطرك.

واستعاد ضحكته البلهاء التي أفلتت منه خلال الحديث، وقال وهو ينحني انحناءة خفيفة: إلى اللقاء وألف شكر. إن جلالته سيرغب في رؤيتك بدون شك.

شعر الأمير أندريه، عندما خرج من القصر، أن كل ابتهاجه بالنصر الذي أحرزته القوات الروسية قد تبخر. لقد أعطى ذلك الكنز إلى وزير الحربية ومساعده المتكلف. نعم لقد ائتمن على الكنز أيدياً لا تستحقه. اتجهت أفكاره وجهة أخرى، وأصبحت المعركة في خياله ذكريات قديمة.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

في برون حلّ الأمير أندريه عند صديقه الدبلوماسي الروسي بيليبين. قال هذا لدى استقباله: عزيزي الأمير، لا شيء أمتع عندي من لقائك!

وأمر خادمه فرانز أن يحمل أمتعة الأمير إلى غرفة نوم السياسي. وتابع يخاطب الأمير: إذن يا عزيزي، لقد جئت تحمل نبأ النصر؟ رائع. أما أنا فإنني مريض كما ترى.

وبعد أن اغتسل الأمير أندريه وأبدل ثيابه، دخل إلى مكتب الدبلوماسي الفخم حيث كانت وجبة طعام خفيفة بانتظاره. جلس إلى الطاولة بينما انتحى بيليبين مكاناً قرب الموقد.

شعر پولكونسكي بانطلاق مرح عندما عاد إلى الجو اللطيف الرائع الذي اعتاد مثله منذ نعومة أظفاره. وخصوصاً أنه كان محروماً من كل وسائل الرفاه والراحة طوال سفره وخلال مختلف مراحل المعركة. ثم إن ذلك أثر في نفسه تأثيراً بالغاً، وخصوصاً بعد اللقاء الذي وقع بينه وبين الوزير.

فكان التحدث باللغة الروسية. أو أقله التحدث مع روسي ولو كان باللغة الفرنسية، روسي يشاطر مواطنيه بدون شك الكراهية العامة التي يحسّون بها نحو النمسويين، يخفف بعضاً مما في نفسه.

كان بيليبين في الخامسة والثلاثين من عمره تقريباً، أعزب، ومن بيئة الأمير أندريه ووسطه. وكانت علاقاته في المجتمع الراقي في ڤيينا تماثل العلاقات التي كانت له في پيترسبورغ. وقد شعر پولكونسكي بذلك إبان

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

زيارته لـڤيينا برفقة القائد الأعلى كوتوزوف. فإذا كان الأمير أندريه يتوقع لنفسه مستقبلاً باهراً في الجيش، فإن بيليبين كان ينتظره مستقبل رائع كذلك في مضمار السياسة. كان شاباً حقيقة، لكنه لم يكن فنياً في أجواء السياسة، إذ إنه مارس هذا العمل وهو في السادسة عشرة من عمره، وبدأ في پاريس ثم كوپنهاغن وهو الآن يشغل مركزاً مرموقاً في ڤيينا، مركزاً حساساً هاماً، وكان السفير الروسي والوزير المفوض للأمبراطورية الروسية يقدرانه حق قدره. ذلك أن بيليبين لم يكن من أولئك السياسيين الكثيرين الذين يعتقدون أن النجاح في الحياة السياسية رهن بالصفات السلبية التي يجب أن يتمتع بها الدبلوماسي، وبالامتناع عن بعض الأمور، والتحدث باللغة الفرنسية بطلاقة.

كان من أولئك الذين يحبون العمل ويجيدونه. وكان رغم كسله، يُمضي ليالي عديدة وراء طاولة العمل. كان ينجز عمله ويتبعه بنجاح مهما كان لون ذلك العمل ونوعه. وكان ما يهمه في الأمور ما يجيب منها على «كيف» وليس على «لماذا».

وكان الفن الدبلوماسي يشغل حيزاً ضيقاً في نفسه، لكنه كان دؤوباً في إعداد مذكرة بدقة، وبعبارات منتقاة وفن، حريصاً على إبراز هذه الصفات في كل المخابرات والعلاقات الخطية. فكان إلى جانب براعته في الإنشاء، يشعر من حوله بتفوقه في تصرفاته وعلاقاته مع الأوساط الراقية.

كان بيليبين شغوفاً بالحديث شغفه بالعمل، شريطة أن يكون ذلك الحديث فكرياً عالياً. ولا يتحدث في المجتمعات إلا إذا أتيحت له الفرص لإبراز ملاحظاته العبقرية على موضوع ما. فلا يتحدث إلا إذا سار الحديث وفق هواه. وكان يرصع حديثه بعبارات بديعية متقنة الصياغة سهلة الفهم، كان يهيئها عامداً في مكتبه كما يبدو، لتصبح سهلة النقل، فيتاح للأشخاص المرموقين في المجتمع وللمزهوين منهم، نقلها من قاعة إلى أخرى. والحقيقة

www.Maktbah.com

كانت كلمات بيليبين تؤخذ في كل أبهاء ڤيينا حيث كان تأثيرها شديد الوضوح في «الأمور الهامة».

كان وجهه هزيلاً أصفر، تقطعه غضون عميقة. وكان شديد العناية بنظافة وجهه وجسده. وحركات تلك الغضون هي أبرز صفات ذلك الوجه فكانت تارة تقطع جبينه أفقياً بينما يكون حاجباه في أقصى ما يستطيعان بلوغه من الارتفاع، وأحياناً أخرى تظهر على خديه بينما يكون حاجباه هابطين. وكانت عيناه الصغيرتان الغائرتان في محجريهما، تنظران إلى المتحدث نظرة صريحة وديعة.

قال يحدث الأمير: حسناً، قص عليّ الآن مشاريعك.

فقص پولكونسكي، بتواضع تام ودون أن يشير إلى دوره مطلقاً، تفاصيل المسألة التي ساهم فيها واللقاء الذي خصه به وزير الحربية، وقال معقباً: لقد استقبلوني مع الخبر الهام الذي أحمله كما يستقبل الكلب العائد من لعبة المطاردة.

فابتسم بيليبين وانشرحت أسارير وجهه وقال وهو يتأمل أظفاره عن بعد ويغمز بعينه اليسرى: مع ذلك يا عزيزي، فأنا رغم الحب الذي أكنه للجيش الروسي الأورثوذكسي، اعترف بأن انتصاركم لم يكن من أروع الانتصارات.

واستمر يتحدث بالفرنسية مستعملاً أحياناً بضع كلمات من لغته الأصلية، كلما أراد أن يضفي على جملة ما طابعاً خاصاً من الاحتقار. أردف يقول: قل لي، لقد انقضضتم بكل جيشكم على فيلق مورتيه البائس. مع ذلك، فقد استطاع مورتيه أن يتسلل من بين أصابعكم! ثم إنكم تسمون هذا نصراً.

فأجاب الأمير أندريه: إنه، على كل حال، أفضل من معركة «أولم»، إذا جاز لنا أن نقول ذلك دون تبجح:

ـ لمَ لم تأسروا ماريشالاً واحداً، واحداً فقط؟

twitter @baghdad_library

لا يحدث كل شيء في الحرب كما يتوقعه المرء. والحرب والاستعراضات لا يمكن أن يتساويا. كنا نفكر أن نهاجم مؤخرته حوالى الساعة السابعة صباحاً، مع أننا لم نبلغ مكانه في الخامسة مساء.

سأل بيليبين مبتسماً: ولماذا لم تصلوا في الساعة السابعة؟ كان يجب أن تصلوا في الوقت المقرر، نعم في الوقت المقرر.

فأجاب الأمير أندريه بمثل لهجته: ولماذا إذن لم تقنع بوناپرت عن طريق الدبلوماسيات بإخلاء جينيس؟

فقاطعه بيليبين قائلاً: نعم! أعترف بأن أسرَ الماريشالات من أسهل الأمور في نظر من لا يتزحزح من زاويته قرب النار. أليس هذا ما تفكر فيه؟ إنك على حق في تفكيرك مع ذلك لمَ لم تأسروا ماريشالاً؟ لا تُدهش إذا قلت لك إن وزير الحربية وصاحب الجلالة الأمبراطور والملك فرانسوا لا يبدون سرورهم بغير ذلك. أما أنا، وأنا الموظف البسيط في السفارة الروسية، فإنني لا أُسر بل لا أجد حاجة لإظهار سروري إذا أعطيت خادمي فرانز ثلاثة ماركات، وأرسلته للقاء صديقته في حديقة الألعاب... ذلك أن المبلغ لا يمكن أن يكون كافياً لتأمين حاجات فرانز.

وبينما كان جبينه يبدد الأخاديد التي ارتسمت عليه، كانت عيناه تتغللان في أعماق الأمير أندريه. فقال هذا الأخير: دعني يا عزيزي ألقي عليك بدوري سؤالاً واحداً. إن دقائق الدبلوماسية تفوق فهمي الضعيف واستيعابي للأمور. فكيف يخسر ماك جيشاً كاملاً، ولا يعطى الأرشيدوقان فيرديناند وشارل أية دالة على حسن تصرفهما، بل يجمعان الخطأ إلى الخطأ، في حين أن كوتوزوف وحده يتفوق، فيعكر صفو الفرنسيين، ومع ذلك لا يجد وزير الحربية سبباً يدفعه للتعرف إلى تفاصيل المعركة؟!

ـ هذا صحيح! ولكن يا عزيزي: اهتف ما شئت للقيصر ولروسيا وللدين! إن كل هذا جميل. لكن أية مصلحة لنا نحن في انتصاراتكم؟ وأقصد

www.Maktbah.com

أية مصلحة وفائدة يجنيها البلاط النمسوي؟ أحمل إليهم خبر انتصار واحد من الأرشيدوقين شارل أو فرديناند ـ وكل أرشيدوق يساوي الآخر ـ حتى ولو كان انتصارهم على فريق من رجال الإطفاء الذين يرافقون بوناپرت، وعندئذ تراهم يحتفلون بالخبر بقصف المدافع. بينما يبدو أنكم في انتصاركم هذا لم تنتزعوا الغار إلا لتزعجوهم به. لا يتحرك الأرشيدوق شارل، والأرشيدوق فرديناند تغمره المهانة. وأنتم تتركون ڤيينا لمصيرها المحزن وكأنكم تقولون:

«إن الله الرحيم يحميكم وذلك يكفي... فليباركـكم وليبارك عاصمتكم!»

وكان لديهم جنرال واحد عزيز عليهم وهو شميدت. فعرضتموه للرصاص الذي قتله، وجئتم بعد ذلك تزعمون أنكم انتصرتم! فكر في الأمر، فكر وأيدني في القول: إن رسالتك كانت شديدة الأسى، أليمة الوقع أليس كذلك؟ إنها تشبه العمل المقصود، أجل العمل المقصود. ثم لو أنكم ربحتم معركة أو ربحها الأرشيدوق شارل بنفسه، فذلك لن يغير سير الأمور العام. إذ ما فائدة هذا النصر؟ لقد قضي الأمر وأصبحت ڤيينا الآن محتلة من قبل الفرنسيين:

ـ كيف محتلة؟ هل دخل الفرنسيون ڤيينا.

بدون شك وبوناپرت الآن في قصر شونبرون بينما سيأخذ عزيزنا الكونت «واربنا» أوامره قريباً.

شعر پولكونسكي بعجزه عن إدراك حقيقة الأمور التي تعرض على مسامعه، إذ كانت وعثاء السفر وبرودة اللقاء التي استقبل بها، والطعام الفاخر الذي التهمه، كافية لإخماد شعوره. واسترسل بيليبين قائلاً: لقد قابلت هذا الصباح الكونت ليشتنفلس فأعطاني رسالة جاء فيها وصف مسهب لدخول الفرنسيين إلى ڤيينا دخول الظافرين. لقد دخلها الأمير مورا[1] وكل الحاشية...

---

(١) مورا، صهر بوناپرت، وزوج كارولين بوناپرت. أصبح ملك ناپولي. في عام ١٨١٥ أُعدم رمياً بالرصاص بعد واترلو. (المترجم).

twitter @baghdad_library

لذلك فإن انتصاركم كما ترى فقد طابعه، فلا يمكن والحالة هذه أن تستقبل استقبال المنقذين.

فأجاب الأمير أندريه الذي فهم أخيراً ضآلة أهمية معركة كريمز بالنسبة إلى احتلال العاصمة: إن ذينك سيان عندي شخصياً، ولكن كيف أخذت ڤيينا! أين الجسر وأقصد رأس الجسر العتيد، والأمير دوير سبيرج العظيم؟ أعتقد أنه كان يدافع عن المدينة إذا اعتقدنا بالإشاعات التي راجت عندنا:

ـ إن الأمير دوير سبيرج، من هذا الجانب من النهر، وهو يدافع عنا نحن. صحيح أنه أسوأ دفاع ولكنه مع ذلك يحمينا. أما ڤيينا، فإنها من الجانب الآخر. صحيح أن الجسر لم يسلم بعد، لكني لا أميل إلى الاعتقاد بأنه سيظل في أيدينا، مع العلم أن الألغام مزروعة فيه وأن الأمر بنسفه قد صدر. ولو أن الأمور سارت على غير ذلك كنا نحن في جبال بوهيميا منذ زمن طويل، ولأخذ جيشكم بين نارين، وقُضي عليه أسوأ قضاء.

فقال الأمير أندريه: ذلك لا يعني على أية حال انتهاء المعركة.

ـ بل إنها انتهت إذا شئت أن تصدق رأيي المتواضع. وهذا هو رأي ذوي الرؤوس الضخمة هنا وإن كانوا لا يجرؤون على الإفصاح عنه. سوف يقع ما تنبأت بوقوعه من قبل: إن مذبحتكم في دورنستين لن تبدل من الأمر شيئاً، وبصورة عامة لن يكون البارود والنار صاحبا الكلمة الأخيرة... بل إن الكلمة ستكون للذين اخترعوا البارود والنار.

وبسط بيليبين جبينه بعد أن نجح في تحرير واحدة من عباراته المنتقاة، سكت برهة ثم تابع:

إن كل شيء متوقف على مفاوضات برلين، بين ملك بروسيا والأمبراطور ألكسندر. فإذا دخلت بروسيا في حلفنا، شددنا أزر النمسا وعادت الحرب

www.Maktbah.com

مجدداً. أما إذا رفضت، فلا يبقى إلا الاتفاق على انتقاء المدينة التي ستسلم للعدو المكتسح.

صاح الأمير أندريه فجأة وهو يقبض أصابع يده الرقيقة ويضرب بها الطاولة: يا للعبقرية المدهشة. ويا للرجل السعيد!

قال بيليبين وقد عاد جبينه يتجعد دلالة على أن كلمة أخرى من كلماته ستجد مكانها المفضل في سياق الحديث:

ـ بوناپرت؟

ثم كرر القول وهو يضغط على المقطع الأول: بوناپرت؟ إنه الآن يشرّع في قصر شوپنرون قوانين جديدة لتطبق في النمسا. وأرى أن يحذف من اسمه حرف «الياء» الذي كان في المقطع الأول ليصبح اسمه بوناپرت فقط بعد أن كان يدعى ببوناپرت.

فقال پولكونسكي: دعك من المزاح. هل تعتقد حقيقة أن هذه الحرب ستنتهي؟

ـ إليك رأيي. ستحاول النمسا، التي لم تعتد مثل هذه الحال، الانتقام لكرامتها. إذ يقال إن المقاطعات قد دمرت، لأن الجيش الأرثوذكسي مخيف في أعمال السلب، ثم إن الجيش قد هزم، والعاصمة سلمت، كل ذلك إكراماً لعينيّ جلالة ملك سردينيا. لذلك يا عزيزي، وأرجو أن يكون الحديث بيننا، أعتقد أنهم يخدعوننا، لأنني أشم رائحة مفاوضات بين النمسويين والفرنسيين، ومشاريع سرية للسلم وللصلح المنفرد.

فقال الأمير أندريه: إن ذلك شديد البشاعة! لا يمكن أن يكون ذلك!

فقال بيليبين: من يعش يرَ.

وبسط نهائياً تجاعيد جبينه معرباً بذلك عن رغبته في إنهاء الحديث.

ولما اعتكف الأمير أندريه في الغرفة التي وضعت تحت تصرفه،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واستلقى على الأغطية النظيفة وفراش الريش والوسائد المعطرة، شعر أن المعركة التي حمل أخبارها قديمة العهد.

كان ما يشغل ذهنه هو التحالف مع بروسيا وخيانة النمسا وانتصار ناپليون الجديد، واستعراض الغد الذي سيمثل بعده بين يدي الأمبراطور فرانسوا...

لم يكد يغمض عينيه حتى عاد إلى أذنيه قصف المدافع وقعقعة البنادق ودوي العجلات. ومن جديد عاد يرى القناصة ينحدرون من أعلى التل وهم يطلقون رصاص بنادقهم، وشعر بأن قلبه يدق عنيفاً وأنه تقدم إلى الأمام مع «شميدت» والرصاص يصفر حول رأسه صفيراً جميلاً، فاستسلم للنوم بسرور متأجج مضاعف لم يشعر به منذ طفولته.

استيقظ بعد ذلك... فقال لنفسه بابتهاج، والابتسامة البريئة مرتسمة على شفتيه: «إه نعم، لقد حصل كل هذا!» وعاد يستغرق في نوم عميق.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

تذكر بادئ الأمر أن عليه أن يتقدم ليمثل بين يدي الأمبراطور فرانسوا وقد استيقظ متأخراً وراح يرتب ذكرياته. ثم تذكر وزير الحربية وتابعه الأنيس، وبيليبين وحديثهما أمس.

ارتدى ثوبه الأنيق الذي لم يستطع منذ زمن طويل أن يرفل فيه لافتقاره إلى المناسبة الملائمة، فبدا أنيقاً نشيطاً رغم ذراعه المربوطة إلى عنقه. ودخل على بيليبين، فوجد هناك أربعة رجال من السلك السياسي، عرف منهم الأمير هيپوليت كوراغين، وهو أحد أمناء السر في السفارة. فقدمه بيليبين إلى الآخرين.

شكّل أولئك الشبان الأرستقراطيون الأغنياء في برون كما كانوا في مشينيا، حلقة خاصة كان بيليبين يتزعمها ويسميها: «جماعتنا». كانت تلك الجماعة تضم السياسيين وحدهم. مع ذلك فقد كان أفرادها لا يأبهون للسياسة ولا للحرب، كانوا يكرسون جهودهم للحياة العامة الراقية، ولبعض العلاقات النسائية ومشكلات المستقبل.

استقبلوا الأمير أندريه كواحد منهم في الظاهر. وهو الشرف الذي قل أن يضفوه على أحد. وجهوا إليه عدداً من الأسئلة المهذبة عن حالة الجيش وعن المعركة الأخيرة، مما مهد الحديث بينهم وبين الأمير، ثم تشعب الحديث وتطرق إلى نواح عديدة، حتى أصبح ثرثرة ولغطاً كالذي يدور عادة في الأبهاء والأندية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال أحدهم يتحدث عن خطب نزل بأحد زملائه: إن أجمل ما في الموضوع هو أن الوزير المفوض قال به بالذات: إن نقله إلى لندن يعتبر ترقية، وأن عليه أن ينظر إلى الموضوع من تلك الزاوية. ولكن أن تتخيّلوا ما اعترى تقاطيع وجهه من تغيرات وهو يرى السخرية تقذف في وجهه على هذا النحو!

فقال آخر: كلا،إن أخطر ما في الأمر هو تصرف كوراغين في المقابل. إنني أسلمكم أيها السادة هذا «الدون جوان» إنه يرى صديقاً في البؤس فينتهز تلك الفرصة ليجر إلى نفسه نفعاً! يا له من رجل مخيف!

إن الأمير هيپوليت كان قابعاً خلال ذلك على كنبة من طراز ڤولتير، وقد رفع ساقيه فوضعهما على مسنديْ الكنبة. قال وهو ينفجر مقهقهاً:

ـ حدثني عن هذا...

فصاحت أصوات متعددة تقول: أوه يا دون جوان! أوه أيها المغوي!

قال بيليبين: إنك تجهل ولا شك يا پولكونسكي، أن كل الفظاعات التي ارتكبها الجيش الفرنسي، كدت أقول الجيش الروسي، لا تعتبر أمراً مذكوراً إذا قيست بالتدمير الذي يحدثه هذا الرجل بين الجنس اللطيف.

فقاطعه الأمير هيـپوليت قائلاً وهو يحدق إلى ساقيه المرفوعتين على جانبي الكنبة خلال نظارتيه: إن ا لمرأة هي رفيقة الرجل.

فانفجر بيليبين و«جماعتنا» مقهقهين وأدرك الأمير أندريه أن هيـپوليت هذا، الذي كانت تصرفاته حيال زوجته عند انتهاء حفلة آنّيت شيرر قد أثارت، ولشدة خجله، دوافع الغيرة في نفسه، ليس إلا مهرجاً يسخر منه أصدقاؤه المجتمعون.

قال بيليبين يهمس في أذن الأمير أندريه: يجب أن أسليك على حساب كوراغين. إنه لا يقدر بثمن عندما يتحدث عن السياسة. سوف ترى بنفسك مسحة الوقار التي ستعلو وجهه.

www.Maktbah.com

وأخذ مكانه قرب هيپوليت، واستجمع غضون جبهته، ودفع الشاب بلباقة نحو حديث السياسة. بينما تجمهر پولكونسكي والآخرون حولهما.

شرع هيپوليت يقول وهو يلقي نظرة دائرية شملت من حوله كلهم: إن مجلس وزراء برلين لا يمكن أن يعبر عن رغبة في التحالف، دون أن يعبر... كما جاء في تعليماته الأخيرة... إنكم تفهمون... إنكم تفهمون... ثم إذا كان صاحب الجلالة الأمبراطور لا يناقض مبدأ تحالفنا...

ـ انتظر، إنني أفرغ بعد... إنني أميل إلى الاعتقاد أن التدخل أقوى من عدم التدخل... و... ـ سكت برهة ـ، لا يمكن أن يعزى الأمر إلى عدم تلقي برقيتنا المؤرخة في ٢٨ تشرين الأول. إن الأمر سينتهي هكذا.

وترك ذراع پولكونسكي دلالة على أنه قال كل ما كان يريد قوله.

صاح بيليبين وقد انتصبت ذؤابة شعره دلالة على الرضى وانشراح أساريره: آه يا ديموستين، إنني أعرفك من الحصاة التي خبأتها في فمك الذهبي.

أغرق السامعون في الضحك، وقد سبقهم هيپوليت نفسه وطغت قهقهته على ضحكاتهم. كان يضحك بانشراح غريب يكاد يكتم أنفاسه رغم محاولاته الفاشلة كتم تلك الموجة الهوجاء من الضحك، التي أبدلت أساريره الجامدة في أغلب الأحيان.

قال بيليبين بعد أن خفت حدة الضحك: والآن أيها السادة، اصغوا إلى ضيفي پولكونسكي، وإنني عازم على إشراكه معنا في مباهج مدينتنا الطيبة. ولو أننا كنا في ڤيينا، لاختلف الأمر وكان ميسوراً. أما هنا، في هذا الحجر الملعون الكئيب، فإن الأمر أكثر صعوبة مما يحملني على طلب العون منكم. يجب أن نطلعه على أجمل ما في حياة برون من جمال؛ تعهدوا تطويفه على

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المسارح وأتعهد أنا تعريفه إلى الطبقات الراقية. وأنت يا هيـپوليت، فإنك، بديهياً، ستقوم بواجبك تجاهه من الناحية النسائية.

قال واحد من «جماعتنا» وهو يطلق قبلة على أطراف أصابعه: يجب أن تقدمه إلى إميلي، إنها درة نادرة!

فأردف بيليبين: والخلاصة، ينبغي أن نعيد هذا الجندي الدموي إلى حظيرة العواطف الإنسانية.

فقال أندريه وهو يلقي نظرة على ساعته: اعذروني أيها السادة، لن أستطيع أن أفيد من حسن التفاتتكم إذ يجب أن أغادركم الآن.

ـ وإلى أين تذهب؟

ـ إلى الأمبراطور.

ـ أوه! أوه! أوه!

ـ حسناً، الوداع يا پولكونسكي! الوداع أيها الأمير! عد مبكراً لتناول الطعام، سننتظرك.

ورافقه بيليبين إلى الردهة وقال له: حاول أثناء مقابلتك الأمبراطور أن تضفي أكبر قسط ممكن من المديح على مصلحة التموين وإدارة المراحل.

فأجاب الأمير مبتسماً: أود ذلك من صميم قلبي لكنني عاجز عن ذلك لأن ضميري والحقيقة يأبيانه.

ـ إبذل ما في وسعك، على كل حال، وتحدث أطول مدة ممكنة. إنه يعشق المقابلات لكنه لا يحب أن يتحدث بنفسه لأنه لا يتقن الحديث. سوف تتأكد من ذلك بنفسك.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

خلال العرض العسكري، ألقى الأمبراطور فرانسوا نظرة مترددة على الأمير أندريه الذي شغل مكاناً احتجز له في عداد مقاعد الضباط النمسويين أعقبها بإيماءة من رأسه الطويل. لكن الضابط المساعد الذي استقبل الأمير البارحة بتلك الحفاوة، جاءه بعد تلك الحفلة وحمل إليه بمزيد من التأدب نبأ رغبة جلالته في مقابلته.

استقبله الأمبراطور وهو واقف في منتصف غرفة مكتبه، وقبل أن يتفوه بكلمة، تبين الأمير أندريه مدى صدق أقوال صديقه بيليبين، وأذهله مظهر الأمبراطور المرتبك الذي كان لا يعرف ما يقول ولا يستطيع منع الدماء من التصاعد إلى وجنتيه.

سأله الأمبراطور أخيراً بشيء من التهلف: قل لي، متى بدأت المعركة؟

فأجابه الأمير أندريه عن سؤاله. وأعقب الجواب عدد من الأسئلة التي لا تقل تفاهة عن السؤال الأول! «كيف حال كوتوزوف؟ هل ترك «كريمز» منذ زمن طويل؟» إلخ... وكانت لهجة الأمبراطور تنبئ بأن همّه الأول هو طرح عدد كبير من الأسئلة. أما الأجوبة، فقد كان واضحاً أنه لا يأبه لها.

سأل مجدداً: في أي ساعة بدأت المعركة؟

فأجاب پولكونسكي بحماسة: لا أستطيع أن أحدد لجلالتكم بالدقة الساعة التي بدأت فيها المعركة على طول جبهة القطعات. غير أنني متأكد أن القتال في دورنستن، حيث كنت، بدأ في السادسة مساء.

twitter @baghdad_library

وأمل پولكونسكي في أن يستطيع سرد وصف حقيقي للمعارك التي حضرها، وأن يعيد على مسامع الأمبراطور ما هيأه من قبل من جمل لهذه المناسبة. غير أن الأمبراطور قاطعه مبتسماً: كم من الأميال؟

ـ من أين يا صاحب الجلالة وإلى أين؟

ـ من دورنستن إلى كريمز؟

ـ ثلاثة أميال ونصف الميل يا صاحب الجلالة.

ـ هل ترك الفرنسيون الشاطئ الأيسر؟

ـ تفيد تقارير رقبائنا بأن آخر الفرنسيين اجتاز النهر ليلاً على نقلات...

ـ هل هناك علف كاف في كريمز؟

ـ لم يقدموا لنا الكمية التي...

فقاطعه الأمبراطور مرة ثانية ليطرح سؤالاً جديداً: في أية ساعة قتل الجنرال شميدت؟

ـ في السابعة على ما أظن.

ـ في السابعة؟ إنه لأمر محزن! شديد الحزن!

ثم شكره الأمبراطور وانحنى إشارة بانتهاء المقابلة. ولم يكد الأمير أندريه يغادر مكتب الأمبراطور حتى تحلّق حوله الأتباع ورجال البلاط، فأحاطوا به وأمطروه وابلاً من الأسئلة. كانت نظرات أنيسة تحدق إليه من كل مكان، وتقرع الكلمات المتوددة أذنيه. فالضابط المساعد أخذ عليه عزوفه عن الحلول في القصر وقدم له مسكنه الشخصي لينزل فيه؛ ووزير الحربية أبلغه بشيء كثير من الأدب وفي فيض من عبارات التهنئة، أن الأمبراطور أنعم عليه بوسام ماري تيريز من الدرجة الثالثة. ودعاه أحد حجاب جناح الأمبراطورة للمثول بين يدي جلالتها. وأنهى إليه كذلك أن الأرشيدوقة ترغب كذلك في

www.Maktbah.com

رؤيته. فما كان يدري لمن يعير أذنه، ومن يجيب. أخذه سفير روسيا. وانتحى به جانباً ليتاح له التحدث إليه بحرية أكثر.

على عكس تنبؤات بيليبين، أخذ نبأ انتصار الروس صدى قوياً في نفوس أفراد الحاشية، ورجال البلاط الذين استقبلوه بكثير من البهجة. فأقيمت الصلوات ابتهاجاً بالنصر، وأنعم على كوتوزوف بصليب ماري تريز الأكبر، ومنح جيشه عدداً من الهبات وكيلت له الإطراءات. وتوالت الدعوات على الأمير أندريه، فاضطر هذا إلى قضاء نهاره كله متنقلاً من مكان إلى آخر، استجابة لدعوات كبار الشخصيات المرموقة.

وأخيراً، ذهب إلى إحدى المكتبات ليشتري منها ذخيرة نافعة يفيد منها في حياة الريف التي سيعود إليها عند عودته إلى مركزه في الجيش. فلما عاد إلى مسكن بيليبين، وهو يحضِّر في مخيلته الرسالة التي سيخطها لأبيه، متضمنة الوصف الدقيق للمعركة والشرح الكافي عن رحلته إلى برون، وجد أمام الباب عربة نقل كبيرة محملة إلى نصفها بالأمتعة.

سأل فرانز، خادم بيليبين، الذي ظهر في تلك اللحظة أمام الباب يجر وراءه حقيبة ضخمة: ماذا هناك؟

فأجاب الخادم بالألمانية وهو يرفع الحقيبة إلى العربة بجهد كبير: آه يا صاحب السعادة! إننا نرحل من جديد ونعود على أعقابنا من جديد.

فصاح الأمير مستغرباً: ماذا! كيف! ماذا جرى؟...

في تلك اللحظة جاء بيليبين يستقبله. فقرأ الأمير على وجهه، وهو الذي كان منبسطاً في أكثر الأحيان، شيئاً من الارتباك.

قال بيليبين: هيا، اعترف معي أن ذلك رائع! وأعني قصة جسر تابور، أحد جسور ڤيينا، لقد مروا فوقه دون أي عناء!

فلم يفهم الأمير شيئاً من هذا القول. فسأله بيليبين: ولكن، من أين قدمت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إذن حتى تجهل مثل هذا الأمر الذي أصبح يعرفه كل حوذي في المدينة؟

ـ لقد خرجت من فوري من لدى الأرشيدوقة. لم يحدثني أحد عن شيء من هذا هناك.

ـ ألم تلاحظ أن جميع الناس كانوا يجهزون حقائبهم؟

أجاب الأمير مستغرباً: لا، أبداً... ولكن ما الخبر؟ ماذا هناك؟

ـ ماذا هناك؟ هناك أن الفرنسيين اجتازوا الجسر الذي كان «أويرسيرغ» يدافع عنه. فلم ينسفه، بل ترك «مورا» يمر فوقه بسلام، فجاء هذا يسعى على طريق برون. سوف يصل الفرنسيون إلى هنا اليوم أو غداً.

ـ إلى هنا؟ ولكن، لمَ لم ينسفوا الجسر وخصوصاً أن الألغام مزروعة فيه من قبل لهذه الغاية؟

ـ أنا أسألك ذلك بنفسي. على كل حال، ليس هناك من يعرف السبب، حتى ولا بوناپرت بالذات.

فهز پولكونسكي كتفيه وقال معقباً: إذا كان الجسر قد اجتيز من قبل الفرنسيين فقد ضاع الجيش. إن جيشنا إذن يوشك أن يُشطر إلى قسمين.

فأجابه بيليبين قائلاً: تماماً. إصغ إليّ. لقد دخل الفرنسيون إلى ڤيينا كما حدثتك بذلك. حسناً. وفي اليوم التالي، أعني البارحة، اجتمع السادة الماريشالات مورا ولان، وبيليار، وامتطوا صهوات جيادهم واتجهوا صوب الجسر. لاحظ أن الثلاثة غاسكونيين (من غاسكونيا في فرنسا)، واذكر ذلك. قال أحدهم: «أيها السادة، إنكم تعرفون أن جسر تابور مليء بالألغام وأن رأس جسر متين جداً يتقدمه وأن خمسة عشر ألف رجل يدافعون عن رأس الجسر ذاك. وقد تلقى هؤلاء المدافعون أمراً بنسف الجسر ومنعنا المرور فوقه. لكن احتلالنا هذا الجسر سيسر صاحب الجلالة الأمبراطور ناپليون سروراً عظيماً. فهيا بنا نحن الثلاثة إذن، لنحتل الجسر». فأجابه الآخران: «هيا بنا». ثم

www.Maktbah.com

جاؤوا فاحتلوا الجسر، وها هم الآن يجتازونه مع كل جيشهم فيتجهون نحونا، ونحوكم أنتم ليقطعوا خطوط مواصلاتكم.

فقال الأمير أندريه بلهجة شديدة الخطورة: يا للدعاية الفظة!

لكن بيليبين عقب قائلاً:

ـ أبداً، إنني لا أمزح. إنني أروي لك أصدق الأنباء وأشدها وقعاً على النفس. لقد وصل أولئك السادة إذن وحدهم إلى الجسر يلوحون. بمناديل بيضاء، فأيدوا أن هدنة قد وقعت وأنهم ـ هم الماريشالات جاؤوا يتباحثون بدورهم مع الأمير أوبرسبرغ. تركهم ضابط الحرس يمرون ويدخلون رأس الجسر. أنهوا إليه آلافاً من الأخبار المثيرة: انتهت الحرب، حدّد الأمبراطور فرانسوا موعداً لمقابلة بوناپرت، إنهم يرغبون في رؤية الأمير أوبرسبرغ...

والخلاصة أنهم لم يتركوا مما اشتهر عن الغاسكونيين من مكر إلا واستعملوه في تلك المناسبة. فأرسل ضابط الحرس يستشير أوبرسبرغ ويطلعه على ما سمعه، بينما راح أولئك السادة يعانقون الضباط ويداعبونهم ويجلسون على المدافع. وخلال ذلك الوقت، جاءت فرقة فرنسية فاحتلت الجسر متسللة فألقت بأكياس المواد المحرقة إلى النهر واقتربت نحو رأس الجسر.

وأخيراً وصل الجنرال الثاني بشخصه وأعني عزيزك الأمير أوبرسبرغ ڤون ماتيرن. فراح أولئك السادة يحدثونه: «أيها الخصم العزيز! يا زهرة الجيش النمسوي! يا بطل الحروب التركية! لقد انتهت المعارك ونستطيع الآن أن نمد بعضنا لبعض أيدينا التي امتشقت السيوف حتى الآن... إن الأمبراطور ناپليون يتحرق شوقاً للتعرف إلى الأمير أوبرسبرغ...» والخلاصة، إن أولئك السادة ليسوا من أهالي غاسكونيا عبثاً، إذ أغدقوا على أوبرسبرغ معظم كلامهم وعباراتهم حتى أن الرجل العزيز أخذ بالغرور، وذلك الرد المفاجئ

twitter @baghdad_library

مع المارشالات الفرنسيين، وبهرته ألبسة مورا وريش النعام الذي يزين خوذته، حتى أنه نسي واجبه والنار التي كان يجب أن يصبها على العدو...

عند هذه الجملة قطع بيليبين حديثه رغم الحماسة التي كانت تلهب لسانه ويزيد في بلاغته. كان معجباً بتلك «الكلمة» التي استطاع أن يقحمها في حديثه. ولما تأكد أن الأمير أندريه قد استوعب قوله تابع يقول:

ـ زحفت الفرقة الفرنسية حتى بلغت رأس الجسر، فعطلت المدافع واستولت على الجسر...

سكت بيليبين لحظة ثم تابع وهو فريسة انفعال ظاهر: لكن أجمل ما في الموضوع هو أن أحد صف الضباط الذي كان منوطاً به إعطاء إشارة نسف الجسر وإحراقه من مدفعه. اقترب من أوبرسبرغ وقال له: «إنهم يخدعونك يا أمير، ها هم أولاء الفرنسيون!» ولما رأى مورا، وهو غاسكوني، ـ إنه إذا ترك ذلك الضابط الصغير يسترسل في حديثه، فإن الخطة كلها ستحبط، قال موجهاً حديثه إلى أوبرسبرغ متصنعاً الدهشة البالغة:

«كيف هذا! أتسمح لمرؤوس أن يحدثك بهذه اللهجة؟ إنني لا أرى في هذا التصرف ما اشتهر عن النظام والطاعة في الجيش النمسوي العتيد!»... ألا ترى أن هذا القول يدل على عبقرية رائعة؟ لقد أثير الأمير أوبرسبرغ، فأمر بتوقيف الضابط الصغير وسجنه! اعترف معي أن قصة جسر تابور قصة ممتعة رائعة! إن ما فعله أولئك السادة ليس نذالة ولا سخفاً...

قال الأمير أندريه الذي تاه خياله في تلك اللحظة ليستعرض المعاطف الرمادية والجرحى ودخان البارود وقعقعة البنادق وأزير الرصاص والمجد الذي ينتظره: لعلها خيانة...

ـ لا ليست خيانة. إن ذلك سيجعل البلاط في موقف...

وتوقف بيليبين وكأنه يبحث عن الكلمة المناسبة تابع:

www.Maktbah.com

ـ إنها «ماكية». أي على طريقة ماك... وبذلك نستطيع القول إننا قد «تمكوكنا»...

وشاعت على وجهه أمارات السرور لأنه توقف لإيجاد الكلمة الفنية المناسبة: «تمكوك». إنها كلمة جديدة، ولسوف يعيدها الناس من بعده ويكررونها.

كانت التجاعيد والغضون التي استنفرها على جبهته دلالة على قناعته ورضاه، فابتسم ابتسامة خفيفة واستغرق في تأمل أظفاره المصقولة.

وفجأة نهض الأمير أندريه فسأله بيليبين بلهفة: إلى أين تمضي؟

ـ إنني عائد!

ـ إلى أين!

ـ إلى الجيش.

ـ لكنك كنت تريد البقاء هنا يومين آخرين؟

صحيح لكنني الآن ذاهب فوراً.

وبعد أن أعطى الأمير التعليمات المتعلقة برحيله، انسحب إلى غرفته. ولم يلبث بيليبين أن دخل عليه. قال له: أتدري ما الأمر يا عزيزي؟ لقد فكرت في أمرك. لمَ، بحق الشيطان، ترحل؟

وأخفى كل تجاعيد جبهته ليقنعه بأن قوله ذاك لا يقبل الجدل. لكن الأمير اكتفى بنظرة استفهامية طافت بوجهه جواباً عن كلماته.

أردف بيليبين: نعم، ما هي حاجتك إلى الذهاب؟ إنك تقدّر ولا شك أن واجبك يدعوك إلى مكانك في صفوف الجيش، وخصوصاً أنه الآن في خطر. إنني أفهم ذلك يا عزيزي، إنه من صميم البطولة.

فأجاب الأمير أندريه: أبداً. لا شأن للبطولة في الموضوع.

ـ بلى. غير أنك فيلسوف أيضاً. فكن إذن فيلسوفاً كما يجب تصور الأمور

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وعاينها من زاوية أخرى. وسترى أن واجبك يقضي عليك بالبقاء وبعدم تعريض نفسك للخطر على عكس ما ترى الآن. دع التعرض للخطر لأولئك الذين لا يصلحون لشيء... لم تؤمر بالعودة ولم يسمح لك هنا بالانسحاب. يمكنك إذن البقاء معنا ومرافقتنا إلى حيث يقودنا مصيرنا السعيد. يبدو أننا سننسحب إلى أولموتز. إنها مدينة جميلة جداً سنسافر إليها معاً وبراحة تامة في عربتي.

ـ كف عن المزاح يا بيليبين: بل إنني أحدثك كصديق مخلص. فكّر في الأمر لمَ يا تُرى تفضل الذهاب في حين أن باستطاعتك البقاء هنا؟

واسترسل بعد أن استجمع غضونه على جبهته: هناك أمران يستحق أحدهما: إما أن يوقع صلح عاجل قبل أن تلحق بقطعتك وإما أنك ستشهد انسحاق الجيش كله.

واقتنع، على ما يبدو، بأن نظريته لا تقبل الرد، فانبسطت أساريره وزالت الغضون عن جبينه.

أجاب الأمير أندريه بتردد: ليس لي أن أحكم على هذا الموضوع.

بينما كان يحدث نفسه قائلاً!

ـ إنني إذا كنت سأذهب فإن غايتي هي إنقاذ الجيش!

قال بيليبين مجيباً: إنك بطل يا عزيزي.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

استأذن بولكونسكي وزير الحربية للالتحاق بجيشه، في تلك الليلة بالذات، وعاد في طريق العودة دون أن يعرف بالضبط المكان الذي سيجد الجيش فيه. وكان أكثر ما يخشاه أن يقع، دون أن يدري، بين يدي الفرنسيين على طريق كريمز.

أما في برون، فقد كان رجال البلاط جميعهم يعدون الحقائب الصغيرة بعد أن أرسلت الأمتعة الثقيلة في طريقها إلى أولموتز. ولما اجتاز اتزلسدورف، سلك الطريق الذي كانت الوحدات الروسية تسلكه في انسحابها السريع وهي على حال من الفوضى. كانت العربات الضخمة تسد الطريق على رحبه، وتمنع مرور أية فصيلة منظمة فاضطر الأمير المنهك الجائع إلى طلب جواد من أحد الضباط القوقازيين، فلبى هذا طلبه وأرفقه بتابع. وانطلق الأمير متجاوزاً خط العربات، يبحث عن الجنرال القائد الأعلى وعن عربته. وكان الضجيج والصخب يصمان الآذان خلال الطريق تؤيدهما تلك الوحدات المتفككة المنسحبة.

في تلك اللحظة، تذكر مقطعاً من خطاب بونابرت الذي وجهه إلى جنوده في بداية تلك الحرب، وراحت الكلمات تتراقص أمام عينيه: «إن هذا الجيش الروسي الذي نقله ذهب انكلترا من أقاصي المعمورة، يجب أن نمنيه بمثل ما منيت به جيوش أولم». وكانت تلك الجملة، رغم ما فيها من تجريح لكرامته وإهانة لكبريائه، توقظ في نفسه شعوراً بالإعجاب بذلك الرجل العبقري

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الذي قالها، فراح يفكر: ولو لم يبق إلا الموت؟ حسناً، سأعرف كيف أموت كالآخرين إذا شاءت الضرورة ذلك!

راح الأمير ينظر باشمئزاز إلى تلك القطعات مختلة النظام متداخلة الأفراد والوحدات، وإلى العربات المبعثرة هنا وهناك، وقطع المدفعية التي تسد منافذ الطريق الزراعية، ويتأمل ذلك الرتل الطويل من عربات النقل التي كانت تسير في اتجاه واحد وبصفوف متراصة انتظمت في كل ثلاثة منها أو أربعة، فكانت تشتبك وتتسابق وتصطدم بعضها ببعض وتغوص عجلاتها في الأوحال.

كانت الأذن لا تلتقط في غمار تلك الفوضى إلا صرخات وصخب ينبعثان من كل مكان: من الأمام ومن الخلف، يمتزج بهما صرير العجلات وارتجاج الأعتدة المحملة ووقع حوافر الجياد المضطرب وفرقعة السياط في الهواء. وكان هذا المزيج العجيب من الضجيج يختلط بسباب الجنود والضباط وصيحاتهم وتذمرهم وصراخهم، بين مستنهض للهمم وناقم على سير الأمور. وعلى جانبي الطريق، كانت العيون لا تنفك تقع على أفراس نافقة بعضها سلخت جلودها، وعلى عربات محطمة جلس بالقرب منها كل من كان من قبل راكباً متنها، ينتظرون بفارغ صبر أن يحصلوا على وسيلة نقل جديدة.

وكان هؤلاء المتخلفون خليطاً من جنود تأخروا عن اللحاق بصفوفهم ومغامرين جاؤوا يحومون بغية الإفادة من مخلفات الجيوش المنسحبة، فكانوا يدهمون القرى القريبة فيسلبون منها الدجاج والخراف والعلف وكثيراً من المسلوبات والمؤن. وكان الازدحام يزداد اشتداداً في كل مرتفع من الطريق أو منحنى حتى أن الناظر إلى ذلك الحشد الهائل يخال أن الأرض كلها قد أنبتت جنداً أو أن يوم الحشر قد أزف وكان الجنود غارقين في الوحول حتى ركبهم يحاولون بشق الأنفس زحزحة عربة غائصة العجلات أو نقل قطعة من

www.Maktbah.com

المدفعية الثقيلة. وكلما تكرر هذا المشهد تكرر قرع السياط وصهيل الخيول المنهكة، وتدفق سيل السباب والشتائم ممزوجاً بالأوامر والإرشادات من جديد.

وينجلي المشهد عن عدد آخر من العربات المحطمة المهشمة وعديد من الخيول النافقة. وكان الضباط المكلفون حفظ النظام أثناء هذا الانسحاب الصاخب، يروحون ويجيئون على خيولهم، فيخترقون صفوف العربات الصغيرة والكبيرة، يوزعون أوامرهم ويصيحون، فتضيع أصواتهم وسط هذا الهدير المخيف من أصوات الإنسان والحيوان، فتبدو على وجوههم المنقلبة المكفهرة خيبة الأمل المريرة في إيقاف هذه الفوضى أو الحد منها.

كان بولكونسكي ينظر إلى كل هذا الخليط. فتعاوده كلمة بيليبين عندما تحدث عن الجيش الروسي بقوله: الجيش الأورثوذكسي العزيز. قال يخاطب نفسه: «هذا هو إذن الجيش الروسي العزيز»!

اقترب من إحدى القوافل عازماً الاستفسار من قائدها كان يأمل تسقّط بعض الأنباء التي تمكنه من تحديد مكان القيادة العامة. وفي تلك اللحظة، لمح عربة غريبة الشكل يقطرها جواد واحد، تتقدم في الاتجاه العام. يبدو على العربة أنها صنعت محلياً بأيدي الجنود، فكانت خليطاً غريباً من عربة النقل وعربات الركوب الخاصة. رأى الأمير جندياً آخذاً بمقود الحصان يوجهه، وقد جلست في داخل العربة سيدة ملتفَّة بالشيلان، تحملها صدارة من الجلد، قابعة منطوية على نفسها. كاد الأمير يتوجه بالسؤال إلى الجندي سائق العربة حينما لفت انتباهه الصراخ الحاد الذي كان ينبعث من صدر المرأة.

كان ضابط القافلة المتقدمة، ينهال بالسوط على الجندي الذي يقود العربة لأنه كان يحاول تجاوز قافلته وتخطيها. فأصاب السوط الصدارة الجلدية التي تحمي ثياب المرأة من المطر، فراحت هذه تصيح وتزمجر. فلما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وقع بصرها على الأمير، أزاحت الحاجز الجلدي وراحت تلوح بذراعيها الناحلتين مستلفتة انتباهه وهي تصيح:

ـ يا سيدي الضابط المساعد... احملني بحق السماء... ماذا سيحدث لي؟... إنني زوجة طبيب فيلق القناصة السابع... لقد بقينا في المؤخرة وهم الآن يمنعوننا من المرور.

بينما راح ضابط القافلة الثائر يزعق بالجندي: انتح جانباً أو أمزقك! إذهب إلى الشيطان أنت وهذه المتأخرة!

وكررت زوجة الطبيب القائد: احمني يا سيدي الضابط المساعد. ما معنى هذا؟

فاقترب الأمير من الضابط وقال: دع هذه العربة تمر. ألا ترى أن فيها امرأة؟

فألقى هذا نظرة على الأمير، لكنه لم يتنازل بالرد عليه بل عاد إلى الجندي يصيح به: استدر وانصرف وإلا فإنك ستشعر بما يخترق جسدك!

فأصر الأمير وهو يضغط على أسنانه: قلت لك دعها تمر.

وفجأة استدار الضابط نحوه وصرخ يعميه الغضب: وأنت، من أنت حتى تصدر إليّ الأوامر؟ هه من أنت؟

أنا القائد هنا وليس أنت. انصرف عن وجهي أو أمزقك!

كان يخاطبه بلهجة المفرد ويضغط على مخارج كلماته مبالغة في الاستهزاء. وبدا أن العبارة الأخيرة التي تفوّه بها راقته خصوصاً بعد أن تعالى من ورائها صوت يقول: لقد لقي الضابط المساعد ما حطم كبرياءه.

وأحسّ الأمير أن الضابط قد فقد سيطرته على أعصابه وبالتالي على كلماته بسبب الغيظ والغضب الشديدين المستوليين عليه. ولما كان في موقف المدافع عن امرأة، فقد بات يخشى أن يؤدي به الأمر إلى عاقبة تجعله

www.Maktbah.com

أضحوكة للجنود والضباط، الأمر الذي كان يتجنَّبه. لكن غريزته تفوقت على عقله في الصراع الباطن الذي قام بينهما: فلم يكد الضابط يتم حديثه حتى كان پولكونسكي ينقض عليه مشرعاً سوطه وقد انقلبت سحنته من الغضب. صاح الأمير: دعـ... ـهاتـ. ـمر، هل سمعت!

فندت عن الضابط حركة قنوط وبادر إلى إخلاء المكان وهو يزمجر:

ـ إن كل الفساد وسوء التدبير مبعثه هؤلاء السادة، هؤلاء الغيد الحسان التابعات للأركان العامة!

سارع الأمير أندريه بمغادرة المكان دون أن يرفع عينيه إلى زوجة الطبيب التي أطلقت عليه اسم منقذها. وبينما كان يستحث جواده لبلوغ القرية التي أجمعت أقوال الجنود على أن الجنرال القائد العام وهيئة أركان حربه يقيمون فيها، راح يستعرض في ذاكرته باحتقار تفاصيل الحادث المخجل الذي وقع له منذ حين.

ترجل عن ظهر جواده عندما وصل إلى القرية وقصد المنزل الأول سعياً وراء نيل قسط ضئيل من الراحة يكون خلالها قد تناول طعاماً ونسق أفكاره المتزاحمة المضطربة، تلك الأفكار الأليمة التي كانت تحز في نفسه. كان يفكر في سره: «إن ما رأيته ليس جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والسفاحين»! وقبل أن يبلغ باب المنزل الذي يقصد إليه، سمع صوتاً مألوفاً يناديه. التفت مستطلعاً، فإذا بعينيه تقعان على نسـڤيتسكي الجميل واقفاً في فراغ نافذة صغيرة يمضغ شيئاً في فمه الرطب. صاح به ويداه لا تنفكان عن التلويح: پولكونسكي، پولكونسكي، هل أنت أصم؟ تعال إلى هنا!

قصد الأمير إليه فوجده مع زميل له من الضباط المساعدين يتناولان طعامهما. ابتدره كلاهما قبل كل شيء مستفسرين عما وراءه من أخبار، وكانت علامات القلق والترقب مرتسمة بوضوح فوق وجهيهما. بل إن وجه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نيسـڤيتسكي الضاحك عادة، كان دليلاً جازماً، في تلك اللحظة، على مدى القلق الذي ينهش قلب صاحبه.

سأل پولكونسكي: أين الجنرال القائد الأعلى؟

فأجابه الضابط المساعد: هنا، في البيت.

وسأله نيسـڤيتسكي بلهفة:

ـ وأخيراً، هل حقيقة أننا الآن في سبيل الاستسلام وعقد الصلح؟

ـ إنني أسألك أنت إيضاح ذلك لأنني لا أعرف عن الأمر شيئاً باستثناء المتاعب التي لا تحصى، والتي نالتني قبل أن أستطيع الوصول إلى مكانكما.

فقال نيسـڤيتسكي: ليتك تعرف ماذا يجري هنا يا عزيزي! لقد كنا نهزأ من «ماك» وها نحن في موقف أشد بشاعة من موقفه! هيا اجلس واشترك معنا في الأكل!

وقال الضابط المساعد الآخر: إنك الآن يا أمير لن تجد هنا شيئاً حتى ولا مركبة أو أي شيء آخر. أما «پيوتر» فإن الله وحده يعرف أين ذهب.

ـ لكن أين مقر القيادة العامة؟

ـ إننا في زنائيم.

وأردف نيسـڤيتسكي: أما أنا، فقد حزمت كل أمتعتي على ظهر جوادين. لقد صنعوا من أجلي برادع ممتازة ساعدت على تحميل تلك الأمتعة على ظهور الجياد. وبذلك أستطيع الفرار عند الاقتضاء عبر جبال بوهيميا. آه يا عزيزي، إن الموقف ليس مشجعاً... لكن ما بك ترتجف وكأنك مريض؟

نطق نيسـڤيتسكي بملاحظته الأخيرة عندما رأى الأمير ينتفض فجأة وكأن زجاجة من محلول «اليود» قد سكبت على جرح غائر عميق في جسده.

فأجاب پولكونسكي: لا، لست مريضاً.

عادت إلى ذاكرته صور مزعجة تمثل زوجة القائد الطبيب ولقاءه إياها واشتباكه مع ضابط القافلة.

وفجأة سأل: ماذا يفعل القائد العام هنا؟

فأجاب نيسـڤيتسكي: لست أدري من أمره شيئاً.

فانبرى الأمير أندريه يقول: أما أنا، فإنني أفهم فقط أن كل هذا يثير اشمئزازي.

ونهض من مكانه متجهاً نحو جناح الجنرال القائد الأعلى. وقعت أنظاره وهو في طريقه إلى عربة كوتوزوڤ، وخيول الضباط المساعدين التي أنهكها التعب، ومر بجماعة من القوزاق المرافقين للجنرال وهم يثرثرون.

كان كوتوزوڤ في تلك الأثناء يتشاور في مقره مع الأمير پاغراسيون والجنرال النمسوي ويروذر الذي جاء يحل محل زميله القتيل شميدت. وفي الردهة، شاهد الأمير أندريه، كوزلوڤسكي الصغير وأمامه أحد ضباط الإعاشة جالساً على نصف برميل مقلوب رافعاً أطراف ثوبه العسكري، يكتب بسرعة ما يمليه عليه، وكانت تقاسيم وجه كوزلوڤسكي المتقلصة تدل بوضوح على أنه لم يعرف النوم منذ وقت طويل. ولما وقع نظره على الأمير، حياه بنظرة ساهمة دون أن يرفقها بحركة ما من رأسه وعاد يملي من جديد:

ـ ماذا جاء في السطر الثاني؟... قطعة كييڤ المهاجمة وقطعة يودولي...

ـ عفواً يا صاحب السمو، لا أستطيع متابعتك إذا استمررت تملي بمثل هذه السرعة.

كان ضابط الإعاشة يغمغم بهذه الجملة بلهجة منقبضة وهو يرفع عينيه إلى رئيسه.

ارتفع صوت كوتوزوڤ الغاضب في تلك اللحظة من وراء الباب المغلق يقاطعه صوت مجهول. كانت لهجة تلك الأصوات التي لم يكن كوزلوڤسكي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يعبأ بها وجواب ضابط الإعاشة الخائر الذي يدل على شدة تعبه وإنهاكه، ومظهر كوزلوفسكي الجالس على الأرض مع ضابط الإعاشة حول نصف برميل مقلوب على بعد خطوات معدودة من الجنرال القائد الأعلى، بالإضافة إلى أصوات القوقازيين الذين كانوا يضحكون صاخبين تحت النافذة التي كان كوزلوفسكي يجلس بالقرب منها، كل هذا أثار اشمئزاز پولكونسكي وجعله يترقب أحداثاً مثيرة. لذلك راح يمطر كوزلوفسكي بالأسئلة. فقاطعه هذا بقوله: لحظة واحدة يا أمير... واسترسل في إملائه:... موجودات الأمير پاغراسيون...

ولكن ماذا عن الاستسلام؟

ـ لا استسلام هناك، لقد أعطيت الأوامر باستئناف القتال.

تقدم پولكونسكي من الباب الذي تعالت الأصوات وراءه. غير أن هذه سكتت فجأة وفتح الباب، وبدا على عتبته كوتوزوف بأنفه الأقنى الذي كان يشطر وجهه الممتلئ شطرين. وجد الأمير نفسه وجهاً لوجه مع القائد العام. لكن تعابير عين الجنرال القائد الأعلى الوحيد التي لم تصب بأذى بعد كانت تدل على أن خطورة الحالة وأهوالها والتطورات المزعجة التي كانت تتلاحق في تلك الساعة قد أظلمت نظرة القائد الأعلى وخففت من قوة نظره. نظر إلى مرافقه الخاص نظرة صريحة دون أن يبدو عليه أنه عرفه.

سأل كوزلوفسكي قائلاً: حسناً، هل انتهى؟

ـ لحظة واحدة يا صاحب المقام الرفيع.

لم يلبث أن ظهر وراء الجنرال القائد الأعلى، رجل ذو وجه قاس، قصير القامة، أعجف العود، لم يزل في سن الشباب، له شخصية تحمل طابعاً شرقياً. ذلك هو الأمير پاغراسيون.

www.Maktbah.com

ولم يشأ الأمير أندريه الوقوف جامداً إزاء نظرة القائد الأعلى المتجاهلة، فقال بصوت مرتفع وهو يمد يده إليه حاملة غلافاً: لي الشرف بأن أقدم نفسي.

ـ آه، هل رجعت من ڤيينا؟ حسناً، سأراك فيما بعد، فيما بعد.

وخرج القائد الأعلى يصحبه پاغراسيون. قال له يودعه: وداعاً يا أمير، وداعاً وليحفظك الله. سوف تقوم بمهمة شاقة فتقبل بركاتي.

وفجأة تمددت قسمات وجه كوتوزوف وتلألأت عبرات في عينه. فجذب بيسراه الأمير پاغراسيون إليه بينما راح يرسم بيمناه، التي يزينها خاتم ثمين، إشارة الصليب على جسم الأمير. كان يبدو أن تلك المهمة مألوفة لديه. ولما فرغ، قدم خده المنتفخ لپاغراسيون ليقبله. لكن هذا قبله في عنقه.

كرر كوتوزوف قوله وهو يسعى إلى عربته: ليحفظك الله!

ثم استدار نحو پولكونسكي وقال له: اصعد معي.

ـ يا صاحب السعادة، وددت لو استطعت القيام بعمل مفيد هنا! اسمحوا لي بالبقاء في معسكر الأمير پاغراسيون.

فكرر كوتوزوف القول: اصعد!

ولما رأى أن پولكونسكي لايزال متردداً أردف يقول: إنني أنا الآخر في حاجة إلى ضباط ممتازين، نعم أنا أيضاً في مثل حاجته.

واحتوتهما العربة التي راحت تدرج بهما فترة طويلة دون أن يتبادلا كلمة واحدة. وأخيراً قال كوتوزوف: إن أمامنا الكثير مما يجب إنجازه. نعم الكثير.

كانت لهجته تدل على أنه بثاقب نظره قد خمن ما يعتلج في نفس پولكونسكي. وأردف بعد برهة وكأنه يحدث نفسه: إذا أعاد غداً عشر فيلقه سالماً أكون لله من الشاكرين.

وبينما كان پولكونسكي يرفع عينيه إلى وجه رئيسه مستفهماً، استلفت نظره محجر عين الجنرال الفارغ وآثار الجرح الغائر العميق الذي أحدثته

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الرصاصة التي اخترقت رأسه في معركة إسماعيل، والتي كان الجنرال يعنى بنظافتها ومداراتها، فلم يتمالك أن قال في سره: «لا شك أن من حقه أن يتحدث بمثل هذا الهدوء عن أولئك الذين قضي عليهم بالموت!».

وأردف بصوت مرتفع: ومن أجل هذا بالذات، يا صاحب السعادة، أرجوكم أن ترسلوني إلى هناك.

بقي كوتوزوف صامتاً. كان غارقاً في تفكيره وكأنه نسي جملته الأخيرة وآثارها في نفس مرافقه، فترك نفسه مسترخياً ترجحه اهتزازات العربة وهي تدرج في الطريق المليء بالحفر. ولما استدار نحو پولكونسكي، وكان قد مضى استغراقه خمس دقائق، لم يكن بادياً على وجهه ظل من الاضطراب أو التحنان.

وبدأ يستجوبه بلهجة ضمنها سخرية رقيقة، ويسأله عن تفاصيل مقابلته مع الأمبراطور، وما دار في البلاط حول مسألة كريمس. ولم يفته أن يستفسره عن عدد من السيدات ممن كانت تربطه بهن أواصر معرفة.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

حمل أحد الرسل إلى كوتوزوف خبراً على جانب كبير من الخطورة في اليوم الأول من تشرين الثاني. لقد أكد الرسول أن الجيش أصبح في حالة شديدة اليأس لا أمل في إنقاذه منها. والواقع أن الخبر كان صحيحاً إذ إن الفرنسيين كانوا قد اجتازوا جسر ڤيينا بقوات ضخمة وباتوا يهددون بقطع خط اتصال كوتوزوف بالقطعات الآلية من روسيا. فإذا بقي في كريمس، فإن قوات ناپليون المائة وخمسين ألفاً، قادرة على قطع خطوط مواصلاته كافة والإحاطة برجاله الأربعين ألفاً إحاطة مطبقة وخصوصاً أن أولئك الرجال كانوا في حالة من الإنهاك والتعب يتعذر عليهم معها القيام بمحاولات مجدية.

إذن، فإن المصير الذي ينتظر كوتوزوف لا يختلف عن مصير «ماك» في «أولم». أما إذا ترك طريق أولموتز وابتعد عنه، فإن معنى ذلك أن يتخلى كذلك عن آخر أمل له في الاتصال بجيوش «بوكزويڤدن» وأن يتوغل في مسالك مجهولة غير معبدة عبر جبال بوهيميا الوعرة، ملاقياً مع ذلك عدواً يفوقه عدداً وعُدداً واستعداداً ومعنوية.

وكان هناك احتمال ثالث وهو أن يتراجع بجيوشه المنهكة المحطمة عن طريق كريمس قاصداً «أولموتز» للتلاقي مع قطعات مستريحة قادرة على بعث النشاط في الصفوف. لكن هذه المحاولة أيضاً كانت تحتمل خطراً كبيراً. إذ كان يخشى أن يسبقه الفرنسيون على تلك الطريق وأن يضطروه إلى الدخول في معركة غير متكافئة، لأنهم سيكونون على كامل الأهبة لها بينما تكون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

جيوشه في حالة الانسحاب والمسير، ينوء الرجال تحت أعباء ما يحملونه، ويكونون محاطين بأعداء من كل الجهات يفوقونهم عدداً وعدة ويبلغ عددهم ثلاثة أضعاف رجاله أو أكثر.

ولم يكن لكوتوزوف أن يختار. لذلك قرر الأخذ بالمبدأ الأخير.

نصّ تقرير الرسول المخبر، إذا صدق في تقريره، على أن الفرنسيين يحثون خطاهم في سير سريع لبلوغ «زناييم»، وهي مدينة تقع على خط انسحاب كوتوزوف، على بعد أكثر من خمس وعشرين مرحلة إلى الأمام فلو استطاع أن يبلغ هذه المدينة بجيوشه قبل أن يصلها الفرنسيون، أمكنه أن يهيئ لرجاله أملاً كبيراً في الخلاص. أما إذا سمح للفرنسيين أن يتقدموه، فمعنى ذلك أن جيوشه سيحل بها إذلال وخسران يعادلان ما حل بماك في أولم إن لم يكن فيهما معنى الانهيار التام. لقد كان في بلوغ الفرنسيين تلك المدينة قبل جيوش كوتوزوف، وصمة عار تلحق بشرف الجيش الروسي، وصمة لا يمكن غسلها.

كان الموقف كله في جانب الفرنسيين. لقد كان من المستحيل على كوتوزوف أن يبلغ بكل جيشه مدينة «زناييم» قبل الأعداء، إذ إن الطريق التي كان هؤلاء يسلكونها من ڤيينا إليها، كانت أقصر من المرحلة التي عليه اجتيازها، وكانت إلى جانب ذلك أفضل تعبيداً وأيسر تمهيداً من طريق الجيش الروسي الذي كان عليه السير في طريق كريمس لبلوغ تلك الغاية.

خلال الليل، أصدر كوتوزوف أمراً إلى جيش پاغراسيون (وهو مقدمة الجيش الروسي وتعداده أربعة آلاف جندي)، أن يتقدم بخط مستقيم عن يمينه ميمماً شطر طريق كريمس ـ زناييم ليبلغ طريق ڤيينا ـ زناييم عبر الجبل. وكان على الأمير پاغراسيون أن يقطع تلك المسافة على مرحلة واحدة وأن يتوقف باتجاه ڤيينا وأن يحاول بقدر ما يستطيع إيقاف الفرنسيين إذا التقاهم. أما

www.Maktbah.com

كوتوزوف فقد اتجه مباشرة نحو زناييم مع المعدات والذخائر والمؤن وبقية الوحدات.

بعد أن قطع عشر مراحل عبر الجبل في ليلة عاصفة، وصل پاغراسيون إلى «هولابرون» ومعه أربعة آلاف رجل أنهكهم التعب، حفاة، ضاع ثلثهم في الطريق. وكان وصوله إلى ذلك المكان على طريق ڤيينا ـ زناييم، قبل وصول الفرنسيين إليها بساعات معدودة. أما كوتوزوف، فقد كانت مشيته البطيئة لما ينوء به رجاله من أحمال، تتطلب منه يوماً كاملاً ليبلغ زناييم. ولم يكن ذلك خافياً على پاغراسيون. لقد كان يعرف أن عليه أن يوقف الجيش العدو برمته طوال أربع وعشرين ساعة بتلك الشرذمة القليلة من الرجال المنهكين. وكان يعرف أن ذلك ضرب من المحال. لكن القدر الساخر شاء أن يجعل المستحيل ممكناً. ذلك أن الخدعة الحربية التي مكنت القائد الفرنسي مورا من احتلال جسر ڤيينا دون أن يطلق رصاصة واحدة، شجعته على إجراء محاولة مماثلة مع كوتوزوف.

فلما قابل قوات پاغراسيون القليلة العدد على طريق زناييم، اعتقد أنه إزاء الجيش الروسي برمته. فأراد أن يسحقه بضربة واحدة، الأمر الذي كان متعذراً قبل وصول بقية الجيش الفرنسي الذي كان يصل تباعاً من ڤيينا. ومن أجل ذلك، عرض على پاغراسيون هدنة مدتها ثلاثة أيام شريطة أن تحتفظ قطعات كلا الجانبين بمراكزها الحالية. وادعى أن هناك محادثات حول عقد الصلح تدور في تلك الأثناء بين الحكومتين، وأن أي إهراق للدماء في تلك المرحلة يعتبر عملاً غير حكيم. واقتنع الجنرال النمسوي الكونت نوستيتز الذي كان على رأس الخطوط الأمامية الروسية بادعاءات مورا وانسحب من فوره كاشفاً بذلك جناح پاغراسيون.

وجاء متحدث آخر يعرض على الجنرال الروسي العرض نفسه الذي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تقدم به مورا للقائد النمسوي. لكن پاغراسيون قال إنه لا يملك صلاحيات البحث في هذا الأمر، وأن عليه الرجوع إلى رأي الجنرال القائد الأعلى. وشفع قوله بالعمل، إذ بادر فوراً إلى إرسال أحد مساعديه من الضباط إلى مركز القيادة العليا حاملاً معه العرض الفرنسي.

بالنسبة إلى كوتوزوف كانت الهدنة هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من اكتساب الوقت الكافي وتوفير فترة استراحة لوحدات پاغراسيون المنهكة. وكانت كذلك تساعده على إجراء نقل المهام وما إليها وأبعادها مرحلة أخرى وخصوصاً أن الفرنسيين كانوا يجهلون كل شيء عن هذه التحركات. وخلاصة القول: جاء ذلك العرض الغريب يحمل لكوتوزوف أملاً كبيراً في تحسين أوضاعه ومركز رجاله وإنقاذ الجيش الروسي من الإبادة. لذلك أرسل كوتوزوف إلى معسكر الأعداء مساعده العام، وينتزنغيرود، وكلفه إلى جانب تقبله عروض الهدنة الموقتة، مناقشة شروط الانسحاب الروسي والاستسلام. وفي الوقت نفسه أرسل ضباطاً مساعدين آخرين إلى الخطوط الخلفية ليعملوا على حث الوحدات المكلفة نقل المهام على الإسراع بنقلها في اتجاه زنابيم بما أمكن من سرعة. وكان على جيش پاغراسيون المنهك أن يبقى في مكانه رغم ما ناله من إنهاك ليخفي عن أعين الأعداء الذين يفوقونه عدداً وعدة تفوقاً ساحقاً حركة نقل مهمات جيش كوتوزوف وقطعاته الأخرى. وبعبارة أخرى، كان على پاغراسون أن يصمد بأربعة آلاف رجل أمام ثمانية أضعاف هذا العدد من الأعداء في سبيل إنقاذ الأجزاء الكبرى من جيش كوتوزوف.

وقع ما حدسه كوتوزوف. فقد أمكن للعرض الذي تقدم به للجانب الفرنسي ببحث شروط الاستسلام، ذلك العرض الذي لم يكن يربط كوتوزوف بأي التزامات، أن يشغل الأنظار فترة مكنته من نقل المهمات الحربية، أو أقله جانب منها، إلى حيث يجب أن تكون.

www.Maktbah.com

غير أن خطأ مورا تجلّى لعيني ناپليون بوناپرت. كان بوناپرت في تلك الأثناء معسكراً في شونبرن على بُعد ست مراحل من هولابرون. فلما تلقى تقرير مرؤوسه مرفقاً بمشروع الهدنة، أدرك الخدعة الكامنة وراء ذلك وكتب للقائد مورا الرسالة التالية:

إلى الأمير مورا

شويبزن، في ٢٥ برومير عام ١٨٠٥ الساعة الثامنة صباحاً.

يستحيل عليّ إيجاد العبارات الملائمة لأظهر لك شدة استيائي. إنك لا تأمر إلا قطعاتي الأمامية وليس من صلاحياتك أن تعقد أية هدنة دون أمري. إنك بذلك تفوت علي ثمرة حرب برمتها، فاخرق الهدنة إلى الفور وسر إلى العدو. أعلن لهم أن الجنرال الذي سيوقع شروط الانسحاب لا يحق له اتخاذ هذه الخطوة وأن أمبراطور روسيا هو وحده صاحب هذا الحق.

مع ذلك فإن أمبراطور روسيا إذا وافق على مثل هذا التصرف فإنني بالمثل سأوافق عليه. لكن المسألة لا تتعدى حدود الخدعة. فسر إلى الأمام وحطم الجيش الروسي... إنك في موقف يمكنك من الاستيلاء على مدفعيته.

إن المساعد العسكري للأمبراطور الروسي ليس إلا... فالضباط لا وزن لهم عندما لا يملكون صلاحيات معترفاً بها، وليس مع هذا أية صلاحية... لقد انطلت الخدعة على النمسويين عندما سهلوا لك عبور جسر ڤيينا وها إنك تُخدع الآن من قبل أحد مساعدي الأمبراطور!

ناپليون

كان پوناپرت، الذي في طبعه عدم الركون إلى جنرالاته، يتقدم مع كامل فرقته إلى موقع العمليات العسكرية كي لا يتيح لضحيته فرصة الإفلات من الإفناء الكامل الذي يدخره لها بينما كان أحد ضباط پوناپرت المساعدين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يحمل هذه الرسالة الرهيبة إلى مورا طائراً على جواده، أما جنود پاغراسيون الأربعة آلاف، فقد كانوا في تلك الأثناء يوقدون النيران ويجففون ثيابهم بهدوء على لهيبها المتصاعد. لقد أتيح لهم للمرة الأولى منذ أيام ثلاثة أن يصنعوا لأنفسهم حساء ساخناً. ولم يكن أحد من هؤلاء الرجال البؤساء يشك أبداً في ما يخبئه له القدر.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

حوالى الساعة الرابعة من بعد الظهر وصل الأمير أندريه إلى غرانت بعد أن وافق القائد الأعلى كوتوزوف على إرساله للحاق بجيش پاغراسيون بعد إلحاح شديد، وقدم نفسه لهذا الأخير. وكان الضابط المساعد الذي أوفده پوناپرت برسالته السالفة إلى «مورا» لم يصل بعد، والمعركة لم تدر رحاها بين الفريقين. أما الحالة العامة فلم يكن أحد يعرف عنها شيئاً، إذ بينما كان بعضهم يتكلم عن الصلح دون أن يؤمن به كان البعض الآخر يتحدث عن المعركة دون أن يصدق أيضاً بوقوعها.

ولما كان پاغراسيون يعرف مكانة پولكونسكي عند كوتوزوف، فقد استقبله بحفاوة بالغة لم تخل من بعض التحفظ، أعلمه بأن ساعة المعركة باتت وشيكة وترك له ملء الحرية في أن يشهدها إلى جانبه أو أن يشرف على انسحاب المؤخرة وهي مهمة تعادل في خطورتها المهمة الأولى. وأردف قائلاً يطمئن الأمير أندريه:

ـ وعلى كل حال، لا أعتقد أن قتالاً ما سيندلع اليوم.

بينما راح يحدث نفسه: «إذا كان هذا الضابط من أذناب القيادة العامة الذين يسعون إلى نيل وسام، فإنه على أيّ حال سينال ما يريد في المؤخرة. أما إذا أراد على العكس أن يبقى معي، فله أن يبقى لأن ضابطاً شجاعاً مثله لا بد وأن يفيد في شيء».

لم يجب الأمير أندريه على تعليق پاغراسيون بل طلب الإذن منه في أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يتحرى وضع الجنود وأن يقوم بجولة تفتيشية على جواده. كان يريد معرفة جميع الأوضاع وتفاصيل المواقع التي يحتلها الجنود الروس ليكون على بيِّنة من الاتجاه الذي يجب عليه سلوكه عندما يستدعيه الموقف القيام بواجبه في المستقبل. وتقدم ضابط مرافق ليسير في صحبته. كان هذا شاباً بهيّ الطلعة، أنيق الهندام، يحلي سبابته بماسة كبيرة يتحدث اللغة الفرنسية بركاكة وتقليد سيئ.

رأى في كل مكان ضباطاً ساهمين غارقين في تخيلاتهم بوجوه حزينة، يبدو عليهم أنهم يفتشون عن شيء ما، وجنوداً عائدين من القرية حاملين أبواباً ومقاعد وحواجز.

قال الضابط المرافق وهو يشير إلى أولئك الجنود: أنظر إلى ما يفعله هؤلاء الرجال أيها الأمير. من المستحيل أن نتخلص من مثل هذه التصرفات! إن الرؤساء يتركون لهم الحبل على الغارب.

ثم أردف مشيراً إلى خيمة أقامها أحد الخمارين: أنظر إلى حيث يصرفون أوقاتهم. لقد عنيت دائماً بطردهم من هذا المكان. لكنني واثق الآن أن الخيمة تعج بهم، لنقترب أيها الأمير ولنعمل على إخافتهم. إن الأمر لن يستغرق أكثر من دقيقة صغيرة.

فقال بولكونسكي الذي لم يكن قد أتيح له من الوقت ما سمح له بشراء بعض المؤن وتناول الطعام: ليكن، وسأنتهز الفرصة لشراء بعض الخبز والجبن.

لِمَ لَمْ تقل لي ذلك أيها الأمير من قبل؟ لو أنني عرفت أنك لم تتناول طعامك بعد لاصطحبتك إلى خيمتي قبل أن نقوم بهذه الجولة.

ترجل كلاهما ودخلا الخيمة فوجدا فيها عدداً من الضباط جالسين إلى طاولات مبعثرة في المكان ووجوههم محمرة وهزيلة.

www.Maktbah.com

قال الضابط المرافق بلهجة الرجل الذي تعب من كثرة تكرار أمر بعينه دون جدوى: ما هذا أيها السادة؟ كيف يحق لكم ترك مراكزكم، وقد أصدر الأمير، ويقصد باغراسيون، أمراً يحظر وجودكم هنا؟ وأنت يا كابتن توشين، ألا تخجل من تصرفك؟

الكابتن توشين أحد ضباط المدفعية، وكان قصير القامة، هزيل العود، يرتدي ثوباً عسكرياً وسخاً. وكان في تلك اللحظة حافي القدمين إلا من جواربه لأنه أعطى حذاءه قبل دخوله إلى الخمار ليجففه له. لذلك فقد نهض مرتبكاً دون أن تند عنه كلمة واحدة.

أردف الضابط المرافق: نعم كيف لا تخجل من تصرفك؟ إنك ضابط مدفعية وكان عليك أن تعطي الباقين أمثولة جيدة. هذا عدا عن أنك حافي القدمين! (وهنا ابتسم ضابط المدفعية ابتسامة تائهة).

وأضاف وقد اتخذ صوته سمة الأمر: تفضلوا أيها السادة بالعودة إلى مراكزكم جميعاً دون استثناء.

بقي الضابط توشين ساكتاً والابتسامة منطبقة على شفتيه، وبدأ يقفز تارة على ساقه اليمنى وأخرى على الساق اليسرى، وعيناه تتفحصان تارة الضابط المرافق وطوراً الأمير بولكونسكي. كانت عيناه كبيرتين طافحتين بالذكاء وتوقد الذهن، فلم يتمالك الأمير ورفيقه من الابتسام. وأخيراً غمغم الكابتن توشين: يقول الجنود إن حافي القدمين يستطيع أن يقفز أفضل من غيره!

كان الضابط المرتبك يعتقد أن مثل تلك الدعاية خير ما يلجأ إليه للتخلص من ذلك الموقف الحرج. لكنه ما كاد ينتهي من جملته تلك حتى أدرك أنه لم يكن موفقاً في مزاحه لذلك فقد تضاعف ارتباكه.

كرر الضابط المرافق جاهداً أن يتخذ صوته لهجة جدية: تفضلوا بالعودة إلى مراكزكم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

استمر پولكونسكي يتابع الضابط توشين بنظرته. كان مظهره لا يدل على شيء من وقار الجندي بل إنه يستطيع القول إن في تصرفاته شيئاً مضحكاً غير أنه كان في الوقت نفسه ذا شخصية شديدة الجاذبية.

عاد الضابط المرافق والأمير أندريه إلى جواديهما يمتطيان صهوتيهما ويتابعان طريقهما.

وصلا إلى مخرج القرية، وهناك راحا يلتقيان في كل لحظة ضباطاً وجنوداً من مختلف الأسلحة والقطعات ويتجاوزانهم. شاهدا إلى يسارهما أكواماً من الطين الأحمر حديثة الصنع، ورأيا جنوداً كثيرين يسترون أجسامهم بقمصانهم البيضاء فحسب رغم لفحات الريح القارسة، يقيمون بسرعة فائقة المتاريس الضرورية عسكرياً.

وكان الناظر إلى ذلك المشهد يخيل إليه أنه إزاء حشر من النمل الأبيض العامل، كان عدد كبير من الأيدي غير المنظورة ترفع من الخنادق المحفورة الأتربة اللزجة المتراكمة، أتربة حمراء لا تنفك تلك الأيدي الخفية تقذف بها بانتظام وعلى دفعات متساوية. اقترب الضابطان من الجنود العاملين وعاينا تلك الخنادق ثم تابعا طريقهما. وفجأة التقيا عدداً من الجنود كانوا ينحدرون من أعلى مرتفع يتردد الجنود كلهم إليه لإزالة ضروراتهم، فاضطرا إلى حث جواديهما اللذين راحا يتسابقان هدباً لينقذا نفسيهما من الرائحة الكريهة المنبعثة في الجو حول ذلك المرتفع.

قال الضابط المرافق وهو يسد أنفه بأصابعه كما فعل الأمير: إن أقذار المعسكرات والنفايات كلها تجمع هنا يا سيدي الأمير.

ولما وصلا إلى المرتفعات التي كانت قبالتها والتي كان يمكن رؤية الفرنسيين من فوقها، توقف الأمير أندريه وراح يعاين خطوط العدو.

قال مرافقه ودليله مشيراً إلى نقطة مرتفعة تشمخ على التلال المجاورة

www.Maktbah.com

لها: لدينا هنا «بطارية» من المدفعية. إنها تحت إمرة ذلك الضابط المضحك الحافي القدمين. من هنا، يمكن للمراقب رؤية كل شيء هيا بنا أيها الأمير.

فقال پولكونسكي محاولاً التخلص من تطفل المرافق: لك مزيد شكري. لكنني أستطيع الآن العودة منفرداً إلى المعسكر، فلا تبتئس من أجلي.

فعاد الضابط المرافق أدراجه بينما مضى پولكونسكي قدماً إلى الأمام.

كلما ازداد اقتراباً من خطوط العدو، ازدادت ملاحظته للترتيب البديع والمعنويات المرتفعة التي ينعم بها الجنود الروس في الخطوط الأمامية، كان صباح ذلك اليوم قد لاحظ على قوافل المهمات والعتاد التي توقفت قرب «زناييم» على بعد حوالى ثلاث مراحل من الفرنسيين، الشيء الكثير من الفوضى والازدحام.

وكذلك كانت الحال في غرانت، حيث كان المراقب لا يحس إلا بالقلق والكآبة. أما هنا، فإن الأمر كان على النقيض من ذلك. فقد كانت الثقة والاعتداد بالنفس يشعان من وجوه الرجال رغم أنهم كانوا على قيد خطوتين من العدو. كان أحد الضباط برتبة رئيس، يرافقه أحد الرتباء يقوم بإحصاء جنوده الذين كانوا في ألبسة الميدان منتظمين صفاً منسقاً أمامه. فلما وصل إلى نهاية إحدى الفصائل، ضغط بإصبعه على صدر الرجل الأخير منها طالباً إليه أن يرفع ذراعه.

وهنا وهناك، كان مئات من الجنود ينقلون الأخشاب والحشائش الطفيلية لكي يبنوا بها أكواخاً لهم، وهم يضجون بالضحك والانشراح ويتبادلون الدعابات. ومئات أخرى ملتفون حول نار موقدة، بعضهم نازعاً ثيابه يجففها والبعض الآخر في كامل هندامه العسكري إلا من جواربهم أو أحذيتهم التي كانوا يرتقونها، ويلتفون حول قدور الطعام والطهاة من حولها.

وفي كتيبة أخرى، كان الطعام جاهزاً والجنود يمطرون القلل بنظرات

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نهمة ويرمقون الصحفة التي كان «عريف» الطعام يحمل فيها عينة من الحساء ليتذوقها رئيس الكتيبة قبل توزيعها على الجنود. فكانت عيونهم تتابع الصحفة وحاملها حتى بلغ إلى حيث كان الرئيس جالساً عند جذع شجرة أمام كوخه. وفي كتيبة أخرى أحسن حالاً من غيرها، لأن كل الفرق لم تكن لتتساوى في توزيع الكحول عليها، كان الجنود يحاصرون أحد صف الضباط، وكان عريض الكتفين، شوه الجدري أدمة وجهه، الذي كان ينحني في كل مرة ليملأ أباريق الجنود خمراً. فكانوا فور تسلمهم حصتهم، يرفعون الإناء إلى أفواههم، ويفرغون محتوياته في أجوافهم دفعة واحدة، ثم يمضون في طريقهم إلى مراكزهم ووجوههم مشرقة. وكان بعضهم يتمضمض بالجرعة الأخيرة ثم يمسح شفتيه بطرف كمه. كان يبدو عليه مزيد من اللامبالاة حتى ليخيل إلى الناظر إليهم أنهم جنود في إجازة أو أنهم يعسكرون في أمكنة هادئة من بلادهم لا يتوجسون خيفة من شيء، وليس على مقربة من العدو وفي أمسية يوم ينتظر في صباح اليوم التالي أن ينام أكثر من نصفهم على تلك الأرض بلا حراك.

إلى جاب معسكر القناصة كان معسكر رماة «كييف»، وكان جنود رماة «كييف» من الشبان الأقوياء الأشداء، وكانوا جميعهم منصرفين بالمثل إلى مهمات سلمية لا علاقة للحرب بها. رأى الأمير أندريه، قرب الكوخ الكبير الذي يأوي إليه الزعيم (كولونيل) قائد الفرقة والذي كان يمتاز عن الأكواخ الأخرى بحجمه وارتفاع سقفه، فصيلة من الرماة وقد تمدد أمامهم رجل عارٍ من الثياب. كان اثنان من زملائه يمسكان به بينما راح الباقون ينهالون على ظهره العاري ضرباً بعصي مرنة بإيقاع موزون، كان الجندي البائس يصرخ ملء حنجرته من الألم. بينما كان أحد القادة (ماجور) يذرع الأرض في مقدمة الفرقة وهو يردد دون أن يبالي بصرخات الجندي المعاقب:

ـ من العار على الجندي أن يسرق. على الجندي أن يكون نزيهاً باسلاً.

www.Maktbah.com

فإذا سرق رفاقه، يكون عديم الشرف، وإذن، فإنه يصبح حقيراً محتقراً. تابعوا، تابعوا، اضربوا!

وتتابع صفير العصي المرتفعة الهابطة ممزوجة بتأوهات الضحية المصطنعة التي لم تكن لتخلو مع ذلك من شيء من الشراسة.

انفصل ضابط شاب عن موقع الجندي المعاقب وعلى وجهه علامات الإشفاق والارتباك، ورفع إلى الضابط المساعد نظرة متسائلة.

وانطلق الأمير أندريه إلى الخطوط الأمامية يستعرض خط الجبهة كله.

لاحظ أن ذلك الخط كان يتباعد تباعداً محسوساً عن العدو في الجناحين الأيمن والأيسر. أما في الوسط، في المكان الذي جرت المفاوضات لعقد الهدنة ذلك الصباح، فقد كان ملامساً لخطوط العدو لدرجة كان يمكن للجنود من الجانبين أن يروا بعضهم وأن يتبادلوا الحديث. وكان هناك، قلب الجبهة، إلى جانب الجنود المكلفين حماية الخطوط، عدد كبير من الفضوليين الذين جاؤوا من كلا الجانبين، يعاينون العدو غريب الشكل، ويتأملون ملابسه وعتاده التي لم يكونوا قد رأوا مثلها من قبل.

منذ ذلك الصباح لم يفلح الضباط في صد المتطفلين رغم الأوامر الصريحة التي تحظر عليهم الاقتراب من الخطوط الأمامية. وكان الحراس ينتظرون بفارغ الصبر أن يحين موعد استبدالهم. لم يعودوا يأبهون للفرنسيين، بل أصبحوا في مراكزهم أشبه بمن يشرف على عرض منظر نادر، يبدون الملاحظات على أولئك الوافدين. توقف الأمير أندريه يتأمل الفرنسيين.

قال أحد الجنود مشيراً إلى أحد الرماة الروس الذي كان في صحبة أحد الضباط يناقش أحد الرماة الفرنسيين بحرارة: أنظر إلى هذا. إن لسانه مديد جداً، وهذا الفتى! إن الفرنسي لا يستطيع متابعته أو التفوق عليه! دورك الآن يا سيدوروف.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فأجاب سيدوروف الذي كان يمر قرب الجنود ليتكلم بالفرنسية الصحيحة: دعني أستمع. إنه يحسن التخلص مع هذا الفرنسي.

كان الجندي الذي راح الجنديان المازحان يشيران إليه هو دولوخوف، لقد جاء مع رئيسه من الجناح الأيسر للجبهة الروسية حيث كانت سريته معسكرة هناك، لينعم بالحديث مع الفرنسيين. عرفه الأمير أندريه، فأصاخ السمع محاولاً التقاط ما يدور بينهما من حديث.

كان الكابتن، رئيس دولوخوف، يهيب به أن يستمر في الحديث، بينما كان ينحني على قدر طاقته كي لا تفوته كلمة واحدة من ذلك النقاش الذي لم يكن يفهم من اللغة الذي كان يدور بها، كلمة واحدة. كان يصيح بدولوخوف: استمر، استمر، ولكن بسرعة! اسرع في النطق أكثر من هذا! ماذا يقول؟

لكن دولوخوف كان منصرفاً بكليته إلى نقاشه مع الجندي الفرنسي، فلم يكن عابئاً برئيسه وملاحظاته. كان الحديث يدور في تلك اللحظة حول المعركة والحرب، وكان ذلك متوقعاً. وكان الفرنسي المتحدث، وهو الذي كان يخلط بين النمسويين والروس، يزعم أن الجيش الروسي قد هزم في «أولم» وأنه استسلم هناك ولايزال يتراجع. بينما كان دولوخوف يؤكد له عكس ذلك، ويجزم أن الروس هزموا الفرنسيين وأنهم لا يفكرون في الاستسلام مطلقاً، وتابع يقول: إن لدينا أمراً بطردكم من هنا، ولسوف نطردكم!

فأجاب الفرنسي بسخرية: ولكن حـاذروا أن لا نأسركم جميعاً والقوقازيين معكم «على البيعة»!

وانفجر كل من كان في المعسكر الفرنسي ضاحكاً.

ردّ عليه دولوخوف قائلاً: بل إننا سنجعلكم ترقصون كما رقصتم من قبل أمام سوڤوروف!

قال أحد الفرنسيين متسائلاً: بماذا يهذي هذا الروسي؟

www.Maktbah.com

فأجابه آخر وقد خمن أن الأمر متعلق بحادثة قديمة سابقة: بالتاريخ القديم... ثم التفت إلى دولوخوف وتابع:

ـ سوف يرى سوڤارا «ك» هذا وكل الآخرين ما يخبئه له الأمبراطور.

همّ دولوخوف بمتابعة الحديث فقال: پوناپرت...

غير أن الفرنسي لم يمهله بل قطع عليه طريق الاستمرار غاضباً:

ـ ليس هناك پوناپرت، بل الأمبراطور.

ـ ليحل الشيطان في أمبراطوركم!

وعقب باللغة الروسية شتائم قبيحة شائعة على ألسنة الجنود، ثم تنكّب بندقيته وابتعد.

قال يخاطب رئيسه: هيا يا إيـڤان لوكيتش.

وقال الجنود الروس: هكذا الحديث بالفرنسية وإلا فلا! والآن امضِ أنت يا سيدوروف!

غمز سيدوروف بعينيه ثم راح يتمتم بكلمات مبهمة وهو يخاطب الفرنسيين، متظاهراً بالإلمام بلغتهم: كري، مالا، تافا، سافي، موتي، كاسكا،...

كان صوته ولهجته لا يدعان مجالاً للسامع الجاهل للشك في أنه ملمّ باللغة الفرنسية وقواعدها، وأنه يتحدث عن أشياء دقيقة.

وانفجر الجنود الروس بضحكة بهيجة بلغ من تأثيرها أن انتقلت إلى صفوف الفرنسيين المتجهمين. كان يخيل إلى الناظر إلى ذلك المشهد، أن الجانبين أصبحا على وشك إطلاق بنادقهم في الهواء وتفجير ذخائرهم استعداداً للعودة إلى بلادهم. لكن البنادق لبثت محشوة ونوافذ إطلاق القذائف ظلت مهيأة جاهزة، والخنادق والمتاريس محافظة على مظهرها العدائي المهدد، والمدافع موجهة من الجانبين إلى المعسكرين المتحاربين بعد أن سحبت عن العربات التي تجرها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

صعد الأمير أندريه إلى حيث نصبت المدفعية التي قال الضابط المرافق عنها منذ حين: إنها أقيمت في مكان يشرف على ساحة المعركة كلها. بعد أن استعرض الجناحين الروسيين الأيمن والأيسر، فلما وصل إلى المرتفع الذي نصبت المدافع فوقه، ترجل عن جواده بالقرب من المدفع الرابع والأخير في ذلك العش الذي كانت مدافعه مهيأة كلها للانطلاق. وكان أحد الجنود يقوم بالحراسة هناك فهمّ بتحية الأمير بسلاحه، لكنه أشار إليه أن يتابع عمله، فعاد الجندي إلى سيره الممل في مركز حراسته.

كانت العربات التي تحمل عليها تلك المدافع بالقرب من المكان، يليها المزرب الذي تحفظ فيه الخيول ثم مركز المدفعيين. وإلى اليسار، قريباً من القطعة الأخيرة، أقيم كوخ صغير حديث البناء، كانت أصوات الضباط وأحاديثهم ترتفع منه.

كان الضابط المرافق على حق في قوله عندما أكد أن موقع المدفعية يشرف على الساحة ويسيطر عليها: لقد لمس الأمير پولكونسكي هذه الحقيقة بنفسه وتأكد أن المدافع قد نصبت بشكل جعلها تسيطر على كل المواقع الروسية وعلى جانب غير قليل من معسكر الأعداء.

كان إلى الأمام، على خط أفقي ممتد من إحدى التلال، يرى قرية شوپنغراين، وإلى اليمين وإلى اليسار منها، كانت الأدخنة المنبعثة من ثلاثة أماكن، مراكز الضباط الفرنسيين، تظهر أن جزءاً كبيراً من جيشهم يحتل القرية

www.Maktbah.com

المذكورة وسفح التل الموازي لها. وإلى أقصى اليسار، كان هناك شيء يشبه عشاً للمدفعية، لم يكن الدخان المتصاعد ليسمح للعين المجردة أن تتحقق من صحة الرؤية ـ كان الجناح الروسي الأيمن يحتل مرتفعاً صعب التسلق مسيطراً عى المراكز الفرنسية. وكان فرسان الدراغون، وهم فصيلة من فرسان الخطوط الأولى مهمتها الحرب في حالتي الركوب والترجل، ووحدات المشاة تعسكر هناك. أمام المنحدر سهل التسلق، فقد كان يبدأ من الوسط أو على أدق تحديد من حيث قامت وحدة توشين المدفعية،ويتصل بانحداره بالنهر الصغير الذي يفصل الروس عن قرية شوبنغرابن.

أما الجناح الروسي الأيسر، فكان يرتكز على غابة كان المشاة بالقرب منها قد أشعلوا النار ليصطلوا بها وهم في عملهم المنظم، يقطعون الأخشاب اللازمة لعمليات المعسكر. كان خط العدو أكثر اتساعاً من الخط الروسي وأبعد امتداداً. وكان واضحاً أنه قادر على تطويق الجنود الروس بسهولة عندما تحين الساعة.

أما في مؤخرة الجيش الروسي، فقد كان واد عميق صعب المسالك يقف حائلاً بينه وبين الانسحاب المنظم، وخصوصاً بالنسبة إلى سلاحي المدفعية والفرسان.

أخرج الأمير أندريه دفتره الصغير واتكأ على أحد المدافع وراح يرسم لنفسه مخططاً عن الوضعية العامة، وأضاف بعض الملاحظات بالقلم الرصاص في موضعين من مخططه، كان يهدف منها إلى إنارة سبيل الأمير باغراسيون عند الحاجة. وكانت تلك الملاحظات تنص على أن تجمع كل المدفعية في الوسط وأن ترسل وحدات الخيالة إلى ما وراء الوادي وراء الخطوط الخلفية. كان پولكونسكي مرافقاً للجنرال بصورة مستمرة، وكان مكلفاً تدوين النواحي التاريخية في المعارك. لذلك فقد كان اهتمامه منصباً

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

على التدابير العامة بصورة خاصة وعلى حركات الكتل الكبيرة من الجيوش. ولهذا السبب، وجد نفسه في مهمته الحالية مهتماً بصورة خاصة بالخطوط الرئيسية للعملية المتعلقة بالمعركة المقبلة، مغفلاً التفاصيل، مبيناً طارءين أو ثلاثة مما يتوقع حدوثه خلال استعار نار المعركة. كان يحدث نفسه بقوله: «إذا هاجم العدو الجناح الأيمن فإن على رماة كييف وقناصة يودولي أن يصمدوا في أماكنهم حتى تصلهم الإمدادات التي ستؤخذ من الوسط، وفي هذه الحالة، يستطيع فرسان الدراغون أن يهاجموا جناحه وأن يقذفوا به بعيداً. أما إذا بدأ الهجوم على الوسط فإننا سنركز المدفعية الوسطى على هذا المرتفع وبذلك نغطي انطواء الجناح الأيسر ثم ننسحب بتراجع منظم حتى نصل إلى الوادي».

خلال هذا الوقت كله، كان لا ينفك يصغي إلى نقاش الضباط في كوخهم دون أن يفقه شيئاً من أحاديثهم كما يحدث غالباً لكل من ينصرف بكليته إلى أمر ما دون أن تشاركه فيه كل حواسه العاملة الأخرى.

وفجأة ارتفع أحد الأصوات بشكل جعله ينصت مرغماً إلى ما يقوله ويرهف حاسة السمع لالتقاط المعاني وتجريدها عن الكلمات. كان ذلك الصوت ذو الإيقاع الجميل مألوفاً بالنسبة إلى مسامع الأمير، وكان يقول: كلا يا صغيري. لو كان في حدود المستطاع معرفة ما يحدث بعد الموت لما شعر أحد منا بالخوف. نعم، إنه كذلك يا صغيري.

فارتفع صوت آخر أكثر فتوة من الأول يقاطعه: سواء أخاف المرء أم لم يخف فإن من الواجب أن يمر المرء بهذه التجربة.

فقال صوت ثالث متفجر بالرجولة، أجش: إن ذلك لا يمنع المرء من الشعور بالخوف! هيه! أيها العلماء المتفذلكون يبدو أن علمكم كله ناتج من أنكم تستطيعون أبداً ابتلاع الطعام وشرب قطرات من الماء بعده!

وانفجر صاحب ذلك الصوت الضخم، وهو، ولا شك، من صفوف

www.Maktbah.com

المشاة في الخطوط الأولى، بضحكة مدوية. بينما عاد الصوت الأول يقول: نعم، إن ذلك لا يمنع المرء من الشعور بالخوف، إن المرء يخاف من المجهول. نعم إنه لكذلك. لأنه مهما حدثونا عن صعود الروح إلى السماء، فإننا نعلم أن السماء ليست إلا ظاهرة خداعة ليس فيها إلا الفضاء.

ومجدداً قاطع الصوت الأجش ذلك المتحدث ليقول: هيا يا توشين، ماذا أصابك. أذقنا طعم الخمر الذي عندك.

وتمتم الأمير أندريه محدثاً نفسه: «آه! إنه الكاپتن الذي كان حافي القدمين عند الخمّار!» تأكد الآن أن الصوت الذي كان مألوفاً لسمعه كان صوت توشين، فلذّ له الإصغاء إلى ذلك الصوت اللطيف الذي يملكه ذلك الرئيس الفيلسوف.

قال توشين: سأقدم لكم خمراً ما شئتم الاغتراف؛ ولكن فيما يتعلق بمعرفة الحياة المقبلة...

لم يتسنّ له الوقت لإتمام جملته. ذلك أن صفيراً عالياً شق الفضاء وراح يقترب ويتضح ويزداد حدة، ولم تلبث القذيفة أن احترقت الأرض بشدة قرب كوخ الضباط، وكأنها آسفة على عدم إمكانها التحدث بكل ما كانت تعنيه بذلك الصفير المزعج. وارتفعت من أطراف المكان الذي سقطت فيه شظايا وأتربة ووحول، واهتزت الأرض لتلك الصدمة القاسية فبدت وكأنها تطلق زمجرة ارتياع.

في تلك اللحظة بالذات، كان توشين يضع غليونه القصير في زاوية فمه، فاندفع خارج الكوخ. كان وجهه المتقد شاحباً بعض الشيء. اندفع وراءه ذو الصوت الأجش، وكان ضابط مشاة متين البنية، أسرع راكضاً ليلحق بسريته وهو يزرِّر معطفه على عجل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

راحت عينا الأمير أندريه تتفحصان الرقعة الشاسعة المتاحة للنظر محاولاً اكتشاف مكان القطعة التي أطلقت تلك القذيفة استناداً إلى الدخان الذي تخلفه عادة بعد كل طلقة وقد اعتلى صهوة جواده ووقف به قرب بطارية المدفعية، رأى القطعات العسكرية الفرنسية التي كانت حتى ذلك الحين في جمود تام، تنشط بالحركة، ورأى كذلك أن هناك عشاً للمدفعية العدوة إلى يسارهم. كانت سحابة رقيقة من الدخان لا تزال تحلق فوق ذلك المكان. ورأى فرنسيين على جواديهما، ولا شك أنهما من الضباط المساعدين في الأركان، يتسلقان التل، وفي أسفل التل، قرب السفح، رأى فصيلة من الجنود تتحرك صاعدة، فقدر أنها أوفدت لتعزيز الجناح القائم هناك.

ولم تكد سحابة الدخان المنبعثة من القذيفة الأولى تتبدد حتى ارتفعت سحابة ثانية أعقبها دوي عنيف. كانت المعركة قد نشبت، حوّل پولكونسكي جواده ومضى مسرعاً في طريق «غرانت» للقاء پاغراسيون، بينما ازدادت المدفعية حدة من ورائه. كانت الأصوات الراعدة هي رد المدفعية الروسية على الأعداء، وفي الأسفل، في المكان الذي قدمت فيه المباحثات الأولى، جن جنون البنادق من الجانبين.

كان لومار وا قد سلم منذ لحظات كتاب بوناپرت الرهيب إلى مورا الذي أصيب في كبريائه، فأراد إصلاح الخطأ الذي تورط فيه. وهكذا أصدر الماريشال مورا أمره إلى جنوده بمهاجمة وسط القوات الروسية والقيام

www.Maktbah.com

بحركة التفاف حول الجناحين. كان يأمل أن يسحق الجيش الروسي الهزيل قبل حلول الظلام ويصل الأمبراطور إلى مكان المعركة.

أخذ الأمير أندريه يحدث نفسه قائلاً: «ها هي إذن المعركة المنتظرة! ولكن في أية لحظة يقدر لي أن أجد «طولوني»[1]؟ وماذا سيكون نوعها على وجه الدقة؟

أحسّ بالدم يتدفق بغزارة في قلبه. ولما مر أمام السرايا التي شاهد أفرادها قبل ربع ساعة يتناولون طعامهم هانئين ويشربون الفودكا مستبشرين، رأى الحركة الدائبة السريعة عامة في كل مكان، والجنود يصطفون حسب نظام المعركة ويعاينون بنادقهم. تأكد أن الاستفزاز الذي تعتلج به نفسه، يصطخب في كل القلوب من حوله ويبدو واضحاً على الوجوه. كان يبدو على الجنود والضباط على السواء أنهم ينطقون بلسان حال موحد قائلين: «ها هي ذي المعركة أخيراً! إنها مرعبة لكنها مع ذلك مسلية!».

شاهد في غسق تلك الأمسية من أيام الخريف وقبل أن يصل إلى الأكواخ التي كانت قيد البناء، كوكبة من الفرسان تقترب من موقعه. كان في طليعة الفرسان، فارس متدثر بفروة قوقازية وقلنسوة من جلد الخروف، يعتلي صهوة جواد أبيض. كان ذلك الفارس الأمير پاغراسيون، فتوقف پولكونسكي بانتظار قدومه. عرفه پاغراسيون الذي توقف بدوره على مقربة وأشار إليه برأسه أن يقترب وظل يراقب ساحة المعركة وهو يصغي إلى تقرير مساعده.

كانت فكرة: «تلك هي إذن المعركة!» مرتسمة بالمثل على وجه پاغراسيون البرونزي الصارم، الذي كانت عيناه نصف المغمضتين تبدوان وكأن صاحبهما مستغرق في سبات عميق، أو أنه لما يستيقظ من نومه بعد.

---

(١) طولون مدينة فرنسية كانت تحت سيطرة الإنكليز، استرجعها بوناپرت وطرد الإنكليز منها، فكانت بداية شهرته. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

راح الأمير أندريه يتفحص بفضول قلق ذلك الوجه الجامد. أخذ يحدث نفسه: «ترى بماذا يفكر هذا الرجل الآن وما هي مشاعره؟ هل هناك شيء وراء هذا الوجه الجامد؟ هذا إذا كان صاحب مثل هذا الوجه قادراً على التفكير والشعور!» كان پاغراسيون يومئ برأسه بعد كل فقرة من تقرير پولكونسكي ويقول: «حسناً! حسناً!» وكأنه كان يعرف من قبل كل ما يفوه به مساعده وكل ما يجري في ساحة المعركة.

وكان پولكونسكي لاهثاً من جريه على جواده، فكانت الجمل تخرج من فمه متلاحقة أما پاغراسيون فعلى العكس، كان يلقي كل كلمة بتمهل وبطء شديدين، بتلك اللهجة الشرقية المعروفة لديه، وكأنه كان يقول أن لا حاجة إلى الإسراع والعجلة. مع ذلك فقد ترك جواده ينهب الأرض هدباً ليصل إلى حيث يقوم توشين بمدفعيته، فالتحق پولكونسكي بأعضاء معيته وبينهم ضابط من حاشية جلالة الأمبراطور الروسي، والمساعد الخاص لپاغراسيون وضابط تابع وضابط ركن كان يمتطي حصاناً جميلاً مولداً من أب إنكليزي العرق، وأخيراً موظف مدني، وهو أحد المنشئين طلب السماح له بمتابعة المعركة يدفعه حب التطلع والفضول. ذلك المدني، رجل ضخم الجثة، منتفخ الوجه، لا يعرف الاستقرار على صهوة الجواد، يلقي حوله نظرات يشفعها بابتسامة ساذجة بريئة، ويشكل في مجموعه منظراً غريباً مضحكاً وهو في معطفه الرث على السرج المخصص للضباط الفرسان، وسط تلك المجموعة من الفرسان والقوقازيين والضباط المساعدين.

قال جركوف لـپولكونسكي. هذا هو السيد الذي يريد مشاهدة المعركة. بدأ يشعر الآن بألم في فجوة معدته.

فأجاب المدني بابتسامة مشعة جمعت بين المكر والسذاجة: ولكن كلا، يا للدعابة!

www.Maktbah.com

بدا عليه أنه شديد الابتهاج لاعتباره هدفاً يسدد إليه جركوف دعاباته، وكان يتظاهر بالبلاهة أكثر من الحد الذي كان حرياً به أن يبلغه.

قال الضابط الركن بفرنسيته الركيكة: مضحك جداً يا سيدي الأمير.

كان يعرف كلمة أمير بالفرنسية تسبقها عادة كلمة أخرى. وكان على حق في هذا. لكنه ما كان يوفق إطلاقاً في معرفة تلك الكلمة.

بلغ پاغراسيون وأفراد حاشيته عش مدفعية توشين، في اللحظة التي سقطت قذيفة على مقربة منهم.

سأل المدني بلهجته الساذجة: ماذا الذي وقع؟

فأجابه كركوف: فطائر فرنسية!

ـ آه! رباه! أبهذه الفطائر يقتلون إذن؟ يا للفظاعة!

كان لسانه ينطق بهذه الأقوال بينما جسمه الضخم على استعداد للاهتزاز تحت وطأة ضحكة مدوية. ولم يكد ينجز جملته حتى سقطت قذيفة ثانية يصحبها صفير مريع قطعته صدمة لينة مرنة. وإذا بالقوقازي الذي كان قرب الرجل الضخم إلى الوراء قليلاً، يهوي مع جواده محطمين. انحنى جركوڤ والضابط الركن على عنقي جواديهما وابتعدا بهما. أما المدني، فقد أوقف جواده وراح يتفحص القوقازي بنظرة متطفلة: كان الرجل قد فارق الحياة بينما كان الحصان لايزال يتخبط في النزع الأخير.

ألقى پاغراسيون نظرة إلى الوراء. ولما شاهد سبب الاضطراب الذي حدث، استدار بلا مبالاة وكأنه يقول: «هل تستحق مثل هذه التفاهات شيئاً من الاهتمام؟» أوقف جواده برزانة الفارس الخبير وانحنى قليلاً ليمتشق حسامه الذي كان بين طيات «فروته». كان السيف من طراز قديم مختلف عما درجت العادة على حمله في تلك الأيام. تذكر پولكونسكي أن سوڤوروف كان قد أهدى سيفه إلى پاغراسيون خلال الحرب الإيطالية، فكان لتلك الذكرى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في ذلك الموقف العصيب أثر جميل في النفوس. وفي تلك الأثناء، اقترب صحب الأمير من النقطة التي راح يتأمل منها المعركة الدائرة.

سأل پاغراسيون جندي «الحراقة» الذي كان يقوم بواجبه أمام صناديق البارود: من أية «بطارية»؟

كان سؤاله يهدف في حقيقته إلى القول: «آمل ألّا تكون خائفاً». وقد أدرك جندي الحراقات، وهو شاب مشيق القامة، أحمر الشعر، خلف الجدري آثاراً باقية على وجهه، مضى السؤال كما يريده الأمير، فأجابه وهو يأخذ وضعية الاستعداد، بصوت منطلق: من بطارية الكاپتن توشين يا صاحب السعادة!

فأجاب پاغراسيون بلهجة متزنة:

حسناً، حسناً.

ثم مر أمام عربات جر المدافع واقترب من المدفع الأخير.

دوى انفجار هائل صم أذنيه وآذان أتباعه بينما كان في طريقه إليه. إن المدفع الرابع كان في تلك اللحظة قد قذف ما في جوفه من حمم. ورأى الأمير وصحبه خلال الدخان الذي ارتفع من حوله، جماعة من المدفعيين يمسكون بالمدفع المنطلق محاولين إعادته إلى مكانه قبل الانطلاق.

وكان المكلف رقم ١، وهو فتى عريض المنكبين مباعداً ما بين ساقيه يمسك بيده الفرشاة المصنوعة من قطع اللباد والمخصصة لتنظيف «سبطانة» المدفع، يقفز جانباً قرب عجلة المدفع، بينما وضع المكلف رقم ٢ في فوهة القطعة القذيفة الثانية وكان توشين ـ وهو قصير القامة كما أسلفنا مربوع الجسم، يندفع إلى الأمام مستنداً إلى حاجز العش، يراقب العدو واضعاً يده على جبهته ليركز أنظاره في النقطة التي يحدق إليها؛ فلم يشعر بدنو الأمير پاغراسيون.

www.Maktbah.com

ـ صاح توشين بصوته الرقيق الذي كان يسعى لجعله خشناً ما استطاع: أضف خطين آخرين إلى مسافة الرمي وعندئذ سنصيب الهدف!

كان صوته لا ينسجم مع شخصه. مع ذلك فقد صاح بقوة: القطعة الثانية: نار! هيا يا ميدڤيديف!

استدعاه پاغراسيون، فاقترب توشين ورفع إلى حاجز خوذته أصابعه الثلاث بحركة مضطربة غير موفقة، تشبه حركة الراهب عندما يبارك المصلين أكثر مما تبدو تحية عسكرية.

وعلى الرغم من أن وظيفة «بطاريته» كانت محصورة في دك صفوف الجنود الزاحفين فإنه كان يطلق نيران مدفعيته بضراوة على قرية شوينغرابن التي كانت ظاهرة أمامه والتي كانت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتحرك حولها ناشطة.

ولما لم يجد أحداً يمده بالتعليمات حول الهدف ونوع القذائف التي يجب أن يستعملها، لذلك فقد استشار صف الضابط المساعد له واسمه زاخارتشنكو الذي كان يقدره ويحترم رأيه، وقرر أخيراً أن من الأصوب قصف القرية وإشعال النار فيها. فقال پاغراسيون على عادته بعد سماعه تقرير ضابط المدفعية: «حسناً. حسناً!» واستغرق في تأمل ساحة المعركة التي كانت ممتدة بأكملها تحت ناظريه، وبدا كأنه يضع خطة ما.

نشط الفرنسيون في التقدم على الجناح الأيمن أكثر من أي خط آخر من خطوط القتال. وكانت نيران البنادق على أشدها في الوادي حيث يجري النهر، على مقربة من الربوة التي كانت سرية كييف معسكرة عليها. وكان صوت الرصاص الملعلع يقبض القلب. أشار الضابط الركن لافتاً انتباه پاغراسيون إلى فصيلة من الفرنسيين كانت قد انتهت من التفاف حول الجناح الأيمن الأقصى، وراء فرسان الدراغون «التنين». وإلى اليسار، كانت غابة غريبة جداً

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تقطع الأفق البعيد. أصدر باغراسيون الأمر لسريتين من الوسط بالتوجه إلى الجناح الأيمن لتعزيز قواته. وتجرأ الضابط الركن وأبدى ملاحظته على هذا التصرف مبيناً أن سحب السريتين من الوسط سيجعل «البطارية» دون تغطية لكن باغراسيون التفت إليه وحدّق إلى وجهه بعينيه الكامدتين دون أن يتفوّه بكلمة. وبدا للأمير أندريه أن ملاحظة الضابط الركن سديدة لا يمكن الجواب عنها أو نبذها. لكن في تلك اللحظة، جاء أحد الضباط التابعين يعلن أن: قائد السرية «الكولونيل» التي تحارب في منحدر النهر، يعلم القيادة أن الجيوش الفرنسية التي هاجمته كثيرة العدد، أرغمته على الانطواء إلى حيث يعسكر رماة كييف. فأومأ باغراسيون برأسه وأرسل الضابط على جناح السرعة إلى فرسان الدراغون يحمل إليهم الأمر بالقيام بالهجوم، بينما مضى سيراً على قدميه نحو الجناح الأيمن.

ولم تمض نصف ساعة حتى عاد الضابط التابع يقول بأن الزعيم قائد السرية اضطر للانسحاب إلى الجانب الآخر من الوادي بسبب النيران الكثيفة التي استقبله بها المهاجمون الفرنسيون في حركة انطوائه على موقع رماة كييف، وأنه وجد ذلك الانسحاب أكثر تعقلاً خشية أن يخسر عدداً كبيراً من جنوده دون جدوى. لذلك أرسل قناصة إلى الغابة ينتشرون فيها ليفاجئوا العدو من مراكزهم الجديدة.

قال باغراسيون: حسناً!

لعلع الرصاص بشدة إلى اليسار في الغابة. وفي اللحظة التي ابتعد فيها عن «البطارية». ولما كان الجناح الأيسر بعيداً جداً يتعذر عليه الوصول إليه شخصياً، فقد أرسل جركوف يحمل أمراً للجنرال الذي يقود ذلك الجناح، وهو ذلك الجنرال الذي قدم جنوده إلى كوتوزوف في برونو كما يذكر القراء،

www.Maktbah.com

يقضي بالتقهقر بأقصى سرعة إلى وراء الوادي نظراً إلى أن الواقع يدل على أن الجناح الأيسر لن يستطيع الصمود طويلاً أمام العدو.

أما توشين ولواء التغطية فلم يعد يفكر فيهما أحد. لاحظ پولكونسكي، وكان يتابع بمزيد من الاهتمام المواضيع التي كان پاغراسيون يتبادلها مع الضباط القادة والتعليمات التي كان يصدرها إليهم، أن الأمير لم يكن في الحقيقة ليصدر أيّ أمر، بل إنه كان يتعمد إيهام مساعديه وضباطه بأن كل ما كان يحدث بفعل ضغط الظروف وتطوراتها أو بمحض الصدفة أو نتيجة للأوامر التي كان ضباطه يصدرونها لرجالهم، لم يكن خافياً عليه من قبل، بل إنه وقع وسيقع بناء على رغبته ومعرفته التامة به. مع ذلك، وعلى الرغم من أن الأحداث كانت متروكة للظروف دون أن يكون لمشيئته أي أثر فيها، فإن مجرد وجود پاغراسيون كان يعطي نتائج مدهشة بفضل الأسلوب الذي كان يتبعه وشخصيته الموقرة.

كان القادة الذين يلاقونه بوجوه قلقة متقلصة، يتركونه مشرقي الوجه متفائلين. وكان الضباط والجنود يحيونه بهتافات الغبطة عند مروره وقد دبّ النشاط في أوصالهم فجأة، ويجدون متعة كبيرة في إظهار شجاعتهم في حضرته.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر

بدأوا يجتازون الطريق المتعرج والرصاص يلعلع بشدة عند سفحه الغارق بدخان البارود. عندما وصل الأمير پاغراسيون وحاشيته إلى النقطة القصوى من الجناح الأيمن. وكلما توغلوا في تقدمهم، ساءت شروط الرؤية. لكنهم كانوا يشعرون جميعاً باقترابهم السريع من مكان المعركة الحقيقية. ولم يلبثوا أن التقوا طلائع الجرحى. كان أحدهم حاسر الرأس تغمره الدماء، متكئاً على ذراعي رفيقين له، يشهق ويبصق دماً، ولعل الرصاصة أصابته في فمه أو في حنجرته. وآخر يمشي وحيداً بشجاعة لا مثيل لها، وهو أعزل، يزمجر وهو يرفع ذراعه التي كان الدم ينزف منها على معطفه وكأنه يتدفق من إناء طافح. كان وجهه يدل على الذهول أكثر مما يحمل من معالم الألم ولا شك أنه قد أصيب منذ هنيهة فلم يشعر بعد بالألم.

قطع الأمير وجماعته طريقاً معترضاً ثم أصبح المنحدر شديد الوعورة صعب المسلك. كانت جثث القتلى مبعثرة فوق المنحدر الذي كانت جماعة من الجنود تتسلقه بصعوبة بالغة، لاهثة الأنفاس، دون أن يكونوا جميعهم مصابين بالجراح. ولم يمنعهم التقاؤهم الجنرال من إلقاء المواعظ وتحريك الأطراف تبعاً للحديث. وإلى الأمام، كان الأمير وجماعته في وضع يساعدهم على تميز صفوف من ذوي المعاطف الرصاصية اللون.

ولما أطل پاغراسيون، أسرع أحد الضباط يقطع الطريق على الهاربين، يأمرهم بالعودة إلى صفوف المعركة. اقترب پاغراسيون من الصفوف حيث

www.Maktbah.com

أزيز الرصاص يطغى على أصوات الأوامر والصيحات. كان الهواء مشبعاً بالدخان والجنود منقلبي الوجوه وقد تراكم دخان البارود ورشاشه على وجوههم فسوّدها. وكان بعضهم يحشو بندقيته مستعيناً بعصي خاصة، والبعض الآخر يضع «الكبسولات» في أماكنها ويخرج الرصاص من جيب الذخيرة الجلدي المتدلي إلى نطاقه، بينما كان الفريق الآخر يتولى مهمة إطلاق تلك البنادق. ولكن على من كانوا يطلقون؟ ذلك ما لا يمكن معرفته لأن الدخان الكثيف كان يقف حائلاً دون رؤية الأبعاد وخصوصاً أن الريح كانت هادئة، مما ساعد الدخان الكثيف على البقاء على ارتفاعه الخفيض فوق الرؤوس.

ومن حين إلى آخر، كان نوع من الصفير أو الدندنة المكتومة يطرق الأسماع. راح الأمير أندريه يتساءل وهو يقترب من القطعة المحاربة: «ما هذا على وجه الضبط؟ إنه ليس هجوماً لأن الجنود كانوا جامدين في أماكنهم، وليس تشكيل مربعات منظمة. لقد كان الأمر خلافاً لكل ذلك».

كان رئيس السرية وهو زعيم عجوز هزيل، تضفي أجفانه نصف المغلقة على وجهه طابع الدماثة والحلم. اندفع بجواده إلى حيث كان پاغراسيون واستقبله بما يليق به من حفاوة، أشبه بصاحب بيت كريم عندما يحتفي بضيف رفيع الشأن. أطلع الأمير على أن سريته تعرضت لهجوم من قبل الخيالة الفرنسية، فصدت الهجوم لكن سريته خسرت نصف تعدادها من الرجال على أقل تقدير. ولجأ الزعيم في بيانه عن صد هجوم الفرسان إلى تعبير فني ليبين ما وقع في سريته من الأضرار، والحقيقة أنه كان يجهل كلياً مدى الأضرار التي لحقت برجاله خلال نصف ساعة وما وقع أثناءها، وهل صمدت للمهاجمين أم تنحت لهم عن مراكزها.

كل ما كان يعرفه هو أن القذائف والقنابل راحت تمطر بغزارة على

twitter @baghdad_library

سريته عند بدء المعركة، فقد عُشر رجاله، وراح بعضهم يصيح بعد ذلك قائلاً: «الخيالة!»، فراح الروس يطلقون النار وما زالوا يطلقون نيرانهم باستمرار وإن لم تكن في تلك اللحظة على الفرسان الذين تراجعوا قبل ذلك، بل على المشاة الذين اقتربوا من الوادي دون أن يقتصدوا هم الآخرون برصاصهم وبارودهم. أومأ پاغراسيون برأسه إشارة يفهم منها أن كل شيء قد وقع طبقاً لما كان يتوقعه. ثم التفت إلى ضابطه المساعد وأمره أن يصعد إلى قمة التل فيأتي بالسريتين التابعتين لفرقة القناصة السادسة، اللتين مر بهما منذ قليل. بدا على وجه پاغراسيون تحول مفاجئ دهش له الأمير أندريه. كانت قسماته في تلك اللحظة توحي بالعزم المركز شأن الرجل الذي قرر أخيراً القفز إلى الماء للخلاص من حرارة يوم قائظ. اختفت نظرته الجامدة الخاملة وتبدد ذلك المظهر الخداع الذي كان يسلكه في عداد المفكرين الهادئين المتعمقين، واتقدت عيناه ببريق حماسي مشبع بالازدراء، فحاكت عيناه المستديرتان القاسيتان عيون الجوارح التي تهم بالانقضاض على الفريسة غير عابئة بكل ما حولها. وراح پاغراسيون ينظر إلى الأمام محدقاً غير مكترث لما يدور حوله. كان هذا التحول المفاجئ متنافياً مع الهدوء المتزن الذي كان يرافق حركاته من قبل تنافياً غريباً.

أخذ قائد السرية يتوسل إلى پاغراسيون بالابتعاد لان المكان شديد الخطورة. وكان يكرر قوله: «رحماك يا صاحب السعادة، ناشدتك الله»، ويبحث عن عينيه، بأنظاره محاولاً التقاءهما علّ الأمير يقرأ في عينيه ما يهيب به أن يبتعد عن المكان. لكن پاغراسيون كان شاخص البصر إلى الأمام فلم يكن يسمع قول الزعيم ولا تأييد الضابط الركن له، أخذ الزعيم على الأمير قائلاً: «رباه، تبين ما حولك أرجوك»، ويحاول لفت اهتمامه إلى الرصاص

www.Maktbah.com

الذي كان يئز فوق الرؤوس ويصفر. كانت لهجته مشبعة بإصرار البنّاء المتذمر الذي يريد أن يمنع «معلمه» من استعمال فأسه الخاصة.

كان يقول: «إن هذا ليس من عملك يا صاحب السعادة، إننا بلونا هذا العمل فألفناه أما سعادتك فإنك لن تربح من ذلك إلا إصابات وجروحاً». كان من يصغي إلى حديثه يكاد يظن أن تلك الرصاصات المتطايرة المنتشرة في كل مكان حوله، عاجزة عن الإضرار به ومسه بسوء، وكانت عيناه نصف المغلقتين تضفيان على حديثه نوعاً من القناعة الصارخة. وانضم مندوب الأركان العامة إلى الزعيم مؤيداً. فكان كل رد باغراسيون أن أصدر أمراً بالتوقف عن إطلاق الرصاص وبانسحاب الأحياء من سرية الزعيم لتحل محلهم السريتان الجديدتان. وفي تلك الأثناء هبت الريح فأزاحت ستار الدخان الكثيف إلى اليسار وكأن أيدياً خفية دفعته بعنف في ذلك الاتجاه؛ وانكشفت لنظر باغراسيون وصحبه الرابية المقابلة وقد غطاها الجنود الفرنسيون الزاحفون، اتجهت الأنظار كلها بصورة عفوية إلى ذلك الحشد الزاحف.

كان العدو يسير في خطوط ملتوية على الطريق الدائرية. كان الناظرون يميزون القلانس ذات الريش بل يفرقون بالعين المجردة بين الضابط والجندي، ويرون بوضوح العلم الذي كان يخفق على الصارية.

قال واحد من الأتباع ملاحظاً: إنهم يسيرون سيراً حسناً منظماً.

بدأت مقدمة الزاحفين تنحدر إلى الوادي فكان تقابل الفريقين متوقعاً عند سفح المراكز التي يحتلها الروس. عادت فلول السرية المشتتة إلى الاصطفاف بسرعة والانسحاب إلى اليمين باتجاه المؤخرة، دافعة أمامها والمتخلفين من الجنود؛ واقتربت سريتا فيلق القناصة السادس بنظام دقيق. بدأ وقع أقدامهم الثقيل يتردد ويصك المسامع بإيقاع موزون رتيب تشترك فيه أقدام القادمين دون استثناء. وصل الجنود الجدد إلى المستوى الذي كان يقف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فيه باغراسيون، فكانت السرية اليسرى أقرب من الأخرى إلى حيث وقف الأمين. فأتيح لمرافقيه رؤية قائدها الشاب الوسيم الذي عرف فيه پولكونسكي ذلك الضابط الذي أفلت راكضاً من كوخ توشين عند انفجار القذيفة الأولى. كان وجهه المستدير مطبوعاً بطابع البلاهة والغبطة معاً. ولعل سعادته في تلك اللحظة كانت تعود إلى شرف استعراضه من قبل الأمير وهو على رأس فرقته.

لم يكن إحساس الجنود الآخرين ليختلف عن مشاعر ذلك الضابط الشاب. كان ذلك الضابط يراقب حركاته ووضعيته ولا شيء سواهما، فكان منصرفاً بكليته إلى هذه الجهة. يرفع ساقيه القويتين دون أن يبذل أي عناء، شأن العسكري المحترف، ويضرب بقدميه الأرض حتى ليخيل إلى الناظر إليه أنه يسبح في بركة ماء ويطفو عليها جسده، فكانت مشيته الرشيقة غير منسجمة مع إيقاع أقدام الجنود الذين كانوا يسيرون على هدي مشيته. وكان يتدلى إلى منطقته سيف بدون غمد رقيق النصل ضيقه ـ وهو واحد من تلك السيوف المحدودبة التي لا تشبه الأسلحة في شيء، ويدير ناظريه نحو رؤسائه حيناً وإلى الوراء صوب جنوده أحياناً، وهو يلوح بساعديه القويين فيترجح جسمه المتين على إيقاعها. كان يبذل كل قواه ليبدو العرض الذي يرأسه في أوج الدقة والانسجام. وبدون شك إنه كان سعيداً لنجاحه في مسعاه وفوزه في أداء واجبه على أكمل وجه، فكان مظهره يوحي بأنه يهتف بانتظام: «شمال... شمال... شمال...» وهو يدق الأرض بيسراه فيتحرك الجدار الحي وفق ذلك الإيقاع الرتيب.

وهكذا كانت تسير مئات من النفوس، رجال ذوو وجوه صارمة متشابهة رغم اختلاف مشاربهم، حنوا ظهورهم تحت ثقل أكياسهم العسكرية وبنادقهم، بدا كل منهم مستجيباً أثر كل خطوة إلى النداء الخفي المتردد بانتظام: «شمال... شمال... شمال...».

www.Maktbah.com

بهرت أنفاس ضابط سمين برتبة ماجور، وفقد الإيقاع المنظم، فاستدار حول دغل صغير ليصحح من خطوه، ركض جندي متعب متخلف أجفل رعباً من تأخره، فالتحق بسريته راكضاً منتظماً في الصف الأخير. وسقطت قذيفة مرت فوق رأس پاغراسيون قبل أن تنقض على السرية المتحركة، فأحدثت أضراراً جسيمة. غير أن الجدار المتحرك لم يتوقف ولم يضطرب في مشيته الإيقاعية: «شمال... شمال...» ... وكل ما في الأمر أن الضابط الوسيم أصدر أمره قائلاً: «تراصوا!». كان لصوته وقع بالغ، فراح الجنود يرسمون قوساً حول المكان الذي سقطت فيه القذيفة ليعودوا إلى نظامهم الرائع بعد تخطي ذلك العائق غير المنتظر.

تخلف أحد رؤساء الفصائل، وكان صف ضابط مسناً يزين صدره بالأوسمة، ليحصي عدد القتلى والجرحى، وما لبث أن أسرع يلتحق بالسرية في مكانه المقرر على الجناح، فبدل خطوته لتنسجم مع الإيقاع، واندمج كلياً مع السائرين وهو يلقي وراءه نظرات غاضبة. وعاد وقع الخطى: «شمال... شمال...» يتردد مجدداً معكراً السكون الثقيل الكثيف الذي كانت الخطى الإجماعية الرتيبة تقرع الأرض فتبدده.

قال الأمير پاغراسيون للجنود: هيا يا أبنائي، تصرفوا تصرف الأبطال البواسل.

فأجاب الجنود بصوت واحد: سنعمل كلّ ما في وسعنا يا صاحب السعادة!

وبينما كانوا جميعاً، حدج أحدهم ـ وهو فتى عابس الوجه كان يسير إلى اليسار ـ الأمير پاغراسيون بنظرة قاتمة، وكأنه يقول: «إننا نعرف ما يجب، يا للشيطان!». وكان آخر يصيح ملء حنجرته هاتفاً دون أن يدير رأسه إلى حيث كان الأمير، وكأنه يخشى أن ينسيه ذلك انتظام خطواته مع المجموعة السائرة.

twitter @baghdad_library

صدرت الأوامر بالتوقف وبنزع الأكياس عن الظهور.

استعرض پاغراسيون الصفوف ثم ترجل عن جواده وسلم أعنته إلى أحد القوقازيين بينما ألقى «بفروته» إلى قوقازي آخر، وحرك ساقيه ليعيد إليهما النشاط وسوّى من وضع قلنسوته. كانت الكتيبة الفرنسية الزاحفة وعلى رأسها ضباطها قد بلغت في تلك اللحظة حدود المنحدر.

دوى صوت پاغراسيون الحازم آمراً: إلى الأمام وبعناية الله!

واستدار لحظة نحو جنوده، ثم رفع ساقه اليسرى، وهي ساق فارس لم يحسن قط السير المنظم، وضرب بها الأرض متقدماً، ملوحاً بذراعه، وراح يتقدم نحو العدو فوق أرض مليئة بالحفر، شعر الأمير أندريه بقوى خفية تدفعه إلى الأمام، فاندفع لاحقاً بالأمير پاغراسيون والسعادة ملء إهابه.

كانت تلك المعركة هي التي قال عنها تيير[١]: «لقد تصرف الروس ببسالة. وقد شوهدت في تلك المعركة، الأمر الذي يندر وقوعه في الحروب، كتلتان من المشاة تسير كل منهما بحزم وتصميم نحو الأخرى، دون أن تتفكك وحدة صف إحداهما قبل التقائها الأخرى». وكتب ناپليون عن هذه المعركة في القديسة هيلين، منفاه، «لقد أظهرت بعض القطعات الروسية شجاعة خارقة».

وصل الفرنسيون إلى مسافة قريبة جداً، واستطاع پولكونسكي الذي كان يسير إلى جانب پاغراسيون أن يرى بوضوح حمالات أسلحة الجنود والأشرطة الحمراء التي تزين الأكتاف والوجوه أيضاً. ولاحظ كذلك أن ضابطاً فرنسياً ذا ساقين ملتويتين، يتسلق المرتفع بمشقة بالغة. لم يصدر پاغراسيون أي أمر بل ظل في تقدمه بخطاه المنتظمة على رأس الجنود. وفجأة انطلقت رصاصة من صفوف الفرنسيين أعقبتها ثانية فثالثة،... ولعلع الرصاص على طول صفوفهم

---

(١) مؤرخ وسياسي فرنسي، مؤرخ تاريخ الثورة الفرنسية (المترجم).

www.Maktbah.com

المتفرقة بين سحب من الدخان الكثيف. سقط بعض الجنود الروس، وكان الضابط الوسيم الذي كان منذ حين يسير على رأس جنوده يستخفه الفرح، فيضبط الإيقاع بنظام مكين، في عداد الساقطين. وكان باغراسيون، إثر انطلاق الرصاصة الأولى، قد توقف والتفت إلى جنوده وصاح بصوت قوي: هورّا!

فرددت الحناجر كلها مثل ترديد الصدى: هورّا... آ...آ!

واندفع الجنود يتخطون الجنرال ويتدافعون، بالحيوية والحماسة، فانحدروا إلى أسفل التل دون نظام، وارتموا على الفرنسيين الذين تبعثرت صفوفهم بالمثل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

سمح هجوم فيلق القناصة السادس بانسحاب منظّم للجناح الأيمن، بينما كانت مدفعية توشين المغفلة، حتى تلك اللحظة، تعرقل تقدم الفرنسيين على الخطوط الوسطى لأنهم اضطروا إلى الانشغال بإطفاء الحريق الذي أحدثته مدفعيته في القرية، مما أعطى الروس الفرصة المناسبة للانطواء. وتم الانسحاب عبر الوادي بسرعة صاخبة ولكن دون أن تكتسح البلبلة والفوضى صفوف الجنود. وفي المقابل، فقد شتت «لانّ[1]» الجناح الأيسر الذي كان يضم فيالق كييف وبودولي وفرسان الدراغون. فقد كانت القوة التي تحت إمرته، متفوقة بالعدد والعُدد على الروس، فهاجمتهم وطوّقتهم من كل جانب. فأرسل باغراسيون الضابط المساعد جيركوف ليحمل الأمر إلى قائد تلك الفيالق ـ وكان برتبة جنرال ـ بالانسحاب فوراً.

وبدون تردد اندفع جركوف، ويده ملتصقة بحاجز قلنسوته بتحية محترمة، يحث جواده باتجاه الجناح الأيسر. لكنه لم يكد يغيب عن أنظار باغراسيون حتى خانته قواه واستحوذ عليه خوف قاتل، جعله يذهب للبحث عن الجنرال وزملائه القادة في الأماكن التي لا يمكن أن يكونوا فيها، متنكباً المكان الذي كانت أصوات الرصاص والقذائف تشق فيه كبد السماء. وهكذا، لم يبلغ الأمر بالانسحاب!

كانت قيادة الجناح الأيسر مناطة بفعل القدم بالجنرال الذي قدم قواته

---

(١) مارشال فرنسي ساعد بوناپرت في انقلابه وتنصيبه أمبراطوراً. (المترجم).

www.Maktbah.com

لكوتوزوف قرب برونو، حيث كان دولوخوف في تلك الأثناء جندياً بسيطاً بعد أن عوقب بنزع رتبة الضابط التي كان حاصلاً عليها. وكان أقصى الجناح يأتمر بأمر كولونيل پاڤلوغراد وهو الفيلق الذي يضم في عداده الكونت روستوف.

فكان التناحر بين القائدين سبباً في حدوث سوء تفاهم مدمر، لأن كلاً منهما كان شديد الحقد على الآخر. وبينما كانت العمليات دائرة بنشاط على الجناح الأيمن، والفرنسيون على وشك التحول إلى الهجوم على الجناح الأيسر وفق خطة آنية، كان القائدان المتنافسان منهمكين في جدال ونقاش لم يكن في جوهرهما إلا تبادل عبارات التقريع. أما قطعاتهما، فإنها لم تكن معدة أعداداً كافياً للقتال، وخصوصاً أنهما لم يكونا يتوقعان قتالاً في ذلك اليوم بالذات.

فكان الضباط والجنود منصرفين إلى أعمالهم العادية السلمية، بين فرسان يقدمون العلف لخيولهم ومشاة يجمعون الحطب للوقود.

قال الزعيم قائد الفرسان لضابط تابع للجنرال، ووجهه شديد الاحمرار من الغضب: أنا أعترف بأنه أقدم مني رتبةً فليعمل ما يشاء. لكنني لن أسمح له بالتضحية بفرساني. أيها البوّاق، اقرع نداء الانسحاب!

كان الموقف شديد الحرج، والسرعة الكلية متطلبة ولازمة. فالمدفعية العدوة وطلقات البنادق كانت تتدخل وتمتزج محدثة دوياً مريعاً إلى اليمين وفي الوسط، ومعاطف المشاة الفرنسيين التابعين للماريشال «لانّ» أصبحت واضحة وقد بلغ لابسوها سدّ المطحنة القريبة ووجهتهم الجناح الأيسر. وبات العدو على صف مرمى البندقية فقط.

فمضى قائد المشاة بمشيته المترددة، إلى جواده فاعتلاه، واتَّجه مرفوع الجذع، إلى زعيم پاڤلوغراد. وتقابل القائدان بعد أن تبادلا تحية مهذبة لم تخل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من غضب عنيف يحاول كل منهما حجبه، وقال الجنرال: اسمع يا كولونيل، لن أستطيع إبقاء نصف رجالي في الغابة دائماً. فأرجوك، هل تسمع، أرجوك أن تهاجم وأن تحتل المكان الملائم في المعركة.

فأجاب الزعيم محتداً: وأنا أرجوك ألّا تتدخل فيما لا يعنيك. لو كنت فارساً...

ـ إنني أيها الكولونيل في رتبة جنرال دون أن أكون فارساً. وإذا كنت تجهل ذلك...

فصاح الكولونيل وقد أصبح وجهه بلون الدم: أعرف ذلك تماماً يا صاحب السعادة. تفضل وتنازل بمرافقتي إلى الخطوط الأولى وسترى أن المكان الملائم الذي تتحدث عنه لا يجدي نفعاً. لن أضحي برجالي لأرضيك أنت.

لقد نسيت نفسك يا كولونيل. أنا هنا أفكر في كل شيء إلا رغبتي ورضائي. لذلك فإنني لا أسمح لك بالتكلم على هذا النحو. لكز الكولونيل جواده، فتقبل الجنرال التحدي، وعطف جذعه وزوى بين حاجبيه، وتقدم مع غريمه إلى الخطوط الأولى، وكأن خلافهما لا يمكن أن يحسم إلا هنا، تحت وابل المقذوفات النارية. وبينما هما في طريقهما إلى المراكز الأولية، مرت بعض رصاصات إلى جانب رأسيهما، فتوقفا دون أن يتفوها بكلمة. لم يجدهما تفحص الساحة والأماكن التي تدور فيها المعركة فتيلاً.

لقد كان واضحاً لهما، في المكان الذي كانا فيه من قبل، أن هجوم الفرسان متعذر بسبب الأدغال والوديان والمنحدرات، ولأن الفرنسيين كانوا يقومون بحركة التفاف حول اليسار. فراح الجنرال والكولونيل، يتبادلان نظرات صارمة مفعمة بالخطورة، وكل منهما يترقب عبثاً أن تبدر عن الآخر أية بادرة تدل على الخوف أو التخاذل، أشبه بديكين شرسين قبل المعركة.

www.Maktbah.com

اجتاز كل منهما الامتحان بنجاح، فلم يجد أحدهما ما يقوله للآخر، وكان كل منهما يتجنّب ما استطاع، أن تبدر عنه بادرة أو حركة يستدل الآخر منها على رغبته في مبارحة خط النار قبله. وكانا على استعداد للبقاء وقتاً طويلاً في مكانهما يختبران شجاعتهما المشتركة، لو لا أن انفجرت في الغابة وراءهما مئات من طلقات البنادق رافقها ضجيج وصياح. كان الفرنسيون قد انقضوا في تلك الأثناء على جنود روس يجمعون الحطب للوقود! كانت فرصة الفرسان في الانطواء مع المشاة والانسحاب قد فاتت. وكان خط انسحابهم قد قطعه العدو من اليسار، فكان عليهم أن يشقوا لأنفسهم طريقاً بالقوة بين صفوف العدو في أرض لا تصلح لجري الخيل.

وجدت كوكبة روستوف الوقت الكافي لجمع الصف والصمود في وجه العدو. وعادت ظروف جسر «الأنز» تمثل في تلك اللحظة، إذ لم يكن بين المتحاربين من المعسكرين شيئاً يفصلهما إلا ذلك الخط المجهول المخيف والرعب، ذلك الخط الذي يشبه الخط الذي يفصل بين الأموات والأحياء. كان كلّ من جنود الفريقين يشعر بذلك الخط الخفي ويتساءل متردداً هل يجتازه أم لا، كيف السبيل إلى الإقدام والإحجام.

أسرع الكولونيل، فأجاب غاضباً عن أسئلة ضباطه الذين أقبلوا عليه مستفسرين، وألقى بعدد من الأوامر الغامضة، شأن الرجل الذي يتمسّك بيأس مريع بعقليته ورأيه. وعلى الرغم من أن أمر الهجوم لم يؤكده أحد، فإن الإشاعة راجت بين الصفوف مؤكدة أن الفرسان يقومون بالهجوم. وصدر الأمر:

ـ اس... تعد!

وأعقب ذلك صليل السيوف وقد أشهرت من أغمادها. لكن الأمر بالتقدم لم يصدر حتى تلك اللحظة، فلم يتحرك أحد قيد أنملة. كانت قطعات الجناح الأيسر كلها، بين فرسان ومشاة، تشعر أن الضباط أنفسهم عاجزون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عن معرفة ما ينبغي عمله في ذلك الموقف، فسرت عدوى تردد الرؤساء إلى الأفراد أنفسهم.

أخذ روستوف يحدث نفسه وهو يرى أن اللحظة التي سيختبر فيها لذة الهجوم التي طالما حدثه زملاؤه عنها قد أزفت: «ليقع ذلك بسرعة! بسرعة!».

صاح دينيسوف فجأة: بعناية الله أيها الفتيان، خبباً سر!

تماوجت أعناق خيول الصف الأول، وجذب الحصان «شوكا» العنان ومضى تلقائياً. رأى روستوف على مسافة من صفوف الفرسان الأولى، خطاً أدكن قائماً إلى اليمين، لم يتبين معالمه تماماً، لكنه قدر أن يكون هو العدو. كانت أصوات البنادق تسمع بوضوح وإن كانت بعيدة بعد. وعلا أمر جديد: خبباً سريعاً سر!

أحسّ روستوف أن «شوكا» قد مالت مؤخرته ومضى هدباً، فكان مغتبطاً لتتبعه حركات جواده ومعرفة مؤداه ونتائجها، وازداد انشراحه. شاهد شجرة ضخمة منتصبة بعناد على طريقه، وكانت تلك الشجرة تحتل منتصف ذلك الخط القائم الذي كان يعتقد أنه العدو. وها هو قد اجتاز ذلك الخط المخيف فلم يشعر بالرعب ولا بالخوف بل على العكس: ازداد اطمئنانه فراح يتمتم وهو يضغط على مقبض سيفه: «آه، سوف أعمل فيهم طعناً وتقتيلاً!».

انبعث هتاف «هورّا» مدوياً. فحدث روستوف نفسه: «هيا ليصدفوني الآن أياً كانوا!»، ولكز جواده بمهمازيه فاندفع «شوكا» يسابق الريح ويبتعد عن كل الفرسان. وفجأة ظهر العدو، وتساقط على الكوكبة وابل من الرصاص أشبه بلسعات سوط ذي شعب. رفع روستوف سيفه متأهباً للضرب، وفي تلك اللحظة انفصل عنه فارس آخر كان قد خرج عن الصفوف مثله وسار معه في المقدمة، اسمه نيكيتنكو، وشعر روستوف بأنه محمول باندفاع سرعة وهمية ومسمّر في مكانه في آن واحد، وكأنه في حلم مخيف. واصطدم به الفارس

www.Maktbah.com

بوندارتشوك الذي يتبعه، فألقى عليه نظرة غضبى، وجمح جواده ثم مضى مبتعداً.

«ولكن ماذا بي لا أتحرك؟» تساءل روستوف وجاءه الجواب على الفور: «لقد سقطت، لقد مت». أصبح وحيداً في ساحة المعركة، فلم يعد يرى غير الأرض الساكنة وعليها أكواخ مبعثرة، وغابت عن أنظاره الخيول الراكضة وفرسانها المنحنون على ظهورها. شعر بدم حار يغسل جسده فقال يحدث نفسه: «كلا، إنني لست جريحاً، إن «شوكا» هو الذي قتل». والواقع كان كذلك. فقد حاول «شوكا» النهوض على قائمتيه لكنه لم يفلح، وعاد يسقط مجدداً ساحقاً تحت ثقله ساق فارسه.

كان رأس الجواد مخضباً بالدم وكان الحيوان يتخبط دون أن يستطيع الوقوف على قوائمه. أراد روستوف أن ينهض ولكنه أخفق بالمثل لأن جزءاً من ثوبه كان مشبكاً بالسرج. أما أين مضى الجنود الروس؟ وأين الأعداء في تلك اللحظة؟ ذلك ما كان يجهله لأنه لم يكن يرى أحداً حوله.

تمكن من تخليص ساقه والنهوض بعد عناء مضن. راح يتساءل: «في أية جهة يقوم ذلك الخط الذي كان يفصل بين الجيشين؟» لكنه أخفق في الإجابة عن ذلك السؤال. عاد يناجي نفسه بقلق: «ألا يحتمل أن يكون قد وقع لي حادث مؤسف؟ هل ينتظر أن يقع مثل ذلك الحادث؟ وإذا وقع فكيف أتصرف؟» كان سبب هذا التساؤل ما لاحظه على ذراعه اليسرى المشلولة من ثقل إضافي في وزنها. كانت يده تبدو غريبة، غريبة عنه. مع ذلك راح يفتش عبثاً عن آثار الدماء.

شاهد فرقة من الرجال يقودها رجل يرتدي معطفاً أزرق ويضع على رأسه قلنسوة غريبة، أسمر الوجه غامق اللون أقنى الأنف فصاح مستبشراً: «آه! أخيراً لقد أقبل بعضهم! سوف يغيثونني!» كان ذلك الرجل متبوعاً باثنين فقط

twitter @baghdad_library

ثم ما لبث أن انضم إليه عدد آخر كبير. كان أحد القادمين يغمغم أقوالاً لم تكن في نبراتها تشبه اللغة الروسية. وكان أولئك الذين يتبعون الثلاثة المتقدمين، قابضين على فارس روسي كانوا يقودون جواده من أعنته.

فكرّر روستوف: «لا شك أنه واحد من جنودنا وقد أخذ أسيراً... نعم، إن الأمر كذلك... هل سيأخذونني أنا الآخر؟... ولكن من هم هؤلاء؟... أهم الفرنسيون؟... مستحيل!» كان يرى الفرنسيين يقتربون منه وكان يحس، وهو الذي كان يحترق للقيام منذ حين، برعب طاغ كلما ازدادوا دنواً حتى أنه لم يعد يصدق عينيه. «ترى من هم هؤلاء؟... ولماذا يركضون؟... هل يتجهون نحوي؟... هل سيقتلونني؟... يقتلونني أنا الذي يحبني كل الناس؟» راح يفكر في حب أمه له وعطف أسرته عليه وفي أصدقائه المخلصين فبدا له مستحيلاً أن يعمد العدو إلى قتله «ولكن، ما العمل إذا كانت تلك هي غايتهم؟» لبث جامداً أكثر من عشر ثوان دون أن يفقه عن الموقف شيئاً. كان الفرنسي المتقدم، ذو الأنف الأقنى، شديد القرب من روستوف حتى أن هذا كان يستطيع تمييز تقاطيع وجهه. كانت سحنة هذا الرجل المتقلصة وهو ينقض عليه وحربته على فوهة بندقيته، قد أحدثت في نفس روستوف هلعاً شديداً فأشهر مسدسه ولكن بدلاً من أن يطلقه على الفرنسي، رماه به ومضى يعدو هارباً نحو الأدغال، وكأنه أرنب بري وفي آثاره كلاب الصيد.

لم يكن في تلك اللحظة متقداً حماسة للقتال كما كان شأنه في معركة جسر «لينز»، بل كان الرعب القاتل مستولياً على كيانه كله. الرعب من فقد حياته، تلك الحياة الفتية الحافلة بالبهجة والمرح. راح يركض عبر الحقول ويقفز فوق الحفر فيتخطاها، بمثل الاندفاع الذي يحرّك اللاعب الذي يحاول الفوز في مسابقة الحواجز. كان يلتفت بين الحين والحين بوجهه البريء الفتي الذي كساه شحوب الموت، فتجتاح فقرات ظهره قشعريرة باردة ويخاطب

www.Maktbah.com

نفسه بقوله: «كلا، من الخير لي أن لا ألتفت». لكنه قبل أن يبلغ الدغل، التفت مرة أخرى. كان قد أصبح بعيداً عن الفرنسيين، ورأى في تلك اللحظة، الرجل الذي كان في المقدمة، يسرع الخطى وينادي زميلاً له بصوت جهوري. توقف روستوف وقال لنفسه: «كلا، لا شك إنني مخطئ، يستحيل أن يكونوا راغبين في قتلي!» شعر أنه عاجز عن السير إلى أبعد مما سار إليه، لأن ذراعه اليسرى أصبحت شديدة الثقل وكأن ثلاثين رطلاً قد أضيفت إلى زنتها الطبيعية. كان الفرنسي قد توقف بالمثل وسدّد بندقيته إليه. فأغمض روستوف عينيه وانحنى على الأرض وانطلقت رصاصة ثم أخرى مرتا فوق رأسه تصفران. فاستجمع آخر قواه، وحمل ذراعه اليسرى بيده اليمنى ومضى راكضاً متوغلاً في الدغل حيث كان القناصة الروس منتشرين فيه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العشرون

بدأت سرايا المشاة تفرّ أمام العدو بدون انتظام وقد هوجمت في الغابة على غير توقّع، واختلطت الفصائل والوحدات فأصبحت شبيهة بقطعان الماشية. أطلق أحد الجنود، في جنون الرعب الذي استولى عليه، صرخة سخيفة ضمنها جملة مرعبة شديدة الوقع في الحروب: «لقد قُطع خط تراجعنا!».. فأحدثت هذه الكلمات الغبية رعباً وذعراً شديدين في الصفوف، وانتشرت بين الجنود انتشار النار في الهشيم. فراح الفارون يصيحون:

ـ أحيط بنا! لقد طوقنا! لقد ضعنا!

وجاء الجنرال، الذي بلغت أصوات الرصاص مسامعه، مسرعاً من الخطوط الخلفية، وقد وصل في تلك اللحظة، فظنّ أن خطباً جللاً قد وقع في سريته. أقلقه أن يُعزى إليه، وهو الضابط القديم المثالي، إهمال في القيادة أو خطأ فيها. وبلغ من اضطرابه أن نسي عصيان «كولونيل» الفرسان ونسي كرامته كجنرال، فثبّت نفسه فوق السرج واندفع بحصانه غير مبال بالخطر.

اخترق ستاراً كثيفاً من الرصاص المتطاير دون أن يصاب بأذى. كان جلّ همه منصرفاً إلى شيء واحد: معرفة ما يدور في تلك اللحظة بين رجاله مهما غلا الثمن، وإصلاح الوضع وإنقاذ نفسه والترفع بها عن مزالق الخطأ وهو الذي أمضى اثنين وعشرين عاماً في الخدمة دون أن يتعرض لأي نقد.

وصل إلى حدود الغابة التي كان جنوده ينحدرون منها بعد أن اخترق صفوف الفرنسيين دون أن يصاب بأذى، متصامين عن سماع الأوامر. كان

www.Maktbah.com

ذلك الموقف، من تلك الفترات النادرة التي تنتصر فيها البلادة الفكرية وعدم الرويّة على الرصاص المتطاير. فهل كانت تلك الشراذم المتداخلة المضطربة من الرجال تصغي إلى أوامر رئيسها وتلبي نداءه أم أنها ستلقي عليه نظرة لا مبالاة وتستمر في فرارها؟ كان الجانب الأخير من هذا التساؤل هو الأكثر توقعاً.

ذلك أن الجنود، رغم نبرات ذلك الصوت الآمر الذي طالما خافوه ورغم ذلك الوجه المصطبغ بحمرة قانية لاندفاع الدماء الثائرة فيه، ورغم تهديدات السيف المشرع، وقسمات ذلك الوجه العاتي، ظلوا في فرارهم، يطلقون النار في الفضاء ويتصايحون ويرفضون الانصياع للأوامر. لقد كان اتجاه التردد النفسي منصباً نحو الذعر.

استمر الجنرال يصرخ حتى بحّ صوته، وامتلأت حنجرته بدخان البارود المحترق، فوقف يائساً تماماً. بدا له أنه فقد كل شيء. ولكن فجأة، ودون سبب ظاهر، استدار الفرنسيون الذين كانوا يطاردون الهاربين، وغادروا حدود الغابة التي ظهرت عليها بما يشبه المعجزة، فصيلة من القناصة الروس. كانت تلك الفصيلة، فصيلة تيموخين هي وحدها التي حافظت على النظام في صفوفها، فكمنت في الغابة حتى إذا بلغ العدو مقربة منها، انقضت عليه فجأة، وكان أن ارتد العدو مأخوذاً بالمفاجأة. وكان تيموخين مسلحاً بسيفه الصغير فقط، فارتمى على الفرنسيين. بجرأة السكير الجنونية، وراح يطلق صرخات مرعبة مروعة، حتى إن هؤلاء لم يجدوا الوقت الكافي لتعرف أوضاعهم، فألقوا ببنادقهم على الأرض وولوا الأدبار.

وكان دولوخوف في تلك اللحظة متجهاً نحو تيموخين. فقتل فرنسياً في طريقه من مسافة جد قريبة، وكان أول من أطبق على عنق ضابط فرنسي وأخذه أسيراً. وكان لهذه المفاجأة وقعها، فارتد الهاربون وعادت صفوفهم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تنتظم، وبذلك رُدّ العدو الذي كان يقطع الجناح الأيسر إلى قسمين، على أعقابه موقتاً. وهكذا اجتمعت القوات الاحتياطية التي بقيت قريبة في متناول يد الجنرال وعاد الفارون إلى صفوفهم.

كان الجنرال پاغراسيون مصحوباً بالماجور إيكونوموف يشرف بنفسه قرب الجسر على انسحاب قطعات جيشه. وفجأة رأى جندياً يقترب منه فيمسك بركابه ويعتمد بجسمه عليه. كان ذلك الجندي مرتدياً معطفاً حائل اللون ميالاً إلى الزرقة من قماش ثمين، ولم يكن يحمل كيسه ولا قلنسوته. لكنه كان يتمنطق بجيب عتاد فرنسي ويحمل في يده سيف الضباط. كان شاحب الوجه معصوب الرأس، يحدج رئيسه بعينين زرقاوين تشع منهما نظرة صافية، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة. وعلى الرغم من شدة انصراف الجنرال إلى إصدار أوامره إلى الماجور المرافق، فقد تحوّل اهتمامه إلى ذلك الجندي غريب المظهر.

قال دولوخوف بصوت متقطع وهو يعرض جيب العتاد الجلدي والسيف: هاتان غنيمتان يا صاحب السعادة وقد أسرت ضابطاً... والفضل لي في صمود سريتنا وجميعهم يشهدون لي بذلك. فأرجو أن تتفضل سعادتك بتذكر ذلك.

فقال الجنرال: حسناً، حسناً.

وأراد العودة إلى إصدار أوامره للضابط الركن. غير أن دولوخوف لم يتراجع، بل نزع رباط رأسه وحسر عنه مظهراً الدم المتجمد بين شعره وقال: ها هو ذا جرح أصابني من حربة. مع ذلك فإنني لم أخرج من الصفوف. فعسى أن تتذكروا سعادتكم ذلك!

لقد نُسيت تماماً مدفعية توشين ولم يتذكر الأمير پاغراسيون أمرها إلا عندما لاحظ في آخر المعركة أن قذف المدافع لايزال مستمراً في الجبهة

www.Maktbah.com

الوسطى. فأرسل الضابط الركن ثم أعقبه بالأمير أندريه ليحمل الأمر إلى توشين بالانسحاب بأقصى السرعة. وكانت المدفعية مستمرة في قصف العدو رغم أن جنود التغطية كانوا قد اختفوا بنتيجة أمر لا يعلم إلا الله من أصدره. وإذا كان العدو لم يستول عليها بعد، فذلك لأنه لم يكن يتوقع أن أربعة مدافع فقط دون جنود للهجوم والدفاع، يمكن أن تظل تقصف خطوطه بمثل تلك البسالة دون انقطاع. وكان رد الفعل الطبيعي لهذا الوضع، أن اعتقد الفرنسيون ان معظم قوى الروس متمركزة في الجبهة الوسطى فهاجموا تلك النقطة مرتين وفي كل مرة كانوا يتراجعون مندحرين، تصيبهم حمم أربعة مدافع منعزلة رابضة على ذلك المرتفع.

نجح توشين في إشعال النار في قرية شوبنغرابن بعد ذهاب الأمير باغراسيون بفترة قصيرة.

وراح الجنود المكلفون حشو المدافع وتنظيفها يصيحون: انظر، ها هم يميدون! لقد شبت النار! انظروا إلى الدخان! إنه لهدف محكم! رائع! يا للدخان الكثيف، يا للدخان!

استمرت المدافع الأربعة تقذف حممها دون انقطاع دونما حاجة إلى إصدار الأمر إلى المشرفين عليها، الذين عرفوا واجبهم وعرفوا أن الهدف هو النار المشبوبة. وكان المدفعيون يعقبون على كل قذيفة يطلقونها بعبارات مشجعة وكأنهم يهيبون بحماستهم ويحثون المدافع على الاستمرار: «هيا، هيا!... هو كذلك! بديع، لقد أصاب صميم الجمع!» وساعدت الريح على سرعة انتشار النار وامتداد رقعتها وراحت الوحدات الفرنسية التي كانت تسد مداخل القرية تتقهقر متراجعة. لكن العدو انتقم لهذا الخذلان الذي أصابه بأن نصب إلى يمين القرية عشرة مدافع راحت تصب حممها على مركز توشين.

كان الفرح الصبياني الذي أحدثه حريق القرية في نفوس جماعة توشين،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ودقة تصويبهم نحو الهدف، قد ألهياهم عن المدفعية القوية التي نصبها العدو ضدهم. ولم يشعروا بخطرها إلا عندما سقطت قذيفتان تبعتهما أربع أخرى فوق مركزهم، فقتلت إحداهما جوادين وأطاحت الأخرى ساق أحد سائقي عربات البارود والقذائف. لكن هذه المفاجأة المزعجة لم تفل من عزم توشين ورجاله الذين سرعان ما استبدلوا الجوادين النافقين بآخرين من الحظيرة القريبة، وأخرجوا الجرحى من الميدان، بل جعلتهم يحولون الهدف الذي كانوا يهاجمونه، ويصبون نيران مدافعهم الأربعة على «البطارية» العشرية.

كان ضابط توشين الملازم قد قتل منذ بدء المعركة. ولم تمض ساعة حتى كان سبعة عشر جندياً من الجنود الأربعين المكلفين العناية بالمدافع قد أخرجوا من ساحة المعركة لإصابتهم بجراح قاتلة أو عادية. مع ذلك فإن الرجال الباقين لم يفقدوا حماستهم. لقد شاهدوا الفرنسيين يهاجمونهم مرتين متتاليتين. وفي كلتا المرتين ردوهم على أعقابهم بقصف شديد حصد صفوفهم.

كان ذلك الرجل قصير القامة، ذو الحركات الفاشلة المبتسرة، يطلب إلى تابعه في كل لحظة «أن يوافيه بغليون آخر جزاءً له» ويسرع بعد كل قذيفة تطلقها مدافعه الأربعة، إلى الحاجز الأمامي ليطمئن بنفسه إلى سلامة القذف ودقته، ومعاينة صفوف الفرنسيين وحركاتهم، وهو يظلل عينيه بيده الصغيرة.

كان يصيح! النار أيها الفتيان!

ويمسك بنفسه المدفع المتراجع بعد الانطلاق ليعيده بمساعدة رجاله إلى مكانه الملائم، ويحل بيده سلم التصويب والتركيز.

كان توشين يمضغ أبداً غليونه القصير بين أسنانه، ويركض من مدفع إلى آخر يسدد هذا ويحصي ما يحشى به ذاك، أو يأمر بإبدال الخيول المقتولة والمصابة بجراح، ويلقي أوامره هنا وهناك بصوته الرقيق الأجوف، وقد

www.Maktbah.com

أصمه الدويّ المتتابع من المدافع، وأعماه الدخان الكثيف. وكان وجهه يزداد ابتهاجاً كلما استمر في دك صفوف العدو وتحصيناته، وكان إذا جرح أحد رجاله أو قتل، يقطب حاجبيه ويصب جام غضبه على رجاله السالمين الذين كانوا يتأخرون، كالعادة، في إخلاء الساحة من القتلى والجرحى.

وكان الجنود، ومعظمهم من الفتيان كما درجت العادة في المدفعية، حيث الجنود يمتازون عن ضباطهم بالطول الفارع والأكتاف العريضة والصدور العامرة القوية ـ يستشيرونه بأنظارهم، كالأطفال الواقعين في مأزق حرج، وينقلون على وجوههم بكل إخلاص الأمارات التي تبدو على تقاطيعه إثر كل استشارة.

ربما يعود الفضل إلى أن توشين لم يشعر بخوف مطلقاً يعود إلى الدوي المصمّ الذي كان يرتفع حوله، والحاجة إلى مجابهة كل خطر. فكان احتمال إصابته أو قتله لا يخطر على باله مطلقاً. بل إن بشاشته وخفته كانتا على العكس بازدياد مستمر. كانت أول دقيقة أطلق خلالها قذيفته الأولى على العدو، تبدو بعيدة جداً عن ذاكرته. وربّما كان يعتقد أنها بدأت يوم أمس، إذ إن تلك البقعة من الأرض التي وجد نفسه فيها ولم يعرفها إلا منذ وقت قريب، بدت لناظريه مألوفة وكأنه يعرفها منذ الأزل.

وعلى الرغم من أنه كان يشعر بكل شيء ويذكر كل شيء ويفكر في كل شيء، وإنه كان يتصرف على أفضل ما يمكن لضابط ممتاز أن يفعله في مثل ذلك الموقف، فإن حاله كانت أقرب إلى الهذيان أو السكر أو الحمى.

كانت الانفجارات المدوية التي تحدثها «بطاريته» الناشطة، وصفير القذائف العدوة، وحركة الجنود المكلفين صيانة المدافع الدائمة السابحين في عرقهم بوجوههم الأرجوانية، ومنظر دماء الرجال والخيول، ومشهد الدخان الكثيف المرتفع من الأسفل، دلالة على انطلاق قذيفة أو أكثر باتجاههم، قذيفة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قد تصيب مدفعاً أو رجلاً أو حصاناً أو ترتطم بالأرض، كل ذلك كان يغذي خياله بشتى المرئيات، ويخلق في رأسه جواً خيالياً وعالماً سحرياً غريباً، كان يرى نفسه متلذذاً بالعيش فيه. وبذلك لم تعد المدافع الأجنبية في نظره مدافع بالمعنى المعروف، بل غلايين يدخنها مدخن خفي غير منظور، يلذ له بين الحين والحين أن يطلق منها سحابة نحو السماء.

صاح مغمغماً: خذ! تلك نفحة جديدة!

كانت تلك النفحة سحابة من الدخان ارتفعت فوق موقع مدافع العدو وانزاحت عنه إلى اليسار تدفعها الريح...

تابع يقول: انتظر الآن الكرة لنلتقطها ونعيدها!

سأل الحرّاق الذي سمعه يزمجر: ماذا يجب أن نعيد يا حضرة الضابط؟

ـ لا شيء، قذيفة!

وأردف قائلاً: دورك الآن يا ماتـﭬييـﭬنا.

هذا هو الاسم الذي كان يطلقه مجازاً في خياله على القطعة الأخيرة من مدافعه الأربعة وهي قطعة قديمة. أما المكلف الأول بالقطعة الثانية، وكان فتى بهيّ الطلعة يساعده جندي مدمن، فقد عمّده في خياله باسم «العم». لقد كان ينظر إلى ذلك الفتى أكثر من سواه، وكانت حركاته ترضيه. وكان الفرنسيون المنشغلون حول مدافعهم على مرمى عينيه، يبدون في ناظريه أشبه بالنمل الدائب. أما لعلعة البنادق التي كانت ترتفع تارة وتخبو أخرى على سفح التل، فكانت في زعمه تنفس مخلوق حي. كان يصيخ السمع إلى إيقاع ذلك التنفس.

صاح ملاحظاً: ها هو ذا يعاود الكرة.

كان يتخيل نفسه في تلك اللحظة عملاقاً جباراً يلقي بيديه الاثنتين القذائف على الفرنسيين.

www.Maktbah.com

صاح وهو ينحرف عن مدى تراجع المدفع المنطلق: هيا يا ماتـڤييـڤنا، رائع أيها العجوز يصيح: كاپتن توشين! كاپتن!

فروعه أن رأى الضابط الركن الذي طرده من غرانت، واقفاً في تلك اللحظة يناديه بصوت لاهث ويهتف به: ولكن ماذا تفعل؟... هل أنت مجنون؟... هذه هي المرة الثانية التي يصدر إليك فيها الأمر بالانسحاب ومع ذلك...

فكر توشين وهو يرفع إلى رئيسه نظراته الوجلة: «ماذا يريدون مني بعد؟» وتمتم وهو يرفع إصبعيه إلى حافة خوذته: أنا؟... أبداً... إنني...

لكن الزعيم لم يستطع القيام بمهمته على الوجه الأكمل. ذلك أن قذيفة مرت فوق رأسه كادت تلامس شعره، جعلته يغطس على ظهر جواده مرغماً، ولما استعاد وضعيته وهمّ بالكلام، قاطعته قذيفة ثانية. وعندئذ حول عنان جواده وفر هارباً.

أخذ يصيح وهو يبتعد: انسحبوا انسحبوا جميعكم!

راح الجنود يضحكون. ولم تمض دقيقة واحدة حتى وصل ضابط مساعد يحمل أمراً مماثلاً.كان ذلك الضابط هو الأمير أندريه.

أول شيء وقعت أنظاره عليه، حصان يصهل قرب المكان والدم ينفر من قائمته المحطمة وكأنه يخرج من قناة جارية. ورأى الجثث متناثرة على الأرض بين عربات جر المدافع، والقذائف تمر الواحدة تلو الأخرى فوق رأسه. سرت في ظهره قشعريرة باردة، لكن تلك الفكرة التي أخافته هي نفسها التي ألهمته الصبر وأمدته بالشجاعة. قال في سره وهو يترجل عن جواده: «لا أستطيع الشعور بالخوف».

نقل الأمر إلى الضابط توشين وقرر البقاء للإشراف بنفسه على انسحاب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المدفعية برجالها. فراح توشين والأمير أندريه، يتخطيان الجثث تحت وابل النيران ويشرفان على عملية الانسحاب.

قال الحرّاق للأمير أندريه: يا لحسن الحظ، إن نبالتكم تختلفون عن السيد الذي كان هنا منذ حين، لقد فر بأسرع من الريح!

لم يتبادل الأمير أندريه كلمة واحدة مع توشين. كان كل منهما شديد الانهماك والانصراف إلى مهمته حتى ليقال إنهما لم يكونا يستطيعان النظر حولهما. واضطر الجنود إلى ترك مدفع معطل وقاذفة القنابل. وبعد ذلك قُطر المدفعان الباقيان وبدأ الموكب يسير. وعندئذ دفع الأمير أندريه جواده نحو توشين وقال له: هيا، إلى اللقاء يا صديقي.

ومد إليه يده مصافحاً. فأجابه توشين: إلى اللقاء يا عزيزي ويا صديقي الباسل.

تابع بعد حين، وقد شعر بالعبرات تنهمر من عينيه دون سبب ظاهر وتنساب على وجنتيه:

ـ وداعاً يا عزيزي!

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

توقّفت الريح وبدأت سحب الغيوم السوداء تتداعى فوق ساحة المعركة وتختلط عند الأفق بدخان البارود الكثيف. وكان اقتراب الظلام يزيد الحريقين المشتعلين في مكانين مختلفين حدة وظهوراً. خفت قصف المدفعية وتضاءل تدريجاً، لكن لعلعة الرصاص بقيت على اشدها عند الخطوط الخلفية وازدادت عنفاً واقتراباً إلى اليمين. ولم يكد توشين يخلص بمدفعيته متخطياً خطوط الجرحى منحدراً إلى الوادي مبتعداً عن منطقة النار حتى التقى رؤساءه وبالضباط المساعدين الذين عرف بينهم جركوف والضابط الركن.

كان جركوف قد أرسل مرتين إلى عش المدفعية الذي يقوده توشين وأخفق في تينك المرتين في بلوغ الغاية فلم يصل ولم يبلغ توشين شيئاً. أخذ رؤساؤه يعنفونه بقوة ويقاطع بعضهم حديث البعض الآخر، وهم يوجهون إليه الملاحظات دون أن يغفلوا مع ذلك عن إصدار الأوامر وتوجيهها إلى حيث يجب أن تصل. ولم يجرؤ توشين على الاعتراض ولم يرد على اللوم الموجه إليه خصوصاً وأنه كان يخشى أن يفتح فمه استعداداً للنطق بشيء لأنه كان يشعر برغبة في البكاء عند أول كلمة تصدر عنه. لذلك اكتفى بالصمت وراح يسير في مؤخرة «بطاريته» ممتطياً «كديشته» شأن كل ضباط المدفعية.

وعلى الرغم من أن الأوامر قد صدرت بترك الجرحى في أماكنهم، فإن عدداً غير يسير منهم راح يزحف في أعقاب الجيش المنسحب طالبين أن ينقلوا على عربات المدافع. وكان ذلك الضابط الجميل، طويل القامة، الذي أفلت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قبل بدء المعركة من كوخ توشين محاولاً اللحاق بوحدته، مسجّى على عربة ماتـڤييـڤنا وفي أحشائه رصاصة. وعند سفح التل، كان أحد الفرسان التلاميذ يحمل ذراعه بيده السليمة، يبتهل إلى توشين أن ينقله وهو شاحب الوجه خائر القوى. قال ذلك الفارس الشاب متوسلاً بصوت خجل: أيها الكاپتن، بحق الله! لقد رُضت ذراعي ولا أستطيع متابعة المشي. أستحلفك الله!

كان صوت ذلك الشاب الضعيف الشاحب بما كان عليه من ضعف يدل على أن صاحبه قد لقي حتى الآن رفضاً متكرراً من كل من استنجد بهم. تابع يقول: دعني أجلس أتوسل إليك.

فصاح توشين: خلوا له مكاناً، خلوا له مكاناً!

واستدار نحو جنديه المفضل صرخ به آمراً: أنت أيها «العم»، افرش معطفاً. ولكن أين الضابط الجريح؟

فأجاب أحدهم: لقد نقل إذ إنه مات.

ـ هيئوا له مكاناً، هيئوا له مكاناً، إجلس يا صغيري، اجلس. افرش المعطف يا أنتونوف.

روستوف، كان ذلك الفارس التلميذ! كان ممتقع الوجه، ترتجف ذقنه من الحمى، وكان يحمل يده المصابة بيده الأخرى. وضعه الجنود على عربة ماتـڤييـڤنا، على تلك العربة بالذات حيث رفع عنها الضابط الميت منذ حين. كان المعطف ملطخاً بالدماء، فتلوثت به سراويل روستوف ويداه.

قال توشين: لكنك جريح يا صغيري.

ـ كلا، بل مصاب بكسر أو رض.

ـ إذن لم هذه الدماء على المعطف؟

فأجاب أحد المدفعيين وكأنه يعتذر عن المكان القذر الذي هيأه للفارس الشاب: إنه الضابط يا صاحب النبالة. لقد ترك دماءه هنا.

www.Maktbah.com

وراح يمسح الدماء بكم معطفه.

تمكن توشين بعد جهد مضن وبعد اللجوء إلى مساعدة المشاة، أن ينقل مدافعه إلى ضفة الوادي المقابلة حيث بلغ الجيش المنسحب ضواحي كونترسدورف وهنا توقف عن السير. كان الظلام قد هبط بسواده حتى تعذر على الرجال تمييز ثوب الجندي على بعد عشر خطوات.

وكانت طلقات البنادق قد خمدت نهائياً. ولكن لم تمض فترة حتى عاد الرصاص يئز فجأة على الجناح الأيمن مصحوباً بصياح وضجيج. وكانت النيران المنطلقة تضيء الظلام كلما قذفت البنادق ما في أجوافها. كان سبب ذلك الرصاص المفاجئ الهجوم الأخير الذي قام به الفرنسيون والذي ردّ عليه الجنود الروس المحتمون في المنازل. هرع الجنود كلهم خارج القرية باستثناء توشين ومدفعيته. ذلك أن توشين أصبح عاجزاً عن الحركة لشدة الإعياء الذي أصابه ذلك اليوم. راح الضباط والمدفعيون والفرسان يتبادلون نظرات قلقة دون أن يتفوهوا بكلمة. وما لبثت البنادق أن صمتت، وعلا صخب وضجيج أحدثهما سيل عرم من الجنود العائدين عبر زقاق في القرية وهم يتناقشون باحتداد ويتدفقون على شارع القرية الرئيسي.

كان أحدهم يسأل زميله! ألست جريحاً يا بيتروف؟

وآخر يقول: يا لها من ضربة أليمة تلك التي أنزلناها بهم. إنهم لن يعودوا بعدها إلى الاحتكاك بنا.

وثالث يقول: لا يرى المرء شيئاً في هذا الظلام... لسنا ندري كم ذبحنا منهم! يا للشيطان أليس مزعجاً ألّا يرى المرء شيئاً؟... هل من سبيل إلى شرب جرعة خمر أيها الرفاق؟

تراجع الفرنسيون نهائياً على أعقابهم، ومجدداً راحت مدفعية توشين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تحف بها إطارات متراصة من المشاة، تشق طريقها وسط ذلك الليل البهيم أشبه بملكة النحل وسط ثول حافل كبير!

تشبه تلك الرحلة في ذلك الظلام تدفق مياه نهر عرم، بما تحدثه حوافر الجياد، وعجلات العربات، ووقع الأقدام، من ضجيج، وكانت تأوهات الجرحى وزمجراتهم تطغى على كل اللفظ الأصم، فكانوا وحدهم يشكلون مع تلك الظلمات وحدة متينة العرى، وكأنهم خلقوا منها وفيها. وفي فترة ما، وقع صخب بين جماعة من السائرين. ومر فارس على صهوة جواد أبيض يتبعه حرس مواكب وهو يتلفظ بكلمات غير واضحة. فانتثرت الأسئلة من كل مكان، أسئلة متلهفة طافحة بالتساؤل والفضول:

«ماذا قال الفارس؟ هل وجه إلينا التهاني على ما فعلناه؟ إلى أين نمضي الآن؟ هل نتوقف هناك؟» وأعقب ذلك تدافع وازدحام دل على أن الصفوف الأمامية قد توقفت، فشاعت بين الصفوف همسات تقول إن الأمر قد صدر بالتوقف، وعندئذ توقفت الكتلة البشرية الكبيرة وسط ذلك الطريق الموحل.

أشعلت النار في مكانين ووضحت الأصوات. وبعد أن أصدر الكابتن توشين التعليمات اللازمة لاتخاذ التدابير المناسبة المتعلقة بقضاء الليل في ذلك المكان، أرسل من يستقدم عربة إسعاف أو طبيب لمعالجة الفارس التلميذ، وجلس قرب نار أوقدها الجنود على الطريق. فزحف روستوف حتى بلغ مكان توشين. كانت قشعريرة الحمى تجتاح كل جسمه بسبب الكسر الذي أصيبت به ذراعه والبرد والرطوبة اللذان تعرض لهما. وكانت ذراعه تؤلمه ألماً شديداً أطار النوم من عينيه رغم حاجته إليه. فكان يغمض عينيه حيناً ويحدق إلى النار التي كان يخيل إليه أنها مصبوغة باللون القرمزي حيناً آخر، وبين الحين والآخر، ينقل بصره إلى توشين الجالس على الأرض على الطريقة التركية محدودب الظهر، ينظر إليه بعينيه الكبيرتين المتوقدتين نظرات مفعمة

www.Maktbah.com

بالعطف والإشفاق، كان روستوف يشعر في قرارة نفسه أن توشين يود من صميم قلبه لو يستطيع مساعدته وأنه يتألم لعجزه عن ذلك.

جلس الجنود المشاة حول النار، فكانت خطواتهم وأصواتهم ترتفع في حلقة دائرية ممتزجة بوقع حوافر جياد الفرسان الذين كانوا يمرون بالقرب منهم.

كانت تلك الأصوات والخطوات، وخوض الخيول في الوحول، وفرقعة الأخشاب المشتعلة في النيران المشبوبة القريبة منها والبعيدة، تشكل إلى حد ما صوتاً أشبه بتلاطم الموج في محيط لجب في ليلة عاصفة. توقف السيل الخفي العرم عن التدفق وسط ذلك الظلام الحالك، وأصبح الحال في تلك الأثناء أقرب شبهاً بالبحر الزاخر الذي يعود إلى السكون والتماوج الهادئ بعد عاصفة عاتية هوجاء.

راح روستوف وهو ينظر ويسمع ما يدور حوله وأمامه دون أن يفهم منه شيئاً، واقترب أحد المشاة فأقعى بالقرب من النار ومد يديه يصطلي بالنار وهو يشيح بوجهه قائلاً لتوشين: أستمح نبالتك؟ إنني كما تراني نبالتك قد أضعت سريتي فلا أدري أين تركتها. آمل أن لا يزعجك وجودي!

وجاء رئيس من سلاح المشاة معصوب الوجه في تلك الأثناء، يوجه الحديث إلى توشين. طلب إليه أن يبعد مدافعه قليلاً لأنها كانت تعرقل سير عربات مهماته. ثم أعقب ذلك مقدم جنديين يتنافسان في ملكية حذاء يدعي كل منهما أنه له ويكيل للآخر الشتائم.

كان أحدهما يصيح بصوت أجش: هل التقطته أنت؟... إنك ولا شك أسوأ من ذلك حتى تدعي ملكيته!

وجاء جندي هزيل شاحب الوجه يلف عنقه بجورب ملطخ بالدم يطلب ماء للمدفعيين بلهجة غاضبة. كان يغمغم بانفعال:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ إنكم لن تدعوني على كل حال أنفق ككلب حقير!

أمر توشين أن يستجاب طلبه، وجاء بعدئذ أحد المهزاريين يطلب شعلة نار بقوله: «أريد ناراً صغيرة شديدة الاحمرار لفتيان الصف» فلما أجيب إلى طلبه قال: شكراً يا أبناء البلد، البثوا في أماكنكم دافئين. أما النار فلا تقلقوا من أجلها، سوف نردها لكم... عندما تلد أطفالاً صغاراً!

وابتعد مازحاً وهو يلوح بيده بقطعة من الخشب المشتعل. وبعد قليل مر أربعة من الجنود كانوا يحملون شيئاً ثقيلاً في معطف تعاونوا على حمله. فتعثر أحدهم وتمتم محنقاً: لا بأس؟ ها هم قد زرعوا الطريق كلها بقطع الحطب، يا للملاعين!

فقال آخر: ما دام ميتاً، أي فائدة نجنيها في نقله؟

ـ إه! ليأخذك الشيطان...!

وابتلعتهم الظلمات مع حملهم الثقيل.

سأل توشين روستوف بصوت خفيض: وإذن؟ هل تؤلمك ذراعك؟

ـ نعم؟

تقدم أحد الحرّاقين في تلك اللحظة يقول: إن الجنرال يطلب من نبالتك المثول بين يديه. إنه هنا في الكوخ على مقربة.

نهض توشين وزرّر معطفه وهو يقول: على الفور يا صديقي.

وابتعد وهو يصلح هندامه على قدر استطاعته.

كان الأمير باغراسيون يتحدث مع قادة الأسلحة المتفرقة في كوخ أقيم على عجل لإيوائه قرب حظيرة المدفعيين. كان هناك ذلك الكهل قصير القامة ذو العينين نصف المغمضتين، يلتهم ضلع خروف مشوي بنهم، والجنرال الذي أمضى في الخدمة اثنين وعشرين عاماً وهو في أحسن هندام، وقد أشرق وجهه إثر العشاء اللذيذ الذي تناوله وأقداح الفودكا التي تلذذ بارتشافها،

www.Maktbah.com

وكان هناك كذلك الضابط الركن ذو الخاتم الماسي، وجركوف الذي كان يجعل حوله نظرات كئيبة قلقة، والأمير أندريه ممتقع الوجه تلتمع عيناه ببريق محموم.

وفي زاوية من المسكن المتواضع، أسند علم اغتصبه الروس من العدو، كان المدني الضخم يلمس القماش الذي صنع منه ويهز رأسه بسذاجة على عادته، لم يكن واضحاً إذا كان مهتماً حقيقة بتحسس قماش العلم أو أنه كان مرغماً على ذلك بسبب حرمانه من ذلك العشاء الشهي الذي لم يدع للمشاطرة فيه. وفي الغرفة المجاورة، كان الضباط الروس يتفحصون بشوق ضابطاً فرنسياً برتبة زعيم أسره فرسان الدراغون.

كان الأمير باغراسيون يهنئ قادة القطعات ويسألهم تفاصيل المعركة التي دارت رحاها ذلك اليوم ويستعلم عن الخسائر التي مني الجيش الروسي المنسحب بها. وكان قائد السرية التي استعرضها كوتوزوف قرب برونو يروي للأمير أنه عند بدء المعركة أخلى الغابة من جنوده الذين كانوا يجمعون الأخشاب ونظم صفوفهم حتى إذا مر الفرنسيون، انقض عليهم بلواءين كاملين فقذف بهم إلى الوراء ضرباً بالحراب. وتابع قائلاً:

ـ ما كدت أرى لوائي الأول في حالة بلبلة وفوضى حتى قلت لنفسي: «دعهم يمرون واستقبلهم بعد ذلك بنار حامية الوطيس». وهذا ما فعلت يا صاحب السعادة.

في الحقيقة إن ذلك ما كان يريد صنعه، فكان شديد الأسف لأنه لم ينجح في مسعاه حتى أنه كان مؤمناً كل الإيمان بصدق تقريره عن الحوادث. ولعله لم يكن مخطئاً قط: إذ من الذي كان يستطيع في مثل ذلك الظرف العصيب من الفوضى والاختلاط تمييز الحقيقة من الخيال؟

تابع القائد الكبير معقباً وقد تذكر لقاءه القريب مع دولوخوف وما قصّه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

هذا عليه من عطف الأمير باغراسيون عليه: ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أشيد ببسالة الضابط السابق دولوخوف، تلك البسالة النادرة التي شهدتها بأم عيني. لقد أسر ضابطاً فرنسياً يا صاحب السعادة.

وتدخل جركوف في الحديث وهو يجيل حوله نظراته القلقة قال: وفي تلك اللحظة يا صاحب السعادة أتيح لي أن أشاهد بإعجاب هجوم الفرسان ـ فرسان پاڤلوغراد.

كان على حق في قلقه لأن في ذلك اليوم لم يلتق أي فارس من الفرسان بل كان يعتمد في حديثه بكل سذاجة على أقوال أحد ضباط المشاة. تابع يقول: لقد رأيتهم يشتتون مربعين من الأعداء

عندما بدأ جركوف الحديث ابتسم بعض الحاضرين متوقعين منه دعابة مستملحة يطلقها على عادته. لكنهم عندما سمعوه يعقب بجملته الأخيرة مضيفاً إكليل غار جديداً على هامة الجيوش الروسية، عاد الاتزان إلى قسمات وجوههم رغم أن معظمهم كان يعرف سلفاً أن تقرير جركوف لم يكن إلا كذبة صارخة وقحة.

قال باغراسيون وهو يختص الكولونيل العجوز بمعظم ثنائه: أشكركم جميعاً أيها السادة. لقد تصرف الجنود من مختلف الأسلحة، بين مشاة وفرسان ومدفعية تصرفاً يدل على بطولتهم...

ثم أجال الطرف حوله باحثاً عن شخص ما وقال: ولكن كيف حدث أن تركنا قطعتين من مدفعيتنا في الجبهة الوسطى؟

لم يكن باغراسيون يستفهم عن مدافع الجناح الأيسر كلها لأنه كان يعرف من قبل أنها سقطت جميعها في أيدي العدو منذ بدء المعركة. لذلك فقد عقب موجهاً حديثه إلى الضابط الركن: ألم أكلفك الإشراف على انسحاب المدفعية من الجناح الأيمن؟

www.Maktbah.com

فأجاب الضابط الركن: لقد كان أحد المدافع معطلاً، أما الآخر فإنني لست أدري على الضبط سبب تركه... لقد اتخذت كل الإجراءات اللازمة، ولم أترك «البطارية» إلا في اللحظة الأخيرة...

وتابع بشيء من التواضع: الحقيقة أن المدفع كان شديد الحرارة...

فهمس بعضهم أن الكابتن توشين آمر المدفعية في الجناح الأيمن يعسكر قريباً من مركز القيادة وأنهم أرسلوا في طلبه. وعندئذ قال باغراسيون للأمير أندريه: ولكن أنت؟ لقد كنت هناك أيضاً على ما اعتقد!

فبادر الضابط الركن يقول شافعاً كلامه بابتسامة لطيفة وجهها إلى بولكونسكي: بدون شك يا صاحب السعادة، لقد مر بعضنا ببعض.

ـ لم أتشرف برؤيتك!

وتلا ذلك صمت مطبق. وفي تلك اللحظة ظهر توشين على عتبة الباب، فبدا شديد الاضطراب كعادته كلما التقى رؤساءه. وبينما كان يتسلل بخجل وراء الجنرالات في تلك الغرفة الضيقة، تعثر بسارية العلم التي لم يكن قد لاحظ وجودها لشدة ارتباكه. فتعالت بعض الضحكات.

سأله الأمير باغراسيون وهو يقطب حاجبيه برسم الضاحكين الذين كان جركوف أشدهم ضوضاء، أكثر مما عنى توشين بذلك التقطيب: كيف حدث أن أُغفل مدفع في ساحة المعركة؟

وفي تلك اللحظة فقط، إزاء جبين القائد العام المقطب، أدرك توشين أنه ارتكب خطأً فادحاً، وشعر بالعار لأنه فقد مدفعين وظل بعدهما على قيد الحياة. لقد كان شديد الاضطراب حتى أنه لم يفكر في هذا الموضوع قبل تلك اللحظة. وقد سببت ضحكات الضابط الساخرة انهيار تجلده التام، فبقي واقفاً دون حراك مرتجف الذقن ينظر إلى باغراسيون بارتباك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وأخيراً استطاع بعد عناء شديد أن يغمغم: لست أدري يا صاحب السعادة... لم يبق لدي عدد كاف من الرجال يا صاحب السعادة:

ـ كان يمكنك أن تأخذ حاجتك من جنود التغطية.

وعلى الرغم من أن الحقيقة الصارخة كانت تفسر السبب، فإن توشين لم يجرؤ على القول إنه لم يكن هناك قط جنود تغطية، كان يخشى إذا صرح بتلك الحقيقة أن يسيء إلى بعض الرؤساء الذين أمروا بانسحاب التغطية. لذلك فقد راح يتأمل پاغراسيون بصمت دون أن ينطق بكلمة، شأن الطالب الذي لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة فاحصة.

ساد الصمت فترة غير قصيرة. كان پاغراسيون، بدون شك، يتجنب الظهور بمظهر القاسي الصارم، لذلك، لم يجد ما يقوله. وكذلك المجتمعون الآخرون فقد لزموا الصمت المطلق متجنبين البدء بالحديث. وكان الأمير أندريه يختلس النظر إلى وجه توشين ويداه ترتجفان. وفجأة شق صوته الصارم السكون المخيم فوق الرؤوس وقال: لقد تفضلتم سعادتكم بإرسالي إلى «بطارية» توشين. ولما ذهبت إلى هناك وجدت أن ثلثي رجاله وخيوله بين قتيل وجريح، وأن مدفعين من مدافعه الأربعة كانا معطلين ولم يكن لديه جندي واحد من جنود التغطية.

راح پاغراسيون وتوشين يحدقان معاً إلى وجه پولكونسكي الذي كان يتكلم بحماسة وتابع هذا يقول: وإذا تفضلتم سعادتكم بالسماح لي بإبداء رأيي قلت إن جانباً كبيراً من نجاح معركة اليوم يعود إلى تدخل بطارية توشين وإلى البطولة والبسالة والحزم التي أبداها الرئيس توشين ورجاله في هذا اليوم.

لم ينتظر پولكونسكي جواباً، نهض واقفاً وانسحب عن الطاولة. فعاد پاغراسيون بنظرته إلى توشين. ولما كان راغباً عن إظهار تشككه في حكم

www.Maktbah.com

پولكونسكي الحاسم فقد أشار برأسه إلى توشين وقال إنه يستطيع الانسحاب. فخرج الأمير أندريه في أعقابه.

قال له توشين: شكراً لك يا صديقي. لقد أنقذتني.

فشمله پولكونسكي بنظرة حالمة وغادره دون أن يتفوه بكلمة. كان يشعر بحزن يحزّ في صدره ويعصف في قلبه. لقد كان ما رآه وسمعه شديد الغرابة مخالفاً آماله وأحلامه.

ساءل روستوف نفسه وهو يراقب الأشباح التي كانت تمر أمامه: «من هم هؤلاء الناس؟ ماذا يعملون هنا؟ ماذا يريدون؟ ومتى ينتهي كل هذا؟» كان الألم يزداد عنفاً في ذراعه، وكان جفناه مثقلين بنعاس قاهر، فراحت عيناه تريانه حلقات حمراء آخذة في الاتساع، تتراقص أمامه بين دنو وابتعاد. كانت تلك الأصوات المتلاحقة وتلك الوجوه المختلفة وذلك الشعور بالوحدة القاتلة تتحد في نفسه فتزيد من آلامه.

كان أولئك الجنود، بين جريح وسليم، هم الذين يثقلون عليه ويسحقونه ويقطعون أعصابه ويرهقونها، ويحرقون بشرته بنار وئيدة تلتهم ذراعه المحطمة وكتفه. كان يشعر أنهم أساس البلاء. ولما كان يود من صميم نفسه الابتعاد عن ذلك الخيال المخيف الذي يعذب تفكيره فقد ظن أن من الأفضل له أن يغمض عينيه.

لم يفقد حواسه إلا لحظة خاطفة. مع ذلك حلم خلال تلك اللحظة بعدد لا يحصى من الوجوه والأشخاص. رأى أمه بيديها البضّتين، الكبيرتين، وسونيا بكفيها النحيلين وناتاشا بعينيها الباسمتين، ودينيسوف بصوته الخشن وشاربيه الكبيرين، وتيليانين وكل قصته الطويلة التي وقعت له مع بوغدانوڤيتش.

كانت تلك الحادثة اللعينة متحدة مع الجندي ذي الصوت القاسي وذينك الشبحين اللذين حطما ذراعه دون رحمة ولبثا يشدان عليها في اتجاه

twitter @baghdad_library

واحد، تشكل معهم وحدة لا تتجزأ. بذل جهداً خارقاً للتخلص من الجندي والشبحين الغامضين القاسيين وتلك القصة كلها. لكنهم لم يفلتوا كتفه ولا ذراعه دقيقة واحدة ولم يبدلوا مواقع أيديهم على تلك الذراع قيد أنملة.

ولعلّ الشفاء كان قريباً لو أنهم لم يحطموا ذراعه بتلك الوحشية، أما وأنهم مازالوا يجذبونها، فإن كل أمل بالشفاء بات وهماً وكل محاولة للخلاص من أيديهم أصبحت فاشلة.

فتح عينيه وراح ينظر إلى الفضاء. كانت حلكة الليل البهيم تخيّم على المكان حتى أن النار المشبوبة ما كانت لتبدد من الظلمة إلا على ارتفاع قدمين أو ثلاث أقدام فوقها وحولها. رأى منفذاً من الثلج تتدافع فوقه تلك الشعلة الملتهبة. أما توشين، فلم يعد بعد وكذلك الطبيب لم يصل قط. لم يكن أمامه إلا جندي واحد عار من الثياب يجففها على النار. كان شاحب الوجه، هزيل البنية، ضعيف التكوين، أصفر اللون.

فكر روستوف في سره: «لن أجد أحداً يهتم بشأني. لا يوجد أحد يسعفني ويطببني أو يشفق على مصابي كيف يمكن أن أنسى أنني منذ وقت قصير كنت في منزلي ممتلئاً حيوية، يحبني كل من حولي!».

أطلق تنهيدة انقلبت بالرغم عنه إلى زمجرة قبل أن تتبدد في الهواء. فسأله الجندي وهو ينفض قميصه فوق النار: هل تشعر بألم؟

ولم ينتظر جواباً إذا أضاف وهو يكح: لقد أصابوا أناساً كثيرين اليوم! آه يا للتعاسة!

لم يكن روستوف يصغي إلى قوله. كانت عيناه شاخصتين إلى نتف الثلج المتراقصة فوق اللهب، فتذكر شتاء روسيا والمنزل الدافئ المضيء والفراء الناعمة والزحافات السريعة. كان يرى نفسه بعين الخيال ممتلئاً صحة، محاطاً

www.Maktbah.com

بالعطف والحب ورعاية أسرته، فتمتم يخاطب نفسه: «يا لها من فكرة، تلك التي قادتني إلى هنا».

لم يقم الفرنسيون بهجومهم صبيحة اليوم التالي، وهكذا استطاع الناجون من جيش باغراسيون بلوغ مواقع كوتوزوف والالتحاق بجيشه الناجي.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجزء الثالث

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

ليس الأمير بازيل من الذين يعدون خططاً مسبقة للمستقبل، ولا من زمرة الذين يفكرون في أذية الناس لجني ربح شخصي. كل ما في الأمر، أنه كان من زمرة النبلاء، لاقى نجاحاً في حياته واعتاد النجاح في كل أعماله. كانت تدابيره كلها على اختلاف أنواعها، تدين بوجودها وترتيبها للظروف الطارئة ولنوع العلاقات التي تربط كلاً منها بما يجانسها. فكان مسرح الصخب والتناحر قائماً في رأسه، يتبع الظروف في اتجاهاتها غير مبال في أن ذلك كان سر كل وجوده. يحتفظ دائماً بخطط كثيرة تهدف كل منها إلى غاية محددة. لا يكاد تفكيره يخلو من عشرات من هذه الخطط. فكان بعضها يفشل وبعضها ينجح والبعض الآخر يتبخر قبل البدء بتنفيذه.

لم يكن يحدث نفسه مثلاً: «إن فلاناً قد بلغ مبلغ السطوة والنفوذ، فلأكسبن ثقته علّني أصل بها إلى نفع ما». أو مثلاً: «ها إن پيار قد أصبح غنياً، فعليّ إذن أن أزوجه ابنتي لأقترض منه الأربعين ألف روبل التي أنا في حاجة إليها». لكنه ما يكاد يلتقي تلك الشخصية القوية ذات النفوذ حتى تحدثه غريزته بأن ذلك الرجل يمكنه أن يكون ذا نفع له، فيربط بينهما علاقة متينة منتهزاً أول فرصة تعرض له دون تصاميم مسبقة، ويمتدحه ويرضي غروره مستعملاً معه لهجته الأنيسة التي تشعر السامع أنه يعتبره من أفراد أسرته، ثم يلمح إلى غايته بكلمة عابرة.

في تلك الأثناء كان پيار قريباً من متناول يده في موسكو، فقد عمل الأمير

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بازيل على إبلاغه رتبة تعادل رتبة مستشار دولة، وأصر على أن يرافقه الشاب إلى پيترسبورغ وأن ينزل في ضيافته هناك. لم يكن الأمير بازيل قد نوّه بغايته أمام پيار بعد، لكن كيانه كله وقناعته الشخصية استلزما منه ذلك التصرف، الذي كان الأمير بازيل يبذل كل ما بوسعه ليبلغ به إلى نتيجة يرتضيها، وهي تزويج ابنته بالشاب پيار.

ولو أنه كان متدبراً أمره من قبل لما استطاع أن يبدو طبيعياً في تصرفاته إلى ذلك الحد، صريحاً في تصرفاته مع رؤسائه ومرؤوسيه كما كان عليه حينذاك. لقد كان بازيل مدفوعاً بقوى خفية إلى الاحتكاك بأشخاص أوسع منه نفوذاً وغنى. وكان يعرف بغريزته وحواسه الفطرية كيف يستخلص من هؤلاء مغنماً مهما كان تافهاً.

شعر پيار، وهو الذي أضحى بين عشية وضحاها «الكونت بيزوخوف واسع الغنى»، أنه أصبح فجأة محاطاً بصفوف متراصة كثيفة من الناس، شديد المشاغل والأعمال وهو الذي كان إلى الأمس القريب في عزلة حياة العازب المريحة. لذلك فإنه لم يكن يشعر بالراحة الحقيقية إلا عندما كان يأوي إلى سريره، حيث يجد نفسه وحيداً مع نفسه. كان عليه أن يوقع أوراقاً كثيرة وأن يقوم بأعمال المكتب، أعمال لم يكن يعلم عن فائدتها شيئاً. وكان عليه أن يحضر الحفلات الراقية وأن يهرع إلى استشارة مسجله الرئيسي، أو يزور أملاكه في ضواحي موسكو، ويستقبل عدداً كبيراً من الناس كانوا إلى عهد قريب يتجاهلون وجوده وأصبحوا الآن يشعرون بمرارة الخيبة إذا رفض مقابلتهم. وكان كل هؤلاء الناس، بين رجال أعمال وأقارب ومعارف عاديين، يظهرون استعدادهم القوي لخدمة الوارث الشاب بما يشبه الإجماع ويعلنون قناعتهم الوطيدة وإعجابهم العميق بصفاته النادرة.

كان لا ينفك يسمع أقوالاً تشبه: «بطيبتكم النادرة»، «نظراً إلى قلبكم

www.Maktbah.com

النبيل» «أنت الذي تتمتع بروح عالية»، «لو أنه كان على قدر من ذكائكم» إلخ... ولما كان يشعر بهاتف داخلي يؤكد له أنه شديد الطيبة جمّ الذكاء، فقد راح يصدق ما يغدقه عليه أولئك الناس من عبارات الإطراء ويؤمن بصحتها، كما يؤمن «بطيبته النادرة وذكائه النادر». وكان أولئك الذين كانوا من قبل يعاملونه بلا مبالاة وإهمال بل بنوع من الشراسة يعربون له الآن عن ميلهم وشعورهم الرقيق. فكبرى الأميرات مثلاً، وهي تلك المشاكسة ذات الجذع الطويل والشعر المنسدل الأملس كشعر اللُعب، جاءت إليه بعيد الخبازة تدخل إلى غرفته لتعلن أسفها الشديد لتنافرهما السابق، وهي خافضة العينين محمرّة الوجه.

ولم تقف عند ذلك الحد، بل اعترفت أمامه أنه ليس من حقها منذ الآن أن تطلب شيئاً، لكنها تلتمس منه السماح لها فقط بالبقاء بضعة أسابيع أخرى في ذلك البيت، الذي كان عزيزاً على قلبها حتى أنها ضحت فيه بكل ما في طوقها. ولم تستطع الامتناع عن البكاء فانفجرت منتحبة. وكان ذلك التحول الغريب من جانبها كافياً ليحدث أثره في نفس پيار الذي كان يعرف الأميرة شخصية باردة جامدة كالمرمر. فأمسك بيدها وسألها الصفح دون أن يدري عن أي شيء يطلب إليها أن تصفح. وراحت كبرى الأميرات اعتباراً من ذلك اليوم، تحوك له «لفحة» مخططة من الصوف وتعامله معاملة مختلفة عما درجت عليه عادتها.

وذات يوم، جاء الأمير بازيل يحمل إذناً مصرفياً بمبلغ ثلاثين ألف روبل باسم الأميرة وطلب إلى پيار أن يوقّعه وهو يقول: إفعل ذلك من أجلها يا «عزيزي». يجب أن نعترف أن المرحوم جعل حياتها قاسية جداً.

خاف الأمير بازيل أن تفضح الأميرة الدور الذي لعبه في قضية حافظة الأوراق. لذلك فقد راح يسعى لإلقاء تلك العظمة أمام تلك الفتاة المسكينة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ليشغلها بها. فوقع پيار إذن الصرف المخصص للأميرة، وتظاهرت هذه بالمزيد من التودد. أما أختا الأميرة فإنهما لم تختلفا في سلوكهما عن سلوك شقيقتهما الكبرى. أصبحتا شديدتي الحماسة والاندفاع في سبيل مرضاته حتى أن صغراهما، تلك التي كانت جميلة وعلى وجنتها حسنة، أقلقت پيار غير مرة بابتساماتها المعبرة والارتباك الذي كانت تتظاهر به كلما وقع نظرها عليه.

وكان پيار من جهته يعتقد أن حب الناس، كل الناس له، أمر طبيعي جداً وأن عكس ذلك مستحيل حتى أنه لم يكن يفكر لحظة واحدة في الشك في إخلاص الأشخاص المحيطين به. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يجد متسعاً من الوقت للتساؤل عن صراحة المحيطين به أو أنانيتهم. لم يكن لديه الوقت ليعمل شيئاً ما. لقد كان يعيش في نوع من سكر دائم فيه نشوة وفيه نشاط.

كان يشعر أنه محور حركة عامة دائبة، وأنهم ينتظرون دائماً معلومات جديدة عنه ويتوقعون منه أمراً إذا لم يفعله، فإنه يسيء إلى عديد من الناس ويحزنهم ويخدعهم فيما ينتظرونه منه، وإنه إذا فعل ذلك الأمر، فإن كل شيء على العكس، يسير في الطريق الصحيحة التي يجب أن يسير فيها، فتعم السعادة ويعم الرخاء.

ما من أحد أشرف على رعاية شؤون پيار رعاية مستمرة متيقظة كما أشرف عليها الأمير بازيل في بدء المرحلة. ولم يتوقف ذلك الإشراف عند حل المصالح، بل تعداه إلى پيار نفسه. ذلك أنه منذ أن توفي الكونت، لم يترك پيار لحظة واحدة. كان يتظاهر بمظهر الرجل الذي تثقل الأعمال كاهله، وينهكه التعب، ومع ذلك، لا يستطيع لشدة حدبه على پيار، أن يترك مصيره للأقدار تتلاعب به وفق هواها، ويترك ذلك الشاب البريء فريسة سهلة لكل نصاب، وهو المحروم من كل أسلحة الخبث والدهاء، وخصوصاً أنه ابن صديقه

www.Maktbah.com

الودود ومالك ثروة لا تقدر. واستمر طوال الأيام التي قضاها في موسكو عقب الجنازة يستدعي پيار أو يذهب بنفسه إلى جناحه ليشير عليه بما يجب عمله. وفي كل مرة كانت لهجته المعبرة عن إنهاك شديد تكاد تحدثه قائلة: «إنك تعرف أنني مغمور بالعمل والمشاغل وأنني إذا كنت أهتم بشؤونك فماذا لك إلا على سبيل الإحسان الصرف. ثم إنك تعلم أن ما أعرضه عليك هو الأمر الوحيد الذي يمكن فعله في هذه المناسبة».

أعلن الأمير بازيل ذات يوم قراره وهو يربت ذراع پيار ويسدل جفنيه على حدقتيه: وعليه يا صديقي، سنرحل غداً ولن يكون رحيلنا قبل أوانه.

دلّت لهجته على أن الأمر الذي اتفقا عليه منذ أمد طويل لا يحتمل أي اعتراض. وتابع يقول:

أجل، سنرحل غداً ولسوف أحملك في عربتي. وسأكون مرتاحاً لوجودك معي. لم يعد لدينا هنا عمل هام يستبقينا وكان علينا أن نغادر موسكو منذ فترة طويلة... آه! لقد تلقيت جواباً من مستشار الدولة الأول، لقد سُميت بناء على طلبي نبيلاً إدارياً وستكون مرتبطاً بالسلك السياسي. لقد أصبح المستقبل مفتوحاً أمامك الآن.

ورغم القساوة التي كانت في لهجة الأمير المنهكة، تلك التي أطلق بها تلك الكلمات، فإن پيار، الذي كان قد فكر طويلاً في مستقبله، كاد يصيح محتجاً. غير أن الأمير بازيل قاطعه ملتجئاً في تلك المرة، إلى لهجته المنخفضة، تلك اللهجة التي لم يكن يعمد إليها إلا في الضرورة القصوى عندما يريد اجتناب كل إمكانيات الرفض: ولكنني يا عزيزي لم أفعل ذلك إلا من أجل نفسي، من أجل إرضاء ضميري، فلا أطلب منك أن تشكرني على صنيعي، ثم إنني لم أر بعد أحداً يشتكي من كثرة محبة الناس له، ثم إنك حر وليس هناك ما يمنعك من طرد كل الناس ورفض كل شيء منذ صباح الغد،

twitter @baghdad_library

إذا راقك ذلك بنفسك عندما نبلغ پيترسبورغ. كذلك فإنني أعتقد أن الوقت قد أزف لتبتعد نهائياً عن هذه الذكريات الأليمة.

أنهى الأمير بازيل كلامه بتلك الجملة وشفعها بتنهيدة وتابع: اتفقنا أليس كذلك يا صديقي؟ سوف يركب تابعي في عربتك... آه! كدت أنسى: إنك تعرف أنني كنت على علاقات مالية مع المتوفى. ولقد قبضت مبلغاً على أجور أملاكك في ريازان. لست في حاجة إلى ذلك المبلغ، سوف نتفاهم عليه.

كان ذلك المبلغ الذي تحدث عنه الأمير بازيل موهماً أنه مبلغ تافه، أجور مزارع الكونت التي تبلغ عدة آلاف من الروبلات استملكها الأمير بازيل معتبراً أن من حقه التصرف فيها.

وجد پيار نفسه في پيترسبورغ قبلة أنظار الناس كما كان شأنه في موسكو. لم يصادف إلا كل من يغدق عليه الإطراء. ولما كان لا يعمل شيئاً فإنه لم يستطع رفض المركز الاجتماعي الذي أوجده له الأمير بازيل. وتهافتت عليه الدعوات وكثرت واجباته الاجتماعية حتى فاقت ما أحاطت به في موسكو. لذلك شعر من جديد أنه يطير في دوامة هائلة تبشر بسعادة عميقة تبدو قريبة منه وإن كانت في كل مرة تنأى عن متناول يديه.

لم يلتق في پيترسبورغ عدداً كبيراً من أصدقاء مرحه السابقين، فقد كانت فرقة الحرس في جبهة القتال وكان دولوخوف قد نزعت رتبته وأناتول في الجيش. أما في الضواحي، فإن الأمير أندريه كان كذلك متغيباً. لذلك فإن پيار لم يتمكن من قضاء الليالي الجميلة كما كان يفعل عندما كان أولئك الأصدقاء مجتمعين، ولا أن يكشف عن دخيلة نفسه من حين إلى آخر لذلك الصديق الذي يكبره سناً، والذي كان يحترمه ويقدره كل التقدير.

كانت كلها تتبدد بين الولائم والحفلات الراقصة، وفي معظم الأحيان لدى الأمير بازيل في صحبة الأميرة الضخمة وهيلين الجميلة.

www.Maktbah.com

وما تأخرت أبداً أنا پاڤلوڤنا شيرر عن تتبع الركب. فأظهرت لـپيار أن تحولاً كلياً قد طرأ على وجهة النظر التي كانت تتمسك بها بصدده. كان يشعر من قبل أن كل ما كان يتفوه به في حضرتها، يعوزه الإحكام وتنقصه اللباقة أو المناسبة. كانت كل كلماته، رغم ما كان يحس به في قرارة نفسه من وجاهتها وأحكامها، تبدو سخيفة حالما ينطق بها بصوت مرتفع. بينما كانت بلاهات هيـپوليت وحماقاته تعتبر مقبولة ومعبرة عن بديهة وتوقد ذكاء. أما الآن فقد... فقد انعكست الآية. لقد أصبحت أتفه كلمة يفوه بها «رائعة». حتى أن أنا پاڤلوڤنا إذا لم تعرب عن ذلك بتهافت، فإنه كان يلاحظ أن سكوتها ليس إلا عزوفاً منها عن إخجال تواضعه.

في مطلع شتاء ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦، تلقى پيار، بطاقة أنا پاڤلوڤنا المعهودة، تدعوه فيها إلى وليمة، وقد ذيلت البطاقة بالملاحظة التالية: «لسوف ترى عندي هيلين الجميلة التي لا يمل أحد التحديق إلى جمالها».

لأول مرة، شعر پيار عند قراءته تلك الجملة أن علاقة ما قامت بينه وبين هيلين، علاقة تقبلها كل الناس ولكنها كانت ترهبه لأنها تفرض عليه التزامات لا يستطيع القيام بها. مع ذلك فإن تلك الفكرة كانت تروقه على اعتباره طارئاً مسلّياً.

إن حفلة أنا پاڤلوڤنا لم تختلف عن سابقتها إلا في الوجه الجديد الذي راحت تفكه به مدعويها. لم يكن في تلك الليلة مورتمارت كما في المرة السابقة، بل دبلوماسي وصل أخيراً من برلين يحمل معه آخر الأخبار عن إقامة الأمبراطور ألكسندر في پوتسدام وتفاصيل التحالف القوي الذي تعاهد عليه العاهلان الصديقان للدفاع عن قضية الإنسانية وحقوقها ضد الإنسانية. استقبلت أنا پاڤلوڤنا پيار وعلى وجهها سحابة من الحزن سببتها الخسارة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

القاسية التي مُني بها الشاب، إذ إن كل الناس كانوا يتظاهرون بإيمانهم الشديد بحزن الشاب على أبيه الذي لم يعرفه ولم يقض معه إلا طفولة قصيرة.

كان ذلك الحزن البادي على وجهها يشبه إلى حد بعيد الخطورة الكئيبة التي تعلو وجهها كلما تحدثت عن سيدتها الجليلة الأمبراطورة ماري فيودوروڤنا. فشعر پيار بشيء من التيه لهذا الاستقبال. وزعت أنا پاڤلوڤنا ببراعتها المعهودة مدعويها على جماعات فكانت الجماعة الرئيسية تحيط بالأمير بازيل والجنرالات الذين كانوا يتلذذون بالتندر والبحث في الشؤون السياسية. وكانت جماعة أخرى تحيط بطاولة للشاي. وكان پيار يود من صميم قلبه لو انضم إلى جماعة المتحدثين بالسياسة، لكن أنا پاڤلوڤنا لم تكد تراه وتقدر عزمه حتى أسرعت إليه مبتهجة وكأنها رئيس في ساحة معركة اشتهر بحسن توجيهاته ودقة آرائه، فلمست ذراعه بيدها وقالت وهي تلقي نظرة على هيلين وتبتسم له في الوقت نفسه: انتظر، إنني أشملك هذا المساء بعناياتي.

وقالت تخاطب هيلين: يا هيلينتي الطيبة، يجب أن تكوني محسنة لـ«ماتانت»، فما قولك في الذهاب إليها والبقاء معها بضع دقائق؟ إنني أقدم لك عزيزنا الكونت الذي لن يرفض صحبتك خلال هذا الوقت كي يبعد عنك السأم.

مضت هيلين للقاء «ماتانت»، بينما أمسكت أنا پاڤلوڤنا بذراع پيار من جديد واستبقته برهة متظاهرة بأن عليها قبل أن تطلق يده أن تزوده بنصائحها وتوصياتها الضرورية.

وأشارت إلى الجمال الصارخ المتجسد في شخص هيلين التي كانت تتجه باعتداد ناحية «الماتانت» بخطوات مهيبة: ألست تراها رائعة الجمال؟ ثم يا لجمال هندامها! ويا لكياستها ووفرة علمها واتزانها رغم سنها الصغيرة وشبابها المتدفق! إن هذه المزايا طبيعية عندها وهي تدل على جمال قلبها. كم

www.Maktbah.com

هو سعيد ذلك الذي سيمتلكها. إن أقل الأزواج خبرة في الأوساط الراقية لن يجد نفسه معها إلا وقد أصبح في أوج المجتمع. ألست من هذا الرأي؟...

وأطلقت أنا پاڤلوڤنا پيار الذي راح ينعم النظر بإخلاص في مظهر هيلين الأنيق ولهجتها المتزنة. لم يكن يفكر ـ إذا أراد التفكير فيها ـ إلا في جمالها فحسب، في ذلك الفن النادر الذي تمكنت منه حتى راحت تتخذ مظهراً صامتاً في كل الأندية.

وهي في زاويتها، استقبلت «ماتانت» الشابين بتصرف كان يوحي بشديد خوفها من ابنة أخيها أنا پاڤلوڤنا أكثر مما ينبئ بحبها لهيلين الجميلة، اختلست نظرة إلى ابنة أخيها كأنها تستشيرها في السلوك الذي ينبغي أن تسير عليه معها. ولما انسحبت أنا پاڤلوڤنا، لمست كمّ پيار من جديد وقالت ملمحة وهي تنظر إلى هيلين: آمل أن تكف عن القول بأن الإنسان يشعر بالضجر في حفلاتي!

أما هيلين فقد أعربت بابتسامة وديعة عن أنها لا تتوقع ألّا يُعجب كل من يراها ويفتن بجمالها. سعلت «ماتانت» برهة وابتلعت ريقها ثم أعلنت لهيلين فرحها لرؤيتها ثم وجهت إلى پيار مثل ذلك القول بعد أن سعلت وابتلعت ريقها أيضاً. وانخرط الثلاثة في حديث لا معنى له، راحت هيلين خلاله تلتفت نحو پيار وتقطعه ابتسامتها المشرقة الصافية، تلك الابتسامة التي كان من عادتها منحها للجميع.

وكان پيار قد ألف تلك الابتسامة حتى أنه لم يعد يشعر بها لأنها كانت غير معبرة بالنسبة إليه، وإذا كانت تعبر عن شيء، فإنما عن تفاهة لا طائل فيها. وفي تلك اللحظة راحت «الماتانت» تمتدح علب السعوط التي كان الكونت بيزوخوف المرحوم يقتنيها. وبتلك المناسبة، أخرجت علبتها تعرضها على الشابين. فطلبت هيلين رؤية صورة زوج السيدة الفاضلة التي كانت منقوشة على غطاء العلبة تزينه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال پيار: إنها، دون شك، من صنع ڤينيس (ويقصد بذلك النقّاش اليدوي الشهير).

وانحنى على المنضدة لالتقاط العلبة وهو يستمع إلى الحديث الدائر حول الطاولة المجاورة.

همَّ بالنهوض ليدور حول المنضدة ويلتقط العلبة، غير أن «ماتانت» مدت يدها بها من وراء ظهر هيلين التي رأت من واجبها، تسهيلاً لحركة العجوز، أن تنحني قليلاً نحو پيار. فانحنت والتفتت نحوه مبتسمة. كانت ترتدي ثوب سهرة حاسر العنق يبرز الصدر وجزءاً كبيراً من الظهر كما كانت عليه أزياء ذلك العصر. فكان جذعها اللدن الذي كان پيار يتخيله دائماً منحوتاً في الرخام، شديد القرب منه حتى أنه رغم قصر بصره، لم تغب عن عينيه حركات العنق العاجي والكتفين المرمريتين، كان شديد القرب حتى إنه كان يكفي أن ينحني قليلاً حتى يلامس بشفتيه ذلك الجسد. أحس بدفء ذلك الجسد الفتي واستنشق عبيره، وأصغى إلى قرقعة حمالة النهدين الخفيفة.

وبدلاً من أن يرى ذلك الجمال والتكوين المرمري الذي كان متحداً مع الزينة الخارجية، أتيح لپيار بتلك الانحناءة أن يرى ويخمن ما تحت ذلك الستر الرقيق من الثياب ويقدر أن وراءه سحر جسد رائعاً شديد المفاتن. ومنذ أن وفق إلى ذلك الاكتشاف، استحال عليه أن يرى شيئاً آخر كما يستحيل على كل إنسان التعلق بخيال مرة ثانية بعد أن يكتشف حقيقته.

بدا على وجه هيلين تعبير من تقول: «إنك لم تكن ترى أنني أصبحت امرأة ناضجة؟ نعم امرأة تريد أن تصبح ملكاً لهذا أو لذلك، لك كما لسواك من الناس». وعندئذ أحس پيار أن هيلين لا يمكنها أن تكون زوجته فحسب بل إنها يجب أن تكون زوجته ولا شيء غير ذلك.

وأدرك ذلك منذ اللحظة بمثل التأكيد والاطمئنان الذي يشعر بهما لو

www.Maktbah.com

كان واقفاً معها بين يدي الكاهن يبارك زواجهما. أما كيف سيتحقق ذلك ومتى سيتحقق؟ كان يجهل التفاصيل. بل إنه لا يعرف إذا كانت تلك النهاية المنتظرة ستكون حدثاً سعيداً أو عكس ذلك، وكان ينتظر الحل الثاني بشكل غامض، لكنه كان متأكداً أن ذلك سيتم بالفعل.

خفض پيار عينيه ثم رفعهما وهو يتمنى لو أنه رآها كتلة جمال صارخ صعب المنال كما كان يراها في الأيام السابقة. لكنه لم يستطع إقناع نفسه بوجاهة ذلك. بل كان يستحيل عليه رؤيتها كذلك كما يستحيل على المرء الذي ظن تحت تأثير الضباب الكثيف أن حزمة من الحشيش إن هي إلا شجرة سامقة، أن يرى بعد انقشاع الضباب الشجرة حزمة من الحشيش أو أن يخدعه نظره مجدداً. كانت شديدة القرب منه وقد أثرت في شخصه واستولت على تفكيره. فلم يبق بينهما منذ ذلك الحين من عقبات إلا ما تواجهه في طريقهما إرادته الشخصية.

ارتفع صوت أنا پاڤلوڤنا يقول: حسناً، سأدعكما في زاويتكما. أرى أنكما على أحسن ما يرام.

وعندئذ راح پيار يتساءل بشيء من الارتياع عما إذا لم يكن قد ارتكب فعلاً مشيناً يستوجب اللوم، فاحمر وجهه وراح يسرح الطرف حوله بنظرات قلقة. كان يخيل إليه أن كل المدعوين باتوا يعرفون ما حدث له في تلك اللحظة مثل معرفته تماماً.

ولما انضم بعد فترة إلى الجماعة الرئيسية قالت له أنا پاڤلوڤنا: يقال إنك تجمّل منزلك في پيترسبورغ وتدخل عليه تحسينات جديدة.

والواقع كان كذلك. إذ إن پيار، دون أن يعرف السبب، نزل عند رأي مهندسه الجازم، فأمر بإجراء إصلاحات وإدخال تحسينات كثيرة على قصره المنيف في پيترسبورغ.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تابعت وهي تبتسم: إن هذا حسن. ولكن لا تترك منزل الأمير بازيل. إن من الخير أن يكون للمرء صديق كالأمير بازيل. ألا تراني أعرف شيئاً ما؟ ثم إنك شاب في مقتبل العمر ولاتزال بحاجة إلى النصح «أرجو أن لا تغضب إذا كنت أسيء التصرف في الحقوق المخولة إلي بوصفي من العانسات المسنات...».

سكتت قليلاً بانتظار عبارة الاحتجاج المألوفة في مثل هذا الموقف عندما تعترف سيدة بتقدمها في السن، ثم تابعت: لكنك إذا تزوجت فإن الأمر يكون مختلفاً.

وشفعت قولها بنظرة شملت الشابين معاً.

لم ينظر پيار إلى هيلين ولم تنظر هي إليه كذلك، لكنها كانت أبداً شديدة الالتصاق به إلى درجة مخيفة. غمغم بضع كلمات غير مفهومة وقد اندفعت الدماء إلى وجهه.

وعندما رجع إلى غرفته، جفاه الكرى طويلاً ونأى النوم عن عينيه. ظل يفكر في ما حدث له. ترى ماذا حدث له ذلك المساء؟ لا شيء. لقد فهم أن تلك المرأة التي كان يعرفها منذ طفولتها والتي كان يقول بلا مبالاة كلما تحدث عنها أو ردّ على أولئك الذين يطرون جمالها: «آه نعم، إنها لا بأس!»، أدرك أن تلك المرأة يمكن أن تصبح له.

وحدّث نفسه قائلاً: «لكنها حمقاء، لقد اعترفت بنفسي بذلك مراراً. هناك شيء من الانحطاط في الشعور الذي تلهمينه. لقد زعموا أن أناتول أخاها قد أغرم بها وأنها كانت كذلك مغرمة به تعشقه؛ وقد يكون إبعاد أناتول راجع إلى هذا السبب. ثم هناك أخوها الآخر هيپوليت وأبوها الأمير بازيل... هم! إن كل هؤلاء لا يروقونني...».

وبينما كان يناقش نفسه، على هذا النحو، دون أن يندفع بأحكامه إلى

www.Maktbah.com

المدى الأقصى أحسَّ بابتسامة تتحرك على شفتيه، واعترف أن هناك مناقشات أخرى كانت تتغلب في نفسه على تلك الاعتراضات. لقد كان يحلم بجعل هيلين زوجة له رغم اعترافه بتفاهة شأنها ومعرفته الأكيدة لذلك. لعلها كانت تستطيع أن تحبه في المستقبل، لعلها كانت خلافاً لكل ما ظن بها من سوء، ولعل كل ما قيل عنها ليس مرتكزاً على أسس متينة وتعود ابنة الأمير بازيل تخطر في خياله ليس بوصفها ابنته بل على اعتبارها المرأة التي لا يكاد الثوب الأشهب يغطي جسدها الفاتن.

«ولكن لمَ لم تراودني أفكار مماثلة من قبل؟» ومجدداً راح يؤكد لنفسه استحالة ذلك وأن ذلك الزواج لن يخلو من شيء مقيت، شيء ينقصه الشرف. تذكر كلماتها ونظراتها كما تذكر كلمات أولئك الذين كانوا يرونهم معاً ونظراتهم. تذكر عبارة أنا پاڤلوڤنا عندما حدثته عن منزله في پيترسبورغ وتذكر ألف تلميح وتلميح صدرت كلها عن الأمير بازيل في مناسبات متعددة وعن أشخاص آخرين.

عندئذ استولى عليه خوف شديد: ألم يقذف بنفسه في مغامرة تجلب عليه النقد واللوم دون شك، وعليه تحاشيها والتخلص منها؟ لكنه في الوقت نفسه، في أحلامه الكثيرة تلك الليلة كانت صورتها هي تبعث بين ألوف الأشياء الأخرى وتطالعه بكل إغرائها الأنثوي البديع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

في تشرين الأول عام ١٨٠٥ عزم الأمير بازيل على القيام بجولة تفتيشية في أربع مقاطعات. وكان قد صمم القيام بتلك الرحلة ليتمكن من زيارة ممتلكاته التي كانت أوضاعها المتزعزعة تثير قلقه باستمرار. وكان يُنتظر أن يصطحب ابنه أناتول من المدينة التي كانت فرقته مستقرة فيها لزيارة الأمير بولكونسكي العجوز الذي كان يأمل الفوز بيد ابنته، تلك الوارثة الغنية. لكنه كان مصمماً، قبل الاندفاع في تدابيره الجديدة، على الانتهاء من مشكلة بيار.

والحقيقة، أن هذا لم يكن يغادر مسكنه منذ أسابيع، تبدو عليه في حضرة هيلين الجميلة بوادر الاضطراب والبلاهة والحياء الشديد، وهي الصفات المعروفة عن العاشقين، لكنه لم يكن بعد قد حزم أمره على التصريح بواقع حاله خلافاً لما كان ينتظر الأمير بازيل.

في صباح ذات يوم، حدث الأمير بازيل نفسه بقوله: «إن كل هذا جميل ورائع ولكن يجب أن أنتهي منه». وندت عن صدره زفرة عميقة، والواقع أن بيار ذاك، الذي كانت عليه التزامات كثيرة ليباركه الله! لم يكن يتصرف تصرفاً سليماً في تلك المسألة. كان يحدث نفسه بقوله: «الشباب.. الطيش.... ليباركه الله! ويلذ له إشعار نفسه بطيبته المتزايدة بتلك البركات التي يستمطرها عليه، ولكن يجب أن ننتهي من هذا. إن عيد ليوليا، وهو تحريف وتدليل لاسم هيلين ابنته، سيحل بعد غد. ولسوف أدعو بعض الأشخاص. فإذا لم يفهم هو واجبه فأنا سأقوم بواجبي. إنني على كل حال أبوها!».

www.Maktbah.com

انقضت ستة أسابيع على حفلة أنا پاڤلوڤنا الأخيرة وليلة الأرق تلك، التي قرر پيار فيها أن ذلك الزواج سيسبب له التعاسة وأن عليه تنكب سبيل هيلين والفرار منها مهما بلغ الثمن. لكنه مع ذلك لم ينفك عن السكنى في منزل الأمير بازيل طوال تلك المدة متطلعاً خلالها برعب إلى أن كل يوم يقضيه هناك يزيده تعلقاً بهيلين وقرباً منها في نظر الناس، وأن عودته إلى نفوره السابق منها أمر مستحيل.

شعر بعجزه التام عن انتزاع نفسه من بين يدي هذه المرأة التي كان يعتبر ربط مصيره بمصيرها مجازفة خطيرة عليه أن يتجنبها ولعله كان يستطيع رغم ذلك أن ينجو بنفسه من ذلك الخطر لولا أن الأمير بازيل راح يحيي كل يوم، خلافاً لعادته، حفلات كان على پيار الظهور فيها إلا إذا كان معتزماً تشويه متعة المدعوين بتخلفه وتبديد أملهم. وفي المناسبات النادرة التي كان پيار يجد نفسه فيها في منزله، كان الأمير يسرع إليه فيضغط بقوة على يده مصافحاً ويقدم له وجنته المجعدة لتقبيلها وهو يقول له: «إلى الغد» أو: «تعال لتناول الغداء معنا وإلا فلن أعود إلى رؤيتك» أو كذلك: «إنني سأنتظرك وأبقى خصوصاً من أجله» فإنه كان يوجه إلى پيار أكثر من كلمتين اثنتين خلال الجلسة كلها.

ولم يكن هذا قادراً على مشاكسته أو الصمود له. وفي كل يوم كان پيار لا يفتأ يردد في سره: «ينبغي أن أفهمها رغم كل ذلك وأن أصل إلى حقيقتها لأعرف هل كنت مخدوعاً من قبل أو أنني أخدع نفسي الآن؟... كلا إنها ليست حمقاء، كلا، إنها فتاة رائعة إنها لا تأتي أبداً أمراً منكراً، إنها تتكلم نادراً، لكن ما تقوله يكون دائماً مصيباً وواضحاً، فهي إذن ليست حمقاء. إنها ذات مزاج متزن لأنني لم أرها مرة مضطربة مرتكبة، فهي إذن شخصية ممتازة». وكان غالباً يتورط في التفكير بصوت مرتفع أمام هيلين فيلقي ببعض الآراء فكانت تجيبه إجابة قصيرة تدل، رغم ما فيها من وفرة المعاني، على استخفافها بتلك

twitter @baghdad_library

الأمور إلا إذا أعربت خلافاً لذلك بنظرة أو بابتسامة، عن تساميها. ولقد كانت على صواب إذ ماذا تجدي تخرصات الناس وآراؤهم أمام تلك الابتسامة التي تنطق ببيان فصيح لا تعبر عنه الكلمات؟

لقد خصّته هيلين بابتسامة مرحة مطمئنة تحمل من المعاني ما لا تحمله ابتساماتها التقليدية التي ترسمها على شفتيها في كل المناسبات. وكان كل الناس ينتظرون أن ينطق بيار بكلمة أو أن يتخطى حدوداً معينة. وكان يعرف ذلك تماماً كما يعرف أنه سوف يتجاوز ذلك الحد آجلاً أو عاجلاً. لكن خوفاً غامضاً كان يستولي عليه لمجرد التفكير في تلك الخطوة الآتية. حدث بيار نفسه ألف مرة خلال تلك الأسابيع الستة وهو يشعر أنه يجذب كل يوم أكثر من اليوم الأسبق إلى تلك الهاوية الرهيبة: «ولكن عجباً، إن الأمر لا يعدو وجوب اتخاذ قرار، فهل أكون عاجزاً عن اتخاذ خطوة حاسمة؟».

رغم إصراره على اتخاذ قراره النهائي ـ كان بيار يشعر دائماً بذعر كلما رأى أن التصميم الذي كان يظن أنه جازم وفي طاقته التمسك به، يتبدد ويهجره في موقفه الحاضر. كذلك هي الحال لدى بعض الأشخاص الذين لا يشعرون بحقيقة قواهم الداخلية إلا إذا كان لهم ضمير نقي صاف. لذلك، منذ ذلك اليوم استولت فيه الرغبة الجامحة عليه بينما كان يعاين علبة السعوط عند أنا پاڤلوڤنا شل الخبث والمقصد السيئ اللذان نبتا في ضميره كل حركات إرادته.

في يوم عيد هيلين، لم يستقبل الأمير بازيل إلا مجموعة من الأقرباء والأصدقاء أو بعبارة أصح «الحلقة الصغيرة» كما كانت تسميهم الأميرة، وقد أشعر هؤلاء المدعوون، بشكل غير مباشر، أن مصير ابنة الأمير يتوقف على تلك اللحظة.

كانت الأميرة كوراغين، وهي سيدة ضخمة مهيبة الطلعة ذات جمال لم تعصف الأيام بكل آثاره، تترأس الطاولة وحولها المدعوون الأرفع شأناً

www.Maktbah.com

ومقاماً: جنرال عجوز وزوجته، أنا پاڤلوڤنا شيرر إلخ... وعلى طرف الطاولة، انتظم عدد من المدعوين ممن كانوا أقل شأناً أو أصغر سناً، وكان پيار وهيلين بين هؤلاء يجلسان جنباً إلى جنب. لم يشترك الأمير بازيل في تناول الطعام مع ضيوفه.

كان مزاجه شديد الصفاء، فكان يدور حول الطاولة فيجلس تارة قرب هذا وطوراً قرب ذاك، هامساً كلمة مجاملة في أذن هذه أو عبارة شيقة تطوي تلك لكنه لم يقترب من پيار وهيلين، وكأنه لم يكن يشعر بوجودها على الإطلاق كان يثير حماسة الموجودين وشهيتهم. وكانت الفضيات والكؤوس «الكريستالية» تلتمع تحت ضوء الشموع القوي وكذلك حلي النساء والصفائح الدقيقة الذهبية أو الفضية التي تزين أكتاف الرجال. وكان الخدم بأثوابهم الحمراء ناشطين في خدمة المدعوين وتلبية رغباتهم، ورنين السكاكين وقرع الكؤوس، واحتكاك الملاعق بالأطباق تختلط بالجدل. ارتفع من أحد أطراف الطاولة صوت حاجب عجوز يوجه إلى بارونة عجوز تصريحاً منمقاً يطري جمالها بلغة البلاط، الأمر الذي جعلها تنفجر ضاحكة من ذلك البيان الهزلي.

وفي جانب آخر كان القوم يتندرون بضائقات من تدعى ماري ڤيكتورڤنا. أما في الوسط فقد كان الأمير بازيل محور الانتباه. كان يقص على السيدات تفاصيل آخر جلسة لمجلس الدولة الاستشاري وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. قال إن تلك الجلسة عقدت يوم الأربعاء الفائت وإن حاكم پيترسبورغ العسكري الجديد، سيرج كوزمتيش ڤيازميتينوڤ، قرأ خلالها «فرماناً» بخط الأمبراطور ألكسندر، تسلمه عن طريق الجيش. كان الأمبراطور في كتابته الشريفة يخاطب ڤيازميتينوڤ قائلاً إنه يتلقى من كل مكان كتباً تعرب عن ولاء مرسليها وإخلاصهم وإن تلك التي أرسلت إليه من پيترسبورغ كانت تلقى عند جلالته عناية وتقبلاً فائقين، وأنه يشعر بفخار لأنه رئيس أمة عظيمة كالأمة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الروسية وأنه يعمل ما في وسعه ليكون جديراً بها. وكان الكتاب الشريف يبدأ بهذه الكلمات: «سيرج كوزميتش، تصلني من كل مكان...».

فسألت إحدى السيدات: إذن، لم يستطع الاسترسال في قراءته أبعد من عبارة «سيرج كوزميتش»؟

فأجابها الأمير ضاحكاً: كلا، بل «سيرج كوزميتش، من كل مكان... من كل مكان، سيرج كوزميتش...» لم يستطع البائس التخلّص من هذه الجملة. لقد حاول غير مرة متابعة القراءة. لكنه كان في كل مرة لا يكاد يتفوه بكلمة «سيرج» حتى ينفجر باكياً. وعند «كوز... ميتش» يزداد انتحاباً. أما عند «من كل مكان» فقد يختنق بالعبرات، فيخرج منديله من جديد ويعاود القراءة: «سيرج كوزميتش، من كل مكان» غير أن بكاءه كان لا يلبث أن يتعالى أكثر فأكثر... حتى أنه اضطر أخيراً إلى تكليف سواه قراءة الكتاب الشاهاني!

كرر أحدهم ضاحكاً: كوزميتش... من كل مكان... وكان يبكي ويرتفع نحيبه!

فهتفت أنا پاڤلوڤنا من الجانب الآخر من الطاولة بسبابتها:

ـ اعقلوا، إن «ڤيازميتنوڤنا» الطيب رجل باسل ممتاز!

فعم الضحك الطاولة كلها، ذلك الضحك الذي ما كان ينفك يتردد لأتفه الأسباب. وكان پيار وهيلين الوحيدان اللذان بقيا في مكانيهما صامتين وعلى شفاههما طيف ابتسامة لم تستكمل بعد. لم تكن لتلك الابتسامة أية علاقة بموضوع سيرج كوزميتش، بل كانت ابتسامة احتشام منبعثة عن عواطفهما الخاصة. وعلى الرغم من أن المدعوين استمروا يتحدثون ويتضاحكون ويتفكهون متلذذين بتذوق خمرة الرين وأطايب الطعام، متظاهرين بعدم الاهتمام بالشابين، فإن نظراتهم المختلسة التي كانوا يوجهونها إليهما من حين إلى آخر كانت تدل دلالة واضحة على أن فكاهة سيرج كوزميتش والقهقهات

www.Maktbah.com

المدوية، والوليمة الحافلة، وكل ما يحيط بها، ليس إلا خدعة يراد بها التمويه وأن الاهتمام العام منصبّ بكليته على الشفع: هيلين ﭙيار.

وبينما كان الأمير بازيل يقلد سيرج كوزڤيتش في انتحابه، شمل ابنته هيلين بنظرة محيطة، وعندما كان ينقلب على قفاه مقهقهاً كان وجهه ينطق بصراحة: «إن كل شيء على ما يرام وإن كل شيء سيقرر هذا المساء» وكانت أنا ﭙاڤلوڤنا تدافع عن «ڤيازميتينوڤنا الطيب» وهي تتخذ مظهر المتوعد. لكن الأمير بازيل كان يقرأ في عينيها خلال تلك النظرة الحادة التي سلطتها على ﭙيار، أنها تهنئه بصهره الجديد المنتظر وبسعادة ابنته المرتقبة. أما الأميرة، فكانت وهي تقدم الخمر لجاراتها، تلقي على ابنتها نظرة غاضبة تطلق زفرة كئيبة وكأنها تقول: «بلى يا عزيزتي، لم يبق لنا الآن إلا أن نشرب النبيذ الحلو، لأن الدور قد أصبح لهذه الشبيبة وعليها أن تنشر سعادة شديدة السفاهة والوقاحة!» وكان هناك سياسي يرقب وجهي العاشقين المشرقين ويقول لنفسه متسائلاً: «لماذا أتظاهر بالاهتمام بكل ما أروي؟ إن كل هذا ليس إلا سخافات! والواقع إن هذا وحده هو السعادة الحقيقية!».

انبثق فجأة شعور جديد طبيعي غريزي. وفي غمار ذلك التشاغل التافه الذي يصطنعه الموجودون ليربط بينهم في تلك اللحظة، كان ذلك الشعور هو الرغبة التي يشعر بها أحدهما في الآخر، مخلوقان فتيان نبيلان!

كان ذلك الشعور مهيمناً على كل شيء، وكان متفوقاً على الثرثرات العرضية التي علت جلبتها في ذلك المكان. فقدت الدعابات ملاحتها والأنباء الجديدة طرافتها وأهميتها، وظهرت الحماسة العامة على حقيقتها مصطنعة. ولقد امتدّ ذلك الشعور إلى الخدم أنفسهم الذين كانوا رغم إغفالهم خدمة الشابين متعمدين، لا يزالون يتأملون وجه هيلين المشرق الوضاح ووجه ﭙيار المحمرّ بقسماته الكبيرة التي امتزج البشر والقلق في الظهور عليها.

twitter @baghdad_library

كان پيار يشعر أنه أصبح محط أنظار الجميع فكان يشعر بارتياح يشوبه الاضطراب والارتباك، لا يصغي إلى شيء ولا يفهم أو يسمع شيئاً شأن الرجل المنهمك في مشاغله. لولا أنه، من حين إلى آخر، كانت بعض الأفكار أو المشاعر الغامضة تعيده إلى الحقيقة دون سابق إنذار.

كان يفكر في سرّه «إذن لقد انتهى كل شيء... ولكن كيف وقع كل هذا؟ أبمثل هذه السرعة! إنني أرى الآن أن هذا الأمر يجب أن يتم ليس من أجلها هي أو من أجلي أنا، بل من أجل هؤلاء جميعاً لأنهم ينتظرون حدوثه بتلهف. إنهم ينتظرون كلهم حدوث «هذا الشيء» بمزيد من القناعة حتى أنني لا أجد ما يبرر خيبة أملهم. أما كيف سيتم ذلك؟فإنني لست أدري. لكن ذلك سيتم، أجل، سيتم حتماً».

بينما كان مستغرقاً في خواطره، كانت نظراته تجوب رحاب تينك الكتفين العاجيتين الرائعتين القريبتين من عينيه النهمتين. لكن لوناً من الخجل استولى عليه فجأة عندما فكر في أنه يحتكر اهتمام الموجودين جميعاً وأنه يبدو أمامهم بمظهر الرجل السعيد، وأنه بوجهه البعيد عن منازل الجمال، يلعب دور پاريس[١] في غزو قلب هيلين الجميلة.

وأخذ يفكر مواسياً: «مع ذلك فإن الأمر دائماً يبدو كذلك ولا يمكن أن يكون على شكل آخر... ثم إنني ماذا فعلت في سبيل ذلك؟ متى بدأ هذا الشيء؟ إنني عندما غادرت موسكو مع الأمير بازيل، لم يكن في الأمر شيء من كل هذا. ثم إنني ولا شك لم أكن أستطيع رفض النزول في ضيافته، ثم لعبت معها الورق والتقطت حقيبة يدها مرة، ورافقتها في نزهة... فمتى إذن بدأ هذا؟ متى وقع كل هذا؟» وها هو الآن يجلس بقربها وكأنه خطيبها، إنه

(١) عشيق هيلانة زوجة مينيلاس وهو الذي أعطى جائزة الجمال للإلهة ڤينوس (إلياذة هوميروس) (المترجم).

www.Maktbah.com

يسمعها ويراها ويحس بوجودها، يشعر بتنفسها وحركاتها وجمالها. جمالها؟ أوَلَيس جماله هو، وليس جمالها، الذي يجذب كل هذه الأنظار؟ واعتد بنفسه حين بلغ من مناقشته هذا الحد، فاستوى بجذعه ورفع رأسه مغتبطاً. وفجأة خيل إليه أن صوتاً مألوفاً لديه ارتفع مرتين. لكنه كان مستغرقاً في أحلامه فلم يفهم ما قيل له. ولما كرر الأمير بازيل سؤاله للمرة الثالثة قائلاً:

ـ إنني أسألك متى تسلمت رسالة پولكونسكي. كم أنت ساهم البال يا عزيزي!

وابتسم الأمير فرأى پيار أن الآخرين جميعهم يشاركونه في الابتسام وعيونهم شاخصة إلى هيلين وإليه. فقال في سره: «ماذا بعد، ما دمتم جميعاً على علم بالحقيقة... ثم هي الحقيقة الواقعة». وافتر ثغره عن ابتسامته الهادئة، ابتسامة الطفل البريء التي استجابت لها هيلين بابتسامة مماثلة.

ألح الأمير مستفسراً وقد بدا عليه أنه في حاجة إلى الجواب ليضع حداً لنقاش معين: ألا تتكلم، متى تلقيت تلك الرسالة؟ هل كانت واردة من أولموتز؟

فأسر پيار في نفسه قوله: «كيف يمكنهم الاهتمام بتفاهات كهذه؟» وأجاب بصوت مرتفع مشفوع بزفرة: نعم، من أولموتز.

وانتهى العشاء فرافق پيار رفيقته إلى القاعة أسوة بالآخرين. وأخذ المدعوون ينسحبون تباعاً فكان بعضهم لا يودع هيلين مطلقاً والبعض الآخر يتظاهر بعزوفه عن إزعاجها في انشغالاتها الجدية، فيقترب منها قليلاً ثم يستأذن مسرعاً ملحفاً عليها في البقاء مكانها معفيها من واجب التشييع.

فالسياسي انسحب انسحاباً صامتاً لأن حياته كلها بدت لعينيه تافهة إذا قيست بهناء پيار وسعادته، والجنرال العجوز اقتاد زوجته التي كانت تشكو ألماً في ساقها وهو يحدث نفسه قائلاً: «هه! أيها الحيوان العجوز، انظر إلى هيلين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ڤاسيليڤنا، ها هي ذي امرأة تظل محتفظة بجمالها ولو تخطت الخمسين». أما أنا پاڤلوڤنا فقد همست في أذن الأميرة الأم قائلة: أعتقد أنني أستطيع تقديم تهاني منذ الآن.

وانحنت عليها تعانقها وتابعت: لولا إصابتي بالبرد لبقيت وقتاً أطول.

فلم تجب الأميرة، لقد كانت تغبط ابنتها بل تحسدها على سعادتها.

وبينما كان الأمير وزوجه يقودان الضيوف الذاهبين ويشيعونهم، بقي پيار منفرداً بهيلين في القاعة الصغيرة دون رقيب. لقد ظل وحيداً معها عدة مرات خلال الأسابيع الستة المنصرمة لكنه لم يحدثها قط عن الحب. لكنه كان يشعر أن مثل هذا الحديث أصبح الآن ضرورة ملحة. لكنه لم يكن يعرف كيف يبدأ الخطوة الأولى، كان يشعر بالخجل، لقد كان يرى أنه يحتل مكاناً قرب هيلين جاهزاً لغيره من الناس. وكان هاتف داخلي يهيب به قائلاً: «إن هذه السعادة لم تخلق من أجلك، لقد خلقت لأولئك الذين لا يملكون ما تملكه في نفسك من مشاعر».

مع ذلك، شعر بضرورة التحدث بشيء ما، أي شيء، وحزم أمره على الكلام. سألها عما إذا كانت مسرورة من تلك الحفلة. فأجابته بطهرها وبراءتها المعهودين أن ذلك اليوم كان أجمل أيام الأعياد في حياتها كلها.

كان بعض الأقرباء المقربين لا يزالون يجالسون الأميرة الأم في القاعة الكبيرة، فجاء الأمير بازيل إلى حيث جلس الشابان يسترق الخطى. فنهض پيار عند قدومه وأعرب عن تأخره لأن الوقت قد أصبح متأخراً. لكن الأمير أظهر بنظرة قاسية مستفهمة أن مثل ذلك القول غريب وفي غير محله. لكنه تمالك نفسه فوراً وأمسك بذراع پيار فأجلسه وابتسم له ابتسامة وديعة.

سأل ابنته بلهجة ماجنة طبيعية لدى الآباء الذين أنشأوا أولادهم في النعيم والدلال، لهجة كانت غير واضحة لديه كما يجب: وإذن يا لوليا؟

www.Maktbah.com

ثم التفت إلى پيار وقال وهو يفك أزرار صدارته: «سيرج كوزميتش، من كل مكان».

ابتسم پيار. لكن ابتسامته، التي تعني، للأمير على أنه يفهم تماماً أن أقصوصة سيرج كوزميتش ليست هي التي تستأثر بانتباهه إلى هذا الحد في تلك اللحظة. وفهم الأمير كذلك أن پيار لم يكن غبياً كما كان يعتقد، فانسحب وهو يمضغ كلمات غير مفهومة. ولم يفت پيار اضطراب هذا النبيل العجوز ذي الوجه الجامد، وأثر ذلك الارتباك فيه، فالتفت إلى هيلين فبدت هي الأخرى مرتبكة تنظر إليه نظرة ناطقة تقول: «إنها خطيئتك على أية حال!».

خاطب پيار نفسه قائلاً: «لا شك أن علي أن أسرع في بلوغ النتيجة لكنني لا أستطيع، لا أستطيع». وعاد يتحدث في أمور تافهة. سألها عن حقيقة أقصوصة سيرج كوزميتش التي لم يكن قد استوعبها. فاعترفت له هيلين باسمة أنها هي الأخرى لا تعرف عنها أكثر مما يعرف.

ولما عاد الأمير بازيل إلى القاعة الكبيرة، كانت الأميرة تتحدث عن پيار مع سيدة في سنّ ناضجة: صحيح أنها صفقة موفقة، لكن السعادة يا عزيزتي...

فأجابتها السيدة المسنة: إن أمر الزواج بيد الله...

بدا على الأمير بازيل أنه لم يسمع تلك المحاورة، وراح يتهاوى على كنبة في إحدى الزوايا ولم يلبث أن أغمض عينيه وكأنه أغفى. ولما سقط رأسه على صدره تمالك نفسه وقال لزوجته: ألين، اذهبي وانظري ماذا يفعلان.

نهضت الأميرة واجتازت الباب وعلى وجهها طابع الخطورة واللامبالاة، فألقت نظرة على القاعة الصغيرة حيث كان پيار وهيلين يتحدثان. فقالت لزوجها: إنهما لا يزالان ينسجان على منوال واحد: الحديث!

قطب الأمير بازيل حاجبيه فتقلص جانب من فمه واهتزت وجنتاه وانطبع وجهه بذلك الطابع البشع وانتفض واستوى واقفاً، وألقى برأسه إلى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الوراء ومر بالسيدات غير عابئ بهن، واتجه نحو القاعة الصغيرة بخطوات ثابتة. مضى من فوره إلى پيار الذي ما إن شاهد خطورة قسمات وجهه حتى انتصب واقفاً مذعوراً.

قال الأمير: حمداً لله لقد حدثتني زوجتي بكل شيء.

ثم طوق پيار بإحدى ذراعيه وهيلين بالأخرى وعقب:

ليوليا، يا فتاتي، إنني سعيد، شديد السعادة... واختلجت نبرات صوته من الانفعال... وأنت يا پيار، لقد كنت أحب أباك... لسوف تكون رفيقة جديرة بك... ليبارككما الله!

وضم ابنته إلى صدره ثم عانق پيار الذي شعر بأنفاسه الكريهة تحجب وجهه، ومن الغريب أن دموعاً حقيقية كانت تبلل جفنيه.

صاح متابعاً: تعالي يا أميرة.

وأسرعت الأميرة، وراحت بدورها تبكي ثم تبعتها السيدة المسنة التي أخذت تمسح دموعها بمنديلها أيضاً، معانقين پيار الذي قبّل بدوره يد هيلين غير مرة وبعد قليل خرجوا نساء ورجالاً تاركين الشابين وحدهما.

حدّث پيار نفسه: «كان لا بد من وقوع هذه الكارثة، فمن العبث إذن أن أتساءل عما إذا كان الأمر حسناً أو سيئاً. والآن وقد حلت القضية فقد تخلصت من شكوكي المقلقة. ربما في هذا وحده ربح كاف» أمسك بيد مخطوبته بصمت وراح يمعن النظر في حنجرتها البديعة التي كانت تهتز بانتظام.

بدأ يقول فجأة: هيلين...

وأرتج عليه. راح يفكر: «إن الإنسان يجب أن يقول شيئاً في مثل هذه المناسبات». لكنه لم يتذكر كلمة واحدة من ذلك الشيء الذي يجب أن يقال. حدق إلى وجهها، فاقتربت منه محمرّة الوجه. قالت وهي تشير إلى نظارتيه: آه! إرفع هذه الـ... هذه الـ...

www.Maktbah.com

فأطاعها بيار ونزع نظارتيه فبدت عيناه مروعتين مستفسرتين إلى جانب التعبيرات الأخرى التي كانت مرتسمة فيهما، تلك التعبيرات المألوفة عند الذين درجوا على استعمال النظارات عندما ينزعونها. أراد أن ينحني ليقبل يدها، لكن هيلين، بحركة عنيفة من رأسها، سريعة غير متوقعة، قربت شفتيها من شفتيه وضغطت بهما عليهما. انقلبت سحنتها بشكل غريب حتى أن بيار شُده لذلك التحول.

قال في سرّه: «ليكن، لقد توغلنا كثيراً حتى تتيسر لنا العودة والتراجع ثم إنني أحبها بعد كل شيء!» نطق بقوله: أحبك.

تذكرأخيراً أن هذه الكلمة وأمثالها جديرة بالترديد في تلك المناسبة. لكن تلك الكلمة التي تفوه بها خلفت صدى مؤثراً مخزياً حتى أنه خجل من تلفظه بها.

وتزوج بيار، بعد ستة أسابيع أخرى، فأصبح المالك السعيد لأجمل امرأة ولعدة ملايين، أو أقله هذا ما كان يشاع عنه، فانتقل إلى قصره المنيف الذي أدخل عليه الكثير من التحسينات والإصلاحات، قصر كل كونت من آل بيزوخوف.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

تلقى الأمير العجوز نيكولا أندرييتش پولكونسكي في تشرين الثاني من عام ١٨٠٥ رسالة من الأمير بازيل يعلمه فيها بزيارته برفقة ابنه. جاء في الرسالة: «سأقوم بجولة تفتيشية ولا شك أن خمساً وعشرين مرحلة لا تعتبر بالنسبة إليّ شيئاً مذكوراً إذا كان المقصود من قطعها زيارتك يا محسني شديد النبل والاحترام. إن «أناتولي» يرافقني في هذه الزيارة. سيلتحق بالجيش وإنني آمل أن تسمح له أن يعبر لك شفهياً عن بالغ الاحترام الذي يشعر به إزاءك كما يكن مثله لأبيه».

ولما قرأت الأميرة الصغيرة تلك الرسالة قالت بطيش: هه لم يعد من حاجة لدفع ماري في الأوساط. ها إن الراغبين يتبعونها إلى حيث تقيم.

أما الأمير نيكولا أندرييتش فقد عبس ولم يعقب.

وبعد خمسة عشر يوماً، جاء رجال الأمير بازيل يعلنون أن سيدهم سيصل صباح الغد.

كان پولكونسكي العجوز يشعر دائماً بتقدير تافه لعقلية الأمير بازيل وشخصه وقد ازدادت تلك الفكرة قوة في نفسه عندما بلغ بازيل مركزاً لامعاً على عهد العاهلين، پول وألكسندر. وقد أدرك من التلميحات التي وردت في الرسالة من التنويه الذي فاهت به «ليز» الغرض الذي يسعى إليه بازيل، فامتزج الحكم السيئ الذي كان يصدره عليه بشعور بالازدراء والنفور منه.

لم يكن يتحدث عنه إلا مغضباً. وبلغت شراسته ذروتها في اليوم الذي

www.Maktbah.com

كان ينتظر وصول الأمير بازيل. فهل كان سيئ المزاج لأن الأمير سيصل ذلك اليوم أم أنه مستاء بصورة خاصة من مجيء الأمير لأنه كان سيئ المزاج؟ على كل حال، لقد كان في وضعية نفسية سيئة حتى أن توخين أشار على المهندس بعدم تقديم تقريره ذلك للأمير الساخط.

قال له وهو يدعوه إلى الإصغاء إلى وقع خطوات سيده! اسمعه كيف يمشي. ألا يضرب الأرض بكعبيه؟ نعرف معنى هذه المشية.

مع ذلك، قام الأمير بنزهته اليومية المألوفة في الساعة التاسعة صباحاً. كان يعتمر قلنسوته المعروفة وفروته المبطنة بالمخمل ذات الياقة المصنوعة من فراء السمور. وكان الثلج قد انهمر بغزارة في الليلة السابقة. لكن الممر الذي كان الأمير يسير فيه كان خالياً من الثلج. لقد كانت الآثار تشير إلى أن الخدم قد أزالوا الثلج عن الممر وكنسوه، وكانت آثار المكانس والرفوش واضحة، بل إن مجرفة كانت مفروشة في مرتفعات الثلج التي تحيط بجانبي الممر. جال الأمير العابس في حديقة البرتقال وفي الزرائب والاسطبل وبيوت أتباعه وتفقد الأبنية والدور المشيدة. سأل وكيله الذي كان يرافقه حتى القصر: هل تستطيع الزحافات المرور؟

فأجاب الوكيل، وهو رجل وقور تكاد سحنته وتصرفاته تكون صورة طبق الأصل عن تصرفات سيده وسحنته: هناك طبقة كثيفة من الثلج يا صاحب السعادة. لكنني أمرت بتنظيف الممر.

بلغ الأمير عتبة القصر. فأومأ برأسه إشارة إلى الموافقة. فهمس الوكيل في سره: «حمداً لله، لم تهب العاصفة»!

أردف معاتباً: ليس من السهل على الزحافة، لولا ذلك، أن تمر يا صاحب السعادة... ولما كان هناك وزير كما يقال آت لزيارة سعادتكم...

وهنا وقع المحذور؛ فقد التفت الأمير فجأة وحدج وكيله بنظرة ملتهبة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

صاح بصوته القاسي الثاقب: ماذا قلت؟ وزير؟ أي وزير؟ من أعطاك هذه الأوامر؟ لا تنظف الأرض من أجل الأميرة ومن أجل ابنتي، ولكن من أجل وزير! أنا لا أعرف وزراء!...

ـ كنت أعتقد يا صاحب السعادة...

فصرخ الأمير وهو يقذف بكلمات لا حصر لها بسرعة متزايدة: كنت تعتقد! كنت تعتقد... آه، أيتها الحشرات، يا لكم من أوغاد!.. سأعلمك كيف تعتقد!

ورفع عصاه فوق رأس ألياتيتش وأهوى بها فدفعت الغريزة الرجل إلى تفادي الضربة...

تابع الأمير يقول: لقد كنت تعتقد إذن!... أيها القذر!

على الرغم من أن ألياتيتش، الذي روعه أن يجد في نفسه الجرأة على تجنب الضربة التي وجهها إليه سيده، ازداد اقتراباً من سيده وهو يحني رأسه الأصلع، فلم يعاود الأمير رفع عصاه ليضرب بها الرجل. ولعل اقتراب الوكيل من سيده بتذلل كان السبب في منع تلك المحاولة. لكنه لم يتوقف عن الصراخ وإغراق المسكين بوابل من الشتائم: أيها القذر السافل!... دعهم يعيدوا الثلج إلى الممرّ! واندفع إلى الداخل مغضباً.

انتظرت الأميرة ماري ساعة الغداء، والآنسة بوريين وصول الأمير وهما واقفتان. كانتا مطلعتين على حالته النفسية طوال ذلك اليوم. كانت الآنسة بوريين صافية الوجه يخيل إلى الناظر إليها أنها تقول: «لا أريد معرفة شيء، إنني كما أنا دائماً» أما الأميرة ماري فكانت ممتقعة الوجه خافضة العينين. وتعرف ماري أنه يجدر بها في مثل هذه الأزمات أن تتخذ مظهر الآنسة بوريين البريئة فتبدو باسمة الوجه مثلها. لكنها لم تكن لتستطيع النجاح في تصنع ذلك المظهر. كان عجزها يملأ قلبها حزناً. كانت تقول في سرها: «إنني إذا تظاهرت

www.Maktbah.com

بأنني لم ألاحظ عليه شيئاً فإنه يظن أنني لا أعبأ به ولا أحفل بما يصيبه. وإذا عبست واكتأبت فإنه سيقول من جديد إنني حزينة كجلباب الليل!».

وما كاد الأمير يطالع سحنة ابنته المستطيلة حتى انفجر مغمغماً: إما أنك عديمة القلب وإما حمقاء!

وعندما لاحظ اختفاء كنته عن المائدة حدث نفسه قائلاً: «ها إن الأخرى ليست هنا! لعلهم ثرثروا أمامها بحديث ما!»

سأل: ترى أين الأميرة؟ هل هي مختبئة؟

فأجابت الآنسة بوريين باسمة: إنها ليست على ما يرام لذلك فقد احتجبت في غرفتها. إن مثل هذه الأمور منتظرة لمن كانت في مثل حالها.

فتمتم الأمير وهو يجلس إلى المائدة: هم! هم!

كانت إحدى الصحاف على غير ما يشتهي، وحدث أنها غير مستوفية النظافة، فأشار بأصابعه إلى «المنطقة» المشتبه فيها وألقى بالصفحة بعيداً، فالتقطها تيخون قبل أن تسقط وأعطاها لرئيس الخدم.

لم تكن الأميرة الشابة منحرفة المزاج بالفعل، لكنها أعلمت بحالة الأمير المتوترة، ففضلت التزام غرفتها لأنها شعرت بخوف لا يوصف من مقابلته وهو في مثل تلك الحالة المعتكرة.

همست في أذن الآنسة بوريين قائلة:

إنني أخاف على الطفل في أحشائي لأن الله وحده يعرف ماذا سيترك مثل هذا الرعب في نفسي من نتائج.

تشعر كوري، منذ وصولها إلى ليسيياغوري، بشيء من الخوف من حميما، خوف ممزوج بنفور لم تكن تتبينه بوضوح لشدة ما كان الخوف مستولياً عليها. أما الأمر، فإن نفوره منها انتهى بكراهية. ولما تأقلمت ليز مع محيطها الجديد، خصت الآنسة بوريين بكثير من عطفها ومحبتها. فلم تقنع

twitter @baghdad_library

بقضاء ساعات النهار في صحبتها بل رجتها أن تنام إلى جوارها. وبذلك فإنها ما كانت توفر حماها في أحاديثها الكثيرة التي كانت تقطع الوقت بها مع الآنسة بوريين.

قالت الآنسة بوريين وهي تطوي منشفتها البيضاء بأناملها الوردية: سوف نستقبل ضيوفاً يا أميري. سعادة الأمير كوراغين وابنه هما اللذان سيصلان على ما نمي إليّ. أليس كذلك؟

وعلى لهجتها الاستفهامية المرحة أجاب الأمير: هم!... إن صاحب هذه «السعادة» عديم الشأن. أنا الذي أدخلته في الوزارة!... ثم لست أفهم ماذا جاء يعمل عندي الابن. لست أفهم. لعل الأميرة أليزابيت كارلوڤنا والأميرة ماري تعرفان السبب... أما أنا، فلست في حاجة إلى هذه الشخصية...

وألقى نظره على ابنته ماري التي احمرّ وجهها فجأة وتابع: هل أنت مريضة؟ لعله الخوف من الوزير كما يقول ألياتيتش، السخيفة! كلا يا أبي.

ومع أن الآنسة بوريين أثارت الحديث دون كبير مقصد فإنها لم تتقبل الهزيمة. راحت تتحدث عن بيوت البنات الشتوية وتبدي انشراحها وافتتانها بهزيمة تفتحت أكمامها أخيراً، حتى أن الأمير لم يكد يفرغ من الحساء حتى لانت أسارير وجهه وانبسطت.

ذهب إلى جناح كنته يزورها قبل انتهائه من الطعام فرآها جالسة على مقعد منخفض تثرثر مع ماشا وصيفتها. فلما وقع نظر ليز على حميها، شحب وجهها. طرأ على وجهها تحول كبير فغارت وجنتاها وبدت بشفتها الناتئة وعينيها الشاخصتين أميل إلى الشجاعة. أجابت عن سؤال الأمير الذي جاء يستفسر عن صحتها: إنني أشعر بشيء من التثاقل فحسب.

ـ ألست في حاجة إلى شيء؟

ـ كلا شكراً يا أبي.

www.Maktbah.com

ـ ليكن. حسناً.

وخرج من الغرفة. وبينما هو يجتاز الردهة وجد أليانتيتش مطرق الرأس. هل أعادوا الثلج إلى الممرّ.

لقد أعيد يا صاحب السعادة. أرجو أن تتفضل سعادتك بالصفح عن خطئي لقد تصرفت بحماقة...

لكن الأمير قاطعه وهو يضحك ضحكته المغتصبة: هيا، إنس هذا، حسناً، حسناً.

ومد يده إلى وكيله الذي هرع إليها يقبلها، ومضى إلى مكتبه.

قبل المساء وصل الأمير بازيل. أسرع عدد من الخدم والسائقين لاستقباله عند طرف الممر الذي نثر عليه الثلج عمداً. فلم يتمكنوا من إدخال زحافته وأمتعته إلى جناح القصر إلا بعد عناء شديد.

خُصصت للأمير بازيل وولده غرفتان مستقلتان.

نزع أناتول سترته وجلس إلى منضدة يحدق إلى زاويتها بعينيه الكبيرتين الجميلتين، ويداه إلى وركيه والابتسامة على شفتيه. كانت حياته كلها في نظره عيداً مستمراً دائماً يشرف على تنسيقها منظم خفي تنحصر مهمته في إعدادها وترتيبها. ومن خلال هذه الزاوية، راح أناتول ينظر إلى زيارته لذلك العجوز ووارثته البشعة. فكر في أن المهزلة قد تكون مسلية «وطالما هي على هذا القدر من الغنى، فلماذا لا أتزوجها؟ المال ووفرته لا يفسدان شيئاً».

حلق لحيته وتعطر بعناية وتدقيق باتا عادة مألوفة لديه، ثم رفع رأسه باعتداد مضفياً على نفسه، كعادته، مظهر الفاتح والشاب الهادئ الوسيم ودخل إلى غرفة أبيه. كان هذا الأخير منشغلاً في زينته وحوله وصيفاه، الملازمان له يستجيبان لطلباته. أجال الأب نظرة فيما حوله، نظرة ارتياح واطمئنان،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واستقبل ابنه بحركة رشيقة من رأسه تدل على مدى سروره وكأنه يقول له: «رائع، بديع، كذلك كنت أريد أن أراك اليوم!».

سأل أناتول مناقشاً موضوعاً قتله بحثاً وتمحيصاً مع أبيه من قبل كما يبدو!

ـ دعك من المزاح يا أبي. قل لي هل هي حقيقة شديدة البشاعة؟

ـ يا للغباوة! المهم هو أن تبدو معقولاً ومحترماً تجاه الأمير العجوز.

ـ فكر في أن مستقبلك كله متوقف على سلوكك ورضاه.

كانت الوصيفات في تلك الأثناء، في غرفة الخدم على علم بوصول الوزير وولده حتى إن أدق تفاصيل مظهريهما بات معروفاً، يتناقش فيه. أما الأميرة ماري، فإنها انسحبت إلى غرفتها محاولة عبثاً السيطرة على أعصابها وطرد ارتباكها.

كانت تحدث نفسها وهي تنظر إلى وجهها في المرآة قائلة: «لماذا كتبوا لي، ولماذا حدثتني ليز بالأمر؟ ذلك لا يمكن أن يحدث. علي أن أظهر في غرفة الاستقبال! لن أستطيع الظهور أمامه على حقيقتي بعد علمي بما يضمره حتى ولو نال إعجابي ورضاي!» كان مجرد تفكيرها في أنها قد تضطر إلى مجابهة نظرة أبيها، تشل أطرافها من الخوف.

أسرعت ماشا، وصيفة ليز، إلى سيدتها تنقل إليها وإلى الآنسة بوريين تقريراً مفصلاً عن الوزير وابنه وآخر الأخبار المتعلقة بهما: لقد وجد الأب صعوبة تذكر في ارتقاء السلم أما الابن، وهو شاب جميل الوجه أسود الحاجبين، فقد ارتقاه وراء أبيه كالنسر وراح يتخطى كل ثلاث درجات دفعة واحدة. ولما حصلت الصديقتان على هذه المعلومات، راحتا تتناقشان حول هذا الموضوع نقاشاً حاداً حتى أن صوتيهما كانا مسموعين من الردهة، ولما قصدتا إلى غرفة الأميرة ماري، لم تكونا قد انتهتا من الجدال.

www.Maktbah.com

قالت ليز وهي تتهاوى على كنبة لأن انتفاخ بطنها كان يجعل مشيتها عسيرة: لقد وصلا يا ماري، هل علمت بذلك؟

كانت ليز قد نضت عن جسمها ثياب الصباح وارتدت واحداً من أجمل أثوابها وعنيت بشكل جيد بزينتها وشعرها. لكن انفعال وجهها لم يكن يخفي التعب والشحوب القاتل المتجليين على قسماته. وكان ذلك الثوب الذي لا ترتديه إلا إذا كانت مدعوة إلى حفلة رسمية أو اجتماع للنبلاء، يزيد في مظاهر بشاعتها. أما الآنسة بوريين، فقد كانت هي الأخرى قد أدخلت على زينتها تجميلاً خيل إليها أنه لن يكون واضحاً. ولقد بدت حينذاك أكثر جمالاً من عادتها.

قالت الآنسة بوريين: ماذا، هل تبقين كما أنت يا أميرتي العزيزة؟ لن يلبثوا حتى يعلنوا لنا أن هؤلاء السادة قد انتقلوا إلى القاعة، يجب أن نلحق بهم. ومع ذلك إنني أرى أنك لم تصلحي شيئاً من زينتك!

وقفت ليز وقرعت الجرس تستدعي الوصيفة، وراحت تجهد نفسها في تزيين سلفتها. كانت ماري تشعر بجرح في كبريائها لأنها كانت مضطربة لمجرد قدوم خطيب وخصوصاً أن صديقتيها ما كانتا تعتقدان غير ذلك الاعتقاد. ولم تكن تريد الإفصاح عن مشاعرها بإظهار ارتباكها في حضرتهما. ثم إنها إذا رفضت إصلاح زينتها، فإنها ستتعرض لإلحاحهما ودعابتهما التي لا تنتهي. لذلك فقد انطفأ وميض عينيها الجميلتين وتضرج وجهها بالاحمرار، واتخذت مسحة الضحية المستسلمة التي لطالما ألفتها، وأسلمت أمرها لعناية الصديقتين: ليز والآنسة بوريين. وشرعت المرأتان في تجميلها «بكل إخلاص» رغم أن بشاعتها كانت تفوق كل منافسة. راحتا إذن تنصرفان إلى عملهما بصراحة تامة تستلهمان غريزتهما النسوية الساذجة المتأصلة في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نفوس كل النساء، تلك الغريزة التي تجعلهن يعتقدن أن الزينة هي السلطة التجميلية الوحيدة!

وبعد أن تأملت جانب وجه سلفتها على مسافة معينة قالت ليز جازمة: كلا يا صديقتي الطيبة، إن هذا الثوب لا يناسب. مري أن يأتوك بالثوب الماساكا (وهي كلمة كانت تطلق على اللون الباذنجاني الذي كان يعتبر آخر مبتكرات ذلك العصر)... إن الأمر كما تقدرين. لعل مصيرك كله سيقرر اليوم... إن لون هذا الثوب فاقع. أؤكد لك أنه لا يلائمك، كلا، لا يلائمك.

والواقع لم يكن الثوب غير ملائم بل الوجه هو الذي كان غير متجانس، وليس الوجه وحده، بل الجسد كله، جسد الأميرة ماري. لكن لا الآنسة بوريين ولا ليز تعرفان ذلك. كانتا تعتقدان أنهما إذا ثبتتا شريطاً سماوي اللون في شعر ماري المرجل المرفوع إلى أعلى وخاطتا الثوب الأسمر بغلالة من ذلك اللون إلخ... فإن كل شيء يكون على خير ما يرام. لكنهما كانتا تنفيان من حسابهما أن الوجه الهزيل لا يمكن أن يخضع لأي تحويل. بل إنهما كانتا تنسيان أنهما مهما بالغتا في تجميل الإطار وتبديله، فإن ذلك الوجه سيبقى أبداً على بشاعته تلك التي تنتزع العبرات والحسرات.

وبعد تجربتين وثلاث تجارب استسلمت ماري لها بكل خضوع، وبعد أن عكفت ليز شعر سلفتها ورفعته إلى الأعلى، رغم أن ذلك كان يشوه وجهها، وبعد أن أثبتت أصابع الآنسة بوريين الغلالة الزرقاء على ثوب الماساك الجميل، دارت ليز حولها مرة أو مرتين فأصلحت ثنية هنا، وجذبت الغلالة من هنا، ثم حنت رأسها وراحت تتأملها من جانب ثم من آخر. وأخيراً قالت بلهجة الواثقة: كلا، مستحيل. كلا يا ماري، إنه لا يلائمك. إنني أراك أكثر جمالاً في ثوبك الأشهب الذي ترتدينه كل يوم. كلا. افعلي ذلك من أجلي.

www.Maktbah.com

وضربت كفاً بكف وصاحت تقول للوصيفة: كاتيا، ائتني بثوب سيدتك الأشهب.

وأردفت تخاطب الآنسة بوريين: انظري يا آنسة بوريين كيف سأجعلها تبدو في ذلك الثوب.

وراحت تتلمظ شأن الفنان الذي يتذوق فنه سلفاً.

وعندما جاءت كاتيا بالثوب، كانت ماري لا تزال جالسة دون حراك تتأمل قسمات وجهها. فرأت ليز في المرآة أن عيني سلفتها ممتلئتان بالدموع وأن ارتعاشة خفيفة كانت تهز شفتيها شأن من كان على وشك البكاء.

قالت الآنسة بوريين: يا عزيزتي الأميرة، ابذلي مجهوداً صغيراً آخر.

تناولت ليز الثوب من يدي الوصيفة واقتربت به من ماري: والآن، سوف نقوم بتجربة بسيطة وفتانة معاً.

واختلط صوتها بصوتي الآنسة بوريين وكاتيا الوصيفتين اللتين شاطرتاها الضحك، فتعالت ضجة مرحة.

قالت ماري: لا، دعيني يا ليز.

كانت لهجتها شديدة الخطورة مشبعة بالألم حتى أن زقزقة العصافير الجميلة انقطعت على الفور. ولما نظرت ثلاثتهن إلى تعبير تينك العينين الكبيرتين المليئتين بالدموع، أدركن أن الإلحاح غير مجد هذا إذا لم يكن إغراقاً في القسوة.

قالت ليز: ابدلي إذن ترتيب شعرك.

ثم توجهت إلى الآنسة بوريين بلهجة عتاب ولوم! لقد نبهتك من قبل إلى أن لماري وجهاً لا يلائمه هذا النوع من «التسريحة» المرتفعة. نعم إنها لا تلائم وجهها أبداً أبداً. أبدليها، رجاء!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فأجابت ماري بصوت مخضل بالدموع: لا بل اتركيني. سيان عندي ذلك.

واضطرت كل من ليز والآنسة بوريين إلى الاعتراف في سرهما أن ماري كانت، وهي على تلك الزينة، بادية البشاعة، بل أكثر بشاعة من ذي قبل. لكن فات الأوان الذي يمكّنها من تلافي الخطأ. نظرت إليهما تلك النظرة الكئيبة الحالمة التي لم تكن تُشعر أحداً بالرهبة، والتي كانت مع ذلك تجعلهما في مثل هذه الحالة تنطويان على نفسيهما وتلتزمان الصمت.

بقيت ماري وحيدة. لم تتبع نصيحة ليز بل لم تلق نظرة واحدة على وجهها في المرآة. لبثت كالحة الوجه، صامتة، مطرقة الرأس، متصلبة اليدين، وراحت تحلم في يقظتها. تتصور زوجها المقبل شخصاً قوياً مسيطراً، ذا جاذبية غامضة تساعده على حملها إلى عالمه هو، عالم سعيد مختلف كلياً عن عالمها. وتتصور طفلها «هي» شبيهاً بذلك الذي شاهدته أمس لدى ابنة مربيتها. كانت تراه مضموماً إلى صدرها وتتصور زوجها ينظر إليهما بحنان. لكنها قالت في سرّها فجأة: «ولكن كلا، إن هذا مستحيل، إنني شديدة البشاعة».

ارتفع صوت الوصيفة من وراء الباب تقول: لقد أعد الشاي يا سيدتي وسيصل الأمير فوراً.

خرجت ماري من أحلامها وروعت لاستسلامها إلى مثل تلك التخيلات. وقبل أن تخرج من غرفتها، عمدت إلى مصلاها حيث حدقت طويلاً إلى الوجه الأسود الماثل في صورة كبيرة للمخلّص يضيئها قنديل، ويداها مضمومتان إلى صدرها. كان يعذبها شك مريع: ترى هل كانت مدعوة إلى تذوق مباهج الحب، الحب الدنيوي المكرس لرجل؟ كانت كلما فكرت في الزواج تخيلت السعادة التي يشعر بها المرء في الأسرة، سعادة الأطفال والمنزل. لكنها كانت في قرارة نفسها تشعر أنها منذورة لأشواق أرفع من مباهج الأرض. وكان ذلك

www.Maktbah.com

الإحساس في نفسها شديد الوضوح حتى أنها راحت تحاول إخفاءه عن عيون الآخرين بمثل القوة التي كانت تصرفها لمغالطة نفسها في هذا الصدد تمتمت: ««رباه» كيف أستطيع إبعاد هذه الوساوس الشيطانية، خنق هذه الأفكار السيئة إلى الأبد، وإنجاز إرادتك المقدسة بسلام وهدوء؟»».

لم تكد تنتهي من هذا الابتهال حتى شعرت في قرارة نفسها بالجواب العلوي: «لا ترغبي في شيء من أجل نفسك، لا تبحثي عن شيء ولا تقلقي روحك، لا تحسدي إنساناً. يجب أن يظل مستقبلك مجهولاً منك كما هي الحال في آخرتك. ولكن نظمي حياتك بشكل تكونين معه مستعدة لكل شيء. فإذا شاء الله أن يبلوك بالتزامات الزواج فأطيعي مشيئته على الفور دون تردد».

وإزاء هذه الفكرة المطمئنة، وكذلك في أمل تحقق حلمها المحرم المتعلق بالحب الملتهب، رسمت ماري إشارة الصليب وهي تتنهد، وهبطت السلم دون أن تفكر في زينتها أو في شعرها، أو أن تهتم بالطريقة التي ستسلكها للظهور في القاعة. بل إنها لم تعد تفكر كذلك في المواضيع التي قد تثار وتصبح موضوعاً للبحث. إذ ما معنى هذه التفاهات إذا قورنت بمشيئة الله القدير؟ ذلك الإله الذي لا يمكن أن تسقط شعرة عن رأس مخلوق إلا بإذنه!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

كان الأمير بازيل وابنه يتحدثان إلى الأميرة الصغيرة والآنسة بوريين عندما دخلت ماري إلى القاعة. دخلت على مهل بتثاقل تسير على كعبها بحكم العادة. وعندما اقتربت، نهضت الآنسة بوريين وكذلك الأمير وابنه بينما صاحت ليز مشيرة إليها: «ها هي ماري!» شملتهم ماري بنظرة شاملة لم تترك شيئاً إلا أحاطت به. رأت أن الأمير بازيل عاد إلى الابتسام بعد أن حافظت قسمات وجهه فترة قصيرة على تعابير الخطورة المصطنعة التي أسدلها على وجهه، وأن ليز كانت تحاول أن تقرأ على وجهي الضيفين الأثر الذي أحدثته رؤيتهما لماري على تلك الصورة، وأن الآنسة بوريين، وكانت نظرتها أكثر اتقاداً من أي وقت مضى، في أوج زينتها، تشخص بناظريها محدقة إلى وجهه «هو». أما «هو» فقد كان الشخص الوحيد الذي لم تره رغم وجوده. لكنها حدست أنه طويل القامة، جميل، شديد الجاذبية.

تقدم نحوها مستقبلاً. انحنى الأمير بازيل فقبل يدها، فلمست بشفتيها جبهته الجرداء وأجابت عن عبارات المجاملة التي بادرها بها بأنها لاتزال تحتفظ في نفسها بذكرى ممتازة، ثم أتبع أناتول أباه، لكنها لم تحدق إلى وجهه. شعرت بيد ناعمة تمسك بيدها وأن الجبين الذي تحسسته بشفتيها كان أبيض يعلوه شعر أشقر مضمخ بشكل معقول.

فلما نظرت إليه أخيراً، أدهشها أن يكون على ذلك القدر من الجمال. كان رأسه محنياً قليلاً، واضعاً إبهام يده اليمنى في إحدى عرى سترته، عاطفاً

www.Maktbah.com

صدره وظهره معاً، مستوياً على إحدى ساقيه، يتأمل ماري بصمت، بينما كانت أفكاره منصرفة عنها بشكل واضح. وعلى الرغم من أن أناتول لم يكن حاذقاً ولا متحدثاً لبقاً، فقد كان يتمتع بميزة هامة في المجتمع وهي بروده واعتداده اللذان ما كانا يزعزعهما حدث مهما بلغت قوته. وقد درجت العادة على أن صمت الخجول أمام شخص يقابله للمرة الأولى واقتناعه بأنه غير لبق يضفيان على المقابلة بروداً ملحوظاً يكون خلاله مجهداً نفسه في التنقيب عن الكلمات المناسبة.

أما أناتول فكان على العكس، يسكت دون أي ارتباك ويتبختر أمام ماري متفحصاً زينتها. وكان واضحاً أنه يستطيع البقاء زمناً غير قصير على حاله تلك وكان سلوكه يشعر بأنه: «إذا كان سكوتي يؤلمك، فتحدثي على هواك. أما أنا، فإنني لست راغباً في الحديث» ثم إن أناتول كان يتخذ حيال النساء موقف الترفع الذي يوقظ فيهن الفضول بل الحب. كانت مواقفه المترفعة تنطق بصراحة قائلة: «إنني أعرفك، إنني أعرفك. فما الفائدة من تهافتي على الترحيب بك؟ لو فعلت ذلك لكنت في غاية السرور!» لقد كانت قسمات وجهه وتصرفاته توحي بذلك حتى ولو لم يكن يفكر مثل هذا التفكير بالفعل، وهو الذي عرف عنه أن التفكير ليس من مزيته وخصائصه! شعرت ماري بتلك المعاني التي تبرزها مظاهر ذلك الشاب وحركاته، ولكي تشعره بأنها لا تريد احتكار صحبته، انخرطت في حديث مع الأمير العجوز ولم يلبث ذلك الحديث أن أصبح عاماً متشعباً بفضل ثرثرة ليز التي كانت شفتها ذات الزغب تكشف باستمرار عن أسنانها البيضاء.

كانت تخاطب الأمير بازيل بتلك اللهجة الماجنة التي يستعملها الثرثارون الوادعون والتي تقضي بإيهام المستمعين أن بينهما ذكريات مشتركة لا يعرفها سواهما، والتي تكون في حقيقتها وهماً وخيالاً مطلقين. استطاب الأمير بازيل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تلك اللعبة فاشترك فيها. وبدأت ليز تقص على الحاضرين نوادر من ابتكارها وتوهمهم أنها حقائق ثابتة، وأشركت في تلك النوادر الأمير الشاب أناتول الذي لم تكن تعرفه من قبل إلا قليلاً وتاهت الآنسة بوريين في تلك الذكريات المبتكرة المختلفة حتى أن ماري نفسها وجدت صعوبة في انتزاع نفسها من تيار تلك الذكريات السعيدة!

قالت ليز بالفرنسية طبعاً: يا أميري العزيز، هنا أقله، بوسعنا أن ننعم بوجودك كلياً. إن الأمر يختلف عما كان عليه في حفلات أنّيت حيث كنت تنسحب فراراً. هل تذكرها، تلك العزيزة أنّيت؟

ـ لكنك لم تحدثني في السياسة كما كانت تفعل أنّيت!

ـ وماذا عن ذكرياتنا حول مائدة الشاي؟

ـ آه! نعم...

وسألت أناتول: لماذا لم أكن أراك عند أنّيت؟ آه! نعم، إنني أعرف، إنني أعرف!

وغمزت بعينيها وأردفت: لقد حدثني أخوك هيپوليت عن أعمالك ومشاريعك.

وهددته بسبابتها وعقبت: إنني أعرف حتى مغامراتك الپاريسية.

فقال الأمير بازيل لولده وهو يستوقف ليز بإمساكها من ذراعها، وكأنه يجد صعوبة في منعها من الفرار: غير أن ما لم يكن جديراً بهيپوليت أن يحدثك به هو أنه كان يحوم حول أميرتنا الفاتنة التي طردته بلطف...

وتابع مخاطباً ماري: آه! إنها لؤلؤة النساء يا أميرة.

إن الآنسة بوريين لم تفلت الفرصة التي أتيحت لها عندما سمعتهم يتحدثون عن پاريس. فانبرت تسأل أناتول عما إذا كان قد غادر تلك المدينة منذ زمن طويل، وعن الشعور الذي خلفته في نفسه. فأجابها أناتول بسرور

www.Maktbah.com

واضح وهو ينظر إليها مبتسماً، وراح يحدثها عن وطنها. كان أناتول بمجرد أن وقع نظره على تلك الحسناء الفرنسية، قد حدث نفسه بأنه لن يسأم النزول في ليسيياغوري ما دامت هذه فيها. كان يتفحصها مدققاً ويقول لنفسه «إنها ليست رديئة، كلا، في الحقيقة إنها ليست رديئة، هذه الآنسة المرافقة إنني آمل أن تحتفظ ماري بها بعد زواجنا. إن هذه الصغيرة لطيفة للغاية».

في تلك الأثناء كان الأمير العجوز يرتدي ثيابه في مخدعه على مهل. كان يتساءل في شيء من السخط عن الخطة التي سيسلكها مع ضيفيه. لقد كان قدومهما يزعجه. كان يغمغم: «ما حاجتي إلى الأمير بازيل وفرخه؟ إن الأب دعيّ أما الابن فلا شك أنه سر أبيه». لكن سبب سخطه الحقيقي إنما يعود إلى أن تلك الزيارة تثير مسألة معينة كان يخنقها كلما طُرحت على بساط فكره، مسألة كان دائماً يفكر فيها ويدرسها من كل وجوهها: هل يقرر ذات يوم الافتراق عن ماري بإيجاد زوج لها؟ تلك كانت المسألة التي لم يفكر مرة في حلها بصراحة أو درسها بإقدام، وخصوصاً أنه كان يعرف سلفاً أن العدل وحده سيملي عليه الجواب وأن العدل في هذه المسألة يتناقض وعواطفه الشخصية بل يتنافى مع شروط وجوده وحياته.

لقد كان رغم البرود الذي يتظاهر به، لا يطيق الحياة دون وجود ماري. راح يفكر: «ولِمَ أزوجها؟ لسوف تكون تعيسة حتماً في حياتها الزوجية؛ هذه ليز التي تزوجت أندريه، وهو ولا شك أفضل الأزواج، ومع ذلك فهي غير راضية عن مصيرها! ثم من ذا الذي سيتزوج ماري عن حبه لها؟ إنها بشعة وغير لبقة اجتماعياً. لسوف يتزوجونها من أجل ثروتها. فهل يتعذر فعلاً بقاؤها فتاة عزباء؟ أبداً وإنها ستعيش بذلك في سعادة أوسع!» وبينما هو يضرب أخماساً بأسداس ويستكمل ارتداء ثيابه، شعر أن المسألة التي ظلت متفاوتة زمناً طويلاً لن تكون اليوم أكثر تعقيداً. وإذا كان الأمير بازيل قد اصطحب ابنه فما ذلك

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلا ليتقدم بطلب يد ماري. ولا بد من إعطائه جواباً نهائياً سواء أكان ذلك اليوم أم غداً. نعم، إن الاسم والمركز مناسبان ولكن يجب أن يعرف كذلك إذا كان الخطيب نفسه جديراً بابنته. وهذا ما سيتأكد منه بعد حين.

وأنهى الأمير مناجاته بصوت مرتفع قائلاً: هذا ما سنراه الآن، أجل هذا ما سنتأكد منه بعد حين!

دخل إلى القاعة بخطى سريعة رشيقة وشمل الحاضرين بنظرة سريعة أتاحت له ملاحظة زينة ليز المحدثة والأشرطة التي كانت الآنسة بوريين تثبتها في شعرها وعلى ثوبها، وابتساماتها التي كانت تتبادلها مع أناتول، وشعر ابنته في ذلك الوضع الكئيب وانطوائها وسط النقاش العام، فحدث نفسه بغضب قائلاً: «لقد أظهرت نفسها كأغبى الحمقاوات! لقد فقدت كل حيائها بينما الفتى لا يعيرها التفاتاً!».

اتجه نحو الأمير بازيل وقال: مرحباً، مرحباً، سرتني رؤيتك.

فأجابه الأمير بازيل بتلك اللهجة الأنيسة الفكهة المتزنة المألوفة لديه: إن مرحلتين لا تعتبران مشقة في سبيل لقاء صديق طيب قديم. ها هو ذا أصغر أبنائي أقدمه بين يديك.

تأمل الأمير نيكولا أندرييتش وجه أناتول وقال: إنه فتى. تعال وعانقني!

وأدار له خده تسهيلاً لمهمته...

عانق أناتول الأمير العجوز وهو يتأمله بفضول منتظراً أن يبادره بإحدى ثوراته الشاذة التي حدثه أبوه عنها.

جلس الأمير نيكولا في مكانه المألوف على الكنبة وجذب إليه مقعداً دعا الأمير بازيل إلى الجلوس عليه وراح يستفسر منه عن الأحداث الأخيرة. وكان يتظاهر بالإصغاء للأمير بينما كانت عيناه لا تنفكان تلاحقان ابنته وتراقبانها.

www.Maktbah.com

قال مكرراً كلمات الأمير بازيل الأخيرة، وقد نهض فجأة واتجه نحو ماري مباشرة: إذن، فإن الأخبار أصبحت ترد الآن من پوتسدام؟

سألها: أمن أجل الضيوف قمت بهذه المهزلة؟ لعلك تريدين إظهار نفسك بمظهر الجميلة. ولما كنت قدرت أن من المناسب ترجيل شعرك بطريقة جديدة احتراماً للضيوف، فإنني أسرك الأمر أمامهم بأن لا تعمدي إلى تبديل «تسريحتك» بعد الآن دون موافقتي وإذني.

فتدخلت الأميرة الصغيرة وقد احمرّ وجهها: إنها خطيئتي يا أبي.

فأجاب العجوز: إنك حرة التصرف على هواك. أما هي، فلا حاجة بها لأن تظهر أكثر بشاعة مما هي عليه.

وعاد يجلس في مكانه دون أن يعير ابنته التفاتاً وهي التي بلغ بها الخجل مبلغ البكاء.

قال الأمير بازيل: على العكس، إن هذه الطريقة تتلاءم تماماً مع الأميرة.

لكن العجوز كان في تلك الأثناء ملتفتاً إلى أناتول. قال له: هيا أيها الفتى، أو أيها الأمير الشاب، لست أدري بالضبط كيف ينادونك الآن، تعال إلى هنا. يجب أن نتحدث وأن نتعارف.

فجلس أناتول قرب الأمير مبتسماً وهو يفكر في سرّه: «ها إن المهزلة قد بدأت!».

تابع الأمير العجوز: إذن يا عزيزي، لقد نشأت في الخارج كما قيل لي، أليس كذلك؟ طبعاً إن أمرك يختلف عن أمرنا أنا وأبيك، لأننا لم نجد إلا واحداً من جرذان الكنيسة ليعلمنا الكتابة والقراءة!

ثم سأله وهو يحدق إلى وجهه عن قرب: قل لي، هل انتظمت الآن في عداد الحرس الراكب؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فقال هذا وهو يكبت ضحكته بجهد بالغ: كلا، بل إنني في عداد الجيش العامل.

رائع، حسن جداً يا صديقي. تريد خدمة القيصر والوطن؟ إننا في حالة حرب، وإن شاباً مثلك يجب أن يساهم في الخدمة. إذن هل تذهب إلى الجبهة؟

ـ كلا يا أمير. إن فرقتي في الجبهة فعلاً، لكنني أشغل مركز ملحق...

وتوجه إلى أبيه بالسؤال قائلاً وهو يضحك: إنني ملحق بأي شيء يا أبي، يا للشيطان.

فتضاحك الأمير العجوز وقال: هذا ما يسمى خدمة الوطن!... بأي شيء أنا ملحق بحق الشيطان؟ ها! ها! ها!

وانفجر أناتول ضاحكاً. غير أن الأمير العجوز قطب حاجبيه فجأة وقال له: حسناً،... إذهب.

فمضى أناتول إلى السيدات والابتسامة لاتزال على شفتيه، بينما تحول الأمير العجوز إلى أبيه يقول: لقد أنشأتهما نشأة ممتازة في الخارج أليس كذلك؟

ـ لقد عملت ما في وسعي. والحق يقال إن الثقافة الأوروبية خير من ثقافتنا المحلية...

ـ آه لا شك، كل جديد جميل... لا مجال للبحث في هذا، إنه فتى!... هيا، لننتقل إلى مكتبي.

وأمسك بذراع الأمير بازيل وقاده إلى مكتبه. وما إن أصبحنا وحيدين حتى أطلعه الزائر على رغبته وآماله.

قال الأمير العجوز غاضباً: أتعتقد مثلاً أنني أعترض سبيلها وأنني لا أستطيع الحياة بدونها؟ هراء يا عزيزي... خذها منذ الغد، فإنني لن أتصدى

www.Maktbah.com

لها. لكنني أريد معرفة صهري على حقيقته. إنك تعرف مبادئي: كل شيء في وضوح كامل! سوف أطرح عليها السؤال غداً بحضورك، فإذا وافقت، دعه يبقى هنا. نعم دعه يبقى وقتاً ما هنا لأدرسه.

وعقب بصوت ثاقب يشبه ذلك الذي صرف به أناتول عن نفسه: لتتزوجه، لتتزوجه، لست أبالي!

فقال الأمير بازيل بلهجة صريحة شأن الماكرين الذين يعرفون عقم الخداع مع مستمع نابه ذكي: سأحدثك بكل صراحة. من السهل عليك اختراق نفوس الناس وسبر أغوارهم. وإن أناتول لم يخترع البارود، لكنه فتى نبيل وطيب وابن ممتاز.

ـ حسناً، حسناً، سوف نرى.

ومثلما هي العادة لدى النساء اللواتي حرمن عشرة الرجال زمناً طويلاً، فإن نساء ليسياغوري شعرن عند حلول أناتول بينهن، أن الحياة التي عشنها حتى ذلك اليوم لم تكن حياة بالمعنى الصحيح. لذلك فقد تضاعفت ملكات التفكير والشعور والملاحظة في أشخاصهن حتى بلغت عشرة أضعافها وبدت حياتهن التي كانت حتى ذلك الحين مدفونة في الظلام، منتعشة تخطف الأنظار.

نسيت الأميرة ماري «تسريحتها» اللعينة ووجهها الهزيل. كان ذلك الشاب الجميل، ذو الوجه البشوش، الذي قد يصبح زوجاً لها، يجذب كل انتباهها كانت واثقة بأنه طيب كريم وثابت العزم. وراحت ألوف الأحلام أحلام الهناءة الزوجية المقبلة التي كانت تطردها من مخيلتها عبثاً، تزدهر في خيالها.

وهمست في سرها «ألست شديدة الجمود حياله؟ إنني إذا كنت أبذل ما في وسعي لأسيطر على مشاعري فما ذلك إلا لأنني أحس في قرارة نفسي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بأنني أصبحت شديدة القرب منه. لكنه لا يعرف كل ما أفكر فيه ولعله يعتقد أنه لم يعجبني».

وحاولت ماري الظهور بمظهر الآنسة المرحبة بالقادم الجديد، بينما كان أناتول يفكر في نفسه! «يا للفتاة المسكينة! إنها شديدة البشاعة!».

ونبتت في رأس الآنسة بوريين أفكار من لون آخر. كانت هي الأخرى مثارة أقصى الإثارة بوصول هذا الفتى الجميل. كانت تنتظر منذ وقت طويل أن يتقدم منها أمير روسي، يشعر للوهلة الأولى بتفوقها على لداتها الروسيات البشعات الغبيات اللواتي لا يجدن ارتداء ثيابهن وإظهار فتنتهن، فيقع صريع غرامها للنظرة الأولى. وها إن ذلك الأمير الفتان قد جاء في تلك اللحظة. كانت تعرف أن فتاة مثلها، محرومة رغم جمالها من أي مركز ممتاز في المجتمع، محرومة من الأقارب والأصدقاء حتى من الوطن، لا يمكن أن تقبل البقاء أبداً حيث هي، تكرس حياتها للأمير نيكولا أندرييتش، وأن تظل إلى الأبد رفيقة الأميرة ماري ومقرئتها.

كانت الآنسة بوريين شديدة التعلق بأقصوصة حفظتها عن عمتها، كانت قد حاكت لها نهاية من محض ابتكارها وخيالها. كانت قصة فتاة جميلة أغراها رجل فاستسلمت له دون أن يجمعهما زواج رسمي. وكانت الآنسة بوريين تذرف الدمع السخي كلما فكرت في خيالها أنها ستروي هذه القصة بالذات للفارس الذي سيغريها في المستقبل ويحظى بها. أما الآن فإن ذلك الفارس لم يعد خيالاً. بل «إنه» موجود بالفعل أمامها. إنه أمير روسي عريق، ولسوف يختطفها وينالها وينتهي الأمر أخيراً بالزواج.

تلك كانت خطوط المغامرة التي كانت تبدو في الأفق أمام ناظري الآنسة بوريين التي كانت تتحدث مع أناتول عن پاريس. لقد انقلبت القصة الخيالية إلى حقيقة بدأت خيوطها تبزغ عند الأفق. لم تكن تخضع في نفسها

www.Maktbah.com

لأي حسبان وهي التي لم تفكر في ما كان يجب عليها صنعه، لكنها كانت قد رتبت أقصوصتها منذ زمن بعيد حتى أن كل التفاصيل بدأت تجتمع تلقائياً في تلك اللحظة وبشكل طبيعي تماماً، وراحت خيوطها تلتف حول أناتول، ذلك الفتى، فتى أحلامها الذي طالما تاقت إليه، والذي كانت تظهر أمامه كل فتنتها وجمالها.

كانت ليز، كالجواد المدرب الذي يقفز عند سماعه البوق يقرع بالنداء، متحفزة للاندفاع في سباق الرشاقة، متناسية حالتها الصحية، متجاهلة ما قد يترتب على ذلك وخصوصاً أنها لم تكن تغذي أية فكرة أو تهدف إلى أية غاية من وراء ذلك التهافت، إلا تلك الرغبة الساذجة التي تدفعها إلى الظهور بطيش وتهور.

كان أناتول، وهو الذي درج في حضرة النساء على اتخاذ مظهر الإنسان الذي أنهكته ملاحقاتهن وتعلقهن، يشعر بلذة فائقة وهو يرى نفسه محور التفاف كل نساء البيت ومدار اهتمامهن. أضف إلى ذلك أنه لم يلبث حتى شعر نحو بوريين الجميلة المثيرة برغبة من تلك الرغبات الهوجاء الملحة التي كانت تستحوذ أحياناً على كيانه. وتقسره على التصرف بطيش وارتكاب أقصى الأخطاء وأكثرها تهوراً.

بعد تناول الشاي، انتقل الضيوف وصحبهم إلى القاعة الصغيرة. وهناك طُلب إلى ماري أن تعزف على الأرغن. واتكأ أناتول بالقرب منها على مرفقيه بجانب الآنسة بوريين مصوباً إلى وجهها نظرات وادعة. وكانت ماري تشعر بارتباك مصدره السرور الذي تحس به والقلق من إحساسها المرهف بتلك النظرة المسلطة عليها. وكانت القطعة الموسيقية المفضلة عندها التي كانت تعزفها قد حملتها إلى عالم سري شاعري، ازداد بهاؤه التماعاً وفتنة بتلك النظرة المغضبة عليها. والحقيقة أن تلك النظرة، رغم ما كان يبدو عليها من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أنها موجهة إليها لم تكن متوقعة عند ماري، بل كانت تراقب بدقة حركات قدم الآنسة بوريين الصغيرة التي تعمد أناتول الاحتكاك بها تحت المعزف. وكانت الآنسة بوريين تنظر بدورها إلى ماري، غير أن عينيها الجميلتين كانتا تحملان مسحة واضحة من الفرح الكئيب، وأملاً في ألّا تراها ماري وهي في وضعها ذاك مع أناتول.

فكرت الأميرة في سرها: «كم تحبني بوريين! كم أنا سعيدة الآن، يا للهناء الذي ينتظرني في حياتي الزوجية المقبلة مع صديقة كهذه وزوج كهذا! ولكن هل سيصبح زوجي حقيقة؟» كانت تشعر بعينيّ أناتول وهما تتفحصانها، لكنها ما كانت تجرؤ على اختلاس نظرة واحدة إليه.

عندما حان وقت الافتراق بعد العشاء، قبّل أناتول يد ماري. وبوغتت هذه من جرأته فنظرت إلى وجهه الجميل القريب منها بعينيها الضعيفتين نظرة كلها تساؤل. وببساطة مفاجئة كان لها الأثر في تخفيف حدة تلك الحركة النابية، همّ أناتول بتقبيل يد الآنسة بوريين أيضاً. فاحمرّ وجهها خجلاً وبدأت تستشير ماري بنظرة ذاهلة.

قالت ماري في سرها: «يا للرقة المتناهية! هل تعتقد إميلي، وهو الاسم الأول للآنسة بوريين، أنني أغار منها أو أنني لا أقدر إخلاصها حق قدره؟» واقتربت منها فعانقتها بحرارة لتزيل شكوكها.

واقترب أناتول من الأميرة الصغيرة فصاحت هذه نافرة وهي تلوح بإصبعها مهددة: كلا، كلا، كلا! لن أعطيك يدي لتقبلها قبل أن يكتب لي أبوك مؤكداً أنك أصبحت تسلك سلوكاً حسناً. أما الآن فلا.

وأفلتت خارجة.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

تلك الليلة، وحده نام أناتول نوماً هانئاً، أما الآخرون، فقد أمضوا جميعهم ليلة مضطربة قلقة.

ما زالت ماري تتساءل: «هل سيصبح زوجي، هذا المجهول الذي يبدو لي رائع الجمال؟» ويستولي عليها خوف مفاجئ وهي التي لم تكن تشعر بالخوف من قبل. لم تكن تجرؤ على النظر إلى زاوية غرفتها. كان يخيل إليها أن بعضهم كامن هناك في الزاوية المعتمة وراء الحاجز، وأن ذلك المختبئ كان الشيطان في جسد رجل أبيض الجبهة، أسود الحاجبين، قرمزي الشفتين. فقرعت الجرس مستدعية وصيفتها وطلبت إليها أن تنام عندها.

وبقيت الآنسة بوريين فترة طويلة تتنزه في حديقة النباتات الشتوية، منتظرة قدوم فارس ما، فكانت تبتسم تارة للقادم الموهوم وأخرى يأخذها التحنان حتى تطفر دموعها من عينيها وتتصور اللوم العنيف الذي ستتعرض له مثلما تعرضت فتاة أقصوصتها المسحورة بفتنة فارسها.

وجدت الأميرة الصغيرة، سريرها غير منسق كما يجب، فعنفت خادمتها. لم تكن تستطيع النوم على جنبها ولا على صدرها. وكانت كل وضعية تسبب لها ألماً. كان حملها يربكها، ويزيد من إزعاجها ما أثاره قدوم أناتول في تلك الليلة من ذكريات يوم كانت فيه بعيدة عن مشاكل الحمل، تتذوق المتعة وهي هيفاء القد، متأودة العود، منشرحة الصدر. غرقت في كنبة طريّة وهي في جلبابها وقلنسوة النوم على رأسها وراحت تنظر إلى وصيفتها كاتيا التي كانت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تسوي وتقلب الفراش الثقيل المحشو بالريش للمرة الثالثة وهي مشعثة الشعر يثقل النوم في أجفانها.

كررت احتجاجها بصوت متهدج كالطفل الذي يهم بالبكاء: لقد قلت لك إنه مليء بالأخاديد. إنني في أشد الحاجة إلى النوم وأؤكد أنه لو كان الأمر مقتصراً عليّ وحدي...

وظلّ الأمير العجوز ساهراً وقتاً طويلاً خلافاً لعادته. وكان تيفون الذي ينام بعين واحدة ويسهر بالأخرى، يسمع وقع خطى سيده الغاضبة وتنهداته الحارة. كان الأمير يعتقد أنه أُهين في شخص ابنته. وكانت تلك أشد الإهانات وقعاً على نفسه لأنها لم تكن موجهة إليه مباشرة، بل كانت تستهدف شخصاً يحبه أكثر من حبه لنفسه. وعلى الرغم من أنه دأب يكرر في سره أنه سيجد لهذه المسألة حلاً مرضياً بالتفكير العميق، فإن انفعاله كان في ازدياد مستمر.

كان يغمغم قائلاً: «لا يكاد أول طالب زواج يظهر على الباب، حتى تتناسى الآنسة الفاضلة أباها وكل ما تبقى، فيضيع رشادها وتسرع إلى المرآة لتتبرج وترتمي متهالكة! آه، إنها سعيدة بتركها أباها! لقد كانت تعرف أنني لن أغفل عن رؤيته... ذلك الغبي الذي لم يرفع عينيه عن بوريين! هذه واحدة يجب طردها فوراً!... كيف لم تلاحظ ماري تصرفهما! كان عليها أن تخجل مني إذا كانت لا تخجل من نفسها. يجب أن أطلعها على أن هذا المخاتل لا يفكر فيها مطلقاً، بل يفكر في بوريين... ولما كانت لا تملك شيئاً من الكرامة، فإن من واجبي أن أدلها على ما تفعل وأن أفتح عينيها...».

ويدرك الأمير العجوز تماماً أنه إذا أثبت لابنته أن اهتمام أناتول كان منصباً على الآنسة بوريين وحدها فإنه بذلك يدمي كرامتها وينجح في مبتغاه، فترفض الابتعاد عنه. فلما بلغ من مناقشته هذا المبلغ، قرع الجرس مستدعياً توخين الذي راح يحضر له ثياب النوم.

www.Maktbah.com

وبينما كان توخين يغطّي جسده النحيل ذا الصدر المغطى بالشعر الأشهب، كان الأمير يحدث نفسه: «ما كنت في حاجة إلى زيارتهما! لقد جاءا يقلبان حياتي كما لو كنت مستغنياً عنها!».

صرخ ورأسه لايزال محجوباً بالقميص الذي لم يتخلص منه بعد: ليذهبوا إلى جهنم!

كان يحدث أحياناً أن يعبر الأمير عن آرائه بصوت مرتفع، وكان توخين يعرف عادات سيده، لذلك فقد جابه نظرته المستفسرة الغضبى التي ظهرت خلال فتحة القميص بوجه مشرق.

سأل الأمير: هل ناموا؟

كان توخين خادماً ممتازاً يفهم غاية سيده من كلماته الأولى. لذلك أدرك على الفور أنه يعني بذلك السؤال الأمير بازيل وولده. فقال: نعم يا صاحب السعادة، وقد أطفأوا الأنوار في غرفهم. غمغم الأمير مزمجراً: لكأنني كنت في حاجة إلى أمثالهم!

ثم انتعل خفه وارتدى معطفه المنزلي ومضى يستلقي على الكنبة التي كانت تقوم عنده مقام السرير.

وعلى الرغم من أن أناتول والآنسة بوريين لم يتبادلا كلمة واحدة حول شعورهما، فقد فهم كلاهما أن لديما كثيراً مما يودان التحدث به في جلسة هادئة. أدرك كلاهما خطوط الرواية التي يفكر فيها الآخر، أو أقله الجزء الأول منها، الإغراء والاستسلام. لذلك فإن الصباح التالي ما كاد يكتحل طرفه بالضياء حتى أخذ كل منهما يبحث عن الآخر ليختلي به. ولما كانت ماري تذهب عادة في ساعة معينة كل صباح لتحيي أباها تحية الصباح، فقد أتيح لبوريين أن تقابل أناتول في الحديقة الشتوية.

ارتجفت ماري ذلك الصباح لدى دخولها غرفة أبيها أكثر من عادتها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

اعتقدت أن كل من حولها أصبحوا يعرفون ليس أن مصيرها على وشك التقرير فحسب، بل كذلك أفكارها الشخصية وأحلامها. بدا وجه تيفون لعينيها بعكس تلك المشاعر بكل صراحة، وكذلك خيل إليها أن خادم الأمير بازيل، الذي قابلته حاملاً إناء ممتلئاً بالماء الساخن ذاهباً به إلى غرفة سيده، مطلعاً على كل شيء بدليل التحية العميقة التي ابتدرها بها عندما مرّ بقربها.

رحّب الأمير العجوز بابنته بترحاب وبشاشة تنذر بأسوأ النتائج، كما عرفت ماري لطول خبرتها. كان وجهه منطبعاً بمثل التعابير التي كانت تقرأها عليه إبان دروس الرياضيات عندما كان يثيره عدم استيعابها الشروح التي كان يفسر بها الدرس اليومي. كان يطبق قبضته وينهض من مكانه مبتعداً عنها ويكرر الكلمة نفسها مرات عديدة بصوت جامد.

هاجم الموضوع فوراً باستعماله كلمة «أنتم» بدلاً من «أنت». قال بصوت هادئ والابتسامة المغتصبة تداعب شفتيه: لقد تقدم بعضهم بعرض يتعلق «بكم» لا شك «أنكم» عرفتم أن عينيَّ الجميلتين لا وزن لهما في زيارة الأمير بازيل وقاصره (والله وحده يعرف السبب الذي من أجله وصف أناتول بكلمة قاصر!). إذن فقد تقدموا إليّ بعرض يتعلق «بكم» كما قلت. وبما «أنكم» تعرفون مبادئي الشخصية ومثلي فقد عدت بالموضوع إلى قرار «كم»؟

تمتمت ماري وهي تمتقع تارة ويحمرّ وجهها تارة أخرى: كيف يجب أن أفهم قولك يا أبي؟

فصاح الأمير مستنكراً: كيف تفهمين! إن الأمير بازيل يجدك مناسبة لتكوني كنة ويتقدم إليك بالعرض نيابة عن قاصره. هذا ما يجب أن تفهميه!... كيف تفهمين!... ولكن عليك أنت إعطاء الجواب.

فعادت ماري تتمتم: لست أدري يا أبي كيف تنظر...

www.Maktbah.com

ـ كيف أنظر؟... إن الأمر غير متعلق بي! لا تهتمي بشأني. لست أنا الذي سأتزوج. لكن «أنتم»، ماذا تفكر «ون»؟ هذا ما أريد معرفته.

أدركت ماري أن العرض لم يرق أباها. لكنها عرفت كذلك أن مصيرها كله متوقف على هذه اللحظة من الزمن. أطرقت برأسها لتتجنب نظرة أبيها المسيطرة، تلك النظرة التي كانت تخنق في نفسها كل أبواب التفكير فلا تترك لها إلا الخضوع المطلق، وقالت: إنني لا أرغب إلا في شيء واحد: تنفيذ رغبتك. وبما أنك تريد معرفة رأيي حول هذا الموضوع...

لم تجد فرصة لإتمام حديثها لأن الأمير قاطعها قائلاً: حسناً، لسوف يأخذك أنت وبائنتك والآنسة بوريين «على البيعة» إنها هي التي ستكون زوجته وليس أنت...

لكنه توقف عندما رأى ماري خافضة الرأس على وشك البكاء وقد زعزعت تلك الكلمات كيانها. قال مستدركاً: لا تراعي، لقد كنت أمزح. كنت أمزح. إنك تعرفين مبدئي: على الفتاة أن تختار شريكها. وعلى ذلك فإنني أعطيك ملء الحرية. تذكري فقط أن سعادة حياتك كلها تتوقف على قرارك. ولا تجعلي مني حجة تقوم عليها اعتباراتك.

ـ لكن في الحقيقة لست أدري يا أبي..... أنا لا علاقة لي بهذا الشأن! أما هو فقد أمر أن يتزوجك، وإنه لفاعل. وإن لم يكن أنت فإنه لا بد وأن يتزوج أول من تقدم له. أما أنت، فإنك حرة في الاختيار. إذهبي إلى غرفتك وفكري في الأمر ملياً ثم عودي بعد ساعة. وسوف تتحدثين أمامه إما سلباً وإما إيجاباً. أنا أعرف أنك ستركعين مصلية فور اعتكافك. فليكن. صلي ولكن فكري كذلك. هيا اذهبي الآن...

واستمر يصيح وراءها: نعم أو لا، نعم أو لا!

حينما كانت تغادر أباها مترنحة في مشيتها وكأنها تائهة في ضباب، كان

twitter @baghdad_library

مصيرها قد تقرر وكان ذلك القرار على خير ما يرام لأنها كانت تملك ناصيته. لكن تلك الملاحظة العابرة التي أبداها أبوها حول مسألة الآنسة بوريين وعلاقتها ما زالت تشغل بالها. اجتازت الحديقة الشتوية على خط مستقيم دون أن ترى أو تسمع شيئاً. لكنها فجأة سمعت همسات الآنسة بوريين المألوفة فانتشلتها من شرودها. رفعت عينيها فرأت على مسافة خطوتين منها الأمير أناتول ضاماً الفرنسية بين ذراعيه يهمس في أذنها كلاماً، ولما وقعت عيناه على ماري، اكتسى وجهه الجميل بطابع الذهول وكأنه كان يقول: «ماذا؟ ماذا تريدون مني! انتظري لحظة». لم يفلت بوريين لفوره وخصوصاً أن هذه لم تكن قد رأتها بعد. أخذت ماري تتأملها بصمت دون أن تتقبل ما ترى أو أن تفهم ما يراد منه. وفجأة أطلقت الفرنسية صرخة وأفلتت هاربة. أما أناتول فاستعاد ابتسامته وانحنى أمامها وكأنه يدعوها إلى مشاطرته الابتسام من هذه المناسبة الفريدة. ثم هز كتفيه واتجه نحو الباب المؤدي إلى الجناح الذي نزل فيه مع أبيه.

وصل توخين بعد انقضاء ساعة يعلن للأميرة ماري أن أباها ينتظرها وبصحبته الأمير بازيل سيرغييتش. وكانت هذه جالسة على كنبة تضم بين ذراعيها الآنسة بوريين وتمسّد شعرها بعطف وحنان. كانت عيناها الجميلتان على هدوئهما وإشعاعهما السابقين، وكانت تحدق إلى وجه الآنسة بوريين، ذلك الوجه الجميل الذي كان مبلّلاً بالدموع. كانت تنظر إلى الفرنسية ببشاشة وعطف حقيقيين. وكانت بوريين تقول: لا، يا أميرة، لقد هلكت إلى الأبد وفقدت مكاني في قلبك النبيل.

فتجيبها ماري: ولماذا؟ إنني أحبك أكثر من أي وقت مضى وسأسعى بكل ما أوتيت من قوة في سبيل سعادتك.

www.Maktbah.com

ـ لكنك تحتقرينني. أنت الطاهرة، لا يمكنك أن تفهمي هذه الخطيئة الغريزية، خطيئة الرغبة! آه! إنه خيالي وأقصوصتي...

فأجابتها الأميرة بابتسامة كئيبة: بل إني أفهم كل شيء، اطمئني يا صديقتي...

ثم عقبت وهي تنهض من مكانها... ولكن يجب أن ألحق بأبي.

كان الأمير بازيل جالساً على مقعده وقد لف ساقاً على ساق وعلى وجهه آيات الانفعال، وكانت الابتسامة الحانية المطلقة على شفتيه عند دخول ماري تبدو وكأنها استخفاف بذلك الانفعال والاضطراب. بادر إلى الهجوم فقال وهو يستقبلها واقفاً ويمسك بيديها الاثنتين: آه! أيتها الطيبة، أيتها الطيبة!

ثم أطلق زفرة وأردف: إن مصير ولدي بين يديك. فقرري يا ماري، أيتها الطيبة، أيتها العزيزة الرقيقة التي أحببتك دائماً كابنتي.

وبينما هو يفسح لها في الطريق، ظهرت دمعة حقيقية في زاوية عينه بين الجفن الهدب.

صاح الأمير العجوز بعد أن أخذ نفساً عميقاً: إن الأمير باسم قاصره لا بل باسم ابنه يطلب يدك للزواج. فهل تريدين أن تصبحي زوجة أناتول كوراغين؟ أجيبي نعم أو لا. قولي نعم أو قولي لا، وإنني أحتفظ بحقي في إبداء رأيي بعد ذلك... رأيي فقط ولا، ولا شيء سواه.

وكرر هذه الجملة عندما لمس أمارات التوسل التي انطبعت على وجه الأمير بازيل وتابع: حسناً؟ ما هو رأيك؟ نعم أو لا؟

فقالت ماري بثبات وهي تنظر في عيني الأمير بازيل ثم تنقل نظرها إلى وجه أبيها: إن رغبتي يا أبي هي ألّا أفارقك أبداً، ألّا أفصل حياتي عن حياتك، إنني لا أريد أن أتزوج.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فغمغم الأب حانقاً وقد اكفهر وجهه: يا للغباوة، يا للغباوة! سخافات، سخافات!

لكنه جذب ابنته نحوه ولامس وجنتها بوجنته دون أن يقبلها وضغط على يدها بشدة حتى أن ماري لم تتمالك أن أطلقت صرخة خافتة شفعتها بحركة دالة على شدة الألم.

أما الأمير بازيل فقد نهض واقفاً وقال: يا عزيزتي، أستطيع القول إنني لن أنسى هذه اللحظة أبداً ولكن ألا تعطين مجالاً للأمل في أن قلبك شديد الطيبة قد يعيد النظر في قراره؟ قولي يجوز... إن المستقبل كبير فسيح قولي: يجوز. كلا يا أميري. لقد تحدثت بكل صراحة وليس لدي ما أضيفه على ما قلت. أنا أشكرك للشرف الذي أسبغته علي، لن أكون زوج ابنك أبداً.

وعندئذ قال الأمير العجوز: حسناً يا عزيزي بازيل، لقد انتهينا من هذا. سرني أن رأيتك بعد طول فراق... سرني... وأنت أيتها الأميرة يمكنك الانسحاب...

وعانق الأمير بازيل للمرة الثانية وأردف: كانت ماري تحدث نفسها بقولها: «إن مهمتي في الحياة تختلف عن كل هذه الأمور، إنها تنحصر في التضحية في سبيل الحياة الآخرة. ولسوف أمكن إميلي المسكينة من سعادتها مهما بلغ الثمن. إنها تحبه بشغف وهي آسفة شديدة الندم على زلتها. سأقوم بكل ما في وسعي كي يتزوجها. إذا لم يكن غنياً فإنني سأقدم له بائنة. سوف أبتهل إلى أبي وأتوسل إلى أخي أندريه. سأكون شديدة السعادة عندما تصبح زوجته!... إنها غريبة مسكينة لا أقرباء لها ولا سند... آه! يا إلهي، هل كان يجب أن تتعلق به إلى هذا الحد حتى تنسى نفسها فتستسلم له! لعلني كنت أتصرف!... إنها لا تلام».

www.Maktbah.com

الفصل السادس

لم يتلق آل روستوف منذ زمن طويل شيئاً من أخبار نيكولا. وعندما انتصف الشتاء، سلم للكونت رسالة كان العنوان مخطوطاً بخط ولده. حركت تلك الرسالة عواطف الكونت حتى أنه مشى على أطراف قدميه محاذراً تنبيه أحد إليه وأغلق على نفسه باب مكتبه ليختلي برسالة ابنه ويكتم الخبر عن الآخرين، وكانت آنّا ميخاييلوڤنا، رغم تحسن أحوالها وانتعاش مواردها، لا تزال تقيم لدى آل روستوف. وكان من عادتها الإحاطة بكل ما يدور حولها. وهكذا، لم تلبث أن اكتشفت الأمر فتسللت بخطى حذرة إلى مخدع الكونت وهناك وجدته يضحك وينتحب والرسالة في يده.

سألته بلهجة قلقة واستفسار، وبلهفة تتقن إبرازها كلما أرادت المساهمة في الاطلاع على موقف معين: ماذا يا صديقي الطيب؟

فتضاعف نحيب الكونت وتمتم خلال دموعه: رسالة... من صغيري نيكولا... لقد جرح يا عزيزتي... نعم، نعم، لقد جرح صغيري العزيز... ولقد بشروه برتبة ضابط... حمداً لله!

كيف أنقل هذا الخبر... إلى عزيزتي الكونتيسة الصغيرة؟...

أخذت آنّا ميخاييلوڤنا مكانها قرب الكونت وراحت تمسح عينيه بمنديلها وتجفف الورقة التي تساقطت عليها بضع عبرات، وأخيراً تمسح دموعها هي الأخرى. ثم قرأت الرسالة، فطمأنت الكونت وقررت أن تهيّئ

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكونتيسة لتلقي النبأ قبل موعد الطعام معلنة أنها ستنهيه إليها بعون الله بعد تناول الشاي.

استمرت آنّا ميخاييلوڤنا تتحدث طوال الوقت الذي استغرقه الطعام عن الأنباء والإشاعات المتناقلة على الألسن المتعلقة بسير القتال. وعلى الرغم من إلمامها التام بالوقت الذي تلقت فيه الأسرة آخر أنباء نيكولا، عادت تسأل عن الوقت ملمحة إلى أنه لا يستبعد أن يصل منه كتاب في ذلك اليوم بالذات.

كانت تلك التلميحات تسبب للكونتيسة قلقاً واكتئاباً. كانت تتفحص وجه زوجها بنظرة صارمة تارة ووجه صديقتها تارة أخرى، وعندئذ كانت هذه تحول الحديث ببراءة إلى موضوعات تافهة. غير أن ناتاشا ذات الحس المرهف، أدركت منذ أن بدأ الطعام أن في الجو شيئاً جديداً، لذلك راحت تصغي بانتباه شديد إلى كل التنويهات وتسجل كل التحولات التي تطرأ على قسمات وجوه الجالسين محاولة اختراق الستور ومعرفة ما وراء تلك النفحات الصوتية الغامضة. فهمت بسرعة أن هناك سراً، وأن ذلك السر يتعلق بنيكولا وأنه كامن بين أبيها وبين آنّا ميخاييلوڤنا بل أدركت أن هذه تمهد السبيل للافضاء بذلك السر.

ولما كانت تعلم أن كل ما يتعلق بنيكولا يثير أمها ويزعجها، فإنها لم تجرؤ رغم جرأتها وطيشها، على طرح أي سؤال. لكنها كانت في غمار لهفتها ناسية الطعام الذي بين يديها فلم تصب منه إلا قليلاً. لم تكن لتستقر على كرسيها متجاهلة ملاحظات مربيتها. وما إن نهض أفراد الأسرة عن الطاولة حتى أسرعت إلى آنّا ميخاييلوڤنا كالمجنونة فلحقت بها قرب المخدع وهناك قفزت إلى عنقها فتعلقت به وهتفت: يا عمتاه، يا خالتي الجميلة العزيزة، نبئيني بالخبر!

ـ ليس من خبر يا عزيزتي.

www.Maktbah.com

ـ بلى، بلى. إنني واثقة بأنك تلقيت شيئاً جديداً. آه يا عزيزتي، يا جميلتي، يا معبودتي، قولي لي فوراً ما الخبر وأسرعي لأنني لن أفلتك قبل أن تنهيه إلي.

فقالت السيدة الطيبة وهي تهز رأسها: إنك مرهفة الحس يا طفلتي...

فقالت ناتاشا: إنها رسالة من نيكولا أليس كذلك؟

ولما قرأت على وجه آنّا ميخاييلوڤنا ما يدعم هذا الرأي استطردت: بلى، رسالة من نيكولا، بالتأكيد!

ـ كوني حكيمة بحق السماء. إنك تعرفين ما يعتري أمك من انفعال لهذا النبأ.

ـ نعم، نعم. ولكن نبئيني بالخبر. حدثيني. ألا تريدين؟ حسناً، إنني ذاهبة فوراً إلى أمي أخبرها...

فاضطرت آنّا ميخاييلوڤنا إلى إيجاز فحوى الرسالة الواردة في بضع كلمات وناشدتها أن تكتم الخبر عن الجميع. فقالت ناتاشا وهي ترسم إشارة الصليب: أعدك وعد شرف أن لا أقول ذلك لأحد!

وأسرعت فوراً إلى سونيا وقالت لها وهي تكاد تطير فرحاً: سونيا، إن نيكولا... جريح... هناك رسالة منه...

فامتقع وجه سونيا ولم تستطع النطق إلا بكلمة واحدة: نيكولا!

وأدركت ناتاشا من اضطراب ابنة عمها مبلغ ما في الخبر الذي وافتها به من حزن. فارتمت على عنقها وذابت في دموعها.

راحت تطمئنها خلال نحيبها بقولها: لقد جرح جرحاً طفيفاً وسيصبح ضابطاً بعد حين. إن حاله بتحسن مستمر ولقد كتب الرسالة بنفسه وبخط يده.

ومن هنا أعلن پيتيا، الأخ الصغير وله من العمر تسع سنوات، وكان يذرع الغرفة بخطوات ثابتة: كل النساء بدون شك لسن إلا نائحات منتحبات. أما أنا،

twitter @baghdad_library

فسعيد جداً، نعم سعيد حقاً أن يكون أخي قد أظهر شجاعته على هذا الشكل. إنكن نائحات سخيفات، لا تفقهن شيئاً.

فابتسمت ناتاشا رغم دموعها بينما سألتها سونيا: هل قرأت الرسالة؟

ـ كلا، لكنها أنبأتني بأنه شفي تماماً وأنهم رقوه إلى رتبة ضابط. فقالت سونيا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها: حمداً لله! ولكن، لعلها لم تنبئك بالصدق. هيا بنا إلى «ماما».

وكان پيتيا لا يزال في تجواله صامتاً. قال: لو أنني كنت بدلاً من نيكولا، لقتلت مزيداً من أولئك الفرنسيين، يا للأوباش! كنت قتلت منهم عدداً كبيراً وكتلت جثثهم حتى يبلغ ارتفاعها هكذا!

وشفع ذلك بإشارة من يده مبيناً الارتفاع المنشود.

قالت أخته: حقاً يا پيتيا، يا لك من غبي!

ـ لست أنا الغبي بل أنتن، يا من تبكين لأتفه الحماقات.

سألت ناتاشا بعد فترة صمت: هل تذكرينه يا سونيا؟

فقالت سونيا باسمة: تسألينني إذا كنت أتذكر نيكولا؟

فألحت ناتاشا وهي تؤيد خطورة سؤالها بحركة من يدها: كلا يا سونيا، هل تذكرينه بشكل يجعلك تذكرين كل شيء؟ أنا أتذكر كل قسماته أما بوريس فقد نسيته تماماً...

فصاحت سونيا مذهولة: كيف، أنسيت بوريس!

ـ أقصد أنني لم أنسه بمعنى الكلمة، إنني أعرف تقاطيعه بالطبع، لكنني لا أذكره كما أذكر نيكولا. عندما أغمض عيني، وأغمضتهما فعلاً، أراه أمامي. أما بوريس، فعلى العكس، إنني لا أراه، أبداً.

نظرت ناتاشا إلى صديقتها بخطورة وجلال وكأنها قدرت أنها لا تستحق الإصغاء إلى ما تقول، فراحت تخاطب شخصاً آخر لم يكن دأبه المزاح: آه!

www.Maktbah.com

ناتاشا، ناتاشا، إنني أحب أخاك. ومهما جرى له أو لي، فلن أنقطع عن حبه طوال أيامي.

أرتج على ناتاشا وحارت في الجواب الذي تقدمه، فاكتفت بالتحديق إلى وجه ابنة عمها بنظرة كلها اندهاش. كانت تشك في صدق قول سونيا وفي إمكانية وجود حب من هذا النوع. ولكنها لم تجد مندوحة عن الاعتراف بجواز مثل هذا الأمر خصوصاً وأنها لم تكن بعد قد شعرت بشيء من هذا القبيل واجتازت اختباراً من هذا النوع. وأخيراً سألت: هل ستكتبين له؟

استغرقت سونيا في التفكير. كانت منذ وقت طويل تتساءل بقلق عما إذا لم يكن من الواجب عليها أن تكتب لنيكولا، وعن العبارات التي تتلاءم مع هذه الغاية. أما الآن وقد أصبح بطلاً ينتظر ترقيته إلى رتبة ضابط، فهل من النبل في شيء أن تعيد إلى ذاكرة الفتى ذكراها؟ ألن يفسر رسالتها بأنها نداء وتذكير بالعلاقة والالتزام الذي تعهد به حيالها؟

قالت وقد احمرّ وجهها خجلاً: في الحقيقة لست أدري. ولكن يبدو لي أنني أستطيع أن أكتب له طالما أنه يكتب لنا بدوره.

ـ وهل ستشعرين بالخجل إن أنت كتبت؟

فقالت سونيا باسمة: أبداً، لماذا أخجل؟

ـ لست أدري. هكذا... إن ذلك قمين بارتباكي.

تدخل پيتيا مجدداً وقال وهو شديد الألم لملاحظة أخته الأخيرة: أما أنا فأعرف لماذا تشعر بالخجل. ذلك لأنها بعد أن أحبت بوريس، عادت تعشق ذلك الضخم ذا النظارتين، ويقصد به الكونت بيزوخوف الجديد الذي لم يجد پيتيا وصفاً آخر ينطبق على مظهره الطيب، وها هي الآن مفتونة بالمغني، وكان يقصد ذلك الإيطالي الذي يقوم بدور أستاذ الموسيقى بالنسبة إلى ناتاشا، هذا هو سبب خجلها.

twitter @baghdad_library

قالت ناتاشا: يا لك من غبي يا پيتيا!

ـ لست أكثر غباوةً منك يا صديقتي الطيبة!

نطق الطفل بهذه الجملة بثبات الكهل المحنك.

تذكرت الكونتيسة وهي في غرفتها بعد الطعام إلى التلميحات التي فاهت بها آنّا ميخاييلوڤنا على المائدة، فغرقت في كنبتها واستغرقت في تأمل صورة ابنها الصغيرة المنقوشة على غطاء علبة سعوطها تلألأت الدموع في عينيها وطفرت تبلل أهدابها. وفي تلك اللحظة، كانت آنّا ميخاييلوڤنا تقترب من غرفة صديقتها بخطوات متسللة والرسالة في جيبها. قالت للكونت الذي كان يريد اللحاق بها: كلا، لا تدخل... انتظر برهة...

وأغلقت الباب وراءها.

ألصق الكونت أذنه بثقب الباب منصتاً وانتظر اللحظة المناسبة لدخوله.

لم يسمع بادئ الأمر إلا موضوعات تافهة ثم خطبة مطولة من آنّا ميخاييلوڤنا أعقبتها صرخة وبعدها صمت. ولم يلبث ذلك الصمت أن مزقته هتافات البشر والفرح المتبادلة بين الصديقتين. وعلى وقع خطوات ظهرت آنّا ميخاييلوڤنا تدعوه إلى الدخول. كانت تعابير وجهها تشبه تعابير الجراح الماهر الذي جاء يفتح الباب للجمهور الراغب في عيادة المريض بعد أن انتهى من إجراء عملية خطيرة له بنجاح خارق، استحق عليها الثناء.

قالت للكونت بفخار وهي تشير إلى الكونتيسة التي كانت ممسكة بعلبة السعوط في يد ورسالة نيكولا في الأخرى، تقرأها بشغف وتقبلهما دورياً بتحنان: لقد انتهى الأمر.

عندما وقع نظر الكونتيسة على الكونت، مدت ذراعيها نحوه وأحاطت بها رأسه الأصلع وقدرت أنها تستطيع إعادة تلاوة الرسالة وهي على ذلك الوضع، والتامل في الصورة المنقوشة على غطاء علبة السعوط. بل إنها

www.Maktbah.com

اضطرت إلى تضييق الخناق على الرأس وصاحبه ليتسنى لها تقبيل تلك الأشياء بكل راحة. ودخل الأولاد: ڤيرا، ناتاشا، سونيا وپيتيا بدورهم وأعيدت تلاوة الرسالة على مسامعهن أيضاً. أورد نيكولا في رسالته وصفاً موجزاً للجبهة والمعركتين اللتين اشترك فيهما، ثم يخبر ذويه أنه رفع لرتبة ضابط. وأخيراً قال في رسالته إنه يقبل يدي ماما وبابا ويلتمس بركاتهما ودعاءهما، ويقبل وجنات ڤيرا وناتاشا وپيتيا ويبعث بتحياته إلى السيد شيللنج والسيدة شوس وإلى المربية. ويطلب إليهم أن يقبلوا سونيا العزيزة نيابة عنه مؤكداً أنه لايزال يحبها كسابق عهده ويحتفظ بذكراها بكل إخلاص.

ولما بلغت الكونتيسة في القراءة هذا المقطع اندفعت الدماء في وجنتي سونيا واغرورقت الدموع في عينيها. ولما أخفقت في الصمود تجاه النظرات التي راحت تحدق إلى وجهها، ركضت هاربة فدخلت القاعة الكبرى واستدارت حول نفسها من الفرح فانتفخ ذيل ثوبها وأصبح كالكرة الضخمة، وجلست على الأرض محمرة الوجه باسمة الثغر.

كانت الكونتيسة تبكي لذكرى ابنها فقالت لها ڤيرا: لماذا تبكين يا أماه؟ إن رسالته تستحق أن يفرح الإنسان لها بدلاً من البكاء.

ملاحظة في محلها. مع ذلك فقد راح الكونت والكونتيسة وناتاشا والآخرون يحدجونها بنظرات اللوم. كانت أمها تتساءل: «بمن هي متعلقة إذن؟».

تليت رسالة نيكولا مرات ومرات لكن أولئك الذين رئي أنهم يستحقون الإصغاء إلى ما جاء فيها، كانوا يحضرون إلى حيث كانت الكونتيسة لتقرأها عليها لأنها لم تكن توافق على التخلي عن رسالة ابنها. وهكذا فقد مرّ أمامها رؤساء الخدم والمربية وميتانكا وعدد من الأصدقاء. وفي كل مرة كانت الكونتيسة تعيد التلاوة بشغف، وبعد كل تلاوة جديدة، كانت تكتشف في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نيكولا من الصفات ما فاتها إدراكه في المرة السالفة. وهكذا فإن ذلك الابن، الذي كان في أحشائها قبل عشرين عاماً، يتحرك بجسده الضئيل الضعيف، ذلك الابن الذي تشاجرت بسببه مع الكونت الذي كان يدلله بكثرة، ذلك الابن الذي كان أول ما نطق به من الكلام هو: «إجاصة» ثم تعلم بعدها كلمة «سيدة»، ذلك الابن بالذات قد أصبح الآن بعيداً عنها في بلاد غريبة، وحيداً دون مساعدة ولا دليل، يقوم بأعمال الرجال! يا لها من فرحة، لكن الموضوع يستوجب كذلك الدهشة والذهول، أصحيح أن العالم كان لا يكاد يجهل أن الأطفال يصبحون بالتدريج رجالاً وربما أبطالاً.

غير أن هذا التدرج الطبيعي العام الذي ينطبق على كل البشر، لم يكن معروفاً من الكونتيسة قبل ذلك اليوم. نسيت الكونتيسة أن الملايين من البشر قد مروا في هذه المراحل من التطور، فرفضت الاقتناع بأن ولدها «ذاك» قد بلغ مبلغ الرجال. منذ عشرين عاماً، عندما كانت تحمل هذا الصغير قرب قلبها، لم تكن تصدق أنه سيرضع ثديها يوماً ويتعلم الكلام بعد ذلك. وكذلك الآن، فإنها لا تصدق أن ذلك الصغير بالذات قد أصبح، كما كانت تنبئ رسالته، رجلاً باسلاً جديراً بأن يكون مثالاً يقتدي به الأبناء كلهم، بل الجنس البشري برمته!

كانت تقول وهي تعيد تلاوة المقاطع الوصفية في الرسالة: يا له من أسلوب جميل! يا للبراعة في وصف الأشياء! ثم يا لله من القلب الذي له! لم يتحدث بكلمة واحدة عن آماله، ولا همسة! إنه لا يتحدث إلا عن واحد اسمه دينيسوف. مع ذلك فأنا واثقة بأنه أشدهم بسالة. ثم إنه يهمس بكلمة واحدة عن العنت الذي لاقاه والمشقة التي احتملها. يا لقلبه الكبير! إنني أتعرف إلى ذلك القلب من خلال الأسطر! ثم إنه عني بصورة خاصة بإبلاغ تحياته للجميع

www.Maktbah.com

فلم ينس أحداً ولم يستثن أحداً! لقد كنت أقول دائماً إنه نبيل كبير القلب، نعم، منذ أن كان هكذا في طوله!...

وانقضت ثمانية أيام لم يكن للأسرة من هم خلالها إلا كتابة الرسائل ثم تمزيقها لعدم صلاحيتها ثم إعادة كتابتها.

وتحت إشراف الكونتيسة، هيأ الكونت كل التجهيزات اللازمة للضابط الجديد، ولما كانت أنّا ميخاييلوڤنا قد أحاطت ابنها بكثير من الرعاية وأسلمت أمره إلى عدد من المتنفذين. فإن الأسرة استطاعت بفضل هذه التدابير المسبقة أن تتصل بابن أنّا بكل سهولة، خلافاً لما كان عليه نيكولا وهكذا فقد كان رسول الغراندوق كونستانتان باڤلوڤيتش، قائد الحرس العام، يتعهد إيصال الرسائل بأمانة. وبدت عبارة: «الحرس الروسي في الخارج» المطبوعة على الأوراق والغلافات، كافية بنظر آل روستوف لتكون عنواناً مضموناً. كانوا يقولون: طالما البريد يصل إلى يدي الغراندوق قائد الحرس العام، فإنه ليس هناك ما يبرر عدم وصوله إلى سرية پاڤلوغراد التي يجب ألّا تكون بعيداً جداً عن مكان وجوده وهكذا قرروا إرسال ما يتوجب من المال مع رسالة في بريد الغراندوق باسم بوريس وتكليفه تسليمها.

المال والرسالة نيكولا. وجمعت الرسائل، من الكونت والكونتيسة وبيتيا وڤيرا وناتاشا وسونيا، وأضيف إليها مبلغ ستة آلاف روبل قدرت أنها كافية لشراء التجهيزات اللازمة، وأرسلت جميعها في البريد، بريد الغراندوق، مع عدد من الأشياء المختلفة التي قدر الكونت العجوز أنها ضرورية يجب إيصالها إلى ولده نيكولا.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع

كان جيش كوتوزوف في الثاني عشر من تشرين الثاني، الذي كان معسكراً في ضواحي أولموتز، يستعد للقيام باستعراض كبير غداة اليوم التالي أمام الأمبراطورين الروسي والنمسوي. وكان الحرس الروسي، الذي وصل أخيراً، يقضي الليل على مسافة أربعة أميال من المدينة وكان عليه الظهور في ساحة العرض في الساعة العاشرة صباحاً.

تلقى نيكولا روستوف كلمة من بوريس ينبئه فيها بأن فيلق إسماعيل معسكر على مسافة أربعة أميال خارج أولموتز وأنه ينتظر قدومه إليه ليسلمه رسالة ومبلغاً من المال أرسلهما ذووه. وكان نيكولا في أمسّ الحاجة إلى المال لأن معسكره كان محاصراً بعدد كبير من الباعة اليهود النمسويين الذين كانوا يقدمون للضباط والجنود سلعاً مختلفة مغرية ومتاعاً.

وكانت أيام ضباط پاڤلوغراد تمضي في سلسلة متصلة من الولائم والحفلات، وهي مزايا خصصت لهم إبان انتقالهم، فكانوا لا يفتأون يترددون إلى أولموتز، إلى حانة أسستها امرأة اسمها كارولين الهنغارية، جعلت مستخدميها كلهم من الجنس الناعم. وكان روستوف قد احتفل منذ أيام بترقيته الجديدة واشترى حصان دينيسوف (بيروان)، فتورط في ديون كثيرة موزعة في غير عدل بين الباعة وزملائه. لذلك ما كاد يتلقى كتاب بوريس حتى بادر إلى الذهاب إلى أولموتز وهناك تناول طعامه وجرع زجاجة من الخمر بصحبة زميل له، وراح يبحث عن صديق طفولته. لم يكن قد أتم تجهيزاته

www.Maktbah.com

بعد، لذلك فقد كان ممتطياً صهوة جواد روسي استعاره من أحد القوقازيين، ومرتدياً سترة الجندي القذرة وقد التمع عليها صليب يمنح للجنود، وسراويل ركوب مرقعة، وتمنطق بحسام ضابط في فرسان الدراغون وغطى رأسه بقبّعة مشوهة أمالها على أذنه بمجون. وعندما اقترب من معسكر الحرس، راح يفكر في الأثر الذي سيحدثه مظهره العسكري وحركاته التي انطبعت بطابع فرسان الجيش على بوريس والسادة أفراد الحرس.

في الحقيقة، إن فرقة الحرس كانت قد التحقت بالجيش المحارب وكأنها ذاهبة إلى نزهة. كان أفرادها على أوفر حظ من التنظيم وشموخ الأنفة وألبستهم نظيفة لا تقبل النقد. ولقد كانت المراحل التي قطعها رجال الحرس قصيرة جداً والأمتعة والأكياس وما إليها كانت تنقل على عربات، أضف إلى ذلك أنهم في كل مراحل الطريق، كانوا يطعمون أفخر الطعام الذي كانت السلطات النمسوية تجهزه خصوصاً من أجلهم، فكانت السرايا عند دخولها إلى المدن، تسير على إيقاع الموسيقى وتخرج منها على تلك الحال.

كان مقرراً أن يقطع رجال الحرس تلك المراحل بنظام السير الإيقاعي، الأمر الذي كان يجعل الأفراد شديدي الاعتداد، فكان الضباط في أماكنهم المقررة بين الصفوف وإلى جانبيها، يتيهون في أثوابهم الأنيقة. وكان بوريس قد قطع المرحلة كلها إلى جانب بيرج الذي أصبح قائد سرية بفضل دقته وعقليته النظامية. كان يتمتع بكل ثقة رؤسائه بوصفه من النوع الذي لا يجب أن يهمل شأنه.

وكان بوريس من جانبه قد ارتبط بعلاقات مفيدة نذكر منها تعرفه إلى الأمير أندريه پولكونسكي الذي تلقى من پيار بيزوخوف توصية خاصة تدعوه للعناية ببوريس. وكان يعتمد على دعم الأمير وحمايته ليلتحق بأركان حرب القائد العام كوتوزوف.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان بيرج وبوريس في أبهى زينتهما، ينعمان بالراحة بعد المرحلة الأخيرة، ويقضيان الوقت بلعب الشطرنج حول طاولة مستديرة في الفندق المريح الذي عُين لهما، وكان بيرج مودعاً غليونه المشتعل بين ركبتيه، بينما كان بوريس يبني أهرامات بالبيادق التي ربحها من صديقه، منصرفاً إليها باهتمامه على عادته، يسويها بيديه الدقيقتين وهو لا يني يراقب زميله الذي كان عليه أن يجيب عن حركته. وكان بيرج، وهو المخلص لمبدأه القاضي بعدم الاهتمام إلا بعمل واحد حتى إنجازه، منصرفاً بكليته إلى اللعبة غافلاً عن كل ما حوله.

سأله بوريس: هيا، دلني على المخرج الذي ستجده لورطتك الآن.

فأجاب بيرج وهو يلمس بيدقاً لا يلبث حتى يفلته: سوف نعمل ما في وسعنا.

وفي تلك اللحظة فتح الباب. صاح روستوف: آه، ها هو ذا أخيراً! ها إن بيرج موجود كذلك!

وأردف مقلداً لهجة مربيتهم العجوز التي كانت كثيراً ما تضحكهم من قبل: هيا يا أطفالي، إذهبوا لتستلقوا وتناموا!

ونهض بوريس لاستقبال روستوف قائلاً: يا إلهي، كم تبدلت!

نهض من وراء الطاولة وهو يسعى لإبقاء إهراماته على حالها، واندفع يريد معانقة روستوف. لكن هذا تنحى عن طريقه ممتنعاً. لقد درج الفتيان الشباب على تنكب العادات المألوفة، لأنهم يفضلون اللجوء إلى أساليبهم الخاصة التي لا تتفق غالباً مع ما هو مألوف بين الكبار من عادات لعلها لا تخلو أحياناً من الأنانية وهكذا فضل نيكولا أن يحيي رفيق صباه على طريقتهما السالفة معرباً عن سروره بلقائه، تلك الطريقة التي درجا عليها والتي لا تخرج

www.Maktbah.com

عن قرصة في الأذن. أما بوريس فعلى العكس اندفع نحوه وقبله ثلاثاً دون خجل مصطنع، وبمحبة قلبية واضحة.

مضت ستة أشهر على افتراقهما، لذلك راح كل منهما يتأمل التغيرات التي نالت من رفيقه، تلك التغيرات التي يعود الفضل فيها إلى الوسط الذي عاش فيه كل منهما، وأخذ كل واحد يبين للآخر المعالم البارزة في تلك التغيرات الجديدة.

قال روستوف بصوته الذي لم يألفه بوريس، وبلهجة عسكرية صحيحة، وهو يشير إلى سراويله: أيها الملعونان، إنكما على أجمل زينة وكأنكما في نزهة، خلافاً لحالنا نحن جنود الجبهة التعساء!

وأطلت صاحبة المسكن الألمانية خلال الباب الموارب مستغربة مثل هذه الصيحات. فغمزها نيكولا بعينه وقال: ماذا هناك يا جميلتي؟

فقال بوريس: لا تصرخ هكذا، سوف تخيفهم. في الحقيقة إنني لم أكن أنتظر قدومك اليوم لأنني لم أرسل إليك رقعتي إلا البارحة بواسطة أحد ضباط كوتوزوف المساعدين الذي أعرفه. إن اسمه پولكونسكي. وما كنت أظن أنك ستتلقى الرقعة بمثل هذه السرعة... ليكن، كيف حالك؟ لقد بلوت في القتال إذن، أليس كذلك؟

فهز روستوف صليب سان جورج المعلق فوق سترته العسكرية، وأبرز ذراعه المعلقة إلى عنقه ونظر إلى بيرج مبتسماً دون أن يجيب. وأخيراً قال: أظن أن نعم!

فاستطرد بوريس وهو يبتسم بدوره: طبعاً، طبعاً. رائع. أما نحن، فقمنا كذلك برحلة رائعة. إنك تعرف أن سموّه ظل يقطع الطرق تواكبه كتيبتنا، وبذلك أتيحت لنا كل أنواع المتعة. ففي پولونيا لم نشعر بالوقت يمضي ونحن نتنقل من حفلة راقصة إلى وليمة حافلة إلى حفلات استقبال فخمة. ولقد كان

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التسيزاريـڤيتسن لقباً يعطى رسمياً لابن القيصر البكر الذي سيخلفه في تسنم العرش، شديد العطف على الضباط جميعاً.

وبدأ الصديقان يطريان أعمالهما، الأول يمتدح الفرسان ويطنب في وصف شجاعتهم في الحرب ويثني على حياة التقشف التي يعيشونها والآخر يعدد الميزات والاعتبارات الكثيرة التي ينعم بها أولئك المنتسبون إلى سلاح يكون قادته محط أنظار الناس واحترامهم.

قال روستوف: آه، إننا نعرفكم معشر رجال الحرس! ماذا يا عزيزي لو أرسلت من يأتينا بزجاجة؟

فعبس بوريس ثم قال: إذا كنت مصراً فلا بأس.

وأخرج كيس نقوده المخبأ تحت الوسائد النظيفة وأصدر أمره بإحضار الشراب وقال: وبهذه المناسبة، سأعطيك الرسالة الواردة باسمك والمال.

أخذ روستوف الرزمة فألقى بكيس النقود على الكنبة واتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يقرأ الرسالة. ولم يكد يطالع الأسطر الأولى حتى راح يحدق بيرج بنظرات التضجر. لقد أحسّ أن عيني بيرج شاخصتان إليه فجعل من الرسالة ستاراً يحجب نفسه وراءه.

قال بيرج وهو ينظر إلى كيس النقود الفارغ في الكنبة: أرسلوا إليك مبلغاً كبيراً على ما يبدو. مساكين نحن يا كونت لأننا لا نملك إلا راتبنا الحقير نتبلغ به. وأنا من أفراد هذا الحرس.

فهتف روستوف: اسمع يا بيرج، إذا وقع لك أن تسلمت أمامي رسالة من ذويك وكان إلى جانبك أحد المقربين إليك يرغب في أن يطرح عليك ألف سؤال وسؤال فثق بأنني أكفيك مؤونة التخلص من بقائي. فاعمل إذن كما كنت سأعمل لو كنت في مثل موقفك واذهب إلى حيث تشاء... وليكن إلى الشيطان!...

www.Maktbah.com

فجأة استدرك نفسه وخفض صوته وقام إلى بيرج يمسك بذراعه ويصلح بنظرة متوردة ما أفسده بكلماته القاسية. وتابع بلطف: لا تغضب يا عزيزي، أرجو أن تعذر صراحتي. لكنني أعاملك معاملة الصديق القديم.

فقال بيرج بصوت محتبس وهو ينهض: لا بأس يا كونت، إنني أفهم شعورك.

وقال بوريس من جانبه: أتدري أن مضيفينا دعوك إلى البقاء.

تناول بيرج سترته النظيفة وأصلح شعره أمام المرآة وسواه فوق صدغيه على طريقة الأمبراطور ألكسندر وخرج باسماً بعد أن دلته نظرة ألقاها على روستوف أن مظهر ثوبه الأنيق قد أحدث الأثر المطلوب في نفس الفارس.

تنهد روستوف وهو يعود إلى قراءة رسالته: آه! يا لي من حيوان!

ـ كيف؟ ماذا هناك؟

فكرر مزمجراً وقد احمرّ وجهه فجأة: يا لي من حيوان إذ لم أكتب لهم مرة من قبل أن أسبب لهم كل هذا الخوف. يا لي من حيوان! ولكن أيها الغليون المحترق، هل أرسلت تابعك يأتينا بالخمر؟ نعم. إذن من الخير أن نتناول كأساً.

كانت الكونتيسة روستوف قد أضافت إلى رسالتها الشخصية إلى ابنها، رسالة توصية للأمير پاغراسيون حصلت عليها بواسطة صديقتها آنّا ميخاييلوڤنا. وكانت تتوسل إلى ابنها أن يستفيد منها إلى أقصى الحدود.

صاح روستوف وهو يلقي بكتاب التوصية أسفل الطاولة: يا للغباوة! لست في حاجة إلى مثل هذا أبداً!

سأله بوريس: لماذا ألقيت بهذه الرسالة؟

ـ إنها كتاب توصية! يا للوسيلة المناسبة! لست أبالي بها!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فقال بوريس وهو يلم الرسالة ويقرأ ما جاء فيها: كيف لا تبالي! يمكن أن تفيدك هذه الرسالة.

ـ لن تفيدني في شيء فلن أكون ضابطاً مساعداً لأحد.

ـ ولماذا من فضلك؟

ـ لأن هذا من عمل الخدم لا الجنود!

فقال بوريس وهو يهز رأسه: ما زلت ذلك الحالم الساهم كما أرى.

ـ وإنك ما زلت ذلك «الدبلوماسي» المعهود. ولكن دعنا من هذا. قل ماذا أصبحت وما هي أخبارك.

ـ الواقع أنني بخير حتى الآن. لكنني أعترف لك بأنني لا أرغب في البقاء في الجيش العامل لفترة طويلة. ثق بأنني لن أخجل أبداً لو أصبحت ضابطاً مساعداً.

ـ ولماذا؟

ـ لأنني إذا كنت اخترت الجندية سبيلاً فما ذلك إلا لأخلق لنفسي مركزاً مرموقاً.

فقال نيكولا الذي كانت أفكاره تبدو في مكان آخر: صحيح!

كانت عيناه تحدقان إلى عيني صديقه وكأنه يبحث عبثاً عن جواب لسؤال محدّد.

وجاء التابع العجوز بالخمر فقال بوريس: لعلنا نستطيع استدعاء ألفونس كارليتش. سوف تفرغ الزجاجة معه لأنني امتنعت عن الشراب أخيراً.

فسأل نيكولا شافعاً سؤاله بضحكة مزدرية: لا بأس، لا بأس... قل لي أي نوع من الناس هو هذا الألماني؟

ـ إنه فتى باسل لطيف جداً ومستقيم.

حدج روستوف صديقه بوريس فترة وأطلق زفرة طويلة.

www.Maktbah.com

رجع بيرج سريعاً. وكانت الخمرة قد حلت عقد اللسان فراح الحديث يتشعب بحماسة. أخذ ضابطا الحرس يرويان لروستوف الحوادث التي وقعت لهما خلال الطريق وينهيان إليه تفاصيل الاستقبالات التي نظمت لهما في روسيا وپولونيا والخارج. وصفا له تصرفات رؤسائهما وبصورة خاصة تصرفات الغراندوق وقصا عليه عديداً من النوادر حول سلامة طويته وثورات غضبه.

ومن الطبيعي أن بيرج لم يكن يتحدث إلا إذا كان الموضوع يتعلق بشخصه بالذات، ولكن ما إن دار البحث حول الغراندوق ونوبات غضبه، أعرب عن فخاره إذ استطاع أن يتحدث معه في غاليسيا[1]، خلال جولة تفتيشية قام بها سموّه للقطعات في الميدان، وبدا عليه أنه غير راض عن تحركات الجنود. قال بيرج موضحاً وعلى شفتيه ابتسامة منتصرة إن التسيزاريـڤيتش اندفع بحصانه نحوهم وصاح: «يا لكم من عصبة باشيبوزوك ـ وهي الشتيمة المفضلة لدى سموه عندما يكون غاضباً ـ» وسأل بإلحاح أن يتقدم قائد السرية منه. وأردف: أيها الكونت أنا لم أشعر قط بالخوف لأنني كنت أعرف عدم مسؤوليتي عن الأمر. أنا لا أمتدح نفسي يا كونت، لكنني أؤكد لك أنني أحفظ عن ظهر قلب كل الأوامر اليومية الصادرة والتمسك بها، كما أحفظ عن ظهر قلب صلاة «أبانا الذي...». وهكذا فإنني في سريتي لا أتحول أبداً عن النظام. ولهذا السبب، كنت دائماً مرتاح الضمير. وإذن فقد تقدمت ممتثلاً ووقف بيرج يمثل حركاته حينما تقدم من الغراندوق رافعاً يده بالتحية إلى حافة خوذته، فاتخذ وجهه طابعاً امتزجت فيه اللامبالاة بالاعتداد بالنفس إلى أقصى حدودهما، فبدأ يشتمني ويكيل لي السباب حتى غسلني فيها غسلاً كما يقال. وتحدث

---

(١) غاليسيا، مقاطعة پولونية كانت جزءاً من النمسا. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فوصفني بكل الصفات وأدرجني في كل الفئات: «منحط! باشيبوزوك! طريدة سيبيريا!» لم يترك كلمة إلا قالها.

وهنا ابتسم بيرج وتابع: ولما كنت واثقاً ببراءتي مما ينسب إلي فإنني لم أتفوه بكلمة. ألست على صواب يا كونت؟ فصرخ لي: «هل أنت أبكم يا هذا؟» لكنني بقيت صامتاً لا أجيب. لك أن تصدقني إذا شئت يا كونت حينما أقول لك إنه في صباح اليوم التالي عند اجتماع الصباح لم يذكر شيئاً عن حادثة أمس في التقرير اليومي ولم أعاقب. وهذا يرجع إلى تمالكي أعصابي في ذلك الموقف...

وجذب من غليونه نفساً عميقاً وراح يطلق حلقات الدخان من فمه بانتظام وابتسامة الظفر لا تفارق شفتيه.

قال روستوف مبتسماً ابتسامة غامضة: نعم، هذا الصواب عينه!

أحسّ بوريس أن روستوف على وشك جعل بيرج هدفاً لسخريته، فقطع الطريق بمهارة بأن سأله أين ومتى وكيف جرح. وكان هذا الموضوع طلياً. وعلى روستوف الذي راح يتحدث بحماسة أخذت في التزايد كلما أوغل في سرد التفاصيل. قص عليهما مسألة شوبنغرابن كما درج الجنود عادة على التحدث عن عظيم الأفعال التي قاموا بها، أي واضعاً الأمور كما كان يريدها أن تكون لا كما كانت في واقع الأمر أو كما سمعوا غيرهم يصفها. ولا شك أن روستوف، وهو الذي يعتبر الصراحة جزءاً من طبعه، كان يتجنب تشويه الحقيقة، ومع ذلك، فإن روايته التي بدأت صحيحة تماماً، لم تلبث أن اختلطت وداخلت تدريجاً دون أن يشعر حتى أصبحت ادعاء واضحاً ومبالغات تبهر العيون.

كان يتعذر عليه التصرف على غير ذلك الشكل. وكان رفيقاه قد سمعا من قبل وصفاً لبعض المعارك وكونا، على ضوء ما سمعا، فكرة حول الموضوع

www.Maktbah.com

فباتا ينتظران منه أن يأتي وصفه مصداقاً لفكرتهما. فلو أنه لم يوش قصته ولم يزينها لاعتقد كلاهما أنها بعيدة عن الحقيقة أو، وهنا أخطر ما في الأمر، لعزوا إلى خطيئة ما صادرة عنه بالذات، تلك المخالفات الواضحة في روايته عن حملة يقوم بها سلاح الفرسان. لذلك فإنه لم يكن يستطيع القول إن سريته قامت بأقصى ما في طاقة الخيل وإنه سقط عن جواده أثناء الجري فانكسرت ذراعه وفر بعدها بكل ما أوتيت ساقاه من قوة هرباً من الفرنسيين. ثم إنه لا يمكن في سرد قصة طويلة أن يتجنَّب المتحدث الخروج عن جادة الصدق إلا إذا بذل مجهوداً خارقاً لكبت عواطفه، الأمر الذي قلّ أن استطاع شاب حديث العهد بالجندية.

كان بيرج وبوريس ينتظران منه أن يحدثهما بأنه انقض على فيلق كامل من فيالق العدو وهو يتقد حماسة واندفاعاً فراح يفتك بهم ويضرب بحسامه يميناً وشمالاً، والأشلاء تتناثر في كل حدب وصوب حتى أعياه التعب فسقط أخيراً إلخ... إلخ... وقد رسم لهما روستوف لوحة مماثلة تقريباً عن بطولته وسبب جرحه!

بينما كان في غمرة تحمسه لحديثه يقول: «لا يمكنك أن تتصور السعار الغريب الذي يصيب المرء خلال الهجوم». دخل الأمير أندريه ڤولكونسكي الذي كان بوريس بانتظاره. وكان ڤولكونسكي يحمي الشباب الجدد مرضياً بذلك نزعته الشخصية التي كان يرضيها لجوء هؤلاء إلى حمايته، وخصوصاً أنه كان على أتم استعداد لخدمة بوريس الذي راقه أمس واستلطف صحبته. فلما كلفه كوتوزوڤ أن يحمل أوراقاً معينة إلى التسيزاريـڤيتش، انتهز الفرصة لزيارة بوريس وهو يعتقد أنه سيجده على انفراد.

لكنه انزعج عندما شاهد فارساً يتبجح ويروي طرائف شجاعته، وهو الأمر الذي لم يكن يطيق احتماله. فابتسم لبوريس وحيا روستوف بتقطيبة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خفيفة مشفوعة بطرفة من عينيه أعقبهما سلام مقتضب ومضى يجلس بإرهاق على الكنبة. كان يخشى أن يحتك بأشخاص ويتناقش معهم بلغة غير مناسبة. وقد حدس روستوف ما في خاطره فاحمرّ وجهه خجلاً. لكنه ما لبث أن حدث نفسه قائلاً: «ولكن ماذا يهمني منه؟ إنني لا أعرف هذا المخلوق!» مع ذلك فإنه ما كاد يرفع أنظاره إلى بوريس حتى شعر أنه هو الآخر مرتبك من تصرفاته المقتبسة عن فرسان الجيش. وعلى الرغم من أن مظهر الأمير أندريه الفاتر المتهكم، وعلى الرغم من ازدرائه الشخصي العميق الذي يشعر به بوصفه من الجنود المحاربين تجاه كل هؤلاء الحقيرين التابعين للأركان، والذي لا بد أن يكون هذا الوافد الجديد منهم، فإن روستوف لم يتمالك نفسه عن الاضطراب أو يكبح اندفاع الدم الغزير إلى وجهه.

وهكذا فقد سكت مرغماً وعندئذ استفسر بوريس عن حوادث الأركان العامة وأخبارها. غير أن الأمير پولكونسكي لم يكن يستطيع التصريح أمام هؤلاء الغرباء بأمور على جانب كبير من الخطورة والأهمية. لذلك أجاب: أعتقد أننا سنسير إلى الأمام.

وامتنع عن التعقيب على هذا القول بأية كلمة.

سأل بيرج بلهجة ملؤها الاحترام عما إذا كانت النية منصرفة حقاً إلى زيادة العلف ومضاعفته لرؤساء السرايا كما كان يشاع. فأجاب پولكونسكي بأنه لا يستطيع احتمال البت في أمور على مثل هذه الأهمية، مما جعل بيرج يتقبل هذا الرد بضحكة مرحة.

وقال پولكونسكي لبوريس وهو يختلس نظرة إلى حيث جلس روستوف: أما قضيتك أنت، فسنتحدث فيها في مناسبة أخرى. لاقني بعد العرض، ولسوف نعمل جاهدين على إرضائك.

وسرّح نظره في أنحاء الغرفة ثم أوقفه على روستوف متظاهراً بأنه لم

www.Maktbah.com

يدرك ارتباكه المشوب بالغيظ وقال له: أعتقد أنك كنت تتحدث عن مسألة شوبنغرابن. فهل كانت هناك؟

فأجاب روستوف معتقداً أنه سيجرح شعور الضابط المساعد بإجابته: نعم، لقد اشتركت فيها.

غير أن ذلك الجواب لم يأت بالمفعول المتوقع. تلقاه الأمير بابتسامة ساخرة. كان يجد متعة في مراقبة مزاج هذا الفارس الشاب. قال معقباً: نعم، إنهم يروون عن هذه المعركة صنوفاً من الروايات.

فصاح روستوف وهو يلقي على پولكونسكي تارة وعلى بوريس تارة أخرى نظرة نارية مشتعلة مفاجئة: صنوفاً من الروايات! نعم، بالطبع. لكن روايتنا نحن الذين بلونا نار العدو هي وحدها الحقيقة. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى هؤلاء السادة الذين يحشرون أنفسهم في زوايا الأركان والقيادة وينالون الأوسمة وهم مكتوفو الأيدي.

وتابع پولكونسكي بلهجته الهادئة وابتسامته الوديعة: والذين تعتبرني واحداً منهم أليس كذلك؟

خلق ذلك الهدوء الذي اتسم به پولكونسكي احتراماً في نفس روستوف نحوه رغم أنه ضاعف سخطه وغضبه فقال: أنا لا أقول هذا عنك. أنا لا أعرفك ولا أريد بكل صراحة أن أتعرف إليك. إنني أتحدث عن رجال القيادة العامة بصورة عامة...

فأجاب پولكونسكي بلهجة حازمة: وأنا أقول لك ببساطة إنك تهدف إلى إثارتي وإهانتي. الأمر الذي لن يعييك فعله إذا توقفت عن احترام نفسك. ولكن اعترف معي أن المكان والزمان غير ملائمين لمثل هذا العمل. سوف ندخل جميعاً بعد أيام قريبة في مبارزة جدية من نوع آخر. ومن جهة أخرى إذا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان وجهي لم يرقك، وهذا من سوء حظي، فإن دورپتسكوي الذي يدعي أنه من أصدقائك القدامى، لا دخل له في الموضوع.

وأردف وهو ينهض: إنك تعرف اسمي وتعرف أين تجدني. مع ذلك حاذر أن تعتقد بأنني أعتبرك مهاناً أكثر مما تقدر أنت نفسك الموضوع... اتفقنا أليس كذلك يا دورپتسكوي؟ إنني أنتظرك يوم الجمعة بعد العرض.

وانسحب بعد أن حيا الشابين.

بقي روستوف مذهولاً فترة وجيزة، ولما وجد الجواب المناسب كان الآخر قد انصرف، الأمر الذي ضاعف غضبه. فاستقدم جواده وسلم على بوريس بلهجة جافة تقريباً وعاد إلى معسكره. كان صراع داخلي مرير يستعر في نفسه طوال الرحلة. كان يتساءل: هل يجب عليه الذهاب في الغد إلى مقر القيادة ليتحدى ذلك الصعلوك؟ هل كان من الأفضل الامتناع عن مثل هذا الأمر؟

كان يتذوق أحياناً اللذة التي تنتظره لرؤية ذلك الدعي مذهولاً أمام فوهة مسدسه المصوب إلى صدره، وأحياناً أخرى كان يعترف، رغم كل ما في نفسه، إنه لم يجد بين كل معارفه، رجلاً جديراً بصداقته، كهذا الضابط المساعد الهزيل اللعين.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

جرت المقابلة بين روستوف وبوريس غداة اليوم التالي، كان الجيشان الحليفان، وتعدادهما ثمانون ألف جندي، لأن فرقاً جديدة مرسلة من روسيا التحقت أخيراً بجيوش كوتوزوف العائدة من حملتها الأوروبية ـ يقومان باستعراض ضخم يشاهده العاهلان. كان أمبراطور روسيا مصحوباً ڤولي عهده التسيزاريـڤيتش والأمبراطور النمسوي يصحبه الأرشيدوق.

وعندما بزغ فجر ذلك النهار بدأت القطعات تنتظم صفوفاً في ساحة القلعة وهي على أفضل حال. كانت ألوف من الأقدام والحراب تمر حيناً وأعلامها خافقة فتقف تحت إمرة ضباطها وتتراص شاغلة كل فراغ مقام بين كتل أخرى من المشاة، في أثواب مختلفة، وأحياناً يمر ألوف الفرسان على إيقاع سنابك الخيل وقعقعة السلاح وصليل السيوف، فيخطرون على خيول زرقاء وحمراء وخضراء تسبقهم موسيقاهم الصداحة يعزفها موسيقيون على صهوات جياد صهباء أو شهباء.

وأحياناً، كانت المدفعية تدرج بجلبتها المعهودة تنبعث رائحة المشاعل المضاءة في الجو، بوحداتها البراقة تقطرها الجياد، فتختلط في صفوف المشاة والفرسان. وكان الجنرالات، وكلهم في أبهى زينة وعلى صدورهم الأوسمة والأوشحة، مضرجي الوجوه لاحتقان أعناقهم، الهزيلة منها والضخمة، في الياقات القاسية، والضباط المعطرون المضمخون، والجنود وقد اغتسلوا حديثاً وعنوا بألبستهم عناية فائقة وأجهزتهم وعتادهم نظيفة ولامعة، والخيول

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نفسها، وقد نظفت وغسلت حتى راحت أعناقها وقوائمها تلتمع تحت أشعة الشمس وكأنها عوينت شعرة فشعرة، كانوا كلهم يشعرون بخطورة موقفهم ويدركون أهمية تلك الساعة الرهيبة. وكان كل من المحتشدين من الجنرال وحتى الجندي البسيط يحس بأنه ذرة من الرمل في صحراء أو محيط من البشر. لكنه كان معتداً بنفوذه وسطوته نظراً إلى أنه جزء لا يتجزأ من هذا المجموع الهائل.

بدأت الاستعدادات منذ الفجر. فلم تبلغ الساعة العاشرة تماماً حتى كانت كل الأمور على أهبة تامة. فالجيش كله، الفرسان في الطليعة والمدفعية في الوسط والمشاة في المؤخرة، كان منتظماً في ثلاثة صفوف ضخمة متراصة على الساحة الكبرى الفسيحة. وكان يفصل بين كل قطعة فراغ على شكل شارع فسيح.

كانت تلك الكتلة الهائلة المؤلفة من عناصرها الثلاثة الهامة، تشمل قطعات كوتوزوف التي خاضت الحرب وفي مقدمتها فيلق پاڤلوغراد في ثياب العرض، ثم القطعات التابعة للحرس أو للجيش التي وصلت حديثاً من روسيا وأخيراً الوحدات النمسوية. وكانت هذه الكتل البشرية كلها، محتشدة في صف واحد وفق تشكيل موحد، تخضع في قيادتها لقائد واحد.

وارتعشت الشفاه بدمدمة هاتفه: «ها هم! ها هم!» وسرت تلك الدمدمة في الصفوف سريان النار في الهشيم والريح بين الأغصان وقام الجنود بحركتهم الأخيرة استعداداً للساعة الحاسمة، فكانت تلك الحركة أشبه بموجة هادئة اجتاحت أديم محيط زاخر.

عند أبواب أولمرتز، ظهر موكب مقبل وفي تلك اللحظة، مرت نسمة خفيفة فوق رؤوس الجنود رغم السكون الشامل، فتذبذبت نيران المشاعل وارتعشت الأعلام في أعلى صواريها. خيل للناظر أن انتفاضة عامة شملت

www.Maktbah.com

الجنود كلهم سروراً لمقدم العاهلين. وردد الصدى صيحة مدوية تكررت منطلقة بالترتيب من أفواه مسؤولة متعددة، كصياح الديك عند الفجر:

اس... تعد...؟

تلك كانت الصيحة فأعقبها سكون القبور.

ما عادت الأسماع تصغي إلا لوقع قوائم الجياد القادمة. ولما وصل العاهلان إلى الحشد، صدحت موسيقى فيالق الفرسان الأولى منبهة. وبدت تلك الأصوات الموسيقية صادرة عن الجيش كله وليس عن فرقة موسيقية بعينها. كانت موسيقى معبرة عن سعادة الجند وفرحهم بالاحتفال والحفاوة بمقدم العاهلين الفجائي. مع ذلك، فإن الصخب الموسيقي لم يحجب صوت الأمبراطور ألكسندر، الفتي الجياش، الذي كان يرد التحية للجنود. وأجاب الفيلق الأول على التحية بنداء راعد: «هورا!» طويلة تصم الآذان، «هورا» أخافت الجنود أنفسهم مبينة لهم كبير عددهم وعظيم بأسهم.

في بادئ الأمر، استعرض الأمبراطور جيش كوتوزوف. وكان روستوف واقفاً في الصفوف الأولى، فشعر شعور كل الجنود الآخرين: إنكار للذات، وإيمان عنيف بقوته، وحماسة منقطعة النظير لبطل تلك اللحظة. كان يعرف أن كلمة واحدة من هذا البطل تكفي لكي تتحرك هذه الكتلة البشرية التي لم يكن بنفسه إلا ذرة حقيرة من ذراتها، فتلقي بنفسها إلى الماء أو إلى النار، وتندفع نحو الموت، وتجري وراء الجريمة أو الأفعال الأكثر بطولة. وعلى ذلك، فقد شعر أنه على وشك السقوط عندما اقترب الرجل صاحب تلك الكلمة.

«هورّا» ترددت من كل مكان تختلط بأصداء الموسيقى واستقبلت الفيالق، الواحد تلو الآخر، الأمبراطور بالهتاف وقرع الطبول التي تراجعت أصداؤها على شكل زمجرة هائلة متداخلة تصم الآذان.

قبل وصول الأمبراطور، كان كل فيلق يبدو جامداً لا حياة فيه. حتى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إذا اقترب منه وبات على حدود جناحه، دبت الحياة فيه على أعنف الصور فيلحق صيحاته وهتافاته بصيحات الآخرين وهتافاتهم المدوية، وفي جحيم تلك الأصوات المرعدة وذلك الصخب، وفي وسط ذلك البحر الزاخر من الجنود، كانت بضع مئات من خيول الحرس المواكب، تبدو أقل الجميع مبالاة بالنظام وقد روعتها الصيحات. لكن فرسانها كانوا قادرين على كبح جماحها دون ارتباك بل في شيء من اللامبالاة، وجعلها تقف متباعدة حسب ترتيبها الأصيل. وكان فارسان اثنان ـ الأمبراطوران ـ يسيران في مقدمة الموكب وقد تعلقت فيهما أنظار جميع الجنود دون استثناء.

كان الأمبراطور ألكسندر الشاب الجميل يرتدي ثياب الحرس الراكب وقد أمال قبعته المثلثة الأطراف قليلاً على أذنه. وكان يستأثر بالاهتمام العام بوجهه المشرق وصوته الداوي في غير قسوة.

في مكانه قرب فصيلة الموسيقى استطاع روستوف، أن يتعرف إلى الأمبراطور عن بعد، فراح يتابع حركاته كلها بعينيه الحادتين. فلما أصبح ألكسندر على بعد عشرين خطوة، لم يعد يرى شيئاً أو يميز تقاطيع ذلك الوجه الجميل. لقد استسلم لشعور لم يحس بمثله من قبل، شعور امتزج فيه الحنان بالاندفاع. بدا له ذلك الرجل، في كل حركة من حركاته وكل قسمات وجهه، جذاباً يأخذ بمجامع القلوب.

أمام فيلق پاڤلوغراد توقف ألكسندر وتحدث إلى الأمبراطور النمسوي ببضع كلمات بالفرنسية ثم أخذ يبتسم. أثارت تلك الابتسامة ابتسامة مماثلة على شفتي روستوف الذي أخفق في كبتها، وازداد تعلقه وحنينه حتى أنه شعر برغبة لا توصف في أن يعرب لأمبراطوره عن حبه وإخلاصه! ولما أدرك عقم تلك الرغبة واستحالة تنفيذها، شعر بحزن عميق كاد أن يفجر الدمع من عينيه.

www.Maktbah.com

استدعى الأمبراطور وفي تلك الأثناء، قائد الفيلق وراح العاهلان يتحدثان معه فترة من الزمن.

أخذ روستوف يناجي نفسه قائلاً: «رباه» ماذا يكون حالي لو أنهما تحدثا معي أنا: إنني سأموت حتماً!

لم ينس ألكسندر ضباط الفيلق من شكره فقال لهم: أيها السادة، أنا أشكركم من أعماقي.

كانت كل كلمة من هذه الكلمات تبدو لروستوف لحناً صادراً عن السماء باتجاه الأرض. كم كان سيشعر بالسرور لو أنه مات في تلك اللحظة في سبيل القيصر!

كان الأمبراطور يقول مسترسلاً: لقد استحققتم بنود القديس جورج ولسوف تظهرون جدارتكم بها.

ففكر روستوف: «نعم الموت، الموت من أجله، هو أقصى ما أتمناه!».

وأضاف ألكسندر كلمات أخرى لم يتبينها روستوف، ولم يلبث الجنود أن هتفوا ملء حناجرهم: هورّا!

انحنى روستوف على صهوة جواده وراح يهتف كالجنود. كان مستعداً لتفجير رئتيه إذا كان في ذلك دليل كافٍ على حبه للامبراطور!

بقي ألكسندر حائراً فترة أمام فيلق الفرسان لا يتحرك. فتساءل روستوف: «كيف يمكن أن يحار الأمبراطور؟» ولكن تلك الحيرة لم تلبث أن بدت لناظريه، لكل حركات العاهل وتصرفاته، مليئة بالجلال والوقار.

لكن ذلك التردد لم يدم إلا لحظة سرعان ما تبددت وتحركت قدم الأمبراطور المغيبة في أحذية ضيقة عالية دقيقة المقدمة فمست برفق كشح الفرس المحجل القوائم المولد من عرق إنكليزي وجمعت يده المقفزة الصروع، وعاد إلى سيره يتبعه سيل زاخر من الضباط المساعدين. وراح يبتعد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أكثر فأكثر ليتوقف أمام فيالق أخرى حتى لم يعد يرى منه أخيراً إلا الريشة البيضاء التي تزين قبعته، طافية فوق ذلك المحيط المتلاطم من البشر.

رأى روستوف بين المواكبين للأمبراطور، الأمير پولكونسكي يختال على جواده بمرونة ووقار. وعادت إلى ذاكرته حوادث الأمس وتصور خصامهما فعاد السؤال الذي بقي دون جواب يراود مخيلته: «هل أتحداه؟» وأخيراً قرر في سره: «أبداً، إن الوقت في الواقع لا يسمح بمثل هذه الأمور، ثم ما قيمة خصوماتنا الصغيرة في هذا الظرف الحافل بالحماسة والتضحيات؟ نعم ما قيمة التوعك الذي يصيب كراماتنا في مثل هذا الظرف؟ إنني أحب كل الناس الآن وأصفح عن الجميع!».

بدأت الصفوف تمرّ أمام الأمبراطور، بعد أن استعرض كل الفيالق، بخطوات الاستعراضات الموزونة، كان روستوف ممتطياً صهوة حصان «بيدوان» الذي عاد فاشتراه من دينيسوف يسير وحيداً في مؤخرة كوكبته، أي إنه كان وحيداً يلفت أنظار العاهل، وقبل أن يصل إلى حيث كان الأمبراطور، همز روستوف، وهو الفارس البارع، «بيدوان» عدة مرات ونجح في جعله يسير بذلك الجنب الهائج الذي كان مشهوراً به عندما يثار ويغضب، خفض خطمه المكسو بالزبد حتى كاد يلامس جؤجؤه، ونصب ذيله، وراح يطرح قوائمه على التوالي على ارتفاع متناسق وكأنه يطير في الفضاء دون أن تطأ قوائمه الأرض، وهكذا مرّ بيدوان الذي أحس بأنظار العاهل تتعلق به أمام الأمبراطور بفارسه الشاب على ذلك النمط الرائع. حتى أن روستوف نفسه، الذي كان ضامر البطن مضموم الساقين مبعدهما إلى الخلف، متقلص الوجه منشرح الخاطر، بدا كأنه قطعة لا تنفصل عن جواده الأهوج، فمر به أمام الأمبراطور وكأنه «شيطان من الجحيم» حسب قول دينيسوف.

قال الأمبراطور: مرحى يا فرسان پاڤلوغراد!

www.Maktbah.com

فناجى روستوف نفسه بقوله: «رباه بأية سعادة ألقي بنفسي إلى النار لو أمرني بذلك في هذه اللحظة!».

وبعد نهاية العرض، اجتمع الضباط الروس: ضباط كوتوزوف والوافدون حديثاً من روسيا، في حلقات متفرقة واستغرقوا في الحديث الذي كان يدور بصورة خاصة حول المكافآت المنتظرة والنمنسويين وألبستهم وحول بوناپرت الذي كان موقفه قد ازداد خطورة بعد وصول فيالق إيسن وانضمام بروسيا إلى الحلف، غير أن الحديث كان يدور حول الأمبراطور ألكسندر بصورة عامة، فكانت كل حركة أو إشارة من إشاراته تفسَّر بحماسة وتوقد، كانوا جميعاً لا يطلبون إلا أمراً واحداً:

الهجوم على العدو، كان روستوف ومعظم الضباط يفكرون في أنه من المستحيل أن يهزم جيش يأتمر بإمرة عاهل كهذا القيصر، فكانوا يشعرون بدنو النصر المبين ويؤمنون به إيماناً يتوافر مثله عقب معركتين ظافرتين متتاليتين.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

ارتدى بوريس أجمل ثيابه غداة اليوم التالي للعرض، ومضى إلى أولموتز ترافقه تمنيات صديقه بيرج الطيبة. كان يهدف إلى الإفادة من مركز بولكونسكي ليصل إلى أفضل المراكز وأرقاها، كان المركز الذي يهدف إليه هو أن يكون ضابطاً مساعداً لشخصية قوية واسعة النفوذ يغبطه الآخرون على سطوته ويحسدونه على قوته. كان يناجي نفسه بقوله: «يستطيع روستوف الذي يرسل له أبوه كل مرة عشرة آلاف روبل، أن يترفع ويأبى الانحناءات والاحترامات، أما أنا، الذي لا أملك شيئاً باستثناء نفسي. فإنني مرغم على شق طريقي والإطباق على الفرصة بأيد قوية».

لم يكن الأمير أندريه في أولموتز ذلك اليوم. لكن معالم المدينة، حيث أقيم فيها مركز القيادة العامة والسلك السياسي وأقام فيها الأمبراطوران مع حاشيتهما بين مقربين وأقرباء، كل هذه الأشياء زادت في نفسه لهيب الشوق إلى المركز المنشود استعاراً، وحببت إليه الدخول في ذلك العالم الجديد. لم يكن يعرف أحداً في المدينة. وأحسّ، رغم ثوبه الأنيق، أن كل هؤلاء الرجال العسكريين، المزوقة قلنسواتهم بالريش، المزينة أثوابهم بالصفائح الذهبية، الذين يخطرون بتيه وترفع في صخب وضجيج، يبدون أرفع منه مقاماً، حتى أنه لم يتنكر لوجوده فحسب بل شعر أنه لا يستطيع إلا أن يتنكر لذلك الوجود التافه. ففي مركز القيادة حيث استعلم عن الأمير بولكونسكي، أحسّ من لقاء

www.Maktbah.com

الضباط المساعدين والحجاب أيضاً الذين عاملوه بلا مبالاة، أنهم يستقبلون كل يوم عشرات من أمثاله حتى أنهم متبرمون من كثرتهم.

وفي اليوم التالي، رجع بوريس إلى أولموتز مرة ثانية. ولعل لقاء الأمس والمهانة التي شعر بها كانا الدافع المحفز له على معاودة الكرة. توجّه إلى الفندق الذي ينزل فيه كوتوزوف وضباطه وكان ذلك بعد ظهر يوم ١٥ تشرين الثاني. قيل له إن الأمير موجود، وأدخلوه إلى غرفة فسيحة كانت من قبل صالة للرقص كما بدت لبوريس الذي شاهد «پيانو» باقياً في إحدى زواياها إلى جانب خمسة أسرة، مؤسسة إلى جانب أسرة، بطاولة وبعض المقاعد. وكان أحد الضباط المساعدين جالساً قرب الباب في معطف منزلي فارسي يكتب. وكان آخر، وهو نيسـڤيتسكي الضخم الأحمر الوجه، مكوماً فوق أحد الأسرة معتمداً رأسه على يديه المضمومتين، يمازح زميلاً له جالساً بالقرب منه. وثالث يوقع على «الـپيانو» لحن ڤالس شاع عن ڤيينا بينما انحنى الرابع على الآلة الموسيقية يرافق العازف في الغناء.

لم يبدل أحد من الأربعة من سلوكه لدى رؤيتهم بوريس. استدار الذي كان يكتب، والذي سأله بوريس عن ﭙولكونسكي، باستياء واضح وأفهمه أن ﭙولكونسكي كان يؤدي وظيفة معينة وأنه إذا كان يرغب في لقائه حقاً، عليه أن يذهب إلى قاعة الاستقبال ماراً بالباب الذي إلى اليسار! فشكره بوريس ومضى إلى القاعة التي عينها له الضابط فرأى فيها عدداً من الأشخاص بين ضباط وجنرالات ينتظرون.

عند دخوله، شاهد جنرالاً روسياً تملأ الأوسمة صدره، واقفاً في وضعية أقرب إلى وضعية الاستعداد العسكرية، ينهي تقريره إلى ﭙولكونسكي وعلى وجهه الناطق بالتبرم أمارات الإكرام المعروفة عند الجنود وكان الأمير يصغي إليه وعلى وجهه أمارات الإرهاق المهذب وفي عينيه ومضة ساخرة، توحي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

للآخرين أنه لولا مستلزمات الواجب وضروراتها لما أصاخ السمع لحظة إلى كل ما يقولون. وسمع الأمير يقول له:

ـ حسن جداً، حسن، تفضل بالانتظار.

وكانت لهجته وأسلوب نطقه باللغة الروسية على الطريقة الفرنسية توحي بالسخرية والتهكم.

في تلك اللحظة وقعت عيناه على بوريس، فأغفل شأن الجنرال الذي راح يلاحقه متوسلاً إليه أن ينصت إلى ما يقول، واتجه نحو الشاب يخصه على البعد ببسمة بهيجة وبإيماءة من رأسه.

أدرك بوريس عندئذ بجلاء ما توقعه من قبل، دون أن يلمسه تماماً، وأعني أن في الجيش شيئاً اسمه درجات التسلسل، وأن هذا الشيء أكثر أهمية من الطاعة الواردة في الأنظمة والمعروفة منه كما هي معروفة من كل رفاقه.

وكان ذلك الشيء الجوهري هو الذي يضيق على الجنرال ذي الوجه القرمزي المحشور في ثوبه العسكري، أن ينتظر بكل احترام أن يفرغ الرئيس الأمير ﭘولكونسكي من محادثة حامل العلم دروبتكوي على حديثه هو، وأن يصفو مزاجه ليصغي إليه... أحس بوريس أكثر من كل مرة سبقت أنه يجب أن يخضع لذلك الترتيب الضمني أكثر من خضوعه للنظم المدونة. ذلك أنه رأى بنفسه أن مجرد حصوله على توصية لدى الأمير ﭘولكونسكي جعله وهو حامل العلم البسيط في فيلق الحرس، يتفوق دفعة واحدة على جنرال قادر على محقه في الصف وسحقه.

قال الأمير وهو يمسك بذراع بوريس: أنا آسف لأنك لم تجدني أمس، لقد ذهبنا باتجاه ڤيرورهر نعاين الأوضاع. لقد أضاع هؤلاء الألمان عليّ كل يومي. إنهم عندما يتوخون التدقيق لا ينتهون منه بسهولة!

وبدت على شفتيْ بوريس ابتسامة العارف بالأمر رغم أنه لم يسمع بذلك

www.Maktbah.com

الاسم إلا لأول مرة، بل لم يسمع كلمة «أضاع» كذلك إلا للمرة الأولى، أردف پولكونسكي: إذن يا عزيزي، ما زلت ترغب في أن تكون ضابطاً مساعداً أليس كذلك؟ لقد فكرت فيك خلال هذا الوقت.

فأجاب بوريس وقد احمرّ وجهه دون أن يعرف السبب: نعم. إنني عازم على تقديم طلب للجنرال القائد الأعلى الذي أوصاه بي الأمير كوراغين.

وأضاف وكأنه ينتحل عذراً لسلوكه: إذا كنت أنهج هذا النحو فما ذلك إلا لخوفي من ألّا يخوض فيلق الحرس معركة حقيقية.

أجاب الأمير: جميل جداً! سوف نتحدث عن كل هذا. لكن اسمح لي الآن أن أدخل هذا السيد وسوف أكون بعد ذلك رهن تصرفك.

وبينما ذهب پولكونسكي ليعلن وجود الجنرال ذي اللون القرمزي، راح هذا، وهو الذي لم يكن، ولا شك، يشاطر بوريس رأيه حول تفوق الترتيب النظامي لاستثناءات بروتوكولية، يحدج بإلحاح مرير ذلك الصعلوك.. حامل العلم البسيط الذي حرمه متعة التحدث براحة إلى الضابط المساعد وأحس بوريس بالارتباك فأشاح بنظره وراح ينتظر عودة الأمير بفارغ صبر.

قال الأمير وهو يقوده إلى القاعة ذات الأسرة والآلة الموسيقية (الـپيانو): إليك يا عزيزي الفكرة التي خطرت لي: أعتقد أنه من العبث تقديم طلب إلى القائد الأعلى. سيسمعك ألف مجاملة ولعله يدعوك أيضاً إلى تناول الطعام على مائدته.

فكر بوريس في سره معقباً: «الأمر الذي لن يكون تافهاً إذا قورن بفروض الاحترام لدرجات التسلسل!» بينما تابع الأمير: لكن هذا لن يبدل من الأمر شيئاً، لأنّنا معشر الضباط المساعدين والأتباع أصبحنا طابوراً كبيراً. إليك إذن ما سنقوم به: لي صديق، وهو الأمير دولغوروكوڤ، وهو فتى رائع يشغل مركز ضابط مساعد عام لجلالته. ولعلك تجهل أننا أصبحنا جميعاً، كوتوزوڤ

twitter @baghdad_library

وهيئة أركانه ونحن معهم، عديمي النفوذ الآن لأن كل شيء أصبح منوطاً بجلالة الأمبراطور. لذلك فإنني سأقابل دولغوروكوف هذا، فهيا رافقني إليه. لقد حدثته من قبل عنك ولعله قادر على أخذك في معيته أو إيجاد مركز مناسب لك!

ازدادت حماسة الأمير أندريه تباعاً كلما أتيحت له الفرصة لحماية شاب ناشئ ودعمه وتقويم خطاه الأولى وتوجيهها في الحياة. كانت تلك الحجة، حجة مساعدة الآخرين التي لم تسمح له كبرياؤه قط باستثمارها في سبيل نفسه.

كان پولكونسكي يختلط بالأوساط الرفيعة التي تؤمن النجاح، ويتقرب من المتنفذين. لذلك فقد اعتبر أن مصالح بوريس التي أوكلت إليه، بادرة طيبة ترضي نزعته، وهكذا اصطحبه معه لزيارة الأمير دولغوروكوف بكل طيبة خاطر.

لمّا دخل الصديقان قصر أولموتز، كان الليل قد أفنى جانباً من عمره، وغطى الظلام ذلك المكان الذي يقيم فيه الأمبراطور وحاشيتهما.

قرر المجتمعون في مجلس حربي حضره الأمبراطوران وكل أعضاء القيادة النمسوية والروسية، خلافاً لآراء العجوزين كوتوزوف وشوارزنبرغ[1] المبادرة إلى شن هجوم عام ضد بوناپرت. وكان المجلس قد أنهى اجتماعه عندما دخل پولكونسكي ورفيقه يستفسران عن دولغوروكوف.

كان أولئك السادة، سادة المجلس الحربي، في حبور كبير بسبب الفوز الذي أحرزه حزب «الشباب» على الكهول في ذلك الاجتماع. لقد خنقوا أصوات المستمهلين بإجماع رائع وأحبطوا كل اعتراضاتهم بمنطق سديد

---

(١) جنرال وسياسي ألماني دهم فرنسانة ١٨١٤ واكتسحها، واسمه شارل فيليپ. (المترجم).

www.Maktbah.com

حتى أن المعركة أو الأحرى النصر المنتظر الذي توقعوا الحصول عليه أثناء مناقشاتهم في المجلس الحربي، بدا وكأنه وقع وانطوى في صفحات الماضي. كانت كفة الحلفاء، الروس النمسويين والألمان، هي الراجحة: فقواتهم هائلة متفوقة بالعدد، دون شك، على قوات بوناپرت. وهي جميعها متمركزة في نقطة واحدة. وكان الجنود، قد نشّطهم وأوقد العزيمة في نفوسهم وجود الأمبراطورين، يتحرقون شوقاً إلى المعركة، والأرض التي تقرر شن الهجوم عليها، أرض معروفة مدروسة يعرف الجنرال ڤيروزر كل التفاصيل المتعلقة بها حتى أقلها شأناً. وهذا الجنرال هو الذي أوحى بفكرة الهجوم لأن الجيش النمسوي كان أجرى في العام الأسبق مناورات في تلك البقعة بالذات التي تقرر لقاء الفرنسيين عليها وحدد على خرائط حديثة الوضع كل الأماكن والمرتفعات والمنحدرات. أضف إلى ذلك أن بوناپرت كان، ولا شك، ضعيفاً بل عاجزاً عن خوض معركة كبيرة!

كان دولغوروكوف، وهو أكثر المتشيعين لفكرة شن الهجوم حماسة، يخرج في تلك اللحظة من قاعة الاجتماع منهوك القوى لكنه مع ذلك ممتلئاً حماسة واندفاعاً فخوراً بالنصر الذي أحرزه فريقه منذ قليل. قدم له پولكونسكي «محميه» الذي اكتفى دولغوروكوف بأن شد على يده بتأدب دون أن يوجه إليه كلمة. لكنه لم يلبث أن خارت عزائمه أمام رغبته الملحة في الإعراب عما يجيش في صدره. فالتفت إلى الأمير أندريه وقال له بالفرنسية بلهجة متهدجة: يا عزيزي. يا لها من معركة تلك التي شنناها منذ حين! عسى أن يريد الله أن تكون المعركة التي ستنشأ عنها قريباً مكللة بالنصر! أتدري يا عزيزي أنني كنت مؤيداً مشرفاً للنمسويين وخصوصاً ڤيروزر؟ يا للدقة، يا للإحكام، يا للمعرفة التامة بالأرض، ويا للخبرة المستبقة بكل الإمكانيات،

twitter @baghdad_library

بل يا للعلم بكل التفاصيل! صدقني يا عزيزي لا يمكن أن يتصور المرء مناسبة أكثر ملاءمة من التي نحن في صددها. لقد اجتمعت الشجاعة الروسية بالدقة والإحكام النمسويين، فماذا تريد أفضل من ذلك؟

فسأله پولكونسكي: إذن فقد تقرر الهجوم بالفعل؟ فأجاب دولغوروكوف بابتسامة هازئة: وخسر بوناپرته، تسمية ساخرة لبوناپرت، كل شيء. هل تعرف أن الأمبراطور قد تلقى أخيراً رسالة منه؟

ـ حقاً! وماذا جاء فيها؟

ماذا تريده أن يكتب؟ ترهات كسب الوقت... إننا نتحكم الآن في مقدراته، ثق بقولي!...

ثم أضاف ضاحكاً بطيبة قلب: إلا أن ما يثير الفضول في الموضوع هو أن أحداً، حتى الآن، لم يوفق في تدبيج الجواب عن تلك الرسالة بسبب العنوان. إن النية منصرفة إلى عدم استعمال كلمة «قنصل»[1] فكيف بكلمة «أمبراطور».

ولقد اقترحت أن يرسل الجواب باسم «الجنرال بوناپرته».

فقال پولكونسكي: اسمح لي، يجوز أن لا يُعترف به كأمبراطور. ولكن تسميته «بالجنرال بوناپرته»...!

فقاطعه دولغوروكوف ضاحكاً: تماماً، وقد أصبح الأمر أكثر تسلية... إنك تعرف بيليبين بدون شك، أليس كذلك؟ حسناً، لقد اقترح هذا الساخر أن نعنون الرسالة إلى «المعتدي عدو الجنس البشري!».

واستغرب دولغوروكوف في قهقهة مدوية. سأله پولكونسكي: أهذا كل شيء؟

---

(١) سمّى بوناپرت نفسه قنصلاً عاماً لفرنسا قبل أن يصبح أمبراطوراً، وهذا ما لم يعترف أعداؤه به. (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ كلا، لقد أوجد بيليبين أخيراً اللقب المناسب. إن هذا الساخر يتمتع بذكاء خارق.

ـ وماذا كان ذلك اللقب؟

فقال دولغوروكوف بلهجة رزينة: إلى رئيس الدولة الفرنسية. أليس لقب مخرج لهذه الورطة؟

فأجاب پولكونسكي: رائع، ولكنه لن يروقه.

ـ بل على العكس! إن أخي يعرفه. أجل إنه يعرف ذلك الأمبراطور المرتجل. لقد تناول الطعام معه مرة في پاريس وأنبأني بأن لم ير في حياته دبلوماسياً داهية مثله. لقد اجتمع فيه الدأب الإيطالي بالرقة الفرنسية. هل تعرف الأقاصيص التي تشاع حول علاقاته بالكونت ماركوف. الرجل الوحيد الذي عرف كيف يتصرف معه بجدارة؟ هل تعرف قصة المنديل مثلاً؟ إنها رائعة.

وأخذ دولغوروكوف يتبسط في سرد الأحدوثة ملتفتاً تارة إلى پولكونسكي وأخرى إلى بوريس. قال إن بوناپرت كان مرة مع سفيرنا ماركوف في مقابلة رسمية. فأراد أن يختبره ليعرف قيمه الشخصية.

وبينما هما واقفان، ترك بوناپرت منديله يسقط على الأرض وراح ينظر إلى الكونت ماكوف نظرات ملؤها الأمل في أن يبادر هذا إلى التقاط المنديل وإعادته إليه. فما كان من سفيرنا إلا أن ألقى منديله بجانب منديل بوناپرت وانحنى فالتقطه دون أن يمس منديل هذا الأخير.

قال پولكونسكي: رائع! ولكن اسمح لي يا أميري، لقد جئتك ملتمساً أمراً. إنه يتعلق بهذا الشاب الذي...

لم يكمل حديثه ذلك أن أحد الضباط المساعدين جاء يسأل عن دولغوروكوف ليسأله المثول بين يدي الأمبراطور.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال الأمير وهو يقف بنشاط ويضغط على يدي پولكونسكي وبوريس مصافحاً: يا لها من مضايقة! كنت سأكون سعيداً بتلبية كل ما ترغب به يا أمير في كل ما يتعلق بك وبهذا الشاب النضر. وإنك تعرف حقيقة مشاعري تجاهك.

وضغط بشدة على يديهما وخص بوريس بابتسامة مرحة لم يكن الإخلاص فيها إلا طلاءً ظاهرياً وأردف: لكنك ترى بنفسك... فإلى المرة القادمة!

كانت مجاورة بوريس للسلطة العليا تحرك مشاعره بانفعال. شعر في قرارة نفسه أنه في تلك اللحظة قريب من السلطة التي تستطيع تحريك الكتلة الهائلة من البشر التي كان في عدادها صباح ذلك اليوم، والذي لم يكن فيها إلا ذرة طيعة سلسة القياد.

تبع مع پولكونسكي الممشى الذي سار فيه دولغوروكوف، وعندما بلغا مكتب الأمبراطور الذي دخل إليه المساعد العام، التقيا رجلاً قصير القامة، في ثوب مدني، ذي ذقن ناتئة، تضفي على مظهره لوناً من الحيوية الماكرة دون أن تكسب وجهه بشاعة، كان خارجاً من حضرة الأمبراطور. شاهدا ذلك الرجل يومئ برأسه للأمير دولغوروكوف وكان من معارفه، ثم يصوب إلى پولكونسكي نظرة باردة منتظراً أن يبادره هذا بالتحية أو يتنحى عن طريقه. لكن پولكونسكي خيب أمله وعبس وقطب حاجبيه مما جعل ذلك المدني يستدير متابعاً طريقه.

سأل بوريس: من هذا؟

ـ هو من أكثر الرجال رفعة في المركز وخطورة في الدولة. غير أنه من أشدهم مقتاً في نفسي. إنه الأمير آدم تزارتوريسكي وزير الخارجية. إن أمثال هذا الرجل يقررون مصير الشعوب.

www.Maktbah.com

وبينما كانا خارجين من القصر، ندت عن صدر پولكونسكي زفرة عميقة لم يستطع كتمانها.

وزحفت الجيوش في اليوم التالي ولما لم يستطع بوريس لقاء پولكونسكي أو دولغوروكوف قبل معركة أوسترليتز، فإن بقاءه في فيلق «إسماعيل» كان يضنيه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

انطلق نيكولا روستوف الذي كان في عداد كوكبة الفرسان التي يقودها دينيسوف الملحقة بجيش باغراسيون، في فجر اليوم السادس عشر من تشرين الثاني من الثكنة مع كوكبته للدخول في العمليات المدبرة، أو أقله هذا ما كان يشاع حينذاك. ولكن لم تكد الفرقة تجتاز ربع مرحلة حتى صدر إليها الأمر بالتوقف حيث هي، رأى روستوف الجنود القوقازيين يمرون أمامه ثم الكوكبتين الأولى والثانية للفرسان، ففيالق كاملة من المشاة مصحوبة بعدد من المدافع، وأخيراً الجنرالين باغراسيون ودولغوروكوف يتبعهما الضباط المساعدون، وفي تلك المرة أيضاً، بذل روستوف، الذي شعر بالرعب يتسرب إلى نفسه، جهداً كبيراً للتغلب على مخاوفه، لقد حلم للمرة الثانية في أن يتصرف تصرف الأبطال، تصرف الفرسان الحقيقيين، لكن حلمه تبدد لأن كوكبته تركت لتكون في عداد الاحتياطي من الجيوش، لذلك فقد قضى سحابة يومه في قلق واكتئاب عميق.

وفي الساعة التاسعة، ترامى إلى سمعه صوت طلقات نارية أعقبها هتاف مدو، ولم تلبث أن مرت مواكب الجرحى عائدة إلى الصفوف الخلفية وفي أعقابها كوكبة من القوقازيين تعدادها مائة فارس تحيط بحشد من الفرسان الفرنسيين الأسرى، وبدا أن المسألة قد انتهت نهاية سعيدة تتلاءم مع أهميتها. كان العائدون إلى الصفوف الخلفية ينبئون زملاءهم بأخبار الانتصارات الرائعة التي أحرزتها القوات الروسية التي احتلت «ويشو» وأسرت كوكبة كاملة من

www.Maktbah.com

الفرسان، وكان الصقيع الذي غطى الأرض خلال الليل بدثاره اللامع، ينعكس بريقه تحت أشعة شمس الخريف الخابية، فيزيد في ضياء ذلك الصباح الجميل متناسقاً مع النصر المظفّر الذي أحرزته القوات الروسية، والذي لم تقتصر الروايات وحدها على تمجيده، بل أعربت عنه كذلك الوجوه كافة، وجوه الجنود الضباط والجنرالات التي كانت تفيض بشراً وفرحاً كلما خطر أصحابها تحت أنظار روستوف الملتاع. وإزاء تلك المظاهر البراقة المغرية، ازدادت نفس نيكولا اكتئاباً واشتد سخطه لقضائه يوماً آخر في جمود مزعج وهو الذي كان يتوق إلى القتال.

صاح دينيسوف يحدثه: تعال يا روستوف نغرق أحزاننا في الخمرة.

وكان دينيسوف مقيماً على جانب الطريق وأمامه إناء.

شكّل ضباط الكوكبة حلقة حول صندوق دينيسوف الحافل بالأرزاق يتبادلون الحديث وهم يتناولون طعام الفطور.

صاح أحدهم مشيراً إلى أحد فرسان الدراغون الفرنسيين الذي كان يسير على قدميه بين اثنين من القوقازيين: هه، ها هو ذا آخر يعودون به من جديد.

كان حصان الأسير، وهو حصان ضخم جميل التكوين، يسير في أعقاب صاحبه وقد أمسك القوقازي بعنانه.

قال دينيسوف للقوقازي: هل تبيع الحصان يا هذا؟

ـ قد أبيعه يا صاحب النبالة...

تحلّق الضباط حول القوقازيين وأسيرهما. كان هذا الألزاسي الشاب، تكاد الدماء تتفجر من وجهه من شدة انفعاله فلما سمع الضباط يتحدثون باللغة الفرنسية، راح يحدثهم بطلاقة واندفاع شديدين، متوجهاً تارة إلى هذا وأخرى إلى ذاك، معلناً أنه لولا عناد العريف قائد مفرزته، لما وقع في الأسر. قال إنه أخطر رئيسه مراراً بأن الروس قد احتلوا المدينة، مع ذلك فإن ذاك

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أرسله للبحث عن لبد أغفلت هناك. وكان بعد كل جملة يلاطف عنق جواده ويقول متوسلاً: لكن أرجو ألّا تسيئوا إلى جوادي المسكين. كان يبدو على ذلك الجندي أنه لا يعرف عن أمره شيئاً، كان يعتذر أحياناً لأنه استسلم وأسر، وأحياناً أخرى يعتقد أنه في حضرة رؤسائه فيتبجح أمامهم مبيناً غيرته ودأبه في الخدمة.

وبفضله أمكن للقوات الروسية المرابطة في الصفوف الخلفية أن تفهم الجو الذي يعيش فيه الجيش الفرنسي بكل تفاصيله، ذلك الجو الذي لم تكن لديهم أية فكرة عن حقيقته.

وبقطعتين ذهبيتين باع القوقازيان الحصان إلى روستوف الذي كان أكثر زملائه ثروة. فقال الأسير الألزاسي لروستوف الذي قبض على عنان الجواد:

ـ أرجو أن لا يعامل جوادي الصغير معاملة سيئة!

ابتسم روستوف وطمأن الأسير ثم أعطاه بعض المال. صاح أحد القوقازيين بالأسير وهو يدفعه إلى الأمام: هيا، هيا! تقدم.

وفجأة صاح أحدهم: الأمبراطور! الأمبراطور!

هرع الجميع لهذا النداء. واستدار روستوف فوقعت عيناه على بعض الفرسان القادمين وعلى قلنسواتهم الريش الأبيض. وفي طرفة عين، كان كل في مكانه من الصف ينتظر القادمين.

ذهب روستوف إلى مركزه، واعتلى صهوة جواده دون أن يشعر بما يفعل. تبدد أسفه العميق لعدم اشتراكه في المعركة، وتبخر اشمئزازه العنيف من اللفظ اليومي الذي كان يطالعه أبداً على تلك الوجوه المعروفة منه، وأصبح لا يشعر حتى في وجوده. لقد كان الفرح الذي شمله عند سماعه بأن الأمبراطور بات قريباً منه، يستأثر بكل اهتمامه. كان سعيداً كالعاشق الذي ينتظر لقاء حبيبته للمرة الأولى. مع ذلك لم ينس مقتضيات النظام الذي تفرض

www.Maktbah.com

عليه عدم الالتفات. لكنه لم يكن في حاجة للالتفاف ليعرف «أنه» اقترب. ولم يكن اقتراب الأمبراطور يُعلن بارتفاع أصوات سنابك الخيل وتقدمها فحسب، بل بالاشراقة التي أحسّ بها روستوف تغمر الجو، والجلال الذي راح يستولي على النفوس. وكانت تلك الشمس التي أضفت ذلك النور الهادئ تقترب تدريجاً وتلف روستوف بأشعتها الدافئة. وتبينت أذنه ذلك الصوت الجليل الدافئ الذي أخذ يتعالى كلما ازداد صاحبه قرباً.

لم تخدع روستوف مشاعره لأن سكوناً مطبقاً شمل المكان فجأة، وتردد صوت الأمبراطور يمزق ستره بقوله: فرسان پاڤلوغراد؟

فأجابه صوت بدا لسمع روستوف أن لهجته تدل على أن صاحبه ليس إلا من بني البشر بقدر ما كان الصوت الأول ملائكياً: الاحتياط من الفرقة يا صاحب الجلالة.

توقف ألكسندر أمام روستوف الذي شعر أن وجهه أشد جمالاً مما بدا له في الاستعراض العام قبل ثلاثة أيام. كان ذلك الوجه يطفح بالشباب والوداعة، شباب بريء جعله يبدو رغم جلاله وهيبته، أشبه بوجه وديع لطفل في الرابعة عشرة من عمره. وبينما كان يجيل بصره في وجوه فرسان الكوكبة، التقت أنظاره فترة أنظار روستوف وتوقفت برهة معها. فهل تراه فهم ما كان يجول في خاطره كما توقع روستوف؟ المهم أنه تأمله حوالى ثانيتين بعينيه الزرقاوين اللتين ينبعث منهما نور وديع. وفجأة، رفع حاجبه ولكز جواده بمهمازه الأيسر واستمر في طريقه هدباً.

لم يستمع الأمبراطور الشاب إلى رجاء أتباعه وأفراد حاشيته، ولم ينجح في التخلي عن رغبته في المساهمة في الهجوم، حتى إنه حوالى الظهر، انفصل عن الصف الثالث من الجيش وأسرع إلى الصفوف الأولى. لم يكد يصل إلى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

حيث كان الفرسان منقضين على العدو حتى أبلغه ضباطه المساعدون بنبأ النصر الذي أحرزوه.

رسم ذلك النجاح الذي لم يكن إلا أسر كوكبة فرسان فرنسية فحسب للأمبراطور الشاب على لوحة تظهره بمظهر النصر المبين، حتى أن الأمبراطور والجيش كله، كما أشيع في حينه، ظنوا أن الفرنسيين قد دحروا وأنهم يتراجعون مرغمين. وكان الدخان الكثيف الذي غطى ساحة المعركة يكاد هو الآخر يثني على ذلك. ولم تمض دقائق على مرور الأمبراطور، حتى صدرت الأوامر للجيش الذي كان الاحتياطي من فرسان پاڤلوغراد تابعاً له، بالحركة. وقد قدر لروستوف أن يشاهد الأمبراطور مرة ثانية في مدينة ويسشو وكانت بعض الجثث، جثث الجرحى والقتلى، لاتزال في مكانها في ساحة تلك المدينة التي لعلع الرصاص فيها منذ حين، خلال المعركة.

وكان الأمبراطور ممتطياً صهوة جواد آخر غير ذلك الذي استعرض القطعات على صهوته، لكنه كان مولداً أيضاً من أصل إنكليزي ومحجل الأطراف. وكانت مجموعة كبيرة تحيط به. كان منحنياً على جنبه حاملاً بيده نظاراته الذهبية، ينظر إلى جندي مستلق على صدره مضرجاً بالدماء التي تخضب رأسه وسترته. كان ذلك الجريح كريه المنظر، شديد القذارة، حتى أن روستوف أحس بألم شديد لوجود الأمبراطور بالقرب منه.

اجتاحت قشعريرة ظاهرة كتفي العاهل المحنيتين قليلاً، فهمز جواده بعصبية بساقه اليسرى. غير أن الفرس المطهمة المدربة تدريباً ممتازاً، لوت عنقها بشيء من اللامبالاة ولم تتقدم خطوة واحدة. وكان روستوف يراقب كل حركات الأمبراطور. وأخيراً، ترجل أحد الضباط المساعدين فحمل الجريح من تحت إبطيه ووضعه على نقالة جيء بها في تلك اللحظة. فأطلق الجريح زمجرة.

www.Maktbah.com

وقال الأمبراطور الذي كان يتنفس بصعوبة أكثر من المحتضر نفسه: رويدكما، احملاه بلطف. ألا يمكن نقله بعناية أكثر؟

شاهد روستوف الدموع تملأ عيني أمبراطوره وسمعه يقول لكزار كوريسكي وهو يبتعد: يا لها من أمر مريع هذه الحرب: يا لها من أمر مريع!

بدأت مقدمة الجيش تحتل مراكزها خارج المدينة تلقى العدو الذي ما فتئ إزاء أصغر هجوم يتخلى عن مساحات من الأرض. أعرب الأمبراطور عن شكره للقطعات المحاربة ووعد بمكافآت، وفي ذلك النهار وزعت على الجنود جراية مضاعفة من الفودكا. كانت نيران المعسكرات أكثر بهجة في تلك الليالي عن الليالي السابقة وكذلك أغنيات الجنود كانت أشد حماسة. واحتفل دينيسوف تلك الليلة بترقيته إلى رتبة ماجور. وقبل نهاية الحفلة، رفع روستوف يده بكأسه وكان قد ثمل لكثرة ما عبّ من شراب، واقترح أن يشربوا نخب الأمبراطور. قال مفسراً: إصغوا إليّ لكي تفهموا غايتي. إنني لا أقترح أن نشرب نخب «صحة الأمبراطور» كما درجت عليه العادة في الحفلات الرسمية، بل أطلب أن نشرب نخب الأمبراطور ألكسندر، الرجل الطيب الرائع. نخب صحته إذن، نخب انتصارنا على الفرنسيين! إن النصر أكيد أيها السادة. فنحن الذين حاربنا ببسالة من قبل وطوّحنا بالفرنسيين في شوييغرابن، ماذا يكون موقفنا اليوم والأمبراطور على رأسنا؟ سوف نموت جميعاً وبسرور أليس كذلك أيها السادة؟ لعلني لم أنجح في التعبير عن شعوري وعواطفي كما يجب، لكنني أوجزت في ذكر مشاعري وإحساساتكم أيضاً. فاشربوا نخب صحة ألكسندر الأول! هورّا!

ورددت الحناجر صيحة هورّا! حتى أن الرئيس العجوز كيرستن أودع تلك الصيحة من الحماسة الساذجة مثل ما أودعها روستوف.

بعد أن أفرغ الضباط كؤوسهم وحطموها، ملأ كيرستن كؤوساً أخرى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

حمل كأسه وراح يلوح بها وتقدم وهو في قميصه الأبيض إلى حيث يعسكر الجنود، وتوقف أمامهم وقفة جليلة قريباً من المعسكر، وشارباه الأشهبان الطويلان، وصدره الأبيض البارز خلال فتحة قميصه، بارزان بوضوح تحت أضواء النيران.

صاح بصوته الأجش، صوت الفارس العجوز: هيا أيها الفتيان، اشربوا نخب صحة جلالة الأمبراطور، ونخب انتصارنا على العدو! هورّا!

وراح الفرسان حوله يرددون بأصواتهم القوية هتافاته المدوية! هورّا!

وفي آخر الليل، حان وقت الانفصال. فربت دينيسوف بيده الصغيرة كتف روستوف صفيه وقال: إذن، إنك لم تجد من تتعلق به في السرية فانصرفت إلى عشق الأمبراطور!

ـ آه يا دينيسوف. لا تمزح هكذا. إنه إحساس جميل شديد التسامي شديد...

ـ لا شك، لا شك. وأنا أشاطرك هذا الشعور وأؤيده.

ـ كلا. بل إنك لا تفهمني!

ووقف روستوف وراح تياهاً بين المعسكرات، يحلم في السعادة التي ينشدها في الموت ليس في سبيل إنقاذ حياة الأمبراطور التي كان يؤمن أنه غير جدير في نيل شرف إنقاذها، بل في الموت تحت أنظاره. كان مأخوذاً بأمبراطوره وبعظمة الجيوش الروسية، يسمو ويحلق مع الأمل في إحراز نصر قريب. ولم يشعر روستوف وحده بهذا الإحساس في تلك الأيام الخالدة التي سبقت معركة أوسترليتز، بل أقله إن تسعة أعشار الجنود كانوا مثله مأخوذين بروعة شخصية أمبراطورهم وبعظمة الجيوش الروسية.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

في اليوم الثاني أقام ألكسندر في مدينة فيسشو وأمر باستدعاء طبيب جلالته المرافق فيلبير، فانتشر خبر الوعكة الصحية التي ألمت بالأمبراطور في القيادة العامة وبين الوحدات القريبة من المكان. كان المقرّبون من العاهل الروسي يزعمون أن روحه الحساسة تأثرت بمشاهد القتلى والجرحى، فضعفت شهيته إلى الطعام وأمضى ليلة شديدة الإزعاج.

تقدم ضابط فرنسي يحميه علم أبيض، في فجر اليوم السابع عشر[١] إلى الخطوط الروسية الأمامية وطلب مقابلة الأمبراطور، فنقل إلى فيسشو. ولما كان الأمبراطور نائماً، فقد اضطر ذلك الضابط الذي لم يكن إلا سفاري[٢]، أن ينتظر حتى يستيقظ جلالته. وحوالى الظهر، مثل بين يدي الأمبراطور حيث مكث ساعة كاملة خرج بعدها يصحبه الأمير دولغوروكوف، وسرت بين الصفوف شائعة مفادها أن ناپليون أرسل يلتمس مقابلة الأمبراطور ألكسندر الذي رفض الذهاب بنفسه وأرسل الأمير دولغوروكوف نيابة عنه، المنتصر في معركة فيسشو ليبحث مع ناپليون في شؤون السلام إذا رغب هذا، خلافاً لما كان ينتظر منه، وقد قوبل رفض العاهل، ألكسندر من قبل الجنود بسرور بالغ وأثار في الجيش روح الكرامة والاعتداد.

---

(١) يجب ألا يغيب عن البال أن التقويم الروسي شرقي يتأخر بثلاثة عشر يوماً عن التقويم الغربي. (المترجم).

(٢) جنرال فرنسي، ظهرت مواهبه في معركة أوسترولنكا، كان وزير الپوليس في عهد بوناپرت. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عاد دولغوروكوف، حوالى المساء، فمضى فوراً إلى مكتب الأمبراطور حيث بقي في حضرته على انفراد وقتاً طويلاً.

وفي يومي ١٨ و١٩ (أي ١ و ٢ كانون الأول كما أسلفنا) استمرت الوحدات الروسية تتقدم والخطوط الأمامية للعدو تتراجع إثر مناوشات بسيطة تافهة. لكن حركة كبيرة دبت في الصفوف اعتباراً من بعد ظهر يوم ١٩ (٢ـ ١٢ ـ ١٨٠٥) حركة هائلة بلغت في مداها إلى أعلى مراتب الجيش واستمرت حتى صباح يوم ٢٠ تشرين الثاني، وهو اليوم الذي وقعت فيه معركة أوسترليتز التاريخية[1] الخالدة.

كانت الحركة الصاخبة والأحاديث الحارة والسعي الدائب، ومهام الضباط المساعدين، محصورة كلها حتى ذلك اليوم بين حدود مركز القيادة العامة الأمبراطورية. أما في يوم ١٩ تشرين الثاني، فتعدّت الحركة تلك الحدود حتى بلغت مركز قيادة كوتوزوف ومركز أركان حرب قادة الكتائب والوحدات. ولم يحل المساء إلا وكانت الصفوف كلها في شغل شاغل بفضل مساعي الضباط التابعين. وفي ليل ١٩ ـ ٢٠ تشرين الثاني، اهتزت الكتلة الهائلة التي كان قوامها ثمانين ألف عسكري والتي كانت تنبسط على جبهة طولها يناهز العشرة كيلومترات.

بدأت الحركة المركزية في ذلك الصباح من مركز القيادة الأمبراطوري التي دب بسببها النشاط في كل القطعات، تذكر المرء بالعجلة المحركة التابعة لساعة جبارة كبيرة. بدأت إحدى العجلات تدور ببطء ثم أعقبتها ثانية فثالثة ما لبثت حتى استجابت لها المشابك والعجلات الفرعية وما إليها، فراحت تهتز بدورها وتزداد مشيتها سرعة دقيقة بعد دقيقة، فيدوي الجرس وتتحرك

---

(١) مدينة في موراڤيا اسمها بالتشيكية سلاڤكوف. هزم فيها ناپليون النمسويين والروس هزيمة نكراء، ولايزال اسم أوسترليتز يواكب اسم ناپليون حتى اليوم. (المترجم).

www.Maktbah.com

التماثيل الصغيرة وتتقدم الإبر بانتظام إلى الأمام كما هي النتيجة المحتومة للعملية كلها.

كانت الآلة العسكرية، تشبه آلة الساعة في كل شيء حتى في الغاية فإذا ما قامت الحركة الأولى، بقيت كل الآلات الأخرى جامدة حتى يصل إليها النشاط الدوري الرتيب. فتصر العجلات على الحوامل وتتشابك أسنانها وتتحرك المشابك بفعل السرعة والروتين بينما تظل العجلة المجاورة ساكنة بانتظار دورها في الحركة وكأنها تستطيع البقاء في سكونها مئات السنين. ولكن عندما تأتي اللحظة المواتية، وتشتبك أطرافها في مخلب مشرشر مدبب تخضع لنظام الحركة فوراً فتدور ويرتفع صريرها هي الأخرى متماشية مع الحركة العمومية التي تبقى النتائج المرجوة مجهولة منها.

ولا تنتهي الحركة المعقدة في الساعة، إلا بانتقال الإبرة المشيرة إلى الوقت من مكانها على الميناء ببطء وانتظام، فإن النشاط الذي دب في أعصاب مائة وستين ألف رجل بين روسي وفرنسي، واصطدام تلك الرغبات واختلاط تلك الشهوات، والحسرات والمخاوف وبوادر الكبرياء والذعر والحماسة، لم يكن لها من نتيجة إلا خسارة معركة أوسترليتز بالنسبة إلى أحد الجانبين المتحاربين، تلك المعركة التي أطلق عليها اسم معركة الأباطرة الثلاثة، أمبراطور روسيا والنمسا وفرنسا. وبمعنى أصح، لقد كانت حركة إبرة التاريخ العام على ميناء تاريخ البشرية.

وفي ذلك اليوم كان الأمير أندريه في الخدمة، فلم يفارق الجنرال الأعلى كوتوزوف لحظة واحدة. ووصل كوتوزوف في الساعة السادسة مساء، إلى مقر القيادة الأمبراطورية، وبعد لقاء قصير مع الأمبراطور، قصد إلى الكونت تولستوي، الذي كان ماريشال البلاط الأكبر. شعر پولكونسكي أن كوتوزوف لم يكن على ما يرام. بل لاحظ عليه الاغتمام والاستفزاز اللذين كان مردهما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الاستقبال الفاتر الذي قوبل به من قبل السادة أعضاء الحاشية في القيادة العامة، واللهجة التي خاطبوه بها والتي توحي بأنهم يعرفون أشياء يجهلها الآخرون. وأراد پولكونسكي معرفة كلمة السر في هذه المعضلة، فمضى إلى دولغوروكوف منتهزاً فرصة الفراغ القصير الذي عرض له أثناء مقابلة كوتوزوف للكونت تولستوي.

قال له الأمير، وهو يتناول الشاي مع بيليبين: إه! مرحباً يا عزيزي. نعم إن غداً موعد العيد. ترى ماذا يقول عجوزك؟ إنه ليس حسن المزاج أليس كذلك؟

ـ لا يقتصر الأمر على مسألة مزاج، إنني أعتقد أن الجنرال يطلب أن يُصغى إلى ما يقول.

ـ لقد أصغينا إليه عندما انعقد المجلس الحربي. سوف نصغي إليه كلما عزم على التحدث بتعقل. أما أن نتمهل في حين أن بوناپرت لا يخشى شيئاً مثل خوفه من معركة عامة تشن على قواته، فذلك مستحيل.

ـ صحيح، بمناسبة الحديث عن بوناپرت، حدثني عن انطباعاتك. لقد رأيته وتحدثت معه. ماذا وجدت فيه؟

ـ لقد رأيته واستخلصت من تلك المقابلة أن ما من شيء يخيفه أكثر من معركة عامة تشن عليه!

كرر دولغوروكوف هذا القول وهو شديد الفخار إذ استطاع استخلاص ذلك الرأي. وتابع يقول: لو لم يكن خائفاً من المعركة، فلماذا أثار هذه المباحثات ورغب في المفاوضة؟ ثم لماذا يتراجع باستمرار وهو الذي عرف عنه أن التراجع ليس في برامجه؟ صدقني إنه خائف. إنه يخاف المعركة العامة. لقد دقت ساعته أؤكد لك فثق بقولي.

لكن پولكونسكي ألح يسأله: لكن خبرني، كيف وجدته؟

www.Maktbah.com

ـ إنه رجل يرتدي «الرودنغوت» الرمادي يريد من كل قلبه أن يناديه الناس بـ«يا صاحب الجلالة». لكنني، لشديد حزنه، لم أطلق عليه أي لقب. هذا هو الرجل ولا شيء أكثر.

وابتسم دولغوروكوف لبيليبين ابتسامة شيقة وتابع: إنني مع مزيد احترامي لكوتوزوف العجوز، أعتقد أننا لو تمهلنا وترددنا فإننا نعطي فرصة كبيرة لناپليون تمكنه من الإفلات، وبذلك نكون من أكرم المحسنين. إنه الآن بين أيدينا. لا تنس مبدأ سوڤوروف العتيد: لا تسمح لخصمك بمهاجمتك بل كن أنت المهاجم. صدقني يا عزيزي إن حيوية الشباب في الحرب تمتاز ببعد نظر يفوق خبرة المخضرمين العُجَّز.

اعترض پولكونسكي على نظرية دولغوروكوف، راجياً أن تتاح له في هذه المناسبة فرصة عرض خطته الشخصية التي وضعها لذلك الهجوم.

ـ ولكن في أي اتجاه سنهاجم وعلى أية وضعية؟ لقد ذهبت بنفسي منذ حين إلى خطوطنا الأمامية وأيقنت استحالة تحديد مركز قواته الرئيسية.

فأجابه الأمير وهو ينهض ويبسط خريطة على الطاولة: وماذا يهم ذلك؟ إذا كانت في برون.

وبدأ دولغوروكوف يشرح بسرعة وبوضوح حركة الالتفاف التي وضع خطوطها ڤيروذر.

قدّم پولكونسكي اعتراضاته وعرض خطته الشخصية التي كانت تبدو في مثل قيمة الخطط التي وضعها ڤيروذر، مع فرق واحد في غير صفه، وهو أنها جاءت متأخرة. ومنذ أن حاول إظهار محاسن خطته ومساوئ الأخرى، توقف دولغوروكوف عن الإصغاء إليه، فلم يعد يلقي إليه إلا نظرة ساهمة دون أن ينظر إلى شروحه على الخريطة.

وأخيراً قال له: حسناً، سيقام هذا المساء مجلس حربي في مكتب كوتوزوف، وبإمكانك الدفاع عن وجهة نظرك هناك.

twitter @baghdad_library

فأجاب پولكونسكي وهو يبتعد عن الخريطة: وهذا ما أريد القيام به.

وهنا تدخل بيليبين الذي بقي صامتاً، حتى تلك اللحظة، ينظر إلى المتحدثين بهدوء مترقباً الفرصة الملائمة للإلقاء بإحدى كلماته المأثورة: ماذا يفيدكم مثل هذا القلق الذي تسومونه أنفسكم أيها السادة؟ سواء جاءنا الغد بالهزيمة أو بالنصر، فإن عظمة الجيوش الروسية لا يمكن أن تمس إننا إذا استثنينا كوتوزوف، فلن نجد قادة روساً على رأس جيوشنا. إن القادة هم كالتالي: هر جنرال ويمبفن، الكونت دولانغيرون الأمير دوليشتنشتاين، الأمير دو هوهنلوه، وأخيراً برشد... برشد... وهلمجراً كما هي حال كل الأسماء الپولونية.

فصاح به دولغوروكوف: اخرس يا لسان السوء! ثم إن هذا غير صحيح. فهناك قائدان روسيان هما ميلورادوڤيتش، ودوختوروف وكان يمكن أن يكون هناك ثالث أيضاً وهو أراكتشييف، لكن أعصابه ضعيفة قليلاً.

قال پولكونسكي: أعتقد أن مقابلة ميخائيل إيلاريونوڤيتش قد بلغت نهايتها. فإلى اللقاء أيها السادة وحظاً سعيداً.

وصافحهما وخرج.

وبينما كان عائداً بصحبة كوتوزوف إلى مقر القيادة العامة دون أن ينطق هذا بكلمة، لم يستطع كبح جماح نفسه، فألقى عليه سؤالاً ينشد رأيه في معركة صبيحة الغد.

فحدجه كوتوزوف بنظرة صارمة وأجابه بعد لحظة صمت: أنا أعتقد أننا سنخسر المعركة. وهذا ما قلته للكونت تولستوي راجياً أن يبلغ الأمبراطور رأيي. فهل تعرف ماذا كان جوابه؟ لقد قال لي: «إيه يا عزيزي الجنرال، إنني لا أهتم إلا بالأرز والضلع المحشو، فاهتموا أنتم بالحرب»... نعم هذا هو الجواب الذي حصلت عليه منه!

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

اتجه ڤيروذر، عند الساعة العاشرة مساء إلى منزل كوتوزوف يحمل أوراقاً ومخططات حيث كان سيعقد هناك جلسة مع قادة الفرق العسكرية قبل اندلاع المعركة. ودعي جميع قادة الجيوش فحضروا عدا الأمير پاغراسيون.

ڤيروذر صاحب الخطة التي ستسير بموجبها المعركة القادمة، على نقيض كوتوزوف من حيث المظهر والمزاج فالأول شديد الحماسة والاندفاع على نقيض كوتوزوف العابس المتشائم، الذي يقوم بدور الحكم، ومدير الجلسة رغم نفوره من تلك المهمة. من الواضح أن ڤيروذر كان يشعر بأنه يرأس عملية خطيرة جداً. كان أشبه بالحصان الذي ينحدر من علٍ، لا فرق لديه بين أن يكون هناك من يدفعه أو أن يكون مدفوعاً بثقل عربة يجرها وراءه. كان همه كله محصوراً في الانحدار واجتياز المسافة بسرعة، بصرف النظر عما يمكن أن يكون فيها من أخاديد وحفر قد تورده مورد الهلاك بسبب سرعته الجنونية. مضى مرتين في ذلك المساء يتفقد شخصياً مراكز الجيش الأمامية، ربما يستكشف مواقع العدو. وفي كل مرة، كان يقدم لكل من الأمبراطورين تقريراً شاملاً. ثم ذهب بعد ذلك إلى مكتبه حيث عكف على وضع خطته باللغة الألمانية. فلما ذهب كوتوزوف لعقد المؤتمر الأخير، كان يقف على قدميه بصعوبة لفرط تعبه. لقد كان مشغول الفكر لدرجة أنسته واجب الاحترام تجاه الجنراليسيم. كان يقاطعه ويتحدث بسرعة غامضة دون أن ينظر إليه أو أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه. كانت الأوحال تغطي ثوبه ويوحي مظهره بشرود ذهنه. مع ذلك فقد كان ممتلئاً اعتداداً واستعداداً.

كان كوتوزوف يسكن في قصر صغير بالقرب من أوسترليتز. وكان الضباط المدعوون إلى ذلك المجلس العسكري، مجتمعين في القاعة الكبرى يشربون الشاي. وكان المجتمعون ينتظرون قدوم الأمير پاغراسيون لافتتاح الجلسة. ولم تنقض دقائق بعد الساعة السابعة، حتى وصل أحد ضباط پاغراسيون يقدم اعتذارات الأمير لعدم تمكنه من حضور الاجتماع وحمل الأمير أندريه اعتذارات پاغراسيون إلى القائد الأعلى كوتوزوف، واستغل فرصة وجوده في القاعة لحضور اجتماع القادة استناداً إلى رغبة كوتوزوف بالذات في إبقائه بقربه.

قال ڤيروذر وهو ينهض وكأنه آلة تدفعها قوة رافعة: بما أن الأمير پاغراسيون لن يستطيع حضور الاجتماع، فنستطيع البدء بما نحن بصدده.

واقترب من الطاولة وبسط فوقها خريطة ضخمة تبين ضواحي برون بتفصيل دقيق.

كان كوتوزوف ذو العنق الضخم البارز خلال فتحة الثوب العسكري، جالساً على مقعد من طراز «ڤولتير» ويداه السمينتان مرتكزتان على ذراعيه في وضع متناسق. وكان النعاس يداعب عينيه فلما علا صوت ڤيروذر، فتح عينه الوحيدة بجهد وقال: نعم، نعم، لا شك أن الوقت متأخر.

وأومأ برأسه دلالة على الموافقة ثم عاد يغمض عينيه ويترك رأسه يسقط على صدره.

ولو أن أعضاء المؤتمر العسكري اعتقدوا للوهلة الأولى أن كوتوزوف يتظاهر بالنوم استخفافاً بما يدور، فإن شخيره الذي علا بعد لحظات بدد الشكوك، وأكد أن الجنراليسيم لم يتعمد إظهار الازدراء بما يدور، أو بالخطة

www.Maktbah.com

المرسومة أو بأي شيء آخر، بل كان يرضي حاجة غريزية في النفس البشرية وأعني النوم الذي كان في نظره لا يقل أهمية وخطورة عمّا هو بصدده. لقد كان نائماً. فألقى ڤيروذر نظرة على كوتوزوف ليتأكد أنه نائم فعلاً، ثم أتى بحركة تشعر أنه لا يستطيع إضاعة دقيقة واحدة في أمر خارج عن موضوع الخطة، وأخذ ورقة راح يقرأ ما فيها بصوت رتيب قوي، تفاصيل الخطة دون أن يشير إلى أي فضل أو مساعدة لزملائه.

كان عنوان الورقة هو الآتي: «خطة الهجوم على موقع العدو وراء كوبلنيتز وسوكوليتز في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٠٥».

الخطة صعبة شديدة التعقيد تبدأ كالآتي: «لما كان العدو يرتكز بجناحه الأيسر على هضبة غابة، ويمتد بجناحه الأيمن على طول كوپيلينتز وسوكولينتز، وراء المستنقعات الموجودة هناك، وكنا نحن نتجاوز بجناحنا الأيسر امتداد جناحه الأيمن، فمن الأرجح بالنسبة إلينا أن نهاجم جناح العدو الأيمن، خصوصاً إذا احتللنا القريتين: سوكولينتز وكوبيلينتز، الأمر الذي سيسمح لنا بالانقضاض على جانب العدو ومطاردته في السهل بين شلابابنتز وغابة توارس، متجنبين بذلك قوات شلاپابينتز نفسها والقوات المعسكرة في بلوتيز، التي تغطي جبهة العدو. وللوصول إلى هذا الدف النهائي، من الضروري... إلخ... تنطلق الفرقة الأولى... وتنطلق الفرقة الثانية»... إلخ...

لم يكن القادة متبهجين لسماع تلك الجمل المعقدة. فالجنرال پوكسووفدن، وهو طويل القامة، أشقر اللون، كان واقفاً قرب الجدار يحدق إلى شمعة، وكأنه لا يصغي ولا يريد أن يعتقد أنه يصغي إلى ذلك الشرح. والجنرال ميلورادوڤيتش، وهو أحمر الوجه، ضخم الشاربين معقوفهما، متهدل الكتفين، جالس قبالة ڤيروذر جلسة عسكرية مهيبة ويداه على ركبتيه ومرفقاه إلى الجانبين. يحدق بعينين شاخصتين وهو صامت بعناد واضح.

twitter @baghdad_library

عندما انتهى رئيس الأركان النمسوي قراءة التفاصيل، نقل ميلورادوڤيتش نظره بين زملائه. لكن أحداً منهم لم يستطع أن يتبين شيئاً في تلك النظرة المفعمة بالخطورة، أو أن يخمن لونها: هل هي تحمل معنى الموافقة على الخطة أم الاعتراض عليها؟ وكان الكونت دولانغرون، الجالس إلى جانب ڤيروذر، يتأمل أصابعه الطويلة التي كانت تداعب علبة السعوط الذهبية ذات الصورة اليدوية التي تزين غطاءها. وكانت الابتسامة مطلة على وجهه الفرنسي الذي يشهد بأنه من أهل الجنوب، والعلبة الأنيقة ترسم حلقات مركزية بين أصابعه. وفي أحد المواقف الدقيقة الشديدة التعقيد، أوقف حركة علبته الرتيبة ونصب رأسه ثم انفرجت شفتاه الرقيقتان عن اعتراض بلهجة مهذبة.

لكن الجنرال النمسوي لم يتوقف عن القراءة، بل قطب حاجبيه بغضب وحرك مرفقيه حركة تشبه القول: «بعد حين، بعد حين، سوف تحدثني بكل رأيك. أما الآن، فأرجو أن تصغي إلى الشرح وأن تتبع المراحل على الخريطة» فرفع لانغرون رأسه وفي عينيه تعبير حائر وتطلع إلى وجه ميلورادوڤيتش وكأنه يسأله شرحاً، لكنه لما تقابلت نظرته ونظرة الجنرال الروسي الخطيرة الخالية من كل معنى، أطرق بعينيه بكآبة وعاد إلى علبته يديرها بين أنامله.

غمغم بصوت مرتفع متعمداً إسماع الآخرين: ... درس جغرافيا!

وكان برزينيسزوسكي، يوجه أذنه بيده، بحركة مهذبة، نحو ڤيروذر، شأن الرجل المستغرق في الإصغاء إلى محاضرة شيقة يخشى أن تفوته كلمة منها. أما دوختوروڤ القصير القامة، فكان منحنياً فوق الخريطة قبالة ڤيروذر، يدرس بدقة مشروع الهجوم والمواقع التي لا يعرفها، وعلى وجهه علامات الاهتمام والتواضع. وبلغ من شديد عنايته أن قاطع زميله النمسوي مراراً طالباً إليه أن يتفضل بإعادة جملة لم يستوعبها أو مقطع لم يسمعه جيداً، أو بعض أسماء

www.Maktbah.com

القرى الصعبة. فكان ڤيروذر يستجيب لطلباته ودوختوروف يسجل ملاحظاته في دفتره.

وبعد ساعة انتهت القراءة، أوقف لانغيرون دوران علبة سعوطه وأعرب، دون أن ينظر إلى ڤيروذر أو إلى أحد زملائه بصورة خاصة، عن رأيه قائلاً إنه سيكون من الصعوبة بمكان القيام بمثل هذه المناورة التي ترتكز أسسها على معرفة مواقع العدو، بينما أن الحقيقة لا تؤيد هذه المعرفة لأننا نجهل تحركات العدو التي لا تسمح لنا بمعرفة مواقعه. وكان ذلك الاعتراض، يهدف إلى إشعار ڤيروذر المتبجح، بأن هؤلاء العسكريين المحترفين الذين يعاملهم معاملة الجهلة، على استعداد لتلقينه دروساً في فنون القتال. وفي تلك الأثناء، فتح كوتوزوف عينه الوحيدة بعد أن انقطع صوت ڤيروذر الرتيب، وكأنه طحان نام على صوت مطحنته الممل ليستيقظ فجأة عند توقف الصوت. استمع بشرود إلى وجهة نظر لانغيرون وبادر إلى إغلاق عينه وكأنه يقول: «يا إلهي! أما زلتم تناقشون هذه التفاهات!» وعاد رأسه يسقط على صدره مثقلاً بالنعاس.

كان لانغيرون يريد أن ينال من شعور ڤيروذر ويحط من كبريائه وغروره الذي يصور له أنه يستطيع وضع الخطط الموفقة. لذلك راح يبين أن بوناپرت يستطيع أن يتحول بسهولة إلى الهجوم بدلاً من أن يكون مهاجماً، الأمر الذي يجعل تلك الخطة بدون فائدة لكن ڤيروذر لم يكن يجيب عن تلك الانتقادات إلا بابتسامة ساخرة مهيأة من قبل لتجيب عن كل الاعتراضات من أي نوع كانت.

قال مؤيداً رأيه: لو كان قادراً على مهاجمتنا، لقام بذلك اليوم.

فاعترض لانغيرون بقوله: هل أنت واثق بعجزه؟

فأجاب ڤيروذر جازماً وعلى شفتيه ابتسامة الطبيب الذي يُطالب

twitter @baghdad_library

باستعمال علاج النساء المخرفات: إنه لا يملك أكثر من أربعين ألف رجل.

فابتسم لانغيرون ابتسامة ساخرة وقال معقباً: إذن هو يسعى إلى حتفه بنفسه!

وراح يبحث مجدداً، بنظره عن تأييد جاره ميلورادوڤيتش. لكن هذا كما كان واضحاً، لم يكن يفكر قط في الموضوعات التي يناقشها زملاؤه.

قال: سيقرر كل هذا في ساحة المعركة.

وتابع ڤيروذر يدلل بابتسامة ساخرة على وقاحة هؤلاء الجنرالات الروس الذين يسمحون لأنفسهم بمعارضته، هو، ومطالبته ببراهين حول أمور لم يكن مقتنعاً بوجاهتها، بل إنه كذلك أقنع الأمبراطورين بتلك الوجهة. قال: لقد أوقف العدو نيرانه والجلبة المستمرة ترتفع من معسكره دون انقطاع، فماذا يعني ذلك؟ هل يبتعد أم يحول مراكزه؟ إن الاحتمال الأول هو وحده الذي نخشاه.

ثم تابع وابتسامته لا تفارق شفتيه: فإذا افترضنا جدلاً أنه يبتعد وأنه سيتمركز في توراس، فسيوفر علينا الكثير من المتاعب. على كل حال، إن تفاصيل خطتنا حتى أصغر خطوطها وأتفهها تبقى نافذة بدقة.

فسأل الأمير أندريه الذي كان يتحين، منذ زمن طويل، فرصة إظهار مخاوفه وشكوكه: كيف ذلك؟...

وفي تلك اللخطة، استيقظ كوتوزوف فسعل وأجال حوله نظرة دائرية استعرض فيها وجوه الجنرالات وقال: أيها السادة، إن خطة غد، أو الأحرى اليوم لأن الساعة قد جاوزت منتصف الليل، لا يمكن تعديلها. لقد سمعتم تلاوتها وعلينا أن نقوم بواجبنا.

سكت فترة ثم تابع: غير أن لا شيء يضاهي النوم في أهميته قبل أية معركة... فاذهبوا إلى أسرتكم.

www.Maktbah.com

ووقف، فنهض الجميع وانسحبوا. وتبعهم الأمير أندريه وكانت الساعة تشرف على الواحدة.

لم يتمكن الأمير أندريه من الإفصاح عن وجهة نظره في المؤتمر الحربي الذي عقد قبل بدء المعركة، الأمر الذي ترك في نفسه شعوراً عميقاً بالانزعاج. ترى من كان على حق؟ أكان دولغوروكوف وڤيروذر اللذان كانا يحملان لواء فكرة الهجوم ويمتدحانها،أم كوتوزوف ولانغيرون والآخرون الذين كانوا ينتقدون الفكرة؟ لم يكن يعرف! ولكن، أما كان كوتوزوف قادراً على إطلاع الأمبراطور مباشرة على تلك الخطة؟ ألم يكن ذلك التصرف ليبدّل الأمور؟

كان يقول في سرّه: «هل من الواجب التضحية بعشرات الألوف من البشر، ولعله يكون في عدادهم، لإرضاء حفنة من أفراد بطانته المتملقين؟ نعم، حياتي أنا أيضاً، لأنني لا أريد أن أقتل غداً». وفجأة اكتسح مخيلته فيض من الذكريات إزاء فكرة الموت. ذكريات بعيدة أخذت تمر في خياله. رأى نفسه يودع أباه الوداع الأخير ويترك زوجته، وتذكر ليز الحبلى واستعاد فترات حبّها الأول فشعر بعطف عليها وعلى نفسه. كان فريسة اضطراب عنيف لا يستطيع الاستقرار، لذلك خرج من مسكنه الذي كان يشغله نيسـڤيتسكي وراح يذرع الطريق.

ضباب يغطي القرية بردائه الشفاف، وإشعاع هزيل من القمر يخترق ذلك الحجاب فيضفي على الجو طابعاً غامضاً. راح يحدث نفسه: «نعم، غداً، غداً.. غداً قد ينتهي كل شيء من جانبي. غداً ولا شك، بل وبالتأكيد، لأن هاتفاً خفياً يؤكد لي ذلك، سيتسنى لي أن أظهر كفاءتي وقدرتي». تصور المعركة واحتدامها وامتدادها المحزن وارتكاز القتال في نقطة واحدة، وبلبال الرؤساء كلهم وتشوش القادة. وعندئذ، تعرض له الفرصة الذهبية لتحقيق «طولونه» المنشود: وبصوت واضح عرض تفاصيل خطته على كوتوزوف وكذلك على

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ڤيروذر ثم على أسماع الأمبراطورين، وذهل هؤلاء جميعاً بدقة خطته، لكنهم لم يتعهدوا مجتمعين أو فرادى باحتمال نتائجها... وعندئذ، وبعد أن أيقن أن أحداً لن يتدخل في خطته فيعترض عليها أو يدعمها، ترأس سرية، بل جيشاً، وقاده إلى حيث كانت المعركة في أدق المراحل وأخطرها، فأنقذ الموقف وانتصر. وهنا اعترض صوت داخلي قائلاً: «والموت، والآلام؟» لكن الأمير أندريه كان يتتبع خطوط فوزه وخطى انتصاراته. وضع بمفرده خطة المعركة القادمة، رغم أنه لم يكن يحمل أي لقب باستثناء الملحق العسكري بقيادة كوتوزوف، وكان هذا المركز هو كل ذخر لديه، فقد قاد العملية الناجحة. ثم هو نفسه الذي سينتزع النصر من براثن الهزيمة وعندئذ، يقال كوتوزوف من مركز القيادة وتسند هذه إليه، فيصبح القائد هو، پولكونسكي. واعترض الصوت مرة ثانية قائلاً: «وبعدئذ؟ هذا على افتراض أنك لم تقتل أو تجرح عشرات المرات أو تمنى بخيانة منتظرة، وبعدئذ! لست أدري ماذا سيحدث بعدئذ. لا أستطيع ولا أريد معرفة ما سيأتي. لكنني إذا كنت حقيقة أسعى وراء هذا الشيء الذي يطلق عليه اسم المجد، أو الشهرة أو...، فإنني لا أدان لأنني أردته وعملت من أجله. نعم من أجل هذا وحده! لن أعترف لأحد بهذه الحقيقة، ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل إذا كنت لا أحب إلا هذا، المجد والشهرة بين الرجال؟ إن الموت والجرح وفقد أسرتي، كل هذه المصائب لا تخيفني. صحيح أن لدي عدداً كبيراً من الأعزاء وعلى رأسهم أبي وأختي وزوجتي، مع ذلك فإنني مهما بدوت مخيفاً ومنافياً في تفكيري للطبائع البشرية، فإنني مستعد للتضحية بهم دون تردد في سبيل دقيقة مجد، وفي سبيل حب الأشخاص الذين لا أعرفهم والذين لن أعرفهم أبداً... أشخاص مثلهم!» وأصاخ السمع إلى أصوات كان ترتفع في تلك اللحظة من فناء مسكن الجنراليسيم، فأعقب قائلاً: «أشخاص مثل هؤلاء!...».

www.Maktbah.com

في قصر كوتوزوف، بدأ الخدم والتابعون يستعدون للنوم. وكان أحدهم، ولعله الحوذي، يريد إثارة «تيت» طاهي كوتوزوف الذي كان أندريه يعرفه جيداً. سمع السائق يقول: تيت، هه، تيت؟

فأجاب الرجل مستفسراً: ماذا تريد؟

فعاد الأول يقول مازحاً: امض إلى حبيبتك الفتانة!

فأرعد الصوت الآخر وقد طغت عليه أصداء الضحكات المتعالية: ليأخذك الشيطان!

وأردف أندريه في سره: «رغم كل ذلك، فأنا متعلق برغبة الفوز من أجلهم جميعاً، إنني لا أمجد إلا هذه القوة الغامضة، هذا المجد الذي أشعر به عالياً فوق رأسي في هذا الضباب!».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

كانت مجموعة الفرسان التابعة لروستوف تستكشف، في ذلك المساء لمصلحة جيش باغراسيون، فانقسم الفرسان إلى فصيلتين انتشرتا على طول خطوط الجيش الأمامية. وكان روستوف يطوف على فرسانه مفتشاً، يصارع النعاس الذي يثقل جفنيه. كان يميز في الفراغ الشاسع الممتد أمامه، أضواء الجيش الروسي الخافتة، لكنه لم يكن يرى في الرقعة التي يشغلها العدو إلا الظلام الحالك. لم يستطع اختراق تلك الحجب المدلهمة بنظراته. كان يظن تارة أنه رأى أشكالاً سوداء تتحرك وأحياناً يعتقد أنه طالع بنظره نيران العدو المخفية بإحكام. وكان يقنع نفسه بأن هذه المرئيات ليست إلا أوهاماً.

أطبق جفنيه من التعب، وصور له خياله الأمبراطور تارة ودينيسوف وذكريات موسكو تارة أخرى كان يفتح عينيه بسرعة، فلا يرى إلا رأس جواده وأذنيه وأحياناً أشباح الخيالة عندما كان يقترب من بعضهم، بينما ظل الظلام الكثيف يخيم على الأبعاد التي يربض فيها العدو. راح يفكر في سره: «لِمَ لا؟ لعلني إذا قابلت الأمبراطور، حصلت منه على إحدى المهام التي يسندها إلى الآخرين. لعله يقول لي مثلاً! «إذهب واستطلع ما يحدث هناك!» إنه كما يبدو، كثيراً ما يقع نظره على أحد الضباط فيلحقه بخدمته. ولكن ماذا لو جرى لي مثل ذلك؟ كم سأضحي في سبيل حمايته، كم سأبذل لأحدثه بالحقائق وكم سأجهد لأفضح الخونة وأكشف عن المارقين!» ويجسد له الخيال هذه الآمال فيرى نفسه بعين الواقع مشتبكاً مع عدو أو خائن ألماني، فيطرحه أرضاً

www.Maktbah.com

ويضربه في حضرة معبوده الأمبراطور ليبين له مبلغ حبه وتفانيه في سبيل شخصه المبجل. وفجأة أعادته صرخة ثاقبة بعيدة إلى الحقيقة، فانتفض وفتح عينيه.

«اين أنا؟ آه! نعم، في الخطوط الأمامية. إن كلمة السر هي تيمون، أولموتز... يا للضنك ببقاء كوكبتنا في عداد الاحتياط غداً! سأطلب الاشتراك في العمليات. لعل بذلك فرصتي الوحيدة لرؤية الأمبراطور. لقد أزفت ساعة تبديل الحرس. سأقوم الآن بجولة جديدة وبعدها أقدم ملتمسي للجنرال».

انتصب على صهوة جواده وهمز الجواد للقيام بجولته الأخيرة. بدا له الظلام أقل سواداً، فاستطاع أن يرى إلى يساره منحدراً خفيفاً مضيئاً ومن الجانب الآخر تلا مظلماً، بدا لعينيه منتصباً كالجدار القائم. شاهد على ذلك التل بقعة بيضاء لم يتمكن من تحديد نوعها. ترى هل كانت بقعة جرداء يضيؤها القمر، أم ذراعاً من الثلج أم صفاً من المنازل؟ خيل إليه أنه يرى تلك البقعة تتحرك. راح يحلم: «يجب أن تكون هذه البقعة كتلة من الثلج... بقعة، بقعتي... آه! نعم، ناتاشا، أختي وعينيها السوداوين... هل ستدهش عندما أخبرها أنني رأيت الأمبراطور!... ناتاشا... حاولي أن لا تسقطي...».

صاح أحد الفرسان إلى يمينه فجأة، وكان روستوف قد مر به وهو بين النوم واليقظة: إحذر نبالتك من الأدغال.

استيقظ من حلمه فرأى أن رأسه كان يتهدهد فوق ذؤابة الجواد. انتصب على السرج وتوقف قرب الفارس. لقد كان النوم، النوم البريء الذي يثقل عيون الأطفال، يطغي على حواسه.

عاد يحدث نفسه: «هيا، بماذا كنت أفكر؟ لا لا يجب أن أنسى. نعم، كنت أفكر في ما سأقوله للأمبراطور أليس كذلك؟ كلا، إن هذا لن يكون إلا غداً... آه نعم، كنت أفكر في ناتاشا... بقعة، بقعة، بقعة... أية مهمة تنتظرنا غداً؟...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من هذا؟ الفرسان؟... آه! نعم الفرسان ذوو الشوارب. أين يا ترى شاهدت واحداً من هؤلاء الفرسان ذوي الشوارب؟ آه! نعم. كان ذلك في شارع تڤير (Tver) قبالة منزل العجوز غورييـڤ.. يا له من باسل هذا آل: دينيسوڤ!... لكن هذه الأفكار كلها ليست إلا حماقات. المهم هو أن الأمبراطور موجود هنا!... عندما نظر إليّ، خيل إلي أنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يجرؤ على قوله... كلا، بالطبع إنه لم يجرؤ... حماقات كل هذه أيضاً! المهم هو أن لا أنسى... ترى ماذا كان ذلك الشيء المهم الذي كنت أريده؟... ناتاشا، لطخة، لطخة... بقعة...».

وعاد رأسه مجدداً إلى الانحناء فوق حارك الجواد. وفجأة خيل إليه أن هناك من يطلق النار عليه. فصاح منتفضاً: ما هذا؟ ماذا هناك؟ أعمل السيف! أعمل السيف!

وفتح روستوڤ عينيه، وسمع من جانب العدو جلبة قويّة صادرة عن ألوف من الأصوات. فنصب جواده وجواد الفارس القريب منه آذانهما. وفجأة أضيء نور على المرتفع وأعقبه آخر، ولم تلبث النيران أن التمعت على طول الجبهة الفرنسية، بينما ظلت الجلبة تزداد امتداداً واتساعاً. وعلى الرغم من أن روستوڤ لم يستطع أن يميز تلك الأصوات لسبب كثرة عددها، فإن الأحرف التي التقطها أكدت له أنها صادرة عن خناجر الفرنسيين.

سأل الفارس الذي كان إلى جانبه: ما معنى هذا؟ ماذا تظن؟ إنه صادر عن معسكر العدو أليس كذلك؟

فلم يجب الفارس. وعاد روستوڤ يسأله بعد أن انتظر جوابه عبثاً:

ـ ماذا؟ ألا تسمع؟

فأجابه الفارس بتذمر: الله يعلم ما الخبر يا صاحب النبالة.

www.Maktbah.com

قال روستوف ملحاً: إذا استهدينا بموقع العدو، فإن هذه الأصوات صادرة ولا شك عنه!

فقال الفارس بلغته الرعاعية: قد يكون كذلك وقد لا يكون. ليس من السهل معرفة ذلك في الظلام.

تابع يهيب بجواده الذي حاول التراجع أن يقف: هه، كفاك حماقة قف!

كان حصان روستوف نافد الصبر لا يستقر على الأرض. كان ينصب أذنيه ويضرب بقوائمه الأرض ويميل نحو الأضواء. أما الصيحات فقد أخذت تزداد وتتعالى وتذوب في جلبة عامة لا تستطيع القيام بمثلها إلا الألوف من الرجال. وكانت النيران منتشرة في تلك اللحظة على طول خط متناه في البعد، لا شك أنه كان خط العدو الأمامي. واتضحت أخيراً معالم الأصوات واستطاع روستوف أن يتبين فيها هتافاً مؤداه: «ليحيى الأمبراطور، الأمبراطور!» فشعر كأن ذلك الهتاف سوط ينهال على جلده.

قال يحدث الفارس: لا يمكن أن يكون هذا بعيداً، لعله على الجانب الآخر من النهر. أليس كذلك؟

فسعل الفارس بعد أن زفر غاضباً. وكان هذا كل الجواب. وفجأة علا وقع حوافر جياد قادمة، وانبعث من ذلك الضباب الليلي شبح وكيل ضابط ما زال يقترب حتى وصل إلى حيث كان روستوف. قال القادم: يا صاحب النبالة، لقد قدم الجنرالات.

تبع روستوف وكيل الضابط وأذنه تصغي إلى الهتافات والصيحات. واستطاع رؤية مفرزة من الفرسان تقترب؛ ورأى أحدهم يمتطي جواداً أبيض. كان القادمون هم الأميرين: باغراسيون ودولغوروكوف ومعهما أفراد حاشيتهما. لقد جاء الأميران يستطلعان سبب تلك البادرة الغريبة: النيران

twitter @baghdad_library

والأصوات بعد الظلام والصمت المطبق. قدم روستوف تقريره لپاغراسيون وانتظم في عداد الضباط المساعدين يصغي إلى ما يقوله الجنرالان.

قال دولغوروكوف بتأكيد: صدقني إنها مجرد خدعة حربية. إنه بينما ينسحب متراجعاً، يضع جنود المؤخرة ويأمرهم بإبقاء النيران والهتاف على هذا الشكل لإيهامنا بأنه في مكانه. إنها خدعة.

فأجابه پاغراسيون: إنني أشك في هذا القول. لقد رأيتهم هذا المساء فوق هذا النتوء. لا شك أن جيشهم لو كان ينسحب كما تقول لما بقي هؤلاء فوق التل...

وأضاف يسأل روستوف: يا سيدي الضابط، هل لايزال مشاتهم المكلفون حماية الجناحين في أمكنتهم؟

ـ كانوا هناك هذا المساء، أما الآن فلا أستطيع الجزم. فإذا أصدرتم لي سعادتكم الأمر، مضيت مع فرساني لمعرفة ذلك.

توقف پاغرسيون محاولاً تمييز وجه روستوف وسط الضباب وأخيراً قال: حسناً، إذهب واستطلع!

كما تأمرون سعادتكم.

لكز روستوف جواده واستوقف وكيل الضباط ڤدتشنكو واثنين من رجاله وأصدر إليهم الأمر بمواكبته. وانحدر عن المرتفع وراح يقطع المسافة باتجاه الأصوات بأقصى ما تستطيعه الخيول من سرعة. كان يشعر بقلق فرح لذهابه وحيداً مع ثلاثة من الفرسان نحو ذلك الأفق المليء بالضباب، حيث يكمن السر الرهيب، الذي لم يستطلعه قبله إنسان ومن أعلى المرتفع، صاح به پاغراسيون يأمره أن لا يتجاوز النهر الصغير. لكنه أصمّ أذنيه عن الأمر وأوغل في جريه رغم العوائق والأخطار التي كان يقع فيها. كان يرى الدغل أشجاراً والحفر رجالاً. ولما وصل إلى أسفل المنحدر، لم يعد يرى ناراً، سواء

www.Maktbah.com

أكانت النار الروسية أم نيران العدو. لكن الأصوات أخذت تزداد اقتراباً. خيل إليه أنه يرى النهر الصغير في أسفل الوادي لكنه لما اقترب منه، رأى أنه كان طريقاً ممهدة، فأوقف جواده وهو لا يدري أيتبع الطريق أم يسير في الاتجاه المعاكس؟ أيخترق الحقول التي تحاذي الطريق في ذلك الظلام أم يعود إلى نقطة انطلاق أخرى؟ وأخيراً قدر أن سلوك الطريق كان أقل خطراً لأنه كان أشبه باللطخة المضاءة وسط ذلك الضباب، فكان يمكن تمييز الأشباح عليها بأكثر سهولة. صاح بفرسانه: «اتبعوني!» وعبر الطريق محاولاً تسلق التل الذي شاهد الرقباء الفرنسيين فوقه مساء ذلك اليوم.

قال أحد فرسان دينيسوف: ها هو ذا يا صاحب النبالة!

وفي ذلك الضباب انتصب خيال. لم يجد روستوف وقتاً كافياً لتبينه، إذ التمع شهاب ناري تلاه دوي طلقة نارية، ومرت الرصاصة تشق الضباب فوق رؤوس الفرسان الأربعة بزمجرة صاخبة. لم تنطلق رصاصة ثانية، لكن وميض «الكبسولة» فضح رغبة صاحبها. لوى روستوف عنان جواده وجرى بأقصى سرعة راجعاً من حيث أتى. دوت أربع طلقات أخرى خلال فترات متقطعة وعلى مسافات مختلفة، ومرت الرصاصات تصفر وسط الضباب. فأوقف روستوف جواده الذي كان شديد الانفعال كفارسه وراح يسيره الهوينا بخطوات وئيدة كان صوت بهيج يغمغم في أعماقه: «هيا، طلقة أخرى!» وتوقف الرصاص.

وقبل وصول روستوف إلى موقع پاغراسيون ببضع خطوات، هدب حصانه ورفع يده اليمنى إلى حافة خوذته بالتحية. كان دولغوروكوف لا يزال يصر على أن الفرنسيين ينسحبون وأن تلك الأصوات ليست إلا خدعة حرب. كان يقول:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ علامَ تدل هذه النيران؟ فبوسعهم ترك بعض الحراس حتى بعد انسحابهم لمجرد الخداع.

فيجيبه باغراسيون: صدقني يا أمير إنهم لم يذهبوا جميعاً. سوف تتحقق من ذلك غداً صباحاً.

وكان روستوف قد وصل فقال: لا يزال هناك نقطة مراقبة على التل، يا صاحب السعادة. ما زالوا حيث رأيتهم هذا المساء.

كان يرفع يده بالتحية إلى قبعته وهو منحن إلى الأمام مسروراً بما أحدثته تلك المهمة في نفسه فلم يتمكن من كتمان ابتسامته المشرقة.

قال باغراسيون: حسن، حسن جداً، أشكرك يا سيدي الضابط.

قال روستوف: هل تسمحون لي سعادتكم بتقديم طلب لي.

ـ ما موضوعه؟ ستبقى كوكبتنا غداً في عداد الاحتياط، وأنا أرغب في الالتحاق بالكوكبة الأولى.

ـ ما اسمك؟

ـ كونت روستوف.

ـ آه! حسناً، ابق معي كضابط تابع.

وسأله دولغوروكوف: أأنت ابن إيليا أندرييتش؟

لكن روستوف لم يجب عن هذا السؤال بعد أن خاطب باغراسيون قائلاً: إذن؟ هل آمل أن يحقق طلبي؟

سأصدر أوامري!

فقال روستوف في سره: «غداً، يجوز أن أكلف حمل رسالة أو تقرير إلى الأمبراطور. حمداً لله وشكراً!».

وسبب اشتعال النيران في صفوف العدو، وتلك الهتافات المدوية في معسكراته، حضور نابليون بنفسه، الذي راح يستعرض القطعات على ظهر

www.Maktbah.com

جواده، بينما القادة يقرأون على الجنود الكلمة التي وجهها إليهم. فلما رآه الجنود، أشعلوا النيران! نيران مشاعل من التبن وراحوا يركضون وراءه هاتفين: «يحيا الأمبراطور!» أما الكلمة التي وجهها إليهم فكانت كما يلي:

«أيها الجنود!

«إن الجيش الروسي ينتصب الآن أمامنا لينتقم لهزيمة حلفائه النمسويين في أولم. إن وحداته هي نفسها التي هزمتموها في هولا بروون والتي ما زلتم تتابعون خطاها في هزيمتها منذ ذلك اليوم.

«هذه المواقع التي نحتلها ممتازة: سوف يكشفون لي عن جانبهم حين التفافهم حول جناحي الأيمن. أيها الجنود. أيها الجنود! سوف أدير بنفسي كتائبكم. وسأظل بعيداً عن خطوط النار إذا قدرتم بشجاعتكم المعهودة أن تزرعوا الفوضى والارتباك في صفوف العدو. ولكن، إذا رأيت أن النصر بات مهدداً في أية لحظة، فسترون أمبراطوركم يعرض نفسه للرصاصات الأولى، لأن النصر لن يعرف التردد، خصوصاً في هذا اليوم الذي يتوقف فيه شرف الجيش الفرنسي على الانتصار، ذلك الشرف الذي يدعم شرف الأمة الفرنسية بأسرها.

«يجب ألّا تفرغ الصفوف بحجة إبعاد الجرحى. وليكن نصب أعين كل منكم أنه يجب إلحاق الهزيمة بأجراء الإنكليز هؤلاء، الذين يضمرون حقداً على أمتنا!

«سينهي هذا النصر هذه الحملة، وسنستطيع بعدها إقامة معسكرات الشتاء، وستلحق بنا القطعات الجديدة التي تشكل الآن في فرنسا، وعندئذ سيكون الصلح الذي أعقده جديراً بشعبنا وبكم وبي كذلك».

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

لا يزال الظلام يخيم وقد تجاوزت الساعة الخامسة صباحاً. وكان جناحا باغراسيون الأيمن والوسط وقوات الاحتياط في مواقعها لم تتحرك بعد. ويتشكل الجناح الأيسر من الفرسان والمشاة والمدفعية ومنوط بهم مهاجمة الجناح الأيمن للعدو وفقاً للخطة المرسومة، وإرغامه على الاتجاه نحو جبال بوهيميا. وكان دخان المهاجع التي كانت النار تلتهم فيها كل ما كان يلقى إليها به من أشياء غير ذات أهمية، يحرق العيون والوقت ظلام. كان الضباط يتناولون طعامهم بسرعة ويشربون الشاي، والجنود يلتهمون قطع البسكويت ويضربون الأرض بأقدامهم استجلاباً للدفء، أو يحيطون بالمواقد التي كانت تغذي نيرانها أخشاب جدران المهاجع والكراسي والجرائد والعجلات والعلب وكل ما كان يتعذر حمله ولما وصل الأدلة النمسويون الذين كان عليهم إرشاد الوحدات الروسية في زحفها، كان وصولهم إيذاناً ببدء الحركة. لم يكن أحد من أولئك الضباط يمثل أمام أحد قادة الكتائب. فالجنود يغادرون مضاجعهم مسرعين فيحشرون غلايينهم في سوق أحذيتهم العالية، ويلقون بأجربتهم في العربات، ثم يتنكبون بنادقهم ويقفون في صفوف منظمة، والضباط يزررون ستراتهم، ويربطون نطقهم وخرجهم، ويطوفون بالصفوف ليصدروا أوامرهم والخفراء والتابعون يقطرون الخيول إلى العربات ويكدسون الأمتعة ويشدون السيور، والزعماء «كولونيل» والعقداء والضباط الملحقون يمتطون خيولهم

www.Maktbah.com

ويرسمون إشارات الصليب ويعطون تعليماتهم الأخيرة للحوذيين والخفراء الذين سيمكثون في الخطوط الخلفية احتياطاً.

ولم يلبث الصوت الرتيب، صوت ألوف الأقدام التي تضرب الأرض، حتى علا. كانت الصفوف تسير دون أن تعرف الهدف أو أن تميز طبيعة الأرض التي كان الازدحام والدخان والضباب المتكاثف تتحد كلها لإخفائها وحجب الهدف الذي تسعى تلك الصفوف إليه عن الأنظار.

فالجندي محاط في صفوف وحدته كالبحار السجين في حدود زورقه. فهو مهما توغل وابتعد، ومهما ازداد الخطر المحدق به فإن عينيه تقعان أبداً على رؤسائه أنفسهم وزملائهم أنفسهم، وعلى الرقيب الأول إيڤان ميتريش «اياه» وكلب السرية «نوارو»، تميمة الفرقة. وكذلك البحار الذي يجد نفسه أبداً يواجه الصواري نفسها والحبال نفسها والمنظر المألوف دون تبديل. لا يطلب الجنود معرفة الامتداد الذي يجري فيه زورقهم إلا نادراً لكنهم في يوم المعركة، يشعرون جميعهم في قرارة نفوسهم بصوت خطر، يوقظ فضولهم وينبئهم بقرب حلول لحظة حاسمة. وعندئذ، يحاولون اختراق أفقهم المحدود، فيصغون الهمسات ويراقبون الحركات ويطرحون الأسئلة تلو الأسئلة، وهم في مزيد الشوق إلى معرفة ما يدور حولهم.

اشتدت كثافة الضباب حتى أن الجندي لا يستطيع رؤية أبعد من عشر خطوات أمامه رغم أن النهار كان قد انبلج. وبدت الأدغال ونباتات العوسج أشبه بأشجار ضخمة شامخة، والأخاديد المتقاربة أودية سحيقة. وكان خطر الاحتكاك بالعدو والاصطدام به كامناً في كل مكان يميناً وشمالاً. وكانت الرؤية المحدودة تزيد في وقع ذلك الخطر. مع ذلك فقد راحت الوحدات تتسلل عبر ذلك الضباب الكثيف فترة طويلة، وسط تلك الأراضي المجهولة، فتنحدر إلى الأودية وتتسلق المرتفعات، وتسير بحذاء الأسوار والحظائر والبساتين، دون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أن تلتقي الفرنسيين. بينما كانت الوحدات الروسية تتبع ذلك الاتجاه آتية من كل حدب وصوب، تطالع العيون صفوفها في كل لحظة. وحدها تلك البادرة تطمئن الجندي الذي يرى أن عدداً كبيراً من بني قومه يتقدمون معه نحو هدف واحد، هدف يجهلونه جميعاً.

كانوا يتحدثون بين الصفوف قائلين: ها هم جنود روس من كورشك[1].

فيجيب غاضباً: ذلك أنهم عديدون إنهم يعدون بالآلاف يا أخي. لم أجد وسيلة للإحاطة بعددهم أمس عندما أوقدت النيران. وفي الحقيقة، يمكن القول إن المرء يتصوّر نفسه في موسكو!

وقد تأخر رؤساء الوحدات قليلاً عن وحداتهم. كان هؤلاء السادة، كما نوّهنا في جلسة المؤتمر الحزبي، على أسوأ مزاج، شديدي الاستياء لرؤيتهم العمليات في بدايتها، فكانوا ينفذون الأوامر بإخلاص ولا يبالون بمعنويات الجنود. وكان هؤلاء يسيرون بوداعة وابتهاج شأنهم كلما مضوا إلى المعركة وخصوصاً في حالات الهجوم. غير أن معظم القطعات اضطرت إلى التوقف بعد مسير ساعة كاملة في ذلك الضباب الكثيف. ثم اكتسحت الصفوف إحساسات مؤلمة بالفوضى. صحيح أن الإنسان يعجز عن تبيان الأسلوب الذي تتصل فيه تلك المشاعر وتنتقل من فرد إلى آخر، غير أن امتدادها بسرعة مدمرة هائلة، وانتشارها كما تكسح المياه أرضاً منخفضة، أمر مؤكد. ولو أن الجيش الروسي كان وحيداً لا يعضده حلفاء، لكان ممكناً أن يمر وقت طويل قبل أن يصبح ذلك الشعور مؤكداً محققاً وعاماً شاملاً. أو في تلك الأثناء، فقد راح كل من القادة والجنود على السواء، يلقون تبعة هذا الأمر على عاتق أولئك «الألمان البلهاء» وأولئك الملاعين «أكلة النقانق»، بمكر مألوف عند البشر.

---

(١) مدينة جنوبي الأورال. (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ ماذا؟ ألا نتحرك؟ هل الطريق مقطوع؟ أم ترانا وقعنا على فرنسيين؟

ـ كلا، لو كان كذلك لأطلقوا النار علينا ونحن لم نسمع بعد شيئاً.

ـ إذن، ألكي يوقفونا في العراء جروا بنا ركضاً منذ الصباح؟ إن كل هذا نتيجة خطأ أولئك الألمان الملاعين!

ـ لو أن الأمر كان راجعاً إليّ لأرغمتهم على السير في الطليعة، وهاها! لا شك أنهم في أحسن حال في المؤخرة، يلتهمون ما يشاؤون، بينما أوقعونا هنا وبطوننا خاوية!

وزمجر ضابط: اللعنة...! ألن ننتهي من هذا؟ يزعمون أن الفرسان يقطعون الطريق.

فأجابه آخر: ماذا تفعل بمثل هؤلاء الألمان الأغبياء؟ لا يعرفون حتى بلادهم صاح أحد الضباط المساعدين وكان وصل من فوره: من أية فرقة أنت؟

ـ من الثامنة عشرة.

ـ إذن ماذا تفعل هنا؟ كان يجب أن تكون في الطليعة منذ زمن طويل. أما الآن فإنك تتعرض للانتظار حتى المساء.

فقال الضابط وهو يبتعد: هل الأمر على مثل هذا السخف! لا يعرفون أنفسهم ماذا يفعلون.

وبعد ذلك، وصل جنرال وصاح بصوت مرتفع بلغة أجنبية. فقال أحد الجنود وهو يشير إلى الجنرال الذي كان يبتعد: تافا، لافا! ماذا يغني؟ إننا لا نفهم شيئاً. كان يجب قتل هؤلاء السفلة رمياً بالرصاص!

ومن كل مكان كان هناك من يزمجر: كان علينا أن نحتل مواقعنا قبل الساعة التاسعة مع ذلك فإننا حتى الآن لم نقطع نصف الطريق...! ألا ترى هذه العظمة في ترتيبهم وإعدادهم!

حلّ التعب محل العزيمة التي بدأ الجنود بها يومهم، وتطور إلى نوع من

twitter @baghdad_library

الغضب العاجز عن بلوغ مداه، غضب على سخف الأساليب وأخطاء الألمان الفادحة.

ومردّ تلك البلبلة قرار اتخذته القيادة العليا: وجدت أن وسط الجيوش قد أصبح متباعداً عن الجناح الأيمن، فأصدرت الأوامر بإيقاف زحف المشاة، وانتقال الفرسان النمسويين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يحمون الجناح الأيسر، إلى الجناح الأيمن لحمايته، الأمر الذي جعل المشاة يتوقفون وقتاً طويلاً ريثما تمر تلك الموجة الزاخرة من الفرسان الذين يعدون بالآلاف.

كان الجنرال الروسي وفي تلك الأثناء، ثائراً على الدليل النمسوي في مقدمة الجيوش. كان الروسي يرغي ويزبد مطالباً بإيقاف الفرسان ليعود المشاة إلى سيرهم، بينما كان النمسوي يحتمي وراء أوامر القيادة العليا. وخلال ذلك، كانت القطعات متوقفة تفقد شجاعتها، وانقضت ساعة كاملة قبل أن تعاود المشي والنزول إلى أعماق الوادي، حيث الضباب الذي كان قد زحف فوق المرتفعات لا يزال كثيفاً مظللاً. دوت طلقتان ناريتان في مقدمة الجنود، وسط ذلك الضباب، ثم تبعتها طلقات أخرى بدأت غير متتابعة أول الأمر، وما لبثت أن زادت حدة على ضفاف غولدباخ.

لم يتوقع الجنود الروس الالتحام مع العدو هنا، لذلك أخذوا على حين غرة، دون أن يسمعوا عبارة تشجيع واحدة. والأدهى في الأمر أنهم ما كانوا يرون شيئاً أمامهم أو حولهم. اقتنعوا في تلك اللحظة أنهم وصلوا متأخرين، فراحوا يجيبون على نيران العدو بتراخ، فيتقدمون تارة ثم يتوقفون، دون أن يتلقوا أي أمر من القادة الكبار أو بواسطة ضباطهم الملحقين الذين كانوا يتيهون في ذلك الضباب دون التعرف إلى الوحدات التي يريدون الاتصال بها. وهكذا بدأت المعركة بالنسبة إلى الفيالق الأول والثاني والثالث، التي

www.Maktbah.com

انحدرت من هضبة براتزن التي لم يبق فوقها إلا الفيلق الرابع الذي يقوده كوتوزوف بالذات.

بدأت العمليات في الأعماق، كان الضباب كثيفاً، أما على المرتفعات فقد باتت الرؤية واضحة حتى أن المرء كان يستطيع معرفة ما يدور أمامه. لم يكن أحد يعرف إذا كانت قوات العدو الرئيسية كامنة على مسافة ميلين أو ثلاثة أميال كما كان يتوقع الروس، أم أنها تنتظرهم وراء هذا الخط من الضباب الكثيف. نعم، لم يكن أحد يستطيع تحديد ذلك.

أزفت الساعة التاسعة. وبحر الضباب لايزال متلاطماً في الأعماق ممتداً على مسافات شاسعة. أما باتجاه قرية شلاپاينتز حيث كان ناپليون يرقب على مرتفع هناك، محاطاً بماريشالاته، فقد كان منقشعاً تماماً. لقد كانت السماء الزرقاء الصافية تمتد فوقه، وقرص الشمس الأحمر يغمر بإشعاعاته الوردية سطح ذلك البحر الأبيض. لم يكن الجيش الفرنسي برمته، وناپليون بالذات مع كامل أركان حربه على الطرف الآخر من النهر وفي تخوم مستنقعات سوكولينتز وشلاپاينتز، حيث كان يزمع الجيش الروسي وحلفاؤه مهاجمته هناك بعد أن يعدوا له العدة اللازمة، بل كان هنا، على هذا الجانب من النهر، شديد القرب من القطعات الروسية حتى أن ناپليون كان يستطيع بعينه المجردة أن يفرق بين الضابط والجندي، وبين الفارس والرجل.

كان الأمبراطور متقدماً ماريشالاته قليلاً ممتطياً صهوة جواد عربي أشهب، مرتدياً المعطف الأزرق الغامق الذي خاض به حملة إيطاليا. كان يراقب بصمت المرتفعات التي تبدو كأنها ناتئة من خضم من الضباب، والتي كانت القطعات الروسية تتحرك فوقها على البعد. وكان يصيخ السمع إلى لعلعة الرصاص التي انفجرت فجأة في الوادي. لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه الذي كان لا يزال هزيلاً حينذاك، بل ظلت عيناه البراقتان تحدقان إلى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نقطة واحدة. لقد صدق حدسه ووقع ما كان ينتظره. كان جزء من القطعات الروسية قد انحدر إلى الوادي باتجاه المستنقعات بينما راح الجزء الآخر يتهيأ لإخلاء مرتفع پراتزن، الذي كان يريد مهاجمته والاستيلاء عليه. كان يتطلع إلى ذلك المرتفع تطلعه إلى مفتاح العملية الحقة. يرى الوحدات الروسية تسير خلال الضباب شاكية الحراب، فتختفي إحداها في إثر الأخرى في محيط الظلمة الكثيف الرابض في أعماق المنحدر الذي كان يفصل بين المرتفعين المجاورين لقرية پراتزن. وكانت المعلومات التي تلقاها مساء أمس، والضجة التي أطلعه خفراؤه في الخطوط الأولى عليها، وقعقعة العجلات التي سمعها جنوده خلال الليل والحركات الكثيرة المتداخلة التي أمكن تميزها في صفوف الروس، كل ذلك كان يؤكد له أن الحلفاء يعتقدون أنه بعيد عنهم، ويثبت أن الفيلق الذي كان يتحرك قرب پراتزن ليس إلا وسط الجيش الروسي، فتأكد أن هذا الوسط كان شديد الضعف حتى ليعجز عن مهاجمته بنجاح. مع ذلك لم يعطِ الأمر بالبدء بالهجوم.

ذلك اليوم كان يوماً مجيداً بالنسبة إليه، كان يوم تنصيبه الأول أمبراطوراً لفرنسا. اختلس سويعات نوم قليلة ثم نهض بعدها نشيطاً خفيف الحركة. وفي مثل ذلك الاستعداد الفكري المشرق الذي بدا له فيه كل شيء ممكناً وكل شيء ناجحاً، اعتلى بوناپرت صهوة جواده وقصد إلى ساحة المعركة. أما الآن، فقد كان جامداً شاخص العينين إلى تلك المرتفعات التي كانت ظاهرة وراء الضباب وفوقه، ووجهه الجامد يشع بالاطمئنان، وبسعادة العشاق الشباب عندما يجدون تشجيعاً من عشيقاتهم. وكان ماريشالاته منتظمين صفاً وراءه لا يجرؤون على تعكير سكونه. كان ينظر إلى هضبة پراتزن تارة وتارة أخرى إلى الشمس التي كانت تخترق الضباب.

وعندما انقشع الضباب عن الشمس تماماً، وأنارت هذه البرية بضيائها

www.Maktbah.com

الوضاء، خلع ناپليون قفازه عن يده البيضاء، وكأنه ينتظر تلك اللحظة بالذات، لإصدار الأمر إلى ماريشالاته ببدء الهجوم. فأسرع هؤلاء وضباطهم المساعدون في أنحاء مختلفة لإدارة العمليات. لم تمض دقائق معدودة، حتى كانت قوى الجيش الفرنسي الرئيسية تتجه بسرعة نحو هضبة پراتزن التي كانت الوحدات الروسية تخليها باستمرار لتنحدر إلى أعماق الوادي، نحو اليسار!

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

في الساعة الثامنة صباحاً امتطى كوتوزوف صهوة جواده وانطلق نحو پراتزن. وعندما بلغ الفيلق الرابع، الذي يقوده ميلورادوڤيتش الذي جاء يحلّ محل فيلقَي پرزيبيسزوسكي ولانغيرون اللذين كانا في سيرهما المقر، تبادل التحية العسكرية مع جنود اللواء وأعطى الأمر بالمسير دلالة على أنه سيقود هذا الفيلق بنفسه. توقف عند وصوله قرية پراتزن. كان الأمير أندريه في عداد ضباط المساعدين. كان فريسة ذلك النوع من الانفعال الذي يستحوذ على كل من يرى أن الفرصة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر أصبحت وشيكة. كان مقتنعاً بأن يوم «طولونه» قد أزف أو يوم «جسر أركول»[1] ما كان يعرف كيف سيقع ذلك الحدث الذي سيحقق حلمه، لكنه لم يكن يشك قطّ في وقوعه. نسي خطته الاستراتيجية الخاصة التي أصبح تحقيقها مستحيلاً وتبنى خطة ڤيروذر، وهو الذي يعرف المواقع أكثر من أي آخر من مواطنيه الروس. كان في تلك اللحظة يفكر في الصدف التي يمكن أن تعرض، وفي مختلف الخطط التي ستساعده على التحقق من وجهة نظره وسرعة تقديره.

كان الرصاص يلعلع بين فرق غير مرئية في أعماق الوادي تحت الضباب. ففكر پولكونسكي في سرّه: «سوف تتركز المعركة هناك. فليظهر أي عائق ولأرسل على رأس وحدة أو جيش، وعندئذ، سوف أندفع على رأس

(١) ضاحية إيطالية. هزم فيها ناپليون النمسويين متقدماً فرقة القناصة حاملًا العلم. (المترجم).

www.Maktbah.com

الجيش والعلم في يدي، وسأحطم كل ما يظهر أو يعيق سبيلي». أبهجته رؤية الأعلام ترفرف في مقدمة كل قطعة سائرة. غمغم وعينه تحصي الأعلام التي راحت ترى: «لعلني سأرسل حاملاً هذا العلم، وسيتاح لي أن أقود الوحدات تحت لوائه».

وعلى المرتفعات خلّف الضباب الليلي صقيعاً راح يتحول إلى ندى تحت وطأة الحرارة، أما في الوادي، فقد كان البحر على حاله يعرقل السير ويعترض نطاق الرؤية، مما جعل القوات الروسية لا تعرف العدد الذي يهاجمها وموقع المهاجمين على الضبط وفي أعلى الهضبة، كانت السماء داكناء، أما إلى اليمين فقد كان قرص الشمس الضخم واضحاً. وإلى الأمام، على الشاطئ الآخر من خضم الضباب، كانت تقوم هضاب محرشة تشكل مشارف مناسبة تصلح لاختبار العدو فيها. وقد أيد هذا الظن الأشباح التي كانت ترى بشكل غامض نظراً إلى بعد المسافة.

أما إلى اليمين، فكانت قعقعة العجلات وصدى الخطى المتزاحمة ووقع حوافر الخيل وبعض الانعكاسات الضوئية على الحرب، تدل على أن الحرس يشق الضباب التي كانت سرايا كاملة من الفرسان تسير فيه على اليسار وراء القرية.

أما في المقدمة وفي المؤخرة فقد كانت التحركات مقتصرة على المشاة. كان كوتوزوف يراقب زحف القطعات وهو في مكانه عند مخرج القرية. كان يبدو متعباً منهكاً سيئ المزاج. ولما رأى أن المشاة توقف زحفهم دون أن يصدر إليهم الأمر بالتوقف، راح كوتوزوف يناقش الحساب، الجنرال الذي كان يقود فرق المشاة. صاح به: ماذا تنتظر لترتب صفوف لوائك وتجعله يدور حول القرية؟ هيا يا سيدي العزيز، أقصد يا صاحب السعادة، هل يتمدد الجنود على هذا الشكل على طول الطريق عندما ينطلقون نحو العدو؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فأجابه الجنرال: لتعذرني سعادتكم. كنت أفكر في تنظيم الصفوف عند الجانب الآخر للقرية.

قال كوتوزوف وهو يضحك ضحكة خشنة: حقاً؟ إنك تريد أن تكشف جبهتك على مرأى من العدو؟ إن هذا جميل جداً!

ـ لايزال العدو بعيداً يا صاحب السعادة العلية. إن الخطة...

قال كوتوزوف مستنكرً بلهجة غاضبة: الخطة! من الذي قال لك هذا؟... تفضل بالتقيد بما تؤمر به.

ـ كما تأمرون.

وهمس نيسـڤيتسكي في أذن الأمير أندريه قائلاً: إن العجوز يا عزيزي معتكر المزاج.

واقترب ضابط نمسوي في حلة بيضاء، في تلك الأثناء، والريشة الخضراء مغروسة في قبعته، ليقول لكوتوزوف على لسان الأمبراطور إن جلالته يسأل إذا كان الفيلق الرابع قد خاض الحركة.

ودون أن يجيب، التفت كوتوزوف. ووقع نظره صدفة على الأمير أندريه، فهدأت ثائرته، وكأنه أدرك أن ضابطه المساعد لم يكن على علاقة بكل تلك الحماقات. قال لـﭙولكونسكي بلهجة هادئة وهو يغفل عامداً الضابط النمسوي: إذهب يا عزيزي وانظر إذا كان الفيلق الثالث قد اجتاز القرية. قل لضباطه أن يتوقفوا بانتظار أوامري.

ولم يكد الأمير أندريه يتحرك نحو الوجهة التي أوفده إليها حتى رجع فاستوقفه ليضيف مزمجراً بين أسنانه مغفلاً النمسوي دائماً: واسألهم إذا كان الرماة قد أخذوا مراكزهم. استعلم عما يفعلون، عما يفعلون!

أسرع الأمير أندريه للقيام بمهمته. ولما اجتاز الألوية السائرة، استوقف الفيلق الثالث ولاحظ أن أي خط من خطوط القناصة لم يقم بعد على طول

www.Maktbah.com

جبهته ولا لحماية الفيالق المنطلقة. أظهر الكولونيل الذي يقود الفيلق الثالث دهشته للأمر الذي يحمله الأمير. كان يعتقد أن قطعات أخرى يجب أن تتقدمه وأن مرحلتين أو ثلاثاً على الأقل تفصله عن العدو. وكان محقاً في وجهة نظره لأنه لم يكن يرى أمامه إلا امتداداً شاسعاً للسهل الذي يسبح في الضباب. وبعد أن أوعز إليه باسم الجنرال القائد الأعلى، بتلافي الخطأ عاد الأمير أندريه إلى مركزه. كان كوتوزوف في مكانه، وقد استرخى جسمه الضخم على سرج الجواد، وكان يتثاءب مغمض العينين. أما القطعات فكانت هناك متوقفة وأسلحتها عند أقدامها.

قال كوتوزوف وهو يلتفت نحو الجنرال الذي كانت ساعته مفتوحة في يده يتطلع إليها وكأنه يلمح إلى أن لحظة الزحف قد حانت: حسن، حسن. لدينا الوقت الكافي يا صاحب السعادة، لدينا الوقت الكافي!

وعاد يتثاءب من جديد. كانت وحدات الجناح الأيسر كلها قد انحدرت إلى الوادي حسب الخطة المرسومة.

وتجاوبت في تلك اللحظة، وراء كوتوزوف هتافات ترددها أصوات بعيدة أخذت تقترب شيئاً فشيئاً، فاستدل من ذلك على أن الذي توجه إليه تلك التحيات يتحرك بسرعة نحوه مستعرضاً الفيالق. فلما راح جنود كوتوزوف على رأسهم يرددون الهتاف، تراجع هذا قليلاً إلى الوراء وألقى نظرة مستوضحة. شاهد كوكبة كاملة من الفرسان تتجه نحوه مسرعة قادمة من پراتزن. ورأى أن ألبسة أولئك الفرسان غير موحدة. وكان فارسان يهدبان في المقدمة، أحدهما يرتدي حلة سوداء وفي قبعته ريشة بيضاء، يمتطي جواداً محجلاً من أصل إنكليزي، والآخر، في زي أبيض معتلياً صهوة جواد أدهم. كان الأمبراطوران قادمين مع أفراد حاشيتهما. أسبغ كوتوزوف على وجهه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قسمات الجندي العجوز الذي يخضع للقوانين والأنظمة العسكرية وصرخ يأمر الجنود الواقفين: استا... عد!

تغيّرت وضعيته وكذلك أساليبه فأصبحت في لحظة أساليب المرؤوس الذي لا يفكر بل يطيع. وباحترام واضح، اقترب من الأمبراطور يحييه.

ظهرت تلك الحفاوة على غير ما يتمنى الأمبراطور. لكن ذلك الشعور لم يكن إلا سحابة عابرة ظللت وجهه فترة وجيزة ثم تبددت، أشبه ببقية من ضباب خفيف في سماء شديدة الإشراق. بدا الأمبراطور في ذلك الصباح أكثر نحولاً من المألوف، ولعل لانحراف صحته في الأيام الأخيرة دخلاً كبيراً في هذا الشأن. لقد رآه ڤولكونسكي يوم استعراض «أولموتز» وكان على أحسن حال. مع ذلك كان ذلك المزيج من الفتنة الطاغية والجلال متركزاً في عينيه الشهلاوين، وذلك الأسلوب المعبر مرتسماً على شفتيه الرقيقتين. وكان شبابه يطغى على كل هذه الصفات، ذلك الشباب النبيل. صحيح أنه كان أقل هيبة مما كان عليه في أولمتز، فقد كان أكثر ابتهاجاً وحيوية.

احمرّ وجهه بسبب الرحلة القصيرة على الخيل فاستعاد أنفاسه والتفت يتفحص وجوه بطانته التي كانت تضم كل شاب متوقد الوجه محمر مثله. وكان هؤلاء يتحدثون فيما بينهم مبتسمين. وكان بينهم كزارتوريسكي، ونوڤوسيلتسوف والأمير ڤولكونسكي وستروغانوف، وآخرون، وكل منهم طلق المحيا يرتدي ثياباً أنيقة تدل على محتده، وكلهم مبتهجون، على صهوات جياد مطهمة، مجهزة بسخاء، ونظيفة. توقف أفراد الحاشية على مسافة من الأمبراطور الذي لبث وحده إلى جانب زميله النمسوي الأمبراطور فرانسوا. وكان هذا شاباً ذا وجه طويل مشرب بالحمرة، منتصباً فوق صهوة جواده الأصيل، يسرح الطرف على مهل حوله وعيناه تشعان قلقاً. نادى أحد مساعديه، وكان مثله في ثياب بيضاء وطرح عليه سؤالاً. فقال الأمير أندريه

www.Maktbah.com

في سره: «لا شك أنه يسأله عن ساعة مغادرتهم القصر»، ولم يستطع كتمان ابتسامة طافت على شفتيه حينما تذكر مقابلته الشخصية معه. كان أفراد حاشية الأمبراطورين منتخبين من أشهر الفرسان الروس والنمسويين المنخرطين في أسلحة الجيش. وكان بعض فرسان الركاب ممسكين بأعنة خيول البدل، وهي من أهم أصناف الجياد التي تحفل بمثلها اصطبلات الأمبراطور.

تشبه تلك الكوكبة، المؤلفة من أهم الفرسان النفحة المنعشة التي تغمر الحقول وتدخل إلى غرفة كئيبة عبر النافذة المفتوحة. كان لها أثر عميق في نفوس أعضاء حرب كوتوزوف المتشائمين، الذين شعروا بنفحة من الشباب والثقة بالنجاح تتغلل في دمائهم.

سأل الأمبراطور ألكسندر والجنراليسيم كوتوزوف بصوت حي وهو يلقي نظرة امتثال على الأمبراطور فرانسوا: هه يا ميخائيل لاريونوڤيتش، ألا تبدأ؟

فأجاب كوتوزوف وهو يحييه تحية عميقة؟ إنني أنتظر يا صاحب الجلالة.

قطب ألكسندر حاجبه وانحنى فوق الجواد مدللاً على أنه لم يسمع الجواب. فكرر كوتوزوف الذي كانت شفته السفلى ترتجف بشكل غير عادي لم يغب عن دقة ملاحظة الأمير أندريه: إنني أنتظر يا صاحب الجلالة. فتركيز القطعات لم ينته بعد يا صاحب الجلالة. فهم الأمبراطور، لكن الجواب بدا على غير ما كان متوقعاً. فهز كتفيه المقوستين وألقى نظرة على نوڤوسيلتسوف وكأنه يشكو إليه كوتوزوف، وأردف: ولكن يا ميخائيل لاريونوڤيتش، لسنا في ساحة المناورات في تساريتسينو حيث ينتظر المرء هناك إن لم يتم تجهيز كل القطعات لبدء العرض.

عاد ألكسندر مجدداً يختلس النظر إلى الأمبراطور فرانسوا وكأنه يدعوه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

للانتباه أقله إذا كان لا يرغب في المشاركة في الحديث. لكن الأمبراطور فرانسوا كان يجيل ناظريه بشرود دون أن يسمع شيئاً.

قال كوتوزوف بصوت قوي يبلغ مسامع الأمبراطور: إذا كنت لا أبدأ يا صاحب الجلالة فذلك لأنني في الحقيقة لست في ساحة المناورات ولا في عرض عسكري.

ومجدداً عادت الارتجافة الخفيفة تقلص تقاطيع وجهه.

وتبادل ضباط البطانة نظرات تنبئ باللوم والانزعاج. كانت وجوههم تقول: «مهما كان عجوزاً مسناً، كان يجب ألّا يتحدث بهذه اللهجة، كلا، ما كان يجوز له ذلك».

بدأ الأمبراطور يتفحص بدقة وجه كوتوزوف، منتظراً منه المزيد من التفسير. لكن هذا كان منحنياً بكل احترام يبدو وكأنه ينتظر بدوره. وساد الصمت حوالى دقيقة.

تابع كوتوزوف بعد أن استعاد طابع الجندي القديم الذي لا يعرف غير الطاعة دون مناقشة: على كل حال، إذا كنتم جلالتكم تأمرون...

ولكز جواده ليصدر الأمر بالهجوم إلى سيلورادوڤيتش.

وتحركت الكتل البشرية من جديد. تحرك لواءان من فيلق نوڤغورود ليمر أمام الأمبراطور وما لبث أن تبعهما لواء من فيلق ابشيرون. وبينما كان هذا اللواء يسير تحت أنظار الأمبراطور وحاشيته، انقض ميلورادوڤيتش على صهوة جواده، بوجهه المحمر، دون معطف، تزين صدره الأوسمة، والريشة الفاخرة الضخمة تنبت من قبعته، وأوقفه فجأة أمام الأمبراطور وهو ينحني محيياً بحركة رشيقة.

قال له ألكسندر: ليحفظك الله يا جنرال!

فأجاب هذا بمرح لم يمنع أفراد الحاشية من الابتسام ضاحكين من

www.Maktbah.com

ركاكة لغته الفرنسية: يا صاحب الجلالة، سنقوم بكل ما في وسعنا يا صاحب الجلالة!

لوى ميلورادوڤيتش عنان جواده بحركة مفاجئة وتوقف وراء الأمبراطور على بعد عدة خطوات، أما لواء الجنود، فمرّ أمام العاهل يستخف أفراده الفرح لوجوده، وهم يسيرون بخطى عسكرية تثير الإعجاب.

نسي ميلورادوڤيتش وجود الأمبراطور فصاح بجنوده: هيا يا شجعاني، أظهروا مقدرتكم من جديد، إنها ليست أول مرة!

كان صوت الرصاص المتطاير وقرب وقوع المعركة، بالإضافة إلى جنوده البواسل الذين خاض معهم معارك سوڤوروڤ من قبل، قد أثارت حميته واندفاعه حتى نسي كل ما حوله.

وصاح الجنود يرددون: سنعمل ما في وسعنا!

إثر ذلك الهتاف المدوي غير المتوقع الذي انبعث من مئات الحناجر شبّ جواد الأمبراطور. كان هذا الجواد الذي اعتاد الأمبراطور ركوبه في الاستعراضات في روسيا، يحمل سيده الآن إلى ساحة المعركة ويحتمل لكز مهماز قدمه اليسرى، فينصب أذنيه عند سماع أصوات الطلقات النارية كما كان يفعل في ساحة مارس (ساحة العرض)، دون أن يعرف شيئاً عما تعنيه تلك الطلقات وجواره مع حصان الأمبراطور فرانسوا. كذلك فقد كان كل ما كان فارسه يفكر فيه ذلك اليوم أو يقوله أو يشعر به، غير ذي أهمية بالنسبة إليه.

التفت ألكسندر نحو أحد خلصائه وأشار إلى لواء أبشيرون الباسل وأسر له شيئاً وهو يبتسم.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر

تبع كوتوزوف ومعه ضباطه المساعدون الفيلق سيراً على الأقدام وفي مقدمهم حاملو الغدارات. وبعد اجتياز خمسمائة متر، توقف قرب منزل مهجور يبدو أنه كان خاناً قبل أن يهجره أصحابه. وكان ذلك المنزل قائماً عند ملتقى طريقين ينحدر كلاهما من الهضبة وتغطيهما الفرق الزاحفة في تلك الأثناء.

أخذ الضباب ينقشع وأصبح بالإمكان رؤية قطعات عدوة على التل المقابل في غير وضوح، على بعد نصف مرحلة. وازدادت طلقات البنادق وضوحاً في الجهة اليسرى المطروقة من قبل الجنود السائرين إلى الهدف. تبادل كوتوزوف بضع كلمات مع الجنرال النمسوي. وكان الأمير أندريه متخلفاً قليلاً يرقبهما بانتباه. طلب من أحد زملائه الضباط أن يعيره منظاره. وصاح: انظروا، انظروا.

وأشار بيده ليس إلى الأبعاد البعيدة بل إلى أسفل الهضبة التي كانوا عليها وأضاف: ها هم الفرنسيون!

تنازع المنظار جنرالان وعدد من الضباط المساعدين، وتبدلت أسارير وجوههم كلهم وظهر الخوف على قسماتهم. كان العدو الذي اعتقدوا أنه بعيد عنهم منتصباً أمامهم فجأة، وكانت الأصوات المتداخلة تقول: أهو العدو؟... مستحيل!... لكن بلى، انظر، إنه هو... ما معنى هذا؟...

وبالعين المجردة تمكّن الأمير أندريه أن يرى فيلقاً كبيراً من الفرنسيين

www.Maktbah.com

يتقدم للقاء لواء أبشيرون على أقل من خمسمائة خطوة من المكان الذي وقف فيه كوتوزوف.

قال الأمير أندريه في سره: «ها إن الدقيقة الحاسمة قد أزفت!» لكز جواده واقترب من كوتوزوف. وهتف: يا صاحب السعادة العلية، يجب إيقاف لواء أبشيرون!

كان المشهد كله في تلك اللحظة وسط سحابة كبيرة من دخان البارود. ولعلع الرصاص قريباً جداً. وفجأة ارتفع صوت على مسافة خطوتين من الأمير أندريه يصرخ بذعر: لقد قضي عليها أيها الشباب!

كان ذلك الصوت أشبه بالأمر حتى أن كل من سمعه لم يلبث أن لاذ بالفرار.

وقع ازدحام متزايد عكسيّ، متجه إلى حيث استعرض الأمبراطور الجنود الذين مروا أمامه منذ خمس دقائق. كان يستحيل إيقاف ذلك السيل الجارف بل يستحيل أن يتفادى المرء الانقياد إليه. أما ڤولكونسكي فكان يجهد على عدم البقاء في المؤخرة ويجيل حوله نظرات حيرى دون أن يعرف ما يجري. أما نيستـڤيتسكي، فكان غاضباً ملتهب الوجه خارجاً عن طوره، يصيح بكوتوزوف قائلاً إنه إذا لم يتراجع فإنه سيسقط في يد العدو. غير أن كوتوزوف لم يبارح موقفه، ولم يجب. بل أخرج منديله من جيبه ليمسح الدماء التي كانت تلطخ وجهه. فشق الأمير أندريه لنفسه طريقاً محاولاً الوصول إليه.

سأله وهو لا يكاد يسيطر على ارتجافة ذقنه من الانفعال: هل أنت جريح؟

فأجاب كوتوزوف: الجرح ليس في وجهي بل هنا!

وأشار بيده إلى الجنود الفارين بينما كانت يده الأخرى تمسح الدم بالمنديل. فصاح: أوقفوهم!

لكنه اقتنع فوراً باستحالة تنفيذ ذلك الأمر، فهمز جواده محاولاً بلوغ

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجانب الأيمن. غير أن موجة أخرى من الهاربين اكتسحته وأجبرته على العودة إلى الوراء.

بدأ هروب الجنود جماعات جماعات بلغ من كثافتها أن كل من يقع في سبيلها كان مصيره السحق إذا حاول المقاومة. كان أحدهم يصيح: «انج بنفسك، أسرع تحرك، ماذا تنتظر؟» وآخر يطلق النار في الفضاء وهو مدبر وثالث يضرب حصان كوتوزوف. فلما استطاع هذا الأخير ومن بقي معه من معاونيه، وكان عددهم قد تقلص إلى أقل من النصف، بمعجزة خارقة أن يتخلصوا من ذلك السيل الجارف، راحوا يستهدون بقصف المدافع القريب الذي كان يدوي في الجانب الأيسر.

وكان پولكونسكي يسعى بكل ما أوتي من قوة أن يلحق بكوتوزوف. لاحظ وهو في سبيل التخلص من الازدحام، مدفعية روسية تقصف حشداً فرنسياً لا يزال يهاجم مواقعها. كان عش المدفعية مقاماً في منتصف المسافة بين السفح والقمة. وكان الدخان يعلو في السماء كثيفاً. وفي الأعلى، شاهد فيلقاً من المشاة متوقفاً لا يحاول مدّ يد العون إلى المدفعية ولا يلتحق بالهاربين إلى المؤخرة. دفع الجنرال الذي كان يقود ذلك الفيلق، جواده نحو كوتوزوف الذي كان مساعدوه لا يتجاوز عددهم الأربعة، وكلهم ممتقعو الوجوه ينظرون بعضهم إلى بعض بصمت.

صاح كوتوزوف منهكاً وهو في أقصى درجات الإعياء: أوقف هؤلاء السفلة!

وأشار بيده إلى الهاربين. غير أن زخات من الرصاص تساقطت في تلك اللحظة على الفيلق الجامد وعلى كوتوزوف وحاشيته وكأن الغاية منها الاستهزاء بالأمر الصادر. كان الفرنسيون الذين يهاجمون عش المدفعية، قد شاهدوا ذلك الفيلق أثناء هجومهم، فجعلوا منه هدفاً لنيران بنادقهم. قبض

www.Maktbah.com

الجنرال على فخذه وتساقط عدد من الجنود. أما حامل العلم، فقد أفلت العلم من يديه، فترجح وهوى فوق بنادق الجنود الذين حوله. وانطلقت رصاصات أخرى دون أن يصدر أي أمر إلى الفيلق المنتظر.

زمجر كوتوزوف بلهجة يأس: آوه! أوه!

ثم أدار نظره حوله وهمس بصوت مرتعد صادر عن اقتناعه بعجزه وهو في شيخوخته: ڀولكونسكي، ڀولكونسكي، ما معنى هذا؟

وأشار بإصبعه إلى الفيلق المبعثر والعدو الزاحف.

بالكاد أنهى كوتوزوف جملته حتى كان ڀولكونسكي يقفز على صهوة جواده وقد تبلل بدموع الخجل والغضب، فاندفع نحو العلم يحمله وصاح ملء رئتيه: إلى الأمام أيها الفتيان!

فكر وهو يمسك بسارية العلم: «ها هي ذي اللحظة الحاسمة!» كان يسمع أزيز الرصاص حول رأسه بغبطة وابتهاج.

صاح من جديد: هورّا!

وعلى الرغم من ثقل العلم الذي كان يربكه، كان متأكداً أن الفيلق كله سيتبعه.

لم يكد يجتاز بضع خطوات منفرداً حتى لحق به جندي ثم تبعه آخر وبعدئذ انحدر الفيلق كله وكأنه سيل يصخب منحدراً نحو الأعماق. وبدأ الجنود يلقون صرخات الحرب ويعدون ولم يلبثوا أن تجاوزوه. ولما كان العلم يترنح بين يديه، فقد اقترب أحد صف الضباط ليأخذه منه. لكنه قتل على الفور. فعاد الأمير يجر العلم من ساريته ويتابع الزحف مع الفيلق.

كان يرى رجال المدفعية الروس أمامه وقد ترك بعضهم مدافعه بينما استمر الآخرون يطلقونها ورأى الفرنسيين يستولون على المدافع فيحولون اتجاهها ليطلقوها على رجاله. لم يبق بينه وبين عش المدفعية سوى عشرين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خطوة، والرصاص يلعلع حول رأسه بينما الجنود يزمجرون حوله ويسقطون. لكنه لم يكن مبالياً بكل هذا. كان كل همه منصرفاً إلى المدفعية. تبين مدفعياً أحمر الوجه وعلى رأسه قلنسوة مائلة إلى الجانب، يتنازع ملكية جهاز تفريغ المدفع مع جندي من الأعداء. كانا باديي الغضب، لا يدركان شيئاً مما يفعلان.

تساءل الأمير أندريه: «ماذا يفعلان؟ لماذا لا يفر «الأحمر» ما دام لم يعد يملك سلاحاً؟ ولماذا لا يخرق الفرنسي صدره بحربته؟ لو أن الفرنسي فكر في حربته لما وجد الآخر متسعاً للفرار».

أقبل فرنسي آخر في تلك اللحظة، وحربته على فوهة بندقيته، واقترب من المتخاصمين. كان مصير «الأحمر» الذي لم يكن حتى تلك اللحظة يعرف ماذا يفعل، يحاول بكل طاقته تخليص الجهاز من يد خصمه، لكن الأمير أندريه لم ير كيف انتهى النزاع. أحس بأنه تلقى على رأسه ضربة من عصا أهوى بها بعض من حوله بكل ما في طاقة البشر من قوة. لم يكن الألم شديداً، لكن ما أثاره وأزعجه، كان انصرافه بسبب تلك الضربة عن متابعة المشهد الذي كان يرقبه.

قال محدثاً نفسه: «ما هذا؟ أأسقط؟ أتخونني رجلاي؟» وهو على ظهره من فوق الجواد. عاد ففتح عينيه آملاً أن يتابع النظر إلى القتال العنيف الدائر بين الفرنسيين ورجال المدفعية، متعطشاً إلى معرفة ما إذا كان «الأحمر» قد قتل واستولى على «البطارية» أم لا. لكنه لم يعد يرى شيئاً. لم يكن فوق رأسه إلا السماء، سماء غائمة ولكن شديدة الارتفاع، تخفق على أديمها غيوم دكناء. فكر في نفسه: «يا للهدوء، يا للجلال، يا للسلام! يا له من فرق شاسع بين سرعتنا المجنونة وسط الهتافات، والغضبة السخيفة التي استولت على رجلين يتنازعان عصا تنظيف المدفع، وبين مشية الغيوم البطيئة على أديم هذه السماء

www.Maktbah.com

اللامتناهية! كيف لم ألاحظ هذا حتى اليوم؟ كم أنا سعيد لأنني اكتشفت ذلك أخيراً! أجل، إن كل شيء غرور وعدم، كان كذباً ونفاقاً باستثناء هذه السماء التي لا تحدها حدود. لا يوجد شيء مطلقاً، أي شيء، باستثناء هذا... ولعل هذا المشهد أيضاً هو ومضة خداعة، لعله لا يوجد شيء إطلاقاً، باستثناء السكون والراحة».

twitter @baghdad_library

الفصل السابع عشر

لم يدخل الجناح الأيمن المعركة، وقد أزفت الساعة التاسعة، رغم إلحاح دولغوروكوف ومطالباته. كان پاغراسيون لا يشاطره الرأي، لكنه يريد رفع المسؤولية عنه. لذلك عرض عليه أن يرسل من يأتي بالأوامر من لدن القائد الأعلى. هناك مسافة لا تقل عن ثلاثة أميال تفصل بين الجناحين. فإذا لم يقتل الرسول، وهو احتمال ممكن، وإذا استطاع بلوغ مكان الجنرال القائد الأعلى، وهو أمر شديد الصعوبة، فإنه لا يمكن أن يعود إلى حيث كان الجناح الأيمن إلا عند المساء. ولم يكن پاغراسيون يجهل ذلك.

راح يجيل نظرات كئيبة في ضباط حاشيته، فاجتذب انتباهه وجه روستوف المشع بالانفعال والأمل. فانتقاه ليقوم بالمهمة المطلوبة.

سأل روستوف ويده لا تزال على حافة خوذته بالسلام: وإذا لاقيت صاحب الجلالة قبل التقائي الجنرال القائد الأعلى؟

فأجابه دولغوروكوف دون أن يتيح لپاغراسيون مجالاً للرد: يمكنك أخذ الأوامر من جلالته.

لقد نال روستوف قسطه من الراحة عندما انتهت نوبته حوالى منتصف ليلة أمس، فكان يشعر بالراحة والاطمئنان، ممتلئاً حماسة مؤمناً بحسن مصيره، وباختصار، كان في عقلية تجعل كل شيء ميسوراً في نظره.

تحققت كل رغباته في ذلك الصباح. فثمة معركة ضارية على وشك الاندفاع وسوف يساهم في خوضها، وها هو ذا تابع لواحد من أكثر الجنرالات

www.Maktbah.com

بسالة، وأخيراً ها إنه يكلف مهمة إلى كوتوزوف، لعله يقابل فيها الأمبراطور. كان الصباح جميلاً وجواده ممتاز، نفسيته مبتهجة. فما إن تلقى الأمر، حتى اندفع بجواده مبتعداً. وبعد أن حاذى في جريه جيش باغراسيون الجامد، بلغ المكان الذي كان فرسان أوڤاروف يرابطون فيه استعداداً لاشتراكهم في ا لعمليات العامة. ولما تخطى هؤلاء، طرقت أسماعه ضجة مبهمة ما لبثت أن توضحت، فإذا هي قصف عنيف من المدفعية تصحبه لعلعة تحدثها طلقات البنادق. ويزداد القصف والرصاص وضوحاً كلما ازداد اقتراباً.

كان الإرعاد مستمراً فوق تلال پراتزن في ذلك الصباح الهادئ الذي تعكره انفجارات متباعدة، إرعاد مرعب تساهم فيه المدافع والبنادق، فتجعل من الجو جحيماً. وكانت أدخنة الانفجارات تتوالى على طول سفح الهضبة، بينما الغيوم الكثيفة التي تخلفها طلقات المدافع تتناثر يختلط بعضها ببعض. وكان لمعان الحراب وسط ذلك الدخان يدل على كتل المشاة المتحركة، أما الخطوط الدقيقة التي كانت تتخللها، فقد كانت تدل على مكان المدفعيين وصناديق ذخيرتهم الخضراء.

ولكي يكوّن فكرة عن المعركة، أوقف روستوف جواده برهة. لكنه أخفق في مسعاه. كانت كتل المخلوقات تتحرك وسط الأدخنة وستائر من الفرق تنتشر في المقدمة وفي المؤخرة. ولكن من كان أولئك الجنود؟ وإلى أين كانوا ذاهبين؟ ماذا كانت نياتهم؟ يستحيل معرفة ذلك. لكن هذا المشهد لم يثبط عزيمته بل على العكس، أضفى عليه مزيداً من الشجاعة والعزم. كان يهيب بالانفجارات قائلاً: «كرر! كرر! بمزيد من القوة! بمزيد من القوة!».

لكز جواده فبلغ به جانب الجبهة الذي كان الجنود فيه قد بدأوا بالمساهمة في المعركة.

twitter @baghdad_library

وتساءل في سرّه: «ماذا سيحدث هناك؟ لست أدري. مع ذلك فأنا واثق أن كل شيء سيكون على ما يرام».

تجاوز فيلقاً نمسوياً ووصل إلى المراكز التي يحتلها جنود الحرس. لكن هؤلاء كانوا يخوضون المعركة عند وصوله.

فكر في سره: «ذلك أفضل! سوف أشاهد المسألة عن قرب».

سار في محاذاة الخط الأول تقريباً، فوقعت عيناه على عدد من الفرسان ظهروا في تلك اللحظة. تبين أنهم كانوا بعض رماحي الحرس العائدين من المعركة مفككي الصفوف. ولما مروا بجانبه، رأى بوضوح أن أحدهم مغطى بالدم. فقال يحدث نفسه: «ماذا يهم!» ولما قطع بضع مئات من الخطوات، شاهد مفرزة كبيرة من الفرسان، كانت ثيابهم البيضاء تتعارض بشدة مع ألوان جيادهم. بدأ ظهور تلك المفرزة عن يساره وقد انتشر أفرادها على خط طويل يقطع الاتجاه الخلوي الذي كان يسير فيه، ولم يلبثوا أن اندفعوا نحوه. وكان روستوف يرغب في تجنب الاصطدامات ليقوم بمهمته، لذلك أرخى لجواده العنان، فراح هذا يسابق الريح.

لكن الفرسان بدورهم قاموا بحركة مماثلة حتى إن بعضهم راح ينهب الأرض نهباً بجواده. وأصبح وقع الحوافر أكثر وضوحاً وصليل الأسلحة قريباً وراءه. بل إنه أخذ يتبين أشكال الفرسان واتضحت معالم وجودهم. عرف فيهم فرسان الحرس الذين كانوا يقومون بهجوم معاكس ضد الفرسان الفرنسيين.

لم تكن جيادهم مطلقة الأعنة، وازدادت سرعتهم. سمع روستوف ضابطاً يصيح: «هدباً سر!» ورأى الفرسان يطلقون الأعنة لخيولهم، فتندفع هذه وكأن بطونها تلامس الأرض. وخشي روستوف أن تطأه سنابك الخيل

www.Maktbah.com

أو أن تقتحمه في هجومها. فراح يحث جواده على طول امتداد خط هجومهم حتى إنه لم ينج من الاصطدام بهم إلا بأعجوبة.

كان آخر الفرسان من الحرس الراكب، وهو عملاق، ذو وجه منقوش بالجدري، يعلو وجهه الغضب لمرأى هذا الفارس الذي جاء يعرض نفسه للسقوط بين حوافر جواده. وكانت نهاية روستوف حتمية، وقد شعر بضآلته إزاء هؤلاء الفرسان العمالقة، لولا أنه بقي محتفظاً ببداهته، فأهوى بسوطه بضربة قوية على وجه الجواد المندفع، الذي يعتليه العملاق. فشب الحيوان على قائمتيه وأرخى أذنه وأدار وجهه. لكن الفارس لم يمهله، بل همزه بشدة، فعدا على أحسن ما كان عدواً، ممدود العنق مشرع الذيل، لكن روستوف كان قد نجا.

ما كاد فرسان الحرس يبتعدون عن روستوف حتى سمع هذا الأخير هتافات قريبة. ولما استدار، رأى أن صفوفهم الأولى قد اشتبكت بصفوف العدو، ذوي شعارات الكتف الحمراء. ودّ لو يتابع مشهد المعركة، لكن مدفعاً انطلق في تلك اللحظة وتبعه آخر، وعلت سحب الدخان فحجبت الفرسان عن أنظاره. تردد فترة وهو بين راغب في الانضمام إلى ذلك الهجوم ومحجم عنه. كان هجوماً عنيفاً مستميتاً تجلت فيه البسالة النادرة، حتى إن الفرنسيين أنفسهم لم يسعهم إلا الإعجاب بأعدائهم الفرسان. ولقد علم بعدئذ أن كل أولئك الميامين الأبطال، زهرة الفرسان وزينتهم، كل أولئك الشبان المتأججة حماستهم، قد هلكوا في تلك المعركة باستثناء ثمانية عشر فارساً.

فكر روستوف في سره: «لمَ أغبطهم؟ سوف يأتي دوري ولعلني أجد فرصة مؤاتية أشاهد فيها الأمبراطور للحظة خاطفة!».

وتابع طريقه، فلما اقترب من الحرس الراجل، لاحظ من تعابير وجوه الضباط التي يمتزج فيها الجلال بالعطف والخشونة العسكرية، أنهم كانوا

twitter @baghdad_library

هدفاً لنيران مدفعية العدو. لقد كانت تعابير الوجوه أبلغ في معانيها من أصوات القنابل وأزيز الرصاص المتطاير فوق الرؤوس.

وبينما كان يمر وراء إحدى الفرق، سمع بعضهم يناديه: روستوف.

أجاب دون أن يعرف صوت بوريس: ماذا هناك؟

فقال بوريس وابتسامة السعادة التي تنطبع على وجوه الشبان الذين خاضوا نيران المعركة للمرة الأولى، مرتسمة على وجهه: هه، ها نحن أولاء في الخطوط الأولى!

توقف روستوف وقال: حقاً! وماذا بعد؟

فقال بوريس وهو شديد الانفعال: لقد دحرناهم!

وفجأة أراد أن يثرثر. فبدأ يقص عليه نبأ فيلق الحرس الذي ما كاد رجاله يبلغون الأماكن المخصصة لهم حتى شاهدوا جنوداً آخرين يحتلونها. لقد ظنوا بادئ الأمر أنهم نمسويون. لكن أولئك الجنود الغرباء أمطروهم وابلاً من قذائف المدفعية. عندئذ أدركوا أنهم إزاء العدو، ورأوا أنفسهم بغتة في الخطوط الأولى وهم الذين ما كانوا يتوقعون لقاء العدو... لكن روستوف لم ينتظر نهاية القصة، بل همز جواده ومضى. صاح به بوريس: إلى أين؟

ـ عندي مهمة إلى جلالته!

وخيل إلى بوريس أنه يقول إلى سعادته، فقال: ها هو ذا.

وأشار إلى الغراندوق الذي كان على مسافة مائة خطوة منهما، مرتدياً خوذة الفرسان وسترتهم، مقطب الحاجبين، مرفوع الكتف، يصرخ محدثاً أحد الضباط النمسويين، الذي كان شاحب الوجه في ثوبه الأبيض.

ـ لكن هذا هو الغراندوق! إن مهمتي محصورة بين الأمبراطور والجنرال القائد الأعلى.

وهم بالابتعاد، لولا أن أسرع بيرج من الجانب الآخر، وكان على مثل

انفعال بوريس وحماسته. صاح وهو يريه رسغه الملفوف بمنديل تخضب بالدم: كونت، كونت، لقد جرحت في يدي اليمنى، مع ذلك فقد لبثت في الصف. إنني أمسك سيفي بيدي اليسرى يا كونت. لقد كان كل آل «فون بيرج» أبطالاً في أسرتي.

أضاف بيرج كلمات أخرى، لكن روستوف لم يسمعها لأنه كان قد ابتعد فعلاً.

وبعد أن اجتاز قفراً خالياً، قرر الابتعاد عن الصفوف الأولى ليتجنب الوقوع في طريق هجوم جديد. راح يسير على طول جبهة الاحتياطي من القطعات، مبتعداً عن المكان الذي كانت المعركة فيه على أشدها. وفجأة، رأى أمامه، على مؤخرة الفرق الروسية؟ رأى العدو يصلي الجنود الروس ناراً حامية. تساءل: «ما معنى هذا؟ هل التف العدو حولنا؟ مستحيل!» وارتعد فجأة خوفاً على مصير المعركة. وأردف يقول لنفسه: «مهما بلغ الأمر، لا يمكن الإفلات منه! يجب أن أكتشف الجنرال القائد الأعلى هنا، وإذا كان كل شيء قد فقد وانتهى. فإن واجبي يدعوني إلى الموت مع الآخرين».

في تلك اللحظة كان قد بلغ حدود قرية پراتزن حيث كانت تتزاحم أعداد هائلة من مختلف القطعات الفارة المتقهقرة دون نظام. وكلما توغل في السير ازداد شعوره القاتم بالنهاية المحزنة.

سأل في طريقه بعض الجنود الروس والنمسويين الذين كانوا يقطعون الطريق لكثافة أعدادهم: ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ على من تطلق النار؟

فأجابه الفارون بالروسية والألمانية والتشيكية، وهم لا يدرون من أمرهم شيئاً: الشيطان وحده يعرف! لقد قضي علينا! لقد فقدنا كل شيء!

وصاح أحدهم: الموت للألمان!

ليأخذهم الشيطان، أولئك الخونة!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بينما غمغم ألماني في لغته: إلى الشيطان هؤلاء الروس!

كان بعض الجرحى يجرون أنفسهم على جانبي الطريق، الشتائم والصيحات والزمجرات تختلط بعضها ببعض فترتفع عنها جلبة تصم الآذان. وكان صوت البنادق قد خبا. ففهم روستوف أخيراً أن تلك الطلقات كانت متبادلة بين الروس والنمسويين حلفائهم!

فكر روستوف: «ما معنى كل هذا؟ وهنا، حيث يمكن للأمبراطور أن يراهم بين لحظة وأخرى؟... لا يمكن ذلك... إن هؤلاء ليسوا إلا عصبة من السفلة... لأسرع في الابتعاد عنهم...».

لم يفكر إطلاقاً في هزيمة ساحقة يصاب بها الروس. شاهد القطعات الفرنسية متمركزة على هضبة پراتزن، ورأى المدفعية العدوة منصوبة تصب وابل قذائفها على مواطنيه، غير أنه لم يفكر في الهزيمة. كانت مهمته محصورة في إيجاد القائد الأعلى، فكان كل همه منحصراً في تلك المهمة، ولم يكن مباحاً له أن يقدر الواقع بل إنه لم يكن يريد ولا يستطيع مجابهة ذلك الواقع.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

توقع روستوف أن يجد الأمبراطور وكوتوزوف القائد الأعلى بالقرب من پراتزن وفقاً للمعلومات التي حصل عليها أثناء الطريق. لكنه لم يعثر على هذا ولا على ذاك بل لم يجد هناك أي قائد مسؤول. اندفع بجواده الذي بدأت حوافره تؤلمه، محاولاً تخطي زمر الفارين من مختلف الأسلحة والجنسيات. لكنه كلما توغل في سيره، ازدادت الوحدات الهاربة كثافة.

شاهد على الطريق الأيسر الذي استطاع بلوغه، عدداً من العربات بين كبيرة وصغيرة ومن كل الأنواع، وحولها جنود روس ونمسويون بين سليمين من الجراح ومصابين. وكان هذا الحشر المخيف الذي تموج فوقه الأصوات المتنافرة في صخب مريع، يختلط مع مشهد العدو المتمركز فوق هضبة پارتزن، الذي يمطر الروس وحلفاءهم وابلاً من حممه، فيعطي صورة تحطم المعنويات.

كان روستوف يسأل الجنود عبثاً: أين الأمبراطور؟ أين كوتوزوف؟

أخيراً استطاع أن يطبق على ياقة أحد الجنود ليرغمه على الجواب. فقال الجندي مازحاً وهو يحاول التملص من قبضته: آه يا أخ! لقد كانت اللعبة حامية حتى أنهم هربوا جميعاً؟

شعر روستوف أن ذلك الجندي كان ثملاً. فتركه ليتصدى لفارس كان يبدو عليه أنه تابع أو خفير في خدمة إحدى الشخصيات المرموقة. ضيق عليه روستوف بالأسئلة، فأجاب الفارس أن الأمبراطور قد جرح جرحاً بالغاً أدى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلى حمله في عربة سجّي فيها على صدره، وأن العربة سلكت هذا الطريق منذ ساعة:

فقال روستوف معترضاً: إنك مخطئ. إنه الجريح وليس الأمبراطور.

فقال الرجل وعلى شفتيه ابتسامة الواثق: كيف أخدع وقد شهدته بنفسي. أتعتقد أنني لا أعرف الأمبراطور! لقد شهدته مرات عديدة في پيترسبورغ. كان شاحباً كالأموات. لقد مرت العربة أمامنا تجرها أربعة أجياد. كان يجب أن ترى ذلك! أنا أعرف جياد القيصر وأعرف سائق عربته إيليا إيڤانيتش. لعل إيليا هذا يقود عربة غير عربة القيصر أو يحمل القيصر شخصاً آخر غيره!

أفلتت يد روستوف عنان الجواد. راح يتابع طريقه. وفجأة ناداه أحد الضباط الجرحى وقال له: عمن تبحث؟ عن القائد الأعلى؟ لقد قتل... نعم لقد أصابته القذيفة ملء صدره وهو على رأس فيلقنا.

فصحح ضابط آخر قول زميله: لم يقتل بل جرح.

فسأل روستوف: من الذي قتل أو جرح؟ أهو كوتوزوف؟

لا ليس كوتوزوف، بل الآخر... آه، لقد نسيت اسمه!... هذا غير مهم، إذ لم يبقَ منه إلا الأشلاء... هل ترى تلك القرية هناك؟ إذهب إلى هناك وستجد القادة كلهم مجتمعين.

وأشار الضابط إلى قرية غوستييراديك وابتعد.

سار روستوف الهوينا على جواده وهو مرتبك. ترى هل جرح الأمبراطور؟ هل خسرنا المعركة؟ لم يكن ليصدّق كل هذه الأقوال. فاتجه نحو القرية التي كان جرس كنيستها يرتفع فوق الأبنية. ما فائدة العجلة؟ ماذا كان يستطيع أن يقوله الآن للأمبراطور أو لكوتوزوف؟ هذا إذا افترضنا أنهما كانا سليمين!

www.Maktbah.com

صاح به أحد الجنود: انعطف من هنا نبالتك. إن المكان خطير حيث تسير، وستقتل حتماً.

فقاطعه آخر: ماذا تقول؟ إلى أين يؤدي هذا الطريق؟ إن هذا الذي يسلكه أقرب من ذاك؟

توغل روستوف بعد فترة وجيزة، في الطريق الذي أنبأه الجندي بأنه سيقتل إذا سار فيه. قال يحدث نفسه: «ماذا يهمني أن أقتل الآن؟ إذا كان الأمبراطور جريحاً، فلمَ أوفر نفسي؟»

لقد مُني الفارون من جبهة پارتزن بخسائر جسيمة في تلك الأرض التي يجتازها. ولم يكن الفرنسيون يحتلونها بعد، رغم أن الروس، أو على الأصح، الأحياء من الروس والجرحى الذين سمحت لهم جراحهم بالانتقال، قد أخلوها منذ وقت طويل. كانت جثث القتلى مبعثرة على عشرة أو خمسة عشر متراً على سفح الهضبة، وكأنها حشائش نابتة في أرض خصبة. والجرحى الخطيرون يزحفون مثنى أو ثلاث وهم يطلقون صيحات مصطنعة أحياناً، كانت تترك في نفس روستوف أسوأ الأثر. دفع جواده إلى السير خبباً ليتفادى رؤية هؤلاء المصابين، وشعر بالخوف يستولي على كيانه: كان يخشى على شجاعته أكثر مما كان يخاف على حياته. كان في حاجة ماسة إلى تلك الشجاعة التي كانت تزايله كلما وقعت عيناه على جماعة من أولئك المناكيد.

توقّف قصف الفرنسيين على ذلك الحقل المغطى بالجثث بعد أن خلا من كل ما يستحق القصف. لكنهم ما إن رأوا الضابط المساعد حتى سددوا نحوه أحد المدافع وأطلقوا عليه عدداً من القذائف، أحدث صفير القنابل ورؤية الجثث المبعثرة، نوعاً من الذعر في نفس روستوف الذي أحس بإشفاق على نفسه تذكر رسالته الأخيرة إلى أمه وجوابها عليها. فكر في نفسه: «ترى ماذا كانت تقول لو شاهدتني هدفاً لهذه المدافع؟!».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بدأت الوحدات الروسية تفرّ من ساحة القتال وهي التي رآها في غوستييراديك ولكن في شيء من النظام. وكانت قنابل الفرنسيين لا تصل إلى هناك وأصوات البنادق تصل مختلطة، كان كل المحتشدين هناك على مختلف رتبهم يعلنون بصوت مرتفع أن المعركة قد انتهت. ولم يستطع أحد أن يعين لروستوف مكان كوتوزوف ولا مكان الأمبراطور. كان بعضهم يؤكد له أن الأمبراطور جريح، والبعض الآخر يكذبون تلك الإشاعة قائلين إن الرجل الشاحب الذي حملته عربة الأمبراطور لم يكن إلا الكونت تولستوي، ماريشال الحاشية الملكية الأكبر الذي رافق سيده إلى ساحة المعركة.

وزعم أحد الضباط أنه رأى شخصية كبيرة على يسار القرية. فاتجه روستوف حيث أشار الضابط ليريح ضميره. ولما اجتاز مرحلة صغيرة، تجاوز فلول الجنود الروس، شاهد فارسين يقفان قرب حفرة تحد بستان خضار. كان أحدهما يضع على رأسه قبعة غرست فيها ريشة بيضاء بدت أليفة في نظر روستوف، والآخر كان مجهولاً منه، يمتطي صهوة جواد محجل القوائم بديع الشكل، خيل إلى روستوف أنه شاهده من قبل في مكان ما. لكز هذا الأخير جواده، فقفز فوق الحفرة وإن كانت قائمتاه الخلفيتان قد احتكتا قليلاً بحافتها. ثم استدار إلى حيث كان ذو الريشة البيضاء، واجتاز الخندق من جديد ليحدثه بلهجة شديدة الاحترام، قدر روستوف أنه يدعوه إلى تخطي الخندق. غير أن هذا، وكان روستوف شاخصاً بعينيه إليه بدافع غريزي، أبدى إشارة من يده ورأسه تدل على رفضه الدعوة. وعندئذ، عرف روستوف أنه إزاء أمبراطوره المعبود، الذي كان يحس بألم شديد للمصير السيئ الذي بلغت إليه قواته في هذه المعركة.

وعاد يقول لنفسه: «ولكن مستحيل، لا، لا يمكن أن يكون الأمبراطور وحيداً هنا، في هذا السهل المقفر». وفي تلك اللحظة، أدار ألكسندر رأسه،

www.Maktbah.com

فرأى روستوف تقاطيع وجهه، المنقوشة على صفحة ذهبية، وعرفها. كان الأمبراطور ممتقع الوجه، لكن شحوبه، وخديه الغائرين، وعينيه الخابيتين، كانت تجعل وجهه أشد فتنة، وأكثر وداعة. ورأى روستوف بسرور بالغ أنه لم يكن جريحاً فكان سعيداً برؤيته سليماً. شعر أنه يستطيع أن يخاطبه مباشرة، بل إنه يجب أن يكلّمه ليحمل إليه رسالة دولغوروكوف.

وكما يرتعش العاشق ساعة اللقاء ويسيطر عليه الخوف فيطغى على إحساساته الحادة الجارفة التي طالما استقرت في أعماق نفسه، ويجعله يلقي حوله نظرات مذعورة، باحثاً عمن يساعده ويمنحه فرصة يسترد فيها روعه، كذلك كان روستوف، في تلك اللحظة، التي تحققت فيها أغلى أمنياته وأعزها على نفسه. كان يخشى الاقتراب من الأمبراطور ويقنع نفسه بألف حجة أن سلوكه سيكون معيباً، بل يستحيل تقبله.

كان يهمس في سره: «ماذا؟ إنني سأبدو أشبه بذلك الذي استغل فرصة وجوده وحيداً محطم المعنويات! لا شك أنه سيتألم لرؤية غريب يقترب منه في هذه اللحظات الكئيبة. ثم ماذا أستطيع أن أقول له وأنا الذي تكفيني نظرة منه لتسلبني القدرة على النطق والسيطرة على الأعصاب»؟

لم تحضره أيّ جملة من الجمل التي هيأها سلفاً لمثل هذه المناسبة، عندما كان يفكر في لقاء الأمبراطور وتوجيه الكلام إليه. وخصوصاً أن معظم تلك الجمل كانت موضوعة لتلائم مناسبات تختلف عن هذه كل الاختلاف. كانت تتعلق بساعات النصر والمجد وباللحظات التي سيتقبل فيها تهاني أمبراطوره، وهو جريح تحت قدميه، فيعرب له بدوره عن حبه العميق الذي برهن عليه بالتضحية بحياته.

وتابع يقول: «ثم ما هي الأوامر التي سأطلب إليه إصدارها بخصوص الجناح الأيمن والساعة الآن الرابعة مساء والمعركة قد ضاعت؟ كلا يجب

twitter @baghdad_library

ألّا أقترب. ليس من حقي أن أقلق تأملاته وتفكيره. أفضل الموت ألف مرة على أن أوحي إليه فكرة سيئة عني، أو أن أراه يصوب إلي نظرة عدم رضاء» فلما بلغ روستوف هذا الحد من تقريره، ابتعد واليأس يملأ قلبه، وهو يلتفت بين الحين والآخر إلى حيث كان يقف أمبراطوره المفدى وهو لا يزال متردداً جامداً في موقفه.

وبينما يعود روستوف كسير الفؤاد حزين النفس وهو يفكر على ذلك النحو، مر من هناك رئيس يدعى ڤون تول، فاقترب من الأمبراطور عارضاً عليه خدماته، وساعده على تخطي الخندق راجلاً وكان ألكسندر مرغماً بسبب انحراف صحته على نيل قسط من الراحة، فجلس في ظلّ شجرة تفاح بينما بقي ڤون تول واقفاً بالقرب منه. رأى روستوف كل هذه الحركات عن بعد والمرارة ملء حنجرته، ورأى ڤون تول يحدث الأمبراطور بحرارة ورأى هذا الأخير يمد إليه إحدى يديه بينما حجب بالأخرى وجهه ليخفي عن عينيه مرأى الدموع التي انهمرت على خديه.

فكر روستوف: «تأمل، إنني كنت سأحل محل هذا في أداء هذه الخدمة!» كان الغضب يعصف بكيانه حتى أنه كان على وشك البكاء على الأمبراطور. تابع طريقه وهو لا يعرف إلى أين يتجه. كان يأسه يزداد عمقاً كلما اعترف بينه وبين نفسه بأن ضعفه الشخصي أدى إلى فقدان الفرصة الجوهرية التي كان يتلهف عليها.

يمكنه الاقتراب من الأمبراطور. بل كان يجب عليه أن يقترب منه؛ كانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي تمكنه من إظهار تفانيه في سبيل أمبراطوره. لكنه أفلت الفرصة من يده. قال يحدث نفسه: «ماذا فعلت؟» لوى عنان جواده وعاد هرباً إلى حيث وجد الأمبراطور. لكنه لم ير هناك أحداً قرب الخندق ولا حوله. كانت عربات النقل والأمتعة والمهمات تملأ الطريق أنبأه أحد الجنود

www.Maktbah.com

أن كوتوزوف وأركان حربه هم على مقربة من القرية التي يسيرون بجانبها. فتبع روستوف الموكب الزاحف.

كان «سائس» كوتوزوف يسير في مقدمة الموكب يقود خيولاً مسرجة، ويسير وراءه عجوز من الخدم على ساقيه الملتويتين، لا يفصل بينهما إلا عربة نقل.

صاح السائس: تيت، هه! تيت!

فأجابه العجوز ذو القبعة وحيدة الجانب والسترة المبطنة بالفراء والساقين الملتويتين، ببساطة:

ـ ماذا تريد؟

ـ إذهب للقاء حبيبتك!

فزمجر العجوز وهو يبصق من الغيظ: أيها الغبي!

وراحا يتابعان طريقهما صامتين، ولكن الدعابة عادت تتكرر والعجوز يؤخذ بالنداء فلا يتجنب الجواب.

كانت المعركة عندما بلغت الساعة الخامسة مساء، قد ضاعت على كل الجبهات. استولى الفرنسيون على أكثر من مائة قطعة من قطع المدفعية واستسلم «بريبيسزوسكي» وفيلقه وخسرت الفيالق الأخرى أكثر من نصف جنودها فبدأت تنسحب بفوضى وصخب، بينما كانت بقايا فيالق لانغيرون ودوختوروف تتزاحم بجنون على شواطئ مستنقعات أوغويزد وعلى مداخل السدود.

وكانت المدفعية الفرنسية بعد ساعة تقريباً، تستهدف هذا المكان. كان الفرنسيون حينذاك يقصفون الجيوش الروسية المنهزمة من أعشاش مدفعيتهم التي نصبوها على مرتفعات هضبة پراتزن.

كان دوختوروف في الخطوط الخلفية، وآخرون يحاولون إعادة ترتيب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعض الألوية ليوقفوا مدفعية العدو ومطاردة الفرسان الفرنسيين الفلول المتقهقرة. وقد حلّ الظلام. وعلى السد الضيق، سد أوغويزد، حيث أمضى الطحان العجوز ذو القلنسوة القطنية سنوات طويلة يصطاد السمك المحبوس بصنارته، بينما كان حفيده يداعب الأسماك الفضية المحبوسة في صفيحة من التنك، وهو حاسر الكم؛ على ذلك السد الذي عبر فوقه المورافيون بستراتهم الزرقاء وقلنسواتهم المصنوعة من القطيفة، طوال أعوام طويلة، يقودون عرباتهم المحملة بالقمح الذي كانوا يعيدونه وقد استحال دقيقاً أبيض، وعلت أثوابهم طبقة خفيفة من الطحين وغطت رؤوسهم وأقدامهم، على ذلك السد بالذات، كانت تتزاحم في تلك الساعة عشرات عربات النقل وجر المدافع، تسحق عجلاتها الصماء رجالاً شوه الرعب وجوههم وشل حركتهم، وتعجن سنابك الخيول جثث القتلى والمحتضرين. ويتقاتل الجنود فيما بينهم سعياً وراء الفوز بالعبور، الذي ما كان يتم أبداً، لأن القتلة كانوا بدورهم يقتلون ولما يتجاوزوا بعد خطوات معدودات.

كانت قذيفة تشق الفضاء بين كل عشر ثوان، لتنفجر وسط ذلك الازدحام المرعب، فتقتل وتجرح وتبعثر مئات من الأرواح وتلطخ بالدماء ثياب العشرات من الناجين. كان دولوخوف، وقد أعيدت إليه رتبته السابقة، يسير على قدميه على رأس قبضة من رجاله الناجين، والكولونيل قائد السرية على صهوة جواده.

وكان هذا النفر القليل هو كل من بقي على قيد الحياة من فيلق دولوخوف. كانوا يدفعون دفعاً من قبل كتل الفارين نحو مدخل السد: اضطروا إلى التوقف لأن جواداً سقط تحت عجلات عربة مدفع، وكان الجنود المذعورون يحاولون إخراجه ليفسح لهم في طريق العبور. فسقطت قذيفة وراءهم فقتلت رجلاً وجرحت آخر، فسقط هذا إلى الأمام، فتخضبت ثياب دولوخوف بالدماء.

www.Maktbah.com

واندفعت الزمر بجهد خارق خطوات إلى الأمام. لكنها ما لبثت أن توقفت.

كان كل منهم يقول في سره: «مائة خطوة أخرى وبعدها الخلاص. لكننا إذا بقينا هنا دقيقتين ضعنا!».

وصل دولوخوف المحصور في صميم الازدحام وسط السد، إلى الجانب الآخر بعد أن طرح جنديين أرضاً. وهناك تزحلق على جليد المستنقع الذي كان يغطي معظم سطحه.

صاح وهو يقفز قفزات خفيفة فوق الجليد الذي كان يتحطم تحت ضغط قدميه: هاتوا المدفع إلى هنا، فالجليد هنا يحتمل الثقل. هاتوه!

كان سطح المستنقع يحمل ثقل جسمه، لكنه كان واضحاً أنه سيتحطم بعد قليل، فكيف إذا أضيف إليه ثقل مدفع وعدد كبير من الجنود! بدأ الجنود المجتمعون قرب الشاطئ ينظرون إليه دون أن يستجيبوا لأوامره. وكان الجنرال منتصباً عند مدخل السد فوق صهوة جواده فرفع يده يحيط بها فمه، محاولاً التحدث إليه. لكن قذيفة مرت فجأة على ارتفاع خفيض، حتى أن كل الموجودين اضطروا إلى حني رؤوسهم لتفاديها. وارتفع صوت تخبط مكتوم، وشوهد الجنرال يسقط مع جواده في بحيرة من الدم. ولم يفكر أحد في رفعه.

ألوف الأصوات كانت تصيح بعد إصابة الجنرال دون أن يعي أصحابها شيئاً مما يقولون: على الجليد! على الجليد! هاتوا المدفع! هل أنت أصم؟ إلى الأمام، إلى الأمام فوق الجليد!

لقد وصل إلى مدخل السد ذلك المدفع الذي يطلب الجنود المخبولون من الذعر سحبه فوق الجليد، وكان الجندي الذي يقود عربته محجماً عن تلك المغامرة. لكن الجنود الفارين كانوا متجمهرين بالمئات على ضفاف المستنقع المتجمد. اندفع أحدهم فوق الجليد، فتحطم تحت وطأة قدمه. وعندما حاول تخليصها، سقط حتى وسطه في الماء المتجمد. وتوقف الصف الأول متردداً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لكن الأصوات ظلت تصيح من الوراء: «على الجليد! لماذا تتوقفون؟ إلى الأمام!» وهكذا لم يجد سائق عربة المدفع بداً من السير خصوصاً وأن مئات الأيدي أخذت تلوح وتحث الجواد على السير، مصحوبة بزمجرات الرعب العنيف الذي كان مستولياً على كل النفوس.

انهال الجنود الأقربون بالسياط على جواد العربة ليرغموه على التقدم، وقرروا أخيراً مغادرة الضفة والسير فوق الجليد. فتقدموا ولكن، لم تلبث أن ارتفعت فرقعة هائلة مكتومة، ندت عن الجليد المتحطم، وسقط أربعون رجلاً في الماء وهم يجرون معهم إلى الهاوية، رفاقهم الذين تشبثوا بهم ليستعينوا بهم على النجاة من الغرق.

وراحت قذائف المدفعية تترى وتسقط على الجليد وفي الماء وغالباً على الكتل البشرية المتزاحمة فوق السد وعلى ضفاف المستنقع وجوانبه!

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

سقط الأمير أندريه فوق هضبة پارتزن وبقي هناك والعلم في يده. وكان الدم ينزف من جراحه بغزارة، وهو يزمجر متألماً بصوت ضعيف دون أن يعي.

عند المساء، توقف عن الأنين وفقد وعيه. لكن ألماً حاداً في رأسه ما لبث أن أعاده إلى الصواب.

أول فكرة راودته عند يقظته هي: «أين تلك السماء البعيدة التي لم أكن أعرفها من قبل والتي اكتشفتها اليوم»؟ ثم تساءل: «وهذا الألم أيضاً، أما كنت أجهله؟... نعم، لقد كنت أجهل كل شيء، إطلاقاً كل شيء... لكن أين أنا»؟

وسمع وقع حوافر جياد تقترب فأصغى. ودوت في أذنه عيارات فرنسية، ففتح عينيه. كانت تلك العميقة التي تسبح الغيوم فوق صفحتها، وتضفي على الجو لوناً لازوردياً، قائمة فوق رأسه. لم يدر رأسه ليرى نوع الأشخاص الذين كانوا يقتربون منه، رغم أن أصواتهم كانت تدل على أنهم توقفوا بالقرب منه.

كان الأمبراطور ناپليون، واثنان من ضباطه المساعدين، يقومون بجولة تفقدية في ساحة المعركة. وبعد أن أعطى أوامره بدعم المدفعية التي كانت تقصف السد والجنود المتراصين حوله، راح يتفحص وجوه القتلى والجرحى الذين تركوا في ساحة المعركة.

قال وهو ينظر إلى أحد القناصة الروس ملقى على الأرض ووجهه إلى التراب، مسود العنق وإحدى ذراعيه ممتدة قليلاً ومتخشبة: إنهم من أجمل الرجال.

twitter @baghdad_library

ووصل أحد الضباط المساعدين موفداً من قيادة المدفعية التي تقصف أوغويزد فقال: لقد نفدت ذخيرة المدافع يا صاحب الجلالة.

فأجابه نابليون: قدموا مدافع الاحتياط.

مشى بضع خطوات وتوقف الأمير أندريه، الذي كان ممدداً على ظهره قرب سارية العلم الذي أخذ الفرنسيون القماش عنها، وقال وهو يتأمل وجه بولكونسكي: يا لها من ميتة جميلة.

فهم بولكونسكي أن الأمر متعلق به، وأن نابليون يتحدث عنه. لقد سمع منذ حين صوت أحدهم يخاطب المتكلم الحالي بلقب «صاحب الجلالة». لكن الكلمات كانت تصل إلى أذنيه على شكل دندنة خافتة تشبه طنين ذبابة. لم يلق بالاً إليها، ولم يهتم بفهم ما يقال. بل فقد قوة الذاكرة بعد حين. كان يشعر بنار تلتهب في رأسه، وأن الدم يغادر جسمه، وراح يتأمل السماء المرتفعة البعيدة، العالية المتسامية، كان يعرف أن نابليون، بطله المفضل، موجود بالقرب منه. لكن نابليون بدا له في تلك اللحظة، شديد التفاهة، إذا قيس بالمأساة الصاخبة الأليمة التي كانت تمثل في أعماق روحه، بين روحه والسماء الصافية. لم يعد يهتم بمعرفة أولئك الذين كانوا منحنين فوقه يتحدثون عنه، لكنه كان فرحاً لأنهم لا يتجاوزونه. كان يرغب في أن يمدوه بعون ليعيدوه إلى تلك الحياة التي بدت له رائعة، منذ أن اكتشف أخيراً عقيدته الجديدة. جمع قواه، أو ما تبقى من قواه، فاستطاع تحريك ساقه، وانطلقت أنة خافتة ملأ صوتها الناحب نفسه تحناناً!

قال نابليون: إنه حي! ليحمل هذا الشاب إلى عربة الإسعاف!

واستمر الأمبراطور في سيره ليستقبل الماريشال. لأن (لانّ)، الذي كان متجهاً نحوه باسماً ممسكاً بقبعته. هنأه الأمبراطور بفوزه وانتصاره الساحق.

لم يتذكر الأمير أندريه شيئاً مما جرى له بعد أن أمر نابليون بنقله على

www.Maktbah.com

عربة الإسعاف. سبب له نقله على المحفة واختبار عمق جراحه، إغماء طويلاً، فلم يعد إليه وعيه إلا عند المساء، وعندما كانوا ينقلونه إلى المستشفى في صحبة عدد آخر من الضباط الروس الجرحى. شعر خلال الرحلة أنه أفضل حالاً، واستطاع أن يجيل نظره حوله يتلفظ ببعض الكلمات.

قال أحد الضباط الفرنسيين وكان يرافق موكب الجرحى: يجب التوقف هنا.

كانت هذه أولى الكلمات التي سمعها پولكونسكي بعد أن استعاد الوعي. وأضاف الضابط: سيمر الأمبراطور من هنا بعد حين. ولا شك أنه سيكون مسروراً لرؤية هؤلاء الأسرى من الجرحى البارزين.

فقال ضابط آخر: لدينا الآن المزيد من الأسرى حتى أن الأمبراطور سيتذمر في وفرتهم، لدينا كل الجيش الروسي تقريباً.

فأجاب الضابط الأول: صحيح، لكن هذا، وأشار إلى ضابط في ثوب أبيض تابع للحرس الراكب، كان يقود فيلق حرس الأمبراطور ألكسندر كله.

عرف پولكونسكي أن ذلك الضابط الجريح كان ربنين الذي كان قد صادفه مرات عديدة في الأوساط الراقية، وإلى جانبه ضابط آخر من سلاح الحرس في العشرين من العمر.

اقترب ناپليون وأوقف جواده بالقرب منهم. سأل عندما وقع بصره على السجناء الجرحى: من هو الأرفع رتبة؟

فأجيب إن الزعيم الأمير ربنين.

سأله ناپليون وهو يلتفت نحوه: أأنت رئيس الحرس الراكب التابع للأمبراطور ألكسندر؟

لقد كنت أقود كوكبة من ذلك الحرس.

ـ لقد قام فيلقك بواجبه كاملاً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ إن ثناء عسكري كبير خير مكافأة للجندي الصغير!

ـ أنا أمنحك إعجابي عن طيبة خاطر... لكن من هو هذا الشاب الراقد بالقرب منك؟

فأجابه الأمير ربنين إنه الملازم سوختلن. نظر إليه ناپليون وقال وهو يبتسم: لقد جاء يحتك بنا وهو ما زال فتى يافعاً!

فأجاب سوختلين بصوت متهدج: إن صغر السن لا يمنع المرء أن يكون شجاعاً.

ـ جواب بديع أيها الشاب، سوف تبلغ مرتبة سامية!

وُضع الأمير أندريه في الصف الأول من الجرحى ليكمل اللوحة التي شاء الضباط الفرنسيون رسمها لأمبراطورهم. ووقعت أنظار الأمبراطور عليه، واجتذبت هيئته انتباهه. تذكر أنه رآه من قبل في ساحة المعركة فسأل، وهو يناديه بعبارة: «أيها الشاب» التي احتفظ بذكراه في مخيلته مقروناً بها: وأنت أيها الشاب؟ كيف تشعر الآن أيها الباسل؟

ظلت عينا الأمير أندريه، الذي استطاع منذ حين، أن يوجه بضع كلمات إلى الجنود المرافقين، شاخصتين إلى وجه الأمبراطور، وقد غرق في الذهول والسكون... أحس بأن الأهداف التي تشغل بال ناپليون، تافهة حقيرة، وأحسّ بأن بطله بالذات شديد الضآلة في حمى انتصاره الحقير، إذا قيس على جلال السماء وعظمتها، تلك السماء الحافلة بالعدالة والخير، والتي اكتشفت حقيقتها في اللحظة الأخيرة. لذلك فلم يجد عبارة يحسن به أن يوجهها إليه.

بدا كل شيء لناظريه فانياً إذا قورن بالأفكار القاتمة السامية التي خلفها في نفسه نزف الدماء من جسده، والألم الحاد الذي أحس به، وانتظار الموت البطيء الذي تعرض له. ظلت نظرته غارقة في أعماق عيني ناپليون، يفكر في

www.Maktbah.com

غرور العظمة، وفي تفاهة الحياة الفانية، التي لا يمكن لأحد أن يدرك معناها، وبطلان الموت نفسه الذي كان مدلوله مغلقاً أبداً على مفاهيم الأحياء.

وعندما لم يتلق الأمبراطور جواباً من الأمير أندريه، استدار نحو رجاله وقال لهم آمراً: أريد أن يعنى بهؤلاء السادة وأن ينقلوا إلى مركزي. اطلبوا إلى طبيبي «لاري» أن يفحص جراحهم.

ولكز جواده بساقيه الاثنتين وعندما رأى واندفع ووجهه مشرق بالسعادة والرضى.

وعندما رأى جنود النقلات مدى عناية الأمبراطور بالجرحى، أسرع الذي سلب الأمير أندريه الصورة المقدسة الذهبية، يعيدها إليه. ولم ير الأمير أندريه ذلك الذي أعادها إليه، كما لم يشعر كيف وقع ذلك، لكنه فجأة شاهد الصورة فوق ثوبه العسكري ملقاة على صدره، ورأى سلسلتها الذهبية التي أحاطت أخته ماري عنقه بها بخشوع ورهبة.

تأمل أندريه الصورة، تساءل: «لماذا لا يبدو كل شيء واضحاً كما تؤمن به ماري؟ يا له من عزاء إذا عرف المرء أين يجد العون في هذه الحياة، وأدرك ما ينتظره فيما وراء القبر! يا للغبطة! ويا للهدوء الذي سأحس به لو استطعت القول: يا إلهي، رحمة بي!... ولكن لمن أتقدم بهذا الابتهال؟ ألتلك القوة غير المحدودة التي لا أستطيع توجيه الكلام إليها ولا أستطيع التعبير عن أفكاري بكلمات في وصفها، وهل هي العدم أو كل شيء؟ أم ترى لهذا الله الذي أراه هنا مؤطراً في هذه الصورة التي صنعتها يد ماري؟ لا شيء ثابتاً، إلا إذا اعتبرنا أن ما أعرفه ضئيل وأن ما أجهله جليل عظيم، وهذا الجزء الهائل غير مفهوم مني، ولكنه مع ذلك عظيم الأهمية».

وسار حاملو النقالات. كان پولكونسكي يشعر بآلام هائلة إثر كل رجة أو صدمة. ازدادت وطأة الحمى عليه وبدأ يهذي. كان خياله الملتهب بالحمى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مليئاً بشتى الذكريات. كانت صورة أبيه وزوجه وأخته، وذكرى تحنانه تلك الليلة الفائتة، ووجه ناپليون الصغير ومشهد السماء الصافية، كانت كل هذه المرئيات تدوي وتصطخب في رأسه وتفكيره.

ورأى نفسه في ليسيبيا غوري، يعيش حياته بهدوء. لكنه ما كاد ينعم بتلك الحياة البيتية حتى ينتصب وجه ناپليون، ذو النظرة القاسية، وعلى سيمائه أمارات الاغتباط لتعاسة الآخرين، فيعيده إلى مهاوي الشك والألم. وعندئذ، يلقي نظرة إلى السماء الصافية، فتلهمه السلوان. وحوالى صباح اليوم التالي، كانت هذه الأحلام لا تزال تتزاحم في خياله، حتى أن الطبيب «لاري» أكد أن الظلمات الفكرية التي غرق فيها پولكونسكي والانحلال الكلي في قواه، لا تبرئه الحياة، كما يشفيه الموت نفسه!

أكد الطبيب قائلاً: إنه شخص عصبي سوداوي. لن ينجو من الموت.

وتُرك پولكونسكي لعناية سكان المنطقة أسوة بجرحى آخرين رئي أن شفاءهم لا أمل فيه.

www.Maktbah.com

الجزء الرابع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الأول

كان دينيسوف يريد زيارة أهله في ڤورونيج فاتفق مع روستوف الذي عاد مأذوناً في العام ١٨٠٦، على أن يترافقا حتى موسكو حيث يقيم عنده فترة من الزمن قبل رحلته إلى ڤورونيج. التقيا قبل المرحلة الأخيرة، فاحتفل روستوف بذلك اللقاء بأن شرب مع زميله ثلاث زجاجات ونام خلال بقية الرحلة نوماً عميقاً، منطوياً على نفسه في الزحافة. أما روستوف، فكلما ازداد قرباً من نهاية الرحلة، ازداد شوقاً في نفسه وبلغ صبره منتهاه.

فكّر في نفسه بنفاد صبر: «ألن نصل أخيراً؟ ألا نفتأ نمر في شوارع ودكاكين ومخابز ومصابيح وعربات! أمر لا يحتمل!» وكان إذ ذاك قد دخل موسكو بعد أن أشر على مأذونيته ومأذونية صديقه.

صاح ينادي دينيسوف وقد مال بجسمه إلى الأمام وكأنه يستحث سرعة الزحافة: دينيسوف، لقد وصلنا!... لا يزال نائماً، يا للحيوان!

أردف في شبه هذيان: هذه هي الناحية التي اعتاد «زاخار» الوقوف عليها بزحافته...

ها هو ذا زاخار بنفسه، ومع الجواد «إياه» الذي لا يبدله... وهذا هو الدكان الذي نشتري منه الحلوى... بسرعة، بسرعة أكثر!

سأل سائق الزحافة: أين يجب أن نتوقف؟

ـ أمام أكبر المنازل، في آخر الشارع... ألا ترى!... إنه منزلنا... دينيسوف، دينيسوف، لقد وصلنا!

www.Maktbah.com

رفع دينيسوڤ رأسه وسعل، لكنه لم ينطق بكلمة.

سأل روستوڤ تابعه وكان جالساً على حاجز الزحافة: دميتري، إن النور الذي نراه يشع من منزلنا أليس كذلك؟

ـ تماماً، بل إنه ينبعث من مكتب أبيك على الضبط.

ـ إذن، لما يأووا إلى مهاجعهم بعد! ماذا ترى؟... لا تنسَ بصورة خاصة سترتي الهنغارية الجديدة التي يجب عليك إخراجها من الحقيبة فوراً.

وراح يحاول عقف شاربه الصغير الذي لما ينبت بعد. وتابع: أسرع، ضاعف السرعة!

وصرخ في أذن دينيسوڤ الذي عاد إلى النوم مجدداً تاركاً رأسه يترجح على صدره: ألن تستيقظ يا ڤاسيا؟

وللسائق رغم أن ثلاثة منازل فقط أصبحت تفصله عن داره: أسرع، سأمنحك ثلاثة روبلات ولكن زد سرعة جيادك.

اعتقد أن الجياد لا تتحرك. وأخيراً، مالت الزحافة إلى اليمين ودخلت الممرّ المؤدي إلى الدار. عرف روستوڤ حدود الرصيف، والطنف ذا الجص المكسر المتساقط. قفز من الزحافة وهي في سيرها وأسرع إلى الردهة فوجدها خالية. كان المنزل في جموده وصمته يبدو غير آبه لوصول القادمين. فكر وهو يتوقف متردداً منقبض الصدر: «آه! رباه! هل وقع مكروه؟» لكنه سرعان ما عاد إلى ركضه وصعد السلم أربعاً أربعاً، ذلك السلم الذي كانت درجاته المنحنية مألوفة لدي. كان لباب المدخل يحمل المقبض نفسه الذي عرفه قبل رحيله، ذلك المقبض الذي كانت قذارته تثير غضب الكونتيسة، والذي كان يتحرك بسهولة لقدمه. رأى شمعة تضيء الردهة الداخلية وميخائيل العجوز نائماً فوق صندوق فيها. أما بروكوپ، وهو الوصيف المرافق، العملاق الذي يستطيع رفع عربة من محورها الخلفي، فقد كان في خفّ منزلي. التفت عندما سمع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الباب يفتح، وأشرق وجهه الجامد المذعور. قال وقد عرف سيده الصغير: يا ملائكة النعيم، إنه الكونت الشاب! هل هذا معقول؟ آه يا عزيزي!

وأسرع بروكوپ مضطرباً إلى باب القاعة ليذيع النبأ. لكنه تماسك لحظة وعاد على أعقابه يسند رأسه الضخم كتف سيده الشاب.

سأله روستوف بعد أن خلص ذراعه: هل الجميع في صحة جيدة؟

ـ كل شيء على ما يرام! لقد تناولوا العشاء منذ حين. دعني أراك يا صاحب السعادة!

ـ صحيح أن كل شيء على ما يرام؟

ـ حمداً لله، حمداً لله!

نسي روستوف في اندفاعه صديقه دينيسوف. نزع فروته ودخل على أطراف قدميه إلى القاعة الكبرى المظلمة. كان كل شيء فيها كما تركه عند رحيله: غرف اللعب، والنجفة وكل الأشياء المألوفة. ويبدو أن بعضهم قد رآه، لأنه ما كاد يصل إلى الغرفة الصغيرة حتى انقض أحدهم عليه كالإعصار قادماً من باب جانبي، فطوقه وراح يغمره بالقبل. وجاء ثان وثالث كأن الأرض قد انشقت عنهما، وعاد العناق والقبل على أشدهما، وارتفعت صيحات التعجب والفرح وانسفحت دموع الغبطة. لم يكن يعرف أيهم أبوه وأي المهاجمين ناتاشا أو پيتيا. كانوا يصرخون معاً ويتحدثون ويعانقونه. لكنه استطاع التنبؤ بأن أمه ليست بينهم.

ـ وأنا الذي ما كنت أنتظر وجودك... نيكولا، يا صديقي!

ـ هو ذا طفلنا الجميل!... هذا الصغير العزيز!... كم تبدل!... أسرعوا إليّ بالشموع والشاي!

وأنا يا حبيبي، وأنا!

www.Maktbah.com

أحيط به من جديد احتضنته الأذرع، وتناقلته الصدور، فمن سونيا إلى ناتاشا وپيتيا وأنّا ميخاييلوڤنا، وڤيرا والكونت العجوز، فالخدم والوصيفات.

صاح پيتيا وهو متعلق بساقيه: وأنا، وأنا!

أما ناتاشا، فكانت مطبقة على خرج سترته تلتهمه بالقبل، ثم تركته فجأة وراحت تدور حول نفسها وتطلق صرخات عالية.

كل النظرات مفعمة بالحنان، والعيون مبللة بالدموع، والشفاه متعطشة إلى القبل.

كانت سونيا محمرة الوجه كالزهرة البرية الحمراء، متفجرة بالسعادة، ممسكة بذراعه تبحث عن عينيه لتستجديهما نظرة. كانت قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها، وازدادت جمالاً وخصوصاً في تلك اللحظة التي كانت السعادة تضطرم في أعماقها وتشرق من عينيها. كانت تتأمله باسمة. خصها بنظرة منفعلة. لكنه ظل يبحث عن شخص آخر، ذلك أن الكونتيسة لم تظهر بعد بين الحاضرين. وأخيراً ارتفع وقع خطوات قرب الباب. كانت خطوات مسرعة لا يمكن أن تكون لأمه.

قد كانت هي القادمة. بدت في زينة لم يرها روستوف من قبل. أفسح لها الجميع في الطريق أسرع «هو» للقائها. ارتمت الكونتيسة على صدر ابنها وراحت تبكي. لم تكن تستطيع رفع رأسها، بل زاحت تضغطه بشدة على الأشرطة المذهبة التي تحلي سترته.

دخل دينيسوف إلى القاعة دون أن يشعر به أحد، ووقف مباعداً بين ساقيه يتأمل ذلك المشهد وهو يدلك عينيه.

قال يقدم نفسه جواباً عن نظرة الكونت المستفسرة التي حطت عليه بعد طول تنقل: ڤاسيلي دينيسوف، صديق ولدك.

فقال الكونت وهو يبسط ذراعيه ويعانق صديق ابنه: تماماً، لقد حدثني

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نيكولا عنك في رسائله، ... أهلاً بك بيننا! ناتاشا، ڤيرا، هذا هو، هذا دينيسوف.

تحولت الأنظار المبتهجة السعيدة إلى شخص دينيسوف الضخم وأحاطت به.

زمجرت ناتاشا، وقد أخفقت في ضبط شعورها، وارتمت على عنق دينيسوف دون وعي: آه، أيها العزيز، دينيسوف العزيز!

ارتبك الحاضرون لطيش الفتاة واحمر وجه دينيسوف ثم ابتسم وأمسك بيد الفتاة المتحمسة وقبلها. ثم اقتيد إلى الغرفة التي خصصت له، بينما اجتمع أفراد الأسرة في المخدع ملتفين حول نيكولا

جلست الكونتيسة قرب ابنها ممسكة بيديه توسعهما تقبيلاً، واحتشد الآخرون حولهما يراقبون حركات نيكولا ونظراته ويحصون عليه كلماته، شاخصين إليه بأنظارهم المفعمة بالابتهاج. وتزاحم أخوه الصغير مع أخواته يتنافسون على أقرب المقاعد إلى أخيهم الأكبر، ويتنازعون شرف تقديم الشاي إليه أو المنديل أو الغليون.

لا يمكن أن توصف سعادة روستوف وهو يرى نفسه موضع هذا العطف والحب. غير أن اللحظة الأولى التي مرت على لقائهم بلغت من تسامي العاطفة مبلغاً جعلته ينظر إلى الدقائق التي بعدها وما رافقها من أحاسيس، نظرته إلى شيء تافه في مضمونه، وحفزته إلى التطلع إلى المزيد.

نام المسافران نوماً عميقاً بعد رحلتهما الشاقة فلم يستيقظا إلا بعد العاشرة من صباح اليوم التالي.

تراكمت السيوف في الغرفة التي تليها غرفتاهما، وجيوب الذخيرة والحقائب المفتوحة والأحذية الملطخة بالوحول. وجاء خادم بزوجين من الأحذية المنظفة الملمعة فوضعهما قرب الجدار، وآخر يحمل الصحاف

www.Maktbah.com

والماء الساخن لإزالة اللحية، وثالث يحمل الألبسة النظيفة. أما الغرفة فكانت رائحة الرجل والتبغ تفوح فيها.

ارتفع صوت ڤاسيلي دينيسوف، الأجش صائحاً: هيلا! يا غريشكا، إليّ بغليوني! وأنت يا روستوڤ، كفاك نوماً!

فرك روستوڤ جفنيه اللذين ألصقهما النعاس وانتزع رأسه من الوسادة الدافئة وغمغم متسائلاً: استيقظ؟ هل الوقت متأخر؟

فأجابه صوت ناتاشا: طبعاً. لقد أشرفت الساعة على العاشرة.

وارتفع من الغرفة المجاورة حفيف الأثواب، وتعالت الهمسات والضحكات المجلجلة، بينما كان الباب الموارب يكشف عن شيء أزرق وأشرطة وشعور سوداء ووجوه مرحة كانت ناتاشا قد وصلت بصحبة سونيا وپيتيا تترقب نهوض أخيها من نومه.

كررت ناتاشا نداءها وهي واقفة بالباب: انهض يا نيكولا، انهض! حالاً!

وفي تلك الأثناء، وقع نظر پيتيا على السيوف، فحمل واحداً منها، وهو يشعر بالحماسة البريئة التي تستحوذ على نفوس الفتيان الصغار حيال المظاهر الحربية التي يتمتع بها الكبار، وفتح الباب على مصراعيه مغفلاً التقاليد التي لا تسمح لأخواته برؤية الرجال وهم نصف عراة، وصاح: أهذا حسامك؟

قفزت الفتيات إلى الوراء وذعر دينيسوڤ لهذه المفاجأة وبادر إلى إخفاء رجليه المملوءتين بالشعر تحت الغطاء وهو يلقي نظرة متطيرة على رفيقه. ولما مر پيتيا، أغلق الباب وارتفعت وراءه القهقهات. سمع صوت ناتاشا يقول: سيخرج نيكولا في معطفه المنزلي!

بينما كرر پيتيا سؤاله غير عالم بما فعل: أهو حسامك؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واستدار إلى دينيسوف وأردف يسأله باحترام متأثراً بمشهد شاربيه الأسودين الكبيرين: أم هو حسامك أنت؟

ارتدى روستوف معطفه المنزلي على عجل وانتقل خفاً وخرج. وكانت ناتاشا قد ربطت المهاميز بزوج من الأحذية وراحت تهيئ الآخر. أما سونيا فكانت تدور حول نفسها يستخفها الفرح. كانت هي وناتاشا ترتديان ثياباً زرقاء فاتحة اللون. وكانتا باسمتين متوردتي الخدود ممتلئتين حيوية. نفرت سونيا عند مرأى نيكولا، بينما قادت ناتاشا أخاها إلى الغرفة وراحت تثرثر معه. لم يجدا قبل هذه اللحظة فرصة مواتية ليتطارحا ألوف الأسئلة الصغيرة التي لا تخص إلا سواهما. فلما سنحت، انتهزاها، وراحت ناتاشا تضحك بعد كل كلمة تتفوه بها أو تخرج من فم أخيها. ولم يكن مرد الضحكة الدعابة التي يتبادلانها، بل كانت بهجة ناتاشا ومرحها هما الدافعان، ولم تكن تستطيع الإعراب عنهما إلا بالضحك. كانت تقول في كل لحظة: آه! كم هذا جيد! كم هو بديع!

وهكذا منذ ثمانية عشر شهراً، شعر روستوف لأول مرة بأن ابتسامة الصبا التي فارقت وجهه منذ ذلك الحين، تعود فتغمر وجوده وتشرق في عينيه تحت تأثير ذلك السيل الجارف من الحنان الذي كانت ناتاشا تغدقه عليه. قالت له: اصغِ إليّ، ها أنت قد أصبحت رجلاً حقيقياً! كما أنا سعيدة إذ تكون أنت أخي!

ولمست شاربه الصغير وتابعت: آه! كم وددت لو عرفتكم معشر الرجال! هل تشبهوننا في شيء! كلا؟

سألها روستوف: لم نفرت سونيا؟

ـ آه، لكن هذه وحدها قصة طويلة! وبهذه المناسبة هل ستعود إلى مخاطبتها بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع؟

ـ سأخاطبها كما يدور على لساني.

www.Maktbah.com

ـ بل أرجوك أن تقول لها «أنتن» بدلاً من «أنت». سأفسر لك السبب فيما بعد. بل سأقوله لك على الفور. أنت تعرف أن سونيا صديقتي، وأن صداقتنا عميقة حتى أنني على استعداد لحرق ذراعي من أجلها. خذ، انظر.

رفعت كمّ ثوبها المصنوع من «الموسلين» وأشارت إلى بقعة حمراء على ذراعها الطويلة النحيفة، قرب الكتف، في موضع لا يظهرحتى ولو كانت مرتدية ثياب الحفلات الراقصة. أردفت: حرقت ذراعي بنفسي لأدلل لها على صداقتي المتينة. لقد أحميت مسطرة وألصقتها هنا.

شعر روستوف وهو في مجلسه في قاعة الدرس القديمة على كنبة ذات ذراعين تغطيها الوسائد الصغيرة، ونظرات ناتاشا الدافئة تغمره، بأنه عاد إلى عالمه العائلي، الذي لم يكن يعني بالنسبة إليه شيئاً، لكنه يزخر بتلك المتع العميقة التي طالما تذوقها، لذلك فإن مغامرة المسطرة الحامية وإحراق الذراع بها إشارة إلى الصداقة المتينة، لم تكن تافهة في نظره. كان يفهم أسبابها ولا يدهشه ذلك التصرف. سألها:

ـ وماذا؟ لا شيء آخر؟

ـ آه! ليتك تدرك مدى ما نحن عليه من صداقة! إن مسألة المسطرة ليست جدية أبداً... لكننا صديقتان، صديقتان إلى الأبد... وهي، عندما تحب أحداً، فإنما تحبه إلى الأبد. لكنني لا أفهم هذا، بل أنسى كل شيء على الفور.

ـ وماذا بعد؟

ـ حسناً، إنها تحبنا، أنت وأنا، على هذا النحو...

ثم احمرّ وجهها فجأة وأردفت: هل تذكر قبل رحيلك؟... حسناً، إنها تطلب إليك الآن أن تنسى كل شيء... لقد قالت لي: «سأحبه إلى الأبد. أما هو، فليكن حراً!» إن هذا شيء رائع! النبل! نعم إنه نبيل أليس كذلك! ألا تجده كذلك؟

twitter @baghdad_library

أصرّت وألحّت بتلك اللهجة المنفعلة التي تدل على أن ما قالته الآن هادئة قالته من قبل وهي تبكي.

فكر روستوف فترة وقال: إنني لا أسحب كلمتي، ثم إنها شديدة الجمال حتى إن المرء يجب أن يكون غبياً إذ يرفض أن يكون سعيداً!

صاحت ناتاشا: كلا، كلا. لقد تحدثنا من قبل في هذا الشأن. كنا نعرف أنك ستقول مثل هذا القول. لكنه يجب ألّا يكون كذلك. ألا تفهم، إنك إذا اعتبرت نفسك مرتبطاً بوعدك، فسيبدو ذلك وكأنها أثارته معتمدة. وعندئذ لا بدّ أن تعتقد في فترة ما بأنك إنما تزوجتها بدافع من الواجب. ولن يكون الأمر كذلك.

أحس روستوف بوجاهة هذا المنطق السليم. لقد أذهله جمال سونيا مساء البارحة، فلما رآها هذا الصباح، بدت لعينيه أكثر جمالاً رغم قصر الفترة التي استطاع خلالها أن يتأمل جمالها. كانت تلك البنية التي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها تحبه حباً كبيراً، ولم يكن عنده شك في ذلك. ولكن، لمَ لا يحبها هو الآخر؟ بل لمَ لا يتزوجها أيضاً؟ بيد أن متعاً وانشغالات كثيرة كانت تنتظره في تلك الظروف! فقال لنفسه: «نعم، إنهما على حق، من الخير أن أبقى حراً».

قال لأخته: حسناً، كما تريدين! سوف نعاود البحث في هذا... آه! كم أنا سعيد برؤيتك!... لكن، نبئيني، لعلك أقله لم تخوني بوريس؟

فصاحت ناتاشا ضاحكة: هذه حماقات! أنا لا أفكر فيه ولا في أحد سواه.

ـ مستحيل! في أي شيء تفكرين إذن؟

فقالت ناتاشا ووجهها يزداد إشراقاً: أنا؟ هل شاهدت دوبور[1].

---

(١) راقص فرنسي شهير معروف في روسيا. (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ كلا.

ـ دوبور الشهير، الراقص، ألم تره قط؟ إنك إذن لن تفهم. أنظر.

أدارت ناتاشا ذراعيها وأمسكت بثوبها على طريقة الراقصات وابتعدت راكضة ثم استدارت وقامت بقفزة صغيرة ضربت خلالها قدميها مراراً في الفضاء قبل أن تمس بهما الأرض (وتلك طريقة كان يبدأ بها الراقصون) وخطت بضع خطوات جرياً على رؤوس أصابع القدمين.

قالت مفسرة وقد عجزت عن الاستمرار في وقفتها الفنية: لقد استطعت الوقوف على رؤوس أصابعي أليس كذلك؟ هذا ما سأكونه! لن أتزوج أبداً، سأصبح راقصة. ولكن لا تتحدث بهذا إلى أحد.

انفجر روستوف ضاحكاً ضحكة بلغت من صفائها حداً جعل دينيسوف الذي سمعها في غرفته، يغار منه، ودفعت ناتاشا إلى الاستجابة لها فجارته بضحكة مثلها. كررت بإلحاح: أليس هذا بديعاً؟

ـ بلى، إنه بديع. لكنك لن تستطيعي بعدئذ الزواج من بوريس.

احمر وجه ناتاشا وقالت: أكرر القول إنني لا أريد الزواج بأحد!... وسأقول له ذلك متى قابلته.

فقال روستوف مستهزئاً: أصغوا إلى هذا القول! يا له من كلام!

ـ على كل حال إنه ضرب من الغباوة... قل لي هو لطيف دينيسوف هذا؟ بل شديد اللطف.

ـ حسناً... إلى اللقاء. إذهب وارتد ملابسك... أليس دينيسوف هذا شديد الرهبة؟

ـ رهيب، ڤاسكا؟ أبداً. إنه شاب جميل.

ـ هه، أتسميه ڤاسكا؟.. ذلك مضحك... إذن، إنه لطيف جداً؟

ـ كل ما في العالم من لطف.

ـ هيا إذن أسرع. سنتناول الشاي كلنا معاً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واجتازت ناتاشا الغرفة على رؤوس أصابع القدمين كما تفعل الراقصات مع فرق واحد، وهو أن الابتسامة التي كانت على شفتيها، لا يمكن أن ترتسم إلا على شفاه الفتيات السعيدات إذا كنّ في مثل سنها.

عندما دخل روستوف القاعة، احمر وجهه وظهر الاضطراب عليه عندما وقع نظره على سونيا، وارتبك في انتقاء النهج الذي سيجري عليه في معاملتها. لقد تعانقا أمس في غمار الفرحة الأولى والتحرر من القيود الذي سببته عودته المفاجئة. لكنهما كانا في ذلك الصباح يعرفان أنه يتعذر عليهما انتهاج سبيل البارحة. أحس نيكولا بنظرات أمه وأخواته المستفسرة تنصبّ عليه. كان الموجودون يتساءلون عن السلوك الذي سيعمد إليه في حضرتها. انحنى على يدها يقبلها وخاطبها بصيغة الجمع. لكن عيونهما كانت تتلاقى فتتخاطب بصيغة المفرد، وتتبادل أعذب القبل. كانت نظرات سونيا تسأله المغفرة لأنها جرؤت على تذكيره بوعده عن طريق ناتاشا وتشكوه على استمراره في محبتها. أما عينا نيكولا، فكانتا تشكرانها لأنها أعادت إليه حريته وتفهمها أنه سيظل يحبها لأنها كانت من اللاتي لا يمكن للمرء إلا أن يحبهن.

انتهزت ڤيرا فترة سكوت الحاضرين وقالت: إن هذا مضحك. ها إن سونيا ونيكولا يتخاطبان بصيغة الجمع الآن وكأنهما غريبان!

جاءت ملاحظتها وجيهة كعادتها، لكنها أيضاً، أحدثت أثراً سيئاً في نفوس الحاضرين. ولم يقتصر هذا الأثر على نفس سونيا وناتاشا ونيكولا وحدهم، بل تعداه إلى الكونتيسة التي احمرّ وجهها كالفتيات، خشية أن تحرم تلك العاشقة الصغيرة، ابنها العزيز نيكولا «صفقة» زواج مغرية!

دخل دينيسوف، في تلك اللحظة، فكانت دهشة روستوف لا توصف إذ رأى صديقه معطراً مزيناً في ثوب جديد، في مثل الرشاقة والأناقة التي كان عليها يوم المعركة، ورآه بمزيد من الدهشة، يتجه إلى السيدات وينخرط معهن في حديث شيق.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

استقبل أقارب روستوف ابنهم على اعتباره شاباً مرموقاً رفيع التربية كما استقبلته عائلته ابناً عزيزاً وبطلاً في الحرب. ورحّب به أصدقاؤه في موسكو كملازم شاب من الفرسان الأبطال، وكراقص رائع وواحد بين أفضل من ترجو الأمهات الفوز به زوجاً لبناتهن في العاصمة.

في ذلك العام وبفضل تجديد عقود رهن أملاكه، كانت نقود الكونت العجوز متوافرة. بذلك استطاع نيكولا أن يعيش حياة جميلة. فكان يمتطي كل يوم صهوة جواد خاص مطهم ويرتدي سراويل الفرسان من آخر ابتكار ولم يكن أحد يرتدي مثلها في موسكو ـ وينتعل أحذية عالية «لم تتوصل صناعة الأحذية إلى أفضل منها»، دقيقة الرأس بمهمازين فضيين صغيرين مثبتين في أعلى الكعبين. كان روستوف يتلذذ بالعودة إلى الحياة الأولى التي انتزع منها منذ عامين وهو أكثر خشونة وأمتن عوداً، كانت مغامراته القديمة: انزعاجه لتخلفه عن فحص التعليم الديني وقروضه الصغيرة من الحذوي غافريل والقبلات التي كان يختلسها من سونيا، تمثل في خياله الآن على صورة أفعال صبيانية بعيدة جداً.

أصبح اليوم ضابطاً برتبة ملازم في سلاح الفرسان، يحمل صليب سان جورج على سترته المزينة بأشرطة رتبته الفضية، ويدرب جواده استعداداً للاشتراك به في سباقات تضم هواة مشهورين ورجالاً وقورين ذوي نفوذ؛ وقد تعرف أخيراً إلى سيدة تقطن في «البولـڤار» راح يستمر في زيارتها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في الأمسيات؛ وأصبح يقود المازور كافي سهرات آل أرخاروف الراقصة ويتحدث عن الحرب مع الماريشال كامنسكي ويتردد إلى النادي الإنكليزي ويتحدث بصيغة المفرد مع زعيم في الأربعين من عمره قدمه دينيسوف إليه.

لم يعد إعجابه بالأمبراطور الذي لم يره منذ تلك الحوادث مثلما كان سابقاً. مع ذلك فإنه كان عندما يتحدث عنه، الأمر الذي كان كثير الوقوع، يوحي إلى السامعين بأنه لا يتحدث عن كل ما يعرف، بل إن في عواطفه حياله جانباً سرياً لا يمكن للناس العاديين اكتشافه. وكان يشاطر أهالي موسكو تعلقهم بألكسندر الأول الذي كان يبلغ درجة العبادة، حتى إنهم أطلقوا عليه اسم «الملاك المتأنس»، أي المتقمص شكلاً ناسوتياً ليراه البشر.

أدت هذه الإقامة القصيرة في موسكو إلى التباعد بينه وبين سونيا. كانت سونيا جميلة جداً، لطيفة، يشع الحب من عينيها، لكن روستوف كان، حسب زعمه، في تلك السن التي يجد الشاب فيها كثيراً مما يعمل حتى ليتعذر عليه إقطاع مثل هذه الأمور جانباً من وقته. كان في السن التي يخشى الشاب فيها من الارتباط بفتاة ويجد أن حريته أغلى من كل شيء. كان إذا فكر في سونيا يقنع نفسه بقوله: «إه! ليست الوحيدة في العالم ولقد خلقت للتعرف إلى عدد كبير من أمثالها! وعندما يبرّحني الهوى، لن أعدم الوقت للانشغال في الحب. أما الآن، فإن في رأسي أهدافاً أخرى».

ثم إنه شعر، منذ أن أصبح في عداد الرجال، أن الركض وراء الأثواب النسائية ومن فيها أدنى من أن تتقبله كرامته. كان يتردد إلى الحفلات الراقصة والولائم، لكنه كان يتظاهر بأنه إنما يحضرها مرغماً. أما السباقات والنادي ومهازله مع دينيسوف وزيارات «هناك»، فإن أمرها كان مختلفاً جداً: كان الفارس المغامر يجد فيها الجو الذي يناسبه.

قرّر النادي الإنكليزي الذي كان الكونت روستوف العجوز عضواً فيه

www.Maktbah.com

وفي مجلس إدارته منذ تأسيسه، إقامة حفلة عشاء على شرف الأمير باغراسيون. ولما كان الكونت العجوز لا يبارى في مواهبه التنظيمية في مثل هذه الأمور وفي ذوقه المرهف وكرمه المشهور، فقد كلفه مجلس إدارة النادي مهمة إعداد الوليمة. واستجاب الكونت لذلك التكليف بكليته وصرف كل وقته في سبيل ذلك. كان الكونت من النادرين الذين لا يجدون غضاضة في الإنفاق من جيوبهم إذا اقتضى الأمر، دون تردد. وهكذا فقد كان الكونت روستوف يروح ويجيء بين القاعة الكبرى ومختلف أنحاء قصره وهو في معطفه المنزلي، يعطي أوامره إلى أمين الصندوق ورئيس الطهاة، تيووكتيست المشهور حول ألوان اللحوم والسمك والهليون والخيار والفريز. فكان رئيس الطهاة وأمين الصندوق يصغيان إليه بسرور وهما متأكدان أنهما يستطيعان بفضل الكونت، أن يكسبا ربحاً كبيراً من مجموع أثمان تكاليف تلك الوليمة الباذخة، مما لا يتاح لهما مثله لو كلف غيره هذه المهمة. لقد كان الكونت ذواقاً فرفعت تلك المزية تكاليف الوليمة إلى بضعة ألوف من الروبلات.

ـ انتبه جيداً ولا تنسَ أعراف الديكة في حساء السلحفاة، مفهوم؟

ـ وثلاثة أنواع من الحساء المبهر أليس كذلك؟

ففكر الكونت برهة وأجاب: نعم، لا يمكن تقديم أقل من ذلك. لنقل إذن: حساء المايونيز وحساء... فقاطعه أمين الصندوق: وماذا عن سمك الـ: ستيرله، سننتقي الكبار منه بدون شك، أليس كذلك؟

ـ نعم، خذ الكبار... يا عزيزي، كدت أنسى: يلزمنا كذلك نوع آخر من المقبلات... آه! يا ربي العظيم!

واحتوى رأسه بين يديه وتابع: رباه! والزهور، من سيأتيني بها؟... ميتانكا، هه، ميتانكا... أسرع إلى منزلي الصيفي وقل لماكسيم البستاني أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ينفذ باسمي الأوامر التالية على الفور: لتحزم في قطع من القماش كل نباتات الحديقة الشتوية وليُحمل إليّ إلى هنا ماثلا إصّ على أن تصلني يوم الجمعة.

أسرع الوكيل ميتانكا لتنفيذ الأمر، بينما أصدر الكونت سلسلة أخرى من الأوامر وراح ينشد الراحة قرب كونتيسته الصغيرة العزيزة. لكنه تذكر فجأة أمراً مهماً فعاد على أعقابه واستدعى رئيس الطهاة وأمين الصندوق وعاد يتحاضر معهما. وفي تلك الأثناء، ارتفع رنين مهاميز قرب الباب وظهر على عتبته الكونت الشاب متورد الوجنتين، يغطي شفته العليا ظل شارب خفيف. أزالت حياة موسكو اللطيفة كل آثار العناء التي كانت مخلفة على وجهه الفتي.

قال العجوز وعلى وجهه ابتسامة لا تخلو من ارتباك: آه! يا صديقي، أنا فريسة دوار عنيف. تعال أنقذني وأغثني. ينبغي إيجاد المغنين. إنني بالطبع متعاقد مع جوقة موسيقية ولكن ألا تعتقد أن وجود البوهيميين سيقابل بالترحيب؟ إنكم معشر العسكريين تحبون هذا اللون من الغناء.

أجاب الابن وهو يبتسم بدوره: حقاً يا أبي إنك تزعج نفسك الآن وترهقها أكثر مما كان يفعل پاغراسيون قبل معركة شوپنغرابن.

فقال الكونت متظاهراً بالغضب: حسناً، ضع نفسك مكاني وسترى أن الأمر ليس من السهولة كما يبدو لك.

والتفت إلى رئيس الطهاة الذي كان يرقبهما بوقار وفي عينيه نظرة ماكرة وقال له: أرأيت الشباب يا تييوكتيست؟ إنهم يهزأون بنا نحن معشر الكهول.

ـ ماذا نستطيع يا صاحب السعادة أن نفعل! إن الشبان لا يريدون إلا رؤية قصعتهم مملوءة بالطعام، لكنهم لا يبالون بالكيفية التي جاء بها الطعام إلى قصعتهم.

صاح الكونت: هذا صحيح، هذا صحيح!

وتابع وقد أمسك بذراع ابنه بحركة مرحة: بما أنني ممسك بذراعك

www.Maktbah.com

الآن، فلن أفلتك بسهولة. سوف يسرني أن تقفز إلى الزحافة ذات الجوادين وأن تطير بها إلى منزل بيزوخوف لتقول له إن الكونت إيليا أندرييتش أرسلك في طلب بعض ثمار الفريز والأناناس من حدائقه الشتوية. من المستحيل أن نجد منها في مكان آخر. وإذا لم تجد، أرجو أن تبلغ الأميرات ملتمسي. ومن هنا ستذهب إلى رازغوليه، والسائق هيبات يعرف الطريق، لتطبق على البوهيمي إيليوشا مهما كان الثمن، وتأتي به إلى هنا. ألا تعرف إيليوشا الذي رقص عند الكونت أورلوف متشحاً بعباءة بيضاء؟

سأل روستوف ضاحكاً: وهل يجب أن آتيك بمغنياته أيضاً؟

ـ هلا أطبقت فمك!

دخلت آنّا ميخاييلوفنا تلك اللحظة، إلى القاعة بخطوات غير مسموعة، وهي على عادتها متشاغلة مرهقة بالعمل ومفعمة بالإيمان والتعاليم المسيحية. كانت تفاجئ الكونت كل يوم تقريباً في معطفه المنزلي، مع ذلك، فقد كان هذا يبدو شديد الخجل منها ويطلب صفحها في كل مرة.

قالت وهي تخفض عينيها بخفر: لا أهمية لهذا يا صديقي. أما بصدد المهمة المتعلقة بآل بيزوخوف فإنني أتطوع لأدائها. لقد وصل پيار أخيراً ولا شك أنه سيضع كل حدائقه الشتوية في تصرفنا. ثم إنني في حاجة إلى مقابلته، إذ إنه أرسل إليّ رسالة من بوريس ولدي الذي أحمد الله على التحاقه بالأركان العامة.

راق عرض آنّا ميخاييلوفنا للكونت، فأمر بإعداد العربة الصغيرة لها فوراً، وقال لها: ستقولين لبيزوخوف إننا ننتظره. سوف أسجل اسمه... هل ترافقه زوجته؟

بدا على قسمات آنّا ميخاييلوفنا حزن عميق ورفعت عينيها إلى السماء قائلة: آه! يا صديقي. إنه تعيس جداً. إذا كان ما يزعمونه حقيقياً فإن الأمر مريع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بينما كنا نحن نبتهج لسعادته من كان يصدق حدوث مثل ذلك؟ إن بيزوخوف الشاب إنسان طيب نبيل! أنا أتألم من كل قلبي لمصابه وسأحاول أن أوفر له ما في طاقتي من عزاء وسلوان.

سأل الأب والابن بصوت واحد: ماذا حدث له؟

جاء الجواب غامضاً: يقال إن دولوخوف، ابن ماري إيڤانوڤنا، قد أغواها. لقد انتشل پيار هذا الفتى من مأزقه ودعاه إلى قصره في پيترسبورغ، وهذه كانت مكافأته... لم تكد تصل إلى هنا حتى أسرع ذلك المعتوه في أعقابها.

كانت آنّا ميخاييلوڤنا ترمي إلى التوجع على مصير پيار، لكن لهجتها كانت توحي بعطف على دولوخوف الذي أطلقت عليه اسم المعتوه. وتابعت معقبة: ويزعمون أن پيار يكاد يقضي حزناً.

ـ أطلبي إليه رغم ذلك أن يحضر إلى النادي لأن حضوره سينسيه آلامه. سنقيم هناك وليمة حافلة.

في الثالث من آذار، وبعد ظهر اليوم التالي، كان أعضاء النادي الإنكليزي وعددهم مائتان وخمسون، ينتظرون ومدعووهم الخمسون، وصول الأمير پاغراسيون بطل معركة النمسا، وضيف الشرف في وليمتهم. وكان نبأ هزيمة أوسترليتز قد غمر موسكو كلها في ذهول عميق، لأن الروس ألفوا الانتصار من قبل لدرجة رفض البعض تصديق ذلك النبأ، بينما استغرق البعض الآخر في التساؤل عن الحدث الخارق الذي وقع وأدى إلى تلك النتيجة الغريبة. ولما توارد النبأ الأليم في كانون الأول، بدا كأن كل أعضاء النادي الإنكليزي، وهم النخبة الممتازة من الشخصيات الكبيرة العارفة ببواطن الأمور، قد تواعدوا على الانصراف عن الاجتماع فيه تجنباً للحديث عن الحرب والمعركة الأخيرة.

هجر النادي كل الذين درجوا على إثارة المناقشات، أمثال الكونت

www.Maktbah.com

روستوبتشين والأمير إيوري ڤلاديميروڤيتش دولغوروكي وڤالوييڤ والكونت ماركوف والأمير ڤيازمسكي، وانصرفوا إلى حلقات خاصة واجتماعات عائلية. وهكذا حرم الأعضاء الموسكوڤيون أمثال الكونت إيليا أندرييتش روستوف، الذين درجوا على ترديد أقوال الآخرين، من مصادرهم الغنية، فظلوا فترة طويلة محرومين من الأنباء الجديدة الموثوق يها حول مجرى الأمور. ولكن لم تمض فترة معينة حتى عادت تلك الشخصيات البارزة إلى النادي فكانوا أشبه بالمحلفين الذين خرجوا من فورهم من غرفة المداولة.

وألقيت الأضواء على الأمور وانحلت عقد الألسن. لقد وجدوا أخيراً مبررات لذلك الحدث المروع الذي يستحيل وقوعه كما تصديقه، وأعني هزيمة الروس. كانت تلك الأسباب التي راحت تكرر وتفسر في كل زوايا موسكو كما يلي: غدر النمسويين، سوء التموين، خيانة البولوني برزيبيسزوسكي والفرنسي لانغيرون، عجز كوتوزوف عن معالجة الأمور في حينها وهذا السبب كان يُبحث دائماً بصوت خفيض كما هي الحال في السبب التالي والأخير ـ وشباب الأمبراطور وقلة خبرته مما أدى إلى وثوقه بأشخاص عديمي القيمة. أما الجيوش الروسية، فقد اتفق رأي كل المتحدثين على أنها تصرفت تصرفاً يدعو للإعجاب، لأنها بذلت تضحيات قيمة.

لقد تصرف الجنود والضباط والجنرالات تصرفاً كله بطولة وتضحية. أما بطل الأبطال فكان الأمير پاغراسيون الذي طبقت شهرته الآفاق بعد معركة شوپنغرابن وانسحاب أوستراليتز الذي استطاع فيه أن يعيد فيلقه بنظام محكم وأن يصمد طوال ذلك النهار لعدو يفوقه عدداً وعُدداً. والأمر الذي جعل الموسكوڤيين يعتبرون پاغراسيون بطل الساعة أكثر من غيره، كان جهل الموسكوڤيين به وعدم وجود أية علاقة له بينهم. فكانوا إذ يحتفلون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

به، يقدمون تمنياتهم وعواطفهم لرمز الجندي الروسي الباسل المحروم من التوصيات، البعيد عن المكر. وكانت ذكرى معركة إيطاليا تدني اسمه من اسم سوڤوروڤ. ثم ألم تكن تلك الحفاوة البالغة التي يظهرونها له هي خير تعبير عن اللوم الموجه إلى كوتوزوڤ والانتقاص من كفاءته؟

راح شينشين السليط اللسان يقول مجتراً كلمة ڤولتير المأثورة: لو أن باغراسيون لم يكن موجوداً لوجب إيجاده وابتكاره.

ولم يكن أحد يتحدث عن كوتوزوڤ. وإذا ورد اسمه على اللسان، فإنما كان في معرض الذم ووصفه سراً بأنه متغطرس فاسد أو بإطلاق اسم «مذبذب البلاط» عليه.

كررت موسكو كلها قول دولغوروكوڤ المأثور: «يتدبق المرء لكثرة ما يلصق»، الذي كان يخفف من وقع الهزيمة بإحياء ذكريات الانتصارات السابقة. كذلك كانت تعيد أقوال روستوبتسين: «إن الجندي الفرنسي يجب أن يساق إلى ساحة المعركة بالكلمات الطنانة، والجندي الألماني لا يطيع إلا إيحاءات المنطق، فيتطلب من قادته شرحاً وتفسيراً يشعران بأن الفرار أشد خطراً من الهجوم. أما الجندي الروسي، فإنه على العكس، يتطلب من قادته ضبطه وإعادته إلى الهدوء والسكينة».

كانوا كل يوم يدونون مآثر جديدة في مضمار نشاط الجنود الروس وضباطهم: فأحدهم أنقذ علماً والآخر قتل خمسة فرنسيين وثالث قام بمفرده بكل ما يلزم من خدمة مضنية لثلاثة مدافع معاً. وكان عدد من الناس الذين لا صلة لهم ببيرج، يؤكدون أنه جرح في يمناه، فحمل سيفه بيسراه وسار تحت وابل النيران، يهاجم العدو. أما پولكونسكي، كان خلصاؤه وحدهم يأسفون على موته وهو في عزّ الشباب، ويشفقون على زوجته التي ستضطر لوضع جنينها تحت سقف حميها سقيم العقل.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

في اليوم الثالث من آذار، كان النادي الإنكليزي بكل قاعاته مليئاً بالأحاديث، الأعضاء والمدعوون منهم في ثوب «الفراك»، ومنهم في قفاطينهم والشعر المستعار، يروحون ويجيئون، بين واقفين ومتجمهرين وجالسين ومتفرقين، وكأنهم خلية نحل في الربيع. وقف الخدم على كل باب، في أثوابهم الحمراء الرسمية وجواربهم الحريرية وأخفافهم الرقيقة، يراقبون حركات المدعوين ليسرعوا إليهم ملبين طلباتهم. وكان المدعوون، ومعظمهم من المسنين ذوي النفوذ والسلطة، ذوي أصابع ضخمة ووجوه ممتلئة، وأصوات حازمة وحركات متزنة، يجلسون في أماكنهم المحددة لهم وكأنهم ملوك على عروشها، أو يجتمعون في حلقاتهم المألوفة يتبادلون الأحاديث.

وكان الضيوف الطارئون أمثال دينيسوڤ وروستوڤ ودولوخوڤ، الذي أصبح ضابطاً في فيلق سيمينوڤسكي، وكلهم من الشباب، يشكلون أقلية ضئيلة. كانت وجوه أولئك الشباب، وبصورة خاصة العسكريين منهم، تنطق باحترام مستهزئ وكأنها تقول للمسنين: «نحن لا نمسك عليكم الاحترام الذي تطلبون ولا المعاملة الحسنة التي تنتظرون، لكننا نذكركم بأن المستقبل لنا، فلا تنسوا ذلك».

حضر في ذلك اليوم، نيسڤيتسكي، وهو عضو مرموق في النادي وكان پيار، الذي وافق على التضحية بنظارتيه بناء على أوامر زوجته يعوض هذا

twitter @baghdad_library

النقص بإرساله شعره طويلاً وارتدائه ثياباً على أحدث طراز، يذرع الغرف وعلى وجهه علامات الضجر، كان يشعر هنا، كما في أي مكان آخر، بجو من الدناءة واللؤم. لقد اعتاد الرفعة والاستكانة التي يجزيها إليه متملقوه الطامعون في ثروته، الساعون وراء إحسانه، وقد اعتاد أسلوبهم فراح يمنحهم جانباً من احتقاره. وإذا كان العمر يسلكه في عداد الشبان، فإن الثروة كانت تفتح له حلقات الكهول والشخصيات المحترمة ذات الشأن.

فكان بذلك يتردد بين جموع الفريقين. وفي تلك الليلة، تجمهر حول أعلام الشخصيات، نفر كبير من الناس بينهم مجهولون مغمورون، جاؤوا كلهم يتسقطون الأخبار ويتزودون أقوال هؤلاء الأشخاص المرموقين. وكان الازدحام على أشده حول الكونت روستوبتشين[١] وڤالوييف وناريشكين[٢].

كان روستوبتشين يؤكد أن الروس فوجئوا بفلول النمسويين الهاربين حتى اضطروا إلى شق طريقهم بقوة الحراب بين أولئك الفارين المذعورين؛ وڤالوييف يعلن بصورة سرية أن أوڤاروف أرسل أخيراً من پيترسبورغ ليتحسس آراء الموسكوڤيين عن أوسترليتز. أما ناريشكين، فكان يعيد إلى الأذهان ذكرى مجلس سوڤوروف العسكري العتيد لما أجاب أفراده بنداء يشبه صياح الديكة، كردّ على أقوال «الجنرالات» النمسويين. وكان شينشين يصغي إلى هذا القول، فوجد فيه مادة مناسبة لحديثه وفرصة مؤاتية ليطلق لسانه السليط فقال: يبدو أن كوتوزوف لم يستطع أن يتعلم من سوڤوروف حتى تقليد صياح الديكة رغم ما في هذا الفن من سهولة! لكن الكهول

---

(١) سياسي روسي أحرق موسكو عندما دخلها بوناپرت فاضطره إلى التراجع. (المترجم).

(٢) سليل أسرة روسية نبيلة كانت أم بطرس الأكبر من أفرادها. (المترجم).

www.Maktbah.com

المحترمين، حدجوا ذلك الماجن بنظرة قاسية أفهمته أن المكان والزمان لا يسمحان بمثل هذه النكات!

وكان الكونت إيليا روستوڤ يجر حذاءيه الليّنين من قاعة الطعام إلى غرفة الاستقبال، يلقي تحيته السريعة على الشخصيات البارزة كما على أتفههم شأناً، لأنه كان يعرف هؤلاء وأولئك على السواء. ومن حين إلى آخر، كانت نظراته المنقبة تتوقف على وجه فتاة جميل، فيغمز. وكان روستوڤ الشاب يتحدث مع دولوخوڤ في مدخل إحدى الغرف، وهو شديد الاهتمام بهذا الصديق الجديد. فاقترب الكونت العجوز منهما وضغط على يد دولوخوڤ وقال له: يسرني أن تحضر إلى زيارتي، فأنت صديق ابني، وبطل مثله...

ومرّ شيخ بالقرب منهما فحياه الكونت قائلاً: آه! ڤاسيلي اينياتيتش، مرحباً يا عزيزي.

لكن تحياته ضاعت وسط ضجة عامة ارتفعت في تلك اللحظة. ذلك أن أحد الخدم دخل مسرعاً يعلن مذعوراً: «لقد وصل!».

دوى قرع أجراس، وهرع أعضاء اللجنة، وتجمهر المدعوون الذين كانوا حتى تلك اللحظة متفرقين في مختلف الغرف، واندفعوا إلى باب القاعة الكبرى يحتشدون وكأنهم حبات قمح جُمعت بمجرفة!

وحسب تقاليد النادي، ظهر پاغراسيون في الردهة، تاركاً سيفه وقبعته لرئيس الخدم. لم يكن يعتمر قبعة من جلد الخروف ويمسك بيده سوطاً ذا شعب كما شاهده روستوڤ قبل معركة أوسترليتز، بل كان مرتدياً ثوباً ضيقاً تزيّنه الأوسمة الروسية والأجنبية إلى جانب «صفيحة» سان جورج. وكان، كما يبدو، قد أسلم للحلاق شعره وسالفيه، فتبدلت هيئة وجهه بما لا يتفق والغاية المتوخاة من ذلك التبديل. وكان مظهره الذي يجمع بين السذاجة والجلال يتناقض بشكل مضحك مع قسمات الرجولة البارزة على وجهه. وصدف أن

twitter @baghdad_library

وصل بيكليشوف وفيودار بيتروفيتش أوفاروف في اللحظة نفسها التي دخل فيها باغراسيون إلى الردهة. فتوقفا يفسحان له في المجال ليتقدمهما بوصفه بطل الحفلة.

وأخجل هذا التأدب باغراسيون، فحاول الاعتراض مما أدى إلى فترة توقف، انتهت بقبوله الدخول قبلهما. دخل إلى قاعة الاستقبال بخجل وارتباك، لا يعرف ماذا يفعل. كان بدون شك يألف السير تحت وابل من الرصاص في أرض محروثة، كما حدث له في شوينغرابن، عندما سار في مقدمة فيلق كورسك إلى العدو، أكثر من السير بين مستقبليه في قاعة الاستقبال الفخمة. أعرب أعضاء المجلس الإداري الذين كانوا ينتظرونه عند الباب الأول، عن ترحيبهم بقدومه وسرورهم باستقبال ضيف عزيز مثله، ثم «استولوا» عليه دون أن ينتظر رده، واصطحبوه إلى القاعة. أصبح الدخول إلى القاعة الكبيرة قريباً من الاستحالة لكثرة الازدحام والتفاف المدعوين الذين راحوا يحدقون، عبر المناكب، إلى وجه البطل وكأنهم يتفرجون على مطيّة غريبة مثيرة. وكان الكونت إيليا أندرييتش أكثر المستقبلين ابتهاجاً، تشهد بذلك ضحكته العالية التي كانت تطغى على كل الأحاديث. راح يشق الطريق مستعيناً بعبارة: «افسح في المكان يا عزيزي، افسح»، حتى استطاع أخيراً إدخال الضيف إلى القاعة، حيث أجلسه بين بيكليشوف وأوفاروف، على الكنبة القائمة في الوسط. ومن جديد، حاصر أعضاء النادي المتوافدون، ضيوفهم المرموقين. وعاد إيليا أندرييتش يشق طريقه وسط الحشد خارجاً من القاعة ليرجع بعد قليل في صحبة أحد أعضاء مجلس الإدارة، حاملاً طبقاً فضياً وُضعت عليه مقطوعة شعرية نُظمت وطُبعت على شرف الضيف الشهير.

قدم الطبق إلى باغراسيون الذي راح يجيل حوله نظرات مرتبكة وكأنه ينشد العون. غير أن كلّ العيون التي لاقت عيونه، كانت تدعوه إلى الاستسلام.

www.Maktbah.com

ولما شعر أنه أصبح تحت رحمتهم، أخذ الطبق بكلتا يديه بحركة عنيفة شفعها بنظرة غضبى وجهها إلى الكونت الذي كان يحتفي به. وتلطف أحدهم فأخذ من يديه ذلك «الشيء المزعج المربك» الذي بدا عليه أنه عازف عن التخلص منه حتى ولو اضطر إلى الإبقاء عليه معه على طاولة الطعام، ولفت انتباهه إلى المقطوعة الشعرية. فبدا على پاغراسيون كأنه يقول: «حسناً! سأقرأها». وحدق إلى الورقة محاولاً الاطلاع على ما جاء فيها، وقد اكتست قسمات وجهه بطابع من الجد. لكن صاحب القصيدة أخذ الورقة من يديه وراح يتلوها بصوت مرتفع، بينما كان پاغراسيون يصغي إلى قراءته مطرق الرأس.

ليخلد إلى الأبد مجد عصر ألكسندر.
الحارس اليقظ لتيتوس على العرش.
رئيس رهيب ورجل إحسان كبير معاً،
يشبه ريفي في وطنه، قيصر في الحروب.
الواقع إن الفضل لك في أن ناپليون السعيد.
لن يتحدى بعد اليوم (الآستدة) الشمال...

لم يفرغ من قراءة القصيدة بعد، حينما ارتفع صوت رئيس الخدم مرعداً يقول:

ـ إن طعام سموه جاهز!

وفتح باب قاعة الطعام على أنغام إلپولونيز:

تجاوبي يا صواعق النصر.
يا أيها الروس البواسل، استسلموا للمرح[١].

وحدج الكونت إيليا أندرييتش ناظم الشعر وقارئه الذي بقي مستمراً في

(١) نشيد يخلد احتلال الروس «اسماعيل» ظل يعزف بدلًا من النشيد الوطني الروسي زمناً طويلاً. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلقائه، وانحنى أمام پاغراسيون. رأى المجتمعون جميعاً أن الطعام أفضل من القصيدة، فنهضوا متجهين إلى غرفة الطعام وپاغراسيون في المقدمة. أجلس الجنرال في مقعد الشرف بين إسكندرين: إسكندر بيكليشوف وإسكندر ناريكشين، وهو تلميح ضمني لاسم الأمبراطور. وجلس المدعوون الثلاثمائة حسب ترتيب درجاتهم الاجتماعية. وبديهي أن أرفعهم مكانة كان أقربهم إلى مجلس المحتفى به. مع ذلك، ألا يكون الماء أكثر عمقاً في الأماكن الأكثر انخفاضاً؟

قدم إيليا أندرييتش قبل البدء في الطعام، ابنه إلى پاغراسيون الذي عرفه ووجه إليه بضع كلمات مرتبكة، ككل ما تفوه به ذلك اليوم. مع ذلك، راح الكونت يجيل بين المشاهدين لهذا الحديث نظرات تشع منها الكبرياء.

جلس كل من نيكولا روستوف ودينيسوف وصديقهما الجديد دولوخوف عند وسط الطاولة وقبالتهم الأمير نيسڤيتسكي وپيار. وكان الكونت إيليا أندرييتش، وقد احتل مع أعضاء مجلس الإدارة الجانب المقابل لـپاغراسيون، يقوم بدور المضيف حتى ليمكن اعتباره تجسداً بليغاً للضيافة الموسكوڤية الشهيرة.

لم تذهب سدى جهوده المبذولة وكانت أصناف الأطعمة على أحسن ما يمكن من الترف المفرط، وبقي الكونت العجوز قلقاً حتى نهاية الطعام. كان يغمز بعينيه الخازن آمراً ويهمس بتعليماته في آذان الخدم المشرفين على المائدة، ويترقب بانفعال ظهور كل لون جديد من الألوان التي انفرد باقتراح طهوها وتقديمها؛ فكان كل شيء فوق النقد. وأطار الخدم صمامات زجاجات الشمبانيا، وطافوا بها يملأون الكؤوس، حالما دخل الطهاة باللون الثاني من الطعام، وكانت سمكة هائلة، الذي جعل وجه إيليا أندرييتش يحمرّ من الارتباك. وقد أحدث هذا اللون بعض الأثر في نفوس المدعوين. فلما

www.Maktbah.com

فرغوا منه، تبادل الكونت نظرة مع زملائه أعضاء مجلس الإدارة وقال لهم بصوت خفيض: «ستُشرب أنخاب كثيرة، لذلك يستحسن أن نبدأ بها». ونهض واقفاً وكأسه في يده. فسكت الجميع وأصغوا إلى ما سيقول.

هتف الكونت وقد اخضلت عيناه بدموع الحماسة: نخب صحة جلالة الأمبراطور!

صدحت الموسيقى من جديد بـ«تجاوبي يا صواعق النصر» ونهض المدعوون جميعهم هاتفين: «هـورّا»!. وعلا صوت پاغراسيون مدوياً كما كان في ساحة معركة شوپنغرابن. وميزت الأسماع صوت روستوف الشاب الذي كان يجد صعوبة في حبس دموعه وهو يزمجر: «نخب صحة الأمبراطور، هورّا»! أفرغ كأسه دفعة واحدة وألقى بها على الأرض فتحطمت، وحذا الآخرون حذوه وعادت الهتافات تتجدد مدوية. ولما ساد الصمت، جمع الخدم الكؤوس المحطمة، وعاد المدعوون إلى مقاعدهم يتحادثون والابتسامات التي خلفتها حماستهم على شفاههم ترافق حركاتها في مراحل الحديث.

ولم يلبث الكونت أن نهض مرة ثانية فألقى نظرة على مذكرة صغيرة موضوعة بجانب صحفته، وصاح نخب «بطل حملتنا الأخيرة، پيوتر إيـڤانوڤيتش پاغراسيون»، بينما تبللت أهدابه بالدموع. وصرخت ثلاثمائة حنجرة بصوت واحد: «هورّا»! ولكن بدلاً من عزف الموسيقى، ارتفع صوت المغنين بنشيد وضعه باڤل إيـڤانوڤيتش كوتوزوف:

ماذا تفعل العقبات ضد الروس؟
إن بسالتهم هي عربون النصر.
ليكن لدينا فقط العديد من أمثال پاغراسيون.
وسنرى الأعداد عند كؤوسنا...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لم يكد المغنون ينتهون من هذا النشيد حتى اقترحت أنخاب وأنخاب كان انفعال إيليا أندرييتش يزداد بتعددها، وحطمت كؤوس كثيرة وبحّت حناجر كثيرة. شرب المدعوون نخب ڤيكليشوف وناريشكين وأوڤاروف ودولغوروكوف وأبراكسين وڤالوييـڤ ونخب أعضاء مجلس إدارة النادي ومدعويهم وأخيراً نخب منظم الحفلة الكونت إيليا أندرييتش. وكان الكونت في أوج انفعاله فلم يستطع حبس دموعه عند النخب الأخير فراح يكفكفها ويمسحها بمنديله.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

كان پيار يجلس قبالة دولوخوف وروستوف يأكل بشهية كما هي عادته ويحتسي الكأس تلو الكأس. لكن الذين يعرفونه جيداً رأوا فيه تبدلاً كلياً. بقي ساكتاً خلال فترة الطعام، مقطب الحاجبين، يجيل نظره حوله، ويفرك جانبي أنفه بإصبعه. وكان وجهه عابساً مكفهراً كان غارقاً في فكرة مسيطرة، مشغولاً في شكوك مقلقة، حتى أنه لم يكن يصغي إلى من حوله ولا يرى وجوه المحيطين به.

تقدمت إحدى الأميرات بتلميح ماكر فأيقظت الشكوك المخيفة في نفسه منذ وصوله إلى موسكو. ولقد تلقى رسالة مغفلة، صباح ذلك اليوم، تدعم تلك الشكوك التي تنهش صدره. أخبره كاتب تلك الرسالة بأسلوب متهكم، كما هي العادة، بأنه لا يرى بوضوح بسبب استغنائه عن نظارتيه. وأن علاقة زوجته بدولوخوف ليست إلا سراً عند المغفلين. وعلى الرغم من أن پيار كان يحاول الاستخفاف بكل تلك التعليمات المهنية، لكنه لم يكن يستطيع تفادي الانزعاج الذي يشعر به كلما وقع نظره على دولوخوف الجالس قبالته.

كان كلما وقع نظره على عيني ذلك الضابط الوقحتين يشعر في أعماقه بأن عاصفة تهب فيها، فيشيح مسرعاً. كان ماضي هيلين كله، وطرائق تصرفها مع دولوخوف كلها، تدفع پيار على التفكير في أن الروايات المتشابهة يمكن أن تكون حقيقة، أو أقله، يمكن أن تكون كذلك لو لم تكن متعلقة بزوجته «هو». تذكر رجوع دولوخوف إلى پيترسبورغ بعد أن أعيدت له كل اعتباراته

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعد الحملة، ولجوئه إليه دون غيره مذكراً إياه بأعمالهم الماضية ومجونهم، سائلاً منه قبوله ضيفاً عنده، الأمر الذي لم يتردد پيار في تحقيقه بسخاء. بل إنه تساهل معه حتى أنه أقرضه بعض المال لمصروفه الخاص. واستعاد صوت هيلين عندما كانت تحدثه وهي مبتسمة، مستنكرة تصرفه وإدخاله مثل ذلك الضيف المزعج إلى منزلهم، وصوت دولوخوف يهنئه بلهجة هازئة بجمال زوجته. تذكر أنه منذ ذلك الحين وحتى وصولهم إلى موسكو، لم يرهما يفترقان لحظة واحدة.

قال پيار في سره: «إنه شاب جميل جداً. ثم إنني أعرفه. لقد قمت بتدابير في مصلحته فأنزلته في بيتي وقدمت له كل ما من شأنه أن يجعله يجد متعة في تلويث اسمي. لا شك أن خيانته كانت ذات أثر... لو كانت المسألة صحيحة. ولكن لا، ليست صحيحة. أنا لا أصدق ذلك وليس لي الحق في تصديقه». وفي تلك الأثناء، كان يرى الطابع الوحشي على قسمات وجه دولوخوف كلما سقط فريسة لنوبة قسوة. ذلك اليوم مثلاً، يوم أن أوثق الشرطي إلى ظهر الدب قبل أن يلقي بهما إلى الماء، وذاك اليوم أيضاً، عندما أثار رجلاً وبارزه دون أي سبب، وتلك المرة عندما رآه يقتل حصان أحد السعاة بطلقة من غدارته. وفجأة تذكر پيار أن دولوخوف نظر إليه غير مرة تلك النظرة المليئة بالقسوة. قال يحدث نفسه: «نعم، إنه شغوف بالقتل، إن قتل رجل لا يشكل عنده أدنى أسف، لا بد أن يتخيل أن كل الناس يخشونه، فيتذوق هذه المتعة بسرور ماكر. ولا شك إنه يظن أنني أيضاً أخاف منه. إنه غير مخطئ في ظنه هذا على كل حال»! ومن جديد عصفت في نفسه أعاصير مدمرة.

كان دولوخوف الجالس قبالته وبجانبيه دينيسوف وروستوف، يبدو غارقاً في التسلي مع صديقيه. كان روستوف يتحدث بلطف مع صديقيه وهو فخور بأن يكون أحدهما فارساً شجاعاً والآخر مقاتلاً بنفسية مستهترة. ومن

www.Maktbah.com

حين إلى آخر، كان يلقي على پيار نظرة جافة، متأملاً جسمه الضخم ووجهه المكتئب اللذين يلفتان إليهما النظر. وليس صعباً على المرء تفسير سبب عداء هذا الفارس الشاب: فقد كان پيار في نظر هذا العسكري «مدنياً» واسع الغنى وزوج سيدة شديدة الجمال. وبالإيجاز: رجلاً ضعيف الإرادة. ومن جهة أخرى فإن پيار بدا كأنه لا يعرف نيكولا روستوف حتى إنه لم يرد على تحيته.

وبعد انقضاء ساعة على شرب الأنخاب، وطلب الكونت العجوز أن يشرب المدعوون نخب الأمبراطور، بقي پيار مستغرقاً في تخيّلاته، فلم ينهض ولم يتناول كأسه بيده.

رمقه روستوف بنظرة غاضبة وصاح به: ماذا تعمل؟ ألا تسمع إنهم يشربون نخب صحة جلالته؟

فتنهّد پيار ونهض بخشوع وأفرغ كأسه. وبينما كان ينتظر أن يروق الآخرين الجلوس فيجلس معهم، ألقى على روستوف نظرة شفعها بابتسامته الطيبة المعروفة وقال له: وأنا الذي لم أعرفك!

لكن روستوف كان مندفعاً في صياحه فلم ينتبه إلى قوله.

سأله دينيسوف: لم لا تجدد معرفتك به؟

- إنني لا أحفل أبداً بهذا الغبي!

فقال دينيسوف معترضاً: ولكن ينبغي أن يجامل المرء دائماً أزواج النساء الجميلات!

لم يسمع پيار حديثهما، لكنه قدّر أنهما يتحدثان عنه، فاحمر وجهه وأدار رأسه.

قال دولوخوف مقترحاً: والآن، لنشرب نخب النساء الجميلات.

ونهض وخاطب پيار بلهجة جدية وعلى زاوية فمه ابتسامة صغيرة: نخب النساء الجميلات وعشاقهن!

twitter @baghdad_library

أفرغ پيار كأسه وهو خافض العينين، دون أن يجيب بكلمة على دولوخوف.

وقام أحد الخدم يوزع على المدعوين المرموقين نسخاً مطبوعة من قصيدة الاحتفاء بضيف الشرف ونشيد كوتوزوف، فوضع واحدة أمام پيار. فلما همّ هذا بأخذها، انحنى دولوخوف فوق الطاولة وانتزعها من يده وراح يقرأها. وعندئذ نظر إليه پيار. فانخفضت حدقتاه وانفجرت العاصفة التي كبتها طوال فترة الطعام. فانحنى بكل جسمه الثقيل على الطاولة وصرخ: دع هذا!

ذعر نيسڤيتسكي لهذه البادرة وعرف الشخص الذي استهدفته فحاول التدخل يدعمه زميل دولوخوف الذي كان إلى يمينه. قالا له معاً: اهدأ، ماذا دهاك؟

أما دولوخوف فقد حدج پيار بنظرته الصريحة والقاسية معاً وابتسم ابتسامة من يقول: «آه! آه! هذا ما يروقني»! وأجابه بصوت جازم: كلا، لن أتركها!

امتقع وجه پيار من الغضب وارتجفت شفتاه فانتزع الورقة من يده وقال هائجاً: إنك... مخلوق... حقير!...

ودفع مقعده وغادر المائدة.

وفي اللحظة التي نطق فيها پيار بتلك الكلمات، شعر أن مسألة إدانة زوجته، تلك المسألة التي كانت تعرض له بأسى منذ أربع وعشرين ساعة، قد فصل فيها الآن دون تأخير ومالت إلى الجانب الإيجابي. فنبت في صدره حقد على زوجته وأحسّ بأنه انفصل عنها إلى الأبد.

أبدى روستوف موافقته على أن يكون شاهداً لدولوخوف رغم تقريع دينيسوف. فلمّا انفض المدعوون عن الطاولة سوى مع نيسڤيتسكي، الذي كلفه بيزوخوف بحث هذه المسألة، شروط اللقاء. أما پيار فعاد إلى منزله بينما

www.Maktbah.com

استمر روستوف ودينيسوف في صحبة دولوخوف يتسامرون في النادي حتى ساعة متأخرة، ويستمعون إلى غناء البوهيميين والمغنين العسكريين. وعندما افترق الأصدقاء عند مدخل النادي قال دولوخوف: إلى الغد إذن في حديقة الفوكونيية (مدربو البزاة).

سأله روستوف: وهل أنت هادئ مطمئن؟

توقف دولوخوف وقال: اسمع يا صديقي. سأكشف لك بكلمتين عن سر المبارزة. إنك إذا رجعت في المساء الأسبق ليوم اللقاء تكتب وصيتك ورسائل عاطفية إلى أقاربك، وإذا فكرت في إمكانية إصابتك وموتك، فإنك لست إلا أحمق تسعى إلى حتفك. أما إذا ذهبت للقاء خصمك وأنت على يقين أنك ستقتله في أسرع وقت، فسيكون كل شيء على العكس، على خير ما يرام كما يقول صياد الدببة في كوستروما. لقد قال لي مراراً: «إذا ذهبت إلى صيد الدب، شعرت بالخوف. لكن ما إن يظهر الوحش حتى يتبدد الخوف ويحل محله شعور بالابتهال كي يبقى الوحش في سيره عليك». وهذا ما أفعله بكل دقة. فإلى الغد إذن يا عزيزي.

وصل پيار ونيسڤيتسكي في صباح اليوم التالي، إلى مكان مدربي البزاة حيث كان دولوخوف بانتظارهما وبرفقته دينيسوف وروستوف. كان پيار فريسة انهماك واستغراق غريبين في المسألة التي كان بصددها. كان يُرى على سحنته الصفراء، وفي نظرته الشاردة، وفي عينيه الزائغتين وكأن انعكاس ضوء باهر يعميهما، إنه لم ينم ليلته تلك. كان أمران فقط يشغلانه: إدانة زوجته التي تحقق منها خلال ساعات أرقه الطويل وبراءة دولوخوف الذي لم يكن لديه أي سبب للتجاوز عن شرف رجل لا يشغل في نفسه أي اعتبار. كان يقول في سره: «لو أنني كنت مكانه، أما كنت أنهج نهجه؟ بلى، ولا شك، إنني كنت سأفعل مثله. إذن لمَ هذه المبارزة، هذا القتل؟ إما أن أقتله وإما أن يصيبني هو

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في رأسي أو مرفقي أو ركبتي. ماذا لو هربت، ماذا لو اختبأت في مكان ما»؟ لكنه في حين كان يغذي مثل هذه الأفكار في سره، كان يسأل بلهجة باردة وبطلاقة استغربها من حوله: «هل نحن على استعداد»؟ أو «هل نتأخر بعد»؟

كان الشهود في تلك الأثناء، يحشون الغدارات ويغرسون السيوف في أماكن معينة على الثلج إشارة إلى الحد الذي لا يجب تخطيه. ولما انتهت هذه الاستعدادات، اقترب نيسـڤيتسكي من پيار وقال له بصوت متهدج: أظن أنني يا كونت أخون واجبي ولا أستحق الشرف الذي منحتنيه بانتقائي شاهداً لك إذا لم أبادر في هذه اللحظة الخطرة إلى إطلاعك على الحقيقة كلها. إنني لا أرى أسباباً وجيهة تدعو إلى هذه المبارزة، لأن المسألة لا تستحق أن يراق من أجلها الدم... إنك مخطئ أو أقله، إنك لست على صواب... لقد ثرت وانفعلت...

فقال پيار مؤيداً: نعم، إن كل هذا غاية في السخف.

فأردف نيسـڤيتسكي قائلاً: إذن، اسمح لي بنقل اعتذاراتك. أنا متأكد أن خصومنا سيتقبلونها. إنك لا تجهل يا كونت أنه من النبل الاعتراف بالأخطاء بدلاً من الوصول إلى ما لا يمكن تلافيه. لم تقع بينكما إهانة خطيرة ولم تتبادلا ما يستحق هذه النتيجة فاسمح لي إذن بالتفاوض...

كان نيسـڤيتسكي يقوم بواجبه ككلّ إنسان يجد نفسه منغمساً في مثل هذه الشؤون. ولم يكن يعتقد، ككل من وقفوا مثل موقفه، أن المسألة ستستمرّ حتى تبلغ نهايتها المحتومة. لذلك فقد أدهشه أن قاطعه پيار بتصميم وحزم قائلاً: كلا، ما فائدة ذلك... ماذا يهم ذلك الآن؟... هيا، هل نحن على استعداد؟ فقط قل لي إلى أي حد يجب أن أتقدم وفي أي اتجاه يجب أن أطلق غدارتي؟

أضاف هذه الجملة وعلى وجهه ابتسامة مغتصبة. وتناول الغدارة وسأل

www.Maktbah.com

كيف يضغط زنادها دون أن يعترف بأنه لم يمسّ سلاحاً طوال عمره. قال عندما شُرح له ما غمض عليه: آه نعم! لقد فهمت، كنت ناسياً.

وكان دولوخوف يقول لدينيسوف الذي كان يحاول إعادته إلى الصواب فيعترف بخطئه ويطلب الصفح عنه: كلا إنني أرفض بشدة، لن أقدم اعتذارات. وذهب إلى مكانه المحدّد.

كان المكان الذي وقع الاختيار عليه للمبارزة، على مسافة ثمانين خطوة عن الطريق حيث ترك الطرفان الزحافات في بقعة مكشوفة من غابة الصنوبر.

أقبل موسم ذوبان الثلج مبكراً منذ أيام. وقف الغريمان على جانبي البقعة المكشوفة تفصل بينهما مسافة أربعين خطوة. وكان الشهود قد خلفوا آثار أقدامهم على الثلج الرخو عندما راحوا يقيسون المسافة قبل الشروع في المبارزة، وكانت تلك الآثار تتوقف عند سيفي نيسڤيتسكي ودينيسوف اللذين كانا مغروسين على بعد عشر خطوات لتحديد الساحة. وكان الضباب وبخار الثلج الذائب من الكثافة حتى أن الرؤية كانت مستحيلة على مسافة أربعين خطوة. وكان كل شيء معدّاً منذ ثلاث دقائق دون أن يفكر أحد في البدء بالعمل أو التلفظ بكلمة.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس

قال دينيسوف: حسناً، هيا!

فأجاب پيار وهو مبتسم: من الواضح أنه أصبح متعذراً إيقاف هذه المسألة التي أجريت بشيء من الاستخفاف. لقد أصبحت القضية مخيفة. كانت قوة فوق طاقة البشر تريد أن يحدث هذا الأمر دون تأخير.

تقدم دينيسوف من الحد المقرر وصاح: بما أنّ الخصمين قد رفضا التصالح، فأنا أدعوهما إلى التسلح بالغدارات والسير عندما أصل إلى رقم «ثلاثة»!

ثم تابع بصوت غاضب: واحد! اثنان! ثلاثة!

وابتعد. بدأ الخصمان اللذان يحق لكل منهما أن يطلق النار قبل الوصول إلى الحد الفاصل، يمشيان الواحد باتجاه الآخر، سالكين الطريق الحديث الذي شقته في الثلوج أقدام الشهود عند قيامهم بالترتيبات الأولية. أخذ كلاهما يحدق إلى الآخر بشكل أوضح كلما اقتربا في ذلك الضباب. كان دولوخوف يقترب بخطوات بطيئة، خافضاً غدارته، شاخصاً إلى پيار بعينيه الزرقاوين اللامعتين. وابتسامة غامضة تشرق على وجهه كعادته.

قال پيار: وهكذا فإنني أستطيع إطلاق النار متى أشاء، أليس كذلك؟

عندما صاح الحكم «ثلاثة»، اندفع پيار إلى الأمام في مشية سريعة كانت تحرفه عن الطريق الممهد فتغرز قدماه في الثلوج. لا شك أنه كان يخشى أن يصيب نفسه بجرح من غدارته، لذلك كان ممسكاً بها على امتداد ذراعه

www.Maktbah.com

اليسرى، جاهداً في إبقاء يسراه إلى الوراء لأنه كان ينوي استعمالها في تثبيت يمناه، غير جاهل عدم جواز ذلك. ولما خطا بضع خطوات تائهة وسط الثلج، نظر إلى قدميه وألقى نظرة سريعة على دولوخوف وضغط الزناد كما أوضحوا له. قفز مروعاً من دوي الانفجار الذي لم يكن يتوقع شدته، لكنه ما لبث أن ابتسم لسذاجته وتوقف في مكانه. وكان الضباب والدخان يحجبان خصمه عن عينيه تحت ستار كثيف. وبدلاً من أن تدوي الطلقة الثانية كما كان متوقعاً، شعر بوقع خطوات سريعة متلاحقة. وأخيراً، شاهد شبح دولوخوف يبرز من الباب، ووجهه ممتقع وإحدى يديه تضغط على جنبه الأيسر بينما كانت الأخرى مطبقة بشدة على الغدارة المخفضة. أسرع روستوف إليه وقال له بضع كلمات أجاب عنها خلال أسنانه المطبقة:

كلا... كلا، لم ينته بعد.

خطا بضع خطوات أخرى مترنحاً ثم هوى على الثلج بجانب السيف. وبعد أن مسح يده اليسرى الملطخة بالدم بسترته، استند إليها بجسمه. كان وجهه الشاحب يرتعد.

غمغم بصعوبة وهو ينهض بمجهود خارق: اس... اس... اسمحوا...

بدأ پيار الذي كان على وشك البدء بالبكاء، يركض نحوه دون أن يتبادر إلى ذهنه الخروج من الساحة. فصاح دولوخوف قائلاً: «إلى الحد»!. فهم پيار ما يعنيه فتوقف قرب حسامه. لم يكن يفصله عن دولوخوف إلا عشر خطوات. غمر دولوخوف رأسه في الثلج وملأ فمه منه بنهم ثم انتصب وهو يحافظ بصعوبة على توازنه حتى تمكن من الجلوس. كان يمتص الثلج الذي ملأ به فمه. شفتاه ترتعدان لكن عينيه كانتا أبداً تبسمان ويلتمع فيهما بريق حقد عميق ضاعفه ذلك المجهود الخارق الذي كان يبذله. وأخيراً رفع غدارته وسدّد إلى الهدف.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال نيسـڤيتسكي يوصي پيار: قف وقفة جانبية واحجب نفسك بالغدارة.

ولم يستطع دينيسوف بدوره إلا أن يهتف به رغم أنه شاهد الخصم: رباه، احجب نفسك!

لكن پيار ظل واقفاً مباعداً بين ساقيه وذراعيه دون دفاع، يعرض صدره العريض لدولوخوف، وهو ينظر إليه بابتسامة شاحبة تحمل طابع الإشفاق والندم. أغمض دينيسوف وروستوف ونيسـڤيتسكي عيونهم. وسمعوا صوت انطلاق الغدارة وصيحة غضب ترافقها.

زمجر دولوخوف: أخطأت الهدف!...

انهارت قواه فهوى على الأرض ووجهه على الثلج.

أطبق پيار على رأسه بيديه وراح يلتجئ إلى الغابة. كان يسير بخطوات واسعة على الثلج الذائب يصرخ بصوت مبحوح كلمات متتابعة: شنيع!.. شنيع!... الموت... ترهات كل هذه!

فلحق به نيسـڤيتسكي وأعاده إلى منزله.

وحمل روستوف ودينيسوف الجريح.

كان دولوخوف ممدداً في قاع الزحافة مغمض العينين! لا يجيب عن الأسئلة التي كانت تطرح عليه.

وبينما هم داخلون إلى موسكو، عاد إلى رشده وأمسك بيده روستوف الجالس بجانبه. كان وجهه مضيئاً بقبس مشع من حنان وكأنه تحول إلى إنسان آخر. سأله روستوف وهو لا يصدق عينيه: حسناً! كيف حالك؟

ـ سيئة!

وبادر بصوت متقطع يقول: ولكن ليس من الجرح يا صديقي. أين نحن؟ في موسكو أليس كذلك؟... أنا لا أبالي بما قد يصيبني... ولكن هي... لقد قتلتها، لقد قتلتها... إنها لن تحتمل هذا، كلا، أبداً...

www.Maktbah.com

فقال روستوف مستفسراً: من «هي»؟

فأجابه دولوخوف وقد استحال إلى دموع هاطلة: أمي، أمي، ملكي، ملكي المعبود!...

وضغط على يد روستوف بأصابعه المتشنجة..

وعندما هدأت ثائرته، أوضح لروستوف أنه يعيش مع أمه وأنها إذا شاهدته على هذه الحال، فلن تحتمل المشهد. وراح يتوسل إلى نيكولا أن يذهب إليها قبل وصوله وأن يمهد السبيل لتخفيف الصدمة على أعصابها.

وافق روستوف على القيام بتلك المهمة التي أطلعته، ولدهشته البالغة، على أن ذلك الحقير، ذلك المبارز الولوع بالقتل، يعيش في موسكو مع أمه العجوز وأخته الحدباء، وأنه من أكثر الأبناء براً والإخوة محبة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس

كان البيت في موسكو عامراً بالناس كما كانت عليه الحال في پيترسبورغ. فلم يجد پيار نفسه وحيداً مع زوجته في الأيام الأخيرة. وفي الليلة التالية للمبارزة، بقي پيار، كما كان يحدث له مراراً، في الغرفة الفسيحة التي كان يشغلها أبوه، تلك الغرفة التي مات فيها الكونت. ولم يشعر بحاجة إلى الذهاب إلى غرفة نومه.

تهالك على كنبة آملاً أن يجد في النوم سلواناً لما وقع ومضى، لكنه أخفق. كانت عاصفة عنيفة من الأفكار والعواطف والذكريات تصطخب في أعماقه، فما كان يطيق النوم ولا كان يستطيع الجلوس. قفز عن الكنبة وراح يذرع الغرفة الفسيحة بخطوات سريعة متلاحقة. استعاد في ذاكرته صورة هيلين في لحظات زواجهما الأولى، وهي عارية الكتفين ذات نظرة ضعيفة. وانتصب إلى جانب تلك الصورة، وجه دولوخوف الساخر كما كان يوم الحفلة ثم ذلك الوجه بالذات، الممتقع المتقلص الذي شاهده آخر الأمر عندما كان صاحبه التعس يهوي على الثلج.

بدأ يتساءل: «ماذا حدث بعدئذ؟ لقد قتلت «العشيق» نعم، لقد قتلت عشيق زوجتي. لماذا؟ كيف توصلت إلى ذلك»؟ ليجيبه صوت داخلي: «لأنك تزوجتها»! ـ «ولكن ما هو ذنبي»؟ ـ «ذنبك أنك تزوجتها دون حب ولأنك خدعتها إذ خدعت نفسك». وعادت إلى ذاكرته فوراً تلك اللحظة الحاسمة التي نطق خلالها، وكان ذلك بعد العشاء الذي تناوله عند الأمير

www.Maktbah.com

بازيل، بهذه الكلمات التي لم تكن تريد الخروج من فمه: أحبك. «نعم، كل شيء كامن في هذه الكلمة. كنت أشعر تماماً بأن لا حق لي بنطقها، وإنني كنت أخطو خطوة عميقة. ولم يخدعني شعوري المسبق».

وفجأة، احمر وجهه عندما مثلت في خاطره ذكريات شهر العسل. وكان حادث واحد خلال ذلك الشهر السعيد يغمره بالخجل. ذلك أنه ذات صباح، حوالى الساعة الحادية عشرة، بينما كان خارجاً من غرفتهما في طريقه إلى مكتبه، التقى هناك وكيله العام. فلما رأى هذا الرجل وجه پيار الطافح بالغبطة ومعطفه المنزلي المصنوع من الحرير، حيّاه تحية مفعمة بالاحترام وسمح لنفسه بإظهار ابتسامة صغيرة معبراً عنها عن مشاطرته سيده الشعور بسعادته.

ـ «وأنا الذي كنت أجعل منها مداراً لفخري! كنت أفتخر بجمالها الصارخ، وعصمتها المنيعة. كنت أعجب بأسلوبها في استقبال الناس في پيترسبورغ! كان فيها ما يبعث على الفخار! كنت أعتقد أنني لا أفهمها. وكم من مرة، لمت نفسي وأنا أدرس طبيعتها، على تجاهل هدوئها الدائم ومظهرها القانع، واختفاء كل آثار الرغبة فيها! مع أن مفتاح السر كان في هذه الكلمة الرهيبة: إنها فاجرة. لقد أوضحت هذه الكلمة الرهيبة كل الأمر وأنارت السبيل!

«يقترض أناتول منها المال ويقبل كتفيها العاريتين. لم تكن تعطيه المال ولكن كانت تتقبل منه القبل. وأبوها يثير غيرتها مازحاً فتجيبه بابتسامتها الهادئة بأنها ليست حيواناً لتتطرق الغيرة إلى نفسها. كانت تقول عني: يمكنه أن يفعل ما يشاء». ولما سألتها ذات يوم عما إذا كانت لا تشعر ببوادر الحمل، أجابتني بضحكة مزدرية أنها: «لم تكن حمقاء حتى ترغب في الحمل وإنها على كل حال لن تنسل مني ولداً».

راح يعيد على نفسه انحطاط أفكاره الطبيعي وفجاجة تعابيرها التي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لا تتناسب مع نشأتها الأرستقراطية الراقية. كانت تقول مثلاً: «هل تعتبرني سخيفة؟... جرّب لأرى.. شوف شغلك...» كان يحار دائماً، كلما رآها موضع تزلّف الجميع، في فهم السبب الذي يجعله وحده لا يشعر بحبها. «كلا ولا ر يب، إنني لم أحبها قط. كنت أعرف أنها فاجرة، لكنني لم أكن أجرؤ على التصريح بهذه الحقيقة... والآن، ها إن دولوخوف متهاوٍ فوق الثلج، يحاول جاهداً أن يبتسم، ولعله سيموت، وأن يجيب على نزعة الندم في نفسي بالتظاهر بالشجاعة الخارقة»!

رغم ما يقال عنه إنه ضعيف العزيمة، كان پيار من أولئك الناس الذين لا يأمنون جانب أحد فلا يفصحون عن أحزانهم لأحد ويبقونها تعتلج في نفوسهم ويجترونها في خلواتهم.

استرسل في مناقشته: «إنها الجانية، نعم، إنها الجانية. ولكن ما العمل معها؟ لمَ ارتبطت بها؟ لماذا قلت لها تلك الكلمة القاضية «أحبك» رغم أنها لم تكن إلا كذبة وأسوأ من كذبة؟ إنني أنا الجاني إذن، ويجب أن أحتمل... ولكن ماذا أحتمل تحديداً؟ تلويث الشرف، الخصومة... كلا، كلا بل العار. إن كل هذه تتصل بسبب بينها فتجعل شخصيتي في خبر كان.

«لقد أعدموا» لويس السادس عشر «لأنهم» اعتبروه مجرماً عديم الشرف، وكانوا على حق من وجهة نظرهم، لكن أولئك الذين احتملوا الاستشهاد والتضحية من أجله، وكانوا يضعونه في مصاف القديسين، ألم يكن هؤلاء أيضاً على حق؟ طبعاً كانوا محقين من وجهة نظرهم. ثم أعدموا بعد ذلك روبسپيير لأنه كان مستبداً طاغية... فمن الذي كان على حق ومن الذي كان على خطأ؟ لا أحد. انتهز فرصة وجودك على قيد الحياة لأنك ستموت غداً كما كدت أموت اليوم منذ ساعة. فهل يستحق شيء في الوجود أن يتعذب

www.Maktbah.com

المرء من أجله، وخصوصاً أن الوقت الذي سنعيشه لا يساوي ثانية في عمر الزمن»؟

وفي اللحظة التي كان يعتقد فيها أنه بلغ الهدوء المنشود بفضل تلك المحاكمة البليغة، عاد يعيش في ذاكرته تلك الدقائق من الاستسلام الكاذب التي «راحت» خلالها تعرب له عن عشقها الكاذب. وحينئذ شعر بالدم ينحبس في قلبه ويكاد يفجره. فنهض من جديد ليمشي ويحطم ويجزئ كل شيء يقع تحت يده. راح يتساءل: «لماذا قلت لها: «أحبك» بحق الشيطان»؟ وبينما كان يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة العاشرة، تذكر كلمة موليير الشهيرة: «لكن، يا للشيطان، ماذا كان يريد أن يفعل في تلك الجحيم «تلك السفينة»، يريد القول بذلك «ما الذي دفعه إلى سلوك هذا الطريق الوعر»؟، وراح يضحك من تعاسته.

أثناء الليل استقدم خادمه وأمره بإعداد ما يلزم. كانت فكرة التقائه زوجته تبدو له مخيفة فقرر الرحيل منذ صباح اليوم التالي على أن يشرح الأمر لها في رسالة يعلمها فيها أنه يفترق عنها إلى الأبد.

وعندما جاء الوصيف بقهوته عند الصباح، كان پيار مستلقياً على كنبة تركية حيث بات ليلته وفي يده كتاب. قفز من مرقده فزعاً وراح يجيل حوله نظرة متبلدة حتى أدرك أخيراً أين كان ولماذا.

قال الخادم:

ـ سيدتي الكونتيسة تسأل إذا كنتم سعادتكم على استعداد لمقابلتها.

لم يكن پيار قد حزم أمره على الجواب بعد، عندما دخلت الكونتيسة مرتدية غلالة من الساتان الأبيض المطعم بالفضة، ووجهها النضر، تتوجه ضفيرتان ثقيلتان على شكل إكليل، وقد ارتسمت فوق جبهتها المرمرية المائلة قليلاً ثنية أقامها الغضب ليشوه ذلك الإشراق الرائع. دخلت متحلية

twitter @baghdad_library

بالحزم والعظمة. لقد تناهى إليها خبر المبارزة فجاءت تسأله إيضاحاً. مع ذلك، استطاعت بهدوئها أن تسيطر على أعصابها حتى أنجز الوصيف عمله وغادر الغرفة. واسترق پيار نظرة خجلى خلال نظارتيه وبدا أشبه بالأرنب الذي دهمته كلاب الصيد، عندما يرخي أذنيه وينطوي على نفسه أمام أعدائه الألداء. حاول التحصن وراء كتابه والتلهي بالقراءة، لكنه شعر بعقم هذا التصرف، فراح يرقبها من جديد بنظرة وجلة. أما هي فقد لبثت واقفة تتفحصه وعلى شفتيها ابتسامة هازئة. سألته بلهجة حازمة عندما خرج الوصيف من الغرفة: ماذا هناك من جديد؟ لقد ارتكبت أمراً جللاً! ما معنى ذلك؟

سألها پيار: أنا؟ ماذا فعلت؟

ـ هه، أنت قد أصبحت مغواراً في الحروب! ما معنى هذه المبارزة؟ ماذا أردت أن تثبت بها؟ أجبني عندما أحدثك!

استدار پيار بتثاقل فوق الكنبة وفتح فمه لينطق بشيء، لكنه لم يُخرج من حنجرته حرفاً واحداً. تابعت هيلين تقول: حسناً، بما إنك لن تجيب فإنني أنا التي سأتحدث. إنك تصدق كل ما يقولونه لك، ولقد قالوا لك إن دولوخوف... كان «عشيقي».

قالت هذه الكلمة وأرفقتها بضحكة مدوية. كانت تتحدث بالفرنسية بتلك الرنة الوقحة المعروفة في أسلوبها، فأطلقت تلك الكلمة الفجة دون أي ارتباك أو خجل! أردفت:

وأنت، صدقت هذه الأقاويل. ولكن على أي شيء برهنت في هذه المبارزة؟ على أنك «أحمق» فحسب. ثم إن كل الناس كانوا يعرفون عنك ذلك!... والآن تريد أن تجعل مني أضحوكة الموسكوفيين، سيقولون كلهم إنك في ساعة سكرك أخفقت في السيطرة على أعصابك، فتحديت رجلاً كنت تغار منه دون سبب وبارزته...

www.Maktbah.com

وأضافت وهي ترفع صوتها أكثر فأكثر: أجل، رجلاً يستأهل كل الالتفات والاحترام أكثر منك...

زمجر پيار وهو يرف بعينيه دون أن ينظر إليها أو أن يقوم بحركة ما: هم! هم!...

ـ ما الذي جعلك تعتقد أنه عشيقي؟... لأنني أجد متعة في رفقته؟ لو أنك كنت أكثر ذكاء لفضلت عشرتك على عشرته بدون شك.

غمغم پيار بصوت أجش: دعيني هادئاً... أرجوك.

ـ ولمَ إذن؟ إن من حقي أن أتكلم على ما أعرف!... أقول لك بكل صراحة: مع زوج مثلك، أية امرأة ما كانت لتجعل لنفسها عشاقاً؟... ومع ذلك فإنني لم أفعل ذلك.

ودّ پيار أن يقول شيئاً، لكنه اكتفى بأن ألقى عليها نظرة لم تفهم شيئاً مما قصده بها. عاد يجلس على الكنبة وهو فريسة قلق فظيع. كان مبهور الأنفاس يكاد صدره ينفجر، فهو يعرف الوسيلة التي تضع حداً لعذابه، لكنه كان يتراجع أمام هذه النتيجة. وأخيراً ألمح بصوت متقطع: الأفضل لنا أن نفترق.

ـ نفترق؟ يا للغبطة! ولكن شرط أن تعطيني ما أعيش به!... أما ما تبقى، فإنني أسخر به!

قفز پيار عن الكنبة ومشى إليها بخطوات مترنحة.

زمجر كالحيوان الجريح: سأقتلك!

وأطبق بقوة لم يعهدها في نفسه على قطعة الرخام التي تغطي الطاولة ورفعها مهدداً.

تقلص وجه هيلين من الخوف فأطلقت صرخة ثاقبة ورمت بنفسها إلى الوراء. لقد نطق الدم الأبوي في عروق پيار: كان يشعر بلذة غريبة مسكرة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من غضبه. رمى قطعة الرخام فتحطمت واندفع نحوها مطبق القبضتين وزأر بصوت مخيف اهتز له القصر رعباً: اخرجي!

ولو أن هيلين لم تركض في تلك اللحظة، لوقعت أمور لا يعلم مداها إلا الله وحده.

سافر پيار وحيداً بعد ثمانية أيام، في طريق أملاكه في روسيا الكبرى، تلك الأملاك التي كانت تشكل أكثر من نصف ثروته.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

بعد شهرين على وصول أنباء معركة أوسترليتز إلى ليسيياغوري ـ الجبل الأقرع ـ حيث محل إقامة الأمير العجوز بولكونسكي. وما زال أندريه ابنه في عداد المفقودين رغم الرسائل التي وجهها والده إلى السفارة، وكل التحقيقات التي أجريت والتي لم تسفر عن إيجاد جثة الأمير أندريه وخصوصاً أن اسمه لم يرد في قائمة الأسرى. لم يكن هناك أي أمل في أن تكون جثته قد رفعها السكان بعد المعركة، بل إن هذه النظرية كانت أكثر النظريات إيلاماً لعائلة الفقيد. لأنه في هذه الحالة، يكون وحيداً في مكان ما في طور النزاع أو في دار النقاهة دون أن يكون حوله نصير، ودون أن يستطيع أن يبعث بأخباره. اطلع العجوز بادئ الأمر على أنباء الهزيمة عن طريق الصحف. كانت هذه، كعادتها تعلن بعبارات مقتضبة أن الروس بعد معارك عظيمة أظهروا فيها بسالة فائقة، اضطروا إلى التراجع وأن الانسحاب جرى في جو منظم. فلما قرأ الأمير هذا البلاغ، أدرك أن الروس قد هزموا. ولم تمض ثمانية أيام حتى تلقى رسالة من كوتوزوف يطلعه فيها على مصير ابنه. قال في رسالته:

«سقط ولدكم أمام عينيّ والعلم في يده بينما كان على رأس فيلق، سقوط الأبطال، فكان جديراً بأبيه، وبوطنه. وإننا، لشديد أسفي وأسف الجيش كله، لا ندري إذا كان حياً أو ميتاً. مع ذلك فإننا نستطيع أن نرضي أنفسنا بالقول إنه نجا وإلا، فإن اسمه كان يجب أن يكون في قائمة أسماء الضباط القتلى الذين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

اطلعت على نسخة منها بنفسي، بعد أن حصلنا على هذه القائمة عن طريق المفاوضات مع العدو».

وصلت هذه الرسالة إلى الأمير العجوز في ساعة متأخرة من الليل، عندما كان وحيداً في مكتبه. وفي اليوم التالي، قام بنزهته الصباحية وكأن أمراً لم يحدث. لكنه بدا شديد الشراسة مع وكيله وبستانيه ومهندسه. وعلى الرغم من سمات الغضب التي كانت بادية على وجهه، فإنه لم يوجه اللوم إلى أحد.

وعندما دخلت الأميرة ماري لتحيته صباحاً حسب العادة، كان منصرفاً إلى دولابه (دولاب صنع الفخار)، فلم يلتفت إليها.

وفجأة قال لها بصوت مبحوح: آه، ماري!

ألقى بإزميله جانباً، فظلت العجلة تدور بفعل السرعة المكتسبة، واستمر ذلك الصرير الذي أخذ يخفت تدريجاً، عالقاً زمناً طويلاً في ذاكرة ماري مرتبطاً بذكريات تلك الصبحية.

بعد أن اقتربت منه، قرأت على وجهه فكرة جعلتها تتهم عينيها، واضطربت كلياً. لم يكن الوجه حزيناً ولا مرهقاً، ولكن كان منقلباً وكأنه فريسة عراك غير طبيعي، وكان ينبئها بأن مصيبة معلقة من قبل فوق رأسها على وشك أن تسحقها الآن. تلك المصيبة التي كانت أخطر ما مر بها في حياتها، والتي كان يستحيل محو آثارها ويستحيل احتمالها بتجلّد، كانت موت كائن تحبه بقوة.

صرخت الأميرة المكدّرة بصوت خارج عن غير ذاتها وبألم شديد الوقع قائلة: أبي! أندريه!

لم يتمكن الأب من الصمود لنظرتها، فأشاح بوجهه وانتحب. قال بصوت كالنباح بلهجة غاضبة وكأنه يريد أن يطرد ابنته من حضرته: تلقيت

www.Maktbah.com

أخباراً تفيد أنه ليس في عداد الجرحى ولا في عداد الموتى... لقد كتب لي كوتوزوف... إذن فهو ميت!

لم يستول الدوار على الأميرة ولم تفقد وعيها، كانت من قبل شاحبة الوجه. لكنها عندما تلقت النبأ، تبدل وجهها ولمعت نظراتها بوميض أضاء عينيها الجميلتين. سيطر على ألمها العميق لون من الذهول الغريب، مترفع عن أفراح هذه الأرض السفلية وأتراحها. نسيت الخوف الذي كان يبعثه أبوها في نفسها فاقتربت منه وأمسكت بيده وأحاطت عنق العجوز المعقد بذراعيها وقالت: أبتاه، لا تبالِ بوجودي. لنبك معاً.

صرخ الأمير وهو يتخلص من ذراعي ابنته: هؤلاء السفلة، لماذا أضاعوا الجيش وقتلوا الرجال؟ اذهبي وأخبري ليز.

تهاوت الأميرة في مقعد وأطلقت لدمعها العنان. رأت بعين الخيال أخاها يودعهم قبل سفره، يودع ليز ويودعها هي، بلهجة ودودة. ورأت نفسها تضع «الأيقونة» الصغيرة حول عنقه وهو يقابل صنيعها بسخرية رقيقة. تساءلت: «هل كان مؤمناً؟ هل تاب عن إلحاده؟ هل هو الآن هناك في السماء، في مقام الراحة الأبدية»؟

سألت أباها خلال دموعها: قل لي يا أبي، كيف وقع ذلك؟

ـ هيا، هيا، لقد قتل في معركة فقدنا فيها إلى جانب مجدنا خيرة الروس. هيا يا أميرة ماري، أخبري ليز وسألحق بك.

عندما عادت ماري من منزل أبيها، كانت الأميرة الصغيرة جالسة أمام نولها. راحت ترقبها وتتأمل الأمارات التي تدل على القناعة والإشراقة المتيقظة، التي تنفرد بها النساء الحاملات. لم تكن ترى فيها زوجة لأخيها فحسب، بل كانت تنظر في أعماق روحها وتتأمل الحدث السعيد الذي كان يتم في عالم المجهول.

twitter @baghdad_library

قالت ليز وقد توقفت عن العمل على نولها وتستلقي إلى الوراء: ماري، أعطني يدك.

أخذت «ليز» يد ماري ووضعتها على بطنها. كانت عيناها تضحكان ضحكة الترقب والانتظار، وشفتها ذات الزغب ترتفع لتبقى جامدة في مكانها مضفية على وجهها سعادة الأطفال الأبرياء.

ركعت ماري ودفنت وجهها في ثنيات ثوب زوجة أخيها.

قالت ليز وهي تنظر إلى ماري بعينين مشرقتين: هنا، هنا، أتشعرين؟ إن هذا يبدو لي شديد الغرابة. ثم هل تعلمين؟ لقد أحببته كثيراً.

لم تستطع ماري أن ترفع رأسها. كانت تبكي.

ـ ماذا بك يا ماري؟

ـ لا شيء... أنا أشعر بفائض من الحزن كلما فكرت في أندريه.

وجففت ماري دموعها بثوب زوجة أخيها.

حاولت مراراً أن تهيئها لتقبل الخبر المفجع، لكن دموعها كانت تحبس الكلمات في حنجرتها كل مرة فتصمت وتتراجع. وما كان يمكن لتلك الدموع التي لم تكن ليز تفهم الباعث على ذرفها إلا أن تعذبها وتزعجها مهما بلغ ذكاؤها من ضعف. لم تكن تنبس ببنت شفة، كانت تجيل حولها في الغرفة نظرات مضطربة. وقبل موعد الطعام، رأت الأمير العجوز يدخل إلى غرفتها. وكان يبعث الرهبة في نفسها أبداً. لكنه كان في تلك المرة على غير عادته، تحمل أمارات وجهه طابعاً سيئاً متباهياً. وقد رأته يخرج من غرفتها دون أن يوجه إليها كلمة. راحت تحدجه بنظرة فارغة ثم استغرقت في التفكير وقد ارتسمت على وجهها ظاهرة العناية الموجهة إلى مكنون أحشائها كما يحدث غالباً للنساء الحبالى. وفجأة استسلمت للبكاء.

سألت باكية: هل تلقيتم أنباء عن أندريه؟

www.Maktbah.com

ـ كلا، إن الوقت لايزال مبكراً كما تعلمين. لكن أبي شديد القلق من أجله، الأمر الذي يؤلمني جداً.

ـ إذن، أما زالوا لا يعرفون شيئاً؟

فأجابت ماري مؤكدة وهي تنظر إليها بعينيها المشعتين: كلا، لا شيء.

صممت أن تخبئ الحقيقة وأقنعت أباها بوجوب اتخاذ مثل هذا القرار بانتظار قيام «ليز» من الوضع القريب المنتظر. وراح الأب والابنة، كل على طريقته، يسيطر على آلامه ويخبئ حزنه. كان الأمير العجوز لا يتعلق بأي أمل رغم أنه كلف رجلاً موثوقاً به القيام بتحريات في النمسا. كان مقتنعاً بأن ابنه قد قتل، وأعلن نبأ موته لجميع الناس. بل أوصى على نصب يرسل إليه من موسكو ليقيمه في حديقته ذكراً لابنه القتيل. وعلى الرغم من محاولته عدم تبديل شيء من عاداته، فإن قواه كانت تخونه: فقصُر مدى نزهاته وضعفت شهيته للطعام وجفاه النوم. وبالاختصار، كانت حالته تسوء يوماً بعد يوم. أما الأميرة ماري، فكانت بعيدة عن مسالك اليأس، تصلي من أجل أخيها كما تصلي من أجل مخلوق حي تنتظر خبر عودته سالماً بين لحظة وأخرى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

فجأة بعد إفطار يوم ١٩ آذار: قالت الأميرة الصغيرة: يا صديقتي الطيبة، أخشى أن يكون «الفروشتيك»[1]، كما يسميه الطاهي، قد سبب لي بعض الارتباك.

وبشكل آلي، تقوست شفتها المظللة. ولما كان كل ما في ذلك البيت منذ وصول ذلك النبأ المفجع، من ابتسامات وأصوات وحركات يحمل طابع الحداد، فإن ليز نفسها انساقت مع المجموعة دون أن تعرف شيئاً من الموجبات، وسارت مع التيار، فكانت ابتسامتها تزيد في الاكتئاب العام.

صاحت ماري وأسرعت بخطى ثقيلة: ماذا بك يا عزيزتي؟ كم أنت شاحبة!

وألمحت إحدى الوصيفات قائلة: ماذا يا صاحبة السعادة لو أرسلنا في استدعاء ماري بوغدانوڤنا؟

وماري بوغدانوڤنا هذه، قابلة تسكن في المدينة الصغيرة المجاورة، وقد استقرت في ليسييا غوري منذ خمسة عشر يوماً.

قالت ماري موافقة: بدون شك، لعل استدعاءها أصبح ضرورياً. أنا ذاهبة إليها، تشجعي يا ملكي!

وقبل أن تخرج قبلت ليز فصاحت هذه متوسلة وجهها الشاحب

---

(١) طعام الفطور بالألمانية. (المترجم).

www.Maktbah.com

المتقلص من الآلام يعكس الفزع الصبياني من العذاب والألم المنتظرين: أوه، كلا! كلا! كلا، إنها المعدة... قولي إنها المعدة، قولي، ماري، قولي...

وغرقت في البكاء وهي تلوي ذراعيها كالطفل بحركة لم تخل من التصنع.

ابتسمت ماري وخرجت مسرعة مصحوبة بـ«أوه! أوه! ويا ربي! يا ربي!» التي كانت ليز تواكبها بها.

وفي الطريق، التقت القابلة التي كانت قادمة وهي تفرك يديها البضّتين السمينتين ووجهها المرسوم بالهدوء. قالت ماري وهي تنظر إلى القابلة نظرات حائرة من عينيها المتسعتين من الخوف: يا ماري بوغدانوڤنا، أعتقد أن المخاض قد بدأ.

فقالت ماري بوغدانوڤنا دون أن تسرع الخطى: حمداً لله يا أميرة. لكن هذه الأمور لا يجوز للعذارى معرفتها.

ـ ولكن لمَ لم يصل الطبيب من موسكو؟

وبناء على رغبة ليز وأندريه أوصوا على طبيب مولد من موسكو، ليحضر في الوقت المحدد. وكانوا ينتظرونه بفارغ صبر.

أجابت القابلة: لا بأس يا أميرة، لا حاجة إلى الطبيب سيسير كل شيء على ما يرام.

وبعد خمس دقائق، سمعت ماري، التي كانت قد انسحبت إلى جناحها، صوتاً يدل على أن بعضهم ينقل شيئاً ثقيلاً. واربت الباب، فرأت عدداً من الخدم يحملون بينهم الديوان الجلدي الذي كان يزين مكتب الأمير أندريه، ويدخلونه إلى غرفة ليز. وكان الخدم يؤدون عملهم بتأن.

بقيت ماري في غرفتها بل كانت تصيخ السمع إلى الضجة التي تصدر بين الحين والحين وتوارب الباب بين فترة وأخرى لتراقب الحركة القائمة

twitter @baghdad_library

في الممشى. كان عدد من النسوة بين داخلات وخارجات، يمشين بخطى هادئة ولكنهن يشحن بأبصارهن عن وجه الأميرة كلما التقت نظراتهن عينيها المتسائلتين. ولم تجرؤ الأميرة على طرح أسئلة عليهن، فكانت تغلق بابها لتجلس على مقعد أو لتأخذ كتاب الصلوات أو لتركع أمام «الأيقونات» مبتهلة. ولشدة دهشتها الأليمة، كانت الصلاة عاجزة عن تخفيف حدة ألمها. وفجأة فُتح باب غرفتها بهدوء وبرز رأس يغطيه منديل، ومن تحته مربيتها العجوز براسكو في سافيشنا التي، نزولاً على أوامر الأمير، لم تكن تدخل إلى غرفتها قط تقريباً. قالت المربية: لقد جئت أجالسك يا ماريتي الصغيرة. وها هي يا ملكي شموع زواج والديك سأشعلها أمام قداسة السعيد.

ـ كم تسرني صحبتك أيتها المربية.

ـ إن الله رحيم يا حبيبتي.

أضاءت المربية الشموع الملفوفة بورق مذهب أمام خزانة التمائم المقدسة وعادت تجلس قرب الباب وبين يديها أشغالها. وتناولت ماري كتاباً وأخذت تقرأ، فلم تكونا تتبادلان النظر دون الحديث إلا إذا طرق مسامعهما صخب أو ضجيج أو أصوات خطى. وكانت نظرة ماري قلقة بينما كانت نظرة المربية هادئة.

كان الشعور بالقلق الذي استحوذ على ماري في غرفتها، منتشراً في كل أنحاء المنزل بين كل أهلها. ثمة خرافة قديمة تقول إنه كلما انتقص عدد الأشخاص الذين على معرفة بأمر المرأة التي تعاني المخاض، خفّت آلامها لذلك فقد كان كل من في المنزل يتعمّد الجهل بالأمر متظاهراً بالهدوء، فلا حديث عن الولادة ولا همس.

ولكن كان لون من الاهتمام المشبع بالحنان يظهر خلال ذلك الجمود والحركات الخطيرة المعروفة لدى كل من في خدمة الأمير العجوز. وكان ذلك الاهتمام يتحد مع القناعة بوقوع حدث مجهول لايزال في دور التكامل.

www.Maktbah.com

لم تكن أيّ من الخادمات والوصيفات تضحك. أما في الغرف الأخرى فكانت الشموع مضاءة والمسارج مشعلة وكل من في البيت يقظان. وكان الأمير العجوز يذرع غرفته على أطراف قدميه حذر الضجة، فقرر أخيراً أن يرسل تيخون للاستفسار من ماري بوغدانوفْنا عن حالة الأم المنتظرة. قال له: عليك أن تقول لها فقط إن الأمير يسأل عن الحالة. وعد لي بما ستقوله لك. فلما بلغ إلى حيث كانت القابلة قالت له وفي عينيها نظرة حافلة بالمعاني: أخبر الأمير أن المخاض قد رد فيها.

وعاد تيخون يحمل الجواب. فقال الأمير وهو يغلق الباب وراءه: حسناً، حسناً.

لم يسمع تيخون بعد ذلك ضجة ما أو صوتاً صادراً عن مكتب الأمير. وبعد فترة طويلة، دخل إلى المكتب بحجة تنظيف الشموع. فرأى الأمير مستلقياً على الكنبة. راح تيخون يتأمل وجهه المهدم فترة، ثم اقترب منه بهدوء وقبل كتفه وخرج دون أن يفعل شيئاً آخر أو أن يفصح عن رغبته. بينما بقي السر الجليل الذي لا يضاهيه شيء في العالم، يتكامل ويتحقق. وأقبل الليل وراح شعور الانتظار والخشوع أمام المجهول الذي لا يمكن إدراكه، يتزايد باستمرار بدلاً من أن تخبو جذوته.

كانت تلك الليلة من ليالي آذار التي يعود فيها الشتاء فجأة ثائراً ينقض بيأس بجحافله الأخيرة وعواصفه الثلجية. وكان بعض الرجال على جيادهم حاملين المصابيح، يقفون في أماكن معينة على الطريق المتصلة بالشبكة العامة، منتظرين وصول الطبيب الألماني من موسكو ليرافقوه إلى القصر. وكانوا ينتظرون قدومه بين حين وآخر وقد أرسلوا جياداً إلى الطريق العام لاستقباله.

منذ فترة طويلة، تركت ماري كتابها وراحت تتأمل بصمت بعينيها

twitter @baghdad_library

المشعتين، وجه مربيتها المتغضن الذي ألفت تقاطيعه وعرفتها ابتداء من خصلات شعرها الأشهب الناجية من قماط رأسها وحتى ذلك الجيب الجلدي الحي الذي يتدلى أسفل ذقنها.

وكانت المربية ساڤيشنا، تقص بصوت منخفض، دون أن تسمع أو تفهم ما تقوله بنفسها، حكاية كررتها أكثر من مائة مرة، موضوعها أن الأميرة المرحومة، وضعت ماري في كيشينيڤ[١] بمساعدة سيدة مولدافية[٢] فقط. وعقبت: سوف يرحمنا الله. أما «الدوختور» فإنه لا يستطيع شيئاً.

وهبت ريح قوية على إحدى النوافذ التي رُفع حاجزها الخشبي الخارجي، نزولاً عند أوامر الأمير الذي درج على مثل هذه العادة كل عام، حال وصول طير القُبّرة مؤذناً بحلول الربيع، فاهتزت الدقيرة التي لم تكن محكمة الوضع وفتحت النافذة وأزيح الستار الحريري وانطفأت الشمعة. ارتجفت ماري بتأثير تلك النفحة الثلجية الباردة. وقامت المربية فوضعت أشغالها واقتربت من النافذة وراحت تحاول الإمساك بالدرفة الخارجية لإغلاقها وهي تنحني إلى الخارج على قدر المستطاع. والريح العاصفة تحاول انتزاع طرفي قمطتها واختطاف خصلات شعرها الأشهب.

قالت وهي ممسكة بالحاجز الخشبي: يا أميرة، يا ابنتي العزيزة، هناك بعضهم قادم في الممشى، وحوله المصابيح المضاءة. إنه «الدوختور» ولا شك.

صاحت ماري: حمداً لله! يجب أن أسرع لاستقباله، فهو لا يعرف اللغة الروسية.

ألقت شالها على كتفيها وأسرعت تستقبل القادمين. وبينما هي تجتاز

---

(١) مقاطعة سوفياتية كانت تابعة لرومانيا (المترجم).

(٢) مولداڤيا بالرومانية مولدوڤيا. إحدى الجمهوريات السوڤياتية. (المترجم).

www.Maktbah.com

الردهة، لمحت خلال النافذة عربة يواكبها حملة المصابيح، تقف أمام المدخل. فنزلت على السلم. وكان على قائمة حاجز السلم شمعة تصارع الريح، تضيء المدخل. رأت فيليب، وهو أحد الخدم، واقفاً بذهول أسفل السلم وفي يده شمعة. وعند مدخل السلم، كانت خطوات حذاء ملبّد ترتفع. وارتفع صوت لم يكن غريباً على ماري. كان الصوت يقول: حمداً لله وشكراً! وأبي؟

فيجيبه رئيس الخدم داميان الذي أسرع إلى الأسفل: لقد نام منذ حين.

ونطق الصوت ببضع كلمات أخرى أجاب عنها داميان، وراحت الخطوات الخفيفة غير المرئية تصعد السلم مقتربة.

تساءلت ماري: «أهو أندريه؟ كلا مستحيل، سيكون ذلك صعب التصديق»!

ورأت على البسطة في اللحظة التي راودتها تلك الفكرة، قرب الخادم الذي كان يحمل الشمعة، ظلاً يظهر ثم وجه الأمير أندريه ثم جسده، وقد غطت الثلوج ياقة معطفه السميك. أجل، لقد كان القادم أندريه بنفسه، لكنه كان شاحباً تصعب معرفته لأول وهلة، لأن عذوبة غريبة كانت تحل محل قسماته القاسية. وعندما بلغ أعلى السلم، ضم أخته بين ذراعيه. وسألها: ألم تتلقوا رسالتي؟

ولم ينتظر الجواب الذي لم يكن ليأتي لأن ماري كانت عاجزة عن الكلام، ونزل ليأتي بالطبيب المولد الذي التقاه عند المرحلة الأخيرة من الطريق. وبعد لحظة، عاد بصحبة الطبيب يصعد السلم بخطوات واسعة، وعاد يعانق شقيقته من جديد.

قال: يا لها من مصادفة غريبة، أليس ذلك يا عزيزتي ماري؟

ونزع معطفه وحذاءه ومضى إلى غرفة زوجته.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

كانت آلام الأميرة الصغيرة تترك لها فترات متقطعة من الراحة وهي مستلقية على الوسائد. وكانت خصلات من شعرها الأسود تفلت من غطاء رأسها الأبيض وتسترسل على طول خديها النديين، وكان فمها الوردي ذو الشفة المظللة، منفرج الشفتين قليلاً وكانت تبتسم بمرح. ولما وقف أندريه قرب الكنبة التي كانت ممددة عليها، وقعت عيناها الملتمعتان المذعورتان عليه، ولكنها لم تبدل من تعبيرهما. كانت تلك العينان تقولان: «إنني أحبكم جميعاً، ولم أسئ إلى أحد فلماذا أتألم؟ خففوا آلامي عني»! عرفت زوجها، لكنها لم تعرف معنى ظهوره المفاجئ في تلك اللحظة. دار أندريه حول الكنبة حتى بلغ موضع رأسها فقبلها في جبينها قائلاً: يا روحي العزيزة، إن الله رحيم.

هذه أول مرة يناديها بهذا القول. لكن عينيها امتلأتا بالعتاب أشبه بعيني طفل حرد وكأنها تقول: «كنت أتوقع منك بعض السلوان فإذا بك كالآخرين لا تختلف عنهم في شيء»! لم تكن مدهوشة لرؤيته أمامها لكنها لم تكن تعرف السبب الذي جاء به. لم يكن لوصول زوجها أية علاقة بآلامها. وتجددت الآلام، فرجت ماري بوغدانوڤنا الأمير أندريه مغادرة الغرفة.

خرج أندريه، ثم دخل المولّد إلى الغرفة، فالتقى أخته وراح يتحدث معها بصوت خفيض حديثاً تقطعه فترات صمت. كلاهما كان ينتظر مرهفاً سمعه بنفاد صبر.

قالت له ماري: هيا يا صديقي.

انتقل أندريه إلى شقة ليز وأقام في الغرفة الملاصقة لغرفة النوم. وبعد

www.Maktbah.com

فترة خرجت امرأة يعلو الذعر وجهها فلما رأت الأمير تضاعف ارتباكها. غطى وجهه بيديه وبقي كذلك دقائق طويلة. كان الأنين يقطع نياط القلوب والعويل الصادر عن غرفة النوم يشبه زمجرة الحيوان، اقترب أندريه من الباب وهمّ بفتحه. لكن صوتاً من الداخل صاح بذعر: مستحيل! مستحيل!

وقاومت يد مجهولة حركته. فرجع إلى غرفته يذرعها بخطى مضطربة، توقف الأنين. بعد ثوان قليلة، انطلقت صرخة مروعة تجاوبت في المنزل، صرخة لا يمكن أن تصدر عن ليز وهي على مثل حالها من الضعف. بينما اندفع نحو الباب من جديد يحاول اقتحام الغرفة، انقطعت الصرخة فجأة وارتفع استهلال طفل وليد.

للوهلة الأولى تساءل أندريه: «لماذا أتوا بطفل إلى هنا؟ طفل؟ أي طفل؟ ماذا يفعل هنا الطفل؟ هل ولد طفل»؟

وفجأة أدرك أن ذلك الاستهلال الذي سمعه يحمل معه فرحاً لوالديه، فخنقته العبرات، وارتمى على مسند النافذة وانخرط في بكاء كطفل صغير. جاء الطبيب، وكان خالعاً «الرودنغوت» الرسمي حاسراً أكمام قميصه، تحرك رعدة عصبية قسمات وجهه الممتقع. لم يجب عن أسئلة الأمير إلا بنظرة تائهة، وتجاوزه إلى مقعد. وهرعت امرأة جمدت في مكانها عندما وقع نظرها على الأمير أندريه وكأنها فقدت حواسها. فقرر هذا دخول غرفة النوم. رأى ليز ممددة كما شاهدها منذ خمس دقائق، وقد فارقتها الحياة.

هذه هي التعابير نفسها التي قرأها على وجهها الناعم الصغير ذي الشفة المظللة بطيف من الزغب، والخدين الشاحبين والنظرة الشاخصة الجامدة.

كان وجهها الميت الفتان يقول: «إنني أحبكم جميعاً حباً جماً. وأنتم ماذا صنعتم بي؟»!

وفي ركن من الغرفة كان شيء صغير أحمر يهمهم ويصرخ بين يدي ماري بوغدانوفْنا البضتين المرتعشتين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعد ساعتين من هذا الحادث، مضى أندريه إلى غرفة أبيه بخطوات صامتة. كان العجوز قد اطلع على كل شيء. وكان واقفاً قرب الباب فلما فتح، أخذ عنق ابنه بيديه الهرمتين الشبيهتين بالكلابات، وراح يبكي كالطفل.

شيع جثمان الأميرة الصغيرة في اليوم الثالث، اقترب الأمير أندريه من النعش ليودع زوجته. كانت قسمات وجهها محتفظة بذلك التعبير الخالد رغم عينيها المغمضتين: «ماذا فعلتم بي»؟ فأحس أندريه كأن شيئاً قد تمزق في صدره وأحسّ أنه مذنب وأن خطيئته لا تغتفر. وخانته الدموع فلم يستطع البكاء. وجاء الأمير العجوز بدوره يقبل اليد الصغيرة الممددة فوق الأخرى باسترسال وهدوء. وكان الوجه، وجه الأميرة يقول له: «ماذا فعلت بي؟ ولماذا»؟ فأشاح الشيخ بعينيه عنها بغضب إزاء ذلك الاستفسار الصامت.

وانقضت خمسة أيام أخرى، فأقيم الاستعداد لتعميد الأمير الطفل نيكولا أندرييڤيتش. كانت المربية تمسك بقمط الذقن بينما كان الكاهن يمسح بالزيت الكفين الصغيرتين وأسفل القدمين بريشة إوز.

كان الجد، وهو عراب الطفل، يخاف أن يفلته من يده فيسقط على الأرض، لذلك فقد حمله حول جرن المعمودية، وكان عبارة عن طست قديم من الحديد الأبيض المبعوج، وأسلمه إلى العرّابة التي لم تكن إلا الأميرة ماري. أما أندريه فكان الخوف يكاد يودي به لشدة قلقه على ابنه خشية أن يغرقوه في الطست أثناء العماد. كان ينتظر في الغرفة المجاورة ينتظر بلهفة نهاية الطقس الديني. ولما جاءته المربية به، راح يتأمله بسرور وأخذ يهز رأسه برضى وارتياح لحديث المرأة، التي أخبرته بأنهم عندما ألقوا في الطست بقطعة الشمع الملصق به خصلة من شعر الوليد، لبثت طافية تسبح على سطح الماء دون أن تنحدر إلى القاع[1]

---

(١) دليل على أن الطفل سيعيش. (المترجم).

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

قام الكونت روستوف العجوز بنشاط مضن لكي يجعل المسؤولين يتجاوزون عن اشتراك ابنه في مبارزة دولوخوف ـ بيزوخوف، ونجح في مسعاه. وكان نيكولا ينتظر ذلك. والحق أنه بدلاً من أن تسحب منه رتبته، عُين ضابطاً مساعداً لحاكم موسكو العام. كان بحكم منصبه الجديد، مرغماً على البقاء في العاصمة. وهكذا تخلف عن مرافقة عائلته إلى الريف وقضى الصيف كله في موسكو. وكان دولوخوف قد شفي من جراحه بفضل عناية أمه التي كانت تحبه حباً عميقاً. فازدادت أواصر الصلة بينه وبين نيكولا خلال فترة نقاهته. وكانت أم دولوخوف، العجوز ماري إيڤانوڤنا متأثرة بهذه الصداقة، فأحبت روستوف وأحلته من نفسها مكاناً لائقاً وراحت تتحدث معه عن عزيزها ڤيديا. كانت تقول:

ـ نعم يا كونت إنه رجل نبيل وروحه سامية لا تتفق والعصر الحاضر الفاسد. ما من أحد يحب الفضيلة اليوم، إنها تزعج كل الناس. خذ مثلاً يا كونت، هل ما قام به بيزوخوف نبيل؟ لقد كان ڤيديا يحبه من أعماق قلبه، وهو حتى هذه الساعة لم يتفوه بكلمة سيئة عنه. تذكرمشاكلهم في پيترسبورغ وقصة ذلك الشرطي. إن الله وحده يعلم حقيقتها. لكنهما كانا مشتركين فيها معاً أليس كذلك؟ مع ذلك، فقد تخلص بيزوخوف من النتائج أما «ڤيدياي» العزيز فقد تحمل كل الوزر. والله يعرف وحده مبلغ الألم الذي قاساه في محنته! ثم أعادوا إليه رتبته؟ إن البواسل والمواطنين المخلصين مثله قليلون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في الجيش!... وهم في حاجة إلى أمثاله... ثم هذه المبارزة؟ إنني أسألك يا كونت، هل حقيقة أن لهؤلاء الناس قلباً وشرفاً؟ إنه يعرف أن ڤيديا ولدي الوحيد، مع ذلك فقد ورطه في تلك المبارزة وأطلق النار عليه دون أن ينذره! ولحسن الحظ، رفق الله بنا. وما هو سبب المبارزة؟ من الذي يخلو في عصرنا هذا من الدسائس؟ فإذا كان يحس بالغيرة على زوجته، لماذا لم يبد له ملاحظاته من قبل بدلاً من أن يحتمل زياراته المتكررة طوال عام كامل؟ وهو إذ تحداه، كان يعتقد أن ڤيديا لن يقبل التحدي لأنه مدين له ببعض المال. يا لها من دناءة، يا لها من خسة! إنني أعرف تماماً يا عزيزي الكونت إنك تفهم «ڤيدياي» جيداً. ولهذا السبب أحبك من كل قلبي. قليلون الذين يفهمونه، فلا بأس! إنه روح سامية؟

وكان دولوخوف نفسه يحدث روستوف بشيء من هذا القبيل، الأمر الذي لم يكن منتظراً منه، كان يقول:

ـ أنا أعرف أنهم يعتبرونني رجلاً خبيثاً. لكنني لا أبالي. إنني لا أريد أن أعرف أحداً إلا أولئك الذين أحبهم. وعندما أحب إنساناً، فإن حبي يبلغ مبلغ افتدائه بدمي. أما الآخرون، فإنني سأسحقهم جميعاً إذا حاولوا الوقوف في طريقي والتصدي لي. إن لي أماً أعبدها ولا أستطيع إيفاءها حقها من التقدير، وثلاثة من الأصدقاء بينهم أنت. أما الباقي، وإنني كما ترى لا أعتبرهم إلا بالقدر الذي أستطيع أن أفيد منهم. ويختلف تقديري لهم باختلاف النفع. وهم جميعاً مضرون كما يبدو وخصوصاً النساء. نعم يا عزيزي، إنني إذا وجدت حقيقة رجالاً نبلاء رفيعي العواطف مهذبين، فإنني في المقابل لم أجد بعد بين النساء، ابتداء من الكونتيسات وحتى الطاهيات، إلا مخلوقات برسم البيع.

لم أعثر بعد ذلك على ذلك الطهر الملائكي والإخلاص الذي أنشده عند المرأة وإذا وقع مثل هذا الاكتشاف، ووجدت المرأة المنشودة فإنني

www.Maktbah.com

سأقدم حياتي هبة لها. أما تلك الـ....!، وأشار بيده إشارة احتقار، صدقني إنني شديد التعلق بالحياة، لسبب واحد وهو اكتشاف العصفور النادر ذات يوم، المخلوق السماوي السامي الذي سيطهرني ويرفعني ويسمو بي ويبدل نفسيتي. لكنك لا تفهمني...

فأجاب روستوف وهو شديد الإعجاب بصديقه الجديد. بل أفهمك تماماً.

حلّ فصل الخريف وعاد آل روستوف إلى موسكو. وفي مطلع الشتاء عاد دينيسوف بالمثل ونزل عندهم. كان ذلك الشتاء من عام ١٨٠٦، أول شتاء قضاه نيكولا روستوف في موسكو. وكان أروع شتاء عرفته تلك العائلة. ولقد اجتذب وجود نيكولا عدداً كبيراً من الشباب. وكانت ڤيرا قد بلغت العشرين وأصبحت غاية في الجمال. وسونيا في السادسة عشرة وملؤها اللطف والجمال الذي لما يتفتح بعد. أما ناتاشا فأصبحت نصف طفلة نصف آنسة، تجمع بين عبث الطفلة وفتنة الشابة.

كان منزل آل روستوف في تلك الأثناء، مشبعاً بجو غرامي تنفرد به البيوت الحافلة بالفتيات الجميلات الناضجات. وكان الشبان الذين يدخلون ذلك البيت وتطالعهم تلك الوجوه المشرقة المتقبلة كل أنواع الإيحاء، الباسمة من السعادة ولا شك، ويرون تلك الحركة الدائمة وذلك النشاط المتقد، ويصغون إلى الأغاني والموسيقى وثرثرة نساء في مقتبل العمر يحدوهن الأمل والإرادة الطيبة، تلك الثرثرة الفارغة إلا من تودد وعطف، كان أولئك الشبان يشاطرون شباب آل روستوف ذلك الترقب للحب والسعادة الذي يعيشون فيه.

وبتسهيل من نيكولا، كان دولوخوف، وهو أول الوافدين إلى تلك الدار، يحوم حول كل من في الدار باستثناء ناتاشا التي كادت تتشاجر مع أخيها نيكولا بسببه. كانت ناتاشا تؤكد أن هذا الرجل يحمل وحده كل الخطأ في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مبارزته مع پيار وأنها تنفر منه لأنه متصنع. كانت تصرخ بعناد في وجه أخيها: أنا لا أريد فهمه ولا يهمني ذلك. لنأخذ مثلاً صديقك دينيسوف. إنه فاسق حقاً وكل ما يريد المرء أن يقوله عنه يمكن أن يكون صحيحاً. لكن ذلك لا يمنعني من أن أحبه وبالتالي أن أفهمه. لست أدري كيف أوفق في إفهامك هذا الرأي... إن الآخر، كل شيء عنده قائم على تدبير سابق، وهذا ما يزعجني فيه وينفرني منه، بينما دينيسوف...

فيجيبها نيكولا: إن دينيسوف يختلف اختلافاً كلياً. يجب فهم روح هذا الشاب ومعرفة ذلك القلب الذي يضمه بين جوانحه، وكيف يتصرف حيال أمه!

أراد بهذا القول أن يلمح بأن دينيسوف لا يعتبر شيئاً مذكوراً إذا قيس بدولوخوف. قالت ناتاشا:

ـ أنا أجهل كل هذا. لكنني أشعر بالارتباك في حضرته... هل تعرف أنه مفتون بسونيا؟

ـ يا لها من حماقة!

ـ بل إنني متأكدة وسوف ترى.

والحقيقة أن ناتاشا كانت محقة في تخمينها. أصبح دولوخوف، وهو الذي لم يكن يحب عشرة النساء، ضيفاً مواظباً في دار روستوف، حتى أن كل السكان أدركوا ضمنياً أن تردده لم يكن إلا من أجل سونيا. وسونيا نفسها، رغم أنها لم تجرؤ حتى تلك اللحظة على التفوه بكلمة واحدة من ذلك، كانت تعرف حقيقة نياته ويحمرّ وجهها خجلاً كلما ظهر دولوخوف في قاعة الاستقبال.

عند آل روستوف كان دولوخوف يتناول طعامه غالباً، ولا يتخلف عن أية حفلة تقام حتى حفلات الأحداث الخاصة بهم، التي كان أستاذ الرقص إيوجل يقيمها أحياناً، والتي كانت النسوة من آل روستوف يحضرنها بلا انقطاع. كان

www.Maktbah.com

يظهر كثيراً من العناية إزاء سونيا ويغمرها بنظرته التي ما كانت تتذكرها دون أن تندفع الدماء إلى وجهها حياء. بل إن الكونتيسة نفسها وناتاشا أيضاً كانتا تشعران بمثل شعورها حيال تلك النظرة. كان ذلك الرجل القوي الغريب، يتأثر بشدة تأثراً لا يقاوم بفتنة تلك السمراء الصغيرة التي كان قلبها مشغولاً في مكان آخر.

أخيراً، وأدرك نيكولا، دون أن يحدد الغاية الحقيقية من ذلك، أن هناك علاقة ما بين دولوخوف وسونيا. فكان يحدث نفسه وهو يفكر في أخته وابنة عمه: «آه، رباه! إن هاتين الخبيثتين لا تقضيان يوماً دون أن تغرما بأحد!» ولما كان يشعر أنه على غير ما يرام في صحبة دولوخوف وسونيا، فقد راح يقضي معظم وقته خارج الدار.

عاد حديث الحرب إلى الألسن، منذ خريف عام ١٨٠٦، الحرب مع ناپليون، فكان حديثاً أكثر انتشاراً من العام السابق. تقرر إجراء تجنيد يعادل عشرة على كل ألف للجيش العامل وتسعة على كل ألف لبقية الأسلحة الفنية والمهمات الحربية. وفي كل مكان كانت اللعنات الدينية والحرمان الكنسي يسلط على بوناپرت، فلم تكن موسكو لتتحدث إلا عن معاودة القتال القريب ولولا عزيزهم نيكولا، لما علق آل روستوف على تلك الأخبار والاستعدادات إلا أهمية سطحية. لكن الشاب كان يرفض بإلحاح البقاء في موسكو. كان ينتظر انتهاء مأذونية دينيسوف بفارغ الصبر ليعود معه إلى القطعة بعد أعياد الميلاد.

غير أن ذلك الرحيل المنتظر لم يبدل شيئاً من أفراح روستوف وعاداته اليومية. بل إنه كان على العكس يثيره ويشحذ همته. وكان لذلك النبأ رد فعل لطيف. ذلك أن الدعوات انهالت عليه بين حفلات راقصة وولائم، حتى أن ذويه باتوا لا يرونه إلا نادراً.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

تناول نيكولا مع أفراد أسرته بصورة استثنائية، الغداء ظهر اليوم الثالث لعيد الميلاد. وكان الغداء بمثابة وليمة الوداع لأن رحيل نيكولا بات مقرراً عقب اليوم الأخير مباشرة. وكانت المائدة تضم عشرين شخصاً بينهم دولوخوف ودينيسوف.

لم يحدث من قبل أن عاش منزل آل دينيسوف مثل ذلك الحب. كان ذلك الجو يوحي للمرء أن: «أطبق على هذه اللحظات من السعادة واحبب ودع الآخرين يحبونك! إن الحب هو الآمر الوحيد ذو الشأن والقيمة وهو وحده الذي يشغلنا لأن كل ما عداه ليس إلا سخفاً».

قبل البدء بالطعام بفترة وجيزة، وصل نيكولا كعادته، بعد أن أنهك جياد عربتين طافتا به على التتالي بين منازل أصدقائه، دون أن يستطيع مع ذلك تلبية كل الدعوات ولقاء كل الراغبين في رؤيته. ولم يكد يدخل غرفة الطعام حتى أحس بالجو العاطفي المخيم على الموجودين ولمس ارتباك بعضهم. وبدت سونيا والكونتيسة وناتاشا وكذلك دولوخوف على شيء كثير من الانفعال، فأدرك أن أمراً ما قد وقع قبل الطعام، وقدر أن يكون ذلك الأمر قد وقع بين سونيا ودولوخوف. ولما كان رقيق القلب فقد سعى إلى تجنبها بكثير من المودة. وكان مقرراً إقامة حفلة راقصة يحييها أستاذ الرقص «إيوجل» ويشترك فيها تلامذته من الجنسين.

www.Maktbah.com

قالت له ناتاشا: نيكولا، يا عزيزي، هل تأتي إلى منزل إيوجل؟ إنه يعتمد على مجيئك ثم إن ڤاسيلي دميتريش ـ أي دينيسوف ـ قد وعد بالحضور.

فأجاب دينيسوف الذي جعل من نفسه رفيقاً لناتاشا وهو مطمئن البال: وهل ثمة مكان لا أذهب إليه بناء على أمر الكونتيسة؟ سوف أرقص عن طيبة خاطر «خطوة الشال» لأدخل الفرح إلى نفسها.

فقال نيكولا: سأذهب إذا وجدت لحظة فراغ في وقتي. لقد وعدت آل أرخاروف بحضور حفلتهم... وأنت؟

كان هذا السؤال موجهاً إلى دولوخوف. لكنه أدرك بعد فوات الأوان أنه كان من الأصوب عدم طرح ذلك السؤال.

أجاب دولوخوف بجفاء: نعم من المحتمل أن أحضر.

وانتقلت نظرته إلى سونيا فلمستها برفق ثم عادت تحط على روستوف الذي قرأ فيها مثل ذلك التعبير الذي شاهده من قبل عندما كان دولوخوف يحدق إلى وجه پيار إبان تلك الوليمة المشهودة.

قال نيكولا في نفسه: «لا شك أن أمراً قد وقع!» وتأكدت شكوكه بسرعة عند رؤية دولوخوف ينسحب فور فراغ المدعوين من الطعام. استدعى ناتاشا وسألها عما حدث. قالت له وهي مسرعة إليه:

ـ كنت أبحث عنك في الوقت نفسه. لقد أخطرتك من قبل ولكنك لم تصدقني حينذاك. لقد طلب إلى سونيا أن تتزوجه.

تحدثت ناتاشا بلهجة منتصرة. أما نيكولا وعلى الرغم من قلة اهتمامه بأمر سونيا في المدة الأخيرة، شعر بيد خفية تعصر قلبه لدى سماع هذا النبأ. وكان دولوخوف بالنسبة إلى يتيمة مثل سونيا، «صفقة» ملائمة، بل رابحة من بعض وجهات النظر. ومن المستحيل رفضه في نظر الكونتيسة والآخرين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وهكذا همّ نيكولا بالقول مدفوعاً بالإحساس الأول: «هيا، ليكن! لتنس وعود الطفولة ولتعرب عن موافقتها!» لكنه لم يجد الوقت للنطق بهذا القول.

أردفت ناتاشا بعد فترة صمت: تصور أنها رفضت: لقد رفضت رفضاً جازماً... بل إنها قالت له بأنها تحب شخصاً آخر.

فقال نيكولا في سره: «لم أكن أتوقع منها غير ذلك!» وأردفت ناتاشا قائلة: ولقد توسلت أمنا إليها أن تقبله ولكن عبثاً. وأنا واثقة بأنها لن تتراجع عن عزمها.

فقال نيكولا منزعجاً: توسلت إليها أمي!

ـ نعم... اصغ يا نيكولا ولا تغضب. إنني أعرف أنك لن تتزوجها... كلا إنك لن تتزوجها وأنا متأكدة من ذلك. إن الله يعرف السبب لكنني واثقة بما أقول.

فاعترض نيكولا بقوله: هذا ما لا يمكنك معرفته... لكن يجب أن أتحدث معها...

وتابع مبتسماً: إنها فاتنة سونيا الصغيرة هذه!

وقفزت ناتاشا إلى عنق أخيها تطوقه وانطلقت راكضة.

دخلت سونيا بعد دقائق وهي مرتبكة خجلى وعلى وجهها علامات المتهم المذعور. اقترب نيكولا منها وقبل يدها. كانت تلك أول مرة يلتقيان فيها منفردين منذ عودة نيكولا، ويتحدثان فيها بصراحة.

بدأ نيكولا يقول بصوت مرتجف ويسترد ثباته رويداً رويداً حتى أصبح جريئاً: صوفي، صوفي، هل يعقل أن ترفضي مثل هذا العرض المغري؟... إنه شاب ممتاز نبيل... ثم إنه صديقي.

فبادرت سونيا تقاطعه: لقد رفضت وانتهى الأمر.

ـ إذا كان رفضك بسببي فإنني أخشى من جانبي أن...

www.Maktbah.com

وبادرت مجدداً تقاطعه قائلة وهي تستعطفه بنظرة: نيكولا لا تقل لي هذا.

ـ بل ينبغي أن أقوله لعله نوع من الغرور من جانبي، ولكن يجب أن أقوله. إذا كنت ترفضين دولوخوف من أجلي فإنني أضطر عندئذ إلى مصارحتك بكل الحقيقة. إنني أحبك ولا شك. وأؤمن أن أياً في العالم...

فقالت سونيا محمرة الوجه: وهذا يكفيني.

ـ صحيح لكنني عشقت غير مرة وهذا يتكرر الآن أيضاً رغم أنني لا أشعر بالاطمئنان مثل شعوري به عندما أكون معك. ثم إن أمي لا تريد أن أتزوج وبالاختصار، فأنا لا أتعهد بشيء. وأطلب منك أن تفكري في عرض دولوخوف.

ونطق باسم صديقه بشيء كبير من العناء. فقالت سونيا: لمَ تقول لي هذا؟ إنني لا أطلب شيئاً. أنا أحبك كأخ وسأحبك دائماً: فماذا ينبغي لي أكثر من ذلك؟

إنك ملك طاهر وأنا لست جديراً بك. وكل ما أخشاه هو أن لا أستطيع الإجابة عن طول انتظارك وصبرك.

وقبّل يدها مرة أخرى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

تقام حفلات كثيرة في موسكو لكن أكثرها تسلية هي حفلات إيوجل. هذا ما قالته الأمهات وهن يرقبن أكبادهن يتمرنون على إجادة الخطوات التي تعلموها. وكذلك الصغار أنفسهم، بين بنين وبنات، جميعهم من هذا الرأي، وكانوا يجدون متعة كبيرة في تلك الحفلات. وكان الشباب لا يخالفون هذا الرأي، فيحضرون تلك الحفلات للمسايرة، فيتسلون فيها أكثر من أي مكان آخر. وقد تم عقد زواجين اثنين في تلك الحفلات هذا العام، ذلك أن الأميرتين الجميلتين غورتشاكوف وجدتا هناك زوجين صالحين.

وارتفعت أسهم تلك الحفلات وذاع صيتها حتى بلغ الأوج. كان فيها شيء خاص جذاب لا يتوافر في غير مكان، ذلك أن تلك الحفلات تقام في جو لا يعكره وجود رب أو ربة منزل. لقد كان «إيوجل» طيب القلب هنا وهناك كالريشة الخفيفة، يقدم الانحناءات والاحترامات حسب كل ألوان فنه وقواعده، ويتقبل أساليب مدعويه كلهم وخصوصاً أن كل من كان يجتمع هناك، كان ولوعاً بالرقص شغوفاً بانتهال المسرات البريئة، كما هي حال الفتيات الصغيرات دائماً اللاتي لم يتجاوزن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من أعمارهن، ويرتدين لأول مرة أثواباً طويلة.

كانت الفتيات كلهن، ما عدا استثناءات قليلة، جميلات، بسبب الحماسة والحيوية التي تلتهب في كيانهن، وابتساماتهن المشرقة ووميض عيونهن. وكان خيرة تلاميذه يحاولون أحياناً رقصة خطوة الشال التي كانت شائعة.

www.Maktbah.com

كانت ناتاشا أكثر التلاميذ إجادة لهذه الرقصة. لكن الرقصات المقررة تلك الليلة كانت محصورة في: الإيكوسية، والإنكليزية والمازوكا التي بدأت تحتل مكانها في الذوق العام. وكان إيوجل قد استعار إحدى صالات الكونت بيزوخوف لإقامة حفلته فكانت حفلة ناجحة جداً كما شهد الجميع بذلك. كانت الفتيات الجميلات كثيرات تلك الليلة وكانت الآنستان الممتلئتان سعادة ونشاطاً، تعتبران في عداد أجمل الفاتنات وكانت سونيا شديدة الفخار بالطلب الذي تقدم به دولوخوف إليها وبرفضها ذلك الطلب وبتفاهمها مع روستوف بعد ذلك، الأمر الذي كان يغمرها بالسعادة ويجعلها تدور حول نفسها وتتيه في نوع من التسامي الذي لا يشعر بمثله إلا العاشقون، فما كانت تمكّن الوصيفة من وضع القلنسوة على رأسها إلا بعد مزيد من العناء لكثرة حركتها. كانت فرحة جنونية تغمر نفسها وحتى ليقال إنها تبدلت كلياً. أما ناتاشا فإنها لم تكن أقل افتخاراً من سونيا، لأنها كانت سترتدي ثوباً طويلاً لأول مرة في حياتها، وستمضي إلى حفلة راقصة حقيقية. فكانت هي الأخرى تشعر بسعادة جامحة ولا تستقر على حال.

فور دخول ناتاشا القاعة استمالت لميلها الغرامي... كانت لا تميز شخصاً بعينه، بل تعجب بكل الناس معاً. فإذا وقعت عيناها على شخص ما عشقت ذلك الشخص... بانتظار تحول أبصارها إلى آخر وهكذا...

قالت تحدث سونيا كلما التقتا خلال الحفلة. آه! كم هذا بديع!

وكان نيكولا ودينيسوف، يروحان ويجيئان ويمنحان الراقصتين نظرات حانية. قال دينيسوف: إنها فاتنة، سوف تصبح آية في الجمال.

ـ من هي؟

فأجاب هذا بعد صمت: الكونتيسة ناتالي... هي ترقص بمهارة، يا لها من فاتنة!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ عمن تتكلم؟

فأجاب دينيسوف بضجر: عن أختك، ألا تفهم!

وابتسم روستوف.

وجاء إيوجل يحدث نيكولا قائلاً: عزيزي الكونت، إنك واحد من خيرة تلاميذي. يجب أن ترقص! أنظر كم من فتاة جميلة في هذه الحفلة!

وتقدم بمثل ذلك الرجاء إلى دينيسوف الذي كان فيما مضى تلميذاً له كذلك فقال هذا:

ـ لا، لا يا عزيزي. سأكون كثير الأخطاء... لم أحسن الانتفاع بدروسك، ألا تذكر؟

فبادر إيوجل قائلاً قصد الترفيه: آه، كلا، لقد كنت شارد الفكر، لكن استعداداتك لم تكن رديئة. نعم، نعم، إن استعداداتك كانت طيبة.

عزفت الموسيقى المازوكا التي كانت حديثة العهد في البلاد. ونزل نيكولا بناء على رغبة إيوجل وإلحاحه فخاصر سونيا. أما دينيسوف فقد مضى يجلس إلى جانب النساء المسنات متكئاً على حسامه، ضابطاً الإيقاع بقدمه، يحدثهن أحاديث ماجنة طريفة وهو لا يفك عن مراقبة الراقصين. وكان إيوجل أول زوج بين المتخاصرين يراقص ناتاشا، التي كانت خير تلميذة عنده ومبعث فخره. كان ينزلق بخفة فوق خفيه، ويندفع خلال القاعة مع راقصته المرتبكة التي كانت رغم ذلك تلاحق خطاه وتنقل خطاها بتيقظ وانتباه. ولم يكن دينيسوف يحول أنظاره عنها. أما عن طريقته في ضبط الإيقاع بحسامه فكانت تدل على أنه كان عازفاً عن الرقص بملء إرادته وليس بسبب جهله كما قد يتبادر إلى الأذهان. وبينما كان الأستاذ يقوم بحركة تصويرية، نادى دينيسوف روستوف الذي كان قريباً منه في تلك اللحظة وقال له: ليس هذا

www.Maktbah.com

بالمازوكا البولونية، كلا، ليست هذه المازوكا... على كل حال، إنها ترقص بإبداع.

لا يعرف نيكولا أن دينيسوف يستطيع أن يرقص المازوكا في بولونيا نفسها وأن يستأثر بإعجاب الحاضرين، فقد أسرع إلى ناتاشا وقال لها:

- إذهبي إلى دينيسوف واطلبي إليه أن يراقصك. إنه لا يبارى في المازوكا.

ونهضت ناتاشا وراحت تنزلق على حذاءيها الصغيرين المزينين والدم يتصاعد إلى وجنتيها تحت وطأة الأنظار التي كانت تحدق إليها من كل صوب، حتى بلغت زاوية دينيسوف. رآهما نيكولا يتناقشان برهة، إذ كان دينيسوف يرفض بلطف، على ما يبدو، وناتاشا تصر، فأسرع إلى نجدتها. كانت ناتاشا تقول: أرجوك يا ڤاسيلي دميتريش، تعال، أرجوك.

- اعفيني يا كونتيسة.

وهنا تدخل نيكولا قائلاً: هه يا ڤاسيا، لمَ لا تجاريها؟

فقال دينيسوف مازحاً: سيقولون إنهم يلاطفون قطهم.

ووعدته ناتاشا: سأغني لك كل الأمسية.

فقال دينيسوف وهو ينزع حسامه من منطقته: آه يا للممالقة! إنها تتصرف بي وفق هواها.

خرج من صفوف المقاعد وأمسك بقوة على يد مراقصته ورفع رأسه ومدّ ساقه بانتظار الإيقاع. لقد كان دينيسوف يستطيع إخفاء عيب قامته في مناسبتين: عندما يكون على صهوة جواده وعندما يرقص المازوكا. ففي هاتين المناسبتين كان يبدو بمظهر الشاب القوي الذي يريد أن يكونه. ولما جاء دوره، بعث إلى مراقصته بنظرة فكهة ومنتصرة معاً، وقام بحركة عنيفة من قدمه وقفز كالكرة المرنة ساحباً معه ناتاشا في غمار الرقصة. كان يجتاز على قدم واحدة نصف مساحة القاعة دون أن تصدر عنه أية ضجة أو أي صوت يذكر ودون أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يتظاهر برؤية المقاعد المصفوفة قبالته، فكان يُظن أنه سيصطدم بتلك المقاعد لكنه فجأة، كان يتوقف على كعبيه بين رنين مهمازيه وصوت ارتطام كعبيه بالأرض، فيباعد ساقيه ويستعين برشاقة قدميه ليستدير دورة سريعة ويلحق بحلقة الراقصين وقدمه اليمنى تضرب دون هوادة بالقدم اليسرى.

كانت ناتاشا تتابع كل حركة من حركاته وتترقبها وتستسلم لفارسها مسلوبة المشاعر. كان يجعلها تدور حول نفسها تارة ممسكاً بها بيمناه أو يسراه، وطوراً يركع ويجعلها ترسم حلقات حوله ثم ينتصب فجأة ويعود إلى جريه السريع وكأنه يريد اجتياز القاعات كلها دفعة واحدة، ليتوقف فجأة، قبل أن يدرك المتفرج غرضه، فيقوم بحركة تصويرية غير متوقعة. ولما قام بحركته الدائرية الرائعة موصلاً ناتاشا إلى مقعدها الذي كانت جالسة عليه إشارة إلى انتهاء الرقصة، لم يكن لهذه من صفاء الذهن ما يمكنها من الانحناء أمامه لشكره كما يقتضي الأمر، بل كانت تحدق إلى وجهه بعينيها الباسمتين المذهولتين وكأنها تنظر إلى شخص جديد.

غمغمت بدهشة: ما معنى هذا؟

وعلى الرغم من ادعاءات إيوجل بأن هذه ليست المازوكا الحقيقية، فإن رقصة دينيسوف استأثرت بإعجاب كل الحاضرين. وأسرعت الراقصات إليه يطلبن مراقصته بشغف واستعاد الكهول ذكريات شبابهم في بولونيا والوقت الطيب الذي قضوه. أما دينيسوف فقد كان محمرّ الوجه يجفف عرقه بمنديله. وكان يجلس قرب ناتاشا ولم يفارق مجلسها طوال الحفلة.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

وبعد تلك الليلة ورغم انقضاء يومين عليها، لم يظهر دولوخوف في منزل آل روستوف. وأخيراً، وبعد ثلاثة أيام، وصلته من دولوخوف الرقعة التالية:

«لما كنت لا أريد الحضور إلى داركم للأسباب التي تعرفها، وكنت سألتحق بالجيش قريباً، لذلك فإنني أقيم حفلة عشاء هذه الليلة لوداع أصدقائي. فتعال إلى فندق إنكلترا».

قصد روستوف، بعد خروجه من الملهى الذي اصطحب عائلته إليه مع دينيسوف، فندق إنكلترا حوالى الساعة العاشرة صباحاً. وهناك اقتاده الخدم إلى أفخم غرفة كان دولخوف يشغلها تلك الليلة. شاهد روستوف حوالى عشرين مدعواً يزدحمون حول طاولة مثقلة بأوراق النقد والقطع الذهبية. وكان دولوخوف جالساً بين شمعتين مضاءتين يوزع ورق اللعب. شعر نيكولا بشيء من الرهبة للمقابلة الأولى التي ستقع بينه وبين صديقه الذي لم يره منذ تلك الليلة التي رفضت فيها سونيا طلبه. تقابلت نظرته ونظرة دولوخوف المتقدة منذ أن وطئت قدماه الغرفة وكأن هذا كان في انتظاره. قال دولوخوف: مضى زمن طويل لم نتقابل خلاله. شكراً على مجيئك. سوف يصل إيليوشا مع مغنيه حال فراغي من هذا «البنك».

فقال روستوف وقد احمرّ وجهه: لقد مررت بدارك مرتين أو ثلاثاً فلم أجدك.

twitter @baghdad_library

وقال دولوخوف دون أن يلقي بالاً إلى تلك الملاحظة: يمكنك المراهنة إذا شئت.

فجأة، تذكر نيكولا حديثاً مثيراً دار بينه وبين دولوخوف ذات يوم. لقد قال له هذا: «ليس إلا الحمقى الذين يلعبون على السعادة الصغرى».

تابع دولوخوف باسماً وكأنه يقرأ ما في طويته: هل يخيفك أن تقامر معي؟

ومن خلال تلك الابتسامة، ظهرت لعيني روستوف حالة صديقه النفسية التي كانت تسيطر عليه دائماً كلما مرّ به وقت طويل دون تبديل، فتتوق نفسه، كما حدث يوم حفلة النادي الإنكليزي، إلى الخروج من ذلك الجمود بتصرف غريب، كان غالباً شديد القسوة أيضاً.

لم يكن نيكولا منشرح الصدر، فراح يتساءل عن الدعابة التي سيرد بها على صاحبه عندما حدجه هذا في أعماق عينيه وقال وهو يضغط على الألفاظ ليسمع الموجودون حديثه: هل تذكر ما كنا نقوله ذات يوم من أن الحمقى وحدهم هم الذين يلعبون بالسعادة الصغيرة؟ يجب أن يقامر الإنسان بكل شيء وهذا ما سأحاوله الآن.

فتساءل روستوف: «ترى هل أجرب حظي فقط أم أقامر بكل شيء»؟

عقب دولوخوف قائلاً وهو يمزق الورقة المحيطة بورق اللعب: ثم إنك تحسن صنعاً إذا امتنعت عن اللعب... «بنك» أيها السادة!

وبعد أن نثر دراهمه أمامه راح يقطع الورق ويوزعه. جلس روستوف إلى جانبه وامتنع بادئ الأمر عن الرهان. فألقى عليه دولوخوف نظرة وقال: إذن؟ ألا تلعب؟

والغريب في الأمر أن نيكولا شعر وكأنه مرغم على اللعب، فأخذ ورقة ووضع عليها مبلغاً زهيداً. قال شارحاً: لست أحمل مبلغاً.

www.Maktbah.com

ـ سأقرضك.

وضع روستوف خمسة روبلات على ورقة فخسرها، فكرر اللعب وخسر أيضاً. وهكذا حطم دولوخوف عشر ورقات متتالية كان روستوف يقامر عليها. وبعد أن استأثر «البنك» فترة قال: أيها السادة، أرجوكم أن تضعوا نقودكم على الورقة بالذات وإلا فإنني قد أخطئ في الحسابات.

فاحتج أحد اللاعبين بقوله: نحن قوم ثقة على ما أعتقد.

فعقب دولوخوف قائلاً: بدون شك، لكنني أخشى أن أخطئ. أرجو إذن أن تضعوا نقودكم على الورقة.

وأردف يحدث روستوف: أما أنت فلا تنزعج، سوف نسوي الأمر بيننا فيما بعد.

استمر اللعب واستمر الخادم يصب الشمبانيا في الكؤوس.

«تحطمت» كل أوراق روستوف فخسرت وارتفع دينه إلى ثمانمائة روبل. أراد أن يغامر بهذا المبلغ على ورقة جديدة، لولا أن أمسك عندما كان الخادم يصب له الشمبانيا وقرر أن يعود إلى مبلغه العادي «عشرين روبلاً» الذي ما زال يقامر به تباعاً.

قال له دولوخوف متظاهراً بأنه لا ينظر إليه: قامر بالمبلغ كله. ألا ترى إنني أخسر مع الجميع إلا أوراقك أنت فإنني «أحطمها» دائماً؟ أتراك تخاف مني مثلاً؟

استسلم روستوف للإيحاء. التقط من الأرض ورقة «السبعة الكبا» من الأوراق الممزقة، وقد ظلت ذكرى تلك الورقة في مخيلته زمناً طويلاً، وكتب على ظهرها رقم «٨٠٠» بأحرف معتدلة وبخط جميل، ثم احتسى كأس الشمبانيا الساخنة التي كانوا يطوفون بها على الضيوف، وابتسم لدولوخوف رداً على جملته وانتظر وعيناه شاخصتان إلى يدي «البانكيه» متأملاً أن يقلب

twitter @baghdad_library

له «البنك» رقم «٧». لقد كان ربح تلك الورقة «السبعة الكبا» أو خسارتها، يشكل بالنسبة إليه خطورة كبيرة. إذ إن إيليا أندرييتش رغم تقتيره على ولده، طلب منه يوم الأحد المنصرم أن يقتصد في نفقاته وأعطاه ألفي روبل قائلاً إنه لن يستطيع إمداده بمبلغ آخر قبل شهر أيار المقبل لأسباب وجيهة.

وكان نيكولا قد أكد له حينئذ أن ذلك المبلغ سيكفيه لنفقاته حتى الربيع المقبل مهما بلغت تلك النفقات من إفراط، وأقسم له أنه لن يطلب منه شيئاً حتى ذلك التاريخ. وهو الآن بعد أن خسر ثمانمائة روبل، لم يبق له من مجموعة نقوده إلا ألف ومائتا روبل فقط. وكان مصير تلك الروبلات الثمانمائة متوقفاً على تلك السبعة «الكبا» لأنه ما كان سيخسر ألفاً وستمائة روبل فحسب، بل إنه سيخون الوعد الذي قطعه على نفسه. ولهذا، كان قلقه عظيماً وهو يراقب يدي دولوخوف.

راح يحدث نفسه: «هيا، اعطني هذه الورقة وأسرع لأمضي إلى حيث سأتناول الطعام مع دينيسوف وناتاشا وسونيا، وأقسم غير حانث هذه المرة على أنني لن أقرب الورق بعد اليوم أبداً». وفي تلك الأثناء، خطرت على باله أتفه الحوادث التي مرت عليه في حياته العائلية: دعابات پيتيا وتبجحاته، والأحاديث مع سونيا، وثنائي الغناء مع ناتاشا، وموقفه مع أبيه بل تقلباته فوق سريره الوثير؛ وبدت في خياله بهجة تلك السعادة الضائعة التي من الأفضل التمسك بها والإبقاء عليها، بكل قوة. ولم يكن يتقبل أن يكون مصيره الآن مرتبطاً بصدفة سخيفة، تجعل «سبعة» إذا جاءت إلى اليمين أو سقطت إلى اليسار، تعكر عليه صفو حياته وتحرمه ذلك اليمين الذي استعاده في خياله بكل تفاصيله، لتغمره في جحيم الأمواج السيئة المجهولة. كلا، إن ذلك لا يمكن أن يكون... مع ذلك، تابع بقلق كل حركة من حركات يدي دولوخوف الحمراوين الضخمتين اللتين كان الشعر الذي يغطي ساعديهما ظاهراً عند

www.Maktbah.com

المعصمين، تضعان الورق على الطاولة لتمسك إحداهما بالغليون والأخرى بالكأس، كأس الشمبانيا.

كرر دولوخوف قوله: إذن لا تخاف من اللعب معي! أليس كذلك؟

وألقى ظهره على كرسيه وكأنه سيقص على الحاضرين قصة ممتعة، وهو مستلق في جلسة مريحة. وغمرت شفتيه ابتسامة بطيئة وقال: نعم أيها السادة، لقد تلفظت مرة بقول مفاده أنني اعتبر غشاشاً في اللعب في موسكو. لذلك فإنني أنصحكم أن تكونوا حذرين.

فأجاب روستوف: هيا، وزع الورق.

فأجاب وهو يعود إلى الورق فيمسك به والابتسامة لا تفارق شفتيه: آه من نساء موسكو العجائز!

ومسّد شعره بيديه. لقد كانت السبعة التي هو في أمسّ الحاجة إليها، أول ورقة من الأوراق وبذلك لم تصل إليه. ومعنى ذلك أنه خسر أكثر مما كان يستطيع أن يدفع.

فقال له دولوخوف وهو يحدجه بطرف عينه: لا تجزع، هه!

وعاد يوزع الورق من جديد.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

كان معظم اللاعبين بعد ساعة ونصف الساعة، في غرفة دولوخوف لا يقامرون إلا شكلياً، وقد تركز اللعب كله على روستوف وحده. لقد بلغ دينه عموداً طويلاً من الأرقام مجموعها أكثر من عشرة آلاف روبل بعد أن كان لا يتجاوز الألف والستمائة روبل. بل إن رقم عشرة آلاف كان منذ حين، أما الآن، فقد ارتفع إلى خمسة عشر ألفاً أو أكثر. والحقيقة أن المجموع تجاوز العشرين ألف روبل. توقف دولوخوف عندئذ عن الإصغاء إلى أقوال الآخرين وتوقف أيضاً عن سرد القصص وراح يراقب كل حركة من حركات روستوف ويحصي مجموع الحساب بعينيه.

قرر الاستمرار في اللعب حتى يصل المبلغ إلى ثلاثة وأربعين ألف روبل. وكان روستوف متكئاً على الطاولة ورأسه بين يديه، وأمامه الأرقام تغطي الطاولة الملوثة بالخمر المراقة والمحملة بأوراق اللعب. كان شعور مسيطر طاغ مستولياً عليه: هاتان اليدان الحمراوان الضخمتان اللتان يظهر الشعر عند رسغيهما. هاتان اليدان اللتان كان يحبهما ويمقتهما في الوقت نفسه كانتا تجعلانه تحت رحمتهما.

«ستمائة روبل، آس، مضاعف، تسعة... لم يعد هناك أمل في استعادة الخسارة!... آه! كم كنت أتسلى عندك!... «شاب» على «صفر»! لكن كلا، بالله!... لم يعاملني على هذا النحو»؟

www.Maktbah.com

كان إذا أراد المساهمة في مبلغ كبير، تهرّب منه دولوخوف وحدد بنفسه المبلغ الذي يقبل المجازفة به. وكان روستوف يستنجد بالله محاولاً الظهور بمظهر الهادئ، ويشبه ابتهاله ذاك الذي رفعه بخشوع إلى الله عندما كان في معركة أمستيتين. كان يتصور حيناً أن ورقة «كذا»، الأولى من رزمة الأوراق التي كانت توزعها اليدان الحمراوان، قادرة على إنقاذه، وأخرى كان يعد خيوط الخرج على سترته ويقامر على الورقة التي تتساوى مع عددها آملاً أن يستعيد كل خسارته دفعة واحدة. كان تارة يستجدي الإلهام من وجود الآخرين وطوراً يدقق في وجه دولوخوف الذي أصبح جامداً، محاولاً الغوص في أعماقه ومعرفة نياته.

ربّاه! ومع ذلك فهو يعرف معنى هذه الخسارة بالنسبة إليّ. لا يمكن أن يكون يرغب في تدميري. لقد كان صديقي. كنت أحبه... لكن الخطأ ليس خطأه، ما هو ذنبه إذا كان الحظ يحالفه!... وأنا، ما هو ذنبي؟ إنني لم أرتكب فعلاً مؤذياً؛ لم أقتل ولم أحقر إنساناً! فلمَ إذن هذا الحظ السيئ؟ ومتى بدأ هذا النحس؟ منذ لحظات اقتربت من هذه الطاولة لأربح مائة روبل كنت مزمعاً شراء الصندوقة التي سأقدمها لأمي بمناسبة عيدها، على أن أعود بعد ذلك مباشرة إلى المنزل. لقد كنت عظيم السعادة آنذاك شديد الغبطة ممتلئاً بالحرية! لم أكن أفهم سعادتي... فمتى إذن أخلت مكانها ليحل محلها هذا الموقف الجديد الرهيب؟ بأي بادرة وقع هذا التحول العظيم؟ أنا لم أبارح مكاني هذا ولم أتوقف عن أخذ الورقة تلو الورقة واللعب بها، ولن أنفك عن النظر إلى هاتين اليدين الحمراوين البارعتين، فمتى تم ذلك وما هو هذا الشيء على وجه التحديد؟ إنني في صحة جيدة، قوي، لم أتبدل ولم أبدّل مكاني... إن كل هذا ليس إلا حلماً مزعجاً. بدون شك.

twitter @baghdad_library

كان وجهه محمراً يسبح في العرق رغم أن حرارة الغرفة كانت مقبولة معتدلة. وكان وجهه يخيف ويستدعي الشفقة معاً، بسبب المجهودات الخارقة التي كان يبذلها بمظهر الهادئ.

وأخيراً وصل الحساب إلى الرقم الرهيب: ثلاثة وأربعين ألف روبل! كان روستوف يستعد للمقامرة بالثلاثة آلاف الفائضة التي ربحها على أساس الازدواج عند الربح (Paroli)، عندما ترك دولوخوف الورق من يده بحركة قوية وراح يجمع الأرقام التي يدين له بها. ولما كان يضغط بشدة على قطعة الحكك التي كان يسجل بها الرقم الهائل، فقد تفتتت بين أصابعه. قال:

ـ لقد أزف الوقت أيها السادة، ها قد وصل البوهيميون في الوقت المناسب.

والحقيقة أن عدداً من الرجال والنساء، سمر الوجوه، دخلوا الغرفة في ذلك الوقت حاملين معهم البرد من الخارج، يتحدثون فيما بينهم بلهجة أهل بوهيميا. فهم نيكولا أن كل شيء قد انتهى. فلم ينطق إلا بجملة واحدة وبلهجة من استأثر اللعب بلبه ـ لا الخسارة ـ فانفعل:

ـ كيف! ألا تستمر؟ مع ذلك فقد كنت مهيئاً لك ورقة كنت ستخسر بها ولا شك!

فكر في سرّه: «انتهى كل شيء، لقد ضعت! لم يبق أمامي إلا أن أفرغ غدارتي في رأسي!» فقد كرر بوداعة: نعم، ورقة ممتازة!... هيا، جولة ثانية!

فقال دولوخوف الذي كان قد انتهى من عمليات الجمع: ليكن، سنبدأ من واحد وعشرين روبلاً...

وأشار إلى هذا الرقم الذي كان فائضاً عن الأرقام الكبيرة الأخرى، عن مبلغ ثلاثين وأربعين ألف روبل! طوى جانب ورقته ليسجل عليها رقم ٢١.

www.Maktbah.com

فقال روستوف: سيان عندي. كل ما أريد هو معرفة ما إذا كنت ستعطيني عشرة أم أنك ستحطم ورقتي كالعادة.

خلط دولوخوف الورق ووزعه بعناية مركزة. آوه! كم كان روستوف يحقد على تينك اليدين في تلك اللحظة، تينك اليدين الحمراوين بأصابعهما القصيرة، اللتين كان الشعر يظهر فوق معصميهما، واللتين كانتا تجعلانه تحت رحمتهما!...

كسبت العشرة فقال دولوخوف وهو ينهض عن الطاولة ويتمطى بتثاقل: إنك مدين لي بثلاثة وأربعين ألف روبل يا كونت! يا للشيطان كيف يجلس الإنسان كل هذا الوقت دون حراك!

أجاب روستوف: نعم، أنا الآخر ما عدت أستطيع البقاء.

لكن دولوخوف أراد أن ينبهه إلى أن دعابته ليست في حينها، فقاطعه قائلاً: متى ستسدد هذا الدين يا كونت؟

صعد الدم إلى وجه روستوف حتى أصبح بلون الدم، فأمسك پيار دولوخوف وأخذه إلى الغرفة المجاورة. قال معترفاً: لن أستطيع أن أدفع لك مرة واحدة. سأعطيك سنداً بالمبلغ.

فقال دولوخوف وهو ينظر إلى عينيه بنظرته الباردة وابتسامته الجامدة لا تفارق شفتيه: اصغ إليّ يا روستوف. أنت تعرف المثل القائل: «سعيد في الحب تعيس في اللعب». إن ابنة عمك مفتونة بك وأنا أعرف ذلك.

فكرر روستوف في سره «آوه! يا له من عذاب أليم لمن يشعر أنه تحت رحمة هذا الرجل»! كان يعرف ما سيحدثه اعترافه بالخسارة في نفوس أفراد عائلته. آه! يا له من سرور وبهجة لا يوصفان إذا استطاع التخلص من هذا الموقف المخجل! كان دولوخوف يستطيع إنقاذه من هذا الكابوس المخيف، وهو يعرف ذلك، لكنه كان يلعب معه لعبة القط والفأر.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فقال دولوخوف بإلحاح: إن ابنة عمك...

لكن نيكولا قاطعه بقوة قائلاً بغضب ظاهر:

ـ لا علاقة لابنة عمي في هذا الأمر، فدعها بسلام!

ـ إذن متى ستدفع لي؟

فقال روستوف وهو ينسحب وكأن في أعقابه الشيطان: غداً.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

من السهل على المرء أن يقول غداً بلغة التأكيد لكن أن يرجع إلى منزله فيقابل الإخوة والأخوات والوالدين ويعترف بالخسارة ويطلب المال أمر مخيف مختلف عن الأول.

أسرع الشباب إلى الـپيانو عقب وصولهم من المسرح ولم يكن أحد في البيت قد نام بعد. فلم يكد روستوڤ يضع قدمه في القاعة الكبيرة، حتى شعر بذلك الجو العاطفي المشبع بالحب والشعر، ذلك الجو الذي بقي هائماً في سماء ذلك البيت طوال الشتاء، والذي تركز في الأيام الأخيرة، بعد تصريح دولوخوڤ وحفلة إيوجل الراقصة، حول سونيا وناتاشا، كما يثقل الهواء قبل العاصفة، يحيط به ويغمره. كانت الفتاتان الشابتان، في ألبستهما الزرقاء التي ارتدتاها قبل الذهاب إلى المسرح، سعيدتين مطمئنتين إلى جمالهما، تبتسمان وهما واقفتان قرب الـپيانو. أما ڤيرا فكانت تلعب الشطرنج مع شينشين في غرفة الاستقبال.

كانت الكونتيسة تتسلى بلعبة الحظ مع سيدة نبيلة عجوز تسكن في منزلهم، بانتظار عودة ابنها وزوجها. وكان دينيسوڤ يجلس إلى الـپيانو مشعث الشعر، براق العينين، دافعاً إحدى ساقيه إلى الوراء قليلاً، يضرب على الـپيانو بأصابعه القصيرة بقوة وحيوية، ويغني بصوته الأجش ولكن غير الموزون، قصيدة من نظمه عنوانها (الفاتنة). وهو يدير حوله عينيه الكبيرتين، ويبحث عمن يشاركه في الغناء.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أيتها الساحرة! آه! يا لها من قوة تدفعني

إلى إيقاظ هذه الأوتار النائمة

وبأية قوة تعانقين قلبي،

وأي هيام تخفق به أصابعي!

وبينما كان يغني هذه الأنشودة العاطفية، كانت عيناه ترسلان إشعاعاتهما باتجاه ناتاشا التي كانت مأخوذة وهي مذعورة.

صاحت دون أن تلاحظ دخول أخيها: إن هذا رائع! غن مقطعاً آخر!

فقال نيكولا في سره: «إن كل شيء إذن يسير في طريقه الهادئ هنا». وألقى نظرة على الغرفة فرأى ڤيرا وأمه والسيدة العجوز.

قالت ناتاشا وقد وقع نظرها عليه فأسرعت إليه:

ـ آه! ها هو ذا نيكولا.

سأل: هل أبي هنا؟

فقالت ناتاشا دون أن تجيبه عن سؤاله:

ـ كم أنا مسرورة لعودتك! نحن نتسلى جداً هنا. هل تعرف أن ڤاسيلي دميتريش قرر البقاء يوماً آخر من أجلي؟

وقالت سونيا: كلا، إن «بابا» لم يعد بعد.

وعلا صوت الكونتيسة يقول: ها أنتذا أخيراً يا كوكو. تعال إليّ يا صديقي!

فاقترب نيكولا من أمه وقبل يدها وجلس بقربها دون أن ينطق بكلمة، مستغرقاً في تأمل أصابعها وهي تصف الورق وترتبه. ومن قاعة الرقص تعالت الضحكات وأصوات مبتهجة تتوسل إلى ناتاشا. كان دينيسوف يقول: لا، لا، لن أقبل أعذاراً. إنك مدينة لي بأغنية. باركارولا، ويجب أن تغنيها لي، أتوسل إليك.

www.Maktbah.com

قالت الكونتيسة وهي تلقي على وجه ابنها الصامت نظرة مستفهمة: ماذا حدث لك؟

فأجاب وكأنه مستاء من هذا السؤال الدائم:

ـ لا شيء. هل سيعود أبي مبكراً؟

ـ بلا شك.

وخاطب نيكولا نفسه بقوله: «إن كل شيء يسير في هدوئه المعتاد هنا. إنهم لا يعرفون شيئاً. إلى أين أستطيع اللجوء»؟ وذهب إلى القاعة الكبرى.

كانت سونيا قد بدأت بالتمهيد لمقدمة الباركارولا التي كانت تعجب دينيسوف وكان هذا يفترس ناتاشا بنظراته وهي على وشك الغناء. راح نيكولا يذرع القاعة بانفعال.

كان يحدث نفسه: «يا لها من فكرة تلك التي جعلته يطلب إليها الغناء وكأنها تجيده! ماذا يجدون في هذا من تسلية»؟ بينما كانت تعيد المقدمة وتضبط النغم. عاد يفكر في نفسه: «رباه، رباه! إنني رجل مقضيّ علي!» لقد فقدت شرفي! رصاصة في رأسي، هذا خير جزاء!... إن الأمر يستحق الغناء!... اذهب؟ ولكن إلى أين؟... على كل حال، ليغنوا إذا كان قلبهم يطاوعهم على الغناء!...

واستمر يطوف في القاعة مكتئب الوجه، ملقياً على دينيسوف والفتاتين نظرات شاردة ومتجنباً نظراتهم.

كانت عينا سونيا الشاخصتان إليه تسألانه: «نيكولا، ماذا بك»؟ لقد خمنت من فورها أن أمراً ما قد وقع له. فراح نيكولا يتهرب من ذلك الاستفسار الصامت.

كانت ناتاشا الحساسة هي الأخرى قد أدركت منذ دخول أخيها أنه في حالة نفسية مضطربة. لكنها، في تلك اللحظة، كانت شديدة الفرح، بعيدة عن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الأفكار المزعجة، حتى أنها أبعدت عمداً ذلك الشعور المؤلم الذي خامرها. فكرت في نفسها: «ما فائدة تبديد مثل هذا الجو المرح، لمشاركة الآخرين في ما يزعجهم؟ ثم إنني مخطئة في تصوري. إنه، بدون شك، في مثل حالي من الابتهاج»! وهكذا فإنها لم تخرج في محاكمتها على ما ألفه كل الشباب من مناقشة وتفسير في مثل هذا الموقف.

سألت: هل أنت مستعدة يا سونيا؟

وشمخت برأسها وباعدت بين ذراعيها على طريقة الراقصات، ومضت بخطوات متحمسة تقرع الأرض حتى بلغت منتصف القاعة حيث المجال السمعي أفضل وفجأة توقفت.

بدت في وقفتها تلك كأنها تجيب عن نظرة دينيسوف المعجبة: «كذلك أنا، إنني كما تراني»!

تساءل نيكولا: «ماذا تجد في هذه الحركات المتصنعة من جمال؟ ألن تنتهي؟ إن هذا معيب»!

بدأت ناتاشا بالمقطع الأول من الأغنية، فتمددت حنجرتها وارتفع صدرها واتخذت نظرتها طابعاً جدياً. لم تكن في تلك اللحظة تفكر في شيء خاص. وانبعثت الأصوات خلال شفتيها المقوستين بشبه ابتسامة، أصوات كان كل إنسان قادراً على إخراج مثلها وعلى نسقها وطبقتها، أصوات تجعلنا باردين ألف مرة ولكنها في المرة الواحدة بعد الألف تجعلنا نرتعش ونبكي.

استجابة لإطراء دينيسوف المتحمس لها كانت ناتاشا، قد بدأت تغني خلال فصل الشتاء بشكل جدي. وقد تحرر غناؤها من الطابع المضحك الذي كان يشوهه من قبل، لكنه لم يبلغ حد الكمال. وكان العارفون يقولون: «إنه صوت جميل، لكنه غير متزن بعد، يجب العناية به لصقله». لم يذيعوا رأيهم هذا إلا بعد أن تكون ناتاشا قد انتهت من غنائها منذ وقت ليس بالقصير، أما

www.Maktbah.com

خلال الفترة التي كان صوتها (الخام) يرسل أنغامه خلال أنفاسها المبهورة ومحاولاتها الشاقة لإبدال الطبقة، فإن قضاتها القساة ما كانوا يستطيعون البتة التمالك عن مشاطرتها البهجة والطرب والإحساس بالرغبة الملحة في الإصغاء إلى غنائها. كان في صوتها نضرة بتولية، وفيه تنكر لقواه وتأثيراته، ورخامة غير ناضجة بعد، تتناسق مع الأخطاء الفنية بشكل يبدو للسامع معه أن أي تبديل فيه يفسد كل شيء ويبدد كل المتعة.

تساءل نيكولا وقد اتسعت عيناه دهشة: «ما معنى هذا؟ ماذا حدث لها؟ إنها تغني اليوم بشكل رائع غير مألوف»! ثم استغرق روحاً وجسداً في انتظار اللحن وترقب الجملة التالية. وبدا له العالم كله قائماً في الإيقاع الذي يضبط الأغنية! عاش فيها برهة وراح يضبط السلم الموسيقي في نفسه: «واحد، اثنان، ثلاثة... واحد...، اثنان... ثلاثة... واحد... أوه! كم هو سخيف وجودنا! كل هذا، والنحس الذي ركبني، والغضب، والإحراج والشرف، نعم، كل هذا ليس إلا ترهات... هذا هو الحقيقي... تشجعي يا ناتاشا، تشجعي يا صديقتي! ترى هل تستطيع إبراز هذا الـ:«سي»؟... مرحى، لقد أحسنت الأداء»! ودون أن يشعربأنه يغني ليساعدها على إبراز ذلك الـ:«سي»، ارتفع باللحن إلى مرحلته الثالثة (Tirce) في أعلى طبقاته. «رباه، بديع! أصحيح أنني أنا الذي أدى هذه «النوتة» الموسيقية؟ كم كانت ناجحة»!

كم تردّد واهتز ذلك اللحن في الغرفة، وكم تأثر به روستوف في أعماق قلبه! كان في تلك اللحظة يحلق بعيداً عن كل ما له علاقة بالأرض والعالم! «ماذا تهم الخسارة التي منيَ بها في اللعب، وماذا يهمه من دولوخوف والوعد المقطوع!... كل هذه ليست إلا ترهات!... يستطيع المرء أن يسرق وأن يقتل، ومع ذلك، يستطيع في الوقت نفسه أن يتذوق السعادة بكل كيانه».

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر

لم تكد ناتاشا تنتهي من الباركارولا حتى عاد إلى روستوف إحساسه بالواقع، فلم يشعر بمثل تلك الرغبة في الاستماع إلى الموسيقى كما أحس بها ذلك اليوم. وخرج دون أن يتفوه بكلمة ومضى إلى غرفته. وبعد ربع ساعة، عاد الكونت العجوز من النادي وهو على أحسن مزاج. سمع نيكولا صوت مجيئه فمضى للقائه.

قال إيليا أندرييتش وهو يبتسم لابنه ابتسامة فخر: هه يا فتاي! هل تسليت؟

أراد نيكولا أن يجيب بنعم لكن قواه خانته واختنق صوته بالعبارات. ولم يلاحظ الكونت حالة ابنه العنيفة لأنه كان يشعل غليونه.

قرر نيكولا أن يخطو الخطوة الرهيبة وقال يحدث نفسه: «يجب أن أحدثه بكل شيء وأن أنتهي من هذا الموضوع»! وفجأة، بدأ يتحدث بطلاقة أخجلته نفسه، وبمثل اللهجة التي يطلب بها عربة للذهاب إلى المدينة، قال لأبيه: على فكرة يا أبي، كنت أود محادثتك لأنني في حاجة إلى المال.

فأجاب الكونت وهو شديد المرح ذلك المساء: آه، رباه! لقد قلت لك إنك ستنفق كل ما معك. هل يلزمك مبلغ كبير؟

أجاب نيكولا بابتسامة ماجنة ظل ضميره يوبخه من أجلها طويلاً، ووجهه محمرّ: نعم، مبلغ كبير. لقد خسرت قليلاً... أعني مبلغاً غير قليل... بل كثيراً أيضاً، ثلاثة وأربعين ألف روبل.

www.Maktbah.com

صاح الكونت بعنف بينما تغطى عنقه فجأة بالحمرة الناجمة عن ارتفاع الضغط عند المسنين: ماذا!... مع من؟... إنك تمزح!

فأردف نيكولا: وقد وعدت بتسديد هذا الدين غداً.

فتهاوى الكونت بيأس على إحدى الكنبات وهو يقول: رباه!...

فتابع نيكولا بطلاقة: ما العمل! إن هذا يحدث لكل الناس!

لكنه كان في سرّه يعتبر نفسه دنيئاً لا تكفيه حياته لدفع ثمن جريمته. كان يؤكد لابنه بطيش ورعونة قريبة من الإهانة أن ذلك يقع لكل الناس، في حين أن واجبه كان يقضي عليه أن يقبل يديه وأن يطلب غفرانه وهو راكع!

خفض إيليا أندرييتش عينيه لدى سماعه تلك الإجابة وغمغم مختاراً الكلمات المناسبة: نعم، هذا مؤكد... لن يكون من السهل تدبير هذا المبلغ، أنا أخشى ذلك... نعم ولا شك، لقد وقع مثل هذا لآخرين... لقد وقع لآخرين.

واختلس نظرة سريعة إلى ولده واتجه نحو الباب. كان نيكولا يتوقع رفضاً من أبيه لذلك فوجئ بسلوكه ذاك وأخذ على حين غرة.

وقال بين دموعه وتنهداته: أبي، أبي! اصفح عني!

وأطبق على يد أبيه وألصق شفتيه بها بخشوع وبدأ بالبكاء.

وبينما كان الأب والابن يتفاهمان على ذلك النحو، كانت مناجاة أخرى لا تقل عن هذه خطورة، تدور بين الأم وابنتها. كانت ناتاشا قد أسرعت إلى أمها الكونتيسة مرتبكة قالت: أماه، أماه!... لقد... لقد...

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد صرح... لقد صرح بحبه!

لم تصدق الكونتيسة أذنيها. لقد صرح دينيسوف بحبه! ولمن؟ لتلك الطفلة ناتاشا التي كانت إلى زمن قريب تلعب بلعبتها والتي ما زالت تدرس على يد مربية!

twitter @baghdad_library

قالت الأم آملة أن يكون ذلك محض دعابة: هيا يا ناتاشا، لا تتفوهي بحماقات.

فأجابتها ناتاشا بشيء من الدهشة: حماقات! ولكن ليس ما أقوله حماقة مطلقاً. أنا أتكلم جدياً. لقد جئت أسألك الرأي فتحدثيني بهذا الشكل وتتهميني بقول الحماقات...

هزت الكونتيسة كتفيها وقالت: إذا كان السيد دينيسوف قد طلب يدك فأجيبيه بأنه أحمق، وستغني هذه الكلمة عن مجمل الحديث.

أصرت ناتاشا على موقفها وقالت بلهجة جدية: كلا، يا أمي، إنه ليس أحمق.

فقالت الكونتيسة وعلى شفتيها ضحكة مغتصبة: إذن ماذا تريدين؟ في هذه السن، لا تخلو رأس إحداكن من نوع من الحب... حسناً، إذا كان يعجبك إلى هذا الحدّ، فتزوجيه وليباركك الله الرحيم!

ـ لكن كلا يا أماه، أنا لا أحب دينيسوف، أو أقله، لا أعتقد أنني أحبه.

ـ وإذن؟ قولي له ذلك.

ـ أماه، إنك غاضبة أليس كذلك؟ لا تنزعجي أرجوك، هل هذه خطيئتي؟

فأجابت الكونتيسة باسمة: أنا لست غاضبة أبداً... هيا، هل تريدين مني أن أذهب لأتحدث معه؟

لا، سأكلمه أنا بنفسي. لكنني أريد منك فقط أن تنبئيني بما يجب علي أن أقول.

وأردفت مستجيبة لابتسامة أمها: ألا ترين،إن كل شيء سهل في نظرك. آه! ليتك شاهدته عندما حدثني عن هذا الأمر! ثم إنني أعرف تماماً أنه لم يكن يريد أن يقوله، لكن الكلمات أفلتت من لسانه!

ـ هذا لا يمنعك من أن ترفضي طلبه.

www.Maktbah.com

ـ لكن لا، إن ذلك سيؤلمني جداً، إنه فائق اللطف!

أجابت الأم ساخرة: إذن فاقبلي. ألا ترين أن الوقت قد حان لتتزوجي وكاد يفوت!

ـ آه يا أمي! إن ذلك يؤلمني كل الألم، لست أدري كيف أجيبه وماذا أقول له.

فقالت الكونتيسة في شيء من الغضب لأن بعضهم عامل تلك الطفلة معاملة الفتاة الناضجة: لن تتكلمي أنت، أنا سأتكفل بذلك.

ـ كلا! سوف أحدثه بنفسي وستصغين إلى حديثي من وراء الباب.

عادت ناتاشا إلى قاعة الموسيقى حيث كان دينيسوڤ جالساً في مكانه الأول قرب الـپيانو ورأسه بين يديه. انتفض لدى سماعه صوت خطواتها الخفيفة.

قال وهو مسرع للقائها: ناتالي، قرري مصيري، إنه بين يديك.

ـ ڤاسيلي دميترييتش، إنك تزعجني كثيراً!... أنت لطيف جداً... حقاً إن ذلك لا يمكن أن يكون... لكنني سأظل أحبك دائماً.

انحنى دينيسوڤ على يدها وسمعت ناتاشا أصواتاً غريبة غير مفهومة. ألصقت شفتيها بشعرها الأجعد المشعث. وفي تلك اللحظة ارتفع حفيف ثوب عنيف ينبئ بقدوم الكونتيسة.

قالت بصوت منفعل بدا رغم رقته على شيء من القسوة في نظر دينيسوڤ: يا ڤاسيلي دميتريش، شكراً على الشرف الذي تسبغه علينا. لكن ابنتي ما زالت طفلة. ولقد ظننت أنك بوصفك صديقاً لابني، ستبدأ بالاتصال بي أولاً. ولم يكن ذلك، لو فعلته، ليدفعني إلى إجابتك بالرفض.

تمتم دينيسوڤ مطرق الرأس: يا كونتيسة..

ولعله أراد أن يضيف شيئاً إلى كلمته.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولما رأت ناتاشا مبلغ الانقلاب الذي طرأ عليه، لم تتمالك أعصابها وخرجت عن هدوئها بنوبة صاخبة من البكاء.

وأخيراً تمكن دينيسوف أن يقول بصوت متقطع:

ـ كونتيسة، قد أكون مخطئاً في حقك، ولكن اعرفي تماماً أنني أشعر باحترام لا يوصف نحو ابنتك... ونحو كل أسرتك... لدرجة أنني مستعد لإعطاء حياتي لو كنت أملكها...

توقف فجأة عندما لاحظ أن هيئة الكونتيسة ما زالت موسومة بطابع القسوة. وأخيراً قال فجأة بشيء من العنف: هيا، الوداع.

وقبل يد الكونتيسة وخرج بخطوات سريعة دون أن يلقي نظرة على ناتاشا.

غداة اليوم التالي، ودع نيكولا دينيسوف الذي رفض البقاء يوماً آخر في موسكو. كان كل أصدقائه يحتفلون بسفره لدى البوهيميين لذلك لم يذكر قط كيف حشروه في زحافته وكيف اجتاز المراحل الثلاث.

كان نيكولا مضطراً إلى البقاء في موسكو خمسة عشر يوماً في انتظار أن يجمع الكونت العجوز المبلغ الذي كان يسعى لإيجاده سداداً لدين ولده. ولقد أمضى هذه الأيام حابساً نفسه غالباً في غرفة الفتاتين، متشاغلاً بالتدوين الموسيقي.

أظهرت سونيا نحوه حنواً وإخلاصاً أشد من أية مرة مضت. حاولت أن تُظهر له أن خسارته في القمار تجعله في عينيها أرفع قيمة. لكن نيكولا كان يعتقد جازماً أنه لم يعد جديراً بها.

واستطاع روستوف في نهاية تشرين الثاني، أن يرسل ثلاثة وأربعين ألف روبل إلى دولوخوف وأن يأخذ منه براءة ذمة. وبعد ذلك مباشرة، سافر إلى وحدته دون أن يتقدم إلى أحد من أصدقائه مودعاً. وكانت فرقته معسكرة حينذاك في بولونيا.

www.Maktbah.com

الجزء الخامس

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

بعد خصامه مع زوجته سافر پيار إلى پيترسبورغ، وعندما وصل إلى تورغوك، ادعى مدير مركز تبديل الخيل أن ليس لديه خيل مستريحة، فاضطر إلى الانتظار. تمدد بثيابه على كنبة جلدية أمام طاولة مستديرة مدد فوقها ساقيه المحتذيتين والمبطنتين بالفراء، واستغرق في خواطره.

سأل وصيفه: هل أحضر الحقائب؟ هل أعد سريراً وشاياً.

لم يُجب پيار، كان لا يسمع ولا يرى. كانت أفكاره وتصاميمه تدور حول موضوع شديد الخطورة منذ المرحلة الأخيرة، حتى أنه ما كان يعير كل ما يدور حوله أي التفات. لم يكن يهتم بالوصول إلى هدفه عاجلاً أم آجلاً، ولا بأن يجد في هذه المرحلة سريراً أو لا، بل إنه لم يكن يهتم إذا أمضى في هذا المكان ساعات معدودة أو قضى العمر كله، لكثرة الأفكار التي كانت تشغل كل انتباهه.

كان مدير المركز وزوجته ووصيف پيار وبائعة جلود، يتناوبون في المثول بين يدي پيار عارضين عليه خدماتهم. فكان پيار، يتأملهم خلال نظارتيه، دون أن يبدل وضعيته أو أن ينزل ساقيه، غير مدرك ما يريدون ولا كيف استطاعوا أن يعيشوا حتى الآن دون أن يتوصلوا إلى حل المعضلات التي كانت تدمي قلبه. كانت هذه المعضلات هي هي، لم تتبدل منذ أن طرح على نفسه تلك الأسئلة بعد عودته من المبارزة في غابة الفوكونييه، تلك الأسئلة التي ظل يفكر فيها طوال ليلة الأرق الرهيبة التي قضاها آنذاك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لكن عزلة السفر جعلت تلك الأسئلة أكثر إلحاحاً. فكان كلما حاول أن يفلت منها خلال ثغرة ما، أو أن يزوغ أمامها، عادت إليه تهاجمه وتحدق به دون أن يستطيع إيجاد أجوبة لها وحلول، وكأن المحور الرئيسي في كيانه وحياته قد تركز في رأسه وغُرس فيه. فكان يشعر في ذلك المحور ثابتاً لا يحاول النفاذ إلى أبعد من مكان وجوده، ولكنه لا يحاول الخروج من مكانه كذلك، بل يكتفي بالدوران دون أن يلف حوله ودون أن يتوقف عن الدوران أبداً.

وصل رئيس المركز يرجو سعادته أن يتفضل بالانتظار ساعتين فقط حتى يستطيع بعدها أن يقدم على مسؤولياته الشخصية، خيول عربة البريد لسعادته. كانت تلك كذبة واضحة لأن الرجل «الطيب» كان يحاول أن يسحب من الرجل المسافر الثري أكبر جانب ممكن من المال.

وتساءل پيار «هل يتصرف تصرفاً حسناً أم لا. إنه على حق فيما يتعلق بي. ولكن إذا عامل مسافراً آخر على هذه الصورة فيكون مخطئاً. أما هو، فإنه على صواب لأنه فقير. ولا يستطيع كسب عيشه إلا بهذه الطريقة. لقد ادعى ضابط جاء منذ حين يطلب «بدلاً» لعربته، فلما امتنع، ضربه. فإذا كان حقيقياً، فإن معناه أن الضابط كان على عجلة من أمره. لقد أطلقت النار على دولوخوف لأنني ظننت أنه أهانني، ولويس السادس عشر، ألم يعدموه لأنهم اعتبروه مجرماً؟ وبعد عام أعدموا أولئك الذين حكموا عليه من قبل؛ ولا شك أنه كانت لديهم أعذارهم أيضاً. ما هو السيئ، وما هو الحسن؟ ماذا يجب أن يحب المرء وماذا يجب أن يكره؟ لماذا يجب أن يعيش المرء وما هو «الأنا»؟ ما هي الحياة وما هو الموت؟ وما هي القوة التي تسيّر كل هذا؟

لم يجد على كل هذه الأسئلة إلا جواباً واحداً لم يكن جواباً في ذاته.

www.Maktbah.com

«ستموت يوماً وتنتهي. ستموت وستعرف كل شيء أو ستكف عن طرح الأسئلة على نفسك». ولكن أن يموت، كان كذلك شيئاً رهيباً.

وبصوتها الثاقب، عرضت البائعة بضاعتها على پيار، وكانت تقدم له أحذية من «الشيـڤرو» جلد الجديان. قال يحدث نفسه «معي مئات من الروبلات لست أدري ماذا أعمل بها، وهذه المرأة بفروتها الممزقة، تسألني بخضوع أن أساعدها. ولكن هل هي في حاجة حقيقية إلى المال؟ هل يستطيع المال أن يشتري (أوقية) من السعادة وراحة الفكر؟ كلا. لا شيء في الدنيا يستطيع أن يجعلها أو يجعلني أقل خضوعاً للسوء أو للموت، ذلك الموت الذي سينهي كل شيء والذي سيأتي اليوم أو غداً، ولا قيمة لذلك لأنه لن يكون إلا لحظة بالقياس على الأبدية». ومجدداً اصطدم بالمحور الذي يدور في الفراغ حول نفسه دون أن يأتي بما يفيد، دورات لا طائل فيها.

جاءه الخادم بكتاب قطعت نصف صفحاته. كان عبارة عن رواية في رسائل لمدام دوسوزا. راح يقرأ قصة الصراع الهائل الصالح الذي قامت به من تدعى إميلي دومانسفلد. راح يتساءل، «لماذا تقاوم ما دامت تحبه؟ إن الله ما كان ليضع في نفسها رغبات ضد رغبته. إن زوجتي السابقة لم تناضل، هي، ولعلها كانت على صواب... لم يُكتشف شيء ولم يُخترع شيء. كل ما نستطيع معرفته هو أننا لا نعرف شيئاً. هذه هي الدرجة القصوى في الحكمة الإنسانية».

بدا كل شيء في نفس پيار وحوله، ارتجاجاً مزعجاً وصخباً غريباً مخالفاً للمألوف. لكن ذلك التناقض كان يتيح له في ثنياته لوناً من المتعة.

قال رئيس المركز وهو يدخل مسافراً، كان افتقار المركز إلى الخيول يرغمه على التريث هو الآخر: هل تتفضل سعادتكم، إذا كان ذلك لا يضايقكم، بإعطاء مكان صغير لهذا السيد؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان المسافر عجوزاً قصير القامة، بارز العظام، أصفر الوجه، يبرز حاجباه الأشهبان فيظللان عينين براقتين بلون رمادي.

أنزل پيار رجليه عن الطاولة ومضى يستلقي على السرير الذي أُعد له، ملقياً بين الحين والآخر، نظرة على القادم الجديد الذي لم يكن يعيره انتباهاً، بل كان، كما يبدو مكتئب الوجه، يتخلص بصعوبة من فروته، يساعده على ذلك خادمه. أما ثيابه الداخلية، فكانت عبارة عن جلد خروف مغطى بنسيج قطني أصفر، وحذاءين من اللباد المتين يرتفعان حتى أعلى ساقيه الهزيلتين المعروقتين.

جلس على الكنبة في ذلك التجهيز وكفأ رأسه الكبير الحليق ذا الصدغين العريضين، على مسندها وعندئذ فقط، ألقى على رفيقه نظرة جعلت بيزوخوف يفاجأ ببيانها الصارم، شعر برغبة في الدخول في حديث مع ذلك المسافر، فهم بسؤاله عن حالة الطريق. لكن العجوز أغمض عينيه وعقد يديه الهزيلتين اللتين يزيّن إصبع إحداهما خاتم كبير من المعدن على شكل جمجمة ميت، وبقي جامداً مستغرقاً في بحران عميق كما خُيّل إلى پيار. أخرج خادمه ـ وكان عجوزاً خفيف الحركة، قصير القامة، أجرد الوجه، ذا صفرة متقلصة كوجه سيده تماماً، يرى بوضوح أنه لم يحلقه يوماً ما بل لم يكن يوماً ذا لحية وشاربين ـ أدوات الشاي وجاء «بسماور» يغلي الماء فيه. وعندما انتهى كل شيء، فتح السيد عينيه واقترب من الطاولة حيث أعد لنفسه كأساً من الشاي وقدم أخرى إلى الرجل الأجرد. أحسّ پيار بكآبة غامضة، وبضرورة ملحة تدفعه إلى توجيه الحديث إلى المسافر.

وبعد حين، أعاد الخادم كأسه فارغة ومقلوبة، دلالة على أنه لا يرغب في كأس أخرى، وإلى جانبه قطعة السكر الفائضة عن استهلاكه وسأل سيده عما يريد من خدمات.

www.Maktbah.com

فأجابه هذا: كلا، لا شيء، أعطني كتابي.

جاءه الخادم بكتاب اعتقد پيار أنه يبحث في شؤون النسك والتقوى، واستغرق في قراءته. أما پيار الذي كانت عيناه في تلك اللحظة محولتين نحو المسافر العجوز، فقد شاهده فجأة يضع الكتاب من يده ويغلقه ويعود إلى وضعه الأول مغمض العينين منكفئ الرأس على مسند الكنبة. همّ پيار أن يستدير، لكنه لم يجد الوقت الكافي. إذ إن العجوز فتح عينيه فجأة وراح يتفحص وجهه بصرامة.

شعر پيار بالارتباك. كان يحب أن يفلت من تينك العينين البراقتين اللتين كانت لهما جاذبية لا تقاوم.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

ـ إن لم أكن مخطئاً، فلي شرف التحدث مع الكونت بيزوخوف أليس كذلك؟ قال المسافر الغريب بصوته القوي المتزن.

لم ينبس پيار بكلمة بل اكتفى بالنظر إليه خلال نظارتيه نظرة مستفسرة. وتابع المسافر الغريب يقول: لقد سمعتهم يتحدثون عنك يا سيدي وعن المصيبة التي أصابتك.

كانت لهجته وهو ينطق بتلك الجملة تؤيد معنى الكلمات وكأنها تقول: «نعم، إنها مصيبة مهما أطلقت عليها من أسماء أخرى، إنني أعرف أن ما وقع لك في موسكو مصيبة».

وتابع: إنك تراني يا سيدي شديد الغم.

احمر وجه پيار فوضع قدميه على الأرض بسرعة ومال إلى العجوز وعلى شفتيه ابتسامة خجل.

تابع المسافر العجوز قوله: أنا لم أحدثك يا سيدي عن هذا الأمر بمجرد فضول عابر، بل لأسباب أهمّ.

سكت المتحدث دون أن يغفل عن النظر إلى پيار، ثم تحرك في مقعده داعياً إياه في حركته إلى الجلوس بجانبه. شعر پيار بدافع يجبره على إطاعة ذلك النداء الصامت رغم نفوره من الامتثال له. استرسل المسافر: إنك تعس يا سيدي. إنك شاب وأنا عجوز. أريد أن أساعدك في حدود طاقتي.

www.Maktbah.com

فأجاب پيار بابتسامة مغتصبة: نعم. سأكون شاكراً لك صنيعك... من أين أتيت؟

استأنف العجوز الكلام: مع ذلك، إذا كنت تجد لسبب أو لآخر أن حديثي يزعجك، فأرجو أن تنبئني بذلك يا سيدي العزيز.

كان وجه هذا الرجل عابساً وصارماً. مع ذلك فإن وجهه وأبحاثه كانا يفرضان جاذبية لا تقاوم على پيار. عندما انتهى من جملته الأخيرة، ابتسم فجأة ابتسامة أبوية غير متوقعة.

أجاب پيار وهو يتفحص عن قرب خاتم صديقه الجديد.

ـ كلا أبداً. بل على العكس، إنني مسرور بالتعرف إليك.

ولما تيقن أن الخاتم يحمل جمجمة ميت، وهي رمز الماسونية قال له:

ـ إسمح لي بسؤال. هل أنت ماسوني.

فقال المسافر وقد ازدادت نظرته غوصاً في أعماق پيار:

ـ نعم، إنني منتسب إلى جمعية الماسونية. وإنني باسمي واسم إخواني أمد لك يدي الأخوية.

أجابه پيار مبتسماً، تتجاذبه عوامل الثقة التي توحيها إليه شخصية ذلك العجوز، وميله إلى الهزء من المعتقدات الماسونية: أخشى كثيراً، أخشى كثيراً أن لا أستطيع... كيف أعبر لك؟... أخشى أن تكون نظرتي إلى العالم ومعتقداتي بعيدة جداً عن معتقداتك حتى ليتعذر التفاهم بيننا.

استأنف الماسوني حديثه:

ـ إنني أعرف أفكارك. ليست خصوصية نابتة من أعماقك. إنها الثمرة العامة للكبرياء والجهل وكسل الذهن. إن السواد الأعظم من الناس يؤمنون بها. أعذرني يا سيدي العزيز، ولكن لو أنني ما كنت أعرف أسلوبك في التفكير لما عقدت معك هذا الحديث. إن آراءك ليست إلا خطيئة محزنة.

twitter @baghdad_library

اعترض پيار بابتسامة واهنة وقال: أستطيع وصف معتقداتك بمثل هذا الوصف.

قال الماسوني الذي أخذت لهجته الحازمة الواضحة تدهش بيزوخوف أكثر فأكثر: لن أجرؤ أبداً على الادعاء بأنني حاصل على الحقيقة. إن أحداً من المخلوقات لا يستطيع بأضوائه الخاصة أن يصل إلى الحقيقة. إن المعبد الذي سيكون المقام الجدير بالله الكبير، لم يبن إلا حجراً حجراً، بالتعاون بين (الكل) وبفضل ملايين الأجيال التي تعاقبت منذ سلفنا آدم حتى اليوم.

وأغمض العجوز عينيه. فقال پيار وكأنه يخضع آسفاً، لدافع عدم إخفاء شيء، الذي نبت في نفسه: أنا مضطر للاعتراف لك بأنني... أنني لا أؤمن... بالله.

تأمله الماسوني باسماً ابتسامة رجل غني يملك الملايين، جاءه صعلوك فقير يشكو له عجزه عن إيجاد الروبلات الخمسة التي فيها كل سعادته. قال: إن هذا صحيح يا سيدي. إنك لا تعرفه ولا تستطيع أن تعرفه. ولأنك لا تعرفه تشعر بالتعاسة.

أجاب پيار: صحيح إنني تعس. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

قال الماسوني بصوت قاس ولكن مرتعد:

أنت لا تعرفه يا سيدي العزيز. ولهذا السبب أنت تعس. إنك لا تعرفه وهو هنا. إنه فيّ، في كلماتي. بل إنه فيك أنت (وهنا استعمل صيغة المفرد واستمر يستعملها حتى نهاية الحديث) بل وهو في تلك العبارات الدنسة التي نطقت بها منذ حين!

سكت الماسوني وأطلق زفرة، ولعله كان يحاول استرداد هدوئه. ثم استأنف بلهجة أقل عنفاً من الأولى: لو أنه لم يكن موجوداً يا سيدي لما كان

www.Maktbah.com

في هذه اللحظة موضوع جدلنا. عمّ وعمن نتحدث الآن؟... من هو الذي أنكرته؟...

وصاح فجأة بتلك اللهجة الجليلة الآمرة: من الذي اخترعه لو أنه لم يكن موجوداً؟ من أين جاءتك فكرة وجود كائن لا يمكن فهمه وتصوره؟ من أين أتى العالم كله وأنت نفسك بفكرة كائن قويّ أزلي وغير محدود في كل صفاته؟...

توقف وسكت فترة طويلة. فلم يستطع پيار أن يرد وأن يخرق حجاب ذلك الصمت.

تابع الماسوني حديثه وعيناه تنظران أمامه بدلاً من التحديق إلى وجه پيار، بينما كانت يداه المعروقتان تتصفحان كتابه بتأثير اضطرابه وانفعاله:

ـ إنه موجود ولكنهم لا يفهمونه بسهولة. لو أن الأمر كان مقتصراً على رجل تشك في وجوده، لأتيت به إليك ولأمسكت بيده وعرضته على ناظريك. ولكن كيف أستطيع وأنا الفاني الحقير، أن أُريَ جلالته، وأزليته ورحمته التي لا حدود لها، للذي هو أعمى أو مغلق عينيه كي لا يرى بهما ولا يفهمه، للذي لا يرى ولا يفهم بشاعته الشخصية وفساد أخلاقه؟...

وسكت لحظة ثم تحرك في جلسته وتابع بابتسامة ساخرة: من أنت إذن؟ نعم، من أنت؟ إنك تعتقد أنك حكيم لأنك قادر على النطق بهذه الكلمات الدنسة. لكنك في الحقيقة لست إلا أكثر سخفاً من الطفل الذي بعد أن لعب فترة طويلة بأجزاء ساعة متقنة الصنع، يجرؤ على القول إنه، ما دام لم يفهم الغاية من هذه الساعة، فإنه لا يؤمن كذلك بالصانع الذي صنعها. نعم، من الصعب معرفته. لقد عملنا منذ قرون، منذ سلفنا آدم حتى اليوم، في تلك المعرفة، وما زلنا حتى الآن بعيدين جداً عن بلوغ غايتنا. لكن هذا العجز إن دلّ على شيء فإنما يدل على ضعفنا إزاء عظمته.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وحدّق پيار طويلاً إلى وجه الماسوني بعينيه البراقتين وقلبه يكاد يكف عن الخفقان. كان يصغي إلى توكيدات هذا المجهول دون أن يقاطعه أو أن يطرح عليه سؤالاً. وكان يؤمن بدون شك بأقواله. ترى هل يستسلم للمنطق الذي في نقاشه؟ هل يدع نفسه يُقاد كالطفل بحرارة أقوال هذا الرجل والانفعال الذي كان يخالط صوته فيجعله يرتجف حيناً ويتقطع أحياناً؟ هل يخضع لسحر تلك النظرة التي يلتمع فيها نور إيمان مخلص؟ هل كان ذلك الإشراق وتلك الثقة الحوارية[1] تنكده بالقدر الذي كانت تتناقض تماماً مع كآبته الشخصية وفساده الخلقي؟ مهما كان الأمر، فإنه كان راغباً في الإيمان بتلك الأقوال، مؤمناً بها، يشعر بإحساس مجدد يخفف من حدة آلامه ويعيده إلى الحياة.

وأنهى الماسوني كلامه قائلاً: إن الذكاء لا يمكن أن يدركه، لكن الحياة وحدها هي التي تقود إليه!

أحسّ پيار بقلق، بقيام شك في نفسه. ترى هل يجعله ضعف حجج محدثه وغموضها يتنكر للإيمان بمزاعمه؟ ذلك ما كان يخشاه.

قال معترضاً: لست أفهم كيف لا يستطيع الفكر البشري الوصول إلى تلك المعرفة التي تتحدث عنها.

فابتسم العجوز ابتسامته الطيبة وقال: إن الحكمة، الحقيقية المجردة، تشبه سائلاً شديد النقاء نريد ارتشافه. فهل أستطيع الحكم على نقائه إذا صببته في وعاء قذر متسخ؟ إنني لن أستطيع أن أجعل ذلك السائل الثمين يبلغ مرحلة معينة من النقاء إلا إذا عمدت إلى دخيلة نفسي فنقيّتها.

صاح پيار متشجعاً: نعم، نعم، هو كذلك؟

إذن، لا ترتكز الحكمة المطلقة على العقل وحده ولا على العلوم المنافية

---

(١) نسبة إلى الحواريين أصحاب السيد المسيح. (المترجم).

www.Maktbah.com

للمناقبية الدينية، كالفيزياء والكيمياء والتاريخ وفروع المعرفة البشرية الأخرى. إن الحكمة البشرية (واحدة) أما الحكمة المطلقة فإن لها علماً واحداً وهو علم (الكل). إنه العلم الذي يفسر كل الخليقة والمكان الذي يحتله الإنسان فيها. ولكي يفسح الإنسان في المجال لهذا العلم في نفسه، لا بد له أن يطهر تلك النفس ويجدد وجوده الداخلي. أي إن عليه قبل أن يعرف، أن يؤمن. ومن أجل مساعدتنا على بلوغ هذه الأهداف، وُضعت في نفوسنا تلك الشعلة الإلهية المسماة بالضمير.

فقال پيار مكتئباً يعترف بواقعه: كلا، إنني أمقت حياتي.

ـ إذا كنت تمقتها، فأبدلها، واستفد منها. وكلما ازددت تطهيراً لنفسك، اشتد قربك من الحكمة. ألق نظرة على حياتك يا سيدي. ماذا فعلت حتى اليوم؟ سلسلة من الفسق والإفراط في المنكر. نلت كل شيء من المجتمع لكنك لم تعط المجتمع شيئاً. جاءت الثروة إليك، فكيف تصرفت فيها؟ ماذا فعلت لآخرتك؟ هل فكرت في عشرات الألوف من عبيدك؟ هل قدمت لهم مساعدة جسدية أو فكرية؟ كلا. لقد استفدت من كدحهم، لتعيش حياة كلها فوضى. هذا ما فعلته. هل بحثت عن بعض الأعمال التي تسمح لك بأن تكون مفيداً لآخرتك؟ كلا. لقد أمضيت عمرك في البطالة. ثم تزوجت، يا سيدي، فوجبت عليك مسؤولية كبرى، وهي توجيه امرأة شابة خلقياً. ولكن ماذا فعلت؟ لقد غمستها في أعماق جحيم الكذب والتعاسة بدلاً من أن تسدد خطاها في طريق الحقيقة. وأهانك رجل فقتلته. وها إنك تقول لي إنك لا تعرف الله وإنك تكره وجودك. ليس في ذلك ما يدهش يا سيدي العزيز.

وعندما بلغ الماسوني هذا الحد، أسند رأسه مرة أخرى إلى مسند الكنبة من التعب، وأغمض عينيه. راح پيار يتأمل ذلك الوجه الصارم الشبيه بوجه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المومياء. حرك شفتيه لتنطقا بجملة: «نعم، لقد عشت حياة بشعة مليئة بالفسق والعطالة». لكنه لم يجرؤ على تبديد الصمت الشامل.

سعل الماسوني سعالاً خشناً ينفرد به الشيوخ واستدعى خادمه: إذن، ماذا جرى للخيول؟

ـ إنهم على وشك إعدادها من أجلك. ولكن ألا تأخذ قسطاً من الراحة؟

ـ كلا، أقطر الخيول إلى العربة.

وتساءل پيار: «هل سيمضي دون أن يحدثني بكل ما كان يريد أن يقوله لي، ودون أن يعدني بمساعدته وعونه»؟ كان في تلك اللحظة يذرع أرض الغرفة مبلبل الخاطر، ويختلس بين الحين والحين نظرات وجلة إلى وجه الماسوني. «نعم، إنني لم أفكر قط في هذا من قبل. أمضيت حياة حقيرة كريهة، لكنها كانت ضد رغبتي. أجل، لقد كنت أمقتها حقاً... إن هذا الرجل يعرف الحقيقة، وهو يستطيع إطلاعي عليها لو أنه وافق على ذلك».

أراد أن يعترف بپيار من صميم قلبه بهذه الأفكار أمام المسافر العجوز، لكن الشجاعة خانته. وفي تلك الأثناء، كان العجوز يركز فروته بعد أن نظم أدوات الشاي بيديه النحيلتين الخبيرتين. وعندما انتهى من عمله، استدار نحو بيزوخوف وقال له بلهجة مهذبة: إلى أين تفكر في الذهاب يا سيدي؟

فأجاب پيار بصوت طفل غير واثق بنفسه:

ـ أنا؟... إلى پيترسبورغ. إنني شاكر لك. إنني موافق على آرائك. ولكن لا تعتقد أنني على كل هذا الفساد في الأخلاق. أنا أتعطش من كل قلبي إلى بلوغ الدرجة التي تريدني أن أبلغها. لكن أحداً لم يأخذ بيدي من قبل... الأمر الذي، على كل حال، لا يخفف من بشاعة سلوكي. ساعدني إذن، وثقّفني ولعلّني عندئذ...

www.Maktbah.com

خنق الانفعال صوته فلم يستطع الاسترسال في الحديث، فاستدار ساخطاً.

بدا على الماسوني أنه يفكر. وأخيراً قال بعد فترة صمت طويلة: لا يأتي العون إلا من عند الله. لكن جمعيتنا تستطيع مساعدتك ضمن نطاق إمكانياتها. ولما كنت ذاهباً إلى پيترسبورغ، أرجو أن تسلم هذه إلى الكونت ڤيلارسكي.

وأخرج من حافظته ورقة كبيرة طواها أربعاً بعد أن كتب عليها بضع كلمات، وأعطاها له وقال: اسمح لي بأن أعطيك نصيحة. حالما تصل إلى العاصمة، كرس الأيام الأولى من وصولك للوحدة، فافحص ضميرك ولا ترجع إلى أسلوبك القديم في الحياة.

وعندما رأى خادمه داخلاً قال مختتماً كلامه:

ـ والآن يا سيدي، أتمنى لك سفراً طيباً... وحظاً سعيداً...

ولما تصفح پيار سجل مدير المركز، عرف أن ذلك المسافر لم يكن إلا أوسيب ألكسييـڤيتش بازدييـڤ. وكان هذا منذ زمن نوڤيكوف[1] واحداً من أكثر المتحمسين لشيعة القديس مارتن وللماسونية. ظل پيار زمناً طويلاً بعد ذهاب المسافر، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً دون أن يفكر في اللجوء إلى سريره أو في طلب خيول لعربته. كان يتمثل الحياة الفاسدة التي عاشها حتى ذلك اليوم، ويتصور، بحماسة المؤمن حديث الإيمان، المستقبل الجميل الذي ينتظره، مستقبلاً مليئاً بالفضيلة والسعادة كان يقدّر أن تحقيقه سهل، وأن فساد أخلاقه من قبل لم يكن إلا نتيجة لصدفة مزعجة. لقد عمي من قبل عن رؤية جمال الفضيلة. أما الآن. فقد تبددت شكوكه، وأصبح مؤمناً بأن رجالاً متحدين فيما بينهم، يستطيعون التعاون للبحث عن الفضيلة، وأن الماسونيين كانوا كذلك!

---

(١) كاتب معروف، من أشدّ المتحمسين للماسونية في روسيا. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

أمضى پيار أيامه الأولى، في پيترسبورغ، يقرأ كتاب (القدوة) ولم يعلم أحداً بوصوله، وأضفت عليه القراءة متعة لم يعرفها من قبل: وهي الإيمان بإمكانية البلوغ إلى الكمال وتحقيق الحب الأخوي في هذا العالم السفلي، ذلك الحب الأخوي الفعال الذي أنبأه به أوسيب ألكسييـڤيتش.

دخل الكونت البولوني ڤيلاروسكي بعد وصوله بثمانية أيام، وكان پيار قد صادفه في المجتمعات الپيتروسبورغية في مكتب پيار. وعلى وجهه ذلك الطابع الخطير الذي اتسم به، وشاهد دولوخوڤ عندما تقدم إليه. وبعد أن أغلق الباب، وتأكد من خلو المكتب إلا منهما، قال لـپيار دون أن يجلس:

ـ أنا مكلف مهمة لديك يا كونت. لقد تدخلت شخصية رفيعة المقام في جماعتنا، لتجعل قبولك بيننا قبل المدة المحددة عادة مقبولاً. ولقد كلفت من قبلها أن أكون كفيلك في هذه الخطوة. وإنني أعتبر الامتثال لرغبات تلك الشخصية الرفيعة بمثابة واجب مقدس. فهل ترغب في الانخراط في جماعة الماسونيين على مسؤوليتي؟

دُهش پيار لهذه اللهجة الحازمة التي يتحدث بها هذا الرجل الذي لم يره مرة إلا والابتسامة مشرقة على وجهه في المجتمعات، لطيفاً، مقرباً إلى ألمع النساء وأشدهن فتنة.

قال مجيباً: نعم، إنها رغبتي.

هز ڤيلاروسكي رأسه مؤيداً وأجاب: ثمة سؤال أخير يا كونت، أرجو أن

www.Maktbah.com

تجيبني عنه بكل إخلاص، ليس بوصفك ماسونياً مقبلاً بل بوصفك شاباً نبيلاً: هل تنكرت لأفكارك القديمة وبت تؤمن بالله؟

فكر پيار برهة وقال: نعم... نعم إنني أؤمن بالله.

قال ڤيلاروسكي: في هذه الحالة... لكن پيار قاطعه: نعم، إنني أؤمن بالله.

فقال ڤيلاروسكي متمماً: في هذه الحالة، يمكننا الذهاب. إن عربتي قرب الباب وهي في خدمتك.

بقي ڤيلاروسكي ساكتاً طوال الطريق. كان يجيب عن أسئلة پيار حول ما يجب عليه أن يفعل ويقول، إن إخوة أرفع مقاماً منه وأكبر منه شأناً سيختبرونه وإن عليه أن يصدقهم القول.

صعدا سلّماً معتماً، بعد أن ترجلا من العربة تحت رواق البناء الذي يحتله المحفل، ودخلا إلى ردهة صغيرة مضيئة وهناك نزعا فروتيهما دون مساعدة الخدم. ولما دخلا إلى الغرفة التالية، جاء رجل يرتدي زياً غريباً، دخل عليهما من الباب الآخر، فمضى ڤيلاروسكي إلى لقائه وخاطبه بالفرنسية بصوت خفيض ثم اقترب من خزانة شاهد پيار فيها ألبسة لم ير مثلها في حياته. تناول ڤيلاروسكي منديلاً من الخزانة عصب به عيني پيار وربط عقدته وراء رأسه ضاماً بذلك، دون عمد، خصلة من شعر رأسه. ولما انتهى من عمله، جذبه إليه وقبله ثم مضى به ممسكاً بيده. وكانت خصلة الشعر الملفوفة مع عقدة المنديل تؤلمه، فكان يقلص وجهه من الألم ويبتسم مع ذلك ابتسامة خجولة. كان ذلك العملاق ذو الذراعين المباعدتين والوجه المتقلص الباسم، يتبع ڤيلاروسكي بمشية مترددة.

وبعد أن قطع بضع خطوات توقف ڤيلاروسكي وقال له: مهما أصابك، يجب أن تحتمل بشجاعة إذا كنت مصمماً على الدخول في محفلنا.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فهز پيار رأسه إيجاباً. بينما أردف ڤيلاروسكي:

ـ عندما تسمع طرقاً على الباب، يمكنك نزع العصبة عن عينيك. أتمنى لك شجاعة طيبة وحظاً طيباً.

وانسحب بعد أن شدّ على يده مصافحاً.

بقي پيار مبتسماً بعد أن أصبح وحيداً. رفع يده مرتين أو ثلاث مرات محاولاً نزع العصبة وهو يهز كتفيه، لكنه في كل مرة كان ينزل يده قبل أن تصل إلى المنديل. كانت عيناه معصوبتين منذ خمس دقائق. مع ذلك فقد خيل إليه أن تلك الدقائق الخمس كانت ساعة كاملة. شعر بيديه تتخدران وبساقيه تنحطان تحت ثقل جسده، وأحس بموجة من الضعف تستولي عليه. وكان أشد ما يخافه هو أن يخفق في إخفاء خوفه. كانت معرفة ما سيفعلون به وما سيطلعونه عليه تثير في نفسه فضولاً قوياً. وكان فرحه يتزايد كلما شعر أن اللحظة التي ستمهد له السير على طريق التجدد والنشاط الفاضل الذي كان يحلم به منذ لقائه أوسيب ألكسييڤيتش باتت قريبة.

وتجاوبت طرقات عنيفة على الباب فنزع پيار العصابة عن عينيه وراح يجيلهما حوله. استطاع خلال الظلام الدامس الذي كان يغمر المكان، أن يميز قنديلاً في شيء أبيض. فلما اقترب منه، رأى القنديل موضوعاً على طاولة سوداء أمام كتاب كبير مفتوح. كان ذلك الكتاب نسخة من الإنجيل وكان الشيء الأبيض جمجمة ميت. قرأ الكلمات التالية: «في البداية كان الفعل، والفعل كان في الله». وعلى مقربة من الطاولة، رأى صندوقاً مغطّى، يبدو أنه ممتلئ، عرف فيه نعشاً تملأه عظام بشرية. لكن ذلك كله لم يذهله. كان يتوقع أشياء خارقة، أكثر غرابة من التي رآها حتى تلك اللحظة، وكان توقعه هذا يعود إلى رغبته في تدشين حياة جديدة مختلفة تماماً عن حياته السابقة. أما الجمجمة والإنجيل والنعش، فقد كان يؤمن أنه متوقع كل هذه الأشياء وكثيراً

www.Maktbah.com

غيرها أيضاً. ولكي يثير في نفسه حمية العبادة، أخذ يلفظ في سره: «الله، موت، حب، أخوة» التي كان يرى فيها مرئيات غامضة تنبعث منها، في تلك اللحظة، فتح الباب ودخل بعضهم.

رأى پيار الذي اعتادت عيناه الظلام، رجلاً قصير القامة يقف متردداً لحظة لدخوله من الضوء إلى الظلام، ثم يمشي بخطوات وئيدة، فيضع فوقها يديه المغيبتين في قفازين من الجلد. كانت صدارة من الجلد الأبيض تغطي صدره وجزءاً من رجليه، وكان يطوق عنقه بشيء يشبه القلادة، وتبرز من ذلك الشيء مشغلة بيضاء تؤطر وجهه المتطاول المضاء من الأسفل.

التفت ذلك الرجل نحو الاتجاه الذي كانت تصدر عنه حركة خفيفة تدل على وجود پيار وسأله: لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا جئت إلى هنا، يا من لا تؤمن بالنور الحقيقي ولا ترى ذلك النور؟ ماذا تريد منا: هو الحكمة والفضيلة والعلم؟

منذ اللحظة التي فُتح فيها الباب ليسمح لذلك الغريب بالدخول، شعر پيار باحترام يشبه ذلك الذي كان يسيطر عليه في طفولته كلما ذهب إلى كرسي الاعتراف. لقد كان في تلك اللحظة وجهاً إلى وجه مع رجل لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إليه في الحياة العامة، ولكن الإخاء البشري جعله قريباً جداً منه في تلك اللحظة. كان قلبه يكاد يقفز من صدره أو يتفجر فيه، فاقترب من (الخطيب) ـ هذه هي التسمية التي تطلق في المحافل الماسونية على الأخ المكلف تثقيف المبتدئ ـ وعندما بلغ دائرة الرؤية، عرف فيه المدعو سموليانينوف، وهو أحد معارفه. لكنه طرد ذلك الخاطر وكأنه خاطر مزعج: إن هذا الرجل يجب ألّا يكون له أخ ومدرس فاضل. بقي فترة طويلة لا يجد ما يرد به عن سؤاله حتى إن الخطيب اضطر إلى تكرار السؤال. وأخيراً تمتم پيار.

فقال سموليانينوف مستأنفاً كلامه بلهجة حازمة وسريعة: حسناً. هل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تعرف لمحات عن الأساليب التي تملكها جماعتنا المقدسة والتي تكفل لك الوصول إلى غايتك؟

فأجاب پيار بصوت منفعل مرتجف: إنني أتوقع... أن... أوجه... وأغاث.

لم يكن معتاداً التعبير عن أفكاره باللغة الروسية، خصوصاً إذا كانت أفكاراً مجازية. لذلك لم يكن يجد الكلمات الملائمة.

ـ أية فكرة كونت لنفسك عن الماسونية؟

أجاب پيار وهو شديد الخجل لاستعماله كلمات لا تتفق تماماً مع عظمة الموقف: إنني أرى فيها جمعية أخوية تؤمن بالمساواة في سبيل أهداف نبيلة، إنني أرى فيها...

بادر الخطيب يقول وقد أعجبه الرد كما يبدو: حسناً هل فتشت في الدين عن وسائل تبلغك إلى هذه الغايات؟

ـ كلا. لقد كنت أعتبر الدين خدعة فلم ألاحظ تعاليمه.

قال پيار هذه العبارة بصوت منخفض. حتى أن الخطيب اضطر إلى مطالبته برفع صوته. فقال مفسراً: لقد كنت ملحداً.

سكت الخطيب لحظة. ثم استأنف قائلاً: إنك تبحث عن الحقيقة لتخضع حياتك لتعاليمها، وبالتالي، فأنت تبحث عن الحكمة والفضيلة أليس كذلك؟

فقال پيار مؤكداً: بلى. بلى.

عقد الخطيب يديه المقفزتين على صدره وبعد أن سعل سعالاً خفيفاً، قال:

ـ يجب أن أكشف لك الآن عن الخطة التي يتبعها محفلنا، فإذا وجدتها متفقة مع أهدافك، فإنك ستجد فائدة في مساهمتك معنا في أخوتنا. إن غاية جماعتنا الأولى، أي القاعدة التي ترتكز عليها والتي لا يمكن لقوة بشرية أن

www.Maktbah.com

تزعزعها، هي المحافظة على سر معين شديد الخطورة ورفعه وإبلاغه الأجيال الصاعدة... لقد وصل إلينا هذا السر الخطير منذ أكثر القرون قدماً بل منذ خليقة الإنسان الأول، ويتوقف عليه تقريباً مصير الجنس البشري كله ولما كان هذا السر من نوع خاص يجعل من المستحيل على أي كان أن يفيد منه إلا إذا هيأ نفسه طوال فترة طويلة من التطهير النفسي، لذلك فإن عدداً قليلاً جداً من الأشخاص، يستطيعون الاطلاع عليه للوهلة الأولى.

ولهذا السبب فإن مهمتنا الثانية تنحصر في إعداد إخواننا وتنقية قلوبهم وتطهير عقولهم وتنويرها بالطرائق التي نقلها إلينا الرجال الذين جهدوا في البحث عن هذا السر، حتى نجعلهم صالحين وقادرين على الاطلاع عليه. وفي المرحلة الثالثة، نسعى بكل قوانا لصلاح الجنس البشري كله، بتطهيرنا وتهيئتنا تلامذتنا والمتشيعين لنا، حتى نقدمهم له كأمثلة من التقوى والفضيلة. وبهذه الطريقة، نستعمل كل نشاطنا لمحاربة الإثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم... فكر في هذا وسأعود بعد قليل.

وانسحب الخطيب فور انتهائه من هذا الكلام.

كرر پيار قوله: «محاربة الإثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم...» وهو يهيئ نشاطه المقبل للسير في هذا المضمار. راح يتمثل نفسه حيال أشخاص يشبهون ما كان عليه منذ خمسة عشر يوماً، وهو يوجه إليهم فكرياً موعظة مقنعة يساعد الفاسدين بأقواله وأفعاله، ويسعف المساكين البؤساء وينقذ ضحايا المعتدين والطغاة. كان يقدر المبدأ الثالث من المبادئ التي سردها عليه الخطيب وهو: تهذيب الجنس البشري. صحيح أن السر الخطير الذي تحدث عنه ذلك الرجل، أثار فضول پيار، لكنه لم يبد له مهماً جداً. أما الهدف الثاني، التطهير الشخصي، فإنه كان قليل الالتفاف إليه لأنه كان يشعر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في أعماق نفسه بأنه قد أصلح من نفسه تماماً وأن أخطاءه السابقة لم تعد إلا ذكريات وأن عنايته قد صرفت الآن نحو الخير، ولا شيء سواه.

وبعد نصف ساعة عاد الخطيب لينبئ التلميذ بالفضائل السبع التي تقابل درجات معبد سليمان السبع، والتي يجب على كل ماسوني أن ينميها في نفسه. وهذه الفضائل هي: ـ ١ ـ السرية التي تحفظ أسرار الجماعة، ٢ ـ الطاعة لذوي المناصب الرفيعة، ٣ ـ الخصال والعادات الرفيعة، ٤ ـ حب الإنسانية، ٥ ـ الشجاعة، ٦ ـ الكرم، ٧ ـ حب الموت.

وعندما انسحب الخطيب من جديد تاركاً پيار لأفكاره الخاصة، فكر هذا في سره: «نعم، يجب أن يكون الأمر كذلك، يجب أن يكون الأمر كذلك. لكنني ما زلت ضعيفاً لدرجة أنني أحب الحياة التي بدأت الآن أتعمق في فهم جوهرها». أما الفضائل الخمس الأخرى التي راح پيار يراجعها وهو يعدها على أصابعه، فإنه كان يشعر أنها موجودة فعلاً في نفسه: فالشجاعة والكرم والعادات الطيبة وحب الإنسانية وبصورة خاصة الطاعة التي كانت تبدو له سعادة أكثر من كونها فضيلة، كانت متجمعة في نفسه. لقد كان يشعر أن الطاعة سعادة أكثر منها فضيلة لشدة رغبته في التخلص من حكمه الخاص وإسلام إرادته لأولئك الذين يملكون الحقيقة المطلقة التي لا يمكن دحضها. أما الفضيلة السابعة، فقد نسيها پيار، فلم يكن يتوصل إلى تذكيرها.

ظهر الخطيب مجدداً بعد غياب أقصر من الأول. سأل پيار عما إذا كان لا يزال مصمماً على قراره بملء رغبته أن يخضع لكل ما يطلبونه منه. فقال: أنا مستعد لكل شيء.

تابع الخطيب قائلاً:

ـ يجب أن أخطرك كذلك بأن جماعتنا يعلمون مبادئهم ليس بالأقوال فحسب بل بوسائل أخرى أيضاً تفرض على ذلك الذي يبحث عن الحكمة

www.Maktbah.com

بإخلاص وعن الفضيلة. ولعل تلك الوسائل أشد تأثيراً من التعليمات الشفهية. إن ما يزين هذه الغرفة، يجب أن يؤثر في قلبك، إذا كان مخلصاً، أكثر من تأثير أي خطاب. إن جماعتنا تحاكي في هذا، المجتمعات العريقة القديمة التي كانت تنشر تعاليمها بواسطة الألغاز، كما كانت عليه الكتابة الهيروغليفية.

توقف ثم تابع متمتماً: إن الهيروغليفية هي رمز شيء لا يقع في مدى الحواس ولكنه مع ذلك يملك صفات تشبه تلك التي يمثلها.

كان پيار يعرف تماماً ما معنى (كلمة) هيروغليف، لكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن رأيه. كان يصغي بصمت شاعراً أن الاختبارات على وشك الحدوث.

استأنف الخطيب كلامه وهو يقترب منه قائلاً. إذا كنت مصمماً بحزم، فإن واجبي يجبرني على البدء بإشراكك في جماعتنا. والآن، أرجو أن تعطيني كل ما تملكه من أشياء ثمينة للدلالة على كرمك.

فقال پيار معترضاً معتقداً أنهم يطلبون منه تقديم كل ما يملك من مال وعقار: لكنني لم أحمل معي شيئاً...

ـ ما هو موجود معك هنا: ساعة، نقد، خواتم...

بادر پيار إلى إخراج كيس نقوده وساعته واستغرق وقتاً طويلاً في سحب خاتم زواجه من إصبعه الضخمة. فلما قدم هذه الأشياء قال له الماسوني: والآن أرجو أن تنزع ثيابك للدلالة على طاعتك.

نزع پيار ثوبه وصدارته وحذاءه الأيسر بناء على إشارة الخطيب. وكشف له الماسوني القميص عن الجانب الأيسر من صدره، وانحنى فحسر كمّ سرواله الأيسر حتى فوق الركبة. أراد پيار أن يخلع حذاءه الأيمن حتى يوفر العناء على هذا الرجل الذي لم يكن بالنسبة إليه شيئاً مذكوراً. لكن الماسوني أكد له أن ذلك غير ضروري وقدم له خفاً منزلياً لينتعله في قدمه اليسرى. ارتسمت على

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وجه پيار ابتسامة صبيانية، مزيج من الخجل والسخرية. ظل واقفاً وذراعاه وساقاه مباعدة قبالة الخطيب ينتظر أوامر جديدة. قال هذا أخيراً:

ـ والآن، للدلالة على إخلاصك، أرجو أن تعترف لي بالضعف الرئيسي الموجود فيك.

قال پيار:

ـ نقاط ضعفي! إن عندي كثيراً منها!

ـ النقطة التي جعلتك تتعثر على طريق الفضيلة أكثر من سواها.

أخذ يفكر ويزين بميزان عقله كل إثم من آثامه وميل في نفسه: «الخمر؟ رخاء العيش؟ البطالة؟ الكسل؟ الغضب؟ الخبث؟ النساء؟» لم يكن يعرف أي عيب من هذه العيوب يقدم. وأخيراً قال بصوت لا يكاد يسمع: «النساء»!

بقي الماسوني فترة طويلة ساكتاً بعد هذا الجواب، لا يتحرك. وأخيراً، اقترب من پيار وأخذ المنديل عن الطاولة فعصب عينيه من جديد.

للمرة الأخيرة أقول لك: تعمق في نفسك، كبل عواطفك، وابحث عن السعادة في قلبك وليس في شهواتك. إن منبع السعادة الأبدية ليس خارج نفوسنا، بل في نفوسنا عينها...

أحسّ پيار سلفاً أن نبع السعادة الأبدية ذاك أخذ يتفجر في قلبه ويغرقه في الحبور.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

جاء أحدهم يصطحب پيار، بعد حين، ولم يكن الخطيب بل ڤيلاروسكي عرّاب پيار في المعمودية. تعرف إليه پيار من صوته. كرر عليه السؤال حول عزمه وتصميمه واستعداده فأجاب پيار: «نعم، نعم، إنني مصمم وموافق». وارتسمت على وجهه ابتسامة الطفل المشعة، وراح يمشي وصدره الضخم مكشوف، وخطواته متعثرة، وفي إحدى قدميه حذاؤه وفي الأخرى الخف. سار پيار وأمامه ڤيلاروسكي وبيده سيف مسدد إلى صدره. اقتيد عبر المماشي المتعرجة حتى بلغ أخيراً باب المحفل. سعل ڤيلاروسكي فأجيب بطرقات موقعة وفتح الباب.

سأل أحدهم پيار بصوت منخفض عن اسمه ومكان ولادته إلخ... ثم عاد إلى السير يقوده دليله وعيناه ما زالتا معصوبتين. كان بعضهم يحدثه خلال سيره بعبارات مجازية عن صعوبات رحلته والصداقة المقدسة ومهندس الكون الأزلي، وعن الشجاعة التي يجب عليه احتمال المتاعب والأخطار من أجلها. ولاحظ پيار أنهم كانوا يسمونه تارة بـ: «الذي يبحث» وأخرى بـ: «الذي يتألم» وثالثة بـ«الذي يسأل» وأنهم يقرعون في كل مرة السيوف قرعاً خاصاً. وبينما كانوا يقودونه نحو شيء معين، لاحظ تردداً على مرافقيه الذين راحوا يتباحثون بصوت منخفض. وسمع أحدهم يلح على أن يمر التلميذ فوق بساط ما. وأخيراً أمسكوا بيمناه ووضعوها على شيء ما، ووضعوا في يسراه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فرجاراً ورجوه أن يضغط به على ثديه الأيسر. ثم طلبوا إليه أن يكرر قسم الإخلاص للمحفل والجماعة طوال تلاوتهم لذلك القسم.

وأخيراً أطفأوا الشموع وأشعلوا كحولاً، كما استنتج پيار من الرائحة التي انبعثت من احتراق الكحول وأخطروه بأنه سيرى الآن النور الأصغر. ثم رفعوا العصابة عن عينيه فشاهد، وكأنه في حلم، على ضوء الشعلة الخافتة، عدداً من الأشخاص واقفين مرتدين صدارات بيضاء تشبه صدارة الخطيب، ومسددين إلى صدره سيوفهم. وكان أحدهم يرتدي قميصاً مخضباً بالدم. فلما وقع نظر پيار على ذلك المشهد، ارتمى على السيوف راغباً في أن تخرق صدره. لكن هذه أبعدت عنه وأسرع بعضهم إلى العصابة يحكم وضعها على عينيه.

قال له صوت: لقد رأيت الآن النور الأصغر.

ثم أشعلت الشموع مجدداً وأخطروه بأنه سيرى بعد قليل النور الأكبر. ثم رفعوا العصابة عن عينيه وسمع اثني عشر صوتاً تردد معاً عبارة: lic transit Gloria mondi (هكذا يمر مجد العالم).

استعاد پيار رباطة جأشه تدريجاً وراح يتفحص الغرفة والأشخاص الموجودين فيها. رأى اثني عشر رجلاً جالسين وراء طاولة مستطيلة مغطاة بقماش أسود، يرتدون الألبسة التي شاهدها من قبل. عرف بعضهم، لكنه لم يستطع معرفة الرئيس، وهو شاب كان عنقه مزيناً بوسام خاص. وكان إلى يمين الرئيس، يجلس الأب الروحي الإيطالي الذي شاهده پيار في العام الماضي عند آنّا پاڤلوڤنا. وكذلك رأى موظفاً كبيراً في الدولة ومدرساً سويسرياً كان صديقاً حميماً لآل كوراغين. كانوا جميعهم صامتين، يصغون إلى أقوال الذي كان ممسكاً بميقعة في يده. وعلى الجدار، شاهد نجماً يتألق، ورأى سجادة صغيرة مزينة بصفات رمزية ممددة عند جانب الطاولة. أما الجانب الآخر، فكان مجاوراً لمذبح أقيم عليه إنجيل وجمجمة بشرية. وكان في الغرفة سبعة

www.Maktbah.com

«شمعدانات» كبيرة كالتي توضع في الكنائس، مصفوفة بنظام في أركانها. قاد اثنان من الإخوان «پيار» إلى المذبح وطلبوا إليه الاستلقاء على الأرض بعد أن باعدوا بين ساقيه على شكل مثلث، وفسروا له هذا العمل بأنه خضوع أمام أبواب المعبد.

قال أحدهما بصوت منخفض: يجب أن يتلقى المسيعة أولاً.

فأجاب الآخر: كلا، ذلك عديم الجدوى لا لزوم له.

لم يخضع پيار للأمر، بل أخذ يجيل حوله نظراته التائهة. وفجأة برزت الشكوك في نفسه. «أين أنا؟ ماذا أفعل؟ ألا يسخرون مني؟ ألن أشعر بالخجل مستقبلاً إذا تذكرت كل هذا؟» لم يدم تردده لحظة واحدة. تأمل الوجوه الجدية التي تحيط به، وفكر في كل ما قام به حتى تلك اللحظة، وفهم أن من الصعب النكوص على عقبه بعد أن اجتاز هذه المرحلة الطويلة. رفع شكوكه وأبعدها برعب واستنكار، مستعيداً اندفاعه وحماسته الأولى، واستلقى أمام المعبد. وشعر أن غيرته الدينية قد عادت إليه، وهي أكثر اتقاداً من كل وقت مضى.

بقي في استلقائه فترة معينة وأخيراً رجوه أن ينهض، وعندئذ قدموا إليه صدارة بيضاء مماثلة لصدارتهم وأعطوه مسيعة وثلاثة أزواج من القفازات، ثم وجه إليه المعلم الكبير الكلام. طلب إليه ألّا يلوث بياض هذه الصدارة بشيء لأنها رمز الطهر. أما المسيعة الغامضة فإنها ستفيده في تنظيف قلبه من الأدران، وفي تسوية قلب المجتمع دون خشونة. أما الزوج الأول من القفازات فلن يُكشف له في الوقت الحاضر عن معناه. لكن عليه الاحتفاظ به. أما الثاني فعليه أن يضع يديه فيه في الاجتماعات. وكان الزوج الثالث من تلك القفازات، مصنوعاً للنساء على عكس الزوجين الأولين. قال له المعلم الكبير عنهما: «أيها الأخ العزيز، إن هذه القفازات النسوية مخصصة لك كذلك. ستعطيهما للمرأة التي ستشعر بالاحترام نحوها أكثر من الأخريات.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سوف تبرهن بهديتك هذه على نقاء قلبك وصفائه لتلك التي ستنتخبها لتكون ماسونية جديرة باسمها». وبعد فترة صمت تابع قائلاً: «ولكن حاذر يا أخي العزيز، أن تزين هذه القفازات أيد غير نقية». خيل إلى پيار خلال حديث المعلم الأكبر، أن هذا ليس على ما يرام، فازداد اضطرابه لهذه الفكرة واندفع الدم إلى وجهه فأصبح شديد الاحمرار أشبه بوجوه الأطفال وراح يلقي حوله نظرات قلقة.

تلا ذلك سكوت مربك قطعه أحد الإخوان بعد قليل. قاد ذلك الأخ پيار نحو السجادة وراح يقرأ عليه في دفتر هناك، شروح تلك الرسوم الرمزية التي كانت عليها: الشمس، القمر، الميقعة، الفادم، المسيعة، الحجر الخام والمكعب، العمود، النوافذ الثلاث إلخ... ثم حددوا مكاناً في الاجتماعات وإشارات المحفل المصطلحة وكلمة السر وأخيراً سمحوا له بالجلوس. أخذ الملعم الأكبر يقرأ عليه النظام الذي كان شديد التطويل والذي لم يلق پيار إليه أذناً مستوعبة لشدة ما كان متأثراً بالفرح والارتباك. فلم يحفظ منه إلا المقطع الأخير:

«في معابدنا، لا نعرف درجات أخرى غير التي تفصل الخير عن الشر فاحذر القيام بخلافات تحطم المساواة. أسرع إلى مساعدة أخيك دون تمييز وأعد الذي يتيه وأنهض الذي يسقط ولا تغذ في نفسك أي شعور بالكراهية لأخيك أو الحقد عليه. أيقظ في كل القلوب شعلة الفضيلة واقتسم سعادتك مع المجتمع ولا تدع الحسد والرغبة يزعزعان هذه المتعة النقية الطاهرة اصفح عن عدوك ولا تنتقم منه إلا بعمل الخير له. إنك إذا نفذت القانون الرفيع على هذا النحو، استعدت آثار عظمتك القديمة الضائعة».

وبعد أن انتهت قراءة النظام، وقف المعلم الأكبر وضم پيار وقبّله. حار هذا الأخير في إيجاد التعابير الملائمة للجواب عن التهاني وعبارات الصداقة

www.Maktbah.com

التي ارتفعت من كل مكان حوله فراح يجيل نظرات حائرة والدموع تترقرق في عينيه ونسي أولئك الذين كان يعرفهم بين المجتمعين، أخذ ينظر إليهم جميعاً نظرته إلى إخوان له، كان يتحرق شوقاً إلى العمل متعاوناً معهم.

ضرب المعلم الأكبر بمطرقته، كل إلى مجلسه، وعرض أحد الإخوان ضرورة التصاغر والخشوع فكان ذلك الدرس الأخير الذي ألقي على پيار يومئذ.

وعندما أوعز المعلم الأكبر بالقيام بالواجب الأخير، قام الموظف الكبير الذي يشغل منصب الأخ الجابي، وطاف بالموجودين. كان پيار يريد أن يسجل على ورقة التبرعات كل المال الذي كان يحمله، لكنه خاف أن يكون في ذلك دليل على الكبرياء، لذلك وضع رقماً مساوياً لأرقام الآخرين.

انتهت الجلسة. ولما عاد پيار إلى منزله، أحس كأنه رجع تواً من سفر طويل، دام عشرات السنين، تبدل خلاله تبدلاً كلياً وقطع كل علاقة له مع عاداته القديمة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

كان پيار يجلس في منزله في اليوم الثاني لقبوله في المحفل الماسوني، يقرأ محاولاً بكل قواه الفكرية أن يتعمق في معنى المربع الذي يشير أحد أضلاعه رمزياً إلى الله والثاني إلى العالم الفكري، والثالث إلى العالم السفلي والرابع إلى العالمين معاً. كان خلال فترات، يترك الكتاب والمربع، ويطلق لخياله العنان، ويضع في تفكيره أسس حياته الجديدة. أخبروه يوم أمس في المحفل، أن الأمبراطور اطلع على قصة المبارزة، وأنه يتصرف بتعقل إذا ابتعد عن پيترسبورغ لبعض الوقت. فكان ينوي القيام برحلة إلى أملاكه في الجنوب للتفرغ للعناية بفلاحيه هناك. وكانت الأحلام اللذيذة تهدهد خاطره عندما قطع عليه تأملاته فجأة الأمير بازيل الذي دخل الغرفة.

سأله دون مقدمات: ماذا فعلت في موسكو يا صديقي؟ لمَ بحق الشيطان اختصمت مع ليوليا «يا عزيزي»؟ إنك على خطأ فادح. إنني أعرف كل شيء وأستطيع أن أؤكد لك أن ليوليا ليست مخطئة تجاهك إلا بالقدر الذي أخطأ فيه المسيح نحو اليهود.

همّ پيار بالجواب، لكن الأمير بازيل لم يترك له الوقت. تابع حديثه قائلاً: لماذا لم تأت إلي لتطلب مشورتي كصديق؟ أعرف كل شيء وأنا مدرك كل شيء. لقد تصرفت تصرف الرجل الذي يعرف قيمة شرفه، ولكن في شيء من العجلة. مع ذلك، لندع هذا، فكر فقط في أي موقف وضعتنا ـ هي وأنا ـ حيال المجتمع... بل وحيال البلاط.

www.Maktbah.com

قال هذه الجملة الأخيرة بصوت منخفض ثم تابع مؤكداً، وقد أمسك على عادته بذراع پيار وأنزلها نحو الأرض:

ـ إنها تسكن في موسكو، وها أنتذا هنا؟ فهيا يا عزيزي، إنه سوء تفاهم لا أكثر. أعتقد أنك لمست ذلك بنفسك. لنكتب لها رسالة، وسوف تسرع على الفور، وسيزول كل الجفاء. وإلا يا عزيزي، فإن هذه المسألة قد تنتهي بما لا يسرك بل يؤسفك. أنا أرغب في إخطارك منذ الآن.

وأردف قائلاً بعد أن ألقى على پيار نظرة حافلة بالمعاني:

ـ أجل، إنني علمت من مصدر موثوق به أن الأمبراطورة المطلقة مهتمة بهذا اهتماماً كلياً، وأنت تعرف محبتها والتفاتاتها نحو هيلين وعطفها عليها.

ومراراً عديدة حاول پيار أن يقاطع المتحدث. لكنه إلى جانب استرسال الأمير في الحديث بحرارة، كان يخشى أن يعلن لحميه بلهجة قاسية، رفضه الجازم الذي كان مصمماً على التمسك به. ثم تذكر في تلك اللحظة أن مقطعاً من النظام الماسوني يأمره أن يكون: «وديعاً». لذلك فقط قطب حاجبيه واحمرّ وجهه، وبدأ يقف ويجلس ويكرر ذلك وهو يجهد نفسه في أشد المواقف إيلاماً، مما لم يسبق له من قبل أن جربه بها. ذلك أنه لم يكن يطيق مجابهة أحد بأشياء مزعجة، وإبلاغ هذا الرجل أمراً لا يتوقعه، كان من أشد المزعجات. لقد اعتاد پيار الاستكانة أمام لهجة الأمير بازيل المستخفة وأساليبه المصطنعة، فكان في تلك اللحظة كذلك لا يجد بنفسه الشجاعة الكافية على مقاومته. مع ذلك فقد كان يعرف أن الكلمات التي سيتفوّه بها ستقرر مصير مستقبله كله. فهل يعود إلى أخطائه السابقة وضلاله، أم يسلك السبيل الجديد الذي أطنب الماسونيون في امتداحه والذي سيقوده دون شك إلى التجدد الذي طالما تاقت نفسه إليه؟

twitter @baghdad_library

استأنف الأمير بازيل كلامه قائلاً بلهجة فكهة: هيا يا عزيزي قل نعم، وسأكتب لها بنفسي، عندئذ لا يبقى أمامنا إلا أن نحتفل بإزالة سوء التفاهم.

لم يكد ينهي جملته بعد، عندما انتصب پيار ووجهه المتقلص من الغضب يعيد إلى الذاكرة فجأة وجه أبيه، وقال بصوت خفيض دون أن ينظر إليه: لا أعتقد يا أمير بأنني أستدعيك إلى منزلي... فاخرج، أرجوك، اخرج!

واتجه نحو الباب فلما فتحه عاد يكرر وهو لا يصدق نفسه: أخرج، هيا!

شعر بفرح كبير عندما رأى الأمير بازيل تفضح قسمات وجهه فجأة لوناً من التشوش والخوف. قال هذا: ماذا دهاك؟ هل أنت مريض؟

فكرر پيار بصوت مرتجف: قلت لك أخرج!

فاضطر الأمير بازيل إلى الانسحاب دون أن يحظى بتفسير عما جاء من أجله.

وبعد ثمانية أيام، استأذن پيار أصدقائه الجدد وقدم إليهم منحة كبيرة، ومضى لزيارة أملاكه. حمّله الإخوان رسائل إلى الماسونيين في كييڤ وأوديسا ووعدوه بالكتابة إليه وإرشاده في نشاطه الجديد.

www.Maktbah.com

الفصل السادس

إن المبارزة بين پيار ودولوخوف لم تلها ذيول مؤسفة على الرغم من القسوة التي كان يبديها الأمبراطور في ذلك العصر حيال المبارزات، واتخاذ تدابير مؤدبة بالنسبة إلى الخصمين والشهود معاً. مع ذلك فإن الإشاعات لم تلبث أن راجت حول أسباب المبارزة ودوافعها، فجاء قطع العلاقات بين پيار وهيلين منشطاً لها حتى بلغت المجتمعات الراقية وأصبحت حديث الساعة. وكان پيار الذي عومل بمراعاة عندما كان يُعتبر ابن سفاح، والذي راحوا يتملقونه عندما أصبح محط الأنظار و«الصفقة» الهائلة الكبرى في المملكة كلها، قد خسر منذ زواجه الشيء الكثير من اعتباره في المجتمعات الراقية، وفقد الاهتمام الشديد الذي كانوا يحيطونه به. فالأمهات اللاتي كن يحلمن بتزويجه بناتهن، والفتيات اللاتي كن ينظرن إلى الفوز به زوجاً، فقدن اهتمامهن به. أما الأندية والمجتمعات، فقد تغاضت كذلك عنه لأنه كان يجهل أسباب الرياء، ولفت الأنظار إليه. وعلى ذلك، راحوا يعتبرونه المسؤول الأوحد عن كل ما حدث، ويصورونه غيوراً سخيفاً خاضعاً كأبيه المرحوم، لنوبات من الغضب الوحشي. فلما عادت هيلين إلى الظهور في الأندية بعد ذهاب پيار من پيترسبورغ، استقبلها معارفها كلهم بود واحترام، بسبب المصيبة التي وقعت لها. فإذا ما دار الحديث حول زوجها، اتخذت هيلين طابع الوقار الذي كان إحساسها الفطري يوحيه لها، دون أن تفهم على الضبط موضوع ذلك الحديث، كان ذلك الطابع يشير إلى أنها مصممة على احتمال مصيبتها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

دون تذمر، وأنها تعتبر زوجها صليباً[1] أرسله الله إليها. أما الأمير بازيل، فكان يعرب عن رأيه في صهره بعبارات أكثر دقة فيقول مشيراً بإصبعه إلى جبهته:

ـ إنه أرعن ماجن، وقد قلت دائماً.

وتؤيد آنّا پاڤلوڤنا أقواله جازمة: لقد قلت ذلك دائماً. نعم، لقد أظهرت ذلك منذ البداية قبل كل الناس.

كانت تلح على أسبقيتها في التكهن بفساد پيار وعدم صلاحه.

ـ نعم، لقد قلت قبل كل الناس إن أفكار هذا العصر الفاسدة قد زعزعت عقل هذا الشاب. لقد كان عائداً من الخارج، فكان كل الناس يرفعونه عالياً إلا أنا. لقد حكمت عليه للوهلة الأولى، عندما رأيته ذات مساء عندي، يتحدث وكأنه مارا[2]، ألا تذكرون؟ ثم كيف انتهى ذلك؟ إنني منذ تلك اللحظة لم أكن أرغب في ذلك الزواج. لقد كنت أتوقع هذه النتائج.

طالما أحيت آنّا پاڤلوڤنا في أيام فراغها، الحفلات التي تنفرد وحدها في فن إقامتها على طريقتها. كانت تجمع، حسب تعبيرها الخاص، زبدة المجتمع الراقي، وزهرة الروح الفكرية الرفيعة الكامنة في مجتمع پيترسبورغ. وإلى جانب هذا الانتقاء الرائع، كانت حفلات آنّا پاڤلوڤنا تعرض شيئين جذابين آخرين: ففي كل منهما، كانت تقدم لضيوفها شخصية جديدة مهمة، وتعطيهم فكرة صحيحة عن الميزان السياسي في الأوساط الحاكمة في البلاط والمدينة، الأمر الذي يتعذر وقوعه في أي مكان آخر بمثل الدقة التي يبدو عليها عندها.

في نهاية عام ١٨٠٦، أقامت حفلة على هذا الطراز، عندما كانت أنباء

---

(١) المقصود بكلمة «صليب» عذاباً من الله. (المترجم)

(٢) جان پول مارا، ثوري سويسري شهير حرّض على مذابح أيلول، اغتالته شارلوت كورداي سنة ١٧٩٣. (المترجم).

www.Maktbah.com

انتصار ناپليون الساحق في إيينا[١] وأويرستايدت[٢]، واستسلام كل الحصون البروسية تقريباً، قد بلغت إلى العاصمة حديثاً. كانت القطعات الروسية قد دخلت حينذاك بروسيا، وكانت الحملة الثانية ضد ناپليون على وشك القيام.

وكانت «زبدة المجتمع الطيب الحقيقية» ذلك المساء: هيلين الفاتنة التعسة التي هجرها زوجها، ومورتمارت، الذي مر ذكره، والأمير الفتان هيپوليت الذي عاد حديثاً من ڤيينا، وسياسيان، و«ماتانت» وشاب «رفيع الذكاء» لا أكثر، ووصيفة شرف، أنعم عليها بذلك اللقب أخيراً، وأم تلك الوصيفة وأخيراً بعض الشخصيات الأدنى أهمية ومرتبة. أما الباكورة التي كانت آنّا پاڤلوڤنا تقدمها لمدعويها في تلك الحفلة، فكانت بوريس «وپتسكوي» الذي كان عائداً من بروسيا بمهمة رسول. كان الميزان السياسي يشير إلى ما يلي: «يستطيع من يشاء من أمراء وجنرالات أن يتعاهدوا مع بوناپرت ويتفقوا ما شاؤوا معه ليحدثوا «لي» أو «لنا» مضايقات، لكن رأينا في صدده لن يتغير مطلقاً. لن نتوقف أبداً عن التعبير عن رأينا الخاص بهذا الصدد، ولا نستطيع أن نقول لملك بروسيا وللآخرين إلا: أنتم وشأنكم. لقد أردتها بنفسك يا جورج داندان»[٣].

وعندما دخل بوريس إلى الغرفة، وهو الذي كان مقرراً أن يتسلى المدعوون على حسابه، كان الضيوف كلهم مجتمعين فيه والحديث الذي كانت آنّا پاڤلوڤنا توجهه على عادتها، يدور حول علاقات روسيا الدبلوماسية مع النمسا والأمل الذي يراود النفوس في الارتباط بحلف مع هذه الأمة. كان

---

(١) مدينة ألمانية انتصر فيها ناپليون على البروسيين عام ١٨٠٦. (المترجم)

(٢) ضاحية من الساكس البروسي انتصر فيها داڤو على البروسيين. وداڤو هو ماريشال من خيرة قادة بوناپرت. (المترجم).

(٣) كوميديا هزلية لموليير تدور حول جنون رجل تزوج سيدة أرفع مقاماً منه. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بوريس مرتدياً ثوباً أنيقاً من أثواب الضباط المساعدين، متورد الوجنتين. ولكن أكثر رجولة من قبل، يمشي مشية رشيقة. قدمت آنّا پاڤلوڤنا إليه يدها الجافة ليقبلها ثم قادته حسب القاعدة لينحني أمام «ماتانت»، وبعد أن أدخلته في الحلقة الرئيسية الكبرى، قدمته إلى عدد من الأشخاص الذين لم يكن يعرفهم، وهي تشير إلى كل واحد منهم وتذكر له اسمه بصوت منخفض:

ـ الأمير هيپوليت كوراغين، شاب فتان. السيد كروغ، القائم بالأعمال في مفوضية كوبنهاغن، وهو عبقري عميق التفكير؛ السيد شيتوف، رجل كثير المواهب...

وبفضل مواهب آنّا پاڤلوڤنا وصل بوريس إلى ركز مرموق، وبفضل عقليته المتحفظة أيضاً فقد كان ضابطاً مساعداً لشخصية رفيعة جداً، فاستطاع أن يؤدي مهمة في بروسيا. وضع نصب عينيه ذلك القانون غير الرسمي الذي اطلع عليه في أولموتز فسحر به، ذلك القانون الذي يستطيع بفضله أن يحتل حامل علم بسيط مركزاً أرفع من مركز جنرال في الجيش. قانون لا يدين للترقي في العمل والمجهود والشجاعة والصبر والثبات، بل للموهبة التي تجعل المرء مرموقاً يستحق الترقية. كان نجاحه الشخصي يدهشه حتى أنه كان يتساءل لمَ لا يحذو الآخرون حذوه؟ لقد غيّر ذلك الاكتشاف كل حياته وشخصيته وعلاقاته ومعارفه القدامى وقلب خططه للمستقبل رأساً على عقب. لقد كان، رغم فقره، ينفق آخر قرش لديه ليكون أحسن هنداماً من الآخرين، لقد حرم نفسه متعاً كثيرة كيلا يقطع شوارع پيترسبورغ مرتدياً زياً قديماً ومتنقلاً في عربة قديمة. لم يكن يتصل إلا بشخصيات مرموقة، أرفع منه، كانت تستطيع أن تكون مفيدة له في المستقبل. كان يحب پيترسبورغ ويكره موسكو. كانت ذكرى آل روستوف، وغرامياته الصبيانية مع ناتاشا تزعجه، حتى إنه لم يطرق منزلهم منذ أن ذهب إلى الجيش. وكانت دعوته إلى حفلة آنّا پاڤلوڤنا تعتبر

www.Maktbah.com

في نظره خطوة كبيرة في طريق مستقبله. وأدرك على الفور الدور الذي عليه أن يقوم به، فترك لمضيفه استثمار الاهتمام الذي كانت تثيره بحضرته، وراح يعاين الموجودين بعناية واهتمام ويزين الفوائد التي قد يجنيها من هؤلاء أو أولئك في المستقبل. وكان جالساً قرب هيلين الجميلة، في المكان الذي عين له، يصغي بانتباه إلى الحديث العام.

كان القائم بالأعمال الدانماركي يقول: إن ڤيينا ترى أن أسس المعاهدة المقترحة بعيدة المنال حتى ليتعذر الوصول إليها ولو بواسطة سلسلة من الانتصارات الأعلى شأناً، وهي تشك في الوسائل التي يمكنها أن توفر لنا كل هذا النجاح. إن هذه الجملة هي التي يتمسك بها المكتب الوزاري في ڤيينا.

تدخلت آنّا پاڤلوڤنا قائلة: إه! يا عزيزي الـڤيكونت، ـ إن إيروبا ـ كانت تعتقد أنها إذا نطقت كلمة أوروبا بالفرنسية محرفة حتى تصبح إيروبا، فإن ذلك يدل على رقة في النطق ولا يعلم إلا الله من أين أتت بهذه البدعة ـ إن إيروبا لن تكون حليفتنا أبداً.

ولكن عدم تدخل بوريس في المناقشة، جعلها تحوّل دفة الحديث؟ فراحت تمتدح شجاعة ملك بروسيا. أما بوريس، فكان يصغي باحترام وصمت إلى الحديث الدائر حوله منتظراً دوره للدخول في سياقه. لكن ذلك لم يكن يمنعه من اختلاس نظرات إلى وجه جارته الحسناء التي قابلت نظراته مراراً مبتسمة لذلك الضابط المساعد الشاب.

بمناسبة الحديث عن بروسيا، رجت آنّا پاڤلوڤنا، «بوريس» بكل بساطة أن يقص عليهم قصة سفره إلى غلوغو[1] وأن يصف لهم حالة الجيش البروسي كما شاهدها. فراح بوريس يقدّم بيانات وتفصيلات دقيقة هامة عن الجيش

---

(١) مدينة بروسية ألحقت ببولونيا (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

والبلاط بصوت متزن وبلغة فرنسية سليمة. لكنه حرص على تجنب إبداء رأيه في الأحداث التي نتجت منها وعلى كتمان وجهة نظره الشخصية فيها. سيطر خلال فترة طويلة على الاهتمام العام في ذلك الحفل، واستطاعت آنّا پاڤلوڤنا أن ترى بنفسها مبلغ الاستمتاع الذي نعم به مدعووها بهذه الباكورة التي قدمتها إليهم. وبدا على هيلين أنها اهتمت ببوريس اهتماماً خاصاً فأخذت تطرح عليه عدة أسئلة تتعلق بسفره وبوضع الجيش البروسي الذي خيّل إلى الموجودين أنها تعيره اهتماماً خاصاً. فلما انتهى من تقديم تفصيلاته وأجوبته، استدارت نحوه وقالت له خلال ابتسامتها المعهودة: يجب أن تحضر لرؤيتي يوم الثلاثاء بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة، ولا أقبل الاعتذار.

لقد أوحت لهجتها أن الأسباب التي دعتها إلى طلب مقابلته، والتي كانت مجهولة منه، تجعل زيارته لا بد منها. فوعد بالامتثال لطلبها، وراح يتحدث على انفراد مع هيلين، وعندئذ استدعته آنّا پاڤلوڤنا بحجة أن «ماتانت» تتحرق شوقاً إلى سماعه.

ولما ابتعد معها، قالت له مشيرة إلى هيلين إشارة مشفقة ومغمضة عينيها بعد ذلك.

ـ إنك تعرف زوجها على ما أظن؟ آه! يا لها من سيدة فاتنة وبائسة لا تتحدث عنه أمامها، أتوسل إليك. إن ذلك يؤلمها كثيراً.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

كان الأمير هيپوليت يتدخل في الحديث الدائر عندما رجع بوريس وأنّا پاڤلوڤنا إلى الحلقة.

صاح وقد مال بجذعه إلى الأمام: ملك بروسيا!

وقهقه ضاحكاً. فاستدار الضيوف نحوه.

فقال، ولكن بلهجة استفهامية هذه المرة: ملك بروسيا؟

وبعد ضحكة جديدة، عاد إلى كرسيّه يغرق فيه بوقار وتأن.

انتظرت پاڤلوڤنا بضع لحظات، وعندما وجدت أن هيپوليت لا يريد متابعة الحديث، وكان هذا هو الواقع، راحت تروي للموجودين أن بوناپرت الزنديق سرق من پوتسدام سيف فريدريك الأكبر. بلغت في حديثها قولها: إنه سيف فريدريك الأكبر الذي... عندما قاطع هيپوليت كلامها.

قال: ملك بروسيا...

ولما راح الموجودون يصوبون نحوه نظراتهم المستفهمة، اعتذر وعاد إلى سكوته.

اتخذت أنّا پاڤلوڤنا موقفاً سلبياً وبدأ مورتمارت صديق هيپوليت بحثه عن الإعراب عما يريد قائلاً: هيا، مع من تتحدث عن ملك بروسيا وما هي هذه النغمة؟

فضحك هيپوليت ضحكة جديدة ولكنها مرتبكة وقال: كلا، لا شيء.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لقد أردت أن أقول فقط... أردت أن أقول فقط إننا مخطئون إذ نحارب من أجل ملك بروسيا.

والحقيقة أنه كان قد تعلم هذه النكتة في ڤيينا، فأمضى تلك الأمسية كلها، يتحين الوقت المناسب ليلقي بها.

قالت أنّا پاڤلوڤنا وهي تهدده بإصبعها الصغيرة: إن لعبة الألفاظ هذه قبيحة جداً، دقيقة جداً ولكن غير حقيقية وليست عادلة. نحن لا نحارب من أجل ملك بروسيا بل من أجل المبادئ السامية الطيبة. آه! يا له من شيطان هذا الأمير هيپوليت!

لم تبرد حدة الحديث طوال السهرة، لقد ارتطم الوقت حول السياسة ولم تزد حدته إلا عندما تطرق بعضهم إلى المكافآت التي وزعت باسم الأمبراطور.

قال الرجل كثير المواهب: لقد تلقى ن.ن. في العام الماضي علبة سعوط ذات صورة محفورة، فلمَ لا يحظى س.س. بواحدة كذلك؟

فتدخل أحد الدبلوماسيين قائلاً: إنني أسألك العفو. لكن علبتي المحلاة بصورة الأمبراطور ليست تمييزاً، بل مكافأة. أو على الأصح هدية.

ـ لقد وقعت حوادث مماثلة من قبل. خذ مثلاً شوارزنبرغ.

فاعترض الآخر قائلاً: ذلك مستحيل.

ـ هل تراهن؟.. الشريط الكبير (وسام) إن أمره يختلف.

وعندما حانت ساعة الانصراف، خرقت هيلين الصمت الذي لاذت به طوال الوقت تقريباً وكررت على بوريس دعوتها اللطيفة الآمرة. قالت له:

ـ إنني في أمسّ الحاجة إلى رؤيتك.

وأخذت عيناها تستدعيان أنا پاڤلوپنا إلى مساعدتها فجاءت هذه تثني

www.Maktbah.com

على طلب هيلين وتدعمه بابتسامتها السوداوية التي تضفيها على وجهها عندما تتحدث عن حاميتها النبيلة.

خلال حديث بوريس عن الجيش البروسي، يبدو كأن هيلين قد اكتشفت أسباباً ملحة تدعوها إلى رؤيته مجدداً، فكانت دعوتها إلى يوم الثلاثاء المقبل أشبه بوعد منها حددت فيه اليوم الذي ستقص عليه تلك الأسباب الموجبة فيه. مع ذلك فعندما دخل بوريس قاعة الكونتيسة في اليوم المحدد، انتظر عبثاً أن تقدم له تفسيراً عن سلوكها. كان بعض الناس مجتمعين في القاعة، فلم تحدثه هيلين إلا حديثاً تافهاً. فلما استأذن منصرفاً وهو يقبل يدها، همست له بصوت خفيض دون أن تبتسم، الأمر الذي يثير الفضول، قائلة: تعال غداً... وقت العشاء... يجب أن تحضر... تعال.

وخلال طوال إقامته في بيترسبورغ، أصبح بوريس الصديق الحميم للكونتيسة برزوخوف.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

اندلعت الحرب مجدداً وبدأت تقترب من الحدود الروسية. لم يعد يسمع إلا اللعنات تنهال على بوناپرت في كل مكان، بوصفه عدواً للجنس البشري؛ وفي القرى والضواحي، كان التجنيد للجيش العامل والخدمات الفنية قائماً على قدم وساق. وانتشرت إشاعات مختلفة متناقضة تدور على الألسن حول العمليات الحربية. كانت تلك الأخبار خاطئة كالعادة، وبالتالي، فهي تعطي المجال للتفسيرات المختلفة.

دخلت تعديلات كبيرة منذ عام ١٨٠٥ على طراز حياة الأمير العجوز پولكونسكي وأولاده. فقد تم جمع صفوف الخبراء العسكريين المجندين من مختلف أنحاء روسيا في ثمانية فيالق، وأنيطت قيادة أحد هذه الفيالق به عام ١٨٠٦ وعلى الرغم من الانهيار الذي بدا على الأمير العجوز، وخصوصاً خلال الفترة التي اعتقد فيها بموت ابنه في ساحة المعركة، لم يستحسن التصاميم عن النداء الشخصي الذي وجهه الأمبراطور إليه شخصياً. هذا عدا أن ذلك النشاط في مركزه الجديد، أتاح له فرصة استعادة قوته ونشاطه وشجاعته.

وبدون توقف راح يفتش المناطق الثلاث الموضوعة تحت إشرافه، تفتيشاً صارماً، فكان يتصرف حيال مرؤوسيه بخشونة ويقوم بواجباته الشخصية بكل دقة ويتعمق في أصغر التفاصيل. وتوقفت دروس الرياضيات بالنسبة إلى ماري، التي كان عليها أن تدخل إلى غرفة أبيها كل صباح، إذا كان في المنزل،

www.Maktbah.com

بصحبة المربية وحفيده نيكولا الصغير كما كان يسميه جده. كان الأمير الصغير نيكولا، يشغل مع مربيته والخادم العجوز ساڤيشنا، جناح المرحومة جدته. وكانت ماري تقضي معظم أيامها بالقرب منه فتقوم، على قدر طاقتها، بدور الأم لابن أخيها. وكان يبدو على الآنسة بوريين أنها هي الأخرى تحب الطفل حتى العبادة، حتى أن ماري كانت غالباً تتخلى عن مكانها لها، حارمة نفسها متعة ملاطفته، لتحل بوريين محلها، فتناديه «بملكها الصغير» وتلعب معه.

أقيمت قبة صغيرة للأميرة المتوفاة إلى جانب كنيسة «ليسيياغوري» ضمت ضريحها الذي رفعوا فوقه نصباً من الرخام الإيطالي. كان ذلك النصب عبارة عن ملاك باسط جناحيه على وشك التحليق وكانت شفة الملاك العليا المرفوعة قليلاً توحي بالبدء بابتسامة. وذات يوم، بينما كان أندريه وماري خارجين من القبة، اتفقا في الرأي على أن وجه الملاك يشبه إلى حد بعيد وجه الفقيدة نفسها. وكان هناك أمر أشد غرابة من الأول، أمر لم يطلع أندريه أخته ماري عليه. ذلك أن الفنان الذي نحت ذلك الملاك، أعطاه دون أن يدري، الأمارات نفسها التي ارتسمت على وجه المتوفاة، حتى لكأنه ينطق بمثل كلماته العذبة، كلمات اللوم الرقيقة التي قرأها من قبل على وجه زوجته الراحلة: «آه! لِمَ عاملتني على هذا النحو»؟

بعد رجوع الأمير الشاب منحه أبوه سلفة على ميراثه، أملاكه الهامة في بوغوتشاروڤو التي تبعد عن ليسيبا غوري بأربع مراحل روسية وكانت ليسيياغوري، تحيي في نفس الأمير الشاب ذكريات أليمة، فكان يلجأ إلى أراضيه الجديدة، ابتعاداً عن أبيه وعقليته الصعبة ناشداً الوحدة. لهذه الأسباب كان يرى في بوغوتشاروڤو محط آماله، فأقام فيها الأبنية وأمضى فيها معظم أوقاته.

بعد معركة أوسترليتز، قرر أندريه الانسحاب نهائياً من الحياة العسكرية،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فلما أعلنت الحرب مجدداً واضطر كل مواطن إلى القيام بواجبه، وافق أندريه أن يساعد أباه في تجنيد «الميليشيا» مفضلاً هذه المهمة على الخدمة الفعلية. وبدأت الأدوار تنقلب عكسياً: فالأب الذي شحذ منصبه الجديد همته، بات يتصور الحملة الجديدة على ضوء تفاؤله براقة سهلة، والابن على العكس، كان يراها مؤسية ويأسف في صميم قلبه على وقوعها وينظر إلى الأمور بمنظار أسود.

في السادس والعشرين من شباط عام ١٨٠٧ ذهب الأمير العجوز في جولة تفتيشية، فقرر أندريه، كما كانت عادته أثناء غياب أبيه، البقاء في ليسيياغوري، لأن الأمير نيكولا الصغير، كان معتل الصحة منذ حوالى أربعة أيام. عاد السائقون الذين حملوا الأمير العجوز إلى المدينة، ومعهم بريد أندريه، فلم يجده الوصيف في غرفته. ولما راح يبحث عنه في جناح ماري، أرسلته هذه الأخيرة إلى حيث كان الطفل مع مربيته.

قالت إحدى الوصيفات للأمير أندريه الذي كان جالساً على مقعد صغير من مقاعد الأطفال، مكفهر الوجه مرتجف اليدين مقطب الحاجبين، يصب الدواء من قارورة صغيرة في كأس ملأى إلى نصفها بالماء:

ـ أعذرني يا صاحب السعادة إن پيتروشا بالباب ومعه بعض الأوراق.

سأل أندريه بلهجة غاضبة: ماذا هناك؟

وأدت حركته المنفعلة إلى إهراق نقاط زائدة في الكأس، فألقى محتوياتها على الأرض وطلب ملأها بالماء من جديد. فنفذ الأمر.

كانت الحجرة مؤثثة بسرير صغير وصندوقين وكنبتين ونضد وطاولة أطفال وكرسي صغير، وهو الذي كان الأمير أندريه يستعمله لجلوسه كلما جاء لزيارة ابنه. وكانت الستائر مرفوعة وشمعة واحدة مضاءة ومثبتة على النضد، يحجب نورها عن السرير دفتر موسيقى وضع بجانبها على شكل ستارة.

www.Maktbah.com

قالت الأميرة ماري التي كانت تسهر على الأمير المريض: يا صديقي، لننتظر قليلاً، لأن ذلك أجدى...

فغمغم الأمير أندريه راغباً في إحراج أخته وإيلامها:

ـ كلا... تقولين دائماً مثل هذه السخافات. وتطلبين التريث والانتظار دائماً، وهذه هي النتيجة التي حصلنا عليها.

واستأنفت الأخت قائلة بلهجة متوسلة: أؤكد لك يا صديقي أن من الأصوب عدم إيقاظه ما دام مستغرقاً في نومه.

نهض أندريه وفي يده العلاج، واقترب من السرير الصغير على أطراف قدميه وقال مرتبكاً: هل يجب حقاً أن ندعه نائماً؟

فأجابت ماري متمتمة وهي خجلى لرؤية أخيها يأخذ برأيها. كما تشاء... إنني أعتقد حقاً... ولكن كما تشاء...

ونبهت أخاها إلى الوصيفة التي كانت تناديه بصوت منخفض.

تلك ثاني ليلة يقضيانها ساهرين قرب سرير الطفل الذي كان مصاباً بحمى قوية. ولما كانت ثقتهما قليلة بطبيب الأسرة، فقد أرسلا يستدعيان طبيباً آخر من المدينة، بينما كانا يجريان الدواء تلو الدواء عبثاً. كانا محطمين من القلق، فراح كلاهما يلقي متاعبه على الآخر ويتخاصمان ويتبادلان اللوم والتقريع.

بقيت الوصيفة مصرة على موقفها تقول: إن پيتروشا هنا ومعه أوراق من أبيك.

فغمغم الأمير أندريه الذي وافق أخيراً على مقابلة پيتروشا: يا له من وقت مناسب!

وبعد أن سلمه الخادم البريد وتعليمات أبيه الشفهية، عاد أندريه قرب سرير ابنه. وسأل أخته: ماذا إذن؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فدمدمت ماري وهي تزفر بحرقة: كما هو. انتظر أتوسل إليك. إن كارل إيـڤانيتش كان يقول دائماً يجب احترام النوم.

اقترب أندريه من الطفل وتحسس نبضه. كانت يده ملتهبة من الحرارة فصاح: دعيني أنت وكارل «إيڤانيبتشك» هذا!

وحمل الدواء واقترب من السرير. قالت ماري: دعه، دعه.

فنظر إليها نظرة غاضبة ومتألمة معاً، وانحنى فوق الطفل والكأس في يده. قال: أنا مصرّ على إعطائه الدواء. خذي، اسقيه أنت بيدك.

هزت ماري كتفيها ولكن لم تعترض. استدعت الوصيفة وراحت تحاول بمساعدتها إعطاء الدواء للطفل الذي عاد يتوجع. اكفهر وجه اندريه، وأسرع إلى الغرفة المجاورة ورأسه بين يديه.

هوى على كنبة هناك، ولاحظ أن الرسائل لا تزال في يده. فضها بحركة آلية وراح يقرأ. كان الأمير العجوز يعرفه بخطه الكبير، وبالاصطلاحات الموجزة التي كان يزرعها هنا وهناك في رسالته، بما يلي:

«جاءني رسول يحمل إليّ خبراً لا تضاهى بهجته في الساعة الحاضرة، شريطة أن يكون الخبر موثوقاً به. إنه يقول أن بينيغسن[1] قد انتصر على ناپليون انتصاراً كاملاً في إيلو[2]. وفي پيترسبورغ، كل الناس في فرح شامل، والمكافآت تمطر على الجيش. إن بينيغسن هذا يستحق أن أرفع له قبعتي رغم أنه ألماني، ماذا يستطيع السيد خاندريكوف أن يفعل بحق الشيطان، وهو الذي يقود الجيش في كورتشيـڤا؟ لم يرسل لنا بعد لا جنوداً لتعزيز قوتنا ولا ما يلزم من أرزاق. امض إليه سريعاً وأبلغه أنه لن يحتفظ برأسه فوق كتفيه إذا لم يكن كل شيء جاهزاً خلال ثمانية أيام... إن انتصار بروسيخ، لأنني تلقيت رسالة

(١) جنرال روسي هزمه ناپليون في معركة إيلو. (المترجم).

(٢) مدينة ليتوانية هزم فيها ناپليون الروس والبروسيين عام ١٨٠٧. (المترجم).

www.Maktbah.com

من پيتنكا «الأمير پاغراسيون»، الذي ساهم في تلك المعركة يؤكد النصر. عندما لا يتدخل أولئك الذين لا يعنيهم الأمر، فإن بوناپرت يُهزم حتى من ألماني. يزعمون أنه في أقصى الفوضى... إذن، أسرع إلى كورتشيـڤا ونفذ أوامري»!

تنهد أندريه وفض الرسالة التالية. وجد فيها ورقتين مكتوبتين بخط دقيق عرف فيه خط بيليبين. طواهما مرة أخرى وعاد إلى رسالة أبيه يعيد قراءتها. وعندما بلغ هذه الكلمات: «أسرع دون تأخر إلى كورتشيڤا ونفذ أوامري» قرر في سره قائلاً: «كلا، وألف معذرة. لن أذهب قبل أن يشفى ولدي المريض». ومضى إلى الباب فأطل منه. كانت ماري لا تزال في مكانها قرب السرير تهدهد الطفل.

قال الأمير أندريه متمثلاً ذكرياته: «تُرى ما هو الخبر المزعج الذي يبعثه إليّ هذه المرة؟ آه نعم! لقد فزنا على بوناپرت وانتصرنا عليه، وأنا بعيد عن الجيش. هيا إن القدر يهزأ بي دائماً... شكراً له وبورك فيه».

ألقى على رسالة بيليبين نظرة سريعة حتى بلغ نصفها دون أن يفهم شيئاً. لم يكن يقرأ في الحقيقة إلا بعضاً من الأفكار الأليمة التي كانت منذ زمن طويل تزعجه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

بصفته ملحقاً سياسياً في الأركان العامة كان بيليبين يصف المعركة باللغة الفرنسية وبالأسلوب والتهكم الفرنسيين. وكان كذلك يكتب بتلك الصراحة التي تسمح للروس، وللروس وحدهم، أن ينتقدوا أنفسهم ويهزأوا بها. اعترف في رسالته أن كتمانه الدبلوماسي كان يزعجه جداً، وأنه سعيد إذ يستطيع أن يفصح عما في نفسه، لصديق موثوق به، يمكنه من كبح غضبه المتراكم في أعماقه، والذي تسببت الأمور التي تقع في الجيش بإشعاله. كانت الرسالة قديمة، أي قبل معركة بروسيخ ـ إيلو. كتب بيليبين:

«منذ انتصارنا الكبير في أوسترليتز، لم أنقطع يوماً واحداً عن القيادة العامة كما تعرف يا عزيزي الأمير. والحقيقة أنني أصبحت ميالاً إلى الحروب، ولقد أحسنت في هذا الميل. إن ما رأيته خلال هذه الأشهر الثلاثة لا يصدق.

«أبدأ من الألف، وهنا أستعمل التعبير اللاتيني (ab ovo) أي من البداية، إن عدو الجنس البشري، كما تعرف، يهاجم البروسيين. والبروسيون هم حلفاؤنا المخلصون الذين لم يخدعونا إلا ثلاث مرات فقط منذ ثلاثة أعوام. لذلك فإننا ننصرهم في قضيتهم. لكن الظاهر أن عدو الجنس البشري لا يلقي بالاً إلى خطاباتنا الوديّة، فهاجم بطريقته الوحشية المفتقرة إلى الآداب البروسيين دون أن يترك لهم الوقت لإنهاء استعراضهم الذي بدأوا به، فشن عليهم معركة شديدة أدمت عظامهم، وراح يستقر في قصر پوتسدام. كل ذلك لم يستغرق إلا لحظة من الوقت.

www.Maktbah.com

«وقد كتب ملك بروسيا إلى ناپليون يقول إنني راغب بجديّة في أن تحلّوا جلالتكم في قصري وأن تعاملوا المعاملة التي تروقكم. ولقد باشرت باتخاذ كل الترتيبات التي سمحت لي الظروف بها في هذا الشأن، فعساي وفقت في مسعاي! والجنرالات البروسيون يبدون كل اللياقة والأدب حيال الفرنسيين فيستسلمون ويلقون بأسلحتهم عند أول مناوشة.

«إن رئيس حامية غولغو ومعه عشرة آلاف رجل تحت إمرته، أرسل يسأل ملك بروسيا عما يجب عليه أن يفعل إذا أنذر بالاستسلام... كل هذه التصرفات إيجابية بدون شك!

والخلاصة أننا بعد أن كنا نأمل التأثير في الموقف بمظهرنا العسكري وحده، وجدنا أنفسنا في حرب حقيقية، حرب واقعة على حدودنا، وهو الأدهى، «مع ملك بروسيا ومن أجله». كل شيء على ما يرام ولا ينقصنا إلا شيء صغير واحد، وهو القائد العام. ولما كان مقدراً أن الانتصار الذي أحرزناه في أوسترليتز كان يمكن أن يكون أقل شمولاً لو أن القائد العام كان أكبر سناً، فقد استعرضت أسماء أبناء الثمانين، وأفضل في هذا المضمار كامنسكي على بروزوروڤسكي، بعد المفاضلة بينهما. وأخيراً جاءنا الجنرال دارجاً على طريقة سوڤوروف، فاستقبل بهتافات الفرح.

وصل بريد پيترسبورغ الأول، في الرابع من هذا الشهر، ونقلت الصناديق إلى مكتب الماريشال الذي يحب أن يعمل كل شيء بنفسه. وقد استدعيت للمساعدة في فرز الرسائل لأحمل ما هو مرسل إلينا. وكان الماريشال ينظر إلينا. ونحن نعمل، منتظراً الرزم المرسلة إليه. ولقد بحثنا فلم نجد شيئاً. نفد صبر الماريشال فجاء يبحث بنفسه. وهنا وجد رسائل موجهة من الأمبراطور إلى الكونت «ت». وإلى الأمير «ڤ. V» وآخرين وعندئذ ثار ثورة فظيعة وانهال بالنار على كل الناس، واستحوذ على الرسائل ففضها وراح يقرأ تلك

twitter @baghdad_library

التي كتبها الأمبراطور إلى الآخرين. آه! هكذا يعاملونني إذن. ليس لهم ثقة بي! أقاموا عليّ العيون والأرصاد! حسناً. أخرجوا! وكتب الأمر اليومي العتيد التالي للجنرال بينيغسن:

«أنا جريح لا أستطيع ركوب الخيل ولا بالتالي قيادة الجيش. لقد أعدت فيلقك من بولتوسك[1] في حالة فوضى، وهو مكشوف تماماً ومحروم من العلف والحطب. يجب الحذر إذن والتفكير في التراجع على حدودنا. كما أخبرت الكونت بوكزيغْدن بنفسك البارحة، الأمر الذي يجب أن يتم اليوم.

وكتب إلى الأمبراطور يقول: إن احتكاك السرج خلال رحلاتي العديدة سبّب لي خدشاً إذا أضفناه إلى الإنهاك الذي نالني من تنقلاتي السابقة، يمنعني من ركوب الحصان وقيادة جيش يضم مثل هذا العدد الكبير. لذلك سلمت القيادة لأكثر الجنرالات قدماً بعدي، وهو الكونت بوكزيغْدن؛ ولقد نقلت إليه كل صلاحياتي وأوصيته أن يقترب من حدودنا متقهقراً عبر بروسيا إذا نقص منه الخبز. والواقع أنه لم يبق من الخبز إلا ما يكفي يوماً واحداً، بل إن بعض السرايا لا تملك خبز يوم، إذا أخذنا بما أطلعني عليه قادة فيالق أوسترمان وسيد موريدزكي ولقد التهم ما كان عند القرويين. أما أنا، فإنني بانتظار شفائي، أبقى في مستشفى أوسترولنكا[2]. ولي الشرف أن أقدم لجلالتكم تقريراً عن الأرزاق وأن أخطر جلالتكم بكل خضوع أن الجيش إذا أمضى خمسة عشر يوماً أخرى في معسكراته الحالية، فلن يبقى جندي واحد صالحاً للخدمة في الربيع القادم.

«اسمحوا للعجوز أن ينسحب إلى الريف حاملاً معه العار لأنه أخفق في أداء المهمة المجيدة التي اختير لأدائها. سوف أنتظر في المستشفى هنا، إذنكم

---

(١) مدينة في بولونيا، هزم الفرنسيون فيها الروس عام ١٨٠٦. (المترجم).

(٢) مدينة بولونية هزم الفرنسيون فيها الروس عام ١٨٠٧. (المترجم).

www.Maktbah.com

اللطيف، كيلا «ألعب في الجيش» دور «المسجل» بدلاً من دور «الرئيس». إن انسحابي من الجيش لن يحدث من الضجة إلا ما يحدثه انسحاب أعمى منه. إن أشخاصاً مثلي، تحفل روسيا بالألوف منهم».

«وهكذا غضب الماريشال من الأمبراطور فعاقبنا جميعاً، أليس ذلك منطقياً وسديداً؟

«هذه هي العملية الأولى. لننتقل الآن إلى ما بعدها، وهي التي تبلغ فيها المنفعة والسخرية إلى رتبة الحق. ذلك أننا، بعد ذهاب الماريشال، وجدنا أنفسنا على مرأى من العدو، الأمر الذي يلجئنا إلى شن هجوم عليه أو الاشتباك معه في القتال. ولقد أصبح بوكزيغدن قائداً عاماً بحكم الأقدمية، لكن الجنرال بينيغسن ليس من هذا الرأي، وخصوصاً أنه، هو وجيشه، كان أمام العدو وأنه كان يريد انتهاز الفرصة إذا أتيحت له بعد معركة نظيفة كما يقول الألمان. وإذن، فقد شن الهجوم ووقعت معركة پولتوسك، التي اعتبرت نصراً كبيراً والتي هي، في رأيي، ليست كذلك مطلقاً. لقد درجت عادتنا اللعينة جداً، نحن معشر المدنيين، على إحصاء وتقرير الخسارة أو الربح كما تعلم.

نحن نقول إن من ينسحب بعد معركة ما، يكن قد خسر تلك المعركة. وعلى هذا الأساس، فإننا خسرنا معركة پولتوسك. والخلاصة، إننا انسحبنا بعد المعركة، لكننا أرسلنا إلى پيترسبورغ بريداً يحمل أنباء النصر، ولم يسلم الجنرال القيادة العامة إلى بوكزيغدن آملاً أن يتلقى من پيترسبورغ لقب قائد أعلى، مكافأة له على انتصاره، وفي أثناء هذه الفترة، فترة خلو منصب القيادة العليا ممن يشغله، بدأنا تنفيذ مناورات في الإغراء والابتكار. لم يكن هدفنا مركزاً على تجنب العدو أو مهاجمته كما كان يجب أن يكون، بل لتجنب الجنرال بوكزيغدن فقط، الذي هو قائدنا بحكم قدمه. تابعنا هدفنا بحماسة ونشاط مرموقين، فكنا إذا اجتزنا نهراً لم يكن سهل العبور، أحرقنا الجسور

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لنفترق عن العدو ونباعد بيننا وبينه. أما ذلك العدو الذي كنا نتحاشاه، فإنه لم يكن بوناپرت بل «بوكزيڤدن». وكان الجنرال بوكزويـڤدن أن يُهاجم وأن يُطوَق من قبل قوة عدوة تفوق تعداد جيوشه، بفضل مناوراتنا الرائعة التي كانت تبعدنا عنه. فكان بوكزيڤدن يتبعنا ونحن نفر منه فإذا مر إلى الجانب الذي نكون فيه، عبر النهر ببراعته إلى الجانب الآخر. وأخيراً لحق بنا عدونا بوكزويـڤدن وهاجمنا. و«زعل» الجنرالان، بل إن دعوة إلى المبارزة صدرت من جانب بوكزويـڤدن أجيب عليها بنوبة من نوبات القلب من جانب بينيغسن.

لكن بريد پيترسبورغ وصل في اللحظة الحاسمة. لقد حمل لنا البريد، الذي حملناه نبأ انتصارنا في بولتوسك، نبأ تسمية القائد الأعلى، وبذلك تغلبنا على عدونا الأول بوكزيڤدن! والآن نستطيع أن نفكر في العدو الآخر، في بوناپرت. ولكن في تلك اللحظة قام أمامنا عدو ثالث، وهو الجيش الأورثوذكسي المبجل الذي يطلب الخبز واللحم «والبسكويت» والعلف ولست أدري ماذا، بصيحات عالية وزمجرات مخيفة! لقد فرغت مخازن المؤونة وأصبحت الطرق غير سالكة، بدأ الجيش الأورثوذكسي يقوم بالسلب والنهب، بشكل لا يمكن لما رأيته «أنت» خلال الحملة الماضية، أن يعطيك أية فكرة صحيحة عنه. لقد أصبحت نصف السرايا تؤلف فرقاً حرة تجوب المنطقة وتعيث فيها سلباً وتقتيلاً بفظاعة ووحشية. ونُكب السكان نكبة مريعة ولحقهم الدمار، وامتلأت المستشفيات بالمرضى، وعم القحط كل مكان. لقد هوجمت القيادة العامة نفسها مرتين من السارقين، فاضطر القائد الأعلى أن يطلب لواء كاملاً لطردهم. ولقد حملوا معهم في إحدى غزواتهم، صندوقاً فارغاً ومعطفي المنزلي. إن الأمبراطور يريد إعطاء قادة الفيالق كلهم حق إعدام السارقين. لكنني أخشى أن يؤدي ذلك إلى أن يقتل نصف الجيش النصف الآخر رمياً بالرصاص».

www.Maktbah.com

كان الأمير أندريه لا يقرأ إلا بعينيه فقط، لكنه لم يلبث أن شعر بنفسه يتابع رواية بيليبين، التي كانت صحتها تدعو إلى الشك. فلما وصل إلى هذا الحد من القراءة، كوّر الورقة في يديه ورماها بعيداً. لم تغضبه فحوى الرسالة، بل كان غاضباً على نفسه لأن هذه الحوادث البعيدة، التي كانت تبدو له شديدة الغرابة، كانت تحرك كوامن عواطفه. أغمض عينيه ورفع يديه إلى جبينه وكأنه يطرد الأفكار المزعجة التي أيقظتها تلك القراءة، ثم أصاخ السمع إلى ما يدور في الغرفة المجاورة التي ينام الطفل فيها. تراءى له فجأة أنه سمع صوتاً غريباً صادراً عن تلك الغرفة، فراح يتساءل بذعر عما إذا كانت حالة ابنه لم تبلغ حد التفاقم. اقترب من الباب على أطراف قدميه وفتحه.

وبعد اجتيازه المدخل، رأى أن الخادم العجوز تخفي شيئاً وعلى وجهها علامات الارتياع، ورأى أن أخته ليست قرب السرير كما كانت من قبل. سمع صوت ماري وراءه يحدثه قائلاً: يا صديقي...

وأحسّ أن في اللهجة يأساً. واستولى على الأمير خوف لا مبرر له، كما يحدث للمرء غالباً بعد فترة طويلة من القلق. لا شك أن ولده مات، فكل ما كان يراه وكل ما كان يسمعه، كان يؤكد هذا الظن!

قال في سرّه: «إذن، لقد انتهى كل شيء»! غطّى جبينه عرق بارد. فاقترب من السرير الصغير زائغ البصر، متأكداً أنه سيجده فارغاً، وأن الخادم العجوز أخفت منذ حين جثة ولده. أزاح الستائر قليلاً، وبقيت عيناه فترة طويلة، يعميهما الذهول. فلا يرى بهما شيئاً. وأخيراً وجد ابنه. كان الطفل مستلقياً على سريره عكسياً، وردي الوجنتين، مباعداً بين الذراعين، ورأسه بعيد عن الوسادة، يرضع في نومه ويتنفس بانتظام.

هو الذي قدّر أن ابنه قضى، استخفه الفرح لرؤيته حياً، فانحنى على الطفل ووضع شفتيه على جلده ليتحسس حرارته، كما علمته أخته ماري. كان

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجبين الرقيق ندياً. تحسس رأس الطفل بيده، فوجد أنه مبتل حتى الشعر. إذن، فقد حدثت نوبة جعلت الطفل يتعرق بشدة، بذلك عاد إلى الحياة. كان أندريه يتوق إلى الإطباق على هذا المخلوق الصغير الضعيف وضمه إلى قلبه بشدة، لكنه لم يجرؤ على ذلك. ظل ذاهلاً يتأمل الرأس الندي واليدين الصغيرتين، والساقين النحيلتين اللتين تركتا آثارهما على الغطاء. شعر بحفيف بالقرب منه، وانعكس ظل على ستار السرير. لم يحفل بذلك الظل: كانت عيناه شاخصتين إلى الجسم اللدن النائم على السرير، وكان يصغي إلى صوت تنفسه الرتيب. ذلك الظل هو الأميرة ماري التي اقتربت بخطوات مكتومة، فرفعت ستائر السرير وتركتها تنسدل وراءها. عرفها الأمير دون أن يستدير، فمد إليها يده، فأطبقت تشد عليها.

قال أندريه: لقد نضح جسمه عرقاً.

ـ لقد قلت لك ذلك منذ حين.

تحرك الطفل قليلاً، وابتسم في نومه وفرك جبينه الصغير على الوسادة.

نظر أندريه إلى أخته. وفي عتمة غرفة النوم، كانت عينا ماري تبدوان أشد التماعاً من عادتهما، وكانت دموع الفرح تزيد البريق توهجاً. وبينما هي تتسلل قرب أخيها لتعانقه، علقت ستارة السرير. نشدا الهدوء والسكون فتبادلاه، ولبثا فترة في تلك العتمة، يشكلون ثلاثتهم فقط، عالماً خاصاً بهم، كانا يجدان صعوبة في نزع نفسيهما منه. راح الأمير أندريه يخفي شعره في طيات ستارة السرير المصنوعة من «الموسلين»، وأخيراً ابتعد قبل أخته عن السرير وهو يزفر بارتياح:

هيا، هذا كل ما تبقى لي وما سيشغلني بعد الآن.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

بعد دخول پيار بزمن قصير في عداد الإخوة الماسونيين زوّدوه تعليمات خطية ليسير بموجبها في أعماله وواجباته الكثيرة التي كانت تدعوه إلى زيارة أراضيه، فسافر إلى مقاطعة كييـف حيث كان السواد الأعظم من فلاحيه يعملون فيها.

عند وصوله إلى مدينة كييـف استدعى پيار، كل وكلائه إلى المكتب الرئيسي حيث شرح لهم رغباته. كان يتطلب منهم اتخاذ تدابير فورية لاستقلال الفلاحين في الأراضي استقلالاً تاماً. وفي انتظار ذلك، لا يجب معاقبة هؤلاء بالعمل، أما العقوبات الجسدية، فيجب أن تُلغى وأن يحل محلها تحذير شفهي. يجب مساعدة الفلاحين وإقامة المستشفيات في كل مقاطعة، وملاجئ، ومدارس؛ ويجب إعفاء النساء والأطفال من السخرات.

كان بعض أولئك المسجلين يصغون إليه بذهول معتقدين أن الكونت، بدلالة محاضرته تلك، غير راض عن إدارتهم وأساليبهم في إلحاق الغبن بالفلاحين. والبعض الآخر، كانوا يجدون، بعد الفترة الأولى من الذهول، أن لثغة سيدهم وتلك الكلمات الجديدة التي يتكلم بها، مسلية جداً. أما الفريق الثالث، فقد كان أفراده يجدون متعة في الإصغاء إليه، ولا شيء غير ذلك. لكن أشدهم ذكاء، وفي طليعتهم رئيس المسجلين استخلصوا من أقواله ومواعظه دلالة ثمينة جداً: أصبحوا يعرفون الآن، السلوك الذي يجب عليهم انتهاجه حيال سيدهم ليصلوا إلى مآربهم الشخصية.

twitter @baghdad_library

بدأ المسجل العام يعرب عن ميله واستئناسه بمشاريع پيار، لكنه أطلعه على ضرورة تنظيم الأمور التي كانت شديدة التعقيد، قبل البدء بإدخال تلك الإصلاحات.

صحيح أن پيار في تلك الأثناء كان يملك ثروة الكونت بيزوخوف الضخمة التي كانت مواردها السنوية تصل إلى خمسمائة ألف روبل كما كانوا يقولون، إلا أنه كان يشعر أنه كان أكثر غنى من قبل، عندما كان أبوه يعطيه عشرة آلاف روبل في العام لمصروفه الشخصي. وفيما يلي الطريقة العجيبة التي كانت ميزانيته السنوية تقام على أساسها: كان يدفع لمجلس الصيانة عن أملاكه كلها، حوالى ثمانين ألف روبل، وثلاثين ألف روبل لقاء الخدمات والصيانة عن أبنيته في موسكو وبيته الريفي وبيته في المدينة. وهناك نفقات أخرى كانت تستهلك خمسة عشر ألف روبل، ومؤسسات الإحسان والغوث مثلها. وكانت الكونتيسة تنفق مائة وخمسين ألف روبل كل عام على نفسها، وتبلغ فوائد الديون التي تدفع كل عام سبعين ألف روبل تقريباً وقد ارتفعت نفقات بناء كنيسة جديدة إلى عشرة آلاف روبل خلال العامين الأخيرين. أما الباقي ويبلغ مائة ألف روبل تقريباً، فكان ينفق بشكل لا يعرفه پيار ولا يستطيع تحديده، حتى إنه في كل عام، كان يجد نفسه مضطراً إلى الاستدانة. أضف إلى ذلك، أن الوكيل العام، كان يطلعه كل سنة على نبأ احتراق بعض المحصول أو تلف البعض الآخر، أو القحط الذي نزل في مكان كذا، أو الأضرار اللاحقة ببعض الأبنية والمعامل التي تتطلب إصلاحات فورية. فكان على پيار والحالة هذه، أن يشرع قبل كل شيء في العناية بمصالحه ورعايتها، الأمر الذي كان يشعر بعجزه عن القيام به.

وراح يعمل كل يوم في تنظيم شؤونه بمساعدة وكيله العام. لكنه ما لبث أن وجد أن العمل الذي شرع فيه طافح بالأخطاء وأنه لم يكن يقدمه

www.Maktbah.com

في طريق التحسن. كان وكيله العام من جهة، يعرض عليه الأمور من أسوأ زواياها، فيمتدح سداد الديون وفرض سخر جديدة على العبيد، الأمر الذي لم يكن پيار يوافق عليه. ومن جهة أخرى، كان هذا يلح على تجهيز ما يجب لإقراض الفلاحين، الأمر الذي كان الوكيل العام لا يراه ممكناً إلا إذا سددت الديون لمجلس الصيانة. كان الوكيل يضيف إلى أقواله أن في الإمكان البدء بإقرار الفلاحين منذ الآن، شريطة أن تباع غابات كوستروما وأراضي الـڤولغا المنخفضة وأرض الكريمي ولكن، لكي تنجز هذه المبيعات، لا بد من إجراءات معقدة جداً، حسب قول الوكيل العام، بين دعاوى وإجراءات نزع اليد، وتراخيص إلخ...، مما كان يجعل پيار يشعر بالدوار، ويلجئه إلى القول: «هو كذلك، اعمل كما تراه مناسباً».

حُرم پيار من الروح العملية والجلد الذي يتيح له أن يتبنى مشاكله بنفسه، لذلك كان ينفر من هذا العمل. لكنه يتظاهر باهتمامه الشديد أمام المسجل العام. أما هذا، فكان يتظاهر بأنه يرى تلك المشاغل شديدة النفع لسيده ومضجرة بالنسبة إليه.

وفي كييڤ، هذه المدينة الكبيرة، وجد پيار بعض معارفه، بل تعرف إلى أشخاص جدد، كانوا يفخرون بصلتهم بثري كبير مثله حديث العهد في المدينة، مالك أكبر أرض في المقاطعة، فكانوا يدعونه متهافتين ويحيون الحفلات السخية على شرفه. وكانت الإغراءات المتعلقة بضعفه الشخصي الذي اعترف به في المحفل، من القوة حتى استحال عليه الصمود أمامها. وهكذا جرفته حمى الولائم والسهرات والحفلات في دوامة لا راحة فيها خلال أيام كاملة وأسابيع وشهور. وعاد پيار سيرته في پيترسبورغ. لقد انغمس في حياته القديمة بدلاً من أن يبدأ حياة جديدة، مع فرق واحد، وهو أن المظهر كان مختلفاً.

twitter @baghdad_library

كان مضطراً إلى الاعتراف بأنه لم ينفذ من الواجبات الثلاثة التي فرضتها عليه العقيدة الماسونية، ذلك الذي يطالب كل ماسوني بأن تكون قدوته مثالية، وبأن اثنتين من الفضائل السبع، وهما العادات الحميدة وحب الموت، لم تجدا مكاناً في نفسه. لكنه كان يعزي نفسه بقوله إنه ينفذ مهمة أخرى، وهي تحسين النوع البشري، وأنه يملك فضائل أخرى مثل حب المجتمع وبصورة خاصة: الكرم.

في ربيع عام ١٨٠٧، قرر پيار العودة إلى پيترسبورغ، وأن يزور أملاكه أثناء مروره بها. كان يتمسك بضرورة ملاحظة كيفية الأوامر التي أصدرها ومعرفة الوضع الحالي لذلك الشعب الذي وضعه الله أمانة في عنقه والذي كان يريد أن يكون المحسن إليه.

أما الوكيل العام الذي كان يرى أن مشاريع الكونت الشاب ليست إلا باطلاً يسيء إلى الملاك والفلاحين بقدر ما تسيء إليه نفسه؛ فقد قرر أن يقوم ببعض المنح إرضاء لسيده. لم يكف لحظة واحدة عن التدليل على استحالة تحرير العبيد الفلاحين، لكنه أمر بمناسبة زيارة السيد، أن تقام في كل الأملاك أسس أبنية ضخمة على غرار ما يبنى للمدارس والمستشفيات والمآوي. كان يعرف بعد دراسة عميقة لأخلاق پيار، أن الاستقبالات الحافلة ستزعجه لذلك استعاض عنها باستعدادات لتوزيع الخبز والملح وأعمال البر مرفقة بإهداءات صور مقدسة، قرر أنها ستؤثر في قلب الكونت وتحرك مشاعره.

أحدث ربيع الجنوب والسفر السريع في عربة مريحة من طراز عربات ڤيينا، والوحدة التامة على الطريق، تأثيراً حسناً في نفس پيار. كانت تلك الأملاك التي يزورها للمرة الأولى، تتبارى في الجمال. كان أينما حل، يرى السكان في مظهر من الرخاء يبرهنون له عن إخلاص وتعلق شديد، ويستقبلونه

www.Maktbah.com

استقبالاً يملأ نفسه غبطة إلى جانب الخجل والارتباك اللذين كان يشعر بهما كذلك. وفي إحدى ممتلكاته، قدم له الفلاحون مع الخبز والملح، صورة للقديسين بولس وبطرس، وسألوه أن يوافق على إقامة مذبح في الكنيسة على نفقتهم، يكرس لسادته المقدسين، اعترافاً منهم بما تلقوه منه من فضل وإحسان. وفي مكان آخر؛ جاءت النسوة مع رُضّعهن يستقبلنه شاكرات له إعفاءهن من السخرات والأعمال الشاقة بينما جاء الكاهن بنفسه يستقبله في المرحلة الثالثة؛ والصليب في يده، وحوله أطفال كان يعلّمهم الدين ومبادئ اللغة اللاتينية بفضل تدابير الكونت الأخيرة، كان پيار يرى الأبنية تقام حسب مخطط موحد؛ أبنية من الحجر؛ كان وكلاؤه يحملون إليه التقارير المشيرة إلى تخفيف الأعمال عن كاهل الفلاحين والإقلال من السخرات؛ وفي كل مكان كانت وفود الفلاحين في «قفاطينهم» جلابيهم الزرقاء؛ تتراكض إليه لتعبر له عن إخلاصها العميق وشكرها.

لم يكن يعرف بالطبع أن الضاحية التي قدم له فيها الخبز والملح كانت ساحة تجارية يقام فيها معرض ريعه لكنيسة القديس بطرس؛ وأن مذبح القديسين بطرس وبولس كان يشاد منذ بعض الوقت على حساب أثرياء المنطقة، وهم أولئك الذين جاؤوا يستقبلونه، بينما كانت تسعة أعشار الفلاحين في حالة من العوز والجوع الكاملين. لم يكن يعرف أن أولئك الأمهات الشابات اللاتي أعفين من السخرة بناء على أوامره، كن في مقابل ذلك يقمن في بيوتهن بأعمال مسخرة أكثر إجهاداً من أعمالهن السابقة.

كان يجهل أن ذلك الكاهن الذي استقبله والصليب في يده، كان يوقر رعيته بالأعشار ويبهظ كاهل أولئك المساكين الذين ما كانوا يسلمونه أبناءهم إلا وهم يبكون ويدفعون له مبالغ كبيرة أجراً على تثقيفهم. كان يجهل أن

twitter @baghdad_library

الشروع في تلك الأبنية الحجرية، كان يرهق الفلاحين لأنه قام على نفقتهم وبجهودهم، لأن السخرة قد ضوعفت فعلاً ولم تخفف إلا على الورق، كان يجهل أن فلاناً من الوكلاء الذين كان يخطر أمامه ويتبجح بأنه أنقص، حسب رغبات سيده، الواجبات المقدرة على الفلاحين بمقدار الثلث، مستشهداً بدفاتره وسجلاته، قد ضاعف في مقابل ذلك أعمال السخرة، فأي عجب إذن، إذا كان پيار في تجواله في أملاكه قد انطبع بشعور من الراحة النفسية والغبطة. لقد راح يكتب إلى أخيه الموجه، وهو الاسم الذي كان يطلقه على المعلم الأكبر، وسائل كلها حماسة واندفاع، وقد استفزه الشعور بمحبة البشر الذي امتلأت نفسه به عندما كان في پيترسبورغ.

كان يقول في سرّه: «كم هو سهل، وكم من جهد تافه يقتضيه تحقيق كل هذه الحسنات، وكم نغفل الانشغال في مثل هذه الأمور رغم بساطتها»!

كان سعيداً بالعرفان الذي أُظهر نحوه في كل مكان، رغم أنه لم يكن يتقبل تلك المظاهر إلا بمزيد من الارتباك، لأنها كانت تذكره بأنه قادر على عمل الشيء الكثير في سبيل هؤلاء البسطاء.

وقد كشف الوكيل العام عن حقيقة سيده فعرفها. عرف أن هذا الفتى الذكي ولكن الساذج، يمكن أن يكون ألعوبة بين يديه. فلما رأى أن تدابيره الارتجالية الموقتة قد أحدثت في پيار الأثر المطلوب، راح ذلك الداهية يعلن له بتلاعب لفظي أن إقرار العبيد الفلاحين مستحيل وعديم الجدوى لأنه لن يضيف شيئاً إلى سعادتهم.

وفي أعماق نفسه كان پيار يرى مثل هذا الرأي: يخيل إليه أنه يستحيل إيجاد أشخاص أكثر سعادة من مماليكه، وخصوصاً أن الله يعرف أي مصير ينتظرهم إذا حررهم. مع ذلك ألحّ في طلبه إرضاء لشعور العدالة والحق. فوعد الوكيل العام بأن يعمل كل ما هو ممكن لتنفيذ هذا العمل.

www.Maktbah.com

كان يعرف سلفاً أن سيده عاجز عن التحقيق بنفسه إذا كانت التدابير قد اتخذت فعلاً لبيع الغابات والأملاك المقرر بيعها لسداد دين مجلس الرعاية. وإنه، على ذلك، سيبقى دائماً جاهلاً ما إذا كانت تلك الأبنية استعملت في الغاية المتوقعة وإذا كان الفلاحون مستمرين في إعطاء كل ما يعطونه للآخرين، أي كل ما كانوا قادرين على إعطائه سواء أكان بالعمل أم لقاء أجر.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

وعندما كان عائداً من الجنوب وهو على أحسن ما يكون من الغبطة والانشراح، انتهز پيار تلك الفرصة للقيام بالزيارة التي طالما أجّلها، زيارة صديقه پولكونسكي الذي لم يره منذ عامين كاملين.

كانت بوغوتشارڤو، المقاطعة التي منحها الأمير العجوز لابنه أندريه، واقعة في ناحية مسطحة موحشة، تتخلل الحقول فيها أدغال الصنوبر والسندر، مبعثرة هنا وكثيفة هناك، وقد بنيت القرية على طول الطريق في خط مستقيم أما المقر الذي ينزل فيه السيد، فكان مشيداً وراء بحيرة حديثة الحفر ممتلئة بالماء، ذات حوافٍ مجردة لم تعبّد بعد، وسط غابة حديثة الغرس، تشمخ فيها بعض شجرات الأرز الهائلة. وكانت دائرة السيد، تشمل إلى جانب البيادر وملحقاتها، الاصطبلات والمغاسل والحمام والمنافع العامة، وجناحاً ملحقاً وبناء كبيراً من الحجر ذا واجهة نصف دائرية لم يستكمل بناؤه بعد.

كانت حديقة حديثة الغرس والإعداد تحيط بالمسكن. أما الحواجز الخشبية والبوابات فكانت جديدة ومتينة، وقريبة من البيت، كانت مضختان لمكافحة الحريق مستقرتين إلى جانب برميل ماء كبير مطلي بلون أخضر. والطرقات مخططة بدقة والجسور متينة محاطة بالحواجز، وكل شيء في ذلك «الحانوت» يدل على النظام وتفهم عميق للحياة الريفية الزراعية والتنظيم القروي. سأل پيار المماليك الخدم عن منزل سيدهم، فأشاروا إلى الجناح الجديد المقام على شاطئ البحيرة؛ فقصد پيار إلى البناء وهناك، ساعده خادم

www.Maktbah.com

اسمه أنطوان، كان يرافق الأمير منذ صباه ويعنى بشؤونه، على الترجل من عربته وأخبره بأن سيده موجود وأدخله غرفة صغيرة نظيفة.

يتناقض ذلك المسكن المتواضع كلياً مع المظهر الأنيق الذي شاهد پيار صديقه فيه آخر مرة في پيترسبورغ فأدهشه هذا التحول وبادر إلى دخول القاعة الصغيرة التي لم تكن جدرانها قد غطيت كلها بطبقة الجص، والتي كانت تنبعث منها رائحة خشب الصنوبر. همّ بالدخول إلى الغرفة المجاورة لكن انطوان سبقه على أطراف قدميه فقرع بابها.

سأله صوت أجش من الداخل: ماذا هناك؟

فأجاب أنطوان: زيارة لك.

ـ دعه ينتظر.

ارتفع صوت وتراجع مقعد، فاندفع پيار ليصطدم بالأمير أندريه على عتبة الباب وهو خارج من الغرفة عابساً وبدت على وجهه أمارات الشيخوخة، طوقه بذراعه ونزع نظارتيه ثم قبله في خديه وراح يتأمله عن قرب. قال أندريه: بحق الشيطان لم أكن أنتظر!... إنني مسرور جداً لرؤيتك.

أصيب پيار بالذهول من الانقلاب الواضح على مظهر صديقه، فراح يحدق إليه دون أن ينبس بكلمة. كانت كلمات الأمير مسرحية، لكنه رغم كل رغبته واستعداده، لم يكن يستطيع أن يضيء وميض الفرح في عينيه الذابلتين. كم هزل پولكونسكي وشاخ. لكن پيار لم يكن ليلقي بالاً إلى كل هذا لولا تلك النظرة الميتة، وذلك الأخدود الذي يقطع جبهته دلالة على تركيز التفكير في أمر واحد فترة طويلة. كانت هناك هاتان البادرتان تخيفانه وتجعلان صديقه بعيداً عنه، مما اقتضاه فترة غير قصيرة ليألفهما.

وكما يحدث عادة في الحديث الذي يدور بين صديقين بعد غياب طويل، بقي الحديث متعثراً بينهما فترة حتى استقام. بدآ يبحثان في موضوعات

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مختلفة في آن واحد دون أن يولياها العناية التامة رغم أن تلك الموضوعات كانت جديرة بالبحث، كالبحث في ماضيهما وخططهما للمستقبل ورحلة پيار ومشاغله والحرب إلخ... ثم قام التفاهم بينهما رويداً رويداً واتفقا ضمنياً على بحث كل مسألة على حدة. كان الانهماك والتداعي اللذان لاحظهما پيار في نظرة صديقه الأمير أندريه، يبدوان أكثر وضوحاً في الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه، والتي أخذ يستقبل بها الأحاديث التي كان الكونت الشاب يبدأ بها، وبصورة خاصة مشاريعه الحماسية المتعلقة بالمستقبل ورواياته عن الماضي، كانت تلك الأمور رغم كل ما قد تثيره في نفسه من متعة، لا تستأثر باهتمام الأمير.

وكان هذا الإحساس ظاهراً على أندريه، حتى أن پيار لم تفته ملاحظته فأدرك أن حماسته وآماله في السعادة والفضيلة كانت في غير محلها. لذلك فقد عرض أفكاره الماسونية الجديدة في شيء من الارتباك، وخصوصاً ما يتعلق منها برحلته وما أحسّ به بعد تلك الرحلة. أخذ يسيطر على لسانه خشية أن يبدو ساذجاً، لكنه كان يتحرق شوقاً ورغبة في إظهار صديقه على أنه أصبح الآن پيار آخر غير الذي عرفه في پيترسبورغ. قال: لا أستطيع إطلاعك على كل ما حدث في نفسي من تغييرات في الأيام الأخيرة. أنا لا أكاد أعرف نفسي.

فأجابه أندريه: أجل، لقد تبدلنا كثيراً، كثيراً.

سأله پيار: وأنت، ما هي مشاريعك وخططك؟

فأجابه أندريه بلهجة ساخرة: مشاريعي؟

وكرر وكأن معنى تلك الكلمة كان يدهشه: خططي؟ كما ترى. إنني أبني داراً وأتوقع أن أستقر هنا نهائياً في السنة القادمة.

أخذ پيار يدقق في وجه صديقه وقال: أنا لا أتحدث عن هذا. لقد أردت سؤالك عن...

www.Maktbah.com

فقاطعه أندريه قائلاً: آه، ما فائدة التحدث عني!... الأفضل أن تقص عليّ رحلتك وكل ما فعلته في أملاكك هناك...

بدأ پيار يتحدث، ساعياً إلى إخفاء دوره في هذا الموضوع، عن التحسينات التي بات مماليكه الفلاحون ينعمون بها. وقد أنجز أندريه، غير مرة، اللوحة الكلامية التي كان يصورها له پيار. لكنه كان واضحاً عليه أنه لم يكن يعطي ذلك الحديث أية أهمية بل كان يبدو خجلاً لمجرد إصغائه إلى تلك الترهات.

أخيراً أحسّ پيار بالضجر فآثر الصمت وبدون شك، أن أندريه كان يحس مثل ذلك الإحساس، لذلك راح يبحث فقط عما يشغل ذلك الضيف الذي كانت آراؤه لا تنسجم في شيء مع آرائه الشخصية. قال له: أنت ترى يا عزيزي أنني أعسكر هنا، ولقد جئت لألقي نظرة على ما تمّ وسأعود بعد حين لألحق بأختي في البيت، سوف أقدمك إليها... لكنك تعرفها على ما أعتقد؟... سوف نذهب بعد العشاء... والآن، هل ترغب في زيارة أرضي؟

حان موعد العشاء وهما يتنزهان ويتحدثان، وكأنهما لا تربط بينهما إلا معرفة سطحية، عن أصدقائهما كليهما وعن الأنباء السياسية. لم تتدفق الحيوية في نفس الأمير أندريه إلا عندما تحدث عن ترتيباته الجديدة. لكنه عاد فقطع الحديث فجأة، بينما كان يتحدث عن التجهيزات المنتظرة، خلال وصف جميل للمسكن المنتظر قال: ثم إن كل هذا لا يثير إلا اهتماماً ضئيلاً... هيا بنا إلى الطاولة قبل أن نمضي إلى القصر.

تحدثا خلال الطعام عن زواج پيار، فقال أندريه: لقد أدهشني النبأ.

فاحمرّ وجه پيار كعادته وتطرق البحث إلى هذه الناحية وقال: سأقص عليك ذات يوم كيف وقع كل هذا. اعلم فقط أن كل شيء قد انتهى وإلى الأبد.

ـ للأبد؟ لا شيء يمكن أن يدوم إلى الأبد.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ هل تجهل إذن كيف انتهى الأمر؟ هل سمعت عن المبارزة؟

ـ نعم، إنني أعرف أنك بلغت حتى هذا السبيل!

ـ إن الأمر الوحيد الذي أشكر عليه، هو أنني لم أقتل ذلك الرجل.

ـ ولم الشكر؟ إن قتل كلب مسعور يبدو لي أمراً ممتازاً.

ـ كلا. إن قتل رجل إثم...

ـ غير عادل؟ ولمَ؟ لا يمكن للإنسان أن يقرر الحق والباطل، الظلم والعدل. هذه هي النقطة التي أخطأ فيها الإنسان أكثر من غيرها؛ وسيخطئ في تقديرها أبداً.

استأنف پيار وقد أسعده أن استثار الحديث اهتمام أندريه، وبدا كأنه يريد أن يفضي إليه بمكنونات نفسه في تلك الآونة: إن كل ما يسيء المجتمع غير عادل!

ـ ومن الذي قال لك ما هو الشيء الذي يسيء إلى المجتمع؟

ـ كيف هذا؟ إننا نعرف جميعاً. ما يسيء إلينا.

فأجاب أندريه، وفي نفسه رغبة في عرض وجهة نظره الجديدة على پيار:

ـ أجل، إننا نعرفه. لكن ذلك الشر الذي أعتبره مسيئاً إليّ شخصياً، لا أستطيع أن أقوم به.

ثم ازداد تحمسه وأضاف بالفرنسية: أنا لا أعرف في الحياة إلا سيئتين: المرض وتبكيت الضمير، ولا شيء أفضل من غيابهما عن النفس والجسد. إن حكمتي الحالية تنحصر في أن أعيش لنفسي وأن أتجنب هذين الشرين.

فاستأنف پيار مناقشاً: وحب المجتمع، وروح التضحية؟... أنا لا أستطيع أن أشاطرك الرأي، أن يعيش المرء لمجرد ابتعاده عن الإساءة تجنباً لتبكيت الضمير، أمر تافه، لقد عشت كذلك، عشت من أجل نفسي فحطمت حياتي والآن، وأنا أعيش للآخرين، وبادر إلى تصحيح جملته بتواضع فقال، أعني

www.Maktbah.com

إنني أحاول أقله أن أعيش للآخرين، فإنني على العكس، بدأت أشعر بلذة الحياة وأفهمها. كلا، إنني لست من رأيك، ثم إنك لا تؤمن بما تقوله بالفعل.

كان أندريه يتأمله وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة قال: سوف ترى أختي ماري، وستتفق معها في الرأي.

واستطرد بعد فترة صمت: من الممكن أن تكون على حق في ما يتعلق بك. لكن كل إنسان يعيش كما يرى، وعلى هواه. إنك تزعم بعيشك من أجل نفسك، كما فعلت بادئ الأمر، كدت تفسد وجودك وتحطم حياتك، ولم تتعرف على السعادة إلا عندما بدأت تعيش للآخرين. لقد قمت بالتجربة العكسية. لقد عشت من أجل المجد، والمجد هو حب المجتمع كذلك، والرغبة في تحقيق شيء من أجله، الرغبة في أن أمتدح من قبله. إذن، عشت من أجل الآخرين، فحطمت حياتي كلها نهائياً. إنني منذ أن بدأت أعيش من أجل نفسي، شعرت على العكس، بأكثر قسط من الراحة والهدوء.

فناقشه پيار بحماسة: ولكن كيف يمكن أن يعيش المرء من أجل نفسه فقط؟ وابنك، وأختك ووالدك؟

إنهم يدخلون في الـ«أنا»، إنهم ليسوا الآخرين. إن الآخرين، المجتمع، كما تسميهم أنت وماري، هم السبب الجوهري للخطأ والشر. إن المجتمع هو فلاحو كييف الذين تريد أن تكون صالحاً من أجلهم.

خيل إلى پيار أن نظرته الهازئة تتحداه. فأجابه وقد توقدت حماسته: إنك تمزح بدون شك، كيف يمكن أن تكون رغبتي في عمل الخير خطأ وشراً؟ قد أكون أخطأت في الترتيبات والتنفيذ، لكن نيتي طيبة، وقد قمت ببعض الخير رغم كل شيء، وكل همّي أن أخفف عن فلاحينا التعساء، الذين هم من بني الإنسان مثلنا، والذين يكبرون ويموتون دون أن يعرفوا عن الله والحق إلا تطبيقات غير مجدية وصلوات سخيفة، أقول، أي شر في أن يطلعوا

twitter @baghdad_library

على ما يخفف عن نفوسهم، فيعرفوا شيئاً عن الحياة الأخرى التي تنتظرهم جزاء لهم على أعمالهم، وتخفيفاً عما في نفوسهم؟ أي شر وأي خطأ في أن نجنب الناس الموت دون غوث مادي، وفي أن نؤمن لهم حاجتهم من الأطباء والمستشفيات والملاجئ مع ما في ذلك من يسر؟ أليس منح بعض الراحة لأولئك التعساء والأمهات الشابات اللواتي يقتلن أنفسهن في العمل المرهق، عملاً طيباً؟...

كان پيار يتحدث بسرعة متمتماً فلما بلغ هذا الحد، أعقب بصوت هادئ وبرزانة قائلاً: هذا ما فعلته، صحيح، كان عملاً ناقصاً ونفذ بشكل غير مرض كلياً، لكنني فعلته على كل حال. أنا لن أصدق أبداً، مهما قلت وأكدت، أنني أسأت صنعاً فحسب، بل لن أصدق كذلك أنك لم تفكر في هذا بالمثل، إن المتعة التي يشعر بها الإنسان بعد عمل الخير هي سعادة الحياة الحقيقية. أنا أعرف ذلك الآن وفي نفسي القناعة الكاملة وهذا هو الشيء الأساسي.

واستأنف الأمير أندريه قائلاً: على هذا الأساس، فإن المسألة تبدو بشكل مختلف تماماً. إنني أشيد داراً أو أغرس شجراً. وأنت، تبني مشافي. لكل منا تسليته، أما ما هو خير وما هو عدل، فدع للذي يعرف كل شيء فرصة تقرير ذلك. إن هذه المسألة ليست شأننا... لكن، أتريد أن نتناقش؟ هيا، ليكن!

ـ حسناً، لنستمر... إنك تقول: مدارس، مواعظ وماذا بعد؟ الخلاصة إنك تريد أن تسحب هذا المخلوق؟ وأشار إلى فلاح كان يمر في تلك اللحظة محيياً، من حالته الحيوانية الحالية لتعطيه ما ينقصه من النواحي الفكرية والخلقية. أما أنا، فأعتقد على العكس، إن سعادته الوحيدة الممكنة كامنة على الدقة في هذه السعادة الحيوانية التي تود سلبها منه. إنني أغبطه في الوقت الذي تريد أنت أن تجعله «أنا» دون أن تعطيه على أية حال واحداً أو أكثر من مصادري... ثم تقول بعدئذ: لنخفف عنه عمله.

لكنني أقدر عكس ذلك أيضاً، أن العمل الجسدي يعتبر ضرورة بالنسبة إليك وإلي. لا تستطيع أبداً أن تتخلى عن التفكير، وأنا لا أنام قبل الساعة الثانية أو بعدها. لأن حشداً كبيراً من الأشياء يتجمع في رأسي، فأتقلب وأتقلب ولا أجد سبيلاً إلى النوم لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً غير التفكير. وعلى ذلك، فإنه لن يستطيع التخلي بدوره عن الحراثة والحصاد وإلا، ذهب إلى الحانات وسقط فريسة للأمراض. إنني لا أستطيع احتمال عمله الجسدي المرعب، لأنه سيقتلني في خلال أسبوع إذا مارسته. كذلك فإن بطالتي ستجعله عظيم السمنة وستقتله... ثالثاً... ماذا كنت تقول؟ آه! لقد تذكرت.

وثنى إصبعه الثالثة وأردف: المستشفيات والمداواة. فهو إذا أصيب بضربة دم مات. أما أنت، فتريد أن تعالجه ليشفى. سيعيش عشر سنين بعد شفائه. لكنه سيكون مقعداً، عاجزاً، عالة على الآخرين ومن الأفضل له أن يموت مرة واحدة. إن غيره يولدون بكثرة، وسيحلون محله باستمرار، وسيكون عددهم أبداً كافياً. فإذا كنت تأسف لخسارة عامل، وإنني أعتبر الأمر كذلك، فليكن! لكن كلا، إنك تريد معالجته حباً به ليس إلا! إنه ليس في حاجة إلى مساعدتك... ثم من الذي شفاه الطب حتى الآن؟ إن الطب لا يعرف إلا القتل!

وبغضب أشاح بوجهه. كان أندريه يتحدث بطلاقة ووضوح الرجل الذي ناقش هذه الأفكار طويلاً، والذي وجد أخيراً مجالاً للتعبير عما يجيش في صدره. فكلما كانت استنتاجاته مظلمة، ازداد بريق عينيه وميضاً.

قال پيار: إن هذا أمر مريع، إنه مريع! كيف يمكن أن يعيش المرء بمثل هذه الآراء! لقد عرفت دقائق من هذا الطراز في موسكو وأثناء سفري... لكنني لم أشعر بسقوطي في مثل هذا الإسفاف، لا أشعر بالحياة، بل إن كل شيء يبدو

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لعيني بشعاً، اعتباراً من نفسي... وعندئذ أتوقف عن الطعام والاغتسال... وأنت؟

لمَ إهمال النفس؟ إن ذلك يعتبر قذارة... يجب على العكس أن يجهد المرء ليجعل حياته على أقصى ما يستطيع من درجات الرفاهية. إذا كنت أعيش فليس ذلك خطأي. فلنعش إذن على خير ما نستطيع بانتظار لحظة الموت.

ـ كيف تستطيع مع ذلك أن تتمتع بالحياة وتشعر بلذة العيش؟ عندما يكون المرء في مثل هذه الحالة، من الأفضل أن يدفن نفسه في أحد الأركان مستغرقاً في تأملاته...

ـ ألا ترى، إن الحياة لا تترك لنا مجالاً للراحة. ولولا ذلك، لا يسعدني أن أعيش دون أن أفعل شيئاً. لكن فئة النبلاء في المقاطعة أرادت بادئ الأمر أن تنتخبني قيّماً على مصالحها. ولقد وجدت صعوبات جمّة في إقناع هؤلاء السادة بأنني لم أكن رجلهم المنشود، لأن المنصب يتطلب استعداداً نفسياً ودناءة مستمرة، مما يتوافر فيّ. ثم اضطررت إلى تشييد هذا المنزل لأجد لنفسي ركناً خاصاً أشعر فيه بالراحة. وأخيراً جاء دور «الميليشيا».

ـ لمَ لم تعد إلى الخدمة العسكرية؟

أجاب الأمير بصوت كئيب: بعد أوسترليتز! كلا، مع عظيم الشكر! لقد آليت على نفسي ألّا أعود إلى الخدمة الفعلية، ولسوف أحافظ على وعدي. ولو أن بوناپرت وصل إلى أبواب سمولنسك وبات يهدد ليسيياغوري، فإنني لن أعود إلى الخدمة الفعلية...

ثم تابع بصوت استعاد بعض هدوئه: إنني كما قلت، وجدت أن خير وسيلة للإفلات من الخدمة الفعلية هي أن أعمل ملحقاً لأبي الذي يقود المنطقة الثالثة لإعداد الميليشيا.

ـ إنك إذن في الخدمة أليس كذلك؟

www.Maktbah.com

وسكت فترة طويلة. سأله پيار بإلحاح: ولِمَ تخدم؟

ـ إليك السبب: إن أبي من أبرز شخصيات عصره وأهمها لكنه أصبح اليوم عجوزاً، وأصبح تصرفه على شيء من العنف دون أن تكون فيه قسوة. والآن قد منحه الأمبراطور سلطة غير محدودة بوضعه على رأس فرق الجيش الفني، إضافة إلى عاداته الآمرة، فقد أصبح خطراً. لقد كاد منذ خمسة عشر يوماً ينفذ حكم الإعدام شنقاً في واحد من المقيدين في إيوخنوف لو تأخرت ساعتين عن الوصول.

وابتسم أندريه وتابع: وإذن إذا كنت أخدم، فلأنه لا يوجد سواي من يستطيع التأثير في عقلية أبي، وإنني من حين إلى آخر أستطيع منعه من القيام ببعض الأعمال التي يمكن أن يأسف عليها فيما بعد.

ـ أرأيت!

ـ نعم، ولكن ليس كما تتصور الأمر. إنني لم أكن أطلب ولن أطلب أي خير لذلك المقيد الذي سرق أحذية الميليشيا، بل إنني كنت سأنظر إليه وهو يشنق بسرور. لكنني أشفقت على أبي وأعني أنني أشفقت على نفسي مرة أخرى.

ازداد انفعال الأمير شيئاً فشيئاً. وبينما كان يجهد في أن يبرهن لـپيار أن أعماله لا تحوي شيئاً من إرادة الخير للآخرين، كانت عيناه تتوقدان بحماسة محمومة. استأنف يقول: إذن، فإنك تنوي تحرير العبيد. إنها نية ممتازة. لكنها لن تكون ذات نفع لك، وأنت الذي لم تأمر بجلدهم قط أو نفيهم إلى سيبيريا كما أعتقد، ولا لهم. بل أعتقد أنهم إذا جلدوا أو أبعدوا، فإن ذلك لن يكون في رأيهم شيئاً. ولو أرسلوا إلى سيبيريا لتابعوا حياتهم الحيوانية هناك وكأن شيئاً لم يحدث. فإذا ما التأمت جروح السياط، فإنهم سيشعرون بمثل سعادتهم السابقة. مع ذلك، فإن التحرير والإقرار ضروريان. ولكن لأولئك الذين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يخنقون في أنفسهم صوت تبكيت الضمير بعد أن فقدوا تدريجاً الإحساس الروحي، فيقسون في عادتهم الرديئة التي يعتبرونها حقاً لهم، وهي إنزال العقاب بعدل أو بغير عدل. هؤلاء هم الذين أشفق عليهم والذين أتمنى أن يصار إلى تحرير الفلاحين العبيد بسببهم. لعلك لا تعرف بعضاً من هؤلاء لكنني رأيت أشخاصاً بارزين نشأوا في تقاليد السلطة المطلقة، فأصبحوا مع السنين، أكثر استجابة للغضب وأشد قسوة ووحشية. وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم لكنهم لا يستطيعون السيطرة على رغائبهم فيزدادون تعاسة وحزناً.

كان أندريه يتحدث بحماسة. فكر پيار في سره مرغماً: «لا شك أن هذه الأفكار قد تسربت إلى نفسه من تأثير عقلية ابنه». لم يجب، بينما عقب أندريه قائلاً: نعم «هؤلاء» هم الذين يوحون إليّ بالشفقة: وأعني كرامة الإنسان، وراحة الضمير ونقاء الروح. أما الظهور والرؤوس، ظهور هؤلاء الأشخاص ورؤوسهم، فإنك مهما جلدت وحلقت، فإنها ستبقى أبداً ظهوراً ورؤوساً!

فقال پيار:

ـ لا وألف لا، لن أكون أبداً من رأيك.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

وعند حلول الظلام، ركب أندريه ومعه پيار العربة قاصدين ليسيياغوري.

راح أندريه يلقي نظرات مختلسة على پيار ويقطع الصمت من حين إلى آخر ليتحدث في موضوعات مسلية. كان يفسر له وهو يريه الحقول، مختلف التحسينات التي أدخلها على الاستثمار.

وكان پيار يجيبه بكلمات وحيدة المقاطع، دلالة على استغراقه في تأملات قاتمة. كان يفكر في أن صديقه تعس سائر في الطريق الخطأ، جاهل النور الحقيقي، وأن عليه أن يضيء أفكاره. لكنه عندما كان يفكر في أقواله وأسلوبه في الكلام، كان يشعر بأن أندريه قادر على تهديم كل مناقشة بكلمة واحدة. لذلك كان يتردد في البدء بالكلام خشية تعريض قدس أقداسه للهزء والسخرية.

قال بعد حين وقد حنى رأسه أشبه بالثور الذي يتأهب للنطاح: قل لي، من أين لك هذه الأفكار؟ يجب ألّا تفكر على هذا النحو.

سأله الأمير حائراً: أية أفكار؟

ـ أفكارك عن الحياة وهدف الإنسان. لقد كانت لي أفكار مثلها أنا الآخر، لكن أتدري ماذا أنقذني منها؟ الماسونية. آه! لا تبتسم. إنها ليست كما كنت أعتقد مذهباً دينياً. بل هي أجمل تعبير عما في الإنسان من رقي ومن أزلي باق. إنها المعبر الوحيد عن كل هذا.

وراح يعرض شارحاً الماسونية، حسب رأيه، مؤكداً أنها الشريعة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المسيحية المتحررة من قيود الحكومات والأديان، شريعة المساواة والإخاء والحب. قال: إن محفلنا المقدس هو الوحيد الذي يملك معنى الحياة الحقيقي، وكل ما عداه أحلام وأوهام. إن كل شيء خارج نطاق المحفل ليس إلا كذباً وزوراً خارج دائرة المحفل وعقيدته، لا يبقى للرجل الذكي النبيل إلا أن يعيش حتى يموت، جاهداً ألّا يسيء إلى سواه، تماماً كما تفعل أنت، إنني على أتم وفاق معك حول هذا. لكنك إذا اعتنقت مبادئنا الأساسية، إذا دخلت في محفلنا، إذا أسلمت زمامك لنا، إذا تركتنا نوجهك ونرشدك، فستشعر على الفور كما شعرت أنا من قبل، بأنك حلقة في تلك السلسلة الهائلة غير المنظورة، والتي تضيع بدايتها في الأجواء العليا، في السماوات.

كان أندريه يصيخ السمع إلى پيار دون أن يتفوه بكلمة، وعيناه شاخصتان إلى نقطة وهمية أمامه. رجاه غير مرة أن يكرر بعض الكلمات والعبارات التي لم يستوعبها للمرة الأولى بسبب ضجيج العربة. شجع سكوته والبريق الخاص الذي انبعث من عينيه، پيار على الاسترسال، شعر أنه لم يعد يتحدث عبثاً، وأنه لا خوف عليه من مقاطعات صديقه أو سخريته.

وصلا إلى نهر فائض اضطرا إلى اجتيازه على طوف كبير. وبينما راح الخدم ينقلون العربة والخيول إلى العابرة، أخذ الصديقان مكانهما عليها متابعين الحديث، كان أندريه متأكداً على حاجز الطوف، يتأمل المياه الهادرة التي تنعكس عليها آخر إشعاعات الشمس، بصمت ووجوم، سأله پيار: حسناً! ما رأيك في كل هذا؟ لمَ أنت صامت؟

ـ ما رأيي؟ أنا مصغ إليك. إن كل هذا جميل بدون شك. إنك تقول: ادخل في محفلنا وسندلك على غاية الحياة ومصير الإنسان والقوانين التي تسيّر العالم. لكن من نحن، غير مخلوقات بسيطة فانية؟ كيف حدث أنكم

www.Maktbah.com

تعرفون كل شيء؟ كيف حدث أنني وحدي لا أرى ما ترونه على هذه الأرض؟ إنكم ترون على الأرض ملكوت الخير والحق وأنا لا أراه.

قاطعه پيار قائلاً: هل تؤمن بالحياة الآخرة؟

ـ الحياة الآخرة؟

ولما كان پيار يعرف من قبل أن صديقه ملحد، فقد اعتبر استفساره هذا نفياً، فلم يعطه وقتاً للجواب أو التفسير واستأنف قائلاً: أنت تقول إنه يستحيل عليك رؤية ملكوت الحق والخير على الأرض إنني أنا الآخر لا أراه. إذ ليس ممكناً أن نراه إذا اعتبرنا أن نهاية حياتنا هي نهاية كل شيء على الأرض، نعم على هذه الأرض، وأشار إلى السهل، لا يوجد حق. إن كل شيء عليها كذب وشر. ولكن في العالمين، في مجموع الكون، تسود الحقيقة. نحن أبناء الأرض لفترة وجيزة. لكننا في الأزل، أبناء الكون. ألست أشعر في أعماق نفسي بأنني جزء من هذا الكون الهائل المتناسق؟ ألست أشعر في أعماق روحي أنني، في هذه الكمية العظيمة المحدودة من المخلوقات التي تتجلى القدرة فيها أو القوة العليا، كما تشاء، لست إلا حلقة صغيرة، درجة من سلالم الخلق، من أدناها إلى أرفعها؟ بلى، إنني أرى، وأرى بوضوح ذلك السلم الذي يبدأ من النبتة حتى يصل إلى الإنسان. فلمَ إذن أعتقد أنه عندما يصل إليّ ينتهي عندي بدلاً من الإيمان بأنه يمضي بعيداً كذلك إلى أبعد مني؟ إنني أشعر أنني لا يمكن أن أختفي من الوجود لأن لا شيء يختفي فيه. أنا أشعر بأنني كنت من الأزل وسأبقى إلى الأزل. إنني أحسّ بوجود أرواح أخرى غيري وأرفع مني تعيش في الكون معي. وفي هذا الكون، تقيم الحقيقة ويجثم الحق.

قال أندريه: نعم إن هذه عقيدة هيردر[1] لكنها يا عزيزي لن تقنعني أن

---

(١) كاتب ألماني شهير، صاحب «فلسفة تاريخ الإنسان» (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الحياة والموت هما وحدهما يدفعان إلى القناعة والإيمان. إن ما يقنعك، هو أن ترى مخلوقاً كنت شديد التعلق به مذنباً تجاهه، كنت تفكر في التفكير عن أخطائك نحوه، وبدأ صوته يرتجف انفعالاً، فأشاح بوجهه، أقول، أن ترى هذا المخلوق العزيز يتألم فجأة ويحتمل أوجاعاً مريعة، ثم يكف عن الحياة، فلمَ هذا؟ لا يمكن أن يكون هذا السؤال دون جواب، إنني أعتقد أن هناك جواباً على الأقل... إن هذا المقنع، وهذا ما أقنعني.

ـ لكن بلى، بلى. إن هذا ما كنت أقوله لك.

ـ أبداً يا عزيزي. اصغ إلي جيداً: ليست الحياة الآخرة هي الحجج التي تثبت لي ضرورة ذلك، بل إنها الواقعة التالية: يدخل المرء في مضمار الحياة ممسكاً بآخر في يده. وفجأة يختفي هذا الآخر، «هناك في العدم». وعندئذ يقف المرء على حافة الهاوية يتفحصها بعينيه باحثاً... ولقد تفحصتها بنفسي.

ـ حسناً! إنك إذن تعرف أن في الأمر «هناك» و«بعضهم» إن هذه الـ: «هناك» هي الحياة الآخرة، وذلك الـ:«بعضهم» هو الله.

لم يعط أندريه جواباً. كانت العربة قد سحبت من الطوف إلى الشاطئ الآخر وقطرت الخيول إليها، وكادت الشمس تغيب، وجليد المساء يرسم نجوماً من برك المياه الصغيرة المنتثرة على الشاطئ. لكن السيدين ظلا في مكانيهما على الطوف، الأمر الذي أثار دهشة الخدم واستغرابهم. بقي پيار وأندريه يتناقشان دون أن يفكر أحدهما في مغادرة الطوف.

قال پيار وهو يشير إلى السماء.

ـ إذا كان الله موجوداً، والحياة الآخرة موجودة، فإن الحقيقة والفضيلة موجودتان كذلك. والأمنية القصوى والنعيم المقيم، في السعي لمعرفتهما يجب أن يعيش المرء وأن يحب وأن لا يعتقد بأننا نعيش على هذه القطعة من الأرض فحسب، بل إننا عشنا وسنعيش إلى الأبد هناك، في «الكل».

www.Maktbah.com

بقي أندريه مصغياً إلى پيار وهو متكئ على حاجز الطوف، لا تفارق عيناه الأمواج الزرقاء الساطعة التي يلقي عليها المغيب سهامه الحمراء. سكت پيار وخيم سكون عميق، لا يقطعه إلا تكسر المياه الهادرة على جوانب الطوف الراسي على الشاطئ منذ حين. خيّل لأندريه أن يسمع في هذه الدمدمة الغامضة، صدى لأقوال پيار: «تلك هي الحقيقة فصدّق». أطلق زفرة وشمل وجه پيار المحمرّ بجلال، بنظرة مشعة حانية. كان وجه پيار رغم وقاره يحمل طابع الخجل إزاء هذا الصديق الذي يعرف أنه متوقف عليه في كل شيء قال أخيراً: نعم، علّ الأمر كذلك! هيا، لنصعد إلى العربة.

ولما جلا عن الطوف، رفع عينيه إلى السماء التي أشار پيار إليها منذ لحظة، فرأى من جديد، للمرة الأولى منذ أوسترليتز، تلك السماء الأزلية المتسامية التي تأملها على ساحة المعركة ولقد كان لذلك المشهد في نفسه تجديد للغبطة والحنان اللذين افتقدهما. وتبدّد كل ذلك فوراً، حالما عاد الأمير أندريه إلى واقعه المألوف في الحياة. لكنه كان يعرف أن ذلك الشعور الذي لم يغذه وينشئه في روحه، باق في أعماقه. وعلى الرغم من أن مظهر أندريه لم ينم عن شيء مما في نفسه، فإن ذلك الحديث الذي دار بينه وبين پيار، أشرق في أعماقه فجراً جديداً غير مألوف لديه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

توقفت العربة أمام الطنف الكبير في ليسيياغوري بعد حلول الظلام. نبّه أندريه صديقه إلى الذعر الذي أحدثه وصولهما إلى مدخل باب الخدم. كانت هناك عجوز محنية الظهر، جرابها على كتفها، يصحبها رجل قصير القامة، طويل الشعر، مرتدياً ألبسة سوداء، يسرعان إلى الباب العمومي هاربين، وفي أعقابهما امرأتان ركضتا تحاولان اللحاق بهما. فلما اجتمع أربعتهم، ألقوا نظرة ذعر على العربة واندفعوا إلى سلم الخدم.

قال أندريه: هؤلاء هم «رجال الله» عند أختي ماري. لقد اعتقدوا أن ماري تستقبلهم دائماً، رغم أن أبي كان يطردهم دون هوادة. هذا هو الأمر الوحيد الذي تخالفه ماري من أوامر أبي.

سأل پيار: ولكن، ما معنى رجال الله، ومن هم هؤلاء؟

لم يجد أندريه متسعاً للإجابة، فقد أسرع الخدم لاستقبالهم، فسألهم عن أبيه. أنبأوه أن الأمير العجوز لا يزال في المدينة، لكنهم ينتظرونه بين لحظة وأخرى.

اصطحب أندريه صديقه پيار إلى غرفه المعدة للاستقبال، حيث تركه ليستطلع أنباء ابنه ويراه. ولما عاد إليه قال له وهو يتقدمه: والآن، هلمّ بنا إلى أختي. لم ألمحها، إنها محتجبة في غرفتها مع محميها. سوف نفاجئها، وسيغمرها الخجل. لكنك سترى رجال الله. إنهم يثيرون التطلع.

سأل پيار مرة أخرى: ما معنى رجال الله؟

www.Maktbah.com

ـ سوف ترى بنفسك.

لدى دخول الأميرة ماري إلى غرفتها الجميلة اعتراها الخجل حيث القناديل مضاءة بجلال قرب خزانة التمائم المقدسة، وعلت وجهها بقع حمراء، كانت جالسة على كنبة تحتسي الشاي بصحبة فتى طويل الأنف والشعر مرتدياً مسوح راهب. وكانت امرأة عجوز هزيلة، ذات وجه يشبه وجوه الأطفال، تشغل مقعداً وثيراً بجانبهما.

قالت ماري في رنة لوم خفيفة: لمَ لم تخطرني بقدومك يا أندريه؟

وأسرعت تقف بينه وبين حجاجها، كالدجاجة التي تحمي صغارها، وأردفت: إني سعيدة جداً لرؤيتك يا كونت.

وقبلت يد پيار. كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة. والآن، فإن صداقته التي كانت تربطه إلى أندريه ومصائبه الزوجية، وعلى الخصوص وجهه الصريح، كل هذه الأشياء كانت تحمل ماري على الميل إليه. استمرت تحدق إلى وجهه بعينيها المتوقدتين وكأن نظرتها تقول: «إنني أحبك كثيراً ولكن... لا تسخر من جماعتي»!

تبادلا التحية والتمنيات المألوفة وجلسوا جميعاً. قال أندريه شافعاً كلامه بابتسامة موجهة إلى الحاج الشاب: هه! ها إن إيڤانوشكا هنا أيضاً!

فقالت ماري بلهجة متوسلة: أندريه!

فقال هذا لـپيار: يجب أن تعلم أنه امرأة لا رجل كما تظن.

كررت ماري توسلها: أندريه، نشدتك الله.

كان من الواضح أن مشاكسات أندريه للحجاج، واحتجاجات ماري غير المثمرة لحمايتهم، كانت متأصلة في أعماق الأخ والأخت، أصيلة في عاداتهما. قال أندريه: ولكن يا صديقتي الطيبة، يجب أن تشكري لي ما أحتمله من عناء في شرح علاقتك الأليفة بهذا الفتى!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال پيار وهو يتفحص وجه الحاج خلال نظارتيه بفضول خطير، كانت ماري شاكرة سلوكه الجدي: صحيح؟

وأدرك إيڤانوشكا أنهم يتحدثون عنه فراح يجيل حوله نظرة ماكرة.

كانت ماري على خطأ في دفاعها عن «جماعتها» لأنهم لم يكونوا مرتبكين مطلقاً إزاء تلك النظرات المتطفلة. كانت العجوز ذات العينين المطرقتين التي كانت تختلس بين حين وآخر نظرة دائرية إلى وجهي القادمين، قد قلبت فنجانها على الصفحة ووضعت بجانبه قطعة السكر التي قضمت نصفها، منتظرة أن يقدم لها الشاي من جديد، وهي جامدة في مقعدها. أما إيڤانوشكا، فقد كان يراقب القادمين بعينيه الماكرتين الشبيهتين بعيني الامرأة، وهو يتجرع محتويات فنجانه بتمهل وسكون.

سأل أندريه المرأة العجوز: من أين جئت؟ أمن كييـف؟ لا شك.

فأجابت العجوز وقد أسعدها أن تحل عقال لسانها: لقد ذهبت إلى كييـف يا أبي وقد أسعدت، في يوم عيد الميلاد المقدس، بتلقي «المناولة» المقدسة قرب ضريح الصالحين... أما الآن، فأنا قادمة من كوليازين[1] يا أبي. لقد حدثت فيها معجزة كبرى.

ـ وهل يصحبك إيڤانوشكا؟

فأجاب هذا ساعياً إلى النطق بصوت خفيض: كلا يا أبي. إنني أمضي في سبيلي. إنني لم ألتق: بيلاغويوشكا إلا في ايوخنوف...

لكن العجوز لم تتركه يسترسل. كانت تتحرق شوقاً إلى رواية ما شاهدته: لقد تبدت معجزة كبيرة في كوليازين يا أبي.

سأل أندريه: ماذا حدث؟ أهي بقايا أجساد مقدسة اكتشفت؟

---

(١) دير شهير (سانت ترينيتي) الثالوث المقدس، يتوافد الحجاج إليه يوم الجمعة بعد عيد الفصح. (المترجم).

www.Maktbah.com

فقالت ماري: أرجوك يا أندريه. لا تقصِ شيئاً يا بيلاغويوشكا.

ـ ولِمَ لا يا أمي؟ إنني أحبه كثيراً. إنه مصطفى من الرب، وهو طيب القلب. أعطاني ذات يوم، عشرة روبلات ما زلت أذكرها حتماً.. وإذن، بينما كنت في كييف، قابلت صدفة كيروشا البريء، وهو من رجال الله المقدسين يمشي حافي القدمين في الصيف وفي الشتاء، قال لي: «ماذا جئت تفعلين هنا، ليس مكانك هنا، إذهبي إلى كوليازين، فهناك صورة عجيبة، إن أمنا العذراء شديدة القدسية قد تجلت». هكذا قال لي، وعندئذ ودعت الأولياء الصالحين وسرت في الطريق.

كانوا جميعاً صامتين، وعيونهم متعلقة بشفتي التقيّة التي كانت تروي قصصها بصوت متزن، تقطعه تنفساتها العميقة: ولما وصلت، قال لي كل الناس: «إن نعمة ربانية قد ظهرت، إن البلسم المقدس يقطر من وجنة أمنا العذراء شديدة الطهر».

قالت ماري: هيا، كفى. ستقصين هذه الحكاية مرة أخرى.

فتدخل پيار قائلاً:

ـ اسمحي لي أن ألقي عليها سؤالاً. هل رأيت ذلك بنفسك؟

ـ لا شك يا أبي، لقد حصل لي هذا الشرف العظيم. كان وجه أمنا الطيبة يلمع بنور سماوي والبلسم الشافي يقطر من وجنتها قطرة قطرة.

فصاح پيار بسذاجة بعد أن أصغى باهتمام إلى مزاعم العجوز: لكن هذه خرافة!

فقالت هذه مذعورة تناشد الأميرة ماري الحماية بنظرة: ما هذا الذي تقوله يا أبي!

كرر پيار بإلحاح: هكذا يخدعون الشعب.

هتفت التائهة وهي ترسم على صدرها إشارة الصليب: يا سيدي يسوع!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أوه! لا تتحدث هكذا يا أبي! كان هناك جنرال لم يشأ تصديق المعجزة. قال: «إنها خدعة من الكهنة» لكنه أصيب فوراً بالعمى. وقد حلم في نومه أن أمنا المقدسة في كرييت جاءت إليه وقالت له «آمن به وسأشفيك» وعندئذ راح يتوسل ضارعاً: «خذوني إليها، خذوني إليها»! إن ما أقوله لك هو الحقيقة. لقد رأيته، لقد رأيته بعينيّ هاتين. وعندئذ أخذوا الأعمى إليها مباشرة فتهالك على ركبتيه وهو يقول: «اشفيني وسأعطيك ما منحنيه القيصر». إنه صحيح يا أبي، إذ إنني رأيت نجمته، وتقصد رتبة الجنرالية، معلقة في الصورة المقدسة. وأعادت إليه النظر الأم الطيبة!... إنها خطيئة أن تتحدث هكذا. إن الله سيعاقبك.

سأل پيار غير مبال بلهجتها الصارمة: كيف وجدت النجمة معلقة فجأة في الصورة؟

وقال أندريه ضاحكاً: وهل منحوا الأم الطيبة رتبة جنرال؟

شحب وجه الحاجة بيلاغويوشكا وضربت كفاً بكف وصاحت بعد أن زايلها امتقاع لونها فأصبح وجهها أحمر قانياً:

ـ يا للخطيئة! يا للخطيئة! اصمت يا أبي، إن لك ولداً... ماذا قلت؟ ماذا قلت!

وراحت تضرع إلى الله وهي ترسم إشارة الصليب:

ـ ليغفر لك الله! ربي اغفر له... آه، يا أمي، ما معنى هذا؟

وجهت هذه الجملة إلى ماري وهي تلتفت إليها، ثم وقفت وهي على وشك البكاء وراحت تجمع جرابها. كان يُرى على وجهها أنها كانت خجلة لقبولها الضيافة في بيت يتحدثون فيه أمثال هذا الحديث. لكنه كان يبدو عليها كذلك أنها تأسف على اضطرارها في المستقبل إلى العزوف عن هذه الضيافة.

www.Maktbah.com

قالت ماري: ماذا دهاكما؟ أية متعة تجدانها في هذا القول... كان يمكنكما ألاّ تحضرا أبداً...

فأجاب پيار: لقد أردت أن أمزح فقط يا بيلاغويوشكا. أيتها الأميرة، أقسم بشرفي إنني ما أردت جرح كرامتها ولا إهانتها. لقد تحدثت في غير مكر. لا تظني بي السوء، لقد أردت المزاح...

وتابع ملحاً وهو يبتسم ابتسامة خجلى: وهو كذلك كان يمزح.

كان واضحاً أنه راغب في إزالة خطأه وكان وجهه يعبر عن ندم مخلص. أما أندريه فراح يلقي نظرات شديدة الحنو على پيار تارة وعلى العجوز التائهة تارة أخرى، حتى أن هذه، بعد أن كانت قليلة الميل إلى تصديق توبته، اقتنعت بصحتها.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

رجعت الحاجة تتحدّث بحماسة بعد أن اطمأنت، وبقيت فترة طويلة تتحدث عن مواهب أحد الآباء المدعو أمفيلوك الذي لشدة زهده وتقشفه راحت يداه تتضوعان برائحة البخور. ثم بدأت تشرح تفاصيل قصة مقامها الأول في كييف. قالت إن بعض معارفها من الرهبان أعطوها مفاتيح الأقبية، فبقيت فيها ثماني وأربعين ساعة في صحبة الصالحين لا تأكل إلا البسكويت. «وبعد أن أصلي صلاة طويلة أمام أحد الضرائح، كنت أنتقل للتبرك بآخر والصلاة أمامه. ثم نمت فترة قصيرة وعدت أقبل الضرائح المقدسة. لقد كان السكون عميقاً والنعيم العلوي يدخل في نفسي حتى أنني لم أكن أرغب في الخروج لرؤية ضياء الله الكريم».

كان پيار يصغي إليها بانتباه. لكن ماري لم تدعه يستقر طويلاً، لأن أندريه كان قد انسحب. فتركت رجال الله يتمون احتساء شايهم وقادت پيار إلى القاعة الكبيرة. قالت له: كم أنت طيب القلب!

ـ آه! حقاً إنني لم أفكر في إهانتها مطلقاً. إنني أفهم هذه المشاعر وأقدرها.

تأملته ماري فترة وهي صامتة وعلى شفتيها ابتسامة حانية. وأخيراً قالت: إنني أعرفك منذ زمن طويل وأحبك كأخ لي.

ثم تابعت دون أن تترك له المجال للإجابة عن كلماتها الرقيقة: كيف وجدت أندريه؟ إنه يقلقني جداً. لقد كان أحسن حالاً هذا الشتاء. لكن جرحه نكئ في الربيع فأوصى له الطبيب معالجة خارج البلاد. ثم إن حالته الفكرية

www.Maktbah.com

تقلقني أيضاً. إنه ليس من طبيعة مثل طبيعتنا نحن معشر النساء، تمكنه من استهلاك أحزانه بالدموع والمظاهر الخارجية. إنه يطوي آلامه في حناياه. وإذا تظاهر اليوم بالانشراح فما ذلك إلا بسبب وجودك الذي كان له هذا الأثر. من النادر أن يكون على مثل هذه الحال من الانشراح. ليتك تقنعه بالسفر إلى مكان ما! إنه في حاجة إلى النشاط. إن هذه الحياة الساكنة تقتله. والآخرون لا يلاحظون هذا، أما أنا، فإنني أراه بكل وضوح.

تجاوزت الساعة التاسعة، فارتفعت ضجة في الخارج. كان الأمير العجوز عائداً من المدينة. أسرع الخدم إلى الطنف وتبعهم پيار وأندريه. فلما نزل الأمير من عربته شاهد پيار فسأل: من هذا؟...

ولما عرف الكونت الشاب صاح: آه! أهلاً بك! قبلني هنا.

كان على أفضل مزاج فعامل پيار بشيء كثير من المجاملة وقاده إلى مكتبه. فلما جاء أندريه يلحق بهما ساعة العشاء، وجدهما غارقين في نقاش حاد. كان پيار يصر على القول إن وقتاً سيحين، تبطل فيه الحروب. أما الأمير فكان يسفه هذا الرأي ولكن في غير جفاء وخشونة.

قال الأمير وهو يربت بلطف كتف پيار:

ـ الوسيلة الوحيدة لمنع الحروب هي أن تفصد العروق وتملأها بالماء بدلاً من الدم. إن هذه ترهات وأحلام نساء!

ثم اقترب من الطاولة حيث كان أندريه يتصفح أوراق أبيه التي أتى بها من المدينة عازفاً عن الاشتراك في النقاش. راح يحدثه عن الأعمال. قال: لم يستطع الكونت روستوف، بوصفه رئيس منطقة، أن يقدم لنا نصف الرجال المستنفرين... ثم تصور بعد ذلك أنه جاء إلى المدينة يدعوني إلى تناول العشاء عنده! لقد أرسلته وعشاءه إلى...! هل رأيت مثل هذا... تأمل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تابع، وهو يضرب كتف پيار متودداً: وبهذه المناسبة يا عزيزي، هل تعلم أن صديقك يعجبني؟ إنه فتى باسل يملأني حماسة وفخراً. إن أياً كان مثله يبحث في مواضيع حساسة لكنها تثير اشمئزاز المرء فلا يلذ له الإصغاء إليها. أما هذا، فإنه ينطق بحماقات، لكنه مع ذلك يثيرني رغم تقدّم سني.. حسناً، إنني لا أستبقيكما. اذهبا فتناولا طعامكما. لعلني أنضم إليكما. قد أجيء لمشاكستك من جديد...

فلما خرجا، قال الأمير العجوز متمماً: حاول أن تنظر بعين العطف إلى ابنتي الحمقاء ماري.

خلال إقامته القصيرة في ليسياغوري تذوق پيار كل متعة الصداقة، تلك الصداقة التي كانت تربطه إلى پولكونسكي. ولم تكن تلك المتعة قاصرة على علاقاتهما الشخصية بل تعدتها إلى الصلات التي جمعت بينه وبين أفراد أسرة پولكونسكي ومعارفهم. فعلى الرغم من أنه لم يكد يتعرف إلى الأمير العنيد وماري الأميرة الخجول كما يجب، فإنه شعر في أعماقه براحة قصوى في مجالستها أكثر مما يشعر به مع أصدقاء قدامى.

ثم إنهم جميعاً سرعان ما أحبوه بدورهم. فماري، أعجبتها طريقته اللطيفة وأساليبه الرقيقة في معاملة حجّاجها، فراحت تلقي عليه نظراتها الأكثر إشراقاً وتوقداً، ونيكولا الصغير نفسه، ذلك الطفل الذي لم يتجاوز عامه الأول الذي كان جده يدعوه بالأمير الصغير، تقبل دعابة پيار ورضي بحمله هذا بين ذراعيه. أما ميخائيل إيڤانوڤيتش والآنسة بوريين فكانا يبتسمان ابتسامة صادرة من أعماقهما كلما وقع نظرهما عليه أو شاهداه يتحدث إلى الأمير العجوز وكأنه أليفه وصديقه القديم، حتى أن هذا بدأ يحضر طعام العشاء مع الآكلين تكريماً لضيفه الشاب. والخلاصة إن پيار خلال اليومين اللذين قضاهما في

www.Maktbah.com

ليسيياغوري، تلقى من عطف الأمير العجوز الشيء الكثير حتى أن هذا دعاه بإلحاح إلى زيارته مرة أخرى.

عندما بارح پيار آل پولكونسكي، واجتمعت الأسرة، أعطى كل فرد من أفرادها رأيه في الضيف الراحل كما هي العادة بعد ذهاب شخص دخل في نطاق الأسرة من جديد. والعجيب في الأمر، أن كل واحد منهم كان مجمعاً مع الآخرين على امتداح الضيف المرتحل.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

أدرك روستوف للمرة الأولى، عند عودته من إجازته، أنه متعلق جداً بدينيسوف وبالفيلق كله، إذ خلقت عودته إلى المعسكر مشاعر مثل التي أحسّ بها عند دخوله منزله الأبوي بعد غياب طويل. شعر عندما رأى أحد الفرسان ببزته مفكك الأزرار، ثم ديمانتييف الأشقر والخيول الصهباء، وعندما سمع لافروشكا يصيح بمرح معلناً لسيده: «ها هو الكونت قد وصل»! ورأى دينيسوف يسرع إليه من منزله أشعث الشعر وقد غادر فراشه تواً، ليحييه التحية الودية المعروفة بينما شرع الضباط الآخرون يحتفلون بوصول «العائد»، عندما شاهد كل هذه المظاهر، أحسّ روستوف بمثل الشعور الذي خالجه عندما كانت أمه تلاطفه وأبوه يداعبه وإخوته يستقبلونه. كانت القطعة بالنسبة إليه منزلاً عزيزاً جذاباً كمنزله الأبوي.

عندما تقدم روستوف إلى الكولونيل معلناً وصوله، أعاده هذا إلى كوكبته السابقة، فانصرف إلى مشاغله اليومية الكثيرة التي تقتضيها طبيعة الخدمة. شعر من النهج الوتير اليومي في حياة الجندية والحرمان من الحرية والارتباط بملاك القطعة ارتباطاً وثيقاً، بمثل الدعة والسكون اللذين شعر بهما في بيته حيث كان مدعوماً من قبل أسرته دعماً معنوياً ومادياً. كان يشعر أنه هنا أيضاً في بيته وفي مكانه اللائق. حيث لا تصل الحياة الاجتماعية التي تحمل المرء في تيارها الجارف فلا يعرف أين يستقر وبأي شيء يتشبث، ولا توجد سونيا التي يُخشى تقديم المبررات والتفسيرات لها، ويتبدد التردد في إشغال

www.Maktbah.com

الوقت، وتنعدم نهائياً تلك الأيام الطويلة التي تستمر أربعاً وعشرين ساعة دون توقف، والتي تغري المرء فيها مئات من المشاغل وتستدعيه، وتختفي تلك الجماعات من الناس الذين لا يرتبط المرء بهم بأية صلة والذين يشعر مع ذلك أنه ليس غريباً عنهم تماماً وليسوا عنه ببعيدين.

هنا تنتهي العلاقات المالية مع أبيه التي لم تكن صريحة تماماً وتتبخر ذكرى خسارته في الميسر! إن كل شيء هنا في القطعة، بسيط ومحدود. لقد كان العالم كله منقسماً إلى قسمين غير متساويين، القسم الأول يشمل «فيلقنا پاڤلوغراد» والآخر، كل ما تبقى من العالم. وهذا الذي «يتبقى» يبدو للمرء بدون أهمية. كانوا يعرفون هنا من هو الملازم ومن هو الرئيس، من هو الشجاع ومن الرديء، وعلى الخصوص من الذي يجب اتخاذه صديقاً. هنا، يقدم لك بائع المعسكر حاجتك ديناً ويستوفي رصيده على دفعات، فلا حاجة بك إلى التفكير ولا إلى الانتقاء. يكفيك أن تتنزه عن كل ما هو معروف بسوئه في فيلق پاڤلوغراد. فإذا أوكلوا إليك مهمة، عليك بتنفيذها حسب ما جاء في التعليمات الصريحة المتعلقة بها، وعندئذ تسير كل الأمور على أفضل حال.

أحسّ روستوف بعد أن استعاد تلك العادات النظامية التي تنفرد بها الحياة العسكرية، بعزاء وانفراج ونشاط، كالتي يشعر بها الرجل المتعب عندما يستسلم للراحة. كان ذلك اللون من الحياة يبهجه خلال الوقت الذي استغرقته الحملة، حتى أنه صمم منذ خسارته في الميسر، تلك الخطيئة التي لم يكن يغفر لنفسه وقوعه فيها رغم كل ما تقدم به والداه إليه من عزاء على أن يخدم في الكوكبة ليس كما كان يخدم من قبل، بل بشكل يساعده على محو خطأه. كان يتوقع أن يصبح زميلاً حقيقياً وضابطاً مثالياً. وبالاختصار كان يريد أن يصبح رجلاً كاملاً، الأمر الذي كان يبدو له صعب التحقيق «في العالم»، شديد السهولة هنا في القطعة.

twitter @baghdad_library

كان يزمع أيضاً على تسديد القرض الذي اضطر ذووه إليه، خلال فترة خمس سنين. قرر أن يكتفي بألفي روبل في العام بدلاً من عشرة آلاف، جرايته المقررة في كل عام، وبذلك يعيد إلى أبويه من هذا الفرق المبلغ الكبير الذي خسره ودفعوه عنه.

بعد حركات عسكرية عديدة ومناورات كثيرة، وبعد معارك پولتوسك وپروسيخ ـ إيلو، تركز الجيش الروسي في بارتنشتن حيث كان ينتظر وصول الأمبراطور واستئناف العمليات.

مرات عديدة، اشترك فرسان پاڤلوغراد في مناوشات مع العدو، ففاز ببعض الأسرى واغتصب مرة قوافل المؤن وعربات الذخيرة التابعة للماريشال أودينو[1]. كان فيلق پاڤلوغراد تابعاً لإحدى وحدات الجيش الذي حارب عام ١٨٠٥ وقد عاد إلى روسيا لاستكمال ملاكه الناقص. لذلك لم يساهم في العمليات الأولى. فعندما عاد إلى ساحة المعركة، أصبح يشكل وحدة من فيلق پلاتوف الذي كان يعمل بصورة مستقلة عن بقية الجيش.

عسكر فيلق پاڤلوغراد في ضواحي قرية ألمانية مدمرة كلياً وبقي في مكانه بضعة أسابيع قبل شهر نيسان. وفي نيسان كان الطقس بارداً بسبب ذوبان الثلوج والأنهار فائضة والطرق غير سالكة، فانقطع التموين عن الجنود والعلف عن الخيول أياماً. ولما أصبح سير القوافل متعذراً بل مستحيلاً انتشر الجنود في القرى المهجورة يفتشون عن البطاطا التي أصبحت بدورها نادرة. لقد التهم كل شيء وفر معظم السكان. أما الذين مكثوا في دورهم المخربة، فقد كانوا أكثر تعاسة من المتسولين. لم يكونوا يملكون شيئاً يسلب منهم.

---

(١) ماريشال فرنسا، قدّمه ناپليون بوصفه پيار وهو عند الفرنسيين كخالد بن الوليد عند العرب. أظهر براعة في أوسترليتز وأوسترولنكا وفي يدلاند وپوتزن... (المترجم).

www.Maktbah.com

بل إن الجنود، وهم من طينة قليلة الإشفاق، كانوا رغم ذلك يقاسمون هؤلاء التعساء آخر لقمة في يدهم.

إن فيلق پاڤلوغراد الذي لم يخسر أكثر من رجلين في المعارك، خسر أكثر من نصف عدده بسبب المجاعة. كان الموت مؤكداً في المستشفيات، حتى أن الجنود المرضى بالحمى أو الالتهابات بسبب سوء التغذية كانوا يفضلون الاستمرار في أعمال السخرة على الذهاب إلى المستشفى، ولما حل الربيع، اكتشف الجنود نبتة تخرج من الأرض، تشبه الهليون، أطلقوا عليها، والله أعلم بالسبب، اسم «جذر ماري الحلو»، فراحوا يتوزعون في الحقول لجمع تلك النبتة التي كانت مرة المذاق جداً، فينبشون بسيوفهم الأرض بحثاً عنها ويأكلونها رغم الأوامر المحذرة الصادرة إليهم. فانتشر مرض جديد بسبب ذلك وعلاماته تورم اليدين والأرجل والوجه، عزاه الأطباء إلى تلك العشبة السامة التي يأكلها الجنود.

أما كوكبة دينيسوڤ، فظلت مثابرة على توزيع بقايا المأكولات على الجنود بمعدل ربع كيلو غرام يومياً من البسكويت للرجل الواحد. أما البطاطا التي وصلت أخيراً، فكانت مصابة بالصقيع وفاسدة. وقد مضى على الخيول خمسة عشر يوماً، كان علفها خلالها القش الذي تغطى به سقوف الأكواخ. وكانت أجسادها الهزيلة الضعيفة تحمل شعرها الشتوي الذي لم يسقط بعد كتلاً متلبدة.

بقي الجنود والضباط، على الرغم من هذه الضائقات كلها، يعيشون حياتهم العادية. فالفرسان يواظبون على التفقد وتفتيش النظافة وتمطير الخيول وتنظيف الأحذية والأعتدة وتلميعها وعلى سخرة جمع العلف الذي أصبح جمع القش، بل على الانتظام بانتظار الطعام الذي كانوا يعودون منه جياعاً كما ذهبوا. لكنهم كانوا رغم ذلك يتندرون بجراياتهم الهزيلة ويخسرون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من بطونهم الخاوية. ظلوا كعادتهم كلما فرغوا من العمل، يشعلون النيران ويصطلون بها وهم عراة الأجساد يدخنون، أو يجنون البطاطا الفاسدة أو ينضجونها، وهم يصغون إلى حكاياتهم الشعبية أو يقصون بعضهم على بعض مآثر بوتمكين وسوڤوروف ومغامرات أليوشا الداهية (أشبه بحكاية الشاطر حسن) أو ميكولكا عتيل الراهب، وهي من القصص الشعبي الروسي. أما الضباط فقد ظلوا من جانبهم يعيشون مثنى وثلاث في بيوت نصف مهدمة مفتوحة للرياح.

كان كبار الضباط منصرفين بكليتهم إلى توفير التبن والبطاطا، لأن غذاء رجالهم كان شغلهم الشاغل. وبقي مرؤوسوهم كعادتهم، يلعبون الورق لأن المال كان متوافراً رغم فقدان الأرزاق، أو يتسلون بألعاب بريئة كلعبة الأسطوانات ولعبة الـ:«شعايكا» وهي عبارة عن وتد مغروز في الأرض يحاول اللاعبون إحاطته بحلقة يلقونها عليه من مسافة معينة. أما سير العمليات الحربية العام، فلم يكن أحد يتحدث عنه لسببين: الأول أنهم ما كانوا يعرفون عنها شيئاً إيجابياً، والثاني أنهم كانوا يشعرون شعوراً مبهماً بأنها ليست على ما يرام.

وكما في الماضي، كان روستوڤ يشاطر دينيسوڤ منزله. ولقد أصبحت صداقتهما منذ إجازتهما الأخيرة أكثر وثوقاً. لم يكن دينيسوڤ يتكلم عن أسرة روستوڤ، لكن الود الذي كان القائد يظهره لضابطه المساعد، كان يوحي إليه بجلاء بأن غرام الفارس العجوز بناتاشا لم يكن غريباً عن هذا الإفراط في المعاملات الطيبة. كان واضحاً أن دينيسوڤ يجنب نيكولا المهام الخطرة فلا يرسله إلى المخاطر إلا نادراً، حتى إذا أرسله ورآه عائداً سليماً، أو وقع اشتباك مع العدو ونجا منه نيكولا كان دينيسوڤ لا يستطيع كتم فرحه وابتهاجه بسلامة الضابط الشاب. وقد اكتشف روستوڤ، خلال إحدى مهامه إلى قرية

www.Maktbah.com

مهجورة ظُن أن فيها أرزاقاً وعلفاً، وبولونياً عجوزاً وابنته التي كانت ترعى ولدها الرضيع. كانت تلك العائلة البائسة جائعة فقادها إلى معسكره وآواها في منزله وظل أسابيع طويلة يقوم على إطعامها انتظاراً لشفاء العجوز المريض.

وذات مرة، كان أحد زملاء نيكولا يزوره، فدار الحديث حول النساء. وهنا راح الزميل يمزح معه متهماً إياه بأنه أخفى عن أصدقائه بمكر ودهاء البولونية الحسناء التي أنقذها. ولم ترق الدعابة روستوف، فانفصل وثار وحمل على الضابط الزميل حملة بلغت من العنف أن دينيسوف وجد صعوبة كبيرة في حل المسألة ومنع الضابطين من التقاتل. ولما رحل الضابط المزاح، أنّب دينيسوف نيكولا على انفعاله وخصوصاً أنه شخصياً لم يكن يعرف عن علاقة الضابط الشاب بالبولونية الحسناء شيئاً. فأجاب روستوف: ولكن... أنا أنظر إليها نظرتي إلى أخت ولا يمكنني أن أفصح لك إلى أي مدى شعرت بإيلام حديثه... لأنني... لأن...

ربت دينيسوف كتفه بإخاء وراح يذرع الغرفة دون أن ينظر إليه، كعادته كلما كان منفعلاً. وأخيراً همهم قائلاً: إنكم جميعاً بلهاء في أسرتكم!

لكن روستوف لاحظ أن عينيْ دينيسوف كانتا مبللتين بالدموع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

عندما رجع الأمبراطور في شهر نيسان عادت الحياة إلى وحدات الجيش. لم يتمكن روستوف من حضور العرض الذي أقيم احتفاءً بالملك في بارتنتشتن لأن خيّالة پاڤلوغراد كانوا معسكرين عند الخطوط الأمامية. وكان روستوف ودينيسوڤ يسكنان كوخاً حُفر في الأرض، وغطي بالأغصان والحشائش، وفيما يلي الطريقة التي أصبحت شائعة في إقامة مثل هذه الأكواخ. كانوا يحفرون خندقاً عرضه متر وعمقه متر ونصف المتر وطوله متران ونصف المتر. وفي أحد الجانبين، يحفرون درجات متناسقة لتكون مدخلاً للغرفة التي هي الخندق نفسه. وكان المجددون من الضباط، كقائد الكوكبة مثلاً، يتمتعون بلوح من الخشب قائم على ركيزتين، ليقوم مقام الطاولة. وعلى جانبي الخندق وعلى عمق ستين سنتيمتراً، كانت الأرض تحفر، وبذلك يتهيأ للساكنين السرير والكنبات، وكان السقف يسمح لشاغل الغرفة بالوقوف في منتصفها بل في الجلوس على السرير، وذلك في الجزء القريب من الطاولة. وبما أنّ فرسان دينيسوڤ يحبونه، فإنهم بفضل ذلك التعلق منحوه شيئاً من الترف في كوخه، إذ أقاموا له في مقدمة السقف قطعة من الخشب مزينة بقطعة زجاج للإنارة. صحيح أن الزجاج كان محطماً، ولكن أجزاءه كانت ملصقة بعضها إلى بعض بوسيلة ما. وإلى جانب ذلك، فإن جنوده كانوا يأتونه، كلما اشتد البرد، بقطعة من الصفيح يضعونها على الدرجات التي كان دينيسوڤ يدعوها: غرفة الاستقبال، ويملأون تلك القطعة من الصفيح بجمر متقد،

www.Maktbah.com

يجمعونه من نيران المهاجع، وبذلك كان الجو رائعاً في كوخ الزميلين حتى أن الضباط كانوا يجتمعون بوفرة في مسكنهما المترف ويخلعون ستراتهم أحياناً بسبب رداءة جوه.

عاد روستوف من الحراسة بعد ليلة بيضاء، حوالى الساعة الثامنة صباحاً، فأمر أن يأتوه بالجمر لأنّ ثيابه كانت مبتلة. أبدل ثيابه وأدى صلاته واحتسى الشاي وتدفأ ثم سوى أمتعته وأخلى ما كان على الطاولة، واستلقى على ظهره بعد أن خلع سترته، ووضع ذراعيه تحت رأسه. كان وجهه ملتهباً من الريح. أخذ يفكر بسرور في أن مهمته الاستطلاعية الأخيرة المثمرة سترقيه رتبة. وكان ينتظر زميله دينيسوف بفارغ الصبر ليثرثر معه. وفجأة دوى صوت دينيسوف الغاضب وراء الكوخ، فزحف روستوف إلى النافذة ليرى الشخص الذي يحدثه القائد. فتعرف إلى صف الضابط توبتشييانكو. كان دينيسوف يصيح به قائلاً: لقد أعطيت متعمداً الأمر بمنعهم من التهام جذر ماري ذاك! وها إنني أرى لازارتشوك يحمل هذه النبتة الخبيثة من الحقول!

فأجاب صف الضابط: لقد أصدرت إليهم الأوامر الصارمة يا صاحب النبالة لكنهم لا يصغون إليّ.

رجع روستوف واستلقى وهو يحدث نفسه: «ليجهد نفسه بدوره، لقد أنهيت خدمتي وليس علي الآن إلا أن أنام، هذا هو خير»! لكن صوت صف الضابط أخذ يختلط في تلك اللحظة بصوت آخر، عرف فيه روستوف صوت الخبيث لافروشكا، تابع دينيسوف. كان ذلك الفتى يزعم أنه رأى أثناء ذهابه إلى توزيع الأرزاق، قوافل محملة بلحم البقر والبسكويت.

وأعقب ذلك صوت دينيسوف المدوي وهو يصيح آمراً: «المفرزة الثانية، أسرجوا الخيول»!.

تساءل روستوف: إلى أين يمضون؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

دخل دينيسوف إلى الكوخ بعد خمس دقائق، فزحف بحذاءيه الموحلين على السرير حيث دخن ملء غليونه وهو غاضب، ثم قلب أمتعته رأساً على عقب وأخذ سوطه وسيفه وهمّ بالخروج. ولما سأله روستوف عما ينوي، أجابه بلهجة غامضة ولكن حانقة أن عليه عملاً يريد أداءه. وأسرع خارجاً وهو يقول: ليحاكمني الله والأمبراطور العظيم!

تناهى إلى سمع روستوف وقع حوافر خيل وراء الكوخ تتخبط في الوحول. لكنه لم يحزن أو يحاول الاستيضاح لمعرفة المكان الذي كان صديقه يقصده. ولما كان الركن الذي انحشر فيه دافئاً، فقد نام ملء جفونه ولم يخرج من الكوخ إلا عند المساء. ولم يكن دينيسوف قد عاد بعد من رحلته. بدأ الجو يتحسن. رأى روستوف قرب الكوخ المجاور، ضابطين مع زميل لهما يلعبون وهم يغرسون في الوحل أوتاداً ويضحكون. فانضم إليهم. وبينما هم يلعبون، شاهدوا عربات تقترب يتبعها خمسة عشر فارساً على خيول هزيلة. أخذت القافلة والموكب المحيط بها يقتربان من مرابط الخيل، وهب حشد من الفرسان يحيط بالعربات. صاح روستوف: ها هي الأرزاق قد وصلت. مع ذلك فإن دينيسوف لم يكن يكف عن التبرم!

فقال الضابط: كم سيفرح الجنود الآن!

كان دينيسوف يتبع القافلة بين ضابطين من ضباط المشاة على جيادهم. وكان يتحدث معهما، فأسرع روستوف إلى لقائه. كان أحد الضابطين، وهو نحيل الجسم بادي الغضب، يقول: إنني أنذرك يا كابتن...

فيجيبه دينيسوف: لن أعيد شيئاً.

ـ هل تدري ما تفعل يا كابتن! إن اغتصاب أرزاق إخوان في السلاح يعتبر تمرداً!... إن رجالي لم يتناولوا طعاماً منذ يومين!

ـ أما رجالي، فمنذ خمسة عشر يوماً!

www.Maktbah.com

فقال ضابط المشاة بصوت مرتفع: لكن هذه لصوصية يا سيدي، ولسوف تسأل عنها.

فصاح دينيسوف وقد نفد صبره: هلا كففت عن مضايقتي وإزعاجي!... سأسأل؟ حسناً. ليكن، لكنك لن تكون أنت المسؤول؟... فاجهد في الصمت أو حذار، حذار لنفسك!... أغرب عن وجهي!

فقال ضابط المشاة دون أن يرتبك: حسناً! هذه لصوصية وإني...

فزمجر دينيسوف ودفع جواده نحو المتكلم وصاح: إذهب إلى الشيطان، ولكن بأسرع من هذا الخطو!

كرر الضابط بلهجة متوعدة: حسناً، حسناً!

ولوى عنان جواده وابتعد خبباً يهتز على صهوة الجواد.

صاح دينيسوف متعمداً سماع الضابط المرتحل: كلب على دائرة من الأوتاد!

وهذه العبارة، هي الجملة الشائعة التي يستعملها الفرسان للسخرية من جنود المشاة الذين يمتطون صهوات الجياد. اقترب من روستوف وانفجر ضاحكاً وهو يقول: لقد انتزعت منهم مؤونتهم بالقوة، يا لقارعي الحصى! لا أستطيع ترك رجالي يموتون جوعاً.

كانت المؤن التي أحضرها دينيسوف لفرسانه، مرسلة إلى فيلق من المشاة.

غير أن لاڤروشكا الداهية أبلغ دينيسوف أنها لم تكن محروسة من قبل الجنود.

فاغتنم هذه الفرصة وأخذ مفرزة من فرسانه وانتزع الأرزاق من الضابطين بالقوة. وُزع البسكويت توزيعاً عادلاً وأعطي منه إلى الكوكبات الأخرى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وفي اليوم التالي استدعى الزعيم «دينيسوف» وقال له وهو يغمض عينيه بأصابعه:

ـ إليك الطريقة التي سأرى بها هذا الموضوع: أنا لا أعرف شيئاً ولا أتدخل في شيء. لكنني أوصيك بالذهاب إلى الأركان العامة، دائرة التموين وهناك حاول أن تتدبّر الأمر وأن توقع على تسلم كمية كذا وكذا من الأرزاق، فالمسألة ستدخل في نطاق جدي وقد تنتهي نهاية سيئة.

فور خروجه من لدن الزعيم مضى دينيسوف إلى الأركان العامة وهو يتوق بكل إخلاص إلى الأخذ بنصيحة رئيسه. ولم يعد إلا مساء وهو يلهث لشدّة الغضب. لم يكن روستوف قد رآه من قبل على مثل هذه الحال، لذلك راح يسأله عما به عبثاً. كان دينيسوف يكتفي بإرسال الشتائم بصوت أجش ويشفعها بالتهديد والوعيد. ذعر روستوف فقام إلى صديقه يخلع عنه ثيابه ويعطيه ما يشربه، وأرسل يستدعي الطبيب فصاح دينيسوف أخيراً:

ـ يحاكمونني بتهمة السلب، أنا... أعطني مزيداً من الماء... حسناً ليحاكموني! ذلك لن يمنعني من سحق هؤلاء الأوباش!... سوف أتحدث إلى الأمبراطور بهذا الشأن... أعطني قطعة ثلج...

قال الطبيب إنه يجب فصد دينيسوف، فلمّا استقطروا من ذراعه المغطاة بالشعر ملء صفحة من الدم الأسود، استطاع أخيراً أن يروي لهم ما وقع له. قال:

ـ وصلت إلى هناك فسألت: «حسناً، أين رئيسكم؟» فدلوني عليه وقال بعضهم: ـ انتظر قليلاً. فقلت: «لديّ عملي، ولقد قطعت ثماني مراحل، فأعلمه بقدومي» حسناً، ها إن رئيس اللصوص قد بدا وراح حضرته يلقي عليّ درساً قال إنها لصوصية! فقلت له: «اللص ليس الذي يستحوذ على الأرزاق لإطعام جنوده، بل الذي يحتكرها لمصلحة جيوبه!» فأمرني بالصمت. حسناً جداً،

www.Maktbah.com

أخيراً قال: ـ اذهب ووقّع على إفادتك لدى مفوض الأرزاق وستتبع قضيتك الطريق القانوني. ذهبت إلى هناك وعرفت في شخصي حضرة المفوض... خمّن من الذي يجعلنا نموت جوعاً؟

وضرب على الطاولة بقبضة يده المتوجعة بعنف حتى أن الطاولة كادت تنقلب، بينما ارتطمت الأقداح بعضها ببعض، وقال:

ـ أتدري من؟ تيليانين! قلت له: «هه، أهو أنت الذي تتركنا نتضوّر جوعاً وننفق من القحط؟» و، طا... طا... على وجهه المنتفخ السمين! «أيها الوحش القذر!» وطا... طا!...

وصاح بصوت أقرب إلى الصراخ وهو يكشف بضحكته الوحشية عن أسنانه البيضاء أسفل شاربيه الأسودين: لقد فتأت غضبي وفقرت عيني وطابت نفسي. ولو لم ينتزعوه من بين يدي لقتلته.

قال له روستوف: هيا، لا تصرخ هكذا، هدئ روعك. ها هو الدم قد عاد ينزف مجدداً. ابقَ هادئاً ريثما أعيد تضميد جرحك.

جرى تضميد ذراع دينيسوف وأودع السرير. وفي اليوم التالي استفاق وقد هدأت نفسه. ولكن حوالى الظهر، وصل الضابط المرافق وجهه مكتئب يحمل طابع الجد والحزن، فدخل كوخ الزميلين وسلم إلى الماجور دينيسوف ورقة رسمية من قبل الكولونيل، ورقة تحمل أسئلة حول مسألة الأمس. قال الضابط المساعد: إن المسألة تدخل الآن في مرحلة سيئة للغاية وقد تشكلت لجنة التحقيق، وإن أقل ما ينتظر دينيسوف من عقاب هو نزع رتبته عملاً شكلياً بالأنظمة الجديدة المتعلقة بأعمال السلب والعصيان.

زعم المشتكون أن دينيسوف بعد اغتصابه الأرزاق، جاء إلى مفوض الإعاشة العام، وهو في حالة سكر دون أن يستدعيه أحد وهناك هدد المفوض

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واتهمه باللصوصية. عندما طرد، اندفع إلى أحد المكاتب فانهال على موظفين ضرباً وخلع ذراع أحدهما.

وسأل روستوف زميله فاعترف هذا ضاحكاً بأن شخصاً آخر تدخّل في العراك. زعم أن كل هذه الأمور عديمة الجدوى وكان يستخف بكل المحاكم ويقول إنه إذا تجرأ هؤلاء اللصوص على منازلته فإنه سيتصرف حيالهم تصرفاً يجعلهم يحتفظون بذكراه زمناً طويلاً.

وبالرغم من أن دينيسوف كان يتظاهر باللامبالاة، فإن روستوف كان يعرفه تماماً ويدرك أنه كان في أعماق نفسه متهيباً نتائج فعلته رغم كل محاولاته إخفاء شعوره عن زميله. استمرت أوراق التحقيق ترد كل يوم ليجيب دينيسوف عنها حتى مطلع شهر أيار، حيث تلقى أمراً رسمياً بإسناد قيادة الكوكبة إلى أقدم ضابط بعده، وأن يمثل أمام قيادة الفيلق الذي يتبعه للإجابة عما قام به في دائرة التموين.

وكان بلاثوف قد قام بالأمس بعملية استطلاع مع سريتين من الخيالة القوقازيين وكوكبتين من الفرسان. فاندفع دينيسوف كعادته إلى الخطوط الأمامية وهناك أصيب برصاصة، انطلقت من الجانب الفرنسي، في ربلة ساقه. وانتهز دينيسوف تلك الفرصة، وهو الذي لم يكن ليغادر السرية من أجل جرح بسيط كهذا، فرفض المثول أمام قيادة فيلقه وطلب إرساله إلى المستشفى لمعالجته.

الفصل السابع عشر

وفي حزيران، اندلعت معركة فريدلاند، تلك التي لم يساهم فيها خيالة پاڤلوغراد، وتلت تلك المعركة هدنة بين الجانبين، فاستغل روستوف الفرصة طالباً الإذن بزيارة صديقه دينيسوڤ الذي كان يشعر بفراغ عميق لغيابه. كان قد حرم من كل الأخبار حول صحة صديقه، لذلك كان يشعر بقلق شديد عليه خصوصاً فيما يتعلق بنهاية قضيته.

دُمّر المستشفى الواقع في بروسي مرتين من قبل الفرنسيين والروس على السواء. كانت تلك المدينة الصغيرة بمبانيها المتهدمة ودوائرها المتداعية وشوارعها المليئة بالأقذار، والتي كان سكانها يهيمون على وجوههم بأطمارهم، مختلطين بالجنود بين ثمل ومريض، تتناقض في مظهرها البائس مع صفاء الصيف وروعته المتفجرة في كل مكان من السهول المحيطة بها، وتعطي لوناً قاتماً تنقبض له القلوب.

كان بيت من الحجر بنوافذه المحطمة إلا بعضها، يستخدم كمستشفى للجنود الجرحى والمرضى. وفي فناء ذلك البيت، بين حطام من الركام، كان بعض الجنود، شاحبي الوجوهِ هزيلين، يروحون ويغدون وهم في ضماداتهم القذرة ويستريحون تحت أشعة الشمس.

لم يكد روستوف يجتاز العتبة، حتى اندفعت إلى صدره رائحة العفن والأدوية فغصت بها حنجرته. والتقى على السلّم طبيباً روسياً يضع سيجاراً بين شفتيه، كان الطبيب يقول لمساعده الذي كان يصحبه: لا أستطيع أن أنقسم إلى أربعة، تعالى هذا المساء عند ماكير أليكسييـڤيتش سأكون هناك.

twitter @baghdad_library

عرض عليه مساعده سؤالاً آخر فأجابه: اعمل ما تراه مناسباً! على أن يعود ذلك عليهم بالخير!

وفي تلك الأثناء شاهد الطبيب روستوف فسأله:

ـ ماذا جئت تعمل هنا، نبالتك؟ ألأن المقذوفات النارية قد أخطأتك جئت تنشد إصابة بالتيفوس؟ هنا يا عزيزي بؤرة مرض حقيقية.

ـ كيف ذلك؟ ذلك لأن التيفوس منتشر يا سيدي العزيز. الموت مصير كل من يدخل إلى هنا. لم يبق إلا أنا، ماكييڤ وأنا ـ وأشار إلى الممرض ـ وقد بقينا بعيدين عن التلف. لقد مات خمسة من زملائي هنا.

وأردف برضى واضح: عندما يأتي شخص جديد، فإن ثمانية أيام تكفي ليأخذ نصيبه. لقد طلبنا عدداً من الأطباء الروس. لكن حلفاءنا الطيبين سدوا آذانهم عن سماع أصواتنا.

أبلغه روستوف أنه يرغب في رؤية ضابط الخيالة دينيسوف فقال الطبيب: دينيسوف؟ لا أعرفه؟ إن سبب ذلك يا عزيزي أنني مسؤول وحدي عن ثلاثة مستشفيات تضم أكثر من أربعمائة مريض! لكننا سعداء بعض الشيء لأن سيدات روسيات من ذوات الروح المحسنة، يرسلن إلينا قهوة ونسيلاً[1] بمقدار ليبرتين شهرياً ولولا ذلك لضعنا.

استطرد الطبيب ضاحكاً: أجل يا عزيزي، أربعمائة مريض، ثم يرسلون إليّ كل يوم مرضى جدداً. أليس لدينا أربعمائة مريض وأكثر؟ همْ؟

لكن مساعد الطبيب الذي وجه إليه الطبيب السؤال الأخير كان يبدو متعباً، غير منكّد من ثرثرة رئيسه إلا بمقدار. عاد روستوف يقول:

ـ إنه الماجور دينيسوف الذي جرح في مولوتان.

ـ أعتقد أنه مات. أليس كذلك يا ماكييڤ؟

---

(١) نوع من القطن المعقّم. (المترجم).

www.Maktbah.com

كان الطبيب يتحدث بلا مبالاة. فلما لم يؤيد مساعده ذلك الزعم، التفت إلى روستوف وسأله: ألم يكن طويلاً أحمر؟

أعطاه روستوف أوصاف صاحبه فقال الطبيب وهو مبتهج: نعم، نعم. لقد كان لدي واحد مثله. لكنني أعتقد أنه مات. على كل حال سأعيد فحص قوائم الأسماء. هل هي عندك يا ماكييڤ؟

فأجاب المساعد: إنها عند ماكير أليكسييـڤيتش.

ثم تابع محدثاً روستوف: أدخل إلى قاعة الضباط وسترى بنفسك.

لكن الطبيب اعترض قائلاً: لا تذهب إلى هناك يا عزيزي خشية أن تضطر إلى البقاء أبداً.

لكن روستوف أجابه بتحية قصيرة وطلب إلى المساعد أن يقوده إليها. فصاح الطبيب من أسفل السلم مشيعاً: لا تلمني أقله بعد ذلك.

انطلق روستوف ودليله في دهليز معتم. وكانت الرائحة شديدة فيه حتى إن روستوف اضطر إلى سد منخريه والتوقف فترة ليستعيد نشاطه. فُتح باب إلى اليمين وبدا في فتحته رجل معتمداً على عكازين وهو هزيل أصفر الوجه، حافي القدمين، في ثياب النوم. كان متكئاً على إطار الباب ينظر إلى القادمين بعينين ملتهبتين ملؤهما الرغبة والحسد. ألقى روستوف نظرة إلى الداخل فرأى الجرحى والمرضى نائمين على الأرض فوق المعاطف أو أكوام من التبن. سأل دليله: هل أستطيع إلقاء نظرة؟

فأجاب المساعد وهو عازف عن الدخول: لا يوجد شيء يستحق المشاهدة.

لكن نفوره دفع روستوف، على عكس ما كان يتوقع، إلى دخول الغرفة، كانت الرائحة التي اعتاد روستوف استنشاقها أخيراً، أشد نفاذاً في تلك الغرفة، رغم أنها كانت مختلفة بعض الشيء عن رائحة الدهليز. وكان واضحاً أن تلك الغرفة كانت مبعث الرائحة المنتشرة في الخارج.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أشعة الشمس تضيء تلك الغرفة الطويلة إضاءة نافذة إليها خلال نوافذ مرتفعة. وكان المرضى مستلقين في صفين ـ بينهما ممرّ ـ على الأرض ورؤوسهم لصق الجدار. وكان معظمهم في النزع الأخير، لذلك فإن دخول روستوف ودليله لم يثر في النفوس أي رد فعل. أما أولئك الذين كانوا محتفظين بوعيهم، فقد تناهضوا لينظروا إلى روستوف أو اطلعوا عليه بوجوههم المصفرة الهزيلة، يلتهمونه بعيونهم بنظرة تكاد تكون متشابهة في كل العيون، نظرة اختلط فيها الأمل في نيل غوث عاجل، بالحسد على الصحة التي يتمتع بها الزائر، اجتاز روستوف الغرفة ووقف في منتصفها وهناك أتيح له أن يرى خلال الأبواب الأخرى المفتوحة، مشاهد مماثلة في الغرف المجاورة.

أذهله ذلك المشهد الذي لم يكن متوقعاً، فوقف صامتاً يجيل نظره فيما حوله. كان أحد المرضى مسجى على الأرض قرب قدميه، ممدود الساقين والذراعين. يبدو عليه أنه قوقازي، بدلالة شعره المحلوق على الطريقة الروسية. كان ذلك الرجل مصطبغ الوجه بحمرة الأقحوان، لا يبدو من عينيه الغاربتين إلا بياضهما وكانت العضلات متصلبة على أطرافه العارية أشبه بالحبال المشدودة. قرع الأرض بمؤخرة رأسه وأطلق نداء بصوت أجش راح يكرره بإلحاح. فأصغى روستوف إلى ندائه وتبين أنه يقول: «ماء، اسقوني ماء» فأخذ يبحث بعينيه عمن يمكنه أن يعيد المريض إلى مكانه ويسقيه جرعة ماء. سأل المساعد: من المكلف هنا العناية بالمرضى؟

دخل خادم القاعة، في تلك اللحظة، وهو جندي من صفوف الجيش، قادماً من غرفة مجاورة، جاء بخطوات متزنة حتى وصل إلى حيث كان روستوف، وهناك ضرب الأرض واتخذ وضعية الاستعداد.

صاح وهو يظن أن روستوف هو أحد الرؤساء في المستشفى، فحدّق إلى وجهه بإلحاح.

ـ صحة جيدة لنبالتكم السامية!

www.Maktbah.com

فقال له روستوف وهو يشير إلى المريض: أعد هذا إلى مكانه واسقه ماء.

أجاب الجندي بحماسة وسرور واضح وقد اتسعت عيناه: كما تأمرون نبالتكم.

إلا أنه بقي واقفاً في وضعية التأهب لا يتحرك. فخفض روستوف عينيه وخاطب نفسه في سره: «لا شك أنه ليس هناك ما يعمل!» ولما همّ بالخروج، شعر إلى يمينه بنظرة ملحة عنيدة تتفحصه. فالتفت إلى تلك الناحية كان الرجل الذي يتفحصه، جندياً عجوزاً ذا لحية شهباء ووجه صارم أشبه بوجوه الموتى، وكان جالساً على معطفه في آخر الصف تقريباً. وكان أحد زملائه القريبين منه يهمس في أذنه وهو يشير إلى روستوف. أدرك روستوف أن العجوز يرغب في أن يقول له شيئاً فاقترب منه ورأى أنه قد فقد إحدى ساقيه من فوق الركبة، أما الأخرى فكانت مثنية تحته. وبالقرب منه رأى جسد جندي شاب، مسجى على الأرض، مائل الرأس إلى الوراء ذي أنف أفطس وعينين غاربتين ووجه شمعي ملطخ ببقع الدم. فحص روستوف الجندي سرت عندئذ قشعريرة في عموده الفقري. قال للمساعد: أعتقد أن هذا...

فقاطعه الجندي العجوز وقد سقط فكه من الانفعال: للمرة العشرون نطلب إليهم فيها ذلك يا صاحب النبالة. لقد مات منذ الصباح. إننا رغم كل شيء، لسنا كلاباً...

فقال مساعد الطبيب مسرعاً: فوراً، فوراً. سوف أنقله من هنا... ولو تتفضلون نبالتكم وتتبعونني...

فغمغم روستوف مبادراً: هيا، لنذهب، لنذهب.

وخفض رأسه محاولاً أن يمر دون أن تلتقي عيناه تلك النيران المتقاطعة التي تنبعث من العيون الطافحة بالرغبة واللوم. وأسرع روستوف يغادر القاعة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

أدخل المساعد روستوف إلى قاعة الضباط في آخر الممشى، تتألف القاعة من غرف ثلاث مفتوحة الأبواب مطلة بعضها على بعض. وعلى الأسرّة جلس أو استلقى عليها الضباط المرضى أو الجرحى. كان بعضهم يرتدي معاطف المستشفى، يروح ويجيء على طول القاعة متنزهاً. كان أول شخص وقعت عينا روستوف عليه، رجلاً قصير القامة، نحيل البنية، أبتر الذراع، يرتدي معطفاً وقلنسوة من القطن، ويعض بين أسنانه غليوناً قصيراً، يذرع الغرفة. تذكر روستوف بشكل غامض أنه رأى ذلك الوجه في مكان ما. قال الرجل القصير: آه! كيف التقينا! توشين، ألا تذكر توشين الذي أعادك إلى شوڤنغرابن؟... إنك ترى أنهم اقتطعوا مني قطعة صغيرة...

وأشار إلى كم معطفه الخاوي مبتسماً.

أطلعه روستوف على غايته من زيارة المستشفى فقال هذا:

ـ ڤاسيلي ديمترينـڤتيش دينيسوف؟ بالطبع إنه هنا. تعال، تعال...

واصطحبه توشين إلى غرفة مجاورة كانت تنبعث الضحكات منها عالية.

قال روستوف في نفسه: «كيف، أيضحكون! وأنا الذي كنت أتساءل كيف يمكن لهم أن يعيشوا في مثل هذا الجو!» كانت رائحة الجثة تلاحقه، والحاجز المزدوج من النظرات المشعة بالرغبة واللوم تطارده ووجه الجندي الشاحب ذي العينين الغاربتين لا يزال ماثلاً في خاطره.

www.Maktbah.com

التحف دينيسوف، وهو نائم، بأغطيته والتفّ بها رغم أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة.

صاح بمثل صوته الذي عُرف به في السرية: صاح روستوف! مرحباً مرحباً!

لاحظ روستوف بصعوبة أن شعوراً بالمرارة يطفو على ذلك المظهر المرح ويطبع وجه دينيسوف بطابعه الأليم ويظهر حتى في لهجته، رغم طلاقته الطبيعية في الكلام.

رغم بساطة الجرح وبعد انقضاء ستة أسابيع، لم يلتئم هذا الجرح. وكان وجهه منتفخاً ككل الموجودين في المستشفى. لكن ما زاد في دهشة روستوف كان مظهر صديقه وهيئته. كان يبدو قليل المرح بمشاهدته يبتسم غصباً عنه. لم يسأله عن أحوال الفيلق ولا عن سير الأمور العام، ولما حاول روستوف طرق هذه الموضوعات، تظاهر دينيسوف بعدم الإصغاء.

كذلك لاحظ روستوف أن كل تلميح إلى الحياة الوديعة التي يحيونها خارج جدران المستشفى كان يؤلمه. كان يبدو بلا ريب راغباً في نسيان حياته السابقة، فلا يشغله إلا ما وقع له مع جماعة مفوضية التموين والإعاشة ولما سأله روستوف عما وصلت إليه تلك القضية، أخرج من تحت وسادته ورقة تلقاها أخيراً من الهيئة وأطلعه على مسودة جوابه عليها. اتقد انفعالاً وهو يقرأ له الرد الذي أبرز فيه النقاط والطعنات التي كان يوجهها إلى أعدائه. وما إن بدأ القراءة، حتى تفرق زملاؤه الذين كانوا قد التفوا حول روستوف في شبه حلقة محكمة حين مجيئه يدفعهم حب استطلاع ما في جعبة القادم الجديد. قرأ روستوف على وجوههم ما يشير إلى أن رؤوسهم كانت متصدعة من هذه المسألة بالذات، فلم يبق من يصغي إليه إلا زميل له على سرير مجاور، وهو

twitter @baghdad_library

رمّاح ضخم الجثة كان يمضغ قصبة غليونه بوجه عابس مكفهر، وتوشين الأبتر كان يعلن استنكاره بهزات من رأسه.

قال الرماح الضخم قاطعاً على دينيسوف قراءته فجأة: في رأيي إن ما يجب عمله هو التماس رحمة الأمبراطور مباشرة، لقد سمعت أن مكافآت كثيرة ستوزع، إذن فإن العفو ليس ببعيد...

قال دينيسوف بلهجة حاول أن يودعها كل حيويته القديمة، لكنها بدت أشبه بالعويل اليائس! التماس الصفح من الأمبراطور! ولمَ ذلك؟ لو أنني كنت لصاً لطلبت الغفران. لكنهم إذا كانوا يلاحقونني، فما ذلك إلا لأنني كشفت النقاب عن هؤلاء الأنذال. ليحاكموني، فلست أخشى أحداً. لقد خدمت دائماً القيصر والوطن بكل شرف. أنا لست لصاً... ثم إنهم يحاولون نزع رتبتي بينما... اسمع. إنني أقول لهم بكل صراحة: «لو أنني كنت مخالفاً واجباتي...».

فتدخل توشين قائلاً: إنها ليست عبارة رديئة ولا شك. لكن الأمر يتعلق بهذا...

وتابع مستشهداً بروستوف: يجب على المرء أن يخضع بينما ڤاسيلي دميتريتش يرفض ذلك، لقد أخطرك أمين لجنة التحقيق بأن مسألتك سيئة.

ـ ليكن! لست أبالي...

فألح توشين وتابع وهو يشير إلى روستوف:

ـ لقد كتب لك ملتمساً فيجب أن توقعه وأن ترسله بواسطة هذا السيد. إن لديه ولا شك بعض المعارف في الأركان. لن تجد مناسبة أفضل من هذه.

فأجاب دينيسوف وهو يعود إلى تلاوته: لقد أعلنت من قبل: لن أنحني وأتوسل.

شعر روستوف غريزياً أن السبيل الذي أشار به توشين والآخرون كان

www.Maktbah.com

أفضل وأكثر سلامة. وكان يسعده أن يؤدي خدمة لصديقه لكنه كان يعرف استقامته المخيفة وإرادته التي لا تتزعزع. لذلك، لم يجرؤ على التدخل لإقناعه.

وعندما انتهى دينيسوف، بعد ساعة طويلة من قراءة المطاعنة، لم يجد روستوف بداً من السكوت. قضى بقية يومه في صحبة زملاء دينيسوف الذين عادوا يتجمهرون حوله. فقص عليهم ما كان يعرفه عن الموقف وأصغى بدوره إلى أقاصيصهم بينما كان دينيسوف محتفظاً بصمت مطبق.

وفي نهاية السهرة، استعد روستوف لمغادرة المستشفى. سأل صديقه عن أية خدمة يرغب إليه أداءها. فأجاب دينيسوف: بلى، انتظر.

وبعد أن ألقى نظرة على الضباط المجتمعين، أخرج من تحت وسادته أوراقاً وذهب إلى النافذة حيث كانت محبرته ليكتب. وبعد فترة عاد يقول وهو يسلم إلى روستوف مغلفاً كبيراً: إن الأدوية الكبيرة توصف للأدواء الوبيلة!

كان الملتمس الذي كتبه له أمين لجنة التحقيق، والذي لم يُذكر فيه شيء عن مساوئ مفوضية التموين، بل توسع إلى الأمبراطورية فيه أن يصفح عنه فقط، هو ما أودعه دينيسوف المغلف الكبير قال: ابعث بهذا ما دام ذلك...

لكنه لم يكمل جملته بل تقلصت قسمات وجهه بتأثير ضحكة مغتصبة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

سافر روستوف إلى تيلسيت[١] بعد أن أطلع الكولونيل قائد الفيلق على نتيجة مسألة دينيسوف، حاملاً الملتمس العتيد.

وفي الثالث عشر من حزيران، التقى الأمبراطوران في هذه المدينة الصغيرة فطلب بوريس دروبتسكوي من رئيسه المتنفذ أن يتبعه ذلك اليوم بحاشية جلالته، قال مبرراً طلبه: أود من صميم قلبي أن أرى الرجل الكبير.

وكان يعني نابليون الذي كان يُطلق عليه حتى ذلك اليوم اسم بيونابرت استهزاء كما كان يفعل الآخرون.

سأل الجنرال مبتسماً: هل تتحدث عن بيونابرت؟

ألقى بوريس نظرة على رئيسه أدرك بعدها على الفور أنه كان يمازحه وأنه يريد اختباره فحسب فأجابه: يا أميري، إنني أتحدث عن الأمبراطور نابليون. قال الجنرال وهو يربت كتفه بود: سوف تصعد بعيداً على سلم الترقي...

وصحبه معه. وبذلك كان بوريس من القليلين الذين حضروا محادثة تييمن[٢]. شاهد اللوحات مزينة بأحرف اسمي الأمبراطورين متداخلة بخط جميل، «ونابليون» على الضفة المقابلة يستعرض حرسه بينما كان ألكسندر

---

(١) اسمها اليوم سوفيتك مدينة ليتوانية فيها عقد بونابرت معاهدة مع الأمبراطور ألكسندر الأول. (المترجم).

(٢) نهر في ليتوانيا يصب في بحر البلطيق طوله ٨٣٠ كلم أُطلق اسمه على المحادثات التي جرت بين نابليون وقيصر روسيا. (المترجم).

www.Maktbah.com

صامتاً ينتظر في مبنى على شاطئ النهر. رأى العاهلين ينزلان في زورقيهما «ونابوليون»، وقد وصل الرمث قبل ألكسندر، يقترب من ألكسندر بخطوات سريعة ويمد له يده. ثم رأى الأمبراطورين يختفيان تحت الرواق.

كان بوريس منذ أن تسلل بين المتنفذين في المجتمع، قد اعتاد مراقبة كل شيء بدقة وتسجيل كل ما يدور حوله. وجه عنايته خلال مقابلة تيلسيت إلى الأشخاص الذين كانوا يرافقون «نابوليون» واستعلم عن أسمائهم ومزايا أزيائهم العسكرية والتقط بكل عناية كل ما كان يتفوه به المتنفذون الكبار. استشار ساعته في اللحظة التي دخل العاهلان تحت الرواق ولم ينس أن يعيد النظر إليها عندما خرج ألكسندر. تبين له أن المقابلة دامت ساعة وثلاثاً وخمسين دقيقة فسجل هذا التفصيل ذلك المساء بالذات بين عدد من التفاصيل الدقيقة الأخرى التي كان يشعر أنها ذات أهمية تاريخية.

ولما كان ألكسندر لم يصطحب معه إلا حاشية قليلة العدد، فإن وجود بوريس في عداد تلك الحاشية في تيلسيت كان في ذاته حدثاً هاماً وخطوة جيدة في طريق مستقبله، مستقبل شاب طموح كبوريس. لمس بنفسه عقب ذلك أن مكانته ازدادت قوة. فلم يعد معروفاً فحسب بل كان كذلك قبلة الأنظار. وقد كُلف مرتين مهمات لدى الأمبراطور حتى أن هذا بات يعرفه للنظرة الأولى، وبات أفراد الحاشية يدهشون إذا انقطع عن الظهور بينهم على عكس ما كانت عليه الحال من قبل عندما كانوا يتجنبون النظر إلى ذلك الوجه الجديد.

يسكن بوريس مع أحد زملائه الكونت جيلينسكي. كان ذلك البولوني الفني الذي نشأ في باريس، شديد التعلق بالفرنسيين. وبذلك فإن ضباط الحرس وكبار ضباط الأركان العامة الفرنسيين، ظلوا طوال مدة إقامتهم في تيلسيت يُدعون كل يوم تقريباً إلى تناول الطعام ظهراً ومساء لدى الضابطين المساعدين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أولم الكونت جيلينسكي، في الرابع والعشرين من حزيران، حفلة عشاء لأصدقائه الفرنسيين. وكان في الوليمة مدعو على جانب من الخطورة، وهو مساعد الميدان لناپليون، وعدد من ضباط الحرس وشاب من أسرة فرنسية قديمة كان وصيفاً للأمبراطور. وفي ذلك المساء، انتهز روستوف فرصة الظلام الدامس، وتسلل إلى تيلسيت في ثياب مدنية وتوجه إلى مسكن بوريس.

لم يبدل الجيش، الذي جاء منه روستوف، عواطفه تجاه الفرنسيين الذين تحوّلوا فجأة من أعداء إلى أصدقاء، لأن ذلك التحول لم يحدث إلا في القيادة العامة. أما الجيش، فقد بقي أفراده يشعرون نحو بوناپرت وأتباعه بذلك الشعور بالذات، الذي كان مزيجاً من الغضب والاحتقار والخوف. ومنذ فترة قصيرة كان روستوف يتناقش مع ضابط من قوقازيي فيلق بلا خوف وكان يؤكد أنه إذا وقع ناپليون أسيراً فإنهم لن يعاملوه معاملة أمبراطور بل معاملة مجرم. بل إنه منذ أمد جد قصير، التقى روستوف زعيماً فرنسياً جريحاً، فأفهمه عامداً أن من العبث قيام صلح بين عاهل شرعي كالقيصر وذلك المجرم بوناپرت. لذلك فقد دُهش عندما رأى في منزل بوريس عسكريين كان يتوقع أن يراهم في كل مناسبة في الخطوط الأمامية ليس هنا، فلما وقع نظره على ضابط فرنسي ظهر على عتبة الباب، شعر فجأة بالكراهية العسكرية تتفجر في أعماق نفسه، تلك الكراهية التي تستحوذ على كل كيانه عند رؤيته العدو. توقف قبالته وسأله باللغة الروسية عما إذا كان دروپتسكوي يسكن هنا. سمع روستوف صوتاً غريباً يخرج للقائه. فلما عرف روستوف، لم يستطع كتمان انزعاجه. لكنه مع ذلك اقترب منه مبتسماً وقال:

ـ آه! هذا أنت؟ أهلاً، أهلاً. سرتني رؤيتك.

أجاب روستوف ببرودة لأن البادرة الأولى التي ارتسمت على وجه

www.Maktbah.com

صديقه لم تفته: يبدو لي أنني أزعجك، أليس كذلك؟ لم أكن أرغب في المجيء لكن هناك مسألة اضطرتني...

ـ أبداً، أبداً! إنك لا تزعجني، لكنني دهشت عندما وجدتك بعيداً عن قطعتك.

وأجاب على صوت كان يناديه من الداخل: بعد لحظة أعود لأكون في تصرفكم.

كرر روستوف قوله: أنا أرى بوضوح أنني أزعجك.

تبددت آثار الانزعاج التي ارتسمت على وجه بوريس للوهلة الأولى. لقد استعاد هدوءه بعد أن أتيح له وقت للتفكير، فتوصل إلى القرار اللازم. أمسك بيدي نيكولا بهدوء وقاده إلى غرفة مجاورة. أخذ ينظر إليه بسكون حتى خيل إلى روستوف أن صديقه بدأ يستعمل القناع المعروف عند الأشخاص الذين يشقون طريقهم في المجتمع الراقي، قناع الحياة الزائفة. قال بوريس مجيباً: أبداً، إنك لا تزعجني. ما هذا القول؟ هل يمكن أن تسبب لي أنت أي إزعاج؟

واصطحبه بوريس إلى القاعة التي كان المدعوون منتظمين فيها بانتظار الطعام، فقدمه إليهم وبيّن لهم أنه ليس مذنباً بل ضابطاً من سلاح الفرسان، وصديقاً قديماً له. ثم قدم إليه الموجودين: الكونت جيلنسكي، الكونت ن.ن. الرئيس س.س. إلخ...

ألقى روستوف نظرة شرسة على الفرنسيين وحياهم بقساوة ثم لزم الصمت.

استقبل جيلنسكي هذا الدخيل في شيء من الحفاوة فلم يوجه إليه أية كلمة! أما بوريس، فتظاهر بأنه لم يشعر بالارتباك الذي أحدثه وصول روستوف، وراح شأن رجال المجتمع الراقي، يحاول إثارة الحديث بين الموجودين لإزالة الأثر الذي علق في النفوس. ورأى أحد الفرنسيين أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

روستوف لا يتكلم، فقال بالأدب المعروف عن بني قومه إنه يعتقد بأنه جاء إلى تيلسيت ليرى الأمبراطور. فأجابه روستوف بإيجاز: كلا، بل جئت بصدد قضية.

ساء مزاج نيكولا منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها بوادر التبرم على وجه بوريس فأخذ يتصور، كما هي الحالة في مثل هذه المواقف، أن كل الموجودين، والحقيقة أنه كان يزعجهم. لقد كان وحده بعيداً عن دائرة الحديث العام. فبدت الأنظار كلها كأنها تقول: «ماذا جاء يفعل هنا»؟ فنهض واقترب من بوريس وقال له بصوت منخفض: أشعر بأنني أزعجك. هيا بنا نتحدث قليلاً عن الموضوع الذي من أجله جئت وسأنسحب بعدئذ.

فأجابه بوريس: أنا لا أشعر بأي إزعاج. مع ذلك، إذا كنت تعباً، فهيا بنا إلى الغرفة المجاورة حيث يمكنك أن تستريح قليلاً.

ـ ذلك خير...

انسحبا إلى الغرفة الصغيرة التي ينام فيها بوريس فلما دخلاها، بدأ روستوف دون أن يجلس، وكأن بوريس أساء إليه في شيء ما، يتحدث بصوت خشن، عارضاً عليه الأمر الذي دعاه إلى اللجوء إليه. سأله عما إذا كان يستطيع أو يريد التدخّل في هذا الموضوع بواسطة الجنرال الذي كان يشغل منصب الضابط المساعد عنده، ليرفع الملتمس عن طريقه إلى الأمبراطور؟ اقتنع نيكولا لأول مرة خلال تلك المقابلة الخاصة أنه لا يجرؤ على النظر إلى وجه بوريس نظرة صريحة. كان هذا جالساً، واضعاً ساقاً على ساق، يفرك يديه ويصغي إلى نيكولا وكأنه جنرال يصغي إلى تقرير أحد مرؤوسيه ونظرته تشرد تارة في أحد الأركان وطوراً تنصبّ بوقاحة على روستوف وكلما شعر هذا الأخير بتلك النظرة المحجوبة بستار الرسميات «والبروتوكول» تنحط عليه، كان يشيح بنظره. قال بوريس: لقد سمعت قصصاً من هذا القبيل وأعرف أن

www.Maktbah.com

الأمبراطور يظهر قسوة في مثل هذه الأمور. وفي رأيي أن من الأفضل عدم اللجوء إلى جلالته في هذه المسألة بل التوجه بها مباشرة إلى قائد الفيلق... ثم إنني أعتقد...

قال نيكولا دون أن يرفع نظره إلى بوريس:

ـ إذا كنت لا تريد المساهمة في هذا الأمر فقل ذلك بكل صراحة!

فأجاب هذا مبتسماً: بل على العكس، سأعمل كل ما أستطيعه. لكن رأيي...

وارتفع صوت جيلينسكي، في تلك اللحظة يدعو «بوريس» من وراء الباب. فقال نيكولا: هيا، إذهب، إذهب...

رفع مشاركة الضيوف في طعامهم. ولما أصبح وحده، راح يذرع الغرفة الصغيرة بعصبية، بينما كانت الضحكات المرحة، وأصوات الفرنسيين ترتفع من القاعة المجاورة.

twitter @baghdad_library

الفصل العشرون

لم يستطع روستوف مقابلة الجنرال آمر الخدمة، إذ أخطأ في اختيار اللحظة المناسبة للمجيء إلى تيلسيت وكان في لباس مدني وقد غيب عن قطعته دون إجازة رسمية. أما بوريس، فإنه على فرض وجود النية الطيبة لديه ورغبته في أداء هذه الخدمة، ما كان يستطيع الشروع في تنفيذها غداة اليوم التالي لوصول صديقه القديم. والواقع أن في ذلك اليوم، السابع والعشرين من حزيران، جرى توقيع البنود التمهيدية للصلح، وتبادل الأمبراطوران أرفع أوسمتهما فتلقى ألكسندر الوشاح الأكبر لجوقة الشرف، وتقلد ناپليون وشاح سان أندريه الرفيع. بعد ذلك كان عليهما حضور حفلة كبرى يقيمها لواء من الحرس الأمبراطوري الفرنسي للواء من فيلق بريوبراجنسكي.

كان روستوف مرتبكاً في حضرة بوريس حتى أنه تظاهر بالنوم عندما رجع هذا إليه بعد العشاء. وفي صباح الغد اختفى في ساعة مبكرة دون أن يودعه. تاه في المدينة وهو في ثيابه المدنية يعتمر قبعة مستديرة، وراح يتأمل الفرنسيين في ألبستهم العسكرية ويتفحص الشوارع والبيوت التي ينزل فيها الأمبراطوران. وفي ساحة المدينة، لاحظ أن عدداً من الطاولات قد جهزت استعداداً لحفلة كبيرة. رأى الشوارع مزدانة بالأعلام الفرنسية والروسية، والحرفين الأولين «أ» و«ن» اللذين يرمزان إلى اسمي الأمبراطورين، مرفوعين في كل مكان على النوافذ، فلم تكن العين لترى أكثر من الأعلام والأحرف.

فكّر نيكولا في سره: «لا يريد بوريس أن يفعل شيئاً. ثم إنني لست متمسكاً بفكرة الركون إليه. لقد انتهى كل شيء بيننا. لكنني لن أرتحل من هنا

www.Maktbah.com

قبل أن أحاول المستحيل من أجل دينيسوف، وخصوصاً قبل أن أوصل رسالته إلى الأمبراطور... الأمبراطور؟ لكنه هنا!...».

ورغماً عنه، اقترب من الدار التي ينزل فيها ألكسندر وقد كانت بعض الخيول المسرجة، خيول الركوب، تزدحم قرب الباب وكان نفر من ضباط الحاشية يتقاطر حول المكان، فأيقن أن الأمير على وشك الخروج.

فكر روستوف: «إنني أستطيع أن أراه في كل لحظة. ليتني فقط أتمكن من تسليمه الملتمس يداً بيد، لأشرح له المسألة!... لكنني في ثياب مدنية، ولعلهم سيوقفونني من أجل ذلك! ولكن كلا، لن يحدث ذلك... إن الأمبراطور سيعرف جهة الحق فيدعمها. إنه يفهم كل شيء ويعرف كل شيء. من الذي يستطيع أن يكون أكثر عدالة أو كرماً منه؟... وبفرض أنهم أوقفوني لأنني هنا، ماذا يهم ذلك!...».

عندما رأى الضباط يدخلون إلى المقرّ الأمبراطوري دون عوائق قال لنفسه: «إه، لكنهم يدخلون بكل سهولة... هيا تشجع يا رجل! سوف أسلم الملتمس إلى الأمبراطور بنفسي. الحق على دروپتسكوي الذي أوصلني إلى اتخاذ مثل هذا التدبير».

وفجأة، وبعزم لم يعهده في نفسه، توجه روستوف مباشرة إلى مدخل المسكن وهو يلمس الملتمس في جيبه.

قال محدثاً نفسه: «لن أدع الفرصة تفوتني هذه المرة كما حدث في أوسترليتز!» كان يتوقع أن يرى نفسه بعد كل خطوة وجهاً إلى وجه مع الأمبراطور. وإزاء تلك الفكرة، كان الدم يقفز من كل أطرافه ليطفح به قلبه «سألقي بنفسي على قدميه مسترحماً، فيرفعني ويصغي إليّ، بل إنه سيشكرني كذلك». وأخذ خياله يسمع أذنه صوت الأمبراطور يقول له: «إنني سعيد إذ أستطيع فعل خير، وإن رفع الظلم عن بعضهم هو غاية سعادتي».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

اجتاز الممشى تحت وابل من نظرات الضباط الفضولية وهناك، انتصب أمامه سلم عريض يقود إلى الطبقة الأولى مباشرة. وكان إلى اليمين باب مغلق. وفي أسفل السلم، باب آخر يطل على البناء الأرضي. سأله بعضهم:

ـ ماذا ترغب؟

فأجاب نيكولا وفي صوته رعدة:

ـ رفع ملتمس إلى جلالة الأمبراطور.

ـ ملتمس؟ إذهب إلى ضابط الخدمة. من هنا من فضلك. وأشار له إلى الباب الذي في أسفل السلم، لكنه لن يستقبلك.

عندما سمع روستوف ذلك الصوت الواضح، شعر بفداحة عمله. كانت فكرة استقبال الأمبراطور، ترعبه لدرجة أنه كان يفضل الفرار من هذا المأزق لولا أن فتح له الضابط المنوب باب غرفة ضابط الخدمة فاضطر إلى الدخول.

رأى رجلاً ضخماً في العقد الثالث من عمره، يرتدي سراويل بيضاء وينتعل حذاءي الفرسان طويلي الساق، واقفاً في منتصف الغرفة. كان قد انتهى من ارتداء قميص رقيق من «الباتيستا» الفاخرة وكان وصيفه يضع له حمالات السراول الجديدة الموشاة بالحرير. وكان يتحدث مع شخص آخر في غرفة مجاورة. وقد لفتت هذه الملاحظة انتباه روستوف. كان الرجل الضخم يقول: جيدة التكوين وبجمال الشيطان...

لكنه لما وقع نظره على روستوف، قطب حاجبيه وقطع حديثه وقال له: ماذا تريد؟... ملتمس؟...

وسمع الصوت الآخر يقول من داخل الغرفة: ما هذا؟

فأجابه الرجل ذو الحمالات الجديدة: إنه مستدع جديد.

ـ قل له أن يعود مرة أخرى. إنه على وشك الخروج يجب أن نمتطي خيولنا الآن.

www.Maktbah.com

دار روستوف على أعقابه وهم بالخروج عندما استوقفه الرجل الضخم سائلاً: من أنت؟ ومن طرف من الملتمس؟

ـ من طرف الماجور دينيسوف.

ـ وأنت من تكون؟ ضابط؟

ـ الملازم الكونت روستوف.

ـ يا للجرأة! أرسل الطلب عن طريق التسلسل. هيا، إذهب وأسرع، أسرع...

وارتدى ثوبه الذي جاء به الوصيف في تلك اللحظة.

عاد روستوف إلى الممشى فرأى عدداً كبيراً من الجنرالات والضباط في ثياب الحفلات مجتمعين عند باب البيت، فكان عليه أن يمر بينهم.

لعن جرأته، وخارت قواه لمجرد تفكيره في أنه سيغمر بالخجل ويوقف ويسجن في حضرة الأمبراطور. أدرك سوء تصرفه في تلك اللحظة فراح يتسلل مطأطئ الرأس خارجاً من ذلك البيت وعدد من الأتباع المرموقين محدقين إليه. وفجأة استوقفته يد أحدهم. سمع صوتاً منخفض الطبقة خشناً يقول له: هه أيها الباسل! ماذا تعمل هنا وفي ألبسة مدنية؟

عرف صاحب الصوت. كان قائد فيلقه القديم، وهو جنرال استطاع خلال الحملة الأخيرة أن يحظى بعطف الأمبراطور وتقديره. ارتبك روستوف لأول وهلة وهمّ بتبرير موقفه أمام الجنرال. لكنه اطمأن عندما رأى أمارات الطيبة مرتسمة على وجه هذا الأخير، فانتحى به جانباً وعرض عليه المسألة كلها وتوسل إليه أن يتدخل لمصلحة صديقه. وكان الجنرال يعرف دينيسوف جيداً، فهز رأسه بقلق وقال: إنها نهاية محزنة بالنسبة إلى هذا الباسل. أعطني الملتمس.

لم يكد روستوف يسلمه الرسالة حتى علا قرع المهاميز الدالة على

twitter @baghdad_library

حركة الأقدام على السلم، فتركه الجنرال ليعود إلى مركزه. كان القادمون أفراد الحاشية وقد أسرعوا إلى خيولهم يمتطونها. وجاء أينو، وهو نفسه الذي كان في أوسترليتز، يقود جواد الأمبراطور. ارتفع وقع خطوات على السلم فلم يجد روستوف عناء في معرفة صاحبها نسي الخطر الذي ينتظره إذا اكتشف أمره فاقترب واختلط بين عدد من الفضوليين حتى وصل إلى الباب. استطاع أن يرى، بعد فترة عامين طويلين، تلك القسمات المعبودة، وتلك النظرة المعروفة والمشية إياها، ذلك المزيج من الجلال والحلم... استسلم مجدداً، كانت تتسلط عليه من قبل. كان ألكسندر يرتدي سراويل بيضاء وينتعل حذاءي الفرسان، وقد بدا في زي فيلق بريوبراجنسكي وعلى صدره وسام كان روستوف يجهل نوعه وكان وسام جوقة الشرف. كان يغطي يديه في قفازيه واضعاً قبعته ذات الزاويتين تحت إبطه. توقف عند المدخل وألقى نظرة حوله، نظرة أضاءت كل ما حوله. توجه بحديثه إلى بعض الجنرالات وتعرف فوراً إلى قائد فيلق روستوف السابق، فابتسم له وأشار إليه أن يقترب.

ابتعد كل أفراد الحاشية. فرأى روستوف ذلك الجنرال يتحدث فترة غير قصيرة مع الأمبراطور الذي أجابه ببعض كلمات واقترب خطوة نحو جواده. ومن جديد اقترب الفريقان، فريق الحاشية وفريق الفضوليين الذي كان روستوف في عدادهم. ولما وصل الأمبراطور إلى حيث كان جواده، وضع يده على السرج واستدار نحو الجنرال وقال له بصوت مرتفع، ساعياً أن يبلغ قوله مسامع المتجمهرين: لا أستطيع يا جنرال لأن القانون أرفع مني مقاماً.

ووضع قدمه في الركاب فانحنى للجنرال باحترام. امتطى الأمبراطور جواده ومضى. وبلغت الحماسة بروستوف مبلغ الهذيان فاندفع مع الجمهور في أعقاب ألكسندر.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

كان لواءان يقفان متقابلين في الساحة التي ذهب إليها الأمبراطور، الأول إلى اليمين، لواء من فيلق بريوبراجينسكي، والثاني إلى اليسار لواء من الحرس المهاجم ذوي القبعات المصنوعة من الشعر.

وعندما وصل ألكسندر إلى أحد الجانبين اللذين يمثلان كل أقسام أسلحة الجيش كانت كوكبة من الخيالة تهدب نحو الجانب الآخر. عرف روستوف بغريزته أن السائر على رأس تلك الكوكبة الأخرى لم يكن إلا «ناپليون» ولا يمكن أن يكون أحد غيره. كانت قبعته الصغيرة على رأسه، وعلى صدره وشاح سان أندريه فوق ثوبه الأزرق الغامق الذي كان يكشف عند العنق عن صدارة بيبضاء وهو يمتطي صهوة جواد عربي رائع الجمال، تحلي ثوبه الرمادي، لبادة حمراء موشاة بالذهب. فلما أصبح بمحاذاة ألكسندر رفع قبعته. استطاعت عين الفارس روستوف أن تستشف، استناداً إلى تلك الحركة، أن «ناپليون» لم يكن خالياً من الارتباك والانفعال. ارتفعت الهتافات من حناجر جنود الألوية: هورّا! يعيش الأمبراطور! حدث نابليون «ألكسندر» بضع كلمات وترجل كلاهما وتصافحا. كان ناپليون يبتسم ابتسامة باهتة. أما ألكسندر فقد توجه إليه يحدثه ببشاشة.

كان يحفظ النظام بين الجماهير رجال من الدرك الفرنسيين رغم عدم استقرار جيادهم. راقب روستوف كل حركة من حركات الأمبراطورين لكن ما زاده دهشة، هو أن «ألكسندر» كان يعامل ناپليون معاملة الند للند. أما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بونابرت، فكان من جانبه يبدو وكأن علاقته وتآلفه مع ألكسندر أمر طبيعي جداً يعود إلى زمن بعيد.

اقترب ناپليون وألكسندر وأتباعهما المتعددون نحو لواء بريوبراجنسكي على الجانب الأيمن وهما يمشيان في خط مستقيم نحو الجموع المحتشدة. اقترب الأمبراطوران وأتباعهما من المتجمهرين بعد، أن خشي روستوف ـ وكان في الصفوف الأولى ـ أن يُكتشف أمره.

ارتفع صوت حازم يبرز كل حرف من أحرف الكلمات بوضوح قائلاً: يا صاحب الجلالة، أطلب إليكم السماح بتقليد أشجع جندي من جنودكم وسام جوقة الشرف.

كان بونابرت هو الذي يتكلم محدقاً إلى عيني ألكسندر من أعلى قامته القصيرة. فأصغى ألكسندر إلى كلماته بانتباه وأيدها بهزة من رأسه وابتسم ملاطفاً.

تابع ناپوليون محدداً عرضه وهو يقرع كل مقطع من مقاطع كلماته، بينما كانت عيناه تتصفحان صفوف الجنود الروس بهدوء واعتداد ثارت لهما نفس روستوف، في حين كان هؤلاء هادئين يقدمون التحية بالسلاح وعيونهم شاخصة إلى أمبراطورهم وحده:

ـ إلى ذلك الذي تصرف بأكثر بسالة خلال هذه الحرب الأخيرة.

فقال ألكسندر: هل تسمح لي جلالتكم باستشارة الكولونيل وأخذ رأيه؟

واتجه مسرعاً ببضع خطوات نحو الأمير كوزولوڤسكي الذي كان آمر اللواء. وفي تلك اللحظة نزع بوناپرت يده الصغيرة البيضاء من قفازها، فتمزق القفاز فألقاه جانباً. فأسرع أحد أفراد الحاشية يلتقطه.

سأل ألكسندر بصوته المنخفض الأمير كوزولوڤسكي:

ـ لمن نعطي الوسام؟

www.Maktbah.com

- إلى ذلك الذي تتفضلون جلالتكم باختياره.

قطب ألكسندر حاجبيه دلالة على عدم الرضى وقال وهو يلقي نظرة إلى الوراء: يجب إعطاءه الجواب رغم ذلك.

اعتزم كوزولوڤسكي أمراً، فطاف بالصفوف بنظرة بلغت مكان روستوڤ نفسه حتى أن هذا غمغم يحدث نفسه: أأكون أنا؟ ولم يلبث أن صاح بصوت شرس: لا زاريـڤ!

فتقدم الجندي الأول من الصف بخطوات عسكرية منسقة.

صاحت بعض الأصوات تحدث ذلك الجندي الباسل الذي لم يكن يدري أين يمضي:

- إلى أين تذهب؟ قف في مكانك!

فتوقف لازاريـڤ وهو يختلس نظرة مذعورة إلى وجه الكولونيل، كان وجهه متقلصاً بعصبية شأن كل جندي يستدعى في عرض عسكري شامل.

التفت نابليون التفاتة خفيفة من رأسه وحرك يده البيضاء كأنه يتناول شيئاً. فأسرع رجال الحاشية وقد أدركوا غايته من تلك الحركة، وماجت صفوفهم وهمسوا شيئاً تناقلته الشفاه إلى الآذان. وعندئذ أسرع تابع خاص، وهو الذي شاهد روستوڤ بالأمس عند بوريس، إلى حيث وقف سيده، فانحنى أمامه باحترام ووضع في اليد الممدودة وساماً ذا شريط أحمر. فضغط نابوليون بإصبعيه على الوسام دون أن ينظر إليه أو إلى قدمه واقترب من لازاريڤ الذي كان شاخص النظر إلى أمبراطوره بعينين جاحظتين فيهما عناد وإصرار ثم ألقى نظرة على ألكسندر وكأنه يقول إن ما يقوم به الآن، إنما هو من أجل حليفه لا أكثر. ارتفعت اليد البيضاء حاملة الوسام فاحتكت بثوب الجندي الروسي لازاريـڤ. كان نابليون يعتقد بلا شك أنه لكي يجعل هذا الجندي سعيداً إلى الأبد، ولكي يجعل منه مخلوقاً مغرقاً في الرعاية والإحسان، خلافاً لكل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مخلوقات العالم الآخر، يكفي أن تتنازل يده، هو ناپليون، بلمس صدره لمساً، لذلك اكتفى بأن ضغط صليب الوسام على صدر لازاريـف وسحب يده على الفور والتفت إلى ألكسندر كما لو كان واثقاً بأن الصليب سيبقى عالقاً في مكانه هناك. والواقع أنه بقي في مكانه معلقاً على صدر الجندي. ذلك أن يداً متلهفة فرنسية وروسية، تناولت الوسام على الفور وثبتته على صدر الجندي.

أثناء ذلك، نظر لازاريـف إلى الرجل القصير ذي اليدين البيضاوين، الذي قام بتلك الحركة، نظرة كئيبة، وهو مستمر في تقديم سلاحه بالتحية، ثم أشاح بنظره إلى ألكسندر وكأنه يسأل عما إذا كان يجب أن يبقى في مكانه أو يبتعد أو أن يفعل أي شيء آخر. ولما لم يتلق أي أمر، فقد ظل فترة طويلة منتصباً في مكانه ذاك في وضعيته.

اعتلى الأمبراطوران صهوتي جواديهما وابتعدا. فتفرقت صفوف لواء بريوبراجنسكي واختلط أفراده بجنود الحرس الفرنسيين الذين أقيمت الحفلة على شرفهم، وجلسوا إلى الطاولات.

احتلّ لازاريـف مكان الشرف. وكان ضباط من الفرنسيين والروس يهنئونه ويصافحونه بحرارة، وكان المدنيون والعسكريون على السواء يتدافعون ليحظوا بنظرة إلى وجهه. كانت الساحة كلها مدوية بأصداء الأحاديث والضحكات المرحة. مر ضابطان سعيدان، تشرب وجهاهما بحمرة النشوة، أمام روستوف. كان أحدهما يقول: يا له من احتفال يا عزيزي! لقد أخرجوا الأطباق الفضية ونثروها على الطاولات... هل رأيت لازاريـف؟

ـ نعم.

ـ سوف يقيم لواء بريوبراجنسكي حفلة على شرف الفرنسيين يوم غد على ما نُمي إليّ.

www.Maktbah.com

ـ يا له من محظوظ لازاريف هذا! تصور أنه نال بذلك مائتي فرنك جراية سنوية.

وصاح أحد الجنود الروس، في تلك اللحظة، وهو يضع على رأسه قلنسوة أحد جنود الحرس: أنظروا إلى هذه القلنسوة يا أولاد! عاينوها!

ـ إنها جميلة جداً!

وقال أحد ضباط بريوبراجنسكي لزميل له: هل تعرف كلمة السر؟ لقد كانت أول أمس: «ناپوليون، فرنسا، شجاعة» وأمس: «ألكسندر، روسيا، عظمة». إن أمبراطورنا يعطي كلمة السر ثم يعطيها ناپوليون في اليوم التالي، سوف يعطي جلالته صليب سان جورج غداً إلى أشجع جنود الحرس الفرنسيين. يستحيل بغير ذلك أن نعيد إليهم بادرتهم المهذبة.

وصل بوريس وصديقه جيلنسكي يعاينان الوليمة بدورهما. وبينما هو يلتفت عفوياً، شاهد روستوف واقفاً عند زاوية أحد المنازل. قال له:

ـ مرحباً يا روسوف! لم نكد نقابل بعضنا بعضاً.

ولما رأى سحنته المكفهرة لم يتمالك من سؤاله عن السبب فقال روستوف: لا شيء، لا يوجد شيء.

ـ ألا تمر بي لتزورني.

ـ كيف لا، بلى.

بقي فترة طويلة واقفاً في زاويته يتأمل الحفل الصاخب. كان يشعر في أعماق نفسه بصراع عنيف لا يستطيع الوصول به إلى نتيجة مرضية. كانت شكوك مخيفة تسيطر على نفسه. فتارة يتذكر دينيسوف، وتعابير وجهه غير المألوفة وخضوعه غير المتوقع، فيرى ذلك في المستشفى القذر بمرضاه ورائحته التي تشبه رائحة جثث الموتى، فتلاحقه تلك الرائحة وتزكم منخريه حتى أنه كان يستدير ليرى مصدر تلك الرائحة الكريهة. وطوراً يتمثل بوناپرت،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ذلك الرجل الرضي ذا اليد البيضاء، الذي أصبح الآن معترفاً به كأمبراطور، والذي كان ألكسندر يظهر حياله احتراماً وتودداً. وإذن لمَ هؤلاء الموتى وأولئك الذين فقدوا أطرافهم؟ وكان أحياناً يفكر في لازاريف والمكافأة التي منحت له، وفي دينيسوف وعقوبته التي لا يُنتظر الصفح عنها. لقد راودته أفكار غريبة جداً حتى أنه شعر بخوف منها.

فاحت رائحة الوليمة فأثارت شهيته إلى الطعام وأخرجته من أحلامه. كان مضطراً إلى تناول بعض الطعام قبل أن يعود إلى كوكبته. ذهب إلى فندق مر به ذلك الصباح فوجد فيه جمعاً غفيراً من الناس ومن الضباط في ثياب مدنية مثله، حتى أنه وجد صعوبة كثيرة في الحصول على الطعام. انضم إليه ضابطان من فيلقه ودار الحديث حول الصلح طبعاً. كان أولئك السادة، أسوة بعدد كبير من مؤيديهم في الجيش، يستنكرون ذلك الصلح بعد معركة فريدلاند. كانوا يزعمون أن الجيش الروسي لو قاوم مدة أخرى لقضي على نابليون، وأن جنوده لم يعودوا يملكون ذخيرة وعتاداً ومؤونة كافية. كان نيكولا يتناول طعامه ويكثر من الشراب دون أن ينبس بكلمة. ارتشف وحده زجاجتين من الخمر. كان لا يزال فريسة لذلك الصراع الداخلي المرير، يخشى الاستسلام لتفكيره وتأملاته دون أن يستطيع مع ذلك التخلص منها. وفجأة، وبعد أن قال أحد محدثيه إنه مخجل أن يرى المرء نفسه قبالة الفرنسيين، تصاعد الدم إلى وجه روستوف وصاح بحرارة لم يكن يبررها ذلك القول، مما أثار دهشة المتكلم والضباط كلهم:

ـ كيف يمكنك أن تعرف الأفضل؟ هل أنت الذي تحكم على تصرف الأمبراطور؟ من الذي يعطينا الحق في مناقشة ذلك؟ إننا لا نستطيع أن نعرف خططه وتصرفاته ولا أن نفهمها.

www.Maktbah.com

فأجاب الضابط معترضاً وهو يعزو اندفاع صديقه الفجائي إلى عامل الخمر: لكنني لم أتفوه بكلمة واحدة عن جلالته.

لكن روستوف لم يلق بالاً على أقوال الضابط، بل استمر يقول بأشد حماسة:

ـ نحن لسنا سياسيين بل جنود ليس إلا. فإذا أمرنا أن نموت فما علينا إلا أن نموت. وإذا عوقبنا فما ذلك إلا لأننا مذنبون. ليس من حقنا أن نناقش. وإذا راق جلالته الاعتراف ببونابرت كأمبراطور وعقد حلفاً معه، فإن معنى ذلك أنه ضرورة. فإذا رحنا نتدخل في الأمور ونناقشها، كان معنى ذلك انعدام كل شيء مقدس.

وازداد انفعالاً فضرب الطاولة بقبضة يده وصاح متمماً:

ـ ... وإلا بإمكاننا أن نقول إذن بأن الله غير موجود وأنه لا يوجد شيء في الدنيا! إن دورنا في الحياة هو القيام بواجبنا دون التفكير في شيء!

كان واضحاً أن ذلك اللوم العنيف، رغم ما بدا عليه في نظر المستمعين من أنه في غير محله، يشغل ركناً متيناً في سياق أفكار روستوف. فلما انتهى من حديثه بتلك الجملة، بادر أحد الضباط معقباً لتلافي كل نزاع أو قيام مشادة غير مرغوب فيها:

ـ وأن نشرب!

فأيده نيكولا قائلاً: نعم، وأن نشرب.

وصاح بالنادل آمراً:

ـ يا من هناك! زجاجة أخرى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

المحتويات

الجزء الأول ٧
الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ١٦
الفصل الثالث ٢١
الفصل الرابع ٢٧
الفصل الخامس ٣٣
الفصل السادس ٤٢
الفصل السابع ٤٨
الفصل الثامن ٥٣
الفصل التاسع ٥٨
الفصل العاشر ٦٧
الفصل الحادي عشر ٧٤
الفصل الثاني عشر ٧٨
الفصل الثالث عشر ٨٤
الفصل الرابع عشر ٨٨
الفصل الخامس عشر ٩٥
الفصل السادس عشر ١٠١
الفصل السابع عشر ١٠٨
الفصل الثامن عشر ١١٢

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع عشر ١٢١
الفصل العشرون ١٢٦
الفصل الحادي والعشرون ١٣٤
الفصل الثاني والعشرون ١٤٤
الفصل الثالث والعشرون........................ ١٥١
الفصل الرابع والعشرون ١٥٧
الفصل الخامس والعشرون ١٦٤
الفصل السادس والعشرون........................ ١٧٧
الفصل السابع والعشرون........................ ١٨٥
الفصل الثامن والعشرون ١٩٢
الجزء الثاني........................ ٢٠٥
الفصل الأول........................ ٢٠٧
الفصل الثاني ٢١٤
الفصل الثالث ٢٢٥
الفصل الرابع ٢٣٤
الفصل الخامس ٢٤٦
الفصل السادس ٢٥١
الفصل السابع ٢٥٥
الفصل الثامن........................ ٢٦٢
الفصل التاسع ٢٧٤
الفصل العاشر ٢٨١
الفصل الحادي عشر........................ ٢٨٩
الفصل الثاني عشر........................ ٢٩٣
الفصل الثالث عشر ٣٠١

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر ٣١١
الفصل الخامس عشر ٣١٧
الفصل السادس عشر ٣٢٦
الفصل السابع عشر ٣٣٠
الفصل الثامن عشر ٣٣٨
الفصل التاسع عشر ٣٤٦
الفصل العشرون ٣٥٤
الفصل الحادي والعشرون ٣٦٣
الجزء الثالث ٣٧٧
الفصل الأول ٣٧٩
الفصل الثاني ٣٩٢
الفصل الثالث ٤٠٤
الفصل الرابع ٤١٦
الفصل الخامس ٤٢٧
الفصل السادس ٤٣٥
الفصل السابع ٤٤٤
الفصل الثامن ٤٥٧
الفصل التاسع ٤٦٤
الفصل العاشر ٤٧٤
الفصل الحادي عشر ٤٨١
الفصل الثاني عشر ٤٨٧
الفصل الثالث عشر ٤٩٦
الفصل الرابع عشر ٥٠٤
الفصل الخامس عشر ٥١٢

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر ٥٢٠
الفصل السابع عشر ٥٢٦
الفصل الثامن عشر ٥٣٣
الفصل التاسع عشر ٥٤٣
الجزء الرابع ٥٤٩
الفصل الأول ٥٥٠
الفصل الثاني ٥٦١
الفصل الثالث ٥٦٩
الفصل الرابع ٥٧٧
الفصل الخامس ٥٨٤
الفصل السادس ٥٨٨
الفصل السابع ٥٩٥
الفصل الثامن ٦٠٠
الفصل التاسع ٦٠٦
الفصل العاشر ٦٠٩
الفصل الحادي عشر ٦١٤
الفصل الثاني عشر ٦١٨
الفصل الثالث عشر ٦٢٣
الفصل الرابع عشر ٦٢٨
الفصل الخامس عشر ٦٣٣
الفصل السادس عشر ٦٣٨
الجزء الخامس ٦٤٣
الفصل الأول ٦٤٥
الفصل الثاني ٦٥٠

www.Maktbah.com

الفصل الثالث ٦٥٨
الفصل الرابع ٦٦٧
الفصل الخامس ٦٧٢
الفصل السادس ٦٧٥
الفصل السابع ٦٨١
الفصل الثامن........................ ٦٨٤
الفصل التاسع ٦٩٠
الفصل العاشر ٦٩٧
الفصل الحادي عشر........................ ٧٠٤
الفصل الثاني عشر........................ ٧١٥
الفصل الثالث عشر........................ ٧٢٠
الفصل الرابع عشر........................ ٧٢٦
الفصل الخامس عشر........................ ٧٣٠
الفصل السادس عشر ٧٣٦
الفصل السابع عشر ٧٤٣
الفصل الثامن عشر ٧٤٨
الفصل التاسع عشر. ٧٥٢
الفصل العشرون........................ ٧٥٨
الفصل الحادي والعشرون........................ ٧٦٣

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

... راح يفكر: «إن الإنسان يجب أن يقول شيئاً في مثل هذه المناسبات». لكنه لم يتذكر كلمة واحدة من ذلك الشيء الذي يجب أن يقال. حدق إلى وجهها، فاقتربت منه محمرّة الوجه. قالت وهي تشير إلى نظارتيه: آه! إرفع هذه الـ... هذه الـ...

فأطاعها پيار ونزع نظارتيه فبدت عيناه مروعتين مستفسرتين إلى جانب التعبيرات الأخرى التي كانت مرتسمة فيهما، تلك التعبيرات المألوفة عند الذين درجوا على استعمال النظارات عندما ينزعونها. أراد أن ينحني ليقبل يدها، لكن هيلين، بحركة عنيفة من رأسها، سريعة غير متوقعة، قربت شفتيها من شفتيه وضغطت بهما عليهما. انقلبت سحنتها بشكل غريب حتى أن پيار شُده لذلك التحول.

(اقرأ وأعيد قراءة هذه الصفحات الأزلية. فلا تأمل أن تجد ما يوازيها في مكان آخر). (ألان)

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-614-432-522-3
9 786144 325223

www.Maktbah.com

الحرب والسلم

ليو تولستوي

المجلد الثاني

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

الفارابي

www.Maktbah.com

ليُو تولستوي

الحرب والسلم

ألياذة العصور الحديثة

المجلد الثاني

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكتاب: الحرب والسلم ـ المجلد الثاني
المؤلف: ليُو تولستوي
المترجم: فارس غصوب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-238-3

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

www.Maktbah.com

الجزء السادس

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

في العام ١٨٠٨ انتقل الأمبراطور ألكسندر إلى إيرفورت[١] حيث جرت مقابلة جليلة رائعة مع الأمبراطور ناپليون، استمرت حديث المنتديات الراقية زمناً طويلاً في پيترسبورغ.

تفاهم سيدَي العالم في عام ١٨٠٩ كما كانوا يسمونهما، ذروة المنتهى. كان ناپليون في تلك السنة قد أعلن الحرب على النمسا، فتوجه جيش روسي عبر الحدود للتعاون مع العدو القديم بوناپرت ضد الحليف القديم: أمبراطور النمسا. هناك إشاعة راجت في الأوساط الخاصة العليا حول توقع زواج ناپليون بإحدى أخوات الأمبراطور ألكسندر. إلى جانب كل هذه الأحداث في السياسة الخارجية، فإن التبديلات التي أحدثت في كل أجزاء الجهاز الحكومي شغلت المجتمعات الروسية كلها.

وبقيت الحياة اليومية بكل خصائصها الجوهرية من صحة ومرض وعمل وبطالة، ومقومات أخرى من أفكار وعلم وشعر وموسيقى وحب وصدامة وحقد ورغبات، ظلت تسير على نهجها السابق باستقلال تام، بعيدة عن متناول التبديلات الجارية وتعاقب علاقات الروس بناپليون.

بقي الأمير أندريه في الريف طوال عامين كاملين.

استطاع إدخال كل الإصلاحات التي جدّدها پيار في ممتلكاته، التي

---

(١) مدينة في مقاطعة الساكس تقابل فيها ناپليون مع أمبراطور روسيا وانتهت بمعاهدة في مصلحة فرنسا، بحضور عدد من ملوك أوروبا.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لم تصل إحداها إلى نهايتها المرضية لأنه كان يتنقل دون توقف من واحدة إلى أخرى، دون أن يبدو عليه شيء من العناء. ذلك أنه كان يمتلك ثباتاً عملياً وجزماً، يستطيعان أن يبلغاه ما يشتهي دون عناء، على عكس صاحبه بيار.

وهو من أوائل الروس الذين سجلوا أسماء فلاحيهم العبيد في عداد «الزراع الأحرار»، عندما منح هذه الصفة لثلاثمائة عبد من فلاحيه في إحدى مقاطعاته. أما في أراضيه الأخرى، فقد استبدل أعمال السخرة بالأعمال المأجورة. وأقام على نفقته في بوجو تشارڤو، راهباً يتقاضى منه الأجر، مهمته تعليم أولاد الفلاحين والخدم.

كان يقضي نصف وقته في ليسيياغوري مع أبيه وابنه الذي لا يزال بين أيدي المربيات والخادمات، والنصف الآخر في صومعته في بوغوتشاروڤ كما كان يدعوها الأمير العجوز. وعلى الرغم مما أظهره من لا مبالاة حيال أحداث العالم أمام بيار، فقد كان يتتبع كل الوقائع بانتباه ويستحصل على كتب عديدة. حتى إنه كان يلاحظ بمزيد من الدهشة إثر عودته من زيارته لپيتروسبورغ، وهي محور حياة البلاد، أن أولئك السكان الأدعياء يعرفون عن سياق السياسة الداخلية والخارجية أقل مما يعرفه هو، رغم أنه لم يكن يغادر منزله في الريف. وكانت إدارة أملاكه ومطالعاته الكتب المختلفة متباينة الأهداف، لا تستنفد كل وقته. وبذلك كان يستغرق في معاينة حملتي الجيش الروسي، معاينة الناقد المتجرد، بكل ما فيها من بؤس وتعاسة، ويضع أسساً تنظيمية جديدة لقوانين روسيا العسكرية.

ذهب أندريه لزيارة أملاكه في رازان في ربيع عام ١٨٠٩ وهي أملاك تخص ابنه الذي نصب نفسه بحق وصياً عليه. كان مستلقياً في عربته معرضاً جسده لأشعة شمس الربيع، يتأمل العشب الطري وأوراق السندر الأولى،

www.Maktbah.com

والغيوم البيضاء التي كانت ترسم في زرقة السماء الصافية أشكالاً تشبه قطعان الغنم. لم يكن يفكر في شيء معين بل كانت نظراته تشمل كل شيء.

اجتاز الطوف الذي وقف عليه في العام الماضي يتحدث مع پيار. وتخطت عربته قرية صغيرة وعدداً من البيادر ثم أكواماً من قمح الشتاء في حشائشه، وانحدر على رابية حيث ظل على جوانبها طيف من ركام الثلج قرب جسر هناك لم يتبدد بعد، ثم تسلقت العربة مرتفعاً طينياً وسارت على طول أكواخ متناثرة هنا وهناك تتخللها شجيرات مخضرة الأغصان وأخيراً دخلت في حرج من أشجار السندر.

كان الجو في الغابة حاراً، لا ترتفع فيها نسمة هواء. فكان السندر، تزينه أوراق خضراء ندية، جامداً لا يتحرك. ومن خلال بساط أوراق السنة السابقة، أطلت الأعشاب الجديدة الأولى مخضرة تحمل في رؤوسها زهوراً بنفسجية صغيرة. وهنا وهناك ترى بعض أشجار هزيلة من الصنوبر خلال أشجار السندر، تذكر بفصل الشتاء القاسي، بزرقتها الدائمة. وثارت الخيول عند دخولها الغابة وازداد تعرقها غزارة.

قال پيار، الوصيف العجوز، شيئاً للسائق الذي رد عليه إيجاباً. فلم يكتب بذلك الجواب بل استدار في مقعده وقال لسيده وعلى شفتيه ابتسامة احترام: كم الطقس جميل يا صاحب السعادة!

ـ ماذا تقول؟

ـ الطقس جميل يا صاحب السعادة.

فكر الأمير في سره: «ماذا يقول هذا؟ آه! نعم. الربيع!.... صحيح، كل شيء أصبح مخضراً... السندر والقراصياء... وها هي أشجار الحور قد بسقت... ولكن ليس من شجر سنديان... آه! بل ها هي ذي واحدة».

انتصبت سنديانة عتيقة، على جانب الطريق. لا شك أنها تفوق في قدمها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أشجار السندر بعشر مرات، فكانت لذلك أضخم منها بعشرة أضعاف وأعلى منها ارتفاعاً بمثل هذه النسبة. كانت سنديانة ضخمة لا تحيط بها أربع أذرع، ذات أغصان محطمة من عهد قديم ممتلئة بالنتوءات والتصدعات. كانت أذرعها الرحبة المعقدة الممدودة في غير تناسق، تغطيها وهي في مكانها بين أشجار السندر الشابة، مظهر عجوز غاصب مكروه. كانت وحدها ترفض الاستسلام لفتنة العام الجديد وتأبى رؤية الربيع والشمس.

تلك السنديانة كانت تقول: «الربيع، الحب، السعادة! ألا تأنفون من هذا السخف الأبدي؟ ألا ترون أن كل هذا ليس إلا حماقة وسخفاً؟ لا يوجد لا ربيع ولا شمس ولا سعادة انظروا إلى هذه الصنوبرات، إنها ميتة، مختنقة، متشابهة دائماً. وانظروا إليّ أنا، لقد حاولت طاقتي أن أمد أذرعي الملتوية المحطمة، فخرجت من ظهري وخاصرتي ومن كل مكان شاءت أن تخرج منه. بينما أنا هنا، لا أستطيع حراكاً. فلست أؤمن بآمالكم وأكاذيبكم».

بقي الأمير أندريه يلتفت من حين إلى آخر ليتأمل السنديانة بينما كانت عربته تتوغل في طريق الغابة. كان يلتفت إليها وكأنه ينتظروقوع شيء ما. كان في ظلها حقل امتزج فيه العشب بالأزاهير بينما ظلت هي، هي الوحش الجبار، تنصب بعناد قامتها الهائلة الشرسة.

فكر أندريه: «أجل، إن لهذه السنديانة الحق كل الحق. كم من الآخرين، الشباب، يستسلمون لهذه المخاتلة. أما نحن، فنعرف كيف نتصرف: لقد انتهت حياتنا، انتهت تماماً»!

أحدثت رؤية تلك الشجرة انبثاق أفكار جديدة، أفكار يائسة ولكن ملؤها الفتنة. أخضع أسلوبه في الحياة خلال هذه المرحلة، لدراسة عميقة مثمرة، انتهت به مجدداً إلى هذه النتيجة المؤلمة ولكن المسكنة: لا ينبغي له البدء بشيء جديد بل إنها حياته بكل وداعة دون أن يسيء إلى أحد أو يتطلع إلى شيء ودون أن ينكد عيشه.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

اضطر أندريه لأعمال تتعلق بوصاية على أملاك ريازان، لرؤية الكونت روستوف، فذهب لرؤيته حوالى نصف الشهر من أيار وهو بدء فصل القيظ. اكتست الغابات حينذاك بالأوراق وانبعث الغبار، واشتد الهجير حتى أن المرء يود الاستحمام في أول بركة ماء يمر بها مهما بلغت ضآلة مياهها.

اجتاز أندريه الممشى الرئيسي في حديقة «أوترادنواي» لبيت روستوف الصيفي، وهو عابس مشغول الفكر بسبب ألوف الأشياء التي كان عليه بحثها مع رئيس النبلاء، حينما سمع وقع أصوات جذلة آتية من جهة اليمين. وخرجت مجموعة من الفتيات من الدغل وقطعت الطريق على العربة، تقودها سمراء ذات عينين سوداوين، رشيقة، ترتدي ثوباً من القماش الهندي الأصفر وتعصب رأسها بمنديل أبيض أفلتت منه خصلات مشعثة من شعرها. صاحت الصبية تقول للأمير، لكنها هربت وهي تنفجر ضاحكة عندما تبينت أنها إزاء غريب لا تعرفه.

فجأة، شعر الأمير أندريه ببعض الامتعاض. كان الطقس شديد البهاء والشمس عنيفة الحرارة والعالم كله مبتهج وهذه النبتة اللطيفة لا تعترف ولا تريد الاعتراف بوجوده هو، أندريه! كانت راضية عن وجودها هي، خرقاء ولا شك غير مبالية، أخذ يتساءل بإلحاح: «ما الذي يجعلها على مثل هذه الحالة من صفو المزاج؟ في أي شيء تفكر إذن؟ لا شك أن تفكيرها لا ينصرف إلى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التماثيل الحربية ولا إلى تأجير الأراضي لفلاحي ريازان. بماذا تفكر؟ وما الذي يجعلها سعيدة إلى هذا الحدّ»؟

في عام ١٨٠٩، كان الكونت إيليا أندرييـڤيتش يعيش في أوترادنواي مثل الحياة التي عاشها من قبل، أي إنه كان يشبع المقاطعة كلها تقريباً بطرائد صيده وبالحفلات والولائم والموسيقى، فكانت كل زيارة جديدة يقوم بها بعضهم لبيته تفتنه. فقد استقبل الأمير أندريه استقبالاً ملؤه الحفاوة واستبقاه لقضاء الليل عنده.

ذلك المساء، لم يستطع أندريه النوم وعندما أوى إلى تلك الغرفة، التي جعلت مصاريع نوافذها الداخلية الحرارة فيها لا تطاق. بقي وحيداً يطالع كتاباً ثم انطفأت الشمعة. عاد فأضاءها مرغماً وهو يشتم ذلك الأحمق العجوز، بذلك كان يسمى روستوف، الذي استبقاه بحجة أن الأوراق الضرورية لم تصل بعد من المدينة. فشعر بالنقمة على نفسه لأنه قبل الدعوة.

نهض ليفتح النافذة. ولم يكد يوارب مغاليقها حتى تسلل القمر إلى الغرفة وكأنه كان ينتظر هذه الإشارة منذ فترة طويلة. فتحها على مصراعيها. كان الليل رطيباً مشعاً. امتد قبالته تماماً، صفّ الأشجار من النبت الكثيف الندي، برزت على سطحه هنا وهناك أوراق فضية. ومن وراء الأشجار المعتمة، يشاهد سقف يلتمع بالندى وأبعد منه إلى اليمين ـ شجرة كثيفة الأغصان ذات جذع وأغصان بيضاء ناصعة ومن فوقها القمر يتجلى في سماء ربيعية نادرة النجوم. اتكأ أندريه على النافذة وشخص بعينيه إلى السماء.

كانت غرفته في الطبقة الأولى وسكان الشقة التي في الطبقة العليا لم يذهبوا بعد إلى مضاجعهم بدلالة الأصوات النسائية التي كانت منبعثة من فوقه.

سمع أندريه صوتاً عرفه فوراً يقول:

www.Maktbah.com

ـ مرة أخرى، لا غير مرة.

فأجاب صوت آخر: لقد حان وقت النوم هيا.

ـ كلا لن أنام. لا أستطيع. إنها ليست خطيئتي... هيا، مرة أخيرة.

ورتل الصوتان جملة موسيقية كانت نهاية مقطوعة.

ـ آه! كم هي جميلة!... حسناً، والآن انتهينا! فإلى النوم.

ـ نامي إذا شئت. أما أنا فلا أستطيع.

لقد اقتربت صاحبة الجملة الأخيرة بدون شك، من النافذة ولعلها كذلك أطلت منها وانحنت إلى الخارج لأن حفيف ثوبها طرق أذن أندريه حتى صوت تنفسها أيضاً. بدا القمر وضياؤه والظلال وكل شيء غارقاً في الصمت. حتى أندريه نفسه، أصبح يخاف أن يفضح وجوده حركة تصدر عنه.

صاح الصوت الأول:

ـ سونيا، سونيا. يا للعجب، كيف يحلو النوم! انظري ما أبهى الجو آه! كم هو جميل!... لكن استيقظي، هيا.

وأصبح الصوت متوسلاً وكأنه مشفوع بالدموع: لم يسبق قط أن شوهدت ليلة بمثل هذا البهاء!

غمغمت سونيا ببضع كلمات مبهمة: أنظري قليلاً، يا للبدر!... آه! كم هو رائع!... تعالي هنا، تعالي انظري... حسناً، ماذا ترتئين؟... إن هذا يهيب بالمرء أن ينطوي على نفسه هكذا وأن يمسك بأسفل ركبتيه ويشد ويضغط بعنف شديد، كأعنف ما يستطيع، وأن يحلق ويطير... انظري، هكذا...

ـ كفاك، هيا... سوف تسقطين...

وسُمعت جلبة تشبه العراك ثم صوت سونيا المتذمر يقول:

ـ إن الساعة قد تجاوزت الواحدة.

ـ إنك تفسدين غبطتي... حسناً، اذهبي، اذهبي!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واستغرق كل شيء في سبات من الصمت. لكن أندريه حدس أنها لا تزال هناك. لقد ظل يسمع الحفيف والزفرات. وفجأة صاحت:

ـ آه! رباه، رباه ما معنى هذا؟ إلى النوم طالما يجب أن ننام!

وأغلقت النافذة بجلبة.

انتظر أندريه عبثاً خشية أن تكون الفتاة تتحدث عنه: «إنها لا تعبأ بوجودي بكل تأكيد! ثم لماذا قدر لي أن أراها من جديد تقتحم سبيلي؟ يمكن القول إنها بادرة مقصودة».

ومن أعماق قلبه تصاعد إعصار مفاجئ من الأفكار والآمال الصبيانية التي تتنافى كلياً مع واقعة حياته. ولما لم يجد في نفسه القدرة على إيضاح الأمور، نام فوراً.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

وفي اليوم التالي ودون أن ينتظر نزول السيدات إلى قاعة الاستقبال، استأذن الأمير أندريه الكونت وعاد أدراجه.

عندما اخترق في طريق عودته إلى ليسيياغوري تلك الغابة من شجر السندر حيث انتصبت تلك السنديانة العجوز الملتوية التي أوحت إليه ذلك الإحساس المفجع، كان شهر حزيران قد بدأ. رددت جلجلة عربته في تلك الغابة صدى مكتوماً أكثر مما ند عنها قبل ستة أسابيع. أصبحت الظلال والأدغال المتشابكة في كل مكان حتى أن أشجار الصنوبر الفتية لم تتخلف عن البهجة العامة: لقد سننتها في ذلك الحين فروع نضيرة خضراء تشبه الزغب، تتوافق مع بهاء المجموعة كلها.

أنبأ ذلك النهار القائظ بعاصفة صيف في مكان ما وإن لم تكن في السماء إلا سحابة واحدة ذرفت دموعها على غبار الطريق وعلى الأوراق المثقلة بالعصارات، فأوغل جانب الغابة الأيسر في الظل بينما التمع الجانب الأيمن بقطرات المطر التي عكست إشعاعات الشمس في ذلك الجو الساكن. وكان كل شيء مزدهراً والعنادل تشدو تارة قريبة وأخرى بعيدة.

فكر أندريه: «هنا في هذه الغابة تقوم السنديانة التي كنت معها على وفاق متين، فأين هي الآن؟ وبينما راحت عيناه تجوسان فيما حوله بافتتان، توقفتا عند شجرة لم يتعرف إليها بادئ الأمر. بدت السنديانة العجوز أشبه بهرم من الخضرة التي فقدت شعورها تحت جمال المغيب وملاطفته وكأنها أبدلت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خلقاً جديداً. اختفت الأطراف الملتوية والتضاريس ونسي التهجم واليأس الهرم. انبعثت من قلافتها القاسية المعمرة أوراق فتية منتفخة بماء الحياة تدعو إلى التساؤل كيف استطاعت تلك العجوز الفانية التمخض عن مثل هذه الأجنة وبعثها إلى النور. قال أندريه في نفسه: «نعم، إنه السنديانة إياها». وشعر بنشاط فجائي. أخذت أفضل دقائق حياته تمر متلاحقة في خاطره: أوسترليتز بسمائها العميقة ووجه زوجته المتوفاة المتسم بأمارات اللوم، پيار على المعبر، والصبية التي أثارتها محاسن الليل، وتلك الليلة بالذات وسنا القمر؛ انبعث كل ذلك دفعة واحدة في خياله.

قرر بحزم: «كلا، لم تنته الحياة في الواحدة والثلاثين. لا يكفي أن أعرف ما أنا قادر على صنعه، بل يجب أن يعرفه كل الناس كذلك: من پيار إلى هذه الصبية التي أرادت أن تطير. يجب أن يعرفني كل الناس، وأن لا تسير أيامي من أجلي فحسب وأن لا تكون حياة الآخرين مستقلة عن حياتي وأن تنعكس حياتي في حياتهم وأن تختلط حياتهم بحياتي».

حال وصوله قرر أندريه أن يسافر في الخريف إلى پيترسبورغ وأن يضطلع فيها بأعباء عمل ما. وراحت ألوف الأسباب والمبررات، بعضها أقوى حجة من بعض، تؤيد في نظره ذلك الفرار. كانت فكرة مغادرة الريف تبدو سخيفة في نظره قبل شهر أما الآن، فإنه لم يكن يفهم كيف استطاع تجاهل الحاجة إلى عيش حياة عملية. بدأ يرى أن كل التجارب التي حصل عليها في حياته ستذهب سدىً إذا لم يخرج نتائجها العملية إلى حيز الفعل. بل إنه لم يفهم كيف ارتكز من قبل على حجج بمثل هذا الافتقار إلى المنطق لإقناع نفسه بأنه إنما يسف إذا ظل مؤمناً بإمكانية انتفاع الآخرين به وبالغرف على السعادة والحب بعد الدروس القاسية التي مر بها في حياته أما الآن فإن المنطق يلقنه عكس ذلك تماماً.

www.Maktbah.com

بات الريف يثقل عليه وباتت انشغالاته الأولى لا تعنيه في شيء. وكثيراً ما نهض خلال اعتزاله في مكتبه، ليقترب من المرآة يتأمل فيها وجهه فترة طويلة، ثم ينتقل بنظرته إلى صورة ليز التي كانت تبتسم له بوداعة في إطارها المذهب وقد ازدهى وجهها بخصلات الشعر المصففة على الطريقة اليونانية. لم تحدث فيه بمثل ذلك اللوم الرهيب الذي كان يقرأه في عينيها من قبل، بل اكتفى بالابتسام له وعلى وجهها أمارات التطلع. وإذا ما انتهى من النظر إليها، عقد يديه وراء ظهره وراح يذرع الغرفة مقطباً حاجبيه تارة ومبتسماً تارة أخرى، مستعيداً في ذهنه تلك الأفكار المستعصية على التعبير، الخفية كالجريمة، والتي يمتزج فيها بغموض پيار والمجد والصبية قرب النافذة والسنديانة والجمال والحب، والتي غيرت وجوده تغييراً كلياً. فلو دخل عليه بعضهم خلال تلك الفترات، كان يتظاهر بالقسوة والحزم ويبدو منطقياً منفراً. وإذا جاءت أخته ماري مثلاً تقول له بسلامة طوية:

- يا عزيزي، لا يمكن الخروج بنيكولا إلى النزهة اليوم لأن الجو بارد جداً.

يجيبها بخشونة: لو كان الطقس حاراً لا يستطيع الخروج بالقميص. أما وأن الدنيا باردة، فدثريه بثياب دافئة. إنها صنعت خصوصاً من أجل ذلك. هكذا يجب أن تتصرفي عندما يكون الطقس بارداً ولكن لا يجوز ترك طفل في البيت عندما يكون في حاجة إلى الهواء.

كان يبدو بهذا المنطق وكأنه يريد الانتقام من بعضهم لكل هذا التفاعل الغريب الذي يعتلج في قلبه.

وفي مثل تلك الحالات، حدّثت أخته ماري نفسها قائلة إن الرجال لفرط التفكير، يصبحون قساة بشكل مفزع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

في شهر آب من سنة ١٨٠٩، وصل الأمير أندريه إلى بيترسبورغ عندما كان سپيرانسكي الشاب في أوج مجده يقوم بتعديلاته بحيوية ونشاط. جنحت عربة الأمبراطور في ذلك الشهر وأصيب ألكسندر بالتواء في قدمه اضطره إلى الحلول في بيتيروف طوال ثلاثة أسابيع. كان العاهل يستقبل يومياً سپيرانسكي وحده. وفي هذه الفترة، أنضجت إلى جانب المرسومين الأمبراطوريين الشهيرين اللذين أثارا الرأي العام بشدة، المتعلقين بإلغاء رتب البلاط، الامتحانات الواجب اجتيازها للحصول على رتب الارتقاء في الكلية وفي مجلس الدولة الاستشاري، مجموعة قوانين كاملة تهدف إلى قلب النظام القضائي والإداري والمالي المعمول به حتى ذلك اليوم اعتباراً من مجلس الأمبراطورية وحتى أصغر السلطات الإقليمية.

وفي تلك الفترة بالذات اتخذت أحلام الأمبراطور ألكسندر التحريرية التي كان يهدهدها في سره عندما اعتلى العرش والتي حاول حينذاك تحقيقها بمساعدة معاونيه آل كزارتوريسكي ونوڤوسيلتسوف وكوتشوبيي وستروغونوف الذين كان يسميهم مازحاً: مجلس الصيانة العامة، لقد تنحى هؤلاء الآن عن مراكزهم لسپيرانسكي، في القضايا المدنية ولـ: أراكتشييف في القضايا العسكرية.

أعلن الأمير أندريه نفسه فور وصوله بوصفه من مرافقي الأمبراطور في البلاط وعند مخارج الجناح الأمبراطوري ومداخله. ولقد لمحه الأمبراطور

www.Maktbah.com

مرتين على طريقه فلم يتنازل بتشريفه بكلمة واحدة. ولم يكن أندريه قط يشعر أنه موضوع نفور الأمبراطور وأن وجهه وكل شخصه مكروهان من الأمبراطور. وقد أيد هذا الزعم النظرة الجافة التي رماه بها ألكسندر. وفسر له أتباع الأمبراطور سبب ذلك البرود بأن اعتزاله الخدمة منذ عام ١٨٠٥ كان موضوع استياء الأمبراطور.

حدث الأمير نفسه قائلاً: «أعرف تماماً أننا لسنا سادة ميولنا ونفورنا فلا يجب إذن أن أفكر في تقديم مذكرتي حول النظام العسكري الجديد إلى جلالته يداً بيد. لكن الفكرة ستشق طريقها وحدها».

أبلغ مشروعه إلى ماريشال عجوز كان صديقاً لأبيه فحدد له هذا الرجل المسنّ موعداً واستقبله ببشاشة واعداً بالتحدث عن مشروعه إلى الأمبراطور. ولم تمض أيام قليلة حتى أخطر أندريه بوجوب المثول بين يدي الكونت أراكتشييـف وزير الحربية.

وصل الأمير أندريه إلى قاعة استقبال الكونت أراكتشييف في الساعة التاسعة من صباح اليوم المحدد. لم يكن يعرفه من قبل ولم يكن قد رآه قط. بيد أن معلوماته عندها لم تكن وافية لتقديره حق قدره.

فكر أندريه وهو ينضم إلى عدد من الأشخاص المتفاوتين في الأهمية في قاعة الانتظار: «إن وزير الحربية، وهو حائز ثقة الأمبراطور، فليس لأحد إذن التشاغل في صفاته الشخصية فقد أنيط به أمر فحص مذكرتي فهو بالتالي الوحيد الذي يستطيع إحلال مشروعي موضع الاعتبار».

ساعدت مراكز الأمير أندريه المختلفة وبصورة خاصة وظيفته كمساعد عسكري، على التعرف إلى العديد من الأبهاء في قصور الشخصيات الكبيرة وتمييز الصفات الخاصة لكل منها. لكنه وجد قاعة انتظار الكونت أراكتشييف ذات طابع خاص. رأى أن الأشخاص ذوي المراكز المتواضعة ينتظرون حلول

twitter @baghdad_library

دورهم في المقابلة بوجوه يعلوها الارتباك وأن من هم أرفع شأناً يخفون ارتباكهم وراء ضروب من الانطلاق متخذين السخرية وسيلة وإن كانت تشمل أشخاصهم بقدر ما تتصل بالشخصية التي سيمثلون أمامها. كان بعضهم يذرع القاعة ذهاباً وإياباً بقلق، وبعضهم الآخر يبتسم ويتهامس أفراده فيما بينهم، حتى أن أندريه سمع خلال أحاديثهم الخافتة، لقب سيلا أندرييـڤيتش وعبارة «سوف يغسل الرجل الطيب لك رأسك». ورأى جنرالاً رفيع المركز، يجلس عاقداً ساقيه وعلى شفتيه ابتسامة احتقار يخفي بها استياءه من انتظاره الطويل.

وما إن فتح باب المكتب حتى عبرت الوجوه كلها عن إحساس واحد: الخوف. طلب الأمير أندريه إلى الموظف المختص أن يعلن وجوده مرة ثانية. لكنهم نظروا إليه في سخرية معلنين أن دوره سيحين. وبعد أن أُدخل عدد من الأشخاص إلى مكتب الوزير وخرجوا منه يشيعهم المساعد الملحق، أدخل من الباب الرهيب ضابط جذب أنظار پولكونسكي بأمارات الفزع المرتسمة على أساريره. طالت المقابلة بعض الوقت وفجأة، ارتفعت من وراء الباب أصداء صوت منفر وخرج الضابط ممتقع الوجه مرتجف الشفتين، فاخترق قاعة الانتظار وهو ممسك برأسه بين يديه.

جاء دور الأمير أندريه فهمس الموظف: إلى اليمين قرب النافذة.

دخل أندريه مكتباً بسيطاً منسقاً فشاهد رجلاً في الأربعين من عمره فارع الجذع طويل الرأس، ذا شعر قصير وأخاديد عميقة وأنف أحمر محدودب وحاجبين موازيين فوق عينين ملونتين تبدو نظراتهما مطفأة، جالساً وراء المكتب.

التفت أراكتشييـڤ نحوه دون أن ينظر إليه وقال: ماذا تسأل؟

فأجاب أندريه بهدوء عميق: لست أسأل شيئاً يا صاحب السعادة.

استدارت عينا أراكتشييـڤ نحوه:

www.Maktbah.com

ـ خذ مقعداً. الأمير پولكونسكي أليس كذلك؟

ـ لست أسأل شيئاً لكن جلالته تفضل وأحال المذكرة التي رفعتها إليه على سعادتكم.

قاطعه أراكتشييـف بلهجة بدأت متوددة ثم أصبحت زاجرة ثم أصبحت مشمئزة: كما ترى يا عزيزي، لقد قرأت مذكرتك. إنك تعرض فيها نظماً عسكرية جديدة؟ إن لدينا عدداً وفيراً من النظم القديمة، تبلغ من الوفرة أنه من المستحيل تطبيقها. واليوم يضع كل الناس مشاريع قوانين على الورق. إن الكتابة أسهل من التنفيذ.

استأنف الأمير أندريه بلهجة مهذبة: لقد جئت بناء على أمر جلالته لأطلع من سعادتكم على النتيجة التي أعطيت لمذكرتي.

قال أراكتشييـف: لقد قلت رأيي في المذكرة نفسها وأحلتها على اللجنة.

ثم وقف من وراء مكتبه وتناول ورقة كانت أمامه وأضاف: ها هي ذي!

مدّ يده بالورقة إلى أندريه فإذا بها تحمل السطور التالية المكتوبة دون مراعاة لاستقامة السطر وقواعد الإملاء والتنقيط وأحرف البدء: «غير منظم جدياً، وعلى الرغم من أنه منقول عن النظام «العسكري» الفرنسي إلا أنه يختلف دون ما سبب عن المعمول به».

سأل الأمير: وعلى أية لجنة أحيلت مذكرتي؟

ـ على لجنة النظام العسكري وقد رشحت نبالتكم لتكونوا عضواً فيها ولكن دون راتب.

فقال أندريه مبتسماً: لا أطلب راتباً.

كرر أراكتشييـف: دون راتب. لقد حصل لي الشرف...

ثم صاح بعد أن صرف الأمير أندريه: التالي! من بقي هنا!

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس

راح الأمير أندريه يوثق عرى الصداقة مع معارفه القدامى، بانتظار تسميته عضواً في اللجنة، وخصوصاً ذوي السلطة منهم القادرين على تقديم العون. سيطر عليه تطلع غامض يشبه التطلع الذي شعر بمثله في أمسيات المعارك من قبل، أخذ يجذبه الآن نحو الأجواء العليا حيث يبحث مستقبل ملايين الناس. استدل من غضب المسنين من الرجال وفضول المستهترين وتحفظ العارفين الملمين بالأمور وانشغالهم وكثرة اللجان والمجالس التي أخذ عددها يتزايد كل يوم، على أن معركة داخلية كبرى يرأسها ويقودها ذلك الشخص، سپيرانسكي، أن استهوته لدرجة باتت معها أهمية النظام العسكري تشغل المرتبة التالية في مدرج تفكيره وانشغاله.

احتلّ أندريه مركزاً مرموقاً يساعده على تلقي جفاوات قلبية في زياراته لمختلف المجتمعات الراقية في پيترسبورغ. فحزب الإصلاحات كان يسلفه الاحترام: أولاً، لما عرف عنه من ذكاء وثقافة عالية، لما اكتسبه إثر تحريره عبيده من شهرة في ميدان الكرم. وحزب الشيوخ المتذمرين الذي يفترض أن أفكار أندريه تتفق مع أفكار أبيه، كان يجد فيه حليفاً له. أما النساء، وبعبارة أصح «المجتمع»، فقد كن يحتفين به على اعتباره زوجاً منشوداً غنياً ونبيلاً ويعتبرنه وجهاً جديداً تحدق به هالة مغامرة موته المزعوم الخيالية ونهاية زوجته المفجعة. أضف إلى ذلك، أن كل ما عرفنه من قبل بادرن إلى الاعتراف بصوت واحد بأنه تبدل كثيراً في صالحه خلال الأعوام الخمسة السابقة: لانت

www.Maktbah.com

عريكته وتوكدت آراؤه وحل الهدوء والتعديل اللذان يكتسبان مع الزمن محل التصنع والهجاء. بات حديثه يشغل الأوساط يهتمّ الناس به ويبحثون عنه.

وغداة زيارته لأراكتشييـڤ قصد منزله الكونت كوتشوبيي لقضاء السهرة وحدثه بمقابلته مع: «سيلا أندرييـڤيتش». وكان كوتشوبيي هو الآخر يطلق هذا اللقب على الوزير كلي النفوذ مشفوعاً بذلك التنويه الغامض الذي أظهره الملتمسون في غرفة الانتظار.

ـ يا عزيزي، لا غنى لك عن ميخائيل ميخائيلوڤيتش حتى في قضيتك. هو «الصانع الأكبر». سوف أحدثه بالأمر. يجب أن يحضر هذا المساء.

سأل أندريه: ولكن ما علاقة القوانين العسكرية بسپيرانسكي؟

بدا كأن سذاجة پولكونسكي قد أذهلت كوتشوبيي فابتسم وهز برأسه ثم تابع: لقد تحدثنا عنك في الأيام الأخيرة وعن مزارعيك الأحرار.

وسأل عجوز من عصر كاترين وهو يلتفت نحو پولكونسكي في شيء من السخرية: أهذا أنت إذن أيها ا لأمير الذي حررت فلاحيك؟

فقال پولكونسكي وهو يهدف إلى تخفيف حدة هذا الكهل وتهوين فعلته في نظره بدلاً من استثارته دون جدوى: كانت قطعة أرض لا تغل شيئاً مذكوراً.

استطرد ذلك العجوز وهو يلقي نظرة إلى كوتشوبيي:

ـ خفتَ أن تصل متأخراً... ثمة مسألة لا أستطيع فهمها، من الذي سيحرث الأرض إذا نحن أعطينا الفلاحين حريتهم؟ إن وضع القوانين ليس عملاً شاقاً ولكن الإدارة شيء آخر... خذ، سؤالاً آخر: من أين يأتون برؤساء للألوية إذا كان كل واحد مرغماً على اجتياز امتحان؟

فأجاب كوتشوبيي. وهو يعقد ساقيه ويسرح الطرف حوله: من عداد الذين يتقدمون لاجتياز الامتحانات على ما أعتقد!

twitter @baghdad_library

ـ على هذا، فإن في مكتبي رجلاً ممتازاً اسمه بريانيتشنيكوف. وهو إنسان ثمين ولكنه بلغ الستين من العمر. فهل يجب عليه كذلك اجتياز امتحانات؟

ـ لا شك إنها صعوبة وخصوصاً أن الثقافة غير منتشرة بكثرة، ولكن..

لم يكمل كوتشوبيي جملته، بل وقف وأمسك أندريه من ذراعه ومضى يستقبل ضيفاً جديداً، طويل القامة أشقر، أصلع، في الأربعين من العمر، عريض الجبهة، مستطيل الوجه، ناصع البياض، بشكل غريب. كان الزائر مرتدياً ثوباً رسمياً «فراك» أزرق تزينه شارة على الجانب الأيسر ويتدلى من عنقه وسام آخر. ذاك كان سپيرانسكي حدس الأمير أندريه ذلك من فوره وشعر بذلك الاضطراب الداخلي الذي يجتاح المرء في اللحظات الرهيبة من حياته. هل كان مبعث ذلك الشعور الاحترام أو الفضول؟ ذلك ما لم يكن يستطيع تبيانه. كانت شخصية سپيرانسكي كلها تبرز طابعاً بديعاً ينم عنه فوراً ويدل عليه. لم يجد أندريه لدى كل من اختلط بهم من الشخصيات أكثر من هدوء سپيرانسكي وثقته بنفسه المتوافرين إلى جانب اختيار الحركات، كما لم يجد في أحد مثل تلك النظرة الحية تنبعث من عينين نصف مغمضتين وكأنهما غارقتان، ومثل ذلك الحزم في ابتسامة جوفاء أو ذلك الصوت المتناسق، ولا مثل ذلك البياض الناصع في الوجه وتينك اليدين العريضتين بعض الشيء، ولكن الناعمتين. إن مثل تلك النعومة في الجلد وذلك البياض الناصع في الوجه، لم يجدهما أندريه إلا عند الجنود الخارجين من المشافي بعد إقامة طويلة فيها. كذلك سپيرانسكي، سكرتير الدولة ومشير الأمبراطور ورفيقه في إيرفورت حيث تحدث غير مرة هناك مع ناپليون.

لم تنطلق نظرة سپيرانسكي من رجل إلى آخر كما هي عادة المرء إثر دخوله مكاناً مزدحماً بالناس، ولم يكن كذلك يتعجل الحديث. وكان صوته الهادئ يدل على ثقته العظيمة بأن محدثه يصغي إليه، وما كان ينظرإلى الشخص الذي يخاطبه.

www.Maktbah.com

بدأ الأمير أندريه يسجل في ذاكرته بدقة كل كلمة وحركة تصدر عن سپيرانسكي. وككثير من الناس، وبصورة خاصة أولئك الذين اعتادوا الحكم بصرامة على الآخرين، كان الأمير أندريه عند التقائه شخصية جديدة، وخصوصاً إذا كان لا يعرف صاحبها إلا عن طريق شهرته يتوقع دائماً أن يكتشف فيه موجزاً لكل الفضائل الإنسانية.

قال سپيرانسكي لكوتوبيي إنه يأسف لتأخره بسبب استبقائه في القصر. سجل أندريه كذلك ذلك التواضع المصطنع. وعندما قدم كوتشوبيي الأمير إليه، وجه سپيرانسكي أنظاره إليه ببطء مشفوعة بتلك الابتسامة بالذات ونظر إليه لحظة في صمت. أخيراً قال: يسرّني أن أتعرف إليك. لقد سمعتهم يتحدثون عنك كما سمع كل الناس طبعاً.

ولما ألمح كوتشوبيي إلى الاستقبال الذي تلقى به أراكتشييڤ الأمير أندريه اتسعت ابتسامة سپيرانسكي وقال وهو يبرز كل مقطع في كلماته: إن السيد مانيتسكي، رئيس لجنة القوانين العسكرية، من أصدقائي الطيبين. أستطيع إذا رغبت أن أقبلك به.

ثم توقف برهة وتابع: سوف تصادف لديه، على ما أرجو، انجذاباً ورغبة في إخراج كل فكرة معقولة إلى حيز الوجود.

تشكلت دائرة حول سپيرانسكي وطرح البيروقراطي العجوز الذي أطرى رجله بريانيتشينكوف، سؤالاً هو الآخر.

أخذ أندريه يراقب كل حركات ذلك الرجل الذي كان بالأمس تلميذاً مغموراً من طلبة اللاهوت وأصبح اليوم يمسك بين يديه السمينتين كل مستقبل روسيا، دون أن يشترك في الحديث. أعجب بالطلاقة المحتقرة التي أجاب بها سپيرانسكي عن سؤال العجوز: بدت كلمته المراعية وكأنها سقطت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من علو لا تدرك رفعته. أعلن البيروقراطي وهو يرفع صوته قليلاً ويبتسم، أنه ليس الحاكم على المحاسن والمحاذير التي تترتب على قرارات جلالته.

سكت سپيرانسكي فترة ثم اخترق الحلقة وفضها ومضى إلى الأمير أندريه واصطحبه إلى الجانب الآخر من القاعة. قدر بدون شك أن الاهتمام بالأمير أندريه ضروري. قال له: لم تسمح لي المحادثة الحامية التي ساقني إليها ذلك الكهل بالتحدث إليك أيها الأمير!

شفع قوله بابتسامة تدل على احتقار ضمني، أراد بها إفهام الأمير أنهما معاً يعرفان كيف يقدران مثل تلك المحادثة التافهة فأثر هذا الإطراء بالأمير أندريه بينما استرسل سپيرانسكي: أنا أعرفك منذ أمد: أعرف أولاً تصرفك حيال فلاحيك، وهو مثال أول نود لو يحتذي به كثير من الآخرين. وبعد فإنك من المرافقين القليلين الذين لم يعتبروا القانون الجديد بمثابة إهانة لهم رغم الاستقبال السيئ الذي قوبل به هذا القانون من المتصلين بالبلاط كافة على اختلاف مناصبهم.

قال الأمير أندريه: نعم، لم يرض أبي أن أستغل هذا الحق وأفيد منه. لذلك فقد تتبعت السبل الرسمية.

ـ لا شك أن السيد أباك، رغم انتمائه إلى القرن الماضي، أرفع بكثير من معاصريه الذين ينتقدون تدبيراً عادلاً جداً وخصوصاً أنه يرفع ظلامة صارخة.

أجاب پولكونسكي وهو يقاوم التأثير الذي أخذ سپيرانسكي يحدثه فيه:

ـ الحق يقال إنني لا أعتقد أن كل الانتقادات لا ترتكز على أسس معينة..

أزعجه أن يؤيد في شيء فأراد أن يناقض. لكنه أخذ يعبر عن آرائه بارتباك وهو الذي اعتاد استعمال عبارات واضحة والافصاح عن آرائه بطلاقة. كان شديد الانهماك آنئذ في مراقبة شخصية ذلك الرجل الشهير ودراستها.

www.Maktbah.com

اعترض سپيرانسكي بهدوء: إن الأساس الوحيد لانتقادهم ليس إلا الكرامة فحسب.

فأضاف الأمير أندريه: ومصلحة الدولة أيضاً.

خفض سپيرانسكي عينيه وسأل: وكيف تفسر ذلك؟

أجاب أندريه: إنني من المعجبين بمونتيسكيو[1]. إن نظريته القائلة إن مبدأ الملكية هو الشرف، تبدو لي أرفع من كل نقاش. ويخيل إليّ أن بعض الحقوق والامتيازات المعطاة للنبلاء ليست إلا وسائل لدعم هذا التفكير.

اختفت الابتسامة من الوجه الشاحب فازدادت هيئة سپيرانسكي ملاحة. ولا شك أن الفكرة التي عرضها الأمير منذ حين بدت له جديرة بالاهتمام. بدأ يقول بهدوء رغم ما اعترى أسلوبه في التعبير عن أفكاره باللغة الفرنسية من ارتباك جعله أكثر تمهلاً في حديثه مما كان عليه عندما كان يتحدث بالروسية: إذا كنت تنظر إلى الأمر من الزاوية...

وراح يشرح بحجج بسيطة وواضحة أن «الشرف» لا يمكن أن يدعم بامتيازات تضر بسير الأمور المفيدة. إن «الشرف» ليس إلا الدراية السلبية للامتناع عن الأفعال الموجبة للزجر، أو بعبارة أخرى، حافز معين يحثنا على الحصول على الاستحسان أو على المكافآت التي هي دليل عليه. وخير ترتيب وضع في هذا الصدد. كان ما وضعه الأمبراطور الأكبر ناپليون: وأعني وسام جوقة الشرف. إن هذا الوسام أبعد ما يكون عن الإضرار بمصلحة الخدمة، لكنه يعاون فيها دون أن يشكل في ذاته امتيازاً كبيراً لحامله في طائفته أو في البلاط.

أجاب أندريه على البديهة: أنا لا أعترض على ذلك. لكن امتيازات

---

(١) مشرّع فرنسي شهير، أول من وضع مبدأ فصل السلطات في الدولة. من المبشرين بالثورة الفرنسية من مؤلفاته: روح القوانين. (المترجم)

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

البلاط تتوخى كذلك مثل هذا الهدف، الذي لا شك فيه. إذ إن كل فرد من البطانة يعتبر نفسه شبه ملزم باحتلال مركزه بجدارة.

فأجاب سپيرانسكي وهو يبتسم ابتسامة من يريد إنهاء ذلك الجدال الذي بدأ يربك مخاطبه بعبارة لطيفة: مع ذلك لم تشأ الإفادة من هذا الامتياز يا أمير!

وأضاف: شرفني بزيارة يوم الأربعاء. وسأكون قد التقيت مانييتسكي خلال هذا الوقت، فأنقل إليك عند لقائنا أموراً. ثم إنني سأتمتع بالتحدث معك فترة طويلة.

وأغمض عينيه وحيا واختفى على الطريقة الفرنسية دون أن يستأذن مضيفه.

www.Maktbah.com

الفصل السادس

لاحظ الأمير أندريه خلال الأيام الأولى من إقامته في پيترسبورغ أن ألف شاغل صغير يعزل في الظل مجموعة أفكاره التي نضجت في ذهنه خلال حياة العزلة التي عاشها.

كلما رجع إلى مسكنه مساء، سجل في مذكرته أربعاً أو خمس زيارات أو مواعيد ضرورية محددة بالساعة كذا وكذا. وكان ترتيب حياته على نحو يجعله موجوداً في كل مكان في الوقت المحدد، لم يكن وقته يكفي إلا للخطابة وإذاعة الآراء التي كونها لنفسه خلال عزلته في الريف، بنجاح ملحوظ. كان يلاحظ أن أوقاته كانت مشغولة كلها حتى أنه لم يكن يجد فسحة من الوقت ليقول إنه لم يعد يفكر في شيء.

وكما حدث له عند كوتشوبيي، ترك سپيرانسكي في پولكونسكي تأثيراً قوياً عندما استقبله يوم الأربعاء واختلى به فترة طويلة أمضياها في حديث مطمئن.

ويعتبر أندريه الكثير من الناس عاجزين أو محتقرين، وكانت به رغبة عنيفة في العثور عند الآخرين على المثال الحي للكمال العقلي والأخلاقي، حتى أنه وجد نفسه على استعداد للتعرف إلى ذلك الكمال في شخص سپيرانسكي. فلو أن رجل الدولة ذاك كان من الوسط الذي نشأ أندريه فيه أو على مثل ثقافته وتكوينه الخلقي لتمكن أندريه بسرعة من اكتشاف نقائصه الإنسانية. لكن ذلك الفكر المنطقي كان يوحي إليه مزيداً من الاحترام. أضف إلى ذلك،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أن سپيرانسكي، وإن كان يقدر كفاءات أندريه ويجد ضرورة في اجتذابه إلى جهته، كان في حضرته يكشف عن كل ما للتفكير الهادئ من مصادر منزهة عن الانحياز إلى وجهة دون أخرى ويتملقه بذلك الإطراء الدقيق الممزوج بالزهو الذي يقوم على أساس الاعتراف ضمنياً بأنه ومحدثه وحدهما قادران على تفهم كل سخافات الآخرين والحكمة العميقة التي تكمن في أفكارهما وحدهما.

وقد استعمل سپيرانسكي غير مرة خلال حديثهما المسهب مساء الأربعاء عبارات من هذا النوع: إننا «نحن» نعتبر أن كل ما يتجاوز مستوى العادات المتأصلة... «أو وهو يبتسم: «ولكننا «نحن أولاء» نريد أن تشبع الذئاب دون إضرار كبير بالغنم...». أو أيضاً «إنهم لا يستطيعون فهم ذلك...» وتنبئ لهجته أثناء ذلك أننا: «نحن»، أنت وأنا، نعرف تماماً ما هي قيمتهم «هم» وما هي قيمتنا «نحن».

مكنت هذه المقابلة الطويلة في نفس أندريه إحساسه الأول. كان يرى في سپيرانسكي رجلاً منطقياً عميقاً ومفكراً كبيراً اكتسب السلطة بقوة حيويته ونشاطه ولم يتصرف فيها إلا لمصلحة روسيا. كان سپيرانسكي على وجه الدقة، الرجل الذي رغب لو كأنه، ذلك الرجل الذي يلقى في غربال الفكر بكل بيانات الحياة ولا يعترف على أهمية واضحة منها إلا إذا اجتازت ذلك الاختيار بدا له كل ما في آراء سپيرانسكي وعروضه من البساطة وشدة الوضوح حتى أنه وجد نفسه يوافقه في كل شيء بديهياً، أما إذا كان قد أثار بعض الاعتراضات فما ذلك إلا ليبرهن على استقلال الفكر وعدم الاستسلام. مع ذلك فقد ظل أمر واحد يقلق أندريه: تلك النظرة الباردة كالمرآة التي لا تسمح بالتغلغل إلى الروح، تانك اليدان البضتان، السمينتان اللتان كان ينظر إليهما رغماً عنه كما يفعل المرء عادة عندما يكون في حضرة رجل متسلم السلطة، فالنظرة الشبيهة

www.Maktbah.com

بانعكاسات المرآة، واليدان الناعمتان، كانت تزعج پولكونسكي، كذلك كان يغيظه فيه احتقار للرجل الذي كان سپيرانسكي يفضحه والتنوع الكبير في الحجج التي يلجأ إليها لدعم آرائه وتأييدها.

لقد كان يستعمل كل أنواع البرهنة باستثناء المقارنة ويتنقل بمزيد من الجرأة من واحد إلى الآخر برضى پولكونسكي، فتارة يطرق الحقل العملي فيذم الحالمين وأخرى يعمد إلى السخرية ويمطر خصومه بوابل من التجريح أو يرتقي من أضيق مناحي المنطق إلى علم النظريات «الميتافيزيقا» المرتبط بالفكر المجرد. وكان هذا الأسلوب الأخير في البرهنة سلاحه المفضل إذ ينقل المسألة إلى الأجواء الميتافيزيقية العليا مقدماً تفسيرات للقضاء والفكر ليخلص منها تفنيداً ثم يعود مجدداً إلى بساط المناقشة.

كان إيمانه، على العموم، في سلطة الفكر وحقوقه هو البادرة الرئيسية في ذكاء سپيرانسكي التي كان لها تأثير شديد في نفس أندريه. وبالطبع، فإن الشكوك المألوفة عند پولكونسكي لم تمس إطلاقاً سپيرانسكي: إنه لم يقل مرة واحدة إن الإفصاح عن كل ما يفكر فيه المرء غير مجد ولم يشك قط في أسس أفكاره ومعتقداته أو يبحث فيها. ومن هنا كان سر افتتان پولكونسكي به.

شعر أندريه بإعجاب يشبه ما أحس به من قبل حيال پونابرت، إزاء هذا الرجل منذ اللحظات الأولى. أما انتماء سپيرانسكي إلى أسرة كنسية، الأمر الذي سهل على الحمقى إيجاد نعوت مختلفة له كـ: «نسل خوري فاسد» أو «جريذ»، فإنه، رغم ما أتاحه لأندريه من أسباب لتخفيف حدة حماسته، كان يزيد تلك الحماسة عفوياً.

خلال خلوتهما الأولى طرقا موضوع اللجنة التشريعية، فشرح سپيرانسكي للأمير، أن تلك اللجنة موجودة بالفعل منذ مائة وخمسين عاماً،

twitter @baghdad_library

وأنها كلفت الدولة الملايين دون أن تعمل شيئاً، لأن روزانكانف اقتصر في عمله على كل مواد التشريع المقارنة. قال:

ـ ومن أجل هذه النتيجة الحسنة أنفقت الدولة الملايين! إننا نزعم إعطاء مجلس الشيوخ سلطة قضائية جديدة بينما لا قوانين لدينا! إنك ترى أيها الأمير أن الانزواء بالنسبة إلى أشخاص مثلك يعتبر خطيئة.

اعترض الأمير أندريه بأن هذا النوع من النشاط يقتضي استعداداً فقهياً لا يملكه.

ـ لكن لا أحد يملك مثل هذا الاستعداد، فماذا يجب أن نصنع إذن؟ إننا في دائرة فاسدة لا يمكن الخروج منها إلا بتحطيمها.

وبعد ثمانية أيام، سمي أندريه عضواً في لجنة النظام العسكري ولدهشته البالغة، رئيساً للجنة فرعية في المجلس التشريعي. فوافق نزولاً عند إلحاح سپيرانسكي، على إعداد الجزء الأول من القانون المدني، وعمل في موضوع: حقوق الإنسان، بالرجوع إلى قوانين ناپليون وجوستينيان.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

عندما رجع بيار من جولته الطويلة في أملاكه، قبل عامين، أي في سنة ١٨٠٨، وجد نفسه دون أن يتوقع، على رأس الماسونية في بيترسبورغ. أخذ ينظم مختلف المحافل ويقبل الأعضاء الجدد ويهتم بتوحيد مختلف المحافل المتعلقة بها، ويبني بماله الخاص الهياكل الجديدة ويتمم، في حدود إمكانياته، حصيلة التبرعات التي كان معظم الإخوان يظهرون تجاهها بخلاً. وأصبح يشرف وحده تقريباً على بيت الفقراء الذي أسسته الهيئة الماسونية في بيترسبورغ.

وكانت حياته، ما عدا ذلك، تسير على نهجها السابق من الفوضى، إذ لا زال يحب الطعام الجيد والشراب الطيب، لا يستطيع الامتناع عن المساهمة في فجور الأعزاب الذين كان يضمهم في بيئته رغم اعتباره تلك الأمور منافية للأخلاق.

وبعد عام، انتهى الأمير بيار، رغم دوامة مسراته، إلى الشعور بأن بساط الماسونية الذي استقام فوقه، بات ينسل من تحت قدميه بقدر ما كان يتمسك به بكل قواه. ولكن، كلما ازدادت تلك الأرض انزلاقاً تحت قدميه، ازداد خلاصه منها استحالة، وعندما دخل في عداد الماسونيين أحسّ أنه وضع قدماً مطمئنة فوق سطح مستنقع سوي، لكنه ما كاد يضع قدمه حتى شعر بأنها تغوص. ولكي يختبر صلابة الأرض وضع قدمه الأخرى فازداد غوصاً وبات يخوض في وحل المستنقع حتى ركبتيه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

منذ فترة من الزمن، فترت همّة جوزيف ألكسييڤيتش فما عاد يهتم بمحافل بيترسبورغ ولم يعد يغادر موسكو. كان كل أعضاء المحافل أشخاصاً من المجتمع الراقي يعرفهم بيار معرفة عميقة لا تسمح له باعتبارهم إخوان محفل فحسب بصرف النظر عن كونهم الأمير ب.... وإيـڤان ڤاسيلييـڤيتش د... أو غيرهما من الشخصيات المعروفة بضعفها أو بفسادها. كان يرى تحت المآزر والشارات الماسونية الأخرى، الأوسمة والألبسة الرسمية التي تشكل وحدها سر حياة أصحابها.

وعندما كان يسطر في قوائم التبرعات، كلما بدأ بجمعها، مبلغ عشرين أو ثلاثين روبلاً في حقل «الداخل» وغالباً في حقل «مدين» أسماء عشرة من الأعضاء في مثل ثرائه، يذكر القسم الماسوني الذي يتعهد الإخوان المنتسبون بموجبه تقديم كل ثرواتهم للغير، فترتفع في نفسه الشكوك التي يبذل كل جهد في سبيل محوها.

ينتظم الإخوان الذين يعرفهم بيار في أربع فئات يضع في عداد الفئة الأولى أولئك الذين لا يساهمون إطلاقاً في النشاط العملي أو في أعمال المحافل والقضايا الإنسانية، بل يقصرون اهتمامهم على التعمق في أسرار «النظام» وتسمية الله الثلاثية والأسس الثلاثية لكل الأشياء: الكبريت والزئبق والملح ـ وعلى تفسير معنى المربع والرسوم التي على معبد سليمان. وكان بيار يكن لهذه الفئة من الإخوان التي تضم في عدادها أقدم الأعضاء وجوزيف ألكسييڤيتش نفسه، كما كان يظن، احتراماً عميقاً. لكنه لم يكن يشاطرهم مشاغلهم لأن الناحية التصوفية في الماسونية لم تكن تجتذبه.

كان يضع نفسه في الفئة الثانية وأولئك الذين يبحثون، مثله، ويترددون والذين ما كانوا ييأسون من إيجاد الطريق المستقيم ذات يوم رغم أنهم لم يجدوا طريق الماسونية المستقيم بعد.

www.Maktbah.com

أما في الفئة الثالثة، وهي الأكثر عدداً، فكان يضع الذين لا يرون في المذهب إلا أشكاله الخارجية وحفلاته، ويتمسكون بإنجاز طقوسه الشاقة دون الاهتمام بمضامينها ومعانيها الخفية. وينطبق هذا الوصف على كل الأعضاء تقريباً اعتباراً من ڤيلارسكي وحتى معلم المحفل الأكبر.

وتضم الفئة الرابعة كذلك عدداً كبيراً من الإخوان معظمهم من الجدد. كانوا، كما لاحظ پيار، أناساً لا يؤمنون بشيء ولا يرغبون في شيء، أناساً لم يدخلوا المحفل إلا ليتعرفوا إلى إخوان شبان وأغنياء من ذوي النفوذ والعلاقات وشرف المنشأ الذين كانوا وافري العدد في المحفل.

لم يكن نشاط يرضيه حقيقة. بدت له الماسونية، أو أقله تلك التي عرفها، مجرد شكليات، فراح يشك في النظم الماسونية الروسية دون أن يرقى به الشك إلى المبدأ نفسه، ويعتقد أن المحافل الروسية أخطأت النهج فانحرفت عن الأصول. قرر إذن أن يسافر في نهاية العام إلى الخارج ليطلع هناك على أهم أسرار النظام.

في أول صيف عام ١٨٠٩، رجع پيار إلى پيترسبورغ. عرف الإخوان الماسونيون في روسيا، استناداً إلى مراسيلهم في الخارج، أن پيزوخوف قد اكتسب ثقة عدد من كبار ذوي المناصب المطلعين على الكثير من الأسرار الذين رشحوه لرتبة عليا، وأنه عائد ومعه الكثير من المشاريع المفيدة للماسونية الروسية. فجاء الإخوان في پيترسبورغ لزيارته ساعين إلى مرضاته ولاحظوا أنه يخفي شيئاً ما.

قرروا إقامة محفل من الدرجة الثانية، وعد پيار أن يطلع الإخوان فيه على الرسالة التي حمله إياها ذوو المناصب العليا في «النظام» إلى إخوانه. فكانت جلسة حافلة، نهض پيار بعد المراسيم المألوفة وفي يده خطاب جاهز.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال وهو يلحن وقد احمر وجهه حياء: أيها الإخوان الأعزاء، لا يكفي أن ننجز أسرارنا في خفاء المحفل بل يجب كذلك أن نعمل... نعم، نعمل. إننا نغطّ في النوم بينما يجب علينا أن نعمل. أخذ دفتره وبدأ يقرأ.

«لكي ننشر الحقيقة الواضحة ونحصل على انتصار الفضيلة، يجب أن نستأصل من حولنا المعتقدات الفاسدة وأن نُعنى بتثقيف الناشئة ونرتبط بصلات لا تحل عراها بالعقول المستنيرة ونخذل الخرافة والإلحاد والحماقة بحكمة وجرأة، وأن نشكل من المخلصين لنا كتبة تربط بين أفرادها وحدة الهدف ونضع رهن إشارتهم النفوذ والقوة.

«ولكي نبلغ هذه الغاية ينبغي أن نعطي الفضيلة الغلبة على الرذيلة وأن نعمل جاهدين على أن ينال الرجل الطيب مكافأته الأبدية على فضائله ابتداء من هذا العام الفاني. لكن عدداً كبيراً من المؤسسات السياسية الخارجية تقف جاهزاً دون تحقيق أهدافنا العظمى، ماذا نعمل إذن في مثل هذه الحال؟ هل نشجع الثورات لنقلب كل شيء ونستعمل القوة ضد القوة؟... إننا بعيدون جداً عن ذلك. إن كل إصلاح يفرض بالقوة يستوجب اللوم لأنه لا يصلح السوء إذا ظل الأشخاص كما هم ولأن الحكمة ليست في حاجة إلى العنف.

«يجب أن يهدف نظامنا إلى تكوين أشخاص أقوياء ثابتي العقيدة صاحين تربطهم وحدة العقيدة التي تقوم على الرغبة في مطاردة الرذيلة بكل قوة وفي كل مكان وعلى حماية المناقب والفضيلة وتخليص المستحقين من حمأة الرذيلة وربطهم بنا وإشراكهم معنا. وبذلك يتمكن نظامنا من القدرة على شل أيدي المساعدين على الفوضى دون أن يشعروا بذلك وتوجيههم الوجهة الصالحة دون أن يشعروا بذلك أيضاً.

«وباختصار، يجب إقامة إدارة عالمية يمتد محور نشاطها إلى العالم

www.Maktbah.com

كله دون أن تصطدم مصالحها بمصالح الحكومات الأخرى. وستظل هذه الحكومات تعمل وستبقى حرة في تصرفاتها ما عدا ما يتعلق بمقاومتها لبرامج نظامنا التي تقوم على أساس نصرة الفضيلة على الرذيلة. كان هذا البرنامج هو هدف النصرانية التي علمت الناس أن يكونوا عقلاء وطيبين وأن يتبعوا في مصلحتهم الشخصية نهج وتعاليم الأفضل منهم والأكثر حكمة وتعقلاً.

كانت العظة وحدها كافية، عندما كان كل شيء غارقاً في الظلمات. وكان إعلان «الحقيقة» يجد في جدته نفسها قوة خاصة. أما في أيامنا هذه، فإننا في حاجة إلى وسائل أكثر قوة ونفوذاً: يجب أن يجد الرجل الذي يخضع لسيطرة حواسه افتتاناً عميقاً بالفضيلة. ولما كان لا يمكن استئصال النزوات والميول، ينبغي توجيهها نحو هدف نبيل. وعلى ذلك يجب على كل منا أن يقدر على إرضائها في حدود الفضيلة وعلى نظامنا أن يهيئ له الأسباب.

«وعندما نحصل على عدد معين من المتشيعين الجديرين بنا في كل دولة، يعمل كل منهم على إيجاد اثنين آخرين يتحدان مع البقية، وهكذا حتى يصبح ميسوراً لنظامنا الذي عمل حتى الآن في السر كثيراً من الأعمال النافعة للإنسانية، والسعي إلى غايتنا المنشودة».

أحدث الخطاب في المحفل تأثيراً قوياً حتى واضطراباً. استقبلته الأكثرية ببرودة أوحشت پيار لأنها ظنت أنه ينطوي على المبادئ الهرطقية الخطيرة. أثار المعلم الأكبر اعتراضات، وشرح پيار أفكاره بحماسة متزايدة. لم يشاهد أحد من الإخوان من قبل جلسة صاخبة كهذه. وتألفت كتل وأحزاب: بعضهم يتهم پيار بالهرطقة والبعض الآخر يدافع عنه. أدرك پيار لأول مرة أن تباين العقليات اللامحدودة يحول دون كل حقيقة، مهما كان نوعها، والظهور بمظهر واحد في نظر شخصين مختلفين. حتى أولئك الذين اتخذوا موقف

twitter @baghdad_library

الدفاع عنه، لم يفهموا أقواله إلا على طريقتهم، فأدخلوا عليها قيوداً وتعديلات لم يكن يستطيع الموافقة عليها وهو الذي ما أورد أفكاره كما أدركها وفهمها.

لفت المعلم الأكبر انتباهه في نهاية الجلسة بسخرية مقصودة إلى أنه تحمس أكثر مما ينبغي: ولا شك أن حب الكفاح قد سيّره أكثر من حب الفضيلة. لم يجب پيار بشيء بل سأل بإيجاز عما إذا كان عرضه مقبولاً. ولما تلقى جواباً سلبياً، خرج دون أن ينتظر الشكليات المألوفة ومضى إلى منزله.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

بقي پيار طوال الأيام الثلاثة التي تلت خطابه متمدداً على الكنبة لا يبارحها ولا يستقبل أحداً إذ عادت الكآبة العميقة تتسلّط عليه.

تلقى رسالة من زوجته، في هذه الفترة بالذات، تلتمس منه موعداً لمقابلته: كانت تعرب له فيها عن رغبتها في رؤيته لتكرس له وجودها مختارة، وتعلمه في ختامها بقرب عودتها إلى پيترسبورغ بعد إقامة طويلة في الخارج.

اقتحم بابه، بعد فترة من الزمن، أحد إخوانه الماسونيين الذي كان يتمتع بأحقر نصيب من تقديره، ووجه الحديث نحو حياة پيار الزوجية فصوّر له على شكل نصيحة أخوية أن الحزم الذي كان يبديه حيال زوجته غير عادل لأن رفض الصفح عن التائب يتنافى مع إحدى القواعد الأساسية لنظامهم المقدس.

وفي الوقت نفسه، بعثت حماته، زوجة الأمير بازيل، تطلب إليه مقابلتها. توسلت إليه أن يمنحها بعض وقته لأن لديها مسألة هامة تريد بحثها معه. عرف پيار أنهم يتآمرون في الخفاء لمصالحته مع زوجته لكن حالته المعنوية كانت في انحطاط كبير حتى أنه لم يحفل بالأمر إطلاقاً. بات كل شيء في نظره عديم القيمة، واقتنع بأن لا شيء في الحياة يستوجب البحث في مضاعفات. كان فيها فريسة الجمود وخمود الهمة فما عاد استقلاله يشغل باله وأحسّ بأن قراره الحازم الذي يقضي بمعاقبة زوجته قد تخاذل.

فكر: «ليس هناك من هو على حق وبالتالي من هو مذنب. فلا يمكنني إذن أن أتهمها بشيء».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وإذا لم يبادر من فوره لإقامة الصلح مع هيلين فما ذلك إلا لأن حالة التعب التي كان عليها، منعته من المباشرة بأي شيء. ولو جاءت زوجته تزوره لما صدها حتماً. ماذا يهمه، وهو على تلك الحال من المشاغل، أن يعيش معها أو يبقى وحيداً؟

ودون أن يجيب زوجته وحماته على رسالتيهما. قصد ذات يوم جميل إلى موسكو لاستشارة جوزيف ألكسييڤيتش. وفيما يلي ما دونه في مذكرته.

موسكو، ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر

أنا أخرج الآن من منزل «المحسن» وأبادر إلى إيراد مشاعري هنا. إن جوزيف ألكسييڤيتش يعيش عيش كفاف ويشكو منذ ثلاث سنوات من مرض أليم في المثانة. لم يسمع من أحد قط، صوته يجأر بالشكوى أو الأنين. إنه ينكب على الدراسة منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل، باستثناء الساعات التي يتناول خلالها طعاماً بسيطاً. استقبلني بمحبة وأجلسني على السرير حيث كان مستلقياً. حييته بإشارة فرسان الشرق والمقدس، فأجابني بإشارة مثلها وسألني عما تعلمته في محافل إيكوسيا وبروسيا. فسّرت له على قدر طاقتي وعرضت عليه الأفكار التي أدليت بها في المحفل في پيترسبورغ وبينت الاستقبال الرديء الذي لقيته تلك الآراء، ذلك الاستقبال الذي سبب انقطاعي عن الإخوان.

وبعد أن فكر جوزيف ألكسييڤيتش طويلاً، شرح لي وجهة نظره التي أنارت لي فوراً كل الماضي والسبيل الذي ينفتح أمامي في الحاضر. ولقد دهشت حينما سمعته يسألني عما إذا كنت لا أزال أذكر الهدف الثلاثي للنظام: ١ ـ المحافظة على الأسرار والتعمق فيها. ٢ ـ تطهير الذات ومعاقبة النفس وردعها لإعدادها للاشتراك في تلك الأسرار، ٣ ـ إصلاح الجنس البشري عن طريق المجهودات المبذولة في سبيل ذلك الإصلاح. أي هدف من هذه

www.Maktbah.com

الأهداف الثلاثة يعتبر أكثر أهمية؟ إنه دون أدنى شك إصلاح الذات، إنه الهدف الوحيد الذي نستطيع أبداً السعي إلى بلوغه رغم كل الاحتمالات. لكنه في الوقت نفسه، يتطلب منا أكبر الجهد. لذلك فإننا نزوغ عنه، تخدعنا الكبرياء، لنتعلق إما بالتعمق في الأسرار الذي يمنعنا تدنسنا من الغوص فيها والتوغل في خفاياها، وإما بإصلاح الجنس البشري في حين أننا نقدم أنفسنا مثالاً لفساد الخلق. إن الهرطقة على اختلاف أنواعها، الملوثة بالكبرياء الطامعة في لعب دور اجتماعي، ليست إلا عقيدة رديئة. واستناداً إلى ذلك لامني جوزيف ألكسييڤيتش على ما تقدم مني وعلى خطابي، فوافقته من أعماق روحي.

«وعندما تقدم مني، بدأنا نتحدث عن مشاكلي العائلية، قال لي: «إن واجب الماسوني الحقيقي الرئيس يقوم، وأكرر لك، على إصلاح ذاته. لكننا غالباً نتوهم أن بمقدورنا بلوغ هذه الغاية بأقصى سرعة بابتعادنا عن كل متاعب الحياة وأعبائها. بينما الأمر على العكس يا عزيزي. إننا لا نبلغ هذا الهدف إلا وسط مصائب الدهر وذلك للأسباب التالية: ١ ـ معرفة ذاتنا. لأن الإنسان لا يمكنه التعرف إلى نفسه إلا بالمقارنة. ٢ ـ الإصلاح، وهذا لا يتم إلا بالجهاد والكفاح، ٣ ـ الفضيلة أي حب الموت. إن ظروف الحياة وحدها تستطيع إظهارنا على كل الزهو الباطل وإلهامنا حب الموت أي الرغبة في بعث في عالم آخر جديد». إن هذه الكلمات على جانب كبير من الأهمية لا تضاهيها إلا أهمية صاحبها جوزيف ألكسييڤيتش الذي رغم آلامه الجسدية، لا يشكو أبداً من عبء الحياة. وعلى الرغم من حبه للموت فإنه يشعر بعدم إعداد نفسه إعداداً كافياً رغم كل النقاء والنبل اللذين تتصف بهما حياته الخاصة.

«ثم شرح المحسن المعنى العميق لمربع الخليقة الأكبر وبيّن لي أن الأرقام ثلاثة وسبعة، هي أساس كل شيء. نصحني كذلك ألّا أنقطع نهائياً عن الإخوان في پيترسبورغ ولكن أن أحذرهم من تبعات الكبرياء ونتائجها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وأعيدهم إلى طريق المعرفة الحقيقية وإصلاح الذات. في الوقت نفسه الذي أتشاغل خلاله بالقيام بأعمال من الدرجة الثانية في المحفل. أما فيما يتعلق بي شخصياً، فقد قادني إلى مراقبة نفسي وأعطاني لهذه الغاية دفتراً هو هذا الذي أخط على صفحاته هذه المذكرات والذي سأسجل فيه كل حركاتي في المستقبل».

«پيترسبورغ، ٢٣ تشرين الثاني»

«تصالحت مع زوجتي. جاءت حماتي تذرف الدمع وتقول لي إن هيلين هنا واستحلفتني أن أصغي إليها. إنها بريئة أيأسها هجراني وأشياء أخرى أيضاً. أنا أعرف تماماً أنني إذا سمحت لنفسي بالذهاب لرؤيتها، لن أستطيع رفض ملتمسها طويلاً. وفي هذا التردد الذي وقعت فيه، كنت أتساءل عمن ألجأ إليه. لو أن المحسن كان هناك، لكانت نصائحه جد ثمينة ومفيدة. تماسكت فترة طويلة وأعدت قراءة رسائل جوزيف ألكسييڤيتش. ثم تذكرت أحاديثنا وخرجت بنتيجة نهائية: يجب أن أتقبل من يبتهل إليّ وأن أمد إلى كل الناس يد العون وخصوصاً إلى ذلك الشخص الذي تربطه بي وشائج متينة. يجب علي إذن أن أحتمل عذابي. لكنني إذا كنت أصفح عنها حباً بالفضيلة، فإنني أتوقع أن لا يكون لرابطتي معها إلا هدف روحي فحسب. أما زوجتي، فقد رجوتها أن تنسى الماضي وتصفح عن أخطائي التي قد أكون ارتكبتها تجاهها. أما أنا، فليس عندي شخصياً ما يستحق أن أصفح عنه. سرني أن استطعت التحدث إليها على هذا النحو وأن تظل جاهلة مقدار النصب الذي احتملته بموافقتي على رؤيتها. لقد أقمت في الطبقة العليا من منزلنا وأتذوق الآن البهجة التي وفرها لي شعوري بالتجدد».

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

كان أبناء المجتمع الراقي الذين يلتقون في البلاط أو في الحفلات الراقصة، في تلك الأثناء كما هي العادة، ينقسمون إلى حلقات لكل واحدة منها طابعها الخاص. وكانت الحلقة الأكثر عدداً هي حلقة الفرنسيين، التي يميل أفرادها إلى التعاون مع ناپليون ويرأسها الكونت رومیانتسيـڤ والكونت دوكولنكور[1] وما كادت هيلين تعود إلى الحياة مع زوجها حتى ارتقت إلى أرفع مقام في المجتمع. أخذ هؤلاء السادة الذين يتعلقون بالسفارة الفرنسية، وعدد كبير من الشخصيات ذوي الأذواق المتجانسة، يرتادون أبهاءها.

كانت هيلين في إيرفورت، صدفة، عندما تمت المقابلة بين الأمبراطورين، فصادفت هناك نجاحاً مرموقاً وارتبطت بعلاقات مع كل شخصيات أوروبا الناپليونية المهمين. ولقد لاحظها الأمبراطور نفسه ذات مرة في المسارح فقال عنها: «إنها حيوان رائع». ولما كانت محاسنها قد ازدادت، فقد بدا فوز هذه المرأة الأنيقة واجتذابها الأنظار، أمراً طبيعياً في نظر پيار. لكنه كان يتساءل دائماً كيف استطاعت خلال هذين العامين أن تكتسب شهرة: «المرأة الفاتنة الجميلة بقدر ما هي ذكية». كان الأمير الشهير دولين[2] يكتب لها رسائل من ثماني صفحات. بينما كان بيليبين يدخر كلماته ليترك لهيلين الأولوية في

(١) جنرال فرنسي ولد ١٧٧٢، كان سفير روسيا، مثّل ناپليون في مؤتمر شانيون، قتل في معركة موسكو ١٨١٢. (المترجم).

(٢) كاتب شهير، جنرال بلجيكي في خدمة النمسا. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكلام. وعلى هذا فإن الدخول إلى غرفة استقبال الكونتيسة بيزوخوف كان بمثابة وسام فكري للداخل إليه. يتعمّد الشباب قراءة الكتب قبل الذهاب إلى ندوتها ليعدوا لأنفسهم مواضيع يعالجونها، بينما يأتمنها أمناء السر في السفارات والسفراء أنفسهم، على أسرارهم الدبلوماسية. وبالاختصار، كانت سلطة مستقلة في نوعها. وكان پيار، وهو الذي يعرف أنها حمقاء، يحضر أحياناً مجالسها وهو فريسة لمزيج غريب من القلق من تلك الحفلات والسهرات والولائم التي كانوا يتحدثون خلالها عن السياسة والشعر والفلسفة. كان يحسّ بشعور الحاوي الذي يخاف أن يرى خدعته تنكشف في كل لحظة. لكن شهرة الكونتيسة بيزوخوف بوصفها امرأة متقدة الذكاء كانت وطيدة جداً، سواء أكانت الحماقة عاملاً ضرورياً لإدارة ندوة من هذا النوع أم كان الأغرار يجدون متعة في أن يُغرّر بهم، حتى أن هيلين كانت تستطيع الإدلاء بكل الحماقات التي تخطر ببالها ليهلل الحاضرون كلهم إعجاباً بكل كلمة نطقت بها، يحاولون البحث عن معنى عميق فيها، معنى لم تكن تحمل نفسها مشقة الإفصاح عنه.

كان پيار الزوج المنشود لهذه الاجتماعية اللامعة، زوجاً «سيد عظيم»، شاذ الطباع، لا يزعج أحداً ولا يتضايق من جلبة القاعة بل يصلح في الوقت نفسه ليكون دافعاً مبرزاً لأناقة زوجته وظرفها. ساعدته اجتهاداته الأخرى المنافية لكل هذه المظاهر، طوال عامين كاملين واحتقاره الكلي لكل ما عداها، على أن يتخذ في مثل هذه الندوات التي لا تثير اهتمامه، موقف لا مبالاة منطلقة من كل المجتمعين، لا يمكن اكتسابها بالصنعة، الأمر الذي يوحي ببعض الاحترام. كان يدخل قاعة زوجته وكأنه داخل إلى قاعة عرض يعرف فيها كل الموجودين، فيستقبل كلاً منهم بمثل ما يستقبل الآخر ثم يظل

www.Maktbah.com

بعيداً عنهم جميعاً بعداً متساوياً. فإذا بدت له إحدى المناقشات مجدية هامة، اشترك فيها وحينئذ يعرب عن آرائه مدندناً بوجهات نظر كانت أحياناً تتنافى كلياً مع الجو الذي تذاع فيه، دون أن يأبه لمعرفة ما إذا كان «السادة أعضاء السفارة» موجودين أو لا. لكن زبائن الندوة كانوا يعرفون تماماً كيف يعاملون ذلك الزوج البسيط، زوج «أبرز امرأة في پيترسبورغ»، فلا يأبهون لحماقاته.

لم يكن بين العدد الكبير من الأشخاص الذين يحاصرون ندوات الكونتيسة بيزوخوف يومياً بعد عودتها من إيرفورت، من يلقى مثل العناية التي يلقاها بوريس دروپيتسكوي الذي حصل خلال تلك الفترة على مركز مرموق. كانت هيلين تسميه «تابعي» وتعامله معاملة الطفل. صحيح أن البسمات لم تكن تختلف عن بسماتها للآخرين، لكن پيار كان يغتم أحياناً اغتماماً شديداً بسببها. وكان بوريس يظهر لـ پيار احتراماً خاصاً موسوماً بوقار كئيب، لكن هذا الاحترام كان يقلقه بالمثل. لقد تألم بقسوة قبل ثلاثة أعوام للإهانة التي أصابته بها زوجته. لذلك فقد كان الآن يحاول تجنب إهانة مماثلة فهو ليس زوجاً لزوجته وهو كذلك لا يسمح لنفسه بالشك في سلوكها. كان يقول في سره:

ـ لقد أصبحت الآن «مشتبهاً فيها» لذلك فقد عزفت عن كل تصرفاتها الشائنة السابقة.

ويكرر لنفسه قائلاً: لم يسبق أن أصيبت «مشتبه فيها» بضعف عاطفي.

والله وحده يعلم من أين أتى بهذا الزعم وأعطاه براءة المبدأ الثابت. مع ذلك، فإن وجود بوريس المستمر في قاعة زوجته كان يحدث في مزاجه تأثيراً غريباً: يشل كل أعضائه ويذهب بحرية حركاته وطبيعتها الغريزية.

كان يقول لنفسه: « يا للنفور العجيب! مع أنه كان من قبل يعجبني جداً».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وإذن، كان پيار في نظر الأوساط الراقية سيداً كبيراً وزوجاً كفيف البصر شاذاً لزوجة شهيرة، مبدعاً ولكن غير غبي، عاطلاً من العمل ولكن غير مسيء إلى أحد، وبالاختصار، رجلاً طيباً. لكن في نفس پيار، ظلت تقوم خلال هذه الفترة زوبعة مركبة عسيرة تصطخب في أعماقه، فتفتح له آفاقاً كثيرة وتسلمه إلى الشكوك، لكنها كانت تتيح له أيضاً متعاً روحية جمة.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

«٢٧ تشرين الثاني»

استمر پيار يدوّن في مذكراته. وفيما يلي ما سجله خلال تلك الفترة.

«٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر»

«نهضت في الساعة الثامنة وقرأت الكتاب المقدس ثم ذهبت إلى جمعيتي ـ ذاك أن پيار وافق نزولاً عند نصح «المحسن» على المساهمة في جمعية ـ عدت لتناول الطعام، فتناولته وحدي لأن لدى الكونتيسة عدداً كبيراً من المدعوين الذين لا أميل إليهم. أكلت وشربت بمقدار ثم نسخت بعد الطعام مستندات للإخوان. وفي المساء، عندما نزلت إلى جناح الكونتيسة، رويت قصة مثيرة عن (ب.). لكنني تبينت بعد فوات الأوان، ومن جلبة ضحكات الموجودين أنني أخطأت في سرد تلك القصة.

«إنني أنام سعيداً مشرق النفس. اللهم يا قدير ساعدني على السير في سبلك، وأعني: ١ ـ هزيمة نزعتي إلى الغضب بالصبر، ٢ ـ التفوق على المنكر والاشمئزاز، ٣ ـ إبعادي عن الزهو الدنيوي ولكن دون أن تقصيني في معزل عن: أ ـ شؤون الدولة، ب ـ مصالح الأسرة، ج ـ العلاقات الودية، د ـ المشاغل ذات الطابع الاقتصادي».

نهضت متأخراً، و بقيت فترة طويلة في سريري فريسة الكسل، اللهم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مد لي يد المساعدة وأعطني القوة على السير في سبلك! قرأت في الكتاب المقدس لكن من دون تركيز كافٍ. جاء الأخ أوروسوف، فتحدثنا عن البطلان الذي يسيطر على الناس، أطلعني على مشاريع الأمبراطور الجديدة. كدت أبادر إلى نقدها عندما تذكرت فجأة قواعدي وكلمات محسننا القائلة: إن الماسوني الحقيقي يجب أن يكون أداة ذات حمية في يد الدولة عندما يُطلب إليه المساهمة في شيء، ومتفرجاً سلبياً عندما لا تدعو الحاجة إليه. إن لساني هو عدوي. جاء الأخوان «ج. ف.» و«أو.» لزيارتي. اتخذنا الإجراءات لاستقبال جديد في المحفل. أنا طالب دور الملقن للعضو الجديد. إنني أحسّ أنني غير جدير بذلك وغير معد إعداداً طيباً.

تناقشنا بعدئذ في المعنى الواجب إعطاؤه للأعمدة ودرجات الهيكل السبع، والعلوم السبعة والفضائل السبع والرذائل السبع ومنح الروح القدس. السبعة كان الأخ «أو.» لبقاً. أقيمت الحفلة مساء، ساهم ترتيب المحفل الجديد في إضفاء جو من البهاء على المشهد. إن من قبلناه هو بوريس دروبيتسكوي. لقد زكيته. كنت طوال الوقت الذي قضيته بصحبته في الغرفة المظلمة، نهباً لشعور غريب. إنني أشعر نحوه بحقد أعمل عبثاً على التغلب عليه. أود بكل إخلاص أن أنقذه وأقوده في طريق الحقيقة. لكن الأفكار السيئة لا تغادرني. كنت أحدث نفسي بأنه لم ينضم إلى صفوفنا إلا للتقرب من بعض الشخصيات الهامة ذات النفوذ الواسع المتوافرة في محفلنا، ليفوز بعطفها. ألم يسألني مراراً عمّا إذا كان «ن.» و«س.» عضوين في محفلنا، الأمر الذي لا حق لي في البوح به؟ أضف إلى ذلك ما يبدو لي أنه غير قابل للشعور نحو نظامنا المقدس بالاحترام اللازم، لأنني أراه كثير التشاغل راضياً عن نفسه رضى لا ينتظر معه أن يرغب في تهذيب روحه.

مع ذلك، لم تكن لدي أسباب خاصة للشك فيه، لكنني أشعر أنه غير

www.Maktbah.com

مخلص حتى خيل إلي طوال الفترة التي قضيتها معه في الهيكل المعتم، أنه كان يبتسم باحتقار لسماع نصائحي، فتملكتني الرغبة في أن أخرق صدره العاري بالسيف الذي في يدي. لم أستطع إظهار بلاغتي، لكنني لم أكن أجد لشكوكي أسساً بينة لأطلع الإخوان والمعلم الأكبر عليها. آه يا مهندس الكون الأعظم، ساعدني على إيجاد الطريق الذي يقودني خارج متاهة الكذب».

وبعد ثلاث صفحات بيضاء، تعود كتابة المذكرات كما يلي:

«جرت لي مقابلة مطولة ومفيدة مع الأخ «ف.» الذي أوصاني بالتعلق بالأخ «آ.» اطلعت على أشياء كثيرة رغم أنني لا أستحق الاطلاع عليها. إن آدانوي هو اسم خالق الكون، وايلويم اسم الذي يريده! أما الاسم الثالث، وهو يفوق حد الوصف، فيعني «الكل». دعمت فؤادي محادثاتي مع الأخ «ف.» وثبتت خطواتي في طريق الفضيلة «هو» موجود، وكل شك يزول. إنني أرى بوضوح الفرق بين العلوم الفارغة التي يعلمونها في العالم، ومبادئنا المقدسة التي تحيط بكل شيء. إن العلوم البشرية تحطم كل شيء لتفهم وتقتل كل شيء لتفحص. أما في مبادئ نظامنا، فعلى العكس، الكل وحدة، كل شيء يصبح مفهوماً في تعقيده وفي حياته. إن الثلاثيات، عوامل الأشياء الثلاثة هي الكبريت والزئبق والملح. أما الكبريت فيضم خصائص الزيت والنار ممتزجة. وباتحاده مع الملح، يثير في نفسه بفعل النار التي يطويها بين جوانحه، الرغبة التي يجتذب الزئبق بواسطتها، فيمسك به ويحتفظ به ويحدث ـ بالاتحاد معه ـ الأجساد الملموسة أما الزئبق، فهو الجوهر الروحي في حالته السائلة وفي حالة التصعيد ـ المسيح، الروح القدس، الكون».

٣ كانون الأول/ ديمسبر

«استيقظت متأخراً وقرأت في الكتاب المقدس ولكنني لم أتحسس بما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قرأت. أخذت أذرع القاعة. أردت التفكير، لكن خيالي راح بدلاً من ذلك، يدفع في ذاكرتي بمشهد حدث منذ أربعة أعوام. قال لي السيد دولوخوف عقب مبارزتنا وقد التقاني في موسكو، إنه يأمل أن أنعم الآن، رغم غياب زوجتي، باستقرار فكري كامل، لم أجبه يومذاك. لكن ها إنني هذا الصباح، وأنا أستعيد كل تفاصيل ذلك اللقاء أوجه له الخطب الأكثر حنقاً وهجاء لاذعاً. بلغ غضبي مبلغ الهيجان عندما ثبت إلى نفسي: طردت هذه الأفكار لكنني لم أجد في ذلك عزاء كافياً وبعدئذ جاء بورس دروپيتسكوي.

وبدأ يقص أحدوثات، لم تعجبني زيارته منذ الوهلة الأولى لذلك فقد بسطت أمامه موضوعات شحيحة الأنس. جاوبني على أقوالي. ثرت وكلت له عدداً من الأشياء الخارجة على حدود اللباقة. فسكت وأسفت متأخراً على أقوالي. رباه إنني لا أعرف مطلقاً كيف أتصرف معه بسبب كبريائي إنني أضع نفسي في مستوى أعلى من مستواه ثم أهوي إلى درك أحط: والواقع أنه بينما يظهر تساهلاً حيال سماجاتي، لا أشعر تجاهه إلا بالكراهية. رباه، امنحني القدرة على أن أرى في حضرته عيبي أكثر مما أراه عادة، وأن أعدل سلوكي بشكل يصبح معه ملائماً حتى بالنسبة إليه. استرحت قليلاً بعد الغداء. وبينما أنا أفقد حواسي تدريجاً، سمعت صوتاً يهمس في أذني بوضوح: «لقد جاء يومك».

«حلمت أنني أسير في الظلام حتى وجدتني فجأة وسط كلاب تحيط بي. لكنني بقيت أسير دون أن أفرق وفجأة أطبق كلب صغير بأسنانه على ربلة ساقي اليسرى ولما لم يشأ التخلي عنها، أخذت أخنقه وما كدت أتخلص منه، حتى ألقى كلب آخر، أكبر من الأول، بنفسه علي وعضني. رفعته بين يدي وكلما رفعته ازداد كبراً وثقلاً. وفجأة جاء الأخ «آ.» وأمسك بيدي ثم جرني إلى بناء لا يمكن الدخول إليه إلا بالعبور فوق لوح ضيق من الخشب فلم

www.Maktbah.com

أكد أطأ بقدمي ذلك المعبر حتى ترنح وانهار. وعندئذ تسلقت حاجزاً دائرياً كانت يداي لا تبلغانه إلا بصعوبة. وبعد جهود مضنية، استطعت أن أرفع نفسي قليلاً، وأصبح جذعي متدلياً في جهة وساقاي في الجهة الأخرى. وفجأة لمحت الأخ «أ.» واقفاً فوق الحاجز يشير إلى ممرّ في حديقة. وفي تلك الحديقة بناء فسيح جميل. رباه، يا مهندس الكون الأعظم ساعدني على التخلص من كلابي وأعني للخلاص من رغباتي وشهواتي، وخصوصاً من الأخيرة التي تتركز فيها سلطة كل الرغبات الأخرى وقوتها. ساعدني اللهمّ على الدخول إلى هيكل الفضيلة الذي شاهدته في الحلم.

«٧ كانون الأول/ ديسمبر».

«حلمت أن جوزيف ألكسييڤيتش موجود عندي فكنت سعيداً جداً بزيارته راغباً في معاملته أفضل معاملة. مع ذلك كنت أثرثر مع آخرين حديثاً لا نهاية له، أدركت فجأة أن هذا التصرف لا يمكن أن يرضيه واعتجلت في نفسي رغبة ضمه بين ذراعي. وبينما كنت أقترب منه، رأيت وجهه يتبدل فيعود إلى الشباب وسمعته يحدثني ببعض كلمات عن مبادئ النظام ولكن بصوت هامس حتى إنني لم أستطع فهم أقواله. ثم خرجنا بعدئذ جميعاً من الغرفة فوقع أمر على جانب من الغرابة. كنا جالسين أو مستلقيين على الأرض وهو يحدثني. أما أنا، فكنت أريد أن أكشف له عن حنوي، وبدون أن أصغي إلى أقواله، تصورت حالة نفسي الداخلية التي أمدها الله بعون من لدنه تلألأت دموع في عيني فكنت أغتبط أن يكون رآها. لكنه حدجني بنظرة متذمرة وابتعد عني بعنف واضعاً حداً للحديث. روعت وسألته عما إذا كان قد رغب في التحدث عني. لم يجبني بشيء لكنه مع ذلك رمقني بنظرة مؤنسة وفجأة انتقلنا، دون أن أدري كيف، إلى غرفتي حيث كان فيها سرير مزدوج، نام على

twitter @baghdad_library

حافة السرير وأنا ـ ألتهب برغبة إظهار حبي له ومودتي ـ نمت إلى جانبه. خيل إليّ أنه سألني:

«ما هي رغبتك المسيطرة؟ قلها لي دون مراوغة. هل توصلت إلى عزلها وحلها؟ نعم، لا شك أنك تعرفها الآن». اضطربت لهذا السؤال فأجبته بأنها: الكسل. هز رأسه بلهجة مكذبة. فقلت له إنني رغم سكناي مع زوجتي كما أوصاني، لا أعاملها معاملة الزوج. فاعترض على ذلك. وأفهمني أنه لا ينبغي لي حرمانها من ملاطفاتي وأسمعني تنويهاً أنني مرغم على ذلك. أجبته بأن ذلك يخجلني وفجأة اختفى كل شيء. استيقظت وفي رأسي هذا المقطع من الكتاب المقدس يدوي: «والحياة كانت نور البشر والنور يشع في الظلمات والظلمات لم تتلق ذلك النور». كان وجه جوزيف ألكسييڤيتش فتياً ومضيئاً. وفي اليوم نفسه، تلقيت رسالة من «المحسن» تبحث في الواجب الزوجي.

«٩ كانون الأول/ ديمسبر».

«حلم جديد دعاني عندما استيقظت خافق القلب، كنت في موسكو، في منزلي، في القاعة الكبرى ذات الكنبات، وجوزيف ألكسييڤيتش قادماً نحوي من جهة القاعة، لمحت على الفور نشوراً تم فيه فهرعت إلى استقباله. قبلت يديه فقال لي: «هل لاحظت أن وجهي لم يعد كسابق عهده»؟ رحت أنظر إليه بانتباه وأنا محتفظ به مضموماً إلى صدري: كان وجهه أصفر وقسماته مختلفة جداً ورأسه خالياً من الشعر. قلت له حينئذ: «لو إنني لقيتك صدفة لما فاتني أن أعرفك». لكنني كنت أقول في سري متسائلاً: «هل تفوهت بالحقيقة حقاً»؟ وفجأة رأيته أمامي ممدداً كالجثة. ثم عاد إلى رشده تدريجاً ودخل معي إلى غرفة كبيرة. كان يمسك بيده كتاباً كبيراً من أوراق البردي المدهون. قلت له: «إنني أنا الذي زوقت هذا الكتاب» فأشار لي إشارة الاستحسان. فتحت

www.Maktbah.com

الكتاب. كانت رسوم جميلة جداً تزين صفحاته. كنت أعرف أن تلك الرسوم تمثل مغامرات الروح مع حبيبها. على صفحة منه، ظهرت عذراء في ثياب شفافة وجسد مرمري، تحلق بين الغيوم. وكنت أعرف أن تلك العذراء هي صورة رمزية لنشيد الأناشيد. شعرت بأنني مخطئ في تأمل هذه الرسوم. لكنني لم أكن أستطيع نزع أنظاري عنها. اللهم هب إلى مساعدتي! أوّاه يا ربي، إذا كان الهجران الذي أنا فيه من صنعك، فلتكن مشيئتك! لكنني إذا صنعته بيدي وبخطأ مني، علمني ما يجب أن أصنعه. سوف يقتلني الفساد إذا تخليت عني نهائياً».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

إن الوضع المالي لآل روستوف لم يتحسن حسبما كانوا يتوقعون بالرغم من أنهم أمضوا في الريف سنتين كاملتين.

ظل نيكولا مخلصاً لكلمته، باراً بالعهد الذي قطعه على نفسه، يعيش في فيلقه بتواضع. لكن نمط الحياة في مركز الأسرة الريفي في أوترادنوي وإدارة ميتانكا، جعلا الديون تزداد تضخماً من عام إلى آخر. فلم يجد الكونت العجوز وسيلة لدرء هذا الخطر إلا بالعودة إلى الخدمة. لذلك ذهب إلى پيترسبورغ باحثاً عن عمل. وفي الوقت نفسه، وبحسب تعبيره الخاص، إعطاء أوقات جميلة للفتيات الشابات للمرة الأخيرة للترفيه عنهن.

وبعد وصولهم إلى پيترسبورغ بمدة قصيرة، طلب بيرج يد ڤيرا، فقبل طلبه. كان آل روستوف في موسكو يعتبرون في عداد أرفع طبقة في المجتمع، دون أن يأبهوا في الحقيقة لمعرفة إلى أية طبقة ينتمون. لكنهم في پيترسبورغ أصبحوا على العكس لا يحظون إلا بعلاقات غير واضحة. ذلك أن عدداً كبيراً من الذين كانوا في موسكو يعتبرون أنهم وإياهم يقومون على صنف واحد، باتوا في پيترسبورغ لا يوافقون على الظهور مع هؤلاء القرويين الآتين من الأقاليم.

لكنهم استمروا يعيشون على طريقتهم في موسكو، تجمع ولائمهم أشخاصاً من مختلف الطبقات: وصيفة شرف، الآنسة پيترونسكي، تجاور بعض القرويين الموسرين وفتياتهم، پيار بيزوخوف إلى جانب ابن رئيس

www.Maktbah.com

البريد في منطقتهم الموظف في العاصمة. وكان أكثر الرجال ألفة في بيت آل روستوف، بوريس پيار الذي قابله الكونت العجوز في الشارع واصطحبه في شبه قسر إلى منزله، ثم «بيرج» الذي كان يقضي عندهم أياماً كاملة ويعرب لابنتهم البكر، الكونتيسة ڤيرا، عن لهفته التي تفضح نياته في الزواج بها.

لم يظهر بيرج ذراعه اليمنى التي أصيبت في معركة أوسترليتز لكل وافدٍ عبثاً ولا أمسك بعناد بيده اليسرى سيفاً لم يكن يفيده في شيء. لقد أقنعت لهجته الخطيرة التي كان يحدث بها كل وافد، أي وافد، عن شجاعته وجرحه، كل من حوله حتى أن وسامين جاءا أخيراً يشهدان ببسالته في أوسترليتز.

وكذلك منحته حرب فنلندا فرصة للظهور. التقط شظية قنبلة أصابت مساعداً عسكرياً فقتلته قرب القائد الأعلى وسلمها إلى رئيسه. وكما فعل عقب معركة أوسترليتز، راح يروي القصة بإلحاح حتى أعجب كل من حوله ببسالته مجدداً ومنح من أجل ذلك مكافأتين. وفي عام ١٨٠٩ أصبح برتبة رئيس في الحرس وبات يحتل مركزاً خاصاً مرموقاً.

كان بعض المتشككين يبتسمون كلما دار البحث حول مواهب بيرج وشجاعته. لكنهم لا يستطيعون الإنكار بأنه ضابط شجاع مرموق جداً من قبل رؤسائه، وشاب يعيش عيشة طيبة، ينتظره مستقبل باهر وأنه بلغ حتى الآن مركزاً مرموقاً في المجتمع.

قبل أربعة أعوام، عندما قابل بيرج أحد رفاقه الألمان في موسكو في حديقة مسرح هناك، أشار إلى ڤيرا روستوف وقال له بلغته: «ستكون هذه زوجتي». ومنذ ذلك الحين، اتخذ قراره. بدا له مركزه الآن معادلاً لمركز آل روستوف، إذن فقد حانت اللحظة المناسبة فتقدم بطلبه.

بادئ الأمر، قوبل عرضه بتحفظ لا يبشر بالخير، اعتبروا أن من الغرابة أن يتقدم ابن سدليفوني مغمور بطلب الزواج من كونتيسة روستوف، لكن أخلاق

twitter @baghdad_library

بيرج كانت تمتاز بطابع خاص من الأنانية البريئة حتى أن آل روستوف انتهى بهم الأمر إلى القول إن الأمر يجب أن يكون كذلك، لأنه هو نفسه كان مقتنعاً به. أضف إلى ذلك أن الخطيب لا يمكن أن يجهل تشوش أوضاعهم المالية، ثم إن ڤيرا قد بلغت الرابعة والعشرين واختلطت كثيراً بالأوساط فلم يتقدم أحد لطلب يدها رغم وفرة جمالها واحتشامها وعلى ذلك وافق آل روستوڤ على الطلب.

قال بيرج لزميله الذي يسميه صديقه لأن العادة تقضي بأن يكون للمرء صديق: اصغ: لقد وزنت كل شيء وحسبت كل شيء وما كنت لأتزوج أبداً لو أن القضية تعرضت لأي مانع. ولكن كما ترى لا يحتاج والداي شيئاً بعد أن أقطعتهما أراضي أقاليم البلطيق. أما أنا فإنني أحسن الحساب لدرجة لا تجعل العيش في پيترسبورغ متعذراً إذا اجتمع راتبي بثروتها هي. سوف يمكننا أن نعيش على أفضل ما يرام. إنني لم أتزوجها بالطبع من أجل مالها لأن ذلك لا يعتبر نبلاً، ولكن يجب على الزوج والزوجة أن يتشاركا كل في حدود طاقته في إنشاء حياتهما. إن لي مركزي ولها علاقاتها وندوتها الصغيرة. وأعتقد أن مثل هذه الأمور في أيامنا هذه ليست مكروهة على ما أظن؟ وأخيراً وقبل كل شيء إنها فتاة رائعة وتحبني...

وابتسم بيرج لدى تفوهه بهذه الكلمات واحمرّ وجهه.

ـ ثم إنني أحبها أنا الآخر لأن لها عقلية ممتازة... إن أختها الثانية تختلف عنها كلياً... إنها على خلق رديء ينقصها الإرهاف ولست أدري كذلك ما ينفرني منها... أما خطيبتي فسوف تأتي غالباً...

ـ وهمّ أن يقول «لتناول الطعام» لكنه استدرك وقال ـ ... لتشرب الشاي عندنا.

www.Maktbah.com

وبحركة خاصة من لسانه أطلق دائرة من الدخان، مثالاً كاملاً لأحلامه في السعادة.

أجواء من الفرح تفرضها الظروف في مثل هذه المناسبات تلت لحظة الدهشة الأولى التي سببّها طلب بيرج. لكن هذا الفرح كان مصطنعاً. كان الأبوان مرتبكين وعلى شيء من الخجل وكأنهما يوبخان نفسيهما على قلة محبتهما لابنتهما ورؤيتهما لها تذهب دون أسف. كان الكونت العجوز أكثر استياءً من زوجه لأن المسألة المادية كانت تؤرقه وإن لم يكن قد أعلن عن شعوره بصراحة. كان يجهل حالته المالية ومجموع ديونه والبائنة التي يستطيع بحكم مركزه المالي أن يمنحها لـڤيرا، لقد خصص لكل من بناته عند ميلادها بائنة قدرها ثلاثمائة عبد. لكن واحدة من قراه المخصصة لهذه الغاية بيعت والثانية رهنت بكل ما فيها. وعلى ذلك لم تعد أملاكه تدخل في حساب التغطية. للتغطية، فكان عليه والحالة هذه اللجوء إلى النقد. ولكن من أين يأتي بالمبالغ النقدية؟

منذ أكثر من شهر، أعلنت خطوبة بيرج وانتظر أن يُحتفل بالزواج في خلال أسبوع. مع ذلك فإن الكونت لم يكن بعد قد قرر شيئاً بصدد البائنة ولا أطلع زوجته على هذه المسألة. كان يزمع أحياناً إقطاع ابنته ڤيرا أملاكه في ريازان وحيناً آخر يفكر في بيع غابة أو استقراض نقود لقاء صكوك نقدية. وقبل الحفلة بأيام معدودة دخل بيرج في الصباح الباكر على الكونت في مكتبه وسأل حماه المقبل باحترام والابتسامة على شفتيه أن يتفضل بإعطائه إحصاء دقيقاً عن بائنة الكونتيسة ڤيرا. وعلى الرغم من توقع الكونت مثل هذا السؤال منذ أمد بعيد إلا أنه ارتبك لدى سماعه ارتباكاً شديداً حتى أنه أجاب غير عامد بأول ما جادت به قريحته.

twitter @baghdad_library

ـ إنني سعيد إذ أراك تشغل نفسك بهذا الموضوع. هذا حسن، حسن جداً. لن يكون في الأمر ما يستدعي التذمر.

ونهض بعد أن ربت كتف بيرج وكأنه يضع حداً للمحادثة، لكن بيرج الذي بقي محتفظاً بابتسامته الوديعة، أعلن أنه إذا لم يعرف قيمة البائنة على الضبط ولم يقبض منها جزءاً أقله سلفاً فإنه سيضطر إلى سحب طلبه.

ـ إنك تعرف يا كونت أنني إذا تزوجت دون أن أطمئن إلى قدرتي على إعالة زوجتي وتوفير طلباتها فلن يكون تصرفي شريفاً.

ولكي يبرهن الكونت على كرمه ويقطع الطرق في وجهه طلبات جديدة وعد بتقديم صك معتمد بقيمة ثمانين ألف روبل. فطافت بشفتي بيرج ابتسامة حانية وقبّل كتف الكونت معلناً له عظيم شكره مؤكداً أنه لا يستطيع البدء بإنشاء كيان أسرته دون أن يقبض ثلاثين ألف روبل بالعملة الدارجة ثم صحح طلبه قائلاً: أو أقله عشرين ألف روبل يا كونت. وفي هذه الحال لن تكون قيمة الصك المعتمد أكثر من ستين ألف روبل.

فوافق الكونت على الفور قائلاً: نعم، نعم. ولكن اعذرني يا صديقي. سوف تقبض عشرين ألف روبل نقداً ويبقى الصك المعتمد بقيمة ثمانين ألف روبل، هيا قبلني.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

في العام ١٨٠٩، بلغت ناتاشا السادسة عشرة من عمرها، وهو العام الذي حددته لبوريس وهي تعد على أصابعها قبل أربعة أعوام عندما قبلها. ومذذاك لم تره مرة واحدة. فإذا جاء ذكره أمام سونيا وأمه، كانت تقول بكل طلاقة إن كل هذه القصص القديمة لم تكن إلا صبيانيات نسيت منذ زمن بعيد. لكنها تتساءل في أعماق نفسها في شيء من القلق عما إذا كان عهدها لبوريس مجرد دعابة أو وعداً جدياً.

لم يطأ بوريس منزل آل روستوف منذ التحاقه بالجيش عام ١٨٠٥ مع ذلك فقد حل مراراً في موسكو ومر على مقربة من أوترادنوي دون أن يعرج عليها. وكانت ناتاشا تتصور أحياناً أنه لا يرغب في رؤيتها وتدعم هذا الاعتقاد في نفسها اللهجة الحزينة التي يتحدث بها المسنون في الأسرة كلما تطرقوا إلى ذكر الشاب.

كانت الكونتيسة تقول إذا نُوّه أمامها بذكر بوريس. أصبح الناس في عصرنا هذا ينسون أصدقاءهم القدامى.

وكانت أنا ميخاييلوفنا التي أصبحت قليلة التردد إلى العائلة تحتفظ بعلاقات محدودة معها، تطري بحماسة ملحوظة مواهب بوريس ونجاحه اللامع كلما ورد ذكره في حضرتها.

وعندما استقر آل روستوف في بيترسبورغ، ذهب بوريس لزيارتهم وهو

twitter @baghdad_library

يشعر بالاضطراب. كانت ناتاشا ذكراه الأكثر شاعرية وعذوبة وكان مزمعاً إفهامها وذويها أن علاقة طفولتهما يجب ألّا تجر وراءها أية ارتباطات بالنسبة إليه. فصداقته الوثيقة مع الكونتيسة بيزوخوف أتاحت له مركزاً مرموقاً في المجتمع وحماية الشخصية المتنفذة التي كان يتمتع بثقتها المطلقة تؤمن له مستقبلاً لامعاً. فكان بإمكانه الآن أن يغذي في نفسه في غير زهو مشاريع زواج من أغنى فتيات أسر بيترسبورغ.

كانت ناتاشا في غرفتها عندما دخل بوريس قاعة استقبال آل روستوف. وما إن علمت بقدومه حتى احمرّ وجهها وأسرعت مشرقة الوجه بابتسامة فيها أكثر من معنى الود. وكان بوريس يحتفظ بذكرى بنية في أثواب قصيرة ذات عينين سوداوين لامعتين تحت خصلات من الشعر المتمرد وضحكة مجنونة، فلمّا رأى ناتاشا الأخرى تدخل القاعة اضطرب وفضحت وجهه دهشة أسعدت الفتاة.

قالت له الكونتيسة: كيف، ألم تعد تعرف صديقتك الصغيرة الشيطانية؟

قبّل بوريس يد ناتاشا وأعلن دهشته للتغيير الذي طرأ عليها.

ـ كم ازددت جمالاً!

فأجابت عينا ناتاشا: «إنني أعتقد ذلك»! بينما قال لسانها: وأبي هل شاخ؟

جلست وراحت تراقب بصمت خطيب طفولتها في أدق حركاته دون أن تشترك في الحديث الدائر بينه وبين الكونتيسة. أما بوريس فكان يشعر بثقل تلك النظرة الودية فيكاد من حين إلى آخر يتورط في إجابتها بمثلها. لاحظت ناتاشا أن ثوب بوريس ومهمازيه وربطة عنقه وطريقة ترجيل شعره مطبوعة كلها بطابع الذوق المرهف والـ«كما يجب». كان جالساً على ثلاثة أرباع مقعد

www.Maktbah.com

إلى جانب الكونتيسة يسوي بيده اليمنى القفاز الأنيق الذي يضم يده اليسرى. فكان حيناً يسرد وهو يمرر شفتيه بحركة مفضلة، مسرات الطبقة الراقية في بيترسبورغ ويستعيد حيناً آخر في سخرية خفيفة ذكريات موسكو وعندما كان يدخل في كل خبر من أخبار الطبقة الراقية عن حضور سفير ما إلى حفلة راقصة أو عن الدعوات التي تلقاها من «ن.ن.» أو من «س.س.» كانت ناتاشا تشعر أن قوله هذا بعيد عن الخفة.

كانت تراقبه خلسة وهي صامتة. ولما أقلقت تلك النظرة بوريس، توقف فجأة عن متابعة الحديث والتفت إليها في مزيد من الإلحاح. ولم تمض عشر دقائق حتى نهض واستأذن منصرفاً تشيعه تانك العينان المتطلعتان نصف المتحديتين ونصف الساخرتين تحصيان عليه حركاته.

بعد هذه الزيارة الأولى، اعترف بوريس، بأنه لا يزال يجد ناتاشا جذابة كما في السابق. لكنه اعترف في الوقت نفسه بأنه يجب ألّا يستسلم لذلك الميل: إذ إن الزواج من فتاة شبه مفلسة يهدم كل مشاريعه المقبلة. بينما العودة إلى توثيق الصلات السابقة دون مقصد جدي تعتبر عملاً غير شريف. لذلك قرر البقاء في معزل. لكنه رغم هذا القرار الرائع، عاد لزيارة آل روستوف بعد أيام قليلة ثم كرر زياراته حتى انتهى به الأمر إلى قضاء أيام كاملة عندهم.

كان يؤمن أن من واجبه التفاهم بصراحة مع ناتاشا وإبلاغها بوجوب نسيان الماضي لأنها لا يمكن، برغم كل شيء، أن تصبح زوجته وهو الذي لا مال لديه، أضف إلى ذلك أنهم لن يوافقوا مطلقاً على تزويجها به. لكنه لم يكن يعرف كيف يتصرف بل كان يزداد كل يوم تدلهاً. وبدت ناتاشا من جانبها ـ كما لاحظت أمها وسونيا تعود إلى غرامها السابق ببوريس! كانت تغني له الأغنيات التي يفضلها وتطلب إليه أن يكتب شيئاً في مجموعتها وتمنعه من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التفكير في الماضي ملمحة إلى أن الحاضر أفضل منه وأحسن. وفي كل يوم كان بوريس يخرج من عندها كالمسحور دون أن يطرق التفاهم العتيد ودون أن يدري لماذا جاء وكيف سينتهي كل ذلك. ولقد ظلت هيلين التي لم يعد بوريس يظهر في حفلاتها تسأل عنه يومياً وتمطره وابلاً من بطاقاتها المليئة باللوم دون أن يمنعه ذلك من قضاء أيامه عند آل روستوف».

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

عندما ارتفع صرير الباب وبدت ناتاشا في ثياب النوم ثم اندفعت إلى غرفتها، كانت الكونتيسة العجوز تعتمر قلنسوة الليل وترتدي جلباب النوم القصير تصلّي. وكانت الكونتيسة قد نزعت شعرها المستعار وعصبت شعرها الطبيعي بقطعة قماش قطني لم تظهر منه إلا خصلة صغيرة. أما ناتاشا فكانت تلف شعرها بغطاء خاص وتلبس في قدميها خفاً منزلياً. التفتت الكونتيسة وقطبت حاجبيها بينما أكملت صلاتها: «هل سيصبح فراشي هذا تابوتي حقاً»، عندما رأت ناتاشا أمها مستغرقة في الصلاة توقفت في مكانها محمرة الوجه منتعشة الأسارير وجلست القرفصاء وهي تظهر طرف لسانها وكأنها ضُبطت مرتكبة خطيئة. وبينما استرسلت أمها في صلاتها أسرعت نحو السرير ونزعت خفيها ثم قفزت فوق ذلك الفراش الذي كانت الأم تشك في أن يصبح تابوتها. وكان المرقد عبارة عن سرير من الريش وضعت عليه خمس وسائد بين صغيرة وكبيرة.

دفنت ناتاشا نفسها بين تلك الوسائد وتدحرجت حتى استقرت في الفراغ وربضت تحت الغطاء تضحك ضحكة مكتومة وترتج وتتحرك وتلاعب ساقيها تارة وترفع ركبتيها إلى أسفل ذقنها تارة أخرى، تخفي رأسها تارة وتختلس النظر إلى وجه أمها تارة أخرى. وعندما انتهت هذه من أدعيتها اقتربت من السرير بصرامة. ولكنها ما إن رأت ناتاشا تخفي رأسها تحت الأغطية حتى شعت الابتسامة على وجهها وقالت: هيا، هيا!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سألت البنت: أماه، هل نستطيع التحدث معاً؟ نعم، أليس كذلك؟... هيا قبليني في عنقي، قبلة أخرى، هل تريدين؟ حسناً إن هذا جيد.

طوقت الكونتيسة وقبلتها أسفل ذقنها. لقد كان لها مع أمها أساليب عنيفة ولكن على جانب كبير من المهارة. فإذا أخذتها بين ذراعيها، كانت تتدبر الأمر دائماً بحيث تكون مداعباتها لا قاسية ولا مزعجة.

قالت الكونتيسة وهي متكئة على وسائدها ويداها فوق الشراشف ووجهها رزين، تطلب من ابنتها، بعد أن تدحرجت مرتين حول نفسها، الاستقرار بجانبها تحت لحاف واحد: حسناً، ماذا لديك اليوم؟

قبل عودة الكونت من النادي، كانت زيارات ناتاشا الليلية لأمها إحدى المتع الكبيرة لدى الأم والفتاة على السواء. كررت الكونتيسة: ماذا لديك اليوم؟ لقد كنت مصرّة على التحدث إليك بدوري...

وضعت ناتاشا يدها على فمها وقالت بلهجة جدية:

ـ عن بوريس... نعم، إنني أعرف. ولقد جئت من أجل ذلك. لا تقولي شيئاً، أعرف...

ثم رفعت يدها وتابعت: بل تكلمي، إنه لطيف أليس كذلك؟

ـ ناتاشا، عمرك الآن ستة عشر عاماً. وأنا كنت متزوجة عندما كنت في مثل سنك. تقولين إن بوريس لطيف... نعم، إنه لكذلك، وإنني أحبه كما أحب ولدي. ولكن ما هي مراميك؟ لقد سلبت عقله تماماً، إنني أرى ذلك بوضوح...

استدارت الكونتيسة نحو ابنتها. كانت ناتاشا شاخصة بأنظارها إلى واحد من أهرامات خشب الكابلي المحفورة في زوايا السرير وهي جامدة بأنظارها حتى أن أمها لم تستطع رؤية وجهها إلا رؤية جانبية. ومع ذلك فإن أمارات الوجه الجدية المركزة لم تدهش الكونتيسة.

www.Maktbah.com

قالت ناتاشا بعد فترة وجوم: حسناً، وبعد؟

ـ لقد سلبت لبه تماماً ولكن إلى أين يبلغ بك الأمر؟ ما هي غاياتك؟ أنت تعرفين تماماً تعذر زواجك به.

سألت ناتاشا وهي جامدة: ولمَ يالله؟

ـ لأنه لا يزال يافعاً ولأنه فقير ولأنه قريبك... وأخيراً لأنك لا تحبينه.

ـ وماذا يدريك؟

ـ إنني أعرف ذلك. وهو ليس بالأمر الحسن يا عزيزتي.

ـ لكنني إذا كنت أريد...

ـ لا تتفوهي بالسخافات.

ـ لكنني إذا كنت أريد...

ـ ناتاشا، إنني أكلمك جدياً...

ولم تدعها تكمل حديثها، جذبت ناتاشا يد الكونتيسة الضخمة إليها فقبلتها في ظهرها ثم في باطنها ثم أدارتها من جديد وطبعت قبلة فوق مفصل إصبعها ثم فوق الفراغ الذي يليه ثم فوق مفصل الإصبع الأخرى وهي تعد:

ـ كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان، أيار... هيا تحدثي يا أماه، لم لا تتكلمين؟ تحدثي...

ونظرت إلى أمها بعين مستوضحة فرأتها تسرّح فيها نظرة حانية وكأنها نسيت في تأملها ذاك كل ما كانت تريد أن تقوله:

ـ هذا غير مناسب يا عزيزتي. ليس كل الناس على علم بزمالتكما أيام الطفولة، والألفة التي تظهرينها له اليوم يمكن أن تكون ذات ضرر بالنسبة إليك بين الشبان الآخرين الذين يرتادون بيتنا. ثم إنها عذاب بالنسبة إليه. لعله يجد أسرة غنية تناسبه. وها إنك الآن تسلبينه عقله.

أجابت ناتاشا: حقاً؟

twitter @baghdad_library

ـ أستطيع أن أخاطبك عن علم. لقد كان لي ابن عم...

ـ آه! نعم، سيريل ماتـﭬييتش. لكنه كهل...

ـ لم يكن كهلاً منذ ولادته. على ذلك يا ناتاشا، سوف أتحدث إلى بوريس. يجب ألّا يزورنا بمثل هذه المثابرة...

ولـمَ تحدثينه إذا كان هذا يروقه؟

لأنني أعرف أن هذا لن يصل به إلى النتيجة...

قالت ناتاشا بلهجة من يُسلب ملكه.

ـ وماذا يدريك؟ كلا يا أماه، لا تقولي له شيئاً... يا لها من حماقات لن أتزوجه، ليكن! ولكن لمَ لا يثابر على المجيء إلى هنا ما دام ذلك يروّح عنا كلينا؟ إنني لن أتزوجه، لكننا سنحب بعضنا «وهكذا».

وانسابت نحو أمها مبتسمة: كيف، «هكذا»!

ـ نعم، «هكذا». إن الزواج لا يهمني... وإذن «هكذا».

كررت الكونتيسة بينما راح جسدها الضخم يهتز بشدة جراء ضحكة عميقة: هكذا، هكذا.

صاحت ناتاشا: لا تضحكي بهذه القوة، إنك تزلزلين السرير... إنك تشبهينني شبهاً مدهشاً، إنك ضحاكة مثلي...

وأمسكت بيدها وأخذت تعدّ وهي تطبع قبلة على مفصل الإصبع الصغيرة:

ـ حزيران.

ثم انتقلت إلى اليد الأخرى واسترسلت: «تموز، آب...» أماه هل يحبني كثيراً؟ ما رأيك فيه؟ هل أحبوك بمثل هذا القدر؟ نعم، إنه لطيف، لطيف جداً جداً.. لكنه لا يروقني تماماً إنني أراه على شيء من الهزال.. أشبه بصندوق ساعة الجدار... إنه أشهب، ناصع.

ـ ما هذا اللغو!

ـ كيف، ألا تفهمينني؟... يفهمني نيكولا، هو... بيزوخوف مثلاً أزرق مشبع مموّه بالأحمر ثم إنه مربع كذلك.

قالت الكونتيسة ضاحكة: يخيل إلي أنك تتطرفين مع هذا أيضاً.

مطلقاً.. لقد علمت أنه من الإخوان الماسونيين... إنه فتى طيب، أزرق مشبع مموه بالحمرة... كيف أفسر لك هذا؟...

وارتفع صوت الكونت من وراء الباب: ألست نائمة بعد أيتها الكونتيسة الصغيرة؟

قفزت ناتاشا إلى أسفل السرير وأمسكت بخفيها ثم فرت حافية القدمين. بقيت تتقلب على فراشها فترة طويلة. كان تفكر في أن ما من أحد يفهم كل ما يخيل إليها أنه شديد الوضوح وما يعتلج في أعماق نفسها.

حدثت نفسها وهي تنظر إلى القطة الصغيرة النائمة على شكل دائرة لا يظهر منها إلا الضفيرة الضخمة: «سونيا؟ أوه، كلا! إنها شديدة التعلق بالفضيلة. إنها تحب نيكولا «ها» ولا تريد التطلع إلى شيء آخر. إن أمي هي الأخرى لا تفهمني. رباه، كم أنا ذكية إذن!...

وتابعت تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب المفرد وكأن الحديث صادر عن فم إنسان من الجنس الآخر يظهر لها كل مزايا جنسها الكاملة: «إن ناتاشا هذه لفتنة رائعة حقاً! إن لديها كل شيء، كل شيء لها وحدها. إنها ذكية ولطيفة وجميلة... إنها تسبح وتركب الخيل بمهارة وتغني غناء ساحراً... نعم يمكن القول بأنه غناء ساحر»!

ودندنت أحد أنغامها المفضلة، جملة مستعارة من أوبرا شيروپيني[1]

(١) موسيقي إيطالي من فلورنسا، مدير كونسرڤتوار باريس. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وارتمت على سريرها وهي تضحك للفكرة التي جاءتها من أنها ستنام فوراً، فنادت دونياشا لتطفئ الشمعة. ولم تكد هذه تخرج من الغرفة حتى كانت ناتاشا تحلق في دنيا الأحلام، دنيا أكثر سعادة من هذه، حيث كل شيء فيها جميل وسهل وهو أفضل منها لأنه يختلف عنها.

استدعت الكونتيسة في اليوم التالي، بوريس وتحدثت معه. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد بوريس يرى عند آل روستوف.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

أقيمت ليلة إحياء عند أحد كبار الشخصيات المتبقين من عهد كاترين، في الواحد والثلاثين من كانون الأول، ليلة بداية سنة ١٨١٠، وكان الأمبراطور والسلك الدبلوماسي كله سيحضرها.

كان قصر ذلك السيد العظيم، درة «رصيف الإنكليز»، يشع بألوف المصابيح، وقد فرشت أمام المدخل المنار بوفرة، سجادة حمراء ثمينة، وأقام رجال الدرك من أجسادهم حاجزاً تحت إشراف مدير الشرطة وعشرات الضباط لمنع ازدحام المتفرجين. وبدأت العربات التي يواكبها وُصفاء وتابعون بأثوابهم الحمراء وقبعاتهم المريّشة، تجيء وتروح دون انقطاع، حاملة سادة بثيابهم الرسمية تزين صدورهم الأوسمة وسيدات متدثرات بفراء السمور الأبيض، غارقات في الحرير، يهزلن في حذر على المواطئ المنزلة بصخب وينزلقن رشيقات فوق سجادة المدخل.

وكلما وصلت عربة، سرت تمتمة بين الحشود وارتفعت القبعات وتبودلت العبارات: أهو الأمبراطور؟... كلا، بل وزير... أمير... سفير... ألا ترى الريش؟...

كان أحد البلهاء، وهو أفضل من غيره لباساً، يبدو وكأنه يعرف كل الناس، ويميز كلاً من كبار ذوي المناصب في ذلك العهد باسمه.

وبعد أن وصل ثلث المدعوين إلى مكان الاحتفال، لم يكن آل روستوف، وقد وجهت إليهم الدعوة لحضور تلك الحفلة الراقصة أيضاً، قد انتهوا من

twitter @baghdad_library

زينة الشعر بعد. لقد أثارت تلك الحفلة عندهم كثيراً من الثرثرة والاستعداد بل من المخاوف أيضاً: ترى هل توجه إليهم الدعوة؟ هل تكون أزياؤهم جاهزة؟ هل ينتهي كل شيء كما يتمنون؟

كانت ماري إينياتييغنا پيرونسكي، وهي سيدة هزيلة صفراء وصيفة شرف سابقة في البلاط وصديقة وقريبة للكونتيسة، قد وعدت بمرافقة هؤلاء الإقليميين، آل روستوف، لتكون لهم بمثابة الدليل في الأوساط الراقية في پيترسبورغ، وكان على هؤلاء أن يمروا بمنزلها لاصطحابها، في الساعة العاشرة. ويقع منزلها في «غاردان توريد» وهو مقر الأمبراطورة الأم. وكانت الساعة قد أشرفت على العاشرة إلا خمس دقائق والفتيات لم يرتدين ثيابهن بعد.

بالنسبة إلى ناتاشا، كانت هذه أول حفلة راقصة كبرى في حياتها. استيقظت في الثامنة صباحاً وأمضت نهاراً في اضطراب شديد بذلت كل قواها طوال النهار، لتكون أمها وسونيا وهي على أحسن هندام ممكن. ولقد استسلمت لها الكونتيسة وسونيا بشكل مطلق، تقرر أن ترتدي الكونتيسة ثوباً من المخمل بينما ترتدي الفتاتان أثواباً بيضاء هفهافة فوق «أجفن» من الحرير الوردي وأن تزين الورود خصريهما، بينما يصفف شعر ثلاثتهن على الطريقة اليونانية.

أجريت الترتيبات واتخذت الاستعدادات الجوهرية. فالأذرع والأرجل والأعناق والوجوه والآذان، غسلت كلها بعناية وضمّخت بالعطور ونثرت فوقه الذرور بما يتفق وحفلة راقصة ولبست الجوارب الحريرية الجديدة والأحذية المصنوعة من الساتان، وانتهت إعدادات زينة الرأس تقريباً.

كانت سونيا على وشك الفراغ من زينتها العامة والكونتيسة كذلك. لكن ناتاشا، لكثرة ما تشاغلت في زينة الأخريات، تأخرت في إعداد زينتها، كانت

www.Maktbah.com

حينذاك لا تزال جالسة أمام مرآتها تدثر كتفيها النحيلتين بمئزر، وفي وسط الغرفة، وقفت سونيا تغرز دبوساً في شريط لتثبته في مكانه فامتنع وبلغ بها الضغط مبلغ إيلام إصبعها.

قالت ناتاشا وهي تستدير ممسكة بشعرها بين يديها قبل أن تجد الوصيفة وقتاً للتخلي عنه: ليس على هذا النحو يا سونيا. العقدة ليست هكذا. تعالي.

وجلست سونيا قريباً منها فغيرت ناتاشا وضع الشريط. وقالت الوصيفة وهي لا تزال ممسكة بشعرها: أعذريني يا آنسة، لا سبيل أبداً...

ـ آه! يا رب. تستطيعين الانتظار قليلاً... هكذا يا سونيا، لقد استقام الأمر الآن.

وتدخّلت الكونتيسة هل انتهيتما؟ تكاد الساعة تدقّ عشراً.

فوراً، فوراً. وأنت يا أماه، هل أنت جاهزة؟

ـ لم يبق علي إلا وضع قلنسوتي.

صاحت ناتاشا: لا تضعيها بدوني. لن تحسني وضعها!

ـ ولكن الساعة قد بلغت العاشرة.

كان مقرراً أن يصل ركبهم إلى مكان الحفلة في العاشرة والنصف، مع ذلك لم تكن ناتاشا قد ارتدت ثيابها بعد، ثم كان عليهم المرور بقصر «التوريد» لاصطحاب قريبتهم.

انتهت ناتاشا أخيراً من شعرها فأسرعت مزملة بثوب داخلي لأمها فوق «تنورة» قصيرة تظهر تحتها أحذية الرقص، تفحص سونيا ثم انتقلت منها إلى الكونتيسة. أدارت لها رأسها وأثبتت قلنسوتها بدبوس وطبعت قبلة فوق شعرها الأشيب وعادت تجري نحو الوصيفات اللاتي كن يسوين ثوبها.

كان عليهن تقصير ذلك الثوب الذي كان أطول من اللازم، ووصيفتان

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تعملان فيه بنشاط وتقطعان الخيوط بأسنانهما بينما راحت ثالثة وبين شفتيها كمية من الدبابيس، تتنقّل من الكونتيسة إلى سونيا، ورابعة تحمل فوق ذراعها الثوب الهفهاف الخارجي.

ـ ماڤروشا، عجلي يا عزيزتي.

ـ ناوليني القمع يا آنسة، هل تريدين؟

ظهر الكونت على عتبة الباب وقال:

ـ هل ستنتهين قريباً؟ هاكم العطور. لا شك أن الآنسة پيرونسكي تترقب وصولنا.

قالت الوصيفة وهي ترفع على إصبعين الثوب الهفهاف ثم تنفتح عليه وتنفضه لتبين خفته الفائقة: لقد انتهيت يا آنسة.

بدأت ناتاشا ترتديه. وصاحت بأبيها الذي وارب الباب:

ـ لحظة واحدة، لحظة واحدة. لا تدخل يا أبي.

كان صوتها ينبعث خلال السحابة الحريرية التي تخفي وجهها. دفعت سونيا الباب بعنف، وبعد دقيقة، سمح للكونت بالدخول فدخل معطراً في ثوب أزرق وجوربين حريريين وخفين رشيقين.

هتفت ناتاشا وهي منتصبة وسط الغرفة تسوي ثنيات ثوبها: آه! أبتاه، إنك جميل جداً!

قالت إحدى الوصيفات، وهي راكعة تجذب ذيول الثوب بينما تنتقل الدبابيس من زاوية فمها اليمنى إلى الزاوية اليسرى:

ـ اسمحي لي يا آنسة، اسمحي لي.

وأجابت سونيا على قولها في يأس: قولي ما تريدين ولكنني أؤكد لك أنه ما زال طويلاً!

ذهبت ناتاشا تعاين نفسها في المرآة الكبيرة. رأت أن الثوب طويل فعلاً!

www.Maktbah.com

اعترضت ماڤروشا وهي تتبع سيدتها على أربع: أبداً. إنه مناسب تماماً هكذا يا آنسة.

وقالت دونياشا بلهجة حازمة: إذا كان لا يزال طويلاً، فإن تقصيره لن يستغرق أكثرمن دقيقة.

وتناولت إبرة كانت مغروسة في منديلها وراحت تعمل بلهفة. وفي تلك اللحظة، دخلت الكونتيسة بقلنسوتها وثوبها المخملي واقتربت بخطوات صغيرة.

صاح الكونت: أوه! أوه! كم هي جميلة.

وهمّ يقبلها، لكنها أبعدته عنها محمرة الوجه خشية أن يفسد زينتها، قالت ناتاشا: أميلي القلنسوة أكثر من ذلك يا أماه. انتظري سوف أسويها بنفسي.

واندفعت فجأة وبعنف حتى إن الوصيفات اللاتي كن يخطن ذيل الثوب لم يجدن متسعاً من الوقت ليتبعنها، فاقتطعت أيديهن جانباً صغيراً من قماش الثوب.

ـ آه! رباه! ماذا بعد؟ إنني لست مسؤولة أبداً...

أكدت دونياشا: سوف أخيطه ولن يراه أحد.

قالت المربية وهي تدخل الغرفة: آه يا جميلتي، يا ملكتي الصغيرة! وسونيا! آه يا جميلاتي:

وأخيراً، احتوتهم العربة في العاشرة والربع وسار الركب. ولكن كان عليهم الذهاب إلى «غاردان توريد».

كانت الآنسة بيرونسكي جاهزة. وعلى الرغم من بشاعتها وتقدمها في السن فإنِ مثل الهرج الذي جرى عند آل روستوف تكرر وقوعه عندها ولكن باندفاع أقل، بفضل ممارستها الطويلة لهذا النوع من الحياة. كانت شخصيتها المنفرة، معطرة كلها ومدهنة ووجهها الهرم مجملاً حتى وراء الأذنين بل إن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وصيفتها العجوز هللت لدى رؤية سيدتها تدخل إلى القاعة في ثوبها الأصفر الموشّى بشعار الأمبراطورة. تفضلت بالموافقة على زينة آل روستوف فراح هؤلاء في المقابل، يطرون ذوقها الرفيع في اختيار زينتها وانتقاء حليها. وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة، تحرك ركب السيدات وصعدت السيدات إلى العربات وهن يولين أثوابهن وشعورهن عناية بالغة.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

تمثّلت ناتاشا نفسها، لأول مرة، عندما لفح وجهها هواء الليل الرطب واحتوتها العربة الضيقة في عتمتها المطبقة، وقد كانت طوال ذلك النهار منصرفة إلى مشاغلها الكثيرة حتى إنها لم تجد وقتاً للتفكير في ما ينتظرها.

وتمثلت نفسها في القاعات المشعة وفي غمرة الموسيقى وغمار الزهور والرقصات والأمبراطور زهرة شباب پيترسبورغ المعروفين. كان ما ينتظرها رائعاً متناقضاً كلياً مع شعورها بالبرد والارتباك حتى إنها ما كانت تستطيع تصديق الواقع المنتظر. لم تؤمن إلا في اللحظة التي مرت بها فوق سجادة المدخل الحمراء ودخلت القاعة حيث نزعت فروتها وتقدمت مع سونيا تسبقان أمهما تتسلقان السلم العريض المشع بالأضواء والمزين بالزهور وحينئذ فقط تذكرت الطابع الذي قررت اتخاذه خلال الحفلة الراقصة، وهو طابع وقور يتلاءم، حسب أفكارها، مع كل فتاة شابة في مثل هذه المناسبة. عنيت من فورها باتخاذ تلك الأمارات. لكنها شعرت أن عينيها تترجرجان: لم تعد ترى شيئاً بوضوح وأخذ نبضها يضرب بعنف وقلبها يخفق. فلم تستطع اتخاذ السمة المقررة التي لو اتخذتها لجعلت منها أضحوكة. تقدمت إذن يغشيها الاضطراب لا تكاد تستر بلبالها والحقيقة أنها لم يكن ممكناً لها أن تجد اتزاناً. أما آل روستوف فقد غمرهم فيض المدعوين وكلهم مثلهم في ثياب الحفلة يتحدثون بصوت خفيض. وكانت مرايا السلم تعكس صور

twitter @baghdad_library

السيدات في أثوابهن البيضاء والزرقاء والوردية وسنا اللآلئ والماسات فوق أكتافهن وأذرعهن العالية.

راحت ناتاشا تختلس النظر إلى المرايا دون أن تستطيع تمييز نفسها من الأخريات: كن جميعاً مختلطات في عرض مشرق بهي. وعندما دخلت القاعة الأولى أصمها ضجيج الأصوات والخطوات والتهاني المتبادلة، وأعماها إشعاع الأضواء وروعة الأثاث. استقبل أصحاب القصر الذين لم يفتأوا منذ نصف ساعة يرددون وهم وقوف عند المدخل عبارتهم الدائمة لكل زائر جديد: «يسعدنا أن نراكم»، آل روستوف والآنسة پيرونسكي بهذه العبارة بالذات.

دخلت الفتاتان في ثيابهما البيضاء متشابهتين حتى بالورود التي تزين شعرهما الأسود، وانحنتا باحترام انحناءة واحدة. لكن نظرة ربة البيت توقفت عند ناتاشا الهيفاء أكثر مما هي عادتها وخصتها بابتسامة مختلفة عن ابتسامة الترحيب التي كانت تزجيها للضيوف، لا شك أنها استعادت بعيني خيالها حفلتها الراقصة الأولى وأيام شبابها الذهبية التي اختفت وأحياها اليوم ظهور ناتاشا الجميلة. كذلك تبع رب البيت ناتاشا بعينيه وسأل الكونت عن أي الصبيتين ابنته ثم قال وهو يلثم أطراف أصابعه: رائعةَ!

وفي قاعة الرقص، كان المدعوون متجمعين حول باب المدخل بانتظار الأمبراطور. استطاعت الكونتيسة أن تجد لها مكاناً في الصفوف الأولى. وسمعت ناتاشا بعض الأشخاص يتحدثون عنها وأحست أنهم ينظرون إليها. فحدست أنها أعجبتهم فهدأ قلقها واضطرابها.

قالت تحدث نفسها: «هناك من هم مثلنا وهناك من هم أسوأ منا».

وفي هذه الأثناء، بدأت الآنسة پيترونسكي تعدد للكونتيسة أسماء

www.Maktbah.com

الشخصيات البارزة. قالت وهي تشير إلى عجوز فضي الشعر مندمج بين فئة من السيدات يضحكن:

ـ هذا هو وزير هولندا، هنا ذو الشعر الأبيض.

وأضافت وهي تشير إلى هيلين التي كانت خجلة: وهذه ملكة بيترسبورغ، الكونتيسة بيزوخوف.

ـ كم هي جميلة! إنها لا تنقص عن ماري أنتونوڤنا ناريشكين (عشيقة الأمبراطور ألكسندر) جمالاً... انظري كيف يتهافت الشباب والشيوخ حولها كالفراشات. إنها جميلة وذكية... يقال إن الأمير «س» مجنون بها... لكن هاتين الأخريين رغم بشاعتهما محاطتان بلفيف أكبر من الرجال.

وأشارت إلى سيدتين كانتا تخترقان القاعة، أم وبنت ذات جمال مخيف حقاً. استرسلت الآنسة بيرونسكي:

ـ إنها صفقة ملايين وهؤلاء هم المعجبون... انظري هذا هو أخو الكونتيسة بيزوخوف، آناتول كوراغين.

وأشارت إلى فارس جميل من سلاح الحرس كان يخطر أمامهما شامخ الرأس شاخص البصر إلى الأمام. وتابعت: يا له من شاب جميل أليس كذلك؟ يقال إنهم سيزوجونه بكيس الملايين هذا. ثم ها هو ابن عمك دروبيتسكوي هو الآخر يغازلها.

وأجابت عن سؤال طرحته الكونتيسة:

ـ كيف! لكن هذا كولنكور سفير فرنسا بذاته. ألا يشبه الملوك!... إن هؤلاء الفرنسيين لطفاء رغم كل شيء. ما من أحد أكثر ظرفاً منهم في المجتمع.. آه! ها هي ذي أخيراً ماري أنتونوڤنا! كلا بلا شك، لا مثيل لها! ثم يا لبساطة مظهرها! معبودة حقاً... وهذا الفتى الضخم ذو النظارتين، إنه ماسوني دولي، إنه يشبه الدمية القبيحة بجانب زوجته.

twitter @baghdad_library

وأشارت إلى بيزوخوف الذي كانت تقصده بهذا القول.

تقدم پيار يؤرجح جسمه الضخم يشق طريقه وسط الجماعة يومئ برأسه ذات اليمين وذات الشمال بمثل ما يفعل الطفل الغرير عندما يجتاز ساحة أحد المعارض كان يشق طريقه وكأنه يبحث عن بعضهم.

وبسرور بالغ، تأملت ناتاشا وجه تلك «الدمية القبيحة» كما سمته الآنسة پيرونسكي التي تعرفه جيداً. كانت تعرف أن پيار يبحث عنهم وبصورة خاصة عنها: ألم يعدها من قبل بحضور هذه الحفلة الراقصة ليقدم لها راقصين؟

مع ذلك توقف بيزوخوف، قبل أن يصل إليهم، قرب رجل أسمر جميل معتدل القامة في بزة بيضاء كان يتحدث أمام إحدى النوافذ مع رجل مديد القامة تزين صدره الأوسمة التي يتدلى فوقها شريط الوسام الأكبر. ذلك الرجل پولكونسكي الذي بدا لها أنضر شباباً وأوفر جمالاً، قالت ناتاشا:

ـ إليك كذلك يا أماه أحد معارفنا. پولكونسكي. انظري إليه. ألا تذكرين؟ لقد قضى ليلة عندنا في أوترادنواي.

قالت الآنسة بيرونسكي: آه! أتعرفونه؟ إنني لا أطيق رؤيته. إنه اليوم يبعث المطر والصحو كما يقولون. ثم إنه متكبرجداً مثل أبيه. لقد اتحد مع سپيرانسكي وهما الآن يضعان مشاريع لا يعلم بها إلا الله. انظروا إليه كيف يعامل السيدات: وها هي ذي واحدة تحادثه. لو كنت أنا التي أحدثه لعاملته كما يستحق!

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

تقدّم الأمبراطور يوزع التحيات يميناً ويساراً، فعمّ الاضطراب في القاعة الكبيرة وعلا الهمس وتقدم المدعوون، وتبعه أصحاب البيت وسط سياج من الشخصيات، وصدحت الموسيقى، وراح يتعجل الخلاص من هذه المجاملة المملة، ثم عزفت الموسيقى لحن «پولونيز» الذي كان شائعاً في ذلك العصر بسبب الكلمات التي ترافقه.

ألكسندر وأليزابيت

إنكما مبعث نعيمنا...

سار الأمبراطور إلى القاعدة الكبيرة فتزاحم الجمهور على الأبواب، وتسلل بعض ذوي الوجوه المتلونة حسب متطلبات الظرف، إلى القاعة ثم خرجوا منها بعد قليل. وانثنى الجمهور متراجعاً فشوهد الأمبراطور يتحدث مع مضيفته. وأسرع رجل في مقتبل العمر، ذو قسمات مضطربة يتوسل إلى السيدات أن يتنحين. كان بين السيدات من دلت قسمات وجوههن على أنهن لا يأبهن مطلقاً لمتطلبات اللياقة الاجتماعية مع ذلك فقد كن يتهافتن على احتلال الصفوف الأولى. واقترب «الفرسان» من الراقصات وتشكلت الأزواج لمواكبة لحن «الـپولونيز».

وتنحّى أخيراً كل الناس فظهر الأمبراطور مبتسماً ترافقه المضيفة دون أن يعنى بمشية إيقاعية معها، وتبعهما المضيف ترافقه ماري أنتونوڤنا ناريشيكين فالسفراء فالوزراء «فالجنرالات» الذين كانت الآنسة پيرونسكي

twitter @baghdad_library

لا يعيبها تسميتهم. استدعى أكثر من نصف عدد السيدات للدخول في تلك الرقصة وأخذت كل راقصة مكانها مع فارسها. حينئذ تبينت ناتاشا أنها وأمها وسونيا كن في عداد القلة التي كتب لها أن تقف موقف المتفرج. بقيت واقفة في مكانها تتدلى ذراعاها الناحلتان إلى جانبيها وتضطرب حنجرتها التي لم يكتمل نموها بعد، كاتمة أنفاسها حزينة ملتمعة العينين، تنظر أمامها بوجوم، بينما كانت سحنتها القلقة تتلاءم مع انتظار فرحة غير متوقعة بقدر ما تتماشى مع توقع حزن كبير.

لم يكن الأمبراطور ولا الشخصيات الكبيرة التي أشارت إليها الآنسة پيرونسكي يشغلون تفكيرها. لم تكن تفكر إلا في شيء واحد: «حقيقة لن يتقدم أحد لمراقصتي ألن أرقص في عداد الأزواج الأولى؟ ألن أكون مرموقة من هؤلاء السادة الذين يبدون الآن وكأنهم لا يرونني والذين إذا نظروا إليّ بدا عليهم أنهم يحدثون أنفسهم بقولهم: «آه! ليست هي، فلنحول أنظارنا؟ كلا، إن هذا لا يمكن أن يدوم. يجب أن يعلموا بأنني أريد أن أرقص وأنني أرقص رقصاً ساحراً، وأنهم سيجدون متعة في مراقصتي».

بدأت تصل إلى أذني ناتاشا أنغام الـپولونيز التي طال ترديدها، شبيهة بأصوات صاخبة تبعث في نفسها الرغبة في البكاء. وكانت الآنسة پيرونسكي قد ابتعدت عن آل روستوف، والكونت أصبح في الجانب الآخر من القاعة. وبقيت الكونتيسة وسونيا وهي نفسها في أمكنتهن أشبه بالتائهات، وسط ذلك الحشد من الغرباء الذين لا يأبهون لوجودهن. مرّ الأمير أندريه بصحبة سيدة بالقرب منهن دون أن يعرفهن. ومرّ أناتول الجميل بدوره باسماً يتحدث مع مرافقته وألقى على ناتاشا نظرة عابرة كتلك التي ينظر بها المرء إلى ستارة على جدار. وظهر بوريس مرتين لكنه في كل مرة، كان يعنى بأن لا تلتقي أنظاره نظراتهن. جاء بيرج وزوجته، ولم يكونا يرقصان، فانضما إلى العائلة. لكن هذا

www.Maktbah.com

الاجتماع العائلي جرح ناتاشا ألم يكن هناك مكان أفضل من هذا للأحاديث العائلية؟

قاد الأمبراطور مراقصته، أخيراً، بعد أن رقص مرتين أو ثلاث مرات فتوقفت الموسيقى. أسرع مساعد مشدوه إلى السيدات من آل روستوف وسألهن أن يتنحين أكثر من ذلك رغم أنهن كن لصق الجدار. ومن فوق السدة، شرعت الموسيقى تعزف ألحان الـڤالس البطيئة المتناسقة. أجال الأمبراطور في القاعة نظرة باسمة قبل أن يتقدم زوج من الراقصين إلى الحلبة. جاء المساعد المرافق واقترب من الكونتيسة بيزوخوف يطلب مراقصتها. وضعت يدها فوق كتفه دون أن تنظر إليه فطوقها المساعد المرافق وهو ممتلئ بالثقة بنفسه، في عنف غير متعجل وقادته مراقصته منزلقة معه حتى نهاية الحلبة ثم أمسكت بيسراه، أدارته حول نفسه على إيقاع الموسيقى الآخذ بالإسراع، فلم يعد يسمع إلا صوت المهاميز في قدمي الراقص البارع تطن مع الإيقاع بينما أخذ ثوب مراقصته في الخطوات الثلاث يشع وكأنه يلتهب. شعرت ناتاشا وعيناها شاخصتان إلى هذا الثنائي السعيد، أنها على وشك البكاء: لمَ لم تكن هي ترقص هذه الجولة الأولى من هذا الـڤالس؟

كان الأمير أندريه، بثوبه الأبيض الذي يشير إلى رتبة زعيم الفرسان وجوربيه الحريريين وخفيه، واقفاً في الصف الأول وديع النفس لم يكن بعيداً عن آل روستوف. كان البارون فيرهوف يتجاذب وإياه أطراف الحديث حول جلسة مجلس الدولة الأولى التي حدد موعدها غداً. ولما كان أندريه صديقاً حميماً لسپيرانسكي وعضواً في اللجنة التشريعية، فقد كان في وسعه إعطاء البارون معلومات دقيقة حول تلك الجلسة التي فرض إعلانها على أشكال مختلفة متناقضة. لكنه لم يكن يعير البارون وأقواله كبير اهتمام، بل كان ينظر إلى الأمبراطور تارة وإلى الراقصين تارة أخرى، أولئك الراقصين الذين لا

twitter @baghdad_library

يجرؤون رغم ما في نفوسهم من شهوة للرقص، على الدخول إلى الحلبة. وبينما كان يراقب أولئك الراقصين الذين روعهم وجود الأمبراطور، وأولئك الراقصات اللاتي كن يذوين حنيناً إلى تقبل الدعوات، تقدم پيار منه وأمسك بذراعه وقال له: أنت الذي تحب الرقص، هناك الفتاة التي أحميها، روستوف الشابة، ادعها وراقصها إذن.

سأل پولكونسكي: أين هي؟

وقال للبارون معتذراً:

ـ عفوك يا بارون. سوف نتابع حديثنا في مكان آخر، أما في هذه الحفلة فيجب أن نرقص.

تقدم في الاتجاه الذي حدّده پيار وفجأة قفز أمام عينيه وجه ناتاشا اليائس. عرفها فوراً وحدس الشعور الذي يعتلج في نفسها وأدرك أنها مبتدئة، فاقترب من الكونتيسة روستوف باسماً. قالت هذه ووجهها يحمرّ خجلاً:

ـ اسمح لي أن أقدم لك ابنتي.

قال أندريه وهو ينحني بتحية عميقة نقضت كل ما قالته الآنسة پيرونسكي عن خشونته: إننا معارف قدامى ولعل الكونتيسة تذكر ذلك.

وقبل أن ينطق بعبارات دعوته المألوفة، قدم ذراعه ليطوق قوام ناتاشا عارضاً عليها جولة ڤالس. أضاء وجه ناتاشا القلق الذي كان على استعداد للإعراب عن اليأس بقدر الاستعداد للتدليل على الفرح، وأشرقت عليه فجأة تلك الابتسامة الطفولية المليئة بالعرفان.

عبّرت بسمتها التي شعت خلال الدموع الوشيكة عن قول صاحبتها «لقد كنت أنتظرك منذ أمد طويل». بينما أسندت الفتاة يدها إلى كتف الأمير وهي وضاءة الوجه. ودخل زوج الراقصين الثاني إلى حلبة الرقص. كان الأمير من خيرة الراقصين في عصره وبرهنت ناتاشا على أنها ترقص هي الأخرى

www.Maktbah.com

ببراعة. كانت قدماها الصغيرتان في حذاءيهما الحريريين، يدرجان بسرعة وكأنهما يندفعان بحركة كامنة فيهما. وكان وجهها طافحاً بالسعادة. كان عنقها وذراعاها العاريتان إذا قيسا بعنق هيلين وذراعيها، نحيلين وأقل جمالاً. صحيح أن كتفيها لم تنموا بعد، وحنجرتها لم تتكون، لكن هيلين كانت تنوء تحت نيران ألوف النظرات المنصبة على مجموع جسمها، بينما كانت ناتاشا مجرد طفلة عرّي جيدها لأول مرة، تشعر بالخجل لظهورها على هذا النحو لولا ما قيل من وجوب ارتداء هذا الزي توطئة لمجاراة المجتمع.

كان الأمير أندريه يحب الرقص ويريد الخلاص من أحاديث السياسة والمداولات الجدية التي كان يُبهظ بها. ثم إنه تعمد تبديد جو التحفظ الذي أوجده الأمبراطور بحضوره، فقرر الانشغال في الرقص. واختار ناتاشا ليدخل السرور على نفس پيار لأنها كانت أول فتاة جميلة استوقفت ناظريه. لكنه ما إن طوق خصرها النحيل وشعر بها تتحرك قريباً منه، وما إن رآها تبتسم إليه عن مقربة، حتى طغت فتنة الفتاة على روحه وصعدت النشوة إلى رأسه. أحسّ بالشباب والحياة يكتسحان كيانه عندما قاد الفتاة إلى مكانها الأول ووقف معها يراقبان الراقصين وهو مبهور الأنفاس.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

بعد أندريه، جاء بوريس يراقص ناتاشا ثم المساعد المرافق الذي افتتح الرقص وشبان آخرون توافدوا حتى أن ناتاشا لكثرة طالبيها، أعطت سونيا عدداً كبيراً منهم. لم تتوقف عن الرقص طوال تلك الليلة وهي مشرقة الوجه، غير عابئة بما يستوقف الاهتمام ولا مصغية إلى الأحاديث المتداولة. لذلك لم تلاحظ دخول الأمبراطور في حديث طويل مع سفير فرنسا ومخاطبته هذه السيدة بإيناس خاص، ولم تنتبه إلى أن هذا الأمير أو ذاك عمل أو قال كذا وكذا وأن هيلين أحرزت نجاحاً كبيراً وأن شخصية مرموقة تفضلت بتوليتها عناية خاصة. بل إنها لم ترَ الأمبراطور ولم تشعر بمغادرته الحفلة إلا إثر مغادرته القاعة. رقص الأمير أندريه معها إحدى تلك الرقصات المرحة التي سبقت العشاء. ذكرها بلقائهما الأول في ممشى حديقة أوترادنواي، بتلك الليلة المقمرة التي لم يطرق النوم جفنيها خلالها وبالحديث الذي بلغ مسامعه عفواً ساعة كان قرب النافذة. احمرت وجنتاها لتلك الذكرى وحاولت إيجاد العذر لنفسها وكأنها خجلت للإحساسات التي اطلع عليها الأمير عفواً.

ومثل كل الذين نشأوا في المجتمعات الراقية كان الأمير يحب لقاء أشخاص ليس لهم الطابع الاجتماعي المبتذل. كذلك ناتاشا في دهشتها واستغرابها وفي وداعتها وقلة درايتها كما في أخطائها في اللغة الفرنسية. وعليه، أخذ يعاملها برفق ورقة نادرين. جلس بجانبها يحدثها عن أمور عادية جداً ويعجب ببريق نظرتها المرحة وابتسامتها التي تعبر عن سرورها الداخلي

أكثر مما تعبر عن أقوالها. كان يتأمل ظرفها البريء كلما راقصها أو خاصرها راقص آخر. وبينما عادت ناتاشا بعد حركة تصويرية رائعة تخللت الرقصة الخفيفة، مبهورة الأنفاس إلى مكانها، تقدم راقص جديد يطلب مخاصرتها. كادت ترفض لشعورها بالإعياء، لكنها فجأة اتكأت على كتف مراقصها وابتسمت للأمير أندريه.

«كنت أشعر بسرور بالغ لو استرحت وجلست بقربك لأنني متعبة، لكنك ترى كيف يبحثون عني وإنني لشديدة الاغتباط. نعم، إنني سعيدة وأحب كل الناس هذا المساء، ثم إننا متفاهمان تماماً». تلك كانت بعض ما تعبر عنه ابتسامتها إلى جانب أشياء أخرى. وعندما أعادها فارسها إلى مكانها، مشت تجتاز القاعة لتدعو سيدتين للقيام بالصورة الراقصة التالية.

قال أندريه في سره وهو يتابعها بعينيه: «إذا مضت إلى ابنة عمها أولاً ثم إلى السيدة الأخرى، فستكون زوجتي» وجرت ناتاشا إلى ابنة عمها مباشرة. فكر أندريه: «يا للترهات التي تجول أحياناً في خاطرك! على كل حال، إن هذه الصبية لطيفة حتى إنه لن يمضي شهر واحد إلا وتكون قد أُخذت. لا مثيل لها هنا حقاً». تلك كانت اتجاهات الأمير الفكرية عندما عادت ناتاشا تجلس إلى جانبه بعد أن أصلحت وضع الوردة في ثوبها.

انتهت الرقصة المرحة فاقترب الكونت العجوز بثوبه الأزرق من الراقصين، دعا الأمير أندريه إلى زيارتهم وسأل ابنته عما إذا كانت سُرت ذلك المساء. فلم تجب ناتاشا على الفور وتركت ابتسامتها تقول: «كيف يمكن طرح مثل هذا السؤال؟» ثم اعترفت أخيراً: كما لم أُسرّ في حياتي!

ولاحظ الأمير أندريه أن ذراعيها النحيلتين قد تحركتا لتطويق أبيها ثم عادتا تسقطان إلى جانبيها بسرعة. والحقيقة إن ناتاشا لم تشعر قط بمثل هذه

twitter @baghdad_library

البهجة. كانت تتذوق تلك اللحظة من السعادة حيث يشعر المرء أنه مفعم بالطيبة والكمال ولا يؤمن بالسوء ولا بالفقر ولا بالألم.

للمرة الأولى، في هذه الحفلة الراقصة، شعر پيار بألم للمركز الرائع الذي تحتله زوجته في الوسط الراقي. بقي واقفاً قرب إحدى النوافذ كئيباً يقطع جبينه غضن طويل، ينظر خلال نظارتيه دون أن يرى شيئاً.

وبينما كانت ناتاشا تمر بالقرب منه في طريقها إلى غرفة الطعام لتناول العشاء استوقف حزنه انتباهها. وقفت وكلها رغبة في مساعدته وملء قلبه بفيض السعادة التي تغمرها فقالت: كم يرفه المرء عن نفسه هنا يا كونت، أليس كذلك؟

فابتسم پيار، الذي لم يفهم شيئاً من قولها، ابتسامة ساهمة وقال: نعم، إنني سعيد جداً.

فكرت ناتاشا: «كيف يمكن أن يكون المرء حزيناً؟ وخصوصاً پيزوخوف هذا، إنه لطيف جداً وطيّب، كل واحد منهم يحب الآخر، لا يهين أحدهم الآخر، ومن أجل ذلك كانت السعادة عامة».

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

صباح اليوم التالي، لم يقلق الأمير أندريه بشأن حفلة البارحة إلا بذكرى عابرة: «أجل كانت حفلة رائعة... ماذا بعد؟... آه نعم. روستوف الصغيرة... فاتنة جداً، فيها شيء أجهل كنهه، وفيها شيء فريد يزيد في تمييزها من نسائنا الـپيترسبورغيات».

وما إن تناول الشاي حتى عاد إلى العمل، تلك كانت حدود أفكاره. غير أنه لم يشعر أنه على غير ما يرام سواء أكان ذلك بسبب التعب أم الأرق. وهو إحساس كثيراً ما شعر به من قبل وجعله يتذمر من عمله. لذلك فقد سره أن أعلن وصول زائر.

كان الزائر، يدعى پيتسكي، عضواً في لجان متعددة، مواظباً على كل الحلقات، مناصراً متحمساً لسپيرانسكي والإصلاحات، ناقلاً إشاعات مجد في كل العاصمة، ومن أولئك الذين يسيرون في ركاب المجتمع الراقي بآرائه وأفكاره، الأمر الذي يجعله ومن على شاكلته في عداد أشد المتحمسين للأفكار الحديثة. لم يكد الزائر يخلع قبعته حتى راح مسرعاً نحو أندريه يتبسط معه في موضوعات مطولة متصنعاً الاهتمام. صرح بأنه اطلع على تفاصيل عديدة تتعلق بجلسة مجلس الدولة التي افتتحها الأمبراطور، هذا الصباح وتلا فيها خطاباً رائعاً. لقد تحدث الأمبراطور كما لا يحسن التحدث مثله إلا كل عاهل دستوري. لقد قال بكل صراحة: «إن مجلسي الدولة والشيوخ هما «أجزاء» الدولة وإن الحكومة يجب أن ترتكز «على أسس متينة» وليس على

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الارتجال». وقال: إن النظم المالية يجب أن يعاد تنظيمها وكذلك «الموارد العامة». كان پيتسكي يسرد هذه التفاصيل وهو يظهر كلمات معينة ويجيل حوله عينين كبيرتين. وأخيراً خلص إلى القول: نعم، إنه حدث يفتح أفقاً جديداً، أعظم أفق في تاريخنا.

ولدى سماع الأمير هذه القصة عن حفلة الافتتاح التي طالما ترقبها بصبر نافذ أدهشه أن لم يشعر بأية استجابة لهذا الحديث بعد وقوعه وأن يجد في ذلك أمراً أكثر من تافه. أظهر سخرية معادلة لحماسة پيتسكي وطافت في رأسه فكرة: «ماذا يهم پيتسكي ويهمني، بل ماذا يهمنا جميعاً إن راق الأمبراطور التحدث على هذا المنوال في المجلس؟ هل يجعلنا هذا أفضل مما نحن وأكثر سعادة»؟

نزعت تلك الفكرة من رأسه فجأة كل اهتمامه بالإصلاحات التي كانت في طريق التنفيذ. كان عليه أن يتناول العشاء ذلك اليوم بالذات عند سپيرانسكي في «لجنة صغيرة» كما قال له مضيفه عندما دعاه. وكانت فكرة تناول الطعام في حدود عائلية وبين أصدقاء رجل كان شديد الإعجاب به، قد فتنته أكثر مما افتتن من قبل بعلاقاته الودية كلها. لكنه ها هو الآن لا يجد دافعاً للذهاب إلى تلك الحفلة.

دخل باب المسكن الذي يملكه سپيرانسكي في «غاردان دو توريد» في الساعة المحددة. كان ذلك المسكن يمتاز بنظافة الأديرة. وجد أندريه، الذي وصل متأخراً قليلاً، في قاعة الطعام المفروشة بألواح خشبية، كل المدعوين الذين يؤلفون «اللجنة الصغيرة» مجتمعين فيها منذ الساعة الخامسة. ولم يكن هناك من السيدات إلا ابنة الوزير، التي كانت ذات وجه طويل كأبيها، ومربيتها. وكان المدعوون ثلاثة: غرفيس، ومانييتسكي وستوليـپين، سمع أندريه منذ أن دخل الردهة الخارجية صخب أصوات وضحكة مدوية تشبه ضحكة

www.Maktbah.com

الممثلين. وسمع من كان صوته شبيهاً بصوت سپيرانسكي يطيل آهاته ويباعد بينها: ها!... ها!... ها!... بشكل لم ير عليه سپيرانسكي من قبل. أحدثت تلك الضحكة المدوية الصادرة عن رجل الدولة وذلك الفرح الغريب تأثيراً شاذاً في نفس أندريه.

دخل إلى قاعة الطعام فرأى المجتمعين منتظمين حول طاولة شراب ومقبلات موضوعة بين النافذتين. ورأى سپيرانسكي، وعليه شارة الوسام الرفيع فوق سترته الرسمية، والصدارة البيضاء نفسها وربطة العنق البيضاء العالية التي كان يضعهما عند افتتاح جلسة مجلس الدولة العتيد، جالساً قرب الطاولة بوجه مشرق فرحاً. وكان مانييتسكي ملتفتاً إلى رب المنزل الذي كان يصغي إليه ضاحكاً سلفاً مما سيقوله، يروي له أحدوثة، فلما دخل الأمير أندريه، عادت ضحكات عالية جديدة تعلو على صوت المحدث وتخنق كلماته؛ فستوليـپين انطلق يقهقه بصوت أجش وهو يمضغ قطعة من الجبن، أما غرفيس فظل يضحك ضحكته المصفرّة وسپيرانسكي ضحكته الحادة المتقطعة. مد يده السمينة إلى أندريه دون أن يكف عن ضحكته وقال:

ـ يسعدني أن أراك يا أمير.

ثم قطع على مانييتسكي قصته بقوله: ـ لحظة، أضاف يخاطب الأمير أندريه: إن عشاءنا مخصص للسرور لذلك اتفقنا على ألّا نتحدث في الأعمال.

ثم التفت إلى المتحدث اللبق وضحك.

لدى سماعه ضحك سپيرانسكي، ازدادت دهشة أندريه فراح ينظر إليه بخيبة أمل حزينة. هل كان هذا سپيرانسكي فعلاً؟ لقد تبدد كل ما كان يظنه فيه من غموض فتان وسحر، فلم يعد يحس بشيء يربطه إليه.

وخلال فترة العشاء كلها، استمرت الدعابات النارية تطوف بالمدعوين. كان مانييتسكي إذا فرغ من فكاهته أو كاد، انبرى آخر يروي فكاهة أخرى أشد

twitter @baghdad_library

منها إضحاكاً. وكانت هذه الدعابات، وإن كانت لا تدور على الإدارة بمعناها الصحيح، تمس الأشخاص الإداريين عن قرب، حتى ليقال إن تفاهة ملاك الإدارة لدى هؤلاء المجتمعين لم يكن يستوجب منهم إلا لوناً من الرحمة والتسامح الساخرين. قص على ضيوفه أنه بينما كان يُؤخذ رأي أحد كبار الموظفين المصاب بطرَش في أذنيه الذي كان حاضراً في افتتاح مجلس الدولة ذلك الصباح، أجاب هذا أنه موافق على الرأي دون أن يعرف كنهه، فبدأ غيرفيس يقص بصورة مطولة حادثة تفتيش بالغة في السخف الذي يطبعها بطابع مضحك يشمل أبطالها. أما ستوليـپين، فراح يهاجم بشدة، وهو يتأتىء، مفاسد العهد الفائت، الأمر الذي أعطى البحث صيغة جدية. سخر مانييتسكي من حماسة المتكلم الأخير وبرز غرفيس بدعابة تليق بالمقام، فعاد الحديث إلى صبغته المجونية الأولى.

وطبيعي أن يحب سپيرانسكي الترفيه عن نفسه من وطأة أعماله في حلقة من الأصدقاء. وأدرك أصدقاؤه، وهم مدعووه، رغبته فأخذوا يسعون إلى الترفيه عنه بتسليته وتسلية أنفسهم في الوقت نفسه. لكن ذلك الجذل بدا للأمير أندريه مغتصباً. أزعجته نبرة صوت سپيرانسكي الحادة. فقد بدت له ضحكة هذا الرجل الطويلة متكلفة أحدثت جرحاً في أدق مشاعره. ولما كان وحده بينهم محتفظاً برزانته، فقد خشي أن يعتبر متطفلاً. لكن ما من أحد لاحظ أنه لم يكن متهللاً مثلهم. بدا كل الموجودين في قمة الغبطة.

حاول أندريه أن يتدخل عدة مرات في الحديث الدائر. لكنه في كل مرة كان يلاحظ أن أقواله تنبذ كما تنبذ الماء قطعة «الفلين» وأخفق في مجاراتهم بأسلوب حديثهم. لم يكن في تلك الدعابات شيء يتنافى مع مقام الأشخاص وقواعد الأدب، فقد كانت كلها منتقاة تدل على بديهة ودقة فكرية مثيرة

www.Maktbah.com

للضحك. لكنها مع ذلك كانت تفتقر إلى ذلك الشيء الخفي الذي يجعلها بهيجة، لذلك ظلت وكأنها لم تكن.

انتهى العشاء فنهضت ابنة سپيرانسكي ومربيتها. قبل هذا ابنته وربت خدها بيده حتى أن تلك الحركة الحانية نفسها بدت لأندريه غير طبيعية.

بقي الرجال حول الطاولة تبعاً للأصول الإنكليزية، يحتسون شراب «البورتو» وانتهى بهم الحديث إلى طرق موضوع حرب إسبانيا فأيدوا جميعاً موقف ناپليون. وهنا سمح الأمير أندريه لنفسه بمعارضتهم. ابتسم سپيرانسكي، ولكي يدير دفة ذلك الحديث الشائك إلى وجهة أخرى، قص أحدوثة خارجة عن الموضوع فعم السكون وسكت السامعون.

وبعد لحظة، سد سپيرانسكي زجاجة الشراب وهو يقول: «إن الخمرة الجيدة اليوم لا تطوف بالشوارع». أعطى الزجاجة لأحد الخدم ونهض فاقتدى به الآخرون واتجهوا نحو القاعة وهم يصخبون. حمل البريد إلى سپيرانسكي غلافين أخذهما وانسحب إلى مكتبه. وما إن خرج حتى تبدل الصخب بالجد وأخذ المدعوون يتداولون الحديث بصوت خافت حول موضوعات جدية تماماً. بيد أن سپيرانسكي عاد بعد حين وقال: والآن لننتقل إلى الأحاديث المفخمة!

وأشار إلى مانييتسكي وقال يخاطب الأمير: إن له باعاً طويلاً في هذا المضمار.

وفوراً، اتخذ مانييتسكي وضعية مناسبة وراح ينشد مقطوعة شعرية هزلية باللغة الفرنسية نظمها حول عدد من الشخصيات المرموقة في پيترسبورغ. قوطع مراراً بالتصفيق. فلما انتهى، تقدم الأمير من سپيرانسكي مستأذناً. سأله هذا:

ـ إلى أين تذهب في مثل هذه الساعة المبكرة؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ لقد ارتبطت بموعد لقضاء السهرة.

لم يتبادلا كلمة أخرى. نظر أندريه عن قرب إلى تينك العينين الملساوين الشبيهتين بالمرآة اللتين لا تسمحان بالتعمق إلى ما وراءهما، فخيل إليه أنه من الغرابة أن يكون قد استملح الإصغاء إلى أي موضوع صادر عن هذا الرجل كما شعر بغباوة المجهود الذي يبذله بدافع منه كيف يمكن النظر بعين الجد إلى ما كان يفعله سپيرانسكي؟ بقيت تلك الضحكة المتقطعة الخالية من الانشراح تلاحقه ردحاً طويلاً بعد أن انسحب من مجلس الوزير.

فور عودته إلى منزله، أعاد النظر بكل الحياة الجديدة التي بدأها في پيترسبورغ وكأنه سيشرع فيها لأول مرة. تذكرتصرفاته خلال الأشهر الأربعة الأخيرة وملتمساته وكل قصة مشروع النظام العسكري الذي وضعه والذي قُبل للتدقيق وانتهى به الأمر إلى إحاطته بسياج كثيف من الصمت لمجرد أن مشروعاً آخر لا يمكن أن يجاري مشروعه في حال، قُدم إلى الأمبراطور. تذكر جلسات اللجنة التي عين پيار عضواً فيها، تلك الجلسات التي كان المجتمعون فيها يتجنبون بكل عناية البحث في جوهر الموضوع بينما يتناقشون في الشكل. تذكر أعماله التشريعية وترجماته الأمينة عن القانون الروماني وقانون ناپليون، فاستبد به الخجل لدى تفكيره في كل هذه الأمور. ثم عاد يتصور نفسه في بوغوتشاروڤون ويتذكر أعماله في الريف وسفره إلى ريازان وفلاحيه وما يتعلق بهم وكيف راح يعمل على تطبيق مبادئ قانون الإنسان عليهم، ذلك القانون الذي وضعه بنفسه بكل عناية. فأدهشه أن رأى نفسه مكرساً وقتاً طويلاً من حياته لعمل عقيم من هذا النوع.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

غداة اليوم التالي، قام الأمير بزيارة لآل روستوف بين عديد من الذين يدين لهم برد زياراتهم. جدد آل روستوف معرفتهم به منذ ليلة الحفلة الراقصة، فكان من دواعي اللياقة أن يرد لهم زيارتهم. لكن تصرفه ذاك لم يكن مستوحى من روح القواعد المرعية فحسب، بل من رغبته في رؤية تلك الصبية المندفعة التي خلقت في نفسه شعوراً مرهفاً.

كانت ناتاشا أولى المستقبلات. بدت له في ثوبها المنزلي الأزرق أكثر جمالاً مما كانت عليه وهي في زينتها الرسمية. استقبلت ناتاشا وكل آل روستوف بولكونسكي استقبال الصديق القديم ببساطة ودية. شعرأن تلك العائلة التي قسا عليها بحكمه من قبل، مؤلفة من أشخاص ممتازين بسطاء وطيبين. لم يستطع الصمود إزاء معاملة الكونت العجوز المضياف التي تختلف كلياً عن النهج الاحتفالي المعمول به في بيترسبورغ، فقبل دعوته لتناول العشاء على مائدته. قال يحدث نفسه: «نعم، إنهم أناس بواسل جداً لا يلقون بالاً مطلقاً إلى الكنز الذين يمتلكونه مجسداً في شخص ناتاشا. ثم إنهم يقومون بدور الدافع، غير عامدين، لإظهار تلك الفتاة الرائعة المليئة بالشاعرية المفعمة بالحياة.

كان يشعر أمام هذه المخلوقة الشابة أنه أمام عالم مجهول خاص، مليء بالمسرات غير المتوقعة، ذلك العالم الذي أزعجه كثيراً من قبل في ممشى حديقة أوترادنواي وقرب نافذة الجناح الأعلى عندما كان القمر يغمر الحديقة

twitter @baghdad_library

بالضوء. لم يعد ذلك العالم غريباً عنه الآن. لقد وجد، وهو يدخله، مسرات جديدة.

مضت ناتاشا، بعد العشاء، بناء على طلبها، إلى المعزف وبدأت تغني، وكان پولكونسكي يستمع إليها رغم انشغاله في الحديث مع السيدات في فراغ إحدى النوافذ. سكت فجأة في منتصف جملة وهو يشعر بالغصة في حلقه، غصة مليئة بالدموع، الأمر الذي كان يعتقد استحالة وقوعه من قبل. شخص بعينيه إلى المغنية وهو يحسّ باضطراب غريب وسعادة ممتزجة بالحزن. كان على استعداد لذرف دموع سخية دون أن يكون هناك أي داع للبكاء. على أي شيء يبكي؟ على غرامه الأول؟ على الأميرة الصغيرة؟ على إخفاقه وتبدد أوهامه؟ على آماله وأحلامه؟ نعم ولا. نشأت تلك الرغبة في البكاء من إيحاء جديد تجلى له في الغالب: ظهر له التناقض المروع بين ما كان يحس به من إغراق في العظمة والرحب المطلق في أعماق نفسه، وبين الإنسان المحدود الضيق الجسدي الذي كان يملأ إهابه والذي هي عليه كذلك. هذا ما كان يبعث عذابه وسروره معاً خلال الفترة التي غنت فيها ناتاشا.

وبعد أن انتهت، جاءت، تسأله عما إذا كان صوتها قد أعجبه. لكنها ما كادت تطرح السؤال، حتى أدركت أنها أساءت التصرف فارتجفت. ابتسم لها وقال إن غناءها قد أعجبه كما يعجبه كل ما تقوم به.

رجع الأمير إلى مسكنه متأخراً جداً فاستلقى على فراشه بحركة آلية. لكنه تبين بعد حين عبث محاولته النوم تلك الليلة. أضاء شمعة وراح ينهض ثم يعود إلى الاستلقاء دون أن يلعن ذلك الأرق الذي استبد به لشدة ما كان يحسّ بفيض الإحساسات الجديدة الذي كان يحمله معه. خيّل إليه أنه كمن كان في غرفة مغلقة ثم خرج منها فجأة يستنشق الهواء الطلق ملء رئتيه. لم تراوده فكرة إمكان وقوعه في غرام ناتاشا ولم تخطر له على بال. لم يكن يفكر

www.Maktbah.com

فيها، لكنها كانت أبداً أمام عينيه، وبنتيجة ذلك كان يحس أن كل وجودها يطل عليه ويلهمه نهاراً جديداً.

«لماذا أزعج نفسي بهذا المقدار، قال في سرّه، في إطار ضيق مغلق بينما الحياة، بمباهجها وأفراحها تتفتح أمامي»؟ ولأول مرة منذ زمن طويل، راح يبني آمالاً جميلة لمستقبله. قرر أن يعهد تثقيف ابنه نيكولا إلى أحد المربين بينما يقدم، هو، استقالته ويسافر إلى إنكلترا أو سويسرا وإيطاليا. فكر في نفسه: «يجب أن أفيد من حريتي خلال الفترة التي أشعر فيها أنني على حظ وافر من القوة والشباب. إن پيار محقّ في قوله: لكي نكون سعداء يجب أن نؤمن بإمكانية السعادة. والآن أراني مؤمناً. فلندع الأموات إذن يدفنون الأموات، إذ يجب أن نحيا وأن نكون سعداء طالما نحن على قيد الحياة».

twitter @baghdad_library

الفصل العشرون

دخل الزعيم أدولف بيرج، ذات صباح، على پيار في ثوب جديد مضمخ الشعر مسدله على صدغيه على غرار الأمبراطور ألكسندر، الذي كان پيار يعرفه كما يعرف كل أهالي موسكو وپيترسبورغ وقال له وهو يبتسم:

ـ إنني خارج من لدن الكونتيسة زوجتك وسأكون متأسفاً جداً إذا لم أجب إلى طلبي. فآمل أن أكون أوفر حظاً معك يا كونت.

ـ ماذا ترغب يا «كولونيل»؟ إنني رهن أوامرك.

قال بيرج وهو واثق سلفاً بأن طلبه لن يقابل بارتياح بالغ:

ـ لقد انتهيت من إقامة بيت جديد لي يا كونت. لذلك قررت أن أحيي حفلة صغيرة لأصدقائي وأصدقاء زوجتي، وابتسم ابتسامة أكثر ملاحة، وكنت أرغب في التقدم إلى الكونتيسة برجاء لتتفضل بتشريفنا بحضورها لتناول قدح من الشاي يليه عشاء متواضع.

كانت الكونتيسة هيلين ڤاسيلييـڤنا وحدها، وهي التي تقدر أن احتكاكها بآل بيرج أولاء يحط من قيمتها، قادرة على إظهار مثل هذه القسوة لرفض طلب من هذا النوع. أوضح بيرج بلباقة، سبب إقامة هذه الوليمة وجمع هذا العدد من كرام الناس في بيته، وسبب شعوره بالسعادة عند استقباله هذا الحفل الكريم، وأخيراً سبب قيامه ببعض التضحيات، التي قد يأسف عليها، لتوفير الترفيه بالورق وغير ذلك من التسليات الأخرى لضيوفه. وبالخلاصة، ظل يلح على پيار ويقنعه حتى لم يجد هذا مانعاً من قبول دعوته فوعده بالحضور.

www.Maktbah.com

قال بيرج:

ـ أرجوك أن لا تتأخر يا كونت، أتوسل إليك. ليكن حضورك في الثامنة إلا عشر دقائق إذا تفضلت. سوف نلعب الورق وسيكون قائدنا «الجنرال» هناك. إنه يظهر حيالي عطفاً سامياً يا كونت. ولسوف نتعشى بعدئذ. موافق، أليس كذلك؟

خلافاً لمألوف عادته بالوصول متأخراً أبداً، وصل پيار في الثامنة إلا ربعاً إلى منزل آل بيرج ذلك المساء بدلاً من الثامنة إلا عشر دقائق.

كان آل بيرج قد أنهوا استعداداتهم ووقفوا «تحت السلاح» استعداداً لاستقبال مدعويهم. انتظروا قدومهم في المكتب الجديد الأنيق المزين بالتماثيل الصغيرة واللوحات. وكان بيرج في ثوب عسكري أنيق جديد مزرر بعناية، يشرح لزوجته أن بالمستطاع إيجاد معارف من الطبقة الراقية، التي تفوقهم في سمو المركز ووفرة النقود، بل يجب توفير مثل هؤلاء المعارف لأنه ينتظر من مثلهم دائماً الخير: «هناك دائماً شيء مفيد يكسبه المرء من مثل هؤلاء. خذي على سبيل المثال، مركزي اعتباراً من رتبي الأولى ـ وبيرج لم يكن يحصي سني حياته العسكرية بل ترقياتها ـ لا يزال زملائي في مراكز تافهة، بينما أنا، ارتقيت في الرتب حتى أصبحت على وشك بلوغ قيادة فيلق، وحصلت على سعادة التزوج بك، ووقف ليقبل يد ڤيرا لكنه في طريقه إليها سوّى جانب السجادة المرفوع، ولمن يرجع الفضل في كل هذا إنه يعود في الغالب إلى فن انتقاء الأصدقاء، الأمر الذي لا ينفي الفضيلة والدقة اللتين أتحلى بهما».

ابتسم بيرج لاقتناعه بتغلبه على امرأة ضعيفة، وسكت وهو يحدث نفسه بأنه إذا كانت هذه الامرأة الفاتنة التي هي زوجته ضعيفة ككل الأخريات، فإنها لن تتمكن من إدراك كل ما يشكل عظمة كونه رجلاً مرموقاً. لكن ڤيرا ابتسمت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

هي الأخرى خلال الفترة لوثوقها بتفوقها على زوجها الفاضل، الرجل الممتاز، بدون شك، ولكن الذي يفهم الحياة فهماً خاطئاً، مثل كل الرجال. وكان بيرج، وهو الذي يحكم على النساء بحسب حكمه على زوجته، يعتبر النساء كلهن مخلوقات ضعيفة وسخيفة. أما ڤيرا، فكانت تحكم على الرجال استناداً إلى شخصية زوجها وحده، فتقدر، لدى تعميم ملاحظاتها، أن كل الرجال يميلون إلى الاعتبار أنهم وحدهم يتمتعون برجاحة العقل، بينما هم في الواقع لا يفهمون شيئاً لأنهم متكبرون وأنانيون.

وقف بيرج وطوّق زوجته بحذر شديد ليتفادى إفساد معطف «الدانتيلا» الذي ترتديه والذي دفع ثمنه غالياً، وقبّل شفتيها، وقال تدفعه جملة من الأفكار العفوية: المهم أن لا نرزق أطفالاً بسرعة.

فأجابت ڤيرا: نعم، إنني لا أميل إلى ذلك أبداً. يجب أن نعيش للمجتمع.

وفي تلك اللحظة، أعلن قدوم الكونت بيزوخوف. تبادل الزوجان ابتسامة رضى وكل منهما يعزو إلى نفسه شرف هذه الزيارة.

قال بيرج في سرّه: «هذا هو نتاج معرفة إيجاد علاقات، هذا هو حصاد حسن التصرف»! قالت ڤيرا: كل ما أطلبه منك هو أن لا تقاطعني عندما أكون من المدعوين. إنني أعرف تماماً ما يجب أن أقوله لكل واحد منهم.

فأجابها بيرج مبتسماً: ليس دائماً. يجب أن تثار أحاديث رجال بين الرجال.

استُقبل بيرج في القاعة الجديدة حيث كان الجلوس على مقاعدها متعذراً دون إفساد المسافات المتساوية بينها. فكان من الطبيعي جداً أن يعرض بخيلاء وتناول أن تُبدل أوضاع المقاعد والكنبة إكراماً لهذا الضيف العزيز. لكن قلقه من جراء ذلك كان بالغ الشدة حتى أنه ترك تفويض ترتيب تلك المقاعد لرغبة ضيفه نفسه. بيد أن هذا حطم تلقائياً نظام تقابل المقاعد

www.Maktbah.com

بأن تناول كرسياً وجلس عليه، فشرع الزوجان من فورهما في تدشين سهرتهما يقاطع أحدهما الآخر وهما يحدثان ضيفهما.

قدرت ڤيرا بحكمتها أن سفارة فرنسا موضوع هام مناسب جداً لاجتذاب اهتمام پيار. لذلك بدأت تبني حديثها حول هذا الموضوع. أما بيرج فقدر، على العكس، أن حديثاً خاصاً بموضوعات الرجال يتطلب الإثارة، فقاطع زوجته ليضع على بساط البحث موضوع الحرب مع النمسا. وبعد أن أعلن أفكاراً عامة حول الموضوع، اندفع دون وعي منه، يتحدث عن الاعتبارات الشخصية حول العرض الذي قدم إليه بالمساهمة في تلك الحرب والأسباب التي بنى عليها رفضه. فلما بلغ الحديث هذا الحد، أصبح حديثاً متقطعاً غير منسجم، حتى أن ڤيرا جدفت بشدة ضد هذا التدخل من جانب العنصر «الرجالي». ومع ذلك لمس الزوجان بغبطة وارتياح أن سهرتهما، رغم أنها تقتصر في الوقت الحاضر على ضيف واحد تسير على أحسن ما يرام، لا تختلف في شيء عن السهرات الأخرى التي يتبادل الحديث خلالها ويحتسي المدعوون الشاي وهم إلى طاولة تنيرها الشموع، وكأنها قطرة ماء إلى جانب قطرة أخرى.

بعد قليل، وصل بوريس، وهو رفيق بيرج القديم. فكان واضحاً من تصرفه تجاه الزوجين أنه يتخذ إزاءهما موقف من يبسط حمايته في نوع من الترفع. جاء بعده «الكولونيل» بصحبة سيده، ثم «الجنرال» نفسه وأخيراً آل روستوف. وحينئذ فقط، بلغت السهرة المستوى الذي تمتاز به كل السهرات الأخرى. لم يتمالك بيرج وڤرا من الإفراج عن ابتسامة رضى لدى رؤيتهما القاعة تعج بالحياة وسمعهما الأحاديث المتقطعة وحفيف أثواب السيدات وسط التحيات المتبادلة. سار كل شيء في الطريق الذي تسير فيه الأمور في الحفلات الأخرى، حتى أن «الجنرال» لم يختلف في تصرفه عن «الجنرالات» الآخرين: يربت بصداقة كتف بيرج ويهنئه بسلامة ذوقه وشكل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فرقة لعب الورق بأسلوب خاص ينطق برفع الكلفة. جلس قرب الكونت إيليا أندرييڤيتش معتبراً أنه الضيف الأرفع مكانة بعده هو، بالطبع، وانسجم الشيوخ مع الشيوخ والشبان مع الشبان، وربة البيت قرب الطاولة التي قامت عليها سلة فضية تحمل المعجنات، المشابهة تماماً للمعجنات التي قدمت لدى آل بانن، فلم يعد هناك أي فرق بين هذه الحفلات والحفلات الأخرى.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

وبصفته ضيفاً مرموقاً، كان پيار مضطراً إلى الجلوس إلى طاولة اللعب بجانب إيليا أندرييڤيتش والجنرال والكولونيل. وبما أنه كان جالساً قبالة ناتاشا، فقد لاحظ بدهشة أن تغييراً عجيباً طرأ على الفتاة منذ ليلة الحفلة الساهرة الراقصة. كانت صامتة أقل جمالاً مما بدت حينذاك بل يمكن القول إنها بدت بشعة، لولا أمارات الشرود التي كانت تكسو وجهها.

حدث پيار نفسه وهو يراقبها: «ماذا دهاها»؟ كانت جالسة إلى طاولة الشاي قرب شقيقتها تجيب عن حديث جارها بوريس بأطراف شفتيها دون أن تنظر إليه. وكان پيار، لمزيد اغتباط شريكه، قد ربح وحده خمسة أشواط وراح يجمع أوراقه حينما تناهى إلى سمعه صوت خطوات وتبادل التهاني، فاختلس نظره إلى وجه ناتاشا. تساءل: «ترى ماذا حدث لها»؟

كان الأمير أندريه واقفاً أمام ناتاشا يحدثها بحنو وعيناها شاخصتان إليه ووجهها محمرّ، لا تكاد تضبط أنفاسها، وقد انبعثت من شخصها كله نار مستعرة كانت أضواؤها منذ حين خامدة. لقد تبدلت كلياً فلم تعد تبدو بشعة بل أصبحت في مثل الإشراق الذي كانت عليه إبان الحفلة.

جاء أندريه يحيي پيار، فلاحظ هذا أن وجه صديقه اتخذ ـ هو الآخر ـ طابعاً جديداً وكأنه عاد إلى الشباب.

غيّر پيار خلال الشوط، حسب أصول اللعبة، مكانه غير مرة، فكان تارة

twitter @baghdad_library

مديراً إلى ناتاشا وتارة مقبلاً إليها. فلم يكف خلال جولاته الست عن مراقبة صديقه والفتاة الشابة.

قال في سرّه: «ثمة شيء خطير يقوم بينهما». وانتابه شعور امتزج فيه الأسف بالسرور، شعور حرك عواطفه لدرجة كاد معها ينسى اللعب.

وقف الجنرال بعد الشوط السادس معلناً استحالة اللعب في مثل هذه الشروط، فاستعاد پيار حريته. كانت ناتاشا تتحدث مع سونيا وبوريس، وڤيرا تجاذب الأمير أندريه الكلام وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة. التحق پيار بصديقه وجلس بقربه وهو يتساءل عما إذا لم يكن متطفلاً عليهما. كانت ڤيرا، وهي التي لاحظت عناية الأمير بأختها ناتاشا، تعتقد أن سهرتها تلك، باعتبارها سهرة مستوفية الشروط، صالحة للتنويه بالشؤون العاطفية تنويهاً ملزماً. فانتهزت فرصة انفراد الأمير بنفسه وراحت تثير معه حديثاً حول الحب بصورة عامة وأختها بصورة خاصة. قدرت أنه يجب عليها اللجوء إلى مرونتها كلها للتحدث مع ضيف يمتاز بالذكاء المتوقد كما كان حال الأمير أندريه.

لاحظ پيار حين اقترب أن ڤيرا شديدة الانفعال مسترسلة في قولها وأن الأمير ظاهر الخجل والارتباك، الأمر الذي يندر وقوعه له. كانت تقول من وراء ابتسامتها اللطيفة:

ـ ما هو رأيك؟ إنك دقيق الملاحظة، عظيم الإدراك من النظرة الأولى لأخلاق الناس. ما رأيك في ناتالي؟ هل تستطيع أن تكون ثابتة في تعلقها؟ هل تستطيع كالنساء الأخريات، وهمت أن تقول مثلي، أن تحب رجلاً وأن تظل مخلصة لحبه؟ إن هذا هو الحب الحقيقي في نظري. ما رأيك أنت أيها الأمير؟

فأجاب الأمير وهو يخفي اضطرابه وراء ابتسامة ساخرة: أنا لا أعرف أختك تمام المعرفة لكي أستطيع الإجابة عن سؤال دقيق كهذا.

وأضاف وهو يلتفت نحو پيار الذي كان قادماً إليها:

www.Maktbah.com

ـ ثم إنني لاحظت أن المرأة يزداد إخلاصها كلما نقص الإعجاب بها.

فاستأنفت ڤيرا تقول: نعم، هذا صحيح يا أمير. أما في أيامنا...، كانت ڤيرا تتحدث عن أيامها كما لا يحب التحدث عنها إلا ذوو العقول المحدودة الذين يعتقدون أنهم اكتشفوا وحدهم وقدروا مزايا وقتهم ويفترضون أن البيئة الإنسانية تتغير بحسب الأزمنة، أما في أيامنا، فقد كانت الفتيات يتمتعن بحرية كبيرة متناهية حتى أن اللذة التي كن يشعرن بها إذا أحطن بالمتغزلين كانت تخنق غالباً في نفوسهن الإحساس الحقيقي. وناتالي، والحق يقال، شديدة الحساسية.

ازداد تقطيب الأمير لهذا التلميح وإقحام اسم ناتالي. أراد الانصراف لكن ڤيرا استرسلت وابتسامتها تزداد رقة: إنني لا أظن أن فتاة «غوزلت» مثلها. لكن ما من أحد راق في عينيها جدياً حتى الآن.

وتابعت وهي تخاطب پيار:

ـ إنك تعرف تماماً يا كونت أن ابن عمنا الفتان بوريس نفسه الذي كان، والحديث بيننا، مفتوناً بها، تائهاً في آفاق الإحساس الحاني...

لم ينطق الأمير أندريه بكلمة وظل على تقطيبه وعبوسه. قالت ڤيرا:

ـ إنك صديق بوريس أليس كذلك؟

ـ نعم، إنني أعرفه.

ـ لا شك أنه حدثك عن غرام طفولته بناتاشا؟

فسأل الأمير وقد احمرّ وجهه فجأة:

ـ آه! هل كان هناك غرام منذ الطفولة؟

ـ نعم. إنك تعرف أن المودة بين ابن العم وابنة العم تؤدي أحياناً إلى الحب: إن قرابة العمومة جوار خطر كما يقولون، أليس كذلك؟

فقال الأمير: بدون شك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وراح يداعب پيار مداعبة مغتصبة موصياً إياه بأن ينتبه ويأخذ حذره من ابنتي عمه الخمسينيتين اللتين تسكنان في موسكو. ثم نهض وهو مسترسل في مزاحه وأخذ بذراع پيار وانتحيا زاوية. قال پيار الذي أدهشته دلائل الانفعال البادية على وجه صديقه الذي لاحظ النظرة التي أرسلها هذا إلى ناتاشا:

ـ حسناً! ماذا في الجو؟

فأجاب أندريه وهو يلمح إلى القفازات التي يعطيها الإخوان الماسونيون لزملائهم الجدد ليقدموها إلى النساء اللاتي يحبونهن:

ـ يجب أن أحدثك. إنك تعرف قفازاتنا النسائية... حسناً... كلا، سأحدثك بالأمر على حدة.

ومضى يجلس قرب ناتاشا وفي عينيه لهيب غريب وفي حركاته انفعال. رآه پيار يطلب إلى الفتاة شيئاً أجابته عنه محمرّة الوجه. لكن بيرج جاء في تلك اللحظة يرجو پيار أن يشترك في النقاش الذي يشترك فيه الجنرال والكولونيل حول مشاكل اسبانيا.

كان بيرج مرتاحاً منشرح النفس تضيء وجهه ابتسامة راضية. لقد نجحت سهرته وشابهت السهرات التي شهدها من قبل: أحاديث نسائية رقيقة، شوط من الورق مع جنرال مرتفع الصوت، سماور، حلويات، كل شيء جيد باستثناء ملاحظة واحدة كان بيرج يحلها محل الاعتبار في تقديره للسهرات المثالية: حديث صاخب بين الرجال ونقاش حاد حول موضوع خطير عظيم الأهمية ولكن الجنرال تفضل بإثارة مثل هذا النقاش الذي أسرع بيرج يجتذب پيار ليشترك فيه.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني والعشرون

غداة اليوم التالي ذهب الأمير أندريه استجابة لدعوة الكونت إيليا أندرييڤيتش لتناول الغداء على مائدته فأمضى عنده طوال النهار.

حدس كل من آل روستوف ما جرى بين الأمير وناتاشا. ذلك أنه لم يكف عن مغازلة ناتاشا بشكل مكشوف، بينما كانت ناتاشا سعيدة وخائفة معاً، شأن أفراد الأسرة كلهم لما اعتراهم من قلق يسبق اللحظات الحاسمة. كانت الكونتيسة، عندما تتحدث مع ابنتها، تصوب نحو الأمير نظرات جدية حزينة لكنها لا تكاد تعود بعينيها إليها حتى يختفي القلق بين طيات مواضيع تافهة. ولم تكن سونيا تجرؤ على الابتعاد عن ناتاشا، فكان وجهها يشحب من الرهبة كلما وجدت نفسها منفردة فترة قصيرة مع الأمير أندريه الذي أخذ يبلبل أفكارها بخجله. كانت تحس بأنه يريد الإفضاء إليها بشيء لكنه لا يحزم أمره.

وعند المساء، وعندما غادر منزل آل روستوف، جاءت الكونتيسة إلى ناتاشا وقالت لها بصوت خفيض: حسناً، ماذا؟

أجابتها:

ـ أماه، أتوسل إليك أن لا تسأليني شيئاً في هذه اللحظة. إن هذه الأمور لا تقال.

مع ذلك، بقيت ناتاشا طوال تلك الليلة فريسة للانفعال مستلقية على سرير أمها شاخصة النظر. روت لها أنه امتدحها وأنه أطلعها على رغبته في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

السفر إلى الخارج وسألها عن المكان الذي يقضي ذووها فيه فصل الصيف وأخيراً، حدثها مرة أخرى عن بوريس. ثم اعترفت قائلة: لكنني لم أشعر من قبل قط بمثل هذا الإحساس. أشعر وأنا في حضرته بالخوف، دائماً الخوف. ما معنى هذا؟ إن معنى هذا أنه جدّي أليس كذلك؟ أماه، هل أنت نائمة؟

ـ كلا يا عزيزتي. أنا الأخرى خائفة. إذهبي ونامي.

قالت وقد استنفرها اكتشافها شعوراً جديداً في نفسها:

ـ على كل حال، لن أنام. أنام؟ كم هو سخيف النوم! أماه، يا أمي الحبيبة، إنني لم أشعر من قبل بمثل هذا الإحساس. لم نكن نفكر في مثل ذلك!...

اعتقدت ناتاشا أنها افتتنت بأندريه منذ لقائهما الأول في أوترادای. وعلى ذلك فإن الرجل الذي فكرت فيه منذ تلك اللحظة، وكانت مقتنعة بهذا الإيمان، عاد الآن يقتحم طريقها دون أن يكون مستخفاً بشأنها! كانت تروعها تلك السعادة الغريبة غير المتوقعة.

ـ وكان عليه بدون شك، أن يكون في بيترسبورغ في الوقت الذي حللنا فيها وأن نتقابل في الحفلة الراقصة. كل هذا من عمل القدر. نعم إنه واضح أن الأمر كان يجب أن يكون على هذا النحو. ثم إنني ما كدت ألمحه حتى شعرت بشيء خاص يعتلج في نفسي.

سألتها أمها وهي ساهمة، عن الأشعار التي كتبتها في مذكرتها.

ـ ماذا قال لك كذلك؟ ما هي هذه الأبيات؟ إقرئيها لأرى...

ـ أماه، هل الزواج بأرمل أمر سيئ؟

ـ اسكتي يا ناتاشا. صلي لربك الكريم. إن الزواج يعقد في السماوات.

قالت ناتاشا وهي تذرف دموع السعادة والاضطراب: أماه العزيزة، كم أحبك. كم أنا سعيدة!

www.Maktbah.com

وارتمت على عنق أمها.

كان أندريه، في الوقت نفسه، يشرح لـپيار في منزله غرامه بناتاشا وعزمه الأكيد على الزواج بها.

كانت الكونتيسة هيلين ڤاسيلييـڤنا تقيم في ذلك النهار وليمة عندها لكبار الشخصيات وعلى رأسهم سفير فرنسا الذي أصبح من المواظبين على دخول المنزل. واجتمع نفر من أرفع نساء المجتمع والشخصيات المرموقة. قام پيار بجولة في الأبهاء فلاحظ المدعوون جميعاً أنه منكمش ومكتئب.

منذ ليلة الحفلة الراقصة أحس بنوبة من السويداء تقترب منه، فراح يعمل جاهداً بيأس لردها، عيّن منذ أن ارتبطت زوجته بعلاقات من سعادته، مرافقاً في البلاط على غير انتظار. ومنذ تلك الفترة، وهو يشعر في المجتمعات بالارتباك والخجل. وعادت آراؤه القديمة حول نزوات البشر وتفاهة الأشياء الدنيوية تحاصره مجدداً. أضف إلى ذلك أن العلاقة الودية التي رآها تقوى بين محميته ناتاشا وبين الأمير أندريه، والمقارنة بين موقف صديقه وموقفه هو نفسه، كل هذه الأشياء ساعدت على تعكير مزاجه. راح يطرد كل فكرة تتعلق بزوجته بمثل العنف الذي يطرد به كل ما يتعلق بناتاشا والأمير من آراء. ومجدداً، خيل إليه أن كل شيء تافه لا شأن له إذا قيس بأزلية الله، ومن جديد عاد يتساءل: «ما الفائدة؟» وبسبب ذلك، أخذ يغرق نفسه ليلاً نهاراً في العمل في الشؤون الماسونية آملاً بذلك التغلب على الأفكار السيئة.

وحوالى منتصف الليل، غادر أجنحة الكونتيسة وانسحب إلى الدور الأول، إلى غرفة منخفضة، فجلس إلى منضدة العم مرتدياً ثوباً منزلياً قديماً وراح ينسخ المواد الشرعية للمحافل الإيكوسة عندما دخل عليه بعضهم. كان الأمير أندريه هو الداخل. قال:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ آه! هذا أنت.

ثم تابع بلهجة أولئك التعساء الذين يبحثون في العمل عن السلوان ونسيان آلامهم.

ـ إنني أشتغل كما ترى. وها هو دفتري.

ابتسم له الأمير أندريه بأنانية السعداء دون أن يلتفت إلى حزن صديقه وقال ووجهه مشرق كأنه انقلب خلقاً جديداً: نعم يا عزيزي، ها أنذا. كنت أريد التحدث إليك بأمر الأمس. ومن أجل ذلك جئت، إنني لم أشعر قط بمثل هذا الشعور. أنا عاشق يا صديقي.

أطلق پيار فجأة زفرة عميقة وانهار متثاقلاً على الكنبة بجانب أندريه وقال: ناتاشا روستوف، أليس كذلك؟

ـ نعم، نعم. ومن سواها إذا لم تكن هي؟ لم أكن لأصدق ذلك قط. لكن هذا الحب أقوى مني. بالأمس تألمت كما يتألم المتعذبون الشهداء. مع ذلك فقد بدا لي ذلك العذاب أثمن من كل ما في الوجود. إنني لم أكن على قيد الحياة من قبل. إنني ولدت الآن وبدأت أعيش الآن، ولن أستطيع الحياة بدونها. ولكن هل تستطيع أن تحبني؟ إنني عجوز بالنسبة إليها... تكلم. إنك صامت!

فقال پيار الذي وقف فجأة وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً: أنا، أنا؟ وماذا تريد مني أن أقول؟ لقد فكرت دائماً في هذا... إن هذه الفتاة كنز حقيقي... نعم كنز، كنز، عصفور نادر... يا صديقي العزيز، أتوسل إليك أن لا تتردد ولا تناقش. تزوج وتزوج وتزوج... ستكون أسعد الرجال وأنا واثق بذلك.

ـ ولكن هي؟

ـ إنها تحبك!

تابع أندريه وهو يبتسم ويغرق نظره في عيني پيار:

ـ لا تنطق بالغباوة...

صاح پيار نافد الصبر: إنها تحبك، أنا أعرف ذلك.

عندئذ قال أندريه وهو يمسك بذراعه: إذن، أصغ إليّ. هل تعرف في أية حالة معنوية أجد نفسي؟ يجب أن أفضي بمكنونات صدري إلى أحد.

أجاب پيار الذي أشرق وجهه:

ـ حسناً، تكلم. إن ذلك يسعدني جداً.

زال الخط العرضي الذي يشوه جبهته وراح يصغي إلى أندريه وهو يبتسم. كان هذا قد أصبح بالفعل ذلك الرجل الجديد الذي بدت على وجهه علامات الابتهاج والشباب. أين ذهبت مرارته وإغفاله شؤون الحياة واحتقاره لها؟ كان پيار المخلوق الوحيد الذي وجد أندريه أن بالمستطاع التنفيس عما في خاطره أمامه. فراح يضع حيناً مخططات بسيطة وجريئة لمستقبله الطويل قائلاً إنه لا يستطيع تكريس حياته لنزوة أبيه وأن هذا إذا رفض مشروع الزواج فإنه سيستغني عن موافقته. وحيناً آخر يظهر دهشته لهذه العاطفة التي استبدت به كما يستغرب المرء أمراً شاذاً لا أهمية له عليه. وأخيراً قال مختتماً مناجاته:

ـ لو قال لي أحدهم إنني سأحب يوماً بهذا الشكل لما صدقته. ليس هذا الإحساس هو ما شعرت به من قبل. إن العالم الآن ينقسم أمامي إلى شطرين: الأول، حيث يكون كل شيء مفعماً بالسعادة والأمل والضياء. والثاني، حيث لا يكون شيء إلا الظلمات واليأس.

كرر پيار: ظلمات ويأس. نعم، نعم، إنني أفهم هذا.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ لا أستطيع إلا أن أحب النور. إن هذا أقوى مني. وأنا سعيد جداً. هل تفهمني؟ إنني أعرف أنك تبتهج من أجلي.

فقال پيار مؤيداً وهو يحيط صديقه بنظرة ودودة: نعم، نعم.

كان كلما لاح له مصير الأمير مشعاً، اتخذ مصيره في عينيه طابعاً أكثر ظلمة.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والعشرون

لأنّ الأمير أندريه لا يستطيع الزواج دون موافقة والده، فقد اتجه منذ صباح الغد، في طريقه إليه. واستقبل الأمير العجوز بيان ولده بهدوء ظاهري وغضب في داخله لم يكن يستطيع تقبل فكرة تبديل بعضهم لنمط حياته بإدخال عامل جديد عليها بينما انتهت أيامه. قال في سرّه: «ليتركوني أقله لأنهي أيامي أيامي على مزاجي، وليفعلوا من بعدي ما يروقهم». مع ذلك عمد إلى المرونة مع ابنه، مرونة أيامه الخوالي. درس الموضوع بهدوء من كل جوانبه.

أولاً، إن كل شيء في هذا الموضوع، المولد، الثروة، النسب، كله سيئ. ثم كان أندريه متقدماً في السن ضعيف الصحة، وقد ألح العجوز على هذه الناحية بصورة خاصة، بينما الفتاة صبيّة في شرخ الشباب. ثالثاً، إن لأندريه ابناً وكان أمر العهدة به إلى أيدي بنية يستدر الشفقة حقاً. رابعاً ـ ونظر الأمير العجوز إلى ابنه وهو مستغرق في تفكيره، نظرة هازئة ـ إليك رغبتي: «أجّل زواجك عاماً واحداً وسافر إلى الخارج. اعتن بصحتك هنا وابحث عن مربٍ فاضل للأمير نيكولا. فإذا لم يتبدل غرامك أو شهوتك أو ولعك، سمه ما شئت، خلال هذه الفترة بل ظل على عنفه، عندئذٍ، تزوج. هذه هي كلمتي الأخيرة، اعلم ذلك، كلمتي الأخيرة...».

لقد دلّت لهجة الأب وهو ينطق بقراره هذا على أن أي حافز في الوجود لن يغير رأيه إطلاقاً.

بدون شك، كان العجوز يأمل أن تضعف عواطف أندريه خلال هذه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المدة أو أن تتبدد رغبة مخطوبته خلال هذه السنة وهي التي قد لا تقاوم هذا الاختبار. أما إذا لم يحدث أيّ تبديل عليها، فإنه هو قد يموت خلال هذه الفترة. فهم أندريه مقصد أبيه وقرر أن يمتثل لرغبته. فاعتزم طلب يد ناتاشا شريطة تأجيل الزواج عاماً كاملاً.

ومرت ثلاثة أسابيع منذ زيارة أندريه الأخيرة لآل روستوف قبل أن يرجع إلى بيترسبورغ.

انتظرت ناتاشا وصول أندريه غداة اليوم التالي لاعترافاتها لأمها. ولكن ذهب انتظارها سدىً. كذلك كان شأنها في الغد وبعده. ولما بقي محتجباً كذلك، فظلّت ناتاشا جاهلة بأمر سفر أندريه. لذلك لم تكن تجد تفسيراً لغيابه.

مرت ثلاثة أسابيع، على هذا النحو، وناتاشا ترفض الخروج من البيت، تتيه كالطيف من غرفة إلى غرفة خائرة القوى. فإذا ما حل المساء، وانقطعت عن زياراتها الليلية لأمها، أصبحت تنفعل وتثور لأتفه الأشياء وتتصور أن كل الناس على علم بإخفاقها يسخرون منها أو يرثون لحالها. وكانت تلك الطعنة في كبريائها تزيد مقدار يأسها.

ذهبت ذات يوم إلى أمها بغية التحدث معها. لكنها انخرطت فجأة في بكاء مرير. كانت تلك أحزان طفلة عوقبت فما عادت تدري ماذا يؤخذ عليها، وراحت الكونتيسة تواسيها. فأصغت ناتاشا بادئ الأمر إلى أقوال أمها ثم قاطعتها فجأة لتقول: كفي عن الحديث حول هذا الموضوع يا أماه. إنني لا أفكر فيه ولا أريد العودة إلى التفكير! ثم إن كل شيء بسيط للغاية: كان يزورنا ثم كف عن زيارتنا، نعم كف...

وارتجف صوتها وعادت العبرات تخنقه. لكنها تماسكت وتابعت هادئة:

ـ على كل حال، لا أريد أن أتزوج. ثم إنه يخيفني. أنا الآن هادئة تماماً.

وفي اليوم التالي، ارتدت ناتاشا ثوباً قديماً كان من خصائصه أن يبسط

www.Maktbah.com

مزاجها، وبدأت منذ الصباح في حياتها المألوفة التي أهملتها منذ ليلة الحفلة الراقصة. احتست الشاي وذهبت إلى القاعة الكبيرة التي كانت تعجبها بصورة خاصة بسبب الشروط الصوتية المتوافرة فيها وتمرنت على العزف فترة. فلمّا انتهت من الدرس الأول وقفت في منتصف القاعة لتكرر مقطعاً حائزاً إعجابها أكثر من غيره. راحت تشعر بلذة جديدة في الإصغاء إلى تلك الألحان المنتقاة التي تملأ فراغ القاعة لتتبدد لا شعورياً. وفجأة شعرت بمرح غامر. قالت: «ما فائدة التفكير في كل هذه الأمور؟ أليست الحياة هنيئة على هذا المنوال»؟ وأخذت تتنزه في طول القاعة وعرضها ليس بخطاها الطبيعية بل متكئة بادئ الأمر على كعبها ثم رأس قدمها. وكانت تلبس في قدميها الحذاءين الجديدين اللذين كانت تفضلهما على الأحذية الأخرى. أحدث في نفسها وقع الكعب المنتظم المتبوع بصرير مقدمة القدم تماثلاً في النشوة التي غمرتها عندما أصغت منذ حين إلى صوتها. مرت بمرآة كبيرة فألقت عليها نظرة رأت وجهها وكأنه يقول: «أي نعم، ها أنذا! إن هذا ممتاز كما هو ولست في حاجة إلى أحد».

ودخل أحد الخدم يعيد إلى القاعة بعض الترتيب فصرفته واستمرت في نزهتها، رجعت ذلك الصباح إلى حب نفسها والإعجاب بشخصها وهما العاملان اللذان يشكلان حالتها النفسية المعتادة. قالت وهي تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب وكأن المتحدث جمعٌ من الذكور «يا للفتنة التي في ناتاشا! إنها صبية وجميلة ولها صوت عذب، لا تزعج أحداً فدعوها بسلام»! لكنها وإن تركت بسلام لم تكن تستطيع استعادة هدوئها. وها هي ذي قد مرت بالتجربة.

فُتح باب المدخل عند أقصى الدهليز وارتفع صوت يسأل عما إذا كانت الكونتيسة تسمح بمقابلتها ثم ارتفعت أصوات الخطى المقتربة. ألقت ناتاشا

twitter @baghdad_library

مجدداً نظرة إلى المرآة لكنها لم تر فيها شيئاً بادئ الأمر. احتكرت الخطوات الآتية من الممرّ كل اهتمامها. وعندما استطاعت رؤية صورتها في المرآة، أذهلها شحوبها. كان «هو» القادم. إنها واثقة تماماً رغم أن صوته لم يصل إلى سمعها واضحاً من وراء الباب المغلق.

امتقع وجهها فأسرعت دون وعي نحو القاعة وصاحت:

ـ أماه، بولكونسكي هنا! إنه أمر مريع يا أماه يتجاوز حد طاقتي لا أريد هذا العذاب! ما العمل؟...

لم تجد الكونتيسة متسعاً من الوقت للإجابة عندما دخل الأمير أندريه وعلى وجهه أمارات القلق وما إن لمح ناتاشا حتى أشرق وجهه. قبّل يديّ السيدتين وجلس.

بدأت الكونتيسة بالقول:

ـ لقد مضى زمن طويل لم نحظ فيه...

لكن الأمير لم يدع لها الفرصة لإتمام قولها بل قال متعجلاً الوصول إلى غاياته: لم أحضر لزيارتكم خلال الفترة الأخيرة لأنني كنت أبحث مع أبي موضوعاً على جانب كبير من الأهمية، فلم أصل إلا أمس مساء.

وألقى نظرة على ناتاشا واسترسل بعد فترة صمت: أريد التحدث إليك يا كونتيسة.

تنهدت الكونتيسة وغضت طرفها وقالت: إنني مصغية إليك.

فهمت ناتاشا أن عليها أن تنسحب. لكنها لم تحزم أمرها: شعرت أن شيئاً يضغط على حنجرتها فراحت تتطلع إلى وجه الأمير بعينيها المتسعتين دون أن تحسب حساباً لتقاليد اللياقة المرعية. أخذت تحدث نفسها: «كيف، سيقرر كل شيء!... وفي لحظة؟... كلا، هذا غير معقول!...».

نظر إليها مجدداً فأقنعتها تلك النظرة بأنها لم تكن مخطئة قط. نعم،

www.Maktbah.com

سوف يتقرر مصيرها في لحظة واحدة. قالت الكونتيسة بصوت خفيض: إذهبي يا ناتاشا. سوف أستدعيك.

فألقت عليهما معاً نظرة مروعة متوسلة وخرجت.

قال الأمير أندريه: لقد جئت يا كونتيسة أطلب يد ابنتك.

احمرّ وجه الكونتيسة وظلت فترة لا تستطيع الجواب. وأخيراً بدأت تقول بلهجة خطيرة بينما كان ينظر إلى عينيها:

ـ إن عرضك...

واضطرب صوتها فكرت:

ـ إن عرضك مقبول... و... وإنني أتقبله بسرور... وزوجي كذلك.. على ما أعتقد... لكنه أمر منوط بها...

قال أندريه: سوف أتحدث إليها بالأمر عندما أحصل على موافقتك. هل تمنحينني موافقتك؟ قالت وهي تمد له يدها: نعم.

ثم ضغطت شفتيها على جبين الأمير الذي انحنى على يدها بقبلة جمعت شعوراً من الحنان والنفور. كانت تريد من صميم نفسها أن تحبه كابنها. لكنها كانت تشعر بأنه غريب وأنه يخيفها. فاسترسلت تقول:

ـ أنا لا أشك في موافقة زوجي ولكن ماذا بشأن أبيك...

ـ لقد أطلعت أبي على نياتي فوافق شريطة ألا يتم الزواج إلا بعد عام. ولقد أردت إطلاعك على هذا الأمر أيضاً.

ـ صحيح أن ناتاشا لاتزال صغيرة. لكن مثل هذه الفترة الطويلة...

قال أندريه وهو يتنهد: لم أستطع إقناعه بالعدول عن قراره.

قالت الكونتيسة وهي تخرج من القاعة:

ـ سوف أرسلها إليك.

وبينما هي تبحث عن ابنتها ظلت تكرر: رباه أشفق علينا!

twitter @baghdad_library

كانت ناتاشا في غرفة نومها، قالت لها سونيا فذهبت إليها الكونتيسة لتجدها جالسة فوق سريرها شاحبة الوجه شاخصة بعينين جافتين إلى الصور المقدسة ترسم إشارة الصليب على صدرها بحركة محمومة وتدمدم بكلمات خفيضة. فلما وقع نظرها على أمها قفزت من فوق السرير وأسرعت للقائها:

ـ حسناً يا أماه؟... ماذا؟

قالت الكونتيسة بلهجة لمست في ابنتها طابع البرودة: إذهبي، إذهبي، إنه ينتظرك. لقد طلب يدك.

ولما رأت ابنتها تركض مسرعة كررت تشيعها بنبرة حزينة: إذهبي، إذهبي.

وأطلقت زفرة عميقة.

بعدئذ، لم تستطع ناتاشا أن تتذكر كيف دخلت القاعة الكبيرة. توقفت عند العتبة عندما وقع نظرها عليه وتساءلت: «هل يعقل أن يكون هذا الغريب قد أصبح لي بكليته»؟ لتجيب نفسها بنفسها: «نعم، بكليته. إنه في الواقع أعز عندي من كل شيء في الوجود».

اقترب منها أندريه مطأطئ العينين، وقال: لقد أحببتك مذ رأيتك أول مرة. فهل لي أن آمل؟

ورفع عينيه إليها فأذهله ما انطبع به وجهها من خطورة. كان ذلك الوجه ينطق قائلاً: «لِمَ هذا السؤال؟ لِمَ الشك في ما يستحيل تعذر فهمه؟ لِمَ الكلام بما لا تستطيع الكلمات الإعراب عما يشعر به المرء»؟

تقدمت بضع خطوات ووقفت بالقرب منه. فأخذ يدها وقبلها.

قالت ناتاشا وكأنها تجبر نفسها على القول: نعم، نعم.

واضطرب تنفسها وانفجرت باكية.

ـ لماذا؟ ماذا جرى لك؟

www.Maktbah.com

أجابت وهي تضحك خلال دموعها: آه! إنني سعيدة جداً.

ومالت نحوه مترددة لحظة تتساءل ولا شك عما إذا كان يجوز لها أن تمنحه قبلة.

كان أندريه ممسكاً بيديها ينظر إلى وجهها دون أن يجد في قرارة نفسه ذلك الحب الذي أحس به نحوها من قبل. واصطخبت في نفسه ثورة. لقد تبخرت الشاعرية والجاذبية الغامضة التي كانت تخلق في نفسه الرغبة، وحل محلها إشفاق على هذا الضعف النسوي وعلى ذلك الذهول الذي نجم عن الاستسلام المطلق المشفوع بالثقة. أخذ يشعر شعوراً يمتزج فيه السرور مع الكآبة بالواجب الذي يربطه إليها رباطاً أبدياً. بدا له ذلك الشعور أقل لمعاناً وشاعرية من قبل ولكن أشد قوة. تابع أندريه وهو لا يزال ينظر إلى عينيها: هل قالت لك أمك إن زواجنا لا يمكن أن يتم قبل عام؟

كانت ناتاشا تفكر في سرها: «هل حقيقة أصبحت أنا، أنا التي يعتبرني كل الناس بنية طائشة، أصبحت زوجة هذا الرجل المفرط في الذكاء الذي يحترمه حتى أبي والذي لايزال غريباً عني؟ هل من المعقول؟ هل صحيح أن الحياة لم تعد الآن دعابة وأنني أصبحت شخصية كبيرة مسؤولة عن كل حركة من حركاتي وكل كلمة؟ ولكن رباه، ماذا يسألني»؟

أجابت دون أن تفهم شيئاً من السؤال: كلا.

قال أندريه: اسمحي لي أن أقول إنك ما زلت شابة في مقتبل العمر بينما عركتني تجارب الحياة. إنني أخاف عليك لأنك ربما تكونين جاهلة نفسك.

كانت ناتاشا تصغي إليه بانتباه محاولة تفهم معنى كلماته. بينما تابع الأمير:

ـ مهما كان لهذه السنة التي تباعد بيني وبين سعادتي من إيلام لنفسي فإنها فترة كافية تساعدك على التحقق من مشاعرك. أنا أطلب إليك أن تسعديني بعد

twitter @baghdad_library

عام. أما أنت، فاحتفظي بحريتك. سوف تبقى خطبتنا سراً حتى إذا اقتنعت خلال هذا الوقت أنك لا تحبينني أو أنك، على العكس، مصممة على حبي...

ابتسم ابتسامة مغتصبة عندما قاطعته ناتاشا قائلة:

ـ لماذا تتحدث على هذا النحو؟ أنت تعرف أنني أحببتك منذ زيارتك الأولى في أوترادنواي.

وكانت لهجتها مفعمة بالثقة والصدق.

ـ سوف تستطيعين التعرف إلى نفسك خلال عام.

وهنا فقط توصلت ناتاشا إلى الفهم أن الزواج لن يتم قبل عام فصاحت مندهشة:

ـ عام كامل! ولكن لماذا عام؟ لمَ إذن عام؟

أخذ الأمير يشرح لها أسباب هذا التأجيل لكنها لم تكن تصغي إليه فسألته.

ـ ألا تستطيع إبدال شيء؟

لم يجب أندريه لكنها قرأت على صفحة وجهه أن القرار لا يقبل النقض. وفجأة قالت ناتاشا وهي تنخرط في البكاء مجدداً: إنه مريع، مريع! سأموت إذا وجب أن أنتظر عاماً. يستحيل، إنه مريع!

وعندما رفعت عينيها إلى وجه خطيبها رأت أنه فريسة إشفاق مؤلم. فجففت دموعها فوراً وقالت: لا، لا، إنني أوافق على كل شيء... إنني سعيدة جداً!

في تلك اللحظة، دخل الأب والأم ومنحا بركتهما للشابين. ومنذ ذلك اليوم أخذ أندريه يزور بيت آل روستوف بوصفه من العائلة.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع والعشرون

وبما أن الأمير أندريه ألحّ لإبقاء الأمر طيّ الكتمان لم تقم احتفالات رسمية بالخطبة. كان يقول إنه لما كان الموضوع خاضعاً للإمهال فإن عليه أن يحتمل النتائج. إن كلمته التي أعطاها تربطه إلى الأبد. لكنه لا يريد أن يربط ناتاشا بل إنه يترك لها الحرية المطلقة: فإذا تبينت خلال ستة أشهر أنها لا تحبه، فإن لها كل الحق في رفض طلبه. ومن البديهي أن لا ناتاشا ولا ذووها كانوا يوافقون على مثل هذا التصرف، لكنه لم يتراجع عن رأيه. كان يذهب كل يوم إلى منزل آل روستوف لكنه لم يكن يعامل ناتاشا معاملة المخطوبة: استمرّ يخاطبها بصيغة الجمع ويكتفي بتقبيل يدها. لكن علاقاتهما اتخذت خلال هذه الفترة طابعاً جديداً عامراً بالألفة، حتى ليقال إنهما لم يعرفا بعضهما حتى ذلك الحين. كان كل منهما يحب أن يتذكر الطريقة التي كان ينظر بها إلى الآخر يوم أن كان كلاهما «لا شيء» بالنسبة إلى الآخر. شعرا أنهما أصبحا مخلوقين مختلفين تماماً: كانا من قبل يتواريان أما الآن فقد أصبحا مخلصين. والعائلة نفسها كانت في بداية الأمر تحس بنوع من الارتباك في حضرة الأمير أندريه الذي كانت تعتبره شخصية من عالم آخر. لذلك فقد أمضت ناتاشا زمناً طويلاً حتى تمكنت من إيجاد الألفة بين ذويها وأندريه: ظلت تؤكد لهم بفخار أن بديهته ليست إلا مظهراً وأنه في أعماق نفسه يشبه كل الناس وأنه لا يخيفها أبداً وكذلك لا يجب أن يخشى منه أحد. ومضت أيام انطبع بعدها أفراد العائلة وألفوا ذلك العنصر الجديد فتبدد الارتباك وعادت الحياة سيرتها الأولى، بل

twitter @baghdad_library

أكثر من ذلك إذ راح أندريه يساهم في نمط حياتهم، كان يحسن الحديث في الزراعة مع الكونت وفي الأزياء مع الكونتيسة وناتاشا وفي المجموعات والتحف واللوحات مع سونيا. وأحياناً، كان أفراد عائلة روستوف يبحثون، سواء بينهم أو أمام أندريه، في تطورات القدر وتدخله في كل هذه القضية: فسفر الأمير إلى أوترادنواي ومجيئهم إلى پيترسبورغ، والشبه بين ناتاشا وخطيبها الذي لاحظته الوصيفة العجوز منذ الزيارة الأولى والخصومة التي وقعت بين أندريه ونيكولا عام ١٨٠٥ وأشياء أخرى من هذا القبيل كانت كلها بمثابة إشارات مسبقة لا شك فيها.

عم المنزل شعور بالسأم الشاعري الصامت الذي يحيط عادة بالمخطوبين. التزم أفراد الأسرة الصمت غالباً إذا ما وجدوا مجتمعين في غرفة واحدة. وأحياناً كانوا ينسحبون تاركين المخطوبين وحدهما مطبقين في الصمت. نادراً ما تحدثا عن مستقبلهما لأن أندريه كان يخشى تداول هذا الموضوع ويجد مسلكه شائكاً. أما ناتاشا فكانت تشاطر الأمير هذا الإحساس وكل مشاعره الأخرى التي كانت تخمنها فوراً. حزمت ذات مرة، أمرها على التحدث معه عن ابنه. احمرّ وجه أندريه، وهو الأمر الذي بات كثير الوقوع له يغمر نفس ناتاشا بالسرور، وقال لها إن الطفل لن يساكنهما. سألته ناتاشا مروعة: ولماذا؟

ـ لأنني لا أستطيع انتزاعه من جده ثم...

فعرفت ناتاشا فكرته فوراً وقالت: كم سأحبه! لكنني أفهم ما تقصد. إنك تريد أن تجنبنا، أنت وأنا، مغبة النقد.

كان الكونت العجوز يقترب من الأمير أحياناً ويعانقه سائلاً إياه النصح في موضوع تثقيف پيتيا ومركز نيكولا، والكونتيسة تتنهّد وهي تنظر إلى المخطوبين. أما سونيا، فتخشى دائماً أن تكون متطفلة وتختلق الأعذار

www.Maktbah.com

لتتركهما منفردين حتى ولو لم تكن تلك رغبتهما. وعندما يبدأ أندريه الكلام، وكان محدثاً لبقاً، كانت ناتاشا تصغي إليه بزهو. أما إذا تحدثت هي فكانت تلاحظ أنه يراقبها بعين فاحصة امتزج فيها الخوف بالفرح. كانت تتساءل في شيء من القلق: «عمّ يبحث فيّ؟ ماذا يقصد بهذه النظرة؟ ماذا يحدث لو أنه لم يجد فيّ ما يبحث عنه»؟ كانت تستسلم للجذل المجنون الذي عرفت به وتشعر بغبطة بالغة كلما رأت الأمير أندريه يضحك مسروراً بدوره. وكان نادراً ما يضحك لكنه إذا ما ضحك استسلم بكليته، الأمر الذي كان يجعل ناتاشا تشعر أنها أدنى إليه وأقرب. وكان يمكن لفرحها أن يتجاوز كل حد لولا رهبتها من الفراق القريب الذي كان يجر الشحوب إلى وجهه وتتجمد أطرافه كلما فكرّ في ذلك الفراق.

في الأمسية التي سبقت رحيل الأمير، استدعى الكونت پيار الذي لم يكن قد زار آل روستوف منذ تلك الحفلة الراقصة. كان پيار شارد النظرات مشوش الفكر. وبينما كان يتحدث مع الكونتيسة جلست ناتاشا وسونيا إلى رقعة الشطرنج داعيتين بذلك پولكونسكي إلى موافاتهما.

سألها: إنك تعرفين بيزوخوف منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ هل تشعرين بالصداقة نحوه: نعم. إنه فتى باسل لكنه شاذ قليلاً.

وكعادتها كلما تحدثت عن پيار، راحت تقص النوادر حول شروده، نوادر كان كثير منها مختلقاً أو مركّباً. قال الأمير: اعلمي أنني ائتمنته على سرنا. أنا أعرفه منذ الطفولة. إنه ذو قلب ذهبي. ثم أضاف فجأة بنبرة جدية: أرجوك يا ناتالي، سوف أرتحل غداً والله يعرف ما قد يحدث. لك أن تكفي عن حبـ.... نعم إنني أعرف أنه لا يجوز لي التحدث عن هذا الأمر لكنني، مهما وقع لك خلال غيابي...

ـ ماذا يمكن أن يقع لي؟...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ أي مكروه يحدث، أرجو يا آنسة صوفي أن تسأليه وحده العون والنصح. صحيح إنه أكثر الناس شذوذاً لكنه أطيبهم قلباً.

لم يكن لا الأب ولا الأم ولا سونيا ولا أندريه نفسه يتوقع رد الفعل الذي وقع لناتاشا عند افتراقها عن خطيبها. كانت منفعلة ملتهبة الخدين جافية العينين تروح وتجيء في غرف المنزل تتشاغل بأتفه الأشياء وكأنها لا تعرف شيئاً عما ينتظرها غداة ذلك اليوم. بل إنها لم تبكِ حينما قبّل يدها لآخر مرة وهو يودعها. كل ما قالته كان عبارة: لا تذهب! وبصوت تساءل هو نفسه عما إذا كان سيعزف عن الذهاب. وقد بقي فترة طويلة يذكر ذلك الصوت. وعندما ذهب لم تبك كذلك، لكنها بقيت أياماً عديدة مختلية في غرفتها لا تأبه لشيء، تصرخ بين حين وآخر:

ـ آخ! لماذا ذهب!

مع ذلك، ولدهشة المحيطين بها العميقة، استيقظت من ذهولها بعد خمسة عشر يوماً من رحيل الأمير، وعادت إلى سابق عهدها ولكن باستعداد خلقي جديد كما يحدث للأطفال عندما يبلون من مرض طويل وتتغير طباعهم.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس والعشرون

ساءت صحة الأمير بولكونسكي وتفاقم غضبه خلال السنة التي أعقبت رحيل ولده. أضحت نوبات غضبه كثيرة لا مبرر لها وكانت الأميرة ماري وحدها تقريباً تحتمل تلك النوبات ونتائجها حتى ليخيل إلى المرء أنه يختار المواضع الحساسة في قلبها لينزل بها أقوى الأذى المعنوي. كانت لماري هوايتان وبالتالي فرحتان: ابن أخيها والدّين. فوجد الأمير العجوز في هاتين الهوايتين موضوعه المفضل للاستهزاء، فكان يوجه الحديث دائماً، مهما كان نوعه، نحو خرافات العانسات العجائز ونوبات التسامح نحو الأطفال والرأفة بهم. كان يقول لابنته: «تريدين أن تجعلي من نيكولا الصغيرة فتاة عجوزاً بينما الأمير أندريه في حاجة إلى ولد وليس إلى بنت». أو كان يوجه الحديث إلى الآنسة بوريين ويروح في سخرياته يسألها بحضور ماري عن رأيها في القساوسة ومسائل التقوى.

كانت الأميرة، مهما قسا في تجريحها، تصفح عنه بطيبة خاطر. إذ هل يمكن أن يكون غير عادل أو أن يخطئ نحوها وهو ا لأب الذي تعرف جيداً أنه يحبها رغم كل شيء؟ ثم ما هي العدالة؟ لم تطرح ماري على نفسها هذا السؤال لأنها تجهل معنى هذه الكلمة المتكبرة: العدالة. لم تكن قوانين البشرية المعقدة كلها إلا لتتلخص في نظرها بقانون واحد بسيط وواضح، هو قانون الحب والتضحية الذي علمه ذلك الذي تألم من أجل البشر حباً بالبشر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في حين كان هو الله نفسه. فماذا كان إذن يهم ماري من أمر عدالة الآخرين وظلمهم؟ كانت مهمتها في الحياة أن تتألم وتحب وهي منصرفة إلى مهمتها.

خلال الشتاء، زار أندريه ليسياغوري فوجدته ماري أنيساً وديعاً كما لم تره قط من قبل. أحست أن تبدلاً طرأ على أخيها. لكنه لم يحدثها بكلمة واحدة عن حبه. وقبل رحيله اختلى بأبيه فترة طويلة فلاحظت ماري أن تلك الخلوة تركتهما غير مرتاحين كليهما.

بعد رحيل أخيها بفترة وجيزة أتيح لماري أن تكتب إلى صديقتها جولي كاراغين في بيترسبورغ، تلك الصديقة التي كانت تحلم، كما تحلم كل الفتيات، أن يتزوجها أخوها. وقد تناهى إليها أن تلك الصديقة فقدت أخاها لأنه قتل في تركيا.

«أرى جيداً أن الحزن نصيبنا كلتينا يا عزيزتي وصديقتي الحنون جولي.

«خسارتك قاسية جداً، لا أستطيع تفسيرها إلا باعتبارها نعمة خاصة من الله الذي يريد أن يبلوك أنت ويبلو أمك الطيبة لأنه يحبكما. آه يا صديقتي! لا يوجد إلا الدّين ملجأ ولا أقول لعزائنا، بل لإنقاذنا من اليأس. الدين وحده يستطيع أن يفسر لنا ما لا يستطيع الإنسان بدونه أن يدرك السبب الذي من أجله يدعو الله إليه المخلوقات النبيلة التي تعرف كيف تجد السعادة في الحياة والتي تسرع لإنقاذ الآخرين وتتجنب إلحاق الأذى بالناس بينما يترك المخلوقات الخبيثة الضارة التي تشبه الحمل الثقيل على أكتاف الآخرين تعيش في الحياة طويلاً.

هذا هو الشعور الذي خلفته في نفسي الوفاة الأولى التي شهدتها، والتي لن أنساها إطلاقاً وأقصد بذلك وفاة زوجة أخي العزيزة. وكما سألت القدرة عن السبب الذي سلبتك من أجله أخاك الرائع، كذلك سألت أنا عن السبب الذي دعا ليز، ذلك الملاك، إلى الموت وهي التي إلى جانب عدم

www.Maktbah.com

إيذائها الآخرين لم تكن روحها تضم إلا أطيب الفكر. مع ذلك، فقد مضت خمسة أعوام يا صديقتي العزيزة حتى بدأت أفهم بذكائي الضعيف السبب الذي توجب من أجله الموت عليها. إن تلك الميتة كانت بلا شك علامة الرحمة المتناهية التي أسبغها الخالق عليها الذي لا يمكن لتصرفاته، رغم إننا لا نتوصل إلى فهمها معظم الوقت، أن تكون إلا دلائل الرحمة والحب غير المحدود الذي يشمل به المخلوق. لا شك إنها، كذلك كنت أحدث نفسي، كانت على براءة إنجيلية يتعذر معها القيام بواجباتها كأم. فهي وإن كان لا يرتقي إليها النقد كزوجة شابة إلا أنها كان يمكن أن تعجز عن القيام بواجبات الأم. أما الآن فهي على العكس تركت لنا جميعاً وبصورةخاصة للأمير أندريه الأسف العميق والذكريات الأليمة. وفوق ذلك فهي بدون شك بلغت هناك في السماء مركزاً لا أجرؤ على التفكير فيه من أجل نفسي ومن جهة أخرى فإن تلك الميتة المبكرة الرهيبة تركت في نفس أخي وفي نفسي أجل الأثر إلى جانب ا لحزن العظيم الذي سببته لنا.

ولو أن مثل هذه الأفكار طافت بخاطري في فترة فقدانها لطردتها مروعة. أما الآن، فعلى العكس، يبدو كل شيء لي واضحاً لا يقبل النقض! أكتب لك ذلك يا صديقتي لأقنعك فقط بالحقيقة الإنجيلية التي أصبحت قاعدة لحياتي: لا تسقط شعرة من رأسنا بدون مشيئة الله. ومشيئته مستوحاة من حبه اللامتناهي لنا. ولهذا السبب، فإن كل ما يقع لنا لا يقع إلا لخيرنا.

«تسألينني عما إذا كنا سنقضي الشتاء في موسكو! إنني رغم كل رغبتي في رؤيتك لا أعتقد ذلك ولا أتمناه. ولعلك تدهشين إذا علمت أن الخطأ في ذلك يعود إلى «بيوناپارته». وإليك السبب. إن صحة أبي تعتل بشكل ظاهر مما يجعله لا يحتمل أية معارضة لأنه أصبح... وسرعة الغضب هذه مبعثها كما تعلمين، السياسة بصورة خاصة. لا يستطيع احتمال مجرد الفكرة

twitter @baghdad_library

أن «بيوناپارته» هذا يعامل ملوك أوروبا وسادتها معاملة الند للند وخصوصاً مليكنا حفيد كاترين الثانية العظيمة! إنني كما تعلمين لا أبالي مطلقاً بالسياسة. لكنني أعرف من موضوعات أبي وأحاديثه مع ميخائيل إيڤانوڤيتش كل ما يدور في العالم وخصوصاً الولاء والخضوع اللذين يلاقيهما «بيوناپارته». إن ليسيياغوري هي المكان الأوحد في العالم الذي يرفض فيه إعطاؤه لقب الرجل الكبير وأمبراطور الفرنسيين. وهذا هو الأمر الذي يخرج أبي عن طوره. فهو إذا كان لا ينظر إلى السفر إلى موسكو بعين الرضا فإن سبب ذلك يعود بصورة خاصة كما يبدو لي إلى آرائه السياسية: فهو يتصور مسبقاً كثرة المتاعب التي ستسببها له عادته في الإعراب عن رأيه بصراحة دون أن يأبه لأحد. وكل ما يكتسبه صحته من العلاج والرعاية الطبية لن يقاوم بلا شك النتائج المترتبة على المناقشات التي لا بد منها حول موضوع بيوناپارته. على كل حال سوف يتخذ قرار قريب بشأن ذلك.

«إن حياتنا في العائلة تتبع نهجها المألوف إذا استثنينا أخي الذي ارتحل عنا. لقد طرأ عليه تبديل ملحوظ في الآونة الأخيرة كما سبق وكتبت لك. لم يعد إلى الحياة منذ تلك المصيبة التي أصابته إلا في هذا العام. وقد رأيته أخيراً كما عرفته في طفولته: طيباً، رؤوفاً، ذا قلب ذهبي، لا مثيل له في علمي. لقد أدرك على ما أظن أن الحياة لم تنته بالنسبة إليه لكن ما كسبه فكرياً أضاع مقابله جسدياً. لقد أصبح أكثر نحولاً من السابق. إنه يقلقني وأنا سعيدة جداً إذ أراه يسافر إلى الخارج نزولاً عند رغبة الأطباء الذين كثيراً ما أشاروا عليه بذلك، وآمل أن يكون سفره ذا فائدة له. تقولين لي إنهم في پيترسبورغ يتحدثون عنه حديثهم عن واحد من أكثر الشباب نشاطاً وأوفرهم ذكاء وأغزرهم علماً، واصفحي عن كبريائي هذا كأخت حين أقول لك إنني لم أشك قط في مزاياه. ثم إن الخير الذي وفره لنا هنا اعتباراً من الفلاحين وحتى جماعة النبلاء في

www.Maktbah.com

المقاطعة أكثر من أن يحصى. إنهم في بيترسبورغ لا يدفعون له إلا ما يستحق. إن السرعة التي تنتشر فيها الإشاعات من بيترسبورغ إلى موسكو تغيظني خصوصاً إذا كانت تلك الإشاعات على غرار النوع الذي حدثتني عنه. كيف يتزوج أخي أنّا روستوف الصغيرة! لا أعتقد أن أندريه يفكر في الزواج من أية كانت وبصورة خاصة من هذه. وإليك السبب أولاً، على الرغم من أنه لا يتحدث عن المرحومة العزيزة إلا نادراً، فإن الحزن الذي خلفه فقدها في نفسه، بذر في قلبه ألماً راسخاً يستحيل معه أن يفكر في إحلال امرأة محلها، ورُزق ملاكنا العزيز زوجة أب في المرتبة الثانية، ليست الفتاة المذكورة على ما أعلم من النوع الذي يروقه. ولا أظن أن الأمير أندريه يرضى أن يتخذها زوجة وبصراحة لا أتمنى ذلك.

«لقد ثرثرت كثيراً حتى ملأت ورقتي الثانية. فوداعاً يا صديقتي العزيزة وليتعهدك الله بحمايته المقدسة. إن رفيقتي العزيزة الآنسة بوريين تقبلك.

ماري».

twitter @baghdad_library

الفصل السادس والعشرون

تسلمت ماري رسالة من أخيها في سويسرا، حوالى منتصف الصيف، يطلعها فيها على خبر غريب غير منتظر. لقد أعلن لها فيها خطبته الآنسة روستوف. كانت تلك الرسالة تفصح عن حب بالغ لمخطوبته إلى جانب الحنان المطمئن تجاه أخته. أعلن أنه لم يحبّ قط من قبل كما يحب الآن وأنه فهم أخيراً معنى الحياة ويعتذر عن كتمانه الأمر عنها وعدم إطلاعها عليه عندما كان في ليسيياغوري رغم أنه تحدّث لابنه عن مكنونات صدره. ولقد اعتذر عن كتمانه بأنها كانت سترهق الأمير العجوز بالتماسها الموافقة منه وعندئذ يصب جام غضبه عليها.

استتلى يكتب: «لم يكن الأمر في مرحلة متقدمة كما هو عليه اليوم. لقد حدد أبي مهلة عام انقضت منها ستة أشهر وأنا أشد إصراراً على موقفي. ولو أن الأطباء لم يؤخروني هنا حيث أستشفي بالمياه المعدنية لعدت إلى روسيا فوراً. لكنني مضطر إلى إرجاء عودتي ثلاثة أشهر أخرى، إنك تعرفينني وتعرفين علاقتي بأبي. ليس لي ما أطلبه منه وأنا الآن مستقل وسأكون مستقلاً أبداً. لكن هنائي وسعادتي لن يكونا كاملين إذا تصرفت عكس رغبته وأثرت حفيظته في الوقت الذي لم يبق له وقت طويل يمضيه بيننا. لقد كتبت له في الموضوع نفسه فأطلب إليك انتقاء الوقت المناسب لتسليمه رسالتي. كما أطلب إليك أن تتلطفي بإعلامي بالطريقة التي سيتصرف بها تجاه هذا الأمر: تُرى هل من أمل في أن يوافق على اختصار المهلة بإنقاص أربعة أشهر منها»؟

www.Maktbah.com

سلّمت ماري الرسالة إلى أبيها، بعد تردد طويل وصلوات حارة. وفي اليوم التالي استدعاها الأمير العجوز وقال لها: اكتبي لأخيك أن ينتظر موتي... ولن يطول الأمر لأنني سأخلصه قريباً.

حاولت ماري الاعتراض بشيء على قوله، لكنه لم يسمح لا بل راح صوته يرتفع غاضباً: تزوج، تزوج يا فتاي الباسل... يا للمصاهرة الرائعة! أشخاص ذوو قيمة ومكانة أليس كذلك؟ ذو ثراء أليس كذلك؟ ستكون زوجة أب جميلة يُتحف بها الصغير نيكولا!... اكتبي له أن يتزوج منذ الغد إذا كان هذا يروقه. إنه يريد إعطاء نيكولا خالة، حسناً! سأعطيه أنا الآخر واحدة: سأتزوج الآنسة بوريين! آه! آه! آه!... إلا أنه لا مكان عندي لنساء أخريات. ليتزوج! ولكن ليذهب بعيداً وليعش مستقلاً... ربما تفضلين مشاطرته الحياة؟ إذن، سفراً سعيداً وليباركك الله!

بعد تلك الثورة الجامحة، لم يعد الأمير يبحث في هذا الموضوع. لكن الغضب الذي سببه له ضعف ابنه كان يظهر بشكل مكتوم في كل علاقاته مع ماري. لقد أضاف موضوعاً ثالثاً إلى السخرية منها إلى جانب الموضوعين الآخرين. موضوع الزوجة الجديدة والغزل الذي يفكر في توجيهه إلى الآنسة بوريين. كان يقول لابنته: ولم لا أتزوجها؟ ستكون أميرة رائعة.

لاحظت ماري، بدهشة وذهول، أن أباها بات أكثر اندماجاً مع الفرنسية. فكتبت إلى أندريه تنبئه بالأسلوب الذي تلقى الأمير به رسالته. لكنها تركت له المجال للأمل في أنها ستغير من رأي أبيها.

اقتصر عزاء الأميرة على تثقيف ابن أخيها والتفكير في أندريه والدين. ولما كان كل إنسان في حاجة إلى إيحاءات شخصية، فإنها كانت تخفي في أعماق قلبها حلماً وأملاً كانا يشكلان نواة عزائها. وهي مدينة بهذا البلسم لـ«رجال الله» المجاذيب والحجاج الذين كانوا يأتون لزيارتها في غياب أبيها،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكلما لاحظت الحياة واكتسبت منها خبرة، ازدادت دهشتها لبني البشر الذين يتبعون أهواءهم على الأرض، والذين ينصبون ويختصمون ويسيء بعضهم إلى بعض في سبيل بلوغ هذا السراب الخادع. لقد أحب الأمير أندريه امرأة فماتت. ولم يكفه هذا لأنه يريد أن يرتبط ابنه بأسرة ذائعة الصيت واسعة الغنى. وعلى ذلك، فإن كل واحد يناضل ويتألم ويعذب روحه ويفقدها، روحه الخالدة، ليبلغ يمناً لا يدوم إلا لمحة.

ولم يكفنا أننا عرفنا ذلك من تلقاء أنفسنا معرفة كافية، بل إن المسيح، ابن الله، نزل على الأرض ليقول لنا إن هذه الحياة ليست إلا اختباراً عابراً. مع ذلك فإننا نتشبث بها ونأمل أن نجد فيها السعادة. كانت تقول في نفسها: «لماذا لم يفهم هذا أحد؟ ما من أحد، باستثناء رجال الله هؤلاء، الذين لا يلقون إلا كل احتقار، والذين يصلون إلى غرفتي عن طريق سلم الخدم حاملين خراجهم على أكتافهم خائفين التعرض لنظر الأمير. وليس مبعث الخوف تعرضهم للأذى إذا رآهم، بل رغبتهم في تجنيب الأمير احتمال وزر أخطاء جديدة. هؤلاء الذين يهجرون عائلاتهم ومسقط رأسهم ويحتقرون كل نعم الأرض فلا يتمسكون بشيء، يهيمون من مكان إلى آخر مرتدين أسمالاً من الكتان الخشن بصفة استعارة، لا يفكرون في إيذاء أحد، يصلون من أجل الذين يسيئون إليهم كما يصلون من أجل من يحمونهم. أية حياة وأية حقيقة تتفوق على هذا»!

كانت إحدى تلك التائهات، ڤيدوسيوشكا، ولها من العمر قرابة خمسين عاماً، قصيرة القامة هزيلة وادعة، أمضت ثلاثين عاماً وهي تمشي حافية القدمين مثقلة بالسلاسل، تحتل مكانة مرموقة في نفسها. وذات يوم، بينما كانت في غرفتها المعتمة تستضيء بسراج شحيح، قصت عليها ڤيدوسيوشكا قصة حياتها. وفجأة قفزت الفكرة إلى رأس ماري بأن هذه الإمرأة وحدها

www.Maktbah.com

وجدت الطريق السوي. كانت هذه الفكرة من القوة بحيث قررت هي الأخرى أن تبدأ بالمسير. ولما مضت السائحة لنيل قسط من الراحة، قررت ماري بعد تفكير عميق، أن تبدأ هي الأخرى حياة السياحة. لم تُعلم أحداً بفكرتها باستثناء الأب هيراسانت الذي اعتادت الاعتراف على يديه، فأيد ما اعتزمت عليه. تذرعت بحجة تقديم هدية إلى متعبداتها، فاستحضرت زياً كاملاً: قميصاً وخفين وجلباباً ومنديلاً أسود. وكانت غالباً، كلما اقتربت من الدولاب الذي أودعته سرها، تتوقف حائرة مترددة وتتساءل عما إذا كانت ساعة تنفيذ خطتها قد حانت.

وكانت تتحمّس أحياناً، عندما تصغي إلى روايات المتعبدات، لتلك الأحاديث الساذجة التي ترويها أولئك النسوة بصورة آلية والتي كان لها في نفسها أثر عميق. وتبلغ بها الحماسة مبلغاً يجعلها تقرر غير مرة أن تترك كل شيء لتهرب من البيت. بل إنها كثيراً ما رأت نفسها بعين الخيال، ڤيدوسيوشكا جديدة، مرتدية أطماراً خشنة، تمشي حاملة خرجها وعصاها فوق الطرقات الغبراء، تتابع حجها دون حقد ولا حب بشري ولا رغبات، من معبد إلى آخر، لتصل أخيراً إلى المكان الذي لا تعرف فيه آلاماً ولا حسرات والذي تسوده البهجة والغبطة الأبديتان.

«سأذهب إلى مكان ما فأصلّي. وإذا لم تألفه نفسي، أو لم أحس بالغبطة، فسأنتقل إلى مكان أقصى. وسأمشي حتى تخذلني قدماي وعندئذ سأستلقي وأموت في مكان ما، ثم أبلغ أخيراً ذلك الميناء الهادئ الذي ليس فيه لا حزن ولا حسرات».

هكذا كانت تحلم ماري. لكنها كلما رأت أباها وعلى الخصوص كوكو الصغير، يضعف قرارها فتشعر أنها تحب أباها وابن أخيها أكثر مما تحب الله. وعندئذ تذرف الدمع السخي في السر وتعتقد أنها خاطئة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الجزء السابع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

في انعدام العمل، أي في البطالة، يمنّ الرجل الأول قبل سقطته، هكذا يزعم التقليد الديني. فقد احتفظ الرجل الساقط من مكانته بعادة البطالة. لكن لعنة الله تظلله باستمرار ليس لأنه مرغم على كسب قوته بعرق جبينه فحسب، بل لأن طبيعته الفكرية أيضاً تحرمه التلذذ بالسكون. ثمة صوت سري في أعماقنا يقول لنا إننا نرتكب خطيئة إذا استسلمنا للكسل. فلو أن الرجل استطاع إيجاد حالة يشعر معها رغم بطالته بأنه مفيد وأنه ببطالته تلك يؤدي خدمة، وواجباً، فإنه أوجد، بدون شك، في تلك الحالة كل السعادة الأولية. وعلى ذلك فإن طبقة اجتماعية كاملة، هي طبقة العسكريين، تنعم بالتأكيد بحالة البطالة تلك المفروضة عليها فرضاً، البعيدة عن مضمار النقد، وذلك الجمود الملزم والمشروع، كان دائماً، وسيظل، النقطة الرئيسة التي تجتذب الناس إلى حمل السلاح.

كان نيكولا روستوف يتذوق مباهج هذه البطالة المشروعة منذ عام ١٨٠٧ في فيلق پاڤلوغراد الذي كان قائد الكوكبة التي كان دينيسوف من قبل على رأسها أصبح الآن شاباً قوي العود يقدره زملاؤه ورؤساؤه ومرؤوسوه ويحبونه رغم ما تتفق عليه معارفه في موسكو من اعتباره «من نوع رديء» بعض الشيء. وكان روستوف مسروراً بنفسه راضياً عن مصيره. لكنه في الفترة الأخيرة، أي في عام ١٨٠٩، راح يتسلم من أمه رسائل تحتوي على روح من الشكوى والتذمر آخذة بالازدياد: كانت مساوئ ظروفهم المالية تتفاقم يوماً

twitter @baghdad_library

بعد يوم، وقد حان الوقت الذي يجب عليه أن يعود ليعزي أبويه ويسعدهما في الشيخوخة.

كان يخشى أن تكون الغاية من تلك الرسائل، انتزاعه من الوسط الذي يشعر فيه أن أيامه هادئة بعيدة عن المتاعب. كان يتوقع أن يعود آجلاً أو عاجلاً ليلقي بنفسه في غمار الحياة الصاخبة، يعيد النظام إلى مشكلات عائلته المعقدة ويراجع الحسابات مع المسجلين ويناقش ويصل ما انقطع من علاقاته الاجتماعية ويحسم قضية سونيا والوعود التي قطعها على نفسه لها. لقد كانت كل هذه الأمور معقدة بشكل مرعب. فكان يجيب عن رسائل أمه بجمل مألوفة تحمل في رأسها عبارة: أمي العزيزة وتنتهي بعبارة: ابنك المطيع، دون أن يشير بحرف واحد إلى عودته. وفي عام ١٨١٠، أطلعته رسالة جديدة على نبأ خطبة ناتاشا وپولكونسكي والزواج الذي لن يتم إلا في غضون عام بسبب معارضة الأمير العجوز. أحزنه هذا النبأ وجرح كبرياءه. كان سبب آلامه، ابتعاد ناتاشا عن المنزل، تلك الأخت المفضلة، ثم أسفه على بعده عن المنزل لأنه يفضل معالجة هذه القضية على طريقة الفرسان، فيفهم پولكونسكي هذا أن اتحاد أخته به لا يشكل مثل هذا الشرف العظيم وأنه إذا كان يحب ناتاشا بالفعل، فإنه يستطيع الاستغناء عن موافقة أبيه الخرف.

تردد فترة قبل أن يفكر في الحصول على عطلة للتحدث إلى ناتاشا قبل الزواج. لكن المناورات كانت وشيكة، ففكر في سونيا وفي المتاعب التي تنتظره، فآثر التريث وأجّل تنفيذ فكرته إلى ما بعد. لكنه في ربيع تلك السنة بالذات، حملته رسالة وردت إليه من والدته كُتبت في منجاة من رقابة الكونت، على تعجيل عودته. كانت تخطره في الرسالة بأنه إذا لم يعد ليمسك مقدرات عائلته بيديه، فإن أملاكهم الموروثة وإرثه المنتظر ستباع كلها في المزاد العلني، وستؤول حالهم إلى فاقة شديدة. فالكونت ضعيف جداً،

www.Maktbah.com

وطيب وعميق الثقة بميتانكا حتى أن كل الناس كانوا يخدعونه بكل وقاحة، والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. «إنني أستحلفك الله وأتوسل إليك يا ولدي أن تعود فوراً إذا لم تكن تريد تعاستي وشقاء كل أفراد العائلة».

أثرت تلك الرسالة في نيكولا تأثيراً شديداً. لقد كان يملك ذلك الإحساس الطيب الذي يرسم للناس الأغبياء خط مسيرهم.

والآن، لم يعد عليه إلا أن يقدم استقالته، أو أقله، أن يطلب إجازة طويلة. ولكن لماذا يجب عليه أن يعود؟ هذا ما لم يكن واضحاً في نظره. أمر بعد استراحة الغداء أن يسرج جواده «مارس»، وهو مهر أشهب لم يبارح الاسطبل منذ مدة طويلة. ولما عاد من نزهته وجواده مغطى بالزبد، أعلن لـ: لاڤروشكا، تابع دينيسوف سابقاً الذي أصبح تابعه، ولأصدقائه المجتمعين لقضاء السهرة، أنه سيطلب إحالته إلى الراحة ليعود إلى عائلته. كان بلا شك يأسف على رحيله قبل أن يتأكد من الأركان العامة، الأمر الذي كان على جانب من الأهمية بالنسبة إليه، عما إذا كان سيرشح لرتبة رئيس أو أقله سيحصل على وسام القديسة آنّا إثر المناورات الأخيرة. ويجد غريباً أن يسافر دون أن يبيع للكونت غولوشووسكي زحافته الكبيرة التي تقطرها خيوله الملونة التي دفع بها ذلك البولوني ألفي روبل عندما كان يفاوضه في بيعها ـ وبدا له أن تخلفه عن حفلة الفرسان الراقصة التي يحيونها في بانّا بورزوزووسكا، نكاية بالرمّاحة الذين يقيمون حفلة مماثلة في بانّا بورزوزووسكا ضرب من المستحيل. مع ذلك فقد كان واثقاً بأنه مرغم على انتزاع نفسه من ذلك الجو الرائع ليمضي إلى حيث يعلم الله وحده، ليجد حماقات وشظايا. وبعد ثمانية أيام حصل على عطلته فقام زملاؤه الفرسان، ليس فرسان فيلقه فحسب، بل فرسان الحملة كلها، حفلة عشاء كبيرة على شرفه بنسبة خمسة عشر روبلاً عن الفارس الواحد، واستحضروا جوقتين موسيقيتين وفرقتين للغناء. رقص

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

روستوف رقصة «التريباك» مع الماجور باسوف وأخذ الضباط، وكل واحد منهم أشد ثملاً من الآخر، يعانقونه ويؤرجحونه ثم يلقون به على الأرض ويلقي من جنود الكوكبة الثالثة مثل هذه المعاملة المجاملة وهتفوا له: هورّا! وأخيراً أركبوه في زحافته وواكبوه خلال المرحلة الأولى كلها.

بقي روستوف، من كريمنتشوغ وحتى كييـڤ خلال النصف الأول من الطريق، كما هي العادة، يفكر في كوكبته. لكنه ما إن اجتاز نصف المسافة حتى بدأ ينسى خيوله المرقشة ونائبه الرقيب دجوييـڤيكو وراح يتجه بتفكيره بقلق إلى ما ينتظره في أوترادنواي. وكلما ازداد قرباً من نهاية الرحلة ازداد حنينه إلى المنزل الأبوي وكأن الشعور عنده خاضع لنظام سرعة سقوط الأجساد بالنسبة إلى مربع المسافات. وفي المرحلة الأخيرة قبل أوترادنواي منح السائق ثلاثة روبلات واندفع مبهور الأنفاس يقفز كالغلام الشقي فوق مرقاة حدود أرضهم. وبعد الهرج والمرج اللذين يصاحبان وصول الغائب، أحس نيكولا بخيبة الأمل تلك التي تجعل المرء يقول في سره: «لكنهم ما زالوا كعهدي بهم، فأية حاجة إلى كل هذه العجلة»! ثم انطبع تدريجاً بحياة الأسرة.

كان أبواه قد شاخا بعض الشيء وهو الأمر الوحيد الجديد عليه الذي أثار قلقه وجعله ينظر إلى ما أصابهم نتيجة لسوء أحوالهم. كانت سونيا مشرفة على العشرين، لا تستطيع الاستزادة من الجمال، لكنها محتفظة بما كان يُنتظر لها منه وكان نصيبها وافياً. ومنذ وصول نيكولا بات كل شيء فيها ينطق بالسعادة والحب فكان تعلق هذه الفتاة المخلص الذي لا يتزعزع يملأ نيكولا بهجة. أما پيتيا وناتاشا فقد أدهشاه أكثر من الآخرين. أصبح پيتيا فتى جميلاً مديد القامة في الثالثة عشر من عمره رائق المزاج عظيم الحيوية وقد أخذ صوته يخشوش. أما ناتاشا، فقد نظر إليها طويلاً في دهشة ضاحكة وقال:

ـ لم تعودي كما أنت؟

www.Maktbah.com

ـ ماذا، هل أصبحت بشعة؟

فقال لها بصوت خفيض: على العكس ولكنك تبدين جدية الآن... يا أميرة!

فقالت وهي ممتلئة غبطة: نعم، نعم.

قصت عليه روايتها مع الأمير أندريه ووصوله إلى أوترادنواي وأطلعته على رسالته الأخيرة ثم سألته: هل أنت مسرور؟ أما أنا، فإنني عميقة السعادة هادئة جداً.

ـ سعيد جداً، إنه رجل مرموق. هل تحبينه كثيراً؟

أجابت: ماذا أقول لك؟ لقد أحببت من قبل بوريس ومعلمي ودينيسوف. ولكن هذه المرة تختلف تماماً عن سابقاتها. إنني مطمئنة لأنني أطأ أرضاً صلبة، إنني أعرف أنه لا يمكن وجود رجل أفضل منه لذلك أشعر أنني سعيدة جداً جداً! كلا، إن الأمر ليس كالسابق إطلاقاً...

امتعض نيكولا للمهلة الطويلة التي حدد الزواج بعدها. فاستاءت ناتاشا وراحت تبرهن له في شيء من الامتعاض على أنه لم يكن بوسعه الإتيان بأفضل مما وقع: لأن الدخول إلى عائلة ضد رغبة الأب يعد إساءة لا تقبل هي نفسها السكوت عنها. ثم أردفت: إنك لا تفقه من الأمر شيئاً، شيئاً مطلقاً.

لم يجرؤ نيكولا على معارضتها فاعترف لها بصوابها.

ومنذ تلك الفترة أخذ يراقبها خلسة فلاحظ بدهشة أنها لم تكن بادية الأسى شأن الشابات اللاتي ابتعدن عن رجالهن الموعودين. كانت تظهر متزنة المزاج هادئة مرحة كسابق عهدها الأمر الذي جعل الشك يتسرب إلى نفسه حول نتائج الأمر مع بولكونسكي. لم يكن مؤمناً بأن مصير أخته قد تقرر نهائياً وخصوصاً أنه لم يرهما معاً ليحكم بنفسه. بدا له مشروع الزواج ذاك شيء يدعو إلى التمهل والتفكير.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال في سرّه: «ما معنى هذه المهلة؟ لمَ لم تعلن الخطبة رسمياً؟» وذات يوم، بينما كان يتحدث عن ناتاشا إلى أمه تبين وهو مندهش أن أمه كانت في أعماق نفسها تشاركه في تحفظه حيال تلك الرابطة المنتظرة، الأمر الذي بعث في نفسه السرور. قالت وهي تريه رسالة من الأمير أندريه، بتلك اللهجة العدائية التي تظهر في نبرات صوت الأمهات عندما يتصورن سعادة بناتهن الزوجية المقبلة.

ـ إليك ما يكتب. يقول إنه لن يستطيع العودة قبل كانون الأول فأية أعمال تؤخره هناك؟ المرض بلا شك. إن صحته ليست على ما يرام. ولكن لا تتحدث بشيء من هذا إلى ناتاشا. لا تنخدع بسرور أختك: إن هذا هو آخر وقت سعيد عند الفتيات وأنا على ثقة بأنها تتألم كلما كتب لها. ثم من يدري؟ عسى الله ينهي الأمر على أفضل وجه. إنه رجل جذاب.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

كانت الحاجة الملحة إلى تسوية المشاكل المادية التي استدعته أمه من أجلها تعكّر مزاجه فبقي نيكولا صامتاً فريسة الضجر خلال أيامه الأولى. ولكي يتخلص من ذلك العبء الثقيل بأسرع وقت ممكن اتجه منذ صبيحة اليوم التالي لوصوله مكفهر الوجه إلى جناح ميتانكا دون أن يعلم أحداً بمقصده ليسأل الرجل «حساباً عن كل شيء». أما ما هو «حساب كل شي» هذا، فإن نيكولا لم يكن يعرفه أفضل من ميتانكا الذي أذهلته تلك الزيارة. لم تكن الشروح والحسابات التي قدمها الرجل طويلة. سمع الوكلاء ومساعدوهم الذين كانوا ينتظرون في الردهة الكونت الشاب يصرخ بصوت ازداد إرعاداً وأصغوا برعب يلطفه الارتياح إلى فيض الشتائم التي أمطره إياها.

ـ يا لص! يا عاق!... سأمزقك بسيفي كالكلب...

إنك لا تتعامل الآن مع أبي أيها المجرم!...

ورأى أولئك الوكلاء أنفسهم برعب وارتياح مماثلين الكونت الشاب محمرّ الوجه بدماء الغضب، أحمر العينين يجر ميتانكا من ياقته وينهال عليه خلال الكلام بضربات حاذقة من قدميه وركبته في ظهره وبين ساقيه ويصرخ: «أخرج! ولا تطأ بقدميك أرض هذا البيت بعد اليوم أيها المجرم!».

تدحرج ميتانكا فوق الدرجات الست بسرعة فائقة وذهب يختفي في أحد الأدغال. كان ذلك الدغل يستعمل مأوى لكل أفراد أوترادنواي الذين يؤخذون بهفوة. بل إن ميتانكا نفسه كان يختبئ فيه كلما عاد ثملاً من المدينة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أما أولئك الذين كانوا يختفون فيه للتواري عن أنظار ميتانكا نفسه، فكانوا يشهدون بملاءمته ووفائه للغرض.

أطلت زوجة ميتانكا وكنائنها برؤوسهن فظهرت وجوههن الوجلة خلال الباب الموارب الذي يسمح للناظرين برؤية «السماور» اللامع الذي يغلي الماء فيه والسرير العالي الذي ينام عليه المسجل، والذي فُرِش فوقه غطاء ثمين. مر الكونت من أمامهن لاهث الأنفاس دون أن يعبأ بهن، وابتعد بخطوات ثابتة قاصداً غرفتهن.

وما إن علمت الكونتيسة من الوصيفات بنبأ ما جرى للمسجل على يد ابنها، حتى سرى الاطمئنان إلى نفسها وتأكدت أن أحوالهم ستصلح بسرعة استناداً إلى هذه البداية الجيدة، لكنها من جهة أخرى قلقت بشأن حالة ابنها التي كان عليها بعد فراغه من تأديب ميتانكا، وقد ذهبت مراراً عديدة بخطوات متلصصة إلى باب غرفته، فسمعته ينفث دخان غليونه بلا انقطاع.

انتحى الكونت العجوز في اليوم التالي، بابنه جانباً وقال له بابتسامة مرتبكة: أتدري يا صديقي الطيب أنك انفعلت بالأمس خطأ؟ لقد قصّ علي ميتانكا كل شيء.

ففكّر نيكولا في سره: «كنت أتوقع ذلك، وأعرف أنني لن أتوصل إلى فهم شيء في هذه الدنيا المقلوبة» استمر الأب يقول: لقد غضبت لأنه لم يسجل في دفاتره مبلغ سبعمائة روبل. لكن هذا المبلغ مسجل في الصفحة التالية نقلاً عن الصفحة الأولى.

ـ أبتاه، إنه مختلس ولص. إن ما فعلته جيد ومفيد. ولكن إذا كان ذلك لا يروقك، فلن أعترض له بعد اليوم بكلمة.

لم يكن الكونت على ما يرام. كان يشعر بذنبه إزاء أولاده لأنه لم يحسن استغلال ثروة أمهم. لكنه لم يكن يعرف كيف يعالج هذا العجز. قال: لا يا

www.Maktbah.com

صديقي الطيب، لا... بل إنك لتسرني إذا اهتممت بأعمالنا بنفسك... لقد شخت و...

ـ آه! اصفح عني يا أبتاه إذا كان اندفاعي لم يرقك. إنني لا أفهم في هذه الأمور ما أنت عليم بها.

وحدث نفسه: «ليأخذهم الشيطان هم وخدمهم وكل الفلاحين والحسابات والمبالغ المنقولة إلى الصفحة التالية! لقد مرت بي فترة كنت أعرف خلالها الربح الذي يعود علي من مضاعفة الرهان ست مرات متتالية. أما «النقليكون» هذا، فيا للأسف الشديد!».

ومنذ تلك الفترة، لم يعد يتدخل في شيء. مع ذلك فقد استقدمته الكونتيسة ذات يوم. وقالت له إن في حوزتها سنداً معتمداً بتوقيع أنّا ميخائيلوڤنا بمبلغ ألفي روبل، فماذا يجدر بها أن تفعل به: أجابها:

ـ حسناً، إليك رأيي. إنك تقولين إن الأمر متوقف علي. أنا لا أحب لا أنّا ميخائيلوڤنا ولا برويس. لكنهما كانا على اتصال وثيق بنا وهما من الفقراء. وإذن، يجب أن تتصرفي هكذا!

ومزق السند، الأمر الذي جعل الأم العجوز تجهش بالبكاء من الفرح.

ومنذ ذلك الحين شغف روستوف الشاب بالصيد بالكلاب متناسياً كل الأمور الأخرى. كان يجهل ذلك النوع من الصيد، ولكن أباه العجوز كان من أقوى أنصاره ينظم الحفلات الخاصة به بحماسة واندفاع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

بدأت أمواج الصقيع الأولى تحاصر الأراضي التي أشبعت بأمطار الخريف، وبدأت زروع القمح تنشط على سيقانها الخضراء وتعلو على بقايا حصاد الموسم السابقة. رقاع تميل إلى السمرة من القمح الخريفي وطئته قوائم الماشية، أما حزم الأشجار والحشائش الصغيرة التي تشكل حتى نهاية شهر آب جزراً صغيرة من الخضرة وسط بقايا القش والأراضي القمحية السوداء، فقد أصبحت الآن جزراً ذهبية وأرجوانية بين الزروع زمرديّة اللون. أخذ الأرنب البري ينسل و«يوسخ نفسه» حسب قول الصيادين، وجموع الثعالب تتشتت ونمت جراء الذئاب التي فاقت حجومها حجوم الكلاب. فكان ذلك أفضل الأوقات للصيد. مع ذلك فإن مجموعة كلاب روستوف الشاب المتقد كانت على غير استعداد حتى إنه تقرر في مجلس الصيادين العام إعطاؤها راحة ثلاثة أيام لتستطيع العودة إلى الصيد في السادس عشر من أيلول، وحينئذ يبدأ بالتغيب في غابة السنديان حيث عرفوا وجود فصيلة من الذئاب لم تمس بعد.

تلك كانت الحالة في الرابع عشر من أيلول. لم يستطع الصيادون الخروج طوال النهار بسبب شدة البرد. لكن الطقس اعتدل بعض الشيء عند المساء. وفي الخامس عشر صباحاً، عندما أطل روستوف الشاب في ثوبه المنزلي من النافذة، أتيح لناظريه طقس لا يمكن أن يحلم المرء بأفضل منه للصيد: بدت السماء وكأنها تذوب لتغرق الأرض دون أن تتصدى لها نسمة هواء. أما سقوط الضباب غير الملموس فكان الحركة الوحيدة التي تظهر

www.Maktbah.com

في الفضاء. أخذت أغصان الحديقة العارية تتساقط لآلئ شفافة فوق أوراق حديثة السقوط والأرض التي ظهرت عند بستان الخضر، مزينة بسواد حبات الخشخاش البراقة، أخذت تغيب تدريجاً على البعد تحت الضباب الكامد. خرج نيكولا فوق المرقاة الرطبة المتسخة بآثار موحلة.

كانت رائحة الأوراق الذابلة تمتزج برائحة الكلاب. نهضت «غراسيوز» لطيفة، كلبته المرقطة بالأسود والأبيض والمؤخرة العريضة والعينين السوداوين البارزتين، لدى رؤية سيدها وتمطت ثم قبعت كما يفعل الأرنب وقفزت فجأة حتى بلغت أنفه وشاربيه فلعقتهما. وأسرع كلب صيد آخر من أحد المماشي واندفع إلى المرقاة منحني الظهر منتصب الذيل وجاء يدلك نفسه بساقيه.

دوى نداء الصيادين الذي لا يقلد في تلك اللحظة: « هو... هو... هو...»! يجمع بين أرفع الأصوات طبقة وأعمقها صدى وانبعث قائد فصيلة الكلاب دانيلو من وراء زاوية البيت. كان أشهب الوجه والشعر مغضن القسمات على الطريقة الأوكرانية، يحمل في يده سوطاً مطوياً وتحمل قسمات وجهه أمارات الاستقلال الأنوف والاحتقار الذي يبدو من خصائص قادة كلاب الصيد. رفع أمام السيد قلنسوته الصوفية التي لا تحمل في معناها شيئاً مهيناً. وكان نيكولا يعرف أن دانيلو ذاك، الذي يحتقر كل الناس ويضع نفسه فوق مصافهم جميعاً ليس أكثر من رجله هو وقائد كلابه.

لدى رؤيته ذلك الطقس البديع المثالي، والكلاب وقائد فصيلة كلابه، لان أمام جنون الصيد الذي يشبه جنون العشاق فأنساهم كل مشاريعهم السابقة.

صاح نيكولا: دانيلو!

سأل الرجل بصوت خفيض جدير برئيس شمامسة، ولكن كثرة تحريضه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكلاب وإثارتها جعلته أجشّ، بينما أخذت عيناه السوداوان اللامعتان تختلسان النظر إلى سيده الصامت وكأنهما تقولان: «آه! آه! إنك لا تستطيع المقاومة».

ـ ما هي أوامركم يا صاحب السعادة؟

قال نيكولا وهو يحك وراء أذني «لطيفة»: يوم رائع أليس كذلك؟ جميل للجري والكمين.

غمز دانيلو بعينيه دون أن يجيب. وبعد لحظة عاد الصوت الخفيض يقول: لقد أرسلت «أوڤاركا» للترصد منذ أن بزغ الفجر. إنه يقول «إنها» انتقلت من مكانها إلى حرز أوترادنواي. لقد سمعها تعوي هناك.

كان معنى ذلك أن الذئبة التي يعرف الجميع بوجودها، قد انتقلت مع جرائها إلى غابة أوترادنواي المنعزلة بين الحقول على بعد نصف ميل من هنا.

قال نيكولا: إذن هل نذهب إلى هناك: تعال لترافقني أنت وأوڤاركا.

ـ حسب أوامرك.

ـ وانتظر أن يعطى الغذاء للكلاب.

كان دانيلو وأوڤاركا في مكتب نيكولا الكبير بعد خمس دقائق، صحيح أن قامة دانيلو كانت قصيرة، لكن وجوده في حجرة مؤثثة كان له من الأثر مثل ما تخلفه رؤية حصان أو دب تائه فوق أرضية خشبية وسط قطع من الأثاث، يعيشان في الشروط اللازمة لحياة الإنسان. ولم يكن دانيلو نفسه يجهل ذلك فكان يقف على العتبة ـ كعادته ـ جاهداً أن يتحدث بصوت خافت وأن لا يتحرك من مكانه خشية أن يحطم شيئاً. وكان يسرع في الحديث فيفضي بما لديه ليخرج بسرعة إلى الهواء الطلق.

تأكد الكونت الشاب، بعد أن طرح نيكولا عدة أسئلة وتلقى الأجوبة اللازمة من دانيلو الذي لم يكن همه إلا الانصراف، أن الكلاب لا تتعرض

لأي خطر، فنهض وأمر أن تسرج الجياد. وبينما كان دانيلو يتأهب للخروج، أسرعت ناتاشا في ثياب المنزل متدثرة بشال وصيفتها العجوز الكبير فوق شعرها الأشعث يرافقها پيتيا، وقالت: إنك ذاهب إلى الصيد؟ كنت واثقة بذلك! بينما كانت سونيا تؤكد العكس يستحيل أن يقاوم الإنسان الرغبة في الذهاب إلى الصيد في مثل هذا الجو!

أجاب نيكولا ممتعضاً، لأنه كان يزمع الانهماك في صيد جدي يمنعه من اصطحاب ناتاشا وپيتيا: نعم، نعم. لكننا سنطارد الذئب هذه المرة ولن يكون الأمر مسلياً بالنسبة إليك.

ـ على العكس، إنها أقوى رغباتي. يا لعين! يذهب إلى الصيد دون أن يخطرنا!

صاح پيتيا:

ـ إلى الأمام! «لا شيء يشكل عائقاً في طريق الروسي...».

ـ ولكن يا ناتاشا، لا يمكنك أن تأتي معنا، إن أمنا تمانع...

بذلك اعترض نيكولا، لكن ناتاشا أصرت بلهجة حازمة:

ـ بل سأذهب، سأذهب رغم كل شيء. دانيلو مر أن تسرج لنا جياد وقل لميخاييلوف أن يأتي بمقود كلاب الصيد العائد لي.

وإذا كان دانيلو يجد عناء في المكوث في غرفة ما، فقد كان كذلك لا يطيق مجرد التفكير في أن تكون له علاقة بالشباب. لذلك أطرق برأسه وبادر إلى الانصراف وكأن كلمات الآنسة لم تكن موجهة إليه. لكنه عنى في خروجه أن يتجنب الاحتكاك بها أو إصابتها بحركة غير مقصودة من حركاته.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

قرّر الكونت العجوز أن ينضمّ إلى البعثة وهو الذي يملك معدات هامة للصيد أسلمها أخيراً إلى ابنه، وقد كان في حالة نفسية ممتازة في ذلك اليوم.

بعد أقل من ساعة كان كل شيء جاهزاً أمام المرقاة. مشى نيكولا أمام ناتاشا وبيتيا دون أن يلقي بالاً إلى ما يحدثانه عنه، مبيناً بتصرفه ذاك أن الوقت لا يتسع للترهات. وبعد أن تفقد كل شيء حتى أتفه التفاصيل، وأرسل فصيلة من الكلاب تتقدمها الكشّافة، واعتلى صهوة جواده الأشقر: دونيتز وصفر ينادي كلاب موكبه الشخصي واندفع عبر الحقول متجهاً نحو غابة أوترادنواي. وكان مرافق الكونت العجوز يقود حصانه «ڤيولان»، العنيف، وهو حصان أشهب ذو ذؤابة بيضاء. أما الكونت نفسه، فكان عليه بلوغ المركز المعين له للمراقبة.

وقد أسلم زمام خمسين كلباً عداء، إلى ستة من الخدم المختصين بالكلاب، وأطلق ثمانية آخرون من الخدم، أكثر من أربعين كلباً سلوقياً. ولو جمعت فصائل كلاب السادة، لبلغ عددها مائة وثلاثين كلباً يواكبها عشرون صياداً على خيولهم.

كل كلب يعرف اسمه واسم قائده، وكل صياد مركزه ودوره. وما إن خرج الجمع إلى الأرض الجرداء، حتى تفرقوا بصمت وبخطى هادئة متزنة في الدروب الموصلة إلى الغابة.

وها هي الخيول تتقدم في البرية وكأنها تطأ بساطاً مرناً. لكنها عند تلاقي

www.Maktbah.com

الطرق، كانت تخوض في برك من المياه. وكان الضباب مستمراً في الذوبان البطيء غير الملموس مع الأرض، وكان الهواء ساخناً خفيفاً. ومن حين إلى آخر، كانت صفارة أحد الصيادين تدوي أو يرتفع شخير حصان أو فرقعة سوط أو نباح أليم لكلب طُلب إليه العودة إلى الصفوف والانتظام.

بعد اجتياز ربع ميل تقريباً، عندما انفصل عن الضباب خمسة فرسان آخرين على رأسهم عجوز بهيّ الطلعة لا يزال وافر النشاط، ذو شاربين ضخمين.

قال نيكولا عندما اقترب العجوز منه: مرحباً يا عماه.

أجاب العم، وهو قريب بعيد لآل روستوف غير واسع الغنى، يسكن في جوارهم: إنه واضح تماماً، إلى الأمام سر!... لقد كنت واثقاً بخروجكم. كنت أعرف أنك لن تقاوم وأنك لعلى حق. إنه واضح، إلى الأمام سر! وهذه عبارة العم المفضلة، هاجم الغابة فوراً لأن رجليّ جيرتشيك، أعلمني أن آل إيلاجين متمركزون بموكبهم في كورنيكي. سوف ينتزعون منك أسرة جراء الذئاب، إنه واضح، إلى الأمام سر!

ـ إننا منطلقون إلى الغابة. هل نجمع فصائل الكلاب؟

جمعت الفصائل ومضى العم ونيكولا ساقاً إلى ساق. أما ناتاشا المتدثرة بشالات عديدة يبرز خلالها وجهها ذو العينين البراقتين المنفعلتين، فقد تبعتهما بصحبة بيتيا الذي كان مبتهجاً جداً، يسوط جواده ويثيره ليندفع به. أوقفت ناتاشا وهي كالطود الراسخ فوق سرجها، بحركة مدربة من يدها جوادها الأدهم «نيغريون».

ألقى العم نظرة استياء على حيث وقف الشابان: ما كان يجب أن يجتمع عبث الصبيان بالأمور الجدية. بيتيا: صباح الخير يا عماه، إننا هنا نحن أيضاً.

ـ صباح الخير، صباح الخير. ولكن حاذر أن تسحقا الكلاب...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قالت ناتاشا وهي تتحدث عن كلبها العداء المفضل: نيكولا، يا له من كلب لطيف «تاكان» مشاكس هذا، لقد عرفني!

فكّر نيكولا في سره: «إن «مشاكس» ليس كلباً بل كلب عدو» وبنظرة صارمة أوضح لأخته المسافة التي يجب أن تحتفظ بها بينهما، فامتثلت ناتاشا وعملت بما يطلب.

وتابعت تقول:

ـ لا تقلق يا عماه، لن نزعجكم في شيء. لن نتحرك من مكاننا.

أجاب العم: هذا أفضل، هذا أفضل أيتها الكونتيسة الصغيرة. فقط لا تسقطي عن جوادك، ففي هذه الحالة إذن، كل شيء واضح، إلى الأمام سر! لن تبقى لديك وسيلة للحاقك بنا.

لاحت الجزيرة التي تشكلها غابة أوترادنواي، على بضع مئات الأمتار وقد وصلها رؤساء فصائل الكلاب. درس نيكولا مطولاً مع العم أفضل الأمكنة التي يبدأ فيها بإطلاق الكلاب. وبعد أن حلا هذه المعضلة الخطيرة، دلّ ناتاشا على المكان الذي يجب أن تقف فيه، مراعياً في ذلك النقطة التي لا يمكن لحيوان بلوغها، ثم دخل الغابة من أعلى الوادي.

قال العم: انتبه يا ابن أخي، إنك إزاء ذئب ضخم فلا تدعه يفلت.

صاح نيكولا دلالة على أخذه العلم بملاحظات العم:

ـ سوف نرى... «راڤاجور» مدمّر، تعال هنا!

كان راڤاجور هذا أمغر اللون قبيح الشكل منتفخ الحنكين، عليه أن يهاجم الذئب الضخم وحده. مضى كل إلى مرقبه.

خاف الكونت العجوز، وهو الذي يعرف مدى حماسة ابنه، أن يصل إلى مركزه متأخراً. لكن الصيادين لم يكونوا قد احتلوا مراكزهم بعد عندما وصل إيليا أندرييتش، مرحاً مورّد الخدين يرتج خداه من الانفعال، ماراً

www.Maktbah.com

بين سوق القمح الخضراء، تسابق خيول زحافته السوداء الريح، إلى المركز المعين له في الغابة. وبعد أن أحكم كل أدوات الصيد فوق فروته النصفية، امتطى صهوة «ڤيڤليانكا» وهو حصان هادئ جيد التغذية لماع الجلد وخطه المشيب كصاحبه. وعلى الرغم من أن الكونت لم يكن صياداً، فقد كان يعرف قوانين الصيد كلها. لذلك اتجه إلى مكانه عند حدود الغابة وجمع الأعنة في يده واستقام فوق سرج الحصان. وعندما شعر بأنه على استعداد، سرح حوله نظرة باسمة.

كان وصيفه سيمون تشيكمار برفقته، وهو فارس هرم بدأ ينثني تحت ثقل السنين. يمسك بيده مقاود ثلاثة كلاب قوية ولكن كثيرة الشحم كالحصان وصاحبهما، بينما رقد قريباً منها كلبان آخران طليقان وعلى بعد مائة خطوة، عند طرف الغابة، تربض ميتكا، وهو مرافق آخر للكونت، فارس ماهر وصياد. شرب الكونت، وفاء منه لتقليد قديم، جرعة كبيرة من الـڤودكا في كأس فضية ثم التهم قطعة من التوابل بسرعة بعد أن أغرقها في نصف زجاجة من نبيذ بوردو المفضل لديه، فزادت تلك الوجبة من احمرار وجهه وراحت عيناه اللتان يغرقهما الماء تلتمعان كالوميض. استوى فوق صهوة الجواد متدثراً بفرائه القصير، فبدا أشبه بطفل أخرج إلى النزهة.

راح تشيكمار النحيل ذو الخدين المتدليين، بعد أن أكمل استعداداته، يسأل سيده الكبير الذي كان يعيش معه على أتم وفاق منذ ثلاثين عاماً، والذي تبين له من انبساط أساريره ومزاجه الممتاز أنه على استعداد للدخول في حديث لطيف. خرج شخص ثالث من الغابة باحتراس، والقط الذي حرقته المياه الحارة يخشى من الماء البارد، وجاء يحتمي وراء الكونت. كان هذا القادم هو «المهرج» العجوز ذو اللحية البيضاء يرتدي معطفاً نسائياً وقلنسوة عالية جداً وكان يجيب عن الاسم النسائي المستعار: ناستاسيا إيڤانوڤنا. قال له

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكونت بصوت خفيض وهو يغمزه بعينه: إن يا ناستاسيا إيڤانوڤنا! حاول ألّا ترهب الوحش وإلّا، حذار من دانيلو!

أجاب ناستاسيا إيڤانوڤنا: إن لساني ليس في جيبي أنا الآخر!

أهاب به الكونت.

ـ صه، ثم استدار إلى سيميون وسأل: هل رأيت ناتالي إيلينيتشنا؟ أين هي؟

أجاب سيميون مبتسماً: إنها قائمة مع بيوتر إيليتش عند مخرج أدغال غاروڤ. ورغم كونها امرأة مولعة جداً بالصيد.

ـ يا لها من فارسة ماهرة يا سيميون! إنها تتفوق على الرجل في الركوب!

ـ نعم، إنها تركب الخيل بمهارة: إنها ذكية وجذابة...

سأل الكونت بصوت خفيض: وابني نيكولا أين هو؟ في وادي ليادوڤ بدون شك؟

فأعلن سيميون الذي يعرف نقطة الضعف في سيده: بالتأكيد. أوه، إنه يعرف المركز الجيد! ثم إنه فارس لا يشق له غبار! إننا، دانيلو وأنا لا نصدق أعيننا كلّما رأيناه على صهوة جواده.

ـ هه، إنه يتقن الركوب! وبأية براعة!

ـ إنه يصلح للتصوير! ذاك اليوم عندما اكتشف ثعلباً في آجام زاڤارزينو، قفز قفزة، ما أروعها!! إن حصانه يساوي حتماً ألف روبل، أما الفارس، فلا يقدر بثمن. إن فتى مثل هذا كما ترى، ليس من السهولة إيجاد شبه له!

ردد الكونت وكأنه يأسف لأن سيميون لم يجد عبارة أقوى من هذه لوصف ابنه:

ـ شبيه له... شبيه له.

www.Maktbah.com

وعاد يكرر هذه العبارة بصورة آلية وهو يرفع أطراف فروته القصيرة ليأخذ علبة السعوط.

ـ وذلك اليوم بينما كان خارجاً من الصلاة بأبهى منظر، ميخائيل سيدرويتش لم يتمم سيميون جملته لأنه أحس في ذلك الهدوء بالمطاردة والعواء المكتوم الصادر عن كلبين عداءين أو ثلاثة كلاب فحنى رأسه وأصاخ السمع ثم أشار بيده إلى سيده أن يلزم الصمت ودمدم.

ـ لقد عثروا عليها إنهم يطاردونها هابطين في الوادي.

بقي الكونت محتفظاً بابتسامته ينظر أمامه إلى حيث توقع هجوم الكلاب وعلبة السعوط في يده دون أن يستعملها. ولم يلبثا بعد سماعهما العواء أن تبينا نداء: إلى الذئب، ينطلق من حنجرة دانيلو ذي الصوت الغليظ الرنان. اتحدت فصائل الكلاب كلها واتحدت بالثلاثة الأوائل وارتفعت زمجرة الكلاب السلوقية التي تظهر فيها اهتزازات خاصة تدل على أنها في أثر الذئب. ولم يعد الخدم يصرخون: تايّوت! بل: هارلو! وكان صوت دانيلو المنخفض الخطير حيناً والثاقب حيناً آخر يطغى على الأصوات الأخرى وكأنه يملأ الغابة كلها فيبلغ حدودها ثم ينتشر بعد ذلك في أقاصي البرية.

تأكد الكونت، بعد أن أصغيا فترة صامتين، أن الصيد انقسم إلى قسمين: الأول ويضم العدد الأوفر والصخب الأعلى والأشد يبتعد عن جهتهما تدريجاً والثاني، وهو الذي تنبعث فيه صيحات دانيلو «هارلو» يمر عبر الغابة على مقربة من مكان الكونت. أخذت أصوات الفرقتين تختلط وتتجاوب ولكن تمعن ابتعاداً.

تنهّد سيميون وانحنى ليخلص كلبه الصغير من المقود الذي التف حوله. وكذلك تنهّد الكونت بدوره وعندما تبين أنه يحمل علبة سعوطه فتحها وأدخل فيها إبهامه وسبابته. وفجأة صاح سيميون بكلب خرج في تلك اللحظة من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

جانب الغابة: «إلى الوراء»! وانتفض الكونت وسقطت علبته من يده. فترجل ناستاسيا إيڤانوڤنا ليلتقطها تحت أنظار الكونت وسيميون اللذين لم يحركا ساكناً.

كما يحدث غالباً، فجأة اقترب صخب الصيد منهم حتى خيل إليهم أن رؤوس الكلاب النابحة التي يشجعها دانيلو بصرخاته تبرز أمام أعينهم.

أدار الكونت رأسه فرأى عن يمينه ميتكا الذي كان ينظر إليه جاحظ العينين وقلنسوته مرفوعة بيده يشير إليه بها إلى شيء ما في الناحية الأخرى إلى الأمام. صاح ميتكا بصوت يشبه الانفجار:

حذار!

وأطلق كلابه واندفع جواده باتجاه سيده. ابتعد الكونت وسيميون عن حدود الغابة فرأيا إلى يسارهما الذئب الذي كان يتجه نحو البقعة التي تركاها بقفزات صغيرة من جسمه المرن فثارت الكلاب وانتزعت مقاودها من يد قائدها واندفعت نحو الذئب معرضة نفسها لخطر الدهس تحت حوافر الخيل.

فجأة، توقف الذئب بغباوة شأن المصاب بالخناق وأدار رأسه باتجاه الكلاب المهاجمة ثم قفز قفزتين أو ثلاثاً بمثل حركته المتأرجحة وتسلل عبر الآجام وهو يحرك ذؤابة ذيله. وفي اللحظة نفسها اندفع من الجانب المضاد وسط زمجرات شاكية، كلب ثم اثنان ثم ثلاثة من الكلاب العداءة تتبعها فصائل الكلاب كلها مندفعة ككتلة واحدة في غير انتظام نحو المكان الذي اختفى فيه الذئب، وأخيراً انشقت أدغال البندق عن دانيلو فوق جواده الأصهب وقد سوده العرق. كان دانيلو متكوراً فوق ظهر الحصان العريض منحنياً إلى الأمام حاسر الرأس وشعره الأبيض مشعث مبعثر فوق وجهه القرمزي السابح في العرق. كان يصيح ملء حنجرته: ـ هارلو، هارلو... لكنه ما إن رأى الكونت حتى التمعت الصاعقة في نظره وزمجر وهو يهدد بسوطه:

www.Maktbah.com

يا الله...! لقد أفلت الذئب من الصيادين!...

ودون أن يتحدث أكثر من ذلك، ترك الكونت في مكانه مشدوهاً وانهال بالضربات التي أعدها لسيده على كشح حصانه الغارق في العرق وانطلق يتبع كلابه. أذهلت هذه البادرة الكونت، فالتفت نحو سيميون يستجدي عطفه بابتسامة. لكن هذا لم يكن في مكانه: كان يلتف حول الأدغال ليرغم الذئب على الخروج من الغابة. كذلك كانت الكلاب السلوقية تطارد الحيوان من اليمين والشمال. لكنها لم تستطع التغلغل عبر الأدغال وهكذا لم يتمكّن أحد من قطع الطريق على الذئب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

خلال تلك الفترة، بقي نيكولا روستوف في موقعه بانتظار ظهور الذئب يستهدي باقتراب الصيد أو بابتعاده. واختلاف العواء وتردده ومسافات النداء ويعتبر تلك البوادر نقاطاً مضبوطة للاستهداء. وهو يعرف أن في تلك الغابة جراء ذئاب وذئاباً ضخمة ويعرف أن فصائل الكلاب قد انقسمت إلى قسمين وأن أحدهما قد تبع الحيوان المفترس حتى مكان ما ثم وقع حادث ما، لذلك كان ينتظر في كل لحظة أن تنزاح الأغصان عن الذئب، حاسباً ألف حساب للجهة التي قد يتجه الذئب نحوها وعن الطريقة التي سيستخدمها لمهاجمته. وقد تناوب الأمل واليأس في نفسه. طلب إلى ربه عدة مرات أن يخرج الذئب من ناحيته، وراح يصلي بحرارة مخجلة بعض الشيء، كما يصلي المرء في مناسبات تجعل بعض الأسباب التافهة الاضطراب يصعد من أعماق النفس إلى الألسنة. كان يقول: رباه، ماذا يكلفك أن تفعل ذلك من أجلي؟ إنك بدون شك أرفع من هذه الصغائر، وإنها لخطيئة أن أتوجه إليك بمثل هذا الابتهال لكنني أتوسل إليك، اعمل على أن يتجه ذئب ضخم نحوي وأن يسرع كلبي مدمّر إليه تحت أنظار عمي الذي أراه هناك يرقبني، فينشب به أنيابه في عضة قاتلة في حلقه! أدار روستوف نظره حوله خلال نصف الساعة تلك، أكثر من ألف مرة بترقب وقلق وحدق إلى حدود الغابة إلى تينك السنديانتين الهزيلتين اللتين تبرزان خلال غيضة الحور، وذلك المنحدر ذي الجوانب المضرسة وقلنسوة العم التي لا تكاد تظهر بوضوح عبر دغل صغير إلى اليمين.

www.Maktbah.com

كان يحدث نفسه: «لا، لن يكون لي هذا الحظ السعيد! وماذا يكلف ذلك! لا، لن يكون لي هذا الحظ. إنني دائماً هكذا، في الحرب، في لعب الورق، لا أحصد إلا الخسارة» مرت في مخيلته ذكرى أوسترليتز ودولوخوي بسرعة ولكن بوضوح شديد وراح يفكر: «ليتني أستطيع مرة واحدة في حياتي أن أطارد ذئباً ضخماً وأصرعه، أنا لا أطلب أكثر من ذلك!» استمر يبحث حوله مستطلعاً مصيخاً بسمعه إلى أضعف وأتفه أصوات الصيد.

وبينما هو ينظر إلى يمينه، شاهد شيئاً يركض نحوه عبر السهل الأجرد. حدث نفسه وهو يطلق زفرة ارتياح كالتي تنطلق من الصدور عندما يتحقق حلم جميل ظل زمناً طويلاً يتهدهد في حناياها: «آه! هل يعقل ذلك؟» وتحققت سعادته القصوى بكل بساطة، دون ضجيج ولا إشارات أو دلائل مسبقة، لم يصدق ما تراه عيناه فبقي فترة وجيزة فريسة الشك. لقد كان الذئب متجهاً نحوه في خط مستقيم، بعد أن عبر بتثاقل حفرة كانت تقطع عليه الطريق. كان ذئباً هرماً، أشهب البطن غير خال من السوء، يجري دون تعجل لاقتناعه ولا شك بأن أحداً لا يراه. أمسك روستوف أنفاسه وألقى نظرة على كلابه التي كانت بين مستلقية وواقفة ولا تشك في شيء، «مدمر» العجوز مطاطئ الرأس مكشر عن أنيابه الصفراء يقرعها على قفاه باحثاً بحماسة عن برغوت يضايقه. قال روستوف بصوت خفيض وهو يزم شفتيه: هارلو! هارلو!

هزت الكلاب مقاودها وقفزت منتصبة الآذان. كف «مدمّر» عن حك جلده ونهض ناصباً أذنيه يبصبص بذيله الذي تتدلى منه كتل من الوبر. تساءل نيكولا بينما كان الذئب مستمراً في تقدمه نحوه مبتعداً عن الغابة: «هل يجب أن أطلقها؟» وفجأة تبدل تصرف الحيوان: انتفض لأنه ولا شك رأى عيوناً آدمية ترقبه، وأدار رأسه ببطء نحو الصياد ثم توقف. بدا كأنه يتساءل: «ماذا

twitter @baghdad_library

أعمل الآن؟ هل أقدم أو أرجع؟ آه! ليكن هيا!» ودون أن يتردد أكثر من ذلك استعاد جريه بقفزات مرنة واسعة غير متساوية ولكن ثابتة.

صرخ نيكولا بصوت مختلف: هارلو!...

وانطلق بأقصى سرعة على المنحدر يحمله جواده الجبار قافزاً به فوق الأغوار ليقطع الطريق على الذئب. أما الكلاب فقد سبقته بسرعة أكبر وراء الطريدة. لم يعد نيكولا يشعر بنفسه وهو يصرخ أو يرى القفزات الخطيرة التي كان يقوم بها، ولا الكلاب التي تركض مندفعة أمامه ولا الأرض التي يطير فوقها. لم يكن يرى إلا الذئب الذي ازدادت سرعته على طول المنحدر دون أن يبدل وجهته. ظهرت كلبته المرقشة «لطيفة» ذات المؤخرة العريضة إلى جوار الوحش. بل إنها لحقت به عندما اختلس الذئب نظرة إليها، وحينئذ بدلاً من أن تتقدمه «لطيفة» كما كانت تفعل عادة، اعتمدت على قائمتيها الأماميتين منتصبة الذنب وتسمرت في مكانها. صرخ نيكولا: هارلو!

اندفع الكلب الأشقر «مختار» الذي انبعث فجأة وراء «لطيفة» وأطبق على فخذي الذئب الخلفيتين. لكنه ألقى بنفسه جانباً وهو فريسة للهلع. سقط الذئب وصرّ على أسنانه ثم نهض وعاد إلى الركض تتبعه الكلاب على بعد نصف متر دون أن تجرؤ على اللحاق به.

قال نيكولا في نفسه وهو يتابع صرخاته بصوته الأجش: «سوف يفلت مني! ولكن لا مستحيل!» زمجر وهو يبحث بعينيه عن كلبه العجوز أمله الوحيد: مدمر! هارلو!...

رأى الكلب العجوز يركض بتثاقل مستعيناً بكل قواه الهرمة متوفز الجسد شاخص العينين إلى الحيوان يحاول أن يقطع عليه طريق الفرار. لكن مرونة الذئب وبطء الكلب النسبي يظهران بوضوح أن خطط هذا الأخير لن تكون ناجحة. أخذ نيكولا يرى بأم عينه الغابة تقترب من الذئب الذي يسرع إليها

www.Maktbah.com

ليختفي بين أدغالها وكاد اليأس يتسرب إلى نفسه عندما شاهد فجأة صياداً آخر وكلابه تندفع نحوه مستنجدة. وحينئذ تجدد أمله. اندفع كلب صغير أسمر أصهب متطاول الجسد يجهله نيكولا وألقى بنفسه باستماتة على الذئب فكاد يصرعه. لكن الذئب نهض بأسرع مما كان متوقعاً وانقضّ على الكلب وهو يصك بأنيابه فارتفع عواء الحيوان المسكين، عواء مخيف مؤلم وسقط الكلب ممزق الكشح دامي الجسد على الأرض ورأسه تحته.

زمجر نيكولا بغضب: مدمّر! يا صديقي!...

تمكّن الكلب العجوز بفضل تلك الحادثة أن يسبق الذئب بخمس خطوات راكضاً وكتل الوبر تتدلى على فخذيه. كان الآن يقطع الطريق على الذئب تماماً، شعر الحيوان بالخطر: نظر إلى «مدمر» وضم ذيله بين ساقيه وأسرع في عدوه. لكن «مدمّر» أطبق على خصمه بمثل لمح البصر وتدحرج معه رأساً على عقب في حفرة كانت أمامهما.

بادئ الأمر، لم يفهم نيكولا ماذا حدث لكلبه «مدمّر» لكنه أحس بإحدى فرحات العمر الكبيرة عندما رأى الكلاب تتجاذب فروة الذئب السمراء في أعماق الحفرة ورأى إحدى قوائمه الخلفية متصلبة ورأسه ذا الأذنين المائلتين تبدو عليه آيات الذهول، وأخيراً، الكلب العجوز مدمّر مطبقاً على حنجرته. أمسك قربوس سرجه محاولاً الترجل للإجهاز على الحيوان عندما برز رأس الحيوان خلال جمع الكلاب وراحت قائمتاه الأماميتان تحاولان تسلق الحفرة. وقفز الذئب الذي تخلص من فكي «مدمّر» إلى خارج الحفرة وضم ذيله بين ساقيه وعدا متجاوزاً مطارديه من جديد. خرج «مدمر» من الحفرة بصعوبة منثور الوبر ولعله كان جريحاً أو مرضوض الجسد. صاح نيكولا بيأس:

ـ رباه! ماذا فعلت لك لتعاقبني على هذا النحو؟

twitter @baghdad_library

في تلك اللحظة. وصل قائد كلاب العم مع كلابه مرخياً عنان جواده، وقطع الطريق على الذئب. ومجدداً أحيط بالحيوان.

أحاط نيكولا وقائد كلابه والعم وقائد كلابه كذلك، بالدائرة التي يتوسطها الذئب ومن حوله الكلاب وراحوا يصرخون معاً «هارلو». وكلما قعس الذئب على مؤخرتهن حاول نيكولا النزول. لكن الحيوان كان يشق طريقه بيأس نحو الغابة حيث الخلاص.

خرج دانيلو منذ بدء المطاردة من مكان على حدود الغابة مستهدياً بصيحات الصيادين. وعندما رأى الكلب «مدمّر» مطبقاً بأنيابه على عنق الذئب أوقف حصانه معتقداً أن كل شيء قد انتهى. غير أنه رأى الصيادين في أمكنتهم على صهوات الجياد والذئب يتخلص من أعدائه ويفر من مطاردتها، أرخى لأدهمه العنان ليس باتجاه الحيوان بل باتجاه الغابة على طريقة الكلب «مدمّر»، ليقطع الطريق على الفار. وبفضل هذه المناورة البارعة وصل هدباً باتجاه الذئب في الوقت الذي حاصرته كلاب العم للمرة الثانية.

كان دانيلو يهدب بهدوء وفي يسراه خنجر مجرد بينما أخذت يمناه تسوط الأدهم الذي كان يركض بأقصى سرعة متوقعة. غابت حركاته عن عيني نيكولا فلم يشعر إلا بلهاث العقيم الثقيل. وحينئذ رأى دانيلو مستلقياً بين الكلاب مطبقاً على مؤخرة الذئب يحاول الإمساك بأذنيه. فأدرك الصيادون والكلاب والذئب نفسه أن كل شيء قد انتهى هذه المرة. حاول الحيوان لآخر مرة في غمرة رعبه أن يتخلص لينجو بنفسه، لكن الكلاب غمرته «نهض دانيلو وتقدم خطوة بتعثر، وكما يلقي المرء بنفسه على سريره، انهار بكل ثقله على الحيوان وأمسك بأذنيه. همّ نيكولا أن يطعنه بخنجره، غير أن دانيلو همس له قائلاً: «لا فائدة سوف نشده» وأبدل من وقفته ووطئ عنق الذئب بقدمه. غرزوا

www.Maktbah.com

له عصاً في حلقه ثم أوثقوه بمقود على طريقة الأنشوطة بعد أن ربطوا قوائمه. وعندئذ أدار دانيلو مرتين أو ثلاثاً من جانب إلى آخر.

حمل الصيادون الذئب على الجواد الذي كان يتراجع بذعر إلى الوراء ويشخر بخوف، ووجوههم الضاحكة تنطق بالتعب، ثم اتجهوا إلى مكان الاجتماع ترافقهم فصائل الكلاب التي كانت تنبح خلف الذئب المتدلي. اقترب كل الصيادين، الفرسان منهم والمشاة، لرؤية الذئب الذي كان رأسه الضخم متدلياً، يدفع بأنيابه العصا المغروسة في حلقه ويحدق إلى الجموع والكلاب التي تحيط به بعينين جاحظتين زجاجيتين. فإذا ما لمسه بعضهم، ارتعد جسده وحرك قوائمه الموثقة وألقى على المعتدين نظرات ساذجة ومتوحشة معاً. جاء الكونت إيليا أندرييتش بنفسه ولمس الحيوان كذلك ثم سأل دانيلو الذي كان واقفاً بالقرب منه: آه! آه! إنه ذئب ضخم بديع! إنه كبير أليس كذلك؟

فأجاب هذا وهو يبادر إلى نزع قبعته:

ـ تماماً يا صاحب السعادة.

تذكر الكونت الخطيئة التي ارتكبها حين ترك الذئب يفلت منه والموقف الذي وقفه دانيلو منه، فقال له: أتعرف يا عزيزي إنك لست لبقاً؟

فاكتفى دانيلو بالابتسام، ابتسامة مرتبكة تحمل طيبة الأطفال. وكانت تلك الابتسامة وحدها هي الجواب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس

بعد أن وعد پيتيا وناتاشا بموافاته بعد قليل، رجع الكونت العجوز إلى منزله، واستمرّ الصيد لأن الوقت ما زال مبكراً. وحوالى الظهر، أطلق الصيادون الكلاب العداءة في الوادي الذي تغطيه أدغال وأعشاب نامية كثيفة، وجلس نيكولا بين سوق الحنطة المحصودة يراقب رجاله كلهم.

وفي حفرة تقع وسط بقعة من القمح الجديد اختفى قائد كلابه، وراء باقة كثيفة من شجر البندق. لم يمض زمن طويل على انطلاق الكلاب حتى وصل إلى سمع نيكولا نباح أحدها المتقطع، فعرف فيه كلبه «فانفاران» وانضمت كلاب أخرى إليه، بعضهاِ ساكت والبعض الآخر يزمجر أو يعوي. وبعد لحظة، ارتفع صوت من الغابة ينبه إلى اكتشاف ثعلب فتوقفت الفصائل كلها ثم اندفعت معاً في الأرض العراء مبتعدة عن نيكولا،باتجاه القمح الأخضر.

شاهد نيكولا قادة الكلاب بقلنسواتهم الحمراء، يطاردون على صهوات جيادهم فوق حافة الوادي، وتبين الكلاب كذلك فانتظر أن يظهر الثعلب في أية لحظة من الجانب الآخر من حقل القمح.

بدأ قائد الكلاب بالمسير وفرق كلابه. وحينئذ شاهد نيكولا ثعلباً عجيب المظهر ذا لون ناري، محجل القوائم، مشرع الذنب يركض بسرعة بين سنابل القمح الخضراء. كادت الكلاب تصل إليه، وعندئذ رأى دوائر آخذة في الضيق وهو يكنس الأرض بذنبه. وفجأة انقضّ عليه كلبان: أبيض مجهول الهوية وآخر أسود. ثم اختلط كل شيء، ورسم الكلاب نجمة حول الحيوان الذي

www.Maktbah.com

بقي جامداً تقريباً في مواجهة خصومه. ووصل قائدان أحدهما ذو قلنسوة حمراء والآخر مجهول ذو جلباب أخضر، يحثان فرسيهما.

ما معنى هذا؟ تساءل نيكولا من أين جاء هذا المجهول؟ إنه ليس قائد كلاب العم.

قضيا على الثعلب وبقيا فترة طويلة في مكانهما دون أن يوثقاه أو أن يعتليا جواديهما اللذين كان سرجاهما العاليان ظاهرين خلال الدغل. كانت الكلاب نائمة حولهما. أما الرجلان فكانا يلوحان بأيديهما وكأنهما يتنافسان على الطريدة. دون قرع طبل، وهذه إشارة مصطلح عليها، تدل على نشوب عراك. قال قائد كلاب نيكولا: إنه قائد كلاب آل إيلاجين يتشاجر مع إيـڤاننا.

أرسل نيكولا مكلّبه يستقدم ناتاشا وپيتيا واتجه متمهلاً نحو المكان الذي يجمع فيه الخدم الكلاب. بلغ بعضهم مكان الشجار.

ترجل ليتعرف إلى حقيقة الخلاف وتوقف قرب الكلاب مع ناتاشا وپيتيا اللذين وصلا بدورهما. وجاء المكلّب الذي كان طرفاً في النزاع ممتطياً صهوة جواده معلقاً الثعلب إلى السرج، قاصداً سيد الشاب. رفع عن بعد قلنسوته وجهد في اتخاذ لهجة محترمة. لكنه كان يغص بالغضب، ووجهه شاحب ثائر وإحدى عينيه متورمة لكنه لم يكن مكترثاً لها. سأله نيكولا: ماذا وقع بينكما؟

ـ وكيف! هل سيسرقون الآن الطرائد؟ لم يكن ينقصنا إلا هذا! ثم إنها الكلبة الرمادية بلون الفأر التي أمسكت به. ولكن لا مجال لإفهامه ذلك. أراد أن يأخذ الثعلب، لكنني، أنا، انتزعت الحيوان ولكمته على خياشيمه. ها هو ذا معلق إلى سرج جوادي.

ثم تابع وهو يلوح بسكين الصيد الذي في يده، ولعله كان يعتقد أن خصمه لا يزال أمامه: إذا كان ما فعلته بك لا يكفيه يا فتاي، فسيكون سكيني هذا في خدمتك...

twitter @baghdad_library

لم يجبه نيكولا بل طلب إلى أخويه أن ينتظراه وذهب إلى المكان الذي توقفت فيه جماعة صيد الخصم إيلاجين.

اندمج قائد كلابه المنتصر في غمار زملائه وراح يقص عليهم ما فعل مدفوعاً بفضولهم المشجع.

إليكم ما وقع: كان آل إيلاجين متخاصمين مع آل روستوف خصومة قضائية وكان هذا يصطاد في أراض يعتبرها أولئك من أملاكهم بحكم تصرفهم فيها زمناً طويلاً. وفي ذلك اليوم بالذات، وكان الأمر مقصوداً، اقترب إيلاجين من غابة آل روستوف وسمح لقائد كلابه أن يتتبع صيداً اكتشفه كلاب خصمه.

كان نيكولا، وهو المتطرف في آرائه تطرفه في عواطفه، يكره إيلاجين كرهاً شديداً دون أن يعرفه ويعتبره عدواً يستحق الموت. كان يحكم على ذلك السيد وفقاً للشائعات التي تتناقلها الألسن حول أخلاقه، تلك الشائعات التي لا تستند إلى أساس صحيح. مشى إليه وهو فريسة غضب جامح ويده قابضة بعنف على سوطه، وفي نفسه عزم أكيد على اتخاذ أخطر الخطوات تجاه ذلك الخصم.

لم يبلغ حدود الغابة حتى رأى سيداً ضخماً مقبلاً نحوه على صهوة جواد أسود يرافقه تابعان.

رأى نيكولا، بدلاً من العدو الذي كان ينتظر، في شخص إيلاجين رجلاً ذا وقار ومهابة وتصرفات لبقة، يود من صميم قلبه أن يتعرف إلى الكونت الشاب. وما إن تقابلا حتى رفع القادم قبعته وحيدة الحافة وأعلن أسفه الشديد على ما حدث. قال: إن الخادم المذنب قد لقي عقابه وإنه ينتظر أن يرتبط بعلاقات طيبة مع الكونت الشاب ويسمح له منذ الحين أن يصطاد في أراضيه.

تبعت ناتاشا أخاها عن قرب، خوفاً من أن يتصرف تصرفاً سيئاً، وهي شديدة الاضطراب. فلما اطمأنت عند سماع عبارات التودد التي تبادلها

www.Maktbah.com

العدوان، اقتربت منهما. رفع إيلاجين قبعته لدى اقترابها وقال مؤكداً بأن الكونتيسة ليست إلا صورة حية لديانا بحبها للصيد كما بجمالها الذي بلغ نبأه إلى مسامعه.

ولكي يذهب إيلاجين بخطيئة قائد كلابه، رجا الكونت الشاب بإلحاح أن يرافقه إلى التلال الواقعة على بعد ربع ميل، حيث يحتفظ لنفسه بصيد سمين وحيث الأرانب البرية متوافرة بكثرة، حسب قوله، وافق نيكولا على عرضه وعاد الصيد مجدداً مزدوجاً وحماسياً.

كان يتوجّب على الصيادين أن يجتازوا الحقول للوصول إلى التلال فتفرق القادمون وراحوا يسيرون معاً. بدأ العمل وروستوف وإيلاجين يفحصان خفية كلاهما كلاب الآخر ويرتعدان لفكرة اكتشاف منافسين أكفّاء لكلابهم.

من بين كلاب إيلاجين، لاحظ روستوف كلبة حمراء مرقشة أصيلة صغيرة الحجم، رقيقة الجسم، ولكن ذات عضلات فولاذية بدون شك، تبرز عيناها فوق خطمها الأملس الرقيق. ولما كان قد سمع الإطراءات الكثيرة التي يكيلها الناس لكلاب جاره الخصم، فقد وجد في تلك الكلبة المتينة خصماً محترماً لكلبته «لطيفة».

قال نيكولا لجاره أثناء حديث هام جدي حول المحاصيل أثاره هذا وهو يشير إلى الكلبة الحمراء المرقشة.

ـ إن لديك هنا كلبة رائعة. هل هي عنيفة؟

أجاب إيلاجين بمثل لهجته: هذه؟ نعم، إنها حيوان جيد وهي تصطاد صيداً ممتازاً.

وفي العام الماضي، كان إيلاجين هذا قد تنازل لأحد جيرانه عن ثلاث

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عائلات من الوعول الأليفة لقاء هذه الكلبة، استرسل مستأنفاً حديثه الأول: إذن يا كونت، إن محصول الحبوب عندكم لا يستوجب الإعجاب؟

ورغبة منه في مجاراة جاره الشاب، أشار إلى كلبته «لطيفة» التي استوقفت ناظريه بجمال شكلها وقال: إن لديك هنا حيواناً رائعاً. تبدو لي على أفضل ما يرام.

أجاب نيكولا: نعم لا بأس بها.

بينما فكّر في سرّه مبتهلاً: «آه! لو أن السيد أرنب تنازل في هذه اللحظة بعبور هذا الحقل، لأريتك أية كلبة هي هذه»! ثم التفت إلى قائد كلابه وقال له إنه يمنح مكافأة قدرها روبل لكل من يكتشف أرنباً خارج جحره. استأنف إلى حين قائلاً:

ـ لست أفهم كيف يمكن للصياد أن ينازع صياداً آخر طريدته أو كلابه ويحسده عليها، أما أنا يا كونت فإنني أؤكد لك أن ما أحبه في الصيد إنما هو النزهة. نزهة مع مثل هذا الصحب الكريم، وعاد يرفع قبعته احتراماً لناتاشا، ماذا يمكن للمرء أن يحلم به أفضل من هذا الصحب؟ أما تعداد الجلود التي يحصل عليها آخر النهار، فلا أهمية لها!

ـ طبعاً، طبعاً!

ـ هل اعتبر إهانة أن يمسك كلب الجار بالطريدة بدلاً من كلبي؟... كلا، المهم، هو أن أتمتع بمشهد الصيد، أما ما تبقى فلا يهمني في كثير أو قليل... ألست على صواب يا كونت؟ في نظري...

وفي تلك اللحظة بالذات، ارتفع صوت أحد الخدم المكلفين بالكلاب السلوقية، وكان واقفاً فوق تل صغير في وسط سوق القمح المحصود والسوط مرفوع في يده: فيلو! في... ي... لو!

www.Maktbah.com

تكرر هذا النداء المتقطع فكان إيذاناً باكتشاف أرنب. أما الصوت فكان يدل على مكان وجوده.

قال إيلاجين متصنعاً اللامبالاة: يعتقد أنه عثر على واحد، هيا يا كونت، هل نطارده؟

فأجاب نيكولا وهو يلقي نظرة على كلبته المسماة «تريبيدانت» وعلى كلب العم الأصهب «تاباجور» اللذين كانا خصمين مرعبين لم يوازنهما قط مع كلابه من قبل: نعم، نعم... ولكن ماذا؟ معاً!

فكر في نفسه وهو يتجه نحو الأرنب بصحبة عمه وإيلاجين «ماذا لو تفوقا على «لطيفة»»؟ سأل إيلاجين الخادم عندما حاذاه: أهو أرنب كبير؟

ثم التفت مضطرباً، وصفر ينادي «تريبيدانت» وأردف يخاطب العم.

ـ حسناً يا ميخائيل نيكانوريتش، هل ترافقنا؟

قال العم وهو يواكبه مكفهر الوجه: وما الفائدة؟ إن كلابك... إنه واضح، إلى الأمام سر! تساوي جبلاً من النقود، إنها حيوانات يساوي كل منها ألف روبل. صفها وأنا سأكتفي بالنظر...

ثم نادى كلبه بصوت جعل مبلغ محبته له واضحاً في نبراته معبراً عن أمله الذي يضعه فيه.

ـ يا «تاباجور»! أيها الجميل، أيها المدلل!

أدركت ناتاشا الشعور السائد بين الصيادين الثلاثة، فشاركت أخاها والعجوزين في اضطرابهما.

أما المكلّب، فقد بقي واقفاً في مكانه على الأكمة والسوط في يده، بينما اقترب السادة على صهوات جيادهم متمهلين. وكانت الكلاب المنتشرة حتى الأفق مبتعدة كثيرة عن مكان الأرنب، قادتها متفرقون، لكنهم ما لبثوا أن انتظموا واجتمعوا في نظام رائع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سأل نيكولا عندما بلغ مسافة مئة متر من مكان الكشاف: أين اتجاه رأسه؟

لم يجد هذا متسعاً من الوقت للإجابة، ذلك أن الأرنب الذي كان يتحمس قفز فجأة خارج جحره. نزل الكلبان العداءان فوق المنحدر مندفعين كالسهم وتبعتهما من كل الجهات الكلاب السلوقية التي لم تكن مربوطة إلى مقاودها. وما لبثت الجماعة التي كانت متمهلة حتى تلك اللحظة أن انطلقت إلى المعركة وأخذ قادة الكلاب العداءة يكبحون جماحها بأوامرهم الداعية إلى الوقوف، بينما أطلق الخدم المعنيون بالكلاب السلوقية كلابهم وهم يهيبون بها صائحين: تايوت! بدلاً من هالت «أي قف». وراح إيلاجين الهادئ ونيكولا والعم يهدبون خيولهم غير عابئين إلا بالكلاب والأرنب، خائفين أن يفوتهم ذلك المشهد الطريف.

كان الأرنب كبير الحجم ثميناً. لم يلجأ إلى الفرار حال خروجه من جحره، بل جمع أذنيه وأصغى إلى الصيحات ووقع الأقدام والحوافر التي كانت ترتفع من كل مكان. قفز بضع قفزات غير سريعة تاركاً الكلاب تقترب منه ثم انتقى الوجهة التي سيقصدها وتأكد من الخطر الداهم، فأسبل أذنيه واندفع بكل قواه، وكان عند حافة الأرض المغطاة بسوق الحنطة المحصودة، حيث كان ينام، رقعة كبيرة من الأرض يغطيها القمح الأخضر. تبع كلبا الصياد الذي عثر على الطريدة، الأرنب قبل غيرهما. لكنهما كانا على مسافة بعيدة منه عندما تخطتهما «تريبيدانت»، الكلبة الحمراء المرقشة التي يملكها إيلاجين، وأصبحت لا يفصلها عن الأرنب إلا مسافة كلب واحد. وعندئذ قفزت قفزة هائلة مستهدفة ذيل الحيوان لكنها أخطأته فتدحرجت على الأرض. رفع الأرنب فقاره وضاعف سرعته. وكانت «لطيفة» القوية قد وصلت، في تلك اللحظة، وتساوت سرعتها مع سرعة الحيوان النافر. فصاح نيكولا بصوت منتصر: لطيفة، يا جميلتي!

www.Maktbah.com

كادت لطيفة تبلغ الأرنب وتمسك به. لكنها تجاوزته بسرعة اندفاعها فلم تستطع التوقف في الوقت المناسب وهكذا أفلت الأرنب منها. عادت «تربيدانت» مجدداً تتعلق بالطريدة. بل إنها تعلقت فعلاً بذيلها وكأنها تتوقع أن تطبق على فترتين متعاقبتين عليه وتصرعه، صرخ إيلاجين بصوت تخنقه العبرات ولهجة متوسلة: تربيدانت يا جميلتي! لكن «تربيدانت» لم تبال بتوسلات سيدها ذلك أنه في اللحظة التي ترقب الصيادون فيها رؤيتها ممسكة بالحيوان، زاغ هذا منها بانعطافة مفاجئة وراح يجري على طول الأخدود الذي يفرق بين القمح الأخضر والسوق المحصودة. راحت «تربيدانت» و«لطيفة»، أشبه بحصانين مشدودين إلى عريش واحد، تعدوان جنباً إلى جنب وراء الأرنب. لكن هذا كان في مكان يناسبه فعجزت الكلبتان عن اللحاق به.

وهنا علا صوت جديد صائحاً:

«تاباجور»، أيها المدلل! إنه واضح، إلى الأمام سر!

وبرز كلب العم الأشقر مندفعاً وكأنه يهم بالخروج من جلده حتى لحق بالكلبتين ثم تجاوزهما وأطبق بسرعة عجيبة على الأرنب مرغماً إياه على الخروج عن اتجاهه الأول وتبعه بعد ذلك بحمية وضراوة وهو يغوص في الأرض الموحلة حتى بطنه. شوهد بعد ذلك يتعثر ويتدحرج مع الأرنب في الطين اللزج. حينئذ انتظمت الكلاب حولهما على شكل نجمة ولم يلبث الصيادون أن بلغوا مكان الطريدة. ترجل العم يستخفه الفرح فحرم الأرنب. وبينما هو يهزه ليسيل منه الدم، ثلم عينيه ثم راح ينظر حوله في قلق وهو في حيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل بأطراف الحيوان ووفرة الكلاب. أخذ يدمدم بكلمات متلاحقة غير واضحة: «آه!... إنه واضح ... سر! ... يا له من كلب؟ لقد تفوق عليها جميعاً، على الأصيل وعلى الكديش معاً!... إنه واضح، إلى الأمام سر»! كان يعض بانفعال ويدير حوله عينين وحشيتين، ويطلق

twitter @baghdad_library

الكلمات أشبه بالسباب حتى ليقال إن الآخرين كانوا جميعاً أعداء له وإنهم أهانوه مجتمعين، فأتيحت له الفرصة ليثأر منهم. «إن كلابك جميلة، تلك التي يساوي كل منها ألف روبل!... إنه واضح، إلى الأمام سر»!

نادى كلبه وهو يلقي إليه بإحدى أرجل الأرنب الملطخة بالطين: إلى الطعام يا تاباجور! إنك تستحقه عن جدارة... إنه واضح إلى الأمام سر!

وقال نيكولا الذي كان هو أيضاً لا يصغي إلى أحد ولا يهمه هل أنصت إليه أحد أو لم ينصت: إنها على آخر رمق، لقد قامت بثلاث مطاردات.

ومن جانبه قال تابع إيلاجين:

ـ لقد أمسكت به خلافاً لما يجب. يا للمسألة الجميلة!

بينما كان إيلاجين نفسه، الذي بهرت أنفاسه المطاردة وجعل الاضطراب وجهه قرمزياً، يقول في الوقت نفسه: طالما أخطأته، فإن أي كلب يجيء بعدها يمكنه أن يجعل منه كسباً سهلاً. خلال تلك الفترة كانت ناتاشا تطلق صرخات ثاقبة أشبه بالنباح، تكاد تصم الآذان. تلك كانت طريقتها للإفصاح عما كان يلهج به الآخرون معاً. وكانت تلك الصرخات من الغرابة بمكان حتى إنها لو استمعت إليها أو أطلقت مثلها في غير تلك المناسبة، لما صدق السامعون آذانهم ولذابت هي من الخجل.

علق العم بنفسه الأرنب إلى سرج جواده بحركات حاذقة وألقاه بشكل مثير للتحدي على ردف الحصان ثم امتطى جواده وابتعد وكأنه يأنف من التحدث مع الآخرين. أما هؤلاء، فقد تفرقوا مكتئبين وفي كرامة كل منهم وخزة وبقوا فترة طويلة قبل أن يستعيدوا مرحهم أو أقله قبل أن يستطيعوا التظاهر باللامبالاة. لبثوا وقتاً طويلاً يتابعون بأنظارهم تاباجور الأصهب الذي كان ملطخ الظهر بالطين متظاهراً بهدوء المنتصر يواكب حصان سيده.

www.Maktbah.com

خيل إلى نيكولا أن في مظهر الكلب ما معناه: «هه، صحيح إن مظهري لا يدل على شيء... ولكن عندما يكون الأمر متعلقاً بالصيد. أما في غير ذلك، فحذار»!

وعندما اقترب العم من نيكولا، بعد فترة طويلة، ووجه إليه الحديث، أحسّ نيكولا بفخار لأن العم تنازل وتقرب منه بعد كل الذي حدث.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع

وجد نيكولا نفسه بعيداً جداً عن منزله، عندما استأذنه إيلاجين مساء، حتى أنه تقبل عرض العم وهو ترك الخدم يرجعون وحدهم والكلاب إلى المنزل بينما يقضي هو وأخته وأخوه الليل في ميخائيلوڤكا، وهو اسم المزرعة الصغيرة التي يملكها العم.

ـ حتى ولو جئتم عندي جميعاً، إنه واضح، إلى الأمام! فإن ذلك سيكون أفضل. انظر، إن الطقس رطب، وسوف تستريحون، ونعيد بعد ذلك الآنسة بالزحافة.

قبِلَ العرض وأُرسل خادم إلى أوترادنواي للإتيان بزحافة، بينما رافق نيكولا وناتاشا وپيتيا العم إلى منزله.

أسرع خمسة أو ستة من الخدم الذكور بين كبار وصغار، إلى باب المدخل الكبير لاستقبال السيد. واجتمعت عشرات من النساء هرمات وشابات، وأطفال عند باب الخدم للتفرج على الضيوف وقد أثار وجود ناتاشا، بصفتها امرأة وسيدة مرموقة ممتطية جواداً، فضولهن لدرجة حتى إنهن اقتربن منها دون وجل ورحن يدققن في وجهها ويتبادلن الملاحظات وكأن الأمر متعلق بمنظر نادر في معرض، لا يستطيع أن يفهم أو يسمع ما يقلن عنه.

أربنكا، انظري، إنها تجلس فوق برميل!... «وتنورتها» التي تنسدل!... وبوقها كذلك!...

ـ آه، يا إلهي! إن معها سكيناً!

www.Maktbah.com

وسألت إحداهن ناتاشا وقد استجمعت شجاعتها فكانت أشجع كل زميلاتها: وكيف لم تسقطي عن ظهر الجواد؟

أمام مرقاة بيته الصغير الخشبي الغارق وسط الخضرة ترجّل العم ثم سرح طرفه في خدمه وصاح فيهم آمراً من كان منهم لا يقتضي الموقف وجوده بالانصراف وأن يستعدوا لاستقبال الضيوف في البيت وصيدهم ورجالهم.

أسرعوا جميعاً راكضين في كل اتجاه، بينما ساعد العم ناتاشا على النزول وقد مدّ لها ذراعه لتصعد درجات المرقاة الخشبية المتهززة. كان البيت ذو الجدران الخشبية السميكة غير المدهونة، لا يعطي فكرة عن العناية. ولعل سكانه لم يراعوا إخفاء اللطخات المنتشرة فوق الأخشاب جرياً مع الإهمال السائد في أرجائه. انبعثت من الدهليز رائحة تفاح ناضج وشوهدت جلود الذئاب والثعالب معلقة على جدرانه.

اصطحب العم ضيوفه من الردهة إلى غرفة صغيرة مؤثثة قابلة للثني وكراس من خشب الكابلي ومنها إلى قاعة تجثم في وسطها طاولة مستديرة من خشب السرو وبقربها كنبة وأخيراً إلى غرفة مكتبه حيث شاهد الضيوف فيها كنبة بالية وسجادة عتيقة. أما على الجدار فكانت صورة سوڤوروف معلقة إلى جانب صورة أبويّ صاحب المنزل ثم صورته وهو في ثوب عسكري. كانت رائحة عنيفة، رائحة التبغ والكلاب تملأ الغرفة التي ترك فيها العم ضيوفه راجياً منهم أن يتصرفوا كما لو كانوا في مسكنهم الخاص. ظهر «تاباجور» بدوره وظهره لايزال ملطخاً بالوحل وراح إلى الكنبة فأقعى عليها وبدأ يعمل لسانه وأسنانه في زينة جدية لنفسه.

كانت غرفة المكتب تطل على ممشى يشاهد فيه حاجز من قماش ممزق. ومن وراء ذلك الحاجز، ارتفعت ضحكات وهمسات نسائية. اتخذ نيكولا وناتاشا وپيتيا التدابير الممكنة لراحتهم فجلسوا على الكنبة. نام پيتيا على الفور

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعد أن اتخذ ذراعه وسادة اتكأ عليها برأسه بينما ظل نيكولا وأخوه صامتين. كان وجه كل منهما ملهباً ومعدته خاوية كما كانا مسرورين يتبادلان النظرات. لم يعد همّ نيكولا بعد أن انتهى الصيد، أن يحافظ أمام أخته على تفوقه كرجل. وهكذا لم تكد تغمزه بعينيها حتى انفجرا ضاحكين ضحكة مجلجلة.

عاد العم مرتدياً عباءة وسراويل زرقاء قصيرة. فلاحظت ناتاشا أن ذلك الثوب ليس فيه ما يضحك أكثر مما في «الرودنغوت» أو غيره. كان العم كذلك مسروراً. ولما كان لا يرتاب في أن يكون طراز حياته باعثاً على الضحك فإن انشراح الأخوين لم يسئ إليه بل على العكس دعاه إلى الاشتراك معهما فيه.

قال وهو يقدم لروستوف غليوناً طويلاً بينما راحت أصابعه تداعب بحركة أليفة غليوناً قصيراً استبقاه لنفسه: انظر إذن إلى الكونتيسة الشابة، إنه واضح إلى الأمام سر، لن يجد المرء مثيلاً لها. إن قضاء يوم كامل على صهوة الجواد لا يكاد يحتمله الرجل. أما هي فلا يظهر عليها شيء من التعب.

لم تمض فترة طويلة على عودة العم إلى الغرفة حتى شوهدت خادم، إذا حكم المرء على خطاها غير المسموعة قدر أنها حافية القدمين، تحمل طبقاً ملآن. كانت جميلة، متعافية في الأربعين من عمرها، نضرة الوجنتين، ذات ذقن مزدوجة وشفتين ممتلئتين. شملت المدعوين بنظرة وانحنت تحييهم باحترام بابتسامة أنيسة فكانت أمارات وجهها وكل حركة من حركاتها مطبوعة باللطف واللياقة. وعلى الرغم من أن ضخامة جسمها كانت ترغمها على إبراز صدرها ورفع رأسها إلى الوراء، فإن تلك المرأة التي كانت مدبرة شؤون العم، كانت رشيقة الحركات. وضعت الطبق على الطاولة وراحت بيديها البضتين السمينتين ترفع عنه الزجاجات والصحاف التي كان محملاً بها. فلما انتهت من عملها، تنحت ووقفت عند عتبة الباب وعلى شفتيها ابتسامة خيّل إلى روستوف أنها تقول: «ها أنذا! هل تفهم عملك الآن؟» والواقع إنه بدأ يفهم

www.Maktbah.com

العم. بل إن ناتاشا نفسها حزرت معنى الحاجبين المقطبين والابتسامة السعيدة التي ثنت شفتي العم عندما دخلت أنيسيا فيدوروڤنا. كان الطعام الخفيف الذي أتت به يحتوي على كحول وبصل مشطور وكعك من القمح الأسود بالحليب وعسل بشهده ثم عسل ممزوج بالزبدة وتفاح وثمار الجوز الطازجة مشوية مربى الجوز. أضافت المدبرة إلى ذلك أنواعاً من المربى المعقود بالعسل أو السكر ولحم خنزير ودجاجة مطهوة سحبت تواً من الفرن.

كان كل هذا ثمار عناية أنيسيا فيدوروڤنا. كل هذا يحمل رائحة أنيسيا فيدوروڤنا ويتسم بطابعها كان كل هذا يتصف بدقتها ونظافتها وابتسامتها المستحبة.

قالت وهي تقدم لناتاشا صحفة إثر أخرى:

ـ كلي بشهية يا آنستي الكونتيسة الصغيرة.

تذوقت ناتاشا كل الأطعمة، وخيل إليها أنها لم تر من قبل قط ولم تأكل قط أفضل من لحم هذا الدجاج وأطيب من هذا الكعك وألذ من تلك الأنواع المعطرة من المربى والجوز المعقود.

خرجت أنيسيا فيدوروڤنا فراح العم ونيكولا يشربان كحول الكرز مع الطعام ويتجاذبان أطراف الحديث عن صيد ذلك النهار وعمّا يتوقع لكلبه «تاباجور» ولكلاب إيلاجين. كانت ناتاشا تصغي إليهما وهي منتصبة في جلستها على الكنبة وفي عينيها لهيب ثائر. حاولت مراراً أن توقظ پيتيا لتطعمه شيئاً. لكن هذا كان يغمغم في نومه بكلمات غير مفهومة ويستغرق في سباته. شعرت ناتاشا بسعادة في ذلك البيت الجديد عليها حتى إنها باتت تخشى سرعة وصول العربة التي ستنقلها إلى البيت. وبعد فترة سكوت غير منتظرة كتلك التي تحدث دائماً للأشخاص الذين يستقبلون الأصدقاء للمرة الأولى، قال العم وكأنه يجيب عن أفكار ضيوفه الشخصية:

twitter @baghdad_library

ـ نعم، ها إنني أنهي وجودي... وعندما يموت المرء، إنه واضح، إلى الأمام سر! لا يبقى شيء... وإذن، ما فائدة الحرمان؟...

وهو يتحدث على هذا النحو كان وجه العم معبراً بل مبتسماً ببعض الجمال. تذكر روستوف الإطراء الذي يكيله والآخرون لهذا العم الذي يعتبر استناداً إليه، أفضل السادة وأنبلهم وأكثرهم كرماً. كانوا يستدعونه لتحكيمه في المشكلات العائلية وينتخبونه منفذاً لوصايا الموتى ويأتمنونه على أسرارهم. ولقد عُين مرة قاضياً ثم عُين في وظائف أخرى. لكنه كان يرفض بعناد الوظائف العامة ويمضي الربيع والخريف متنقلاً في الريف على صهوة جواده الأدهم ويقضي الشتاء قرب الموقد والصيف في ظلال أشجاره الباسقة.

ـ لمَ لا تقبل وظيفة يا عماه؟

ـ لقد شغلت وظيفة، ذات يوم، لكنني سرعان ما تخليت عنها. إن هذا النوع من المهن لا يلائمني، إنه واضح، إلى الأمام سر! إنها وظائف تستهوي الآخرين. أما أنا فلا... آه! الصيد مسألة أخرى مختلفة كلياً. أشعر في الصيد بأنني أعيش مع نفسي، إنه واضح إلى الأمام سر!...

صاح: افتحوا الباب، لماذا أغلقتموه؟

كان الباب الموجود في آخر الممشى والذي يسميه العم «منش» يؤدي إلى مسكن قادة الكلاب. أسرعت أقدام حافية إلى ذلك الباب وفتحته يد غير منظورة. وحينئذ سمعت ألحان «البالالايكا» تؤديها يد خبيرة. خرجت ناتاشا إلى الممشى ليتسنى لها الإصغاء إلى تلك الموسيقى التي كانت مستمعة إليها من قبل. فقال العم إنه ميتكا. لقد اشتريت له آلة ممتازة... إنني أحب ذلك.

كان العم يحب عندما يرجع من الصيد أن يستمع إلى ميتكا وهو يعزف شيئاً من الموسيقى. فدخلت هذه التسلية في عداد طباعه.

www.Maktbah.com

قال نيكولا بصوت منطلق وكأنه يخشى الإعراب عن فرحه: إنه جيد، في الحقيقة إنه جيد جداً.

فقالت ناتاشا وقد نكدتها لهجة أخيها المصطنعة: كيف، أهو جيد فحسب؟ بل إنه رائع، نعم!

وكما أن البصل والعسل والكحول التي قدمها العم بدت لها أفضل ما في الوجود كذلك وجدت في الأغنية اللطيفة أرقى فن موسيقي. فلما انتهى المغني من أغنيته صاح: أعد، أرجوك أعد!

ضبط ميتكا آلته وعاد يعزف مقطوعة «بارينيا» أي السيدة، وهي أغنية شعبية شائعة في ذلك الوقت متصرفاً فيها تصرفاً بديعاً. وكان العم يصغي وهو مائل الرأس وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. أعيد عزف البالالايكا مراراً دون تعب ودون أن يظهر على المستمعين شبح السأم. دخلت أنيسيا فيدوروڤنا وأسندت جسمها الثقيل إلى حافة الباب وقالت لناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة شبيهة بتلك التي تشرق على وجه سيدها: استمعي جيداً يا آنسة، إنه يعزف عزفاً رائعاً أليس كذلك؟ صرخ العم فجأة وهو يلوح بيده دلالة على نفاد الصبر: آه! هذه قطعة سيئة العزف. كان يجب إظهارها أكثر من ذلك... نعم إنه واضح، إلى الأمام سر! كان يجب إبرازها أكثر من ذلك...

سألت ناتاشا: هل تجيد العزف؟

فابتسم العم دون أن يجيب ثم قال لأنيسيا: إذهبي يا أنيسيا وتحققي من أوتار غيتاري، لقد مضى وقت طويل لم أستعمله. إنه واضح، إلى الأمام سر:

مضت أنيسيا فيدوروڤنا بخطواتها الخفيفة لتنفذ أمر سيدها.

لم يعبأ العم بأحد وهو ينفخ على آلته ليزيل عنها الغبار. وبعدئذ طرق بأصابعه الضخمة على صندوقها وشد بعض أوتارها ثم جلس جلسة مريحة. أمسك الغيتار بحركة مسرحية تقريباً وباعد مرفقه الأيسر عن جسمه وغمز

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أنيسيا بعينه وبعد اختبار رائق، بدأ يعزف على إيقاع بطيء وبيد ثابتة أغنية: «على طول الشارع، الشارع المعبد...» وهي أغنية شهيرة شائعة جداً.

سرعان ما استجاب كل من نيكولا وناتاشا لذلك اللحن الذي وجد صداه في نفسيهما وخف فيهما ذلك الفرح الوديع الذي نشرته شخصية أنيسيا فيدوروڤنا. احمرّ وجه هذه الأخيرة فأخفت وجها في شالها وخرجت من القاعة ضاحكة. أما العم فقد استمر يعزف اللحن ببراعة. كان عزفه جميلاً واضحاً. وكان يحدق إلى المكان الذي بارحته أنيسيا فيدوروڤنا منذ حين بنظرة متبدلة. وتاهت ابتسامة غامضة على شاربيه الأشهبين وراحت تزداد اتساعاً كلما أخذ اللحن في الإسراع فظهرت عند المقاطع المختلفة أشبه بالابتسامة النادمة.

وعندما انتهى من الأغنية، قفزت ناتاشا من مكانها وركضت إليه تقبله وقالت: رائع بديع يا عماه. أعد، أعد!

والتفتت إلى نيكولا وكأنها تقول: ولكن ماذا دهانا؟ وصاحت: نيكولا، يا نيكولاي الصغير!

كان نيكولا مفتوناً كذلك. كرر العم الأغنية. فظهر وجه أنيسيا فيدوروڤنا البسام ومن ورائه وجوه جديدة ظهرت عند المقطع:

انتظري، انتظري يا جميلتي
ولنهرع معاً إلى الجب
لنأتي بالماء المنعش.

وهنا أجرى العم تبديلاً بارعاً وحطم قراراً وعاد يضبط الإيقاع بحركة دائرية من كتفيه. قالت ناتاشا بصوت ضارع وكأن الأمر بالنسبة إليها أمر حياة أو موت: عجل، يا عماه، يا عزيزي، عجل!

وقف العم فبدا وكأن فيه إنسانين: الأول يبتسم بخطورة مستخفياً بجنون

www.Maktbah.com

الثاني الذي شرع يتأهب للرقص بنغم بارع. صاح بها وهو يشير بيده محطماً قراراً:

ـ هل أنت مستعدة؟... إلى الأمام يا ابنة أخي.

ألقت ناتاشا بمنديلها واندفعت قبالة العم ثم اتخذ وضعيتها بعد أن قامت بحركة دائرية من كتفيها ووضعت قبضتيها فوق وركيها.

ولكن أين وكيف استطاعت هذه الكونتيسة الصغيرة التي ربتها مهاجرة فرنسية، أن تتشبع بمجرد استنشاقها الهواء البارد، بالروح القومية إلى هذا الحد، فتقوم بإجراء الحركات البارعة التي تتفق مع «رقصة الشال» رغم أنها لم تعد تظهر في هذه منذ زمن؟ ذلك أنها في مظهرها وحركاتها التي لا تجارى كانت مجبولة غريزياً بالطبع الروسي الصميم الذي كان العم يتوقعه فيها. وما إن اتخذت الوضع المناسب وابتسمت ابتسامتها الماكرة المتغطرسة معاً حتى اطمأن نيكولا والمتفرجون الذين كانوا يتوقعون أن تظهر في حركات الفتاة أخطاء مخجلة وبدأوا يحيطونها بإعجابهم سلفاً.

أدت رقصتها ببراعة حتى أن أنيسيا فيدوروفنا التي ناولتها على الفور المنديل الملائم للرقصة، بدأت تذرف دموع الفرح لرؤيتها تلك الكونتيسة الشابة الرشيقة التي نشأت بين الحرير والمخمل، البعيدة كل البعد عن نفسها، تحتل مكانة في روحها هي أنيسيا، وتنفذ إلى أعماقها وأعماق أبيها وأمها وعمتها وكل من يراها صدفة في تلك اللحظة.

وعند نهاية الرقصة، قال العم ضاحكاً: حسناً أيتها الكونتيسة الصغيرة، إنه واضح، إلى الأمام سر! مرحى يا ابنة أخي! لم يبق عليك الآن إلا انتقاء الفتى الجميل الذي سيكون زوجك. إنه واضح، إلى الأمام سر!

قال نيكولا مبتسماً: لقد اختارت فتاها بالفعل.

twitter @baghdad_library

أصيب العم بالدهشة وراح يسأل الفتاة بنظرة مستطلعة فأومأت ناتاشا برأسها أن نعم، وهي سعيدة جداً. وقالت: ويا له من زوج أيضاً!

ما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى دهمتها موجة من الأفكار: «ما معنى ابتسامة نيكولا عندما قال: «لقد انتقت فتاها بالفعل»؟ هل كان يوافق على هذا الزواج أم لا؟ يخيل إلي أن أميري پولكونسكي لا يمكنه تفهم الفرح الذي يتلظى في نفوسنا في هذه اللحظة. ولكن بلى، يستطيع فهمه... ولكن أين هو الآن؟... هيا لنكف الآن عن التفكير في هذه الأمور...» وعاد وجهها الذي اكتأب فترة إلى إشراقه. جلست قرب العم وطلبت منه أن يعزف لها قطعة موسيقية جديدة.

عزف العم أغنية ثم رقصة ڤالس ثم سكت وسعل وانطلق بصوته المدوي يغني أغنية الصيد المفضلة عنده:

عندما بدأ الثلج أمس
يتساقط فوق الضباب...

كان العم يغني على طريقة أبناء الشعب مقتنعاً ببساطة أن الكلمات وحدها هي المهمة في اللحن وأن النغم يبرز من تلقاء نفسه إذا أحسن الإيقاع. وعلى ذلك، فقد كانت أغنيته البسيطة كشدو الطير، على حظ وافر من الجمال. وانجذبت ناتاشا يهدهدها اللحن وقررت ترك العود لترافق العم على الغيتار.

أزفت الساعة التاسعة عندما وصلت زحافة كبيرة وأخرى صغيرة يواكبهما ثلاثة فرسان لنقل ناتاشا وپيتيا. قال القادمون إن الكونت والكونتيسة شديدا القلق لجهلهما مكان ابنيهما.

حملوا پيتيا دون أن يوقظوه ووضعوه برفق في الزحافة الصغيرة بينما ركب نيكولا وناتاشا في الثانية. دثر العم ناتاشا وودعها بحنان غير متوقع

www.Maktbah.com

ورافقهم حتى الجسر الذي يجب عليهم أن يدوروا حوله ليتسنى لهم المرور عبر المفازة، وهناك أمر خدمه أن يتقدموا الموكب حاملين المصابيح.

صاح في الظلام بصوت لم يكن مألوفاً لديه، يشبه ذلك الذي غنى به: «عندما راح الثلج أمس...»:

ـ وداعاً يا ابنة أخي العزيزة.

بدأت أضواء حمراء تشع في القرية التي مرّ الموكب بها وامتزج الهواء برائحة دخان متصاعد. ولمّا بلغوا الطريق العمومية قالت ناتاشا: يا له من رجل رائع هذا العم!

قال نيكولا: نعم. هل تشعرين بالبرد؟

فأجابت وهي مندهشة للانشراح الذي تشعر به.

ـ كلا إنني على ما يرام، على خير ما يرام... آه كم أشعر بالغبطة!

ولزما الصمت فترة طويلة. كان الليل معتماً رطباً لا يرى الراكب الخيل لكنه يشعر بها وهي تخوض بالوحل غير المنظور.

ماذا كان يحدث في تلك الروح الصغيرة سهلة الانطباع بالعواطف على اختلاف أنواعها؟ كيف كانت كل هذه تنتظم في نفس ناتاشا؟ لقد كانت سعيدة على كل حال. ولما كادا يصلان إلى البيت جلجل صوتها مردداً أغنية: «عندما راح الثلج أمس...» التي أمضت وقتاً طويلاً تبحث عن نغمها حتى ذكرته فجأة وطاف بخيالها. قال لها نيكولا: لقد وجدته أخيراً!

سألت ناتاشا: فيم كنت تفكر منذ حين يا نيكولا؟

كان هذا السؤال هو الذي درج الأخوان على توجيهه كل إلى الآخر في كل حين. أجاب نيكولا: أنا؟ حسناً! إليك ما كنت أفكر فيه: كنت أفكر في أن «تاباجور» الكلب الأشقر يشبه العم. وكنت أقول لنفسي إنه لو كان هو الإنسان وكان العم هو الكلب لاحتفظ به عنده لا لأجل الصيد، بل لمجرد التفاهم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

القائم بينهما، يا له من رجل تسهل الحياة معه هذا العم، أليس كذلك؟ وأنت، فيم كنت تفكرين؟

ـ أنا؟ انتظر قليلاً. «فكرت أولاً في أننا نتصور خطأ أننا في طريقنا إلى المنزل، بينما نحن في الحقيقة نسير في اتجاه لا يعرفه إلا الله فقط، في هذه الظلمات الكالحة، وأننا لا نصل أخيراً إلى أوترادنواي، بل إلى بلاد الجان... ثم... ثم...» كلا، لم أفكر في شيء مطلقاً.

قال نيكولا: بل فكرت فيه، أنا واثق.

أجابت ناتاشا رغم أنها فكرت جدياً في الأمير، وتساءلت عما إذا كان العم سيروق في عينيه: كلا، آه نعم! إليك ما كنت أحدث نفسي به خلال الطريق: «كم إن موقف أنيسيا رائع!».

تبين نيكولا من صوت أخته أنها تبتسم. ثم تبين في ذلك الظلام ضحكتها الرنانة القوية. وفجأة استأنفت تقول: أتدري، إنني أحس أن السعادة والهدوء اللذين تذوقتهما اليوم، لا يمكن أن أحظى بمثلهما طوال حياتي.

اعترض نيكولا على قولها: «لا تتفوهي بمثل هذه...»

بينما راح يفكر في سرّه «يا لفتنة الحماقات...»

بينما راح يفكر في سرّه «يا للفتنة في ناتاشا هذه! ليس لدي ولن يكون لديّ في المستقبل صديق أفضل منها. يحدو بها إلى الزواج؟ لولاه لبقينا نتسلى كما تسلينا اليوم».

وكانت ناتاشا تفكر هي أيضاً: «ما ألطف نيكولا هذا!!» ثم قالت وهي تشير إلى النوافذ التي كانت تشع وسط ظلام الليل الندي.

ـ آه! لا يزال النور مضاء في القاعة الكبيرة.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

أعفى الكونت إيليا أندرييتش نفسه كنقيب للنبلاء، من مهام مركزه، وبفضل هذا التدبير لم تتحسّن أحواله المادية. وغالباً ما دهم نيكولا وناتاشا أبويهما في مناجاة سرية مقلقة. كانا يتحدثان عن بيع قصرهم في موسكو ومزرعتهم الكبيرة في الضاحية. لم يعد الكونت في حاجة إلى إقامة حفلات باذخة بعد اعتزاله مهام منصبه، فكانت الحياة في أوترادنواي أكثر هدوءاً من الأعوام السابقة. مع ذلك، فإن المنزل الكبير وجناحيه ما كانا أقل ازدحاماً من سابق عهدهما. كانت مائدة الطعام تضم أكثر من عشرين نوعاً من الطعام دائماً. إنهم أعضاء أسر حطت مرساتها في هذا المنزل منذ أمد طويل وآخرون وجدوا على ما يبدو، أن الحياة في غير ذلك المنزل مستحيلة. وهؤلاء هم الموسيقي ديملر وزوجته ومعلم الرقص ڤوغل والمنزل والعانس العجوز پيلوڤا وكثيرون غيرهم: كمدرسي پيتيا ومديرة سابقة لفتيات المنزل أو غيرهم ممن وجدوا أن الحياة عند الكونت أفضل مما هي عليه في بيوتهم. وعلى الرغم من تقلص عدد زوار البيت فإن نمط الحياة بقي كعهده السابق لأن الكونت والكونتيسة لم يكونا يحسنان نمطاً آخر يتبعانه في منزلهما. ظلت استعدادات الصيد قائمة وقد زاد فيها فريق نيكولا، وبقيت الخيول الخمسون في الإصطبل يرعاها الخمسة عشر حوذياً المعهودين، واستمرت الهدايا الثمينة تقدم في المناسبات والحفلات الكبيرة تقام في الأعياد وكذلك حفلات لعب الورق على اختلاف أنواعه، التي كان الكونت خلالها يكشف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أوراقه لخصومه سامحاً لهم بذلك أن يخففوا بضع مئات من الروبلات عن كيس نقوده. لذلك فقد كان دائماً موضع تنازع اللاعبين للحصول على ربح محترم من لعبة واحدة معه.

يسير الكونت إذن على غير هدى في شبكة متاعبه المالية المتشعبة، يريد أن يجدع الأنف أن يخدع نفسه بإقناعها بأنه على الطريق المستقيم، بينما يزداد ابتعاداً، أصبح لا يجد في نفسه القدرة لا على تحطيم تلك الشبكة الضخمة ولا على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحطيمها. وباتت الكونتيسة تحس في أعماق نفسها أنها وأسرتها يسيران إلى الدمار. كانت تحدث نفسها بأن الكونت غير مذنب لأنه لا يستطيع أن يكون غير ما هو، وأنه يتألم، رغم إخفائه ذلك الألم، من ذلك المركز المالي المزعزع الذي يهدده وذويه. بدأت تبحث عن علاج لهذا الداء. ولأنها امرأة، لم تجد علاجاً أفضل من تزويج ابنها نيكولا بوارثة غنية، وقدرت أن ذاك هو الأمل الأخير. فإذا رفض نيكولا الزواج الذي تدبره له، فإن الحالة المالية في العائلة لن تنجو من الانهيار المؤكد. أما الوارثة الغنية التي شخصت إليها الكونتيسة في أفكارها، فكانت الآنسة جولي كاراغين وهي الفتاة التي تنحدر من أبوين ورعين ويعرفها آل روستوف منذ طفولتها وقد جعلها موت أخيها الأخير الوارثة الوحيدة لثروة كبيرة.

كتبت الكونتيسة مباشرة إلى السيدة كاراغين تعرض عليها فكرتها، فتلقت منها جواباً مناسباً: لقد وافقت الأم على زواج ابنتها من نيكولا، ولكنها تركت الكلمة النهائية لابنتها. مع ذلك دعت نيكولا إلى زيارتها في موسكو.

ومراراً، قالت الكونتيسة لابنها والدموع تترقرق في عينيها إنه بعد أن أصبحت ابنتاها في حرز مع زوجيهما، فإن رغبتهما الوحيدة أضحت محصورة في أن تراه متزوجاً وبذلك تموت سعيدة. وبعد أن سبرت غوره على هذا النحو. ألمحت إلى أنها تشخص بأنظارها إلى فتاة جميلة. وفي مناسبات

www.Maktbah.com

أخرى امتدحت جولي ونصحت لابنها أن يسافر إلى موسكو بمناسبة أعياد الميلاد ليرفه عن نفسه هناك، فوراً، حدس نيكولا الغاية التي تغذيها أمه والوجهة التي تتجهها، فاستدرجها ذات يوم إلى الإفضاء بمكنونات نفسها إليه. فاعترفت بصراحة أن زواج ابنها من جولي كاراغين كفيل وحده أن ينقذ مركز العائلة المالي.

سأل الفتى أمه دون أن يلحظ الخشونة التي في سؤاله لأن همه كان منصرفاً إلى إظهار نبل روحه فحسب: ماذا! هل إذا كنت أحب فتاة غير ذات بائنة، وألحت علي بالسؤال أن أضحي بحبي وشرفي في سبيل المال يا أماه؟

أجابت الأم وهي لا تدري كيف تبرر موقفها: لم تفهمني يا صغيري نيكولا. أنا أبحث عن سعادتك.

كانت تعرف أنها لم تنطق بالصدق في قولها. لذلك اشتد اضطرابها فأجهشت باكية: أماه لا تبكي. قولي فقط إنك ترغبين في ذلك وسترين أنني أقدم حياتي وكل شيء لكي تكوني راضية. أجل، سأضحي بكل شيء من أجلك حتى مشاعري.

لم تتوقع الكونتيسة من ابنها ذلك: كانت أبعد الناس عن مطالبة ابنها بالتضحية نفسه من أجلها. بل كانت على العكس، مستعدة هي نفسها للتضحية بنفسها من أجله. قالت وهي تمسح دموعها: كلا، إنك لم تفهمني. لنقف عند هذا الحد في الحديث.

قال نيكولا في سرّه: «ولكن ألست أحب فتاة فقيرة في واقع الحال؟ إذن يجب أن أضحي بعواطفي! إنني مندهش لرؤية أمي وهي تقول لي مثل هذا الأمر. ألأن سونيا فقيرة لا يحق لي أن أحبها وأن أجيب عن غرامها المخلص؟ مع أنني سأكون معها أسعد مني مع جولي التي تشبه الدمية. أستطيع التضحية

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعواطفي من أجل أبويَّ، أما أن آمرهما، فذلك مستحيل. وإذا كنت أحب سونيا، فإن هذا الحب سيبقى عندي أقوى من كل شيء».

لم يذهب نيكولا إلى موسكو، ولم تعد الكونتيسة تتحدث معه في الزواج لكنها لاحظت بحزن بل بغضب أحياناً أن ألفة قوية كانت تقوم بين ابنها وتلك الفتاة المحرومة من البائنة سونيا. وعلى الرغم من اللوم الذي كانت تصبه على نفسها، فإنها لم تكن تستطيع الإمساك عن الزمجرة ومحاولة مشاكسة سونيا كلما خاطبتها بصيغة الجمع أو قالت لها: يا عزيزتي. وكان ما يزيد في نقمة الكونتيسة الطيبة ضد سونيا سلوك ابنة الأخت تلك ذات العينين السوداوين التي كانت تظهر مزيداً من الدماثة والعرفان نحو المحسنين إليها ومن الإخلاص العميق المجرد في حبها لنيكولا حتى يتعذر إيجاد مأخذ على تصرفاتها.

كان نيكولا ينهي عطلته عند أهله الذين تلقوا رسالة رابعة من الأمير أندريه مرسلة من روما يقول فيها إنه لولا أن نكأ جرحه فجأة بسبب الطقس، الأمر الذي أجّل عودته حتى مطلع العام القادم، لكان الآن في طريق عودته. كانت ناتاشا لا تزال مفتونة بخطيبها بذلك الهدوء الذي عرف عنها، وظلت متفتحة القلب لكل مسرّات الحياة. مع ذلك، فإنها حوالى نهاية الشهر الرابع الذي انقضى على غياب أندريه، بدأت تشعر بسحابات من الحزن كان يستحيل عليها مقاومتها. راحت تنظر إلى نفسها بإشفاق على هذا الوقت الذي يذهب سدى بينما تشعر في قرارة نفسها بأنها ما زالت قادرة على أن تحب وتُحب.

وعلى ذلك فإن الحياة كما يُرى لم تعد سعيدة تماماً عند آل روستوف.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

لم يكن ما يميز أعياد الميلاد إلا الصلوات وتهاني الجوار المضجرة والملابس الجديدة التي يرتديها الناس. مع ذلك فإن العشرين درجة من البرد غير المشفوع بالريح والنهارات المشمسة وتلك الليالي ذوات النجوم كانت تحفز المرء على إحياء تلك الفترة من السنة والاحتفاء بها على لون آخر.

بعد الغداء في اليوم الثالث، انسحب كل إلى غرفته وكبر الضجر كثيراً. نام نيكولا في المسكن بعد أن قام في صبيحة ذلك اليوم بعدد من الزيارات إلى الجيران واستلقى الكونت العجوز في مكتبه. أما في قاعة الاستقبال، فقد راحت سونيا تنقل رسماً فوق طاولة مستديرة بينما كانت الكونتيسة تتلهى بلعب الورق وحدها مهملة المهرج نستاسيا إيڤانوڤا الذي كان قرب النافذة في رفقة عجوزين طيبتين. دخلت ناتاشا وتفحّصت شغل سونيا ثم اقتربت من أمها وانتصبت واقفة أمامها.

سألتها أمها: لماذا تتيهين هكذا كروح معذبة؟ ماذا ينبغي لك؟

قالت ناتاشا بعينين متوهجتين ووجه خطير: إنه «هو» ما أبغيه... فوراً... في هذه اللحظة بالذات.

رفعت الكونتيسة رأسها ونظرت إلى عيني ابنتها نظرة عميقة. فقالت هذه:

ـ لا تنظري إليّ هكذا يا أماه. لا تنظري إليّ أو أبكي فوراً.

ـ اجلسي واقتربي مني، هنا.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ أماه هذا ما أريد... يا إلهي لمَ تفرض عليّ مثل هذا العذاب!

تحطم صوتها واغرورقت الدموع في مآقيها، فاستدارت لتخفيها ولم تجد غير الفرار سبيلاً.

توقفت في المسكن وبعد أن ترددت برهة، ذهبت إلى غرفة الخادمات. وهناك وجدت امرأة عجوزاً مهمتها العناية بالثياب والأواني الفضية، توبخ وصيفة شابة كانت ترتجف من البرد وهي قادمة ركضاً من جهة المياه:

ـ كفى تسلية. لكل شيء حينه.

فتدخلت ناتاشا: دعيها. اذهبي يا ماڤروشا، اذهبي.

وبعد أن أنعمت عليها بتلك العطلة، اخترقت ناتاشا قاعة الرقص لتدخل إلى الردهة. وهناك وجدت ثلاثة خدم، عجوزاً وشابين يلعبون الورق. توقفوا عن اللعب عندما دخلت ووقفوا عند وصولها. قالت في سرّها: «في أي شيء أستطيع إشغالهم؟ آه! لقد وجدت».

ـ ميتكا، اذهب وائتني بديك. وأنت يا ميشا ائتني بقليل من الخرطال.

قال ميشا بلهجة متواضعة: من الخرطال؟ قليلاً جداً أليس كذلك؟

ـ وأنت يا فيدور، ابحث لي عن بعض الحكك.

ومرت بالقرب من المقلاد فقالت لـڤوكا خادم الطاولة أن يهيىء السماور رغم أن الوقت لم يكن قد حان لمثل ذلك.

كان فوكا أكثر الرجال صمتاً في المنزل فكانت ناتاشا تجد متعة في ممارسة سلطتها عليه. لم يصدق أذنيه ويعتبر الأمر جدياً إلا عندما كررته وأيدته وحينئذ قال يعرب عن امتعاضه لناتاشا: أوه! يا لهذه الآنسة!

لم يكن في المنزل أحد يزعج الأشخاص ويقلق راحتهم بتشغيلهم مثل ناتاشا. فإذا وجدت أحداً وجب أن ترسله إلى مكان ما. ومهما كان من قول

www.Maktbah.com

فهي تحاول التأكد من عدم استياء الخدم من تردّدهم في تنفيذ أوامرها، فهم جميعاً يتهافتون بحماسة لإرضائها.

تساءلت وهي تذرع الممشى حائرة: «ماذا أستطيع أن أفعل؟ أين يمكنني أن أذهب»؟ جاء المهرج العجوز للقائها وهو في ثياب داخلية نسائية:

ـ يا نستاسيا إيڤانوڤنا، ماذا سألد؟

ـ براغيث وصراصير وذباب المستنفعات...

ـ رباه، رباه، إنه الشيء نفسه دائماً!... أين أحشر نفسي؟ في أي شيء أتشاغل؟...

صعدت السلم الذي يؤدي إلى جناح ڤوغل وزوجته بضجة كبيرة. وجدت المدبّرتين هناك أمام طاولة محملة بأطباق الزبيب واللوز والخروب وهما تقارنان غلاء المعيشة في موسكو بمثله في أوديسا. جلست ناتاشا وكأنها تعلق اهتماماً على الحديث، ثم وقفت فجأة وقالت: جزيرة مدغسكر، ما... دا.. غاس... كر..

راحت تكرر هذه الكلمة وهي تقطعها وانسحبت دون أن تعنى بالرد على السيدة شوص التي أتت تستوضحها ما تقول.

شاهدت پيتيا يهيئ بمساعدة مدربه العجوز سهاماً نارية ليطلقها عندما يحل المساء. صاحت به: پيتيا، احملني إلى الأسفل.

فأسرع پيتيا ومكنها من ظهره فقفزت عليه وطوقت عنقه بذراعيها بينما راح يقوم ببعض القفزات على طريقة الحصان. قالت وهي تقفز إلى الأرض وتنحدر على السلالم: يكفي هكذا... جزيرة مدغسكر...

وبعد أن تفقدت مرافق دولتها، حسب تعبيرها، واختبرت نفوذها وعرفت أن كل من في المنزل متضجر رغم الخضوع العام، انسحبت ناتاشا إلى قاعة الموسيقى وجلست في زاوية معتمة ووراء خزانة صغيرة ثم راحت

twitter @baghdad_library

تداعب أوتار قيثارتها محاولة تذكر مقطع من إحدى «الأوبيرات» التي سمعتها في بيترسبورغ عندما كانت في رفقة الأمير أندريه. ما كان للمستمع العادي أن يجد أي معنى في عزفها، أما هي، فكانت تلك الأصوات توقظ في نفسها عالماً من المشاعر. قبعت وراء خزانتها وشخصت بناظريها إلى إشعاع ضوئي كان يخترق باب المقلاد وراحت تصغي إلى نفسها وتستسلم لنشوة الذكرى.

اجتازت سونيا القاعة حاملة فنجاناً في يدها متجهة نحو المقلاد. فألقت ناتاشا نظرة عليها ثم حولتها إلى الباب الموارب وتصورت أن هذا المشهد كذلك يشكل جزءاً من ذكرياتها. قالت تقنع نفسها: «نعم، لقد رأيت هذا من قبل خطأً فخطأً». صاحت تخاطب سونيا وهي تضرب على حبل قيثارتها الخفيض: سونيا، ماذا أعزف هنا؟

اقتربت هذه منها لتصغي بانتباه أكثر وقالت: آه! أنت هنا... لست أدري.

ثم تابعت بخجل وكأنها تخشى أن تكون مخطئة: أليست هذه موسيقى «الإعصار»؟

لكن ناتاشا كانت تقول في سرّها: «أي نعم، إنها دائماً هكذا، دائماً هذه الانتفاضة والابتسامة الخجولة. لقد قلت دائماً ما أقوله الآن: لا شك إنه ينقصها شيء ما». ثم تنبهت وقالت: كلا إنها لازمة «حامل الماء» ـ وهي أوبرا لشيروبيني ـ اصغي إليّ جيداً...

ولكي تقنع سونيا، أخذت تغني اللحن حتى نهايته وقالت: إلى أين تذهبين؟

ـ لإبدال ماء الفنجان. إنني من فوري لتوي من الرسم.

ـ إنك تعرفين دائماً كيف تشغلين وقتك وليس مثلي... ونيكولا أين هو؟

أظن أنه نائم.

ـ اذهبي وأيقظيه... قولي له أن يأتي ليغني معي.

www.Maktbah.com

عادت تقبع في زاويتها وهي تتساءل كيف أمكن لكل هذا أن يحدث دون أن تستطيع إيجاد جواب عن هذا السؤال الذي لم تكن على أية حال تأسف على عدم إيجابه. حلقت من جديد في سماء الخيال وعادت إلى السويعات التي قضياها معاً والتي كان خلالها يتأملها بنظرة والهة.

«آه! ليعد بأسرع وقت. إنني شديدة الخوف من أن لا يتم زواجنا!... ثم لا مجال للقول، إنني أهرم! لن أكون بعد قليل كما أنا الآن... ولكن من يدري، لعله سيصل اليوم، سوف ينتظرني في القاعة الكبيرة... لعله وصل يوم أمس ونسيت أنا ذلك...».

نهضت من مكانها ونبذت القيثارة ثم مضت إلى القاعة الكبيرة. كان كل الناس هناك بين معلمين ومديرات وأقرباء وزوار يحتسون الشاي والخدم في ذهاب وإياب حول المائدة. كان كل شيء يجري كعادته، لكن الأمير أندريه لم يكن هناك. ولما رأى الكونت ابنته داخلة قال: ها هي ذي. تعالي واجلسي بقربي.

لكن ناتاشا جاءت وانتصبت أمام أمها ونظرت حولها وكأنها تبحث عن شيء ما. قالت مستعطفة:

ومن جديد، وجدت صعوبة في إيقاف دموعها. جلست إلى الطاولة وأصغت إلى أحاديث المسنين وأقوال نيكولا الذي ظهر في تلك اللحظة وانضم إليهم، «آه يا ربي، يا ربي! الوجوه نفسها دائماً والأحاديث نفسها دائماً، بل دائماً أسلوب أبي إياه في الإمساك بفنجان الشاي والنفخ عليه»! أحست برعب عنيف وبكره شديد عميق لكل ساكني المنزل يعتلج فجأة في نفسها، لأنهم كانوا هم لا يتبدلون.

وبعد الشاي، احتمى نيكولا وسونيا وناتاشا بالمخدع العتيد، مكانهم المفضل للإفصاح عن مكنونات نفوسهم فيما بينهم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

ألم تتصوّر أنه لم يعد ينتظرك شيء وأنك قد حصلت على كل السعادة الممكنة؟ وعندئذ ألا تشعر بالحزن؟ قالت ناتاشا لأخيها عندما استقر بهما المقام.

أجاب: بكل تأكيد! أحياناً، عندما يكون كل ما حولي جيداً والعالم من حولي بهيج، يعتريني فجأة اشمئزاز من كل شيء فأفكر في أننا يجب أن نموت كلنا... ذات مرة في الفيلق، لم أذهب إلى النزهة رغم أن الموسيقى كانت تصدح حيث كنت سأذهب، لكثرة ما كنت أحس بالضجر...

ـ إنني أعرف هذا، أعرف هذا... كنت لا أزال صغيرة جداً عندما وقع لي هذا. هل تذكر يوم عوقبت من أجل مسألة خوخ بينما كنتم ترقصون، لقد تركوني في قاعة الصف وحيدة وكنت أذرف دموعاً حرى... لن أنسى ذلك أبداً! كنت أرثي لحالي ولكم جميعاً... وكان أكثر ما يؤلمني أنني لم أفعل شيئاً سيئاً، هل تذكر؟

ـ نعم. وأذكر كذلك أنني ذهبت إليك أعزيك وأنني لم أكن أعرف كيف أتصرف معك... لقد كنا كلانا على جانب مخيف من الشذوذ... كنت أملك مهرجاً صغيراً من الورق المقوى فأردت أن أهديه إليك. هل تذكرين؟

تابعت ناتاشا بابتسامة حالمة: وقبل الحادث وكنا لا نزال صغاراً، هل تذكر عندما دعانا عمنا ذات مرة إلى مكتبه، وكنا حينذاك في المنزل القديم وكان الظلام حالكاً، فلم نكد ندخل حتى رأيناه فجأة...

www.Maktbah.com

فأكمل نيقولا قولها بانشراح: عبداً أسود. كيف أنساه؟ لا أزال حتى الآن لا أعرف هل كان عبداً حقيقياً أم كنا رأيناه في حلم أم حدثنا بعضهم بأمره.

ـ كان بلون الرماد ذا أسنان بيضاء... كان واقفاً يحدق إلينا...

سأل نيكولا: هل تذكرين يا سونيا؟

ـ فأجابت سونيا بخجل: نعم، نعم، بإبهام.

قالت ناتاشا:

ـ لقد تحدثت عن هذا العبد إلى أمي وأبي فأكد أبي أنه لم يكن في بيتنا عبد. مع ذلك فإنك تذكره!

ـ طبعاً كما لو وقع ذلك بالأمس.

ـ إنه يشبه الحلم، وهذا ما يروقني في هذه القصة!

ـ وذات يوم آخر، بينما كنا ندحرج بيضاً في صالة الرقص، ظهرت عجوزان فجأة وراحتا تبرمان دائرياً. هل حدث هذا بالفعل؟ هل تذكرين كم كان ذلك رائعاً؟

ـ نعم، وأنت، هل تذكر عندما كان «بابا» يطلق النار من بندقية وهو فوق المرقاة مرتدياً فروته الزرقاء؟

وراحت تلك الذكريات الزاهية تمر أمامهم الواحدة تلو الأخرى تتناقض بشدة مع عودة الشيخوخة الحزينة إلى الوراء، تلك الإحساسات عن الماضي التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال، وراحوا يضحكون برقة وهم يشعرون بالسعادة.

وكعادتها، كانت سونيا منتحية جانباً مع أن تلك الذكريات كانت تجمعهما معاً، لكنها كانت أكثر تشويشاً في ذاكرتها. أما تلك التي لا تزال حية منها، فهي لم تكن توقظ في نفسها مثل تلك الأحاسيس الشاعرية. لم تتدخل في نداء الماضي إلا عندما استعادا ذكر وصولها إلى المنزل. وكان ذلك ليقصوا أنها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خافت من نيكولا خوفاً شديداً وهو في سترته التي تزينها بالخرج. لقد روعتها خادمتها عندما أوهمتها بأنهم سوف يوثقونها إلى ذلك الخرج.

قالت ناتاشا: وقد رووا لي أنك ولدت في ملفوفة. كنت أعرف أن ذلك غير صحيح، لكنني ما كنت أجرؤ على عدم التصديق وكنت مرتبكة جداً.

وفي تلك الأثناء، دخل ديملر إلى المخدع ومضى قدماً إلى المعزف القائم في إحدى زواياه، فرفع غطاءه وانبعث منه صوت نافر. وارتفع صوت الكونتيسة من القاعة الكبيرة:

ـ يا إدوار كارلتيس، اعزف أرجوك لحن «نوكتورن» ـ اللبليات ـ لجون[1] فيلد، الذي يروقي كثيراً.

أمسك ديملر اللحن والتفت نحو ناتاشا ونيكولا وسونيا وقال لهم:

ـ ما أنعم بال الشبيبة!

أجابت ناتاشا وهي ترمقه بنظرة قاسية:

ـ نعم إننا نتفلسف.

وعادت إلى الحديث الذي أصبح يدور حول الأحلام.

بدأ ديملر العزف فاقتربت ناتاشا على أطراف قدميها من الطاولة وأخذت الشمعة وعادت دون ضجيج إلى مكانها. بدأ الظلام يخيم الآن على الغرفة وخصوصاً في الزاوية التي جلسوا فيها. لكن البدر كان يلقي على الأرضية إشعاعاً فضياً خلال النوافذ المرتفعة. قالت ناتاشا وهي تقترب من نيكولا وسونيا، بينما كان ديملر الذي انتهى من عزف المقطوعة، متردداً في البدء بغيرها، يداعب أوتار معزفه بحركة خفيفة:

ـ هل تعرفان فيمَ أفكر؟ يخيل إلي أنه لكثرة ما يُحرك رماد الماضي،

---

(١) مؤلف موسيقي انكليزي توفي في موسكو، صاحب لون جديد من الموسيقى الفردية.

www.Maktbah.com

يستطيع المرء أن يعيد إلى ذاكرته أشياء حدثت قبل ولادته في هذا العالم...

قالت سونيا التي كانت مجتهدة دائماً وتتمتع بذاكرة طيبة: إنه علم التناسخ. كان المصريون يعتقدون أن أرواحنا عاشت بادئ الأمر في الحيوانات وأنها ستعود إليها بعد موتنا.

ردت ناتاشا بصوت خفيض دائماً رغم توقف الموسيقى: حسناً! أنا، لو تعلمين، لا أعتقد أننا كنا من قبل في الحيوانات. أما ما أنا واثقة به، فهو أننا كنا ملائكة في كل مكان، ولهذا السبب نتذكر كل هذا القدر من الأشياء...

سأل ديملر الذي اقترب منهم بخطوات متلصصة واتخذ لنفسه مكاناً قريباً: هل أستطيع الانضمام إليكم.

قال نيكولا: لو أننا كنا ملائكة، فلماذا إذن سقطنا إلى هذا الدرك؟ إن هذا لا يمكن أن يكون.

قالت ناتاشا بحماسة: ولمَ إلى هذا الدرك؟ من قال لك إننا أدنى من مقامنا؟ إن الروح خالدة، أليس كذلك؟ وإذن، إذا كان لا بد أن أعيش سرمدياً، فلا شك أنني عشت من قبل دهراً كاملاً.

تدخل ديملر الذي عندما انضم إلى الشبيبة لم يستطع إخفاء ابتسامة ساخرة والذي راح الآن يتبنى لهجتهم الخطيرة:

ـ بدون شك، لكنه من الصعوبة أن يتصور المرء تلك الأبدية.

قالت ناتاشا: صعوبة؟ لماذا؟ بعد اليوم سيكون الغد. ودائماً هكذا. والأمس، وأمس الأول، كان الشيء نفسه.

تناهى صوت الكونتيسة إلى الأسماع: ناتاشا، لقد حان دورك. غني لي شيئاً... ماذا تعملون هناك؟ لكأنكم متآمرون.

قالت ناتاشا: آه يا أماه! إنني لست منسجمة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ما من أحد، حتى ولا ديملر الذي لم يعد شاباً، كان يميل إلى ترك زاوية التسار فقد نهضت ناتاشا، ومضى نيكولا إلى المعزف، وبعد أن تمركزت وسط قاعة الرقص كعادتها، وهو المكان الذي كانت تقدر أنه أفضل للشروط السمعية، غنت ناتاشا المقطوعة المفضلة عند أمها. قالت قبل ذلك إنها لا تحس بالانسجام. لكنها لم تغني مثل ذلك المساء منذ زمن طويل ولم تكن من قبل لتغني أفضل من ذلك. سمعها الكونت من مكتبه حيث كان في مقابلة مع ميتانكا. وكالطفل الذي لا يفكر عند انتهاء الدرس إلا بالفرصة المنتظرة، ارتبك الكونت في الأوامر التي أصدرها وانتهى به الأمر إلى السكوت. أما ميتانكا الذي كان يصغي بدوره، فبقي منتصباً أمام سيده والابتسامة على شفتيه. لم يغفل نيكولا عن النظر إلى أخته ونظم تنفسه الشخصي على غرار تنفسها، بينما كانت سونيا تقيس البون الشاسع الذي يفصلها عن ابنة عمها وتحدث نفسها بأنها لن تستطيع أبداً أن تكتسب ولا جزءاً واحداً من فتنة ناتاشا. وكانت الدموع تترقرق في عيني الكونتيسة، تبتسم في غبطة وحزن معاً وتهز رأسها من حين إلى آخر. تصورت شبابها. وفكرت في ابنتها التي بدا ارتباطها بالأمير أندريه غير طبيعي وملؤه الخطر.

كان ديملر جالساً بالقرب من الكونتيسة يستمع مغمض العينين، وأخيراً خلص إلى القول: حقيقة يا كونتيسة، إن لها منقبة أوروبية، لم يبق أمامها ما تتعلمه، هذه النعومة، هذه القوة، هذه العذوبة...

قالت الكونتيسة دون أن تلقي بالاً إلى من تحدثه: كم أخاف من أجلها، كم أخاف!

كانت غريزة الأمومة لديها تنبئها أن في ناتاشا شيئاً مفرطاً يمنعها من أن تكون سعيدة.

وقبل أن تنتهي ناتاشا من الغناء، دخل بيتيا إلى الغرفة وأعلن بحماسة ابن

www.Maktbah.com

أربعة عشر عاماً، وصول المقنعين. فتوقفت ناتاشا فجأة وصرخت في أخيها: سخيف!

واندفعت نحو كرسي حيث انهارت عليه وانفجرت باكية وبقيت فترة طويلة قبل أن تسيطر على أعصابها. قالت وهي تجهد في الابتسام:

ـ لا بأس عليّ يا أماه لا بأس. أؤكد لك أن پيتيا أخافني.

لكن دموعها ظلت تنهمر وتخنقها العبرات.

وصل الخدم على أشكال الدببة والأتــراك والخمارين وسيدات المجتمع، بين مضحك ومخيف، يحملون معهم برد الخارج. اجتمعوا بخجل في الردهة ثم اختبأ كل منهم وراء الآخر ودخلوا إلى قاعة الرقص مغامرين، وهناك، انتقلوا من حالة الخوف التي اعترتهم إلى الحيوية والانسجام، فراحوا يغنون ويرقصون ويدورون ويقومون بكل تسليات عيد الميلاد. وبعد أن كشفت الكونتيسة حقيقة كل المقنعين وضحكت من تنكرهم، انسحبت إلى القاعة الكبيرة، بينما بقي الكونت في القاعة مشرق الوجه يشجعهم. واختفت الشبيبة.

وصل متنكرون آخرون بعد نصف ساعة واختلطوا بالأولين. ووصلت عجوز تحمل سلالاً ـ نيكولا ـ ووراءها تركي ـ پيتيا ـ ثم مهرج ـ ديملر ـ. أما ناتاشا وسونيا فقد تنكرت الأولى على شكل فارس والثانية على غرار الشراكسة وقد رسمتا على وجهيهما الشوارب والحواجب اللازمة بالفحم.

وبدهشة مصطنعة استقبلهم غير المتنكرين وشعر الشبان الذين وجدوا أن أزياءهم كانت موفقة جداً، بالرغبة في عرضها على آخرين. ولما كانت الطرق سالكة جيدة، ونيكولا لا يتحرق شوقاً على نقل الجميع في زحافة كبيرة، فقد عرض أن يحملهم إلى مسكن العم وبصحبتهم حوالى عشرة من الخدم المتنكرين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قالت الكونتيسة:

ـ ولكن لا، لا فائدة من إزعاج العجوز المسكين. اذهبوا على الأرجح إلى آل ميليوكوف.

وكانت السيدة ميليوكوف، وهي أرملة، تسكن على مقربة من آل روستوف مع أولادها الكثيرين المختلفي الأعمار ومعلميهم ومربياتهم.

قال الكونت العجوز بصمت منشرح:

تلك يا عزيزتي فكرة بديعة. سأتنكر أنا الآخر وسأرافقكم سأعرف جيداً كيف أنفس عن باشيت الباسلة. (تصغير باشا على الطريقة الفرنسية).

لكن الكونتيسة لم تكن تصغي إلى الموضوع بتلك الأذن: لقد كان إيليا أندرييتش يشكو ألماً في ساقه في الأيام الأخيرة فما كان يستطيع السماح لنفسه بمثل تلك الفعلة. وفي المقابل، إذا كانت لويز إيڤانوڤنا أي السيدة شوص، تريد مرافقتهم فإن الفتيات سيسافرن. ابتُهل إلى السيدة شوص أن توافق وكان إلحاح سونيا التي عُرفت بالتحفظ أكثرهم إلحاحاً في هذه المرة. والواقع أن زيها كان أكثر الأزياء التنكرية نجاحاً وشاربيها وحاجبيها تلائم وجهها ملاءمة رائعة. راح كل يهنئها بفرح فكانت تشعر، على خلاف عادتها أنها ممتلئة بالثقة والاستعداد يهيب بها صوت داخلي أن مصيرها إذا لم يتقرر اليوم فلن يتقرر أبداً. وقد كانت في ثياب الرجال تختلف كلياً عن حقيقتها.

وافقت السيدة شوص، فلم تنقض نصف ساعة حتى كانت أربع زحافات كبيرة وعليها الأجراس والجلاجل تشق مزالقها الثلج المتجلد، تنتظم أمام المرقاة.

أطلقت ناتاشا الدلالة الأولى التي تتفق وسهرة عيد الميلاد الجنونية تلك وانتقل مرحها إلى الآخرين فرداً فرداً وكبر فبلغ أقصاه عندما ظهر المقنعون جميعهم في الهواء الطلق يضحكون ويتنادون. ثم انتظموا في فرق مختلفة.

www.Maktbah.com

كانت اثنتان من الزحافات الأربع معدتين للجري السريع، والثالثة ذات الجواد المفرد والنقالة كانت خاصة بالكونت العجوز. أما الرابعة، وهي زحافة نيكولا، فكان يجرها حصان صغير أدهم طويل الشعر. أخذ نيكولا في تنكره على شكل أرملة مرحة يجمع أعنة الحصان وهو واقف وسط زحافته متدثراً بمعطف الفرسان فوق ثوبه التنكري. وكان القمر يرسل ضياء قوياً حتى إنه كان يرى صفائح عدة الفرس النحاسية تلتمع وعيون الخيل التي كانت تدير رأسها بوجل نحو الطنف المعتم الذي كان الجمع الهائج يتحرك تحته.

اتخذت ناتاشا وسونيا والسيدة شوص وخادمتان مكاناً لهن في زحافة نيكولا، وديملر وزوجته وپيتيا في زحافة الكونت، بينما توزع الخدم المتنكرون في العربتين الأخيرتين.

صاح نيكولا بسائق عربة أبيه لتتاح له فرصة اجتيازه أثناء الطريق: سر في المقدمة يا زاخار!

ارتجّت زحافة الكونت ورافقها صرير مزالقها فترة، دندنة الحرس الرصينة وراح حصانا الطرفين يتراصان على الحاملين ويغوصان في ثلج جامد براق كالسكر حتى لكأن الصقيع قد ألصقها بالثلج وسار نيكولا وراءها ثم تبعه الآخرون في هرج ومرج عظيم.

أولاً، انزلقت الزحافات الهوينا على الدرب الضيق، وبقيت ظلال الأشجار العارية تتطاول على عرض الطريق طوال الوقت الذي قضاه الراحلون في محاذاة البستان، حاجبة ضوء القمر القويّ. ولكن ما إن اجتازوا الحاجز حتى عرضت للأنظار فسحة لا يحدها النظر من الثلج المتجمد المتلألئ كالماس ذي الإشعاعات الزرقاء. قفزت زحافة المقدمة مرة أو مرتين فوق حجر، فحذت الأخريات حذوها معكرة سلام ذلك السهل العميق المسحور في غير ندم، ثم استوت كلها على خط واحد مباعدة بينها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وفجأة دوى صوت ناتاشا في الفضاء: موطئ أرانب، مواطئ كثيرة!

وقالت سونيا بدورها: كم يرى المرء بوضوح يا نيكولا!

التفت نيكولا نحو سونيا واضطر إلى الانحناء ليميز وجهها. ظهر أمام عينيه وجه وسيم لطيف ذو شاربين وحاجبين مرسومين بالفحم، قريب وبعيد معاً من اللياقة المصنوعة من السمور.

تساءل نيكولا وهو يتفحصها بإلحاح مبتسماً: «أين إذن سونيا الزمن الأول»؟

ـ ماذا تريد يا نيكولا؟

أجاب وهو يستدير نحو الخيول: لا شيء.

وعندما وصلوا إلى الطريق العريضة التي سوتها مزالق الزحافات ووسمتها المشابك الحديدية التي كانت آثارها واضحة في ضوء القمر، اندفعت الخيول من تلقاء نفسها على الأثر وضاعفت سرعتها. كان الحصان الأيسر، يجذب سيور أعنته بحركات مهتزة ورأسه مائل إلى الخارج. أما حصان المقدمة، فكان يتأرجح وهو ناصب أذنيه وكأنه يتساءل: «هل حان الوقت أم لايزال في الوقت متسع»؟ وكانت زحافة زاخار السوداء المتقدمة مسافة لا بأس بها، تنساب فوق الثلج الأبيض بظلها القاتم، تختلط الصيحات والضحكات وهتافات المقنعين فيها بصدى جرسها المكتوم الممعن في الابتعاد.

صاح نيكولا وهو يجذب الأعنة بإحدى يديه ويلوح بالسوط في الثانية: هيا يا فتاي!

كان يمكن تقدير سرعة الزحافة الهائلة اعتماداً على الريح التي راحت تضرب الوجوه بسوطها بعنف شديد أو توتر الجهد الواضح على خيول الجانبين التي كانت تضاعف أبداً انطلاقها. نظر نيكولا وراءه، فإذا بالفرق

www.Maktbah.com

الأخرى تسرع في زحافاتها وسط التهليل وقرعة الأسواط. وكان حصان الوسط، يندفع ببسالة تحت قوس العريش دون أن يفكر أبداً في إبدال سرعته ويبشر بانطلاقه إذا طلب إليه ذلك.

لحق نيكولا بالزحافة الأولى. كانوا يهبطون فوق منحدر ليبلغوا طريقاً عريضاً شُقّ وسط الحقول على طول أحد الأنهار.

تساءل نيكولا: «ولكن أين نحن؟ في «الحقول الطويلة» ولا شك... ولكن لا، إنني لا أتعرف إلى الأرض... إنها ليست «الحقول الطويلة» ولا «شاطئ داميان»... كل شيء جديد هنا، لكأنه مكان مسحور. ولكن ماذا يهم»! وراح يلكز خيوله عازماً على تخطي الزحافة الأولى.

أوقف زاخار خيوله فترة ليدير وجهه الذي بيضه الصقيع حتى حاجبيه نحو سيده الشاب، فأرخى نيكولا العنان لخيوله وعندئذ مد زاخار ذراعيه وصفق ودفع خيوله كذلك وهو يقول: انتبه يا سيدنا!

جنباً إلى جنب، طارت الزحافتان وتضاعف جري الخيول. تقدم نيكولا نحو زاخار الذي ما فتئ ماداً ذراعيه على المقودين. فرفع هذا أحدهما باتجاه سيده وصاح: كلا يا سيدنا، لن تنالني!

دفع نيكولا خيوله بأقصى سرعتها فتجاوز زحافة زاخار. وكانت الخيول تعفر وجوه المسافرين بثلج رقيق جاف بينما راحت ظلال الزحافة المنافسة تمر وسط أنغام التحدي. وكان صرير المزالق يختلط مع صيحات النساء الحادة.

للمرة الثانية، عدّل نيكولا سرعة خيوله وأدار حوله نظرة فاحصة. كان المشهد يمثل أبداً ذلك السهل السحري الذي يغطيه ضوء القمر وتلتمع فيه هنا وهناك نجوم فضية.

قال في سرّه: «إن زاخار يهيب بي أن آخذ اليسار فلماذا يا ترى؟ هل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سنذهب حتماً عند آل ميليوكوف؟ هل هنا ميليوكوف؟ الله يدري إلى أين نذهب. الله يعلم ماذا سيقع لنا. على كل حال فإن المغامرة على جانب من الفتنة والغرابة»، استدار نحو شاغلي الزحافة. قال واحد من هذه المخلوقات الغريبة المجهولة التي تعطيهم شواربهم وحواجبهم المرسومة بدقة فتنة خاصة.

انظروا إل أهدابه وشاربيه، كلّها بيضاء.

فكر نيكولا: «أعتقد أن هذا هو ناتاشا. وها هي السيدة شوص... كلا، يجوز أن لا تكون هي. وهذا الشركسي ذو الشاربين. لست أدري من يكون ولكني أحبه».

سألهن: ألا تشعرن بالبرد؟

فلم يجبنه، لكن بدأن يضحكن. ومن الزحافة التالية، صاح ديملر بشيء، شيء مضحك جداً ولا شك ولكن لم يتوصلوا إلى تبيانه. أجابت أصوات مضحكة: نعم، نعم.

صعدوا في تلك اللحظة غابة مسحورة ذات ظلال سوداء متداخلة وبريق ماسي ثم سياق درجات رخامية وسقوف فضية تؤوي منزلاً سحرياً. وسمع نباح حيوانات. فقال نيكولا لنفسه: «إذا كانت هذه هي ميليوكوف، فإن من الغرابة المتناهية حقاً أن تقودنا رحلتنا هذه التي قمنا بها إلى المجهول، إلى ميناء جيدة رغم ذلك.

وبالفعل، كانت تلك ميليوكوف. أسرع الخدم والوصيفات إلى المرقاة بوجوه مستبشرة يحملون المصابيح. وسأل صوت من أعلى المرقاة: من القادمون هنا؟

فأجابت أصوات أخرى: مقنعو الكونت، أنا أعرف الخيول.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

كانت في القاعة الكبيرة مع بناتها تحاول تسليتهن بتذويب الشمع وهن يتأملن الأشكال التي تتكون منه إنها بيلاجي داينلوڤنا ميليوكوڤ، سيدة قوية تضع نظارتين وترتدي معطفاً رمادياً.

دخل الفرسان والأرامل المرحات والساحرات والمهرجون والدببة يسعلون ويمسحون وجوههم المغطاة بالصقيع إلى القاعة الكبيرة حيث كان المستقبلون يضيئون الشموع مسرعين. افتتح المهرج، ديملر الحفلة الراقصة مع الأرملة الطروب نيكولا. راح المقنعون بين صيحات الأولاد الفرحة يخفون وجوههم ويسلمون على سيدة البيت مبدلين أصواتهم، ثم انتظموا في القاعة.

ـ آه! من المستحيل معرفتهم... آه، هذه «الناتاشا»! من تشبه بالله؟ حقاً إنها تذكرني ببعضهم... إدوار كارليتش، كم هو جيد، ما كنت لأعرفه! إنه يرقص ببراعة!... آه يا للآلهة، شركسي! آه لكن هذه سونيا! كم ينسجم معها هذا الزي!... وهذا من هو؟... نيكيتا، فانيا، ارفعوا الطاولات... يا للترفيه الجميل الذي جئتمونا به... نحن الذين كنا على غاية من الضجر...

وقالت بعض الأصوات: آه! يه! آه!... الفارس، انظر إلى الفارس... فتى حقيقي... وقدماه!... لا أستطيع أن أرى...

اختفت ناتاشا، صفية الشابات من آل ميليوكوڤ، مع الفتيات في الغرف الداخلية المختلفة التي كانت تتلقفها أذرع عارية خلال الباب الموارب من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أيدي الخدم. وبعد عشر دقائق، لحق كل شباب المسكن بالمقنعين الآخرين واختلطوا بهم.

كانت بيلاجي دانيلوڤنا، التي هيأت أمكنة للضيوف وطعاماً خفيفاً للسادة وللخدم على السواء، تروح وتجيء ونظارتاها فوق أنفها، والابتسامة الرصينة على شفتيها، بين المقنعين متصفحة وجوههم دون أن تميز منهم أحداً. لم تعد تعرف لا آل روستوف ولا ديملر حتى ولا بناتها أنفسهن وسط هذا الجمع من الملابس المنزلية المختلفة. بدأت تستعلم المربية وهي تنظر من تحت نظارتيها إلى واحدة من بناتها متنكرة في زي تترّية من قازان: وهذه من تكون؟ يجب أن تكون واحداً من آل روستوف. وأنت يا سيدي الفارس، إلى أي فيلق تنتمي؟

وبعد أن طرحت السؤال الأخير على ناتاشا قالت لرئيس الخدم الذي كان يطوف على الضيوف حاملاً طبقاً من المربيات:

ـ قدم للتركية كعكة بالفاكهة. إن دينها لا يحرمها عليها.

ولما شاهدت الخطوات المضحكة الغريبة التي أخذ الراقصون يخطونها يساعدهم تنكرهم على سلب منهم كل ارتباك، أخفت بيلاجي دانيلوڤنا وجهها في منديلها وراحت شخصيتها الضخمة تهتز كلها بفعل ضحكة طيبة لا تخفّ حدتها. هتفت:

ـ شينيت، انظروا إلى ابنتي شينيت: تصغير ساشا على الطريقة الفرنسية.

شكلت بيلاجي دانيلوڤنا بعد الرقصات والدبكات الروسية، حلقة كبيرة قوامها الخدم وسادتهم وجاءت بخاتم وخيط وقطعة نقدية من الروبل نفسه، فبدأت الألعاب المشتركة.

خلال ساعة من الزمن، تهدلت الأزياء كلها وذابت الشوارب والحواجب المصنوعة من الفحم على الوجوه المرحة المبللة بالعرق. فاستطاعت بيلاجي

www.Maktbah.com

دانيلوفنا أن تتعرف أخيراً إلى الأشخاص وراحت تهلل معجبة بنجاح الأزياء التنكرية وبصورة خاصة أزياء الفتيات، وتشكر الجميع على المتعة الطيبة التي قدموها لها. دُعي السادة إلى تناول العشاء في قاعة الاستقبال بينما قُدم العشاء للخدم في القاعة الكبيرة.

وعلى مائدة العشاء، وبينما هم يتحدثون عن استطلاع البخت في الحمام قالت عانس عجوز من نديمات آل ميليوكوف:

ـ كلا، إنه مريع جداً!

استفسرت البنت البكر: ولمَ ذلك؟

آه! لن تذهبن. إن ذلك يستلزم شجاعة فائقة!...

أعلنت سونيا: أنا، سأذهب.

قالت صغرى الأخوات ميليكوف:

ـ قصي علينا ما وقع لإحدى الآنسات.

قالت العانس العجوز:

ـ حسناً إليكن ما وقع. ذات مرة، ذهبت آنسة إلى الحمام. أخذت معها ديكاً وصحفتين وكل ما يلزم. أخذت مكانها بقيت فترة طويلة مصغية تنتظر. وفجأة سمعت جلبة جلاجل وأجراس: كانت الزحافة تقترب. أرهفت أذنها: كان بعضهم قادماً. دخل بعضهم ذاك، وجهه يشبه وجوه الرجال حتماً حتى ليقال إنه ضابط، وجاء يجلس بجانبها، أمام الصفحة الثانية.

صاحت ناتاشا وهي تدير عينين مذعورتين: أوه! أوه...

ـ وبعدئذ بدأ يتحدث؟

ـ بالطبع، كالإنسان العادي تماماً... وعندئذ بدأ يتوسل إليها... كان عليها أن تستمر في الحديث معه حتى صياح الديك. لكن الخوف سيطر

twitter @baghdad_library

عليها، فأخفت وجهها بين يديها. وعندئذ أمسك بها الآخر... ولحسن الحظ، أسرعت بعض الوصيفات إليها في تلك اللحظة.

تدخلت بيلاجي دانيلوڤنا: يا لها من فكرة لإخافتهن.

قالت إحدى بناتها: ولكن يا أماه، ألم تستطلعي المستقبل بنفسك مرة؟

سألت سونيا: هل يستطلعون الحظ؟

ـ بدون شك. ليس عليك إلا أن تذهبي إلى هناك فوراً إذا كانت شجاعتك تساعدك. يصغي المرء: فإذا سُمع طرق مطرقة أو قرع ما فإنه فأل سيئ أما إذ نُثر القمح فهو فأل حسن. وكل شيء يقع وكأنه نبوءة.

ـ أماه قصي علينا ما وقع لك يوماً في المكدس.

قالت: أوه! تعرفن أنني نسيت كل شيء. ثم إن ما من واحدة منكن تفكر في الذهاب إلى هناك.

استأنفت سونيا: ولكن بلى يا بيلاجي دانيلوڤنا، سأذهب، إلا إذا اعترضت على ذلك.

ـ حسناً! اذهبي إن لم تكوني خائفة.

سألت سونيا: يا لويز، يا لويز إيـڤانوڤنا، هل تسمحين لي؟

وسواء لعبوا بالتخفية أو تحدثوا شأنهم في تلك الفترة، فإن نيكولا لم يبتعد عن سونيا قط، وراح ينظر إليها بعينين جديدتين. ظهرت له الفتاة أخيراً بفضل تنكرها وشاربيها الاصطناعيين، على حقيقتها. بل إن هذا ما كان يظنه على الأقل، ثم إن ناتاشا نفسها لم تكن تتذكر يوماً أنها رأت ابنة عمها على مثل هذا الجمال والوداعة، يملأها الفرح.

فكر وهو يراقب عيني سونيا البراقتين وابتسامتها المتحمسة التي كانت تحفر غمازتين تحت شاربها المستعار، وهو الأمر الذي لم يره من قبل: «هذه هي إذن حقيقتها! كم كنت غبياً إذ لم ألاحظ هذا من قبل»!

www.Maktbah.com

قالت وهي تقف: لا أخاف شيئاً. سأذهب فوراً إذا أردت.

شرحوا لها أين يوجد المكدس: كان عليها أن تبقى صامتة وأن تصيخ السمع. قدموا لها فروة وضعتها على رأسها وهي تصوب نظرة نحو نيكولا.

فكر هذا: «يا لها من طفلة رائعة! بأي شيء كنت أفكر حتى الآن»؟

لم تكد سونيا تدخل الممشى حتى اختفى نيكولا عن طريق الباب الكبير بحجة أن الطقس شديد الحرارة. والحقيقة أن الجماعة المحتشدة في الغرف، جعلت جوّها خانقاً.

وفي الخارج، بقيت تلك الإشراقة المتجمدة على حالها وذلك القمر المنير بدا أكثر ضياء؟ كان الضياء قوياً وتلألؤ الثلج من الشدة بحيث لا يشعر المرء برغبة في النظر إلى السماء، وتفقد النجوم لمعانها. كانت السماء قاتمة بينما الأرض، على العكس، كلها بهجة.

استمر نيكولا يفكر: «يا للأحمق الذي كنته إذ انتظرت حتى الآن». ونزل درجة المرقاة ودار حول البيت من الممشى الذي يؤدي إلى مدخل الخدم كان يعرف أن سونيا ستمر من هناك. وفي منتصف الطريق، كانت أنضاد من الخشب المكسو بالثلج تشكل ظلالاً تنضم إليها ظلال أشجار الزيزفون العارية، وحواجز المكدس المصنوعة من هياكل الخشب وسقفه الأبيض من الثلج الذي يجعل الناظر إليه يظن أنه منحوت في حجر كريم، يلتمع في ضوء القمر. فوقع غصن في الحديقة ثم ساد السكون، حتى كأن المرء لا يستنشق الهواء الطلق نفسه، بل قوة فتية ما أبدية، والحبور نفسه.

ارتفع وقع أقدام على مرقاة الخدم، فكان لها وقع أشد على الدرجات الأخيرة المغطاة بقشرة خفيفة من الثلج. وقال صوت العانس العجوز: إلى الأمام باستقامة عن طريق هذا الممشى يا آنسة. ولكن لا تلتفتي.

twitter @baghdad_library

أجاب صوت سونيا التي بدأت خطواتها تصر فوق الطريق الذي وقف عليه نيكولا بانتظارها، وقدماها في حذاءين دقيقين: لست خائفة.

بدأت تتقدم متدثرة بالفروة. لم تكن على أكثر من خطوتين منه، عندما رأته. رأته هي الأخرى بعينين تختلفان عن ذي قبل. لم يعد وهو في ثوبه النسوي وشعره الأشعث وابتسامة شفتيه، ذلك الرجل الذي كانت سونيا تخشاه دائماً. أسرعت نحوه.

فكر نيكولا في سرّه وهو يتفحص وجه الفتاة التي كان ضياء القمر يغمره: «إنها مختلفة تماماً مع ذلك لم تتبدل». أدخل يديه تحت الفروة التي تتدثر بها فطوقها وجذبها إليه ثم قبل شفتيها حيث كان الشارب الاصطناعي مرسوماً تنبعث منه رائحة الفحم المحروق. قبلته سونيا هي الأخرى ملء شفتيه ثم مررت يديها وأمسكت بوجهه من الصدغين.

ـ سونيا!... نيكولا... ولم يزيدا. ركضا إلى المكدس ثم عادا بعد ذلك إلى المنزل كلّ من مرقاة مختلفة.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

سوّت ناتاشا أمرها عندما غادروا منزل ميلاجي دانيلوڤنا، ناتاشا التي ترى كل شيء، حيث ركبت لويز إيڤانوڤنا برفقتها في زحافة ديملر بينما بقيت سونيا وحدها مع الخادمات في زحافة نيكولا.

على طريق العودة قاد نيكولا زحافته بسرعة عادية دون أن يتجاوز أحداً. كان ينظر إلى ابنة عمه تحت ضوء القمر الغريب محاولاً أن يكتشف في ذلك الضوء، سونيا الأمس وسونيا اليوم التي اعتزم نهائياً أن لا يفترق عنها أبداً. كان ينظر إليها، فإذا ما عرفها، كما هي دائماً ومختلفة مع ذلك، وتذكر طعم الفحم المحترق على شفتيها المختلط بإحساس القبلة، ثم ألقى نظرة إلى المنظر المحيط به، أحسّ مجدداً أنه في مملكة مسحورة. راح يسألها من حين إلى آخر ويخاطبها بصيغة المفرد:

ـ سونيا، هل «أنت» على ما يرام؟

فتجيبه بالمثل: نعم، و«أنت»؟

وفي منتصف الطريق، أعطى نيكولا المقود إلى الحوذي ونزل من زحافته وذهب نحو زحافة ناتاشا واعتلى طرف المزلقين. قال لها بالفرنسية وبصوت خفيض:

ـ ناتاشا، أتعرفين، لقد اتخذت قراراً بصدد سونيا.

سألت ناتاشا وقد أشرق وجهها سروراً: هل كلمتها؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ كم أنت مضحكة بهذين الشاربين وهذين الحاجبين!... هل أنت مسرورة؟

ـ نعم، مسرورة جداً. أتدري أنني كنت خائفة عليك؟ لم أكن أحدثك بالأمر ولكنك كنت تتصرف حيالها تصرفاً سيئاً. إن لها قلباً طيباً يا نيكولا. كم أنا مسرورة! إنني خبيثة أحياناً. لكنني كنت أخجل من أن أكون سعيدة وحدي. أما الآن، ها أنا سعيدة. هيا، عد بسرعة إلى جانبها.

كرر نيكولا وهو ينظر إليها دائماً ويكتشف في ملامحها أيضاً شيئاً خارقاً للعادة فاتناً لم يلحظ مثله من قبل: لحظة...! كم أنت مضحكة! ناتاشا، إنه لون من السحر أليس كذلك؟

أجابت: نعم، ولقد أحسنت التصرف جيداً.

قال نيكولا في سرّه: «لو أنني رأيتها من قبل كما هي اليوم لسألتها النصح منذ زمن طويل وعملت كل ما تشير به عليّ ولسار كل شيء على أفضل ما يمكن».

ـ إذن، أنت مسرورة وقد أحسنت صُنعاً؟

ـ آه! نعم، كم أحسنت الصنع! لقد تحدثت أخيراً مع «ماما» حول هذا الموضوع. كانت «ماما» تزعم أن سونيا تغريك وتلاحقك. كيف يمكن أن يقال مثل هذا القول؟ كدت أتنازع مع ماما. ولن أسمح لكائن من كان أن يسيء بالقول إلى سونيا أو أن يفكر فيها بسوء لأن كل شيء كامل فيها.

سأل نيكولا مرة أخرى وهو يتفحص قسمات وجه أخته ليتأكد أنها تنطق بالصدق: إذن، لقد أحسنت صنعاً؟

ثم صفق بحذاءيه العاليين وقفز من زحافة ناتاشا ليلتحق بزحافته. وجد فيها ذلك الشركسي الباسم نفسه، ذا الشاربين، والعينين البراقتين، الذي ينظر

www.Maktbah.com

إليه من تحت قلنسوة السمور. وكان ذلك الشركسي هو سونيا، وسونيا تلك، ستكون ذات يوم زوجته السعيدة حتماً.

لما وصلوا إلى المنزل، قصت الفتاتان على الكونتيسة كيف أمضتا الوقت عند آل ميليوكوف، ثم انسحبتا إلى جناحهما. وبعد أن خلعتا أزياءهما وتركتا الشوارب، لبثتا فترة طويلة تتحدثان عن السعادة الزوجية المقبلة: سوف يتفاهم زوجاهما معاً تفاهماً كلياً وستكونان سعيدتين تماماً. وعلى الطاولة، كانت بعض المرايا التي هيأتها دونياشا خلال السهرة. قالت ناتاشا وهي تقترب منها:

ـ متى سيحدث كل هذا؟... لعله لن يقع أبداً، أنا شديدة الخوف من ذلك... سوف يكون منتهى الروعة!

قالت لها سونيا: اجلسي يا ناتاشا، لعلك ترينه فعلاً.

أضاءت ناتاشا الشموع وجلست. قالت وهي ترى وجهها:

ـ إنني أرى بعضهم بشاربين.

قالت دونياشا منبهة:

ـ يجب ألّا تضحكي يا آنسة.

وجدت ناتاشا بمساعدة سونيا والوصيفة، الوضعية المناسبة للمرآة الأولى، فاتخذت سحنة جدية واستغرقت في صمت حازم، بقيت فترة على تلك الحال تحدق إلى صف الشموع التي كانت تنأى متباعدة في المرايا، وتتصور، استناداً إلى الأقاصيص التي رويت لها، أنها سترى تابوتاً حيناً و«هو» الأمير أندريه حيناً آخر في المربع الأخير حيث يختلط كل شيء فيه بشكل غريب. لكنها مهما بلغ استعدادها لاعتبار أصغر بقعة فوق المرآة تابوتاً أو وجهاً بشرياً، لم تر شيئاً مطلقاً. بدأ جفناها يضطربان وقالت:

ـ كيف يحدث أن الآخرين يرون بينما أنا لا أرى شيئاً مطلقاً؟ هيا يا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سونيا، اجلسي مكاني. اليوم يومك. وإلا فلا... لكن انظري من أجلي... إنني شديدة الخوف.

جلست سونيا إلى المرآة وأخذت تحدق إليها بعد أن أعطتها الزاوية المناسبة قالت دونياشا بصوت خفيض: سترى صوفي ألكسندروڤنا حتماً شيئاً ما. وإذا كنت لا ترين شيئاً فما ذلك إلا أنك ضاحكة أبداً.

سمعت سونيا تلك الكلمات وجواب ناتاشا المدمدم.

ـ نعم، أنا أعرف تماماً أنها سترى شيئاً. لقد رأت شيئاً ما في العام الماضي أيضاً.

تابعت ناتاشا بصوت خفيض بعد دقائق من الصمت: بلا شك!

لكنها لم تجد الوقت الكافي للاسترسال لأن سونيا دفعت المرآة التي كانت تحملها فجأة وغطت عينيها بيدها. صاحت: آن! ناتاشا!

صاحت ناتاشا وهي تسند المرآة: هل رأيت؟ هل رأيت؟ ماذا رأيت؟

لم تر سونيا شيئاً، فكانت تريد أن تريح نظرها فقط. بل إنها همت بالنهوض حينما تمتمت ناتاشا بكلمتها «بلا شك»... لم تكن تريد أن تخدع لا ناتاشا ولا دونياشا وكانت تحس بالتعب لطول جلوسها. بل إنها كانت تجهل سبب صيحتها تلك وحجبها عينيها بيدها.

سألتها ناتاشا وهي تمسك بيديها.

ـ أهو «هو» الذي رأيته؟

أجابت سونيا مغامرة وهي لا تدري تماماً من كانت تعنيه ناتاشا بكلمة «هو»، أكان أندريه أم نيكولا:

ـ نعم... انتظري... إنه هو الذي رأيته.

فكرت في نفسها: «ثم، لماذا لا أقول إنني رأيت شيئاً؟ إن ذلك يحدث لكثير من الآخرين. ثم من الذي يستطيع إقناعي بغشي»؟

www.Maktbah.com

قالت: نعم، لقد رأيته.

ـ وكيف رأيته؟ واقفاً أم مستلقياً؟

ـ انتظري... بادئ الأمر لم يكن هناك شيء، ثم رأيته مستلقياً.

سألت ناتاشا وهي تحدق إلى ابنة عمها بعينين مذعورتين: أندريه مستلقياً؟ أهو مريض؟

أجابت سونيا التي أصبحت الآن تعتقد أنها رأت بالفعل ما تتحدث عنه:

ـ كلا، على العكس. لقد كان مسروراً جداً. وقد نظر إليّ.

ـ آه! وبعد؟

ـ وبعد، لم أميز كل شيء... كان هناك شيء أحمر وأزرق.

ـ سونيا، متى يعود؟ متى أراه مجدداً؟ يا إلهي، كم أخشى من أجل نفسي... إن كل شيء، كل شيء يخيفني...

استلقت ناتاشا على سريرها دون أن تجيب عن كلمات صديقتها المطمئنة، وظلت فترة طويلة بعد إطفاء الشموع، جامدة في مكانها، مفتوحة العينين، تتأمل ضوء القمر البارد خلال النوافذ المغطاة بالصقيع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

أعلن نيكولا لأمه حبّه لسونيا وعزمه على الزواج بها، بعد انقضاء أعياد الميلاد. استمعت إليه الكونتيسة، التي كانت تلاحظ حركاتهما منذ فترة طويلة وتتوقع تلك المسارّة، بصمت حتى أكمل حديثه ثم صرحت له بأنه يستطيع الزواج بمن يشاء، لكنها لا هي ولا زوجها، لن يؤيدا مثل هذا الزواج. ولأول مرة في حياته، رأى نيكولا أن أمه غير راضية عنه وأنه رغم كل الحب التي تكنه له، ما كانت توافق أو تلين. أرسلت تستدعي الكونت بلهجة باردة ودون أن تمنح ابنها نظرة واحدة. فلما وصل هذا الأخير، حاولت أن تفسر له الأمر باختصار متصنعة الهدوء. لكنها لم تستطع تمالك نفسها، فذرفت الدمع من الغضب وانسحبت. راح الكونت يؤنب نيكولا بلهجة مترددة ويتوسّل إليه أن يعزف عن مشروعه. فلما رفض هذا التنكر لوعده الذي قطعه، أمسك الأب عن الإلحاح، ولحق بالكونتيسة وهو يتنهّد خجلاً. بات الكونت عند أتفه نزاع يقع بينهما، يشعر بأنه جنى على ولده بتبديده ثروته. فما كان يستطيع إذن أن يحقد عليه لأنه فضل فتاة دون بائنة على وارثة غنية. كان يرى في تلك المناسبة بوضوح أكثر، أن ثروته لو لم تبذر، كان يجدر لابنه زوجة أفضل من سونيا، وأن المذنب الحقيقي بالتالي، هو نفسه وميتانكا وكيل خرجه وعاداته التي لا يرجى لها تبديل.

لا الأب ولا الأم لم يعودا، منذ ذلك اليوم، يلمحان بكلمة إلى موضوع الزواج أمام ابنهما. لكن الكونتيسة استدعت سونيا بعد بضعة أيام وراحت

www.Maktbah.com

تأخذ عليها بقسوة ما كانت هذه أو تلك تنتظرها، إنها أغرت ابنها وعقت بذلك محسنيها. كانت سونيا تصغي صامتة مطرقة الرأس إلى توبيخ الكونتيسة القاسي دون أن تفهم قصدها منه. كانت على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل المحسنين إليها، لأن فكرة التضحية كانت حاضرة أبداً في رأسها، لكنها في الوقت الحاضر، لم تكن تدري من أجل من تضحي بنفسها. كانت تحب نيكولا كذلك ولا يجهل أن سعادته تتوقف على هذا الحب. لذلك فقد حبست نفسها في صمت يائس ولقد قدر نيكولا أن الموقف لا يحتمل لذلك فقرر التفاهم مع أمه حول هذا الموضوع. توسل إليها بادئ الأمر أن تصفح عنهما، عنه وسونيا، وأن تمنحهما رضاها، ثم هددها بأنه سيتزوج سونيا فوراً وبالسر إذا حاولوا تعذيبها.

ببرودة لم يعهد مثلها من قبل أجابته الكونتيسة، بأنه بلغ رشده وأنه يستطيع كالأمير أندريه أن يتزوج دون موافقة أبيه، لكنها لن تعتبر أبداً «هذه العاقة» ابنة لها.

أغضبته كلمة «عاقة» فرفع نيكولا صوته وقال لأمه إنه ما كان ليظن إطلاقاً بأنها تحرضها على بيع نفسها، ولما كان الأمر كذلك، فإنه يخطرها لآخر مرة أنه...

غير أنه لم يجد الوقت الكافي للنطق بالكلمة الحاسمة التي كانت الأم إذا حُكم على تعبيرات وجهه، تنتظرها بهول، والتي كان يمكن أن تترك ذكرى مريعة في النفوس. ذلك أن ناتاشا ظهرت على عتبة الباب شاحبة الوجه صارمة الأسارير، وقد سمعت من مكانها كل شيء. صاحت: نيكولا، إنك تنطق بالحماقات، صه، صه! أكرر القول: صه!... ثم استرسلت بصوت أقرب إلى الصراخ لتخنق صوت أخيها:

أماه، يا أمي الحبيبة، أمي الحبيبة، إن الأمر لا يتعلق أبداً بـ...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت الأم تنظر برعب إلى ابنها وتشعر بقرب وقوع انفصال نهائي بينهما. لكن عنادها لم يكن يسمح لها بالاستسلام. قالت ناتاشا لأخيها: انسحب يا نيكولا، سأشرح لك كل شيء، وأنت يا أمي العزيزة أصغي إلي...

وعلى الرغم من أن كلماتها لم تكن تحمل أي معنى، فإنها مع ذلك أصابت الهدف: أخفت الكونتيسة رأسها في صدر ابنها وهي تجهش بالبكاء بينما نهض نيكولا منسحباً وهو ممسك برأسه بين يديه.

وجهت ناتاشا مشروع الصلح توجيهاً حسناً: وعدت الكونتيسة ابنها ألّا تضطهد سونيا فوعد في المقابل ألّا يفعل شيئاً في السر دون أن يطلع أبويه عليه.

التحق نيكولا، في أوائل كانون الثاني، وهو شديد الندم على النزاع الذي بينه وبين عائلته، بفيلقه وهو عازم أكيداً على أن يصفي كل مشاكله ثم يستقيل ويتزوج سونيا التي كان مدنفاً بحبها فور عودته.

إن رحيل نيكولا أغرق بيت روستوف في حزن شديد ومرضت الكونتيسة على أثر انفعالها. كانت سونيا تتألم لفراقها نيكولا وكذلك للهجة الكونتيسة الدائبة التي لم تكن هذه تستطيع كتمانها. أما الكونت فأصبح أشد قلقاً لسوء أحواله المادية التي كانت تتطلب مزيداً من التدابير الحازمة. فبيع قصر في موسكو أو الأراضي الزراعية المجاورة لهذه المدينة يقتضي السفر إلى مكان العقار نفسه. لكن صحة زوجه الرديئة كانت تلجئه إلى تأجيل السفر يوماً بعد يوم.

بدأت ناتاشا التي احتملت الأشهر الأولى لغياب خطيبها بسهولة بل بمرح، تزداد انفعالاً ساعة بعد ساعة. كانت فكرة انقضاء أجمل أيامها التي يمكنها قضاؤها في حبه بنجاح، هباء ودون جدوى. وكانت رسائل أندريه يزيد معظمها في ثورتها. كانت تحدث نفسها بمرارة بأنها في حين لا تعيش إلا في

www.Maktbah.com

التفكير فيه، يعيش هو، حياة كل الناس، فيرى بلداناً جديدة ويرتبط بمعارف جدد، ويتسلى بصحبتهم ومخالطتهم وكلما ازدادت رسائله في بيان اهتمامه، سببت لها غضباً زائداً. لم تكن تحب كذلك أن تكتب إلى خطيبها، لأنها لا ترى في ذلك إلا عملاً مبتذلاً: إذ كيف يمكن التعبير كتابة عما يمكن لفهمها أن يقوله بكل يسر وإجادة وأن تنبئ به ابتسامتها ونظرتها؟ لذلك فقد كانت تكتب له رسائل مملة، رسائل «كلاسيكية» لم تكن تعلق عليها شخصياً أية أهمية، تصحح أمها أخطاء الإملاء الواردة فيها على المسودة.

ورغم مضي بعض الوقت، لم تسترد الكونتيسة صحتها، بينما بات يستحيل إرجاء السفر إلى موسكو أكثر من ذلك. كان يجب تهيئة لوازم العرس، وبيع البيت. وكان يُتوقع أن يذهب الأمير أندريه إلى موسكو مباشرة، حيث يقضي أبوه العجوز الشتاء. بل إن ناتاشا كانت تعتقد جازمة بأنه وصل إلى موسكو بالفعل.

وهكذا، بقيت الكونتيسة في الريف، بينما سافر زوجها برفقة سونيا وناتاشا إلى موسكو في أواخر كانون الثاني.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الجزء الثامن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

شعر پيار فجأة وبدون سبب، بعد خطبة الأمير أندريه ناتاشا، باستحالة متابعة حياته كالسابق. على الرغم من تعلقه الشديد بالحقائق التي أطلعه عليها المحسن إليه ورغم المسرات العميقة التي سببها له بحثه المحموم عن الكمال الداخلي، فإن إعلان تلك الخطبة وعلى الخصوص موت جوزيف ألكسييڤيتش الذي بلغه في الوقت نفسه تقريباً سلبا كل رونق الحياة التي كان يعيشها. لم يعد يرى فيها إلا القشور: قصره وزوجته دائمة الشهرة، المالكة لالتفاتات شخصية مرموقة، وعلاقاته في كل پيترسبورغ ثم منصبه في البلاط بكل إجراءاته المضجرة. استبد به اشمئزاز مفاجئ فتوقف عن التدوين في مذكراته وتجنب صحبة الإخوان وعاد يرتاد النادي ويفرط في الشراب ويعاشر العزاب وبالاختصار، بدأ يتصرف بشكل جعل الكونتيسة ليكلين تعتقد بضرورة توجيه لوم عنيف إليه. اعترف پيار أنها على صواب وانسحب إلى موسكو تفادياً لتعرضها للوم.

عندما وجد نفسه مجدداً في قصره الفسيح الآهل بعدد وفير من الخدم الذي تقطنه الأميرات اللواتي ازددن شبهاً بالمومياء بمرور الزمن، وعندما رأى مجدداً وهو يخترق المدينة كنيسة «عذراء إيبيريا» ذات الأضواء التي لا تحصى والشموع التي تشع أمام التماثيل المقدسة المكسوة بالألبسة المذهبة، وساحة الكرملين بثلجها الناصع، وشارع «راڤان سيڤتسوف» بعرباته وأطلاله، وعندما جدد اتصالاته بأولئك العُجّز الذين كانوا ينهون حيواتهم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الطويلة بتمهل واطمئنان، وبسيدات موسكو الطيبات، وبالحفلات الراقصة وبالنادي الإنكليزي، شعر أنه عاد أخيراً إلى قاعدته. كانت موسكو بالنسبة إليه المعطف المنزلي القديم المريح الناعم القذر بعض الشيء الذي أصبح ارتداؤه عادة مألوفة لصاحبه غالية عليه.

وابتداء بالعجائز وحتى الأطفال استقبل مجتمع موسكو پيار استقبال الضيف المنتظر منذ وقت طويل الذي لا يزال مكانه محفوظاً. كان پيار في نظرهم أحن وأكرم شخصية أصيلة وأكثرها فتنة ومرحاً، ومثالاً لشخصية الشريف الروسي عريق النسب الطيب. كان كيس نقوده خاوياً دائماً لأنه مفتوح لكل الناس.

وعندما كان الأمر يتعلق بتمثيليات ذات ريع أو بلوحات أو بتماثيل مكروهة أو بمدارس أو حفلات لجمع التبرعات أو بتبرعات للمحافل الماسونية والكنائس أو نشر مؤلفات، فإنه ما كان أبداً يجفو أحداً. ولولا ثلاثة أصدقاء كانوا يقترضون منه مبالغ كبيرة فارضين وصايتهم عليه، لوزع پيار كل شيء. ففي النادي لم تكن تقام حفلات ولا ولائم بدونه. فما إن يبتلع زجاجتين من خمرة «شاتو ماجو» حتى ينهار على كنبته المفضلة، فتعقد حوله حلقة ويشرع في القصص والمناقشات والأحاديث المسلية. وإذا ما قامت منازعة هدأها بابتسامته الطيبة أو بدعابة مستملحة. أما المحافل الماسونية فكانت تفقد كل حيوية إذا لم يكن حاضراً فيها.

وعندما كان ينصاع لإلحاح الجماعة المرحة في أعقاب عشاء خاص بالشباب فينهض بابتسامته لمرافقتهم، كانت صيحات الفرح تدوي بين الشباب. وفي الحفلات الراقصة لم يكن يرفض الرقص إذا كان هناك راقصة دون مراقص: كان يروق الفتيات والسيدات الشابات لأنه كان يظهر حيالهن

www.Maktbah.com

جميعاً ودوداً بشوشاً دون أن يغازل إحداهن وخصوصاً بعد العشاء. فكن يقلن عنه: «إنه فتان لا يميل إلى الجنس».

وبالاختصار كان پيار صورة حية لحجاب البلاط العاطلين الذين ينهون أيامهم بالمئات هانئين في موسكو.

عندما رجع من الخارج، كان يرتعد غضباً لو أن أحدهم قال له قبل سبع سنين، أنه لا يرى شيئاً يبحث فيه أو يتخيله وأن طريقه قد سطر منذ الأزل أنه مهما فعل سيبقى حتماً ما يمكن لغيره أن يكون عليه لو كان في مثل موقعه! لو قالوا له مثل ذلك لما صدق أذنيه! أوليس هو الذي رغب تارة من صميم قلبه أن يقيم الجمهورية في روسيا ورغب تارة أخرى أن يكون ناپليوناً أو فيلسوفاً أو المفكر المدبر الذي سيهزم الأمبراطور؟ ألم يكن هو الذي اعتقد بإمكانية تجديد الجنس البشري الفاسد وتمنى ذلك بكل شغف وعمل على اكتساب الكمال التام لنفسه؟ أليس هو الذي أنشأ المدارس والمستشفيات وأعطى الحرية لفلاحيه؟

إلى أي شيء انتهى به كل هذا؟ لقد أفضى به الأمر بكل بساطة إلى أن يكون زوجاً مؤثراً لامرأة غير مخلصة وحاجب شرف وهاو للأطعمة الفاخرة يسخر عن طيب خاطر بعد الشراب، بالدولة، وعضواً متنفذاً في النادي الإنكليزي وعضواً في المجتمع الموسكوفي وبالاختصار، واحداً من أولئك الرجال الذين لم يكن يجد في نفسه مزيداً من الاحتقار لهم منذ سبع سنين. بقي مدة طويلة لا يستطيع استساغة هذه الفكرة. كان أحياناً يعزي نفسه بقوله إن هذا النوع من الحياة ليس إلا موقتاً. لكنه بعدئذ يفكر بارتياع في عدد الناس الذين سلكوا موقتاً هذا المسلك مثله وسقطوا في هذا النادي بكل شعورهم وأسنانهم ليخرجوا منه فيما بعد وقد فقدوا شعرهم وأسنانهم معاً.

كان يعتقد، في ساعات الكبرياء، مختلفاً كل الاختلاف عن أولئك

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الحجاب الذين كان يحتقرهم في الماضي، أولئك المخلوقات الحمقى المبتذلة الراضية عن نفسها بغباوة. فيفكر: «أنا، على العكس، ما زلت غير راضٍ عن شيء، أرغب دائماً في صنع شيء ما لخير الإنسانية». لكنه في ساعات التواضع كان يقول لنفسه: «لكن من يدري؟ إنهم هم أيضاً، زملائي، قد جاهدوا مثلي بدون شك وحاولوا أن يشقوا في الحياة طريقاً خاصة بهم ثم وصلوا إلى النقطة التي وصلت إليها أنا تحت ضغط الظروف والبيئة والمنشأ، وهي تلك القوة البدائية التي لا يستطيع الإنسان لها دفعاً». وبعد زمن ما من إقامته في موسكو، أصبح يحب رفاقه في المحنة ويقدرهم ويرثي لهم دون أن يفكر إطلاقاً في احتقارهم.

صحيح أن پيار تخلص من نوبات اليأس العنيفة والسويداء واحتقار الحياة. لكن اضطرابه وبلباله المكبوتين في داخله كانا يعذبانه بشدة. كان يتساءل مرات عديدة في اليوم وهو يضطر بالرغم منه إلى تمحيص أحداث الحياة: «ما هي غاية كل هذا؟ أية إساءة تمثل على مسرح الحياة؟» ولما كان يعرف بالتجربة أن أسئلة كهذه تبقى دون جواب، فقد كان يحول فكرته فوراً سواء بأخذ كتاب أو بالنفور إلى النادي أو باللجوء إلى جو من الثرثرة عند أپولون نيكولاييڤتش.

كان يقول في سرّه: «إن هيلين ڤاسيليڤنا التي لم تحب إلا جسدها والتي هي حمقاء تماماً، تظهر في نظر الناس على صورة معجزة الفكر وإن ناپليون بوناپرت رأى نفسه محتقراً من كل الناس، طوال الوقت الذي كان فيه رجلاً عظيماً. لكنه ما إن أصبح مشعبذاً يثير الرثاء، حتى سعى الأمبراطور فرانسوا وراء شرف منحه أخته على شكل سرية. والإسبانيون، بواسطة رجال الكهنوت الكاثوليك، يشكرون الله الذي منحهم النصر على الفرنسيين في الرابع عشر من حزيران، بينما الفرنسيون من جانبهم، يمارسون مثل هذا

www.Maktbah.com

العمل وبواسطة رجال الكهنوت أنفسهم، لأنهم هزموا على الدم ولأنهم على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل أخيهم الإنسان، بينما لا يدفعون روبلاً واحداً عند التبرعات. وفي المقابل يشاركون في دسائس «أستره» ضد «الباحثين عن المن» ويبذلون أقصى طاقتهم للحصول على البساط الإيكوسي الحقيقي الذي لا يعرف أحد عن معناه شيئاً حتى ولا واضعه. إننا جميعاً بنشر القانون المسيحي بالصفح عن الإساءات وحب الغير، وتنفيذاً لهذا القانون، أقمنا في موسكو وحدها أربعين كنيسة. مع ذلك، فنحن بالأمس فقط، حكمنا على جندي فار بالجلد بالسياط حتى الموت. فجاء الكاهن، وزير هذا القانون القاضي بالحب والصفح، وقدم الصليب لهذا الرجل ليقبله قبل الموت».

وكلما فكر پيار، على هذا النحو، أدهشته تلك المداهنة المقبولة من كل الناس رغم اعتيادها وكأنه يكتشفها للمرة الأولى. كان يحدث نفسه: «إنني أحس بهذا الرياء، هذه المضلة الخلقية التي نضيع فيها. ولكن كيف أفسر للآخرين كل ما أحس به؟ لقد حاولت ولاحظت دائماً أنهم في أعماق نفوسهم يشاركونني في الرأي. لكنهم يرفضون رؤية هذه الأكذوبة. لا شك أنه يجب أن يكون الأمر كذلك؟ ولكن أين أجد أنا لنفسي ملجأ؟».

وكما هي العادة عند كثير من الناس، وبصورة خاصة الروس، كان يمتاز بالإيمان بالحق والخير. لكنه في الوقت نفسه، يمتاز كذلك بنفاذ البصيرة لرؤية الشر والكذب منتشرين حوله. وهذه المزية كانت تحول دونه والاندفاع جدياً في معترك الحياة. كان كل لون من ألوان النشاط ملطخاً في نظره بالشر والكذب. وأي عمل بدأ به، لا يلبث الشر والكذب أن يرداه عن إتمامه، وهكذا كانت كل الطرق مغلقة أمامه على هذا النحو. مع ذلك، كان يجب أن يعيش عيشاً طيباً وأن يشغل نفسه في شيء. لقد كانت تلك الأسئلة متعذرة الحل شديدة التضييق على نفسه حتى أنه عاد إلى مزاولة أعماله السابقة لا لشيء

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلا لنسيانها. أخذ يرتاد المحافل العائدية والأندية ويشرب بكثرة ويجمع اللوحات وينصرف إلى القراءة غالباً.

كان يقرأ كل ما يقع تحت يده. فإذا عاد إلى منزله، لا يكاد خادمه يفرغ من نزع ثيابه حتى تكون يده قد تناولت كتاباً. ومن القراءة ينتقل إلى النوم ومن النوم إلى هذر الصالونات والأندية ومن الثرثرات إلى الإفراط في الأكل ومن هذا إلى الثرثرات فالقراءة فالخمر. أصبحت الخمرة ضرورة جسدية وفكرية تزداد قيمتها يوماً بعد يوم. استمر يفرط في الشراب رغم أن الأطباء نصحوا له مراراً باجتنابه لأنه خطر عليه بسبب متانة بنيانه. وما كان يشعر بالراحة الحقيقية إلا بعد أن يغيب في فمه الرحيب عدة أقداح من الخمر بصورة أقرب إلى اللاشعور. وحينئذ يشعر بدفء لذيذ يعم كل جسمه وبشعور من الحنان تجاه أمثاله من بني الإنسان واستعداد للمس كل المسائل دون أن يتعمق في واحدة منها. وعندما يشرب زجاجة أو زجاجتين، يرى بإبهام أن تلك العقدة شديدة التعقيد التي هي الحياة، التي تملأه رعباً عادة ليست من الهول بالقدر الذي يتصوره. لأن تلك العقدة الرهيبة كانت تراود أفكاره أثناء الثرثرة كما تراودها خلال القراءة بعد الأكل، وتدوي في رأسه باستمرار. فما كان غير تأثير الخمرة يجعله يقول لنفسه: «إنه تافه، سأتدبره. بل إن عندي تفسيراً قائماً، لكن اللحظة غير مناسبة، سأفكر في الأمر فيما بعد». لكن «فيما بعد» هذه، ما كانت تصل إطلاقاً.

بعد أن تتبدد أبخرة الخمرة، في اليوم التالي، تعود الأسئلة إلى ذاكرته مجدداً أشد ما تكون تعقيداً واستحالة على الحل، مرعبة كعادتها. فيبادر فوراً إلى أخذ كتاب ويظهر غبطة كبيرة إذا تلقى زيارة بعضهم.

في بعض الأحيان، يخطر بباله أنه سمع بعضهم يقول إن الجنود في الخطوط الأمامية تحت النار يدأبون في إيجاد مشاغل لهم ليتسنى لهم نسيان

www.Maktbah.com

الخطر بسهولة. ويخيل إليه حينئذ أن كل الناس يتصرفون مثل أولئك الجنود: إنهم ينجون من الحياة بانصرافهم إلى حب الرفعة أو المقامرة أو النساء أو التسلية أو الخيول أو الصيد أو الخمرة، هؤلاء بوضع القوانين وهؤلاء بالاهتمام بالشؤون العامة. فيفكر: «وفي النتيجة، لا شيء يهمل ولا شيء يستحق الاهتمام كذلك وكل شيء تافه، لو أنني استطعت فقط أن أنأى عن كذب الحياة وأتجنب هذه الرؤية القبيحة!».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

جاء الأمير نيكولا أندرييڤيتش بولكونسكي في بداية الشتاء يصطحب ابنته ليقيم في موسكو. ولم يلبث بالنظر إلى محتده وماضيه وبصورة خاصة بفضل هبوط الحماسة التي سبّبها وصول ألكسندر والشعور العدائي للفرنسيين الذي كان سائداً في المدينة حينذاك، أن أصبح موضع احترام خاص من قبل الموسكوڤيين ومركز المعارضة ضد الدولة.

شاخ الأمير في تلك السنة. فالغفوات المفاجئة ونسيان حوادث حديثة العهد مع تذكر وقائع عريقة في القدم والزهو الصبياني حقاً الذي تقبله دور رئيس المعارضة الموسكوڤية، كانت كلها دلائل واضحة على الشيخوخة. مع ذلك فقد كان العجوز إذا ما ظهر مساء، وبصورة خاصة في موعد الشاي، واضعاً فروته وشعره المستعار المذرور، وأثير من قبل أحدهم فإنه كان يتحدث بصوته المرتفع عن وقائع العصر الفائت ويخلص منها إلى الحكم على العهد أحكاماً أشد حزماً، الأمر الذي كان يوحي إلى كل المدعوين بشعور مماثل من الاحترام. وهذا النزل القديم بمراياه الهائلة وأثاثه الذي يعود إلى ما قبل «الثورة» وخدمة ذوي الشعر المستعار، وهذا الشيخ من القرن الماضي الخشن ولكن محتدم الفكر الذي تمالقه ابنته الوادعة و«فرنسيته» الجميلة، كل هذا كان يتيح للزائرين مشهداً جذاباً. لكن الزائرين لم يفكروا قط في أن هناك اثنتين وعشرين ساعة من الحياة الخاصة فضلاً عن الساعتين اللتين يقضونهما في المنزل.

www.Maktbah.com

أصبحت تلك الحياة الخاصة في الآونة الأخيرة شديدة النصب على الأميرة ماري. ففي موسكو، لم تكن في الحقيقة تنعم بالامتيازات الكثيرة والمسرات التي تتيحها المدينة الكبيرة بعد أن حُرمت من أفضل مباهجها التي تقوم على علاقاتها مع «رجال الله» وجمع حواسها في الوحدة وهي المتع التي كانت تزكي شجاعتها في ليسيياغوري. لم تكن تختلط قط بالمجتمع: كانوا يعرفون أن أباها لا يسمح لها بالخروج وحيدة وأنه بسبب سوء حالته الصحية لا يستطيع أن يرافقها، لذلك كفوا عن دعوتها. وقد اضطرت إلى العزوف عن كل أمل في الزواج، بعد أن لاحظت البرودة والعبوس اللذين كان أبوها يستقبل ويصرف بهما الشبان الذين يتوقع أن يطلبوا يدها والذين كانوا أحياناً يغامرون بدخول المنزل. كذلك لم يعد لها صديقات لأن موسكو نزعت منها ما كانت تتوهمه بصدد شخصين كانت تعتبرهما حتى ذلك الحين مثالاً للصداقة.

فالآنسة بوريين التي لم تكن ماري تثق بها كثيراً على أية حال، أصبحت الآن تثير نفورها، فراحت لأسباب خاصة تبعدها أكثر فأكثر. وجولي التي كانت تسكن في موسكو والتي ظلت تتراسل معها طوال خمسة أعوام، أصبحت الآن غريبة عنها تماماً إن تقابلتا كلتاهما مقابلة مباشرة. لأن جولي التي جعلها موت إخوتها تصبح من أغنى وارثات موسكو، استسلمت بكليتها لإعصار المناهج العصرية. كانت محاطة دائماً بزمرة من الشبان الذين فتحوا عيونهم فجأة على مختلف مواهبها كما كانت تعتقد. لقد كانت في تلك السن التي تشعر الأوانس الناضجات فيها أن الوقت قد حان ليجربن آخر سهم في جعبتهن، وأن مصيرهن يجب أن يُقرر الآن أو تفوت الفرصة إلى الأبد. وفي كل يوم خميس من الأسبوع، كانت الأميرة ماري تتذكر بابتسامة كئيبة أنه لم يعد إليها الآن من تكتب إليه لأن جولي، هذه التي أصبح وجودها لا يسبب

twitter @baghdad_library

لها أي فرح، كانت هنا، وأنهما تلتقيان كل أسبوع. كذلك المهاجر العجوز الذي رفض الزواج بالسيدة التي أمضى كل أمسياته عندها طوال سنوات كاملة، لذلك أصبحت ماري الآن تأسف أن تكون جولي قريبة منها، الأمر الذي يحرمها كل تسارّ.

مع من تستطيع الآن أن تتناجى، ومن تشاطره أحزانها التي طلب إليها أن تنتهي منها لتقبل زواجه كانت أبعد من أن تنجز: لقد كان اسم الكونتيسة روستوف وحده كفيلاً بأن يخرج الأمير العجوز عن طوره وهو الذي كان على أية حال على مزاج قاتل بصورة مستمرة تقريباً.

أضف إلى ذلك أن الدروس التي كانت تعطيها لابن أخيها الذي بلغ السادسة من عمره، أصبحت هي الأخرى تسبب لها هماً جديداً. بدأت تلاحظ أنها أصبحت سريعة الغضب على غرار أبيها. وكلما كانت تمسك بالحكك والألفبائية الفرنسية لتلقين ابن أخيها الدرس، كانت تقسم في سرها على ألّا تنفعل، وخصوصاً أن الطفل كان يخاف سلفاً أن يغضب عمته. لكنها في تعجلها في تعليم نيكولا وتلقينه كل ما تعرفه هي نفسها، كانت تثور لأتفه خطأ من الطفل فتفقد الصبر وترفع صوتها، وأحياناً تجذبه من ذراعه وتضعه في الزاوية لكنها ما إن تنفذ تلك العقوبة حتى تغرق في دموعها حزينة على خبثها. وحينئذ ينشج نيكولا بدوره لمجرد المحاكاة ويترك الزاوية دون إذن ويأتي إلى جوار عمته فيزيح عن وجهها يديها المبللتين بالدموع ويعزيها.

أخيراً، وهنا أشد أحزانها، كان الأمير العجوز يصب عليها جام غضبه دائماً. أصبحت قسوته المألوفة نوعاً من الوحشية. فلو أنه أجبرها على الركوع كل الليل أمام الصور المقدسة وأن تنقل الخشب والماء، فإنها لم تكن تجد ذلك عسيراً عليها. لكن ذلك الجلاد المحب، أشد الجلادين قسوة لأنه يحبها ويؤلم نفسه بالمثل في تعذيبها، لم يكن يكتفي بإغاظتها وإذلالها، بل راح

www.Maktbah.com

يقنعها بأنها مخطئة دائماً وفي كل شيء. ومنذ وقت ما، أخذ حادث جديد، وهو اهتمام أبيها المتزايد بالآنسة بوريين، يزيد في عذاب ماري وإيلامها. أعلن الأمير مازحاً بعد أن اطلع على نيات ولده، أنه سيتزوج بالآنسة بوريين، فأصبح الآن يتلذذ بذلك الاحتداد لمجرد إزعاج ماري وتجريحها، أو أن هذا أقله ما كانت تظنه وهي تراه يظهر نحوها مزيداً من الانفعال لقاء المزيد من التودد الظريف إلى الفرنسية.

وذات يوم في موسكو، وبحضور ماري التي فهمت أن أباها إنما يتعمد ما فعل، قبّل الأمير العجوز يد الآنسة بوريين وجذبها إليه ثم طوقها وراح يمطرها بقبله. احمرّ وجه ماري وهربت إلى غرفتها. وبعد برهة وجيزة، جاءت الآنسة بوريين إليها باسمة الوجه واعتقدت أنها ستثيرها بثرثرتها. لكن ماري سارعت تمسح دموعها ومشت إليها بخطى حازمة ودون أن تدرك ما تصنع، صاحت في وجهها وهي ترتجف من الغضب: «إنها بشاعة، صاحت في وجهها إنها دناءة، إنها مخزية أن ينتهز ضعف...» لكنها لم تكمل جملتها بل صاحت آمرة خلال دموعها: «أخرجي من هنا، أخرجي!...».

وغداة اليوم التالي، لم يحدثها الأمير بكلمة. لكنها لاحظت أنه أعطى الأمر على المائدة بأن تقدم الأطعمة إلى الآنسة بوريين قبل غيرها. وعند انتهاء الطعام، سكب خادم المائدة القهوة بادئاً بسيدته الشابة تماشياً مع مألوف عادته. وعندئذ دخل الأمير غاضباً وألقى بعكازه على رأس فيليب وأعطى فوراً أمراً بإدخاله في الجندية. صاح وهو في موجة من الغضب:

ـ ألم تسمع؟... لقد قلت ذلك مرتين!... آه! إنك لم تسمع؟... الآنسة هنا تأتي في المقام الأول. إنها أفضل صديقة لي.

وأضاف يخاطب ابنته التي وجه إليها الحديث لأول مرة منذ الأمس: أما أنت، إذا سمحت لنفسك مرة أخرى أن تفقدي اتزانك أمامها، سأريك من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

هو السيد هنا. أخرجي من هنا، واعملي على أن لا أراك بعد الآن. واسأليها الصفح!

اعتذرت ماري من الآنسة بوريين ولأبيها ثم حصلت منه على صفحه عن الخادم فيليب الذي توسل إليها أن تتوسط من أجله.

ففي حالات كهذه، كانت ماري تشعر بإحساس يعتلج في نفسها يمكن تسميته بكبرياء التضحية... ذلك الأب الذي سمحت لنفسها بذمه، كان يفتش الآن عن نظارتيه مستعيناً باللمس دون أن يراهما إلى جانبه وينسى ما وقع منذ فترة قصيرة، ويخطو خطوة متعثرة ثم يستفسر بنظرة قلقة عما إذا كانوا قد لاحظوا بوادر ضعفه. بل أكثر من ذلك، وهو الأشد سوءاً، لقد كان يغفو فجأة على الطاولة عندما لا يكون هناك مدعوون يثيرون، أو يسقط منشفته ويحني فوق الطاولة رأسه المرتجة... وعندئذ تقول ماري: «إنه عجوز وضعيف، مع ذلك أجد القحة لذمّه» فتروعها هذه الفكرة وتخيفها.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

كان الطبيب العصري في موسكو فرنسياً يدعى الدكتور ميتيـڤيه، في سنة ١٨١٠. كان ذا قامة ضخمة ودوداً مثل كل مواطنيه وبارعاً إذا آمن المرء بأقوال الناس، يستقبل من قبل العظماء وفي المجتمع الراقي استقبال الند أكثر مما يحتفون به كطبيب.

وافق الأمير نيكولاييـڤيتش الذي كان يسخر من الطب بناء على توصيات الآنسة بوريين، على أن ينهل من معلومات هذا الإنسان فألفه لدرجة أنه بات يستقبله مرتين كل أسبوع.

جاءت موسكو بأسرها، في عيد القديس نيكولا، إلى باب الأمير لزيارته لكنه لم يكن يريد استقبال أحد باستثناء بعض المخلصين الذين أعطى ابنته قائمة بأسمائهم مع أمر يقضي بأن تستبقيهم لتناول الطعام.

أعتقد ميتيـڤيه الذي جاء في الصباح يقدم تهانيه، أن من المناسب أن «يخرق الأمر» بوصفه طبيباً كما قال للأميرة ماري. وكأنه كان أمراً متعمداً، كان الأمير في أسوأ أيامه، همّه أن يذهب ويجيء في النزل، موبخاً كل الأشخاص، متصنعاً عدم فهم ما يقال له وعدم فهم الآخرين ما يقول. وكانت ماري أعلم الناس بذلك المزاج المشاكس الذي ينتهي عادة بانفجار غاضب. لذلك شعرت طوال ذلك الصباح وكأنها أمام بندقية محشوة جاهزة الزناد، تنتظر الضربة التي لا بدّ منها. مع ذلك فإن أي انفجار لم يحدث قبل وصول

twitter @baghdad_library

الطبيب. وبعد أن أدخلته، ذهبت تجلس في القاعة الكبيرة قرب الباب حاملة كتاباً، تستطيع من مكانها أن تسمع كل ما يحدث في المكتب.

بادئ الأمر، لم تسمع إلا صوت ميتيـڤيه ثم صوت أبيها ثم الصوتين يتكلمان معاً. وعندئذ فتح الباب على مصراعيه وظهر جسم الطبيب الضخم بناصيته السوداء مروع الأسارير ثم الأمير وعلى رأسه قلنسوة من القطن مرتدياً ثوباً منزلياً وقد بدّل الغضب وجهه وجحظت عيناه. كان يزمجر: ألا تفهم؟ لكنني أنا أفهم جيداً. جاسوس فرنسي، خادم بوناپرت!... أخرج من هنا يا جاسوس، أخرج من هنا أقول لك!...

ثم صفق الباب وراءه.

هزّ ميتيـڤيه كتفيه واقترب من الآنسة بوريين التي استنفرتها الصيحات وأتت بها إلى هناك من الغرفة المجاورة. قال لها وهو يشير إليها أن تصمت:

ـ إن الأمير في حالة غير جيدة. «إنها الصفراء والانتقال إلى المخ. هدئي روعك».

ثم خرج مسرعاً.

وفي تلك الأثناء، كانت تسمع من وراء الباب وقع خطوات في خفين مصحوبة بصيحات: «جواسيس! خونة! خونة! خونة في كل مكان! لا وسيلة لهدوء المرء في منزله!».

استدعى الأمير ابنته بعد ذهاب ميتيـڤيه وصب جام غضبه عليها. أخذ عليها سماحها لجاسوس بالدخول عليه. مع ذلك فقد أوعز إليها، إليها شخصياً، بأن تغلق الباب في وجه كل من لم يسجل اسمه في القائمة. لمَ إذن أدخلت ذلك الحقير؟ لقد كانت هي سبب كل شيء. لم يكن يستطيع إيجاد لحظة راحة معها، لم يكن يستطيع أن يموت بهدوء.

www.Maktbah.com

ـ نعم يا عزيزتي، يجب أن نفترق، اعلمي ذلك، نعم، اعلمي ذلك. إنني في أقصى درجات التعب.

وبدون شك خشي ألّا تعتبر الأمر جدياً، فعاد أدراجه وأضاف وهو يجهد في تمالك هدوئه: لا تظني أنني أقول لك هذا في لحظة غضب، إنني هادئ تماماً. لقد فكرت طويلاً واتخذت قراري: لنفترق. ابحثي لك عن مأوى!

لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فرفع قبضتيه باتجاه ابنته بحركة غاضبة قد لا تتوافر إلا لدى الرجل الذي يحب في أعماق نفسه وصاح وهو نفسه فريسة ألم عميق: لو أن بعض الحمقى يتزوجها فيريحني منها!

ثم صفق الباب واختلى بالآنسة بوريين في مكتبه حيث عاد تدريجاً إلى هدوئه.

وفي الساعة الثانية، وصل الأشخاص الذين دعاهم إلى مائدته وهم ستة. كانوا الكونت روستوبتشين الشهير والأمير لوبوخين وابن أخيه الجنرال تشاتروف وهو صديق سلاح قديم للأمير، وپيار بيزوخوف وبوريس دروبيتسكوي ممثلين عن الشباب. وكانوا جميعاً ينتظرونه في قاعة الاستقبال.

خلال عطلته في موسكو كان بوريس قد نجح في تقديم نفسه للأمير نيكولا أندرييـڤيتش وحصل على رضاه بحذاقة حتى إن هذا استثناه فدعاه خلافاً لعادته بإبعاد الشباب غير المتزوجين.

لم يكن بيت الأمير يدخل في عداد ما يسمونه «بالمجتمع العصري» تماماً، إذ لم يكن أحد يتحدث عن هذه الدائرة الصغيرة. مع ذلك فإن ما من شيء كان أكثر فتنة من أن يقبل المرء فيه. وقد أدرك بوريس هذه الحقيقة عندما سمع الكونت روستوبتشين منذ ثمانية أيام مضت يرفض دعوة الجنرال، الحاكم، بمناسبة عيد القديس نيكولا بالعبارة التالية:

twitter @baghdad_library

- إنني في مثل هذا اليوم، أذهب دائماً لتكريم بقايا الأمير أندرييـڤيتش.
فأجابه الجنرال: آه! نعم، هذا صحيح وكيف حاله؟...

قبل الغداء، كان المدعوون المجتمعون في القاعة العليا على الطريقة القديمة، ذي الأثاث الأثري، تذكر الناظر بمقام محكمة جليلة. كان الجميع صامتين، وإذا خرق بعضهم حجاب الصمت، فكان يتحدث بصوت خافت. ظهر الأمير نيكولا أندرييـڤيتش رصيناً وبدت الأميرة ماري أكثر خجلاً وأكثر شروداً من عادتها. لم يكن المدعوون ليوجهوا إليها الحديث لأنهم كانوا يعرفون أنها ليست على مستوى ما يتحدثون به. كان الكونت روستوبتشين يمسك وحده بدفة الحديث شابكاً الثرثرات المحلية بالأخبار السياسية الأخيرة. أما لوبوخين والجنرال العجوز فكانا يدليان ببعض العبارات بين حين وآخر.

كان الأمير نيكولا أندرييـڤيتش يصغي كما يصغي الحاكم الأعلى لتقرير ما، دون أن يظهر استيعابه لما يعرض عليه إلا بصمته أو بتفوهه ببضع كلمات مختصرة. كانت لهجة المحادثة توحي بسخط وتبرم. كانوا يستشهدون ببعض الوقائع الخاصة ولا شك بتأييد النظرية القائلة إن كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ، ولكن، وهذا ما يدهش، كان المتحدث يتوقف أو يجد نفسه متوقفاً عند الحد الذي إذا تجاوزه، دخلت شخصية الأمبراطور في سياق البحث.

خلال الطعام، دار الحديث حول الحادثة التي كانت خبراليوم، وهي احتلال ناپليون دوقية أولندنبورغ[1] الكبيرة والمذكرة العدائية للأمبراطور، التي طوفتها الحكومة الروسية في تلك المناسبة عن كل بلاطات أوروبا.

قال الكونت روستوبتشين الذي كان منذ بعض الوقت ينقل جملته تلك في كل مكان:

---

(١) مقاطعة في ألمانيا. (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ إن بوناپرت يعامل أوروبا كما يعامل القرصان سفينة كسبها. إن ما يذهل هو التعامي من جانب رؤساء الدول. ها إن الباب مهدد: يزعم بوناپرت الذي لم يعد يرتبك بشيء أنه خلع رئيس الكثلكة عن كرسيه. مع ذلك، فإن كل الناس صامتون! إن الأمبراطور وحده احتج على اغتصاب دوقية أولندنبورغ الكبرى، وهذا أيضاً...

ما كان روستوبتشين ليتعمّق في الحديث أكثر من ذلك: لقد بلغ الحد الأقصى الذي لا يجوز تخطيه.

قال الأمير العجوز: لقد عرضوا على الغراندوق أملاكاً أخرى لقاء أولندنبورغ. إنه يتصرف مع الدوقيات كما أتصرف مع فلاحيّ حينما أنقلهم من ليسيياغوري إلى بورتشارڤو أو إلى أملاكي في ريازان.

سمح بوريس لنفسه أن يقول بالفرنسية بلهجة لائقة: إن الدوق أولندنبورغ يحتمل مصابه بقوة شخصية تستحق الإعجاب.

وفي الواقع فقد تشرف بتقديمه إلى الدوق خلال سفره من پيترسبورغ إلى موسكو. نظر إليه نيكولا أندرييـڤيتش وكأنه يريد الإجابة عنه. لكنه أمسك وقد قدر أنه لا يزال يافعاً.

قال روستوبتشين بلهجة منطلقة شأن الرجل الذي يلمّ تماماً بالمسألة التي يتحدث عنها:

ـ لقد قرأت اعتراضنا بصدد هذه القضية. وإنني أرثي للترجمة الهزيلة التي سطرت بها المذكرة.

دقق پيار النظر فيه بدهشة: بأي شيء يمكن أن تقلق الترجمة الهزيلة الكونت نفسه؟ قال: ما أهمية الأسلوب يا كونت إذا كان الإحساس حازماً؟

فقال روستوبتشين بالفرنسية:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ يا عزيزي، من السهل أن يكون لنا أسلوب جميل بالخمسمائة ألف رجل الذين يشكلون جيشنا.

وحينئذ فقط عرف پيار لماذا كانت تلك الترجمة تثقل على الكونت. قال الأمير العجوز: يخيل إليّ مع ذلك أنّ الكتبة متوافرون. إنهم لا يعلمون شيئاً في پيترسبورغ أكثر من الكتابة. ليس كتابة المذكرات فحسب، بل المجلدات وكذلك والقوانين الجديدة. إن «أندريوشاي»، المقصود ابنه أندريه، جعل منها مجلداً كاملاً.

وكرر وهو يضحك:

ـ نعم، لا هم لهم الآن إلا الكتابة.

أعقب ذلك فترات سكوت ثم اجتذب الجنرال العجوز الأنظار إليه بسعال خفيف:

هل اطلعتم على الحادث الأخير الذي وقع في پيترسبورغ خلال الاستعراض الأخير؟ لقد أظهر سفير فرنسا الجديد نفسه على شكل رائع!...

ـ موضوع المسألة على الضبط؟ لقد حدثوني عنها بإبهام... يقال إنه ارتكب هفوة في حضرة جلالته...

ـ بينما كان جلالته يلفت انتباهه إلى فيلق قاذفي القنابل الذي كان يمر في العرض بخطوات الاحتفالات، بقي السفير على ما يبدو جامداً تجاه هذا المشهد. بل سمح لنفسه بأن يقول إنهم في فرنسا، لا يهتمون بهذه التفاهات. فلم يعلّق الأمبراطور بشيء. لكنه في الاستعراض التالي، أمسك عن توجيه الحديث إليه.

وساد السكون: بما أن الأمر يتعلق بالأمبراطور، فإنه لم يكن ممكناً أن يعلق أحد بحكم عليه. وأخيراً ثار الأمير العجوز:

ـ إنهم وقحون! هل تعرفون ميتيـڤيه؟ لقد طردته من منزلي هذا الصباح...

www.Maktbah.com

ثم أضاف وهو يلقي نظرة غاضبة إلى ابنته:

ـ لقد سمحوا له بالدخول رغم أنني أعطيت الأمر بألّا يستقبل أحد.

روى كل ما دار بينه وبين ميتيـڤيه وبيّن الأسباب التي من أجلها يرى فيه أنه جاسوس. وعلى الرغم من أن حججه لم تكن مقنعة، فما من أحد أبدى اعتراضاً.

بعد الشواء قدمت الشامبانيا وقام المدعوون لتهنئة الأمير، فاقتربت ماري كذلك. ألقى عليها الأمير نظرة باردة ومدّ لها خده المغضن الحليق. كانت أساريره تنطق بأنه لم ينسَ محاورتهما الصباحية وأن قراره ما زال لا يقبل الإلغاء، لكنه إذا كان لم يتحدث في الموضوع، فما ذلك إلا مجاملة في حضرة ضيوفه.

وعندما انتقل المدعوون إلى القاعة الكبيرة لتناول القهوة، عقد العُجّز حلقة. احتد الأمير فيها قليلاً واندفع في ملاحظاته عن الحرب المتوقعة.

كانت حملاتنا ضد بوناپرت لا يمكن إلا أن تكون فاشلة طالما كنا نبحث عن الاتحاد مع الخارج ونشرك أنفسنا في مشاكل أوروبا، وهي السياسة التي جرت علينا معاهدة الصلح في تيلسيت. لم يكن علينا أن نحارب لا مع النمسا ولا ضدها. لقد كانت مصالحنا كلها مركزة في الشرق. وإن موقفنا الوحيد المحتمل حيال بوناپرت، كان في تسليح حدودنا ودعمها وإظهار حزمنا: بهذه الطريقة، ما كان ليجرؤ أبداً على الدخول إلى أراضينا كما سمح لنفسه بذلك عام ١٨٠٧

حينئذ قال الكونت روستوبتشين: وكيف يا أميري نحارب الفرنسيين؟ هل نستطيع أن نثور على أسيادنا وآلهتنا؟ انظر إلى شبيبتنا. أنظر إلى نسائنا. إن آلهتنا هم الفرنسيون وجنتنا هي باريس.

رفع صوته قاصداً ولا شك أن يبلغ قوله كل المسامع:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الأزياء فرنسية والأفكار فرنسية والعواطف فرنسية، كل شيء فرنسي! لقد طردت منذ حين ميتيـڤيه لأنه فرنسي ولأنه حقير. لكن سيداتنا يفكرون على غير هذا النحو؟ إنهن يتهافتن على ركبتيه. كنت البارحة في سهرة، وكانت ثلاث سيدات من السيدات الخمس الموجودات في السهرة كاثوليكيات يطرزن في يوم الأحد بإذن خاص من البابا. أضف إلى ذلك أنهن عاريات تماماً تقريباً ويصلحن ـ حاشا احترامكم ـ إعلاناً لحماقات عامة. يا أميري، إنني عندما أرى شبيبتنا، تستبد بي رغبة في انتزاع هراوة بطرس الأكبر من المتحف وتحطيم أضلاعهم جميعاً بها على الطريقة الروسية القديمة. فذلك سيشفيهم من جنونهم.

لم يجبه أحد. نظر الأمير إلى روستوبتشين مبتسماً يؤيده بهز رأسه.

تابع روستوبتشين وهو يقف ويمد يده إلى العجوز بخشونة طبائعه المعروفة التي كان يمتاز بها:

ـ هيا، وداعاً يا أميري. انتبه على صحتك.

فقال الأمير وهو يستبقي يد روستوبتشين بين يديه:

ـ الوداع يا عزيزي الأعز. إنني لا أتعب من سماع أغنياتك.

ثم مد له خده ليقبله.

وحذا كل المدعوين حذو روستوبتشين فانصرفوا جميعاً.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

ثمة شيء واحد يشغل بال ماري فأصاخت السمع إلى أحاديث الكهول دون أن تفهم كلمة واحدة، ذاك أن المدعوين لم يلاحظوا الموجدة التي يظهرها أبوها تجاهها. بل إنها لم تنتبه قط إلى العناية التي أحاطها دروپيتسكوي بها خلال فترة الطعام وهو الذي يزورهم للمرة الثالثة.

نظرت إلى پيار نظرة استفهام، وكان يحمل قبعته في يده والابتسامة على شفتيه. اقترب منها بعد أن انسحب الأمير وبقيا وحيدين في القاعة وقال وهو يُلقي بكل ثقله على كنبة هناك:

ـ هل يستطاع البقاء فترة أخرى؟

أجابت: بلى. بينما كانت نظرتها تقول: «ألم تلاحظ شيئاً؟».

وكعادته بعد كل طعام جيد، أحس پيار أن مزاجه جيد جداً. فراح يبتسم وهو شارد النظر ثم سأل: هل مضى على معرفتك لهذا الشاب وقت طويل يا أميرة؟

ـ أي شاب؟

ـ دروپتسكوي.

ـ لا، إنني أعرفه منذ حين.

ـ وهل يروقك؟

أجابت وبالها مشغول دائماً بالحوار الذي دار بينها وبين أبيها صباح ذلك اليوم: نعم، إنه فتى جذاب... ولكن لمَ هذا السؤال؟

twitter @baghdad_library

ـ لأنني لاحظت شيئاً: لقد جرت العادة على أن الفتى إذا جاء في عطلة من پيترسبورغ إلى موسكو، فما ذلك إلا من أجل الزواج بوارثة غنية.

ـ حقاً؟

استرسل پيار مبتسماً:

ـ نعم. وهذا الفتى لا يذهب إلا إلى الأمكنة التي يتوقع أن يجد فيها فتيات من هذا النوع. إنني أقرأ أفكاره كما أقرأ في كتاب. إنه الآن لا يعرف بمن يبدأ هجومه. متردد بينك وبين الآنسة جولي كاراغين. إنه ملحّ على زيارتها.

ـ هل يرتاد هذا البيت؟

فقال أندريه بوداعة مستسلماً لطبعه الساخر الذي يأخذه على نفسه في أكثر الأحيان في مذكراته: لكن بلى. وهل تعرفين الطريقة الجديدة المتبعة في مغازلة الفتيات؟

قالت ماري: كلا.

ـ لكي يروق المرء في عيون فتيات موسكو، يجب أن يكون الآن سوداوياً وهو سوداوي مع الآنسة كاراغين.

قالت ماري:

ـ حقاً؟

تأملت وجه پيار الطيب وهي مستغرقة في حزنها. فكرت: «إنني بالتأكيد أميل إلى أن أصارح پيار بكل شيء. سيعرف هذا القلب النبيل كيف يمدني بالنصح، نعم، إن ذلك يحسن إلي».

سأل پيار: هل تقبلين الزواج به؟

أجابت ماري بالرغم عنها، وبصوت تنديه الدموع:

ـ رباه يا كونت، هناك أوقات أراني فيها على استعداد للاقتران بأي كان.

www.Maktbah.com

يا له من عذاب أن تحب أحداً يمت إليك بصلة قريبة وأن تشعر... أنه لا يمكن أن تسبب له إلا الحزن.

استرسلت تقول بصوت مرتجف: كم هي تعاسة مستعصية العلاج... في مثل هذه الحالات، ليس على المرء إلا أن يذهب. ولكن أنا، إلى أين أذهب؟

ـ ماذا تقولين هنا يا أميرة؟

انخرطت ماري في البكاء دون أن تتابع حديثها. ثم استأنفت:

ـ لست أدري ما بي اليوم. لا تلق بالاً إلى قولي. إنسَ ما قلته لك.

تبخر فرح بيار. راح يلح على الأميرة بمحبة أن تبوح له بأحزانها. لكنها توسلت إليه مجدداً أن ينسى ما قالته: إنها لم تعد تذكر هي نفسها ما كانت تريد قوله، وليس في نفسها من المتاعب إلا ما يعرفه من قبل: ألا يهدد زواج أندريه بتعكير الصفو بين الأب والابن؟

سألت لتدير دفة الحديث: هل لديك أخبار من آل روستوف؟ لقد بلغني أنهم سيذهبون إلى موسكو قريباً. ثم إنني أنتظر عودة أندريه بين يوم وآخر. كم أود من صميم قلبي أن أرى بعضهم هنا.

سأل أندريه مشيراً إلى الأمير العجوز بصيغة الغائب: وكيف ينظر إلى الأمر الآن؟

هزت ماري رأسها.

ـ ماذا يمكننا أن نفعل؟ لم تبق إلا أشهر قليلة على انتهاء المهلة المحدودة مع ذلك لا أتفاءل بوقوع شيء جيد. كل ما أرغب فيه هو أن أخفف عن أخي اللحظات الأولى لعودته. وددت لو رأيتهم يصلون قبل ذلك، آمل أن أنسجم معها، أنت الذي تعرفهم منذ زمن بعيد، قل لي بكل إخلاص الحقيقة الصحيحة: أية فتاة هي وكيف تجدها؟ ولكن قل لي كل الحقيقة، لأنك تعرف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أن أندريه يتعرض للشيء الكثير بزواجه بها ضد إرادة أبيه، ولذلك أريد أن أعرف...

نبهت حاسة غامضة پيار أن وراء تلك الـدورات في الكلام وتلك التنويهات المتكررة بأن يقول لها «كل الحقيقة»، تخبئ تدبيراً سيئ القصد تعدّه الأميرة ماري ضد زوجة أخيها المقبلة وإنها تتمنى أن يسفه پيار خيار أندريه. لكن پيار عبّر عما يحس به أكثر مما يفكر فيه. قال وقد احمرّ وجهه دون أن يعرف السبب:

ـ لست أدري بم أجيبك عن سؤالك. أنا لا أعرف أبداً أية فتاة هي، لا أقدر على تحليل عقليتها. إنها بلا شك فاتنة جداً ولكن لماذا؟ لست أدري، هذا كل ما أستطيع أن أقوله عنها.

أطلقت ماري زفرة. كانت أمارات وجهها تنطبق بوضوح: «هذا ما كنت أتوقعه تماماً، ما كنت أخشاه» سألت: أهي ذكية؟

فكر پيار هنيهة:

ـ لا أظن... مع ذلك نعم. على كل حال إنها لا تفكر في أن تكون ذكية إلا قليلاً. أن تكون فاتنة ساحرة.

هزت ماري رأسها مجدداً.

ـ آه! كم أود أن أحبها حباً جماً! قل ذلك لها إذا رأيتها قبلي.

ـ قيل لي إنهم سيصلون خلال الأيام القريبة القادمة.

شرحت ماري نياتها لـپيار: إنها تتوقع أن تتحد مع زوجة أخيها المقبلة لتتصرفا معاً بشكل يجعل الأمير العجوز يألف هذا الوجه الجديد.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

جاء بوريس يجرب حظه في موسكو لأنه لم يستطع أن يعقد صفقة زواج رابحة في پيترسبورغ. كان متردداً بين أغنى جانبين في هذه المدينة: جولي كاراغين والأميرة ماري. وعلى الرغم من قلة جمالها فإن ماري كانت تجتذبه أكثر من الأخرى. لكنه كان يحسّ بنوع من الارتباك في مغازلتها. خلال مقابلتها الأخيرة يوم عيد الأمير العجوز، أضفى عبثاً على أحاديثه صبغة عاطفية. لكن محاولاته كلها أخفقت أمام أجوبة ماري التي كان فكرها متجهاً دون شك وجهة أخرى. أما جولي فعلى العكس، لقد تقبلت أن تكرّمه بأسلوب شاذ ولكن مألوف لديها وحدها.

فقدت جولي جمالها وهي في السابعة والعشرين وأصبحت واسعة الغنى بموت أخويها. لكنها لم تكن ترى ذلك بل تظن أنها أوفر فتنة من ذي قبل. كانت ثروتها تقيمها في ذلك الخطأ وكذلك كونها كلما تقدمت بها السن ضعف خطرها على الرجال الذين كانوا استناداً إلى ذلك ينعمون بحريات أوسع معها وينتفعون بولائمها وسهراتها ويختلطون بالبيئة المخملية التي تشكلت حولها دون أن يرتبط أحد منهم بوعد معها. فذلك الذي منذ عشر سنوات مضت، كان يخشى التردد بانتظام إلى منزل تسكنه فتاة في السابعة عشرة من عمرها خشية تعريض سمعتها للسقوط وبالتالي في الشرك، أصبح اليوم يقوم بزيارات يومية لها ويتصرف معها تصرفه تجاه صديقة لطيفة لا أثر للجنس في علاقتهما بعيداً عن المعاملة التي تفرضها ظروف فتاة في سن الزواج.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان منزل آل كاراغين ذلك الشتاء أبهج وأكثر ترحيباً من كل منزل في موسكو. فإلى جانب السهرات والولائم الخاصة، كانت صحبة عديدة يغلب فيها الرجال، تجتمع فيه يومياً فيتناول المجتمعون العشاء حوالى منتصف الليل ليتفرقوا بعد ذلك في الثالثة صباحاً. لم تكن جولي تقيم حفلة راقصة أو نزهة إلا وتحضره وكانت تظهر أبداً في ملابس على أحدث طراز. مع ذلك، فقد كانت تتظاهر باللامبالاة وتقول لكل قادم إنها لم تعد تؤمن بالصداقة أو بالحب ولا بأي بهجة من مباهج الحياة: إنها لا تتوقع أن تكون هادئة إلا «هناك». تبنت لهجة الفتاة التي أصيبت بصدمة عنيفة أو أضاعت أعز مخلوق لديها أو خدعت بقسوة.

وعلى الرغم من أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث بعد في حياتها، فإنهم كانوا يتظاهرون بتصديقها حتى انتهى بها الأمر شخصياً إلى الاعتقاد بأنها اجتازت محناً كبيرة بالفعل. لكن ذلك الطبع الضجر لم يكن يمنعها قط من البحث عن التسلية، كما لم يكن يمنع الشبان الذين يترددون إليها لقضاء وقت جميل عندها. فبعد أن يقدم كل مدعو نصيبه لسويداء مضيفته، ينصرف بكليته إلى الأحاديث الاجتماعية والرقص والألعاب الفكرية والمساجلات والقوافي التي كانت شائعة جداً في ذلك المنزل. لكن فئة قليلة من أولئك الشبان، ومن بينهم بوريس، كانوا يشاطرون جولي حظاً وافياً من طبيعتها المتشائمة. كانت تدخل معهم في محاولات طويلة منعزلة حول بطلان مباهج هذا العالم، فتريهم مجموعاتها المليئة بالصور والأفكار والقصائد التي تنعكس منها الأحزان.

كانت جولي تتظاهر بمودة خاصة تجاه بوريس: كانت ترثي ليأسه وتقدم له العزاء الذي لا يستطيع تقديمه إلا من تألم بشدة في الحياة. ولما قدمت له مجموعتها، رسم فيها شجرتين كتب تحتهما: أيتها الأشجار الجافية، إن

www.Maktbah.com

أغصانك القاتمة تساقط علي الظلمات والسويداء. وعلى صفحة أخرى رسم قبراً وكتب: الموت نصير والموت هادئ.

ليس من ملجأ آخر ضد الآلام.

وجدت جولي كل هذا لذيذاً. قالت له: ثمة شيء عميق السحر في ابتسامة السويداء. إنه إشعاع نور في الظل، نقطة وسط بين الألم واليأس تظهر العزاء الممكن.

وكانت قد اقتطفت تلك الكلمة المأثورة من أحد الكتب. فأجابها بوريس بالأبيات التالية:

أيتها العذراء المسمومة بروح شديدة الحساسية،
أنت التي بدونك لا تصبح السعادة ممكنة،
أيتها السويداء الحانية، آه! تعالي لتعزيني،
تعالي هدئي آلام اعتكافي المظلم،
وامزجي حلاوة سرية،
إلى هذه الدموع التي أشعر بانهمارها.

اعتادت جولي أن تعزف لبوريس على العود أكثر «الليليات» توجعاً. وكان هو يقرأ لجولي «ليز المسكينة» ـ وهي قصة عاطفية لكارا مزين ظهرت عام ١٧٩٢ ـ فيغص بالانفعال والتأثر ويضطر إلى التوقف عن القراءة. وإذا وُجدا بين جمع كبير العدد، كانت نظراتهما تتحدث بعضها إلى بعض بأنهما الوحيدان اللذان يفهم أحدهما الآخر وأن روحيهما توأمان.

كانت آنّا ميخائيلوڤنا تزور آل كاراغين باستمرار وتحاول وهي تتظاهر بولائها للأم، أن تحصل على معلومات وثيقة عن بائنة جولي: كانت تلك البائنة تتألف من إقطاعيتين في مقاطعة بانزا وغابات في مقاطعة نيجي ـ نوڤوغورود. كانت آنّا ميخاييلوڤنا تراقب بحنو وهي مفعمة النفس بالاستسلام

twitter @baghdad_library

لمشيئة القدر، الحزن الكاذب الذي يقوم مقام همزة الوصل بين ابنها وجولي الثرية.

كانت تقول للفتاة: دائماً رائعة وسوداوية جولي العزيزة هذه! ويؤكد لي بوريس بأنه لا يجد راحة القلب إلا عندك.

ثم تضيف مخاطبة أم جولي: لقد عانى كثيراً من الصدمات وهو ذو روح شديدة التأثر.

ـ يا صديقي! كم أصبحت متعلقة بجولي هذه الأيام الأخيرة! لا أستطيع التعبير عن شغفي! ثم من ذا الذي لا يحبها؟ إنها مخلوقة سماوية حقاً. آه! بوريس، بوريس!

ثم تتابع بعد لحظة صمت قصيرة: وكم أرثي لأمها. لقد أطلعتني أخيراً على رسائل وحسابات أرسلت من بانزا. إن لهم هناك إقطاعية كبيرة. والمرأة المسكينة مضطرة إلى إنجاز كل هذه الأمور بنفسها، وهم يخدعونها خداعاً كبيراً!

لأنّ حيَل أمه البسيطة تثير في نفسه نوعاً من الفرح كان بوريس يبتسم ابتسامات غير ملحوظة. لكنه يصغي إليها بل يسألها أحياناً بعض التفاصيل عن إقطاعيات بانزا ونيجني ـ نوڤغورود.

ومنذ أمد طويل وجولي تنتظر أن يعلن سوداويها العاشق عن نفسه مقررة ألّا ترفض طلبه. لكن دافعاً غامضاً سببه التصنع عند الفتاة ورغبتها الشديدة في إيجاد زوج؛ إلى جانب الخوف من أن يضطر بعد الآن إلى التخلي عن كل حب حقيقي، كان يجعل بوريس يمسك عن القيام بالخطوة الأخيرة. كانت نهاية عطلته تقترب وهو لا يني يمضي أيامه كلها عند آل كاراغين. لكنه كان دائماً يرجئ عزمه إلى الغد بعد تفكير عميق. كان بوريس، كلما رأى وجه جولي وذقنها المدهونة أبداً بطبقة من الدروز وعينيها المبللتين وأساريرها

www.Maktbah.com

القادرة على إبدال قناع السوداوية بالحماسة، التي لن يعدم مشهد السعادة الزوجية أن يبعثه فيها، يشعر بعجزه عن النطق بالكلمات الحاسمة رغم أنه كان يرى نفسه بعين الخيال مالكاً منذ زمن طويل لإقطاعيات بانزا ونيجني ـ نوفـغورود، التي كان يصرف، في خياله كذلك، الموارد التي تأتيه منها.

وكانت جولي تلاحظ تردد بوريس وتخشى أحياناً أن تكون أبعد من أن تروقه، لكن زهوها النسوي الذي يسارع إلى إنقاذها في مثل تلك الحالات، كان يوهمها بأن الحب هو الذي يجعله خجولاً متردداً. رغم كل ذلك، كانت سوداويتها تبلغ بها مبلغ السخط. ولما كان رحيل بوريس قد أصبح وشيكاً، فإنها اعتزمت أن تتصرف بحزم. ولكن في تلك الأثناء بالذات، وصل أناتول كوراغين إلى موسكو، وراح يتردد بالطبع إلى منزل آل كاراغين. فلم تلبث جولي أن أبدلت سوداويتها ومزاجها القاتم ببشاشة مجنونة وأعربت للقادم الجديد عن أقصى درجات حسن الالتفات.

قالت أنّا ميخاييلوڤنا لابنها:

ـ يا عزيزي، أنا أعرف من مصدر موثوق به أن الأمير بازيل لم يرسل ابنه إلى موسكو إلا ليزوجه جولي. وإنني أحب جولي حباً شديداً وزواجها بأناتول يؤلمني كثيراً فما رأيك يا صديقي؟

ارتعد بوريس خشية أن يصبح اعتماده على موارده وحدها وأن يكون الشهر الذي قضاه بالقرب من جولي يمثل دور السوداوي الجميل الشاق الذي قد ضاع هباء، وأن يرى موارد الإقطاعيات العتيدة التي كم أحسن توزيعها في خياله والتصرف فيها، تنتقل إلى أيد أخرى، وخصوصاً يدي ذلك السخيف أناتول. أسرع إلى منزل آل كاراغين وفي نيته إعلان رغبته دون تردد.

استقبلته جولي مبتسمة وروت له بلهجة جذلة مبلغ التسلية التي حصلت

twitter @baghdad_library

عليها في حفلة الأمس ثم سألته عن موعد رحيله. ولما كان بوريس عازماً عزماً أكيداً على إعلان حبه لها، فقد قرر أن يكون رقيقاً. لكنه استسلم لانفعال معين فراح يعيب على النساء تلونهن والسهولة التي يتنقلن بها من الحزن إلى الفرح: إن طباعهن، حسب قوله، تتوقف على طبيعة ذلك الذي يغازلهن. ردت عليه جولي وقد انكشف أمرها أن كل ما يقوله صحيح وأن النساء يحببن التقلب وأن ما من شيء أشد ألماً من السوداوية.

وبدأ بوريس يقول وهو ينوي وخز كرامتها:

ـ في هذه الحالة لا أستطيع إلا أن أوصيك...

لكنه في تلك اللحظة تمثل المشهد المهين الذي قد يصبح عليه إذا ما اضطر إلى مغادرة موسكو دون أن يحقق هدفه وهو الذي لم يضيع قط من قبل لا جهوده ولا وقته.

لهذا السبب، توقف في منتصف جملته وأطرق بعينيه ليتفادى الشعور القبيح الذي كان يثيره في نفسه وجه جولي النكد المتردد. استأنف قائلاً:

ـ ما جئت لأتشاجر معك. بل على العكس...

واختلس نظرة نحو جولي ليرى ما إذا كان يجب عليه أن يسترسل. اختفى انفعال الفتاة فوراً وأخذت تشخص إليه «سوف أتدبر الأمر دائماً بحيث أراها أقل وقت ممكن. لقد بدأت الأمر ويجب إنهاؤه». احمرّ وجهه، حدّق إلى عينيها هذه المرة وقال لها: إنك تعرفين عواطفي نحوك.

لم تكن ثمة حاجة ليقول أكثر من ذلك. كان سرور الانتصار مشرقاً على وجه جولي. لكنها، مع ذلك، أرغمت بوريس على أن يقول كل ما يقال في مثل تلك المناسبات، بما في ذلك أنه يحبها وأنه لم يشعر قط نحو امرأة من قبل بمثل الشغف الذي يحسه نحوها. لقد كانت إقطاعيات بانزا ونيجني تسمح

www.Maktbah.com

لجولي أن تتطلّب هذا القول على أقل تقدير. كانت تعرف ذلك وها هي ذي قد بلغت ما كانت تريد.

ودون أن تعاود المخطوبة التفكير في «الأشجار التي تسقط عليهما الظلمات والسوداوية»، بدآ يضعان المخططات لبناء منزل فخم في بيترسبورغ، وراحا يبادلان معارفهما الزيارات وانصرفا إلى الاستعدادات اللازمة لعرسهما الرائع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس

وبصحبة ناتاشا وسونيا في أواخر كانون الثاني وصل الكونت إيليا أندرييـڤيتش إلى موسكو بعد أن حال رجوع الأمير أندريه المتوقع دون انتظار الكونتيسة، إذ كان يجب شراء الجهاز وبيع الحقل الذي في الضواحي وانتهاز فرصة وجود الأمير العجوز لتقديم كنته المقبلة إليه. ولما كان منزل آل روستوڤ غير مدفأ وكانت إقامتهما قصيرة في موسكو لأن الكونتيسة لم تكن معهم، فقد قرر إيليا أندرييـڤيتش قبول ضيافة ماري دميترييڤنا أخروسيموڤ التي كانت منذ زمن طويل تعرب عن استعدادها لاستضافته.

في ساعة متأخرة من الليل دخلت العربات الأربع باحة المنزل الذي تشغله ماري دميترييڤنا في شارع ڤيّي إيكوري «الاسطبلات القديمة». وكانت هذه السيدة التي زوجت ابنتها وشغل أبناؤها الأربعة وظائف حكومية مختلفة، تعيش بمفردها فيه.

منتصبة القامة دائماً تقول لكل الناس رأيها بلهجة حاسمة، وتبدو أشبه باحتجاج حي على الضعف والأهواء ومباذل الناس الآخرين، الأمر الذي لم تكن تقره من جانبها. كانت تنهض باكراً فترتدي عباءتها وتقوم بأعباء بيتها ثم تنجز مهامها الخارجية. وفي كل يوم أحد، تذهب إلى الكنيسة، بادئ الأمر، ثم تزور مختلف السجون حيث كانت لها أعمال لم تطلع إنساناً عليها قط. أما بقية أيام الأسبوع، فكانت بعد أن تصلح زينتها تستقبل مراجعين عديدين ذوي عروض مختلفة كانوا يحاصرون ردهتها دائماً. ويلي ذلك الغداء، وهو

www.Maktbah.com

دائماً طعام فاخر دسم، فتتناوله عادة مع ثلاثة أو أربعة من المدعوين، فإذا ما انتهوا، انتظموا حول طاولة لعب الورق. وفي السهرة كانت تكلف بعضهم قراءة الصحف والكتب الحديثة على مسامعها بينما تنشغل هي في أشغال الإبرة. لم تكن تخرج من بيتها قط وإذا خرقت هذه القاعدة فعلى شرف أكثر الشخصيات سمواً ورفعة.

لم تكن قد ذهبت إلى فراشها بعد عندما أعلن لها صوت باب المدخل الذي كان ثقله المعدل يصر تحت دفع آل روستوف وخدمهم، قدوم الضيوف. ذهبت تنتصب على عتبة القاعة الكبيرة ورأسها مائل إلى الوراء، ونظارتاها فوق أنفها، فكانت النظرة الغاضبة التي راحت تتأمل القادمين بها تنبئ بأنها ساخطة لوجودهم هناك، وتكاد تطردهم. لكنها على العكس، أخذت تعطي الأوامر لإنزال المسافرين وأمتعتهم في الأمكنة المناسبة. قالت وهي تشير إلى الحقائب دون أن تلقي السلام على أحد:

ـ هل هذه للكونت؟ من هنا. وهذه للآنسات؟ هنا، إلى اليسار... ثم صرخت بالخادمات؟

ـ وأنتن، ماذا تصنعن هنا عاقدات أذرعكن؟ هيا، لتهيئن السماور!...

وقالت وهي تمسك ناتاشا المرتجفة من معطفها:

ـ كم تغير جسمك وكم ازددت جمالاً! بر.... ر....، يا للصقيع!...

ثم قالت للكونت وهو يهم بتقبيل يدها: ولكن انزع فروتك، لا شك إنك متجمد الأطراف!

وأخيراً قالت بالفرنسية معربة عن ودها المطاوع قليلاً الذي تكنه للفتاة:

ـ آه! مرحباً يا سونيتي الصغيرة.

ولما نزع المسافرون فرواتهم الثقيلة واستراحوا قليلاً من وعثاء السفر،

twitter @baghdad_library

جاؤوا يحتسون الشاي، فقامت ماري دميترييڤنا تقبلهم كلّا بدوره. قالت لهم: إنني أبتهج من صميم قلبي لرؤيتكم في موسكو وفي منزلي.

وأضافت بعد أن ألقت نظرة معبرة على ناتاشا:

ـ لقد حان وقت مجيئكم فعلاً. إن العجوز هنا، وهم ينتظرون وصول ابنه بين لحظة وأخرى يجب أن تتعرفوا إليه حتماً.

ثم أضافت وهي تنظر إلى سونيا نظرة تدل على أنها لا تريد الدخول في هذا الموضوع في حضورها:

ـ پيار ستتحدث بذلك فيما بعد.

تابعت وهي تلتفت نحو الكونت:

ـ والآن، اصغ إلي قليلاً، من تريد لقاءه غداً؟ من ستستدعي؟ شينشين؟ واحد. تلك المتباكية أنا ميخاييلوڤنا؟ إثنان. إنها هنا مع ابنها. إنه يتزوج، الغلام! من أيضاً؟ بيزوخوف؟ إنه هو الآخر هنا مع زوجته. لقد هرب منها، لكنها جاءت تطارده. لقد تغدى عندي يوم الأربعاء الفائت.

واختتمت قولها مشيرة إلى الفتاتين:

ـ أما هاتان، فسأقودهما غداً لتقدما نسكهما في «نوتردام دييبيري» ثم نمر بعد ذلك عند السيدة أوبير[1] ـ شالميه إنكما تريدان آخر الابتكارات بدون شك؟ على كل حال لا تقيسا عليّ، إنهم الآن يلبسون أكماماً فضفاضة هكذا... جاءت أمس الأخيرة إيرين ڤاسيلييـڤنا الشابة لتراني وفي كل ذراع برميلان، إنه شيء مرعب! على أيّ حال، إن الأزياء كل يوم في هذا الوقت...

ثم سألت الكونت بلهجة قاسية بعض الشيء:

ـ وأنت شخصياً، أية أعمال أتت بك؟

---

(١) صاحبة متجر ألبسة وعطور وقبعات من القش وأقمشة التافتا... (المترجم).

www.Maktbah.com

أجاب الكونت: حلّ كل شيء دفعة واحدة. يجب شراء الخرق ثم هناك مشتر لحقلي وللمنزل في موسكو. إذا تفضلت بالموافقة، سأنتهز الفرصة للذهاب إلى مارينسكواي لقضاء يوم فيها وسأعهد إليك ببنتيّ.

قالت ماري دميترييڤنا وهي تداعب بيدها الضخمة وجنة ناتاشا، «فليونتها» وصفيتها:

ـ حسناً، حسناً جداً. ستكونان هنا في أمان أفضل من وجودهما في مجلس الوصاية. سآخذهما إلى كل الأمكنة التي يجب أن ترتاداها، وسأزجرهما وأدللهما كذلك.

اصطحبت ماري دميترييڤنا الفتاتين إلى نوتردام ديپيري، وفي صبيحة اليوم التالي، ثم إلى مخزن السيدة أوبير ـ شالميه، التي كانت تخافها كثيراً وتقدم لها لوازمها دائماً بخسارة في الأثمان للتخلص منها بأسرع ما يمكن. وهناك أوصت ماري دميترييڤنا على قسم كبير من الجهاز. وعندما عاد الجميع إلى المنزل، استبقت ناتاشا وحدها وأجلستها على كنبة بجانبها بعد أن صرفت الآخرين.

ـ هيا، ولنتحدث الآن قليلاً معاً. كل تهاني: هل أنت ذي مخطوبة، ولقد حصلت على شاب طيب. أنا مبتهجة من أجلك. أنا أعرفه منذ أن كان على هذا القدر، ومدت يدها على ارتفاع نصف متر من الأرض بينما كانت ناتاشا يستخفها الفرح، وإنني أحبه كثيراً وكذلك كل عائلته. أصغي إلي جيداً. إنك تعرفين أن الأمير نيكولا لا يرغب كثيراً أن يتزوج ابنه. إنه من القدماء، عجوز عنيد. بالطبع إن الأمير أندريه ليس طفلاً ولسوف يستغني عن موافقته! ولكن لا يليق الدخول إلى عائلة ضد رغبة الأب. من الأفضل معالجة هذا الأمر برفق وهدوء. أنت لست حمقاء وستعرفين كيف تتصرفين لضمان شرفك. قليل من الحذق والنعومة وسينتهي كل شيء على ما يرام.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت ناتاشا صامتة لا خجلاً كما كانت ماري دميترييڤنا تعتقد، بل من الغضب لرؤيتها بعضهم يتدخل في شؤون حبّها للأمير أندريه: لقد كان ذلك الحب أمراً خاصاً جداً عن كل ما يشغل الآخرين حتى إن ما من أحد، على زعمها، يستطيع فهمه. إنها لا تحب ولم تعد تعرف إلا الأمير أندريه. وهو يحبها بالمثل، وسوف يقترن بها حال عودته التي أصبحت قريبة، وهي لا ترغب في أكثر من ذلك.

ـ كما ترين، إنني أعرفه، منذ مدة طويلة، وكذلك أخته ماري التي أحبها كثيراً. يزعم المثل أن «الكنّة والسلف» خشونة وحقد لكن ماري لا تسيء إلى ذبابة. إنها ترغب أن تتحد معك، لقد قالت لي ذلك. غداً ستذهبان إلى هنك، أبوك وأنت، فكوني بشوشة معها وابدئيها الإكرام فأنت الأصغر سناً. وعندما يصل، تكونين أنت قد تعرفت إلى الأب والأخت، وستتبادلون المدة حتى ذلك الحين. ألن يكون هذا أفضل؟

فأجابت ناتاشا مكرهة: بدون شك.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

ذهب الكونت روستوف بصحبة ناتاشا إلى منزل الأمير نيكولا أندرييـڤيتش، في ذلك الصباح عملاً بنصيحة ماري دميترييڤنا. لم تكن تلك الخطوة تروقه لأنه كان في أعماق نفسه يخشى تلك المقابلة. كانت ذكرى مقابلتهما الأخيرة أثناء تشكيل فرق المتطوعين الماثلة في ذاكرته، عندما احتمل من الأمير جواباً عن دعوته إياه لتناول الغداء، تعنيفاً قاسياً لأنه لم يقدم العدد المطلوب. وفي المقابل، كانت ناتاشا على أفضل مزاج وهي في أجمل ثوب عندها. كانت تخاطب نفسها: «لا يمكن أن لا يحباني على الفور، كل الناس يحبونني. على أتم استعداد لصنع كل ما يريدان وعلى أتم استعداد لمحبتهما، هو لأنه أبوه وهي لأنها أخته، حتى إنني لا أرى سبباً يحدوهما إلى عدم محبتي!».

في شارع «إيزالتاسيون» توقفت العربة أمام منزل قديم ذي منظر محزن ودخلا في ممرّ. قال الأمير بين المزح والجد:

لاحظت ناتاشا أن أباها شديد الارتباك وأن صوته مضطرب عندما سأل عما إذا كان الأمير وابنته يقبلان الزيارة.

حينما أُعلن قدومهما اعترى الحجّاب والخدم نوع من التشوش. أوقف الذي كلف المهمة في القاعة الكبيرة من قبل أحد زملائه وراحا يتهامسان معاً. وأسرعت إحدى الوصيفات إليهما وأسرت لهما ببضع كلمات متعجلة ورد فيها ذكر سيدتها. وأخيراً جاء خادم عجوز صارم القسمات يعلن لآل روستوف أن

twitter @baghdad_library

الأمير لا يستطيع استقبالهما، ولكن الأميرة الآنسة ترجوهما التفضل بزيارتها. ظهرت الآنسة بوريين فاستقبلت القادمين بأدب لائق ورافقتهما إلى الأميرة التي أسرعت بدورها للقائهما بخطوات ثقيلة ووجهها قلق تعلوه بقع حمراء. كانت تجهد عبثاً في إعطاء قسماتها مسحة الإشراق. لم تقع ناتاشا في نفسها موقع الاستحسان منذ الوهلة الأولى. لقد وجدتها مفرطة في التأنق مزهوة طائشة. ولم تكن ماري تعرف أنها قبل أن ترى زوجة أخيها العتيدة، كانت معبأة بغيرة لا شعورية من جمالها وشباب تلك الطفلة وسعادتها والحب الذي يكنه لها أخوها، الأمر الذي جعلها تميل إلى كرهها. لقد انضم إلى ذلك النفور الذي لا مثيل له اضطراب عميق: ذلك أن الأمير حين إعلان حضور آل روستوف، راح يصرخ قائلاً إنه لا يأبه للقائهم وإن ماري تستطيع مقابلتهم إذا أرادت ذلك ولكن ليحاذروا جميعاً الإتيان بهم إليه. فاعتزمت ماري استقبالهم لكنها كانت تخاف في كل لحظة غضب أبيها الذي أخرجته تلك الزيارة على ما يبدو عن طوره.

قال الكونت وهو ينحني احتراماً ويلقي نظرة قلقة حوله وكأنه يخشى ظهور الأمير فجأة: كما ترين يا عزيزتي الأميرة، لقد جئتك بمغنيتي الصغيرة. كم أنا مغتبط إذ تتعارفان... من المؤسف جداً أن يكون الأمير في صحة سيئة...

وبعد بضع عبارات من هذا النوع وقف وقال:

ـ إذا سمحت لي يا أميرة، تركت لك ناتاشا ربع ساعة قصيرة ريثما أقوم بزيارة قريبة من هنا، إلى أنا سيميونوڤنا. وسأعود لاصطحابها.

ولكي يسمح للكنّة العتيدة وابنة حميها أن تتعارفا وتتناجيا بإخلاص، ابتكر إيليا أندرييـڤيتش تلك الخدعة اللبقة. وقد اعترف بذلك لابنته فيما بعد، لكنه لم يصرح لها بأنه وفر على نفسه كذلك عناء مقابلة، ربما صاخبة، مع الأمير. لكن ناتاشا ضمنت قلق أبيها فاغتمت للأمر. احمرّ وجهها من أجله

www.Maktbah.com

وازداد سخطها على خجلها: نظرت إلى الأميرة نظرة جريئة ومثيرة كانت تعني أنها لا تخشى أحداً. وأجابت ماري الكونت بأنها سعيدة بذلك وأنها ترجوه أن يتأخر إلى أقصى وقت ممكن. وانسحب إيليا أندرييـڤيتش.

على الرغم من النظرات الجزعة التي كانت ماري توجهها إلى الآنسة بوريين رغبة منها في البقاء منفردة مع ناتاشا، فإن هذه لم تتحرك قط بل استمرت تدير دفة الحديث بإصرار حول الأفراح وحفلات موسكو. وكان حادث الممر والخوف الذي أظهره أبوها، ولهجة الأميرة القسرية، التي تعتقد أنها إنما تنم عنها باستقبالها كل ذلك جعل ناتاشا في حالة نفسيّة سيئة. انطوت على نفسها إذن واتخذت رغماً عنها لهجة لا مبالية جعلتها تزداد كراهة في نظر الأميرة. وبعد خمس دقائق من حديث قسري، سمعت خطوات سريعة لرجل يحتذي خفين. ارتسم الرعب على أسارير ماري، بينما فتح الباب عن الأمير في معطفه المنزلي وقلنسوته القطنية. قال:

ـ آه يا آنسة، يا آنسة... الكونتيسة روستوف إذا لم أكن مخطئاً. تفضلي بمعذرتي... كنت أجهل يا آنسة. الله يشهد على قولي، إنني أجهل أنك شرفتنا بزيارتك... لم أكن أتوقع رؤية أحد غير ابنتي... تفضلي بمعذرتي على ثوبي... الله يشهد على قولي، كنت أجهل...

وقد كرر قوله وهو يشدّد على كلمة «الله» بلهجة غير طبيعية وشديدة الكراهية حتى إن ماري بقيت جامدة لا تجرؤ على رفع عينيها إلى أبيها أو تحويلهما إلى ناتاشا.

بعد أن وقفت ثم جلست، وكانت هذه لا تعرف أي سلوك تتبع بينما الآنسة بوريين وحدها تبتسم ببشاشة.

غمغم العجوز مرة أخرى: تفضلي بمعذرتي، الله يشهد عليّ أنني كنت أجهل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وبعد أن صعق ناتاشا بنظره من رأسها إلى قدميها، انصرف.

أول من ثاب إلى رشده بعد هذا المشهد كانت الآنسة بوريين. وبيما اندفعت في حديث حول صحة الأمير السيئة، بقيت ناتاشا وماري تتبادلان النظر. وكلما طال ذلك التفحص المتبادل دون أن تعتزم إحداهما التفوه بما يناسب المقام ازداد نفورهما الواحدة من الأخرى.

وعندما رجع الكونت، لم تخف ناتاشا سرورها بعودته وبادرت إلى الاستئذان، بلغ بها الحد مبلغ الحقد على تلك المخلوقة الهرمة. كانت تحقد عليها بقوة لأنها وضعتها في مثل ذلك الموقف وقضت معها نصف ساعة دون أن تنطق بكلمة عن الأمير أندريه، راحت تحدث نفسها: «هل كان بمقدوري حقاً أن أبدأ الحديث عنه وأمام هذه الفرنسية أيضاً!» وفي الوقت نفسه كانت أفكار مشابهة لهذه تعذر ماري. كانت تعرف تماماً ماذا يجب عليها قوله لناتاشا، مع ذلك فقد سكتت أولاً لأن وجود الآنسة بوريين كان يخيفها ومن ثم، لأنها كانت تشعر بارتباك غريزي في التحدث عن هذا الزواج. وفي اللحظة التي غادر فيها الكونت الغرفة، لحقت ماري بناتاشا بخطوات واسعة وأمسكت بيديها ثم قالت لها وهي تتنهّد بعمق:

ـ انتظري، كنت أريد...

نظرت إليها ناتاشا بسخرية غير متعمدة. وتابعت ماري: يا عزيزتي ناتالي، دعينني أقول لك كم أنا سعيدة إذ يجد أخي السعادة...

توقفت لأنها شعرت بأنها لا تقول الحقيقة. ولاحظت ناتاشا ذلك التردد وخمنت السبب. قالت بوقار وبرود ظاهرين بينما كانت الزفرات تخنقها: يخيل إلي يا أميرة أن الوقت غير مناسب للتحدث في هذا.

وما كادت تخرج حتى فكرت: «ماذا فعلت، ماذا قلت؟» تأخر ظهور ناتاشا على مائدة الطعام ظهر ذلك اليوم. حبست نفسها في غرفتها يخنقها

www.Maktbah.com

الحزن وراحت تنشج بصوت مرتفع كالطفلة الصغيرة، بينما كانت سونيا منحنية فوقها تقبل شعرها وتقول لها:

ـ ناتاشا، لِمَ البكاء؟ ماذا يهمك هؤلاء؟ سوف ينتظم كل شيء، هيا...

ـ آه! لو كنت تعلمين كم هو موجع هذا الأمر... لقد استقبلوني كما تستقبل...

ـ كفي عن التفكير في ذلك يا ناتاشا... إنها ليست خطيئتك أليس كذلك؟ إذن، لِمَ تشغلين نفسك بذلك؟... قبليني، خذي...

رفعت ناتاشا رأسها وقبلت صديقتها في شفتيها ثم أسندت وجهها المبلل بالدموع إلى كتفها.

ـ لا أستطيع القول، لست أدري. إنها ليست خطيئة أحد... بلى، إنها على الأرجح خطيئتي... ولكن كم هو مخيف كل هذا!... آه! لم لا يأتي؟

كانت عيناها حمراوين عندما نزلت لتناول الغداء. تظاهرت ماري دميترييڤنا، التي كانت تعرف كيف استقبل الأمير الكونت، بأنها لا ترى وجه الفتاة وبقيت طوال فترة الغداء، تمزح بصوتها القوي مع الكونت والمدعوين الآخرين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

ولما حصلت ماري دميترييڤنا على مقصورة، في ذلك المساء، ذهب آل روستوف إلى الأوبرا، كانت ناتاشا تود الذهاب، لكنها لم تستطع رفض دعوة خاصة موجهة إليها. وعندما دخلت القاعة الكبيرة وهي في أبهى زينة لانتظار أبيها، وألقت نظرة على المرآة الكبيرة أقنعتها بأنها جميلة وجميلة جداً، شعرت بحزن متزايد، لكنه كان حزناً ضعيفاً.

قالت في سرّها: «يا إلهي، لو كان هنا، فإنني لن أكون خجولة بغباوة كالسابق سأضمه بين ذراعي بكل بساطة وأشد نفسي إلى صدره، فينظر إليّ بتينك العينين المستفسرتين اللتين طالما صوبهما إلي. ثم سأضحك حينذاك وعيناه. آه، عيناه! كم أراهما الآن!... وماذا يهمني بعد ذلك أبوه وأخته! هو الذي أحبه، هو وحده. وجهه وعيناه وابتسامته التي تجمع بين الرجولة والصبا في آن واحد... لكن الأفضل على أية حال ألّا أفكر في هذا أبداً، ألّا أفكر في شيء، أن أنسى أقله، أن هذا الغياب سيقتلني، ها أنا ذا من جديد، على استعداد للانتخاب». أدبرت للمرآة وهي تصد دموعها بصعوبة شديدة. حدثت نفسها وهي تنظر إلى سونيا التي دخلت في تلك اللحظة مرتدية ثياب الخروج هي الأخرى وفي يدها مروحة: «كيف تفعل سونيا لتحب نيكولا بمثل هذا الهدوء ولتنتظره كل هذا الوقت وبمثل هذه الأناة، لا شك أنها تختلف عني كل الاختلاف. إنني لن أستطيع أنا صبراً!».

بدأت حاجة ملحة إلى الحنان تعذب في تلك اللحظة ناتاشا التي لم

www.Maktbah.com

تكن تكتفي أن تحب وترى نفسها محبوبة: كانت تشعر بالرغبة المهيمنة في طريق المحبوب بذراعيها على الفور، وفي أن تقول له وتسمعه يهمس في أذنها كلمات الحب التي يمتلئ قلبها بها. أحست خلال الطريق، وهي جالسة جنباً إلى جنب مع أبيها تنظر بعين متطيرة إلى انعكاسات أضواء المصابيح السريعة على زجاج باب العربة المغطى بالصقيع، بأن عشقها ينمو باطراد. لم تعد تعرف مع من هي الآن وإلى أي مكان تؤخذ. تبعت العربة أخيراً العربات الأخرى وعجلاتها تئن فوق الثلج، حتى بلغت مدخل المسرح. فقفزت ناتاشا وسونيا برشاقة منها ثم ترجل الكونت يساعده الخدم واختلطوا جميعاً بالمتفرجين وبائعي البرامج حتى بلغ ثلاثتهم مدخل المقاصير في الوقت الذي كانت أصوات الآلات الموسيقية وهي تضبط، تتناهى إلى أسماعهم خلال الأبواب نصف المغلقة. همست سونيا:

ناتالي، شعرك...

أسرع فاتح المقاصير باحترام وتقدم السيدتين ثم فتح المقصورة، فأصبحت الألحان الموسيقية أكثر وضوحاً وظهرت للناظرين خلال إطار الباب، مجموعة المقاصير المضاءة بوفرة، تحتلها سيدات في أثوابهن الحاسرة عن أعناقهن، ثم القاعة الكبرى الصاخبة المزخرفة بمختلف أزياء الألبسة. نظرت إحدى السيدات التي كانت تدخل مقصورة مجاورة، إلى ناتاشا نظرة غير نسوية. لم يكن الستار قد رفع بعد؛ والموسيقى تعزف لحن الافتتاح. سوّت ناتاشا ثوبها وتقدمت مع سونيا إلى مقدمة المقصورة وسرحت ناظريها في المقاصير المقابلة. استبد بها شعور فجائي لم تشعر بمثله منذ زمن طويل، شعور تركز مئات من العيون على جيدها وكتفيها العاريتين، فأيقظ في نفسها عدداً من الذكريات والانفعالات، وأحدث تأثيراً لذيذاً وأليماً معاً.

اجتذبت هاتان الفتاتان الجميلتان الانتباه العام وكذلك الكونت إيليا

twitter @baghdad_library

أندرييـڤيتش الذي احتجب زمناً طويلاً عن الظهور في موسكو. ثم إن كل الناس كانوا يعرفون خبر خطبة أندريه وناتاشا على شكل ما، يعرفون أن آل روستوف يسكنون في الريف منذ ذلك الوقت، فراحوا يتفحصون تلك التي ستتزوج واحداً من أفضل المرموقين في روسيا:

ازدادت ناتاشا جمالاً خلال إقامتها في الريف، وكان كل الناس يعلنون ذلك. لكن الانفعال الذي كان يضيق عليها ذلك المساء زادها فتنة. كان ما يلفت النظر إليها ذلك الجمال والحيوية الكاملان المجتمعان إلى لامبالاة واضحة بكل ما يحيط بها. فعيناها السوداوان تنظران إلى الجموع دون أن تبحثا عن شخص محدد. أسندت ذراعها العارية حتى ما فوق المفرق إلى حاجز المقصورة المخملي وراحت يدها النحيلة تتقلص وتنشر بصورة لاشعورية وبإيقاع أثناء الافتتاحية وهي تدعك البرنامج. قالت سونيا: انظري، هذه الآنسة ألينين مع أمها على ما أظن.

وقال الكونت من جانبه: يا إلهي، لقد ازداد ميخائيل كيريليتش سمنة.

انظري إلى أنا ميخاييلوڤنا إياها، يا للقلنسوة التي على رأسها!

إن آل كاراغين وجولي وبوريس معهن، إنهما مخطوبان وهذا يُرى على الفور. لقد قدم دروپتسكوي طلبه إذن؟ وقال شينشين الذي دخل مقصورة آل روستوف:

نعم، لقد بلغني ذلك منذ حين.

تبعت ناتاشا اتجاه نظرة أبيها فرأت جولي جالسة إلى جانب أمها مشرقة الوجه يثقل عنقها الضخم الأحمر الذي كانت ناتاشا تعرف أنه مغطى بطبقة من الذرور، وعقد ثقيل من اللآلئ. ومن ورائهما برز رأس بوريس الجميل ذو الشعر المصفف بعناية وهو يبتسم وينحني لسماع ما تقوله جولي. اختلس نظرة إلى آل روستوف وهمس في أذن مخطوبته ببضع كلمات.

www.Maktbah.com

«إنهما يتحدثان عنا وعن العلاقات التي كانت لي معه. إنه يطمئن غيرة مخطوبته حتماً مني. إنهما مخطئان ولا شك بقلقهما! ليتهما يعرفان إلى أي حد لا يشغلان تفكيري!».

وإلى ورائهما تربعت أنا ميخاييلوڤنا بقلنسوتها الخضراء وأساريرها المنتصرة ولكن الخاضعة لمشيئة الله كعادتها. كان ذلك الجو الخاص بالمخطوبين الذي تعرفه ناتاشا جيداً وتجله، يخفق في مقصورتهم. أشاحت ناتاشا النظر وفجأة عادت إلى ذاكرتها مذلة زيارة بعد الظهر كلها.

حدثت نفسها: «بأي حق لا يريدني في أسرته؟... آه! من الأفضل ألّا أفكر في الموضوع حتى عودته!» وراحت تتصفح الوجوه المعروفة والمجهولة التي تقع عيناها عليها في القاعة. كان دولوخوف جالساً في منتصف الصف الأول مسنداً ظهره إلى الحاجز، وهو في ثياب فارسية وشعره الأجعد مرفوع إلى الأعلى. كان يعرف أنه محط أنظار القاعة كلها فيظهر من الارتياح كما لو كان في منزله. والتفت حوله شبيبة موسكو فأصبحت تشكل حرس شرف له.

لكز إيليا أندريڤيتش سونيا بمرفقه وأشار إلى المتيّم السابق بهواها وهويضحك وقال لها: هل عرفته؟

ثم سأل شينشين: من أين ظهر الآن؟ لقد افتُقد تماماً منذ زمن طويل.

فأجاب شينشين: صحيح لقد كان في القوقاز ومن هناك هرب إلى إيران. يقال إنه أصبح هناك وزيراً لست أدري لأي أمير مالك. بل يزعمون أيضاً أنه قتل أخ الشاه. وها إن نساء موسكو كلهن مجنونات به! دولوخوف الفارسي! إنهن لا يتحدثن إلا عنه ولا يقسمن إلا به ويتنادين لرؤيته وكأنهن بصدد تذوق أفخر أنواع السمك!...

وأضاف: نعم، إن دولوخوف وأناتول كوراغين قد فتنا كل سيداتنا.

وفي تلك اللحظة، دخلت سيدة طويلة القامة جميلة ذات ضفيرة ضخمة

twitter @baghdad_library

وكتفين عاريتين رائعتين، تحيط عنقها بصفين من اللآلئ الكبيرة، وجلست في المقصورة المجاورة ببطء يدل على أنها من النبلاء وسط حفيف ثوبها الحريري.

وبالرغم منها، ألقت ناتاشا نظرة إعجاب على ذلك الجيد وتينك الكتفين وتلك اللآلئ. وبينما هي تتأملها للمرة الثانية، التفتت السيدة فتلاقت نظرتها ونظرة الكونت؟ وحينئذ أومأت له إيماءة خفيفة برأسها وهي تبتسم. تلك كانت الكونتيسة بيزوخوف. مال الكونت نحوها، وهو الذي يعرف كل الناس، وباشر معها الحديث.

ـ لقد مضى زمن طويل لم أرك خلاله يا كونتيسة؟ نعم، نعم، سأحضر لأقبل يدك. إنني في موسكو لأعمال وقد اصطحبت معي بنياتي، يقال إن السيمينوڤا تمثل بشكل يدعو إلى الإعجاب. لقد كان الكونت پيار كيريلوڤيتش دائماً من خلصائنا. هل هو هنا؟

قالت هيلين وهي تنظر إلى ناتاشا بعناية ملحوظة: نعم وكان يزمع المجيء.

عاد الكونت إلى مكانه وقال لابنته بصوت خفيض: إنها جميلة أليس كذلك؟

ـ رائعة!... إنني أفهم عشق الناس لها!

وفي تلك الأثناء انتهى عزف الافتتاحية، فقرع رئيس الجوقة آلته بعصاه الدقيقة. فأسرع المتفرجون المتأخرون إلى احتلال أماكنهم في القاعة ورفع الستار.

ساد سكون عميق في القاعة كلها وأدار المتفرجون الشيوخ والشبان على السواء في ثيابهم الرسمية أو العادية والسيدات، كاشفات النحور والصدور، المتزينات بالحلي، يتطلعن نحو المسرح. فحذت ناتاشا حذوهم.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

زينت جنبات المسرح بمشاهد أشجار وأقيمت في وسطه «أرضية»، أما الأفق فتشكله قطعة قماش مدهونة وقد اجتمعت في الوسط شابات بأحزمة حمراء وتنورات بيضاء. جلست إحداهن منتحية جانباً على موطئ تعلوه قطعة من الورق المقوى الأخضر ملصقة من الوراء وهي في ثوب حريري أبيض. بدأت الفتيات ينشدن معاً. فلما انتهين، تقدمت ذات الثوب الأبيض نحو الفتحة التي يختفي فيها الملقّن. عندئذ اقترب منها رجل كانت سراويله الحريرية الملتصقة بجسده تبرز ضخامة ساقيه وراح يغني وهو يحرك يديه وقد وضع ريشة في قبعته وتمنطق بخنجر.

في بادئ الأمر غنى ذو السراويل الملتصقة ثم حان دور زميلته. وبعدئذ سكتا كلاهما وتابعت الجوقة العزف بينما راح الرجل يربت يد زميلته ضابطاً الإيقاع منتظراً اللحظة الفنية للبدء بغناء ثنائي. وبعد أن غنيا صفق كل من في القاعة لهما، بينما راح الممثلان اللذان كانا في دور زوج من العشاق ينحنيان مبتسمين ذات اليمين وذات اليسار.

كانت ناتاشا القادمة من الريف في حالة فكرية جدية، فبدا لها ذلك المشهد غريباً بل مضحكاً. كان يستحيل عليها أن تتبع سير الحوادث وأن تصغي إلى الموسيقى. لم تكن ترى غير قماش مصبوغ ورجال ونساء مرقشين يتحركون ويتكلمون ويغنون تحت ضوء شديد شديد. طبعاً لم تكن تجهل التمثيلية، لكن المجموع كان يبدو لها شديد التصنع والارتجال حتى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إنها راحت تشعر بخجل للممثلين حيناً وبرغبة قوية في الضحك حيناً آخر. أجالت عينيها حولها محاولة أن تكتشف على أسارير المتفرجين آثار حالة نفسية مماثلة. لكن الوجوه المنتبهة كلها إلى ما يدور على المسرح كانت تعبّر عن حماسة مشكوك في إخلاصها على ما بدا لها. قالت في سرها: «يجب أن يكون الأمر كذلك بدون شك». راحت تفحص دورياً الرؤوس المضمخة في القاعة والنساء الحاسرات في المقاصير وبصورة خاصة جارتها هيلين التي كانت شبه عارية تنظر إلى المسرح بابتسامة هادئة دون أن تخفض عينيها متمتعة بالنور الشديد وجو القاعة الدافئ. استسلمت ناتاشا رويداً رويداً للون من الثمل لم تحسه منذ أمد طويل، لم تعد تعرف ما تفعل وتعرف أين هي ولا ما يدور تحت ناظريها. كانت تنظر دون أن ترى بينما كانت الأفكار الأكثر رعونة تمر في رأسها. استبدت بها رغبة في تسلق الحاجز وغناء المقطوعة التي غنتها الممثلة تارة وبمضايقة كهل قصير القامة، جالس على مقربة منها، بمروحتها أو الانحناء نحو هيلين ودغدغتها حيناً آخر.

خلال فترة استراحة بين قطعتين غنائيتين، صرَّ باب القاعة المجاور لمقصورة آل روستوف، وارتفعت خطوات متفرج متأخر. همس شينشين: «آه! هو ذا كوراغين!» التفتت الكونتيسة بيزوخوف وابتسمت للقادم الجديد. تبعت ناتاشا نظرتها فشاهدت مساعداً عسكرياً ذا جمال خارق يتجه نحو مقصورتهم وعلى وجهه علامات الترفع والبشاشة. ذاك كان أناتول كوراغين الذي رأته من قبل في الحفلة الراقصة في بيترسبورغ. وهو يرتدي الآن ثوب المساعد العسكري تتدلى الشارات على «كتافته» الوحيدة. أخذ يقترب بمهابة واتزان كان يمكن أن يكونا مضحكين لو لم يكن على جانب كبير من الجمال ولم يعرب وجهه المتناسق عن قناعة كاملة. وعلى الرغم من أن الفصل كان في سياقه، فأخذ يمشي فوق سجادة الممشى وهو يدق بمهمازيه وحسامه دقاً

www.Maktbah.com

خفيفاً ويسير متمهلاً شامخاً برأسه المعطر. ولما وقع نظره على ناتاشا اقترب من أخته وأسند يده المغيبة في قفاز إلى حافة المقصورة ثم أومأ لها برأسه ومال على أذنها وأخذ يهمس فيها وهو يشير إلى جارتها، قال:

ـ ولكن فتانة!

ومن حركة شفتيه، خمنت ناتاشا تلك الكلمات أكثر مما سمعتها وعرفت بما لا يقبل الشك أنها قيلت عنها. ذهب بعدئذ إلى الصف الأول من المقاعد وجلس بجانب دولوخوف بعد أن وكز ذلك الشخص الذي يحاول كل الناس الحصول على رضاه وكزة تدل على الألفة، خصه بغمزة مرحة من عينه ثم أسند ساقه إلى الحاجز.

قال الكونت: كم يتشابه الأخ والأخت! وكم هما جميلان!

وبصوت خفيض، قص عليه شينشين فضيحة جديدة لكوراغين في موسكو، فأصغت ناتاشا إلى تلك القصة لمجرد أنه قال عنها إنها فاتنة.

انتهى في الفصل الأول فنهض كل من في القاعة واختلط الحابل بالنابل بين خارج وداخل.

جاء بوريس يحيّي آل روستوف في مقصورتهم فتلقى منهم تهانيهم ببساطة متناهية، ودعا ناتاشا وسونيا نيابة بدلاً عن مخطوبته لحضور زواجهما وهو رافع حاجبيه قليلاً تطوف على شفتيه ابتسامة ساهمة ثم انسحب. استقبلت ناتاشا بوريس ذلك الذي كانت مفتونة به في الماضي، وهنأته بزواجه بجذل مبتسمة. كان كل شيء في نظرها بسيطاً وطبيعياً بفضل حالة السكر التي كانت عليها.

كانت هيلين نصف العارية الجالسة بالقرب منها تبتسم لكل الناس فمنحت ناتاشا بوريس ابتسامة من ذلك النوع.

وسرعان ما امتلأت مقصورة هيلين وحوصرت بلفيف من الرجال

twitter @baghdad_library

المرموقين الذين بدا من تصرفهم أنهم يفاخرون باطلاع كل الناس على معرفتهم بها.

بقي كوراغين مع دولوخوف طوال الوقت الذي استغرقته الاستراحة وظهره إلى الحاجز وعيناه شاخصتان إلى مقصورة آل روستوف، فهمت ناتاشا بسرور أنه يتحدث عنها، فجلست بشكل يسمح له برؤيتها من الجانب، وهي وضعية كانت، على ما تعتقد، تزيد في إبراز مفاتنها، وقبل بدء الفصل الثاني بقليل، ظهر في القاعة پيار بيزوخوف الذي لم يره آل روستوف منذ أن وصلوا إلى موسكو. بدا حزيناً أكثر سمنة مما رأته عليه ناتاشا في المرة الأخيرة، ذهب إلى الصفوف الأولى دون أن يلاحظ أحداً، استوقفه أناتول وقال له شيئاً ما وهو يسير إلى مقصورة آل روستوف. ولما وقع نظره على ناتاشا، انبسطت أساريره وسارع الخطو خلال صفوف المقاعد متجهاً نحوها. اتكأ بمرفقيه على المقصورة ودخل في حديث طويل مع ناتاشا.

في تلك الأثناء، بلغ مسامع الفتاة صوت رجل في مقصورة الكونتيسة وعرفت بغريزتها أنه صوت كوراغين. أدارت رأسها وقابلت نظرته. تفحصها وهو يبتسم بعينين غاية في الإعجاب حتى إنها شعرت بمزيد من الخجل لوجودها على هذا القرب منه ولاحتمالها نظرته وثقتها بأنها أعجبته دون أن تكون قد تعرفت به حتى تلك اللحظة.

مثلت مناظر الفصل الثاني أبنية مقبضة مأتمية وصُور القمر بواسطة ثغرة في الشاشة ورفعت عاكسات الضوء عن الحاجز وبدأت الطبول والكمانات الضخمة (كونترباس) تردد أصواتاً خافتة مكتومة، بينما تقدمت من يمين المسرح ويساره جوقة من الأشخاص في ملابس سوداء. راح هؤلاء يكثرون من الحركات ويهزون في أيديهم أشياء تشبه الخناجر، ثم أسرعت فرقة أخرى تنوي أخذ الفتاة التي شوهدت في الفصل الأول في ثياب بيضاء، والتي

www.Maktbah.com

كانت الآن ترتدي ثوباً أزرق لكنهم لم يأخذوها فوراً على أية حال بل غنوا طويلاً معها. وعندما اصطحبوها أخيراً، ارتفع صوت معدني ثلاث مرات في الكواليس، وحينئذ سقط الممثلون جميعاً على ركبهم ودوت أصواتهم بصلاة. ولقد قوطعت هذه المشاهد المختلفة مراراً بصيحات الإعجاب من جانب المتفرجين.

كلما سرحت ناتاشا في القاعة نظرها، كانت تجد أناتول كوراغين مستنداً إلى مسند مقعده، يلتهمها بنظره. كانت تشعر بلذة عند رؤيته صريع فتنتها دون أن ترتاب في أن ينطوي ذلك على أي سوء.

عندما انتهى الفصل الثاني، نهضت الكونتيسة بيزوخوف واستدارت نحو آل روستوف، وجيدها عار، فاستدعت الكونت العجوز بإشارة من اصبعها الصغيرة المستترة في القفاز. ودون أن تعير الأشخاص الذين كانوا يدخلون مقصورتها التفاتاً، دخلت معه في حديث جملته بأعذب ابتساماتها قالت له:

ـ قدم إليّ فتاتيك الفاتنتين. كل المدينة تتحدث عنهما وأنا وحدي لا أعرفهما.

وقفت ناتاشا وانحنت احتراماً للكونتيسة الجليلة. كانت إطراءات ذلك الجمال الشهير يلذ له لدرجة أن احمرّ وجهها من الاغتباط. استأنفت هيلين: إنني أعتزم أن أصبح موسكوفية حقيقية. ألا تخجل من دفن مثل هذه اللآلئ في الريف؟

كانت في الحقيقة تستحق لقب ساحرة. كانت تنعم بمزية قول ما لا تفكر فيه وإطراء الناس دون أن تتظاهر بذلك.

ـ يجب أن تسمح لي يا عزيزي الكونت بالاهتمام بابنتيك. رغم أنني لست هنا لمدة طويلة، كما هو شأنك كذلك، فإنني سأعمل جاهدة على الترفيه عنهما.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وأضافت تخاطب ناتاشا وابتسامتها ثابتة على شفتيها: لقد سمعتهم يتحدثون عنك كثيراً في پيترسبورغ وكنت في شوق كبير إلى التعرف إليك. نعم، لقد سمعت بك أولاً عن طريق وصيفي، دروپتسكوي ـ هل تعرفين أنه سيتزوج؟ ـ ثم عن طريق صديق لزوجي، پولكونسكي، الأمير أندريه پولكونسكي.

أبرزت هذا الاسم بشكل يفهم معه أنها لا تجهل الرباط الذي يجمع بينهما. ثم طلبت إلى الكونت أن يسمح لواحدة من الفتاتين بقضاء الوقت حتى نهاية العرض في مقصورتها لتزداد تعمقاً في معرفتها، فانتقلت ناتاشا إلى مقصورتها.

كان المشهد الثالث صور قصر سابح في النور تزينه لوحات تمثل فرساناً ملتحين في الوسط، وقف شخصان، ملك وملكة بلا شك، قام الملك بحركة بيده اليمنى غنى لحناً أميل إلى الرداءة والرعب ظاهر عليه، ثم اعتلى عرشاً من القطيفة، أما الفتاة التي شوهدت أول مرة في ثوب أبيض ثم في ثوب أزرق، لم تكن الآن مرتدية إلا قميصاً، وهي واقفة قرب العرش مشعثة الشعر. أخذت تغني قصيدة كئيبة وهي مستديرة نحو الملكة. لكن الملك استوقفها بإشارة حازمة. واندفعت زمرة من الرجال والنساء عراة السيقان من الكواليس وبدأوا يرقصون معاً. ثم عزفت «الكمانات» لحناً هادئاً فانفصلت إحدى النساء التي كانت ذراعاها النحيلتان تتنافيان مع ساقيها الضخمتين عن الآخرين، وبعد أن اختفت فترة وراء الكواليس لتسوي حزامها اقتربت إلى منتصف المسرح وبدأت تقفز في الهواء وهي تضرب قدميها الواحدة بالأخرى. وعندئذ انفجر كل من في القاعة مصفقين هاتفين! ثم استقر رجل في ثوب سباحة في إحدى زوايا المسرح وراح يقوم بقفزات ودورات كثيرة على دوي الطبول والصنوج. كان ذلك الرجل هو دوبور، الذي كانت تلك الحركات تعود عليه بستين

www.Maktbah.com

ألف روبل في العام، صفق المتفرجون جميعاً، أولئك الذين في القاعة وفي المقاصير وفي الغرف العليا وهتفوا له وحيوه بكل قواهم.

توقف الرجل لتحيتهم وتوزيع الابتسامات كل صوب. أعقبه راقصون وراقصات آخرون ثم صاح أحد العاملين بكلمات على إيقاع الموسيقى، فدوت أصوات الممثلين جميعاً في غناء جماعي. وفجأة هبت عاصفة وراح الموسيقيون يقرعون أعلى الطبقات على مختلف آلاتهم، واندفع الممثلون يجرون ومن جديد سحب أحد الممثلين إلى الكواليس، ثم أسدل الستار. عاد الصخب إلى أشده في القاعة وفاضت الحماسة وراح كل متفرج يهتف: «دوبور! دوبور! دوبور!» ولم تعد ناتاشا ترى شيئاً غريباً في كل هذا، بل إنها أحست بلذة في التفرج وهي مبتسمة على ما حولها. سألتها هيلين:

ـ إنه مدهش دوبور هذا أليس كذلك؟

فأجابت: أوه! نعم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

قالت هيلين وهي تنظر بقلق من واحد إلى آخر: اسمحي لي أن أعرّفك إلى أخي. وسرى إلى المقصورة هواء بارد أثناء الاستراحة، وكان أناتول منحنياً يحاذر أن يصطدم بأحد.

أدارت ناتاشا رأسها نحو ذلك الشاب الجميل وابتسمت له من فوق منكبها العاري. وجلس أناتول، الذي كان عن قرب على مثل جماله عن بعد، بجانب الفتاة وقال إنه ظل يرغب في أن يقدم إليها منذ ذلك اليوم الذي لن ينساه يوم أن أسعده الحظ برؤيتها في حفلة ناريشكين الراقصة. تظاهر أناتول أمام النساء أنه أكثر بساطة وأحدّ ذكاء مما يظهر به أمام الرجال. تحدث بحماسة فأحست ناتاشا بدهشة لطيفة حين لم تجد في هذا الرجل شيئاً مرعباً رغم ما يُروى عنه من أشياء، وأن ترى له على العكس، ابتسامة هادئة وقلبية.

سألها ما هو رأيها بصدد الرواية وقصّ عليها أن «السيمينوڤا» سقطت خلال العرض السابق على الأرض أثناء قيامها بحركاتها وفجأة قال بصوت منطلق وكأنه يعرفها منذ أمد طويل:

ـ أتعرفين ماذا يا كونتيسة؟ إننا ننظم حفلة تنكرية، يجب أن تشتركي فيها، ستكون مسلية جداً. سيكون الاجتماع العام لدى آل كاراغين. ستحضرين أليس كذلك؟

لم يشح بناظريه عن وجهها طوال الحديث ولم يفتأ يتأمل جيد ناتاشا وذراعيها العاريتين. كانت واثقة بأنه يتأملها بإعجاب، لكن ارتباكاً متزايداًبدأ

www.Maktbah.com

يمتزج بالبهجة التي كانت تحس بها. وعندما تحول ناظريها، كانت تشعر بثقل نظرة أناتول على كتفيها وحينئذ تعود دون شعور إلى البحث عن نظرته لتحول تأمله إلى وجهها. لكنها وهي تنظر إليه على ذلك النحو، كانت تشعر بهلع أن الحواجز التي أقامتها العفة بينها وبين الرجال الآخرين، تنهار. لم تكن تستطيع أن تفسر لنفسها كيف أصبحت خلال خمس دقائق على مثل هذا التقارب من هذا الرجل فإذا أدارت رأسها، ارتعدت خوفاً من أن يمسك بيدها أو يطبع قبلة على قذالها. ومهما بلغ حديثهما من الابتذال، فإنها كانت تفهم أنهما أصبحا أليفين ألفة لم تسمح لنفسها بمثلها مع أي رجل آخر. راحت تستفسر هيلين والكونت بعينيها، تسألهما عن معنى كل هذا. لكن هيلين التي كانت تتحدث مع أحد الجنرالات، لم تلحظ ذلك النداء، أما نظرة أبيها فكانت تقول لها: «إنك تتسلين، وأنا راض مسرور جداً».

في إحدى تلك اللحظات من الصمت المرتبك التي لم يكن أناتول خلالها يكف عن النظر إلى ناتاشا بعناد بعينيه الجاحظتين، سألته هذه، لتحطم الصمت، عما إذا كانت موسكو تروقه. لكن هذا السؤال ما كاد يفلت من بين شفتيها حتى احمرّ وجهها. كان يخيل إليها أنها بالتحدث إلى هذا الرجل إنما ترتكب مخالفة. ابتسم أناتول وكأنه يشجعها: لم تكن موسكو تعجبني حتى اليوم، لأن النساء الجميلات هن اللواتي يجعلن المدينة جميلة أليس كذلك؟ أما الآن، فعلى العكس. إنني مسرور جداً.

ونظر إليها نظرة معبرة: ستأتين لحضور الحفلة أليس كذلك يا كونتيسة؟ تعالي.

ومدّ يده نحو باقة ناتاشا وتابع وهو يخفض صوته: ستكونين أجمل الموجودات. تعالي يا عزيزتي الكونتيسة، وأعطني هذه الزهرة عربوناً على مجيئك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أحست ناتاشا بخجل دون أن تفهم تماماً الغاية المستترة وراء كلماته. لما لم تدر بمَ تجيب، أشاحت عنه متصنعة عدم سماع قوله. ولكن ما لبثت فكرة وجوده هنا، شديد القرب منها، أن أضجرتها مجدداً.

وراحت تتساءل: «ماذا يفعل؟ هل هو غاضب علي؟ يجب تسوية هذا الأمر». لم تستطع الإمساك عن إدارة رأسها ونظرت مباشرة إلى عينيه. تسلط عليها وجود أناتول القريب واطمئنانه وجودة نفسه الحكيمة. ابتسمت ابتسامة تشبه ابتسامته وفكرت أنه لم يعد من حاجز بينهما.

مجدداً، ارتفع الستار، فخرج أناتول من المقصورة مبتهجاً. عادت ناتاشا إلى مقصورة أبيها وهي خاضعة تماماً لهذا العالم الجديد الذي دخلته. أصبح كل ما يدور حولها منذ ذلك الحين طبيعياً. لم تعد في مقابل ذلك تفكر قط في قلقها من أجل خطيبها والأميرة ماري والحياة الريفية التي أمضتها. بدا أن كل هذا أصبح من الماضي، ماضٍ عريق في القدم.

انبعث امرؤ، في الفصل الرابع، يشبه الشيطان وراح يفرط في الحركات ويغني حتى فتحت فتحة اختفى فيها. بل لعل هذا كل ما استطاعت ناتاشا أن تراه لشدة ما كانت مضطربة، أما سبب هذا الانفعال فكان أناتول كوراغين الذي ما انفكت رغماً عنها تلاحقه بعينيها. وعندما خرجوا من المسرح، جاء واستقدم عربتهم وساعدهم على الركوب. وبينما هو يساعد ناتاشا على الصعود، ضغط على ذراعها فوق المرفق. خجلت واحمرّ وجهها، وغامرت بالنظر إليه:

كان أناتول يتأملها بعينيه البراقتين وهو يبتسم ابتسامة حانية.

ولما وصلت ناتاشا إلى المنزل، شعرت بما حدث في أعماقها. وفجأة روعت عندما تذكرت الأمير أندريه. وبينما هم يتناولون الشاي بعد العرض، أطلقت صرخة وأسرعت إلى غرفتها ووجهها قان.

www.Maktbah.com

قالت في سرّها: «رباه، لقد ضعت! كيف أمكنني أن أسمح له بذلك»؟ بقيت فترة طويلة جالسة في مكانها، تخفي وجهها القرمزي بين يديها، محاولة عبثاً تنظيم مشاعرها الثائرة. بدا لها كل شيء مريعاً. هناك، في تلك القاعة الكبيرة المضاءة، حيث كان دوبور يقفز فوق ألواح ندية من الخشب على ألحان الجوقة، وهو في ثياب السباحة وفوقها سترة خفيفة، تلاحقه «المرحات» المتحمسة من أفواه الفتيات والشيوخ ومن هيلين ذات الابتسامة الهادئة؛ هناك في ظل هيلين تلك، كان كل شيء واضحاً وبسيطاً. أما الآن، فعلى العكس، عندما أصبحت وحيدة منفردة مع نفسها، لم تعد تفهم شيئاً. تساءلت: «ما معنى كل هذا؟ ما معنى ذلك الخوف الذي ألهمنيه؟ ما معنى هذا التقريع الذي أنا فريسة له؟».

لم تكن تستطيع الإفضاء بمكنونات قلبها إلا الكونتيسة العجوز خلال إحدى زياراتها الليلية إلى غرفتها وفي سريرها. لم تكن تستطيع الإفصاح عن شعورها إلى سونيا التي لا يمكنها أن تفهم شيئاً من هذا الاعتراف، وهي التي لها أسلوبها الشامل في النظر إلى الأمور. بل إن مثل هذا الاعتراف كفيل بإخافتها. وعلى هذا، لم يكن على ناتاشا إلا أن تعتمد على نفسها لتتعرف إلى حقائق الأمور في أعماقها.

«هل فقدت الإحساس بغرام أندريه أم لا؟» تساءلت قلقة. لكنها سرعان ما تطمئن نفسها بابتسامة وتفكر: «كم أنا حمقاء بطرح مثل هذا السؤال على نفسي! ماذا حدث بالفعل؟ لا شيء إطلاقاً. لم أرتكب إثماً ولست مسؤولة أبداً عما حدث. لن يعرف أحد شيئاً، لن أراه بعد اليوم أبداً... نعم، إنه واضح، لم يحدث شيء. إنني لا أحس بوجوب الندم على خطأ ارتكبه يمكن للأمير أندريه أن يحبني كما أنا، ولكن ماذا أصبحت أنا؟ آه يارب! لمَ لا يكون هنا؟» استعادت ناتاشا السكينة برهة، ولكن لم يلبث شعور غامض أن قال لها أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

طهر حبّها السابق لأندريه ونقاءه قد تكدر ما دام الأمر وقع على هذا النحو. وعندئذ رجعت إلى ذاكرتها قسراً كل تفاصيل مداولتها مع كوراغين. عادت ترى وجهه، ذلك الفتى الجميل وحركاته وابتسامته الحانية عندما ضغط على ذراعها.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

نزولاً عند رغبة أبيه، استقام أناتول كوراغين في موسكو، إذ تعب أبوه من رؤيته ينفق في بيترسبورغ ما يربو على العشرين ألف روبل سنوياً ويستدين مثلها، فيأتي الدائنون يطالبون الأمير العجوز بسداد الديون.

للمرة الأخيرة وافق على تسديد نصف ديون ولده بشرط واحد: أن يذهب أناتول فوراً إلى موسكو، حيث جعل الجنرال الأعلى يقبله برتبة مساعد، وأن يسعى جهده للزواج بوارثة غنية، الأميرة ماري مثلاً أو أقله جولي كاراغين.

وافق أناتول إلى موسكو. أقام عند پيار الذي استقبله، بادئ الأمر، في غير ترحاب ثم لم يلبث أن ألفه وساهم معه في بعض مباذله بل أعطاه بعض المال بصفة قرض.

لقد نطق شينشين بالحقيقة: منذ وصول أناتول إلى موسكو، شده النساء فيها وبصورة خاصة، لأنه كان يهملهن ويلتفت إلى البوهيميات والممثلات الفرنسيات اللواتي كانت مقدمتهن، الآنسة جورج، عشيقة له. لم يكن يتغيب عن حفلة من حفلات دانيلو وغيره من المرحين في موسكو، ويبارز خلال ليال طويلة أصلب السكيرين، يحضر الحفلات الراقصة وكل السهرات التي تحييها الطبقة الراقية. وكان يغازل النساء أثناءها، وهم يسردون عدداً من مغامراته الناجحة، لكنه لم يكن يقرب الفتيات وخصوصاً الوارثات الغنيات اللاتي يمتاز معظمهن بالبشاعة. وكان الدافع إلى هذا التحفظ، سبب حازم لا يعرفه إلا خلصاؤه: كان متزوجاً منذ عامين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وفي الواقع، عندما كان في الفيلق المعسكر في بولونيا، أقنعه أحد أثرياء الريف أن يتزوج ابنته. ولم تمض فترة وجيزة، حتى هجر أناتول زوجته لقاء دخل تعهد بتقديمه لحميه، فحصل بذلك على امتياز بالتظاهر بمظهر العازب.

كان أناتول دائم الرضى عن مصيره وعن نفسه وعن الآخرين، مقتنعاً بغريزته بأنه إنما يعيش الحياة الوحيدة التي تلائم طبيعته وأنه لم يسئ قط إلى أحد. كان عاجزاً عن إدراك ما ينجم من إساءات عن كذا أو كذا من تصرفاته، وما قد يسبب بعضها من انطباعات في نفوس الآخرين، كان يؤمن بقوة بأنه خلق في هذه الدنيا لينفق ثلاثين ألف روبل سنوياً ويشغل مركزاً مرموقاً في المجتمع كما خُلق البط ليعيش في الماء. وكان شديد الاقتناع بذلك، حتى أن الآخرين إذا ما رأوه، أقنعوا أنفسهم بصحة رأيه، فلا يرفضون منحه الرتبة أو المنزلة التي يطلب ولا يبخلون عليه بالقروض التي كان يجريها مع كل من تسنح له الفرصة بالاقتراض منه دون أن يفكر طبعاً في إعادة ما يقترض.

وأقله، لم يكن مقامراً، ولم يكن يبحث عن الربح. ولم يكن مزهواً ولا يأبه أبداً لما يقال عنه. كذلك كان نصيب اتهامه بالطمع أقل نجاحاً لقد أغضب أباه غير مرة معرضاً مركزه للخطر، مستهتراً بكل القيم. ولم يكن بخيلاً، بل كان يفتح كيس نقوده لكل مقترض. كان همه منصرفاً إلى النساء والملذات. ولما كان لا يجد شيئاً دنيئاً في أذواقه تلك، ولا يتصور أن يسبب تصرفه إرضاء لرغباته تلك أضراراً لسواه، فإنه كان يقدر نفسه بكل إخلاص وإيمان ويحتقر الصعاليك والأنذال. والخلاصة أنه كان يشمخ برأسه وهو قانع الوجدان.

يعتقد أنصار المسرات في الحياة دائماً بأنهم غير مذنبين. وهذه القناعة الساذجة عند مثل هؤلاء، تركز على الصفح شأنها عند النساء العابثات. «لسوف يصفح عنه كثيراً لأنه كان أحب كثيراً، سوف يصفح عنه كثيراً لأنه كان تسلى كثيراً».

www.Maktbah.com

رجع دولوخوف، الذي ظهر في موسكو بعد نفيه ومغامراته في بلاد العجم وراح يعيش عن سعة، يجدد علاقاته بكوراغين صديقه القديم في پيترسبورغ ويستخدمه في أغراضه. وكان أناتول يعجب بعقلية صديقه واستهتاره. وكان دولوخوف، وهو في أمسّ الحاجة إلى اسم كوراغين وعلاقاته ليجذب الشبان إلى شباكه كمقامر، يفيد من أناتول فائدة كبيرة ويسخر منه في أعماق نفسه. ثم إنه لم يكن يخضع لغاية واحدة. كان مجرد تسخير إرادة آخر وإرادته وفق هواه، متعة قائمة بذاتها وعادة بل حاجة.

أثّرت ناتاشا في أناتول تأثيراً قوياً. وبينما هو يتناول العشاء بعد العرض راح يصف لدولوخوف وصف الخبير، مفاتن ناتاشا ويطري ذراعيها وكتفيها وقدميها وشعرها وأعلن له عزمه على ملاحقتها ملاحقة عنيدة. أما إلى أي غاية تقوده تلك الملاحظة؟ فهذا ما لم يكن أناتول يفكر فيه. لم تكن نتائج تصرفاته المرتقبة تقلق باله قط.

قال له دولوخوف: إنها جميلة يا عزيزي، لكنه جمال ليس لنا.

ـ سأقول لأختي أن تدعوها لتناول الغداء. ماذا تقول؟

ـ بل انتظر ريثما تصبح متزوجة.

ـ أنت تعلم أنني أعبد الفتيات الصغيرات. إنهن يفقدن إحساسهن فوراً.

أجاب دولوخوف الذي كان يعرف زواج أناتول القسري:

ـ لقد سقطت من قبل في حفرة حفرتها فتاة صغيرة، فحذار.

استأنف كوراغين بضحكة مرحة: لا يدع المرء نفسه يهزم مرتين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

لم يخرج آل روستوف، في اليوم التالي للعرض ولم يأت أحد لزيارتهم. تحدثت ماري دميترييڤنا سراً مع إيليا أندرييـڤيتش، فخمنت ناتاشا أنهما تحدثا عن الأمير العجوز ودبرا معاً مشروعاً معيناً، الأمر الذي أقلقها وأغضبها معاً. كانت في كل لحظة تنتظر الأمير أندريه، وقد أرسلت البواب استجابة لنفاد صبرها، إلى شارع ايكزالتاسيون مرتين للاستطلاع. وفي كل مرة، كان ذلك الرجل يعود ليقول لها إن الأميرأندريه لم يصل بعد. أصيبت ناتاشا بشدة متزايدة. جاءت ذكرى مقابلتها مع ماري والأمير العجوز تنضم إلى نفاد صبرها واكتئابها بسبب غيابه «هو» إلى جانب قلق آخر لم تكن توفق في معرفة سببه. كانت تتصور دائماً أنه إما أن لا يعود وإما أن يحدث شيء ما قبل عودته. لم تعد تستطيع كسابق عهدها أن تفكر فيه بهدوء خلال فترات تأملاتها الطويلة في وحدتها. فلا تكاد صورة أندريه تظهر في خيالها إلا وترافقها صورة الأمير العجوز وماري، وكوراغين والعرض. ومن جديد تتساءل عما إذا لم تكن مذنبة، وهل لم تخن العهود التي قطعتها للأمير أندريه، ومجدداً تعود إلى تصور أدق التفاصيل وأتفه الكلمات والحركات وتبدل قسمات ذلك الرجل الذي عرف كيف يوقظ في نفسها شعوراً غامضاً مخيفاً. كانت تبدو لعيون المقربين إليها أكثر حيوية من عادتها، لكنها كانت أبعد ما تكون عن الهدوء والسعادة السابقين.

صباح الأحد، عرضت ماري دميترييڤنا على ضيوفها، حضور القداس في كنيسة «دورميسيون أو تومبو» قالت لهم وهي مزهوّة لاستقلالها:

ـ لا أحب الكنائس العصرية. إن الله هو هو في كل مكان. لدينا كاهن ممتاز يقوم بالطقوس بشكل لائق. وكذلك الشماس، إنه قدوة. أما تلك الحفلات الموسيقية التي تقام في الأماكن المقدسة، فإنني أمقتها لأنها تدنيس...

كانت ماري دميترييڤنا تحب يوم الرب وتتهيأ للاحتفاء به، كان خدمها يغسلون الدار وينظفونها منذ يوم السبت. فإذا جاء الأحد، ذهبت هي وخدمها إلى الصلاة راضين فلا يفعلون شيئاً في ذلك النهار. وكانت تضيف ألواناً جديدة من الأطعمة للسادة وتسمح للخدم بشرب الخمور إلى جانب الطعام المؤلف من أوزة مشوية وخنزير صغير. لكن ما من شيء في المنزل ينبئ بالعيد أكثر من وجه ماري دميترييڤنا العريض الصارم الذي تعلوه في مثل ذلك اليوم أمارات الجلال.

بعد أن تناولوا القهوة بعد القداس في قاعة الاستقبال، جاء خادم يعلن لماري دميترييڤنا أن عربتها قد قُربت. فنهضت السيدة الطيبة التي كانت مرتدية شالها الفاخر وأعلنت بلهجة صارمة أنها ذاهبة عند الأميرنيكولا أندرييـڤيتش بولكونسكي لكي تتفاهم معه حول موضوع ناتاشا.

بعد ذهابها، جاءت حائكة ثياب من قبل مدام شالميه فذهبت ناتاشا معها إلى الغرفة المجاورة وهي سعيدة بهذه التسلية. أغلقت الباب وراحت تستعد لتجربة أثوابها الجديدة. بدأت بحزام داخلي مشرّج دون أكمام. وبينما كانت ناتاشا مائلة الرأس إلى الوراء تنظر إلى المرآة الكبيرة معاينة ظهر الحزام، تناهى إلى سمعها صوت محاورة محتدمة في القاعة الكبيرة بين أبيها وشخص آخر ما لبث صوته أن صعّد الدماء إلى خديها. كان ذلك الصوت هو صوت

twitter @baghdad_library

هيلين، لم تكن ناتاشا قد خلعت حزامها بعد، عندما فتح الباب وظهرت الكونتيسة بيزوخوف مشرقة الوجه بابتسامتها البريئة الأنيسة، في ثوب من المخمل البنفسجي مرتفع الياقة. قالت لناتاشا التي أصبحت أرجوانية اللون: آه! يا لذيذتي! فتانة!

ثم أضافت وهي تلتفت إلى الكونت إيليا أندرييـڤيتش الذي كان داخلاً في أعقابها:

ـ حقاً يا عزيزتي الكونتيسة، إن هذا لا اسم له. أن تكونوا في موسكو ثم لا تذهبوا إلى أي مكان! كلا. لا أريد أعذاراً. إنني أستقبل هذا المساء بعض الأصدقاء. وستلقي الآنسة جورج بعض الأشعار. ـ فإذا لم تأتني بهما وهما ولا شك أجمل من الآنسة جورج، فإنني لا أرغب بعد اليوم في معرفتك. إن زوجي غائب. لقد ذهب إلى تفير[1] ولولا ذلك لأرسلته ليصحبكم. تعالوا حتماً، هل تسمعون: حتماً، اعتباراً من الساعة الثامنة.

حيث كانت الحائكة التي تعرفها بإشارة من رأسها، والتي أنجبت أمامها باحترام كبير ثم جلست في مقعد قرب المرآة الكبيرة وهي تنشر ثنيات ثوبها المخملي بحركة لطيفة، استمرت تثرثر بطيبة نفس وتكثر من تمجيد جمال ناتاشا وفتنتها. فحصت أثواب الفتاة فوجدتها مناسبة ذوقها وراحت تطري بهذه المناسبة ثوبها الذي تلقته من باريس إنه على أحدث طراز ومن أفخر الأقمشة، ونصحت ناتاشا بأن تستقدم لنفسها واحداً مثله. واختتمت قولها:

ـ على أية حال، إن كل شيء ينسجم معك يا فاتنتي.

أشرق وجه ناتاشا فرحاً، وانبسطت أساريرها بتأثير إطراء تلك الكونتيسة بيزوخوف الفاتنة التي بدت لها لأول وهلة عظيمة الجلال منيعة الجانب،

---

(١) مدينة روسية على نهر الـڤولغا، تدعى اليوم كالينين. (المترجم).

والتي راحت الآن تعرب لها عن كل هذه الطيبة. كانت على استعداد للافتتان بهذه المرأة المحبة بقدر ما هي جميلة. أما هيلين، فكانت من جانبها كلفة بناتاشا، ومن أجل ذلك، جاءت ذلك اليوم إلى حيث ينزل آل روستوف. بدت لها فكرة التقريب بين هذين الشابين مستحبة.

وعلى الرغم من السخط الذي أحست به مرة من قبل حينما انتزعت ناتاشا في پيترسبورغ بوريس منها، فهي لم تعد تفكر في ذلك قط، بل راحت من صميم قلبها تتمنى لها الخير على طريقتها. وقبل أن تنصرف، نأت «بمحميتها» جانباً: لقد تغدى أخي البارحة، في المنزل فأهلكنا من الضحك. إنه لا يأكل شيئاً في الآونة الأخيرة ويتنهد دون انقطاع حسرة عليك، يا فاتنتي. إنه مجنون بك يا عزيزتي.

اصطبغ وجه ناتاشا بلون قرمزي.

ـ آه! كيف يحمرّ وجهها، يا لذيذتي! إذن، لقد اتفقنا، ستأتين أليس كذلك؟ إذا كنت تحبين أحداً يا لذيذتي فليس ذلك مبرراً لتحبسي نفسك. حتى ولو كنت مخطوبة، فإنني واثقة بأن خطيبك سيسره أن تندفعي في المجتمع في غيابه بدلاً من أن تذوي هكذا من الضجر.

قالت ناتاشا في نفسها: «وهكذا، إنها تعرف أنني مخطوبة. لا شك أنهم تحدثوا في الأمر، هي وزوجها پيار هذا الذي هو الاستقامة نفسها، وضحكوا للمغامرة. وإذن، لا يوجد في الأمر أي سوء». ومجدداً، أصبح كل ما كان يبدو لها رهيباً، شديد البساطة طبيعياً تماماً بتأثير هيلين. فكرت وهي تحدق إلى هيلين بعينيها البريئتين المتسعتين: «كم هي مستحبة هذه السيدة الراقية! إنها تحبني من كل قلبها، بالتأكيد!... ثم، لماذا لا أرفه عن نفسي؟»

عادت ماري دميترييڤنا في وقت الغداء. كانت أماراتها العابسة تدل على

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أنها منيت بهزيمة على يدي الأمير العجوز. لم يسمح لها انفعالها بأن تقصّ بهدوء تفاصيل الواقعة. أجابت عن سؤال من أسئلة الكونت أن كل شيء على ما يرام وأنها ستروي له كل شيء غداً. ولما اطلعت على دعوة هيلين أعلنت: إنني لا أحب هذه الـ: بيزوخوف ولا أنصحكم بمخالطتها.

وأضافت تخاطب ناتاشا: الآن وقد وعدت، إذهبي؟ سوف يرفه عنك ذلك.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

كان المدعوون وهم كثرة لا تعرفهم ناتاشا جميعهم، وقام الكونت إيليا أندرييـﭬيتش يرافق الفتاتين إلى منزل الكونتيسة بيزوخوف. لاحظ أبوها باستياء أن القسم الأكبر منهم، كان ممن اشتهروا باستهتارهم. كان الشبان يشكلون حلقة في إحدى الزوايا حول الآنسة جورج، وهناك بعض الفرنسيين، ومن بينهم ميتيـﭬيه، الذي منذ مجيء هيلين إلى موسكو أصبح من المترددين إلى منزلها. قرر الكونت البقاء مع فتاتيه مستغنياً عن اللعب وأن ينصرف منذ أن ينتهي التمثيل.

وقف أناتول قرب الباب يترقب وصولهم. وبعد أن حيا الكونت، اقترب من ناتاشا وتبعها. فما كادت تراه حتى شعرت بذلك الإحساس الغريب، كما حدث لها في المسرح، الذي يناضل فيه الزهو القانع ضد الرعب الذي يحدثه في نفسها انهيار كل الحواجز الأخلاقية بين هذا الرجل وبينها.

وبمبادرة جزلة، استقبلت هيلين ناتاشا وأكبرت جمالها وزينتها بصوت مرتفع وبعد حين، خرجت الآنسة جورج لارتداء ثيابها، فرصفت المقاعد لجلوس المدعوين وشغل كل امرئ مكانه. قدم أناتول كرسياً إلى ناتاشا وأراد أن يجلس بقربها لكن الكونت الذي لم يكن يبتعد عن ابنته، احتل المقعد المجاور. فجلس أناتول وراءها.

وقفت الآنسة جورج بذراعيها الضخمتين العاريتين ذواتي «الغمازات» وشال أحمر على إحدى كتفيها في الفراغ المخصص لها وسط المقاعد وقفة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

متأهبة. فاستقبلتها همهمة إعجاب. وبعد أن تصفحت الوجوه بنظرة محزنة، راحت تستظهر أشعاراً، موضوعها حبها المجرم لابنها. كانت ترفع صوتها في بعض المقاطع وتخفضه في مقاطع أخرى وهي تشمخ برأسها باعتداد. وأحياناً تتوقف وترسل حشرجات وهي تدير في الموجودين عينين كبيرتين. صاح المدعوون من كل جانب:

ـ معبودة، سماوية، رائعة!

لم تسمع ناتاشا شيئاً أو ترى شيئاً وهي شاخصة بعينيها إلى جورج الضخمة. شعرت مجدداً أنها محولة نهائياً في ذلك العالم السحري المختلف كلياً عن الذي عاشت فيه من قبل، عالم لا يمكن تمييز الخير من الشر فيه ولا العقل من الجنون. كان أناتول جالساً وراءها ولما كانت تشعر به، فقد ظلت متشنجة في ترقب مغموم.

وبعد إلقاء الشعر، أحاط كل المتفرجين بالآنسة جورج مطلقين الأعنة لحماستهم. قالت ناتاشا لأبيها الذي وقف كالآخرين ومشى نحو الممثلة مع الجماعة: كم هي جميلة!

وقال أناتول الذي تبع ناتاشا: عندما أراك، أكون على رأي آخر.

ثم انتهز فرصة وجد أنها ستسمعه وحدها وقال:

ـ إنك لذيذة... منذ اللحظة التي ظهرت فيها لي، لم أكف...

قال الكونت وهو يعود نحو ابنته: تعالي يا ناتاشا، كم هي جميلة!

لحقت ناتاشا بأبيها ساكتة وهي تتفحصه بنظرة ذاهلة.

وبعد أن مثلت مشاهد أخرى، انسحبت الآنسة جورج فدعت الكونتيسة بيزوخوف ضيوفها إلى قاعة الرقص.

همّ الكونت بالانصراف. لكن هيلين توسلت إليه ألّا يفسد روعة الحفلة غير المنتظرة. وبقي آل روستوف. راقص أناتول ناتاشا على أنغام الـڤالس

www.Maktbah.com

وأعلن لها وهو يضغط على يديها، أنه يحبها وأنها رائعة الجمال. وخلال رقصة «الإيكوسيز» التي رقصاها معاً كذلك اكتفى أناتول خلال اللحظات التي كانا فيها وحيدين، بالنظر إلى وجهها دون أن يتفوه بكلمة. تساءلت ناتاشا حينئذ عما إذا لم تكن حلمت أنها سمعت ما قاله خلال رقصة الـڤالس. وعند انتهاء الحركة التصويرية الأولى، عاد يضغط على يدها مجدداً. رفعت ناتاشا إليه عينين مروعتين. لكن نظرة أناتول وابتسامته كانتا مطبوعتين بحنان شديد الثقة حتى أنها لم تستطع أن تقول له كل ما أرادت قوله. أطرقت بعينيها وتمتمت:

ـ لا تقل لي مثل هذه الأشياء إنني مخطوبة وأحب شخصاً آخر.

وبينما هي تغامر بنظرة أخرى إليه، رأت أن اعترافها لم يحزن أناتول ولم يزعجه. قال لها همساً: لا تحدثيني عن هذا. ماذا يهمني؟ أقول لك إنني مجنون، عاشق مدنف بحبك. هل هي خطيئتي إذا كنت على مثل هذا السحر؟... حان دورنا.

نظرت ناتاشا إليه دون أن ترى بعينيها الوحشيتين، مرتبكة ساخطة فبدت أكثر مرحاً من المألوف فما كانت تحس بما يدور حولها إلا لماماً بعد رقصة الإيكوسيز، بدأ رقصة «الجَدّ»، وهي رقصة تصويرية ألمانية، كانوا ينهون بها حفلات العرس الراقصة وكانت شائعة في روسيا. أراد أبوها أن يعود بها لكنها طلبت إليه البقاء. تنقلت كثيراً وغيّرت مكانها وتحدثت إلى هذا وذاك، لكنها بقيت تشعر بنظرة أناتول تلاحقها. تذكرت فيما بعد أنها طلبت إلى أبيها أن يسمح لها بالذهاب إلى غرفة الزينة لتسوية ثوبها وتبعتها هيلين إلى هناك وحدثتها وهي ضاحكة عن حب أخيها. وفجأة رأت نفسها في مخدع صغير مع أناتول. لقد تركتهما هيلين منفردين: أناتول وهي: فأمسك هذا بيديها وقال لها بصوت ضعيف: لا أستطيع المجيء إليك، ولكن هل يمكن ألّا أراك بعد اليوم؟ إنني أحبك كالمجنون... هل أبدأ...؟

twitter @baghdad_library

وقطع عليها السبيل وأمال وجهه عليها: كانت عيناه البراقتان شديدتي القرب من عينيها حتى أنها لم تعد ترى سواهما، همس صوت ملح: ناتالي؟

وأمسك بيديها حتى كاد يسحقهما. ناتالي؟

وبدت نظرتها التائهة وكأنها تقول: «لست أفهم؛ ليس عندي ما أقوله لك».

أطبقت شفتان ملتهبتان على شفتيها. لكنها في الوقت نفسه شعرت أنها أنقذت: ارتفع صوت خطوات واقترب حفيف ثوب عرفت ناتاشا هيلين. ألقت على الشاب نظرة مروعة واتجهت نحو الباب مرتجفة قرمزية الوجه.

قال لها أناتول: كلمة، كلمة واحدة بحق الله.

توقفت. كانت في لهفة إلى سماعه ينطق بتلك الكلمة التي تفسر لها كل ما حدث، تلك الكلمة التي تستطيع أخيراً أن تجيب عنها.

غمغم وهو لايدري ماذا يقول ولا شك:

ـ ناتالي، كلمة، كلمة واحدة.

وراح يكرر هذه العبارة حتى اللحظة التي بلغت هيلين مكانهما.

عادت هيلين وناتاشا إلى القاعة وذهب آل روستوف عائدين قبل تناول العشاء.

في تلك الليلة، لم تنم ناتاشا. كانت مسألة مستعصية الحل تعذبها بإلحاح: أيهما تحب، أناتول أو الأمير أندريه؟ كانت تحب الأمير أندريه. تذكرت شدة حبها له. لكنها تحب أناتول أيضاً. قالت في سرّها: «وإلا، هل كان يمكن أن يحدث كل هذا؟ إذا كنت استطعت بعد كل ما حدث أن أجيب بابتسامة عن ابتسامته، إذا كنت بلغت هذه المرحلة، فإن معنى ذلك أنني أحببته منذ اللحظة الأولى، معنى ذلك أنه طيب ونبيل، يتعذر علي أن لا أحبه. فماذا أفعل إذا كنت أحب هذا وذاك؟» تلك كانت المسألة المقلقة التي لم تجد لها جواباً.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

نهضوا جميعاً وثرثروا وعادت الحائكات عندما أقبل الغد بهرجه وأشغاله العادية، ثم وصلت ماري دميترييڤنا واجتمع الشمل حول مائدة الشاي. كانت ناتاشا تطالع من حولها بهيئة كئيبة محاولة الظهور كعادتها وعيناها متسعتان وكأنها تريد الإحاطة بأتفه نظرة توجه إليها.

وبعد الإفطار، وهو الوقت المفضل لديها، جلست ماري دميترييڤنا على مقعدها واستدعت ناتاشا وأباها الكونت العجوز إلى جانبها وأخذت تقول: حسناً يا أصدقائي. لقد فكرت في المسألة تفكيراً جدياً وهذه نصيحتي. كنت البارحة، كما تعلمان، في منزل الأمير نيكولا وتحدثت إليه... صحيح أنه رفع صوته متوهماً! ولكن لا يمكن أن يغلق فمي أنا. لقد حدثته بكل صراحة عن وجهة نظري.

سأل الكونت: وماذا قرر؟

ـ هـو؟... لا يريد الإصغاء إلى حرف واحد. ثم ما فائدة كل هذه المفاوضات. لقد تعذبت تلك الصبية الصغيرة حتى الآن بما فيه الكفاية. نصيحتي أن تنهيا أعمالكما هنا وأن تعودا إلى منزلكما في أوترادنواي وأن تنتظرا جميعاً بصبر...

صاحت ناتاشا: آه، كلا!

ـ بلى، بلى. يجب العودة والانتظار بصبر. إن الخطيب إذا جاء إلى هنا،

twitter @baghdad_library

فإن الأمر لن ينتهي دون خصام. أما إذا كان وحيداً مع العجوز، فإنه قادر على الانتصار عليه بإقناعه ثم يلحق بكم بعد ذلك.

اقتنع إيليا أندرييـڤيتش بحكمة تلك النظرية فوراً فأيدها. ذلك أن العجوز إذا غيّر رأيه فمن السهولة الذهاب لرؤيته سواء في موسكو أو في ليسيياغوري. وفي الحالة العكسية، فإن زواجاً خارجاً عن رغبته لا يمكن أن يحتفل به إلا في أوترادنواي. قال:

ـ أنت على حق تماماً. أنا آسف لذهابي إلى منزله واصطحابي ناتاشا إلى هناك.

ـ ليس هناك ما يستوجب الأسف. ما كان يمكنكم وأنتم في موسكو إلا أن تقوموا نحوه بتلك المجاملة مرغمين.

وأضافت ماري دميترييڤنا وهي تبحث في حقيبة يدها: إذا أمعن في رفضه، فذلك شأنه. وبما أن الجهاز حاضر، فمن العبث الانتظار أكثر من ذلك. أما ما ينقص بعد، فإنني على استعداد لتوفيره لكم. إنني آسف لرؤيتكم تغادرونني، لكن ذلك أفضل. فاذهبوا يا أصدقائي أتمنى لكم سفراً سعيداً.

ولما عثرت أخيراً على ما كانت تبحث عنه في حقيبة يدها، قدمته إلى ناتاشا. كانت رسالة من الأميرة ماري.

ـ إنها كتبت إليك. المسكينة! إنها تزعج نفسها كثيراً. إنها تخاف من أن تتوهمي أنها لا تحبك.

أجابت ناتاشا بجرأة وهي تأخذ الرسالة: مهما قيل، فأنا أعرف أنها لا تحبني.

كان وجهها يعبر عن عناد قاس للغاية حتى أن ماري دميترييڤنا لم تتمالك أن قطبت حاجبيها وشخصت إليها بعينيها تتفحصها. قالت لها ناصحة:

www.Maktbah.com

ـ لا تخاطبيني بمثل هذه اللهجة يا صغيرتي. إن ما أقوله هو الحق. إذهبي وأجيبي عن رسالتها.

ذهبت ناتاشا إلى غرفتها دون أن تجيب لتقرأ الرسالة.

كانت الأميرة ماري تنبئها بأنها في حالة يائسة لسوء التفاهم الذي حدث بينهما. ومهما كانت عواطف أبيها، فإنها كانت تتوسل إلى ناتاشا أن تصدق أنها لا تستطيع إلا أن تخص مودتها تلك التي اختارها أخوها. إنها مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل سعادة أندريه.

استرسلت: «على كل حال، لا تظني أن أبي يبيت لك العداء. إنه عجوز مريض يجب معذرته. إنه طيب وكريم وسينتهي به الأمر إلى محبة تلك التي ستبني سعادة ابنه.

كانت ماري تسألها أن تتفضل بتحديد الوقت الذي يمكنها أن تراها فيه مرة أخرى.

انصرفت ناتاشا إلى كتابة الجواب بعد أن قرأت هذه الرسالة، سطرت بصورة آلية «عزيزتي الأميرة» ثم توقفت. حدثت نفسها أمام الرسالة التي بدأت بكتابتها: «ماذا يمكنها أن تكتب بعدما حدث بالأمس؟ كلا، كلا، إن الأمر لم يعد يتعلق بها الآن. لقد اتخذت الأمور شكلاً آخر. يجب علي حتماً أن أحرره «هو» من وعده. بلا شك؟ هل هذا أكيد؟ إنه مخيف!...» ولكي تفلت من تلك الأفكار المخيفة، دخلت إلى غرفة سونيا حيث راحتا معاً تفحصان رسوماً للوشبي.

بعد الغداء، انسحبت ناتاشا إلى غرفتها وعادت تمسك برسالة ماري. تساءلت: «هل حقيقة انتهى كل شيء؟ كيف وقع كل هذا بمثل هذه السرعة ودمر كل الماضي؟» أخذ حبها للأمير أندريه ينبعث في مخيلتها بكل قوته الماضية. لكنها لم تكن تستطيع إلا أن تعترف في الوقت نفسه بأنها تحب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كذلك كوراغين. راحت ترى نفسها زوجة للأمير أندريه وشرع خيالها يرسم لها السعادة التي تنتظرها معه. لكنها في الوقت نفسه، كان كل كيانها يلتهب لذكرى خلوتها مع أناتول.

قالت في نفسها في بعض اللحظات التي يهجرها خلالها تفكيرها المتزن: «لمَ لا أستطيع محبتهما كليهما معاً؟ حينئذ فقط أكون سعيدة جداً. أما الآن، فعلى العكس، ينبغي أن أختار ولن أجد السعادة إذا حرمت أحدهما. على كل حال، يستحيل علي الاعتراف للأمير أندريه بكل ما جرى ولا أن أخفيه عليه. بينما «الآخر» لا يوجد شيء. لكن هل يمكن أن أتخلى إلى الأبد عن حب الأمير أندريه وعن السعادة التي عشت فيها كل هذا الوقت؟».

قالت لها إحدى الوصيفات بصوت خفيض ولهجة غامضة وهي تدخل عليها: يا آنسة، هذا ما أوصاني رجل بأن أحمله إليك.

ومدت إليها يدها برسالة. أرادت الوصيفة أن تقول: ولكن بحق السماء...

فتحت ناتاشا الخاتم بحركة آلية وبدأت قراءة تلك الورقة التي لم تكن تفهم منها كلمة واحدة، إلا أنها مرسلة من قبله، من قبل الرجل الذي تحبه. «نعم إنها تحبه. وإلا، كيف كان يمكن أن يحدث كل هذا؟ كيف كان يمكن لهذه الرسالة الغرامية أن تكون في حوزتها؟».

كانت ناتاشا تمسك بين يديها المرتجفتين بتلك الرسالة التي تتحرك بالشوق والتي دبجها دولوخوف لأناتول، فجاءت عباراتها صدى للعواطف التي ظنت أنها تحس بها.

«منذ البارحة مساء تقرر مصيري: إما أن أكون محبوباً منك وإما أن أموت وليس لدي مخرج آخر». وبعد هذه المقدمة، قال أناتول إنه يعرف أن ذوي ناتالي لن يوافقوا على تزويجه بها، ولديه أسباب سرية تؤيد هذا المذهب لا يستطيع الكشف عنها إلا لها وحدها. فإذا كانت تحبه، يكفي أن تقول له كلمة

www.Maktbah.com

نعم. وحينئذ لن تستطيع قوة بشرية أن تعترض سبيل سعادتهما. إن الحب ينتصر على كل شيء. سوف يختطفها ويهرب بها إلى أقصى العالم.

قالت ناتاشا في سرّها وهي تعيد قراءة تلك الرسالة للمرة العشرين: «نعم، نعم، إنني أحبه!» باتت تظن أنها تكتشف وراء كل كلمة منها معنى عميقاً.

كانت ماري ميترييـڤنا معتزمة زيارة آل أرخاروڤ ذلك المساء. فعرضت على الفتاتين مرافقتها. لكن ناتاشا بقيت في المنزل بحجة صداع في رأسها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

في ساعة متأخرة من الليل رجعت سونيا وذهبت إلى غرفة ناتاشا فوجدتها نائمة في ملابسها على كنبة، وعلى نضد بجانبها توجد رسالة ملقاة هناك. تلك رسالة أناتول، فتناولتها وبدأت تقرأها.

وفي تلك الأثناء، كانت تنظر إلى ناتاشا النائمة محاولة إيجاد تفسير لما تقرأ على قسماتها: لم تكتشف إلا الهدوء والسرور. سقطت سونيا فوق مقعد شاحبة ترتعش من الانفعال وهي ممسكة بصدرها المثقل بيديها وانخرطت في البكاء.

تساءلت: «كيف لم أر شيئاً؟ كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ ألم تعد تحب الأمير أندريه إذن؟ ثم كيف استطاعت أن تسمح لكوراغين هذا بمثل هذا الشيء؟ إنه بلا شك ماكر خائن. وماذا سيقول نيكولا نيكولا الرائع، نيكولا النبيل عندما يعلم بكل هذا؟ هذا إذن معنى ذلك الوجه الغريب المنقلب المعتزم كل شيء الذي ظهرت به خلال الأيام الأخيرة!... ولكن لا، إنها لا تحبه، مستحيل! لا شك أنها فضت هذه الرسالة دون أن تعرف مصدرها. لا شك أنها شعرت بإهانة بسببها. لا تستطيع التصرف على هذا النحو!».

مسحت سونيا دموعها وعادت إلى ناتاشا وأخذت تتفحص وجهها مجدداً. ثم نادت بنعومة زائدة:

ناتاشا!

استيقظت ناتاشا فرأت سونيا. ها قد عدت؟

وفي إحدى اللحظات تلك التي يشعر بها المرء عند الاستيقاظ، اندفعت ناتاشا تعانق صديقتها. لكنها ما إن رأت اضطراب سونيا حتى أحست بدورها بالقلق والتحفظ ينتابها. سألتها؟ سونيا، هل قرأت الرسالة؟

تمتمت سونيا: نعم.

طافت على شفتي ناتاشا ابتسامة شاردة.

ـ يه! سونيا، لا أستطيع، كلا، لا أستطيع أن أستمر في إخفاء الأمر عنك. إننا نحب بعضنا!... سونيا يا عزيزتي، إنه يكتب إلي... سونيا...

لم تصدق سونيا أذنيها فراحت تنظر إليها جاحظة العينين، قالت: وبولكونسكي؟

آه! سونيا، ليتك تعرفين مبلغ سعادتي!... لكنك تجهلين معنى الحب...

ـ والثاني يا ناتاشا؟ لقد انتهى كل شيء إذن بينكما؟

نظرت إليها ناتاشا بعينين متسعتين وكأنها لا تفهمها.

استرسلت سونيا: إذن، إنك تقطعين علاقتك بالأمير أندريه؟

ردت ناتاشا بنفاد صبر:

ـ آه! إنك لا تفهمين شيئاً. لا تنطقي بحماقات. إصغي إلي جيداً.

استأنفت سونيا:

ـ ذلك أنني لا أستطيع تصديق ما أرى. أعترف بأنني لا أعلم شيئاً. كيف! أحببت رجلاً طوال عام كامل ثم فجأة... وهذا، إنك لم تريه إلا مرتين أو ثلاث مرات. ناتاشا لا أصدق، هل تمزحين. في ثلاثة أيام تنسين كل شيء و...

قالت ناتاشا:

ـ ثلاثة أيام فقط؟ وأنا التي أعتقد أنني أحبه منذ مائة عام! يخيل إلي أنني لم أحبّ قط أحداً قبله. إنك لا تستطيعين فهم هذا. هيا يا سونيا، تعالي إليّ هنا، اجلسي بالقرب مني، وعانقتها وجذبتها نحوها، قيل لي إن ذلك يحدث

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولا شك أنهم قالوا لك مثل ذلك أيضاً. ولكن هذه هي المرة الأولى التي أشعر بها بمثل هذا الشيء. إنها ليست كالسابق. ما كدت أراه حتى عرفت سيدي، لقد شعرت أنني عبدة. فهمت أنه يستحيل علي أن لا أحبه. نعم، إنني عبدة إنني على استعداد لإطاعة أمره أياً كان نوعه. إنك لا تفهمين هذا ولكن ماذا أستطيع يا سونيا ماذا أقدر؟

اختتمت قولها بهذه العبارة وعلى سيمائها مزيج من السعادة والرعب. صاحت سونيا بسخط وهي تجد صعوبة في إخفاء اشمئزازها:

ـ فكري قليلاً في ما تفعلين... لا يمكنني أن أدع هذا الأمر يمر هكذا.

هذه الرسائل السرية... كيف استطعت السماح له بها؟

ـ لقد قلت لك إنني كنت مسلوبة الإرادة. كيف لا تفهمين ذلك؟ إنني أحبه:

صرخت سونيا خلال نشيجها: حسناً، لن أدعك تفعلين ذلك، سوف أقص كل شيء!

ـ ماذا تقولين، رباه!؟.. إذا نطقت بكلمة كنت عدوتي. معنى ذلك أنك تريدين تعاستي، وإنك تريدين أن يفصلوا بيننا...

ولما رأت خوف ناتاشا، سكبت سونيا دموع الخجل والإشفاق على صديقتها. وسألت: ولكن، ماذا بينكما؟ ماذا قال لك؟ لمَ لا يأتي إلى هنا؟

توسلت ناتاشا دون أن تجيب عن أسئلة سونيا:

ـ بحق السماء يا سونيا، لا تتحدثي إلى أحد عن الموضوع. لا تعذبيني. تذكري أنه يجب ألّا يتدخل أحد في هذه المواضيع. لقد صرحت لك...

ـ لمَ كل هذه الأسرار؟ لمَ لا يأتي إلى المنزل؟ لماذا لا يطلب يدك بكل بساطة؟ أعطاك الأمير أندريه كل الحرية في أن تتصرفي وفق رأيك. فإذا كانت

www.Maktbah.com

الأمور حقيقة قد توقفت عند هذا الحد... ولكن لا، أنا أرفض تصديق هذا... ناتاشا، هل فكرت في ما يمكن أن تكونه تلك «الأسباب السرية»؟

سألتها ناتاشا بنظرة ذاهلة: لا شك أن السؤال قد أربكها لأنها لم تطرحه بعد على نفسها.

ـ هذه الأسباب، أجهلها. لكن يجب التصديق بأن لديه أسباباً!

تنهّدت سونيا وهزت رأسها. همت أن تقول:

ـ إذا كانت لديه أسباب...

لكن ناتاشا روعت للشكوك التي ظهرت على صديقتها فلم تتركها تنهي قولها، صرخت: سونيا، لا يجوز الاسترابة به! لا يجوز، لا يجوز، هل تفهمين؟

ـ هل يحبك؟

ردت ناتاشا التي انتزعت غباوة صديقتها منها ابتسامة إشفاق:

ـ إذا كان يحبني؟ لكنك قرأت رسالته!

ـ ولكن ماذا إذا لم يكن رجلاً نبيلاً؟

ـ هو!... ليتك تعرفينه!

استأنفت سونيا بعزم: إذا كان رجلاً نبيلاً، يجب عليه أن يعلن نياته أو يكف عن رؤيتك. وإذا كنت لا تريدين القيام بذلك بنفسك، كتبت له نيابة عنك وأبلغت «بابا» بالأمر.

صاحت ناتاشا: لكنني لا أستطيع أن أعيش بدونه!

ـ ناتاشا، أنا لا أفهمك. ماذا تقولين؟ فكري في أبيك، في نيكولا.

ـ لست في حاجة إلى أحد، لا أحب أحداً سواه. كيف يمكنك القول بأنه ليس رجلاً نبيلاً؟ ألا تعرفين أنني أحبه؟... إذهبي يا سونيا! لا أريد أن أخاصمك. إذهبي أتوسل إليك، إذهبي. إنك ترين كم أتألم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قالت ناتاشا تلك العبارات بلهجة عنيفة وبغضب حتى أن سونيا ذرفت دمعاً سخياً وانسحبت.

جلست ناتاشا إلى منضدتها، وذون أن تفكر لحظة واحدة، كتبت للأميرة ماري الجواب الذي لم تستطع إنجازه طوال يومها. أنبأتها ببضع كلمات أن سوء التفاهم الذي قام بينهما قد انتهى: انتهازاً منها لكرم الأمير أندريه الذي سمح لها قبل رحيله بالتمتع بكل حريتها، فإنها تحله من وعده الآن. وبالتالي، لتتفضل ماري بنسيان مقابلتهما والصفح عن كل ما يمكن أن تكون قد أظهرته من إساءات تجاهها. بدا كل ذلك في تلك اللحظة آية في السهولة والبساطة والوضوح.

كان على آل روستوف أن يعودوا إلى منزلهم يوم الجمعة، وفي يوم الأربعاء، ذهب الكونت مع المشتري إلى حقله في الضاحية.

كانت سونيا وناتاشا، ذلك اليوم بالذات، مدعوتين إلى حفلة غداء كبرى في دار آل كاراغين، فصحبتهما ماري دميترييڤنا. قابلت ناتاشا أناتول مجدداً هناك. لاحظت سونيا أنهما تحدثا معاً بطريقة لا تجعل سواهما يستمع إلى أقوالهما وأنها ظهرت أكثر اضطراباً أثناء الطعام من ذي قبل. وعندما عاد إلى المنزل، توقعت ناتاشا أسئلة صديقتها. بدأت تقول بتلك اللهجة الماكرة التي يعمد إليها الأطفال الطامعون في الإطراء:

ـ أرأيت يا سونيا، لقد حدثتني بحماقات بصدده. إن كل ذلك خطأ. لقد تفاهمنا حول هذا الموضوع منذ حين.

ـ آه! وماذا قال لك! كم أنا سعيدة يا ناتاشا لأنك لم تحنقي علي. قولي لي كل شيء وبصراحة تامة. ماذا قال لك؟

فكرت ناتاشا برهة. آه! سونيا، ليتك تعرفينه كما أعرفه أنا! لقد قال لي...

www.Maktbah.com

سألني عن طبيعة وعدي لـپولكونسكي وقد ابتهج حينما عرف أن الأمر يتوقف علي في فصم الخطبة مع الأمير أندريه.

أطلقت سونيا زفرة عميقة. قالت: لكنك على ما أعلم لم تقطعي علاقتك بپولكونسكي؟

ـ بل يجوز أن أكون قد قطعتها! يجوز تماماً أن يكون كل شيء قد انتهى!... لمَ تحملين مثل هذه الفكرة السيئة عني؟

ـ ليست لدي أية فكرة سيئة. لكنني لا أفهم...

ـ انتظري يا سونيا. ستفهمين كل شيء، سترين أي رجل هو. لا تكوّني فكرة سيئة لا عني ولا عنه.

ـ أنا لا أفكر بسوء في أحد. إنني أحب وأعطف على كل الناس. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

لم تستسلم سونيا للهجة الحاذقة التي كانت تصفها ناتاشا. أخذت تقابلها بوجه يزداد صرامة كلما أمعنت هذه في دلالها. قالت لها: ناتاشا، لقد سألتني أن لا أحدثك عن هذا ولقد سكت. وأنت التي بادرتني بالكلام الآن... أنا لا أثق به يا ناتاشا: ما معنى هذه الأسرار؟

ـ عدنا إلى هذه النغمة!

ـ إنني خائفة من أجلك يا ناتاشا.

ـ ومن أي شيء تخافين؟

أعلنت سونيا بصراحة ندمت عليها من فورها:

ـ إنني أخاف أن تذهبي بنفسك إلى دمارك.

اتخذ وجه ناتاشا مجدداً طابعاً خبيثاً.

ـ حسناً، سأخسر نفسي وبأسرع ما يمكن أيضاً! إن هذا ليس شأنك إنني أسيء إلى نفسي، إلينا نحن... دعيني، دعيني، أمقتك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

صاحت سونيا مروعة: ناتاشا!

ـ نعم، أمقتك، أمقتك! إنك عدوتي إلى الأبد!

وركضت ناتاشا.

كانت تتجنب لقاء سونيا ولم تتحدث بعد ذلك معها بكلمة واحدة. ظلت تروح وتجيء في البيت بتلك المسحة المشدوهة نفسها، تشغل نفسها بمشاغل جمة توقفت عن الاهتمام بهذا منذ حين.

لم تترك سونيا ناتاشا تغيب عن نظرها رغم التعب الذي كانت تحس به. لاحظت في أمسية اليوم الذي سبق عودة الكونت أن ناتاشا تطيل الوقوف أمام نافذة القاعة الكبيرة وكأنها تترقب حادثاً معيناً. ثم رأتها تشير إلى عسكري كان ماراً هناك خيل إلى سونيا أنها عرفت فيه أناتول.

ضاعفت انتباهها ولاحظت أن ناتاشا كانت في تصرّفها غير طبيعية خلال فترة الغداء والسهرة: كانت تجيب خطأ عن الأسئلة، لا تكمل جملتها وتضحك لكل مناسبة.

رأت سونيا عند عودتها إلى غرفتها بعد الشاي، أن وصيفة شديدة الارتباك كانت تترقب مرورها عند باب غرفة ناتاشا. مرت، لكنها عادت على أعقابها وألصقت أذنها على الباب، فاقتنعت أن رسالة جديدة قد سلمت إليها.

رأت سونيا فجأة وبوضوح أن ناتاشا تدبر خطة مخيفة لتلك الليلة بالذات. طرقت باب صديقتها عبثاً.

حدثت سونيا نفسها: «سوف تهرب معه. إنها قادرة على مثل ذلك. لقد بدت اليوم شديدة الحزن ولكن أكثر حزماً من أي يوم. لقد بكت وهي تودع عمي. نعم، لا شك أنها ستهرب معه، ماذا يجب علي أن أفعل؟».

في تلك اللحظة، تذكرت بعض الوقائع التي تؤيد شكوكها الخطيرة: «إن الكونت ليس هنا، ماذا يجب أن أفعل؟ هل أكتب لكوراغين مطالبة إياه

www.Maktbah.com

بتفسير عن كل هذا؟ لكن من يرغمه على الإجابة عن رسالتي؟ هل أكتب لـﭙيار كما طلب الأمير أندريه أن نفعل في حالات الشؤم؟ لكن ألم تقطع رباطها بـﭙولكونسكي؟ لقد رأيتها ترسل أمس مساء جوابها إلى الأميرة ماري... ثم إن عمي ليس هنا!

أن تقول كل شيء لماري دميترييڤنا التي كانت لها ثقة كبيرة بناتاشا، فإن سونيا لم تكن تقر هذا التصرف. فكرت وهي في الممشى المعتم: «على كل حال لقد حان الوقت لأبرهن عن عرفاني لهم جزاء إحسانهم ولقاء حبي لنيكولا. لن أتزحزح من هذا الممشى ولو أمضيت ثلاث ليال ساهرة، وسأمنعها من الخروج ولو اضطررت إلى استعمال القوة. لا، لن أترك وصمة العار تدخل إلى عائلتهم».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

أقام أناتول عند دولوخوف، منذ بضعة أيام، وكان قد أعد خطة اختطاف عليه تنفيذها في ذلك المساء الذي قررت فيه سونيا مراقبة باب ناتاشا، إن تقاوم فرارها. كانت ناتاشا قد وعدت بموافاة كوراغين في الساعة العاشرة عن طريق سلم الخدم، حيث سيضعها في زحافة سريعة ليحملها إلى خمس عشرة مرحلة بعيداً عن موسكو، حيث ضاحية كامانكا. وهناك سيعقد كاهن «محروم» قرانهما، وستحملها خيول المراحل على طريق فرصوڤيا، ومن هناك إلى الخارج عن طريق عربة البريد.

تدبّر أناتول جواز سفر وأذناً بالركوب في عربة البريد؛ وكانت أخته قد أعطته عشرة آلاف روبل واقترض مبلغاً مماثلاً عن طريق دولوخوف وكان الشاهدان، خفوستيكوف، وهو أحد موظفي المستشارية السابقين، الذي كان دولوخوف يستخدمه بأعماله المتعلقة بالمقامرة، وماكارين ـ وهو من الفرسان المتقاعدين طيب، ضعيف الإرادة، يؤمن بكوراغين إيماناً حقيقياً، يحتسيان الشاي في الغرفة الأولى من الشقة.

وفي مكتبه الكبير المزين كله بالسجاد العجمي وجلود الدببة ومجموعات الأسلحة. جلس دولوخوف قرب مكتبه المفتوح وهو في سترة السفر ينتعل حذاءين عاليين، وأمامه رزم من الأوراق النقدية. أما أناتول فكان ينتقل محلول أزرار الثوب بين غرفة الشهود مخترقاً المكتب والغرفة التي

www.Maktbah.com

يشرف خادمه الفرنسي فيها على معدات السفر الأخيرة. كان دولوخوف يقوم بإحصاء النقود. قال: أتدرين يجب إعطاء ألفي روبل لخفوستيكوف.

ـ ليكن أعطها له.

قال دولوخوف وهو يريه قائمته: إن هذا الباسل ماكارين لا يريد شيئاً. إنه على استعداد لإلقاء نفسه في النار إرضاء لك... هيا، لقد انتهت الحسابات، هل ترضيك؟

أجاب أناتول الذي لم يسمع شيئاً بل كان يحدق أمامه شارداً وعلى شفتيه ابتسامته الدائمة: طبعاً بكل تأكيد.

أغلق دولوخوف مكتبه بضجة وخاطب صديقه بلهجة ساخرة قائلاً: إسمع. دع عنك كل هذه المسألة لا يزال لدينا متّسع من الوقت.

صاح الآخر: يا سخيف! لا تتفوّه بالحماقات. لو كنت تعلم... هل يظن...

ألح دولوخوف: حقاً، دع عنك هذا. إنني أكلمك جدياً. إن القضية غير مضمونة، أتدري.

قال أناتول وهو يعبس: هيا، ها إنك تعاود الكرة! إنك تزعجني. إذهب إلى كل الشياطين، هه! إنني لست في حالة تساعدني على الإصغاء إلى هذرك.

اتجه نحو الباب، فودّعه دولوخوف بابتسامة ساخرة. صاح به:

ـ انتظر قليلاً! لست أمزح، إنني جاد. تعال، هيا. عاد أناتول على أعقابه واستجمع كل انتباهه وراح يتأمل دولوخوف الذي كان يخضع رغماً عنه لنفوذه:

ـ لآخر مرة أرجوك أن تصغي إلي. لم أمزح؟ هل وضعت لك مرة العصي في الدواليب؟ من الذي رتب كل شيء من الذي اكتشف الكاهن، من الذي حصل على جواز السفر، من الذي عرف كيف يتدبر المال؟ إنه أنا.

twitter @baghdad_library

أجاب أناتول: صحيح، وأنا أشكرك من أجل كل هذا. هل تتصور مرة أنني لست شاكراً لك؟

ـ لقد ساعدتك، وهذا معترف به. لكن من واجبي أن أقول لك الحق: إن المغامرة خطيرة بل حمقاء إذا أمعنّا فيها النظر. حسناً، إنك تخطفها، حسناً جداً. هل تظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد؟ إذا عرفوا أنك متزوج قبل هذه المرة، سوف يرفعون أمرك إلى القضاء...

قال أناتول وقد عاد مكتئباً: كل هذه حماقات! لكنني شرحت لك من قبل.

وراح أناتول، بعناد الأشخاص المحدودين الذين حشوا رؤوسهم بشيء أقنعهم، يكرر على دولوخوف الذريعة التي كررها مائة مرة:

ـ لقد شرحت لك من قبل وجهة نظري في الموضوع، وراح يعد على أصابعه: إذا كان هذا الزواج غير رسمي فأنا لا أتحمل أية مسؤولية، وإذا كان رسمياً، ماذا يهمني؟ لن يعرف أحد بأمره في الخارج. اثنان، هذا صحيح أليس كذلك؟ إذن، ولا كلمة بعد، ولا كلمة!

ـ صدقني، اصرف النظر عن كل هذا! سوف يسوء المنقلب...

قال أناتول: إذهب إلى الشيطان!

وأمسك برأسه بين يديه وخرج، ثم عاد بعد قليل وتربع على مقعد بجانب دولوخوف تماماً. أمسك بيده ووضعها على قلبه وقال: ما معنى هذا؟ خذ، أنظر كم يخفق. آه يا له من قدم يا عزيزي يا لها من نظرة! إلهة؟

أخذ دولوخوف يتمعن في أناتول وعلى شفتيه ابتسامة باردة وفي عينيه لهيب مشتعل، وهو يجد لذة كبيرة في مشاكسته دون ريب: وعندما تنفق المال كله، ماذا تفعل؟

www.Maktbah.com

هدت هذه النظرية التي لم يفكر فيها أناتول قط قواه. كرر: ماذا سأعمل؟... ماذا سأعمل؟ لست أدري... إلى الجحيم كل هذه الخزعبلات!

واختتم قوله وهو ينظر إلى ساعته: لقد حان وقت الذهاب.

ومضى إلى الغرفة الخلفية وصاح بالخدم: هو لا، يا زمرة المتوانين، ألم تنتهوا بعد؟

حزم دولوخوف المال وأمر خادمه أن يهيئ شيئاً يأكلونه قبل الرحيل ثم ذهب إلى الغرفة التي كان خفوستيكوف وماكارين فيها.

كان أناتول مستلقياً على كنبة المكتب، ابتسم بشرود وهو يغمغم ببضع كلمات بين شفتيه... صاح به دولوخوف من الغرفة المجاورة:

ـ تعال كلْ شيئاً، اشرب أقله كأساً.

فأجاب أناتول دون أن يكف عن الابتسام: كلا، شكراً.

ـ تعال، إن بلاجا هنا.

نهض أناتول ومضى إلى غرفة الطعام. كان بلاجا، وهو مؤجر زحافات مشهور، يعرف الصديقين اللذين كثيراً ما احتاجا إلى خدماته، منذ خمس أو ست سنين. لقد حمل أناتول غير مرة من «تفير» مساء عندما كان فيلقه مخيماً هناك، ليصل به إلى موسكو عند الفجر ويعيده في الليلة التالية إلى مركزه. وهو الذي أفلت دولوخوف غير مرة من مطاردات مزعجة، ونقل الصديقين غير مرة عبر المدينة بصحبة بوهيميين و«سيدات صغيرات» كما كان يقول. وكثيراً ما دهس بعض المارة أو قلب عربات خلال تلك الجولات الهوجاء فكان ذانك «السيدان» كما كان يسميهما، ينقذانه من محنته. كم من مرة ضرباه وكثيراً ما سقياه شامبانيا ونبيذ مادير، نبيذه المفضل. إنه يعرف عن كل منهما أكثر من مغامرة تقضي بهما أقلها إلى منافي سيبيريا. كانا يدعوان بلاجا غالباً إلى مائدتهما الحافلة ويرغمانه على الشراب والرقص مع البوهيميين، ويغريانه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بورقة من الألف روبل غير مرة. لقد عرّض حياته في خدمتهما عشرين مرة للخطر كل عام أو غامر أقله بجلد ظهره وأضاع عدداً من الخيول أكبر من أن تفي الأموال التي تقاضاها منهما بثمنها.

مع ذلك فقد كان يحبهما. كان يحب تلك الرحلات المجنونة بسرعة خمسة فراسخ في الساعة، يحب أن يخرق شوارع موسكو ويدهس المشاة ويقلب العربات. يحب أن يسمع وراءه أصواتاً سكرى تزمجر به: بسرعة أكثر! بسرعة أكثر! بينما يكون مستحيلاً عليه أن يزيد في اندفاع خيوله. كان يحب أن يضرب بسوطه قذال عاشق يبتعد بسرعة عن طريق ذلك الإعصار وهو ميت أكثر منه حياً.

«إنهما سيدان حقيقيان». ذلك كان رأي بلاجا في أناتول ودولوخوف اللذين من جانبهما أحلّاه محلاً في مودتهما لأنه كان أمهر سائق ولأن له أذواقاً متجانسة مع أذواقهما. كان مع غيرهما من الزبائن، يساوم ويطلب خمسة وعشرين روبلاً أجراً لرحلة مدتها ساعتان ويحل أحد غلمانه محله غالباً. ولكن مع هذين «السيدين»، كان يقود العربة بنفسه ولا يسألهما أبداً عن أي شيء. وعندما يبلغه عن طريق وصيفيهما أنهما يملكان مالاً، مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر، كان يزورهما صباحاً قبل أن يشرب شيئاً، ويسألهما بعد أن يحييهما بصوت خفيض، أن ينقذاه من أزمة مالية. فكان «سيداه» يجلسانه دائماً. كان يقول:

يا فيدور إيڤانوڤيتش، يا سيدي الطبيب، أو يا صاحب السعادة، لا تبخل عليّ بكتفك: لم يبق عندي حصان واحد، ويجب مع ذلك أن أذهب إلى سوق العرض. أقرضني ما تستطيع.

وحينئذ يعطيه أناتول ودولوخوف، إذا كانا موسرين، ورقة أو ورقتين من فئة الألف روبل.

www.Maktbah.com

كان بالجا فتى أشقر في السابعة والعشرين من عمره تقريباً مربوع القامة، ملون الوجه، غليظ العنق اشد احمراراً من وجهه، قصير اللحية، برّاق العينين، كان يرتدي فوق فروته القصيرة جلباباً أزرق من قماش ناعم مبطن بالحرير.

رسم إشارة الصليب أمام الصور المقدسة وتقدم نحو دولوخوڤ ومد له يده الصغيرة الدكناء وقال وهو ينحني: احتراماتي لفيدور إيڤانوڤيتش!

مرحباً يا عزيزي... آه! ها هو!...

وقال لأناتول الذي دخل في تلك اللحظة وهو يمد له يده: احتراماتي لسعادتك!

قال أناتول وهو يضع يده على كتفه:

إسمع يا بلاجا. هل تحبني حقاً. هنْ؟ الأمر يتعلق بخدمة تؤديها لي... أية خيل جئت بها؟ هِنْ؟

تلك التي أمرتني بقطرها... الحيوانات المتوحشة...

إذن، انتبه يا بلاجا! اقتل خيولك إذا وجب الأمر، ولكن اقطع الطريق في ثلاث ساعات. هِنْ!

اعترض بلاجا وهو يغمز بعينيه بمكر: إذا تركتها تنفق، كيف نصل؟

زمجر أناتول فجأة وهو يدير عينيه الكبيرتين: لا تمزح أو أحطم «بوزك».

قال الحوذي ضاحكاً: المزاح لا يسيء أبداً. هل أرفض شيئاً لسيديّ؟ سنمضي بأقصى سرعة بالطبع.

قال أناتول: حسناً! والآن إجلس.

وألح دولوخوڤ: إجلس، هيا!

ـ إنني مستريح هكذا يا فيدور ايـڤانوڤيتش.

قال أناتول وهو يسكب له كأساً كبيرة من خمرة ماديرا:

ـ لا حاجة إلى الرسميات، هِنْ! إجلس.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التمعت عينا الحوذي لدى رؤية النبيذ. وبعد أن رفض تأدباً، تجرع الكأس ومسح شفتيه بوشاح أحمر كان يخفيه في قلنسوته.

ـ إذن، متى تذهب يا صاحب السعادة؟

قال أناتول بعد أن نظر إلى ساعته: فوراً. ولكن اعلم يا بلاجا، انتبه، هِن! يجب أن نصل في الوقت المناسب.

قال بلاجا: هذا يتوقف على الرحيل، فإذا تم على ما يرام... وبعد، لم لا نصل في الوقت المحدّد؟ لقد ذهبنا مرة في سبع ساعات إلى تفير، إنك تتذكر بدون شك يا صاحب السعادة؟

قال أناتول وهو يبتسم لهذه الذكرى ويلتفت نحو ماكارين الذي كان يلتهمه بنظراته بغباوة: نعم. أتعلم، ذات مرة في عيد الميلاد، جئت من تفير. نعم، تصور يا عزيزي أن السرعة كانت تقطع أنفاسنا. وبلحظة واحدة، بينما كانت قافلة تقطع علينا الطريق، قفزنا فوق عربتين. هِن! ماذا تقول؟

فأعقب بلاجا محدثاً دولوخوف: ولكن يا لها من خيول تلك! لقد وضعت إلى جانبي أدهمي، مهرين جميلين ليكونا حصاني الجانبين. هل تصدق يا فيدور إيڤانوڤيتش، لقد قطعت هذه الحيوانات الصغيرة خمس عشرة مرحلة دون توقف. كان الصقيع شديداً وكانت أيدينا مخدرة، لا يمكننا إمساك الأعنة بها وتركت الأعنة وقلت: إمسكها يا صاحب السعادة. وسقطت كتلة واحدة داخل الزحافة. آه! لقد أثرت تلك الحيوانات تماماً! لكنني لم أستطع الإمساك بالأعنة حتى النهاية... لقد اجتازوا المسافة في ثلاث ساعات، الشياطين. لكن الحصان الأيسر نفق عقب ذلك.

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

خرج أناتول ورجع بعد قليل وهو يرتدي فروة تلف جسمه، مربوطة بنطاق تزيّنه الفضة عند وسطه، ويعتمر قلنسوة من السمور تميل على أذنه تتفق تماماً مع وجهه الجميل، وبعد أن درس وضعيته أمام المرآة، وقف أمام دولوخوف وقال وهو يمسك كأساً في يده:

ـ هيا، الوداع يا ڤيديا. أشكر لك خدماتك، الوداع.

وأضاف بعد أن بحث فترة عن الكلمة المناسبة:

ـ هيا يا زملائي، أصدقاء الـ.... أصدقاء صباي، وداعاً!

وجّه هذه الجملة الأخيرة إلى ماكارين والآخرين. وعلى الرغم من أنهم جميعاً كانوا سيرافقونه، فإن أناتول كان يتعمد إعطاء وداعه لهجة مؤثرة. كان يحدث بصوت مرتفع، مبرزاً صدره متأرجحاً على ساقيه.

ـ تعالوا جميعاً واقرعوا كؤوسكم، وأنت يا بلاجا. يا زملائي وأصدقاء صباي لقد قضينا زمناً جميلاً. لقد قمنا بكثير من الجنون معاً. والآن، متى نلتقي مجدداً؟ أنا ذاهب إلى الخارج. وداعاً أيها السرور. وداعاً يا أصدقائي البواسل نخب صحتكم. هورا!

أفرغ كأسه دفعة واحدة وحطّمها. قال بلاجا الذي شرب كأسه كذلك ومسح يديه بوشاحه:

ضم ماكارين أناتول إلى صدره وعيناه مغرورقتان في الدموع.

ـ آه! يا أمير، إنني عظيم الألم لافتراقي عنك!

twitter @baghdad_library

صاح أناتول: هيا! إلى المسير!

استعد بلاجا للخروج فقال أناتول: لحظة واحدة! أغلق الباب ولنجلس. هكذا، هنا.

أغلقوا الباب وجلسوا جميعاً. (من عادة الروس قبل السفر، وخصوصاً في المناسبات الجليلة، أن يجلسوا ويستجمعوا أنفسهم فترة).

استأنف أناتول وهو ينهض: والآن، إلى الأمام سر أيها البواسل!

قدم له جوزيف، الوصيف، سيفه وجعبته الجلدية.

استفسر دولوخوف: أين الفروة؟ إينياس! امض فوراً إلى ماترون ماتـڤييڤنا واطلب منها معطفاً من الفراء، المعطف المصنوع من فراء السمور؟ هل سمعت؟...

وأضاف وهو يغمز بعينه: إنني أعرف كيف تجري الاختطافات، سوف تلقي بنفسها إلى الخارج ميتة أكثر منها حية، دون أن تكون متدثرة بشيء. وإذا وقع أدنى تأخير سالت الدموع فوراً، فتنادي «بابا وماما» وسترتجف وتطلب العودة... أما إذا كانت معك فروة، فستقيدها بها وتقودها حتى الزحافة.

جاء الخادم بفروة من جلد الثعلب.

ـ معطف السمور أيها الحيوان! ألم أقل لك، نعم أو لا؟

وصرخ بصوت دوى حتى بلغ أقصى الشقة: آه! ما ترون، معطفك السمور!

أسرعت بوهيمية جميلة، نحيلة وشاحبة، تلبس شالاً أحمر، حاملة معطف السمور. كانت عيناها السوداوان تلتمعان وخصلات شعرها الأسود تعكس لوناً أزرق. قالت وهي تخشى، دون شك، غضب سيدها ومالكها وتأسف في الوقت نفسه على فروتها: خذ، خذها، سيان عندي.

www.Maktbah.com

ودون أن يجيبها، ألقى دولوخوف بالفروة على كتفيها ولفها حول قدها وقال وهو يرفع الياقة بشكل لا يترك معه إلا فتحة صغيرة للوجه:

ـ أترى، هكذا... ثم هكذا، وأخيراً هكذا، أرأيت؟

وأجبر أناتول على أن يميل فوق الفتحة التي كانت ابتسامة البوهيمية تلتمع خلالها. قال أناتول وهو يقبلها: هيا، الوداع الوداع يا ماترون. انتهت الحياة الطيبة! تهاني إلى ستيفاني! هيا، الوداع الوداع يا ماترون. تمني لي حظاً سعيداً.

قالت تماترون بلكنة بوهيمية: ليمنحك الله كل السعادات الممكنة يا أميري.

وبالقرب من المرقاة، وقفت زحافتان يقودهما فتيان متينا البنية. صعد بلاجا وغلاماه الجالسان على المقعد يصيحان: هو! آواه!!... هو!... أوه!...

اقتحموا عربة في ساحة «أربات». فارتفعت فرقعة ثم صيحة، لكن الزحافة كانت تطوي في تلك اللحظة شارع «أربات».

وبعد أن صعدوا ثم نزلوا جادة بودنوڤيتسكي على كل طولها، استمهل بلاجا خيوله ثم رجع إلى الوراء وأوقفها في زاوية شارع «فيي إيكوري» الاسطبلات القديمة. قفز الغلام من المقعد ليمسك بالخيول من أعنتها، وصعد أناتول ودولوخوف إلى الرصيف. وعندما اقتربا من البوابة، صفر دولوخوف. أجابه صفير آخر على صفيره وظهرت وصيفة أسرعت إليه تقول:

ـ أدخلوا الفناء وإلا رأوكما. إنها قادمة على الفور.

بقي دولوخوف قرب البوابة بينما تبع أناتول الوصيفة ودار حول زاوية الفناء ثم تسلق درجات المرقاة ليجد نفسه وجهاً لوجه مع غافريل، الخادم المرافق العملاق لماري دميترييڤنا. قال له الخادم بصوت خفيض وهو يقطع عليه طريقه: إن سيدتي تطلبك. تفضل واتبعني.

twitter @baghdad_library

غمغم أناتول بصوت متقطع: أية سيدة؟ من أنت؟

ـ تفضل واتبعني. إن لدي أمراً باصطحابك.

صرخ دولوخوف: كوراغين، عد! لقد خانونا! لنهرب!

بدأ دولوخوف يتعارك مع البواب الذي حاول إغلاق البوابة وراء أناتول. تمكّن من أن يتخلص من ذلك المضايق بمجهود جبار ثم أمسك بذراع أناتول الذي كان قادماً بسرعة وجذبه بقوة حتى تخطيا المدخل ثم ركضا بأقصى قوة حتى وصلا إلى زحافتهما.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

كانت سونيا غارقة في دموعها فوصلت ماري دميترييڤنا إلى الممشى ولم تتركها إلا بعد أن انتزعت منها اعترافاً كاملاً، فاحتجزت رسالة ناتاشا وقرأتها ثم دخلت على «فليونتها» والورقة في يدها. قالت لها: أيتها الخائنة! لا أريد أن أسمع شيئاً.

دفعت ناتاشا التي كانت تنظر إليها بعينين ذاهلتين ولكن حادتين وأغلقت الباب بالمفتاح. وبعد أن أوعزت إلى البواب أن يسمح بالدخول لكل من يحضر ويمنع خروج أي كان، ولخادمها المرافق أن يأتيها بالقادمين، جلست في القاعة الكبيرة تنتظر المغررين.

ولما وصل جاڤزيل ينبئها أن الأشخاص هربوا، زوت حاجبيها ونهضت وبدأت تذرع القاعة طويلاً ويداها وراء ظهرها، تفكر في ما يجب عليها صنعه. عادت إلى غرفة سونيا حوالى منتصف الليل بعد أن لمست المفتاح في جيبها. كانت سونيا لا تزال تبكي في الممشى. توسلت إليها: يا ماري دميترييڤنا، دعيني أدخل معك.

ودون أن تجيبها، فتحت ماري دميترييڤنا الباب، حدثت نفسها وهي تحاول السيطرة على غضبها: «إنه مخجل، إنه مرذول... تحت سقفي... يا للفتاة الفاجرة!... لكنني أشفق على أبيها، وعلى الرغم من صعوبة الامتثال للأمر، فسآمر كل الناس أن يصمتوا وسأخفي الأمر عن الكونت». دخلت الغرفة بخطى ثابتة. كانت ناتاشا ممسكة رأسها بين يديها مسترخية الجسد،

twitter @baghdad_library

ممددة على الكنبة في مثل الوضع الذي تركتها عرابتها عليه. قالت هذه: حسناً! إن هذا شريف! إعطاء المواعيد للعشاق تحت سقف بيتي! لا تتصنعي السذاجة. اصغي عندما يحدثونك.

كررت وهي تلمس ذراعها:

ـ ألا تسمعين، لقد جللت نفسك بالعار كأسوأ الفتيات. إنني أعرف تماماً ما يجب فعله، لكنني أشفق على أبيك. لن أقول له شيئاً.

بقيت ناتاشا ساكتة. لكن نشيجاً خافتاً كان يخنقها ولم يلبث جسمها كله، أن تقلص متشنجاً. تبادلت ماري دميتريڤنا نظرة مع سونيا ثم جاءت تجلس على الكنبة بجانب «فليونتها».

قالت بصوتها القاسي؟

ـ لقد تمكّن من الإفلات مني!... لكنني سأجده. حسناً! هل تسمعين ما أقوله لك؟

أدخلت يدها الضخمة تحت رأس ناتاشا وأدارته نحوها. روعت ماري دميترييڤنا وسونيا لمرأى ذلك الوجه ذي العينين البراقتين الجافتين والشفتين المضموتين والخدين الهضيمين.

قالت: دعوني... ماذا يهمني؟... أريد أن أموت...

انتزعت نفسها بغضب من يدي ماري دميترييڤنا وعادت تستغرق في وهنها. قالت ماري دميترييڤنا:

ـ ناتالي!... أنا لا أريد إلا مصلحتك. أمكثي هكذا إذا كنت تفضلين. لن ألمسك. ولكن اصغي إلي... لا أريد أن أقول إلى أية درجة بلغت في ذنبك. إنك تعرفين ذلك مثلما أعرفه... نعم، تماماً... لكن أباك يعود غداً، فماذا أقول له؟ هِن؟

لم تجب ناتاشا إلا بالنحيب.

www.Maktbah.com

ـ وإذا علم بالأمر من آخرين؟ وإذا اطلع أخوك أو خطيبك على الأمر؟

صرخت ناتاشا فجأة: لم يعد لي خطيب، لقد قطعت صلتي به.

تابعت ماري دميترييڤنا تقول: هذا غير مهمّ. لنفرض أنهم عرفوا خطأك، هل تعتقدين أنهم يتركون الأمور هكذا؟... أنا أعرف أباك، إنه قادر على الدخول في مبارزة... سيكون الأمر جميلاً، هِن؟

صاحت ناتاشا وهي تنهض وتلقي على ماري دميترييڤنا نظرة حقد:

ـ دعيني... لمَ شوشت كل شيء؟ لماذا؟ لماذا؟ من الذي رجاك؟

صرخت هذه وقد استبد بها الغضب: وماذا كنت تريدين أن تفعلي؟ هل كنا نحبك من قبل عرضاً؟ ماذا كان يمنعه من المجيء إلى البيت؟ لمَ يخطفك كالبوهيمية؟... وإذا كان نجح في خطفك، هل تعتقدين أنهم ما كانوا ليقبضوا عليه؟ سواء أكان أبوك أم أخوك أم خطيبك. إنه حقير صعلوك، هذا كل شيء!

صرخت ناتاشا وهي تنهض مجدداً: إنه أفضل منكم جميعاً! لو أنك لم تمنعيني... آه يا ربي! لماذا؟ لماذا؟... سونيا، ماذا فعلت؟... دعوني.

واستسلمت لذلك اليأس الذي لا يحس به إلا كل من يعرف أنه نفسه سبب تعاسة نفسه، وانفجرت تبكي بكاء عنيفاً. حاولت ماري دميترييڤنا أن تسترسل، لكن ناتاشا عادت إلى الصراخ.

ـ إذهبوا عني، إذهبوا عني! إنكم تكرهونني، جميعاً، إنكم تحقدون عليّ!

وانهارت مجدداً على الكنبة.

استمرت ماري دميترييڤنا توبّخها بعض الوقت أيضاً: كان يجب قبل كل شيء إخفاء المغامرة عن الكونت. لم يكن أحد ليعرف شيئاً شريطة أن تتعهد ناتاشا نسيانه وأن تتحاشى إظهار اضطرابها أمام أي مخلوق كان. لم تجب ناتاشا. كفت عن النشيج لكن قشعريرات محمومة كانت تجتاح كل كيانها.

twitter @baghdad_library

وضعت ماري دميترييڤنا وسادة تحت رأسها برفق وغطتها بغطاءين وجاءتها بنفسها بنقيع الزيزفون، لكن ناتاشا بقيت محتفظة بسكون تام.

قالت ماري دميترييڤنا وقد ظنت أن النوم استولى عليها: هيا، لندعها تنام. وانسحبت. لم تنم ناتاشا قط. بقيت خائرة القوى طوال الليل، لا تنام ولا تبكي ولا تخاطب سونيا بكلمة هي التي نهضت مرات خلال الليل وجاءت تطمئن إليها.

وفي اليوم التالي، وقت الغداء، عاد الكونت إيليا أندرييـڤيتش من حقله كما كان متفقاً. كان فرحاً لأن المسألة قد نجحت فلم يعد هناك ما يبقيه في موسكو. أصبح يستطيع العودة إلى مونتيسته العزيزة. لكن ماري دميترييڤنا شرحت له على الفور أن ناتاشا سقطت مريضة مرضاً جدياً أمس، وأن الطبيب قد استدعى، لكنها الآن أفضل حالاً. بقيت ناتاشا ذلك الصباح في غرفتها تعض شفتيها وعيناها شاخصتان جافتان: ظلت جالسة قرب النافذة تراقب المارة في غدوهم ورواحهم وتلتفت منتفضة كلما دخل بعضهم إلى غرفتها. كانت تنتظر أخباراً «عنه» ظناً منها أنه سيأتي أو أنه أقله سيكتب إليها.

وعندما دخل الكونت، انتفضت لدى سماعها خطوات رجل. لكنها عندما رأت أباها، عاد وجهها جامداً حتى أنها لم تنهض لوصوله. سألها:

ـ ما بالك يا ملكي؟ هل أنت مريضة؟

أجابت بعد سكوت طويل: نعم.

سيطر القلق على الكونت إذ رأى الضعف مسيطراً عليها. فسألها عما إذا لم يقع شيء في علاقاتها مع خطيبها. أكدت له عكس ذلك ورجته أن لا يعذب نفسه. أكدت لماري دميترييڤنا صدق توكيداتها، لكن اضطراب ناتاشا ومرضها المصطنع، وأمارات سونيا وماري دميترييڤنا الدالة على الارتباك،

www.Maktbah.com

جعلت الكونت يشك في وقوع حدث خطير. لكن مجرد الفكرة في مس شرف ابنته العزيزة كان يرعبه. ثم إنه كان شديد الحرص على هدوئه حتى أنه تحاشى طرح الأسئلة مفضلاً الاعتقاد بأن شكّه لا يستند إلى أساس. لكنه كان يأسف لأن ذلك المرض سبب تأخيره عن السفر إلى الريف.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

فكّر پيار في الرحيل إلى أي مكان للتخلص من وجود زوجته معه منذ أن وصلت إلى موسكو، وبعد وصول آل روستوف بفترة قصيرة، وما عجّل في رحيلهم هو الأثر العنيف الذي خلفته ناتاشا في نفسه. فذهب إلى تفير عند أرملة جوزيف ألكسييـﭬيتش التي وعدت منذ زمن طويل أن تعهد إليه بأوراق المرحوم.

لدى وصوله إلى موسكو رجته ماري دميتريـيـﭬنا أن يعرج على مسكنها قليلاً لتبحث معه في مسألة صغيرة هامة تتعلق بأندريه پولكونسكي وبمخطوبته. كان پيار يتجنب ناتاشا لأنها توحي إليه على ما يبدو، شعوراً أعنف مما يجب أن يحس به رجل متزوج إزاء مخطوبة صديقه. مع ذلك بدا كأن القدر يتصرف بمكر لذيذ فيتعمد الجمع بينهما.

فكر وهو يرتدي ثيابه للذهاب إلى مسكن ماري دميتريـيـﭬنا: «ماذا حدث إذن؟ كيف يمكنني أن أكون مفيداً لهم»؟

وبينما هو في الطريق حدث نفسه: «ليعد أندريه بسرعة وليتزوجها بأسرع ما يمكن!».

وفي جادة تفير، استوقفه بعضهم. صاح به صوت معروف: پيار! هل عدت منذ زمن طويل؟

ومر «رهوانان» أشهبان يعدوان وهما يثيران في عدوهما زوبعة من الثلج على مقدمة الزحافة الأنيقة التي يقطرانها. كان أناتول قابعاً في تلك الزحافة

www.Maktbah.com

مع ماكارين الخالد. جلس أناتول فيها جلسة العسكريين الكلاسيكية وهو منتصب الظهر يخفي أسفل وجهه في ياقته المصنوعة من فراء كلب الماء ورأسه مائل قليلاً، كان نضر الوجه وردي اللون تتيح قبعته ذات الريشة البيضاء المائلة إلى الجانب، لجانب من شعره الأجعد الذي انتثرت عليه طبقة خفيفة من الثلج بالظهور.

قال پيار في سرّه: «هوذا عاقل حقيقي! لا ينظر إلى أبعد من بهجته الآنية. ولما كان لا يعرف الهم، فإنه جذل أبداً وهادئ. إنني أتخلى عن الشيء الكثير لأصبح مثله!» وكان في اعترافه هذا نوع من الغبطة.

في دهليز مسكن السيدة أخروسيموڤ، قال الخادم الذي نزع عن پيار فروته إن ماري دميترييڤنا ترجوه أن يتفضل إلى غرفة نومها.

وبينما هو يفتح باب القاعة الكبيرة، رأى ناتاشا جالسة إلى إحدى النوافذ ووجهها ممتقع مهزول. قطبت حاجبيها لدى رؤيته وانسحبت وهي تتصنع تحفظاً بارداً.

سأل پيار وهو يدخل غرفة ماري دميترييڤنا: ماذا حدث؟

ـ أشياء مريعة! إنني في الحياة منذ ثمانية وخمسين عاماً ولم أرَ مثل هذا الشيء الفاضح.

وأخبرت پيار، بعد أن استحلفته كتمان السر، أن ناتاشا قطعت علاقتها بخطيبها دون موافقة أبويها وأن ذلك من جراء خطأ أناتول كوراغين الذي قدمته إليها زوجة پيار والذي تواطأت معه على الفرار أثناء غياب أبيها لتتزوج به سراً.

بقي پيار محدودب الظهر فاغر الفم لا يصدق أذنيه. كيف! ناتاشا مخطوبة الأمير أندريه التي يحبها أعمق الحب، روستوف اللذيذة تفضل عليه ذلك السفيه أناتول المتزوج من قبل، لأن پيار كان يعرف قصة زواجه السري،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتتدله بذلك الأحمق لدرجة موافقتها على أن يختطفها! كلا، لم يكن پيار يطيق فهم ذلك حتى ولا تقبّله.

لم يكن ممكناً للدناءة والغباوة أن تجتمعا في عقله مع ذكرى تلك المخلوقة الرائعة التي يعرفها منذ طفولتها. فكر حينئذ بزوجته بالذات وحدث نفسه وهو يفكر في أنه ليس الوحيد الذي يمتاز بالزواج من امرأة رديئة: «كلهن سواء!» خلال ذلك، شعر بغصّة الدمع في حلقه لفرط انفعاله واضطرابه بشأن مصير الأمير أندريه: كم سيحرج كبرياؤه ويتألم! وبقدر ما كان إشفاقه على صديقه يتزايد، كان شعور الاحتقار بل الحقد على ناتاشا هذه التي مرت منذ حين أمامه متصنعة الكبرياء والترفع، لكنه كان يجهل أن روح ناتاشا كانت غارقة في تلك اللحظة في أعماق الخجل واليأس وأن تلك البرودة لم تكن إلا قناعاً يختفي وجهها وراءه دون أن يكون لإرادتها دخل في الموضوع.

صاح عندما بلغت ماري دميترييڤنا هذا الحد: يتزوجها! لكن هذا مستحيل، إنه متزوج من قبل.

ـ خير! إنه سافل، الفتى! إنه سافل! وهي تنتظره، منذ يومين وهي تنتظره. أقله، سوف تكف عن الانتظار، يجب إخطارها.

وبعد أن اطلعت على تفاصيل زواج أناتول وهدّأت غضبها بسباب عنيف أخبرت ماري دميترييڤنا پيار بالسبب الذي دعته من أجله. إنها تخشى أن يطلع الكونت أو پولكونسكي الذي باتت عودته قريبة، على المغامرة التي قررت إخفاء أمرها، فيدعوان أناتول إلى المبارزة. لذلك ترجو پيار أن يطلب باسمه إلى كوراغين هذا أن يغادر موسكو وألّا يعود إلى الظهور أمامها. وبعد أن أدرك پيار الخطر الذي يهدد الكونت العجوز نيكولا والأمير أندريه معاً، وعدها بأن يعمل وفق إرشاداتها. وبعد أن شرحت له ماري دميترييڤنا بكلمات موجزة ما تنتظره منه، أرسلته إلى القاعة الكبيرة. قالت له:

www.Maktbah.com

ـ انتبه جيداً. لا يعلم الكونت شيئاً. تظاهر بالجهل. خلال ذلك سأخطرها أنه ليس لديها ما تنتظره...

وبعد أن انصرف، صاحت في أعقابه متممة: إبقَ لتناول الغداء إذا راقك ذلك.

رأى پيار في القاعة، الكونت العجوز منقلب السحنة. لقد اطلعته ناتاشا منذ حين على أنها فصلت خطبتها إلى پولكونسكي. قال له:

ـ يا عزيزي! إنها مصيبة حقيقية عندما تكون البنية بعيدة عن أمها! كم أنا نادم على رحلتي هذه! سأكون صريحاً معك. هل تصدق؟ لقد قطعت علاقتها بپولكونسكي دون أن تستشير أحداً. والحقيقة إن هذا الزواج لم يفتني قط: إنه بكل تأكيد شاب مستقيم. لكنه لا يمكن أن يكون سعيداً إذا تجاوز إرادة أبيه: ثم إن ناتاشا لا تشكو قلة الراغبين في زواجها. لكن هذا طال منذ أمد بعيد كيف استطاعت أن تتصرف على هذا النحو دون أن تتفوه بكلمة لأبيها أو لأمها! وها هي الآن مريضة، والله يعلم ما بها!... آه! يا للتعاسة يا كونت، عندما تكون الفتيات بعيدات عن أمهن.

وبعد أن لاحظ پيار اضطراب الكونت، حاول عبثاً أن يدير دفة الحديث. كان العجوز يرجع أبداً إلى مشاغله.

ظهرت سونيا على عتبة القاعة مغتمة. قالت: إن ناتاشا في صحة سيئة وهي في غرفتها تريد رؤيتك. إن ماري دميترييڤنا هناك معها وهي ترجوك كذلك أن تحضر.

قال الكونت: صحيح، إنك صديق حميم لپولكونسكي، لعلها تريد أن تحملك رسالة ما إليه... آه! يا إلهي! يا إلهي، لقد كان كل شيء على ما يرام!

وانسحب الكونت وهو يجذب شعيراته الشهباء النادرة.

كانت ماري دميترييڤنا قد أطلعت ناتاشا على قصة زواج أناتول، فلم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تصدق ناتاشا وسألت الكونت أن يؤكد لها ذلك، هذا ما أطلعت سونيا پيار عليه أثناء مرافقتها عبر الأروقة.

كانت ناتاشا جالسة بجانب ماري دميترييڤنا وهي دائمة الامتقاع والشراسة: وما إن ظهر پيار على عتبة الباب حتى سألته بنظرة محمومة. لم تبتسم له ولم تومئ برأسها. لم تبدِ نحوه إلا تلك النظرة، وتلك النظرة كانت تعني: هل هو صديق لأناتول أم عدو له كالآخرين؟ أما پيار نفسه، فلا شك أنه لم يكن يشغل حيّزاً في تفكيرها.

قال تماري دميترييڤنا لناتاشا وهي تشير إلى پيار: إنه يعرف كل شيء.

أجالت ناتاشا الطرف من وجه إلى آخر أشبه بالحيوان الحبيس الذي يرى الكلاب والصيادين محيطين به يقتربون.

بدأ پيار يقول وهو مطرق برأسه لأنه كان يحس بحنان عميق نحوها وباشمئزاز شديد من العمل التي قامت به:

ـ ناتالي إيلينيتشنا، ناتالي إيلينيتشنا، لا يهمك أن يكون ذلك صحيحاً أو لا ما دام...

ـ إذن، إنه ليس صحيحاً، إنه متزوج؟

ـ بل إنه متزوج.

ـ إنه متزوج، ومنذ متى؟ أتقسم بشرفك؟

أقسم لها پيار بشرفه، سألته بعنف؟

ـ ألا يزال هنا؟

ـ نعم، لقد رأيته منذ حين.

لم تقوَ على متابعة الحديث فأشارت بيدها أن يخرجوا.

www.Maktbah.com

الفصل العشرون

ودون أن يوافق على البقاء لتناول الغداء، انسحب پيار فوراً، وراح يبحث عن أناتول كوراغين الذي صار اسمه وحده كافياً لردّ الدماء إلى قلبه. وبعد أن فتّش عنه عبثاً في «الجبال» وعند البوهيميين وعند جومونينو، ذهب إلى النادي. هناك كان كل شيء يسير كعادته. والأعضاء الذين توافدوا لتناول الغداء كانوا جالسين جماعات جماعات يتحدثون فيما بينهم، فتبادلوا مع پيار التحيات المناسبة. جاء خادم عليم بطبائعه، يعلمه وهو ينحني أمامه، أن مكانه محجوز في قاعة الطعام الصغرى وأن الأمير «ن.ن.». موجود في المكتبة وأن «ت.ت.» لم يصل بعد: سألته إحدى معارفه أثناء حديثها عن المطر والطقس، عما إذا كان بلغه شيء عن اختطاف الآنسة روستوف من قبل كوراغين وهل هذه الإشاعة التي باتت تسري في المدينة حقيقية أم لا؟ أجابها پيار وهو يضحك إنها محض اختلاق لأنه خرج تواً من منزل آل روستوف.

ولما راح يستفسر عن أناتول من زملائه، أخبره أحدهم بأنه لم يحضر بعد وأكد له آخر أنه سيأتي لتناول الغداء. راح پيار يتأمل هذه الجماعة من الأشخاص الهادئين اللامبالين الذين ما كانوا يخمنون ما يدور في خلده من شعور غريب. تنزه بعض الوقت في الأبهاء. لكنه عندما رأى أن كل المواظبين على النادي قد حضروا ما عدا أناتول، توقف عن تناول الطعام ورجع إلى مسكنه.

twitter @baghdad_library

أما أناتول الذي كان پيار يبحث عنه، فقد كان يتناول طعامه ذلك اليوم عند دولوخوف ويستشيره بشأن الوسائل الكفيلة بمعالجة الأمر الفاشل. خيل إليه أن مقابلة جديدة مع الآنسة روستوف، ضرورية. وعلى ذلك، فقد مضى ذلك المساء إلى منزل أخته ليسألها تدخلها: ولما رجع پيار إلى منزله بعد أن جاب نواحي موسكو عبثاً، أعلمه الخادم أن الأمير أناتول ڤاسيلييـڤيتش عند الكونتيسة. وكانت قاعة الاستقبال تغص بالناس.

دخل پيار إلى القاعة فرأى أناتول وذهب إليه مباشرة، دون أن يحيي زوجته التي لم يرها منذ عودته، لأنها أصبحت في تلك اللحظة مكروهة منه أكثر من أي وقت مضى.

قالت الكونتيسة وهي تقترب: آه! پيار إنك لا تدري في أي موقف ألقى أناتولنا بنفسه...

قطعت جملتها وهي ترى في رأس زوجها المطرق وعينيه الملتمعتين ومشيته الحازمة إشارات مخيفة تدل على الغضب الذي خبرت نتائجه بعد المبارزة مع دولوخوف.

قال پيار لزوجته: أينما تكوني، تكن الجرائم.

وأضاف بالفرنسية محدثاً أناتول: أناتول، تعال، يجب أن أكلمك.

وبعد أن ألقى أناتول نظرة على أخته وقف يودّعه وتبع پيار. أمسكه هذا بذراعه وجره خارج القاعة. همّت هيلين أن تدخل. غمغمت: إذا سمحت لنفسك في قاعة منزلي...

لكن پيار خرج دون أن يدعها تكمل كلامها.

تبعه أناتول بخطواته الثابتة لكن قسمات وجهه اكتست بالقلق.

أغلق پيار باب مكتبه وراءه وقال له فجأة دون أن ينظر إليه:

ـ لقد وعدت الكونتيسة روستوف أن تتزوجها وكنت تريد اختطافها؟

www.Maktbah.com

أجاب أناتول بالفرنسية وهي اللغة التي دار كل هذا الحديث بها.

ـ يا عزيزي، لا أظنني مضطراً إلى الإجابة عن أسئلة تطرح عليّ بهذه اللهجة.

شوه الغضب وجه پيار الممتقع من قبل فأمسك بيده العريضة أناتول من ياقته وهزه في كل الاتجاهات حتى اكتسى وجهه برعب كاف. كرر پيار:

ـ أقول لك إنه «يجب» أن أكلمك.

قال أناتول وهو يتلمس على ياقته زراً اقتلعه پيار مع قطعة من القماش:

ـ ولكن، إن هذا مخالف للصواب!

صاح پيار بلهجة تعظيم اضطره إليها استعمال اللغة الفرنسية:

ـ إنك أحط الصعاليك. لست أدري ماذا يوقفني عن تحطيم رأسك بهذه!

وأمسك بالثقل الذي يضعه على أوراق فوق المكتب ورفعه مهدداً ثم عاد فوضعه.

ـ هل وعدتها بالزواج؟

ـ كلا على ما أعلم. ثم كيف يمكنني صرف مثل هذا الوعد طالما...

كرر پيار وهو يسير إليه:

ـ ألديك رسائل منها؟ هل لديك رسائل؟

نظر إليه أناتول ثم بحث فوراً في جيبه وأخرج حافظة أوراقه.

أخذ پيار الرسالة التي قدمها أناتول إليه ودفع طاولة كانت تعوق طريقه ثم انهار على الكنبة.

قال جواباً عن حركة جزعة من أناتول: لن أكون قاسياً، لا تخشَ شيئاً.

وتابع وكأنه يتذكر درساً حفظه:

ـ الرسائل و... ـ وبعد لحظة صمت قصيرة استأنف وهو يذرع الغرفة، والشيء الآخر، يجب أن تغادر موسكو منذ الغد.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ ولكن كيف أستطيع؟...

أردف پيار دون أن يصغي إليه:

ـ وفي المقام الثالث، يجب ألّا تتفوّه بكلمة واحدة إلى كائن من كان عما وقع بين الكونتيسة وبينك. إن هذا لا أستطيع أن أمنعك عنه، وأنا أعرف ذلك. لكنه إذا بقي لديك بصيص من الوجدان.

توقف عن الحديث واستمر في تجواله صامتاً، بينما جلس أناتول إلى الطاولة وقطب حاجبيه وراح يعض شفتيه.

ـ آن الوقت لتعرف أن خارج حدود لذائذك المفضلة يوم شرف الآخرين وراحتهم وإنك تدمر وجوداً برمته في غمار تسليتك. تسلّ ما شئت مع النساء اللواتي من نوع زوجتي: إنهن يعرفن ما تريده منهن وهن مسلحات ضدك بتجارب العجوز نفسها التي أنت متسلح بها. أما أن تعد فتاة بالزواج... أن تخدعها... أن تغرر بها... ألا تفهم أنها نذالة أن يضرب المرء عجوزاً أو طفلاً؟

وتوقف پيار وراح يسأل أناتول بنظرة اختفى منها الغضب. قال أناتول وهو يستعيد جرأته كلما استعاد پيار هدوءه؟

ـ هذا ما لا أعرفه. هذا ما لا أعرفه ولا أريد معرفته.

ثم ألمح وهو يتصفحه وقد صدرت عن ذقنه حركة عصبية:

ـ لكنك قلت لي أشياء مهينة واستعملت كلمة «نذل» وكلمات أخرى، تجعلني بوصفي رجلاً شريفاً لا أسمح لأحد بقولها.

لم يفهم پيار إلى أي هدف يرمي أخو زوجته، فراح يتأمله بدهشة. استرسل أناتول: وعلى الرغم من أن هذا قيل في خلوة، فإنني لا أستطيع مع ذلك...

قال پيار بلهجة ساخرة: أظن أنك تطلب ترضية مني؟

www.Maktbah.com

ـ يمكنك أقله أن تصحح عباراتك على ما أظن إذا شئت أن أتصرف وفق رغباتك، هِنْ؟

قال پيار وهو ينظر بالرغم عنه إلى الزر المنزوع:

ـ ليكن! إنني أسحب أقوالي وأرجوك أن تعذرني. بل حتى إذا كنت في حاجة إلى المال للسفر...

علت شفتي أناتول ابتسامة أسخط تعبيرها الوضيع الوجل پيار. لقد شاهد مثلها على شفتي زوجته. فصاح: يا للعنصر الدنيء!

وترك أناتول الذي سافر في اليوم التالي إلى پيترسبورغ مشدوهاً في مكانه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

رجع پيار ليبلغ ماري دميترييـڤنا أن رغبتها قد تحققت. وكوراغين ترك موسكو. رأى في المنزل حركة غير مألوفة: كانت ناتاشا مريضة جداً. أطلعته ماري دميترييڤنا، شريطة أن يكتم السر، على أن ناتاشا تناولت «الأرسنيك» الذي حصلت عليه سراً في اليوم نفسه الذي عرفت بنبأ زواج أناتول. مع ذلك، لم تكد تبتلع السم بكمية قليلة حتى أيقظت سونيا واعترفت لها بفعلتها، واتخذت إجراءات حاسمة حينئذ أنقذت حياتها. لكنها لا تزال في حالة من الضعف لا يمكن معها أن تنقل إلى الريف، لذلك فقد أرسلوا يطلبون الكونتيسة. قدم پيار واجباته للكونت الذي كان في منتهى الضعف ولسونيا التي كانت غارقة في دموعها. لكنه لم يستطع رؤية ناتاشا.

تناول الغداء، ذلك اليوم، في النادي. ولما كان اختطاف الآنسة روستوڤ الذي لم يتم، موضوع كل الأحاديث، فقد أعلن تكذيب النبأ بشدة مؤكداً أن هذه الإشاعات مبعثها طلب زواج سخيف تقدم به أخو زوجته. قدر پيار أن من واجبه أن ينقذ سمعة الآنسة روستوڤ بهذه الأكذوبة.

كان ينتظر، وصول الأمير أندريه، فيمضي كل يوم يتزود الأخبار عنه من الأمير العجوز. وكانت الآنسة بوريين قد أطلعت هذا على كل الإشاعات التي انتشرت أخيراً في المدينة وكذلك كان قد اطلع على الكلمة التي كتبتها ناتاشا إلى ماري تحل الأمير أندريه من وعده، فكان أكثر ابتهاجاً من عادته يتلهف على عودة ابنه بنفاد صبر.

www.Maktbah.com

بعد بضعة أيام، على رحيل أناتول تلقى پيار كلمة من الأمير أندريه يعلمه فيها بنبأ عودته ويرجوه أن يزوره في منزله.

سرقت الآنسة بوريين رسالة ناتاشا إلى ماري وأعطتها إلى الأمير العجوز. فأسرع هذا الأخير إلى اطلاع ابنه عليها وهو لما يصل بعد، وسرد عليه بالتفصيل كل الإشاعات الرائجة حول اختطاف ناتاشا.

أسرع پيار، منذ صباح اليوم التالي، إلى منزل صديقه. كان يتوقع أن يجده في حال قريب من حال ناتاشا لكنه، لدهشته، سمع من القاعة صوت أندريه المجلجل ينبعث من مكتب أبيه وهو يقص بحماسة دسيسة پيترسبورغية. كان الأمير العجوز وشخص آخر يقاطعانه من حين إلى آخر. جاءت الأميرة ماري تستقبل پيار. أطلقت تنهيدة وهي تشير بنظرها إلى باب المكتب أنها أرادت بتلك النظرة أن تعبر عن مدى رثائها لأخيها. لكن پيار لاحظ بوضوح أنها راضية تماماً عن خيانة ناتاشا وعن الطريقة التي استقبل بها أخوها النبأ أكدت:

ـ لقد قال إنه كان يتوقع ذلك. لا شك أن كبرياءه لا تسمح له أن يطلق العنان لعواطفه. لكنه، على كل حال، يحتمل الأمر أفضل، أفضل بكثير مما كنت أظن...

قال پيار: لكن، هل الانفصام حقيقي كامل حقاً؟

نظرت إليه ماري: لم تكن تعتقد أن مثل هذا السؤال جدير بأن يطرح.

دخل پيار إلى المكتب. رأى الأمير أندريه جالساً أمام أبيه والأمير ميشتشيرسكي في ثياب مدنية، يناقش بحرارة ويحرك ذراعيه بنشاط. تبدل تبدلاً كثيراً، وبدا في صحة أفضل. لكن تغضّناً جديداً جاء يقطع جبينه بين حاجبيه. كانوا يتحدثون عن خبر الساعة: نفي سپيرانسكي وخيانته المزعومة.

كان أندريه يقول: إن كل ما حدث منذ شهر يرفعه فوق السحب، رجمه اليوم بالحجر الأول، إنهم الآن ينضمون إلى أولئك الذين كانوا عاجزين عن

twitter @baghdad_library

فهم خططه وأهدافه، إن من السهل جداً الحكم على رجل مغضوب عليه وتحميله أخطاء الآخرين كلها. حسناً! إنني أزعم إذا حدث شيء مفيد في هذا العهد فإن الفضل فيه يعود إليه...

توقف لدى رؤية پيار وانتفض وجهه ثم اتخذ فوراً سمة خبيثة:

وتابع: ولسوف تنصفه الأجيال القادمة.

ثم التفت إلى پيار وقال بحماسة بينما ازداد غضنُ جبينه بروزاً:

ـ حسناً كيف حالك؟ إنك تسمن باطراد.

وأجاب عن سؤال لـپيار حول صحته بابتسامة مريرة: نعم إن صحتي جيدة.

فسر پيار تلك الابتسامة بما يلي: «نعم، إن صحتي جيدة، ولكن ما من أحد يشغل باله بصحتي».

وبعد حديث مقتضب مع صديقه عن حالة الطرق المريعة اعتباراً من الحدود البولونية، وعن معارف پيار الذين التقاهم في سويسرا، وعن المدعو السيد ديسال الذي جاء به من الخارج ليشرف على تثقيف ولده، عاد أندريه يتدخل بحماسة في المحادثة المستمرة بين العجوزين.

قال بحمية عميقة: إذا كانت ثمة خيانة أو كانت ثمة أدلة على تواطؤ سپيرانسكي ولم أحببه قط. ولكن يجب أن يكون المرء عادلاً.

تعرف پيار إلى بادرة لم يرها تظهر على صديقه غالباً من قبل، ألا وهي الحاجة إلى الحركة والاندفاع في مناقشات شائكة بقصد نسيان أفكار شخصية شديدة الإيلام.

بعد رحيل الأمير ميشتشيرسكي، أمسك أندريه صديقه پيار من ذراعه وقاده إلى الغرفة التي خصصت له. كان هناك سرير وحقائب وصناديق مفتوحة تضيق بها الغرفة. انحنى أندريه على أحدها وأمسك بصندوق صغير أخرج منه

www.Maktbah.com

حزمة ملفوفة بالورق. قام بذلك بسرعة فائقة ودون أن ينطق بكلمة، ثم استوى وهو يسعل سعالاً خفيفاً ووجهه كالح وشفتاه مضمومتان بعنف.

ـ أعذرني لإزعاجي لك...

عرف أندريه أنه يريد أن يحدثه عن ناتاشا فازداد انفعاله وخصوصاً عندما رأى وجهه مطبوعاً بالتحنن. قال بصوت قاس: إن الكونتيسة روستوف قد سحبت كلمتها. بل إنني سمعت أن شقيق زوجك طلب يدها أو شيئاً من هذا القبيل...

هم پيارأن يقول مفسراً: هذا صحيح دون أن يكونه...

قاطعه أندريه قائلاً: ها هي رسائلها وصورتها.

وأخذ عن الطاولة الحزمة الملفوفة ومدها إلى پيار وقال:

ـ أعد هذه إلى الكونتيسة عندما تقابلها.

ـ إنها مريضة جداً.

فأجاب أندريه بحدة: إنها لا تزال هنا؟ والأمير كوراغين؟

ـ لقد رحل منذ زمن... لقد كانت مشرفة على الموت...

قال أندريه بابتسامة خبيثة تذكر بابتسامة أبيه: يؤلمني مرضها أشد الألم. ولا شك أن السيد كوراغين لم يجدها جديرة بالزواج به؟

قال پيار: لم يكن يستطيع الزواج بها لأنه متزوج من قبل.

قال أندريه: وهل أستطيع أن أعرف أين هو الآن السيد أخو زوجتك؟

ـ لقد ذهب إلى پيتر... في الحقيقة لست أدري شيئاً عن مكانه.

تابع أندريه: هذا غير مهم على كل حال. قل عن لساني للكونتيسة روستوف إنها كانت من قبل وستظل دائماً. أتمنى لها كل السعادة.

تناول پيار حزمة الرسائل، فسأله أندريه بنظره وكأنه تذكر أن لديه شيئاً لم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يقله بعد أو كأنه كان ينتظر أن يقول پيار شيئاً. قال هذا: أصغ إلي، إنك، بدون شك، لم تنس نقاشنا في پيترسبورغ. تذكر...

فبادر أندريه يجيب: إنني أذكر. قلت لك حينذاك إنه يجب أن يُغفر للمرأة التي سقطت. لكنني لم أقل لك إنني أستطيع أن أغفر لها. أنا لا أستطيع الصفح.

قال پيار: هل يمكننا المقارنة؟

لكن أندريه قاطعه صارخاً بلهجة حادة: نعم، أليس أن أطلب يدها مجدداً وأن أبرهن عن مروءتي وأشياء أخرى من هذا القبيل... لا شك أن ذلك آية في النبل. لكنني لا أشعر بقدرتي على السير فوق بقايا حطام السيد... إذا كنت تريد الإبقاء على صداقتي، فلا تحدثني بعد اليوم قط عن هذه...، عن كل هذا. والآن، وداعاً. لقد اتفقنا، سوف تعيد إليها...

عاد پيار ليقابل الأمير العجوز وابنته.

كان العجوز أكثر تيقظاً من عادته، لكن ماري كانت على حالها. لكن پيار لاحظ أنها رغم رثائها لحال أخيها، كانت مغتبطة لإخفاق الزواج. عرف وهو يراقبهما، مبلغ الاشمئزاز الذي يعمر قلبهما حيال آل روستوف وأحسّ أنه لا يمكن بعد الآن أن يُنطق باسمهم في حضرتهما، اسم تلك التي استطاعت، لأي دافع كان، أن تخون الأمير أندريه.

دار الحديث عن الحرب خلال تناول الطعام، الحرب التي بدت وشيكة الاندلاع. أمسك أندريه بدفة الحديث وانخرط في نقاش سواء مع أبيه أو ديسّال مثقف ابنه السويسري. بدا أكثر نشاطاً من عادته، وكان پيار يعرف أكثر من غيره سبب تلك الحماسة.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني والعشرون

ذهب پيار إلى منزل آل روستوف، في ذلك المساء، لينفذ مهمته. كانت ناتاشا في سريرها والكونت في النادي. سلّم پيار الرسائل إلى سونيا وذهب إلى غرفة ماري دميترييڤنا التي كانت تريد أن تعرف كيف تلقّى الأمير أندريه النبأ. وبعد عشر دقائق، وصلت سونيا تلحق به. قالت:

ـ تريد ناتاشا رؤية الكونت پيار دون تأخير.

اعترضت ماري دميترييڤنا قائلة: هل يمكن حقاً أخذه إلى غرفتها؟ إن كل شيء فوضى مخيفة.

قالت سونيا: إنها مرتدية ثيابها تنتظر في القاعة.

هزت ماري دميترييڤنا كتفيها باستسلام. قالت توصي پيار: متى ستصل الكونتيسة؟ ما عدت أحتمل... حاذر أن تقول لها كلمة. لا يجد المرء الشجاعة على توبيخها، إنها تستدر الشفقة.

وفي وسط القاعة، وقفت ناتاشا جامدة، شاحبة الوجه كئيبة ولكن، ولدهشة پيار الكبيرة، في غير خجل. فلما ظهر على العتبة، انتابها اضطراب قوي: ترددت بين أن تتقدم نحوه وبين أن تنتظره.

أسرع پيار الخطى. اعتقد أنها ستمد إليه يدها كعادتها. لكنها بعد أن تقدمت نحوه، توقفت مقهورة متدلية الذراعين واتخذت مثل تلك الوقعة التي اعتادت عليها من قبل، حينما كانت تتوسط قاعة الرقص لتغني. لم يتغيرفيها إلا أمارات وجهها.

twitter @baghdad_library

قالت بصوت لاهث: پيار كريلوڤيتش، إن الأمير پولكونسكي صديقك.

ثم صححت قولها وقد بدا لها أن كل شيء يخص الماضي وحده:

إنه لا يزال صديقك. لقد قال لي من قبل أن أتصل بك...

أصغى پيار إليها مبهور الأنفاس. لقد أثقلها حتى تلك اللحظة باللوم والعنف في سرّه، بل قرر أن يحتقرها. أما الآن، فعلى العكس، لقد أخذت الشفقة تتسرب إلى قلبه تطارد كل فكرة ذم: إنه هنا. قل له... أن يـ... يصفح عني.

توقفت لاهثة ولكن جافة العينين. قال پيار: نعم، سأقول له. لكن...

ولم يعرف ماذا يضيف.

وبحدّة، قالت ناتاشا وقد روعتها الفكرة التي قد تكون مرت برأس پيار:

أنا أعرف أن كل شيء قد انتهى... انتهى إلى الأبد... إن ما يعذبني هو الألم الذي سببته له. قل له فقط إنني أتوسل إليه أن يسامحني، أن يغفر لي كل شيء...

واكتسحت كيانها كله قشعريرة عصبية، فمضت تتهالك على كرسي.

تملّكت الشفقة قلب پيار. لم يشعر قط من قبل بشيء من هذا القبيل.

ـ سأقول له ذلك، سأقول له كل شيء ذات مرة... لكنني... وددت أن أعرف شيئاً...

سألته سونيا: «أن تعرف ماذا؟».

ـ وددت أن أعرف ماذا كنت أحببت، وأرتج عليه فلم يعد يعرف كيف يصف أناتول بل إن وجهه احمرّ لمجرد التفكير فيه، إذا كنت أحببت ذلك الرجل المنحط؟

قالت ناتاشا: لا تنعته هكذا. لست أدري شيئاً، لم أعد أدري شيئاً...

www.Maktbah.com

واستسلمت للبكاء. اعتلج شعور بالإشفاق والحب في نفس پيار وأحسّ بالدموع تحت نظارتيه. قال: لنكف عن البحث في هذا يا صديقتي.

أثر ذلك الصوت الرقيق المضطرب في نفس ناتاشا فجأة.

لنتوقّف عن البحث يا صديقتي. سوف أقول له شيئاً أطلب إليك فقط أن تعتبريني بعد الآن صديقتك. فإذا احتجت إلى مساعدة أو نصح أو إذا أردت أن تنفثي عما في نفسك، ليس الآن، ولكن عندما تجدين أن كل شيء قد عاد واضحاً في سريرتك، تذكريني.

وأمسك بيدها وقبّلها ثم قال: أنا سعيد لأنني أستطيع...

واضطرب پيار. فصاحت ناتاشا:

لا تحدثني هكذا. أنا لا أستحق ذلك.

وأرادت أن تنصرف. لكن پيار استوقفها. كان يعرف أن في نفسه شيئاً آخر يقوله. لكنه ما كاد ينطق بما أراد حتى أدهشته كلماته. قال لها: لا تقولي هذا. إن أمامك عمراً كاملاً.

أجابت وهي تحاول أن تنقص من قيمة نفسها: ؟ أنا كلا. لقد ضاع كل شيء.

ضاع كل شيء؟ أتظنين؟ حسناً! لو أنني كنت أنا، لو كنت أجمل وأذكى وأفضل الرجال، لو كنت مالكاً حريتي، لما ترددت لحظة في الركوع أمامك طالباً يدك وحبك.

لأول مرة منذ أيام طويلة، ذرفت ناتاشا، دموع الشكران. شكرته بنظرة وخرجت.

خرج پيار كذلك، أو الأحرى هرب حتى بلغ الممرّ وهو يمسك دموع السعادة التي كانت تخنقه. ارتدى فروته كيفما اتفق وصعد إلى زحافته. سأله الحوذي: أين يريد الذهاب الآن؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تساءل پيار: «أين يمكنني أن أذهب؟ إلى النادي؟ عند أصدقاء؟ مستحيل».

رأى كل شيء شديد الحقارة والتفاهة بالنسبة إلى ذلك الشعور بالحنان والحب الذي استسلم له، بالنسبة إلى نظرة العرفان تلك التي منحتها له خلال دموعها! قال: إلى المنزل.

وعلى الرغم من درجات البرد العشر، فقد أزاح فروته المصنوعة من جلد الدب عن صدره العريض وراح يتنفس بجذل.

كان يوم صقيع جميلاً والسماء الدكناء المزروعة بالنجوم، تنبسط فوق الشوارع القذرة نصف المعتمة وفوق السطوح المعتمة. لم يكن غير تأمل هذا البهاء الرائع، ينسي پيار دناءة الأشياء البشرية إذا قورنت بالسمو الذي بلغته روحه. وعندما وصل إلى ساحة «آربات» انحسر أمام عينيه فراغ كبير من القبة المنجمة. وفي كبد السماء، فوق جادة بريتشيشتنكي تماماً، وسط موكب من النجوم امتاز عنها بضيائه الأبيض وتجاوره الأكبر وذيله الطويل المرتفع عند طرفه، ظهر المذنب الكبير اللامع، مذنب عام ١٨١٢، الذي زعموا أنه ينبئ بالأهوال الكثيرة بل بانتهاء العالم. لكن تلك النجمة الهائلة المشعة ذات الذنب المضيء، لم توقظ في نفس پيار أيّ رعب. بل على العكس، راح يتأملها فرحاً بعينيه المخضلتين بالدموع: بدت كأنها بعد أن قطعت مسافة يستحيل قياسها بسرعة لا حد لها حسب خط المجاز، انغرست فجأة في المكان الذي اختارته في تلك السماء المظلمة كما يغرز السهم في الأرض، بقيت هناك تنفش ذنبها وتذبذب أضواء نورها الأبيض بين نجوم متألقة لا تحصى. فكان پيار يجد علاقة مبهمة بين بهاء هذا الكوكب وبعث روحه المتفتحة لحياة جديدة.

www.Maktbah.com

الجزء التاسع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الأول

حشدت أوروبا في أواخر العام ١٨١١، وأعدّت قوات عظيمة. ووُجّهت هذه القوات في العام ١٨١٢، وتعدّ بالملايين من الرجال، من الغرب إلى الشرق نحو الحدود الروسية حيث كان تتجمع بالمثل القوات الروسية منذ عام ١٨١١. وفي الثاني عشر من حزيران، اجتازت جيوش أوروبا الغربية الحدود ونشبت الحرب، أي إنه وقع حدث مخالف للمنطق، مخالف لكل طبيعة الإنسان. ارتكبت هذه الملايين من الرجال عدداً كبيراً من الكبائر والخيانات والسرقات وترويج النقد المزيّف والنهب والحرائق والقتل تعجز وثائق كل محاكم العالم عن تقديم أمثلة مماثلة خلال قرون، كل هذا دون أن يعتبر فاعلو هذه الرذائل خلال تلك الحقبة من الزمن أنها جرائم بشعة.

ما هو سبب هذا الحدث الأعجوبي؟ وماذا كانت أسبابه؟ يظهر المؤرخون بتأكيد خالص أنها إهانات الدوق دولدنبرغ وخرق الحصار البري، وطمع ناپليون وعناد ألكسندر وأخطاء الدبلوماسية إلخ... أي إنه لو كان الأمر كذلك. كان يكفي لتجنب الحرب، أن يجتهد ميترنيخ[١] أو روميانتسيـڤ[٢] أو تاليران[٣] بين عشية وضحاها فيحرر مخابرة سياسية بارعة أو أن يكتب ناپليون

(١) رجل دولة نمسوي دبّر زواج ماري لويز بناپليون الأول (المترجم).

(٢) سياسي سبق ذكره (المترجم).

(٣) سياسي فرنسي، أسقف أوتون، (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلى ألكسندر بكل بساطة: «سيدي أخي، إنني أوافق على إعادة الدوقية إلى الدوق دولدنبورغ»[1].

ومن الملاحظ أن هذه كانت وجهة نظر المعاصرين وكذلك كان ناپليون يعزو منشأ المعركة إلى دسائس بريطانيا كما أعلن ذلك بكل صراحة في جزيرة سانت هيلين. ومن الملاحظ أيضاً أن أعضاء مجلس النواب البريطاني ألقوا المسؤولية على طمع الأمبراطور. فالدوق دولنبورغ لا بد وأن يستشهد بالقسوة التي كان ضحية لها وبالمفاوضين والحصار الذي كان يجر الخراب على أوروبا والعسكريين القدامى وضرورة تقديم ما يشغلهم والمشرعين وسرعة إقامة «المبادئ الطيبة» والدبلوماسيين والتحالف المعقود عام ١٨٠٩ بين النمسا وروسيا لم يُخف بمهارة كافية على ناپليون بسبب رداءة تدبيج المذكرة (ميوراندوم) رقم ١٧٨. يُلاحظ أن المعاصرين وإن استعانوا بكل هذه الأسباب وبعدد آخر تبعاً للاختلاف المتناهي في وجهات النظر، فإنها تبدو لنا، نحن الأعقاب الذين نقدّر هذا الحدث الهامّ على كل رحابته ونتعمق في معناه العادي بقدر ما هو رهيب، أقل كفاية. أن يكون الملايين من المسيحيين قد تألموا أو تذابحوا لأن ناپليون كان طماعاً وألكسندر عنيداً وسياسة بريطانيا ملتوية والدوق دولدنبورغ مهاناً، أمر يصعب فهمه، إننا لا نعقل أن هناك رباطاً يمكن أن يجمع بين هذه الظروف وبين جرائم القتل أو أعمال العنف ولا نرى كيف أن الإهانة الموجهة إلى دوق استطاعت نقل الألوف من الرجال من جانب أوروبا إلى جانبها الآخر ليقتلوا وينهبوا سكان أقاليم سمولنسك[2] وموسكو أو ليُقتلوا من جانبهم.

وهذه الأسباب، في نظرنا، نحن الذين نمثل الأجيال المتعاقبة، نحن

---

(١) أولدنبرغ غراندوقية ثم أصبحت جمهورية عام ١٩١٩. (المترجم).

(٢) مدينة روسية انتصر فيها الفرنسيون عام ١٨١٢. (المترجم).

www.Maktbah.com

الذين لسنا مؤرخين والذين لا نضيع في مضلة الاستقصاءات بل يمكننا أن نتفحص هذا الحدث بحس واضح أكثر من أن تحصى، وكلما ازددنا تعمقاً في البحث عن هذه الأسباب، تبدت لنا أكثر عدداً، وكل سبب نأخذه على حدة، وكل مجموعة من الأسباب، تبدو لنا في آن واحد، عادلة في نفسها خاطئة بسبب تفاهتها ومقارنتها بفداحة الحدث حتى لتعجز عن الإتيان به دون تدخل الأسباب المطابقة الأخرى كلها. فإذا كنا نستشهد برفض ناپليون إيقاف قواته وراء الفيستول[1] وإعادة دودلنبورغ، فلماذا لا نستعرض كذلك رغبة أي كان من العرفاء الفرنسيين في التطوع من جديد أو رفضه؟ لنفرض جدلاً أن هذا الرجل ومن ورائه ألوف آخرون من العرفاء، رفضوا أن يعودوا إلى الخدمة، فإن جيش ناپليون كان سيمنى بنقص والحرب لم تكن لتقع.

لو لم يعتبر ناپليون الانطواء وراء الفيستول مذلاً لما تقدم بقواته ولما اندلعت الحرب. لكن لو أن رقباءه كلهم رفضوا الخدمة، لما نشبت الحرب كذلك. كما أنه لولا دسائس ووجود دولدنبورغ، ولو أن ألكسندر لم يكن سريع الغضب ولم تكن لروسيا حكومة أوتوقراطية. ولو لم تقع الثورة الفرنسية وحكومات «الإدارة»[2] و»المملكة»[3] وأي شيء مما أدى إلى تلك الثورة إلخ. فالعدوان كان مستحيل الوقوع. ما كان ليحدث شيء لولا سبب من هذه الأسباب. فالتقاؤها وعدد هائل آخر مشابه وضع النار في البارود. لا يمكن استبعاد أي سبب ولقد تأدى الحدث لأنه كان لا بد وأن يكون هكذا فحسب. كان يجب أن يمضي الملايين من الرجال فاقدين التعقل مطلقين كل

(١) نهر بولوني. (المترجم).

(٢) «الإدارة» ديركتوار اسم أعطي للحكومة، وقلبها ناپليون في (١٨) برومير عام ٨ للثورة). (المترجم).

(٣) المملكة أسسها ناپليون الأول عام ١٨٠٤ (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عاطفة إنسانية، ومن الغرب إلى الشرق ليقتلوا أشباههم كما انحدرت جماهير من الرجال قبل بضعة قرون من الشرق إلى الغرب ليقتلوا أمثالهم هناك.

وفي الواقع، إن أفعال ناپليون وألكسندر اللذين كان كلامهما وحده يستطيع في الظاهر إثارة الحدث أو حبسه، كانت تساوي بتفاهة وزنها قيمة أفعال الجندي البسيط الذي كان القدر أو التجنيد يرغمه على خوض الحرب. لم يكن ممكناً أن تكون غير ذلك لأنه لكي تتم مشيئة ناپليون أو ألكسندر المحكمين الظاهرين بالمقدر، كان لا بد من مساهمة الملابسات التي لا تحصى ما دام الأمر لم يكن ليقع لو استبعدت إحداها. كان لا بد لهذه الملايين من الرجال الذين كانت بين أيديهم القوة الفاعلة بوصفهم جنود القتال ونقل أرزاق المدافع أن يوافقوا جميعاً على إمضاء إرادة هذين الشخصين الضعيفين المنعزلين وأن يكونوا مسترشدين بعدد لا يحصى من الأسباب المتعددة والمركبة.

لا بدّ من أن نلجأ إلى مذهب الجبرية إزاء بعض الظواهر التاريخية الخالية من المعنى أو التي يفوتنا معناها. والواقع أن عقلنا كلما اجتهد في تفسيرها بدت لنا منافية للصواب.

إن كل رجل يعيش من أجل نفسه يستعمل حريته لبلوغ أهداف خاصة ويشعر بكل كيانه أنه قادر أو عاجز عن القيام بهذا أو ذاك من الأفعال لكنه ما إن يعمل، حتى يصبح عمله الذي أنجزه في لحظة ما من الديمومة لا رجعة فيه وملكاً منذ ذلك الحين للتاريخ حيث لا يعود حراً بل خاضعاً للقدر.

وجهان للحياة البشرية، فهناك من الجانب الأول الحياة الشخصية التي تبلغ الحرية فيها مبلغ ما للغايات من تجرد، ومن الجانب الآخر الحياة البدائية الجماعية التي ينبغي للإنسان فيها أن يخضع حتماً للقوانين المحددة له.

يعيش الإنسان عامداً من أجل نفسه. لكنه يساهم دون عمد في أهداف

www.Maktbah.com

الإنسانية التاريخية جمعاء. والفعل المنجزُ لا مرد له وباتحاده مع ملايين الأفعال الأخرى المتممة من قبل الغير، يأخذ قيمة تاريخية. وكلما ارتفعت مرتبة الرجل على السلم الاجتماعي، كانت الشخصيات التي يعقد معها العلاقات أرفع شأناً وسلطتها على الغير أوسع مدى وكان لكل من أعمالها طابع واضح من الضرورة والاصطفاء.

«إن قلوب الملوك في يد الله».

والملك عبد التاريخ.

والتاريخ، أي إن حياة الإنسانية الجماعية العامة غير العمدية تستخدم كل دقيقة من حياة الملوك لإنجاز مشاريعها.

وعلى الرغم من أن ناپليون عام ١٨١٢، كان يعتقد أكثر من أي وقت مضى أن عليه وحده يتوقف «إهراق دم شعبه أو عدم إهراقه» كما قال له ألكسندر في رسالته الأخيرة التي كتبها إليه، فإنه كان أكثر من أي وقت مضى خاضعاً لهذه القوانين الجبرية، التي كانت ترغمه على تنفيذ عمل التاريخ العام، الذي كان ينبغي حتماً أن ينفذ، والتي تترك له التوهم بأنه إنما يفعل وفقاً لرغبته الشخصية.

تحرك رجال الغرب نحو رجال الشرق كي يقتل بعضهم بعضاً. وتبعاً لقانون توافق الأسباب، كانت ألوف الأسباب الصغيرة تتفق مع هذه الحركة: خرق الحصار البري، إهانات الدوق دولدنبورغ، تسيير الجيوش في بروسيا الذي كان ناپليون يفكر في الشروع فيه بغية تأمين سلام فحسب، غرام أمبراطور الفرنسيين المتأصل بالحرب متفقاً مع استعداد خاص من جانب شعبه، الجاذبية المباشرة للتجهيزات الجسيمة والنفقات التي أوجبتها، الحاجة إلى فوائد لتغطية هذه النفقات، استقبالات دريسد[1] المسكرة، المفاوضات

(١) دريسد بالألمانية درسدن عاصمة الساكس انتصر فيها ناپليون على الحلفاء عام ١٨١٣

twitter @baghdad_library

الدبلوماسية التي كان المعاصرون يعتقدون أنها تجري برغبة مخلصة في الحصول على السلم، التي كانت في حقيقتها تسيء إلى أنانية هذا وذاك من الجانبين وملايين من الأسباب الأخرى كانت تساهم في إتمام الحدث.

تسقط تفاحة عندما تكون ناضجة فلماذا تسقط؟ هل يجذبها ثقلها إلى الأرض أم أن طرفها قد يبس، أم أن الشمس حمستها أم هزتها الريح فأسقطتها؟ هل تستجيب بكل بساطة لنداء الفتى الخفي الذي اشتهاها؟

لا شيء من كل هذا هو السبب. لا يوجد إلا توافق أسباب مؤاتية لإنجاز أية تظاهرة أولية في الحياة العضوية. يقول عالم النبات إن التفاحة تسقط نتيجة تملل النسيج النووي أو شيء آخر من هذا النوع. والفتى يزعم أن التفاحة سقطت لأنه يشتهيها فتوجه بصلاة لهذه الغاية. وكلاهما يكون على حق. هذا يؤكد أن نابليون جاء إلى موسكو لأنه كان يريد ذلك وأنه وجد فيها خسارته لأن ألكسندر كان قد صمّم على إلحاق الهزيمة به. وذاك يؤكد أن جبلاً زنته ألوف الأطنان قُوّض من قاعدته، فانهار نتيجة لضربة معول أخيرة من يد آخر حفار. كلاهما مخطئ ومصيب معاً. إن الرجال العظام المزعومين ليسوا في الوقائع التاريخية إلا عناوين لا يربطها بالأحداث أي نوع من الصلات رغم أنها تضفي أسماءها على تلك الأحداث.

وعلى الرغم من أن تصرفاتهما بدت لهما ناجمة عن محض إرادتهما، فليس بينهما واحد مخيراً بالمعنى التاريخي للكلمة بل إن كلاً منهما مرتبط بسير التاريخ العام ومعين منذ الأزل.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

غادر ناپليون دريسد بعد أن مكث فيها ثلاثة أسابيع تحيط به بطانة من «الدوقات» والأمراء والملوك والأمبراطور، وذلك في التاسع والعشرين من شهر أيار. وقد عامل قبل سفره الأمبراطور والملوك والأمراء الذين خدموه بإخلاص وبمزيد من الإكرام وعزل الأمراء الذين كان مستاء منهم وقدَّم لأمبراطورة النمسا لآلئ وماسات أخذها من صندوقه الخاص أي إنها جواهر مصادرة من ملوك آخرين. وبعد أن ضم بين ذراعيه ماري لويز بحنان، تركها كما يؤكد مؤرخه، حزينة جداً لهذا الرحيل الذي على ما يبدو لم تكن لماري لويز القوة على احتماله وهي التي تعتبر وكأنها زوجته رغم أن زوجته الشرعية موجودة في باريس. وعلى الرغم من أن الدبلوماسيين استمروا مؤمنين بإقامة السلم وجهدوا بنشاط لهذه الغاية، وعلى الرغم من أن ناپليون كتب لألكسندر رسالة بخط يده دعاه فيها «بسيدي أخي» وأكد له فيها أنه لا يريد الحرب ولن ينفك عن تقديره ومحبته، فإن الأمبراطور لم يكن ذاهباً إلا للالتحاق بالجيش فيعطي في كل مرحلة أوامر جديدة تهدف إلى الإسراع بالسير نحو الشرق. كان في عربة مقطورة إلى ستة جياد يحيط به التابعون ومساعدو الميدان والحرس، يسير في طريق بوزن[١]، ثورن[٢]، دانتزيغ[٣]، كونيغزبيرغ[٤] الكبرى وفي كل

(١) مدينة بولونية على نهر وارتا، موطن هندنبرغ. (المترجم).

(٢) مدينة بولونية على نهر ڤيستول. (المترجم).

(٣) مدينة حرة في أوروبا الوسطى احتلها الفرنسيون عام ١٨٠٧ (المترجم).

(٤) كالينينغراد اليوم، مدينة ليتوانية احتلها سولت عام ١٨٠٧ (المترجم).

twitter @baghdad_library

مدينة من هذه المدن يستقبله ألوف من الناس بحماسة ممتزجة بالخوف.

كان الجيش يزحف نحو الشرق كما أن الجياد الستة التي تجر مركبته والتي كانت تبدل في كل مرحلة، كانت تحمل ناپليون نحو الجيش. لحق به في العاشر من حزيران وأمضى الليل في صلب غابة ڤيلكوڤيسزكي في أملاك «كونت» بولوني حيث أُعد له جناح خاص لإقامته.

تابع الجيش، في صبيحة اليوم التالي، زحفه فبلغ نييمن[1] في عربة حيث راح يتفحص الضفاف وهو في الزي البولوني بحثاً عن مكان مناسب لعبور القطعات.

ولما رأى القوقازيين القائمين على الشاطئ الآخر والقفار اللامتناهية التي تقوم في وسطها موسكو المدينة المقدسة، عاصمة هذه المملكة التي تذكر بمملكة ياجوج وماجوج التي احتلها الإسكندر المقدوني، أمر ناپليون بالسير إلى الأمام وسط الدهشة العامة والاستخفاف بكل العبارات الاستراتيجية أ والسياسية. وفي صباح اليوم التالي، اجتازت قواته النييمن.

خرج في اليوم الثاني عشر، مبكراً من خيمته التي نصبت ذلك اليوم عند منحدر من الضفة اليسرى، وراح يراقب بمنظاره تدفق جيوشه التي كانت تخرج من غابة ڤيلكوڤيسزكي لتنتشر على الجسور الثلاثة المقامة على النييمن. وكان الجنود يعرفون بوجود الأمبراطور، يبحثون عنه بأنظارهم فإذا ما شاهدوا على المرتفع أمام خيمته متنحياً عن حاشيته، شبحه وهو في «الرودنغوت» وعلى رأسه القبعة الصغيرة، ألقوا في الهواء بقلانسهم الوبرة وهم يصيحون «عاش الأمبراطور»! واستمرت القطعات تتدفق بلا انقطاع من الغابة التي كانت تخفيها وتمرّ منقسمة عن طريق الجسور الثلاثة إلى الضفة الأخرى.

---

(١) نهر في روتانيا وليتوانيا يصب في بحر البلطيق. (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ سوف نصل هذه المرة. آه! عندما يتدخل بنفسه يحمى الوطيس... باسم الله!... ها هو ذا... يعيش الأمبراطور!... ها نحن أولاء في قفار آسيا! بلد رديء رغم كل شيء. ـ وداعاً يا بوشيه، سأحتفظ لك بأجمل قصر في موسكو ـ. إلى اللقاء وحظاً سعيداً!...

ـ هل رأيت، الأمبراطور؟ يحيا الأمبراطور... طور! ـ إذا جعلوا مني حاكماً للهند. سأجعلك يا جيرار وزيراً لكشمير، هذا قرار ـ يعيش الأمبراطور! يعيش! يعيش! يعيش! ـ يا للقوقازيين الأنذال، كيف يهربون! يحيا الأمبراطور ها هو ذا! لقد رأيته مرتين كما أراك. العريف الصغير... لقد رأيته يعطي الصليب إلى أحد الكهول... ـ يحيا الأمبراطور!

تلك كانت العبارات التي يتبادلها الشبان والكهول، أشخاص من كل نوع من كل المراكز الاجتماعية. وكانت الوجوه كلها تعكس فرحة واحدة لرؤية بدء الحملة المنتظرة بفارغ الصبر وحماسة واحدة وإخلاصاً واحداً للرجل ذي الرودنغوت الرمادي الذي كان يُرى في الأعلى فوق المنحدر.

جاؤوا إلى ناپليون، في الثالث عشر، بجواد عربي أصيل فامتطاه وانتهى إلى أحد جسور النييمن هرباً وقد أصمّت أذنه خلال الطريق الهتافات بحياته التي احتملها لأنه لم يكن يستطيع أن يحرم على جنوده الإعراب عن محبتهم له على هذا النحو. وكانت هذه الصيحات تعظّمه. كانت تحرفه عن المشاغل ذات الصبغة العسكرية التي كان فريسة لها منذ أن لحق بالجيش. اجتاز النهر على واحد من الجسور المهتزة وانحرف فجأة إلى اليسار ثم جرى على جواده في طريق كوفنو[١] يسبقه قناصة من الحرس الراكب يستخفهم الفرح كانوا

---

(١) عاصمة ليتوانيا تحت سيطرة ناپليون. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يشقون له طريقاً خلال القطعات. وعندما وصل إلى شاطئ فيليّا العريض، توقف قرب فيلق من الفرسان البولونيين الذين كانوا نازلين هناك.

صاح البولونيون بدورهم: يحيا!

وفي غمرة حماستهم، أفسدوا نظام الصف ودفع بعضهم بعضاً ليروه بشكل أفضل.

تأمل نابليون النهر ثم ترجل عن حصانه وجلس على لوح خشبي على جانب الشاطئ. ودون أن ينبس بكلمة، حملوا له منظاره بإشارة منه فأسنده إلى كتف أحد أتباعه الذي أسرع تملأه الغبطة وراح يفحص الشاطئ المقابل. استغرق في دراسة الخريطة المنشورة على جذع شجرة. ودون أن يرفع رأسه، نطق ببضع كلمات، فحث اثنان من مساعدي الميدان جواديهما نحو الفرسان البولونيين. ولما وصل أحدهما إليهم، سرت همهمة بين الصفوف:

ماذا قال؟ ماذا قال؟

كان الأمر ينص على البحث عن مخاضة وعبور النهر. سأل زعيم الفرسان، وكان رجلاً عجوزاً أنيق اللباس، محمر الوجه، يتمتم من التأثر، المساعد عما إذا كان يُسمح له بعبور النهر سباحة دون التفكير في المخاضة. ولقد التمس بخوف واضح خشية أن يرفض ملتمسه، شأن الصبي الذي يسأل الإذن بامتطاء صهوة جواد، أن يُسمح له بتنفيذ هذه المأثرة تحت نظر الأمبراطور. فأجاب المساعد بأن هذا لن يكون ولا ريب مستاء من هذه الغيرة المفرطة.

وعلى الفور، هز الضابط المسن ذو الشاربين الطويلين سيفه وهتف ملتمع العينين مشرق الأسارير: ڤيڤا! يحيا ـ ثم أعطى الأمر لجنوده أن يتبعوه وهمز حصانه واندفع نحو النهر. ولما جمح الحصان، فقد شدد عليه بغضب وغاص في الماء متجهاً نحو موضع يكون التيار فيه قوياً وتبعه مئات من

www.Maktbah.com

الفرسان. ولكن ما إن وصلوا إلى منتصف النهر حتى استبد بهم البرد والخوف فتعلق بعضهم ببعض وهم حيارى.

غرقت بعض الجياد وبعض الرجال كذلك وحاول آخرون السباحة وهم متشبثون بعضهم بسروج الجياد وبعضهم بأعرافهم. جاهدوا لبلوغ الشاطئ الآخر رغم أن هناك مخاضة على مسافة خمسمائة متر من المكان. لكنهم كانوا فخورين بأن يسبحوا وأن يغرقوا تحت أنظار ذلك الرجل الجالس على جذع شجرة، الذي لم يكن ينظر حتى إلى ما كانوا يفعلون. ولما رجع المساعد العسكري، انتهز فرصة مواتية ليلفت انتباه الأمبراطور إلى تفاني البولونيين في سبيل شخصه وحينئذ نهض الرجل ذو «الرودنغوت» الرمادي واستدعى پيرتييه[1] وراح يتنزه معه على طول النهر وهو يعطيه أوامره ويلقي نظرات مستاءة على أولئك الفرسان الذين كانوا بغرقهم، يحولون انتباهه عن الأعمال الجدية.

ومنذ زمن طويل، كان مقتنعاً أن وجوده في كل أركان العالم، ابتداء من أفريقيا وحتى قفار موسكوڤا، يكهرب كل الرجال ويثير فيهم جنون التضحية لذلك فقد استحضر جواده وعاد إلى مخيمه.

وعلى الرغم من القوارب التي أرسلت لإنقاذهم، فقد غرق حوالى أربعين فارساً وارتد معظمهم إلى الشاطئ. أما الزعيم وعدد من الرجال، فقد وصلوا بصعوبة إلى الشاطئ الآخر. وما إن ظهروا هناك بثيابهم المبللة بالماء حتى صاحوا: ڤيڤا! وهم ينظرون إلى المكان الذي كان فيه ناپليون والذي لم يعد فيه، شاعرين بالسعادة.

وفي المساء، بين قرارين، الأول يهدف إلى سرعة استقدام نقد زائف

---

(١) ماريشال فرنسا، كان على حظوة لدى ناپليون وشارك في غزو روسيا. قتل عام ١٨١٥. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

معد لإدخاله إلى روسيا، والثاني إعدام سكسوني عثر معه على رسالة تحوي معلومات عن تحركات الجيش الفرنسي، اتخذ الأمبراطور قراراً ثالثاً ينص على تعيين الزعيم البولوني الذي اندفع في النهر دون أية ضرورة ملحة، عضواً في جوقة الشرف التي كان هو رئيسها.

إن الذين يريدون الموت يتخلون عن تعقلهم أولاً.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

منذ أكثر من شهر، وفي تلك الأثناء، كان أمبراطور روسيا في فيلنا[1] يتفقد جيوشه ويحضر مناورات عسكرية. كان الناس كلهم ينتظرون الحرب ولقد غادر الأمبراطور بيترسبورغ عامداً ليهيئ العدة للحرب مع أنه لم يكن هناك شيء بعد. لم تكن لديه خطة عامة للعمليات. ولقد عُرضت عليه بضع خطط ولكنه لم يتبنَ أيّ واحدة منها. وكلما أطال ألكسندر مقامه ازداد البلبال في اتخاذ ما يجب. وكان لكل جيش من الجيوش الثلاثة قائده الأعلى ولكن لم يكن هناك قائد أعلى وكان الأمبراطور يرفض الاضطلاع بهذا المنصب الرفيع.

كان الوقت يمر في انتظار غير مجد ويزداد السأم من إعاقة الاستعدادات يوماً بعد يوم وحاشية جلالته تبدو صارفة كل اهتمامها إلى تمضية وقته على أحسن وجه وتناسي خطر الحرب الوشيكة.

وبعد عديد من الحفلات الراقصة والأعياد التي أقامها الأشراف البولونيون ورجال الحاشية والأمبراطور نفسه، أقام أحد المساعدين العسكريين من الجنرالات البولونيين في شهر حزيران مأدبة عشاء وحفلة راقصة على شرف جلالته باسم كل زملائه. وقد قبلت هذه الفكرة بحماسة ووافق الأمبراطور، ففتح المساعدون العسكريون الجنرالات حملة اكتتاب

(١) مدينة احتلتها بولونيا عام ١٩٢٠ طالبت بها ليتوانيا فاستعادها الاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٩. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ووافقت التي تتمتع بالتفاتة ألكسندر الخاصة على أن تقوم بدور ربة البيت. ولما كان الكونت بينيغسن[1] الذي كانت أملاكه تقع قرب إقليم فيلنا قد وضع تحت تصرف المنظمين قصره في زاكرت، وتقرر أن يتم العيد الذي يشمل العشاء والحفلة الراقصة والنزهة على الماء والنيران الاصطناعية في الثالث عشر من حزيران.

فاليوم إذن الذي أعطى فيه ناپليون الأمر باجتياز النييمن والذي راحت طلائعه تصدّ القوقازيين فيه وتنتهك حرمة الحدود الروسية، كان ألكسندر يمضي السهرة عند الكونت بينيغسن بدعوة من مساعديه العسكريين.

كان الاحتفال مرحاً رائعاً أكد العارفون أنهم لم يروا من قبل مثل هذا العدد من النساء الجميلات. وكانت الكونتيسة بيزوخوف التي لحقت بالأمبراطور إلى فيلنا ترافقها سيدات روسيات أخريات، تكسف «بجمالها الروسي» المترف جمال البولونيات الأكثر رقة ولطفاً. ولقد جذبت إليها الأنظار وشرفها الأمبراطور بمراقصتها.

وكان بوريس دروپتسكوي هناك أيضاً عازباً حسب قوله، لأنه ترك زوجته في موسكو. وعلى الرغم من أنه لم يكن مساعداً عسكرياً جنرالاً، فقد ساهم رغم ذلك بمبلغ كبير في الاكتتاب. كان حينذاك قد أصبح رجلاً غنياً متقدماً جداً في طريق المراتب والوظائف، بعيداً عن البحث عمن يحميه، يعامل أرفع معاصريه مكانة الند للند، ولقد وجد هيلين في فيلنا وهو الذي فقد آثارها منذ بعض الوقت وكان الماضي منسياً. ولكن، بما أن هيلين كانت تتمتع بالتفاتة شخصية رفيعة وكان موريس متزوجاً منذ بعض الوقت، فقد أصبحا من فورهما صديقين قديمين.

---

(١) جنرال روسي هزمه ناپليون في معركة إيلو في ليتوانيا عام ١٨٠٧. (المترجم).

www.Maktbah.com

كان الرقص، حوالى نصف الليل، لا يزال دائراً. ولما لم تجد هيلين فارساً جديراً بمراقصتها، فقد عرضت على بوريس أن ترقص «المازوركا» معه فشكلا الزوج الثالث. وبينما كانا يتسامران حول معارفهما القدماء، كان بوريس يلامس بنظرة لامبالية كتفي هيلين العاريتين البارزتين فوق مشد من شف أدكن موشى بالذهب. ولكن دون أن يشعر أحد بل لعله يشعر هو نفسه، كانت النظرة تتابع الأمبراطور الذي كان موجوداً في تلك القاعة بالذات. لم يرقص ألكسندر. كان يقف قرب الأبواب، يستوقف هذا تارة وذاك تارة أخرى وينعم بتلك الكلمات اللطيفة التي كان وحده يحسن النطق بها.

عند بدء «المازوركا»، لاحظ بوريس، أن الجنرال المساعد العسكري پالاشيـڤ وهو أحد المقربين إلى الأمبراطور، اقترب من سيده وراح ينتظر، رغم آداب الـپروتوكول، أن يتفرغ هذا من التحدث إلى سيدة بولونية. استفسره ألكسندر بالنظر ولما أدرك أن لا بد من أسباب خطيرة أدت إلى تجاوز تابعه، خطا خطوة نحوه بعد أن صرف السيدة بإيماءة من رأسه. وما كاد پالاشيـڤ يدلي ببعض الكلمات حتى ارتسمت الدهشة العميقة على وجه ألكسندر. أمسك بمساعده العسكري من ذراعه واجتاز القاعة معه دون أن يعير الجموع التي كانت تتنحى له عن فسحة عريضة لمروره التفاتاً.

لكن أراكتشييـڤ وحده، الذي كان بادي الانفعال العميق، خرج من بين الجموع وكأنه توقع أن يوجه إليه ألكسندر الكلام، بعد أن ألقى نظرة على وجه سيدة ونخر بخفة بأنفه الأحمر. عرف بوريس الذي لم يغب عنه هذا التدبير، أن أراكتشييـڤ يغار من پالاشيـڤ، مستاء لأن نبأ لا بد وأنه هام لم ينقل إلى الأمبراطور عن طريقه. لكن الأمبراطور مر أمامه دون أن ينظر إليه واقتاد پالاشيـڤ إلى حديقة المنارة فأسند أراكتشييـڤ سيفه بيده وألقى حوله نظرات غاضبة ثم تبعه على بعد عشرين خطوة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بقي بوريس طوال رقصة المازوركا مضطرب البال لمعرفة الخبر الذي حمله پالاشيـڤ وكيف يستطيع الإحاطة به قبل كل الناس. وفي اللحظة التي كان عليه أن يختار سيدة وشوش في أذن هيلين أنه سيأخذ الكونتيسة بوتوكا التي يظن أنها خرجت إلى الشرفة، ثم اندفع بخطواته المنزلقة نحو باب الحديقة وتوقف لدى رؤيته الأمبراطور وپالاشيـڤ وهما عائدان إلى القاعة. بسرعة تامة، وكأنه لم يجد وقتاً للانحراف، توقف بوريس وقفة محترمة إلى جانب إطار الباب.

كان الأمبراطور ينهي محادثته مع پالاشيـڤ بانفعال الرجل الذي تلقى إهانة بالعبارات التالية:

ـ الدخول إلى روسيا دون إعلان الحرب! لن أعقد صلحاً طالما بقي فوق أرضي عدو واحد مسلح.

بدا لبوريس أن الأمبراطور يتفوه بهذه الكلمات بنوع من الرضاء: لقد حلت له الصيغة التي أعطاها لفكرته. لكنه مع ذلك استاء لأن بعضهم سمع قوله فأضاف مقطباً حاجبيه:

ـ يجب ألّا يعلم أحد شيئاً!

فهم بوريس أن هذه الملاحظة موجهة إليه فخفض عينيه وحنى رأسه. لكن الأمبراطور في تلك اللحظة كان يدخل إلى القاعة حيث بقي قرابة نصف ساعة أخرى.

كان بوريس على هذا النحو أول من علم بأن الفرنسيين اجتازوا النيمن فتمكن بذلك أن يظهر لبعض الشخصيات المرموقة أن ما يُخفى على غيره معلوم لديه، الأمر الذي زاده رفعة في نظر هؤلاء.

بدا هذا النبأ شديد الإذهال لأنه جاء في غمار حفلة راقصة بعد شهر انتظار غير مجد. ولقد ألهم الغضب الأمبراطور الصيغة التي أظهر رضاه عنها

www.Maktbah.com

لأنها كانت تستجيب تماماً لعواطفه التي أصبحت فيما بعد ذائعة الشهرة. ولما عاد من الحفلة الراقصة عند الساعة الثانية صباحاً، أرسل يستدعي أمين سره شيشكوف فأملى عليه أمراً يومياً لقطعاته وكتاباً ملكياً إلى الماريشال الأمير سالتيكوف عنى فيه بأن تظهر الجملة العتيدة التي يؤكد فيها أنه لن يعقد صلحاً طالما أن فرنسياً واحداً مسلحاً يطأ الأرض الروسية.

وغداة اليوم التالي، استكتب إلى نابليون الرسالة التالية: «سيدي أخي. لقد علمت أمس أنه رغم الإخلاص الذي حافظت به على تعهداتي تجاه جلالتكم فإن قطعاتكم قد اجتازت الحدود الروسية. وتلقيت الآن من پيترسبورغ إشعاراً يعلن فيه الكونت لوريستون عطفاً على هذا الاعتداء، أن جلالتكم اعتبرتم نفسكم في حالة حرب معي منذ أن طلب الأمير كوراكين أوراق اعتماده. إن الأسباب التي بنى عليها الدوق دوباسانو[1] رفضه إعادتها إليه ما كانت أبداً لتجعلني أتوقع أن هذا التصرف سيصبح ذريعة للاعتداء. والواقع أن هذا السفير لم يكن إطلاقاً مجازاً كما أعلن ذلك بنفسه، وما أُنهي إليّ النبأ حتى أعلمته مدى استنكاري وأمرته بالبقاء في مركزه، فإذا كنتم جلالتكم لا تنوون سفك دماء شعوبكم بسبب سوء تفاهم من هذا النوع وتوافقون على سحب قواتكم من الأراضي الروسية، فإنني سأعتبر ما حدث كأنه لم يكن وحينئذ يمكن إيجاد تسوية بيننا. وفي الحالة المعاكسة يا صاحب الجلالة أجد نفسي مرغماً على صد هجوم لم يثره شيء من جانبي. وذلك، يتوقف على جلالتكم إنقاذ الإنسانية من مصائب حرب جديدة. وإنني ... إلخ».

التوقيع: «ألكسندر».

---

(١) رجل دولة فرنسي تفانى في خدمة نابليون.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

استدعى الأمبراطور پالاشيف، عند الساعة الثانية صباحاً في الثالث عشر من حزيران، بعد أن قرأ عليه رسالته إلى ناپليون، أصدر إليه الأمر بالذهاب بنفسه لتسليمها بالذات إلى الأمبراطور الفرنسي. ولما أذن له بالانصراف، كرر مرة أخرى «أنه لن يعقد صلحاً طالما بقي عدو واحد مسلح على الأرض الروسية» وحتم عليه أن يعيد هذه الكلمات بأمانة على مسمع ناپليون. أما إذا كان لم يضمنها رسالته فلأنه كان يشعر بحدسه المألوف أنها لا تتفق مع محاولة أخيرة بهدف التسوية. لكنه أمر پالاشيـڤ أن ينقلها إليه شفهياً.

فجر الرابع عشر من حزيران وصل پالاشيـڤ إلى قرية ريكونتي التي تحتلها الطلائع الفرنسية مصحوباً بنافخ بوق وقوقازيين فأوقفه حراس من الخيالة.

صاح به رقيب أول من الفرسان في بزة من القطيفة الحمراء وقلنسوة مزغبة يأمره بالوقوف. فلم يطع پالاشيـڤ الأمر فوراً وتابع يمشي مترجلاً. فقطب صف الضابط حاجبيه وتمتم بالسباب والشتائم ثم قطع الطريق على الجنرال الروسي بحصانه واستلّ حسامه ثم استجوبه بغلظة: هل هو أصم حتى لا يسمع ما يقال له؟ أعلن پالاشيـڤ اسمه فأرسل الرقيب الأول جندياً لاستقدام ضابط وراح يثرثر مع رفاقه دون أن يلقي بالاً إلى الرسول الروسي أو أن يمنحه مجرد نظرة.

أما پالاشيـڤ الذي كان على علاقة دائمة مع السلطة العليا وكان قبل

www.Maktbah.com

ثلاث ساعات يتحدث مع الأمبراطور وقد ألف أساليب الحفاوة والترحيب بحكم منصبه، فقد دهش بألم عندما رأى أنه يعامل معاملة العدو فوق أرض روسية وأنه إضافة إلى ذلك، محروم من كل اعتبار من قبل هذا الممثل عن القوة الوحشية.

كانت الشمس تخترق السحب والهواء يرطبه الندى، والقرويون يسوقون ماشيتهم إلى الحقول، وتنبعث القبرات الواحدة في إثر الأخرى من القمح أشبه بالفقاعات فوق سطح المياه وهي تطلق لحنيها السريعين المتلاحقين.

بدأ پالاشيـڤ، بانتظار الضابط الذي ذهبوا يستقدمونه من القرية، يتفحص كل ما حوله. وراح القوقازيان والبواق يتبادلون بين الحين والحين نظرة مع الفرسان الفرنسيين.

وصل زعيم الفرسان الذي فاجأوه حتماً فور مغادرة سريره، على صهوة جواد أشهب وهو في أحسن هندام، يرافقه اثنان من رجاله. بدأ الضابط والجنود وحتى جيادهم أيضاً بمظهر القرير الظريف. كان ذلك في بداية الحرب حينما كانت القطعات لا تزال شديدة التأنق وكأنها في صبيحة عرض مع شيء ما أكثر «عسكرية» في تجهيزاتهم وذلك اللون من البهجة والاندفاع الذي يرافق دائماً البدء في حملة ما.

وعلى الرغم من أن الزعيم كان يجد صعوبة في إخفاء تثاؤبه، فقد بدأ أنيساً ولم تفته قط أهمية المهمة التي جاء پالاشيـڤ من أجلها. اجتاز معه الخط الأول وطمأنه بأنه تبعاً لرغبته، لن يلبث حتى يمثل بين يدي الأمبراطور الذي كان مقر قيادته على ما يعتقد في مكان مجاور.

اجتاز قرية ريكونتي ومر بحراس خيول ورقباء وفرسان كانوا يحيون زعيمهم وهم يتطلعون بفضول إلى الزي الروسي. وعند خروجهما من القرية

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال الزعيم لپالاشيـف إنهما سيجدان على بعد كيلومترين من هناك قيادة الفوج وسترسله هذه القيادة إلى القيادة العامة.

وكانت الشمس قد أشرقت وبدأت تسطع فوق الخضرة الزاهية.

تسلقا سفحاً وما كادا يجتازان مسافة قصيرة حتى شهدا قبالتهما كوكبة فرسان تظهر صاعدة السفح الآخر وعلى رأسها يتقدم رجل مديد القامة ذو قبعة يزينها ريش وشعر أسود تتساقط خصلاته على كتفيه وساقيه الطويلتين المندفعتين إلى الأمام تبعاً لعادة الفرنسيين الفرسان، على صهوة جواد أدهم كانت عدته تلتمع تحت وهج الشمس. فلما رأى هذا الرجل پالاشيـف، اندفع بجواده وهو يماوج تحت شمس حزيران الحادة ويلألئ ريش قبعته وجواهره وشرائطه الذهبية.

ولم يكد پالاشيـف يصبح على بُعد طولين من ذلك الفارس ذي المظهر المسرحي الموشّى بالأساور والريش والقلائد والبهارج حتى همس الزعيم الفرنسي «أولز» في أذنه بغمغمة كلها احترام: «ملك ناپولي» والواقع أن ذلك الفارس كان مورا[١] الذي أصبح الآن يدعى ملك ناپولي. وعلى الرغم من استحالة معرفة السبب الذي من أجله أعطي له هذا اللقب فقد كانوا يسمونه كذلك وكان هو نفسه مقتنعاً بأنه ملك، الأمر الذي كان يعطيه مظهراً أكثر وقاراً وعظمة. وكان مقتنعاً بذلك حتى أنه عشية يوم رحيله، بينما كان يتنزه مع زوجته في شوارع ناپولي إذ حياهما بعض الإيطاليين بصيحة «يحيا الملك»، فالتفت إلى زوجته وقال لها بابتسامة حزينة: «التعساء، لا يعرفون أنني سأغادرهم غداً!».

---

(١) ماريشال فرنسي زوج كارولين بوناپرت، وملك ناپولي، أعدم رمياً بالرصاص عام ١٨١٥. (المترجم).

www.Maktbah.com

وفي الوقت الذي اعتبر نفسه ملكاً حقيقياً وراح يرثي للألم الذي سيلحق برعيّته بسبب غيابه، فإن مورا عندما تلقى الأمر بأن يعود إلى الخدمة وعلى الخصوص في دانتزيغ عندما قال له صهره المبجل: «لقد جعلتك ملكاً لتحكم على طريقتي وليس على طريقتك»، استعاد بدعة عمله المألوف أشبه بجواد حسن التغذية ولكن قليل الشحم، ما إن أحس نفسه مقطوراً إلى عربة حتى وافق على المحمل ومضى، وذهب في أبهى حلة ودون أن يعرف السبب، يتوثب بخفة على طرق بولونيا.

وعندما رأى الجنرال الروسي، ألقى رأسه المتوج بالشعر العكف إلى الوراء بحركة ملوكية واستفسر الزعيم الفرنسي بنظرة. فعين هذا لجلالته بكل احترام صفة دو پالاشيـڤ الذي لم يوفق في النطق باسمه.

قال الملك حاسماً الصعوبة بعزمه المألوف: دو پالاشيـڤ!

وأضاف بحركة تدل على تنازله الملوكي: يسعدني أنني تعرفت إليك يا جنرال.

وما إن بدأ يتحدث بسرعة وبصوت مرتفع حتى تبددت رفعته كلها واتخذ، دون أن يلاحظ هو نفسه، لهجة سذاجة قلبية. وضع يده على حارك جواد پالاشيـڤ وقال وكأنه يأسف لتوافق ظرفي ليس من اختصاصه الحكم عليه: حسناً يا جنرال، إن كل شيء على ما يبدو راجع إلى الحرب.

أجاب پالاشيـڤ وهو يفرط في استعمال كلمة يا صاحب الجلالة، وهذا تودد لا بد منه عندما يتحدث المرء إلى شخص لا يزال هذا اللقب جديداً عليه:

ـ يا صاحب الجلالة، إن الأمبراطور مولاي لا يرغب أبداً في الحرب كما ترون جلالتكم.

وبينما كان السيد «دو پالاشيـڤ» يتحدث إليه، كان وجه ملك ناپولي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يطفح رضى سخيفاً. لكن الملك مرغم: لقد وجد أن من الضروري بوصفه ملكاً وحليفاً أن يدخل في محاورة سياسية مع مبعوث ألكسندر. وعليه فقد ترجل عن جواده وأمسك بذراع پالاشيـڤ وابتعد به بضع خطوات عن حاشيته التي كانت تنتظره بامتثال وراح وهو يتنزه معه عرضاً وطولاً يحدثه بمواضيع حرص على أن يعطيها بعض القيمة. وتبعاً لقوله، فإن الطلب إلى الأمبراطور بسحب قواته من روسيا قد نكده بقدر ما جرحت علانية هذا المطلب الملحّ كرامة فرنسا.

ولما بدأ پالاشيـڤ يعترض بأن هذا الطلب ليس فيه ما يهين بالنظر إلى... قاطعه مورا قائلاً بابتسامة بلهاء:

ـ إذن، فإن المحرض ليس الأمبراطور ألكسندر في رأيك؟

عرض پالاشيـڤ الأسباب التي من أجلها كان يرى أن ناپليون هو مثير الحرب فقاطعه مورا مجدداً قائلاً باللهجة التي يتظاهر بها الخدم الحريصون على البقاء على وفاق وود رغم مشاحنات أسيادهم:

ـ إيها! يا عزيزي الجنرال، أتمنى من كل قلبي أن يسوي الأمبراطور الأمر بينهما وأن تنتهي الحرب التي بدأت رغماً عني في أسرع وقت ممكن.

استعلم بعدئذ عن صحة الغراندوق واستعرض ذكرى الأويقات الطيبة التي قضياها معاً في ناپولي. وكأنه شعر فجأة بالوقار الملكي، انتصب بجلال واتخذ الوقفة التي وقفها ساعة تتويجه وقال شافعاً قوله بحركة فضفاضة:

ـ لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال. أتمنى نجاح مهمتك.

ورجع إلى حاشيته التي كانت لا تزال بانتظاره بامتثال ظاهر وهو متشح بمعطفه الأحمر الموشى بالذهب ومزين بريش قبعته الذي يخفق مع الريح وجواهره التي تلتمع تحت أشعة الشمس.

www.Maktbah.com

تابع پالاشيـڤ طريقه. ولما كان مطمئناً إلى أقوال مورا، فقد كان يظن أنه لن يلبث حتى يجد نفسه في حضرة ناپليون. لكن حراس فوج مدفعية دافو[1] استوقفوه في القرية التالية كما حدث له على خط الجبهة واستدعي مساعد عسكري ليصطحبه إلى حضرة الماريشال.

---

(١) ماريشال فرنسا، من أفضل معاوني ناپليون. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

كان داڤو أراكتشييـڤ شديد التدقيق لا يعرف الجبن والخوف مثل ناپليون تماماً وكذلك يعجز عن إثبات وفائه لسيده عن غير طريق القسوة.

وأمثال هؤلاء الرجال يعتبرون ضرورة في مجموعة دولة ما كضرورة الذئاب في الطبيعة. فهم موجودون ومحافظون على وجودهم مهما بدت دالتهم على رئيس الدولة مستحيلة. إن هذه الضرورة الملحة تفسر كيف أن هذا الأراكتشييـڤ الصارم الذي كان ينتزع بيديه شارب النخبة من جنوده دون أن يجرؤ بسبب ضعف أعصابه أن يواجه أدنى خطر، تفسر كيف أن ذلك الشخص معدوم الثقافة والتهذيب تمكّن أن يمارس تأثيراً كبيراً في طبيعة ألكسندر النبيلة الأبية.

رأى پالاشيـڤ داڤو جالساً فوق برميل في مكدس منشغلاً في تدقيق بعض الحسابات وإلى جانبه يقف مساعد عسكري. كان الماريشال يستطيع أن يجد مستقراً أفضل لكنه كان من أولئك الذين يحبون أن يوفروا لأنفسهم أكثر الشروط الحياتية خشونة ليبرهنوا أنهم أكثر خشونة. ومن أجل ذلك هم مثقلون أبداً بالعمل ينوؤون به. كان المرء يقرأ على وجهه: «كيف يفكر المرء في مباهج الدنيا عندما يكون، كما ترى، جالساً على برميل في مكدس حقير منكباً على العمل». إن فرح هؤلاء الأشخاص ورغبتهم الفطرية تقتصر على إلقاء عملهم المستمر الضجر في وجوه الناس الذين يستسلمون لتيار الحياة. وهذا ما أحس به داڤو عندما رأى پالاشيـڤ يصل. استغرق أكثر من أي وقت

www.Maktbah.com

آخر في حساباته وبعد أن ألقى نظرة خلال نظارتيه على وجه الجنرال الذي أعادت له رحلته المبكرة ومداولته مع «مورا» بشاشته، زاد تخديد حاجبيه دون أن يقف أو حتى أن يبدأ بحركة ما وابتسم ابتسامة قبيحة. ولما لاحظ الأثر غير المستحب الذي أحدثه استقباله هذا على الوافد الجديد، انتهى به الأمر إلى أن يرفع رأسه ويسأله بلهجة جامدة عما يريد.

عزا پالاشيـڤ هذا الاستقبال البارد إلى جهل داڤو بصفته المزدوجة كمساعد عسكري ومبعوث إلى ناپليون من قبل الأمبراطور ألكسندر فقط لذلك بادر إلى التصريح بألقابه ولكن، خلافاً لما كان يتوقع، لم يزد ذلك داڤو الإجفاء وتجهماً. قال: أين رسالتك؟ سأرسلها إلى الأمبراطور.

فاعترض پالاشيـڤ بأن لديه أمراً بتسليم الرسالة إلى الأمبراطور بالذات.

ـ إن أوامر أمبراطوركم ذات قيمة في جيشكم. أما هنا، فعليك أن تنفّذ ما يقال لك أن تعمل.

وكأنه أراد أن يشعر الجنرال الروسي بطريقة أفضل بأنه هناك رهن القوة القاهرة، فقد أرسل مساعده العسكري يستدعي الضابط المناوب.

وضع پالاشيـڤ الرسالة على الطاولة التي كانت عبارة عن باب ركز على برميلين كانت رزاته لا تزال تتدلى منه فأخذها داڤو وقرأ ما على الغلاف.

قال پالاشيـڤ.

ـ أنت مطلق الحرية في أن تعاملني باحترام أم لا. لكن من واجبي أن ألفت انتباهك إلى أنني أعتبر من مساعدي جلالته العسكريين الجنرالات.

نظر إليه داڤو دون أن ينبس بكلمة.

لقد طاب له بشكل ظاهر أن يكتشف على تقاطيعه نوعاً من البلبال. قال:

ـ سوف تعامل بما يحق لك من احترام.

ثم وضع الرسالة في جيبه وغادر المكدس.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وخلال دقيقة واحـدة، وصل مساعد الماريشال العسكري، السيد دوغاستري يصطحب پالاشيـڤ ليدله على المسكن الذي أعدّ له.

تناول پالاشيـڤ الطعام، ذلك اليوم، مع الماريشال في المكدس على الطاولة ذات البرميلين.

وفي الغد، ذهب داڤو منذ الصباح الباكر بعد أن استقدم پالاشيـڤ وحتم عليه بقساوة أن يمكث حيث هو وأن يتنقل مع القوافل في حال صدور أوامر مماثلة إليها وأن لا يتحدث إلا مع السيد دوغاستري.

وبعد أربعة أيام من الوحدة كان العدو خلالها يشتد في اختضاع مُنصب بقدر ما هو تابع للقدرة الكلية، وبعد مراحل عديدة اجتيزت مع متاع الماريشال والقطعات الفرنسية التي كانت تحتل المنطقة كلها، عاد پالاشيـڤ إلى «فيلنا» التي باتت الآن في قبضة العدو، عن طريق الباب نفسه الذي خرج منه قبل بضعة أيام.

جاء أحد حجاب الأمبراطور، في اليوم الثاني، السيد دوتورين يعلمه بأن ناپليون قد منحه مقابلة.

لقد كان حراس فوج بريوبراجنسكي، قبل أربعة أيام، يقفون على باب المنزل الذي قادوا پالاشيـڤ إليه. أما الآن، فكان في مكان أولئك، جنديان فرنسيان ببزة زرقاء ذات «قلبات» كبيرة وقلنسوة مزغبة، وموكب من الفرسان الفرنسيين والألمان وحاشية أنيقة من المساعدين العسكريين الفتيان ينتظرون خروج ناپليون، وجواده المطهم والمملوك روستان واقفين قرب المرقاة. كان ناپليون يستقبل پالاشيـڤ في المنزل نفسه الذي سلمه ألكسندر فيه رسالته إليه.

www.Maktbah.com

الفصل السادس

إن الترف والبذخ في هذا البلاط أحدثا في نفس پالاشيـڤ أثراً هائلاً على الرغم من أنه معتاد بهاء البلاطات.

أدخله الكونت دوتورين إلى قاعة فسيحة وكان فيها عدد كبير من الجنرالات والحجاب والأشراف البولونيين، عرف پالاشيـڤ عدداً كبيراً من بينهم كانوا من قبل يحيطون بألكسندر، ينتظرون فيها، وأعلن دوروك[1] أن الأمبراطور سيستقبل الجنرال الروسي قبل نزهته.

وبعد أن انتظر بضع دقائق، جاء الحاجب المنوب وانحنى بتأدب أمام پالاشيـڤ ثم دعاه أن يتبعه.

دخل پالاشيـڤ إلى قاعة صغيرة يقود أحد أبوابها إلى المكتب، ذلك المكتب الذي تلقى فيه آخر أوامر ألكسندر، وانتظر دقيقتين أو ثلاث دقائق. سمع وقع خطوات متلاحقة وراء الباب الذي انفتحت درفتاه فجأة. وساد الصمت ثم ارتفعت خطوات أخرى متزنة ونشيطة وراحت تقترب: ذاك كان ناپليون، وكان قد انتهى من ارتداء ملابسه للركوب. كانت بزته الزرقاء تنفتح على صدرة بيضاء تنسجم مع استدارة بطنه، والسروال المصنوع من الجلد الأبيض يطبع فخذي رجليه السمينتين المغيبتين في أحذية عالية. وكان شعره القصير قد رُجّل ولا ريب منذ حين. لكن خصلة منه كانت تقع على وسط جبينه العريض. في حين أن عنقه الأبيض السامن الذي تتضوع منه رائحة «الكولونيا»

---

(١) جنرال فرنسي، قُتل قرب پوتزن ١٨١٣. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان يتباين كلياً مع ياقة البزة السوداء. وكان وجهه الممتلئ الذي لا يزال فتياً، ذو الذقن البارزة، مطبوعاً بلطف أمبراطوري جليل حقاً.

اقترب بمشية سريعة وهو يتوثب مع كل خطوة ورأسه مائل قليلاً إلى الوراء. كان لشخصه القصير الممتلئ ذي الكتفين العريضتين والبطن والصدر البارزين، رغماً عنه إلى الأمام، مظهر جليل معبر، مظهر أبناء الأربعين الذين ألفوا الحياة الرغيدة كما كان يُرى كذلك أنه على أفضل مزاج ذلك اليوم.

ردّ على تحية پالاشيـڤ العميقة المفعمة بالاحترام بحركة من رأسه وأخذ وهو يتجه نحوه مباشرة يتكلم شأن الرجل الذي تعتبر كل دقيقة من وقته ثمينة والذي لا يتنازل إطلاقاً عن تحضير محاضراته لعلمه بأنه سيقول دائماً وبكل إجادة ما يجب أن يقوله.

ـ مرحى أيها الجنرال. لقد تلقيت رسالة الأمبراطور ألكسندر التي حملتها وإنني مسرور جداً برؤيتك.

ركّز لحظة عينيه الكبيرتين على وجه پالاشيـڤ ثم ما لبث أن أشاح بهما. لا شك أن شخصية پالاشيـڤ لم تكن تعنيه في شيء لأن ما يدور في سريرته هو وحده الذي كان يثير اهتمامه. أما كل ما هو خارجي فلم تكن له أية أهمية: ألم يكن يعتقد بكل حزم أن كل ما في الكون يتوقف على إرادته وحدها؟

قال: إنني لا أرغب ولم أرغب قط في الحرب. لكنهم أجبروني على خوضها. ثم أضاف وهو يبرز الكلمة: والآن أيضاً، أنا على استعداد لتقبل كل المبررات التي تستطيع تقديمها إليّ.

شرح بطريقة واضحة وموجزة أسباب استيائه من الحكومة الروسية. ولقد اقتنع پالاشيـڤ استناداً إلى لهجة أمبراطور الفرنسيين الهادئة المتزنة بل الودية أنه راغب في السلم وأنه سيشرع في المفاوضات عن طيب خاطر.

همّ پالاشيـڤ أن يقول:

ـ مولاي، إن مولاي الأمبراطور...

عندما أخذ ناپليون يستفسر بنظره بعد أن انتهى من جملته. ولقد أعد المبعوث الروسي محاضرته منذ وقت طويل. لكن تينك العينين المصوبتين إليه شوشتاه. وبدا ناپليون وهو يفحص بابتسامة لا تكاد ترى بزة پالاشيـڤ وسيفه وكأنه يقول له: «إنك مضطرب، تمالك أعصابك».

وعندما استعاد روعه قال إن الأمبراطور ألكسندر لا يعتبر «حالة حرب» طلب استعادة الجواز الذي قدمه كوراكين الذي تصرف من تلقاء نفسه دون أن يقرره في ذلك مولاه وأن ألكسندر لا يريد الحرب وليست له أية علاقات مع انجلترا.

فرد ناپليون: ليست له «بعد» أية علاقات.

لكنه قطب حاجبيه وأشار بإيماءة خفيفة من رأسه إلى پالاشيـڤ أن يستتلي وكأنه خشي أن يسفر عن عواطفه.

وبعد أن عرض كل ما كانت تعليماته تحويه من أقوال، أكد پالاشيـڤ أن الأمبراطور ألكسندر، مع رغبته في السلام، لن يبدأ بمفاوضات إلا شريطة...

وهنا تردد وتذكر الكلمات التي حذفها الأمبراطور من رسالته والتي أمر أن تظهر في رسالته الملكية إلى سالتيكوڤ وكلفه هو، پالاشيـڤ أن يرددها حرفياً على مسامع ناپليون. تذكر الجملة: «طالما بقي جندي عدو مسلح واحد على الأرض الروسية». لكن شعوراً شديد التعقيد استوقف الجملة على شفتيه. ومهما بلغت رغبته، فإنه لم يستطع أن يتفوه بها فاستبدلها وهو شديد الخجل بالعبارة التالية: «شريطة أن تعود القطعات الفرنسية عبر النييمن من جديد».

لم يخف اضطراب پالاشيـڤ على ناپليون: فقد تقلص وجهه وراحت ربلة ساقه اليسرى ترتجف في حركة منظمة. وتابع الكلام دون أن يبدل مكانه

twitter @baghdad_library

بصوت أكثر ارتفاعاً وتهافتاً عن ذي قبل. وقد لاحظ پالاشيـڤ رغماً عنه كلما أطرق بعينيه خلال الوقت الذي استغرقته المحاضرة التي تلت، أن ارتجافة ربلة الساق اليسرى آخذة بالتزايد كلما ازداد صوت الأمبراطور ارتفاعاً.

بدأ يقول: لست أقل رغبة في السلام من الأمبراطور ألكسندر. ألست أبذل كل ما في وسعي منذ ثمانية أشهر في سبيل السلام؟ منذ ثمانية عشر شهراً وأنا أنتظر الإيضاحات.

ثم أضاف وهو يعبس ويقوم بحركة عنيفة بيده الصغيرة البيضاء السمينة: ولكن ماذا تراهم يطلبون مني لقاء الدخول في مفاوضات؟

قال پالاشيـڤ: انسحاب الجيوش إلى وراء النييمن يا صاحب الجلالة.

استطرد ناپليون: وراء النييمن؟ إنكم إذن تريدونني الآن على أن أنطوي وراء النييمن.

ثم كرر وهو يغرق نظراته في عيني پالاشيـڤ:

ـ وراء النييمن فقط؟

فانحنى هذه إشارة بالموافقة.

إنهم لا يطلبون الآن بدلاً من إخلاء بومبرانيا[١] التي أصروا عليه قبل أربعة أشهر إلا الانسحاب وراء النييمن. أدار ناپليون ظهره فجأة وراح يذرع الغرفة بخطاه.

ـ تقول إنهم يطلبون مني التراجع وراء النييمن. لكنهم منذ شهرين طلبوا مني أيضاً أن أتراجع وراء الأودر[٢] والفيستول ثم توافقون مع ذلك على إجراء مفاوضات.

---

(١) إحدى جزر أرخبيل بيسمارك تابعة لأوستراليا. (المترجم).

(٢) نهر بولوني ألماني يصب في البلطيق. (المترجم).

مشى دون أن ينطق بكلمة من جانب الغرفة إلى الجانب الآخر ثم توقف فجأة قبالة پالاشيـڤ. لاحظ هذا أن ربلة الأمبراطور تضطرب أكثر من ذي قبل وأن وجهه يبدو وكأنه تصلب في تعبير صارم. كان ناپليون يعرف هذه الخاصية. وقد قال لحاشيته: «إن لاهتزاز ربلتي اليسرى إشارة كبيرة عندي».

صاح فجأة بفوران دهش له بنفسه:

ـ إن مثل هذه العروض، كإخلاء الأودر والفيستول، يمكن أن تُسأل من غراندوق دو باد[1] وليس مني. إنني لن أقبل شروطكم ولو أعطيتموني پيترسبورغ وموسكو. تقولون إنني بدأت الحرب؟ ولكن من الذي لحق بالجيش أولاً؟ الأمبراطور ألكسندر وليس أنا. والآن تحدثونني عن التفاوض في حين أنني أنفقت الملايين وأنتم حلفاء مع الإنجليز وموقفكم سيئ! تعرضون عليّ مفاوضات! ولكن ما هو هدفكم من التحالف مع إنجلترا؟ ماذا أعطتكم؟

كان يلقي بكلامه دون أن يتابع التفكير في إبراز محاسن السلم ومناقشة إمكانياته بل لكي يبرهن حقه وقوته في الوقت نفسه الذي يدلل على أخطاء ألكسندر وأضراره. لقد أراد بادئ ذي بدء أن يبرز ولا شك مزايا موقفه وأن يلمح بأنه يقبل الشروع في مفاوضات رغم ذلك. لكنه كلما ازداد اندفاعاً في الكلام تناقصت سلطته على كلماته حتى اقتصرت محاضرته على تعظيم نفسه والحط من ألكسندر أي على عكس ما كان يزمع السير فيه عند بدء المقابلة.

ـ إنهم يزعمون أنكم عقدتم الصلح مع الأتراك؟

حرك پالاشيـڤ رأسه إيجاباً وبدأ يقول:

ـ عقد الصلح...

---

(١) بلد ألماني أصبح جمهورية عام ١٩١٩، تغطي قسماً منها الغابة السوداء. (المترجم).

twitter @baghdad_library

لكن ناپليون قاطعه. كان بدون شك يشعر بحاجة ملحة إلى الكلام فتابع بتلك الثرثرة الغاضبة التي يمتاز بها الأشخاص الذين أفسدتهم النعماء:

ـ نعم، إنني أعرف أنكم عقدتم الصلح مع الأتراك دون أن تحصلوا على مولداڤيا[1] وڤالاكي[2] وأنا، كنت سأقدم لأمبراطوركم هاتين المقاطعتين هدية كما أعطيته فنلندا.

واسترسل مصرّاً: نعم، لقد وعدت الأمبراطور ألكسندر بمولداڤيا وڤالاكي وكنت سأعطيه هاتين المقاطعتين الجميلتين اللتين أفلتتا من يده؟ كان يستطيع أن يضمهما إلى مملكته فكانت روسيا ستمتد تحت حكم من خليج بوتني[3] إلى مصب الدانوب[4]. إن كاترين[5] العظيمة لم تكن لتستطيع أن تفعل أفضل من ذلك.

وازداد هياجه وراح يتمشى داخل الغرفة ويردد كلمة كلمة تقريباً ما قاله لألكسندر إبان مقابلتهما في تيلسيت.

كان سينال كل هذا بصداقتي. آه! يا للملك الجميل، يا للملك الجميل...

وكرر عدة مرات هذه الكلمات ثم أخرج من جيبه مسعطاً من الذهب أخذ شمة منه بنهم وأردف:

يا للملك الجميل الذي كان يمكن أن يكون عليه ملك الأمبراطور ألكسندر!

---

(١) مولداڤيا، بالرومانية مولدوڤا، بعد ١٩٢٤ أُلحقت بأوكرانيا. (المترجم).

(٢) مقاطعة على نهر الدانوب هي جزء من رومانيا. (المترجم).

(٣) منطقة بين السويد وفنلندا. (المترجم).

(٤) نهر ينبع من الغابة السوداء ويروي ألمانيا والنمسا وهنغاريا وتشيكوسلوڤاكيا ويوغوسلاڤيا ورومانيا وبلغاريا، ويصب في البحر الأسود. (المترجم).

(٥) كاترين الثانية أمبراطورة روسيا. خاضت حروباً وغزوات على العثمانيين. (المترجم).

www.Maktbah.com

ثم تأمل پالاشيـڤ بعطف. فلما حاول هذا أن يتقدم بملاحظة، قاطعه فوراً وهو يقول مبيناً دهشته برفع كتفيه:

ـ ما الذي كان يمكن أن يرغب فيه أو أن يبحث عنه دون أن تعطيه إياه صداقتي؟ ولكن لا، لقد فضل أن يخلق حوله لفيفاً من أعدائي وممن! لقد استقدم إلى جواره آل ستين وآل آرمفيلت وبينيغسن ونيتزنغيرود! إن ستين خائن مطرود من بلاده وأرمفيلت فاجر دساس ووينتزنغيرود فرنسي ملتحق بخدمة العدو وبينيغسن عسكري أكثر من الآخرين قليلاً، ولكنه مع ذلك عاجز لم يستطع أن يحقق شيئاً عام ١٨٠٧، فكان يجب أن يوقظ في نفس الأمبراطور ألكسندر ذكريات رهيبة.

وتابع ناپليون الذي لم يكن نطقه ليتماشى مع فكرته لكثرة تهافت البراهين وسرعة تجمعها ليثبت حقه المشروع وقوته اللذين كانا في نظره بمعنى واحد:

ـ لو أن هؤلاء كانوا على قيمة ما لأقنعني استخدامه لهم. ولكن لا، إنهم لا يصلحون لشيء، لا للسلم ولا للحرب. إن باركلي[1] على ما يزعمون أفضل منهم جميعاً لكن هذا ليس رأيي إذا حكمنا عليه تبعاً لأولى تصرفاته. ثم ماذا يفعل كل هؤلاء الأتباع؟ إن بفويل يقترح، وأرمفيلت يناقش وبينيغسن يتمعن. أما باركلي الذي استدعي ليعمل، فهو لا يدري أي جانب يأخذ، ويمر الوقت دون أن يُؤتى بجديد. إن پاغراسيون وحده رجل حرب. إنه غبي، لكن لديه الخبرة والنظر الثاقب والعزم.. وأي دور يلعب أمبراطوركم الشاب بين هذا الخليط؟ إن هؤلاء الناس يرتكبون الإثم ثم يحملونه مسؤولية أعمالهم. إن ملكاً لا يجب أن يكون في الجيش إلا إذا كان جنرالاً.

(١) جنرال روسي كان خصماً بارعاً لناپليون. توفي عام ١٨١٨. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ألقى بهذه الكلمات وكأنها تحد مباشر موجه إلى ألكسندر. لم يكن يجهل أن هذا يشعر بضعف في ثقته بأنه رجل حرب. استرسل:

ـ لقد بدأت الحملة منذ ثمانية أيام فلم تعرفوا كيف تدافعون عن «فيلنا». لقد شُطرتم شطرين وطُردتم من الأقاليم البولونية. إن جيشكم يدمدم.

قال پالاشيف وقد بهرته أضواء هذه الجمل الاصطناعية التي لم يتوصل إلى استيعابها: على العكس يا صاحب الجلالة. إن القطعات تتحرق شوقاً إلى القتال.

قاطعه ناپليون:

ـ أنا أعرف كل شيء، أعرف كل شيء، إنني أعرف أعداد ألويتكم بمثل الدقة التي أعرف بها أعداد ألويتي. ليس لديكم مائة ألف رجل تحت السلاح بينما لدي ثلاثة أضعاف هذا العدد.

ثم أضاف ناسياً أن هذا القسم لم يكن ليعني شيئاً قط:

ـ إنني أعدك بشرفي، أعطيك وعداً بشرفي أن لدي خمسمائة وثلاثين ألف رجل على هذه الضفة من الفيستول. لن يستطيع الأتراك مساعدتكم: إنهم لا يصلحون لشيء وقد برهنوا على ذلك بعقد الصلح معكم. أما السويديون، فإنهم مصطفون لأن يُحكموا من قبل مجانين. لقد كان ملكهم مجنوناً فأبدلوه واتخذوا آخر، برنادوت[1]، الذي سرعان ما فقد صوابه هو الآخر. لأنه يجب أن يكون المرء مجنوناً حتى يعقد اتحاداً مع روسيا وهو سويدي.

انفرج فم ناپليون قليلاً وأخذ شمة جديدة من السعوط.

كان لدى پالاشيف إثر كل جملة من جمل الأمبراطور اعتراض يقدمه

---

(١) ماريشال فرنسا، التحق بالحلفاء وحارب الفرنسيين. أصبح ملكاً للسويد. توفي عام ١٨٤٤. (المترجم).

www.Maktbah.com

لكنه كلما حاول أن يفتح فمه أغلقه له ناپليون. أراد أن يقول بخصوص السويديين إن السويد أصبحت بتحالفها مع روسيا أشبه بالجزيرة لأنها تحميها من الخلف. لكن ناپليون خنق صوته بصيحات الغضب. لقد كان في تلك الحالات من الإثارة التي يشعر المرء معها بحاجة إلى أن يتكلم ويتكلم لمجرد أن يثبت لنفسه أنه على حق. وكان پالاشيڤ كمن يقف على الأشواك: فهو كسفير، يخشى أن يسيء إلى كرامة نفسه بالامتناع عن أي اعتراض. أما كرجل، فقد حنى ظهره تحت زوبعة هذه الغضبة الهوجاء. كان يعرف قلة أهمية هذا الذمّ الذي ما إن يستعيد الأمبراطور هدوءه حتى يكون أول من يخجل منه. لذلك وقف في مكانه يحدّق إلى ساقي ناپليون الضخمتين المنفعلتين يحاول جاهداً أن يتجنّب نظرته.

واسترسل ناپليون:

ـ ثم ماذا يهمني من حلفائكم بعد كل شيء؟ إن لدي حلفاء أنا الآخر، وحلفاء أشرافاً: إنهم البولونيون. إنهم ثمانون ألفاً ويقاتلون كالأسود. وسوف يصبحون بعد قليل أكثر من مائتي ألف.

ولقد دفع هذا الشعور بأن هذا المزعم ليس إلا محض كذب وموقف پالاشيڤ المتحفظ الذي لم ينبس بكلمة، غضب الأمبراطور إلى أوجه، فأتى بنصف دائرة فجأة واتجه رأساً إلى محدثه فألقى في وجهه عباراته مشفوعة بحركات سريعة ونشيطة من يديه البيضاوين:

ـ اعلموا تماماً أنكم إذا أثرتم بروسيا ضدي، فإنني سأمحوها عن خريطة أوروبا، وأيد هذا التهديد بأن كنس يده اليسرى بيده اليمنى ووجهه ممتقع متقلص، نعم، سوف ألقي بكم إلى ما وراء دونا[١] وما وراء الدنيبير[٢] وسأقيم

---

(١) دونا هو اسم الدانوب بالهنغارية. (المترجم).

(٢) نهر روسي أوكراني يصب في البحر الأسود. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في وجهكم هذا السد الذي كانت أوروبا شديدة العمى، مجرمة إذ تركته ينهار. نعم. هذا ما ينتظركم. هذا ما تكونون قد ربحتموه من ابتعادكم عني!

سار بضع خطوات بسكون وكتفاه العريضتان تهتزان بطفرات صغيرة، أعاد مسعطه إلى جيبه ثم أخرجه وحمله مراراً إلى أنفه، ثم عاد إلى پالاشيـڤ ونظر بسخرية في عينيه ثم قال له بهدوء بعد فترة: ومع ذلك، يا له من ملك جميل ذاك الذي كان يستطيع مولاك أن يحصل عليه.

ولما كان يجب على پالاشيـڤ أن يقول شيئاً ما، فقد رد أنهم من الجانب الروسي لا ينظرون إلى هذا الموقف على مثل هذا التجهم. فلم يحر ناپليون جواباً بينما بقيت نظرته المستهزئة مصوبة إلى پالاشيـڤ وكأنه لم يسمع ما قاله. ولما أضاف هذا بأنهم في روسيا يتوقعون من الحرب نتائج ممتازة، هز الأمبراطور رأسه بمراعاة وكأنه يقول له: «نعم، أعرف، أن من واجبك أن تقول هذا القول، لكنك أنت نفسك لا تصدق كلمة واحدة. لقد أقنعتك».

وعندما انتهى پالاشيـڤ، أخرج ناپليون مسعطه من جديد وأخذ شمة جديدة ثم ضرب الأرض بقدمه مرتين متعاقبتين. فتح الباب في إثر هذه الإشارة وظهر حاجب أعطى الأمبراطور قبعته وهو منطوٍ إلى اثنين بكل احترام ثم قفازيه بينما قدم له آخر منديله. استدار ناپليون نحو پالاشيـڤ دون أن يعبأ بالحجاب وقال وهو يأخذ قبعته: طمئن الأمبراطور ألكسندر باسمي بأنني وفيّ له كما في السابق تماماً. إنني أعرفه وأقدر صفاته الكبيرة حق قدرها. لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال سوف تتلقى رسالتي إلى الأمبراطور.

وبسرعة، توجه ناپليون نحو الباب فأسرع كل أولئك الذين كانوا ينتظرونه في الردهة إلى السلم ليسبقوه.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

أصبح پالاشيـڤ مقتنعاً، بعد كل ما قاله ناپليون في سورة غضبه وبعد كلامه البليغ في الجفوة «لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال، سوف تتلقى رسالتي»، بأن الأمبراطور ليس عازفاً عن مقابلته بعد الآن فحسب بل سيتجنب رؤيته، هو، السفير المذل الذي شهد انفعاله غير اللائق وهذا أسوأ ما في الأمر. لذلك لا تسل عن دهشته عندما وجد نفسه يدعوه دوروك إلى مائدة الأمبراطور ذلك اليوم بالذات.

لقد كان بيسپير[1] وكولنكور[2] وبرتييه حاضرين ذلك الغداء.

ببشاشة مؤنسة، استقبل ناپليون پالاشيـڤ. لم يترك في نفسه مشهد الصباح أي أثر من الارتباك أو الأسف بل كان هو الذي راح يسعى إلى الترفيه عن ضيفه. لا شك أنه كان مقتنعاً منذ زمن طويل بأنه لا يمكن أن يخطئ وأن كل ما يفعله إنما هو نعم العمل ليس لأن عمله ينسجم مع تعريف الخير والشر الرائج بل لأنه هو صاحب العمل ليس إلا.

لقد رجع مرحاً من نزهته في شوارع فيلنا حيث استقبلته الجماهير وتبعته بحماسة. كانت النوافذ كلها على طول طريقه مزينة بالسجّاد وبالأعلام

---

(١) ماريشال فرنسي، من أفضل مساعدي ناپليون قُتل في معركة لوتزن عام ١٨١٣ (المترجم).

(٢) جنرال فرنسي، مثّل ناپليون في مؤتمر شاتيّون، قتل في موسكو ١٨١٢ (المترجم.

twitter @baghdad_library

وبالشعارات التي تحمل الأحرف الأولى من اسمه. وحيّته النساء البولونيات ملوحات بمناديلهن.

أجلس پالاشيـڤ إلى جانبه إلى المائدة وعامله ليس ببشاشة فحسب بل وكأنه يرى فيه واحداً من بطانته، واحداً من أولئك الذين يؤيدون خططه ويغتبطون لنجاحه. تعمد التحدث عن موسكو وراح يسأل ضيفه عن العاصمة بفضول المسافر الذي يجمع المعلومات عن البلد الذي ينوي زيارته وهو قانع بأن هذا التحري لا بد وأن يضاعف نشوة پالاشيـڤ بوصفه روسياً.

سأله: كم يبلغ عدد سكان موسكو، وعدد المنازل؟ هل حقيقة إنهم يسمونها موسكو المقدسة؟ كم عدد الكنائس فيها؟

وبينما هم يجيبونه بأن العدد يبلغ مائتين، بدا مندهشاً: ولماذا كل هذا العدد من الكنائس؟

فقال پالاشيـڤ: إن الروس شديدو الورع.

تابع ناپليون وهو يستجدي بعينيه موافقة كولنكور:

ـ ثم إن كثرة عدد الأديرة والكنائس كان دائماً الدليل على مدنية متأخرة.

سمح پالاشيـڤ لنفسه أن يناقض الأمبراطور باحترام. قال معترضاً:

ـ إن لكل بلد تقاليده.

ـ ولكن لم يعد في كل أوروبا شبيه لهذا.

ـ لتتفضل جلالتكم بمعذرتي. لكن في إسبانيا، كما هي الحال في روسيا، عدد كبير من الأديرة والكنائس.

وعندما حُمل إلى بلاط روسيا هذا الجواب الذي يخفي بين طياته تلميحاً إلى هزيمة الفرنسيين في إسبانيا، لقي فيه أرفع تقدير. أما إلى مائدة ناپليون، فإنه لم يحدث أي أثر، بل لم يؤبه له.

كانت وجوه السادة الماريشالات اللامبالية تدل بوضوح على أن هذا

www.Maktbah.com

الجواب الخادع قد غاب عن أذهانهم رغم أن لهجة پالاشيـڤ قد أبرزته. بدوا وكأنهم يقولون: «إذا كان في الأمر قصد ما فإنه يفوتنا إدراكه». ولقد خمنوا مؤداه بانتباه ضئيل جداً حتى أن ناپليون لم يأبه بل استرسل في طرح أسئلته فسأل پالاشيـڤ بسذاجة عن أقصر الطرق المباشرة للذهاب إلى موسكو وعن المدة التي تتطلبها. فأجاب پالاشيـڤ الذي بقي طوال الغداء مترقباً بأنه لما كانت كل الطرق تؤدي إلى روما فإن كل الطرق كذلك تؤدي إلى موسكو. وإن بين هذه الطرق العديدة واحداً يمر ببولتاڤا وهو على التأكيد ذلك الذي انتقاه شارل[1] الثاني عشر. ولقد احمرّ وجه پالاشيـڤ فرحاً لما في رده من معنى لاذع. لكنه ما إن فاه باسم بولتاڤا حتى بادر كولنكور، لكي يضع حداً لهذه المحادثة الخطيرة، إلى وصف حالة طريق پيترسبورغ ـ موسكو السيئة ثم استرسل في سرد ذكرياته عن العاصمة.

وبعد تناول الطعام، انتقلوا لتناول القهوة إلى مكتب ناپليون الذي كان قبل أربعة أيام مكتب ألكسندر. جلس ناپليون وأشار إلى پالاشيـڤ وهو يحرك قهوته في فنجان من خزف «سيفر» الشهيرة، أن يجلس على مقربة منه.

كان ناپليون في تلك الحالة السعيدة التي تهيّئ الإنسان الذي تناول طعاماً طيباً أكثر من أي شيء آخر لأن يشعر بالرضى عن نفسه ويرى الأصدقاء في كل مكان. فكان إذن يظن أنه المثل الأعلى للأشخاص المحيطين به بمن فيهم پالاشيـڤ الذي استوى الآن بدون شك في صفوف المعجبين به. لذلك قال له بابتسامة فيها سخرية رقيقة.

---

(١) شارل الثاني عشر، هزم ملك الدانمارك عام ١٧٠٠، والروس في ناڤا، وأوغست البولوني في كيسو نازع بطرس الأكبر وهُزم فالتجأ إلى تركيا، قتل برصاصة في معركة فريدريكشالد عام ١٧١٨. (المترجم).

twitter @baghdad_library

ـ لقد قالوا لي إن هذا هو المكتب الذي كان يشغله الأمبراطور ألكسندر أليس ذلك مثيراً للفضول يا جنرال؟

بدا قانعاً أن هذه الملاحظة لا بد وأن تدخل الفرح على نفس محدثه. أليست الدليل على تفوقه هو، ناپليون، على ألكسندر؟

اكتفى پالاشيـڤ الذي لم يكن يستطيع الإجابة بحنى رأسه.

استرسل ناپليون دون أن يكف عن ابتسامته المتهكمة:

ـ نعم، في هذه الغرفة منذ بضعة أيام، كان وينتزنغيرود وستين يتشاوران. إن ما لا أستطيع فهمه هو أن الأمبراطور ألكسندر أحاط نفسه بكل أعدائي الشخصيين. كلا، الحق يقال إنني لا أستطيع فهمه. ألم يفكر إذن في أنني قد أتصرف تصرفاً مماثلاً؟

وهو يلقي هذا السؤال كان يستسلم لبقية من سورة غضب الصباح التي لم تتبدد تماماً. أضاف وهو يقف ويدفع فنجانه عنه:

ـ ليعلم جيداً أنني سأفعل مثله. سوف أطرد من ألمانيا كل أقربائه آل «ووتمبرغ» و«باد» و«ويمار».. أجل، سوف أطردهم من هناك. فليهيئ لهم مأوى في روسيا.

حنى پالاشيـڤ رأسه، وكانت أماراته توحي بأنه يرغب في الإذن له بالانصراف وأنه لا يصغي إلى تلك الأقوال إلا مكرهاً. لم يلاحظ ناپليون شيئاً من كل هذا: لم يعد يعامل پالاشيـڤ بوصفه رسولاً للعدو بل كرجل اكتسبه إلى جانبه عليه أن يبتهج للهجاء المكلل لسيده القديم.

تابع ناپليون: ولماذا أمسك الأمبراطور ألكسندر بزمام قيادة جيوشه؟ ما الفائدة؟ إن الحرب مهنتي. أما هو فإن مهنته أن يحكم لا أن يقود الجيوش. لماذا اضطلع بمثل هذه المسؤولية؟

أخرج ناپليون مسعطه مرة أخرى ثم سار بضع خطوات دون أن يتكلم،

www.Maktbah.com

وفجأة توجه إلى پالاشيـڤ ورفع يده إلى وجه ذلك الجنرال الروسي ذي السنوات الأربعين بحركة متزنة فجائية، وكأنه يقوم بعمل هام ومتملق، وجذب أذنه جذباً خفيفاً وهو يرسم على شفتيه ابتسامة.

«أن تجذب الأذن من قبل الأمبراطور» يعتبر في البلاط الفرنسي شرفاً كبيراً بل حظوة عالية.

وبدون شك، سأل وهو يعتبر أن من المضحك أن يكون المرء في حضرته «ممالقاً» و«معجباً» برجل آخر غيره هو، ناپليون:

ـ حسناً، لم لا تتكلم بشيء أيها المعجب بالأمبراطور ألكسندر الممالق له؟ ثم أضاف وهو يجيب عن تحية پالاشيـڤ بإشارة من رأسه:

ـ هل أعدت الجياد إلى الجنرال؟ أعطوه جيادي، إن أمامه رحلة طويلة يقوم بها.

وكانت الرسالة التي حملها پالاشيـڤ، الأخيرة التي كتبها ناپليون إلى ألكسندر. لقد نقلت كل تفاصيل المقابلة إلى أمبراطور روسيا واندلعت الحرب...

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

سافر الأمير أندريه، بعد مقابلة مع پيار في موسكو، إلى پيترسبورغ لبعض الأعمال كما أعلم أقرباءه، أما في الواقع، فكان ينبغي إجراء مقابلة مع الأمير أناتول كوراغين. بحث عنه فور وصوله ولكن دون جدوى. ذلك أن أناتول الذي أخطره أخو زوجته بأن أندريه يلاحقه، لم يلبث حتى التمس من وزير الحربية عملاً في جيش مولداڤيا وحصل على ما أراد. قابل أندريه خلال إقامته في العاصمة «كوتوزوف» جنراله السابق دائم الاستعداد لأداء ما يحتاج إليه فعرض عليه هذا أن يصحبه معه إلى مولداڤيا حيث عيّن قائداً أعلى فوافق أندريه وذهب إلى تركيا بصفته ملحقاً في أركان حرب الجنرال.

لم يكن أرسل طلب مبارزة إلى كوراغين ليلقي قبولاً من جانب الأمير أندريه الذي لم يكن يريد المس بسمعة الكونتيسة روستوف بأي ثمن. لذلك كان يبحث عن مقابلة شخصية مع أناتول تسمح له أن يتحداه متخذاً ذريعة أخرى. لكنه كان أملاً ضائعاً: ذلك أن أناتول حال وصول الأمير إلى الجيش التركي، بادر بالعودة إلى روسيا. ولقد شعر أندريه في ذلك البلد الجديد ببعض الارتياح بفضل الشروط الحياتية الجديدة. ولقد وجهت إليه خيانة مخطوبته ضربة شديدة الإيلام حتى إنه لمزيد ألمه، كان مرغماً على عدم التظاهر بمدى عذابه. ومنذ ذلك الحين، بدت له المباهج التي كان يتذوقها في الحياة تافهة وتلك الحرية وذلك الاستقبال اللذان طالما قدرهما من قبل أكثر تفاهة وتلك الأفكار التي واتته تحت سماء أوسترليتز، والتي كان يجب تعميمها مع پيار،

www.Maktbah.com

تلك الأفكار التي لشد ما فتنت وحدته في «بوغوتشارڤو» وسويسرا وروما والتي كانت تفتح له آفاقاً لامتناهية، لم يعد يتوقف عندها بل كان يدفع عنه حتى مجرد ذكراها. لم يعد يهتم الآن إلا بالمصالح الدارجة الأكثر آنية دون رابط مع المصالح السابقة ويتعلق بحماسة تزداد شدتها كلما ابتعدت هذه عن مشاغله السابقة. وتلك القبة اللامتناهية التي كانت منتشرة من قبل فوق رأسه بدت وكأنها استبدلت بأخرى منخفضة محدودة أخذت تسحقه، قبة يبدو كل شيء تحتها واضحاً ليس تحتها شيء غامض.

كانت الخدمة العسكرية بين كل المشاغل التي تعرض له، أبسطها وأفضل ما يتقنه منها. ولقد أكبّ على واجباته كجنرال مساعد عسكري فأنجزها بكثير من الغيرة والدقة حتى أن كوتوزوف نفسه دهش لهما. ولما لم يعد يجد كوراغين في تركيا، فإنه رغم مرور الزمن والاحتقار الذي يشعر به تجاه هذا الشخص ورغم كل ما لديه من أسباب تجعله يجده غير جدير بمبارزة، يتحداه عند أول فرصة دون مراء، مثله في ذلك كمثل الرجل الجائع الذي يلقي بنفسه على الطعام بحكم غريزته. فكان إحساسه بأن إهانته لم ينتقم لها وأن الغضب لا يزال يغلي في أعماق قلبه، يسمم الهدوء الذي اصطنعه في تركيا بفضل فاعلية متحركة نوعاً ما، كان الزهو والطمع يجدان فيها حسابهما.

في عام ١٨١٢، عندما بلغ نبأ الحرب مع ناپليون إلى بخاريست حيث كان كوتوزوف منذ شهرين يمضي الليل والنهار لدى خليلته «ڤالاك»، التمس الأمير أندريه تعيينه في جيش الغرب. فامتثل كوتوزوف الذي كانت غيرة پولكونسكي تبدو له الآن لوماً عنيفاً على قلة مروءته الشخصية، لطلبه وأسند إليه مهمة لدى باركلي دوتولّلي.

وقبل التحاقه بالجيش الذي كان يحتل معسكر دريّسا في أيار، قرر أندريه أن يمر «بلسيياغوري» إذ إن هذا الملك الذي يقع على بعد مرحلة صغيرة من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

طريق سمولنسك الكبيرة، كان كذلك على طريقه ولقد حدث خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة كثير من التبدل في حياته، كثير من الانقلابات في نمط تفكيره وتحسسه ورأى كثيراً من الأشياء خلال رحلاته في الغرب كما في الشرق حتى إنه شعر بذهول حقيقي عندما وجد في ليسيياغوري نهج الحياة إياه الذي لم يتغير حتى في أصغر تفاصيله. وعندما اجتاز الممشى وتخطى الباب الكبير، ظن أنه قد دخل قصراً مسكوناً. فالنظام والصمت والنظافة لا تزال سائدة في ذلك المنزل والأثاث لا يزال إياه والجدران نفسها والحركات نفسها والرائحة بعينها والوجوه الوجلة نفسها وإن كانت قد شاخت بعض الشيء.

كانت الأميرة ماري لا تزال هي هي، دميمة وجلة متصاعدة في السن، قضت أجمل سنيها دون أية فائدة ولا أية بهجة في مخاوف وآلام سرمدية. والآنسة بوريين لا تزال تلك المغناج شديدة الرضى عن شخصها الصغير تعرف كيف تتمتع بأتفه اللحظات وتنسج لنفسها أكثر الآمال إشراقاً. وديسال، المدرّس الذي جاء به من سويسرا، كان الآن مرتدياً «رودنغوتاً» على الطريقة الروسية ويتحدث لغة روسية فاسدة عندما يخاطب الخدم. لكنه لا يزال ذلك المربي الذي كان، بذكائه القليل وثقافته على جانب من التحذلق.

أما الأمير العجوز، فإن نقص سنّ في زاوية الفم، كان التبدل الجسدي الوحيد الذي يلاحظ عليه. أما تبدله المعنوي فكان سرعة غضبه المتفاقمة واستياءه الآخذ في الازدياد تجاه كل أحداث هذا العالم. إلا أن نيكولا الصغير وحده هو الذي كبر وظهرت قسماته. كان يضحك تحت شعره الفاحم دون أن يدرك السبب، يسليه كل شيء ويرفع الشفة العليا من فمه الجميل كما كانت تفعل الأميرة الصغيرة المتوفاة. كان وحده لا يخضع لنظام الاستقرار الذي بدا وكأنه يتحكم في ذلك القصر المسحور. وعلى الرغم من أن المظاهر

www.Maktbah.com

بقيت دون تغيّر، فإن العلاقات الخاصة بين السكان قد تبدلت كثيراً منذ رحيل أندريه. كانوا الآن يؤلفون معسكرين معاديين غريبين أحدهما عن الآخر، أرغمهما وجوده على التقارب لبعض الوقت. فالأمير العجوز والآنسة بوريين والمهندس ينتمون إلى أحد المعسكرين بينما يتألف المعسكر الآخر من ماري وديسال ونيكولا الصغير والخدم والمرضعات.

أثناء إقامته، تناولوا جميعهم الطعام معاً. لكن أندريه كان يرى أنهم يعاملونه معاملة الضعيف الذي يقومون إكراماً له استثناء للقاعدة والذي يزعجهم وجوده. ولقد شعر بحدسه بهذا الارتباك في اليوم الأول فلم يتكلم إلا قليلاً بينما تمسك الأمير العجوز الذي لمس مظهر ولده المصطنع بصمت عنيد وانسحب فور الانتهاء من الطعام. وعندما دخل عليه أندريه حوالى المساء ليراه، راح يقص عليه حملة الكونت كامنسكي الشاب اعتقاداً منه أن هذا سيرد له طبيعته المألوفة فكان أبوه يقاطعه متشكياً من ماري متهماً إياها بأنها تؤمن بالخرافات وتكره الآنسة بوريين «الشخص الوحيد، كما أكد، المخلص لي إخلاصاً حقيقياً».

فإذا كان الأمير العجوز مريضاً فإنما الذنب هو ذنب ماري وحدها التي تتعمد إيلامه وإثارة أعصابه، والتي تفسد نيكولا الصغير بفرط محبّتها وقصصها البلهاء. وكان في الواقع يعرف تماماً أنه هو الذي يعذب ابنته. لكنه كان يعرف أيضاً أنه لا يستطيع الامتناع عن ذلك وأنها، على أية حال، تستحق مثل تلك المعاملة. كان يحدث نفسه: «لماذا لا يحدثني أندريه، الذي يرى كل هذا، عن ماري شيئاً؟ هل يتصور أنني فاجر أو مجنون عجوز ابتعدت عن ابنتي لأكون على ما يرام مع الفرنسية؟ إنه لا يفهمني. لذلك ينبغي أن أشرح له كل شيء، يجب أن يفهمني». وراح يشرح الأسباب التي تجعل عقلية ابنته المستحيلة غير محتملة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال أندريه دون أن ينظر إلى أبيه لأنه كان للمرة الأولى سيسمح لنفسه بلوم أبيه: لو أنك لم تثر هذه المسألة لبقيت صامتاً. لكنك وأنت تسألني رأيي، فأنا سأقول لك بصراحة ما أراه في كل هذا. إذا كان هناك سوء تفاهم بين ماشا (تصغير ماري) وبينك فأنا لا أستطيع أن أجعلها مسؤولة لأنني أعرف مقدار ما تحبك وتحترمك.

وتابع أندريه وهو يستسلم لانفعال بات مألوفاً لديه منذ بعض الوقت.

ـ وطالما أنك تسألني الرأي، لن أقول لك إلا شيئاً واحداً: إن الخلاف، إذا كان هناك خلاف، ناشئ عن هذه المرأة الحقيرة وحدها التي ما كان يجب أن تكون مرافقة أختي.

بقي العجوز، بادئ الأمر، مشدوهاً وعيناه تحدقان إلى ولده ثم كشف بابتسامة مرغمة عن ذلك الفراغ الذي أحدثه فقدان السنّ في زاوية فمه، ذلك الفراغ الذي لم يكن أندريه ليألفه بعد.

ـ من هي هذه الرفيقة يا عزيزي؟... لقد أثاروك قبل أن تدخل إليّ؟

أجاب أندريه بلهجة قاسية:

ـ أبي، لم أكن أريد أن أقاضيك. ولكن، ما دمت أثرت هذا الإيضاح، فقد قلت لك وأكرر القول وسأظل مصراً على أن ماري ليست مذنبة... كلا، إن المذنبين.. المذنبة، هي الفرنسية.

قال الأمير العجوز بصوت هادئ كانت تظهر فيه بادرة بلبلة: آه! إنك تحكم علي!... إنك تحكم علي!...

لكنه قفز فجأة وصاح: أخرج من هنا! أخرج من هنا! لا تطأ بعد الآن هذا المكان!...

أراد أندريه أن يذهب فوراً، لكن ماري توسلت إليه أن يطيل بقاءه أربعاً وعشرين ساعة أخرى. لم ير طوال ذلك اليوم أباه الذي لم يخرج قط من جناحه

www.Maktbah.com

ولم يتقبل فيه إلا الآنسة بوريين وتيخون والذي سأل مرات عديدة عما إذا كان ابنه قد رحل. وفي اليوم التالي، قبل سفره، ذهب أندريه لرؤية نيكولا الصغير. جاء الفتى قويّ البنية الذي كان شعره العكف يذكر الناظر بشعر أمه، ركع على ركبتيه فراح أندريه يقص عليه حكاية بارب ـ بلو[1] (ذو اللحية الزرقاء). لكنه لم يكمل قصته بل راح يفكر. نسي هذا المخلوق اللطيف الصغير الذي كان يجلسه على ركبتيه وراح يفكر في نفسه. لقد أغضب أباه وها هو يغادر بعد أن اختصم معه للمرة الأولى في حياته دون أن يشعر بندم أو بأسف. بل راح يبحث في أعماقه عن ذلك الحنان الذي طالما شعر به تجاه ابنه والذي كان يأمل أن ينميه بملاطفة الصغير وحمله على ركبتيه ولكن، وهذا أخطر من الأمر الأول، دون أن يجد له أثراً.

قال الفتى: حسناً، إنها قصتك، إنهها.

فرفعه عن ركبتيه دون أن يجيبه وخرج.

لم يكن الأمير أندريه يهجر مشاغله اليومية ويعود إلى شروطه الحياية التي كان يعيش فيها عندما كان سعيداً حتى يستحوذ عليه الاشمئزاز من الحياة بأكثر قوة من ذي قبل فكان يتعجل الإفلات بأسرع ما يمكن من تلك الذكريات لينغمس في فاعلية ما.

قالت له أخته: هل تذهب يا أندريه؟

فأجابها: إنني أشكر الله على أنني أستطيع الذهاب وأرثي لك لأنك لا تستطيعين أن تفعلي مثلي.

صاحت ماري:

---

(١) ذو اللحية الزرقاء، رجل سمي بهذا الاسم بسبب لون لحيته، وقد ذبح ست زوجات وكان على وشك ذبح السابعة عندما أنقذها إخوتها وقتلوا الزوج الدموي. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ ماذا قلت؟ لا تنسَ أنك ذاهب إلى هذه الحرب الرهيبة وأنه عجوز هرم! لقد سأل عما إذا كنت لا تزال هنا. لقد أخبرتني الآنسة بوريين بذلك.

فما كادت تطرق هذا الموضوع حتى ارتعشت شفتاها من التأثر في حين انهمرت الدموع من عينيها. فأشاح أندريه بوجهه وراح يذرع الغرفة.

قال بسورة أذهلت أخته: يا إلهي! يا إلهي! عندما يفكر المرء في أن مخلوقات على هذا الدرك من الحقارة تستطيع أن تسبب تعاسة الآخرين!

حدست أنه بحديثه عن المخلوقات الحقيرة لم يعن الآنسة بوريين وحدها التي سببت شقاءها هي بل كذلك الرجل الذي دمر سعادته هو.

قالت له وهي تلمس مرفقه وترفع إليه عينيها اللتين كانتا تلمعان خلال دموعها: أندريه، إنني أفهمك. ولكن لا تعتقد أن الألم من صنع البشر. إن البشر ليسوا إلا أدوات للألم.

وتجاوزت نظرتها رأس أندريه، إحدى تلك النظرات الواثقة بإيجاد صورة ممجدة في مكانها المألوف: إنه هو، الذي يرسل إلينا الألم وليس البشر. إن الرجال أدوات وهم ليسوا مذنبين. فإذا كنت تعتقد أن بعضهم أساء إليك، إنسَ واصفح إذ ليس من حقنا أن نعاقب، وحينئذ ستتذوق بهجة الصفح.

ـ لو كنت امرأة يا ماري لكان هذا ما أفعله. إن الصفح فضيلة النساء. أما الرجل فلا يجوز بل لا يستطيع أن ينسى وأن يصفح.

وعلى الرغم من أنه لم يكن حتى ذلك الحين قد فكر في كوراغين، فإن كل غضبه الذي لم يشبع، استيقظ فجأة في قلبه. قال في سرّه: «إذا كانت ماري أصبحت تجرؤ على أن تسألني الصفح عنه فما ذلك إلا لأنه كان يجب أن أعاقبه منذ زمن طويل». ودون أن يستمر في الرد على أخته، راح يفكر بفرح حقود في اللحظة التي سيقابل فيها كوراغين الذي يعرف أنه في الجيش.

مرة أخرى، توسلت ماري إلى أخيها أن يبقى يوماً آخر ونبهته إلى مبلغ

www.Maktbah.com

ما سيكون أبوه تعيساً إذا ذهب أندريه دون أن يتصالح معه. فرد أندريه بأنه يستطيع أن يعود قريباً من الجيش وأنه لن يتخلف عن الكتابة إلى أبيه، بينما لن تكون إطالة مدة إقامته إلا تعقيداً للأمور.

ـ وداعاً يا أندريه، تذكر أن الآلام تأتي من الله وأن بني البشر ليسوا أبداً مذنبين. تلك كانت الكلمات الأخيرة التي قالتها له أخته في لحظات الوداع.

وهو يغادر ممشى ليسيياغوري فكّر أندريه: «لا بد وأن الأمر يجب أن يكون كذلك! إن هذه المخلوقة المسكينة البريئة ستبقى فريسة هذا العجوز الذي لم يعد بكامل رشده. إنه يشعر تماماً بأنه مذنب لكنه لا يستطيع أن يصحح أخطاءه. إن فتاي الصغير يكبر ويبتسم للحياة وسيكون ككل الآخرين إما خادعاً وإما مخدوعاً. أنا ذاهب إلى الجيش. لماذا؟ لست أدري. ثم إنني أرغب في لقاء هذا الرجل الذي أحتقره لكي أمنحه فرصة قتلي أو الاستهزاء بي!» بقيت العوامل التي تؤلف حياته هي نفسها لكنها فقدت كل تناسق فلم تعد تمر في رأسه إلا أخيلة متباعدة ليس بينها أي رباط.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

في نهاية شهر حزيران، وصل الأمير أندريه إلى القيادة العامة، وكان الجيش الأول الذي يقوده الأمبراطور يحتل معسكر دريسا المحصن والجيش الثاني يتراجع محاولاً اللحاق بالأول الذي كانت تفصله عنه، على ما قيل، قوات فرنسية ضخمة. وكان الناس كلهم غير راضين عن سير العمليات العام ولكن ما من أحد كان يتوقع غزواً للأقاليم الروسية الحقيقية كما أن ما من أحد كان يستطيع الافتراض أن الحرب ستنتقل إلى ما وراء الأقاليم البولونية.

كان يقيم باركلي دوتوللي الذي أرسل إليه كوتوزوف الأمير أندريه، في مشارف دريسا. ولما لم تكن هناك قرى صغيرة أو كبيرة قريبة، فإن الجنرالات الكثر من البطانة الذين كانوا في الجيش كانوا يحتلون على قطر ثلاث مراحل دائرياً، أهم المساكن في البلدات الواقعة على شاطئي النهر كليهما. وكان باركلي دوتوللي يسكن على مسافة مرحلة من الأمبراطور. استقبل بولكونسكي ببرود، وقال له بلهجته الأجنبية إنه وافق أن يعهد إليه بأي عمل، سيعود إلى استشارة جلالته. ولكنه بانتظار ذلك، يلحقه بهيئة أركانه.

أما أناتول كوراغين الذي كان أندريه يفكر في إيجاده في الجيش، فكان قد رجع إلى بيترسبورغ. ولقد وجد هذا النبأ وقعاً حسناً في نفسه أكثر مما كان يتوقع أن يزعجه لأنه عندما وصل إلى مركز العمليات التي كانت سعتها لا متناهية، أحسّ بمصلحته تستيقظ في أعماقه فلم يسخط قط لأنه تحرر لوقت ما من الانفعال الذي كان يثيره فيه التفكير في كوراغين.

www.Maktbah.com

طاف خلال الأيام الأربعة الأولى التي لم يلجأ أحد فيها إلى الانتفاع بخدماته في المعسكر المحصن وحاول أن يكون لنفسه فكرة صحيحة بفضل معلوماته ومداولاته مع أشخاص من أصحاب النفوذ. كان يتساءل عما إذا كان لهذا المعسكر سبب لوجوده دون أن يتوصل أبداً إلى إيجاد الجواب. ولقد علمته تجاربه في الحرب وخصوصاً معركة أوسترليتز، أن أكثر الخطط إحاطة وأعمقها دراسة ليس لها إلا أهمية جدّ ضئيلة وأن كل شيء يتوقف على الطريقة التي يُرد بها على الضربات الفَجائية غير المتكهن بها التي يوجهها العدو وعلى الأسلوب الذي تدار به العمليات وقيمة الرؤساء. ولكي يعرف كيف يركز حول هذه النقطة الأخيرة، فقد اجتهد بفضل مركزه ومعارفه، أن يغوص عميقاً في عقلية القيادة العليا والأشخاص والجماعات الذين يساهمون فيها وتوصل في نهاية المطاف إلى تحضير اللوحة التالية من هذه المجموعة.

كانت قواتنا مقسّمة إلى ثلاثة جيوش عندما كان الأمبراطور لا يزال في فيلنا، يقود الأول باركلي دوتوللي والثاني پاغراسيون والثالث تورماسوف. وكان الأمبراطور مع الجيش الأول ولكن دون أن يشغل منصب القائد الأعلى. وكانت البيانات الملكية تنص على أنه سيكون موجوداً وليس على أنه سيكون قائداً. ولم تكن حوله أية هيئة أركان لقيادة عليا ولكن هيئة أركانه العامة الشخصية التي كان يرأسها الجنرال الأول ڤولكونسكي. وكان هناك جنرالات ومساعدون عسكريون ودبلوماسيون وطائفة من الغرباء ولكن ليس من هيئة قيادة للجيش. وكان يرى كذلك إلى جانب الأمبراطور دون مهمة خاصة، وزير الحربية أراكتشييـڤ والكونت بينيغسن أقدم الجنرالات رتبة وقريب القيصر كنستانتان باڤلوڤيتش والمستشار الكونت رومیانتسیـڤ والوزير البروسي السابق ستين والجنرال السويدي آرمفيلت وبفريل، واضع مخطط الحملة الرئيسي واللاجئ السرديني (من سردينيا) «بولوكشي» والمساعد العسكري

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجنرال فولزوغن وكثيرون آخرون. وعلى الرغم من انعدام المهام الرسمية لهؤلاء الأشخاص، فقد كانوا يمارسون على أية حال سلطة ما. فكان غالباً ما لا يعرف قائد فوج أو حتى قائد عام بأية سلطة يسأله بينيغسن أو الغراندوق أو أراكتشييـڤ أو الأمير ڤولكونسكي عن هذا أو ذاك من الأمور وينصحه بتنفيذه ويجهل ما إذا كان هذا الأمر أو ذاك يُنقل إليه من عندياتهم أم من قِبل الأمبراطور ومنقولاً إليه على شكل نصيحة وما إذا كان عليه تنفيذه أم لا. لكن كل هذا لم يكن أكثر من مجرد مظهر: فكل كان يعرف ما معنى بطانة، ومن ذا الذي ما كان يصبح مشايعاً للأمبراطور في حضرته؟ ومعنى وجود ألكسندر في الجيش ووجود كل هذه الشخصيات. وإذا كان الأمبراطور لم يتخذ بالفعل لقب القائد الأعلى، فإن الجيوش كلها لم تكن أقل ائتماراً بأمره، أما كل من حوله فمساعدون له. فأراكتشييـڤ هو الحارس الأمين للنظام والمرافق لجلالته. وبينيغسن، رغم كل تظاهره بالاكتفاء بحفاوات البلاد بوصفه ملاكاً كبيراً لإقطاعية مجاورة، جنرالٌ ممتازٌ يصغى إلى رأيه بكل ارتياح ويحتفظ رهن الإشارة ليحل محل باركلي.

وإذا كان الغراندوق هناك، فلأن تلك كانت رغبته. أما الوزير السابق ستين، فكان بوصفه خير مشير ولأن الأمبراطور يتذوق صفاته الشخصية البارزة. بينما آرمفيلت أسوأ أعداء ناپليون وجنرال معتد بنفسه، الأمر الذي كان له أثر قوي في نفس الأمبراطور. ووجود بولوكشي، مرده إلى جرأة أحاديثه وأثرها، في حين أن المساعدين العسكريين الجنرالات ملزمون على مواكبة الأمبراطور دائماً.

وأخيراً، وهذه نقطة جوهرية كان بفويل هناك لأنه واضع مخطط حملة استطاع بفنه أن يجعل ألكسندر يوافق عليه فكان في واقع الحال هو الذي يدير كل العمليات. وإلى جانب بفويل، وقف ڤولزوغن يترجم بشكل عملي

www.Maktbah.com

أفكار هذا الرجل، العالم النظري الغضوب شديد الاعتداد بنفسه، حتى ليظهر تجاه كل شيء اشمئزازاً مترفعاً. وما عدا هؤلاء الأشخاص الروس والغرباء، وخصوصاً الغرباء الذين كانوا يقترحون كل يوم خططاً جديدة بالجرأة الطبيعية لكل شخص يمارس نشاطاً في وسط ليس وسطه، ما عدا هؤلاء، كان كثيرون آخرون يتبعون في المرتبة التالية نجاح أسيادهم في الجيش.

سرعان ما ميّز أندريه بين كل هذه الآراء المشرقة في هذا «العالم» الصاخب المترفع، تيارات عديدة واضحة المعالم.

كان الفريق الأول يتألف من بفويل ونظريين آخرين آمنوا بوجود علم للحرب، علم يرتكز على قوانين ثابتة بالحركة الزوراء والالتفاف حول العدو إلخ... فكان بفويل وأتباعه يطالبون بانسحاب إلى داخل البلاد نزولاً عند القواعد الدقيقة التي وضعتها نظرية الحرب المزعومة ويعتبرون كل مخالفة لهذه النظرية، دلالة على البربرية والجهل وقصر النظر. وكان الأمراء الألمان وڤولزوغن وڤينتزنغيرود وكثيرون معظمهم من الألمان يشايعون هذا الفريق.

وكان الفريق الثاني يعارض الفريق الأول دائماً، كلما استدعي سواه. وكان أتباع هذا الفريق يطالبون منذ «فيلنا» بهجوم في بولونيا وإغفال كل خطة مسبقة. وهم يمثلون الجرأة في العمل ويجسدون العقلية القومية ومن ثم يظهرون أكثر كمالاً من كل خصومهم. كان هؤلاء روساً منهم پاغراسيون وأيكروولوف الذي بدأ التقدم والذي تكللت إحدى هجماته بنجاح فائق، فقال للأمبراطور الذي ترك له أمر اختيار المكافأة: أريد أن أرفع إلى مرتبة «ألماني». كان أعضاء هذا الفريق يستعرضون ذكرى سوڤوروف ويرددون حيثما كانوا أن من العبث بناء نظريات وغرس دبابيس على الخرائط وأنه يجب القتال وهزم العدو ومنعه من دخول روسيا وعدم ترك المجال لقواتنا لتفقد معنوياتها.

والفريق الثالث، ذلك الذي يوحي إلى الأمبراطور بأكبر ثقة، كان يضم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المشايعين من البطانة ومن بينهم أراكتشييف. وكان هؤلاء ينادون بالتوفيق بين الجانبين المتنابذين، يفكرون ويقولون ما يقوله عادة أولئك الذين لا معتقدات لهم بل يريدون الحصول على بعضها. كانوا يؤكدون أن الحرب وخصوصاً مع خصم عبقري كبوناپرت، ذلك أنهم عادوا إلى تسميته ببوناپرت من جديد، تتطلب بدون شك علماً تاماً وأكثر التدابير براعة. لذلك فإن بفويل عبقري حقاً في هذا الصدد. ولما كان لا يمكن الإنكار بحال أن النظريين غالباً ما يكونون مانعين، فإنه لا بد، وهم الذين لا يمنحونهم ثقة تامة، من الإصغاء في الوقت نفسه إلى خصم بفويل، وهم الرجال العمليون ذوو التجربة، واتخاذ حل وسط بينهم. وتبعاً لذلك، فإنهم وهم يعترفون بضرورة الاحتفاظ بمعسكر دريسا استجابة لخطة بفويل، يتطلعون إلى تعديل سير الجيشين الآخرين وعلى الرغم من أنه بهذه الطريقة لا يمكن تحقيق أي من الأهداف المقترحة، فإن أعضاء هذا الفريق كانوا يزعمون أن ذلك أفضل الحلول.

أما تيار الآراء الرابع، فكان يرأسه التسيزاريـڤيتش. كان هذا لا يزال محتفظاً في ذاكرته بخيبته في أوسترليتز، حيث تقدم وكأنه في عرض، بخوذته وسترته القصيرة، على رأس الحرس وهو مقتنع بأنه سيسحق الفرنسيين بكل بسالة ولكنه أخذ على حين غرة في الخط الأمامي فأحاطت به الفوضى ولم يتخلص إلا بشكل محزن.

لقد كان لرجال هذا الفريق فضيلة الإخلاص وخطأه. كانوا يخافون ناپليون ويعرفون قوته وضعفهم ثم لا يجدون غضاضة في التصريح بذلك. كانوا يرددون: «لن يلحق هذا كله إلا الضرر والهزيمة والعار بنا. لقد تخلينا حتى الآن عن فيلنا ثم عن ڤيتيبسك. وسوف نتخلى كذلك عن دريسا. إن الحل المعقول الوحيد الذي بقي علينا أن نأخذ به هو التوصل إلى صلح بأسرع وقت إذا كنا لا نريد أن نطرد من پيترسبورغ»!

www.Maktbah.com

كان لهذا الرأي المنتشر في المقامات العالية من الجيش، صدى في پيترسبورغ وحتى في نفس المستشار رومیانتسیـڤ الذي كان يريد الصلح ولكن لأسباب أخرى.

وثمة معسكر خامس يساند باركلي دوتوللي بسبب مركزه كوزير للحربية وقائد أعلى أكثر مما كان يسانده لقيمته الشخصية. وكان رجال هذا الفريق يقولون: «مهما بلغت أخطاؤه، وكانوا أبداً يبدأون بهذه العبارة، فإنه رجل نشيط ونبيل وليس لدينا أفضل منه. أعطوه سلطة حقيقية، لأن وحدة القيادة في الحرب هي شرط النجاح، وسيريكم ما يستطيع صنعه كما أظهره من قبل في فنلندا. فإذا تمكّن جيشنا أن ينسحب دون عوائق حتى دريسا وإذا كان الآن قوياً ومنظماً، فإننا مدينون بذلك إلى باركلي وحده. فإذا استبدلناه بـ:بينيغسن، فقدنا كل شيء. لقد برهن بينيغسن أكثر مما يجب عن عجزه عام ١٨٠٧».

وكان الفريق السادس، أنصار بينيغسن، على العكس يؤكدون أن ما من أحد أكثر نشاطاً وأكثر خبرة من هذا الرجل وأنه لا بد من الرجوع إليه إن عاجلاً وإنْ آجلاً، وأن تراجعنا إلى دريسا ليس في الواقع إلا هزيمة مخزية سببتها سلسلة من الأخطاء: «وكلما اجتمعت أخطاء متشابهة كان ذلك أفضل: إذ يُفهم بسرعة أن الأمر لا يمكن أن يسير على هذا النحو. إن ما يلزمنا ليس باركلي ما، بل رجل مثل بينيغسن الذي قدم براهينه من قبل، عام ١٨٠٧ والذي اعترف له ناپليون بالذات بكفاءته. إنه الوحيد الذي سينحني كل الناس أمامه.

أما التابعون للفريق السابع فكانوا من الأشخاص الذين لا يعدم المرء مقابلة أمثالهم في محيط الأمراء والعظماء الشبان الذين كانوا كثراً بصورة خاصة حول الأمبراطور ألكسندر، تعدادهم جنرالات ومساعدون عسكريون مخلصون للرجل أكثر من إخلاصهم للعاهل. كانوا يعبدونه بتجرد نزيه كما كان يعبده روستوڤ عام ١٨٠٥ ويعزون إليه ليست الفضائل كلها فحسب، بل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كل الصفات الإنسانية. كان هؤلاء يمجدون ويذمون في الوقت نفسه تواضع مولاهم الذي رفض القيادة العليا ويرغبون في أن يعلن مليكهم تسلّم قيادة الجيش نابذاً قلة ثقته المفرطة بنفسه، وأن ينظم هيئة أركان كبرى. وبعد أن يستشير، عند الاقتضاء، رجال النظريات كما يستشير الرجال العمليين ذوي الخبرة، يقود بنفسه جيوشه إلى المعركة إذا كان وجوده وحده، يملأ الرجال بحماسة جنونية.

لكن المعسكر الثامن والأهم، والذي تبلغ نسبته إلى السابقين تسعة وتسعين إلى واحد، فقد كان يضم الرجال الذين لا يريدون الحرب ولا السلم ولا المعسكر المحصن على دريسا أو في مكان آخر ولا باركلي ولا الأمبراطور ولا بفويل ولا بينيغسن، لأن مصالحهم ومسراتهم كانت أكثر أهمية في نظرهم، كما كانت الهدف الأوحد للذين يسيرون وراءه. وكان المستحيل يصبح ممكناً في هذه البلبلة من الدسائس التي تتشابك في المعسكر الأمبراطوري. فهذا أحدهم يشارك اليوم بفويل في الرأي خشية أن يفقد مركزاً رابحاً وغداً يشارك خصومه ويؤكد بعد غد أنه لا رأي له حول مسألة الخلاف.

كل ذلك دفعاً للتعرض للخطر وحرصاً على البقاء حول مليكه. وذاك راغب في بلوغ مركز مرموق، يستلفت انتباه الأمبراطور بالمناداة برأي كان هذا قد ألمح به بالأمس، ويناقش ويصيح في المجلس ويكيل لنفسه ضربات قوية على صدره ويطلب المعارضين له إلى المبارزة ليثبت بذلك أنه على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل المصلحة العامة. وثالث بين مجلسين وفي غياب أعدائه، يلتمس دون خجل عوناً مادياً لقاء خدماته المخلصة وهو يعرف أنه لن يكون هناك متسع من الوقت لرفض طلبه، ورابع مرهق دائماً بالعمل وكأنه يفعل متعمداً، كلما أراد سيده رؤيته. وخامس، بغية الحصول على

www.Maktbah.com

بطاقة دعوة إلى المائدة الأمبراطورية طالما تاقت نفسه إليها، يبرهن بكثير من الحجج المتفاوتة بالقوة، صحة نظرية شائعة أو بطلانها.

لا يفكّر هذا الثول من الزنابير إلا في امتصاص المال والأوسمة والمناصب، همه أن يسترشد باتجاه ميل الرعاية الأمبراطورية. فما إن تتجه إلى وجهة ما حتى ينفخ في ذلك الاتجاه بالذات بشكل يتعذر معه على الأمبراطور تحويل رعايته إلى ناحية أخرى. وكان هذا الفريق الثامن، وسط قلق الساعة البلبال الذي أحدثه الخطر المائل، وبين كل هذا الإعصار من الدسائس والأنانيات والخصومات بين الاتجاهات المختلفة المتعارضة، بين كل هؤلاء الناس من مختلف الجنسيات، كان هذا الفريق الأكبر عدداً، المنصرف إلى مصالحه الشخصية، يعقّد سير الأمور بصورة خاصة. وأياً كان الموضوع المثار، كان هذا الثول من الزنابير الذي لم يفرغ بعد من التبويق في الموضوع الذي كان يشغله من قلبه، يطير سباقاً إلى الموضوع التالي فيكتم بطنينه الأصوات الوفيّة التي تساهم في النقاش.

وبدأ فريق تاسع يبصر النور، في اللحظة التي وصل الأمير أندريه إلى المعسكر، إنه فريق أولئك المسنين العاقلين الذين حطمتهم الأعمال والذين ما كانوا يشاطرون أحداً في الآراء القائمة بل يفحصون بتجرد ما يدور في البلاط الأمبراطوري ويبحثون عن الوسيلة التي يضعون بها حداً للقلق والتردد والغموض والضعف.

كان هؤلاء يقولون ويفكرون في أن الضرر ينجم قبل كل شيء عن وجود الأمبراطور وحاشيته العسكرية في الجيش وأن الجو الاتفاقي والتقلب السائدين في البلاط يلحقان الضرر بالجيش، وأن دور الملك هو أن يحكم وليس أن يقود الجيوش، وليس هناك غير مخرج واحد للمأزق: ألا وهو رحيل الأمبراطور الذي يشل وجوده خمسمائة ألف جندي ضروريين لتأمين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أمنه وأن جنرالاً قائداً أعلى رديئاً ولكن مستقلاً، أفضل من رئيس من المرتبة الأولى مرتبط بحضرة الأمبراطور ورغبته السامية.

وبينما الأمير أندريه يقيم في المعسكر دون أن يضطلع بأية أعباء، رفع أحد أعضاء هذا الفريق الأكثر نفوذاً، وهو سكرتير الدولة شيخكوف، رسالة إلى الأمبراطور موقعة من پالاشيـڤ وأراكتشييـڤ. ولقد استغل الإذن الممنوح له بالحكم على سير الأمور، فألمح بعبارات محترمة إلى العاهل أن وجوده في العاصمة ضرورة لإثارة حماسة الجماهير الحربية.

ولقد فهم ألكسندر ضرورة استفزاز الشعب للدفاع عن الوطن، فاتخذها ذريعة ليغادر الجيش، فكانت الحماسة القومية التي بقيت مستعرة طوال وجوده في موسكو العامل الرئيسي في انتصارنا.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

عندما أخطر باركلي ذات يوم پولكونسكي، أثناء الغداء، لم تكن تلك الرسالة قد سُلمت إلى الأمبراطور، وهي أن جلالته يرغب في رؤيته ليستفسره عن تركيا وأن على الأمير أندريه أن يمثل ذلك المساء في الساعة السادسة بين يديه في مسكن بينيغسن.

في ذلك اليوم، كانت القيادة الأمبراطورية قد أخطرت بحركة جديدة لناپليون يمكن أن تصبح خطيرة على الجيش. لكن النبأ دحض فيما بعد. ولقد طاف الزعيم ميشو صبيحة ذلك اليوم مع ألكسندر في حصون دريسا ودلل له على أن هذا المعسكر المحصن العتيد، إنتاج پفويل، هذه الطرفة في فنّ «التكتيك»، ليست في الحقيقة إلا شيئاً تافهاً محضاً ولن تسبب ضياع ناپليون بل ضياع الجيش الروسي.

ولما وصل الأمير أندريه إلى المسكن الأميري الصغير القائم على شاطئ النهر مباشرة الذي كان بينيغسن يقيم فيه، لم يجد فيه لا هذا الجنرال ولا الأمبراطور. لكن أحد المساعدين العسكريين الجنرالات واسمه تشيرنيشيـف، استقبله وأنهى إليه أن جلالته يتفقد للمرة الثانية ذلك اليوم، تحصينات المعسكر الذي أصبح الشك في جدواه يتسرب إلى النفوس، يرافقه بينيغسن والمركيز بولوكشي.

كان تشيرنيشيـف جالساً إلى نافذة في الغرفة الأولى يقرأ رواية فرنسية. ولا بد أن تلك الغرفة كانت فيما مضى قاعة رقص لأن الأرغن كان لا يزال هناك

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وقد رصفت فوقه النجاد. وفي إحدى الزوايا، كان مساعد بينيغسن العسكري مرتمياً فوق سريره القابل للانطواء، يغط في النوم إثر غداء فاخر أو وفرة عمل. كان للقاعدة بابان: الباب المقابل يقود إلى القاعة القديمة والباب الأيمن إلى مكتب عمل. ومن وراء الباب الأول، ترتفع أصوات باللغة الألمانية وبالفرنسية بين حين وآخر. لم يكن هناك اجتماع لمجلس حربي، لأن الأمبراطور لم يكن يحب التعاريف الدقيقة، بل اجتماع بعض الشخصيات. كان يريد الاستئناس برأيهم في هذا الموقف الحرج: وبالاختصار، مجلس سري على نحو ما. وكان بين المستدعين الجنرال السويدي آرمفيلت وڤولزوغن ووينتزنغيرود، هذا الفرنسي المشايع للعدو حسب تعبير ناپليون وميشو وتولّ والكونت ستين الذي لم يكن قط عسكرياً وأخيراً پفويل (نقطة جمع) المسألة كلها كما قيل للأمير أندريه. تسنى لهذا المتسع من الوقت ليتفحص هذا الرجل لأن پفويل وصل بعده مباشرة وتحادث بعض الوقت مع تشيرنيشيـڤ قبل أن يدخل القاعة.

ومن النظرة الأولى، رغم أنه لم يكن قد رآه من قبل، بدا پفويل للأمير أندريه في زي جنرال روسي سيئ الخياطة كان يعطيه شكل المتنكر، كان يعرفه من قبل. كان پفويل يذكر المرء بشكل غامض بالجنرالين ويرودر وماك شميدت وطائفة أخرى من أمثالهم من النظريين الذين صادفهم عام ١٨٠٥، لكنه كان أكثرهم نموذجاً كاملاً. لم ير پولكونسكي قط من قبل ألمانياً يجمع إلى هذا الحد تقاسيم كل هؤلاء الألمان النظريين البارزة.

كان رجلاً قصير القامة، شديد النحول، ولكن متين التركيب قوي البنية ذا حوض عريض ورسلين بارزي العظام وغضون تخدد وجهه وعينين غائرتين بعمق في محجريهما. أما شعره المصقول من الأمام وعلى الصدغين بعجلة بالفرشاة، فقد كان منتصباً من الوراء في خصلات هوجاء. دخل وهو يلقي

www.Maktbah.com

نظرات قلقة ذات اليمين وذات اليسار وكأن كل شيء في تلك القاعة الفسيحة يخيفه. سأل تشيرنيشيـڤ بالألمانية وهو يمسك سيفه بشكل أخرق عن مكان وجود الأمبراطور. لا بد وأنه كان متعجلاً اجتياز الغرف وإرسال التحيات والتمنيات المناسبة الشكلية ليتمركز وراء خريطة ويعود إلى طبيعته. وعندما سأله تشنيتشيـڤ أن جلالته يتفقد التحصينات التي أمر هو، پفويل، ببنائها تبعاً لنظرياته الشخصية، هز رأسه بعنف وطافت على شفتيه ابتسامة ساخرة. غمغم في سره بذلك الصوت الخفيض الذي امتاز به الألمان الواثقون بأنفسهم «غباوة... أو سينهار كل شيء... أو يمكن توقع أشياء جميلة...» ولم يميز الأمير أندريه تماماً ما كان يقوله فأراد أن يمر، لكن تشيرنيشيـڤ قدمه لـ پفويل مشيراً إلى أن الأمير وصل من تركيا حيث انتهت الحرب هناك نهاية سعيدة. وبالكاد تنازل پفويل أن يمنحه نظرة وغمغم ضاحكاً: «لا بد وأنها كانت حملة تكتيكية رائعة». ثم ازداد تهاتفاً وهو يتجه صوب القاعة التي ترتفع منها الأصوات.

ومما لا شك فيه، أن واقع التجرؤ على فحص وانتقاد معسكره دون وجوده، أثار غضب پفويل المألوف إلى أقصى حد واستعداده الطبيعي للاستهزاء. ولقد أتاحت هذه المقابلة القصيرة للأمير أندريه أن يكون لنفسه، اعتماداً على ذكرياته عن أوسترليتز، فكرة واضحة عن الرجل. كان پفويل واحداً من أولئك الذين يمكن أن تقود الثقة اليائسة بأفكارهم إلى حد الاستشهاد والذين لا يُرى مثيل لهم إلا في ألمانيا لأن الألمان وحدهم يركزون اطمئنانهم على فكرة مجردة، على العلم، وأعني المعرفة المزعومة بالحقيقة المطلقة.

إن الفرنسي واثق بنفسه لأنه يتصور أنه يمارس، سواء أكان بفكره أم بجسمه، فتنة لا تقاوم على النساء كما على الرجال. والإنجليزي يثق بنفسه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لأنه يعتقد أنه مواطن في أفضل بلدان العالم مدنية: فهو بصفته إنجليزياً يعرف دائماً ما يجب أن يفعل وبوصفه إنجليزياً يعرف أن كل ما يقوم به إنما هو خير ما يُعمل دون نقاش. والإيطالي يثق بنفسه لأن طبيعته الاهتزازية تجعله ينسى نفسه والآخرين معه. أما الروسي فإنه يثق بنفسه لأنه لا يعرف شيئاً ولا يريد أن يعرف شيئاً ولأنه لا يؤمن بأنه يمكن أن يعرف أي شيء كان. إن ادعاء الألماني أكثره عناد لأنه يتصور أنه يعرف الحقيقة، وبعبارة أخرى العلم الذي صنعه هو نفسه والذي يعتبره بمثابة الحقيقة المطلقة.

هكذا إذن كانت دون شك عقلية پفويل. كان يملك علماً، أعني نظرية الحركة المنحرفة تلك التي استلهمها من دراسته لحروب فريدريك[1] الأكبر. وتبعاً لذلك، فإن الحملات التي جاءت بعدها، ليست في نظره إلا سلسلة من الالتحامات البربرية الفارغة، ارتكبت أخطاء كثيرة من جانب ومن آخر حتى أصبحت تلك الحروب لا تستحق اسم الحروب ولما كانت لا تتفق مع نظريته، فإنه لم يكن يعتبرها جديرة بأن تُدرس.

وفي عام ١٨٠٦، كان واحداً من واضعي الخطة التي أفضت إلى إيينا وأويرستات. لكن هذه الهزائم لم تبرهن له قط على خطأ نظريته. على العكس، فإن المخالفات التي حدثت لهذه النظرية كانت في نظره الأسباب الوحيدة للهزيمة ولقد قرر بلهجة التهكم الخاصة به قائلاً: «لقد تنبأت تماماً من قبل أن كل شيء سيذهب إلى الشيطان!» كان پفويل واحداً من أولئك النظريين شديدي الولع بنظرياتهم لدرجة ينسون معها الغاية وبالتالي التطبيق العملي: كان يحتقر كل ما هو تطبيقي لشدة حبه بالنظرية. بل إنه كان يبتهج للفشل لأن الفشل الناجم عن خرق للنظرية في تطبيقها لا يبرهن له إلا على صحة أفكاره.

---

(١) ملك بروسيا، كان محارباً شهيراً وإدارياً لامعاً. كتب مذكراته بالفرنسية واجتذب المفكر ڤولتير ولفيفاً من أعلام الفكر، توفي عام ١٧٨٦. (المترجم).

www.Maktbah.com

ولقد نطق بالكلمات القليلة التي تبادلها مع تشيرنيشيـڤ والأمير أندريه حول الحملة الراهنة، بلهجة الرجل الذي يعرف مسبقاً أن كل شيء سيكون سيئاً وأنه على أي حال لا يشعر بأي أسف تجاه ذلك. ولقد كانت الخصلات المتمردة في مؤخرة رأسه وصدغيه المصقولين بعجلة تدل ببلاغة على هذه الطريقة بالنظر إلى الأمور.

ولم يكد يدخل القاعة الأخرى، حتى ارتفعت صيحات صوته الخفيض الجهم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

بالكاد غادر الأمير أندريه بنظره پفويل حتى دخل الكونت بينيغسن مندفعاً وأسرع إلى المكتب بعد أن حيا پولكونسكي بانحناءة من رأسه وأعطى باختصار تعليماته إلى مساعده العسكري. وكان الأمبراطور يتبعه ملازماً إذ كان متعجلاً اتخاذ بعض الاستعدادات قبل أن يستقبله. خرج تشيرنيشيـڤ والأمير أندريه على المرقاة: ترجل الأمبراطور عن جواده ظاهر الإعياء، وأمال رأسه إلى اليسار، وأصغى بإذن ساهمة إلى المواضيع الحادة التي كان المركيز پولوكشي يبحثها. تقدم الأمبراطور بضع خطوات إلى الأمام ظاهر الرغبة في قطع الحديث لكن الإيطالي محمرّ الوجه، شديد الانفعال، اجتاز وراءه المرقاة متناسياً آداب اللياقة. وبينما كان الأمبراطور يحدق إلى پولكونسكي الذي بقي في وقفة الاحترام، تابع پولوكشي بشدة تقرب من الجنون:

ـ أما فيما يختص بذلك الذي أشار بمعسكر دريسا، فإنني يا مولاي لا أجد له أفضل من الاختيار بين البيت الأصفر ـ وهو الاسم الذي يطلق في روسيا على مأوى العجزة الذي كان يُطلى بهذا اللون، والمشنقة.

قال الأمبراطور لـپولكونسكي برفق وقد عرفه أخيراً دون أن يبدو عليه أنه مصغ إلى منظوم قول الإيطالي: مسرور برؤيتك. امض إلى الغرفة التي يجتمع فيها هؤلاء السادة وانتظرني هناك.

دخل ألكسندر إلى المكتب فتبعه الأمير پيار ميخائيلوڤيتش ڤولكونسكي

www.Maktbah.com

والبارون ستين ثم أغلق الباب. دخل الأمير أندريه مع پولوكشي الذي عرفه من قبل في تركيا، إلى القاعة التي عقد فيها الاجتماع تبعاً لإذن الأمبراطور.

كان الأمير ڤولكونسكي حينذاك يشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب لدى الأمبراطور بصورة غير رسمية. خرج من المكتب مزوداً خرائط نشرها على الطاولة في القاعة وعرض على المجتمعين المسائل التي يرغب في أخذ رأيهم حولها. لقد تلقوا خلال الليل النبأ الذي ثبت فيما بعد أنه غير صحيح، والذي يقول إن الفرنسيين عازمون على الالتفاف بعيداً عن معسكر دريسا.

بدأ الجنرال أرمفليت الكلام وتقدم بغية تجنب متاعب الساعة، بعرض ما كان منتظراً، لا يبرره إلا رغبته في أن يظهر أنه هو الآخر قادر على إبداء الرأي فحسب. وتبعاً لقوله، كان على الجيش أن يحتل مركزاً جديداً متنحياً عن طريق پيترسبورغ وموسكو وأن ينتظر هجوم العدو. وكان يرى أن أرمفيلت قد هيّأ هذه الخطة منذ مدة طويلة وأنها على أية حال، لم تكن عن المسائل المطروحة وأنه انتهز هذه الفرصة ليتعرّف إلى خطته فحسب. ولقد كانت الخطة واحدة مع تلك الوسائل التي لا تحصى التي يمكن أن تكون نافعة كأية فكرة أخرى بالنسبة إلى أي كان على أي علم بالطابع الذي كانت تلك الحرب تتخذه. ولقد حاربها بعضهم ودافع عنها البعض الآخر.

ولقد انتقد الزعيم الشاب تول بقساوة مشروع الجنرال السويدي وأخرج من جيبه مخطوطاً وسأل الإذن له بتلاوته. كان تول يعرض في مذكرته شديدة الإسهاب تلك، خطة جديدة للحرب تناقض تماماً المشروع الذي تقدم به أرمفيلت كما تناقض خطة پفويل. فاستبعدها پولوكشي بدوره وأوصى بالهجوم الذي يمكنه وحده إخراجنا من التردد ومن هذا الشرك الذي هو معسكر دريسا حسب زعمه. وفي تلك الأثناء كان پفويل وترجمانه لدى البلاط ڤولزوغن لا ينبسان بكلمة. استدار پفويل الذي كان ينخر باشمئزاز معرباً بذلك عن ترفعه

twitter @baghdad_library

عن مناقشة مثل هذه الأضغاث. ولما دعاه الأمير ڤولكونسكي الذي يدير المناقشات إلى إبداء وجهة نظره، اكتفى بالقول: ولماذا أسأل؟ إن الجنرال أرمفيلت يشير عليكم بوضعية رائعة مع مؤخرات عارية. ثم لديكم الاختيار بين الهجوم الذي يقدمه هذا السيد الإيطالي وهو جيد أو الانسحاب وهذا رائع أيضاً. لماذا تسألني رأيي؟ إنك تعرف كل شيء أفضل مني.

نبهه پولكونسكي وهو متجهم أنه إنما يسأله باسم الأمبراطور وحينئذ وقف پفويل وأعلن وهو يثور فجأة: لقد أفسد كل شيء، لقد خُلط كل شيء. كانوا جميعاً يريدون معرفة أكثر مما أعرف والآن يسألونني رأيي. كيف نصلح الأخطاء؟ ليس هناك ما يصلح. يجب تطبيق المبادئ التي حددتها بكل دقة.

وختم كلامه وهو يضرب الطاولة بأصابعه بارزة العظام: صعوبة الموقف؟ عبث أطفال، ترهات.

وجذب الخريطة إليه وأكد وهو يربت عليها بيده الضامرة أن أي عارض لا يمكن أن يضعف قوة معسكر دريسا: لقد درس كل شيء. فإذا بدأ العدو كما يزعمون بحركة التفاف، فإنه سيباد دون أدنى شك.

طرح عليه پولوكشي الذي كان يجهل الألمانية بضعة أسئلة بالفرنسية. فهب ڤولزوغن لنجدة سيده الذي يتكلم بصعوبة وترجم تفسيراته، ولقد كان يجد صعوبة كبيرة في متابعته لأن پفويل كان يؤيد بطلاقة أن خطته محيطة بكل شيء إطلاقاً، بمثل الإحاطة بما سيقع. فإذا كانوا الآن يصطدمون بأشياء لم تكن في الحسبان، فإن الخطأ في ذلك يقع على الفجوات التي وقعت في تنفيذ الخطة المذكورة. وكان يشفع بيانه هذا بضحكة ساخرة واستخف بالاستمرار فيه حتى النهاية مثله في ذلك مثل عالم الرياضيات الذي يكف عن الإتيان ببراهين لدعم مسألة أنجز حلها. فاستمر ڤولزوغن يشرح بالفرنسية أفكار پفويل بدلاً منه. وكان من حين إلى آخر يستنجد به بعبارة: «أليس كذلك

www.Maktbah.com

يا صاحب السعادة؟». لكن پفويل كان يرد عليه بلهجة غاضبة أشبه بالرجل الذي يطلق في حميا القتال النار على جماعته: بالطبع نعم. أية فائدة من هذه الشروح؟

ودحض پولوكشي وميشو معاً أقوال ڤولزوغن بالفرنسية. وأرمفيت يخاطب پفويل بالألمانية وتول يشرح كل شيء بالروسية لـڤولكونسكي. أما الأمير أندريه، فكان يصغي ويلاحظ بصمت.

كان ميله منصرفاً إلى پفويل. كان هذا الرجل سريع الغضب، ذو اللهجة الحاسمة، الواثق بنفسه لدرجة الجنون، الوحيد بين كل هؤلاء المستشارين الذي لا يرغب لنفسه شيئاً ولا يحقد على أحد. لم يكن يريد إلا شيئاً واحداً: تنفيذ خطته الموضوعة وفقاً لنظريته التي اقتضاه إنضاجها سنوات من الدراسة. ولا شك أنه كان مضحكاً وأن ابتسامته المستهزئة منفرة. لكن تعلقه التعصبي بآرائه كان يوحي باحترام لا إرادي. بالإضافة إلى أن كل الأبحاث، باستثناء أبحاثه التي دارت خلال هذا الاجتماع، كانت ذات طابع مشترك لم يكن ظاهراً إبان المجلس الحربي عام ١٨٠٥: لقد كانت عبقرية ناپليون تحدث في هؤلاء الفنيين رعباً مخيفاً بدون شك ولكنه يؤثر في أتفه دليل.

ذلك الرجل الذي لم يكن ثمة شيء مستحيلاً في عرفه، كانوا يتوقعون انبعاثه من كل الجهات معاً ويستعملون اسمه المهيب ليحاربوا بعضهم بعضاً. ما عدا پفويل الذي كان ينعته بالبربري لا أكثر ولا أقل من كل أعداء نظريته. وكان احترام الأمير أندريه يحمل في طياته على أية حال شيئاً من العطف. لقد كان من السهل تبعاً للهجة أفراد البطانة تجاه پفويل وتبعاً لما سمح پولوكشي لنفسه أن يقوله للأمبراطور وبصورة خاصة، تبعاً لاحتداد محاضراته الشخصية المكفهرة، أن يعرف المرء أنهم جميعاً عالمون بقرب سقوط اعتبار پفويل الذي

twitter @baghdad_library

لم يكن نفسه يشك فيه. وعلى الرغم من ثقته الرائعة وسخريته اللاذعة ماني، فإن ذلك الرجل ذا الشعر الأملس على الصدغين والخصلات الثائرة على مؤخرة الرأس كان يبدو جديراً بالشفقة. ورغم إخفائه عواطفه وراء مظهره المستخف، فإنه كان يرى بوضوح أنه في يأس من رؤيته الفرصة الوحيدة التي تمكنه من اختبار نظريته على مدى واسع وتفجير صحتها في وجه العالم كله.

استمر النقاش طويلاً حتى تجاوز الحد إلى الصيحات والمس بالأشخاص. ولكن كلما طالت المناقشات ضعف الأمل في الخروج بنتيجة عملية. وعندما سمع الأمير أندريه بلغات مختلفة وبالالتجاء إلى الصياح، كل هذا العدد من الآراء المتناقضة والمشاريع المعاكسة تدعم من قبل أصحابها، لم يصدق أذنيه. لقد حدّث نفسه مراراً خلال سنوات خدمته وبحوثه الطويلة حول مهنة السلاح بأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد علم للحرب وأن عبارة «عبقرية عسكرية» ليست بالتالي إلا عديمة المعنى. فإذا به الآن يجد في المناقشات الراهنة تأييداً ساطعاً لوجهة نظره تلك. «كيف يمكن التحدث عن نظرية وعلم في المواضيع التي لا يمكن تحديد الشروط والاتفاقات فيها والتي تكون القوات العاملة فيه أقل تحديداً أيضاً؟ لم يستطع أحد أبداً ولن يستطيع قط معرفة الوضع الذي سيكون عليه جيشنا أو جيش العدو في غضون الأربع والعشرين ساعة القادمة وقيمة هذا الفوج أو ذاك وإنه بدلاً من جبان في الصفوف الأولى يلوذ بالفرار إثر صيحة: «لقد قُطعنا»! يقف فتى مرح وباسل يصيح: «هورا»!

إن فرقة قوامها خمسة آلاف رجل تعادل ثلاثين ألفاً كما وقع في شوبنغراين. وفي المقابل، يمكن أن ينهزم خمسون ألف رجل أمام ثمانية آلاف كما وقع في أوسترليتز. هل هناك علم ممكن في مادة لا يمكن، ككل

www.Maktbah.com

شيء في الحياة العامة، أن يُتكهن بشيء مسبقاً، مادة يتوقف كل شيء فيها على ظروف لا عدّ لها ولا تظهر قيمتها إلا في دقيقة واحدة لا يعرف أحد متى تحين. إن أرمفيلت يزعم أن جيشنا قد شطر وپولوكشي على العكس، يؤكد أننا وضعنا الجيش الفرنسي بين نارين. وميشو يرى معسكر دريسا خطراً لأن النهر وراءه وپفويل يرى خلافاً لذلك أن النهر ضمانه للأمان. إن تول يقترح خطة وأرمفيلت أخرى وكلها رديئة وجيدة معاً لأن مزايا هذه أو تلك من الخطط لا يمكن أن تظهر إلا في الساعة التي يتم فيها الحدث. فكيف يتأتى أن يزعم كل هؤلاء بأرجحية العبقرية العسكرية. هل هناك من عبقرية في معرفة الوقت المناسب لتزويد الجيش «بالبقسماط» وإرساله هذا إلى اليمين وذاك إلى اليسار؟ كلا. لكن العسكريين متشحون بالسلطة، والجمهور الجبان يمتدح المتنفذين الأقوياء عازياً إليهم العبقرية خطأً.

إن أفضل الجنرالات الذين عرفتهم بدوا لي أبعد ما يكونون عن الرجال المتفوقين، قليلي الذكاء أو ساهمين. وأولهم پاغراسيون الذي يعتبره ناپليون مع ذلك أكثر خصومه موهبة. وناپليون نفسه! إنني أذكر هيئته المحدودة على ساحة القتال في أوسترليتز. ليس الرئيس الجيد بحاجة إلى عبقرية أو إلى صفات خاصة بل على العكس، يجب أن يكون محروماً من أسمى خصائل الطبيعة البشرية، الحب، الشعر، الحنان والشك الفلسفي. يجب أن يكون محدوداً، قانعاً بأهمية تصرفاته وإلا، فإنه سيفقد الصبر «ولن يكون قائد جيش باسلاً إلا لقاء الثمن. ولكن، ليصنه الله من أن يتظاهر بالإنسانية أو أن يود أحداً أو يشفق على أحد، أن يفكر في ما هو عادل وما هو جائر! إن من الواضح أن نظرية العبقريات قد زُودت في كل حين من قبل هؤلاء الرجال لأنهم يمثلون القوة. فكسب معركة أو خسارتها يتوقف ليس عليهم، بل على الجندي الذي

twitter @baghdad_library

يصرخ في الصف: «لقد ضعنا»! أو الذي يصيح: «هورا»! نعم، في الصف، وفي الصف وحده يمكن أن يخدم المرء وهو قانع بأنه مفيد».

وهكذا كان الأمير أندريه يفكر وهو يصغي إلى النقاش بأذن شاردة. وأخيراً سمع پولوكشي يناديه والمجتمعون كلهم ينسحبون.

وخلال العرض، في اليوم التالي، سأل الأمبراطور پولكونسكي أين يرغب في الخدمة فضاع هذا إلى الأبد في نظر البلاط حينما لم يطلب إلى جلالته أن يلحقه بخدمته بل سأله الإذن بالخدمة في صفوف الجيش.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

تلقى روستوف رسالة من عائلته، قبل بدء الحملة، أعلنوا له فيها باقتضاب مرض أخته وفسخ خطبتها مع الأمير أندريه مفسرين ذلك برفض ناتاشا الاستمرار ويرجونه مرة أخرى أن يقدم استقالته وأن يعود إليهم. ودون أن يفكر في الانسحاب من الجيش، كتب نيكولا لذويه أن مرض ناتاشا وزواجها الذي لم يتم يؤلمانه كثيراً وأنه سيعمل كل ما في وسعه للنزول عند رغبتهم. وفي رسالة خاصة إلى سونيا شرح سلوكه كما يلي:

«صديقة روحي المعبودة، ليس إلا الشرف ما يمنعني من العودة إلى قربك. ففي اللحظة التي فتحت الحملة، أعتقد أنني سأخسر شرفي ليس أمام زملائي فحسب بل كذلك تجاه نفسي إذ فضلت سعادتي على واجبي، وحبي على وطني. لكن هذه ستكون آخر فراق لنا. كوني على ثقة أن ما إن تنتهي الحرب وأبقى أنا في هذا العالم وتبقين أنت على حبي، حتى أترك كل شيء وأطير إليكِ لأضمّك إلى الأبد إلى قلبي المضطرم».

وفي الواقع إن البدء بالحملة وحده هو الذي استوقف روستوف ومنعه من العودة للزواج بسونيا كما وعد. لقد كان خريف «أوتردنواي» ورحلات الصيد فيه والشتاء بأعياد الميلاد وحب سونيا، كل هذه الأمور كانت قد فتحت له أفقاً جديداً من المباهج الريفية الهادئة يجذبه بقوة لا تقاوم. كان يقول في سرّه: «نعم، زوجة ممتازة وأطفال، فصيلة من كلاب العدو عشرة أو اثنا عشر زوجاً من الكلاب السلوقية الباسلة وتحسين مردود الأرض والزيارات بين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجيران ومركز ما يساعدني على اختيار أقراني، هذا هو نوع الحياة الذي يروقني». لكن الحرب وقد نشبت، أرغمته على البقاء في الكتيبة وبفضل عقليته السهلة، فإنه لم يكن أقل تقديراً لهذا النوع من الحياة التي كان يعرف كيف يستخلص منها كل ما يمكن من مباهج.

استقبل روستوف، عند عودته إلى الكتيبة، استقبالاً ودياً من قبل زملائه وكلف الذهاب إلى روسيا الصغيرة حيث عاد منها بجياد ممتازة كانت مبعث غبطته وسبباً في تهنئة رؤسائه له. ولقد رقي إلى رتبة رئيس أثناء غيابه ولما أعدت الكتيبة للحرب وزيدت رواتبها، ألحقوه بكوكبته السابقة.

وفي بداية الحرب، نقلت الكتيبة، إلى بولونيا حيث التحق ضباط جدد ورجال جدد وجياد وسادت فيها تلك الحيوية المرحة التي تسبق عادة الشروع في حملة. ولقد استسلم روستوف بكليته وهو العارف بالمزايا التي يوفرها له مركزه، لملاذه ـ واجبات الخدمة وإن كان عارفاً أن عليه أن يتخلى عنها إن آجلاً وإنْ عاجلاً.

أخلت الوحدات فيلنا لأسباب مختلفة سياسية وفنية. وكانت كل خطوة إلى الوراء تثير في هيئة الأركان العامة مجموعة معقدة من الأهواء والترتيبات والدسائس. ولكن، بالنسبة إلى فرسان باڤلوغراد، كان ذلك التقهقر في أفضل مواسم السنة مع الزاد الكافي، مجرد رحلة مرح. فكان بمقدور القيادة العامة أن تفقد شجاعتها وتسيء استخدام العقل وتتآمر كما يحلو لها. أما الجيش فما كان يسأل حتى إلى أين يرسل ولا سبب تراجعه. وإذا كان هناك من أسف على التقهقر فإن مرده مقتصر فقط على وجوب التخلي عن فتاة بولونية جميلة وتوديع مسكن كان شاغله قد ألف العيش فيه.

وإذا كان أحدهم يرتئي أن الأمور تسير بشكل سيئ، فإنه يجتهد للظهور

www.Maktbah.com

بمظهر المرح وينسى الموقف العام كله ليصرف انتباهه إلى خدمته المباشرة. كانوا في بادئ الأمر يعسكرون بمرح في ضواحي فيلنا ويرتبطون بصداقات مع أثرياء ريفيين بولونيين ويتأهبون للاستعراضات التي يشرّفها الأمبراطور ورؤساء كبار آخرون. ثم جاء الأمر بالانسحاب نحو سوينسياني وإتلاف المؤن التي لا يستطيعون نقلها. ولقد احتفظ الفرسان بذكرى سوينسياني بوصفه: «معسكر السكر» إذ إن الجيش كله عمّد هذا المعسكربهذا الاسم حيث كان للسكان كثير مما يشتكون منه من القطعات التي انتهزت فرصة الإذن لها بالتزود محلياً، فراحت تصادر إلى جانب الأرزاق، الخيول والعربات بل حتى النجد من بيوت السادة البولونيين.

وكان روستوف يذكر سوينسياني لأنه يوم وصوله إلى ذلك المكان، اضطر أن يجهز الرقيب الأول ولم ينجح في إعداد الكوكبة التي كان أفرادها سكارى كلهم بعد أن نهبوا خمسة براميل من الجعة المعتقة دون علمه. ثم تراجعوا من سوينسياني حتى دريسا ثم إلى أبعد من ذلك، ودائماً إلى الوراء باتجاه الحدود الروسية.

أتيح لكتيبة باڤلوغراد في الثالث عشر من تموز، عمل جدي لأول مرة.

نشط ليل ١٢ ـ ١٣، إعصار من تلك الأعاصير الهائلة الذي سخا بها صيف ١٨١٢ زاخراً بالمطر والبرد.

كانت كوكبتان مخيمتين في حقل شيلم داسته الجياد والماشية فأتلفته كله.

وكان المطر يهطل مدراراً، وروستوف يصحبه أحد مرؤوسيه، إيلين الشاب الذي وضعه تحت حمايته، يأوي تحت كوخ صغير جداً بني على عجل. ولقد دهمت الأمطار ضابطاً من الكتيبة كانت وجنتاه مدعومتين بشاربين لا نهاية لهما فاحتمى بالكوخ، قال:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

- إنني خارج فوراً من الأركان يا كونت. هل علمت شيئاً عن مأثرة رايـﭬسكي؟

وقص عليه بالتفصيل معركة سالتانوﭬكا.

كان روستوف يشنج عنقه الذي سال المطر عليه ويدخن غليونه وهو يصغي شارداً إلى القصة ويلقي نظرة بين الحين والآخر على إيلين الشاب الجالس بالقرب منه. كان نيكولا بالنسبة إلى هذا الفتى البالغ من العمر ستة عشر عاماً والذي وصل إلى الكتيبة منذ قليل أشبه بما كان دينيسوف بالنسبة إليه قبل سبعة أعوام وكان إيلين يجتهد في الاقتداء بروستوف ويحبه كما تحب المرأة.

أخذ زدرجينسكي، الضابط ذو الشاربين الطويلين، يؤكد أن سد سالتانوﭬكا أصبح بالنسبة إلى روسيا أشبه بتيرموبيل[1] بالنسبة إلى اليونان وأن الجنرال رايـﭬسكي قام هناك بمأثرة جديرة بمساواتها بالمفاخر الغابرة. لقد انطلق إلى السد مع ولديه تحت نار رهيبة وألجأ الرجال إلى الهجوم. لم يدعم روستوف رواية المتحدث بأية إشارة استحسان بل يبدو وكأنه خجل مما يُروى له دون أن يسمح لنفسه على أية حال بإبداء أي اعتراض. كان يعرف من تجاربه الخاصة في أوسترليتز في عام ١٨٠٧، أن الروايات من هذا النوع كاذبة دائماً، ويعرف كذلك بفضل عمله في الحرب أن ما من شيء يقع كما يتصوره المرء أو كما يُرى بعد حدوثه، لذلك فقد نفرت نفسه من قصة زدرجينسكي بقدر ما نفرت من الرواية، هو الذي كانت عادته الكريهة أن ينحني بشاربيه اللامتناهيين على وجه محدثه. أضف إلى ذلك أنه كان يحتل فراغاً كبيراً في ذلك الكوخ

---

(١) ممرّ مشهور في اليونان بين جبل أنوبيا وخليج مالياك. هناك كمن ليونيداس محاولًا إيقاف جيش كسيركسيس. لكن إيفيالث الخائن دلّ الفرس على ممرّ يسمح بالالتفاف حول جبل أنوبيا، فكان لا بدّ لليونيداس والإسبارطيين من الموت. (المترجم).

www.Maktbah.com

الصغير. نظر إليه روستوف دون أن ينطق بكلمة. قال في سرّه: «أولاً، لا بد وأنه حدث على هذا السد العتيد بلبال عنيف. حتى ولو تقدم راييـڤسكي مع ولديه، فإن هذه الحركة لم تستطع التأثير إلا في العشرة أو الاثني عشر رجلاً الذين كانوا يحيطون بهم. أما الآخرون فلم يتمكنوا من رؤية مع من ذهب راييـڤسكي إلى الهجوم. بل حتى الذين شاهدوه لم يتأثروا قط لأنهم كانوا يفكرون في جلودهم أكثر من تفكيرهم في عواطف هذا الجنرال الأبوية! أضف إلى ذلك أن مصير البلاد لا يتوقف إطلاقاً على هذا السد كما كان الحال بالنسبة إلى «تيرموبيل» إذا صدقنا رواية المؤرخين. فأية جدوى من هذه التضحية إذن؟ ثم أية فكرة هذه أن يقود ولديه إلى المعركة؟ إنني لن أعرض على هذا النحو لا أخي پيتيا ولا حتى إيلين الذي لا تربطه بي أية صلة والذي أعتبره فتى باسلاً فحسب، بل لا بد لي وأن أضعه في منجاة من الخطر». ولقد حرص روستوف على أية حال على أن لا يفصح عن آرائه الشخصية: إن هذه القصة تهدف إلى تعظيم جيشنا فيجب إذن أن نتظاهر بتصديقها. كان يعرف هذه الحقيقة منذ زمن طويل.

أخيراً قال إيلين الذي لم يغب عنه استياء روستوف: لا يمكننا أن نصمد أكثر من ذلك. إن جواربي وقميصي وكل ثيابي مبللة سوف أبحث عن ملجأ في مكان آخر. أعتقد أن المطر قد خف.

خرج إيلين بينما تابع زدرجينسكي طريقه.

وبعد خمس دقائق، رجع إيلين راكضاً وهو يجري في الوحل:

ـ هورا! روستوف، تعال بسرعة! لقد وجدت، أن هناك نزلاً على بعد مائتي خطوة من هنا والرفاق فيه الآن وكذلك ماري هنريخوڤنا. إننا نستطيع أقله أن نجفف ثيابنا.

كانت ماري هنريخوڤنا ألمانية جميلة شابة تزوجها طبيب الكوكبة في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بولونيا وكان الطبيب يصحب زوجته أينما ذهب بسبب حاله المالية بدون شك أو لعله لم يكن يريد الانفصال عن زوجته في الفترات الأولى التي تلت زواجهما. ولقد كانت غيرة الماجور تتيح للفرسان مادة غزيرة للمزاح.

ارتدى روستوف معطفه وصاح مهيباً بلاڤروشكا أن يتبعه مع بعض الأمتعة ثم ذهب مع إيلين يروغ هنا من الطين ويقع هناك في برك ماء تحت المطر الذي بدأ يهدأ في ذلك الليل الحالك الذي تخططه ومضات برق بعيد. كانا يتحادثان بينهما:

ـ روستوف أين أنت؟

ـ هنا. أرأيت هذا البرق!

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

كانت ماري هنريخوڤنا، وهي ألمانية شقراء صغيرة وبدينة بصدار وقلنسوة نوم جالسة في مكان الشرف على مقعد عريض وزوجها نائم وراءها. وكان أربعة أو خمسة ضباط جالسين في المنزل وعربة الطبيب متوقفة أمام بابه؛ استقبلت روستوف وإيلين لدى دخولهما ضحكات وهتافات مرحة.

قال روستوف ضاحكاً: آه، لا يبدو عليكم أنكم متذمرون!

ـ ولماذا لم تأت قبل الآن؟

ـ كم أنتما مبتلان! ميازيب حقيقية! لا تغرقا أقله قاعتنا!

ـ وعلى الخصوص لا توسخا ألبسة ماري هنريخوڤنا.

راح روستوف وإيلين يحاولان أن يكتشفا زاوية صغيرة ليبدلا فيها ثيابهما دون أن يخدشا عذار السيدة. صحيح أنه كانت هناك خلوة صغيرة وراء الحاجز. لكن الضباط الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق فيها على ضوء شمعة وضعوها على صندوق فارغ ويشغلون الفراغ كله رفضوا التخلي عن أماكنهم. لحسن الحظ، وافقت ماري هنريخوڤنا على أن تتنازل لهما عن ثوب من أثوابها أقاماه حاجزاً وراحا وراءه بمساعدة لاڤروشكا الذي حمل معه اللوازم الكاملة يبدلان ثيابهما المبتلة بأخرى جافة.

أشعلوا النار في المدفأة نصف المدمرة وركزوا لوحاً من الخشب على سرجين وغطوه بلباد ثم استحضروا «سماروا» صغيراً ونصف زجاجة روم، وبعد أن طلبوا من ماري هنريخوڤنا أن تقوم بدور ربة البيت، التفوا حولها. قدم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لها أحدهم منديلاً نظيفاً لتمسح به يديها الصغيرتين وألقى آخر على قدميها سترة عسكرية ليقيهما من الرطوبة وعلق هذا معطفه على النافذة كيلا يشعر رفاقه بالريح وراح ذاك يطرد الذباب عن وجه الزوج خشية أن يستفيق.

قالت ماري هنريخوفْنا وهي تجود بابتسامة مرحة: دعوه هادئاً. انظروا كيف ينام مستغرقاً بعد ليلة بيضاء.

فأجاب الضابط: ولكن يا ماري هنريخوفْنا. يجب علي أن أُعنى بسيدي الطبيب. لعله بذلك سيشفق علي عندما يبترون لي ذراعاً أو ساقاً.

لا يوجد إلا ثلاثة أقداح. وكان الماء الكدر يمنعهم من معرفة ما إذا كان الشاي قوياً جداً أم خفيفاً جداً. ولم يكن السمارو ليتسع لأكثر من ستة أقداح. مع ذلك، كانت المتعة أعم أن يتلقى أحدهم كأسه دورياً وتبعاً للقدم من يدي ماري هنريخوفْنا ذواتي الأظفار القصيرة غير الظاهرة. لقد كان الضباط كلهم ذلك المساء عاشقين للمرأة الشابة دون أي شك. ولقد ألقى أولئك الذين كانوا يلعبون الورق وراء الحاجز بأوراقهم وأسرعوا يلتفون حول السماور تدفعهم كذلك الرغبة في مغازلتها. وعلى الرغم من الخوف الذي كانت تشعر به لأتفه حركة من زوجها النائم وراءها، فإن ماري هنريخوفْنا كانت مشرقة الوجه لم تحسن إخفاءه وهي ترى نفسها محاطة بهذه الشبيبة الأنيسة.

وإن كان السكّر متوافراً، فإنهم ما كانوا يتوصلون إلى إذابته بسرعة لأنه لم يكن هناك إلا ملعقة واحدة. لذلك فقد تقرر أن تحرك بنفسها دورياً السكّر في قدح كل منهم. ولما استحوذ روستوف على قدحه، اكتفى بأن سكب فيه قليلاً من الروم وقدمه إلى ماري هنريخوفْنا لتحرك الشراب.

قالت له دون أن تتوقف عن الابتسام وكأن كل ما كانت تقوله ويقوله الآخرون يبعث على التسلية بل يحمل معنى مزدوجاً:

ـ ولكن، أليس لديك سكر؟

www.Maktbah.com

ـ أنا لا أبالي بالسكر! إن ما أريده هو أن أراك تحركين الشاي في قدحي بيدك الجميلة.

أذعنت ماري هنريخوڤنا وراحت تبحث عن الملعقة التي استحوذ عليها بعضهم.

قال روستوف: حركيه بإصبعك يا ماري هنريخوڤنا. سيكون ذلك أفضل.

قالت وهي تحمرّ من الغبطة: كم هو ساخن!

تناول إيليا دلو الماء وصب فيه قطرات من الروم ثم اقترب من ماري هنريخوڤنا. فاقترعوا لمعرفة من سيكون في صفها. واقترح روستوف كقاعدة للعب أن من يصبح «ملكاً» يصر من حقه تقبيل يد ماري هنريخوڤنا.أما «الخادم» فعليه على العكس أن يعدّ «سماوراً» جديداً للطبيب.

سأل إيلين: وإذا خرجت ماري هنريخوڤنا »ملك»؟

ـ إنها حتى الآن ملكة! وأومرها قوانين. بالكاد بدأ اللعب حتى انتصب وراء ماري هنريخوڤنا رأس الطبيب الأشعث. لم يكن منذ بعض الوقت نائماً بل كان يصيخ السمع إلى هذه الأحاديث المرحة. وكان واضحاً على وجهه الشرس أنه لا يراها وديعة ولا مرحة، ودون أن يبادل أحداً التحية، سأل وهو يحك رأسه أن يفسح له في المجال للخروج. وما إن خرج، حتى انطلق الجميع بضحكة صاخبة في حين كانت ماري محمرّة الوجه لدرجة أقرب إلى البكاء، الأمر الذي أعطاها جاذبية أقوى في نظر السادة الضباط. وعاد الماجور بعد قليل وقال لزوجته التي غاضت ابتسامتها وباتت تنظر إليه بقلق وكأنها تنتظر صدور حكم عليها، أن المطر قد توقف وأنه يجب أن تذهب إلى العربة لتنام وإلا فسوف ينهبون كل الأمتعة التي فيها.

قال روستوف: لا تقلق يا دكتور، سوف أرسل تابعاً إلى العربة... أو تابعين إذا شئت!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وقال إيلين: سأقوم بحراستها بنفسي!

غمغم الطبيب وهو يجلس بقرب زوجته بانتظار نتيجة الشوط وهو عابس: ذلك أنكم كما ترون أيها السادة، نمتم نوماً هنيئاً. أما أنا، فإنني لم يغمض جفني منذ ليلتين.

لقد حمل وجه الطبيب المكفهر الذي كان يقبل باتجاه زوجته المرح العام إلى الأوج حتى أن بعضهم ما كانوا يستطيعون التوقف عن القهقهة التي كانوا يتذرعون لإطلاقها بشتى المبررات. ولما انسحب الزوجان وأقاما في العربة، استلقى الضباط على الأرض والتفوا بمعاطفهم المبللة.

لكنهم لبثوا وقتاً طويلاً لا ينامون، كانوا يذكرون وجه الطبيب الهلع ومرح زوجته ويجرون حيناً آخر إلى العتبة ويقصون على بعضهم ما يجري في العربة. حاول روستوف مراراً، وقد سحب معطفه إلى ما فوق رأسه، أن ينام. لكنه كان ينصرف إلى احتداد ما فيشترك مجدداً في الحوار الذي كانت تقطعه أجمل الضحكات المرحة الطفولية التي لا سبب لها ولا مبرر.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

حوالى الساعة الثالثة صباحاً، لم يكن أحد قد نام بعد، عندما وصل الرقيب يحمل الأمر بالانثناء إلى أوسترفنيا.

هيّأ الضباط أمتعتهم وهم يضحكون ويثرثرون وأشعلوا السماور ذا الماء العكر من جديد. لكن روستوف ذهب يلتحق بكوكبته دون أن ينتظر إعداد الشاي. كان الصباح يبزغ والمطر منقطعاً والغيوم تتبدد والبرد والرطوبة يتسللان خلال الألبسة التي لم تجف بعد. وبخروجهما من المنزل، ألقى روستوف وإيلين في ضياء الفجر الباهت نظرة على العربة التي يلتمع غطاؤها بالماء فكانت ساقا الطبيب الطويلتان تبرزان من تحت المئزر الجلدي الذي في مقدمة العربة. وكانت ترى في الداخل قلنسوة المرأة الشابة ويسمع تنفس بعضهم وهو نائم.

قال روستوف لإيلين: إنها حقاً لطيفة جداً.

فأجاب إيلين بإيمان سنواته الست عشرة: رائعة!

كانت الكوكبة، بعد نصف ساعة، منتظمة على الطريق. وعند الإيعاز: «إلى السرج» رسم الجنود إشارة الصليب على صدورهم واعتلوا جيادهم. واتخذ روستوف مكانه في المقدمة وصاح: «إلى الأمام، سر»! وعندئذ اهتزت صفوف الفرسان بين قرقعة السيوف ووقع الحوافر في الوحول وهمس المحادثات المكتومة، وبدأت تتقدم أربعة فأربعة على طول الطريق المحاط من الجانبين بأشجار السندر، تتبع وسط فرقة مشاة «وبطارية» مدفعية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتناثرت الغيوم التي يصطبغ لونها البنفسجي الأدكن بحمرة المشرق، بفعل دفعة الريح العنيفة والضياء يزداد امتداداً فبدأت الأعشاب الصغيرة المجعدة التي تنبت عادة على طرق المرور والمطر لا يزال يبللها، تتميز للعيان وأشجار السندر تهتزّ تحت النسمة فتتساقط من أغصانها المتدلية اللآلئ الفضية. وأصبحت وجوه الفرسان تميز بعضها من بعض أكثر فأكثر، وكان روستوف يرافقه إيلين الذي لا يتركه، يتبع الجانب المنخفض من الطريق بين صفين من السندر.

في الريف، كان روستوف يسمح لنفسه أن يتمتع بركوب جواد ليس على الطريقة النظامية بل على طريقة فرسان القوقاز. ولقد استحضر لنفسه حديثاً بوصفه هاوياً وخبيراً، فرساً أشقر من «الدون» ذا عرف أبيض، فكان حيواناً قوياً ضخماً لا يسمح للجياد الأخرى أن تسبقه، كان يمتطيه بمتعة حقيقية. وكان يفكر في جواده وفي الصباح البازغ وزوجة الطبيب. لكنه لم يفكر مرة واحدة في الخطر القريب.

كان روستوف يشعر بالخوف قبل القتال من قبل. وإذا لم يعد الآن يشعر بأي ذعر فليس مرده إلى أنه تعود القتال لأن المرء لا يمكن أن يألف الخطر، ولكن لأنه أصبح يستطيع السيطرة على نفسه. لقد ألف في مثل هذه الحالات أن يثير مختلف الأفكار باستثناء الفكرة التي كان يجب أن تثير انتباهه قبل كل شيء وهي اقتراب الخطر. وفي الأيام السالفة، رغم مجهوداته، رغم اتهامه نفسه بالنذالة والجبن، فإنه لم يكن يستطيع السيطرة على نفسه. لكن هذه السيطرة أضحت مع السنين طبيعية جداً.

كان إذن يسير إلى جانب إيلين بين خطي السندر، يعري الأغصان التي تقع تحت امتداد يده ويمس بطن جواده بمهارة أو يمد غليونه المطفأ دون

www.Maktbah.com

أن يلتفت إلى الفارس الذي يتبعه، ووجهه هادئ القسمات خلي البال وكأنه في نزهة. لقد كان النظر إلى وجه إيلين المربد الذي يكثر الكلام، يؤلمه. كان يعرف بالتجربة هذا الانتظار المؤسي للموت الذي يقلق الفتى ويعرف أيضاً أن الزمن وحده يستطيع علاجه.

وبالكاد ظهرت الشمس بين طائفتين من السحب حتى هدأت الريح وكأنها خجلت أن تفسد ذلك الصباح البديع الذي أعقب تلك الليلة العاصفة. وانهمرت بعض قطرات المطر كذلك ولكن عمودياً ثم هدأ كل شيء. وكانت الشمس قد أشرقت تماماً، ظهرت عند الأفق لتختفي من فورها وراء عصابة طويلة من السحب التي كانت تحجبها. وبعد دقائق قليلة، عادت إلى الظهور فوق العصابة أكثر سطوعاً فجوفت جانبها. وراح كل شيء يلتمع. ودوى المدفع فجأة على البعد وكأنه يجيب عن هذا السيل من الضياء.

لم يستطع روستوف أن يقدر المسافة التي انطلقت منها المدافع عندما وصل من جانب ڤيتيبسك، مساعد عسكري يجري على جواده، تابع للكونت أوسترمان تولستوي يحمل الأمر بالسير خبباً على الطريق.

تجاوزت الكوكبة قطعة المشاة وبطارية المدفعية اللتين غذتا مشيتهما بالمثل وانحدرت على أحد السفوح واجتازت قرية مهجورة ثم صعدت سفحاً آخر. وبدأ الزبد يظهر على صدور الجياد وأصبحت الوجوه شديدة الاحمرار.

أمر رئيس المفرزة من الأمام: قف! انتظم، نصف دائرة إلى اليمين، سيراً عادياً إلى الأمام. سر!

سار الفرسان على جناح القطعات الأيسر وتجمعوا وراء رماحتنا المقاومين في الخط الأول. وإلى اليمين، كانت قطعة مزدوجة من المشاة تشكل احتياطينا. وعلى الهضبة التي تعلوها، تظهر مدافعنا على خط الأفق في ذلك الهواء شديد النقاء وتحت ضياء الصباح المشرق. وإلى الأمام في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المنخفض، كانت قطعات العدو ومدافعه ترى وقد اشتبكت معها طلائعنا وتبادلت معها الطلقات النارية بحدّة.

ابتهج روستوف من أزيز الرصاص الذي لم يسمعه منذ أمد طويل وكأنه النغمات الأولى من الموسيقى: «تراب ـ تا ـ تا ـ تاب»! انفجرت الطلقات تارة إفرادية وتارة أخرى مجموعة ثم يصمت كل شيء ليسمع بعد ذلك أشبه بانفجار سلسلة من المفرقعات وضع بعضهم قدمه عليها.

بقي الفرسان في أمكنتهم ساعة كاملة ثم ارتفع قصف المدافع بدوره. ومر الكونت أوسترمان مع حاشيته وراء الكوكبة وتوقف ليتبادل بضع كلمات مع الزعيم ثم ابتعد باتجاه المدافع.

وبعد رحيله بقليل، علا صوت آمر يهيب بالرماحة: «بوضعية الهجوم! إلى الأمام»! وضاعفت فرق المشاة صفوفها لتسمح للخيالة بالمرور وراحت ومضات الرماح تتماوج والرماحة ينحدرون تاركين لجيادهم الأعنة باتجاه سفح التل حيث كان الفرسان الفرنسيون يظهرون إلى يساره.

وما إن وصل الرماحة إلى نهاية المنحدر حتى تلقى الفرسان الأمر بالصعود إلى المرتفع لتغطية بطارية المدفعية. وبينما هم ينفذون هذه الحركة، راحت بعض الرصاصات الطائشة تصفر حول آذانهم.

أثارت هذه الضجة روستوف أكثر مما حفزته الطلقات الأولى. انتصب على سرجه وراح يراقب ساحة المعركة التي كانت تتكشف ابتداء من أول المرتفع وشاركت روحه الرماحة في هجومهم. انحدر هؤلاء على الفرسان الفرنسيين إلى يسار مركزهم الأول. وبين الرماحة ذوي الثياب برتقالية اللون والخيول الشهباء وراءهم، كان يرى حشد كثيف من الفرسان الفرنسيين الزرق على خيولهم الرمادية.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

كان روستوف أول من رأى بعين الصياد الثاقبة هؤلاء الفرسان الفرنسيين الزرق الذين يطاردون رماحتنا. وكان التابعون والمتبوعون يقتربون أكثر وأكثر فأصبح من الممكن رؤية هؤلاء الرجال الذين يبدون من الأعلى صغار الحجم، يتصادمون ويحركون الأذرع والسيوف.

تأمل روستوف هذا المنظر كما يتأمل رحلة صيد بالكلاب، وحدسه يقول له إنه إذا نزل في تلك اللحظة على الفرنسيين فإن هؤلاء لا يمكن أن يصمدوا ولكن كان يجب العمل بسرعة، في تلك اللحظة بالذات، وإلا فقد فات الأوان. ألقى نظرة حوله فرأى رئيس الكوكبة الذي وقف إلى جانبه لا يزحزح عينيه عن المعركة. قال له: يا أندريه سيڤاسيتيانيتش، نستطيع أن نردهم.

ـ هذا صحيح، وستكون الضربة رائعة!

همز روستوف جواده دون أن يسمع المزيد، وانبرى إلى الكوكبة ولم يكد يأمر بالحركة حتى كان الرجال كلهم، وقد تأثروا بمثل شعوره، يندفعون وراءه. تصرف كما يتصرف في الصيد دون تفكير ولا حساب. كان يرى الفرسان الفرنسيين يهدبون قريباً منتشرين فكان واثقاً بأنهم لن يستطيعوا الثبات وبأن الفرصة يتيمة لن تعود أبداً. لقد أثاره أزيز الرصاص لدرجة، وكان جواده شديد اللهفة على الجري، حتى إنه لم يستطع الصمود. أطلق العنان للجواد وصاح بالأمر ثم عندما سمع كوكبته تهتز وراءه فوراً، انحدر بأقصى سرعة على العدو. وما إن وصلوا إلى سفح التل حتى اندفعت الجياد دون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عمد تعدو وتضاعف سرعتها كلما اقتربت من رماحتنا، والفرسان الفرنسيون على آثارهم. وكان الفرنسيون قريبين جداً، فلما رأوا الفرسان قد وصلوا، كر الذين في المقدمة على أعقابهم بينما توقف الذين في الخلف. وبمثل النشاط الذي استحوذ عليه من قبل عندما قطع الطريق على الذئب، اندفع روستوف مرخياً الأعنة لجواده «الدوني»، بين صفوف العدو المتضعضعة. وتوقف رماح وتمدد آخر على وجهه وقد فقد جواده، ليتجنب الدهس ووصل جواد دون فارسه يصطدم بالفرسان.

وكان فرسان العدو كلهم تقريباً قد هربوا فانتقى روستوف واحداً منهم ممتطياً صهوة جواد رمادي واندفع يطارده. ولما اعترضت سبيله دغلة، تخطاها جواده الثائر واثباً. وجد نفسه وهو لا يكاد يتمالك على السرج أنه بات قريباً من خصمه. وكان هذا، وهو ضابط بدون شك تبعاً لبزته، يهرب بأقصى سرعة وقد انحنى فوق جواده وراح يمطر كشحها ضرباً بعرض سيفه. وبمثل لمح البصر، جاء حصان روستوف يصطدم بملء صدره مؤخرة حصان الضابط حتى كاد يطرحه أرضاً بينما رفع روستوف سيفه دون وعي منه وضرب به الفرنسي.

خبت حماسته فوراً وسقط الضابط بفعل صدمة الجوادين والخوف أكثر مما أثرت فيه الضربة التي سببت له قطعاً جرحاً بسيطاً فوق مرفقه. وضبط روستوف جماح جواده وراح يبحث بعينه عن خصمه ليرى أي رجل على وجه الدقة ضرب وكان ضابط الفرسان الفرنسي الذي علقت إحدى ساقية بالركاب، يقفز على ساقه الأخرى ويقطب حاجبيه وينظر من الأسفل إلى الأعلى إلى الفارس الروسي مروعاً وهو يترقب دون ريب أن تصيبه منه في أية لحظة طعنة أخرى. وكان وجهه الشاحب الفتي الملطخ بالوحل، وشعره الأشقر وعيناه الزرقاوان والغمازة التي وسط ذقنه تتناسب مع مشهد عائلي

www.Maktbah.com

وادع أكثر مما تنسجم مع ساحة قتال. وكان روستوف لا يزال يتساءل عما يجب أن يفعل حينما صاح الضابط: «إنني أستسلم!» وراح دون أن يستطيع أن يرفع عن روستوف نظرته المروعة، يحاول تخليص ساقه من الركاب. أنقذه بعض الفرسان الذين أسرعوا وساعدوه على امتطاء الجواد. وكان فرساننا في صراع مع العدو في مواقع متعددة، وكان أحد هؤلاء، جريحاً ملطخ الوجه بالدم، يرفض تسليم حصانه، وآخر يعانق أحد فرساننا وهو راكب وراءه على جواده وثالث يمتطي جواده بمساعدة أحد فرساننا. وأسرع المشاة الفرنسيون وهم يطلقون النار لنجدة الفرسان إلى الارتداد مع أسرهم وتبعهم روستوف وهو فريسة انقباض غريب، إذ تبدى له شيء حالك معقد لم يستطع فهمه نتيجة أسره هذا الضابط الفرنسي والضربة التي وجهها إليه.

انطلق الكونت أوسترمان ـ تولستوي للقاء الفرسان واستدعى روستوف وشكره وقال له إنه سينقل تصرفه البطولي إلى مسامع الأمبراطور ويطلب له وسام صليب سان جورج. ولما استدعي روستوف، تذكر أنه هاجم دون أن يتلقى أي أمر، فتوقع زجراً مراً. لذلك فإنه في المقابل يجب أن يبدو أكثر حساسية تجاه كلمات أوسترمان المطرية والمكافأة المنتظرة. لكن ذلك الإحساس الأليم الغامض نفسه ظل يعتصر قلبه وتساءل وهو يغادر الجنرال: «هه، ما الذي يزعجني إذن؟ إيلين: كلا، إنه صحيح معافى. هل أسأت التصرف؟ كلا، إن هذا ليس السبب»! لقد كان في قرارة نفسه شيء آخر يعذبه أشبه بتبكيت الضمير. «آه! نعم، إنه هذا الضابط الفرنسي ذو الغمازة وسط ذقنه وذلك التردد الذي اعتراني عندما ارتفعت ذراعي لتضربه».

وعندما رأى روستوف قافلة الأسرى، تبعها ليرى فرنسيَّه ذا الغمازة وسط ذقنه من جديد. كان ممتطياً حصان فارس روسي وهو في بزته الغريبة، يسرح حوله نظرات قلقة. وكان جرحه في ذراعه عديم القيمة. ابتسم لروستوف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ابتسامة مغتصبة وحيّاه بيده. وبقيت وخزات ضمير روستوف وسوء حالته النفسية تلازمه.

ولاحظ أصدقاؤه وزملاؤه ذلك اليوم، واليوم التالي، أنه يلبث ساكتاً منطوياً على نفسه وإن لم يكن حزيناً أو غاضباً. لم يعد يستطيب الشراب بل راح يبحث عن الوحدة ولا يني يقلب الأمر في ذهنه على كل وجوهه.

كان روستوف دائم التفكير في مأثرته العسكرية اللامعة التي، لدهشته البالغة، عادت عليه بصليب سان جورج بل اكتسبت له صفة باسل. فكان فيها شيء لم يتوصل إلى فهمه. كان يحدث نفسه: «إنهم إذن أشد خوفاً مني! هل هذا إذن ما يسمونه بطولة؟ ثم هل حقيقة إنني فعلته من أجل وطني؟ وهذا الآخر، بغمازته وعينيه الزرقاوين، ما هو ذنبه؟ كم كان خائفاً! كان يعتقد أنني سأقتله. لماذا كنت سأقتله؟ ثم هم يعطونني صليب سان جورج. كلا، لا شك إنني لا أفهم شيئاً!».

وبينما كان روستوف يطرح على نفسه كل هذه الأسئلة، دون أن يتوصّل إلى تكوين فكرة واضحة عما كان يمضه، دارت عجلة السعادة لمصلحته كما يحدث غالباً. فقد عيّنوه رئيس كوكبة بعد عجلة أوستروڤنا وأصبحوا يعهدون إليه بالمهام التي تتطلب بسالة نادرة.

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

ما إن عرفت الكونتيسة بمرض ناتاشا ولم تكن قد شفيت من مرضها بعد حتى انطلقت رغم ضعفها إلى موسكو مع پيتيا وكل الذين يتبعونها، واستأذنت الأسرة ماري دميترييڤنا لتقيم نهائياً في مسكنها.

لقد اتخذ مرضها شكلاً جدياً حتى أن سلوكها وفسخ خطبتها، وهما سبب مرضها، أصبحا لحسن حظها وحظ العائلة في المرتبة الثانية. لم تكن حالتها تسمح بالتعمق حول أخطائها المسلكية: لم تعد تأكل ولا تنام وتزداد نحولاً وتسعل. وألمح الأطباء إلى أنها تتعرض لخطر حقيقي. فلم يعد بالإمكان التفكير إلا في معالجتها. وكان الرجال المختصون الذين يجيئون لزيارتها جماعات أو فرادى، يتناقشون كثيراً بالفرنسية والألمانية وأحياناً باللاتينية وينتقدون بعضهم بعضاً ويصفون العلاجات المتنوعة الخاصة بمداواة كل الأمراض التي يعرفونها ولكن ما من أحد منهم خطرت بباله الفكرة البسيطة بأن المرض الذي تشكو منه ناتاشا لم يكن بالنسبة إليهم سهل المعالجة كأي من الآلام التي ترهق الإنسانية. وفي الواقع، إن كلاً منا له بناؤه الخاص، يحمل في نفسه مرضاً خاصاً جديداً يستقل به، معقداً ومجهولاً من الطب، لا يدخل في إصابات الرئتين المبوبة أو الكبد أو الجلد أو القلب أو الأعصاب إلخ... بل ينجم عن تأثيرات لا تحصى أحدثتها عيوب هذه الأجهزة كلها. لم تخطر هذه الفكرة على بال الأطباء كما لا يمكن أن تطرأ على بال السحرة فكرة الكف عن سحرهم. ذلك أن المعالجة كانت مصدر قوتهم وسر وجودهم ومهنة كرسوا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لها أفضل سنواتهم. وأخيراً على الخصوص، كانوا واثقين بأنهم نافعون لشيء ما. والواقع أن وجودهم لدى آل روستوف لم يكن عديم الجدوى والأثر. وأية أهمية لفرضهم على ناتاشا أدوية معظمها ضار خفف أثرها المؤذي بتخفيف الجرعات إلى أقل حد. كان وجودهم ضرورياً بل لا بد منه لمجرد أنهم كانوا يرضون حاجات ناتاشا الفكرية وحاجات من حولها. فلنقل إذن بين معترضتين، إن هذا هو السبب الذي سيظل فيه معالجون مزيفون ومشعوذون سواء من معالجي الداء ضده أو الذين يعالجونه بالتجانس. إنهم يرضون هذه الرغبة الأزلية عندالإنسان، رغبة الحصول على الشفاء ورؤية الناس يتدافعون حوله ويرثون لآلامه. إنهم يرضون هذه الحاجة الأزلية التي تلاحظ عند الطفل على شكله البدائي، حاجة تلك الجهة التي نحس بالألم فيها.

والطفل إذا ما أصاب نفسه بصدمة ما، يهرع بين ذراعي أمه أو مرضعته لتقبله وتدلك له مكان الألم فتمنحه تلك الملاطفة راحة حقيقية. فهو لا يلاحظ أن أشخاصاً أكثر قوة وحكمة يمكن ألّا يستطيعوا العمل على نجدته. لذلك فإن الأمل في نيل الراحة والإشفاق الذي تظهره الأم نحوه وهي تدلك له مكان الألم يكفيانه للترفيه عنه. لقد كان الأطباء إلى جانب ناتاشا يمثلون هذا الدور نفسه، دون «الماما» التي تعانق وتنفخ مكان «الواوا». كانوا يؤكدون لها أن مرضها سيزول حالما يعود الحوذي من صيدلي «الأربات» ومعه بعض المساحيق المحفوظة في علبة جميلة قيمتها روبل واحد وسبعون كوپيكاً فتأخذ منها بانتظام كل ساعتين قدراً مذاباً في ماء مغلي.

تُرى ماذا كان سيقع لسونيا والكونت والكونتيسة لو أنهم اضطروا إلى ضم أذرعهم على صدورهم بدلاً من إعطاء ناتاشا تلك الحبوب في الأوقات المعينة وتلك المشروبات الساخنة ومغلي الأرز بالدجاج والسهر على تنفيذ مئات الإرشادات الأخرى التي أوصى بها الأطباء والتي كانت تتيح لهم عملاً

www.Maktbah.com

يريح نفوسهم؟ هل كان بوسع الكونت احتمال مرض ابنته الغالية لو لم يعرف أن ذلك المرض كلفه حتى تلك اللحظة ألف روبل وأنه ليعطي راضياً ألف روبل أخرى في سبيل شفائها، وأن ذلك إذا لم يكن كافياً فإنه سيضحي بورقة ثالثة من ذات الألف روبل ليأخذ ابنته إلى الخارج ويعرضها هناك على مشاهير الأطباء. ولو أنه لم يجد الفرصة سانحة له ليحدث كل وافد بأن ميتيڤييه وڤيللير لم يفقها شيئاً من مرضها وأن «فريز» كان أوسع خبرة وأن مودروت استطاع أخيراً أن يشخص حقيقة المرض؟

ماذا بوسع الكونتيسة أن تفعل لو أنها لم تستطع التخاصم بين الحين والحين مع المريضة التي لم تكن تراعي بالدقة اللازمة تعليمات كلية الطب؟

كانت تقول بغضب كان ينسيها همها: إذا كنت ستعصين الطبيب ولا تتناولين علاجاتك في حينها، فإنك لن تبرئي أبداً! ابذلي قليلاً من الجد وإلا فإن المرض سينقلب إلى ذات الرئة.

كانت تقول هذه الكلمات وهي تجد سلوكاً كبيراً في نطق هذا الاسم الذي لم يكن متعذراً فهمه عليها وحدها.

ماذا كان بوسع سونيا أن تعمل لو أنها لم تجد القناعة في أن تحدث نفسها بأنها لم تخلع ثيابها طوال الليالي الثلاث الأولى كي تكون مستعدة دائماً لتنفيذ إرشادات الطبيب بحذافيرها وإنها الآن لا تكاد تتذوق طعم النوم كي لا تسهو عن إعطائها الحبات الكامنة في العلبة الجميلة المذهبة؟

زعمت ناتاشا نفسها ما راقها أن ما من علاج يستطيع شفاؤها وأن كل هذه الأشياء إن هي إلا سخافات. مع ذلك فإنها لم تكن تشعر بأقل من متعة النظر إلى ما يقدمون في سبيلها من تضحيات وتناول علاجاتها في ساعاتها المحددة والتظاهر عن طريق إغفال تعليمات الأطباء، بأنها لا تؤمن بشفائها ولا تتمسك بالحياة.

twitter @baghdad_library

يأتي الطبيب كل يوم فيجس نبضها وينظر إلى لسانها ويمازحها دون أن يلقي بالاً إلى وجهها المفتقر إلى العناية. وفي المقابل، كانْ عندما يمضي إلى الغرفة الأخرى حيث تسرع الكونتيسة إلى اللحاق به، يطبع على وجهه سيماء الجد ويهز رأسه بشرود فكر ويعلن أنه رغم الخطر الذي لا يمكن إنكاره، فإنه يعتمد على تأثير العلاج الأخير الجيد وأنه يجب الانتظار والمشاهدة وأن المرض نفسي على الغالب ولكن..

وتدسّ الكونتيسة في يده خفية قطعة ذهبية وتعود إلى سرير المريضة وقلبها أكثر اطمئناناً.

كانت علامات المرض ترتكز على ضعف في الشهية ونقص في النوم ونوبات سعال وبلادة عامة. وكان الأطباء يؤكدون أنه لا يمكن ترك ناتاشا دون معالجات طبية، لذلك يحتفظون بها في جو المدينة الخانق. وعليه، فقد قضى آل روستوف صيف عام ١٨١٢ كله في موسكو.

وعلى الرغم من ابتلاع الحبات والقطرات والمساحيق الأكثر اختلافاً المعبأة في علب أو في زجاجات كانت مدام شوسّي التي تبحث عن مثلها قد جمعت منها مجموعة كاملة، وعلى الرغم من حرمانها من هواء الحقول، فإن الشباب تغلب. أخذت تأثيرات الحياة الجارية تخفف الهمّ عن ناتاشا رويداً رويداً وترميه بلطف في أعماق الماضي وبدأت قواها الجسدية تعود تدريجاً.

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

لم تعد ناتاشا تتحاشى مناسبات الترفيه، وأصبحت أكثر اطمئناناً وليس أكثر جذلاً، وعادت إلى حضور الحفلات الموسيقية والراقصة والمسارح والنزهات، بل كانت كذلك لا تضحك إلا والدموع من وراء ضحكتها، ولم تعد تقوى على الغناء. وكلما حاولت أن تضحك أو أن تختبر صوتها في خلوة مع نفسها، كانت الدموع تخنقها، دموع الغيظ لأنها حطمت بحماقتها وجودها الفتي الذي كان يمكن أن يكون في أعمق مراتب السعادة. وكان الضحك، وبصورة خاصة الغناء يبدوان لها تدنيساً لألمها. لقد أغفلت كل مظاهر الدلال دون أن تشعر بأي حرمان منها.

كانت تقول وتشعر أن كل الأشخاص أصبحوا في نظرها سواء أشبه بالمهرج ناستاسيا إيڤانوڤنا وكان هاتف داخلي يحرم عليها كل متعة. لقد فقدت كل موجبات الحياة التي طالما ملأت شبابها بالآمال. وكان أكثر ما تذكره بأشدّ أسى، أشهر الخريف تلك والصيد وأعياد الميلاد التي جرت في اترادنواي برفقة نيكولا. لم تكن لتبخل بشيء تهبه في سبيل بعث يوم واحد من تلك الأيام الرائعة! ولكن لا، لقد اختفت إلى الأبد.

كان شعور مسبق يقول لها إنها لن ترى بعد روحها المتحررة السابقة المتفتحة لكل المباهج. مع ذلك كان يجب أن تعيش.

كانت تفكر، ليس دون ارتياح، خلافاً لما كانت تظنه حتى ذلك الوقت،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من أنها أفضل من الأخريات، إنها أخبث كل المخلوقات في الوجود. وإنه لعزاء كاف! كانت تتساءل دون جدوى: «ماذا يخبئ لي المستقبل؟» ما كانت الحياة لتدخر لها أية مسرة مع ذلك فقد كانت الحياة تمر. لذلك دأبت ألّا تكون عالة على أحد وألّا تطالب بشيء من أجلها وراحت تتجنب كل أقربائها باستثناء أخيها بيتيا الذي كانت صحبته تسرها، بل إنها أحياناً كانت في خلوتها معه تستعيد مرحها. وكفت تقريباً عن الخروج ولم تعد تشعر بأية رغبة في لقاء الذين ألفوا زيارة البيت باستثناء بيار. والواقع أنه كان يستحيل إيداع حنان ولياقة بل جد كذلك أكثر مما كان يودعه الكونت بيزوخوف في علاقاته مع ناتاشا. وكانت تشعر بذلك العطف بإبهام دون أن تعترف له بما يستحق من جميل. كان يخيل إليها أن هذا التصنع الدقيق من جانب بيار لا يكلفه مجهوداً كبيراً وأنه بطبيعته شديد الطيبة مع كل الناس حتى ليصبح تصرفه تجاهها خالياً من كل المزايا.

وكانت ناتاشا أحياناً تلاحظ اضطرابه في حضرتها وخصوصاً عندما يخشى أن تذكرها المحادثة بذكريات أليمة، فكانت تعزو ذلك إلى طيبة قلبه وخجله لأنه، حسب زعمها، لا بد وأن يكون خجولاً مع الناس كلهم كحاله معي. ومنذ ذلك اليوم الذي قال لها دون وعي إذ رآها شديدة الاضطراب، إنه لو كان حراً لسألها يدها وحبها وهو جاث على ركبتيه، لم يعد بيار يحدثها عن عواطفه، تلك الكلمات التي كانت لها حينذاك عوناً كبيراً. وكانت ناتاشا تقدر أنه يجب ألّا تعلّق بعد الآن، أهمية إلا على الأحاديث التافهة التي يقصد بها مواساة طفل، ليس لأن بيار متزوج، بل لشعور ناتاشا بقيام تلك الحواجز الفكرية التي انخفضت أمام كوراغين، منتصبة شديدة الارتفاع فما كانت لتفكر إطلاقاً في أن علاقتهما الطيبة يمكن أن تتحول إلى حب أو حتى إلى تلك

www.Maktbah.com

الصداقة الشاعرية التي يمكن أن تتبادل بين رجل وامرأة والتي عرفت أمثلة عنها.

بعد صوم القديس بطرس، جاءت أغرافينا إيڤانوڤنا بيلوڤا، وهي إحدى جارات آل روستوف في الريف، إلى العاصمة لتحج. فعرضت على ناتاشا أن تنضم إليها لتمجيد القديسين الموسكوڤيين فقبلت العرض بفرح. وعلى الرغم من أن الأطباء حرموا عليها الخروج مبكرة، فقد صممت على أن تظهر تعبدها ليس على طريقة آل روستوف الذين يقيمون عادة ثلاث صلوات خاصة، بل على طريقة أغرافينا إيڤانوڤنا التي بقيت طوال أسبوع كامل تحضر كل القداسات وصلوات الصبح والغروب والنوم.

ولقد راقت الكونتيسة حماسة ابنتها الدينية فكانت تأمل في أعماق قلبها أنه بعد المعالجة قليلة الجدوى التي أجراها الأطباء يمكن أن يكون للصلاة مفعول أقوى من الأدوية. لذلك استسلمت لرغبة ابنتها وسلمتها للسيدة بيلوڤا وهي تختفي خائفة من لقاء الطبيب. وكانت أغرافينا إيڤانوڤنا تحضر ابتداء من الساعة الثالثة صباحاً لتصحب ناتاشا التي كثيراً ما وجدتها مستيقظة. وبعد أن ترتب شعرها بسرعة وترتدي على سبيل التواضع أبشع ثوب لديها ومعطفاً قديماً ثم تطوف في الشوارع الخالية التي يضيئها الفجر بأشعة شفافة وهي ترتجف. إذ كانت ناتاشا، تبعاً لنصيحة رفيقتها، لا تذهب إلى كنيسة رعيّتها، بل إلى كنيسة كان الراهب فيها يعيش حياة كلها تقشف حسب مزاعم السيدة بيلوڤنا الورعة. وكان المؤمنون في تلك الكنيسة قليلي العدد دائماً والمرأتان تتخذان عادة مكاناً لهما في الجانب الأيسر أمام صورة للعذراء فاستحوذ شعور مجهول أوجده الخضوع والخشوع أمام ما لا يُطال، على الفتاة كلما راحت تتأمل وجه أم الله المضاء بالشموع وبنور الفجر الذي كان

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في تلك الساعة الخارفة يسقط عليه من إحدى النوافذ وكلما أصاخت السمع إلى القداس مجتهدة أن تتبعه وتتفهمه. وعندما كانت تفهمه، كانت عواطفها الشخصية بمختلف مقوماتها تختلط بصلاتها.

أما في الحالة العكسية فإن التفكير في أن رغبتها فهم كل شيء نوع من الكبرياء، وأنه لا يمكن فهم كل شيء بل يجب الإيمان فقط والاستسلام لرب تشعر في تلك اللحظات أنه سيد روحها، كان أكثر عذوبة في نفسها. وكانت ترسم إشارة الصليب على صدرها وتركع. وعندما يتعذر عليها الفهم تكتفي بالتوسل إلى الله والخوف مستول عليها إزاء بغيها، أن يغفر لها كل شيء وأن يرأف بحالها. وكانت أدعية الندم مفضلة عندها على كل الصلوات. وفي أوبتها في ساعة لا تزال شديدة الابتكار، حين لا يكون في الشوارع إلا البناؤون الذاهبون إلى أعمالهم والخادمات يكنسن أمام البيوت، ويكون الناس كلهم نياماً، كانت ناتاشا تفاجئ نفسها متوقعة إمكانية نهضة وحياة جديدة نقية وسعيدة.

استمر شعورها بالبعث يزداد نمواً خلال الأسبوع الذي أمضته كله في هذه الممارسات الورعة. فالمناولة أو المكالمة مع الله كما كان يحلو لأغرافينا إيـڤانوڤنا أن تحور الكلمة، كانت تبدو لها سعادة كبرى حتى أنها كانت تخشى أن تموت قبل ذلك الأحد السعيد.

وجاء ذلك اليوم السعيد. وعندما جاءت ناتاشا من التناول ذلك الأحد الذي لا ينسى، مرتدية ثوبها القطني الأبيض، شعرت لأول مرة منذ أشهر طويلة أنها في حالة سلم مع ذاتها فلم تعد الحياة التي تنتظرها تبدو لها عسيرة ومتعبة.

وبعد أن فحص الطبيب الذي كان ذلك اليوم موعد زيارته ناتاشا، أمر أن تكرر تناول المسحوق الذي أوصى لها به قبل خمسة عشر يوماً وقال وهو

www.Maktbah.com

يتظاهر بسعادة مخلصة لتحسن حالتها: أرجوك، صبحاً ومساء دون خطأ وبكل دقة.

وبينما هو يقبض قطعته الذهبية في راحة يده، داعب الكونتيسة قائلاً:

ـ كوني مطمئنة يا سيدتي الكونتيسة. سوف ترينها بعد قليل تغني وتمرح مجدداً. لقد أفادها العلاج الأخير إفادة كلية. إن مظهرها في تحسن.

ولكي تطرد الكونتيسة فأل السوء، بصقت وهي تنظر إلى أظفارها ثم ذهبت إلى القاعة متهللة الأسارير.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

انتشرت في موسكو، في مطلع شهر تموز أنباء متفاقمة الخطورة: يتحدثون عن نداء من الأمبراطور إلى الشعب وعن عودته القريبة. ولما لم يتلق أحد حتى الحادي عشرأي بلاغ، فإن أكثر الإشاعات مبالغة انتشرت حول هذا الموضوع كما حول الموقف العام. كانوا يزعمون أن ألكسندر يترك الجيش لأن الجيش في خطر وأن سمولنسك قد استسلمت وأن لدى ناپليون مليون رجل وأن المعجزة وحدها يمكن أن تنقذ روسيا.

ويوم السبت في الحادي عشر، تلقوا البيان ولكن لا يزال يجب طبعه. لقد وعد پيار الذي كان ذلك اليوم لدى آل روستوف، أن يعود غداً الأحد لتناول الطعام وأن يأتي بالبيان والغداء اللذين سيحصل عليهما عند الكونت روستوبتشين.

في ذلك الأحد، ذهب آل روستوف كما هي عادتهم إلى كنيسة آل رازوموڤسكي الخاصة لحضور القداس. ومنذ الساعة العاشرة، عندما ترجلوا من عربتهم أمام الكنيسة، كان الهواء ساخناً وصيحات الشيالين، والجمهور في ثيابه الفاتحة وأشجار الشارع المغطاة بالغبار وضوضاء الموسيقى، والسراويل التي كان يرتديها جنود كتيبة ذاهبة إلى العرض، وهدير العربات على بلاط الشارع، وحرارة الشمس التي تعمي العيون، كل ذلك كان يضفي على الناس شعوراً بالإرهاق والانزعاج بارزاً خلال بهجة الحياة التي يلمسها المرء في مدينة كبيرة ذات يوم مفرط الحرارة. وكان أشراف موسكو كلهم

www.Maktbah.com

وكل معارف آل روستوف مجتمعين في الكنيسة، ذلك أن كثيراً من العائلات الغنية لم تذهب ذلك العام إلى أراضيها الريفية بانتظار الأحداث الجارية. سمعت ناتاشا وهي تتبع مع أمها خادماً في ثياب رسمية يفسح لهما في الطريق بين الجماهير، شاباً يقول لآخر بصوت أعلى من الطبقة الطبيعية:

ـ هذه هي الآنسة روستوف، تلك التي...

ـ كم نحلت! مع ذلك، لا تزال جميلة.

خيل إليها أنها تبينت في حديثهما اسمي كوراغين وبولكونسكي. على أية حال، كان هذا يحدث لها باستمرار. كانت تتصور دائماً، أن كل من يراها يفكر في مغامرتها. أخذت ناتاشا تتقدم منقبضة الصدر كعادتها كلما وجدت نفسها في حفلة، وهي ترتدي ثوباً حريرياً ليلكي اللون موشى بالمخرم الأسود، متخذة ذلك المظهر الذي تحسن النساء اتخاذه، فيه كثير من الهدوء والجلال بقدر ما كان في أعماق قلبها ألم وخجل. كانت تعرف أنها جميلة بالفعل. لكن ذلك لم يكن ليبهجها كسابق العهد بل على العكس يعذبها خصوصاً في مثل ذلك الأحد المشرق القائظ.

راحت تحدث نفسها وهي تذكر أنها جاءت الأحد الفائت إلى هنا: «أحد آخر، أسبوع آخر ينقضي بينما تستمر الحياة هي هي، لا حياة، في جو كان العيش فيه سابقاً متعة حقيقية. إنني شابة وجميلة ولقد أصبحت جيدة. نعم، لقد كنت رديئة فيما مضى أما الآن فأنا أعرف أنني طيبة رغم ذلك، فإن أفضل سنواتي تمر ضياع هباء دون فائدة لأحد». جلست إلى جانب أمها وتبادلت مع بعض معارفها إشارات برأسها. وبحكم عادتها المألوفة راحت تتفحص زينة النساء وتنتقد المظهر والأسلوب غير المحتشم الذي دأبت إحدى جاراتها ترسم به إشارات الصليب، وفكرت في غير قليل من السخط أنها ولا بد مدار أحكام متهورة وأنها هي الأخرى تسمح لنفسها باتخاذ مثلها حيال الآخرين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وفجأة، بينما بدأ القداس، شعرت بخجل لانحطاطها وفكرت من جديد في أنها أضاعت نقاءها القديم.

كان عجوز قصير القامة، نبيل الأسارير، يقدس بطلاقة جليلة تحدث في نفس المؤمنين أثراً مهدئاً جداً. وفتحت الأبواب الملكية وأسدل ستار المحراب ببطء وارتفع صوت غامض جميل تسلل إلى الأسماع وراحت الدموع التي لم تكن تدرك لها سبباً تنبجس في أعماقها واستولى عليها ارتخاء سعيد.

راحت تصلي: «علمني ما يجب أن أفعل وكيف يجب أن أتصرف في الحياة وأتصرف مرة إلى الأبد، إلى الأبد»!

تقدم الشماس إلى المنبر وحرر شعره الطويل العالق بثوبه الكهنوتي بحركة عريضة من إبهامه، وبعد أن ارتسم، ردد بصوت عال جليل الصلاة:

ـ لنصلِّ إلى الله بسلام.

فكرت ناتاشا: «نعم، لنصل كلنا معاً، دون تباين في الطبقات، يجمعنا حب أخوي».

ـ لنبتهل إلى الرب من أجل السلام والخلاص لأرواحنا.

ففهمت ناتاشا أنه: «من أجل عالم الملائكة وكل الأرواح غير المتجسدة التي تعيش فوقنا».

وعندما صلوا من أجل الجيوش، تذكرت أخاها ودينيسوف. ولما صلوا من أجل البحارة والمسافرين، تذكرت الأمير أندريه وصلّت من أجله وتوسلت إلى الله أن يغفر لها الأذى الذي سببته لخطيبها. وعندما صلوا من أجل أولئك الذين يحبوننا، صلت من أجل أقاربها كلهم، من أجل أبيها وأمها وسونيا وبانت لها للمرة الأولى خطورة الأخطاء التي وقعت فيها نحوهم كما ظهرت لها قوة الحب الذي تكنه لهم. وعندما صلوا من أجل الذين يكرهوننا،

www.Maktbah.com

راحت تبحث عمن يمكن أن يكونوا أعداءها لتصلي من أجلهم فلم تجد غير دائني أبيها وكل أولئك الذين لهم به صلات عمل. وفكرت في أناتول الذي سبب كثيراً من الأذى، وعلى الرغم من أنه لم يُدرج في عداد أولئك الذين يكرهونها، فقد صلت من أجله وكأنه عدو.

كانت في تلك اللحظات فقط تجد في نفسها القدرة الكافية على استعراض ذكرى أندريه وأناتول دون أن تضطرب لأن عواطفها التي تشعر بها تجاههما حينذاك كانت تختفي أمام خوفها من الله وحبها له. وعندما صلوا من أجل أسرة الأمبراطور وسان سينود[1]، رسمت إشارة الصليب من جديد وانحنت بأكثر حمية وتقوى وهي تحدث نفسها أنه بعدم فهمها حقيقة ما يراد بذلك، فإنها يجب على أية حال أن تحب سينود هذا وتصلي من أجله.

وعندما انتهت الجبوة، شبك الشماس «بطرشينه» على صدره وردد:

ـ لنضع شخصنا وكل حياتنا بين يدي المسيح ربنا.

فكررت ناتاشا في سرها: «لنضع شخصنا بين يدي الله. رباه إنني أسلم نفسي لمشيئتك. لست أريد شيئاً ولا أرغب في شيء. علمني ماذا يجب أن أفعل وكيف استعمل الإرادة». وراحت تكرر بنفاد صبر وانجذاب من أعماق قلبها: «ولكن خذني»! ودون أن ترتسم مجدداً، أسبلت ذراعيها وبدت كأنها تنتظر قوة غير مرئية تأتي فتمسك بها وتنتزعها من نفسها، من تحسراتها ورغباتها وآمالها وأسوائها.

وقد ألقت الكونتيسة خلال القداس مراراً، نظرات على وجه ابنتها المتأمل وعينيها الساطعتين وابتهلت إلى الله أن يكون في عونها.

وعند منتصف القداس، لاحظت ناتاشا وقوع مخالفة للمألوف: لقد جاء

---

(١) تعبير يقصد به المجمع المقدس (سينودوس) (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قيّم الكنيسة بالمقعد الصغير الذي يقرأون الصلوات ركوعاً عليه يوم العنصرة ووضعه قبالة الأبواب الملكية. وخرج الكاهن وعلى رأسه قلنسوة من قطيفة بلون ليلكي من محراب وسوى شعره ثم ركع بصعوبة. فحذا المصلون حذوه ولكن ليس دون أن يتبادلوا نظرات قلقة. كان الموضوع متعلقاً بصلاة أرسلها سينود للتوسل إلى الله أن ينقذ روسيا من الغزو الأجنبي.

بدأ الكاهن بصوته الواضح العذب الخالي من التفخيم الذي ينفرد به الكهان السلافيون والذي له أقوى الأثر في القلوب الروسية: «أيها الرب القادر على كل شيء، رب خلاصنا، تنازل برحمتك واخفض اليوم نظرتك إلى خدامك المتواضعين، أصغ إلى صلاتنا وارحمنا واشفق علينا. إن العدو الذي يقلب أرضك ويزمع أن يجعل من العالم كله صحراء قد نشط ضدنا. واجتمع الزنادقة ليدمروا ملكك ويهدموا أورشليمك المخلصة، روسياك الحبيبة، ويدنسوا معابدك ويقلبوا مذابحك ويحقروا أشياءنا المقدسة. إلى متى أيها الرب ينتصر الخاطئون؟ إلى متى يستطيعون استخدام قوتهم المجرمة؟

«أيها الرب كلي القدرة، إصغ إلى صلواتنا. أعن بقوتك أمبراطورنا شديد التقوى مطلق السلطان ألكسندر بافلوفيتش، تذكر استقامته وحلمه، عامله بمثل الرفق الذي يعاملنا به نحن، شعبك المحبوب، بارك قراراته ومشاريعه ومكّن ملكه بيمينك الشديدة القوة وهب له النصر على العدو كما وهبته لموسى على Amalex (العمالقة) ولجدعون على مَدْين ولداوود على غوليات واحفظ جيوشه، وضع قوس الميديين في يد الذين يحاربون باسمك وأحط صدورهم بقوتك. خذ أسلحتك وترسك وتعال إلى نجدتنا. وليصب العار والبلبال أولئك الذين يريدون بنا الشر وليكونوا أمام المخلصين لك أشبه بالغبار أمام الريح وليلعنهم ملكك وليطاردهم، ليحط بهم شبكك دون أن يشعروا وليقعوا

www.Maktbah.com

في شباكهم نفسها وليقعوا على أقدام خدامك ولتطأهم جيوشك أيها الرب! إليك مرجع سلام الكبار الصغار. أنت الله، ولا يستطيع الإنسان تجاهك شيئاً.

«يا رب آبائنا، تذكر رحمتك وشهامتك اللتين هما أزليتان. لا تبعدنا عن وجهك ولا تحقد علينا لفحشائنا، أنظر إلى جرائمنا وخطايانا بكل سعة رحمتك اخلق فينا قلباً نقياً وجدد في صدرنا فكرة الحق. قونا جميعنا في الإيمان ومكن آمالنا وأوح إلينا حباً حقيقياً بعضنا لبعض، سلمنا بروح واحدة للدفاع المشروع عن الميراث الذي أعطيته لنا ولآبائنا، وليمتنع صولجان الكفرة عن الارتفاع على فئة المصطفين.

«أيها الإله ربنا الذي نؤمن به والذي وضعنا فيه ثقتنا، لا تخيب انتظارنا، قم بإشارة لمصلحتنا. ليبل الذين يكرهوننا نحن وديننا الأورثوذكسي المقدس بالبكم ولينفقوا. ولتعلم الأقوام كلها أن اسمك هو الله وأننا أبناؤك. أيها الرب، أظهر لنا شفاعتك وامنحنا خلاصك وأبهج قلب خدامك واضرب أعداءنا واقلبهم بأسرع وقت تحت أقدام المؤمنين بك المخلصين. لأنك أنت السند والنجد والنصر لأولئك الذين يؤمنون بك. المجد للأب والابن وللروح القدس الآن ودائماً وإلى أبد الآبدين».

كانت روح ناتاشا متفتحة لكل الأحاسيس حتى بات لهذه الصلاة أثر شديد فيها. والواقع أن انتصارات موسى على العمالقة هذه وجدعون على مدين وداوود على غوليات وانهيار أورشليم أيضاً، كانت تدفعها إلى الصلاة بكل الحمية التي كانت تفعم قلبها. مع ذلك، فإنها لم تكن تدرك كل ما تطلبه من الله. ولقد اتحدت اتحاداً كلياً مع البهلة للحصول على عقلية مستقيمة وقلب يقويه الإيمان ويوقظه الأمل ويحييه الحب. ولكن كيف كانت تستطيع التماس إفناء أعدائها وهي التي كانت قبل دقائق ترغب في الحصول على عدد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أكبر منهم لتصلي من أجلهم؟ مع ذلك، فإنها لم تكن لتضع الصلاة التي انتهوا من تلاوتها راكعين موضع الشك من حيث موضوعها. كانت تشعر في أعماقها بارتعاشة تقية وذعر مقدس وهي تفكر في العقاب الذي ينزل بالخاطئين وعلى الخصوص بذلك الذي بنفسها له. توسلت إلى الله أن يمنحهم الغفران جميعهم والراحة والسعادة في هذه الدار. وخيل إليها أن الله كان يصغي إلى صلاتها.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

لا يزال پيار تحت تأثير نظرة ناتاشا منذ ذلك اليوم الذي تأمل النجم المذنب وهو في طريق عودته من لدن آل روستوف وأحسّ بأفق جديد يفتح أمامه، وتوقفت مسألة العدم والكبرياء بكل ما هو أرضي عن تعذيبه. والسؤال المؤلم: «لماذا؟» الذي كان من قبل يتدخل في كل مشاغله، لم يترك مكانه لسؤال آخر ولا لأي حل كان، بل للصورة التي احتفظ بها «لها». فإذا تابع أو أثار هو نفسه مناقشة مبتذلة أو قرأ أو تعلم حماقة ما أو رذيلة فما كان يسخط كسابق عهده ولم يعد يتساءل عن سبب اضطراب الناس إلى هذا الحد في حين أن كل شيء شديد القصر قبل القفزة إلى المجهول. ولكي تزول كل شكوكه، كان يكفيه أن يتمثلها «هي» كما رآها آخر مرة وعندئذ تختفي كل الشكوك ليس لأنها تجيب عن الأسئلة التي تعرض له، ولكن لأن صورتها كانت تنقله فجأة إلى منطقة مشرقة من الروح حيث لا يستطيع أن يرى هناك محقاً ولا مذنباً، إلى منطقة الجمال والحب، هذين السببين الوحيدين للحياة.

ومهما بلغت الأسواء الفكرية التي كانت الحياة توجدها أمامه فإنه كان يحدث نفسه: «لا يهمني أن يكون ن. ن. قد سرق الدولة والقيصر وأن يكون القيصر والدولة يغدقان عليه الأمجاد مكافأة له. لقد ابتسمت لي أمس ورجتني أن أعود لزيارتها. أحبها ولن يعرف أحد إطلاقاً شيئاً». وحينئذ تحتفظ نفسه بكل إشراقها.

خلال ذلك، استمر پيار في ارتياد المحافل والإكثار من الشراب والحياة

twitter @baghdad_library

في الفجور لأنه كان عليه إضافة إلى الساعات التي يقضيها لدى آل روستوف أن يقتل ما تبقّى من الوقت. ثم إن معارفه كعاداته كانوا يجرونه دون أي رادع إلى مثل هذه الحياة. ولكن، في الأوقات الأخيرة، عندما أصبحت أنباء الحرب أكثر إخافة، وعندما كفت ناتاشا، بعد أن أبلت قليلاً، عن الإيحاء إليه بمثل ذلك الاشفاق المرهف، تملّكته كآبة غامضة أخذت تزداد قوة يوماً بعد يوم. كان يشعر بأن مصيبة ما سوف تقلب حياته رأساً على عقب فكان يترقب بنفاد صبر الإشارات المنذرة، أطلعه أحد إخوانه الماسونيين على النبوءة التالية المتعلقة بناپليون.

يقول الإصحاح الثالث عشر من رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي الآية الثامنة عشرة: «ها هنا الحكمة! ليحصي لديه ذكاء عدد الوحش لأنه عدد إنسان وهذا العدد هو ستمائة وستة وستين».

وفي الإصحاح نفسه الآية الخامسة: «ولقد أعطي له فم ينطق بكلمات متكبرة تجديفية ولقد أعطي له أن يعمل خلال اثنين وأربعين شهراً».

وإذا نقلت بالفرنسية الأعداد العبرية، حيث الأحرف العشرة الأولى تمثل تتابع الآحاد والتي تتابع العشرات يُحصل على الجدول التالي:

A	B	C	D	E	F	G	H	I	K	L	M	N
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	20	30	40
O	P	Q	R	S		T	U	V	W	X	Y	Z
50	60	70	80	90		100	110	120	130	140	150	160

فإذا كتبت الأرقام تبعاً لهذه الآية تكون الكلمات: «الأمبراطور ناپليون L'empereur Napoléon فإن مجموع هذه الأرقام يعطي بالتأكيد ٦٦٦، وتبعاً لذلك فإن ناپليون هو الوحش الذي تنبأ به يوحنا. ومن جهة أخرى، إذا كتبنا تبعاً لتلك الألفبائية كلمة اثنين وأربعين Quarante-deux. أي الحد المقرر

www.Maktbah.com

للوحش لكي «ينطق بكلمات متكبرة تجديفية» فإن مجموع هذه الأرقام يكون ٦٦٦ من جديد. وإذن فإن حدود سلطان ناپليون سينتهي عام ١٨١٢ الذي سيبلغ خلاله الثانية والأربعين.

وهذه النبوءة أدهشت پيار كثيراً وراح يتساءل عمن سيضع حداً لسلطة الوحش أو بعبارة أخرى لناپليون. وأخذ يحاول إيجاد جواب عن هذا السؤال بواسطة التعداد نفسه. جرب أولاً عبارة: الأمبراطور ألكسندر؟ ثم: الأمة الروسية؟ لكن المجموع كان إما أكثر وإما أقل من رقم ٦٦٦. وذات يوم جاءته فكرة إحصاء اسم: الكونت پيار بيزوخوف لكنه لم يتوصل إلى الرقم المنشود. وضع حرف «z» بدلاً من حرف «S» في اسمه «Bézouk'hoff» وأضاف إشارة «de» بدلاً من «الـ» التعريف ولكن دون نتيجة مرضية. وحينئذ تبادر إلى ذهنه أنه إذا كان الجواب عن السؤال كامناً في اسمه فيجب عليه إضافة قوميته إليه. كتب حينئذ: الروسي بيزوخوف فجاءت نتيجة الجمع ٦٧١ أي بزيادة «o». ورقم «o» يمثل حسب هذا التعداد حرف «e»، أي الحرف نفسه المحذوف من «الـ» التعريف «L» التي تسبق كلمة أمبراطور[1]. وإذن فإن حذف هذا الحرف من اسمه ـ وهو حذف غير صحيح ـ يعطيه الرقم المنشود ٦٦٦ (أي L'russe Bésuhof بدلاً من Le russe Besuh'of). قلبه هذا الاكتشاف ظهراً لبطن. كيف، وبأي رباط يتصل هو بهذا الحدث الكبير الذي تعلنه رؤيا القديس يوحنا؟ لم يكن يدري لكنه لم يرتب أبداً في صحته. كان حبه للآنسة روستوف، والدجال وغزو ناپليون والنجم المذنب وهذا الرقم ٦٦٦ الذي هو الأمبراطور ناپليون والروسي بيزوخوف، كل هذه العوامل كان لا بد وأن تختلط في نفسه لتنفجر ذات يوم وتجره بعيداً عن دائرة العادة الموسكوڤية

(١) «باللغة الفرنسية وتحذف عادة عند إلقاء حرفين صوتيين ما هو معلوم».

twitter @baghdad_library

الفاسدة التي كان يشعر أنه سجين ضمنها لتأخذ بيده كي يقوم بعمل بطولي ويبلغ ذلك سعادة قصوى.

مساء ذلك الأحد، الذي تليت فيه تلك الصلاة كان پيار قد وعد آل روستوف بأن يأتيهم بالبيان وبآخر أنباء الجيش التي كان على روستوبتشين أن ينهيها إليه. وفيما هو يدخل صباح اليوم التالي عنده، وجد حامل بريد حديث الوصول من الجيش كان پيار يعرفه منذ زمن طويل إذ التقاه في حفلات موسكو الراقصة.

قال حامل البريد: ستكون لطيفاً لو ساعدتني قليلاً إذ لدي ملء كيس من الرسائل إلى الأقارب.

بين تلك الرسائل، وجد پيار واحدة من نيكولا روستوف إلى أبيه فأخذها أضف إلى ذلك أن الكونت روستوبتشين أعطاه نداء الأمبراطور إلى موسكو الذي انتهى من طبعه حديثاً والأوامر اليومية الجديدة الصادرة عن الجيش وآخر بيان عنه. وبينما پيار يمر بنظره على لائحة القتلى والجرحى والمكافآت الممنوحة، وجد اسم نيكولا روستوف حائزاً صليب سان جورج من الدرجة الرابعة للبسالة التي أبداها في مسألة أوستروڤينا. وكان الأمر اليومي نفسه يحمل نبأ تعيين أندريه پولكونسكي لقيادة فوج من القناصة. ولما لم يكن يتعمد تذكير آل روستوف باسم پولكونسكي منذ ذلك الوقت فإنه لم يستطع الامتناع عن إبلاغهم بأسرع ما يمكن نبأ الامتياز الذي حصل عليه ابنهم متجنباً حمل الأوامر اليومية والنداء وبيان الجيش إليهم وقت الطعام مكتفياً بإرسال النداء المطبوع والرسالة بأسرع ما يمكن.

وساهم حديثه مع الكونت روستوبتشين وانشغال هذا وقلقه ولقاء حامل البريد الذي وصف له بلا مبالاة الحالة السيئة التي بلغت إليها أوضاعنا والشائعة التي راجت باكتشاف جواسيس في موسكو كانوا يوزعون أوراقاً جاء فيها أن

www.Maktbah.com

ناپليون يعد باحتلال العاصمتين قبل الخريف وانتظار وصول الأمبراطور في اليوم التالي، كل هذا ساهم في إنماء ذلك الاضطراب المحموم في نفس پيار الذي لم يفارقه منذ ظهور النجم المذنب وبصورة خاصة منذ بدء الحرب.

منذ فترة طويلة كان پيار يغذي فكرة الانتساب إلى الجيش. لكن يمينه كان يربطه بالمحفل الماسوني الذي يبشر بالسلم الأبدي وإبطال الحروب. ثم إن رؤية كل هذه الكثرة من الموسكوڤيين الذين يرتدون اللباس العسكري وهم يعرضون وطنيتهم، لم يكن يحفزه كثيراً للقيام بمثل هذا. كان في أعماقه يخضع بشدة، دون أن يلتحق بالخدمة، لذلك الاعتقاد الغامض بأنه هو، الروسي بيزوخوف الذي يمثل رقم الوحش ٦٦٦، وأن مساهمته في العمل الكبير الذي يهدف إلى إبادة الوحش مقررة منذ أبعد الأزل. فلم يكن عليه والحالة هذه أن يبدأ بشيء من تلقاء نفسه بل أن ينتظر ما سيقع دون أن يكون له مرد.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العشرون

وكعادتهم كل يوم أحد، كان آل روستوف يستقبلون بعض المقربين إلى مائدة الغداء. وقد وصل پيار مبكراً لكي ينفرد بهم.

ولقد ازدادت سمنته، ذلك العام، لدرجة كادت تكون مشوهة لولا أن قامته المديدة وبنيته المتينة وتكوينه القوي كانت تساعده على احتمال وزن شخصه بسهولة.

صعد السلم لاهثاً وهو يدمدم بشيء بينه وبين نفسه. ولما كان حوذي پيار يعرف أن الكونت يتأخر عادة لدى آل روستوف حتى منتصف الليل، فلم يسأله عما إذا كان عليه أن ينتظره. ولقد أسرع الخدم يتنافسون في تخليصه من معطفه وأخذ عصاه وقبعته التي درجت عادته في النادي على تركها في الدهليز.

كانت ناتاشا هي الشخص الأول الذي رآه، أو الأحرى الذي سمعه منذ أن دخل الردهة. كانت تتدرب على الألحان في قاعة الرقص. ولما كان يعرف أنها لم تغن خلال مدة مرضها، فقد أحدث صوتها في نفسه مفاجأة سارة. فتح الباب على مهل: كانت ناتاشا مرتدية ذلك الثوب الخبازي الذي ارتدته بمناسبة القداس، تروح وتجيء وهي تمرن صوتها. استدارت فجأة على صوت الباب فشاهدت وجه پيار الضخم المروع. احمرّ وجهها وتقدمت نحوه.

قالت وكأنها تعتذر: إنني أحاول أن أعود إلى الغناء.

إنك على كل الحق.

www.Maktbah.com

تابعت بتلك الحيوية القديمة التي لم يرها پيار منذ مدة طويلة:

ـ كم أنا مسرورة لمجيئك! إنني سعيدة جداً اليوم! هل تعلم، لقد حصل نيكولا على صليب سان جورج. إنني فخورة به.

ـ بلى، إنني أنا الذي أرسلت الأمر اليومي إليكم...

وأضاف وهو يتجه نحو القاعة: هيا، لا أريد أن أزعجك.

استوقفته ناتاشا وسألته ووجهها يتخضب بالحمرة وهي تنظر إلى عينيه مباشرة. كونت، هل أخطئ إذ أغني؟

ـ كلا... كلا... على العكس لِمَ هذا السؤال؟

أجابت بحماسة: لست أدري. لكنني لا أريد أن أقوم بشيء تستقبحه. إنني أثق بك ثقة لا حدود لها.

وأضافت بتلك اللهجة نفسها دون أن تلاحظ أن پيار قد أصبح محمرّ الوجه: إنك تعرف أي دور تلعبه في حياتي وكم من الأشياء فعلتها من أجلي... آه! لقد وجدت في ذلك الأمر اليومي نفسه «إنه» في روسيا..

وتابعت وهي تخفض صوتها:

ـ نعم، هو، پولكونسكي... عاد إلى الخدمة. هل تظن أنه سيغفر لي ذات يوم؟ هل تفكر في أنه سيحقد علي دائماً؟ قل لي، ماذا تفكر؟

ألقت هذه الأسئلة بتلاحق خشية أن تخونها قواها. فقال پيار:

ـ أظن... أن لا شيء لديه يغفر لك. ولو أنني كنت مكانه...

حملت پيار دفعة من الذكريات فجأة إلى الفترة التي قال لها محاولاً الترويح عن نفسها، إنه لو كان يملك حريته أو كان أفضل الرجال، لسألها يدها وهو جاث على ركبتيه. فلم تلبث تلك الأحاسيس من الإشفاق والحنان والحب أن ملأت قلبه واندفعت إلى شفتيه الكلمات نفسها التي فاه بها حينذاك. لكنها لم تمهله حتى يتفوّه بها.

twitter @baghdad_library

صاحت وهي تشدد على كلمة «أنت» بشيء من العجب:

ـ أوه! أنت... أنت،... إنه أمر مختلف تماماً. أنا لا أعرف رجلاً أفضل ولا أشد كرماً منك. ثم إنه لا يمكن أن يكون أفضل منك. ولو أنني لم أكن أعرفك حينذاك، ولو أنني لم أكن أعرفك حتى الآن، لما عرفت ماذا سيكون من أمري لأن...

واغرورقت الدموع في مآقيها وأشاحت عنه وأخفت وجهها وراء دفتر الموسيقى ثم استأنفت غناءها ومشيها.

وفي الوقت نفسه، أسرع پيتيا إلى القاعة. كان قد أصبح فتى يافعاً في الخامسة عشرة، متورد الوجنتين، ضخم الشفتين قانيتي اللون يشبه ناتاشا. وعلى الرغم من أنه كان يستعد لدخول الجامعة، فإنه كان يتآمر مع رفيقه أوپولنسكي منذ بعض الوقت لينخرط في سلك الفرسان.

اندفع پيتيا نحو سميّه وسأله أن يبحث له عما إذا كان سيقبل في سلاح الفرسان. لكن پيار كان يخطر في القاعة دون أن يكون قد سمعه. فجذبه پيتيا من ذراعه ليلفت انتباهه:

ـ حسناً! أين أصبحت قضيتي يا پيار كيريلليتش بحق السماء؟ إن كل أملي مركز عليك.

ـ آه! نعم، قضيتك. الفرسان؟ سوف أتحدث عنها، سأتحدث عنها، سأتحدث عنها. اليوم دون إرجاء.

ـ حسناً يا «عزيزي»، حسناً! هل لديك النداء؟

بذلك استقبله العجوز لأول وهلة ثم أردف: لقد كانت كونتيستي الصغيرة في القداس مع آل رازوموڤسكي فسمعت هناك الصلاة الجديدة التي يقولون إنها جميلة جداً.

أجاب پيار: نعم، لدي النداء. سيكون الأمبراطور هنا غداً. وسيكون

www.Maktbah.com

اجتماع فوق العادة للنبلاء. كذلك يتحدثون عن جباية عشرة على كل ألف. وبالمناسبة، تهاني الحارة.

ـ نعم، نعم والحمد لله!... أية أنباء عن الجيش؟

ـ يبدو أننا تراجعنا مجدداً حتى تحت سمولنسك.

ـ رباه، رباه!... وأين البيان؟

ـ النداء؟ آه، نعم!

فتش پيار عبثاً في جيوبه واستمر في التفتيش وهو يقبل يد الكونتيسة التي دخلت في تلك اللحظة وهي تلقي حولها نظرات كئيبة بانتظار ناتاشا التي توقفت عن الغناء دون أن تدخل إلى القاعة.

اعترف أخيراً: ما عدت أعرف أين وضعته.

قالت الكونتيسة: آه! إنه يضيع كل شيء دائماً.

دخلت ناتاشا في تلك اللحظة، متحننة وجلست على مقربة من پيار وحطت بأنظارها عليه دون أن تنبس بكلمة. ولقد أزال دخولها الغضون من وجه بيزوخوف الذي ظل كئيباً حتى تلك اللحظة، فراح يضاعف جهده في البحث وينظر مرات عديدة ناحية الفتاة.

ـ لا شك أنني نسيته في منزلي. أنا ماض لإحضاره...

ـ لكنك ستتأخر عن موعد الطعام؟

ـ هه، صحيح، ثم إن حوذي قد ذهب!

لكن سونيا التي راحت تبحث عن أوراق حتى بلغت الردهة، وجدتها أخيراً مطوية بعناية تحت بطانة قبعة پيار. فاستعد هذا لتلاوتها.

قال الكونت العجوز الذي كان بدون شك يعد نفسه ببهجة كبرى بتلك التلاوة:

ـ كلا، بعد الطعام.

twitter @baghdad_library

وإلى المائدة، حيث شربوا الشمبانيا على شرف فارس سان جورج الجديد، روى شينشين أنباء المدينة: مرض الأميرة العجوز جييورجيين، اختفاء ميتيـڤيه، قصة ألماني عجوز جيء به إلى روستوبتشين وهم ينعتونه بـ«فُطر»[1] وأن هذا أطلق سراحه مفسراً للشعب أن فطراً من هذا النوع غير سام. هذا أقله ما كان روستوبتشين نفسه يقول.

قال الكونت: أجل، أجل. إنهم يطبقون عليهم، إنهم يطبقون عليهم. كم من مرة توسلت إلى الكونتيسة ألا تتكلم الفرنسية بهذه الكثرة! لم يعد الآن وقت التكلم بالفرنسية.

استأنف شينشين: هل تعرفون أن الأمير جوليتسين استخدم مربياً روسياً؟ نعم، إنه يعطي دروسه بالروسية. لقد بدأ التحدث بالفرنسية في الشوارع يصبح خطراً.

قال الكونت العجوز: لكن پيار كيريلليتش، عندما يشكلون فرق الميليشيا، سيتحتم عليك الركوب على الجواد.

نظر پيار، الذي كان حتى هذه اللحظة مدفوناً في أفكاره، إلى الكونت العجوز دون أن يبدو عليه أنه فهم.

ـ آه نعم، لقد أزف الوقت للذهاب إلى الحرب. سأكون وجهاً جميلاً فيها! على أية حال، إن كل شيء شديد الغرابة! إنني لم أعرف نفسي. أنا لا أملك أي استعداد لاحتراف الجندية ولكن في وقتنا اليوم، لا يستطيع أحد أن يجيب بشيء.

وبعد الطعام، تركز الكونت في كنبة مريحة، ورجا سونيا بوصفها قارئة مجيدة، أن تتلو النداء.

---

(١) أي جاسوس. (المترجم).

www.Maktbah.com

«إلى موسكو، عاصمتنا الأولى».

«لقد اجتاز العدو الحدود الروسية بقوات ضخمة. لقد جاء يدمر وطننا الحبيب...».

كانت سونيا تقرأ بصوتها الرقيق واضعة كل اهتمامها في القراءة. وكان الكونت يصغي مغمض العينين وهو ينقط بعض المقاطع بتنهدات عميقة. وناتاشا منتصبة الجذع تعاين بنظرة متفحصة تارة أباها وتارة پيار الذي كان يشعر بتلك النظرة تقع عليه فيتجنب ملاقاتها. وكانت الكونتيسة تهز رأسها بعد كل عبارة مفخمة في النداء دلالة على عدم الموافقة: فالخطر الذي يتعرض لها ابنها ليس الانتهاء، وهذا كل ما كانت تفهمه من تلك العبارات. أما شينشين، فكان يمرز شفتيه في ضحكة ساخرة ويستعد للنقد لدى أول فرصة: سواء من حيث صوت سونيا أو حماسة الكونت أو النداء نفسه إذا لم يجد شيئاً آخر يُنقد.

وبعد قراءتها للمقاطع المتعلقة بالأخطار التي تهدد روسيا والآمال التي يعلقها الأمبراطور على موسكو وبصورة خاصة على مجموعة الأشراف الشهيرة فيها، انتهت سونيا التي كان صوتها يرتجف بنسبة الانتباه الذي يولونه لقراءتها، إلى النتيجة:

«سوف لن نتأخر بأنفسنا عن الظهور بين شعبنا في هذه العاصمة وفي الأماكن الأخرى من مملكتنا للتشاور ولقيادة كل فرق متطوعينا، تلك التي تقطع الطريق الآن على العدو والتي سوف تتشكل مجدداً لنضرب العدو في كل مكان يظهر فيه. ليسقط البلاء الذي يتأهب لإلقائنا فيه على رأسه ولتلهج أوروبا المحررة من الرق باسم روسيا»!

صاح الكونت: هذا نداء رائع!

ثم باعد بين جفنيه المبللين ونخر مرات متكررة وكأنهم نشقوه أملاحاً

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وأضاف: ليس على الأمبراطور إلا أن يتكلم. لسوف نضحي بكل شيء دون أي أسف.

قفزت ناتاشا وأسرعت إلى أبيها دون أن تترك لشينشين الوقت لصرف دعايته التي أعدها حول وطنية الكونت ثم عانقته وقالت:

ـ كم أنت لطيف يا أبي!

وأرخت نظرة باتجاه پيار مستسلمة لذلك الدلال البريء الذي كان يعاودها مع مرحها.

قال شينشين: مهلاً قليلاً أيها المواطنة!

فاحتجت ناتاشا غاضبة:

ـ ولكن لا، ويلاه... إنك تستهزئ دائماً. لكنني لا أمزح.

واستأنف الكونت: ليس الأمر دعاية! ليقل كلمة فقط فنذهب كلنا... إننا ويحك لسنا ألماناً. تدخل پيار قائلاً: هل لاحظت أن النداء يقول: «للتشاور»؟

ـ آه وأية أهمية!...

وفي تلك اللحظة، تقدم پيتيا الذي لم يكن يلتفت إليه أحد، نحو أبيه وقال له بصوت متقطع تارة وحاد تارة أخرى: حسناً ياأبي، أعلن لك الآن... ولأمي أيضاً ولتحمله على أي محمل تشاء،... أعلن لكم أنه يجب أن تدعاني أذهب إلى الخدمة... لأنني لم أعد أستطيع التريث، هذا كل شيء...

رفعت الكونتيسة عينيها مروعة وضمت يديها والتفتت إلى زوجها تقول: هذا ما كان يريد بلوغه!

لكن الكونت لم يحمل المسألة على محمل الأسى:

ـ هيا، هيا. لا تنطق بالحماقات. أنظر قليلاً إلى هذا المحارب الجميل! الأفضل أن تنهي دراستك.

ـ إنها ليست حماقات يا أبي. إن ڤيديا أوپولنسكي أصغر مني سناً، وهو

www.Maktbah.com

سيذهب بالمثل... على أية حال، لا أستطيع أن أدرس الآن وقد... وهنا توقف واندفعت الدماء إلى وجهه حتى احمر بياض عينيه ثم أنهى جملته مع ذلك!ـ:
... الآن وقد أصبح الوطن في خطر.

ـ كفى، كفى، ويلاه. إن هي إلا حماقات...

ـ لكنك قلت بنفسك منذ حين إننا سنضحي بكل شيء.

صرخ الكونت وهو ينظر إلى زوجته التي امتقع لونها وحدقت بأنظارها إلى وجه ابنها الأصغر: پيتيا هلّا لزمت الصمت!

ـ دعوني أقول لكم وسيؤيد پيار كيريللوفيتش قولي...

ـ أسكت، قلت لك! هذه حماقات. لا تزال نقطة الحليب في أنفه ثم يريد أن يجعل من نفسه جندياً. كفى، أليس كذلك؟...

ثم أضاف وهو يأخذ النداء الذي كان يزمع إعادة قراءته في مكتبه قبل قيلولة الظهر: يا پيار كيريللوفيتش، تعال ندخن غليوناً.

وكان پيار أشد اضطراباً من أي وقت مضى. وكانت عينا ناتاشا منذ بعض الوقت، شاخصتين إليه بإلحاح مربك، وهما أشد التماعاً وأكثر ممالقة من المألوف.

ـ أعذروني، سأعود إلى مسكني...

فقال الكونت بسلامة طوية وهو يشير إلى ناتاشا:

ـ كيف! إلى مسكنك وأنت الذي كنت ستقضي السهرة هنا... إنك في الفترة الأخيرة أصبحت قليل الظهور في حين أن صغيرتي ناتاشا لا تكون مرحة إلا في حضرتك.

فأسرع پيار يقول: نعم، لكنني نسيت... يجب أن أعود بأي ثمن... إنها الأعمال...

قال الكونت وهو ينسحب: حسناً إذن، إلى اللقاء.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سألت ناتاشا وهي تتفحص وجه پيار بنظرة جريئة:

ـ لماذا تذهب؟ لماذا أنت مضطرب؟ لماذا؟

ودّ پيار أن يجيب: «لأنني أحبك»! لكنه لم يستطع. احمرّ وجهه وخفض عينيه وتمتم: من الأفضل أن أقلل من زياراتي... كلا، كل ما في الأمر أنها الأعمال...

ـ لماذا؟ هيا، قل لي السبب.

ألحت ناتاشا، لكنها ما لبثت أن سكتت فجأة.

تبادلا النظر بذعر وحاول هو أن يبتسم، لكنه لم يطلع إلا بإشارة تدل على الألم، قبّل يد ناتاشا دون أن يقول كلمة واختفى.

واتخذ پيار قراراً حازماً ألّا يعود إلى منزل آل روستوف أبداً.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

حبس پيتيا نفسه في غرفته، بعد الرفض الذي مُني به، ليبكي بدموع حارة. وعندما رجع ساعة تناول الشاي كئيباً محمرّ العينين، تظاهر كل الذين في المنزل بأنهم لم يشاهدوا من هذه البوادر شيئاً.

صباح اليوم التالي، وصل الأمبراطور فسأل كثير من خدم آل روستوف أن يسمح لهم بحضور دخوله إلى المدينة. ذلك الصباح، أطال پيتيا ترجيل شعره وارتداء ثيابه ووضع الياقة على طريقة الشخصيات الكبار. راح يقطب حاجبيه أمام المرآة ويقوم بحركات من هم أكبر منه سناً ويدير كتفيه. وأخيراً، اعتمر قبعته الوحيدة الحافة وخرج عن طريق مدخل الخدم دون أن يكلم أحداً محاولاً أن يخفي خروجه عن الأنظار. قرر الذهاب مباشرة إلى مستقر الأمبراطور وأن يخاطب مباشرة واحداً من الحجاب الكثيرين بكل جرأة وهم على ما يظن كثيرون يحيطون دائماً بجلالته. سوف يشرح له أنه الكونت روستوف وأنه رغم صغر سنه يرغب في الاضطلاع بخدمة وطنه وأن السن لا يمكن أن تؤجل التفاني وأنه مستعد... وبالاختصار، كان قد هيّأ أقوالاً كثيرة أراد قولها للحاجب الأمبراطوري.

قدر پيتيا أن صغر سنه سيدهش الجميع وأنهم، لهذا السبب بالذات، لن يتأخروا عن تقديمه إلى الأمبراطور. خلال ذلك، راح يحاول إضفاء سيماء الرجل الناضج على نفسه عن طريق تسوية ياقته وطريقة ترجيل شعره ومشيته البطيئة المتزنة. لكنه كلما أوغل في التقدم، ترك لنفسه أن تتلهى بالجماهير

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التي كانت تصل من كل صوب فيبتعد عن ذلك الاتزان الخطير الذي انتهجه: وكلما اقترب من الكرملين، اضطر أن يحترز كيلا يدفعه الناس وراح يستعمل مرفقيه ليشق لنفسه الطريق بأسلوب تهديدي. وتحت باب «الثالوث»، رغم كل الجهود التي بذلها، فإن أشخاصاً جاهلين بدون شك نياته الوطنية، دفعوه بشدة إلى الجدار الضخم حتى اضطر، مرغم أخاك لا بطل، أن يتوقف ليدع رتلاً طويلاً من العربات يمر في ضجيج زاد العقد في نشره. وكان إلى جانبه امرأة من الشعب وخادم واثنان من التجار وجندي متقاعد. أراد پيتيا أن يتابع طريقه دون أن ينتظر نهاية الرتل، فراح من جديد يعيد حركة مرفقيه النشيطة لكن المرأة التي كانت أول من تعرض لحملاته، أنبته بقوة:

ـ هيه يا! أيها السيد الصغير، هلّا كففت عن الدفع؟ لا بد وأنك ترى أنهم لا يتحركون. فالزم الهدوء إذن.

وأضاف الخادم مؤيداً: دون شك. وإذا رحت تدفع، فإن الناس كلهم سنيهجون نهجك.

وقرن القول بالفعل فدفع پيتيا حتى زاوية كريهة الرائحة.

جفف پيتيا العرق الذي انثال على وجهه ورتّب على قدر ما يستطيع ياقته المبللة، تلك الياقة الجميلة التي ثبتها في البيت على طريقة الشخصيات الكبيرة.

أصبح يرى الآن أنه لم يعد ذا مظهر لائق وأنه إذا تقدم على هذا الشكل إلى الحجاب فلن يدعوه يصل إلى الأمبراطور. لكن الازدحام الذي منعه من إصلاح زينته كان أيضاً يمنعه من الخروج من ذلك المأزق. شاهد بين الجنرالات الذين كانوا يمرون واحداً ممن يعرفهم ذووه فكاد يطلب إليه العون. لكنه قدر أن ذلك غير جدير برجل مثله. ولما مرت العربات كلها، جرّه الحشد في اندفاعه إلى الساحة التي أصبحت سوداء من الخليقة كما كان حال

www.Maktbah.com

المرتفعات والسطوح المجاورة. فما كاد يصل إلى هناك حتى سمع بوضوح قرع الأجراس المتناسق وهمهمة الجمهور المرح.

وفجأة ران فراغ على الساحة وحسرت الرؤوس كلها وعمت اندفاعة جديدة إلى الأمام فكان پيتيا محصوراً بشدة حتى لقد تعذر عليه التنفس. وصاح الناس كلهم: «هورّا! هورّا! هورّا!» ورغم أن پيتيا تطاول على أطراف قدميه ودفع جيرانه وتعلق بهم، فإنه لم ير إلا الجمهور المحيط به.

كانت الوجوه كلها تعكس تحناناً واحداً وحماسة موحدة. وكانت بائعة إلى جوار پيتيا تنتحب وتبكي بدموع سخية وتقول في شبه ترتيل وهي تجفف عينيها: أبانا، ملكنا، أبانا!

وتعالى الهتاف من كل حدب: هورا!

واندفعت الجماهير إلى الأمام بعد هذا التوقف القصير.

وفي أوج الانفعال، اندفع پيتيا، شاداً على أنيابه وعيناه خارج محجريهما وهو يعمل مرفقيه بنشاط ويصيح: «هورّا»! وكان يبدو أشبه بمن على استعداد لإفناء نفسه والآخرين. ومن حوله كل الوجوه على مثل وحشية مظهر وجهه تندفع إلى الأمام وتزمجر هي الأخرى: «هورّا!».

قال پيتيا في نفسه: «إذن هذا هو الأمبراطور! يستحيل في مثل هذه الظروف أن أرفع إليه ملتمسي. سيكون تجاوزاً في الاجتراء!» مع ذلك فقد استمر يدفع بيأس وأصبح يرى وراء الأكتاف التي أمامه رقعة فارغة رسم عليها طريق من النجد الحمراء. ولكن في اللحظة نفسها، تقهقر الجمهور لأن رجال الشرطة صدوا أولئك الذين تجاوزوا حد الاقتراب: كان الأمبراطور ينتقل من القصر إلى كاتدرائية أسومسيون (انتقال العذراء) وحينذاك تلقى پيتيا في جنبه ضربة بلغت من الشدة حداً دارت له عيناه وفقد الوعي وعندما استفاق، وجد رجل كنيسة بجبة خلقة وذيل صغير من الشعر الأشيب على القذال، شماساً

twitter @baghdad_library

ولا ريب، يرفعه بإحدى يديه من تحت إبطه بينما يدفع عنه باليد الأخرى غائلة الضغط.

ـ قد سحقوا السيد الصغير! ترفقوا، هه، ترفقوا!... لقد سحقوه، المسكين!...

وكان الأمبراطور قد دخل الكاتدرائية وكف اللجب فاستطاع الشماس أن يقود پيتيا الممتقع الوجه، الذي كان يتنفس بصعوبة نحو «ملك المدافع ـ مدفع أقيم قرب باب القديس نيكولا وقد صنع في القرن السادس عشر وزنته «١٩٦٠٠٥» كيلوغرامات، وهذا سبب التسمية». ولقد تحنن بعض الأشخاص على مصيره فاندفع الجمهور نحوه. أسرع الأقربون إليه يفكون أزراره ويجلسونه على قاعدة المدفع وكلهم يقذفون أقذع الشتائم بحق «الدهاسين» المجهولين.

ـ ذلك أنه كان بإمكانه المرور بكل راحة. هل يتصور العقل هذا؟ قتل حقيقي! إنه أبيض كقطعة قماش، الظريف الصغير!

لم يلبث پيتيا أن استعاد قواه وعادت الألوان إلى وجهه وزال الألم. ولقد حصل على مكان جيد فوق المدفع بفضل هذا الطارئ، ومن موضعه، راح يأمل أن يرى الأمبراطور لدى عودته. أما عن المتلمس، فلم يعد البحث يتعلق به. لقد أصبحت رؤية الأمبراطور وحدها كافية لإسعاده!

وبينما كان يقام في الكاتدرائية قداس شكر لعودة الأمبراطور كما لإجراء الصلح مع الأتراك، أخذت الجماهير تتفرق. وشوهد منادون على شراب «كفاس»(١) والحلوى والقنبز (حب الخشخاش) التي يعتبر پيتيا من كبار هواتها، يظهرون، وتبودلت حوله أحاديث مبتذلة. كانت بائعة تُري شالها

(١) شراب روسي يُستخرج من الشعير. (المترجم).

www.Maktbah.com

الممزق وتزعم أنه كلفها عيني رأسها، وأخرى تؤكد أن الأقمشة الحريرية باتت لا تحصر بثمن. والشماس الذي أنقذ پيتيا يقدم لأحد الموظفين معلومات إضافية عن الشخصيات التي تشارك عظمته في القداس، ويلفظ عدة مرات كلمة «حبريّ» الذي استغلق معناها على پيتيا واثنان من أصحاب الحرف الشبان يمجنان مع خادمتين تقضمان بندقاً. ولقد كانت كل هذه الأحاديث، وبصورة خاصة دعابات الشابين التي كان لا بد وأن تلفت انتباه من هو في سنه، أمراً لا يأبه له فكان وهو في وقوفه على المدفع، يذوب شوقاً وهو يفكر في الأمبراطور وكانت ذكرى إغمائه ومخاوفه أثناء الازدحام ترفع من معنوياته وتجعل هذه اللحظة الرهيبة خالدة إلى الأبد في ذهنه.

ودوت فجأة طلقات المدافع على طول رصيف الميناء حيث كانوا يطلقونها احتفالاً بالسلم مع تركيا. اندفعت الجماهير نحو ذلك الاتجاه وهمّ پيتيا أن يحذو حذوها. لكن الشماس الذي وضعه تحت حمايته منعه. وكانت الطلقات لا تزال تدوي حينما شوهد الجنرالات والضباط والحجاب يخرجون من الكاتدرائية بسرعة وأعقبهم أشخاص آخرون أقل تعجلاً. وانحسرت الرؤوس مجدداً وارتد الفضوليون الذين اندفعوا نحو الرصيف إلى الساحة مرة أخرى. أخيراً، ظهر أربعة من كبار الشخصيات بالأشرطة الطويلة والبزة الرسمية في فناء الكنيسة فصاحت الجماهير مرة جديدة «هورّا»!

سأل پيتيا جيرانه بصوت منتحب: أيهم هو؟ أيهم؟

فلم يجبه أحد. كان الناس جميعهم في أوج الانشغال. انتخب واحد من الأربعة اعتباطاً ما كان يستطيع تمييز تقاطيعه بعينيه اللتين تبللهما الدموع وركز كل حماسته فيه رغم أنه لم يكن الأمبراطور. أطلق صيحة «هورّا» مجنونة وقرر فيما بينه وبين نفسه أن ينخرط منذ الغد في سلك الجندية مهما كلف الأمر.

وبعد أن سارت الجماهير حتى القصر وراء الأمبراطور، بدأت تتفرق.

twitter @baghdad_library

وأصبح الوقت متأخراً و پيتيا لم يذق بعد طعاماً فكان العرق ينثال على جبينه. مع ذلك، لم يفكر في العودة، انضم إلى المتسكعين الذين كانوا عدداً وفيراً مجتمعين أمام القصر، بقي هناك طوال الوقت الذي استغرقه جلالته في تناول الطعام، منتظراً، الله يعلم أي حدث، وهو يحسد المدعوين إلى المائدة كما يحسد الخدم الذين كان يراهم من النوافذ.

قال ڤالوييف أثناء الطعام وهو يلقي نظرة إلى الخارج: لايزال الشعب يأمل رؤية جلالته.

وعند النهوض عن المائدة، انتقل الأمبراطور إلى الشرفة وهو لا يزال يمضغ قطعة من البسكويت. فأسرع الحشد وپيتيا بينه إلى ناحيته.

راح الشعب يصيح و پيتيا معه: يا ملكنا! يا أبانا! هورّا! يا أبانا!...

وراحت النسوة من جديد، كما راح الرجال الذين يستبد بهم الحنان سريعاً، و پيتيا من هؤلاء، يذرفون دموع الفرح.

سقط جانب غير صغير من قطعة البسكويت التي كان الأمبراطور ممسكاً بها من يده على حاجز الشرفة وقفز منه إلى الأرض فاندفع حوذي ذو معطف عريض كان أقرب الناس إلى مكان سقوط القطعة والتقطها بشدة. وارتمى البعض من جواره عليه وحينئذ، استقدم الأمبراطور طبقاً من البسكويت وراح يلقي محتوياته من أعلى الشرفة. احتقنت عينا پيتيا بالدم وقد أثارته جاذبية الخطر، فاندفع إلى الأمام. كان يريد أن يعرف السبب، أن يحصل بأي ثمن على واحدة من قطع البسكويت تلك التي سقطت من يد القيصر. ولقد طرح في اندفاعه امرأة عجوزاً كانت على وشك التقاط قطعة. وعلى الرغم من سقوط هذه على الأرض فإنها لم تنهزم. لكن ذراعها كانت أقصر من أن تصل. دفعها پيتيا بضربة من ركبته وتناول القطعة ثم أطلق «هورا» جديدة خشية أن

www.Maktbah.com

يكون قد اقتصد في إظهار حقيقة مشاعره بدونها. لكنها جاءت بصوت أبح قليلاً.

احتجب الأمبراطور فتفرق الناس كلهم تقريباً هذه المرة: وكانت أصوات مبتهجة تقول من كل صوب: كنت متأكداً أنه يجب الانتظار ولم أخطئ في ظني.

أفسد مزاج پيتيا الفرح فكرة انتهاء متعة النهار. ولما لم يكن يريد أن يعود بعد، فقد مر على صديقه أوپولنسكي، وهو في مثل سنه، الذي كان يتأهب للالتحاق بالفوج. ولما رجع إلى المنزل، أعلن بعزم أنهم إذا لم يدعوه يتصرف كما يريد، فسوف يهرب من البيت. ومنذ صبيحة اليوم التالي، ذهب الكونت العجوز، وإن كان ضد إرادته، يستعلم عن الوسائل التي تمكنه من إلحاق پيتيا بالخدمة دون أن يعرضه كثيراً للخطر.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني والعشرون

ملأ جمع غفير القاعات، في اليوم التالي، في الخامس عشر من تموز وقد توقف عدد كبير من العربات أمام قصر سلوبووسكي، وفي القاعة الأولى اجتمع النبلاء في لباسهم الرسمي، وفي الثانية التجار ذوو اللحى الطويلة.

«وميدالياتهم» تتدلى فوق «قفاطينهم» الزرقاء. وكانت قاعة النبلاء تعج بحيوية جياشة. ولقد كان أكثر الشخصيات أهمية يجلسون بجلال حول طاولة كبيرة والآخرون يروحون ويجيئون.

كان هؤلاء النبلاء كلهم الذين كان پيار يختلط بهم كل يوم سواء في النادي أو في منازلهم، يرتدون بزات بعضها يرجع إلى أيام كاترين وپول وألكسندر أو البزة البسيطة عند النبلاء، فكان هذا الطابع «الرسمي» يضفي شيئاً غريباً خيالياً على تلك الوجوه المسنة أو الفتية المختلفة والمألوفة. ولقد كان الكهول وهم بين قصير بصر وأصلع، منتفخ بالدهن الأصفر أو نحيل مهزول يثيرون الفضول بصورة خاصة. ما كانوا ينطقون بكلمة ولا يتحركون من أماكنهم وإذا نهضوا من أماكنهم، فليحدثوا من هم أصغر سناً. وهنا، كما على الساحة حيث كان پيتيا، كانت الوجوه تنطق إضافة إلى ترقب حدث جلل بمشاغل شديدة الإسفاف كلعبة «الباصرة» ومواهب الطاهي پيروشكا وصحة زينايبدا دميتريڤنا إلخ...

كان پيار الذي ارتدى منذ الصباح الباكر بزة النبلاء التي أصبحت ضيقة عليه، موجوداً في القاعة فريسة تأثير شديد جداً. لقد كان الاجتماع الخارق،

www.Maktbah.com

ليس للنبلاء بل للتجار كذلك، تلك الدعوة لطبقات مختلفة، وبالاختصار، تلك «الطبقات العامة» توقظ في نفسه مجموعة من الأفكار أغفت منذ أمد طويل ولكنها ظلت ملقية مرساتها في ذهنه، أفكار تدور حول «العقد الاجتماعي»[1] والثورة الفرنسية. وكان المقطع الذي جاء في النداء، والذي قال الأمبراطور فيه إنه قادم إلى عاصمته «للتداول» مع شعبه، يحدث في نفسه أثراً قوياً. ولما كان تبعاً لهذا التسلسل من الأفكار، يفترض جدلاً أن هناك أمراً هاماً في طور الإعداد، ينتظر صدوره عنه منذ أمد بعيد، فقد راح يتجول بين الجماعات وينظر حوله ويصيخ السمع إلى المحادثات دون أن يكتشف فيها على أية حال ما يستجيب لتخيلاته.

قُرئ النداء الذي استفز الحماسة ثم استؤنفت المحادثات. ولقد سمع پيار إضافة إلى المواضيع الاعتيادية، مناقشات حول الأمكنة التي سيحتلها رؤساء الإشراف لدى دخول جلالته وحول تاريخ الحفلة الراقصة التي ستقام على شرفه والطريقة المفضلة للاجتماع: كل مقاطعة أو كل إقليم؟ إلخ... ولكن ما إن يعود البحث إلى الحرب وموضوع الاجتماع نفسه حتى يدخلوا حدود الغموض، فكانوا يفضلون الإصغاء على التكلم.

كان سيد في سن متقدّمة، عسكري المظهر، بهيّ الصورة، في بزة البحار المتقاعد، يغط وسط جمع، فاقترب پيار ليصغي إليه. وكان الكونت إيليا اندييـڤيتش في «قفطان» حاكم مدينة يرجع زيه إلى عصر كاترين الثانية، يخطر والابتسامة على شفتيه بين هذه الوجوه من معارفه. فأصاخ هو الآخر السمع وعلى وجهه طابع العطف المألوف في تلك المناسبات وأخذ يشجع المحاضر بهزات رأسه المؤيدة. وكان يبدو أن البحار يتطرق إلى بحوث بالغة

(١) كتاب شهير لجان جاك روسو، أوحى بمعظم سياسات الثورة الفرنسية. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجرأة إذا حكمنا أقله مظاهر التبدل التي كانت تطرأ على وجوه مستمعيه ومناقضة بعضهم له، ممن يعرف پيار مزاجهم السلمي، بل ابتعادهم عنه استنكاراً لأقواله.

شق پيار مزاجهم السلمي، بل استطاع أن يقنع نفسه أن المتحدث الجميل متحزب حقاً للحرية والمدنية والدينية ولكن باتجاه يختلف كل الاختلاف عن اتجاهه. كان للبحار صوت خفيض، يلثغ بملاحة و«يبتلع» الأحرف الساكنة، من تلك الأصوات الخاصة بالنبلاء الذين ألفوا الصراخ: «يا غلام، إليّ بغليوني!» أو أي شيء آخر من هذا النوع: صوت مترف اعتاد إصدار الأوامر.

ـ لقد عرض نبلاء سمولنسك متطوعين على الأمبراطور؟ وماذا بعد؟ هل هم الذين يسنون لنا القانون؟ إذا وجدت طبقة النبلاء المبجلة في موسكو ضرورة لإظهار إخلاصها لجلالته، فإنها تستطيع إظهارها على شكل آخر. هل نسينا المتطوعين عام ١٨٠٧؟ لم يربح بينهم إلا الكهنة والمحتالون...

كان الكونت إيليا أندرييـﭬيتش يؤيد أقواله برأسه وعلى شفتيه ابتسامته الدمثة.

هل كان متطوعونا ذوي فائدة للبلاد؟ كلا على ما أعلم. لقد نكبونا بكل بساطة. بل إن التجنيد أفضل... وإلا، فإنهم لن يعودوا إلينا جنوداً ولا فلاحين بل فاسقين ليس إلا. إن النبلاء لا يساومون على حياتهم. سوف نذهب جميعناوسنعود بمجندين.

ثم أعقب باندفاع حماسي متمماً: ليوجه الأمبراطور إلينا النداء فقط فنموت كلنا من أجله.

كان إيليا أندرييـﭬيتش يبتلع لعابه من الرضى ويلكز پيار بمرفقه. لكن هذا كان يريد بدوره أن يقول كلمته. تقدم إلى الأمام مستسلماً لاندفاع غامض

www.Maktbah.com

دون أن يعرف على الضبط ما يريد أن يقول. ما كاد يفتح فمه حتى قاطعه عضو في مجلس الشيوخ، ذو وجه غاضب عليه علامات الذكاء كان واقفاً قرب الخطيب. قال بلهجة واضحة هادئة، لهجة رجل خبير بالمناقشات: افترض يا سيدي العزيز أننا لم نستدع إلى هنا لمناقشة المزايا التي يمكن أن تعطيها في الظروف الحاضرة طريقتا التطوع أو التجنيد. يجب أن نجيب عن النداء الذي شرفنا به جلالته. أما الاختيار والتقرير بين التطوع والتجنيد فأمر يجب أن نتركه للسلطة العليا... وما يلبث پيار أن وجد مخرجاً للغليان الداخلي. كيف! إن هذا العجوز يريد فرض وجهات نظره الضيقة المتطرفة في الانسجام مع التشريع على مداولات النبلاء! تقدم خطوة إلى الأمام وراح يحاضر بحماسة وقد قطع عليه الكلام، رغم أنه استعمل لغة روسية مدرسية محشوة بتعابير فرنسية.

بدأ يقول: أعذرني يا صاحب السعادة...

ذلك أنه رغم العلاقات الطيبة التي تجمعه بهذا العجوز، فقد ارتأى أن من الأفضل منحه لقبه الرسمي.

ـ على الرغم من أنني لا أشارك رأي السيد، وهمّ أن يضيف قوله: المشرع كلي الاحترام. لكنه أمسك وأضاف، الذي لم يحصل لي شرف معرفته، فإنني أفترض أن طبقة النبلاء قد استدعيت إلى هذا المكان ليس لتعبر عن مشاعرها وحماستها فحسب، بل لتناقش كذلك الوسائل التي يمكن أن تلجأ إليها لنجدة الوطن.

ثم تابع وهو يزداد اندفاعاً:

ـ إنني أعتقد أن الأمبراطور نفسه سيكون مستاء إذا لم يجد فينا إلا مالكي قرويين... للمدفع... إذا لم يجد فينا... مجلساً استشارياً.

ولقد حفزت هذه اللغة شديدة التحرر وابتسامة العجوز المزدرية أناساً كثيرين على الابتعاد. فلم يؤيد خطاب پيار غير إيليا أندرييڤيتش، كما أيد من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قبل خطاب البحار والعجوز وكما كان على استعداد لتأييد كل شخص يكون آخر من يتكلم.

واسترسل پيار: أقدر أنه قبل مناقشة هذه المسائل، يجب علينا أن نسأل الأمبراطور. نعم، أن نسأل بكل احترام جلالته أن يعلمنا بعدد قواتنا ومركز جيوشنا وعندئذ.

لم يتمكن پيار أن يكمل لأنهم هاجموه من ثلاث جهات معاً. وكان أكثر خصومه قسوة من أقدم زملائه في لعبة «الباصرة» التي لم يكن قط إلا من كان على استعداد لخدمته، ستيپان ستيپانوڤيتش أدراكسين كان هذا السيد الآن يرتدي البزة الرسمية. وسواء كان لهذا السبب أو لسبب آخر، فإن پيار وجد أمامه رجلاً آخر مختلفاً. صاح ستيپان ستيپانوڤيتش وقد تقلصت قسمات وجهه بغضب الشيخوخة:

ـ أولاً لا حق لنا بطرح هذا السؤال على الأمبراطور. وفي المرحلة الثانية لو أن للأشراف الروس هذا الحق، فإن الأمبراطور لا يستطيع أن يجيبنا. إن سير جيوشنا تابع لسير العدو أما العدد فهو تارة منخفض وتارة مرتفع...

وارتفع صوت آخر، صوت رجل متوسط القامة في حوالى الأربعين من عمره، كان پيار قد عرفه من قبل عند البوهيميين وكان غشاشاً في اللعب: تحول هو الآخر في البزة، فتقدم من پيار وقاطع أدراكسين صاح:

ـ على أية حال، إن الوقت الآن ليس وقت النقاش بل العمل: إن الحرب في بلدنا. إنّ العدو يقترب ليمحو روسيا، ليدنس ضرائح أبنائنا، ليقتل نساءنا وأولادنا. سوف ننهض جميعنا وسنعطي كل شيء من أنفسنا إلى أبينا القيصر!

كان يصرخ ويضرب صدره ويدير عينيه المعكرتين بالدم. ولقد ارتفعت بضع كلمات مؤيدة بين الصفوف ـ إننا روس، ولن ندخر دماءنا لندافع عن الدين وعن العرش والوطن لندع جانباً كل هذه السخافات إذا كنا بالفعل أبناء حقيقيين لهذا الوطن. سوف نري أوروبا كيف تنهض روسيا من أجل روسيا.

www.Maktbah.com

أراد پيار أن يجيب، لكنه اعترف بعجزه. كان يرى أن كلماته، لولا المعنى الذي تحمله، أقل صدى من أقوال هؤلاء السادة الممجدين.

وكان إيليا أندرييـڤيتش يؤيد وراء الجمع. ولقد جاء بعض السامعين يشدون أزر الخطيب ببسالة وهم يؤيدون أقواله بـ: «عظيم جداً! عظيم جداً! كامل! هو كذلك!».

أراد پيار أن يقول إنه هو الآخر عى استعداد لكل التضحيات بالرجال والمال وأن يضحي بنفسه إذا اقتضى الأمر ولكن، لكي يمكن علاج الموقف يجب قبل كل شيء معرفته؟ لكنه لم يستطع: كانوا جميعاً يصرخون ويتحدثون معاً لدرجة أن إيليا أندرييـڤيتش كان لا يكف عن هز رأسه مؤيداً وكان الجمع المتحمس يزداد عددياً تارة وتارة يتفرق شمله ليعود إلى التشكل مجدداً ويتجه نحو الطاولة الكبيرة عبر القاعة. لم يكن پيار عاجزاً عن إبداء كلمة واحدة فحسب، بل كانوا كذلك يقاطعونه بغلظة ويصدونه أو يشيحون بوجوههم عنه وكأنه العدو المشترك. غير أن خطابه لم يكن ذا أثر في هذا الحشد إذ سرعان ما نسوه تماماً بعد الخطب التي تلته. لكن لا بد لذلك الجمهور المثار أن يعبر عن موجدته كما يعبر عن حبه فكان پيار كبش الفداء.

وتحدث كل النبلاء الذين تعاقبوا بعد النبيل المستفز على تلك الوتيرة فأجاد بعضهم ولم يخرج البعض الآخر على الطريق المبتذلة. ولقد قال صاحب «الرسول الروسي» الذي استقبلوه بهتافات: «الكاتب! الكاتب!» وكان اسمه سيرج جلينكا: «يجب أن تصد الجحيم بالجحيم» وإنه «رأى فتى يبتسم على ضوء البرق وقصف الرعود» ولكن «لن تكون نحن ذلك الفتى».

وكرروا في الصفوف الخلفية دون أن يفهموا: نعم، نعم، على قصف الرعد!

twitter @baghdad_library

اقترب الحشد من الطاولة الكبيرة التي جلس وراءها كبار ذوي المقام متشحين بأوسمتهم. وكانوا كلهم سبعينيين بعضهم أصلع وبعضهم عديم الشعر، كان پيار يعرفهم سواء في بيوتهم بين مهرجيهم أو في النادي حول طاولات «الباصرة» مع ذلك فإن المحادثات لم تتوقف. راح الخطباء، واحد إثر الآخر، وأحياناً اثنان معاً يتكلمون يضغطهم الجمهور فيلصقهم بمساند الكراسي العالية. وكان أولئك الذين في المؤخرة، يسجلون ما لم يقله الخطباء ليقولوه بدورهم. وبعضهم يعصر دماغه وسط ذلك الازدحام وتلك الحرارة محاولين اكتشاف فكرة ما، لم يسبقهم أحد إلى إعلانها، علهم يذيعونها على الآخرين. وكان ذوو المقام، جامدين في مقاعدهم يلقون حولهم نظرات وجلة ووجوههم لا تعبر إلا عن شيء واحد، هو أنهم يشعرون بحرارة شديدة. وكان پيار خلال هذه الفترة، يشعر بالتأثر: تلك الرغبة في البرهنة بأي ثمن على إخلاصه للوطن، التي كان يقرأها على كل الوجوه والتي كانت الأصوات تعبر عنها خيراً مما تعبر الخطب نفسها، بدأت تغزو مخيلته. شعر شعوراً غامضاً بأنه مذنب دون أن ينكر جانباً من آرائه التي يؤمن بها فأراد أن يبرر سلوكه.

صاح محاولاً أن يطغى على الأصوات كلها: كل ما قلته هو أن تضحياتنا ستكون أكثر سهولة لو أننا عرفنا على الضبط الحاجات الداعية إليها.

أدار عجوز، وهو أقرب الجوار إليه، نظره نحوه. لكنه لم يلبث أن مال به إلى الجانب الآخر من الطاولة حيث كان بعضهم يقول:

ـ نعم، سوف تنقذ موسكو! سوف تكون منقذتنا!

وصاح صوت آخر: إنه عدو الجنس البشري!... دعوني أتكلم... أيها السادة، إنكم تخنقونني!...

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والعشرون

دخل الكونت روستوبتشين القاعة، مرتدياً بزة جنرال، في تلك الأثناء، ومتقلداً الوشاح الأكبر، بارز الذقن، متقد العينين، يسير بخطى سريعة ففسحت له جماعة النبلاء في الطريق.

ـ سوف يصل جلالته. قال. لقد جئت الآن من القصر. أظن أن في الموقف الذي نحن فيه، لا مجال للنقاش طويلاً. لقد تفضل الأمبراطور فجمعنا كما جمع رجال التجارة.

ثم أضاف وهو يشير إلى قاعة التجار: سوف تأتي الملايين من هنا. إن دورنا نحن يقتصر على إعطاء المتطوعين وعدم توفير أنفسنا... وهذا أقل ما نستطيع عمله.

وجرت مشاورة بصوت أكثر خفوتاً بين السادة الجالسين وراء الطاولة وحدهم. ولقد أحدث سماع تلك الأصوات المحطمة، بعد ذلك الصخب الأخير وهي تدلي برأيها الواحد تلو الآخر، نوعاً من الحزن. كان هذا يقول: «إنني أوافق» وذلك ليبدل العبارة: «إنني من الرأي نفسه».

تلقى أمين السر الأمر بتسجيل القرار التالي من النبلاء الروس: «إن نبلاء موسكو، أسوة بأمثالهم في سمولنسك، يعطون عشرة رجال على كل ألف رجل مع تجهيزاتهم الكاملة». ثم نهض ذوو المراكز المرموقة براحة ظاهرة فدفعوا كراسيهم بجلبة وتوزّعوا في القاعة ممسكين بمعارفهم من سواعدهم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ومثرثرين معهم في شتى المواضيع وكأنهم بانتشارهم أرادوا أن يحركوا أطرافهم الساكنة.

صاح بعضهم فجأة: الأمبراطور! الأمبراطور!

ثم أسرع الجميع نحو المدخل.

على طول طريق عريض يحيط به من الجانبين سياج مزدوج من النبلاء، تقدم ألكسندر إلى القاعة. كانت الوجوه كلها معبرة عن فضول خاشع وجل معاً. لم يميز پيار وهو في مكانه البعيد الكلمات التي قالها جلالته. لكنه فهم فقط أنه يتكلم عن الخطر الذي تتعرض البلاد له وعن الآمال التي يبنيها على نبلاء موسكو. وأجاب صوت ينهي إلى جلالته القرار الذي اتخذ.

بدأ الأمبراطور يقول بصوت متهدج: أيها السادة.

وسادت الجموع رعشة ثم ران صمت عميق فسمع پيار بوضوح صوت ألكسندر العذب المتأثر يقول:

- إنني لم أرتب قط في غيرة الأشراف الروس. لكن هذه الغيرة اليوم فاقت ما كنت أتوقع. أشكركم باسم الوطن. لنعمل أيها السادة، الوقت ثمين.

سكت الأمبراطور فتألبت الجموع حوله وراحت أصوات التعجب المجنونة تنطلق من كل مكان. وكان إيليا أندرييـڤيتش يقول في الصفوف الخلفية وهو ينتحب رغم أنه لم يسمع شيئاً بل كان يفهم كل شيء على طريقته: نعم، إن أثمن ما في الأمر هو كلمة القيصر.

انتقل الأمبراطور من قاعة الأشراف إلى قاعة التجار حيث بقي قرابة عشر دقائق. ولقد رآه پيار ككثير غيره، وفي عينيه دموع الحنان. وكما نما إليهم فيما بعد، لم يكد ألكسندر يبدأ خطابه إلى رجال التجارة حتى انهمرت الدموع من عينيه فلم يفرغ من أقواله إلا بصوت لاهث. وكان اثنان من الحاضرين يرافقانه: أحدهما، وكان پيار يعرفه، تاجر مشروبات روحية كبير والآخر، ذو

www.Maktbah.com

وجه أصفر هزيل ولحية ضعيفة، كان نقيب التجار. وكان كلاهما يبكيان. وكانت عينا الهزيل مبللة بالدموع أما الآخر، فكان ينتحب كالطفل ويكرر دون كلال: خذ حياتي وثروتي يا صاحب الجلالة!

باتت رغبة پيار الوحيدة الآن أن يظهر على الملأ أنه لا يأسف على أية تضحية وأن يسخر من كل شيء آخر. كان يأسف على ميوله التأسيسية التي أبداها في خطابه وراح ينتهز الفرصة لإصلاح خطأه. ولما علم أن الكونت مامونوف يقدم فوجاً كاملاً، أعلن فوراً للكونت روستوبتشين أنه يقدم ألف رجل ويتحمل مسؤولياتهم.

لم يستطع روستوف العجوز أن يتمالك دموعه وهو يروي لزوجته كل ما حدث وأذعن فوراً لإلحاح پيتيا فذهب بنفسه يسجله في عداد المتطوعين.

وفي اليوم التالي، ذهب الأمبراطور وخلع كل أعضاء الجمعية أزياءهم الرسمية وعادوا إلى مألوف عاداتهم في بيوتهم وفي النادي وراحوا يوعزون إلى مديري أعمالهم بالأوامر المتعلقة بالتطوع في شيء من الهمهمة وهم في دهشة من أنفسهم لما بذلوه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الجزء العاشر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

لم يستطع ناپليون إلا أن يصل إلى دريسد ويحارب روسيا ولم يتجنّب الاستسلام لسكرة المجد والعظمة وارتداء بزة بولونية وأن يذعن لفتنة صباح جميل من حزيران المثير وكذلك لأنه لم يعرف قط كيف يخمد لحظات غضب في حضرة كوراكين ثم پالاشيف.

رفض ألكسندر كل مفاوضات لأنه كان يظن أنه أهين شخصياً. واجتهد باركلي دوتولي ليقود الجيش أفضل قيادة حتى يقوم بواجبه ويحصل على شهرة رئيس كبير. واندفع روستوف يهاجم الفرنسيين لأنه لم يستطع الصمود لرغبة الجري على الحصان في الأرض البراح. وهكذا كان يتصرف الأشخاص الذين لا عدّ لهم ممن ساهموا في الحرب، تبعاً لاستعداداتهم الشخصية وعاداتهم وشروط حياتهم أو مقدراتهم. كانوا يحسون بالخوف ويتباهون ويسخطون ويناقشون ويعتقدون أنهم يعرفون ما هم فاعلون وأنهم إنما يفعلونه لحسابهم الخاص في حين كانوا أدوات صمّاء في يد التاريخ، يقومون بعمل يستغلق معناه عليهم، عمل نفهمه نحن الآن. كذلك هو مصير كل رجال العمل الذي لا يتبدل: إنهم أقل حرية كلما شغلوا منصباً أكبر في التسلسل الاجتماعي.

اختفى صانعو أحداث ١٨١٢ منذ زمن طويل ولم تعد للمصالح التي جعلتهم ينشطون أي أثر فلم تبق إلا النتائج التاريخية لتلك الحقبة من التاريخ.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لكننا إذا اعتبرنا أن سكان أوروبا كان عليهم أن يوغلوا على عهد ناپليون في قلب روسيا ليهلكوا فيها، فإن سلوك المساهمين في الحرب كلهم، ذلك السلوك المعاكس الوحشي، يصبح غير مفهوم لدينا.

كان القدر يلجئ كل واحد من أولئك الرجال إلى المساهمة في الوقت نفسه الذي يتتبع فيه أهدافاً شخصية، في نتيجة واحدة هائلة، لم يكن لأحدهما، سواء كان ناپليون أو ألكسندر، بل لم يكن لأي كان من الفاعلين، أية فكرة عنها.

نرى اليوم بشكل واضح السبب الذي أدى إلى هزيمة الجيش الفرنسي عام ١٨١٢ ما من أحد يناقض القول إن ذلك البلاء العظيم كان أولاً بسبب الدخول المتأخر إلى قلب روسيا دون استعدادات كافية لحملة شتوية ومن ثم بسبب العقلية المتأثرة بالحرب التي دلت عليها حرائق المدن والموجدة المثارة في نفوس الشعب الروسي إزاء المحتل. ولكن ما من أحد كان بإمكانه حينذاك أن يتنبأ بما يبدو لنا اليوم بديهياً وخصوصاً إذا علمنا أن هذه الأسباب وحدها كانت السبب في انهيار جيش قوامه ثمانمائة ألف رجل وأنه كان أفضل جيش في العالم يقوده أعظم القادة، في وجه جيش أضعف مرتين منه، محروم من كل خبرة، يقوده جنرالات غير مجربين كذلك.

ليس فقط أن ما من أحد كان يستطيع تخمين ذلك بل كذلك أنه بينما كانوا من الجانب الروسي يحبطون التدابير الآيلة إلى إنقاذ روسيا بجهد وكأنهم يجدون متعة فيه، كانوا من الجانب الفرنسي كذلك رغم خبرة ناپليون وعبقريته المزعومة، يبذلون أقصى الجهد للوصول إلى موسكو حوالى نهاية الصيف، أو بعبارة أخرى، يعملون ذاك الذي كان عليه أن يسبب هلاكهم.

ففي كتب التاريخ عن عام ١٨١٢، يلح الفرنسيون بمجاملة حول واقع ناپليون الذي كان يشعر بخطر إطالة خطه الحربي وأنه كان يسعى إلى المعركة وأن ماريشالاته كانوا يشيرون عليه بالتوقف في سمولنسك وبالإيجاز، حول

www.Maktbah.com

عدد من الذرائع الرامية إلى الدلالة على أنهم كانوا يشعرون بالخطر. ومن جهة ثانية، يؤكد المؤرخون الروس بأكثر مجاملة أيضاً وجود خطة «حرب ياجوجية» منذ البداية غايتها استدراج ناپليون إلى قلب روسيا ويعزون هذه الخطة إلى پفويل تارة وإلى تولّ تارة أخرى، بعضهم يعزوها إلى فرنسي والبعض الآخر إلى ألكسندر نفسه مستندين في ذلك إلى المذكرات والمشاريع والرسائل التي وردت فيها بالفعل تنويهات عن هذا النوع من التصرف. ولكن كل هذه التلميحات إلى استقراء ما كان سيحدث سواء من الجانب الروسي أو من الجانب الفرنسي، لم تستعرض إلا في هذا الوقت لأن الحدث نفسه قد أيدها. فلو أن ما وقع كان، العكس، لنسيت هي الأخرى اليوم كما نسيت ألوف الفرضيات التي درجت حينذاك والتي ثبت بطلانها. إنّ نتيجة كل حدث تبيح كثيراً من الافتراضات حتى أنك لن تعدم أشخاصاً يقولون مؤكدين: «لقد قلت هذا من قبل!» متناسين أن بين هذه الافتراضات التي لا تعدّ،وقع عدد آخر مما يناقض هذه تناقضاً كلياً.

لذلك فإن شعور ناپليون بالخطر لتوسيع خطه الحربي والخطة المدروسة الهادفة إلى استدراج العدو إلى قلب روسيا، إنما هما من هذا النوع من الفرضيات. ولا بد وأن المؤرخين قد تجاوزوا الواقع كثيراً ليستطيعوا أن يعزوا وجهة النظر تلك كلها إلى ناپليون وتلك الخطة إلى الرؤساء الروس لأن الوقائع كلها تعطي تكذيباً واضحاً هذه الافتراضات المجانية. لقد عمل الروس كل ما في وسعهم بعيداً عن فكرة استدراج الفرنسيين إلى قلب بلادهم لتأخير العدو منذ أن بدأ التقدم. وناپليون، بعيداً عن التخوف من امتداد خط القتال، كان يبتهج، ابتهاجه بنصر مبين، بعد كل خطوة إلى الأمام ولا يبحث عن المعركة إلا بتراخ خلافاً لحملاته السابقة.

شُطرت جيوشنا منذ اندلاع الحرب فلم يكن همنا إلا جمعها في حين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أن التقهقر واجتذاب العدو إلى داخل البلاد لم يكن حلاً يبشر بأي أهمية. وإذا كان الأمبراطور موجوداً حينذاك في صفوف الجيش فإنما كانت غايته لتشجيع قطعاته على الدفاع عن كل «بوصة» من الأرض وليس ليرأس التقهقر. لقد نظموا معسكر دريسا الهائل وفقاً لخطة پفويل ليس للتقهقر بل للصمود فيه. ولقد وجه ألكسندر اللوم إلى القائد الأعلى على كل خطوة إلى الوراء. ولم يكن حريق موسكو ولا هجر سمولنسك من الأشياء المقبولة. ولما قامت الجيوش بحركة انضمام بعضها إلى بعض، سخط لرؤية هذه المدينة الأخيرة تسقط في أيدي العدو دون أن تدور تحت جدرانها معركة شاملة.

كان القادة العسكريون والشعب الروسي كله، كالأمبراطور نفسه، محزونين حزناً أليماً لتقدم العدو.

وراح ناپليون يتوغل إلى الأمام، بعد أن شطر جيوشنا، يتجنّب مناسبات كثيرة للالتحام في معركة. ففي شهر آب، كان في سمولنسك. فلم يفكر إلا في استمراره في الهجوم الذي، كما نراه الآن، أصبح قاضياً عليه قضاء مبرماً.

وتثبت الوقائع، بشكل جازم، أن ناپليون لم يكن يتوقع أي خطر في سيره باتجاه موسكو وأن ألكسندر، بعيداً عن تسهيل مثل هذه الحركة، راح مع جنرالاته يفكر في وضع عائق لها. فالحادثة إذن وقعت ليس تبعاً لخطة ما، لأن ما من أحد كان حتى يتوقع هذا الاحتمال، بل بفعل سلسلة شديدة التعقيد من الدسائس والأهواء والرغبات، كانت الخلاص الأوحد لروسيا ولو أن صانعي الحرب لم يحدسوا ما كان سيقع تبعاً لها، لقد وقع كل على حين غرة.

كانت جيوشنا مشطورة منذ بدء الحملة فحاولنا جهدنا أن نجمعها ونحن نهدف من وراء ذلك بديهياً إلى الدخول في معركة وإيقاف العدو، وفي سياق هذه المحاولة، وبينما نحن نتجنّب لقاء قوات أوفر منا عدداً، قدنا الفرنسيين إلى سمولنسك ونحن نتراجع رغماً عنا على زاوية حادة ولكن لا يكفي القول

إننا نتراجع مشكلين زاوية حادة لأن الفرنسيين شكلوا زاوية بين الجيشين فأصبحت الزاوية أكثر ضيقاً ونشطنا في التقهقر لأن باركلي دوتوللي، ذلك الغريب معدوم الشعبية، كان مكروهاً من پاغراسيون قائد الجيش الثاني الذي يجب أن يكون مرؤوساً له والذي يؤخر الالتقاء مع جيشه بقدر ما يستطيع كي لا يكون تحت أمره. وإذا كان پاغراسيون قد رفض طويلاً القيام بتلك الحركة، وهي الغاية الرئيسة ككل قادة الجيوش، فما ذلك إلا لأنه كان يخشى تعريض جيشه للخطر بدون شك، ولأنه يفضل أن يتراجع أكثر فأكثر إلى اليسار وإلى الجنوب، مشكلاً خطراً على جناح جيش العدو ليتمم جيشه في أوكرانيا. ولكن يبدو كذلك أنه عمد إلى هذا التدبير كي يتجنب مرؤوسيته لباركلي الغريب الذي يعتبر هو أقدم منه رتبةً، وهو الأمر الذي لم يكن يحتمله.

ووجود الأمبراطور في الجيش كان ليزكي الحماسة بوجوده. لكن ذلك الوجود نفسه وذلك التردد في اتخاذ القرارات وعدد المستشارين والخطط الكبيرة عكست قصد القوة الهجومية الكامنة في الجيش الأول وأرغمتها على التراجع.

عزموا على التوقف في معسكر دريسا. لكن پولوكشي الذي كان يهدف إلى القيادة العليا، استعمل نفوذه على ألكسندر، فأهملت خطة پفويل كلها وعهد بكل شيء إلى باركلي. ولما كان هذا لا يوحي بثقة، فقد حدوا رغم ذلك من صلاحياته. وجزّئت الجيوش إذن، فلا وحدة قيادة ولا شعبية لباركلي. ومن الفوضى، ومن هذا التجزؤ، ومن عدم شعبية القائد الأعلى الأجنبي هذه، نجم التردد من جهة والامتناع عن خوض معركة ما كان يمكن الامتناع عنها لو أن الجيوش كانت موحدة ولم يكن پاغراسيون يقود جيشاً منها ومن جهة ثانية، السخط المتزايد على الغرباء ويقظة الشعور الوطني.

وأخيراً، ترك الأمبراطور الجيش فلا يُرى لهذا الرحيل إلا تفسير واحد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مقبول: ضرورة إثارة حماسة العاصمتين لاحتمال خوض حرب قومية، فضاعف هذا الرحيل إلى موسكو قوات الجيش الروسي إلى ثلاثة أمثالها.

ترك الأمبراطور الجيش ليترك كل الحرية للقائد الأعلى، فيُتوقع حينذاك صدور قرارات أكثر حزماً في حين أن العكس كان. لقد تعقد موقف القائد وازداد ضعفاً. لقد بقي بينيغسن والغراندوق، وثول كبير من المساعدين العسكريين في الجيش بقصد المراقبة والتعريض بالقائد الأعلى. فيضاعف باركلي تعقله بتجنب المعركة وهو يشعر بأن حريته في العمل آخذة بالتناقص تحت مراقبة كل هذا العدد من «عيون الأمبراطور».

وبينما باركلي متخذاً حذره، يتحدث التسيزاريـڤيتش عن خيانة ويطالب بمعركة شاملة. وينضم لوبوميرسكي وبرونيكي وولوكي وعدد آخر إلى صفه ويجسمون هذه الإشاعة حتى أن باركلي، متذرعاً بحجة إرسال وثائق إلى الأمبراطور اضطر إلى ترحيل المساعدين العسكريين البولونيين إلى پيترسبورغ والدخول في نضال سافر ضد بينيغسن والغراندوق.

وفي سمولنسك، أخيراً رغم عدم تعجل پاغراسيون، تقوم الجيوش بحركة الالتقاء.

يصل پاغراسيون إلى مسكن باركلي في عربة فيندفع هذا للقائد متدثراً بوشاحه، ويقدم إليه تقريره كما يفعل مع من أقدم منه رتبة. ويظهر پاغراسيون شهامة عالية بتقبله رئاسة باركلي، لكنه بذلك يزداد في الاختلاف معه. ويوجه تقاريره مباشرة إلى الأمبراطور كما أمره هذا أن يفعل ويكتب إلى أراكتشييـف قائلاً: «إنني رغم رغبة جلالته، يستحيل علي الاتفاق مع «الوزير» (باركلي). أرسلني بحق السماء إلى مكان ما حتى ولو إلى قيادة فوج. لكنني لا أستطيع البقاء هنا...

إن القيادة العليا كلها مزدحمة بالألمان لدرجة أن الروسي لا يمكنه أن

www.Maktbah.com

يعيش فيها وأنها فوضى حقيقية. كنت أعتقد أنني أخدم الأمبراطور والوطن. لكنني في الواقع إنما أخدم باركلي. لذلك، أعترف لك أنني أرفض هذه الخدمة». وينشط ثول بروّنيكي وونتزبخيرود وآخرين في تسميم العلاقات بين الجنرالين أكثر فأكثر، فتصبح وحدة القيادة مجرد مظهر. وتبدأ الاستعدادات لمهاجمة الفرنسيين أمام سمولنسك. فيُرسل جنرال لدراسة الموقف ولما كان هذا الجنرال من الحاقدين على باركلي، فإنه يمضي لزيارة قائد من جناح أصدقائه فيمضي النهار عنده. وعند رجوعه، يندفع في نقد ساحة معركة لم يرها قط.

وبينما هم يدرسون ويناقشون حول ساحة المعركة المقبلة هذه، وبينما هم يبحثون عن الفرنسيين ويخطئون في تحديد مواقعهم على الضبط، يصطدم العدو بجيش نـڤييروسـڤكي ويقترب من جدران سمولنسك نفسها.

ولقد اضطررنا إلى خوض المعركة في سمولنسك لنمحو خطوط اتصالنا، فسقط من الجانبين ألوف من الرجال.

وهُجرت سمولنسك برغبة من الأمبراطور والشعب أجمع، لكن المدينة أحرقت من قبل السكان أنفسهم الذين خدعهم حاكم مدينتهم. وذهب هؤلاء المنكوبون إلى موسكو فأصبحوا مثالاً للروس الآخرين وهم لا يفكرون إلا في الخسائر التي لحقت بهم وفي إذكاء الموجدة على العدو. ويتابع هذا تقدمه فنتابع تقهقرنا، وهكذا دارت الأمور دورتها القاضية على ناپليون.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

غداة يوم رحيل ابنه، استدعى الأمير نيكولا أندرييـڤيتش الأميرة ماري وقال لها: حسناً! أنت سعيدة الآن: لقد خاصمتني مع ولدي! هذا ما كنت تريدينه تماماً. ها أنت سعيدة الآن!... بينما ذلك يؤلمني، يؤلمني كثيراً. إنني عجوز وضعيف... أما أنت، فقد نلت ما كنت تشتهين... هيا، قري عيناً، قري عيناً...

ثم لم ترَ ماري أباها طوال الأسبوع إذ كان مريضاً لا يخرج من مكتبه. ولدهشتها العظيمة، لم يكن يستقبل الآنسة بوريين ولا يتقبل خدمات تيخون.

وخلال ثمانية أيام، عاد إلى مألوف عاداته تستفزه حمى الإنشاء والغرس لكنه لم يستعد علاقاته مع الآنسة بوريين. وكانت أماراته ولهجته الباردة التي يخاطب ابنته بها أشبه بالقول: «هل ترين، لقد رويت لأخيك الأكاذيب حول علاقاتي مع هذه الفرنسية وخاصمتني معه مع أنك ترين أنني لست في حاجة إليك ولا إلى الفرنسية».

كانت ماري تقضي نصف يومها قرب نيكولا الصغير تراقب تثقيفه وتعطيه بنفسها دروساً بالروسية والموسيقى وتتباحث مع ديسال. أما بقية وقتها، فكانت تقضيها بالقراءة أو بمحادثات مع المربية العجوز و«رجال الله» الذين كانوا أحياناً يغامرون بالمجيء إلى مدخل الخدم لرؤيتها.

كانت تفكر في ما يدور في تفكير النساء في الحرب وكانت تخشاها من أجل أخيها الذي يساهم فيها وتلعن، دون أن تتوصل إلى فهمها، قسوة

www.Maktbah.com

الرجال التي تجرهم إلى الاقتتال. لكنها لم تكن تعرف أهمية الحملة التي لم تكن تبدو في نظرها مختلفة عن الحملات الأخرى. مع ذلك، فإن ديسال، محدثها المألوف، الذي كان يتابع سير العمليات باهتمام كبير، كان يحاول أن يفتح عينيها وكذلك «رجال الله» كل على طريقته، يفسرون في حضرتها الإشاعات الرائجة بين الشعب حول مجيء المسيح الدجال، وأخيراً جولي، التي استعادت اتصالها الخطي معها منذ زواجها، كانت ترسل إليها من موسكو مراسلات مطبوعة بوطنية مضطرمة. كانت تنبئها:

«يا صديقتي الطيبة، إني أكتب إليك بالروسية لأنني بدأت أحقد على كل الفرنسيين حقدي على لغتهم التي ما عدت أطيق سماعها... إننا جميعاً في موسكو شعلة حماسة في سبيل أمبراطورنا المعبود.

«إن زوجي المسكين يحتمل الجوع وكل أنواع المزعجات في مختلف الخانات اليهودية القذرة. لكن الأنباء التي أملكها لا تعمل إلا على زيادة حماستنا.

«لا بد وأنك علمت بصنيع راييفسكي البطولي الذي عانق ولديه وقال لهما: «سأموت معهم، لكننا لن نتراجع!» وهكذا كان. فعلى الرغم من أن قوة العدو كانت ضعفي قوتنا، فإننا لن ننثني. إننا نقضي الوقت كما نستطيع ولكن في الحرب نمضيه كما تتطلب الحرب! إن الأميرة آلين وصوفي تكرسان من أجلي أياماً كاملة. إننا ونحن أرامل أزواج أحياء، نتحادث في موضوعات جميلة ونحن نشتغل بالنسيل ولا ينقصنا إلا أنت يا صديقتي».

وإذا غابت أهمية هذه الحرب عن ماري، فما ذلك إلا لأن الأمير العجوز لم يكن يتحدث عنها البتة، متظاهراً بأنه يجهلها مستهزئاً بديسال كلما أدار هذا الحديث نحو هذا الموضوع حول المائدة. وكانت لهجته بالغة الهدوء والثقة حتى أن ماري لم تكن تحاول التعمق في الأمور.

twitter @baghdad_library

خلال شهر تموز بكامله، بدا الأمير شديد النشاط بل كثير المشاغل. أمر بتخطيط حديقة جديدة وجناح إضافي مخصص للخدم. لكن ماري لاحظت بقلق أنه ينام قليلاً وأنه خلافاً لعاداته، كان يبدل كل ليلة الغرفة التي يأوي إليها. كان حيناً يأمر بنصب سرير الميدان الذي ينام عليه في الرواق وينام حيناً آخر بثيابه كاملة على كنبة في القاعة أو على مقعد من طراز ڤولتير. ولم تعد الآنسة بوريين هي التي تقرأ له، بل الخادم الصغير بيتروشكا الذي يقوم بهذه المهمة. وكان أحياناً يقضي الليل في قاعة الطعام.

في الأول من آب، وصلت رسالة ثانية من الأمير أندريه. كانت الأولى التي وصلت بعد ذهابه بوقت قصير، يطلب بخشوع صفح أبيه عما سمح لنفسه بقوله له ويرجوه أن يرضى عنه. فأجابه الأمير العجوز بتودد ولم يلبث أن تباعد عن الفرنسية. أما الرسالة الثانية التي كتبت في ضواحي ڤيتيبسك بعد احتلال تلك المدينة، فقد كانت تحتوي على وصف قصير للمعركة مع مخطط بياني وبعض الآراء حول توسيع العمليات المقبلة. كان أندريه يلفت نظر أبيه إلى ما في مستقره الحالي من موانع بصفته واقعاً على مقربة من مسرح الحرب وعلى خط مسير الجيوش ويشير عليه بالذهاب إلى موسكو.

وفي ذلك اليوم بالذات، أخطره ديسال أثناء الطعام، أنه تبعاً للإشاعات الرائجة، أصبحت ڤيتيبسك محتلة من الفرنسيين. وحينئذ تذكر الأمير رسالة ابنه. قال لماري:

ـ لقد تلقيت منذ حين رسالة من الأمير أندريه. ألم تقرئيها؟

أجابت وهي شديدة الجزع: كلا يا أبي.

وفي الواقع كيف يتسنى لها قراءة هذه الرسالة وهي التي لم تعلم بوصولها؟

www.Maktbah.com

قال الأمير بتلك الابتسامة المحتقرة التي باتت مألوفة لديه كلما تكلم حول هذا الموضوع: إنه يتكلم عن هذه الحرب.

فقال ديسال: لا شك أنها شديدة الأهمية. لا بد وأن الأمير قادر على معرفة الحقيقة وهو في مركزه..

وعقبت الآنسة بوريين مؤيدة: نعم، نعم، شديدة الأهمية.

قال الأمير لهذه: اذهبي وائتني بها، إنك تعرفين، على النضد تحت المثقلة.

كادت الآنسة بوريين تندفع لتنفيذ رغبته وقد استخفها الفرح. لكن الأمير اكفهر وجهه فجأة وصاح:

ـ كلا، كلا. اذهب أنت يا ميخائيل إيـڤانوڤيتش.

وقف ميخائيل إيـڤانوڤيتش وذهب إلى المكتب. فلم يكد يدخله، حتى كان الأمير العجوز يدير حوله نظرات قلقة ثم يلقي بمنشفته ويتبعه.

ـ إن هؤلاء الناس لا يعرفون عمل شيء. لسوف يفسد كل شيء.

وبينما هو يخرج، راح ديسال والأميرة والآنسة بوريين ونيكولا الصغير يتبادلون النظر دون أن ينطقوا بكلمة. عاد بخطى متلاحقة يصحبه نيكولا إيـڤانوڤيتش ومعه الرسالة والمخطط فوضعها جانباً ولم يسلمها إلى أحد قبل الانتهاء من الطعام.

ولما انتقلوا إلى القاعة، قدم الرسالة إلى ماري ورجاها أن تقرأها بصوت عال في حين راح ينشر أمامه مخطط بنائه الجديد. وبعد أن قرأت ماري الرسالة سألت أباها بنظرة: كانت عينا الأمير العجوز شاخصتين إلى المخطط أمامه وكأنه مستغرق في تأملاته:

سمح ديسال لنفسه بالسؤال: ما رأيك في كل هذا يا أمير؟

أجاب دون أن يرفع عينيه وكأنه يستفيق من حلم: أنا، أنا؟

twitter @baghdad_library

ـ من الجائز أن يقترب ميدان المعركة منا..

فقال الأمير: ها! ها! مسرح الحرب! لقد قلت وأكرر أن مسرح الحرب هو بولونيا وأن العدو لن يتوغل أبداً إلى الأمام أكثر من النييمن.

نظر إليه ديسال بدهشة: إنه يتكلم عن النييمن في حين أن العدو بلغ الدنيبر. لكن ماري التي نسيت موقع هذا النهر الجغرافي الصحيح، أيدت أقوال أبيها مؤمنة.

أضاف وهو يفكر بدون شك في حملة عام ١٨٠٧ التي كانت في نظره قريبة جداً: عند ذوبان الثلوج، سوف يغرقون كلهم في مستنقعات بولونيا. إن ما لا يستطيعون رؤيته هو أن بينيغسن كان عليه أن يدخل إلى بروسيا بسرعة وحينئذ كانت الأمور ستأخذ شكلاً آخر.

اعترض ديسال بخوف:

ـ ولكن يا أمير، إن الرسالة تتحدث عن ڤيتيبسك...

زمجر: الرسالة؟.. آه! نعم.. نعم.. نعم..

وفجأة اربدّ وجهه ثم أعلن بعد فترة صمت: نعم، إنه يقول إن الفرنسيين قد هزموا، قرب أي نهر كان؟..

خفض ديسال عينيه وقال بلطف:

ـ لم يكتب الأمير شيئاً من هذا القبيل.

ـ كيف لم يكتب شيئاً من هذا القبيل؟ هل ابتكرته أنا؟

سكتوا جميعهم فترة طويلة. وفجأة استأنف الأمير مشيراً إلى المخطط وقد رفع رأسه: نعم.. نعم.. هيا يا ميخائيل إيـڤانوڤيتش. قل لي كيف تريد أن تشرع في التجديد..

اقترب ميخائيل إيـڤانوڤيتش وبعد أن تحادث الأمير معه حول البناء، ألقى نظرة غاضبة على ماري وديسال ثم انسحب.

www.Maktbah.com

لاحظت الأميرة ماري صمت ديسال المرتبك والطريقة التي نظر بها إلى أبيه ولقد دُهشت إذ رأت أن هذا قد نسي على الطاولة رسالة الأمير أندريه. لكنها لم تجرؤ على سؤال المدرس عن أسباب سكوته وتشوشه لأنها كانت تخشى التفكير في هذه الأمور.

وحوالى المساء، جاء ميخائيل إيـﭭانوﭬيتش يسألها عن الرسالة موفداً من قبل الأمير فأعطتها ماري له وسألته رغم ارتباكها عما كان يفعل أبوها.

أجاب المهندس بابتسامة شحب وجه ماري للسخرية الكامنة فيه وراء مظاهر الاحترام: إنه كعادته يزعج نفسه كثيراً. إن البناء الجديد يسبب له متاعب جديدة.

وأضاف ميخائيل إيـﭭانوﭬيتش وهو يخفف من صوته:

ـ لقد قرأ فترة وهو الآن وراء مكتبه يعمل في وصيته بلا ريب.

سألت ماري: يبدو أنه يرسل الباتيتش إلى سمولنسك؟

ـ نعم. والباتيتش ينتظر أوامر الأمير منذ وقت طويل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

كان الأمير جالساً وراء مكتبه المفتوح عندما دخل ميخائيل إيـڤانوڤيتش بالرسالة، وكانت نظارتا الأمير فوق أنفه وعلى جبهته عاكس نور. كان يقرأ أوراقاً في يده على ضوء الشموع بوضع مسرحي تقريباً وقد جعلها بعيدة عن عينيه مسافة ما وكانت تلك الأوراق هي «ملاحظاته»، كما كان يدعوها، التي يجب تسليمها إلى الأمبراطور بعد موته. وكانت عيناه تنديان بالدموع لذكرى الوقت الذي كتب فيه ما يقرأه الآن.

تناول الأمير الرسالة فوضعها في جيبه ونظم أوراقه ثم استدعى الباتيتش الذي كان ينتظر منذ وقت طويل.

كان قد دوّن على وريقة الأشياء التي يجب شراؤها من سمولنسك فراح وهو يذرع الغرفة يلقي بأوامره إلى الباتيتش المسمر على العتبة.

ـ أولاً، ورقاً للرسائل، هل تسمع، مائتي ورقة وإليك نوعها: مذهبة عند أطرافها مماثلة للأنموذج تماماً، ثم طلاء وشمعاً للختم حسب ملاحظة ميخائيل إيـڤانوڤيتش.

استشار المذكرة: ثم تقدم بنفسك إلى الحاكم الرسالة المتعلقة بمذكراتي.

كان يجب أيضاً أن يحضر مزاليج لأبواب البناء الجديد مطابقة للأنموذج الذي ابتكره الأمير تماماً ثم محفظة خاصة ليضع فيها وصيته.

استمرت المقابلة أكثر من ساعتين دون أن يترك الأمير الباتيتش يرحل.

www.Maktbah.com

وأخيراً جلس واستغرق في أفكاره وأغمض عينيه واستسلم للنعاس. وحينئذ قام الباتيتش بحركة.

ـ هيا، يمكنك أن تذهب، وإذا كنت لا أزال أحتاج إلى شيء أبلغك ما أريد.

خرج الباتيتش فعاد الأمير إلى مكتبه ليلقي عليه نظرة أخيرة ثم أغلقه وجلس إلى طاولته حيث راح يكتب إلى الحاكم.

كان الوقت متأخراً عندما نهض بعد أن ختم رسالته. كان يتوق إلى النوم لكنه كان يعرف إنه لن يتمكن من النوم وأن الأفكار الأشد سواداً تحاصره وهو في السرير. استدعى تيخون وتحول معه في غرفٍ كثيرة بحثاً عن مكان يضع فيه سريره، فكان يأخذ قياس كل زاوية.

لم يعجبه مكان. كان يشعر بنفور شديد من فراشه القديم يسبب نوبات الأرق القاسية التي أصيب بها وهو راقد عليه. قرر أخيراً قبول زاوية من مخدع وراء المعزف، وهو مكان لم ينم فيه من قبل.

جاء تيخون بالسرير يساعده خادم المائدة، فأقاماه هناك. صرخ الأمير وهو يبعد سريره بضع أصابع ليعيده من فوره إلى حيث كان.

ـ ليس هكذا، ليس هكذا.

قال في سرّه وهو يترك أمر نزع ثيابه لتيخون: «هيا، لقد سوي كل شيء الآن. سوف أستطيع أن أنام».

اقتضاه المجهود الذي أبداه لخلع «قفطانه» وسراويله أن يكفهر وجهه وأخيراً تهالك على السرير وألقى على ساقيه الهزيلتين الصفراوين نظرة احتقار. بدا كأنه يفكر، لكنه كان في الحقيقة يتردد في رفع ساقيه والاستلقاء على سريره فحسب. كان يقول في نفسه: «أوه! كم هذا منصب! أوه! لو أن كل هذه المنغصات تنتهي بسرعة، لو «أنكم» تستطيعون أن تتركوني أذهب!»

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وللمرة العشرين ألفاً في حياته تقريباً، قام بالمجهود المطلوب وهو يصرف على أسنانه. لكنه ما كاد يستلقي حتى راح سريره يتماوج ويتأرجح: كذلك كان الحال كل ليلة تقريباً. عاد ففتح عينيه نصف المغمضتين.

زمجر يخاطب مضطهديه الوهميين: ألن تتركوني أنام أيها الملاعين!... ولكن ماذا، لقد احتفظت بشيء ما مهم لأفكر فيه في السرير، شيء مهم جداً. المزاليج؟ كلا، لقد فكرت فيها... إن الموضوع يتعلق بشيء وقع في القاعة... هل هو هذيان ماري؟ أم هو هذر هذا التافه ديسال؟ شيء في جيبي؟ لم أعد أتذكر... تيخون، عن أي شيء تكلموا حول المائدة؟

ـ عن الأمير ميخائيل...

صاح الأمير وهو يضرب الطاولة بكف يده:

ـ أصمت، أصمت. لقد وجدتها! رسالة الأمير أندريه. لقد قرأتها ماري علينا وروى ديسال ما لست أدري عن ڤيتيبسك. يجب أن أقرأها الآن.

أمر أن تعطى إليه الرسالة وقرب النضد الذي كان كأس الليمون عليه إلى جانب شمعة على هدب حلزوني ثم أحكم نظارتيه وبدأ يقرأ. وحينئذ فقط، في هدأة الليل، وتحت النور الشحيح الذي كان يعكسه عاكس أخضر، أدرك فجأة أهمية الأنباء التي تحملها الرسالة.

ـ إن الفرنسيين في ڤيتيبسك وهم يستطيعون أن يكونوا في سمولنسك في أربع مراحل. بل لعلهم هناك الآن! تيخون! ـ وانتصب تيخون منتفضاً ـ كلا، لا جدوى.

دس الأمير الرسالة تحت الشمعدان وأغلق عينيه. شاهد أمامه الدانوب ظهر يوم مشع والقصب والمعسكر الروسي ونفسه، وهو جنرال شاب حينذاك،

www.Maktbah.com

متيقظ بهيج النفس نضر، يدخل في خيمة باتيومكين[١] المرقشة. وفجأة، استبد به شعور بالغيرة من ذلك المفضل كاوٍ ومحتدم كما كان حينذاك. تذكر الكلمات التي تبادلاها أثناء تلك المقابلة. وفجأة، انبعثت في ذاكرته، امرأة قصيرة القامة، قوية، ممتلئة الوجنتين، صفراء اللون، هي أمنا الأمبراطورة، ومثلت أمام عينيه: إنه يراها مجدداً وهي تبتسم له ويسمعها من جديد توجه إليه كلمات ترحيب لطيفة. ثم أخذ يتذكر ذلك الوجه نفسه على النعش المزين والجدال الذي وقع بينه وبين زوبوف[٢] حول حق تقبيل يد الأمبراطورة.

«آه! ليتني أستطيع العودة إلى ذلك الوقت، ليت الحاضر يمكن اختفاؤه بأقصى سرعة، وليتهم فقط يتركونني بسلام!».

---

(١) فيلد ماريشال روسي من المقربين لدى كاترين الثانية أمبراطورة روسيا. (المترجم).

(٢) آخر المفضلين لدى الأمبراطورة كاترين الثانية. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

مساء ذلك النهار الذي أصدر فيه الأمير تعليماته إلى الباتيتش، كانت ليسيياغوري تقع على مسافة خمسة عشر ميلاً وراء سمولنسك وثلاثة أرباع الميل عن طريق موسكو.

سأل ديسال الأميرة ماري أن تمنحه مقابلة عرض عليها خلالها أن صحة الأميرة لا تسمح له بأن يتخذ التدابير لأمنهم كما وأن رسالة الأمير أندريه من جهة ثانية تلمح إلى أن البقاء في ليسيياغوري يشكل خطراً ما. وطلب إليها باحترام أن يستفسر لدى حاكم المقاطعة عن الموقف الحقيقي وعن الخطر الذي يتعرضون له ببقائهم في الريف. وكتب ديسال الرسالة التي وقعتها ماري وأعطيت إلى الباتيتش مشفوعة بأمر تسليمها إلى الحاكم بالذات والعودة بأسرع ما يمكن إذا اقتضت الضرورة الإسراع.

راح الباتيتش وعلى رأسه قبعة من جلد كلب الماء كانت هدية من سيدة، وبيده عصا، على غرار الأمير كلما أراد الخروج، يستعد مع نفر من العاملين في المنزل لركوب عربة صغيرة ذات غطاء من الجلد يجرها ثلاثة جياد أقوياء.

ربطوا الجريس ولفوا الجلاجل بالورق لأن الأمير لم يكن يسمح لأحد باستعمالها في أراضيه، وكان الباتيتش يحب سماع أصواتها كلما ذهب برحلة طويلة. وكان مقرّبوه، المحاسب والكاتب والطاهية ومساعدها وامرأتان عجوزان والقوقازي الصغير وسائقو العربة وبعض الخدم الآخرين، يرافقونه.

ووضعت ابنته على مقعدها ومسنده وسائد مختلفة ودست أخت زوجه

www.Maktbah.com

العجوز بينها رزمة خلسة بينما ساعدها أحد السائقين على الصعود وهو يرفعها من تحت إبطها. زمجر الباتيتش وهو يقلد لهجة سيده:

ـ آه! آه! من استعدادات النساء! آه! النساء، النساء!

ثم اتخذ مكانه في العربة وهو ينفخ ويزمجر.

وبعد أن أرشد رئيس المكتب كما يجب إلى موضوع الأعمال الدارجة، نزع الباتيتش قبعته عن رأسه الأصلع، ودون أن يقلد سيده هذه المرة، رسم على صدره إشارة الصليب ثلاثاً.

صاحت به زوجته وهي قلقة من الإشاعات الرائجة حول اقتراب العدو:

ـ إذا وقع شيء ما... ستعودون فوراً أليس كذلك يا أياكوف الباتيتش؟... بحق السماء، اشفق علينا.

غمغم الباتيتش بينما راحت العربة تدرج:

ـ آه! النساء! إن المرء لا ينتهي أبداً معهن!

راح طوال الطريق يمتع الطرف تارة بالشيلم الآخذ بالنضج وطوراً بالخرطال الأخضر الكثيف، وبالحقول التي لا تزال سوداء لم تفلح إلا للمرة الثانية تارة أخرى. كان يتأمل موسم حنطة الربيع المقبل ويمعن النظر في خطوط الشيلم الذي حصد بعضه هنا وهناك ويبدي ملاحظاته حول البذار والمواسم المقبلة ويتساءل عما إذا لم ينس مطلباً لسيده.

وبعد أن علف خيوله مرتين في الطريق، وصل إلى المدينة مساء الرابع من آب.

كان قد تجاوز في طريقه بعض القوافل والقطعات. فلما اقترب من سمولنسك، سمع طلقات بعيدة لكنه لم يلق إليها بالاً. لكن ما أدهشه أكثر فأكثر كان رؤيته حقلاً بديعاً من الخرطال كان الجنود يعسكرون فيه ويحصدون زرعه لإطعام خيولهم. على أية حال، كانت مهمته تشغل كل تفكيره مما لم

twitter @baghdad_library

يجعله يتوقف عند هذه البادرة متأملاً. كان الباتيتش منذ ثلاثين عاماً لا يعرف إلا إرادة الأمير فلم يكن يفكر ليمتد إلى أبعد من تلك الإرادة. فكان كل ما ليس له علاقة بتنفيذ أوامر سيده لا يثير اهتمامه بل إنه لم يكن موجوداً أصلاً بالنسبة إليه.

ذهب الباتيتش تبعاً لعادة أصبحت ثلاثينية، ينام في ضاحية غانشا على الجانب الآخر من الدينيبر في خان يديره من يدعى ڤيرابونتوف. قبل ثلاثين عاماً، اشترى ڤيرابونتوف هذا تبعاً لمشورة الباتيتش، أخشاباً من الأمير راح يتجر بها فأصبح يمتلك الآن بيتاً وخاناً ومخزناً لبيع الدقيق وكان رجلاً ضخم الجسم، أحمر الوجه، في نحو الخمسين من عمره، ذا شعر أسود وشفتين غليظتين وأنف كأنه قطعة من البطاطا وحدبتين فوق حاجبيه الكثيفين الأشعثين وبطن عظيم.

كان ذلك المساء في دكانه يرتدي صدرة فوق ذراعيه من قماش هندي. فلما شاهد الباتيتش، تقدم لاستقباله وقال له:

ـ أهلاً وسهلاً بإياكوف الباتيتش. إن الناس يغادرون المدينة بينما أنت تدخلها.

يغادرونها؟ لماذا؟

ـ لسخفهم، ماذا! إنهم جميعاً خائفون من الفرنسيين.

ـ ترهات نساء مسنات!

ـ وهذا ما أظنه يا إياكوف الباتيتش. مادام الأمر ينص على عدم السماح لهم بالدخول، فليس هناك ما يخيف أليس كذلك؟.. وها إن جماعتنا يندفعون في طلب ثلاثة روبلات لقاء العربة العادية، هؤلاء الملحدون، إنهم لا يخجلون!

www.Maktbah.com

كان إياكوف الباتيتش يستمع إليه بأذن ساهمة. طلب سماوراً وعلفاً لخيوله وبعد أن شرب الشاي أوى إلى سريره.

استمرت قطعات تمر أمام الخان طوال الليل. وفي الصباح، ارتدى الباتيتش ثياب المدينة وذهب إلى أعماله. وكان الصباح مشمساً والحرارة مرتفعة في الثامنة صباحاً. قال الباتيتش في نفسه: «طقس جميل جداً للحصاد».

تناهت إلى الأسماع طلقات بنادق كثيرة اتحد معها منذ الساعة الثامنة قصف المدفعية. وكانت الشوارع تغصّ بالجنود والناس في حمى العجلة. لكن العربات كانت كعادتها تسير في الشوارع والدكاكين مفتوحة والقداس يقام في الكنائس، دخل الباتيتش إلى بعض الدكاكين والمكاتب وذهب إلى إدارة البريد فكانوا يتحدثون عن الحرب وعن العدو الذي يهاجم المدينة والناس كلهم يتساءلون عما يجب عمله وكل يحاول بعث الطمأنينة في نفس جاره.

اصطدم الباتيتش أمام مقر الحاكم بعدد كبير من الناس وكانت فرقة من القوقازيين تحيط بعربة سفر ذلك الموظف الكبير. وعلى المرقاة، التقى اثنين من أثرياء الريف كان أحدهما، وقد عرف فيه الباتيتش رئيس بوليس منطقتهم سابقاً، يتكلم بحرارة.

ـ لم يعد الموضوع يحتمل المزاح يا رجل! إن الأمر أكثر يسراً بالنسبة إلى من ليس لديه إلا نفسه ينقذها: فلوحظ البلاء عليه، لما تألم أحد غيره! ولكن عندما يكون لدى المرء ثلاثة عشر شخصاً هم أعضاء أسرته ويجب عليه كذلك أن ينقذ ما يستطيع إنقاذه!... هل سمع الناس برؤساء مماثلين؟ لقد اتخذوا احتياطاتهم بكل دقة حتى أننا قضي علينا جميعاً... كان يجب شنقهم هؤلاء الآثمون!

وكان الآخر يقول: هيا، هيا، استكن.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ ليسمعني من يشاء، لست أبالي! لسنا كلاباً على أية حال!

تفوّه رئيس الشرطة السابق بهذه الكلمات. وبينما هو يلتفت شاهد الباتيتش فصاح: آه ياه! إياكوف الباتيتش؟ ماذا تفعل هنا؟

أجاب الباتيتش وهو منتفخ الأوداج وإحدى يديه في فتحة ثوبه الخارجي وهي وضعية يلجأ إليها كلما كان الكلام يدور حول سيده:

ـ لقد جئت بناء على أمر سموّه لرؤية سيدي الحاكم... لقد تفضل سموه فأرسلني لأستفسر عن الوضع.

صاح الثري الريفي: الوضع؟ إنه جميل! لقد تصرفوا بشكل لم يبق معه عربات ولا أي شيء. ثم استرسل وهو يشير إلى الاتجاه الذي تنبعث منه طلقات البنادق:

ـ خذ، ها هم أولاء، هل تسمع؟ وبفضل هؤلاء السادة الرائعين سوف نذهب كلنا إلى الجحيم!...

وكرر وهو يهبط المرقاة: عصابة سفّاحين!

هز الباتيتش رأسه وصعد السلم. كان في الردهة مجموعة من التجار والنساء والموظفين يتبادلون النظر صامتين. وفتح باب المكتب فنهض الموجودون كلهم وتقدموا. خرج موظف متعجلاً وتبادل كلمات مع تاجر ثم استدعى مستخدماً ضخماً كان يحمل وساماً حول عنقه وزاغ من فوره من دائرة نيران الأنظار المتقاطعة والأسئلة. دفع الباتيتش نفسه إلى النصف الأول ولما ظهر الموظف مرة أخرى، مدّ له يداً بالرسالتين وهو يدفع الثانية في شق ثوبه الخارجي قال بصوت بلغ من جلاله وتسلطه حداً لم ير الموظف بداً من أن يأخذ منه رسالتيه:

ـ إلى سيدي البارون آسش من قبل الجنرال الأعلى الأمير بولكونسكي.

وخلال بضع دقائق، استقبل الحاكم الباتيتش وأعلن وهو يدندن:

www.Maktbah.com

ـ قل للأمير والأميرة إنني لم أكن على علم بشيء وإنني تصرفت حسب أوامر عليا...

وأضاف وهو يمد إليه ورقة: خذ، هذا. على أية حال، إنني أشير على الأمير أن يذهب إلى موسكو طالما أنه مريض. إنني ذاهب بنفسي في هذه اللحظة. قل له...

ولم يستطع الحاكم أن يتم جملته: دخل ضابط غارق في عرقه يغطيه الغبار واندفع إلى الغرفة معلناً له بالفرنسية نبأ جعله يشحب من الخوف. قال لألباتيتش وهو يصرفه بإشارة من رأسه.

ـ إذهب:

وراح يستجوب الضابط.

راحت نظرات متعطشة إلى الأنباء يقلقها الخوف والعجز تستفسر الباتيتش عند خروجه من المكتب. اندفع الرجل إلى الخان مسرعاً وهو يصيخ السمع رغماً عنه إلى طلقات الرصاص القريبة الآخذة بازدياد. كانت الورقة التي يحملها من الحاكم تحوي الأسطر التالية:

«أستطيع أن أؤكد أن مدينة سمولنسك لا تتعرض لأي خطر وأن من المشكوك فيه أن تُهدد أبداً. إنّ الأمير پاغراسيون من جهة وأنا من الجهة الأخرى، نمشي لنربط قواتنا بعضها ببعض أمام سمولنسك. وسيقوم الاتصال في الثاني والعشرين من الشهر الحالي وسيدافع الجيشان بعد ضم مجموع قواهما عن المواطنين في الإقليم الموكل إليك حتى تبعد جهودهما العدو عن الوطن أو تبيد صفوفه وفيرة العدد إلى آخر جندي. فأنت إذن كما ترى مطلق الحق في طمأنة سكان سمولنسك لأنهم عندما يكونون محميين من قبل جيشين على هذا الجانب من البطولة فإنهم يستطيعون أن يكونوا واثقين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بالنصر». (أمر يومي من باركلي دوتوللي إلى حاكم سمولنسك المدني البارون آسش ١٨١٢).

وكان الشعب يتزاحم في الشوارع وهو فريسة القلق.

وكانت عربات محملة بالآنية والكراسي والصناديق تخرج في كل لحظة من أروقة المنازل. وأمام البيت الذي بالقرب من مسكن ڤيرابونتوف، وقفت عربات تحمل أثاثاً ونساء يتوجعن وعبارات الوداع ترتفع مزمجرة، بينما أخذ كلب ينبح بين قوائم الخيول.

دخل الباتيتش بخطوات أسرع من العادة إلى المرأب الذي أودع فيه عربته وجياده وكان الحوذي نائماً فأيقظه وأمره بأن يجهز عربته ثم ذهب إلى المنزل. تناهت إلى أسماعه من غرفة المدير أصوات بكاء أطفال ونحيب نساء يفتت الأكباد وصوت ڤيرابونتوف الغاضب الأبح. وعندما دخل الباتيتش، كانت الطاهية تركض في الدهليز كالدجاجة المذعورة.

ـ لقد ضربها، السيد، لقد ضربها حتى الموت!... آه! المسكينة، كم ضربها وكم جرها!

استفسرها الباتيتش: ولماذا؟

لأنها سألته الذهاب. إنها امرأة وهذا يفهم تماماً. «خذني، لا تدعني أموت مع أطفالي لأن كل الناس يذهبون فماذا تنتظر؟» هذا كل ما قالته له فراح يضربها. آه! كم ضربها وكم جرّها!

هز الباتيتش رأسه بحركة نصف مؤيدة وتوجه نحو الغرفة المقابلة لغرفة المدير وهو قليل الرغبة في الاستزادة من المعلومات وكان قد أودع مشترياته تلك الغرفة.

وفي اللحظة نفسها، أفلتت من الغرفة امرأة شاحبة ممتقعة تحمل طفلاً

www.Maktbah.com

على يديها وقد تمزق شالها واندفعت نحو السلم المؤدي إلى الفناء وهي تصيح: سفاك! قاتل!

وخرج ڤيرابونتوف بدوره فلما رأى الباتيتش، أعاد النظام إلى صدرته وشعره وتثاءب ثم راح في إثره. سأله: هل عزمت على الرحيل؟

استفسره الباتيتش دون أن يجيبه أو حتى ينظر إليه عن المبلغ الذي يدين به إليه وتابع يجمع مشترياته.

ـ لن نختلف... ولكن قل لي هل رأيت الحاكم؟ ماذا قرروا؟

أجاب الباتيتش أن الحاكم لم يجبه إجابة صريحة.

ـ هل يمكن نقل أشياء كأشيائي أنا؟ إنهم يسألون سبعة روبلات على كل عربة إلى دوروغوبوج فقط. يا للفكرة! لقد كان سيليڤانوف... لقد باع منذ يوم الخميس دقيقه إلى الجيش لقاء تسعة روبلات للكيس الواحد... سوف نتناول الشاي على أية حال؟

وبينما كانوا يقطرون الخيول بدأ الصديقان يشربان الشاي وهما يتحادثان عن أسعار الحنطة والحاصلات الزراعية والوقت المناسب للحصاد.

قال ڤيرابونتوف وقد نهض بعد أن احتسى أقداحه الثلاثة:

ـ يعتقد أن الهدوء قد خيم. يظن أن الغلبة لرجالنا. لقد صدقونا القول عندما أكدوا أنهم لن يدعوهم يدخلون. إننا الأكثر قوة أليس كذلك؟... يبدو لي أن ڤيرابونتوف پلاتوف قد ألقى بهم ذلك اليوم إلى مارينا ولقد غرق على ما قالوا ثمانية عشر ألفاً في يوم واحد.

جمع الباتيتش مشترياته وأعطاها إلى الحوذي الذي دخل في تلك اللحظة ثم أجرى حسابه مع صاحب الخان. وأمام الباب الخارجي سمعت أصوات العجلات ووقع الحوافر ودندنة الجلاجل إذ كانت العربة حينذاك تخرج من الفناء.

twitter @baghdad_library

كان بعد الظهر قد أوغل في التقدم، والظل يغمر نصف الشارع بينما النصف الآخر تضيئه الشمس بقوة. ألقى الباتيتش نظرة من النافذة وخرج، وفجأة سُمع على البعد صفير غريب لم يلبث بعده أن دوت زمجرة المدافع متطاولة حتى اهتز لها الزجاج.

وعندما وصل الباتيتش إلى الشارع، مر رجلان باتجاه الجسر. وراح الصفير ينبعث من نواح مختلفة وصوت القذائف المكتوم وانفجار القنابل. لكن هذا الضجيج لم يكن يجتذب انتباه السكان بمثل ما سيجتذبه قصف المدافع الذي بات مستشرياً حول المدينة. لقد شرعت مائة وثلاثون قطعة مدفعية بقصف مدينة سمولنسك بناء على أمر نابليون منذ الساعة الخامسة. إلا أن سكان المدينة لم يدركوا للوهلة الأولى مدى الخطر.

أيقظ سقوط القنابل والقذائف بادئ الأمر فضول السكان. سكتت زوجة ڤيرابونتوف فجأة وهي التي بقيت حتى تلك اللحظة تتوجع في المرأب ومضت إلى الباب الخارجي وطفلها على ذراعها ووقفت هناك لا تتحرك ولا تنظر إلى الجمهور بعينين شاخصتين وتصيخ السمع إلى الضجيج.

وجاء مستخدم الدكان والطاهية يلحقان بها وراحوا جميعاً يحاولون رؤية المقذوفات التي كانت تمر فوق رؤوسهم بفضول مفرط. وعند زاوية الشارع، ظهر بعض الأشخاص يتباحثون بحماسة كان أحدهم يقول:

ـ كم هو قوي! فالسطح والسقف كله أصبح حطاماً.

وكان الثاني يقول وهو يضحك: إنه يحرث الأرض كالخنزير بخطمه. إنه عمل جميل يجعل القلب يهبط إلى البطن. لو أنك لم تقفز جانباً لسوّى أمرك!

راح هؤلاء يروون لأشخاص استوقفوهم كيف أن القنابل سقطت على دورهم قريبة منهم. وفي تلك الأثناء استمرت المقذوفات بوشوشة مقتضبة

www.Maktbah.com

محزنة والقذائف بصفير مقبول تطير فوق الرؤوس دون أن تسقط إحداها في الأمكنة المجاورة. صعد الباتيتش إلى عربته يشيعه مضيفه.

صاح هذا بالطاهية ذات «التنورة» الحمراء التي ذهبت إلى زاوية الشارع لتستمع إلى ما يقولون وقد شمرت عن ساعديها وأثبتت قبضتيها على وركيها: ألم تفرغي من «البصبصة»؟ ألم تريْ بعد شيئاً؟

وكانت هذه تقول: هل مثل هذه الأشياء ممكنة، بالله؟

لكنها سمعت صوت سيدها، عادت وهي تجر «تنورتها» المشمرة.

ومجدداً، سمع صفير قريب هذه المرة ثم، كالعصفور الذي يهوي فجأة انبعث بريق وسط الشارع أعقبته زمجرة انفجار وزوبعة دخان حجبت كل ما يجاورها.

وصرخ صاحب الخان وهو يسرع لنجدة الطاهية: ألن تنتهي، يا للإجرام!

وفي اللحظة نفسها، ارتفعت صيحات نساء معولة من جهات مختلفة وراح الطفل الصغير يبكي مروعاً واجتمع حشد من الناس الصامتين ممتقعي الوجوه حول الطاهية التي كانت زمجراتها وصيحاتها تطغى على كل ضجيج:

ـ أوه! أوه! يا أصدقائي الطيبين، يا أعزائي لدى الرب الكريم! لا تدعوني أموت! أوه! أوه! يا أصدقائي الطيبين!

وخلال خمس دقائق، لم يبق أحد في الشارع. ونقلت الطاهية التي حطمت شظية القنبلة أحد أضلاعها إلى المطبخ. أما الباتيتش وسائقه وزوجة ڤيرابونتوف وأولادها وخادم الإصطبل، فقد لجأوا إلى القبو وراحوا يصيخون السمع. وكانت صيحات الطاهية تطغى على دوي المدفع وصفير القنابل اللذين لم يتوقفا قط. وكانت زوجة صاحب المنزل تهدهد طفلها وتهدئه تارة وطوراً تسأل كل وافد، بصوت من اعتاد الأنين، أنباء عن زوجها الذي بقي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في الخارج فأبلغها مستخدم الدكان أن زوجها تبع الجمهور الذي ذهب إلى الكاتدرائية حيث عمدوا إلى رفع عذراء سمولنسك صاحبة المعجزات.

سكتت المدافع عند الغسق فخرج الباتيتش من القبو ووقف على العتبة. كانت السماء المضيئة منذ حين قد أظلمت جراء الدخان الكثيف الذي راح الهلال الجديد المرتفع عند الأفق، يلقي خلاله ضياء غريباً. أعقب صمت حزين ورعود فوهات النار لم تعكره إلا أصوات خطى مكتومة وزمجرات وصيحات بعيدة والطقطقة التي تنجم عن الحرائق. وكفت الطاهية عن إرسال أنينها وراحت أعمدة من الدخان الأسود تعصف ذات اليمين وذات اليسار والجنود التابعون لمختلف الأسلحة يهربون في مختلف الاتجاهات حتى ليقال إنهم مملكة نمل مدمرة. دخل بعضهم فناء منزل ڤيرابونتوف في حين مضى الباتيتش إلى الباب الخارجي، فإذا بفوج كامل يتقهقر في فوضى شاملة.

صاح به ضابط لمح شبحه وهو في طريقه: اذهب، اذهب بأكثر سرعة فالمدينة تستسلم.

وأضاف مخاطباً رجاله:

ـ وأنتم، سأعلمكم كيف تدخلون الأفنية!

عاد الباتيتش إلى النزل وصرخ بحوذيه أن يتأهب للرحيل. ولقد غامر عدد من آل ڤيرابونتوف ومستخدميه فخرجوا في أعقاب الرجلين. ولما رأت النساء الدخان وألسنة اللهب التي أصبحت أكثر ظهوراً في الليل، رحن يطلقن شكاواهن بعد أن بقين صامتات حتى ذلك الحين فردت نساء أخريات بالمثل من طرفي الشارع. وكان الباتيتش وحوذيه يحاولان تحت الطنف أن يخلصا بأيديهما المرتعدة الصروع والمجار المتشابكة.

ولما خرجت العربة إلى الشارع، شاهد الباتيتش في دكان ڤيرابونتوف المفتوحة حوالى عشرة جنود يتنادون بصوت مرتفع ويملأون أكياسهم

www.Maktbah.com

بالدقيق وحب دوار الشمس. وفي تلك اللحظة بالذات، عاد ڤيرابونتوف من الخارج. ولما رأى الجنود، كاد يطلق صرخات لولا أنه فجأة أمسك بشعره بقبضتيه وراح يطلق ضحكة مشفوعة بالنحيب.

زمجر وهو يمسك بنفسه الأكياس ليلقي بها إلى الشارع:

ـ خذوا كل شيء أيها الفتيان! لا تتركوا شيئاً لهؤلاء الشياطين!

لاذ بعض الجنود المذعورين بالفرار بينما استمر الآخرون يملأون أكياسهم. ولما شاهد الباتيتش، صاح ڤيرابونتوف:

ـ ضاعت، روسيا، ضاعت!.. سأضرم النار في كل مكان..

وأخذ يردد وهو يندفع في الفناء:

ـ ضاعت روسيا!

سدت موجات الجنود المستمرة الشارع في وجه الباتيتش فلم يستطع التقدم وكانت زوجة ڤيرابونتوف محمولة فوق عربة مع أطفالها تنتظر أن يتسنى لها المرور.

كان الظلام قد خيم تماماً والقمر يرى في السماء ذات النجوم خلال ستر من الدخان. وفي المنحدر إلى الدنيبير، اضطرت العربتان اللتان كانتا تتبعان رتل العربات والجنود بسرعة بطيئة إلى التوقف مجدداً. كانوا في ضاحية اشتعلت النيران في بيت ودكاكين غير بعيدة وراحت تحترق. وكان اللهب يخبو تارة ويضيع في سحابة سوداء من الدخان وطوراً يلمع من جديد فيضيء وجوه الأشخاص المتدافعين عند الناصية بوضوح خيالي. وراحت أشباح سوداء تمر أمام المحرق وصيحات وخطى وأصوات ترتفع خلال طقطقة الحريق المتواصلة. ترجل الباتيتش ولما رأى أن الطريق لن يخلو في برهة وجيزة، تسلل إلى الشارع ليتأمل الكارثة عن قرب. والجنود يجيئون ويروحون أمام المحرق، فشاهد اثنين منهم يساعدهم رجل ذو معطف من نسيج خشن،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يجرون أعمدة محترقة إلى فناء مجاور في حين راح آخرون يأتون «بأغمار» من القش.

اقترب الباتيتش من جمهرة كبيرة وقفت أمام مستودع ضخم كانت النار فيه على أشدها والجدران كلها تحترق في حين بدأ الجدار الخلفي ينهار. وانهار السقف ذو الألواح الخشبية الرقيقة وراحت الأخشاب تلتهب بينما بدت الجماهير كأنها تنتظر أن يشمل الانهيار كل شيء فانضم الباتيتش إليها.

صاح به فجأة صوت معروف: الباتيتش!

أجاب وقد عرف فجأة صوت سيده الشاب: يا صاحب السعادة!

كان الأمير أندريه متشحاً بمعطف، ممتطياً صهوة جواد أدهم، ينظر إليه من فوق رؤوس الجماهير.

سأله:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ صاحب... صاحب... السعادة..

وانخرط الباتيتش في البكاء:

ـ يا صاحب.. يا صاحب.. هل ضعنا حقاً؟ آه! أبانا..

كرر الأمير أندريه: ماذا تفعل هنا!

كشف التماع مفاجئ من اللهب لعيني الباتيتش وجه الأمير الشاب الشاحب المتقلص. روى له كيف أُرسل إلى سمولنسك والعقبات التي صادفها في طريق العودة. ثم سأله مرة أخرى:

ـ قل لي يا صاحب السعادة، هل ضعنا حقاً؟

ودون أن يجيبه، أخرج الأمير أندريه دفتره فانتزع منه صفحة وكتب مستنداً إلى ركبته الكلمات التالية بالقلم الرصاص موجهة إلى أخته:

«إن سمولنسك تستسلم. سوف يحتل العدو ليسياغوري قبل ثمانية أيام،

www.Maktbah.com

اذهبوا من فوركم إلى موسكو. أعلميني عن تاريخ رحيلكم بإرسال رسول سريع إلى «أوسفياغ» فور تسلمك هذه الرسالة».

وبعد أن سلم الرقعة إلى الباتيتش أنهى إليه تعليماته شفهياً حول سفر الأمير وأخته وابنه والمدرس والطريقة التي ينهون إليه فيها جواباً سريعاً. ولم يكد ينهي حديثه، حتى اندفع نحوه ضابط من الأركان تصحبه حاشية. صاح القادم الذي عرفه أندريه من لهجته الألمانية:

ـ أنت زعيم؟ إنهم يشعلون الحرائق بحضورك وتدعهم يفعلون! ما معنى هذا؟ سوف تسأل عن هذا.

كان ذاك هو بيرج. نائب القائد الأعلى للجناح الأيسر لمدفعية الجيش الأول وهو «مركز مستحب جداً ومرموق» كما كان يقول.

نظر إليه الأمير ودون أن يتنازل بالرد عليه، أنهى حديثه إلى الباتيتش:

ـ وهكذا إذن ستقول إنني أنتظر رداً حتى تاريخ العاشر من هذا الشهر. فإذا لم أتلق حتى ذلك التاريخ جواباً يشعر كل من في ليسيياغوري قد ارتحلوا، فإنني سأترك كل شيء وأحضر بنفسي إلى هناك.

قال بيرج الذي عرفه حينذاك: إذا كنت أحدثك على هذا النحو يا أمير فما ذلك إلا لأن عليّ أن أنفذ الأوامر. وأنا أنفذها دائماً بكل دقة.. أعذرني أرجوك.

ارتفع صوت أشياء تتحطم بين اللهب الذي بدا وكأنه خبا وراحت عواصف من الدخان الأسود تسقط من السقف. وبعد دوي فظيع، انهار جانب كبير من البناء.

زمجرت الجماهير مستقبلة انهيار سقف المخزن:

ـ بو.. نوم!..

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وفاحت رائحة خبز محروق ثم انبعث اللهب فأضاء وجوه النظارة المنهكة ولكن القريرة.

صاح الرجل ذو المعطف الخشن وهو يرفع ذراعيه في الهواء:

ـ مرحى! إنه يزداد اشتعالاً. مرحى أيها الفتيان!

وقالت الأصوات: إنه المالك نفسه.

سأل الأمير أندريه الباتيتش: إذن، مفهوم؟ كرر لهم هذا القول كما رويته لك..

ودون أن يلتفت إلى بيرج الواقف إلى جانبه صامتاً، دفع حصانه واختفى في الشارع الضيق.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

ظلت قواتنا تتراجع، بعد سمولنسك، تحت ضغط العدو. وفي العاشر من شهر آب، كان الفوج الذي بقيادة الأمير أندريه يمر بالطريق الكبير قرب الممشى المؤدي إلى ليسيياغوري وكان الجفاف والحرارة مستمرين منذ أكثر من ثلاثة أسابيع والغيوم البيضاء تتحرك على أديم السماء نهاراً أشبه بقطيع الخراف لتتبدد قبل المغيب بين أبخرة سمراء تلوّنها الحمرة. فكان ندى الليل السخي وحده يرطب الأرض. أما القمح الذي لايزال فوق سوقه، فكان يحترق وتنفرط سنابله والمستنقعات تجف والقطعان تجأر من الجوع ولا تجد في المروج المتفحمة شيئاً تأكله. وكانت الرطوبة تهبط ليلاً في الغابة وتستمر ما استمر الندى.

أما على الطريق الذي كان الجيش العرم يسلكه، فلم يكن ثمة وجود للرطوبة، حتى أثناء اجتياز الغابات لأن الندى كان يختفي هناك وسط الغبار الذي تنشره الخطى عاصفاً إلى ارتفاع أكثر من نصف قدم. كانوا يبدأون السير منذ الصباح الباكر والقوافل والمدفعية المتقدمة دون جلبة تغوص حتى محاور العجلات، والرجال حتى الكعاب في ذلك الغبار الخانق الذي لم يكن يبرد حتى في الليل، والذي يرتفع ما لم يحف منه بالأقدام والعجلات على شكل سحابة كثيفة فوق القطعات فيتخلل العيون والشعر والآذان والأنوف وبصورة خاصة رئات الرجال والخيل. وكلما ازداد ارتفاع الشمس في الأفق ازداد هذا الستار كثافة حتى ليسمح للعين المجردة أن تحدق إلى الشمس التي تبدو

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خلاله أشبه بكتلة كبيرة قانية. ولم تكن نأمة ريح تهبّ على ذلك الجو الساكن الذي يكاد الرجال يختنقون فيه فكان يجب السير والمنديل فوق الأنف والفم. وعند اجتياز القرى، كانوا يتهافتون إلى الآبار ويتدافعون للحصول على الماء الذي يمضون في نضحه حتى يخلفوا الطين وحده.

وكان الأمير أندريه مستغرقاً بكليته في قيادة فوجه ومشاغل راحة رجاله وضرورة تلقي الأوامر وإصدارها، ولقد وسم حريق سمولنسك والانسحاب منها تلك الحقبة من حياته بميسم لا يبلى وأخذ شعور جديد بالحقد على العدو يعتلج في صدره وينسيه همومه، كان يستسلم لمشاغله بكليته ويظهر تجاه ضباطه وجنوده مفعم النفس بالأنس والترفق فكانوا يسمونه «أميرنا» ويحبونه ويفخرون به، وكان عطفه وحسن التفاتته يقتصر على رجال فوجه ورجال تيموخين وغيرهم ممن هم جديدون عليه، تابعون لوسط آخر لا يقدرون على معرفته ولا فهم ماضيه، لكنه ما إن يلتقي من هم من وسطه القديم أو واحداً من السادة التابعين للأركان، حتى ينفر فجأة ويصبح سريع الغضب مستهزئاً متعالياً، كان كل ما يذكره بحياته السابقة ينفره. مع ذلك، فقد كان في علاقاته مع أشخاص عالمه، يتحرى حدود الواجب والعدالة الأكثر دقة وتمحيصاً.

والحق يقال إن كل شيء بات يمثل لعينيه تحت أكثر الألوان سواداً وبصورة خاصة منذ السادس من آب يوم مغادرة سمولنسك التي، بحسب رأيه، كان يمكن ويجب الدفاع عنها ومنذ أن اضطر أبوه المريض إلى الفرار إلى موسكو تاركاً ليسيياغوري العزيزة عرضة للسلب والنهب، بعد أن نظمها واعتنى بها وشيّد فيها الأبنية على أفضل وجه، لكن فوجه كان هذه المرة أيضاً بمثابة محول لانشغالاته الكئيبة، وفي العاشر من آب، وصل الرتل الذي كان فيه إلى حذاء ليسيياغوري وقد تلقى قبل يومين نبأ مفاده أن أباه وأخته وابنه غادروها إلى موسكو، وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه ما يفعله هناك، فقد

www.Maktbah.com

اتخذ قراراً أن يمر بالمكان لأنه كان من أولئك الذين لا يتركون فرصة بعث أحزانهم تمر دون انتهازها.

أمر أن يسرج جواده وانطلق من نقطة الحلول إلى الأرض القديمة التي ولد فيها وقضى صباه، وبينما هو يسير على طول المستنقع الذي درجت العادة على أن يجتمع حول ثول من النساء بين غاسلات وضاربات بالمخباط ألبستهن وهن يثرثرن، لاحظ أن زمث الغسلات المفصول عن الشاطئ ونصف الغائص في الماء، عائم وسط المستنقع، وعندما وصل إلى منزل الحارس قرب المدخل الكبير، لم ير أحداً لكنه وجد البوابة مفتوحة، وكانت الأعشاب قد نبتت في ممرّات الحديقة والعجول والخيول تطوف في الحديقة الإنجليزية، وكان عدد من زجاج بستان البرتقال محطماً وبعض الشجيرات المغروسة في صناديق خاصة منقلباً والبعض الآخر يابساً، نادى أندريه البستاني تاراس، لكنه لم يتلق جواباً، دار حول حديقة البرتقال فبلغ الشرفة ورأى أن دائرة الألواح الخشبية الرقيقة التي يعمل فيها يوم كانت محطمة وأنهم كسروا أغصان أشجار الخوخ للحصول على الفاكهة. وكان كهل تذكر أندريه أنه رآه في طفولته قرب الباب الكبير، يضفر «قلشيناً» وهو جالس فوق المقعد الأخضر الذي كان الأمير يفضله وكبب لحاء القنب معلقة إلى أغصان شجرة مانوليا محطمة وجافة، كان العجوز أصمّ فلم يشعر باقتراب سيده.

وصل أندريه أخيراً إلى البيت، كانوا قد قطعوا بعض أشجار الزيزفون من الحديقة القديمة وراحت فرس بلقاء ومهرها يطآن بقوائمهما مجموعة أشجار الورد، وكانوا قد أغلقوا النوافذ بتثبيت المصاريع إلا واحدة في الدور الأسفل كانت مفتوحة، ولدى رؤية الأمير، اندفع أحد الفتيان إلى داخل المنزل ليخطر الباتيتش الذي ظل وحده في ليسيياغوري بعد أن رحَّل أسرته، وكان جالساً يقرأ حياة القديسين، فلما علم بقدوم الأمير أندريه، خرج من المنزل وهو يزرّر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سترته واقترب من الأمير مسرعاً ونظارتاه على أنفه وانخرط باكياً وهو يقبل ركبتيه دون أن ينطق بكلمة.

ثم أشاح، وهو شديد الندم، على إظهار ضعفه وراح ينهي إليه تقريره عن الوضع، لقد حملت كل الأشياء الثمينة إلى بوجو تشاروڤو التي نقلوا إليها كذلك من القمح حوالى مائتي كنتال. أما العلف وقمح الربيع، وهو محصول رائع كما راح يؤكد الباتيتش، فقد أخذ وهو لا يزال غير ناضج واحتشته القطعات، أما الفلاحون فقد نُكبوا، ونزح بعضهم إلى بوجوتشاروڤو، أما العدد الأكبر فقد بقي في مكانه.

سأل أندريه دون أن يدعه يسترسل: متى ذهب أبي وأختي؟

وكان يعني بسؤاله: إلى موسكو، إلا أن الباتيتش اعتبر أنه إنما يعني: بوجوتشاروڤو، فأجاب بأنهم ذهبوا يوم ٧ آب، وبدأ مجدداً يشرح مسائل الأرض ويسأله التعليمات.

ـ هل نأمر بأن أسلم القطعات لقاء إيصال العلف الذي بقي لدينا؟ لا يزال عندنا ألف ومائتا كنتال.

تساءل أندريه: «ماذا يجب أن أقول له؟» وكان يتأمل جمجمة العجوز الأصلع وهي تلتمع تحت أشعة الشمس ويقرأ على وجهه أنه رغم إدراكه عدم لياقة مثل هذه الأسئلة إنما يطرحها ليكبت ألمه.

ـ نعم، سلمهم.

استرسل الباتيتش: لا بد وأنك لاحظت الفوضى الشاملة في الحديقة، لا سبيل إلى منعها، لقد أمضى الليل هنا جنود ثلاثة أفواج، ومعظمهم من الفرسان الفرنسيين، ولقد سجلت اسم قائدهم ورتبته لأتقدم بالشكوى.

سأله الأمير أندريه:

ـ وماذا أنت عازم على عمله؟ هل ستبقى إذا جاء العدو؟

www.Maktbah.com

التفت الباتيتش إلى سيده ونظر إلى عينيه وفجأة رفع يده إلى السماء بحركة جليلة وقال:

ـ إنه هو الذي يحميني فلتكن مشيئته!

أخذ جمع من الفلاحين والخدم حاسري الرؤوس، يتقدمون فوق الأرض المعشوشبة باتجاه الأمير أندريه. قال هذا وهو ينحني نحو الباتيتش:

ـ هيا، الوداع! إذهب أنت الآخر، واحمل ما تستطيع حمله وقل للقرويين أن يلجأوا إما في أرضنا في ريازان وإما في المنزل الريفي قرب موسكو.

ضم الباتيتش نفسه وهو ينتحب إلى ساق سيده فأزاحه أندريه بلطف وهمز جواده وانحدر جارياً فوق الممشى.

وعلى فسحة حديقة البرتقال، وبمثل لامبالاة الميت بذبابة سقطت فوق وجهه، استمر العجوز يربت «قلشينه» المثبت فوق القالب. والتقت فتاتان صغيرتان شمرتا عن أذيال ثوبيهما اللذين ملأتاهما بالخوخ الذي جنتاه من أشجار بستان البرتقال وجهاً لوجه مع سيدهما الصغير. فلما وقعت أعينهما عليه، أمسكت كبراهما سناً بيد رفيقتها وقد استبد بها الخوف وركضتا تختبئان وراء شجرة سندر وقد تركتا الخوخ الفج يسقط منهما.

أسرع الأمير أندريه فأشاح بوجهه كيلا يشعرهما بأنه رآهما. كان يشعر بالإشفاق على تلك البنية الصغيرة الجميلة ذات الأمارات المروعة التي لم يكن يجرؤ على النظر إليها رغم رغبته الملحة. استحوذ عليه شعور جديد مرح ومسكّن لدى رؤيته تينك الطفلتين، ذلك أنه أدرك وجود مصالح في الحياة تختلف عن مصالحه، مصالح طبيعية جداً. لم يكن لهاتين الطفلتين إلا رغبة واحدة: حمل خوخهما الفج دون أن يمسكهما أحد والتهامه باطمئنان. فلم يكن الأمير أندريه أقل منهما رغبة في نجاح مشروعهما. لم يستطع أخيراً أن يتمالك نفسه فنظر إليهما مرة أخرى. كانت تعتبران أنهما خرجتا عن نطاق

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الخطر فرفعتا ذيول ثوبيهما مجدداً بعد أن خرجتا من مخبئيهما وراحتا تقفزان وتظهران فوق الأرض المخضرة، تزقزقان بصوتيهما العذبين.

كان أندريه قد ترطب قليلاً، بخروجه من غبار الطريق العام لكنه عاد إلى طريق غير بعيد عن ليسياغوري ولحق بفوجه الذي كان قد توقف عند مستنقع صغير. وكانت الساعة الثانية بعد الظهر والشمس، دائرة حمراء خلال الغبار، تشوي الظهر بشكل لا يطاق خلال قماش البزات الأسود والغبار، وهو أبداً على كثافته المعروفة، يحوم فوق القطعات المتوقفة على شكل طبقة ساكنة تضم ذوي الأحاديث المتبادلة والريح ساكنة لا تتحرك.

وبينما الفوج يمر فوق السد، أذكت الرطوبة ورائحة الوحل المترسب المتصاعدتان من المستنقع في نفس الأمير أندريه الرغبة في الارتماء في الماء مهما كانت قذرة. وانبعثت من المستنقع ضحكات وصرخات. لقد بدا ذلك المستنقع المخضوضر وكأن مياهه ارتفعت ثلاثين سنتيمتراً وكادت تغرق السد لكثرة الأجساد البيضاء العارية التي امتلأ بها والتي كانت الأعناق والأيدي والوجوه الحمراء بلون القرميد تظهرفوقها بوضوح لتنافر اللون. وكانت هذه الأجساد كلها تتخبط بين الضحكات والأصوات، وسط تلك الحفرة الموحلة أشبه بقبضة من السميكات احتجزت في مسقاة. وكان ذلك الحمام البهيج في تلك السعة يثير في النفوس أفكاراً تمتاز بكآبتها.

تراجع جندي شاب أشقر اللون كانت ربلته محاطة بإسار عرف فيه أندريه جندياً من الفصيلة الثالثة، ورسم على صدره إشارة الصليب ثم غطس وراح صف ضابط شديد السمرة غارق في الماء حتى وسطه، يدير جذعه العاضل ويغتسل مستعيناً بذراعيه السوداوين حتى الرسغ في سفح الماء على رأسه. كان كل هؤلاء يصرخون ويتراشقون بالماء ويتبادلون الأقوال اللاذعة.

وعلى الشطآن وفوق السد وفي المستنقع وفي كل مكان كانت الأجساد

www.Maktbah.com

البيضاء السليمة العاضلة منتشرة. وكان تيموخين، الضابط ذو الأنف الصغير المحمرّ يجفف جسده بمنشفة رغم ارتباكه لدى رؤية الأمير ويقول له:

ـ إن هذا ينشط يا صاحب السعادة. كان يجب أن تنتهز الفرصة.

قال الأمير أندريه وهو يصعر خده: إن الماء بالغ القذارة.

فعرض تيموخين قائلاً: سوف ينظفون لك ركناً.

وراح وهو في عريه الطبيعي يجري لإعطاء الأوامر للمستحمين: إن الأمير يريد...

صاحت أصوات عديدة:

ـ أي أمير؟ أميرنا؟

واندفعوا جميعهم متزاحمين حتى أن أندريه وجد صعوبة كبيرة في تهدئتهم واستحضار ماء نظيف إلى المكادس حيث يستطيع الاغتسال بأكثر راحة.

قال في سرّه وهو ينظر إلى جسمه العاري ويرتجف من البرد أقل من ارتعاده تحت وطأة شعور غامض بالاشمئزاز والهول أثارته في نفسه رؤية تلك الأجساد المتخبطة في الماء الضحل: «هذا الجسد. لحم للمدفع!».

كتب الأمير پاغراسيون، في السابع من آب، من مخيمه في ميخائيلوڤكا إلى أراكشييـڤ رسالة كان متأكداً أن الأمبراطور سيقرأها لذلك فقد وزن العبارات أقله بالقدر الذي استطاعه.

«سيدي الكونت ألكسيس أندرييـڤيتش العزيز.

«أعتقد أن الوزير قد رفع إليك تقريره حول إخلاء سمولنسك وتركها للعدو. إنه حدث مؤلم يأسف الجيش كله له أيما أسف لأن أكثر مدننا أهمية قد سلمت دون أي مبرر. إنني من جانبي توسلت إليه بإلحاح شديد سواء عن

twitter @baghdad_library

طريق القلم أو الشفة ولكن ما من شيء استطاع إقناعه. إنني أصرف لك كلمتي على أن نابليون كان محصوراً وكأنه في كيس وأنه كان سيضيع نصف جيشه دون أن يستطيع احتلال سمولنسك. ولقد قاتلت قواتنا ولا تزال تقاتل ببسالة قلّ نظيرها. إنني شخصياً أوقفتهم بخمسة عشر ألف رجل أكثر من خمس وثلاثين ساعة ثم هزمتهم، أما هو، فإنه لم يشأ الصمود حتى ولا أربع عشرة ساعة. إنها وصمة عار بالنسبة إلى جيشنا كما يخيل إلي. وإذا أعلمكم بأن خسائرنا جسيمة فقوله ليس صحيحاً: إنها تبلغ أربعة آلاف رجل على الأكثر. بل إنها ولو كانت عشرة آلاف، فأية أهمية؟ إنها الحرب. إن خسائر العدو في المقابل جسيمة.

«ماذا كان يكلف البقاء يومين آخرين؟ كانوا سيتقهقرون على أقل تقدير لأنه لم يكن ليتبقى لديهم ماء لا لهم ولا لخيولهم لقد وعدني بأنه لن يتراجع وإذا به فجأة يرسل إلي قراراً يقول فيه إنه راحل خلال الليل، إن الحرب لا تخاض على هذا الشكل. إننا بهذا الشكل، لن نلبث حتى نستقدم العدو إلى موسكو.

«تروج الإشاعات حول تفكيركم في الصلح. ألا ليجنبكم الله هذا التفكير! إن عقد الصلح بعد كل هذه التضحيات والتراجع السخيف! إنكم بذلك تتعرضون لروسيا كلها وسيخجل كل منا أن يرتدي البزة. إننا في الوضع الذي نحن فيه يجب أن نقاتل ما استطاعت روسيا القتال وما بقي رجل على قيد الحياة.

«يجب أن يقود رجل واحد ولا اثنان. لعل وزيركم ممتاز في وزارته. أما بصفته جنرالاً، فإنه غير ناجح أبداً. لقد أودع مصير وطننا بين يدي رجل من هذا النوع.. إنني أثور وأكاد أجن، فأرجو أن تغفروا لي جرأة هذه الكلمات. إن ذلك الذي يشير بالصلح ويريد أن يقود الوزير الجيش، رجل لا يحب

www.Maktbah.com

أمبراطوره ويرغب في هزيمتنا.. إنني أقول لك الحق: سلح المتطوعين بسرعة لأن الوزير سوف يصحب ضيفه إلى العاصمة بشكل يناسب المقام.. إن السيد المساعد العسكري الجنرال ڤولزوغن يوحي بالشك في كل أوساط الجيش. إنه على ما يزعمون رجل ناپليون أكثر من أن يكون رجلنا وهو المستشار الأكبر للوزير. أما أنا، فإنني لا أكتفي بأن أكون مهذباً معه فقط، بل أطيعه كذلك كما يطيع أي عريف رئيسه رغم أنني أقدم منه. إن هذا مؤلم. لكنني أخضع حباً بأمبراطوري والمحسن إلي. إلا أنني مشفق إذ سلم الأمبراطور جيشنا المعظّم إلى أشخاص من هذا النوع. تصوروا أكثر من خمسة عشر ألف رجل قد ماتوا من التعب أو في المستشفيات خلال تقهقرنا. فلو أننا تقدّمنا إلى الأمام لما كابدنا مثل هذه الخسائر. بحق السماء، ماذا ستقول روسيا، أمنا، عندما تعلم بأننا نخاف وأننا نسلم وطننا الباسل إلى أسافل وأن نثير في قلب كل مواطن الضغينة والسخط؟ هل هي خطيئتي إذا كان الوزير قلقاً غبياً ضعيف النفس وإذا كان يجمع في نفسه كل الأخطاء الممكنة؟ إن الجيش كله لا عمل له إلا البكاء وإرهاقه بالشتائم».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس

يمكن أن نميّز، بين وسائل الحياة التي لا عدّ لها تلك الوسائل التي ينتصر فيها الكنه على الصيغة، وتلك التي على العكس تنتصر فيها الصيغة. وفي هذه الزمرة الأخيرة، يمكن أن نضع مقابل حياة الريف والمراكز حتى وموسكو، الحياة في پيترسبورغ، وبصورة خاصة، الحياة في مجتمعاتها. إنها حياة ثابتة لا تتغير. منذ عام ١٨٠٥ ما برحنا نتصالح ثم نتخاصم مع بوناپرت ونقيم الأنظمة ونسقطها. مع ذلك فإن «صالونَي» آنّا پاڤلوڤنا وهيلين بقيا كما كانا عليه الأول منذ سبع سنين والثاني منذ خمس. كانوا لدى آنّا پاڤلوڤنا يتحدثون دائماً بدهشة عن نجاح بوناپرت ويجدون في ذلك النجاح المتعاقب وفي مجاراة أمراء أوروبا له مؤامرة بشعة ضد هذه الدائرة من البلاط التي تنتسب إليها ربة الدار وصفائها أما لدى هيلين حيث كان رومیانتسیـڤ نفسه يشرفها بزياراته ويعتبرها امرأة على جانب نادر من الذكاء، فقد كانوا مستمرين عام ١٨١٢ كما كانوا عام ١٨٠٨ في التحمس للرجل الكبير والأمة العظيمة ويستنكرون قطع العلاقات مع فرنسا التي يجب أن تنتهي حسب مزاعمهم بصلح قريب.

وعندما وصل الأمبراطور إلى پيترسبورغ، قامت حركة معينة في هذين الوسطين المعاكسين ودارت فيهما بعض المشاهد العدائية من جانب نحو الجانب الآخر دون أن يتبدل في الواقع ميل أحد الجانبين. بقيت دائرة آنّا پاڤلوڤنا لا تستقبل من الفرنسيين لا المدافعين عن حق الملك الشرعي المدعوين رسمياً وتعرب عن وطنيتها بالمسرح الفرنسي الذي كانوا يزعمون

www.Maktbah.com

أن تكاليفه تبلغ تكاليف تجهيز جناح من الجيش. وكانوا يتابعون في تلك الدائرة بحماسة الأحداث العسكرية ويوزعون أفضل الإشاعات حول موقف جيوشنا. أما في دائرة هيلين، التي كانت دائرة روميانتسيـڤ وأنصار فرنسا، فقد كانوا ينكرون وحشية العدو ويحاضرون حول محاولات ناپليون العديدة في سبيل الصلح ويذمّون أولئك الذين نصحوا بسرعة نقل البلاط ومؤسسات التعليم التابعة للأمبراطورة الأم إلى كازان.

وكانت العمليات العسكرية تعتبرها مجرد مظاهر بسيطة يجب أن تنتهي بالصلح. ولقد أصبح بيليبين من رواد هذا الوسط الذين كان كل رجل فكر يلجأ إلى الانتساب إليه، وأصبح رأيه فيه قانوناً وهو أن المسألة لن تحسم بالبارود بل عن طريق أولئك الذين خلقوها. وكانوا يسخرون بأقوال طريفة ولكن بشيء من التحفظ حماسة أهل موسكو، تلك الحماسة التي بلغت أصداؤها پيترسبورغ إبّان عودة ألكسندر.

لكن العكس كان لدى آنّا پاڤلوڤنا. كانوا يعظّمون هذه التظاهرات ويتحدثون عنها حديث پلوتارك[1] عن القدماء. وكان الأمير بازيل الذي لايزال يحتل مراكزه المرموقة السابقة، يقوم بدور همزة الوصل بين الدائرتين فكان يرود دورياً «صديقتي الطيبة» آنّا پاڤلوڤنا و«صالون ابنتي الدبلوماسية» وكانت هذه الحركة الانتقالية الدائمة غالباً ما تعرضه للأخطاء فيقع له مثلاً أن يتحدث لدى هيلين ما كان عليه أن يقوله لدى آنّا پاڤلوڤنا والعكس بالعكس.

بعد رجوع ألكسندر بقليل، راح الأمير بازيل وهو يتحدث لدى آنّا پاڤلوڤنا عن الموقف، يحكم على باركلي دوتوللي بقسوة وتساءل عمن يمكن أن يُحل محله، وروى واحد من أكثر الناس ارتياداً للوسط. ذلك الذي أطلق

---

(١) مؤرخ يوناني شهير مؤلف حياة مشاهير رجال اليونان وروما. (المترجم).

twitter @baghdad_library

عليه اسم «الرجل ذو المزايا الكثيرة» أنه رأى ذلك اليوم بالذات رئيس متطوعي بيترسبورغ، كوتوزوف، يرأس في ديوان الخزينة استقبال المتطوعين، ثم أعرب بحكمه أن كوتوزوف هذا يمكن أن يكون على الضبط الرجل المطلوب.

فأظهرت آنّا پاڤلوڤنا بابتسامة سوداوية أن كوتوزوف لم يسبب للأمبراطور إلا المصائب.

ـ قلت وكررت ذلك في جمعية النبلاء لكنهم لم يصغوا إليّ. لقد قلت إن تعيينه رئيساً للمتطوعين لا يريح الأمبراطور. لكنهم لم يصغوا إلى قولي. إنها دائماً عادة التراشق وتبادل اللوم. وأمام من؟ كل ذلك لأننا نريد الموافقة على حميات الموسكوڤيين الرعناء.

وشعر الأمير بازيل أنه خلط بين الأمور: ذلك أن حميات الموسكوڤيين التي هي موضوع سخرية دائرة هيلين يجب أن تُحمل لدى آنّا پاڤلوڤنا على محمل الإطراء فأصلح خرقه بسرعة:

ـ هل من المناسب أن يقيم الكونت كوتوزوف أقدم جنرالات روسيا هناك وذلك إضافة إلى ما فيه من إيلام له! هل يعقل أن يعين قائداً أعلى رجل لا يستطيع امتطاء صهوة جواد، ينام في المجلس الاستشاري، رجل متهتك فوق كل هذا! لقد خلق لنفسه سمعة رائعة في بوخاريست! إنني أترك جانباً مزاياه كجنرال. ولكن هل يمكن حقاً في هذا الوقت الحرج أن نضع على رأس جيشنا رجلاً عاجزاً وأعمى، نعم، أعمى بكل معنى الكلمة سيكون ذلك جميلاً، جنرال أعمى! إنه لا يرى شيئاً، مطلقاً أبداً... ليذهب ويلعب «التغماية»!

ولم يعترض على قوله أحد.

كان هذا الاتهام في الرابع والعشرين من تموز قائماً على أساس صحيح، لكن كوتوزوف تلقى في التاسع والعشرين من الشهر نفسه لقب أمير. لعل منح

www.Maktbah.com

هذه الرتبة لم يكن إلا كفّ يد بشكل مشرف، مع ذلك فإن الأمير بازيل، رغم اعتباره وجهة نظر مشروعة، أصبح أكثر تحفظاً. وفي الثامن من آب، اجتمعت لجنة مؤلفة من الماريشال سالتيكوف، أراكتشييـف، فيازميتينوف لوبوجين وكوتشوبيي، للتداول في سير الحرب العام. عزت هذه اللجنة خسارتنا إلى التناحر على القيادة وعرضت رغم ما تعرفه عن نفور الأمبراطور من كوتوزوف، أن يعين هذا قائداً أعلى بعد نقاش قصير. وفي ذلك اليوم بالذات، عُين كوتوزوف قائداً أعلى للجيوش، وللمناطق التي نحتلها كلها.

والتقى الأمير بازيل مجدداً، في التاسع من آب، لدى آنّا پاڤلوڤنا بالرجل ذا المواهب الجمة. كان هذا يشغل منصب قيّم في مؤسسة للفتيات، ويتملق آنّا پاڤلوڤنا دون كلال. دخل الأمير بازيل بأمارات الرجل المنتصر الذي تحققت رغباته أخيراً.

ـ حسناً! هل تعرفين النبأ العظيم. إن الأمير كوتوزوف الآن ماريشال. لقد انتهت الخلافات كلها الآن. أنا مسرور بذلك، شديد السرور! أخيراً ها هو ذا رجل!

كذلك كان يعلن وهو يدير بالموجودين نظرة ملؤها الصرامة والأهمية.

وعل الرغم من أن الرجل ذا المواهب الجمة كان يرغب بقوة في الحصول على مركز ما، فإنه لم يستطع إلا أن يلفت انتباه الأميربازيل إلى أنه لم يتحدث دائماً على هذا النحو. وكان ذلك صدمة موجهة إلى الأمير بازيل في قاعة آنّا پاڤلوڤنا بقدر ما هي موجهة إلى المضيفة نفسها التي تلقت النبأ بفرح. لكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه. قال وهو يذكر الأمير بتأكيد الحديث: لكنهم يقولون يا أميري إنه أعمى.

فأجاب الأمير بازيل بشدة بصوته الخفيض وهو يسعل سعالاً خفيفاً، وتلك وسيلته في استجماع أعصابه عندما يكون مرتبكاً، هيا، إنه يرى كفاية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ثم كرر: هيا، إنه يرى كفاية. إن ما يسرني أكثر هو أن الأمبراطور أعطاه مطلق السلطة ليس على الجيوش فحسب بل كذلك على الأراضي التي تحتلها. وهي سلطة لم يحصل على مثلها قط أي قائد أعلى.

وأعقب مستنتجاً وهو يبتسم ابتسامة المنتصر: إنه حاكم ثان مطلق الصلاحية.

وقالت آنّا پاڤلوڤنا: ليساعدنا الله!

فظن الرجل ذو المواهب الجمة وهو الحديث في حياة البلاط، أن جملة آنّاپاڤلوڤنا تلك ليست إلا صدى لرأيها السابق فاستأنف رغبة منه في امتداحها: يزعمون أن الأمبراطور لم يمنحه هذه السلطة عن طيب خاطر. ولقد قالوا إن وجهه احمرّ كونه آنسة تُليت عليها «جوكوندا» عندما قيل له: إن الأمبراطور والوطن يحيطانك بهذا الشرف.

فقالت آنّاپاڤلوڤنا: لعل القلب لم يكن له دور في المسألة.

صاح الأميربازيل الذي جعل من كوتوزوف رجله فأصبح لا يطيق ألّا يحبه أحد: مطلقاً، أبداً! هذا مستحيل لأن الأمبراطور عرف دائماً كيف يقدر مواهبه.

ألمحت آنّاپاڤلوڤنا موحية برفق: عسى أن يتسلم الأمير كوتوزوف السلطة حقاً وأن لا يسمح «لأحد» أن يضع له العصي في العجلات.

ولقد أدرك الأمير بازيل فوراً ما أرادت آنّاپاڤلوڤنا أن تقوله فقال بصوت خفيض:

ـ أنا أعرف من مصدر موثوق به أن كوتوزوف تقدم بشرط أساسي هو استدعاء التسيزايـڤيتش. هل تعلمين ماذا قال للأمبراطور؟ «لا أستطيع أن أعاقبه إذا أساء التصرف ولا أن أكافئه إذا أحسن العمل» إنه رجل حاذق جداً هذا الأمير كوتوزوف. إنني أعرفه منذ زمن طويل.

www.Maktbah.com

فأضاف الرجل ذو المواهب الجمة الذي كان أسلوب البلاط ينقصه بدون شك: بل إنهم يقولون أيضاً إن شديد الرفعة يطلب من الأمبراطور ألّا يلحق بالجيش شخصياً.

وبالكاد تفوّه بهذه الجملة حتى أشاح الأمير بازيل وأنّاپاڤلوڤنا بحركة واحدة ليتبادلا نظرة آسفة وليعيبا على تلك السذاجة المنفرة بتنهدة حارة.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

عندما جرت كل هذه الأمور في بيترسبورغ، كان الفرنسيون قد تجاوزوا سمولنسك واقتربوا من موسكو. وعمد تيير ككل مؤرخي سيرة نابليون، إلى تبرير سلوك بطله زاعماً أنه اجتُذب إلى جدران تلك المدينة رغماً عنه. إنه محق ككل أولئك الذين يبحثون عن إرادة رجل واحد تفسيراً للأحداث. إنه على حق لمثل الأسباب التي دفعت بعضاً من كتابنا إلى الزعم أن نابليون اجتُذب إلى الأمام ببراعة الجنرالات الروس.

إن قانون الحكم على الماضي يظهر لهم الماضي كله على اعتباره تحضيراً لحادث وقع. أضف إلى ذلك أن توافقاً ما بين الأحداث يزيد كذلك في تعقيد الأمور. فإذا خسر لاعب ماهر شوط شطرنج، اعتقد بإخلاص أنه أضاعه نتيجة خطأ من جانبه فيعود إلى الشوط يعيد حركاته حتى البداية ليبيّن موضع الخطأ متناسياً أنه ارتكب أخطاء أخرى وأن ما من حركة من حركاته كاملة. فالخطيئة التي يلاحظها، ما كانت لتلفت انتباهه لولا أن خصمه أفاد منها. فكم هي أكثر تعقيداً، لعبة الحرب التي تدور خلال ظروف زمنية معينة، والتي لا علاقة لإرادة واحدة في إدارة الآلات الجامدة فيها بل هي نتيجة التقاء عدد لا يحصى من الإرادات الخاصة.

بحث نابليون عن الاشتباك في معركة وراء دوروغو بوغ قرب فيازما بعد سمولنسك ثم في تساريـڤو ـ زاييختشه، ولكن، لم يتقبل الروس خوض

www.Maktbah.com

المعركة إلا في بورودينو على مسافة حوالى ثلاثين كيلو متراً من موسكو نتيجة ملابسات عديدة.

كانت موسكو، العاصمة الآسيوية لهذه الأمبراطورية الشاسعة، المدينة المقدسة لشعوب ألكسندر، موسكو بكنائسها الكثيرة التي تشبه في بنائها هياكل الصينيين، تثير نابليون دون هوادة، كان خلال المرحلة من فيازما إلى تساريـڤو ـ زاييختشه، ممتطياً صهوة جواده الأبيض المموّه الإنجليزي بصحبة كوكبة الحرس وموكب من جواده والأتباع والمساعدين العسكريين. ولقد تخلف رئيس الأركان بيرتييه لاضطراره إلى الفتيان روسي أسرته الخيالة، فلم يلبث أن لحق بالأمبراطور هدباً يصحبه المترجم ليلورم ديدڤيل ثم أوقف جواده مشرق الأسارير، سأله نابليون: حسناً؟

ـ إنه قوقازي من پلاتوف، يقول إن أفواج پلاتوف سوف تجتمع مع مجموعة الجيش وإن كوتوزوف قد عين قائداً أعلى، إنه شديد الذكاء وثرثار.

ابتسم نابليون وأمر أن يُعطى جواد إلى ذلك القوقازي وأن يمثل بين يديه: لقد كان يرغب في استجوابه شخصياً، هدب عدد من المساعدين العسكريين خيولهم وبعد ساعة، اقترب المملوك لاڤروشكا الذي تخلى عنه دينيسوف لروستوف من نابليون مرتدياً سترة، معتلياً سرجاً فرنسياً، بوجهه المرح، الثمل، سمح له الأمبراطور أن يمشي إلى جانبه وطرح عليه بعض الأسئلة: هل أنت قوقازي؟

ـ قوقازي يا صاحب النبالة.

قال تيير عندما روى هذه الحادثة: «لم يكن القوقازي يعرف الشخصية التي كان يمشي إلى ركابها لأن بساطة نابليون لم يكن فيها ما يوقظ في خيال شرقي وجود أمبراطور، لذلك تحادث معه عن مشاكل الحرب الراهنة بأقصى ما تبلغ إليه الألفة».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وفي الواقع، إن لاڤروشكا الذي سكر بالأمس فترك سيده دون طعام، تعرض للضرب بالعصي ثم أُرسل بعد ذلك إلى إحدى القرى للبحث عن بعض الدجاج فاستمر يتلكأ ويحوم حتى سقط بين يديّ الفرنسيين، وكان واحداً من أولئك الخدم السفهاء الذين لا يستطيعون رغم ما رأوه من كل الألوان خلال حياتهم، أن يتصرفوا دون دناءة ومكر والذين هم على استعداد دائم للقيام بكل الخدمات الممكنة لأسيادهم الذين يحدسون لأول نظرة آراءهم السيئة وخصوصاً تلك التي يوحي بها إليهم الزهو والحقارة.

وعندما استُقدم أمام ناپليون الذي لم يلبث حتى أدرك حقيقته، لم يتأثر لاڤروشكا كما يجب لكنه اجتهد ليجعل أسياده الجدد يستقبلونه أفضل استقبال.

كان يعرف جيداً أن هذا هو ناپليون، لكن وجود الأمبراطور ما كان يمكن أن يبعث في نفسه اضطراباً أكثر من وجود روستوف أو الرقيب الأول المكلف ضربه بالعصي، ولما كان لا يملك شيئاً، فإن ناپليون ولا هذا الصف الضابط يمكن أن يأخذا منه شيئاً.

روى إذن كل القصص التي تدرو بين التابعين والتي كان الجانب الأكبر منها صحيحاً، ولكن، عندما سأله ناپليون عما إذا كان الروس يفكرون في التغلب على بونابرت أم لا، قطب لاڤروشكا حاجبيه وراح يفكر، خيل إليه أن السؤال يخفي شركاً لأن الأشخاص من نوعه يشمون رائحة الفخاخ في كل مكان.

قال بلهجة من يفكر: أعني إذا اندلعت المعركة على الفور كان الفوز بجانبكم، وهذا مؤكد، ولكن إذا مضت أيام ثلاثة، فإن هذه المعركة نفسها يمكن أن تطول.

أما ما ترجمه ليلورم ديدڤيل باسماً لناپليون، فهو كما يلي: «إذا نشبت

www.Maktbah.com

المعركة قبل ثلاثة أيام فإن الفرنسيين سيكسبونها، أما إذا نشبت فيما بعد، فإن الله وحده يعرف ما سيحدث». وعلى الرغم من حسن مزاجه، فإن ناپليون لم يبتسم بل أمر أن تعاد الجملة على مسامعه، فلاحظ لاڤروشكا ذلك ولكي يبهجه، تابع وهو يتظاهر بجهله حقيقة الشخص الذي يحدثه:

ـ نعم، إننا على معرفة أن لديكم من يدعى پونابرت، لقد هزم كل الناس في هذا العالم، لكن الأمر سيختلف بالنسبة إلينا...

ولقد أفلت منه هذا التبجح الوطني دون أن يعرف السبب.

وترجم المترجم فعني خلال ذلك بإخفاء الكلمات الأخيرة، وكتب تيير يقول: «لقد أضحك القوقازي الشاب محدثه العظيم». وبعد أن خطا بضع خطوات في صمت، قال ناپليون لـپرتييه إنه يرغب في معرفة الأثر الذي سيحدث في نفس «فتى الدون هذا» إذا أطلعوه على أن الشخص الذي تحدث معه ليس إلا الأمبراطور، ذلك الأمبراطور الذي كتب على الأهرام اسمه المظفر الخالد.

وأزجي النبأ إلى لاڤروشكا.

عرف هذا أنهم يريدون أن يشوشوه وأن ناپليون يعتقد أنه سيخيفه لذلك تصنع الدهشة إرضاء لأسياده الجدد وتظاهر بذهول عميق: أدار حوله عينين متسعتين وانطبع وجهه بالإمارات التي تظهر عليه كلما أخذ ليُجلد، وكتب تيير: «لم يكد مترجم ناپليون يتكلم حتى استبدّ بالقوقازي لون من الدهشة فلم يعد يحير جواباً بقي يمشي وعيناه شاخصتان إلى ذلك الغازي الذي بلغ اسمه مسامعه عبر قفار الشرق، لقد توقفت ثرثرته فجأة ليحل محلها شعور بالإعجاب الصامت، وبعد أن كافأه ناپليون، منحه الحرية كما يحرر العصفور الذي يعاد إلى الحقول التي شاهدت مولده».

تابع ناپليون طريقه وهو يحلم بموسكو تلك التي كانت تحتل حيزاً كبيراً

twitter @baghdad_library

من تفكيره. أما العصفور الذي أعيد إلى الحقول التي شهدت مولده، فقد لكز جواده حتى بلغ الخطوط الأمامية وهو يحضّر في خياله قصة مغامرات وهمية يرويها على زملائه لأن ما حدث له بالذات لم يكن في نظره يستأهل عناء روايته. ولما لحق بالقوقازيين، استعلم عن المكان الذي ينزل فيه فوجه الذي كان تابعاً لجيش پلاتوف.. وحوالى المساء، وجد سيده نيكولا روستوڤ قرب إيانكوڤو وهو يمتطي صهوة جواده مع إيلين للقيام بنزهة في القرى المجاورة. وحينئذٍ، أمر روستوڤ أن يُعطى لاڤروشكا جواداً آخر ثم صحبه معه.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

عندما رجع الباتيتش سمولسنك، لم تكن الأميرة ماري في موسكو ولا خارج منطقة الخطر كما كان يعتقد أندريه.

وبدا الأمير العجوز كأنه استيقظ من حلم فجأة. أصدر الأمر بتجنيد متطوعين في قراه وبتسليحهم. ثم أنبأ الجنرال القائد الأعلى بأنه قرر البقاء في ليسيياغوري وأن يدافع عن نفسه فيها حتى الرمق الأخير وأنه يرجع إليه أمر اتخاذ التدابير الآيلة إلى حماية إقطاعية يتعرض فيها واحد من أقدم الجنرالات الروس إلى الأسر أو القتل أو إغفال مثل هذه التدابير. ثم أعلن للمقربين إليه أخيراً أنه لن يتحرك من مقاطعته.

رغم رفضه ترك منازله، عجّل في ترحيل ماري والأمير الصغير وديسال إلى بوغوتشاروڤو ومنها إلى موسكو. ولقد روعت الأميرة كثيراً لذلك النشاط المحموم الذي أعقب فترة من الجمود: لم تستطع أن توافق على ترك والدها وحده، لذلك سمحت لنفسها، لأول مرة، في حياتها بعصيانه ورفضت الذهاب، فانهالت عليها العاصفة التي كلفتها المساوئ غضب الأمير. وألقى عليها كل الأسواء التي تجعلها مسؤولة دون وجهة حق: لقد جعلت حياته لا تطاق وخاصمته مع ولده واتخذت آراء على حسابه بشعة لم تفكر إلا في تسميم حياته. وأخيراً طردها من مكتبه وأعلن أنه سيان عنده أذهبت أم لم تذهب: إنه يعتبرها ميتة ويمنعها إلى الأبد من الظهور أمامه. ولقد هدأ حزن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ماري عندما عرفت أنه لم يأمر بترحيلها بالقوة كما توقعت: لقد أدركت أن العجوز في أعماق نفسه سعيد لبقائها إلى جانبه.

وفي اليوم التالي لذهاب نيكولا الصغير، ارتدى الأمير العجوز منذ الصباح الباكر بزته الرسمية واعتزم الذهاب لرؤية القائد الأعلى. وكانت العربة قد أعدت فرأته ماري يخرج من مكتبه متحلياً بكل أوسمته ويأخذ طريق الحديقة ليستعرض فلاحيه وخدمه وهم تحت السلاح. جلست إلى إحدى النوافذ وراحت تصيخ السمع إلى نبرات صوت أبيها التي كانت تصل إليها منذ أن وصل إلى البستان. وفجأة أسرع بعض الرجال عن طريق الممشى الرئيسي تنطق وجوههم بالخوف.

اندفعت ماري إلى المرقاة ووصلت إلى الممشى الرئيسي جرياً مخترقة بستان الخضار. رأت جماعة من الخدم المتطوعين يسرعون للقائها وفي وسط هذه الجماعة، بعض الرجال يجرون العجوز القصير في بزته المغطاة بالأوسمة من تحت إبطيه. لم يسمح لها الضوء الخفيف الذي كان يتسلل عبر أغصان الزيزفون الكثيفة أن تتبين للوهلة الأولى انقلاب تقاطيع وجهه. لاحظت فقط أن وجهه الذي كان من قبل حازماً قد اتخذ طابعاً من الخضوع والخوف. ولما رأى ابنته، بعث من شفتيه العاجزتين بضعة أصوات غامضة مبحوحة فلم يستطع أحد معرفة ما كان يريد قوله. نقلوه حملاً إلى مكتبه حيث أجلسوه على تلك الكنبة التي باتت منذ بعض الوقت توحي إليه بخوف هائل.

وصل الطبيب الذي أرسلوا يستدعونه في الليل فقصد الأمير وأعلن أنه أصيب بشلل في جنبه الأيمن. ولما أصبح البقاء في ليسيياغوري يزداد خطراً، نقلوه إلى بوغوتشاروڤو منذ صباح اليوم التالي حيث صحبه الطبيب. فلما وصلوا إلى هناك، كان ديسال ونيكولا الصغير قد سافرا إلى موسكو.

بقي الأمير العجوز ثلاثة أسابيع على حالته تلك. لقد نقلوه إلى المنزل

www.Maktbah.com

الجديد الذي ابتناه أندريه لنفسه فبقي مسجى هناك فاقداً وعيه أشبه بالجثة المشوهة. كان يدمدم باستمرار ويحرك شفتيه وحاجبيه ولكن كان يستحيل معرفة ما إذا كان يشعر بما يدور حوله. وكل ما أمكن معرفته هو أنه يتألم ويشعر بحاجة إلى التعبير عن شيء ما. ولكن أي شيء؟ لم يستطع أحد معرفته. هل كانت نزعته مجرد هوى أو هذيان مريض أم كان لذلك علاقة بالأحداث أم بشؤون الأسرة؟

عزا الطبيب هذا الاضطراب إلى أسباب جسدية بينما كانت ماري على العكس تظن أن أباها يريد أن يكلمها الأمر الذي يؤيده اكتئاب المريض المتزايد باستمرار في حضرتها.

كان، بدون شك، يتألم جسدياً وفكرياً. لم يكن هناك أمل في شفائه كما لم يكن مستطاعاً التفكير في نقله إذ ماذا كان بمقدورهم أن يفعلوا لو أنه مات أثناء الطريق؟ وكانت ماري تتساءل أحياناً: «ألا تكون النهاية أفضل؟» كانت تراقبه ليل نهار دون أن تنام تقريباً فكان وهذا ما يؤلم قوله، يكتشف أحياناً على وجهها ليس أمارات التحسن بل على العكس بوادر ما يسبق النهاية.

اضطرت ماري سواء برضائها أو رغماً عنها أن تعترف بهذا الشعور الذي هو أسوأ ما في الأمر، وهو أنه منذ مرض أبيها بل قبل ذلك بقليل، عندما بقيت وحيدة معه تنتظر حدوث شيء ما، عادت الرغبات والآمال المنسية في أعماق نفسها إلى التيقظ بتجبر، عادت فكرة استطاعتها الحياة مستقلة متحررة من رهبة أبيها بل التعرف إلى الحب والسعادة الزوجية، تلك الفكرة التي لم تعد تخطر ببالها منذ سنوات، عادت اليوم تراود مخيلتها، ولقد فعلت ما تستطيع لطرد هذه الفكرة، لكنها ظلت تتساءل كيف ستنظم حياتها بعد وقوع حدث معين، فكانت هذه الآراء، بدون شك، إغراءات الشيطان لا تستطيع دفعها إلى الصلاة، لذلك كانت تتخذ وضع الصلاة وتنظر إلى الصور المقدسة وتتلفظ

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بالعبارات المألوفة لكنها لم تكن تصلي إلا بشفتيها. كانت ترى نفسها في عالم جديد، عالم من الحركة والعمل والحرية معاكس تماماً للعالم الفكري الذي ظلت سجينته حتى ذلك الحين والذي كانت الصلاة وحدها سلوتها فيه. فلم تعد تستطيع الصلاة ولا البكاء: لقد استبدت بها الحياة.

أصبح التأخر في بوغوتشاروڤو خطراً. ما زال الفرنسيون يتقدمون ولقد نهبت مقاطعة على مسافة أربعة أميال من هناك من قبل رجالهم السارقين.

أخذ الطبيب يلح على ماري بنقل المريض، وأرسل نقيب الأشراف إلى الأميرة ماري موظفاً يطلب إليها الذهاب في أسرع ما يمكن. وجاء النقيب نفسه ينبئها بأن الفرنسيين أصبحوا على بعد ثمانية أميال من هنا: إن نداءاتهم باتت الآن تتناقل في القرى فإذا لم ترتحل حتى الخامس عشر فإنه لن يكون مسؤولاً عن شيء.

اتخذت ماري قرارها، أن تذهب ذلك اليوم فانشغلت في الاستعدادات وإصدار الأوامر طوال يومها لأن الجميع باتوا الآن يوجهون الكلام إليها. وأمضت ليلة ١٤ ـ ١٥، كعادتها دون أن تخلع ثيابها، في الغرفة المجاورة لغرفة الأمير. سمعت مرات عديدة خلال نومها أنات أبيها بصوته الأجش وطقطقة سريره وخطوات الطبيب وتيخون اللذين كانا يبدلان من وضعيته في الفراش. وجاءت مرات عدة تصيخ السمع وراء الباب: خيل إليها أن المريض ليلتئذ يتألم ويتخبط أكثر من المعتاد. فلم تستطع أن تعود إلى سريرها واقتربت مرات عديدة من ذلك الباب الذي لم تكن تجد الجرأة على اجتيازه. وعلى الرغم من عجزه عن الكلام فإن ماري كانت تشعر أن كل تظاهر بالعطف يغضب أباها: ألم يكن يتهرب باستمرار من نظرتها كلما رأى أنها شاخصة إليه؟ لذلك كانت تعرف أن زيارتها له في الليل، في ساعة غير مألوفة، ستثير غضبه.

مع ذلك، لم تشعر قط بأكثر من ذلك الحزن وأعظم من ذلك الرعب

www.Maktbah.com

اللذين أثارهما خوفها من فقده. كانت تستعرض مراحل الحياة التي أمضياها واحدهما بجانب الآخر، فكانت تكتشف في كل كلمة وفي كل حركة من كلمات العجوز وحركاته محبة لها. وكان الشيطان من حين إلى آخر يعود إلى مهاجمتها، فيدخل في ذكرياتها المناظر المغرية لمستقبل أكثر استقلالاً، لكنها سرعان ما كانت تطرده بشدة... وحوالى الصباح، هدأ الأمير فاستطاعت ماري أن تنام.

استيقظت متأخرة. وفجأة أطلعتها الصراحة الوحشية في الإحساس الذي يرافق اليقظة على ما كان يشغل بالها أكثر من أي شيء في مرض أبيها. مضت إلى الباب تصغي ولما تناهى إليها تنفس المريض الأجش، عرفت، وهي تتنهد، أن الأمر لايزال على ما كان. وفجأة، صاحت وقد استبد بها تقزز من نفسها: ولكن، ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ ماذا أريد إذن؟ موته!

ارتدت ثيابها واعتنت بشعرها ثم تلت بعض الصلوات ومضت إلى المرقاة حيث وقفت العربات دون أن تقطر إليه الخيول وهم يملأونها بالأمتعة، كان الصباح بديعاً يتخلله غيم خفيف. بقيت ماري هناك فترة طويلة يذهلها الهول إزاء دناءتها تحاول استعادة هدوئها قبل أن تعود المريض. وهبط الطبيب السلم وجاء إليها يقول:

ـ إنه أحسن حالاً قليلاً اليوم. كنت أبحث عنك، لقد بدأنا نفهم ما يقول. تعالي، إنه يطلبك!

خفق قلب ماري لهذا النبأ بشدة حتى أن وجهها امتقع واضطرت أن تعمد إلى الباب فتستند إليه خشية أن تقع أرضاً. أن ترى أباها وتخاطبه وتقابل نظرته وهي التي كانت منذ حين فريسة مثل تلك الأفكار المجرمة، كان مدعاة لقلقها العنيف رغم ما يخالط ذلك العذاب من فرح.

عاد الطبيب يقول: تعالي.

twitter @baghdad_library

دخلت غرفة أبيها واقتربت من السرير. كان قد أُقعد في سريره بينما راحت يداه الصغيرتان اللتان ظهرت فيهما العروق الزرقاء تدعك الغطاء وكانت عينه اليسرى شاخصة إلى نقطة أمامه أما اليمنى فتشوص، بينما ظل حاجباه وشفتاه في جمود. وكانت لشخصيته الجافة كلها منظر يثير الشفقة. وباتت تقاسيمه قد رقت وبدا وجهه كأنه مذاب. قبلت ماري يده. ومن الطريقة التي ضغط بها العجوز بيده اليسرى على يدها، أدركت أنه ينتظرها منذ زمن طويل. بل إنه هزها أيضاً بينما تقلصت شفتاه وحاجباه بحركة غاضبة.

نظرت إليه في شيء من الخوف وهي تحاول أن تخمن ما كان يريد منها. ولما أبدلت مكانها لتسمح لعين العجوز اليسرى أن ترى وجهها، هدأ بضع لحظات ثم تحركت شفتاه ولسانه وخرجت أصوات من فمه وراح يتكلم وهو يتوسل إليها بنظرة واجفة وبه خشية واضحة من أن لا تفهم قوله.

أخذت ماري تتأمله وهي تركز كل انتباهها فيه. لكنه كان يحرك لسانه بمجهودات مضحكة حتى أنها لم تستطع إلا أن تكف الطرف وأن تدفع بمجهود جبار الحشرجات التي بدأت تتصاعد إلى حنجرتها. غمغم بشيء ما وكرر كلماته مراراً فلم تتمكن الأميرة ماري من فهمها. مع ذلك فقد كانت تجهد نفسها لتخمن المعنى وتعيد ما يخيل إليها أنها فهمته من كلمات بلهجة مستفهمة.

أخيراً، اعتقد الطبيب أن المريض يسأل عما إذا كانت الأميرة خائفة.

لكن العجوز سفه هذا الظن بإشارة من رأسه وعاد مجدداً إلى الأصوات نفسها يخرجها.

أكدت ماري فجأة: آه! لقد عرفت إنه يقول إن روحه تتألم.

فأجاب «بنعم» غير واضحة وأمسك بيد ابنته وأثبتها على عدة مواضع من صدره وكأنه يبحث عن أفضلها.

www.Maktbah.com

نطق بشكل أكثر وضوحاً هذه المرة: كل أفكاري نحوك، كلها...

وأصبح صوته وقد تأكد أنه استطاع إفهامها قصده أكثر ثباتاً.

حبست ماري دموعها وحنت رأسها على يد أبيها فمر هذا بيده على شعرها. ودمدم: لقد ناديتك مرات عديدة خلال الليل.

فأجابت خلال دموعها: نعم، لقد عرفت. وكنت أخاف الدخول عليك.

ضغط على يدها وقال: ألم تنامي؟

ـ كلا.

وأيدت هذا الجواب بإشارة نفي من رأسها. ثم راحت مثله تتحدث، بالإشارات وكأنها صارت تحت تأثير أبيها وخيل إليها أن لسانها يدور بجهد.

يا روحي العزيزة... يا صديقتي العزيزة.. ـ ولم تفهم التعبير الصحيح ولكنها أدركت من نظرته أنه يوجه إليها لأول مرة كلمة حانية ـ لماذا لم تأتِ؟

فكرت ماري في نفسها: «وأنا التي كنت أتمنى له الموت!» استأنف بعد صمت!

ـ شكراً. شكراً يا صديقتي، يا ابنتي.. على كل شيء، على كل شيء.. صفحاً.. شكراً.. صفحاً.. شكراً!

وسالت دموع من مآقيه ثم سأل وقد اتخذ وجهه سيماء الطفل الذي يخاف مجابهة سؤاله بالرفض: استدعي أندريه.

بدا كأنه أدرك شخصياً صبيانية هذا الطلب أو أن هذا أقله ما خيل إلى ماري. أجابت: لقد تلقيت رسالة منه.

نظر إليها بدهشة ووجل: وأين هو إذن؟

ـ إنه في الجيش يا أبي، في سمولنسك.

أغمض عينيه وظل طويلاً ساكتاً ثم، وكأنه أراد أن يبدد شكوكها وأن يثب

twitter @baghdad_library

في الوقت نفسه أنه استعاد ذاكرته وأحاسيسه، عاد وفتحهما ثم أشار برأسه إشارة إيجابية.

قال بصوت خفيض ولكن واضح:

ـ نعم، لقد ضاعت روسيا. لقد أضاعوها.

وانفجر منتحباً من جديد وانهمرت دموع على خديه. فلم تستطع ماري الصمود أكثر من ذلك، فاستسلمت لدموعها هي الأخرى وهي تتأمل وجهه.

أغمض عينيه ولم يلبث أن هدأ وأشار إلى عينيه فأدرك تيخون قصده فجففها.

عاد ففتح عينيه ثم فاه ببضع كلمات لم يتوصل أحد إلى فهمها باستثناء تيخون وحده. وكانت ماري تحمل معناها على مختلف الأفكار التي جاءتها حتى ذلك الحين: روسيا، أندريه، هي نفسها، حفيده أم موته. لكن الأمر كان متعلقاً بشيء آخر. لقد قال: اذهبي وارتدي ثوبك الأبيض إنه يعجبني.

ولما نقل إليها تيخون هذا التمني، تضاعف إجهاش ماري وحينئذ أمسك الطبيب بيدها وأخذها إلى الشرفة حيث عني بتهدئتها ولفت نظرها إلى ضرورة الإسراع باستعدادات الرحيل. تكلم الأمير مرة أخرى عن ولده أثناء غياب ماري وعن الحرب والأمبراطور وقطب حاجبيه بشكل يدل على الغضب وراح صوته الأجش يزداد ارتفاعاً وفجأة أصيب بصدمة ثانية كانت الأخيرة.

خلال ذلك، كانت ماري واقفة على الشرفة وقد أخذ الطقس يتحسّن والحرارة تثقل. لم تكن ماري قادرة على فهم شيء. كانت مستسلمة بكليتها لمحبتها التي تكنها لأبيها، تلك المحبة التي خيل إليها أنها ظلت تجهل أعماقها حتى ذلك اليوم. أسرعت إلى الحديقة وهي تنشج ونزلت حتى بلغت المستنقع على طول الممشى الحديث الذي تحيط به من الجانبين أشجار الزيزفون الفتية التي غرسها الأمير أندريه.

www.Maktbah.com

أخذت تكرر في نفسها وهي تسير بخطى واسعة وتضغط على صدرها بيدها، ذلك الصدر الذي كانت تنبعث منه زفرات تشنجية: وأنا... وأنا... التي تمنيت موته! نعم، لقد تمنيت أن ينتهي كل هذا بسرعة... كنت تواقة إلى أن أتذوق الراحة أخيراً... ثم ماذا سيحل بي الآن؟ أية فائدة تعود بالراحة علي إذا لم يعد هو في الوجود!

قادها طوافها في الحديقة إلى التوجه نحو المنزل فإذا بها ترى الآنسة بوريين التي كانت ترفض مغادرة بوغوتشاروڤو قادمة لاستقبالها ومعها رجل مجهول. كان هذا نقيب الأشراف في المقاطعة وقد جاء بنفسه يحث الأميرة على الرحيل. وبعد أن لبثت ترافقه فترة، اعتذرت وأرادت أن تدخل غرفة أبيها. لكن الطبيب الذي كان خارجاً منها منقلب الأسارير منعها من الدخول: يستحيل يا أميرة، يستحيل!

عادت ماري إلى الحديقة، إلى أسفل المنحدر المؤدي إلى المستنقع، إلى مكان لا يمكن لأحد أن يراها فيه وجلست على العشب. لم تكن تستطيع معرفة الوقت الذي أمضته في مكانها ذاك خائرة القوى حتى جعلتها خطوات نسائية مندفعة تعود إلى تمالك نفسها. نهضت فشاهدت وصيفتها دونياشا التي كانت تفتش عنها. لكنها ما إن رأت سيدتها، حتى توقفت وكأنها صعقت. قالت بصوت متقطع: هل تريدين الحضور يا أميرة. إن الأمير...

قالت ماري دون أن تترك لها وقت إتمام جملتها: إنني ماضية، إنني ماضية.

وذهبت إلى المنزل وهي تتحاشى نظرة دونياشا.

قال لها النقيب الذي كان ينتظرها عند المدخل:

ـ أيتها الأميرة، إن مشيئة الله على وشك أن تتم، فكوني مستعدة لكل شيء.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

صرخت بصوت شرس: دعني، هذا غير صحيح.

وحاول الطبيب أن يمنعها فدفعته جانباً واندفعت إلى الباب. «لماذا يستوقفني هؤلاء الناس؟ ماذا تعبر عنه وجوههم المروعة؟ لست في حاجة إلى أحد. ماذا يفعلون هنا جميعهم؟» فتحت الباب وأحست بالخوف وهي ترى تلك الغرفة التي بقيت حتى ذلك الحين غارقة في عتمة الظل، تسطع فيها أنوار النهار القوية. كانت مربيتها العجوز ونسوة أخريات هناك فابتعدن عن السرير ليتحن لها مجال المرور.. كان الأمير لا يزال مستلقياً لكن وجهه كان مطبوعاً بخطورة مشرقة جعلت ماري تتوقف لحظة على عتبة الباب.

قالت في سرّها وهي تقترب: «كلا، إنه ليس بميت. هذا مستحيل!» تغلبت على خوفها ولمست بشفتيها وجنة أبيها. لكنها لم تلبث أن تراجعت إلى الوراء. لقد فسح الحنان كله الذي كانت تحس به حياله في المكان فجأة لعاطفة من الهول. «إذن، لم يعد على قيد الحياة! لم يعد في المكان الذي كان فيه. لم يعد الآن إلا ما لست أدري من مجهول ومخيف، سرّ رهيب يجعلني أرتعد من الهول!» ثم أخفت رأسها بين يديها وانهارت بين ذراعي الطبيب الذي أسندها.

بدأت النساء بحضور تيخون والطبيب يعنين بزينة من كان الأمير بولكونسكي. غسلن الجسد وأبقين الفم مطبقاً مستعينات بمنديل ثم أوثقن الساقين اللتين انفرجتا بمنديل آخر. ثم، بعد أن ألبسنه بزته الموشاة بالأوسمة، مددن تلك الجثة الصغيرة المهزولة فوق الطاولة. الله وحده يعرف من أعطى الأوامر ومنذ متى أعطيت. لكن كل شيء كان يسير بنظام تلقائي. وحوالى المساء، أضيئت الشموع حول النعش المغطى بستار رقيق وكانت الأرض قد فُرشت بأغصان العرعر وأودعت صلاة مطبوعة تحت رأس الميت بينما راح المرتل يترنم في صلواته في إحدى الزوايا.

www.Maktbah.com

وكما تُرى الخيول عندما تجتمع وتتنافر وتحتد حول جواد ميت، كذلك شوهدت في القاعة حول النعش، مجموعة من الناس تحتشد بين أقرباء وغرباء، نقيب الأشراف، والحاكم ونساء القرية، وكلهم شاخصة أبصارهم مفعمة بالذعر، يرسمون إشارة الصليب وينحنون ويقبلون يد الأمير العجوز الباردة المتصلبة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

بقي فلّاحو بوغوتشارڤو بعيدين عن أنظار سيدهم الأمير أندريه قبل أن يقيم في ذلك الملك. فهم يختلفون كلياً عن فلّاحي ليسيياغوري الذين امتازوا عنهم باللغة والألبسة والعادات. كانوا يسمونهم «جماعة القفار». وعندما كانوا يذهبون إلى ليسيياغوري لمساعدتهم في الحصاد أو لتنظيف المستنقعات والحفر، كان الأمير يمتدح كفاءتهم في العمل. لكن وحشيتهم كانت تنفره.

وعملت إقامة الأمير أندريه الأخيرة بينهم وتجديداته التي أدخلها: مستشفيات، مدارس، تخفيف قيود حصة المالك بعيداً عن تلطيف عاداتهم على إبراز هذه البادرة الظاهرة من عقليتهم التي كان الأمير العجوز يسميها وحشية كانت الإشاعات المبهجة تروج بينهم دائماً: فحيناً كانوا سيسجلونهم في عداد القوقازيين وحيناً آخر سيدخلونهم في دين جديد. وكانوا تارة يتبادلون ما يزعمون أنه رسائل من القيصر ويزعمون حيناً آخر أن السادة عندما أقسموا يمين الولاء للأمبراطور پول، وعدوا بتحرير رقيق الأرض لكنهم لم ينفذوا ما وعدوا به. بل إنهم تناقلوا مرة مؤكدين أن «پول الثالث» سيعود ويحكم في غضون سبع سنوات وسيصبح كل الرقيق حراً على عهده وسيجري كل شيء ببساطة حتى أنه لن يكون ثمة حاجة إلى أية قوانين بهذا المعنى. وكان ما يروونه عن الحرب ونابليون والغزو، يختلط عندهم بمبادئ غامضة عن المسيح الدجال ونهاية العالم والحرية العامة.

وكان إلى جوار بوغوتشاروڤو قرى كبيرة تعود إلى التاج أو إلى أناس

www.Maktbah.com

خصوصيين ولكنها جميعها آهلة بقرويين تابعين لنظام الإتاوة. كان عدد قليل جداً من السادة يقيم بينهم لذلك فإن عدد الملمين بقواعد القراءة بين الرقيق والخدم نادر جداً. وعلى ذلك فإن التيارات الخفية في الحياة الشعبية بين سكان تلك القرى التي بقيت أسبابها سراً مغلقاً على المعاصرين، كانت أكثر قوة منها في الأمكنة الأخرى.

وكذلك على سبيل المثال، وقعت بينهم منذ عشرين عاماً، حركة هجرة إلى بعض الأنهار ذات المياه الساخنة. وباعت مئات الأسر فجأة ماشيتها ومن بينها عدد من عائلات بوغوتشاروڤو، ونزحت إلى مكان ما في الجنوب الشرقي، فكانوا يتوجهون إلى تلك المناطق التي لم تطأها من قبل قدم أحدهم مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم أشبه بالعصافير المهاجرة التي تعبر البحار. وكان بعضهم يشتري حريته والبعض الآخر يهرب ويذهبون جميعهم على أقدامهم أو في عربات قوافل إلى المياه الحارة. ولقد لحق ببعضهم فعوقبوا وأرسلوا إلى سيبيريا ونفق البعض الآخر خلال الطريق من البرد والجوع وعاد الباقون طواعية إلى أمكنتهم الأولى ثم انتهت الحركة من تلقاء نفسها كما بدأت دون سبب ظاهر.

لكن التيارات العميقة استمرت تجري بين هذا الشعب الذي أخذ يستمد منها قوة جديدة كانت ستظهر يوماً ما على شكل غاية في الغرابة وعدم التوقع وفي الوقت نفسه غاية في البساطة. وكان كل من عاش خلال تلك الفترة من عام ١٨١٢ مع هذا الشعب، يشعر بأنه إنما يعدّ من قبل هذه القوى البطيئة التي لا بد وأن تظهر إلى الوجود ذات يوم.

قبل موت الأمير ببعض الوقت، لاحظ الباتيتش الذي وصل إلى بوغوتشاروڤو حركة ما بين الفلاحين: ذلك أن «رجال القفر»، على عكس ما كان يجري في منطقة ليسياغوري أو في دائرة قطرها خمسة عشر ميلاً

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

حيث السكان يهجرون قراهم لينهبها القوقازيون، كانوا يعقدون الصلات مع الفرنسيين ويتلقون منهم بعض الأوراق ولا يفكرون إطلاقاً في الرحيل. وعلم الباتيتش عن طريق بعض الخدم الموالين له أن المدعو «كارب»، وهو شخص قوي النفوذ في المنطقة الذي رجع أخيراً من تسيير قافلة من العلف لحساب التاج، كان ينشر إشاعة مفادها أن القوقازيين ينهبون القرى التي يهجرها سكانها في حين أن الفرنسيين يحترمون السكان. وأخبروه كذلك أن قروياً آخر حمل أمس من ضيعة فيسلووتخوڤو التي يحتلها العدو، نداء يخطر فيه الجنرال الفرنسي السكان بأنه لن يقع لهم أي مكروه وأنهم إذا ظلوا في أماكنهم، فإنهم سيدفعون لهم عداً ونقداً ثمن كل شيء يأخذونه منهم. وتأييداً لهذا الزعم، كان ذلك الفلاح الخشن يريهم ورقة مالية من ذات المائة روبل، لم يكن يعرف أنها زائفة، أعطيت له عربوناً على علف اتفق معهم على تسليمه لهم.

بل هناك ما هو أشدّ خطراً. لقد علم الباتيتش أنه في ذلك الصباح بالذات الذي أصدر الأمر إلى شيخ الضيعة بإعداد العربات لنقل الأميرة، عقد اجتماع في القرية قرر فيه عدم الذهاب وانتظار ما تأتي به الأحداث. مع ذلك، فقد كان الوقت مدركاً. وفي ١٥ آب، يوم وفاة الأمير، ألح نقيب الأشراف على الأميرة ماري أن تذهب فوراً لأن الموقف بات مثيراً للقلق وأنه إذا انقضى يوم ١٦ آب، فإنه لن يكون مسؤولاً. ولقد ذهب ذلك المساء بالذات واعداً أن يعود في اليوم التالي ليحضر الدفن. لكنه لم يف بوعده لأن تقدماً مفاجئاً من جانب العدو اضطره إلى ترحيل عائلته وما يملكه من ثمين بأسرع ما يمكن.

منذ حوالى ثلاثين عاماً، كانت بوغوتشاروڤو تدار من قبل المدعو درون، وهو واحد من أولئك القرويين الأقوياء جسدياً وأخلاقياً الذي تزداد كثافة لحاهم كلما تقدموا في السن ولكنهم يبلغون الستين وأكثر دون أن يتبدل فيهم

www.Maktbah.com

شيء آخر أو أن تغزو شعرة بيضاء مفارقهم أو أن تسقط واحدة من أسنانهم، بل يستمرون منتصبي القامة مثل قوة أبناء الثلاثين.

ولقد عين درون بعد حركة الهجرة إلى المياه الحارة بقليل، تلك الهجرة التي اشترك فيها، شيخ بلد في بوغوتشاروڤو، وهو مركز بقي يشغله منذ ثلاثة وعشرين عاماً بشكل لا يتطرق إليه النقد. وكان الفلاحون يخافونه أكثر مما يخافون أسيادهم. أما سيادة الأمير العجوز والشاب، وكذلك الوكيل فقد كانوا يحترمونه ويسمونه على سبيل الدعابة: الوزير. لم يُر طوال مدة خدمته ثملاً أو مريضاً مرة واحدة ولم يظهر قط، حتى في أعقاب ليال بيضاء أو بعد أعمال مضنية، أية بادرة من التعب. ولم يخطئ قط رغم جهله القراءة والكتابة لا في حساباته النقدية ولا في عدد مكاييل الدقيق الذي كان يبيع منه عربات ضخمة ولا في عدد حزم الحشيش الذي تنتجه كل قصبة مربعة من مساحة الحقل.

وكان درون هذا، هو الذي استقدمه الباتيتش الذي جاء من الأرض المخربة المنهوبة: ليسيياغوري يوم الدفن وكلفه استحضار حوالى اثني عشر جواداً لعربات الأميرة وثماني عشرة عربة صغيرة للأمتعة التي كان يجب نقلها. وعلى الرغم من أن القرويين كانوا خاضعين لنظام الحصة، فإن تنفيذ مثل هذا الأمر في نظر الباتيتش، ما كان يجب أن يلقى أية صعوبة لأن بوغاتشاروڤو كانت تعد مائتي وثلاثين بيتاً وسكانهم كلهم في يسر.

مع ذلك، فإن شيخ القرية درون خض عينيه لدى تلقيه الأمر دون أن ينبس بكلمة. ولقد عين له الباتيتش بعض القرويين من معارفه الذين يمكن أن يقوموا بعملية النقل. فقال درون إن خيول أولئك القرويين غير موجودة فعين له الباتيتش غيرهم. غير أن درون زعم أن هؤلاء بالمثل لا يملكون جياداً: فالبعض صودر لمصلحة التاج والبعض الآخر أنهك بل إن قسماً من خيولهم نفقت من قلة الغذاء. ولقد اشتط في مزاعمه إلى حد إيجاد خيول للعربات.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تأمله الباتيتش بانتباه وقطب حاجبيه. وإذا كان درون يعتبر شيخ بلد مثالياً، فإن الباتيتش الذي ظل عشرين عاماً يدير أملاك الأمير، كان كذلك مسجلاً مثالياً بالمثل. ولقد كان يمتاز بحاسة خارقة تساعده على تفهم حاجات ومشاعر الأشخاص الذين يتعامل معهم تفهماً ممتازاً. لذلك فإن نظرة واحدة إلى درون، كشفت له فوراً أن أجوبة درون لم تكن تعكس إمكانياته واستعداداته الشخصية، بل إمكانيات بوغوتشاروڤو الذي كان متأثراً بنفوذ أهلها. ولم يكن جاهلاً أن درون الفلاح الذي أثرى والذي يكرهه القرويون الآخرون لا بد وأن يتردد بين اختيار واحد من العسكريين: معسكر السادة ومعسكر القرويين. ولقد قرأ الباتيتش كل هذا على وجه الرجل البسيط لذلك مشى إليه مقطب الحاجبين وقال له: اسمع يا درون، لا ترو لي ترهات. لقد أعطاني صاحب السعادة الأمير أندريه نيكولاييتش نفسه الأمر بإجلاء كل الناس وعدم ترك أحد على اتصال مع العدو. وهناك أمر من القيصر متعلق بهذا الموضوع. وكل من يبقى يعتبر خائناً هل تسمعني؟

أجاب درون دون أن يرفع إليه عينيه: أسمع.

لكن هذا الجواب لم يرض الباتيتش فقال وهو يهز رأسه: آه! درون، سوف يفسد الأمر!

فقال درون حزيناً: كما تشاء!

استرسل الباتيتش الذي أخرج يده من شق «قفطانه» وأشار إلى الأرض يلفت نظر درون بحركة مفخمة إلى موطئ قدميه:

ـ كفى، لا تتظاهر بالمكر! أنا لا أرى بوضوح ما في نفسك فحسب، بل أرى أيضاً ما تحت قدميك إلى عمق ثلاث أقدام.

ألقى درون المضطرب نظرة مختلسة على الباتيتش لكنه ما لبث أن خفض عينيه فوراً.

www.Maktbah.com

ـ دعك من هذه الحماقات. واذهب إليهم وقل لهم أن يستعدوا للرحيل غداً إلى موسكو وأن يأتوا منذ صباح الغد بالعربات لنقل أمتعة الأميرة. وعلى الخصوص، لا تظهر في الاجتماع. هل سمعتني؟

تهالك درون عند قدمي المسجل: يا أياكوف الباتيتش، اعزلني من مناصبي! استعد مني المفاتيح بحق السماء! فقال الباتيتش بحزم: كفى!

وأعاد قوله:

ـ إنني أرى ما تحت قدميك إلى عمق ثلاث أقدام.

كان يعرف أن براعته في العناية بالنحل وخبرته في مسائل البذار وتمكنه طوال عشرين عاماً وأكثر أن يرضي الأمير العجوز، كل ذلك أعطاه لقب ساحر وأن السحرة يستطيعون رؤية ما تحت قدمي رجل إلى عمق ثلاث أقدام.

وقف درون وحاول أن يتكلم. لكن الباتيتش قطع حديثه: ما الذي يطوف برأسك، هن؟ هيا، ماذا دهاك؟

ـ ماذا أستطيع أن أفعل مع هؤلاء الناس؟ إنهم كلهم منقلبون رأساً على عقب... ولطالما قلت لهم!... إنهم سكارى، أهو هذا؟

ـ لم يعودوا مالكين أعصابهم يا أياكوف الباتيتش، هذا هو البرميل الثاني الذي يأتون عليه.

ـ رهن أوامرك.

لم يلح أياكوف الباتيتش أكثر من ذلك. كان يعرف أن أفضل طريقة لجعل الناس يطيعونك هي أن لا تضع طاعتهم موضع الشك. فلما حصل من درون على جملة «رهن أوامرك» الخاضعة، اكتفى بها رغم أنه تأكد أكثر من أي وقت أن العربات لن تقدم دون تدخل القوات المسلحة.

وفي الواقع، إن المساء أقبل دون أن تصل عربة واحدة. ولقد انعقد اجتماع جديد أمام المشرب قرروا فيه طرد الخيول إلى الغابة وعدم تقديم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

شيء. ودون أن يقول شيئاً للأميرة، أمر أن تحل الخيول المقطورة إلى عرباته الشخصية التي جاء بها من ليسيياغوري وأن تقطر تلك الخيول التي تصبح شاغرة بحكم إبقائه عرباته في مكانها، إلى عربات الأميرة. ثم ذهب يستنجد بالسلطات.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

اعتكفت ماري في غرفتها ورفضت استقبال أي كان، بعد أن شيعت والدها إلى مثواه الأخير. وجاءت إحدى الخادمات تطرق بابها قائلة إن الباتيتش ينتظر تعليماتها من أجل الرحيل وكان ذلك قبل حديثه مع درون فنهضت الأميرة عن الكنبة التي كانت مستلقية عليها وقالت من وراء الباب إنها لا تفكر أبداً في الرحيل وألحت أن يتركوها بسلام.

كانت نوافذ غرفتها تطل على الغرب وكانت، هي، مستلقية على الكنبة ووجهها إلى الجدار تعبث بزر وسادة من الجلد بين أصابعها فلا ترى إلا تلك الوسادة إذ تركزت أفكارها المبهمة حول موضوع وحيد: كانت تفكر في طبيعة الموت المحتوم وفي إسفافها الخلقي التي لم تكن تلمسه حتى ذلك الحين والذي تجلى لها خلال مرض أبيها. وكانت تريد من أعماق نفسها أن تصلي ولكن في الحالة الفكرية التي وجدت نفسها فيها، لم تكن تجرؤ على الالتفات إلى الله وهكذا بقيت في وضعها ذاك ممددة فترة طويلة.

كانت الشمس تغيب في الجانب الآخر من المنزل فراحت أشعتها المنحرفة تغمر غرفتها خلال النافذة المفتوحة جانباً من الوسادة الجلدية التي ركّزت ماري عليها أنظارها. وفجأة انقطع مجرى أفكارها فانتصبت بحركة آلية وسوت شعرها ثم اقتربت من النافذة وراحت رغماً عنها تستنشق الهواء العليل في تلك الأمسية الرائعة.

حدثت نفسها وهي تستلقي على كرسي وتتكئ برأسها على حافة النافذة:

twitter @baghdad_library

«نعم، تستطيعين الآن أن تتأملي جمال المساء بهدوء. لم يعد هناك من يزعجك بعد الآن كما أنه لن يأتي أحد لهذه الغاية».

ناداها صوت رقيق من الحديقة وأحست أن أحدهم يقبل رأسها فالتفتت وإذا بالآنسة بوريين في ثوب حداد مزين بأكمام عريضة خاصة بمناسبات الحداد على فقيد عظيم، قد اقتربت برفق وعانقت ماري وهي تتنهد ثم غرقت في الدموع. تذكرت ماري حينذاك خلافاتهما ومدى إحساسها بالغيرة من هذه الفرنسية. لكنها تذكرت أيضاً أن الأمير في الأيام الأخيرة غيّر سلوكه تجاهها وأنه لم يعد يرغب في رؤيتها فاستنتجت من ذلك أن الشكوك التي أقامتها في أعماق نفسها لم تكن محققة. وقالت لنفسها: «ثم، هل لي أنا، أنا التي تمنيت موت أبي أن أحكم على غيري؟».

رسمت ماري لنفسها بسرعة موقف الآنسة بوريين التي أجبرتها الظروف على العيش عند الآخرين، رهن مشيئة شخص استبعدها منذ فترة من الزمن فأشفقت على هذه المرأة. نظرت إليها بحنان ومدت إليها يدها، فقبلت الآنسة بوريين تلك اليد وراحت خلال دموعها تحدثها عن البلاء الذي أصابها والذي تحمل هي نصيباً منه. قالت إنها لن تجد عزاء لألمها الشخصي إلا في عطف الأميرة وأن الخلافات السابقة كلها يجب أن تتبدد أمام هذا الألم الفظيع وأنه فيما يتعلق بها، فإن ضميرها نقي وأن «هو» من الأعلى كان يرى حبها وعرفانها بالجميل. أصغت إليها الأميرة ماري دون أن تدرك معنى كلماتها وراحت من حين إلى آخر ترفع عينيها إليها مستسلمة للهجة حديثها. استأنفت الآنسة بوريين بعد فترة صمت:

ـ إن موقفك رهيب بشكل مضاعف يا أميرتي العزيزة. إنني أدرك أن لا تكوني قد استطعت التفكير في نفسك كما لا تفكرين فيها الآن. لكن محبتي

التي أكنها لك تجبرني على أن أقوم مقامك في ذلك... هل جاء الباتيتش لرؤيتك؟ هل حدثك عن الرحيل؟

لم تجب ماري. لم تكن تدرك عن أي رحيل تتحدث. «هل أستطيع الآن أن أبدأ بأي شيء كان؟ هل أستطيع حتى التفكير في أي شيء؟ أليس العالم كله في نظري عديم القيمة؟» لم تجب فألحت الآنسة بوريين:

ـ هل تعرفين يا عزيزتي ماري أننا في خطر؟ إننا محاطون بالفرنسيين حتى أصبح الرحيل الآن خطيراً. فإذا رحلنا، تعرضنا لخطر الوقوع في الأسر. والله يعلم.

راحت ماري تنظر إلى رفيقتها دون أن تفهم قصدها. أخيراً قالت: ليتهم يعرفون أن كل شيء في نظري أصبح تافهاً! لا ريب أنني أفضل ألّا أبتعد «عنه»... ولقد ألمح الباتيتش إلى هذا الرحيل.. اتفقي معه، أما أنا، فلست أريد شيئاً ولا أقدر على شيء...

ـ لقد تكلمت إليه. إنه يأمل أن نستطيع الرحيل غداً. لكنني أعتقد أن من الأفضل بقاءنا هنا. وافقي على ذلك يا عزيزتي ماري. سيكون مريعاً أن نقع خلال الطريق بين يدي الجنود أو القرويين الثائرين.

وأخرجت الآنسة بوريين من حقيبة يدها بياناً يختلف ورقه عن ورق الوثائق الروسية، صادراً عن الجنرال رامو يدعو فيه السكان إلى عدم مغادرة مساكنهم وأن السلطات الفرنسية سوف تمنحهم الحماية اللازمة لهم.

قالت الآنسة بوريين وهي تمد يدها بالبيان إلى الأميرة: أعتقد أن من الأفضل أن تتصلي بهذا الجنرال. إنني مقتنعة أنه سيظهر تجاهنا ما نستحق من رعاية.

قرأت ماري البيان فتقلصت أساريرها وسألت: من أين لك هذا؟

twitter @baghdad_library

أجابت الآنسة بوريين ووجهها يحمرّ: لا شك أنهم عرفوا من اسمي أنني فرنسية.

اغبرّ وجه ماري فوقفت والورقة في يدها وذهبت إلى المكتب الذي كان الأمير أندريه يجلس فيه وهناك أمرت: دونياشا، ادعي الباتيتش أو درون أو من تشائين!

ثم تابعت عندما سمعت صوت الآنسة بوريين:

ـ وقولي لإميلي كارلوڤنا ألّا تدع أحداً يدخل.

قررت وقد رُوعت لفكرة إمكانية وقوعها بين أيدي الفرنسيين: «يجب الذهاب، أو الذهاب بأسرع ما يمكن!».

«لو أن أندريه عرف أنها رهن مشيئتهم، لو عرف أن ابنة الأمير نيكولا أدرييڤتش بولكونسكي قد التمست حماية السيد الجنرال «رامو» وأفادت من حسن التفاتاته!» أخذت هذه الفكرة تدفع الدماء إلى وجهها وتجعلها ترتجف ثم تغلي من الاعتداد والغضب. وكانت تتصور ما في مثل هذا الموقف من إيلام. «سوف يتمركز هؤلاء الفرنسيون هنا. لكن الجنرال رامو سيحتل مكتب أخي وسوف يتلهى بقراءة أوراقه ورسائله. وستقدم لهم الآنسة بوريين تحيات بوغوتشاروڤو. وسيتركون لي غرفة صغيرة على سبيل الإحسان وسوف يدنس الجنود ضريح أبي الذي لما يجف بعد لكي ينتزعوا منه صليبه وأوسمته وسيروون لي انتصاراتهم على الروس، وسيظهرون حيالي عطفاً منافقاً..» والحق يقال إن هذه الأفكار لم تكن تعبر عن إحساسات الأميرة ماري وحدها، بل كذلك إحساسات أبيها وأخيها التي وجدت أنها مرغمة على تبنيها بحكم الظروف الراهنة. لم يكن يهمها أين ستكون ولا ماذا سيحدث لها. لكنها كانت تتصور وجود أبيها المرحوم وأخيها الغائب فكانت تحس مثلهما رغماً عنها. وكانت تقدر أن من واجبها أن تعمل وتقول ما كانا سيعملانه ويقولانه.

www.Maktbah.com

ولما كانت معتكفة في مكتب الأمير أندريه، فقد راحت تحاول أن تستعرض الموقف وهي تفكر مثله.

وفجأة فرضت ضرورات الحياة اليومية التي ظنت أنها اختفت منذ وفاة والدها، وجودها فرضاً عليها وبأشد قوة كما لم تثقل كاهلها قط من قبل.

بدأت تروح وتجيء في الغرفة وهي مضطربة محمرة الوجه تطلب الباتيتش تارة وميخائيل إيڤانوڤيتش تارة أخرى، تيخون حيناً ودرون حيناً آخر. ولم تكن دونياشا ولا المربية ولا أية واحدة من الخادمات لتستطيع أن تحدثها بشيء واضح حول مزاعم الآنسة بوريين. لقد كان الباتيتش غائباً ساعياً وراء الاستعانة بالسلطات ولم يستطع المهندس ميخائيل إيڤانوڤيتش الذي مثل أمامها وعيناه متورمتان من النوم، أن يحدثها بشيء. لقد أجاب عن أسئلة الأميرة بمثل تلك الابتسامة المؤيدة التي سمحت له خلال خمسة عشر عاماً أن يجيب عن أسئلة الأمير العجوز دون أن يعبر عن رأيه في محادثاته معه. فكانت كلماته لا تتيح للمرء أن يستنتج منها شيئاً. ولما سألت الوصيف العجوز تيخون الذي كان وجهه المنقلب يحمل طابع حزن لا شفاء منه، أجاب بعبارته الدائمة: «رهن أوامرك» وكلما رفع عينيه إلى ماري وجد صعوبة عظيمة في كبت إجهاشه.

جاء شيخ البلد درون، أخيراً، وبعد أن حيا سيدته بمزيد الاحترام تسمّر في مكانه بجانب إطار الباب.

اجتازت ماري الغرفة ووقفت أمامه. وقالت له وهي تظن واثقة أنها واجدة صديقاً أميناً في درون ذاك الذي كان يأتيها بالحلوى من الأنواع التي تحبها كلما ذهب في رحلته السنوية إلى معرض فيازما:

ـ يا دروني الطيب، يا دروني الطيب، أنظر بعد مصيبتنا..

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وسكتت وقد خانها النطق على الاسترسال. فأجاب وهو يتنهد: إننا جميعاً في يد الله.

وساد صمت عميق. أخيراً استطاعت ماري أن تقول: يا دروني الطيب. لقد ذهب الباتيتش ولم يبق لدي من أتوجه إليه بالحديث، إنهم يزعمون أنني لا أستطيع الذهاب قبل هذا صحيح؟

ـ ولماذا لا تستطيعين الذهاب يا صاحبة السعادة؟

ـ إنهم يؤكدون لي أن الرحيل يشكل خطراً بسبب جوار العدو: يا صديقي الباسل، إنني لا أستطيع شيئاً ولا أفهم شيئاً وليس لدي من يشير عليّ بشيء. أريد، مهما كلف الأمر، أن أرحل هذه الليلة أو غداً صباحاً على أكثر حد.

لم ينبس درون بكلمة. أخذ يختلس النظر إلى سيدته ثم قال أخيراً:

ـ لا توجد خيول. لقد قلت هذا القول من قبل لإياكوف الباتيتش؟

ـ ولماذا لا توجد خيول؟

ـ إن عقاب الله مسلط علينا. فالخيول التي كانت موجودة صودر بعضها من قبل الجيوش ونفق الباقي. يا لها من سنة شقاء! إن أمر الحيوانات بسيط لولا أن الناس أنفسهم لا يجدون ما يأكلونه.. هناك، منذ ثلاثة أيام، مَن لم يضعوا شيئاً تحت أسنانهم.. لقد نكبنا، كما ترين نكبنا تماماً!

أصغت إليه ماري بانتباه ثم سألت: الفلاحون منكوبون؟ ألم يعد لديهم شيء من القمح؟

ـ إنهم يموتون جوعاً... كيف تريدين أن يقدموا عربات...

ـ ولماذا لم تقل شيئاً يا دروني الطيب؟ ألا يمكن تقديم المساعدة إليهم؟ سوف أقوم بكل ما أستطيع...

في تلك اللحظة التي كانت متأثرة بحزن عميق يحرقها، وجدت الأميرة ماري أن من الغرابة وجود أغنياء وفقراء وأن لا يفكر الأغنياء في نجدة الفقراء،

www.Maktbah.com

ولقد سمعت بشيء من الغموض عن قمح مخصص «للسيد» كانوا أحياناً يوزعونه على القرويين، وكانت تعرف أن أباها وأخاها ما كانا يرفضان تقديم المساعدة لهم، لكنها كانت تخاف ألا تستطيع التعبير عن رغبتها، كانت سعيدة ألّا تستطيع بسبب غاية نبيلة، طرد ألمها لفترة ما، لذلك فقد سألت درون عن تفاصيل حاجات القرويين واحتياطي بوغوتشاروڤو.

ـ ولكن يجب أن يكون لدينا قمح... حصة أخي؟

أجاب درون باعتداد: إن حنطة الأمير سليمة لم تمس، لقد رفض أميرنا أن تباع.

ـ وزعها على القرويين، أعطهم كل ما يحتاجون إليه، إنني أجيزك باسم أخي.

اقتصر جواب درون على تنهدة عميقة.

ـ أعطهم ذاك القمح إذا كانت كميته تكفيهم، أعطه لهم كله، آمرك باسم أخي، قل لهم إن مالنا نحن لهم كذلك وإننا لا ندخر شيئاً في سبيل مساعدتهم، قل لهم كل ذلك.

بقيت عينا درون شاخصتين إلى الأميرة خلال حديثها فقال:

ـ بحق السماء يا أميرة، اعزليني من منصبي، مريني أن أعيد مفاتيحي، لقد خدمت طوال ثلاثة وعشرين عاماً دون أن آتي سوءاً فاعزليني بحق السماء.

ولما لم تفهم ماري شيئاً من دوافع هذا الطلب، أجابته بأنها لم تشك قط في وفائه وأنها ستعمل المستحيل من أجله ومن أجل القرويين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

دخلت دونياشا، بعد ساعة، تعلن للأميرة أن درون قد رجع وأن القرويين، حسب أوامرها، موجودون قرب المكدس يطلبون التحدث إليها.

قالت ماري: أنا لم أستدعهم، لقد قلت لدرون فقط أن يعطيهم قمحاً.

فقالت دونياشا: إذن يا أميرتي الطيبة، مري بهم أن يطردوا وخصوصاً لا تذهبي إليهم بحق السماء، إن كل هذه ليست إلا خدعة، سوف نذهب عندما يعود إياكوف الباتيتش... ولكن لا تحتملي عناء.

سألت ماري بدهشة: عن أية خدعة تتحدثين؟

ـ إنني أعرف ما أقول... إتبعي نصائحي بحق السماء، سلي المربية إذا شئت، إنهم يرفضون الرحيل حسب أمرك.

ـ لا بد وأنك مخطئة، إنني لم آمرهم بالرحيل... ادعي درون.

أيد درون أقوال دونياشا: لقد جاء القرويون للقاء الأميرة بناء على أمرها. قالت ماري: لكنني لم أستدعهم قط، لعلك أخطأت، لقد قلت لك بوضوح أن توزع عليهم القمح.

أطلق درون تنهدة وقال: سوف يعودون إذا كنت تأمرين.

ـ كلا، كلا، أريد أن أذهب لرؤيتهم.

وعلى الرغم من توسلات دونياشا والمربية فقد ذهبت إلى المرقاة فتبعها درون والمرأتان وميخائيل إيـڤانوڤيتش.

حدثت نفسها: «إنهم، بلا شك، يعتقدون أنني أمنحهم القمح شريطة

www.Maktbah.com

أن يبقوا في أماكنهم فأهجرهم بذلك ليصبحوا رهن أوامر الفرنسيين، سوف أعدهم بجراية شهرية وبمأوى في عقارنا القريب من موسكو، إنني واثقة بأن أندريه كان سيفعل أكثر من ذلك لو كان في مكاني».

ولما وصلت إلى المرعى قرب المكدس حيث ينتظرها القرويون، كان الليل قد هبط. ولقد دخلت بين الجماعة المحتشدة ثم حسرت الرؤوس فجأة، فاقتربت ماري منهم مطرقة الرأس وهي تتعثر بردائها، ولكثرة الوجوه الفتية والهرمة والأنظار التي كانت متجهة نحوها، لم تستطع أن تميز أحداً، ولما كانت واثقة بأنها تخاطبهم جميعاً فقد أرتج عليها، ولكن، إيمانها بأنها تمثل أباها وأخاها، أعطاها مجدداً همة ونشاطاً فراحت تتكلم بجرأة رغم أن قلبها كان يخفق بشدة.

قالت دون أن ترفع عينيها إليهم: أنا مسرورة لمجيئكم، لقد قال لي درون إن الحرب قد نكبتكم، إنها بلاؤنا المشترك، لذلك فإنني لن أدخر وسعاً في سبيل مساعدتكم... يجب علي أن أذهب لأن العدو قريب ولأن... ولأنني معرضة للخطر ببقائي هنا... لكنني أعطيكم كل شيء يا أصدقائي، أسألكم أن تأخذوا كل قمحنا كيلا تصبحوا معوزين، وإذا قالوا لكم إنني أقدم لكم هذه المنحة كي تبقوا هنا، فهو خطأ، إنه على العكس، إنني أرجوكم أن تذهبوا حاملين كل ما تملكونه وأن تقيموا في أملاكنا قرب موسكو وأعدكم بتقديم المأوى والطعام.

توقفت ماري ولم يجبها الجمع إلا بالتنهدات، ثم استرسلت: إنني لا أتقدم بهذا العهد باسمي وحدي، بل إنني أتصرف باسم المرحوم أبي الذي كان سيداً طيباً لكم وباسم أخي وابنه.

توقفت مرة أخرى ولم يقطع أحد الصمت، وأردفت وهي تتفحص

twitter @baghdad_library

الوجوه بأنظارها: إن البلاء يشملنا جميعاً لذلك فإننا سنوزع كل شيء مناصفة، إن كل ما يخصني يخصكم.

كل العيون كانت شاخصة إليها وفيها تعبير عام متشابه، ولكن ماذا كان يعني ذلك التعبير: الفضول، التفاني، العرفان، أم على العكس الذعر والتحفظ؟ هذا ما لم تستطع تبيانه.

قال صوت من الوراء: إننا نشكرك على أفضالك لكننا لا نستطيع أخذ حنطة السيد.

ـ ولماذا إذن؟

لم تحظ بجواب، ولاحظت ماري أن النظرات التي أخذت تلتقي الآن نظراتها راحت تروغ منها فوراً، ألحت في السؤال: لماذا لا تريدون؟

ولكن دون أن يجيب أحد.

شعرت ماري بالانزعاج فحاولت أن تستوقف إحدى تلك النظرات فسألت عجوزاً واقفاً قبالتها مباشرة على عصاه، استطاعت أن تضبط نظرته.

ـ لماذا لا تقولون شيئاً؟ تكلم، هيا، إذا كنتم في حاجة إلى شيء آخر فإني سأعمل كل ما يجب.

لكن العجوز زاد من إطراق رأسه وكأن الأمر زاد في إغضابه وأعلن:

ـ لماذا نوافق؟ لسنا في حاجة إلى القمح.

وقالت أصوات كثيرة انبعثت من الحشد: ولماذا يجب أن نتخلى عن كل شيء؟ إننا لن نوافق... إننا لن نوافق. لن نعطي موافقتنا... اذهبي وحدك...

وعادت الوجوه مجدداً تنطبع بذلك الطابع ولكن بات الآن بالإمكان قراءة المعنى بكل وضوح، إنه ليس طابع الفضول أو العرفان، بل إنه أمارات العزم الوحشي.

www.Maktbah.com

قالت ماري بابتسامة حزينة: لا شك أنكم أسأتم فهمي، لماذا ترفضون الذهاب؟ إنني أعدكم بإيوائكم وإطعامكم في حين أن العدو سينكبكم هنا...

لكن أصوات الجماعة خنقت صوتها:

ـ سيان! لينكبنا! إننا لا نريد قمحك ولن نعطي موافقتنا.

حاولت ماري أن تضبط نظرة في ذلك الجمع ولكن لم تكن إحداها متجهة نحوها، كانت العيون كلها تتجنبها فازداد انزعاجها.

ـ كم هو جميل هذا الذي تعرضه علينا! أن نذهب هكذا معها ونترك بيوتنا تهدم، أن نضع الحبل حول أعناقنا! وكيف لا، إنني أعطيكم قمحاً!

هذا ما راحوا يقولونه فيما بينهم، فعادت ماري إلى منزلها منكسة الرأس، وبعد أن كررت لدرون أنها تريد خيولاً لصباح اليوم التالي، انسحبت إلى غرفتها حيث انفردت مع أفكارها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

وقفت ماري في تلك الليلة فترة طويلة أمام نافذتها المفتوحة غير مبالية بضجيج الأصوات التي كانت تتصاعد من القرية: ماذا يهمّها من هؤلاء الناس الذين لا يمكن أن يفهموا أبداً؟ لم تعد تفكر إلا في ألمها، ذلك الألم الذي أخذ يدخل في حنايا الماضي بعد هذا الإلهاء الذي أوجدته هموم الحاضر. إنها تستطيع الآن أن تذكر وتبكي وأن تصلي. هدأت الريح عند غروب الشمس وجاء الليل ساكناً رطيباً. وسكنت الأصوات تدريجاً حوالى منتصف الليل وصاح ديك، وظهر البدر من وراء الزيزفون ونشر الندى أنجزته البيضاء وساد السكون فوق القرية والمنزل.

تمثلت أمامها صور ماض قريب الواحدة تلو الأخرى: المرض ولحظات أبيها الأخيرة. ولقد توقفت عندها بتلذذ ضجر لا تدفع عنها منها بهول إلا واحدة، تلك التي تمثل الموت التي كانت تشعر أنها لا تملك القوة لاستعراضها في تلك الساعة الغامضة من الليل. ولقد بدت لها تلك المشاهد بوضوح شديد وتفصيل دقيق حتى أنه كان يخيل إليها أنها ملك الحاضر تارة وتارة الماضي والمستقبل، مرة أخرى.

عادت ترى تلك اللحظة التي أصيب فيها أبوها بالنوبة القلبية في حديقة ليسيياغوري: كانوا عائدين به وهم يحملونه من تحت إبطيه وكان يغمغم شيئاً بلسانه العاجز ويقطب حاجبيه الأبيضين وينظر إليها بحزن وخجل.

فكرت: «كان يريد منذ ذلك الحين أن يقول لي ما قاله يوم مماته. لقد كان

www.Maktbah.com

ذلك هو مستقر تفكيره دائماً». وفجأة تذكرت الليلة التي سبقت النوبة في أدق تفاصيلها، حينما توقعت أن يحل مكروه فرفضت أن تتركه وحيداً. لقد نزلت على أطراف قدميها وقد جفاها النوم فلما وصلت إلى باب الحديقة الشتوية حيث كان أبوها يقضي ليلته تلك، سمعته يتحدث مع تيخون بصوت منهك، محطم، عن القوم والليالي الحارة وعن الأمبراطورة. كان بدون شك، يشعر بحاجة إلى الكلام. ولقد حدثت ماري نفسها وهي تتصور موقفه الآن: «ولماذا لم يأمر باستدعائي؟ لماذا لم يسمح لي بأن أحل محل تيخون بالقرب منه؟ آه! إنه لن يقول لأحد أبداً ما كان يعتلج في قلبه حينذاك. إن تلك اللحظة التي كان يمكن أن يقول أثناءها ما يريد والتي لو كنت هناك عوضاً عن تيخون أصغي إليه وأفهمه، لن تعود أبداً بالنسبة إليه ولا بالنسبة إلي. آه! لماذا لم أدخل في تلك الليلة! كان سيحدثني بدون شك كما حدثني وهو على فراش الموت.

إنني أذكر أنه بينما راح يتحدث مع تيخون، استفسر مرتين عني. كان يتوق إلى رؤيتي بينما كنت أنا وراء الباب، كان يتألم من أن لا يسمعه أحد غير تيخون الذي لم يكن يستطيع فهمه لقد حدثه عن «ليز» وكأنها لا تزال على قيد الحياة لأنه نسي أنها ماتت. فلما لفت تيخون انتباهه إلى أنها لم تعد في هذه الدنيا نعته بالأحمق. كان يتألم. لقد سمعت خلال الباب كيف زمجر وهو يستلقي على السرير وكيف صاح: «رباه!» لماذا لم أدخل حينذاك ماذا كان فعل لي؟ أي خطر كان يهددني؟ لعل زيارتي كانت ستحمل له الراحة ولعله كان سيقول لي هذه الكلمة. وبصوت مرتفع، لفظت ماري تلك الكلمة الممالقة التي قالها لها يوم موته: «يا روحي العزيزة» وراحت ترددها وهي تذرف الدموع المسكنة. بات الآن أمامها وجه أبيها. ليس ذلك الوجه النافر الذي عرفته دائماً بل ذلك الوجه الضعيف الذي تأملته لأول مرة في أدق تقاطيعه عندما مالت عليه لتقترب من شفتيه بغية سماعها ما سيقول.

twitter @baghdad_library

كررت: «يا روحي العزيزة...».

وتساءلت فجأة: «ماذا كان يفكر عندما قال لي هذه الكلمة؟ بأي شيء يفكر الآن؟» وجواباً عن هذا السؤال تصورت التعبير الذي انطبع على وجهه وهو في نعشه وحول ذقنه العصابة البيضاء. وعاد ذلك الرعب الذي استحوذ عليها عندما لمسته فأحسّت بأنه لم يعد هو نفسه فحسب بل أصبح شيئاً غامضاً، استحوذ عليها ذلك الرعب في تلك اللحظة. أرادت أن تفكر في شيء آخر، في الصلاة. لكنها لم تستطع. راحت تتأمل ضياء القمر والأطياف بعينين جاحظتين وهي تتوقع في كل لحظة أن يظهر أمامها وجه الميت. وشعرت كأن السكون العميق الذي يخيم على المنزل وما حوله يشل حركتها فغمغمت ثم صرخت بصوت غريب: دونياشا!... دونياشا!

وانتزعت نفسها من الصمت، فاندفعت إلى غرفة الوصيفات حيث أسرعت المربية ونساء أخريات إلى لقائها استجابة لندائها.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

ذهب روستوف وإيلين وتابع لهما ومعهم لاڤروشكا الذي رجع من أسره القصير في السابع عشر من آب، في نزهة من معسكرهم في إيانكوڤو على مسافة أربعة أميال من بوغوتشاروڤو، بغية تجريب حصان جديد اشتراه إيلين والبحث عن إمكان وجود علف في القرى المجاورة.

كانت بوغوتشاروڤو، منذ ثلاثة أيام، بين الجيشين العدوين معرضة في كل لحظة لأن تحتلها مؤخرة الجيوش الروسية أو طلائع الجيوش الفرنسية. لذلك فقد كان روستوف بصفته رئيس كوكبة نابهاً يريد أن يحصل قبل العدو على ما قد تبقى من الأرزاق.

في ذلك اليوم، كان الشابان على خير مزاج، فكانا وهما في طريقهما إلى ذلك الملك الأميري، بوغوتشاروڤو الذي توقعا أن يريا فيه خدماً كثيرين وبينهم فتيات جميلات كثيرات، يتسليان بالسؤال من لاڤروشكا عن ناپليون أو باختبار الحصان الذي اشتراه متبارزين في الجري.

لم يكن روستوف يشك في أن القطاع الذي يذهب إليه ملك لـ ڤولكونسكي ذاك الذي كان خطيب أخته.

وللمرة الأخيرة، أطلق وإيلين جواديهما عند المنحدر قبل بوغوتشاروڤو فكان روستوف الذي سبق صديقه أول من جرى في شارع القرية.

قال له إيلين وقد تورد وجهه: لقد سبقتني!

فأجاب روستوف وهو يربت بيده جواده «الدوني» الذي أبيض من الزبد:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ لي السبق في كل الميادين.

وقال لاڤروشكا من الوراء: أتدري يا صاحب السعادة أنني كنت قادراً على اللحاق بك على ظهر فرسي، وكان يدعو كديشة الجر التي كان يمتطيها بهذا الاسم، لكنني ما أردت أن أخجلك.

اقتربا من رواق وقف تحته عدد كبير من القرويين فنزع بعضهم قلانسهم واكتفى الآخرون بالنظر إلى الوافدين الجدد. وخرج عجوزان عملاقان متغضنا الوجه لهما لحيتان غير ناميتين، من المشرب وهما يبتسمان ويتمايلان ويدمدمان في غير انسجام واقتربا من الضباط.

قال روستوف ضاحكاً: يا لهما من فتيين! قولا، هل لديكما علف؟

وقال إيلين ملاحظاً: إن كليهما زوج نادر..

ونطق أحد العجوزين بضحكة بلهاء: سررنا با.. للقـ..ـاء..

واقترب واحد من الجماعة من روستوف وسأل: من أنتم؟

فأجاب إيلين بانشراح: فرنسيون.

وأضاف وهو يشير إلى لاڤروشكا: بل إن هذا هو ناپليون بالذات.

استأنف القروي: استناداً إلى هذا فأنتم روس؟

واستفسر آخر قصير القامة وقد اقترب بدوره:

ـ هل معكم خلق كثير؟

أجاب روستوف:

ـ كثير كثير... ماذا تفعلون هنا؟ هل اتفق أن اليوم يوم عيد؟ فقال الرجل وهو يبتعد:

ـ لقد اجتمع عُجَّزنا للتداول في شؤوننا.

وفي تلك اللحظة ظهرت على الطريق المؤدي إلى المنزل الكبير امرأتان ورجل يضع على رأسه قبعة بيضاء فتوجهوا نحو الضابطين.

www.Maktbah.com

قال إيلين وهو يشير إلى دونياشا التي راحت تتجه نحوه بخطى مصممة: إنني أحتفظ بالثوب الوردي نفسه، فحذار أن «يلطشه» مني أحد!

وقال لاڤروشكا وهو يغمز بعينيه بقحة: سوف ننالها!..

سألها إيلين وهو يبتسم: ماذا يلزمك يا جميلتي؟

ـ إن الأميرة أرسلتني لأسألكم عن الفوج الذي تنتمون إليه وعن اسمكم؟

ـ إن السيد هو الكونت روستوف قائد الكوكبة وأنا خادمك المتواضع.

ودمدم العجوز الثمل ذو الضحكة البلهاء وهو يتأمل هذا المنظر: سررنا با.. للقـ...ـاء.

وصل الباتيتش على أثر دونياشا وقد كشف عن رأسه باحترام قبل أن يصل وقال بامتثال يظهر فيه بعض المقت لشباب روستوف، محتفظاً بيده في شق ثوبه:

هل أجرؤ على إزعاجكم يا صاحب النبالة. إن سيدتي، ابنة الجنرال القائد الأعلى الأمير نيكولا أندرييـڤيتش بولكونسكي المتوفى في الخامس عشر من هذا الشهر في موقف صعب بسبب غلظة هؤلاء الناس، وأشار بيده إلى القرويين، وهي تسألكم أن تذهبوا لرؤيتها.. هل تريدون أن تتنحوا قليلاً، إننا لا نستطيع أن نتفاهم بحضور هؤلاء.. وأشار بابتسامة ضجرة إلى الثملين اللذين كانا يدوران حوله متأخرين قليلاً كما يدور الذباب حول الخيل.

وقال الرفيقان الثملان وهما يكشفان له عن أجمل ابتساماتهما:

ـ هي! الباتيتش!... إياكوف الباتيتش!... إنك تتكلم جيداً.. اعذرنا بحق المسيح.

فلم يستطع روستوف تجاه هذا المشهد إلا أن يبتسم هو الآخر. فقال إياكوف الباتيتش بأشد لهجاته اتزاناً:

twitter @baghdad_library

ـ إلا إذا كان ذلك يبعث التسلية في نفس سعادتك.

فقال روستوف:

ـ كلا، لا يوجد ما يدعو إلى التسلية.

ثم سأل بعد أن ابتعد قليلاً:

ـ ها، ما هو الموضوع؟

ـ يجب أن أخطر سعادتك بأن هؤلاء القضامين لا يريدون أن يسمحوا لسيدتي بمغادرة المكان مهددين بحل الخيول من العربات حتى أن كل شيء مهيّأ منذ هذا الصباح دون أن تستطيع الأميرة الذهاب.

صاح روستوف: مستحيل!

ـ لي الشرف بأن أروي لك الحقيقة النقية.

ترجل روستوف وسلَّم جواده إلى التابع ثم اتجه نحو المنزل برفقة الباتيتش الذي شرح له تفاصيل المسألة. ولقد أفسد عرض توزيع القمح على القرويين وتفاهم الأميرة مع درون ومندوبي المقاطعة الأمر حتى أن شيخ القرية أعاد مفاتيحه نهائياً ليلحق بمرؤوسيه فلم يستجب لدعوة الباتيتش. وعندما أصدرت الأميرة منذ الصباح الباكر الأمر بقطر الخيول إلى العربات استعداداً للرحيل، اجتمع القرويون بعدد كبير أمام المكدس وأرسلوا من يقول إنهم بدلاً من أن يدعوها تذهب، سيحلون الخيول. ولما حاول الباتيتش أن يعيدهم إلى صوابهم أجابه السيد كارب، لأن درون كان يتجنب الظهور، أن الأميرة بذهابها إنما تخالف التعليمات التي أصدرتها السلطات وأن واجبها يحتم عليها البقاء وأنهم سيستمرون في خدمتها كسابق عهدهم ويطيعونها في كل شيء إن هي بقيت. وعندما كان روستوف وإيلين يصلان هدباً إلى الطريق العام، كانت الأميرة متصامة عن سماع لوم الباتيتش والمربية والخادمات، تستعد للذهاب مهما كلف الأمر. لكنها عندما لمحت الفرسان الذين ظنت

www.Maktbah.com

أنهم من الفرنسيين، كان الحوذيون قد هربوا بينما راحت النساء يملأن البيت توجعاً وأنيناً.

تعالت صرخات متوسلة بينما كان روستوف يجتاز الدهليز.

ـ أنقذنا أيها السيد العزيز. إن الله الكريم هو الذي أرسلك!

وكانت الأميرة ماري منهوكة القوى في القاعة عندما أدخل عليها روستوف فلم يسمح لها قلقها البالغ أن تدرك للوهلة الأولى من هو ذلك الرجل وماذا جاء يفعل هناك. ولكنها عندما تبينت من تصرف الضابط الشاب وكلماته الأولى التي تفوّه بها أنه روسي وأنه رجل من طبقتها، حتى شخصت إليه بنظرتها العميقة المشرقة وأجابته بصوت متهدج يقطعه الانفعال. ولا شك أن روستوف اكتشف لأول وهلة الجانب الروائي في المغامرة. فكر وهو يتأمل ماري ويستمع إلى قصتها وهي ترويها بصوتها الحي: «هذه الفتاة العزلاء المحطمة من الألم واقعة تحت رحمة القرويين المتمردين! يا لدعابة القدر الذي ساقني إلى هنا في الوقت المناسب!.. ويا للرقة، يا للنبل في تقاسيمها وفي أمارات وجهها!».

وعندما بلغت في قولها أن كل هذا جرى غداة يوم دفن أبيها، ازداد صوتها اضطراباً فأدارت رأسها خشية أن يعتقد روستوف أنها تحاول أن تثير شفقته على مصيرها ثم ألقت نظرة مستفسرة وجلة على الشاب. رأت أن الدموع كانت تتلألأ في مقلتيه. لاحظت الأميرة ماري ذلك فشكرته بتلك النظرة المشرقة التي تذهب دمامة تقاسيمها.

أعلن روستوف وهو ينهض: لا أستطيع يا أميرة أن أعرب عن مدى سعادتي لوجودي هنا صدفة ولاستطاعتي أن أضع نفسي تحت تصرفك الكلي. اذهبي، وإنني أكفل بشرفي أنك إذا سمحت لي بمرافقتك، لن يستطيع أحد أن يسبب لك أي إزعاج.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واتجه نحو الباب وهو ينحني أمامها باحترام وكأنها أميرة من البيت المالك. لقد كانت تلك التصرفات الاحتفالية تقول إنه رغم رغبته الشديدة في أن يربط معها أواصر معرفة أوسع، إلا أنه لا يريد استغلال شقاء ماري ليتابع الحديث معها. وفهمت الفتاة هذا المعنى وقدرت تلك الفطنة.

قالت له بالفرنسية: أنا شاكرة لك صنيعك جداً جداً. آمل ألا يكون هذا كله أكثر من سوء تفاهم ألّا تجد فيه مذنباً..

ثم أضافت وهي تشعر بالدموع تطفر من عينيها: أعذرني..

قطب روستوف حاجبيه وانحنى مرة أخرى وخرج.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

جميلة واسمها دونياشا، إن فتاتي فاتنة يا عزيزي... لكنه ألقى نظرة يتيمة على روستوف أسكتت إيلين فوراً. وحدس أن رئيسه، بطلبه، لا يفكر إلا في الترهات.

والواقع أن روستوف لم يجبه إلا بنظرة ثائرة وانطلق نحو القرية يسرع الخطى.

كان يدمدم في سره: سوف أريهم، سوف أعطيهم ما يستحقونه، هؤلاء الأنذال!

وقد وجد الباتيتش صعوبة في اللحاق به رغم أنه راح يوسع خطاه. ولما أدركه سأله: أي قرار اتخذتم يا صاحب السعادة؟

فجأة، توقف روستوف، وتقدم نحو الباتيتش مهدداً بقبضتيه وصاح:

ـ قرار! أي قرار؟ أين كانت عيناك أيها الأبله العجوز؟ يتمرد القرويون فلا تعرف كيف تعيدهم إلى الطاعة! لست إلا خائناً أنت الآخر! آه! إنني أعرفكم جيداً، سوف أسلخ جلودكم جميعاً!

ولما كان يخشى أن يبدد عبثاً الغضب الذي تجمع في نفسه، فقد ترك المسجل ليعود إلى مشيته السريعة. أما الباتيتش، فقد راح بإلحاح يلحق بروستوف ركضاً ليعرض عليه أفكاره وقد فرض الصمت على كرامته المهانة. فالقرويون، إذا آمنا بكلامه، مدعومون بقوة ومن غير الحكمة أن يناوئهم دون اللجوء إلى القوة المسلحة. فمن الأفضل إذن استدعاء الجنود.

twitter @baghdad_library

قال نيكولا وهو يجيب دون ترو بعد أن استبدت به ضرورة كبح غضبه المخالف للصواب، الحيواني، الذي كان يخنقه: استدعاء الجنود!... مناوءتهم!.. سوف نرى هذا!

مشى بخطوات حازمة إلى الجموع المحتشدة دون أن يفكر في ما سيفعل. وكلما ازداد قرباً من المحتشدين، ازداد اعتقاد الباتيتش بأن هذه الحركة غير الحكيمة قد تؤدي بالفلاحين الثائرين إلى الندم وخصوصاً أن مشية روستوف النشيطة ووجهه المتقلص أخذ على ما يبدو يحدث على وجوههم مثل ذلك الأثر.

بالكاد دخل الفرسان القرية ولم يكد روستوف يمضي إلى زيارة الأميرة حتى عمّ الخلاف والتباين في آراء الجماعة المحتشدة. صرخ بعضهم بأن الوافدين الجدد من الروس وإنهم يستاؤون من استبقائهم الأميرة. وكان درون من أنصار أصحاب هذا الرأي. لكنه ما كاد يفتح فمه حتى هاجم كارب وعدد آخر شيخ البلد السابق هجوماً عنيفاً. صرخ كارب: سيان عندك هذا، هن؟ منذ كم عام وأنت تجتز الصوف من على ظهورنا؟ ثم تستخرج كنزك الدفين ثم الوداع، لقد رأيتك. سيان عندك أن يخربوا بيوتنا!

وصرخ صوت آخر: إن ما قيل قد قيل. لا يتحرك أحد منكم ولا ليحمل أحد ذره! لا يمكن التراجع عن هذا القرار.

وقال عجوز صغير فجأة مخاطباً درون: كان دور ابنك في الذهاب إلى الجيش. لكنك خشيت على ذلك المنتفخ الضخم فكان أن أرسلت ولدي محله!.. سوف نموت كلنا، هه، إذ يجب أن تكفر أنت الآخر عنها، عن أخطائك!

ـ نعم، بالطبع، يجب ذلك!

فأعلن درون: لن أنفصل عن البلد.

www.Maktbah.com

ـ كلام.. وبطنك العظيم هذا، من أين اكتسبته على هذا الشكل؟.. كذلك كانت ثرثرة العملاقين العجوزين.

لم يكد روستوف وبصحبته إيلين ولافروشكا والباتيتش، يصل قريباً من الجماعة حتى انبرى كارب إلى الأمام وأصابعه في حزامه والابتسامة الخفيفة على شفتيه. أما درون فراح على العكس يختفي في الصفوف الخلفية. واقترب الحشد المكتظ.

صاح روستوف وهو يتجه إليهم:

ـ هولا! من هو شيخ البلد؟

فسأل كارب: شيخ البلد؟ وماذا تريد منه؟

لكنه لم يكد يتم جملته حتى كانت قلنسوته تطوح في الهواء ورأسه يتأرجح تحت وطأة الضربة القوية.

زمجر روستوف: إرفعوا القلانس! أيها الخونة!

وكرر بصوت رهيب: أين شيخ البلد؟

أسرعت بعض الأصوات تقول وقد خضعت بينما انحسرت الرؤوس:

ـ شيخ البلد! شيخ البلد!.. يا درون زاخاريتش، إنه يدعوك!

أعلن كارب: إننا لم نتمرد. لكننا نسهر فقط على التدابير المتخذة..

وبادرت أصوات من الوراء إلى نجدته:

ـ لقد تمسكنا بقرار شيوخنا.. أما سلطات مثلكم فكثيرة الوجود..

هدر روستوف بصوت لم يكن فيه شيء من الإنسانية:

ـ هن؟.. تناقشون؟.. عصيان!.. عصبة الأشرار! عصبة الخونة! وأمسك كارب من ياقته وقال آخر:

ـ ليشد وثاقه، ليشد وثاقه!

twitter @baghdad_library

رغم أنه لم يكن هناك لتنفيذ هذا الأمر غير لاڤروشكا والباتيتش. مع ذلك فقد أسرع لاڤروشكا وأمسك يديّ الرجل من الخلف وقال:

ـ إن الرفاق عند أسفل المنحدر فهل يجب استدعاؤهم؟

وانتخب الباتيتش اثنين من القرويين خرجا بوداعة من بين الصفوف وشرعا يحلان نطاقيهما بينما صرخ روستوف مجدداً:

ـ أين شيخ البلد؟

خرج درون من بين الجمع، شاحب الوجه، مكتئباً فصاح روستوف آمراً وكأن تنفيذ أمره يجب ألّا يصطدم بأي عائق:

ـ هذا أنت شيخ البلد؟ أشدد وثاقه يا لاڤروشكا!

وبالفعل، فقد حل اثنان آخران من القرويين حزاميهما وراحا يوثقان يدي درون الذي سهل المهمة من جانبه بتقديمه نطاقه الذي حل من حول وسطه.

استأنف روستوف يقول مخاطباً القرويين: أما أنتم، فاصغوا إلي جيداً. منذ هذه اللحظة، إلى الأمام سر! ليمض كل منكم إلى داره وليتجنب التفوه بكلمة!

قالت بعض الأصوات، راح أصحابها يتبادلون الاتهام: لم نرتكب إثماً.. لقد تصرفنا هكذا بغباوة.. لقد قلت إن هذا لن يؤدي بنا إلى أي شيء.

وقال الباتيتش الذي استعاد سلطته فوراً:

ـ لقد أخطرتكم من قبل. إن العمل ليس حميداً أيها الفتيان!

فأجابته أصوات: ماذا تريد يا إياكوڤ الباتيتش، لسنا ماكرين.

وتفرقت الجماعة فوراً بينما تأثر الثملان خطوات السجينين اللذين اقتيدا إلى المنزل.

قال أحدهما لكارب: يا لشكلك الجميل!

وأيد الآخر:

www.Maktbah.com

ـ ماذا دعاك إلى التحدث هكذا إلى الأسياد! إنك أبله يا فتاي، أبله بائس!

وبعد ساعتين، وقفت العربات في الفناء وراح القرويون يرصفون فيها أمتعة سادتهم بحماسة، بينما راح درون الذي أخرج من الغرفة الصغيرة التي سجن فيها بناء على طلب الأميرة، يلقي الأوامر إلى القرويين.

قال أحد الفلاحين، وهو فتى مديد القامة، ذو وجه مستدير باسم، وهو يتلقى صندوقه من يدي إحدى الخادمات:

ـ ضع هذا في مكان جيد. إن مثل هذا الشيء ثمين فلا يجب حشره كيفما اتفق ولا ربطه بقطعة حبل لأن ذلك سيفسده. إن مثل هذه الأساليب الشريفة.. هكذا، أحزم لي هذا كما يجب في القش وغطه بقطعة حصير. هكذا، «مشي الحال».

وقال آخر وهو يفرغ مكتبة الأمير أندريه:

ـ يا لكثرة ما فيها من كتب!.. لا تعترني، هن! آه، كم هي ثقيلة يا فتيان! إن كتباً كهذه عمل رائع..

وقال الفلاح العملاق ذو الوجه المستدير وهو يلقي نظرة الخبير على المعاجم الضخمة:

ـ طبعاً، إن الذين كتبوا هذه الكتب لم يدخروا وسعاً..

لم يشأ روستوف أن يفرض نفسه على الأميرة لذلك لم يعد لرؤيتها بل مكث في القرية حتى لحظة الرحيل. وعندما تحرك الموكب، امتطى جواده ورافق الأميرة حتى أبلغها الطريق الذي تحتله قواتنا على مسافة ثلاثة أميال من بوغوتشاروڤو. وفي نزل إيانكوڤو، سأل باحترام أن تأذن له بالانصراف وسمح لنفسه للمرة الأولى أن يقبل يدها.

قال لماري التي راحت تشكره على إنقاذه حياتها ووجهه متورد: إنك

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تخجلينني. كان باستطاعة أي دركي أن يفعل ما فعلت... لو أننا لم نكن نحارب إلا القرويين لما تركنا العدو يتقدم إلى مثل هذه المسافة.

ثم أضاف في شيء من الارتباك محاولاً أن يقف بالحديث عند ذلك الحد:

ـ على أنني أبارك هذا الحادث الذي سمح لي بالتعرف إليك. وداعاً يا أميرة، أتمنى لك كل سعادة. عسى أن نلتقي في ظروف أقل حزناً. كلا أتوسل إليك، لا تخجليني ولا تشكريني.

لكن الأميرة إذا كفت عن شكره بالكلمات، فإنها ظلت تشكره بتعابير وجهها المشرق بالعرفان والحنان. كانت ترفض أن تصدق أنها غير مدينة إليه بآيات الشكر، وتقول لنفسها: «لو أنه لم يكن هناك، لكنت ضحية القرويين الثائرين والفرنسيين. ولقد تعرض لأخطار رهيبة بديهية بقصد إنقاذي. ليس في ذلك أدنى شك. ثم إنه بلا ريب روح نبيلة: لقد عرف كيف يرثي لألمي فقد اغرورقت عيناه الشديدتا الطيبة والنبل بالدموع في اللحظة التي كنت أبكي عندما حدثته عن أبي المتوفى». ولقد رست هذه الذكرى بعمق في قلب الأميرة ماري.

ولما ودعته وأصبحت وحيدة، شعرت فجأة باستعدادها للبكاء. تساءلت وإن لم تك تلك الفكرة الغريبة قد غزت رأسها لأول مرة: «ترى هل أحبه؟».

ولاحظت دونياشا التي رافقت سيدتها خلال الرحلة إلى موسكو أن الأميرة قد أخرجت رأسها مراراً خلال باب العربة وابتسمت ابتسامة حزينة وسعيدة معاً رغم أن الرحلة لم تكن إلا قليلة المرح.

وعلى الرغم من الخجل الذي شعرت به وهي تعترف بأنها تحب أول رجل لا يبادلها ولا شك عاطفتها بمثلها، فقد كان عزاؤها أن ما من أحد

www.Maktbah.com

سيعلم عن الموضوع شيئاً وأنها لا ترتكب أي خطأ إذا أحبت بصمت وإلى آخر عمرها، ذلك الذي سيكون حبها الأول والوحيد.

واستعرضت أحياناً بعض التفاتات روستوف ونظراته وكلماته فخُيل إليها حينذاك أن السعادة ليست مستحيلة. وكانت دونياشا تلاحظ في مثل تلك اللحظات الابتسامة على شفتي سيدتها وهي تطل من باب المركبة.

راحت ماري تحدث نفسها وهي ترى في كل ذلك إصبع القدر: «كان يجب أن يأتي إلى بوغوتشاروڤو، إنه بينما ذهب للبحث عن العلف اكتشف واحدة من أغنى وارثات روسيا، لم ترقه الدعابة. ذلك لأن فكرة الزواج بتلك الفتاة الرقيقة المحبوبة المالكة ثروة ضخمة قد راودت رأسه في الواقع غير مرة. لم يكن يستطيع أن يتمنى أفضل منها زوجة. إن هذا الزواج قادر على إقرار أوضاع أبيه المالية وإغداق السعادة على قلب والدته وقلب ماري نفسها بدون أي شك. إنه يحس بذلك. نعم، ولكن سونيا، ولكن الوعد الذي صرفه؟ وكانت هذه النقطة الأخيرة هي التي تفسد مزاجه وتزعجه في موضوع الأميرة پولكونسكي.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

تذكر كوتوزوف الأمير أندريه، حين تسلّم قيادة الجيوش، فأرسل يستدعيه إلى القيادة العامة ووصل أندريه إلى تساريـڤو ـ زاييميختيه في اليوم نفسه وفي اللحظة التي كان كوتوزوف يقوم فيها باستعراضه الأول. توقف أمام منزل كاهن القرية حيث وقفت عربة «عظيم الرفعة» ـ وهو اللقب الذي أطلقه الناس كلهم على كوتوزوف، وجلس ينتظره على المقعد الذي يدعم البوابة.

كانت ألحان موسيقى عسكرية تتناوب في الحقول مع هتافات مدوية: هورّا. وعلى مسافة عشر خطوات من أندريه، أخذ تابعان وحاجب وخادم يتنزهون في الهواء الطلق في غياب سيدهم. وأوقف نائب زعيم من الفرسان جواده أمام پولكونسكي وكان قصير القامة، أسمر اللون، ذا شاربين وسالفين طويلين، وسأله عما إذا كان هذا هو منزل «عظيم الرفعة» وما إذا كان يمكن رؤيته بعد حين.

ولما أنبأه أندريه بأنه ليس من أعضاء أركان كوتوزوف وأنه مثله، وصل منذ فترة قصيرة، خاطب الفارس واحداً من التابعين. فأجاب المتظرف بتلك اللهجة الطلقة التي يتصنعها حيال الضباط تابعو الجنرالات: عن ماذا؟ عظيم الرفعة؟ نعم، يعتقد أنه سيكون هنا قريباً. ماذا تريد منه.

ابتسم نائب الزعيم في شاربيه وترجل. وبعد أن أسلم جواده إلى تابع، اقترب من پولكونسكي يحييه تحية خفيفة ففسح له هذا في المكان على المقعد.

www.Maktbah.com

سأله وهو يجلس إلى جانبه: هل تنتظر القائد الأعلى أيضاً؟ يقولون إنه يستقبل كل الناس، وهذا مضجر. لقد كان هذا الأمر مختلفاً مع أكلة النقانق. إن إيرمولوف لم يطلب عبثاً تعيينه «ألمانيا». لنأمل أن يستطيع الروس بعد الآن قول كلمتهم. لم يكن الآخرون يعرفون إلا التقهقر. كفانا تقهقراً على هذا النوع بالألف شيطان!.. هل اشتركت في الحرب؟

أجاب أندريه: لقد حصل لي السرور، ليس بالمساهمة في التراجع فحسب، بل كذلك بفقد وإضاعة أثمن ما كان عندي إضافة إلى أملاكي.. وهو أبي الذي مات من الحزن. إنني من مقاطعة سمولنسك.

أنت الأمير پولكونسكي؟ يسرني أن أتعرف إليك. إنني نائب الزعيم دينيسوف، اشتهرت باسم ڤاسكا.

قال ذلك وهو يضغط على يد أندريه وينظر إليه باهتمام ودي. وتابع بعد فترة صمت: الحقيقة إني علمت.. ها هي ذي إذن حرب ياجوج. إنها جميلة جداً إذا أريد لها ذلك ولكن بالنسبة إلى الذين يقدمون تكاليفها!.. إذن، أنت الأمير أندريه پولكونسكي؟ إنني سعيد يا أمير، سعيد بمعرفتك.

وراح يهز رأسه بابتسامة حزينة وهو يردد هذا القول ومجدداً عاد يضغط على يده.

كان الأمير أندريه يعرف دينيسوف تبعاً لما روته له ناتاشا عن المتقدم الأول لطلب يدها. فأيقظت هذه الذكرى الرقيقة في نفسه المشاعر الموجعة التي كانت هامدة في أعماق قلبه حتى إنه لم يفكر فيها منذ بعض الوقت: لقد أصيب في الأيام الأخيرة بصدمات نفسية أخرى: مغادرة سمولنسك، زيارته لليسيياغوري، النبأ الجديد الذي تلقاه عن وفاة والده، حتى أصبحت تلك الذكريات معدومة أو أقله، لم تعد تهاجمه بمثل تلك القسوة. أما بالنسبة إلى دينيسوف، فإن اسم پولكونسكي أنعش في ذاكرته ذلك الماضي الشاعري

twitter @baghdad_library

البعيد: عاد في ذلك المساء بعد العشاء وأغنية ناتاشا، يبوح بحبه لتلك الصبية البالغة من العمر ١٥ عاماً دون أن يدرك ماذا يفعل.

لكنه بعد أن أقطع هذه الرواية السالفة ابتسامة، عاد فوراً إلى مشاغله الحاضرة الوحيدة، لقد ابتكر وهو يحمي بفرسانه تراجع الجيوش، خطة حربية عرضها على باركلي دوتوللي وأراد الآن أن يعرضها على كوتوزوف. بدا له خط عمليات الفرنسيين شديد الامتداد فكان يجب العمل ضد خطوط مواصلاتهم بدلاً من العمل في الجبهة وقطع الطريق عليهم أو حتى تنفيذ الخطتين معاً. وراح يشرح أفكاره للأمير أندريه:

ـ لن يستطيعوا الصمود على طول هذا الخط. بل إنني، أؤكد إمكان قطعه. أعطني خمسمائة رجل وأقسم بشرفي على أنني سأخترق هذا الخط! إن حرب الأنصار هي الأسلوب الجيد والأوحد!

وبيما راح دينيسوف وهو واقف يشرح خطته العتيدة ويدعمها بإشارات كبيرة من ذراعيه، انطلقت من ساحة العرض هتافات أكثر تبايناً واتساعاً وراحت تختلط بأنغام الموسيقى والغناء، فبلغت مسامعهم. ولم تلبث أن ملأت الجلبة المصحوبة بوطء قوائم الخيل، القرية كلها.

صاح القوقازي القائم بالحراسة عند باب الفناء: ها هو ذا يصل! هذا هو!

وفي تلك الأثناء، وقفت مفرزة من الجنود بالباب. إنها حرس الشرف. واقترب پولكونسكي ودينيسوف فرأيا كوتوزوف يتقدم ممتطياً صهوة جواد صغير باسل، تواكبه حاشية كبيرة من الجنرالات وكان باركلي يواكبه على جواده بمحاذاته تقريباً. بينما أخذت مجموعة من الضباط تجري إلى جانب الموكب وهم يهتفون: هورّا!

تقدم المساعدون العسكريون ودخلوا إلى الفناء وراح كوتوزوف يستحث بنفاذ صبر جواده الذي كان يهملج منحنياً تحت ثقل وزن فارسه،

www.Maktbah.com

وهو لا يني يحني رأسه ويرفع يده إلى عمرته البيضاء الخاصة بالحرس الراكب، وهي عمرة بيضاء ذات حاشية حمراء لا طرف لها. وعندما بات بمحاذاة حرس الشرف المؤلف من نخبة من الجنود البواسل يحمل معظمهم الأوسمة، تأملهم فترة طويلة، وهم يحيونه بالسلاح، بنظرته النافذة كرئيس ثم التفت إلى الذين كانوا يحيطون به. وفجأة اتخذ وجهه طابع الازدراء وهز كتفيه بحركة تدل على الدهشة، ثم قال:

ـ ومع مثل هؤلاء الفتيان لا نكف عن التقهقر!

ثم أضاف وهو يدفع جواده نحو البوابة ويمر منها ماراً بالأمير أندريه ودينيسوف: هيا يا جنرال، إلى اللقاء.

وارتفعت الأصوات من الوراء:

ـ هورّا! هورّا! هورّا!

رأى أندريه أن كوتوزوف أضخم وأثقل وزناً وأكثر ترهلاً مما كان عليه عندما قابله آخر مرة، بينما في المقابل لم تتبدل عنه البيضاء وذلك الجرح الملتئم وتلك المظاهر المنهكة التي كان يعرفها جيداً. وكان يتمنطق بسوطه فوق بزته وقد تدلى إلى سير جلدي رقيق. وكان متهاوياً على ظهر جواده الصغير الباسل يتأرجح بتثاقل ويصفر صفيراً خافتاً خلال أسنانه. أما وجهه، فكان يعكس الرضى عن إمكانية التنعم بقسط من الراحة بعد سخرة تقليدية. سحب ساقه اليسرى من الركاب ومررها فوق السرج بحركة دائرية من كل جسمه وقد قطب استجابة للمجهود وانطوى على ركبته ثم تهاوى وهو يزمجر بين أذرع القوقازيين والمساعدين العسكريين الذين أخذوا يسندونه.

ومجدداً، انتصب وأجال حوله الطرف بعينيه نصف المغمضتين وتصفح وجه الأمير أندريه دون أن يعرفه ثم اتجه نحو المرقاة بمشيته النازلة وعاد من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

جديد إلى الصفير وهو يتأمل الأمير أندريه. وكما يقع عادة للعُجّز، اقتضاه بضع ثوان حتى استطاع أن يضع اسماً لذلك الوجه. قال:

ـ آه! مرحباً يا أمير، مرحباً يا عزيزي. هيا بنا..

واجتاز بخطواته الثقيلة درجات المرقاة التي تطقطق تحت ثقل وزنه.

حل أزراره وجلس على مقعد عند أعلى المرقاة.

ـ حسناً! وأبوك؟

أجاب أندريه بإيجاز:

ـ لقد تلقيت أمس نبأ وفاته.

تأمله كوتوزوف بعينين مروعتين ثم رفع عمرته ورسم إشارة الصليب.

ـ ليتغمد الله روحه! لتكن مشيئته نافذة فينا جميعاً!

ثم أطلق زفرة عميقة واستأنف بعد فترة صمت:

ـ كنت أحبه وأقدره وأنا أرثي من كل قلبي لمصابك.

وفتح ذراعيه للأمير أندريه وضمه إلى صدره العريض حيث أبقاه طويلاً، ولما تركه أخيراً، رأى أندريه أن شفتيه المنتفختين ترتجفان وأن عينيه مبللتان بالدموع، وبعد زفرة جديدة، أسند كلتا يديه إلى المقعد لينهض وقال: أدخل، سوف نتحدث...

إلا أن دينيسوف في تلك اللحظة، وهو قليل الرهبة أمام رؤسائه كما هي حاله أمام أعدائه، أبعد عنه المساعدين العسكريين الذين كانوا يحاولون بصوت خفيض غاضب استبقاءه عند أسفل المرقاة، وارتقى الدرجات يرن بمهمازيه، فنظر إليه كوتوزوف باستياء ويداه لا تزالان متكئتين على المقعد، أعلن كوتوزوف اسمه وقال إنه يحدث سموه حديثاً على جانب عظيم من الأهمية يتعلق بسلامة الوطن، فعقد كوتوزوف يديه على بطنه بحركة منقادة وهو لا يزال يتصفح وجهه بعينيه المنهكتين وقال مكرراً: «لسلامة الوطن؟

www.Maktbah.com

هيا، ما هو الموضوع؟ تكلم». احمر وجه كوتوزوف وكأنه فتاة، وكان من الغريب أن يحمر هذا الوجه العجوز، وجه مدمن ذو شاربين، ثم عرض بجرأة خطة قطع خطوط اتصال العدو بين سمولنسك وڤيازما، وهي المنطقة التي يعرفها جيداً لأنه كان يسكن فيها، وكانت تلك الخطة ممتازة إذا حكمنا أقله على قوة الإيمان التي أفعم بها كلماته، وكان كوتوزوف حينذاك قد أخذ يحدق إلى قدميه وينقل نظرته من حين إلى آخر إلى الكوخ الخشبي القريب وكأنه يتوقع أن يظهر منه شيء ما مزعج، والواقع أن جنرالاً خرج من الكوخ المجاور يحمل تحت إبطه محفظة، عندما بلغ دينيسوف أفضل نقطة من الموضوع الذي كان يشرحه.

قال كوتوزوف: كيف! هل أصبحت مستعداً؟

فأجاب الجنرال: نعم يا صاحب السمو.

هز كوتوزوف رأسه وكأنه يقول: «كيف توصل رجل واحد إلى صنع كل هذا؟» ثم أصغى مجدداً إلى شرح الضابط الروسي، وختم هذا حديثه بقوله:

ـ سوف أدمر مواصلات نابليون، وإنني أقسم على ذلك بشرفي كضابط روسي.

سأله كوتوزوف:

ـ هل سيريل أدييـڤيتش دينيسوف، الأمين العام، قريبك؟

ـ إنه عمي يا صاحب السمو.

أجاب الجنرال القائد الأعلى ببشاشة: آه! لقد كنا صديقين، حسناً يا عزيزي، إبق هنا في الأركان، وسوف نتحدث غداً عن كل هذا.

وصرفه بإشارة من رأسه ثم مد يده إلى الأوراق التي حملها له كونوڤيتسين الجنرال المنوب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال هذا بلهجة استياء: هل تتفضلون سموكم بالدخول؟ هناك مخططات قيد الدرس وأوراق قيد التوقيع.

برز مساعد عسكري من ناحية المنزل وقال إن كل شيء حاضر، لكن كوتوزوف، بدون شك، لم يكن يريد الدخول إلا بعد أن يتخلص من كل عمل، قطب حاجبيه: كلا يا عزيزي، مر بإحضار طاولة سوف أتفحص هذه الأوراق هنا..

ثم تابع مخاطباً الأمير أندريه: لا تذهب.

فبقي هذا على المرقاة يصيخ السمع إلى تقرير الجنرال المنوب، لكنه لم يلبث أن اجتذبه همس صوت مؤنث وحفيف ثوب من الحرير، وبعد أن التفت عدة مرات إلى الناحية التي صدر عنها الصوت، انتهى به الأمر إلى رؤية امرأة جميلة متينة البنية بثوب وردي ودثار خبازي اللون، تبدو خلال الباب الموارب حاملة طبقاً في يدها وكأنها تنتظر القائد الأعلى، ولقد فسر المساعد العسكري للأمير أندريه أنها ربة المنزل، زوجة الكاهن، التي كانت تستعد لتقديم الخبز والملح لسعادته، ولقد استقبل الزوج عظيم الرفعة في الكنيسة والصليب في يده، أما الآن، فإن المرأة تريد استقباله في المنزل، وأضاف باسماً: «إنها ليست رديئة أبداً». وعند هذه الكلمات، أدار كوتوزوف رأسه، كان يصغي إلى الجنرال الذي أخذ يشرح له بصورة خاصة النقاط الضعيفة في مركز تساريــڤو ـ زاييميختشيه، كما أصغى إلى دينيسوف وكما أصغى منذ سبع سنوات إلى النقاش في المجلس الاستشاري العسكري في أوسترليتز، وكان يُرى أنه ليس مصغياً إلا لأنه كان يملك أذنين لا تستطيعان رغم المشاقة ـ وهو علاج شعبي لآلام الأسنان ـ إلا أن تسمعا، ولم يكن هناك شيء مما يعرضه عليه ذلك الجنرال قادر على إثارة دهشته أو إثارة اهتمامه، كان يعرف

www.Maktbah.com

مسبقاً كل ما يمكن أن يقولوه له فكان يصغي إلى أقوالهم بحكم الواجب كما يصغي المرء إلى قداس رباني حتى النهاية.

كانت خطة دينيسوف بارعة ورصينة وكذلك كان تقرير الجنرال أكثر رصانة، لكن كوتوزوف بدون شك كان يمقت المعرفة والذكاء ويعرف أن المسألة ستحسم بشيء آخر، لا علاقة لها بالعلم ولا بالذكاء، وكان الأمير أندريه يتفحص بعناية وجه القائد الأعلى فكان التعبير الوحيد الذي استطاع أن يقرأه عليه هو الملل ثم الفضول الذي أيقظه الهمس النسوي خلف الباب الذي ضبطته الرغبة في التقيد بالمجاملات، وإذا كان كوتوزوف يزدري العلم والذكاء حتى الشعور الوطني الذي برهن عليه دينيسوف منذ حين، فليس مرد ذلك ذكاؤه هو أو علمه أو وطنيته التي يحاول حتى التظاهر بها، بل عمره وتجاربه، وكان التدبير الوحيد الذي اتخذه إثر ذلك التقرير يتعلق بعادة السلب لدى القطعات، ولما قدم له الجنرال أمراً إدارياً ينص على اعتبار قادة القطعات مسؤولين عن الأضرار التي يسببها رجالهم للتوقيع عليه، وكان ذلك بناء على طلب أحد الملاكين الذي احتصدوا زرعه وهو لا يزال أخضر، هز كوتوزوف رأسه وقال وهو يسطع بلسانه:

ـ إلى النار! إلى الموقد! أقول لك للمرة الأخيرة يا عزيزي: كل هذه الأمور إلى النار! ليحصدوا قمحاً وليحرقوا خشباً ما شاؤوا! إنني لا آمر به ولا أجيزه لكنني كذلك لا أرغم أحداً، إنه أمر لا يمكن تجنبه، لا يستطيع المرء أن يحضر العجة دون أن يكسر البيض..

ثم اختتم قوله بعد أن ألقى نظرة أخيرة على الورقة وهز رأسه مجدداً: ها هي ذي دقتهم الألمانية!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

هيّا بنا. انتهينا! قال كوتوزوف عند توقيعه آخر ورقة، ونهض بجدّ وهو يبسط تجعدات عنقه الأبيض السمين واتجه نحو الباب بوجه مرح.

احمرّ وجه زوجة الكاهن من الانفعال وأمسكت بالطبق بسرعة، لكنها رغم استعداداتها الطويلة لم تتمكن من تقديمه في الوقت المناسب، انحنت انحناءة عميقة وقدمته إلى كوتوزوف فأغمض هذا عينيه نصف إغماضة وابتسم ثم قال وهو يمسك ذقنها: كم هي جميلة! شكراً يا فاتنتي.

وأخرج من جيب سرواله بعض القطع الذهبية وضعها على الطبق ثم سألها وهو يتجه إلى الغرفة المعدة له: آمل أن تكون صحتك جيدة؟

فتبعته امرأة الكاهن وهي تبتسم حتى ظهرت كل غمازاتها. وجاء المساعد العسكري إلى المرقاة يدعو الأمير أندريه إلى الطعام. وبعد نصف ساعة، استدعي مرة أخرى للمثول لدى القائد العام. كان كوتوزوف ممدداً على كنبة في بزته تلك محلولة الأزرار وكان يمسك بيده كتاباً فرنسياً أغلقه لدى وصول الأمير بعد أن أشار إلى الصفحة بسكين المكتب. كان الكتاب لمدام دوجنليس[١] بعنوان فرسان الأردف (Les Chevaliers Cygne) حسب ما تمكن أن يلمح على الغلاف.

قال كوتوزوف:

---

(١) مدام ستيفاني دوجنليس، مربية أولاد الدوق دورليان... لها مؤلفات في التربية. (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ هيا، اجلس، اجلس هنا ولنتحدث. آه! هذا محزن، محزن جداً. ولكن لا تنسَ يا صديقي أنني لك أب، أب ثان.

روى له أندريه كل ما كان يعرفه عن لحظات أبيه الأخيرة وكل ما رآه عند مروره بليسيياغوري. وفجأة قال كوتوزوف الذي بيّنت له قصة الأمير آفاقاً شديدة الوضوح عن موقف روسيا، بصوت متأثر:

ـ هذا هو الدرك الذي قادونا إليه!

ثم أضاف بلهجة ثائرة: ولكن صبراً! صبراً!

وقال وهو راغب في الاستمرار في محادثة تقلق راحته: لقد استدعيتك لأستقبيك بالقرب مني.

فأجاب الأمير أندريه مبتسماً:

ـ أشكر سموك. لكنني أخشى ألّا أكون قادراً على ملء مركز في الأركان.

استفسره كوتوزوف بنظره حين لم تخف عليه ابتسامته، فاستأنف أندريه قائلاً:

ـ ثم إنني تأقلمت مع فوجي وأحب ضباطي وأعتقد أن رجالي يحبونني بالمثل حتى أنني أجد صعوبة بالافتراق عنهم. وإذا كنت أرفض شرف البقاء بقربك فأرجو أن تصدق..

أضاءت وجه كوتوزوف المنتفخ ومضة من الرفق مشوبة بالسخرية وقال مقاطعاً بولكونسكي:

ـ أنا آسف. كنت ستغدو ذا نفع لي، لكنك على حق، إنك على حق. إننا لسنا بحاجة إلى الرجال هنا؟ إن الناصحين كثر في كل وقت لكن ينقصنا الرجال الحقيقيون. لم تكن الأفواج لتكون على ما هي عليه لو أن كل الناصحين خدموا فيها كما تخدم. إنني أذكر أوسترليتز وما زلت أراك والعلم في يدك.

احمرّ وجه الأمير أندريه فرحاً لهذه الذكرى. جذبه كوتوزوف من ذراعه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وقدم له وجنته، فرأى الأمير أندريه أن عينيه قد اخضلتا مجدداً. كان يعرف أن دمع العجوز مطواع وأنه يتظاهر بهذا التودد الخاص لأنه يريد أن يبرهن على مشاركته له في حزنه. مع ذلك، فإن تذكيره لسلوكه في أوسترليتز سره وأرضاه. استأنف كوتوزوف القول:

ـ اتبع الطريق التي رسمها لك الله. إنني أعرف أنها طريق الشرف.

ثم أضاف بعد فترة صمت: لقد افتقدتك كثيراً في بوخارست إذ لم يكن لدي أحد أعهد إليه بمهامي.

ثم أبدل الحديث وراح يتكلم عن حملة تركيا: كم وجّهوا اللوم إليّ على سير الحرب وعقد الصلح! مع ذلك فإن المشكلة قد انتهت نهاية طيبة وفي الوقت المناسب. إن كل شيء يتم على ما يرام بالنسبة إلى من يحسن الانتظار.

واسترسل ملحاً على موضوع بدا يثقل قلبه:

ـ هل تعلم أن الناصحين هناك لم يكونوا أقل عدداً مما هم عليه هنا. آه! من الناصحين؛ الناصحين! ولو أصغينا إليهم جميعاً لما وضعنا حداً للحرب ولما عقدنا الصلح! تبعاً لأقوالهم، كان يجب العمل بسرعة. لكن العمل بسرعة يعني غالباً الإطالة. ولو لم يمت كامنسكي لضاع ما في ذلك ريب. كان في حاجة إلى ثلاثين ألف رجل ليحتل الحصون. يا له من عمل مجيد، احتلال حصن! إن الصعب هو ربح المعركة. ومن أجل ذلك، لا حاجة إطلاقاً إلى الهجوم ولا احتلال ما يحاصر، بل إن الصبر والوقت هما كل ما يلزم. لقد أطلق كامنسكي جنوده على روستشرك. أما أنا، فقد احتلّيت أكثر مما احتل كامنسكي من معاقل باللجوء إلى الصبر والوقت وجعلت الأتراك يأكلون لحم الجياد.

وتابع وهو يهز رأسه ويطرق صدره باحتداد: وصدقني أنني سأطعم الفرنسيين مثل ذلك.

www.Maktbah.com

ثم اغرورقت عيناه بالدموع مجدداً. فقال أندريه:

ـ مع ذلك، يجب الالتحام في معركة؟

ـ بدون شك، إذا كانوا جميعاً يرغبون في ذلك.. ولكن، صدقني يا عزيزي أن ما من شيء يساوي هذين الجنديين: الصبر والوقت. إنهما اثنان يستطيعان أن يفعلا كل شيء. لكن الناصحين لا يتقبلون هذا الرأي وهذا هو السوء. إن بعضهم يريد وبعضهم لا يريد. وإذن، ماذا يجب أن نفعل؟

وتوقف منتظراً جواباً ثم قال بإلحاح وقد التمعت عيناه ببريق من الذكاء عميق: قل لي ماذا كنت تفعل أنت؟ هيا.

ولما لم يجب أندريه، استرسل يقول:

ـ حسناً، سأقول لك ما يجب أن تفعل. سأقول لك ماذا يجب عمله وما أقوم به أنا.

ثم قال وهو يتمهل بين كل كلمة: عند الشك يا عزيزي، تريث. هيا يا صديقي، الوداع. تذكر أنني أشاطرك حزنك من كل قلبي وأنني لست بالنسبة إليك لا «عظيم الرفعة» ولا أميراً ولا جنرالاً قائداً أعلى. اعتبرني كأب. وإذا كنت في حاجة إلى شيء ما، فاتصل بي مباشرة. الوداع يا عزيزي.

عانقه مرة أخرى. لكن الأمير أندريه لم يكن قد تجاوز الباب بعد عندما أطلق كوتوزوف تنهُّده راحة واستعاد كتابه «فرسان الأردف» يقرأ فيه.

ودون أن يعرف السبب تماماً، رجع أندريه إلى فوجه بعد تلك المقابلة وهو شديد الاطمئنان إلى سير الأمور العام، واثق بالذي يديرها كان يمكن القول إن هذا العجوز لا يحتفظ إلا بعادات عاطفية وإن الذكاء الذي يميل إلى جمع الحوادث لاستخلاص النتائج منها يستعاض عنه لديه بالقدرة البسيطة على تأمل الأحداث بكل إشراق فكري. وكلما ازداد أندريه في ملاحظة غياب الشخصية عنده ازداد اطمئناناً إلى أن كل شيء سيسير على أكمل وجه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان يحدث نفسه قائلاً: «إنه لن يبتكر شيئاً ولن يبدأ بشيء لكنه سوف يصغي وسيذكر وسيضع كل شيء في مكانه فلن يمنع شيئاً مفيداً ولن يسمح بشيء مؤذٍ. إنه يدرك أن هناك شيئاً أكثر قوة وأبعد أثراً من إرادته الشخصية وهو سير الأحداث الذي لا يقاوم. إن له موهبة ويعرف بالتالي كيف يتجرد عن إرادته الشخصية ليوجهها نحو هدف آخر كي لا يدعها تتدخل في الأمور. لكنه يوحي بالاطمئنان لأن المرء يشعر بأنه روسي حقاً رغم قراءته مؤلفات مدام دو جنليس واستعماله الأمثلة الفرنسية لأن صوته كان يرتجف وهو يقول: «هذا هو الدرك الذي قادونا إليه!» ولأنه كان يجهش بالبكاء وهو يؤكد أنه سوف يطعمهم «لحم الجياد».

كان هذا الشعور، الذي أحسّ به الجميع بشكل يختلف في الوضوح والإبهام، هو الذي قاد إلى الموافقة العامة الإجماعية التي أعقبت الانتقاء القومي لكوتوزوف كقائد أعلى، وهو الانتقاء الذي جعل دسائس البلاط تمنى بالإخفاق.

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

عادت الحياة إلى سياقها المألوف بعد أن غادر الأمبراطور موسكو، حتى أصبح متعذراً إدراك حماسة الأيام الأخيرة والاعتقاد بأن روسيا تتعرض حقاً للخطر وأن أعضاء النادي الإنجليزي يمكن أن يكونوا هم كذلك وطنيين مستعدين لكل التضحيات. وكان الشيء الوحيد الذي يذكر بذلك التحمس القريب هو تغطية الهبات بالرجال والمال تلك الهبات التي لم تلبث بعد إقرارها أن اتخذت صفة مشروعة يتعذر تبديلها.

لم يجعل اقتراب العدو من الموسكوفيين أكثر جدية بل على العكس. لقد ارتفع صوتان في أعماق النفوس متماثلان بالقوة، كما يحدث عادة أمام مصيبة فادحة. يوحي الصوت الأول بحكمة أن ينتبه إلى الخطر القريب وأن يصار إلى البحث عن الوسائل التي تنجي منه. ويقول الصوت الثاني، بأكثر حكمة إن من التألم جداً التفكير في الخطر وإن الإنسان لا يمكن أن يعرف الخطر قبل حدوثه ولا أن يفلت من سير الأحداث وأن من الأفضل إبعاد كل تفكير منغص أمام الأمر الواقع. والرجل في حالة الوحدة، يطيع الصوت الأول بوجه عام. لكنه في المجتمع على العكس، يخضع للثاني. وهذا هو السبب الذي جعل الموسكوفيين ينعمون تلك السنة بمتعة التسلية أكثر من أي وقت مضى.

كانت إعلانات روستوبتشين تحمل في وسطها صورة متجر للمشروبات وخمّار وسيد من أهالي موسكو هو كاربوشكا تشيغيرين «الذي كان قد

twitter @baghdad_library

تطوع في إعداد المجندين، فسمع إثر إفراطه قليلاً في الشراب أن بونابرت يريد الذهاب إلى موسكو فغضب ونعت الفرنسيين بشتى الأسماء ثم خرج من متجره ووجه إلى الشعب، تحت الأعلام، خطاباً». فكانوا يقرأون هذه الإعلانات ويشرحونها على طريقة آخر تشجيع لـڤاسيلي لـڤوڤيتش بوشكين.

كانوا يقرأونها في النادي في القاعة المنزوية، فكان بعضهم يجد طريقة كاربوشكا في السخرية بالفرنسيين مسلية. فهم، حسب قوله، «سينفقون لأنهم أكلوا كثيراً من البرغل وسيختنقون من سوء هضم ناجم عن حساء الملفوف وأن أية قروية روسية تستطيع بضربة منجل واحدة أن تقطع ثلاثة منهم دفعة واحدة نظراً إلى صغر حجمهم المضحك». والبعض الآخر كانوا على العكس ينتقدون هذا الأسلوب الذي يجدونه سخيفاً. ويروى أن روستوبتشين نفى الفرنسيين من موسكو وكذلك الأجانب كلهم الذين كان بينهم عدد من الجواسيس ومن رجال ناپليون وأن الحاكم بهذه المناسبة قد وجه كلمة طيبة إلى هؤلاء التعساء الذين كانوا ينقلونهم عن طريق النهر إلى نيجني إذ قال: «فكروا وادخلوا القارب ولا تجعلوه كارون»(١).

وكانوا يروون أن الإدارات كلها قد غادرت المدينة ويضيفون بالمناسبة كلمة شينشين الذي زعم أن هذه الواقعة نفسها تستحق أن تشكر عليها موسكو كلها ناپليون ويروون أن فوج مامونوف وحده يكلفه أكثر من ثمانمائة ألف روبل وأن بيزوخوف أنفق أكثر من هذا المبلغ على فوجه. وإن بيزوخوف هذا، وهذا أمر يلفت الانتباه أكثر من سواه، يقيم على رأس رجاله في البزة الرسمية يعرض نفسه مجاناً على كل الراغبين في رؤيته.

راحت جولي دروپتسكوي تقول حول هذا الموضوع وهي تضغط بين

(١) ربان الجحيم، يوصل إلى نهر ستيكس أرواح الموتى لقاء كوپيك. (المترجم).

www.Maktbah.com

أصابعها النحيفة المغطاة بالخواتم رزمة من النسيل في الحفلة الوداعية التي أقامتها بسبب سفرها إلى نيجني في اليوم التالي:

ـ لا تصفح عن أحد، إن بيزوخوف مضحك لكنه طيّب ولطيف للغاية. أية متعة في أن تكون هجاء لاذعاً إلى هذا الحد؟

وأضاف شاب في بزة المتطوعين كانت جولي تدعوه «فارسي» وكان سيصحبها إلى نيجني: غرامة!

قرروا في قاعة استقبال جولي كما في كثير من الأبهاء الأخرى أن يقتصروا في الحديث على اللغة الروسية وأن كل من يخالف هذا التعهد يتعرض لدفع غرامة لمصلحة لجنة الإنقاذ.

وقال رجل أديب كان هناك أيضاً: وغرامة ثانية للاصطلاح. «أية متعة في أن تكون..» ليس تعبيراً روسياً.

عادت جولي تقول مخاطبة المتطوع:

ـ إنك لا توفر أحداً. سوف أدفع من أجل كلمة «هجاء» وإنني مستعدة كذلك للدفع رغبة مني في أن أقول لك الحقيقة.

وأضافت وهي تلتفت إلى الأديب: أما عن الاصطلاحات، فأنا لست مسؤولة. وليس لدي الوقت ولا المال لاتخاذ مدرس كالأمير پوليتسين لأتقن الروسية.. هه هذا هو. عندما..

(وتوقفت مستدركة لأنها كادت تذكر المثل الفرنسي: عندما يتحدثون عن الذئب يجدون ذيله على الفور)، وقالت للمتطوع: لا، لا، لن تضبطني مرة أخرى. عندما يتحدثون عن الشمس يرون أشعتها.

ووجهت إلى پيار الذي كان يدخل في تلك اللحظة، ابتسامة رقيقة وقالت مؤكدة بالسهولة التي يبرع النساء فيها عند الكذب:

twitter @baghdad_library

ـ كنا نتحدث عنك منذ لحظات وكنا نقول إن فوجك سيتفوق على فوج ماموئوف.

قال پيار الذي بعد أن قبّل يد ربة البيت، جلس إلى جوارها:

ـ لا تحدثيني عن فوجي! ليتك تعلمين مبلغ نصيبي منه!

قالت جولي وهي ترسل إلى المتطوع ابتسامة مكر خبيثة:

ـ لا بد وأنك ستقود فوجك بنفسك؟

إلا أن المتطوع الذي توقّف منذ وصول پيار عن أن يكون «هجاء لاذعاً» لم يبادر إلى نجدتها. ذلك أن شخصية بيزوخوف رغم براءة مظهره، كانت تقضي بحزم على كل محاولة استهزاء في حضرته.

قال پيار ضاحكاً وهو يحيط شخصه الثقيل بنظرة ساخرة: أوه! كلا! سوف أكون هدفاً رائعاً للفرنسيين. ثم إنني ألا أستطيع امتطاء صهوة جواد.

وبعد أن تحدث المدعوون عن هؤلاء وأولئك من الناس: دارت أحاديثهم حول آل روستوف. قالت جولي: يبدو أن أوضاعهم في حالة سيئة جداً. ثم إن الكونت قليل الروية. لقد أراد آل رازوموڤسكي شراء نزلهم وبيتهم الريفي ولا تزال القضية في أخذ ورد. إنه يتطلب ثمناً باهظاً.

وتدخل أحدهم: مع أنني سمعت أن البيع سيتم في هذه الأيام الأخيرة. أليس من الجنون شراء شيء ما في موسكو الآن؟

قالت جولي: ولماذا؟ هل تفكر أن موسكو في خطر حقاً؟

لولا ذلك، لماذا ترحلين؟

ـ أنا؟ يا له من سؤال مضحك! إنني أرحل لأن.. ولكن لأن الناس كلهم يرحلون. وكذلك لأنني لست جان دارك ولا أمازونية[1]

---

(١) امرأة محاربة في الأساطير الأمازونية. (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ نعم، بالطبع.. أعطني قطعة خرقة أخرى.

وقال المتطوع الذي ما زال يتحدث عن آل روستوف:

ـ لو أنه عرف كيف يتصرف، فإنه سيسدد ديونه كلها.

ـ أجل، إنه رجل باسل ولكنه فقير جداً. ثم ما الذي يبعثهم هنا كل هذا الوقت؟ منذ زمن طويل وهم يريدون العودة إلى الريف. لقد استعادت ناتاشا صحتها على ما أعتقد أليس كذلك؟

كان هذا السؤال موجهاً إلى پيار ومشفوعاً بابتسامة ساخرة. فقال:

ـ إنهم ينتظرون ابنهم الأصغر الذي تطوع في مفرزة قوقازيين أبولنسكي وأرسل إلى بيلاييا تسيركوف حيث يتم تشكيل الفوج، فنقله ذووه إلى فوجي وهم ينتظرون عودته من يوم إلى آخر. إن الكونت يرغب في الذهاب منذ أمد طويل، لكن الكونتيسة ترفض بأي ثمن مغادرة العاصمة قبل رؤية ابنها.

ـ لقد قابلتهم أول أمس لدى آل أرخاروف. لقد ازدادت ناتاشا جمالاً وصفا مزاجها ولقد أنشدت قصيدة مؤثرة. كم يُنسى كل شيء بسرعة لدى بعض الناس!

سأل پيار بلهجة جافة: ما الذي ينسى بسرعة؟

فطافت على شفتي جولي ابتسامة: هل تعرف يا كونت أن فارساً مثلك لا يرى الإنسان مثله في هذه الأيام إلا في روايات مدام دوسوزا؟

سأل پيار وقد احمرّ وجهه:

ـ أي فرسان؟ ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ هيا أيها الكونت العزيز. لا تتظاهر بالدهشة. «إنها أقصوصة موسكو كلها. إنني معجبة بك وأقسم بشرفي».

فقال المتطوع: غرامة! غرامة!

twitter @baghdad_library

ـ ليكن!.. لم نعد نستطيع التكلم، وهذا ينتهي بنا إلى التضجر!

كان پيار قد وقف فقال في غير لطف:

ـ ما هو الذي أقصوصة موسكو كلها!

ـ ولكن يا كونت، لكأنك لا تعرف!

ـ لست أعرف شيئاً مطلقاً.

ـ وأنا أعرف أنك مع ناتاشا على أتم وفاق ومن ثم... إنني فيما يتعلق بي كنت دائماً على أوثق ألفة مع ڤيرا، ڤيرا العزيزة تلك..

استرسل پيار وهو لا يزال ساخطاً:

ـ كلا يا سيدتي، إنني لست الفارس التابع للآنسة روستوف وإنني منذ أكثر من شهر لم تطأ قدمي بيتهم. لكنني لا أفهم هذه الفظاظة..

قاطعته جولي وهي تبتسم: من يعتذر يعترف بخطأه.

ثم بادرت إلى تحويل دفة الحديث بغية الاحتفاظ بالكلمة الأخيرة لنفسها فقالت: هل تعلم ماذا بلغني منذ حين؟ لقد وصلت ماري پولكونسكي المسكينة أمس. هل تعرف أنها فقدت أباها؟

قال پيار: صحيح؟ وأين هي؟ كم أتوق إلى رؤيتها!

ـ لقد أمضيت السهرة معها. لسوف تذهب اليوم أو غداً مع ابن أخيها إلى أملاكهم في الضاحية.

ـ آه! وكيف حالها؟

ـ بين بين. بل إنها أميل إلى الحزن. ولكن هل تعلم لمن تدين بحياتها؟ إنها رواية كاملة. لنيكولا روستوف. كانوا محيطين بها يريدون قتلها بل إنهم أصابوا رجالها بجراح.. لكنه أسرع هو وأنقذها..

قال المتطوع:

www.Maktbah.com

ـ رواية جديدة. لا شك أن هذا الفرار العام لمن يستطيع الفرار قد ابتكر على ما يبدو بهدف تزويج العانسات. كاتيش أولاً ثم ها هي ذي الأميرة بولكونسكي.

ـ أتدري، أظنها «مغرمة قليلاً بالفتى».

ـ غرام! مغرمة! مغرمة!

ـ ولكن كيف أقول هذا بالروسية؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

قدّموا إلى پيار عندما عاد إلى منزله إعلانين لروستوبتشين وصلا أخيراً، في الأول، يؤكد الحاكم أنه بعكس ما أشيع من أنه منع مغادرة المدينة، وسيكون سعيداً إذا شاهد نساء الأشراف وطبقة التجار يغادرون موسكو. وكان يزعم «أنهن بذلك سيتعرضن لخوف أقل وسيثرثرن أقل. لكن الأثيم لن يأتي إلى موسكو وأنا أراهن برأسي على ذلك». فلما قرأ هذه الكلمات، رأى پيار بوضوح لأول مرة أن الفرنسيين سيدخلون موسكو. أما الإعلان الثاني، فكان يقول إن قيادتنا العامة موجودة في ڤازما وإن الكونت ويتجنشتاين قد هزم الفرنسيين. مع ذلك، ولما كان عدد كبير من السكان يرغبون في التسلح، فإنهم وجدوا بسعر جيد سيوفاً وبنادق ومسدسات في مستودع الذخائر. لم تعد لهجة الإعلانين هزلية كتلك التي عُزيت إلى تشجيرين في أقواله مما دعا پيار إلى التفكير. أدرك أن كل هذه الجحافل الرهيبة من العاصفة التي كان يدعوها من كل جوارحه والتي كانت تسبب له خوفاً غير إرادي في الوقت نفسه، ناشطة في سيرها.

أخذ يتساءل للمرة المائة: «هل يجب أن ألتحق بالجيش المحارب أم على العكس أن أنتظر الأحداث؟» أمسك بورق لعب كان متروكاً على الطاولة وراح «يبصّر». حدث نفسه بعد أن خلط الورق ورفع عينيه إلى السماء: «إذا «فتح الفال» كان معنى ذلك.. ماذا سيكون معنى ذلك؟..».

www.Maktbah.com

وقبل أن يجد الجواب، ارتفع صوت عند الباب يسأل عما إذا كان يمكن الدخول.

قرر پيار: «سيكون معنى ذلك أنه يجب أن ألتحق بالجندية» ثم صاح:

ـ أدخل، أدخل.

كانت الداخلة هي كبرى الأميرات، تلك التي كانت مشيقة القامة، جامدة الوجه، الوحيدة التي بقيت تسكن نزل بيزوخوف لأن الاثنتين الأخريين كانتا قد تزوجتا.

قالت بصوت مضطرب وبلهجة فيها لوم: أعذرني يا ابن عمي لمجيئي إليك. ولكن، لقد حان الوقت لاتخاذ قرار. إن الناس جميعهم غادروا موسكو والشعب بدأ يتمرد.. فماذا ننتظر إذن؟

أجاب پيار هازلاً: ولكن على العكس يا ابنة عمي. إن كل شيء يبدو لي على أفضل وجه.

كانت تلك طريقته في إخفاء الارتباك الذي يوقعه فيه دائماً دوره كمحسن.

ـ جميل جداً! من أين جئت بهذا الخبر؟ لقد روت لي فرفارا إيـڤانوڤنا منذ حين بطولات جنودنا: إن ذلك يشرفهم شرفاً عظيماً حقاً!.. ثم إن الشعب يتصرف على هواه. ما من أحد بات يقبل الإطاعة حتى أن خادمتي نفسها تحدثني بالغلاظات. سوف يضربوننا بعد حين. لم يعد المرء يستطيع وضع قدمه خارج منزله.. لكن أخطر ما في الأمر هو أن الفرنسيين سيكونون هنا اليوم أو غداً.. ماذا ننتظر بالله؟ أرجوك يا ابن عمي، أصدر أمراً بنقلي إلى پيترسبورغ لن أستطيع، مهما بلغت من تفاهة القيمة، أن أعيش تحت نير بوناپرت.

ـ ماذا تقولين يا ابنة عمي؟ من أين تستقين معلوماتك؟ على العكس..

ـ إنني لن أخضع لناپليونك. أما الآخرون، فهذا شأنهم.. وإذا كنت لا تريد الموافقة على ما أسأله منك...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ ولكن بكل تأكيد. سوف أعطي أوامر فوراً.

تهالكت الأميرة على كرسي وقد أغاظها أن لم تعد تجد من تعاتبه وراحت تهمهم بينما استرسل پيار:

ـ إنهم ينقلون إليك معلومات خاطئة. إن كل شيء هادئ في المدينة ولسنا نتعرض لأي خطر. أنظري ماذا كنت أقرأ، وأظهرها على الإعلانين، إن الكونت يقول إن العدو لن يدخل موسكو ويقدم حياته ضمانة لذلك.

أجابت الأميرة بغضب:

ـ آه! كونتك هذا! إنه منافق، إنه أثيم دفع الشعب بنفسه إلى التمرد! ألم يوعز في إعلاناته المنافية هذا أن يمسك بالناس من شعورهم دون استثناء وأن يؤخذوا إلى المخفر، هذا شديد الغباوة! ثم إنه يعد بالمجد والشرف كل من يتصرف على هذا النحو. هل تريد معرفة نتائج هذه الممالقات؟ لقد قالت فارفارا إيڤانوڤنا إنهم كادوا يقتلونها في الشارع لأنها كانت تتكلم بالفرنسية.

قال پيار وهو يفتح «فاله»:

ـ هيا، هيا، إنك تحملين كل شيء على محمل الجد.

على الرغم من أن «الفال» قد «فتح» فإن پيار لم يلتحق بالجيش بل بقي في موسكو التي بدأت تخلو من السكان وهو فريسة ذلك الشك المحموم، ينتظر بقلق ممزوج بالسرور وقوع حدث رهيب ما.

رحلت الأميرة، في مساء اليوم التالي، وجاء المسجل العام يعلن لـپيار أنه يتعذر تغطية نفقات تجهيز الفوج الضرورية اللازمة إلا إذا عمد إلى بيع أحد الأملاك وألمح إلى أن كل هذه الأهواء سوف تؤدي به إلى الدمار. فأصغى إليه پيار بابتسامة لم يحسن إخفاءها ثم قال:

ـ بع رغم ذلك. ما العمل؟ لا أستطيع الرجوع عن وعد قطعته!

بدأت أعماله الشخصية تسوء وأخذ الموقف العام يكفهر وپيار يتلقى

www.Maktbah.com

هذه الأنباء ببهجة متزايدة لأنها كانت تؤكد له قرب النكبة التي ينتظرها. ولقد غادر كل معارفه موسكو تقريباً وذهبت جولي والأميرة ماري أيضاً، ولم يبق إلا آل روستوف الذين لم يعد پيار يزورهم.

ذهب ذلك اليوم على سبيل التسلية إلى ضاحية فورونتسوڤو لرؤية المنطاد الذي ابتكره المهندس ليبيخ لتدمير العدو ومنطاد التجربة الذي سيطلقونه غداً. لم تكن الاستعدادات قد أنجزت بعد. لكنهم أطلعوا پيار على أن الأمبراطور يؤيد هذا المشروع بقوة بل إنه كتب إلى روستوتبشين الرسالة التالية:

«حالما يصبح ليبيخ جاهزاً، شكلوا له فريقاً لسلة المنطاد مؤلفاً من رجال أذكياء موثوقين بهم وأرسلوا رسولاً إلى الجنرال كوتوزوڤ لإعلامه. ولقد أطلعته على الأمر.

«نبهوا على ليبيخ أرجوكم، أن يكون منتبهاً إلى المكان الذي سينزل فيه أول مرة كي لا يخطئ ويقع بين يديّ العدو. يتحتم عليه أن ينسق حركاته مع الجنرال القائد الأعلى».

ولدى عودته من فورونتسوڤو، وبمروره من ساحة بولوتنايا، شاهد پيار مجموعة من الناس حول وتد العقاب. فأعطى الأمر بالوقوف ونزل من العربة. كانوا قد انتهوا من جلد طاه فرنسي متهم بالجاسوسية وراح الجلاد يفك عن الوتد رجلاً ضخم الجثة، ذا شعر أشقر، على العارضين، كان يزمجر معولاً. وكان متهم آخر، شاحب وشديد النحول ينتظر دوره. ولقد كان وجهاهما يدلان على أنهما فرنسيان بدون شك. شق پيار الزحام بوجه منقلب كوجه المتهم الثاني وسأل:

ـ ما هذا؟ من هم هؤلاء؟ ماذا فعلوا؟

لكن انتباه المتسكعين بين موظفين وصناع ورجال أعمال وقرويين

twitter @baghdad_library

ونساء في معاطف طويلة ذات ثنيات أو مبطنة بالفرو، كان منصرفاً إلى المشهد حتى أن أحداً لم يجبه. وقف الرجل الضخم وهو يقطب حاجبيه ويهز كتفيه وراح رغبة منه في إظهار تجلده، يرتدي سترته دون أن يخفض عينيه عن المحتشدين. لكن شفتيه ارتجفتا فجأة وأجهش بالبكاء وهو يلعن ضعفه، كما يبكي الرجال ذوو الدم الوفير. وراح المجتمعون يتحدثون بصوت مرتفع ليكتموا شعورهم بالإشفاق كما خيل إلى پيار.

ـ يبدو أنه طاه لدى أحد الأمراء..

ـ إيه! «موسيو»[1] إن المرق الروسي حامض قليلًا بالنسبة إلى حنك فرنسي.. إنه يضرس أسنانك هن؟

تلك كانت العبارة التي تفوه بها جار پيار، وهو موظف صغير أعجف، عندما رأى الفرنسي يبكي. ثم ألقى الموظف الصغير نظرة حوله باحثاً عن موافقة الجمهور ولقد انفجر بعض الأشخاص ضاحكين بالفعل. لكن الآخرين لم يستطيعوا انتزاع أنظارهم عن الجلاد الذي أخذ ينزع ثياب المحكوم الثاني.

نخر پيار بقوة من أنفه وقطب حاجبيه ثم دار على أعقابه وعاد إلى عربته فاستقلها وهو لا يزال يدمدم. وبقيت التشنجات تحركه طوال الطريق وهو يصيح بصوت مرتفع متعجباً حتى أن حوذيه انتهى إلى سؤاله: ماذا تأمرني؟

صرخ پيار وهو يراه متجهاً إلى لوبيانكا: إلى أين تذهبين؟

ـ لدى الجنرال الحاكم. ألم تقل لي أن أحملك إلى هناك؟

ولقد بلغ من غضب پيار أن شتم هذا الرجل، وهو الأمر الذي ندر أن يقع له.

---

(١) «موسيو»، للتهكم وهي في الأصل مسيو Monsieur (المترجم).

www.Maktbah.com

ـ يا غبي! يا حيوان! لقد قلت لك أن تعود إلى المنزل وبأسرع من هذا.. أيها الغبي المثلث!.. «يجب الرحيل اليوم بالذات».

لقد قرر پيار بحزم أكيد لدى رؤية تنفيذ الحكم والمجموعة المحتشدة أن يلحق بالجيش فوراً دون زيادة في التأخر في موسكو حتى أنه خيل إليه أنه أطلع الحوذي على رغبته أو أن هذا أقله كان يجب أن يعلم قراره.

ولم يكد يدخل إلى المنزل حتى استدعى حوذيه إيڤستاڤييڤيتش، وهو رجل يستطيع صنع كل شيء، يعرف كل الناس وتعرفه موسكو كلها، أخطره بأنه يرغب في أن يرحل تلك الليلة بالذات إلى موجاييسك ويريد أن ترسل جياد الركوب إلى هناك، ولما كان هذا الأمر لا يمكن أن ينفذ في يوم واحد، فقد اضطر پيار بناء على نصيحة إيڤستاڤييڤيتش أن يرجئ رحيله إلى الغد حتى يتسنى إعداد خيول البدل.

وفي الرابع والعشرين وقد اعتدل الطقس، غادر پيار موسكو بعد الغداء، وفي الليل، بينما كان يبدل خيوله في بيرخوشكوڤو، علم أن معركة دارت أول المساء وأن قصف المدافع هز الأرض حتى في تلك القرية الصغيرة فاستفسر عن المنتصر لكن ما من أحد استطاع أن ينبئه، لقد كانت تلك معركة شيـڤاردينو.

وعند الفجر، وصلا إلى موجاييسك. كانت البيوت كلها محتلة من قبل الجنود ولقد انتظره خادمه المرافق وسائق عربته في النزل، لكنهم لم يستيطعوا إعطاءه أية غرفة لأنها كانت تعج بالضباط.

كانت المنطقة كلها تغصّ بالجنود بين مستريحين وفي طريق السير، ولم يكن يرى من كل صوب إلا قوقازيين ومشاة وخيالة وعربات نقل وصناديق صغيرة وقطع المدفعية، ولقد كان پيار مستعجلاً في التوغل إلى الأمام، وكلما ازداد توغلاً في ذلك الخضم من الجنود، ازداد قلقه شدة وشابه شعور بالرضى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الضمني جديد كل الجدة، ولقد كان ذلك الإحساس يذكره بذاك الذي أحسّ به في قصر سلوبودسكي إبان إقامة الأمبراطور: كان يجب اتخاذ قرار ما والتضحية بالذات. بدأ پيار يدرك الآن بفرح أن كل ما يسبب سعادة المرء من ثراء ولذة الحياة بل الحياة نفسها، كل ذلك لم يكن إلا ترهات يسهل القذف بها ثمناً لشيء ما.. وهذا الشيء، لم يكن پيار يتوصل إلى تصوره، بل إنه لم يكن يحاول حتى أن يشرح لنفسه لماذا ومن أجل من، يجد متعة خاصة بالتضحية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ما كان يهمه سبب تضحيته، لكن التضحية كانت تحمل إليه شعوراً جديداً بالسعادة.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

في الرابع والعشرين من شهر آب اندلعت معركة شيفاردينو، وفي الخامس والعشرين، لم تطلق رصاصة واحدة من هذا الجانب أو من ذاك، وفي السادس والعشرين اندلعت معركة بورودينو.

لماذا نشبت هذه المعارك وكيف اندلعت وبصورة خاصة معركة بورودينو؟ لم يكن الفرنسيون ولا الروس مدفوعين بأي سبب لخوضها، لقد كانت نتيجتها الأكثر مباشرة بالنسبة إلى الروس، كما وجب أن تكون، خطوة إضافية في طريق ضياع موسكو، الأمر الذي كنا نخشاه أكثر من أي شيء في الوجود، أما بالنسبة إلى الفرنسيين، فكانت خطوة إضافية نحو ضياع كل جيشهم، الأمر الذي كانوا هم كذلك يخشونه أكثر من كل شيء في الوجود، ولم تكن هذه النتيجة خافية أبداً، مع ذلك، فإنها لم تمنع ناپليون من أن يعرض القتال وكوتوزوف من أن يقبل المعركة.

فلو ترك الرؤساء الكبار للعقل أن يقودهم لرأى ناپليون بوضوح وقد تقدم مسافة خمسمائة ميل بعيداً عن قواعده وقد التحم في معركة كان يتعرض لفقد ربع عدد جيشه، فإنه إنما يمضي إلى خسارة أكيدة، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى كوتوزوف الذي قبل الدخول في المعركة، فهو بقبوله القتال وتعرضه هو الآخر لفقد ربع جيشه تقريباً، إما يجب عليه أن يخلي موسكو، ولقد كانت النتيجة واجبة الظهور لكوتوزوف بصورة خاصة ببداهة العملية الحسابية، فلو أن لدي في لعبة «الضاما» بيدقاً أقل مما لدى خصمي، وإذا كان كل حركة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تخسر مبادلة، فإنني خاسر للشوط ولا شك والعقل يحتم علي إذن أن أمتنع، وفي الواقع إنه لو كان لدى خصمي ستة عشر بيدقاً ولدي أربعة عشر، فإنني أضعف منه بمعدل واحد إلى ثمانية، ولكن بعد أن يكون كل منا قد فقد ثلاثة عشر بيدقاً، فإنه حينئذ سيصبح أقوى مني بثلاثة أضعاف.

بالنسبة إلى قوات الفرنسيين كانت قواتنا قبل معركة بورودينو، بنسبة خمسة إلى ستة: مائة ألف رجل ضد مائة وعشرين ألفاً، وبعد المعركة، لم تعد هذه النسبة إلا بمعدل واحد إلى اثنين: خمسين ألفاً ضد مائة ألف، ومع ذلك، فإن كوتوزوف، ذلك العسكري المجرب، قد قبل المعركة، ونابليون ذلك الرئيس العبقري، كما يسمونه، خاض معركة كلفته ربع جيشه وأطال خطه أكثر فأكثر، ولقد زعم بعضهم أنه كان يفكر في إنهاء الحرب بعد احتلاله موسكو كما وقع في ڤيينا. لكن هناك أدلة كثيرة تبرهن على العكس.

إن مؤرخي نابليون أنفسهم يعترفون بأنه كان يريد التوقف منذ سمولنسك: كان يعرف خطر امتداد خطه ويعرف أن احتلال موسكو لا ينهي الحملة لأنه كان يرى منذ ذلك الوقت بأية حال كانوا يخلون له المدن وأنه لم يكن يتلقى أية أجوبة على محاولاته الكثيرة للدخول في مفاوضات.

وهكذا فإن كوتوزوف ونابليون، الأول بعرضه والثاني بقبوله المعركة لم يخضعا لا لعقلهما ولا لحكمهما الحر. في حين أن المؤرخين، بعد أن وقعت المعركة، استنتجوا منها أدلة مموهة عن بعد نظر رئيسي الجيشين هذين وعبقريتيهما ذينك اللذين كانا بين كل الأدوات الصماء في أحداث هذا العالم، أكثرها خضوعاً لا إرادياً وأكثرها استرقاقاً.

لقد خلّف لنا الأقدمون نماذج من القصائد الخرافية التي ترتكز الأهمية فيها كلها على الأبطال، ولما كانت هذه القصائد تراثاً غالياً فإننا نمتنع عن رؤية ما في مثل هذه المدارك التاريخية في عصرنا هذا من بطلان.

www.Maktbah.com

وهناك حول النقطة الثانية أي، كيف جرت معركة بورودينو ومن قبلها معركة سيـڤاردينو التي سبقتها، هناك وجهة نظر دقيقة للغاية ومقبولة بصورة عامة بقوة بقدر ما هي خاطئة كذلك، وفيما يلي كيف يصف المؤرخون واقع هذه المعركة المزدوجة:

إن الجيش الروسي بانطوائه بعد سمولنسك كان لا بد وأن يبحث عن أفضل مركز ليلتحم فيه بمعركة عامة ووجد ذلك المركز في بورودينو.

إن الروس بدون شك حصنوا مسبقاً هذا المركز إلى يسار الطريق من موسكو إلى سمولنسك وبشكل عمودي على هذه الطريق تقريباً من بورودينو إلى أوتيتسا في المكان نفسه الذي نشبت فيه المعركة.

وإن الروس بدون شك، أقاموا هذا الموقع طليعة على مرتفع شيـڤاردينو لمراقبة العدو فهاجمهم ناپليون في الرابع والعشرين واحتل ذلك المركز الأمامي ثم هاجم كل الجيش الروسي في موقعه المحصن على سهل بورودينو في السادس والعشرين.

تلك هي رواية المؤرخين، وهي رواية غير مضبوطة كلياً كما لا بد سيقتنع بذلك بسهولة كل من يضطلع بعناء دراسة المسألة قليلاً.

فالروس بعيداً عن اختيار الموقع الأفضل، أهملوا في سياق تقهقرهم عدداً كبيراً من خيرة المواقع التي ترجح على بورودينو وذلك لأسباب عديدة لأن كوتوزوف لم يكن يريد تقبل نقطة لا يختارها بنفسه ولأن ضرورة خوض معركة قومية لم يكن ملحاً بكل هذه القوة ولأن ميلورادوڤيتش لم يكن بعد قد وصل مع فرق المتطوعين وإلخ...، إلخ...، وإنه مما لا يمكن إنكاره أن المواقع الأخرى أكثر مناعة من ذلك الذي دارت عليه رحى الحرب لأن بورودينو لم تكن أفضل «كموقع» من أي موقع عابر يشار إليه على خريطة الأمبراطورية الروسية بدبوس صغير.

twitter @baghdad_library

وليس أن الروس لم يحصنوا موقع بورودينو إلى اليسار وعمودياً على الطريق فحسب، أي في المكان الذي نشبت فيه المعركة بل إنهم كذلك لم يفكروا قبل الخامس والعشرين من آب ١٨١٢ أن معركة يمكن أن تقع في هذا المكان، وسأقدم على سبيل التدليل على صحة هذا الزعم مذكراً في المرحلة الأولى بعدم وجود تحصينات ما قبل الخامس والعشرين من آب وأن التي شرع في بنائها في ذلك التاريخ لم تنته في السادس والعشرين وفي المرحلة الثانية أذكر بموقع حصن شيـڤاردينو عينه الذي لم يكن له أي معنى رغم وقوعه أمام النقطة التي نشبت المعركة فيها. فلماذا إذن حصنوه أكثر من أية نقطة أخرى؟ لماذا بذلوا كل هذه الجهود الكبيرة للدفاع عنه يوم الرابع والعشرين إلى ساعة متأخرة من الليل وخسروا ستة آلاف رجل في حين كان يكفي لمراقبة العدو تسيير دورية من القوقازيين؟

وأخيراً الدليل الثالث والأخير: كان باركلي دوتوللي وباغراسيون مقتنعين حتى اليوم الرابع والعشرين بأن حصن شيـڤاردينو يشكل الجناح الأيسر للموقع. بل إن كوتوزوف نفسه في تقريره الذي دبجه تحت تأثير المعركة الذي كان لا يزال حامياً، وأطلق عليه هذا الاسم. ثم إن كثيراً فيما بعد في تقاريرهم التي كتبوها على مهل أظهروا قصد تبرير أخطاء الجنرال القائد الأعلى الذي كان لا بد من إظهاره بمظهر المعصوم عن الخطأ، الزعم الخاطئ الغريب القائل بأن حصن شيـڤاردينو كان نقطة أمامية ـ وهو الذي لم يكن أكثر من نقطة محصنة في الجناح الأيسر ـ وإننا قبلنا المعركة في موقع محصن اخترناه سلفاً، في حين أنها دارت في مكان لم يكن منتظراً وقوعها كما لم يكن محصناً قط تقريباً.

وإليكم كيف دارت الأمور بكل وضوح: اختاروا نقطة على نهر كولوتشا تقطع الطريق العام ليس على شكل زاوية قائمة بل على زاوية حادة بشكل

www.Maktbah.com

جعل الجناح الأيسر في شيـڤاردينو والأيمن قرب قرية نوڤواي والوسط في بورودينو عند التقاء نهري كولوتشا وڤويينا. ولا بد لجيش يهدف إلى إيقاف العدو المتقدم على طول طريق سمولنسك ـ موسكو أن يحتل هذا الموقع الذي يحميه نهر كولوتشا. وكل من يراقب ساحة المعركة متناسياً كيف جرت الأمور حقيقة لا بد مقتنع فوراً.

ولم ير ناپليون كما يؤكد المؤرخون، في تقدمه يوم الرابع والعشرين نحو ڤالوييـڤو موقع الروس من أوتيتسا إلى بورودينو. وما كان يمكن أن يراه لأنه كان غير موجود أصلاً. ولم ير كذلك النقطة الأمامية للجيش فلم يصطدم بجناح الروس الأيسر إلا وهو يطارد المؤخرة أي في حصن شيڤاردينو وبعد أن اجتاز بقواته نهر «كولوتشا» ولقد طوى الروس جناحهم الأيسر من النقطة التي أرادوا احتلالها إلى موقع جديد غير مدروس وغير محصن لأن حركة ناپليون تلك فوّتت عليهم فرصة الدخول في معركة شاملة. وبمرور ناپليون أو باجتيازه ضفة كولوتشا اليسرى وبالتالي بوصوله إلى يسار الطريق، نقل المعركة المقبلة من جناح الروس الأيمن إلى جناحهم الأيسر، في السهل الواقع بين أوتيتسا وسيميونوڤسكوي وبورودينو، وهو السهل الذي لم يكن يمتاز كموقع عن أي موقع آخر. وهنا اندلعت معركة السادس والعشرين. وفيما يلي الخطوط العامة للمعركة المخمنة كما كان يمكن أن تقع وخطوط المعركة الحقيقية.

مخطط معركة بورودينو.

١ ـ موقع الفرنسيين المفترض.

٢ ـ موقع الروس المفترض.

٣ ـ موقع الفرنسيين الحقيقي خلال المعركة.

٤ ـ موقع الروس الحقيقي خلال المعركة.

twitter @baghdad_library

(وفق مخطط وضعه تولستوي بنفسه).

فلو أن ناپليون لم يعبر نهر كولوتشا في الرابع والعشرين مساء، ولو أنه بدلاً من أن يقع فوراً على الحصن، أجل الهجوم إلى اليوم التالي، لرأى العالم أجمع أن هذا الحصن كان يشكل الجناح الأيسر في موقعنا وأن المعركة كانت ستدور حسبما توقعناه. وحسب كل احتمال. كنا سندافع عن شيـڤاردينو، جناحنا الأيسر، بحماسة أقوى، ونهاجم ناپليون في الوسط وفي اليمين، وكانت المعركة العامة ستقع في الرابع والعشرين على الموقع الذي كان معداً ومحصناً. ولكن، عندما وقع الهجوم على جناحنا الأيسر مساء عقب انثناء مؤخرتنا، أي بعد معركة غريدنييـڤو مباشرة، ولما لم يستطع رؤساؤنا أو لم يريدوا خوض المعركة العامة مساء الرابع والعشرين، فقد ضاع الجزء الأول الرئيسي من معركة بورودينو منذ الرابع والعشرين، الأمر الذي أدى إلى هزيمة السادس والعشرين.

بعد خسارة شـڤاردينو، وجدنا أنفسنا صباح الخامس والعشرين محرومين من نقطة ارتكاز في الجناح الأيسر فاضطررنا إلى ثني جناحنا الأيسر وتحصينه بأسرع وقت وفي أي موقع كان.

وهكذا إذن، لم تكن الوحدات الروسية محصنة يوم السادس والعشرين إلا في خنادق غير مستكملة. بل أخطر من ذلك أن جنرالاتنا لم يدركوا تماماً الأمر الواقع: لم يروا أن خسارة الجناح الأيسر ستجري تبديلاً من اليمين إلى اليسار في اتجاه المعركة. لذلك تركوا خطوطهم تتطاول كالسابق من نوڤواي إلى أوتيتسا، الأمر الذي أرغمهم على البدء بتحريك قطعاتهم في إبان احتدام المعركة من اليمين إلى اليسار. وبذلك لم يستطع الروس أن يواجهوا الفرنسيين إلا بجناحهم الأيسر، أي بقوات أضعف مرتين. أما هجمات

www.Maktbah.com

بونياتووسكي ضد أوتيتسا، وأوڤـاروف ضد الجناح الفرنسي الأيمن، فكانت حوادث عرضية مستقلة عن سير المعركة العام.

وعلى هذا، فإن معركة بورودينو وقعت على شكل مخالف تماماً للأسلوب الذي رويت به بغية إخفاء أخطاء جنرالاتنا، الأمر الذي لم يعمل إلا على الإقلال من مجد جيشنا وشعبنا. إنها لم تقع في موقع مختار ومحصن سلفاً ولكن بقوات أقل قليلاً من جانبنا من قوات العدو. بل إنها دارت إثر خسارة شيـڤاردينو وعلى أرض عراء أو عديمة التحصين في مثلها ولا أقول لخوض معركة طوال عشر ساعات كاملة بشكل غير مقرر بل للصمود ثلاث ساعات فقط دون التعرض لهزيمة كاملة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العشرون

صباح الخامس والعشرين غادر پيار موجاييسك. وترجل پيار من عربته لكي ينحدر على طول الشارع المتعرج الذي يخرج من المدينة تاركاً على اليمين الكنيسة التي كان يقام فيها قداس وسط قرع الأجراس، واجتاز المسافة على قدميه ومن ورائه، كانت فرقة من الفرسان يسبقها مشدوهاً، بينما راحت قافلة من الجرحى في معركة الأمس تصعد المنحدر في الاتجاه المعاكس والقرويون الذين يسوقونها يسرعون من جانب إلى آخر من الشارع وهم يملأون الجو صراخاً وقرعاً بالسياط: وكانت العربات التي تقل كل واحدة منها ثلاثة أو أربعة جرحى جالسين أو مستلقين، تقفز فوق الحجارة الملقاة هنا وهناك بمثابة رصيف للطريق، والجرحى، بوجوههم الشاحبة، ملتفون في أسمال، وقد كظموا شفاههم وقطبوا حواجبهم، يتشبثون بجوانب العربة ويصطدم بعضهم ببعض. وكانوا كلهم تقريباً يتأملون قبعة پيار البيضاء وثوبه الأخضر في فضول صبياني.

صاح حوذي پيار بسائقي العربات أن يتنحوا جانباً. لكن فرقة الفرسان الذين كانوا ينحدرون على الطريق يسبقهم صدّاحوهم، قطعت كل تقدم. وتوقف پيار وقد انتبذ سفح التل الذي بلغ من انحداره أن الشمس لم تكن تستطيع التوغل في الطريق العميق الوعر فكان المرء يشعر بالبرد والرطوبة، وفوق رأس پيار، أضاء صباح جميل من أيام آب، بينما أخذ قرع الأجراس

www.Maktbah.com

يتبدد بهدوء. توقفت إحدى العربات على جانب الطريق بالقرب منه فأسرع السائق ذو «القلشين» المصنوع من القنب وهو مبهور الأنفاس فوضع حجاراً تحت العجلات الخلفية وأصلح عدة جواده.

وكان أحد الجرحى، وهو جندي هرم يحمل ذراعه إلى عنقه، يتبع العربة مشياً على قدميه تشبث بها بيده السليمة والتفت إلى پيار يسأله:

ـ قل لي: أيها المواطن، هل تعلم ما إذا كانوا سيتركوننا هنا أم سيحملوننا إلى موسكو؟

وكان پيار مستغرقاً في أفكاره حتى أنه لم يفهم السؤال. كان يتأمل فرقة الخيالة التي وصلت إلى مكان القافلة تارة وطوراً العربة القريبة منه حيث جلس فيها جريحان واستلقى ثالث. وكان يخيل إليه أن هؤلاء الحقيرين سيقدّمون له حل المسألة التي تشغله. كان أحد الاثنين الجالسين معصوب الرأس كله بالخرق وفمه وأنفه معوجين وقد أصبح أحد خديه المنتفخ ولا شك من أثر جرح، في حجم رأس طفل صغير. وكان يرسم على صدره إشارة الصليب وهو شاخص بعينيه إلى الكنيسة. أما الثاني، وهو مستفر شاب ممتقع الوجه، أشقر الشعر، يبدو وكأنه فقد آخر قطرة من الدم في وجهه الدقيق، راح يتأمل پيار وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة. بينما كان الثالث مستلقياً على بطنه لا يمكن تمييز معالم وجهه. وبلغ المغنون الفرسان مكان تلك العربة بالذات وهم يضجون بأغنية راقصة يستسيغها الجنود، كانت بعض عباراتها واضحة:

ـ آه! آه! أيتها الكتلة الشائكة.. تدحرجي، تدحرجي وتدحرجي. عبر الجبال والسهول.

بينماراح قرع الأجراس، وكأنه يريد أن يرجع الصدى ولكن على نمط

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بهيج آخر، يبعثر في السماء أنغامه المعدنية. وجاءت الشمس تضيف عاملاً ثالثاً من البهجة إلى المشهد بأن أخذت تصب أشعتها الدافئة على المرتفع الآخر على جانب الطريق. ولكن الجو في الجانب الذي وقف فيه پيار قرب عربة الجرحى والحصان المنهوك، كان معتماً وحزيناً.

ألقى الجندي ذو الوجنة المنتفخة على المغنين نظرة غاضبة وغمغم:

ـ يا لطغمة خالقي البلبال!

وقال الجندي العجوز الواقف وراء العربة وعلى شفتيه ابتسامة نادبة: في هذه الساعة لا يكفي الجنود بل إنهم يأخذون كذلك أبناء الأرض. لا تمييز في الوقت الحاضر. يجب أن يشترك كل الناس في الأمر. ماذا! إن موسكو كلها تمر. يجب الانتهاء من هذا الأمر.

وعلى الرغم من عدم الوضوح في هذه الكلمات، فإن پيار فهمها كلها وأيدها بإشارة من رأسه.

ثم أصبح الطريق حراً. فلما وصل پيار إلى أسفل المنحدر، رجع إلى عربته يستقلها وتابع الطريق. كان يدير نظره فيما حوله باحثاً عن وجوه يعرفها، لكنه لم يكن يرى غير عسكريين من مختلف الأسلحة لا يعرفهم وكلهم يبدي دهشته لقبعته البيضاء وثوبه الأخضر.

وبعد أن اجتاز ميلاً، وجد أخيراً شخصاً يعرفه فصاح يناديه بابتهاج. كان أحد رؤساء الأطباء في الجيش يرافقه طبيب شاب. وكانت عربته الصغيرة قادمة في الاتجاه المضاد لوجهة عربة پيار. ولما عرف پيار، أشار إلى القوقازي الذي يقوم بدور الحوذي أن يقف.

ـ كيف، هذا أنت يا كونت! ماذا تفعل سعادتك هنا؟

ـ لقد استبدت بي رغبة معاينة..

www.Maktbah.com

ـ آه! نعم، سيكون هناك ما يرى..

ترجّل پيار من عربته وعبر له عن رغبته في حضور المعركة فأشار عليه الطبيب أن يتصل «بعظيم الرفعة» مباشرة. قال وهو يتبادل نظرة مع زميله الشاب: الله يعلم أين يمكنك أن تجد لنفسك مكاناً خلال المعركة إذا كنت غير معروف. إن «عظيم الرفعة» أقله يعرفك وسيستقبلك بحسن التفات. نعم يا عزيزي، هذا ما يجب أن تفعل.

كان الطبيب بادي التعب مستعجلاً. سأله پيار:

ـ آه! أتظن.. ولكن قل لي، أين موقعنا؟

ـ الموقع؟ هذا ليس من اختصاصي. عندما تجتاز تاتارينوڤو، سترى أنهم يحفرون هناك مساحة كبيرة من الأرض. اصعد على التل ومن هناك يمكنك أن ترى..

ـ آه! حقاً.. لو أنك..

لكن الطبيب كان قد رجع إلى عربته. قال وهو يشير إلى حنجرته:

ـ كنت سأرافقك عن طيب خاطر، لكنني كما ترى ملآن إلى هنا. إنني ذاهب لدى قائد الوحدة. هل تعرف كيف تسير الأمور يا كونت؟ غداً سندخل في معركة. ويجب أن نحصي أقله عشرين ألف جريح على مائة ألف محارب. وليس لدينا نقالات ولا أسرّة ميدان ولا ممرضون ولا أطباء حتى لستة آلاف جندي. صحيح أن لدينا عشرة آلاف عربة. لكننا في حاجة إلى أشياء أخرى وينبغي أن نتدبر الأمر!

لم تلبث أن طافت بذهن پيار فكرة غريبة: بين هذه الألوف من الرجال الأحياء الأصحاء الشبان والكهول الذين يمرون أمامه الآن ويتأملون قبعته

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

البيضاء باستغراب فيه تسلية، عشرون ألفاً نذروا لاحتمال الآلام والموت، لعلهم هؤلاء أنفسهم الذين يشاهدهم الآن.

«قد يموتون غداً فكيف يمكنهم التفكير في شيء آخر غير الموت؟»

وفجأة، تمثل بنتيجة اتحاد غامض بين الأفكار، منحدر موجاپيسك والعربات المحملة بالجرحى وصوت الأجراس وأشعة الشمس المنحرفة وأنشودة الفرسان. فراح يقول في سرّه وهو يتابع طريقه نحو تاتارينوڤو: «إن هؤلاء الفرسان الذين ينطلقون إلى المعركة، يقابلون الجرحى ويتبادلون وإياهم غمزات بعيونهم دون أن يفكروا لحظة واحدة في ما ينتظرهم. وبين كل هؤلاء الناس، عشرون ألفاً قدر أن يتعرضوا للموت مع ذلك، فإن قبعتي تسليهم! هذا غريب!

وعلى يسار الطريق، بالقرب من منزل أحد السادة، عربات نقل وعربات ركاب وجماعة من الخفراء والأتباع. إنه مقام عظيم الرفعة. لكن هذا كان متغيباً في الساعة التي وصل فيها پيار كما كان معظم أفراد هيئة الأركان متغيبين. كانوا جميعاً في القداس المقام لذلك فقد استمر پيار باتجاه غوركي.

وعندما دخلت عربته شارع القرية الصغير بعد أن صعدت مرتفعات، شاهد لأول مرة قرويين متطوعين في ستراتهم البيضاء يحملون صلباناً على قلانسهم وهم يضحكون ويتكلمون بأصوات مرتفعة في حميّة تنضح أجسادهم بالعرق ويشتغلون على تل كبير إلى يمين الطريق اكتسحته الأعشاب الطفيلية.

وعندما رأى پيار هؤلاء القرويين منكبين على أداء عمل غير مألوف لديهم، تذكر جرحى موجاييسك ففهم معنى كلمات الجندي العجوز العميقة:

www.Maktbah.com

«يجب أن يتدخل كل الناس في الأمر». لقد أوحى هؤلاء الرجال الملتحين كلهم الذين يشتغلون في ساحة المعركة ويلفتون الأنظار بأحذيتهم الغريبة وأقذالهم السابحة في العرق وستراتهم تلك المفتوحة من الجانب التي تترك للعين فرصة مشاهدة تراق عظيمة ملوحة، أوحى إلى پيار أكثر من أية مرة سبقت، بأنه استطاع مراقبة وسماع خطورة الساعة الحاضرة وجلالها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

في الساعة الحادية عشرة صباحاً، نزل پيار من العربة وسار بين المتطوعين الدائبين في العمل وصعد التل الذي يشاهد المرء من أعلاه ساحة المعركة حسب قول الطبيب الرئيس، وكانت الشمس، التي وراء پيار تضيء في جو نقي نادر المشهد الذي تبدّى أمام عينيه على شكل حلبة.

كان طريق سمولنسك الكبير، يقطع متعرجاً هذه الحلبة إلى اليسار وهو يرتفع عبر قرية صغيرة ذات كنيسة بيضاء، تقع على مسافة خمسمائة خطوة إلى الأمام في مستوى أدنى من التل هي قرية بورودينو. وكان الطريق يمر هناك عبر جسر وفي سلسلة من المرتفعات والمنخفضات باتجاه مركز فالوبيغو الذي يحتله ناپليون والذي يراه الناظر على بعد ميل ونصف الميل من هناك. وبعد ذلك يختفي الطريق في غابة مصفرة. وفي تلك الغابة من أشجار السندر والصنوبر، إلى يمين الاتجاه الذي يسير الطريق فيه، كانت الشمس تلتمع فوق قبة جرس دير كولوتشا وصليبه. وإلى أبعد من ذلك، على يمين الغابة والطريق ويسارهم، في البعد الضارب إلى الزرقة، ظهرت هنا وهناك نيران المعسكرات ثم الكتل غير الواضحة لقطعاتنا وقطعات العدو. وإلى اليمين، على طول كولوتشا وموسكوڤا، كانت الوديان تحتل الأرض وبينها علامات قريتي بيزوبوڤو وزاخارينو أما إلى اليسار، فكانت الأرض أكثر استواء فكانت تظهر للعيان حقول القمح وبقايا قرية سيميونوڤسكوي المحترقة.

كان كل ما يراه پيار من الإبهام حتى أن ما من شيء في اليمين أو اليسار

www.Maktbah.com

كان يجيب تماماً عما كان يتوقع. فبدلاً من ساحة المعركة التي كان يتوقع أن يرى، لم يجد غير البراري والمزارع والقطعات والغابات ونيران المعسكرات والقرى والتلال والأنهار. وعلى الرغم من الانتباه الشديد الذي صرفه، فلم يتوصَّل إلى معرفة الموقع ولا حتى أن يميز قطعاتنا من قطعات العدو.

حدث نفسه قائلاً: «يجب السؤال من شخص مختص» ثم اتجه نحو ضابط كان يتأمل بفضول جسمه الضخم قليل الشبه بالأجسام العسكرية وقال له: هل أستطيع أن أسألك عن اسم هذه القرية هناك، قبالتنا؟

أجاب الضابط وهو يلتفت نحو زميله: بوردينو أليس كذلك.

فصحح الزميل: بل بورودينو.

اقترب الضابط الذي بدا شديد الغبطة بالثرثرة. فسأله پيار:

ـ هل هم رجالنا، هناك؟

ـ نعم. وهناك، إلى الوراء، الفرنسيون. هناك، هل ترى؟

ـ أين؟

ـ ولكن يمكن رؤيتهم بسهولة بالعين المجردة. هنا، أنظر.

أشار الضابط إلى الدخان المتصاعد عن اليسار عبر النهر، وقد اتسم وجهه بالقلق الصارم الذي لاحظه پيار على وجوه الآخرين كلهم.

سأل پيار وهو يشير إلى تل إلى اليسار كانت ترى حوله قطعات من الجنود: آه! هؤلاء هم الفرنسيون! وهنا؟

ـ إنهم جماعتنا.

ـ آه! جماعتنا! وهنا؟

وأشار إلى هضبة أبعد، تتوجها شجرة كبيرة، غير بعيدة عن قرية منزوية في منحدر من الأرض، كان الناظر يرى إلى جانب نيران المعسكر المدخنة شيئاً ما أسود اللون. ذلك هو حصن شيـڤاردينو.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ هناك؟ إنه «هو» أيضاً. لقد كنا يوم أمس هناك واليوم أصبحت له «هو».

ـ إذن أين مواقعنا؟

فقال الضابط بابتسامة راضية:

ـ مواقعنا؟ إنني أستطيع أن أصفها لك وصف العارف لأنني أنا الذي أشرفت على تحضير كل الخنادق والمتاريس. إنّ وسطنا كما ترى في بورودينو هنا ـ وأشار إلى القرية ذات الكنيسة البيضاء الماثلة أمامهم مباشرة. ـ وهنا يوجد ممركولوتشا، أنظر إلى هناك، حيث تقوم صفوف من الحشيش المرزوم، إن الجسر قريب من هناك، إنه وسطنا. وجناحنا الأيمن هذا هو ـ وأشار إلى أخدود متعرج منحدر عند أقصى اليمين. ـ إنه الموسكوڤا يسيل هناك ولقد أقمنا ثلاثة حصون منيعة قوية جداً. أما جناحنا الأيسر.. فمن الصعب تفسيره.. لكننا سحبنا الجناح الأيسر إلى الوراء. والآن، أنظر هنا، إلى القرية والدخان، إنها سيميونوڤسكوي.. ثم هنا، ـ وأشار إلى هضبة راييـڤسكي.. مع ذلك، إن من المشكوك فيه أن تنشب المعركة هنا. لقد أمرّ «هو» قواته من هنا. لكنها خدعة. سوف «يقوم» بدون شك بحركة التفاف إلى يمين موسكوڤا.. على كل حال، فإن عدداً كبيراً لن يحضر نداء التفقد غداً!

قاطعه صف ضابط عجوز كان قد اقترب أثناء الحديث وراح يصغي بصمت وقد ساءته بلا شك ملاحظة رئيسية حول ذلك الموضوع. قال له بلهجة خشنة: ينبغي لنا بعض القفف.

بدا الضابط مضطرباً وكأنه عرف أن من الممكن للجنود التفكير في أن عدداً كبيراً من الزملاء لن يحضروا نداء الغد ولكن ليس من اللائق التحدث عن هذا الأمر فأجاب متعجلاً: حسناً، أرسل السرية الثالثة أيضاً.

ثم التفت إلى پيار فقال:

ـ ولكن أنت، من أنت؟ طبيب بلا شك؟

ـ كلا. إنني هنا هكذا.

وعندما نزل پيار مرّ مجدداً وسط المتطوعين وكان الطبيب يتبعه بخطوات واسعة. قال هذا وهو يسد منخريه:

ـ آه! يا للأقذار!

وقالت أصوات كثيرة:

ـ ها هم أولاء!.. إنهم يحملونها، إنهم آتون.. ها هم أولاء..

ولم يلبث أن اندفع الضباط والجنود والمتطوعون إلى الطريق.

كان موكب يصعد الهضبة خارجاً من بورودينو وعلى رأسه يتقدم لواء من المشاة حاسر الرأس مخفوض السلاح فوق الطريق الغبراء. ومن وراء الجنود تعالت تراتيل كنائسية.

أسرع الجنود المتطوعون وقد رفعوا قبعاتهم وتخطوا پيار لاستقبال القادمين.

لقد جاؤوا بها، بالأم الطيبة! حاميتنا!.. عذراء إيبيريا «نوتردام ديبري».

فصحح آخر: كلا، بل عذراء سمولنسك.

وألقى المتطوعون، الذين كانوا في القرية والذين كانوا يعملون في إعداد «بطارية» المدفعية، المعاول من أيديهم وذهبوا لاستقبال الموكب الديني، وكانت الهيئة الدينية في حلل القداس تتقدم وراء لواء المشاة: كاهن عجوز وعلى رأسه كمّه وحوله فريق من الشمامسة والمرتلين، وفي أعقاب هؤلاء كان عدد من الضباط والجنود يحملون أيقونة كبيرة ذات وجه مسود في زينتها المعدنية الخاصة، وكانت هذه الأيقونة هي التي حملوها من سمولنسك استمرت منذ ذلك الحين تتبع الجيش في تنقله، ومن الوراء والأمام وعلى الجانبين، راح عدد كبير من العسكريين يمشي أو يجري والرجال حاسرو الرؤوس يخشعون.

twitter @baghdad_library

توقفت الأيقونة عند قمة التل وتناوب الأشخاص الذين كانوا يحملونها بقطع من القماش وأعاد حاملو المباخر إشعال مباخرهم وبدأ القداس، كانت أشعة الشمس تسقط عمودية ونسمة خفيفة تتلاعب بشعر الأيقونة والأشرطة التي تزينها تتصاعد وتضيع في السماء. وتكأكأ حشد هائل من الضباط والجنود والمتطوعين حول المكان وشغل الضباط الكبار فراغاً خصص لهم وراء رجال الدين.

كان الجنرال أصلع يطوق عنقه بربطة القديس جورج واقفاً وراء الكاهن مباشرة ينتظر بفارغ صبر دون أن يرسم إشارة الصليب على صدره، ولا بد أنه ألماني، انتهاء الصلوات التي كان يعتقد أنه مرغم على حضورها لأنها تغذي الحمية الوطنية في نفوس الشعب الروسي، وجنرال آخر وقف بتجبّر وقفة عسكرية كان لا يفتأ يرسم على صدره إشارات الصليب وهو يجيل عينيه يمنة ويسرة ولقد عرف پيار الذي اختلط بالقرويين عدداً من معارفه بين أولئك الشخصيات الكبيرة لكنه لم ينظر إليها لأن انتباهه كله كان محتكراً في معاينة وجوه الجنود الصارمة الذين كانت عيونهم تلتهم الأيقونة بلهفة وكلف. ولما شرع المرتلون الذين بلغوا فرضهم العشرين في ترديد التضرّع: «أيتها القديسة أم الله، أنقذي خدامك من البلاء» بصوت متعب كامد واستأنف الكاهن والشماس: «لأنه تبعاً للتعاليم السماوية، نلجأ كلنا إلى شفاعتك ونعتمد عليك كما نعتمد على جدار لا يتزعزع» لاحظ پيار على كل الوجوه ذلك الشعور برهبة الساعة الذي لاحظه عند منحدر موجاييسك وفي مناسبات كثيرة خلال رحلته. انحنت الرؤوس بخشوع وتناهت الزفرات إلى الأسماع وإيقاع الأصابع وهي ترسم إشارات الصليب على الصدور.

تفرّق الحشد الذي كان متكاثفاً حول الأيقونة فجأة فاندفع پيار إلى

www.Maktbah.com

الوراء مع الحركة. ولقد دلت هذه العجلة في الانتظام في صفوف على وصول شخصية رفيعة المقام.

كان كوتوزوف هو القادم ليتفقد الموقع ويعود إلى تاتارينوڤو. ولقد عرفه پيار من شكله البارز.

كان جسمه الضخم ملفوفاً في قميص طويل يظهر منه ظهره المحدودب وقد بدا رأسه الأبيض الحاسر وعينه المطفأة الفارقة في وجه رهل. تقدم بمشيته المتأرجحة وتوقف وراء الكاهن مباشرة ثم رسم إشارة الصليب بحركة آلية ولمس الأرض بيده وبعد أن أطلق زفرة عميقة حنى رأسه المجرد من الشعر. وكان بينيغسن وحاشيته يتقدمون من ورائه. لم يلبث حضور القائد الأعلى أن احتكر عناية كبار الضباط لكن المتطوعين والجنود لبثوا مستغرقين في صلاتهم دون أن يعيروه التفاتة.

وعندما انتهى القداس، اقترب كوتوزوف من الأيقونة وتهاوى على ركبتيه ثم سجد حتى بلغ الأرض وظل طويلاً دون أن يستطيع النهوض بسبب ثقل وزنه وضعفه حتى تقلص وجهه من الجهد. أخيراً وقف وقرّب شفتيه بصورة ساذج طفولي وطبع قبلة على الصورة ثم انحنى مجدداً ولمس الأرض بيده فاقتدى به الجنرالات كلهم ثم الضباط ومن بعدهم الجنود فالمتطوعون وهم يتدافعون ويتناحرون لاهثي الأنفاس يعلو التأثر وجوههم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني والعشرون

أيها الكونت پيار كيرلليتش! أنت هنا! قال أحد الأصوات، بينما أخذت الجماهير تسوقه من جهة إلى أخرى، وراح پيار يلقي نظرات حوله.

التفت پيار فإذا ببوريس دروپتسكوي يتقدم نحوه مبتسماً وهو ينفض الغبار عن ركبتيه اللتين اتسختا بدون شك بسبب ركوعه على الأرض أمام الأيقونة. كان يبدو في أناقة مدققة مرتدياً مثل بيزوخوف سترة طويلة ويمسك سوطاً.

كان الجنرال القائد الأعلى في تلك الأثناء قد بلغ القرية وجلس في ظلال أقرب منزل على مقعد جاء به قوقازي راكضاً وغطاه آخر بنجد. وكانت حاشية مرموقة كثيرة العدد تحيط به.

عاد الموكب الديني إلى المسير بينما توقف پيار على بعد ثلاثين خطوة من كوتوزوف يتحدث مع بوريس شارحاً له رغبته في حضور المعركة وتفقّد الموقع فقال له هذا.

ـ حسناً! هذا ما سوف تفعله. سوف أقدم لك حفاوات المعسكر. لا شك أن أفضل مكان لمعاينة المعركة هو حيث يقف الآن بينيغسن. إنني ملحق بشخصه وسوف أخطره. وإذا كنت ترغب في تفقد الموقف فما عليك إلا أن تتبعنا لأننا ذاهبون الآن لتفقد الجناح الأيسر. ولدى عودتنا سوف تسمح لي بأن أستضيفك هذه الليلة وسوف نمضي سهرة طيبة. إنك تعرف دميتري سيرغييتش؟ ها هو ذا منزله.

www.Maktbah.com

وأشار إلى المنزل الثالث من غوركي. قال پيار:

لكنني كنت أفضل زيارة الجناح الأيمن الذي يزعمون أنه حصين جداً ولكم أودّ الطواف بالموقع اعتباراً من موسكوڤا.

ـ يمكنك أن تقوم بذلك فيما بعد لكن النقطة الرئيسة هي الجناح الأيسر.

ـ نعم، نعم. ثم ألا تستطيع أن تدلني على الفيلق الذي فيه الأمير پولكونسكي؟

ـ فيلق أندريه نيكولاييـڤيتش؟ سوف نمر أمامه وسأقودك إليه؟

حسناً. وماذا كنت تريد أن تقول عن الجناح الأيسر؟

استطرد بوريس وهو يخفض صوته بلهجة من يودع سراً:

ـ في الحقيقة، وهذا بيننا، إن هذا الجناح الأيسر في حالة موقتة أكثر منها ثابتة، الأمر الذي لم يكن الكونت بينيغسن يرغب فيه مطلقاً. كان يريد أن يحصن هذا التل هناك على شكل آخر مختلف، وأضاف وهو يهز كتفيه، غير أن «عظيم الرفعة» لم يرض أم أنهم أثروا عليه. ذلك لأن..

لكن بوريس لم يتمم سرد فكرته لأن كاييساروڤ، أحد مساعدي كوتوزوڤ العسكريين اقترب من پيار في تلك اللحظة فاستطرد بوريس بضحكة مرحة وجهها إلى القادم الجديد.

آه! ياباييسي سيرغييتش، إنني كما ترى أحاول أن أشرح الموقف للكونت. يا لبراعة «عظيم الرفعة» في تخمين نيات الفرنسيين! إنه لأمر رائع!

سأل كاييساروڤ:

ـ إنك تتحدث عن الجناح الأيسر؟

ـ نعم، بالضبط. إن جناحنا الأيسر الآن قوي جداً جداً.

على الرغم من أن كوتوزوڤ صرف من الأركان العامة كل الذين لا نفع فيهم، فإن بوريس استطاع أن يحتفظ بمركزه في المقر الرئيسي بالالتحاق إلى

twitter @baghdad_library

حاشية الكونت بينيغسن. وكان هذا كالآخرين يعتقد أن له في دروپتسكوي الشاب مساعداً ثميناً.

كانت القيادة العليا تنقسم إلى قسمين: جانب كوتوزوف وجانب بينيغسن رئيس الأركان. وكان بوريس منتمياً إلى هذا الجانب الأخير يوحي إلى سامعيه رغم إبدائه احترام الخادم للمخدوم لكوتوزوف بأن العجوز لا يساوي شيئاً وأن بينيغسن هو الذي يسيّر دفة كل شيء. وكانت اللحظة الحاسمة تقترب فإذا ضاعت المعركة نُحّي كوتوزوف ووجب تسليم منصبه إلى بينيغسن. أما إذا رُبحت المعركة. فإنهم سوف يتدبرون الأمر على العكس ليجعلوا شرف النصر يعود إلى بينيغسن. على أية حال، فإنّ نهار غد سيؤدي إلى توزيع المكافآت على نطاق واسع كما سيؤدي في المرحلة الأولى إلى مجيء رجال جدد. ذلك كان السبب الذي جعل بوريس ذلك اليوم في هرج ومرج شديدين.

جاء بعد كاييساروف عدد آخر من معارف پيار فأحاطوا به حتى أنه بات يجد صعوبة في الإجابة عن كل الأسئلة التي راحوا يوجهونها إليه عن موسكو، وفي تتبع كل الأقاصيص التي أخذوا يروونها على مسامعه. وكانت الوجوه كلها متأثرة وبالغة ذروة الانفعال ولكن خيل إلى پيار أن كل ذلك التهيج إنما يرتكز على أسس أقامتها المصلحة الشخصية، فلم يستطع إلا أن يقارنه بذلك الذي قرأه على وجوه أخرى والذي نجم غن مسألة كلية مختلفة، مسألة الحياة أو الموت. ولاحظ كوتوزوف شخص پيار الضخم والزمرة التي تحيط به فقال آمراً: قولوا له أن يأتي إلي!

وحمل مساعد عسكري رغبة «عظيم الرفعة» إلى پيار فتوجه هذا نحو مقعد الجنرال. لكن جندياً من المتطوعين سبقه وكان ذلك الجندي هو دولوخوف. سأل پيار: كيف جاء هذا إلى هنا؟

www.Maktbah.com

فأجابه بعضهم:

ـ أوه! إنه شاطر يعرف كيف يتسلل في كل مكان. لقد كسرت رتبته مجدداً وهو يرغب الآن في أن يسترد مركزه. ولقد قدم عدداً من المشاريع المختلفة وقام بغارة ليلية على خطوط العدو.. لا مجال للنقض، إنه فتى باسل!

رفع پيار قبعته وانحنى باحترام أمام كوتوزوف. وكان دولوخوف في تلك اللحظة يقول:

ـ ولقد فكرت أنني إذا خاطبت سموكم، فإن أسوأ ما يمكن أن يقع لي هو أن ترفضوا الإصغاء إليّ أو أن تقولوا إنكم عارفون كل هذا مثل ما أعرفه..

ـ حسناً، حسناً...

ـ وإذا كنتم سموكم في حاجة إلى رجل لا يخشى تعريض نفسه للخطر، فلتتفضلوا بتذكر اسمي.. علني أكون مفيداً لسموكم..

فكرر كوتوزوف وقد وقعت عينه الضحاكة على پيار:

ـ حسناً..

خلال ذلك، كان بوريس، ببراعته ولباقته، قد استطاع أن يجعل نفسه ملازماً لـپيار، إلى جوار الرئيس الأكبر مباشرة، فقال بلهجة طبيعية جداً لا يتطرق إليها الشك، يخاطب بيزوخوف وكأنه ينهي حديثاً بدأ بينهما:

ـ لقد ارتدى المتطوعون قمصاناً جديدة بيضاء ليستعدوا للموت. يا لها من بطولة يا كونت!

وكان يشك في أن لا توقظ هذه الكلمات انتباه كوتوزوف. والواقع أن هذا لم يلبث أن سأله:

ـ ماذا تقول عن المتطوعين؟

ـ لقد ارتدوا يا صاحب السمو قمصاناً بيضاء استعداداً ليوم غد، للموت.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فقال كوتوزوف:

ـ آه! يا له من شعب رائع، يا له من شعب لا يبارى!

وأغمض عينيه وهز رأسه وأطلق تنهّدة وردد:

ـ نعم، يا له من شعب لا يبارى!

ثم خاطب پيار سائلاً:

ـ إذن، إنك تريد أن تستنشق رائحة البارود؟ نعم، إنها رائحة جميلة. لي الشرف أن أكون أحد المعجبين بالسيدة زوجتك. كيف حالها؟ إن معسكري رهن أمرك.

وكما يحدث عادة للأشخاص المسنين، أدار كوتوزوف حوله نظرة ساهمة وكأنه لم يعد يذكر ما كان يريد أن يقول أو أن يعمل. ثم استدعى بإشارة سيرغييتش كاييساروف أخا مساعده العسكري وقال له وكأنه استعاد حبل تفكيره:

ـ ذكرني بأبيات مارين، إنك تعرف ماذا كتب عن جيراكوف: «سوف تلقن سرايا الجدد دروساً...» هيا، هيا..

وكان إلحاحه يظهر استعداده الواضح لإدخال بعض المرح على نفسه. فراح كاييساروف يتلو الأبيات عليه وهو، كوتوزوف، يضبط الإيقاع بهزات رأسه.

وبينما بدأ پيار ينسحب، استوقفه دولوخوف من ذراعه وقال له بصوت مرتفع يحمل طابع تمجيد خاص، غير مبال بوجود غرباء:

ـ يفتنني أن ألقاك هنا، عشية يوم لا يعلم إلا الله الذين سوف يبقون على قيد الحياة بيننا. وإنني سعيد إذ أقول لك إنني آسف لسوء التفاهم القديم وإنني أرغب في ألّا يكون في نفسك شيء من الضغينة ضدي. تفضل بالصفح عني.

www.Maktbah.com

نظر إليه پيار وابتسم دون أن يعرف كيف يجيب، بينما ضمه دولوخوف إلى قلبه والدموع تتلألأ في عينيه.

والتفت الكونت بينيغسن نحو پيار بعد أن حدثه بوريس ببضع كلمات ودعاه إلى مرافقته في جولته التفتيشية قال له:

ـ سوف يثير ذلك اهتمامك.

فأجاب پيار:

ـ نعم بدون شك.

وفي غضون نصف ساعة، عاد كوتوزوف إلى تاتارينوڤو، بينما توجه بينيغسن وحاشيته، ومعهم پيار، نحو خطوط القتال.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والعشرون

بعد أن اجتازوا الجسر وقرية بورودينو، وقد كان بينيغسن نزل من غوركي على الطريق الرئيسية حتى وصل إلى ذلك الجسر الذي دلّ الضابط پيار عليه من فوق التل مشيراً إلى أنه «وسط» الموقع، والذي انتشرت بقربه رزمة من الحشيش العطر. هناك استداروا إلى اليسار ومروا بحشد كبير من الجنود والمدافع فعرضت لأنظارهم ربوة كان المتطوعون يقلبون أرضها. تلك كانت الحصن الذي عرف فيما بعد باسم «حصن رايـيـڤسكي» أو «بطارية التل».

لم يعلق پيار عليها إلا اهتماماً عابراً لأنه لم يكن يعتقد أن ذلك الحصن سيصبح بالنسبة إليه المكان الذي يستحق الذكر أكثر من أي موقع آخر من ساحة المعركة. وبعد أن عبروا خوراً، بلغوا قرية سيمينوڤسكوي حيث كان الجنود يحملون آخر أخشاب الأكواخ والمكادس. وأخيراً، وبعد سلسلة من المرتفعات والمنخفضات، عبر حقول من الشيلم الذي حطمه البرد، وصلوا إلى طريق شقّته المدفعية بين أخاديد حقل محروث ومنه وصلوا إلى الخنادق التي كانوا يقومون بحفرها.

وعندما وصلوا إلى هناك، رفع بينيغسن عينيه قبالته نحو حصن شيـڤاردينو الذي كان حتى الأمس في أيدينا والذي كان يرى حوله بعض الفرسان. ولقد زعم بعض الضباط أن واحداً من أولئك الفرسان كان ولا ريب ناپليون أو مورا. فراح الجميع ينظرون تلك الناحية بتعطش وراح پيار يسعى لمعرفة مَنْ

www.Maktbah.com

مِنْ أولئك الفرسان يمكن أن يكون ناپليون. لكن الجماعة ما لبثت أن تركت التل وضاعت عن متابعة الأنظار.

شرح بينيغسن لجنرال كان يقترب، في تلك اللحظة من موقع قطعاتنا بالتفصيل وراح پيار يصغي إليه جاهداً أن يتفهم موضوع المعركة المقبلة. لكنه لمس أن ذكاءه لا يبلغ هذا الحد لأنه لم يكن يفهم من الشرح شيئاً. وبينما بينيغسن ينهي درسه، لاحظ ما اعترى وجه پيار من أمارات وهو يصغي إليه فسأله فجأة:

ـ لن يثير هذا اهتمامك بدون شك؟

فاحتج پيار بقليل من الإخلاص: بل على العكس؟

اتجهوا إلى اليسار بعد موقع الاستحكامات عبر طريق متعرج يخترق غابة من أشجار السندر الصغيرة. وفي وسط تلك الغابة، انبعث أمامهم أرنب بري أشهب ذو قوائم بيضاء. ولقد روعه اقتراب كل هذا العدد من الجياد، ففقد صوابه وراح يعرقص طويلاً على الطريق مثيراً الضحك العام حتى أنه لم يعتزم أخيراً الدخول إلى الدغل إلا بعد أن صاحت عدة حناجر تفزعه. وبعد نصف ساعة، انتهوا إلى فسحة جرداء تشغلها وحدة توتشكوف التي عُهد إليها الدفاع عن أقصى الجناح الأيسر.

وهنا تحدث بينيغسن طويلاً وبحماسة ثم اتخذ إجراء خيل إلى پيار أنه ذو أهمية أولية. لقد كان قبالة وحدة توتشكوف تل أهملوا احتلاله، فانتقد بينيغسن هذا الخطأ بصوت مرتفع قائلاً إن من الجنون ترك نقطة تتحكم في المنطقة دون حماية وإنه يجب إقامة وحدات عند أسفل التل. ولقد أعرب بعض الجنرالات عن الرأي نفسه. بل إن أحدهم، أعرب بصراحة عسكرية صميمة أنهم أرسلوهم إلى المسلخ. فأمر بينيغسن من تلقاء نفسه باحتلال التل وغير مراكز القطعات.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لقد أقنع هذا التصرف پيار بعجزه عن تفهم الفن الحربي. تساءل وهو يشاطر بينيغسن وجنرالاته الرأي، كيف استطاع الذي أقام وحدة توتشكوف هنا، أن يرتكب مثل هذا الخطأ الفاحش.

كان يجهل أن تلك الوحدة لم تكن مهمتها حماية الموقع كما تصور بينيغسن، بل إنهم أخفوها هناك استعداداً لشرك أعد سلفاً بقصد مهاجمة العدو بغتة وهو في سيره. ولقد خضع بينيغسن وهو يبدل ذلك الموقع لوجهات نظر خاصة حاذر أن يطلع القائد الأعلى عليها.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع والعشرون

ليلة الخامس والعشرين كان الأمير أندريه يستريح في مكدس خرب في قرية كينازكوڤو عند الطرف الأقصى من الجبهة التي يدافع لواؤه عنها. كان يتكئ على مرفقه ينظر خلال الحواجز المفككة إلى خط من السندر الثلاثيني ذي الأغصان المنخفضة المشذبة الذي يمتد على طول الحاجز وإلى حقل تناثرت فيه جرز العلف غيضة يتصاعد منها دخان المطابخ.

وعلى الرغم من أنه اعتقد بأنه شخص عديم الفائدة ولا يليق بالحياة، فقد شعر بالانفعال وشدة التأثر كشعوره عشية معركة أوسترليتز قبل سبعة أعوام.

لقد تلقى الأوامر المتعلقة بمعركة الغد ونقلها فلم يتبق له ما يعمله. لكن أكثر الأفكار بساطة وبالتالي أكثر إيلاماً، ما برحت تهاجمه. كان يعرف أن تلك المعركة ستكون أشد هولاً من كل المعارك التي خاضها لذلك فقد تمثلت له لأول مرة إمكانية الموت بكل وضوح وعلى شكلها المخيف، بحدة بل بالتأكيد. لم يعد يتساءل عن التأثير الذي يمكن أن يحدثه هذا العارض في الآخرين بل أصبح يتصوره على زاوية شخصية بحتة، كما لم يعد يفكر إلا في نفسه. وممّا بلغته أفكاره، استضاء كل ما كان يعذبه من قبل عذاباً مبرحاً بنور أبيض بارد دون ظلال ولا توقع ولا خطوط واضحة. أدرك أنه لم يتأمل حياته حتى ذلك الحين إلا على ضوء مصباح سحري وتحت إضاءة اصطناعية. أصبح يرى فجأة تلك اللوحات الملونة دون واسطة عدسة بل على ضوء النهار

twitter @baghdad_library

الباهر. راح يحدث نفسه وهو يستعيد لوحات ذلك المصباح السحريّ الرئيسية التي راح ينظر إليها الآن على ضوء ذلك النور الأبيض البارد الذي تلقيه فكرة الموت المشرقة: «نعم، نعم. ها هو ذا ذلك السراب الخادع التي طالما هزني وأثارني وآلمني. ها هي ذي، هذه الصور الملونة بغلظة التي تبدو لي رائعة جداً وشديدة الغموض. المجد، الصالح العام، الحب، بل الوطن نفسه. كم كانت كل هذه الأشياء تبدو لي كبيرة ومليئة وذات معنى عميق! مع أنها كلها شديدة الشحوب، غليظة على الضوء الفاضح الذي يلقيه هذا الضجر الذي أشعر أنه يشرق علي!» ولقد كانت آلامه الثلاثة الكبرى تستنفد كل اهتمامه: حبّه، موت أبيه وغزو الفرنسيين الذين باتوا يحتلون نصف روسيا. وفجأة صاح بمرارة ساخرة: «الحب!.. تلك البنية التي كانت تبدو لي زاخرة بكثير من القوى المبهمة! وماذا! كنت أحبها، وأقيم أحلام حب شاعرية وأحلام سعادة..

يا للطفل الصغير! أي نعم! كنت تؤمن بلست أدري أي حب مثالي كان عليه أن يبقيها مخلصة لك طوال عام كامل من الغياب. كان عليها أن تضني نفسها بانتظار كحمامة القصة الحانية.. لكن كل شيء كان وللأسف أكثر بساطة!.. إن كل هذا بسيط بشكل مريع ومنفر!».

«كان أبي يبني في ليسيياغوري ويعتقد أن ذلك الركن يخصه وأن فيه أرضاً وهواء وقرويين له. لكن نابليون جاء فجأة ودون أن يعرف أن أبي موجود، كنسه وكأنه حطام قش، هو وليسيياغوري. وماري تزعم أنه اختبار آتٍ من الأعلى! فلماذا هذا الاختبار إذن طالما أنه لم يعد حياً ولن يحيا أبداً؟ كلا، إنه لن يعود بعد اليوم أبداً. وإذن، لمن هذا الاختبار؟.. الوطن، خسارة موسكو! لكنهم غداً سيقتلونني. ولن يكون الفاعل فرنسياً بل سيكون واحداً من رجالنا، مثل ذلك الجندي الذي أطلق سراحه أمس قرب أذني.. سيأتي

الفرنسيون وسيحملونني من قدمي ورأسي ويلقونني في حفرة كي لا تؤذيهم رائحتي النتنة.. وستقوم شروط حياتية جديدة وستصبح طبيعية تماماً بالنسبة إلى آخرين كالنظم السابقة.. ولن أعرفها. إذن لن أكون على قيد الحياة».

راح يتأمل خط أشجار السندر وأوراقها الصفراء وقلافتها البيضاء التي تلتمع تحت أشعة الشمس. «الموت.. نعم، يمكن أن أقتل غداً.. أن لا أصبح من أهل الحياة.. وأن كل هذا موجود ولكنه بالنسبة إليّ انتهى، انتهى كل شيء». تمثل مشهد الحياة في سياقها الطبيعي بوضوح دون أن يساهم فيها. وأشجار السندر تلك بألوانها وظلالها، وتلك الغيوم الكثيفة ودخان المعسكرات ذاك، كل ذلك انقلب فجأة واتخذ أمام ناظريه شكلاً مخيفاً مهدداً فاقشعر بدنه، نهض فجأة وخرج وراح يذرع الأرض.

وفجأة دوت أصوات وراء الضفة فسأل الأمير أندريه: من هناك؟

دخل تيموخين، الضابط ذو الأنف الأحمر، القائد السابق لسرية دولوخوف الذي عين بسبب نقص الضباط قائد لواء، إلى المكدس خجلاً. وكان ضابط تابع والضابط المحاسب يتبعانه.

نهض أندريه متلهفاً وأصغى إلى تقرير مرؤوسيه ثم أنهى إليهم أوامره الأخيرة. كاد يصرفهم عندما تناهت إليه من الخارج نغمة صوت مألوف لديه. زمجر أحدهم وقد اصطدم بدون شك بحاجز ما: يا للشيطان!

فألقى أندريه نظرة على الخارج فعرف پيار. كان هذا يشتم خشبة اشتبكت قدمه بها. وكان أندريه لا يتوقع رؤية أشخاص من بيئته وعلى الخصوص پيار الذي يذكره بفترات إقامته الأخيرة في موسكو الأليمة. قال:

ـ آه! هذا أنت، أية مصادفة جاءت بك؟ لم أكن أتوقع رؤيتك.

كان في صوته وعينيه وفي كل أماراته برود وعداء شديدا الظهور حتى أن مزاج پيار المرح لم يستطع مقاومة هذا الاستقبال فشعر بشيء من الانزعاج.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

غمغم پيار الذي استعمل خلال ذلك النهار كلمة «هام» عديمة المعنى مرات كثيرة: لقد جئت.. هكذا.. إنه شديد الأهمية.. أردت مشاهدة المعركة.

سأله پيار ساخراً: آه، حقاً! والإخوان الماسونيون، ماذا يقولون عن الحرب؟ هل استطاعوا منعها؟

ثم أضاف بلهجة أكثر جدية:

ـ وماذا يقولون في موسكو؟ هل وصل ذويّ؟

ـ نعم. لقد قالت لي جولي درويتسكوي ذلك. ولقد ذهبت لرؤيتهم، لكنني لم أجدهم إذ كانوا قد ارتحلوا إلى بيتكم الريفي.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس والعشرون

لم يكن أندريه يرغب في الانفراد مع صديقه، فاستبقى الضباط الذين أرادوا أن ينسحبوا ثم جيء بمقاعد وقُدم الشاي. أخذ الضباط يتأملون جسم پيار الضخم بدهشة ويصغون إلى ما يرويه عن موسكو والمواقع التي طاف بها. ولقد ظل أندريه متخذاً مظهراً فيه كثير من العناد حتى أن پيار أخذ يفضل مخاطبة تيموخين الفاضل وفجأة قاطعه أندريه:

ـ وإذن، لقد فهمت تنظيم القطعات جيداً؟

ـ نعم.. أو على الأصح، لما كنت غير مختص، فإنني لا أستطيع القول بأنني فهمته تماماً. لكنني استوعبت الخطوط العامة.

ـ إذن، إنك أكثر تقدماً من أي كان.

قال پيار وهو ينظر إليه خلال نظارتيه بذهول:

ـ كيف! إذن، ماذا تقول عن تعيين كوتوزوف؟

ـ لقد سرني تعيينه. هذا كل ما أستطيع قوله.

ـ وماذا تفكر في باركلي دوتوللي؟ الله يعلم ماذا قالوا عنه في موسكو. هيا، ما هو رأيك عنه؟

قال أندريه وهو يشير إلى الضباط:

ـ سل هؤلاء السادة.

وبمثل تلك الابتسامة الرحيمة التي تطوف على شفاه كل من ينظر إلى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تيموخين، نظر پيار إلى هذا فأجاب تيموخين بشيء من التردد وهو شاخص بأنظاره إلى زعيم فوجه:

ـ كما ترى سعادتك، لقد شاهدنا النور عندما اضطلع «عظيم الرفعة» بأعباء القيادة.

فسأله پيار:

ـ وكيف ذلك؟

ـ حسناً. لنأخذ مثلاً الحطب والعلف. عندما تراجعنا أمام سوينسياني، كان محظوراً لمس غمر من العلف أو قشة تبن. مع ذلك، لقد كان «هو» الذي سيستفيد منها ما دمنا سنرحل، أليس كذلك يا صاحب السعادة.

كانت العبارة الأخيرة موجهة إلى أميره. وتابع: لقد مثل ضابطان من فيلقنا أمام المحكمة لأسباب من هذا النوع. أما مع «عظيم الرفعة»، فقد أصبح كل شيء أكثر بساطة. لقد شهدنا النور.

ـ وإذن، لماذا حظر باركلي دوتوللي هذا العمل؟

أخذ تيموخين يدير عينيه مرتبكاً بهذا السؤال دون أن يجيب. فبادر الأمير أندريه إلى نجدته فقال بلهجة ساخرة مريرة:

ـ ولكن، لكي لا نتلف الأرض التي نسلمها للعدو. وأي شيء أكثر عدالة؟ لا يمكن السماح للجنود بنهب البلاد أو بالقيام بأعمال السلب. ولقد فكر تفكيراً صحيحاً في سمولنسك أيضاً عندما زعم أن العدو يمكن أن يلتف حولنا وأن قواته أكثر من قواتنا.

ـ وفجأة صاح بصوته الثاقب: مع ذلك، فإن ما لم يستطع فهمه، نعم، ما لم يستطع فهمه، هو أننا كنا في سمولنسك ندافع لأول مرة عن أرض روسية وأننا صددنا خلال يومين متعاقبين هجمات الفرنسيين، وأن مقاومتنا ضاعفت قوانا إلى عشرة أمثال. مع ذلك فقد أمر بالانسحاب فأصبحت مجهوداتنا كلها

www.Maktbah.com

وخسائرنا عديمة الجدوى. لا شك أنه لم يكن يفكر في الخيانة بل كان يعمل جاهداً لبلوغ أفضل النتائج ويزين كل الأشياء. لكنه من أجل ذلك بالذات لا يساوي شيئاً. إنه لا يساوي شيئاً، نعم، لأنه ككل ألماني جيد، يهتم كثيراً بكل الأمور. كيف أشرح لك؟... لنفرض أن لأبيك خادماً ألمانياً. إنه تابع ممتاز، يخمن رغبات أبيك وينفذها أفضل مما تستطيع أنت، فتترك له الحرية التامة في خدمته. ولكن إذا كان أبوك مشرفاً على الموت، فإنك حينئذ ستنحي ذلك الرجل وستعنى بأبيك بيديك عديمتَي المهارة والحذق وسترفه عنه أفضل مما يفعل غريب، مهما بلغ شأنه وهكذا تصرفوا مع باركلي دوتوللي. ما دامت روسيا على مايرام، كان يستطيع الأجنبي أن يخدمها وأن يقوم بدور وزير ممتاز. ولكن منذ أن أصبحت في خطر، بات من الضروري أن يكون فيها رجل من دمها. لقد زعموا في ناديك أنه خائن! ولسوف يخجلون ذات يوم من هذه الشتيمة وسيجعلون منه بطلاً أو عبقرياً، الأمر الذي سيكون أكثر إجحافاً. إنه ليس أكثر من ألماني شريف ومدقق.

اعترض پيار: يقولون إنه رجل حرب ماهر.

فأجاب أندريه بابتسامة ساخرة: أنا أجهل معنى هذا القول.

ـ إن رجل حرب ماهراً هو الذي يرى مسبقاً كل العرضيات... الذي يخمن نيات العدو.

فأجاب أندريه وكأن المسألة قد حُسمت منذ زمن بعيد:

ـ لكن هذا مستحيل.

نظر إليه پيار بدهشة وقال:

ـ مع ذلك فهم يزعمون أن الحرب تشبه شوط شطرنج.

فقال أندريه:

ـ نعم، مع ذلك الفرق الصغير التافه أن في الشطرنج يستطيع المرء أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يفكر بعد كل حركة كما يريد إذ إن الوقت لا يلعب فيه أي دور، ومع ذلك الفرق أن «الفرس» أقوى دائماً من «البيدق» وأن «بيدقين» أقوى دائماً من بيدق واحد. بينما في الحرب، يكون اللواء أحياناً أقوى من فيلق كامل وأحياناً أضعف من سرية. ما من أحد يستطيع معرفة قوى القطعات النسبية، صدقاً أنه لو كانت النتائج تتوقف على الإجراءات المتخذة في قيادات الأركان، لاستمررت في القيادة العامة لإعطاء الأوامر. في حين أن لي شرف الخدمة هنا، في هذا الفوج مع هؤلاء السادة وأقدر أن نتيجة يوم غد تتوقف علينا.. إن النجاح لم يتوقف قط ولن يتوقف على الموقع ولا التسلح ولا حتى على العدد على أية حال، ليس على الموقع!

ـ وإذن على أي شيء؟

ـ على الشعور الذي في نفسي وفي نفسه ـ وأشار إلى تيموخين ـ وفي نفس كل جندي.

نظر الأمير أندريه إلى تيموخين الذي كان يحدّق إلى رئيسه بعينين مروعتين قلقتين. لقد بدا الأمير أندريه الآن مضطرباً وهو الذي كان متحفظاً من قبل. وكان واضحاً أنه عاجز عن كبت الأفكار التي هاجمته فجأة.

ـ إن هذا يكسب المعركة التي صمم بعزم أن يربحها. لماذا خسرنا معركة أوسترليتز؟ لم تكن خسائرنا تفوق خسائر الفرنسيين لكننا حدثنا نفسنا في وقت مبكر بأننا هزمنا فكنا كذلك. ولقد قلنا لأنفسنا ذلك لأننا لم نكن نرغب في القتال، كنا نريد مغادرة ساحة المعركة بأسرع ما يمكن. «لقد ضاعت المعركة فلم يبق إلا الفرار!» ثم فررنا. ولو أننا لم نعمد إلى هذه اللغة لكان الله يعلم بما كان سيقع. أما غداً فسيكون الأمر مختلفاً. إنك تتنبأ بأن جناحنا الأيسر ضعيف وأن جناحنا الأيمن طويل الامتداد. ترهات كل هذه! سوف تقع غداً ملايين وملايين من الحوادث العرضية تجعل رجالهم ورجالنا في

www.Maktbah.com

وقت ما يفرون، وتسبب في مقتل فلان أو فلان. ولكن بانتظار ذلك، كل ما صنع وأقيم ليس إلا لعبة. إن أولئك الذين زرت معهم الموقع، أبعد من أن يساعدوا على سير العمليات، يعملون على عرقلتها. إنهم لا يفكرون إلا في مصالحهم الشخصية التافهة.

قال پيار ساخطاً: في مثل هذه اللحظة؟

فاستأنف الأمير أندريه:

ـ نعم، في مثل هذه اللحظة. إن هذه اللحظة في نظرهم ليست إلا اللحظة المناسبة لنسف مركز خصم والحصول على صليب أو وشاح آخر. إليك، حسبما أرى، الموقف كما هو: سيتقاتل غداً جيش مؤلف من مائة ألف روسي ضد مائة ألف فرنسي. والجيش الذي سيكون أشد ضراوة وأقل اقتصاداً لمجهوداته، هو الذي سيربح المعركة. وإنني لأقول لك إنه مهما حدث، وعلى الرغم من مؤامرات الرؤساء، فإننا نحن الذين سننتصر. نعم «غداً» سنربح المعركة رغم وضد كل شيء.

تدخل تيموخين قائلاً:

ـ إنها الحقيقة يا صاحب السعادة. هل هذا وقت التحفظ؟ هل تصدق: قد رفض جنود لوائي شرب قطرة واحدة من الشراب. إنهم يقولون: ليس الوقت مناسباً.

ساد صمت رهيب، فنهض الضباط وتبعهم الأمير أندريه ليزودهم آخر تعليماته. وعندما انصرفوا، أراد پيار أن يستأنف البحث، لكن وقع حوافر جياد ثلاثة سمع على الطريق على مقربة من الضفة. نظر أندريه إلى تلك الجهة فإذا القادمون ڤولزوغن وكلوزويتز يرافقهما قوقازي. ولقد مروا قريباً جداً حتى أن الصديقين استطاعا التقاط نتف من حديثهما. كان أحدهما يقول بالألمانية:

ـ يجب أن تمتد رقعة الحرب، هذا رأي لا أستطيع إلا أن أؤيده.

twitter @baghdad_library

والآخر يجيبه مؤيداً:

صحيح، إن الهدف هو إضعاف العدو. بينما لا تدخل خسائر الأفراد الخصوصيين في ميزان التقدير.

ـ بديهياً.

وعندما مر الرجلان، ردد الأمير أندريه في غضب متفجر:

ـ حقاً، ينبغي أن تمدد الرقعة! إن أبي وابني وأختي ظلوا ضمن هذا الامتداد بينما لا يهتم هذان السيدان بالموضوع. هذا ما كنت أقول لك: ليس هؤلاء الألمان الذين سيكسبون المعركة غداً. إنهم سيفسدون كل شيء، بقدر طاقتهم لأن رأسهم الضخم لا يستوعب إلا آراء لا أدفع دبوساً ثمناً لها. وليس في قلبهم شيء مما يجب من أجل الغد، شيء مما في قلب تيموخين. بعد أن «أعطوه» أوروبا كلها، أخذوا الآن يتدخلون لتلقيننا الدروس.

وأردف بصوت حاد: آه! يا للأساتذة الفاتنين الذين لدينا هنا!

سأل پيار:

ـ إنك تعتقد إذن أننا سنربح المعركة؟

ـ فأجاب أندريه ساهماً:

ـ نعم، نعم. على أية حال، لو أن الأمر لم يكن متوقفاً إلا عليّ، فإننا لن نأخذ أسرى. أسرى؟ إنه عمل من الفروسية لقد نهب الفرنسيون بيتي وهم مصممون على نهب موسكو. لقد أهانوني وما زالوا يهينونني كل لحظة. إنهم أعدائي، أرى فيهم جميعاً مجرمين يجب قتلهم. وما داموا أعدائي فلا يمكن أن يكونوا أصدقائي رغم كل محاضراتهم الجميلة في تيلسيت.

ـ قال پيار مؤيداً وقد التمعت عيناه:

ـ بالتأكيد. أنا من رأيك تماماً.

بدت المشكلة التي ما فتئت تشغل بال پيار منذ منحدر موجاييسك،

www.Maktbah.com

واضحة الآن وقد حُلت نهائياً، بات يفهم معنى هذه الحرب والمعركة المقبلة كاملاً، ولقد اتخذ كل ما رآه ذلك اليوم وما شاهده من وجوه صارمة متزنة أثناء مروره، ضوءاً جديداً أمام عينيه، فهم الحرارة «الكامنة» كما يقولون في الفيزياء، الوطنية أولئك الناس كلهم وأصبحت تشرح له الآن لماذا يستعدون جميعهم للموت بهدوء قريب من اللاشعور.

تابع الأمير أندريه:

ـ إن عدم أخذ أسرى معناه تحويل الحرب كلها وجعلها أقل قسوة، وبدلاً من ذلك، فإننا للأسف، نلعب لعبة الحرب! إننا نظهر كرمنا، وهذا الكرم، وهذا الإحساس، يذكرانني بإحساس ربة بيت صغيرة تشعر بالانزعاج أمام منظر عجل يذبح لأن قلبها الرقيق لا يسمح لها برؤية الدماء تسيل. لكنها تشبع معدتها راضية من لحم ذلك العجل بالذات المعد مع المرق الجيد، إنهم يبرزون قوانين الحرب، الإنسانية، الفروسية، احترام المفاوضين، إلخ.. ترهات كل هذه! لقد شهدت كل هذه الأشياء الجميلة عام ١٨٠٥: لقد خدعونا وخدعنا، إنهم يسلمون منازلنا للسلب ويضعون قيد التداول أوراقاً نقدية زائفة ثم، وهذا هو الأسوأ، يقتلون أبي وأولادي ثم يأتون إلي بعد ذلك ليحدثوني عن قوانين الحرب والكرم تجاه العدو! كلا، لا يجب أخذ أسرى بل يجب قتلهم جميعاً والسير كذلك إلى الموت! إن ذلك الذي بلغ مثلي هذا الاعتقاد ماراً بما مرّ بي من آلام..

أراد الأمير أندريه أن يقول إنه سيان عنده احتلت موسكو أو لم تُحتل كما وقع لسمولنسك، لكن غصة اعتصرت حنجرته فخطا بضع خطوات صامتاً ثم عاد إلى بحثه محموم العينين مرتجف الشفتين:

ـ لولا هذا الكرم المزيف، لما كنا لنمشي إلا عندما يجب الذهاب إلى موت محقق كاليوم. ولن تكون هناك حروب بحجة أن پاڤل إيـڤانيتش قد أهان

twitter @baghdad_library

ميخائيل إيـﭬانيتش، وعندما تنشب حرب كحرب اليوم، فستكون حينئذ حرباً حقيقية، ولا شك أن عدد القطعات وتأثيرها سيكون أقل كثيراً مما هو عليه اليوم، لأن كل هؤلاء الهسيين[1] والويستفاليين الذين يجرهم ناپليون وراءه ما كانوا ليتبعوه إلى روسيا ولما ذهبنا نحن لنقاتل في بروسيا والنمسا دون أن نعرف السبب. أي محل للظرافة في الحرب؟ أليست الحرب أكثر ما في الوجود خزياً وعاراً؟ يجب أن يتذكرها المرء فحسب لا أن يجعل منها تسلية. إن هذه الضرورة المخيفة يجب أن تُتقبل بالرغبة الجدية، لنبعد كل كذبة: الحرب، إنها الحرب وليست ألعوبة، يجب ألّا يُجعل منها تسرية برسم العاطلين وذوي الأفكار الطائشة، أليست المهنة العسكرية معتبرة أنبل كل المهن؟

«مع ذلك، ما هي هذه المهنة؟ وكيف يحصل المرء فيها على النجاح؟ وأية عادات يألفها أولئك الذين يمتهنونها؟ إن غايتها هي القتل ووسائلها التجسس والخيانة والتشجيع على الخيانة ودمار السكان والنهب والسرقات التي تقع لتزويد الجيش والخداع والكذب المزينين باسم خداع الحرب، وعاداتها الاسترقاق المعمّد باسم الطاعة والبطالة والغلظة والقسوة والفجور والسكر، مع ذلك، فإن الطائفة العسكرية تترأس الطوائف الأخرى والناس كلهم يمجدونها، إن الملوك كلهم، باستثناء أمبراطور الصين، يرتدون البزة العسكرية ويعطون أسخى المكافآت وأرفعها للذي قتل عدداً أكبر من الناس.

أن يلتقي عشرات الألوف من الرجال، كما سيكون الحال غداً، ليجرح بعضهم بعضاً وليتقاتلوا ويشوهوا بعضهم بعضاً، فإن قداسات ستقام، قداسات غفران، لأنهم قتلوا كذا وكذا عدداً من الرجال الذي يزيدونه تباعاً على أية حال، مقدرين أنه كلما ازداد عدد القتلى، كان النصر أكثر روعة».

---

(١) اسم ولايات ثلاث في الاتحاد الجرماني. (المترجم).

www.Maktbah.com

وصاح أندريه بصوته النباح: «كيف يرى الله من عليائه هذا الأمر ويتقبل تلك الصلوات! آه يا عزيزي، لقد برمت في الحياة كثيراً في الآونة الأخيرة! لا شك أنني بدأت أفهم أشياء كثيرة، إنه ليس من المناسب للرجل أن يتذوق ثمار شجرة الخير والشر.. ثم إنه لن يتذوقها طويلاً على أية حال.. لكنني أراك نائماً؟ لا شك أن الوقت قد حان لأغفو قليلاً، عد إلى غوركي».

أجاب پيار وهو يلقي على أندريه نظرة مطبوعة بألم: آه، كلا!

ـ بل نعم، امض، لكي يقاتل المرء جيداً يجب أن ينام جيداً.

اقترب فجأة من پيار وعانقه بشدة وصاح:

ـ هيا، اذهب. الوداع، ترى هل نرى بعضنا أبداً؟

واستدار بسرعة ودخل المكدس، ولما كان الظلام قد حل، فإنّ پيار لم يستطع أن يميز وجه صديقه خلال فترة الوداع وهل كان حانياً أم صارماً، تردد بعض الوقت في اتخاذ قرار اللحاق به، لكنه قال لنفسه مصمماً: «كلا، إنه ليس في حاجة إلي، ثم إنني أعرف أن هذا آخر لقاء لنا». وأطلق تنهّدة عميقة وعاد إلى غوركي.

تمدّد أندريه، بعد أن دخل مكدسه، على «بطانية»، لكن النوم لم يجد إليه سبيلاً، لقد كانت الصور فوق الصور تحاصره فتوقف عند إحداها مبتسماً، كان يرى سهرة في پيترسبورغ وناتاشا تروي له باندفاع كيف ضاعت في الصيف الماضي في غابة كبيرة. بينما كانت تسعى وراء الفطر، كانت تصف له بحماسة الغابة العميقة والإحساسات التي اعتلجت في قلبها والحديث الذي دار بينها وبين أحد مربي النحل، وتبتر حديثها في كل لحظة لتقول له: «كلا، لا أحسن الرواية، فلا تستطيع إذن أن تفهمني». لكنه كان يطمئنها زاعماً أنه يفهمها فهماً كاملاً لأنه في واقع الحال كان يعرف ما ستقوله، وكانت ناتاشا تتحسر لأنها لا تستطيع الإعراب عن الانفعال الشاعري الذي استحوذ عليها ذلك اليوم،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتقول بحميًّا ووجهها محمرّ: «كان ذلك الهرم فتاناً جداً، والظلام كثيف جداً في الغابة، وله عدد طيب جداً.. كلا، لا أحسن الرواية». وأخذ أندريه يبتسم تلك الابتسامة السعيدة التي كانت تطوف على شفتيه كلما نظر إلى عينيها. «آه! كنت أفهمها جيداً. أجل، كنت أفهمها وكنت أحب فيها روحها الجياشة الخالصة المتهورة التي كانت أشبه بالسجينة في جسدها.. نعم، تلك كانت الروح التي كنت أحبها حباً عنيفاً جداً كان يبعث في نفسي سعادة غامرة..» وفجأة، تذكر الخاتمة الحزينة لذلك الحب. «لم يكن ذلك الرجل ليأبه لكل هذا. لم يكن يرى فيها إلا قذاة فتاة جميلة لا يجد أنها جديرة بأن يشركها في مصيره. أما أنا؟.. ثم القول بأن هذا الشخص لا يزال على قيد الحياة!».

قفز أندريه عند هذه الذكرى وكأن بعضهم أحرقه بحديد محمى وعاد يذرع أرض المكدس جيئة وذهاباً.

www.Maktbah.com

الفصل السادس والعشرون

عشية معركة بورودينو، في الخامس والعشرين من شهر آب، وصل السيد دو بوسيّه المشرف على القصر والزعيم فابييه، الأول من باريس والثاني من مدريد، إلى معسكر ناپليون في ڤالوييـڤو.

وبعد أن ارتدى بزة البلاط، حمّل السيد دو بوسيّه رزمة بحضوره كان عليه أن يسلمها إلى الأمبراطور ودخل المقصورة الأولى من الخيمة الأمبراطورية حيث راح يفك الرزمة وهو يثرثر مع المساعدين العسكريين الذين حاصروه بالأسئلة، وفي تلك الأثناء، كان فابييه الذي أوقف أمام الخيمة يتحدث مع أصدقائه من الجنرالات.

وكان الأمبراطور ينهي زينته في غرفة النوم، فكان يمد ظهره العريض تارة وهو ينخر وتارة صدره الثمين للفرشاة التي كان أحد الخدم يدلكه بها، بينما راح خادم آخر، وإصبعه فوق فتحة زجاجة، يبلل جسد سيده المرفه بماء الكولونيا ووجهه ينطق بأنه وحده الذي يعرف أين وبأية كمية يجب أن يسفح العطر على الجسد. وكان شعر ناپليون القصير مبللاً ومشعثاً فوق جبينه ووجهه رغم صفرته وانتفاخه، يعبر عن الراحة والرضى.

قال وهو منكمش تحت عملية التدليك: «هيا، استمر بحزم..» وكان مساعد عسكري ينتظر الأمر بالانصراف بعد أن أنهى إليه عدد الأسرى الذين وقعوا في معركة الأمس فألقى ناپليون نظرة نحوه وهو يصر على أسنانه. قال

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

معقباً على تقريره: ليس من أسرى! إنهم يدمّرون أنفسهم. خسارة على الجيش الروسي..

ـ استأنف وهو يحدب ظهره تحت الفرشاة:

ـ استمر، استمر بحزم.. حسناً، ادخلوا السيد دو پوسيّه وكذلك السيد فابييه.

وبعد أن أصدر هذا الأمر إلى المساعد العسكري، صرفه بإشارة من رأسه فقال هذا: نعم يا صاحب الجلالة.

انسحب المساعد وبدأ الخادمان يلبسان جلالته بحذاقة وبعد أن ارتدى زي الحرس الأزرق، ذهب إلى صالة الاستقبال بخطى متلاحقة ثابتة.

وكان السيد دو پوسيّه هدية الأمبراطورة التي جاء بها على كرسيين قبالة المكان الذي وجب أن يأتي الأمبراطور منه. لكنه دخل بشكل مفاجئ، حتى أن هذا لم يجد الوقت الكافي لإنهاء إعداداته.

لقد خمن ناپليون أنهم بصدد إعداد مفاجأة له فلم يشأ حرمان السيد دو پوسيّه من تلك المتعة، لذلك تظاهر بأنه لم يره. استدعى السيد فابييه وراح يصغي إليه في صمت عبوس ما كان يروي له عن بسالة جنود جلالته وتفانيهم في قتالهم في سلامانك[1]، في الجانب الأقصى الآخر من أوروبا وأنهم لا يرغبون إلا في أن يكونوا جديرين بأمبراطورهم ويخشون أمراً واحداً وهو أن لا يوفقوا في إرضائه. ولقد كانت نتائج القتال مؤسية لذلك فقد ألمح إليه ناپليون ببضع ملاحظات ساخرة، أن الأمور لا يمكن في غيابه أن تسير على نحو آخر. قال: يجب أن أصحح هذا في موسكو. بعد حين.

استطاع السيد دو پوسيّه، خلال ذلك، أن ينتهي من تهيئة مفاجأته التي

---

(١) مدينة إسبانية (المترجم).

www.Maktbah.com

كانت ترتكز على بعض الكراسي مغطاة بعناية بستر. ولما التفت ناپليون نحوه، حياه هذا تحية عميقة على الطريقة الفرنسية لا يتقنها إلا خدام آل بوربون القدامى واقترب منه وقدم له غلافاً.

استقبله الأمبراطور ببشاشة وقرز له طرف أذنه. سأله بلهجة انقلبت فجأة إلى حليمة مؤنسة: لقد أسرعت وإنني مسرور. ماذا يقولون في باريس؟

أجاب السيد دو پوسيّه بحكمة:

ـ إن باريس كلها تأسف لغيابك يا صاحب الجلالة!

وعلى الرغم من أن ناپليون كان يتوقع جواباً من هذا النوع، وأنه في لحظات تيقظه كان يعرف كيف يتصرف إزاء هذه الإطراءات، فإنه تقبل هذا الإطراء بسرور وشرف السيد دو پوسيّه بقرزة جديدة لأذنه وقال:

ـ إنني مستاء إذ أراك تقطع كل هذه المسافة الطويلة.

ـ يا صاحب الجلالة، لم أكن أتوقع إطلاقاً أن أراك إلا على أبواب موسكو.

ابتسم ناپليون وألقى على اليمين نظرة ساهمة، فاقترب مساعد عسكري بخطوات متسللة ومد له علبة سعوط ذهبية.

استأنف الأمبراطور وهو يدني من أنفه المسعطة المفتوحة:

ـ نعم، إنك موجود. أنت الذي تحب السفر، سترى موسكو في غضون ثلاثة أيام. لم تكن تتوقع زيارة العاصمة الآسيوية. وبذلك تكون قد قمت بسفر طيب.

وعلى الرغم من أن أمبراطوره افترض فيه ذوقاً لم يكن هو يعرف لوجوده ظلاً فإنّ السيد دو پوسيّه شكره وانحنى لهذه الالتفاتة اللطيفة.

سأل الأمبراطور وهو يرى أن أنظارحاشيته كلها مستديرة نحو الشيء الذي غطي بالستر: ولكن ما هذا؟

twitter @baghdad_library

تراجع السيد دو پوسيّه خطوتين بحذق رجل البطانة المجرب دون أن يدير ظهره رفع الستر وهو يعلن: هدية لجلالتكم من قبل جلالة الأمبراطورة.

كانت الهدية لوحة رسمها جيرار[١] بألوان صارخة للطفل الصغير، المولود من ناپليون وأرشيدوقة النمسا، الذي كان الناس جميعهم يدعونه، دون معرفة السبب، ملك روما. وكان ذلك الطفل الجميل ذو الشعر العكف والنظرة التي تشبه نظرة يسوع في صورة المادونا «لسان سيكست» مرسوماً وهو يلعب بكرة خشبية مثقوبة. وكانت الكرة الأرضية أما المقبض الذي كان ممسكاً به في يده الأخرى فيشبه الصولجان.

وعلى الرغم من أن غاية الرسام لم تكن واضحة تماماً، إذ ما الذي يدعو ملك روما في الواقع إلى أن يثقب الكرة بعصا؟. فإن الاستعارة كانت مفهومة ومقدرة من قبل كل الذين شاهدوا اللوحة في باريس وكذلك بدا حال ناپليون.

قال وهو يشير إلى اللوحة بحركة ظريفة:

ـ ملك روما، رائع!

اتخذ ميزة الإيطاليين التي تجعلهم قادرين على تبديل أمارات وجوههم وفق هواهم، وهو يتقدم من اللوحة بمظهر مُفكر ألماني. كان يعرف أن كل ما سيقوله ويفعله سيصبح ملكاً للتاريخ. ولقد بدا له أن الحنان الأبوي الأكثر صفاء هو المظهر الأكثر ملاءمة، بوصفه مباينة لعظمته التي بفضلها يستطيع ابنه الصغير أن يلعب بالعالم بدلاً من الكرة الخشبية المثقوبة. واغرورقت عيناه بالدموع فراح يبحث بنظره عن كرسي «طار» للقائه ثم جلس أمام اللوحة وأخيراً، صدرت عنه إشارة، فانسحب الجميع على أطراف أصابعهم تاركين الرجل العظيم في خلوة مع أفكاره.

---

(١) رسام التاريخ الفرنسي مؤلف معركة أوسترليتز. (المترجم).

www.Maktbah.com

وبعد أن تأمل اللوحة بضع لحظات ومر بيده على حرشة الألوان بحركة آلية، نهض نابليون واستدعى السيد دو بوسيّه مجدداً كما استدعى الضابط المنوب وأصدر الأمر بأن توضع اللوحة أمام خيمته حتى يتسنى للشعب الخاص أن يرى ملك روما، ابن أمبراطورهم المعبود ووارثه.

ولم يخذل انتظاره إذ بينما كان يتناول طعامه مع السيّد دو بوسيّه الذي حظي بهذا الشرف العظيم، أسرع الضباط ورجال الحرس جماعات جماعات إلى أمام الخيمة وراحوا يحيون الصورة بهتافات حماسية:

ـ يحيا الأمبراطور! يحيا ملك روما! يحيا الأمبراطور!

وبعد الطعام، وبحضور السيد دو بوسيّه، أصدر نابليون أمراً يومياً للجيش ثم قال وهو يقرأ بيانه الذي كتبه دفعة واحدة دون أن يدخل عليه أي تصحيح:

ـ بيان قصير وقوي!

وهذا نص البيان:

«أيها الجنود! ها هي ذي المعركة التي طالما تمنيتموها. إن النصر منذ الآن يتوقف عليكم، وهو ضروري لنا لأنه سيعطينا الوفرة والمراكز الشتوية الجيدة وعودة سريعة إلى الوطن! تصرّفوا كما تصرفتم في أوسترليتز وفريدلاند، وفتيبسك وسمولنسك ولتتحدث الأجيال الصاعدة عن سلوككم في هذا اليوم. ليقولوا عنكم: لقد كانوا في المعركة الكبرى عند جدران موسكو».

ردد نابليون: جدران موسكوڤا!

وبعد أن دعا السيد دو بوسيّه المولع بالسَفَر إلى مرافقته في نزهته، خرج من خيمته واتجه نحو الجياد المسرجة، هم السيد دو بوسيّه أن يعترض وهو الذي كان في حاجة إلى النوم أضف إلى ذلك جهله التام بركوب الخيل: إن جلالتكم تغمرونني بعطفكم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لكن إشارة من رأس ناپليون أرغمت الرحالة على اللحاق به. ولما ظهر الأمبراطور، تضاعفت هتافات جنود الحرس فقطب ناپليون حاجبيه. قال وهو يدل بإشارة عريضة من يده على صورة ابنه:

ـ ارفعوها. لا يزال صغيراً جداً حتى يرى ساحة المعركة.

فأغمض السيد دو پوسيّه عينيه وحنى رأسه وأطلق تنهدة عميقة مدللاً بذلك على أنه يدرك تماماً وساوس جلالته.

www.Maktbah.com

الفصل السابع والعشرون

لقد قضى ناپليون طوال يوم الخامس والعشرين من شهر آب، على جواده الأبيض، حسب قول المؤرخين، يتفحص الأرض ويناقش الخطط التي يعرضها عليه ماريشالاته، ويصدر نفسه الأوامر إلى جنرالاته.

كان خط الروس الأول على طول نهر كولوتشا قد تصدع وسُحب جزء من هذا الخط، وهو الجناح الأيسر، إلى الوراء بسبب سقوط حصن شيڤاردينو يوم الرابع والعشرين من آب. فلم يعد هذا الجزء محصناً أو محمياً بالنهر ولم يعد أمامه إلا قطعة أرض مكشوفة وكان الفرنسيون، بدون شك، سيهاجمون من هناك لأن ذلك كان يقفز لعيني كل ناظر حتى ولو لم يكن عسكرياً. ولم يتمكن إعداد ذلك الهجوم على ما يبدو، يحتاج إلى كثير من التجهيزات ولا إلى كل تلك الروحات والغدوات من جانب الأمبراطور وماريشالاته، حتى ولا إلى تلك القدرة الرفيعة الخاصة التي يسمونها بالعبقرية والتي يحبون كثيراً أن ينسبوها إلى ناپليون. لكن المؤرخين الذين رووا الحادث فيما بعد والرجال المحيطون به والأمبراطور نفسه كانوا يفكرون تفكيراً مختلفاً.

إذن، لقد كان يتجول على جواده دارساً طوبوغرافية الأرض دراسة المتأمل مؤيداً أو رافضاً بإشارة من رأسه الأفكار التي تطوف برأسه، مطلعاً معاونيه دون إظهارهم على سير أفكاره السري على النتيجة بشكل أوامر يوجهها إليهم. عرض داڤو، الذي باتوا الآن يدعونه الأمير ديكموهل، أن يُعمد إلى الالتفاف حول جناح الروس الأيسر. لكن ناپليون اعترض على ذلك

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

دون بيان أسباب الرفض. وفي المقابل، فإنّ الجنرال كومـپان الذي عُهد إليه مهاجمة المتاريس عرض فكرة إخفاء فوجه في الغابة، فوافق الأمبراطور عليها رغم أن الدون ديلشجن المزعوم، أي الماريشال ناي، سمح لنفسه بالاعتراض على هذا الإجراء لأنه خطير يمكن أن يشيع الفوضى بين الصفوف.

وبينما هو يتفحص الأرض قبالة حصن سيـڤاردينو، بقي بضع لحظات صامتاً ثم أشار إلى المواضع التي يجب أن تقام فيها «البطاريتان» المنتدبتان للعمل ضد التحصينات الروسية، في حين تركز مدفعية الميدان حولهما.

وبعد أن أصدر هذا الأمر وأوامر أخرى أيضاً، رجع إلى مقره العام ونصوص المعركة. وكانت تلك النصوص التي يتحدث المؤرخون الفرنسيون عنها بحماسة بينما يتحدث الآخرون عنها بكثير من الاعتبار، كما يلي:

«عند انبلاج الصباح، تبدأ «بطاريتان» جديدتان تقامان خلال الليل على هضبة الأمير ديكموهل، بإطلاق نيرانهما على «البطاريتين» العدوّتين.

«في اللحظة نفسها، يبدأ الجنرال بيزنيتي، قائد مدفعية الفوج الأول بإطلاق النار من مدافعه الثلاثين التي ستكون في جيش كومـپان وكذلك من كل قاذفات القنابل التابعة للفوجين ديسيكس وفريان التي ستقدم إلى الأمام، على «بطارية» العدو التي سيكون أمامها على هذا الشكل مدافع فرقة الحرس الأربعة والعشرين، وثلاثون مدفعاً من فوج كومـپان وثمانية من فوجَي ديسيكس وفريان، المجموع اثنان وستون مدفعاً.

«على الجنرال فوشيه، قائد مدفعية الفوج الثالث أن يتمركز مع كل قاذفات القنابل من الفوجين الثالث والثامن وعددها ست عشرة، حول «البطارية» التي في الحصن الأيسر وبذلك يصبح عدد المدافع ضد هذه «البطارية» أربعين مدفعاً.

«على الجنرال سوربيه أن يكون مستعداً عند أول أمر، على الانفصال مع

www.Maktbah.com

كل قاذفات القنابل التابعة لسلاح الحرس للمبادرة إلى هذا الحصن أو ذاك.

«خلال هذا القصف، يمضي الأمير يونياتوڤسكي من القرية نحو الغابة ويدور حول موقع العدو. أما الجنرال كومپان، فإنه يسير بمحاذاة الغابة للاستيلاء على الحصن الأول.

«وبعد أن تندلع المعركة على هذا النحو، ستعطى الأوامر تبعاً لأوضاع العدو.

«يبدأ قصف المدفعية على الجناح الأيسر منذ أن يسمع القصف من الجناح الأيمن. وستنظم سلسلة قوية من هجمات رماة البنادق من قبل قناصة فيلق موران وفيالق نائب الملك حالما يرون أن الهجوم من الأيمن قد بدأ. وعلى نائب الملك أن يحتل القرية (بورودينو) وأن يصل على طريق جسورها الثلاثة إلى المرتفع في الوقت الذي يصل فيه الجنرالان موران وجيرار تحت أوامر نائب الملك لاحتلال حصن العدو وتشكيل خط الجيش.

«ينبغي أن تنفذ كل هذه التعليمات بنظام وبصورة منهجية مع مراعاة الاحتفاظ باحتياطي كبير.

«في المعسكر، على مسافة ميلين من موجاييسك، في ٦ أيلول ١٨١٢».

كان أمر المعركة هذا، الذي صيغ بعبارات غامضة تماماً، إذا أمكن التعبير على هذا النحو دون الكفر بعبقرية ناپليون، يضم أربع نقاط، أربعة تدابير.. ولكن ما من واحد منها كان يمكن أن ينفذ أو نفذ بالفعل.

كان يأمر أولاً أن تعمد «البطاريات» المركّزة في المكان الذي اختاره الأمبراطور، وكذلك قطع بيرنيتي وفوشيه التي كان يجب أن تنتظم إلى جانبيها والتي يبلغ مجموعها مائة مدفع ومدفعين، إلى إطلاق النار وغمر التحصينات الروسية والحصن بالقذائف، في حين أن القذائف لم تكن لتصل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلى التحصينات الروسية من تلك المواقع. أي إن مائة مدفع ومدفعين كانت تطلق النار دون جدوى حتى عمد الرؤساء الذين تتبع وحداتهم تلك المدافع، إلى تقديمها مخالفين بذلك أوامر ناپليون.

أما الترتيب الثاني، فكان يفرض على پونياتوڤسكي أن ينتقل نحو الغابة ليدور حول جناح الروس الأيسر. وهذا لم يكن يمكن التنفيذ كما أنه لم ينفذ لأن پونياتوڤسكي اصطدم خلال تقدّمه هذا بتوتشكو ڤ الذي قطع عليه الطريق ومنعه من الالتفاف حول الموقع.

والترتيب الثالث يأمر كومـپان بالسير بمحاذاة الغابة ليحتل الحصن في حين أن جيش كومـپان لم يتمكن من احتلال ذلك الحصن بل صُدّ لأنه اضطر عند خروجه من الغابة أن يصطف تحت نار بنادق حامية لم يتوقعها ناپليون.

بينما كان على نائب الملك عملاً بالترتيب الرابع أن يحتل قرية بورودينو وأن يصل إلى المرتفع عن طريق جسورها الثلاثة في الوقت الذي يصل فيه الجنرالان موران وفريان (اللذان لم يشر إلى تحركاتهما في الأمر أبداً) تحت أوامره لاحتلال الحصن وتشكيل خط الجيش.

وكما يفهم من أمر المعركة هذا، ليس تبعاً لأسلوبه الغامض، بل وفقاً لمحاولات نائب الملك تنفيذه، كان على هذا أن يهاجم الحصن من اليسار مخترقاً بورودينو في حين تهاجمه فيالق موران وفريان من اليمين.

إن هذا الأمر، كالأوامر التي سبقته، ما كان يمكن أن ينفذ ولم ينفذ لأن نائب الملك بعد أن اخترق بورودينو أوقف على نهر كولوتشا فلم يستطع التقدم أكثر من ذلك. أما فيالق موران وفريان، فقد صدت ولم تحتل، والحالة هذه، الحصن. ولقد احتل هذا الحصن آخر الأمر من قبل سلاح الفرسان، وهو واقع غريب بدون شك أن ناپليون لم يتوقعه إطلاقاً.

www.Maktbah.com

وكذلك، ينص أمر المعركة على أنه «بعد أن تندفع المعركة على هذا النحو، ستعطى الأوامر تبعاً لأوضاع العدو». فيمكن الاستدلال إذن على أن الأمبراطور سيعطي خلال المعركة كل الأوامر اللازمة في حين أن شيئاً من هذا لم يحدث لسبب بسيط ووجيه وهو أنه بقي بعيداً في ساحة المعركة طوال الوقت ففاته سير العمليات ولم يمكن تنفيذ واحد من الأوامر التي أصدرها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن والعشرون

إن معركة بورودينو كما يؤكد عدد كبير من المؤرخين، لم ينتصر فيها الفرنسيون لأن ناپليون كان يومذاك مصاباً بزكام ولولا ذلك لكانت ترتيباته قبل المعركة وأثناءها أكثر عبقرية، ولانهارت روسيا برمتها ولتغير وجه العالم؛ إن هذا التحليل بالنسبة إلى المؤرخين الذين يؤكدون أن روسيا تشكلت بإرادة رجل واحد هو بطرس الأكبر وأن فرنسا قد انقلبت من جمهورية إلى أمبراطورية وأن الجيوش الفرنسية دخلت روسيا تبعاً لرغبة رجل واحد هو ناپليون. إن هذا التحليل الذي يؤكد أن بقاء روسيا قوية يعود إلى إصابة ناپليون يوم السادس والعشرين من آب بزكام عنيف، منطقي تماماً بالنسبة إلى هؤلاء.

فلو أن الأمر كان يعود إليه بالدخول في معركة بورودينو أو عدم خوضها. وباتخاذ هذا التدبير أو ذاك، فإن زكاماً قوياً يؤثر في مظاهر إرادته كان من الممكن أن يسبب بالطبع خلاص روسيا ولكان مخلّصنا هو ذلك الخادم الذي نسي أن يقدم إلى ناپليون يوم الرابع والعشرين من آب حذاءه الواقي، إن مثل ذلك التحليل يقود حتماً إلى مثل هذه النتيجة، وهي نتيجة لا تقبل الجدل أشبه بدعابة ڤولتير وأية سخرية كانت؟ حول سان بارتيلمي[1] التي وقعت بسبب تلبك أصاب معدة شارل التاسع، ولكن بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يتقبلون أن روسيا تشكلت تبعاً لإرادة رجل هو بطرس الأكبر ولا أن

---

(١) اسم لمذبحة البروتستانت على عهد شارل التاسع بتحريض من كاترين دو ميديسيس. (المترجم).

www.Maktbah.com

الأمبراطورية الفرنسية أقيمت وأن الحرب مع روسيا أعلنت وفق إرادة رجل واحد هو ناپليون، يعتبر هذا التحليل ليس خاطئاً ومخالفاً للصواب فحسب بل مخالفاً لجوهر الإنسانية نفسه، إنّ من ينقّب عن أسباب الأحداث التاريخية يجد سبباً آخر هو أن سير الأمور في هذا العالم مقرر مسبقاً وأنه متوقف على تدخل كل أحكام الأشخاص الحرة الذين يساهمون فيها وأن جماعة ناپليون ليس لهم عليها إلا الأثر الظاهر الخارجي فقط.

ومن الغريب أن يؤكد المرء للوهلة الأولى أن مذبحة سان بارتيلمي، رغم أن شارل التاسع أمر بها، لم تكن، مهما كان تفكيره الشخصي، نتيجة لإرادته، وكذلك يبدو غريباً الزعم بأن مجزرة بورودينو التي كلفت ثمانين ألف رجل لم تنجم عن رأي ناپليون الشخصي رغم أنه أعطى الأمر ورتب سير المعركة، بيد أن الكرامة الإنسانية التي تؤكد أن كلاً منا رجل، يماثل في العظمة ناپليون الكبير إن لم يكن يتفوق عليه، تبيح هذا الزعم والتحريات التاريخية تؤيده بوفرة.

لم يطلق ناپليون في بورودينو رصاصة واحدة ولم يقتل رجلاً واحداً. لقد كان ذلك من صنع جنوده وبالتالي، فإنه ليس بالذي قتل.

لقد قاتل جنود الأمبراطور لا لينفذوا أوامره، ولكن عن طيبة خواطرهم. لقد كان الجيش كله، أولئك الفرنسيون والإيطاليون والألمان والبولونيون المتعطشون المتعبون ذوو الثياب الخلقة، يشعرون تماماً أمام ذلك الجيش الآخر الذي يقطع عليهم الطريق إلى موسكو، أن النبيذ قد صُفي فحان أن يشربوه، ولو أن ناپليون منعهم من مقاتلة الروس حينذاك لقتلوه ومشوا بعد ذلك إلى المعركة لأنهم ما كانوا يستطيعون إلا أن يفعلوا كذلك.

عندما قرئ عليهم أمر ناپليون اليومي الذي وعدهم فيه بمكافأة على الجراح والموت بأن تتحدث الأجيال القادمة عنهم قائلة إنهم كانوا في المعركة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكبرى قرب جدران موسكو، صاحوا: «يحيا الأمبراطور! يحيا الأمبراطور!» عندما شاهدوا ذلك الطفل يخرق الكرة الأرضية بمقبض لعبته الخشبية، وكما كانوا سيهتفون لأي حماقة يقولونها لهم. لم يعد لديهم شيء آخر يفعلونه إلا أن يصيحوا: «يحيا الأمبراطور!» وأن يذهبوا إلى القتال وينتصروا كي يجدوا في موسكو الغذاء والراحة. وبناء عليه، لم يقتلوا أمثالهم استجابة لأوامر سيدهم.

ولم يكن نابليون نفسه ذا أهمية في سياق المعركة لأن أية نقطة من ترتيباته لم تنفذ ولأن نفسه بقي يجهل خلال المعركة ماذا دار فيها، وبالتالي، فإن قتل هؤلاء الناس أمثالهم، حدث دون تدخل من جانبه، ليس نتيجة لإرادة نابليون، بل بإرادة مئات الألوف من الرجال الذين ساهموا في الأمر، وكل ما كان لنابليون، اقتصر على توهّمه بأن كل شيء يسير وفق إرادته، لذلك فإن مسألة معرفة ما إذا كان الأمبراطور قد أصيب بزكام أو لا، لا تشكل لمصلحة التاريخ أكثر من مدلول الزكام الذي يصيب أي جندي عادي.

ثم إن أولئك الذين يعتقدون أن نابليون لم يتخذ ذلك اليوم ترتيبات طبية كعادته وأن أوامره خلال المعركة كانت أقل حزماً بسبب ذلك الزكام العتيد، يخطئون كلياً.

كان نص المعركة الذي نقلناه مماثلاً، إن لم يكن أفضل، لكثير من النصوص الأخرى التي رُبح كثير من المعارك بموجبها. والأوامر المعطاة خلال المعركة لم تختلف بكثير عن تلك التي تصدر عادة ودائماً. وإذن، فإن هذا النص وتلك الأوامر، لم تصبح خاضعة للنقد إلا لأن معركة بورودينو كانت المعركة الأولى التي لم ينتصر فيها نابليون. والعادة أن أجمل الترتيبات وأفضلها وأعمقها تبدو، إذا لم تجر النصر، سيئة يأخذ علماء فن الحركات العسكرية بنقدها بلغة مسموعة. والعكس صحيح، فما إن ينجم نصر ما، فإن

www.Maktbah.com

أسوأ الترتيبات وأكثرها خضوعاً للنقد تصبح ممتازة، ويشرع الكتّاب الأعم شهرة في تمجيدها وتعداد محاسنها في مجلدات عديدة.

كان ترتيب ويروذر في أوسترليتز مثالاً من هذا النوع: لقد انتقدوه وعارضوه بسبب كماله، بدون شك، ودقة تفاصيله.

قام ناپليون بدوره في بورودينو، بوصفه ممثل السلطة كما أدّاه في المعارك الأخرى إن لم يكن أفضل من ذلك، إنه لم يأت أمراً سيئاً بالنسبة إلى سير المعركة. ولقد انحاز إلى جانب أكثر الآراء حكمة، فلم يفقد أعصابه ولم يناقض أقواله وظل محتفظاً بهدوئه فلم يغادر ساحة المعركة. وقد أمكنته لباقته الكاملة وخبرته الكبيرة في شؤون الحرب أن يلعب بهدوء دوره الشكلي كرئيس أعلى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع والعشرون

«أصبحت القطع مصفوفة فوق الرقعة وسيبدأ اللعب غداً». قال ناپليون لدى عودته من تفتيش ثان دقيق للخطوط العسكرية.

أمر لنفسه بمزيج من الشاي والكحول والليمون والسكر (پونش) واستدعى السيد دو پوسيّه وراح يحدثه عن باريس والتبديلات التي يريد إدخالها على منزل الأمبراطورة فكانت الذكرى التي يحملها لأبسط أشياء البلاط مدعاة دهشة القيّم الشديدة.

اهتم بتفاهات عديدة، ومازح السيد دو پوسيّه حول حبه للأسفار، وبالإيجاز، راح يثرثر بلا مبالاة جرّاح كبير واثق بنفسه متعمق في مهنته، وهو يشمر عن أكمامه ويضع مئزره بينما يسجّون المريض على طاولة العمليات. «إنّ المسألة واضحة تماماً والخيوط كلها في رأسي وفي يدي. فإذا وجب البدء بالعمل سأعمل أفضل من أي كان. أما الآن، فإنني أستطيع أن أسمح لنفسي بالمزاح. إنني كلما كنت هادئاً طيب المزاج، وجب عليكم من جانبكم أن تثقوا بي أكثر وأن تعجبوا بعبقريتي».

وبعد أن ارتشف قدحه الثاني، ذهب ناپليون لنيل قسط من الراحة قبل المسألة الخطيرة التي يدخرها للغد. لكنه كان كثير الانشغال فتعذر عليه النوم وعلى الرغم من زكامه القوي الذي كانت رطوبة المساء تزيد في خطورته، ذهب في الساعة الثالثة صباحاً إلى غرفة الدخول في خيمته وهو يتمخط بصوت مدو استفسر عما إذا لم يكن الروس قد انسحبوا عرضاً. فأكدوا له أن

www.Maktbah.com

نيران العدو لا تزال ظاهرة في المواقع نفسها وحينئذ أظهر رضاه بحركة من رأسه. ولما كان المساعد العسكري المنوب يدخل الخيمة في تلك اللحظة، فقد سأله: حسناً يا راب، هل تظن أننا سنقوم اليوم بأعمال مجيدة؟

ـ دون أي شك يا صاحب الجلالة.

ظل الأمبراطور يستفسره بنظره فاسترسل راب قائلاً:

ـ هل تذكر يا صاحب الجلالة ما شرفتني بقوله لي في سمولنسك؟ لقد صُفيَ فيجب شربه.

عبس ناپليون ووضع رأسه بين يديه وسكت. وفجأة قال:

ـ هذا الجيش المسكين. لقد قل عدده كثيراً منذ سمولنسك. إن السعادة يا راب ممالقة صريحة. لقد قلت ذاك دائماً وبدأت أشعر به الآن. ولكن الحرس يا راب، هل الحرس سليم؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة.

أخذ ناپليون حبة ورفعها إلى فمه ثم نظر إلى ساعته. لم يكن يريد أن ينام وكان الصباح بعيداً ولم يكن لديه ما يقتل الوقت به: فالأوامر قد أعطيت وهي في طريق التنفيذ. سأل بلهجة صارمة: هل وزعوا البسكويت والأرز على أفواج الحرس؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة.

ـ لكن الأرز؟

أجاب راب بأنه نقل بنفسه الأوامر بهذا الصدد. لكن الأمبراطور أظهر شكّه بحركة من رأسه. جاء خادم بشراب الـپونش. وبعد أن أمر بإعداد كأس آخرى لراب، راح ناپليون يمتص قدحه بجرعات صغيرة. قال وهو يشم كأسه: لم أعد مسيطراً على حاستَي الشم والذوق. إن هذا الزكام لا يحتمل. إنهم يتحدثون إلي دائماً عن الطب. فما هو هذا العلم المزعوم الذي لا يستطيع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

شفاء الزكام؟ لقد أعطاني «كورڤيزار» هذه الحبوب. لكنها غير صالحة لشيء. ماذا يعرفون عن شفائه؟ إنهم على أية حال لا يقدرون على شفاء شيء. إن جسمنا عبارة عن آلة الحياة. إنه مركب لهذا الغرض وهذه طبيعته. فدعوا الحياة على هواها ولتدافع عن نفسها بنفسها. إنّها ستعمل أفضل من عملها إذا أثتلتموها بالأدوية. إنّ جسمنا مثل ساعة كاملة عليها أن تدوم وقتاً ما، وليس من صلاحية الساعاتي أن يفتحها بل أن يعالجها باللمس وعيناه معصوبتان... إن جسمنا آلة حياة، هذا كل ما في الأمر.

وكأنما حلا له السير في طريق التعاريف، وهي طريقة مألوفة لديه، لم يلبث أن خرج بتعريف جديد. سأل راب:

ـ أتعرف يا راب ما هو فن الحرب؟ إنه فن يقتصر على أن يكون المرء في فترة ما أقوى من عدوه. هذا كل شيء.

فلم يجب راب.

ـ غداً، سيكون لنا ما نعمله مع كوتوزوف. سوف نرى. تذكر أنه هو الذي كان يقود في برونو وأنه طوال ثلاثة أسابيع، لم يمتط صهوة جواده مرة واحدة ليفتش عن نقاط دفاعه. سوف نرى!

ومجدداً استشار ساعته فكانت لم تتجاوز الرابعة بعد. لم يكن ميالاً إلى أن ينام وشراب الپونش كان قد شرب ولايزال دون عمل يقوم به. وقف وراح يذرع المكان ثم ارتدى سترته الرسمية «رودنغوت» ووضع قبعته وخرج. كان الليل حالكاً رطباً والضباب الذي لا يكاد يرى بوضوح في طور الانتشار. وكانت نيران أفواج الحرس القريبة تشتعل ضعيفة. وعلى البعد، خلال الضباب كانت نيران الخطوط الروسية ظاهرة. وكان كل شيء هادئاً فكانت خطوات الوحدات الفرنسية المنطلقة لاحتلال مواقعها المقررة تسمع بوضوح.

www.Maktbah.com

عاين الأمبراطور النيران وأصاخ السمع إلى وقع أقدام الجنود ولما مرّ بأحد جنود الحرس القائم بالحراسة أمام الخيمة وهو في وضعية الاستعداد وكأنه دعامة سوداء، وقف أمامه. سأله بتلك الخشونة الودودة التي كان يستخدمها دائماً في مخاطبة جنوده:

ـ كم أمضيت في الخدمة؟

فأجابه الجندي.

ـ آه! واحد من القدماء!

ـ والأرز، هل وزع عليكم في الفيلق؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة.

أشار إليه ناپليون برأسه إشارة ودية وابتعد.

وفي الخامسة والنصف، امتطى الأمبراطور جواده واتجه إلى قرية شيـڤاردينو.

أخذ الفجر ينبلج والسماء بدأت تصفو فلم يبق من الغيوم إلا سحابة في الشرق واستمرت النيران المهجورة تتآكل في ضياء الشفق الخفيف.

وفجأة، دوّت طلقة مدفع مكتومة وحيدة عن اليمين، انتشرت ثم غابت في الصمت الشامل. وبعض بضع دقائع ثار دوي ثان ثم ثالث هزا الفضاء أعقبهما رابع وخامس أكثر جلالاً وكلها عن اليمين. ولم تلبث الانفجارات أن تضاعفت واختلطت في هدير دائم مستمر.

وصل ناپليون مع حاشيته إلى حصن شيـڤاردينو وترجل عن جواده. لقد اندلعت المعركة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثلاثون

أصدر پيار أمره إلى مرافقه، بعد أن غادر الأمير أندريه ورجع إلى غوركي، أن يجهّز الخيول ويوقظه باكراً ثم نام وراء الحاجز في الزاوية الضيقة التي تخلى له بوريس عنها.

وعندما استيقظ في اليوم التالي، لم يجد أحداً في الكوخ. كانت ألواح النوافذ الزجاجية تهتز وخادمه المرافق يهزه. كان المرافق يكرر بإصرار وهو يجذبه من كتفه دون أن ينظر إليه، واليأس من بلوغ غايته واضح على معالمه:

ـ يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة!

أخيراً سأل پيار:

ـ ماذا؟ هل نشبت؟ هل هي الساعة المقررة؟

قال الخادم المرافق وهو جندي سابق:

ـ ألا تسمع سعادتك قصف المدافع؟ لقد ذهب كل هؤلاء السادة و«عظيم الرفعة» نفسه منذ أمد طويل.

ارتدى پيار ثيابه بسرعة وخرج. كان الصباح مشرقاً وقد رطبه الندى. وراحت الشمس تمزق السحاب وترسل أشعتها التي ما زالت السطوح المقابلة تحجز نصفها، على غبار الطريق الرطب وجدران المنازل وفتحات الحصون وعلى خيول پيار التي كانت واقفة أمام الكوخ وبدا دوي المدافع أكثر وضوحاً. مر مساعد عسكري يتبعه قوقازي على جواديهما خبباً فصاح الأول: لقد أزف الوقت يا كونت، أزف الوقت!

www.Maktbah.com

سار پيار على الدرب الذي يوصل إلى التل الذي عاين منه بالأمس ساحة المعركة وأمر أن تتبعه الخيول. وجد هناك عدداً كبيراً من العسكريين مجتمعين. وكان هؤلاء السادة أعضاء هيئة الأركان، يتحدثون بالفرنسية، وقد ظهر كوتوزوڤ بينهم برأسه الأشيب المتقلنس بقبعته البيضاء ذات الشريط الأحمر وقذاله الضائع في كتفيه العريضتين. كان الجنرال القائد الأعلى ينظر خلال منظار أمامه باتجاه الطريق العام.

عندما اجتاز پيار الدرجات التي تقود إلى التل، ذهل إعجاباً بالمشهد الذي ظهر لعينيه. كان المشهد إياه الذي تأمله بالأمس ولكن الجنود الآن كانوا قد غزوه وعمه دخان البارود. وكانت الأشعة المائلة للشمس المشرقة تنشر في فضاء الصباح ضوءاً وردياً مذهباً تخططه طائفة من الظلال. والغابات البعيدة التي يطبق عليها الأفق، تبدو وكأنها منقوشة في حجر كريم بلون أخضر مائل إلى الصفرة، وذراها تقاطع فيه خطوطاً غير واضحة، يقطعها وراء ڤالوييڤو، طريق سمولنسك العام المغطى كله بالجنود. وإلى مسافة أقرب، كانت الحقول المذهبة وباقات من الشجر تلتمع. والجنود في كل مكان، إلى اليمين وإلى اليسار وفي المقدمة. ولقد كان مجموع المشهد مفعماً بالجلال والمفاجأة. لكن انتباه پيار توقف عند ساحة المعركة نفسها، عند بورودينو ووادي كولوتشا.

فوق كولوتشا على جانبي بورودينو، وبصورة خاصة إلى اليسار حيث يصب نهر «ڤويينا» عند شواطئه المليئة بالمستنقعات في نهر كولوتشا، امتد ضباب من ذلك النوع الذي يتبخر بتأثير حرارة الشمس فيعطي لوناً وظلالاً سحرية على كل ما يبدو خلاله للعيون. وكان دخان الطلقات النارية يختلط بالضباب بينما أضواء نور الصباح المتسللة عبر تلك المجموعة من الغيوم، تتلاعب على صفحة الماء وفوق الندى وعلى رؤوس الحراب. كان الناظر

twitter @baghdad_library

يميز الكنيسة البيضاء ثم سطوح بورودينو ثم كتل الجنود المتراصة والصناديق المطلية بالأخضر والمدافع. وكل ذلك يتحرك أو يبدو كأنه يتحرك في ذلك الفضاء الذي يكتسحه الضباب والدخان. وكما هي الحالة في الأغوار الغارقة في الضباب التي تحيط بورودينو، كانت دوامات من الدخان ترتفع تارة منعزلة وتارة مجتمعة متباعدة تارة ومتقاربة تارة أخرى، في المناطق المجاورة وبصورة خاصة إلى أقصى اليسار فوق كل الغابات والحقول والمنخفضات وفوق المرتفعات وكأنها تخلق من لا شيء فتنتفخ وتهمد وتتشابك إلى غير نهاية في ذلك الفضاء الرهيب.

وكانت تلك الأدخنة والانفجارات التي تصحبها تشكل، وهو أمر غريب، العنصر الرئيسي في جمال المشهد.

بوف! بوف!! وتشابكت الأدخنة واختلطت ثم بم! بم!! وجاءت الطلقتان تؤيدان ما رأته العين.

كان بيار قد استدار ليرى الدخان الأول المستدير الكثيف كأنه كرة حينما تمطت في المكان نفسه ثلاث كرات من الدخان. بوف.. وبعد فترة: بوف، بوف! وارتفعت ثلاثة أو أربعة أدخنة أخرى لم تلبث أن أجابتها في فترات متساوية بالترتيب أصوات خطيرة قوية: بم.. بم، بم! وكانت تلك الأدخنة تبدو تارة منهزمة وتبقى معلقة تارة أخرى فيحين دور الغابات والحقول والحراب اللامعة بالفرار. وإلى اليسار على طول الحقول والأدغال كانت كتل أخرى كثيفة الدخان يتبعها صداها الرهيب تنبعث في حين تنفجر في الأغوار والغابات القريبة طلقات بنادق مخلفة دخاناً صغيراً لا يجد الوقت الكافي ليشكل كتلاً لكنه مع ذلك يصطحب هو الآخر صداه على شكل ضربات جافة. وكانت البنادق تقول «تا ـ را، تا، تا، تا..» بفترات متقاربة ولكن منتظمة وأقلّ اتساعاً بكثير من دوي المدافع.

www.Maktbah.com

ولكم ودّ پيار أن يكون وسط هذه الأدخنة والحراب وهذه الحركة وهذا الضجيج. ألقى نظرة على كوتوزوف وحاشيته ليقارن بين مشاعره ومشاعر الآخرين. فوجد أنهم جميعهم مثله يتأملون ساحة المعركة وتعتلج في صدورهم المشاعر نفسها. ومن كل الوجوه، كانت الحرارة الكامنة التي لمسها أمس والتي عرّفه حديثه مع الأمير أندريه بكنهها تبدو وكأنها تشع من كل الوجوه.

قال كوتوزوف في تلك اللحظة لواحد من الجنرالات الذين في حاشيته دون أن تتزحزح عيناه عن ساحة المعركة:

ـ إذهب يا عزيزي، اذهب وليباركك الله!

فتأهب الجنرال الذي تلقى هذا الأمر لنزول التل. وبينما هو يمر بجانب پيار، سأله أحد ضباط الأركان عن المكان الذي يذهب إليه. فأجاب الجنرال بصوت بارد قاس:

ـ إلى معبر النهر!

فقال پيار في نفسه وهو يتبع خطاه: «وأنا كذلك أذهب إلى هناك».

امتطى الجنرال جواداً جاء به قوقازي. بينما راح پيار يعتلي صهوة جواده بدوره بعد أن تأكد من تابعه المرافق أنه أهدأ من كل الخيول وتشبث بعرف الجواد بينما ضغط بكعبيه على جانبي بطنه ولقد أضاع نظارتيه لكنه كان يشعر بعجزه عن ترك عرف الجواد والمقودين لذلك فقد ترك نفسه يقاد في أعقاب الجنرال مثيراً بذلك ابتسامات الضباط الذين كانوا ينظرون إليه من أعلى التل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والثلاثون

راجع جواد پيار يجري إلى اليسار وراء الجنرال الذي استدار، وفجأة بعد أن انحدر عن التلّ ضاع عن أنظار پيارَ وأخذ دون قصد يجري بين صفوف المشاة الذين كانوا أمامه. حاول أن يتخلص سواء من الأمام أو من اليسار أو من اليمين. لكن وجوه الجنود المطبوعة بقلق مماثل الذين اتجهت أفكارهم نحو شيء ما غير منظور وخطير، أخذت تطالعه من كل صوب. كانوا جميعهم يستفسرون بعيونهم مستائين من هذا الشخص الضخم ذي القبعة البيضاء الذي جاء يدفعهم بجواده لسبب لا يعرفه إلا الله.

صاح أحدهم:

ـ ماذا جاء هذا يعمل وسط المواء؟

وضرب آخر الجواد بعقب بندقيته فأطبق هذا فكيه على الشكيمة فلم يهدئه پيار إلا بصعوبة وهو متشبث بقربوس السرج واستطاع أخيراً أن يبلغ الطريق الخالية.

كان أمامه جسر أخذ جنود آخرون يطلقون النار بالقرب منه. لقد وصل دون أن يعرف الجنود، إلى جسر كولوتشا القائم بين غوركي وبورودينو. وهو الجسر الذي كان على الفرنسيين أن يهاجموه في المرحلة الأولى من المعركة بعد أن يحتلوا القرية الأخيرة. شاهد پيار على جانبي النهر وبين رزم الهشيم التي لم يلاحظها أمس بسبب الدخان، جنوداً في شغل شاغل. مع ذلك وعلى الرغم من طلقات البنادق المتلاحقة، لم يشعر أنه أصبح في قلب المعركة. لم

www.Maktbah.com

يكن يسمع أزيز الرصاص من كل الجهات ولا القذائف التي تمر فوق رأسه، لم يكن يرى العدو على الجانب الآخر من النهر، بل إنه ظل طويلاً قبل أن يشعر بالقتلى والجرحى الذين يتساقطون حوله. لقد كان يتأمل المشهد وقد ارتسمت على زاوية شفتيه ابتسامة.

قال صوت من جديد:

ـ ماذا يفعل هذا بانتصابه هكذا أمام الخطوط؟

وقالت أصوات أخرى:

ـ خذ اليسار.. كلا، اليمين..

اتجه پيار إلى اليمين فصادف فجأة مساعداً عسكرياً للجنرال رايـڤسكي كان يعرفه. ولقد ألقى هذا الضابط عليه نظرة غاضبة كاد يعقبها بالشتائم عندما عرفه فجأة فحياه بإيماءة من رأسه. قال له وهو يتابع سيره:

ـ كيف! أنت، هنا؟

شعر پيار أنه في غير مكانه المناسب فخشي أن يكون مبعث إزعاج لذلك فقد مضى يتابع المساعد العسكري هدباً. سأله: هل أستطيع مرافقتك؟ ماذا يدور هنا على الضبط؟

أجابه المساعد العسكري: لحظة، لحظة!

أسرع إلى زعيم ضخم واقف وسط البرية فنقل إليه أمراً ثم عاد إلى پيار وقال له باسماً:

ـ ماذا جئت تفعل هنا يا كونت: إنك هنا لمجرد الفضول؟

ـ نعم، نعم..

وكان المساعد العسكري قد قفل راجعاً. قال:

ـ إن الحالة هنا محمولة والحمد لله. ولكن على الجناح الأيسر، من جانب پاغراسيون، الحالة حرجة.

twitter @baghdad_library

قال پيار: حقاً وأين هذا المكان؟

ـ اتبعني فوق الهضبة. يمكن أن يرى المرء من هنا بوضوح. إن الحالة عندنا، في موقع «البطارية» محمولة نوعاً ما.

أجاب پيار وهو يفتش بعينيه عن مرافقه:

إنني أتبعك.

حينئذ رأى پيار، للمرة الأولى، أن الجرحى منتشرون حوله على الأرض في حين كانوا ينقلون بعضهم على محفات. وفي ذلك المرج الأخضر الذي اجتازه بالأمس، كان جندي لا حراك به، ملقى على الهشيم وقد مال رأسه بشكل خرق بينما انزلقت عمرته على الأرض.

ـ وهذا، ألا يرفعونه من هنا؟ أقلها.

لم يستطع اكتشاف خادمه المرافق وبات الآن يسير على طول المنخفض الذي يؤدي إلى تل رانيـڤسكي. وكان جواده الذي يهزه هزات وتيرية، يجد صعوبة في اللحاق بالمساعد العسكري. سأله رفيقه:

ـ إنك، بدون شك، لم تألف ركوب الخيل يا كونت؟

أجاب پيار بارتباك: بلى، لكن جري هذا شديد القسوة.

ـ إيه! ولكن.. إنه جريح في قائمته اليمنى فوق الركبة... رصاصة ولا ريب.. تهاني يا كونت: ها هو ذا عماد النار.

تجاوزا خلال الدخان الفوج السادس وراء المدفعية التي كان قصفها يصم آذانهما ووصلا إلى غابة صغيرة هادئة تفوح منها رائحة الخريف وهناك ترجلا ليتسلقا التل.

سأل المساعد العسكري: هل الجنرال هنا؟

فأجابوه وهم يشيرون إلى الجهة اليمنى: كان هنا منذ لحظة، لكنه ذهب.

www.Maktbah.com

استدار المساعد العسكري صوب پيار وبدا كأنه يتساءل عما سيفعله بهذا الرفيق غير المنتظر. فقال پيار:

ـ لا تقلق إذا كنت لا ترى مانعاً، فسأبقى هنا على التل.

ـ وهو كذلك. من هنا يمكن رؤية كل شيء دون خطر وسآتي لآخذك.

توجه پيار نحو «البطارية» في حين تابع الضابط سيره. ولقد قدر أن لا يلتقيا بعد ذلك اليوم.

اشتهر المرتفع الذي تسلقه پيار منذ حين، بين الروس فيما بعد باسم «بطارية التل» أو «بطارية» رايـڤسكي وبين الفرنسيين باسم «الحصن الكبير» أو «الحصن المشؤوم» أو «حصن الوسط» ولقد سقط حول هذه النقطة التي كان الفرنسيون يعتبرونها مفتاح الموقع، عشرات الألوف من الرجال.

كان ذلك الحصن مشكلاً من خنادق محفورة على جوانب المرتفع الثلاثة، كانت عشر قطع مدفعية تبصق قذائفها خلال فتحاتها. وعلى جانبي التل، على صف واحد، ما فتئت قطعات مدفعية أخرى تدعم هذه بينما تكتلت قطعات المشاة إلى الوراء.

عندما وصل پيار إلى هناك، لم يفكر في أن هذه الخنادق القليلة، التي تنطلق منها قنابل هذه المدافع القليلة، تشكل أهم نقطة في ساحة المعركة. بل على العكس، وبسبب وجوده هناك حتماً، كان يظن أنه موقع من أقل المواقع أهمية.

جلس على حافة الخندق المحيط بمجموعة المدافع، وراح يتأمل ما يدور حوله بابتسامة المرح الغافل. وكان ينهض، من حين إلى آخر، والابتسامة مطبوعة على شفتيه، فيتجول بين قطعات المدفعية وهو يعمل جاهداً ألّا يزعج الجنود المكلفين خدمتها الذين كانوا يحملون الأكياس وعتاد المدافع،

twitter @baghdad_library

ويروحون ويجيئون أمامه بلا انقطاع. وكانت المدافع تنطلق بعضها في إثر بعض مصحوبة بدويّ يصم الآذان وهي تغطي ما حولها بالدخان.

وعوضاً عن القلق الذي يُشاهد عادة عند المشاة من فوق التغطية، كان يشعر هنا، في «البطارية»، بين هذا الفريق الصغير من الرجال المنهمكين الذين يفصلهم عن الآخرين خندق، بحيوية مماثلة لدى كل فرد منهم وكأنها أليفة.

ولقد أزعجهم، بادئ الأمر، أن يظهر بينهم پيار بثوبه المدني وقبعته البيضاء فكانوا ينظرون إليه وهم يمرون به نظرات جانبية ملؤها الدهشة والذهول ولقد اقترب منه رئيس «البطارية» بحجة تفحّص حركة القطعة القصية، وكان رجلاً مديد القامة، ذا وجه منقوش بالجدري، وساقين طويلتين، وأخذ يتأمله ملياً بفضول.

وقال ضابط آخر، فتى صغير ذو وجنتين محمرتين، تخرج تواً من قطعات التدريب، كان يشرف على مدفعين عهد إليه بقيادتهما، قال لبيزوخوف بلهجة صارمة:

ـ هلا ابتعدت يا سيدي؟ إنك تزعجنا هنا.

أخذ الجنود يهزون رؤوسهم إشارة الامتعاض. ولكن، عندما تبين لهم أن هذا الشخص ذا القبعة البيضاء لا يقوم بأي عمل مؤذ بل يظل هادئاً في مجلسه على التل أو يتنزه في المكان وعلى شفتيه ابتسامة متهيبة ويفسح لهم في المجال بأدب وهو رابط الجأش ساكن تحت وابل النار سكونه في شارع عام، خلف امتعاضهم تدريجاً مكانه للونه من الميل المرح يشبه ذاك الذي يشعر به الجنود نحو الحيوانات الأليفة التي تتبعهم في الحملة، كالكلاب والديكة والماعز إلخ.. تبنوه، كل في سره، بل وأعطوه لقباً. لقد عمدوه باسم «سيدنا» وراحوا يمزحون بلطف بينهم حول موضوعه.

www.Maktbah.com

جاءت قذيفة تحرث الأرض على بعد خطوتين من پيار فأخذ هذا يجيل حوله عينيه الباسمتين وهو ينفض التراب الذي أصاب ثوبه.

قال له فتى عملاق، عريض المنكبين، مورد الوجه، وهو يظهر أسنانه البيضاء القوية: ألست خائفاً يا سيدي؟

ـ وأنت، هل أنت خائف؟

فاعترف الجندي:

ـ طبعاً.. إن هذه القذيفة لا ترحم. إذا ما سقطت على إنسان طارت أحشاؤه في الفضاء.. فالمرء مجبر على الشعور بالخوف..

أضاف جملته الأخيرة ضاحكاً.

توقف بعض الجنود قرب پيار وأبدوا حيرة مستطابة وهم يرونه يتحدث ككل الناس.

ـ هذه مهنتنا نحن. أما هو، السيد، فإنه مدهش. ها هو ذا سيد!

صاح بهم الضابط الشاب: إلى قطعكم!

وبدون شك، كانت المرة الأولى أو الثانية التي يقوم خلالها بأعباء رتبته إذا حكمنا على تمسكه المفرط بالشكليات حيال رجاله وحيال رؤسائه.

بدأت نيران المدافع والبنادق المتلاحقة تنتشر على عموم مساحة ساحة المعركة وبصورة خاصة على اليسار، صوب تحصينات پاغراسيون. لكن الدخان كان يمنع رؤية أي شيء من المكان الذي وقف فيه پيار. أضف إلى ذلك أن العالم المستقل الذي قوامه رجال «البطارية»، كان يحتكر كل انتباهه. ولقد قامت في نفسه بعد الهيجان والتفكه اللذين أحدثهما المشهد وما يصحبه من ضوضاء المعركة في نفسه، عواطف جديدة مختلفة كلياً وخصوصاً بعد أن رأى ذلك الجندي الملقى وحيداً على المرج. راح يراقب الرجال من حوله بشره وهو جالس على المنحدر.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وحوالى الساعة العاشرة، كانوا قد حملوا من «البطارية» قرابة عشرين رجلاً وأتلفت قطعتان وراحت القذائف تزداد في تساقطها وباتت الرصاصات الطائشة أكثر تواتراً على الأسماع. لكن المدفعيين ظلوا يتابعون أحاديثهم المرحة وكأن شيئاً ما لم يحدث.

صاح أحدهم لدى وصول قنبلة مرت وهي تصفر:

ـ هذه «نانّا» حلوى بلغة الأطفال.

فأجاب آخر وهو يرى أن القنبلة سقطت بين قطعات التغطية: إنها ليست لنا، إنها «للبياده».

وسأل ثالث أحد المتطوعين وهو ينحني تحت لفحة ريح قذيفة:

ـ أراك تحيي أحد معارفك!

واجتمع بعض الجنود عند الحاجز ليروا ما يدور أمامهم.

قالوا:

ـ خذ، لقد أرجعوا الخطوط إلى الوراء، إنهم يتقهقرون.

فصاح بهم صف ضابط عجوز:

ـ هيه، أنتم هناك! اهتموا بعملكم. إذا كان الفتيان يتراجعون فمعنى ذلك أنهم في حاجة إليهم في مكان آخر.

وجذب أحدهم من كتفه وركز له ضربة من ركبته فارتفعت الضحكات وارتفع صوت آمر: القطعة الخامسة! أعيدوها!

فصرخ أولئك الذين كانوا يعيدون المدفع إلى مكانه بمرح:

ـ هو، هيس!.. هو، هيس!.. لنرفع بإيقاع كالذين يسحبون المراكب!

وراح المزّاح ذو الوجه المتورد الذي يشهد به إدمان صاحبه يقول:

ـ آه باه! كادت القذيفة تطيّر قبعة سيدنا.

www.Maktbah.com

وصاح بلهجة غاضبة موجهاً حديثه إلى قذيفة أخرى أطارت عجلة مدفع وساق رجل دفعة واحدة:

ـ هيه لا! لا تستطيع الانتباه!

وداعب آخر وهو يرى المتطوعين يحنون ظهورهم ويتسللون عبر «البطارية» لالتقاط الجريح: هه! يا من هناك! عصابة ثعالب!

صاحوا بأولئك القرويين الذين كانوا يترددون في نقل الجندي ذي الساق المبتورة:

ـ ترى هل الحساء مخالف لمزاجكم؟. إن هؤلاء الكسالى ينفرون دائماً من العمل.

وقالوا وهم يشاكسونهم: رباه، للأسف! هذا ممكن تماماً. لا بد وأن المهنة لا تروقهم..

لاحظ پيار أنه كلما ازدادت المقذوفات كثرة وقوة، ازداد معها الهيجان العام. لقد كانت نفوس هؤلاء البواسل كلهم تكن ناراً راحت انعكاساتها تظهر على وجوههم بازدياد أشبه بالبروق التي تخطط أديم سماء متجهّم بالغيوم الدكناء حتى لكأنه تحد موجّه إلى ما لا بد منه. أية أهمية لساحة المعركة إن بقيت في نفسه؟ لقد استبدت به هو الآخر تلك الشعلة المضطرمة التي راح يشعر أنها تكاد تلتهمه هو نفسه.

تراجع المشاة الذين كانوا يقاتلون في الساعة العاشرة، مشكلين سياجاً واقياً أمام «البطارية» وعلى طول كامنكا. ولقد شوهدوا يفرون حاملين جرحاهم على البنادق. وظهر على التل جنرال مع حاشيته فقال بضع كلمات للزعيم ثم ألقى على پيار نظرة غاضبة وانحدر بعد أن أصدر أوامره إلى وحدات التغطية بالانبطاح ليكونوا أقل تعرضاً للنيران وبعد لحظات، دوى قرع الطبول

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في صفوف المشاة المتمركزين إلى يمين «البطارية» وتناهت إلى الأسماع أوامر صدرت ثم شوهدت الصفوف تتحرك إلى الأمام.

ألقى پيار نظرة من فوق الحاجز فاستلفت انتباهه بصورة خاصة ضابط المؤخرة، وكان شاباً ذا وجه ممتقع ممسكاً بسيفه منخفضاً، يجيل حوله نظرات قلقة.

غاب المشاة في الدخان وارتفع ضجيج متواصل وصوت طلقات بنادق سخية ولم يلبث الجرحى أن أعيدوا والقتلى على المحفات. وراحت القذائف تتساقط على «البطارية» بغزارة لم يسبق لها مثيل. وسقط رجلان بقيا مهملين في مكانهما وازداد نشاط الجنود بشؤون المدافع. لم يعد أحد يفكر في پيار، ولقد رجوه مرتين أو ثلاث مرات في غير لطف أو ينتحي جانباً، وراح قائد «البطارية» يتنقل بين مدفع وآخر وهو مقطب الحاجبين، بينما أخذ الضابط الشاب يبدي غيرة متزايدة ووجهه يزداد احمراراً. وكان الجنود يحملون القذائف ويعبئون المدافع وينجزون مهمتهم بتفاخر صميم، فبدوا في غدواتهم ورواحهم وكأنهم يتحركون بقوة نوابض.

كانت العاصفة تقترب فأصبحت الوجوه كلها الآن تستعر بذلك اللهيب الذي كان پيار يترقب ظهوره. وكان واقفاً إلى جانب قائد المدفعية حينما أسرع إلى هذا الضابط المناوب وقال ويده إلى عمرته:

ـ لي الشرف بأن أخطرك يا زعيمي أنه لم يبق لدينا أكثر من ثمانية مقذوفات، هل يجب الاستمرار في إطلاق النار؟

صاح الزعيم، دون أن يجيب مباشرة، وهو منحن فوق الحاجز:

ـ أحشوا المدافع بقطع من الحديد!

لكن الضابط الصغير أطلق فجأة زمجرة ودار حول نفسه ثم انهار وكأنه

www.Maktbah.com

عصفور أصيب وهو في أقصى طيرانه. فبدا كل شيء غريباً غامضاً ومظلماً أمام ناظري پيار.

راحت القذائف الواحدة تلو الأخرى تمزق الحاجز والرجال والمدافع فلم يعد پيار يعير شيئاً آخر التفاتة غير هذا الدوي الذي لم يشعر به حتى ذلك الحين. وعن يمين «البطارية»، بدت له القطاعات عند صيحة «هورّا» تتراجع إلى الوراء بدلاً من أن تندفع إلى الأمام.

ضرب مقذوف حافة الحاجز فغطاه بالتراب ومرت كتلة سوداء أمام عينيه أعقبتها صدمة لينة، فدار بعض المتطوعين الذين كانوا على وشك الدخول إلى «البطارية» على أعقابهم فارين.

صاح الزعيم: أحشوا كل القطع، بقطع من الحديد!

وأسرع إليه صف ضابط مروع وهمس في أذنه أن الذخيرة قد نفدت، فكان أشبه برئيس خدم يبلغ صاحب الدعوة في أدق اللحظات بنفاد الخمر.

صرخ الزعيم ووجهه متضرج بالحمرة طافح بالعرق وعيناه اللامعتان تكادان تخرجان من محجريهما:

ـ ماذا يفعل أولئك الآثمون؟ اسرع إلى الاحتياط واحمل الصناديق!

واختتم قوله بنظرة حانقة وجهها إلى پيار فقال هذا:

ـ سوف أذهب كذلك.

ابتعد الزعيم بخطوات واسعة دون أن يجيبه وصاح آمراً:

ـ ممنوع القصف.. انتظروا.

اصطدم المدفعي الذي تلقى الأمر بحمل الذخيرة فصرخ به وهو يتدحرج على المنحدر:

ـ هه! يا سيدي، ليس هنا مكانك.

لكن پيار تبعه وهو يدور حول المكان الذي سقط فيه الضابط الشاب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مرت قذيفة فثانية فثالثة فوق رأسه وسقطت إلى الأمام والجانب وإلى الوراء. وبينما هو قرب الصناديق الصغيرة المطلية بالأخضر، سأل نفسه: «إلى أين أذهب؟» توقف حائراً وهو لا يدري ما إذا كان عليه أن يتقدم إلى الأمام أو أن ينكص على عقبيه. وفجأة ألقته صدمة هائلة على الأرض وفي اللحظة نفسها أحاطت به شعلة من النار بينما دوى انفجار كالرعد صحبه صفير صمّ أذنيه.

ولما ثاب إلى رشده، وجد نفسه جالساً ويداه مستندتان إلى الأرض، لم يبق من الصناديق التي كان قريباً منها غير بضعة ألواح خشبية خضراء متفحمة وبعض الخرق المبعثرة فوق العشب الأمغر. وكان جواد يجر وراءه حطام نقالات، يجري مبتعداً وثانٍ ممدد على الأرض مثل پيار يطلق زمجرات طويلة.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني والثلاثون

قفز پيار إذ استبدّ به الذعر تماماً وفرّ باتجاه البطارية وكأنها خشبة الخلاص الوحيدة من كل هذه الأهوال المحدقة به.

وبينما هو يدخل الخندق، وجد أنهم توقفوا عن إطلاق النار وأن أشخاصاً آخرين يحتلون المكان. من كان هؤلاء؟ وماذا يعملون هنا؟ لم ينتبه لأول وهلة. شاهد الزعيم مستلقياً على بطنه فوق الحاجز حيث كان يبدو من هناك وكأنه ينظر إلى الأسفل، وجندياً، كان قد لاحظ وجوده من قبل يتخبط وآخر أمسكوا به من ذراعه وهو يصيح: «إليّ أيها الأخ!» كما شاهد أموراً أخرى تماثلها في غرابتها.

لم يكن قد أدرك بعد أن الزعيم قد قُتل وأن الجندي المستغيث أسير، حينما طعن جندي آخر تحت أنظاره بحربة في ظهره. لم يكن قد وضع قدمه في الخندق بعد حينما ركض نحوه شخص في بزة زرقاء، نحيل أصفر يسبح في العرق وسيفه بيده وهو يصرخ، وبالغريزة، بغية تفادي الصدمة الشديدة، مدَّ پيار ذراعيه فأمسك بإحدى يديّ ذلك الرجل (وكان ضابطاً فرنسياً) من كتفه وبالأخرى من عنقه. فأسقط الضابط حسامه وأطبق عليه هو الآخر من ياقته.

بقيا بضع لحظات يتأمل أحدهما وجه الآخر الغريب عنه في ذعر وحيرة وكل منهما يتساءل: «ترى هل أنا الذي أسرته أم هو الذي يأسرني؟» وبدا الضابط الفرنسي ميالاً إلى هذا الرأي الأخير لأن يد پيار القوية التي أخذ الرعب الغريزي يحركها، راحت تضغط بشدة متزايدة على حنجرته. كاد يقول شيئاً

twitter @baghdad_library

عندما مرت قذيفة فوق رأسيهما تماماً حتى كادت تمسهما، مصحوبة بصفير مروّع فظن پيار أن رأس الفرنسي قد اجتثت نظراً إلى السرعة التي خفض رأسه بها. فخفض هو رأسه الآخر وأفلت الرجل.

ودون أن يأبه الضابط كثيراً لأيهما وقع في أسر الآخر، فرّ مسرعاً إلى «البطارية» بينما انحدر پيار على التل وهو يتعثر بالقتلى والجرحى الذين خيل إليه أنهم إنما يتشبثون بساقيه. ولم يكد يبلغ السفح حتى اصطدم بحشد كبير من الروس يزمجرون ويسقطون ويتدافعون ويركضون كالإعصار نحو «البطارية». ذلك كان الهجوم الذي عزاه «إيرمولوف فيما بعد إلى صحة خطته وشجاعته بل إلى دهائه لأنه، إذا آمن المرء بأقواله، نثر فوق التل صلبان القديس جورج (أوسمة) التي كان يملأ بها جيوبه.

فرّ الفرنسيون رغم سيطرتهم على «البطارية» وبقي رجالنا يتبعونهم وهم يصيحون «هورّا» مسافة بعيدة حتى كاد يتعذر إيقافهم.

جاؤوا بأسرى من «البطارية» ومن بينهم جنرال فرنسي جريح أحاط به ضباطنا. وكانت طائفة من الجرحى من الروس وفرنسيين، عرف بينهم پيار وجوهاً رآها من قبل أصبحت الآن مقلوبة من الألم، تجر نفسها جراً أو تنقل على المحفات. رجع يصعد التل حيث بقي أكثر من ساعة دون أن يجد واحداً من أعضاء ذلك العالم المغلق الذي تبناه. مع ذلك، فقد تعرف بين العديد من القتلى المجهولين منه، إلى بعض من أولئك. فالضابط الصغير ما زال هناك قرب الحاجز غارقاً في بركة من الدم، والمدفعي ذو الوجه المحمرّ ما زال عرضة لحركات تشنجية، لكنهم أعرضوا عن نقله.

نزل پيار المنحدر ركضاً.

قال في سرّه وهو يمشي على غير هدى تابعاً مجموعة المحفات العائدة

www.Maktbah.com

من ساحة المعركة: «سوف يتوقف كل هذا. لا شك أنهم روعوا من هول ما فعلوا!».

كانت الشمس المحجوبة بالدخان، لا تزال بعيدة فوق الأفق فكان يُرى بغموض إلى الأمام وبصورة خاصة إلى اليسار، من جانب سيميونوفسكوي حركة عنيفة أبعد ما تكون عن الخمود، بينما راح دويّ الانفجارات يزداد عنفاً كما يفعل الرجل الذي يجمع كل قواه وهو مبهور الأنفاس ليودعها صرخة أخيرة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والثلاثون

على مساحة نصف ميل بين بورودينو وتحصينات پاغراسيون دارت رحى المعركة الرئيسية. وقد قامت أفواج فرسان: «أوڤـاروڤ» بحركة أثبتت بها وجودها حوالى منتصف النهار وقامت معركة من جهة أخرى وراء أوتيتسا بين پونياتوڤسكي وتوتشكوڤ. لكن هذه كلها لم تكن سوى عمليات بسيطة بالنسبة إلى ما دار في الوسط. لقد شبت المعركة الحقيقية على الساحة القائمة بين بورودينو والتحصينات، على مقربة من الغابة، على أرض خواء مكشوفة من الجانبين، وذلك بطريقة غاية في البساطة والبعد عن التعقيد.

اشتركت في القتال من الجانبين بضع مئات من القاذفات. ولما غطّى الدخان ساحة المعركة كلها، بدأت أفواج دو سيكس وكومـپان تتقدم نحو التحصينات بينما بدأ جيش نائب الملك إلى يسارها يتقدم نحو بورودينو.

وكانت المسافة بين حصن شيـڤاردينو حيث كان ناپليون، وبين التحصينات ربع ميل على الخط المستقيم وأكثر من نصف ميل منه إلى بورودينو، فكان الأمبراطور لا يستطيع أن يرى ما يجري بوضوح وخصوصاً أن الدخان المختلط بالضباب قد غطى المساحة كلها، ولم تُشاهد قطعات دو سيكس إلا عندما أخذت تنحدر إلى الوادي الذي يفصلها عن التحصينات. وما إن نزلت، حتى بات الدخان من الكثافة فوق التحصينات لدرجة ملأت معها الجانب المقابل للوادي فكان هذا الستار لا يترك المجال إلا لرؤية شيء ما أسود يشبه الجمهرة البشرية ومن حين إلى آخر التماع الحراب. ولكن ما

www.Maktbah.com

كان يمكن من شيـڤاردينو رؤية ما إذا كان الرجال جامدين أو متحركين وهل هم فرنسيون أم روس.

وكانت الشمس تصعد مشرقة في السماء فتغمر أشعتها المنحنية وجه ناپليون الذي كان يتفقّد المواقع واقياً عينيه بيده. وكان الدخان يمتد أحياناً إلى الأمام حتى ليخيل إلى الناظر أنه جيوش تتحرك. وفي الفترات بين طلقات المدفعية، كانت تسمع أصوات دون أن يدرك مدلولها.

وعلى الرابية، كان ناپليون ينظر خلال منظاره إلى ساحة المعركة الضيقة فكانت العدسة تريه دخاناً وجنوداً، جنوده أحياناً وأحياناً جنوداً من الروس. لكنه فيما بعد، لم يكن يستطيع بالعين المجردة أن يخمن مواقع ما رآه.

نزل من فوق التل وبدأ يذرع السفح، ويتوقف من حين إلى آخر ليصيخ السمع إلى دوي الانفجارات وليلقي نظرة على ساحة المعركة. ولكن لا من هناك ولا من أعلى المرتفع، حيث ظل عدد من جنرالاته، ولا من التحصينات كذلك التي كان الفرنسيون يحتلونها تارة ليسلموها إلى الروس تارة أخرى تاركين قتلى وجرحى وأحياء مروعين أو مذهولين، لم يكن ممكناً اتخاذ فكرة صحيحة عما يجري في ذلك المكان. ولقد تعاقب طوال ساعات بين قصف المدافع وأزيز الرصاص المتواصلين، فرنسيون وروس مشاة وفرسان، دون هوادة ولا ملل. كانوا يظهرون ويطلقون النار ويسقطون ويتدافعون دون أن يدري هؤلاء ماذا يفعلونه بأولئك ويصرخون ويتقهقرون.

وكان المساعدون العسكريون الذين يُوفدهم الأمبراطور بمهام يعودون ويقدمون تقاريرهم. والضباط، التابعون لماريشالاته يتصرفون مثلهم، ولم تكن كل تلك التقارير دقيقة، إذ لا يمكن في غمار المعركة أن يقول المرء على وجه الدقة ما يحدث في فترة ما، كما أن كثيراً من أولئك الضباط لم يستطيعوا الوصول إلى الأمكنة المحددة لهم فكانوا يكتفون بترديد ما سمعوه من أقوال،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أضف إلى ذلك أن الموقف كان يتبدل بينما هم يجتازون نصف الميل أو ثلاثة أرباع الميل التي تفصلهم عن سيدهم فتصبح الأخبار التي يحملونها خاطئة، وعلى هذا النحو، جاء مساعد عسكري تابع لنائب الأمبراطور يعلن أن بورودينو قد احتلت وأن الجسر القائم على نهر كولوتشا أصبح في أيدي الفرنسيين، وسأل عما إذا كان يجب إمرار القطعات عبر النهر، فأوعز إليه ناپليون أن ينظموهم على الشاطئ الآخر وأن ينتظروا.

ولكن، في اللحظة التي أعطى فيها ذلك الأمر، بل أكثر من ذلك ما كاد المساعد العسكري يغادر بورودينو، حتى استعاد الروس الجسر وأحرقوه. وكان ذلك أثناء الواقعة التي وجد پيار نفسه مشتركاً فيها عند بدء المعركة، وجاء مساعد عسكري آخر يهرول من التحصينات بأقصى ما في طاقة الجواد وقد امتقع وجهه من الذعر فأعلن للأمبراطور أن الهجوم قد صدّ وأن كومـپان قد جرح وداڤو قتل، في حين أنه بينما كان ينقل تلك الأنباء، احتلت قطعات أخرى التحصينات، أما داڤو، فإن «قتله» لم يتجاوز الرض الخفيف. وكان ناپليون، تبعاً لهذه البيانات الخاطئة يتخذ تدابير اتخذت من قبل آخرين قبله أو يستحيل تنفيذها سلفاً.

وكان الماريشالات والجنرالات الذين أصبحوا أقرب إلى خطوط النار والذين لم يدخلوها إلا نادراً، يصدرون من أنفسهم الأوامر بصدد اشتباكات الرماة وتدخل الفرسان أو المشاة، ولكن تلك الأوامر، مثل أوامر الأمبراطور نفسها، لم تكن تنفذ إلا على نطاق ضيق ضعيف، ولقد كانت الواقعة غالباً تخالف التدابير المتخذة، فكان الجنود الذين صدرت إليهم الأوامر بالتوجه إلى الأمام، يرون أنفسهم واقعين تحت نيران البنادق المتعاقبة، فيضطرون إلى الفرار، والجنود الذين يجب عليهم البقاء في أماكنهم يهجمون على العدو حينما يرونه برز أمامهم فجأة، ويندفع الفرسان دون أن يصدر إليهم الأمر،

www.Maktbah.com

للحاق بالروس المشتتين. وعلى هذا النحو، اجتاز فوجان من الفرسان وادي سيميونوفسكوي فلم يكادوا يصلون إلى الجانب الآخر حتى لووا أعنّة جيادهم وانحدروا بأقصى سرعة، كذلك، اندفع أكثر من فوج من المشاة إلى أماكن لم يرسلهم إليها أحد. وعندما كان يجب استخدام المدافع أو تحريك المشاة أو الفرسان، كان ضباط الصف هم الذين يقومون بذلك بتصرفهم الذاتي دون الرجوع إلى نيْ أو داڤو أو مورا أو بالتالي إلى ناپليون. ولم يكونوا خائفين من أن يوجه إليهم اللوم على مثل ذلك التصرف، لأن المرء في المعركة لا يفكر إلا في إنقاذ أثمن ما عنده، أي حياته، ويمكن تبعاً لذلك أن يكون الخلاص تارة بالفرار وتارة بالسير إلى الأمام، لذلك فقد كان هؤلاء الرجال في حميا المعركة، يتصرفون تبعاً لشعورهم الآني.

وفي الواقع، إن تلك التحركات إلى الأمام أو إلى الوراء لم تكن لتخفف أو لتعدل موقف القطعات لأن تلك الهجمات والملاحم لم تكن لتحدث إلا أضراراً طفيفة إذا قورنت بأضرار القذائف والرصاص الذي كان يطير في منطقة القتال. كانت هذه هي التي تسبب الجراح والبتر والموت. ولا يكاد الجنود يجدون أنفسهم خارج مرمى المقذوفات، حتى يبادر الرؤساء في المؤخرة بفضل الطاعة، إلى إعادة تشكيلهم وإعادة إرسالهم إلى منطقة النار تلك، حيث يودي الخوف من الموت بتلك الطاعة مجدداً ويترك الجنود تحت رحمة غريزة المجموعات العمياء.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع والثلاثون

وبالقرب من منطقة النار، كانت تقع مراكز قيادات جنرالات ناپليون: داڤو، وني، وموراـ بل إنهم دخلوا تلك المنطقة غير مرة وقادوا قطعات كثيرة العدد ومطواعة. ولكن، على عكس ما جرى دائماً في المعارك السابقة، لم يتقدم أحد ليعلن فرار العدو، فكانت تلك القطعات المنظمة بشكل ممتاز، تعود من هناك مشتتة مروعة فيعيدون تنظيمها. لكن أعدادها كانت تنقص نقصاً ظاهراً للعين. وحوالى الظهر أرسل مورا إلى الأمبراطور مساعداًعسكرياً في طلب المدد.

وكان ناپليون جالساً عند سفح التل يشرب «الـپونش» عندما وصل مساعد مورا العسكري يؤكد أن الروس سيسحقون إذا تفضل جلالته بإرسال فوج آخر إلى المعركة.

فقال ناپليون بلهجة حازمة وكأنه لم يفهم ماذا يريد ذلك الشاب الفتي الذي يشبه شعره الأسود الطويل العكف شعر سيده أن يقول:

إمدادات؟

وكرر يخاطب نفسه: «إمدادات! كيف يحدث أن يطلبوا إمدادات وهم الذين بين أيديهم نصف الجيش ويقتصر هجومهم على جناح ضعيف جداً لا يكاد يكون محصناً!».

ثم نطق بصوت مرتفع وبجفاء: قل لملك ناپولي (مورا) إن الظهر لم يحن وإنني لا أرى بوضوح بعد الوضع على رقعة الشطرنج. إمض.

www.Maktbah.com

فأطلق المساعد العسكري ذو الشعر الطويل العكف تنهدة عميقة ويده إلى حافة عمرته ومضى خبباً من جديد إلى المكان الذي كانوا يقتلون بعضهم بعضاً فيه.

وقف ناپولي واستدعى كولنكور وبيرتييه وراح يتبادل معهما مواضيع غريبة تماماً عن سياق المعركة.

وبدأ الحديث يلذ للأمبراطور حينما انتقلت عينا بيرتييه فجأة إلى جنرال تتبعه حاشيته، جاء بأقصى سرعة الجواد قاصداً التل. كان ذلك هو بيليار. قفز من على جواده المغطى بالزبد وتقدم بخطى سريعة إلى الأمبراطور وراح يعرض عليه بصوت مرتفع جريء ضرورة إرسال الإمـدادات. كان يقسم بشرفه أن الروس ضائعون لا محالة إذا دخل فوج آخر المعركة.

هز ناپليون كتفيه واستمر في تمشيه دون أن يجيب فراح بيليار يتكلم بحمية إلى جنرالات الحاشية الذين أحاطوا به.

قال الأمبراطور وهو يعود إلى الجنرال:

ـ إنك محتد كثيراً يا بيليار! من السهل أن يخطئ المرء في حميا الحركة، إذهب وافحص الموقف وعد إليّ...

لم يكد بيليار يختفي عن الأنظار، حتى وصل رسول آخر من نقطة أخرى من ساحة المعركة. قال ناپليون ساخطاً بلهجة الرجل الذي يرى العوائق تبعث في طريقه باستمرار: حسناً! ماذا هناك؟

شرع المساعد العسكري يقول: يا صاحب الجلالة، إن الأمير...

فأعقب الأمبراطور بحركة غاضبة: يطلب المدد؟

فأشار الضابط برأسه أن نعم وراح يقدم تقريره. استدار الأمبراطور، لكنه لم يلبث أن رجع على عقبيه والتفت إلى بيرتييه وقال: «لذلك الفرخ الذي جعلته نسراً» كما أخذ يدعوه فيما بعد:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ لا شك أنه يجب إعطاؤهم إمدادات.. هيّا من سنرسل؟

فأجاب بيرتييه الذي كان يعرف عن ظهر قلب كل الأفواج والفيالق والألوية: لنرسل فوج كلاباريد يا صاحب الجلالة.

فأيده ناپليون بحركة من رأسه.

انطلق المساعد العسكري نحو فوج كلاباريد وبعد دقائق، بدأ فوج الحرس الفتي، الذي كان مقاماً احتياطاً وراء التل، يتحرك وناپليون ينظر بسكون في ذلك الاتجاه.

وفجأة قال لبيرتييه: كلا، لا أستطيع إرسال كلاباريد. أرسل فوج فريان.

وعلى الرغم من أن إرسال فوج فريان بدلاً من فوج كلاباريد لم يكن له أية ميزة أو فائدة، وأن إبدال فوج بآخر سبب ضياعاً حقيقياً للوقت، فإن هذا الأمر نفذ بكل دقة. لم ير ناپليون أنه حينذاك كان يلعب حيال قطعاته دور الطبيب الذي تزيد أدويته من خطورة المرض، وهو الدور الذي كان بارعاً في تمييزه ونقده عند الآخرين.

اختفى فوج فريان في الدخان كالأفواج الأخرى. ومن نقاط مختلفة، استمر المساعدون العسكريون يهرعون ليقولوا، وكأنهم وحدوا كلمتهم، الشيء بعينه. كانوا جميعاً يطلبون الإمدادات ويؤكدون أن الروس أبعد من أن يفكروا في التراجع، يفتحون نيران جحيم تذوب فيه القطعات الفرنسية.

وبقي ناپليون متفكراً على مقعده.

اقترب السيد دو بوشيه، هاوي الأسفار الذي لم يأكل شيئاً منذ الصباح من جلالته وعرض عليه بكل احترام تناول الإفطار. قال:

ـ آمل أنني أستطيع منذ الآن أن أقدم لجلالتكم تهاني بالنصر..

فهز ناپليون رأسه نفياً. واعتبر السيد دو بوشيه أن تلك الإشارة تعني

www.Maktbah.com

النصر وليس الطعام، لذلك فقد سمح لنفسه أن يلاحظ بلهجة محترمة أن ما من شيء في الدنيا يمكن أن يمنعنا من تناول الطعام ما دمنا نستطيع أن نتناوله.

قال الأمبراطور فجأة بلهجة غاضبة: امضِ عن...

وأدار له ظهره. فتهلل وجه السيد دو پوشيه بابتسامة ورعة تجمع بين العطف وخيبة الأمل والإعجاب ومضى بخطواته المنزلقة يلحق بالجنرالات الآخرين.

كان ناپليون يشعر بإحساس اللاعب المجدود دائماً، الذي يلقي بجنون معتمداً على حظه، بكل ماله على الطاولة وفجأة، يرى بمزيد الألم أنه على وشك أن يخسر لأنه أفرط في حساب الشوط.

كانت قطعاته هي الأولى نفسها وجنرالاته أنفسهم والتدابير المتخذة نفسها وأمر المعركة نفسه والنداء القصير الحازم إياه. ثم إنه نفسه لم يتبدل، وهو يعرف ذلك جيداً. وهو يزعم لنفسه أنه أصبح أكثر روية واختباراً من ذي قبل وأن العدو لايزال نفسه الذي كان في أوسترليتز وفريدلاند. فلماذا إذن تصبح ضربته الرهيبة المفاجئة عاجزة وكأنها بسحر ساحر؟

لقد كانت وسائله الفنية التي طالما نجحت معه بمألوف العادة: تركيز المدفعية في نقطة واحدة، اختراق الخطوط بواسطة الاحتياطي، هجوم هؤلاء الرجال الحديديين العتيد الذين يشكلون فرق فرسانه، كل هذه الوسائل استعملها دون أن يحصل على النصر. بينما الأنباء نفسها تتعاقب: جنرالات قتلى أو جرحى، سرعة إرسال الإمدادات، تشتت القطعات، استحالة هزم الروس.

كان يكفي من قبل، الاستيلاء على مركزين أو ثلاثة مراكز والنطق بجملتين أو ثلاث حتى يرى الماريشالات والمساعدين العسكريين يصلون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

متهللي الوجوه يعلنون النصر مع جيوش كاملة من الأسرى وباقات من الأعلام والشعارات العدوة والمدافع والصناديق على شكل أسلاب. وما كان على مورا إلا أن يطلب إطلاق فرسانه حتى يغنم عربات النقل. هكذا جرت الأمور في «لودي» ومارانغو وأركول وإيينا وأوسترليتز وواغرام إلخ.. إلخ.. فما الذي حدث لجنوده إذن؟

كان ناپليون يرى الأمور، على الرغم من نبأ احتلال التحصينات، تسير على نهج مخالف تماماً لسير معاركه السابقة. وكان يرى أن من حوله من الرجال وكلهم خبروا الحرب، يشعرون مثل شعوره. كانت الوجوه كلها حزينة والعيون تتجنب لقاء نظراته باستثناء السيد دو پوشيه الذي بدا وحده غير مقدر خطورة الموقف. وكان ناپليون لا يجهل بحكم خبرته، معنى قتال يستنفد طوال ثماني ساعات من الجهد دون أن ينتزع المهاجم النصر. لقد كان أشبه بالهزيمة بالنسبة إليه، فالميزان يميل بشكل يصبح معه أبسط حادث قميناً بضياعه هو وجيشه.

وعندما كان يستعرض هذه الحملة الغريبة التي لم يحصل خلالها طوال شهرين كاملين على نصر واحد ولم يغنم علماً واحداً أو مدفعاً واحداً ولا فصيلة من الجند ويتأمل هذه الوجوه المكتئبة في السر ويسمع تلك التقارير عن مقاومة العدو العنيدة. كان يخيل إليه أنه فريسة حلم مخيف. طافت برأسه كل الحوادث العرضية التي يمكن أن تسبب ضياعه: يهجم الروس على جناحه الأيسر ويخرقون خط الوسط فتأتي قذيفة تائهة تذهب به شخصياً. إن كل الأشياء ممكنة الوقوع. كان في معاركه السابقة لا يحسب إلا إمكانيات النجاح. أما الآن، فقد بات ينتظر عدداً من الأحداث العارضة السيئة. نعم، لقد كان ذلك يشبه الحلم المرعب: يحلم المرء بأن آثماً يهاجمه، فيشهر سلاحه

www.Maktbah.com

ليضربه به بكل قواه لكنة يشعر بأن يده تتدلى عاجزة كالخرقة، فيعتصر قلبه خوف من موت لا مفر منه.

ولقد أحدث نبأ مهاجمة الروس لجناحه الأيسر، مثل ذلك اللون من الخوف في نفس ناپليون. فبقي متهالكاً فوق كرسي الميدان ورأسه بين يديه، اقترب بيرتييه منه وعرض عليه الطواف بالخطوط لتكوين رأي صحيح عن الموقف. فأجابه: ماذا؟ ماذا تقول؟.. نعم، مر لي بجواد.

اعتلى صهوة جواده ومضى نحو سيميونوڤسكوي.

على طول الطريق التي مر بها، وسط الدخان الذي كان ينقشع ببطء، كانت جثث الرجال والخيول ملقاة سابحة في برك الدم، منفردة أو مجتمعة حتى أن ناپليون وملازميه لم يروا قط من قبل مثل ذلك الهول ولا ذلك العدد من الجثث المجتمعة على رقعة بمثل تلك المساحة الضيقة. وكان دوي المدافع الذي لم يتوقف منذ عشر ساعات كاملة ولم يفتأ يصفع صحناء الأذن، يزيل جلال المشهد كما تبرز الموسيقى قيمة الصور الحية.

وعندما بلغ مستوى سيميونوڤسكوي، رأى ناپليون خلال الدخان، صفوفاً كاملة من الجنود مرتدين أزياء لم تكن ألوانها مألوفة لديه. إنهم الجنود الروس.

كان هؤلاء متمركزين وراء القرية والمرتفع وقاذفاتهم تطلق النار دون تمهل وتملأ خطهم كله بالدخان. لم يعد هناك قتال بالمعنى المفهوم، والمجزرة الدائرة لا يمكن أن تعود بفائدة على الروس ولا على الفرنسيين. فأوقف الأمبراطور جواده وعاد يستسلم للتفكير حتى أخرجه بيرتييه منه. وهو يبدو وكأنه من صنعه لأنه مسؤول عنه. فبدا له للمرة الأولى مريعاً عديم النفع بسبب عدم نجاحه بدون شك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عرض عليه أحد الجنرالات الذين برفقته أن يأمر بإطلاق الحرس القديم. فتبادل «ني» وبيرتييه النظر وطافت على شفاههما ابتسامة ازدراء لهذا العرض الأهوج.

وأطرق ناپليون برأسه وبقي فترة طويلة لا يتكلم وأخيراً قال:

ـ لن أهدم «حرسي» على بعد ثمانمائة ميل من فرنسا.

ولوى عنان جواده وعاد إلى شيـڤاردينو.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس والثلاثون

شاهد پيار كوتوزوف على المقعد المغطى بالنجد جالساً عند الصباح متهاوياً على ذاته بكل وزن جسمه حانياً رأسه الأشيب. لم يكن يتخذ تدبيراً معيناً بل يكتفي بموافقته على ما يعرض عليه أو حجبه عنه.

كان يجيب: «نعم، نعم، افعل هذا» ويقول لهذا أو ذاك من أصدقائه: «نعم، نعم، اذهب يا عزيزي، اذهب لنرى» أو يعلن: «كلا، لا فائدة، الانتظار أفضل». ويستمع إلى التقارير التي تنقل إليه ويعطي الأوامر متى طلبت منه. لكنه كان يبدو أشد اهتماماً بالانطباعات البادية على الوجوه واللهجات التي ينقل بها العسكريون تقاريرهم من اهتمامه بمدلول الكلمات نفسها. وكانت خبرته الطويلة في الحروب وحكمته كعجوز تعلمانه أن رجلاً واحداً لا يمكنه إدارة مئات الألوف مع الآخرين الذين يناضلون ضد الموت. وكان عارفاً أن ما يقرر مصير المعارك ليس التدابير المتخذة من قبل الجنرال القائد الأعلى ولا الموقع الذي تحتله القطعات ولا عدد المدافع والقتلى بل تلك القوة الخفية التي تسمى معنوية الجنود. لذلك راح يراقب تلك المعنوية ويحاول قدر طاقته أن يوجهها. كانت قسمات وجهه تنطق بانتباه دائم هادئ وجهد يتغلب على تعب جسم هدّته السنون.

جاؤوا، في الساعة الحادية عشرة، يعلمونه أن التحصينات التي احتلها الفرنسيون قد استعيدت الآن وكان الأمير پاغراسيون أُصيب بجرح. فندت عن كوتوزوف صيحة تعجب وهز رأسه ثم أمر أحد مساعديه العسكريين:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ امض لزيارة الأمير پيوتر إيڤانوڤيتش واستعلم تفصيلاً عن حاله.

ثم استدار إلى الأمير دو وورتمبيرغ الذي كان واقفاً وراءه وقال له:

ـ تفضل سموك بالاضطلاع بقيادة الجيش الثاني؟

ولم يمض وقت طويل على ذهاب الأمير، بل قبل أن يبلغ سيميونوڤسكوي رجع المساعد العسكري يعلن «لعظيم الرفعة» أنه يطلب إمدادات.

فقطب كوتوزوف حاجبيه وأرسل فوراً الأمر إلى دوختوروف أن يتولى قيادة الجيش الثاني زاعماً أنه بعد أن أمعن التفكير، وجد أنه لا يستطيع الاستغناء عن الأمير في مثل هذه المناسبات الخطيرة وأمر أن ينقل إليه رجاء العودة إلى جانبه.

ولما أبلغوه أن مورا وقع في الأسر، طافت على شفتيه ابتسامة عندما راح أعضاء أركان حربه يقدمون إليه تهانيهم وقال:

ـ ليس بهذه السرعة أيها السادة. لا شيء خارقاً في أن نربح المعركة وأن يسقط مورا في الأسر. ولكن من الأفضل أن ننتظر قبل أن نبتهج.

مع ذلك، فقد أرسل مساعداً عسكرياً لينشر هذا النبأ بين الصفوف.

وعندما أسرع شتشربينين من الجناح الأيسر يعلمه أن الفرنسيين احتلوا التحصينات وسيميونوڤسكوي كذلك، خمن من أمارات وجهه ومن الضجيج الذي كان يتناهى من ساحة المعركة إلى أسماعه أن الأمور لا تسير على ما يرام. فوقف وكأنه أراد أن يحرك ساقيه قليلاً وأمسك بذراع الضابط ثم انتحى به جانباً ليصغي إلى تقريره.

قال لإيرمولوف: اذهب يا عزيزي. أنظر ما إذا كان يمكن عمل شيء ما.

كان كوتوزوف في غوركي، في وسط الموقع الروسي تماماً. ولقد صد الهجوم الذي قام به ناپليون مراراً على جناحنا الأيسر. أما في الوسط، فلم يجاوز الفرنسيون بورودينو بينما هزم أوڤاروف العدو في الجناح الأيسر.

www.Maktbah.com

حوالى الساعة الثالثة، توقفت الهجمات الفرنسية، واستطاع كوتوزوڤ أن يقرأ على وجوه الجنود العائدين من الميدان ووجوه الذين من حوله، هيجاناً يبلغ أقصى المراحل. وكان راضياً عن نهار جاء بنتائج فاقت ما كان يتوقع. لكن القوة الجسدية كانت تخون ذلك العجوز. ولقد سقط رأسه على صدره بل وقع له مرة أن نام. قدموا له العشاء.

وبينما هو يأكل، شوهد ڤولزوغن، المساعد العسكري لجلالته، ذلك الذي أعلن بينما كان يمر بالقرب من أندريه أن الحرب يجب أن تطول وأن پاغراسيون لا يمكنه الاحتمال، يصل من لدن باركلي، ليرفع تقريره عن الموقف في الجناح الأيسر. لقد قدر باركلي دوتوللي الحصيف، إزاء تزايد عدد الجرحي. وفوضى المؤخرة، بعد أن دقّق النظر في كل الاحتمالات، أن المعركة قد خسرت، فأرسل تبعاً لذلك صفيه بسرعة يحمل النبأ إلى القائد العام.

حدق كوتوزوڤ بعينيه الصغيرتين الناريتين إلى وجه ڤولزوغن وهو يمضغ بصعوبة قطعة الدجاج المشوي بينما اقترب بخطى متكاسلة وانحنى محيياً وابتسامة مطاوعة تعلو شفتيه.

كان ڤولزوغن يعامل القائد الأعلى بتكلف مشوب بقلة الحياء وكأنه يقول: للروس ملء الحرية في أن جعلوا من الهرم الفاني معبوداً لهم، لكن عسكرياً من طرازه هو، يعرف كيف يتصرف. حدث نفسه وهو يلقي نظرة ساخرة على الأطباق الموضوعة أمام كوتوزوڤ: «إنّ السيد العجوز، وهكذا كان الألمان يسمونه فيما بينهم، يرفه نفسه». وبدأ يعرض على «السيد العجوز» الموقف في الجناح الأيسر كما قدره باركلي وكما لمسه هو بنفسه.

ـ أصبحت كل نقاط مراكزنا بين أيدي العدو دون أن نستطيع له صداً نظراً إلى حاجتنا إلى الجنود وجنودنا يهربون ويستحيل علينا إيقافهم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

توقف كوتوزوف عن المضغ وراح يحملق في ڤولزوغن وكأنه لا يفهم ما يقوله. ولدى رؤيته انفعال «السيد العجوز» قال له المساعد العسكري:

ـ لقد اعتبرت أنه ليس من حقي أن أخفي على سموك ما رأيت. إن القطعات في فوضى عامة..

صاح كوتوزوف الذي وقف فجأة ومشى نحو ڤولزوغن:

ـ هل رأيت ذلك؟ هل رأيت ذلك؟

كان الغضب يكاد يخنقه وهو يهدده بيديه المرتجفتين:

ـ إليّ أنا، تبلغ بك الجرأة لتقول ما تقول؟... إنك لا تعرف شيئاً من شيء يا سيدي. قل للجنرال باركلي عن لساني إن معلوماته خاطئة وإنني بصفتي قائداً أعلى، أعرف سير المعركة أفضل مما يعرف هو.

همّ ڤولزوغن أن يجيب لكن كوتوزوف قاطعه:

ـ لقد صُدّ العدو على الجناح الأيسر وهزم على جناح الأيمن. فإذا كنت أسأت النظر يا سيدي فإنّ هذا لا يجيز لك أن تروي ما أنت جاهله. تفضل بالذهاب إلى الجنرال باركلي وانقل له رغبتي في مهاجمة العدو غداً دون تغيير.

لزم الجميع الصمت فلم يسمع إلا صوت تنفس الجنرال العجوز اللاهث.

استرسل كوتوزوف يقول وهو يرسم إشارة الصليب على صدره بينما طفرت الدموع من مقلتيه:

ـ لقد صُدّوا في كل النقاط شكراً لله ولجنودنا البواسل. لقد هزم العدو وغداً سنطرده من أرض روسيا المقدسة.

هز ڤولزوغن كتفيه وابتعد وهو يدل بسخريته على ما يراه في كفاءة الرجل العجوز.

www.Maktbah.com

قال كوتوزوف وهو يشير إلى فتى بهيّ الطلعة، متين البنية، ذي شعر فاحم، وصل في تلك اللحظة فوق التل:

ـ وانظر ها هو بطلي.

كان القادم هو الجنرال رايبفسكي الذي لم يغادر طوال النهار النقطة الحساسة في المعركة. أعلن أن القطعات لا تزال صامدة وأن الفرنسيين لم تعد لديهم الجرأة على مهاجمتهم.

ولما سمعه كوتوزوف يتحدث على هذا النحو، قال له بالفرنسية:

ـ ألا تظن كالآخرين إذن أنه يجب علينا أن ننسحب؟

ـ على العكس يا صاحب السمو. إن الأكثر عناداً هو الذي ينتصر في المواقف المتأرجحة. ومن رأيي...

نادى كوتوزوف: كايساروف! اجلس هنا واكتب الأمر اليومي لنهار الغد. وأنت، وأشار إلى مساعد عسكري آخر، امض للطواف بالصفوف وأعلن أننا سننتقل إلى الهجوم غداً.

وفي تلك الأثناء، أعلن ڤولزوغن الذي أرسله باركلي للمرة الثانية، أن جنراله يرغب في الحصول عى تأييد خطي للأمر الذي أعطاه الماريشال.

ودون أن يشرفه كوتوزوف بنظره، أمر بكتابة ذلك الأمر ليرفع المسؤولية عن القائد الأعلى السابق الحصيف بناء على إصراره.

وبفضل ذلك الرباط الغامض الذي لا يوصف والذي يبقي الجيش كله على حالة فكرية واحدة، تلك الحالة الفكرية التي يدعونها معنويات الجيش والتي تشكل عصب الحرب، فإنّ أقوال كوتوزوف وأمره اليومي الذي يعلن فيه الهجوم في اليوم التالي، انتشرت من فورها من طرف إلى آخر بين قطعاتنا.

وبدون أي شك، إن عبارات أمره اليومي نفسها ليست هي التي بلغت الحلقات الأخيرة من تلك السلسلة. بل إنه لم يكن هناك شيء مما قال في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الأقاصيص التي تنوقلت من واحد إلى آخر. لكن معاني كلماته تنتقل من قريب إلى قريب لأنها لم تكن تعكس ترتيبات خادعة مموهة بل المشاعر العميقة التي تعتلج في نفس الجنرال القائد الأعلى كما تعتلج في نفس كل روسي.

فلما علموا أننا سنهاجمهم غداً وشعروا بتأييد ما كانوا يرغبون فيه من جانب القيادة العليا، استعاد أولئك الرجال المنهوكون المترددون ثقتهم.

www.Maktbah.com

الفصل السادس والثلاثون

حتى الساعة الثانية، بقي فيلق الأمير أندريه تابعاً للاحتياطي الذي كان بعيداً عن دائرة الحركة وراء سيميونوڤسكوي تحت نيران كثيفة من المدفعية. وفي ذلك الحين، سُير الفيلق الذي فقد حوالى مائتي رجل، إلى الأمام عبر حقل من الخرطال وطئته الأقدام حتى الفراغ الذي يفصل بين قرية بورودينو و«بطارية» التل. كان ذلك الفراغ من الأرض هو المكان الذي سقط فيه أثناء النهار ألوف من الرجال، والذي أصبح حوالى الساعة الثانية على الضبط نقطة التقاء لنيران متأججة أخذت بضع مئات من مدافع العدو تصبها عليه.

دون أن يغادر مكانه أو يطلق رصاصة واحدة، فقد الفيلق هنا، ثلث عدده. وكانت المدافع إلى الأمام وبصورة خاصة إلى اليمين تقصف وسط دخان كثيف ومن منطقة الدخان الغامضة تلك، راحت القذائف والقنابل تنهمر دون انقطاع يواكبها صفير قصير أو طويل. وكانت المقذوفات أحياناً تتجاوز الهدف طوال ربع ساعة وكأنها تتيح فترة استراحة ولكن أحياناً كان عدد كبير من الرجال يصاب في غضون دقيقة واحدة، ولا يكف العاملون عن نقل الجرحى والجثث.

وكانت إمكانية البقاء على قيد الحياة، لدى كل صدمة جديدة، تتضاءل بالنسبة إلى الذين لم يقتلوا بعد، ولقد انتشر الفيلق على شكل ألوية تفصل بين كل واحد منها ثلاثمائة خطوة. لكن الصمت نفسه والفتور عينه كانا يخيمان عليها كلها. وإذا تبودلت بعض الأحاديث النادرة، فهي سرعان ما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت تتوقف كلما سقط مقذوف وارتفعت بعده صيحة: «محفات!» ولقد بقي الجنود معظم الوقت تبعاً لأوامر الرؤساء جالسين على الأرض. فكان هذا يرفع عمرته ويحرك السير الجلدي المحيط بها برفق، وذاك ينظف حربته بالصلصال الجاف الذي يحيله دقيقاً بين يديه وثالث يسوي تجهيزاته ويعيد شدّها ورابع يحل الأشرطة الكتانية التي يستخدمها بدلاً من الجوارب ثم يعيد لفها مجدداً حول ساقيه ويضع حذاءه في قدميه بهدوء. وكان البعض يبنون بيوتاً صغيرة من الحصى التي يلتقطونها من الأخاديد أو يضفرون الحصر مستعملين قش اللفاط ويبدون جميعهم منهمكين في انشغالاتهم. وعندما يقع القتلى أو الجرحى في صفوفهم ويقوم رجال النقالات بعملهم، وعندما يتراجع رجالنا أو تُرى خلال سحب الدخان تشكيلات العدو المتراصة، لم يكن أحد يعير ذلك التفاتاً.

وفي المقابل، ما إن تشرع مدفعيتنا أو يبدأ فرساننا بالتقدم أو مشاتنا بالسير، حتى ترتفع صيحات التشجيع من كل مكان. لكن الانتباه العام كان عالقاً بصورة خاصة ببعض الحوادث العارضة التي لا علاقة لها إطلاقاً بسياق المعركة حتى ليقال إن انتباه هؤلاء الرجال الضعفاء معنوياً يرتكز على أحداث الحياة اليومية المألوفة. جاءت «بطارية» فمرت أمام جبهة القطعات، ولما مرت الصناديق، شوهد أحد خيول النقل وقد اشتبكت قائمته بالمجرة. «ايه! هناك، أيها الحمّال!.. سوّ هذا وإلا فسيتعثر.. إيه! ماذا بهم، إنهم ولا شك عميان!». واجتاحت صيحات التعجب تلك كل الفيلق.

ومرة ثانية اجتُذبت الأنظار كلها إلى كلب صغير يميل لونه إلى الاصفرار، خرج، والله يعمل من أين، منتصب الذيل، إلا أنه لم يلبث إثر سقوط قذيفة بالقرب منه أن أطلق نباحاً متوجعاً ولاذ بالفرار وهو يضم ذيله، فانفجر الفيلق كله ضاحكاً. لكن تلك الألهيات لم تكن لتدوم إلا لحظة في حين أنه مضى

www.Maktbah.com

أكثر من ثماني ساعات على هؤلاء الرجال الجياع وهم في أماكنهم تحت الرعب الدائم من الموت ووجوههم الممتقعة العابسة تزداد شحوباً وانقباضاً.

وكان الأمير أندريه، ممتقع الوجه هو الآخر مقطب الحاجبين، يروح ويجيء في مرج مجاور لحقل الخرطال مطرق الرأس ويداه وراء ظهره، عاطلاً ليس لديه ما يفعله أو يصدره من أوامر. لقد كان كل شيء يعمل تلقائياً كانوا يحملون القتلى إلى المؤخرة وينقلون الجرحى والصفوف تعود إلى التشكل، وأولئك الذين هموا بالفرار، ما لبثوا أن عادوا. ولقد قدر في البداية أن من واجبه بعث الشجاعة في نفوس رجاله بإعطائهم مثلاً حياً بمروره بين صفوفهم لكنه ما لبث أن أدرك أنه عناء باطل. كانت كل قواه الروحية، كما كان حال كل فرد من جنوده، لا تميل لاشعورياً إلا إلى تجاهل فظاعة الموقف الذي هم فيه جميعاً فكان إذن يروح ويجيء في المرج، يجر قدميه، فيطأ العشب ويتأمل الحشائش التي يغطيها حذاؤه. وكان تارة يوسع خطاه محاولاً وضع قدميه فوق الآثار التي خلفها الحصادون وطوراً يحصي خطواته ويحسب عدد المرات التي سينتقل فيها من أخدود إلى آخر حتى يقطع ربع ميل أو ينتزع نبات الأرطماسية الذي ينبت على التخوم فيسحقه بين يديه ويستنشق رائحته القوية المرة.

أما فكره الذي كان شديد الفاعلية بالأمس، فقد بدا أشبه بالمتخدر. كان يصيخ السمع إلى تلك الضوضاء المتشابهة أبداً بأذن مكدودة: زمجرة المقذوفات عند اندفاعها، صفيرها عند وصولها، ويلقي بين الحين والآخر نظرة إلى وجوه الرجال التي ألفها منذ زمن بعيد، رجال اللواء الأول وينتظر. حدث نفسه وهو يسمع صفيراً مشؤوماً في منطقة الدخان: «ها هي ذي واحدة.. موجهة إلينا أيضاً! واحد.. اثنان.. لا شك أن هذه لنا..» ثم يقاطع نفسه ليلقي نظرة على الصفوف. «كلا لقد تجاوزتنا.. ولكن حذار التالية..»

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ثم يعود إلى سيره ماداً خطاه ليبلغ التخوم في ست عشرة خطوة وفجأة، ارتفع صفير وصدمة! وعلى مسافة خمس خطوات منه، انغرزت قذيفة في الأرض الجافة فنثرت التراب في كل الاتجاهات. عاد نحو جنوده من جديد. لا شك أن إصابات كثيرة وقعت بينهم إذ شاهد غوغاء في اللواء الثاني.

صاح بأمر ضابطه التابع: امنعهم من تشكيل جماعات.

فنفذ هذا الأمر واقترب من الأمير أندريه بينما جاء من الجانب الآخر قائد اللواء على صهوة جواده. صرخ صوت مروع: حاذر!

وكالعصفور الصغير الذي يرفرف وهو يردد صفيره، جاءت قنبلة فحطت على الأرض بهدوء على بعد خطوتين من أندريه قرب قائد اللواء تماماً. ولقد صهل الجواد دون أن يأبه إذا كان من المستحسن خوفه أو الاحتفاظ به، وانتصب على خلفيتيه وقفز جانباً فكاد يسقط الماجور. وانتقل الرعب من الحيوان إلى الرجال.

قال صوت الضابط التابع الذي استلقى على الأرض: .. ألق بنفسك على الأرض!

لكن الأمير أندريه بقي واقفاً متردداً. وكانت القنبلة التي لايزال الدخان يتصاعد منها، تدور كاليرمع بينه وبين الضابط عند الحد بين المرج والحقل، قرب دغل من نبات الأرطماسية.

فكر وهو يعانق العشب وسوق الأرطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكرة السوداء المتحركة بنظرة جديدة، نظرة مفعمة بالرغبة: «أهو الموت؟ لا أستطيع الموت ولا أريد أن أموت. إنني أحب الحياة، أحب هذا العشب وهذه الأرض والهواء الذي أستنشقه..» وبينما هو يحدث نفسه بذلك، تذكر أنهم ينظرون إليه فقال للضابط التابع: ألا تخجل يا سيدي؟ أي..

لكنه لم يستطع أن يعقب قوله. دوّى الانفجار مصحوباً بصوت قريب من

www.Maktbah.com

انصفاق الزجاج المحطم ورائحة بارود كريهة. ألقي الأمير جانباً فرفع ذراعاً في الهواء وهوى ووجهه إلى الأرض.

أسرع بعض الضباط وانسابت على العشب من جنبه الأيمن بركة عريضة من الدم.

توقف المتطوعون الذين استدعوا بنقالتهم وراء الضابط. وكان الأمير الممدود على بطنه ووجهه مدفوناً في الأعشاب.

ـ حسناً! ماذا تنتظرون؟ اقتربوا.

حمل القرويون الأمير أندريه من كتفيه وساقيه. ولكنهم عادوا فسجوه على الأرض بعد أن تبادلوا نظرة إثر إطلاقه أنات أليمة. صاح صوت:

ـ احملوه، ضعوه على المحفة!

فحملوه من كتفيه وسجوه على النقالة. وصاح عدد كبير من الضباط مروعين: آه! يا رب، يا رب! هل هذا ممكن؟ في البطن! إنه الموت... آه! يا إلهي!

وشرح الضابط التابع قائلاً: لقد مست أذني.

حمل القرويون المحفة على أكتافهم وهرعوا متعجلين إلى عربة الإسعاف عن طريق ممشى فتحوه بكثرة غدواتهم ورواحهم. ولما كانت مشيتهم غير المنظمة تهز المحفة، فقد استوقفهم ضابط من كتفهم وقال: سيروا بخطى عادية إذا أردتم! عصبة الغلاظ!

وقال الذي في المقدمة: اقتد بخطوتي يا فيدور، سمعت!

فأجاب الذي في المؤخرة بدعة وهو يبدل خطوته: هه، ها أنذا قد اقتديت.

وقال تيموخين بصوت متهدج وهو يجري صوب المحفة: يا صاحب السعادة! هي! يا أمير!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ففتح الأمير أندريه عينيه ومن فوق المحفة حيث كان رأسه يتأرجح، ألقى نظرة على المتكلم ثم أغمض عينيه.

نقل المتطوعون أندريه إلى الغابة التي انتشرت فيها عربات النقل والمستشفى. وكان هذا مؤلفاً من ثلاث خيام منصوبة مفتوحة قليلاً على تخوم غابة من السندر. أما العربات والجياد فكانت في الغابة. وكانت الحيوانات تلتهم علفها في أكياسها والعصافير ترفرف حولها لتلتقط الحبوب الضائعة. والغربان التي شمت رائحة الدم، تنعب بنفاد صبر. وحول الخيام، على مساحة هكتارين ونصف هكتار من الأرض، جلس أو استلقى أو وقف رجال يغطيهم الدم في أزياء متباينة مختلفة، وبالقرب منهم، وقفت جماعة من حاملي المحفات بوجوههم الكئيبة، كان ضباط النظام يبذلون ما في وسعهم لإبعادهم. فكان أولئك الجنود يصممون على البقاء هناك متكئين على محفاتهم شاخصين بأعينهم إلى المشهد الذي يدور تحت أنظارهم وكأنهم يحاولون جاهدين إدراك مدلوله الأليم.

ومن الخيام كانت صيحات وحشية تتناوب مع أنات أليمة شاكية، تتصاعد من هناك ومن حين إلى آخر، يرى عدد من الممرضين يخرجون راكضين ليحملوا الماء وليشيروا أثناء ذلك إلى الذين حان دورهم في الدخول. وعند المدخل، كان الجرحى يحشرجون ويصرخون ويبكون ويشتمون ويطلبون جرعات من الـڤودكا. وكان بعضهم في النزع. ولقد حمل الأمير أندريه بصفته قائد فيلق، بين صفوف من الجرحى الذين لم تضمد جراحهم بعد أن كانوا قرب إحدى الخيام وهناك،توقف حاملوه بانتظار الأوامر.

فتح عينيه وبقي فترة طويلة لا يدري ماذا حدث له. المرج، الأرطماسية، حقل الخرطال، الكتلة السوداء الدائرة، حبه العنيف المفاجئ للحياة، كل هذه الأشياء عادت فجأة إلى ذاكرته. وعلى قيد خطوتين منه، وقف صف

www.Maktbah.com

ضابط عملاق، أسود الشعر، مرتفع الصوت، مستنداً إلى لوح من الخشب. كان مصاباً برصاصات في رأسه وساقيه وقد لف بالضمادات وكان الجرحى وحملة المحفات يصغون إليه وهو يحاضر فيهم.

كان الضابط يصرخ وكانت عيناه الملتهبتان تلقيان حوله نظرات متباهية:

ـ عندما أجليناهم من هناك، انسحبوا دون أية مقاومة بالطبع حتى ولو أننا أمسكنا بأمبراطورهم نفسه لما فعلوا. ولو أن فرق الاحتياطي أطبقت في اللحظة المناسبة، إذن يا فتياني، لما ظل منهم حيّ. صدقوا ما أقول لكم.

راح الأمير أندريه، ككل أفراد الدائرة، يتأمل المتحدث وفي عينيه بريق وهو يشعر بالعزاء. قال لنفسه: «بعد كل شيء، ماذا يهمني ما سيحدث هناك وما حدث هنا؟ ومن أين لي كل هذا العناء في مغادرة هذه الحياة؟ هل في هذه الحياة شيء ما لم أفهمه، شيء ما زلت جاهله؟».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع والثلاثون

خرج أحد الأطباء من الخيمة ممسكاً بسيجار، بين الإبهام والخنصر، كان يخشى أن يلطخه بالدم لأن يديه الصغيرتين كانتا كمئزرة ملطختين أيضاً. رفع رأسه، وتاهت نظرته بين الجرحى. لا شك أنه كان يريد استنشاق الهواء قليلاً. وبعد أن استدار يميناً ويساراً، أطلق زفرة وعاد ببصره إلى الأرض.

أجاب ممرض دلّه على الأمير أندريه:

وأصدر أمره بإدخاله فارتفعت غمغمة بين الجرحى الذين كانوا ينتظرون. قال أحدهم: يبدو أنّ في العالم الآخر أيضاً لا توجد أمكنة إلا «للسادة».

مددوا الأمير أندريه على طاولة كانت شاغرة وقد انتهى ممرض في الحال من تنظيفها، فلم يستطع أندريه أن يميز بوضوح ما كان موجوداً داخل الخيمة لأن الصيحات المعولة التي كانت ترتفع من كل مكان والألم المحرق الذي كان يشعر به في جنبه وبطنه وظهره تشغله تماماً. ولقد اختلط المشهد الذي عرض لعينيه في شعور أوحد باللحم البشري الدامي الذي يبدو وكأنه يملأ تلك الخيمة المنخفضة، كما كان ذلك اللحم نفسه منذ أسابيع خلت، يملأ البركة الموحلة في ذلك النهار القائظ من شهر آب على طريق سمولنسك. أجل، كان ذلك اللحم نفسه لحم المدفع، الذي أثارت رؤيته في نفسه الاشمئزاز وكأنه يرى سلفاً هذا اليوم.

تركوه وحيداً بضع لحظات فاستطاع أن يرى ماذا يدور على الطاولتين الأخريين. جلس إلى الطاولة الأقرب إليه تَتَري، لا شك أنه قوقازي إذا حكمنا

www.Maktbah.com

على البزة الملقاة بجانبه. وكان أربعة من الجنود يحاولون تثبيته في مكانه، بينما راح طبيب يعمل مبضعه في ظهره الأسمر العاضل.

غمغم التتري فجأة: أوه! أوه! أوه!

ورفع وجهه القلزي ذا الأنف الأفطس والخدين البارزين وصرف بأسنانه البيضاء وراح يتخبط ويطلق صرخات طويلة.

وعلى الطاولة الثانية التي كان يحيط بها جمع من الأشخاص، سجي رجل على ظهره، قوي، طويل القامة، مائل الرأس إلى الوراء. لكن مظهره العام حتى لون شعره العكف لم يكن مجهولاً من الأمير أندريه. وكان عدد من الممرضين يميلون بكل ثقلهم على صدر ذلك الرجل ويمسكون به. وكانت إحدى ساقيه بيضاء وسمينة تضطرب دون توقف بانتفاضات محمومة، ويطلق شهقات تشنجية ويكاد يختنق، بينما انحنى على الساق الأخرى، المصبوغة كلها بالدم، طبيبان صامتان أحدهما ممتقع الوجه مرتعد.

في تلك الأثناء كانوا يغطون التتري بمعطفه فراح الطبيب ذو النظارتين يقترب من الأمير أندريه وهو يمسح يديه بعد أن أنجز عمله. تفحصه بنظرة ثم التفت فجأة وصاح بصوت غاضب يخاطب الممرضين:

ـ اخلعوا ثيابه! ماذا تنتظرون؟

وعندما بدأ أحد هؤلاء يحل أزرار أندريه وينزع عنه ثيابه بعجلة وقد شمر عن ساعديه، تذكر هذا أيام طفولته الأولى البعيدة. انحنى الماجور على الجرح فلمسه وأطلق زفرة عميقة ثم أشار إلى أحدهم. ولقد أفقد الألم الفظيع الذي شعر به أندريه في بطنه، أفقده الرشد. استعاد وعيه، كانت شظايا عظم الفخذ المحطمة قد انتزعت وقطع من اللحم قد بُترت وضُمدت الجراح. وضمخوا له وجهه فلما فتح عينيه، انحنى الطبيب فوقه وقبله في شفتيه دون أن ينطق بكلمة وابتعد مسرعاً.

twitter @baghdad_library

بعد كل تلك الآلام، شعر أندريه، براحة لم يشعر بمثلها منذ زمن طويل. ولقد خطرت بباله أفضل لحظات حياته وبصورة خاصة، طفولته الأولى، عندما كانوا يخلعون ثيابه ويسجونه في سريره الصغير، وتبدأ مربيته في هدهدته بالأغنيات، فيغيب رأسه في الوسادة ويشعر بسعادة الإحساس بالحياة، هذه اللحظات، خطرت بباله ليس بوصفها من حنايا الماضي بل كحقيقة واقعة.

كان الأطباء لا يزالون يحيطون بذلك الجريح الذي لم يكن مظهره غريباً عن پولكونسكي. كانوا يرفعونه ويحاولون تهدئته.

كان يزمجر بصوت يقطعه الشهيق وكأن الآلام قد هدته: أرونيها!.. أوه! أوه! أوه!

خيّل إلى أندريه وهو يصغي إلى ذلك الأنين أنه على استعداد للبكاء هو أيضاً. فهل ترى السبب أنه يموت هكذا دون مجد؟ أم لأنه يأسف على الحياة أم لأن ذكريات الطفولة تلك ترقق قلبه؟ هل السبب أنه يتألم وأن الآخرين يتألمون وأن ذلك التعس يئن بهذا الشكل الأليم؟ على أية حال، كان يشعر بحنين إلى أن يذرف دموعاً سخية، دموع الطفولة بل دموع الفرح تقريباً.

عرضوا على أنظار الجريح ساقه المبتورة التي تجمد الدم عليها في الحذاء الذي ما زال يكسوها. فأجهش كامرأة: أو! أوه! اوه!

ابتعد الطبيب فكشف بذلك عن وجه الجريح. فحدث الأمير أندريه نفسه.

ـ أوه! يا إلهي ماذا حدث؟ ماذا يفعل هنا؟

ذلك أنه تعرف في شخص ذلك التاعس الناشج المنهوك الذي فرغوا تواً من بتر ساقه، إلى أناتول كوراغين. أسندوا أناتول وقدموا له كأس ماء لم يكن يستطيع الإطباق على حافتها بشفتيه المتورمتين المرتعشتين. وكان ينتحب بشكل يمزق نياط القلوب. حدث الأمير أندريه نفسه دون أن يستوعب تماماً ما

يدور أمام عينيه: «نعم، هذا هو. نعم، إن هذا الرجل المتصل بي بشكل حميم أليم. ولكن ما هي الروابط التي تربط هذا الرجل بطفولتي؟» راح يتساءل ويسعى عبثاً لإيجاد الجواب. وفجأة، برز من ذلك العالم الطفولي المليء بالطهر والحب، وجه جديد انبعث في ذاكرته. عاد يرى ناتاشا كما بدت له للمرة الأولى في حفلة عام ١٨١٠ الراقصة، بجيدها وذراعيها النحيلتين ووجهها الفزع السعيد المتقبل للحماسة، فانبعث حبه لها بأعنف مما عرف وأقوى مما أحس من قبل واستيقظ في أعماقه. وحينئذ تذكر الرباط الذي يجمعه بهذا الرجل الذي يوجه إليه نظرته المحجوبة بالدموع. تذكر كل شيء، فملأ قلبه السعيد عطف عميق وحب كلف.

لم يستطع أن يتجلد أكثر مما فعل، فذرف دموع تحنان على الرجال وعلى نفسه، على غواياتهم وغواياته.

«نعم، الشفقة، الحب نحو إخواننا، نحو أولئك الذين يحبوننا، والحب نحو أولئك الذين يكرهوننا، حب أعدائنا، نعم، هذا الحب الذي جاء الله يبشر به على الأرض والذي سعت الأميرة ماري أن تلقنني إياه والذي لم أكن أفهمه. هذا الحب هو الذي يجعلني آسف للحياة. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان سيبقى لي لو قدر لي أن أعيش. أما الآن، فقد فات الأوان وللأسف!».

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن والثلاثون

أحدثت ساحة المعركة في ناپليون تأثيراً غير متوقّع، مظهر ساحة الحرب الرهيب المغطى بالجثث والقتلى، والتثاقل الذي أحسه في رأسه، ونبأ مقتل حوالى عشرين من جنرالاته أو جعلهم خارج المعركة، والاعتراف الذي توجب عليه الإسرار به لنفسه بعجز ذراعه التي كانت حتى اليوم لا تقهر. كان من عادته يحب رؤية القتلى والجرحى وهو المشهد الذي يزيد في قوة روحه كما كان يعتقد. لكن ذلك المشهد هزم ذلك اليوم قوة الروح العتيدة هذه التي كان يبني عليها عظمته. عاد مسرعاً إلى حصن شيـڤاردينو أصفر اللون ووجهه منتفخ وعيناه كدرتان وأنفه محمرّ وصوته صدئ وظل جالساً على مقعده مطرقاً بنظره، مصغياً رغم إرادته إلى ضجيج المعركة. كان ينتظر بصبر محموم نهاية تلك المسألة التي يعتقد أنه ساهم فيها والتي ليس له سلطة على إيقافها. استولى عليه لبضع لحظات شعور إنساني شخصي تغلب على ذلك السراب الذي ضحى من أجله تضحيات جمة. وعزا إلى نفسه الآلام ورؤية الموتى التي ظهرت له على ساحة المعركة فذكره رأسه المثقل ورئتاه المتعبتان أنه كالآخرين يمكن أن يتألم وأن يموت. وفي تلك اللحظة لم يعد يرغب في موسكو ولا في المجد والنصر: أية حاجة به إلى المجد! إن كل ما يتمناه الآن هو الراحة والهدوء والحرية. مع ذلك، فإنه عندما وقف على مرتفع سيميونوڤسكوي، عرض عليه قائد المدفعية إقامة بضع «بطاريات» هناك لدعم النار المسلطة على القوات الروسية المركزة أمام كيناز كوڤو، فوافق

www.Maktbah.com

ناپليون وأمر أن يحاط علماً بالنتائج الحاصلة. وعلى ذلك، فقد جاء مساعد عسكري يعلن أنه تنفيذاً لأوامره سدد مئتي مدفع على الروس ولكن هؤلاء لا يزالون صامدين.

قال المساعد العسكري:

ـ لقد حصدت نارنا صفوفاً كاملة مع ذلك فهم ما زالوا صامدين.

فقال ناپليون بصوته الأجش: إنهم يريدون زيادة!

سأله الضابط الذي لم يسمع الجملة تماماً:

ـ يا صاحب الجلالة؟

فكرر ناپليون بصوته الأبح نفسه: إنهم يريدون زيادة.

وأمر وهو يقطب حاجبيه: أعطوهم ما يطلبون.

لقد كان ما لم يرده يتحقق دون أمره لذلك فإنه لم يكن يتخذ من تدابير إلا لأنهم، على ما كان يبدو، ينتظرون منه أن يتخذها. ومجدداً، استغرق في سراب العظمة. وكمثل الحصان الذي يحرك عجلة دافعة وهو يظن أنه إنما يقوم بعمل مفيد له شخصياً، كذلك، عاد يقوم بوداعة بالدور القاسي الأليم، الدور غير الإنساني الذي نُذر له.

لم تكن تلك الساعة وحدها من ذلك اليوم مجال اكفهرار ذهن ذلك الرجل المسؤول أكثر من أيّ سواه عن الأحداث التي وقعت في ذلك العصر وضميره أنه لم يتوصل حتى نهاية مجده إلى تفهم الخير والجمال والحق، فكانت أعماله معارضة تماماً للخير والحق بعيدة جداً عن كل إحساس إنساني لدرجة لم يكن ممكناً معها أن يدرك مداها. ولم يكن بإمكانه أن يتنكر لمآثر تحمس لها نصف العالم فكان عليه بالتالي أن يتنكر للحق والخير ولكل شعور إنساني.

لم يكن ذلك اليوم وحده الذي بعد أن طاف فيه في ساحة المعركة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المغطّاة بالجنود القتلى أو المشوهين، وفقاً لإرادته كما كان يظن، راح يحسب فيه تخميناً عدد الروس بالنسبة إلى الفرنسيين ليخدع نفسه وليجد أسباباً لابتهاجه بزعم أن النسبة خمسة إلى واحد. ولم يكن ذلك اليوم الذي قال فيه كما كتب إلى باريس: «إن ساحة المعركة رائعة» لأنه كان ممدداً عليها خمسون ألف جثة. بل إنه في سانت هيلين أيضاً، في سكون الوحدة، حيث أراد أن يكرس أوقات فراغه لعرض الأمور الهامة التي جاء بها، كتب ما يلي:

«كانت الحرب الروسية أكثر الحروب قرباً إلى الأذهان الشعبية في العصر الراهن: لقد كانت الحرب التي أملتها المصالح الحقيقية والفكر، حرب راحة الجميع وأمنهم لأنها سليمة ومحافظة إلى أقصى حد.

«كانت الحرب الروسية في سبيل الغاية الكبرى وإنهاء الحوادث العرضية وبدء الأمان. كان أفق جديد وأمور جليلة جديدة ستظهر مليئة كلها بالهناء وراحة الجميع إذا كان النظام الأوروبي قد أقيم فلم يبق إلا تنظيمه.

«وكنت، بعد أن أطمئن إلى هذه النقاط الجليلة وأستقر في كل مكان، سأشكل كذلك مجلساً استشارياً حلفاً مقدساً[1] (Saint-Alliance) لي.

«لقد سرقوا هذه الأفكار مني، ففي اجتماع الملوك الكبار ذاك، كنا سنتحدث عن مصالحنا كأسرة وسنعالج شؤون الشعوب كما تعالج بين المستخدم ورب العمل.

«بذلك كانت أوروبا لن تلبث حتى تصبح شعباً واحداً فيجد كل واحد نفسه وهو في سفره في كل مكان أنه لا يزال في وطنه المشترك. كنت سأجعل

---

(١) الحلف المقدس نُظم عام ١٨١٥ بمسعى من ميترنيخ النمسوي بين روسيا وبروسيا ضد المحاولات التحررية، وقصد نابليون من هذا الحلف أنه سيشكل حلفاً مماثلاً يضم كل ممالك أوروبا. (المترجم).

www.Maktbah.com

الأنهار القابلة للملاحة في خدمة الجميع وسأقيم وحدة البحار وسأقضي بأن تقتصر الجيوش الدائمة على حرس الملوك فحسب.

«وكنت، فور عودتي إلى فرنسا، قلب الوطن العظيم القوي الرائع الهادئ المجيد، سأذيع حدوده الثابتة، وسأعلن أن كل حرب مقبلة ستكون دفاعية وكل توسع جديد هو ضد مصالح الأمة. وكنت سأشرك ولدي في الملك، فتنتهي ديكتاتوريتي ويبدأ حكمه الدستوري.

«وكانت باريس ستكون عاصمة العالم والفرنسيون قبلة أنظار الأمم!..

«وحيئنذٍ، كنت سأكرس أوقات فراغي، وأيام شيخوختي للطواف مع الأمبراطورة خلال فترة تمرين ابني على شؤون الملك، بنواحي المملكة كزوجين ريفيين حقيقيين، على جيادي الخاصة، لتلقي الشكاوى وإصلاح الأخطاء وإقامة الأنصاب والأعمال الصالحة في كل مكان».

لقد كان يحاول إقناع نفسه، وهو الذي نذرته القدرة الإلهية لدور جلاد الأمم الأليم العبودي، إن هدفه كان خير الشعوب وإنه يستطيع ترأس مصير الملايين من المخلوقات وبناء سعادتهم باستبداد!

وكتب في مكان آخر حول حملة روسيا يقول:

«من الأربعمائة ألف رجل الذين اجتازوا الفيستول، كان نصفهم بين نمسوي وبروسي وسكسوني وبولوني وباڤاري ويرتمبرجي وميكلمبرجي وإسباني وإيطالي وناپولي. وكان ثلث الجيش الأمبراطوري نفسه مؤلفاً من هولنديين وبلجيكيين وجنويين وتوسكانيين ورومانيين ومن سكان المنطقة الثانية والثلاثين العسكرية: پريم وهامبورغ وإلخ.. فلم يكن فيه إلا حوالى مائة وأربعين ألفاً من المتكلمين بالفرنسية. ولقد كلفت حملة روسيا فرنسا الحالية أقل من خمسين ألف رجل. وأضاع الجيش الروسي في تقهقره من فيلنا إلى موسكو، وفي مختلف المعارك أربعة أضعاف ما خسره الجيش الفرنسي،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وخسروا في حريق موسكو حياة مائة ألف رجل ماتوا من البرد والجوع في الغابات كما أصيب الجيش الروسي أثناء سيره من موسكو إلى الأودر بآفة الفلك فلم يصل إلى فيلنا إلا بخمسين ألف رجل لم يبق منهم عند كاليس إلا أقل من ثمانية عشر ألفاً».

كان يتصور إذن، أن تلك الحرب لم تنشب إلا بإرادته. مع ذلك، فإن الهول الذي حدث نتيجة الأمر الواقع لم ينل منه. وكان يتحمل المسؤولية الكاملة للأحداث في حين يرى عقله المغشّى تبريراً في كون الفرنسيين في عداد مئات الألوف من الضحايا، أقل عدداً بكثير من الهيسيين أو الباڤاريين.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع والثلاثون

إن بضع عشرات الألوف من الرجال في ملابس متنوعة مختلفة قد تبعثروا قتلى في الحقول والمروج التابعة للسادة داڤيدوف أو لفلّاحي التاج، والتي بقي سكان بورودينو وجوكي وشيـڤاردينو وسيميمونوڤسكوي قروناً كاملة يحرثونها ويرعون فيها مواشيهم. وفي المستشفيات، على مساحة أكثر من هكتار، كانت أعشاب الأرض مصبوغة بالدماء. وكانت جماعات من الجنود الجرحى أو الأصحاء يكرون راجعين مروعين بعضهم إلى موجاپيسك والبعض الآخر إلى ڤالوييـڤو، في حين استسلمت جماعات أخرى رغم التعب الذي نالها والجوع، لأوامر الرؤساء فاندفعت إلى الأمام. وأخيراً، بقيت جموع منهم صامدة في مكانها مستمرة في إطلاق النار.

وعلى امتداد ساحة المعركة التي كانت رائعة الجمال والبهجة حتى ساعات خلت قبل بريق الحراب والأدخنة تحت شمس الصباح، انتشر الآن ضباب رطب وحلقت رائحة حادة غريبة من ملح البارود والدم. واجتمعت سحب، وراح مطر دقيق يقطر على القتلى والجرحى والجنود المنهوكين وعلى أولئك الذين يفقدون الإيمان في عزيمتهم وكأنه يصرخ بهم قائلاً: «كفى، كفى، أيها التعساء، كفوا. عودوا إلى صوابكم.. ماذا تفعلون؟».

وأخذ جنود هذا الجيش وذاك وقد ناؤوا بالتعب، يتساءلون عما إذا كان عليهم الاستمرار في تقتيل بعضهم بعضاً، فكان التردد يقرأ واضحاً على وجوههم بل إن كثيراً منهم بدأوا يطرحون على أنفسهم السؤال: «لماذا، لمن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يجب أن أقتل أو أن أقتل؟ أقتلوا من شئتم واعملوا ما شئتم، أما أنا، فقد كفاني!» وحوالى المساء، نبتت هذه الفكرة نفسها في كل النفوس فكان يمكن في كل لحظة أن يستولي الرعب على هؤلاء الناس، الرعب مما يفعلون، فيتركون كل شيء ويلوذون بالفرار تائهين.

مع ذلك، وعلى الرغم من أن كل المقاتلين شعروا عند انتهاء المعركة بخزي سلوكهم وأحسوا بالسرور لتوقفهم، فإن قوة غير مفهومة وغامضة ظلت تحركهم. ظل المدفعيون السابحون بالعرق الملطخ بالدم المسودون بالغبار يحملون وهم يتعثرون خائري القوى، ذخائر المدافع، يحشونها ويسددونها ويشعلون الفتيل بمثل تلك السرعة وتلك القسوة رغم هبوط عددهم بنسبة واحد إلى ثلاثة، فيستمر ذلك العمل المريع على الوقوع، ذلك العمل الذي لا يقوم تبعاً لرغبة الإنسان بل لإرادة ذلك الذي يدير الإنسان والعوالم.

ولو شاهد أيّ امرئ مؤخرة الجيش الروسي وما هي عليه من فوضى، لقال إن مجهوداً صغيراً من الفرنسيين قادر على إفناء هذا الجيش. ولو شاهد أي امرئ مؤخرة الجيش الفرنسي لاعتقد أن مجهوداً ضعيفاً من جانب الروس يكفي للقضاء عليه. ولكن الفرنسيين لا الروس ما كانوا يبذلون ذلك المجهود، فراح أوار المعركة يخبو تدريجاً.

كان الروس ممتنعين لأنهم لم يكونوا هم المهاجمين. لقد اقتصروا في البداية على قطع الطريق إلى موسكو فظلوا يحتلون موقعهم حتى النهاية. مع ذلك، فإنهم كانوا عاجزين عن إبداء ذلك المجهود الأخير حتى ولو كانت غايتهم هزم الفرنسيين وذلك لأن الفيالق كلها كانت في حالة من الفوضى ولأنهم اكتووا جميعهم بنار المعركة وأضاعوا، دون أن يتخلّوا عن مراكزهم، نصف عددهم.

أما الفرنسيون الذين تدعمهم ذكرى خمس عشرة سنة من النصر،

www.Maktbah.com

وإيمانهم بعدم إمكانية قهر ناپليون وثقتهم بأنهم سادة جانب من ساحة المعركة وبأنهم لم يخسروا إلا ربع رجالهم وأن العشرين ألف رجل الذين يشكلون فرق الحرس ما زالوا سالمين، فإنهم كانوا يستطيعون بذل ذلك المجهود. بل إن واجبهم كان يحتم عليهم بذله لأنهم هاجموا الجيش الروسي من أجل إقصائه عن مواقعه لأنه ما دام في أمكنته يقطع عليهم الطريق إلى موسكو، فإن هدفهم لما يبلغ بعد وكل خسائرهم تصبح دون جدوى.

مع ذلك، فإنهم لم يبذلوا ذلك المجهود. يؤكد بعض المؤرخين أن ناپليون لو أمر بإنزال الحرس القديم لربح المعركة. إن مثل هذا الافتراض يشبه البحث فيما كان سيحدث لو أن الخريف أصبح ربيعاً فجأة. وإذا لم ينزل ناپليون حرسه إلى الميدان فليس مرد ذلك عزوفه عن إنزاله بل استحالة إشراكه في المعركة لأن الجنرالات والضباط والجنود كانوا يعرفون أن معنويات الجيش لا تسمح بمثل هذا العمل.

لم يكن ناپليون وحده الذي لمس برؤية أن ذراعه الرهيبة تسقط الآن عاجزة، بل إن الجنرالات الفرنسيين كلهم، المقاتلين وغير المقاتلين، بعد خبرة المعارك السابقة التي كان العدو خلالها يتراجع أمام هجمات أقل عنفاً من هذه بعشرات المرات، أحسوا بذعر إجماعي إزاء عدو ظل يهددهم بقوة لم تتبدل في نهاية المعركة عن بدايتها، رغم أنه خسر نصف قواته. لقد هبطت معنويات الجيش المهاجم إزاء ذلك. إن الروس لم يربحوا في بورودينو أحد تلك الانتصارات التي تقاس بالأرض المكتسحة أو بتلك الخرق من الأقمشة التي تعلق على عصيّ والتي يسمونها الأعلام. بل حصلوا على نجاح من ذلك الوعد الذي يقنع الخصم بالتفوق المعنوي الذي يقاتل به وبعدم جدوى مجهوداته نفسها.

ولقد بات الغازي يشعر أنه ماض إلى حتفه أشبه بالوحش الغاضب الذي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أصيب أثناء فراره بالإصابة القاتلة ولكن دون أن يستطيع التوقف، تماماً كما بات الجيش الروسي، رغم ضعفه ونسبته واحد إلى اثنين مع جيش العدو، لا يستطيع أن يستسلم. لقد كان الفرنسيون قادرين جراء السرعة المكتسبة على بلوغ موسكو لكنهم هناك، دون أن يقوم الروس بتضحيات جديدة، كانوا سينفقون بتأثير الإصابة القاتلة التي أصيبوا بها في بورودينو. وكان لهذه المعركة من نتائج مباشرة أن هجر ناپليون موسكو فجأة وتقهقر عن طريق سمولنسك القديم وأضاع جيشاً قوامه خمسمائة ألف رجل وهدم فرنسا الناپليونية التي هبطت عليها لأول مرة في بورودينو ذراع خصم موهوب بقوة معنوية متفوقة.

www.Maktbah.com

المحتويات

الجزء السادس ٧
الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ١٣
الفصل الثالث ١٧
الفصل الرابع ٢٠
الفصل الخامس ٢٤
الفصل السادس ٣١
الفصل السابع ٣٥
الفصل الثامن ٤١
الفصل التاسع ٤٥
الفصل العاشر ٤٩
الفصل الحادي عشر ٥٦
الفصل الثاني عشر ٦١
الفصل الثالث عشر ٦٥
الفصل الرابع عشر ٧١
الفصل الخامس عشر ٧٧
الفصل السادس عشر ٨١
الفصل السابع عشر ٨٦

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر ٨٩

الفصل التاسع عشر ٩٥

الفصل العشرون ٩٨

الفصل الحادي والعشرون ١٠٣

الفصل الثاني والعشرون ١٠٧

الفصل الثالث والعشرون.. ١١٣

الفصل الرابع والعشرون ١٢١

الفصل الخامس والعشرون ١٢٥

الفصل السادس والعشرون.. ١٣٠

الجزء السابع ١٣٥

الفصل الأول.. ١٣٧

الفصل الثاني ١٤٣

الفصل الثالث ١٤٦

الفصل الرابع ١٥٠

الفصل الخامس ١٥٨

الفصل السادس ١٦٤

الفصل السابع ١٧٤

الفصل الثامن.. ١٨٥

الفصل التاسع ١٨٩

الفصل العاشر ١٩٤

الفصل الحادي عشر.. ٢٠٥

الفصل الثاني عشر.. ٢١١

الفصل الثالث عشر.. ٢١٦

www.Maktbah.com

الجزء الثامن ٢٢١
الفصل الأول ٢٢٣
الفصل الثاني ٢٣٠
الفصل الثالث ٢٣٥
الفصل الرابع ٢٤٣
الفصل الخامس ٢٤٧
الفصل السادس ٢٥٤
الفصل السابع ٢٥٩
الفصل الثامن ٢٦٤
الفصل التاسع ٢٦٩
الفصل العاشر ٢٧٦
الفصل الحادي عشر ٢٨١
الفصل الثاني عشر ٢٨٤
الفصل الثالث عشر ٢٨٩
الفصل الرابع عشر ٢٩٣
الفصل الخامس عشر ٢٩٨
الفصل السادس عشر ٣٠٦
الفصل السابع عشر ٣١٣
الفصل الثامن عشر ٣١٧
الفصل التاسع عشر ٣٢٢
الفصل العشرون ٣٢٧
الفصل الحادي والعشرون ٣٣٢
الفصل الثاني والعشرون ٣٣٧

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجزء التاسع ٣٤١
الفصل الأول ٣٤٣
الفصل الثاني ٣٤٩
الفصل الثالث ٣٥٥
الفصل الرابع ٣٦٠
الفصل الخامس ٣٦٦
الفصل السادس ٣٦٩
الفصل السابع ٣٧٩
الفصل الثامن ٣٨٤
الفصل التاسع ٣٩٢
الفصل العاشر ٤٠١
الفصل الحادي عشر ٤٠٦
الفصل الثاني عشر ٤١٣
الفصل الثالث عشر ٤١٩
الفصل الرابع عشر ٤٢٣
الفصل الخامس عشر ٤٢٧
الفصل السادس عشر ٤٣١
الفصل السابع عشر ٤٣٥
الفصل الثامن عشر ٤٤٠
الفصل التاسع عشر ٤٤٧
الفصل العشرون ٤٥٢
الفصل الحادي والعشرون ٤٦١
الفصل الثاني والعشرون ٤٦٨
الفصل الثالث والعشرون ٤٧٥

www.Maktbah.com

الجزء العاشر ٤٧٩
الفصل الأول ٤٨١
الفصل الثاني ٤٨٨
الفصل الثالث ٤٩٤
الفصل الرابع ٤٩٨
الفصل الخامس ٥١٣
الفصل السادس ٥٢٢
الفصل السابع ٥٢٨
الفصل الثامن ٥٣٣
الفصل التاسع ٥٤٤
الفصل العاشر ٥٥١
الفصل الحادي عشر ٥٥٨
الفصل الثاني عشر ٥٦٢
الفصل الثالث عشر ٥٦٥
الفصل الرابع عشر ٥٧١
الفصل الخامس عشر ٥٧٨
الفصل السادس عشر ٥٨٦
الفصل السابع عشر ٥٩١
الفصل الثامن عشر ٥٩٨
الفصل التاسع عشر ٦٠٥
الفصل العشرون ٦١٢
الفصل الحادي والعشرون ٦١٨
الفصل الثاني والعشرون ٦٢٤

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والعشرون ٦٣٠
الفصل الرابع والعشرون ٦٣٣
الفصل الخامس والعشرون ٦٣٧
الفصل السادس والعشرون ٦٤٧
الفصل السابع والعشرون ٦٥٣
الفصل الثامن والعشرون ٦٥٨
الفصل التاسع والعشرون ٦٦٢
الفصل الثلاثون ٦٦٦
الفصل الحادي والثلاثون ٦٧٠
الفصل الثاني والثلاثون ٦٨١
الفصل الثالث والثلاثون ٦٨٤
الفصل الرابع والثلاثون ٦٨٨
الفصل الخامس والثلاثون ٦٩٥
الفصل السادس والثلاثون ٧٠١
الفصل السابع والثلاثون ٧٠٨
الفصل الثامن والثلاثون ٧١٢
الفصل التاسع والثلاثون ٧١٧

www.Maktbah.com

...قال صوت المعاون الذي استلقى على الأرض: .. انبطح على الأرض!

لكن الأمير أندريه بقي واقفاً متردداً. وكانت القنبلة التي لايزال الدخان يتصاعد منها، تدور كاليرمع بينه وبين الضابط عند الحد بين المرج والحقل، قرب أجمة الأرطماسية.

فكر وهو يعانق العشب وسوق الأرطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكرة السوداء المتحركة بنظرة جديدة، نظرة مفعمة بالرغبة: «أهو الموت؟ لا أستطيع الموت ولا أريد أن أموت. إنني أحب الحياة، أحب هذا العشب وهذه الأرض والهواء الذي أستنشقه..» .

«يا لهذا الصخر، يا لهذا الشاب الأنيق المنفتح! من يمكن أن نقارنه به في أوروبا؟ حسب رأيي لا أحد» (لينين)

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-614-432-522-3

9 786144 325223

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الحرب والسلم

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ليو تولستوي

المجلد الثالث

الفارابي

www.Maktbah.com

ليُو تولستوي

الحرب والسلم

ألياذة العصور الحديثة

المجلد الثالث

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكتاب: الحرب والسلم - المجلد الثالث
المؤلف: ليُو تولستوي
المترجم: فارس غصوب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-239-0

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

www.Maktbah.com

الجزء الحادي عشر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

لا يدرك الإنسان قوانين أية حركة إلا إذا عاين وحدات مقطعة بتحكم، لأن الدوام المطلق للحركة أمر غامض بالنسبة إلى العقل البشري. ولكن من ذلك التقسيم التحكمي للحركة الدائمة، يخلق مع ذلك الجزء الأكبر من الأخطاء البشرية.

إن كل إنسان يعرف مذهب السفسطة (انعدام الحركة) عند الأقدمين الذي بموجبه لا يمكن «لأشيل» أن يلحق بالسلحفاة التي تسير أمامه رغم أن اندفاعه يزيد عشرة أضعاف عن اندفاعها، إنّ أشيل، عندما ينتهي من اجتياز المسافة التي تفصله عن السلحفاة، تكون هذه قد اجتازت عشر هذه المسافة في سبقها له. وبينما أشيل يتجاوز هذا العشر، تكون هي قد تجاوزته بواحد على مائة وهكذا حتى اللانهاية. كانت هذه المسألة تبدو في الزمن القديم متعذرة الحل. إن استحالة النتيجة (أشيل لن يلحق أبداً بالسلحفاة) ناجمة فقط عن كونهم يأخذون تحكماً وحدات منقطعة للحركة في أن حركة أشيل دائمة كحركة السلحفاة تماماً.

فلو أخذنا وحدات للحركة صغيرة أكثر فأكثر، فإننا نصل فقط إلى الاقتراب من الحل. لكننا لا نبلغه أبداً. إننا لا نبلغ حل المسألة إلا إذا تقبلنا عدداً لانهائي الصغر ونموه التصاعدي حتى العشرة ثم أنْ نحصي مجموع هذا التصاعد الهندسي. إن فرع الرياضيات الجديد الذي اكتشف فن الحساب في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الكمية الصغرى يعطينا اليوم أجوبة عن مسائل اعتبرت ممتنعة الحل حتى في المسائل الأكثر تعقيداً في علم الحركة.

إن هذا الفرع الجديد في الرياضيات، المجهول من الأقدمين، بإدخاله المتناهيات في الصغر في دراسة علم الحركة، أعاد الشرط الأساسي للحركة، وأعني دوامها المطلق، وقوّم بذلك الخطأ الذي لا بد منه الذي يقول إن الذكاء لا يمكنه أن يخطئ عندما يستبدل حركة دائمة، بوحدات متقطعة من الحركة.

ففي البحث عن قوانين التاريخ، لا يختلف الحال في شيء.

إن سير الإنسانية المحدود بسلسلة لا عدّ لها من الإرادات الشخصية عبارة عن حركة دائمة، ومعرفة قوانينه هي غاية التاريخ. ولكن، لإقامة قوانين هذه الحركة الدائمة، مجموعة كل الإرادات البشرية، يتقبل العقل تحكماً وحدات متقطعة. وأسلوب التاريخ الأول هو الانتخاب تحكماً، سلسلة من الأحداث الدائمة وفحصها مستقلة عن السلاسل الأخرى في حين أنه لم يكن ولا يمكن أن يكون لأي حدث بداية بل إن واقعة معينة تنشأ عن واقعة أخرى دون انقطاع والأسلوب الثاني قائم على فحص أفعال رجل واحد، قيصر أو قائد جيش، بوصفه مجموع إرادات الجميع في حين أن ذلك المجموع لا يعبر عن نفسه بنشاط وشخصية تاريخية وحدها.

إن علم التاريخ في تطوره، يُخضع لدراسته وحدات صغيرة أكثر فأكثر، وبهذه الوسيلة، يحاول أن يقترب من الحقيقة. ولكن، مهما بلغت هذه الوحدات من الصغر، فإننا نشعر بأن قبول وحدات مستقلة بعضها عن بعض، إن هو إلا قبول «بداية» لظاهرة ما، قبول إرادات الجميع تجد لها معبراً في أفعال شخصية تاريخية واحدة، الأمر الذي نؤكد نحن أنه باطل في نفسه.

إن كل استنتاج تاريخي دون أي مجهود من الناقد، يتحلل من تلقاء نفسه دون أن يخلف شيئاً وراءه لمجرد أن ذلك الناقد يختار كموضوع لدراسته،

www.Maktbah.com

وحدة مستقلة كبيرة أو صغيرة وله الحق دائماً في أن ينهار نظراً إلى أن هذه الوحدة التاريخية المنتقاة تحكمية أبداً.

لا نستطيع أن نطمع في بلوغ قوانين التاريخ إلا إذا عرضنا لفحصنا وحدة بالغة الصغر، تفاضلية التاريخ، أي التيارات الإنسانية المتجانسة وتحكمنا في فن إدماجها، أي في إحصاء مجموع الوحدات الصغرى.

إن السنوات الخمس عشرة الأولى من القرن التاسع عشر تعطي مشهداً خارقاً لحركة ملايين من الرجال تركوا مشاغلهم العادية واندفعوا من جانب أوروبا إلى جانبها الآخر ينهبون ويقتتلون، منتصرين أو يائسين. إن سير الحياة كله يتبدل في بضع سنوات تحمله حركة متجبرة تبدأ ناشطة ثم تبطئ. فما هو سبب هذه الحركة، أو أقله ما هي قوانينها؟ هذا ما يسأل عنه العقل البشري.

يجيب المؤرخون عن هذا السؤال عارضين علينا وقائع وحركات بضع عشرات من الرجال في واحد من أبنية باريس، مطلقين على هذه الوقائع والحركات اسم «الثورة» ثم يعطون ترجمة مفصلة عن حياة ناپليون وبعض أشخاص من أتباعه وخصومه ويروون أثر بعض من هؤلاء الأشخاص ويضيفون قائلين: هذا هو منشأ الحركة وهذه هي قوانينها.

لكن العقل البشري لا يرفض الاقتناع فقط بهذا التفسير بل يعلن كذلك بكل صراحة أن الأسلوب في التفسير خاطئ لأن الظاهرة الأضعف معتبرة فيه السبب الأقوى. إن مجموع الإرادات البشرية هو الذي خلق الثورة وناپليون، وهو الذي أفناهما بعد أن احتملهما وقتاً طويلاً.

ويقول التاريخ: «مع ذلك، فإنه كلما كانت هناك فتوحات كان هناك فاتحون، وكلما حدثت انقلابات في دولة جاء معها رجال عظام». فيجيب العقل البشري: صحيح إنه كلما ظهر فاتحون نشبت حروب. لكن هذا لا يبرهن على أن الفاتحين هم أسباب الحروب ولا على أنه يمكن اكتشاف

twitter @baghdad_library

قوانين حرب ما في النشاط الشخصي لشخص واحد. إنني كلما أنظر إلى ساعتي، أرى العقرب على الرقم «١٠» فأسمع الأجراس تقرع من الكنيسة المجاورة. ولكن، من هذه الواقعة، واقعة أنه كلما بلغت الساعة العاشرة بدأت الأجراس تقرع، ليس من حقي أن أستنتج أن وضعية العقرب هي سبب قرع الأجراس.

إنني كلما أرى قاطرة تتحرك وأسمع صفيرها وأرى الصمام يفتح والعجلات تدور، لا يحق لي أن أقرر أن الصفارة وحركة العجلات هما سبب سير القاطرة.

يقول القرويون إن ريحاً باردة تبدأ بالهبوب حوالى نهاية الربيع لأن براعم أشجار البلوط تتفتح. وفي الواقع إن ريحاً باردة تهب كل ربيع عندما تتفتح براعم البلوط. ولكن مهما كان سبب هبوب هذه الريح في تلك الفينة مجهولاً مني، فإنني لا أستطيع أن أقول مع القرويين إن هذا السبب هو تفتح البراعم لأن قوة هذه الريح لا تتأثر بتلك البراعم. إني لا أرى إلا توافق الشروط التي تلتقي في كل ظاهرة من ظواهر الحياة وأرى أنني مهما استغرقت في مراقبة عقارب ساعتي بكل دقة، وصمام القاطرة وعجلاتها وكذلك براعم شجرة البلوط، فإنني لن أكتشف إطلاقاً سبب قرع الأجراس وحركة القاطرة والريح الربيعية. ولكي أصل إلى معرفة السبب، يجب أن أبدل كلياً نقطة ملاحظتي فأدرس قوانين الحركة والبخار والجرس والريح. وهذه هي عينها المهمة التي تتوجب على التاريخ ولقد حاول التاريخ الاضطلاع بها.

لكي نجد قوانين التاريخ. يجب علينا أن نبدل تماماً عرض فحصنا وأن نترك جانباً الملوك والوزراء والجنرالات لندقق في الحركات المتجانسة، المتناهية في الصغر التي تحرك الجماعات. ما من أحد يمكنه أن يقول في أي

www.Maktbah.com

ظرف يتاح للإنسان أن يبلغ عن هذا الطريق مبلغ إدراك قوانين التاريخ. لكن من البديهي أن هذا هو الطريق الوحيد الذي يعطي إمكانية إدراكها، وأن العقل البشري لم يصرف بعد جزءاً من مليون مما صرفه المؤرخون أنفسهم سواء في وصف حركات الملوك المختلفين والجنرالات والوزراء، أو في عرض آرائهم حول تلك الأفعال.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

إن جيوش اثني عشر شعباً أوروبياً انكفأت ضد روسيا، وراح الشعب الروسي والجيش يتقهقران لكي يتجنبوا الاصطدام، في بدء الأمر، حتى سمولنسك ثم حتى بورودينو. وانطلق الجيش الفرنسي نحو موسكو، غاية تقدمه، بقوة اندفاع آخذة في الازدياد. ولقد عظمت هذه القوة عند اقترابها من هدفها كما تتعاظم سرعة جسم ساقط كلما اقترب من الأرض. باتت ألوف الفراسخ من بلد جائع معاد وراءها بضعة عشر من الفراسخ أمامها قبل الهدف هذا ما كان يفكر فيه كل جندي من الجيش النابليوني، وبذلك اندفع الاجتياح إلى الأمام بقوة دافعة موحدة.

وفي الجيش الروسي، كلما أمعنوا في التقهقر، زادت نار الحقد على العدو أواراً. إنها تتركز وتكبر بسبب التقهقر. ولقد وقع الاصطدام الأخير في بورودينو فلم يفن واحد من الجيشين. لكن الجيش الروسي بعد الاصطدام مباشرة، تراجع إلى الوراء بالقدر الذي يستلزمه انكفاء كرة إلى الوراء بعد أن تصطدم بكرة أخرى، تحركه قوة أعظم بأساً في حين أن الكرة الغازية، رغم فقدانها كل قوتها في الاصطدام، لا بد لزوماً وأن تدرج إلى مسافة ما بعد أن تستعيد قوة اندفاعها.

انسحب الروس إلى مائة وعشرين فرسخاً وراء موسكو وبلغ الفرنسيون موسكو وتوقفوا فيها. ولم يقع أي قتال خلال الأسابيع الخمسة التي تلت ذلك. فالفرنسيون لا يتحركون أشبه بالوحش الذي أصيب بجرح قاتل فراح

www.Maktbah.com

يلعق جرحه رغم أنه فقد كل دمائه، ظلوا خمسة أسابيع في موسكو دون أي عمل، ثم، ودون أي سبب جديد، فروا فجأة. لقد اندفعوا في طريق كالوغا وظلوا في فرارهم رغم انتصارهم ـ لأنهم ما زالوا سادة ساحة المعركة في مالور اياروسلاڤيتز في قطاع كالوغا على بعد مائة وعشرين فرسخاً من موسكو ـ دون أن يدخلوا في معركة جديدة استمروا في فرارهم بسرعة متزايدة باتجاه سمولنسك ثم إلى ما وراء سمولنسك وإلى ما وراء فيلنا وإلى ما وراء بيريزينا وهم لا يزالون يبتعدون.

اقتنع كوتوزوف في مساء السادس والعشرين من آب، ومعه الجيش الروسي كله، بأنهم ربحوا معركة بورودينو. ولقد كتب كوتوزوف الخبر بكل وضوح إلى الأمبراطور. وعمم الأمر بالاستعداد لصراع جديد لتوجيه الضربة القاضية إلى العدو وليس بقصد خداع أي كان، بل لأنه أصبح يعرف ككل واحد من المحاربين أن العدو قد هزم.

لكن ذلك المساء وفي اليوم التالي، بدأت التقارير المعلنة عن خسائر هائلة تترى، ضياع نصف الجيش، لدرجة بدت معها استحالة الالتحام في معركة جديدة من الناحية المادية.

كان يستحيل الاشتباك في معركة قبل أن يُعاد وضع ميزانية الموقف وأن يرفع الجرحى وتستكمل الذخائر ويحصى عدد القتلى ويعين الرؤساء الجدد مكان الذين قتلوا منهم وقبل أن يأكل الجنود وأن يناموا بقدر حاجتهم. وفي تلك الأثناء، والمعركة لم تكد تنتهي، بدأ الجيش الفرنسي منذ الصباح يهتز من تلقاء نفسه ضد الجيش الروسي، (بفعل قوة الاندفاع هذه التي تزداد عكسياً بمعدل مربع المسافة). وكان كوتوزوف يريد أن يهاجم غداة اليوم التالي كما كان جيشه كله يريد. ولكن الرغبة في الهجوم وحدها لا تكفي إذ يجب أن تتوافر استطاعة العمل وهذه الاستطاعة لم تكن موجودة فكان من المستحيل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أن لا يتراجع الروس مرحلة واحدة في أول الأمر ثم مرحلة ثانية إجبارية ثم ثالثة.

وأخيراً، في الأول من أيلول، عندما دخل الجيش موسكو، أرغمته قوة الأمور على التراجع بعيداً رغم الحماسة العنيفة التي كانت تعتلج في النفوس فتراجع الجيش مرحلة جديدة هي الأخيرة مخلفاً موسكو للعدو.

ثمة أسئلة لا بد من أن يطرحها أولئك الذين من عادتهم الاعتقاد بأن رؤساء الجيش يضعون خطط الحروب والمعارك بالطريقة نفسها التي يعتمد عليها كل واحد منا وهو جالس في مكتبه أمام خريطة، ليرسم التدابير التي كان سيتخذها هو، في هذه أو تلك من المعارك، لماذا لم يفعل كوتوزوف في تقهقره كذا وكذا؟ لماذا لم يتحصن أمام فيلي؟ لماذا لم يتراجع دفعة واحدة على طريق كالوغا بعد أن سلم موسكو، إلخ.. إلخ..؟ إن الأشخاص الذين يألفون مثل هذه الأفكار، ينسون الشروط التي لا يمكن دفعها والتي يدور فيها نشاط جنرال قائد أعلى أو يتجاهلون تلك الشروط.

إن ذلك النشاط لا ارتباط بينه وبين ذاك الذي نتخيله ونحن نجلس بهدوء في مكتب عندنا ندرس حملة على خريطة، بعدد معلوم من الجنود في الجانبين، على أرض معروفة جاعلين مداركنا استراتيجية تبدأ في لحظة محدودة. إنّ قائداً أعلى لا يجد نفسه أبداً في ظروف «البداية» التي نرى نحن أو يرى أصحاب النظريات أنفسهم فيها عند التدقيق في حادث ما. إنه يجد نفسه دائماً وسط سلسلة متحركة من الظروف لدرجة أنه لا يجد نفسه لحظةواحدة في حالة تمكنه من الإحاطة بكل الأحداث الدائرة دفعة واحدة. إن الحدث يقع ثم يتبلور معناه تدريجاً. وفي كل لحظة من لحظات التطور هذه التي تجعل الحدث يبرز للعيان، يكون القائد الأعلى وسط سلسلة معقدة من الدسائس والمشاغل وحق الاستخدام والأوامر المتسلطة والمشاريع

www.Maktbah.com

والمجالس والتهديدات والخدع، ويكون كذلك مرغماً بصورة دائمة على الإجابة عن عدد لا يحصى من الأسئلة المعاكسة دائماً.

إن خبراء عسكريين يقولون لنا بجد لا يتزعزع إنه كان على كوتوزوف أن يتراجع قبل «فيلي» على طريق كالوغا كما أشير عليه أن يفعل. لكن قائداً أعلى، في اللحظات الحرجة بصورة خاصة، لا يكون نصب عينيه مشروع واحد فحسب، بل عشرات المشاريع. وكل مشروع من هذه المشاريع، رغم حسن ارتكازه على الناحيتين الستراتيجية والحركية، يكون منافياً للمشاريع الأخرى ويبدو أن القائد الأعلى ليس عليه إلا أن ينتقي واحداً منها في حين أن هذا نفسه يستحيل عليه لأن الأحداث والوقت لا ينتظران. لنفرض أنهم اقترحوا على كوتوزوف في الثامن والعشرين أن يسير على طريق كالوغا العام وأن مساعداً عسكرياً لميلوداروڤيتش جاء في تلك اللحظة بالذات يسأل عما إذا كان يجب الالتحام فوراً في اشتباك مع الفرنسيين أم التراجع. فإن على كوتوزوف أن يصدر أوامره في اللحظة نفسها. فإذا أمر بالتراجع، فإنه يتحتم عليه إجراء عملية انحراف لبلوغ طريق كالوغا. ولا يكاد المساعد يخرج حتى يأتي ضابط التموين ليسأل عن الجهة التي يجب أن تسير الأرزاق فيها، قائد المستشفيات يسأل عن المكان الذي سيحمل الجرحى إليه، ثم يأتي ساع من بيترسبورغ يحمل رسالة من الأمبراطور الذي لا يرضى بالجلاء عن موسكو. ثم يأتي خصم القائد الأعلى، ذلك الذي يعمل جاهداً لكي ينال من تصرفاته، ويوجد دائماً من أمثال هؤلاء عدد كبير وليس مجرد واحد فحسب، فيعرض مشروعاً جديداً متعارضاً كلياً مع خطة التراجع عن طريق كالوغا.

وفي تلك الأثناء، بينما يشعر القائد العام بأن قواه تتطلب الراحة والنوم، يأتي جنرال محترم فيشكو من نتائج استثناء غير قانوني منح لبعضهم، وبعده يدخل مدنيون طالبين الحماية، ثم ضابط أرسل مستطلعاً فجاء بمعلومات

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تناقض كلياً ما جاء به زميل قبله وأخيراً جاء دور جاسوس وسجين حرب ثم الجنرال الذي ذهب يتفقد المواقع وكلهم يصفون مواقع العدو على طريقتهم. والأشخاص الذين لا يتمثلون الشروط التي يجب على القائد العام أن يعمل فيها، يصورون لنا مثلاً وضع الجيش أمام فيلي ويفترضون أن كوتوزوف كان يستطيع في ذلك الوضع في اليوم الأول أن يحسم بكل حرية مسألة الدفاع عن موسكو أو التخلي عنها في حين أن تلك المسألة على العكس، لا يمكن أن تطرح والجيش على بعد خمس مراحل عن المدينة. فمتى إذن حلت هذه المسألة؟ لقد حلت في دريسا وسمولنسك وأخيراً ونهائياً في الرابع والعشرين من الشهر في شيـڤاردينو ثم في السادس والعشرين في بورودينو ومنذ ذلك الحين ومن يوم إلى آخر ومن ساعة إلى أخرى ودقيقة إلى دقيقة، طوال التقهقر من بورودينو إلى فيلي.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

عندما وصل إيرمولوف المستطلع ليقول للقائد الأعلى كوتوزوف إنه يتعذّر الالتحام في معركة على مشارف موسكو ويجب أن نستمر في التراجع، نظر إليه كوتوزوف بصمت وقال:

ـ أعطني يدك.

وبعد أن أدار تلك اليد بطريقة مكنته من حبس النبض أضاف قائلاً.

ـ إنك مريض يا صديقي. فكر في ما تقول.

لم يكن كوتوزوف حتى تلك اللحظة يستوعب بعد إمكانية التراجع إلى ما وراء موسكو دون قتال.

على مرتفع ياكلونّايا على مسافة ست مراحل من حدود دروغوميلوف، ترجل من عربته وجلس على مقعد على جانب الطريق، فدار به رهط كبير من الجنرالات، انضم إليهم الكونت روستوبتشين الذي وصل قبل قليل من موسكو، وراجح هذا الجمع من الأشخاص اللامعين المنقسمين إلى جماعات صغيرة، يناقشون محاسن الموقف ومساوئه وحالة الجيش والمخططات المقترحة والحالة المعنوية في موسكو وعدداً آخر من المواضيع ذات الطابع العسكري. وكان كل منهم يشعر دون أن يستدعيه أحد ودون أن يطلق على هذا الجمع اسم لجنة استشارية أنه إنما يساهم في مجلس عسكري، كما كانت الأحاديث في كل جماعة تدور حول الاعتبارات العامة.

كانوا يتناقلون بصوت خفيض أنباء شخصية ثم يعودون فوراً إلى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الموضوعات ذات الطابع العام. لم يكن أحد من الموجودين ليسمح بدعابة أو بضحكة أو بابتسامة. لقد كانوا جميعهم بدون شك يحاولون الظهور بمظهر يتساوى مع خطورة الأحداث. وكانت كل جماعة تسعى وهي تتبادل الأحاديث ألّا تبتعد عن القائد العام الذي كان مقعده مركز الجاذبية بالنسبة إليهم وأن تصل أحاديثها إلى أسماع كوتوزوف. وكان هذا الأخير يصغي وأحياناً يستعلم عما يدور من حديث، ولكن دون أن يساهم في الحديث أو أن يتقدم برأي. وكان في معظم الوقت، يشيح بوجهه متبرماً بعد أن يصيخ السمع إلى حديث جماعة ما، وكأنه سمع شيئاً يختلف كلياً عما كان يرغب في معرفته. وكان البعض، خلال النقاش حول الموقع المختار، ينتقدون الموقع نفسه أقل من انتقادهم أهلية الأشخاص الذين قبلوا به، ويزعم البعض الآخر أن الخطأ آتٍ من وقت مضى وأنه كان يجب خوض المعركة قبل أول أمس في حين تتحدث جماعة ثالثة عن معركة سالامانك التي جاء يصفها قادم جديد، فرنسي اسمه كروسّار يرتدي زيّاً إسبانياً، وكان كروسّار هذا يدرس حصار ساراغوس مع أمير ألماني عامل في الجيش الروسي، بغية اللجوء إلى دفاع مماثل عن موسكو، وفي جماعة رابعة، كان الكونت روستوبتشين يعلن استعداده للموت مع المتطوعين الموسكوفيين تحت جدران المدينة.

لكنه مع ذلك لا يستطيع إلا أن يشكو من التجاهل الذي أظهروه تجاهه لأنه لو علم إلى أين بلغت الأمور، لسار كل شيء سيراً مختلفاً... وكان فريق خامس يظهر عمق مداركه الستراتيجية ويعين الاتجاه الذي كان على القطعات أن تسير فيه، وسادس يتكلم دون أن يقول شيئاً، في حين كان كوتوزوف يتخذ طابعاً آخذاً في الكآبة والتشاغل.

لم يكن يرى في هذه الأحاديث غير شيء واحد: إن الدفاع عن موسكو مستحيل عملياً، وذلك بكل ما لهذه العبارة من معنى وإن الاستحالة كانت تبلغ

www.Maktbah.com

درجة لو وجدوا معها قائداً أعلى مجنوناً يأمر بالقتال، لنجم عن ذلك هزيمة دون معركة. لذلك فإن أية معركة لم يكن ممكناً أن تدور ما دامت القيادة العليا لم تكن تقدر أن الموقف متعذر الدعم فحسب بل لا تفكر كذلك إلا في ما يعقب التخلي الإلزامي عنه. فكيف كان يمكن لهؤلاء القادة أن يقودوا جنودهم إلى ساحة معركة اعترف بأنها غير قابلة للدعم؟ إن الأتباع بل الجنود الذين هم حكام كذلك يعترفون بذلك وبالتالي فإنهم لا يستطيعون الذهاب إلى معركة وهم على يقين بوقوع كارثة. ولو أن بينيغسن كان ينصب من نفسه مدافعاً عن هذا الموقع أو أن آخرين استمروا في مناقشته، فإنّ ذلك لم يعد له أية أهمية. إن لم يعد إلّا ذريعة للنقاش والدرس وكان كوتوزوف مدركاً ذلك تماماً.

كان بينيغسن الذي اختار الموقع، يجأر في إظهار وطنيته الروسية فلم يكن كوتوزوف قادراً على الإصغاء إليه دون أن يقطب حاجبيه. وإذن، كان بينيغسن يصر على أن يصار إلى الدفاع عن موسكو فكان كوتوزوف يرى خدعته كما يرى النور: سوف يتحمل كوتوزوف تبعة الإخفاق في حال الإخفاق لأنه تقهقر بالجيش دون أن يدخل في معركة جدية حتى بلغ به «مون دي موانو» ـ جبل الدوريّ. وفي حال انتصار الروس، فإن بينيغسن سيعزو لنفسه شرف النصر. بل إنهم حتى إذا رفضوا الإصغاء إليه، فإنه أقله قد غسل يديه من جريمة تسليم موسكو. لكن هذه الدسائس كلها لم تكن في تلك اللحظات لتشغل بال العجوز أكثر من غيرها. لقد كانت مسألة واحدة رهيبة تشغله ولم يكن ثمة من يقدم إليه حلها. أما المسألة فهي: «هل يمكن أن أكون أنا الذي جعلت ناپليون يبلغ موسكو ومتى فعلت هذا؟ متى تقرر هذا هل كان البارحة عندما أرسلت الأمر إلى پلاتوف بالتراجع أم أول أمس عندما كنت نصف نائم فتركت بينيغسن يضطلع بأعباء القيادة؟ أم ترى وقع ذلك قبل هذه الأوقات؟..

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولكن متى، متى تقرر أمر على مثل هذا الهول. يجب ترك موسكو. يجب أن يتقهقر الجيش ويجب أن أصدر الأمر». وكان إصدار هذا الأمر البشع يعادل في نظره تقديم استقالته من القيادة العامة. وهو لم يكن يحب السلطة التي ألفها فحسب ـ إذ إن الالتفاتات التي لقيها الأمير بوزوروڤسكي الذي كان ملحقاً به في تركيا جرحت كرامته، بل إنه كان مقتنعاً بأنه هو المنذور لتخليص روسيا واجداً الدليل على ذلك في كونه يدين بلقبه كقائد عام لرغبة الشعب ضد رغبة الأمبراطور. كان قانعاً بأنه وحده في تلك الظروف العصيبة قادر على البقاء على رأس الجيش، وأنه الوحيد في العالم الذي يستطيع مجابهة خصم لا يقهر مثل ناپليون دون أن يروع. لذلك كان يرتعد هولاً من مجرد التفكير في الأمر الذي سيصدره. ولكن، كان يجب أن يتخذ قراراً حاسماً وأن يضع حداً لهذه المناقشات التي بدأت تتخذ حوله طابعاً متمادياً في التحرر.

أمر باقتراب أرفع الجنرالات رتبة وقال وهو يقف عن مقعده:

ـ سواء أكان رأسي جيداً أم رديئاً، فإن عليه أن يعين نفسه بنفسه.

واتجه نحو فيلي حيث كانت عربته في انتظاره.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

في الساعة الثانية في كوخ القروي أندريه ساڤوستيانوڤ، اجتمع المجلس العسكري، وبقي «كوخ كوتوزوڤ» قائماً حتى عام ١٩١٧، وراح الرجال والنساء والأطفال وكل أعضاء هذه الأسرة الهامة مجتمعين في «السقيفة» في الجانب الآخر من الدهليز فلم يبق في الغرفة إلا مالاشا حفيدة الفلاح أندريه البالغة من العمر ستة أعوام، إذ آنسها «عظيم الرفعة» بإعطائها قطعة سكر بينما كان يشرب شايه، فجثمت فوق موقد القاعة الكبيرة. وكانت الصغيرة تتأمل جزعة سعيدة، الوجوه من أعلى والألبسة والأوسمة التي على صدور الجنرالات الذين راحوا يدخلون الواحد إثر الآخر ويجلسون على مقاعد عريضة في الركن الجميل، ركن الأيقونات، إلى يمين المدخل، تحت الصورة المقدسة. وجلس الجد، كما راحت مالاشا تسمي كوتوزوڤ في سرها منفرداً في الزاوية المعتمة قرب الموقد.

لقد تهاوى بتثاقل على مقعده القابل للثني ولم يكف عن الزفير وهو يسوي ياقة بزته التي ظلت تضايق عنقه رغم أنه حل أزرارها. وكان الداخلون يتقدمون لتحيته فكان يشد على أيدي بعضهم ويومئ برأسه إلى البعض الآخر. وكانت قبالة كوتوزوڤ نافذة أراد مساعده العسكري كاييساروڤ أن يجذب سترها فندت عن كوتوزوڤ حركة تدل على التبرم أدرك كاييساروڤ منها أن «عظيم الرفعة» لا يريد أن يضيء النور وجهه.

وحول الطاولة المصنوعة من خشب الصنوبر التي انتشرت فوقها

twitter @baghdad_library

الخرائط والمخططات والأقلام والورق، دار عدد كبير من الأشخاص حتى أن التابعين جاؤوا بمقعد آخر جلس عليه آخر الداخلين: إيرمولوف، كاييساروف وتول. وتحت الصور المقدسة، في مكان الشرف، جلس باركلي دوتوللي و«صليب القديس جورج» يتدلى من عنقه. كان ممتقع الوجه يزيد جبين عريض في إطالة صلعته، تعذبه الحمى منذ يومين اثنين، يشعر في تلك الأثناء أيضاً بالارتعاش والانكماش. وكان أوڤاروف الجالس إلى جانبه، يروي له بحركات عنيفة شيئاً ما بصوت خفيض أسوة بكل المتحدثين الذين كانوا يتكلمون بصوت خافت. أما دوختوروف، وهو رجل قصير القامة، بدين، فقد كان يصغي بانتباه وهو يرفع حاجبيه مستبقياً يديه متقاطعتين فوق بطنه. ومن الجانب الآخر جلس الكونت أوسترمان ـ تولستوي، وقد اتكأ على الطاولة وأسند رأسه الضخم ذا التقاطيع النشيطة والعينين البراقتين إلى يده كأنه يغوص في أفكاره. وكان رايبڤسكي يصرف نفاد صبره بفتل خصلة من شعره الأسود العكف على صدغه بحركة مألوفة وبالنظر إلى كوتوزوف تارة وإلى باب الدخول تارة أخرى. وكان وجه كونوڤيتشين الجميل الحازم يضيء بابتسامة ماكرة. لقد التقت نظرته نظرة مالاشا فغمزها لها بعينه، الأمر الذي جعل الصغيرة تضحك.

كانوا جميعاً ينتظرون بينيغسن الذي كان متأخراً في طعامه الشهي بحجة إعادة فحص الموقع مجدداً. وبقوا ينتظرون من الساعة الرابعة حتى السادسة دون أن يفتحوا باب النقاش، فراح كل من جانبه، يدور في أحاديث خاصة بصوت خفيض خلال ذلك الوقت.

لم يتحرك كوتوزوف من زاويته ليقترب من الطاولة إلا عندما دخل بينيغسن لكنه اقترب بشكل لم يسمح للشموع الموقدة أن تضيء وجهه.

افتتح بينيغسن الجلسة بالسؤال التالي: «هل ستترك عاصمة روسيا

www.Maktbah.com

العريقة المقدسة دون قتال أم هل سيدافع عنها؟» وأعقب السؤال صمت عميق. أصبحت الوجوه كلها مكتئبة وسُمع كوتوزوف يسعل وهو يغمغم بين أسنانه. فشخصت العيون كلها إليه ونظرت مالاشا بدورها إلى «الجد». لقد كانت أقرب إليه من كل الآخرين فرأت وجهه يتقلص وكأنه على وشك البكاء. لكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة. وفجأة صاح بغضب كلمات بينيغسن وهو يبرز النغمة الزائفة:

ـ عاصمة روسيا العريقة المقدسة! اسمح لي أن أقول لك يا صاحب السعادة إن هذا السؤال ليس له أي معنى بالنسبة إلى روسي. (وحنى جسمه الضخم إلى الأمام) لا جدوى من طرح هذا السؤال لأنه محروم من كل المعاني. إن المسألة التي رجوت هؤلاء السادة أن يجتمعوا من أجلها مسألة عسكرية هي التالية: «إنّ خلاص روسيا في جيشها. فهل من الأفضل المغامرة بإضاعة الجيش بما في ذلك خسارة موسكو بالتحام في معركة أم أن تسلم موسكو دون قتال؟» هذا هو ما أريد أن أحصل على رأيكم بصدده.

وعاد يلقي بظهره إلى مسند مقعده.

ودار النقاش. لم يعتقد بينيغسن أنه خسر معركته لذلك راح يؤيد رأي باركلي وآخرين حول استحالة الالتحام في معركة دفاعية في فيلي ويعرض، وهو الذي يملأ حب موسكو الوطني قلبه كما كان يزعم، أن تمرر خلال الليل قطعات الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر وأن يُهاجم بها غداة اليوم التالي الجناح الأيمن الفرنسي. وانقسمت الآراء وراحوا يناقشون ما لها وما عليها. انحاز إيمولوف ودوختوروف ورايبڤسكي إلى جانب رأي بينيغسن. فهل ترى كانوا مدفوعين بعاطفة وجوب تقديم تضحية لا مرد لها قبل ترك المدينة أم كانوا يخضعون لاعتبارات شخصية؟ مهما كان الأمر، فإن هؤلاء السادة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بدوا وكأنهم غير مدركين أن مجلساً عسكرياً لا يمكنه أن يغير سير الأمور الذي لا بد منه وأن موسكو قد سلمت بالفعل.

أما الجنرالات الآخرون، فقد كانوا مدركين ذلك فتركوا جانباً قضية تسليم موسكو وراحوا يتناقشون حول الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الجيوش. أما مالاشا التي تنظر بعينين مدوّرتين إلى كل ما يحدث أمامها، فقد فهمت معنى المجلس العسكري على لون آخر. خيل إليها أنها عبارة فقط عن صراع شخصي بين «الجد» و«ذي الذيول الطويلة» كما سمت بينيغسن. كانت تراهما يغضبان عندما يتحدثان، فكانت في أعماق قلبها الصغير تنحاز إلى صف الجد. وفي قلب النقاش، لاحظت النظرة السريعة الماكرة التي ألقاها كوتوزوف على بينيغسن فلم تلبث أن أدركت، لعظيم بهجتها، أن الجد قد قال شيئاً لذي الذيول الطويلة فأسقطه. وراح بينيغسن الذي احمرّ وجهه فجأة يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. كانت الكلمات التي أحدثت فيه هذا الأثر القوي، هي التي استعملها كوتوزوف بصوت هادئ ساكن ليعبر عن رأيه في المزايا والأخطار التي يقدمها مشروع بينيغسن حول تمرير الجناح الأيسر إلى الجناح الأيمن خلال الليل بهدف مهاجمة الجناح الأيمن الفرنسي. قال كوتوزوف:

ـ أيها السادة، أنا لا أستطيع إقرار خطة الكونت لأن حركات الجنود على مقربة من العدو خطيرة دائماً والتاريخ العسكري يؤيد هذا الرأي. فعلى سبيل المثال. (واتخذ كوتوزوف أمارات التفكير ليبحث عن جملته وهو يلقي نظرة ساذجة وواضحة على بينيغسن). فمثلاً معركة فردلاند التي آمل أن يكون سيدي الكونت قوي التذكر لها.. إنها لم تنجح تماماً لأن قواتنا تجمعت على مقربة من العدو.

وبدا الصمت الذي أعقب هذا الكلام خلال دقيقة واحدة، طويلاً جداً في نظر الجميع.

www.Maktbah.com

وعادت المناقشة تقاطع بكثرة بفترات صمت إذ كان كل من الموجودين يشعر بأنه لا يجد ما يضيفه إلى أقواله.

تنهد كوتوزوف تنهدة عميقة خلال إحدى تلك الفترات وكأنه يستعد للكلام فاستدارت العيون كلها إليه. قال:

ـ حسناً أيها السادة! إنني أرى أنني وحدي من سيدفع الغرم.

ثم وقف بجهد واقترب من الطاولة:

ـ أيها السادة، لقد استمعت إلى آرائكم. إن بعضكم على غير وفاق معي، وتريث برهة، ولكن أنا، استناداً إلى السلطة التي منحت إليّ من قبل أمبراطوري ووطني، أنا، آمر بالانسحاب.

لم يلبث الجنرالات بعد ذلك أن تفرقوا في صمت وعلى وجوههم تلك الأمارات الجليلة التي تنطبع على الوجوه عند الفراغ من حفلة مأتم.

تبادل بعضهم بصوت خفيض وبلهجة تختلف كلياً عن لهجتهم خلال المؤتمر، بضع كلمات مع القائد العام.

أما مالاشا التي كان ذووها ينتظرونها منذ وقت طويل للعشاء، فقد انزلقت برفق على ظهرها فوق المنحنى وقد تشبثت بقدميها العاريتين بنتوءات الموقد، وتسللت عبر سيقان العسكريين ثم اختفت وراء الباب.

وبعد أن استأذن كوتوزوف الجنرالات، بقي فترة طويلة جالساً ومرفقاه إلى الطاولة، يفكر في السؤال الملح نفسه:

«ولكن متى، متى تقرر الجلاء عن موسكو؟ كيف حدث أن بلغوا هذا الحد وأن أصبح هو المسؤول عنه؟».

قال لمساعده العسكري شنيدر الذي جاء يلحق به بعد أن أوغل الليل:

ـ كلا، كلا، ما كنت أتوقع هذا. ما كنت أتوقعه! بل إنني ما كنت لأصدقه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فقال شنيدر: يجب أن تستريح يا صاحب السمو.

لكن كوتوزوف، بدلاً من أن يجيب مساعده العسكري، صاح:

ـ كلا، إن ذلك لن يسير على هواه بالنسبة إليهم. لسوف يأكلون لحم خيولهم كالأتراك.

وضرب الطاولة بقبضته العريضة وكرر:

ـ نعم، لسوف يأكلون هم كذلك، شريطة أن..

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

كان حدث ما في طور التكوين، في تلك الأثناء، ذو أهمية تختلف عن أهمية انسحاب الجيش: ألا وهو هجر موسكو وإحراقها. وكان روستوبتشين الذي يبدو في هذا المضمار أنه المسؤول الأكبر، كان يعمل عكس اتجاه كوتوزوف.

هجر موسكو وإحراقها، حدث يماثل تراجع الجيوش إلى ما وراء المدينة بعد معركة بورودينو من حيث استحالة تجنب وقوعه.

وكل روسي كان مستطيعاً ليس بالتحليل المنطقي بل بذلك الإحساس الذي يكمن في صدورنا كما كان في صدور آبائنا، أن يتوقع ما سيحدث.

فاعتباراً من سمولنسك وفي كل المدن وكل قرى الأرض الروسية، في كل مكان كانت الظاهرة نفسها التي وقعت في موسكو تظهر هناك دون أن يكون للكونت روستوبتشين وبياناته أي دخل فيها. كان الشعب ينتظر العدو بهدوء دون أن يثور أو ينفعل أو يقتتل، ينتظر بصبر مصيره وهو يشعر بقوة إيجاد ما يجب أن ينجزه في اللحظة الحاسمة من تلقاء نفسه عندما يحين الوقت. وكلما اقترب العدو، ابتعدت عناصر الشعب الغنية تاركة ثرواتها. أما الفقراء الباقون في أماكنهم، فكانوا يحرقون ويدمرون كل ما كان يتعذر على الأغنياء نقله معهم.

وكان الإيمان بأن هذا هو ما يجب عمله وأنه ينبغي إلزاماً أن يكون كذلك، مستقراً كما لا يزال مستقراً في النفس الروسية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وهذا الإيمان الذي ضاعفه الشعور المسبق بأن موسكو سوف تسقط، انغرس في المجتمع الروسي الموسكوفي عام ١٨١٢ إن أولئك الذين ارتحلوا منذ تموز وفي أوائل آب، أكدوا برحيلهم أنهم يتوقعون هذا الحدث. والذين رحلوا حاملين معهم كل ما استطاعوا حمله، تاركين بيوتهم ونصف ما كانوا يملكون، كانت تُحرّكهم تلك الوطنية العميقة «الكامنة» التي لا تعبر عنها الكلمات ولا التضحية بالأبناء أو الأعمال الأخرى المناقضة للطبيعة ولكن تترجم طبيعياً وبمنتهى البساطة دون تيه وتحدث دائماً أعظم النتائج.

كانوا يقولون لهم: «من العار أن تهربوا من الخطر. يجب أن يكون المرء نذلاً ليغادر موسكو». وكان روستوبتشين في منشوراته يلمح إلى أن فرارهم يحط من الشرف، فكانوا يشعرون بالتجريح إذ ينعتون بالجبناء وتأخذ عليهم ضمائرهم ارتحالهم، لكنهم مع ذلك كانوا يرحلون وهم يشعرون بضرورة الرحيل. لماذا يغادرون المدينة؟ لا يمكن الافتراض أن روستوبتشين قد روعهم في وصفه للفظائع التي ارتكبها ناپليون في البلاد المحتلة. كانوا يرحلون، وفي المقدمة الأغنياء والمثقفون الذين يعلمون علم اليقين أن برلين وڤيينا بقيتا سليمتين رغم احتلال ناپليون، وأن السكان وجدوا متعة كبيرة أثناء الاحتلال مع أولئك الفرنسيين الفاتنين الذين كان الروس، والنساء بصورة خاصة يحبونهم حباً جماً في ذلك الوقت.

كانوا يرحلون لأن السؤال عما إذا كانوا سيعيشون عيشاً رضياً أو سيئاً في موسكو إبان الاحتلال لم يكن قائماً بالنسبة إلى الروس. لقد كانت الحياة نفسها تحت ذلك النظام هي المستحيلة في نظرهم التي تعتبر بمثابة أقصى درجات البلاء. ولقد بدأوا بالرحيل قبل بورودينو. وبعد بورودينو، أخذوا يخرجون من موسكو بأكثر سرعة دون أن يعبأوا بالنداءات التي تدعوهم إلى الدفاع عن المدينة. وعلى الرغم من مشيئة حاكم موسكو الذي كان يريد أن

www.Maktbah.com

يشكل موكباً دينياً يحمل فيه أيقونة إيبريا، أشهر الأيقونات في موسكو، ويخرج إلى المعركة، فقد ذهبوا، رغم المناطيد التي ستجر الدمار على الفرنسيين، رغم كل السخافات التي حشا فيها روستوبتشين بياناته. كانوا على معرفة أن واجب الجيش هو أن يقاتل وأنه إذا كان الجيش عاجزاً، فإنه ليس عليهم هم أن ينتقلوا إلى الجبال الثلاثة، هو التل القائم شرقي موسكو، ليلتحموا في معركة مع ناپليون ببناتهم وخدمهم بل إن عليهم أن يرحلوا مهما بلغ حزنهم على تركهم ممتلكاتهم التي لم يستطيعوا نقلها للدمار.

كانوا يذهبون دون التفكير في المعنى العظيم الذي يتجسد في مغادرة هذه المدينة العظيمة التي سوف تُحرق حتماً بعد مغادرة السكان لها، لأن الشعب الروسي يستوعب فكرة العزوف عن إحراق الدور الخالية وتدميرها. كانوا يرحلون منفردين وبذلك تم العمل الجليل الذي بقي أكبر مجد للشعب الروسي. فالسيدة العظيمة فلانة التي غادرت موسكو منذ شهر حزيران مع زنوجها ومهرجيها لتحتمي في ملك لها في إقليم ساراتوڤ، شعرت بشكل مبهم أنها ليست خادمة بوناپرت فراحت ترتعد فرقاً من أن يثنيها أمر روستوبتشين، إن مثل هذه السيدة ساهمت ببساطة وبشكل طبيعي في العمل العظيم العام الذي أنقذ روسيا.

والكونت روستوبتشين الذي كان يعيب علَى الفارين تارة وتارة يهتم بإجلاء الدوائر، يوزع أسلحة رديئة على خليط من السكارى تارة وينظم موكباً دينياً رافعاً أيقونة تارة أخرى، يمنع رئيس الأساقفة أوغوستين، من إخراج الأيقونات وصناديق ذخائر القديسين طوراً وطوراً يصادر العربات الخاصة في المدينة، يأمل نقل منطاد ليبيخ على مائة وست وثلاثين عربة حيناً ويلمح حيناً آخر إلى أنه سيحرق موسكو، روستوبتشين الذي كان يعيب على الفرنسيين تارة في بيان وجهه إليهم بأبهة أنهم دمّروا مأوى الأطفال، ويروي

twitter @baghdad_library

تارة أخرى كيف أحرق منزله بالذات، تارة يعترف بحريق موسكو ويأخذه على عاتقه وطوراً ينكره، يأمر الشعب أن يقبض على كل الجواسيس وأن يأتي بهم إليه حيناً وحيناً يستنكر عملهم هذا، وينفي كل الفرنسيين من موسكو طوراً وطوراً يترك فيها السيدة أوبير ـ شماليه التي كان متجرها ملتقى كل الجالية الفرنسية، ثم يأمر بالقبض على كليوتشاريـف العجوز المحترم، دون أي مبرر وينفيه، يستدعي السكان للذهاب إلى الجبال الثلاثة لمقاتلة الفرنسيين ثم، لكي يتخلص من الجماهير يقدم لهم رجلاً يقتلونه بينما يهرب هو من باب خلفي، كان روستوبتشين هذا الذي يزعم تارة أنه لن يحيا ليرى نكبة موسكو ويكتب في مذكراته أبياتاً بالفرنسية حول الاتجاه الذي سيسلكه تارة أخرى، لا يدرك شيئاً من الأحداث الدائرة لكنه كان يريد أن يفعل شيئاً ما وأن يدهش ويقوم بعمل فيه وطنية بطولية، فكان يلعب كالطفل بذلك الحدث المشؤوم الذي يتمثل في هجر موسكو وإحراقها ويجتهد مستعملاً يده الضعيفة سواء في إذكائه أو في إيقاف السيل الشعبي العارم الذي كان يحمله مع تياره.

www.Maktbah.com

الفصل السادس

كانت پيترسبورغ مشمولة باهتمام سيد كبير يتبوأ أحد أرفع مراكز الأمبراطورية. فأصبحت هيلين لدى عودتها مع بلاط فيلنا، إلى پيترسبورغ في موقف حرج. وفي فيلنا، ارتبطت مع أمير أجنبي شاب، فلما عادت إلى پيترسبورغ راح الأمير والسيد العظيم اللذان كانا هناك يطالبان بحقوقهما فعرضت لها مشكلة جديدة تماماً في حياتها الخاصة. ألا وهي المحافظة على صداقة كل منهما المقربة دون أن تجرح أحداً منهما.

إن ما كان يبدو صعباً بل مستحيلاً بالنسبة إلى امرأة أخرى، لم يظهر للكونتيسة بيزوخوف أية مادة للتفكير، وهي التي كانت بحق تظهر امرأة متفوقة. فلو أنها حاولت أن تخفي سلوكها وأن تعمد إلى المكايد لتنقذ نفسها من الارتباك، لأفسدت بذلك كل شيء ولكان عملها بمثابة الاعتراف بخطئها. لكن هيلين على العكس، كرجل عظيم حقيقي يقدر على كل ما يريد، وضعت بجانبها الحق المكتسب الذي كانت تعتقد أنها تمشي بوحيه، وألقت التبعة على الآخرين.

وأول مرة سمح الأمير الأجنبي لنفسه أن يوجه إليها اللوم، رفعت رأسها الجميل بكبرياء والتفتت نصف التفاتة إليه وقالت له بلهجة مطمئنة:

ـ ها هي أنانية الرجال وقسوتهم! لم أكن أتوقع شيئاً آخر. إن المرأة تضحي بنفسها من أجلكم فتتألم وهذا هو جزاؤها. أي حق لك يا صاحب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

السيادة في أن تسألني علماً عن صداقاتي وأحبائي؟ إنه أب كان أكثر من أب بالنسبة إلي.

وأراد الأمير أن يقول كلمة في هذا الشأن لكن هيلين قاطعته قائلة:

ـ حسناً، نعم، يجوز أن يشعر نحوي بعواطف غير عواطف الأب، لكن هذا ليس سبباً يوجب أن أغلق بابي دونه. إنني لست رجلاً لأكون جحودة. اعلم يا صاحب السيادة أنني لا أسأل في كل ما له علاقة بعواطفي الشخصية إلا أمام إلهي وضميري.

وأنهت حديثها بهذا القول وهي ترفع يداً إلى صدرها الجميل الذي علا من الانفعال وتشخص بعينيها إلى السماء.

ـ ولكن، إصغِ إليّ بحق السماء.

ـ تزوجني فأكون عبدتك.

ـ لكن هذا مستحيل.

ـ إنك لا تتنازل بالانحدار إلى مستواي، أنت...

وانفجرت باكية.

حاول الشخص رفيع المقام أن يهدئها. لكن هيلين قالت له خلال عباراتها دون أن تتظاهر بأنها تستعطفه، إن ما من أحد يستطيع أن يمنعه من الزواج وإن هناك أمثلة مماثلة للطلاق، ولم يكن الطلاق شائعاً حينذاك، لكنها أوردت على سبيل المثال ناپليون وبعض الشخصيات الأخرى، وأنها لم تكن قط زوجة بعلها بل كانت ضحية.

اعترض الأمير الشاب وقد كاد يستسلم: لكن القوانين، الدين..

فقالت هيلين: القوانين، الدين.. أية فائدة من وضعها إذا لم تكن مفيدة في مثل هذه الحالات!

مضى الأمير الكبير الذي أذهله أن تكون مثل هذه الفكرة البسيطة لم

www.Maktbah.com

تخطر على باله من قبل، يستشير الآباء الأجلّاء من صحبة يسوع الذي كانت تربطه بهم صلات وثيقة.

قدموا إليها، بعد بضعة أيام، في إحدى الحفلات الكبيرة التي كانت هيلين تقيمها في دارة كاميني ـ أوستروف، رجلاً في سن ما، أبيض الشعر كالثلج، أسود العينين براقهما، السيد دوجوبير البطر، يسوعي في ثوب قصير. ولقد تحدث في الحديقة على أنغام الموسيقى على ضوء المشاعل، فترة طويلة مع هيلين حول محبة الله والمسيح وقلب مريم المقدس والسلوان الوحيد الذي يعد به في هذه الدنيا والدنيا الآخرة الإيمان الوحيد الحقيقي الذي هو الدين الكاثوليكي، فتأثرت هيلين تأثراً عميقاً حتى أن الدموع انهمرت مراراً من عينيها وعيني السيد دوجوبير وارتجف صوتها من الانفعال غير مرة. ولقد جاء راقص يدعوها فقطع حديثها مع مدير ضميرها المقبل. وفي اليوم التالي، جاء السيد دوجوبير وحده مساء إلى دار هيلين ومنذ ذلك الحين، أصبح من المواظبين على زيارتها.

وذات يوم، اصطحب الكونتيسة إلى كنيسة كاثوليكية فركعت أمام المذبح حيث قادها ذلك الفرنسي الجميل الذي تخطى سن الشباب اللامع ووضع يديه على رأسها وحينئذ، وهذا ما روته فيما بعد، أحست بشيء أشبه بالنفحة المنعشة يتغلغل في أعماقها فشرحوا لها أن ذلك الشيء هو «الغفران».

ثم جاؤوها بكاهن ذي جبة طويلة سمع اعترافها ومنحها الغفران. وفي اليوم التالي، جاؤوها بعلبة تحوي القربان المقدس تركوها عندها رهن إشارتها ولم تمض أيام حتى علمت هيلين بارتياح شديد أنها الآن باتت تنتسب إلى الكنيسة الحقيقية الكاثوليكية وأن البابا سوف يحاط علماً بذلك وأنه سيرسل إليها وثيقة بهذا المعنى.

ولقد عاد عليها كل ما حدث حينذاك في نفسها وحولها وما حظيت به

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من عناية شخصيات مرموقة جداً كانت تظهر لها بوسائل رقيقة جداً ومقبولة، ونقاء الحمام الذي باتت عليه وهي التي اقتصرت في أرديتها على الأثواب البيضاء المزينة بأشرطة بيضاء، كل ذلك عاد عليها بكثير من الرضى. لكن ذلك الرضى لم يكن يجعلها تضيع لحظة واحدة الهدف الذي وضعته نصب عينيها. لكنها لم تلبث أن أدركت، كما يحدث عادة في عالم الخداع عندما يمكر أحمق دائماً بالأكثر ذكاء أن كل هذه الكلمات والتصرفات كانت تهدف إلى غاية واحدة وهي استخلاص المال منها لمصلحة اليسوعيين الذين مهّدوا لها الطريق إلى الكثلكة إذ لمحوا إلى ذلك أمامها وقبل أن تعتذر هيلين، قدمت شروطها، أرادت أن ينهوا لمصلحتها الرسميات بطلاقها، فالأديان في نظرها، كل الأديان، ليست صالحة إلا لإنقاذ الآداب عندما تكون الأهواء البشرية موضع البحث. وعلى ذلك، فإنها خلال إحدى محادثاتها مع هاديها، سألته بحزم أن يقول لها إلى أي حد أصبحت روابط الزواج تربطها.

كانا جالسين في القاعة الكبيرة قرب النافذة المفتوحة التي كان عبير الزهور ينفذ إليهما عن طريقها. وكانت هيلين ترتدي ثوباً أبيض شفافاً عند الصدر والكتفين. والكاهن، وهو رجل سمين ممتلئ الخدين، حليق بأناقة، ذو فم شهواني بديع الخطوط، جالس بالقرب منها ويداه البيضاوان معقودتان بتواضع على ركبتيه والابتسامة الرقيقة تتيه على شفتيه. كان يـتأملها من حين إلى آخر بنظرة متأثرة بهدوء بجمالها وهو يفسر لها وجهة نظره حول الموضوع الذي يعنيهما. وكانت هيلين تبتسم في شيء من القلق وهي تنظر إلى هذا الرجل ذي الشعر العكف والخدين الممتلئين وتتوقع بين حين وآخر، أن يحيد بهما الحديث عن الموضوع. لكن الكاهن، رغم وقوعه تحت سلطان فتنتها، كان مسيطراً على أعصابه التي هي من صميم عمله.

كان مدير الضمير يحلل الأمر كالآتي: «لقد أقسمت يمين الإخلاص

www.Maktbah.com

وأنت جاهلة الواجبات التي تتعهدين بها لرجل عقد من جانبه زواجاً دون أن يؤمن بأهميته الدينية ومن هنا، قد ارتكب هذا الرجل دنساً حقيقياً. إن هذا الزواج لم يحمل سرّ التبادل الذي وجب أن يحمله مع ذلك، فإن يمينك قد ربطتك برغم ذلك وأنت تحنثين الآن بها. فماذا أتيت تبعاً لذلك؟ هل هي خطيئة عرضية أم خطيئة مميتة؟ خطيئة عرضية لأنك بارتكابها لم تكوني مدفوعة بنيّة سيئة. فإذا تزوجت الآن مجدداً وأنت تهدفين إلى إنجاب الأطفال فإن خطيئتك يمكن أن تغتفر. وللمسألة رغم ذلك وجهان: الأول...».

فجأة، قالت هيلين، وقد أزعجتها هذه المحاضرات متسلحة بابتسامتها الساخرة: لكنني أعتقد أنني ما عدت مرتبطة بتعهدات فرضتها علي الديانة الخاطئة وأنا التي اعتنقت الدين الحقيقي.

أخذ مدير الضمير إذ رأى مسألة «بيضة كولومبوس» تعرض أمامه بكل هذا البساطة. ولقد فتنه التقدم السريع غير المتوقع من جانب تلميذته. لكنه مع ذلك لم يستطع أن يتنكر لأسلوبه الحجاجي الذي بُني بمجهود كبير فقال وهو يبتسم: لنتفق يا كونتيسة.

وراح ينقض حجج ابنته بالروح.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع

تعرف هيلين جيداً أن المسألة غاية في البساطة والسهولة من الناحية الدينية وأن أدلاءها لا تهمهم مثل هذه العقبات إلا خوفاً من الاستقبال الذي ستحييه السلطة العلمانية لهذا الخبر.

وعلى ذلك، قررت أن تهيئ الرأي العام لتقبل طلاقها. أيقظت بادئ الأمر غيرة حاميها العجوز ثم خاطبته بمثل ما خاطبت به المدنف الآخر بالضبط ملمحة إلى أن الوسيلة الوحيدة التي تعطيه حق الإشراف عليها إنما هي زواجه بها. ولقد كان الكبير العجوز مشدوهاً لأول وهلة كما شُده من قبل الأمير الشاب إزاء عرض الزواج هذا تقدمه امرأة زوجها ما زال على قيد الحياة. لكن هيلين كانت تكرر بثقة ثابتة أن هذا الأمر على غاية السهولة طبيعي مثل زواج فتاة عزباء فانتهى به الأمر هو الآخر إلى الاقتناع. فلو أنها أظهرت بعض الخجل أو التردد لضاعت الصفقة بالنسبة إليها. لكن الأمر جرى على عكس ذلك إذ راحت ببساطة وبراءة ومزاج صاف تروي لأصدقائها المخلصين (وهم جميعهم من بيترسبورغ) أن الأمير والسيد الكبير عرضا عليها الزواج وأنها تحب كل واحد منهما فلا تريد أن تسبب إزعاجاً لأحدهما.

وراجت الإشاعة في بيترسبورغ كلها ليس لأن هيلين تريد الطلاق، لأن مثل هذه الإشاعة كانت قمينة باستفزاز أشخاص كثيرين ضد هذه المحاولة غير القانونية، بل إن هيلين التعيسة المغرية تتساءل في حيرة أي الاثنين تتزوج. فالمسألة إذن لم تعد قائمة على مدى إمكانية تحقيقها بل فقط على

www.Maktbah.com

أي الصفقتين أفضل وما هو رأي البلاط في الموضوع. صحيح أنه كان هنالك بعض الأشخاص المتأخرين العاجزين عن التسامي إلى مستوى هذه المشكلة، بقوا يرون في هذا المشروع تدنيساً لقدسية الزواج، لكن هؤلاء كانوا قلة وكانوا يلزمون الصمت. أما السواد الأعظم، فلم يكن ليهتم إلا بسعادة هيلين وبالخيار الذي سيقر رأيها عليه. أما معرفة ما إذا كان الزواج على حياة الزوج خير أم شر، فإن ما من أحد بحث فيه، إذ لا بد وأن يكون الأمر قد وُجد له مخرج سلفاً من قبل أشخاص «أكثر علماً واطلاعاً منك ومني»، فلم يكن الأمر إذن يستدعي الشك في شرعية هذا القرار إذ ما من أحد كان يرغب في أن يظهر في المجتمع اللامع بمظهر الأحمق أو سيئ الاطلاع.

باستثناء ماري دميترييڤنا أخروسيموڤ القادمة حديثاً إلى پيترسبورغ لزيارة أحد أبنائها، فإنها وحدها التي سمحت لنفسها بالتعبير عن رأيها بصراحة معاكسة للرأي العام. إذ بينما قابلت هيلين في حفلة راقصة، استوقفتها وسط القاعة أمام جميع الناس وقالت لها بصوتها الصارم وسط السكوت الذي ساد القاعة. «ها إنهم هنا عندك يتزوجن وأزواجهن على قيد الحياة. فهل تعتقدين أنك ابتكرت شيئاً جديداً؟ إنك متأخرة يا عزيزتي. لقد وجدوا هذا منذ وقت طويل. إنه هو ما يعملونه في كل الـ...» وكانت ماري دميترييڤنا تشمر عن أكمامها بحركة تهديدية مألوفة وهي تتابع حديثها. وبعد أن صعقت هيلين بنظرة محرقة، تابعت طريقها.

وكانت ماري دميترييڤنا رغم المهابة التي توحيها إلى الناس، تُعتبر في پيترسبورغ على جانب من الجنون. لذلك فإن السامعين لم يحفظوا من كلماتها إلا فظاظة الكلمة الأخيرة فكانوا يرددونها بينهم بصوت خافت واجدين أنه يلخص جوهر ما كانت تريد أن تقوله كله.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكان الأمير ڤاسيلي الذي أصبح ينسى ما قاله منذ حين ويكرر الشيء نفسه مائة مرة وخصوصاً في الآونة الأخيرة، يقول لابنته كلما جاء لزيارتها:

ـ هيلين، لديّ كلمة أقولها لك.

وينتحي بها جانباً ثم يقول: لقد تناهت إليّ لمحات عن مشاريع معينة تتعلق بـ.. تعرفين. حسناً يا ابنتي العزيزة، إنك تعرفين أن قلبي كأب يفرح إذ يعلم أنك.. لقد تألمت كثيراً.. ولكن يا طفلتي العزيزة.. لا تستشيري إلا قلبك. هذا كل ما أقوله لك.

ثم يدلك وجنته بوجنة ابنته وهو يخفي حركة آمرة ويبتعد.

قال بيليبين الذي لم يفقد قط شهرته كناقد لبق والذي كان صديقاً مجرداً لهيلين، صديقاً كالأصدقاء الذين تتخذهم سيدات المجتمع الراقيات، صديقاً لا يقع أبداً في دور العاشق، قال بيليبين هذا ذات يوم لصديقته هيلين رأيه حول الموضوع كله في مؤتمر صغير.

ـ اصغ يا بيليبين. (وكانت هيلين دائماً تدعو الأصدقاء من طراز بيليبين بأسماء عائلاتهم)، ووضعت يدها البيضاء المثقلة بالخواتم على كمّ ثوبه وهي تتكلم، قل لي كما تقول لأختك ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ أي الاثنين؟

فجعد بيليبين بشرة جبهته فوق حاجبيه وراح يفكر والابتسامة على شفتيه. قال:

ـ إنك لو علمت لن تأخذيني على حين غرة. لقد فكرت كصديق حقيقي وأعدت التفكير في مسألتك. فأنت كما ترين لو تزوجت الأمير (وكان يعني الأمير الشاب) فقدت، وراح يعدد على أصابعه، إلى الأبد فرصة الزواج من الآخر ثم أثرت سخط البلاط لأنه كما تعلمين هناك رابطة نسب. لكنك إذا تزوجت الكونت العجوز، أسعدت أيامه الأخيرة ثم عندما تصبحين أرملة العظيم...، فإن الأمير لن يرتكب غلطة الارتباط مع أدنى منك إذا تزوجك.

www.Maktbah.com

وهنا أسبل بيليبين بشرة جبهته. فقالت هيلين مشرقة الوجه وهي تضع مجدداً يدها على كمّ بيليبين: ها هو ذا صديق حقيقي. لكن المسألة أنني أحب هذا وذاك ولا أريد إحزانهما. إنني أضحي بحياتي لسعادتهما كليهما.

هز بيليبين كتفيه معلناً بذلك عجزه عن مواساة هذا الألم.

فكر بيليبين: «امرأة خليلة! هذا ما يسمى طرح السؤال بشكل سافر. إنها تريد أن تتزوج الثلاثة معاً». سألها وهو يأمل أن تكون شهرة من الاستقرار بحيث تسمح له بطرح سؤال على مثل هذا السذاجة:

ـ ولكن قولي لي، كيف سينظر زوجك إلى الموضوع؟ هل سيوافق؟

صاحت هيلين وهي تظن كذلك، والله أعلم بالسبب، أن پيار يحبها أيضاً:

ـ آه! إنه يحبني كثيراً! إنه سيفعل كل شيء من أجلي.

عاد بيليبين يجعد جبهته الأمر الذي يعني أنه يعد كلمة مناسبة. قال:

ـ حتى الطلاق!

فانفجرت هيلين ضاحكة.

كانت الأميرة كوراغين والدة هيلين في عداد الذين سمحوا لأنفسهم بالشك في شرعية الزواج. لقد كانت تحسد ابنتها دائماً. والآن وقد باتت أسباب الغيرة منها تحس قلبها على مدى أقرب، فإنها لم تكن تستطيع احتمال هذه الفكرة. ذهبت تستشير كاهناً روسياً حول الحالات التي يمكن الطلاق فيها وما إذا كان يحق للمرأة أن تتزوج وزوجها على قيد الحياة. فقال لها الكاهن إن المسألة لا يمكن أن تجري وأشار، لشديد بهجتها، إلى نص الإنجيل الذي ينفي بحزم كل إمكانية للزواج في مثل هذه الشروط.

وذات صباح، بكرت بالذهاب عند ابنتها لكي تنفرد بها، وهي مسلحة بهذه الحجج التي اعتبرت أنها لا تقبل النقض.

twitter @baghdad_library

طافت ابتسامة رقيقة ساخرة على شفتي هيلين إزاء اعتراضات أمها.

وكررت الأميرة العجوز: نعم، لقد جاء فيه بصراحة: من يتزوج امرأة مطلقة.

فقالت هيلين وهي تنتقل من الروسية إلى الفرنسية لأنه كان يخيل إليها دائماً أن في قضيتها بعض الغموض بالروسية: آه! يا أماه، لا تتفوهي بحماقات. إنك لا تفهمين شيئاً. إنّ عليّ واجبات وأنا في مركزي.

ـ ولكن يا عزيزتي.

ـ آه! أماه، كيف لا تعرفين أن الأب المقدس له الحق في منح استثناءات.

وفي تلك اللحظة، وصلت السيدة مرافقة هيلين تعلن أن سعادته في القاعة وهو يرغب في رؤيتها.

ـ كلا، قولي له إنني لا أريد رؤيته وإنني غاضبة عليه لأنه حنث بوعده معي.

فقال شاب أشقر، طويل الوجه، طويل الأنف، وهو يدخل:

ـ أيتها الكونتيسة، لكل خطيئة عفو.

وقفت الأميرة العجوز باحترام وانحنت انحناءة عميقة فلم يتنازل القادم الجديد بإقطاعها نظرة. أشارت الأميرة برأسها إلى ابنتها وتسللت نحو الباب.

قالت الأميرة العجوز في نفسها: «نعم، إنها على حق». وتبخرت كل الموانع أمام ظهور سموه. «إنها على حق. كيف جرى أننا خلال شبابنا الذي ولّى ولن يعود، لم نعرف كل هذه الأشياء؟ مع أنها كانت سهلة جداً». تلك كانت أفكارها وهي تستقل عربتها.

تركزت مشاكل هيلين، في بداية آب، فكتبت إلى زوجها الذي يحبها كثيراً على ما كانت تعتقد، رسالة أخطرته فيها بأنها اعتنقت الدين الحقيقي

www.Maktbah.com

الوحيد وأنها تفكر في الزواج بـ:ن. ن. وترجوه بالتالي أن يقوم بالإجراءات اللازمة للطلاق، وهي الإجراءات التي سيعينها له حامل الرسالة.

«وعلى هذا، فإنني أرجو الله يا صديقي أن يأخذك بحمايته المقدسة القوية. صديقتك: هيلين».

وحملت هذه الرسالة إلى منزل پيار في حين كان هذا الأخير في معسكر بورودينو.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

غادر پيار «بطارية» رايـﭬسكي، للمرة الثانية، قرب نهاية المعركة، وفرّ مع جماعة من الجنود باتجاه كينازكوﭬو عن طريق وادٍ فوصل إلى أحد المستشفيات. لكنه أمام مشهد الدم والصراخ والأنين، ابتعد عن المكان مسرعاً مختلطاً بالزحام.

وكان ما يرغب فيه الآن هو أن يخرج بأسرع ما يمكن من هذه المشاهد المرعبة التي ملأت نهاره وأن يعود إلى الحياة العادية فينام هادئاً في غرفته، في سريره. شعر بأنه لكي يرى بوضوح ما في أعماقه، لكي يفهم كل ما رأى ومر به منذ فترة، يجب قبل كل شيء، أن يستعيد ظروفه الحياتية المألوفة. لكن لم يعد لتلك الظروف وجود.

لم تعد القذائف والرصاص يصفران على الطريق الذي كان يسير فيه، مع ذلك، فإنه كان من كل الجهات أشبه بساحة المعركة. في كل مكان، تلك الوجوه المتألمة القلقة المطبوعة أحياناً بلا مبالاة غريبة، وفي كل المعركة الدم والجنود في معاطفهم وفرقعة تبادل الرصاص التي رغم الابتعاد عن مكانها قليلاً، لم تكن تفقد شيئاً من هولها. وفوق كل ذلك، كانت الحرارة والغبار خانقين.

وبعد أن اجتاز حوالى ثلاثة فراسخ على طريق موجاييسك العام، توقف پيار عند جانب الطريق.

بدأ الغسق ينسدل على الطريق واختفى دويّ المدافع. تمدد پيار وبقي ممدداً هكذا فترة طويلة متكئاً على مرفقيه يراقب بعينيه الأطياف التي تمر

www.Maktbah.com

بجانبه في الظلام. كان يخيل إليه باستمرار أن قذيفة متجهة نحوه ولها صفير، فينتفض وينتصب. لم يستطع أن يتذكر الوقت الذي أمضاه في ذلك المكان. وعند منتصف الليل، جاء ثلاثة من الجنود يجرون أغصاناً وراءهم فأوقدوا النار بالقرب منه.

أخذوا ينظرون إلى پيار من طرف أعينهم وهم منهمكون في إعداد موقدهم ثم كسروا قطع «البقسماط» في قصعاتهم وأضافوا إليها قليلاً من الدهن. ولم تلبث رائحة الطعام الطيبة أن امتزجت برائحة الدخان فنهض پيار وأطلق زفرة وكان الجنود الثلاثة يأكلون وهم يتحدثون فيما بينهم غير مكترثين له.

وفجأة سأل أحد الجنود پيار: وأنت، من أي فيلق أنت؟

وبالطبع لم يكن معنى السؤال إلا: «إذا شئت أطعمناك ولكن يجب أولاً أن تقول لنا ما إذا كنت شريفاً».

صاح پيار وهو يشعر بضرورة الحط من قيمته الاجتماعية كي يصبح أقرب إلى نفوسهم فيفهمونه أكثر:

ـ أنا؟ أنا؟... أنا، ضابط في فرق المتطوعين، لكن فرقتي لم تعد هنا. لقد جئت إلى المعركة فأضعت رجالي.

قال أحد الجنود: تأمل هذا!

وهز جندي آخر رأسه. فقال الأول: حسناً كل إذا كان الطعام يعجبك!.

ومد إلى پيار الملعقة الخشبية بعد لعقها.

جلس پيار أمام النار وبدأ يأكل الطعام في القصعة نفسها فلم يبد له طعام قط أشهى من هذا. وبينما هو منحن فوق القصعة يجمع الطعام ويلتهمه بملاعق مملوءة الملعقة تلو الأخرى، راح الجنود يتأملون وجهه الذي تضيئه النار صامتين سأل أحدهم مجدداً:

ـ حسناً، والآن من أي طريق يجب أن تذهب؟

twitter @baghdad_library

ـ إنني ذاهب إلى موجاييسك.

ـ ألست سيداً؟

ـ بلى.

ـ وما هو اسمك؟

ـ پيوتر كيريلوڤيتش. إلى الأمام وسندلك على الطريق.

وتوجه الجنود وپيار نحو موجاييسك في ظلام حالك.

ولما بلغوا هضبة موجاييسك، كان الديك يصيح. فشرعوا يصعدون السفح المنحدر الذي يؤدي إلى المدينة. كان پيار يتبع الجنود وقد نسي تماماً أن نزله قائم عند سفح التل. ولقد تجاوزه وما كاد يذكر لشدة انشغاله لولا أن اصطدم عند منتصف السفح بخادمه المرافق الذي كان عائداً إلى النزل بعد أن ظل يبحث عنه في موجاييسك. تعرف الخادم في الظلام إلى پيار من قبعته البيضاء فقال:

ـ يا صاحب السعادة. لقد كنا في أقصى حالات اليأس. كيف أنت تمشي على قدميك. تعالى أرجوك!

فقال پيار: آه! نعم.

وتوقف الجنود. وسأل أحدهم:

ـ إذن، ها قد وجدت ذويك؟ الوداع إذن يا پيوتر كيريلوڤيتش على ما أظن؟

وقال الآخرون: الوداع يا پيوتركيريلوڤيتش.

فكر پيار وهو يستعد لاتباع خادمه حتى النزل:

ـ الوداع.

فكر وهو يمد يده إلى جيبه: «أن أعطيهم شيئاً!» لكن صوتاً داخلياً أجابه: «كلا، لا يجوز».

لم يعد هناك مكان في غرف النزل إذ شُغلت كلها. فذهب پيار إلى الفناء ونام في عربته وقد غطى رأسه بمعطفه.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

سمع پيار فجأة وبشكل واضح دويّ المدافع وهو لم يكد يضع رأسه على الوسادة وقد شعر بأنه ينام: بم، بم، بم والأنين والصيحات وانفجارات القنابل وشم رائحة الدم والبارود فاستبد به الذعر والخوف من الموت. ثم فتح عينيه في وسط ذلك الرعب، ورفع رأسه من تحت المعطف فإذا بكل شيء هادئ في الفناء. وأمام المنزل الخارجي كان أحد أتباعه في طريقه يثرثر مع البواب ويمشي في الوحول. وفوق رأسه، في ظل ألواح الرواق، راح الحمام يصفق بجناحيه وقد أخافته الحركة التي أتى بها وهو ينهض. كان الفناء كله يتضوع بتلك الرائحة القوية الهادئة التي تفوح من الخانات والتي كانت في تلك الأثناء تنعش پيار: رائحة العلف والدم والقار. ومن خلال الفجوة التي بين الرواقين، كانت السماء الصافية تطل بنجومها.

فكر پيار وهو يغطي رأسه من جديد: «شكراً لله، لقد انقضى كل هذا. آوه! يا له من خوف رهيب، ويا للعار إذ استسلمت له! في حين أنهم... هم، استمروا طوال الوقت وحتى النهاية صامدين هادئين...».

و«هم» في نظر پيار، هم الجنود، جنود «البطارية» الجنود الذين أطعموه أولئك الذين كانوا يصلون أمام الأيقونة. «هم»، هم أولئك الأشخاص غريبو الأطوار الذين ظلوا مجهولين منه حتى ذلك الحين، أولئك راحوا يظهرون في مخيلته بوضوح فيطغون على كل ما عداهم من الرجال.

أخذ پيار يفكر وهو يعاود النوم: «أن أكون جندياً، لا أكثر من جندي، أن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أدخل بكل جوارحي في هذه الحياة الشائعة المشتركة وأن تعتلج في نفسي تلك العواطف التي تجعلهم كما هم. ولكن كيف الخلاص من كل عبء الحياة الخارجية التافه الشيطاني؟ لقد مضى وقت كنت أستطيع خلاله أن أكون كذلك. كنت أستطيع الفرار من لدن أبي كما كنت مقرراً. كذلك كنت قادراً بعد مبارزتي مع دولوخوف أن أرسل إلى الفيلق كجندي». وراحت الصور في مخيلة پيار تتلاحق: ذلك العشاء في النادي أولاً حيث استفز دولوخوف، ثم المحسن إليه في تورغوك. تصور بعدئذ اجتماعاً جليلاً في المحفل. لقد عقد ذلك الاجتماع في النادي الإنجليزي. وكان بعضهم، أليف قريب عزيز يجلس إلى رأس الطاولة. آه! إنه هو! المحسن! وفكر پيار: «لكنه مات! نعم، لقد مات ولا أعرف أنه سيحيا من جديد. كم أسفت لموته، كم أنا مسرور أن يعود إلى الحياة!» كان أناتول ودولوخوف ونيسـڤيتسكي ودينيسوف وآخرون جالسين على جانب من الطاولة، وكانت الزمرة التي ينتمي إليها هؤلاء الناس من الوضوح والدقة في نفس پيار بما يماثل الزمرة التي راح يدعوها «هم».

وكان هؤلاء الناس وأناتول ودولوخوف يصرخون ملء حناجرهم ويغنون، لكن صوت المحسن كان يطغى على أصواتهم. كان يتكلم دون ملل فكانت لهجة ذلك الصوت رغم ما فيها من مستحب، آمرة ومسترسلة أشبه بدويّ ساحة المعركة، لم يكن پيار يفهم ما يقوله المحسن لكنه كان يعرف مع ذلك.. لشدة ما تكون الأفكار من هذا النوع واضحة في الأحلام، أنه يتكلم عما هو خير وعن إمكانية الانقلاب إلى ما «هم» عليه. وكانوا «هم» يحيطون بالمحسن من كل الجهات بوجوههم الباسلة الطيبة. ولكن، رغم طيبتهم، فإنهم ما كانوا ينظرون إلى پيار وما كانوا يعرفونه، فأراد پيار أن يقول شيئاً وأن يجتذب انتباههم، فوقف. وفي تلك اللحظة، شعر بالبرد في ساقيه اللتين خرجتا من تحت الغطاء.

www.Maktbah.com

أحس بالخجل فأعاد بإحدى يديه معطفه الذي انزلق على ساقيه، وبينما كان پيار يسوي معطفه، فتح عينيه فطالعته الأروقة نفسها والأعمدة عينها والفناء نفسه ولكن تحت ضوء مائل إلى الزرقة، مزين بالندى البراق.

فكر پيار: «ها هو ذا الفجر. ولكن الأمر لا يتعلق بهذا. يجب أن أصغي حتى النهاية وأن أفهم أقوال المحسن». عاد يغيب نفسه تحت معطفه، لكن لم يعد هناك محفل ولا محسن، لم يبق له إلا الإصغاء إلى آراء أخذت توضحها كلمات ينطق بها بعضهم ويصوغها أولاً بأول.

وعندما تذكر فيما بعد تلك الآراء، التي لم تنجم إلا عما رآه خلال ذلك النهار بقي مقتنعاً أن شخصاً ما، خارجياً، قالها له. خيل إليه أنه لم يكن يستطيع في حالة اليقظة، أن ينعم بأفكار مماثلة وأن يعبر عنها بنفسه.

كان الصوت يقول: «إن أصعب ما في الوجود هو إخضاع الحرية الإنسانية للقانون السماوي. أن يكون المرء بسيطاً يعني أن يخضع لله ولا يمكن الإفلات منه. و«هم» بسطاء. «هم» لا يتكلمون ولكن يفعلون، إن الكلام من فضة ولكن الصمت من ذهب والرجل لا قيمة له طالما ظل يخاف الموت. وكل شيء ملك للذي لا يخافه. إن الإنسان لولا الألم، لا يستطيع معرفة حدوده ولا معرفة نفسه. إن أصعب ما في الوجود هو، كما ظلَّ پيار يسمع أو الأحرى يفكر، هو أن يوحد المرء في نفسه معاني الأشياء. وتساءل: كلها؟ كلا، إنه غير صحيح. يتعذر توحيد الأفكار وإذن، يجب ربطها، هذا ما ينبغي! نعم، يجب ربطها، ربطها!» وراح يردد هذه العبارة بحماسة داخلية وهو يشعر بأن هذه الكلمات، وهذه الكلمات فقط، تعبر عما يريد أن يقول وتحل كل المسألة التي تعذبه.

ـ نعم، يجب ربطها. لقد آن الأوان أن تربط.

twitter @baghdad_library

فردد الصوت: يجب قطر الخيول، لقد آن وقت قطرها يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة، يجب قطر الخيول، لقد حان الوقت.

وكان ذلك هو صوت خادمه المرافق الذي جاء يوقظه وكانت الشمس تغمر وجه پيار بضيائها. نظر إلى فناء الخان القذر الذي كان في وسطه بئر راح بعض الجنود يوردون منها خيولاً نحيلة بينما راحت عربات تجتاز الباب الخارجي. أشاح پيار بوجهه متقززاً وأغمض عينيه ثم حشر نفسه بشدة في مقعد عربته. «كلا، لا أريد رؤية هذا، لا أريد رؤيته ولا فهمه، أريد فقط أن أعرف ما كُشف عنه الغطاء لي خلال نومي. لو تأخرت ثانية أخرى لاستوعبت كل شيء وماذا يجب لي؟ أن أربط، نعم، ولكن كيف أربط كل شيء؟» وشعر برعب أن المعنى العميق لما رآه وفكر فيه في الحلم قد انهار.

روى الخادم والحوذي والبواب لـپيار أن ضابطاً حمل نبأ تقدم الفرنسيين نحو موجاييسك وتراجع رجالنا.

وقف پيار وأمر بأن تقطر الخيول وأن يلحقوا به ثم ذهب مشياً على قدميه عبر المدينة.

كانت القطعات قد انطلقت مخلفة وراءها قرابة عشرة آلاف جريح، وكان هؤلاء يُرون في الأفنية ووراء نوافذ المنازل وجماعات متراصة في الشوارع، وحول العربات التي كان عليها أن تحملهم، كانت الصرخات والشتائم ترتفع وكانوا يتبادلون اللكم. ولقد قدم پيار عربته التي لحقت به إلى جنرال جريح كان يعرفه فحمله إلى موسكو. وخلال الطريق، أطلع پيار على نبأ موت شقيق زوجه والأمير أندريه.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

في الثلاثين من الشهر، وصل پيار إلى موسكو، ولدى بلوغه المدخل، جاء مساعد عسكري للكونت روستوبتشين يلقاه. قال المساعد العسكري:

ـ إننا نبحث عنك في كل مكان. إن الكونت يرغب بإلحاح في رؤيتك. فهو يستدعيك لأمر غاية في العجلة.

وبدلاً من أن يذهب إلى منزله، استقل پيار عربة عامة وذهب لمقابلة الحاكم.

كان روستوبتشين قد عاد ذلك الصباح بالذات من دارته في سوكولنيكي القائمة في الضاحية، وكانت ردهته وغرفة استقباله تغصان بالموظفين الذين استدعاهم أو الذين جاؤوا وحدهم للتزود بالأوامر. ولقد استطاع فاسيلتشيكوف وپلاتوف أن يقابلاه من قبل وأن يشرحا له استحالة الدفاع عن موسكو التي يجب تسليمها. وكان هذا النبأ الذي استمروا، حتى ذلك الحين، يخفونه عن السكان، معروفاً من الموظفين ومن رؤساء مختلف الإدارات. كانوا يعرفون كما يعرف روستوبتشين نفسه أن موسكو ستقع بين أيدي العدو، فجاؤوا كلهم، رغبة منهم في التخلص من المسؤولية، يسألون الحاكم عما يفعلونه بالخدمات الموكولة إليهم.

وفي الوقت الذي دخل پيار غرفة الاستقبال، كان ساع موفد من قبل الجيش يخرج من مكتب الكونت.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولقد أجاب بحركة ملؤها اليأس عن الأسئلة التي راحوا يلقونها عليه عبر القاعة.

أخذ پيار يسرّح عينيه المتعبتين في مختلف الموظفين بين كهول وشبان، عسكريين ومدنيين، الموجودين هناك وهو ينتظر دوره. لقد كانت تقاطيعهم جميعاً تنطق بالاستياء والقلق فانضم پيار إلى زمرة رأى في عدادها بعض معارفه. وبعد أن حيوه، عاد الحديث إلى سياقه:

ـ إن تسريحه ثم استدعاءه فيما بعد لن يكون ذا شأن سيئ طالما أنه لا يمكن التكهن بشيء حول الوضع الذي نحن فيه.

فقال آخر وهو يعرض ورقة مطبوعة أمسك بها في يده: نعم، لكن ها هو ذا، إنه يكتب...

فاستأنف الأول: إن هذا مختلف. إنه واجب من أجل الشعب.

سأل پيار: ما الخبر؟

ـ هذا. إنه آخر منشور له.

أخذ پيار المنشور فقرأ فيه ما يلي:

«إن الأمير «عظيم الرفعة»، بغية الالتحاق بالقطعات التي تمضي للقائه بأسرع ما يمكن، قد اجتاز موجاييسك وتمركز في موقع حصين لا يستطيع العدو أن يدهمه فيه. ولقد أُرسل إليه من هنا ثمانية وأربعون مدفعاً مع ذخائرها، إن «عظيم الرفعة» يؤكد أن موسكو سيُدافع عنها حتى آخر قطرة من الدم وأنه على استعداد للقتال حتى في الشوارع أيها الإخوان، لا تقلقوا إذا كانت الخدمات العامة قد توقفت: كان لا بد من وضعها في مكان أمين. أما نحن، فسوف نسوي حساب، ذلك اللص! عندما يحين الوقت، أكون بحاجة إلى فتيان أشداء مدنيين وقرويين. سوف أطلق صرخة النداء في غضون يوم أو اثنين. أما الآن، فإنني أصمت لأنه لا لزوم لذلك. سيكون مناسباً أن يمتلك

www.Maktbah.com

المرء فأساً ولا بأس من أن يكون لديه حربة بل أفضل أن يكون مسلحاً بمنجل، فالفرنسي ليس أثقل وزناً من حزمة من الخرطال. غداً بعد الغداء، سأنظم موكباً دينياً يحمل أيقونة إيبيريا للجرحى في مستشفى كاترين. وهناك سنبارك الماء فيشفون بسرعة أكثر. إنني أنا الآخر قد شفيت الآن: لقد أصبت بألم في عيني والآن أصبحت أرى بعينيّ الاثنتين».

صاح پيار:

ـ لكن العسكريين قالوا لي إنه لا ينبغي التفكير في القتال في المدينة وإن الموقع..

فقال الموظف الأول: نعم، وهذا ما كنا بصدد التحدث عنه.

سأل بيار: وما معنى: «أصبت بألم في عيني والآن أصبحت أرى بعينيَّ الاثنتين»؟ شرح المساعد العسكري والابتسامة على شفتيه:

ـ لقد أصيب الكونت «بشحاذ العين». لقد تعذب كثيراً عندما قلت له إن الشعب جاء يسأل عن أخباره.

وأضاف دون أن يكف عن الابتسام وهو يخاطب پيار:

ـ وعلى فكرة، كونت؟ لقد سمعنا أنك متعرض لمتاعب زوجية وأن الكونتيسة زوجتك.

قال پيار بلا مبالاة:

ـ ليست لدي أنباء عن ذلك. ماذا يقولون؟

ـ آه! إنك تعلم أن هذه الأمور تكون غالباً من بنات الأفكار. أنا لم أسمع!

ـ وماذا يقولون؟

استأنف المساعد العسكري يقول بالابتسامة نفسها: يقولون إن الكونتيسة زوجتك ستسافر إلى الخارج. لا شك إنه أمر مستحيل.

فقال پيار وهو يجيل حوله نظرة ساهمة: إنه ممكن الوقوع.

twitter @baghdad_library

ثم سأل وهو يشير إلى عجوز قصير القامة، أبيض شعر اللحية والحاجبين كالثلج، قرمزي الوجه، يرتدي «قفطاناً» أزرق شديد النظافة: وهذا، من هو؟

ـ هذا؟ إنه تاجر أو على الأصح خمّار اسمه فيريشتشاغين. لا بد وأنك سمعت بقصة النداء؟

صاح پيار وهو يتأمل وجه العجوز التاجر الهادئ الحازم دون أن يجد فيه تعبيراً عن الخيانة:

ـ آه! إنه فيريشتشاغين!

قال المساعد العسكري شارحاً:

ـ إنه ليس هو. إنه والد الرجل الذي كتب النداء. أما الشاب ذاك، فقد أودعوه أسفل زنزانة عميقة وأعتقد أنه يستحق ذلك.

اقترب عجوز صغير على صدره وسام وموظف ألماني آخر يتدلى وسامه حول عنقه، من المتكلمين. بينما استرسل المساعد:

ـ كما ترى، إن قصة ذلك النداء حافل بالغموض، ترجع إلى شهرين أو ثلاثة أشهر، ولقد أنهوها إلى الكونت فأمر بفتح تحقيق، وشرح كافريل إيـڤانيتش في أبحاثه فوجد أن ذلك النداء قد مر بثلاث وستين يداً، جيء بأحد المدنيين وسئل: ممن أتيت به؟ من فلان وفلان، فيذهبون إلى الآخر: وأنت، ممن؟ وهكذا.. بذلك وصلوا إلى فيريشتشاغين.. تاجر صغير غير ماكر، كما تعلم، وأضاف المساعد العسكري ضاحكاً، شخص صغير عادي، سألوه: «من أين جئت بهذا؟» هذا مع أننا كنا نعرف الذي أعطى النداء إليه إذ لم يكن ممكناً أن يحصل عليه إلا من مدير البريد، وكان واضحاً أنهما كانا متواطئين فأجاب: «ليس من أحد، إنني أنا الذي كتبته». هددوه وضغطوا عليه، لكنه استمرّ يؤيد كلامه، ولقد قدم التقرير إلى الكونت فاستقدم الشخص، «من أين جئت بهذا النداء؟ أنا الذي كتبته».

www.Maktbah.com

وأردف المساعد العسكري بابتسامة الفخور العابث: وأنت تعرف الكونت! لقد أرغى وأزبد، تصور؛ سفاهة لهذه الدرجة وعناد إلى هذا الحد في الكذب!

قال پيار:

ـ أجل، إنني أفهم، لقد كان الكونت يريده على أن يشي بكيليوتشاريـف.

رد المساعد العسكري مذعوراً:

ـ أبداً، ليس بالضرورة، لقد كان كيليوتشاريـف يحمل وزر بعض الأخطاء الصغيرة، فنفي من أجلها، لكن ما كان مؤكداً هو أن الكونت كان خارجاً عن طوره. سأله: «كيف استطعت أن تدبج هذا؟» وأخذ من على الطاولة جريدة هامبورغ: «ها هو ذا! إنك لم تدبجه بل ترجمته، وترجمة رديئة لأنك لا تعرف الفرنسية أيها الغبي!» ثم ماذا تظن؟ لقد أجاب ذاك: «كلا، إنني لم أقرأ أية صحيفة. لقد أنشيته بنفسي، إذن، طالما الأمر كذلك فأنت خائن، وسأقدمك للمحاكمة، سوف تشنق، اعترف ممن أخذته، إنني لم أقرأ أية صحيفة بل أنشيته بنفسي، وأصر على هذا الكلام، استدعى الكونت أباه كذلك ولكن دون جدوى! إنه يأبى الاعتراف. ولقد حاكموه وحكموا عليه بالأشغال الشاقة على ما أظن، جاء الأب يلتمس الرحمة لابنه، لكنه مواطن رديء، أنت تعلم، إنه واحد من أبناء التجار هؤلاء، حقير المنزلة، مغازل القرويات. لقد درس في مكان ما. وعلى ذلك فإن الملك ليس ابن عمه، نعم إنه فتى غريب، إن أباه يدير دكان شواء عند جسر بطرس. وتصور، أن لديه أيقونة كبيرة للإله الأب ممسكاً بإحدى يديه الصولجان وبالأخرى الكرة الأرضية. لقد حملها إلى منزله لبضعة أيام ثم ماذا فعل! لقد وجد رساماً سافلاً..

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

في اللحظة التي دخل پيار إلى مكتب الحاكم، في غمار هذا الحديث الجديد، كان الكونت روستوبتشين مقطب الحاجبين يمر بيده على عينيه وجبهته، وكان رجلاً مربوع القامة، مسترسلاً في التحدث إليه فسكت وخرج، قال روستوبتشين حينما ذهب رجله: آه! مرحباً أيها المحارب الشهير، لقد سمعناهم يتحدثون عن إقدامك وشجاعتك! لكن الأمر لا علاقة له بهذا.

استرسل يقول بلهجة حازمة وكأن الانتساب إلى الماسونية جريمة لكنه يريد أن يكون رحيماً.

ـ يا عزيزي، الكلام بيننا إنك ماسوني.

فسكت پيار بينما تابع الكونت:

ـ إنني يا عزيزي على يقين من صحة معلوماتي، مع ذلك فإني آمل أن يكون هناك ماسوني وماسوني وإنك لست من أولئك الذين يريدون ضياع روسيا بحجة إنقاذ الجنس البشري.

أجاب پيار: نعم، إنني ماسوني.

ـ حسناً، تأمل يا عزيزي، إنك لا تجهل أن السيدين سـپيرانسكي ومانييتسكي أُرسلا إلى مكان آمن وأن السيد كليوتشاريـف وآخرين من الذين يزعمون إعادة بناء هيكل سليمان وهم يجهدون في تهديم هيكل الوطن قد نالوا مثل هذا المصير. ولا بد وأنك تعلم أننا كنا مدفوعين ببعض الأسباب

www.Maktbah.com

المبررة لانتهاج هذا السبيل وإنني ما كنت لأنفي مدير بريد موسكو لو لم يكن رجلاً خطيراً. ولقد عرفت أنك أرسلت له عربتك الجاهزة ليغادر المدينة فيها بل إنه عهد إليك ببعض الأوراق، إنك عزيز علي ولا أرغب في أن يصيبك أي أذى، فإنني أوصيك كأب أن تقطع علاقاتك مع أشخاص من هذا النوع وأن تذهب أنت نفسك من هنا بأسرع ما يمكن.

سأل پيار ولكن يا كونت، ما هو ذنب كليوتشاريـڤ؟

صرخ روستوبتشين: علي أنا أن أعرف وليس عليك أن تسألني.

قال پيار دون أن ينظر إلى روستوبتشين:

ـ إنهم يتهمونه بتوزيع منشورات ناپليون، لكن هذا لم يثبت بالدليل أما فيريشتشاغين...

فقاطعه روستوبتشين، مقطباً حاجبيه، وهو يتجاوز في الصراخ ويقول:

ـ ها نحن أولاء.. إن فيريشتشاغين رجل باع ضميره، خائن سيلقى جزاءه. كان الحاكم يصرخ بلهجة يستخدمها الأشخاص الذين يتذكرون إهانة شخصية:

ـ لكنني لم أستدعك لتناقش تصرفاتي. لقد استدعيتك لأعطيك نصيحة أو أمراً إذا شئت تحري الصراحة، إنني أرجوك أن تتوقف عن أي اتصال مع أشخاص من طراز كليوتشاريـڤ وأن ترحل من هنا؟ سوف أجعلهم جميعاً يعزفون عن جنونهم مهما بلغ عددهم.

وبدون شك، شعر بتجاوزه الحد وهو يهدد بيزوخوڤ بهذا الشكل رغم أن هذا لم يرتكب أية مخالفة، فصاح وهو يمسك بذراعه بحركة ودية:

ـ إننا على وشك الوقوع في دمار عام وليس لدي من الوقت ما يمكنني من التحدث بعبارات لطيفة مع كل من لهم شأن معي، إن المرء أحياناً يصاب بدوار! حسناً يا عزيزي، ماذا تفعل أنت شخصياً؟

twitter @baghdad_library

أجاب بيار دون أن يرفع عينيه أو أن يبدل أمارات وجهه الساهمة:

ـ لا شيء أبداً.

ثم قطب الكونت حاجبيه: نصيحة صديق يا عزيزي، إرحل بأسرع ما يمكن، هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك، والخلاص للمصغي إلى النصح! وداعاً يا عزيزي.

وبينما هو يجتاز عتبة الباب صاح يستوقفه:

ـ آه! على فكرة، هل حقيقة أن الكونتيسة وقعت بين براثن الآباء المقدسين أتباع يسوع؟

لم يجب بيار وخرج من لدن روستوبتشين مقطب الحاجبين في حالة من الهياج لم ير قبل على مثلها قط.

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما وصل إلى مسكنه. ولقد جاء إليه سبعة أو ثمانية أشخاص مختلفين خلال تلك الأمسية: أمين سر اللجنة، زعيم لوائه، مسجله، رئيس خدمه وبعض ذوي المصالح. ولكل منهم أعمال يريد تصفيتها. لم يكن بيار يفهم شيئاً من هذه الأمور ولم يكن ليهتم بها فكان يجيب عن الأسئلة بغية التخلص من هؤلاء الأشخاص فحسب. وأخيراً، عندما خلا لنفسه، فضّ غلاف رسالة زوجته وقرأها.

ـ «هم»، يعني جنود البطارية، الأمير أندريه الذي قتل.. العجوز.. البساطة هي الخضوع لله. ضرورة الألم.. معنى الأشياء.. الارتباط.. زوجتي تتزوج من جديد.. يجب النسيان والفهم..

واستلقى على سريره دون أن يخلع ثيابه فلم يلبث أن غفا.

وعندما استيقظ صباح اليوم التالي، أخبره رئيس الخدم أن الكونت روستوبتشين أرسل شرطياً يستعلم عما إذا كان الكونت بيزوخوف قد ذهب أم هو يتأهب للرحيل.

www.Maktbah.com

وكان في القاعة حوالى عشرة أشخاص ينتظرونه لحاجات لهم فأصلح پيار زينته بسرعة ولكن بدلاً من أن يدخل على المنتظرين، لجأ إلى سلم الخدم وخرج من باب الفناء.

ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية خراب موسكو، لم ير أحد من أشخاص بيته الكونت بيزوخوف، وعلى الرغم من كل التفتيش عنه، لم يعرف أحدٌ ماذا حل به.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

حتى الأول من شهر أيلول أي مساء اليوم الذي دخل العدو فيه المدينة، كان آل روستوف في موسكو.

بعد التحاق پيتيا في فيلق قوقازي أوپولنسكي وذهابه إلى بييلاييا تسيركوف حيث يتشكل ذلك الفيلق، استولى الخوف على الكونتيسة.

أخذت فكرة وجود ولديها في الحرب بعيدين عن جناحها وأن اليوم أو غداً سيقتل أحدهما أو كلاهما كما قتل الأبناء الثلاثة لصديقتها، أخذت هذه الفكرة تغزو رأسها لأول مرة طوال الصيف بوضوح ممقوت فاجتهدت في أن تعيد نيكولا إلى قربها وأرادت أن تلحق بـپيتيا وأن تعينه في مكان ما في پيترسبورغ. لكن كل هذا بدا لها مستحيلاً. فـپيتيا لا يمكن أن يعود إلا مع فيلقه أو ينتقل إلى فيلق آخر.

ونيكولا، كان في مكان غير معروف تماماً وقد انقطعت أخباره بعد رسالته الأخيرة التي روى فيها قصة لقائه الأميرة ماري. ولم تعد الكونتيسة تذوق طعم النوم فإذا ما أغفت ليلاً، رأت ولديها في حلمها قتيلين. وبعد استشارات ومشاورات عديدة تصوّر الكونت أخيراً أنه وجد الوسيلة لتهدئتها. نقل پيتيا من فيلق أوپولنسكي إلى فيلق بيزوخوف الذي كان يشكل قرب موسكو وبذلك، كان يمكن للكونتيسة، رغم بقاء پيتيا في الخدمة العسكرية، أن تجد العزاء بوجود واحد من ولديها قريباً منها تحت جناحها، أملاً ألّا يبتعد عنها بعد ذلك وأن يستطيع إقراره في بعض المهام التي لا يتعرض فيها

www.Maktbah.com

للاشتراك في الحرب. كان يبدو للكونتيسة، كما كانت تعترف بنفسها.. أن ابنها البكر مفضل على أولادها الآخرين طالما هو غائب ومعرض للخطر. ولكن عندما ذهب ابنها الأصغر، ذلك الطفل الذي كان يرفض أن يتعلم شيئاً ويحطم كل شيء في المنزل ويزعج كل إنسان فيه، عندما ذهب پيتيا هذا ذو الأنف الأفطس والعينين السوداوين الماكرتين والوجه المتورد الذي لم ينبت على وجنتيه إلا ما يشبه الزغب، عندما ذهب إلى هناك بين الفتيان الكبار الرهيبين الذين يقتتلون ويجدون متعة في ذلك، حينئذ خيّل إلى الأم أنها كانت تحب هذا الفتى أكثر بكثير، وبما لا يقاس، من أولادها الآخرين.

وكلما اقتربت اللحظة التي كان پيتيا، هذا المنتظر بفارغ صبر، سيعود فيها إلى موسكو، ازداد قلق الكونتيسة. كانت تفكر أنها لن تعرف السعادة بعد ذلك. ولم يكن حضور سونيا وحده هو الذي يغضبها، بل كذلك معبودتها ناتاشا وزوجها نفسه. كانت تفكر: «ما حاجتي إليهم؟ لست في حاجة إليهم. إنّ پيتيا هو الذي أريده».

تلقى آل روستوف، في الأيام الأخيرة من شهر آب، رسالة ثانية من نيكولا. كان يكتب من حكومة ڤورونيغ حيث أرسلوه لتدارك خيل للفرسان، فلم تهدئ رسالته الكونتيسة. ذلك أنها حينما عرفت أن واحداً من ولديها خارج منطقة الخطر، بدأ عذابها يتضاعف من أجل پيتيا.

وعلى الرغم من أن كل معارف آل روستوف تقريباً غادروا موسكو منذ العشرين من آب، بعضهم إثر بعض، وأن كل الناس نصحوا للكونتيسة، بأن ترحل بأسرع وقت، فإنها لم تشأ أن يرد ذكر الرحيل في حضرتها قبل أن يعود كنزها، پيتياها الحبيب. وأخيراً، عاد في الثامن والعشرين فلم يرق هذا الضابط ذا الأعوام الستة عشر ذلك الحنان المدنف المرضي الذي استقبلته به أمه. ولقد عملت جاهدة على أن تخفي عنه خطتها الهادفة إلى عدم السماح له

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بعد ذلك بالإفلات من العش، لكن پيتيا أدرك نيتها السرية فراح يعاملها ببرود خشية أن يلين أو أن يتخنث بين طيات ثوب أمه، كما كان يفكر بينه وبين نفسه، وبقي كذلك طوال بقائه في موسكو ساعياً جهده تجنّب اللقاء بها والبقاء مع ناتاشا التي كان يشعر نحوها دائماً بحب أخوي خاص يكاد يكون عشقاً.

وبسبب لا مبالاة الكونت، فإن ما من شيء كان معداً للرحيل يوم الثامن والعشرين ولم تصل العربات التي كان ينتظرها من إقطاعية ريازان ومن ضاحية موسكو إلا في الثلاثين.

عرفت موسكو بين الثامن والعشرين والواحد والثلاثين من آب اضطراباً محموماً. ومن يوم إلى آخر، عن طريق مدخل دوروغوميلوف الكائن غربي المدينة، كانوا يأتون بالألوف من جرحى بورودينو ويجلونهم بينما كانت آلاف العربات المحملة بالناس والأمتعة تخرج من المدينة عن طريق الأبواب الأخرى. وعلى الرغم من منشورات روستوبتشين بل لعلها هي السبب، كانت الإشاعات الأكثر غرابة وتناقضاً تروج. فالبعض كان يزعم أن الرحيل أصبح ممنوعاً والبعض الآخر على العكس، يؤكد أنهم رفعوا الأيقونات من الكنائس وأنهم يطردون الناس كلهم بالقوة. وفلان يزعم أنهم اشتبكوا مع الفرنسيين في معركة أخرى في بورودينو فهزم هؤلاء، وآخر يزعم أن الجيش الروسي كله قد أبيد.

هذا يؤكد أن المتطوعين الموسكوڤيين سيذهبون إلى «الجبال الثلاثة» وعلى رأسهم رجال الدين، وذاك يهمس في أذنك أن الحبر «متروپوليت» أوغوستين لم تعد له حرية الحركة وأنهم أوقفوا بعض الجواسيس وأن القرويين الثائرين يسلبون القوافل على الطرق، إلخ. إلخ.. لكن هذه كلها لم تكن إلا ثرثرات. أما الحقيقة، فكانت أن الذين يذهبون كالذين يبقون، رغم أن المجلس العسكري الذي عُقد وتقرر فيه إخلاء موسكو لم يكن قد عقد

بعد، كانوا يشعرون بأن موسكو مسلّمة للعدو وأنه ينبغي الرحيل بأسرع ما يمكن وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الممتلكات. وكانوا كلهم يشعرون مسبقاً بأن كل شيء سينهار فجأة ويتغيّر. مع ذلك، فإن ما من شيء تبدل في اليوم الأول من أيلول. وظلت موسكو التي لا تجهل شيئاً عن مصيرها الوشيك وعن الانقلاب في الشروط الحياتية الذي سيعقب ذلك، مستمرة رغم كل شيء في حياتها الطبيعية، أشبه بالمحكوم الذي يساق إلى الإعدام والذي يعرف أن كل شيء سينتهي بالنسبة إليه بعد لحظات، لكنه مع ذلك، يبقى يتلفت حوله بل يسوي قلنسوته التي مالت قليلاً.

تخبطت أسرة آل روستوف خلال الأيام الثلاثة التي سبقت سقوط المدينة، في بلبال مبعثه مشاكل الخدم. فرب الأسرة، الكونت إيليا أندرييـڤيتش، لم يكن يكف عن التنقل هنا وهناك سعياً وراء الأخبار بينما كان يتخذ في البيت استعدادات غامضة غير كاملة وارتجالية تتعلق بالرحيل.

والكونتيسة تراقب حزم الأمتعة وهي دائمة التذمر، لا تني تبحث عن پيتيا الذي كان يعمل ما يستطيع لتجنبها وتغار من ناتاشا التي كان يمضي كل وقته بقربها. أما الناحية العلمية، فكانت سونيا وحدها تهتم بها وتهيئ الرزم. لكن سونيا أصبحت منذ بعض الوقت حزينة صامتة. ولقد استفزت رسالة نيكولا التي تحدث فيها عن الأميرة ماري، ملاحظات بهيجة نطقت بها الكونتيسة في حضورها، إذ كانت ترى إصبع الله وراء لقاء الأميرة ونيكولا ابنها. كانت تقول:

ـ لم أبتهج قط عندما تقدم پولكونسكي لخطبة ناتاشا. لكنني رغبت دائماً في أن يتزوج نيكولاي الصغير بالأميرة وعندي شعور مسبق بأن هذا الزواج سوف يتمّ. آه كم سيكون رائعاً!

وكانت سونيا تشعر أن هذه هي الحقيقة وأن الوسيلة الوحيدة التي يستطيع

twitter @baghdad_library

آل روستوف أن يخرجوا بها من أعماق اللجة التي سقطوا فيها هي زواج ابنهم بتلك الوارثة. لكن ذلك كان مؤلماً على نفسها. وعلى الرغم من حزنها بل لعله بسبب حزنها، تعهدت بكل مشاكل الرحيل وحزم الأمتعة حتى أنه لم يعد لديها دقيقة تفكر فيها. وكان الكونت والكونتيسة يعتمدان عليها لإصدار الأوامر اللازمة. أما پيتيا وناتاشا فعلى العكس. لم يغفلا مساعدة ذويهما فحسب، بل كانا كذلك يزعجان ويربكان كل الموجودين في أغلب الأحيان. فالمنزل كله كان طوال النهار يردد صدى جريهما وصراخهما وقهقهاتهما التي ليس لها ما يبررها. كانا يضحكان ويتسليان لا لسبب خاص، بل لأن روحهما مبتهجة ولأن كل ما كان يحدث، كان بالنسبة إليهما سبباً للضحك والانشراح. لقد كان پيتيا مرحاً لأنه أصبح رجلاً بل عملاقاً قوياً (حسب قول كل الناس) وهو الذي غادر المنزل فتى. وكان سعيداً بالعودة إلى منزله، سعيداً بالتفكير في أنه بدلاً من بقائه في بيبلابيا تسيركوف حيث لم يكن له أمل في خوض غمار القتال، سيكون في موسكو حيث المعركة وشيكة الاندفاع. وكان سعيداً أكثر من كل شيء، لأن ناتاشا، التي كان يتبنى كل حالاتها النفسية، على مزاج مرح.

أما ناتاشا، فكانت مبتهجة الآن لأنها بقيت حزينة زمناً طويلاً وأن ما من أحد أصبح يذكرها بموجبات حزنها ولأنها استعادت عافيتها. وكانت منشرحة الصدر كذلك لأنه كان لديها رجل يعجب بها وإعجاب الآخرين بها كان بمثابة الزيت الذي لا غنى عنه لحركة آلتها، وهذا المعجب هو پيتيا. كانا مبتهجين، بصورة خاصة، لأن الحرب أصبحت على أبواب موسكو ولأنهم سوف يقتتلون عند أبوابها وسيوزعون الأسلحة ولأن الناس كلهم يهرعون ويهربون إلى جهة ما وأخيراً لأن شيئاً ما خارقاً قد وقع، وهو الأمر الذي يفتن دائماً وخصوصاً من هم في عمر الشباب.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

يوم السبت في الواحد والثلاثين من شهر آب، بدا كل شيء مقلوباً رأساً على عقب في منزل آل روستوف. كل الأبواب مفتوحة على مصاريعها. وفي الغرف تكدست الصناديق وتناثر القش وورق الحزم وقطع الحبال في كل مكان. وراح القرويون وعبيد الأسرة يروحون ويغدون بخطوات ثقيلة حاملين الأمتعة، وفي الفناء، تزاحمت العربات بعضها محمل ومربوط بالحبال والبعض الآخر ينتظر حمولته.

كانت الخطوات والأصوات ترتفع في كل مكان فالخدم الكثيرون لدى آل روستوف والقرويون الذين جاؤوا مع العربات كانوا يتبادلون النداءات التي أخذت تدوي في الفناء وفي المنزل. وكانت الكونتيسة التي أصيبت بالصداع بسبب الضجة والحركة الدائبة، ممددة في مخدعها الجديد وعلى جبينها كمادات الخل، أما پيتيا فكان غائباً إذ ذهب يزور رفيقاً بغية السعي معه إلى الانتقال من فرق المتطوعين إلى الجيش النظامي. وكانت سونيا في القاعة الكبيرة تشرف على حزم النجف والخزف، وناتاشا جالسة عى الأرض في غرفتها المقلوبة بين الأثواب والشالات المبعثرة تمسك بين يديها ثوباً قديماً من ثياب الرقص بطل زيه، ذلك الذي ارتدته في أول حفلة لها في پيترسبورغ، وتتأمل الأرض ساهمة مفكرة.

كانت تشعر بالخجل إذ تبقى عاطلة دون عمل في المنزل في حين أن كل من فيه مشغول، فراحت تحاول مرات عديدة منذ الصباح أن تجد لنفسها ما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يشغلها لكنها لم تكن ترغب في العمل، لا تعرف ولا تقدر على البدء بشيء دون أن تستغرق فيه بكل روحها وكل قواها. أرادت أن تحل محل سونيا في حزم الخزف لكنها لم تلبث أن تركت هذا العمل لتعود إلى غرفتها وتسوي متاعها الشخصي. لقد تسلت بادئ الأمر بتوزيع أثوابها وأشرطتها على وصيفاتها. ولما بات عليها أن تعود إلى حزم ما تبقى لديها، بدا لها الأمر مزعجاً.

ـ دونياشا يا عزيزتي. سوف تقومين بالرزم؟ نعم؟ نعم، أليس كذلك؟

ولما وعدتها دونياشا بأن تعمل كل شيء، جلست ناتاشا على الأرض وأمسكت بثوبها القديم الخاص بالرقص واستغرقت في ذكرياتها التي لم يكن لها أي دخل على أصوات حديث الخادمات في غرفتهن المجاورة وصوت خطوات سريعة ذاهبة من تلك الغرفة نحو سلم الخدم. نهضت ناتاشا ومضت تطل من النافذة فرأت قافلة كبيرة من الجرحى متوقفة في الشارع.

وكان الخدم والوصيفات والقيّم ومربية الأطفال العجوز والطهاة والسائقون والسيّاس والمرافقون على الباب يتأملون الجرحى.

ألقت ناتاشا منديلاً أبيض على شعرها ونزلت إلى الشارع وهي تمسك المنديل من طرفيه بيدها.

خرجت المدبرة السابقة، مافرا كوزمينيتشنا من بين الجمع المحتشد أمام الباب واقتربت من إحدى العربات المغطاة بطوق فوقه سماط من الجلد، دخلت في حديث مع ضابط شاب، شاحب الوجه، كان ممدداً في داخلها. وتقدمت ناتاشا بضع خطوات دون أن تترك طرفي المنديل وتوقفت مروعة تصغي إلى ما تقوله المدبرة.

سألت مافرا كوزمينيتشنا:

ـ كيف هذا بالله، أليس لك أحد في موسكو؟ إنك ستكون أكثر هدوءاً في مسكن.هنا مثلاً. عندنا. إن السادة راحلون.

www.Maktbah.com

فقال الضابط بصوت ضعيف:

ـ لست أدري إذا كان مسموحاً به. ها هو ذا الرئيس.. سليه.

وأشار إلى طبيب ضخم كان ينزل الشارع على طول خط العربات.

ألقت ناتاشا نظرة مذعورة على الجريح وأسرعت للقاء الطبيب. سألته:

ـ هل نستطيع إيواء الجرحى عندنا؟

ابتسم الطبيب ورفع يده إلى حافة عمرته وقال وهو يغمز بعينيه ويثابر على الابتسامة: ماذا يمكن تقديمه لك من خدمات يا آنسة؟

أعادت ناتاشاسؤالها بهدوء ووجهها وكل مظهرها ينطقان بالجد رغم أنها بقيت ممسكة بطرفي منديلها وأن الماجور كف عن الابتسامة. وبعد أن فكر هذا وكأنه يتساءل عن مدى ما يمكنه إعطاء مثل هذا الإذن، أجابها قائلاً: ولكن بلى. ولم لا؟ يمكن.

أومأت ناتاشا برأسها إشارة خفيفة وعادت مسرعة إلى مافرا كوزمينيتشنا التي كانت منحنية فوق المريض تتحدث معه بحنان. همست ناتاشا في أذنها: يمكن. لقد قال إنه ممكن!

انعطفت العربة التي تحمل الجريح لتدخل في باحة آل روستوف في حين راحت عشرات من العربات الأخرى المتجمعة على طول شارع بوڤارسكايا تدخل أفنية المنازل المجاورة بناء على تدخل سكانها. ولقد ظهر الافتتان على وجه ناتاشا لهذا التماس مع عالم جديد بعيداً عن كل اعتبارات الحياة العادية.

سعت تؤازرها مافرا كوزمينيتشنا إلى أن تدخل إلى الفناء أكبر عدد ممكن من الجرحى. قالت مافرا كوزمينيتشنا:

ـ يجب على أية حال إعلام أبيك.

ـ ولماذا؟ أليس ذلك نفسه؟ ما الفائدة! إننا نستطيع أن نقضي ليلتنا الوحيدة في القاعة. إننا قادرون على منح أجنحتنا كلها للجرحى .

twitter @baghdad_library

ـ لكنك لا تفكرين في الأمر يا آنسة. يجب الحصول على إذن حتى في سبيل التصرف باللواحق والأشياء المتداولة وغرف الخدم.

ـ حسناً، سأمضي للحصول على الإذن.

دخلت ناتاشا مسرعة إلى المنزل ودخلت على أطراف قدميها إلى المخدع الذي كانت تسبح فيه رائحة الخل ونقط «هوفمن».

ـ أماه، هل أنت نائمة؟

فقالت الكونتيسة التي انتفضت لأنها أغفت منذ حين:

ـ آه! كيف أستطيع أن أنام.

ركعت ناتاشا وضغطت وجهها على وجه أمها وقالت:

ـ يا أمي العزيزة. صفحاً، لن أعود إلى مثلها. لقد أيقظتك. إنها مافرا كوزمينيتشنا التي أرسلتني. لقد جاؤوا بضباط جرحى منذ حين. هل تسمحين؟ إنهم لا يعرفون إلى أين يمضون. إنني واثقة بأنك ستسمحين..

وكانت تتحدث مندفعة دون أن تلتقط أنفاسها. فقالت الكونتيسة:

ـ أي ضباط؟ من الذي أتى بهم؟ لست أفهم شيئاً.

انفجرت ناتاشا ضاحكة فابتسمت أمها بدورها.

ـ كنت أعرف أنك ستقولين نعم.. وها أنا ذاهبة لأقولها لهم.

قبّلت ناتاشا أمها ونهضت ثم خرجت.

وفي القاعة، قابلت أباها الذي كان داخلاً يحمل أنباء سيئة. قال ووجهه مكتئب دون عمد:

ـ لقد تأخرنا كثيراً جداً! لقد أغلق النادي ورحل رجال الشرطة.

سألته ناتاشا:

ـ بابا، هل من مانع إذا أنا أدخلت جرحى إلى بيتنا؟

أجابها بلهجة ساهمة:

www.Maktbah.com

ـ بالطبع لا مانع. لكن الأمر لا يتعلق بهذا. إنني أطلب أن نكف عن الاهتمام بالترهات وأن يعمد كل منا إلى العمل لنكون جاهزين كلنا حتى نذهب غداً، غداً منذ الصباح.

كرر الكونت هذا الأمر على رئيس الخدم والخدم. وعاد پيتيا عند الظهر يحمل هو الآخر أنباء.

روى أن الشعب خلال النهار ذهب إلى الكرملين ليتسلح وأنه رغم نشرات روستوبتشين التي زعمت أنه سوف يطلق صرخة النداء قبل يومين أو ثلاثة أيام فقد أقيمت الاستعدادات للانتقال منذ الغد بالسلاح الكامل إلى الجبال الثلاثة حيث ستندلع معركة كبرى.

أخذت الكونتيسة تتأمل وجه ابنها الملتهب بالانفعال بخوف خجول خلال استغراقه في الكلام. كانت تعرف بأنه يكفي أن تقول پيتيا أن لا يذهب إلى تلك المعركة، وهي التي رأت أن تلك الفكرة هي التي تبهجه، حتى تجعله يتحدث مالئاً الدنيا عن الشجاعة والشرف والوطن. سوف ينطق بكل أنواع الحماقات بعناد صبياني ودون أن يتقبل النقض فيضيع كل شيء. لذلك كانت تأمل أن تصبح جاهزة للرحيل قبل نشوب المعركة وأن تصحب ابنها معها بوصفه حاميها والمدافع عنها. وعلى هذا، فإنها لم تعقب على حديث پيتيا بكلمة. ولكن ما إن انتهوا من تناول الطعام حتى أنتحت بالكونت جانباً وتوسلت إليه خلال دموعها السخية أن يذهب، بها بأسرع ما يمكن، في تلك الليلة بالذات إذا كان الرحيل ممكناً. أكدت بالدهاء البريء الخاص بالنساء الذي يصنعه الحب، أنها، وهي التي بقيت حتى ذلك الحين غير آبهة للخطر، ستموت من الخوف إذا لم يرحلوا تلك الليلة بالذات. ولم يكن قولها مجرد خدعة. لم تكن تتظاهر بالخوف بل كانت فريسة خوف حقيقي.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

روت السيدة شوسي التي كانت تقوم بزيارة ابنتها ما رأته قرب مستودع الكحول في شارع مياسنيتسكايا، فزادت مخاوف الكونتيسة.

لم تستطع اجتياز هذا الشارع على قدميها بسبب جماعة السكارى التي كانت تملأه فاستقلت عربة وجاءت عن طريق شارع صغير إلى منزل الكونتيسة. ولقد روى لها الحوذي أن الجمهور يحطم براميل المستودع لأن الأمر ينص على ذلك.

بدأ كل من آل روستوف بعد تناول الطعام، يعمل بسرعة مبعثها الحماسة لإنهاء الرزم قصد إعداد الرحيل. وفجأة اهتم الكونت العجوز بالموضوع بنفسه فلم يكف عن التنقل بين الفناء والمنزل وعلى العكس وهو يزجر رجاله الذين لم يكونوا يسرعون بالقدر الذي يريد وهو الذي يريد أن تضاعف سرعتهم، واهتم پيتيا بالفناء فوضعه تحت أوامره، ولم تعد سونيا تعرف أين تعمل وسط أوامر الكونت المتناقضة؛ وأخذ الخدم يصرخون ويتماحكون بصخب ويركضون عبر الغرف والباحة، بينما اندفعت تعمل بذلك الانكباب الذي تبديه عندما تعمل. ولقد تقبلوا مساعدتها في شؤون الحزم بشيء من التحفظ بادئ الأمر إذ ما كانوا يتوقعون منها أكثر من تفاهات وبالتالي لم يظهروا رغبة في الإصغاء إليها. لكنها أبدت عناداً وطالبت بحرارة أن يصغى إليها وكادت تبكي لإغضائهم عن الاستماع إليها حتى انتهى بهم الأمر إلى تصديقها. ولقد اقتضاها عملها الأول مجهودات عظيمة وأعطاها سلطة: كان ذلك العمل هو

www.Maktbah.com

حزم النجد لأن الكونت كان يمتلك هوايات طائشة إلى جانب نجده العجمية. ولما بدأت ناتاشا العمل، كان في القاعة صندوقان مفتوحان، الأول مملوء حتى حافته بالأواني الخزفية والثاني بالنجود. وكان على المناضد المختلفة كثير من هذه الأواني التي راح الخدم يأتون بها من المدخرات، فكان يجب إعداد صندوق ثالث ذهب الخدم للإتيان به.

قالت ناتاشا: انتظري يا سونيا. أعتقد أننا نستطيع إيداع كل شيء هذين الصندوقين.

أجاب الخازن: مستحيل يا آنسة. لقد حاولنا من قبل.

ـ ولكن لا، انتظر قليلاً.

وبدأت ناتاشا تخرج من الصندوق الأطباق والصحاف الملفوفة بالورق، بسرعة وهي تقول: يجب وضع هذه الأطباق هنا، بين النجود.

فأضاف الخازن:

ـ ولكن النجد وحدها تتطلب ثلاثة صناديق.

انتظر قليلاً وسترى.

وراحت ناتاشا تخرج الأشياء بسرعة وتقول وهي تشير إلى خزف كييـف:

ـ يجب ألّا نضع هذا هنا. ثم التفتت إلى أطباق الخزف من صنع الساكس وتؤكد: هذا، نعم، هذا يمكن وضعه بين النجود.

غمغمت سونيا:

ـ دعي عنك يا ناتاشا، هيا، يمكنهم تدبير الأمور بدونك.

وقال رئيس الخدم: ذلك أنه يا آنسة..

لكن ناتاشا لم تكن لتلين. أفرغت محتويات الصندوق كله وقد قررت أنه لا يجب حمل النجود المستعملة ولا كثيراً من الأواني. ولما أخرجت كل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

شيء، عادت إلى الترتيب. وفي الواقع، بعد أن استبعدت كل ما ليس ثميناً واقتصرت على الأشياء النفيسة، تمكنت أن تضع كل شيء في الصندوقين غير أن غطاء أحد الصناديق امتنع عن الإغلاق فكان يجب إبعاد شيء ما مما بداخل الصندوق. لكن ناتاشا كانت تريد الاحتفاظ بكل ما وقع عليه اختيارها فراحت تفك وتربط وتحزم وتضغط ثم تطلب إلى الخازن وپيتيا الذي سرت إليه عدوى نشاطها، أن يضغطا على جانبي الصندوق في حين راحت من جانبها تبذل مجهوداً يائساً. قالت لها سونيا:

ـ كفى، كفى ناتاشا. إنك على حق، وأنا واثقة بذلك. لكن انزعي على أية حال الرزمة الأخيرة.

فصاحت ناتاشا وهي تزيح بإحدى يديها شعرها المشعث عن وجهها السابح في العرق وتضغط بالأخرى على النجود:

ـ لا أريد. اضغط، پيتيا، اضغط! هيا يا ڤاسيليتش!

ورصفت النجود وأنزل الغطاء فصفقت ناتاشا بيديها وأطلقت وهي في نشوة انتصارها صرخة انتصار ملأت عينيها بالدموع. لكن ذلك لم يلبث إلا فترة إذ لم تلبث حتى استدارت إلى مهمة أخرى وحينئذ، اكتسبت ثقة كبرى. ولم يغضب الكونت عندما قالوا له إن ابنته خالفت تعليماته، وراح الخدم يرجعون إليها لمعرفة ما إذا كانت حمولة العربة كافية وكان يجب ربطها أم لا. وبفضلها أخذ العمل يتقدم فهجروا كل قديم وتافه عديم النفع وجمعوا كل ما هو ثمين إلى أقصى ما يمكن.

مع ذلك، على الرغم من مجهودات الجميع، لم يستطيعوا حزم كل شيء ذلك المساء فنامت الكونتيسة وذهب الكونت بعد أن أجّل الرحيل إلى صباح الغد، إلى مخدعه فنام.

ونامت سونيا وناتاشا في المخدع دون أن تنزعا ثيابهما.

وفي تلك الليلة، جيء بجريح آخر إلى شارع بوڤارسكايا فأدخلته ماڤرا

www.Maktbah.com

كوزمينيتشنا التي كانت قرب الباب الخارجي، إلى مسكن آل روستوف. وكان ذلك الجريح، حسب زعم المدبرة العجوز، شخصاً رفيع المقام إذ جاؤوا به في عربة خفيفة مغطاة بقماش واق خاص. وعلى المقعد، قرب الحوذي، جلس خادم عجوز محترم وتبعت العربة الأنيقة عربة عادية فيها طبيب وجنديان.

قالت العجوز تخاطب الوصيف العجوز: ادخلوا عندنا، ادخلوا أرجوكم. إنّ السادة راحلون والمنزل خال.

فأجاب هذا وهو يزفر: آه! نعم. لم نكن نصدق أن نجيء به حياً. إن لنا منزلنا في موسكو. لكنه بعيد من هنا ومغلق.

قالت ماڤرا كوزمينيتشنا: ولكن ادخلوا عندنا، فلدينا كل ما ينبغي. ادخلوا.

ثم سألت:

ـ يبدو أنه في حالة سيئة؟

ندت عن الوصيف حركة تدل على الأسى وكرر:

ـ لم نكن نصدق أننا سنعيده إلى الصواب! يجب أن نسأل الطبيب.

نزل من مقعده واقترب من العربة. قال الطبيب: ولم لا!

عاد الوصيف إلى العربة الأنيقة فألقى نظرة إلى داخلها وهز رأسه ثم قال للحوذي أن ينعطف ليدخل الفناء ووقف هو بالقرب من ماڤرا كوزمينيتشنا.

صاحت هذه:

ـ آه! يا سيدنا يسوع المسيح!

عرضت ماڤرا كوزمينيتشنا أن ينقل الجريح إلى المنزل الرئيس وقالت:

ـ لن يعترض السادة بشيء.

ولما كان يجب تجنب نقل الجريح عن طريق السلم، فقد حُمل إلى الجناح وسجي في الغرفة التي كانت السيدة شوس تقيم فيها حتى ذلك الحين. كان ذلك الجريح هو الأمير أندريه پولكونسكي.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

كان الطقس خريفياً جميلاً واليوم الأحد فأشرق آخر يوم من أيام موسكو وقرعت الأجراس كلها كالعادة تدعو إلى حضور القداس. وبدا أن ما من أحد عرف حتى ذلك الحين ما ينتظر المدينة.

إلا أن بادرتين اثنتين دلتا فقط على الموقف الذي كانت فيه موسكو: موقف الجماهير وارتفاع الأسعار. ولقد ذهب العمال وخدم المنازل والقرويون منذ الصباح الباكر إلى الجبال الثلاثة على شكل حشد هائل، جاء الموظفون يضخمونه بالانضمام إليه وتلامذة اللاهوت والنبلاء. وبقيت الجمهرة هناك مدة ما دون أن يحضر روستوبتشين. وحينئذ عرف المتجمهرون أن موسكو ستسلم فتفرقوا في الخانات والحانات. وراحت أسعار الأسلحة والذهب والعربات ترتفع أكثر فأكثر في حين تدنت أسعار الأوراق النقدية ولوازم الترف حتى أنه لم يحن الظهر حتى كانت السلع الثمينة، كالأجواخ مثلاً، تباع بنصف الثمن في حين أصبح أضعف حصان قروي يباع بخمسمائة روبل. أما قطع الأثاث والمرايا والبرونز، فكانت تباع بأبخس الأثمان.

لم يشعر آل روستوف في منزلهم القديم المحترم بهذا الانقلاب في الشروط الأولية للحياة إلا قليلاً. فلم يختف خلال الليل أكثر من ثلاثة أشخاص ولم يسرق شيء من المنزل. أما فيما يتعلق بقيم الأشياء، فإنّ العربات الثلاثين التي قدمت من الريف، كانت تمثل ثروة ضخمة يحسد الكثيرون آل روستوف عليها، ثروة تقدر بمبالغ ضخمة. لم يقدموا لهم عروض بيع تلك

www.Maktbah.com

العربات فحسب، بل إنه في السهرة والصباح الأول من أيلول، توارد تابعون وخدم ضباط جرحى وجرحى كذلك أووا في المنازل المجاورة، توارد هؤلاء إلى فناء آل روستوف يتوسلون إلى الخدم أن يمنحوهم عربة كي يتمكنوا من مغادرة المدينة فيها. وكان رئيس خدم آل روستوف الذين كانوا يتصلون به، يرثي للجرحى لكنه كان يرفض بإصرار ويؤكد أنه لا يجرؤ حتى على إبلاغ الخبر إلى سيده. كان كل هؤلاء التعساء جديرين بالاهتمام، ولكن لو أعطيت العربة الأولى فإنه لا يمكن أن يكون هناك سبب للامتناع عن إعطاء ثانية ثم الأخرى حتى عربات السادة نفسها. ثم إن ثلاثين عربة لا يمكن أن تنقذ الجرحى. وفي هذا البلاء العام، لا بد وأن يفكر المرء في نفسه وذويه. وهكذا كان يفكر رئيس الخدم باسم سيده.

صباح اليوم الأول من أيلول، ما إن استيقظ الكونت إيليا أندرييـڤيتش، حتى خرج بخطوات خفيفة من غرفته متحاشياً إيقاظ الكونتيسة التي عادت إلى النوم منذ حين، والتفّ بثوب منزلي من الحرير النفسجي وخرج إلى المرقاة. وكانت العربات المربوطة تنتظر في الفناء وعربات الركوب منتظمة أمام المرقاة. وكان رئيس الخدم واقفاً أمام الباب الخارجي يتكلم مع تابع وضابط شاب، شاحب الوجه، يحمل ذراعه إلى عنقه. ولما وقعت عين رئيس الخدم على سيده، أشار إلى التابع والضابط أن يبتعدا!

قال الكونت وهو يمر بيده على جبهته الصلعاء وينظر إلى الضابط والتابع بعطف وهو يومئ لهما برأسه، والكونت يحب الوجوه الجديدة،

ـ إذن، هل كل شيء جاهز يا ڤاسيليتش؟

ـ يمكن أن تقطر الخيول فوراً يا صاحب السعادة.

ـ حسناً، حسناً جداً! فور ما تستيقظ الكونتيسة، إلى الأمام وعلى بركة الله!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وسأل الضابط: من أنت يا سيدي؟ هل أنت في منزلي؟

اقترب الضابط وأصبح وجهه الشاحب متورداً فجأة:

ـ كونت، أرجوك، بحق السماء، اسمح لي أن أجد زاوية لنفسي في إحدى عرباتك. أنا لا أملك شيئاً ولا فرق عندي إذا حُملت على عربة نقل.

ولم يكد ينتهي من كلامه حتى كان التابع يتقدم بمثل ذلك الالتماس على لسان سيده. فبادر الكونت يقول:

ـ ولكن، بلى، بلى، بالتأكيد! وسأكون سعيداً بذلك، سعيداً جداً! يا ڤاسيليتش، مر أن يُجهز لهما مكان على عربة أو اثنتين، هذه... إنها تماماً ما يلزم.

ولم يلبث الضابط أن عبر عن عرفانه بعبارات مرتبكة حتى أن الكونت اضطر إلى أن يتممها بنفسه. نظر حوله، فإذا الجرحى والتابعون في الفناء وعلى الأبواب ونوافذ الجناح وكلهم ينظرون إلى الكونت وهو يقترب من المرقاة. قال رئيس الخدم: هل تأمر سعادتكم بالانتقال إلى الرواق؟ ما هي أوامركم حول اللوحات.

دخل الكونت مع رئيس الخدم إلى المنزل بعد أن كرر أمره بعدم صرف الجرحى الذين يتقدمون ملتمسين نقلهم وأضاف بصوت خفيض ولهجة غامضة وكأنه يخشى أن يسمعه أحد: على أية حال، يمكن أن نستغني عن بعض الأمتعة.

في الساعة التاسعة، استيقظت الكونتيسة فجاءت ماترينا تيموڤييـڤنا، وصيفتها العجوز التي أصبحت تشغل عندها وظيفة رئيسة «الضابطة» تعلمها أن ماري كارلوڤنا غاضبة جداً وأنه لا يمكن بحال من الأحوال ترك الألبسة الصيفية الخاصة بهذه السيدة. وحاولت الكونتيسة أن تعرف سبب استياء

www.Maktbah.com

السيدة شوسي. فعرفت أن صندوقها قد أنزل من إحدى العربات وأنهم فكوا الحمولة ليفسحوا في المجال للجرحى، الذين سمح الكونت على طيبة نفسه المعهودة، بنقلهم. فاستقدمت الكونتيسة زوجها:

ـ ماذا يحدث يا صديقي، لقد أبلغت أنهم فكوا الأحمال؟

ـ كنت على وشك إخطارك بالأمر يا عزيزتي.. يا عزيزتي الكونتيسة الحبيبة.. لقد جاءني ضابط يسألني بضع عربات لنقل الجرحى. إن كل هذه الأشياء يمكن استبدالها أما هم، كيف نهجرهم، فكري في الأمر!.. صحيح، إننا نحن الذين أدخلنا هؤلاء الضباط إلى بيتنا.. إنك ترين حقاً يا عزيزتي، يخيل إلى عزيزتي أن.. لماذا لا نأخذهم.. ما الذي يضايقنا؟

كان الكونت يتكلم بلهجة وجلة كالعادة عندما تطرح القضية المالية على بساط البحث. وكانت الكونتيسة قد اعتادت هذه اللهجة التي تمثل دائماً مشروعاً يضر بثروة أبنائها، كإقامة ممشى للوحات وحديقة شتوية أو مسرح أو جوقة موسيقية في المنزل. لذلك كانت تعتقد أنها مرغمة على مخالفة زوجها كلما دقت سمعها تلك اللهجة الوجلة.

اتخذت مظهر الضحية الخاضعة وأعلنت: اصغ يا كونت. لقد أوصلتنا إلى درك أصبح فيه لا يمكن أن نطمع في قرش واحد يدفعه لنا شخص ما ثمناً لهذا المنزل. والآن، تريد أن تضيع كل مقتنياتنا وثروة الأولاد. أنت أعلنت بنفسك أن لدينا ما قيمته ألف روبل من الأمتعة المنقولة. إنني يا صديقي، لست موافقة على رأيك مطلقاً. أنت حر في تصرفاتك! إن الدولة هي المكلف بالعناية بالجرحى وهم يعرفون ذلك. أنظر قبالتنا، عند آل لوبوخين. لقد حملوا كل شيء منذ أول أمس. هذا ما يفعله الآخرون. نحن وحدنا الأغبياء. فأشفق على أبنائك أقله إذا كنت لا تشفق عليّ.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قام الكونت بحركة غامضة وغادر الغرفة. سألت ناتاشا التي دخلت بعدهما. أبي، ماذا حدث؟

فأجاب الكونت غاضباً: لا شيء مطلقاً! هذا ليس شأنك.

قالت ناتاشا:

ـ لكنني سمعت كل شيء. لا تريد أمي؟

ـ هذا ليس من شأنك!

فاقتربت ناتاشا من النافذة وهي ساهمة ثم أعلنت:

ـ أبي، إن بيرج آت..

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

لقد بلغ بيرج رتبة زعيم وحاز وسامي ڤلاديمير «وسانت آنّ» وهو صهر آل روستوف. وقد شغل دائماً مهامه الممتعة كمساعد لرئيس المكتب الأول في أركان حرب الفوج الثاني.

وكان يأتي في ذلك الصباح، الأول من أيلول، من جيش موسكو مباشرة.

لم يكن لديه ما يعمله في موسكو. لكنه عندما رأى أن الضباط الآخرين يطلبون مأذونياتهم للذهاب إلى هذه المدينة لأعمال لهم فيها، خيل إليه أنه مرغم على طلب مأذونيته لأعمال عائلية.

وصل بيرج إلى بيت حميه مستقلاً إحدى تلك العربات الأنيقة التي يجرها جوادان قويان، مقلداً بذلك تقليداً متقناً شكل عربة أمير من معارفه. تأمل المركبات التي في الفناء بانتباه ثم أخرج منديله الموشى وهو يصعد المرقاة وعقده.

اقترب بيرج من الردهة إلى القاعة بخطى مرنة سريعة فعانق الكونت وقبّل يد ناتاشا وسونيا وبادر يستعلم عن صحة الكونتيسة. قال الكونت:

ـ إن المجال مجال الاستفسار عن الصحة حقاً! إن عليك أنت أن تخبرنا بما يفعل الجيش. هل سيتراجع أم سيقاتل؟

فأجاب بيرج:

الله وحده قادر على الإجابة عن ذلك يا أبي. إنه وحده الذي سيقرر مصير الوطن. إن الجيش يحترق بالبطولة ولقد اجتمع الرؤساء الآن في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مجلس عسكري على ما يقولون. أما ما سينجم عنه، فما من أحد يعرفه، لكنني أقول لك بصورة خاصة يا أبي إنه ليست هناك كلمات قادرة على وصف بطولة القطعات الروسية والبسالة التي.. التي أظهرتها وبرهنت عليها في معركة السادس والعشرين. أؤكد لك يا أبي (وقرع صدره على طريقة جنرال رآه يروي تفاصيل المعركة، لكن حركته جاءت متأخرة إذ كان عليه أن يجريها فور نطقه بكلمتي الجيش الروسي) أؤكد لك بصراحة أننا معشر الرؤساء، لم نكن في غير حاجة إلى دفع الجنود إلى المعركة بأية وسيلة كانت فحسب، بل كان علينا أن نوقف بالقوة أولئك، أولئك..

ثم صاح بطلاقة: إنها مآثر وبسالة جديرة بالأقدمين. لم يوفر الجنرال باركلي دوتوللي حياته على رأس قطعاته، والشهادة لله. أما فيلفا، فكان متمركزاً على سفح الجبل. ولك أن تتصور الموقف!

وهنا، حكى بيرج كل ما تناهى إلى سمعه من مصادر مختلفة وكانت ناتاشا تصغي إليه دون أن تبارحه بعينيها الشاخصتين إلى وجهه وكأنها تحاول اكتشاف جواب عن سؤال طرحته على نفسها.

صاح بيرج وهو يستدير نحو ناتاشا مجيباً عن نظرتها الملحة بابتسامة وكأنه يحاول استرضاءها: لا يمكن تصور البطولة التي برهن عليها الجيش الروسي، ولا يمكن امتداحه بالقدر الكافي! «إن روسيا ليست في موسكو بل في قلوب أبنائها!» أليس كذلك؟

خرجت الكونتيسة في تلك اللحظة، من المخدع بادية التعب مكتئبة الوجه، فاندفع بيرج نحوها يقبل يدها ويستعلم عن صحتها وهو يهز برأسه ليظهر العناية التي يعلقها عليها ثم جلس إلى جانبها:

نعم يا أماه. إنني أعترف بكل صراحة أن الظروف كئيبة عصيبة بالنسبة

www.Maktbah.com

إلى كل واحد منا، ولكن لماذا كل هذا الاكتئاب؟ ما زال لديك الوقت الكافي للرحيل..

قالت الكونتيسة مخاطبة زوجها:

ـ لست أدري ماذا يفعل رجالنا. لقد أخبروني منذ حين أن ما من شيء جاهز بعد، يجب إيجاد من يعطي الأوامر، وهنا نأسف على ميتانكا. إننا لن نخرج أبداً من هذه المحنة!

أراد الكونت أن يرد لكنه فضل أن يسكت، فنهض وتوجه نحو الباب.

وانتقى بيرج هذه اللحظة بالذات ليخرج منديله ويتمخط فيه، لكنه لما رأى العقدة التي عقدها بنفسه، شرد مفكراً ورفع رأسه بشكل معبر وقال:

ـ بابا، لدي رجاء هام أتوجه به إليك.

قال الكونت وهو يتوقف: آه!

استأنف بيرج بلهجة منطلقة:

ـ لقد مررت منذ حين أمام منزل يوسوبوف فأسرع القيم الذي أعرفه للقائي وقال: «هل تريد شراء شيء؟» فتبعته بفضول ووجدت خزانة للثياب مع طاولة للزينة. وأنت تعرف كم كانت ڤيرا ترغب في مثلها وكم تخاصمنا لهذا السبب (استعاد بيرج رغماً عنه لهجته المرحة لأن تلك الخزانة ذات طاولة الزينة كانت تجعله فخوراً ببيته). إنها تحفة؟ إنها تماماً ما كانت صغيرتي ڤيرا ترغب فيه منذ زمن طويل. وإنني أحب أن أفاجئها بها، وفي الأسفل، في الفناء، عدد من القرويين، فاعطني واحداً أرجوك، وسأجزل له العطاء... و..

قطب الكونت حاجبيه وسعل بعصبية: أطلب إلى الكونتيسة، لست أنا الذي آمر.

اعترض بيرج: إذا كان ذلك صعباً، لن أقول شيئاً. إن مرادي هو مفاجأة ڤيرا فحسب.

twitter @baghdad_library

صاح الكونت العجوز:

ـ آه! ليأخذكم الشيطان جميعاً! نعم، إذهب إلى الشيطان، إلى الشيطان! إن المرء ليفقد صوابه!

وبعدها خرج فانهمرت الدموع من عيني الكونتيسة، فقال بيرج:

ـ نعم يا أماه، إن الأوقات عصيبة!

وخرجت ناتاشا مع أبيها ولكن ذهبت بادئ الأمر تلحق به وكأنها تتابع فكرة ما بصعوبة ثم لم تلبث أن اندفعت إلى السلم.

وعلى المرقاة، كان پيتيا يوزع الأسلحة على الرجال الذين كانوا سيخرجون من موسكو مع القافلة، في حين وقفت العربات الجاهزة في الفناء، وكانت اثنتان منها أنزلت أحمالها وارتقى على إحداهما ضابط شاحب يسنده تابع.

سأل پيتيا أخته:

ـ هل تعرفين السبب؟

أدركت ناتاشا أن پيتيا يريد بذلك أن يسأل عن النقاش بين أبيهما وأمهما فلم تجب.

ـ لأن أبي كان يريد إعطاء العربات كلها للجرحى، لقد روى لي ڤاسيليتش الخبر، إنني من جانبي..

فصاحت ناتاشا وهي تدير نحو أخيها وجهها المغضب:

ـ من جانبي، من جانبي أرى أن هذا بشع مرذول، إنه منفر لدرجة حتى لست أستطيع أن أقوله، من نحن؟ لا أكثر من ألمان، إذن؟

وحرضت ناتاشا بالحسرات التشنجية، ولكي لا تضيع غضبتها هباء، استدارت وصعدت السلم أربعاً فأربع.

كان بيرج جالساً بجانب الكونتيسة يقدم لها تعزيات بنوية محترمة

www.Maktbah.com

والكونت وغليونه في يده، يذرع الغرفة عندما دخلت ناتاشا إلى الغرفة بجلبة ووجهها متقلص من الغضب واندفعت بخطوات سريعة نحو أمها وصرخت:

ـ يا للبشاعة! يا للهول! أيعقل أن تكوني قد أعطيت أوامر مماثلة.

فراح بيرج والكونتيسة، مروعَين أكثر مما هما مذهولين، يتأملانها بينما جمد الكونت قرب النافذة يصيخ السمع.

صاحت ناتاشا: أماه، هذا مستحيل: أنظري إلى الفناء! إنهم يتركونهم..

ـ ماذا بك؟ من يتركون؟ ماذا تريدين؟

ـ لكن الجرحى! كلا: يا أماه، لا يمكن. إن هذا لا اسم له.. يا أمي العزيزة، لست أريد أن أتكلم على هذا النحو، فعذراً يا أمي الحبيبة، ولكن ما حاجتنا إلى ما نحمله، أنظري إلى الفناء يا أماه، انظري!.. إنّ هذا لا يمكن أن يكون!..

وكان الكونت الواقف قرب النافذة يصغي إلى ناتاشا دون أن يدير رأسه وفجأة نخر وهو يدني وجهه من الزجاج..

تأملت الكونتيسة ابنتها وشاهدت انفعالها والعار الذي تحس به ثم السبب الذي من أجله أشاح زوجها بعينيه، فنظرت حولها مشتتة الخاطر ثم اعترضت دون أن تستسلم تماماً: آه! إفعلوا ما تشاؤون! هل تراني أضايق كائناً من كان؟

ـ ماما، يا أمي العزيزة، عذراً!

لكن الكونتيسة دفعت ابنتها واقتربت من زوجها. قالت وهي تخفض عينيها كالمذنبة: يا عزيزي، أعط الأوامر اللازمة.. لم أكن أعرف شيئاً.

فغمغم الكونت مبتهجاً خلال دموعه، وهو يطوق زوجته بذراعيه، الأمر الذي أسعد هذه إذ استطاعت بذلك أن تخفي وجهها الخجل في صدر زوجها:

ـ البيض.. البيض والدرس الذي يعطيه للدجاجة.

سألت ناتاشا: بابا، ماما! يمكن إعطاء الأوامر أليس كذلك؟ يمكن؟..

twitter @baghdad_library

وأضافت: مع ذلك، سوف نحمل أكثر من حاجتنا.

فندت عن الكونت إشارة موافقة فاندفعت ناتاشا، بمثل الطريقة التي كانت تجري فيها عندما كانت تلعب، من القاعة الكبيرة إلى الردهة ومنها إلى السلم الذي يؤدي إلى الفناء.

لم يلبث الخدم أن أحاطوا بها وهم يرفضون تصديق الأوامر الغريبة التي أصدرتها لهم إلا بعد أن يؤيدها الكونت باسم زوجته. كانت تلك الأوامر تنص على وجوب رصف الصناديق كلها في مخازن الأمتعة ووضع العربات كلها رهن إشارة الجرحى. وما إن فهموا، حتى راح الرجال يعملون بحماسة بهيجة. لم يعد الخدم الآن يجدون غرابة فيما يعملون بل خيل إليهم استحالة التصرف على نهج آخر رغم أنّه قبل ربع ساعة لم يكن أحد يدهش لفكرة هجر الجرحى وإنقاذ المتاع بل يعتقد بأنه لا سبيل إلى غير ذلك.

بدأ كل السكان وكأنهم يحاولون تلافي الوقت الذي خسروه، في تهيئة الأمكنة للجرحى الذين كانوا يجرون أنفسهم خارج غرفهم شاحبي الوجوه سعداء ويحيطون بالعربات. ولقد انتشر الخبر في البيوت المجاورة يفيد وجود عربات للنقل فتوارد الجرحى من تلك المنازل إلى فناء منزل آل روستوف. ولقد راح عدد كبير منهم يتوسل إليهم أن يتركوا الأحمال في العربات وأن يسمحوا لهم بالركوب فوق الأحمال فحسب. ولكن ما إن بدأ تفريغ حمولة العربات حتى بات إيقافه متعذراً، إذ كان ترك كل شيء أو نصف الشيء أمراً واحداً. ولقد تناثرت الصناديق المملوءة بالآنية والبرونز واللوحات والمرايا المخرومة بعناية طوال الليلة الماضية في الفناء وكانوا دائماً يجدون مبررات جديدة لإنزال هذه أو تلك من الأحمال للحصول على عربة فارغة جديدة.

عرض المسجل:

www.Maktbah.com

ـ نستطيع أن نحمل أربعة آخرين وإنني أمنح عربتي لهذا الغرض وإلا، أين نضعهم؟

فقالت الكونتيسة: أعطهم العربة التي تحمل حوائجي. وستركب دونياشا معي في عربتي.

وأفرغوا العربة التي تحمل صناديق الكونتيسة وأرسلوا يحملون الجرحى من المنازل البعيدة. وكان السادة والخدم يتنافسون في هذا المضمار. ولقد كانت ناتاشا في حميا انتصارها سعيدة كما لم تسعد من قبل البتة.

أخذ الرجال يقولون وهم يحملون صندوقاً على المرقاة الضيقة لإحدى العربات.

ـ كيف نثبته هنا؟ يجب أقله أن نترك عربة.

فسألت ناتاشا؟ ماذا في هذا الصندوق؟

ـ كتب سيدي الكونت.

ـ دعوها. سوف يهتم ڤاسيليتش بها. لسنا في حاجة إليها.

امتلأت العربة بالركاب وراحوا يتساءلون أين يمكن أن يجلس پيتيا.

فصاحت ناتاشا: سوف يصعد على المقعد أليس كذلك يا پيتيا؟

وكانت سونيا مشغولة مثل انشغال ناتاشا ولكن على عكسها، إذ كانت تنظم الأشياء التي ينزلونها من العربات وتسجلها على لوائح بناء على رغبة الكونتيسة وهي تجتهد في أن تنقل مع ذلك أكبر قدر ممكن من الأمتعة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

وقفت مركبات آل روستوف، في الثانية والنصف بعد الظهر، جاهزة أمام المرقاة وخرجت العربات التي تحمل الجرحى من الفناء واحدة إثر الأخرى.

اجتذبت عربة الأمير أندريه الأنيقة انتباه سونيا في اللحظة التي خرجت إلى المرقاة وكانت في تلك اللحظة منهمكة مع إحدى الخادمات بإعداد مكان مريح للكونتيسة في العربة الكبيرة المريحة الواقفة أمام المرقاة.

سألت سونيا وهي تخرج رأسها من باب المركبة: لمن هذه العربة الأنيقة؟

أجابت الوصيفة: تعرفين يا آنسة؟ إنها لأمير جريح أمضى الليل هنا وسيرتحل معنا.

ـ ولكن من هو؟ ما اسمه؟

تنهدت الوصيفة وقالت: خطيبنا القديم نفسه، الأمير بولكونسكي! يقولون إنه لا أمل في شفائه.

قفزت سونيا من العربة وأسرعت إلى الكونتيسة وكانت هذه قد استعدت للرحيل في شال وقبعة مناسبين، تروح وتجيء متعبة في القاعة، منتظرة كل أفراد العائلة، لكي يجلسوا لفترة قصيرة ويغلقوا الباب ثم يضرعون بالصلاة المألوفة في مثل هذه المناسبات قبل الرحيل. ولم تكن ناتاشا في الغرفة. قالت سونيا:

ـ أماه، إن الأمير أندريه هنا وهو مصاب بجرح قاتل. إنه سيرحل معنا.

www.Maktbah.com

فتحت الكونتيسة عينين مذعورتين وأمسكت بسونيا من ذراعها ثم التفتت حولها وصاحت:

ـ هل ناتاشا؟..

لم يكن لهذا النبأ بالنسبة إلى سونيا كما بالنسبة إلى الكونتيسة إلا معنى واحد للوهلة الأولى. إنهما تعرفان ناتاشا وتفكران برعب في حالتها عندما تطلع على النبأ. أما إشفاقهما على الرجل الذي كانتا رغم ذلك تحبانه كثيراً، فإنه لم يكن يحتل إلا المرتبة الثانية.

كررت سونيا: ما زالت ناتاشا لا تعرف شيئاً. لكنه راحل معنا.

تقولين إن جرحه قاتل؟

فأجابت سونيا بإيماءة من رأسها.

أحاطتها الكونتيسة بذراعيها وراحت تبكي. فكرت وهي تشعر أن كل ما يحدث حينذاك توجهه يد الله التي ظلت غير منظورة حتى تلك اللحظة التي بدأت الآن تتجلى: «إن دروب الرب لا تسبر!».

سألت ناتاشا التي أسرعت في تلك اللحظة محمرة الوجه:

ـ إذن ماما، كل شيء جاهز، ماذا تنتظرون؟

فقالت الكونتيسة:

ـ لا شيء. إذا كنت جاهزة. أمكن لنا أن نرحل.

وانحنت الكونتيسة على حقيبة يدها لتخفي وجهها المنقلب بينما ضمت سونيا ناتاشا إلى صدرها وقبلتها.

نظرت إليها ناتاشا بقلق: ماذا بك؟ هل جرى شيء ما؟

ـ كلا.. لا شيء..

سألت ناتاشا بإدراك مألوف لديها: هناك شيء سيئ بالنسبة إلي؟ ما هو هذا الشيء!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تنهدت سونيا دون أن تجيب. ودخل الكونت وپيتيا والسيدة شوسي ومافرا كوزمينيتشنا وڤاسيليتش إلى القاعة وأغلقوا الباب ثم جلسوا بصمت دون أن ينظر أحدهم إلى أحد مدة بضع ثوان.

وقف الكونت أولاً، وبعد أن أطلق زفرة مسموعة، رسم إشارة الصليب على صدره أمام الأيقونة. فحذا الباقون حذوه ثم ربت الكونت كتف مافرا كوزمينيتشنا وكتف ڤاسيليتش اللذين كانا سيمكثان في موسكو، في حين راح هذان يمسكان بيده ويقبلان كتفه. ربت ظهرهما برفق وهو يغمغم بكلمات غامضة ولكن ممالقة ومغرية. وذهبت الكونتيسة إلى مصلاها حيث وجدتها سونيا راكعة أمام بعض الأيقونات التي تركت هنا وهناك على الجدار بعد أن رزمت الأيقونات الثمينة وحملت معهم كذكريات للأسرة.

وفي الفناء وعلى المرقاة، كان الخدم الذين سيرحلون، المسلحون بالخناجر والسيوف التي وزعها عليهم پيتيا، وقد أدخلوا أكمام سراويلهم في أحذيتهم العالية ولفوا حول خصورهم نطقاً من الجلد أو الصوف، يتبادلون عبارات الوداع مع الذين سيبقون.

وكالعادة عند الرحيل، تبين أن هذا الأمر أو ذاك قد نسي أو أسيء عمله، لذلك فقد بقي الحارسان المسلحان فترة طويلة واقفين على طرفي العربة أمام البابين المفتوحين وفوق مرقاة المركبة بانتظار جلوس الكونتيسة، في حين أن الوصيفات كن يهرعن حاملات الوسائد واللفائف من المنزل إلى المركبة أو العربة الصغرى أو العربة الثالثة.

قالت الكونتيسة: يجب دائماً أن ننسى شيئاً ما. إلهي إنك تعرفين تماماً أنني لا أستطيع الجلوس على هذا الشكل.

فأسرعت دونياشا مستاءة تصرف على أسنانها، إلى «البرلين» الفخمة لتبدل الوسائد من مكانها دون أن تنطق بكلمة. وقال الكونت وهو يهز رأسه:

www.Maktbah.com

كان السائق العجوز «إيـڤيم»، وهو الوحيد الذي تثق به الكونتيسة في ارتحالها، جالساً على مقعده العالي لا يلقي بالاً إلى ما يحدث وراءه. كان يعرف بفضل خبرة ثلاثين عاماً، إنهم لن يقولوا له بمثل هذه السرعة: «إلى الأمام!» وإنه عندما تشرع «البرلين» في الحركة، يجب أن تقف من جديد مرتين أو ثلاث مرات للإتيان بشيء ما منسي وأن الكونتيسة ستخرج رأسها من النافذة لتقول له أن يمشي بهدوء في المنحدرات حباً بالمسيح. كان يعرف كل هذا وينتظر بصبر أكثر من جياده وخصوصاً الأصهب الأيسر «سوكول» الذي لم يكن يفتأ يضرب الأرض بقائمته ويعض على لجامه.

أخيراً، جلس كل في مكانه ورفعوا المرقاة وانصفق الباب ثم أرسلوا يأتون بصندوق صغير آخر، وأخرجت الكونتيسة رأسها وفاهت بكلمات مقدسة. وحينئذ رفع إيـڤيم قبعته ببطء ورسم إشارة الصليب على صدره فاقتدى به السائس والخدم كلهم. وقال إيـڤيم وهو يعيد قبعته على رأسه: «بحراسة الله» ثم صاح: «هو!» فقاد السائس العربة. جذب الجواد الأيمن عنانه وصرت النوابض العالية وتأرجح صندوق المركبة الكبير. وتحفز الخادم المرافق وقفز على المقعد والعربة في سيرها وانتقلت «البرلين» وهي تقرقع من الفناء إلى الشارع المعبّد تتبعها العربات الأخرى المترنحة، ولم يلبث ذلك الرتل أن راح يصعد الشارع. وراح ركاب «البرلين» والعربتين الأخريين يرسمون إشارة الصليب على صدورهم عندما مرت المراكب بالكنيسة المقابلة بينما راح الخدم الذين سيبقون في موسكو يواكبون العربات على الجانبين لفترة ما من الطريق.

لم تشعر ناتاشا بمثل المرح الذي شعرت به في ذلك الحين فجلست في «البرلين» قبالة أمها، تنظر إلى جدران المنازل وهي تمر أمامها، منازل موسكو القديمة هذه التي انقلبت الأوضاع فيها وبات الناس يهجرونها. ومن حين إلى

twitter @baghdad_library

آخر، كانت تميل على الباب لتتأمل ما وراء العربة أو المشهد الذي أمامها، مشهد الرتل الطويل من عربات الجرحى التي تسبقهم. وفي المقدمة تقريباً، كان غطاء عربة الأمير أندريه الأنيقة واضحاً للعيان. وكانت تجهل من يحتل تلكم العربة، لكنها كلما راحت تحصي طول الرتل، كانت تبحث بعينيها عن تلك العربة التي بقيت محافظة على مكانها في المقدمة.

وفي شارع «كودرين» وصلت قوافل أخرى مماثلة لرتل آل روستوف قادمة من نيكيتسكاييا وبريسناييا وجادة بودتوڤينسكي، وعندما بلغت القوافل كلها شارع سادوڤاييا، اضطرت إلى أن تنتظم في صفين.

وبينما هم ينعطفون حول برج سوڤارييف، صاحت ناتاشا فجأة باستغراب تشوبه البهجة وهي التي كانت تتأمل المارة بين راكبي عربات ومشاة: آه! رباه! ماما، سونيا، انظرا، ها هو ذا!

ـ من؟

قالت وهي تزداد انحناء ليتسنى رؤية العملاق الضخم الذي يرتدي معطف السائقين الذي تدل هيئته ومشيته على أنه نبيل متنكر، والذي كان يجتاز في تلك الأثناء برفقة عجوز قصير القامة، صفراوي، أجرد، قوسي البرج:

ـ أنظرا، هذا بيزوخوف، أقسم لكما على أنه هو!

وكررت ناتاشا:

ـ نعم، نعم وأقسم لكما. إنه بيزوخوف في معطف حوذي ومعه عجوز قصير القامة، مضحك. إنني واثقة.

ـ ولكن لا، إنه ليس هو. كيف تقال مثل هذه الحماقات!

صاحت ناتاشا:

ـ أماه، أقدم رأسي للنطع إن لم يكن هو، للحوذي، قف! قف!

لكن الحوذي لم يكن يستطيع الوقوف لأن قوافل أخرى كانت تخرج من

ميشتشانسكايا، فكان السائقون يصيحون طالبين إليهم التقدم كيلا يعرقلوا حركة السير.

وفي الواقع أن آل روستوف كلهم شاهدوا پيار رغم أنه كان أبعد من ذي قبل، أو أقله، رجلاً يشبهه بشكل خارق في معطف حوذي، يمشي على طول الشارع مطرق الرأس صارم الأسارير وإلى جانبه عجوز قصير القامة، أجرد، يشبه الوصيف. ولاحظ العجوز قصير القامة رأس ناتاشا بارزاً من باب العربة فمس باحترام مرفق پيار وقال له شيئاً وهو يشير إلى «البرلين». ولقد بقي پيار فترة قبل أن يستوعب ما يقال له لشدة ما كان مستغرقاً في خواطره. وأخيراً، عندما أدرك الفرض، نظر في الوجهة التي أشار إليها العجوز فعرف ناتاشا على الفور. اندفع مستسلماً لحركته الأولى، متوجهاً نحو العربة. لكنه بعد بضع خطوات، توقف بسبب بعض الذكريات التي كان قد نسيها من قبل بدون شك.

وكان وجه ناتاشا المنحني على الباب يشع بالحبور والبشاشة. صاحت وهي تمد له يدها: يا پيوتر كيريلليتش! تعال هنا! إنك ترى تماماً إننا كشفناك! هذا رائع كيف جرى؟ لماذا هذا الزي؟

فأمسك پيار باليد الممدودة وقبلها بمهارة وهو يسير بجانب العربة (التي تتوقف بالطبع). وسألته الكونتيسة بصوت تظهر فيه الدهشة مشبعة بالإشفاق.

ـ ماذا جرى لك يا كونت؟

قال پيار:

ـ ماذا؟ لا شيء أبداً لا تسأليني.

والتفت إلى ناتاشا التي كانت نظرتها المشعة المرحة، وكان يشعر بها دون أن يرفع عينيه إليها، تحيطه بالفتنة. ـ ماذا تفعل إذن؟ هل تبقى في موسكو؟ فلم يجبها پيار على الفور.

وأخيراً قال بلهجة استفهام:

twitter @baghdad_library

ـ في موسكو؟ نعم، في موسكو. إلى اللقاء.

فقالت ناتاشا: آه! كم آسف لأنني لست رجلاً وإذن لبقيت حتماً معك. سيكون رائعاً! ماما، إذا كنت تسمحين لي بالبقاء سأبقى.

تأمل پيار ناتاشا بنظرة ساهمة وأراد أن يقول شيئاً لكن الكونتيسة قاطعته: يبدو أنك كنت في المعركة؟

فأجاب پيار:

ـ نعم، لقد كنت. وغداً ستنشب أخرى.

فقاطعته ناتاشا هذه المرة:

ـ ولكن ماذا بك يا كونت؟ إن مظهرك غريب جداً.

ـ آه لا تسأليني ولا تستجوبيني عن شيء لأنني لست أفهم شيئاً.. غداً.. كلا، ليس غداً! الوداع، الوداع!

ثم أردف: يا للحظات المروعة!

ثم ابتعد عن العربة ومضى إلى الرصيف.

وبقيت ناتاشا فترة على الباب تتبعه بنظراتها وعلى شفتيها ابتسامة مرحة ودودة يشوبها شيء من السخرية.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

عندما اختفى پيار من منزله منذ يومين كان يسكن الشقة الفارغة التي كان يقطنها بازدييـڤ. وهذا ما حدث:

عندما استيقظ غداة يوم وصوله إلى موسكو ومقابلته مع روستوبتشين بقي پيار فترة طويلة يفكر في المرحلة التي بلغ إليها والغاية التي يريدونها منه. ولما أعلنوا له بين الذين ينتظرون مقابلته، ذلك الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته شعر فجأة بالاضطراب الغامض واليأس اللذين كان ميالاً بطبعه إليهما. حدث نفسه بأنها النهاية الآن وأن كل شيء ليس سوى لبس ودمار وأنه لم يعد هناك حق وباطل وأن المستقبل لن يحمل له شيئاً في طياته وأن موقعه لا مخرج منه. فكان يجلس تارة على كنبته في وضع المثقل وهو يضحك ضحكة مغتصبة ويدمدم بين أسنانه شيئاً وتارة يقف فيقترب من الباب وينظر خلال ثقب المفتاح إلى الردهة ثم يعود بحركة يائسة فيجلس على الكنبة ويمسك بكتاب. دخل رئيس خدمه مرة ثانية يعلمه بأن الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته يرغب بإلحاح في مقابلته ولو لدقيقة واحدة وأضاف أن أرملة بازدييـڤ ترغب قبل أن ترحل إلى الريف في معرفة ما إذا كانت تستطيع ائتمانه على بعض الكتب.

أجاب پيار رئيس خدمه: آه! نعم، فوراً، انتظر.. أو الأحرى لا! قل إنني سأحضر بعد حين.

لكن، لم يكد رئيس الخدم يخرج، حتى تناول پيار قبعته التي كانت ملقاة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

على الطاولة وفرّ من مكتبه من الباب الداخلي. وكان الممشى خالياً فسار فيه پيار حتى السلم فنزل وهو مستغرق في التفكير يضغط جبهته بكلتا يديه حتى بلغ بسطة الدور الأول. وكان البواب واقفاً أمام الباب الرئيسي. ولكن كان هناك سلم آخر قرب البسطة التي وقف عليها يقود إلى المخرج الخلفي. اتخذ طريقه من هنا ونزل إلى الفناء دون أن يراه أحد. وفي الفناء نفسه، في اللحظة التي كاد يجتاز الباب المؤدي إلى الشارع، رآه السائقون الذين وقفوا هناك بعرباتهم وكذلك رآه البواب فخلعوا قبعاتهم. أحس پيار بتلك الأنظار تحدق إليه فأطرق برأسه كالنعامة التي تخفي رأسها في الرمال كيلا يراها أحد وحث خطاه ثم خرج إلى الشارع.

بدا لـپيار أن أكثر الأشياء التي عرضت له ذلك الصباح عجلة، وهو أخذ كتب جوزيف الكسييڤيتش وبعض الأوراق.

استقل أول عربة صادفها وأمر أن يحمل إلى مستنقعات البطريرك «إتيان دوباتريارش» حيث كان منزل بازدييـڤ.

كان ينظر في كل الجهات إلى أرتال العربات التي تخلي موسكو وهو لا يدري كيف يحيد بجسمه الضخم كي يتجنب الانزلاق تحت إحدى العربات الشديدة القدم التي كانت تصر، ويحس بمثل ذلك الإحساس الذي يخامر التلميذ الهارب من مدرسته، فراح يثرثر مع الحوذي وهو مبتهج.

روى له هذا أنهم يوزعون الأسلحة في الكرملين وأنهم سينتقلون غداة اليوم التالي إلى الجبال الثلاثة حيث ستنشب معركة كبرى.

ولما وصل إلى مستنقعات البطريرك، استدل پيار على مسكن بازدييـڤ الذي لم يزره منذ فترة طويلة، واقترب من الباب فلما طرقه، أسرع جيراسيم، ذلك العجوز قصير القامة ذو اللون الأصفر، الأجرد، الذي رآه پيار قبل خمس سنوات مع سيده في تورجوك. سأل پيار. هل من أحد؟

www.Maktbah.com

ـ نظراً إلى الظروف، فقد ارتحلت صوفي دانيلوڤنا مع الأولاد إلى ملكها في تورغوك يا صاحب السعادة.

فقال پيار: سوف أدخل رغم ذلك إذ علي أن أختار الكتب.

ـ على الرحب والسعة. إن أخ فقيدنا، ليتغمده الله برحمته، ماكار الكسييڤيتش قد ظل هنا. لكنه كما تعلم، ضعيف العقل.

وكان پيار يعرف أن ماكار الكسييڤيتش، أخ الفقيد، نصف مجنون مدمن الشراب. فقال وهو يدخل المنزل:

ـ نعم، نعم، أعرف. هيا ولنسرع.

وكان عجوز طويل القامة، أحمر الأنف، مرتدٍ معطفاً منزلياً، عاري القدمين في خفين من المطاط، واقفاً في الردهة فلما شاهد پيار، غمغم ببضع كلمات ومضى إلى الممشى.

قال جيراسيم:

ـ لقد كان عبقرياً. لكنه كما ترى أصبح ضعيف الذكاء. هل ترغب في دخول المكتب؟ (فأومأ پيار موافقاً) لقد وضعوا الأختام وما زالت سليمة ولقد أمرت صوفي دانيلوڤنا أن نسلم الكتب إلى من يأتي من قبلك.

دخل پيار ذلك المكتب المعتم بالذات الذي لم يكن يدخله إلا وهو يرتجف طوال ما لبث المحسن على قيد الحياة. ولم يمس أحد شيئاً منذ وفاة جوزيف الكسييڤيتش، فكان الغبار يعلو كل شيء وكل شيء محزن أكثر من أي وقت مضى.

فتح جيراسيم خلفه نافذة وخرج من الغرفة على أطراف قدميه، فدار پيار في المكتب وجاء إلى الخزانة التي وضعت فيها المخطوطات، فأخذ واحدة منها، كانت فيما مضى من أكثر تراث المحفل قدسية. كانت تلك المخطوطة هي الوقائع الإيكوسية الصحيحة شرحها المحسن وفسرها بخط يده. جلس

twitter @baghdad_library

بيار إلى طاولة العمل المغطاة بالغبار ووضع المخطوطة أمامه وفتحها ثم تصفحها وأخيراً تركها ليستغرق في أفكاره ورأسه بين يديه.

وجاء جيراسيم غير مرة يلقي نظرة مختلسةعلى المكتب فكان في كل مرة يرى بيار على وضعه ذاك. وانقضت ساعتان ونصف ساعة فسمح جيراسيم لنفسه أن يحدث ضوضاء أمام الباب ليجذب انتباه بيار. لكن بيار لم يسمعه.

ـ هل أصرف العربة؟

فأجاب بيار الذي استعاد حواسه ونهض بعزم:

آه نعم.

ثم أضاف وهو يمسك زر ثوب جيراسيم وينحدر على العجوز قصير القامة بنظرة جليلة مشرقة مبللة بالدموع.

ـ إصغ، أصغ. هل تعلم أنهم سوف يقتتلون غداً؟

فأجاب جيراسيم: يقولون ذلك.

ـ أطلب إليك ألّا تقول لأحد من أكون وأعمل ما سأطلبه منك..

قال جيراسيم: تحت أمرك. هل أقدم لك طعاماً.

قال بيار وقد احمرّ وجهه فجأة:

ـ كلا، ليس هذا ما أريده. تدبر لي ثياب قروي ومسدساً فردد جيراسيم بعد أن فكر قليلاً: تحت أمرك.

بقي بيار طوال ذلك النهار معتكفاً في مكتب ذلك المحسن ولقد سمعه جيراسيم يذرع المكتب جيئة وذهاباً بعصبية وهو يحدث نفسه. وفي الليل، نام على سرير نصب خصوصاً له.

لم يدهش جيراسيم الذي شاهد خلال حياته كخادم آخرين أشد غرابة يقيمون في المنزل. بل إنه بدا سعيداً بوجود من يقدم له خدماته. وفي المساء، ودون أن يسأل عما يمكن أن يعمل به، حمل لـبيار معطفاً من ذلك النوع الذي

www.Maktbah.com

يلبسه السائقون وقلنسوة ووعده بتقديم المسدس صباح اليوم التالي. ولقد جاء ماكار الكسييڤيتش مرتين خلال الليل إلى باب المكتب يجر خفيه وينظر إلى پيار باستمالة. لكن ما إن يلتفت پيار إليه، حتى يحتجب بذعر وخوف في ثوبه المنزلي ويبادر إلى الابتعاد. وخرج پيار متشحاً بمعطف الحوذي الذي اشتراه له جيراسيم ونظفه له إلى برج سوخارييـڤ ليشتري مسدساً حينما التقى آل روستوڤ.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

أصدر كوتوزوف الأمر إلى الجيش الروسي بالانثناء عبر موسكو على طريق ريازان في ليل الأول والثاني من أيلول. وفي ذلك الليل، تحركت القطعات الأولى دون أن تتعجل في تلك الظلمة فكانت تتقدم ببطء واتزان. ولكن عند الفجر، عندما اقتربت من جسر دوروغوميلوف على نهر موسكڤا غربي المدينة، وجدت أمامها مجموعات من الناس يتدافعون لعبور الجسر ويتجمعون على الضفة المقابلة، يسدون الشوارع والأزقة ووراءهم قطع لا تحصى من الجنود التي تدفعهم، فاستولى على الجيش اضطراب وقلق لا مبرر لهما. اندفعوا جميعاً إلى الأمام نحو المجازات والقوارب. أما كوتوزوف، فقد أمر بنقله عن طريق دائري من الجانب الآخر من موسكو.

في الساعة العاشرة صباحاً، في الثاني من أيلول، لم يبق في ضاحية دوروغوميلوف إلا المؤخرة. أما السواد الأعظم من الجيش، فكان قد اجتاز موسكڤا وابتعد عن موسكو.

كان ناپليون الذي وصل مع جنوده في تلك الأثناء، إلى جبل بوكلانايا يتأمل المشهد الذي عرض لناظريه. وكان الطقس، منذ السادس والعشرين من آب وحتى الثاني من أيلول، منذ معركة بورودينو وحتى يوم دخول الأعداء موسكو طوال ذلك الأسبوع التاريخي، آية في جمال الجو الخريفي المدهش. فالشمس المنحنية على الأفق، كانت محرقة أكثر منها في الربيع وأشعتها الباهرة المنتشرة في الفضاء تؤلم العيون، والصدور تتمدد ويستنشق الناس

ملء رئاتهم روائح الخريف. والليالي نفسها لطيفة، وفي تلك الليالي الحالكة الحارة، كانت النجوم الذهبية تسقط من السماء فتوقظ الرعب والفرح.

وفي الساعة العاشرة صباحاً، كان اليوم الثاني من أيلول، على مثل البهاء الذي وصفنا.

كان ضياء الصباح سحرياً وموسكو من أعلى جبل بوكلونابيا، تنبسط في الأبعاد بنهرها وحدائقها وكنائسها وتبدو وكأنها تعيش حياة خاصة بها، بقبابها البرّاقة تحت أشعة الشمس كالنجوم.

ولما رأى ناپليون هذه المدينة غريبة البناء الأخاذة، شعر بذلك الفضول المشوب بقليل من الحسد والقلق، الذي يشعر به الناس لمرأى خطوط حياة غريبة تجهلهم. كان واضحاً أن تلك المدينة تعيش حياتها الخاصة بكل ما في هذه الكلمة من قوى. وكانت الدلائل التي لا توصف، الدلائل التي تجعل المرء يفرق بها ولو على البعد، جسداً ميتاً من جسد حي، هذه الدلائل جعلت ناپليون من أعلى جبل بوكلونابيا يشعر بسكان هذه المدينة أشبه بأنفاس هذا الجسد الرحيب الرائع.

إن كل روسي يتأمل موسكو يشعر أنها أمّه. وكل أجنبي ينظر إليها، دون أن يعرف معنى الأمومة فيها، تدهشه رغم تلك الصفة النسوية التي لهذه المدينة، ولقد شعر ناپليون نفسه بذلك.

قال ناپليون وهو يترجل عن جواده: هذه المدينة الآسيوية ذات الكنائس الكثيرة، موسكو المقدسة. ها هي ذي أخيراً، هذه المدينة العتيدة! لقد كان الوقت مناسباً.

وأمر أن ينشر أمامه مخطط موسكو ثم استدعى مترجمة ليلورم ديدڤيل وهو يفكر: «إن مدينة يحتلها العدو تشبه فتاة فقدت عذريتها»، وكان يردد ما قاله في سمولنسك وفي توتشوكوف. ولقد كان يتأمل هذا الجمال الشرقي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الذي تفتح له فجأة ممتداً تحت قدميه وهو يشعر بهذا الشعور. ولقد بدا تحقق ذلك الحلم الذي هدهده منذ زمن طويل، ذلك الحلم الذي بدا له بعيد المنال، نوعاً من الغرابة. فكان في ضياء الصباح الوضاء، ينقل نظره تارة إلى المخطط وطوراً إلى المدينة مدققاً في كل تفصيل، وقد ملأه التأكد من امتلاكها الانفعال والذعر.

كان يقول في سرّه: «ولكن، هل يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ ها هي ذي عند قدمي، تلك العاصمة، تنتظر مصيرها. أين ألكسندر الآن وماذا تراه يفكر؟ يا لها من مدينة غريبة ضخمة رائعة! يا لها من لحظة غريبة وجليلة! وهم، تحت أي ضوء يجب أن أبدو لعيونهم؟». هذا ما كان يفكر فيه وهو يذكر جنوده في نفسه. وألقى نظرة على من حوله وعلى جيشه الذي كان يتقدم بنظام جميل: «ها هي ذي، المكافأة لكل هؤلاء القليلي الإيمان. كلمة واحدة مني، إشارة واحدة، فإذا بها تضيع، مدينة القياصرة القديمة هذه لكن رحمتي على استعداد دائماً لتسبغ على المقهورين، يجب أن أبرهن على شهامة ونفس كبيرة حقيقية..

وفجأة فكر: كلا، يستحيل أن أكون قد بلغت موسكو. مع ذلك، ها هي ذي أمامي، بذهب قبابها وصلبانها الذهبية، حيث تتلاعب أشعة الشمس وترتجف. لكن سأحميها. سوف أطبع كلمات العدالة والرحمة الكبيرة على هذه الأبنية، أبنية البربرية والاستبداد. وأنا أعرف أن ألكسندر سوف يقدر هذا رغم كل شيء. «كان يخيل إلى ناپليون أن المعنى الرئيسي للأحداث الجارية يترجم إلى مبارزة شخصية بينه وبين ألكسندر». ومن أعلى الكرملين، لأن هذا هو الكرملين ولا ريب! سوف أعطيهم القوانين العادلة وسأريهم معنى المدينة الحقيقية. سوف أرغم أجيال أشراف روسيا على أن يذكروا المنتصر عليهم بحب. سأقول لوفود ممثليهم إنني ما أردت الحرب ولا أريدها وإنني

www.Maktbah.com

ما خضتها إلا بسبب سياسة بلاطهم الكاذبة وإنني أحب وأحترم ألكسندر وإنني مستعد لأن أتقبل في موسكو نفسها صلحاً جديراً بي وبشعوبي. إنني لا أريد الحرب بل أريد السلم وراحة كل أتباعي ورفاههم. «ثم إنني أعرف أن حضورهم سوف يلهمني ما يجب أن أقوله لهم وسوف أكلمهم كما أتكلم دائماً: بوضوح وجلال وعظمة. ولكن هل حقيقة أنا في موسكو؟ نعم، إنها هي نفسها!».

قال وهو يلتفت إلى حاشيته: ليأتوا بالأشراف.

فمضى جنرال تتبعه حاشية لامعة بحثاً عن الأشراف.

ومضت ساعتان، فأكل ناپليون ثم اتخذ المكان نفسه على جبل بوكلونايپا بانتظار الوفود. واتخذ الخطاب الذي سيلقى على الأشراف خطوطه الواضحة وأصبح مفعماً بالكرامة والعظمة.

وراحت لهجة الشهامة التي سيتخذها والتي ستخضع موسكو، تخضعه هو نفسه. بدأ يحدد في تفكيره يوم «الاجتماع في قصر القياصرة» حيث سيلتقي كبار السادة الروس مع شخصيات بلاطه الرفيعة وسمى سلفاً الحاكم الذي سيعود انتقاؤه بعطف السكان. ولما علم أن موسكو تضم عدداً من مؤسسات الإحسان فقد قرر أن يغرق هذه المؤسسات بما يغدقه عليها، وكان يفكر في أنه إذا كان في أفريقيا يجب الذهاب إلى الجامع «بالبرنس»، فإنه في موسكو لا بد وأن يظهر محسناً كالقياصرة.

ولكي يكسب عطف الروس نهائياً، قرر ككل فرنسي عاجز عن القيام بأعمال الرفق والحنان دون أن يتذكر «عزيزتي، أمي المسكينة الحنون»، أن يأمر بأن ينقش على مداخل تلك المؤسسات كلها، «مؤسسة مهداة إلى أمي العزيزة» نعم، هذه العبارة وليس «بيت أمي» فحسب. وعاد يفكر مجدداً:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

«ولكن، هل من الممكن أن أكون بلغت موسكو؟ نعم، ها هي ذي أمامي. ولكن لماذا تأخرت وفود المدينة عن المجيء كل هذا الوقت».

في تلك الأثناء، في الصفوف الأخيرة من حاشية الأمبراطور، كان الجنرالات والماريشالات المنشغلون يتناقشون بصوت خفيض. لقد عاد أولئك الذين ذهبوا للإتيان بالوفود بنبأ خلو موسكو من السكان الذين نزحوا جميعاً. وكانت الوجوه ممتقعة ومذعورة. لم يكونوا خائفين من إبلاغ النبأ إلى الأمبراطور فكانوا يتساءلون عن الوسيلة التي سيبلغون الأمر إلى جلالته دون أن يضعوه في ذلك الموقف الحرج الذي يسميه الفرنسيون «مستحق الهزء» قائلين له إنه انتظر الأشراف عبثاً وأن موسكو لم يعد فيها إلا الرعاع من السكارى. كان بعضهم يشير بأن تجمع وفود كيفما اتفق والبعض الآخر يبعدون هذه الفكرة مؤكدين وجوب تهيئة الأمبراطور بحذر وحذق لمعرفة الحقيقة.

قال أولئك السادة من حاشيته: يجب إنهاء الخبر رغم كل شيء. ولكن أيها السادة..

كان الموقف يزداد صعوبة لأن نابليون المستغرق في خططه المتعلقة بعظمة النفس، كان يروح ويجيء متذرعاً بالصبر أمام مخططه المنشور، يبتسم ابتسامة محمومة مبتهجة، ويرفع بين الحين والحين يده إلى طرف قلنسوة أمام عينيه ناظراً إلى طريق موسكو.

وكان الأتباع من رجال البلاط يرددون وهم يهزون أكتافهم دون أن يقرروا النطق بتلك الكلمة الرهيبة التي تحوم على شفاههم: يستحق الهزء:

ـ ولكن هذا مستحيل..

شعر الأمبراطور الذي أتعبه الانتظار، في تلك الأثناء، بإحساس الممثل الهزلي الذي تفرد به أن اللحظة الحاسمة قد طالت أكثر مما ينبغي فبدأ يفقد

www.Maktbah.com

جلاله وأومأ بيده. وعندئذ دوى قصف مدفع ليعطي الإشارة إلى القطعات التي كانت تحيط بموسكو من كل الجهات، فلم تلبث هذه أن تحركت نحو مداخل المدينة: تغير، كالوغا، دوروغوميلوڤ مستحثة خطاها، يسبق بعضها بعضاً أثناء المسير، بين مشاة وفرسان وراحت تتقدم سحابة من الغبار وهي تطلق هتافات مدوية.

جرفت حماسة الجنود ناپليون فبلغ معهم مدخل دوروغوميلوڤ. لكنه هناك، أمر بالوقوف وترجّل عن جواده وراح يتنزه على طول حاجز «كوليج دولاشامبر» وهو لا يزال بانتظار الوفود.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العشرون

كانت موسكو خالية إلّا من بعض السكان طبعاً، في تلك الأثناء، بنسبة واحد إلى خمسين من مجموع السكان العاديين. لكن المدينة كانت كخليّة نذرت للموت برحيل ملكتها.

والواقع أن مثل هذه الخلية تعتبر محرومة من الحياة رغم ما تبدو أنها حافلة بالنشاط للوهلة الأولى كأية خلية.

فالنحل يحوم حولها تحت أشعة الشمس الدافئة حوماً مرحاً يشبه حومه حول خلية حية، ورائحة العسل تفوح من مسافة بعيدة ويرى الناظر النحل يخرج منها. ولكن يكفي مجرد المراقبة لمعرفة أن الحياة مفقودة في تلك الخلية. إن النحل لا يحوم حول الخلايا الحية. بل إن هذه الرائحة نفسها والطنين ليس إياه. فإذا ضرب بعضهم خلية مريضة، فإنه بدلاً من الجواب الفوري الإجماعي الذي يتمثل بانطلاق بضع عشرات الألوف من الحشرات في حالة غليان مشرعة حماتها، تضرب بأجنحتها بجنون محدثة صخب الحياة الشديد، لا ترد الخلية إلا بدندنات منعزلة يتردد صداها في بعض الخلايا الفارغة.

لا يشعر المرء عند دخوله بالرائحة المألوفة، الرائحة الكحولية العطرية، رائحة العسل، والسم، ولا يشعر بالنفحات الفاترة التي تملأ المكان المأهول، بل إن رائحة العسل تمتزج برائحة الفراغ والعفن. ولا يصبح الدخول ممنوعاً من قبل حارسات على استعداد للتضحية بأنفسهن وقد شرعن مؤخراتهن

www.Maktbah.com

استعداداً للنزال ولا تُسمع الضجة اللينة للعمل الناشط الذي يشبه الماء في غليانه ولكن حركات غير منظمة، مبعثرة، حركات الفوضى، والذباب الأسود يدخل ويخرج، وهذا الذباب الماكر، ذو الشكل الطويل، المنغمس كله بالعسل، هو سلاب الخلية يهرب حالما يُدفع. أما من قبل، فالعاملات وحدها كانت ترى داخلة بحملها لتخرج خاوية، بينما تذهب الآن مع أسلابها. ويفتح مربي النحل الكوة السفلى وينظر إلى القسم الأسفل من الخلية. وبدلاً من العنقود المألوف من النحل الأدكن الذي يتدلى حتى السطح الأسفل وقد تشبثت النحلة بأختها وراحت تفرز بنشاط شمعها في طنين لا ينقطع. يرى عاملات منهكات خائرات تائهات من جانب إلى آخر، مبعثرات في الأسفل وعلى الجوانب.

وبدلاً من الأرض المطلية بالعبكر المكنوسة بعناية بضربات الأجنحة العنيدة، تناثرت بقع من الشمع في الأسفل وعسل النحل نصف الميت الذي ما زال يحرك أطرافه و«جثث» نحل نافق لم يرفع بعد.

ويفتح مربي النحل بعدئذ الكوة العليا وينظر إلى «رأس» الخلية. وبدلاً من الشهادة الممتنعة التي تحتضن البيض والصفوف المتراصة من النحل، يرى هندسة الأقراص الفنية الحاذقة، لكنها تكون محرومة من ذلك المظهر البتولي الذي كان لها من قبل. فكل شيء مهجور ومدنس، والذباب الأسود، سلاب الخلية قد تسلل بمهارة بين العاملات في حين أن هذه باتت متراخية نحيلة فاشلة، تتيه من هنا إلى هناك أشبه بعجائز ضعيفات، دون أن تتعرض للنهب أو تأبه لشيء وقد فقدت طعم الحياة.

والذكور وذباب البقر وضروب الفراش تتصادم وهي تحوم على الجنبات. وفي وجهة ما، بين الأقراص المليئة بالبيض الفاسد والعسل،

twitter @baghdad_library

يُلاحظ في حركات فجائية طنين غاضب، وفي مكان آخر، نحلتان عادت بهما غريزة العمل إلى تنظيف عشهما، فراحتا تسعيان جهد طاقتهما لطرح جثث عاملة أو ذكر خارج الخلية دون أن تدركا ما هما فاعلتان. وفي جهة أخرى نحلتان هرمتان تقتتلان بتراخ أو تنظفان جسديهما أو تطعم إحداهما الأخرى دون أن يعرف ما إذا كان نشاطهما ودياً أو عدائياً.

وفي زاوية أخرى كتلة من النحل يسحق بعضها بعضاً، تهاجم ضحية ما وتضربها وتخنقها فتسقط الضحية القتيل ببطء خفيفة كالفقاعة على كوم الجثث. ويقلب المربي قرصي الوسط ليرى العش. وبدلاً من ألوف النحل المتساند ظهراً إلى ظهر، في دائرة سوداء، المقيم هناك لمراقبة سر النقف، يرى حشرات كئيبة محذرة لا تكاد تبلغ بضع مئات وهي في حالة أقرب إلى الموت. فالنحل كله ميت تقريباً، يجهل أن الكنز الذي يحرسه لم يعد له وجود، تفوح منه رائحة عفنة، باستثناء البعض الذي يتحرك ويطير بضعف ليقع في يد المربي وقد بلغ من ضعفه أنه لا يفقد الحياة إذا لسعه. أما البقية الباقية، فكلها ميت، تسقط إلى الأسفل أشبه بإسقاط السمك. وحينئذ، يعيد المربي الكوة كما كانت ويشير إلى الخلية بالحكك ثم يتخير اللحظة المناسبة لإخراج الثول وإحراقه.

هكذا كانت موسكو خالية بينما كان ناپليون المتعب القلق المقطب حاجبيه، يروح ويجيء عند حاجز «كوليج دولاشامبر» منتظراً الوفود، وهو أمر لا يتعدى مجرد مظهر تقليدي، لكنه لا بد منه في رأي ناپليون.

وكان بعض الناس، في مختلف أحياء المدينة، يروحون ويجيئون عاجزين عن قصد معين، تحركهم عادات قديمة، لا يعرفون ما يفعلون.

ولما جاؤوا يعلمون ناپليون بالاحتياطات اللازمة، أن موسكو خالية،

www.Maktbah.com

تأمل حامل هذا النبأ بعين ملؤها الغضب ثم استدار وعاد إلى نزهته الصامتة. وأخيراً قال: ليأتوني بعربتي.

صعد إليها مع المساعد العسكري المنوب ودخل الضاحية وهو يردد في نفسه: «موسكو خالية! يا للحدث الذي لا يصدق!».

لم يدخل المدينة بل توقف في خان في ضاحية دوروغوميلوف.

لقد أخفقت المفاجأة المسرحية!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي والعشرون

ابتداء من الساعة الثانية صباحاً اجتازت قطعاتنا موسكو تجرّ وراءها، حتى بعد الظهر، المبطئين والجرحى. وحدث زحام كبير جداً على جسور پيير، موسكـڤا، وإياووزا، طوال فترة مسير الجيش.

وبينما انقسمت القطعات إلى شطرين حول الكرملين تجمعت عند جسري موسكـڤا وپيير، كان عدد لا يستهان به من الجنود ينتهزون فرصة التوقف والفوضى ليعودوا على أعقابهم وليتسللوا خلسة وبصمت على طول كنيسة «بازيل القديس» الكبرى وليصعدوا عن طريق باب بوروڤيتسكي إلى الساحة الحمراء مدفوعين بحاسة خفية، محدثين أنفسهم أن النهب هنا أسهل منه في أي مكان آخر. اجتاحت هذه الجماعة جوستينيّي دفور من كل المنافذ المؤدية إليه كما هي العادة أيام البيع بأثمان زهيدة. لكن أصوات الباعة المتجولين والمنادين الودودة المغرية لم تعد تردد فيه. ولقد حل محل الجمهور المرقش من المشتريات جنود في أزيائهم أو معاطفهم، غير مسلحين، يدخلون الأروقة بأيد فارغة ليخرجوا منها محملين بالأسلاب. وكان عدد من التجار والمستخدمين المذعورين، وكانوا قلة، يجولون بين هؤلاء الجنود، يفتحون دكاكينهم أو يغلقونها، محاولين بمساعدة الحمالين، أن يضعوا بضاعتهم في مأمن. وعلى ساحة جوستينيّي دفور، راح قارعو الطبول يطلقون النداء إلى الصفوف. لكن دوي الطبل كان بدلاً من أن يجمع الجنود السارقين، يحثهم على الابتعاد أكثر فأكثر. ولم يلبث أن بدا بين العسكريين الذين اجتاحوا

www.Maktbah.com

الدكاكين والممرات أشخاص في معاطف رمادية ذوو رؤوس حليقة. وراح ضابطان، أحدهما يتقلد وشاحاً فوق بزته ويمتطي صهوة جواد قصير القوائم هزيل والآخر يرتدي معطفاً طويلاً يصل إلى قدميه، يتحدثان فيما بينهما عند زاوية ايليينكا حيث توقفا. وجاء ثالث يلحق بهما على جواده.

ـ لقد أصدر الجنرال الأمر بطردهم جميعاً بأي ثمن فوراً. هذا أمر لا يوصف! لقد تفرق نصف الجيش.

وصرخ منادياً ثلاثة من الجنود المشاة تسللوا تحت عينيه إلى الأروقة دون أسلحة وقد حسروا أطراف معاطفهم:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ وأنتم يا هؤلاء؟ قفوا، أسافل!

أجاب الضابط الأول:

ـ حاول أن توقفهم! لم تعد هناك وسيلة لإيقافهم! يجب أن نسرع الخطى حتى يبقى الباقون منتظمين في صفوفهم، هذا كل شيء!

ـ كيف نتقدم؟ لقد توقفوا هناك وهم متجمهرون على الجسر لا يستطيعون التقدم أكثر من ذلك. هل ترى يجب وضع سلسلة لمنع الصفوف الخلفية من التشرذم؟

صاح الضابط الكبير: نعم، اذهب إلى هناك. طاردوهم جميعاً!

ترجل متقلد الوشاح واستدعى قارع طبل ثم دخل معه تحت الأروقة فاختفى بعض الجنود فوراً. وتقدم تاجر ذو وجنتين حمراوين تغطي البثور ما حول الأنف وعلى وجهه تعبير حسابي لا يتزعزع، من الضابط مسرعاً وهو يلوح بيديه بتكلف وقال: يا صاحب النبالة، امنحني، أرجوك، حمايتك. لن ندقق كثيراً، إننا في خدمتك. إذا كنت ترغب في جوخ أخرجت لك منه ما تريد، قطعتين أقله لرجل نبيل. إنه في خدمتك لأننا ندرك الأشياء تماماً. ولكن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

هذا، ما هذا؟ إنه سلب! ارحمنا! تفضل بوضع حرس حتى نستطيع إغلاق متاجرنا.

ووصل عدد آخر من الباعة يحيط بالضابط. قال أحدهم، وهو نحيل، ذو وجه صارم، يخاطب زميله: إيه! إنك تصرخ ولا تقول شيئاً. عندما يقطع رأس إنسان يجب ألّا يبكي شعره.

ثم التفت نصف التفاتة نحو الضابط وقام بإشارة سريعة من يده وتابع:

ـ انتق ما تشاء، خذ ما تشتهي.

فقال البائع الأول:

ـ أنت يا إيـڤان ڤيدوروڤيتش، إنك تتكلم على هواك. تعال أرجوك يا صاحب النبالة.

وصاح البائع الهزيل: كيف أتحدث على هواي! إن لدي في دكاكيني الثلاثة ما قيمته ثلاثمائة ألف روبل من البضائع فكيف أحتفظ بها إذا كان الجيش راحلاً؟ إننا نعرفه، الشعب. «إن اليد لا تستطيع شيئاً ضد قوة الله».

تابع البائع الأول وهو ينحني بالتحيات: أرجوك، يا صاحب النبالة.

وكان الضابط متردداً ووجهه بكل تقاطيعه ينطق بتردده. وفجأة، صاح وهو يدخل تحت الأروقة بخطى حثيثة: سيان عندي، بعد كل شيء!

كانوا يتخاصمون ويتبادلون الشتائم في حانوت مفتوح عندما اقترب الضابط منه. وكان رجل ذو معطف رمادي ورأس حليق يخرج من الحانوت بعنف مطروداً.

انحنى ذلك الرجل حتى انطوى وتسلل بين البائع والضابط، وانهال الضابط على الجنود الذين كانوا في الحانوت. ولكن، في تلك اللحظة، علت صرخات مروعة من حناجر جمهور غفير على جسر موسكـڤا فعاد الضابط مسرعاً إلى الساحة. سأل زميله: ماذا هناك؟ ماذا جرى؟

www.Maktbah.com

لكن هذا كان يركض صوب الصيحات على طول كنيسة «بازيل القديس» الكبرى.

امتطى الضابط جواده ولحق به، فلما وصل إلى الجسر، شاهد مدفعين انتزعا من عجلاتهما وجنوداً مشاة سائرين وعربات نقل مقلوبة ووجوهاً مذعورة وجنوداً يتقهقرون. وبالقرب من المدفعين وقفت عربة يقطرها حصانان ووراء العربة، ربطوا أربعة كلاب صيد أحدهما لصق الآخر وعلى العربة جبل من الأمتعة قبعت فوقه، على الذروة، امرأة جلست إلى جانب كرسي أطفال وقدماها في الخواء تطلق صرخات ثاقبة. وروى رفاق الضابط له أن كل تلك الصيحات سببها أمر أصدره الجنرال إيرمولوف، ذلك أنه عندما علم أن الجنود ينهبون الحوانيت وأن السكان متجمهرون قرب الجسر، أمر بأن تنزع المدافع من عجلات القطر وأن تتخذ الاستعدادات لإطلاق القذائف على الجسر، وحينئذ راحت الجماهير تقلب العربات وتتدافع يسحق بعضها بعضاً وتزمجر لكنها أخلت الجسر فتمكّن الجيش أن يواصل تقدمه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني والعشرون

كان كل شيء مقفراً في وسط موسكو، في تلك الأثناء، وتكاد تكون الشوارع خالية، وأبواب المنازل والدكاكين مقفلة، وحول المشارب، هنا وهناك، ترتفع بعض الأصوات وبعض أغاني السكارى، فلا عربة واحدة ومن النادر أن تردد خطى عابر سبيل. وفي بوڤارسكايا الفارغة تماماً الصامتة كان فناء منزل آل روستوف الرحب يشهد تناثر القش والأرواث دون أن يضم نفساً حية. وفي ذلك المنزل الذي أبقيت فيه كل ثروة أصحابه، لم يقم غير شخصين في القاعة الكبيرة هما البواب إينياس والخادم الصغير ميشكا حفيد ڤاسيليتش الذي بقي في موسكو مع جده، ولقد رفع ميشكا غطاء الأرغن وراح يعزف بإصبع واحدة بينما وقف البواب أمام مرآة كبيرة واضعاً يديه على وركيه وهو يبتسم ابتسامة بهيجة.

صاح ميشكا الذي راح فجأة يضرب أصابع المعزف بكلتا يديه:

ـ أنظر يا عم إينياس! أنا أعرف كيف أعزف، أليس كذلك؟

فأجاب إينياس وقد سرّه أن يرى على وجهه في المرآة، ابتسامة تزداد إشراقاً: أصدقك!

وقالت مافرا كوزمينيتشنا من ورائهما وقد دخلت خلسة:

ـ ألا تخجلان! حقاً يجب أن تخجلا! وهذا المنفوخ الضخم الذي يقهقه! هذا ما أنتما صالحان له! في حين أن كل شيء ينبغي أن ينظم وڤاسيليتش لا يستطيع الوقوف على قدميه! انتظرا قليلاً!

www.Maktbah.com

توقف إينياس عن الابتسام وراح يسوي نطاقه وهو يخفض عينيه مذعوراً وخرج من الغرفة. وقال الفتى الصغير:

ـ أيتها العمة العزيزة سأعزف برفق أكثر.

فصاحت مافرا كوزمينيتشنا وهي ترفع على الفتى يداً مهددة:

ـ وسأذيقك «برفق» ما تستحق، يا فاجر! اذهب وأعد السماور.

مسحت مافرا كوزمينيتشنا الغبار وأغلقت غطاء المعزف ثم خرجت من القاعة وهي تزفر زفرة عميقة ثم أغلقت الباب بالمفتاح.

ولما صارت في الفناء، راحت مافرا كوزمينيتشنا تفكر: أين يجب عليها الذهاب الآن؟ أتذهب لاحتساء الشاي مع ڤاسيليتش في الجناح أم ترتب الأشياء التي لم تنظم بعد في مخزن الأمتعة؟

في سكون الشارع، ارتفعت خطوات سريعة ثم توقفت أمام باب الفناء الصغير وراح الرتاج يصل تحت يد تعالجه لتفتحه.

اقتربت مافرا كوزمينيتشنا من الباب: من تريد؟

ـ الكونت، الكونت إيليا أندرييـڤيتش روستوف.

ـ وأنت، من أنت؟

فأجاب الصوت الروسي المستحب: إنني ضابط في حاجة إلى رؤيته.

فتحت مافرا كوزمينيتشنا الباب فدخل الفناء ضابط شاب في حوالى الثامنة عشرة من العمر، مستدير الوجه، تذكر تقاطيعه بتقاطيع آل روستوف.

قالت مافرا كوزمينيتشنا بلهجة ودودة:

ـ لقد ذهبوا جميعاً أيها السيد العزيز، لقد رحل السادة أمس مساء.

لعق الضابط الشاب بلسانه وهو واقف قرب الباب وتردد لا يدري أيدخل أم يرحل. صاح: يا له من أمر مؤسف! كان عليّ أن أحضر بالأمس... آه! كم هو مؤسف!..

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خلال ذلك، كانت مافرا كوزمينيتشنا تتأمل بانتباه مفعم بالعطف، ذلك الشاب الذي تذكرها تقاطيع وجهه بأسرة روستوف، كان معطفه خلقاً وحذاءاه مثنيين سألته:

ـ ولأي سبب كنت تريد رؤية الكونت؟

فقال الضابط الشاب غاضباً وهو يقترب من الباب استعداداً للخروج:

ـ فات الأوان.. ولا حيلة بالأمر!

ثم توقف وهو في حيرة ثم قال فجأة:

ـ ذلك أنني من أقارب الكونت وكان دائماً جم العطف عليّ. وكما ترين.

ـ وتأمل معطفه وحذاءه بابتسامة مرحة طيبة، لقد بليت كل هذه حتى فنيت ولست أملك شيئاً. لذلك أردت أن أسأل الكونت..

لم تدعه مافرا كوزمينيتشنا ينهي جملته وقالت: انتظر دقيقة صغيرة يا سيدي الطيب، دقيقة صغيرة.

وما إن تخلى الضابط الشاب عن رتاج الباب حتى استدارت مافرا كوزمينيتشنا وذهبت بخطوات العجوز السريعة إلى الفناء الخلفي حيث يقع مسكنها.

وبينما كانت مافرا كوزمينيتشنا مسرعة إلى غرفتها، راح الضابط، مطرق الرأس، متأملاً حذاءيه الممزقين، يروح ويجيء في الفناء وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة: «كم هو مؤسف ألّا أجد عمي، ولكن يا لها من امرأة باسلة! ترى إلى أين ذهبت؟ وددت الآن لو أعلم في أي شارع أسير لألحق بفيلقي الذي يجب أن يكون الآن قريباً من روجوجسكاييا ـ حاجز يقع شرقي موسكو ـ».

ظهرت مافرا كوزمينيتشنا عند إحدى زوايا الفناء وعلى أساريرها مسحة من الذعر المشوب بالعزم الثابت، تمسك بيدها منديلاً معقوداً ذا مربعات. ولما أصبحت على قيد خطوات من الضابط، فكّت المنديل وأخرجت منه

www.Maktbah.com

ورقة نقدية بيضاء من ذات الخمسة والعشرين روبلاً مدتها للضابط الشاب برشاقة:

ـ لو أن سعادته كان هنا، بالطبع، كما لقريبه.. وإذن، علني أستطيع.. الآن..

لم تكن مافرا كوزمينيتشنا، في خجلها الشديد، تعرف ماذا تقول. لكن الشاب، دون أن يعترض ودون أن يتعجل، أخذ الورقة النقدية وشكر العجوز، فكررت هذه معتذرة:

ـ لو أن الكونت كان هنا.. ليحفظك الله يا سيدي الطيب.

وتابعت وهي تنحني وترافقه إلى الباب:

ـ ليحفظك الله.

أخذ الشاب يبتسم وكأنه يهزأ من نفسه، ويهز رأسه وانطلق بما يشبه الركض، خلال الشوارع المقفرة ليلحق بفيلقه.

وبقيت مافرا كوزمينيتشنا فترة طويلة أمام الباب المغلق والدموع ملء محجريها، وهي تهز رأسها مفكرة وقد استبدت بها موجة من العطف والحنان تجاه الضابط المجهول الشاب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والعشرون

في شارع فارفاركا في منزل قيد البناء وكانت الطبقة السفلى منه تحوي مشرباً ارتفعت فيه الصيحات وأغاني السكارى. كان اثنا عشر عاملاً يجلسون على المقاعد حول طاولة في غرفة قذرة وقد نضحت وجوههم بالعرق واعتكرت عيونهم، فراحوا وهم في حالة سكرهم الشديد، يفتحون أفواهاً عريضة ويرفعون عقائرهم بالغناء. كانوا يغنون دون مطابقة في الأصوات، بمجهود ليس بدافع الرغبة في الغناء، بل ليبرهنوا على أنهم سكارى تلذذوا بالطعام والشراب.

وكان الواقف الوحيد بينهم، فتى عملاقاً أشقر يرتدي رداء عريضاً أزرق. وكان وجهه ذو الأنف الدقيق، قابلاً للتحلي بصفات الجمال لولا شفتاه المنقبضتان وحاجباه المقطبان وعيناه العكرتان. كان متسلطاً على المغنين، يعتقد بوضوح أنه شخص ما، فيؤرجح فوق الرؤوس بحركة خرقاء جليلة، ذراعه التي شمر عنها كمّه حتى المرفق، وأصابعه القذرة التي كان يباعد بينها على أفضل ما يستطيع. وكان كمّ ردائه يسقط دائماً فيشمره الفتى دون كلال بيده اليسرى وكأن بقاء ذراعه البيضاء المعرقة عارية أمر ذو أهمية. وفي وسط الأغنية، ترددت عند المدخل جلبة مماحكة فأشار الفتى العملاق بيده وصاح بصوت آمر: كفى. معركة أيها الرفاق!

ودون أن يرخي كمّ ردائه، اندفع نحو المرقاة.

اندفع العمال وراءه. لقد جاء العمال ذلك الصباح إلى المشرب تحت

www.Maktbah.com

قيادة العملاق حاملين جلوداً من المعمل إلى الخمار ثمن شرابهم. ولما ارتفع صخبهم وضجيجهم اعتقد حدادون في معمل قريب للحدادة أن الحانة معرضة للنهب فأرادوا الدخول إليها بالقوة.

وكانوا عند المرقاة يتبادلون الكلمات، والخمار الذي يدافع عن بابه، مشتبك مع حداد، في اللحظة التي ظهر فيها العمال. فراح الحداد، بعد أن أفلت من يد الخمار، يسقط على الأرض ورأسه تسبق جسمه.

وهجم أحد رفاقه على الباب وأطبق بساعديه على جسد الخمار.

وضرب الفتى ذو الكم المشمر حداداً على ملء وجهه، راح يسعى للدخول وزمجر: أيها الرفاق! إنهم يضربوننا!

وفي تلك اللحظة، وقف الحداد الأول وراح يمر بأصابعه على وجه المدمى وصرخ بصوت أليم:

ـ الغوث! إلى القاتل! إنهم يقتلوننا! النجدة أيها الرفاق!

ونبحت امرأة كانت خارجة من بيت مجاور: أوه! يا إلهي لقد ضربوا رجلاً حتى الموت!

وأحاط جمع من الناس بالحداد ذي الوجه المغطى بالدم. قال صوت يخاطب الخمار: ألا يكفيك أنك تسلب الفقراء وأن تنزع عنهم حتى قميصهم، فأصبحت الآن تطمع في جلودهم؟ أيها اللص!

وقف الفتى العملاق على المرقاة وراح ينقل أنظاره بين الخمار والحداد فترة وكأنه يفكر في أي من الجانبين ينحاز إليه وفجأة صرخ بالخمار: يا قاتل! أوثقوه أيها الرفاق!

صرخ الخمار وهو يدفع الذين ألقوا بأنفسهم عليه وينزع قلنسوته بحركة عنيفة فيضرب بها الأرض؟

ـ هن، يوثقونني أنا!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكأن تلك الحركة كانت ذات معنى متوعد إذ ترك العمال الخمار وتوقفوا مترددين؛ صاح الخمار وهو يرفع قلنسوته:

ـ أنا أعرفه، القانون، أعرفه معرفة عميقة. سأذهب إلى مديرية الشرطة. آه! هل تظن بأنني لن أذهب؟ ليس من حق أحد الآن أن يقوم بأعمال السلب!

وردد الخمار والفتى العملاق على التعاقب وذهبا معاً على طول الشارع: هيا بنا إذا أردت! هيا بنا.. إذا أردت!

وتبعهما الحداد ذو الوجه المدمى ثم سار العمال والفضوليون على آثارهم وهم يتناقشون ويصيحون.

عند زاوية شارع ماروسييكا، قبالة بناء كبير مغلق المصاريع، يحمل لافتة معمل لصنع الأحذية، وقف حوالى عشرين عاملاً وكلهم نحيلون يرتدون الألبسة الفضفاضة والمعاطف الخلقة.

قال عامل نحيل ذو لحية نادرة وحاجبين كثيفين:

ـ ليعطينا حسابنا حسب الأصول! لقد امتص دماءنا وهو الآن يعتقد أنه بريء الذمة. لقد ماطلنا طوال الأسبوع. والآن وقد بلغنا أقصى حالات العوز، انسل هارباً!

ولما رأى العامل الحذاء الجماعة والرجل الجريح، سكت واستولى عليه وعلى رفاقه فضول لا يقاوم، فانضم معهم إلى الجمهور المندفع.

ـ إلى أين يمضي كل هؤلاء؟

ـ لكن هذا واضح، إلى الشرطة.

ـ قل يا هذا، هل حقيقة أن جيشنا هو المنتصر؟

وبدأت الأسئلة والأجوبة تتقاطع فانتهز الخمار فرصة الهياج العام وتسلل من بين الجماعة عائداً إلى حانته.

www.Maktbah.com

وكان العملاق الذي لم يلاحظ اختفاء عدوه، يحرك ذراعه العارية حركات واسعة دون أن يكف عن التحدث بإسهاب لافتاً بذلك إلى نفسه الانتباه العام ولقد كان الفضوليون يحيطون به أكثر من سواه طمعاً في الحصول على جواب للأسئلة التي كانت تشغل بال الجميع.

قال الفتى العملاق بابتسامة دقيقة:

ـ أما أن يعطونا الأوامر وأن يحق الحق، فهذا عمل السلطة! أليس كذلك أيها الناس الشجعان؟ هل يظنون أن ليس هناك سلطة؟ هل يمكن الاستغناء عن السلطة؟ لولا ذلك لنهب كل شيء.

وسمع من بين الجمع قائل يقول:

ـ يا للأكذوبة! إذن، يتركون موسكو هكذا؟ لقد قالوا لك هذا ليسخروا منك فصدقته. إن عدد الجنود ليس قليلاً. ثم يتركونه يدخل! هناك قيادة مهمتها منع ذلك.

وأخذوا يشيرون إلى الفتى العملاق ويقولون: اصغوا إلى ما يقول!

وأمام جدار كيتايي ـ غورود، أحاط فريق من الناس برجل ذي معطف ثقيل من الصوف يمسك بيده ورقة. وكانوا يرددون بين الجمع الذي ما لبث أن انضم إلى الدلال العمومي:

ـ بلاغ. إنهم يقرأون بلاغاً! بلاغ!

كان الرجل ذو المعطف يقرأ منشور الواحد والثلاثين من آب. فلما رأى أنهم أحاطوا به، بدا كأنه يستعيد قواه. لكنه عاد نزولاً عند رغبة العملاق الذي اندفع إلى الصف الأول وطلب إليه أن يقرأ من البداية، فقرأ بصوت فيه رعدة خفيفة:

twitter @baghdad_library

«غداً، منذ الصباح الباكر، سأذهب إلى زيارة الأمير «عظيم الرفعة» (فكر الفتى العملاق بأبهة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وهو يقطب حاجبيه: عظيم الرفعة!) لكي أتشاور معه حول العمل أو مساعدة جيشنا على إبادة العدو. يجب أن نجعل نفسه تمج طعم الخبز» وتوقف المنادي بعد استرسال فصاح العملاق بانتظار: هي! أترى هذا! يا لها من «علقة»! وسوف نفني هؤلاء الزائرين وسنرسلهم إلى الشيطان. وسأعود غداً إلى هنا لأتناول الغداء وعندئذ سنبدأ العمل معاً. ولا نكاد نبدأ حتى ننتهي في الصمت العام. وكان العملاق مطرقاً برأسه أشبه بالمثقل. لا شك أن ما من شخص فهم شيئاً من هذه النهاية. وكانت هذه الكلمات: «وسأعود غداً إلى هنا لتناول الغداء» هي التي تزعج بشكل واضح، المنادي والمستمعين إليه معاً. لقد كان الإدراك العام بحاجة إلى عبارات كبيرة فكانت هنا تبدو بسيطة جداً بل مبتذلة. لقد كانت هذه الكلمات هي نفسها التي يمكن أن يرددها كل منهم وبهذه العبارات نفسها، وبالتالي فإنها لم تكن هي التي يجب أن تصدر عن سلطة عليا.

لزموا جميعهم صمتاً كئيباً وراح الفتى العملاق يحرك شفتيه ويتأرجح من قدم على أخرى. فصاحت أصوات من الصفوف الخلفية من الجماعة.

ـ ماذا لو ذهبنا نسأله الخبر؟.. آه! ها هو ذا!.. ولكن كيف؟.. ولم لا؟.. سوف يقول لنا..

وتركز الانتباه العام على عربة رئيس الشرطة الذي وصل حينذاك إلى الساحة يواكبه اثنان من الفرسان.

ذلك الصباح، ذهب مدير الشرطة، بناء على أمر روستوبتشين، ليضرم النار في بعض المباني وتقاضى لقاء ذلك مبلغاً ضخماً من المال كان يحمله معه. فلما رأى الجمع آتياً للقائد، أصدر الأمر للحوذي بالتوقف.

صاح بالناس الذين راحوا يتوافدون الواحد تلو الآخر ويقتربون من عربته بوجل: ماذا تريدون؟

www.Maktbah.com

كرر عندما رأى أنه لم يتلق جواباً: ماذا يريد هؤلاء المتجمهرون؟ قولوا.

قال المنادي العمومي.

ـ إنهم يريدون، وفقاً للمنشور، أن يقدموا حياتهم. إنهم يريدون تقديم خدماتهم لا التمرد كما نما عن طريق مولاي الكونت.

صرخ رئيس الشرطة:

ـ إنّ الكونت لم يذهب. إنه هنا، وسوف يعطيكم تعليماته.

ثم أهاب بسائق عربته: إلى الأمام!

تكأكأ الناس حول أولئك الذين سمعوا الكلمات التي تفوهت بها السلطة وهم يتابعون بأنظارهم العربة المبتعدة.

استدار مدير الشرطة نحو الحشد المتكاثر فذعر وقال شيئاً لسائق عربته فضاعف سرعة الجياد.

زمجر العملاق: إنهم يخدعوننا أيها الرفاق! فاقترب من الحاكم نفسه! لا تدعوه يفلت أيها الأولاد! ليقرر لنا حقائق الأمور!

وصرخت أصوات كثيرة: احتجزوه!

واندفع الجمهور وراء العربة.

راح الجمهور وهو يتبع عربة مدير الشرطة، يتوجه بصخب وجلبة نحو لوبيانكا. والناس يتحدثون فيما بينهم:

ـ لقد انسل السادة والتجار بعضهم إثر بعض ولذلك، قضي علينا بسببهم في حين أننا لسنا كلاباً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع والعشرون

مساء الأول من شهر أيلول، رجع الكونت روستوبتشين إلى موسكو بعد مقابلة مع كوتوزوف، وقد أصيب بإهانة لعدم دعوة كوتوزوف إياه إلى الاشتراك في المجلس العسكري ولأنه لم يعط أي انتباه عرضه المتعلق بالاشتراك في الدفاع عن موسكو، وأدهشه كذلك الرأي الجديد الذي اكتشفه المعسكر، الذي، تبعاً له، يكون أمن المدينة وعواطفه الشخصية الوطنية ليست أمراً ثانوياً فحسب بل عديمة الأهمية أيضاً. عاد وهو مجروح الكرامة ومذهولاً في آن واحد، وتمدد على كنبة بعد العشاء بكامل ثيابه، فأوقظ في الساعة الواحدة صباحاً من قبل ساع قادم من لدن كوتوزوف يرجوه أن يرسل رجال الشرطة لمواكبة القطعات العسكرية المتقهقرة عبر المدينة على طريق ريازان. فلم يكن هذا نبأ حسن الوقع على روستوبتشين. كان يعرف أن موسكو سوف تهجر، ليس منذ مقابلته مع كوتوزوف على جبل بوكلونايا فحسب بل منذ معركة بورودينو، عندما أعلن الجنرالات العائدون إلى موسكو بصوت واحد أن أية معركة جديدة يستحيل وقوعها. ومنذ ذلك الحين، راح يضع في أمكنة آمنة، ممتلكات التاج ليلة إثر ليلة، كما نزحت نصف أسر موسكو بعضها في إثر بعض. مع ذلك، فإن ذلك النبأ الذي تلقاه على شكل كتاب بسيط يحوي أمر كوتوزوف وصله خلال الليل بعد إغفاءته الأولى، مما أدهشه وأغضبه.

ولقد كرر الكونت روستوبتشين فيما بعد في مذكراته مبرراً تصرفاته خلال هذه الحقبة، بأنه كان يهدف حينذاك إلى شيئين هامين: توطيد الأمن في

www.Maktbah.com

موسكو وترحيل السكان عنها. فإذا قُبل هذا الهدف المزدوج، فإن كل سلوك روستوبتشين يصبح بعيداً عن اللوم. ولكن، لماذا إذن لم ترحل كنوز الكنائس الموسكوفية والأسلحة والذخائر والبارود واحتياطي الحرب؟ لماذا خدعوا وبالتالي نكبوا ألوفاً من الأشخاص مؤكدين لهم أن موسكو لن تهجر؟ إن الكونت روستوبتشين يجيب:

ـ «لتوطيد أمن المدينة». ولكن لماذا رحلوا أطناناً من الأوراق الرسمية ومنطاد ليبيخ وكثيراً من الأشياء عديمة الجدوى؟

يجيب الكونت روستوبتشين: لكي تترك المدينة فارغة. يكفي أن يكون هناك ما يهدد أمن المدينة العام حتى يصبح أي تصرف مقبولاً.

لم تكن كل بشاعات الإرهاب تهدف هي الأخرى إلا لتوطيد الأمن العام.

إذن، على أي أساس كانت ترتكز مخاوف الكونت روستوبتشين المتعلقة بأمن موسكو عام ١٨١٢؟ ما هي الأسباب التي جعلته يفترض وجود ميول إلى الفتنة في المدينة؟ لقد كان سكانها ينزحون عنها والجيش في تراجعه يملأها. فلماذا كان الشعب لا بد ثائراً حينذاك؟

لا في موسكو، ولا في أي مكان من روسيا، لم تقع حوادث من هذا النوع. لقد بقي في موسكو حتى الأول والثاني من أيلول قرابة عشرة آلاف شخص ولم يقع، إذا استثنينا الجمهرة التي تشكلت في فناء سراي الحاكم، والتي سبب قيامها بنفسه، أي حادث شغب. وإنه من الواضح أن روستوبتشين بعد بورودينو، عندما بات لا مندوحة من إخلاء موسكو أو أقله، أصبح إخلاؤها متوقعاً، كان يستطيع بدلاً من إلهاء السكان بتوزيع الأسلحة والمناشير أن يتخذ الاحتياطات التي لا بد منها لنقل كنوز الكنائس والبارود والعتاد والمال، وأن يعلن بصراحة إخلاء موسكو فيقضي على كل خوف من التمرد الشعبي.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لقد عاش روستوبتشين دائماً، وهو الشخص ذو العقلية الغضوب الدموية، في أجواء الإدارة العليا فلم تكن لديه، رغم وطنيته الملتهبة، أية فكرة عن الشعب الذي يزعم أنه يحكمه. لقد اتخذ روستوبتشين لنفسه، منذ دخول العدو إلى سمولنسك، دور مدير وجدان الشعب الروسي في «قلب روسيا». وكان يعتقد (ككل إداري) أنه ليس على رأس تظاهرات سكان موسكو الخارجية فحسب بل إنه كذلك يوجه عواطفهم بنداءاته ومنشوراته التي استخدم فيها لغة لصوص المجتمع الراقي، وهي لغة يمقتها الشعب ولا يفهمها عندما تفوح بالسلطة. وكان هذا الدور، دور قائد الشعور الشعبي، يفتن روستوبتشين ويرتاح إليه لدرجة أن الخروج منه بالجلاء الإلزامي عن موسكو دون أي عمل بطولي كان أوقع مفاجأة عليه.

خيل إليه أن الأرض تميد تحت قدميه فلم يعد يعرف ماذا يعمل. وعلى الرغم من معرفته الأكيدة بالأحداث، فإنه رفض بكل روحه أن يصدق فكرة مغادرة موسكو حتى اللحظة الأخيرة. لقد ذهب السكان ضد موافقته. وإذا كانوا قد أخلوا المكاتب والوزارات فإن ذلك كان بناء على طلب الموظفين أنفسهم، فلم يسمح لهم به إلا مكرهاً. لم يكن يهتم إلا بالدور الذي عزاه في خياله إلى نفسه. وكان يعرف منذ زمن بعيد أن موسكو ضائعة لا محالة، كما يحدث غالباً لذوي الخيال الخصب، لكنه لم يكن يعرف ذلك إلا من الناحية المنطقية: فلقد كان يرفض بكل قواه الروحية أن يصدق أو أن ينقل نفسه على أجنحة الخيال الموقف الجديد.

ولقد اندفع نشاطه اللاهب وحيويته كلها.

ـ ماذا كان جدوى ذلك النشاط وأي أثر له في نفوس الشعب، ذلك بحث آخر المشاعر. لقد اندفع كل نشاطه نحو ضرورة إيقاظ المشاعر التي تعتلج في نفسه وفي نفوس السكان، إيقاظ الحقد الوطني على الفرنسي والثقة بالنفس.

www.Maktbah.com

وعندما اتخذت الأحداث نسبها التاريخية الحقيقية، عندما خيل أن إظهار الحقد على الفرنسيين بلغة الكلام وحدها لم يعد كافياً، عندما أصبح يستحيل إظهار الحقد حتى عن طريق القتال، عندما بدا الإيمان بالذات عديم الجدوى في كل ما يتعلق بمسألة موسكو، عندما تدفق السكان من موسكو هاجرين ممتلكاتهم، تدفق السيل، مظهرين بهذه البادرة العمياء كل قوة شعورهم القومي، عندئذ، ظهر الدور الذي اضطلع به روستوبتشين عديم المعنى فارغاً. شعر روستوبتشين أن الأرض تميد تحت قدميه ورأى نفسه فجأة وحيداً ضعيفاً يثير السخرية.

وعندما قرأ رسالة كوتوزوف الجافة الآمرة، كان مبلغ روستوبتشين الذي استيقظ منتفضاً كافياً ليجعله يشعر بذنبه بأكثر وضوح. لقد بقي كل ما أنيط به بصراحة، كل الممتلكات التابعة للدولة التي كان عليه إخراجها من منطقة الخطر، ظلت كلها في موسكو وبات إجلاؤها ضرباً من المستحيل.

راح يفكر دون أن يحدد لنفسه من هم «السفلة» و«الخونة» الذين ورد ذكرهم في كلامه: «من هو المذنب إذن؟ حالة الأمور هذه، من الذي سببها؟ لست أنا بكل تأكيد. لقد أعددت أنا كل شيء وكنت أمسك بموسكو في يدي! وكيف! وها هو المدى الذي وصلنا إليه! سفلة! خونة!» لكنه كان مدفوعاً بضرورة مقت السفلة الخونة، هؤلاء المخلوقات الذين وضعوه في الموقف الخاطئ الداعي إلى السخرية.

استمر روستوبتشين طوال الليل يصدر الأوامر للذين جاؤوا من كل جهات موسكو يطلبونها إليه. ولم يره المحيطون به قط على مثل تلك الحالة من الكآبة والانفعال. راحوا طوال الليل يسألونه دون توقف:

ـ يا صاحب السعادة، لقد جاؤوا يسألونك الأوامر من جانب مدير الإقطاعيات.. من جانب مجمع المطارنة، مجلس الشيوخ، الجامعة، الميتم،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

النائب الرسولي الأكبر.. ما هي أوامركم لرجال المطافئ؟ لمدير السجن، لمدير المأوى؟

وكان يجيب عن كل هذه الأسئلة إجابات مقتضبة ثائرة تدل على أن أوامره لم يعد لها أهمية، الآن بعد أن دمر آخرون، عمله الذي أعده بعناية فائقة، وأن هؤلاء «الآخرون» سيتحملون كامل مسؤولية الأحداث الدائرة.

أجاب روستوبتشين عن سؤال رسول دائرة الإقطاعيات:

ـ اذهب وقل لذلك الأخرق أن يقف حارساً أمام أوراقه. ثم ما هذا السؤال السخيف بصدد فريق الإطفاء؟ إن لديهم جيادهم فليذهبوا إلى ڤلاديمير، على حوالى ٣٠٠ كم عن موسكو، إذا لا ينبغي أن نتركهم للفرنسيين.

ـ يا صاحب السعادة، لقد جاء مراقب دار المجانين فماذا يجب أن نقول له؟

ـ ماذا تجيبونه؟ ليذهبوا جميعاً، هذا كل شيء.. أما المجانين، فليطلقوا سراحهم في المدينة! ما دام المجانين باتوا الآن يقودون الجيش عندنا، فإن الله يريد ذلك.

وعندما تحدثوا إليه عن السجناء المكبلين بالحديد في أعماق زنزاناتهم، صرخ الكونت في وجه مراقب السجن وهو غاضب:

ـ ماذا تريد؟ هل يجب أن نقدم لك لواءين لحراستهم؟ لست أملك اللواءين فأطلق سراحهم، هذا كل شيء!

ـ يا صاحب السعادة، والسجينان السياسيان مييشكوف وڤيريشتشاغين؟

ـ ڤيريشتشاغين؟ ألم يشنق بعد؟ ليأتوني به!

www.Maktbah.com

الفصل الخامس والعشرون

كانت القطعات قد بدأت تجتاز موسكو، حوالى الساعة التاسعة صباحاً، فلم يعد يتقدم أحد لتلقي الأوامر. فقد ذهب كل من استطاع مستخدماً وسائله الخاصة. أما الذين بقوا في المدينة فكانوا يقررون بأنفسهم ما عليهم أن يقوموا به.

أعطى الكونت أمراً بتجهيز عربة له تقله إلى سوكولنيكي وراح ينتظر في مكتبه مصفرّ الوجه، متجهم الأسارير، معقود الذراعين.

أثناء السلم، يعتقد كل إداري أن الفضل في سير كل المواطنين الذين عهد أمرهم إليه يعود إلى قيادته زمام حركتهم ويجد في إيمانه بأنه لا غنى لهم عنه، المكافأة الرئيسة على عمله ومجهوده. وطوال الهدوء الذي يخيم على محيط التاريخ، يعتمد ذلك الربان الإداري وهو على ظهر سابحته الهزيلة، يقدمه على سفينة الدولة، ليتقدم هو نفسه. ويتمكن هذا الربان، وهذا أمر ملموس، أن يعتقد أنه يدفع السفينة التي يرتكز عليها بقواه الشخصية. ولكن إذا ما هبّت العاصفة وأصبح البحر متلاطم الأمواج وجُرحت السفينة، فإن ذلك الوهم يصبح مستحيلاً فالسفينة تتابع سيرها المهيب وحدها مستقلة، وربان السابحة يكتشف أنه ليس الرئيس، مبعث كل قوة، بل رجلاً ضعيفاً غير ذي فائدة، تافهاً ومسكيناً.

وهذا ما كان يحس به روستوبتشين وما كان يثير حفيظته.

ودخل رئيس الشرطة، ذاك الذي أوقفه الجمهور، على الكونت في

twitter @baghdad_library

اللحظة التي وصل مساعده يعلن أن الجياد جاهزة. كان كلاهما شاحب الوجه فأعلن مدير الشرطة بعد أن كشف عن إنجازه مهمته، أن الفناء يعج بجمهور غفير يرغب في رؤية سعادته.

اجتاز روستوبتشين دون أن ينطق بكلمة القاعة المشرقة الفخمة واقترب من باب الشرفة فأمسك بمقبضه ثم أفلته. وجاء إلى نافذة أخرى يمكن مشاهدة الجمهور كله منها. كان الفتى العملاق في الصف الأول، صارم الوجه يتابع أحاديثه وهو يشير بيديه. وكان الحداد ذو الوجه الدامي واقفاً إلى جانبه مربد الأسارير وزمجرة الأصوات تبلغ الأسماع من وراء النوافذ المغلقة.

سأل روستوبتشين وهو يغادر النافذة: هل العربة جاهزة؟

فقال المساعد: هي جاهزة يا صاحب السعادة.

اقترب روستوبتشين من الشرفة مرة أخرى ثم استدار نحو مدير الشرطة واستعلم: ولكن، ماذا يريدون؟

إنهم يصرخون، يا صاحب السعادة، بأنهم اجتمعوا ليتّجهوا إلى الفرنسيين تبعاً لأوامركم وأنهم خينوا. إنهم طائفة من اللغاطين يا صاحب السعادة ولقد أفلت منهم بصعوبة كبرى. يا صاحب السعادة، لو حق لي أن أعرض...

زمجر روستوبتشين غاضباً:

ـ تفضل بالانسحاب. أنا أعرف ماذا يجب عليّ أن أعمله بدونك.

وراح ينظر إلى الجمهور من باب الشرفة. فكر والغضبة الهوجاء تغلي في أعماقه ضد ذلك الذي يمكن أن يُعزى إليه كل ما جرى فجأة:

«ها هو ذا ما فعلوه بروسيا! هذا هو الأسلوب الذي يعاملونني به!» وكما يحدث عادة للأشخاص الغضاب، كان الغضب يجتاحه لكنه ما زال يبحث عن الغرض. راح يفكر في نفسه دون أن يبارح الجمهور بعينيه: «ها هم أولاء تفاهة الناس. حثالة الشعب الذين ألبوهم بحماقتهم». وعقب وهو يتابع بعينيه

www.Maktbah.com

الفتى العملاق وهو يلوح بيديه: «لا بد لهم من ضحية». ولقد راودته هذه الفكرة فجأة لأنه كان في حاجة إلى تلك الضحية لتجد غضبته سبباً. كرر: هل العربة جاهزة؟

فقال المساعد العسكري: نعم يا صاحب السعادة. أية أوامر تعطيها بصدد فيريشتشاغين؟ إنه ينتظر قرب المرقاة.

فزمجر روستوبتشين وكأن ذكرى فجائية طافت بخياله:

ـ آه!

وفجأة، فتح باب الشرفة وتقدم بخطى ثابتة فسكتت الأصوات ورفعت القلانس والقبعات وشخصت الأنظار كلها إلى روستوبتشين.

صاح دائرياً وبصوت مرتفع:

ـ مرحى يا أبناء! وشكراً إذ جئتم. سوف أنزل من فوري إلى صفوفكم ولكن يجب قبل كل شيء تسوية حساب المجرم. يجب أن نعاقب المجرم الذي سبب ضياع موسكو. انتظروني!

واختفى الكونت داخل غرفه بمثل السرعة التي ظهر فيها، وانصفق باب الشرفة بعنف.

وطافت بالجمهور همسة ارتياح وبدأ الناس يتحادثون وكأنهم يتبادلون الاعتذار لضعف إيمانهم: «هن! سوف يخلصنا من المجرمين! وأنت الذي كنت تقول إنه فرنسي.. سوف يريك ما هو النظام!».

خرج ضابط، بعد دقائق، من مدخل الشرفة مسرعاً فأصدر أمراً لم يلبث بعض الفرسان بعده أن وقفوا في وضعية «تنكب سلاحك». فكف الجمهور عن النظر إلى الشرفة وتقدم بينهم نحو المرقاة.

وكان روستوبتشين في تلك اللحظة قد وصل بخطوات سريعة فجال بعينيه فيما حوله وكأنه يبحث عن شخص ما.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سأل الكونت: أين هو؟

وفي اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات، شاهد شاباً رقيقاً ذا عنق طويل، ورأس حليق حتى وسطه، وقد بدأ شعره ينبت من جديد، آتياً من زاوية البيت يخفره اثنان من الجنود، كان مرتدياً «فروة» كانت فيما مضى أنيقة جداً، بدون شك، يغطيها جوخ أزرق على فراء ثعلب مهترئ من الاحتكاك. وكانت سراويله الخاصة بالسجناء المصنوعة من الكتان ممزقة وقذرة وقد أدخلت في ساقي الحذاء الدقيقين القذرين المثنيين، وكانت السلاسل الثقيلة التي تعيق ساقيه الهزيلتين تجعل مشيته أشبه بالمترددة.

صاح روستوبتشين الذي أشاح بسرعة عن الشاب وأشار إلى آخر درجة من المرقاة: آه: ليأتوا به إلى هنا!

فصعد الشاب الدرجة المعينة وهو يتقدم بتثاقل مصحوباً بصليل السلاسل وأزاح بإصبعه ياقة معطف الفراء التي كانت تزعجه وأدار مرتين عنقه الطويل ثم عقد وهو يزفر، يديه الناحلتين اللتين لم تمارسا عملاً على بطنه.

ساد الصمت بضع ثوان بينما كان الشاب يقف على الدرجة، باستثناء بعض النحنحات والأنات وبعض فورات الغضب العابرة وقليل من الرديء في الصفوف الخلفية.

راح روستوبتشين يمرر يده على وجهه ويقطب حاجبيه منتظراً أن يتخذ الشاب مكانه على درجة المرقاة، وفجأة، قال بصوت معدني رنان:

ـ أيها الأولاد! هذا الرجل هو ڤيريشتشاغين، السافل الذي سبب ضياع موسكو.

اتخذ الشاب ذو معطف فراء الثعلب وضعية متواضعة، عاقداً يديه أمامه حانياً جذعه قليلاً، وكان وجهه الفتي الناحل ذو الأمارات اليائسة، الذي شوهه رأسه الحليق، منحنياً بعناد، ولقد رفع جبهته ببطء عندما فاه الكونت بكلماته

www.Maktbah.com

الأولى ونظر إليه من أسفل وكأنه يهم أن يقول له شيئاً أو أقله أن يقابل نظرته، لكن روستوبتشين لم يكن ينظر إليه، وقرب الأذن، على طول عنق الفتى النحيل، عِرق أزرق أشبه بالحبل الممدود وأصبح وجهه فجأة بلون الأرجوان.

شخصت العيون كلها إليه فراح يتأمل الجمهور. ولعل تعابير الوجوه التي طالعته، شجعته، فطافت على شفتيه ابتسامة حزينة مذعورة ومجدداً أطرق برأسه لكنه نصب قامته على الدرجة.

قال روستوبتشين بقسوة دون أن يرفع صوته وهو يحط بنظرة على ڤيريشتشاغين:

ـ لقد خان أمبراطوره ووطنه وباع نفسه لبوناپرت، إنه وحده بين الروس الذي لوث شرف الاسم الروسي وبسببه ضاعت موسكو.

وكأن صغار موقف الشاب سبب في نفسه انفجاراً، إذ رفع يده وقال في شبه زمجرة وهو يخاطب الجمهور:

ـ احكموا عليه بأنفسكم! إنني أهبه لكم!

بقي الجمهور صامتاً تتكاثف صفوفه، وكانوا جميعاً متراصين بعضهم إلى جانب البعض الآخر، وقد امتنع عليهم التنفس والحركة، ينتظرون حدوث شيء مجهول، شيء غامض رهيب.

وكان الذين في الصفوف الأولى، الذين يرون ويسمعون ما يحدث مذهولين وقد جحظت عيونهم، وفغروا أفواههم، يقاومون بكل قواهم موجة الذين من ورائهم.

صاح روستوبتشين: اضربوه الخائن الذي لوث شرف الاسم الروسي! مزقوه! آمركم بذلك!

ولدى سماع الجمهور لهجة روستوبتشين الغاضبة وليس كلماته، ندّ عنه ما يشبه الزمجرة وارتعش لكنه عاد إلى جموده.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

نطق ڤيريشتشاغين بصوت وجل ومسرحي معاً في اللحظة التي ساد فيها الصمت:

ـ كونت! أيها الكونت، إن الله وحده قاضينا!

ورفع رأسه فعاد الدم مجدداً ينفخ العرق الضخم في العنق الهزيل بينما راح الدم يتصاعد إلى وجهه ويبارحه بسرعة، لكنه لم يستطع متابعة الكلام إذ زمجر روستوبتشين فجأة وقد حاكى امتقاع وجهه امتقاع ڤيريشتشاغين:

ـ مزقوه! آمر بذلك!

ونضا ضابط الحرس حسامه من غمده وصاح:

ـ أشهروا السيوف!

واستفزت الجمهور موجة أقوى من السابقة بلغت الصفوف الأولى فجعلتها تندفع مترنحة حتى درجات المرقاة، وبات العملاق قرب ڤيريشتشاغين وقد ظهر الروع على وجهه وإن ظلت يده مشرعة. وقال الضابط بصوت لا يكاد يسمع: أثخنوه جراحاً!

فضرب أحد الجنود وقد صعر وجهه فجأة بالغضب، ڤيريشتشاغين بعرض سيفه على رأسه، فصرخ التاعس وقد فوجئ بالضربة:

ـ آه!

وظهر الذعر في عينيه دون أن يبدو عليه أنه فهم ما يريدونه منه، وطافت بالجمهور زمجرة ذعر وذهول وصاح بعضهم بحزن: «أوه! يا إلهي!».

ولكن، بعد صيحة الذهول تلك، أطلق ڤيريشتشاغين صيحة أخرى، من الألم هذه المرة، فكانت تلك الصرخة سبب ضياعه. لقد تحطم شعور الإشفاق الذي توتر إلى أقصى الدرجات فاستوقف الجمهور، تحطم فجأة فكانت الجريمة التي شُرع بها واجبة الإنهاء. وضاعت أنّة الرجل المتألمة وسط زمجرة الجمهور الحاقدة المتوعدة، وكما تبتلع موجة سابعة وأخيرة

www.Maktbah.com

باخرة غارقة، فإن الموجة الأخيرة التي لا تقاوم من الغضبة الشعبية انتقلت من الصفوف الخلفية إلى الأمامية فأغرقتها وابتلعت كل شيء، أراد الجندي الذي ضرب أول مرة أن يضرب مرة أخرى فاندفع ڤيريشتشاغين نحو الجمهور ماداً يديه إلى الأمام وهو يطلق صرخات مذعورة. فغرس الفتى العملاق الذي اصطدم به أظفاره في عنقه النحيل وتدحرج معه تحت أقدام الذين راحوا يندفعون إلى الأمام.

راح البعض يضربون ڤيريشتشاغين ويمزقون ثيابه في حين راح الآخرون ينهالون على العملاق ضرباً. ولقد أبلغت صيحات الذين كانوا على وشك الاختناق من الزحام والذين أسرعوا لنجدة العملاق، الغضبة الجماهيرية إلى ذروتها فلم يخلص الجنود العامل المدمى وهو على حال أقرب إلى الموت إلا بشق النفس. وبقي الأشخاص الذين راحوا يضربون ڤيريشتشاغين ويخنقونه ويمزقونه، فترة طويلة رغم الغضب اللاهب الذي حفز الجمهور على إنهاء الجريمة التي بدأ بها، وقتاً طويلاً عاجزين عن القضاء عليه. كانوا متدافعين من كل الجهات يترنحون ويتقاذفون يميناً ويساراً لا يتوصلون إلى توجيه الضربة القاضية إليه ولا إلى الإبقاء عليه.

ـ ضربة بلطة موفقة، هن؟.. هل نفق؟.. الخائن، يهوذا! كلا، لا زال يتنفس!.. إن روحه مرنة!.. لم يلق إلا ما يستحق!.. ضربة بلطة! هل انتهى!

ولما كفت الضحية عن التخبط، وحلت الحشرجة الطويلة محل صرخاتها، كف الجمهور أخيراً عن التدافع حول الجثة الدامية. راح كل شخص الآن يقترب ليلقي نظرة فيأخذه الخوف والخزي والتكبيت وينسحب وقد أصبح شديد الصغار.

وكانوا يرددون: «أوه! يا إلهي، الشعب، يا للوحش الضاري! كيف كان يستطيع أن يعيش بعد كل هذا؟ ثم يا له من شاب يافع!. لا ريب أنه كان مدللاً!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

آه! الشعب! يقولون إن الفاعل ليس هذا.. كيف ليس هو؟.. آوه! يا إلهي! والآخر الذي ضربوه، يقولون إنه هو الآخر نصف ميت!.. أوه! الشعب.. الذي لا يخاف الخطيئة..» هذا ما كان يقوله الأشخاص أنفسهم الذين راحوا الآن يتأملون بحنان رؤوف جثة ڤيريشتشاغين الذي راح وجهه يزرق وقد غطاه الدم والغبار والذي كان عنقه النحيل نصف مفصول.

وأراد شرطي أن يظهر غيرة بعد أن وجد أن بقاء تلك الجثة في فناء سعادته أمر غير لائق، فأمر الجنود بجرها إلى الشارع. فأمسك جنديان بساقي ڤيريشتشاغين المحطمتين وجراه خارجاً فكان الرأس الحليق الملوث بالدم والغبار في نهاية العنق الدقيق الطويل، يقفز على الأرض ويصطدم بها، وابتعد عن الجثة.

عندما سقط ڤيريشتشاغين، وبينما أخذ الجمهور الثائر يتدافع ويصطخب حوله وفوقه، شحب وجه روستوبتشين فجأة وبدلاً من الذهاب إلى المرقاة الخلفية حيث كانت عربته تنتظره، راح بخطوات آلية يمشي مطرق الرأس مسرعاً، في الممشى المؤدي إلى غرف الدور الأرضية. كان ممتقع الوجه لا يستطيع ضبط فكه الأسفل عن الارتجاف كالمصاب بالحمى، وكان صوت مذعور مرتعد يردد خلفه:

ـ من هنا يا صاحب السعادة. إلى أين ترغب في الذهاب؟ من هنا إذا أمرت.

لم يكن الكونت روستوبتشين في حالة تمكنه من الإجابة، لكنه عاد بخضوع على عقبيه فسار في الاتجاه الذي أشير به عليه. وكانت عربته تنتظر عند المرقاة الخلفية وزمجرة الجمهور الصاخب تصل إلى هناك. صعد الكونت روستوبتشين إلى عربته وأصدر أمره بالذهاب إلى منزله الريفي في سوكولنيكي.

www.Maktbah.com

عندما بلغ مياسنيتسكايا، ولم يعد يسمع صراخ الجمهور، اجتاح الأسف الكونت روستوبتشين. تذكر فجأة الاضطراب والخوف اللذين ترك مرؤوسيه يرونهما عليه فحدث نفسه بالفرنسية وهو حانق على نفسه: «إن الرعاع مخيفون، إنهم كريهون. إنهم كالذئاب الذين لا يمكن تهدئتهم إلا باللحم!» وعادت إلى ذاكرته كلمات ڤيريشتشاغين: «كونت! إن الله وحده قاضينا!» فاجتازت ظهره قشعريرة باردة. لكن هذا الشعور كان موقتاً إذ لم يلبث الكونت روستوبتشين أن ابتسم لنفسه ابتسامة محتقرة. فكر: «كانت لدي واجبات أخرى. كان ينبغي أن أهدئ الجمهور. إنّ ضحايا كثيرة أخرى قضت وتقضي للمصلحة العامة». وحينئذ راح يفكر في الالتزامات المتطلبة منه تجاه أسرته وحيال المدينة (المعهود أمرها إليه) وحيال نفسه، ليس حيال شخص فيدور ڤاسيلييـڤيتش روستوبتشين (وكان يرى أن هذا يضحي بنفسه من أجل المصلحة العامة) ولكن حيال الحاكم، متسلم السلطة وممثل الأمبراطور. «لو إنني لم أكن إلا فيدور ڤاسيلييـڤيتش، لأرتسم خط سلوكي على نحو آخر. لكنني كنت مضطراً إلى أن أصون حياة الحاكم وكرامته».

راح يتأرجح فوق نوابض عربته المرنة بعيداً عن الزمجرات الجماهيرية الكريهة، ويتذوق طعم الراحة الجسدية. ولقد أتت الراحة الجسدية كالعادة بالهدوء الفكري. لم تكن الفكرة التي هدأته جديدة. فمنذ أن وجد العالم وراح الرجال يقتتلون، لم تقع جريمة ما دون أن يجد فاعلها لنفسه مبرراً في قوله لنفسه إنها ارتكبت للمصلحة العامة أو لسعادة الآخرين المزعومة.

وتبقى سعادة الغير هذه، مجهولة من الرجل الذي لا يعميه هواه. لكن الرجل الذي يندفع حتى يبلغ الجريمة، يعرف دائماً وبكل تأكيد، ممن تتألف. وكان روستوبتشين الآن يعرف هذه السعادة.

لم يكن ضميره ولا يأخذ عليه ذلك الفعل الذي قام به فحسب، بل إنه

twitter @baghdad_library

كان كذلك يجد المبررات ليكون راضياً عما فعل لأنه استخدم هذه المناسبة لمعاقبة مجرم وتهدئة الجمهور في آن واحد.

فكر روستوبتشين: «لقد حوكم ڤيريشتشاغين وحكم عليه بالموت، في حين أن مجلس الشيوخ لم يحكم عليه إلا بالأشغال الشاقة، لقد كان ماكراً وخائناً فما كنت أستطيع أن أتركه دون عقاب، وبذلك اصطدت عصفورين بحجر واحد. لقد أعطيت ضحية للشعب لأهدئه وعاقبت سافلاً.

وعندما وصل إلى منزله الريفي، أصدر الكونت الذي هدأت أعصابه نهائياً، أوامره بالإقامة هناك.

وبعد نصف ساعة، كان يجتاز سهل سوكولينكي جرياً بقوة الجياد البطرة دون أن يعود إلى التفكير في ما حدث منذ حين، مقتصراً بتفكيره على المستقبل قاصداً جسر إياووزا الآن، حيث قيل له إنه سيجد كوتوزوف.

كان الكونت روستوبتشين يعد في خياله التعنيف القاسي الغاضب الذي سيوجهه إلى كوتوزوف جزاء مكره. سوف يجعل هذا الثعلب العجوز المتملق يشعر بأن مسؤولية كل المصائب الناجمة عن ترك موسكو، المصائب التي سينجم عنها ضياع روسيا (حسب تنبوءات الكونت)، تقع على رأس العجوز ضعيف الذكاء بكليتها. وراح روستوبتشين وهو يفكر في ما سيقوله، لا يستقر في عربته من الغضب ويلقي حوله نظرات ساخطة.

كان سهل سوكولنيكي قاحلاً وعند أقصاه قام المستشفى ومأوى العجزة. فكانت ترى جماعات بثياب بيضاء وبعض الأشخاص المنعزلين الذين يبدون كأنهم يهيمون على وجوههم وهم يلوحون بأيديهم ويزمجرون.

كان أحد أولئك الأشخاص قادماً لاستقبال العربة فراح الكونت روستوبتشين نفسه وسائق عربته وحراسه من الفرسان، راحوا جميعهم

www.Maktbah.com

ينظرون بتطلع ممزوج بالهلع إلى أولئك المجانين الذين حرروا منذ حين وبصورة خاصة إلى ذلك الذي يقترب منهم.

راح المجنون يترنح على ساقيه الهزيلتين في ثوب منزلي فضفاض وعيناه شاخصتان إلى روستوبتشين وأخذ يصرخ له بصوت صدئ وهو يشير إليه بالوقوف. وكانت لحيته غير الكاملة تشكل خصلات غير منتظمة حول وجهه النحيل الأصفر، ووجهه الكالح المكتئب خطير وصارم وحدقتاه بلون الزجاج الأسود تتراقصان في أعماق عينيه الكئيبتين زعفرانيتي اللون. بدأ يصرخ بصوت مدوٍ: قف! قف آمرك أن تقف!

ثم عاد لاهث الأنفاس ويشيح بيديه بحركات واسعة.

وعندما أصبح بإزاء العربة راح يركض بجانبها. صاح وصوته يعلو أكثر فأكثر:

ـ ثلاث مرات، لقد قتلوني ثلاث مرات ونشرت من بين الموتى!.. لقد مزقوني وصلبوني.. وسوف أبعث.. سأنشر. لقد مزقوني إرباً إرباً. سوف ينهار ملكوت الله. سوف أهدمه ثلاث مرات ثم سأقيمه ثلاث مرات!

وفجأة امتقع وجه الكونت روستوبتشين كما حدث في اللحظة التي ألقت الجماهير بنفسها على ڤيريشتشاغين فأشاح بوجهه وصرخ بالحوذي بصوت مرتجف:

ـ بسرعة.. بسرعة أكثر!

فانطلقت العربة بأقصى سرعة، لكن الكونت روستوبتشين بقي فترة طويلة يسمع صيحة المجنون اليائسة الآخذة بالخفوت تدريجاً في البعد في حين بدأت تظهر أمام عينيه تقاطيع وجه الخائن في معطفه الفراء، ذلك الوجه المذهول المأخوذ الدامي.

كانت هذه الذكرى لا تزال قريبة. لكن روستوبتشين شعر بها الآن مغروزة

twitter @baghdad_library

في أعماق نفسه. كان يشعر أن أثرها الدامي لن يمحى وأنه على العكس كلما تقدمت به السنوات عاشت هذه الذكرى في قلبه قاسية معذبة. كان يسمع ويعتقد أنه يسمع صدى كلماته الشخصية: «فرقوه بسيوفكم، أنتم مسؤولون عنه بحيواتكم». وفكر: «لماذا قلت هذه الكلمات؟ لقد نطقت بكل هذا دون أن أفكر فيه تقريباً. كنت أستطيع ألّا أقوله وما كان شيء ليحدث». عاد يرى الوجه المروع الذي أصبح فجأة غاضباً، وجه الجندي الذي كان أول من ضرب والنظرة الصامتة المفعمة باللوم التي ألقاها عليه ذلك الفتى في ردائه المصنوع من فراء الثعلب. فراح يكرر لنفسه: «لكنني لم أفعل هذا من أجل نفسي. لقد كنت مرغماً عليه. الرعاع، الخائن.. المصلحة العامة».

وكان الجيش يتزاحم على جسر إياووز والحرارة شديدة. وكان كوتوزوف جالساً حزيناً على مقعد قرب الجسر مقطب الحاجبين ينكت الرمال بطرف سوطه عندما اقتربت منه عربة في جلبة صاخبة وتقدم إليه رجل في بزة جنرال يضع على رأسه قبعة ذات ريش، له نظرة تائهة تجمع بين الانفعال والخوف وراح يحدثه باللغة الفرنسية. ذلك كان الكونت روستوبتشين. قال لكوتوزوف إنه جاء يلحق به لأن موسكو والعاصمة لم يعد لهما وجود ولأنه لم يبق إلا الجيش. وأكد:

ـ وكان يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك لو أن سموكم لم تؤكدوا لي أن موسكو لن تسلّم أقله دون قتال. إن كل هذا ما كان ليحدث!

تأمل كوتوزوف روستوبتشين وكأنه لم يفهم معنى كلماته وبدا كمن يحاول بكل قواه ليقرأ شيئاً ما خاصاً كان ينم عنه وجه الرجل الذي يحدثه في تلك اللحظة. وانتهى الأمر بروستوبتشين المضطرب إلى الصمت. هز كوتوزوف رأسه ببطء وقال بلهجة هادئة دون أن يحول عنه نظرته الفاحصة:

ـ لكنني لا أريد تسليم موسكو دون قتال.

www.Maktbah.com

فهل كان كوتوزوف يفكر في شيء آخر وهو ينطق بتلك الكلمات أم تراه نطق بها لغاية في نفسه وهو عارف أنها خالية من المعنى؟ مهما كان الأمر فإن روستوبتشين ابتعد دون أن يجيب ثم، هذا أمر عجيب، راح حاكم موسكو العام، روستوبتشين المتجبر وفي يده سوط يقترب من الجسر ليفرق العربات التي ازدحم بها بصيحات عالية.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس والعشرون

بدأت قوات مورا، في حوالى الساعة الرابعة، تدخل موسكو تتقدمها كتيبة من الخيالة الورتمبرغيين، وصل بعدهم مباشرة ملك ناپولي شخصياً محاطاً بحاشية عديدة.

ولما وصلوا عند وسط «الأربات» قرب سان نيكولا ريـڤييه، أمر مورا بالتوقف بانتظار تقرير الطليعة عن حالة قلعة الكرملين.

اجتمع حول مورا قليل من السكان الذين لم يغادروا موسكو، راحوا يتأملون بذهول مشوب بالفزع، هذا الرئيس الغريب بشعره الطويل وريش قلنسوته وزينته، ويقولون فيما بينهم: قل يا هذا، هل هذا هو قيصرهم، هم؟ حسناً..

اقترب مترجم من الجماعة فغمغم الناس فيما بينهم:

ـ ارفع قلنسوتك.. قلنسوتك.. القلانس..

خاطب المترجم بواباً عجوزاً فسأله عما إذا كان الطريق إلى الكرملين ما زال طويلاً. فأصغى البواب. لكنه تاه في اللكنة البولونية فلم يتعرف إلى اللغة الروسية لذلك لم يفهم شيئاً مما كان المترجم يسأله، فذهب يختبئ وراء الآخرين.

اقترب مورا من المترجم وأمره أن يسأل أين هو الجيش الروسي. ولقد فهم أحد الحاضرين ماذا يسألون فأجابت أصوات عديدة فجأة معاً. وعاد ضابط فرنسي من الطليعة فأعلن لمورا أن باب الحصن يحدّه سور وأنه لا بد

www.Maktbah.com

من وجود كمين وراءه. فقال مورا «حسناً»: والتفت إلى أحد ضباط حاشيته وأمره بأن تستعمل أربعة مدافع خفيفة في ضرب الأبواب.

خرجت «بطارية» من القطعات التي كانت تتبع مورا ومضت على طول «الأربات». فلما وصلت إلى أسفل فوزدڤيغنكا، وقفت وتمركزت هناك وراح بعض الضباط الفرنسيين يجهزون المدافع في المواقع المناسبة ويراقبون الكرملين بمناظيرهم المقربة.

كانت الأجراس في الكرملين تقرع مؤذنة بصلاة الغروب فاضطرب الفرنسيون لقرعها وظنوا أنها نداء لحمل السلاح. وجرى بعض جنود المشاة نحو باب كوتاڤييـڤ الذي كانت تحصنه من الداخل أعمدة من الخشب وألواح من البلوط السميك. ودوى طلقان ناريان حينما كان الضابط يقترب ركضاً مع كتيبته. فأصدر الجنرال الواقف قرب المدافع أمراً إلى ذلك الضابط، فوقف وتراجع مع جنوده إلى الوراء مندفعاً.

وانطلقت ثلاث طلقات أخرى من الباب.

أصيب جندي فرنسي في ساقه وارتفعت صيحات غريبة من وراء المتراس. وفجأة، وكأن المسألة جاءت نتيجة لأمر صادر، فقد وجه الجنرال والضباط والجنود تعبير البهجة المتوترة واكتست بطابع العناد والتركز الذي يلوح على وجوه أولئك الذين يستعدون للقتال والألم. ومن الماريشال وحتى آخر جندي، أدركوا جميعاً أن هذه الساحة ليست ساحة ڤوزدڤيغنكا ولاموخوڤاييا ولا أبواب كوتاڤييـڤ أو الترينيتيه، بل إنها ساحة حرب جديدة، ساحة تنذر بوقوع معركة دامية كما تدل الظواهر، فاستعدوا جميعهم لها. توقفت الصيحات وراء المتراس وسددت المدافع وراح المدفعيون ينفخون على الفتيل. وأمر الضابط: «نار!» وصفرت قذيفتان انطلقتا الواحدة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تلو الأخرى وتساقطت قطع الحديد كالبرد على الباب المسدود والأعمدة والألواح في حين راحت سحابتان من الدخان تتصاعدان فوق الساحة.

وبعد دقائق من هدوء الهدير الذي خلفته الطلقتان على طول جدران الكرملين، ارتفعت ضجة غريبة فوق رؤوس الفرنسيين. ذلك أن سرباً هائلاً من غربان الزرع نفر من الساحة المسورة وهي تنعب فارتفع صوت ألوف الأجنحة وهي تصطفق وتدور حتى غطت السماء تماماً وفي الوقت نفسه، ارتفع صوت بشري منفرد من وراء الباب وبدا خلال الدخان شبح رجل عاري الرأس يرتدي رداء فضفاضاً وبيده بندقية كان يسددها إلى الفرنسيين، ردد ضابط المدفعية: «نار!» فانطلقت قذيفتان من المندفعين مع طلقة البندقية معاً وعاد الدخان يحجب الباب مجدداً.

لم يعد شيء يتحرك وراء المتراس، فاقترب الضباط الفرنسيون يتبعهم مشاتهم. كان هناك ثلاثة جرحى وأربعة قتلى. وفر رجلان يرتديان رداءين فضفاضين وهما يستتران بالجدران نحو زنامنكا.

قال الضابط وهو يشير إلى الألواح والجثث: ارفعوا هذا.

فدفع الفرنسيون الجثث بعد أن أجهزوا على الجرحى، من فوق الحاجز.

من كان أولئك الأشخاص؟ هذا ما لم يعرف قط. إن كل ما قيل عنهم هو: «ارفعوا هذا» ولقد ألقوا بهم ثم جمعوا رفاتهم بسبب العفن. لكن «تيير» وحده كرس لهم هذه الأسطر الفخمة: «كان أولئك الحقيرون قد دهموا القلعة المقدسة واستولوا على بنادق من مخزن السلاح وراحوا يطلقون النار (أولئك الحقيرون!) على الفرنسيين. فضربوا بعضهم بالسيوف وطهروا الكرملين من وجودهم».

أخبروا مورا أن الممر أصبح حراً، فاجتاز الفرنسيون الباب وأقاموا

www.Maktbah.com

معسكرهم في ساحة مجلس الشيوخ. وألقى الجنود مقاعد من نوافذ ذلك البناء ليقدموها طعمة للنيران.

اجتازت ألوية أخرى الكرملين وذهبت تعسكر في موروسييكا ولوبيانكا وبوكروڤكا. وأقام بعضها أيضاً في ڤوزدڤيغنكا وزنامنكا ونيكولسكاييا وتـڤيرسكاييا. وفي كل مكان، إذ لم يجدوا أحداً في المساكن، أقام الفرنسيون فيها ليس حسب ما يجري في بلد يقدم لهم السكن بل كما يقيمون في معسكر عام في صميم المدينة.

وعلى الرغم من أن عددهم تضاءل إلى النصف وأنهم أصبحوا في ثياب خلقة يتضورون جوعاً ويضنيهم التعب، فإن الفرنسيين، رغم ذلك، دخلوا موسكو بنظام. كانوا لا يزالون يكونون جيشاً مقاتلاً يحسب له حساب رغم حالة الإنهاك الشديد والضعف التي كانوا عليها. مع ذلك، فإنّ هذا الجيش لم يبق على هذا النحو إلا حتى الدقيقة التي تفرق فيها جنوده على المنازل. إذ ما إن دخل الرجال ونعموا في المنازل الغنية الخالية، حتى اختفى الجيش إلى الأبد ولم يبق إلا أولئك السكان بين المدنيين والعسكريين الذين يطلق عليهم اسم: سلابون. وعندما خرج هؤلاء الرجال أنفسهم من موسكو بعد خمسة أسابيع، ما عادوا يشكلون جيشاً كانوا جماعة من النهابين حل كل منهم في عربة أو على ظهره طائفة من الأشياء اعتبر أنها ثمينة لا غنى له عنها.

لم يعد هدف هؤلاء الرجال، كما كان من قبل، أن يقاتلوا، بل أن يحتفظوا بغنائمهم. وقد كان حال الفرنسيين عند خروجهم من موسكو، كحال القرد الذي مد يده في قدر ذات عنق وفوهة ضيقين فأطبقت أصابعه على عدد ثمار الجوز لكنه لم يشأ أن يفتح أصابعه كيلا يفلت شيء مما أمسك به. كانوا يمشون إلى نهايتهم المحتومة لأنهم جروا معهم حصالة سلبهم وما كان بوسعهم التخلي عنها كما فعل القرد بثمار الجوز. لم يعد، بعد عشر دقائق من دخول

twitter @baghdad_library

فيلق من الجند إلى حي من أحياء المدينة، ضباط ولا جنود. كان يُرى من نوافذ المنازل، في معاطف ورانات، يروحون ويجيئون عبر الغرف، وآخرون، في مثل حال أولئك، يستولون على المؤن المودعة في الأقبية والعنابر وغيرهم في الأفنية يغتصبون أبواب الأروقة والاسطبلات أو في المطابخ يوقدون النار ويعجنون الدقيق وأكمامهم مشمرة أو يطهون طعامهم وهم يلتصقون بالنساء أو يداعبون الأطفال. مع ذلك، فإن عددهم لم ينقص في الحوانيت والمنازل، لكنهم لم يعودوا يشكلون جيشاً.

توالت الأوامر، خلال ذلك اليوم، من أركان حرب الجيش الفرنسي، أمراً إثر أمر، تهدف جميعها إلى منع الجنود من السلب والانتشار في المدينة واستعمال العنف ضد السكان، وفرضت الأوامر نفسها مساء عند النداء العام، لكن رغم كل ذلك، انتشر الرجال الذين كانوا حتى الأمس يشكلون الجيش، في كل مكان في تلك المدينة القاحلة، يضفون على أنفسهم وسائل الترف ويغدقون على أنفسهم المؤن والثروات. وكما هي حال القطيع الجائع الذي يبقى مجتمعاً في مرعى قاحل وينتشر فور وقوعه على مرج نضير، انتشر الجيش في المدينة الكبيرة دون أن يقدروا على إيقافه.

كانت موسكو خالية، والجنود يتوغلون في كل مكان أشبه بالماء فوق الرمل ويحومون جماعات حول الكرملين حيث استطاعوا الدخول بادئ الأمر. وكان الفرسان إذا ما دخلوا بيوتاً بورجوازية غنية هجرها أهلها وفيها كل مفروشاتها وأثاثها، يجدون فيها اسطبلات لجيادهم أكثر اتساعاً مما يتطلبون لكنهم مع ذلك لم يتورعوا عن احتلال منزل مجاور بدا لهم أكثر امتلاء. وكان كثيرون يحتلون عدة مساكن معاً ويؤشرون عليها بكتابة أسمائهم بالحكك بل يشتبكون بالأيدي مع آخرين من وحدات أخرى. وآخرون، لا يكاد يستقر به المقام، حتى يندفعوا خلال المدينة لزيارتها فما إن يجدوا أن

www.Maktbah.com

كل شيء مهجور حتى يندفعوا إلى الأماكن التي يستطيعون الفوز منها بأثمن الأسلاب. وحاول الضباط إيقاف الجنود عند حدهم، لكنهم لا يلبثون حتى ينجرفوا هم أنفسهم في غمار حركة السلب العامة. ولم تنج سوق العربات نفسها، إذ راح الجنرالات يجتمعون في الأروقة المملوءة بالعربات الجاهزة ليختاروا لأنفسهم عربة خفيفة أو مغلقة. وكان المتخلفون من السكان يدعون الضباط للسكنى عندهم آملين أن ينجوا من السلب العام، والثروات من الغزارة لدرجة لا يدرك مداها، حتى أن أمكنة كثيرة حول المواقع التي كان الفرنسيون يحتلونها، بقيت سالمة لم تمسها الأيدي، فكان هؤلاء يطمعون في العثور فيها على ثروات خرافية تفوق ما عثر عليه حتى الآن، وموسكو تستوعبهم أكثر فأكثر. وكما يختفي الماء الذي يصب على أرض جافة ويخفي معه جفاف الأرض، كان ذلك الجيش الجائع، ما إن يوغل في أعماق تلك المدينة الموسرة ولكن الخالية، حتى يختفي ويخفي معه يسار المدينة فلم يبق إلا الوحول والحريق والنهب.

يعزو الفرنسيون حريق موسكو إلى وطنية روستوبتشين الضارية والروس يعزونها إلى وحشية الفرنسيين. والواقع أنه لا يمكن ولا يجب تسجيل هذا الحريق على حساب شخص واحد أو بعض الأشخاص، لقد احترقت موسكو لأنها وجدت في مثل الشروط التي يجب على كل مدينة مبنية من الخشب أن تحترق معها، بصرف النظر عن وجود مائة وثلاثين مضخة رديئة أو عدم وجودها، كان على موسكو أن تحترق لأن سكانها رحلوا، بمثل البديهة التي تحترق بها رزمة من النشارة راحت تتساقط عليها طوال أيام كاملة شرارات متوالية، فمدينة من الخشب يقع فيها كل يوم حريق رغم احتياطات السكان ورجال الشرطة، لا يمكن أن تنجو من الحريق بعد أن يهجرها سكانها ويقطن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فيها جيش ويدخن جنوده الغليون ويوقدون النيران على ساحة مجلس الشيوخ ويغذونها بكراسي المجلس ويعدون طعامهم مرتين كل يوم.

ففي أيام السلم، يكفي أن يتخذ الجنود معسكراً لهم في قرى معينة حتى يزداد عدد الحرائق فيها. فكم يجب والحالة هذه أن تتضاعف إمكانيات الحرائق في مدينة من الخشب خالية من السكان، يعسكر فيها جيش غريب؟ فوطنية روستوبتشين الضارية ووحشية الفرنسيين لا علاقة لهما بالأمر مطلقاً. لقد احترقت موسكو بسبب الغلايين والمطابخ ونيران المعسكرات وبسبب لا مبالاة الجنود، سادة منازل لا تخصهم. وإذا كان هناك حقاً من أشعل النار (وهو أمر مشكوك فيه لأنه لم يكن لأحد دافع يلجئه إلى إضرام النار لأن الخطر كان متماثلاً في جسامته أقله بالنسبة إلى الجميع) فإنه لا يجب اعتبار هؤلاء الأشخاص المسببين لأن النتيجة بدونهم لم تكن لتختلف عما وقع في شيء.

ومهما كان اتهام ضراوة روستوبتشين ملاقاً حينذاك بالنسبة إلى الفرنسيين وكذلك عداء بوناپرت بالنسبة إلى الروس، ووضع مشعل بطولي في يد الغوغاء فيما بعد، فإنه يستحيل ألّا يرى أن مثل هذه الأسباب لا يمكن أن تغفل لأن موسكو كان يجب أن تحترق كما يجب أن تحترق أية قرية أو أي مصنع أو منزل يكون صاحبه غائباً، فيسكنه غرباء ويطهون طعامهم فيه، لقد أحرقت موسكو من قبل سكانها، وهذا صحيح، ولكن من قبل الذين خرجوا منها لا الذين بقوا فيها. فإذا لم تبق موسكو سليمة بعد احتلالها من قبل العدو مثل برلين وڤيينا ومدن أخرى، فما ذلك إلا لأن سكانها هجروها بدلاً من أن يقدموا المفاتيح للفرنسيين على أطباق إلى جانب الخبز والملح.

الفصل السابع والعشرون

من وسط موسكو حتى أحيائها، امتدت موجة الفرنسيين على شكل نجمة، وظلت المدينة تستوعبهم حتى بلغت عند المساء الحي الذي يسكن فيه پيار.

وكان پيار بعد يومين من الانزواء في ظروف خارقة، في حالة أقرب إلى الجنون تشغل كيانه فكرة وحيدة ملحاحة لم يكن يعرف من أين ولا كيف اجتاحت رأسه، وكانت تلك الفكرة قد استحوذت عليه لدرجة لم يعد معها يذكر شيئاً من الماضي ولا يدرك شيئاً من الحاضر، فكان كل ما يراه وما يسمعه يدور أمامه وكأنه في حلم.

غادر منزله لسبب وحيد وهو الإفلات من التعقيدات التي وجد نفسه فيها والتي أصبح الآن وهو على تلك الحالة الفكرية يشعر أنه عاجز عن حلها. لقد ذهب إلى مسكن جوزيف ألكسييـڤيتش بحجة تصفح أوراق المتوفى وكتبه بينما كانت الحقيقة هروباً من حياة حافلة بالهزّات لأن ذكرى هذا الرجل كانت مرتبطة في نفسه بعالم حافل بالأفكار الجليلة المسالمة المناقضة كلياً لذلك الاندفاع الجنوني الذي شعر بأنه ينجرف فيه. كان يفتش عن مأوى بعيداً عن كل ضجيج فوجد ذلك بالفعل في مكتب جوزيف ألكسييـڤيتش. وعندما جلس واتكأ على مكتب المتوفى المغبر في صمت الموت الذي يخيم على تلك الغرفة، أفاقت في ذاكرته ذكريات أيامه الأخيرة الواحدة تلو الأخرى بسكون مشبعة بالمعاني، وبصورة خاصة ذكريات معركة بورودينو، حيث

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أحسّ بتفاهته وبطلان حياته إزاء حياة أولئك الأشخاص الغائصين في الحقيقة والبساطة، الذين يسمون «هم» في مخيلته، وعندما جاء غيراسيم ينتشله من أحلامه، راودته فكرة الاشتراك في الدفاع عن موسكو، وهي فكرة كان يعرف أن السكان يصبون إليها، ولقد طلب إلى غيراسيم المعطف والمسدس لهذه الغاية، وأنهى إليه رغبته في التكتم حول اسمه وفي البقاء في منزل جوزيف ألكسييفيتش.

عاد پيار خلال يوم عطالته الأول ـ ولقد حاول عبثاً مرات عديدة أن يركز انتباهه على المخطوطات الماسونية ـ يتذكر بغموض المعنى السحري لاسمه بالارتباط باسم بوناپرت لكن تلك الفكرة، فكرة أنه هو «أروسي بيزوخوڤ» منذور سلفاً ليضع حداً لحكم الوحش، لم تكن حتى تلك اللحظة بالنسبة إليه أكثر من حلم من أحلامه الغامضة يخترق تفكيره عرضاً دون أن يخلف فيه أثراً.

وعندما اشترى معطفه بغية المساهمة مع السكان في الدفاع عن موسكو فحسب، قابل پيار آل روستوڤ وناتاشا التي قالت له: «هل تبقى؟ آه! كم هو حسن هذا!» وعندئذ جاءته فكرة البقاء كوميض البرق لينجز مهمته المعدة له منذ الأزل.

وفي اليوم التالي، مضى إلى مدخل الجبال الثلاثة تسيطر عليه فكرة وحيدة أن لا يوفر نفسه وأن يكون جديراً بـ: «هم». لكنه عندما رجع إلى المنزل مقتنعاً بأن موسكو لن يدافع عنها، شعر فجأة بأن كل ما بدا له حتى تلك اللحظة ممكناً أصبح بما لا يقبل الشك ضرورياً ومحتوماً وأن واجبه يقضي بإخفاء اسمه وبالبقاء في موسكو والبحث عن ناپليون وقتله ثم أن يموت هو نفسه أو أن يضع حداً لآلام أوروبا، تلك الآلام التي لم يكن لها في مخيلة پيار غير فاعل واحد وهو ناپليون الأوحد.

www.Maktbah.com

وكان ڀيار يعرف كل تفاصيل المحاولة التي وقعت في ڤيينا عام ١٨٠٩ ضد حياة بوناپرت من قبل طالب ألماني ويعرف أن ذلك الطالب أعدم رمياً بالرصاص فكان الخطر الذي يواجهه للقيام بمهمته يزيد في تحمسه زيادة كبيرة.

وكانت عاطفتان متساويتان في القوة تدفعان ڀيار إلى ذلك العزم. الأولى حاجته إلى التضحية بنفسه والتألم، تلك الحاجة التي أيقظتها المصيبة العامة المشتركة وهي العاطفة التي دفعته يوم الخامس والعشرين إلى موجايسك وألقت به في صميم المعركة وجعلته الآن ينفر من منزله الخاص ومن ترفه ورفاهيته لينام بكامل ثيابه على كنبة دون نوابض وليأكل الأصناف نفسها التي يأكلها غيراسيم، والعاطفة الثانية هي ذلك الإحساس غير المنطقي الخاص بالروس، الإحساس بالاشمئزاز من كل ما هو اصطلاحي اصطناعي بشري من كل ما يعتبره السواد الأعظم من الناس الخير الأعم. لقد شعر ڀيار في قصر سلوپودسكي بالنشوة الغريبة عندما شعر فجأة للمرة الأولى بأن الثراء والسلطان والحياة وكل ما يجهد الناس بشدة لكسبه والمحافظة عليه، لا تصبح ذات شأن إلا بالبهجة التي تغمر قلب الإنسان عند استطاعته هجرها.

هذا هو الشعور الذي يحس به المتطوع الفدائي عندما يثمل بآخر «كوبيك» في جيبه، والرجل الثمل الذي يحطم المرايا والزجاج دون أي سبب وهو يعرف أن تصرفه ذاك سيكلفه كل ما في جيبه. إنه هذا الشعور الذي يدفع الإنسان نحو تصرفات مخالفة للصواب (بصورة عامة) وكأنه يريد اختبار قوته وسلطته وأن يبرهن بهذه الوسيلة على وجود محكمة عليا تتحكم في الحياة فوق سنن البشر.

منذ ذلك اليوم الذي شعر فيه ڀيار بهذا، للمرة الأولى، في سلوپودسكي لم يكف مرة عن احتمال أثره حتى أصبح في تلك اللحظة راضياً عنه كل الرضى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ومن جهة أخرى كان في تلك اللحظة معتمداً في قراره على استحمال التراجع بعدما اجتازه حتى الآن في هذا السبيل. فكان فراره من منزله ومعطفه ومسدسه وتصريحه لآل روستوف بأنه باقٍ في موسكو، كل هذا، سيصبح عديم المعنى بل مبعث سخرية واحتقار ـ وكان پيار يشعر بذلك شعوراً جامحاً ـ إذا تصرف بعدئذ تصرف كل الناس وغادر موسكو.

وكانت حالة پيار الجسدية تتلاءم مع حالته الفكرية كالعادة دائماً. فالطعام المغلظ الذي تناوله خلال أيامه الأخيرة والذي لم يألفه من قبل والـڤودكا التي شربها وحرمانه من الخمر والسيجار واستحالة إبدال ثيابه الداخلية وليلتان دون نوم تقريباً أمضاهما على كنبة قصيرة بالنسبة إلى جسمه دون متطلبات السرير المريح، كل هذه الأمور جعلته في حالة انفعال عصبي قريبة من الجنون.

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر وكان الفرنسيون قد أنهوا دخولهم إلى موسكو وپيار يعرف ذلك لكنه بدلاً من أن ينشط إلى العمل، لم يكن يفكر إلا في مشروعه الذي أخذ يستعيد في ذاكرته أدق تفاصيله. لم يكن يكوّن لنفسه أية فكرة واضحة عن الطريقة التي سيتصرف بها لينفذ فكرته ولا أية فكرة عن موت ناپليون ولكن كان موته هو وجرأته البطولية هما ما يتمثله بجلاء خارق.

راح يفكر: «نعم، واحد في سبيل الكل، يجب أن أنجح أو أموت! نعم سوف أقترب.. ثم فجأة.. ترى المسدس أم الخنجر؟.. سيان على كل حال. لست أنا الذي أعاقبك بل هي يد القدرة..»، كان پيار يفكر في الكلمات التي سيقولها وهو يضرب ناپليون، حسناً، ماذا، خذوني، أحكموا علي». بذلك أخذ يفكر معقباً على آرائه وعلى وجهه مزيج من الحزم والحزن وهو مطرق الرأس.

وفي اللحظة التي كان پيار واقفاً في مكتب عمل جوزيف ألكسييـڤيتش

www.Maktbah.com

يناقش نفسه بتلك الصورة، فتح الباب وظهر على العتبة ماكار ألكسييـڤيتش وقد تخلص تماماً من مظهره المذعور الذي بدا عليه من قبل.

كان ثوبه المنزلي مفتوحاً ووجهه أصفر محمرّاً وهو بادي الثمل. فلما رأى پيار ارتبك لحظة ولكن لم يلبث أن تشجع فوراً لما رأى پيار نفسه مرتبكاً فتقدم إلى وسط الغرفة وهو يترنح على ساقيه النحيلتين.

قال بصوت أبح ولكن ثابت: لقد استبد بهم الخوف. إنني أقول: لن أستسلم، أقول ذلك أنا.. أليس كذلك يا سيدي؟

واتخذ سمة المفكر لكنه فجأة، عندما رأى المسدس على المكتب، أطبق عليه بحركة سريعة وفرّ إلى الممشى.

أوقفه جيراسيم والبواب اللذان لحقا به عند المدخل واجتهدا في نزع المسدس منه وأسرع پيار إلى الممشى وراح ينظر إلى العجوز نصف المجنون في عطف مشوب بالاشمئزاز. وكان ماكار ألكسييـڤيتش يعجو وجهه بتأثير المجهود ويشدد قبضته على المسدس ويصرخ بصوته الأبح وقد خيل إليه حقاً أنه في لحظة جليلة. زمجر: إلى السلاح! إلى الهجوم! كلا لن تناله!

بينما راح غيراسيم يردد وهو يحاول أن يدفعه بمرفقه ليجعله يجتاز الباب.

ـ كفى، أرجوك كفى. أرجو أن تترك هذا! هيا يا سيدي...

وعاد ماكار ألكسييـڤيتش يزمجر: من تكون؟ بوناپرت!...

ـ هذا ليس بمستحسن يا سيدي. أدخل إلى غرفتك أرجوك. اذهب واسترح تفضل واعطني هذا المسدس.

قال ماكار وهو يشهر المسدس ويزمجر بصوت أشد ارتفاعاً:

ـ إلى الوراء أيها العبد الحقير! لا تلمسني! هه، أرأيت؟ إلى الهجوم!

فهمس جيراسيم في أذن البواب: إحمله.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولقد جُرّ ماكار ألكسييـڤيتش نحو الباب.

لم يلبث الممشى أن امتلأ بصرخات السكير المنهوك القوى.

وارتفعت صيحة مدوية على المرقاة خرجت من حنجرة امرأة وأسرعت الطاهية بدورها إلى الممشى وهي تصيح:

ـ ها هم أولاء! أوه! يا إلهي، أقسم لكم إنهم هم! إنهم أربعة على جياد!

فأفلت جيراسيم والبواب ماكار ألكسييـڤيتش، وفي الممشى الذي ساده الصمت مجدداً ارتفعت طرقات جلية أحدثتها قبضات الأيدي على باب المدخل.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن والعشرون

كان پيار يقف قرب باب الممشى متحفزاً للاختفاء فور دخول الفرنسيين إلى المنزل، وكان قد قرّر إخفاء هويته ومعرفته باللغة الفرنسية حتى بعد إنجاز مهمته. لكن الفرنسيين دخلوا دون أن يتحرك لأن فضولاً لا يقاوم استبد به فأقامه في مكانه.

كانا اثنين أحدهما ضابط طويل القامة، جميل، جليل الطلعة، والآخر جندي بسيط، تابع الأول، ولا شك، مربوع القامة، نحيل العود، ملفوح الوجه بوجنتين غائرتين ووجهه بليد. دخل الضابط أولاً وكان يعرج ويتكئ على عصا. وبعد أن مشى بضع خطوات، توقف وقد وجد أن المنزل يوافق مزاجه ولا ريب، والتفت إلى الجنود الواقفين أمام الباب وصاح بهم بصوت آمر أن يأتوا بالجياد وبعد ذلك، رفع الضابط مرفقه إلى الأعلى بحركة متغطرسة وفتل شاربيه، ثم رفع يده إلى مقدمة عمرته وهو يوجه الحديث إلى الجميع: مرحباً أيها الموجودون؟

وراح يعاين المكان وهو يبتسم. فلم يجبه أحد.

ـ هل أنت البورجوازي؟

فراح جيراسيم ينظر إليه بجزع وفي عينيه استفهام.

قال الضابط وهو يقيس بنظره من عل قامة الرجل قصير القامة الواقف أمامه وعلى شفتيه ابتسامة عطوف:

ـ «كارتييه، كارتييه» سكن!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ثم تابع وهو يربت كتف جيراسيم الصامت المروع:

ـ أواه! إن الفرنسيين أطفال عاقلون يا للشيطان! هيا لننبذ الحقد يا عجوزي!

وأضاف وهو يجيل نظره فيما حوله ويلاقي به نظرة پيار الذي انفصل عن الباب:

ـ آه! هذا، قولوا، ألا يتحدث الفرنسية أحد في هذا المكان؟

وخاطب الضابط جيراسيم وهو يعتقد أنه يستطيع أن يجعل أجوبته أكثر وضوحاً إذا شوهها:

ـ السادة ليسوا هنا.. لا أفهم.. أنا.. لك.

فلوح الضابط وهو لا يزال يبتسم بإشارة أسفل أنف جيراسيم مشيراً بذلك إلى أنه هو الآخر لا يفهم، وتوجه وهو يعرج باتجاه الباب الذي وقف عنده پيار الذي كان يود لو يبتعد قبل أن يُرى لو لم ير في تلك اللحظة ماكار ألكسييـڤيتش يظهر على باب المطبخ والمسدس في يده. وبمكر المجانين نظر ماكار ألكسييـڤيتش إلى الضابط ورفع المسدس وصوبه وصاح وهو يضغط على الزناد: إلى الهجوم!

استدار الضابط، وفي اللحظة نفسها، ارتمى پيار على السكران. ولكن بينما كان يمسك بالمسدس وينتزعه منه، استطاع ماكار ألكسييـڤيتش أن يضغط على الزناد أخيراً فدوت طلقة تصم الآذان وامتلأت الغرفة بالدخان. فشحب وجه الفرنسي وأسرع نحو الباب.

نسي پيار عزمه على إخفاء معرفته باللغة الفرنسية، فانتزع المسدس من يدي ماكار ألكسييـڤيتش وألقاه جانباً ثم أسرع إلى الضابط وسأله بالفرنسية:

ـ ألم تجرح؟

فأجاب هذا وهو يلمس نفسه: أظن أن لا.

www.Maktbah.com

وأشار إلى خدش في طلاء الجدار وقال:

ـ لكنني نجوت هذه المرة بمعجزة.

ثم سأل بصرامة وهو يتأمل پيار:

ـ من هذا الرجل؟

فصاح پيار بقوة وقد نسي دوره تماماً:

ـ في الحقيقة إنني آسف جداً لما جرى. إنه مجنون، تاعس لم يكن يعرف ماذا يفعل.

اقترب الضابط من ماكار ألكسييـڤيتش وأمسك به من ياقته.

فتهاوى السكران على الجدار وقد سقطت شفته ونطقت أساريره بالتبلد وراح يترنح. فقال الفرنسي وهو يفلته:

ـ أيها المجرم، ستدفع لي ثمن ذلك! إننا نحن معشر الفرنسيين رحماء بعد النصر، وأضاف بلهجة خطيرة وهو يرفق قوله بإشارة نشيطة عريضة، لكننا لا نغفر للخونة.

استمر پيار يتوسل إليه بالفرنسية ألّا يعاقب سكراناً أقرب إلى الجنون ولقد أصغى إليه الفرنسي في صمت بادئ الأمر وهو مكفهر الوجه ثم ابتسم فجأة وتأمله بضع ثوان، فاتخذ وجهه الجميل مسحة مؤاسية وحانية معاً ومد له يده وقال: لقد أنقذت حياتي! إنك فرنسي.

لقد كان الشك لا يمكن أن يتطرق إلى نفس هذا الفرنسي الذي يعتقد أن الفرنسي وحده هو الذي يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل النبيل الذي هو إنقاذ حياة السيد رامبال رئيس الكوكبة الخفيفة الثالثة عشرة، والذي هو عمل يعتبر أكثر نبلاً من كل الأعمال الأخرى.

ظنّ پيار أن من واجبه أن يصحح خطأ الضابط مهما بلغ ذلك الرأي الذي صرح به من يقين فصاح بقوة:

ـ إنني روسي.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فرد الضابط وهو يبتسم ويشير له إشارة ساخرة:

ـ تا، تا، تا! قلها لغيري! سوف تروي عليّ الأمر بعد حين. إنني سعيد بلقاء مواطن.

وأضاف وهو يخاطب پيار وكأنه يتحدث إلى أخيه:

ـ حسناً، ماذا سنعمل بهذا الرجل؟

ولم يكن پيار مستطيعاً حتى ولو لم يكن فرنسياً أن يرفض هذا اللقب الذي هو أرفع لقب في العالم، وهو ما عبّر الضابط عنه بكل وضوح بلهجته وبتعبير وجهه. ففسر پيار مرة أخرى حالة ماكار ألكسييـڤيتش وكيف استولى السكران، ذلك المجنون، في اللحظة التي دخل الضابط، على مسدس محشو لم يستطيعوا انتزاعه من يديه ثم رجا الضابط مرة أخرى ألّا يعاقبه.

فانتصب الضابط وأشار بيده بحركة ملكية حقاً وقال بلهجة سريعة حازمة:

ـ لقد أنقذت حياتي! أنت فرنسي. تسألني العفو عنه؟ أمنحك ما تطلب. ليأخذوا هذا الرجل!

ثم أمسك بذراع ذلك الذي رفعه إلى مرتبة الفرنسي لأنه أنقذ حياته، ودخل معه إلى داخل المنزل.

واندفع الجنود الذين كانوا في الفناء إلى الدهليز على دويّ الانفجار وراحوا يستفسرون عما وقع ويعربون عن استعدادهم لمعاقبة المذنب. لكن الضابط استوقفهم بحزم وقال:

ـ سوف تستدعون عندما تدعو الحاجة إليكم.

فخرج الجنود. وجاء التابع الذي تسنى له خلال ذلك أن يعاين المطبخ يقول للضابط: أيها الرئيس، لديهم حساء وضلع خروف في المطبخ. فهل آتيك به؟

فأجاب الضابط: نعم، والخمر.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع والعشرون

اعتقد پيار أن من واجبه أن يؤكد مرة أخرى أنه ليس فرنسياً، عندما دخل الضابط إلى المنزل. وأراد أن ينسحب. لكن الضابط لم يصغ إليه. أظهر تهذيباً وتودداً فائقاً وبشاشة ورغبة عميقة في إبداء عرفانه تجاه منقذه حتى أن پيار لم يجد الشجاعة ليرفض له طلب مجالسته في القاعة التي كانت أول غرفة دخلا إليها. ولقد أدهش استمرار پيار في القول بأنه ليس فرنسياً الضابط أيما دهشة وهو الذي لم يفهم كيف يرفض مثل هذا الشرف، فهز كتفيه وقال لـپيار إنه إذا كان يصر على اعتبار نفسه روسياً فإنه لن يعارض رغبته وسيحتفظ برغم ذلك بعرفان دائم للرجل الذي أنقذ حياته.

ولو أن ذلك الفرنسي أبدى أقل استعداد لفهم شعور الغير، وأدرك ما يعتلج في نفس رفيقه، لتركه پيار بدون شك. لكن عدم قابليته الظاهرة لكل ما هو غير نفسه هو الذي حدا پيار أن يبقى.

قال الفرنسي وهو يلقي نظرة على ثياب پيار القذرة ولكن الثمينة وعلى الخاتم الذي في إصبعه:

ـ فرنسي أو أمير روسي متنكر، إنني مدين لك بحياتي وأعرض عليك صداقتي. إن فرنسياً لا ينسى إطلاقاً إهانة ولا خدمة. أعرض عليك صداقتي ولا أقول أكثر من ذلك.

كان في لهجة ذلك الضابط وفي تعابير وجهه وحركاته كثير من النبل وجودة النفس (بالمعنى الفرنسي للعبارة) حتى أن پيار أجاب على ابتسامته

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بمثلها وشد على اليد الممدودة إليه. قدم الفرنسي نفسه فقال وعلى شفتيه ابتسامة راضية.

ـ الرئيس رامبال من الكوكبة الخفيفة الثالثة عشرة، المنعم عليه بوسام لمعركة اليوم السابع. هل تتفضل الآن وتخبرني مع من لي الشرف بالتحدث بكل ود بدلاً من أكون في عربة إسعاف حاملاً رصاصة ذلك المجنون في جسدي؟

فأجاب پيار بأنه لا يستطيع أن يذكر اسمه وراح وقد احمرّ وجهه، يبحث عن اسم يقدم نفسه به وعن الأسباب التي يزعم أنها دعته إلى التنكر. لكن الفرنسي بادر يقاطعه قائلاً:

ـ عفوك. إنني أقدر ظروفك. إنك ضابط.. ضابط كبير على ما أظن ولقد حملت السلاح ضدنا. إن هذا ليس من شأني. إنني مدين لك بحياتي وهذا يكفيني. إنني لك بكليتي.

وفجأة سأل: أنت نبيل؟

فأطرق پيار برأسه.

ـ إسمك في المعمودية إذا أمرت؟ لا أطلب أكثر من ذلك. تقول السيد پيار؟.. عال. ها كل ما أرغب في معرفته.

فقدموا فخذ الخروف والشطير ووضعوا السماور على الطاولة، ثم جاؤوا بالفودكا والنبيذ المأخوذين من صندوق روسي للسفر حمله الفرنسيون معهم ثم دعا رامبال پيار أن يشاطره الطعام ولم يلبث هو نفسه أن راح يأكل بنهم كما يأكل الرجل القوي الجائع ويمضغ بأسنانه القوية ويصفق بلسانه في كل حين وهو يقول بصوت مرتفع: ممتاز، رائع! ولم يلبث وجهه أن احمرّ وغطاه العرق. ونهج پيار الجائع نهجه في الأكل. وجاء موريل، تابع الضابط، بقدر معدنية فيها ماء ساخن غمس فيه زجاجة من النبيذ الأحمر، كما جاء

www.Maktbah.com

بزجاجة من خمرة «كواس» حملها من المطبخ ليذوقها. ولقد أصبح هذا النوع من الشراب معروفاً من الفرنسيين مقبولاً لديهم وكانوا يسمونه «ليموناضة الخنزير»، فأخذ موريل يطري الزجاجة التي اكتشف وجودها في المطبخ. ولكن، لما كان الرئيس متزوداً بخمر ممتاز حصل عليه خلال اجتيازه موسكو، فقد تنازل عن زجاجة الكواس لموريل وهاجم هو نبيذ بوردو. أخذ منشفة أحاط بها عنق الزجاجة وصب لنفسه كأساً ثم لضيفه ولقد كان من تأثير الشبع ومساعدة النبيذ، أن ازداد الرئيس حيوية، فلم يكف خلال فترة الطعام عن الثرثرة.

ـ نعم يا عزيزي السيد پيار. إنني مدين لك بفضل عميم لأنك أنقذتني.. من هذا المسعور.. إن بي كفاية كما ترى من الرصاص في جسدي. وها هي ذي واحدة (وكشف عن جنبه) أصابتني في «واغرام» كما أصبت باثنتين في سمولنسك، وأشار إلى آثار خياطة جرح في وجنته، وها هي ذي ساقي كما ترى ترفض أن تسير. لقد أصبت بهذه الإصابة في معركة اليوم السابع الكبرى، في موسكوڤا. بالله، كم كانت جميلة! ليتك رأيتها، إنها طوفان من نار. لقد أظهرتم لنا مقاومة عنيفة يمكنكم أن تفخروا بها وأقسم بشرف نبيل صغير، إنني رغم كل ما أصبت به خلال هذه الملاحم، أراني نبيلاً صغيراً. فإنني رغم كل ما أصبت به خلال هذه الملاحم، أراني على استعداد لإعادة الكرة مجدداً وأرثي لحال الذين لم يروا تلك المعارك.

قال پيار: لقد كنت هناك.

فصاح الفرنسي: حقاً! حسناً، أفضل. إنكم رغم كل شيء أعداء فخورون. لقد كان التل الصغير شديد الصمود «وملأ الغليون». ولقد جعلتمونا ندفع ثمناً غالياً، لقد ذهبت إليه ثلاث مرات كما تراني. كنا ثلاث مرات على المدافع وثلاث مرات دُفعنا مثلما تدافع الأرانب. أوه! كان ذلك رائعاً يا سيد پيار.

twitter @baghdad_library

لقد كان قناصتكم رائعين وحق الله. لقد رأيتهم ست مرات يعبئون صفوفهم ويمشون وكأنهم في عرض عسكري. يا للرجال الرائعين! ولقد صاح ملكنا، ملك نابولي، الذي يقدر هذه الأشياء: مرحى! آه! آه! جنود مثلنا!

وبعد دقيقة صمت أضاف: هذا أفضل يا سيد پيار، هذا أفضل. رهيبون في المعركة. ظرفاء (وغمز بعينيه وهو يبتسم) مع الجميلات، أولئك الفرنسيون يا سيد پيار أليس كذلك؟

كان الفرنسي في حالة مرح صريحة جداً وكان شديد الرضى عن نفسه حتى أن پيار كاد يجيبه على غمزة عينه بمثلها وهو ينظر إليه بمرح. ولقد أعادت كلمة «ظرفاء» أفكار الفرنسي ولا شك إلى الموقف في موسكو فقال: وبهذه المناسبة، قل لي، هل حقيقة أن النساء غادرن موسكو؟ يا لها من فكرة مضحكة؟ ماذا كان يخيفهن؟

فسأل پيار:

ـ أما كانت السيدات الفرنسيات ليغادرن باريس لو احتلها الروس؟ صاح الفرنسي وهو يقهقه ويربت كتف پيار:

ـ آه! آه! يه!.. آه! إن هذه قوية جداً. باريس؟.. لكن باريس، باريس..

فأعقب پيار: باريس، عاصمة العالم..

نظر إليه الضابط دون أن يرمش. لقد كان من عادته أن يصمت فجأة وهو في غمار حديثه ليتأمل مخاطبه بعينين ضاحكتين ودودتين.

ـ حسناً، لو أنك لم تقل لي إنك روسي لراهنت على أنك باريسي. إن فيك هذا الذي لا أعرف ما هو، هذا..

وقطع على نفسه الحديث بعد هذا الإطراء ليتأمل من جديد پيار في صمت. قال پيار: لقد كنت في باريس. لقد أمضيت فيها سنوات.

ـ أوه! هذا يرى بوضوح. باريس!.. إن الرجل الذي لا يعرف باريس

www.Maktbah.com

إنسان متوحش. إن الباريسي يعرف من رائحته على بعد ميلين. باريس هي تالما، دوشين پوتييه، السوربون، الشوارع العريضة.

ولما رأى أن خاتمة حديثه لا تساوي بدايته، بادر يقول:

ـ لا يوجد في العالم إلا «باريس» واحدة. لقد كنت في باريس ثم لبثت روسياً. إن تقديري لك لن ينقص.

وجد پيار تحت تأثير الخمرة، وبعد كل هذه الأيام التي قضاها في خلوة مع أفكار قاتمة، متعة غير إرادية في التحدث مع هذا الفتى الباسل المرح.

ـ عودة إلى سيداتكم، يقولون إنهن جميلات جداً. يا لها من فكرة سيئة أن يذهبن إلى القفار فيدفن أنفسهن فيها، عندما يكون الجيش الفرنسي في موسكو. يا للحظ الذي فات هؤلاء السيدات. إن فلاحيكم «موجيك» يختلفون. أما أنتم، معشر المتمدنين، فإنكم ولا ريب تعرفوننا أفضل من ذلك لقد احتللنا ڤيينا وبرلين ومدريد وناپولي وروما وڤرصوڤيا وكل عواصم العالم.. إنهم يخافوننا لكنهم يحبوننا. إننا نصلح لأن يتعرف الناس إلينا. ثم إن الأمبراطور..

وهم أن يستمر لولا أن قاطعه پيار فكرر بلهجة اعتراها الارتباك ووجه انطبع فجأة بالوجوم:

ـ الأمبراطور، هل الأمبراطور..

ـ الأمبراطور! هو الكرم والرحمة والعدالة والنظام والعبقرية. هذا هو الأمبراطور! إنني أنا، رامبال، الذي أقول لك هذا.. إنني كما تراني، كنت عدوه منذ ثماني سنوات خلت. لقد كان أبي كونتاً مهاجراً.. هزمني، هذا الرجل. لقد أسرني. لم أستطع مقاومة مشهد العظمة والمجد اللذين أضفاهما على فرنسا. ولما أدركت ما يريد ورأيت أنه إنما يصنع لنا محملاً من الغار، قلت لنفسي،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لاحظ،: ها هو ذا سلطان، واستسلمت له. وهذا كل شيء! أوه! نعم يا عزيزي، إنه أعظم رجل في القرون التي خلت والتي سوف تأتي.

سأل پيار وهو يتردد تردد الرجل الذي ضبط في الخطأ: هل هو في موسكو؟

فتأمل الفرنسي ذلك الوجه الذي يشبه وجه المذنب وراح يضحك ثم قال وهو يستأنف حديثه: كلا، سوف يدخل المدينة غداً.

قطع الحديث ارتفاع أصوات آتية من وراء الباب ودخول موريل الذي جاء يعلن لرئيسه أن فرساناً ورتمبرغيين وصلوا منذ حين يريدون إيداع خيولهم في الفناء نفسه الذي احتلته جياده هو. وكانت الصعوبة في الموضوع ناجمة عن أن الفرسان لا يفهمون شيئاً مما يقال لهم.

أعطى الرئيس الأمر باستقدام الرقيب الأول وسأله بلهجة صارمة عن الفيلق الذي ينتمي إليه وعن اسم رئيسه والحق الذي سمح لنفسه بموجبه أن يحتل منزلاً احتل من قبل. ولما كان الألماني ضعيف الفهم للغة الفرنسية، فقد أجاب عن السؤالين الأولين بإعطاء اسم فيلقه ورئيسه. لكنه لم يستوعب معنى السؤال الأخير فراح يعبر بنتف من الجمل الفرنسية ممزوجة بلغته الألمانية مجيباً بأن رئيسه أصدر إليه الأوامر باحتلال صف المنازل كله. ولما كان پيار يعرف الألمانية، فقد ترجم للرئيس ما يقوله الفارس وللفارس ما قاله الرئيس. فلما فهم الألماني حقيقة الأمر أخيراً، تراجع وأخذ معه رجاله. وبعد ذلك، خرج الرئيس إلى المرقاة وأصدر بعض الأوامر بصوت مرتفع.

ولما رجع إلى الغرفة، وجد پيار جالساً في مكانه نفسه ورأسه بين يديه ووجهه ينطق بالألم. والحقيقة أنه كان في تلك اللحظة يتألم. إذ إنه عندما بقي وحيداً بعد خروج الرئيس، عاد فجأة إلى نفسه واستوعب الموقف الذي أصبح فيه. لم يكن ما يعذبه في تلك اللحظة أن موسكو قد احتلت وأن المنتصرين

www.Maktbah.com

السعداء أصبحوا أسياداً فيها بل أصبح هو نفسه تحت حمايتهم. صحيح أن كل هذا ثقيل على قلبه ولكن لم يقل مثل ثقل إحساسه بضعفه. ذلك أن بضع كؤوس من الخمرة والمحادثة التي دارت بينه وبين هذا الفرنسي اللطيف، انتصرت على حالته النفسية الكئيبة التي أمضى بها أيامه الأخيرة تلك، وهي الحالة النفسية اللازمة للقيام بما اعتزم أن يقوم به. فالمسدس والخنجر والمعطف كلها جاهزة ونابليون سيدخل موسكو غداً.

ظل پيار يرى أن قتل هذا الأثيم عمل نافع وفروسي. لكنه بات يشعر الآن بأنه لن يقوم به. لماذا؟ لا يعرف. لكنه كان يشعر مسبقاً بأنه لن يسير في مشروعه حتى النهاية. راح يناضل ضد شعوره بالضعف، لكنه كان يحس إحساساً غامضاً بأنه لن يسيطر على ذلك الضعف وأن أحلامه بالانتقام والاغتيال والتضحية قد نثرتها الريح كالرماد لدى اللقاء مع أول وافد.

عاد الرئيس إلى الغرفة وهو يجر ساقه ويصفر.

خيل إلى پيار أن ثرثرته التي سلته بادئ الأمر قد أصبحت بشعة فجأة ومنفرة. وذلك الصفير، وذلك التصرف، وتلك الطريقة في عكف شاربيه كل ذلك بدا له الآن مهيناً. فكر: «إنني سأذهب فوراً دون أن أضيف كلمة أخرى إلى ما قلته له». مع ذلك، فإنه لم يتحرك رغم هذه الفكرة. لقد كان ذلك الشعور الغريب بالضعف يسمره في مكانه، فكان يريد النهوض والرحيل ولكن لا يستطيع.

أما الرئيس، فقد بدا على العكس شديد المرح إلى أقصى حد. طاف في الغرفة مرتين وعيناه تلتمعان وشارباه يرتجفان قليلاً وكأن شيئاً مضحكاً جداً يجعله يبتسم ابتسامة خفيفة. وفجأة صاح: رائع، زعيم هؤلاء الورتمبرغيين! إنه ألماني، لكنه فتى باسل إذا وجب ولكنه ألماني، ووقف قبالة پيار وأعقب، وبالمناسبة، إنك إذن تعرف الألمانية أنت؟

twitter @baghdad_library

فنظر إليه پيار في صمت: كيف تقول: ملجأ، بالألمانية؟

فكر پيار:

ـ ملجأ؟ ملجأ بالألمانية: أونتركونفت.

سأل الرئيس بلهجة قوية غير مصدقة:

ـ كيف تقول؟

فردد پيار:

ـ أونتركونفت.

فقال الرئيس وهو يتأمل پيار خلال لحظات بعينيه الضاحكتين:

ـ أونتركوفت. إن الألمان وحوش فخورون.

ثم أعقب: أليس كذلك يا سيد پيار؟

وتابع: حسناً، زجاجة أخرى من هذا النبيذ الموسكوڤي، أليس كذلك؟

ثم صاح بمرح: موريل، اذهب وسخن لنا زجاجة صغيرة، موريل!

جاء موريل بالزجاجة وبالشموع. فتأمل الرئيس پيار على ضوئها ودهش لما بدا على قسماته من عطف عنيف. اقترب من پيار وانحنى عليه بانجذاب ينطق بالحدب المخلص وقال وهو يضغط على يده وسأل:

ـ حسناً، إنك حزين. فهل تراني أسأت إليك؟ كلا، قل الحق، هل في نفسك شيء علي؟ هل الأمر يتعلق بالموقف؟

فنظر پيار إلى الفرنسي بود دون أن يجيب. كان شديد التحسس بالعطف الذي أظهر له.

هتف الفرنسي وهو يقرع صدره:

أعاهدك بالشرف على أنني أشعر بصداقة نحوك بصرف النظر عما أنا مدين به إليك، هل أستطيع أن أسدي إليك يداً؟ تصرف بي. وهو عهد يشمل الحياة أو الموت. أقول هذا لك ويدي على قلبي.

www.Maktbah.com

فأجاب پيار: شكراً.

تأمله الرئيس بإمعان بمثل النظرة التي تجلت في عينيه وهو يتعلم كلمة ملجأ بالألمانية وأشرق وجهه فجأة.

صاح بكل مرح وهو يملأ كأسين: آه! في هذه الحالة سأشرب نخب صداقتنا!

تناول پيار كأسه المترعة وأفرغها دفعة واحدة وشرب رامبال كأسه وضغط على يد پيار مرة أخرى ثم اتكأ على الطاولة في وضع سوداوي ومفكر. شرع يقول: نعم يا صديقي العزيز، هذه هي صروف الدهر.. من كان يقول إنني سأكون جندياً ورئيساً لكوكبة من الفرسان في خدمة بوناپرت كما كنا ندعوه من قبل؟ مع ذلك، ها أنذا في موسكو معه.

وأعقب بصوت حزين ومتزن، صوت رجل يتأهب لرواية قصة طويلة: يجب أن أقول لك يا عزيزي إن اسمنا من أعرق الأسماء الفرنسية.

وبصراحته الساذجة البسيطة كفرنسي، روى الرئيس لـپيار تاريخ أسلافه وطفولته وصباه وشبابه وكل مشاكله المادية والعائلية. وغني عن الذكر أن «أمي المسكينة» كانت تلعب في هذا الحديث دوراً هاماً. قال وهو ينتعش:

ـ لك هذا كله ليس إلا إخراج الحياة، أما الأساس فإنه الحب! الحب! أليس كذلك يا سيد پيار؟ هل لك بكأس أخرى؟

فشرب پيار وسكب لنفسه كأساً ثالثة:

ـ أوه! النساء! النساء!

وراح الرئيس ينظر إلى پيار بعينين متراخيتين ويحدثه عن الحب وعن مغامراته الغرامية.

كانت عديدة جداً والمرء يسهل عليه تصديقه إذا نظر إلى الحماسة التي يتحدث بها عن النساء وإلى أمارات الرضى المرتسمة على وجهه وإلى ذلك

twitter @baghdad_library

الوجه الجميل نفسه. وعلى الرغم من أن مغامرات رامبال كانت تحوي الجانب الخلاعي الذي يكون لدى الفرنسيين فتنة الحب وشاعريته، فإن الرئيس أخذ يروي وقائعه بإيمان مخلص بأنه وحده الذي ذاق كل الحب وتعرف إليه، ويصف بطلات أقاصيصه بإغراء عنيف حتى أن پيار كان يصغي إليه بفضول.

من الواضح أن الحب الذي يحبه الفرنسي بمثل هذه الشدة ليس ذلك الكلف البدائي والشهواني الذي أحس به پيار فيما مضى نحو زوجته ولا ذلك الحب الرومنطيقي الذي يشعر به نحو ناتاشا وكان رامبال يحتقر كليهما معاً لأن الأول في نظره «غرام السواقين» والثاني «غرام الحمقى»، بل إن الحب الذي يجرفه كان يتألف بصورة خاصة من العلاقات الخارقة مع النساء وكانت سلسلة من تآلف الأشياء الغريبة تكوّن المظهر الرئيسي للعاطفة.

وهكذا روى الرئيس قصة غرامه المثيرة مع مركيزة فاتنة في الخامسة والثلاثين، التي يبطنها غرامه لابنة هذه الأخيرة، وهي فتاة أنيسة ساذجة في السابعة عشرة من عمرها. ولم يعد الصراع في الكرامة بين الأم والبنت الذي انتهى بتضحية الأم التي قدمت ابنتها زوجة لعشيقها، إلا مجرد ذكرى بعيدة، ذكرى لا تزال رغم ذلك تثير عواطف الرئيس. ثم روى سلسلة من القصص كان الزوج فيها يلعب دور العاشق وهو، العاشق، دور الزوج ثم بعض قصص أخرى هزلية عن «ذكرياته في ألمانيا» حيث تلفظ كلمة ملجأ أونتركونفت وحيث الأزواج يأكلون الكرنب المهروم المخمر وحيث الفتيات شقراوات جداً.

وصل أخيراً، إلى سرد مغامرته الأخيرة في بولونيا، تلك المغامرة التي ما زالت حديثة العهد في ذاكرته، فرواها بحركات ملؤها الحيوية ووجهه ينطق بالنشوة. لقد أنقذ حياة بولوني (وفي روايات الرئيس، كان لا بد من حادث ينقذ فيه حياة أحدهم) بشكل راح هذا البولوني معه يسلمه قيادة زوجته الفاتنة

www.Maktbah.com

باريسيّة القلب، بينما انخرط هو في خدمة فرنسا. وكان الرئيس في غاية ما يشتهي فأرادت البولونية الفاتنة أن تفر معه. مع ذلك، فقد أعاد الزوجة إلى زوجها في غمرة إحساس نبيل وقال له: «لقد أنقذت حياتك، وها إنني أنقذ شرفك!» وأخذ رامبال وهو يردد هذه الكلمات يمسح عينيه ويهز رأسه وكأنه يريد أن يطرد التحنان الذي غمره أمام ذكرى على هذا القدر من التأثير.

وكما يحدث غالباً في ساعة متأخرة من الليل وتحت تأثير الخمرة، راح پيار وهو يصغي إلى أقاصيص الرئيس، يتبع ذكرياته الخاصة التي دهمت ذاكرته فجأة. ولقد أيقظت اعترافات الحب تلك هواه بناتاشا فراح يستعيد صورته في خياله ويقارنه بأقاصيص رامبال. ولقد ذكرته قصة الصراع بين الواجب والحب بلقائه الأخير مع ناتاشا قرب برج سوخارييـڤ. مرت ذكريات ذلك اللقاء أمام عينيه في أدق تفاصيله. لقد أثر فيه ذلك اللقاء تأثيراً خفيفاً في حينه، بل إنه نأى تماماً عن ذاكرته. أما الآن، فعلى العكس، لقد بدا أنّ له معنى وشاعرية خاصة مختلفة تماماً.

«يا پيوتر كيريلليتش، تعال، لقد عرفتك». كان يسمع هذه الكلمات ويرى أمامه عيني ناتاشا وابتسامتها وقلنسوة السفر التي على رأسها وخصلات شعرها المجنونة.. لقد كان لكل هذه الأشياء لون من الحنو والتأثير.

وبعد أن انتهى من حكاية البولونية التي أعادها إلى زوجها، سأل الرئيس پيار عما إذا كان أحسّ بمثل عاطفة التضحية بالذات هذه في سبيل الحب والحقد نحو الزوج الشرعي.

رفع پيار رأسه عقب هذا السؤال واستبد به شعور بالحاجة إلى أن يفصح عما في نفسه، فراح يشرح لجليسه كيف أنه يفهم الحب على لون آخر. قال إنه خلال حياته كلها لم يحب إلا امرأة واحدة وإن هذه المرأة لن تكون له أبداً.

فصاح الرئيس:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ هه!

ثم قال پيار إنه يحب هذه الامرأة منذ نعومة أظفارها لكنه لم يجرؤ على التفكير فيها لأنها لم تكن أكثر من «بنية» صغيرة وإنه هو، الأب غير الشرعي، لا يملك حتى اسماً، ولما تلقى فيما بعد الاسم والثروة إرثياً، ما عاد يجرؤ على مفاتحتها كذلك لأنه كان يحبها حباً عنيفاً ويضعها في مكان سام جداً وبالتالي أرفع من مقامه بكثير.

وعندما وصل إلى هذه النقطة من روايته، سأل پيار الرئيس عما إذا كان يفهمه فبدرت عن الرئيس إشارة تعني أنه ولو لم يكن يفهم شيئاً، فإن هذا لا يجب أن يحول دون پيار ومتابعة الحديث، وغمغم: الحب الأفلاطوني،...!

هل كان النبيذ الذي احتساه أم ضرورة فتح مكنونات قلبه أم كذلك التأكيد من أن هذا الرجل لا يعرف ولن يعرف قط شخصاً واحداً من الذين يتحدث عنهم، أم ترى كل هذه الاعتبارات مجتمعة هي التي حلت لسان پيار من عقاله؟ مهما كان الأمر، فقد راح يروي قصة حياته وقد جف لعابه وشخص بعينيه العكرتين إلى نقطة ما في البعد. روى قصة حياته وزفافه وحب ناتاشا لصديقه الحميم ثم خيانة الفتاة والعلاقات العاطفية التي يكنها لها بل لقد أفشى مدفوعاً بأسئلة رامبال، ما أخفاه في بادئ الأمر: مركزه الاجتماعي واسمه الحقيقي.

وكان الذي زاد من دهشة الرئيس لاعترافات پيار، هو أنه إزاء رجل غني جداً يملك قصرين في موسكو، هجر كل شيء دون أن يغادر المدينة وبقي آخر الأمر، وهو يخفي اسمه ومركزه.

في ساعة متأخرة من الليل، خرجا معاً إلى الشارع، كان الليل صاحياً بديعاً وإلى يسار المنزل، التمعت نيران أول حريق شب في موسكو على پيتروڤكا وإلى اليمين، كان قرص القمر الجديد عالياً جداً في السماء. وقابلة القمر،

www.Maktbah.com

المذنب المضيء الذي كان يشترك في نفس پيار مع غرامه. وأمام المنزل، وقف جيراسيم والطاهية وفرنسيان، وكانوا يضحكون ويتحدثون محاولين أن يتفاهموا وقد علت أصواتهم. كانوا يتأملون الضوء الذي أخذ يتصاعد فوق المدينة.

لم يكن لهذا الحريق البعيد في مدينة كبرى أي أثر مخيف.

أحس پيار بحنو مرح وهو يتأمل السماء الكبرى ذات النجوم والقمر والنجم المذنب والضوء الأحمر. فكر: «كم هو جميل كل هذا». لكنه فجأة، عندما تذكر مشروعه، أحس بدوار في رأسه وألم ينتابه فاستند إلى الحاجز مرغماً كي يتفادى السقوط.

ودون أن يستأذن صديقه الجديد، ابتعد پيار عن الباب وهو يترنح ودخل إلى غرفته حيث استلقى على الكنبة ونام فوراً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثلاثون

من عدة نقاط شوهد وميض الحريق الأول، في الثاني من أيلول، وأحدث تأثيرات متنوعة على السكان النازحين وعلى الجيش المنسحب.

في تلك الليلة، توقفت قافلة آل روستوف على مسافة عشرين فرسخاً[1] من موسكو، في ميتشتشي لأنهم في اليوم الأول، نزحوا متأخرين جداً وكان الطريق مزدحماً بالعربات والقطعات الكثيرة، واضطروا إلى انتظار عديد من الأشياء المنسية أرسلوا يستحضرونها حتى قرروا أخيراً أن يناموا على مسافة خمسة فراسخ عن موسكو. وفي اليوم التالي، استفاقوا متأخرين ووجدوا كذلك كثيراً من العوائق في الطريق حتى أنهم لم يجتازوا غراند ميتشتشي. ولقد تفرق آل روستوف والجرحى المسافرون معهم، في الساعة العاشرة، في الأكواخ الخشبية وأفنية تلك الضيعة الكبيرة. وبعد أن قام الخدم والتابعون بخدمة أسيادهم، تناولوا الطعام بدورهم واهتموا بشأن الخيول ثم خرجوا على المرقاة.

كان في المنزل المجاور مساعد راييـڤسكي العسكري وقد تحطم معصمه وهو يتألم ألماً شديداً رهيباً وتدوي زمجراته المستمرة بشكل مؤثر جداً في تلك الليلة الخريفية. ولقد أمضى هذا المساعد العسكري الليلة الأولى في الفناء الذي نزل فيه آل روستوف فشكت الكونتيسة أنها لم تغمض

(١) مقياس روسي طوله ١٠٦٧ متراً. (المترجم).

www.Maktbah.com

جفنها بسبب تلك الأنات. لذلك انتقلت في ميتشتشي إلى كوخ خشبي أكثر تواضعاً لكي تبتعد عن ذلك الجريح.

شاهد أحد الخدم في الظلمات، من وراء صندوق إحدى العربات العالي المتوقفة عند مدخل الفناء وميض حريق آخر أقل انتشاراً. وكان الحريق الأول واضحاً تماماً منذ فترة طويلة، والكل يعرف أن مكانه هو بوتيت ميتشتشي (الصغرى) حيث أضرم قوقازيو مامونوف النار.

قال أحد التابعين: وهذا أيها الرفاق، إنه حريق آخر.

فالتفتوا جميعهم نحو اللهيب.

ولكن ماذا، وقد قيل إن قوقازيّي مامونوف يحرقون ميتشتشي الصغرى!

ـ هم؟ كلا، ليس في ميتشتشي الصغرى بل أبعد من ذلك بكثير.

ـ أنظر جيداً، لا بد وأن الحريق في موسكو.

نزل خادمان عن المرقاة ومضيا وراء العربة ثم اعتليا المرقاة.

إنه أكثر إلى اليسار أنظر: إن ميتشتشي من هذه الناحية، وهذه في الجهة المضادة.

واقترب بعض الرجال من هذين وقال أحدهم: هه، كيف يرتفع اللهب! هذه، أيها السادة، هي موسكو التي تشتعل. سواء في سوشتنشيـڤكاييا أو في روغوسكاييا.

فلم يجب أحد عن هذه الملاحظة واستمر هؤلاء الأشخاص ينظرون خلال فترة طويلة إلى لهب هذا الحريق الجديد المتصاعد وهم صامتون.

اقترب وصيف عجوز للكونت، دايل تيرانتيتش، من الجماعة ونادى ميشكا.

ـ ماذا تنتظر هنا أيها الغبي الصغير!.. إن الكونت يناديك فلا يجيبه أحد. امض واهتم بالألبسة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فأجاب ميشكا: كنت ذاهباً لملء ماء.

قال خادم: وأنت يا دانيل تيرانتيتش. ماذا تقول؟ إن هذا يبدو من موسكو دون شك.

لم يجب دانيل تيرانتيتش وراح ينظر بصمت فترة طويلة. وكان اللهب المتراقص يزداد اتساعاً..

قال صوت: ليحفظنا الله!.. بهذه الريح وهذا الجفاف..

ـ أنظر كم تقترب النار بسرعة. أوه، إلهنا! إن المرء ليرى طيور «الشوكا»! إلهنا، أرفق بنا!

فرد دانيل تيرانتيتش الذي بقي صامتاً حتى ذلك الحين:

ـ ومن سيطفئها؟

وأردف، وصوته هادئ بطيء:

ـ نعم إنها في موسكو أيها الإخوان، الأم ذات الأسوار البيضاء... وتهدج صوته فجأة وراح ينتحب كما ينتحب العجائز.

وكما أنهم جميعاً لم يسمعوا إلا هذا القول ليدركوا معنى ذلك الحريق بالنسبة إليهم، فارتفعت الحسرات والصلوات الممتزجة بإجهاش الوصيف العجوز.

www.Maktbah.com

الفصل الواحد الثلاثون

روى الوصيف عندما رجع إلى سيّده أن موسكو تحترق. فارتدى الكونت معطفه المنزلي وخرج مستطلعاً، وخرجت معه السيدة شوص وسونيا التي لم تكن قد خلعت ثيابها بعد فلم يبق في الداخل إلا ناتاشا والكونتيسة وحدهما، إذ كان پيتيا قد افترق عن أسرته لأنه تبع فيلقه الذي كان متجهاً إلى ترويپيتسا الواقعة على مسافة ثمانية وستين فرسخاً من موسكو.

بكت الكونتيسة عندما علمت بحريق موسكو. أما ناتاشا الشاحبة، شاخصة النظر، الجالسة تحت الأيقونات على مقعد لا مسند له (وقد بقيت جالسة فيه دون أن تتحرك منذ وصولها) فإنها لم تلق بالاً إلى ما كان يقوله أبوها. كانت تصغي إلى أنين المساعد العسكري المستمر الذي كان يُسمح رغم المنازل الثلاثة الفاصلة.

صاحت سونيا وهي عائدة من الخارج ترتجف مروعة:

ـ آه! هذا مريع! أعتقد أن موسكو كلها تحترق يا للشعلة المخيفة! ناتاشا، اذهبي إلى النافذة وانظري، يمكن الآن رؤية كل شيء بوضوح.

وكانت بهذا القول الموجه إلى ابنة عمها تحاول التسرية عنها. لكن ناتاشا نظرت إليها وكأنها لا تفهم ما يطلب إليها وعادت تحدق مجدداً إلى زاوية المدفأة. لقد كانت في هذا النوع من السبات المستغرق من الصباح، منذ أن ظنت سونيا لسبب لا يعلمه إلا الله، ولعظيم دهشة الكونتيسة وانزعاجها الكبير أن من الضروري إخطار ناتاشا بجرح الأمير أندريه وبوجوده معهم في

twitter @baghdad_library

القافلة. وثارت الكونتيسة على سونيا ثورة لم تتعرض هذه لمثلها إلا نادراً فسألتها الصفح وهي تبكي. والآن، وكأنها تحاول التكفير عن ذنبها، راحت تظهر مزيداً من الاستمالة.

قالت سونيا:

ـ أنظري ناتاشا كيف يشب الحريق بقوة. هذا رهيب.

سألت ناتاشا: ما الذي يحترق؟ آه! نعم، موسكو!

وكأنها أرادت ألّا تجرح سونيا برفضها وأن تتخلص منها، فأدارت رأسها نحو النافذة ونظرت بشكل كان بديهياً معه أن لا ترى شيئاً وعادت إلى وضعيتها السابقة.

ـ لكنك لم تري!

فقالت بصوت يتوسل أن تُترك وشأنها: بلى، بلى، لقد رأيت جيداً.

فهمت الكونتيسة وسونيا أن موسكو وحريق موسكو وكل ما يمكن أن يحدث، لا يمكن أن يكون على أي قدر من الأهمية بالنسبة إلى ناتاشا في تلك اللحظة.

عاد الكونت إلى وراء حاجز الكوخ الخشبي واستلقى. فاقتربت الكونتيسة من ناتاشا ومست رأسها بظاهر يدها كما كانت تفعل كلما كانت ابنتها مريضة ثم لمست جبينها بشفتيها وكأنها تريد أن تعرف ما إذا كانت مصابة بالحمى ثم عانقتها وقالت:

ـ هل أصابك برد؟ إنك ترتجفين. يجب أن تنامي.

فأجابت ناتاشا:

ـ أن أنام؟ نعم، حسناً، إنني ذاهبة لأنام فوراً.

ذلك الصباح، عندما عرفت أن الأمير أندريه المصاب بجرح خطير يسافر معهم، بدأت أول الأمر تطرح الأسئلة تلو الأسئلة. كانت تريد أن تعرف أين وكيف جرح وهل جرحه خطير وهل يمكن مشاهدته. وعندما أكدوا لها بأنه

لا يمكن رؤيته وإن جرحه رغم خطورته، لا يعرض حياته للخطر، لم تصدق بالطبع ما قالوه لها، لكنها لاحظت أنهم يقدمون الأجوبة نفسها عن أسئلتها. لذلك كفت عن السؤال بل عن الكلام أيضاً.

وخلال المرحلة كلها، لم تحرك ناتاشا ساكناً في زاويتها واحتفظت بذلك المظهر الذي شوهدت عليه في تلك الآونة وهي جالسة على المقعد الذي لا مسند له: عينان واسعتان كانت الكونتيسة أخبر الناس بمعناهما وأكثرهم خوفاً مما تدلان عليه. كانت تفكر وتقرر شيئاً ما في أعماق نفسها إن لم يكن قد اتخذت قرارها بعد. وكانت الكونتيسة تشعر بذلك لكنها لم تكن تعرف ما يمكن أن يكون ذلك، وهذا ما كان يخيفها ويعذبها.

ـ ناتاشا. اخلعي ثيابك يا عزيزتي ونامي في سريري. (لقد كانت الكونتيسة وحدها تنام على سرير. أما السيدة شوص والفتاتان، فكنّ يَنَمْنَ على قش فوق الأرض).

فأجابت ناتاشا نافدة الصبر: يا أماه، سأنام هنا، على الأرض.

ثم اقتربت من النافذة وفتحتها وتناهت أنات المساعد العسكري إلى الآذان أكثر وضوحاً خلال النافذة المفتوحة. أخرجت رأسها إلى هواء الليل الرطيب فشاهدت الكونتيسة عنقها الدقيق ينتفض من النسيج ويصطدم بالإطار الخشبي. كانت ناتاشا تعرف أن هذه الأنات ليست أنات الأمير أندريه وتعرف أن الأمير ينام في الكوخ الخشبي الملاصق، يفصله عن كوخهما مدخل عادي. لكن ذلك الأنين المتواصل المريع كان ينتزع الدموع من عينيها. تبادلت الكونتيسة نظرة مع سونيا وقالت وهي تلمس كتفها برفق:

ـ نامي يا عزيزتي، نامي يا صغيرتي. هيا، نامي.

فقالت ناتاشا وهي تبادر إلى خلع ثيابها منتزعة أشرطة أثوابها انتزاعاً:

ـ آه! نعم.. فوراً، فوراً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وبعد أن خلعت ثوبها،ارتدت صدرتها وتربّعت على ساقيها المثنيتين فوق السرير المعد لها على الأرض وكفأت شعرها الناعم القصير إلى الأمام وراحت تضفره. ولقد حلت أصابعها الطويلة الرقيقة ضفائرها وعادت تنسقها بسرعة محمومة فكان رأسها ينحني تارة إلى هذه الجهة وتارة إلى تلك بحركة أليفة بينما بقيت عيناها المتسعتان كأنهما متأثرتان بالحمى، شاخصتين. ولما انتهت من زينة الليل، استلقت ناتاشا دون ضوضاء على الشرشف الممدد فوق القش قرب الباب.

قالت لها سونيا: ناتاشا، نامي في الوسط.

فأجابت ناتاشا: إنني مرتاحة هنا.

وأضافت بسأم: ولكن، هيا جميعكن إلى النوم.

وأغرقت وجهها في وسادتها.

خلعت الكونتيسة والسيدة شوص وسونيا ثيابهن بسرعة وأوينَ إلى فراشهن وبقي السراج المتراقص أمام الأيقونات وحده يضيء الغرفة. لكن الفناء كان مضاء تماماً بلهب حريق ميتشتشي الصغرى البعيدة مسافة فرسخين. وكانت صيحات السكارى تدوي في المشرب الكائن عند منعطف الشارع الذي نهبه قوقازيو مامونوف وصيحات المساعد العسكري المستمرة تسمع دون انقطاع.

أصاخت ناتاشا السمع دون أن تتحرك إلى الضوضاء الآتية من الخارج والداخل فسمعت بادئ الأمر أمها تتلو صلاتها وتتنهد ثم فرقعة السرير تحت ثقل جسمها وشخير السيدة شوص الخفيف المألوف الذي يرافقه صفير قصير وتنفس سونيا الهادئ. ثم نادت الكونتيسة ناتاشا التي لم تجب.

همست سونيا: أظنها نائمة يا أماه.

نادت الكونتيسة مرة أخرى، بعد فترة صمت، ولكن لم يجبها أحد هذه المرة.

www.Maktbah.com

وبعد قليل سمعت ناتاشا تنفس أمها المنتظم. لم تند عنها حركة رغم أن قدمها الصغيرة كانت خارج الغطاء متجمدة على الأرض الباردة.

وراح جُدجُدٌ يصر في أحد الشقوق وكأنه يحتفل بانتصاره على كل هؤلاء النيام. وصاح ديك على البعد ورد آخر في مكان أقرب على صياحه، وهدأت الصيحات في الحانة فلم تعد تسمع إلا أنات المساعد العسكري. انتصبت ناتاشا وهمست:

ـ سونيا، هل أنت نائمة؟ ماما!

فلم يجبها أحد. نهضت ناتاشا ببطء وحذر وبعد أن رسمت إشارة الصليب وضعت باطن قدميها العاريتين على الأرض القذرة الباردة فصرّت الألواح الخشبية. اقتربت من الباب بخطوات سريعة صغيرة كالقطة وأدارت الرتاج المتجمد.

خيل إليها أنهم يضربون كل جدران الكوخ الخشبي بضربات مكتومة متزنة كان ذلك قلبها الذي يتخاذل وينبض بشدة تكاد تنتزعه من الهلع والخوف والحب.

فتحت الباب واجتازت العتبة ووضعت قدميها على أرض المدخل الرطيب المتجمد. ولقد أنعشها ذلك البرد الذي يسري إلى وصالها. صدمت بقدمها العارية جسم رجل نائم فتخطته ثم فتحت باب الكوخ الخشبي الملاصق حيث كان الأمير أندريه مسجى. كان كل شيء معتماً هناك. ففي إحدى الزوايا قرب السرير حيث كان جسد إنسان مسجى، وضعت شمعة من شحم الغنم تحترق ذبالتها احتراقاً سيئاً مشكلة أخيلة فوق مقعد خشبي.

منذ الصباح، منذ أن عرفت بجرح الأمير أندريه ووجوده بينهم، قررت ناتاشا أنه يجب عليها أن تراه. لم تكن تعرف لماذا يجب ذلك، بل تعرف فقط أن هذه المقابلة ستكون عقاباً ولهذا السبب وجدت أنها ضرورية للغاية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أمضت النهار في أمل واحد هو لقاؤه ذلك المساء. والآن وقد أزفت اللحظة المنتظرة، كان الخوف يملأ صدرها لما ستراه. كيف تراه مشوهاً؟ ماذا بقي منه؟ هل كان مثل ذلك المساعد العسكري الذي لا يكف عن الأنين؟ نعم، لقد كان كذلك. كان في خيالها ذلك الأنين المريع مجسداً. ولما رأت في الزاوية كتلة غير واضحة المعالم، اعتبرت ركبتي الأمير أندريه اللتين كانتا ترفعان الغطاء عن كتفيه فتصورت جسداً مخيفاً وتوقفت مروعة. لكن قوة لا تقاوم دفعتها إلى الأمام. خطت خطوة بتحرّز ثم أخرى فوجدت نفسها وسط غرفة مليئة بالأشياء. وعلى المقعد الخشبي تحت الصور، وجدت رجلاً ممدداً (هو تيموخين). بينما هجع رجلان آخران على الأرض (الطبيب والوصيف).

نهض الوصيف وتمتم بضع كلمات. أما تيموخين الذي كان يتألم من جرح ساقه، فلم يكن نائماً بل كان يختلس النظر بعينيه المتسعتين إلى ظهور الفتاة الغريب في قميص أبيض وصدرة وقلنسوة ليل. بيد أن الكلمات القليلة التي نطق بها الوصيف المذعور وهو لا يزال تحت تأثير النوم: «من هناك؟ ماذا تريدين؟» دفعت ناتاشا إلى الإسراع بالتقدم نحو الذي يهجع في الزاوية. كان يجب أن ترى ذلك الجسد مهما كان مشوهاً ومخيفاً. مرت بالقرب من الوصيف وعندئذ انتهى احتراق القسم الرديء من الشمعة، فشاهدت ناتاشا على الضوء الذي أصبح أكثر توهجاً، الأمير أندريه ممدداً ويداه فوق الغطاء، كما عرفته من قبل دائماً.

كان يشبه نفسه لكن لونه الذي ورّدته الحمى وعينيه الشاخصتين إليها بنشاط وخصوصاً عنقه الرخص الطفولي الذي يخرج من ياقة قميصه المفتوحة، كانت تعطيه هيئة خاصة، مظهراً فتياً بريئاً لم تره عليه من قبل البتة. اقتربت، وبحركة سريعة ومرنة ركعت.

فابتسم ومد لها يده.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني الثلاثون

لقد انتصرت الحمى الدائمة والتهاب الأمعاء على الأمير أندريه وقد مضى أسبوع على ذلك الحين إلى أن عاد وعيه في عربة الإسعاف في ساحة معركة بورودينو، لم يستعد وعيه تقريباً قط. وفي اليوم السابع أكل بشهية شريحة خبز وشرب قدحاً من الشاي ولمس الطبيب انخفاضاً في الحمى. استعاد الأمير أندريه رشده صباحاً. ولقد تركوه ينام أول ليلة خلال الرحلة في عربته لأن الجو كان دافئاً. لكنه في ميتيشتشي، أصر هو نفسه على أن يخرجوه من العربة وأن يقدموا له قدحاً من الشاي. ولقد انتزع منه الألم الذي أحس به وهم ينقلونه من العربة زمجرات قوية وفقد الرشد مجدداً. وبقي طويلاً على سرير الميدان الذي سجوه عليه مغمض العينين لا حراك فيه. ثم فتح عينيه وتمتم: «والشاي؟» ولقد دهش الطبيب لتلك الذاكرة المدققة لأتفه تفاصيل الحياة فجس نبضه. ولدهشته الكبيرة، وبشيء من القلق، وجد أنه أفضل. وإذا كان الطبيب قلقاً، فذلك لأنه كان يعرف بالتجربة، أن الأمير أندريه مقضي عليه وأنه إذا لم يمت من حينه، فسيموت فيما بعد وسط أقوى نوبات الألم. وكانوا ينقلون مع الأمير أندريه، عسكرياً برتبة ماجور، تابعاً لفوجه، ألحقوه بالقافلة في موسكو، اسمه تيموخين، وهو ذو أنف أحمر صغير، أصيب بجرح في ساقه في معركة بورودينو نفسها. وكانا، الأمير أندريه والماجور، مصحوبين بطبيب ووصيف الأمير وحوذيه وتابعين.

قدموا الشاي للأمير أندريه فشرب بنهم وعيناه المحموتان شاخصتين

twitter @baghdad_library

أمامه على الباب وكأنه يحاول أن يدرك وأن يتذكر. ثم سأل: كفاني. هل تيموخين هنا؟

فجرّ تيموخين نفسه ناحيته وتعلق بالمقعد:

ـ ها أنذا يا صاحب السعادة.

ـ كيف حال جرحك؟

ـ جرحي؟ تافه. ولكن أنت؟

استغرق الأمير أندريه في التفكير وكأنه يبحث عن شيء في ذاكرته.

سأل: هل من سبيل للحصول على كتاب؟

ـ أي كتاب؟

الإنجيل. لست أملكه.

وعد الطبيب بإيجاد إنجيل وسأل الأمير عما يشعر به فأجابه مكرهاً ولكن بكل وعي، عن كل أسئلة الطبيب ثم أعلن أنهم لو وضعوا تحته وسادة لشعر براحة أكثر وبآلام أقل. فرفع الطبيب والوصيف المعطف الذي يغطيه وراحا وهما يصعران وجهيهما من رائحة النتن المتصاعدة من لحمه النتن، يفحصان الجرح المريع. ولقد ند عن الطبيب ما يشعر بالاستياء ثم أعاد ترتيب جانب من الضمادة وقلب المريض بشكل جعله يعاود الزمجرة ويفقد الوعي مجدداً بتأثير الألم ويعود إلى الهذيان. استمر يكرر دون انقطاع طلبه للكتاب ورغبته في أن يوضع بجانبه بأسرع ما يمكن. ردد:

ـ ماذا يكلفكم؟ لست أملكه. أوجدوه لي أرجوكم وضعوه بالقرب مني لحظة صغيرة.

واستمر يردد هذه الشكوى الأليمة بصوت ضعيف. وخرج الطبيب إلى الدهليز ليغسل يديه فقال للوصيف الذي كان يصب الماء على يديه:

www.Maktbah.com

ـ آه! إنك لا تدرك الموضوع حقاً. يكفي للقضاء عليه دقيقة واحدة من عدم الانتباه من جانبي. إنه ألم هائل حتى أنني مندهش جداً إذ أراه يحتمله.

فأجاب الوصيف: يبدو أننا نبذل أفضل ما في وسعنا! أيها الرب يسوع!

أدرك الأمير أندريه للمرة الأولى كنه ما وقع له. تذكر أنه جريح وأنه في اللحظة التي وقفت عربته الخفيفة في ميتيشتشي، طلب أن ينقل إلى أحد الأكواخ. وبعد أن فقد رشده مجدداً بتأثير الألم، استعاد وعيه مرة أخرى في الكوخ وشرب الشاي وأخذ يعيد تخطيط ما أصابه في ذاكرته، فعاش من جديد وبأكثر إحساس من ذي قبل تلك اللحظة التي قضاها في مستشفى الميدان، عندما رأى آلام الرجل الذي يكرهه، فامتلكت عليه مشاعره إحساسات وآراء جديدة كانت تبشره بالسعادة. فراحت تلك الأفكار، رغم غموضها وحيرتها، تستحوذ على روحه مجدداً. تذكر أنه الآن يملك سعادة جديدة وأن لتلك السعادة علاقة ما بالإنجيل. ولهذا السبب، طلب هذا الكتاب.

لكن الوضعية الرديئة التي جعلوا جرحه عليها وهم يقلبونه، جعلته يضيع مرة أخرى حبل أفكاره وكانت تلك، هي المرة الثالثة التي يستعيد تماسه مع الحياة في سكون الليل المطبق. كان كل شيء نائماً حوله وعند المدخل جدجد يصر، وفي الخارج يغني أحدهم ويكثر من اللفظ ودويبات الليل «تخربش» على الطاولة وفوق الأيقونات والجدران، وذبابة كبيرة تصطدم بوسادته الكبيرة وتدندن حول الشمعة الموضوعة بالقرب منه التي كانت تبرعم وهي تسيل.

لم تكن روحه في حالتها الطبيعية. فالرجل الصحيح الجسم عادة تنتابه معاً ألف فكرة وإحساس وذكرى، فإذا ما أوقف اختياره على سلسلة واحدة من الأفكار أو الوقائع، يجد الإرادة والقوة لتثبيت كل انتباهه على تلك السلسلة. والرجل الصحيح الجسم قادر عى أن ينتزع نفسه من فكرة عميقة ليقول كلمة رفيقة لشخص دخل منذ حين ثم أن يعاود سياق أفكاره. وروح الأمير أندريه،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تبعاً لهذا الرأي، لم تكن في حالتها الطبيعية لأن قواه الفكرية كانت أكثر نشاطاً وإشراقاً من أي وقت مضى لكنها كانت تعمل خارج نطاق إرادته. كانت الأفكار والصور الأكثر تبايناً تستحوذ عليه وكان تفكيره أحياناً يبدأ فجأة في العمل بشدة ووضوح وعمق لم يكن له مثلها وهو في أفضل حالة صحية. لكنها فجأة، في غمار النشاط، تتحطم الفكرة وينبعث خاطر غير متوقع فيصبح مستحيلاً عليه إعادة ربط السلسلة.

كان يفكر وهو مسجى في الكوخ المظلم الساكن وعيناه الكبيرتان المحمومتان تحدقان أمامه: «نعم، لقد بشرت بسعادة جديدة لا يمكن أن تنتزع من الإنسان سعادة لا تخضع للقوى المادية والتأثيرات الخارجية، سعادة الروح وحدها، سعادة الحب! إن كل إنسان يستطيع أن يفهمها. لكن الله وحده يستطيع أن يضفيها أو أن يبشر بها. وكيف بشرنا الله بهذا القانون؟ لماذا الابن؟...».

وفجأة انقطع حبل أفكاره وسمع الأمير أندريه، دون أن يعرف ما إذا كان ذلك في اليقظة أم في الهذيان؟ صوتاً رقيقاً هامساً يكرر باستمرار وبإيقاع: «بيتي - بيتي - بيتي» ثم من جديد: أي - تي - تي - ثم اي - تي - تي. وفي الوقت نفسه، على صوت هذه الموسيقى الهامسة، أحس بأن بناء غريباً يرتفع فوق وجهه عند منتصفه تماماً، بناء في الهواء قوامه إبر دقيقة أو قطع خشبية صغيرة وشعر، رغم شدة إيلام هذا الشعور، أنه مرغم على الاحتفاظ بتوازنه بعناية كي لا ينهار ذلك البناء الهوائي. لكنه مع ذلك انهار، ثم عاد ببطء مجدداً يرتفع ويتكون على صوت تلك الموسيقى الهامسة. أخذ الأمير أندريه يحدث نفسه: «إنه يكبر، إنه يستطيل ويكبر!» وفي الوقت الذي أخذ يصيخ السمع إلى ذلك الهمس ويشعر بذلك البناء من الإبر يرتفع وتتسع رقعته، كان الأمير أندريه يرى خلال فترات، تلك الدائرة الحمراء التي ينشرها لهب الشمعة ويسمع

www.Maktbah.com

«خربشة» الدويبات وطنين الذبابة التي كانت تصطدم بوسادته أو بوجهه. وكلما مست الذبابة وجهه، أحدثت إحساساً بالاحتراق لكنه في الوقت نفسه يدهش كلما رأى أنها تصطدم في المكان نفسه الذي ارتفع ذلك البناء فوق وجهه دون أن ينهار. بالإضافة إلى ذلك، كانت ظاهرة أخرى هامة تقع في ذلك الحين. إنها بقعة بيضاء عند الباب، تماثل أبا الهول، راح هو الآخر يسحقه.

فكر الأمير أندريه: «لعله قميصي الموضوع على الطاولة. هنا ساقاي، وهنا الباب. إذن لماذا يطول ويرتفع هذا الـ: بيتي، بيتي - بيتي، اي - تي - تي - اي - بيتي، بيتي، بيتي..» وصرخ الأمير أندريه بصوت ناحب وكأنه يتوسل إلى أحدهم: «كفى، كفى، أرجوك، توقف». ثم عادت فجأة أفكار ومشاعر ذات قوة وجلاء خارقين.

حدث نفسه وهو في إشراق فكري عميق: «نعم، الحب. ليس هذا الحب الذي يعرف غايته ودوافعه أو سببه، ولكن ذاك الذي أحسست به لأول مرة حينما رأيت عدوي وأنا على شفا الموت، فأجبته رغم العداء. لقد شعرت حينذاك بذلك الإحساس الذي هو جوهر روحنا بالذات والذي لا يحتاج إلى غرض. والآن أيضاً أحس بهذا الشعور الهنيء. حب الآخرين! حب أعداء الإنسان! حب كل شيء، هو حب الله في كل مظاهره. حب مخلوق عزيز إنما هو حب اختص به الإنسان. ولكن حب العدو إنما هو حب سماوي مجرد. ولهذا السبب أحسست بتلك البهجة الكبرى عندما شعرت بأنني أحب ذلك الرجل. ماذا حدث له؟ هل مات؟

«أن يحب المرء حباً إنسانياً، معناه أن ينتقل من الحب إلى الكراهية في حين الحب السماوي لا يتبدل. ما من شيء حتى ولا الموت يستطيع أن يحطمه. إنه جوهر الروح. كم من الناس كرهتهم طوال عمري مع ذلك فإنني لم أحبب أحداً ولم أكره أحداً بقدر ما أحببتها وكرهتها». وتصور ناتاشا بقوة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ليس كما يتصورها من قبل بتلك الفتنة وحدها التي سحرته بل تصور لأول مرة روح ناتاشا. فأدرك عواطف الفتاة وألمها وخجلها وندمها. شعر الآن بكل قسوة رفضه ورأى للمرة الأولى قسوة فصمه علاقاته معها. «ليتني أستطيع رؤيتها من جديد مرة واحدة مرة، واحدة، أرى فيها عينيها وأقول لها...».

«بيتي - بيتي، بيتي - بيتي، بوم!» واصطدمت الذبابة مجدداً. وفجأة انتقل انتباهه إلى عالم آخر من الحقائق والتخيلات كان شيء ما خاص يقع فيه. لقد كان بناء آخر يرتفع في هذا العالم أيضاً دون أن ينهار، بناء يكبر باستمرار وإن كانت الشمعة نفسها تحترق فيه أيضاً وسط دائرتها الحمراء وقميص أبي الهول نفسه ينتصب عند الباب. إلا أنه إلى جانب كل ذلك، ارتفعت خشفة ونفحة هواء عليل ثم أبو هول جديد أبيض منتصب ظهر أمام الباب. وكان أبو الهول هذا شاحب الوجه ملتمع العينين أشبه بناتاشا هذه التي كان يفكر فيها منذ حين.

فكر الأمير أندريه وهو يحاول طرد هذا الوجه من مخيلته: «اوه! كم هو مؤلم هذا الهذيان المستمر!» لكن ذلك الوجه بقي هناك بكل ما للحقيقة من قوة وراح ذلك الوجه يقترب. أراد الأمير أندريه أن يعود إلى عالم الفكر النقي الذي بارحه منذ حين لكنه لم يستطع لشدة ما كان الهذيان يجره إلى قطاعه. تابع الصوت الهادئ الهامس دمدمته الإيقاعية وضيق عليه شيء ما جسمه وظل الوجه الغريب مائلاً أمامه.

استجمع الأمير أندريه كل قواه ليتملك نفسه وانتفض لكن أذنيه دوتا فجأة واضطربت عيناه وفقد الرشد أشبه برجل على وشك الغرق وعندما عاد إلى وعيه، كانت ناتاشا، ناتاشا نفسها، تلك التي كان يود أن يحبها من دون خلق الله طراً بذلك الحب الجديد النقي السماوي الذي تنزل عليه، راكعة أمام سريره. أدرك أنها ناتاشا الحقيقية بلحمها ودمها، فابتهج ابتهاجاً رقيقاً بدلاً من

www.Maktbah.com

أن يندهش. وكانت ناتاشا راكعة مرتجفة من الخوف ولكن ساكنة ـ إذ كانت عاجزة عن الحركة ـ تنظر إليه وهي تحبس نحيبها ووجهها شاحب وكأنه جامد باستثناء الارتجافة التي تمر بالفك الأسفل.

أطلق الأمير أندريه زفرة ارتياح ومد لها يده وابتسم وقال:

ـ هذا أنت؟ يا للسعادة؟

اقتربت منه ناتاشا على ركبتيها بقوة واحتراس وأمسكت يده برفق وحنت رأسها فوقه ثم قبلتها وهي لا تكاد تلمسها. قالت لاهثة وهي ترفع رأسها وتنظر إليه: صفحاً! اصفح عني!

قال الأمير أندريه: أحبك!

صفحاً..

سأل الأمير أندريه: أصفح عن أي شيء؟

فقالت ناتاشا بصوت متقطع لا يكاد يسمع:

ـ اصفح عني عما.. فعلت.

وغمرت يده بقبلات مترفقة. فقال الأمير أندريه:

ـ أحبك أكثر بكثير وأفضل بكثير مما كنت أحبك من قبل.

ثم رفع وجهها بيده ليتسنى له أن يتأمل عينيها.

كانتا مغمورتين بدموع السعادة، تينك العينين اللتين راحتا تنظران إليه بخجل مفعمتين بالحنو والفرح والحب. كان وجه ناتاشا النحيل ذو الشفتين المنتفختين أبعد من أن يكون جميلاً بل مخيفاً. لكن الأمير أندريه لم يكن يراه بل كان ينظر إلى تينك العينين اللامعتين اللتين كانتا آية في الجمال. ومن ورائهما، ارتفعت جلبة أصوات.

لقد أيقظ پيار الوصيف، الذي تخلص تماماً من سلطان النوم، الطبيب بدوره. أما تيموخين الذي كان جرح ساقه يمنعه من النوم، فقد كان يرى كل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ما يحدث منذ أمد طويل. وأعاد الغطاء بعناية على جسمه المعرى وتكور على قدر طاقته فوق مقعده.

قال الطبيب وهو يغادر مرقده: ما هذا؟ تفضلي بالخروج يا آنسة.

وفي تلك اللحظة، طرقت الباب خادم أرسلتها الكونتيسة لتبحث عن ابنتها.

خرجت ناتاشا من الغرفة كالمصاب بمرض السير أثناء النوم الذي أوقظ من نومه العميق. فلما دخلت الكوخ الآخر، سقطت على مرقدها منتحبة.

ومنذ ذلك اليوم، وطوال فترات التوقف والمراحل التي مرت بها رحلة آل روستوف الطويلة، لم تترك ناتاشا الجريح حتى اضطر الطبيب إلى الاعتراف بأنه لم يكن يعتقد قط أنه واجد فتاة على مثل تلك الحيوية وتلك البراعة في معالجة الجرحى.

ومهما بلغت فكرة إمكان موت الأمير أندريه بين يدي ابنتها خلال السفر بالنسبة إلى الكونتيسة، وهو أمر ممكن الوقوع تبعاً لرأي الطبيب، فإنها لم تستطع منع ناتاشا من التصرف وفق رغبتها. وكان تقارب الأمير أندريه الجريح من ابنتها، يحمل في أعطافه إمكانية عودة علاقات الخطبة إلى سابق عهدها عند الشفاء. لكن ما من أحد كان يشير إلى ذلك، بل إن ناتاشا والأمير كانا أقل الناس تفكيراً في مثله. لقد كان شاغل واحد يحتكر الانتباه العام: مسألة موت أو حياة معلقة ليس فوق رأس پولكونسكي فحسب، بل فوق روسيا كلها.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث والثلاثون

في الثالث من أيلول، استيقظ پيار متأخراً جداً وهو فريسة صداع في رأسه، وبدت له ملابسه التي لم يخلعها قبل النوم ثقيلة للغاية بينما جعلته موجة غامضة يشعر بأنه ارتكب يوم أمس عملاً مخجلاً، وذلك الشيء هو حديثه مع رامبال.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. لكن الجو في الخارج معتم بشكل خاص. نهض پيار وفرك عينيه. فلما رأى المسدس ذا المقبض الملبس الذي أعاده جيراسيم إلى مكانه على المكتب، تذكر پيار المكان الذي هو فيه وما قرر أن يقوم به ذلك اليوم بالذات.

فكر: «ألست متأخراً؟ كلا. «إنه» لن يدخل موسكو على ما يبدو قبل الظهر».

لم يسمح لنفسه بعدئذ أن يفكر في مهمته بل راح يتعجل الانتقال على العمل بسرعة المحموم.

وبعد أن أدخل بعض النظام على ألبسته، أخذ پيار المسدس واستعد للذهاب. لكنه في تلك اللحظة تساءل للمرة الأولى كيف عليه أن يحمل سلاحه الذي لم يكن بوسعه الاحتفاظ به في يده في الشارع. كان يستحيل عليه إخفاء مسدس من هذا العيار حتى تحت معطفه الواسع. لم يكن يستطيع وضعه في منطقته ولا تحت إبطه دون أن يكون ملحوظاً. ثم إن المسدس كان فارغاً ولم يجد پيار وقتاً كافياً لإعادة حشوه. حدث نفسه رغم أنه قال في نفسه

twitter @baghdad_library

غير مرة وهو يفكر في مشروعه أن خطأ الطالب الرئيسي عام ١٨٠٩ كان لجوؤه إلى الخنجر في محاولته قتل ناپليون: «سوف يفي الخنجر كذلك بالغرض». لكن غاية پيار الحقيقية كانت في واقع الحال البرهان لنفسه بأنه لن يتراجع عن غرضه بل إنه سيعمل كل شيء لإنجازه على أفضل وجه أكثر مما سيعمل إنجاز خطته نفسها. أخذ بسرعة خنجراً رديئاً مثلما في غمد أخضر اشتراه مع المسدس في وقت واحد من برج سوخاريـيـڤ وأخفاه تحت صدرته.

اجتهد پيار أن يسير دون ضجيج وأن يتجنب الرئيس بعد أن جذب نطاق معطفه جيداً وأرخى قلنسوته على عينيه، فاجتاز الممشى ونفذ إلى الشارع.

واتخذ الحريق الذي لم يأبه له مطلقاً مساء أمس، شكلاً جدياً إذ كانت موسكو تحترق فعلاً من نقاط عديدة. كان الحريق مستقراً في آن واحد في أروقة صانعي العربات وفي الحي المقابل وفي جوستيني دفور، في بوڤارسكاييا بين الأكواخ الخشبية القائمة على نهر موسكـڤا وفي «ورشات» الخشب قرب جسر دوروغوميلوف.

وكان الطريق الذي يريد پيار السير فيه، يقوده عبر شوارع ضيقة ابتداء من بوڤارسكاييا ثم عبر الأربات نحو كنيسة القديس نيكولا. إذ كان ذلك هو المكان الذي حدّده في خياله منذ زمن طويل ليقوم فيه بعمله. كان الجانب الأكبر من المنازل مغلق النوافذ، والأبواب والشوارع والأزقة خالية، والهواء مفعم برائحة الحريق والدخان. وهنا وهناك، كان المرء يقابل بعض الروس وعلى وجوههم أمارات الذعر والقلق وجنوداً فرنسيين تظهر القحة على وجوههم يحتلون وسط الشارع، فكان أولئك وهؤلاء يصوبون إلى پيار نظرات حافلة بالدهشة. كان ما يدهش الروس، إضافة إلى قامته المديدة بنيته المتينة وأمارات وجهه المعذبة المركزة بشكل غريب مثل مجموع شخصيته، استحالة قدرتهم على تحديد البيئة التي ينتمي إليها هذا الرجل. في حين أن

www.Maktbah.com

الفرنسيين كانوا يتابعونه بأعينهم لأنه بدلاً من أن ينظر إليهم بفضول ممتزج بالرعب ككل مواطنيه، لم يكن يعيرهم التفاتاً. وأمام أحد المنازل، استوقف ثلاثة من الفرنسيين كانوا يتحدثون مع روس دون أن يفهم هؤلاء عليهم، ليسألوه عما إذا كان يعرف الفرنسية.

أشار پيار برأسه أن لا وتابع طريقه، وفي زقاق آخر، صاح به حارس واقف إلى جانب صندوق خشبي بالأخضر وقال شيئاً. فلم يفهم پيار أن عليه أن يعمد إلى الجانب الآخر من الشارع إلا عندما كرر الحارس أمره المتوعد ورآه يصلي بندقيته. لم يكن منتبهاً إلى ما حوله بل كان يحمل فكرته في نفسه وكأنها شيء غريب خطير، يحملها بعجلة وهول وهو يخشى، بعد تجربته في الليلة السابقة، أن يفقدها نهائياً، ولكن لم يكن مقدراً على پيار أن يحتفظ بتلك الحالة النفسية سليمة حتى يبلغ المكان الذي اتجه إليه. بل إنه حتى ولو لم يستوقفه أحد، فإن فكرته لم تكن لتتحقق لأن ناپليون كان منذ أكثر من أربع ساعات قد اجتاز ضاحية دوروغوميلوف عن طريق الأربات متجهاً إلى الكرملين مباشرة، وكان في تلك اللحظة يحتل مكتب القيصر في قصر الكرملين وهو في أسوأ حالاته الفكرية ويعطي الأوامر المفصلة لإطفاء الحريق فوراً ومنع النهب وتهدئة روع السكان.

لكن پيار ما كان يعرف شيئاً من ذلك، كان مستغرقاً في الحادث المستعجل، يعذب نفسه على شاكلة العنيدين الذين يحولون المستحيل ليس بسبب صعوبة العمل نفسه بل لأن طبيعة العمل منافية لطبعه ولأنه يخاف أن يضعف في اللحظة الحاسمة فتنحط قيمته بالتالي في نظر نفسه.

وعلى الرغم من أنه لم يسمع شيئاً من كل ما يدور حوله، فإنه كان يتبع بالغريزة الطريق التي اختطها لنفسه دون أن يخطئ في متاهة الأزقة المؤدية إلى بوڤارسكاييا.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكلما اقترب من بوڤارسكايا، ازداد الدخان وشعر الإنسان بحرارة الحريق، ومن حين إلى آخر كانت ألسنة من اللهيب تنبعث من سقوف المنازل وأصبح اللقاء بالناس كثيراً واتسمت الوجوه بطابع ظهر فيه الذعر بأكثر جلاء. لكن پيار رغم شعوره بأن شيئاً ما خارقاً يحدث حوله، لم يكن منتبهاً إلى أنه يسير مباشرة نحو الحريق، وبينما هو يجتاز ممراً يخترق أرضاً خواء واسعة متصلة من جانب بوڤارسكايا ومن الآخر بحدائق نزل الأمير غروزينسكي، سمع بجانبه فجأة صيحة يائسة تطلقها امرأة فتوقف وكأنه استيقظ من حلم ورفع رأسه.

تناثرت خارج الممر، على الحشائش المغبرة الجافة قطع من الأثاث، فرس وسماور وأيقونات وصناديق. وعلى الأرض بجانب الصناديق، جلست امرأة ناحلة في مفترق سنين، ذات أسنان أمامية طويلة، مرتدية معطفاً طويلاً أسود تضع على رأسها قلنسوة، راحت هذه المرأة تتمايل وهي تدمدم بشيء ما وتبكي بكاء مريراً، بينما راحت فتاتان إحداهما في العاشرة والثانية في الثانية عشرة مرتديتان أثواباً قصيرة متسخة ومعطفين صغيرين مبطنين بالفراء، تنظران إلى أمهما وعلى وجهيهما الشاحبين المروعين أمارات الذهول. وكان صبي أصغر سناً في حوالى السابعة من عمره، ملفوفاً بمعطف طويل وقبعة ذات حافة واحدة، عريضة جداً يبكي بين ذراعي مربيته العجوز. وجلست خادم قذرة على صندوق حافية القدمين وقد فردت شعرها الأشقر وراحت تنتزع منه شعرات مغراء اللون كانت ترفعها إلى أنفها. أما الزوج، وكان رجلاً قصير القامة محدودب الظهر في بزة موظف صغير، ذا سالفين طويلين وشعر مصقول جيداً على الصدغين يبرز من قبعة وحيدة الطرف موضوعة على رأسه باتزان، فقد راح يحرك الصناديق الموضوعة بعضها فوق بعض، غير بادي

www.Maktbah.com

التأثر، بحثاً عن بعض الأسمال. ألقت المرأة بنفسها على قدمي پيار تقريباً عندما شاهدته وصرخت خلال عبراتها:

ـ أيها الناس البواسل، أيها المسيحيون، أنقذونا، ساعدونا!.. سيدي العزيز؟.. كن من كنت، ساعدنا! ابنتي الصغرى!.. ابنتي!.. أصغر بناتي لقد تركت!.. لقد احترقت! أوه، أوه، اوه! ألأجل هذا هدهدتك كل هذا الوقت.. أوه، اوه، اوه!

فقال الزوج بصوت هادئ اتخذه لا شك ليبرر تصرفه:

ـ هدئي روعك يا ماري نيكولاييـڤا. لا شك أن أختك حملتها معها.

ثم أضاف: وإلا، فأين يمكن أن تكون؟

فصرخت المرأة بحقد وقد كفت فجأة عن البكاء:

ـ أيها المغفل، أيها الوحش! إنك عديم القلب. إنك لا تأسف على ابنتك مجرد أسف. لو كان غيرك لأنقذها من النار. إن هذا الغبي ليس رجلاً ولا أباً.

ثم قالت لـپيار وكلماتها تتلاحق وهي تنشج:

ـ أنت، أنت قلب نبيل أنت. لقد شبت النار بجانبنا ثم بلغت مسكننا. ولقد صاحت الوصيفة: شب الحريق! فاندفعنا نجمع حاجاتنا. ولقد فررنا بما نحمله على أنفسنا.. هذا ما استطعنا حمله،.. الأيقونة، وسرير زواجي وكل ما عدا ذلك ضاع. أخذت الأطفال، وإذا بكاتيا غير موجودة. أوه، أوه، أوه! يا إلهي!

وعادت تنتحب: لقد احترقت صغيرتي الوديعة، احترقت!

ـ سألها پيار: ولكن أين ظلت؟

أدركت تلك المرأة من أمارات وجهه المحتدة أن هذا الرجل قادر على مساعدتها فراحت تتوسل إليه وهي تحيط ساقيه بذراعيها:

twitter @baghdad_library

ـ يا سيدي الطبيب! يا أبي! يا محسني، أقله أرح قلبي!.. وصرخت بالوصيفة: ـ أنيسكا، أيتها الفتاة القذرة، اذهبي ودليه.

وفتحت وهي تصرخ فماً مكشراً كشف عن أسنانها الطويلة فبادر پيار يقول لها بصوت لاهث:

خذيني، سوف.. سوف أعمل جاهداً.

خرجت الوصيفة القذرة من وراء صندوقها وسوت ضفيرتها وزفرت ثم سارت في المقدمة فوق الممر عارية القدمين؟ وكان پيار أشبه بالرجل الذي عاد إلى الحياة بعد إغماء طويل. نصب رأسه والتمعت عيناه من جديد ببريق الحياة وراح يتبع الفتاة بخطى حثيثة حتى أدركها وبلغ بوڤارسكاييا. كان الشارع مليئاً بسحابة كثيفة سوداء وألسنة من النار تنبعث من بعض جنباتها ومجموعة من الناس تجمعت عند مشارف الحريق. وفي وسط الطريق، كان جنرال فرنسي يقول شيئاً ما للمحيطين به. كاد پيار الذي تقوده الخادم يقترب من المكان الذي وقف فيه الجنرال. لكن الجنود الفرنسيين أوقفوه وصرخوا به:

ـ ممنوع المرور!

قالت الخادم: من هنا يا عماه، سنسير في هذا الزقاق لنجتاز فناء آل نيكولين.

رجع پيار على عقبيه وراح يوسع الخطى أحياناً ليلحق بالخادم. اجتازت الشارع راكضة ثم سارت إلى اليسار عبر الزقاق واجتازت ثلاثة بيوت ثم انعطفت يميناً واجتازت باباً. قالت مفسرة: سنصل بعد قليل.

وبعد أن اجتازا الفناء ركضاً، فتحت باب سياج وأومأت إلى پيار تدله على جناح من الخشب كان يلتهب بنار عنيفة وينشر حرارة قوية. وكان جانب

www.Maktbah.com

كامل من الجناح منهاراً بينما كان الجزء الآخر ملتهباً كله واللهب المضيء الملتمع يخرج من فتحات النوافذ والسقف.

توقف پيار رغماً عنه عندما اقترب من باب الفناء وكادت الحرارة تخنقه وسأل: أي منزل، أي بيت بيتكم؟

زمجرت الخادم وهي تشير إلى الجناح:

ـ أوه، أوه، أوه! ها هو ذا، هذا هو منزلنا الصغير. وأنت في النار يا كاتنكا، يا كنزنا، يا آنستي الصغيرة العزيزة! أوه! أوه، واه؟.

وراحت أنيسكا تزمجر وهي تشعر بوجوب إظهار مشاعرها هي الأخرى أمام الحريق.

انطلق پيار نحو الجناح. لكن الحرارة كانت شديدة بحيث اضطر إلى أن يلتفت حوله فوجد نفسه قرب مسكن كبير كان جانب واحد من السقف يحترق وحوله جمهور غفير من الفرنسيين. لم يفهم بادئ الأمر ماذا كان أولئك الفرنسيون يفعلون هناك. لقد كانوا يجرون شيئاً ما لكنه لما رأى أحدهم يضرب بعرض سيفه أحد القرويين ويسلبه معطفه المبطن بفراء الثعلب، أدرك أنه إزاء جماعة من السلابين. مع ذلك، فإنه لم يجد الوقت الكافي للتعمق في تفكيره حول النقطة.

أثارت الطقطقة وقرقعة الجدران والسقوف المنهارة وصفير النار وشخيرها وهتافات الجمهور ومشهد زوابع الدخان التي تنتشر كثيفة سوداء تارة وترتفع مشعة تارة أخرى، ورؤية اللهب ينتقل من جدار إلى آخر، أحمر كثيفاً أشبه بالعرم، والأحاسيس التي سببتها الحرارة والدخان والجري كل ذلك أثار في نفس پيار الانفعال الذي تحدثه الحرائق عادة في نفوس الأطفال بل إنه كان أشد قوة في نفسه حتى أنه أحسّ فجأة بخلاصه من الأفكار التي كانت متسلطة عليه. وجد نفسه مجدداً فتياً مرحاً. دار راكضاً حول الجناح من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

جانب المسكن الكبير وأراد أن يندفع إلى الجزء الذي ما زال قائماً عندما سمع فوق رأسه تماماً عدداً من الأصوات تصيح ثم، على الأثر، قرقعة شيء وجلبة سقوط جسم ثقيل بالقرب منه.

رفع پيار عينيه فشاهد فرنسيين ألقوا منذ فترة بقمطر ممتلئ بالأدوات المعدنية بينما اقترب جنود فرنسيون آخرون كانوا في الأسفل نحو القمطر الملقى من علٍ.

صاح أحدهم وهو يرى پيار: حسناً، ماذا يريد هذا؟

سأل پيار: طفل في هذا المنزل. ألم تشاهدوا طفلاً؟

صاحت أصوات كثيرة:

ـ هه، ماذا ينفق هذا؟ امض في سبيلك.

وتقدم أحد الجنود نحو پيار متوعداً وقد خشي بدون شك أن تكون غايته استعادة الفضيات وموجودات القمطر من البرونز منهم.

صاح أحد الفرنسيين من الأعلى:

ـ طفل؟ لقد سمعت شيئاً يصرخ في الحديقة. لعله صبي الرجل. يجب أن يكون المرء إنسانياً، ويحكم..

سأل پيار: أين هو؟ أين هو؟

صاح به الفرنسي الواقف عند النافذة وهو يشير إلى الحديقة وراء المنزل: من هنا! من هنا! انتظر، سوف أنزل إليك.

وفي الواقع لم تمض ثوان، حتى قفز الفرنسي من نافذة الدور الأرضي وكان فتى في مقتبل العمر أسود العينين، يحمل شامة على وجنته، يرتدي قيمصاً دون سترته، ووكز پيار في كتفه وقاده إلى الحديقة. صاح يخاطب رفاقه:

ـ أسرعوا أنتم كذلك، بدأت الحرارة ترتفع.

www.Maktbah.com

اندفع مع پيار وراء المنزل عبر ممشى مفروش بالرمال وفجأة جذب الفرنسي پيار من ذراعه وأراه شيئاً مستديراً، كان ذلك الشيء طفلة في الثالثة من عمرها في ثوب وردي مسجاة فوق مقعد.

قال الفرنسي: هذا طفلك. آه! طفلة! هذا أفضل. إلى اللقاء أيها الرجل الضخم. يجب أن نكون إنسانيين وكلنا مائت كما ترى.

وأسرع الفرنسي ذو الشامة للحاق برفاقه.

اندفع پيار لاهثاً من الفرح نحو الطفلة وأراد أن يحملها بين ذراعيه. ولكن عندما شاهدت الطفلة المصابة بداء الخنازير ذات الوجه المريض الشبيهة بأمها رجلاً غريباً، راحت تصرخ وأرادت أن تقفز. وفي تلك الأثناء، كان پيار قد لحق بها وحملها بين ذراعيه فصرخت بصوت شرس يائس وراحت تخبط محاولة بيديها الصغيرتين أن ترغم پيار على التخلي عنها بل حاولت كذلك أن تعض يديه. ولقد استولى على پيار شعور بالاشمئزاز شبيه بذلك الذي يعتلج في صدره إذا لمس حيواناً ما تتقزز منه النفس. لكنه بذل مجهوداً ليسيطر على نفسه كي لا يطرح الطفل وعاد يركض وهو يحمل حمله نحو المنزل الكبير. لم يعد حينذاك ممكناً أن يمر من الطريق نفسه كما أن أنيسكا كانت قد اختفت. فضم الفتاة المبللة الباكية إلى صدره بأقصى ما يستطيعه من حنان وهو مفعم النفس بالإشفاق بقدر ما فيها من اشمئزاز، واندفع عبر الحديقة يحاول إيجاد مخرج جديد.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع والثلاثون

رجع پيار بحمله إلى حديقة غروزينسكي عند زاوية بوڤارسكاييا، بعد أن اجتاز راكضاً عدداً من الأزقة والأفنية، وللوهلة، لم يتعرف إلى النقطة التي ذهب منها باحثاً عن الطفلة لكثرة ما تراكمت هناك من أمتعة جُرت خارج المنازل وما تجمع من أشخاص هناك. كان هناك فضلاً عن الأسر الروسية المجتمعة بالقرب مما أمكن إنقاذه من المنازل المحترقة، عدد من الجنود الفرنسيين في أزياء مختلفة فلم يعبأ پيار بهم مطلقاً. كان متلهفاً للعثور على عائلة الموظف وإعادة الصغيرة إلى أمها ثم العودة من جديد للمساهمة في أعمال الإنقاذ. وكان يخيل إليه أن أمامه كثيراً مما يجب أن يعمل وأن الوقت يدركه. ولقد بعثت النيران والركض الدفء في أوصال پيار فشعر بذلك الإحساس الفتي بأكثر قوة في تلك اللحظة مشفوعاً بالعزم والحماسة، ذلك الإحساس الذي استولى عليه بادئ الأمر عندما انطلق للبحث عن الطفلة. أصبحت الطفلة هادئة الآن وقد تشبثت بمعطف پيار بيديها الصغيرتين وقبعت فوق ذراعه وراحت تنظر حولها بعيني حيوان صغير. ومن حين إلى آخر، كان پيار يتأملها وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. كان يخيل إليه أنه يرى نوعاً من البراءة يثير الشفقة في تقاسيم هذه الطفلة المريضة.

لم يبق الموظف وزوجته في مكانهما الأول، لذلك فقد راح پيار يسير بخطوات واسعة وهو يتفحص وجوه الجماعات التي يمر بها. لم يستطع

www.Maktbah.com

الامتناع عن النظر إلى أسرة أرمنية مؤلفة من عجوز في سن متقدمة جداً ذي مظهر شرقي جميل يرتدي «فروة» مبطنة وأحذية جديدة وعجوز في مثل تلك السن وامرأة شابة. كانت هذه لا تزال في مقتبل العمر بدت لـپيار نموذجاً للجمال الشرقي الكامل بحاجبيها الأسودين المقوسين الواضحين ووجهها الطويل الجميل ذي اللون الوردي النضير الخالي من أي تعبير، فكانت بين هذه الأشياء المبعثرة وذلك الجمهور من الناس على تل الساحة، في «فروتها» الثمينة «الساتان» والوشاح البنفسجي الصارخ الذي يغطي رأسها، أشبه بنبتة دقيقة ملقاة على الثلج. كانت جالسة على بعض الرزم إلى وراء المرأة العجوز قليلاً تنظر إلى الأرض بعينين سوداوين لوزيتين تظللهما أهداب طويلة. وكان يرى أنها شاعرة بجمالها خائفة عليه. ولقد استلفت وجهها نظر پيار الذي رغم تعجله في السير على طول أحد الحواجز، لم يتمالك إلا أن يلتفت غير مرة. ولما وصل إلى نهاية الحاجز ولم يجد من يبحث عنهم في أي مكان، توقف وهو في حيرة.

بات هذا الرجل طويل القامة الذي يحمل طفلة بين ذراعيه يلفت النظر أكثر من ذي قبل، فلم يلبث بعض الروس بين رجال ونساء أن التفوا حوله. سألوه: هل أضعت أحداً أيها الرجل الباسل؟ أنت نبيل أليس كذلك؟ لمن هذه الطفلة؟

أجاب پيار بأن الطفلة لامرأة ترتدي «فروة» سوداء كانت جالسة مع أولادها في هذا المكان وسأله عما إذا كان أحد يعرفها أو يستطيع أن يقول إلى أين ذهبت.

قال شماس عجوز يخاطب امرأة مجدورة:

ـ لا بد وأن يكونوا آل أنـڤيروڤ. أيها السيّد، أشفق علينا.

ثم كرر بصوته الخافت الاعتيادي:

twitter @baghdad_library

ـ أيها السيد، أشفق علينا!

أجابت المرأة:

ـ أين هم آل أنـڤيروف؟ لقد رحلوا هذا الصباح. لا بد وأنها لماري نيكولاييـڤنا أو لآل إيـڤانوف.

قال خادم مفسراً: لقد قال امرأة. وماري نيكولاييـڤنا سيدة.

قال پيار:

لا بد وأنكم تعرفونها. امرأة نحيلة ذات أسنان طويلة.

قالت المرأة وهي تشير إلى جنود فرنسيين:

لكنها ماري نيكولاييـڤنا نفسها. لقد هربوا إلى الحديقة عندما انقض هؤلاء الذئاب عليهم.

ردد الشماس: أيها الرب، أشفق علينا!

وقالت امرأة أخرى:

ـ مر من هنا، خذ، إنهم هناك. ها هي ذي بالذات؟ إنها لم تكف عن التأوه والبكاء. إنها هي نفسها، من هنا.

لكن پيار لم يكن يصغي إلى المرأة. لقد كان منذ بضع ثوان لا يرفع عينيه عما يدور على بضع خطوات منه. كان ينظر إلى الأسرة الأرمنية وقد اقترب منها جنديان فرنسيان. كان أحدهما قصير القامة، حافي القدمين يرتدي معطفاً أزرق ويتمنطق بقطعة حبل وعلى رأسه قلنسوة من الفراء. أما الآخر، وهو الذي اجتذب انتباه پيار بصورة خاصة، فطويل القامة، اشقر، نحيل محدودب الظهر بطيء الحركات بادي الغباوة، يلبس معطفاً من نسيج صوفي خشن وسراويل زرقاء وأحذية عالية ممزقة. اقترب الفرنسي قصير القامة حافي القدمين ذو المعطف الأزرق من الأرمن وقال شيئاً وهو يشير إلى ساقي العجوز الذي

www.Maktbah.com

سارع إلى حذاءيه يخلعهما. أما ذو المعطف الخشن، فقد وقف أمام الفتاة الأرمنية الجميلة جامداً لا ينبس بكلمة ويداه في جيبه وراح يتأملها.

قال پيار للمرأة وهو يقدم إليها الفتاة بسرعة بحركة لا رد فيها:

ـ خذي، خذي هذه الطفلة.

وصرخ وهو يضع الطفلة على الأرض دون أن يحول عينيه عن الأسرة الأرمنية والفرنسيين:

ـ ستعيدينها إليهم، هه؟

كان العجوز قد خلع حذاءيه وقد نزع الفرنسي الصغير الفردة الثانية من قدمه وراح يضرب بها الأولى. وراح العجوز يغمغم والدمعة تترقرق في عينيه لكن پيار لم يلق على هذا المشهد إلا نظرة سريعة. كان يراقب الفرنسي الآخر ذا المعطف الخشن الذي أخذ في تلك اللحظة يقترب من الفتاة متأرجحاً ببطء ثم يخرج يديه من جيبه ويمسك بعنقها.

وكانت الأرمنية الحسناء لا تزال جامدة وأهدابها الطويلة مسبلة وكأنها لا ترى ولا تشعر بما يفعل الجندي.

وبيما كان پيار يجتاز الخطوات القليلة التي تفصله عن الفرنسيين، كان السلاب طويل القامة ذو المعطف الخشن قد نزع من عنق الأرمنية عقداً كان يحلي جيدها فرفعت الشابة يديها إلى عنقها وراحت تطلق صيحات ثاقبة.

زمجر پيار غاضباً وهو يطبق على الجندي طويل القامة المحدودب من كتفيه ويدفعه بعنف: دع هذه المرأة.

سقط الجندي ثم وقف وهرب بأقصى سرعة. لكن زميله ألقى بالحذاءين على الأرض وامتشق حسامه وتقدم إلى پيار متوعداً وصاح:

هه، كف عن الحماقات.

كان پيار حينذاك يتلظى بإحدى سوراته التي يفقد معها اتزانه وتتضاعف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قواه عشرة أمثالها. ألقى بنفسه على الفرنسي حافي القدمين قبل أن يتيح له الوقت ليستلّ سيفه فألقاه أرضاً وانهال عليه لكماً. وانطلقت من حناجر الجمهور صرخات مشجعة. ولكن في تلك اللحظة، ظهرت دورية من الفرسان عند منعطف الشارع، انطلقوا خبباً على جيادهم وأحاطوا ببيار والفرنسي. ولقد أضاع بيار ذكرى ما حدث فيما بعد. تذكر بغموض أنه ضرب أحدهم وأنهم ضربوه ثم أوثقوا يديه فيما بعد، وراء ظهره ثم بدأ الجنود الملتفون حوله في تفتيشه.

كانت الكلمات الأولى التي تذكرها بيار:

ـ إنه يحمل خنجراً أيها الملازم.

قال الضابط الذي راح يخاطب الجندي عاري القدمين:

ـ آه! سلاح. هذا أحسن. ستقص هذا على المحكمة العسكرية.

ثم استدار إلى بيار وأضاف: هل تتكلم الفرنسية أنت؟

سرح بيار حوله عينيه المحقونتين بالدم. ولم يجب. ولا بد أن وجهه لم يكن يوحي بالطمأنينة إذ همس الضابط كلاماً في أذن أحد الفرسان، فانفصل أربعة من الكوكبة ليحيطوا بـبيار.

كرر الضابط وهو يقف على مسافة من بيار:

ـ هل تتكلم الفرنسية؟ أحضروا المترجم.

خرج من الصفوف رجل في ثوب مدني عرف فيه بيار على الفور من ثوبه وحديثه فرنسياً في أحد مخازن موسكو. قال المترجم بعد أن حدج بيار:

ـ لا يبدو عليه أنه من أبناء الشعب.

فصاح الضابط:

ـ أوه، أوه! يبدو عليه أنه واحد من أولئك الذين دأبوا في إشعال الحرائق.

ثم تابع: سله من يكون.

www.Maktbah.com

سأل المترجم بصيغة المفرد: من أنت؟ يجب أن تجيب عن أسئلة السلطة.

قال پيار فجأة بالفرنسية: لن أقول لكم من أنا. إنني سجينكم، فخذوني.

صاح الضابط وهو يزوي حاجبيه:

ـ آه! آه! لنمش!

تجمهر الناس حول الفرسان وباتت المرأة المجدورة مع الطفلة الصغيرة قريبة جداً من پيار. فلما تحرك الموكب، تبعته. قالت:

ـ إلى أين يأخذونك أيها الرجل الباسل؟ والصغيرة، ماذا أصنع بها إذا لم تكن لهم؟

سأل الضابط: ماذا تريد هذه المرأة؟

أحسّ پيار أنه أشبه بالسكران وتعاظمت حماسته لمرأى الطفلة التي أنقذها. قال:

ـ ماذا تقول؟ إنها تحمل ابنتي التي أنقذتُها من الحريق. وداعاً!

ودون أن يدري سبباً لهذه الكذبة غير المجدية التي أفلتت منه، ابتعد مع حراسه بخطى مهيبة حازمة.

كانت تلك الدورية واحدة من كثير نظمها دوروسنل وأرسلها إلى مختلف أحياء موسكو لتقمع النهب ولتضع يدها، على الخصوص، على مضرمي الحرائق الذين كانوا.. بحسب الرأي العام المقبول من القيادة الفرنسية العليا، يتعمدون إحراق المدينة. وقد أوقفت الدورية وهي تجتاز عدداً من الشوارع خمسة مشتبه فيهم آخرين: صاحب حانوت، طالبان في معهد ديني، قروي وخادم فضلاً عن بعض السلابين. لكن الرجل الذي بدا أكثر قابلية للشبهة كان پيار. قادوهم لقضاء تلك الليلة في منزل كبير عند حاجز زوبوڤو حيث أقيمت هناك وحدة من الحرس. لكن پيار عزل عن الآخرين وبات موضع رقابة صارمة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الجزء الثاني عشر

twitter @ baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

في أجواء پيترسبورغ العليا، خلال ذلك الوقت، استمرت المواجهات بين أتباع روميانتسيڤ والفرنسيين، وماري فيدوروڤنا والتساريڤيتش وشخصيات مرموقة، وبقي زنابير البلاط كما عادتهم يشتركون في القتال وهم يدندنون. لكن تلك الحياة المترفة الخالية التي لا يشغلها إلا المظاهر بقيت تتبع مجراها الطبيعي. والذين يعيشونها، كانوا ملزمين ببذل مجهودات كبيرة ليدركوا الخطر والموقف الحرج الذي تردى فيه الشعب الروسي. استمرت الحفلات الراقصة نفسها والاستقبالات إياها والمسرح الفرنسي نفسه ومصالح البلاط نفسها ومصالح الخدمة والدسائس هي هي. أما في المقامات العليا، فكانوا يظهرون ما يكفي من القلق لتذكر خطورة الحالة.

كانوا يرون همساً أن الأمبراطوريتين في هذا الظرف العصيب تتصرفان تصرفاً معاكساً تماماً. فالأمبراطورة ماري فيدوروڤنا المنشغلة بحماية المؤسسات الاستشفائية والثقافية المؤسسة باسمها وتحت حمايتها، تتخذ الإجراءات لنقلها إلى كازان فكان كل ما يخص تلك المؤسسات مجهزاً محزوماً. أما الأمبراطورة أليزابيث ألكسييڤنا، فإنها عندما تسأل عما إذا كان يجب اتخاذ إجراءات الرحيل، تجيب بوطنيتها الروسية المألوفة بأنها لا تستطيع إصدار أي أمر بهذا الصدد وأن هذا من اختصاص الأمبراطور وحده. ولقد أعلنت أنها فيما يخصها، ستكون آخر من يغادر پيترسبورغ.

يوم معركة بورودينو بالذات في السادس والعشرين من آب/ أغسطس،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت أنّا پاڤلوڤنا تحيي حفلة ساهرة نواتها قراءة رسالة نيافته المرفقة بصورة القديس سيرج المرسلة إلى الأمبراطور. وتُعتبر تلك الرسالة نموذجاً للوطنية والفصاحة الدينية. وكانوا يعتمدون على الأمير بازيل في قراءتها، وهو المعروف بموهبته كقارئ مارس هذه الموهبة لدى الأمبراطورة نفسها. وكانت تلك الموهبة تقوم على أساس لفظ الكلمات بصوت مرتفع غنائي، تتناوب فيه الخطورة مع العذوبة دون التقيد بالمعنى، لدرجة كانت بعض المقاطع الأخرى فيما يشبه الهمس وكان لتلك القراءة، كما لكل حفلات أنّا پاڤلوڤنا الساهرة، لون سياسي إذ اتفق على أن يحضر عدد من كبار الشخصيات وجب استصراخ شعورهم الوطني وتخجيلهم لأنهم ما زالوا دؤوبين في حضور حفلات المسرح الفرنسي. وكان عدد كبير من المدعوين قد حضر. لكن أنّا پاڤلوڤنا لم ترَ فيهم من تنتظر، لذلك أخرت القراءة وسمحت بإثارة مناقشة عامة.

كان النبأ الجديد يومذاك، يتعلق بمرض الكونتيسة بيزوخوف. لقد شعرت فجأة بتوعك وتخلفت في الأيام الأخيرة عن حضور بعض الاجتماعات التي كانت زينتها. تناقلت الألسن أنها لا تستقبل أحداً وأنها منحت ثقتها إلى إيطالي زعم أنه سيشفيها وفق طريقة جديدة خارقة بدلاً من أن تمنحها إلى المشهورين من أطباء العاصمة الذين كانت تعهد إليهم بمعالجتها.

وكان كل امرئ يعرف أن مرض الكونتيسة الفاتنة ناجم عن الارتباك الذي وقعت فيه بسبب اقترانها برجلين معاً وأن علاج الإيطالي يتوقف على إزالة هذا الارتباك. ولكن ما من أحد كانت لديه الجرأة على التنويه بالشيء في حضرة أنّا پاڤلوڤنا فكانوا جميعاً يتظاهرون بجهلهم كل ما له علاقة بهذا الشأن.

www.Maktbah.com

ـ يقولون إن مرض الكونتيسة صعب جداً. يقول الطبيب إنه الذبحة الصدرية.

ـ الذبحة؟ أوه، إنها مرض خطير.

ـ يقولون إن المتنافسين قد تصالحوا بفضل الذبحة..

وكانت كلمة «ذبحة» تنعم بالرضى العام.

ـ وكان الكونت العجوز يثير الشفقة كما يروون. لقد بكى كطفل عندما أنبأه الطبيب بأن الحالة خطرة.

ـ أوه! ستكون خسارة رهيبة. إنها امرأة ساحرة.

قالت آنّا پاڤلوڤنا وهي تقترب: إنكم تتحدثون عن الكونتيسة المسكينة. لقد أرسلت أستطلع أخبارها. فقالوا لي إنها متحسنة بعض الشيء.

ثم أضافت وهي تبتسم لحماستها الشخصية:

ـ أوه! لا شك أنها أكثر نساء العالم فتنة. إننا نمت إلى معسكرين مختلفين لكن هذا لا يمنع من تقديرها كما تستحق. إنها تعسة جداً.

وخمن شاب طائش أن كلمات آنّا پاڤلوڤنا ترفع قليلاً حجاب السر الذي يغطي مرض الكونتيسة، فعمد إلى إظهار دهشته من أن المريضة استبقت إلى جانب سريرها مشعوذاً إيطالياً قادراً على وصف أخطر العقاقير لها بدلاً من الأطباء المعروفين. فرددت آنّا پاڤلوڤنا فوراً بلهجة خشنة على الشاب الغرير: يمكن أن تكون معلوماتك أفضل من معلوماتي. لكنني أعرف أن هذا الطبيب رجل عالم جداً وماهر جداً. إنه الطبيب الخاص لملكة إسبانيا.

وبعد أن أعادت الشاب إلى حدوده على هذا النحو، التفتت آنّا پاڤلوڤنا إلى بيليبين الذي كان في حلقة أخرى يجعد جبينه ويتأهب لبسطه وهو يطلق «كلمة» وهو يتحدث عن النمسويين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال بصدد وثيقة سياسية أرسلت إلى ڤيينّا مع علمين نمسويين غنمهما ويتجنشتاين[1] «بطل پير بيروپول» كما كانوا يسمونه في پيترسبورغ:

ـ أرى أن هذا رائع.

فقالت أنّا پاڤلوڤنا رغبة منها في وضع حد للمناقشات كي لا تتيح للمدعوين فرصة سماع «الكلمة» التي كانت تعرفها سلفاً:

ـ ماذا تقول؟

ردد بيليبين الكلمات التالية من الرسالة الدبلوماسية التي دبجها:

ـ يعيد الأمبراطور الأعلام النمسوية، وهي الأعلام الصديقة التائهة التي وجدها متنكبة الطريق.

وبسط جبينه عند المقطع الأخير فصاح الأمير بازيل:

ـ رائع! رائع!

وفجأة صاح الأمير هيپوليت: لعلها طريق فرصوڤيا.

تركزت الأنظار كلها عليه ولكن ما من أحد عرف ماذا يريد أن يقول. وألقى الأمير هيپوليت نظرة حوله لأنه لم يكن هو الآخر يدرك أكثر من سواه المعنى الذي يتصل بكلماته. لقد لاحظ غير مرة خلال حياته السياسية أن كلمة تُقال عرضاً تبدو فجأة وكأنها منتهى الذكاء. لذلك فقد راح في كل مناسبة يصرف أول الكلمات التي تتوارد على شفتيه وهو يفكر: «لعلها ستكون شيئاً جيداً. بل إنهم سيستخلصون منها شيئاً ما حتى ولو كانت لا تساوي شيئاً».

وفي الواقع، إنه خلال الفترة التي أعقبت ذلك والتي سادها صمت

---

(١) فيلد مارشال روسي، من أصل بروسي، برز في ليبزيغ خلال حملة فرنسا عام ١٨١٤ (المترجم).

www.Maktbah.com

مربك، دخل شخص ما، وكان واحداً من المواطنين شديدي الفتور الذي كانت آنّا پاڤلوڤنا تنتظره، فتوعدت هيپوليت بإصبعها ودعت الأمير بازيل وهي تبتسم إلى الجلوس قرب الطاولة وأتت له بشمعتين وبالرسالة ثم رجته أن يبدأ قراءتها. وساد الصمت.

نطق الأمير بازيل بلهجة خطيرة وهو يتأمل وجوه المستمعين وكأنه يسألهم عم إذا كان لأحدهم اعتراض:

«أيها الأمبراطور والعاهل الجوّاد».

ولما لم يرمش أحد تابع: «إنّ موسكو عاصمتك الأولى، أورشليمنا الجديدة، ستستقبل مسيحها». وحرك الضمير المضاف «ها» بقوة.. «وهي كالأم التي يرتمي أبنائها في حضنها وتغني باندفاع وسط الضباب وهي تتبصر بمجد حكمك العظيم: هوشعنا، مبارك الآتي باسم الرب.

قال الأمير بازيل هذه الكلمات الأخيرة بلهجة ناحبة.

وكان بيليبين يمعن النظر بأظفاره بعناية، كما كان عدد من الموجودين متخوفين حقاً يبدو على وجوههم كأنهم يتساءلون عم ارتكبوا من مساوئ. وكانت آنّا پاڤلوڤنا تهمس بالكلمات سلفاً أشبه بعجوز على استعداد لتناول الخبز المقدس، وتغمغم: «لينشر جوليات الجسور السفيه...».

«ولينشر جوليات[1] الجسور السفيه القادم من طرف فرنسا القصي على الأرض الروسية أهواله الإجرامية، فإن الإيمان الخاشع، هذا المقلاع لداود الروسي، سيصرع فجأة رأس تجبره الدموي. إن هذه الصورة لسيرج السعيد الغيور القيم على سعادة وطننا، ستقدم إلى جلالتكم الأمبراطورية. وإنني آسف لأن قواي المترنحة لا تسمح لي بتأمل طلعتكم الجليلة. إنني أرفع إلى

---

(١) جوليات عملاق فلسطيني قتله داود بحجر من مقلاعه. (المترجم)

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

السماء صلوات حارة ليتفضل عظيم القدرة بإكثار نسل العادلين وليتم أماني جلالتكم».

صاحوا على شرف القارئ والمؤلف:

ـ يا للقوة! يا للأسلوب!

تحدث مدعوو آنّا پاڤلوڤنا طويلاً عن الموقف والوطن وقد حركت مشاعرهم هذه المقطوعة من البلاغة وأكثروا من الرجم بالغيب حول نتيجة المعركة التي ستقع دون تأخير فقالت آنّا پاڤلوڤنا:

ـ سترون أننا سنتلقى أنباءً غداً في مناسبة يوم ميلاد أمبراطورنا. إن لديّ إحساسات مسبقة ممتازة.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

وفي اليوم التالي، أثناء تلاوة صلاة الشكر «تيدييوم» في القصر في مناسبة عيد مولد الأمبراطور، صدقت إحساسات آنّا پاڤلوڤنا المسبقة، استدعي الأمير ڤولكونسكي. فخرج من الكنيسة ليتلقى رسالته من لون كوتوزوف. وتحوي الرسالة ذلك التقرير الذي دبج يوم معركة تاتارينوڤو والذي ذكر فيه كوتوزوف أن الروس لم يتراجعوا خطوة واحدة، وأن الفرنسيين فقدوا أكثر مما فقدنا بكثير، وأنه يحرر تقريره على جناح السرعة دون أن يتريث حتى يجمع المعلومات الأخيرة. وبدا ذلك أشبه بالبشرى التي تزف في مناسبة النصر، لذلك، فقد رفعت إلى الله فوراً، دون الخروج من الكنيسة، صلوات شكر على المساعدة التي أنعم بها في سبيل النصر.

لقد تحققت إحساسات آنّا پاڤلوڤنا المسبقة وأصبحت المدينة كلها تكن روح العيد طوال ذلك الصباح، فكان كلٌّ يعتقد بنصر شامل بل إن بعضهم زعم أن ناپليون أصبح سجيناً وأنهم خلعوه وانتخبوا في فرنسا رئيساً جديداً.

وكان من الصعب جداً أن يفهم المرء بعيداً عن الجيش وفي جو البلاط، والوقائع في كل دقائقها وقوتها. إن الأحداث تتجمع تلقائياً حول واقعة خاصة. ففي تلك الآونة، كان مبعث أفراد الحاشية بالنصر نفسه أقل مما كانت عليه لورود النبأ نفسه في يوم مولد الأمبراطور بالذات. لقد كان أشبه بالمفاجأة السارة، كان تقرير كوتوزوف يشير إلى أسماء الضحايا من الروس وفي عدادهم أسماء توتشكوف وپاغراسيون وكوتاييسوف. لذلك فإنّ فاجعة

twitter @baghdad_library

هذه الأنباء اجتمعت بالنسبة إلى الطبقة الپيترسبورغية الراقية حول واقعة واحدة هي خسارة كوتاييسوف. فكلٌّ منهم يعرفه والأمبراطور نفسه يقدره. لقد كان شاباً، فكانوا ذلك اليوم إذا ما تقابلوا تبادلوا القول:

ـ يا له من أمر مذهل! وسط الصلوات! لكن كوتاييسوف، يا للخسارة آه! للشقاء!

وأصبح ڤاسيلي يصيح الآن وهو فخور أنه كان متنبئاً موفقاً:

ـ ماذا قلت لكم عن كوتوزوف؟ لقد قلت دائماً إنه وحده القادر على هزم ناپليون.

وفي اليوم التالي، لم ترد أية أنباء عن الجيش، فمال الرأي العام إلى القلق وراح أفراد الحاشية يتألمون لرؤية الأمبراطور متألماً لافتقاره إلى الأنباء.

بدأ الأنصار يقولون وقد كفوا عن إطراء كوتوزوف وأصبحوا يتهمونه بأنه سبب كآبة الأمبراطور: «يا له من موقف، موقفه!» ولم يحاول الأمير بازيل ذلك النهار أن يمتدح «كوتوزوف، والتزم الصمت كلما ورد ذكر الجنرال القائد الأعلى. بل إن كل شيء ذلك المساء بدا وكأنه متواطئ لدفع قلق الأفكار الپيترسبورغية إلى الذروة إذا انتشر نبأ رهيب جديد: لقد ماتت الكونتيسة بيزوخوف فجأة بتأثير ذلك المرض المريع الذي كانوا يسرون بذكر اسمه. يؤكدون رسمياً في الأبهاء الكبرى أنها ماتت إثر نوبة ذبحة صدرية. أما في حلقات العارفين، فكانوا يروون أن «طبيب ملكة إسبانيا الخاص» وصف لهيلين جرعة صغيرة من دواء خاص يقصد به إحداث بعض الأثر الحسن، لكن هيلين، في غمار اضطرابها خشية أن يظن بها الظنون فيما يتعلق بالكونت العجوز، وبسبب عدم تلقيها أي جواب من زوجها (پيار ذاك التاعس الفاجر) أخذت كمية كبيرة من علاجها وماتت فريسة الآلام العنيفة قبل التمكن من إنقاذها. وكانوا يروون أن الأمير ڤاسيلي والكونت العجوز أرادا توقيف

www.Maktbah.com

الإيطالي، لكن هذا يملك في يده أوراقاً تدين المرحومة التاعسة بشدة حتى اضطرا إلى إخلاء سبيله فوراً.

إذن، لقد تركز الحديث حول ثلاث نقاط: التردد الذي كان العاهل عليه وخسارة كوتاييسوف وموت هيلين.

وفي غداة اليوم التالي لتقرير كوتوزوف، وصل إلى پيترسبورغ خبر سقوط موسكو، فلم يلبث نبأ استسلام موسكو للفرنسيين أن انتشر في المدينة كلها. كان ذلك شيئاً مرذولاً! وبالنسبة إلى الأمبراطور، يا له من موقف! إن كوتوزوف ليس إلا خائناً. وراح الأمير ڤاسيلي خلال زيارات التعزية التي كان يتلقاها في مناسبة موت ابنته، يقول عن كوتوزوف هذا نفسه الذي كان فيما مضى يغمره بالمديح (ولقد كان مسموحاً له في حزنه الأبوي أن ينسى ما قاله من قبل) إنه لا يمكن أن ينتظر خلاف ذلك من عجوز أعمى فاجر. ويضيف:

ـ إنّ ما يدهشني هو أن يُعهد إلى شخص كهذا بمصير روسيا.

كان يمكن الاحتفاظ ببعض الشكوك طالما بقي النبأ غير رسمي. لكنهم، في اليوم التالي، تلقوا التقرير الآتي من الكونت روستوبتشين:

«حمل إليّ مساعد عسكري للكونت كوتوزوف رسالة يسألني فيها ضباطاً من الشرطة لمرافقة الجيش على طريق ريازان ويقول إنه يأسف لترك موسكو يا صاحب الجلالة! إن فعلة كوتوزوف هذه تقرر مصير عاصمة ملككم. سوف تنتفض روسيا عندما تعلم بهجر المدينة التي تمثل عظمتنا والتي تضم رفات أسلافكم ولقد أذعنت للجيش وأمرت بنقل كل شيء فلم يبقَ لي إلا أن أبكي مصير وطني».

وبعد أن أطلع العاهل على فحوى التقرير، أبلغ كوتوزوف عن طريق الأمير ڤولكونسكي الكتاب الملكي الآتي:

«الأمير ميخائيل إيلاريونوڤيتش! لم أتلق منك أي تقرير منذ التاسع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

والعشرين من آب/ أغسطس في حين تلقيت يوم الأول من أيلول/ سبتمبر عن طريق ياروسلاڤل تقريراً من حاكم موسكو العام ينهي إليّ النبأ الكئيب المتعلق بتقريرك هجر هذه المدينة. يمكنك أن تتصور الأثر الذي يمكن أن يحدثه مثل هذا النبأ في نفسي. إنه يدهشني بمقدار ما يجعل سكوتك أكثر إقلاقاً. أرسل إليك هذه الرسالة بواسطة مساعدي العسكري الجنرال ڤولكونسكي الذي عليه أن يطلع على حالة الجيش الحقيقية منك وعلى الأسباب التي دفعتك إلى اتخاذ قرارك المؤسف».

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

حمل رسول من لدى كوتوزوف النبأ بصورة رسمية إلى بيترسبورغ، بعد تسعة أيام على النزوح من موسكو، كان ذلك الرسول هو ميشو الفرنسي الذي لم يكن يعرف الروسية، والذي كان روسياً قلباً وروحاً رغم أنه أجنبي.

استقبله الأمبراطور فوراً في قصر كامينّي ـ أوستروف. ولقد شعر ميشو الذي لم يرَ موسكو قط قبل الحرب والذي لم يكن يعرف اللغة الروسية، بتأثر أليم عندما وجد نفسه في حضرة «أمبراطورنا الجوّاد» كما كتب فيما بعد، ينهي إليه نبأ حريق موسكو «التي كانت نيرانه تضيء طريقه».

وفي الرغم من أن مبعث حزن السيد ميشو بدون شك مختلف تماماً عنه لدى الروس الأصليين، فإنّ ميشو كان بادي الحزن الشديد عندما أدخل إلى مكتب الأمبراطور حتى إن هذا بادره على الفور سائلاً: هل تحمل إليّ أنباء سيئة أيها الزعيم؟

أجاب ميشو زافراً وهو يخفض عينيه: حزينة جداً يا صاحب الجلالة: إخلاء موسكو.

سأل الأمبراطور فجأة في انتفاضة غضب.

ـ هل سلمت عاصمتي القديمة دون قتال؟

نقل إليه ميشو باحترام رسالة كوتوزوف التي أورد فيها بصورة خاصة أن كل معركة عند أسوار المدينة مستحيلة وأن الماريشال عندما وجد نفسه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مخيراً بين خسارة الجيش وموسكو أو خسارة موسكو وحدها، فضل خسارة المدينة.

كان الأمبراطور يصغي بصمت دون أن ينظر إلى ميشو ثم سأل:

ـ وهل دخل العدو المدينة؟

فقال ميشو بلهجة مطمئنة:

ـ نعم يا صاحب الجلالة، وهي الآن أصبحت رماداً في هذه الساعة. غادرتها وهي تحترق.

لكنه عندما نظر إلى وجه الأمبراطور، ذعر للأثر الذي خلفته كلماته فيه.

كان الأمبراطور يلهث وشفته السفلى ترتجف وقد امتلأت عيناه الزرقاوان بالدموع.

لكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة. قطب حاجبيه فجأة وكأنه يأخذ على نفسه ضعفها ورفع رأسه ثم قال لميشو بصوت حازم:

ـ أرى أيها الزعيم من كل ما وقع، أن المشيئة الإلهية تتطلب منا تضحيات كثيرة... إنني على استعداد للخشوع لكل إرادتها. ولكن قل لي يا ميشو، كيف غادرت الجيش وهو يرى هكذا، دون أية مقاومة، عاصمتي القديمة تُخلى؟ ألم تلاحظ شيئاً من خمود العزم؟..

ولما رأى ميشو أن «الأمبراطور الجواد» استرد هدوءه، هدأ هو بدوره. لكن ارتباكه عاد عندما طرح عليه الأمبراطور سؤالاً دقيقاً لم يكن قد أعد الرد عليه من قبل. التمس كسباً للوقت:

ـ يا صاحب الجلالة، هل تسمح لي بأن أكلمك بصراحة كعسكري وفي؟

فاستأنف الأمبراطور يقول: إنني أتطلب الصراحة دائماً أيها الزعيم. لا تخف عني شيئاً، أريد مهما كلف الأمر أن أطلع على حقيقة الواقع.

www.Maktbah.com

فقال ميشو وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة بالكاد ترى إذ نجح في أن يعطي جوابه صيغة التلاعب بالكلمات الخفيفة المحترمة:

ـ يا صاحب الجلالة! يا صاحب الجلالة! لقد تركت الجيش ابتداء من ضباطه وحتى آخر جندي فيه، في رهبة مخيفة دون استثناء.

فقاطعه الأمبراطور وقد زوى حاجبيه بعنف:

ـ كيف حدث ذلك؟ هل ينهار روسيَّوي جراء المصيبة؟.. أبداً!..

لم يتوقع ميشو إلا هذا لينعم بنجاح لعبة الكلام التي أعدها فقال وعلى وجهه ابتسامة تنم عن الاحترام:

ـ يا صاحب الجلالة، إنهم يخشون فقط أن تندفعوا جلالتكم بطيبة قلبكم إلى عقد الصلح.

وأكد مبعوث الشعب الروسي:

ـ إنهم يتحرقون شوقاً للقتال، ليبرهنوا لجلالتكم بتضحية حيواتهم، مدى تفانيهم في سبيلكم...

فقال الأمبراطور المطمئن وقد التمعت عيناه ببريق مهدهد وربت كتف ميشو بمودة: لقد طمأنتني يا زعيم.

وأطرق الأمبراطور برأسه وبقي بضع لحظات صامتاً وفجأة قال وهو ينتصب بقامته المديدة ويخاطب ميشو بلهجة مغمغمة بالبشاشة والعظمة:

ـ حسناً، عد إلى الجيش وقل لبواسلنا، قل لكل أتباعنا الطيبين حيثما تمر، إنني عندما لا يبقى جندي واحد، سأضع نفسي شخصياً على رأس طائفة النبلاء الغالية وفلاحيَّ الطيبين، وسأنحو على هذا المنوال حتى آخر قطرة من موارد ملكي.

وصاح وهو يزداد حماسة:

ـ إنّ ملكي يقدم لي من الإمكانات أكثر مما يفكر أعدائي.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتابع وهو يرفع عينيه اللامعتين من الانفعال نحو السماء.

ـ ولكن، إذا صدف وكان مكتوباً في ألواح القدر أن ذريتي لن تستمر في اعتلاء عرش أجدادي، حينئذٍ، وبعد أن أستنفد كل الإمكانات الكائنة تحت سلطتي، سأطلق لحيتي حتى تصل إلى هنا، وأشار بيده إلى منتصف صدره، وسأمضي لأكل البطاطا مع الأخير من فلاحي مملكتي على أن أوقع العار بأمّتي العزيزة التي أعرف كيف أقدر تضحياتها..

قال الأمبراطور هذه الكلمات بصوت مضطرب، وكأنه يرغب في إخفاء الدموع التي ملأت عينيه عن ميشو، ثم استدار ومشى إلى أقصى مكتبه. وبعد أن تمهل هناك بضع لحظات، عاد بخطى واسعة نحو ميشو وضغط على عضده بقبضة قوية. وكان وجهه الهادئ الجميل متورداً وعيناه تلتمعان بنار العزم. قال وهو يطرق صدره:

ـ أيها الزعيم ميشو، لا تنسَ ما أقوله لك هنا. لعلنا ذات يوم سنستعيد ذكراه بسرور... نابليون أو أنا، لا يمكننا بعد الآن أن نملك معاً. لقد تعلمت كيف أعرفه، ولن يخدعني بعد الآن.

وسكت الأمبراطور مقطب الحاجبين. ولقد تأثر ميشو بما قاله منذ حين وبأمارات وجهه الحازمة الثابتة. وشعر في تلك اللحظة الجليلة «وهو الروسي قلباً وروحاً رغم أنه غريب»، وتلك هي عبارته في مذكراته، بتحمس لكل ما سمعه من أقوال. فكان شعوره الشخصي مضافاً إلى شعور الشعب الروسي الذي كان يعتبر نفسه بمثابة الناقل لإرادته هما ما ظهرا في جواب ميشو الذي قال:

ـ يا صاحب الجلالة، إنّ جلالتكم في هذه اللحظة، توقعون على مجد الأمة وخلاص أوروبا.

فصرفه الأمبراطور بإشارة من رأسه.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

لأننا لم نعش في تلك الفترة التي كانت نصف مساحة روسيا محتلة، وسكان موسكو ينزحون فارين إلى المناطق النائية، نتصور رغم أنفسنا، أن جميع الروس، من أحطهم قدراً إلى أرفعهم شأناً، لم يفكروا إلا في التضحية بأنفسهم في سبيل إنقاذ الوطن أو البكاء على ضياعه. والواقع أن كل الروايات عن تلك الحقبة، دون استثناء، ملأى بأعمال التضحية والحب الوطني واليأس والمرارة والبطولة بين الروس، لكن الحقيقة لم تكن هذه. إنّ الأمور تتخذ هذا الشكل لأننا لا نرى في الماضي إلا جانبه التاريخي الذي يجعلنا نتغاضى عن الجانب الإنساني وعن المصالح الشخصية للأفراد.

إنَّ المصالح الشخصية تأخذ، في حينه معنى يختلف في شدة أهميته عن معنى المصلحة العامة دون أن يحس بذلك أحد. لم يكن السواد الأعظم من أناس ذلك العصر يعرفون سير الأحداث لشدة انشغالهم بمصالح الساعة الخاصة. مع ذلك، فإنّ هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين كانوا باعثي تلك الأحداث الحقيقيين.

كان أولئك الذين يحاولون فهم سياق الأحـداث والذين يريدون المساهمة فيها بعقلية تقود إلى التضحية وأعمال البطولة، الأعضاء الأقل فائدة في المجتمع. كانوا يرون الأشياء على عكس ما يراها الآخرون فيبدو ما يفعلونه بنية حسنة، أشبه بالتفاهة. مثلاً فيلقا پيار ومامونوف ونهبهما للقرى الروسية والنسيل الذي كانت تعده السيدات والذي لم يكن يصل إلى الجرحى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قطّ إلخ... بل إن أولئك الذين كانوا يحاولون إظهار فهمهم وأحاسيسهم وهم يناقشون موقف روسيا الحقيقي، كانوا يظهرون في أحاديثهم الإطراء رغماً عنهم، إما تكلفاً وغلواً وكذباً، وإما بإطلاق أحكام لا طائل فيها، فيدينون بعض الرجال حيث لا مجال لإدانة أحد. إنّ الأوفر بداهة في الأحداث التاريخية، هو خطر لمس ثمرات شجرة العلم. والتصرفات اللاشعورية وحدها هي التي تصل إلى درجة النضج. أما الرجل الذي يؤدي دوراً في حدث تاريخي، فإنه لا يفقه أبداً مدلوله. وهو ما إن يحاول التعمق في فهمه حتى يجعله عقيماً.

كان مدلول ما يحدث حينذاك في روسيا أقل وضوحاً بالنسبة إلى رجل يساهم فيه عن قرب منه بالنسبة إلى سواه. ففي بيترسبورغ والأقاليم الواقعة على مسافة بعيدة من موسكو، كان سادة وسيدات في زي المتطوعين الفخم يتوجعون على مصير روسيا والعاصمة ويتحدثون عن التضحية بحياتهم وأشياء أخرى ولكن في الجيش الذي هجر موسكو، ما كانوا يتحدثون عن موسكو تقريباً ولا يفكرون فيها. بل إنهم حتى وهم يتفرجون على الحريق، لم يكن أحد يقسم على الانتقام من الفرنسيين إذ كان كل منشغلاً في الدفعة ثلث الشهرية المقبلة من راتبه والمرحلة القادمة وفي ماتريوشكا بائعة المؤن، إلخ.

كان نيكولا روستوف الذي فاجأته الحرب وهو يؤدي خدمته العسكرية لا يشعر قط بوجوب التضحية بحياته. مع ذلك، فقد كان يضطلع بنصيب عملي في الدفاع عن وطنه وينظر إلى الأحداث وهي تتتالى في غير يأس ولا نهايات متشائمة. فلو سألوه رأيه عن موقف بلاده الحالي، لأجاب بأنه ليس عليه أن يفكّر فيه، وأن كوتوزوف وآخرين هم موجودون لمثل هذا العمل ولكنه، بالنظر إلى أنه سمع بإعادة تشكيل الفيالق والأفواج الناقصة، فإنه يعتقد بأنهم سيحاربون، وقتاً آخر طويلاً وأنه في الظروف الراهنة، لن يصعب عليه خلال عامين آخرين أن يترأس فيلقاً.

www.Maktbah.com

وبفضل هذه الطريقة في تصور الأمور، قبل بسرور مهمة السفر إلى ڤورونيج لاستكمال الخيول لفرقته ليس أسفاً على عدم تمكّنه من الاشتراك في المعركة الأخيرة فحسب، بل لإظهار ابتهاجه بالذهاب، إذ وجد زملاؤه ذلك منه طبيعياً تماماً.

وقبل أيام قليلة، تلقى نيكولا من معركة بورودينو المال والأوراق اللازمة وأرسل طليعة من الفرسان تسبقه، ثم استقل هو نفسه عربة البريد إلى ڤورونيج.

إنّ من مرت به هذه الظروف، أي من بقي طوال أشهر متتالية في جو الحرب وحياة المعسكرات، يستطيع وحده أن يفهم الغبطة التي أحس بها نيكولا وهو يغادر منطقة الجيوش بنواجعها وقوافل الأرزاق فيها ومستشفياتها النقالة. ولما وجد نفسه بعيداً عن الجنود وعربات النقل والنفايات المتخلفة عن المعسكرات ورأى مجدداً القرى ملأى بالفلاحين والفلاحات ومنازل الأسياد والحقول حيث ترعى القطعان، ومنازل عربة البريد بنظارها نصف النائمين، استخفه الفرح وكأنه يرى هذه الأشياء للمرة الأولى. وما أدهشه وفتنه في الوقت نفسه، كان مشهد النساء. كن فتيات صحيحات الأجسام يحيط بكل منهن «دزينة» من الضباط، سعيدات راضيات عن دعاباته كضابط عابر سبيل.

وصل نيكولا ليلاً إلى نزل ڤورونيج وكان على أفضل مزاج فآثر نفسه بكل ما كان محروماً منه في الجيش. وفي اليوم التالي، بعد أن أزال لحيته، ارتدى أجمل ثوب لديه لم يكن قد لبسه منذ مدة طويلة، ومثل لدى الحاكم.

بدا قائد المتطوعين، وهو جنرال مَدني عجوز، مفتوناً حقاً بثوبه ورتبته، استقبل نيكولا بوجه عابس معتقداً أنه ضرورة ملازمة لمثل منصبه، وسأله بلهجة ذي النفوذ، وكأن له الحق في السؤال أو كأنه كان هناك لفحص

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الموضوع وتقبله أو رفضه. ولقد كان مزاج نيكولا صافياً جداً حتى أن بعث المرح في نفسه.

انتقل إلى مكتب الحاكم بعد أن غادر قائد المتطوعين. وكان الحاكم رجلاً قصير القامة، نشيطاً، لطيفاً وبسيطاً. دل نيكولا على المرابض التي يستطيع أن يحصل على الجياد منها وزكى له وسيطاً ماهراً في المدينة ومالكاً يسكن على مسافة عشرين فرسخاً، يستطيع أن يجد عنده أفضل الأفراس. وبالإيجاز، قدم له الحاكم كل عون.

قال له وهو يستأذن في الانصراف:

ـ أنت ابن الكونت إيليا أندرييڤيتش؟ لقد كانت زوجتي صديقة حميمة لأمك. أنا أستقبل الزوار في بيتي كل يوم خميس. ولما كان اليوم يوم خميس، فأرجو أن تحضر دون حاجة إلى رسميات.

ولدى خروجه من عند الحاكم، استقل نيكولا عربة بريد وذهب يصحبه رقيب طليعته لزيارة المالك على مسافة عشرين فرسخاً ومعاينة خيوله. لقد كان كل شيء في بدء إقامته في ڤورونيج مسلياً وسهلاً بالنسبة إليه وسار كل شيء على ما يرام بسبب مزاجه المشرق.

كان المالك الذي ذهب نيكولا لزيارته ضابطاً قديماً في سلاح الفرسان، عازباً مخشوشناً، عليماً خبيراً بالجياد نقية الدم، صياداً ومالكاً لكحول الخوخ الذي مرّ على تقطيره مائة عام ولخمر هنغاري معتق وخيول أصيلة رائعة.

اشترى نيكولا دون مساومة سبعة عشر مهراً مختاراً لمساعدته حسب قوله على إبراز كتيبته الراكبة، ودفع ستة آلاف روبل وبعد أن تناول طعاماً جيداً أترعت فيه الخمرة الهنغارية، عانق المالك الذي أصبح يخاطبه بصيغة المفرد وعاد يجتاز طرقاً فظيعة دون أن يخسر شيئاً من مزاجه الطيب وأخذ يحث سائقه باستمرار كي يصل في الوقت المناسب ويحضر سهرة الحاكم.

www.Maktbah.com

وبعد أن بلل رأسه بالماء البارد، أبدل ثيابه وتعطر ثم دخل منزل الحاكم رغم تأخره عن الموعد وفي رأسه هذه الجملة الجاهزة: التأخر أفضل من عدم الحضور.

لم تكن السهرة راقصة كما لم يعلن أحد عن رقص خلالها. ولكن كان كل مدعو يعرف أن كاترين پيتروڤنا ستعزف على پيانها بعض مقطوعات الڤالس والإيقوسيات وبالتالي لا بدَّ من الرقص. لذلك توافدت السيدات في ثياب الرقص.

كانت حياة الأقاليم عام ١٨١٢ شبيهة تماماً بالحياة المألوفة فيها مع فرق واحد وهو أن الحميا قد زادت في المدينة بسبب توافد أسر غنية عديدة من موسكو وأنه كان يسيطر في كل مكان، وهي مزية اختص بها ذلك العهد التذكاري، إسراف كبير تبعاً للمثل القائل: بعدي الطوفان: وأنه بدلاً من المحادثات الفارغة حول المطر والصحو وصحة الأشخاص من المعارف التي لا بدَّ منها في مثل هذا الظرف كان الحديث يدور حول موسكو والحرب وناپليون.

كان الأشخاص المجتمعون لدى الحاكم نخبة مجتمع ڤورونيج.

كان ثمة عدد كبير من السيدات عرف نيكولا كثيرات منهن في موسكو ولكن لم يكن هناك رجل واحد ينافس فارس وسام القديس جورج. فارس التعبئة اللامع وفي الوقت نفسه اللطيف المعتبر الكونت روستوف. وكان بين الرجال أسير إيطالي من الجيش الفرنسي فشعر نيكولا بوجود هذا الأسير برفعة قيمته الشخصية بوصفه بطلاً روسياً، فكان ذلك بالنسبة إليه أشبه بالنصر والاعتزاز. ولما انتابه هذا الشعور، خيل إليه أن كلاً من الموجودين يرى الأمر كما يراه لذلك أظهر تجاه الإيطالي غاية من التأدب المفعم بالحرص والترفع.

لم يلبث روستوف إثر دخوله في زي الفرسان ناشراً حوله موجات من

twitter @baghdad_library

العطر والخمرة الجيدة، وبعد أن كرر مرّات عديدة عبارته: «التأخر أفضل من التخلف» وأعيد ذكرها مراراً، أن أحيط بجمع غفير وحطت الأنظار كلها عليه، فأحسَّ فجأة بأنه خيرة كل هؤلاء الإقليميين، الأمر الذي يكون مقبولاً دائماً والذي كان أكثر تقبلاً عنده بسبب حرمانه الطويل من ذلك الإحساس المسكر بالوقوع موقع الرضى في النفوس.

ففي المراحل التي قطعها والمنازل التي حلّ فيها وكذلك لدى المالك المولع بالموسيقى، أعجبت الخادمات بالتفاتاته. أما هنا، في سهرة الحاكم، فقد راح عدد كبير من السيدات الشابات والآنسات، على ما بدا له، ينتظرن بنفاد صبر أن يتنازل بالالتفات نحوهن. كانت السيدات والآنسات يتحدثن بظرف معه، وفي الوقت نفسه لم يعد للعجائز من شاغل إلا تزويج هذا الفارس الأنيق. وكانت زوجة الحاكم نفسها في عداد هؤلاء. ولقد استقبلت روستوف وكأنه أحد الأقارب المقربين ولم تلبث أن أخذت تخاطبه بصيغة المفرد وتناديه باسمه المجرد «نيكولا».

بدأت كاترين پيتروڤنا بالفعل تعزف الڤالس والإيقوسيات، وبدأ الرقص، فأسر نيكولا ببراعته كل هذا الجمع من الإقليميين أكثر فأكثر. لقد أدهشهم بطريقته الرشيقة في الرقص حتى إنه نفسه فوجئ باندفاعه. إنه لم يرقص قط مثل ذلك في موسكو بل إنه كان قميناً بأن يجد هذه الطريقة الطليقة مبتذلة. لكنه هنا شعر بحاجته إلى إدهاش الموجودين جميعاً وأن يقوم بشيء خارق يعتبرونه ابتكاراً من العاصمة لم يبلغ الأقاليم بعد.

لم تتوقف أنظار نيكولا خلال السهرة كلها إلا على شقراء فاتنة ذات عينين زرقاوين، كانت زوجة أحد الموظفين في المنطقة. وكان روستوف ممتلئاً بتلك الثقة الساذجة التي للشبان المشتطين في المرح الذين يعتقدون أن نساء الآخرين صنعن من أجلهم. لذلك لم يفارق تلك السيدة لحظة

www.Maktbah.com

واحدة وراح يعامل زوجها بألفة أنيسة بل بشيء من التآمر وكأنهما دون أن ينطقا به، يعرفان مدى التفاهم الذي سيجمع بينه هو، نيكولا، وبين زوجة هذا الزوج. غير أن الزوج رغم ذلك لم يكن يبدو عليه أنه يشاطره هذا الاعتقاد فكان يعمل جاهداً على لقاء روستوف بوجه عبوس. لكن سلامة طوية نيكولا كانت متخطية كل حد حتى إن الزوج كان أحياناً يرى نفسه رغماً عنه مدفوعاً إلى مشاطرته ذلك الاعتقاد. وفي تلك الأثناء، كان وجه الزوجة يزداد حيوية واحمراراً كلما شارفت السهرة نهايتها، بخلاف وجه الزوج الذي كان يزداد كآبة ورزانة، وكأن جرعة البهجة محدودة كلما أوفت على جانب منها هبط مستوى المتبقي منها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

أفرط نيكولا في الاقتراب من السيدة الشابة الشقراء، واستلقى مغتبطاً على مقعده، وأخذ يغدق عليها أصناف الإطراء كافة.

كان لا يني يعقد ساقيه ويبسطهما وهما ملفوفتان في سراويل ركوب ضيقة الأكمام، تفوح منه رائحة زكية، يتأمل السيدة معتزاً بنفسه وشكل حذاءيه الأنيقين، يحدث الشقراء بأنه ينوي هنا في ڤورونيج، اختطاف سيدة معينة.

ـ وأية سيدة؟

ـ أكثرهن فتنة وكمالاً. عيناها، ونظر نيكولا إلى جارته، زرقاوان وفمها مرجاني وبشرتها..، ونظر إلى كتفيها، وقامتها شبيهة بقامة ديانا..

واقترب الزوج وسأل زوجته عن موضوع الحديث وهو متجهم الوجه. فقال نيكولا وهو يقف بأدب:

ـ آه! ها أنتذا يانيكيتا إيڤانيتش.

وكأنه كان راغباً في إعلامه بفحوى دعابته، إذ أخذ يشرح له نيته اختطاف شقراء معينة.

ضحك الزوج ضحكة مغتصبة والزوجة بانشراح. واقتربت ربة البيت العطوف وعلى وجهها أمارات لوم وقالت:

حريق موسكو.

ـ إن آنّا إينياتييڤنا تود أن تراك. هيا يا نيكولا، إنك تسمح لي أن أناديك كذلك أليس صحيحاً؟

www.Maktbah.com

وضغطت على كلمتي آنّا إينياتييڤنا بشكل خاص جعل روستوف يدرك على الفور أنها سيدة مهمة. قال مجيباً عن سؤالها:

ـ بالطبع يا خالتي. من هي؟

ـ هي آنّا إينياتييڤنا مالڤنتسيڤ، ولقد تناهى إليها ذكرك عن طريق ابنة أختها التي أنقذتها.. هل تخمن من هي؟

قال نيكولا: لقد أنقذت الكثيرات!

ـ إنّ ابنة أختها هي الأميرة پولكونسكي. إنها هنا في ڤورونيج مع خالتها أوه! أوه! كم احمرَّ وجهك! هل هناك شيء ما؟..

ـ أبداً، أوه! أبداً يا خالتي.

ـ هيا، حسناً.. أوه! كم تبدو فتى مضحكاً!

قادته امرأة الحاكم قرب امرأة مديدة القامة، ضخمة الجثة، تعتمر قلنسوة زرقاء، كانت قد انتهت من فورها من لعب الورق مع أرقى شخصيات المدينة. وكانت هذه هي السيدة مالڤنتسيڤ، خالة الأميرة ماري، أرملة ثرية لا أولاد لها، تقضي العام كله في ڤورونيج. وكانت واقفة تدفع ديونها عندما اقترب روستوف فنظرت إليه وهي تطرف بعينيها باهتمام ثم استمرت تعرب عن استيائها للجنرال الذي هزمها في اللعب.

قالت وهي تمسك يده:

ـ تفتنني معرفتك يا عزيزي. أدخل السرور على نفسي بزيارتك لي.

وبعد أن تفوهت ببضع كلمات عن الأميرة ماري وأبيها المرحوم الذي لم يبد عليها أنها تحبه، وبعد أن سألته عم إذا كانت لديه أنباء عن الأمير أندريه الذي بدا هو الآخر غير مرضي عليه من طرفها، صرفته السيدة العجوز الرفيعة وهي تكرر دعوتها.

ـ قطع نيكولا وعداً بأن يزورها واحمر وجهه مرة أخرى وهو ينحني

twitter @baghdad_library

للسيدة مالڤينتسيف. كان يشعر وهو يسمع الحديث عن الأميرة ماري، بشعور لا يستطيع تفسيره، شعور يمتزج فيه الارتباك بالخوف.

بعد أن غادر السيدة مالڤينتسيف أراد نيكولا أن يلحق بحلبة الرقص لولا أن يد زوجة الحاكم الثقيلة حطت على ذراعه. قالت له إن لديها ما تحدثه به وقادته إلى مخدعها فلم يلبث الموجودون فيه أن خرجوا متسللين.

قالت زوجة الحاكم وعلى وجهها الطيب أمارات الجد:

ـ حسناً يا عزيزي، هل تعرف تماماً الزوجة اللازمة لك؟ هل تريد أن أتحدث باسمك؟

فاستعلم نيكولا: من هي يا خالتي؟

ـ الأميرة. إن كاترين پيتروڤنا تقول إن ليلي تناسبك. لكنني أرى أنا الأميرة أفضل. هل ترغب في أن أتدخل في الأمر؟ إنني واثقة بأن أمك ستشكرني. إنها فتاة رائعة حقاً! ثم إنها ليست دميمة إلى هذا الحد!

ردد نيكولا وهو يشعر بشيء من المهانة: مطلقاً! أنا يا خالتي، بصفتي عسكرياً، لا أطلب ولا أرفض شيئاً أبداً.

ولقد أضاف هذه العبارة دون أن يدع لنفسه وقتاً للتفكير في ما يقول.

ـ حسناً، فكر إذن. إنها ليست دعابة.

ـ ما هو الذي ليس دعابة؟

قالت وكأنها تخاطب نفسها:

ـ كلا! كلا. ثم، في عرض الكلام يا عزيزي، إنك شديد الدأب بالقرب من الأخرى، الشقراء، إن الزوج يثير الشفقة حقاً..

فاعترض نيكولا ببساطة قلبه:

ـ ولكن لا، لا، إننا أصدقاء ممتازون. لم يكن يخطر على باله أن هذه

www.Maktbah.com

الطريقة بتمضية الوقت، المستحبة لديه كثيراً، يمكن أن تكون غير ذلك بالنسبة إلى الآخرين.

قال نيكولا في نفسه فجأة خلال العشاء: أية رعونة صدرت عني في حديثي مع زوجة الحاكم؟ إنها تريد أن تزوجني بجدع الأنف. وسونيا؟ ولما استأذن ربة المنزل منصرفاً، وكررت له باسمة: «فكر في الموضوع جيداً»، انفرد بها وقال: على أية حال يا خالتي، يجب أن أقول لك..

ـ ماذا يا صديقي؟ تعال من هنا، لنجلس.

شعر نيكولا فجأة بالحاجة الملحة إلى الإفضاء بمكنونات قلبه إلى هذه المرأة المجهولة منه تقريباً وأن يقول لها ما لم يكن ليصرح به إلى أمه أو إلى أخته أو صديقه. ولما تذكر لاحقاً هذه النوبة من التفاني التي لا مبرر لها، خيل إليه، كما يبدو دائماً، أنه ارتكب حماقة كبيرة. مع ذلك، فإنّ هذه النوبة من الإخلاص، إضافة إلى بعض الوقائع البسيطة الأخرى، عادت عليه وعلى ذويه كلهم بنتائج جسيمة. قال:

ـ إليك الموضوع يا خالتي. إنّ أمي تود منذ زمن بعيد أن تزوجني فتاة غنية. لكن هذه الفكرة وحدها تثير اشمئزازي. إنني لا أريد أن أتزوج كسباً للمال.

فقالت زوجة الحاكم: أوه! إنني أفهم تماماً.

ـ لكن الأميرة بولكونسكي شيء آخر: أولاً، أعترف لك بأنها تعجبني كثيراً، إنها توافق قلبي. ومنذ أن قابلتها في ملابسات شديدة الغرابة، ما زلت أفكر دائماً في أنها مشيئة القدر. فكري معي: لقد كانت أمي تفكر فيها منذ زمن بعيد وأنا، لم أكن أجد المناسبة لمقابلتها. ولست أدري كيف كان يحدث ذلك، لكننا لم نكن نتقابل قط. ومادامت أختي ناتاشا مخطوبة لأخيها، لم أكن أستطيع الاقتران بها. ولقد كتب أن لا أقابلها إلا بعد أن فصمت عرى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

زواج ناتاشا، وبعد كل شيء.. نعم كل ما.. إنني لم أتحدث بهذا قط إلى إنسان ولست أريد التحدث عنه. إنك وحدك..

ضغطت زوجة الحاكم على مرفقه بحركة متوددة.

ـ هل تعرفين ابنة عمي سونيا؟ إنني أحبها ولقد وعدتها بالاقتران بها وسأتزوجها..

ثم أعقب وهو متردد والحمرة تغزو وجهه:

ـ بذلك ترين أنه لا ينبغي التفكير في هذا الموضوع.

ـ يا عزيزي، يا عزيزي، ما هذا القول؟ ولكن تمعن، إن سونيا لا تملك شيئاً. وأنت نفسك تقول إن أمور أبيك في حالة سيئة. ثم أمك؟ إنَّ مثل هذا الزواج سيقتلها. كن واثقاً من بذلك، أما فيما يتعلق بسونيا، ماذا ستكون حياتها إذا كانت ذا قلب حساس؟ أمك في يأس وثروتك في خطر.. كلا يا عزيزي، يجب أن تفهما الأمور، سونيا وأنت.

سكت نيكولا إذ كانت هذه الاستنتاجات لا تروقه أبداً. قال بعد فترة صمت:

ـ على كل حال يا خالتي، إن هذا لا يمكن أن يكون. ثم هل ترغب الأميرة بي زوجاً.. أضف إلى ذلك أنها في حداد. هل يمكن مجرد التفكير في الأمر؟

قالت زوجة الحاكم: وهل تتصور أنني سأزوجك فوراً؟ هناك ألف وسيلة ووسيلة.

فقال نيكولا وهو يقبل يدها السمينة: يا لك من مزوجة بارعة يا خالتي..

www.Maktbah.com

الفصل السادس

وجدت الأميرة لدى وصولها إلى موسكو، بعد لقائها نيكولا روستوف، ابن أخيها مع مربيه ورسالة من الأمير أندريه يشرح لها فيها خط المسير لتصل إلى ڤورونيج، عند خالتها مالڤنتسيف. ولقد كبتت مشاغل الرحلة والقلق الذي تشعر به بسبب أخيها وإقامتها في منزل جديد والوجوه الجديدة والعناية التي وجب أن تصرفها في تثقيف ابن أخيها، كل ذلك كبت في نفسها ذلك اللون من الضجر الذي ناءت به طوال فترة مرض أبيها وبعد موته وخصوصاً منذ أن تعرفت إلى روستوف. لقد كانت حزينة. وكانت خسارة أبيها تختلط في قلبها بخسارة روسيا. والآن، بعد أن أمضت شهراً في هدوء تام، أصبح حزنها أشد إيلاماً من أي وقت مضى. كانت تشعر أنها مهمومة وفكرة الخطر الذي يتعرض له أخوها، المخلوق الأقرب إليها الذي بقي لها، لا تفتأ تعذبها. وكانت تعنى كل العناية بتثقيف ابن أخيها، وهي المهمة التي ما برحت تعتبر نفسها عاجزة عن إنجازها. لذلك فقد اتخذت في أعماق نفسها قراراً بخنق الأحلام والآمال التي أيقظها لقاؤها روستوف في نفسها.

جاءت زوجة الحاكم في اليوم التالي للسهرة، إلى منزل السيدة مالڤنتسيف وتناقشت معها في خططها بعد أن أخطرتها بأن الأمر في الظروف الحاضرة لا يعني خطبة رسمية بل مجرد الجمع بين الشابين والسماح لهما بالتعارف. ولما حصلت على موافقة الخالة، راحت زوجة الحاكم تتحدث عن روستوف أمام ماري فتمتدحه وتروي كيف أنه احمرَّ وجهه عندما نطقت باسم الأميرة. أما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ماري، فقد شعرت بضيق بدلاً من شعورها بالفرح لأن عزمها القلبي أخذ ينهار مجدداً ليترك المجال للرغبات والشكوك واللوم والآمال.

بقيت الأميرة ماري، خلال اليومين التاليين، تنتظر زيارة روستوف وهي لا تبرح تفكر في الموقف الذي ستتخذه تجاهه. فحيناً تقرر أن لا تظهر في القاعة عندما يحضر لزيارة خالتها، لأنه لا يليق بها أن تتقبل الزيارات بسبب حدادها، وحيناً تفكر أن ذلك سيكون غلطة من جانبها بعد الذي فعله من أجلها. تارة تواتيها فكرة أن لخالتها ولزوجة الحاكم وجهات نظر معيّنة تتعلق بها وبروستوف، إذ كانت نظرتهما وأقوالهما تؤيد هذا الافتراض أحياناً، وتارة تحدث نفسها بأنها مخطئة في التفكير على هذا النحو:

ألا يجب أن تفكر هاتان السيدتان بأن أفكاراً تتعلق بالزواج تعتبر، وهي في وضعها الراهن لم تنزع بعد شارة الحداد إهانة ليس لها فحسب، بل لذكرى أبيها كذلك؟ وعندما تفكر أنها تتقدم نحوه، كانت الأميرة ماري تسمع مسبقاً الكلمات التي سيقولها والتي ستجيبه بها فكانت تلك الكلمات تبدو لها تارة على جمود لا يطاق وصوراً تحفل بمعانٍ شتى. وفضلاً عن ذلك، كانت تخشى الاضطراب الذي تشعر به والذي سيستولي ولا بد عليها فيفضحها للنظرة الأولى.

ولكن عندما جاء الخادم إلى القاعة بعد صلاة يوم الأحد يعلن وصول الكونت روستوف، لم تظهر الأميرة ماري أي ارتباك باستثناء الحمرة الخفيفة التي صبغت وجنتيها والتماع عينيها ببريق أشد وميضاً.

سألت الأميرة ماري بصوت هادئ وقد دهشت هي نفسها لقدرتها على الظهور بمثل هذا السكون وعلى مثل هذا المظهر الطبيعي: هل رأيته من قبل يا خالتي؟

دخل روستوف إلى الغرفة فخفضت الأميرة رأسها وكأنها تتيح الوقت

www.Maktbah.com

للزائر لتقديم مجاملاته إلى خالتها، ثم رفعت جبينها في اللحظة نفسها التي استدار نحوها فلاقت عيناها المتوهجتان نظرته. وقفت بابتسامة مرحة ومدت له يدها الدقيقة بحركة كيسة جديدة بها وراحت تتحدث بصوت اهتزت فيه لأول مرة نبرات نسوية وعميقة، فنظرت الآنسة بوريين التي كانت حاضرة في القاعة، إلى الأميرة ماري بدهشة لأن أية غنية ماجنة ما كانت تستطيع التصرف على نحو أفضل لدى ظهور رجل تريد أن تروق في نظره.

تساءلت الآنسة بوريين: «أهو اللون الأسود الذي يناسب وجهها أم تراها اكتسبت جمالاً دون أن ألاحظ؟ من أين لها بهذا الظرف وهذه اللباقة؟».

ولو أن الأميرة ماري كانت في تلك اللحظة في حالة تفكير، لدهشت أكثر من الآنسة بوريين نفسها للتغير الذي طرأ عليها. لم تكد ترى ذلك الوجه الرائع الذي تحبه حتى تملكتها حياة قوية جديدة وجعلتها تتصرف وتتحدث تبعاً لقوتها. لقد تحول وجهها فجأة وسرت الحياة في تقاطيعها، كمثل زجاج مصباح رسم عليه فنان خطوطاً قاتمة وخالية من أي معنى، لا يكاد يضيء داخله حتى تأخذ تلك الخطوط مظهراً أخاذاً بجماله، كذلك أصبحت قسمات الأميرة ماري جديدة في مظهرها. لقد بزغ إلى فجر الحياة لأول مرة ما كان يعتلج في روحها النقية من إحساسات قلبية. أخذت حياتها النفسية كلها وكل ما يسبب عذابها وآلامها واندفاعاتها نحو الخير والحب والتضحية، كل ذلك بدأ يتألق الآن في عينيها المشعتين وفي ابتسامتها وفي كل قسمات وجهها الحاني.

ولقد شعر روستوف بذلك شعوراً مسبقاً بلغ من شدة وضوحه أنه بدا وكأنه عرف حياة الأميرة ماري كلها. عرف أن المخلوقة الماثلة أمامه تختلف تماماً عن كل من صادفهن في حياته حتى الآن، وأنها أفضل منهن جميعاً وبصورة خاصة أفضل منه هو.

كان الحديث من أكثر الأحاديث سطحية. تكلموا عن الحرب وهم

twitter @baghdad_library

يبالغون في إظهار همومهم دون تعمد أسوة بكل الناس. وتحدثوا عن مقابلتهم الأخيرة، فأظهر نيكولا لباقة ساعدته على الانتقال إلى موضوع آخر، فتحدثوا عن زوجة الحاكم وعن أقربائهم المتبادلين.

لم تنبس الأميرة ماري بكلمة واحدة عن أخيها بل سارعت بدورها إلى تحويل مجرى الحديث عندما نوهت خالتها بالأمير أندريه في سياق الحديث، وكان واضحاً أنها إذا كانت تستطيع أن تعبّر عن آلام روسيا بعبارات اصطلاحية فإن أخاها قريب جداً من قلبها حتى ليتعذر عليها أن تتحدث عنه في عرض الحديث، لاحظ نيكولا ذلك كما لاحظ بحدسٍ من قبل أن ذويه لا يمكن أن يخمنوا درجات نفسية الأميرة ماري، تلك الدرجات التي لم تزد اعتقاده إلا رسوخاً بأنها امرأة ممتازة. لقد كان نيكولا يحسّ بمثل إحساس الأميرة ماري لهذا السبب كان يضطرب ويحمرّ وجهه كلما ذكروا الأميرة أمامه بل كلما فكر فيها. لكنه في حضرتها كان يشعر بارتياح تام ويقول ما يتوارد في ذهنه في اللحظة نفسها وليس ما أعد من قبل ويجد دائماً الكلمة المناسبة الصحيحة.

خلال زيارته القصيرة، اقترب نيكولا في فترة صمت من ابن الأمير أندريه الصغير كما هي العادة دائماً كلما وجد في المكان أطفالاً. ولاطفه وسأله عم إذا كان يودّ أن يصبح فارساً. ثم حمله بين ذراعيه وجعله يقفز بفرح وألقى نحو الأميرة ماري نظرة مختلسة. وكانت هذه تتبع الطفل الذي تحبه بنظرة حانية سعيدة وهي بين ذراعَي الرجل الذي تحبه. فلاحظ نيكولا تلك النظرة واحمر وجهه من السرور وكأنه أدرك كنهها ثم قبل الصغير من كل قلبه.

لم تكن الأميرة ماري تخرج بسبب حزنها، فقدر نيكولا أنه ليس من المناسب تكرار الزيارة. لكن زوجة الحاكم لم تكف عن تدابيرها الخاصة بالزواج، وظلّت تردد أمام نيكولا ما قالته الأميرة عنه من كلام فاتن، وللأميرة ما يقوله روستوف، وهي تلح دائماً على روستوف أن يصارحها برغبته. بل إنها دبَّرت لبلوغ هذه الغاية لقاءً للشابين عند رئيس الكهنة قبل القداس.

www.Maktbah.com

ورغم أن روستوف أبلغ زوجة الحاكم بأنه لن يعرب عن عزمه للأميرة ماري في ذلك اللقاء فإنه وعد بالحضور.

وجرت الأمور كما قدر عندما لم يسمح روستوف لنفسه أن يشك في جودة وسمو ما يراه كل شخص كاملاً. وبعد صراع قصير ولكن مخلص بين الرغبة في تسوية حياته بشكل معقول والخضوع المتوجب عليه للظروف، اختار الجانب الأخير واستسلم للقدر الذي كان يجرفه بقوة لا تقاوم كما كان يشعر. وكان يعرف أن إبداء مشاعره للأميرة ماري بعد وعوده لسونيا، يعتبر سفالةً من جانبه ويعرف كذلك أنه لم يكن قط نذلاً. لكنه كان يعرف أيضاً من أعماق نفسه أنه إذا ترك الأشخاص يعملون والأشياء تجرفه إلى الأمام، فإنه لا يرتكب بذلك سوءاً بل العكس ينجز شيئاً بالغ الخطورة لدرجة لا يمكن مقارنة كل ما فعله في حياته به.

لم يبدِ أي تغيير على نمط حياته الخارجي بعد مقابلته الأميرة ماري. مع ذلك فإن كل ما كان يفتنه من قبل أخذ يفقد فتنته. كان يفكر فيها غالباً. مع ذلك لم يكن تفكيره في الأميرة ماري كمثل طريقته في التفكير بكل الفتيات اللاتي قابلهن في المجتمع، كما أنه لم يكن يحسُّ تجاهها بالهوَس الذي استولى عليه فترة ما نحو سونيا. كان كسائر الشبان الشرفاء تقريباً، عندما يفكر في فتاة، يرى فيها الزوجة المنتظرة ويميّز في خياله شروط حياته العائلية: الزوجة الجالسة قرب السماور في ثوب منزلي أبيض، عربة السيدة، الأولاد الذين يقولون ماما وبابا، تعلق أحدهم بالآخر، إلى آخر ما هنالك وكانت هذه الصور عن المستقبل تملأه بالارتياح. لكنه عندما كان يفكر في الأميرة ماري التي يريدون أن يزوجوه بها، لم يكن يستطيع أن يتخيل أية حياة زوجية: فكلما حاول التخيل، بدا له كل ما أقامه خطأً وفي غير موضعه، فكان ذلك يترك في نفسه شعوراً بالقلق العميق.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع

عرفت ماري عن طريق الصحف بجرح أخيها، وقد بلغت أنباء معركة بورودينو الرهيبة وخسائرنا الفادحة بين قتلى وجرحى، كما إعلان خسارة موسكو، مدينة ڤورونيغ في منتصف شهر أيلول/ سبتمبر. وبما أن ماري لم تكن تعرف عن أخيها شيئاً دقيقاً فقد استعدت للسفر بحثاً عنه كما تناهى إلى نيكولا الذي لم يرها حين ذلك.

أما روستوف، فإن نبأ معركة بورودينو ومغادرة موسكو لم يحدث فيه يأساً ولا غضباً ولا رغبة في الانتقام ولا أي شعور آخر من هذا النوع، لكنه شعر فجأة بسأم في ڤورونيغ وأنه ليس في مكانه ولا كما يريد، فكانت المحاضرات التي يسمعها حول هذا الموضوع تبدو له نشازاً. لم يكن يعرف كيف يفكر في تلك الحال، لكنه كان يظن أن الأمور ستتضح له حال عودته إلى فوجه. لذلك فقد أسرع في الانتهاء من شراء الجياد وهو يتبرم كيفما اتفق من خدمه ورقيب كوكبته.

قبل سفره ببضعة أيام أقيم قداس في الكاتدرائية احتفالاً بنصر الجيوش الروسية حضره نيكولا. اتخذ لنفسه مكاناً وراء الحاكم قليلاً وعلى سيماه خطورة مصطنعة وحضر الاحتفال الديني وهو يفكِّر في شيء مختلف تماماً. فلما انتهى القداس استدعته زوجة الحاكم وسألته وهي تشير إلى شبح في ثياب سوداء وراء جوقة المرتلين:

ـ هل رأيت الأميرة؟.

www.Maktbah.com

عرف نيكولا فوراً الأميرة ماري، ليس بصورة وجهها الجانبية التي بدت تحت القبعة فحسب بل كذلك من شعور التحفظ والحنان الذي استبد به. وكانت على صدرها شارات الصليب الأخيرة قبل خروجها من الكنيسة وهي غارقة في انشغالها.

دهش عندما رأى وجهها. لقد كان ذلك الوجه نفسه الذي يعرفه والذي نقشت عليه الأحاسيس الداخلية، لكنه كان مشعاً بضوء مختلف. إنه يحمل أمارات الحزن المؤثرة والصلاة والأمل. وكما حدث له من قبل في حضرة الأميرة ماري لم ينتظر نيكولا موافقة زوجة الحاكم ليقترب نحوها كما لم يتساءل عم إذا كانت الآداب تسمح له بالدنو من الأميرة ماري داخل الكنيسة، بل ذهب إليها وقال لها إنه علم بمصيبتها الحديثة وإنه يشاطرها الأسى من كل جوارحه.

ولم تكد تسمع صوته حتى أضاء وجهها نور متوهج، نور أضاء حزنها وسرورها معاً. قال روستوف: كنت أعتزم أن أقول لك يا أميرة بأن الأمير أندريه نيكولا ييڤيتش يرأس فوجاً وأنه لو فقد حياته لنشرت الصحف ذلك.

نظرت إليه الأميرة دون أن تدرك كنه أقواله وهي شديدة السعادة بالحماسة التي قرأتها على قسمات وجهه.

أضاف روستوف:

ـ وأعرف أمثلة كثيرة كانت فيها الجروح التي تحدثها القذائف، وكانت الصحف تدعوها القنابل إذا لم تقتل من فورها، تبدو على العكس طفيفة.. يجب أمل الأفضل وإنني واثق أن..

فقاطعته الأميرة ماري وشرعت تقول: أوه! سيكون ذلك شديد الهو..ل..!.

وأطرقت برأسها بحركة كيِّسة ككل الحركات التي تصدر عنها في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

حضوره وقد منعتها شدة التأثر من إتمام جملتها ثم ألقت عليه نظرة عرفان ولحقت بخالتها.

ذلك المساء، لم يذهب نيكولا في زيارة إلى أي مكان بل عكف في غرفته على ترتيب حساباته مع باعة الخيول. فلما انتهى من أعماله، وكان الوقت متأخراً جداً للخروج ومبكراً جداً للنوم لذلك فقد بقي يذرع غرفته وهو يفكر في قدره، الأمر الذي ندر أن وقع له مثله.

لقد أحدثت فيه الأميرة ماري من قبل أثراً عنيفاً في سمولنسك. أدهشته الظروف الخاصة التي التقاها فيها، هي التي عنتها أمه على اعتبارها أغنى زوجة يمكن الحصول عليها، لذلك راح يتأمل الفتاة بعناية خاصة. وفي ڤورونيغ، لم تترك زيارته لها ذكرى مستحبة في نفسه فحسب بل تركت أيضاً تأثيراً قوياً. لقد حرك مشاعره جمالها الخاص، الجمال الخلقي الذي اكتشفه فيها وها هوذا يستعد للرحيل دون أن تواتيه فكرة الأسف على مغادرته المدينة لأنه سيحرم من رؤيتها.

لكن اللقاء الذي جرى له معها في الكنيسة، كان يحفر صورة الأميرة في قلب نيكولا، وهو الذي لمس ذلك، نقشاً عميقاً أكثر مما كان يتوقع، نقشاً أعمق مما كان يتمنّاه لراحته.. كان ذلك الوجه الدقيق الحزين وتلك النظرة المشعة والحركات الموزونة الملأى بالانسجام وذلك الفم الضعيف الذي تنطق به قسماتها، كل ذلك كان يهز نيكولا ويستفز ميله. لم يكن يستطيع احتمال رؤية دلالة تفوق فكري على وجه رجل، وهذا هو سبب امتناعه عن حب الأمير أندريه، كما كان يشعر بالاحتقار لكل ما يدعوه فلسفة ولكل أصحاب الأوهام. لكن الحزن عند الأميرة كان ينم عن عمق هذا العالم الفكري المجهول منه، هذا العالم الذي يجذبه بقوة لا تقاوم.

حدث نفسه: «لا شك أنها فتاة مدهشة! ملك حقيقي. لماذا لست حراً،

www.Maktbah.com

لماذا تسرَّعت إلى هذا الحد مع سونيا؟» وراح رغماً عنه يقارن بين الفتاتين. ففي الواحدة فقرها بهذه المواهب الفكرية التي يقدرها بقدر ما تنقصه هو شخصياً وفي الأخرى، ثروتها منها. أخذ يحاول أن يتمثل ماذا كان سيتم لو وجد نفسه حراً من كل قيد. كيف كان سيعلن حبه لها؟ كيف كانت ستصبح زوجته؟ ولكن ما فائدة التفكير فيها؟ كان يشعر بالانزعاج فكانت هذه الصور كلها تختلط أمام عينيه. كانت لوحة حياته المقبلة مع سونيا مخطوطة منذ زمن طويل، وكل شيء فيها بسيط وواضح لأن كل شيء متوقع ولأنه لا يجهل شيئاً عن ابنة عمه. في حين أنه مع الأميرة ماري عاجز عن تكوين صورة للمستقبل. أن لا يفهمها بل يحبها فحسب.

أن يحلم بسونيا، أمر مبهج يشبه اللعب. أما أن يحلم بالأميرة ماري، فشيء صعب بل مرعب بعض الشيء.

قال في سرِّه: «كيف كانت تصلي! كان واضحاً أن روحها كلها تنساب في صلاتها. صحيح أن الإيمان ينقل الجبال وأنني واثق بأن صلاتها ستقبل. لماذا لا أسأل الله أنا الآخر ما أنا في حاجة إليه؟ ولكن، ما هي حاجتي؟ أن أكون حراً، أن أقطع علاقتي بسونيا. لن ينجم عنها إلا ما يؤسي: الارتباكات المالية، حزن «ماما».. هذه الهموم.. متاعب، متاعب رهيبة. ثم إنني لا أحبها في أعماق نفسي. كلا، لا أحبها كما يجب. آه! يا إلهي! أخرجني من هذا المأزق البشع الذي لا مخرج له!» وقال فجأة وهو يبتهل رغم أنفه: «نعم، إن الإيمان ينقل الجبال، ولكن يجب أن تكون النفس مشبعة به لا أن نصلي كما نفعل نحن، ناتاشا وأنا، عندما كنا طفلين وكنا نسأل أن يصبح الثلج سكراً فما إن تنتهي الصلاة حتى نسرع إلى الفناء لنرى ما إذا كان الثلج قد تحول إلى سكر أم لا. كلا، ليست هذه التفاهات هي ما ينبغي أن أسأله الآن». بذلك كان يحدث نفسه وهو يضع غليونه في زاوية ويمضي أمام الصور المقدسة فيقيم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

معقود اليدين. ولقد تحنن الذكرى الأميرة ماري، فراح يصلي كما لم يفعل منذ زمن طويل. وكانت الدموع تنبجس من عينيه وتتصاعد إلى حلقه عندما فتح لاڤروشا الباب وفي يديه بعض الأوراق.

صاح نيكولا وهو يبدل وضعيته بسرعة: أيها الغبي، ماذا دهاك حتى تدخل عندما لا يدعوك أحد!.

فأجابه لاڤروشا بصوت خامل: إنه من لدن الحاكم. لقد وصل بريد يحمل رسالتين لك.

ـ حسناً، حسناً جداً، شكراً يمكنك أن تذهب.

أخذ نيكولا الرسالتين. كانت الواحدة من أمه والثانية من سونيا. وبعد أن تعرف إلى الخطوط، فض رسالة سونيا بادئ الأمر، شحب وجهه لدى تلاوة السطور الأولى وجحظت عيناه من الخوف والفرح وقال بصوت مرتفع:

ـ كلا، هذا لا يمكن أن يكون!.

لم يستطع البقاء في مكانه فراح يذرع الغرفة والرسالة في يده يقرأها، تصفحها بادئ الأمر ثم قرأها مرة وأعاد تلاوتها وأخيراً تسمر في مكانه متأرجح الذراعين فاتح الفم، شاخص العينين. إن ما طلبه منذ حين مع كامل الثقة بأن الله سيستجيبه قبل، فكان ذهوله شديداً. إن في هذا الأمر شيئاً ما كان يستطيع أن يتوقعه ولكن السرعة التي استجيب طلبه بها دلت على أن الأمر بدلاً من أن يكون تدخلاً ربانياً، بات مجرد صدفة.

على ذلك، فقد بدا أن تلك العقدة المستعصية على الحل التي كانت تربط حرية نيكولا قد انحلت من تلقاء نفسها في هذه الرسالة غير المتوقعة التي وصلته من سونيا، تلك الرسالة التي لم يكن هناك ما يشير إليها أو أقله، هذا ما يراه نيكولا. كانت تخبره في رسالتها أن مصائب الأيام الأخيرة وضياع كل مقتنيات أسرة روستوف في موسكو والرغبة التي أبدتها الكونتيسة مراراً

www.Maktbah.com

في أن تراه يتزوج الأميرة بولكونسكي، وسكوتها وبرودها في الأيام الأخيرة كل ذلك دفعها إلى أن تقرر حله من الوعد الذي قطعه على نفسه وأن تعيد إليه الحرية المطلقة.

كتبت: «سيؤلمني جداً أن أفكِّر بأنني يمكن أن أصبح سبباً للغم أو للتجافي في أسرة أنا مدينة لها بكل شيء. ثم إن حبي يستهدف شيئاً واحداً: سعادة من أحب. لذلك فإنني أتوسل إليك يا نيكولا أن تعتبر نفسك حراً رغم أنّ ما من أحد يمكنه أن يحبك أكثر من سونياك».

كانت الرسالتان صادرتين من ترويتسا ورسالة الكونتيسة تصف الأيام الأخيرة التي قضتها الأسرة في موسكو وسفرها والحريق وضياع مقتنياتها. مع ذلك، فإن الكونتيسة كانت تقول في تلك الرسالة إن الأمير أندريه وعدداً كبيراً من الجرحى يسافرون معهم وإن الأمير أندريه في حالة شديدة الخطورة ولكن الطبيب يؤكد أن هناك الآن أملاً قوياً في شفائه، وأن سونيا وناتاشا تقومان على تمريضه.

غداة اليوم التالي، ذهب نيكولا حاملاً رسالة أمه إلى الأميرة ماري. لم يعلق هو ولا هي على التنويه الذي تحويه عبارة: «ناتاشا تقوم على تمريضه». مع ذلك، فإنهما شعرا بتقارب بفضل هذه الرسالة بل أشبه بالقريبين.

وفي اليوم التالي، رافق روستوف الأميرة ماري إلى ياروسلاڤل ثم التحق بفوجه بعد بضعة أيام.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

أُرسلت رسالة سونيا من تروييستا، تلك التي استجابت لأمنيات نيكولا، وهكذا حدث الأمر: أصبحت فكرة رؤية ابنها يقترن بوارثة غنية تزيد في تعذيب الكونتيسة العجوز وإيلامها يوماً بعد يوم. وكانت تعرف أن العائق الرئيسي هو سونيا. وأصبحت حياة سونيا خلال الأيام الأخيرة وخصوصاً منذ أن أرسل نيكولا رسالة يذكر فيها أنه التقى الأميرة ماري في بوغوتشاروڤو تزداد صعوبة، إذ إن الكونتيسة لم تكن تترك سانحة إلا استغلتها لتوجه إلى الفتاة المسكينة إنذارات جارحة بل قاسية.

استدعت الكونتيسة، قبل مغادرة موسكو بأيام، التي قلبتها الأحداث ظهراً لعقب، سونيا إليها. وبدلاً من أن تطالبها بالتضحية وهي تبهظها بالتعنيف توسلت إليها راجية أن تعرب عن عرفانها بكل ما أسدوه إليها من جميل بفصم علاقاتها بنيكولا وأضافت:

ـ لن يهدأ لي بال قبل أن تعديني بذلك.

دهمت سونيا موجة من الدموع وأجابت خلال نشيجها أنها ستعمل كل شيء وأنها على استعداد لكل شيء ولكن دون أن تصرف الوعد القاطع وهي العاجزة في أعماق نفسها عن اعتزام ما يفرض عليها أن تضحي بنفسها في سبيل سعادة العائلة التي أنشأتها وأطعمتها. وكان من عادتها أن تضحي بنفسها في سبيل الآخرين. ولقد كان مركزها في المنزل على حال لا يصلح معه إلا نسيان ذاتها لإظهار قيمتها. لذلك فقد باتت تجد حجب نفسها دائماً

www.Maktbah.com

أمراً طبيعياً. مع ذلك، فإنها كلما قامت بتضحية، كانت تجد البهجة في أن تقول لنفسها إنها عظمت في عيني نفسها وفي عيون الآخرين، وإنها بذلك تجعل نفسها أكثر جدارة بنيكولا الذي تحبه أكثر من كل الناس. أما الآن، فإن ما يطلبونه منها، هو هجران المكافأة على تضحياتها، هجران كل ما له معنى في حياتها. وللمرة الأولى في حياتها، شعرت بالمرارة تجاه هؤلاء الأشخاص الذين لم يغدقوا عليها إحسانهم إلا ليزيدوا في عذابها.

شعرت بالغيرة من ناتاشا التي لم تحس إطلاقاً بمثل هذا الإحساس والتي لم تعرض لها قط الحاجة إلى تضحية نفسها والتي أرغمت الآخرين على أن يضحوا بأنفسهم من أجلها وبقيت رغم ذلك تنعم بحب الجميع. وللمرة الأولى، شعرت سونيا أن حبَّها الهادئ الطاهر لنيكولا قد تحول فجأة إلى هوى جامح يطغى على العقل والدين. وبتأثير هذا الهوى الجامح، أجابت سونيا التي ألفت إخفاء كل شيء عن حياتها المستقلة، عن طلب الكونتيسة بعبارات مبهمة وتجنبت كل تفسير وقررت بينها وبين نفسها أن تنتظر نيكولا لا لتحرره من كلمته بل لتقترن به إلى الأبد.

لقد غمرت رهبة الأيام الأخيرة التي قضاها آل روستوف في موسكو ومخاوفها، أفكار سونيا السوداوية التي كانت تعذبها، ولقد أسعدها أن وجدت الخلاص في الأعمال المادية. لكنها عندما عرفت بوجود الأمير أندريه في المنزل، استولى عليها، رغم كل إشفاقها عليه وعلى ناتاشا، شعور خرافي ومنعش. إن الله لا يريدها أن تفترق عن نيكولا. كانت تعرف أن ناتاشا تحب الأمير أندريه وأنها لم تكف عن حبه، وتعرف أنهما وقد اجتمعا الآن في مثل هذه الظروف، سيتحابان أكثر من أي وقت مضى، وإن نيكولا لن يستطيع حينئذٍ أن يتزوج الأميرة ماري بسبب روابط القربى الجديدة التي ستجتمع بينهما. المعروف أن الديانة الأرثوذكسية لا تسمح بالزواج بين أخوات

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الزوج وإخوان الزوجة. وعلى الرغم من كل هول ما كان يقع وصعوبات أيام السفر الأولى، فإن الثقة بأن القدرة الإلهية في سبيل التدخل في شؤون سونيا الشخصية كانت تفرحها.

توقف آل روستوف في المرحلة الأولى من يوم سفرهم في دير «ترينيتيه». احتجزوا لهم في فندق الدير ثلاث غرف، احتل الأمير أندريه واحدة منها وكان الجريح ذاك اليوم في حالة أفضل من حالته في الأيام السابقة، وناتاشا لا تبارح سريره. وفي الغرفة الملاصقة، كان الكونت والكونتيسة يتحدثان باحترام مع رئيس الدير الذي جاء يزور معطييه القدماء وأصدقاءه. وكانت سونيا هناك أيضاً تتحرق فضولاً وتتساءل عم يتحدث به الأمير أندريه مع ناتاشا. إنها تسمع جلبة صوتيهما من خلال الباب. وفجأة فتح ذلك الباب وتقدمت ناتاشا منقلبة الأسارير. اقتربت من سونيا دون أن تلاحظ الأب الرئيس الذي وقف ليتقدم نحوها ويباركها وهو يمسك بيسراه كمَّ جبته العريض ويبقيه فوق ذراعه اليمنى، وأمسكت بيدها. فقالت الكونتيسة.

ـ ناتاشا، هه؟ تعالي إلى هنا.

فاقتربت ناتاشا وتلقت مباركة الأب الرئيس الذي سألها أن تلتمس عون الله وقديسه! ـ لأن الدير يحوي مومياء القديس سيرج.

وما إن خرج، حتى أخذت ناتاشا بيد صديقتها وذهبت معها إلى الغرفة غير المسكونة. وصاحت:

ـ سونيا، هل صحيح؟ سيعيش؟ سونيا، كما أنا سعيدة وبالوقت نفسه تعيسة! سونيا يا عزيزتي، إن الحال كما كانت عليه من قبل تماماً. ليعش فقط. ولن يستطيع.. لأن.. لأن..

وقطعت العبرات صوتها. فقالت سونيا: آه! نعم. كنت أعرف ذلك! حمداً لله! سوف يعيش!.

www.Maktbah.com

لم تكن سونيا أقل تأثراً من صديقتها التي كانت أحزانها ومخاوفها تختلط بالأفكار التي لم تكن تستطيع الإعراب عنها أمام أحد. عانقت ناتاشا وواستها وهي مجهشة بالبكاء وراحت تفكر: «المهم أن يعيش!» وبعد أن بكتا وثرثرتا ما طاب لهما، مسحت الصديقتان دموعهما واقتربتا من باب الأمير أندريه ففتحته ناتاشا بهدوء ونظرت داخل الغرفة. ودفعت سونيا التي ما زالت إلى جانبها خلال الباب الموارب.

كان الأمير أندريه مستريحاً على ثلاث وسائد ووجهه الشاحب هادئاً وعيناه مغمضتين وقد اتضح أن تنفسه منتظم. قالت سونيا بصوت أقرب إلى الصراخ وهي تمسك بابنة عمها من ذراعها وتبتعد عن الباب:

آه! ناتاشا.

سألت ناتاشا: ماذا بك؟ ماذا بك؟.

ـإنه لكذلك، كذلك تماماً..

فقالت سونيا ممتقعة الوجه مضطربة الشفتين:

أغلقت ناتاشا الباب برفق وقادت سونيا قرب النافذة دون أن تفهم ما أرادت أن تقول.

قالت سونيا وعلى وجهها أمارات الذعر والجلال:

ـ هل تذكرين عندما نظرت إلى المرآة من أجلك.. في أواترادنواي، مساء عيد الميلاد؟... هل تذكرين ماذا رأيت؟.

فقالت ناتاشا وقد اتسعت عيناها: نعم، نعم.

تذكرت بإبهام أن سونيا قالت لها حينذاك شيئاً ما بصدد الأمير أندريه الذي رأته مستلقياً.

استأنفت سونيا: هل تذكرين؟ لقد رأيته حينذاك وذكرت ما رأيت لكل الناس، لك ولدونياشا. لقد رأيته في سرير، وراحت تضغط على الكلمات

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وترفق كل كلمة بحركة من يدها وسبابتها مرفوعة، رأيته في سرير وعيناه مغمضتان، يغطيه غطاء وردي كما هو الآن تماماً ويداه معقودتان.

كانت سونيا مقتنعة أنها وهي تصف تفاصيل ما شاهدته منذ حين إنما تصف ما شاهدته في المرآة ذلك اليوم. في حين أنها لم تر شيئاً مطلقاً ولم تقص إلا ما طاف بخيالها حينذاك. لكن ما تخيلته بدا لها على مثل حقيقة الذكرى. زعمت حينذاك أنه نظر إليها مبتسماً وأنه كان مغطى بشيء أحمر. أما الآن، فقد أصبحت واثقة بأنها قالت ورأت أنه مغطى بغطاء وردي، هذا الغطاء الوردي بالتدقيق وإن عينيه كانتا مغمضتين.

صاحت ناتاشا التي باتت هي الأخرى تعتقد الآن أنها تذكر أن سونيا أخبرتها حينذاك عن هذا الغطاء الوردي التي أصبحت ترى في هذه الواقعة نبأ خارقاً في الغموض: نعم، نعم، وردي، صحيح!.

ثم سألت ساهمة: ماذا يمكن أن يكون معنى هذا؟.

أجابت سونيا وهي تمسك برأسها بين يديها:

ـ آه! لست أدري شيئاً لكنه أمر مثير.

وبعد دقائق، قرع الأمير أندريه الجرس فعادت ناتاشا إلى قربه وبقيت سونيا التي نادراً ما شعرت بمثل هذا الانفعال، واقفة أمام النافذة تفكر في مثل هذه الصدفة المذهلة.

وفي ذلك اليوم، عرضت فرصة إرسال التحارير إلى الجيش، فكتبت الكونتيسة لابنها.. ثم قالت وهي تكف عن الكتابة عندما اقتربت سونيا منها.

ـ سونيا، سونيا أليس لديك ما تقولينه لنيكولا؟.

وارتجف صوتها عند طرح هذا السؤال، فقرأت سونيا في عيني الكونتيسة المتعبتين التي أخذت تنظر إليها خلال نظارتيها، كل ما أرادت أن تقوله بهذا

www.Maktbah.com

السؤال. كانت تلك النظرة تعبّر عن توسل وخوف من الرفض، والخجل من وجوب طلبه، وأخيراً الحقد الوشيك الذي لا ينسى في حالة الرفض.

اقتربت سونيا من الكونتيسة ورجعت أمامها وقبلت يدها ثم قالت:

ـ سأكتب فوراً يا أماه.

كانت سونيا مزعزعة متأثرة بسبب كل ما حدث أخيراً، وخصوصاً تحت دلالة الأمس بذلك الشكل المبهم. أحست الآن، بعد أن أصبحت مصالحة ناتاشا مع الأمير أندريه تمنع نيكولا من الاقتران بالأميرة ماري، بفرح عودة ذلك الشعور بالتضحية الذي كان أليفاً لديها. ولقد كتبت الرسالة المؤثرة التي أدهشت نيكولا جداً، وهي تمسح أكثر من مرة الدموع التي تملأ عينيها السوداوين المخمليتين، وكلها ثقة بأنها إنما تقوم بعمل بطولي.

الماريشال دافو.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

عومل پيار في مركز الحرس حيث اقتاده بعض الضباط والجنود، معاملة عدوانية لكنها لم تخل من الالتفات. كانوا يخشون أن يكون شخصية مرموقة رغم حقدهم عليه بسبب العراك الذي أثاره معهم.

ولكن، ما إن أزف الصباح حتى أبدل الحرس، فلاحظ پيار أن الضباط والجنود الجدد لم يعودوا يعاملونه بمثل المعاملة التي لقيها من الذين أوقفوه. كان هذا العملاق الضخم ذو معطف القرويين في نظرهم، ذلك الرجل القوي الذي اشتبك في معركة بالأيدي مع السلابين أثناء وجود الدورية، والذي تحدث بلهجة مهيبة عن طفل أنقذ من النار وأصبح يعرف برقم ١٧ على لائحة السجناء الروس الذين أوقفوا بناء على أمر القيادة العليا. فإذا كان فيه شيء ما خاص فلم يكن إلا تلك الرصانة التي تبدو على حركاته وذلك الفخار ثم اللغة الفرنسية التي يتحدث بها بإتقان وطلاقة تدهشان الفرنسيين أنفسهم. مع ذلك، فقد ألحق بالمشتبه فيهم الآخرين منذ ذلك اليوم لأن أحد الضباط طلب احتلال الغرفة الخاصة التي أودع فيها.

كان كل الروس الذين أوقفوا مع پيار أناساً من طبقة منحطة عرفوا فيه كلهم سيداً، فأخذوا يتجنبونه خصوصاً وأنه يتحدث اللغة الفرنسية. بل إن پيار سمعهم يتفكهون على حسابه، فكان لذلك وقع أليم في نفسه.

وفي اليوم التالي، عرف أن كل الموقوفين، وهو في عدادهم بلا شك سيحاكمون على اعتبارهم أضرموا الحرائق. وفي اليوم الذي تلاه، اقتيدوا

www.Maktbah.com

جميعاً إلى بناء يقيم فيه جنرال فرنسي أشيب الشاربين، وزعيمان وفرنسيون آخرون يلفون الأشرطة حول أذرعهم. واستجوب پيار كالآخرين بتلك اللهجة الصريحة الدقيقة التي يستخدمها عادة الرجال المتجردون، زعماً، عن كل ضعف بشري عندما يستجوبون متهمين. من هو؟ إلى أين كان يمضي؟ ماذا كانت غايته؟ إلخ...

كانت تلك الأسئلة التي لا علاقة لها إطلاقاً بصميم القضية، والتي تجعل أي إيضاح مستحيلاً، لا ترمي إلا إلى دعم الاتهام، ككل الأسئلة التي تطرح في القضاء وإلى تحويل أجوبة المتهم إلى الاتجاه المطلوب، أي إلى الاعتراف بجرمه. فكلما بدأ يقول شيئاً في غير مصلحة الاتهام، كانوا يسارعون إلى إعادته نحو النقطة التي يريدون إيصاله إليها. أضف إلى ذلك أن پيار كان عرضةً للنهاية المشتركة التي تنتظر كل الموقوفين، فكان الهدف الذي تصبو إليه الأسئلة التي تطرح عليه، وكان يستطيع أن يخمن أن الخدع التي يستعملها الاتهام تعود إلى المجاملات أو إلى التأدب الذي يظهرونه حياله.

وكان يعرف أنه رهن مشيئة هؤلاء الناس وأنهم جاؤوا به إلى هناك بالقوة وأن القوة في يدهم وأنهم في حاجة إلى اتهام الناس، فإن پيار لم يكن يرى مبرراً للمكر الذي يستعملونه. من البديهي جداً أن كل جواب لا ريب سيفسر على محمل التجريم. ولما سألوه عم كان يفعل حينما أوقفوه، قال بلهجة ميلودرامية إنه كان «يعيد طفلة إلى ذويها أنقذها من النيران» ولما سئل لماذا تعارك مع نهّاب سارق؟ أجاب بأنه كان «يدافع عن امرأة، والدفاع عن امرأة أهينت، واجب كل رجل وأن..» فاستوقفوه قبل أن يستفيض لأن ذلك لا دخل له بالاتهام.

ولكن ماذا كان يعمل في بناء منزل يحترق، حيث شاهده بعض الشهود؟ أجاب بأنه «ذهب ليرى ماذا يقع في موسكو». ومجدداً استوقفوه ليسألوه ليس

twitter @baghdad_library

إلى أين يذهب، بل لماذا كان بالقرب من الحريق. ثم قالوا وهم يستأنفون السؤال الأول الذي رفض الإجابة عنه: من أنت؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يذكر اسمه.

قال الجنرال ذو الشاربين الأشيبين والوجه المتورِّد بلهجة صارمة:

ـ أيها المسجل، اكتب. إن الحالة خطيرة، إن الحالة خطيرة جداً.

اندلعت النيران بعد توقيف پيار بأربعة أيام بالقرب من حاجز زوبوف.

ونقل پيار وثلاثة عشر متهماً إلى «غي دو كريميه» مخاضة القرم في بيت مأجور لأحد الباعة. وبينما هو يجتاز الشوارع، كاد پيار يختنق من الدخان الذي بدا كأنه يغطي المدينة كلها. لم يكن المرء ليشاهد غير الحرائق في كل مكان. لكنه لم يكن قد أدرك بعد أهمية حريق موسكو، لذلك فقد راح ينظر حوله بذهول.

في ذلك البيت المأجور من منطقة «مخاضة القرم»، قضى پيار أربعة أيام عرف خلالها من حديثه مع الجنود الفرنسيين أنهم ينتظرون يوماً بعد يوم، القرار الذي سيتخذه الماريشال بحق الموقوفين. مع ذلك، فقد ظل يبدو بالنسبة إلى الجنود سلطة غامضة عليا مجسدة فيه بدون أي شك.

لقد كانت تلك الأيام التي سبقت اليوم الثاني من أيلول/ سبتمبر، يوم إخضاع الموقوفين لاستجواب ثان، من أكثر الأيام مشقة وإيلاماً بالنسبة إلى پيار.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

وصل ضابط رفيع الشأن، في الثامن من أيلول/ سبتمبر، إذا روعيت الاعتبارات التي أبداها الحرس تجاهه، لزيارة المساجين. راح ذلك الضابط الذي كان بدون شك تابعاً لأركان حرب الجيش، يتفقد السجناء وبيده قائمة، فنادى پيار: الذي لا يدلي باسمه. ألقى عليهم نظرة متراخية وأمر ضابط الحرس أن يعنى بتنظيفهم وإلباسهم ثياباً مناسبة قبل أن يقودهم للمثول بين يدي الماريشال. وبعد ساعة، اصطفت فصيلة من الجند، ساقت پيار والمساجين الثلاثة عشر الآخرين إلى ساحة العذارى «شان دي ڤييرج» وقد أطلق هذا الاسم على ذلك المكان، ذكرى للتتر الذين أمروا بأن تدفع لهم الجزية فضة وعذارى نبيلات في ذلك المكان.

كان يوماً مشرقاً مشمساً بعد المطر والهواء، يمتاز بنقاء خاص، والدخان، بدلاً من أن يزحف كما كان شأنه يوم أن نقل پيار من مركز كتيبة الحرس في حاجز زوبوڤو، يتصاعد أعمدة في الهواء النقي. لم يكن المرء يرى ناراً في أي مكان. لكن موسكو كانت مغطاة بالدخان المتصاعد من كل أنحائها. وموسكو أو أقله ما شاهده پيار منها، لم تكن إلا خراباً. ففي كل مكان أرض خواء تناثر فيها حطام المدافئ والمداخن، وهنا وهناك، أجزاء من جدران منهارة متفحمة. ولقد نظر پيار بإمعان، لكنه لم يتعرف إلى أحياء المدينة المألوفة. لقد كانت الكنائس في بعض الأماكن لا تزال قائمة، والكرملين سليماً من كل أذى، يرتسم بلون أبيض بأبراجه وإيڤان الأكبر، وهو برج جرس ارتفاعه ٩٧

twitter @baghdad_library

متراً، وبالقرب منه، قبة دير نوڤو ـ ديڤيتشي، واسمه مستمد من ساحة العذارى القريبة منه ـ تلتمع ببهجة، ورنين أجراس تقرع مدويّة بشكل خاص، يتعالى في الفضاء. ولقد ذكرت الأجراس پيار بأن اليوم أحد وأنه عيد مولد العذراء. لكن ذلك لم يكن عيداً لأحد: لم تكن ترى إلا الأطلال التي خلفتها الحرائق، أما من حيث السكان، فكان المرء يلاقي بين الحين والآخر بعض الأشخاص المساكين في أسمال بالية يختبئون لدى رؤية الفرنسيين.

كان واضحاً أن عش روسيا قد دمر وشتت، فكان پيار يشعر شعوراً غامضاً أن عهداً آخر مختلفاً جداً وقاسياً، هو عهد الفرنسيين، قائم على أنقاض العهد الروسي المدمر. كان يشعر بذلك من حياة جنود الموكب الذين كانوا يتقدمون بنظام جيد وعلى وجوههم أمارات رزينة مرحة، يشعر به من رؤية موظف فرنسي هام جاء يلاقيهم في عربة خفيفة يجرها جوادان، يقودها جندي، ومن أصوات موسيقى عسكرية جذابة تتصاعد من الجانب الأيسر من ساحة العذارى. بل إنه شعر به بصورة خاصة وتفهمه، منذ أن جاء الضابط الفرنسي والقائمة في يده، يتفقد السجناء.

ولقد أوقف پيار من قبل جنود عاديين واقتيد من مكان إلى آخر مع عشرات من المساجين فكان يمكن نسيانه والخلط بينه وبينهم. ولكن لا، أبداً! إنّ أجوبته التي أدلى بها في الاستجواب الأول بقيت تشير إليه لقد كان: الذي يرفض ذكر اسمه. فكانوا يسوقونه الآن إلى مكان ما تحت ذلك الميسم الذي يخفيه. ما كان يشك من مظهر المواكبين المطمئن، أن السجناء الآخرين وهو بينهم، هم أنفسهم الذين يحتاجون إليهم وأنهم يقودونهم إلى حيث يجب سوقهم، فأحس پيار بأنه ليس إلا قذىً تافهاً سقط تحت عجلة آلة مجهولة ذات تجهيز آلي شديد الإحكام.

قادوا پيار والمتهمين الآخرين إلى ساحة العذارى من جهة اليمين، قريباً

www.Maktbah.com

من الدير، وأدخلوهم منزلاً أبيض تحيط به حديقة كبيرة. ذلك كان منزل الأمير تشيرباتوف، حيث جاء پيار غالباً، وحيث كان يسكن، حسب قول الجنود، الأمير ديكموهل.

قادوهم نحو المرقاة ثم أدخلوهم واحداً واحداً. فدخل پيار السادس. اقتادوه عبر الرواق ذي النوافذ الزجاجية والردهة والدهليز التي كانت كلها مألوفة لدى پيار، حتى بلغوا به مكتباً طويلاً منخفض السقف وقف أمام بابه مساعد عسكري.

كان داڤو جالساً إلى طاولة عند الجانب الآخر من الغرفة وعلى أنفه نظارتان. اقترب پيار فسأل داڤو بصوت خفيض دون أن يرفع عينيه عن الورقة المنشورة أمامه التي بدا شديد الانشغال بها: «من أنت؟».

لزم پيار الصمت وهو عاجز عن النطق بكلمة. لم يكن داڤو بالنسبة إليه جنرالاً فرنسياً فحسب، بل كان رجلاً مشهوراً بقسوته. كان وجه داڤو يذكر الناظر إليه بسحنة أحد التربويين القساة وهو ينتظر هنيهة الجواب المطلوب. وكان پيار يعرف أن كل دقيقة تردد يمكن أن تكلفه حياته. مع ذلك، فإنه لم يكن يعرف ماذا يقول. بدا له أن تكرار ما قاله خلال الاستجواب الأول نوع من السخف المضحك، كما أن إعلان اسمه ومركزه الاجتماعي، عار وخطر في الوقت نفسه فالأفضل أن يلزم الصمت. لكن داڤو لم يترك له الوقت لاختيار الجهة التي يتشيع لها، إذ رفع رأسه ورفع نظارتيه إلى جبينه وراح يتأمل پيار محدقاً وهو يطرف بعينيه.

قال بصوت موزون كاف للتأثير في پيار.

ـ إنني أعرف هذا الرجل.

سرى البرد في ظهر پيار ثم شعر بأن صدغيه كأنهما بين فكي كلّابة.

ـ يا سيدي الجنرال، لا يمكنك أن تعرفني لأنني لم أرك قط..

twitter @baghdad_library

قاطعه داڤو وهو يخاطب جنرالاً آخر كان هناك لم يلاحظ پيار وجوده:

ـ إنه جاسوس روسي.

وأدار داڤو له ظهره. وفجأة شعر پيار بلسانه ينطلق فبدأ يتكلم بطلاقة:

قال وهو يذكر فجأة أن داڤو أمير:

ـ كلا يا صاحب السعادة، كلا يا صاحب السعادة، لم يتح لك أن تعرفني. إنني ضابط في فرقة المتطوعين ولم أغادر موسكو.

ردد داڤو: اسمك؟

ـ بيزوخوف.

ـ ما الذي يبرهن لي بأنك لا تكذب؟

فأجاب پيار بصوت فيه توسل أكثر مما فيه من شعور بالمهانة:

ـ يا صاحب السعادة!

رفع داڤو رأسه ومن جديد حدق إلى وجه پيار: تبادلا النظر بضع ثوان فكان هذا هو الذي أنقذ پيار. لقد مرت نظراتهما فوق مسائل الحرب والعدالة لتعود مجدداً نظرات رجلين وقفا متقابلين. ولقد شعر كلاهما خلال بضع ثوان بألف شيء شعوراً مبهماً وأدركا أنهما من أبناء الإنسان، أخوان.

في الفترة الأولى، عندما رفع داڤو رأسه عن قائمته التي تشير إلى مصائر عدد من الآدميين بأرقام، لم يكن پيار بالنسبة إليه إلا شيئاً ما، فكان يستطيع أن يأمر بإعدامه دون أي تبكيت من ضميره. أما الآن، فقد أصبح يرى فيه الإنسان. ظل فترة مفكراً ثم قال ببرود:

ـ كيف تثبت لي حقيقة ما تقول؟

تذكر پيار دو رامبال، فأشار إلى اسم ذلك الرئيس الفرنسي واسم فوجه والشارع الذي يسكن فيه. فكرر داڤو: إنك لست من تزعم.

فقدم پيار بصوت متهدج مرتجف متقطع الأدلة على قوله.

وفي تلك اللحظة، جاء المساعد العسكري ينهي إلى داڤو شيئاً ما.

www.Maktbah.com

أشرق وجه هذا بالأنباء التي حملها له المساعد العسكري فلم يلبث أن زرَّ سترته ومضى دون أن يأبه بعد ذلك لپيار.

ولما ذكره المساعد العسكري بسجينه، قطب حاجبيه وأشار برأسه نحو پيار ثم أمر بأخذه. ولكن، إلى أين وجب أن يسوقوه؟ لم يكن پيار يعرف شيئاً: هل يأخذونه إلى مستقره القديم أم إلى المكان المعد لتنفيذ حكم الإعدام الذي أروه موقعه في ساحة العذراء؟

أدار رأسه، فرأى المساعد العسكري يسأل داڤو فأجاب هذا: نعم! بلا ريب!

ولكن ما معنى نعم تلك وكيف يخمن معناها؟

لم يذكر قط كم سيروه من الوقت وإلى أين أخذوه. لقد كان في حالة من التبلد وفقدان الشعور حتى إنه لم يكن يرى ما حوله. لقد بقي يضع قدماً أمام أخرى مادام وجب أن يمشي. ولما وقفوا، توقف بدوره. ظلّت فكرة واحدة مستقرة في رأسه. من، من هو الذي حكم عليه؟ لا بدَّ وأنهم ليسوا أولئك الناس الذين استجوبوه بادئ الأمر. ما من أحد منهم كان يريد ذلك أو يقدر عليه. كذلك لم يكن داڤو الذي نظر إليه بحقد. لو أن دقيقة أخرى انقضت لفهم داڤو أنهم مخطئون باتهامه، فكان المساعد العسكري بدخوله حينذاك، هو الذي منع حدوث ذلك. لكن هذا المساعد العسكري نفسه لم يكن هو الآخر يريد به شراً. لكنه كان يستطيع أن يمتنع عن الدخول. وإذن، من، من هو الذي أراد له أن يموت، أراد أن يحرمه الحياة والآمال والأفكار؟ من كان يريد ذلك؟ أحس پيار بأن ما من أحد كان يريده.

لقد كان ذلك هو النظام القائم وتضافر الظروف.

لقد حكم عليه النظام القائم بالموت، هو، پيار. إنه ينتزع منه الحياة، إنه يسلبه كل شيء، إنه يبيده.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

من منزل الأمير تشيرپاتوف، اقتيد السجناء إلى أسفل ساحة العذارى إلى يسار الدير ومن هناك إلى بستان خضر غرس فيه عمود. ووراء العمود حفرة كبيرة وقد تناثر التراب الندي وتراكم حولها. وبالقرب من الحفرة والعمود، تجمّع جمهور غفير على شكل نصف دائرة. وكان ذلك الجمهور الذي ظهر فيه بعض الروس، يتألف في غالبيته من جنود عاطلين تابعين لجيش ناپليون، فكان بينهم ألمانيون وإيطاليون وفرنسيون في أزياء مختلفة. وإلى يسار الوتد وعن يمينه، وقفت فرقة فرنسية مسلحة يرتدي أفرادها المعاطف الزرقاء ذات الشارات الحمراء على الكتفين، والرانات والعمرات.

صفوا المحكومين تبعاً لترتيبهم على القائمة، وپيار السادس، ثم قادوهم نحو العمود. وفجأة انبعث قرع طبول من كل جهة فأحس پيار حيال هذا الدوي بأن قلبه يتمزق. فقد ميّزه التفكير والتذكر فلم يعد مستبقياً في خدمته إلا عينيه وأذنيه. لم تبق لديه إلا رغبة واحدة، الخلاص بأسرع ما يمكن من ذلك الشيء المريع الذي يوشك أن يحدث. مع ذلك، فقد جال بطرفه في وجوه رفاقه وراح يتأملهم.

كان للاثنين الأولين رأسان حليقان يشبهان رؤوس المحكومين بالأشغال الشاقة. الأول طويل، نحيل، والآخر أسمر شعراني، عاضل، ذو أنف أفطس. وكان الثالث خادماً تجاوز الأربعين، بدأ الشيب يخالط شعره، تدل هيئته على حسن التغذية. وكان الرابع قروياً جميلاً ذا لحية منبسطة مستديرة وعينين

www.Maktbah.com

سوداوين، بينما كان الخامس عاملاً في شرخ الشباب، فتى لم يتخط الثامنة عشرة ذا لون صفراوي وجسم ضعيف، يتدثر برداء فضفاض طويل.

سمع پيار الفرنسيين يتساءلون عن الطريقة التي سينفذون بواسطتها الحكم بالمحكومين، واحداً فواحداً أم اثنين اثنين. أجاب الضابط ببرود حازم «اثنين اثنين»، فقامت حركة بين صفوف الجنود: كان واضحاً أنهم مستعجلون. لكن عجلتهم لم تكن تشبه عجلة الأشخاص الماضين لأداء مهمة معروفة منهم جميعاً بل كانت عجلة من يريد إنجاز عمل ضروري ولكنه مع ذلك منفر ومكروه.

وقف موظف فرنسي يحيط ذراعه بشارة، إلى يمين رتل المحكومين وقرأ الحكم بالروسية والفرنسية.

ثم، بناء على إشارة من الضابط، جاء أربعة جنود أحاط كل اثنين منهم بواحد من المحكومين اللذين كانا على رأس الصف. أسكنت حركة المحكومين بشدهما إلى العمود، فراحا ينظران حولهما خلال الوقت الذي استغرقه وصول من ذهبوا للمجيء بالأكياس، نظرة الحيوان المشوش الذي يرى الصياد يقترب منه. توقَّف أحدهما عن رسم إشارة الصليب بينما انصرف الآخر يحك ظهره وقد علا وجهه ما يشبه الابتسامة. عصب الجنود عيونهما وألبسوهما كيسين ثم ربطوهما إلى العمود بحركات سريعة.

خرجت من الصفوف مفرزة من الجنود تعدادها اثنا عشر جندياً ومشت بخطى موقّعة، ووقف الرجال على بعد ثماني خطوات من العمود، فأدار پيار رأسه كي لا يرى ما سيحدث. وفجأة دوى انفجار خيل إلى پيار أنه أقوى من أشد الرعود هولاً فعاد ينظر من جديد. رأى دخاناً وفرنسيين شاحبي الوجوه ترتجف أيديهم وهم منصرفون إلى عمل ما على حافة الحفرة. قدموا الاثنين التاليين فنظرا حولهما بمثل عيون المحكومين الأولين دون أن يصدقا ما

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

سوف يقع لهما أو يفهما. ما كانا يستطيعان تصديقه لأنهما وحدهما يعرفان قيمة الحياة بالنسبة إليهما فما كانا يستطيعان أن يفهما ولا أن يصدقا أنهم سينتزعون الحياة منهما.

أشاح پيار بوجهه مجدداً كي لا يرى، ومن جديد، دوى انفجار مريع مزق الآذان، ومن جديد، شاهد پيار حين الانفجار بالذات، دخاناً ودماء ووجوه الفرنسيين الممتقعة وهم منصرفون إلى العمل قرب الحفرة، يتدافعون بالمناكب حول العمود، بأيديهم المرتجفة. نظر پيار حوله لاهث الأنفاس وكأنه يسأل: «ولكن، ما معنى كل هذا أخيراً؟» فكان السؤال نفسه يقرأ في كل النظرات التي تلاقت مع نظراته.

فعلى وجوه الحاضرين جميعاً، من روس وجنود فرنسيين وضباط، على كل الوجوه دون استثناء، قرأ الهول نفسه والذعر نفسه والصراع نفسه الذي يعتلج في أعماق قلبه. «ولكن أخيراً، من المسؤول؟ إنهم جميعاً يتألمون بقدر ما أتألم. فمن هو إذن؟ من؟» ولقد سرت هذه الفكرة في رأسه كومض البرق.

صاح أحدهم:

ـ رماة السرية السادسة والثمانين، إلى الأمام!

وقدموا الخامس وحده الذي كان واقفاً إلى جانب پيار فلم يدرك هذا الأخير أنه قد نجا وأنه وكل الباقين معه لم يساقوا إلى هناك إلا لحضور تنفيذ الحكم فحسب. بقي ينظر إلى ما يقع بهول آخذ بالازدياد دون أن يشعر بفرح أو براحة. كان المحكوم الخامس هو العامل ذا الرداء الفضفاض. لم يكادوا يلمسونه حتى قفز من موضعه وتشبث بپيار. فانتفض پيار وحاول أن يزيحه عنه. كان العامل يزمجر ويرفض التقدم فأمسكوا به من تحت إبطيه وجروه جراً. فلما قيدوه إلى العمود، سكت فجأة. بدا عليه أنه فهم أخيراً. فهل كانت صرخاته غير مجدية أم أنه يستحيل أن يورد مورد الهلاك؟ على أية حال، لقد

www.Maktbah.com

وقف ينتظر أن يشد وثاقه مع آخر وراح ينظر حوله بعينيّ الحيوان الجريح البراقتين.

لم يستطع پيار، هذه المرة، الإشاحة بوجهه وإغماض عينيه إذ بلغ الفضول والتأثر اللذان أخذ يشاطر ذلك الجمهور الإحساس بهما، الذروة أمام هذه الجريمة الخامسة. بدا المحكوم الخامس ككل الذين سبقوه، هادئاً فكان متدثراً بردائه يفرك قدميه الحافيتين، إحداهما بالأخرى.

وعندما عصبوا عينيه، سوى بنفسه العقدة التي بدا وكأنها تؤلم قذاله. ثم، عندما أسندوه إلى العمود الملوث بالدم، مال إلى الوراء. ولما كانت تلك الوضعية غير ملائمة بالنسبة إليه، فقد انتصب وجعل قدميه الحافيتين في وضع مستقيم واستند بهدوء. ولم تفت پيار حركة واحدة من حركاته، وهو الذي لم يغادره بعينيه.

لا شك أنهم سمعوا أمراً. وبعد ذلك الأمر، انطلقت ثماني بنادق معاً. لكن پيار لم يسمع أي انفجار رغم ما بذله فيما بعد للتذكر. رأى العامل ينهار في وثاقه ثم ظهر الدم من موضعين، وتمدد الحبل جراء ثقل الجسد، أما الرجل، فقد انحنى رأسه انحناء شديداً وانطوت ساقاه تحته ثم سقط. جرى پيار إلى العمود فلم يستوقفه أحد. تكأكأ حول العامل أشخاص ممتقعو الوجوه يبدو الذعر على قسماتهم. وكان فك الجندي الفرنسي العجوز الأسفل يرتعش وهو يفك الحبل. وانهار الجسد. فبادر الجنود بخرق يجرونه وراء العمود ويقذفون به إلى الحفرة.

كانوا جميعاً يشعرون بشكل واضح بأنهم مجرمون تستبد بهم حاجة إخفاء آثار جريمتهم بأسرع ما يمكن.

نظر پيار إلى الحفرة، فرأى العامل مسجى وركبتاه على مستوى رأسه تقريباً، وإحدى كتفيه أكثر ارتفاعاً من الأخرى. ورأى تلك الكتف ترتفع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتنخفض بحركات تشنجية، لكن المجارف راحت تهيل التراب ملء راحتها فوق الجسد. وصاح أحد الجنود بپيار يطلب إليه التراجع بصوت محنق ساخط. لكنه لم يفهم، بل ظل واقفاً قرب العمود فلم يطرده من هناك أحد.

وعندما ردمت الحفرة، تعالى أمر فأعادوا پيار إلى صفه، وراح الجنود القائمون على جانبي العمود يسيرون بخطى موقّعة بعد أن استداروا نصف دائرة أما الرماة الأربعة والعشرون الذين كانوا وسط الدائرة، والذين أفرغوا بنادقهم فقد أسرعوا جميعاً راكضين لاستعادة أماكنهم في الصفوف عندما تمر سريتهم بالقرب منهم.

راح پيار الآن يحدق بعينيه دون أي تفكير في الجنود الذين أخذوا يغادرون عمود الإعدام مثنى مثنى وهم يركضون. لقد لحقوا جميعهم بسريتهم باستثناء واحد. كان هذا جندياً فتياً على صفرة قاتلة وقد انزلقت عمرته على قذاله، بينما كانت بندقيته بحذاء قدمه. ظل هذا جامداً في المكان الذي أطلق منه النار قبالة الحفرة. كان يترنح كالرجل الثمل وهو يقدم خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء كي يحافظ على توازنه. فخرج صف ضابط مسن من الصف أمسك بكتفيه وأعاده إلى سريته. وأخذ جمع الروس والفرنسيين يتبدد. لقد ذهبوا جميعاً وقد أطرق كل منهم برأسه. وصاح أحد الفرنسيين:

ـ إنّ هذا يعلمهم كيف يشعلون الحرائق.

نظر پيار إلى ذلك الذي تكلم فوجد أنه جندي راح يبحث عن عذر لما حدث منذ حين بغية تهدئة خاطره دون أن يوفق في إيجاد العذر. على أية حال لم يضف قولاً آخر إلى ما قال بل ندت عنه حركة تدل على اللامبالاة وانصرف.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

فصل پيار عن الموقوفين الآخرين، بعد تنفيذ حكم الإعدام، وسُجن وحيداً في معبد متهدّم ملوّه القذارة.

وحوالى المساء، دخل صف ضابط من الحرس يصحبه جنديان وأعلن لپيار نبأ العفو عنه وأنه يجب أن ينتقل إلى مبنى خُصص لأسرى الحرب. فنهض پيار دون أن يفهم ما يُقال له وتبع حرسه. قادوه إلى أحد أبنية المدن من ألواح الخشب والأعمدة المنتزعة من أنقاض الحريق، أقيمت في أعلى حصن. أحاط به في الظلام ما يقرب من عشرين شخصاً فنظر إليهم پيار دون أن يعرف من هم وماذا يفعلون هناك وماذا يريدون منه. سمع الكلمات التي يتفوهون بها لكنه بقي عاجزاً عن استخلاص شيء منها إذ لم يكن يفهم معناها. مع ذلك، فقد أجاب عن الأسئلة التي وجهت إليه دون أن ينتبه إلى أنهم مصغون إليه وأن أجوبته ستحمل على مختلف المعاني. كان ينظر إلى وجوه وأجساد فكان كل شيء يبدو له مسلوباً من المعنى.

منذ أن حضر پيار ذلك القتل المريع الذي ارتكبه رجال لم تكن بهم أية رغبة في ارتكابه، بدا المحور الذي ترتكز حوله حياته وتقوم، كأنه استسلم فجأة وكأن كل شيء قد انهار ركاماً من الشظايا لا شكل له. لقد زال إيمانه بالانسجام العام والإنسانية وبروحه نفسها وبالله، دون أن ينتبه إلى ذلك لقد أحس من قبل بمثل هذا الإحساس، لكنه لم يكن إطلاقاً بمثل هذا العنف. كان فيما مضى، يلوم نفسه كلما اعتلجت فيها مثل هذه الشكوك، ويشعر في أعماق

twitter @baghdad_library

نفسه أنه سينتهي به الأمر إلى إيجاد سبيل الخلاص من خلال يأسه وشكوكه. أما الآن، فإنّ العالم هو الذي ينهار دون أن يكون له دخل فيه، العالم الذي تحوّل أمام عينيه ركاماً من الخرائب. لذلك أحس بأنه ليس في طوقه استعادة إيمانه بالحياة.

أحاط به أناس في الظلام. لا شك أنهم شديدو الاهتمام بوجوده بينهم. إنهم يريدون له شيئاً ما ويسألونه. ثم اقتاده بعضهم وأجلسوه في زاوية بين رجال أخذوا يتنادون من كل الزوايا وهم يضحكون.

قال صوت من الجانب المضاد وهو يضغط على كلمة الذي: «ها هو ذا أيها الإخوان... ها هو ذا الأمير الذي..».

جلس پيار صامتاً دون حراك على القش مستنداً إلى حاجز المبنى وأخذ يفتح عينيه ويغلقهما. كان لا يكاد يغلقهما حتى يرى وجه العامل المخيف بصورة خاصة في بساطته ووجوه قتلته غير الإراديين أشد هولاً كذلك في الاضطراب المستولي عليه ثم كان يفتح عينيه ويلقي حوله نظرات تائهة.

جلس إلى جانب پيار رجل قصير القامة، لاحظ پيار وجوده فوراً إلى جانبه بسبب رائحة العرق الشديدة التي كانت تفوح منه لدى كل حركة من حركاته. وكان ذلك الرجل يعمل شيئاً ما بقدميه في الظل فلم يكن پيار يرى وجهه. لكنه كان يشعر بعينيه الشاخصتين إليه، أخيراً أدرك پيار أنه إنما يخلع جوربه، فأثارته الطريقة التي سلكها في هذا السبيل.

لفّ بحذق عصابته الكتان التي تحيط بإحدى قدميه بعد أن فكّ الخيط الذي يربطها ثم اهتم بقدمه الثانية دون أن يكف عن تأمل پيار. وبينما راح يعلق الخيط بمسمار بإحدى يديه، أخذ باليد الأخرى يحل عصابة القدم الأخرى. وهكذا خلع جوربيه بحذاقة وبحركات دقيقة ناجحة منسقة لا بطء فيها، وعلق حذاءيه إلى وتد مغروس فوق رأسه ثم أخذ سكينه فقطع به شيئاً ما ثم

www.Maktbah.com

أغلقه ووضعه تحت فراشه من جهة الرأس، وأخيراً جلس بوضع أكثر إراحة وأحاط ركبتيه المرقوعتين بذراعيه وراح يتأمل پيار محدقاً إلى وجهه. شعر هذا الأخير بشيء مطمئن متآلف في حركات هذا الرجل المنظم الذي يرتب شؤونه المنزلية في زاويته الصغيرة تلك. بل إن رائحته النفاذة نفسها لم تنفره، فراح هو الآخر ينظر إليه محدقاً.

قال قصير القامة فجأة:

ـ لا شك أنك شاهدت بعضها، أليس كذلك يا سيدي؟

كان لصوته الغنائي انعطاف مهدهد وبساطة قصوى حتى أن پيار أراد أن يجيبه. لكن فكه راح يرتجف واغرورقت عيناه بالدموع. لم يترك له الرجل الصغير وقتاً لإظهار خزيه إذ قال على طريقة الفلاحات الروسيات العجائز الحانية الرخيمة:

ـ إيه! لا تغتم يا قلبي الصغير! لا تغتم يا عزيزي. إنه لا شيء. فترة رديئة يجب قضاؤها! ليس أكثر من هذا يا صديقي الطيب. نحمد الله على أننا ما زلنا أحياء ليس فينا شيء محطم. وإذا كان هناك أناس لا يساوون شيئاً فهناك أناس طيبون.

وركع وهو في سياق الكلام بحركة مرنة ثم وقف وابتعد وهو يسعل. ثم سمع پيار صوته الرخيم صادراً من طرف القاعة الآخر:

ـ آه! أنتذا أيها السافل! ها أنتذا أيها السافل، لقد عدت. كفى، هيا، إلى الأسفل!

وراح الجندي وهو يدفع عنه كلباً صغيراً ملفوفاً بخرقة. قال وهو يستعيد لهجته المحترمة: خذ، كل يا سيدي:

وأخرج من الخرقة بطاطا مشوية في الفرن قدمها إلى پيار وأضاف: لقد قدموا لنا حساء وقت العشاء. ولكن ليس هناك ما يشبه البطاطا!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لم يكن پيار قد تناول شيئاً من الطعام طوال يومه فبدت له رائحة البطاطا لذيذة بشكل خارق. شكر الجندي وراح يأكل فقال هذا وهو يبتسم:

ـ هه ماذا؟ أتأكل البطاطا هكذا؟

وأخذ واحدة وأضاف: هكذا يأكلون.

استعاد سكينه ففتحه وقطع البطاطا اثنتين فوق راحة يده ثم ذرَّ عليهما ملحاً أخرجه من الخرقة وقدمهما لپيار وهو يكرر:

ـ لا شيء مثل البطاطا. جرب هذه.

قال پيار:

ـ إنّ كل الأشياء متساوية عندي ولكن لماذا أعدموا أولئك التعساء!.. إنّ الأخير لم يكن قد بلغ العشرين بعد.

قال الرجل قصير القامة بقوة وكأن الكلمات تتوارد على لسانه من تلقاء نفسها وتفلت من فمه رغماً عنه:

ـ صه!.. صه!.. يجب ألّا تقول هذا...

ثم استرسل: إذن يا سيدي، لقد بقيت هكذا في موسكو؟

قال پيار:

ـ ما كنت أظن أنهم سيصلون بهذه السرعة فبقيت في موسكو بمحض الصدفة.

ـ إذن يا عزيزي، لقد أوقفوك في منزلك؟

ـ كلا. لقد ذهبت أرى الحريق وهناك أوقفوني وحاكموني بوصفي مشعلاً للحرائق.

فرد الرجل قصير القامة:

ـ حيث يكون القضاة تكون المظالم!

سأل پيار بعد أن ابتلع آخر قطعة البطاطا:

www.Maktbah.com

ـ وأنت، أنت هنا منذ أمد طويل؟

ـ أنا! لقد أخذوني يوم الأحد من مستشفى موسكو.

ـ وأنت جندي؟

ـ نعم من فوج أبشيرون. كنت أموت من الحمى. لم يقولوا لنا شيئاً. كنا عشرين رجلاً تقريباً ولم نكن نفكر في الأمر ولا نصدقه.

سأله پيار: وهل تشعر بالسأم هنا؟

ـ كيف لا يسأم المرء يا عزيزي؟ إنّ اسمي پلاتون ـ أفلاطون ـ واسم أسرتي كاراتاييڤ.

وأضاف تسهيلاً لعلاقته بپيار:

ـ ولقد لقبوني في الفوج بالصقر الصغير. آه! كيف لا أسأم! إنّ موسكو أم مدننا! كيف لا نسأم من رؤية هذا. نعم، لكن الدودة التي تنخر القُنَّبيط تموت أولاً.

وأردف بحميا: نعم، كذلك يقول أسلافنا.

سأل پيار:

ـ ماذا، كيف قلت؟

فأجاب كاراتاييڤ الذي ظن أنه يردد المثل نفسه:

ـ أنا؟ أقول: ليس لنا نحن أن نحكم، إنه عمل الله.

ثم استرسل دفعة واحدة:

ـ إذن يا سيدي، أنت ذو أملاك؟ منزل؟ كل شيء برخاء؟ وربة منزل؟ وأبواك، أما زالا على قيد الحياة؟

لم يكن پيار يراه في الظلام. لكنه كان يحس بأن شفتي الجندي تنطويان في ابتسامة ودودة بينما هو يطرح أسئلته. ولقد اغتم بوضوح عندما علم أن پيار فقد أبويه وخصوصاً أمه فقال:

twitter @baghdad_library

ـ إنّ الزوجة للنصيحة الطيبة، والحماة للاستقبال الحسن. ولكن ما من شيء يوازي أماً حانية!

ثم سأل أيضاً: وهل لديك أطفال؟

اضطرب من جديد لجواب پيار السلبي السريع لأنه بادر إلى القول:

ـ ليس في ذلك ما يسيئ لأنك ما زلت شاباً يمكنك والحمد لله أن تنجب أطفالاً. المهم هو حسن التفاهم...

قال پيار بالرغم منه: إن كل الأشياء الآن متساوية عندي!

فردَّ پلاتون:

ـ إيه يا رجلي الباسل. إنّ الحرية والخروج من السجن، شيئان لا يرفضان.

جلس في شكل مريح وسعل فبان عليه أنه يستعد لحديث طويل، بدأ يقول:

ـ أجل يا صديقي العزيز، إننا نسكن جميعنا معاً. إن ملكنا واسع ولدينا أراض كثيرة، والفلاحون يعيشون عيشة راضية ونحن كذلك، والحمد لله! لقد كنا ستة حصادين حول أبينا. نعم، كنا نعيش عيشة طيبة وكنا مسيحيين طيبين. وهذا ما جرى لنا...

روى پلاتون مطولاً كيف ذهب يقطع الخشب في غابة جاره فأمسك به حارس وهناك ضربوه بالعصي ثم حاكموه وأرسلوه جندياً عقاباً له.

واسترسل بصوت يبدل ابتسامته:

ـ إيه، ماذا يا عزيزي، إنك تعتبر هذا شقاء، وهو سعادة. كان على أخي أن يذهب جندياً لو لم أرتكب خطيئتي. ولأخي أربعة أطفال أما أنا، فلم أترك إلا زوجتي. صحيح أنني رزقت طفلة لكن الله استردها مني قبل أن أذهب إلى الجندية. يجب أن أقول إنني عدت ذات مرة مأذوناً، فماذا رأيت؟ إنهم ما زالوا يعيشون أفضل من ذي قبل. إنّ الفناء مليء بالحيوانات والنساء يقمن بشؤون

www.Maktbah.com

المنزل واثنين من إخوتي يعملان خارج القرية، وليس هناك إلا ميكائيل، الأصغر سناً. ولقد قال لي أبي: «إنّ أولادي كلهم متساوون في نظري إذ إن المرء يشعر بالألم أيّاً كانت الإصبع التي تُعضّ. ولو أنهم لم يأخذوا پلاتون لكان على ميكائيل أن يذهب جندياً». هل تصدقه؟ لقد استقدمنا جميعاً أمام الصور المقدسة وقال: «ميكائيل، تقدم، انحنِ أمامه، وكذلك زوجك وأولادك أيضاً، هل فهمتم؟» هذا هو المعنى يا عزيزي. إنّ القدر ينتقي ما يعجبه. بينما نحن هنا في سبيل إصدار الأحكام دائماً: هذا جيد وهذا سيئ... إنّ سعادتنا يا عزيزي أشبه بالماء في الشبكة: يجرها المرء فتنتفخ فإذا ما أخرجها بدت فارغة. هو كذلك!

وسكت پلاتون وقد غاص في قشه.

وبعد لحظة صمت وقف وقال:

ـ حسناً، أظن أن الرغبة في النوم تستبد بي.

وراح يرسم شارة الصليب مسرعاً وهو يدمدم:

ـ أيها الرب يسوع المسيح، يا قديس نيكولا، يا قديس فلور، يا قديس لوران! أيها الرب يسوع المسيح إرأف بنا وأنقذنا!

ولما انتهى من صلاته، عاد يجلس على القش ونطق قبل أن يستلقي ويتدثر بمعطفه:

وهكذا! أيها الرب! اجعلني أنام كقطعة من الحجر واجعلني أستيقظ كالرغيف الجيد!

سأله پيار: أية صلاة هي هذه التي تلوتها؟

فقال پلاتون وقد بدأ ينام فعلاً:

ـ ماذا؟ ماذا تلوت؟ لقد صلّيت إلى الله. وأنت، ألا تصلّي؟

فقال پيار:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ بلى، إنني أصلّي أنا الآخر. ولكن لماذا قلت: يا قديس فلور، يا قديس لوران؟

أجاب پلاتون بحميا:

ـ لماذا؟ لأنهم حفظة الجياد ويجب أن يفكر المرء في الحيوانات... انظر إلى هذه، يا للسافلة، لقد تكورت كالكرة.

وأضاف وهو يلمس الكلب النائم على ساقيه:

ـ يا لها من دافئة هذه القذرة.

ثم استدار على جنبه الآخر ولم يلبث أن غفا.

وفي الخارج، في مكان بعيد، كان بعضهم يبكي ويصرخ، بينما كانت النار ترى من خلال الجدران الخشبية. ولكن كل شيء كان ساكناً في الداخل ومظلماً. بقي پيار فترة طويلة مستلقياً دون حراك وعيناه مفتوحتان في الظلام. كان يستمع إلى پلاتون الذي كان يشخر بإيقاع وهو مستلق بجانبه ويشعر بأن العالم الروحي الذي انهار منذ حين في سريرته بدأ يقوم من جديد على قواعد أخرى، قواعد جديدة كلياً، لا تتزعزع في جمالها.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

ثلاثة وعشرون جندياً أسيراً وثلاثة ضباط وموظفان، كانوا في البناء الخشبي الذي اقتيد إليه پيار وبقي فيه أربعة أسابيع.

لم يترك هؤلاء كلهم في ذهنه إلا أثراً مبهماً باستثناء پلاتون كاراتاييڤ الذي انطبع في ذاكرته إلى الأبد بوصفه أقوى ذكرى وأثمنها، وبوصفه المثال الحي لكل ما هو روسي، لكل ما هو جيد ومنسجم. وعندما رأى أخيراً جاره فجر اليوم التالي، أيقن في نفسه إحساسه الأول بالتناسق والانسجام. فكل شخصية پلاتون، في معطفه الفرنسي المخصور بقطعة حبل وقبعته ذات الحافة وحذاءيه المصنوعين من قشر القنب كانت منسجمة. وكان رأسه كرة حقيقية وظهره وصدره وكتفاه بل وذراعاه أيضاً اللتان لم يكن يكف عن أرجحتهما وكأنه يستعد لتلقف شيء ما، مستديرة كلها وكذلك ابتسامته الأنيسة وعيناه القاتمتان الهادئتان.

لا شك، أن پلاتون كاراتاييڤ تجاوز الخمسين من عمره، إذا روعي في ذلك ما يرويه عن المعارك التي ساهم فيها. إنه نفسه لا يعرف عمره ولا يستطيع ذكره يقيناً. لكن أسنانه الجميلة ناصعة البياض التي يكشف عن صفين منها كلما ضحك، وهو كثيراً ما يضحك، كانت متينة وسليمة. ولم تكن هناك شعرة بيضاء واحدة في لحيته أو في رأسه. وكان جسمه ينطق بالمرونة بل بأكثر من ذلك: بالقوة والجلد.

وعلى الرغم من بعض الغضون المحيطة بعينيه، كان وجهه يعكس البراءة

twitter @baghdad_library

والشباب، وبقي صوته لطيفاً عذباً. لكن الشيء الأكثر استلفاتاً فيه، كان نسق كلامه البديهي، فيبدو وكأنه لا يفكر أبداً في ما سيقوله. لذلك كانت سرعته في الكلام ودقة ألفاظه ونطقه تعطيه مزية إقناع على جانب كبير من التأثير.

بلغت مقاومته البدنية واندفاعه حداً لم تبد عليه معه خلال أيام أسره الأولى أية بادرة تعب أو مرض. كان يردد في كل صباح وكل مساء عند النوم: «أيها الرب، اجعلني أنام كقطعة من الحجر واجعلني أستيقظ كالرغيف الجيد». وفي الصباح عندما ينهض، كان يقول وهو يمارس حركة لا تتبدل من كتفيه: «عندما يستلقي المرء، ينطوي على نفسه كالكرة، وعندما ينهض، ينفض نفسه». والحقيقة أنه لا يكاد يستلقي حتى ينام كقطعة من الحجر ثم لا يكاد ينتفض حتى يزاول عملاً ما دون أن يتوانى ثانية واحدة، أشبه بالأطفال الذين لا يكادون يستيقظون حتى يعودوا إلى ألعابهم.

وكان يحسن كل شيء، وإن لم يكن ذلك بشكل كامل، فأقله، بطريقة لا بأس بها. كان يطهو ويخيط وينجز ويرتق الأحذية. وكان دائم الانشغال، لا يسمح لنفسه بالثرثرة والغناء اللذين يميل إليهما كثيراً، إلا عندما يخيم الظلام. ثم إنه لا يغني على طريقة المحترفين الذين يعرفون أن الناس يصغون إليهم، بل على طريقة الطيور، فكان بث الأنغام بالنسبة إليه، شيئاً لا مندوحة عنه كالتمطي أو السير. وحينئذٍ يتخذ وجهه أمارات رزينة. وأياً كان الصوت الذي يخرج من حنجرته، لم يكن يخلو من شيء حنون رخيم وحزين.

وعندما أصبح أسيراً ونبتت لحيته مجدداً، بدا أنه تخلص بشكل واضح من كل مظهر غريب وعسكري مفروض، ليعود رغماً عنه، ذلك القروي السابق، ابن الشعب.

كان يقول: «إن الجندي المأذون، يحتفظ بقميصه غير اللائق».

لم يكن يحب التحدث عن أيام خدمته رغم أنه لم يكن يشكو منها، وأنه

www.Maktbah.com

ردد غالباً أنهم لم يضربوه مرة واحدة. فإذا بدأ يروي شيئاً تحدث غالباً عن ذكرياته القديمة، العزيزة على نفسه كما يبدو بوضوح، ذكريات الزمن الذي كان فيه «مسيحياً». وهذا هو الاسم الذي يطلقه على القروي. لم يكن للأمثال التي تزين أحاديثه أية رابطة مع العبارات البذيئة غالباً والخلاعية التي يألفها الجنود، بل كانت دائماً أحكاماً شعبية إذا أخذت معزولة عن الحديث، فقدت كل معناها فلا تحوي على معنى شديد العمق إلا إذا أوردت في مناسباتها.

غالباً ما كان يحدث له أن يناقض نفسه. مع ذلك، فإن ما يقوله كان دائماً صحيحاً. كان يحب الكلام ويحسن التعبير، يزين أحاديثه بأسماء تصغير ممالقة وبأمثال ينسجها حسب الاقتضاء، كما خيل إلى پيار، لكن الفتنة في أحاديثه كانت تنبعث من الحوادث الأكثر بساطة، الحوادث التي يراها پيار دون أن يعيرها أي التفات، والتي تأخذ في فمه طابعاً من العظمة الحقيقية. وكان يحب الإصغاء إلى الأحدوثات (وهي لم تكن لتتبدل قط) التي يرويها أحد الجنود عند المساء، ويفضلها على كل أقاصيص الحياة الواقعية. فإذا ما أصغى إلى تلك الأحدوثات، ارتسمت على وجهه ابتسامة فرح، وعلّق عليها بكلمة أو طرح سؤالاً، دلالة على أن عقله ميال إلى البحث عن الجانب الخلقي فيما يروى على مسامعه. لم يكن يعرف التعلق ولا الصداقة ولا الحب على الطريقة التي يفهمها پيار. لكنه كان يحب كل إنسان ويعيش عيشة ودية مع كل الذين تقحمهم الحياة في سبيله، ليس مع هذا وذاك من الرجال، بصورة خاصة، بل مع كل الرجال الذين يقع نظره عليهم. وكان يحب كلبه وزملاءه والفرنسيين ويحب پيار الذي هو جاره، لكن هذا الأخير كان يشعر بأن كاراتاييف رغم كل الكلمات الممالقة التي يوجهها إليه، والتي كانت تكريماً غير إرادي لصفات زميله الخلقية لا يمكن أن يغتم دقيقة واحدة بسبب ذهابه. وعلى ذلك، راح پيار يشعر تجاه كاراتاييف بأحاسيس مماثلة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان پلاتون كاراتاييف جدياً عادياً تماماً بالنسبة إلى كل السجناء الآخرين فكانوا ينادونه تارة: الصقر الصغير، وطوراً پلاتون، ويمازحونه في غير خبث ويوفدونه في سخرات. أما بالنسبة إلى پيار، فقد ظل ووجب أن يظل، كما رآه في الليلة الأولى، مثالاً مفعماً منيعاً للبساطة والصراحة.

لم يكن پلاتون كاراتاييف يحفظ شيئاً عن ظهر قلب باستثناء صلاته. فإذا ما بدأ برواية قصة، بدا وكأنه لا يعرف كيف سينهيها.

وأحياناً عندما كان پيار يدهش لعمق غور أقواله فيطلب إليه أن يعيدها، كان پلاتون لا يستطيع تذكر ما قاله منذ حين كما لا يستطيع بالمثل أن يقول لپيار كلمات أغنيته المفضلة. كانت تلك الأغنية تبحث عن «السندر، أخي الصغير» وعن «القلب الذي يؤلمني»، لكنها تفقد معناها إذا قيلت كلاماً.

ولم يكن پلاتون يفهم كما لم يكن يستطيع أن يفهم قيمة كلمة مأخوذة وحدها. فكل كلمة من كلماته وكل بادرة، كانت ظاهرة خارجية لذلك النشاط اللاشعوري الذي هو حياته. وحياته، كما كان يحس بها، كانت تبدو خالية من كل معنى إذا أخذت على اعتبارها حياة شخصية، وتأخذ معنى إذا باتت جزءاً من كل، لا يني يشعر به. كانت كلماته وتصرفاته تصدر عنه بمثل الانتظام والامتثال للضرورة والبديهية التي يخضع لها أريج زهرة. لكن پلاتون لم يكن يستطيع أن يفهم قيمة فعل أو كلمة أو معناهما إذا أخذا مستقلين.

الفصل الرابع عشر

بدأت الأميرة ماري تعد العدة للرحيل، رغم معارضة خالتها، عندما عرفت من نيكولا أن أخاها موجود لدى آل روستوف في ياروسلاڤل. وأرادت كذلك أن تصحب ابن أخيها معها. لم تكن تتساءل بل لم تكن تريد أن تعرف ما إذا كان عزمها ممكناً أو حتى ممكن التنفيذ. لم يكن واجبها الذهاب إلى قرب أخيها الذي قد يكون على وشك الموت فحسب، بل أن تعمل على إيصال ابنه إليه، لذلك قررت أن تذهب. وإذا لم يكتب لها الأمير أندريه، فقد راحت تفسر ذلك بأنه شديد الضعف لا يستطيع الكتابة أو أنه يرى السفر الذي ستقوم به مع ابنه طويلاً جداً وشاقاً وخطيراً جداً.

أصبحت خلال بضعة أيام مستعدة للرحيل، فكانت عدتها للسفر عربة الأمير «البرلين» الفسيحة التي استعملتها في السفر إلى ڤورونيج وبعض عربات النقل وعربات الخيزران الخفيفة. وكانت تعتزم اصطحاب الآنسة بوريين ونيكولا الفتى ومربيه والمرضعة العجوز وثلاث خادمات وتيخون ووصيف شاب وحارس قدمته خالتها لمواكبتها.

كان يجب ألّا تفكّر في اتباع الطريق العادي الذي يمر في موسكو. أما الطريق غير المطروق الذي يمر بليپتسك وريازان وڤلاديمير وشوابا، فكان يطيل المسافة ويزيد في المصاعب بسبب فقدان خيول البرد. ولأنه في ضواحي ريازان، كان الفرنسيون يظهرون أحياناً، كما يزعم الناس، فيتعرض المسافر للخطر كذلك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

دهشت الآنسة بوريين وديسال والخدم ومرافقو الأميرة خلال الرحلة الشاقة من جلد ماري ونشاطها. كانت آخر من ينام وأول من يستيقظ، لا توقفها صعوبة. وبفضل هذه الهمة الفعالة دون توان، التي أبقت على معنويات رفاقها بالسفر، استطاعوا أن يبلغوا ياروسلاڤل في نهاية الأسبوع التالي.

عادت الأيام الأخيرة التي قضتها الأميرة ماري في ڤورنيج عليها بأكبر سعادة عاشتها في حياتها. لم يعد حبها لروستوف يسبب لها عذاباً أو قلقاً. لم تعد تناضل ضده إذ أصبح يملأ روحها ويتحد معها في جسد واحد. لقد كانت الأميرة ماري واثقة دون أن تعلن ثقتها أبداً، بأنها محبوبة وأنها تحب. ولقد أتتها تلك الثقة المكينة إبان لقائها الأخير نيكولا، عندما جاء ينبئها بأن أخاها موجود لدى آل روستوف.

لم يلمح نيكولا قط إلى عودة الأمور إلى سابق عهدها في حال شفاء الأمير أندريه، بين الأمير أندريه وناتاشا. لكنها رأت على قسمات وجهه أن تلك المصالحة أصبحت تشغله. أما طريقته تجاهها فقد بقيت متحفظة وودودة. لكنه بدا وكأنه مبتهج إذ باتت القرابة الآن تتيح له أن يعبر بأكثر حرية للأميرة ماري عن صداقة غرامية تبلغ حد ما كانت تحلم بمثله أحياناً. كانت تعرف أنها تحب للمرة الأولى في حياتها وللمرة الأخيرة وتشعر بأنها محبوبة فكانت سعيدة بذلك وهانئة.

وتلك السعادة، التي كانت خلال ذلك الوقت تملأ كل روحها، لم تمنعها من أن تشعر بهمّ شديد بسبب أخيها. على العكس. فالسلام الذي كسبته من جانب واحد راح يسمح لها بالاستسلام تماماً وبأكثر كمالاً من الجانب الأول إلى عاطفتها الأخوية. بل إن قلقها كان من العنف في أويقات السفر الأولى حتى أن رفاقها بالسفر خافوا عليها من المرض خلال الطريق. لكن الصعوبات

www.Maktbah.com

والمشاغل المتعلقة بالسفر التي اضطلعت بها بنشاط كبير، أنقذتها فترة ما من حزنها وأعادت إليها قواها.

وكما يحدث دائماً، نسيت الأميرة ماري التي احتكر السفر نفسه كل عنايتها الغاية من السفر. ولكن، عندما أصبحوا قريبين من ياروسلاڤل، عندما فكرت في ما يمكن أن ينتظرها ليس في غضون بضعة أيام، بل ذلك المساء بالذات، تجاوز تأثرها كل الحدود.

ولما عاد الحارس الذي أرسلوه للاستطلاع عن مسكن آل روستوڤ في ياروسلاڤل وعن حالة الأمير أندريه والتقى عربة «البرلين» التي تقل الأميرة ماري عند مدخل المدينة روع روعاً شديداً لشدة ما كان الوجه الذي أطلت عليه به من نافذة العربة شاحباً.

قال الحارس: لدي كل المعلومات يا صاحبة السعادة. إن آل روستوڤ يسكنون عند الساحة، مسكن البائع برونيكوڤ، على ضفة الڤولغا تماماً.

حدقت الأميرة ماري إلى وجهه بعينين مذعورتين متوسلتين دون أن تعرف السبب الذي من أجله تغاضى عن الإجابة عن السؤال الرئيسي المتعلق بأخيها. ولقد طرحت الآنسة بوريين ذلك السؤال بدلاً من الأميرة. سألت:

ـ والأمير؟. إن سعادته معهم في المنزل نفسه.

فكرت الأميرة: «إن معنى هذا أنه على قيد الحياة» وأضافت بلهجة هادئة: «كيف حاله؟». يقول الخدم إنه لا يزال على حاله.

لم تسأل الأميرة عم يُفهم من هذا القول، بل اختلست نظرة إلى نيكولا الصغير، وهو طفل في السابعة من عمره جلس قبالتها وبدا شديد السعادة بالوصول إلى مدينة، ثم أطرقت برأسها فلم ترفعه إلا عندما توقفت عربتها البرلين الثقيلة التي كانت تقفز وتهتز وتصر. واصطفت المرقاة عندما أنزلوها.

twitter @baghdad_library

فتحوا الأبواب. ظهر، إلى اليسار، أديم ماء النهر المتسع وإلى اليمين مرقاة وعلى هذه المرقاة كان عدد من الخدم ينتظرون وبينهم فتاة شابة يانعة ذات ضفيرة سوداء كبيرة وابتسامة ضعيفة البشاشة، أو هكذا خيل إلى الأميرة ماري، هي سونيا. اندفعت الأميرة تريد صعود الدرجات، لكن الفتاة ذات الابتسامة المغتصبة قالت: «من هنا، من هنا!» ووجدت ماري نفسها في قاعة في حضرة سيدة ذات طابع شرقي أسرعت للقائها وهي بادية التأثر الشديد. تلك كانت الكونتيسة العجوز. أحاطت الأميرة ماري بذراعيها وراحت تقبلها وتقول:

ـ يا طفلتي! إنني أحبك وأعرفك منذ زمن طويل.

فهمت الأميرة ماري رغم شدة انفعالها أنها في حضرة الكونتيسة وأن عليها أن تجيب بشيء. فنطقت بكلمات مجاملة بالفرنسية على مثل الأسلوب الذي استخدم لاستقبالها دون أن تعرف كيف تم ذلك ثم سألت: «كيف حاله؟» فأكدت الكونتيسة:

ـ إن الطبيب يقول إن الخطر قد زال.

لكنها ناقضت بالوقت نفسه أقوالها بأن رفعت عينيها إلى السماء وشفعت ذلك بزفرة.

سألت الأميرة: أين هو؟ هل يمكن رؤيته؟ هل يمكن؟.

ـ فوراً يا أميرة، فوراً يا صديقتي.

ثم سألت الأميرة وهي تلتفت نحو نيكولا الذي دخل حينذاك مع ديسال:

ـ وها هو ابنه؟ لدينا أمكنة كافية لإيوائكم، فالبيت كبير. أوه! يا له من طفل فتان!.

أدخلت الكونتيسة ماري إلى القاعة، وكانت سونيا تتحدث مع الآنسة

www.Maktbah.com

بوريين. راحت الكونتيسة تمطر الطفل بالملق ودخل الكونت العجوز ليحيي الأميرة. لقد تغيّر كثيراً منذ أن رأته آخر مرة. لم يعد العجوز الصغير النشيط المليء بالاندفاع والثقة إلا رجلاً مسكيناً يثير الإشفاق، لم يكن يكف وهو يتحدث مع الأميرة عن إلقاء نظرات قلقة حوله وكأنه يتأكد أنه يعمل تماماً ما وجب عليه عمله. لقد فقد بشكل واضح الاهتمام بكرامته الشخصية وأصبح يرى نفسه عالة في الحياة بعد أن فقد ثقته بنفسه إثر نكبة موسكو ودماره الشخصي.

لم يكن للأميرة إلا رغبة واحدة، هي رؤية أخيها بأسرع ما يمكن وترى في غضب أنهم يضيعون عليها وقتاً ثميناً بكل هذه المجاملات والتهاني المبالغ فيها التي أغدقوها على ابن أخيها. مع ذلك، فإنها لم تتوان في التطلع إلى ما حولها، وشعرت بضرورة الخضوع لهذه الأساليب الجديدة بالتصرف. كانت تعرف أن كل هذا لا شك فيه وأنه يجب احتماله مهما بلغت مشقته.

قالت الكونتيسة وهي تقدم سونيا:

ـ هذه ابنة أختي سونيا، إنك لا تعرفينها بعد يا أميرة.

فالتفتت الأميرة نحو سونيا وقبلتها وهي تحاول جاهدة كبت شعور العداء الذي استبد بها نحو الفتاة. لكن الأكثر إيلاماً بالنسبة إليها حينذاك كان اطلاعها على مدى بعد الاستعداد الفكري لدى كل من حولها عن اتجاهها الشخصي.

سألت مجدداً موجهة حديثها إليها بدون استثناء: أين هو؟.

فأجابت سونيا ووجهها يحمرّ:

ـ إنه في الأسفل وناتاشا تسهر عليه. لقد ذهبوا يعلنون قدومك. أظن أنك شديدة التعب يا أميرة!.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

انبثقت دموع الغضب من عيني ماري، فاستدارت وكادت تطلب إلى الكونتيسة الطريق إلى حيث أخيها عندما ارتفعت عند الباب خطى خفيفة حازمة تبدو كأنها تنبئ بالفرح. فنظرت الأميرة وراءها لترى ناتاشا داخلة في ما يشبه الركض، ناتاشا تلك نفسها التي لم ترق عينيها قط إبّان لقائهما الأخير في موسكو.

لكنها لم تكن تطالع وجهها حتى أدركت من فورها أن ناتاشا هذه هي رفيقة أحزانها المخلصة وبالتالي صديقتها. اندفعت للقائها وطوقتها بذراعيها ثم راحت تبكي على كتفها.

لم تكد ناتاشا الجالسة قرب سرير الأمير أندريه تعلم بوصول الأميرة ماري حتى خرجت بهدوء من غرفة المريض واتجهت إليها بتلك الخطى التي بدت مرحة بادئ الأمر في نظر الأميرة ماري.

وعندما دخلت القاعة وهي في شبه ركض، لم يكن وجهها المنفعل ينم إلا عن عاطفة واحدة، الحب، الحب الذي لا تحده حدود. نحوه، نحوها ونحو كل ما يتصل بالرجل الذي تحب، عاطفة إشفاق وحنان، ورغبة جامحة في أن تنذر نفسها للترفيه عن الآخرين. كان يُرى في تلك الدقيقة أن ناتاشا لا تفكر في نفسها ولا في علاقاتها بالأمير أندريه.

ولمست الأميرة ماري بكل هذا ببديهتها من النظرة الأولى التي ألقتها على وجه ناتاشا، لذلك فقد انصرفت تبكي على كتفها بفرحة مرة. قالت ناتاشا وهي تصحبها إلى غرفة أخرى:

ـ هيا بنا، هيا بنا إليه يا ماري.

رفعت الأميرة ماري رأسها وجففت دموعها وأرادت أن تسألها. كانت تشعر بأنها تستطيع معرفة كل شيء عن طريقها. شرعت تقول:

www.Maktbah.com

ـ إذن؟.

لكنها توقفت. شعرت بأنه يتعذر السؤال والجواب باستعمال الكلمات، فوجه ناتاشا، وعيناها كانا ينطقان بلغة أشد وضوحاً وأبعد عمقاً.

كانت ناتاشا تنظر إليها ولكنها تبدو وكأنها طافحة بالقلق والتردد. ترى هل يجب عليها أن تقول ما تعرفه أم تخفيه؟ كانت تحس بأنه يستحيل إخفاء الحقيقة كما تعرفها هاتان العينان البراقتان اللتان تتغلغلان إلى أعماق قلبها. وفجأة ارتجفت شفتا ناتاشا وطافت بفمها حركة فغيرته ثم انخرطت تبكي وقد أخفت وجهها بين يديها.

عرفت ماري كل شيء.

مع ذلك، فقد جنحت إلى الأمل رغم كل شيء، وسألت دون أن تصدق الكلمات التي تنطق بها:

ـ وكيف حال جرحه؟ في أية حال هو!.

فلم تستطع سونيا إلا أن تقول:

ـ سوف، سوف.. ترين.

ظلتا بضع لحظات في الأسفل في غرفة مجاورة لغرفة الأمير كي تخفيا دموعهما وتصلا بالقرب منه بوجهين هادئين. سألت الأميرة ماري:

ـ كيف كان سير مرضه؟ هل هو أسوأ حالاً منذ زمن طويل؟ متى وقع «ذلك»؟.

روت ناتاشا أنه خلال الأيام الأولى، هدد الألم والحمى حياته بالخطر ولكنه في ترويتسا طرأ تحسن على حالته فلم يعد الطبيب يخشى إلا الآكلة. ثم استبعد هذا الخطر كذلك.. أما في ياروسلافل، فقد حصل إصداد، ولقد أصبحت ناتاشا خبيرة في هذه الأمور، فأكد الطبيب أن هذا الإصداد سوف ينقطع ثانية. ثم عادت الحمى. لكنه أكد ثانية أنها لن تكون خطيرة.

twitter @baghdad_library

وبدأت ناتاشا تقول:

ـ مع ذلك، فإن «ذلك» وقع فجأة أو أمس، وابتلعت شهقة، لست أدري لماذا، لكنك ستتأكدين بنفسك كيف حاله.

سألت الأميرة: هل هو أشد ضعفاً؟ هل هزل؟.

ـ كلا، ليس الأمر متعلقاً بهذا، إنه شيء أسوأ كثيراً. سوف ترين. آه! يا ماري، إنه شديد الطيبة، لن يستطيع، لا، لن يستطيع أن يعيش لأنه.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

شعرت الأميرة بالدموع تخنقها عندما فتحت ناتاشا الباب بحركتها المألوفة وقدّمتها عن نفسها في الدخول. قامت بكل ما في وسعها لتستعد وحاولت جهدها أن تكون هادئة، لكنها كانت تعرف أنها ستكون عاجزة عن رؤية أخيها دون أن تبكي.

فهمت الأميرة ماري ما أرادت ناتاشا أن تقوله بهذه الكلمات: لقد وقع «ذلك» فجأة أول أمس. فهمت أن معنى ذلك أنه أفرط فجأة في التحنان وأن ذلك الحنان الفجائي من آيات الموت السابقة. عادت ترى في خيالها وهي تقترب من الباب وجه أندريه، وجه طفولتها الصغير، ذلك الوجه اللطيف المليح المحتشم الذي قلما عادت تراه فيما بعد، والذي كان كل مرة يزيد في انفعالها أكثر قوة من المرة السابقة. كانت تعرف أنه سيقول لها تلك الكلمات الهادئة نفسها التي قالها أبوها لها قبل وفاته، وأنها لن تحتمل سماعها فتذوب في دموعها. ولكن! طالما وجب ذلك آجلاً أو عاجلاً، فقد حزمت أمرها ودخلت الغرفة. وكلما تبينت عيناها التعبتان بوضوح شكل أخيها أكثر وتقاطيعه، تدافعت الغصات إلى حلقها. وأخيراً رأت وجهه وقابلت نظرته.

كان ممدداً فوق كنبة متكئاً على بضع وسائد، متدثراً بمعطف منزلي مبطن بفراء السنجاب، وكان شديد النحول شاحباً، وإحدى يديه نحيلة لدرجة الشفف تحمل منديلاً بينما راحت الأخرى تفتل شاربه الرفيع المسترسل بحركة خفيفة من أصابعها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عندما شاهدت وجه أخيها وعينيه، أبطأت الأميرة ماري خطاها. شعرت فجأة بدموعها تخف ونحيبها يهدأ. أحست فجأة وكأنها مذنبة أمام هذا الوجه وأمام تلك النظرة.

تساءلت: «ولكن أي ذنب جنيت».

وأجابت نظرة الأمير أندريه الباردة الصارمة: «ذنب الحياة والتفكير في العيش بينما أنا..» لقد أصبحت تلك النظرة العميقة التي لا ترى ما في الخارج فحسب بل كذلك ما في داخل نفسه، شبه عدائية عندما استدار ببطء نحو الأميرة ماري ونحو ناتاشا.

تعانق الأخ والأخت قلبياً حسب عادتهما. وقال بصوت جامد ضعيف وغريب مماثل في هذه الصفات لنظرته:

ـ مرحباً يا ماري. كيف فعلت لتصلي إلى هنا؟.

ولو أنه أطلق صرخة ثاقبة لما أذهلت تلك الصرخة الأميرة ماري وروعتها كلهجة ذلك الصوت.

قال بذلك الصوت الهادئ وهو يبذل جهداً ظاهراً للتذكر: هل جئت بصغيري نيكولا معك؟.

سألت الأميرة ماري وهي دهشة لسؤالها: كيف حالك الآن؟

فأجاب:

ـ هذا يا عزيزتي، يجب سؤال الطبيب عنه.

ولكي يبدو أنيساً قال باستخفاف، وكان واضحاً أنه لا يفكر قط في ما يقول: شكراً يا صديقتي العزيزة لمجيئك.

شدَّت الأميرة ماري على يده، فقطب حاجبيه عند ذلك تقطيباً خفيفاً. كان ملتزماً الصمت بينما لم تكن هي تعرف ماذا تقول. فهمت ماذا حدث له منذ يومين. إن كلماته ورنة صوته، وبصورة خاصة نظرته الباردة شبه العدائية،

www.Maktbah.com

كانت تنطق بذلك التخلي عن كل ما هو دنيوي، ذلك التخلي الذي يخيف الإنسان صحيح الجسم. كان الأمير أندريه يبدو وكأنه يفهم العالم الحي بصعوبة وكان يرى أن ذلك غير ناجم عن انعدام مزية الفهم لديه، بل عن أنه يفهم شيئاً آخر لا يستطيع الأحياء فهمه ولا يفهمونه، شيئاً يغمره كله.

قال فجأة وهو يقطع الصمت ويشير إلى ناتاشا:

ـ نعم، لقد جمعنا القدر بطريقة غريبة! إنها هي التي تعنى بي الآن.

كانت الأميرة ماري تسمع جيداً ولكن دون أن تفهم ما كان يقوله أخوها. هو، شديد اللطف، شديد الحنان، كيف أمكنه أن يتكلم هكذا أمام تلك التي يحبها والتي تحبه! لو أنه كان يعتقد بشفائه لما تحدث بمثل هذه اللهجة المتحررة. ولو عرف أنه مائت، فكيف لم يشفق عليها، كيف يمكنه أن يتكلم في حضورها على هذا النحو؟ لا يمكن إعطاء كلماته إلا تفسيراً واحداً: إن كل الأشياء متساوية لديه وذلك بكل دقة، لأن شيئاً ما آخر، أكثر أهمية، قد كُشف له.

وكانت المحادثة الباردة المتواترة تتوقف في كل لحظة:

قالت ناتاشا: لقد جاءت ماري عن طريق ريازان.

لم يلاحظ الأمير أندريه أنها تنادي أخته باسمها الصغير. لكن ناتاشا انتبهت لأول مرة في حضرته. سأل:

ـ حسناً؟.

ـ رووا لها أن موسكو أصبحت رماداً كلها وأن...

وتوقفت ناتاشا. الأفضل أن تسكت. كان يبذل جهداً ظاهراً للإصغاء دون أن يصل إلى هدفه.

ـ نعم، يقولون إن موسكو قد احترقت وهذا محزن جداً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خلال ذلك، كانت نظرته شاخصة أمامه وأصابعه تجذب شاربيه بحركة آلية.

قال الأمير أندريه فجأة وهو يرغب في الظهور بمظهر المؤنس: وهل قابلت الكونت نيكولا؟.

ثم تابع ببساطة وهدوء وكأنه لا يملك القوة على تصور مدى أهمية كلماته بالنسبة إلى أحياء:

ـ لقد كتب إلي هنا يقول إنك تروقينه كثيراً!.

وأنهى حديثه قائلاً بسرعة وكأنه سعيد إذ وجد أخيراً الكلمة التي طال بحثه عنها:

ـ فإذا كان يروقك بالمثل، فإن ذلك يكون لخيركما.. سوف تقترنين به.

لم تكن لتلك الكلمات أكثر من معنى واحد عند الأميرة ماري؛ إنها تشير إلى أن أخاها بعيد الآن بشكل مخيف عن عالم الأحياء.

قالت بلهجة هادئة وهي تنظر إلى ناتاشا: لِمَ التحدث عني!.

وأحست ناتاشا بتلك النظرة تحط عليها لكنها لم ترفع رأسها. ومن جديد ساد الصمت؟.

ـ أندريه، هل تريد.. هل تريد رؤية صغيرك نيكولا.

طرحت الأميرة ماري هذا السؤال فجأة بصوت مرتجف وأضافت:

ـ إنه لا يني يتحدث عنك!.

طافت على شفتي الأمير أندريه لأول مرة ابتسامة خفيفة. لكن الأميرة التي كانت تعرف وجهه تماماً، عرفت أنها لم تكن ابتسامة سرور أو حنان لفكرة وجود ولده، بل ابتسامة سخرية لبقة موجهة إليها لأنها استعملت الوسيلة الأخيرة التي ، حسب رأيها، كانت قمينة بإيقاظ العاطفة فيه.

ـ نعم، سأكون مسروراً برؤية صغيري نيكولا. هل صحته جيدة؟.

www.Maktbah.com

وعندما جيء بنيكولا الصغير للأمير أندريه، نظر الطفل إلى أبيه بذعر وخوف ولكن دون أن يبكي لأنه لم يرَ أحداً يبكي، فقبله الأمير أندريه دون أن يعرف ماذا يقول له.

ثم صرفوا الصغير واقتربت الأميرة ماري من أخيها مجدداً فقبلته وانفجرت منتحبة وقد عجزت عن امتلاك أعصابها أكثر مما فعلت.

تأملها بنظرة محدقة ثم سأل: أتبكين بسبب نيكولا؟.

فأشارت الأميرة ماري خلال دموعها بحركة إيجابية من رأسها.

ـ ماري، هل تعرفين الإنجـ...

وسكت فجأة.

ـ ماذا تريد أن تقول؟.

فقال وهو يحدق إليها بنظرته عديمة الإحساس:

ـ لا شيء هنا، لا يجوز البكاء.

عندما رأى أخته تنفجر باكية، أدرك الأمير أندريه أن أخته تبكي لأن نيكولا الصغير سيصبح بعد حين يتيماً. فبذل جهداً كبيراً على نفسه ليعود إلى الوراء قليلاً في الحياة وليستعيد وجهة نظر الأحياء.

فكر: «نعم، إن ذلك لا بدَّ يؤلمهم كثيراً! مع ذلك، كم هو بسيط!».

قال في سرِّه، وهو راغب في أن يشرك أخته في تفكيره: «إن عصافير الأجواء لا تزرع ولا تحصد، مع ذلك، فإن أبانا السماوي يطعمها. ولكن لا، إنهما ستفهمان ذلك على طريقتهما أم لعلَّهما لن تفهما ذلك! إنهما لا تستطيعان فهم هذا: إن كل هذه العواطف التي تعلقان عليها كل هذه الأهمية وكل ما هو شخصي بحت في نظرنا وكل هذه الأفكار التي تبدو لنا بالغة الأهمية، إن كل هذا عديم الفائدة! كلا، لم نعد نستطيع أن نتفاهم!» ثم سكت.

كان ابن الأمير أندريه الصغير على وشك بلوغ السنة السابعة من عمره،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فكان بالكاد يعرف القراءة ولم يكن بعد قد تعلم شيئاً، ولقد كان عليه منذ ذلك اليوم أن يكتسب خبرة ومعلومات ومزية الملاحظة. مع ذلك، لو أنه استطاع أن يستعمل حينذاك كل الكفاءات التي وزعها فيما بعد، لما استطاع أن يفهم معنى المشهد الذي رآه يمثل بين أبيه والأميرة ماري وناتاشا أفضل مما فهمه. لقد فهم كل شيء، وخرج من الغرفة دون أن يبكي واقترب بصمت من ناتاشا التي تبعته ونظر إليها بوجل بعينيه الجميلتين وقد طافت رعشة خفيفة بشفته القرمزية قليلاً ثم أخفى رأسه في هيكل الفتاة وراح يبكي.

ومنذ ذلك الحين، أخذ يتحاشى ديسال وملاطفات الكونتيسة فكان يلبث وحيداً تارة يقترب من الأميرة ماري وناتاشا التي بدا أنه يفضلها على عمته نفسها، ويستخلص بخجل ممالقاتهما.

وعندما خرجت الأميرة ماري من مقابلتها مع أخيها، وفهمت كل ما حدثها به وجه ناتاشا، لم تعد تتحدث إلى الفتاة عن أمل بالشفاء. حلّت محلها قرب الكنبة حيث كان الأمير أندريه مسجى، وراحت دون أن تبكي أكثر مما بكت، ترفع إلى الأزلي الخالد صلوات من كل روحها، إلى الممتنع الذي جلت معرفته، والذي كان حضوره عند رأس المحتضر يكاد يكون ملموساً.

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

كان يشعر الأمير أندريه بأنه منفكّ عن الأشياء الدنيوية ويشعر بخفة غريبة. لم يكن يعرف أنه سيموت فحسب بل كان يحس أنه يموت وأنه أصبح نصف ميت. وكان ينتظر الذي لا بدَّ منه دون تعجل ولا قلق. إن ذلك الوجود المنذر المجهول الذي لم يكف طوال حياته عن الإحساس به، أصبح الآن قريباً جداً ولم تكن هذه الخفة الغريبة إلا الدليل الملموس.

لقد خاف فيما مضى الموت وأحس مرتين بالقلق المخيف إذ رأى نفسه قريباً من نهايته أما الآن فهو لم يعد يشعر بهذا القلق.

شعر به أول مرة حينما كانت القنبلة تدور أمامه وهو ينظر إلى الحصد والأدغال والسماءِ وهو عارف بدنو الموت. فلما استعاد حواسه بعد حرجه، خيل إليه أنه قد تخلص بصورة ما من ثقل الحياة الذي كان يمسك به ولم تلبث بعد ذلك أن تفتحت في نفسه زهرة الحب الأبدي وقد تحرر من كل رباط مع هذه الحياة. ومنذ ذلك الحين لم يعد قط يفكر في الموت بدلاً من أن يخاف منه.

فكر ملياً خلال ساعات الوحدة الأليمة ونصف الهذيان التي أعقبت جرحه في ذلك الحب الأزلي الذي اكتشفه حديثاً، حتى أنه راح ينفصل أكثر فأكثر عن الحياة الدنيوية دون أن يكون لديه شك في ذلك. أحب كل شيء وكل الناس، والتضحية بالذات دائماً في سبيل الحب، يعني عدم محبة أحد بالذات وبالتالي عدم العيش حياة دنيوية. وعلى هذا، فإنه كلما ازداد تعمقاً

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في ذلك الحب الجديد، ازداد اعتكافاً لأشياء هذا العالم، وأزال تماماً الحاجز الرهيب الذي لولا الحب، لوقع بين الموت والحياة. وعندما شعر في الفترة الأولى بأنه اقترب من الموت، قال لنفسه: «حسناً، هذا أفضل!».

بعد تلك الليلة في ميتيشنشي، حيث رأى وهو في حالة أقرب إلى الهذيان، تلك التي يرغب فيها تظهر أمامه، وحيث سفح دموع فرح وهو يشدّ يدها على شفتيه، عاد الحب الذي تسلل خلسة إلى قلبه فأعطاه مذاق الحياة ورجعت إليه أفكار مشرقة مقلقة. كان يشعر حينذاك بعجزه عن استعادة ذلك الشعور الذي أحس به عندما رأى كوراغين في مستشفى الميدان وأخذ يتعذب لمعرفة ما إذا كان سيعيش ولكنه لم يكن يجرؤ على طرح ذلك السؤال.

خلال ذلك، تبع المرض طريقه الطبيعي وحل «ذلك» الذي تحدثت عنه ناتاشا قبل وصول الأميرة ماري بيومين. لقد كان الصراع بين الموت والحياة، ذلك الصراع الذي تفوق فيه الموت. كان التأكيد غير المتوقع بأنه لا يزال يتعلق بالحياة لأنها تمثل له حب ناتاشا، وكان التمرد النهائي من جانب كيانه كله ضد المجهول الماثل.

هبط المساء، وكان كعادته بعد أن تناول الطعام، مرتفع الحرارة قليلاً ولكن أفكاره كانت أكثر إشراقاً. وكانت سونيا جالسة قرب الطاولة وهو يحلم. وفجأة استولى عليه شعور بالسعادة.

فكر: «آه! ها هي ذي!».

والواقع أن ناتاشا دخلت حينذاك وحلت محل سونيا دون أية ضجة.

لقد ظل يشعر منذ أن بدأت تعنى به، بذلك الشعور المادي في حضرتها. كانت تجلس على مقعد وثير يظهر منها جانب وجهها، تحجب ضوء الشمعة وتسرد جورباً، (لقد تعلمت السرد لأن الأمير أندريه قال لها ذات يوم إنه ما من أحد يحسن العناية بالمرضى أفضل من عجائز المربيات اللواتي يسردن

www.Maktbah.com

الجوارب وإن في السرد شيئاً مهدئاً) تزلق أصابعها الدقيقة الصنانير بنشاط وهي تشتبك من حين إلى آخر. وكان يرى جانب وجهها الساهم المنحني مرتسماً بوضوح على صفحة العتمة. أتت بحركة فتدحرجت كتبها على ركبتيها فانتفضت وألقت نظرة على الأمير أندريه ثم حجبت ضوء الشمعة بيدها وبحركة مرنة وسريعة، انحنت فجمعت كتبها واستعادت وضعيتها الأولى.

ومن دون أن يتحرك كان ينظر إليها فلاحظ أنها بعد حركتها تلك، في حاجة إلى نفس عميق بعد أن انحنت على ذلك النحو، لكنها لا تسمح لنفسها به وتسعى أن تتنفس بهدوء وحذر.

تحدثا عن الماضي في دير الثالوث فقال لها إنه إذا عاش فسينذر إلى الله عرفاناً أبدياً لذلك الجرح الذي ساقه إليها. لكنهما منذ ذلك الحين لم يتحدثا عن المستقبل قط.

فكر الآن وهو ينظر إليها ويصغي إلى حفيف الصنانير الفولاذية الخفيف: «هل يمكن، نعم، هل يمكن؟ هل يمكن أن تكون القدرة قد جمعتني بها على هذا الشكل المدهش لكي أموت فقط؟.. هل يعقل أن تكون حقيقة الحياة لم تُكشف لي إلا لتكذبني؟ إنني أحبها أكثر من كل الناس. وإذا كنت أحبها هكذا، فماذا عليّ أن أفعل؟» وفجأة أفلت واحدة من أنّاته العميقة التي تنتابه في أويقات الألم.

وضعت ناتاشا سردها عند سماعها تلك الأنة وانحنت عليه. فلما لاحظت فجأة عينيه البراقتين، جاءت إليه بخطى خفيفة.

ـ ألست نائماً؟.

ـ لا. لقد مضى عليّ وقت طويل وأنا أنظر إليك. لقد شعرت بك تدخلين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ما من أحد يهب لي مثلك تلك الراحة الحلوة.. ذلك الإشراق، وددت لو بكيت من الفرح.

ازدادت ناتاشا انحناء عليه ووجهها يضيء بفرح لا يوصف.

ـ ناتاشا، أحبك حباً مفرطاً. أكثر من كل الناس.

ـ وأنا!.

ثم أدارت رأسها فترة وقالت: ولكن لماذا حباً مفرطاً؟.

ـ لماذا مفرطاً؟ هه، ماذا تفكرين وجدانياً، من كل وجدانك، هل سأعيش؟ هل تصدقين هذا؟.

فقالت ناتاشا في شبه صرخة وهي تمسك بيديه بحركة كلفة:

ـ بل إنني واثقة، واثقة!.

فسكت. ثم قال وهو يأخذ يدها ويقبلها:

ـ كم سيكون ذلك رائعاً!.

كانت ناتاشا سعيدة وقلقة في آن. تذكرت فجأة أن المريض يجب أن يبتعد عن التأثر وأنه في حاجة إلى الهدوء، فقالت وهي تخنق فرحها:

ـ وأنت الذي لم تنم حاول أن تنام.. أرجوك.

وازداد ضغطاً على يدها ثم تركها تذهب فعادت تجلس قرب الشمعة في وضعيتها السابقة، ولقد اختلست إليه النظر مرتين ولاقت في كل مرة عينيه اللامعتين. وحينئذٍ أوجبت نفسها واجباً بحياكة جوربها ووعدت نفسها بألّا تنظر إليه مادامت لم تفرغ من عملها.

وفي الواقع إنه لم يلبث بعدئذٍ أن أغمض عينيه ونام، لكنه نام نوماً قصيراً إذ سرعان ما استفاق فجأة وقد نضح جسمه بعرق بارد.

لم يفتأ في نومه يفكر في ما ظل يشغله طوال هذه الفترة: في الموت وفي الحياة. وبصورة خاصة في الموت الذي كان يشعر به أكثر قرباً.

www.Maktbah.com

قال في نفسه؟ «الحب، ما هو الحب؟».

«إن الحب يعارض الحياة. الحب هو الحياة. إن كل، كل ما أفهمه، لا أفهمه إلا لأنني أحب. إن كل شيء قائم، كل شيء موجود لأنني أحب فقط. إن كل شيء يتعلق بالحب. إن الحب هو الله. والموت في نظري يعني ذرة من هذا الحب، العودة إلى الكل الكبير، إلى المنهل الأزلي». بدت له هذه الأفكار مواسية ولكنها لم تكن إلا مجرد أفكار. كان شيء ما يسفهها: ففيها شيء ملزم من جانب واحد، شيء شخصي، شيء قياسي بحت. وهي تفتقر إلى البيان. وهذا يجلب الكآبة والشك. أخيراً، أغفى.

حلم بأنه مستلق في تلك الغرفة بالذات التي هو فيها الآن، لكنه بدلاً من أن يكون جريحاً كان فيه صحة جيدة. ومرّ أمامه أناس كثيرون تافهون وغير مبالين فكان يحدثهم ويناقشهم حول موضوع عديم الأهمية. وكانوا يستعدون للذهاب إلى جهة ما والأمير أندريه يرى بإبهام أن كل ذلك عقيم وأن في رأسه عدداً من المشاغل الأكثر خطورة. مع ذلك فقد ظل يدهشهم ويحدثهم ببديهة متقدة عن أشياء تافهة. وبالتدريج، ودون أن يشعر بهم، بدأ هؤلاء الناس كلهم يتفرقون ويختفون ولم يبق إلا مشكلة واحدة، مشكلة إغلاق الباب. فنهض واقترب من الباب ليغلقه، وليدفع المزلاج.

ترى هل سيجد الوقت لإغلاق الباب أم لا، هذا ما كان «كل شيء» يتوقف عليه. مضى مستعجلاً ولم تعد رجلاه تحملانه. إنه يعرف أن الوقت لن يتاح له خلال ذلك، شدد من قواه بشكل مؤلم فاعتصره قلق شديد. وهذا القلق هو قلق الموت: «إنه» كامن في الجانب الآخر من الباب. وبينما هو منهمك بخرق وعجز في إغلاقه، كان شيء ما مخيف من الجانب الآخر يميل بثقله عليه ويقتحمه شيء ما، لا يمت إلى الإنسانية بصلة، الموت، يقتحم الباب وهو على وشك الدخول. منع الباب بكل ما تبقى له من قوى، فطالما

twitter @baghdad_library

أنه لا يستطيع إغلاق الباب فلا أقل من أن يمنع الموت من الدخول. لكنه بالغ الخرق شديد الضعف. وفتح الباب تحت الضغط الخارجي الرهيب ثم أغلق.

جاءت دفعة أخيرة من الخارج، ثم مجهود أخير فوق طاقة البشر، عقيم، واستسلم المصراعان معاً دون جلبة. «هو ذا دخل»، إنه الموت، وبدأ الأمير أندريه يموت.

لكنه وهو في غمار الموت، تذكر أنه نائم، فبذل وهو يموت مجهوداً عنيفاً أيقظه.

«نعم، ذاك كان الموت، لقد كنت ميتاً واستيقظت. نعم إن الموت يقظة» فجأة أضاءت روحه وارتفع الستر الذي بقي حتى ذلك الحين يحجب عن نظره الداخلي. شعر كأنه تحرر من القوة التي ظلّت تفله حتى ذلك الحين ولم يعد ذلك التخفيف الذي يشعر به يفارقه حتى النهاية.

عندما استيقظ سابحاً في العرق البارد، تحرك فوق الكنبة فجاءت إليه ناتاشا وسألته عم يريد. فلم يجبها وراح ينظر إليها نظرة فريدة دون أن يفهم ما تسأله.

ذاك ما جرى له قبل وصول الأميرة ماري بيومين. ومنذ ذلك الحين، كما لاحظ الطبيب، بدأت الحمى البطيئة تأخذ طوراً مؤذياً. ولكن لم تكن مزاعم الطبيب هي التي تثير الحنان في قلب ناتاشا. لقد شاهدت الأعراض الروحية التي كانت أشد هولاً من الجدل بالنسبة إليها.

وفي الواقع إن الأمير أندريه بدأ منذ ذلك اليوم يخرج من الحياة في إبان خروجه من حلمه. وبدا له أن مبارحة الحياة أشد بطئاً من الإفاقة من مرئيات حلم.

لم يميّز يقظته البطيئة لحياة أخرى شيء مريع أو مثير.

www.Maktbah.com

لقد انقضت أيامه الأخيرة وساعاته الأخيرة على نحو أبسط من المعتاد. ولقد شعرت بذلك الأميرة ماري وناتاشا اللتان ما كانتا تفارقانه. لم تبك هذه ولا تلك وكفتا كلتاهما عن تعذيب نفسيهما وباتتا تشعران خلال اللحظات الأخيرة أنه لم يعد هو الذي تعنيان به وهو الذي لم يعد له وجود إذ كان قد فارقهما، بل ذكراه القريبة وجسده المحتضر. وكان هذا الإحساس من القوة لدى كلتيهما حتى لم يعد الجانب الأبدي من الموت يؤثر فيهما ولم تعودا تجدان فائدة من إذكاء نار آلامهما. لم تبكيا بالقرب منه ولا بعيدتين عنه ولم تتحدثا عنه فيما بينهما قط. كانتا تشعران بأنهما لن تستطيعا التعبير عما أدركتاه بواسطة الكلام.

كانتا كلتاهما تريانه يفلت من أيديهما أكثر فأكثر، ببطء وهدوء، لمضي بعيداً. وكانتا كلتاهما تعرفان أن ذلك لا بدَّ واقع وأنه حسن.

جعلوه يعترف ويتناول وجاؤوا جميعهم يودعونه. ولما جاؤوه بابنه، ضغط بشفتيه على وجنته واستدار، ليس لأن ذلك كان أليم الوقع عليه، وقد فهمت الأميرة ماري وناتاشا ذلك، بل لأنه كان يفترض أنه هذا كل ما يتوقعونه منه. مع ذلك، فإنه عندما طلب إليه أن يبارك ابنه، قام بما طلب إليه وألقى نظرة محيطة وكأنه يتساءل عم إذا بقي عليه أن يفعل شيئاً ما. حضرت الأميرة ماري وناتاشا تشنجات الجسد الأخير الذي فارقه الذهن. وقالت الأميرة ماري عندما بات جسد أخيها لا حراك به أمامهما منذ أكثر من دقائق وأخذ البرد يدب إليه.

ـ لقد انتهى!.

فاقتربت ناتاشا ونظرت إلى العينين الميتتين وسارعت تغمضهما. أطبقتهما ولم تقبلهما، بل وضعت شفتيها بخشوع على ما أصبح الآن الذكرى الأقرب إلى الذهن للأمير أندريه.

«إلى أين ذهب؟ أين هو الآن؟..».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وعندما سجي الجسد بعد إلباسه الثياب في نعشه فوق الطاولة، اقتربوا جميعهم منه يودعونه.

أخذ نيكولا الصغير ينشج وهو في تلك الوحشة الأليمة التي كانت تمزق نياط قلبه. وراحت الكونتيسة وسونيا تتوجعان على ناتاشا وعلى ذلك الذي لم يعد له وجود. أما الكونت العجوز، فكان يذرف الدموع وهو يفكر في أنه هو الآخر، سيجتاز قريباً هذه الخطوة الرهيبة نفسها.

الآن، أخذت الأميرة وناتاشا تبكيان. لم تكن دموعهما منبعثتين من الألم الشخصي، بل من التأثر الخاشع الذي امتلأت به نفساهما أمام هذا السر البسيط الجليل، سر الموت الذي وقع وأنجز تحت بصرهما.

www.Maktbah.com

الجزء الثالث عشر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

إن الرغبة في اكتشاف الأسباب مغروسة بالفطرة في فكر الإنسان، وإن مجموعة أسباب الظاهرات أمر لا يبلغه العقل البشري. فالفكر إذن يتعلق بأول حدث وافد سهل المنال ويقول: هذا هو السبب لأنه عاجز عن التعمق في شروط الظاهرات المعقدة ومداها اللانهائي. وفي الظاهرات التاريخية حيث تقتصر الدراسة على أفعال الأشخاص، تبدو إرادة الإله أقدم الأحداث المصاحبة تأتي بعدها إرادة البشر الذين يشغلون المراكز الأكثر رفعة في التاريخ أي الأبطال. مع ذلك يكفي أن يتعمق المرء في جوهر كل حدث تاريخي أي في نشاط الجمهور البشري الذي ساهم فيه ليتحقق أن إرادة بطل لا توجه ذلك النشاط الجماهيري بل إنها نفسها موجهة باستمرار.

وفهم حدث تاريخي على هذا النوع أو على نهج آخر يمكن أن يبدو معدوم الفرق. مع ذلك فإن بين من يقول إن شعوب الغرب اتجهت نحو الشرق لأن نابليون كان يريد ذلك وبين الذي يقول إن الأمر قد حدث لأنه لم يكن هنا بد من حدوثه، مثل انعدام الفرق بين الأشخاص الذين يؤكدون أن الأرض جامدة والكواكب تدور حولها وبين الذين يقولون بجهلهم على أي شيء ترتكز الأرض ولكن يؤيدون مع ذلك أن هناك قوانين تنظم حركتها وحركة الكواكب الأخرى. ولا يوجد كما لا يمكن أن يوجد سبب آخر للحدث التاريخي غير سبب الأسباب. لكن هناك القوانين التي تدير الأحداث وهذه القوانين التي غالباً ما تكون مجهولة تبدو لنا أحياناً محسوسة، واكتشافها غير

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ممكن إلا عندما نتنكّب نهائياً البحث عن أسباب الأحداث في إرادة شخص واحد كما لم يصبح اكتشاف قوانين حركة الكواكب ممكناً إلا بعد أن أغفلت نظرية انعدام حركة الأرض.

بعد معركة بورودينو واحتلال موسكو واحتراقها أصبحت أهم مرحلة في حرب عام ١٨١٢ في نظر المؤرخين في سير الجيش الروسي من طريق ريازان نحو طريق كالوغا باتجاه معسكر تاروتينو ـ وهي قرية واقعة على نهر نارا ـ أي ما أطلقوا عليه اسم سير الجناح، ووراء كراسنايا باخرا، وهي قرية وراء باخرا، رافد موسكڤا الأيمن، ويعزو المؤرخون شرف هذه المأثرة إلى مختلفين لم يتفقوا فيما بينهم عليهم. والغرباء أنفسهم والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم يعترفون بعبقرية الجنرالات الروس عندما يتحدثون عن سير الجناح هذا. لكن لماذا يرى المؤرخون العسكريون والناس كلهم في أعقابهم في سير الجناح ذاك نفاذ بصيرةٍ أو نفاذ بصيرة شخص واحد، ذلك التبصر الذي أنقذ روسيا وقضى على نابليون، وهذا ما هو صعب على الإدراك.

ففي المرحلة الأولى لا يمكن لمس ما في هذه الحركة من عمق وعبقرية لأنه لا يقتضي الحال مجهوداً فكرياً كبيراً لمعرفة أن أفضل موقع لجيش عندما لا يكون مهاجماً، هو المكان الذي يجد فيه أكثر الموارد بالنسبة إليه. إن تلميذاً في الثالثة عشرة من عمره حتى ولو كان محدود الفكر يستطيع دون جهد أن يدرك أن أفضل موقع للجيش عام ١٨١٢ بعد النزوح عن موسكو هو طريق كالوغا. لذلك لا يمكن الفهم للوهلة الأولى، بنتيجة أية استنتاجات توصل بعض المؤرخين إلى اكتشاف شيء ما عميق في تلك الحركة.

وفي المرحلة الثانية، إنه أكثر صعوبة على الفهم معرفة السبب الذي يرى بعض المؤرخين في تلك الحركة خلاص الروس وضياع الفرنسيين، لأن سير الجناح ذاك في مناسبات تختلف عن تلك التي سبقته وصاحبته وتبعته، لآل

www.Maktbah.com

إلى ضياع الجيش الروسي وخلاص الجيش الفرنسي. وإذا كان وضع الجيش الروسي قد تحسن منذ أن أنجزت هذه الحركة، فإنه لا يمكن إطلاقاً الاستنتاج أن هذه الحركة هي التي كانت السبب.

لم يكن سير الجناح ذاك يستطيع إضفاء أي تحسن أو مزية فحسب بل كان يمكن أن يسبب ضياع الجيش الروسي لو لم تتدخل لمساعدته ظروف أخرى. فماذا كان يحدث يا ترى لو أن ناپليون لم يجد نفسه محمولاً على العجز؟ ولو أن الجيش الروسي خاض المعركة في كراسنايا باخرا كما كان يريد بينيغسن وباركلي ماذا كان يقع يا ترى لو أن الفرنسيين هاجموا الروس أثناء سيرهم إلى وراء باخرا ثم ماذا يحدث لو أن ناپليون فيما بعد كان هاجم الروس عند مشارف تاروتينو بعشر الحماسة التي بذلها أمام سمولنسك؟ وماذا كان يحدث لو أن الفرنسيين اتجهوا إلى پيترسبورغ!.. إن حسنات سير الجناح ذاك في كل هذه الافتراضات كان يمكن أن ينقلب إلى دمار كامل.

وفي المرحلة الثالثة: إن أشد ما هو ممتنع عن الفهم يقوم في رؤية الناس يدرسون التاريخ ويرفضون عمداً أن يفهموا أن سير الجناح ذاك لا يمكن أن يعزى أبداً إلى إرادة رجل واحد وأن ما من أحد دبره في أية لحظة وأن هذه «المناورة» وكذلك الانسحاب في ڤيلي لم تكن في مجموعها معدة من جانب أحد بل تكونت خطوة فخطوة، وانتقلت من حدث إلى حدث دقيقة فدقيقة، نتيجة لعدد لا يحصى من المناسبات وأن سير الجناح ذاك بالاختصار لم يظهر في مجموعة إلا بعد أن تمّ وأصبح جزءاً من الماضي.

في المجلس الحربي المعقود في فيلي، كانت الفكرة المسيطرة على القيادة الروسية العامة هي الانسحاب المفروض بخط مستقيم أي عن طريق ـ نيغني ـ نوڤغورود. ولقد تأيد هذا بواقعة انحياز أكثر الأصوات في ذلك المؤتمر إلى هذه الفكرة وخصوصاً في المحادثة الخاصة التي جرت بعد ذلك

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بين القائد العام ولانسكوي، الممون العام. عرض لانسكوي للقائد العام أن تموين الجيش قد رُكّز بصورة خاصة على ضفاف نهر أوكا في حكومات تولا وكالوغا وأنه في حالة التراجع باتجاه نيغني ـ نوڤغورود، فإن التموين سينقطع عن الجيش بسبب عرض مجرى نهر أوكا الذي يستحيل البدء بالنقل على الزوارق عبره في بدء الشتاء. وكانت هذه الإشارة الأولى الدالة على ضرورة إغفال التقهقر على خط مستقيم باتجاه نيغني ـ نوڤغورود، ذلك التقهقر الذي قدر بادئ الأمر بأنه طبيعي جداً. اضطر الجيش أن يتجه متوغلاً نحو الجنوب على طريق ريازان ليقترب من مراكز تموينه. وبالتالي اضطر الجيش أن يسير في انحناء أكثر نحو الجنوب على طريق تولا بسبب جمود الفرنسيين الذي بلغ درجة إغفالهم الجيش الروسي، والانشغال في الدفاع عن مصنع تولا بصورة خاصة بسبب مزية الاقتراب من مراكز التموين.

وبعد سير غير مأمون بغية الوصول إلى طريق تولا عبر ضفة باخرا الثانية، فكرت القيادة الروسية العليا في التوقف عند پولولسك دون أن تتصور أبداً حصن تاروتينو. لكن عدداً لا يحصى من الظروف، ثم ظهور الفرنسيين الجديد الذين أضاعوا أثر الروس قبل ذلك ونيات خوض المعركة وبصورة رئيسية غزارة المؤن في كالوغا، كل ذلك دفع جيشنا إلى الانحناء أكثر نحو الجنوب والوصول إلى مركز تموينه منتقلاً من طريق تولا إلى طريق كالوغا باتجاه تاروتينو. ولم يخطر ببال أحد أن يصدق أن الشيء قد أريد وأعد منذ فترة طويلة إلا عندما عسكر الجيش في تاروتينو بعد أن تدخلت قوى تفاضلية لا تحصى.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

قام سير الجناح العتيد، على أساس أن الجيش الروسي الذي كان يتراجع بخط مستقيم إلى الوراء على عكس الهجوم، فانحرف الجيش عن طريقه السابقة مذ توقف الهجوم، ورأى نفسه أنه غير متبوع فاستدار بحركة طبيعية نحو الجهة التي تجتذبه إليها وفرة المؤن.

فلو فرضنا أن الجيش الروسي حينذاك كان محروماً من الرؤساء العباقرة أو أنه كان دون رؤساء إطلاقاً، فإنه لم يكن يستطيع أن يقوم بغير حركة عودة نحو موسكو راسماً قوس دائرة من الجهة التي تكون فيها الأرزاق أكثر وفرة والأرض أغزر إنتاجاً.

فانتقاله من طريق نيغني ـ نوڤغورد، إلى طريق ريازان، تولا، وكالوغا كان طبيعياً جداً مثلما كان اتجاه سلابي الجيش الروسي في ذلك الاتجاه وفرض خط المسير ذاك على كوتوزوف من پيترسبورغ طبيعيين تماماً. ففي تاروتينو، تلقى كوتوزوف ما يشبه التعنيف من الأمبراطور لأنه سلك طريق رايازان وفرض عليه أن يتمركز قبالة كالوغا في الموقع نفسه الذي كان يحتله عندما وصلت إليه رسالة عاهله.

بعد أن تدحرجت الكتلة التي تشكل الجيش الروسي في الاتجاه الذي فرضته عليها الحملة كلها ثم معركة بورودينو وبعد أن نجحت في تلقي أية صدمة جديدة بعد توقفها في إثر الصدمة الأولى، استعادت تلك الكتلة الوضعية التي كانت طبيعية بالنسبة إليها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فموهبة كوتوزوف إذاً ليست فيما يسمونه «مناورة إستراتيجية» فذّة، ولكن في أنه وحده كان يدرك معنى الوقائع الدائرة. كان وحده حينذاك الذي يعرف أهمية جمود الجيش الفرنسي، وحده الذي كان يؤكد أن معركة بورودينو نصر، وحده الذي رغم ما كان يمكن لمركزه كجنرال وقائد أعلى أن يحمله على الانحياز نحو فكرة الهجوم، ظل يستعمل نشاطه كله ليجنب الجيش الروسي المعارك التي لا طائل فيها.

كان الحيوان الجريح في بورودينو مسجّى الآن حيث تركه الصياد الفار. فهل لا يزال حياً. هل يحتفظ ببعض القوى أم تراه يتظاهر بانعدام تلك القوى؟ لم يكن الصياد يعرف شيئاً عن ذلك. لكن الحيوان الجريح أطلق فجأة زمجرة.

كانت زمجرة الحيوان الجريح الكاشفة عن نهايته الوشيكة تتلخص في عرض الصلح الذي حمله لوريستون[1] إلى معسكر كوتوزوف.

كتب ناپليون إلى كوتوزوف متأثراً باقتناعه بأن الخير ليس ما هو خير بل ما يخطر له على بال، الكلمات الأولى التي طافت بذهنه، فحتى تلك الكلمات عارية من كل معنى:

«سيدي الأمير كوتوزوف، أوفد إليك أحد مساعدي العسكريين الجنرالات ليتحدث معك حول عديد من الأشياء الهامة. إنني أرغب أن تثق سعادتك بكل ما يقوله خصوصاً عندما يعرب عن عواطف التقدير والاعتبار الخاص التي أكنها لشخصكم منذ زمن طويل. ولما كانت هذه الرسالة لا تهدف إلى غرض آخر، فإني أرجو الله يا سيدي الأمير كوتوزوف أن يكلأك بحمايته القديرة المقدسة».

موسكو ـ في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨١٢ التوقيع: ناپليون

(١) مارشال فرنسا على عهد الإصلاح وأمير فرنسا. (المترجم).

www.Maktbah.com

أجاب كوتوزوف الذي بقي يقوم بكل ما في وسعه ليمنع الجيش من الجنوح إلى الهجوم.

ـ ستلعنني الأعقاب إذا نظر إليّ بوصفي أول محرك لتدبير ما. إن عقلية أمتي الحالية هي على هذا النحو.

خلال الشهر الذي انقضى على الجيش الفرنسي في نهب موسكو والجيش الروسي في استجمامه في تاروتينو، ، طرأ تبدل على نسبة قوى الجيشين في عددهما وفي الفكرة التي تحركهما لدرجة مال معها الميزان إلى الجانب الروسي فبدت ضرورة الهجوم تكشف عن نفسها بألف دليل رغم أن الوضع الحقيقي للجيش الفرنسي والرقم الحقيقي لتعداده كانا مجهولين من الروس. وكانت تلك الدلالات التالية: سلوك لوريستون، وفرة الأرزاق في تاروتينو، التقارير الواردة من مختلف الجهات حول تعطل الفرنسيين وفوضى صفوفهم، الأفواج المستكملة بوصول الاحتياطي؛ الطقس الرائع، الراحة الطويلة التي نعمت بها القطعات؛ نفاد الصبر ذاك الذي يبدو عادة في الجيوش المستريحة؛ الفضول الدافع إلى الاستعلام عن حركات وأعمال الجيش الفرنسي الذي انقطع كل احتكاك به، منذ وقت طويل؛ الجرأة التي أصبحت تظهرها طلائعنا الآن في التسلل بين الفرنسيين المقيمين في منطقة تاروتينو، أخبار الانتصارات الصغيرة التي حققها القرويون والأنصار ضد الفرنسيين، التنافس الذي كانت تلك الأنباء تحدثه، الرغبة في الانتقام المغروسة في قلب كل جندي منذ أن احتل الفرنسيون موسكو، وفضلاً عن ذلك الإيمان الغامض الذي توغل في روح كل جندي بأن نسبة القوات لم تعد نفسها وأن الغلبة إلى جانبنا. ولما كانت نسبة القوى قد تبدلت فإن الهجوم لا مناص منه. وبمثل السرعة والدقة التي تدق فيها الساعة عندما يطوف العقرب الكبير متمماً دورة الميناء، كذلك أحدث ذلك التبدل في الأوساط العليا نشاطاً مضاعفاً مثل انطلاق النوابض وحركة اهتزاز جرس الساعة وقرع الأجراس.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

كان الأمبراطور يوجّه الجيش الروسي بقيادة كوتوزوف وأركان حربه من بيترسبورغ، وفيها أعدّوا مخططاً مفصلاً لكل الحرب قبل أن يصلهم نبأ تسليم موسكو وأرسلوه إلى كوتوزوف. وعلى الرغم من أن ذلك المخطط كان قائماً على افتراض وجود موسكو بين أيدينا، فإنه تُبني من قبل أركان حرب الجيش ووضع موضع التنفيذ. لكن كوتوزوف أبدى فقط ملاحظة تقول إن الحركات العسكرية البعيدة الرامية إلى صرف نظر العدو عن نقطة ما تكون عادة صعبة التنفيذ. لذلك، ولحسم الصعوبات المعترضة، بدأوا يرسلون إليه من بيترسبورغ تباعاً تعليمات جديدة وأشخاصاً جدداً مهمتهم مراقبة عملياته ورفع تقارير عنها.

أضف إلى ذلك أن أركان حرب الجيش تتعرض الآن لتبديل جذري إذ وجب تعيين شخص ما مكان باغراسيون الذي قتل وباركلي، الذي تنحى بعد أن أهين في كرامته. ولقد دُرست أفضل السبل الواجب اتخاذها بخطورة متناهية: وضع «آ» مكان «ب» مكان «د»، أو «د» مكان «آ»، وكأن كل هذه التسميات كان يمكن أن تهدف إلى أكثر من إرضاء «آ» و«ب».

وبسبب الألفة القائمة بين كوتوزوف ورئيس أركان حربه بينيغسن، وكذلك بسبب التنقلات الواجب إجراؤها، ووجود شخصيات حائزة ثقة الأمبراطور في المعسكر، أخذت الأحزاب تلعب دوراً أكثر رصانة من المألوف، فكان «آ» يدسُّ على «ب» و«د» على «س»، في كل التبديلات

www.Maktbah.com

والترتيبات. وكانت تلك الدسائس تهدف في الغالب إلى الاستيلاء على إدارة العمليات من جانب مثيريها. لكن الحرب كانت تسير سيرها المعتاد في غنى عنهم لأنها ناجمة عن ردود الفعل عند الجماهير دون أن تنطبق مع الترتيبات المقررة. وكل هذه الترتيبات التي تتلاقى وتشتبك، لم تكن تمثل في الأوساط العليا إلا الانعكاس الصحيح لما كان ينبغي أن يحدث.

في رسالة كتبها الأمبراطور، يوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر، وتلقاها كوتوزوف بعد معركة تاروتينو، كتب الأمبراطور: «الأمير ميخائيل إيلاريونوڤيتش! منذ الثاني من أيلول/ سبتمبر وموسكو في يد الأعداء. إن تقاريرك الأخيرة مؤرخة في ٢٠، وطوال هذا الوقت لم تتخذ أية إجراءات ضد العدو لإنقاذ عاصمتنا الأولى فحسب بل كذلك، تبعاً لتقاريرك الأخيرة، بقيت تتراجع. إن سيربوخوف محتلة من قِبل فوج عدو وتولا، بمصنعها الشهير شديد الأهمية بالنسبة إلى الجيش أصبحت في خطر وأرى من تقارير الجنرال ونتزبخيرود، أن فوجاً معادياً تعداده عشرة آلاف رجل يقترب على طريق پيترسبورغ، وأن آخر تعداده بضعة آلاف من الرجال يتجه نحو ديمتروڤ وثالثاً يسير على طريق ڤلاديمير ورابعاً على جانب من ضخامة العدد يعسكر بين روزا وموجاييسك.

ولقد كان بالذات لا يزال في موسكو حتى في يوم ٢٥، فإذا كان العدو قد قسَّم قواه كما يستنتج من هذه المعلومات إلى فرق كبيرة، في حين أن ناپليون نفسه لا يزال في موسكو مع كل حرسه، فهل لا يزال ممكناً أن تكون إزاء جيش عرم لا تستطيع لوفرة عدده أن تنقلب إلى الهجوم عليه؟ إن الظاهر يوحي عكس ذلك ويفرض احتمال مطاردة العدو لك بفيالق إذا قورنت بالحوادث الموضوعة تحت إمرتك، كانت أقل عدداً وضئيلة جداً. وكان يبدو أنك تبعاً لهذه الظروف المؤاتية، كنت تستطيع محاولة القيام بهجوم ضد عدو أضعف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

منك وأن تبيده أو أن ترغمه أقله على التراجع فتحفظ في أيدينا الجزء الأكبر من الأقاليم المحتلة اليوم وبذلك تدفع الخطر عن تولا وعن مدن أخرى في الداخل. وإذا كان العدو يستطيع إرسال جانب كبير من القوات إلى پيترسبورغ وأن يهدد هذه العاصمة شبه العزلاء تماماً، فإنك ستتحمَّل المسؤولية لأن لديك كل الإمكانات للحيلولة بالجيش الذي تحت إمرتك دون وقوع هذه المصيبة الجديدة إذا عملت بحزم وثبات.

تذكر أن عليك حتى الآن مسؤولية الرد على سبب ضياع موسكو أمام الوطن الغاضب. وإنك تعرف بالتجربة مدى استعدادي لمكافأتك. إن حسن الالتفاتة هذه لم يتبدل. لكن روسيا وأنا، من حقنا أن ننتظر منك كل الغيرة والحزم والنجاح الذي يسمح لنا ذكاؤك ومزاياك العسكرية وبسالة الجنود الموضوعين تحت إمرتك. أن نتوقعها منك».

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تلك الرسالة الدالة على أن نسبة القوى الصحيحة معروفة كذلك في پيترسبورغ، في طريقها نحو كوتوزوف، كان هذا في وضع لم يعد يسمح له أن يمنع الجيش الذي يأمره عن اتخاذ الهجوم وكانت المعركة دائرة فعلاً.

في الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر، قتل القوقازي شاپوڤالوف الذي كان في دورية، أرنباً برياً وجرح آخر فاستسلم لرغبة مطاردة صيده الجريح وتوغل عميقاً في الغابة حتى عثر الجناح الأيسر لجيش مورا الذي لم يكن قد اتخذ أية حيطة في تلك الجهات. وروى القوقازي لزملائه وهو يضحك أنه كاد يقع بين الفرنسيين فرفع حامل العلم الذي سمع هذه الرواية تقريراً إلى رئيسه.

استدعي القوقازي واستجوب. وواتت رؤساؤه فكرة انتهاز الفرصة للقيام بغزوة يفوزون فيها ببعض الجياد. لكن أحد أولئك الرؤساء، وكان يعرف أرفع ضباط الجيش أبلغ الخبر إلى جنرال من أركان حرب الجيش،

www.Maktbah.com

وكان الموقف شديد التوتر في الأركان منذ بعض الوقت. ولقد جاء يرمولوف قبل بضعة أيام يتوسل إلى بينيغسن أن يستعمل نفوذه لدى الجنرال القائد الأعلى ليحمله على القيام بالهجوم.

فأجاب بينيغسن:

ـ لو أنني لم أكن أعرفك، لاعتقدت أنك تريد العكس تماماً، عكس ما تطلب، ليس عليّ إلا أن أشير بشيء ما حتى يعمد الجنرال القائد الأعلى إلى عمل عكسه تماماً.

أيدت الاستطلاعات النبأ الذي حمله القوقازي وأكدت بشكل نهائي أن الحدث قد نضج. وتمددت نوابض الساعة وصرت ثم قرع الجرس. واضطر كوتوزوف، رغم كل سلطانه العظيم وذكائه وخبرته ومعرفته بالرجال أن يأخذ في الاعتبار طلب بينيغسن الذي أرسل من قبل تقريره الشخصي حول هذا الموضوع إلى الأمبراطور، ورغبة كل جنرالاته الموحدة وكذلك الرغبة المفروضة أنها تجيش في نفس الأمبراطور نفسه والمعلومات التي قدمها القوقازيون فلم يعد بإمكانه إيقاف حركة أصبحت لا بدَّ منها، فأعطى تبعاً لذلك أمراً كان يقدر أنه خطير وعقيم:

لقد أيد الواقعة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

كانت معلومات القوقازيين المؤكدة وكذلك تقرير بينيغسن أن جناح الفرنسيين الأيسر مكشوف، آخر الدلالات على الضرورة التي تسيطر عليهم والداعية إلى تنظيم الهجوم، وتم تحديد هذا الهجوم لليوم الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر.

ففي اليوم الرابع صباحاً، وقع كوتوزوف الأوامر. وقد قرأ تولّ الأوامر على إيرمولوف وأوعز إليه أن يتخذ آخر التدابير، فقال إيرمولوف:

ـ حسناً، حسناً. ولكن ليس لدي الوقت الآن.

وخرج من كوخه الخشبي.

كانت الخطة التي وضعها تولّ ممتازة. فكان يقرأ فيها، تماماً كما في خطة أوسترليتز، كل ما لم يكن مكتوباً بالألمانية.

الطابور الأول يسير نحو هذه البقعة أو تلك، والطابور الثاني يسير نحو هذا أو ذاك المكان الآخر، وهلمجرا. وكل هذه الطوابير التي تصل على الورق في الساعة المحددة إلى أمكنتها، ستسحق العدو. كانت خطة منظمة تماماً كما في كل الخطط. وكما في كل الخطط، لم يصل طابور واحد إلى مكانه في الوقت المحدد.

وعندما أصبحت كل نسخ الخطة المطلوبة جاهزة، استدعي ضابط وأرسل إلى إيرمولوف كي يسلمه الأوراق للتنفيذ. وراح الضابط، وهو فارس

www.Maktbah.com

شاب في الحرس ومساعد عسكري لكوتوزوف، إلى مسكن إيرمولوف وهو فخور بالمهمة الموكولة إليه.

أجابه تابع إيرمولوف:

ـ لقد خرج.

فذهب الضابط الفارس إلى مسكن الجنرال الذي درج إيرمولوف على زيارته.

ـ كلا، ليس الجنرال هنا.

فامتطى الضابط صهوة جواده مجدداً وذهب إلى مسكن آخر:

ـ كلا، لقد ذهب.

فكر الضابط: «المهم ألّا يعتبروني مسؤولاً عن التأخير! يا لسوء الطالع!» وحث جواده فطاف به المعسكر كله. روى له البعض أنهم شاهدوا إيرمولوف يبتعد مع بعض الجنرالات، بينما أكد البعض الآخر أنه عاد إلى مسكنه حتماً. وظل الضابط يبحث عن إيرمولوف في أي مكان وما من أحد يستطيع أن يدله على مكان وجوده! فتناول الضابط لقَيمات على عجل لدى أحد زملائه وعاد على الأثر إلى الطليعة عند ميلورادوڤيتش. لكن ميلورادوڤيتش هو الآخر لم يكن في مركزه. لكنهم قالوا لضابط الحرس إنه في الحفلة الراقصة القائمة في مسكن الجنرال كيكين وأن إيرمولوف لا بدَّ وأن يكون هناك.

ـ ولكن أين هذا المكان؟

فقال ضابط قوقازي وهي يشير إلى منزل أحد السادة في البعد:

ـ هناك، في ايتشكينو.

ـ كيف هنا! إن هذا وراء خطوطنا.

ـ لقد أرسلوا فوجين على الخط. إنهم الآن يقصفون قصفاً مريعاً! إن لديهم فرقتي موسيقى الفوج وثلاث فرق من المغنين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مضى الفارس الضابط إلى ما وراء الخط، إلى ايتشكينو. وقبل أن يصل إلى منزل السيد، تناهى إلى سمعه إيقاع مرح لأغنية راقصة شائعة بين الجنود.

ـ «في الحقول.. في الحقول!» وكان الغناء يبلغ سماعه مصحوباً بأنغام المزامير وقرع الصنوج، تطغى عليه الأصوات الصاخبة من حين إلى آخر. ولقد نشط الضابط لهذه الأصوات البهيجة وفي الوقت نفسه ذعر لذنبه إذ كان يشعر بأنه مذنب لتأخره كل هذا الوقت في نقل الأمر الهام الموكول إليه. وكانت الساعة قد شارفت التاسعة. ترجل عن جواده وصعد مرقاة منزل أحد السادة الذي بقي سليماً لوقوعه بين خطوط الفرنسيين والروس تماماً، فرأى عدداً من الخدم يحملون النبيذ ويعملون في الردهة وفي المقلاد، وبعض المغنين مجتمعين وفي عدادهم إيرمولوف ذو الوجه المرتفع الوقور، وكلهم متقدة وجوههم تجيش بالحمية، التفوا في نصف دائرة وراحوا يقهقهون ملء حناجرهم وقد حلوا أزرار ستراتهم الرسمية. وفي وسط القاعة، أخذ جنرال جميل معتدل القامة محمرّ الوجه، يرقص بنشاط وحذق رقصة شعبية يتخللها قرع بالكعبين وثني مفاجئ من الركبتين.

ها! ها! ها! أنشط! نيكولا إيڤانوڤيتش! ها! ها! ها!

شعر الضابط الفارس أنه بدخوله الآن حاملاً تلك الأوامر الهامة، مذنباً مرتين، فأراد الانسحاب. لكن أحد الجنرالات لمحه. فلما عرف سبب وجوده، أشار إلى إيرمولوف عليه، فجاء إيرمولوف نحوه مقطب الحاجبين وبعد أن أصغى إليه، أخذ أوراقه دون أن ينبس بكلمة.

قال أحد رفاق الضابط الفارس ذلك المساء في حديث عن إيرمولوف، وكان ذلك الضابط ملحقاً بالأركان العامة:

ـ هل تعتقد أنه لم يتعمد الاختفاء؟ إنها مؤامرة، إنه تدبير مقصود. إنه يريد أن يخدع كونوڤيتش. انتظر، سترى مدى الفوضى غداً!

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

في ساعة مبكرة، أوقظ كوتوزوف العجوز، في اليوم التالي، فتلا صلاته وارتدى ملابسه وركب عربة خفيفة حاملاً بين جنبيه الإحساس الكريه باضطراره إلى إدارة دفة معركة لا يقرها، ومضى من ليتاشوفكا، على مسافة خمسة فراسخ وراء تورتينو، ليلحق بالمنطقة التي كان على طوابير الهجوم أن تجتمع فيها. مضى وهو يغفو ويستيقظ ويصيخ السمع ليعرف ما إذا كانوا يطلقون النار عن اليمين وما إذا كانت المسألة لم تبدأ بعد. لكن كل شيء بقي حتى ذلك الحين ساكناً وكان فجر يوم خريفي رطب ومكفهر، منبثق بالكاد، ولما بلغ تورتينو، لاحظ كوتوزوف فرساناً يأخذون خيولهم إلى الورد وهم يجتاوزن الطريق التي تسلكها عربته.

تأملهم واستوقفهم وسألهم عن الفيلق الذي ينتمون إليه. كان أولئك الفرسان تابعين لطابور كان عليه أن يكون منذ فترة طويلة، بعيداً إلى الأمام في كمين فحدث الجنرال القائد الأعلى العجوز نفسه قائلاً: «إنه خطأ بدون شك» ولكنه بعد ذلك رأى فيالق مشاة وقد ركزوا بنادقهم باقات متباعدة، يهيئون طعامهم ويجمعون الحطب وهم في سراويلهم الداخلية. استدعى ضابطاً، فأخبره الضابط أي أمر بالهجوم لم يصدر إليهم.

بدأ كوتوزوف يقول: كيف، هل هذا مما..

لكنه سكت وأرسل يستدعي القائد. ترجَّل من عربته مطرق الرأس ضيق الأنفاس وراح ينتظر بصمت وهو يذرع الأرض جيئة وذهاباً. وعندما وصل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ضابط الأركان إيخن الذي أرسل يستدعيه، تدفقت الدماء إلى وجه كوتوزوف لا لأن هذا الضابط المسؤول عن الخطأ المرتكب، بل لأنه شخص يمكنه أن يصب جام غضبه عليه. وبلغ الرجل العجوز أقصى درجات الغضب التي كانت فيما مضى تجعله يتدحرج على الأرض، واندفع نحو إيخن يرتجف لاهث الأنفاس مزمجراً يهدده بقبضتيه وأمطره بأقذع الشتائم وأحطها. وجاء ضابط آخر، الرئيس بروزين، في تلك اللحظة، فلقي مصير زميله نفسه رغم أنه لم يكن مذنباً في شيء. راح كوتوزوف يزمجر بصوت أجش وهو يلوح بيديه ويترنح: «ما هذه السفالة؟ ليعدموهم بالرصاص! حقيرون!».

كان يشعر بألم مادي. هو، الجنرال الأول، القائد الأعلى الذي كان الناس كلهم يؤكدون له أنهم لم يروا قط في روسيا نفوذاً يضاهي نفوذه، هو الآن في موقف قمين بإثارة سخرية الجيش كله! حدث نفسه: «ما فائدتي من كثرة الصلوات التي تلوتها لهذا اليوم، ما فائدة عدم الإغفاء طوال الليل كي أحسب لكل شيء أفضل الحساب! عندما كنت ضابطاً صغيراً لم يكن أحد يجرؤ على أن يسخر مني!» كان يشعر بألم مادي فلم يكن قادراً على الامتناع عن إطلاق صرخات الغضب والألم وكأنه يتلقى جزاءً جسدياً. لكن قواه لم تلبث أن فارقته، نظر حوله وشعر بأنه تمادى كثيراً في سبابه، فعاد يصعد إلى عربته ورجع في سيره إلى الوراء صامتاً.

وعندما انقشعت سحابة الغضب تلك، لم تتلبد بعد ذلك بل أخذ كوتوزوف يصغي وهو يطرف بعينيه، إلى المبررات والدفاع ومرافعات بينيغسن وكونوڤنيتش وتولّ حول ضرورة إرجاء العملية الفاشلة إلى الغد، فاضطر كوتوزوف من جديد إلى إبداء موافقته. أما إيرمولوف، فإنه لم يمثل أمامه إلا في اليوم التالي.

www.Maktbah.com

الفصل السادس

اجتمعت القوات في الأمكنة المحددة وبدأ الهجوم أثناء الليل، في مساء اليوم التالي. كانت ليلة خريفية حيث الغيوم لونها أسود مشوب بالبنفسجي ولكن بدون مطر، ولم تكن الأرض رغم رطوبتها موحلة فكانت القطعات تسير دون ضجيج ولا يسمع من حين إلى آخر إلا قرقعة المدفعية المكتومة. وكان قد مُنع الحديث بصوت مرتفع والتدخين وقدح الصوان وكانوا يحولون دون صهيل الجياد، فكانت سرية العملية تزيد في روعتها. أخذ الرجال يتقدمون بانشراح، وتوقفت بعض الطوابير وأقام جنودها بنادقهم باقات متقاربة وناموا على الأرض الباردة، ظناً منهم أنهم وصلوا إلى المكان المحدد لهم. أما البعض الآخر، وهو معظم الطوابير، فقد استمرت في المسير طوال الليل فبلغت دون ريب المكان الذي لم يكن عليها أن تصل إليه.

إلا أن الكونت أورلوف ـ دينيسوف وحده مع جنوده القوقازيين، وهم أصغر الأفواج عدداً، وصلوا إلى أماكنهم في الوقت المناسب. توقف هذا الفوج عند أقصى حدود الغابة، على درب يؤدي من قرية ستروميلوڤو إلى قرية دميتروڤسكويْ.

أيقظوا الكونت أورلوڤ الذي كان نائماً، قبل الفجر وجاؤوا إليه بأحد الجنود الفارين من المعسكر الفرنسي. كان هذا صف ضابط بولوني من فوج بونياتووسكي، شرح لهم أن سبب فراره يعود إلى هضم حقوقه لأنه كان يجب أن يرقى إلى رتبة ضابط منذ مدة طويلة لأنه أكثر بسالة من كل الآخرين ولهذا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

السبب، فقد تنكر للفرنسيين وأصبح لا يفكر إلا في الانتقام. ثم أكد أن مورا يقضي الليل على بعد فرسخ واحد من مكان وجودهم وأنهم إذا زودوه بمائة رجل، استطاع أن يأتي به حياً. تشاور الكونت أورلوف ـ دينيسوف مع زملائه. لقد كانت الفكرة شديدة الإغراء يمتنع طرحها. تطوعوا جميعهم للذهاب وأشادوا جميعهم بالمحاولة. وبعد مناقشات ومحادثات كثيرة، قرر الجنرال ماجور غريكوف أن يتبع البولوني مع سريتين من القوقازيين.

قال الكونت أورلوف ـ دينيسوف لصف الضابط وهو يصرفه:

ـ ولكن تذكر جيداً أنك إذا كنت كاذباً فسأشنقك كالكلب. أما إذا كنت صادقاً، فسأمنحك مائة دوكا (عملة ذهبية قديمة).

امتطى صفّ الصابط جواده دون أن يجيب وانطلق بادي العزم مع غريكوف الذي استعد بسرعة ونشاط فاختفيا في الغابة. تبع الكونت أورلوف الذي كان يرتجف بتأثير برودة النهار المنبلج ويحس بالقلق للمسؤولية التي اضطلع بها، غريكوف بأبصاره ثم تقدم خارج ستر الغابة وراح يراقب معسكر الأعداء الذي كان يرتسم كالسراب تحت الضوء الآخذ بالانتشار، ويتأمل نيران مخيماته الآخذة بالخمود. وكانت وحداتنا ستخرج عن يمين الكونت أورلوف ـ دينيسوف، عند سفح هضبة مكشوفة فنظر إلى ذلك الاتجاه ولكنه رغم تيسر الرؤية على البعد، لم ير أحداً. وخيل إلى الكونت أورلوف ـ دينيسوف، وخصوصاً مساعده العسكري الذي كان يمتاز بنظر حاد، أن انتعاشاً ما يقع في معسكر الفرنسيين.

قال الكونت أورلوف بعد أن تأمل المعسكر:

ـ آه! لا شك أنه فات الأوان!

وكما يحدث غالباً عندما يكون الشخص الذي وضعت الثقة فيه بعيداً عن الأنظار، أدرك أورلوف فجأة وبوضوح بيّن أن البولوني غشاش ماكر كذب

www.Maktbah.com

عليه وأنه سوف يبلبل الهجوم بدون تينك السريتين اللتين الله يعلم إلى أين يقودهما ذلك الماكر. هل كان ممكناً أسر جنرال أعلى في مثل هذه الكثافة من القطعات؟

أضاف: أجل، هذا أكيد، لقد كذب، ذلك النذل.

قال أحد ضباط الحاشية الذي طافت بذهنه كالكونت أورلـوف ـ دينيسوف شكوك في نجاح المشروع منذ أن راح يتأمل معسكر الأعداء!

ـ نستطيع استدعاءه.

ـ هه؟ حقاً؟ ما قولكم؟ هل يعمل أم لا؟

ـ هل يصدر الأمر بإعادته؟

فقرر الكونت أورلوف فجأة وهو ينظر إلى ساعته: نعم، نعم، ليعد! لقد فات الأوان وانبلج الصبح تماماً.

مضى المساعد العسكري «هدباً» على جواده عبر الغابة ليلحق بغريكوف فلما عاد هذا، قرر أورلوف ـ دينيسوف الهجوم وقد استبد به قلق حيال هذه المحاولة الفاشلة وكذلك لانتظاره دون جدوى وصول وحدات المشاة واقترابه من الأعداء ـ (وهو الشعور الذي شاركه فيه كل رجال وحدته).

أمر بصوت خفيض: «إلى الجياد» فاتخذ كل مكانه ورسم شارة الصليب «في حراسة الله!».

دوت صيحات «هورّا» في الغابة وراح القوقازيون في فصائل مؤلفة من مائة فارس، يتبعثرون بمرح مائة بعد مائة، أشبه بحبات القمح المتساقطة من كيس، وانقضّوا على معسكر العدو وقد أرخوا لجيادهم الأعنة واجتازوا نهيراً..!

انطلقت صرخة رهيبة من حناجر الفرنسيين الأوائل الذين شاهدوا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

القوقازيين وركض كل من في المعسكر، نصف عراة، تاركين المدافع والبنادق والجياد هاربين في كل الاتجاهات.

ولو أن القوقازيين استمروا يطاردون الفرنسيين دون أن يأبهوا لما وراءهم وحولهم، لأسروا مورا وكل من كان معه. وكان هذا هو ما يريده الرؤساء ولكن لم يعد في الإمكان زحزحة القوقازيين الذين اقتصر تفكيرهم على الأسلاب والسجناء. لم يعد أحد يصغي إلى الأوامر، ولقد غنموا هناك ألفاً وخمسمائة أسير وثمانية وثلاثين مدفعاً وأعلاماً وما يثير اهتمام القوقازيين أكثر من سواه، خيولاً وسروجاً وأغطية وألف حاجة أخرى مختلفة وكان ينبغي إعداد كل هذه الأشياء: وضع اليد على الأسرى والمدافع، توزيع المغانم، التماحك بل الوصول إلى الأيدي. ولم يكن القوقازيون عاجزين عن كل هذا.

استعاد الفرنسيون الذين لم يعد أحد يطاردهم حواسهم، فنظموا صفوفهم وبدأوا يطلقون النار. وكان أورلوف ـ دينيسوف ينتظر دائماً سراياه ولا يتقدَّم في هجومه إلى أبعد من ذلك.

في تلك الأثناء، تبعاً للخطة العسكرية: «الطابور الأول يمشي إلخ...» تحرك المشاة المتأخرون بقيادة بينيغسن وتوجيه تولّ، في الوقت المناسب وبما يشبه الحقيقة، واتجهوا إلى جهة ما، ولكن ليس إلى المكان المحدّد لهم. وبما يشبه الحقيقة، انتهى الأمر بالرجال الذين ذهبوا والبهجة تملأ نفوسهم، إلى التوقف وقد ظهر عليهم الاستياء والشعور بالخجل فعادوا على أعقابهم. وكان المساعدون العسكريون والجنرالات على صهوات خيولهم يصرخون ويسخطون ويتخاصمون ويزعمون أنهم ليسوا أبداً في المكان الذي يجب أن يكونوا فيه وأنهم تأخروا، ويلقي كل منهم تبعة الخطأ على الآخر حتى أنهم أخيراً أقلعوا عن ذلك وراحوا يمشون لمجرد المشي. «سوف نصل حتماً إلى مكان ما!» والواقع أنهم وصلوا متأخرين جداً، ولكن ليس إلى حيث كان عليهم

www.Maktbah.com

أن يصلوا، بل ليكونوا بالنتيجة هدفاً صالحاً للعدو، وكان تول الذي لعب في هذه المعركة دور ويروذر في معركة أوسترليتز، يجري على جواده مسرعاً من جانب إلى آخر ليجد في كل جانب أن الأمور سارت على عكس اتجاهها المفترض، وعلى هذا النحو، وقع على فيلق باغوڤو في صميم الغابة وقد انبلج الصباح، في حين كان على هذا الفوج أن يكون منذ وقت طويل مع أورلوف ـ دينيسوف، ولقد غضب تول وشعر بجرح في كرامته لإخفاقه وافترض أنه لا بدَّ من وجود مذنب مسؤول، فأسرع على جواده إلى قائد الفوج وأمطره وابلاً من اللوم الجارح قائلاً إنه يستحق الإعدام رمياً بالرصاص. فخرج باغوڤو الذي لم يكن جنرالاً للمظاهر بل باسلاً عجوزاً ابن القتال مجرباً في المعارك، خرج للدهشة العامة عن هدوئه الطبيعي وقد أغضبته كل هذه التوقفات والبلبلة والأوامر المتناقضة مثلما أحنقت تول، واستبدت به ثورة مفاجئة، فأجاب تول بقحة قائلاً:

ـ لست أريد أن أتلقى درساً من أحد وأعرف كيف أموت أنا وجنودي كأي آخر تماماً.

واندفع إلى الأمام يتبعه فوجه وحده.

ولما وصل إلى ساحة المعركة، تحت وابل نيران الفرنسيين، لم يتساءل باغوڤو الباسل في سورة غضبه ما إذا كان مفيداً أو عقيماً خوض المعركة في تلك الأثناء بفوجه وحده، بل قاد جنوده مباشرة إلى النار. لقد كان الخطر والقذائف والرصاص كل ما ينبغي له في اندفاعه الغاضب، فقتلته إحدى الرصاصات الأولى فوراً وأردت الرصاصات التالية كثيراً من الجنود وبقي فوجه وقتاً ما تحت مرمى النيران عبثاً دون جدوى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع

إلى الأمام، قُدّر لطابور آخر أن يقع على الفرنسيين، في تلك الأثناء. لكنه كان الطابور الذي أقام كوتوزوف قريباً منه. كان يعرف تماماً أن هذه المعركة التي بدأت رغم إرادته، لن تؤدي إلا إلى العار، فكان يستوقف القطعات على قدر طاقته.

كان ساكن الحركة صامتاً، ممتطياً صهوة جواده الأشهب. يجيب دون تلهف على العروض التي يقدمونها إليه حول الهجوم.

قال لميلورادوڤيتش الذي كان يسأله أن يتقدم إلى الأمام: ليس على لسانك إلا الهجوم ولا ترى أننا لا نحسن القيام بحركات معقدة.

وأجاب على آخر: إنك لم تعرف كيف تأخذ مورا حياً هذا الصباح ولا أن تصل إلى مكانك المحدد في الوقت المعين. والآن، فات الأوان.

ولما جاؤوا ينبئونه أن في أعقاب الفرنسيين الذين كانوا مكشوفين بادئ الأمر، حسب معلومات القوقازيين، يقوم الآن لواءان من البولونيين، نظر من جانب عينه إلى إيرمولوف الذي لم يوجه إليه كلمة ما منذ أمس وقال:

ـ أرأيت. يطالبون بهجوم ويقدمون مجموعة من المشاريع. وعندما ينتقلون إلى العمل، لا يكون شيء جاهزاً في حين أن العدو الذي أنذر قد اتخذ حيطته.

أغمض إيرمولوف عينيه نصف إغماضة وطافت على شفتيه ابتسامة

www.Maktbah.com

خفيفة. أدرك أن العاصفة بالنسبة إليه قد تبددت وأن كوتوزوف سيكتفي بهذا التلميح فحسب.

قال إيرمولوف بصوت خفيض وهو يلكز بركبته راييڤسكي الذي كان إلى جانبه:

ـ إنه يسخر مني.

ولم يلبث بعد أن اقترب إيرمولوف وقال لكوتوزوف باحترام:

ـ لم نخسر شيئاً يا صاحب السمو فالعدو لا يزال هنا إذا أردتم إصدار الأمر بالهجوم. وبغير ذلك، فإنّ الحرس لن يشموا حتى رائحة البارود.

لم يجب كوتوزوف بشيء. وعندما أعلنوا له أن قطعات مورا قد انسحبت أصدر الأمر المتوقع، لكنه بعد كل مائة خطوة، كان يأمر بتوقف ثلاثة أرباع الساعة.

إذن، اقتصرت المعركة على هجوم القوقازيين التابعين لأورلوف-دينيسوف. أما بقية القطعات، فقد فقدت دون أي فائدة بضع مئات من الجنود.

وكانت النتيجة بالنسبة إلى كوتوزوف وساماً من الماس، وماسات إلى بينيغسن ومائة ألف روبل. أما الضباط الآخرون، فقد أنعم عليهم بحسب رتبهم بهبات ثمينة، أضف إلى ذلك أن تنقلات جديدة وقعت في أركان حرب الجيش.

قال الجنرالات والضباط الروس بعد مسألة تاروتينو: «هذا هو النمط الذي تسير عليه الأمور عندنا، كل شيء على عكسه!» كذلك كانوا دائماً يتحدثون كلما أرادوا أن ينوهوا بأنه إذا أخطأ أحمق ما في التصرف، فإنّ الأمور كانت ستدور خلاف ذلك. لكن الذين كانوا يتحدثون على هذا النحو، ما كانوا يعرفون شيئاً عن المسألة التي ينتقدونها أو كانوا يسخرون عارفين. لأن كل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

معركة، سواء أكانت معركة تاروتينو أم بورودينو أم أوسترليتز، تقع خلافاً لما يتوقعها واضعو خططها. وهذا أمر جوهري.

إن عدداً لا يحصى من القوى المستقلة يؤثر في سياق معركة ما لأن المرء لا يكون أكثر حرية منه في غمار معركة حيث يتعلق الأمر بالحياة أو الموت. لذلك يستحيل إذن معرفة سياق المعركة مسبقاً ولا يمكن أن تتبع أبداً اتجاهاً تفرضه قوة واحدة، أياً كانت هذه القوة.

وإذا عملت قوى عديدة في آن واحد وفي اتجاهات مختلفة عن جسم ما، فإن اتجاه الحركة المفروضة على هذا الجسم لن يكن اتجاه أية واحدة من هذه القوى بل يكون دائماً الاتجاه المتوسط الأقرب، ذلك الاتجاه الذي يعبر عنه في علم «الميكانيك» بخط الزاوية المسطح متوازي أضلاع القدرة.

وإذا قرأنا في حكايات المؤرخين، وبصورة خاصة الفرنسيين منهم، أن حروبهم ومعاركهم اتسعت وجرت وفقاً لخطة مسبقة، فإنّ المغزى الوحيد الذي نستنتجه من ذلك هو أن حكاياتهم غير صحيحة.

من الواضح أن معركة تاروتينو لم تبلغ الهدف الذي رسمه تولّ، أي أن توجه المعركة تبعاً لنظام خطته، ولا الهدف الذي كان يتوخاه الكونت أورلوف بأسر مورا، ولا غاية بينيغسن أو آخرين بإبادة كل هذا الجانب من جيش العدو دفعة واحدة، ولا بغية الضباط الراغبين في الاشتراك في عملية ما لإظهار مزاياهم ولا رغبة القوقازي الذي كان يطمع في الاستيلاء على جانب من الأسلاب أكبر مما وجد إلخ.. ولكن، إذا كانت الغاية التي بُلغ إليها بالفعل والتي كان الروس كلهم يطمعون فيها، أي طرد الفرنسيين من روسيا وإبادة جيشهم، فإننا نرى إذن بوضوح كالنهار، أن معركة تاروتينو انتهت بسبب

www.Maktbah.com

الأخطاء التي ارتكبت، إلى النهاية المتوجبة خلال فترة الحملة كلها. وأنه يصعب بل يستحيل أن نتخيّل نهاية أفضل من التي انتهت إليها تلك المعركة. لقد حصلنا على أعظم نتائج الحملة كلها بأقصى درجات الفوضى وبأقل مجهود وبخسائر تكاد تكون عادية جداً. لقد انقلبنا من التقهقر إلى الهجوم وكشف الستر عن ضعف الفرنسيين وأنزلت الضربة بجيش ناپليون لتحمله على البدء بالفرار.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

بعد النصر الساطع في موسكوڤا، دخل ناپليون موسكو، إنه نصر لا شك فيه لأن الفرنسيين استمروا أسياد ساحة المعركة. وتراجع الروس وسلموا عاصمتهم، وموسكو الطافحة بالأرزاق والأسلحة والذخائر وبالثروات التي لا تحصى، أصبحت بين يدي ناپليون. والجيش الروسي الأضعف مرتين من الجيش الفرنسي لا يظهر طوال شهر كامل، أية رغبة في الهجوم. وموقع ناپليون من أفضل المواقع وأبرزها، يستطيع بجيشه المتفوق مرتين على القوات الروسية أن يقضي على فلول هذه ويبيدها، ويستطيع عقد صلح لمصلحته أو أقله، في حالة الرفض، أن يحاول القيام بحركة تهدد پيترسبورغ، بل إنه يستطيع كذلك في حالة عدم النجاح أن يرجع باتجاه سمولسنك أو فيلنا أو أن يبقى في موسكو.

وباختصار، لكي يحافظ ناپليون على مركزه اللامع الذي كان الجيش الفرنسي يحتله حينذاك، لم يكن في حاجة على ما يبدو إلى أن يكون عبقرياً خارقاً. كان يكفيه من أجل ذلك أن يقوم بأبسط الأشياء وأسهلها، أي أن لا يترك جيشه يستسلم للنهب، وأن يعد ألبسة الشتاء التي تستطيع موسكو أن تقدمها للجيش كله وأن ينظم بحكمة توزيع الأرزاق التي كانت في المدينة، كافية لأكثر من عشرة أشهر تبعاً لأقوال المؤرخين الفرنسيين. غير أن ناپليون عبقري العباقرة، الذي كانت له السلطة.. على قول المؤرخين ـ لم يقم بشيء من هذا القبيل.

لم يغفل هذه التدابير كلها فحسب بل استعمل سلطته ليختار من التدابير الواجب اتخاذها، أسوأها وأردأها. لم يتخذ ناپليون بين كل ما يستطيع اتخاذه: قضاء الشتاء في موسكو، الذهاب إلى پيترسبورغ، الذهاب إلى نيغني ـ نوڤغورود، التقهقر سواء نحو الشمال أو أبعد إلى الجنوب عن الطريق الذي سلكه كوتوزوف فيما بعد، أسوأ وأكثر شؤماً مما اتخذ: لقد بقي حتى تشرين الأول/ أكتوبر في موسكو وأعطى الإذن لجنوده بنهب المدينة، ثم بعد أن تردد في ترك حامية في موسكو، خرج منها واقترب من كوتوزوف دون الالتحام معه، وتوجه نحو اليمين فبلغ مالو ـ ياروسلاڤل، وبدلاً من اتخاذ الطريق الذي سلكه كوتوزوف، رجع إلى موجاييسك دون أن يحاول فتح أية ثغرة، عبر طريق سمولنسك المعبد، وسط أقاليم مخربة، وبذلك لم يكن هناك أكثر حمقاً وشؤماً من هذا التصرف، كما دلت النتائج على ذلك، فإذا افترضنا أن غاية ناپليون كانت تهدف إلى قيادة جيشه إلى نهايته، فإن أبرع الخطط العسكرية لم تكن تستطيع تنظيم مخطط للعمليات قادرة على إلحاق الدمار الكامل بالجيش الفرنسي مثل هذه الخطة بصرف النظر عن كل ما كان يمكن للجيش الروسي أن يقوم به!.

لقد قام ناپليون العبقري بكل ذلك. لكن القول بأن ناپليون أضاع جيشه لأنه أراد ذلك أو لأنه لم يك إلا مجرد أحمق، قول خاطئ أيضاً يتساوي بالخطأ مع القول بأنه قاد قطعاته إلى موسكو لأنه كان على ذكاء وعبقرية استثنائيين.

ففي كلتا الحالتين، لم يكن تصرفه الشخصي الذي لم يكن أكثر أهمية من تصرف أي من جنوده إلا متفقاً مع القوانين التي كانت تسيطر على الأحداث.

وإنه لمن الكذب الفاضح الزعم بأن قواته ضعفت في موسكو كما يقول المؤرخون لمجرد أن الأحداث لم تكن في مصلحة تصرفات ناپليون. ففي تلك الفترة كما من قبلها وكذلك بعدها في عام ١٨١٣، بذل ذكاءه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وقواه ليتصرف بمصالحه ومصالح جيشه على أفضل وجه. ونشاط ناپليون خلال هذه الحقبة ليس أقل إثارة للدهشة منه في مصر وإيطاليا والنمسا وفي بروسيا. ولسنا ندري إلى أي حد كانت عبقرية ناپليون في مصر، حيث تأملت القرون الأربعون عظمته، حقيقية، لأن مآثره الرائعة لم تنقل إلينا إلا عن طريق الفرنسيين. وكذلك الحكم على عبقريته في النمسا وفي بروسيا لأن الشهادات المؤيدة لحركاته لا يمكن أن تُتخذ إلا من مصادر المؤرخين الفرنسيين والألمان. فاستسلام جيوش بأسرها دون قتال، والقلاع دون حصار بذلك الشكل الذي لا يصدق، لا بدَّ وأن يدفع الألمان إلى الاعتراف بعبقرية ناپليون بوصفها المبرر الوحيد للحرب التي وقعت في ألمانيا. أما نحن فليست بنا والحمد لله أية حاجة إلى الاعتراف به كعبقري لستر عارنا. ولقد دفعنا الثمن ليصبح من حقنا النظر في أعماله ببساطة ودون مواربة ولن نتخلى عن هذا الحق.

إن نشاطه في موسكو مدهش وعبقري مثله في كل مكان آخر. فالأوامر تلو الأوامر والخطط تلو الخطط كانت تصدر عنه منذ ساعة دخوله موسكو وحتى لحظة خروجه منها. فغياب السكان وممثلي الأشراف، بل حتى حريق موسكو لم يقلقه. إنه لم يغفل مصلحة جيشه ولا حركات العدو ولا رفاقية الشعوب الروسية ولا إدارة الأعمال في باريس ولا الترتيبات الدبلوماسية سعياً وراء الصلح.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

منذ دخوله موسكو، أعطى ناپليون تعليمات مشددة من الناحية العسكرية إلى الجنرال سيباستيان الذي عليه أن يتبع حركات الجيش الروسي وأن يرسل وحدات من الجيش إلى مختلف الجهات، وأشار على مورا أن يجد كوتوزوف. ثم اتخذ التدابير الصارمة ليحصن الكرملين ثم رسم على خريطة روسيا الخطة العبقرية المتعلقة بحملته المقبلة.

ومن الناحية الدبلوماسية استدعى ناپليون إليه ياكوڤليف، وهو رئيس مسلوب من كل شيء لم يكن حينذاك أكثر من صعلوك لا يدري كيف يخرج من موسكو، وشرح أمامه سياسته وأظهر له عظمة نفسه. وبعد أن كتب رسالة إلى الأمبراطور ألكسندر أظهر فيها اعتقاده بأن من واجبه إخطار صديقه وأخيه أن روستوبيتشين أساء التصرف في موسكو، أرسل ياكوڤيلف يحملها إلى پيترسبورغ. كذلك أفاض في إظهار عظمة روحه وشرح وجهات نظره أمام توتولمين، وأرسل هذا العجوز أيضاً إلى پيترسبورغ ليشرع في محادثات هناك.

أما من الناحية القضائية، فقد أمر فور اندلاع بالبحث عن الفاعلين وإعدامهم، ولقد أوخذ الوحش روستوبيتشين لحريق منزله الشخصي. بينما جوزيت موسكو من الناحية الإدارية بدستور. أقيمت بلدية وعُلق النداء التالي.

«إلى سكان موسكو!.

«إن محنتكم قاسية. لكن جلالته، أمبراطور وملك، يريد أن يضع حداً لها. لقد علمتكم أمثلة رهيبة كيف يتمّ عقاب العصيان والجريمة. لقد اتخذت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إجراءات صارمة لوضع حد للفوضى وإنعاش الأمن العام. سوف تقوم إدارة أبوية، تُنتخب من بينكم، على تشكيل بلديتكم، أي حكومة مدينتكم. سوف تهتم تلك البلدية بكم وباحتياجاتكم ومصالحكم، وسيُعرف أعضاؤها من الوشاح الأحمر الذي سيضعونه متقاطعاً. أما رئيس البلدية، فسيتمنطق فوقه بنطاق أبيض. لكن أعضاء البلديّة، لن يضعوا خارج عملهم إلا شارة حمراء حول الذراع اليسرى.

«إن الشرطة البلدية قد أقيمت على النظام القديم تماماً، وبفضل نشاط رجالها، استتب حتى الآن نظام أفضل. لقد عينت الحكومة «قوميسارين» عامين أو صاحبي شرطة وعشرين قوميسراً، أو «تشاستني بريستاڤس» وُزعوا على كل حيّ من أحياء المدينة، ستعرفونهم من الشارة البيضاء التي يلفّونها حول الذراع اليسرى لكل منهم. ثم إن عديداً من الكنائس تقام فيها الطقوس الدينية لمختلف المذاهب، قد فتحت وأصبحت الصلوات الدينية تقام فيها دون عارض. إن مواطنيكم يعيدون كل يوم تأثيث منازلهم وقد أعطيت الأوامر اللازمة ليجدوا كل عون وحماية عند المحنة.

تلك هي الوسائل التي استخدمتها الحكومة لإعادة النظام وتسوية وضعكم. ولكن، لبلوغ هذه الغاية، من الضروري أن تضيفوا مجهوداتكم إلى مجهوداتهم وأن تنسوا، إذا أمكن، الآلام التي عانيتموها وأن تملأوا نفوسكم بأمل الوصول إلى نهاية أقل قسوة. كونوا متأكدين أن الموت المحتوم ينتظر كل الذين يحاولون الاعتداء على أشخاصكم أو على ما تبقى من مقتنياتكم. وإذن، يجب ألّا يدخل الشك إلى نفوسكم بأن هذه المقتنيات ستحفظ لكم لأن هذه هي إرادة أكبر سلطان وأعدل ملك. أيها الجنود والسكان من أية ملّة كنتم! أعيدوا الثقة العامة، هذا المصدر لسعادة الدولة وعيشوا إخواناً، تبادلوا

www.Maktbah.com

المساعدة والحماية واتحدوا لمقاتلة المشاريع الإجرامية، أطيعوا السلطات العسكرية والبلدية، فلن تلبث دموعكم أن تكف عن الانحدار».

ومن ناحية الغذاء، أوعز ناپليون إلى كل قواته أن تهبط موسكو دورياً وبشكل غير ملحوظ لتجمع الأرزاق سلباً لتأمين مؤونة الجيش المقبلة.

وأمر ناپليون من الناحية الدينية أن يُعاد الكهنة ليقيموا في الكنائس طقوسهم الدينية كسابق عهدهم.

وأعلن في كل مكان تأميناً لناحيتي التجارة وتأمين الأرزاق للجيش، ما يأتي:

إعلان

«إليكم، يا سكان موسكو الوادعين ورجال العمل والعمال الذين أبعدتكم المحن عن المدينة، وأنتم، يا عمال الأرض الذين لا يزال خوف وهمي يجعلكم مشتتين في الأرياف! لقد عاد الهدوء إلى العاصمة واستتب فيها النظام. إن مواطنيكم يخرجون دون خوف من مساكنهم وهم واثقون بأنهم سيُحترمون. إن كل شدة مستعملة ضدهم أو ضد ممتلكاتهم تقمع من فورها. إن جلالته، أمبراطور وملك، يشملهم بحمايته، ولا يعتبر أعداء من بينكم إلا أولئك الذين يعصون أوامره. إنه يريد أن يضع حداً لآلامكم وأن يعيدكم إلى بيوتكم وعائلاتكم.

تقبلوا إذن تدابيره الرفيقة وتعالوا إلينا بكل طمأنينة. أيها السكان! نظموا مساكنكم بهدوء وستجدون فور ذلك إمكانية القيام بأودكم. أيها الصناع والعمال المجدون! عودوا إلى أعمالكم دون مماطلة: إن البيوت والحوانيت ودوريات المراقبة تنتظركم، وستتلقون على عملكم الأجر الذي يتفق معكم. وأنتم أخيراً أيها الفلاحون، أخرجوا من الغابات حيث جعلكم الخوف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تختبئون، وعودوا دون خوف إلى أكواخكم، ولتكونوا على تمام الثقة بأنكم ستجدون فينا حماتكم. لقد أقيمت في المدينة مستودعات كبيرة يستطيع الفلاحون أن يحملوا إليها الفائض من حاصلاتهم. ولقد اتخذت الحكومة التدابير التالية لتأمين الرواج الحر:

ا ـ اعتباراً من اليوم، يستطيع الفلاحون والمزارعون وسكان ضاحية موسكو الآخرون أن يحملوا دون أي خوف إلى المدينة، محاصيلهم من أي نوع كانت، إلى المستودعين المقامين لهذا الغرض في شارع موخوفايا وفي الأخوتنيرياد.

٢ ـ إن هذه المحاصيل ستبتاع منهم بأسعار تقوم على أساس اتفاق بين البائع والمشتري، فإذا لم يحصل البائع على السعر الذي يطالب به بحق، فإنه حر في إعادة بضاعته إلى منزله، الأمر الذي لا يستطيع أحد أن يمنعه تحت أي اعتبار.

٣ ـ إن يومَي الأحد والأربعاء من كل أسبوع خصصا لإقامة السوق الأسبوعية العامة: ولهذا الغرض، ستقام فصائل من الجند بعدد كاف على الطرق العامة أيام الثلاثاء والسبت من كل أسبوع لحماية القوافل. وقد اتخذت هذه التدابير فيها لعودة القرويين في عرباتهم مع جيادهم دون أي صعوبة.

٤ ـ ستتخذ تدابير مستمرة لإعادة التجارة الطبيعية. يا سكان المدينة والقرى، وأنتم يا رجال الصناعة والعمال، من أية ملة كنتم! إن الأمبراطور والملك يدعوكم إلى التقيد بتدابيره الأبوية وأن تتعاونوا معه لإعادة الرفاهية العامة. احملوا إلى قدميه احترامكم وثقتكم ولا ترددوا في الاتحاد معنا!».

وكانوا يقيمون استعراضات مستمرة ويوزعون المكافآت كي يرفعوا من معنويات الجيش والشعب. وكان الأمبراطور يجوب الشوارع على جواده

www.Maktbah.com

ويطمئن السكان. ورغم كل مشاغله بصدد مشاكل الدولة، فإنه كان يرتاد المسارح المقامة بناءً على أمره.

وكان ناپليون أيضاً يقوم بكل ما يتعلق به في سبيل الإحسان الذي هو أجمل زخرف في تاج الأمراء. لقد أصدر الأمر أن تنقش على واجهات المؤسسات العلاجية: «بيت أمي» كي يجمع بهذا التصرف بره الأبوي الحاني إلى رفعته ومروءته كعاهل. لقد زار الميتم، وبعد أن أعطى يده البيضاء للأيتام الذين أنقذهم ليقبلوها، تحادث ببشاشة مع توتولمين. وأخيراً، حسب رواية تيير البليغة، أمر أن تدفع رواتب جنوده بالعملة الروسية المزورة التي ضربت بناءً على أوامره.

لقد أمر بتوزيع المساعدات على منكوبي الحريق، فشجع على استخدام هذه الوسائل ببادرة جديرة به وبالجيش الفرنسي. أما الأرزاق، وهي أثمن من أن تعطى إلى غرباء أكثريتهم من الأعداء، فإن ناپليون فضّل أن يقدم لهم نقوداً لكي يتداركوا المؤن بها عن طريقهم، لذلك أمر أن توزع عليهم روبلات من النقد الورقي.

أما فيما يتعلق بنظام الجيش والطاعة فيه، فإن أقسى التدابير ما فتئت تتخذ لمعاقبة مخالفات فروض الخدمة العسكرية ولوضع حد لأعمال السلب.

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

لم تبلغ كل هذه الاستعدادات والعناية والخطط التي لم تكن أسوأ من سواها في مناسبات مشابهة، غور الأشياء، لكنها كعقارب ساعة في ميناء تمَّ فصلها عن الجهاز الداخلي، أخذت تدور من دون هدف ومن دون أن تدير معها مجموعة القطع المكملة.

فمن وجهة النظر العسكرية، فإن خطة الحملة العبقرية التي قال عنها تيير: «إن عبقريته لم تعد قط أكثر عمقاً منها وأكثر براعة وروعة» والتي دلل بصددها، في مجادلته الكتابية مع السيد فَنْ[1]، على أن تدبيجها يجب أن يُرجع به إلى الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر وليس إلى الرابع منه، إن هذه الخطة لم تنفذ ولم يكن تنفيذها مستطاعاً لأنها كانت بعيدة عن الواقع. فأعمال تحصين الكرملين التي وجب هدم الجامع في سبيلها (والجامع هو اللقب الذي كان ناپليون يطلقه على كنيسة بازيل السعيد) أظهرت أنها عقيمة تماماً. ووضع الألغام تحت الكرملين لم يعد إلا إرضاء لرغبة الأمبراطور الذي كان يريد تدميره عند خروجه من موسكو، والذي يعني إنزال عقوبة الضرب بأرض لأنها السبب في سقوط طفل صغير. ثم إن ملاحقة الجيش الروسي التي كانت شاغل ناپليون الأكبر تقدم ظاهرة خارقة. لقد أضاع قادة الجيش الفرنسي هذا الجيش الروسي المؤلف من ستين ألف رجل وبحسب تيير، يعود الفضل إلى

---

(١) بارون فَنْ، مؤرخ فرنسي، كان سكرتير ناپليون الأول.

www.Maktbah.com

الفن وحده وإلى عبقرية مورا ولا شك في العثور على هذه الآلاف الستين من الجيش الروسي، على رأس دبوس.

ومن وجهة النظر الدبلوماسية، فإن كل دلائل عظمة النفس والإنصاف التي أبداها ناپليون أمام توتولمين وإياكوڤليف، وكان همّ هذا الأخير أن يتدبر لنفسه قبل كل شيء معطفاً وعربة، لم تجد نفعاً لأن ألكسندر لم يستقبل هذين السفيرين ولم يجب على العروض التي كانا مكلفين بحملها.

ومن وجهة النظر القضائية، احترق النصف الآخر من موسكو الذي بقي سليماً بعد إعدام مشعلي الحرائق المزعومين.

ومن وجهة النظر الإدارية، لم يوقف قيام بلدية أعمال السلب ولم تكن نافعة إلا لحفنة من الأشخاص الذين شكلوها، والذين لم يترفعوا هم أنفسهم عن النهب بحجة صون النظام أو عن حماية أملاكهم الشخصية من السلب.

ومن وجهة النظر الدينية، فإن ما كان غاية من سهولة إقامته في مصر بفضل زيارة جامع واحد، لم يعط أية نتيجة في موسكو. لقد حاول الكاهنان أو الكهنة الثلاثة الذين وجدوهم، أن يخضعوا لرغبة ناپليون. ولكن واحداً منهم تعرض للصفع طوال القداس من قبل جندي فرنسي وكتب موظف فرنسي التقرير الآتي عن آخر: «إن الكاهن الذي وجدته ودعوته لإقامة القداس مرة أخرى، نظف الكنيسة وأغلق بابها. ولقد جاؤوا هذه الليلة مجدداً، فكسروا الباب وحطموا الأقفال ومزقوا الكتب وارتكبوا أعمالاً فوضوية أخرى».

ومن وجهة النظر التجارية، فإن الدعوة الموجهة إلى الصناع المجدين وإلى القرويين لم تبلغ أية نتيجة. لم يتقدم أي صانع مجد. أما القرويون، فإنهم كانوا يطبقون على القوميسيرين الذين يغامرون بالابتعاد قليلاً حاملين إعلاناتهم ويقتلونهم.

كذلك لم تجر الأمور على نمط أفضل من حيث المتع والمسرحيات

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المهيأة للجيش وللسكان إذ لم تلبث المسارح التي أقيمت في الكرملين وفي منزل بوزنياكوف أن أغلقت أبوابها مرغمة فوراً بعد أن سلبوا الممثلين والممثلات فيها.

والإحسان هو الآخر لم يعد بواحدة من النتائج المرجوة. لقد أغرقت موسكو بأوراق النقد الحقيقية أو الزائفة التي فقدت كل قيمة. ولم يكن الفرنسيون جامعو الأسلاب في حاجة إلا إلى الذهب. ولم تكن العملة الزائفة التي أمر نابليون بتوزيعها بكل كرم على المنكوبين هي وحدها التي فقدت قيمتها، بل إن النقود الفضية نفسها المقايضة بالذهب، كانت تروج بقيمة أقل كثيراً من قيمتها الحقيقية.

وأظهر مثال على عدم جدوى التدابير المتخذة في المراجع العليا في ذلك الحين كان العجز الذي وقع فيه نابليون عن إيقاف السلب وإعادة النظام.

وفيما يلي تقارير السلطات العسكرية:

«إن أعمال السلب مستمرة في المدينة رغم الأمر بوضع حد لها. والنظام غير مؤمن وليس هناك بائع واحد يتجر بشكل مشروع. إن بائعي المؤن وحدهم يغامرون بالبيع، لكنهم يبيعون أشياء مسروقة».

«إن جانباً قطاعياً لا يزال عرضة لأعمال السلب من جانب رجال الفوج الثالث الذين لم يكتفوا بانتزاع ما تبقى لدى النازحين اللاجئين إلى الأقبية، بل بلغ من وحشيتهم أنهم يجرحونهم بضربات من سيوفهم كما شاهدت بنفسي أمثلة كثيرة».

«لا شيء جديداً أكثر من أن الجنود يسمحون لأنفسهم بأن يسرقوا وينهبوا. في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر».

«السرقة والنهب مستمران. إن في قطاعنا عصابة من اللصوص يجب إيقافها بواسطة حراس عديدين أقوياء. في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر».

www.Maktbah.com

«إن الأمبراطور مستاء جداً إذ يرى رغم التدابير الزجرية المتخذة لإيقاف أعمال النهب، فصائل من السلابين من جنود الحرس تدخل الكرملين. إن الفوضى والسلب قد تجددا بشدة تفوق كل حد سابق بين أفراد الحرس القديم أمس، والليلة الفائتة واليوم. إن الأمبراطور يرى بألم عميق، أن جنوداً ممتازين، أقيموا لحماية شخصه، ووجب عليهم أن يقدموا من أنفسهم مثالاً على الطاعة للآخرين، يشتطون في التمرد لدرجة اجتياح الأقبية والمخازن المجهزة للجيش. بل إن بعضهم بلغوا من الانحطاط إلى درك عدم احترام الحرس وضباط الحرس وإهانتهم وضربهم».

وقد كتب الحاكم: «إن ماريشال القصر الأكبر يشكو بشدة من أنه رغم الحظر المتكرر، لا يزال الجنود يقضون حاجاتهم الجسدية في كل الأفنية بل حتى تحت نوافذ الأمبراطور».

لقد كان هذا الجيش أشبه بالقطيع المسرح الذي يطأ بالأقدام الغذاء الذي يمكن أن ينقذه من المجاعة. وكل يوم من إقامته غير المجدية في موسكو كان يدفعه أكثر إلى نهايته. مع ذلك، لم يكن يتحرك من مكانه.

وقرر الجيش فجأة، أن يتحرك عندما دب الذعر في صفوفه إثر نبأ القوافل المأسورة على طريق سمولنسك ونبأ معركة تاروتينو. وهذا النبأ نفسه الذي تلقاه ناپليون خلال عرض عسكري، هو الذي أيقظ في نفسه الرغبة في معاقبة الروس كما يقول تيير، فأصدر الأمر بالسير، وهو الأمر الذي كان جيشه كله يطالب به.

حمل رجال هذا الجيش في فرارهم من موسكو، كل أسلابهم المتراكمة. بل إن ناپليون نفسه حمل معه «كنزه» الشخصي. ولقد خاف ناپليون، كما قال تيير، عندما رأى القوافل التي تعيق حركة الجيش، لكنه لم يأمر، بفضل خبرته في الحرب، بأن تحرق العربات الفائضة، كما فعل بصدد عربات أحد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ماريشالاته قبل دخوله إلى موسكو. لقد تأمل تلك العربات الخفيفة وعربات «البرلين» الضخمة الغاصة بجنوده، ثم أعلن أن كل شيء على ما يرام، وأنهم سوف يحتاجون إلى كل هذه العربات من أجل الأرزاق والمرضى والجرحى.

لقد كان موقف الجيش كله يشبه موقف حيوان جريح يشعر باقتراب أجله ولا يعي ماذا يفعل، ودراسة حركات ناپليون وخططه الحكيمة وحركات جيشه منذ دخوله موسكو حتى اللحظة الذي دمر فيها هذا الجيش، يعني دراسة القفزات والتشنجات الصادرة عن حيوان جريح جرحاً مميتاً. إذ غالباً ما يرتمي الحيوان الجريح تحت نار الصياد لأدنى حركة ثم يعود إلى الوراء وبذلك تكون نهايته. وهذا ما قام به ناپليون تحت ضغط جيشه كله. لقد دب الذعر في قلب الحيوان الجريح لضجة معركة تاروتينو فاندفع يستقبل الطلقة النارية وبلغ مكان الصياد ثم نكص على عقبيه. وأخيراً، اندفع إلى الوراء ككل الحيوانات الجريحة، سالكاً أسوأ الطرق وأكثرها خطورة ولكن على آثار قديمة ومعروفة منه.

إن ناپليون الذي يبدو لنا أنه يدير كل هذه الحركة، أشبه بالصورة المحفورة على مقدمة سفينة يعتبرها المتوحشون القوة المحركة لتلك السفينة بينما هي في الحقيقة أشبه بطفل صغير في اضطرابه، طفل متشبث بالسيور الجليدية المثبتة داخل عربة ما، يتصور نفسه وهو في مكانه ذلك أنه يقود تلك العربة.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

توقف پيار بعد خروجه في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر من منزله الخشبي في الصباح الباكر، بعد أن نكص على عقبيه، أمام العتبة يداعب كلباً صغيراً، بنفسجي الوبر، وذا جسم ممدّد فوق قوائم قصيرة عوجاء. كان هذا الكلب الصغير يعيش في المبنى وينام عند كاراتاييف، يفلت أحياناً، ولكنه بعد جولة في المدينة، يعود دائماً. وكان يبدو عليه أنه لم يكن لأحد ما، لأنه في تلك اللحظة كان دون صاحب ودون اسم. كان الفرنسيون يسمونه آزور، ولقد عمده جندي مولع جداً بالقصص باسم فمجالكا، أما كاراتاييف والآخرون فقد أطلقوا عليه اسم الأشهب أو ڤيسلي أي ذي الأذنين المتدليتين. لم يكن ذاك الكليب ذو الشعر البنفسجي منزعجاً قط لأنه لا عرق له ولا لون ولا سيد ولا اسم محدد. كان ذنبه ينتصب على شكل حزمة دائرية متينة من الريش وقوائمه الملتوية تؤدي له خدمات جليلة حتى أنه غالباً ما كان يغفل استعمال قوائمه الأربع فيرفع إحدى خلفيتيه بظرافه ويروح يقفز على الثلاث الأخريات برشاقة ملحوظة. لقد كان كل شيء بالنسبة إليه مبعث رضى، فتارة ينبح مسروراً ويتدحرج على ظهره وتارة يتدفأ تحت الشمس وتبدو على خطمه سيماء العظمة وتارة يمرح مداعباً قطعة من الخشب أو ساقاً من القش.

كان لباس پيار يتألف الآن من قميص قذر ممزق هو آخر أثر من ثيابه القديمة، ومن سراويل عسكرية ربط أطرافها بخيوط عند كعبيه ليستمد منه قسطاً أكبر من الدفء تبعاً لنصيحة كاراتاييف، وقلنسوة يضعها الفلاحون.

twitter @baghdad_library

ولقد تبدل پيار من الناحية الجسدية تبدلاً كبيراً خلال هذه الفترة. لم يعد بديناً كسابق عهده رغم احتفاظه بمظهره المتين الضخم الذي كان طبيعياً في تكوينه. وأصبحت لحيته وشارباه يغطيان الجزء الأسفل من وجهه، بينما راح شعره الذي نبت واستطال مشعثاً مليئاً بالقمل، يغطي رأسه بما يشبه القلنسوة، ولقد اتخذت نظرته طابعاً حازماً شديد الثبات لم يسبق له أن وهب مثلها من قبل. وحل محل استسلامه الذي كانت عيناه تنطقان به، عزم مكين وكان يمشي حافي القدمين.

كان پيار ينظر تارة إلى الحقل في الأسفل حيث اجتازه ذلك الصباح أشخاص على جياد وعربات، وتارة إلى الأبعد، إلى ما وراء النهر، وطوراً إلى الكلب الصغير الذي بدا كأنه يريد أن يعضه جدياً ثم إلى قدميه الحافيتين اللتين كان يتسلى بإعطائهما وضعيات مختلفة وهو يحرك أصابعهما القذرة. وكلما وقعت عيناه على قدميه الحافيتين، كانت ابتسامة رضى قوي تطوف على وجهه. كانت رؤيتهما تذكره بما قاساه وتعلمه خلال هذه الحقبة، وكانت هذه الذكرى عزيزة على نفسه.

منذ بضعة أيام، كان الطقس هادئاً مشرقاً مع شيء قليل من الجمد الأبيض عند الصباح، وهو ما يطلقون عليه اسم صيف النساء.

وفي الخارج، كان الطقس حاراً تحت الشمس والحرارة بعد برودة الجمد الصباحية المثيرة التي ما زالت تشوب الهواء، كانت لذيذة بشكل خاص.

كان ذلك الضياء السحري ينتشر فوق كل الأشياء القريبة والبعيدة وهي على حالتها المبلّرة التي لا ترى إلا في مثل ذلك الوقت من الخريف، وجبل العصافير مع القرية والكنيسة والبيت الأبيض الكبير ترتسم على البعد، والأشجار العارية والرمال والحجارة والسقوف وسهم الكنيسة الأزرق وزوايا البيت الأبيض، كلها تتفصل في زوايا ناتئة دقيقة، بجلاء غير مألوف في

www.Maktbah.com

الهواء الشفوف. وعلى مسافة أقرب، ترتسم كذلك خرائب منزل أحد السادة المألوفة الذي احتله الفرنسيون، بإزدرختها الأخضر الغامق الذي نما على طول الحاجز. إن هذا المسكن نفسه المتهدم المدنس الذي كان يصبح في الأوقات الكالحة منفراً لبشاعته، بات الآن في ذلك الإشعاع الضوئي الثابت على جمال يهدئ النفس.

وخرج عريف فرنسي بثوب مهمل وقلنسوة رجال الشرطة، من وراء زاوية المبنى وبين أسنانه غليون قصير، فبادر پيار بغمزة عين ودية وقال:

ـ أي شمس؟ يا سيد كيريل، (وهكذا كان الفرنسيون كلهم يسمون پيار) ليقال إننا في الربيع.

واستند العريف إلى الباب وعرض على پيار تدخين غليون رغم أنه كان دائماً يلاقي الرفض من جانبه كلما تقدم إليه بذلك العرض.

راح العريف يقول: لو أننا مشينا في مثل هذا الجو...

ـ سأله پيار عم يعرفه عن الرحيل المقبل فقال العريف إن الجيش كان تقريباً سوف يتحرك قريباً وإن أمراً يومياً يجب أن يصدر ذلك اليوم بالذات بصدد السجناء. كان في المبنى الذي فيه پيار، أحد الجنود واسمه سوكولوف يحتضر، فأخطر پيار العريف لتتخذ الإجراءات بصدده. فقال له العريف إنه يستطيع أن يقر عيناً لأن لديهم مستشفيات منظمة للغاية اللازمة للمرضى وأن كل ما يمكن أن يحصل قد قدّر من قبل من جانب القيادة العليا.

ـ ثم يا سيد كيريل، ليس عليك إلا أن تقول كلمة واحدة للرئيس، وأنت تعرف ذلك. أوه، إنه واحد... لا ينسى شيئاً أبداً. قل للرئيس عندما يقوم بجولته وسوف يعمل كل شيء من أجلك.

وكان الرئيس الذي تحدث عنه العريف قد سبق له أن تحدث مع پيار مطولاً مرات عديدة وغمره دائماً بحسن التفاته.

twitter @baghdad_library

ـ انظر، قسماً بالقديس توماس إنه قال لي ذلك اليوم إن كيريل رجل مثقف يتعلم الفرنسية. إنه سيد روسي أصيب بمحنة، لكنه رجل. ثم إنه من الممكن التفاهم معه، الـ...، فإذا سأل شيئاً، ليقله لي، لن يرفض له طلب. عندما يكون المرء مثقفاً، يحب العلم كما ترى، والرجال الأخيار. إنني أقول هذا لك يا سيّد كيريل. فلولا فضلك في مشكلة ذلك اليوم لسارت الأمور على شكل سيئ.

وبعد لحظات ثرثرة، ذهب العريف، وكانت المسألة التي تحدث عنها هي شجار وقع بين سجناء وفرنسيين استطاع پيار فيه أن يهدئ رفاقه. ولقد سمع بعض السجناء پيار يتحدث إلى العريف فجاؤوا يسألونه عما قاله. وبينما كان يروي لهم أن الأمر يتعلق برحيل وشيك، وصل جندي فرنسي نحيل، أصفر، رث الثياب إلى الباب. حيا بحركة رشيقة ووجلة معاً وهو يرفع أصابعه إلى جبينه وخاطب پيار ليسأله عم إذا كان الجندي تلاتوس الذي أعطاه قميصاً لخياطته في المبنى أم لا

لقد تلقى الفرنسيون في الأسبوع المنصرم جراية من الجلد والكتان فأعطوا أحذيتهم وقمصانهم إلى السجناء الروس يصنعونها.

قال كاراتاييڤ وهو يقترب حاملاً قميصاً مطوياً بعناية. إنه جاهز، إنه جاهز يا صقري الصغير.

كان كاراتاييڤ لا يرتدي إلا السراويل وقميصاً ممزقاً بسبب الحرارة وتيسير العملة. ولقد كان القميص الممزق بلون السخام. وكان شعره ملفوفاً على عادة العمال بشريط من الكتان ووجهه المستدير يبدو أكثر استدارة وبشاشة من المعتاد.

قال پلاتون وهو يبسط القميص الجاهز مبتسماً:

www.Maktbah.com

ـ إن الوعد كان مسؤولاً. لقد قلت إنه سينتهي يوم الجمعة وأنهيته يوم الجمعة.

ألقى الفرنسي حوله نظرة قلقة ثم، خلع سترته الخارجية بسرعة وكأنه حزم أمره على شيء، وارتدى القميص. ولقد بدت تحت سترة الفرنسي مكان القميص المفقود، صدرة طويلة ذات أزهار من الحرير متسخة جداً، تغطي جذعه العاري الهزيل. وكان واضحاً أن الفرنسي يخاف أن يأخذ السجناء لدى رؤيته على ذلك النحو بالضحك، لذلك سارع إلى القميص الجديد يدخل رأسه في فتحته. لكن ما من أحد من السجناء تفوَّه بكلمة.

قال پلاتون وهو يجذب أطراف القميص: إنك ترى كم هو جيد الحياكة.

أدخل الفرنسي بادئ الأمر رأسه ثم ذراعيه ثم راح دون أن يرفع عينيه يتأمل القميص على نفسه ويفحص خياطته.

قال پلاتون مفسراً وقد استدار وجهه بابتسامة عريضة وبان عليه الرضى العميق على عجلة: ذلك أنني لا أملك مشغلي هنا يا صقري الصغير ولا أدوات مناسبة جيدة ولقد قال المثل إنه دون عدة لا يمكن قتل قملة:

قال الفرنسي:

ـ هذا حسن، هذا حسن، شكراً. ولكن لا بدَّ وأن لديك قماشاً مما بقي منه.

فاسترسل كاراتاييڤ وهو أكثر اغتباطاً بعمله:

ـ سوف يسير كل شيء على ما يرام حتى ولو لبسته على جلدك مباشرة. سترى كم ستكون مرتاحاً فيه...

فكرر الفرنسي باسماً وهو يخرج ورقة نقدية قدمها إلى كاراتاييڤ:

ـ شكراً شكراً. الباقي... ولكن الباقي...

ولاحظ پيار أن پلاتون لم يكن يريد أن يفهم ما يقوله الفرنسي، فراح

twitter @baghdad_library

يراقبهما دون أن يتدخل. وظل كاراتاييف يشكر الفرنسي على الأجر ويطري عمله. لكن الفرنسي الذي كان متمسكاً بما تبقى من الكتان، لجأ إلى پيار أخيراً ليترجم له أقواله.

رد كاراتاييف: ماذا سيعمل بها؟ إنها ستفيدنا نحن فنصنع منها عصابات ممتازة للأقدام. لكنه إذا كان يصر..

واكفهر وجه كاراتاييف فجأة فأخرج من قميصه رزمة صغيرة من القصاصة مد يده بها إلى الفرنسي دون أن ينظر وقال وهو يبتعد «يا حيف». واستشار الفرنسي پيار بنظرة ثم احمر وجهه وكأن نظرة پيار علمته شيئاً وصاح فجأة بصوت نابح: پلاتون، اسمع يا پلاتون! احتفظ بها لنفسك.

وبعد أن أعطاها له، استدار إلى الوراء وانصرف. فقال كاراتاييف وهو يهز رأسه: انظر إلى هذا! يقولون إنهم ليسوا مسيحيين مع أن لهم نفساً طيبة. إنهم كما يقول آباؤنا: «إن اليد التي يبللها العرق كريمة، واليد الجافة ليست وهابة». إنه لا يملك شيئاً ومع ذلك يعطي.

بقي كاراتاييف فترة صامتاً وعيناه شاخصتان إلى آراب وعلى شفتيه ابتسامة حالمة. ثم قال وهو يعود إلى المبنى:

ـ لا شك أنني سأجعل من هذه عصابات رائعة.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

لقد أظهر الفرنسيون نيّتهم نقل پيار السجين، منذ أربعة أسابيع، من مبنى الجنود إلى مبنى الضباط، وعلى الرغم من ذلك بقي في المبنى الذي قادوه إليه في اليوم الأول.

وكان پيار يتحمل في موسكو المحترقة الملأى بالخرائب، أقصى ما يمكن لرجل أن يحتمله من الحرمان. لكنه بفضل تكوينه الممتاز وصحته القوية اللذين لم يفكر فيهما حتى ذلك اليوم، وبفضل وقوع ذلك الشظف على درجات لا يكاد يشعر بها حتى ليتعذر تحديد الوقت الذي بدأ فيه، فقد احتمل حالة العري التي وصل إليها ليس دون ألم فحسب بل في فرح.

والواقع أنه في تلك اللحظة بدأ يشعر بذلك الهدوء، وذلك الرضى الداخليين اللذين تمناهما بكثير من اللهفة من قبل. لقد فتّش طويلاً خلال حياته هنا وهناك عن ذلك الهدوء وذلك التفاهم مع الذات اللذين أدهشه وجودهما لدى الجنود في معركة بورودينو. لقد فتّش عن ذلك في محبة الناس وفي الماسونية وفي مباهج الحياة العامة، في الخمرة، في بطولة التضحية، في حبّه الرومنطيقي لناتاشا، لقد بحث عن ذلك في دروب الفكر فخيبته أبحاثه كلها ومحاولاته كلها. وها هو ذا، دون أن يعرف كيف، يحصل على الهدوء وعلى الرضى الداخليين من خلال أهوال الموت والعري، وخصوصاً من خلال ما كان يشعر به في كاراتاييف.

ولقد بدت الدقائق الرهيبة التي قضاها أثناء إعدام مشعلي الحرائق، كأنها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كنست من فكره وذاكرته إلى الأبد، الأفكار والمشاعر التي كانت تؤلمه والتي كانت تبدو له من قبل على جانب كبير من الأهمية. لم يعد يفكر في روسيا ولا في الحرب ولا في السياسة ولا في ناپليون. صار يرى بوضوح أن كل هذا لا يعنيه في شيء وأنه لم يدع للحكم على كل هذه الأمور وأنه عاجز عن الحكم. كان يردد على طريقة كاراتاييف: «روسيا والصيف، لا يتماشيان» وكانت لهذه الكلمات مزية تهدئة بشكل غريب.

بات يرى الآن قراره قتل ناپليون غير مفهوم بل مضحكاً، وكذلك حساباته حول الرقم السحري ووحش رؤيا القديس يوحنا. وقد بدا الآن أن غضبه على زوجته وخشيته من أن تحطّ من شرف اسمه يستحقان السخرية اللاذعة بل إنهما صورة مشوهة غريبة. ماذا كان يهمه لو أن تلك المرأة عاشت هناك الحياة التي تروقها؟ ومن كان يهتم بل أية أهمية بالنسبة إليه نفسه بصورة خاصة لو أن الفرنسيين عرفوا أن اسم سجينهم هو الكونت بيزوخوف أو لم يعرفوه؟

أخذ الآن يتذكر غالباً حديثه مع الأمير أندريه وأصبح متفقاً معه بالرأي تماماً وإن كان فهمه لفكرته على بعض الاختلاف. كان الأمير أندريه يزعم ويقول إنّ السعادة سلبية فقط. لكنه كان يقول ذلك بطابع من السخرية والمرارة. وكان يبدو وهو يتكلم على هذا النحو، أنه يريد التعبير عن رأي آخر، ذلك الرأي القائل إن ميولنا نحو السعادة الإيجابية ليست مغروسة في نفوسنا إلا لتبقى غير مشبعة وبالتالي لتعذبنا. وكان پيار يعترف بحقيقة ذلك دون أية فكرة ضمنية. فغياب كل عامل الأمل وإرضاء كل الاحتياجات الذي هو بالتالي حرية انتقاء المشاغل الشخصية، أي لون حياة الشخص الخاصة، أصبح يبدو الآن لپيار السعادة الحقيقية القصوى للإنسان. فهنا، وللمرة الأولى، بات يقدر في سره بهجة تناول الطعام عندما يجوع المرء، والشرب عندما يعطش والنوم عندما ينعس والتدفئة عندما يشعر بالبرد والتحدث عندما يرغب المرء في الحديث

www.Maktbah.com

وفي سماع صوت إنساني ولقد بدا لپيار أن إرضاء الحاجات والغذاء الجيد والنظافة والحرية التي كان محروماً منها الآن، هو السعادة الكاملة. وانتفاء مشاغله وأعني حياته، الآن وقد أصبح ذلك الانتفاء بالنسبة إليه محدوداً جداً، بدا له من السهولة حتى أنه كان ينسى أن كثرة التسهيلات في الحياة تدمر كل المتعة التي يشعر بها المرء في إرضاء احتياجاته، وأن الحرية المفرطة في انتفاء المشاغل، هذه الحرية التي أغدقها على حياته ثقافته وثراؤه ومركزه في الحياة، تجعل من جهة ذلك الانتقاء بسيطاً لدرجة لا تضاهى وتهدم من جهة أخرى الحاجة نفسها إلى الحياة وإمكانيتها.

أصبحت أحلام پيار كلها تتجه الآن نحو اللحظة التي سيصبح حراً فيها. وفي تلك الأثناء، وخلال كل حياة، تذكر پيار وتحدث بحماسة عن شهر الأسر ذاك وعن تلك الإحساسات القوية المرحة التي لن يجدها مرة أخرى وخصوصاً عن طمأنينة الروح الكلية وتلك الحرية الداخلية الكاملة التي لم يشعر بهما إلا في تلك الحقبة فقط.

في اليوم الأول، نهض باكراً جداً وخرج من المبنى عند الفجر. وعندما شاهد بادئ الأمر القباب المعتمة وصلبان دير نوڤوديڤيتشي، ثم الجمد الأبيض على الحشائش المغبرة، ثم سفوح جبل العصافير والمنحدر المشجر المتعرج فوق النهر الذي يمتد ليغيب في الأبعاد البنفسجية الزاهية، عندما أحس بالهواء المنعش يدخل إلى أعماق رئتيه وسمع نعيب غربان الزرع وهي تطير من موسكو عبر السهل، عندما رأى فجأة الضوء ينبعث من المشرق، وطرف قرص الشمس يطلع بجلال من وراء الغيوم، والقباب والصلبان والندى والأبعاد والنهر، تتألق ببهجة الضوء، شعر پيار شعوراً جديداً تماماً بالفرح وبعظمة الحياة شعوراً لم يسبق له أن أحس به قط.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولم يغادره ذلك الشعور قط طوال فترة أسره بل على العكس، نما باطراد كلما ازدادت مصاعب موقفه.

ولقد ازداد ذلك الشعور بالتأهل لكل شيء والخضوع فكرياً لكل شيء تأصلاً في نفس پيار بفضل الفكرة الرفعية التي كونها عنه رفاقه في المبنى حال دخوله إليه. وبمعرفة لغات عديدة، وبالتقدير الذي أبداه الفرنسي نحوه، وبطريقته البسيطة في إعطاء ما يسأل وهو الذي كان يتلقى أسبوعياً ثلاثة روبلات بوصفه ضابطاً، وبالقوة التي برهن عليها أمام الجنود بغرسه المسامير في حاجز المبنى الخشبي بيده، وبالدماثة التي أظهرها في معاملته مع رفاقه وقدرته غير المفهومة في نظرهم على البقاء جالساً دون حراك ودون أن يفعل شيئاً، مفكراً، بكل ذلك معاً اعتبر پيار شخصاً رفيعاً على شيء من الغموض. وهذه الصفات نفسها التي كانت في العالم الذي عاش فيه من قبل معيقة إن لم تكن مؤذية، هذه الصفات: قوته، احتقاره لرفاهيات الحياة، مظهره الحالم، بساطته، كانت تجعل منه هنا، بين هؤلاء الناس، بطلاً تقريباً فكان پيار يحس بأن مثل هذا التقدير يخلق له واجبات عليه أداؤها.

الفصل الثالث عشر

في السادس والسابع من تشرين الأول/ أكتوبر ليلاً، بدأ الجيش الفرنسي يتحرك. قام الجنود بتدمير المطابخ والمباني وحملوا عربات النقل ثم بدأوا السير.

في الساعة السابعة صباحاً، اصطفت فصيلة من الفرنسيين في لباس الحرب. قبعات وأسلحة وحزم كبيرة، أمام المبنى ودارت محادثة حامية بالفرنسية تخللتها الشتائم من طرف الصف إلى طرفه الآخر.

كانوا جميعاً في المبنى مستعدين وقد ارتدوا ثيابهم وحزموا أمتعتهم وانتعلوا أحذيتهم، لا ينتظرون إلا صدور الأمر إليهم بالرحيل، باستثناء الجندي المريض سوكولوف الشاحب النحيل لدرجة بدت معها عيناه المحاطتان بدوائر زرقاء وكأنهما خارجتان من محجريهما، بقي جالساً في مكانه لم يرتد ثيابه ولم ينتعل حذاءه بل راح ينظر إلى رفاقه الذين لم يأبهوا له، ويطلق بانتظام أنات خفيفة. ولا شك أن الخوف والقلق من بقائه وحيداً وهو المصاب بالزحار، هما اللذان كانا يجعلانه يئن على ذلك النحو وليس الألم وحده.

اقترب پيار من المريض وقد تمنطق بحبل وانتعل زوجاً من الأحذية صنعه كاراتاييف من جلد صندوق للشاي جاء به فرنسي ليجدد به نعليه، وجلس القرفصاء أمامه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال بيار:

ـ حسناً يا سوكولوف، لا تخف، إنهم لا يرحلون نهائياً! إن لديهم مستشفى هنا. لعلك ستكون فيه أفضل منا جميعاً.

فأنَّ الجندي بصوت أقوى: أوه! سأموت! أوه يا إلهي!

استأنف بيار يقول وهو ينهض ويتجه نحو باب المبنى:

ـ إنني ذاهب أعيد مطالبتهم بذلك.

وفي اللحظة التي كاد يجتاز عتبة الباب، ظهر العريف الفرنسي الذي قدم إليه أمس تدخين غليون يرافقه جنديان وكان العريف والجنديان في ثياب الميدان، فأجربة وعمرات رباطها مثبت عند الذقن، الأمر الذي جعل وجوههم الأليفة تبدو مختلفة تماماً.

اقترب العريف من الباب ليغلقه تبعاً لأمر السلطات إذ كان يجب تفقد السجناء قبل الرحيل.

شرع بيار يقول: أيها العريف، ماذا سيفعلون بالمريض؟

لكنه وهو يقول ذلك، تساءل مع من يتحدث، وهل يتحدث مع العريف الذي يعرفه أو مع مجهول لشدة ما طرأ على وجه هذا الرجل من تبدل. وفي الوقت نفسه، دوى قرع طبول من الجانبين معاً فقطب العريف حاجبيه لدى سماعه أقوال بيار وصفق باب المبنى وهو ينطق بشتيمةٍ غير مفهومة، فغرق كل شيء في الداخل في نصف ظلام وأخذ قرع الطبول المنبعث من اليمين واليسار يخنق أنات المريض.

قال بيار في نفسه وقد مرت في فقرات ظهره رعشة غير إرادية: «ها هو ذا إنه يبدأ من جديد!» ففي وجه العريف غير المعروف وفي رنة صوته وقرع الطبول المحفز المصم للآذان لمس بيار تلك القوة الخفية التي لا تقهر، والتي تدفع الإنسان إلى قتل أمثاله من بني الإنسان، تلك القوة التي رآها ناشطة يوم

www.Maktbah.com

إعدام مضرمي الحرائق. وكان الخوف من تلك القوة أو محاولة الفرار منها أو التوجه بابتهالات أو بنصح إلى الذين يستعملونها أدوات لهم، لا يجدي فتيلاً. لقد كان پيار يعرف هذا الآن. كان يجب الانتظار والصبر فلم يعد پيار إلى حيث كان المريض ولم يعد ينظر إليه. وقف قرب باب المبنى صامتاً مقطب الحاجبين.

وعندما فتح الباب وراح السجناء يتدافعون بعضاً في إثر بعض كقطيع من الخراف، شق پيار لنفسه طريقاً بينهم واقترب من ذلك الرئيس بالذات الذي كان مستعداً، حسب قول العريف، أن يفعل كل شيء من أجله. لقد كان ذلك الرئيس أيضاً وهو في ثياب الميدان، متخذاً سيماء الجمود وقد بدا عليه «ذاك» الذي لمسه پيار في أقوال العريف وفي جلبة قرع الطبول:

أخذ الرئيس يكرر وهو مقطب الحاجبين بصرامة ينظر إلى جمهور السجناء يمر أمامه: اركضوا، اجروا.

وكان پيار يعرف أن تصرفه سيكون عقيماً. مع ذلك فقد تقدم. فقال له الضابط وفي عينيه نظرة باردة وكأنه لا يعرفه: حسناً، ماذا هناك؟

فشرح پيار حالة المريض.

صاح الرئيس:

ـ سوف يستطيع السير، يا للشيطان!

ثم أردف دون أن يلقي بالاً إلى پيار:

ـ اركضوا، اركضوا.

أجاب پيار:

ـ ولكن لا، إنه في النزع...

فزمجر الرئيس وقد ازداد حاجباه تقطيباً كما لم يحدث قط من قبل:

ـ هل تريد أن...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ودوت الطبول ـ بلان، بلان، راتابلان، ففهم پيار أن القوة الخفية قد سيطرت على كل هؤلاء الرجال وأنه لا جدوى الآن من التحدث في أي شيء كان.

فرز الضباط السجناء عن الجنود البسيطاء وأصدر إليهم الأمر بالسير في المقدمة. كانوا قرابة ثلاثين ضابطاً بمن فيهم پيار والجنود حوالى الثلاثمائة.

كان الضباط الأسرى القادمون من أبنية أخرى، غرباء كلهم عن پيار. ولما كانوا جميعاً أفضل منه لباساً، فقد راحوا يقيسونه بأنظارهم ويحدقون إلى حذائه بتحفظ عدائي وعلى مقربة منه، كان «ماجور» ضخم يسير وقد بدا عليه أنه ينعم بالتقدير العام. كان يرتدي معطفاً منزلياً من صنع كازان وتمنطق بمنشفة. منتفخ صفراوي حقود. وكان يمسك بإحدى يديه بجراب التبغ وبالأخرى يتوكأ على غليونه التركي الطويل. وكان ذلك الماجور الذي ينفخ كالثور، لا يفتأ يزمجر ويثور ضد كل الناس بذريعة أنهم يدفعون وأنهم يسيرون بسرعة كبيرة في حين ليس هناك داع للسرعة أو أنهم يدهشون عندما لا يدعو شيء إلى الدهشة.

وكان ضابط آخر، قصير القامة، نحيل، يناشد كل واحد ليعلم الجهة التي يمكن أن يتجهوا إليها والمكان الذي سيكون نهاية مرحلة اليوم. وكان موظف ينتعل أحذية عالية من اللبد ويرتدي زي الإعاشة، يهرج من جانب إلى آخر ليتأمل أضرار حريق موسكو وهو يدلي بملاحظاته بصوت مرتفع عما احترق وعما تبقى من هذا أو ذاك من الأحياء. وضابط ثالث من أصل بولوني تبعاً للكنته، كان يتنافس مع ذلك الموظف ليبرهن له على أنه يخطئ في التعرف إلى الأحياء.

غمغم الماجور بلهجة جافة: ما فائدة النقاش؟ سان نيكولا أو سان بليز، هما سيان وأنتم تعرفون ذلك لأن كل شيء قد احترق، وانتهى الأمر.. ماذا بكم تندفعون على هذا النحو أليس عرض الطريق كافياً؟

www.Maktbah.com

ولقد صاح بهذه الملاحظة عالياً وهو يلتفت غاضباً نحو الذي كان يسير وراءه والذي لم يدفعه قط.

ومن جانب تارة ومن آخر تارة أخرى، كان السجناء يهتفون لدى رؤية الأنقاض:

ـ أوه، أوه! ماذا فعلوا! زاموسكڤوريتشييه، وزوبوڤو، وفي الكرملين. انظروا، لم يبقَ منها النصف. نعم، لقد قلت لك من قبل إن كل زاموسكڤوريتشييه ستلقى هذا المصير وها هي ذي، لقد احترقت!

غمغم الماجور: حسناً، مادمتم تعرفون أن كل شيء قد احترق، فأية فائدة من استمرار الحديث عنه؟

ولما اجتازوا خاموڤنيكي، (وهو أحد الأحياء النادرة التي بقيت سالمة)، أمام الكنيسة، تكتلت جمهرة السجناء كلها في جانب واحد وانطلقت الهتافات المشبعة بالهول والاشمئزاز.

آه! يا للحقراء! إنهم ليسوا مسيحيين. نعم، هذا ميت، إن هذا ميت هنا.. لقد لطخوا وجهه بشيء ما.

اتجه پيار نفسه هو الآخر نحو الكنيسة حيث كان يوجد ذلك الذي أحدث كل هذه الهتافات، فشاهد بغموض شكلاً مسنداً إلى الحاجز. ولقد عرف من زملائه الذين كانوا يرون أفضل منه أن ذلك الشكل هو جثة رجل نصبت واقفة على الحاجز وقد طلي الوجه كله بالسخام.

أخذ الحراس المواكبون يزمجرون وقد استبدت بهم غضبة جديدة فراحوا يطردون جمهور السجناء الذين كانوا يتأملون الجثة، مستعملين عرض سيوفهم:

ـ سيروا، اللعنة..، اركضوا.. يا لثلاثين ألف شيطان..

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

لم يصادف السجناء أحداً عندما اجتازوا أزقة خاموڤنيكي مع حراسهم والعربات التي تتبعهم. ولما وصلوا إلى مقربة من مخازن المؤن، وقعوا وسط رتل كبير من المدفعية كان يتقدم بصعوبة وقد تخللت صفوفه عربات خاصة.

وعندما وصلوا إلى الجسر، اضطروا أن ينتظروا ريثما يجتازه أولئك الذين كانوا في المقدمة. ومن على ذلك الجسر، استطاع السجناء أن يروا أمامهم ووراءهم أرتالاً لا تنتهي من القوافل الأخرى السائرة. وعن اليمين، قرب نيسكوتشني حيث طريق كالوغا ينحرف ويضيع في الأبعاد، امتدت القطعات والقوافل إلى ما لا نهاية. كان ذلك هو «جمهرة» جيش بوهارنيه[١] الذي كان أول من غادر موسكو. وإلى الوراء، على طول الرصيف وعبر جسر پيار، أخذت جمهرة جيش الماريشال «ني» وعرباته تتقدم.

مرت جمهرة جيش داڤو التي يتبعها السجناء من مخاضة القرم ودخل قسم منها شارع كالوغا. بيد أنه كان هناك عدد كبير من العربات حتى أن عجال بوهارنيه التي مرت من طريق شارع كالوغا، لم تكن قد خرجت من موسكو بعد عندما وصلت مقدمة قطعات «ني» أوردنكا الكبرى.

وبعد أن اجتاز السجناء مخاضة القرم، ساروا بضع خطوات ثم توقفوا ثم عادوا إلى السير، بينما أصبحت العربات من كل صوب متراصة والرجال باتوا يتزاحمون. ولقد استمروا قرابة ساعة في سير ما يقرب من المائة خطوة

(١) ابن جوزفين زوجة ناپليون الأول ونائب ملك إيطاليا. (المترجم)

www.Maktbah.com

التي تفصل الجسر عن شارع كالوغا. وعندما وصلوا إلى الساحة التي يتحد فيها طريقا زاموسكڤور يتيشييه وكالوغا، اضطر السجناء أن يتوقفوا مجدداً وأن يحشروا حشراً وينتظروا ساعات طويلة في تلك المفارق. ومن كل مكان، كانت تنبعث جلبة متواصلة شبيهة بهدير البحر، بين صرير عربات وضربات أقدام وصرخات غضب وشتائم. ولقد راح بيتر يصغي إلى هذه الجلبة التي كانت تختلط في خياله بقرع الطبول وهو واقف ملتصق بجدار منزل يحترق.

ولقد تسور بعض الضباط الأسرى جدران المنزل المحترق الذي استند پيار إليه لتتاح لهم فرصة إمعان النظر. أخذوا يتحدثون:

ـ يا للجمع الغفير، يا للجمع الغفير!.. ولكم كدسوا حتى فوق مدافعهم! انظروا إلى هذا الفرو. آه! يا للسفلة، كم سرقوا من أشياء.. انظروا إلى هذا، إلى الوراء، في عربته.. وهذا!. إنّ هذه الأشياء، بدون شك، مسلوبة من أيقونة مقدسة! إنهم ألمان بلا ريب!.. وقرويونا، أين مضوا؟ آه! للقذرين وهذا، إن لديه حملاً ثقيلاً جداً حتى أنه لا يستطيع أن يتقدم.. مع عرباتهم.. وهؤلاء الذين يعتلون الصناديق! آه! يا ربّ !.. لكن هذا جد، إنهم يتضاربون! إيه، هيا إذن، اضرب وجهه! على الوجه، أقول لك.. أما نحن فإننا سنمكث هنا حتى حلول المساء. خذ، خذ!.. وهذا، هذا لا شك لناپليون. هن، يا للجياد! بشعار وتاج!.. وهذه، إنها قابلة للانطواء وهذا يدع الرزم تسقط دون أن يلاحظها!... وأيضاً أشخاص يتضاربون وهذه المرأة مع طفلها، إنها ليست دميمة! نعم يا صغيرتي، سيدعونك تمرين على الفور!.. انظروا، إنّ هذا لن ينتهي أبداً.. فتيات روسيات، فتيات، يجلسن مستريحات في عربة خفيفة.

ألقت موجة جديدة من الفضول العام بالسجناء إلى جانب الطريق كما حدث لهم قرب الكنيسة في خاموڤنيكي، فتمكن پيار بفضل قامته المديدة التي تسمح له بالرؤية من فوق رؤوس رفاقه، أن يرى ما كان يلفت انتباههم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت نساء متبرجات في ثياب زاهية الألوان يطلقن صرخات ثاقبة، يخطرن متكومات بعضهن فوق بعض في ثلاث عربات ركوب بين صناديق المدفعية.

منذ اللحظة التي رأى بيار تلك القوة الغامضة تظهر، لم يعد هناك شيء يبدو له أكثر غرابة، لا الجثة الملطخة بالسخام استهزاء، ولا هؤلاء النسوة اللاتي يسرعن إلى حيث لا يعلم أحد ولا خرائب موسكو. لم يعد شيء مما يراه الآن يؤثر في نفسه حتى ليقال إن روحه كانت تستعد لمعركة رهيبة وترفض أي انفعال قادر على إضعافها.

مرت قافلة النساء. ثم عاد رتل العربات والجنود والعجلات، ثم جنود مجدداً وصناديق وجنود، وهنا وهناك بعض النساء.

أما بيار، فإنه بدلاً من الأشخاص أنفسهم، كان يرى مجموع حركتهم فحسب.

بدا كل هؤلاء الناس والجياد، كأن قوة غير مرئية تطردهم. كانوا جميعاً خلال تلك الساعة التي رآهم بيار يصلون من كل صوب، تحركهم رغبة واحدة بعينها: المرور بأسرع ما يمكن، فكانوا جميعاً يتساوون بالتدافع بالمناكب والاحتداد والاشتباك بالأيدي: لقد كانت الأسنان البيضاء على أهبة العض، والحواجب تقطب، والشتائم بعينها دائماً تدوي، وكل وجه يحمل التعبير إياه بالجرم المكين والبرودة الشرسة اللذين أدهشا بيار ذلك الصباح أيما دهشة على وجه العريف عند وقوع الطبول.

ساروا بسرعة فائقة دون توقف أبداً ولم يتوقفوا إلى عند مغيب الشمس. وحينئذٍ، صفت العربات، الواحدة وراء الأخرى، واستعد الرجال لليل. كانوا جميعاً على حالة من الكآبة معتكري المزاج. ولقد تناهى من كل جانب السباب والهتافات الساخطة والمشاجرات وقتاً طويلاً. وارتطمت عربة كبيرة كانت تتبع القافلة بعجلة نقل فحطمتها. وأسرع بعض الجنود، فراح بعضهم

www.Maktbah.com

يضرب رأس الخيول المقطورة إلى العربة ليجعلها تتراجع وأخذ البعض الآخر بتلابيب بعض، فشاهد پيار جندياً ألمانياً يصاب بجرح خطير في رأسه بضربة سيف.

الآن وقد توقفوا في منتصف السهل، في رخاء غسق خريفي، بدا هؤلاء الناس كلهم كأنهم يتحسسون بشعور اليقظة الأليم نفسه بعد تلك اللهفة التي أظهروها في الرحيل والتدافع بالمناكب الذي نجم عنه. لقد بدوا جميعاً، عندما أخلدوا إلى الراحة، يعرفون أنهم يجهلون الجهة التي يسيرون إليها وأنهم في تلك الحركة سيتعرضون، بدون شك، لمحن ومصاعب.

عامل الحراس السجناء خلال المرحلة معاملة أسوأ من التي سبقت ساعة الرحيل. ولقد وزعوا عليهم للمرة الأولى لحم خيل.

واعتباراً من الضباط وحتى آخر جندي من جنود الحراسة، بدا كل منهم وكأنه يشعر بعداء شخصي نحو السجناء، عداء حل فجأة محل روابط الصداقة السابقة.

وتعاظم ذلك العداء في فترة التفقد، عندما تبينوا أن جندياً روسياً فر في غمار الهرج الذي عم عند الرحيل، محتجاً بألم في بطنه. ولقد شاهد پيار فرنسياً يضرب جندياً روسياً حاد عن الطريق وسمع صديقه الرئيس يعنف صف ضابط بصدد الجندي الروسي الفار ويهدده بالمجلس الحربي. ولما رد صف الضابط أن الجندي كان مريضاً لم يستطع مواصلة السير، أجاب الضابط بأن الأمر كان قد صدر بإطلاق الرصاص على المتأخرين. شعر پيار بأن تلك القوة المشؤومة التي اجتاحته إبان إعدام مشعلي الحرائق، والتي لم تطهر نفسها طوال فترة أسره، قد عادت إلى الاستيلاء على شخصه. لكنه شعر كذلك بأنه بمقدار ما كانت تلك القوة المشؤومة تنوء عليه بشدة بغية سحقه، كانت قوة أخرى حيوية، مستقلة عن الأخرى، تنمو في روحه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أكل پيار من حساء طحين الشيلم مع قطعة من لحم الخيل ثم راح يتحدث مع رفاقه.

لم يتحدث هو ولا أحد من الآخرين بكلمة واحدة عما رأوا في موسكو. لم يتحدث أحد عن غلظة الفرنسيين ولا عن الأمر بإطلاق النار على المتخلفين والفارين الذي بلَّغوه إلى السجناء: لقد تظاهروا جميعهم بالنشاط والفرح وكأنهم يحتجون على تفاقم حالتهم. تحدثوا عن ذكرياتهم الشخصية وعن المشاهد المضحكة التي وقعت أعينهم عليها خلال المسير وتجنبوا التلميح إلى موقفهم الحاضر.

كانت الشمس قد غربت منذ فترة طويلة والنجوم الساطعة قد بدأت تضيء هنا وهناك في قبة السماء، وضوء البدر الذي كان يشرق، أحمر كلهب حريق، ينسفح على حافة الأفق، فكانت رؤية الكرة الحمراء الضخمة تأخذ بمجامع القلوب. وكان الوقت لا يزال مضيئاً. لقد بلغ المساء نهايته، لكن الليل لم يكن قد أسدل ستره بعد تماماً. نهض پيار وغادر رفاقه الجدد ثم حاول المسير خلال نيران المعسكر، إلى الجانب الآخر من الطريق، حيث قِيل له إن الجنود الأسرى يقيمون، كان يريد أن يتحدث معهم، فاستوقفه حارس فرنسي على الطريق وجعله ينكص على عقبيه.

عاد پيار في إثره ولكن ليس باتجاه نيران زملائه، لقد ذهب نحو عربة فصلت جيادها، كان إلى جانبها شخص ما. وهناك أقعى وأطرق برأسه واستند إلى العجلات مستريحاً على الأرض الباردة وبقي فترة طويلة ساكناً يفكر. ومرَّت عليه أكثر من ساعة على ذلك النحو فلم يزعجه أحد. وفجأة انفجر مقهقهاً بضحكته المدوية بجلبة شديدة حتى أن الرجال التفتوا نحوه من كل الجهات ليروا سبب انبثاق ذلك المرح الغريب.

أخذ پيار يضحك ويقول بصوت مرتفع: ها! ها! ها! لم يدعني الجندي

www.Maktbah.com

أمر، لقد قبضوا عليّ وسجنوني وما زالوا يبقونني في الأسر. ولكن من أنا؟ أنا؟ روحي الخالدة؟ ها! ها! ها!

كان يضحك بقوة حتى أن الدموع ملأت عينيه.

نهض أحدهم واتجه نحوه ليرى من أي شيء يضحك هذا العملاق المتين الغريب. لكن پيار هدأ ووقف ثم ابتعد عن الفضولي وهو يلتفت حوله.

كان المعسكر الكبير الذي يمتد على مرمى البصر، والذي كان يعج بادئ الأمر باحتدام النيران والأحاديث قد هدأ والنيران الحمراء تنطفئ وتشحب، وبات البدر الآن مرتفعاً في كبد السماء المنيرة ولقد كشفت الغابات والمروج التي بقيت حتى ذلك الحين غير مرئية خارج حدود المعسكر، الستر عن نفسها. ومن وراء تلك الغابات والحقول، أخذ البعد اللامتناهي المضيء يخفق ويدعو المرء إليه. رفع پيار عينيه نحو السماء، نحو الأعماق التي تلمع فيها النجوم السائرة وفكَّر: «كل هذا لي، كل هذا فيّ، كل هذا هوانا. وكل هذا هو ما أخذوه وسجنوه في مبنى تحيط به ألواح الخشب!» ابتسم ومضى يتمدد قرب رفاقه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

حمل أحد الوسطاء مرة أخرى إلى كوتوزوف رسالة من ناپليون تحمل شروط الصلح، خلال الأيام الأولى من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وكانت مؤرخة خطأً من موسكو، طالما أن ناپليون كان حنيذاك على طريق كالوغا القديمة قريباً جداً من الجيش الروسي وأمامه. فأجاب كوتوزوف على هذه الرسالة أيضاً الجواب نفسه الذي رد به على الرسول لوريستون: أعلن أنه لا يمكن أن يكون المجال مجال صلح.

وبعد وقت قصير أخبرت كتيبة الأنصار العاملة تحت إمرة دوروخوف إلى يسار تاروتينو، أنهم شاهدوا قطعات عدوة في فومينسكوييه، وأنها مؤلفة من فوج بروسييه، وأنها منفصلة عن بقية الجيش يسهل إفناؤها. فراح الجنود والضباط يطالبون بالهجوم مجدداً. وألح جنرالات أركان حرب الذين شجعتهم ذكرى نصر تاروتينو السهل، على كوتوزوف ليحملوه على إقرار فكرة دوروخوف. ولم يكن كوتوزوف يرى من الضروري الهجوم. لذلك اتخذوا الحل الوسط، الحل الذي يجب أن يتحقق، فأرسلوا كتيبة صغيرة إلى فومينسكوييه مزودة بأمر مهاجمة بروسييه.

وبصدفة غريبة، أنيطت هذه المهمة، وهي من أكثر المهام صعوبة وخطورة كما ثبت فيما بعد، بدوختوروف، دوختوروف قصير القامة، المتواضع ذاك نفسه، الذي لم يصفه لنا أحد قط بأنه واضع خطط حربية، مندفع على رأس أفواجه موزعاً الأوسمة ملء راحتيه في «بطاريات» المدفعية، إلى آخر ما

www.Maktbah.com

هنالك، دوختوروف ذاك نفسه الذي كان يبدو متردداً محروماً من الفطنة، والذي نجده مع ذلك خلال كل الحروب مع الفرنسيين، ابتداءً من أوسترليتز وحتى عام ١٨١٣، في المكان الأول حيثما الموقف خطير. ففي أوسترليتز بقي آخر من صمد عند سد أوجر، يجمع الفيالق وينقذ ما يمكن إنقاذه، في حين كان الجميع بين فار وقتيل، ولم يبق جنرال واحد في المؤخرة. وهو الذي في سمولنسك، رغم نوبات الحمى العنيفة التي انتابته، انطلق مع عشرين ألف رجل ليدافع عن المدينة ضد جيوش ناپليون. لقد أيقظه المدفع في سمولنسك عندما لم يكن قد أغفى بعد قرب باب مالاخوس، تائهاً في هذيان الحمى، وبفضله صمدت سمولنسك يوماً كاملاً.

وفي بورودينو، عندما قتل پاغراسيون، وفقد جناحنا الأيسر تسعة جنود على كل عشرة، وكانت مدفعية العدو الجبارة كلها مسددة إليه، أرسلوا على وجه الدقة، دوختوروف هذا المتردد المحروم من الفطنة، وبادر كوتوزوف إلى إصلاح الخطأ الذي كاد يقترفه بتعيين ضابط آخر لذلك المركز. وبفضل قصير القامة المتواضع دوختوروف، أصبحت بورودينو أحد أمجاد الجيش الروسي. مع ذلك، لقد وصفوا لنا نثراً وشعراً عدداً كبيراً من الأبطال، لكنهم لم يتحدثوا إلينا قط عن دوختوروف.

وإذن، لقد أرسل دوختوروف أيضاً إلى ڤومينسكوييه ومن هنا إلى مالوايياروزلاڤيتز، حيث اندلعت آخر معركة مع الفرنسيين، وهو المكان الذي بدأت فيه نهايتهم منذ ذلك الحين وبشكل لا ريب فيه. مع ذلك، فإنهم يصفون لنا مجدداً أبطالاً كثيرين وعباقرة خلال هذه الحقبة من الحملة دون أن يشار إلى دوختوروف، إلا ببضع كلمات مبهمة جداً. لكن الصمت الذي يظهرون به حيال هذا الرجل، يبرهن لنا على مؤهلاته بإفاضة. إن من الطبيعي أن يتصور رجل لا يعرف شيئاً عن حركة آلة ماء وهو يراها تقف عن الدوران، أن الجزء

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الأكثر أهمية فيها هو العصافة التي سقطت صدفة داخلها فجعلتها تصر وتقف. ولا يستطيع أن يعرف، دون أن يحيط علماً بتكوين الآلة، أن الأداة الجوهرية ليست العصافة التي تعيق حركتها بل المسنن الصغير للموصل الذي يدور دون جلبة.

في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر، وهو اليوم نفسه الذي اجتاز دوختوروف نصف الطريق إلى ڤومينسكوييه، وأمر باستراحة في قرية أريستوڤو وهو على استعداد للقيام بالمهمة التي أوكلت إليه بكل دقة، وصل الجيش الفرنسي كله في حركته التشنجية إلى مواقع مورا تحت احتمال الاشتباك في معركة هناك، ثم دون أي سبب ظاهر رسم فجأة نصف دائرة إلى اليمين وسار على طريق كالوغا الجديد ودخل قرية ڤومينسكوييه، حيث لم يكن فيها أول الأمر، إلا فيلق بروسييه وحده. ولم يكن تحت إمرة دوختوروف في ذلك الوقت باستثناء دوروخوف، إلا كتيبتا فينغر وسيسلاڤين الصغيرتان.

وفي مساء ١١ تشرين الأول/ أكتوبر، قاد سيسلاڤين إلى أريستوڤو، مركز القيادة جندياً فرنسياً من الحرس وقع أسيراً بين يديه. أكد ذلك الرجل أن القطعات التي وصلت ذلك اليوم إلى ڤومينسكوييه تشكل مقدمة الجيش الكبير وأن نابليون موجود معها وأن ذلك الجيش قد غادر موسكو منذ خمسة أيام. وفي الأمسية نفسها، أعلن خادم مملوك وصل من بوروڤسك، أنه رأى جيشاً جراراً يدخل تلك المدينة. وحمل قوقازيو دوختوروف من جانبهم أن الحرس الفرنسي ينطلق إلى بروڤسك. فكان واضحاً، تبعاً لهذه المعلومات الأخيرة، أنه حيث كانوا يقدرون وجود فيلق واحد، أصبح الجيش الفرنسي الخارج من موسكو كله موجوداً فيه، متجهاً اتجاهاً غير متوقع، نحو طريق كالوغا القديم، ولم يكن دوختوروف تواقاً إلى الدخول في المعركة لأن واجبه الحالي لم يعد واضحاً أمام عينيه. لقد أصدر إليه الأمر بالهجوم في

www.Maktbah.com

ڤومينسكوييه. لكنه لم يكن في ڤومينسكوييه من قبل إلا بروسييه بينما أصبح الجيش الفرنسي كله فيها الآن. وكان إيرمولوف يريد أن يتصرف على هواه. لكن دوختوروف أصر على ضرورة حصوله على أمر من القائد الأعلى فقرروا إرسال تقرير إلى الأركان.

انتخبوا لذلك ضابطاً ذكياً، بولخوڤيتينوف الذي كان عليه أن يقدم فضلاً عن التقرير الخطي تفصيلات شفوية عن المسألة. وعند منتصف الليل، انطلق بولخوڤيتينوف مزوداً بتقريره المختوم وبأوامره الشفهية، يحث جواده بأقصى سرعته، يصحبه قوقازي يقود جياد البدل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

كان المطر الخفيف يهطل منذ أربعة أيام في تلك الليلة الخريفية الحالكة. وحوالى الساعة الثانية صباحاً وصل إلى بولخوفيتينوف ليتاشوفكا، بعد أن أبدل جواده مرتين واجتاز ثلاثين فرسخاً في ساعة ونصف الساعة عبر طريق موحل. ترجل عن جواده أمام كوخ خشبي حاملاً لافتة «أركان حرب» ودخل الدهليز المعتم.

قال لأحدهم وقد انتصب مرتجفاً أمامه في عتمة الدهليز: بسرعة، الجنرال المناوب! عاجل جداً!

دمدم صوت الحاجب وهو يحمي راحة يده:

- إنه سيئ المزاج منذ أمس مساء وهذه هي الليلة الثالثة التي لم يغمض له فيها جفن. من الأفضل أن أوقظ الرئيس أولاً.

فألح بولخوفيتينوف وهو يدخل باباً مفتوحاً متحسساً:

- إنها مسألة مستعجلة جداً من جانب الجنرال دوختوروف.

دخل الحاجب أولاً وراح يعمل على إيقاظ أحدهم. نبالتكم! نبالتكم! رسول!

صاح صوت يثقله النوم:

- ماذا؟ ماذا؟ من جانب من؟

قال بولخوفيتينوف وهو عاجز عن تمييز الشخص الذي يستجوبه في الظلام، ولكنه عرف من صوته أنه ليس كونوفنيتسين:

www.Maktbah.com

ـ من جانب دوختوروف ألكسي بيتروڤيتش. إن ناپليون في ڤومينسكوييه.

أخذ الرجل الذي استيقظ يتثاءب ويتمطى. قال وهو يحرك شيئاً ما:

ـ ليست بي رغبة في مناداته. إنه مريض جداً. ولعل هذه إشاعات خاطئة!

فأجاب بولخوڤيتينوڤ: هذا هو التقرير. لدي الأمر بتسليمه فوراً إلى الجنرال المناوب.

ـ انتظر حتى أشعل شمعة.

ثم صرخ الرجل الذي كان يتمطى وهو يخاطب التابع:

ـ أين تحشرها دائماً أيها الأثيم؟ (وكان هذا هو شتشربينين، المساعد العسكري لكونوڤنيتسين) آه! ها هي ذي، هي هي ذي!

قدح التابع الزناد بينما أخذ الضابط يبحث تحسساً عن الشمعدان. قال باحتقار: آه! يا للقذرين.

لمح بولخوڤيتينوڤ على ضوء الشرر المتطاير وجه شتشيربينين الفتي الذي وجد الشمعدان وشاهد أمامه، في زاوية الغرفة رجلاً نائماً كان هو كونوڤنيتسين.

وعندما انقلب اللهب على أطراف الأعواد المطلية بالكبريت من الأزرق إلى الأحمر عند ملامسته الصوفان، أضاء شتشيربينين قنديلاً، الأمر الذي جعل الدويبات التي كانت تقضم الشحم تتراجع هاربة، ثم أخذ يتفحص الرسول. كان بولخوڤيتينوڤ مغطى كله بالوحل ولما أراد أن يمسح وجهه بكمه، لطخه كله.

سأل شتشيربينين وهو يأخذ الغلاف: من الذي أعطى هذه المعلومات؟

فأجاب بولخوڤيتينوڤ:

ـ إن المعلومات صحيحة. فالأسرى والقوقازيون والجواسيس متفقون جميعهم على صحتها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال شتشيربينين وهو يقف ويقترب من الرجل النائم المتقلنس بقلنسوة من القطن المتدثر بمعطفه: إذن، لا مناص، يجب إيقاظه.

صاح:

ـ پيوتر پيتروڤيتش! ـ فلم يتحرك كونوڤنيتسين، فأضاف الضابط وهو يبتسم وكأنه واثق بقدرة ما يقوله على إيقاظه: إلى الأركان العامة!

وفي الواقع إن الرأس ذا القلنسوة القطنية لم يلبث أن ارتفع وبقي وجه كونوڤنيتسين الجميل النشيط ذو الوجنتين اللتين تلهبهما الحمى، محتفظاً حيناً بانعكاس الأحلام المبعدة جداً حول الموقف الحاضر. لكنه بانتفاضة مفاجئة، سرعان ما استعاد سماته المألوفة الهادئة الحازمة.

لم يلبث أن سأل وهو يطرف عينيه للضوء، دون أن يكون في لهجته شيء من التلهف: ما الخبر؟ من جانب من؟

فض كونوڤنيتسين الرسالة وأخذ يقرأها وهو يصغي إلى تقرير الضابط. وبالكاد انتهى من القراءة حتى وضع على الأرض المسواة قدميه المحجوبتين في جوارب من الصوف وبدأ ينتعل حذاءيه العاليين. ثم تخلص من قلنسوته القطنية وسوى شعره على صدغيه ثم وضع عمرته.

ـ هل جئت سريعاً؟ هيا بنا إلى القائد العام.

أدرك كونوڤنيتسين فوراً أن المعلومات المنقولة إليه ذات أهمية كلية وأنه لا يجب إضاعة الوقت. هل كان ذلك خيراً أم شراً؟ لم يفكر في ذلك بل لم يطرح السؤال على نفسه. كانت أمور الحرب تبدو له غير تابعة لا للذكاء ولا للعقل، بل لشيء آخر. وكان يؤمن في أعماق نفسه إيماناً خفياً بأن كل شيء سيسير على أفضل وجه لكنه لا ينبغي تصديقه كما يجب، أقل من ذلك، عدم التحدث عنه وأن الواجب يقتضي بكل بساطة إنجاز ما يعرض من الأمور فكان يعمل ما يتوجب عليه، صارفاً فيه كل قواه.

يبدو أن پيوتر پيتروڤيتش كونوڤنيتسين مثل دوختوروف، لم يأت إلا اتفاقاً على قائمة أسماء من يدعونهم أبطال ١٨١٢ أمثال باركلي، راييڤسكي، إيرمولوف، بلاتوف، وميلوداروڤيتش. إنه مثل دوختوروف، اشتهر بأنه رجل محدود الإمكانيات والمعلومات وأنه مثل دوختوروف، لم يضع قط خطة معركة رغم وجوده دائماً في الأمكنة الأشدّ خطورة. أخذ منذ اللحظة التي رقي إلى رتبة جنرال في الاحتياط، ينام دائماً وبابه مفتوح، يأمر بإيقاظه عند وصول كل بريد. ولقد كان دائماً تحت النار طوال المعركة، فكان كوتوزوف يلومه على ذلك ويخشى أن يرسله في مهمة. كان مثل دوختوروف، إحدى العجلات المسننة التي لا يلحظها المرء والتي تتألف منها الأجزاء الرئيسية للآلة دون ضجة ولا صرير.

ولما خرج من الكوخ إلى الليل الحالك الرطيب، قطب كونوڤنيتسين حاجبيه بسبب ألم رأسه الذي كان في ازدياد كما بسبب الفكرة التي طرأت على رأسه أن كتلة الأشخاص ذوي النفوذ في الأركان ستصبح في غليان لدى اطلاعها على الأنباء، فكان يخشى بينيغسون بصورة خاصة الذي كان منذ معركة تاروتينو على عداوة مع كوتوزوف. سوف يقدمون العروض ويناقشون ويصدرون الأوامر والقرارات! فكان ما يراه يزعجه سلفاً رغم علمه بأنه لا بدَّ وأن يكون كذلك.

والواقع أن تولّ الذي دخل إليه يعلن النبأ، أخذ يعرض آراءه على الجنرال الذي يسكن معه فاضطر كونوڤنيتسين الذي كان يصغي إليه دون أن ينبس بكلمة أن يذكره بوجوب الذهاب عند «عظيم الرفعة».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

مثل كل الأشخاص المسنين، كان كوتوزوف قليل النوم ليلاً، وغالباً ما ينام في النهار، لكنه يمضي ليله متمدداً في السرير دون أن يخلع ثيابه وكان غالباً مشغولاً في التفكير عوضاً عن النوم.

كان على تلك الصورة في تلك اللحظة، مستلقياً فوق سريره ورأسه الضخم الذي يحمل آثار جرح كبير، مرتكز على يده المنتفخة، مستغرقاً في خواطره وعينه الوحيدة محدقة إلى الظلام.

أصبح كوتوزوف أكثر هدوءاً منذ أخذ بينيغسن الذي كان يتصل مباشرة بالأمبراطور ويتمتع بأكبر نفوذ في الأركان العامة، يتجنبه، هدوءاً بمعنى أن ما من أحد أصبح يدفعه إلى إلقاء جيوشه في معركة هجوم عقيمة. فكر بأن درس معركة تاروتينو وأحداث الأمس التي كانت ذكراها أليمة الوقع على نفسه يفيدانهما على كل حال.

راح كوتوزوف يحدث نفسه: «يجب أن يعرفوا تماماً أننا سنخسر كل شيء إذا تحولنا إلى الهجوم. إن الصبر والوقت، هذان هما الشجاعان اللذان سيحاربان من أجلي!» كان يعرف تماماً أنه لا يجوز قطف تفاحة عندما تكون لا تزال فجة. إنها ستسقط من نفسها عندما تنضج. أما بانتزاع التفاحة الفجة، فإننا نشوه الشجرة ولا تصلح الثمرة إلا لإضراس الأسنان. وبوصفه صياداً خبيراً، كان يعرف أن الحيوان جريح جرحاً لا يقدر على مثله إلا مجموعة القوات الروسية. وهل الإصابة قاتلة أم لا، ذلك هو السؤال الذي ظل واجب

www.Maktbah.com

الإيضاح. لقد كان كوتوزوف الآن، بعد تصرفات لوريستون وبترتيبه وتقارير الأنصار، واثقاً أن الجرح مميت. ولكن كان لا يزال في حاجة إلى البرهان وكان عليه أن ينتظر.

قال في سرّه «ليس بهم إلا تلهف واحد، أن يسرعوا لرؤية كيف قتل الحيوان. انتظروا، وسترون تماماً! أبداً «مناورات» وأبداً هجمات! ولماذا؟ بغية إظهار الذات دائماً. وكأن في القتال شيئاً يحمل على البهجة! إنه أشبه بالأطفال الذين لا يمكن أن يطلق شيء على شيء لكثرة ما يستبد بهم الشوق إلى إظهار معرفتهم في القتال، في حين أن الأمر الآن لا علاقة له بكل هذا».

«ويا لها من «مناورات» بارعة تلك التي يعرض على هؤلاء الأشخاص تطبيقها معتقدين أنهم بمجرد التصبر في طارئين أو ثلاثة حوادث عرضية، تبصروا في كل شيء، كل شيء. (وتذكر مخطط الحملة العام الذي أرسل من بيترسبورغ) لكن الحوادث العرضية أكثر من أن تحصى!».

منذ أكثر من شهر، بقي هذا السؤال معلقاً فوق رأس كوتوزوف: هل الجرح الذي أصيبوا به في بورودينو قاتل أم لا؟ إنّ الفرنسيين يحتلون موسكو وهذه واقعة ملموسة. مع ذلك فإن كوتوزوف كان على ثقة مبعثها كل جارحة من جوارحه، بأن الضربة التي وجهها بمجموع القوات الروسية يجب أن تكون قاتلة. ولما كان في حاجة ماسة إلى البراهين، وكان ينتظر منذ شهر طويل، فقد أخذ ينفد صبره أكثر فأكثر كلما مر وقت أطول، وطوال لياليه البيضاء راح يعمل وهو متمدد فوق سريره، مثل ما يفعل جنرالاته الشبان، الشيء بعينه الذي يأخذه عليهم. كان مثلهم، يتصور كل الفرضيات الممكنة مع هذا الفرق: أنه لم يكن يبني شيئاً على تلك الافتراضات وأنه بدلاً من أن يرى افتراضين أو ثلاثة افتراضات، يرى الألوف. وكلما ازداد تفكيراً ازداد عدد الافتراضات في رأسه. كان يتصور كل إمكانيات حركة جيش نابليون،

twitter @baghdad_library

سواء كان مركزاً أو مقسماً إلى مجموعات موجهة ضد پيترسبورغ وضده هو للإحاطة به، ويستعرض الافتراض الذي كان يخشاه أكثر، وهو عودة ناپليون بكل قواته إلى موسكو والبقاء فيها بانتظاره، بل كان كذلك يفكر في حركة تقهقر من جانب جيش ناپليون على ميدين وإيوخنوف. لكن الشيء الوحيد الذي لم يخمنه سلفاً كان ما حدث، ذلك التنقل المخالف للصواب التشنجي لجيش ناپليون طوال الأحد عشر يوماً التي تلت إخلاءه موسكو، ذلك التنقل الذي جعل ممكناً ما لم يكن كوتوزوف يجرؤ أن يتصوره حتى ذلك الحين: التدمير الكامل للجيش الفرنسي. فتقارير دوختوروف حول فوج بروسييه والأنباء الجديدة التي حملها الأنصار حول ضيقة الجيش الفرنسي والتفاصيل حول تجمع القطعات الخارجة من موسكو، كل ذلك يؤيد نظريته أن الجيش الفرنسي قد تشتت وأنه يعد العدة لتقهقره.

لكن هذه الأشياء كلها لم تكن إلا فرضيات يمكن أن تبدو هامة في عيون أشخاص أغرار وليس لكوتوزوف. كان يعرف بسنواته الستين التي قضاها في الخبرة، أي وزن يجب إعطاؤه للإشاعات ويعرف مبلغ استعداد الأشخاص الراغبين في شيء ما، لترتيب الحوادث حتى تؤيد رغباتهم ويعرف في مثل هذه الحالة، كيف يدفعون الأشياء التي تنافي تلك الرغبات.

وعليه، فإن كوتوزوف كلما ازدادت رغبته في رؤية فرضية تتحقق، كلما أمسك بالسماح لنفسه بالإيمان بها. مع ذلك، فإن المسألة كانت تحتكر كل مواهبه الفكرية، إذا كان كل ما تبقى في نظره، مجرد استرسال للحياة العادية وعلى هذا النحو كان يرى مناقشاته مع أركان حربه، ورسائله إلى السيدة دوشتال[1] التي كتبها من تاروتينو، وقراءة رواية ما وتوزيع المكافآت واتصاله

(١) مدام دوشتال، كاتبة فرنسية نحاها ناپليون بسبب آرائها. (المترجم).

www.Maktbah.com

بپيترسبورغ إلخ. لكن هزيمة الفرنسيين، التي حدسها وحده، كانت سره ورغبته الوحيدين.

وإذن، لقد كان ليلة ١١ تشرين الأول/ أكتوبر متمدداً ورأسه مستند إلى يده يفكر في ذلك.

ندت حركة في الغرفة المجاورة وعلت خطوات. كان القادمون هم تولّ وكونوڤنيتسين وبولخوڤيتينوف. صاح بهم: هيه! من هناك؟ ادخلوا! ماذا من جديد؟

وبينما كان وصيف يضيء شمعة، قدم تولّ جوهر الأنباء.

سأل كوتوزوف بوجه أحدث تأثيراً كبيراً في تول عندما رأى ما ارتسم عليه من صرامة باردة على ضوء الشمعة:

ـ من الذي حمل هذه الأنباء؟

ـ لا يمكن أن يحوم حولها الشك يا صاحب السعادة.

ـ ائتني به، ائتني به.

جلس كوتوزوف على سريره وقد تدلت ساقه وثنى الأخرى تحت بطنه الضخم المتهدل. رف بعينه السليمة ليتسنى له تأمل الرسول على نحو أفضل وكأنه يريد أن يقرأ على قسماته ما كان يشغل باله.

قال لبولخوڤيتينوف بصوت العجوز الهادئ وهو يزر قميصه الذي انفتح على صدره:

ـ تكلم، تكلم يا صديقي. اقترب، ادن مني أكثر. أي نبأ تحمله إليّ؟ هه؟ لقد خرج ناپليون من موسكو؟ هذا صحيح هذا؟

شرح بولخوڤيتينوف كل شيء بالتفصيل حسب تعليماته فقاطعه كوتوزوف:

ـ تكلم، ادخل في لب الموضوع بسرعة أكثر، لا تدعني في لهفتي.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وبعد أن روى بولخوفيتينوف كل ما لديه، سكت وانتظر الأوامر. وحاول تول أن يتكلم، لكن كوتوزوف قاطعه. همَّ بأن يقول شيئاً، لكن وجهه تقلص فجأة، فأزاح تول بحركة من يده وأشاح إلى الجهة المعاكسة، نحو الركن الأفضل من الكوخ، الأكثر عتمة من الأركان الأخرى بسبب الصور المقدسة التي فيه. قال بصوت مرتجف وهو يضم يديه:

ـ إلهنا، ربي يا خالقي، لقد سمعت صلاتنا... لقد أنقذت روسيا أشكرك يا إلهي!

وأجهش بالبكاء.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

انصرفت حيوية كوتوزوف كلها إلى كبح جماح قطعاته، منذ اللحظة التي وصلته هذه الأنباء وحتى آخر الحملة، سواء أكان ذلك بالسلطة أم بالخدعة، ومنعهم من القيام بهجومات ومناورات واصطدامات مع عدو هالك لا محالة. لقد اتجه دوختوروف نحو مالوا ياروسلاڤيتز، لكن كوتوزوف لم يزد من سرعته مع جيشه بل أصدر الأمر بإخلاء كالوغا لأن تراجعاً إلى ما وراء المدينة بدا له ممكناً.

استمر كوتوزوف يتقهقر في كل الجهات، بينما العدو الذي لا يتوقع ذلك، يتراجع في اتجاه معاكس.

إنّ مؤرخي ناپليون يصفون لنا «مناوراته» البارعة في تاروتينو ومالوا ياروسلاڤيتز ويستخلصون النتائج مما كان يمكن وقوعه لو أن ناپليون وجد من الوقت ما مكنه من دخول أقاليم الجنوب الغنية.

لكن ما من شيء كان يمنع ناپليون من الدخول إلى تلك الأقاليم الغنية مادام الجيش الروسي فتح له الطريق إليها، ونسي المؤرخون أن جيش ناپليون كان من المستحيل أن ينقذ بعد ذلك لأنه بات يحمل في نفسه بذور الموت. كيف كان يمكن لذلك الجيش الذي وجد في موسكو موارد تموين غزيرة وطئها بالأقدام بدلاً من أن يحافظ عليها، والذي عرض الأرزاق في سمولنسك للنهب والسلب بدلاً من توزيعها، كيف يمكن لهذا الجيش أن يحضّر قواه بعد دخوله ولاية كالوغا، حيث الشعب مؤلف من أولئك الروس أنفسهم الذين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في موسكو، تثيرهم مثل مشاعرهم فيقدرون على إحراق كل ما يمكن إحراقه؟

لم يكن هذا الجيش يستطيع أن يعيد بناء نفسه بعد بورودينو ونهب موسكو، الشروط الكيميائية، إذا صحَّ هذا القول، لتحلله.

كان رجال هذا الجيش العظيم يهربون مع رؤسائهم دون أن يعرفوا إلى أين وليست بهم من رغبة (من ناپليون وحتى آخر جندي) إلا في شيء واحد: أن يعجل كل لحساب نفسه بأقصى ما يمكن في الخروج من هذا المأزق الذي لا سبيل إلى الخلاص منه والذي كانوا جميعهم يشعرون به بشيء من الإبهام.

ولهذا السبب وحده، بينما كان الجنرالات يزعمون الاجتماع في مجلس حربي في مالوا ياروسلاڤيتز ويقدمون الآراء المختلفة، فاز الرأي الأخير الذي عبر عنه أكثر الجنود غباوة، موتو[1] الضخم، إذ قال ما كانوا جميعاً يفكرون فيه: ذلك أنه كان يجب المضي بأسرع ما يمكن ولقد أغلق هذا القول الأفواه كلها حتى أن ما من أحد، ولا ناپليون نفسه، وجد ما يرد به على تلك الحقيقة المعترف بها من قبل الجميع.

كان الجميع رغم معرفتهم الأكيدة، بضرورة المسير، يخجلون من الاعتراف بأنهم مرغمون على الفرار. ولم يكن يستطيع التغلب على ذلك الخجل إلا الصدمة الخارجية. ووقعت تلك الصدمة في الوقت المناسب، فكان مع من أسماه الفرنسيون: «هورّا الأمبراطور».

في اليوم التالي لذلك المجلس الحربي، ذهب ناپليون صباحاً باكراً بحجة تفقد القطعات وساحة معركة أمس ومعركة الغد، وتقدم مع ماريشالاته وحاشيته بين صفوف القتال. وصدف التقاؤه قوقازيين سلابين هاجموا الأمبراطور وكادوا يأسرونه ولقد أنقذ ناپليون بذلك الشيء بالذات الذي

---

(١) جورج موتو، جنرال فرنسي برز في أوسترليتز وإيينا. رقاه الملك لويس فيليب إلى رتبة مارشال فرنسا. (المترجم).

www.Maktbah.com

سبب ضياع الفرنسيين الرغبة في الأسلاب التي دفعت القوقازيين هنا كما في تاروتينو، إلى الإلقاء بأنفسهم على الغنائم وإغفال الرجال، فراحوا يسلبون دون أن يلقوا بالاً إلى ناپليون فاستطاع الإفلات.

ثم كاد «أبناء الدون» يأسرون الأمبراطور وسط جيشه نفسه. إذ كان واضحاً بالنسبة إلى الفرنسيين أنه ليس عليهم من شيء آخر إلا الفرار بأسرع ما يمكن ومن أفضل الطرق المعروفة وأقصرها. ولم يكن ناپليون بكرشه الكبير ذي الأربعين عاماً يشعر بمرونة العهد السابق وجرأته، فاستوعب الإنذار وفهمه. لذلك سرعان ما انحاز إلى رأي موتو، تحت تأثير الخوف الذي أحدثه القوقازيون في نفسه، فأعطى الأمر، كما يقول المؤرخون، بالتقهقر عن طريق سمولنسك.

أن يكون ناپليون من رأي موتو وأن يكون جيشه قد أخذ يتراجع لا يعنيان أنه أمر بالتقهقر، بل يدل على أن القوى المتسلطة على ذلك الجيش لتدفعه على طريق موجاييسك، تسلطت عليه هو الآخر بالمثل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

يتصور المرء دائماً عندما يبدأ الحركة أنه يسير نحو هدف ما ولكي يجتاز حوالى ألف فرسخ يجب إلزاماً أن يفكر في أرض موعودة لتكون له القوة على التقدم.

كانت الأرض الموعودة عند الفرنسيين لدى غزوهم روسيا، هي موسكو لكن الوطن كان بعيداً جداً والرجل الذي أمامه ألف فرسخ يقطعها، يجب بدون شك أن يحدث نفسه تاركاً جانباً الغاية النهائية، أنه سيجتاز اليوم أربعين فرسخاً ثم يستريح وينام، فما إن يقطع المرحلة الأولى، حتى يسلبه مكان الاستراحة الغاية النهائية، ويركز كل رغباته وكل أمانيه. وهذه النزعات التي تعتلج في نفس شخص مفرد، تتضاعف في نفوس جمهور محتشد.

بالنسبة إلى الفرنسيين المتقهقرين على طريق سمولنسك القديم، كان الوطن بعيداً جداً والغاية القريبة التي يهدف إليها هؤلاء الرجال المتجمهرن في كتل هائلة ويتوقون إليها من كل نفوسهم وكل أملهم، هي سمولنسك. لم يكن ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سمولنسك ملأى بالمؤن والقطعات المستريحة، إذ لم يحدثهم أحد بمثل ذلك بل على العكس، كان أركان حرب نابليون نفسه لا يجهلون أن المؤن قد أصبحت قليلة، بل لأن ذلك يعطيهم الطاقة على التقدم فقط واحتمال ضروب الحرمان الحالية، فكانوا جميعاً، الذين يعرفون كالذين لا يعرفون، كلهم يخادعون أنفسهم بالإجماع، ويندفعون نحو سمولنسك كما يندفعون نحو أرض موعودة.

www.Maktbah.com

ما إن وصلوا إلى الطريق الكبير، حتى أسرع الفرنسيون إلى الهدف المنشود بنشاط خارق وسرعة قصوى. وإلى جانب ذلك الاندفاع الجماعي الذي يربط بين هذه الجماعة الكبيرة من الفرنسيين في كلّ كثيف ويضاعف حاصل نشاطهم كان سبب آخر يبقيهم مرتبطين معاً. ذلك هو عددهم نفسه. إن هذه الحشود الكبيرة من الرجال كانت تجذب إليها الأشخاص كما يعمل في الفيزياء قانون الجاذبية تجاه الذرات. لقد كان أولئك الألوف الستمائة من الرجال يتقدمون كتلة واحدة أشبه بدولة كاملة.

لم يكن كل واحد منهم يرغب إلا في شيء واحد: أن يؤسر ويفلت من هذه الأهوال وكل هذه الآلام. ولكن من جهة، كانت القوة الجماعية التي تجذبهم نحو سمولنسك تفرض عليهم جميعاً اتجاهاً واحداً. ومن جهة أخرى، كانت مجموعة كاملة من الجند لا تستطيع أن تتحول إلى سرية. وعلى الرغم من كل المناسبات الممكنة التي انتهزها الفرنسيون للانحراف والوقوع في الأسر، فإن الذرائع لم تكن دائماً تلتقي مصادفات سعيدة. لقد كان عددهم الكبير نفسه وسيرهم الحثيث بصفوف متراصة، يحرمانهم من هذا الأمل. وبالنسبة إلى الروس، لم يكن إيقاف تلك الحركة الجماعية التي يبذل فيها الفرنسيون كل حيواتهم صعباً فحسب بل مستحيلاً. وتوقف هذا الجسم ميكانيكياً لا يمكن أن يزيد أبعد من حد معين تطور الانحلال الذي يكاد يسيطر.

لم يكن أحد آخر غير كوتوزوف، بين كل رؤساء الجيش الروسي، يدرك هذه الناحية فما إن تثبتوا من الاتجاه الذي سار فيه الجيش الفرنسي المنهزم على طريق سمولنسك حتى بدأ يتحقق ما خمنه كونوفنيتسين سلفاً ليلة ١١ تشرين الأول/ أكتوبر. أخذ كل كبار الضباط في الجيش، رغبة منهم في لفت الأنظار إليهم، يطالبون بقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي وتطويقه وأسره وأصبحوا جميعاً يطالبون بالهجوم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

راح كوتوزوف وحده يستعمل قواه كلها، التي ليست كبيرة جداً لدى قائد أعلى، للحيلولة دون الهجوم.

لم يكن يستطيع أن يقول لهم ما نقوله الآن. ما فائدة المعركة، ما فائدة قطع الطريق، وخسارة الجنود، وتذبيح التعساء بتجرد عن الإنسانية، ما فائدة كل هذا إذا كان ثلث ذلك الجيش قد اضمحل من تلقاء نفسه، من موسكو إلى ڤيازما. دون قتال؟ لم يكن يقول لهم في حكمته كعجوز، إلا ما كانوا قادرين على فهمه. كان يحدثهم عن الجسر الذهبي، فكانوا يسخرون منه ويهجونه ويضطربون ويثورون كثيراً بل أكثر، ويتصلفون على الحيوان المصاب بضربة قاتلة.

لم يستطع إيرمولوف وميلورادوڤيتش وپلاتوف والآخرون في ڤيازما، الذين كانوا إلى جوار الفرنسيين، أن يسيطروا على رغبتهم في تمزيق جمهرتين من الجيش الفرنسي إرباً إرباً وقلبهما. ولكي يخطروا كوتوزوف بعزمهم، أرسلوا إليه على سبيل التقرير، غلافاً يحوي ورقة بيضاء.

ورغم كل جهود كوتوزوف لضبط الجيش، فقد هاجم جنودنا كذلك لكي يقطعوا الطريق على الفارين. وقد روي لنا أن ألوية كاملة تتقدمها الموسيقى الصادحة، كانت تمشي إلى النار فتقتل ألوفاً من الرجال وتخسر هي الأخرى الألوف.

أما من حيث قطع الطريق؛ فإنهم لم يقطعوا شيئاً ولم يقلبوا شيئاً. لقد أعطى الخطر الجيش الفرنسي مزيداً من التلاحم فظل يتابع سيره وهو يتلاشى تدريجاً، على الطريق الذي قاده إلى نهايته، نحو سمولنسك.

www.Maktbah.com

الجزء الرابع عشر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

لقد شكلت معركة بورودينو ونتائجها واحداً من أهم الأحداث التعليمية للتاريخ، هو الاستيلاء على موسكو وتراجع الجيوش الفرنسية دون معارك جديدة.

يتفق كل المؤرخين في تأييدهم أن النشاط الخارجي للحكومات والشعوب يظهر بواسطة الحروب وأن النتيجة المباشرة لنجاحهم الكبير أو الضئيل هو زيادة نشاطهم السياسي أو خموده.

ومهما كانت الروايات التاريخية عن هذا أو ذاك من الملوك أو الأباطرة الذين تخاصموا مع هذا أو ذلك من الملوك أو الأباطرة الآخرين، فجمع جيشه ثم فاز بالنصر وقتل ثلاثة أو خمسة أو عشرة آلاف رجل وبعدئذٍ غزا الدولة هذه والشعب ذاك الذي تعداده بضعة ملايين من البشر. ومهما كانت هزيمة جيش ما يمثل جزءاً من مجموع القوى العامة لشعب ما غامضة، فإنها تجر معها خضوع ذلك الشعب كله، حيث إن الوقائع التاريخية كلها في النطاق الذي نعرفها فيه، تؤيد هذه الحقيقة، من أن زيادة تفوق أسلحة شعب ما أو نقصانه على أسلحة شعب آخر، هي السبب، أو أقله الدليل على ازدياد قدرة ذلك الشعب أو ضعفها. يكسب جيش ما معركة ما، فلا تلبث حقوق الغالب حتى تفرض على حساب المغلوب. ولا يمر جيش بهزيمة حتى يفقد شعب ذلك الجيش حقوقه بنسبة الهزيمة، فإذا ما كان الإخفاق تاماً، تكون النسبة كاملة.

ولقد كان الأمر كذلك، بحسب التاريخ، منذ أقدم العصور حتى أيامنا

twitter @baghdad_library

هذه. وحروب ناپليون كلها ليست إلا تأكيداً لهذه القاعدة. فبقدر ما انهزمت جيوش النمسا سلبت النمسا من حقوقها في حين زادت فرنسا من حقوقها وقوتها ولقد وضع الانتصاران في إيينا وفي أوير ستادت، نهاية للطاقة البروسية المستقلة.

ولكن بعد فترة، عام ١٨١٢، انتظر الفرنسيون قرب موسكو واحتلوا هذه المدينة. ولكن بدا أنه، دون معارك جديدة، ليست روسيا هي التي كفت عن البقاء، بل ذلك الجيش المؤلف من ستمائة ألف مقاتل ومن ورائه فرنسا، «فرانسة» ناپليون أما أن نتجنى على الحوادث لنثنيها امتثالاً لقوانين التاريخ فنقول مثلاً إن ساحة القتال في بورودينو قد ظلّت بين أيدي الروس وأنه بعد موسكو، أبادت المعارك التي نشبت، الجيش الفرنسي فإنّ ذلك مستحيل قطعاً.

فبعد نصر بورودينو، لم تقع معركة واحدة، لا معركة شاملة فحسب بل ولا حتى على جانب من الأهمية. مع ذلك، فقد آب الجيش الفرنسي إلى نهايته فما معنى هذا؟ لو أن ذلك كان مثلاً أخذ من تاريخ الصين، لأمكننا أن نزعم أن هذه الظاهرة ليست تاريخية (وهذا مجال إفلات المؤرخين حالما يعرض شيء لا يتأطر مع نظرياتهم). ولو أن المسألة كانت تتعلق بمناوشات قصيرة الأمد لم تساهم فيها إلا قوات قليلة العدد، لأمكننا أن نأخذ هذا الحدث على الاستثناء. لكن الواقعة حدثت تحت أعين آبائنا الذين كان موت الوطن وحياته في يد عفريت بالنسبة إليهم، وكانت هذه الحرب من أكبر كل الحروب المعروفة.

إن فترة حملة ١٨١٢ التي تبدأ من بورودينو حتى طرد الفرنسيين، تبرهن على أن معركة رابحة ليست دائماً سبب اجتياح بلاد ما، بل ليست حتى دلالة

www.Maktbah.com

على ذلك الاجتياح. إنها تبرهن على أن القوة التي تقرر مصير شعب ما لم تعد لها علاقة بالغزاة ولا بجيوشهم وبمعاركهم، بل تتعلق بشيء آخر.

إن المؤرخين الفرنسيين الذين يصفون موقع الجيش الفرنسي عشية يوم انسحابه من موسكو، يؤكدون أن كل شيء في ذلك الجيش العظيم كان على أفضل حال باستثناء الفرسان والمدفعية وسير العربات، وأنه كان يعوزهم العلف للجياد ولذوات القرون من الحيوان. وعليه، فإن ما من شيء كان يستطيع معالجة هذا الحرمان مادام القرويون كانوا يحرقون العلف مفضلين ذلك على إعطائه إلى الفرنسيين.

وإذا كانت المعركة المكتسبة لم تؤد إلى أي من النتائج المألوفة، فما ذلك إلا لأن الفلاحين (الموجيك) كارب وفلاس لم يظهرا بصورة عامة أية بطولة شخصية، واللذين، بعد رحيل الفرنسيين، جاءا إلى موسكو لنهب المدينة فعملا مقتديين بالأكثرية الساحقة من مواطنيهم، وبدلاً من أن ينقلا العلف إلى موسكو، رغم السعر المغري الذي دفع لهما، أشعلا النار في ذلك العلف.

لنتصور رجلين عازمين على التبارز بالسيف وفقاً لكل قواعد لعب السيف فتطول المبارزة وقتاً طويلاً وفجأة، يدرك أحد الخصمين بعد أن يحس بالجرح الذي أصابه، أن المسألة بدلاً من أن تكون دعابة، تعرض حياته للخطر، فيلقي بسيفه ويمسك بأول هراوة تقع عليها يده ويشرع في إدارتها حول رأسه. والآن لنفرض أن هذا المبارز الذي يستخدم أفضل وسيلة لبلوغ غايته بحكمة فائقة تعتلج في نفسه أعنف العواطف الأبية وأنه يريد إخفاء ما وقع تماماً ويحاول أن يزعم بأنه هزم عدوه بالسيف طبقاً لكل قواعد الفن. نستطيع أن نتصور مقدار ما يكتنف وصف هذه المبارزة من إبهام وغموض.

فالمبارز الذي يتطلب أن تدور المعركة وفقاً لقواعد الفن هو الفرنسي.

twitter @baghdad_library

وخصمه الذي طرح سيفه ليمسك بالهراوة، هو الروسي والأشخاص الذين يشحذون هممهم لشرح الموضوع وفقاً لقواعد فن المبارزة هم المؤرخون.

بدأت حرب لا سابق لها في التقليد العسكري منذ حريق سمولنسك. فحريق المدن والقرى، والتقهقر بعد المعارك وصدمة بورودينو التي تبعها تراجع جديد وحريق موسكو ومطاردة النهابين والاستيلاء على القوافل وحرب الأنصار كل هذه الأشياء خارجة عن قواعد الفن العسكري.

شعر ناپليون بذلك منذ اللحظة، عندما وقف في موسكو في وضعية المبارز الصحيحة فرأى بدلاً من السيف الموجه إليه، هراوة مشرعة فوق رأسه ومنذ تلك اللحظة، لم يكف عن الشكوى إلى كوتوزوف وإلى ألكسندر بأن الحرب قد سارت ضد كل القواعد، وكأن هناك قواعد لقتل الأشخاص. مع ذلك، رغم شكاوى الفرنسيين من خرق القواعد، ورغم الخجل الذي شعر به بعض الرجالات البارزين الروس الذين رأوا أن من العار القتال بالهراوة وأرادوا التبارز رباع أو ثلاث حسب القواعد وتوجيه ضربة مفاجئة للخصم إلخ. فإنّ هراوة الشعب المحارب ارتفعت بكل قوته المتوعدة، ارتفعت مزدرية كل ذوق سليم وكل علم ببساطة غليظة حقاً، ولكن باتجاه مباشر نحو الهدف دون أي تمييز، ارتفعت وهوت فقرعت الفرنسيين حتى أفنت الغزوة كلها.

ولا يليق النجاح بأولئك الذين كالفرنسيين عام ١٨١٣، يحيون عدوهم حسب كل قواعد الفن ويقدمون له سيفهم من المقبض ثم يسلمونه بكياسة وأدب إلى المنتصر شريف النفس، بل إن النجاح يليق بالشعب الذي لا يتساءل ساعة المحنة عم فعل الآخرون وفقاً للقواعد الفنية في ظروف مماثلة، ولكن يشرع ببساطة ودون جهد أول هراوة يلقاها، ويضرب بها حتى اللحظة التي يحل محل الحقد في نفسه على إهانته، الاحتقار والإشفاق.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

إن نشاط بعض الأشخاص المستقلين ضد كتلة كثيفة من الرجال هو أكثر الاستثناءات وضوحاً وأعظمها خصباً لما يسمونه قواعد الحرب. وهذا النوع من العمليات يحدث دائماً في الحرب التي تتخذ صفة قومية. فهي تقوم على أساس أنه بدلاً من مقارعة العدد بالعدد، ينقسم الرجال إلى فصائل صغيرة ويهاجمون منفردين ويفرون إذا كانوا أمام قوات متفوقة ليعودوا إلى الهجوم حالما تسنح الفرصة بذلك. كذلك كان المحاربون في إسبانيا ودفاع الجبليين في القوقاز وكذلك كان حال الروس عام ١٨١٢

ولقد سمّيت هذه الطريقة في القتال بحرب الأنصار، وأعتقد أنهم حددوا معناها بهذه التسمية. بيد أن هذا الشكل من الحرب، يتنكب كل القواعد بل يتعارض مع قوانين «التكتيك» الأكثر شيوعاً، الشهيرة بأنها لا تخيب وتبعاً لهذه القوانين، يجب على الذي يهاجم أن يركز قواته بشكل يصبح معه أقوى من خصمه عندما تبدأ المعركة.

وحرب الأنصار، وهي دائماً حرب منتصرة كما يبرهن التاريخ، تتجه دائماً عكس هذا القانون.

وينجم هذا التناقض عن أن العلم العسكري يحدد قوة جيش ما، بعدد ذلك الجيش، والعلم العسكري يقول إنه كلما كان جيش ما كبير العدد كان كذلك أكثر قوة: «إن الألوية الضخمة هي المحققة دائماً».

والعلم العسكري بتأكيده هذا القول، يشبه حركة لا تتأثر بدراسة القوى،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلا بالعلاقة بين كتلها، وتستنتج على سبيل تساوي القوى، واقعة تساوي الكتل فحسب.

في حين أن القوة (كمية الحركة) هي حاصل ضرب الكتلة بالسرعة.

وفي كل حدث حربي، تكون قوة جيش ما، حاصل ضرب الكتلة بمجهول س، كذلك.

والعلم العسكري الذي يرى في التاريخ أمثلة فصائل كانت قوة القطعات فيها لا تتناسب مع كتلتها، بل كانت فصائل صغيرة تتغلب على أخرى أكثر عدداً يتقبل بإبهام وجود ذلك العدد المضروب فيه المجهول ويسعى جاهداً لكشفه سواء في هندسة خطة ما أو في التسلح أو، وهي من أكثر الحالات طبيعية، في عبقرية الرؤساء. لكن استعمال كل قيم المضروب فيه المجهول هذا لا تعطي النتائج المطابقة للأحداث التاريخية.

مع ذلك، يكفي التنكر للكذبة التي تعزو، الدعم الأكبر لمصالح الأبطال، لفعالية الاستعدادات القيادة العليا، حتى نكتشف ذلك المجهول س.

فهذا الـ: «س»، وهو معنوية الجنود، أي زيادة الرغبة في القتال وفي التعرض للخطر أو نقصانها، التي يمكن أن تجيش في صدور كل الجنود الذين يشكلون جيشاً، وذلك على نحو مستقل تماماً عن مسألة معرفة ما إذا كانوا يقاتلون تحت إمرة عباقرة، على ثلاثة خطوط أو على خطين، وبالهراوات أو البنادق التي تطلق ثلاثين طلقة في الدقيقة. إن الرجال الذين لديهم رغبة كبرى في القتال، يقيمون أنفسهم دائماً من تلقاء أنفسهم في المراكز الأكثر قابلية للقتال.

إنّ معنوية الجنود هي المضروب فيه بالكتلة الذي يكون حاصل ضربه قوة الجيش وتحديد وتعريف قيمة معنوية جيش ما، هذا المضروب فيه المجهول هما المسألة واجبة الحل.

www.Maktbah.com

إنّ هذه المسألة لا يمكن أن تحل إلا على الطريقة الآتية: لنكف عن الإدخال الفرضي في المعادلة، مكان س قيمة المجهول كله، شروط ظهور القوة، كترتيبات الرئيس والتسلح إلخ، واعتبارها قيم المضروب فيه. ولنأخذ على العكس، هذا المجهول كاملاً، أي بوضعه الرغبة القصوى أو الدنيا في القتال والتعرض للموت. وحينئذٍ فقط، بعد أن نضع الأحداث التاريخية المعروفة في المعادلة ونقارن بين كل حالة، قيمة ذلك المجهول، نستطيع أن نأمل تحديد طبيعته.

عشرة رجال أو ألوية أو أفواج في قتال مع خمسة عشر رجلاً أو لواء أو فوجاً انتصروا، أي قتلوا وأسروا كل خصومهم دون استثناء ولم يخسروا إلا أربعة منهم. وإذن، لقد وقع من جانب خسارة أربعة رجال ومن الجانب الآخر خمسة عشر رجلاً. وبالتالي، تساوى أربعة مع خمسة عشر، ومنهم ينجم أنَّ: ٤س=١٥ق وإن س: ق=٤:١٥. وهذه المعادلة لا تعطي قيمة س المجهول، بل النسبة بين المجهولين. وبإخضاع مختلف الوحدات التاريخية المأخوذة إفرادياً لمثل هذه المعادلة، (معارك، حملات، أزمنة الحرب) نحصل على سلسلة من الأرقام يجب أن تحوي قوانين وأن تكشف قوانين فيها.

والقاعدة «التكتيكية» التي توعز التصرف خلال الهجوم الجماعي وبنظام مشتت خلال التقهقر، تؤكد، دون أن تتعمده، هذه الحقيقة من أن قوة جيش ما تتوقف على المعنويات التي تحضه. ولكي نقود رجالاً تحت القنابل، يقتضي ذلك نظام أكثر من قيادتهم لصد هجوم، وهذا النظام يتطلب حركة جماعية. لكن هذه القاعدة التي تغفل معنوية الجيش، لاتني تبرهن على خطئها وعلى أنها على وجه الدقة، معارضة تماماً للوقائع، حينما تظهر حمية قوية أو هبوط في معنويات الجنود، وذلك في كل الحروب القومية عموماً.

خلال تقهقرهم عام ١٨١٢، أخذ الفرنسيون الذين كان عليهم تبعاً

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لقواعد «التكتيك» أن يدافعوا عن أنفسهم مبعثرين، يتكتلون على العكس في مجموعات كبيرة، لأن معنويات الجنود كانت شديدة التدني حتى أنّ كتلة واحدة تستطيع إيقاف مجموع الجيش. أما الروس، فعلى العكس، كانوا، تبعاً لنظام «التكتيك»، مدعوين إلى الهجوم عليهم كتلة واحدة؛ في حين أنهم تشتتوا لأن معنوية جنودهم كانت على درجة من الارتفاع، حتى أن الأشخاص المستقلين لم يكونوا في حاجة إلى صدور الأمر إليهم ليضربوا الفرنسيين وليتعرضوا للمتاعب والأخطار.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

منذ أن دخل العدو إلى سمولنسك، نشبت الحرب المسماة بحرب الأنصار.

وقبل فترة طويلة من اعتراف حكومتنا رسمياً بهذه الحرب، استؤصل الألوف من جنود الأعداء، بين متخلف وسارق ورائد من قبل القوقازيين و«الموجيك» بشكل لا إرادي مثلما تعض الكلاب كلباً مسعوراً. وكان دينيس داڤيدوف بحاسته الوطنية، أول من أدرك القيمة الرهيبة للهراوة التي كانت تبيد الفرنسيين بصرف النظر عن قواعد الفن العسكري، وإليه يرجع الفخر بأنه قام بالخطوة الأولى لتنظيم هذا النوع من القتال.

في الرابع والعشرين من آب/ أغسطس، نظمت الفصيلة الأولى من أنصار داڤيدوف وتبعه آخرون نهجوا نهجه. وكلما تقدمت الحملة، ازداد عدد هذه الفصائل.

بدأ الأنصار يدمرون الجيش الكبير تفصيلاً، فكانوا يكنسون الأوراق الميتة التي تتخلف من تلقاء نفسها عن الشجرة في طريقها إلى الجفاف، الجيش الفرنسي، بل يزعزعون الشجرة نفسها أحياناً. وفي تشرين الأول/ أكتوبر، عندما كان الفرنسيون يهربون باتجاه سمولنسك، كانت هذه الفصائل ذات الأهمية والسمات المختلفة، تعد بالمئات. وكان لبعضها كل مظاهر الجيش المنظم بمشاتها ومدفعيتها وأركان حربها وكل وسائل الرفاهية في الحياة بينما كانت فصائل أخرى تضم فرساناً وقوقازيين فحسب، وفصائل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أخرى، أصغر منها مؤلفة من خليط من المشاة والفرسان.. بل إن بعضها كان مؤلفاً من قرويين ومالكين ومدنيين غير معروفين. إنهم يروون أن شماساً على رأس بعض الأنصار، أسر، في شهر واحد، مئات من الجنود، وكذلك زوجة إقطاعي بولوني تدعى ڤاسيليسا قتلت مئات من الفرنسيين.

خلال أيام تشرين الأول/ أكتوبر الأخيرة، بلغت حرب الأنصار أوجها. لقد انقضى ذلك الوقت الذي كان الأنصار أنفسهم، في دهشة لجرأتهم، يخشون في كل لحظة أن يطوقهم الفرنسيون ويأسروهم، والذين كانوا خلاله لا يترجلون عن جيادهم أو يريحون مطاياهم، ويختبئون في الغابة منتظرين أن يطاردهم العدو. لقد اتخذت هذه الحرب الآن شكلاً معيناً وأصبح كل واحد يعرف بوضوح ما عليه القيام به ضد الفرنسيين وما يتعذر الشروع به. ومنذ ذلك الحين، بقي بعض رؤساء الفصائل وحدهم، الذين كانوا يسيرون بعيداً عن الفرنسيين مع أركان حربهم المنظمة، على اعتقادهم بأن كثيراً من المشاريع لا تزال مستحيلة التطبيق.

أما رؤساء الفصائل الصغيرة، الذين بدأوا عملهم منذ مدة طويلة ورأوا الفرنسيين عن قرب، فكانوا على العكس، يجدون ممكناً ما لم يكن قادة الفصائل الكبرى يجرؤون على مجرد التفكير فيه. أما القوقازيون والقرويون الذين كانوا من جانبهم يتسللون إلى صفوف الفرنسيين، فكانوا يقدرون أنهم منذ ذلك الحين، يستطيعون عمل أي شيء بكل قحة.

وفي الثاني والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، وجد دينيسوف نفسه، وكان على رأس فصيلة في عداد الأنصار، يتحرق بحمى اللهفة. لقد كان ورجاله منذ الصباح يتقدمون. لقد راقبوا طوال النهار، خلال أغصان الغابة المحاذية للطريق العام، قافلة فرنسية تحمل العتاد ولوازم الفرسان ولوازم الأسرى انفصلت عن مجموع جموع الجيش في طريقها في سمولنسك،

www.Maktbah.com

تواكبها قوة كبيرة من الحرس بحسب معلومات الجواسيس والأسرى الهاربين. ولم يكن دينيسوف وحده الذي يعرف خبر مرور هذه القافلة، إذ وصل خبرها إلى دولوخوف الذي كان هو الآخر على رأس فصيلة صغيرة من الأنصار، ينشط في القطاع نفسه. وإلى رؤساء كتائب أخرى أكبر عدداً، متمتعة بهيئات أركان حرب خاصة بها. كان الخبر منتشراً في كل مكان إذن، فكان العارفون به، على قول دينيسوف نفسه يشحذون أسنانهم سلفاً. ولقد أرسل رئيسا كتيبتين كبيرتين، الأول بولوني والثاني ألماني، إلى دينيسوف بأنَّ واحداً تقريباً، يسأله كل منهما عم إذا كان يريد أن يتحد معه للهجوم على القافلة.

صاح دينيسوف وهو يقرأ رسالتيهما:

ـ كلا يا إخوان، إن لي شعراً نابتاً حول ذقني.

وردَّ الألماني بأنه رغم رغبته المخلصة في العمل تحت إمرة جنرال لامع وشهير مثله، فإنه مضطر إلى حرمان نفسه من هذا الشرف لأنه قد انضوى قبل ذلك تحت لواء الجنرال البولوني. وكتب إلى البولوني هذه العبارات بالضبط مؤكداً له أنه انضوى قبل ذلك تحت لواء الألماني.

قرر دينيسوف بعد أن اتخذ هذه الإجـراءات، أن يهاجم القافلة مع دولوخوف، دون أن يعلم هذين الجنرالين بالأمر، وأن يستوليا عليها بقواتهما الشخصية. وكانت هذه القافلة يوم ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر، تتبع الطريق المؤدي من ميكولينو شامشيفو. وعلى جانب الطريق الأيسر بين هاتين القريتين امتدت أحراج كثيفة كانت في بعض الأماكن تبلغ الطريق وفي جهات أخرى تبتعد عند مسافة ميل أو أكثر. وفي هذه الأحراج كان دينيسوف يتوغل فيها تارة حتى يبلغ عمق الغابة، ويعود إلى تخومها تارة أخرى، ويمشي طوال ذلك النهار دون أن تغيب القافلة عن عينيه. وفي الصباح، غير بعيد عن ميكولينو، حيث الغابة تحاذي الطريق، أسر قوقازيو دينيسوف عربتي نقل غائصتين في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الوحل كانتا محملتين بسروج للجياد، واقتادوهما إلى الغابة. ومنذ ذلك الحين وحتى المساء، بقيت الفصيلة تتبع حركة الفرنسيين دون أن تهاجم. كان يجب عدم بث الذعر في قلب العدو وتركه في أمان حتى يبلغ شامشيفو، وحينئذٍ يتم الاتصال بدولوخوف الذي يجب أن يكون متمركزاً مساء في مكان ما من الغابة على بعد فرسخ من القرية، لاتخاذ التدابير الأخيرة ثم للوقوع فجر اليوم التالي من الجانبين معاً على القافلة كالبرد، وقتل كل الجنود ونهب الأشياء كلها دفعة واحدة.

وعلى بعد فرسخين وراء ميكولينو، في المكان الذي تتقدم الغابة حتى تصل إلى الطريق، تركوا ستة من القوقازيين مهمتهم إخطار رؤسائهم حالما تظهر لأعينهم على الطريق فرقة فرنسية جديدة.

أمام شامشيفو، كان على دولوخوف أن يتفحص الطريق ليعرف المسافة التي تفصل القوات العدوة الأخرى عن مكان القافلة. ولقد قدروا الجنود المرافقين للقافلة بألف وخمسمائة رجل، وكان مع دينيسوف مائتا نصير ومع دولوخوف مثل هذا العدد تقريباً لكن تفوق العدد لم يكن ليعيق دينيسوف. لكنه كان في حاجة إلى معرفة شيء واحد: ما هي على الضبط القوات التي ترافق القافلة؟ فكان على دينيسوف والحالة هذه أن يستولي على «لسان» أي أن يأسر رجلاً من القوة العدوة. ولقد كان هجوم الصباح على العربات المحملة سريعاً جداً حتى أن الفرنسيين الذين كانوا قرب العربات قتلوا جميعاً ولم يؤخذ حياً إلا قارع طبل صغير. وكان قارع الطبل هذا متخلفاً، لم يعرف أن يقول شيئاً دقيقاً عن تشكيلات الحامية.

رأى دينيسوف أن الهجوم مرة ثانية خطير خشية أن يستنفر الحامية كلها لذلك أرسل إلى الأمام قروياً من جماعته اسمه تيخون شيرباتوف، كان عليه إذا أمكن، أن يأسر أقله رائداً فرنسياً من جنود الطليعة المخيمين هناك في ذلك الوقت.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

كان اليوم خريفياً ساكناً والمساء والأفق مصطبغين بلون واحد، لون الماء الكدر والمطر ينهمر بغزارة، تارة رذاذاً وطوراً قطرات كبيرة تجلد الهواء بخطوط منحنية.

وكان دينيسوف يتشح بردائه الصوفي المبطن ويعتمر قلنسوة من الفراء يقطر منهما المطر، ممتطياً صهوة جواد أصيل ونحيل. وكأن جواده، يحني رأسه إلى جانب، متيقظ الأذن، متقلص الأسارير تحت ذلك المطر المنهمر يسبر المساحة التي أمامه بقلق، ووجهه المهزول الذي غطته لحية قصيرة سوداء كثيفة، يبدو غاضباً.

وإلى جانب دينيسوف، مثله في ردائه الصوفي المبطن باللبد والقلنسوة من الفراء، كان رئيس الفرق القوقازية، مساعده، معتلياً صهوة واحد من جياد الدون، حسن التغذية ضخم.

وكان الرئيس القوقازي لوڤاييسكي الذي يرافقهما في مثل ثيابهما، ثالث الثلاثة. إنه فتى عملاق شاحب، رقيق كلوح من الخشب، أشقر ذو عينين صافيتين، يعرب وجهه وكل كيانه عن رجل واثق بنفسه. وعلى الرغم من استحالة قول ما في ذلك الفرس والفارس من شيء خاص لدى النظرة الأولى التي تلقى على الرئيس ودينيسوف، فإنه كان واضحاً أن دينيسوف، المبلل بالمطر المنزعج في وضعه ليس إلا فارساً اتفاقاً بينما الرئيس المستوي على السرج بهدوء طبيعي وراحة، لم يكن مع راحلته إلا قطعة وقوتاهما متوافقتان.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان القروي الذي يقوم بدور الدليل، يسير أمامهم متقدماً قليلاً وقد تبلل حتى العظام وهو في معطفه الرمادي وقلنسوته البيضاء.

وإلى الوراء قليلاً، على صهوة جواد أصيل نحيل، ذي ذيل وعرف كثيف، وخطم أدماه اللجام، كان ضابط شاب فوق جواده وهو متدثر بمعطف أزرق فرنسي.

وإلى جانبه، فارس شاب كان يردف وراءه فتى صغيراً مرتدياً زياً فرنسياً ممزقاً وعلى رأسه قلنسوة زرقاء، كان يتشبث بالفارس بيديه الحمراوين من البرد ويحرك قدميه العاريتين محاولاً بعث الدفء فيهما وينظر حوله بدهشة مرفوع الحاجبين. إنه قارع الطبل الصغير الذي أسر صباح ذلك اليوم.

وفي أعقابهم، في طريق الغابة الضيق، الذي تناثرت عليه الأوراق الميتة، راح الفرسان يتقدمون في الطليعة، ثلاثة أو أربعة في كل صف ومن ورائهم القوقازيون بعضهم في أردية وبعضهم في معاطف فرنسية والبعض الآخر يضعون على رؤوسهم أجلال الجياد. وكانت الجياد الشقراء أو الكمت تبدو سوداء بسبب المطر الذي كان ينهمر عليها. وكانت رقابها تبدو ضيقة بشكل غريب لكثرة ما أصاب أعرافها من بلل، ومجموع شعرها يتصاعد منه البخار. وكل شيء، الألبسة والسروج والأعنة، كلها كانت مبللة، لزجة، تلتمع من الماء، مثل الأرض والأوراق الميتة على الطريق. وكان الفرسان منهم يعملون جاهدين على ألّا يتحركوا بغية تدفئة الماء الذي تسلل إلى أجسادهم والحيلولة دون دخول قطرات أخرى أكثر برودة فوق السرج وعلى أنوفهم وفوق ركبهم. وفي وسط الفرقة، في إطار من القوقازيين، كانت عربتا نقل مقطورتان إلى جياد فرنسية وجياد قوقازية، وهذه مسرجة، ترتجفان فوق أرومات الأشجار والأخشاب اليابسة أو تخوضان في الحفر الملأى بالماء.

www.Maktbah.com

انتحى جواد دينيسوف جانباً لكي يتجنب بركة ماء فاصطدمت ركبة الفارس بشجرة، فزمجر دينيسوف ساخطاً: ألف رعد!.

وساط الجواد مرتين أو ثلاثاً فغطى نفسه بالوحل كما لطخ به جاره.

لم يكن دينيسوف على ما يرام لأن المطر كان ينهمر ولأنه كان جائعاً، فهو لم يتناول طعاماً منذ الصباح، وبصورة خاصة، لأن دولوخوف لم يعطه بعد أية إشارة تدل على وجوده ولأن الرجل الذي أرسله ليجيء «بلسان» لم يرجع بعد.

أخذ دينيسوف يفكر وهو يراقب الأبعاد آملاً أن يرى رسول دولوخوف قادماً: «يصعب إيجاد فرصة مشابهة لمهاجمة قافلة والاستيلاء عليها، لكن، إذا هاجم منفرداً، أمر شديد التعرض للخطر، وإذا أرجئ الأمر إلى الغد، معناه أن تفلت الطريدة منا لتستولي عليها كتائب الأنصار الكبيرة تحت أنوفنا».

ولما وصل إلى بقعة جرداء تمتد الرؤية فيها نحو اليمين، توقف دينيسوف وقال:

ـ إن بعضهم آت.

نظر رئيس القوقازيين في الاتجاه الذي عيّنه دينيسوف.

ـ قال الرئيس الذي كان يحب الكلمات المجهولة من القوقازيين.

ـ إنهما اثنان، ضابط وقوقازي. غير أنه: «غير قابل الحدس» ما إذا كان نائب الزعيم.

انحدر الفارسان اللذان يرقبونهما من على منحدر واختفيا ليعودا بعد بضع دقائق. ظهر الآن في المقدمة الضابط يثخن جواده المنهك بضربات السياط وهو يجري متشعثاً، يقطر الماء منه وقد رفع أكمام سراويله حتى الركبتين. ومن ورائه، راح قوقازي يسرع وهو واقف على ركابين. اقترب الضابط، وهو ذو وجه كبير مستدير قرمزي، وعينين حيتين، ومد لدينيسوف غلافاً مبللاً، وقال: من جانب الجنرال. أعذرني إذا لم يكن جافاً تماماً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تناول دينيسوف الورقة ففضّها مقطب الحاجبين، فقال الضابط يحدث الرئيس القوقازي بينما كان دينيسوف يقرأ الرسالة:

ـ لقد قالوا جميعاً إن الأمر خطير، خطير جداً. لذلك فإن كوماروف وأنا، وأشار إلى تابعه، اتخذنا كل الاحتياطات. فلدى كل منا مسدسان.

ثم سأل عندما رأى قارع الطبل الصغير:

ـ وهذا، ما هذا؟ سجين؟ هل التحمتم في معركة؟ هل يمكن التحدث إليه؟ وفجأة صاح دينيسوف بعد أن قرأ رسالته:

ـ روستوف! پيتيا! لماذا لم تقل إنك أنت؟.

والتفت إليه مبتسماً ومد يده إلى الضابط الشاب.

والحقيقة أن ذلك الضابط كان پيتيا روستوف.

لقد أعد پيتيا نفسه خلال الطريق ليلاقي دينيسوف لقاء الرجل والضابط دون أن يتظاهر بأنه يذكر علاقاتهما السابقة. ولكن، ما إن ابتسم له، دينيسوف حتى أضاء وجهه واحمرَّ من الفرح فنسي المظهر الرسمي الذي كان يريد الظهور به وبدأ يروي سروره لانتقائه لمثل تلك المهمة ويقص كيف مر أمام الفرنسيين وشاهد النار في ڤيازما، حيث امتاز واحد من الفرسان..

قاطعه دينيسوف وقد استعاد مظهره القلق: حسناً، إنني مسرور برؤيتك.

وقال وهو ينظر إلى رئيس القوقازيين مساعده:

ـ يا ميخائيل ڤيوكليتيتش، إن الرسالة من الألماني. إنه تحت إمرته.

وشرح دينيسوف أن الورقة التي سلمت إليه كانت تأكيداً لأمر الجنرال الألماني للالتحاق به لمهاجمة القافلة وأعقب:

إذا لم نأسر القافلة حتى غد، ستمر تحت أنفنا.

وبينما دينيسوف يتحدث مع الرئيس، تصور پيتيا الذي اضطرب للهجته الباردة، أن كمّي سرواله المرفوعين هما سبب ذلك، فمد يده متحسساً من

تحت معطفه فأسدلهما بدقة ثم جاهد ليتخذ أفضل مظهر عسكري ممكن وقال لدينيسوف وهو يعود إلى وضعه الذي أعده خلال الطريق، وضع مساعد عسكري أمام جنراله، وهو يرفع يده إلى حافة عمرته: ما هي أوامر نبالتكم العلية، أم ترى يجب أن أنتظر إلى جانب نبالتكم؟.

قال دينيسوف ساهماً: أوامري؟ هه، هل تستطيع الانتظار هنا حتى الغد؟.

صاح پيتيا:

ـ آه! بكل طيبة خاطر.. وهل أستطيع ملازمتك؟.

سأل دينيسوف:

ـ نعم. ولكن ما هي الأوامر التي أعطاها إليك الجنرال على الضبط؟ هل قال لك بالعودة فوراً؟.

أصبح وجه پيتيا قرمزياً: وسأل بقلق:

ـ هو؟ إنه لم يصدر إلي أي أمر، حسناً، هل أستطيع؟.

فأجب دينيسوف: حسناً، اتفقنا.

والتفت إلى مرؤوسيه فأصدر إليهم تعليماته. كان على الفرقة كلها أن تذهب قرب منظرة، في المكان المحدَّد من الغابة، بينما يمضي الضابط ذو الحصان الكرجي للبحث عن دولوخوف لمعرفة مكان وجوده وما إذا كان سيأتي خلال السهرة. وكان هو نفسه يريد الذهاب مع رئيس القوقازيين وپيتيا إلى تخوم الغابة من جهة شامشيڤو ليتعرف إلى المكان الذي سيوجه إليه هجوم الغد من موقع الفرنسيين.

قال للقروي الذي كان يقوم بعمل الدليل: هيا، أيها الملتحي. قدنا إلى شامشيڤو.

واتجه دينيسوف وپيتيا والرئيس، يتبعهم بعض القوقازيين والفارس مردف السجين، إلى اليسار عبر الوادي ليبلغوا تخوم الغابة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

توقف المطر لكن الرذاذ استمر ينهمر وتنثال قطرات الماء من الأغصان. وبدأ دينيسوف والرئيس القوقازي وپيتيا يتقدمون بصمت وراء القروي ذي القلنسوة الذي كان بحذاءيه المصنوعين من القنب، يمشي بخفة ودون صوت على الجذور والأوراق المبللة باتجاه تخوم الغابة.

وبعد أن وصل مرتفعاً، توقف القروي، وراح يتفحص ما حوله ثم اتجه نحو ستر من الأشجار المتناثرة. وبالقرب من شجرة سنديان لم تكن قد فقدت أوراقها بعد وتوقف وأشار بيده بحركة نداء سرية.

تقدم دينيسوف وپيتيا. كان المكان الذي وقف فيه الرجل يسمح برؤية الفرنسيين. فبعد الغابة مباشرة، كان حقل من الحنطة ينفتح منحنياً فوق سفح متعرج، وإلى اليمين، في الجهة المقابلة لواد شديد الانحدار، كانت قرية صغيرة يرى فيها منزل السيد ذو السقوف المتهدمة. وعلى مسافة مائتي «ساجين» من هناك (الساجين ١٣٣٦، ٢م)، كانت مجموعة من الأشخاص ترى وسط الضباب المتحرك. كان الأشخاص في القرية وفي منزل السيد وعلى المنحدر وفي حديقة السيد وعلى مقربة من الآبار والمستنقع وعلى طول الطريق الذي يمر على جسر يربط التل بالقرية. وكانت النداءات التي يتبادلونها والصيحات التي يطلقونها بلغة أجنبية ليحثوا الجياد المقطورة إلى العربات على صعود السفح المنحدر، تسمع بوضوح.

www.Maktbah.com

قال دينيسوف بصوت خفيض دون أن يبارح الفرنسيين بعينيه:

ـ جيئوا بالسجين إلى هنا.

ترجل القوقازي وأخذ الفتى فجاء إلى دينيسوف. فسأل دينيسوف وهو يشير إلى الفرنسيين أن يسمي مختلف القطعات. فراح الفتى الذي دس يديه المقرورتين في جيوبه ينظر إلى دينيسوف بخوف رافعاً حاجبيه. وعلى الرغم من رغبته الصادقة في أن يقول كل ما يعرف، اختلط الأمر عليه في أجوبته فلم يرد على كلمة نعم. يقول في أعقاب كل سؤال يطرح عليه فأشاح دينيسوف وخاطب رئيس القوقازيين يشاطره شعوره.

وكان پيتيا المنشغل المتطلع، ينظر حيناً إلى الطبال الصغير وحيناً إلى دينيسوف، تارة إلى الرئيس وتارة أخرى إلى الفرنسيين المنتشرين في القرية وعلى الطريق، ساعياً إلى ألّا يضيع شيئاً مما يرى.

صاح دينيسوف وقد أضاءت عيناه ببريق من الغبطة:

ـ سواء أجاء دولوخوف أم لم يجئ، يجب مهاجمتهم!..؟ فأجاب الرئيس: نعم، فالمكان مناسب.

استرسل دينيسوف:

ـ سنرسل المشاة من جهة المستنقعات وسيتسللون حتى يبلغوا حديقة المنزل، وأضاف وهو يشير إلى الغابة التي تستند إليها القرية:

ـ وأنت مع القوقازيين، ستتقدمون من هنا أما أنا مع فرساني، فمن هنا. ولدى أول طلقة نارية...

قال الرئيس: لا يمكن المرور عبر الصدع فهناك ردغة، وستتعرض الجياد للوقوع فيها لذلك يجب الالتفات نحو اليسار.

وبينما هما يتناقشان بخفوت على هذا النحو، دوى في أعماق الجانب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الآخر من المستنقع طلق ناري تبعته سحابة صغيرة من الدخان الأبيض ثم طلق ثانٍ وبعده أطلق مئات الفرنسيين المرصوفين على المنحدر، صرخة فزع. قفز دينيسوف والرئيس التابع له إلى الوراء للوهلة الأولى. لقد كانا قريبين جداً من العدو حتى خيل إليهما أنهما كانا مبعث صرخة الفرح وسبب الطلقتين. ولكن لم يكن السبب متعلقاً بهما. ففي الأسفل، في المستنقع، توحل رجل مرتدياً ألبسة حمراء، فكانت الطلقات والصرخات موجهة إليه.

قال الرئيس: لكن هذا «تيخوننا»!.

ـ نعم، إنه هو حقاً!.

صاح دينيسوف: يا للسافل!.

وصاح الرئيس وهو يرمش بعينيه:

ـ أوه! سوف يخلص نفسه!.

أسرع الرجل الذي أسمياه تيخون إلى الساقية فارتمى فيها باعثاً الماء من كل جانب وبعد أن اختفى لحظة، ظهر مجدداً على الضفة أسود وظل يجري على أربع حتى ابتعد فتوقف الفرنسيون الذين كانوا يتبعونه.

قال الرئيس: حسناً إنه نشيط!.

واستأنف دينيسوف الذي عاد القلق إلى محياه:

ـ يا للحيوان! أين أمضى وقته حتى الآن؟.

سأل پيتيا: من هو هذا؟.

ـ إنه كشافنا أرسلته بحثاً عن «لسان».

رد پيتيا وهو يهز رأسه لكلمة دينيسوف الأولى وكأنه على علم بالأمر، في حين أنه لم يفهم كلمة واحدة من كل ما سمع:

ـ آه! حسناً جداً!.

www.Maktbah.com

كان تيخوف شيرباتوف، واحداً من أكثر أعضاء الفرقة لزوماً، إنه قروي من بوكروفسكوييه، قرب «غات» ولقد وصل دينيسوف في بدء عملياته إلى تلك القرية واستقدم صاحبها تبعاً لعادته، ليسأله عم يعرف عن الفرنسيين. فأجابه الإقطاعي ككل أصحاب القرى الذين يكونون حذرين عادة، إنه لا يعرف شيئاً. ولكن، ما إن أفهمه دينيسوف أن غايته هي حرب الفرنسيين وسأله عم إذا كان هناك أمل في مغامرة ما في الجوار، قال صاحب الضيعة إنه شاهد «حوامين» فعلاً، لكن تيخون شيرباتوف، هو الوحيد في القرية الذي يهتم بهذه الأمور. وحينئذ استدعى دينيسوف شيرباتوف هذا، وبعد أن هنأه على عمله، قال له بحضور الإقطاعي بضع كلمات عن الإخلاص للقيصر والوطن وعن الحقد على الفرنسيين الذي يجب أن يعتلج في قلوب الروس جميعاً.

قال تيخون وقد ظهر عليه الخجل لأقوال دينيسوف:

ـ إننا لا نسيئ إلى الفرنسيين. ولقد تسلينا كما تقول، باصطياد «الحوامين» فتيان القرية وأنا، فقتلنا منهم حوالى دزينتين. وباستثناء ذلك، لم نسئ إليهم قط.

وفي اليوم التالي، كان دينيسوف قد نسي الرجل تماماً. مع ذلك، فإنه في اللحظة التي همّ بأن يغادر القرية، جاؤوا يقولون له إن تيخون انضم إلى الفرقة وهو يطلب الموافقة على العمل فيها. فوافق دينيسوف.

كُلف تيخون بادئ الأمر أعمالاً وضعية كإيقاد النار وملء الماء وسلخ الجياد النافقة إلخ.. لكنه لم يلبث أن أظهر استعدادات كبيرة لحرب الأنصار كان يمضي إلى الصيد طوال الليل ويعود دائماً ومعه ثياب وأسلحة سلبها من الفرنسيين، بل يأتي بأسرى عندما يصدر إليه الأمر بذلك. فلم يتركه دينيسوف يعمل بعد ذلك بل أصبح يصحبه معه في رحلاته وأدخله في سلاح القوقازيين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكان تيخون الذي لا يحب ركوب الجياد، يمضي دائماً راجلاً ولكن دون أن يترك الفرسان يسبقونه. كان مسلحاً ببندقية يحملها لمجرد الشكل وبرمح وفأس كان يستعملها بكثير من المهارة كما يستعمل الذئب أنيابه فيطرد البراغيث عن جلده كما يمضغ بها عظمة كبيرة. وكان لتيخون مثل هذه البراعة في أن يشطر عموداً جزءين بضربة واحدة أو أن يمسك بفأسه من رأسها فيجتزئ بها صفائح رقيقة أو ملاعق. لقد كان تيخون يحتل في فرقة دينيسوف مكاناً على حدة، مكاناً استثنائياً. فإذا كان الأمر يتعلق بالشروع في عمل عسير أو منفر، كأن يرفع بكتفه عربة متوحلة أو أن يجذب حصاناً من ذنبه خارج مستنقع ويسلخه، أو أن يتسلل بين الفرنسيين أو يقطع خمسين فرسخاً في مرحلة واحدة، فإنهم جميعاً يشيرون بأصابعهم إلى تيخون مقهقهين.

كانوا يقولون عنه:

ـ ماذا يمكن أن يضر هذا الشيطان، إن كل شيء صالح للأكل عنده.

مع ذلك، فإن واحداً من الفرنسيين الذين أسرهم تيخون، أطلق رصاصة مسدسه على صلبه. ولقد أحدث هذا الجرح الذي عالجه تيخون بالكحول من الداخل والخارج معاً، سلسلة مداعبات من أكثرها بهجة بين أفراد الفرقة كلهم، فكان تيخون يصغي إليها دون أن يرمش.

كان القوقازيون يقولون له وهم يقهقهون:

ـ حسناً، يا أخانا، لن يأخذوك مرة أخرى؟ كدت تصبح أحدب.

فيصعر تيخون وجهه ويغضّنه متظاهراً بالسخط ثم يرمي الفرنسيين بأقذع الشتائم وأغلظها. غير أن تلك المغامرة لم تمر دون أن تترك فيه أثراً، إذ إنّه منذ جرحه ذاك، أصبح نادراً ما يعود بأسرى.

لقد كان تيخون الرجل الأكثر إفادة والأكثر جرأة في الفرقة كلها. لم يكن أحد يعرف انتقاء فرصة مد الشرك أفضل منه ولم يأسر أحد ويقتل بقدر ما

www.Maktbah.com

أسر وقتل من الفرنسيين، الأمر الذي عاد عليه بأن أصبح مهرج القوقازيين والفرسان كلهم فكان هو نفسه يحشر نفسه بكل طيبة خاطر في هذا المركز المجيد. ولقد أرسله دينيسوف هذه المرة، الليلة الفائتة، إلى شامشيغو ليأتيه «بلسان». ولكن، سواء أنه يكتفي بأخذ فرنسي واحد فحسب، أو أنه أمضى الليل نائماً، فإنه تسلل في وضح النهار بين الأدغال وسط مجموعة العدو، فاكتشف أمره كما شاهد دينيسوف منذ حين.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

لوى دينيسوف عنان جواده ورجع على آثاره بعد أن تناقش وقتاً ما مع رئيس القوقازيين حول هجوم الغد الذي تقرّر بسبب اقترابهم من الفرنسيين.

قال لپيتيا:

ـ هيا يا أخي، يجب الآن أن نجفف ثيابنا.

ولما بلغ مركز الحرس في الغابة، توقف دينيسوف في مكان وراح يتفحص ما يحيط به. رأى رجلاً طويل الساقين، مباعداً بين الذراعين، يرتدي سترته ويحتذي أحذية من القنب ويتقلنس بقلنسوة من صنع كازان، متقلداً بندقيته متمنطقاً بفأس، يتقدم بخطوات كبيرة بين الأدغال. فلما شاهد دينيسوف بادر الرجل فألقى شيئاً ما بين الأشواك النامية ونزع قلنسوته المبللة ذات الخوافي المنسدلة ثم اقترب من رئيسه. كان ذاك هو تيخو، كان وجهه المجدور ذو العينين الصغيرتين، ممتلئاً بالغضون، مشرقاً بالرضى. فلما وقف أمام دينيسوف، رفع رأسه وشخص بعينيه إليه وكأنه يكتم ضحكة تكاد تنفجر من بين شفتيه.

قال دينيسوف: إذن، من أين جئت؟

أجاب تيخون بحماسة وجرأة، وبصوت أجش منخفض رغم رخامته:

ـ من أين جئت؟ من مطاردة الفرنسيين.

ـ ولماذا إذن في رابعة النهار؟ حيوان! ثم ألم تنجح؟..

أجاب تيخون: بلى، بلى، لقد أسرت واحداً.

www.Maktbah.com

أين هو إذن؟

استرسل تيخون وقد اتخذ له وقفة مريحة أكثر على قدميه الضخمتين المسطحتين في حذاءيهما المصنوعين من ليف القنب:

ـ نعم، لقد أطبقت على واحد، وكان ذلك قبل انبلاج الصباح. نعم، ولقد سقته إلى الغابة. لكنني اكتشفت بعد حين أنه لا ينفع لشيء. وحينئذٍ فكرت وقلت لنفسي إنه ينبغي لي الحصول على آخر، انتقيته بشكل أفضل.

فقال دينيسوف لرئيس قوقازييه:

ـ آه! القذر، هذا هو السبب. ولكن لماذا لم تأتني به إذن؟

قاطعه تيخون برشاقة وهو يهش:

ـ وأية فائدة، لم يكن ينفع لشيء، ألست أعرف ماذا ينبغي لك؟

ـ للأتان!.. وبعدئذٍ؟..

تابع تيخون:

ـ فتشت عن آخر وقد زحفت هكذا في الغابة ثم استلقيت، وألقى تيخون بنفسه فجأة على الأرض على بطنه بحركة مرنة ليشرح كيف تصرف، ثم، ها إن واحداً يقترب. ها إنني أضع له الكلاب هكذا، وقفز برشاقة على قدميه وهو يقول هذه الكلمات، وقلت له: إلى الأمام، إلى الزعيم. وها هو ذا يزمجر، فيأتي أربعة آخرون. انقضوا علي بسيوفهم، وأنا، هذا ما فعلته بفأس. وصرخ تيخون: إلى الوراء! اذهبوا إلى الشيطان!، وراح يحرك ذراعيه حركات دائرية ثم قطب حاجبيه متخذاً مسحة متوعدة ووقفة مريحة.

قال رئيس القوقازيين وهو يرمش بعينيه البراقتين: نعم، نعم، لقد شاهدنا من الأعلى كيف كنت تلعب بأساطين الخشب عبر الردغات.

وعلى الرغم من رغبة پيتيا العنيفة في الضحك، فقد لاحظ أن كل واحد

twitter @baghdad_library

من زميليه يحتفظ بأمارات الجد على وجهه. فراحت عيناه تنتقلان بين وجه تيخون ووجهي رئيس القوقازيين ودينيسوف دون أن يفهم ما معنى كل هذا.

قال دينيسوف وهو يهز رأسه ويسعل سعالاً خفيفاً:

ـ لا تتصنع الغباوة. لماذا لم تأتني بالأول؟

أخذ تيخون يحك ظهره بإحدى يديه بينما انتقلت يده الأخرى إلى رأسه للغرض نفسه، وفجأة أشرق وجهه بابتسامة بلهاء كشفت عن جذور أسنانه التي منها حمل اسمه شيرباتوف، أي فاقد أسنانه الأمامية، انبسطت الغضون عن وجه دينيسوف وانفجر پيتيا بضحكة شديدة تنم عن المرح حتى أن تيخون نفسه انطلق مقهقهاً.

أكد تيخون: لكن صحيح، إنه لم يكن يصلح لشيء، أية فائدة كانت تُجنى من الإتيان به وهو في أطماره تلك؟ يا لها من قحة يا صاحب النبالة! أخذ يقول: «أنا، أنا ابن «جناز!» أنا لا أمشي».

صرخ دينيسوف: أيها الحيوان! وأنا الذي كانت بي حاجة إلى استجوابه...

فقال تيخون: لقد جعلته يتحدث أنا، قال لي: إننا لا نعرف شيئاً كثيراً قال إنهم كثيرون ولكن لا قيمة لهم، لا لهؤلاء ولا لهؤلاء.

ثم أردف وهو يركز على دينيسوف نظرته الحازمة:

ـ اشرعوا بضربة طيبة وستنالونهم جميعاً.

قال دينيسوف بصرامة: انتظر، سوف آمر بجلدك، ذلك يعلمك كيف تتغابى.

فقال تيخون:

ـ ولماذا الغضب؟ ألست أعرفهم أنا، فرنسييك؟ ليخيّم الليل، وحينئذٍ آتيك باثنين بل بثلاثة إذا اقتضى الأمر.

صاح دينيسوف: هيا، إلى الأمام!

www.Maktbah.com

ومشى في طريق مركز الحرس صامتاً مقطب الحاجبين.

تبعهم تيخون، فسمع پيتيا القوقازيين يمازحونه بصدد الحذاء الذي ألقى به بين الأشواك.

ولقد حلَّ محل رغبة الضحك التي كانت تعذب پيتيا بسماع تيخون ولرؤيته يبتسم ويمثل في غمرة أجوبته، شعور بالانزعاج مفاجئ. عرف پيتيا فجأة أن القروي قد قتل رجلاً منذ حين. فألقى نظرة على الطبال الصغير وشعر بقلبه ينقبض. لكن ذلك الشعور بالانزعاج لم يدم إلا لحظة. وجد أن من الضرورة أن يرفع الرأس وأن يتخذ أمارات أكثر تغطرساً، فراح يستجوب الرئيس القوقازي بلهجة خطيرة من مشروع الغد رغبة في أن يكون على مثل سوية زميليه.

جاء الضابط الموفد بمهمة يلاقي دينيسوف على الطريق ليعلمه بأن دولوخوف سيصل بعد حين وأن كل شيء على ما يرام من هذه الناحية.

وفوراً انبسطت أسارير دينيسوف فنادى پيتيا إليه وقال له:

ـ هيا، حدثني عنك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع

عندما رحل پيتيا من موسكو حيث ترك ذويه ذهب إلى غرفته؛ وهناك لم يلبث أن ترقى إلى رتبة ضابط ارتباط لدى جنرال قائد كتيبة قوية. ومنذ ترقيته إلى رتبة ضابط، وعلى الخصوص منذ أن أصبح يساهم في الجيش العامل الذي اشترك معه في معركة ڤيازما، راح پيتيا يشعر بمرح مثير يدفعه إلى أن يحس بكونه رجلاً، فكان يبذل هوساً لانتهاز أية فرصة يستطيع أن يظهر فيها بطولة حقيقية. كان مفتوناً بكل ما رآه وتعلمه في الجيش. لكنه كان يخيل إليه دائماً أن البطولة الأكثر نقاء تعرض عادة في المكان الذي لا يكون فيه.

ولما أعرب جنراله، يوم ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر، عن رغبته في إيفاد أحدهم إلى كتيبة دينيسوڤ، سأله پيتيا هذه المهمة بلهجة شديدة التوسل حتى أن الجنرال لم يرفض طلبه، ولكن، عندما عزم على إرساله، تذكر الجنرال سلوك پيتيا المتهور خلال معركة ڤيازما: لقد اندفع پيتيا مباشرة إلى الخطوط الأولى تحت نيران الفرنسيين حيث أطلق رصاصتين من مسدسه، بدلاً من أن يتوجه إلى حيث أمره أن يذهب. لذلك فقد حرَّم عليه تحريماً قاطعاً أن يشترك في تلك العملية ما دام مع دينيسوڤ. ولهذا السبب، احمرَّ وجه پيتيا عندما سأله دينيسوڤ عم إذا كان يستطيع البقاء. بقي پيتيا حتى ساعة أن بلغ تخم الغابة، يفكر في أنه سيقوم بمهمته بكل دقة ويعود فوراً. لكنه عندما رأى الفرنسيين، ورأى تيخون، وعندما علم أنهم سيهاجمون بالتأكيد عند هبوط الليل، قرر، بذبذبة الشبان الذين ينتقلون من فكرة إلى أخرى أن جنراله، رغم

www.Maktbah.com

كل التقدير الذي يكنه له حتى تلك اللحظة، ليس أكثر من ألماني، في حين أن دينيسوف كان بطلاً وكذلك رئيس القوقازيين وتيخون أيضاً، وأنه سيكون مخجلاً من جانبه أن يغادرهم في فترة عسيرة مثل تلك الفترة.

كان الغسق يهبط عندما وصل دينيسوف وپيتيا والرئيس إلى مركز الحرس. شاهدوا في العتمة الشاحبة، الجياد مسروجة والقوقازيين والفرسان يقيمون أكواخاً خشبية في الأرض الخالية ولقد ركزوا مكان نيرانهم في وادٍ مشجر كي لا يفضحهم الدخان.

وعند مدخل كوخ خشبي صغير، وقف قوقازي مشمراً عن أكمامه، يقطع خروفاً، وفي الكوخ نفسه، كان ثلاثة من ضباط كتيبة دينيسوف، صنعوا لأنفسهم طاولة من باب. نزع پيتيا ثيابه المبللة ليعطيها لتجفيفها وراح فوراً يساعد الضابط في إعداد طاولة الطعام.

وفي غضون عشر دقائق، أعدت الطاولة بعد أن بسطت عليها منشفة وضعوا عليها الخمرة وزجاجة من الروم وخبزاً أبيض وشواء الخروف وملحاً.

ولقد جلس پيتيا مع الضباط وراح يجزئ بيديه اللتين سال منهما الدهن، لحم الخروف الشهي وهو طافح بحنان الطفل المهووس تجاه الضباط كلهم، ويلاحظ بالتالي أنهم جميعاً يعاملونه بالمثل.

سأل دينيسوف:

ـ ما قولك يا ڤاسيلي ڤيدوروڤيتش، أستطيع أن أبقى يوماً صغيراً آخر هنا أليس كذلك؟

وبدلاً من أن يأتيه الجواب، أجاب نفسه بنفسه:

ـ ماداموا أرسلوني للاستعلام، حسناً، إنني أستعلم... بيد أنه يجب أن تضعوني في المكان الأكثر... الأكثر أهمية.. إنني لا أبحث عن مكافأة... لست أريد إلا...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

صرف بأسنانه ونظر حوله ثم رفع رأسه باعتداد وأشار إشارة معبرة.

كرر دينيسوف بابتسامة: في المكان الأكثر أهمية...

استرسل پيتيا:

ـ أرجو فقط أن تعهد إليّ بفصيلة صغيرة حتى أستطيع إصدار الأوامر. هيا، ماذا يكلفك هذا؟

وقال وهو يستدير نحو ضابط كان يستعد لتقطيع شريحته:

ـ أوه! هل تريد سكيني؟

وأخرج له سكيناً من جيبه فجزاه الضابط شكراً.

قال پيتيا ووجهه يحمرّ:

احتفظ به أرجوك، ابقه معك. لديّ الكثير من مثله.

وفجأة صاح:

ـ آه! وحق جميع القديسين! لقد نسيت تماماً! لدي زبيب رائع، لو تعلمون إنه خال من البزر. لدينا ممون جديد لديه أشياء ممتازة ولقد اشتريت عشر ليبرات لأنني معتاد الحلويات. هل ترغبون في تذوق الزبيب؟

وعلى الأثر، أسرع پيتيا إلى الباب حيث ينتظر تابعه القوقازي وعاد يحمل قفة فيها أكثر من خمس ليبرات من الزبيب:

ـ كلوا ما تشتهون أيها السادة. كلوا ما تشتهون.

ثم سأل رئيس القوقازيين:

ـ وبالمناسبة، ألست بحاجة إلى إبريق للقهوة؟ لقد اشتريت واحداً ممتازاً من ممووننا! إنّ لديه بضاعة جميلة. ثم إنه شريف تماماً، وهذا الأهم. سوف أقدمه لك دون توان ولعل أحجار النار لديك مهترئة؟ إنها أشياء تحدث غالباً. لقد حملت معي عدداً منها، إنها هنا، وأشار إلى قفته، لدي ما يقرب المائة

www.Maktbah.com

منها. لقد اشتريتها بمبلغ زهيد. خذ منها أرجوك دون حرج، خذها كلها إذا شئت.

وفجأة ذعر ﭙيتيا خشية أن يكون قد ذهب في حديثه بعيداً فسكت وتصاعدت الحمرة إلى وجهه.

راح يحاول أن يتذكر ما إذا كان قد ارتكب هفوة ما وبينما هو يستعرض ذكريات النهار، عادت ذكرى الطبال الفرنسي الصغير إلى مخيلته. فكر: «إننا هنا نتفكه ونتلذذ، وهو كيف حاله؟ أين وضعوه؟ هل قدموا له طعاماً؟ ألم يسيئوا إليه؟ لكنه خاف تبجحاته حول أحجار النار أن يستعلم عن حاله.

«هل أستطيع سؤالهم؟ سوف يقولون: ها هو ذا طفل يستعلم عن طفل مثله. لكنني سأريهم غداً ما إذا كنت مجرد طفل. لماذا أخجل من السؤال؟ آه ليكن!» ولم يلبث أن حدث الضباط ووجهه يحمرّ وفي نفسه خوف من أن يرى على وجوههم طيف ابتسامة هازئة وسألهم:

ـ ألا نستطيع استدعاء ذلك الفتى الذي أسروه؟ وأن نعطيه ما يأكل.. لعله...

فقال دينيسوف الذي لم يظهر عليه ما يدل على أنه يجد شعور ﭙيتيا مخجلاً: نعم، الصغير المسكين. ليستدعوه. إن اسمه ڤنسان ﭙوس، ليستدعوه. قال ﭙيتيا: إنني ذاهب بنفسي.

فكر دينيسوف:

ـ اذهب، اذهب، يا للصغير المسكين.

وتسلل ﭙيتيا الذي كان قرب الباب عندما نطق دينيسوف بهذه الكلمات، بين الضباط حتى وصل إلى جانبه وقال: اسمح لي أن أقبلك يا صديقي العزيز! كم هذا حسن، كم هو حسن!

وصاح ﭙيتيا عندما أصبح على العتبة:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ پوس! ڤنسان!

استعلم صوت في الظلام:

من تريد يا سيدي؟

فأجاب پيتيا أنه يريد الفرنسي الصغير الذي أسر خلال النهار، فأجاب القوقازي.

ـ آه! ڤيسيوني؟

لقد حل اسم ڤيسيوني محل اسم ڤنسان عند القوقازيين خلال ذلك الوقت القصير، أما عند الفلاحين الروس والجنود فقد أصبح ڤيسينيا. وفي كلتا الحالتين، كان الاسم تنويهاً بالربيع الذي ترادفه بالروسية كلمة ڤيسنا، وهي تسمية تناسب تماماً الطبال النضير.

ـ إنه يتدفأ هناك، أمام النار. إيه! ڤيسينيا! ڤيسينيا! ڤيسيوني!

راحت الأصوات الضاحكة تصيح في الظلام. وقال فارس كان إلى جانب پيتيا:

ـ إنه شاطر، هذا الفتى! لقد أعطوه ما يأكله منذ حين. لا يمكن تصديق الجوع الذي كان به!

سمعت خطوات في الظل وراحت أقدام حافية تخوض في الطين ثم ظهر الطبّال الصغير أمام الباب. صاح پيتيا:

ـ آه! هذا أنت! هل تريد أن تأكل؟

وأضاف وهو يضع يداً ودية خجلى على ذراعه:

ـ لا تخف، لن نسيء إليك. ادخل، ادخل.

أجاب الطبال بصوت شديد التهدج، طفولي تقريباً:

ـ شكراً يا سيدي.

وراح يحك قدميه الموحلتين على عتبة الباب.

كان پيتيا يود لو يقول أشياء كثيرة لذلك الطفل لكنه لم يجرؤ. بقي واقفاً إلى جانبه عند المدخل متردداً. أخيراً، أخذ يده في الظلام وشدَّ عليها وقال ولكن في وشوشة حانية:

ـ ادخل، ادخل!

ردّد پبيتيا في سرّه وهو يفتح الباب ويدع الفتى يمر أمامه: «آه! كم أتوق إلى عمل أي شيء من أجله!».

وعندما دخل الطبال إلى الغرفة، ذهب پيتيا يجلس بعيداً متأثراً بفكرة جرح كرامته إذا اهتم كثيراً بشأنه بشكل واضح لكنه راح يتحسس في جيبه النقود التي كان يتساءل عم إذا لم يكن مخجلاً تقديمها إليه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

لكي لا يُعرف الطبال الصغير بين الأسرى الآخرين ويبقى في كتيبته، أمر دينيسوف أن يُعطى خمراً وشريحة من لحم الخروف ومعطفاً روسياً. لكن اهتمام پيتيا لم يلبث أن تحول عن الفتى بوصول دولوخوف. لقد سمع پيتيا في الجيش كثيراً عن بسالة دولوخوف الخارقة وعن قسوته حيال الفرنسيين، لذلك ما إن دخل إلى الكوخ حتى انصبت نظراته عليه لا تفارقه. وكلما أمعن النظر إليه، ازداد رأسه انتصاباً وسعى أن يظهر أكثر بسالة حتى يكون جديراً بمثل هذه الرفقة.

ولقد أدهش دولوخوف پيتيا ببساطة ثيابه.

كان دينيسوف يرتدي التشكمين، معطف قصير يستعملونه في القوقاز، ويحتفظ بلحية كاملة ويضع على صدره صورة القديس نيكولا صانع المعجزات، يظهر من طريقة كلامه وفي كل حركاته طبيعية مركزه الخاصة. أما دولوخوف الذي كان من قبل في موسكو يلفت إليه الأنظار بزيه الفارسي، فكان الآن على العكس، يظهر في مظهر ضابط حرس شديد التأنق. كان حليق اللحية بعناية يرتدي بزة الحرس الموشاة وقد تدلى من عروته صليب سان جورج وعلى رأسه عمرة رتبته. خلع معطفه المبلل في أحد الأركان واقترب من دينيسوف دون أن يحيي أحداً ثم لم يلبث أن أخذ يتحدث عن العملية المزمع القيام بها. أبلغه دينيسوف النيات التي تضمرها الكتائب الكبرى نحو القافلة والعروض التي قدمت عن طريق پيتيا والأجوبة التي وجهها إلى الجنرالين. ثم أطلعه على ما كان يعرفه عن مركز القوات الفرنسية.

www.Maktbah.com

قال دولوخوف:

ـ حسناً جداً، لم يبق إلا معرفة نوع الفرق وعددها لذلك يجب الذهاب لرؤيتها إذ لا يمكن الاندفاع في مثل هذا العمل دون التزود بهذه التفصيلات الدقيقة. أودّ أن أقوم بعمل نظيف هيا، ألا يوجد بين هؤلاء السادة واحد يرغب في مرافقتي إلى معسكرهم؟ إنّ لدي بزة رسمية.

صاح پيتيا:

أنا، أنا... أنا سأذهب معك!

قال دينيسوف لدولوخوف:

ـ لست في حاجة إلى الذهاب إلى هناك. أما هو، فإنني لن أدعه يذهب لأي سبب في الوجود.

فاعترض پيتيا: ولماذا إذن! ولماذا يجب ألّا أذهب.

ـ لأن هذا عديم النفع.

ـ أرجو أن تتفضل بمعذرتي، لكنني... لكنني... سأذهب رغم ذلك هذا كل شيء.

ثم سأل دولوخوف: هل ترغب في اصطحابي؟

فأجاب هذا ساهماً وهو يمعن النظر في وجه الطبال الصغير: لم لا؟...

ثم سأل دينيسوف:

هل أسرت هذا الفتى منذ فترة طويلة؟

ـ منذ اليوم، لكنه لا يعرف شيئاً. إنني أحتفظ به إلى جانبي:

فسأل دولوخوف:

ـ آه! والآخرون، أين تضعهم؟

صاح دينيسوف فجأة وقد احمرَّ وجهه:

أين أضعهم؟ إنني أبعث بهم لقاء وصل بالاستلام. وأستطيع أن أقول

twitter @baghdad_library

بجرأة إن وجداني غير مثقل بمقتل رجل واحد. أقول لك بصراحة إن من الأفضل إرسال ثلاثين رجلاً بل حتى ثلاثمائة تحت حراسة قوية إلى المدينة على تلويث الشرف العسكري.

أجاب دولوخوف بابتسامة جامدة:

ـ إنّ مثل هذه الأقوال اللطيفة جديرة بهذا الكونت الشاب ذي الستة عشر عاماً. أما أنت، فكان يجب أن تلقي بها جانباً منذ مدة طويلة.

فقال پيتيا في ذعر وخجل:

ـ كيف! إنني لم أقل شيئاً مطلقاً، أنا. أؤكد فقط أنني على استعداد لاتباعك.

واسترسل دولوخوف وكأنه يجد لذة في العودة إلى هذا الحديث الذي كان يغضب دينيسوف:

ـ أما نحن، كلانا أيها الأخ، فكفانا سخافات. هيا، لماذا احتفظت بهذا الفتى إلى جانبك؟، وأخذ يهز رأسه، ألأنه أثار شفقتك؟ على أية حال، إن قيمة إيصالات الاستلام معروفة. إنك ترسل ما يقرب من مائة، فيصل منهم قرابة ثلاثين. إنهم يموتون من الجوع ويقتلون في الطريق. ألا تصبح النتيجة واحدة إذا لم يؤسروا قط؟

أيد الرئيس القوقازي قوله بطرفة عينيه الصافيتين وبإيماءة من رأسه.

ـ هذا لا يعنيني إذا كانت النتيجة تصبح واحدة. إنني لا أريد تحميل ضميري هذا الوزر. تقول إنهم سيموتون رغم ذلك، لنفرض جدلاً صحة هذا القول، لكنه لن يكون موتاً بيدي.

انفجر دولوخوف ضاحكاً.

ـ هل تعتقد أنهم لم يصدروا إليهم الأوامر بإلقاء القبض عليّ عشرين مرة؟ إنهم إذا وُفِّقوا، فسيشنقونك مثلي إلى شجرة حور رغم عواطفك الفروسية. وسكت لحظة ثم استأنف:

www.Maktbah.com

ـ وبالانتظار، يجب أن نعمل. ليرسَل تابعي القوقازي لأخذ أمتعتي. لدي بزتان فرنسيتان.

وسأل پيتيا معقباً: إذن، اتفقنا، ستأتي معي؟

صاح پيتيا وقد احمرَّ وجهه حتى كادت الدموع تنهمر من عينيه:

ـ أنا؟ نعم، نعم، دون شك.

ومجدداً، شعر پيتيا بالانزعاج والاضطراب خلال المناقشة التي دارت بين دولوخوف ودينيسوف حول ما يجب صنعه بالأسرى. لكن المعنى الحقيقي لكلماتهم استغلق عليه من جديد. فكر: «إذا كان الرؤساء المشهورون يفكرون على هذا النحو فلا شك أن الأمر يجب أن يكون كذلك. المهم هو ألّا يتصور دينيسوف أنني سأطيعه وأنه يستطيع أن يصدر إليّ أمراً.. لقد قررت، سأذهب مع دولوخوف إلى المعسكر الفرنسي. إذا كان يستطيع القيام بذلك، فإنني كذلك مستطيعه!».

ولقد أجاب پيتيا عن كل ما قاله دينيسوف ليثنيه عن عزمه، بأنه هو الآن يفضل تنفيذ عمله بعناية ودقة لا أن يتركه للحظ، وأنه على أية حال لا يفكر من جانبه في الخطر مطلقاً.

ـ على أية حال، ادرس الأمر بنفسك، إذا كنا لا نعرف على الضبط عددهم هناك.. إن حياة المئات من رجالنا قد تكون متوقفة على ذلك، بينما نحن، لسنا أكثر من اثنين نعرض أنفسنا للخطر.

وأضاف:

ـ ثم إن بي رغبة جامحة في الذهاب إلى هناك، جامحة جداً، وأريد الذهاب مهما كلف الأمر، فلا تستوقفني أكثر مما فعلت لأنه لن ينجم عن ذلك إلا الأسوأ..

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

اجتاز دولوخوف وپيتيا الأرض الخالية، بعد أن تدثرا بالمعاطف الفرنسية ووضعا العمرات على رأسيهما، تلك الأرض التي عاين منها دينيسوف معسكر الأعداء وخرجا من الغابة في الظلام الحالك ثم هبطا نحو الأعماق. ولما أوغلا في جوف الغور، أمر دولوخوف القوقازيين المرافقين أن ينتظروه في ذلك المكان ثم مضى خبباً على جواده على الطريق باتجاه الجسر وپيتيا يتقدم بمحاذاته تماماً وقلبه يتفطر من الانفعال.

همس پيتيا: إذا أُخذنا فلن ينالوني حياً، لدي مسدسي.

أجاب دولوخوف بشدة وبصوت خفيض:

ـ لا تتكلم بالروسية.

وفي الوقت نفسه، دوت في الظلام صرخة «من هناك؟» وخشخشة زناد.

اندفع الدم إلى وجه پيتيا الذي وضع يده على مسدسه.

أجاب دولوخوف دون أن يبطئ من جري جواده أو يضاعفه:

ـ رماحة الفرقة السادسة.

انتصب شبح حارس أدكن على الجسر: كلمة المرور؟

أوقف دولوخوف جواده وتقدم خطواً وسأل:

ـ قل لي، هل الزعيم جيرار هنا؟

كرر الحارس وهو يسد الطريق دون أن يجيب: كلمة السر؟

www.Maktbah.com

صاح دولوخوف وقد استبد به غضب مفاجئ جعله يدفع جواده على الحارس.

ـ عندما يقوم ضابط بجولته لا يسأله الحراس عن كلمة السر.. أسألك عم إذا كان الزعيم هنا؟

ودون أن ينتظر الجواب من الحارس الذي تنحى جانباً، استمر دولوخوف يرتقي التل في خطى عادية.

وفي العتمة، شاهد رجلاً يجتاز الطريق، فاستوقفه دولوخوف وسأله أين القائد والضباط. فاقترب الرجل الذي كان يحمل كيساً على كتفه، وكان جندياً بسيطاً، من جنود دولوخوف وربت عليه بيده وقال ببساطة ورد أن القائد والضباط في الأعلى، على التل، إلى اليمين، في فناء المزرعة (وهكذا كان يسمى منزل السيد).

وبعد أن سلك الطريق الذي تحفه من الجانبين نيران المعسكرت والذي تتصاعد على جانبيه أصوات الحديث بالفرنسية، انعطف دولوخوف إلى فناء منزل الإقطاعي. وعندما اجتاز العتبة، ترجل واقترب نحو نار مشبوبة جلس حولها عدد من الرجال كانوا يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع. وإلى جانب الموقد، ركع جندي على رأسه قلنسوة الشرطة، يرتدي معطفاً أزرق، تضيء النيران وجهه إضاءة قوية، يشوي شيئاً كان يحركه في قصعة مستعملاً قضيب البندقية.

كان أحد الضباط يقول من الجانب الآخر من النار وهو في الظل: أوه! إنه شديد القسوة.

فرد الآخر ضاحكاً: سيجعلهم طيعين، الأرانب.

وسكت كلاهما وأخذا ينظران إلى الظلمات حيث ارتفعت خطوات دولوخوف وبيتيا اللذين كانا يقتربان ممسكين بأعنة جواديهما.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

قال دولوخوف بصوت قوي وهو يفصل مقاطع الكلام:

ـ مرحباً يا سادة!

اضطرب الضباط في الظلام ودار أحدهم، وهو فتى عملاق، ذو عنق طويل حول الموقد واقترب من دولوخوف وسأل:

ـ أهذا أنت، كليمان؟ من أي...

لكنه لم يكمل مظهراً بذلك احتقاره. حيا دولوخوف وهو مقطب حاجبيه تقطيبة خفيفة كما يحيي مجهولاً وسأله عم يستطيع أن يكون ذا نفع له فيه.

روى دولوخوف أنه وزميله في طريقهما للحاق بفرقتهما وسأل دائرياً ما إذا كان أحد يعرف أين أصبح الفوج السادس للرماحة. لم يظهر على أحد من الضباط أنه يعرف شيئاً عن مكان هذا الفوج ولكن، خيل إلى پيتيا، أن الضباط كانوا يتفحصونهما، هو ودولوخوف بحذر عدائي. ولقد سكت الضباط جميعاً طوال ثوان.

قال أحدهم من الجانب الآخر من النار في ضحكة مكتومة:

ـ إذا كنتما تعتمدان على طعام المساء فإنكما متأخران جداً.

أجاب دولوخوف بأنهما تناولا طعامهما وأنهما مضطران لمتابعة سيرهما الليلة بالذات.

سلم زمام جواده إلى الجندي الذي كان يحرك محتويات القصعة وجلس القرفصاء أمام النار بالقرب من الضابط ذي العنق الطويل فراح ذلك الضابط يحدق إلى پيتيا بعينين شاخصتين وسأله مرة أخرى عن الفرقة التي ينتمي إليها. لكن دولوخوف تظاهر بأنه لم يسمع السؤال بل سأل بدوره وهو يدخن غليوناً فرنسياً أخرجه من جيبه عن الحد الذي تخلو الطريق عنده من القوقازيين.

ـ إنّ المجرمين في كل مكان.

ـ فأكد دولوخوف أن القوقازيين لا يشكلون خطراً إلا على المتسكعين

www.Maktbah.com

مثله ومثل رفيقه لكنهم لا يجرؤون أبداً على مهاجمة فرقة كبيرة، فلم يجبه أحد.

كان پيتيا يفكر وهو واقف أمام النار يصغي إلى الحديث: «سوف يذهب الآن».

لكن دولوخوف استأنف أسئلته المتواصلة. سأل دون مواربة عن عدد الرجال في اللواء وعدد الألوية والأسرى وقال وهو يستعلم عن الأسرى الروس الذين كانوا في تلك الفرقة:

ـ يا لها من عملية قذرة أن يجر المرء وراءه تلك الجثث. من الأفضل قتل أولئك السفلة.

ثم انفجر ضاحكاً ضحكة غريبةً حتى أن پيتيا ظن أن الفرنسيين سينتبهون فوراً إلى الخدعة، فخطا رغم أنفه خطوة إلى الوراء.

لم يرجع صدى لضحكة دولوخوف. لكن ضابطاً فرنسياً لم يكن في نطاق الرؤية، إذ كان متمدداً متدثراً بمعطفه، نهض وهمس شيئاً في أذن رفيقه. ونهض دولوخوف ونادى الجندي الذي يمسك بمقود الجوادين.

قال پيتيا في سرّه وهو يقترب من دولوخوف لا إرادياً: «هل سيعيدون الجوادين إلينا أم لا؟».

أعادوا الجوادين إليهما فقال دولوخوف:

ـ أسعدتم مساء يا سادة.

أراد پيتيا أن ينطق بمثل تلك الجملة لكن لسانه عجز عن ذلك.

أخذ الضباط يتحدثون فيما بينهم همساً. ولقد بقي دولوخوف فترة طويلة قبل أن يستطيع امتطاء صهوة الجواد لشدة ما كان جواده ينخف جفلاً ثم اجتاز البوابة بخطى وئيدة وتبعه پيتيا وهو لا يجرؤ على الالتفات رغم رغبته الملحة، ليرى ما إذا كان الفرنسيون سيتبعونهم أم لا.

twitter @baghdad_library

ولما وصلا إلى الطريق سار دولوخوف بمحاذاة القرية بدلاً من أن يعود أدراجه عبر الحقول وفي موقف ما، توقف ليصيخ السمع، قال: «هل تسمع؟» وسمع پيتيا أصواتاً تتكلم الروسية وشاهد حول النيران أشباح الأسرى الدكناء. وبعد أن نزلا حتى بلغا الجسر، مر پيتيا ودولوخوف بالحارس الذي كان يذرع الجسر بخطى كئيبة دون أن ينطق بكلمة، ثم بلغا الغور حين كان القوقازيون ينتظرونهما.

قال دولوخوف لپيتيا وهو على وشك الابتعاد:

ـ والآن إلى اللقاء، قل لدينيسوف إننا سنبدأ عند الفجر، بعد أول طلقة مسدس.

لكن پيتيا استوقفه من ذراعه وصاح:

ـ كلا! إنك بطل لا مثيل لك! آه! كم هذا رائع! آخ كم هذا بديع! آه كم أحبك!

فقال دولوخوف: مفهوم، مفهوم.

لكن پيتيا لم يدعه ولقد رآه دولوخوف في العتمة ينحني عليه، كان يريد أن يقبله. قبّله دولوخوف وهو يضحك واستدار على جواده ثم اختفى في الظلام.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

لدى عودة پيتيا إلى مركز الحرس، التقى دينيسوف عند المدخل، وكان هذا الأخير قلقاً مضطرباً لأنه سمح له بالذهاب، ينتظره، ردَّد وهو يصغي إلى قصة پيتيا الحماسية:

ـ حمداً لله! آه! حمداً لله!.

واسترسل دينيسوف:

ولكن ليأخذك الشيطان! لم أستطع أن أنام بسببك! آه حمداً لله! والآن اذهب ونم، فلدينا الوقت للإغفاء قليلاً قبل أن ينبلج الصباح.

فأجاب پيتيا:

ـ نعم... كلا، لست نعساً بعد ثم إنني أعرف نفسي، إذا نمت، انتهى كل شيء على أي حال، ليس من عادتي أن أنام عشية معركة.

بقي پيتيا بعض الوقت جالساً في الكوخ الخشبي يتذكر بفرح كل تفاصيل مغامرته ويتصور كل ما سيقع صباح غد ثم لاحظ أن دينيسوف قد أغفى فنهض وخرج إلى الفناء.

كان الفناء غارقاً في ليل بهيم والمطر قد كف عن الهطل لكن الأشجار ظلّت تسقط القطرات عن أغصانها. وحول مركز الحرس كانت أكواخ القوقازيين وخيولهم المربوطة معاً ترى أشبه بكتل سوداء قاتمة. وإلى الوراء قريباً. كانت عربتا نقل تشكلان بقعة سوداء وقد انتصبت الجياد بقربها. وفي الوادي، استمرت بقايا النيران تحترق ملقية حولها إشعاعاً أحمر وكان الفرسان

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كلهم نائمين. فمن هنا وهناك، بين أصوات قطرات المياه المتساقطة وحركة اجترار الجياد، كانت جلبة أصوات تتناهى إلى الآذان كالهمس.

سبر پيتيا عندما أصبح في العراء، الظلام بنظره ثم اتجه نحو العربتين. كان بعضهم يغط في النوم تحت العربات وحولها جياد مسرجة تأكل علفها. وعلى الرغم من الظلام، عرف پيتيا جواده الذي أطلق عليه اسم كاراباخ، وهو اسم جواد قوقازي، رغم أنه كان من النوع الروسي الصغير، واقترب منه.

قال له وهو يعانقه ويشم منخريه:

ـ حسناً يا كاراباخ، غداً سنقوم بعمل جيد كلانا معاً.

صاح قوقازي كان جالساً تحت إحدى العربتين.

ـ كلا ولكن يخيّل إليّ إنك ليخاتشيف؟ لقد وصلت تواً إذ كنا في زيارة الفرنسيين.

وقص پيتيا على القوقازي ليس تفصيل رحلته فحسب، بل كذلك السبب الذي ذهب من أجله ولماذا وجد أن تعريض حياته للخطر أفضل من تعريض الرجال كلهم.

قال القوقازي: والآن يجدر بك يا سيدي أن تنام قليلاً:

فأجاب پيتيا:

ـ كلا، وهذه عادتي. آه! هل حجارة مسدسك غير مهترئة؟ لقد جئت معي بعدد منها. ألست بحاجة إلى بعضها؟ خذ.

وقرب القوقازي رأسه من تحت العربة ليتسنى له رؤية أفضل. استأنف پيتيا، ذلك أن من عادتي أن أعد كل شيء أفضل إعداد. إن الكثيرين يتصرفون تصرفاً ارتجالياً ثم يعضون أصابعهم ندماً. أما أنا، فلا أحبّ ذلك.

قال القوقازي: إنك محق.

ـ هه، إليك رجاء آخر يا عزيزي، إشحذ حسامي أرجوك إنه كليل...

www.Maktbah.com

وتوقف پيتيا خوفاً من كذبته لأن حسامه لم يشحذ قط، هل تستطيع أداء هذه الخدمة لي؟.

ـ لم لا؟ يمكن صنع ذلك.

نهض ليخاتشيف وفتش بين قطع الحديد التي معه فلم يلبث پيتيا أن سمع صليل الحديد الحربي على حجر الشحذ فتسلّق العربة وجلس على حافتها بينما راح القوقازي يشحذ السيف في المكان الذي جلس فيه.

سأل پيتيا: قل لي، هل الرجال كلهم نيام؟.

ـ بعضهم نائم والبعض الآخر يقظان.

ـ والطفل ماذا فعلوا به؟.

ـ ڤيسيوني؟ إنه هناك نائم عند المدخل. لقد نام لشدة الخوف ولكن كان مسروراً!

بعد ذلك، بقي پيتيا فترة طويلة صامتاً يصغي إلى كل الأصوات. وتعالت خطوات في الظل ثم بدا شبح أسود.

سأل رجل وهو يقترب من العربة: ماذا تشحذ؟.

ـ إنني أرهف سيف السيد.

قال الرجل الذي ظنه پيتيا من الفرسان: عمل ممتاز. هل قربك هنا قدح ما؟.

ـ نعم، هناك، قرب العجلة.

أخذ الفارس القدح وقال وهو يتثاءب:

ـ أظن أن الفجر ليس ببعيد.

وابتعد.

كان على پيتيا أن يذكر أنه في الغابة بين رجال دينيسوف على مسافة فرسخ من الطريق وأنه جالس على عربة نقل سلبت من الفرنسيين كانت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الجياد مربوطة حولها، وأن القوقازي ليخاتشيف من تحته يشحذ سيفه وأن البقعة السوداء الكبيرة إلى اليمين هي مركز الحرس والحمراء في الأسفل هي النار الباهتة على وشك الخمود وأن الرجل الذي سأل عن القدح، فارس استبد به العطش. لكنه لم يعد يعرف ذلك أو يريد معرفته. وجد پيتيا نفسه في عالم مسحور لم يكن فيه شيء يشبه الحقيقة. فالبقعة السوداء الكبيرة يمكن أن تكون مركز الحرس لكنها كذلك يمكن أن تكون مغارة تقود المرء إلى أحشاء الأرض والبقعة الحمراء قد تكون أرضاً خالية، لكنها قد تكون كذلك عين وحش هائل. وقد يكون جالساً فوق عربة كما يمكن أن يكون في أعلى برج دوراي إذا سقط من أعلاه استمر يوماً كاملاً، بل شهراً كاملاً بل دهراً كاملاً قبل أن يصل إلى الأرض، ولعل القوقازي ليخاتشيف كان تحت العربة فحسب ولكن يمكن كذلك أن يكون تحتها الرجل الأكثر روعة وكمالاً وبسالة، أفضل رجل، ذلك الذي لا يعرفه أحد. ولعل الذي لا يعرفه أحد. ولعل الذي مر باحثاً عن الماء فارس حقيقي، ولكن لعل ذلك الفارس قد اختفى فعلاً ولم يكن موجوداً إلا في خياله.

لم يعد شيء مما كان پيتيا يراه الآن يدهشه. كان في عالم مسحور كل شيء فيه ممكن الوقوع.

أخذ يتأمل السماء فبدت له مسحورة كالأرض. كانت السماء تنجلي فوق ذرى الأشجار والغيوم تهرب وكأنها تريد أن تفضح النجوم. وكان كل شيء أحياناً يبدو منقشعاً لتظهر مكانه في ذلك الفراغ سماء سوداء نقية وأحياناً كان يمكن الظن بأن تلك البقع إن هي إلا غيوم. وأحياناً تبدو السماء شديدة الارتفاع فوق الرؤوس لتنخفض أحياناً حتى لتكاد اليد تلمسها.

بدأ پيتيا يغمض عينيه ويتأرجح.

www.Maktbah.com

كانت القطرات تسقط وأصوات وشوشة خفيفة تطرق الأسماع والجياد تصهل وتتدافع وبعضهم يغط في نومه.

«زيك.. زيك، زيك..» كذلك كان الفولاذ الذي يشحذ يصفر. وفجأة، خيل إلى پيتيا أنه يسمع فرقة موسيقية تعزف نشيداً جليلاً ذا طلاوة غير معروفة. كان پيتيا يحب الموسيقى مثل ناتاشا وأكثر من أخيه نيكولا. لكنه لم يدرسها قط أو يفكر فيها، لذلك فإن القطع التي صافحت عقله غريزياً بدت له جديدة بقدر ما كانت جذابة. وكانت أنغام الموسيقى تزداد وضوحاً، والتوزيع يزداد اتساعاً فينتقل من آلة إلى أخرى وكان يحدث مما يُدعى تسللاً، رغم أنه لم يكن لدى پيتيا أية فكرة عما يمكن أن يكون تسللاً في الموسيقى. وكل آلة موسيقية، تارة شبيهة بالكمان وأخرى بالطبل، رغم امتيازها الأكثر ندرة وصوتها الأكثر نقاء، كل آلة موسيقية كانت تعزف مقطوعتها الخاصة وقبل أن تنهيها، تختلط بأنغام آلة أخرى كانت تبدأ المقطوعة نفسها تقريباً، ثم آلة ثالثة فرابعة ثم تختلط الأنغام كلها في نغم واحد وتنفصل مجدداً لتندمج مرة أخرى في ترتيل كنسي جليل تارة، وتارة في غناء نصر على وضوح باهر.

قال پيتيا في سرّه وهو يكاد يفقد توازنه: «آه! لكأني أحلم. إن أذنيَّ ممتلئتان بالنغم ولعلها موسيقاي نفسها، هه، ها هي ذي من جديد. هيا، يا موسيقاي، وبنشاط».

أغمض عينيه. ومن كل صوب، وكأنها آتية من بعيد، بدأت الألحان ترتفع وتتحد وتتفرق ثم تندمج من جديد في النشيد نفسه، الرخيم المهيب وپيتيا يحدث نفسه: «آه! كم هذا بديع! على قدر ما أستطيع وبحسب ما أريد» ثم أخذ يحاول إدارة مجموعة ضخمة.

«هيا، بهدوء، بهدوء، پيانو الآن» فكانت الأنغام تطيعه: «والآن هيا، أقوى، أكثر نشاطاً، أيضاً، أيضاً، أكثر مرحاً!» ومن عمق مجهول أخذت الأنغام ترتفع

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتنتشر جليلة: «هيا، الأصوات الآن!» ومن بعيد تناهت بادئ الأمر أصوات رجال ثم أصوات نساء. وأخذت هذه الأصوات تدريجياً تأخذ سمة منتصرة. فشعر پيتيا بأنه مروع ومفتون معاً من جمالها الأخاذ.

ذاب الغناء في «مارش» ظفري، واستمرت تتساقط والسيف يستمر في لحنه «زيك، زيك، زيك» والجياد تتدافع وتضرب بحوافرها الأرض دون أن تعكر صفو المجموعة بل تنسجم معها.

لم يكن پيتيا يعرف كم من الوقت دام ذلك، فقد بقي اللحن وهو مدهوش آسف لأنه لا يستطيع مشاطرة أحد ذلك الطرب. وأيقظه صوت ليخاتشيف الودود.

ـ يا صاحب النبالة، لقد انتهى. سوف تستطيع الآن أن تشطر به فرنسياً شطرين.

وخرج پيتيا من ذهوله فصاح:

ـ ها هو ذا النهار، حقاً، لقد طلع الضوء!.

أصبحت الجياد التي بقيت حتى ذلك الحين غير واضحة للعين، ترى من الرأس حتى الذيل. وخلال الأغصان العارية، كان يرى ضوء مبلل. تمطَّى پيتيا وقفز من فوق العربة وأخذ من جيبه روبلاً من الفضة أعطاه لليخاتشيف وأمسك بسيفه فرسم به دائرة حوله ثم اختبر مضاءه وأعاده إلى غمده. وكان القوقازيون يفكون الجياد ويشدون محازمها من جديد.

قال ليخاتشيف: ها هو ذا القائد.

ولقد استدعى دينيسوف الذي خرج من حينه من مركز الحرس پيتيا وأمره أن يتخذ أهبته.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

وقف دينيسوف أمام مركز الحرس يصدر تعليماته الأخيرة. فجهزوا الخيل بسرعة وسط العتمة المنتشرة وأحكموا محازمها مجدداً ثم أخذ كل فرد موقعه في الكوكبة. أخذ المشاة أمكنتهم في المقدمة فارتفعت ضجة حوالى مائة قدم تجوس خلال الوحول ولم تلبث أن اختفت بين الأشجار في ضباب الصباح. وعاد رئيس القوة زيين يكرر أمره في رجاله بينما أمسك پيتيا جواده من مقوده وراح ينتظر بصبر نافذ أمر اعتلاء صهوات الجياد. وكان وجهه الذي غمسه في الماء البارد، وخصوصاً عينيه، يتلظى بالحمى والقشعريرات تسري في ظهره وجسمه ينتفض برعشة سريعة منتظمة.

صاح دينيسوف:

ـ إذن. هل أنتم على استعداد، إلى السرج!.

قُدمت الجياد فغضب دينيسوف على قوقازي لأن محازم مطيته كانت رخوة ثم امتطى جواده بعد أن أطلق بضع شتائم. ووضع پيتيا رجله في الركاب فأراد جواده كعادته أن يعضه في ساقه، لكنه رفع نفسه كريشة واعتلى السرج في لمح البصر واقترب من دينيسوف ونظرته شاخصة إلى الفرسان الذين بدأوا يتماوجون وراءه في الظلام. قال:

ـ ڤاسيلي ڤيدروڤيتش، سوف تعهد إليَّ بمهمة ما، أليس كذلك؟.. أرجو

وبدا على دينيسوف أنه نسي وجود پيتيا فشمله بنظرة وقال له بصرامة:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ لا أطلب منك إلا شيئاً واحداً: أن تصغي إليّ وأن لا تحشر أنفك حيث لا يعنيك.

راح دينيسوف يخيل بصمت خلال الرحلة كلها دون أن يوجه كلمة واحدة إلى پيتيا.. وعندما بلغوا تخوم الغابة، كان السهل قد أخذ من الضياء حاجته. همس دينيسوف بضع كلمات في أذن رئيس القوقازيين بصوت خفيض فلم يلبث هؤلاء أن عرضوا أمامه وأمام پيتيا. ولما مروا جميعاً أعاد دينيسوف جواده إلى الحركة فانحدر به على حافة الوادي فراحت الأفراس الأخرى تنزلق على آثاره حتى بلغوا عمق الغور. وكان پيتيا يخيل إلى جانب دينيسوف والرعشة التي تنفض جسمه آخذة في العنف والضياء يزداد انتشاراً فلم يعد الضباب يغطي غير الأشياء البعيدة. وعندما بلغوا الأسفل، أدار دينيسوف رأسه إلى القوقازي الآتي وراءه وقال:

ـ الإشارة!.

فرفع القوقازي يده ودوى طلق ناري. فلم يلبث جري الجياد أن ازداد وهي تنفد إلى الأمام وشقت الصيحات عنان السماء مختلطة بطلقات نارية.

في اللحظة التي ارتفع فيها جري أول جواد وعلت الصيحات الأولى، ساط پيتيا جواده وأرخى له العنان ثم اندفع إلى الأمام لا يصغي إلى دينيسوف الذي كان يصيح به شيئاً ما. خيل إليه أن نور النهار الغامر قد حل في اللحظة نفسها التي أعطيت الإشارة فجرى بحصانه مباشرة نحو الجسر. وأمامه، على طول الطريق ، كان القوقازيون يخيِّلون على الجياد. وعلى الجسر، قلب قوقازياً متخلفاً دون أن يخفف من جواده، وأمامه، كان بعض الرجال، فرنسيون، بدون شك، يركضون من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من الطريق، فسقط أحدهم في الوحل تحت قوائم حصان پيتيا.

كان عدد من القوقازيين مجتمعين أمام كوخ خشب منهمكين في عمل

www.Maktbah.com

ما. ومن مركز جماعتهم، دوت صرخة مروّعة. أسرع پيتيا إليهم فكان أول ما وقع نظره عليه وجه فرنسي منقلب الأسارير يرتجف فكه الأسفل، كان يمسك بخشبة رمح موجه إليه.

صرخ پيتيا: هورّا! أيها الفتيان.. إنهم رجالنا.

وأرخى لجواده العنان وقد أثاره العدو، فمضى كالسهم على طول الشارع أمامه.

وإلى الأمام أطلقت بعض الرصاصات وراح الفرسان والقوقازيون والأسرى في أسمالهم، يركضون من جانب الشارع إلى جانبه الآخر ويطلقون صيحات صاخبة. وأخذ فرنسي شاب عاري الرأس أحمر الوجه متقلصه، في معطف أزرق، يدافع عن نفسه بحربته ضد الفرسان، فلما وصل پيتيا إلى جانبه كان قد سقط أرضاً. حدث پيتيا نفسه في مثل لمح البرق: «تأخرت هذه المرة أيضاً» ثم اندفع نحو المكان الذي انطلقت منه لعلعة الرصاص. كان الرصاص يلعلع في فناء منزل الإقطاعي حيث كان العشية مع دولوخوف.

لقد تمركز الفرنسيون هناك وراء حاجز في البستان تغطيه أعشاب كثيفة وراحوا يطلقون النار على القوقازيين المتجمهرين أمام الباب الكبير. ولما اقترب من الباب، شاهد پيتيا خلال الدخان وجه دولوخوف شاحباً ضارباً إلى الزرقة يصرخ بكلام إلى رجاله. وفي اللحظة التي بلغ پيتيا مقربة منه سمعه يزمجر: «خذوهم من الخلف! انتظروا المشاة!».

صاح پيتيا الذي اندفع دون أن يتأخر ثانية أخرى نحو المكان الذي يلعلع منه الرصاص في غمار الدخان الكثيف:

ـ الانتظار؟... هورّا!.

وانطلقت مجموعة من الرصاص راحت التائهة منها تصفر وتفرقع.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

واندفع القوقازيون ودولوخوف في إثر پيتيا خلال البوابة المفتوحة. وفي الدخان الكثيف المتحرك، راح بعض الفرنسيين يلقون أسلحتهم ويركضون خارجين من وراء الدغل للقاء القوقازيين بينما فرّ البعض الآخر نحو أسفل التل باتجاه المستنقع. استمر پيتيا يجري بجواده. في الفناء ولكن، بدلاً من أن يمسك بالأعنة، كان يلوِّح بذراعيه بشكل مضحك سريع ويزداد انحناء على سرج جواده. ولما وطئ جواده بقائمته جذوة نار كانت خابية غير مرئية في ضوء الصباح، رفس بخلفيتيه فانهار پيتيا بتثاقل على الأرض الندية. ورأى القوقازيون ذراعيه وساقيه تتحركان دون أن تشمل الحركة رأسه. لقد اخترقت رصاصة رأسه.

وبعد أن تفاوض دولوخوف مع قائد الكتيبة الذي خرج من المنزل وعلى ذؤابة سيفه منديل أبيض يعلن استسلام رجاله، ترجل عن جواده واقترب من پيتيا الذي كان مسجى على الأرض لا حراك به ممدد الذراعين.

قال وهو يقطب حاجبيه: لقد نال نصيبه.

ثم مضى إلى البوابة للقاء دينيسوف الذي كان قادماً.

صرخ دينيسوف الذي فهم من بعيد معنى الوضع الذي كان عليه پيتيا على الأرض: لقد قتل؟.

فردد دولوخوف وكأنه يجد متعة في استعمال هذه الكلمات:

ـ لقد نال نصيبه.

واندفع نحو الأسرى الذين أحاط بهم القوقازيون الهارعون في تلك الآونة وصاح يخاطب دينيسوف: لا أسرى!.

لم يجب دينيسوف. اقترب من پيتيا وترجل عن جواده وأدار نحوه وجهه الفتي بيدين مرتعشتين، ذلك الوجه المغطى بالدم والوحل الذي كان على وشك الامتقاع.

www.Maktbah.com

ودقَّت أذنيه عبارات پيتيا: «إنني معتاد الحلويات. زبيب ممتاز، خذوه كله!» وعادت إلى ذاكرته. وراح القوقازيون ينظرون وراءهم بدهشة وقد سمعوا ما يشبه العواء يطلقه دينيسوف الذي أخذ يبتعد مسرعاً ليقترب من الحاجز ويتشبث به.

كان في عداد الأسرى الروس المحررين من قبل دينيسوف ودولوخوف پيار وبيزخوف.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

منذ ارتحالها عن موسكو لم تتخذ القيادة الفرنسية أيّ تدبير جديد يتعلق بقافلة الأسرى التي كان پيار في عدادها. ومنذ الثاني والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، لم ترجع هذه الكتيبة مع القطعات والقوافل التي كانت معها عندما غادرت موسكو. وقد نهبت نصف العربات التي كانت تتبعها محملة بالمؤن من قِبل القوقازيين خلال المرحلة الأولى من الطريق، أما النصف الآخر فقد أرسل إلى الطليعة. ولم يبق واحد من الفرسان الذين فقدوا جيادهم والذين كانوا يتقدَّمونهم. لقد اختفوا جميعاً والمدفعية التي كانت تشاهد طوال الأيام الأولى في المقدمة، استبدلت بالمتاع الكثير التابع للماريشال جونو[1] يواكبه الوستڤاليون. وفي أعقاب السجناء، سارت قافلة محملة بتجهيزات الفرسان.

وابتداء من ڤيازما، لم يعد الجيش الفرنسي الذي كان يسير على ثلاثة صفوف، إلا قطيعاً من السائمة. ولقد بلغت الفوضى التي سجلها پيار منذ المرحلة الأولى بعد موسكو، أقصى درجاتها.

تناثرت على الطريق التي يتبعونها جياد نافقة ورجال في أطمار، متخلفون تابعون لأسلحة مختلفة، يتبدلون في كل حين، فتارة ينضمون إلى الفرقة السائرة وطوراً يدعونها تتقدمهم.

---

(١) جنرال فرنسي، كان مساعداً عسكرياً لناپليون خلال حملة إيطاليا. ساهم في حملة مصر، واستولى على لشبونة. انتحر بسبب نوبة جنون عام ١٨١٣. (المترجم).

www.Maktbah.com

ولقد حدث عدة مرّات خلال الطريق أن قُرع بوق الخطر دون أن يكون له ما يبرره، فكان جنود الفرقة يسددون بنادقهم ويطلقون النار ويفرون بأقصى سرعة، يتدافعون ثم يلتئمون مجدداً ويتبادلون اللوم على ذعرهم القاتل العقيم. كانت هذه العوامل الثلاثة تسير معاً، مستودع تجهيزات الفرسان والأسرى ومتاع جونو، وتشكل معاً وحدة. فقد كانت هذه العوامل تذوب بسرعة متعادلة.

لم يبق من مستودع التجهيزات الذي كان يعد بادئ الأمر مائة وعشرين عربة أكثر من ستين عربة، أما القسم الآخر فقد نهب أو هجر. ولقد لاقت عربات كثيرة تابعة لجونو مثل هذا المصير ونهب متخلفون من جيش داڤو ثلاثاً معهم. ولقد عرف پيار من إصغائه إلى أحاديث الألمان أن هذه القافلة تلقت فرقة للحراسة أقوى من حراسة الأسرى وإن واحداً من مواطنيهم قد أعدم رمياً بالرصاص بأمر الماريشال نفسه لأنهم وجدوا معه ملعقة فضية تخصه.

لكن الجزء الذي كان أكثر ذوباناً من الآخرين هو جزء الأسرى. لم يبق من الثلاثمائة أسير الذين غادروا موسكو أكثر من مائة كانوا يضايقون المواكبين أكثر مما كان يضايقهم متاع جونو ومستودع التجهيزات. فالتجهيزات وملاعق جونو كانت قابلة للاستعمال والاستفادة منها عند الضرورة ولكن ما فائدة إرغام جنود يرتجفون برداً على حراسة روس يماثلونهم في الجوع والتأثر من البرد، وروس كانوا يتجمدون من البرد وكانت الأوامر تحتم عليهم إطلاق النار على من يبقى منهم في مكانه؟ لم يكن ذلك مستعصياً على الفهم فحسب بل كريهاً كذلك. وكأنهم كانوا يخشون أنفسهم في موقفهم الدقيق ذاك أن يأخذهم شعور بالشفقة على الأسرى فيزيدون بذلك مركزهم الحرج خطورة، لذلك كانوا يجرونهم بقسوة انعدمت فيها الرحمة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وفي دوروجوبوجيه، بينما راح الجنود ينهبون مستودعاتهم نفسها، سجن الأسرى في اصطبل. فحفر بعضهم ثغرة تحت الجدار هربوا خلالها لكنهم أخذوا مجدداً وأعدموا.

وأغفل النظام الذي أقيم لدى الخروج من موسكو، والذي وجب على الضباط تبعاً له أن يسيروا منفردين عن الجنود، وأصبح كل من يستطيع التقدم يمشي مع السائرين. وبذلك لم يلبث پيار أن وجد نفسه إلى جانب كاراتاييڤ والكلب ذي القوائم الملتوية والشعر المائل إلى البنفسجي الذي اعتبر كاراتاييڤ سيداً له.

عادت الحمى إلى كاراتاييڤ، بعد يومين على مغادرة موسكو، وكانوا قد أودعوه المستشفى بسببها، وكلما ازداد ضعفه، ازداد ابتعاد پيار عنه. لم يعرف پيار السبب الذي بات يدفعه منذ أن بلغ سوء حالة كاراتاييڤ مداه، إلى بذل مجهود على نفسه للاقتراب منه. أصبح پيار الآن كلما سمع أنين كاراتاييڤ الخافت الذي اعتاده كلما استراحوا عقب مرحلة، وصافحت خياشيمه الرائحة شديدة النفاذ التي تفوح من جسمه، يبتعد عنه حتى كف عن التفكير فيه.

عرف پيار في مبنى السجن، عندما احتك مع الأسرى ليس بعقله بل بكل كيانه، أن الإنسان خلق للسعادة وأنه يحمل سعادته في نفسه، في إرضاء نزعاته الطبيعية وأن كل شقاء يصيبه، سببه نقص أو زيادة في ذلك الإرضاء. أما الآن بعد هذه الأسابيع الثلاثة من المسير، فقد حصل على حقيقة جديدة معزية. اكتشف أنه لا يوجد في العالم شيء مريح حقاً. واكتشف في الوقت نفسه أنه إذا لم يكن هناك موضع يكون فيه الإنسان سعيداً وحراً سعادة وحرية كاملتين فإنه كذلك لا يوجد مكان يكون فيه شقياً وأسيراً شقاء وعبودية كاملين. عرف أن هناك حداً للألم وحداً للحرية وأن هذه الحدود تتلاقى، وأن الرجل الذي يتألم وهو على سرير من الورد لأن إحدى البتلات قد انثنت تحته، يتألم مثلما يتألم هو الآن، وهو الذي ينام على الأرض الرطبة العارية، وجسده متجمد

www.Maktbah.com

من جانب ودافئ من الجانب الآخر، وإنه يتألم الآن لأنه دون حذاءيه ـ إذ استبعد حذاءاه من الاستعمال منذ أمد طويل ـ على قدمين حافيتين تغطيهما القروح بقدر ما كان يتألم من خفّيه الضيقين اللذين ينتعلهما عند ذهابه إلى الحفلات الراقصة. عرف أنه عندما تزوج بملء اختياره كما كان يعتقد، لم يكن أكثر حرية مما هو عليه الآن وهو الذي يحبسونه ليلاً في زريبة، وأنه كل ما بات فيما بعد يعتبره آلاماً، رغم أنه لم يشغل نفسه بها في حينه، فإن أسوأها مرده إلى قدميه الحافيتين اللتين تغطيهما الجروح والقروح. فلحم الحصان بات في نظره لذيذاً يفتح الشهية والخلفة التي يتركها ملح البارود المستخدم بدلاً من ملح الطعام في الفم، مقبولة طيبة. ولم يكن البرد قارساً. ففي النهار، أثناء السير، يبعث الدفء في الأوصال. وفي الليل، توقد النيران والقمل الذي ينهش الجلود يدفئها. فالشيء الأليم الوحيد الذي كان عسيراً عليه في البداية هو قدماه.

وفي المرحلة الثانية، بينما هو يتأمل قروحه على وميض النار، فكر پيار أنه لن يستطيع المسير. ولكن عندما بدأ الجميع السير، مشى دون ألم رغم أن جروحه باتت مساء أشد أذى وأبشع للنظر وحينئذٍ كف عن تأملها واجتهد في أن يكف عن التفكير فيها.

أدرك پيار في تلك الآونة، مدى الاحتمال البشري والقوة المخلصة التي تحول الانتباه وتعمل في خدمتنا عمل صمامات الأمان التي تطرح الفائض من البخار في المراجل كلما تخطى الضغط الحد الطبيعي.

لم يكن يرى أو يسمع إعدام الأسرى المتخلفين رغم أن أكثر من مائة منهم قضوا على هذا النحو. ولم يكن يفكر في كاراتاييف الذي كان ينهار يوماً أكثر من يوم والذي وجب أن ينتهي يوماً ما على ذلك النحو. بل إنه أصبح أقل تفكيراً في نفسه. وكلما ازدادت حاله سوءاً، ازداد انفصالاً عن كل من حوله ليجد أكثر عذوبة وعزاء في أفكاره وذكرياته وأحلامه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

كان پيار يصعد هضبة على طريق موحل وهو يتأمل قدميه، ووعورة الطريق، في الثاني والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر. ومن حين إلى آخر، كان يلقي نظرة حوله على جمهرة رفاقه ثم يحدق إلى قدميه مجدداً. لقد كان كل شيء مطابقاً لنفسه وأليفاً. وكان سييري، الكلب الصغير ذو الشعر البنفسجي، يجري على جانب الطريق ويرفع إحدى خلفيتيه أحياناً ليظهر براعته، ثم يقفز على الثلاث ثم على أربع ويهجم على الغربان نابحاً وهي على الجيف، لقد كان سييري أكثر مرحاً وأوفر صحة مما كان عليه في موسكو. فاللحم ملقى في كل مكان. جثث الرجال والجياد ـ متفاوتة التفسخ ومرور الجنود كان ينفر الذئاب لدرجة تجعل سييري قادراً على أن يتناول منها ما يشتهي.

كان المطر يهطل منذ الصباح، يخيل إلى الناظر في كل لحظة أنه على وشك التوقف. وأن السماء ستصفو، لكنه لا يلبث حتى ينهمر أقوى من ذي قبل بعد هدأة قصيرة. ولم يعد الطريق المشبع، يبتلع مياهاً جديدة، فكانت السواقي تسيل في آثار العجلات.

كان پيار يمشي وهو ينظر حوله، يحصي خطواته ثلاثاً فثلاثاً وهو يثني أصابعه بعد كل مرة ويقول في سرّه مخاطباً المطر: «هيا، هيا، أيضاً، أيضاً».

كان يعتقد أنه لا يفكر في شيء لكن روحه كانت غارقة بعيداً بتعمق في مكان ما من أفكاره الخطيرة. كان ذلك نتيجة فكرية لمحادثة دارت أمس بينه وبين كاراتاييف.

www.Maktbah.com

ذلك أن أمس مساء، عند نهاية المرحلة، بينما هو يرتجف بالقرب من نار على وشك الخمود، وقف پيار للاصطلاء قرب النار المجاورة الأكثر شبوباً. وكان پلاتون جالساً هناك متدثراً من رأسه إلى قدميه بمعطفه وكأنه في حلة القداس، يروي للجنود بصوته المريض الضعيف ولكن العذب، قصة معروفة من پيار وكان الوقت بعد منتصف الليل، وهي الساعة التي كان من عادة كاراتاييف أن يصاب خلالها بنوبة من الحمى فتنبعث الحيوية في أوصاله ويبلغ حالة خاصة من الانفعال. ولما سمع پيار صوت المسكين ورأى وجهه المثير للشفقة يضيئه اللهب بشدة، أحس بانقباض كريه في قلبه. خشي من شفقته وأراد أن يبتعد. ولكن لم يكن هناك غير هذه النار، فأقعى وهو يجتهد ألّاَ ينظر إلى پلاتون.

سأله: حسناً، كيف حال صحتك؟.

قال كاراتاييف الذي استأنف قصته فور الإجابة:

ـ الصحة؟ إن البكاء على المرض، يؤدي إلى منع الله من إرسال الموت. واسترسل وعلى وجهه الهزيل الشاحب ابتسامة وفي نظرته ومضة فرح خاصة: وها إنه يا عزيزي، ها إنه يا عزيزي..

كان پيار يعرف تلك الحكاية منذ زمن طويل إذ قصها عليه كاراتاييف خمس مرات أو أكثر بفرح دائم لم يتبدل. لكنه على الرغم من معرفته لها عن ظهر قلب، فقد شعر نحوها بجاذبية الأشياء الجديدة إذ انتقلت الحماسة التي بدت جلية على كاراتاييف إلى روحه. إنها حكاية بائع عجوز يعيش مع عائلته في النزاهة وخشية الله، مضى ذات يوم مع أحد رفاقه الأغنياء، وهو بائع مثله، إلى معرض كارييه، اسم معرض نيجني نوڤغورود الشعبي.

نزل البائعان في خان وناما. ولكن الغني وُجد في صباح اليوم التالي مقتولاً مسلوباً واكتشفت السكين الملوثة بالدم تحت وسادة البائع العجوز،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فحاكموه وساموه عذاب الضرب وانتزعوا أنفه كما يقتضيه النظام القائم حينذاك ـ حسب تعبير كاراتاييف وأرسلوه إلى سجن الأشغال الشاقة.

وها إنه يا عزيزي.. (ووصل پيار عند هذا الجزء من الحكاية) يقضي هناك أكثر من عشر سنوات والعجوز لا يزال في سجنه الأليم، يخضع كما يجب له أن يخضع دون أن يسيء إلى أحد. لكنه يطلب إلى الله فقط أن يدعه يموت. حسناً.. وذات ليلة، ها إن المحكومين يجتمعون، مثلنا هنا، ومعهم العجوز ويبدأ كل منهم برواية السبب الذي حكم عليه من أجله للآخرين ولماذا هو مذنب أمام الله. كان كل يروي قصته: فهذا قتل نفساً وذاك اثنين وثالث أشعل النار في مكان ورابع مملوك هارب حكم عليه دون ذنب. ثم سئل: «وأنت يا جدّي، لماذا أنت هنا؟» فقال: «آه! يا إخوتي الأعزاء، إنني أتألم لخطاياي ولخطايا الآخرين، لأنني لا أحمل وزر نفسي على ضميري ولم آخذ مال الغير بل إنني تقاسمت ما معي دائماً مع إخواني التعساء. إنني بائع يا إخواني الأعزاء ولقد كنت واسع الغنى». وإذا به يروي لهم القصة كلها. قصَّ لهم حكايته من طرف إلى طرفها الآخر وقال: «إنني لا أشكو من أجل نفسي.. إنني أنا الذي اختاره الله لأكفر عن خطايا الناس. لكن شيئاً واحداً يؤلمني، هو زوجتي العجوز وأولادي». وها هو ذا ينخرط في البكاء. وها إنه في عداد الجماعة، الرجل إياه الذي قتل البائع. سأل «جدّي، أين وقع الحادث؟ متى وفي أي شهر؟» سأل التفاصيل وآلمه قلبه. اقترب هكذا من العجوز وسقط على قدميه وقال: «بسببي أنا، أيها العجوز الطيب، تتألم أنت. أيها الرفاق، إنها الحقيقة الحقة، هذا الرجل يتألم دون سبب. إنني أنا مرتكب الحادث وأنا الذي وضعت تحت رأسه السكين الملوثة بالدماء. سامحني يا جدّي، سامحني محبة بالمسيح».

www.Maktbah.com

وسكت كاراتاييف وأخذ يرتب الحطب في النار وهو يحدق إلى اللهب وعلى وجهه ابتسامة مرحة.

تابع كاراتاييف الكلام وقد أشرق وجهه أكثر من ذي قبل بابتسامة ظافرة وكأن ما بقي عليه أن يرويه من القصة كان الجزء الأكثر أهمية وتعبيراً فيها:

قال العجوز: «هو الله الذي سيغفر لك. أما نحن جميعنا، فإننا خاطئون أمامه. وأنا، إنني أتألم من أجل خطاياي». وها هو ذا يبكي بدموع حارة. وماذا تظن يا صقري الصغير؟ ماذا تظن يا صقري الصغير؟ لقد ذهب القاتل يشي بنفسه إلى السلطان بنفسه. قال: «لقد قتلت ستة أشخاص، وكان قاتلاً كبيراً، لكن ما يدخل الأسف إلى قلبي أكثر من غيره، هو هذا العجوز المسكين. يجب ألّا يبكي بسببي». لقد وشى بنفسه إذن فكتبوا ورقة وأرسلوها كما يقتضي الحال وكان المكان بعيداً فاستغرقت وقتاً طويلاً قبل أن يلتئم شمل المحكمة وتصدر الحكم وتكتب الأوراق اللازمة من سلطات إلى سلطات. وبلغ الأمر أعتاب القصر، وأخيراً وصل أمر القيصر ليطلق سراح البائع العجوز وليصرف له التعويض حسب القرار. وأرسلت الورقة ففتشوا عن العجوز. «أين العجوز الذي حكم عليه ظلماً؟ إن ورقة القيصر هنا!» بحثوا عنه، وهنا ارتجفت ذقن كاراتاييف ـ لكن الله كان قد غفر له قبل ذلك إذ كان قد مات، وأعقب كاراتاييف مستنتجاً: وهذا يا صقري العزيز هو ختام القصة.

وراح يحدق طويلاً إلى الفضاء وعلى شفتيه ابتسامة صامتة.

ولم تكن القصة نفسها، بل معناها الخفي، التمجيد المشرق الذي ينير وجه كاراتاييف وهو يرويها، ذلك المعنى الخفي لتلك البهجة هو الذي كان الآن يملأ پيار ارتياحاً غامضاً.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

«إلى أماكنكم!» صاح صوت جهوري فجأة. وعمّت بلبلة بين الأسرى وجنود الموكب وراحوا جميعاً ينتظرون شيئاً ما سعيداً. تناهت الأوامر من كل مكان، وإلى يسار الفصيلة، ظهر فرسان على جياد مطهمة مجهزة أفضل تجهيز تتَّجه نحو الأسرى. واتخذت الوجوه كلها ذلك التعبير الملزم الذي يفيض على وجوه الناس لدى اقتراب شخصيات رفيعة المقام. وجمع السجناء ودفعوا بعيداً عن الطريق واصطف الحرس المواكب:

ـ الأمبراطور! الأمبراطور! الماريشال! الدوق!

وما إن عرض الرجال الذين ينعمون بأفضل تغذية، والذين كانوا يشكّلون الحاشية، حتى وصلوا عربة تجرها ستة جياد شهباء مثنى مثنى، محدثة قعقعة مرتفعة. ورأى پيار في طرفة عين وجهاً ضخماً شاحباً منتفخاً لرجل على رأسه قبعة ثلاثية الزوايا. كان واحداً من الماريشالات ولقد تركَّزت نظرة ذلك الرجل العظيم على هيكل پيار الضخم فخيل لهذا أنه رأى في طريقة تقطيبة حاجبيه وإشاحته برأسه عنه، تعبيراً عن الإشفاق عليه أراد إخفاءه.

وكان الجنرال الذي يقود القافلة، أحمر الوجه مذعور التقاطيع، يدفع جواده المهرول خبباً وراء العربة. واجتمع بعض الضباط واحتشد حولهم الجنود ووجوههم جميعاً تنطق بالقلق والتوتر.

سمع پيار:

www.Maktbah.com

ـ ماذا قال؟ ماذا قال؟

وعند مرور الماريشال، جمع الأسرى، فشاهد پيار كاراتاييڤ الذي لم يكن قد رآه بعد ذلك الصباح. كان كاراتاييڤ جالساً في معطفه القذر مستنداً إلى شجرة سندر ووجهه الذي بقي محتفظاً بتحنان العشية العذب، عندما كان يروي قصة آلام البائع البريء، يشع بالهدوء أكثر من ذي قبل.

كان كاراتاييڤ يتأمل پيار بعينيه المستديرتين المخضلتين بالدموع ويحاول بشكل ملموس أن يستقدمه إليه ليقول له شيئاً ما، لكن پيار كان شديد الخوف على نفسه لذلك تصرف وكأنه لم يرَ تلك النظرة وبادر إلى الابتعاد

وعندما تابع الأسرى المسير، ألقى پيار نظرة إلى الوراء. كان كاراتاييڤ جالساً حيث كان إلي جانب الطريق مستنداً إلى شجرة السندر نفسها وإلى جانبه فرنسيان يتحدثان وهما يشيران إليه فلم يستزد پيار من النظر وراح يصعد المرتفع وهو يعرج في مشيته.

وفي المؤخرة، في المكان الذي كان كاراتاييڤ جالساً فيه، دوى طلق ناري ولقد سمع پيار الانفجار بوضوح. لكنه تذكر في اللحظة نفسها أنه لم ينته بعد من حساب المراحل إلى سمولنسك، ذلك الحساب الذي بدأ به قبل مرور الموكب. فعاد إلى الإحصاء مجدداً. ومر جنديان فرنسيان من أمامه وهما يركضان وفي يد أحدهما بندقية لا يزال الدخان يتصاعد منها. كانا شاحبين كلاهما وفي قسمات وجهيهما، عندما ألقى أحدهما عليه نظرة مذعورة، وجد پيار لوناً مما شاهده على وجه الجندي الشاب عند إعدام مشعلي الحرائق. نظر پيار إلى ذلك الجندي فعرف فيه ذاك الذي أمس الأول، أحرق قميصه وهو يجففه أمام النار وتذكر أنه سخر منه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وبقي كلب يزمجر في المكان الذي ظل فيه كاراتاييف.

ففكر بيار: «يا للغبي، لماذا يعوي هكذا؟».

أما الجنود والرفاق الذين كانوا يسيرون إلى جانبه، فلم يلتفتوا هم كذلك إلى المكان الذي دوّت فيه الطلقة النارية ثم ارتفع منه عواء الكلب. لكن الوجوه كلها اتسمت بميسم صارم.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

اجتمع الأشخاص كلهم حول المعسكرات عندما توقفت قافلة التجهيزات والأسرى وأمتعة الماريشال في قرية شامشيڤو. اقترب پيار من إحدى النيران وأكل قطعة من لحم الحصان ثم نام وظهره إلى النار ولم يلبث أن غفا. لقد نام بمثل تلك السنة التي استولت عليه في موجاييسك، بعد بورودينو.

ومجدداً اختلطت الوقائع بحلمه ومن جديد، أخذ صوت، صوته أو صوت آخر، يشرح له الآراء، تلك الآراء نفسها التي راودته في موجاييسك.

ـ إنّ الحياة هي كل شيء، الحياة هي الله. كل شيء يتحرك ويتحول وهذه الحركة هي الله. وطالما بقيت الحياة، تبقى سعادة حمل الشعور بالله في أعماق النفس. وحب الحياة هو حب الله. والأكثر صعوبة، الأكثر جزاء وثواباً هو حب الحياة بآلامها، بألمها الظالم.

وتذكر پيار كاراتاييڤ.

وفجأة، وكأنه لا يزال على قيد الحياة، عاد يرى العجوز اللطيف الصغير لم يعد يفكر فيه منذ فترة طويلة، وقد كان يعلمه الجغرافيا في سويسرا. قال له العجوز الصغير: «انتظر، وأراه كرة أرضية. كانت تلك الكرة حية تتذبذب دون أن يكون لها محيط دقيق. لقد تشكلت مساحتها كلها من قطرات من الماء شديدة الالتصاق بعضها ببعض. وكانت هذه القطرات تتحرك وتبدل مكانها، فتارة يختلط عدد منها في قطرة واحدة، وطوراً كانت واحدة تنقسم إلى ملايين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أخرى. وكانت كل قطرة تحاول أن تنتشر وأن تشغل أكبر حيز ممكن لكن القطرات الأخرى كانت تعمل مثل ذلك فتضغطها تارة وتحذفها تارة أخرى وتمتزج معها.

قال المدرس العجوز: هذه هي الحياة.

فكر پيار: «كم هي بسيطة وواضحة. كيف لم أعرفها من قبل؟».

إنّ الله في الوسط، وكل قطرة تحاول أن تتمدد كي تعكسه على أوسع مدى ممكن. وهي تكبر وتنبسط ثم تنقبض وتختفي عن السطح وتنزل إلى الأعماق ثم تصعد من جديد. إنها مثل كاراتاييڤ. لقد انبسط ثم اختفى. هل فهمت يا ولدي؟ هكذا كان يقول المدرس العجوز.

وصاح صوت أيقظ پيار: هل فهمت يا...!

وقف وجلس أمام النار، كان جندي فرنسي مشمراً عن أكمامه قد أزاح من فوره جندياً روسياً وجلس القرفصاء ليشوي قطعة من اللحم على طرف قضيب بندقية وكانت يداه الحمراوان الشعرانيتان، بعروقهما المنتفخة وأصابعهما القصيرة المتينة تديران القضيب وتبرمانه بمهارة على النار ووجهه البرونزي الأدكن ذو الحاجبين المزويين كان مضاء بشدة أمام الجمر المحترق.

غمغم وهو يخاطب بحماسة جندياً واقفاً وراءه: ذانك سيان عنده، يا للص! هه!

وراح الجندي الذي يدير القضيب على النار يلقي على پيار نظرة قائمة، فأشاح پيار وحدّق إلى الظلام. وكان أحد الأسرى، ذلك الذي دفعه الجندي الفرنسي ليجلس مكانه، جالساً أمام النار يربت شيئاً بيده فلما أمعن پيار النظر، رأى الكلب ذا الشعر البنفسجي يبصبص بذنبه وهو جالس قرب الجندي.

قال پيار: آه! هل عاد؟

وشرع يقول: وبلا.... لكنه لم يعقب.

www.Maktbah.com

وفجأة تمثل في خياله النظرة التي ألقاها پلاتون عليه وهو جالس تحت شجرته والطلقة النارية التي سمعها تنبعث في ذلك المكان وعواء الكلب ووجهي الفرنسيين المجرمين اللذين تجاوزانه راكضين، والبندقية ذات الدخان، وغياب كارتاييف خلال تلك المرحلة، فاستعد لاستيعاب الحقيقة، حقيقة أن التعس قد قتل. ولكن في الوقت نفسه، ومن مكان لا يعرفه إلا الله، انبعثت في نفسه ذكرى السهرة التي قضاها مع بولونية حسناء، ذات صيف، في شرفة داره في كييف. مع ذلك، فقد أغمض پيار عينيه دون أن يربط بين هذه الذكرى وذكريات ذلك النهار ودون أن يستخلص منها شيئاً، ولم تلبث لوحة من الطبيعة الهادئة أن استلهمت في ذهنه متعة الاستحمام والمحيط السائل الرجراج، وعندئذٍ انزلق في مكان ما من الماء وانغمر فيه لدرجة أن الماء غمره وأطبق على رأسه.

أوقظ قبل انبلاج الفجر بلعلعة الرصاص والأصوات الصاخبة. وكان الفرنسيون يركضون أمام پيار.

صاح أحدهم: القوقازيون!

ولم يلبث پيار أن أحيط بعدد من الوجوه الروسية.

ولقد بقي طويلاً قبل أن يدرك ما وقع. كان رفاقه من كل صوب يطلقون صرخات الفرح.

كان جنود مسنون يصيحون وهم يبكون ويعانقون بين أذرعهم الفرسان والقوقازيين: إخواني! أصدقائي الأعزاء!

أحاط الفرسان والقوقازيون بالأسرى وراحوا يمنحونهم الثياب والأحذية والخبز. وكان پيار الجالس بينهم، يبكي عاجزاً عن النطق بكلمة. ضم إليه أول جندي قابله وقبله وهو يبكي.

جعل دولوخوف الواقف قرب بوابة الدار المتهدمة يسيِّر أمامه جماعة

twitter @baghdad_library

الفرنسيين الذين انتزعت أسلحتهم. وكان هؤلاء، وقد اضطربوا لما حدث لهم فجأة، يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع. لكنهم إذا ما بلغوا مكان دولوخوف الذي كان يسوط ساق حذائه بضربات خفيفة من سوطه ويتأملهم بنظرة زجاجية باردة لا تمني بشيء طيب، كانت أصواتهم تخبو. وكان قوقازي دولوخوف واقفاً إلى الجانب الآخر من البوابة يحصي الأسرى ويشير إلى المئات بخط يرسمه على الباب. سأله دولوخوف:

ـ كم؟

أجاب القوقازي:

ـ إننا في المائة الثانية.

ردد دولوخوف وقد تعلم هذه العبارة من الفرنسيين: سيروا، سيروا!

وكانت نظرته إذا ما صافحت الأسرى المارين أمامه، تلتمع بوميض وحشي.

أما دينيسوف، فكان يمشي حاسر الرأس وراء القوقازيين الذين يحملون جثمان پيتيا روستوف ليواروه في حفرة نبشوها في حديقة المنزل، ووجهه كئيب.

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

اتخذ تقهقر الفرنسيين في فصل الرياح والطقس البارد طابعاً مأسوياً اعتباراً من الثامن والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر. فبعضهم أخذ يتجمد أو يصطلي بالنار حتى يموت حول النيران والبعض الآخر يتابع الطريق في معاطف الفراء وفي العربات الخفيفة حاملاً أسلاب الأمبراطور والملوك والدوقات. لكن انحلال الجيش الفرنسي وانهزامه استمرا يتبعان سيرهما الطبيعي دون أن يتغير طابعهما.

بين موسكو ـ ڤيازما، لم يبق من هذه الألوف الثلاثة والسبعين من رجال الجيش باستثناء رجال فرق الحرس، وهؤلاء لم يفعلوا شيئاً طوال الحرب غير النهب، لم يبق من هذه الألوف، من الجنود أكثر من ستة وثلاثين ألفاً ومن هؤلاء المفقودين، لم يزد عدد الذين سقطوا في المعارك على الخمسة آلاف رجل. هذه هي المعادلة الأولى من المسألة الطردية، ولقد حدد حسابياً المعادلات التالية. لقد ذاب الجيش الفرنسي وباد بمثل تلك النسبة من موسكو إلى ڤيازما ومن ڤيازما إلى سمولنسك ومن سمولنسك إلى پيريزينا إلى ڤيلنا، كل ذلك دون أن يكون للبرد الشديد القارس أو الخفيف أو لمطاردة الروس أو للعقبات في الطريق وكل الظروف الطارئة الخاصة أي دخل في الأمر. لم يعد الجيش الفرنسي بعد ڤيازما والصفوف الثلاثة المنظمة، يشكل غير قطيع ولقد بقي كذلك حتى النهاية. ولقد كتب برتييه إلى سيّده ما يأتي (وإننا نعرف

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

مبلغ ما يسمح به لأنفسهم الرؤساء الذين يكتبون عن حالة جيش من تحوير للحقائق):

«أظن أن من واجبي إطلاع جلالتكم على حالة قطعاتكم في مختلف وحدات الجيش، تلك الحالة التي اطلعت عليها بنفسي منذ يومين أو ثلاثة أيام في مختلف المرحل. إنها تكاد تكون مبعثرة. وعدد الجنود الذين يتبعون العلم في القطعات لا يكاد يبلغ ربع مرتبات القطعة. أما الباقون، فيسيرون منفصلين في وجهات مختلفة وبحسب رأيهم آملين العثور على أرزاق ساعين إلى التخلص من الطاعة للنظام. إنهم على العموم يجدون أن سمولنسك هي النقطة التي يجب أن يعيدوا تنظيمهم فيها.

ولقد لوحظ خلال الأيام الأخيرة هذه أن كثيراً من الجنود يلقون بأسلحتهم وذخيرتهم. وفي مثل هذه الحال، تتطلب مصلحة خدمة جلالتكم مهما كانت وجهات نظركم الأخرى، أن يعاد تنظيم الجيش في سمولنسك باستبعاد غير المقاتلين من الرجال بادئ الأمر، أمثال الذين فقدوا جيادهم وتجهيزاتهم، والاستغناء عن الأمتعة غير الضرورية وأعتدة المدفعية التي لم تعد متناسبة مع القوى الحالية، أضف إلى ذلك أن من الضرورة توفير الأرزاق أيام الاستراحة للجنود الذين أنهكهم الجوع والتعب، إذ إن كثيراً منهم ماتوا خلال الأيام الأخيرة في الطريق أو في المعسكرات. إن حالة الأمور هذه آخذة بالازدياد وتجعلنا نخشى، في حالة عدم إيجاد دواء سريع حاسم، ألّا نسيطر على القطعات بعد الآن في القتال. في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر، على بعد ثلاثين ميلاً من سمولنسك».

وبينما الفرنسيون يندفعون في سمولنسك التي كانت بالنسبة إليهم الأرض الموعودة، أخذوا يتذابحون للحصول على الأرزاق وراحوا ينهبون

www.Maktbah.com

مستودعاتهم الشخصية. ولما أتلفوا ونهبوا كل شيء، انطلقوا فارين إلى أبعد منها.

كانوا جميعهم يسيرون دون أن يعرفوا لماذا وإلى أين يذهبون. ونابليون نفسه، بكل عبقريته، لم يكن يعرف ذلك أفضل منهم طالما أنه لم يكن يتلقى الأوامر من أحد. مع ذلك، فهو مع المحيطين به، استمروا في إصدار التعليمات والرسائل والتقارير والأوامر اليومية، ويعامل بعضهم بعضاً بقولهم: «سيدي، ابن عمي، الأمير ديكموهل، «ملك نابولي»»... لكن التعليمات والتقارير لم يكن لها من وجود إلا على الورق، فلم يكن أحد يفكر في تنفيذها لأنها كانت غير قابلة للتنفيذ. وعلى الرغم من الألقاب الضخمة التي كانوا يتبادلونها: عظمتكم، سموكم، أخي، كانوا كلّهم يشعرون بأنهم صعاليك يستحقون الشفقة وأنهم كثيراً ما أساؤوا وأنهم سيجبرون على تقديم حساب عما فعلوا. وبذلك، فما من أحد منهم، رغم تظاهره بالاهتمام بشؤون الجيش كان يهتم بغير نفسه وبالوسائل الممكنة لإنقاذ جلده بأسرع ما يمكن.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

خلال التراجع عن موسكو حتى النيمن كانت تحركات القطعات الروسية والفرنسيين شبيهة بلعبة «الغمَّيضة» عندما يكون لاعبان معصوبي العيون فيحرك أحدهما من حين إلى آخر، جرسه لينبه الذي يريد أن يمسك به. ففي بادئ الأمر يخطر اللاعب الذي يجب أن يُمسك به خصمه دون وجل. لكنه عندما يشعر بأنه أصبح في مركز حرج، يحاول جاهداً ألّا يثير أية ضجة كي يتمكن من الإفلات، وهو غالباً في هذه الحالة، يندفع مباشرة بين ذراعي العدو وفي ظنه أنه يتحاشاه.

ففي البداية، كانت جيوش ناپليون لا تزال تعلن وجودها، وكانوا حينذاك في مرحلة التقهقر الأولى على طريق كالوغا، ولكن، فيما بعد، عندما بلغت الجيوش طريق سمولنسك، راحت تسرع منهزمة وهي تمسك بيدها مطرقة الجرس كي لا يدق وتمضي غالباً إلى الاصطدام بالروس وهي تعتقد أنها أفلتت منهم.

وكانت سرعة تقهقر الفرنسيين ومطاردة الروس تنهك الجياد لدرجة أن الوسيلة الرئيسة للاستعلام تقريباً عن وضعية العدو، دوريات الفرسان الاستكشافية، لم يعد لها وجود. على أية حال، كانت المعلومات، أياً كانت لا تصل في حينها، بسبب التغيّرات الكثيرة السريعة في مواقع الجيشين. فإذا علم مثلاً في اليوم الثاني من الشهر أن جيش العدو كان في اليوم الأول منه في مكان كذا، فإن ذلك الجيش في اليوم الثالث من الشهر، في حين يمكن

www.Maktbah.com

عرفاً القيام بنشاط ما، يكون قد أصبح على مسافة مرحلتين وفي موضع آخر مختلف تماماً.

كان جيش يجري وآخر يتبعه. وابتداء من سمولنسك، كان الفرنسيون قادرين على الاختيار بين طرق عديدة. وكان يُظن أنهم بعد أن مكثوا في تلك المدينة أربعة أيام، يعرفون مكان العدو، فيعدون خطة لمصلحتهم ويبدأون حملة جديدة. ولكن، بعد هذه الأيام الأربعة من التوقف، عاد قطيعهم إلى الفرار، ليس إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولكن دون أي خطة للتحركات، عبر الطريق الذي شقوه من قبل، طريق كراسنوييه وأورشا القديم وهو أسوأ كل الطرق.

ولما كانوا يتوقعون أن يكون العدو وراءهم وليس أمامهم، فإن الفرنسيين كانوا يهربون مسرعين تاركين بين مختلف وحدات جيشهم مسافات تقطع في أربع وعشرين ساعة مشي. وعلى رأسهم جميعاً، كان الأمبراطور يفر ثم الملوك ثم الدوقات. ولما كان الجيش الروسي يعتقد أن ناپليون سيتجه يميناً ليجتاز الدنيبير، وهو التصرف المعقول الوحيد، فقد اتجه نحو ذلك الاتجاه وبلغ طريق كراسنوييه الكبير.

وهناك كما في لعبة «الغمّيضة» جاء الفرنسيون فاصطدموا بطلائعنا. ولما كشفوا العدو بغتة، تجزأ الفرنسيون وتوقفوا ثم فروا وقد استبد بهم ذعر قاتل، تاركين وراءهم الجيش الذي يتبعهم. وخلال ثلاثة أيام، استمرت قطعات الجيش الفرنسي تمر بين وحدات الجيش الروسي كما يمر محكوم بالجلد بين صفوف الجلادين: مرت أولاً مجموعة نائب الملك ثم مجموعة داڤو فمجموعة «ني» وكانت جميعها تهجر إحداها الأخرى تاركة وراءها المدفعية والأمتعة الثقيلة ونصف رجالها، وتحاول في فرارها ليلاً أن تتجنب الروس بإجراء أنصاف دوائر إلى اليمين.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولقد كان «ني» آخر السائرين (لأنه، على الرغم من ذلك الموقف الميؤوس منه، أو لعله بسببه، أراد الفرنسيون أن يعاقبوا تلك الأرض التي كانت سبب كل ذلك الألم، فجاء «ني» ينسف جدران سمولنسك التي لم تكن تعيق أحداً). وإذن، كان «ني» آخر السائرين بجمهرته التي يبلغ عدد رجالها عشرة آلاف مقاتل ولقد لحق بناپليون في أورشا وليس معه أكثر من ألف رجل، بعد أن شتَّت قطعاته ومدافعه في مسير ليلي عبر الغابات ليجتاز الدنييبر سراً.

ومن أورشــا، استمروا يفرون باتجاه ڤيلنا، وهم يلعبون أبداً لعبة «الغمّيضة» مع الجيش الذي كان يطاردهم. ومجدداً، عاد التشوش في پيريزينا. لقد غرق منهم كثيرون واستسلم كثيرون، ثم استأنف الذين استطاعوا اجتياز النهر عدوهم إلى الأمام. ولقد ارتدى رئيسهم الكبير فراءه واستقل الزحافة ثم مضى بأقصى سرعة تاركاً رفاقه. ولقد فر من استطاع الفرار، أما الباقون، فقد استسلموا أو ماتوا.

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

أثناء هذا الفرار السريع من جانب الفرنسيين المستعدين للبدء بكل شيء قمين بضياعهم، وفي الوقت الذي لم تكن أي حركة من حركات هذا الحشد بدءاً من طريق كالوغا وحتى فرار رئيسه، تدل على بادرة من بوادر التعقل، كان يعتقد أنه من المستحيل على المؤرخين الذين يعزون حركة الجماعة إلى مشيئة شخص واحد، أقله في هذه الحقبة من الحملة، أن يقيموا الدليل على نظريتهم في مثل هذا الانحدار. ولكن أبداً. لقد كتبت جبال من الكتب عن هذه الحملة وفي كل منها، يصرون على التدابير التي اتخذها ناپليون وعلى عمق خططه و«المناورات» التي كانت تسير حركات قطعاته واستعدادات ماريشالاته العباقرة وتدابيرهم.

ابتداء من مالوايار وسلاڤيتز، تقهقر ناپليون، حيث كان يستطيع بلوغ أراض غنية بالأرزاق الوافرة، سالكاً ذلك الطريق الآخر الموازي للذي كان يسهل عليه سلوكه، والذي طارده كوتوزوف فيما بعد فيه، ذلك التقهقر العقيم على طول طريق مخرب وإقليم منهوب، يفسَّر بسعة علم مختلفة عميقة. وباسم المعرفة العميقة المماثلة في العمق أيضاً، يصفون لنا تقهقره من سمولنسك إلى أورشا.. وبعد ذلك، يصفون لنا كذلك بطولة ناپليون في كراسنوييه حيث، كما يزعمون، كما هو على أهبة خوض المعركة، يروح ويجيء وفي يده عصاه من خشب السندر ويقول: كفاني ما كنت أمبراطوراً، لقد أزف الوقت لأعمل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

جنرالاً: الأمر الذي لم يمنعه، بعد ذلك بقليل، من الفرار تاركاً حطام جيشه المبعثر الذي ظل في المؤخرة لرحمة المصير.

وهم يصفون لنا كذلك بسالة الماريشالات، وبصورة خاصة بسالة الماريشال «ني»، وهي البسالة التي تقوم على أساس القيام بحركة دائرية واسعة خلال الليل في الغابة لاجتياز الدنيبر والفرار نحو أورشا دون أعلامه، دون مدفعيته، خاسراً تسعة أعشار جنوده.

حتى فرار الأمبراطور العظيم النهائي، تاركاً جيشه الباسل، صُور لنا من قبل المؤرخين بأنه بادرة من بوادر العظمة والعبقرية. حتى تلك البادرة، ذلك الفرار الذي يسمى في كل اللغات البشرية منتهى النذالة، هذه البادرة التي نعلم الصغار أن يخجلوا منها، تجد في لغة المؤرخين ما يبررها.

وعندما يستحيل عليهم أن يزيدوا في مد خيط مناقشاتهم المرن، عندما يكون الفعل شديد المناقضة لما تعتبره البشرية جيداً بل عادلاً، يجنح المؤرخون إلى تعبير العظمة الذي ينقذ كل شيء. والعظمة تبدو في نظرهم نافية لإمكانية قياس الخير والشر. والشر لا وجود له بالنسبة إلى من هو عظيم. ولا يمكن إطلاقاً لأية بشاعة ما أن تعزى كجرم إلى ذلك الذي يكون عظيماً.

ويكرر المؤرخون «هذا عظيم!» ومنذ ذلك الحين، بدلاً من الخير والشر يقوم ما هو عظيم وما هو غير عظيم. فما هو عظيم، جيد، وما هو غير عظيم سيئ. وأن يكون عظيماً في نظرهم، هو ما هو خاص بأولئك الأشخاص الاستثنائيين الذين يسمونهم أبطالاً. ونابليون المتدثر بفرائه الدافئ، يعود إلى منزله تاركاً لمصيرهم المحتوم، ليس رفاقه في السلاح فحسب، بل، حسب اعترافه نفسه، أشخاصاً قادهم هو إلى هناك، وهو يشعر أن هذا عظيم وضميره بالتالي مطمئن.

كان يقول: «ليس بين الإعجاز (وكان يرى في نفسه شيئاً من الإعجاز)

www.Maktbah.com

ومحط السخرية إلا خطوة واحدة». فردد العالم خلال خمسين عاماً: «إعجاز عظيم! ناپليون العظيم! ليس بين الإعجاز ومحط السخرية إلا خطوة واحدة».

ولم يخطر على بال أحد أن وضع العظمة خارج قواعد الخير والشر إنما هو اعتراف بصغارها الذي لا يقدر، بعدمها ليس إلا.

بالنسبة إلينا، نحن الذين تلقينا عن المسيح مقياس الخير والشر، لا يوجد مقياس غيره لهما. ليس هناك عظمة حيث لا وجود للبساطة والخير والعدالة.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع عشر

لم يشعر أي روسي بالحزن المصحوب بالغضب والخزي، وقد قرأ وصف الحقبة الأخيرة من حملة عام ١٨١٢. من الذي لم يطرح هذه الأسئلة: كيف لم يطبقوا على هؤلاء الفرنسيين كلهم ولم يبيدوهم، وثلاثة جيوش تفوقهم بالعدد تفوقاً كبيراً كانت تحيط بهم؟ كيف، والفرنسيون المشتتون الجائعون النافقون من البرد، كانوا يستسلمون كتلاً، وهدف الروس، كما يروي لنا التاريخ، كان يقوم على إيقافهم وعزلهم وأسرهم جميعاً؟

كيف جرى وخاض الجيش الروسي عندما كان أقل عدداً من الجيش الفرنسي، معركة بورودينو، في حين أن هذا الجيش بالذات، عندما أصبح يطوق الفرنسيين من ثلاث جهات سعياً وراء قصد واحد، لم يبلغ هذا القصد؟ هل يعقل أن يكون الفرنسيون حينذاك على تفوق هائل حتى أنهم بعد أن طوقناهم بقوات ساحقة لم نستطع القضاء عليهم؟ كيف أمكن لشيء من هذا القبيل أن يحدث؟

التاريخ، أو أقله ما يطلقون عليه هذا الاسم، يجيب عن هذه الأسئلة قائلاً إن ذلك حدث لأن كوتوزوف وتورماسوف وتشيتشاغوف وهذا أو ذاك لم يعلموا هذه أو تلك من «المناورات».

ولكن لماذا لم يجروا هذه «المناورات»؟ لماذا لم يحاكموهم ويحكموا عليهم إذا كانوا مذنبين لعدم بلوغهم الهدف المنشود؟ وإذا تقبلنا أن هذا «الإخفاق» من جانب الروس معزو إلى كوتوزوف وتشيتشاغوف إلخ...،

www.Maktbah.com

فإننا مع ذلك لا نعرف إذا لم يؤسر الجيش الفرنسي كله بماريشالاته وملوكه وأمبراطوره في كراسنوييه وبيريزينا، والجيش الروسي كان هناك على ما نعرفه من تفوق ساحق في كلتا الحالتين، مادام ذاك كان هو الهدف المنشود.

إن تفسير هذه الواقعة الغريبة، كما يقدمه المؤرخون العسكريون الروس هو أن كوتوزوف كان يعارض في الهجوم. لكن هذا التفسير لا تقوم له قائمة ما دمنا أننا نعرف أن إرادة كوتوزوف لم تستطع منع الجيش من الهجوم في ڤيازما وتاروتينو.

فلماذا إذن، هُزم ذلك الجيش الروسي الذي ربح معركة بورودينو رغم قواته الضئيلة على أعداء في أوج قوتهم، هزم في كراسنوييه وپيريزينا رغم تفوقه العددي الساحق، أمام قطيع من الفرنسيين المشردين المشتتين؟

إذا كانت غاية الروس قطع خط التقهقر على الفرنسيين وأسر ناپليون وماريشالاته، يجب أن نتقبل إذن أن هذا الهدف لم يبق ممتنعاً عن المنال فحسب بل إن المجهودات التي بذلت في كل مرة لبلوغه تحطمت على أكثر ما يدعو إلى الخجل من الصور، وحينئذٍ يجب القول إن الحقبة الأخيرة من الحملة كانت بالنسبة إلى الفرنسيين سلسلة انتصارات، ويكون المؤرخون الروس والحالة هذه مخطئين تماماً إذا اعتبروها نصراً لنا.

إن الكُتّاب العسكريين الروس، في النواحي التي يتقيدون فيها بالمنطق يصلون رغماً عنهم إلى هذه النتيجة. فهم رغم كل ما يغدقونه من الإطراء الشاعري على بسالة الروس وتفانيهم، إلخ..، لا يمكن إلا أن يعترفوا بأن تقهقر الفرنسيين اعتباراً من موسكو ليس إلا سلسلة من الانتصارات لناپليون ومن الهزائم لكوتوزوف.

لكننا إذا وضعنا الكرامة القومية جانباً، نشعر بتناقض رغم ذلك في هذه النتيجة، مادامت هذه السلسلة من الانتصارات بالنسبة إلى الفرنسيين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أوصلتهم إلى فناء كامل وأن سلسلة هزائم الروس قادتهم على العكس إلى سحق أعدائهم وإنقاذ وطنهم.

ومبعث هذا التناقض ناشئ عن أن المؤرخين الذين يحللون الأحداث في مراسلة الأباطرة والجنرالات وفي العلاقات والتقارير والخطط، يفرضون هدفاً كاذباً لم يكن قط موجوداً في الحقبة الأخيرة من حرب عام ١٨١٢. وهذا الهدف الكاذب هو التطويق وأسر نابليون وماريشالاته وجيشه.

لم يكن هذا الهدف موجوداً قط ولم يكن يمكن أن يوجد لأنه لم يكن ذا معنى ولم يكن ممكناً بلوغه إطلاقاً.

لم يكن ذا معنى في الدرجة الأولى لأن جيش نابليون المنهزم كان يفر من روسيا بكل السرعة الممكنة، أي إنه كان يفعل تماماً كل ما كان يتمناه كل روسي. فما فائدة القيام بعملية ما ضد وحدات تنطلق هاربة بأقصى سرعة؟

وكان يستحيل، في الدرجة الثانية، قطع الطريق على رجال ركزوا كل حيواتهم في رغبتهم في الفرار.

وفي الدرجة الثالثة، كان من المنافي للعقل كذلك أن يُساق الجيش الروسي إلى الخطر لإبادة الجيوش الفرنسية التي كانت في طريقها إلى الفناء من تلقاء نفسها دون أسباب خارجية، وبسرعة فائقة، حتى أنها دون أي عائق في الطريق لم تكن تستطيع أن تحمل إلى ما وراء الحدود من الوحدات، أكثر مما حملت في شهر كانون الأول/ ديسمبر، أي، واحداً من مائة من المرتب العام.

وفي المرتبة الرابعة، كان من المنافي للعقل السعي إلى أسر الأمبراطور والملوك والدوقات، وهم الشخصيات التي كان أسرها سيسبب للسياسة الروسية أقصى المتاعب، كما اعترف بذلك أفضل دبلوماسيي العصر، جوزيف

www.Maktbah.com

دوميستر[1] وآخرون، وأكثر تنافياً للعقل كذلك، الرغبة في أسر قطعات فرنسية برمتها، في الوقت الذي ذاب أكثر من نصف جيشنا أمام كراسنوييه، والذي كان يجب فيه أن يُطرح من النصف الباقي أفواج كاملة لمواكبة الأسرى، هذا إضافة إلى أن جنودنا ما كانوا ينالون دائماً جرايتهم كاملة وأن الجنود الذين كانوا في الأسر قبل ذلك، كانوا يموتون من الجوع.

إن كل هذه الخطة التي وجب أن تقوم على أساس قطع خط الرجعة على ناپليون والاستيلاء على جيشه، تشبه تماماً خطة بستاني ما، رغب في طرد الماشية التي تعيث في بستانه فساداً، فأسرع إلى الباب وراح يضرب الحيوانات على رؤوسها. إن التفسير الوحيد لتصرف هذا البستاني هو غضبه. ولكن لا يمكن أن نعزو مثل هذا الفرض إلى واضعي هذه الخطة لأنهم لم يتألموا من العبث في بستانهم وإتلافه.

ثم إن قطع خط الرجعة على ناپليون وجيشه ليس منافياً للعقل فحسب بل مستحيلاً.

إنه مستحيل أولاً للسبب التالي: كما أن التجربة تبرهن على أن حركة القطعات على مساحة خمسة فراسخ في معركة ما لا تتفق مع الخطط المهيأة سلفاً، كذلك احتمال لقاء بين تشيتشاغوف وويتغنستين في مكان واحد، كان من الضعف لدرجة قريبة من الاستحالة. إنه تماماً رأي كوتوزوف الذي أعلن منذ تلقيه الخطة، أن اشغالات بقصد تحويل الانتباه على مسافات كبيرة لا يمكن أبداً أن تؤدي إلى النتائج المتوخاة.

وهو مستحيل في المرحلة التالية لأنه لكي تشل قوة المقاومة السلبية

---

(١) فيلسوف ديني من أتباع روما. أشهر مؤلفاته: الباب، وليالي پيترسبورغ. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التي كانت تدفع جيش ناپليون إلى الوراء، كان يجب أن يكون لدى الروس قوات لا تضاهى بالتي كانت لديهم.

وكان مستحيلاً في الدرجة الثالثة لأن التعبير العسكري: «قطع جيش» ليس له معنى. يمكن أن يقطع المرء قطعة خبز وليس جيشاً. لا يمكن قطع جيش، وأعني قطع الطريق عليه، لأنه يوجد دائماً في الأماكن المجاورة من الفسحة ما يكفي للالتفاف حول العائق، ولأن هناك الليل الذي تتعذر الرؤية خلاله، وهو الأمر الذي كان يمكن للعباقرة في الفن العسكري أن يقنعوا أنفسهم به، ولو اقتصر ذلك على أمثلة كراسنوييه أو پيريزينا. أضف إلى ذلك أنه يستحيل أسر شخص ما دون موافقته، استحالة إمساك السنونوة، رغم أنه يمكن إمساكها إذا حطت على يدك. يمكن أسر من يستسلمون، كالألمان، وفقاً للقواعد «الاستراتيجية» و«التكتيك». لكن الجيش الفرنسي في حقيقته، لم يكن يجد الاستسلام مفيداً لأن موتاً مشابهاً كان ينتظره من الجوع والبرد في حالتي الأسر والفرار.

وفي المرحلة الرابعة، وهي الأكثر أهمية، كان ذلك مستحيلاً لأنه لم يحدث قط، منذ أن وجد العالم، أن نشبت حرب في مثل الظروف المريعة التي كانت في شتاء عام ١٨١٢ ولأن الجيش الروسي كان يستنفر كل قواه لمطاردة الفرنسيين حتى أنه لم يكن يستطيع أن يفعل أفضل مما فعل دون أن يفني نفسه بالمثل.

لقد فقد الجيش الروسي خلال سيره من تاروتينو إلى كراسنوييه، خمسين ألف مريض ومتخلف، أي عدداً مماثلاً لسكان مركز إقليم هامّ. لقد اختفى نصف العدد دون قتال.

وبخصوص هذه الآونة من الحملة، عندما كان الرجال حفاة لا معاطف لديهم، يعانون نقص الغذاء، وينامون على الثلج طوال أشهر في برودة تبلغ

www.Maktbah.com

١٥ درجة في ميزان ريئومور، عندما لم يكن النهار أطول من سبع أو ثماني ساعات بينما يخيم الليل طوال الوقت الباقي، وحيث لا أثر للانضباط، عندما لا يعود الرجال في جو معركة ويدخلون لبضع ساعات في سلطان الموت، عندما لا يصبح للنظام أثر في حين يناضل الرجال خلال أشهر، دقيقة فدقيقة ضد الموت من الجوع أو البرد، وعندما يموت نصف جنود الجيش في شهر واحد، بخصوص هذه الفترة من الحملة، يحدثنا المؤرخون كيف تصرف ميلورادوڤيتش لينقذ «مشية الجناح» تلك نحو مكان كذا، وتورماسوف نحو المكان كذا الآخر وكيف انتقل تشيتشاغوف وهو يغرز في الثلج إلى أعلى من ركبتيه، وكيف قطع فلان آخر الطريق على العدو ومزقه إرباً إرباً، إلخ، إلخ...

إن القطعات الروسية التي أنقصها الموت إلى نصف عددها، فعلت كل ما كان ممكناً القيام به لبلوغ الغاية الجديرة بشعبنا. وليس الذنب ذنبها إذا وضع روس آخرون، ينعمون بالدفء في غرف مريحة، خططاً لا يمكن تنفيذها.

إنّ هذا التناقض الغريب، غير المفهوم اليوم، بين الواقعة والعلاقة التاريخية، ناجم فقط عن أن المؤرخين لم يعطونا إلا تاريخ المشاعر الرائعة والخطب البليغة لمختلف الجنرالات وليس تاريخ الوقائع.

إنّ ما بدا لهم أكثر أهمية كان كلمات ميلوراد ڤيتش والمكافآت التي نالها هذا أو ذاك من الجنرالات والخطط التي اقترحوها، أما مسألة الخمسين ألف تيس الذين ظلوا سواء أكان في المشافي أم في القبر، فإنها لا تهمهم لأنها خارجة عن حدود أبحاثهم.

في حين أنه يكفي أن يلتفت المرء من دراسة التقارير والخطط الموضوعة من قبل الجنرالات ومعاينة حركات هذه المئات من ألوف الرجال الذين ساهموا مساهمة مباشرة فورية بكل ما حدث لتتلقى كل المسائل التي كانت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تبدو لأول وهلة متعذّرة الحل، حلاً لايقبل الجدل، فجأة وبسهولة وبساطة خارقتين.

إن الخطة التي وجب أن تهدف إلى قطع خط الرجعة على ناپليون وجنوده لم تكن موجودة إطلاقاً إلا في مخيلة حوالى عشرة أشخاص. لم يكن ممكناً أن تكون موجودة لأنها منافية للعقل ولأنها كانت مستحيلة.

لم يكن للشعب الروسي غير هدف واحد: تطهير أرضه من الغزاة. ولقد بلغ هذا الهدف أولاً بصورة آلية لأن الفرنسيين كانوا يهربون فكان يكفي عدم وضع العقبات في طريق فرارهم، وفي المرتبة الثانية، بلغ بفضل عمليات الحرب الشعبية التي أبادت الفرنسيين وفي المرحلة الثالثة، لأن جيشاً روسياً قوياً كان يطارد الفرنسيين ويتبع آثارهم وهو على استعداد لاستعمال قوته إذا هم أوقفوا حركتهم.

لم يكن على الجيش الروسي أن يتصرف إلا على طريقة السوط المشرع فوق رأس الحيوان الهارب. وسائق قطيع مجرب، يعرف أن أفضل وسيلة هي إبقاء السوط مشرعاً وتهديد الحيوان الهارب به وليس جلده به على رأسه.

www.Maktbah.com

الجزء الخامس عشر

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

أمام حيوان نافق، يستولي الرعب على الإنسان لأنه هو نفسه على وشك الموت والكفّ عن الحياة تحت ناظريه. ولكن عندما يكون المحتضر رجلاً، رجلاً محبوباً، فإن شعوراً بالألم الممزق أو جرحاً في القلب يشبه جرح الجسد، يقتل أحياناً وأحياناً يلتئم، ولكن يبقى مؤلماً يخشى دائماً أن يثيره مسّ خارجي، يُضاف إلى الروع الذي يشعر به أمام فناء الحياة.

ولقد أحس كل من ناتاشا والأميرة ماري هذا الإحساس بعد وفاة الأمير أندريه. كانتا منهارتين معنوياً، تغمضان عيونهما أمام غمامة الموت الجاثمة فوق رأسيهما ولا تجرؤان على النظر إلى الحياة نظرة صريحة. لم تفكّرا إلا في حماية جرحهما من مس مهين أو أليم. كان كل شيء، مرور عربة مسرعة في الشارع، إعلان العشاء، سؤال وصيفة عن ثوب ينبغي إعداده، بل أكثر من ذلك: كلمة عطف مصطنع أو دون حرارة، كل شيء كان ينكأ الجرح المحروق ويسيئ إليهما كالإهانة، فيهدم ذلك الصمت الذي لا بدَّ منه والذي كانتا كلتاهما تتحريانه للإصغاء إلى المجموعة الخطيرة التي لا تبرح تدوي في مخيلتيهما فتمنعهما من النظر إلى الأبعاد الغامضة اللانهائية التي انكشفت لحظة أمامهما.

ما كانتا تشعران بإهانة أو ألم في خلوتهما، وما كانتا تتبادلان شيئاً من الحديث خلالها تقريباً وإذا تحدثتا، جرى الحديث حول أسخف الأشياء، لأن كلتيهما كانتا تتجنبان أي تلميح إلى المستقبل.

twitter @baghdad_library

كان الاعتراف بأمل في المستقبل يبدو لهما في الواقع شتيمة لذكرى الأمير أندريه. لذلك كانتا كلتاهما تحاولان وسعهما أن تتحاشيا كل ما له علاقة به. وكان يخيل إليهما أن ما عانتاه لا يمكن أن يعبّر عنه بالكلام فتفكران أن المسّ بأتفه تفصيل لحياة الأمير أندريه، مهدم لعظمة السر الذي نفذ تحت أنظارهما وقدسيته.

وكان تحفظهما المستمر في أحاديثهما وجهدهما الدائم لتجنب كل ما يمكن أن يؤدي إلى الحديث عنه، هذا الأسلوب في إقامة الحراسة على كل مناحي حدود ما لا يجب قوله بأي ثمن، كان يعرض بوضوح ونقاء أعظم، ما كانتا تشعران به أمام مخيلتيهما.

لكن الحزن الكلي يشبه في استحالته الفرح الكلي، كانت الأميرة ماري التي أصبحت بحكم مركزها السيدة الوحيدة لمصيرها والوصية المسؤولة عن ابن أخيها، أول من استدعتها الحياة خارج الحداد الذي انطوت فيه منذ أسبوعين. تلقت من أقربائها مراسلات يجب أن ترد عليها. وكانت الغرفة التي يعيش فيها نيكولا الصغير رطبة فبدأ الطفل يسعل، وجاء الپاتينش إلى ياروسلاڤل يحمل حساباته ونصح الأميرة أن ترجع إلى موسكو لتسكن في منزلها في ڤوزدڤيغلنكا الذي بقي سليماً والذي كان في حاجة إلى بعض الإصلاحات. فالحياة لم تكن قد توقفت ومهما بلغ من إيلام الخروج من عالم الوحدة والتأمل ذاك على نفس الأميرة ماري التي استسلمت له حتى ذلك الحين والمتاعب المادية التي كانت تطالب بحضورها، فإنها اضطرت إلى الخضوع رغم الإشفاق الذي كانت تحس به نحو ناتاشا والتبكيت النفسي الذي اعتلج في نفسها لفراقها. أخذت تدقق في حسابات الپاتينش وتتناقش مع ديسال حول موضوع ابن أخيها وتتخذ التدابير الضرورية لعودتها إلى موسكو.

www.Maktbah.com

وبقيت ناتاشا وحيدة. فمنذ اللحظة التي بدأت ماري باتخاذ أهبتها، راحت تتجنَّبها.

خلال ذلك، عرضت الأميرة ماري على الكونتيسة أن تسمح لناتاشا بمرافقتها إلى موسكو فوافقت الأم كما وافق الأب على هذا العرض بفرح لأنهما باتا يريان قوى ابنتهما تنهار يوماً بعد يوم ويعتقدان أن تبديل الهواء مضافة إليه عناية طبيب في موسكو، سيكونان ناجعين لحالتها.

ولما قدم هذا العرض لناتاشا أجابت: لن أذهب إلى أي مكان. لا أسألكم إلا أن تتركوني بسلام.

ونفرت إلى غرفتها وهي لا تكاد تحبس الدموع التي انهمرت من عينيها بدافع السخط والانفعال أكثر من دافع الألم.

منذ أن أخذت ناتاشا تشعر بتخلي الأميرة ماري عنها وبقائها وحدها مع ألمها، راحت تقضي معظم الوقت منعزلة في غرفتها، منطوية على نفسها في زاوية من الكنبة، تحل وتعقد عملاً من أعمال الإبرة بأصابعها الدقيقة الرشيقة وأنظارها شاخصة إلى الأمام. وكانت هذه الوحدة تنهكها وتنخرها. لكنها كانت في حاجة إليها. فما إن يدخل بعضهم إلى غرفتها، حتى تعتدل بقوة فتبدل من وضعيتها وتعابير وجهها، وتتظاهر بالقراءة أو الحياكة دون أن تخفي نفاد صبرها لرؤية الذي عكر صفو وحدتها.

كان يخيل إليها باستمرار أنها على وشك إدراك المخيف والتعمق فيه، تلك المعضلة المتعبة التي كانت نظرتها الداخلية شاخصة إليها.

وفي نهاية كانون الأول/ ديسمبر، كانت ناتاشا مرتدية ثوباً أسود من الصوف، وضفيرتها ملفوفة بإهمال على مؤخرة رأسها، شاحبة وهزيلة، تجلس قابعة في زاوية من الكنبة، منصرفة تماماً إلى لف طرف نطاقها وحلّه، شاخصة بنظرها إلى زاوية الباب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت تنظر إلى الموضع الذي ذهب منه إلى الجانب الآخر من الحياة، وذلك الجانب، الذي لم تفكر فيه قط من قبل، والذي كان يبدو لها من قبل بعيداً جداً لا يمكن إدراكه. أصبح الآن أكثر قرباً وألفة وأكثر فهماً من هذا الجانب، حيث كل شيء ليس إلا دماراً إن لم يكن ألماً وإذلالاً.

كانت تنظر هناك، حيث تعرف أنه موجود، لكنها لم تكن تستطيع أن تراه على غير الشكل الذي عرفته به في هذا العالم. كانت تراه في ميتيشتشي وترويتسا ياروسلاڤل.

كانت ترى وجهه وتسمع صوته وتردد كلماته والكلمات التي قالتها له وأحياناً تتخيَّل موضوعات أخرى كانا يستطيعان تبادلها معاً.

ها هو ذا متمدد على مقعد وثير في معطفه المنزلي المصنوع من الفراء المغطى بالقطيفة ورأسه مسند إلى يده البيضاء النحيلة، وصدره مقعر بشكل مخيف وكتفاه مرفوعتان وشفتاه متقلصتان بقوة وعيناه تلتمعان وعلى جبهته الشاحبة يظهر غضن تارة وتارة يختفي، وإحدى ساقيه ترتعش بسرعة لا تكاد تميز. وتعرف ناتاشا أنه يناضل ضد ألم معذب. ما هو هذا الألم؟ لماذا جاء؟ ماذا يشعر؟ أين يتألم؟ في ذلك كانت ناتاشا تفكر. لكنه يلمس قلقها فيرفع عينيه ويبدأ الكلام دون ابتسام.

قال: «إن ما يخيف هو أن يرتبط الإنسان مدى الحياة برجل يتألم؟ إنه عذاب لا نهاية له». ونظر إليها بعينيه المتفحصتين. فأجابته ناتاشا كعادتها دون أن تترك لنفسها وقتاً للتفكير في ما هي في سبيل النطق به. قالت: «إن هذا لا يمكن أن يدوم على هذا النحو، إنه مستحيل سوف تستعيد صحتك تماماً».

إنها تراه الآن مجدداً، وهي تعيش من جديد في كل ما اعتلج في نفسها حينذاك. إنها تتذكر النظرة الطويلة الحزينة التي ألقاها عليها بعد هذه الكلمات وتدرك معنى اللوم واليأس في هذه النظرة الملحة.

www.Maktbah.com

فكرت: «لقد اعترفت أنه سيكون أمراً مريعاً لو أنه استمر يتألم. ولقد قلت له ذلك لأنه كان سيكون مريعاً حقاً بالنسبة إليه لو أنه استمر. لكنه فهم الجملة على نحو آخر. لقد فكر أن ذلك سيكون مريعاً بالنسبة إلي. لقد كان حينذاك لا يزال متعلقاً بالحياة وكان يخاف الموت، وأنا، تكلمت بقسوة وغباوة لم أكن أقصد ذلك، كنت أفكر في شيء آخر مختلف تماماً. لو أنني قلت ما كنت أفكر فيه لقلت له إنه ولو كان محتضراً، بل لو ظل محتضراً أمام عيني لكنت سعيدة بالقياس على ما أنا عليه الآن، لم يعد لي شيء، لم يعد لي أحد. هل كان يعرف ذلك؟ لا، لم يكن يعرفه ولن يعرفه أبداً. والآن لا أستطيع أبداً، أبداً، أن أصلح ذلك».

لكنه عاد مجدَّداً يقول لها الكلمات نفسها، فراحت ناتاشا هذه المرة تجيبه في خيالها جواباً مختلفاً. استوقفته وقالت: «إنه مخيف بالنسبة إليك وليس بالنسبة إلي. إنك تعرف أن الحياة بدونك بالنسبة إلي ليست شيئاً مذكوراً وأن التألم معك أكبر سعادة لي». فأمسك بيدها وشدَّ عليها كما ضغط عليها خلال تلك الأمسية الرهيبة، قبل موته بأربعة أيام، فراحت تردد على مسمعه بالخيال أيضاً كلمات الحنان والحب التي كان يتوجب أن تقولها له حينذاك والتي لا تنطق بها إلا الآن. صاحت: «أحبك!.. نعم، أحبك، أحبك..» وضمت يديها بحركة تشنجية وصرفت بأسنانها بقسوة وحشية.

وحينئذ استولى عليها ألم أكثر عذوبة وانهمرت الدموع من عينيها. وفجأة تساءلت: لمن تحدثت على هذا النحو؟ أين هو وكيف هو الآن؟ ومن جديد نظرت في كآبة مضنية وهي مكفهرة الوجه مقطبة حاجبيها مجدداً نحو ذلك «الهناك» حيث هو، ومن جديد، خيل إليها أنها ستكتشف السر الغامض.. ولكن، في اللحظة التي كاد كل شيء ينكشف، في اللحظة التي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كاد كل المجهول يصبح معلوماً لديها، صك أذنها صوت رتاج الباب ودخلت دونياشا، الوصيفة، مروعة الوجه منقلبة الأسارير، دخلت دون أي احتراس وقالت وعلى وجهها المنفعل تعبير غريب:

ـ إذا أمرت، اذهبي بسرعة إلى أبيك. لقد وقعت مصيبة.. بيوتر إيليتش.. رسالة..

وشهقت منتحبة.

الفصل الثاني

إلى جانب النفور العام الذي كانت تشعر به نحو الأحياء، أصبحت ناتاشا الآن تشعر بكرهٍ خاص نحو عائلتها. كان ذووها جميعاً أبوها، أمها، سونيا، قريبين جداً منها، مألوفين جداً لديها، حتى أن كل كلمة منهم وكل مشاعرهم كانت تنقلب إلى إهانة لذلك العالم الذي تعيش فيه منذ بعض الوقت. لذلك لم تكن تنظر إليهم بلا مبالاة فحسب، بل بعداء. سمعت دونياشا تتكلم عن بيوتر إيليتش وعن المصيبة. لكنها لم تفهم شيئاً.

أخذت ناتاشا تقول في سرّها: «مصيبة لهم؟ كيف يمكن أن تحل بهم المصيبة؟ إن حياتهم تسير دائماً على وتيرة واحدة في سلامها المألوف».

وعندما دخلت إلى القاعة، رأت أباها يخرج بسرعة من غرفة الكونتيسة وأمارات وجهه متقلصة ووجهه مبلل بالدموع. كان يرى أنه اندفع خارجاً من تلك الغرفة ليترك للنشيج الذي كان يخنقه حرية الانطلاق. ولما وقع نظره على ناتاشا، صدرت عنه حركة يائسة وأطلق زمجرات تشنجية شوهت وجهه المستدير الطيب.

ـ هيه.. بيتيا.. اذهبي بسرعة، إنها.. تدعوك..

واقترب من كرسي بخطى مترنحة وهو يبكي كالطفل، وانهار عليه وغطى وجهه بيديه.

وفجأة طافت بجسد ناتاشا كله شبه انتفاضة كهربائية وأحست بضربة فظيعة تصيب قلبها. أحست بألم مريع، وخيل إليها أن شيئاً ما يتمزق في قلبها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وأنها على وشك أن تموت. لكنها لم تلبث أن شعرت بالخلاص من حجر الحياة الذي كان يحوم فوق كيانها ولما رأت أباها منهاراً وسمعت الصيحات المروعة، الوحشية المنطلقة من أمها في الجانب الآخر من الباب، نسيت نفسها ونسيت ألمها الشخصي.

اندفعت نحو أبيها. لكنه أشار إلى غرفة أمها بحركة عاجزة. وظهرت الأميرة ماري شاحبة تسري في فكها الأسفل ارتعاشة، وجاءت إلى ناتاشا فأخذتها من يدها وهي تقول لها شيئاً. لكن ناتاشا لم تكن تراها ولا تسمعها. اقتربت بخطى سريعة ثم توقفت فترة قصيرة أمام الباب وكأنها تستجمع شتاتها ثم اندفعت نحو أمها.

وكانت الكونتيسة ممددة على مقعد تتلوى فريسة لحركات عصبية غريبة وتضرب رأسها بالجدار بينما كانت سونيا وبعض الخادمات يمسكن بذراعيها.

صاحت وهي تدفع المحيطات بها: ناتاشا، ناتاشا!.. هذا غير صحيح، غير صحيح.. إنه يكذب ناتاشا، اذهبن كلكن عني هذا غير صحيح! لقد قتلوه!.. آه! آه! آه!... هذا غير صحيح!

فوضعت ناتاشا إحدى ركبتيها على المقعد وانحنت على أمها فأحاطتها بذراعيها وأدارت نحوها وجهها الذي أدنت منه وجهها بقوة غير منتظرة.

أماه العزيزة!.. إنني هنا يا أماه...

وراحت تتمتم بكلمات دون أن تسكت لحظة واحدة.

ودون أن تفلت أمها وهي تظهر حيالها مقاومة حانية، أخذت تطلب استحضار وسائد وماء ثم نزعت عنها ذراعيها ووضعتها بشكل مريح في ثيابها.

استمرت تقول وهي تغمر رأسها بالقبلات ويديها ووجهها وتشعر بدموعها التي لم تستطع إمساكها، تسيل فتدغدغ أنفها ووجنتيها:

www.Maktbah.com

صديقتي، أمي العزيزة.

شدَّت الكونتيسة على يد ابنتها وأغمضت عينيها ثم هدأت بعض الشيء. وفجأة وقفت بحيوية غير متوقعة وألقت حولها نظرة مجنونة، فلما شاهدت ناتاشا، ضمت رأسها بكل قواها بين يديها. ثم أدارت نحوها وجه ابنتها المتقلص جراء الألم وتأملته طويلاً.

قالت بصوت خفيض وبلهجة مستسلمة:

ـ ناتاشا، إنك تحبينني، ناتاشا، إنك لا تخدعينني؟ ستقولين لي الحقيقة كلها؟

نظرت إليها ناتاشا بعينيها الطافحتين بالدموع فلم يعد وجهها إلا توسلاً وحباً. كررت وهي توتر كلّ قوى مودتها وكأنها تريد أن تحمل نفسها هذه الموجة من الألم التي كانت تسحق أمها:

ـ أمي الحبيبة!

وفي صراعها ضد الحقيقة، وبرفضها الاعتقاد بأنها يمكن أن تعيش بينما قتل منذ حين ولدها العزيز في زهرة شبابه، أنقذت هذه الأم نفسها بدخولها عالم الهذيان.

لم تستطع ناتاشا أن تتذكر كيف انقضى ذلك النهار والليل الذي تلاه ثم النهار والليل التاليان. لم تنم ولم تترك أمها. كان حبها الثابت الصبور الذي لم يكن يحاول إيجاد التفسير أو العزاء ولكن كان أشبه بنداء إلى الحياة، يحيط بالكونتيسة من كل ناحية وفي أية لحظة.

وفي الليلة الثالثة، هدأت الكونتيسة بضع دقائق فأغمضت ناتاشا عينيها مسندة رأسها إلى ذراع الكنبة، وقعقع السرير ففتحتهما. كانت الكونتيسة جالسة تتحدث بصوت خفيض:

twitter @baghdad_library

ـ كم أنا سعيدة لعودتك! إنك متعب، هل تتناول شاياً؟ واقتربت ناتاشا منها بينما استرسلت الكونتيسة تقول وهي تمسك يد ابنتها: كم أصبحت فتىً جميلاً، إنك الآن رجل!

ـ أماه ما هذا الذي تقولين!..

ـ ناتاشا، إنه قضى، لم يعد له وجود!

وطوقت ابنتها وأخذت الكونتيسة تبكي للمرة الأولى.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

حاول كل من الكونت وسونيا عبثاً أن يحلّا محل ناتاشا قرب الكونتيسة. وأرجأت الأميرة ماري سفرها. كان الكونت وسونيا يشعران بأنها وحدها قادرة على انتزاع أمها من جنون اليأس. لم تغادرها لحظة واحدة طوال ثلاثة أسابيع. كانت تنام إلى جانب الكونتيسة على المقعد وتقدم لها الطعام والشراب، تحدثها باستمرار لأن صوتها المهدهد وحده كان قادراً على تهدئتها.

لم يكن الجرح المعنوي الذي أصيبت به الأم المسكينة قابلاً الشفاء. لقد انتزع موت پيتيا منها حياتها.

وعندما خرجت من غرفتها بعد شهر من تلقيها نبأ موت ابنها لم تعد الكونتيسة التي حملت برشاقة ودون عناء سنيها الخمسين، إلا امرأة عجوزاً، نصف ميتة، فقدت لذة الحياة. لكن ذلك الجرح نفسه الذي قتل الكونتيسة نصف قتلة، دعا ناتاشا إلى الحياة.

إن جرح الروح الذي ينجم عن انقلاب الكيان الداخلي يشبه، مهما بلغ التشابه من غرابة، جرحاً عميقاً في الجسد: لا يلتئم داخلياً بعد شفائه الظاهر إلا نتيجة لاندفاع القوة الحيوية.

هذا ما جرى بالنسبة إلى جرح ناتاشا. كانت تعتقد أن حياتها قد انتهت. وفجأة، أظهر لها حبها لأمها أن سبب حياتها الموجب، أي الحب، لا يزال حياً في نفسها. ولقد أظهر الحب نفسه ومعه الحياة.

ولقد ربطت أيام الأمير أندريه الأخيرة ناتاشا بالأميرة ماري. وقربت هذه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

المصيبة الجديدة بينهما أكثر من ذي قبل. ولما أرجأت الأميرة ماري سفرها، أخذت تهتم بناتاشا وكأنها تعالج طفلاً مريضاً طوال الأسابيع الثلاثة التي تلت. إن الأسابيع الأخيرة التي أمضتها ناتاشا في غرفة أمها، حطمتها تماماً.

وذات يوم، في فترة بعد الظهر، شاهدت الأميرة ماري ناتاشا ترتجف من الحمّى فأخذتها إلى غرفتها وأرقدتها في فراشها. تمددت ناتاشا، ولكن عندما أرادت الأميرة ماري أن تخرج بعد أن أسدلت الستار، نادتها ناتاشا إليها:

ـ ليست بي حاجة إلى النوم يا ماري، اجلسي إلى جانبي.

ـ أنت متعبة، حاولي أن تنامي قليلاً.

لا، لا، لماذا أتيت بي إلى هنا، سوف تدعوني الآن.

ـ إنك تعرفين تماماً أنها أفضل كثيراً من ذي قبل. لقد تحدثت اليوم بتعقل كبير!

راحت ناتاشا المتمددة على السرير تتأمل وجه الأميرة في عتمة الغرفة. حدثت نفسها، «ترى هل تشبهه؟ نعم ولا. لكن فيها كل شيء خاص، واضح، جديد مجهول. ثم إنها تحبني. ماذا في أعماق نفسها؟ كل شيء طيّب. ولكن ماذا؟ ماذا تفكر؟ ماذا ترى فيّ؟ نعم، إنها روح طاهرة طيبة.

قالت باستحياء وهي تمسك يدها:

ـ ماشا، ماشا، لا تفكري أنني رديئة. أليس كذلك؟ يا عزيزتي ماشا الحبيبة كم أحبك! لنكن صديقتين، صديقتين حقيقيتين.

وأحاطتها ناتاشا بذراعيها وراحت تغمر وجه الأميرة ماري ويديها بالقبلات في خجل وسعادة معاً.

ومنذ ذلك اليوم، قامت بينهما تلك الصداقة الحانية التي لا يمكن أن تكون إلا بين النساء. لم تكفّا عن تبادل القبل والكلمات الودودة فكانتا تقضيان الوقت كله معاً تقريباً. فإذا كانت واحدة منهما تبتعد، كانت الأخرى

www.Maktbah.com

تشعر بالقلق فتسرع للحاق بها. كانتا تشعران بانسجام كبير كلما كانتا معاً أكثر من شعورهما به وهما منفصلتان، وكل واحدة تجاه نفسها. وكان الشعور الذي يجمع بينهما أقوى من الصداقة، كان ذلك الشعور قائماً على أساس اعتقادهما الراسخ بعدم استطاعة إحداهما الحياة بدون الأخرى.

كان يحدث لهما أن تظلا ساعات طويلة دون أن تتحدثا، ويقع لهما أن تبدآ الحديث بعد أن تستلقيا للنوم وأن تتحدثا حتى الصباح. كانت كل منهما تروي للأخرى في الغالب ماضيهما البعيد جداً، فتصف الأميرة ماري طفولتها وأمها وأباها وأحلامها أما ناتاشا التي كانت تشيح من قبل، بعدم فهم هادئ، عن فكرة الزهد المسيحي، والتي كانت مرتبطة بحبها للأميرة ماري، أصبحت تحب ماضي صديقتها نفسه وتدرك هذا الجانب من الحياة الذي بقي مستغلقاً عليها. لم تكن تفكر في أن تطبق على حياتها الشخصية، الإذلال والتضحية لأنها كانت معتادة البحث عن مختلف المسرات. لكنها بدأت تدرك الفضائل التي كانت ممتنعة الفهم عليها من قبل وتعجب بها في شخص آخر. بينما راحت الأميرة ماري نفسها تكتشف عالماً مجهولاً منها حتى ذلك الحين، الإيمان بالحياة، الإيمان بمباهج الحياة، وهي تصغي إلى أقاصيص ناتاشا عن طفولتها وصباها.

كانتا تتدبران أمرهما بحيث لا تتكلمان أبداً «عنه» حتى لا تدركا بالكلمات، أو أقله هذا ما كانتا تظنانه، سمو الشعور الذي تكنانه في نفسيهما، فكان هذا السكوت يتفاعل بشكل أنساهما تدريجاً الأمير أندريه.

هزلت ناتاشا وشحبت وأصبحت على درجة من الضعف حتى بات كل الناس يسألون عن صحتها، فكان ذلك يلذ لها. لكنها كانت أحياناً عرضة للخوف ليس من أن تموت فحسب، بل من أن تقع مريضة وأن تضعف وتفقد جمالها، وأحياناً، كانت تتأمل بانتباه ذراعها النحيلة، وتدهش لهزالها، أو تلقي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

صباحاً نظرة على وجهها المتقلص في المرآة فيبدو لها مثيراً للشفقة. كان يخيل إليها أنه لا بدَّ وأن تكون الحال على هذا النحو، لكنها رغم ذلك كانت تجده أمراً محزناً ومخيفاً.

وذات يوم، صعدت مسرعة جداً فبهرت أنفاسها تماماً. فلم تلبث أن ابتدعت لا شعورياً سبباً آخر للهبوط لتعود إلى الصعود بسرعة كلية مرة أخرى بغية اختبار جلدها وقوتها وإدراك مداهما.

ومرة أخرى استدعت دونياشا، فخانها صوتها فنادتها مرة أخرى، رغم سماعها وقع خطاها، بصوتها الحاد الذي كانت تغني به وراحت تصغي إلى صوتها بدورها.

لم تكن تشعر بذلك، بل لم تكن تريد أن تصدقه. ولكن تحت الطبقة الكثيفة التي خيل إليها أنها تغطي روحها، أخذت بعض الحشائش النضرة الدقيقة تطل برأسها مبشرة بالنمو المطرد ودفع الغم الذي يخنقها بشدة، لدرجة لن تلبث معها أن تدرس آثاره فيتعذر رؤيتها. لقد كان جرحها يلتئم من الداخل.

وفي نهاية كانون الثاني/ يناير، ذهبت الأميرة ماري إلى موسكو فألحّ الكونت على ناتاشا أن تذهب معها كي تستشير الأطباء هناك.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

استمر تقهقر الجيوش الفرنسية الفارة ومطاردة الجيش الروسي له دون قتال حتى كراسنوييه، بعد أن اصطدمت الجيوش في ڤيازما حيث لم يستطع كوتوزوف منع قطعاته الراغبة في قطع الطريق على العدوّ. وكان الجيش الفرنسي سريعاً في فراره حتى أن الجيش الروسي الذي كان يطارده، لم يكن يتمكن من اللحاق به، وأن الجياد أصبحت تنهار تحت فرسانها وتعجز عن أداء عملها في سلاح المدفعية، وأن المعلومات المستقاة عن تحركات الفرنسيين كانت دائماً خاطئة.

وبلغ الإعياء بالجنود الروس من هذا الانتقال اليومي المستمر الذي كانوا يقطعون خلاله فرسخاً في اليوم مبلغاً جعلهم عاجزين عن مضاعفة سرعتهم.

ولإدراك درجة إنهاك الجيش الروسي، يكفي معرفة حقيقة أن هذا الجيش منذ تاروتينو، لم يخسر إلا خمسة آلاف رجل بين قتيل وجريح وبالكاد مائة أسير، وأنه عندما خرج من تاروتينو بمائة ألف رجل، أصبح عدده الآن لا يتجاوز الأربعين ألفاً في كراسنوييه.

كانت سرعة المطاردة إذن ذات أثر مذيب في الجيش الروسي بمثل ما كان الفرار في الجيش الفرنسي، مع فرق واحد، هو أن الجيش الروسي كان يتقدم دون الخوف من الفناء المعلق فوق الجيش الفرنسي، الأمر الذي ينجم عنه أن المتخلفين الفرنسيين كانوا يقعون بين أيدي الروس، أما المتخلفون من هؤلاء فيبقون في بلادهم. والسبب الرئيسي إذن لانحلال جيش ناپليون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كان ناجماً عن سرعة مسير هذا الجيش، ولدينا على ذلك الدليل الذي لا يقبل النقض في انحلال الجيش الروسي المماثل.

كان نشاط كوتوزوف كله يهدف فقط، كما في تاروتينو وفي ڤيازما، إلى عدم إعاقة التقهقر الفرنسي بقدر ما يقع ذلك في نطاق طاقته، خلافاً لما كانوا يريدون في بيترسبورغ ولما كان يريده جنرالات الجيش الروسي، بل مساعدة تقدم قطعات العدو تسهيل سيره.

ولكن، عدا عن الإنهاك الذي كان الجيش الروسي يبديه والخسائر الفادحة التي سببها له سيره السريع، فإن سبباً آخر كان يدعو كوتوزوف إلى إبطاء حركة قطعاته وتلطيف حدتها. كانت غاية الروس مطاردة الفرنسيين، في حين أن الطريق التي سيسلكها الفرنسيون كانت مجهولة منهم، لذلك، كلما تقدم رجالنا على آثار الفرنسيين، أسرع هؤلاء خطاهم ليباعدوا المسافة بينهم، فلم يكن ممكناً قطع الخطوط المتعرجة التي كان الفرنسيون يرسمونها في سيرهم، باللجوء إلى الطرق المختصرة، إلا عن طريق مرافقتهم طوال مسافة كبيرة.

وكانت التحركات العاقلة كلها التي كان الجنرالات يعرضونها، تلخص في حركات تقدم طردية وعكسية عديدة وزيادة في طول المراحل، بينما الهدف المعقول الوحيد كان على العكس في تقصيرها. ونحو هذا الهدف، تركزت حيوية كوتوزوف خلال كل الحملة من موسكو إلى ڤيلنا، ليس بمحض الصدفة أو تبعاً لعرض مفاجئ، بل بذكاء متسلسل محكم حتى أنه لم يحد مرة واحدة عن الطريق.

كان كوتوزوف يعرف، ليس بفضل استنتاجاته أو بمعرفته العسكرية، بل بطبيعته الروسية، يعرف ويشعر بما يشعر به كل جندي روسي وهو أن

www.Maktbah.com

الفرنسيين قد هزموا، وأن الأعداء يهربون وأنه يجب مطاردتهم، لكنه كان يشعر في الوقت نفسه، مثل جنوده، بثقل هذه الحملة كلها، الفريدة بسرعتها وبالفصل الذي وقعت فيه من السنة.

أثناء ذلك، كان الجنرالات، وبصورة خاصة، غير الروس منهم، الذين يريدون إظهار تفوقهم وإحداث الدهشة وأسر دوق أو ملك لينالوا بعض الغنم، يفكرون على العكس، بأن اللحظة قد أزفت لخوض المعركة والانتصار على عدو ما، ويريدون ارتكاب هذا الخطأ المروع. لكن كوتوزوف كان يكتفي بهز كتفيه عندما كانوا يفدون، واحداً إثر آخر، للقيام بمشاريع تحركات جديدة، ولتنفيذها برجال شبه حفاة، محرومين من الألبسة الدافئة، ينهشهم الجوع، ذابوا خلال شهر واحد دون أي قتال حتى بلغوا النصف، كان يجب أن يقطعوا حتى الحدود، مسافة أطول كثيراً من التي اجتازوها حتى الآن، هذا إذا استمرت مطاردة الهاربين وفق أفضل الشروط.

وكانت هذه الرغبة العنيفة في الظهور والتحرك وصد العدو وقطعه، تظهر بصورة خاصة عندما كان الجيش الروسي يصطدم بالجيش الفرنسي.

وهذا ما جرى في كراسنوييه، حيث ظن أنهم لن يجدوا إلا جمهرة واحدة من جمهرات الفرنسيين الثلاث، فوقعوا على ناپليون بالذات، على رأس جيش قوامه ستة عشر ألف رجل. وعلى الرغم من كل الوسائل التي استخدمها كوتوزوف ليتجنب ذلك الاصطدام سيئ المغبة وتوفير قطعاته، فإن الجيش الروسي المنهوك انهمك طوال ثلاثة أيام في كراسنوييه في دحر زمر الفرنسيين.

ولقد وضع تولّ الخطة: القطعة الأولى تتحرك. وهلمجرا. وكالعادة دائماً، لم يقع شيء وفقاً للخطة. فالأمير أوجين دو وورتمبرغ الذي كان يطلق النار من على مرتفع على التجمهرات الفرنسية طلب إمدادات لم تصل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وانتهز الفرنسيون فرصة الظلام ليلفوا ويخدعوا الروس، فتبعثروا واختفوا في الغابات وتوصلوا على شكل ما إلى شق طريق لأنفسهم.

وميلورادوڤيتش الذي كان يزعم أنه لا يأبه لشيء من احتياجات فرقته المادية، والذي ما كان يمكن إيجاده عند الحاجة الماسة إليه، ميلورادوڤيتش الفارس الذي لا يهاب ولا يلام، كما كان يدعو نفسه بنفسه، ذلك الهادي للمفاوضات أرسل رسلاً يطالب باستسلام الفرنسيين فأضاع وقته وعمل عكس ما أمر به تماماً.

قال لفرسانه وهو يتقدم أمام قطعاته ويشير إلى الفرنسيين أمامه: يا أولادي! أعطيكم هذه الفرقة.

وراح فرسانه على جيادهم التي كانت تتحرك بشق النفس، والتي كانوا يدفعونها إلى الأمام ضرباً بمهاميزهم وسيوفهم، يجرون خبباً خفيفاً بكثير من الجهد. ويلقون بأنفسهم على الفرقة الفرنسية التي قدمها لهم هدية، أي على رجال بائسين خدرهم البرد كلهم فباتوا نصف متجمدين. ولم تلبث الفرقة أن ألقت سلاحها واستسلمت وهو الأمر الذي كانت تتوق إليه منذ أمد بعيد.

أسروا في كراسنوييه ستة وعشرين ألف جندي وغنموا حوالى مائة مدفع وعصا زعموا أنها عصا ماريشال. وبعد أن تناقشوا لمعرفة المبرزين بينهم، ارتضى كل منهم بحقه لكنهم أسفوا جداً لأنهم لم يأسروا ناپليون أو أقله واحداً من الأبطال، ماريشالاً ما، وراحوا يتبادلون اللوم ملقين الذنب كله على كاهل كوتوزوف.

هؤلاء الناس الذين تدفعهم أهواؤهم، لم يكونوا إلا أدوات عمياء لأسوأ الضرورات وأكثرها حزناً لكنهم كانوا يعتقدون بأنهم أبطال ويتصورون أنهم قاموا بأكثر المآثر نبلاً واستحقاقاً للثواب. كانوا يتهمون كوتوزوف ويزعمون أنه منعهم منذ بدء الحملة عن هزم ناپليون وأنه لا يفكر إلا في إرضاء أهوائه

www.Maktbah.com

وعدم مغادرة إقليم «ڤيلاتور» وهو إقليم يقع على طريق كالوغا في مقاطعة ميلاين، يملكه حينذاك كما يملك مصانع النسيج فيه التي استمد منها اسمه، آل غوتشاروف، أسرة زوج پوشكين، وقد توقف كوتوزوف في ذلك الإقليم بعض الوقت عام ١٨١٢، لأنه يعيش فيه بسلام وأنه في كراسنوييه، أوقف الحركة لأنه أضاع صوابه تماماً حينما علم بوجود ناپليون بالذات، وأنه يمكن الافتراض بأنه على اتفاق مع ناپليون وأنه باع نفسه له. (مذكرات ويلسن).

ولم يكن المعاصرون وحدهم الذين أعماهم الهوى هم الذين تخرصوا على هذا الشكل، بل إن الجيل الصاعد والتاريخ ناديا بعظمة ناپليون وقال الأجانب عن كوتوزوف إنه ثعلب عجوز فاجر، رجل بلاط غير جريء. أما الروس، فقد وصفوه بأنه مخلوق لا يمكن تحديد وصفه أشبه بصورة من الورق المقوى، مفيدة فقط لأنها تحمل اسماً روسياً...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

كان الأمبراطور مستاءً جداً من كوتوزوف الذي اتهموه بصراحة خلال سنتي ١٨١٢ـ١٨١٣ ولقد جاء في تاريخ حرر بناء على رغبة سامية أن كوتوزوف كان رجل بطانة ماكر، يروعه مجرد ذكر اسم ناپليون، حرم الجيش الروسي في كراسنوييه وفي پيريزيتا، بسبب أخطائه، من مجد هزم الفرنسيين هزماً مطلقاً.

ذلك هو مصير ليس الرجل القيم، الرجل العظيم الذي ترفض العقلية الروسية الاعتراف به، بل الرجال النادرين دائمي الانفراد يخضعون مشيئتهم الشخصية لمشيئة القدر التي يتفهمونها. إن حقد الجمهور واحتقاره يعاقب هؤلاء الرجال على تفهمهم النظم العليا.

إن ناپليون، أداة التاريخ التافهة تلك، الذي لم يُظهر في أي مكان حتى ولا في المنفى، ما يبرهن على الكرامة الإنسانية، ناپليون هذا، في نظر المؤرخين الروس، وهو غريب وبشع أن يقال، موضع إعجاب وحماسة وهو رجل عظيم. أما كوتوزوف، هذا الرجل الذي لم يناقض نفسه مرة واحدة من البداية حتى النهاية طوال نشاطه عام ١٨١٢، من پورودينو وحتى ڤيلنا، في كل تصرفاته ولا في أقواله، هذا الرجل الذي يبدو في التاريخ مثالاً خارقاً للتضحية بالذات وللتعمق في معرفة المستقبل، فإنه يبدو لهم على العكس. مخلوقاً متردداً يستحق الرثاء يشعر المرء بنوع من الخجل كلما تحدث عنه في عام ١٨١٢

ومع ذلك، فإن من الصعب تصور شخصية تاريخية تبعت نهائياً هدفاً

www.Maktbah.com

واحداً بكل ذلك الثبات. من العسير تصور غاية أكثر نبلاً وأكثر انسجاماً مع إرادة شعب برمته. وكذلك عسير أكثر، إيجاد مثال في التاريخ، بَلغ الهدف المنشود سلفاً من جانب شخصية تاريخية ما بمثل ذلك الكمال الذي بذل كوتوزوف فيه قواه كلها خلال مجرى عام ١٨١٢ لبلوغه.

لم يتحدث كوتوزوف قط عن القرون الأربعين التي تطل علينا من أعالي الهرم ولا عن التضحيات التي كان يبذلها في سبيل وطنه ولا عما فعل أو ما كان ينوي فعله، لم يكن يتحدث عن نفسه بصورة عامة، ولا يبحث عن أداء أي دور، يظهر نفسه دائماً أكثر الرجال بساطة وسلامة نية. كان يكتب لبناته ولمدام دوشتايل ويقرأ الروايات ويحب عشرة النساء الجميلات، يمزح مع جنرالاته وضباطه وجنوده، لا يناقض أبداً أشخاصاً يتحدثون إليه بشيء ما. ولما جاء الأمير روستوبتشين مسرعاً على صهوة جواده عند جسر أياووزا، يكيل له اللوم الشخصي ويتهمه بأنه كان سبب ضياع موسكو ويقول له: «كيف وعدت ألّا تهجر المدينة دون قتال؟» أجابه كوتوزوف:

ـ «لست أنوي مغادرة موسكو دون قتال» رغم أن موسكو كانت حينذاك في أيدي الأعداء. ولما جاء أراكتشييف يقابله من لدن الأمبراطور ليقول له بأنه يجب أن ينيط قيادة المدفعية بـ: إيرمولوف، أجابه: «نعم، هذا تماماً ما كنت أقوله شخصياً منذ حين» رغم أنه كان قبل دقيقة واحدة يقول عكس ذلك. وأية أهمية كان لذلك في نظره، هو الذي كان وحده يعرف المعنى الرائع للأحداث وسط الحشد الأبله الذي كان فيه، أية أهمية لأن يعزو روستوبتشين لنفسه المصائب التي حلت بالعاصمة أو أن يعزوها إليه؟ فكم بالأجدر أن لا يأبه لمعرفة من سيُعين قائداً للمدفعية.

كان ذلك العجوز ليس في هذه المناسبات فحسب، بل بصورة دائمة يتفوه بالكلمات الخالية من أي معنى، أول ما يتبادر إلى ذهنه من كلمات، وهو

twitter @baghdad_library

الذي اكتسب من الخبرة في الحياة، الإيمان بأن الآراء والكلمات التي تعبر عنها، ليست هي التي توجه البشر.

لكن هذا الرجل نفسه الذي كان قليلاً ما يأبه لما يقول، لم يدع خلال حياته العملية كلها، كلمة تفلت منه دون أن تكون متفقة مع الهدف الأوحد الذي كان يصبو إليه طوال مدة الحرب. ولقد كشف في مناسبات عديدة عن حقيقة فكرته حيث تسلط عليه التأكد الأليم بأن ما من أحد يفهمه. واعتباراً من معركة بورودينو، التي هي السبب الرئيسي لاختلافاته مع المحيطين به، كان وحده الذي قال: «إن معركة بورودينو نصر» وكرر ذلك بإلحاح وبصوت مرتفع في تقاريره وفي اتصالاته حتى ساعة موته.

وهو وحده الذي قال: «إن ضياع موسكو ليس ضياع روسيا». وفي جوابه عن عروض الصلح التي قدمها لوريستون أعلن: «إن السلم غير ممكن، لأن تلك هي إرادة الشعب». وهو وحده الذي أعلن عند تقهقر الفرنسيين: «إن كل تحركاتنا عقيمة وإن كل شيء سيُسوّى تلقائياً على نحو أفضل ما نتمناه وأنه يجب أن نصنع للأعداء جسراً من ذهب وأن معارك تاروتينو وڤيازما وكراسنوييه ليست ضرورية وأن الأمر يتطلب الوصول إلى الحدود بقوات كافية وأنه لا يعطي جندياً روسياً واحداً لقاء عشرة جنود فرنسيين».

وهذا الرجل وحده، الذي يصورونه لنا على شكل مذنب لأنه كذب على أراكتشييف ليرضي الأمبراطور، هو وحده الذي تجرأ في ڤيلنا على التعرض لغضب أمبراطوره حين قال: «إن حرباً تدفع إلى ما وراء الحدود ستكون حرباً لا فائدة منها ولا غاية لها».

لكن كلماته ليست وحدها التي يمكن أن تكون برهاناً على تفهمه لمعنى الأحداث. إن تصرفاته كلها دون أي استثناء، تصبو نحو الهدف الثلاثي نفسه:

www.Maktbah.com

١ ـ تركيز كل قواته بانتظار اشتباك منتظر مع الفرنسيين، ٢ ـ هزمهم، ٣ ـ طردهم من روسيا والتخفيف قدر المستطاع من آلام الشعب والجيش.

إنه هو، كوتوزوف المتمهل، الذي كان شعاره: الصبر وطول الوقت، كوتوزوف عدو كل نشاط حاسم يشتبك في معركة بورودينو وهو يضفي على استعداداته جلالاً لا مثيل له، إنه هو، كوتوزوف هذا نفسه الذي أعلن في أوسترليتز قبل خوض المعركة أنها ستكون هزيمة والذي أكد في بورودينو، رغم ما أكده جنرالاته كلهم أن المعركة قد خُسرت، ورغم المثل الأوحد في التاريخ الذي شوهد فيه جيش ظافر يغادر ساحة المعركة مرغماً، إنه هو، وحده ضد الجميع، الذي أكد حتى الموت أن معركة بورودينو كانت نصراً. إنه وحده الذي ألح طوال تقهقر الفرنسيين على وجوب تجنب القتال الذي أصبح عقيماً منذ أن بدأ التقهقر، كي لا تبدأ حرب جديدة وكي لا يوغل في ما وراء الحدود الروسية.

من السهل اليوم إدراك معنى الحدث إذا أردنا أن نترك جانباً تلك الكتلة من الأهداف التي كانت تملأ رأس حفنة من الرجال لأن الحدث في كليته وبكل نتائجه، يتضح أمام أعيننا. ولكن كيف استطاع ذلك العجوز، الوحيد ضد الجميع، أن يفرق منذ البداية وبمثل هذه الدقة المتناهية غاية الشعور الشعبي في ذلك الحدث، تلك الغاية التي لم يتنح عنها مرة واحدة طوال فترة نشاطه كلها؟

لكن كان مصدر ذلك التفهم الخارق لمعاني الوقائع الجارية، هو ذلك الشعور الشعبي الذي كان يحمله في نفسه على غاية النقاء وفي كل قوته.

ولمعرفة الشعب بهذا الإحساس في نفسه، انتخبه الشعب بوسائله الغريبة، وهذا العجوز المغضوب عليه، ضد رغبة القيصر، ليجعل منه مثلاً للحرب الشعبية. إن هذا الإحساس وحده هو الذي سما به إلى الدرجة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

القصوى من الرفعة الإنسانية التي كان القائد الأعلى يدير من أعلاها كل قواه، لا ليقتل الرجال ويبيدهم، بل لينقذهم ويحفظ حيواتهم.

وهذه الصورة البسيطة المتواضعة، وبالتالي العظيمة، ما كان يمكن أن تنطبع في قالب البطل الأوروبي الكاذب، زُعم أنه مسير الشعوب كما تصوَّره التاريخ.

ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك رجل عظيم بالنسبة إلى الوصيف لأن للوصيف طريقته الخاصة به في تفهم العظمة.

www.Maktbah.com

الفصل السادس

كان اليوم الأول للمعركة المسماة بمعركة كراسنوبيه هو الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر. وبعد عدّة مناقشات، حوالى المساء، وبعد تحركات خاطئة من لدن الجنرالات الذين لم يقودوا الجيوش إلى حيث كان يجب أن تكون، وبعد إرسال المساعدين العسكريين إلى مختلف الجهات وهم يحملون الأوامر المناقضة، وبعد أن أصبح واضحاً أن العدو يهرب من كل الجهات وأن أية معركة لن تقع كما لا يمكن أن تقع، غادر كوتوزوف كراسنوبيه ومضى إلى دوبروابيه حيث نقل مركز القيادة العامة خلال النهار.

كان النهار قارساً وكوتوزوف، ترافقه حاشية ضخمة من الجنرالات النافرين منه المتهامسين وراء ظهره، يتجه نحو دوبرابيه على متن جواده الأبيض وعلى طول الطريق، كانت الفرق الفرنسية التي أسرت خلال النهار، محتشدة متراصة وعددها يناهز السبعة آلاف جندي تقريباً، تطلب الدفء حول نيران مشبوبة. وبالقرب من دوبروابيه، كان حشد كبير من الأسرى في ثياب خلقة، التفّوا واتشحوا بأول ما وقعت عليه أيديهم من الأسمال البالية، يتناقشون بلغط، واقفين على الطريق، إلى جانب رتل طويل من المدافع الفرنسية المحلولة، فلما اقترب الجنرال القائد الأعلى، هدأت الأصوات وشخصت الأنظار كلها إلى كوتوزوف في قلنسوته البيضاء ذات الحافة الحمراء، المتدثر بمعطفه الضخم المبطن المرفوع باحديداب فوق كتفيه المقوستين، وهو يتقدم ببطء على جواده وقد راح أحد الجنرالات يشرح له مصدر المدافع والأسرى.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكان كوتوزوف بادي الاستغراق حتى لكأنه لا يسمع أقوال الجنرال. كان يرف بعينه بامتعاض وينظر إلى أشباح الأسرى بثبات متيقظ وهم في مظهرهم المتفرد في الإيلام. كان معظمهم مشوَّهين بوجناتهم وأنوفهم المتجمدة وعيونهم جميعاً تقريباً كانت حمراء منتفخة ومتقيحة.

وفي زمرة من الفرنسيين الواقفين إلى جانب الطريق، وعلى مقربة، كان جنديان، أحدهما تغطي البثور وجهه، يمزقان بأيديهما قطعة من اللحم النيئ. وكان في النظرة المختلسة التي ألقياها على الجنرالات وفي التعبير الحقود الذي دل عليه الجندي ذو البثور حينما أشاح برأسه عن كوتوزوف بعد أن تأمله ملياً واستمر في عمله، شيء من الهول والحيوانية.

تأمل كوتوزوف طويلاً وبانتباه هذين الجنديين فتقعر وجهه المتغضن أكثر من ذي قبل وطرفت عينه وهز رأسه ساهماً. وفي مكان آخر، لاحظ جندياً روسياً كان يضحك وهو يربت كتف أحد الفرنسيين، ويقول له شيئاً ما بمودة، فبدت تلك الأمارات الساهمة على وجه كوتوزوف مجدداً وهز رأسه أيضاً.

سأل الجنرال الذي كان لا يزال يدلي بتقريره محاولاً أن يجتذب انتباه القائد الأعلى إلى الرايات الفرنسية التي أُسرت كذلك والتي نصبوها على مقدمة فيلق بريوبراجنسكي: ماذا تقول؟ آه الأعلام.

ولقد نطق بهذه الكلمة وهو ينتزع نفسه بجهد ظاهر من موضوع انشغاله الداخلي.

ألقى حوله نظرة ساهمة. كانت ألوف العيون من حوله شاخصة إليه بانتظار ما سيقوله.

توقف أمام فيلق بريوبراجنسكي ثم أطلق تنهّدةً عميقة وأغمض عينيه. وقام أحد مرافقيه بحركة يستقدم بها حملة الأعلام حول الجنرال القائد الأعلى. وبعد بضع ثوان، رفع كوتوزوف رأسه وراح يتكلم، مغتصباً أقواله

www.Maktbah.com

بشكل ملحوظ تماشياً مع متطلبات الموقف. فأحاط به حشد من الضباط أخذ يجول بأنظار دائرتهم وتعرّف إلى بعضهم.

صاح وهو يخاطب الجنود أولاً ثم الضباط:

ـ أشكركم جميعاً! ـ ولقد برزت كلمة من كلماته بوضوح كامل في ذلك الصمت الذي ران، أشكركم جميعاً على خدمتكم الشاقة المخلصة. إن النصر تام وروسيا لن تنساكم. المجد لكم إلى الأبد!

وسكت وهو ينظر حوله ثم قال لجندي كان يحمل نسراً فرنسياً خفضه دون قصد أمام راية فيلق بريوبراجنسكي:

ـ اخفض رأسه، أكثر انخفاضاً، أكثر، هكذا! هكذا!

وصاح بالجنود وقد ارتجت ذقنه بحركة مفاجئة:

ـ هورّا، أيها الأولاد!

فزمجرت ألوف الأصوات:

ـ هور ـ را ـ ا ـ ا!

ولقد أطرق كوتوزوف طوال الوقت الذي استمر الجنود خلاله يزمجرون، وهو منحن فوق سرجه، وفي عينه الوحيدة وميض لذيذ يقارب المكر. ولما هدأت الأصوات قال: وهذا كل ما هناك أيها الإخوان!

وفجأة غيَّر تعابير وجهه وطبقة صوته: لقد تكلَّم القائد الأعلى والآن، أزف دور عجوز بسيط جداً يريد أن ينهي إلى رفاقه شيئاً ما مهماً.

ارتفعت في الصفوف بين الجنود وبين الضباط حركة تدل على رغبة هؤلاء في الإصغاء إلى ما سيقوله بشكل أفضل:

ـ وهذا كل ما هناك أيها الإخوان! إنني أعرف أن هذا قاس عليكم. ولكن ما العمل! اصبروا، سنبلغ الغاية قريباً. سوف نستريح بعد أن نودِّع ضيوفنا. أما ثمن خدماتكم. فإن القيصر لن ينساكم. هذا قاس. لكنكم رغم ذلك في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وطنكم، أما هو، وأشار إلى الأسرى ـ إنكم ترون إلى أي حال وصلوا ـ لقد أصبحوا أسوأ من أسوأ المتسولين! لم نكن نشفق حتى على أنفسنا ما زالوا أقوياء. أما الآن، فيجب أن نشفق عليهم أيضاً. إنهم بشر كذلك، أليس كذلك يا أولاد؟

ونظر حوله مرة أخرى، فقرأ في العيون المتيقظة الخاشعة المتسائلة الشاخصة إليه الانفعال الذي أيقظته كلماته في النفوس. فازداد وجهه إشراقاً بابتسامته العجوز الطيبة التي رسمت نجوماً من التغضنات عند زاوية شفتيه وعينيه. سكت ثم أطرق برأسه وكأنه حيران.

وفجأة صرخ وهو يرفع رأسه: ولكن، من الذي دعاهم إلى المجيء إلينا؟ إنهم يستحقون ما نالهم، يا للألف لعنة!

ثم همز جواده وانطلق مسرعاً لأول مرة خلال الحملة، وسط عاصفة من الضحك البهيج والهتافات المدوية المنطلقة من حناجر الجنود الذين تفرقت صفوفهم.

لم يفهم الجنود الكلمات التي تفوّه بها كوتوزوف كلها. وما من أحد كان يستطيع ترديد فحوى خطاب أصبح هذا الذي بدأ جليلاً ثم أصبح عند نهايته بسيطاً وأبوياً. لكنهم أدركوا معناه العميق، ذلك الشعور من العظمة المتحدة مع الشفقة على العدو ومع تفهم الحق الصريح الذي أبرزته الكلمة الأليفة التي فاه بها العجوز. ذلك الشعور المقيم في قلب كل جندي، والذي عبرت عنه الهتافات التي استمرت طويلاً قبل أن تصمت. ولما جاء أحد الجنرالات بعد ذلك يسأل كوتوزوف عم إذا كان يجب استقدام عربته، صعدت إلى حنجرة هذا شهقة وهو يجيبه، شهقة مفاجئة دلت على تأثره العنيف.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

كان الليل قد هبط لما عاد الجنود إلى معسكراتهم، في الثامن من تشرين الثان/ نوفمبر اليوم الأخير لمعركة كراسنوييه. ولقد كان النهار هادئاً، مجمداً، تخلله تساقط الثلوج من حين إلى آخر. لكنه حوالى المساء صحا الجو، فكانت السماء السوداء المائلة إلى اللون البنفسجي، تُرى خلال جوالح الثلج بنجومها المتوهجة وازداد البرد شدة.

وصل فيلق من الرماة كان عدده ثلاثة آلاف رجل لدى خروجه من معركة بورودينو فبلغ عدده الآن تسعمائة رجل فحسب، إلى المكان المحدد لقضاء الليل، في عداد الفرق التي وصلت إلى أماكنها قبل سواها، إلى قرية تقوم على جانب الطريق العام. فجاء بعض رواد الجيش للقائد وشرحوا للرماة أن الأكواخ الخشبية مشغولة كلها بالمرضى والموتى من الفرنسيين، والجنود الفرسان والقيادة العسكرية وأنه لم يبق إلا كوخ واحد لقائد الفيلق.

ذهب القائد إلى كوخه. أما الفيلق، فقد دخل القرية. ولما بلغ نهاية البيوت، أقام جماعات حول الطريق.

لم يلبث الفيلق أن انصرف إلى العمل أشبه بحيوان هائل ذي أطراف عديدة، بدأ يبني غرفة ويعد معاشه اليومي، فأسرع عدد من الجنود والثلج يغمرهم إلى ما فوق ركبهم، يتبعثرون في غابة سندر كانت إلى يمين القرية، فلم تلبث جلبة الفؤوس أن ارتفعت وأصوات الزناد والأغصان المهشمة والأصوات البهيجة. ومضى قسم آخر يعمل حول عربات النقل التابعة للفرقة

twitter @baghdad_library

والجياد المجمعة كالقطيع فأعدّوا القدور والبسكويت وقدموا العلف للجياد. وانتشر آخرون في القرية لينظموا إسكان قيادة الفرقة، فأجلوا جثث الفرنسيين عن الأكواخ واستولوا على الألواح الخشبية والحطب الجاف والقش الذي يغطي السقوف لإيقاد النيران، وعلى الحواجز الخشبية لبناء الملاجئ.

وراح حوالى خمسة عشر منهم وراء الأكواخ عند طرف القرية يزعزعون، وهم يطلقون صرخات مرحبة، حاجز رواق كبير انتزع سقفه من قبل. كانوا يهتفون: هيا، هيا، معاً، لندفع دفعة قوية!

وفي عتمة الليل، شوهد جانب كبير من الحاجز المغطى بالثلج يترنح في جلبة الجليد الذي يتحطم. وفرقعت الأوتاد السفلية وأخذت تميل ولم يلبث الحاجز كله أن انهار والجنود فوقه. وأفلتت شتائم لاذعة من الأفواه وارتفعت قهقهات.

ـ انتظموا اثنين اثنين! عتلة من هنا! هكذا! أين تحشر نفسك؟

ـ هيا، معاً، كلنا!.. انتبهوا!.. بانسجام!

وساد الصمت وراح صوت لطيف رخيم يغني وفي نهاية المقطع الثالث، عندما بدأ آخر نغم يخبو، انطلقت أصوات عشرين رجلاً مجتمعة: «هو ـ و و! لقد لان! معاً! ميلوا عليه يا أولاد!» وعلى الرغم من تلك الدفعة المركزة، لم يتزحزح الحاجز وارتفع في الصمت الذي أعقب ذلك لهاث الرجال الثقيل.

ـ هيه. أنتم، يا جنود السادسة! يا للشياطين ساعدونا.. سوف نرد المساعدة لكم!

وكان عشرون رجلاً تقريباً من السرية السادسة يمرون حينذاك في طريقهم إلى القرية، فانضموا إليهم وراحوا يدفعون معهم، فراح الحاجز، وطوله يزيد على العشرة أمتار وعرضه على المترين، وقد ارتكز ملتوياً على أكتاف الجنود

www.Maktbah.com

اللاهثين الذين كان يسحقهم بثقله ويقطع أنفاسهم، يترنح على طول شارع القرية.

هيا، تقدم يا... إنك تتعثر أيها الحيوان... لماذا تتوقف... هيا، اصمد!

واستمرت الشتائم اللاذعة المرحة لا تنقطع، وفجأة زمجر صوت صف ضابط آمر أسرع صاحبه نحو الحمالين:

ـ ماذا تفعلون؟ إن الرؤساء هنا وفي الكوخ «جننار» يا لطغمة الصعاليك يا هؤلاء! سوف أساعدكم!

وأحكم على ظهر أول جندي وصلت إليه يده دفعة قوة واستأنف:

ـ أما كنتم تستطيعون إثارة أقل من هذه الضجة؟

سكت الجنود بينما راح الذي تلقى الضربة من صف الضابط يمسح وجهه المغطى بالدم الذي جرح إذ اصطدم بالحاجر، وهو يزمجر مغمغماً وقال بلهجة وجلة عندما ابتعد صف الضابط:

ـ آه! الحيوان. يا للضربة التي أصابني بها! آه إن «بوزي» كله مطلخ بالدم.

فقال صوت ساخر: إنك لا تحب ذلك، هه؟

لكن الجنود استمروا في طريقهم بعد أن خفضوا من هتافاتهم.

وعندما خرجوا من القرية، عادوا يتحدثون بصخب ويطلقون السباب بكل مناسبة ودون سبب.

وفي الكوخ الذي مرّ الجنود أمامه، كانت تجتمع القيادة العليا، يشرب أعضاؤها الشاي ويتناقشون بحمية حول أحداث النهار والتحركات المقررة لليوم التالي. لقد عُرض القيام بمشية جناح على الجانب الأيسر لقطع فرقة نائب الملك وأسره.

ولما جاء الجنود بالحاجز المحطم، كانت نيران المطاهي المتنقلة مستعرة في كل مكان والخشب يفرقع والثلج يذوب وأطياف الجنود السوداء

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تروح وتجيء على طول المساحة التي يشغلونها، المغطاة بالثلج الذي وطئته الأقدام.

كانت الفؤوس والزنود تعمل بنشاط. وراح كلٌ يعمل دون أن ينتظر صدور الأمر إليه. جاؤوا بالحطب لإذكاء نار الليل وأخذوا يهيئون الأكواخ للرؤساء ويطهون الطعام في القدور وينظفون الأسلحة والتجهيزات.

أقيم الحاجز الذي جاء به رجال السرية الثامنة، على شكل نصف دائرة من جهة الشمال ودُعم بالإسناد ثم أوقدت نار المعسكر أمامه. ثم نفخ في البوق إيذاناً بالاستراحة وأجري التفقد وأكل الجميع ثم اتخذوا أماكنهم أمام النار لقضاء الليل، هذا يرفع حذاءه وذاك يدخن غليونه وثالث يخلع ملابسه بحثاً عن «قملاته».

الفصل الثامن

في تلك الشروط الفظيعة التي يستحيل تصور قسوتها التي كان الجندي الروسي يعاني منها وهو محروم من الأحذية وجلود الغنم، كان يمكن الظن بأن الجيش الروسي يفتقر إلى سقف فوق رأسه في درجة حرارة بلغت ١٨ تحت الصفر، بل دون جرايته الكاملة، لأن الأرزاق لم تكن دائماً تتبع الفرق في تنقلاتها، كان يمكن الظن بأن الجيش الروسي يبرز مظهراً مدعاة للإشفاق والأسى.

على العكس: إن الجيش، حتى في الظروف المادية الأكثر مواتاة، لم يعطِ مشهداً أكثر بهجة وحمية. ذلك أنه مع الوقت، كان من يفقد شجاعته أو تخور قواه، ينشق عن الجيش. أي إن العناصر الضعيفة مادياً ومعنوياً، أصبحت منذ مدة طويلة في المؤخرة: فلم يبقَ إلا زهرة الجيش، القوة الروحية والجسدية.

كانت السرية الثامنة التي يحميها الحاجز، تضم عدداً كبيراً من الجنود، انضم إليهم رقيبان لأن النيران في السرية كانت أشد استعاراً من النيران الأخرى. كان أولئك الجنود يشترطون للجلوس حول النار، الإتيان بالحطب ليحق لمن يأتي به الاصطلاء.

صاح جندي أمغر متورد الوجه كانت عيناه تطرفان جراء الدخان دون أن يبتعد عن النار:

ـ هيه، ياماكييف. أين أنت؟... هل ضعت أم هل افترستك الذئاب؟ جئ بحطب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وصاح آمراً جندياً آخر: هيا، تحرك، يا مصير الخنزير جئ بحطب.

لم يكن الأمغر رقيباً حتى ولا عريفاً. لقد كان جندياً قوياً يستغل قوته ليتحكم في من هم أضعف منه، نهض الجندي الصغير النحيل ذو الأنف المدبب الذي وصف بمصير الخنزير، واستعد بدعة للخضوع للأمر الصادر. ولكن في تلك اللحظة بالذات، ظهر على ضوء اللهب، شبح ضامر لجندي شاب محمل بالحطب.

ـ هاته إلى هنا، عال!

وكسر الحطب وحُول إلى قطع صغيرة، ثم أضرمت النار وهم ينفخون فيها ويحركون ذيول المعاطف ولم يلبث اللهيب أن ارتفع مفرقعاً. اقترب الجنود وأشعلوا غلايينهم وراح الجندي الشاب الجميل الذي جاء بالحطب، يضرب الأرض بنعليه بشدة وحذق وقد وضع قبضتيه على وسطه، بغية بعث الدفء في قدميه المتجمدتين. ثم بدأ يغني وهو يتوقف لدى كل كلمة. والمعروف أن ضرب الأقدام على طريقة الرقص الشعبي يشفع دائماً بأغنية:

ـ آه! يا أمي الحبيبة، الندى بارد وجميل وحامل البندقية...

صرخ الأمغر وقد لاحظ أن نعلي الراقص تالفان: هيه، إن نعليك «طائران»! يا له من سم، هذا الرقص!

توقف الراقص وانتزع قطعة الجلد السائبة وألقاها في النار وقال وهو يجلس: إيه نعم!

وأخرج من حقيبته قطعة من القماش الأزرق الفرنسي، لف قدمه بها وأضاف وهو يمد ساقيه نحو النار: إن الحرارة تخدرهما.

ـ سوف يسلموننا أحذية جديدة بعد حين. يقولون إنه عندما تنتهي الأمور ستدفع لنا أجورنا مضاعفة.

قال واحد من الرقيبين:

www.Maktbah.com

ـ قل لي، هذا الكلب بيتروف، لقد تخلف في الطريق.

فأجاب الآخر: كنت أشك في ذلك منذ وقت طويل.

ـ ماذا تريد «شقفة» جندي كهذا..

ـ يقولون إن تسعة جنود تخلفوا عن تفقد الأمس في السرية التاسعة.

ـ ولكن تعقل قليلاً. كيف يمكن متابعة المسير عندما تتجلد الأقدام؟

فصاح صف الضابط: آيه! يا للخرافة!

فقال جندي عجوز بلهجة عتاب مخاطباً ذاك الذي تحدث عن الأقدام المتجمدة.

ـ هل بك رغبة في تذوق ذلك؟

سأل وهو يقف من الجانب الآخر من النار، الجندي ذو الأنف المدبب الذي وصف بأنه مصير خنزير: ماذا تريد أن تقول؟

ثم أضاف بصوت حاد مرتجف:

ـ مهما كان المرء سميناً، فإنه ينحل. والهزال معناه الموت.

وأكد فجأة بلهجة حازمة مخاطباً واحداً من الرقيبين: خذ مثلاً أنا، إنني فقدت قواي، فاعمل على إدخالي المستشفى لأنني أشعر بأن أوصالي كلها منعقدة. وإلا فإنني لن أستطيع المثابرة على اتباع الصفوف.

فرد الضابط بهدوء: هيا، لا تنطق بهذه الغباوات.

فسكت الجندي الصغير وعاد الحديث، فقال جندي راغب في إثارة موضوع جديد للنقاش:

ـ لم نأخذ اليوم شيئاً قليلاً من أولئك الفرنسيين. أما فيما يتعلق بالأحذية، فإن ما من واحد منهم كان يملك زوجاً حقيقياً منها يمكن القول إنها ليست أحذية إلا بالإسم.

ـ إن القوقازيين هم الذين يأخذونها منهم دائماً. لقد نظفوا المسكن من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أجل الزعيم وحملوا الجثث إلى الخارج. وفتشوها وقلبوها حتى أن ذلك كان يدعو إلى الشفقة.

وأضاف المتكلم، وهو الجندي الذي كان يرقص: كان بينهم واحد لا يزال على قيد الحياة، لو تصدق، وكان يغمغم شيئاً ما بلغته.

فاستأنف الأول:

ـ ثم إنهم أشخاص نظيفون أيها الأولاد. إنهم بيض، بيض كالسندر، ثم إن بينهم بواسل ونبلاء أيضاً! لو علمت!

ـ ما كنت تعتقد إذن؟ إنهم يجندون في بلدهم من كل الفئات.

فقال الراقص بابتسامة دهشة: ثم إنهم لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة الروسية. سألت أحدهم: «إلى أي تاج تنتمي؟» فدمدم بما لست أدري ماذا. يا للشعب المضحك!

واسترسل الذي أظهر دهشته للون الفرنسيين الأبيض:

ـ ثم إن فيهم شيئاً غريباً أيها الإخوان. هل تعرفون ماذا قال القرويون الذين جمعوا جثث الأموات في موجاييسك؟ لاحظوا أن جثثهم كانت هناك منذ شهر. حسناً، لقد قالوا إنهم كانوا ممددين ولونهم أبيض كالورق، نظيف تماماً دون أدنى رائحة.

فرد جندي: لا شك أن ذلك مبعثه البرد. أليس كذلك؟

ـ يا للماكر! بسبب البرد! لكن الطقس كان دافئاً. فلو أنهم تجمدوا لوجب ألّا تتفسخ جثث رجالنا أيضاً. مع ذلك، فقد بدا أنهم ما إن يجمعوا واحداً حتى يروا أنه كتلة من الديدان. فكان يجب لف الفم بمنديل والإشاحة بالوجه وهم يحملونهم: مع ذلك كانوا لا يحتملون. بينما هم، لا شيء كالورق الأبيض دون أية رائحة.

www.Maktbah.com

سكتوا جميعاً برهة. فقال واحد من الرقيبين:

ـ لا شك أن ذلك ناشئ عن الطعام. إنهم يأكلون كالسادة.

فلم يعترض أحد.

ـ لقد روى ذلك القروي من موجاييسك حيث دارت المعركة، أنهم حملوا الجثث من عشر قرى طوال عشرين يوماً دون أن يستطيعوا نقلها كلها. وقال إنه كانت هناك جموع من الذئاب..

فأكد جندي عجوز: كانت هذه معركة حقيقية، فيها ما يحمل المرء ذكراه. أما ما دار منذ ذلك الحين.. فإنه عبارة عن ألم العالم الفقير.

ـ قل لي يا جدّي، لقد تبعوهم أمس الأول، لكن لم يتسن لهم الوقت للاقتراب منهم. كانوا قد ألقوا بأسلحتهم. وها هم أولاء على ركبهم ينشدون المغفرة. إنهم جيش في المظهر فحسب، يقولون إن پلاتوف قد أمسك مرتين بـ: «پوليون» نفسه، لكنه لم يكن يعرف كلمة السر. لقد أمسك به هكذا في يده، فتحول «پوليون» إلى عصفور ثم طار وطار. ثم إنه لا يمكن قتله كذلك.

ـ أنت، كيسليف، أراك تقصد أمراً. إنك لا تصلح إلا لرواية الأكاذيب.

ـ كيف أكاذيب؟ إنها الحقيقة الحقة.

ـ وأنا، لو أنني أمسكت به، عندما أمسكه بيدي، سأدفنه حياً. ثم سأضربه بعصا من الحور، ذلك لأنه سبب قتل كثير من الناس، الوتد من الحور يستعمل في ضرب الأرواح الشريرة أو السحرة لمنعهم من إيذاء الناس. وقد جرت العادة على دفنهم مع وتد من الحور لمنعهم من العودة بعد الموت إلى هذا العالم.

فأكد الجندي العجوز وهو يتثاءب: لا بأس، إنه لن يفلت دائماً. سوف نبلغ النهاية.

وهدأ النقاش واستعد الجنود للنوم. صاح جندي كان يتأمل السماء:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ انظر «لي» إلى هذه النجوم، إنها رائعة لا شك في ذلك! هه هذه النساء اللواتي نشرن غسيلهن!

ـ هذا أيها الفتيان، دليل سنة خير.

ـ لا بدَّ من إضافة كمية أخرى من الحطب.

ـ إن ظهرنا يحترق وبطننا متجلد، وهذا هو المزعج.

ـ أوه! يا إلهي!

ـ ما بك أيضاً تدفع، يا أنت؟.. هل النار لك وحدك؟ أنظر كيف يتمدد هذا!

وفي الصمت الذي خيم، سمع شخير بعض النائمين بينما استمر الآخرون يتقلبون ويتقلبون طلباً للدفء ويتبادلون من حين إلى آخر كلمة. ومن معسكر قائم على مسافة حوالى مائة خطوة، كانت ضحكة مرحة تبلغ الأسماع على دفعات فقال أحد الجنود:

ـ هيه، إنهم يمزحون في الخامسة، ثم يا لكثرة الناس، هذا يثير الفضول!

ونهض ومضى يستطلع ما في السرية الخامسة وقال بعد أن رجع:

ـ ليس هناك ما يضحك. هناك فرنسيان جاءا، أحدهما متجمد تماماً بينما الآخر غير متأثر، الرجل! إنه ينشد الأناشيد.

ـ غير ممكن! هيا بنا إليهما؟

ومضى بعض الجنود بدورهم نحو معسكر السرية الخامسة.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

عند تخوم الغابة عسكرت السريّة الخامسة. وشبت نار هائلة، على الثلج، أخذت تضيء أغصان الشجر المثقلة بالجليد.

وفي أعماق الليل، سمع جنود السرية الخامسة في عمق الغابة وقع خطى على الثلج وتحطم أغصان جافة. صاح أحد الجنود:

ـ أوه! أيها الفتيان، دب!

رفعوا جميعهم رؤوسهم ليصغوا، فشاهدوا على ضوء النار، شكلين آدميين خارجين من الغابة، في لباس غريب، يسند أحدهما الآخر.

كانا فرنسيين اختبآ في الغابة. اقتربا من النار وهما يلفظان بصوت أجش كلمات بلغة غير مفهومة من الجنود. كان أحدهما طويل القامة يضع على رأسه عمرة ضابط ويبدو شديد الضعف. فلما وصل قرب النار، أراد أن يجلس، لكنه هوى على الأرض. أما الآخر، فكان جندياً قصير القامة، ربعة، يبدو أكثر قوة من زميله، يغطي رأسه بمنديل. أنهض رفيقه وقال شيئاً وهو يدل على فمه. أحاط الجنود بالفرنسيين ومددوا المريض على معطف وجاؤوا لهما بحساء الحنطة السوداء والفودكا.

كان الضابط المريض هو رامبال أما الرجل ذو المنديل المعقود، فموريل.

بعد أن شرب موريل قدح الفودكا، وابتلع ملء قصعة من الحساء، استبد به مرح محموم وبدأ يتحدث دون توقف إلى الجنود الذين ما كانوا يفهمونه. أما رامبال، فقد رفض أن يأكل وبقي متمدداً قرب النار مستنداً إلى مرفقه،

twitter @baghdad_library

يتأمل الجنود الروس بعينيه المحمرتين الخاليتين من النظر. ومن حين إلى آخر كان يطلق زفرة حرى ثم ينطوي في صمته. ولقد أشار موريل إلى شارات كتفي رامبال محاولاً إفهام الجنود بأنه ضابط يجب تدفئته. ولقد أرسل ضابط روسي اقترب من النار، إلى الزعيم يسأله ما إذا كان يوافق على قبول ضابط فرنسي لديه. وعندما رجع الرسول يعلن سماح الزعيم بحمل الضابط إليه، أشاروا إلى رامبال بالذهاب إلى هناك. فنهض وأراد أن يسير. لكنه كاد يسقط لو لم يبادر الجندي الذي كان إلى جانبه إلى إسناده.

قال الجندي لرامبال وهو يطرف بعينه ساخراً:

ـ هه، ماذا؟ لن تعود إلى مثلها؟

فصاح الجنود من كل صوب وقد أحنقتهم هذه الدعابة:

هه، أيه الأحمق! ماذا تنهق! أيها المنحط، نعم منحط!

أحاطوا برامبال فحمله جنديان على أذرعهما المعقودة ومضيا به إلى داخل الكوخ. وكان رامبال وذراعه حول عنق حامليه يقول بصوت شاك:

ـ أوه! أيها البواسل، أيها الطيبون، يا أصدقائي الطيبين! ها هم أولاء رجال! أوه! أيها البواسل، يا أصدقائي الطيبين!

وأسلم رأسه كالطفل على كتف أحدهما.

خلال ذلك، كان موريل قد جلس في أفضل مكان وحوله الجنود.

كان موريل، فرنسياً قصير القامة، ربعة، أحمر العينين دامعهما، يعقد منديله كالقرويات العجائز فوق عمرته ويضع «فروة» نسائية قبيحة الشكل. كان موريل ثملاً بشكل واضح، يحيط عنق الجندي الجالس إلى جانبه بذراعه ويغني بصوت متهدج أغنية من بلده. أما الجنود، فكانوا يمسكون بأضلاعهم وهم يتأملونه.

www.Maktbah.com

صاح الذي كان موريل يحيط عنقه بذراعه، وهو محب للمزاح والغناء: هيا، هيا، علمنا هذه الأغنية، هه سوف أحفظ اللحن بسرعة.

ـ كيف هو؟..

أخذ موريل يغني وهو يخزر عينيه:

ـ يحيا هنري الرابع، يحيا هذا الملك المقدام، هذا الشيطان على أربع..

راح الجندي يردد وهو يلوح بيديه:

ـ ڤيڤاريكا! ڤيف سييروڤارو! سيد يابلاكا...

والواقع أنه حفظ اللحن بشكل لا بأس به. فراح رفاقه يهتفون من حوله ويشفعون هتافهم بقهقهات مدوية:

ـ يا للبراعة، هو، هو، هو!

فكان موريل يقهقه بدوره وهو يصعر وجهه.

ـ هيا، استمر!

الذي له الموهبة المثلثة.

موهبة الشرب والقتال.

وأن يكون مغازلاً كيساً...

ـ آه! إن لهذا وقعاً جميلاً! هيا، دورك يا زاليتاييف!..

فراح زاليتاييف يردد بجد ومجهود وقد أبرز شفتيه:

ـ كيو، كيو، كيو... ليبتر لا دي بوديي باديترا فاغالا.

ـ مرحى! رائع! مثل الإفرنسي تماماً! حسناً! ها! ها! ها! قل يا هذا، أما زلت جائعاً؟

ـ أعطوه حساء القمح الأسود، إنه لا يشبع بمثل هذه السرعة.

قدموا له الحساء مجدداً. فراح موريل يلتهم ملء إنائه الثالث وهو يضحك. كانت وجوه الجنود الشبان كلهم مشرقة لرؤية هذا الفرنسي. أما

twitter @baghdad_library

المسنون الذين كانوا يجدون أن الاهتمام بمثل هذه الترهات غير جدير بهم، فقد لبثوا متمددين إلى الجانب الآخر من النار، يتناحرون بين الحين والآخر بالمرافق ليتأملوا موريل وهم يبتسمون.

قال أحدهم وهو يتدثر بردائه:

ـ إنهم بشر مثلنا. إن نبات الأفسنتين ينبت هو الآخر على جذوره. نبات الأفسنتين يعتبر في نظر القرويين الروس نبتة سيئة.

ـ أوه! يا إلهي! يا لكثرة النجوم! سوف يعقب ذلك الحمد!...

وسكت كل شيء وكأن النجوم كانت تعرف أنه لم يبق هناك من ينظر إليها فراحت تستعيد مرحها وحركتها في السماء. كانت تارة براقة وأخرى منطفئة وتارة ملتمعة، تبدو كأنها تتهامس فيما بينها بشيء بهيج غامض.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

وفقاً لحساب صارم استمرت القطعات الفرنسية في ذوبانها المنتظم. حتى ذلك المرور في پيريزينا الذي كتبوا حوله أقوالاً كثيرة، فإنه بدلاً من أن يكون حادثاً لاحقاً حاسماً في الحملة، لم يكن إلا خطوة أخرى في عملية تحطيم الجيش الفرنسي. وإذا كانوا كثيراً ما كتبوا وما زالوا يكتبون عن پيريزينا من جانب الفرنسيين، فإن مبعث ذلك أن النوائب التي أصابت الجيش الفرنسي والتي كانت من قبل متشابهة كلها، احتشدت فجأة هنا، حول ذلك الجسر المنهار، في مشهد «تراجيدي»، أعد بإتقان ليبقى عالقاً في الأذهان.

ومن الجانب الروسي، إذا كتبوا كثيراً وما زالوا يكتبون حول پيريزينا، فإن سبب ذلك أنهم في پيترسبورغ، بعيداً عن ساحة المعركة، كانوا أعدوا خطة هي خطة «پفوهل» التي ترى في ذلك النهر، نافورة «استراتيجية» سيغرق فيها ناپليون. وكان كل شخص هناك واثقاً بأن كل شيء سيجري في الواقع تبعاً لتلك الخطة. لذلك راحوا يتهافتون على التأكيد بأن عبور پيريزينا هو سبب ضياع الجيش الفرنسي على وجه الدقة. وفي الحقيقة، فإن نتائج هذا العبور كانت أقل تخريباً لهم من خسائرهم بالرجال والمدافع في كراسنوييه، والأرقام تدل على صحة ذلك.

ليس للعبور في پيريزينا غير معنى واحد، لقد أعطى الدليل الواضح الذي لا يقبل الشك على خطأ كل الخطط الرامية إلى قطع العدو وعلى صحة السلوك الوحيد الممكن، ذلك الذي كان كوتوزوف يطالب به قطعاته كلها

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

والذي يقوم على أساس تعقب العدو فحسب. كان فرار الفرنسيين يتمّ بسرعة متزايدة تنشطه حيويتهم الرامية إلى هذا الهدف وحده. كانت حشودهم تفر كالحيوان الجريح، فكان يستحيل عليها الوقوف في الطريق. ولقد دلل على ذلك عبور پيريزينا نفسه فوق الجسور أكثر مما دلل عليه تنظيم العبور. فعندما تحطمت الجسور، استمروا جميعهم: الجنود المجردون من الأسلحة، سكان موسكو، النساء والأطفال الذين كانوا في رحال الفرنسيين، استمروا كلهم، وقد استولت عليهم قوة المقاومة السلبية، بدلاً من الاستسلام، في الهروب إلى الأمام، في زوارق أو في المياه المتجمدة.

وهذا التهافت معقول لأن مركز الفارين ومطارديهم كان سيئاً. ففي البقاء مع بني قومه، كان كل واحد يعتمد على مساعدة زملائه في حالة البؤس، في النطاق المحدود للموقع الذي يشغله بينهم. بينما الاستسلام للروس يعني البقاء في تلك المصيبة إياها، يزيد فيها كونهم آخر من تُوزَّع عليهم الأرزاق. ولم يكن من حاجة لدى الفرنسيين إلى معرفة أن نصف الأسرى الذين يحتفظ بهم الروس دون أن يعرفوا ماذا يصنعون بهم، يموتون برداً وجوعاً رغم رغبة الروس في إنقاذهم ويشعرون بأن الأمور لا يمكن أن تدور على نهج آخر. ما كان أكثر الرؤساء الروس إشفاقاً على الفرنسيين ولا أولئك الذين بهم استعداد خاص للعطف عليهم ولا الفرنسيون العاملون في خدمة الروس، قادرين على مد يد المساعدة للأسرى. فكان ضياع الفرنسيين مرده الخاتمة التي وجد الجيش الروسي نفسه فيها. وما كان يمكن حرمان الجنود المجوعين الذين هم في حاجة إليهم، من الخبز والكساء ليقدموهما هدية إلى الفرنسيين العزل الذين لا يحقدون عليهم، والذين ما كانوا مذنبين، بل كانوا أفواهاً عديمة النفع فحسب. ولقد نهج بعضهم هذا النهج رغم ذلك لكنه كان عملاً استثنائياً.

في المؤخرة، كانت الخسارة المؤكدة، وفي المقدمة، الأمل. ولقد

www.Maktbah.com

أحرقوا مراكبهم، فلم يبق من وسيلة للنجاة إلا الفرار المشترك، الجماعي، فكانت قوى الفرنسيين كلها تجنح إلى ذلك الفرار.

وكلما طال أمد التقهقر، أصبح حطامهم أكثر بعثاً للرثاء وخصوصاً اعتباراً من بيريزينا، ذلك أنها، تبعاً للخطة الروسية الموضوعة في پيترسبورغ، خلقت كذلك في نفوس الروس آمالاً خاصة، الأمر الذي نشطت له أهواء القادة الروس الذين كانوا يتبادلون الاتهامات ويتهمون على الخصوص كوتوزوف. كانوا يزعمون أن عدم نجاح خطة پيترسبورغ على بيريزينا يجب أن يعزى إليه فكانت السخريات التي وجهت إليه، والتبرم الذي كان يوحي به والاحتقار الذي يكنونه له، تزداد شدة أكثر فأكثر. ولقد كانت السخريات والاحتقار وهذا واضح يعبر عنها بشكل مفعم بالاحترام حتى أن كوتوزوف نفسه لم يكن يستطيع أن يتساءل بأي شيء ولا لأي شيء يتهمونه. وعندما كانوا يرفعون إليه تقريراً ما ويسألونه أوامره، كانوا يتظاهرون بالقيام باحتفال مأتمي، فيخزرون عيونهم وراء ظهره ويحاولون في كل لحظة جاهدين أن يخدعوه.

كان هؤلاء الناس كلهم، بسبب عجزهم عن فهمه فحسب، مقتنعين بعقم مناقشة هذا العجوز، فيقولون فيما بينهم إنه لا يستطيع أن يدرك خططهم إدراكاً عميقاً وأنه سوف يجيبهم بجملته المألوفة، كانت هذه في نظرهم جملاً ليس إلا، عن الجسر الذهبي واستحالة تخطي الحدود بجيش من الحفاة. ولقد سمعوا هذه النغمة من قبل حتى حلوها. فمثلاً، كان كل ما يقوله كوتوزوف عن ضرورة انتظار الأرزاق وافتقار الرجال إلى الأحذية، كان كل هذا على بساطة طفولية إزاء عروضهم المعقدة العلمية، فهو إذن ولا شك رجل عجوز لا يصلح لشيء. وهم، رجال حرب عباقرة ولكن للأسف عاجزون.

وبعد أن التحق بالجيش الأميرال اللامع ويتغنستن، بطل پيترسبورغ، بلغت هذه الاستعدادات العدائية وضجيج أركان الحرب وجعجعتهم الذروة،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فكان كوتوزوف يشعر بذلك ويكتفي بهز كتفيه وهو يتنهد. ولقد غضب مرة واحدة بعد پيريزينا، فكتب الرسالة التالية إلى بينغسن الذي كان يبعث إلى الأمبراطور بتقارير خاصة.

«نظراً إلى حالتكم الصحية الموقتة، أرجو سعادتكم الذهاب إلى كالوغا فور تلقيكم هذه الكلمة والانتظار هناك، القرار الذي سيتخذ بشأنكم من قبل جلالته الأمبراطورية».

وبنتيجة طرد بينغسن، شاهد الجيش عودة الغراندوق كونستانتان پاڤلوڤيتش، الذي بعد أن نشط في بداية الحملة، أبعد من قبل كوتوزوف. ومنذ أن وصل الغراندوق، أبلغ كوتوزوف استياء الأمبراطور، لأن انتصارات جيوشنا كانت تافهة جداً وحركاتنا بطيئة جداً، وأنهى إليه أن الأمبراطور شخصياً عازم على اللحاق بالجيش.

فأدرك هذا الرجل العجوز الذي كانت لديه خبرة في شؤون البلاد بقدر خبرته بشؤون الحرب، كوتوزوف هذا الذي عين في شهر آب/ أغسطس من العام نفسه قائداً على رغم إرادة ملكية، ذلك الرجل نفسه الذي أبعد عن الجيش وارث العرش، والذي اتخذ من عندياته وضد رغبة الأمبراطور قرار إخلاء موسكو، أدرك هذا الرجل أن زمنه قد انصرم وأن دوره قد انتهى وأن السلطة الشكلية التي في يده لم يعد لها وجود. ثم إنه لم يكن يفهم ذلك كرجل بلاط فحسب. فلقد كان يشعر من جهة أن النشاط العسكري الذي لعب فيه دوره قد أشرف على نهايته وأن مهمته قد أنجزت. ومن جهة أخرى أخذ يحس بالوقت نفسه في جسمه الذي حطمته السنون بتعب يرغمه على انتجاع سبل الراحة.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، دخل كوتوزوف إلى ڤيلنا مدينته الطيبة حسب قوله. لقد تولى مرتين في حياته العملية ولاية هذه المدينة. كان يستعيد في هذه المدينة الغنية التي بقيت سليمة من كل أذى، إلى جانب الرفاهية التي حرم منها زمناً طويلاً، أصدقاءه القدامى وذكريات قديمة، استغرق فجأة، وقد تخلص من كل شاغل عسكري أو سياسي، في حياة منتظمة هادئة، بقدر ما كانت الأهواء التي تستعر في أعماقه تسمح له، وتظاهر وكأن كل ما كان يجري حينذاك وما كان سيجري في تاريخ العالم، لا يعنيه مطلقاً.

استقبله تشيتشاغوف، وهو الأكثر حماسة بين أولئك الراغبين في قطع العدو وصده، تشيتشاغوف هذا الذي كان بادئ الأمر يريد القيام بحركة لإلهاء العدو في اليونان ثم في ڤرصوڤيا ولكنه يرفض دائماً الذهاب إلى حيث يرسلونه، لتشيتشاغوف هذا الشهير بأجوبته الجريئة للأمبراطور، تشيتشاغوف هذا الذي كان يعتبر كوتوزوف مديناً له لأنه عام ١٨١١، عندما أرسل إلى تركيا لعقد الصلح، وجد أن الصلح قد عقد فعلاً فاعترف أمام الأمبراطور بأن موهبة كوتوزوف هي التي أدت إلى هذه النتيجة، تشيتشاغوف هذا، هو الذي كان أول من استقبله في قصر ڤيلنا، حيث كان يجب أن يحل. سلم تشيتشاغوف وهو في لباس أميرال، والسيف القصير عريض النصل إلى جنبه، والعمرة تحت ذراعه، إلى جانب مفاتيح المدينة، تقريراً عن حالة الحامية إلى كوتوزوف.

twitter @baghdad_library

وكان الاعتبار المحتقر الذي كان يظهره الشباب لهذا العجوز الذي بات يجنح في نظرهم إلى الطفولة، يظهر في أجلى معانيه في تصرفات تشيتشاغوف الذي كان على علم بالاتهامات الموجهة حتى ذلك الحين إلى كوتوزوف.

قال كوتوزوف لتشيتشاغوف، خلال محادثة معه، في جملة ما قال: إن الجياد والعربات التي سُلبت منه في بوريسوف والتي كانت تحوي آنيته، لم يمسها الأذى وأنها ستعاد إليه.

فأجاب تشيتشاغوف بانفعال:

ـ إنك تريد بذلك أن تقول إنني لا أملك ما أقدم الطعام فيه.. مع أنني أستطيع على العكس أن أقدم من كل شيء حتى في الحالات التي ترغب فيها أن تقيم الولائم.

وكان يريد بكل كلمة من كلماته أن يثبت بأنه غير مسؤول عن الإخفاق في بيريزينا، وأنه بالتالي يعتقد أن كوتوزوف يحمل في نفسه هذا الشاغل بالذات.

فرد كوتوزوف وقد طافت على شفتيه ابتسامته الدقيقة المؤثرة وهو يهز كتفيه: لم أقل لك ذلك إلا لأقول ما قلت.

أوقف كوتوزوف في ڤيلنا، ضد رغبة الأمبراطور، سير معظم قطعات جيوشه. ولقد ضعف وخار بشكل خارق، كما يزعم المحيطون به، خلال مكوثه في تلك المدينة. كان يهتم مرغماً بشؤون الجيش ويحيل الأعمال كلها إلى جنرالاته، يعيش حياة مفرجة بانتظار وصول الأمبراطور.

ولقد وصل الأمبراطور إلى ڤيلنا في الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر بعد أن غادر پيترسبورغ في السابع منه مع حاشيته والكونت تولستوي والأمير ڤولكونسكي وأراكتشييف وآخرين، وذهب مباشرة إلى القصر في زحافة السفر. وأمام القصر، رغم البرد الشديد، كان حوالى مائة جنرال

www.Maktbah.com

وضابط أركان حرب ينتظرون في ثياب العرض مع حرس شرف من فيلق سيميونوڤسكي.

وصل الرسول الذي يسبق الأمبراطور بسرعة فائقة على زحافة يجرها ثلاثة جياد يغطيها الزبد وصاح: «إنه يصل!» فاندفع كونوڤنيستلين إلى الدهاليز لإخطار كوتوزوف الذي كان ينتظر في غرفة البواب الصغيرة.

وبعد دقيقة، بدا شبح العجوز الضخم في ثوب العرض تزين الأوسمة صدره ويقطع بطنه وشاح، وتقدم نحو المرقاة بخطى غير ثابتة. وضع كوتوزوف العمرة الملائمة لثوبه وأمسك بقفازين بيده، ونزل الدرجات بصعوبة وهو يمشي متمايلاً فبلغ أسفل السلم حاملاً في يده الطليقة التقرير المعد للملك.

ثار لغط وهمس ومجدداً مرت زحافة كبيرة بأقصى سرعة وانتقلت الأنظار كلها إلى زحافة كانت تقترب، كان شبح الأمبراطور ظاهراً فيها ومعه ڤولكونسكي.

وعلى الرغم من اعتياده تلك المظاهر طوال خمسين عاماً، فإن ذلك أحدث اضطراباً حسياً للجنرال العجوز، فراح يتحسس نفسه بحركة محمومة وأصلح قبعته ثم رفع عينيه إلى الأمبراطور في اللحظة التي كان ينزل من الزحافة واستعاد ثقته فاتخذ وضعية الاستعداد ومد يده بالتقرير وراح يتكلم بصوت متزن مفرط في المجاملة.

شمل الأمبراطور كوتوزوف بنظرة سريعة من رأسه إلى أخمص قدميه وقطب حاجبيه ثانية لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه، ففتح ذراعيه وطوق الجنرال العجوز. ومرة أخرى، أحدثت هذه الضمة في نفس كوتوزوف أثرها المألوف إذ انفجر منتحباً تحت تأثير عادة قديمة مدفوعاً بفكرته الشخصية.

twitter @baghdad_library

حيا الأمبراطور الضباط والحرس من فيلق سيميونوڤسكي ثم بعد أن شد مرة أخرى على يد العجوز، دخل معه إلى القصر.

ولما انفرد بكوتوزوف، راح الأمبراطور يعرب له عن استيائه لبطء مطاردته وللأخطاء التي ارتكبت في كراسنوييه وپيريزينا وأطلعه على آرائه حول حملة مقبلة في الخارج. فلم يعترض كوتوزوف ولم يقدم أية ملاحظة. كان وجهه يعكس مثل ذلك الخضوع السلبي الذي ظهر عليه قبل سبع سنين، عندما كان يصغي إلى أوامر سيده على ساحة القتال في أوسترليتز.

ولما خرج كوتوزوف بخطاه الثقيلة المترنحة من الغرفة واجتاز القاعة مطرق الرأس، استوقفه صوت أحدهم:

ـ يا صاحب السمو!

رفع كوتوزوف رأسه وحدق طويلاً إلى وجه الكونت تولستوي الذي كان واقفاً أمامه، يقدم له شيئاً على طبق فضي. بدا على كوتوزوف أنه لم يدرك ما يطلبونه إليه.

وفجأة، وكأنه استعاد حواسه، طافت على وجهه المنتفخ ابتسامة لا تكاد ترى، وغالى في الانحناء ثم أخذ ذلك الشيء بمزيد من الاحترام من فوق الطبق الفضي. وكان ذلك الشيء صليب القديس جورج من الدرجة الأولى.

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

أقام الماريشال حفلة عشاء شرفها الأمبراطور بحضوره، تلتها حفلة راقصة، في اليوم التالي. وقد تلقى كوتوزوف وسام القديس جورج من الدرجة الأولى، وقد أظهر الأمبراطور تجاهه منتهى الاهتمام والالتفات. لكن ما من أحد كان يجهل أن الأمبراطور مستاء من كوتوزوف، وعلى ذلك فإن اللياقة كانت مرعية والأمبراطور نفسه أعطى المثال عليها، لكنهم كانوا يعرفون جميعاً أن العجوز مذنب وأنه لم يعد صالحاً لشيء. خلال الحفلة الراقصة، وتبعاً لتقليد قديم يعود إلى عهد كاترين الثانية، عندما دخل الأمبراطور قاعة الرقص، أمر كوتوزوف على أن تلقى عند قدميه، الأعلام التي غُنمت من العدو، فنطق الأمبراطور ببضع كلمات وهو مقطب حاجبيه تقطيبة عدائية خيل إلى بعضهم أنه جاء فيها «أيها المهرج العجوز!».

ازداد استياء القيصر من كوتوزوف في ڤيلنا أيضاً: لا شك أن العجوز لم يكن يريد ولا يستطيع فهم معنى الحملة المزمع القيام بها.

وفي صبيحة اليوم التالي، قال الأمبراطور للضباط المجتمعين حوله: «إنكم لم تنقذوا روسيا فحسب بل أنقذتم كذلك أوروبا» ففهموا جميعهم حينذاك أن الحرب لم تنته.

لكن كوتوزوف وحده لم يكن يريد فهم ذلك بل كان يدلي برأيه بصراحة حول هذه الحملة الجديدة التي لا يمكن أن تحسن وضع روسيا ولا أن تزيد مجدها بل على العكس، لا تصلح إلا لزيادة الحالة سوءاً وتقليل درجة المجد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الرفيعة التي بلغتها روسيا الآن كما كان يقول. كان يحاول جاهداً أن يبرهن للأمبراطور على استحالة تجنيد قطعات جديدة ويتحدث عن موقف الشعب الصعب وعن إمكانية السقوط في إخفاق إلخ...

كان واضحاً أن كوتوزوف أصبح يمثل هذه الأفكار، وهو أمر مزعج يوقف عجلة الحرب المقدرة.

ولتجنب كل اصطدام مع العجوز، وجدوا بشكل طبيعي المخرج المناسب. المخرج نفسه الذي وجدوه في أوسترليتز وفي بدء الحملة مع باركلي: لقد سحبوا من القائد الأعلى أدوات سلطته دون جلبة ودون مزيد من التفسير، ليسلموها إلى الأمبراطور بالذات.

ولهذه الغاية، شُرع في تحقيقها على مراحل بإعادة تشكيل هيئة الأركان. وبالتدريج، أحيلت كل السلطات التي كانت لهيئة أركان كوتوزوف إلى لا شيء وأصبح للأمبراطور اليد العليا على العمليات وتلقى تولّ وكونوڤينستين وإيرمولوف مناصب جديدة فكان كل منهم يعلن جهاراً أن الماريشال بات شديد الضعف شديد المرض.

والواقع أن صحته كان يجب أن تكون معتلة تماماً حتى سلم مناصبه إلى خلفه على هذا النحو. وكان ذلك صحيحاً إذ كان مصاباً في صحته.

وبمثل البساطة التي بدأ فيها كوتوزوف من قبل في ممارسة أعماله تدريجاً في الوزارة وتأسيس فرق المتطوعين ليعود إلى الجيش في اللحظة التي لم يكن هناك بد من وجوده فيه، وكان ذلك إثر عودته من تركيا إلى پيترسبورغ، بمثل تلك البساطة وبذلك الشكل الطبيعي، أقاموا بدلاً منه سيد الإبداع الجديد الذي كانت الظروف تطالب به، الآن وقد انتهى دوره.

ولقد وجب أن تأخذ حرب عام ١٨١٢، إضافة إلى معناها الشعبي العزيز على النفس الروسية، معنى أوروبياً كذلك.

www.Maktbah.com

كان يجب أن يعقب سير شعوب الغرب إلى الشرق، سير شعوب الشرق نحو الغرب. وكان يجب لهذه الحملة الجديدة، رجل جديد، يتحلى بصفات أخرى، بدوافع أخرى غير صفات كوتوزوف ودوافعه.

وكان ألكسندر الأول بالنسبة إلى سير شعوب الشرق نحو الغرب وبالنسبة إلى إعادة تنظيم الحدود، الشخص الذي لا بدَّ منه كما كان كوتوزوف لا بدَّ منه من قبل في سبيل خلاص روسيا ومجدها.

لم يكن كوتوزوف يعقل معنى الكلمات: أوروبا، توازن، ناپليون، ولم يكن يستطيع فهمها. الآن وقد هزم العدو وتحررت روسيا، لم يعد لخالق المجد، لممثل الشعب الروسي، بوصفه روسياً، ما يقوم به. لم يبق لذلك الذي تجسدت فيه الحرب الشعبية إلا أن يموت، ولقد مات.

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث عشر

لم يحس پيار بكل عبء الحرمان والتعب الجسديين، كما يحدث دائماً تقريباً، وبتلك الآلام التي عاناها خلال مدة أسره إلا عندما انتهت تلك الآلام والحرمان والتعب. ذهب إلى أوريل بعد أن استعاد حريته لكنه بعد ثلاثة أيام، عندما كان يستعد لمغادرة أوريل إلى كييف، سقط مريضاً واضطر إلى ملازمة الفراش في أوريل طوال ثلاثة أشهر لأنه أصيب، على زعم الأطباء، بحمى مرارية ولذلك مع العناية التي لقيها منهم فضلاً عن الأدوية وتكرار الفصاد، فقد استعاد صحته.

لم يترك كل ما حدث له منذ تحريره وحتى مرضه، أثراً في ذاكرته. كان يتذكر فقط وقتاً كالحاً، ممطراً تارة ومثلجاً تارة أخرى، وبخدر جسدي وآلام في الأضلاع والساقين، ويذكر الأثر الذي كان البؤساء المتألمون من الناس يخلفونه في نفسه بصورة عامة، والأسئلة المزعجة التي كان الضباط الجنرالات الفضوليون يطرحونها عليه، وكل تدابيره ليجد لنفسه عربات وجياداً لها وعلى الخصوص عجزه عن التفكير أو الإحساس بالمكان الذي كان فيه حينذاك.

رأى يوم تحرره جثة پيتيا روستوف. وفي اليوم نفسه علم أن الأمير أندريه بقي حياً شهراً كاملاً بعد معركة بورودينو وأنه مات أخيراً في ياروسلاڤل، في منزل آل روستوف وفي اليوم نفسه أيضاً، ألمح دينيسوف الذي جاء يحمل إليه هذا النبأ، إلى موت هيلين خلال الحديث مفترضاً أن پيار لا بدَّ وأن يكون

www.Maktbah.com

على علم بالأمر من قبل. ولقد بدا له كل ذلك في حينه غريباً فحسب، لقد كان پيار يشعر بعجزه عن فهم معنى هذه الأخبار. لم يكن يتعجل إلا أمراً واحداً، أن يبتعد قدر المستطاع عن هذه الأمكنة، حيث يقتل الرجال بعضهم بعضاً والذهاب إلى مكان هادئ يلجأ إليه، وهناك يجمع أفكاره ويستريح ويفكر في كل هذه الأشياء الغريبة الجديدة التي عرفها خلال هذه المدة. لكنه لم يكد يصل إلى أوريل حتى سقط مريضاً فلما استيقظ من مرضه، رأى پيار نفسه محاطاً باثنين من خدمه جاءا من موسكو، هما تيرانتي وڤاسكا، ثم بكبرى الأميرات من بنات عمه التي كانت تسكن في منزله، في إقطاعيته في إيليتز، التي ما إن بلغها نبأ تحرره ومرضه حتى هرعت للعناية به.

لم يتخلص پيار طوال فترة نقاهته، من المشاعر التي أصبحت أليفة لديه خلال الأشهر الأخيرة إلا بشكل لا شعوري. لم يكن يألف إلا تدريجاً، فكرة أن ما من أحد غداً سيطرده طرد السائمة، وأن ما من أحد غداً سينتزع منه فراشه الدافئ، وأنه سيحصل حتماً على غدائه وعشائه. ولقد بقي فترة طويلة يرى نفسه في الحلم كما كان في الأسر. كما أن پيار لم يدرك معنى الأنباء التي عرف بها يوم أن تحرر: موت زوجته، إبادة الفرنسيين، إلا بمرور الزمن.

ملأت نفس پيار فرحة عودته حراً وامتلاك تلك الحرية الكاملة غير المنقوصة الملازمة للطبيعة البشرية. تلك الحرية التي شعر بها للمرة الأولى عند أول مرحلة بعد مغادرة موسكو طوال مدة نقاهته. وما كان يدهشه على الخصوص هو الشعور بأن هذه الحرية المعنوية المستقلة عن كل ظرف خارجي، تأتلف الآن مع أريحية مع بذخ من الحرية الخارجية. كان وحيداً في مدينة غريبة لا يعرف فيها أحداً وما من أحد يطالبه بشيء ولا أحد يرسله إلى أي مكان. وهو يحصل على كل ما يمكن أن يشتهيه، حتى أن عذابه الفكري قد اختفى طالما أن زوجته لم تعد على قيد الحياة.

twitter @baghdad_library

كان يقول عندما كانوا يقربون منه مائدة بديعة التنسيق وعليها آنية من مرق عطر، أو عندما كان يتمدد لقضاء الليل على سرير نظيف، أو يتذكر أن كل شيء قد انتهى، أو يذكر زوجته والفرنسيين:

ـ آه! كم هذا جيد! كم هذا رائع! كم هذا جيد كم هذا حسن!

كان يطرح على نفسه حسب عادته القديمة هذا السؤال: «والآن؟ ماذا سأعمل» ثم لا يلبث أن يجيب نفسه بنفسه: «لا شيء. سأعيش. آه! كم هذا جيد!».

وذاك نفسه الذي طالما عذبه من قبل والذي طالما فتَّش عنه باستمرار، هدف حياته، لم يعد يؤثر فيه. لم يكن هدف الحياة ذاك الذي كان يبحث عنه عن أن الكون في نظره في تلك اللحظة فحسب، بل بات يشعر أنه لم يكن هناك هدف قط وأنه ما كان يمكن أن يكون. فكان غياب الهدف ذاك هو الذي يخلق لديه ذلك الإحساس المفعم المرح بحريته الذي كان حينذاك مبعث سعادته.

ما كان يمكن أن يكون هناك هدف لأنه أصبح الآن يملك الإيمان، ليس الإيمان ببعض القواعد الخاصة أو بعض الأفكار، بل الإيمان بإله حي دائم الشعور به كان سابقاً يبحث عن الله في الغاية التي يعرضها على نفسه، فكان ذلك البحث عن الغاية هو البحث عن الله. وفجأة، طوال أسره، اكتشف ليس بالكلام، وليس بالمناقشات الفكرية، ولكن بنوع من الوحي الخاص، ما كانت مربيته العجوز تقوله له من قبل: إن الله هنا، هناك، في كل مكان. لقد تعلم خلال أسره أن إله كاراتاييف أكبر وأجل من أن يدرك وأكثر امتداداً وامتناعاً عن التحديد من الله الذي يسميه الماسونيون مهندس الكون الأعظم. كان يعتلج في نفسه شعور الرجل الذي يجد عند قدميه ما كان يبحث عنه جاهداً في الأبعاد. لقد قضى حياته كلها ينظر إلى البعيد، إلى نقطة ما فوق الرؤوس

التي تحيط به في حين أنه لم يكن عليه إلا أن ينظر إلى ما هو أمامه دون أن تجحظ عيناه.

لم يعرف من قبل، كيف يرى في أي مكان هذه العظمة التي لا تدرك والتي لا يحاط بها، كان يحس بها فحسب أنها ولا شك موجودة في مكان ما، لذلك كان يبحث عنها. وكان كل ما هو قريب منه مفهوم منه، يبدو له محدوداً سخيفاً مبتذلاً. كان يتسلح بنوع من المنظار المقرب الفكري لينقب في الأبعاد حيث كانت أشياء عقيمة ساخرة، يحجبها الضباب. تبدو له عظيمة غير محدودة لمجرد أنها لم تكن مرئية بوضوح.

ولقد تمثل حياة أوروبا على هذا النحو والسياسة والماسونية والفلسفة ومحبة البشر ولكن، ابتداء من هذه الفترة في اللحظة نفسها التي كان يقيس فيها ضعفه، والتي كانت روحه فيها تتغلغل في ذلك البعيد، كان يرى ذلك الغرور إياه وتلك الحقارة وذلك السخف نفسه. لقد تعلم الآن رؤية العظمة، الخلود، المحيط بكل شيء ولكي يتأمل هذا الكل وينعم بتأمله، ترك منظاره المقرب الذي ظل حتى تلك اللحظة يستعمله للنظر فوق رؤوس الرجال، راح بمرح يتأمل حوله، مشهد الحياة المتبدلة أزلياً، الكبيرة أزلياً، الممتنعة التي لا حدود لها. ولم يعد السؤال الرهيب «لماذا؟» الذي كان من قبل يهدم كل ما تشيده أفكاره، يطرح عليه لقد أصبحت نفسه الآن متمسكة بجواب مهيّأ على «لماذا؟» تلك: لماذا؟ لأن الله موجود، هذا الله الذي لا تسقط شعرة من رأس إنسان دون إرادته.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

لم يغيِّر پيار شيئاً من طرق الظاهرية بل استمر يقدم المظهر إياه. كان ساهماً كما من قبل، يبدو منهمك البال ليس بما يراه بل بشيء ما خاص، شخصي. فكان الفرق بين حاله القديم وحاله الحاضر يرتكز على أنه من قبل، عندما كان يفقد عن عينيه ما هو أمامه أو ما كان يقال له، كانت تغضنات أليمة تقلص جبينه وكان يبذل مجهوداً عقيماً لمشاهدة شيء ما بعيد جداً. أما الآن فهو لا يزال ينسى ما يقال له وما هو أمامه، لكنه بات يملك ابتسامة دقيقة ساخرة للنظر إلى ما هو أمامه وللإصغاء إلى ما يقال له على الرغم من أنه كان، بكل تأكيد، يرى ويسمع شيئاً مختلفاً تماماً. كان من قبل يبدو تعساً رغم مظهر الطيبة الذي يعلو وجهه، لذلك فإن الناس كانوا يبتعدون عنه لا إرادياً. أما الآن، فإن ابتسامة تعبّر عن الفرح بالحياة كانت تتلاعب على شفتيه وتشع عيناه بجاذبية وكأنهما تسألان: هل ما زالوا مسرورين مني؟ فكان الناس في حضرته يشعرون بالارتياح.

كان من قبل يكثر الكلام وينفعل أثناء الحديث وبالكاد يصغي. أما الآن فإن المحادثة قليلاً لم تعد تجتذبه وبات يحسن الإصغاء حتى أن الناس أصبحوا يقصون عليه بيسر أعمق أسرارهم الشخصية.

والأميرة ابنة عمه، التي لم تحبه قط والتي كانت تغذي كراهية خاصة منذ اليوم الذي شعرت فيه بعد موت الكونت العجوز بأنها مدينة له. والتي جاءت إلى أوريل بقصد واحد، هو أن تبرهن له على أنها رغم عقوقه، تعتبر العناية به

www.Maktbah.com

واجباً لها، هذه الأميرة، شعرت بسرعة بعد مكوثها القليل بأنها تحبه وذلك لفرط سخطها ولمزيد دهشتها، في حين أن پيار لم يكن يعمل شيئاً لكسب مودتها. كان يكتفي بأن يتأملها بفضول. وكانت الأميرة من قبل، تشعر في النظرة التي يوجهها إليها، بلا مبالاة وسخرية، لذلك فقد كانت في حضرته كما في حضرة الآخرين، تنطوي على نفسها فلا تظهر إلا مزاجها الطيب. أما الآن فعلى العكس، أخذت تشعر بأنه تغلغل إلى أعمق حنايا نفسها مجازاً فراحت تكشف له في حذر بادئ الأمر ثم بعرفان، عن النواحي الخيرة في عقليتها.

ما كان لأكثر الرجال مكراً أن يتعمق بأكثر مهارة في ثقة الأميرة، حتى ولو استعرض معها أفضل ذكريات شبابها وأظهر اهتمامه بذلك. مع ذلك، فإن براعة پيار كلها كانت ناجمة عن شعوره الشخصي بالمتعة في إيقاظ المشاعر البشرية في نفس هذه المرأة المتغطرسة الساخطة.

كانت الأميرة تحدث نفسها: نعم، إنه فتى باسل عندما يكون تحت تأثير أشخاص مثلي بدلاً من أن يكون تحت أشخاص سيئين.

ولقد لوحظ التبديل الذي وقع لپيار من جانب خادميه تيرانتي وڤاسكا كذلك اللذين شعرا على طريقتهما بذلك الفرق وجدا أنه أصبح أكثر بساطة من ذي قبل. كان تيرانتي غالباً، بعد أن يخلع عن سيده الثياب ويتمنى له ليلة سعيدة ينسحب ببطء حاملاً حذاءيه وثيابه بين يديه، أملاً أن يحدث پيار عن شيء ما. وكان هذا الأخير غالباً ما يلاحظ هذه الرغبة فيستوقف تيرانتي ويسأله:

ـ قل لي لحظة.. كيف فعلت حتى تدبرت لنفسك ما تأكله؟

فيبسط تيرانتي قصة عن دمار موسكو أو عن الكونت المرحوم ويمكث طويلاً وثياب پيار فوق ذراعه، يتحدث تارة، ويصغي تارة أخرى، فلا يذهب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

إلى الردهة إلا وفي بنفسه اعتقاد بأنه أصبح أكثر قرباً إلى سيده وأنه ينعم بتعلقه به.

وكان الطبيب الذي يعالجه والذي يأتي لزيارته يومياً، يعتقد أن من واجبه، ككل طبيب يحترم نفسه، أن يظهر بمظهر الرجل الذي تعتبر كل دقيقة من وقته ثمينة في حساب الإنسانية المعذبة. مع كل ذلك فإنه كان يبقى ساعات طويلة عند پيار يروي له أفضل أقاصيصه ويحيطه علماً بملاحظاته عن عادات مرضاه بصورة عامة والسيدات منهم بصورة خاصة. كان يقول:

ـ هذا شخص يجد المرء متعة في التحدث معه، خلافاً لما هو عندنا في الإقليم.

وكان في أوريل عدد من ضباط الجيش الفرنسي وقعوا في الأسر، فجاء الطبيب ذات يوم بأحدهم معه وكان إيطالياً.

ولقد اعتاد هذا الضابط زيارة پيار حتى أن الأميرة ابنة عمه ما فتئت تسخر من الشعور الحاني الذي يظهره ذلك الإيطالي حيال ابن عمها.

لم يكن يبدو سعيداً إلا عندما كان يستطيع المجيء لزيارة پيار والتحدث معه عن ماضيه وعن حياته العائلية وغرامياته ويسهب في إظهار غضبه على الفرنسيين وخصوصاً على ناپليون.

كان يقول لپيار:

ـ لو أن الروس كانوا يشبهونك ولو قليلاً فإنه من الخزي محاربة شعب كشعبكم. أنت الذي لشدة ما تألمت بسبب الفرنسيين، لا تكاد تحمل نفسك ضغينة عليهم.

ولقد كسب پيار هذه المحبة القوية من الإيطالي بكل بساطة لأنه أيقظ في نفسه أفضل جوانب روحه وراح يتأمل تلك الجوانب.

خلال المدة الأخيرة من إقامته في أوريل، تلقى پيار زيارة أحد معارفه

www.Maktbah.com

القدماء من العالم الماسوني، الكونت ڤيلارسكي، الذي استقبله في المحفل عام ١٨٠٧. ولقد تزوج ڤيلارسكي روسية غنية جداً لديها عقارات كبيرة في ولاية أوريل وأصبح يشغل مركزاً موقتاً في تموين المدينة:

عندما علم بوجود بيزوخوف في أوريل، جاء ڤيلارسكي لزيارته رغم عدم وجود روابط صداقة وثيقة بينهما من قبل، مظهراً بوادر الصداقة والألفة التي يظهرها عادة الأشخاص الذين يتقابلون في صحراء. كان ڤيلارسكي دائم السأم في أوريل، فشعر بسعادة لوقوعه على رجل لا بدَّ وأن يكون بحسب، ظنه، منصرفاً إلى مثل المشاغل التي انصرف هو إليها.

لكن ڤيلارسكي، لعظيم دهشته، لم يلبث أن رأى أن پيار لم يكن قط في المكانة التي وضعه فيها وأنه وقع ـ كما أخذ يحدث نفسه ـ في الجمود والأنانية.

وانتهى إلى القول أخيراً: لقد تطبعت يا عزيزي.

وعلى الرغم من ذلك، أصبحت عشرة پيار تبدو له مستطابة أكثر من ذي قبل فكأن يأتي كل يوم لزيارته. أما پيار، فإنه بإصغائه إلى ڤيلارسكي وبالنظر إليه، كان يفكر بذهول غير مصدق بأنه كان قبل وقت قريب جداً مثله تماماً.

كان ڤيلارسكي متزوجاً ورب عائلة، منشغلاً بأملاك زوجته وبوظيفته وأولاده معاً. وكان ينظر إلى هذه المشاغل المختلفة نظرته إلى عقبة في الحياة، فيحتقرها لأن هدفه الأوحد كان سعادته الشخصية وسعادة ذويه. وكانت المشاغل العسكرية والإدارية والسياسية والماسونية تحتكره كلياً. فكان پيار يهتم بهذه الحالة الغريبة، المعروفة منه تماماً دون أن يحاول التأثير فيه لتغيير وجهة نظره أو يحكم عليه، بسخرية مرحة هادئة لا تتزعزع.

كان پيار في علاقاته مع ڤيلارسكي والأميرة والطبيب ومع كل الأشخاص الذين بات يقابلهم الآن، يظهر بادرة جديدة عادت عليه بميل الجميع إليه،

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أخذ يعترف بحق كل فرد في التفكير والشعور والنظر إلى الأشياء على طريقته ويعترف كذلك باستحالة إقناع إنسان ما بالكلام. وهذه الشخصية الشرعية لكل إنسان التي كانت تقلق پيار من قبل وتغضبه، أصبحت اليوم بالنسبة إليه سبب الاهتمام والانجذاب إلى الناس الذين يشعر بهم الآن. وطرق النظر إلى الأمور التي يتمتع بها الأشخاص مختلفة. والتي كانت أحياناً متعارضة تماماً مع وجهات نظره، كانت تبهجه وتخلق على شفتيه ابتسامة وديعة ساخرة.

وفي الأمور ذات الطابع العملي، أصبح پيار الآن يشعر بدهشة أنه يملك مركز الثقل الذي كان يفقده بالأمس. فقديماً كانت كل المسائل المادية، وبصورة خاصة طلبات الإخراج التي كانت غالباً ما يتعرض لها بوصفه رجلاً واسع الثراء، تحدث في نفسه اضطراباً وتردداً لم يكن يجد لهما حلاً. كان يتساءل: هل يجب العطاء أم لا؟ إن لدي مالاً وهو في حاجة إليه. لكن هذا الآخر أشد حاجة إليه منه فأيهما أساعد؟ لعل الاثنين يحتالان معاً؟ ولما لم يكن يصل إلى التحلل من افتراضاته، فقد كان يعطي الجميع بقدر ما يستطيع العطاء، ويعود دائماً إلى ذلك التردد إياه، كلما عرضت له مسألة تمس مصالحه، وأشار عليه أحدهم أن ينهج هذا النهج بينما يشير آخر عليه بذلك.

أما الآن، لدهشته الكبيرة، أخذ يجد أن الشكوك والتردد في هذه المسائل لم يعد لهما مكان. أصبح الآن يحمل في نفسه حكماً يحكم تبعاً لقوانين مجهولة منه، ويقرر ما يجب عمله وما لا يجب.

بقي لامبالياً كسابق عهده فيما يتعلق بالمسائل المادية. لكنه لم يعد الآن يحوي أي شك حول ما يجب وما لا يجب عمله، ولقد أصدر ذلك القاضي الجديد حكمه الأول خلال زيارة زعيم فرنسي أسير جاء يعوده وأخذ يسهب في التحدث عن مآثره وفي النهاية طالبه في شبه إلحاح بإعطائه أربعة آلاف فرنك يرسلها إلى أسرته في فرنسا، فرفض پيار طلبه هذا دون أي تردد أو

www.Maktbah.com

ارتباك وقد دهش من نفسه فيما بعد إذ استطاع أن يعمل بمثل هذه السهولة ما كان من قبل يبدو على صعوبة لا تذلل. لكنه، بينما رفض الزعيم ذلك الطلب، قرر أن يتصرف قبل مغادرته أوريل بأسلوب لبق حتى يجعل الإيطالي يقبل منه مبلغاً من المال كان في حاجة إليه. ولقد كان الدليل الجديد على ثباته في الشؤون العملية هو القرار الذي اتخذه بشأن ديون زوجته وإعادة ترميم منزليه في موسكو وفي الريف.

ولقد جاء وكيله الرئيسي يزوره في أوريل فأقام پيار معه بياناً تماماً بريوعه المخفضة. وبحسب تقدير وكيله، سبب حريق موسكو لپيار، خسارة تبلغ حوالى مليوني روبل.

قدم له الوكيل لقاء هذه الخسارة، بياناً مشفوعاً بالأرقام، يثبت أن عائداته ستزداد بدلاً من أن تنقص إذا رفض پيار سداد الديوان التي تركتها الكونتيسة، والتي لا يمكن لأحد أن يرغمه على دفعها، وإذا عدل عن تجديد منزلي موسكو والضاحية اللذين يقتضيان مصروفاً يبلغ ثمانين ألف روبل في العام دون أن يعودا عليه بأي فائدة.

فقال پيار بابتسامته الفكهة:

ـ نعم، نعم، هذا صحيح. لست في حاجة إلى كل هذا. لقد أغناني دماري كثيراً.

لكن ساڤليتش هو الذي جاء من موسكو في شهر كانون الثاني/ يناير، تحدث عن حالة المدينة وعن التصميم الذي وضعه المهندس لإعادة بناء منزل في المدينة وآخر في الضاحية وراح يتكلم عن هذه الأمور وكأنها قضية منهية. وفي تلك اللحظة، تلقى پيار رسالة من الأمير ڤاسيلي ورسائل أخرى أرسلها أصدقاؤه من پيترسبورغ. كان موضوع هذه الرسائل يدور حول الديون التي تركتها زوجته. وحينئذ قرر پيار أن المشروع المهم جداً الذي قدمه وكيله

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

له خطأ وأن عليه أن يذهب إلى پيترسبورغ لتسوية شؤون زوجته وعليه كذلك أن يعيد بناء منزل موسكو. لماذا كان كل هذا ضرورياً؟ لم يكن يعرف، لكنه كان يدرك أن عليه أن يتصرف على هذا النحو دون أي شك. ولقد انخفضت موارده من جراء ذلك بمعدل ثلاثة أرباعها لكن الأمر كان إلزامياً، ذلك كان شعوره.

كان ڤيلارسكي ينوي الذهاب إلى موسكو فعملا على أن يترافقا خلال الطريق.

شعر پيار خلال نقاهته في أوريل كلها، بإحساس بالفرح والاستقلال والتجدد فلما سار في الطريق، ووجد نفسه في الهواء الطلق وشاهد مئات الوجوه المعروفة ازداد هذا الشعور امتداداً. كان خلال كل الوقت الذي استغرقه الطريق، أشبه بطالب في عطلته: كل الأشخاص الذين قابلهم، سائق المركبة، مدير البريد، القرويون على الطريق أو في القرى، كل شيء اتخذ سمة جديدة في نظره ولم يكن وجود ڤيلارسكي وملاحظاته وشكاواه المستمرة عن الفقر ومن تأخر الزحف على أوروبا وجهل روسيا إلا لتزيد من سرور پيار.

كان پيار يرى قوة حيوية خارقة حيث لا يرى ڤيلارسكي إلا مظهر الموت، هذه القوة المتسلطة التي تدعم في ذلك الثلج الذي يغطي المساحات، وجود هذا الشعب الذي لم يمس، الخاص الوحيد. لم يكن يتأمل صديقه، ولكنه، وكأنه يؤيده في رأيه، لأن التظاهر بالموافقة أقصر سبيل إلى تجنب محاولات عقيمة، كان يصغي إليه بابتسامة مرحة.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر

لماذا يدبّ النشاط في النمل عندما تنهار مدينته، ويصعب بيان أين يذهب، فيبتعد بعضه جاراً معه بعض البيوض والقش والجثث والدقيق، ويعود البعض الآخر إلى المدينة. ولماذا يتدافع ويتقاتل ويطارد بعضه بعضاً، كذلك يصب تفسير الأسباب التي دفعت الروس بعد ذهاب الفرنسيين إلى التجمع في ذلك المكان الذي كان يدعى من قبل موسكو: وكما يلمس المرء عند ملاحظته النمل المنتشر حول مدينته المخربة وجلد هذه الحشرات التي لا تحصى ونشاطها وحيويتها رغم انهيار مدينتها الكامل، إن كل شيء قد دمر باستثناء شيء ممتنع عن الدمار، شيء غير مادي هو أساس كل قوة مدينة النمل، كذلك موسكو في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، فقد بقيت موسكو نفسها رغم عدم وجود سلطات ولا كنائس ولا أشياء مقدسة ولا ثروات ولا بيوت، ظلّت كما كانت في شهر آب/ أغسطس. كان كل شيء متهدماً فيها باستثناء شيء قوي وغير قابل للهدم.

كانت دوافع الأشخاص المنتقلين نحو موسكو بعد فرار العدو منها من أكثر الدوافع اختلافاً، دوافع شخصية وذات طابع بدائي حيواني في الآونة الأولى. وكان الشعور الوحيد المشترك بين الجموع هو رغبتهم في العودة إلى ذلك المكان الذي كان يدعى من قبل موسكو وممارسة نشاطهم فيها.

أصبحت موسكو في غضون أسبوع، تضم خمسة عشر ألف ساكن، وبعد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أسبوعين قفز العدد إلى خمسة وعشرين ألفاً. ومضى الرقم في تزايد مستمر حتى أن عدد السكان في خريف عام ١٨١٣ فاق عددهم في عام ١٨١٢

كان الـروس الأوائـل الذين دخلوا موسكو هم من قوقازيي فيلق وينتزبخيرود وقرويين من القرى المجاورة والسكان الهاربين الذين اختبأوا في الريف المتاخم. وعندما دخلوا موسكو الخربة ووجدوا أنها منهوبة، شرعوا هم كذلك بالسلب. لقد أتموا ما بدأه الفرنسيون. كان القرويون يقدمون بعرباتهم ليحملوا إلى مساكنهم كل ما بقي في المنازل المتهدمة وفي الشوارع. وحمل القوقازيون كذلك إلى معسكرهم كل ما استطاعوا حمله ووضع ملاك البيوت أيديهم على كل ما وجدوه لدى الآخرين وأخذوه إلى مساكنهم بحجة أن هذه الأشياء تخصهم.

وبعد هؤلاء النهابين الأوائل، جاء آخرون ثم آخرون كذلك وأصبح السلب أخذاً في الصعوبة كلما ازداد عدد النهابين حتى بدأ يأخذ أشكالاً منهجية.

لقد وجد الفرنسيون موسكو فارغة ولكن حية، بأعضاء منتظمة وبكل ما ينفع لممارسة التجارة والمهن والترف والإدارة والدين. كانت أعضاء جامدة ولكن صالحة للعمل بعد. كانت هناك أسواق ودكاكين وحوانيت ومستودعات وأماكن لبيع الخضار وجلها مليء بالسلع. وكانت هناك مصانع ومعامل وقصور ومساكن غنية مليئة بالأشياء الثمينة. وكانت هناك مستشفيات وسجون ومكاتب وكنائس وكاتدرائيات. وكلما طال أمد مكوث الفرنسيين، راحت إطارات حياة المدينة هذه تختفي حتى أن موسكو أصبحت في النهاية ساحة كبيرة متسعة للموت والنهب.

وكلما طال أمد نهب الفرنسيين نضبت ثروات موسكو وطاقة النهابين. أما سلب الروس الذين اتصفوا به أيام عودتهم الأولى إلى العاصمة فكان على

www.Maktbah.com

العكس: كلما طال أمده، وكثر عدد المساهمين فيه، أقام ثروة المدينة وحياتها الطبيعية بسرعة أكثر.

وإلى جانب السلابين، جاء أناس من مختلف الألوان بعضهم بدافع الفضول وبعضهم بدافع واجبات عمله وبعضهم بدافع المصلحة: بين ملاكين وطلبة دينيين وموظفين كبار وصغار وباعة وصناع وقرويين، توافدوا من كل حدب وصوب إلى موسكو كما يندفع الدم إلى القلب.

ولم يكد يمضي أسبوع حتى صودرت عربات القرويين الذين جاؤوا بها فارغة لينقلوا عليها ما يستطيعون حمله إلى منازلهم. واستعلمت من جانب السلطة في نقل الجثث خارج المدينة. وآخرون علموا بإخفاق رفاقهم، كانوا يفدون إلى المدينة حاملين على عرباتهم الحنطة والعلف والخرطال ويخفضون الأسعار بشكل مناسب حتى صارت أكثر انخفاضاً من سابق العهد وراحت فرق من النجارين تعود باستمرار، يجذبها ارتفاع الأجر، وبدأت هذه الفِرق تعيد البناء وتصلح البيوت المحترقة. وأخذ الباعة يقيمون لأنفسهم الدكاكين في مبان من الخشب وفتحت الخانات والفنادق في الدور المحترقة. وراح رجال الدين يقيمون الاحتفالات الدينية في عدد كبير من الكنائس التي بقيت سليمة.

وبدأ بعض الواهبين يعيدون إلى الكنائس الأشياء ذات الطابع الديني المسروقة وراح الموظفون يقيمون في غرف صغيرة مكاتبهم المغطاة بالقماش والخزائن وراحت سلطات البوليس توزع الأمتعة والأشياء التي تركها الفرنسيون. وراح أصحاب البيوت الذين وُجدت لديهم أمتعة كثيرة مصدرها بيوت أخرى يحتجون مشتكين بمغدوريتهم في نقل كل الأشياء المنقولة إلى قصر ڤاسيت (في الكرملين) وآخرون أخذوا يحتجون بأن الفرنسيين جميعاً وضعوا كثيراً من أثاث البيوت في بيت واحد وأنه ليس من

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

العدل تقديم ذلك المتاع المجموع هدية إلى صاحب المنزل الذي وجد فيه. وكانوا يشتمون رجال الشرطة ويقدمون إليهم الرشى ويغالون في تقدير قيمة الممتلكات المحترقة حتى يصلوا إلى عشرة أضعافها ويطالبون بمساعدات مادية. أما الكونت روستوبتشين، فكان يدبج بلاغاته.

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

حوالى نهاية كانون الثاني/ يناير وصل پيار إلى موسكو وأقام في جناح من منزله ظلّ قائماً. زار روستوبيتشين وآخرين من معارفه الذين رجعوا إلى المدينة. واستعد منذ غداة اليوم التالي لوصوله، لمتابعة السفر إلى پيترسبورغ. وكان الناس جميعاً يتباهون بالنصر وكل شيء يجيش بالحياة في العاصمة المنبعثة. وكان كل واحد سعيداً برؤية پيار مجدداً، يستقبله كل واحد ويستجوبه عما رآه. فكان يشعر في نفسه بأكثر الميول صداقةً نحو كل الذين يقابلهم لكنه أصبح رغماً عنه، يحتفظ الآن ببعض التحفظ الذي كان يسمح له بعدم الدخول في التزام ما. كان يجيب عن كل سؤال يوجه إليه، سواء كان السؤال مهماً أو تافهاً، عندما يُسأل أين سيسكن ، هل سيعيد بناء منازله، هل يقبل حمل صندوق صغير معه إلى پيترسبورغ، كان يجيب: نعم، يمكن أن يكون، آمل ذلك أو جواباً آخر من هذا القبيل.

عرف أن آل روستوف موجودون في كوستروما، لذلك فإن التفكير في ناتاشا راح يراوده بين حين وآخر وعندما كانت الفكرة تراوده، لم تكن أشبه بذكرى فاتنة لماضٍ يطل منذ زمن طويل. كان يعتقد أنه تحرر ليس من فروض الحياة كلها فحسب، بل كذلك من ذلك الإحساس الذي يصور له أنه تقبل موضوعاً متعمداً.

علم غداة اليوم التالي لوصوله إلى موسكو، من آل دورپتسكوي أن

twitter @baghdad_library

الأميرة ماري موجودة في موسكو. فراحت آلام وموت وأيام الأمير أندريه الأخيرة تغزو مخيلة پيار الآن بشكل أقوى من أي وقت مضى، فلما علم خلال الغداء أن الأميرة ماري في المدينة، وأنها تسكن في بيتها في فوزدڤيغنكا الذي بقي سليماً، مضى لزيارتها ذلك المساء بالذات.

لم يكف خلال الطريق عن تمثل الأمير أندريه وتصور صداقتهما ولقاءاتهما العديدة وبصورة خاصة لقاءهما الأخير في بورودينو.

راح يقول في سرّه: «هل يمكن أن يكون قد مات وهو في حالة الانفعال والثورة التي كان عليها حينذاك؟ هل يمكن ألّا تكون الحياة قد تكشفت له قبل موته؟» وفكر في موت كاراتاييف، فراح رغماً عنه، يقارن بين كليهما، رغم الود شديد الاختلاف شديد التقارب مع ذلك، الذي كان يكنه لهما ويقارن بين الطريقة التي عاش فيها كل منهما ومات.

ولقد وصل پيار إلى منزل الأمير العجوز وهو على تلك الحالة الفكرية الخطيرة. ولقد ظل ذلك المنزل سليماً، يحمل آثار التلف، لكنه بقي محتفظاً بطابعه، وكان للوصيف العجوز الذي استقبل پيار بوجه صارم وكأنه كان يريد بذلك أن يشعر الزائر بأن غياب الأمير لم يغير شيئاً من عادات الدار قال له إن الأميرة دخلت إلى مخدعها منذ حين لاستقبال يوم الأحد.

قال پيار: اذهب وأخطرها بوجودي لعلها تستقبلني.

فأجاب الوصيف:

ـ حسب أوامركم. تفضلوا بالدخول إلى قاعة اللوحات.

عاد الوصيف بعد حين يتبعه ديسال. لقد جاء ديسال يخطر پيار على لسان الأميرة ماري بأنها سعيدة جداً لرؤيته وأنها ترجوه، إذا لم يجد مانعاً لهذه الطريقة غير المتكلفة، أن يصعد إليها.

www.Maktbah.com

كانت الأميرة جسالة في غرفة صغيرة منخفضة السقف تنيرها شمعة واحدة في صحبة إنسان متشح بالسواد. تذكر پيار أنها تحتفظ دائماً إلى جانبها بسيدات مرافقات. أما فيما يتعلق بمن كن أولئك السيدات وكيف كنّ، فإنه لم يكن يذكر قط. فكر وهو يلقي نظرة على السيدة المتشحة بالسواد: «إنها إحدى مرافقاتها».

نهضت الأميرة بنشاط وجاءت تستقبله وتمد له يدها وتقول وهي تتأمل التغيُّر الذي بدا عليه بعد أن انتهى من تقبيل يدها:

ـ نعم، هذا هو الشكل الذي نلتقي عليه.

ثم أضافت وهي تنقل نظرها إلى السيدة المرافقة في شيء من الارتباك جعل پيار يدهش لحظة:

ـ لقد تحدث عنك كثيراً في الأويقات الأخيرة. كم كنت مسرورة إذ علمت أنك أنقذت! إنه الخبر الطيب الوحيد الذي تلقيناه منذ مدة طويلة.

ومجدداً، ألقت نظرة أكثر قلقاً على السيدة المرافقة وأرادت أن تضيف شيئاً ما. لكن پيار قاطعها ليقول: تصوري أنني لم أكن أعرف عنه شيئاً. كنت أظن أنه قتل وكل ما عرفته نقل إلي من قبل آخرين. لقد رووا لي أنه وجد نفسه لدى آل روستوف... يا للقدر الغريب!

كان پيار يتحدث بحماسة. نظر بدوره إلى السيدة المرافقة فشاهد النظرة المحبة التي ترمقه بها. وكما يحدث غالباً في سياق الحديث، شعر دون أن يدري السبب، أن هذه المخلوقة ذات الرداء الأسود، لطيفة طيبة، وأنها مخلوقة ممتازة لا تزعج في شيء سياق حديثه مع الأميرة ماري.

لكنه عندما نطق باسم آل روستوف، ازداد دهشة للارتباك الذي بدا على الأميرة ماري. لقد انتقلت نظرتها من جديد من وجه پيار إلى السيدة ذات الثوب الأسود وقالت:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ كيف؟ ألا تعرفها؟

ألقى پيار مجدداً نظرة على ذلك الوجه الهزيل الشاحب ذي العينين السوداوين والفم الغريب الذي للسيدة المرافقة. كان هناك شيء ما أليف، شيء منسي منذ زمن طويل، شيء عزيز جداً ينظر إليه بتينك العينين اليقظتين.

فكر: «كلا هذا لا يمكن أن يكون هذا الوجه الشاحب الهزيل الصارم الضعيف! لا يمكن أن يكون هو مجرد شبه». لكن الأميرة ماري قالت في تلك اللحظة: «ناتاشا» وبدا الوجه ذو العينين المتيقظتين كأنه يتفتح بعناء وبجهد كما يفتح باب علاه الصدأ، وأضاء بابتسامة. ومن خلال ذلك الباب المفتوح، لفحت پيار فجأة نفحة عطرة من تلك السعادة المنسية منذ وقت طويل التي كانت في تلك اللحظة بالذات أبدع ما يكون عن التفكير فيها. شمله ذلك العطر وتسلل إلى كليته. ولما ابتسمت، لم يعد للشك مجال. إنها ناتاشا بدون شك وإنه ليحبها.

منذ الدقيقة الأولى كشف پيار رغماً عنه لناتاشا والأميرة ماري وخصوصاً لنفسه، عن السر الذي كان يجهله. احمرّ وجهه من الفرح والألم وأراد إخفاء انفعاله. لكنه كلما جاهد لإخفائه، كان يكشف عن حبه لنفسه ولناتاشا وللأميرة ماري، بشكل أوضح من التعبير عنه بدقيق الكلام.

حدث پيار نفسه: «لا بدّ وأن ذلك ناجم عن المفاجأة». لكنه عندما أراد أن يستأنف الحديث مع الأميرة ماري، نظر مرة أخرى إلى ناتاشا فغطت وجهه حمرة قانية واكتسحه تأثر أقوى مبعثه القلق والفرح وراح يتخبط في أقواله ثم توقف في منتصف جملة.

لم يلاحظ پيار وجود ناتاشا بادئ الأمر لأنه لم يكن يتوقع أن يراها هناك. ثم إنه لم يعرفها بسبب التغيّر الكبير الذي طرأ عليها منذ آخر مرة رآها. لقد

www.Maktbah.com

هزلت وشحبت. ولكن لم يكن كل هذا هو الذي يجعلها غير معروفة له: كان يستحيل عليه أن يعرفها للوهلة الأولى لأن على ذلك الوجه، في تينك العينين اللتين كانت بهجة الحياة تشع منهما فتلتمع بها ابتسامة غامضة، لم يكن على ذلك الوجه حتى ولا شبح ابتسامة. لم يبق إلا العينان المتيقظتان الحزينتان المستفسرتان.

لم ينتقل اضطراب پيار منه إلى ناتاشا، لكن ابتهاجاً لا يكاد يُلحظ أضاء وجهها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع عشر

جاءت الأميرة تقضي بعض الوقت معي وسوف يصل الكونت والكونتيسة في حالة سيئة بعد حين، لكن نفسها في حاجة إلى معالجة طبيب وقد أُجبرت على مرافقتي.

فقال پيار مخاطباً ناتاشا: نعم، هل هناك أسرة لا ألم لها؟ إنك تعرفين أن ذلك حدث يوم تحريرنا بالذات. لقد رأيته، يا للفتى الفتان!

أخذت ناتاشا تتطلع إليه وكجواب عن كلماته، اتسعت عيناها وأضاءتا بوميض أقوى. تابع پيار:

ـ ماذا يمكن أن يُقال أو أن يُتصور مما يبعث العزاء؟ لا شيء. لماذا كان يجب أن يموت فتى على مثل لطفه، مثله طافح بالحياة؟

فقالت الأميرة ماري: نعم، في العصر الذي نعيش فيه، يصعب العيش بدون الإيمان.

فبادر پيار يجيب:

ـ نعم، نعم، هذه هي الحقيقة.

سألت ناتاشا وهي تحدق بانتباه إلى عيني پيار: لماذا؟

تابعت الأميرة: كيف لماذا؟ لمجرد التفكير في ما ينتظر...

لكن ناتاشا لم تصغ إلى النهاية بل راحت مجدداً تحدق إلى عيني پيار بنظرة مستفسرة. استرسل هذا الأخير يقول:

www.Maktbah.com

ـ لأن الإنسان الذي يؤمن بأن هناك إلهاً يسيرنا، يستطيع وحده أن يحتمل خسارة مثل خسارتها و... خسارتكم.

فتحت ناتاشا فمها لتجيب، لكنها سكتت فجأة. وأسرع پيار يشيح بوجهه ويخاطب الأميرة ماري مستفسراً إياها عن أيام صديقه الأخيرة.

ولقد تبدد اضطراب پيار تقريباً. لكنه كان يشعر في الوقت نفسه أن حريته السابقة كلها قد اختفت بالمثل. شعر الآن أن لكل كلماته وتصرفاته حكماً يعتبر أغلى وأثمن من حكم العالم أجمع، فراح وهو يتكلم، يجزع للأثر الذي تحدثه كلماته في ناتاشا. لم يكن يبحث عن الكلمات التي يمكن أن تروقها. لكنه كان يحكم على كل ما يقوله من وجهة نظرها هي.

وكعادتها دائماً، أخذت الأميرة ماري تتكلم دون حماسة عن الحالة التي وجدت الأمير أندريه عليها. لكن أسئلة پيار ونظرته المتقدة ووجهه المضطرب من التأثر، دفعتها تدريجاً إلى الدخول في تفاصيل كانت تخاف على نفسها من أن تجدد ذكراها.

كرر پيار وهو منحن بكل جسده إلى الأمام نحو الأميرة ماري ومصغياً بفهم إلى روايتها:

ـ نعم، نعم، هو ذلك، هو ذلك... نعم، نعم، إذن، لقد هدأ؟ لقد رق؟ ذلك أنه لم يكن يبحث إلا عن أمر واحد بكل قوة روحه، كان يريد أن يكون جيداً بكمال ولم يكن ولا شك يخاف الموت. والأخطاء التي كانت فيه ـ إذا كانت لديه أخطاء. لم تكن صادرة عنه. إذن لقد رق؟

وقال فجأة مخاطباً ناتاشا والدموع تملأ عينيه:

ـ يا لسعادته إذ شاهدك!

طافت على وجه ناتاشا انتفاضة وقطبت حاجبيها وخفضت عينيها فترة. وترددت ثانية في الكلام ثم قالت بصوتها الجميل الخطير:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ نعم، كان ذلك بدون شك سعادة لي.

ثم بعد صمت تابعت:

ـ وهو... هو.. لقد قال لي إنه كان يرغب في رؤيتي في اللحظة التي جئت إليه...

وتحطم صوت ناتاشا. احمرَّ وجهها وتقلصت يداها على ركبتيها وفجأة بذلت مجهوداً ظاهراً على نفسها فرفعت رأسها وراحت تتحدث بسرعة:

ـ لم نكن نعرف شيئاً عندما غادرنا موسكو. وما كنت أجرؤ على الاستعلام عنه. إن سونيا هي التي أخطرتني فجأة بأنه معنا. لم أكن أفكر في شيء ولا أقدر على تمثل الحالة التي هو عليها.

وأضافت وهي تتغضن وتتنفس بصعوبة: كنت أريد فقط أن أراه وأن أكون معه.

ودون أن تسمح بمقاطعتها، روت ما لم تتحدث به بعد إلى أحد، روت كل ما عانته طوال أسابيع سفرهم الثلاثة وفي مكوثهم في ياروسلافل.

وكان پيار يستمع إليها فاغر الفم وعيناه المغرورقتان بالدموع شاخصتان إليها. لم يكن وهو يصغي إليها يفكر في الأمير أندريه ولا في الموت ولا في ما تقول. كان يشفق عليها فقط للألم الذي تسببه الرواية لنفسها.

أما الأميرة التي كان وجهها متقلصاً كله لرغبتها في كبت دموعها، فقد كانت جالسة إلى جانب ناتاشا، تستمع للمرة الأولى إلى قصة أيام العشق الأخيرة بين أخيها وناتاشا.

وكانت رواية هذه الآلام المشفوعة بالفرح، ضرورة لناتاشا كما كان ذلك واضحاً.

كانت تتحدث، خالطة أصغر التفاصيل بأعمق الأسرار الشخصية، تبدو كأنها لم تعد تستطيع التوقف، ولقد كررت مراراً الأشياء نفسها:

www.Maktbah.com

وارتفع صوت ديسال من وراء الباب يسأل عم إذا كان نيكولا الصغير يستطيع الدخول لإلقاء تحية المساء. فأعقبت ناتاشا:

ـ وهذا كل شيء، كل شيء...

ووقفت بشدة في اللحظة التي دخل نيكولا. ولقد اصطدم رأسها، وهي تسارع إلى الخروج، بالباب الذي يحجبه ستر، فاندفعت خارجة وهي تزمجر من الألم بقدر ما يطفح في نفسها من الحزن.

نظر پيار إلى الباب الذي خرجت منه دون أن يدرك لماذا بقي فجأة وحيداً في العالم.

أخرجته الأميرة ماري من تأملاته جاذبة انتباهه إلى ابن أخيه الذي دخل من فوره.

ولقد أحدث وجه نيكولا الشديد الشبه بوجه أبيه، في نفسه وهو على تلك الحالة من التحنان، أثراً كبيراً حتى أنه بعد أن ضمَّ الفتى، نهض بشدة وأخرج منديله ثم ابتعد نحو النافذة، أراد أن يستأذن الأميرة ماري منصرفاً لكنها استبقته.

ـ لا، لا تذهب. إن ناتاشا وأنا نسهر أحياناً حتى قرابة الساعة الثالثة صباحاً. عد إلى الجلوس أرجوك. سوف آمر بإعداد العشاء. انزل، لن نتأخر عن اللحاق بك.

وفي اللحظة التي همَّ پيار بالخروج، قالت له الأميرة: هذه هي المرة الأولى التي تحدثت فيها عنه على هذا النحو.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر

لم يلبث پيار بعد بضع دقائق أن تناهى إليه وقع خطى، وقد اقتيد إلى غرفة طعام فسيحة جيدة الإضاءة، ودخلت الأميرة ماري إلى الغرفة مع ناتاشا. كانت ناتاشا هادئة وإن كان وجهها قد اتخذ طابعه الصارم. ولقد شعر ثلاثتهم، الأميرة ماري وناتاشا وپيار، بذلك الانزعاج الذي يعقب عادة حديثاً، شخصياً جدياً، إذ تتعذر العودة إلى الحديث السابق ويخجل المرء أن يتحدث عن التفاهات، كما أنه يحس بالانزعاج إذ يسكت لأن به حاجة إلى الكلام ولأن السكوت المطبق الذي يلزمه صمت ملزم. جلسوا إلى الطاولة صامتين وأبعد الخدم الكراسي ليسمحوا لهم بالجلوس ثم عادوا فقربوها. ونشر پيار منشفته الباردة ونظر إلى ناتاشا ثم إلى الأميرة ماري وبه رغبة في قطع حبل الصمت. كانتا دون شك تحسان بمثل تلك الرغبة: لقد كانت عينا كليهما تشع بالرغبة في الحياة وتبدو شاهدة على أن هناك مكاناً للفرح رغم الحزن.

سألت الأميرة ماري: هل ترغب في شرب الفودكا يا كونت؟

فطردت هذه الكلمات فجأة أطياف الماضي. أضافت:

ـ حدثنا عنك. إنهم يروون عنك أشياء لا تصدق.

أجاب پيار وعلى شفتيه تلك الابتسامة الطافحة بسخرية حلوة والتي أصبحت مألوفة لديه:

ـ نعم. لقد رووا لي شخصياً أشياء مدهشة حقاً لم أرها بنفسي قط. لقد دعتني ماري أبراموڤنا إلى منزلها وقصت عليّ حكاية ما وقع لي أو الأحرى

www.Maktbah.com

ما وجب أن يقع لي. ثم إن ستيپان ستيپانيتش علمني هو الآخر ما يجب أن أرويه عن نفسي. لقد لاحظت، بصورة عامة، أن كون المرء شخصاً هاماً، عمل يتضمن كل عناصر الراحة ولما كنت الآن أحد المهمين، فإنهم يستدعونني ويقصون حكايتي.

ابتسمت ناتاشا وكادت تفتح فمها لتقول شيئاً، لكن الأميرة ماري قالت تستوقفها: لقد أكدوا لنا أنك تعرضت لخسارة مليوني روبل في موسكو. هذا صحيح؟

فصاح پيار: لكنني الآن أغنى ثلاث مرّات مما كنت قبلاً.

لقد بقي پيار يؤكد رغم ديون زوجته وضرورة إعادة البناء التي تبدل وجه أعماله أنه أغنى ثلاث مرّات من ذي قبل.

ثم أضاف بصوت خطير:

ـ على أية حال، فإن ما ربحته بشكل لا يتطرق إليه الجدل هو حريتي.

لكنه امتنع عن الاستمرار في الحديث واجداً أن من الأنانية الاقتصار في الحديث على نفسه من جانبه.

ـ وتريد إعادة البناء؟ نعم، إن ساڤيليتش يرغب في ذلك.

قالت الأميرة ماري:

ـ قل لي. لم تكن تعرف بموت الكونتيسة بعد عندما كنت في موسكو أليس كذلك؟

واحمر وجهها إثر ذلك عندما أحست بأنها طرحت عليه هذا السؤال فور إعلانه نبأ استرداده حريته وأن ذلك يمكن أن يعطي لكلماته معنى قد لا يكون عناه بها.

أجاب پيار الذي لم يظهر عليه أنه يعتبر الطريقة التي فسرت فيها الأميرة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

توريته إلى حريته مربكة: كلا. لقد عرفت الأمر في أوريل ولا يمكنك أن تتصوري الأثر الذي أحدثه ذلك في نفسي.

وتابع بحمية وهو يختلس نظرة إلى ناتاشا ويلاحظ على وجهها الفضول الذي ارتسم عليه بانتظار أن يتحدث عن زوجته.

ـ لم نكن زوجين مثاليين. لكن موتها هذا أحدث في نفسي أثراً مريعاً. عندما يتخاصم شخصان، يكون كلاهما على خطأ والمرء يشعر بخطئه أوقع على نفسه تجاه شخص لم يعد على قيد الحياة. ثم إن موتاً على هذا النحو.. دون أصدقاء ولا أعزاء!

وتابع وهو يلاحظ مسحة من التأييد المرح على وجه ناتاشا:

ـ إنني أشفق عليها كل الإشفاق، كل الإشفاق.

فقالت الأميرة ماري ملاحظة: وعلى هذا، ها إنك عازب من جديد، وصالح للزواج.

فاحمرّ وجه پيار فجأة وبذل جهده كي لا ينظر ناحية ناتاشا فترة طويلة. ولما قرر النظر إليها، كانت قد اتخذت وجهاً جامداً صارماً بل محتقراً على ما بدا له.

سألت الأميرة ماري:

ـ إذن، هل صحيح أنك رأيت ناپليون وتحدثت إليه كما قالوا لنا؟

فراح پيار يضحك:

ـ ولا مرة واحدة، أبداً يبدو للناس جميعاً أن الوقوع في الأسر معناه المكوث في ضيافة ناپليون. إنني لم أره فحسب بل كذلك لم أسمع أحداً يتحدث عنه. لقد كنت في صحبة أسوأ مما تظنين.

كادوا ينتهون من الطعام ووجد پيار نفسه منساقاً إلى التحدث عن أسره وهو الذي تجنَّب بادئ الأمر الخوض في هذا الموضوع.

www.Maktbah.com

سألته ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة خفيفة: هل صحيح أنك مكثت في موسكو لتقتل ناپليون؟ لقد خمنت ذلك عندما التقينا قرب برج سوخارييف، هل تذكر؟

اعترف پيار بأن ذلك صحيح. واستسلم أخيراً، تدفعه تدريجاً أسئلة الأميرة ماري وخصوصاً أسئلة ناتاشا، إلى رواية مغامراته بالتفصيل.

تحدث أولاً بتلك المسحة الساخرة التي أصبحت الآن ترافق أحكامه على الآخرين وعلى نفسه بصورة خاصة لكنه عندما بلغ في حديثه إلى الأهوال والآلام التي شهدها، احتدّ دون أن يشعر بذلك وراح يعبر عن مشاعره بالانفعال الكامن الذي يعتلج في نفس إنسان عاش فترات أليمة مؤثرة.

كانت الأميرة ماري تنظر تارة إلى پيار وأخرى إلى ناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة أنيسة. كانت ترى في كل ما تسمعه، پيار وطيبته فحسب. أما ناتاشا، فكانت متكئة بمرفقيها على الطاولة تتبدل أمارات وجهها باستمرار، تتابع ما يقوله پيار دون أن تغادره بعينيها لحظة واحدة، وكأنها تحيا معه في كل ما يرويه. ولم تكن نظرتها وحدها تبرهن لپيار على أنها تفهم كل ما يريد التنويه به، بل كذلك هتافات الدهشة التي كانت تطلقها والأسئلة المختصرة التي كانت تطرحها عليه. وكان يستنتج أنها لم تستوعب القصة التي يرويها فحسب، بل كذلك ما لم تكن الكلمات قادرة على التعبير عنه. وفيما يلي الأسلوب الذي روى فيه پيار قصة المرأة والطفل اللذين أنقذهما واللذين كانا سبب توقيفه: «كان مشهداً مريعاً، أطفال مهجَّرون، وبعضهم في أحضان اللهب... ولقد أخرجوا واحداً أمامي من النار... نساء كانوا يسلبونهن ما معهن وينتزعون الأقراط من آذانهن»... واحمرَّ وجه پيار فجأة وتمتم:

ـ وحينئذ ظهرت دورية من العسس فاقتادت كل الرجال، كل الذين لم يسلبوا، وأنا بينهم.

twitter @baghdad_library

قالت ناتاشا: إنك لا تذكر كل شيء. لا بدَّ وأنك قمت بشيء ماء؟

ثم أردفت بعد توقف: شيئاً ما جميلاً.

تابع پيار حديثه، ولما وصل إلى مرحلة إعدام مشعلي النار، أراد أن يكتم تفاصيل مريعة جداً لكن ناتاشا أرغمته على عدم إسقاط شيء.

وكان پيار الذي نهض عن الطاولة وبدأ يذرع الغرفة وعينا ناتاشا شاخصتان إليه يريد أن يتحدث عن كاراتاييف. لكنه توقف.

ـ كلا، لا يمكنكما أن تفهما كل ما علمنيه ذلك الأمي، البسيط الفكر.

فقالت ناتاشا: ولكن بلى، ولكن بلى. استمر. ماذا حدث له؟

ـ لقد قتلوه تحت نظري تقريباً.

وروى پيار أيام تقهقرهم الأخيرة مع الجيش الفرنسي ومرض كاراتاييف وموته وصوته دائم التهدج.

كان يروي مغامراته وكأنه لم يستعرضها قط في ذاكرته من قبل. لقد اتخذ كل ما قاساه معنى جديداً الآن في نظره. وبينما هو يتحدث إلى ناتاشا، كان يتذوق تلك المتعة النادرة التي تسبغها على الرجال، النساء اللاتي يصغين إليهم، ليس النساء الحاذقات اللاتي يبذلن جهدهن وهن يصغين إلى استيعاب ما يُقال لهن لإغناء فكرتهن، ولكي يعدن الرواية عند حلول المناسبة مرتبة وفق هواهن، ويروجنها بوصفها إنتاجاً أعد في مطبخهن الفكري الصغير بل إن المتعة التي كان يشعر بها، كانت تلك التي تسبغها النساء الحقيقيات، أولئك اللاتي يعرفن كيف ينتقين أفضل ما يُقال لهن ولا يشبهنه إلا بالأفضل.

كانت ناتاشا دون أن تدري كلها آذان صاغية. لم تكن تضيع كلمة ولا نبرة صوتية ولا نظرة ولا حركة من حركات پيار ولا ارتعاشة عضلة من عضلات وجهه. كانت تلتقط الكلمة قبل أن يكاد يفوه بها وتنقلها مباشرة إلى قلبها وهو

www.Maktbah.com

على أتم استعداد لتلقيها. ولقد خمنت المعنى المستتر لكل ما يعتلج في نفس پيار.

وكانت الأميرة ماري تفهم القصة وتساهم فيها لكنها كانت ترى في الوقت نفسه شيئاً آخر امتلك كل انتباهها. كانت ترى إمكانية قيام حب وسعادة بين ناتاشا وپيار. ولقد ملأتها هذه الفكرة التي واتتها للمرة الأولى، بالفرح.

بلغت الساعة الثالثة صباحاً وجاء الخدم بوجوههم الصارمة يبدلون الشموع ولكن لم يلق إليهم أحد بالاً.

أنهى پيار حديثه واستمرت ناتاشا تتأمله شاخصة الأنظار وعيناها تلتمعان بحيوية وكأنها ترغب في أن تعرف ما تبقى له أن يقول مما يمكن أن يكون قد أخفاه. وراح هو، يختلس النظر إليها مضطرباً سعيداً، ويتساءل عن الموضوع الذي يجب أن يثيره لإذكاء الحديث، بينما كانت الأميرة ماري صامتة ولم يكن أحد من الثلاثة يشعر بأن الساعة بلغت الثالثة وأن وقت النوم قد حان.

صاح پيار:

إنهم يتحدثون عن الشقاء والألم. لكنهم لو قالوا لي الآن في هذه اللحظة هل تفضل أن تعود إلى ما كنت عليه قبل الأسر أم أن تعيش مجدداً كل هذه المغامرة من بدايتها؟ لأجبتهم: بحق الله، أعيدوا إليّ الأسر ولحم الحصان. إن المرء يعتقد بأنه ضائع منذ أن يلقى خارج الطريق المألوف، في حين أن هنا يبدأ شيء جديد، طيب أن السعادة موجودة ما وجدت الحياة ولدينا أمامنا سعادة، كثيراً من السعادة.

وأضاف مخاطباً ناتاشا: إنني أوجه هذا القول إليك بصورة خاصة.

فأجابت وأفكارها نائية:

ـ نعم، نعم، أما أنا، فإنني لا أرغب في أكثر من أن أعيش الحياة التي عشتها من قبل.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

تأملها پيار بانتباه فقالت مؤيدة: نعم ولا شيء أكثر!

صاح پيار:

ـ هذا خطأ، كل الخطأ! إنني لست مسؤولاً أن أعيش وأن.أرغب في العيش ولا أنت كذلك.

وفجأة أسقطت ناتاشا رأسها بين يديها وانخرطت في البكاء. سألت الأميرة ماري ناتاشا، ما بك؟

ـ لا شيء، لا شيء، وابتسمت لپيار خلال دموعها، إلى اللقاء، لقد حان وقت النوم.

فنهض پيار واستأذن منصرفاً.

تقابلت الأميرة ماري وناتاشا كعادتها في غرفة نومها وتحدثتا عما رواه پيار. لكن الأميرة ماري لم تقل رأيها في پيار وكذلك ناتاشا، فإنها لم تتحدث عنه.

قالت ناتاشا:

ـ هيا، عمي مساء يا ماري إنني غالباً ما أخاف كما تعلمين من كثرة عدم تحدثنا عنه، عن الأمير أندريه، وكأننا نخشى أن ندنس عاطفتنا فننساه.

تنهَّدت الأميرة ماري تنهدة عميقة وكان معنى تلك التنهدة أنها تجد أن ناتاشا قد صدقت القول لكنها مع ذلك لم تعرب لها عن تأييدها. قالت:

ـ وهل يمكن النسيان؟

فأجابت ناتاشا:

ـ لقد أفادني جداً أن تحدثنا على هذا النحو اليوم. كان ذلك أليماً صعباً، لكنه أفادني. إنني واثقة بأنه كان يحبه حقاً ولهذا السبب قصصت عليه...

وفجأة سألت وقد احمرَّ وجهها:

ـ هل كنت مخطئة؟

www.Maktbah.com

فصاحت الأميرة ماري:

ـ بتحدثك إلى پيار؟ أوه! كلا! إنه شديد الطيبة.

استأنفت ناتاشا فجأة وعلى شفتيها الابتسامة اللطيفة التي لم تعد الأميرة ماري تراها على وجهها منذ مدة طويلة:

ـ هل تعلمين أنه أصبح شديد النظافة شديد الوضوح منتعشاً جداً وكأنه خارج تواً من الحمام، هل تفهمينني؟ حمام معنوي أليس صحيحاً؟

فردت الأميرة ماري: نعم، لقد كسب كسباً كبيراً.

ـ ومعطفه الرسمي القصير، وشعره المعنى به، تماماً مثل الخارج من الحمام... مثل أبي سابقاً..

قالت الأميرة ماري: أفهم «أنه»، الأمير أندريه، لم يحب قط إنساناً بقدر ما أحبه.

ـ نعم. مع أنه ليس بينهما شيء مشترك، يزعمون أن الصدقات بين الرجال تقوم بين أفراد مختلفين ويجب الاعتقاد بصحة ذلك إذ هل يشبهه في شيء حقاً؟

ـ على أية حال، إنه فتى رائع!

ردت ناتاشا: هيا، عمي مساء.

وظلت الابتسامة اللطيفة على وجهها فترة طويلة وكأنها نسيت عليه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل التاسع عشر

لم يستطع پيار النوم في ذلك اليوم فمكث طويلاً يذرع غرفته طولاً وعرضاً، ويقطب حاجبيه تارة وهو مستغرق في أفكاره ويهز كتفيه تارة أخرى وكأن الرعشة تسري في كل جسمه وتارة يبتسم باغتباط.

كان يفكر في الأمير أندريه وناتاشا وفي عشقهما فيشعر تارة بالغيرة من ناتاشا وماضيها ويأخذ على نفسه غيرته تلك تارة أخرى ويعتذر عن نفسه تارة ثالثة وكانت الساعة السادسة صباحاً وهو لا يزال في نزهته عبر غرفته.

حدث نفسه وهو يخلع ثيابه بعجلة ويتمدد على سريره متأثراً ولكن دون أن يشعر بشك ولا بتردد:

ـ ولكن ما العمل في ذلك طالما لا يمكن معالجته في شيء؟ ما العمل في ذلك. لا شك أن الأمور يجب أن تكون على هذا النحو.

وحدث نفسه: «مهما بلغت غرابة هذه السعادة واستحالتها يجب عليّ أن أفعل كل شيء لنصبح زوجاً وزوجة».

لقد حدد قبل أيام سفره إلى پيترسبورغ. فلما استيقظ وكان يوم خميس، جاء ساڤيليتش يسأله أوامره بصدد استعدادات السفر.

تساءل پيار رغماً عنه: «لماذا السفر إلى پيترسبورغ؟ ولماذا أذهب، وما عملي هناك؟ ماذا يوجد هناك؟» ثم تذكر: «آه! نعم، كنت مزمعاً الذهاب إلى هناك قبل أن يحدث ذلك. لم لا؟ سأذهب فيما بعد». وفكر وهو ينظر إلى

www.Maktbah.com

ساڤيليتش العجوز: «يا له من رجل باسل، ويا لحسن عنايته، إنه يفكر في كل شيء! ثم يا لابتسامته اللطيفة».

سأل پيار:

ـ إذن ما زلت يا ساڤيليتش لا ترغب في أن تصبح حراً؟

ـ ماذا أفعل بالحرية يا صاحب السعادة؟ لقد عشنا أفضل حياة تحت أوامر المرحوم سيدي الكونت ـ ليتغمد الله روحه! ـ وتحت أوامرك أيضاً دون أن يكون لنا ما نشكو منه.

ـ ولكن أطفالك؟

ـ إن الأطفال سيعملون مثلنا يا صاحب السعادة. يستطيعون أن يعيشوا مع أسياد مثلك.

سأل پيار: وورثتي؟

وأضاف وعلى شفتيه ابتسامة لا إرادية:

ـ قد أتزوج ذات يوم... وهذا ممكن الوقوع.

ـ وإنني أسمح لنفسي أن أقول يا صاحب السعادة إن ذلك سيكون جيداً جداً.

ففكر پيار: «ها إنه يعتقد ذلك بسيطاً جداً. إنه لا يدرك مبلغ ما هو مريع وخطير. وهو واقع إن آجلاً أو عاجلاً... إنه شيء مريع!».

سأل ساڤيليتش:

ـ ما هي أوامر سيدي؟ ألا يسافر سيدي غداً؟

فأجاب پيار: كلا لقد أرجأت السفر قليلاً إلى ما بعد. وسوف أخطرك. أعذرني إذ سببت لك كل هذه المصاعب.

ولما رأى ساڤيليتش يبتسم فكر: «كم هذا يثير الفضول، إنه لا يشك أبداً في أن المسألة لم تعد مسألة سفر إلى پيترسبورغ وأنه قبل ذلك يجب الفراغ

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

من أمر ما. على أية حال، إنه يرتاب وإن كان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً». ثم تساءَل: «هل يجب أن أحدثه بالموضوع؟ أن أسأله رأيه فيه؟ كلا، سيكون ذلك مرة أخرى».

حدث پيار ابنة عمه خلال الطعام بأنه كان بالأمس عند الأميرة ماري وأنه شاهد هناك «هل تستطيعين أن تتصوري من؟ ناتاشا روستوف».

تظاهرت بأنها لا تجد ذلك خارقاً أكثر مما لو قال لها پيار أنه شاهد هناك مثلاً ذات أنّا سيميونوڤنا.

سأل پيار: هل تعرفينها؟

فأجابت:

ـ لقد رأيت الأميرة وسمعت بأنها مخطوبة إلى روستوف الشاب سيكون ذلك ذا نفع كبير لآل روستوف. إنهم يشيعون بأنهم في دمار كامل.

ـ كلا، الآنسة روستوف، هل تعرفينها؟

ـ لقد سمعتهم يروون قصتها. وإنها لقصة محزنة.

حدث پيار نفسه: «إنها بالتأكيد لا تعرف شيئاً أم لعلها تتظاهر بأنها لا تعرف شيئاً، يجدر بي ألّا أحدثها هي الأخرى بشيء».

ولقد أعدت ابنة العم هي الأخرى بعض الزاد لسفر پيار. فكر هذا:

«كم هم طيبون. إنهم يفكرون في كل هذا في حين أن لا فائدة لهم منه. وكل ذلك من أجلي، كم يدهشني ذلك».

وفي ذلك اليوم بالذات، جاء رئيس الشرطة يعلم پيار بوجوب إرسال رجل أهل للثقة إلى قصر ڤاسيت، في الكرملين، ليشرف على توزيع الأمتعة التي ستمنح لأصحاب الأملاك.

فكر پيار وهو يتأمل وجه رئيس الشرطة: «وهذا أيضاً. يا له من رجل باسل، يا له من ضابط رائع ويا له من إنسان طيب! الاهتمام «الآن» بمثل هذه

www.Maktbah.com

التفاهات! في حين أنهم يزعمون بأنه غير شريف وأنه يقبل الرشى. كم هذه غباوة! ثم لماذا لا يتقبل المال؟ لقد عودوه ذلك. إنهم جميعاً يعلمون هذا العمل ولكن يا له من وجه أنيس ويا لها من ابتسامة حلوة عندما ينظر إليّ!».

ذهب پيار يتناول الغداء لدى الأميرة ماري.

وبينما هو يجتاز الشوارع بين أنقاض البيوت، أدهشه جمال تلك الدور المتهدمة. كانت هناك أنابيب مدافىء وأجزاء من جدران خربة تذكره بقوة بضياع الرين والكوليزيه[1]، تمتد مختبئة بعضها وراء بعض في الأحياء المحترقة. وكل الأشخاص الذين كان يقابلهم، سائقو العربات، النجارون وهم ينظمون الألواح، الباعة، البقالون، كلهم كانوا ينظرون إليه بغبطة وكأن جوههم المشرقة تقول: «آه! هذا هو! لنر ماذا سينتج من كل ذلك!».

ولما دخل إلى منزل الأميرة، تساءل پيار عم إذا كان حقاً قد جاء إلى هنا أمس وإذا كان حقاً رأى ناتاشا وتحدث معها. «لعلني حلمت بذلك. لعلني سأدخل فلا أجد أحداً». لكنه ما كاد يجتاز عتبة القاعة حتى أشعره اختفاء حريته الكامل بوجود ناتاشا شعوراً أحس به بكل كيانه. كانت ترتدي ذلك الثوب الأسود إياه ذا الثنيات الرخوة وتسريحة الشعر تلك التي بدت فيها مساء أمس. ومع ذلك، فقد كانت مختلفة تماماً ولو أن شكلها هذا كان هو شكلها بالأمس عندما دخل، لما كان يمكن ألّا يعرفها للوهلة الأولى.

كانت مثلما عرفها عندما كانت طفلة تقريباً ثم مخطوبة الأمير أندريه. وكانت ومضة فرح تشع في عينيها المستفسرتين ووجهها يحمل تعبيراً حانياً وكيساً كياسة غريبة في آن.

وكان پيار بعد الغداء يود لو مكث طوال السهرة هناك لكن الأميرة ماري

---

(١) مسرح في روما انتهى بناؤه عام ٨٠ق.م. يضم ثمانين صفاً لثمانين ألف متفرج. (المترجم).

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

كانت تريد حضور قداس المساء، فاضطر پيار إلى الانصراف عندما انصرفت الصديقتان.

وفي اليوم التالي عاد مبكراً فتناول الطعام وأمضى السهرة كلها. ولكن على الرغم من اللذة الواضحة التي أظهرتها كل من الأميرة ماري وناتاشا لرؤيته، وعلى الرغم من أن كل ما في حياته من غرض قد تركز الآن في ذلك المنزل فإن الحديث بقي كثير التقطع، ينتقل من موضوع تافه إلى آخر مثله وينقطع غالب الأحيان. ولقد تأخر پيار كثيراً حتى أن الأميرة ماري وناتاشا تبادلتا النظرات. وتساءلتا عم إذا كان سينصرف بعد حين. وكان يرى ذلك لكنه لا يستطيع الذهاب. لقد شعر كثيراً بالانزعاج والارتباك لكنه بقي مع ذلك جالساً لأنه «لم يكن يستطيع» النهوض والانصراف.

ولما لم تجد الأميرة ماري نهاية للموقف، نهضت واقفة متذرعة بصداع واستأذنته منصرفة.

قالت: إذن. سيكون غداً موعد سفرك إلى پيترسبورغ؟

فأجاب پيار بدهشة وكأن السؤال يهينه ويأخذه على حين غرة:

ـ كلا لست مسافراً. نعم... كلا... إلى پيترسبورغ؟ غداً.

وأضاف وهو واقف أمام الأميرة ماري محمرّ الوجه ولكن دون أن يبدي رغبته في الذهاب:

ـ لكنني لا أقول لكما وداعاً. سأحضر لأسألكما ما تريدان أن أقوم به لكما من خدمات.

مدت ناتاشا له يدها وانصرفت وبدلاً من أن تنحو الأميرة ماري نحوها، عادت إلى كنبتها تغرق فيها وتشمل پيار بنظرة عميقة خطيرة ويقظة. ولقد اختفى التعب الذي تظاهرت به منذ حين. أطلقت تنهدة عميقة وكأنها تتأهب لحديث طويل.

www.Maktbah.com

ولقد تبدد فجأة كل تشوش پيار وارتباكه بذهاب ناتاشا وحلّت محلهما حيوية متأججة. أسرع يقرب مقعده من كنبة الأميرة ماري وشرع يقول جواباً عن نظرتها وكأنها سؤال:

ـ نعم، كنت أريد أن أقول لك يا أميرة، ساعديني: ماذا يجب أن أفعل؟ هل يمكنني أن أطمح؟ أيتها الأميرة، يا صديقتي العزيزة، اصغي إلي. إنني أعرف كل شيء. أعرف أنني لا أستحقها وأعرف أنه لا يمكن التطرق إلى هذا الموضوع في الوقت الحاضر. لكنني أريد أن أكون أخاً لها. كلا. ليس هذا، لست أريد، لا أستطيع...

توقف ومر بيده على عينيه ووجهه واستأنف: حسناً، إليك الموضوع.

وبذل مجهوداً ظاهراً على نفسه كي يتحدث باطراد متماسك:

ـ لست أدري منذ متى أحبها. لكنها هي، هي وحدها، التي أحببتها طوال حياتي والتي أحبها لدرجة يتعذر معي أن أتصور الحياة بدونها، إنني لا أسعى إلى طلب يدها فوراً، لكن التفكير في أنها يمكن أن تكون لي وأنني قد أفوت على نفسي هذه الفرصة... هذه الإمكانية...! منها مخيفة قولي لي هل لي أن آمل؟ قولي لي، ماذا يجب أن أعمل؟ يا أميرتي العزيزة!

وبعد فترة صمت لمس يدها حين رأى أنها لا تجيب.

قالت الأميرة ماري: إنني أفكر في ما قلته لي وهذا ما أفكر فيه أنك على حق أن تحدثها الآن عن الحب...

وتوقفت الأميرة. أرادت أن تقول: أن تحدثها الآن عن الحب أمر مستحيل لكنها لم تستطع النطق بهذا الرأي حتى النهاية وهي التي لاحظت منذ أمس الأول تبديلاً مفاجئاً طرأ على ناتاشا ورأت أنها إلى جانب عدم اعتبار حديث پيار إليها عن الحب إهانة لها، لا ترغب إلا في ذلك الحديث.

رغم ذلك، أكملت الأميرة ماري جملتها:

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ أن تحدثها عن الحب الآن... مستحيل.

ـ إذن ماذا يجب أن أعمل؟

فقالت الأميرة ماري: دعني أتصرف. إنني أعرف...

فنظر پيار إلى عينيها وقال:

ـ قولي، قولي...

صححت جملتها:

ـ إنني أعرف أنها تحبك... وأنها ستحبك.

ولم تكد تنطق بهذه الكلمة حتى انتفض پيار وأمسك بيدها وعلى وجهه أمارات الهلع.

ـ لماذا تظنين ذلك؟ هل تظنين أن بوسعي التمسك بالأمل؟ هل تظنين؟

فأكدت الأميرة ماري مبتسمة:

نعم أظن ذلك، اكتب إلى ذويها واعتمد علي. سوف أحدثها عندما يحين الوقت. إنني أرغب في ذلك. وقلبي يحدثني بأن ذلك سيتم.

ـ كلا، كلا، هذا لا يمكن أن يكون! كم أنا سعيد!

وأخذ پيار يردد: لا، هذا غير ممكن، وهو يقبل يدي الأميرة ماري. قالت له: ولكن اذهب إلى پيترسبورغ، ذلك أفضل وسوف أكتب لك.

ـ إلى پيترسبورغ؟ السفر؟ نعم، حسناً جداً، سأذهب. ولكن هل أستطيع الحضور لرؤيتك غداً؟

وفي اليوم التالي جاء پيار يودعها. كانت ناتاشا أقل حيوية من الأيام السابقة لكنه ذلك اليوم، عندما كان ينظر إلى عينيها، كان پيار يشعر بأنه يختفي وبأنه ليس هناك پيار ولا ناتاشا، بل الشعور بالسعادة وحده. كان يكرر تساؤله لنفسه: «هل هذا ممكن؟ كلا، ذلك لا يمكن أن يكون!» ويردد ذلك بعد كل

www.Maktbah.com

نظرة وكل حركة وبعد كل كلمة من كلمات ناتاشا وكلها أشياء تطفح بها روحه من الغبطة.

وفي لحظة الفراق، أخذ يدها الدقيقة الهزيلة واستبقاها في يده فترة ما بالرغم منه.

«هل يمكن أن تكون هذه اليد وهذا الوجه وهاتان العينان، كل هذا الكنز من الجمال النسائي الغريب عني، هل يمكن أن يصبح كل هذا ملكي إلى الأبد، أن يصبح لي مثل نفسي؟ كلا هذا لا يمكن أن يكون!...».

قالت له بصوت مرتفع: إلى اللقاء يا كونت.

ثم أضافت بصوت خفيض: سوف أنتظرك بفارغ الصبر.

ولقد كانت هذه الكلمات البسيطة والنظرة والتعبير اللذان رافقاها، منبع ذكريات لا ينضب بالنسبة إلى پيار طوال شهرين ومبعث افتراضات وأحلام سعيدة. «سوف أنتظرك بفارغ الصبر...» نعم، نعم، كيف قالت ذلك؟ نعم «سأنتظرك بفارغ الصبر». آه كم أنا سعيد!، كيف يمكن أن يكون ذلك؟ كم أنا سعيد!.

ولم يفتأ پيار يردد ذلك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العشرون

في تلك الفترة، لم يكن في نفس پيار شيء مماثل لما كان يشعر به في مناسبات متشابهة، أثناء فترة خطبته لهيلين.

لم يكن يكرر على نفسه كذلك العهد الكلمات التي قالها، بخجل مرضي ولا يحدث نفسه قائلاً: «آه! لِمَ لَمْ أقل هذا، لماذا، لماذا قلت: أحبك؟» أما الآن فعلى العكس، كان يكرر في ذاكرته كل كلمة من كلماتها، وكل كلمة من كلماته. وهو يرى بعين الخيال الأمارات نفسها والابتسامة نفسها دون أن يرغب في إبدال شيء وإضافة شيء مهما كانت أهميته. كان كل ما يرغب فيه هو ترديد تلك الأقوال أيضاً. وأيضاً لم يتساءل لحظة واحدة عم إذا كان ما يبدأ به سيئاً أم جيداً مع ذلك، فإن نوعاً من الرهبة كان يتسلط عليه أحياناً: ولكن، أليس كل هذا أضغاث أحلام ألم تخطئ الأميرة ماري؟ ألست مفرط الثقة بها؟ إنني مطمئن. وفجأة يقع ما يجب أن يقع سوف تكلمها الأميرة ماري وعندئذ سوف تبتسم وتجيب: كم هذا غريب! إنه مخدوع بلا شك ألا يعرف بأنه مجرد رجل، لا أكثر من رجل، في حين أني أنا... شيء آخر مختلف تماماً، إنني مخلوق متفوق.

كانت تلك الخشية وحدها تعذب پيار. لم يكن يضع أي مشروع للمستقبل إذ إن السعادة التي تنتظره كانت تبدو بعيدة التصديق لدرجة كان يكفيه أن يراها تتحقق. وبعد ذلك، لا يمكن لأي شيء أن يكون موجوداً. سوف يتحقق كل شيء.

www.Maktbah.com

استحوذ على پيار خبل مفاجئ كان يعتقد أنه عاجز عن مثله. كان كل معنى الحياة، ليس بالنسبة إليه فقط بل بالنسبة إلى العالم أجمع، يتلخص في حبه وفي إمكان أن يكون محبوباً منها. كان يخيل إليه أحياناً أن الناس كلهم منشغلون بشيء واحد، بسعادته المقبلة، ويخيل إليه أنهم جميعاً مبتهجون بقدار ما هو مبتهج، لكنهم يتظاهرون بإخفاء ذلك الفرح متظاهرين بأنهم منصرفون إلى مصالحهم الأخرى. كان يرى في كل كلمة وفي كل حركة تلميحاً إلى سعادته.

وكان غالباً ما يفاجئ الذين يقابلونه بنظراته وابتساماته المعبرة طافحة بمشاركة سرية ومشعة بالسعادة لكنه عندما كان يلاحظ أن الأشخاص يمكن أن يكونوا جاهلين بسعادته، كان يرثي لهم من كل نفسه ويشعر بالرغبة في إفهامهم بأن كل ما يشغلهم ليس إلا تفاهة لا يستأهل عناء الالتفات إليه.

وعندما كانوا ينصحونه بالاضطلاع بأعباء خدمة ما أو يصدرون في حضرته الحكم على مسألة ذات طابع عام تتعلق بالدولة أو بالحرب، ويزعمون أن هذا الحل أو ذاك هو الذي تتوقف عليه سعادة الجميع، كان يصغي إلى المحاضر وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة مشفقة ويدهش الذين يتحدثون معه بغرابة ملاحظاته. لكن كل الذين كانوا يبدون له أنهم فاهمون معنى الحياة الحقيقي أي شعوره هو، مثل التعساء الذين بدون شك لم يكونوا يفهمون. كل هؤلاء كانوا يبدون له في مثل الحقبة من حياته تحت الضوء الساطع المنبعث من الشعور الذي يضيء روحه، لذلك فإنه كان يرى دون أي عناء في أول من يقع نظره عليه، كل ما هو جيد وجدير بالحب.

تفحص أوراق زوجته المتوفاة فلم يشعر لذكراها بأية عاطفة. كان يرثي لها فقط لأنها لم تتعرف إلى السعادة التي بات يتذوقها الآن. وبدا الأمير

twitter @baghdad_library

ڤاسيلي شديد الفخار بوسامه الجديد وبالمركز الجديد الذي حصل عليه، بدا لعيني پيار عجوزاً يثير الشفقة والرثاء، طيباً.

تذكر پيار غالباً فيما بعد، هذه الفترة من الجنون السعيد. لقد استمرت الأحكام كلها التي أصدرها حينذاك على الناس والأشخاص عادلة في نظره لا يتطرق إليها الشك. ولم يكتفِ بعدم التنكر فيما بعد لأية وجهة نظر ارتآها حينذاك، بل كان على العكس، يسرع دائماً إلى الفكرة التي تبناها خلال فترة جنونه كلما تطرق إلى نفسه الشك العميق أو التردد. وكانت تلك الفكرة تبدو دائماً صحيحة.

كان يفكر: «لعلني بدوت حينذاك غريباً ومثيراً للضحك، لكنني لم أكن حينذاك مجنوناً بقدر ما يظنون. لقد كنت على العكس، أكثر إحساساً ونفاذ بصيرة مما لم أكنه قط. وكنت أفهم كل ما يجب أن يفهم في الحياة لأنني كنت سعيداً».

وكان پيار يقوم على أساس أنه لم يعد كسابق عهده ينتظر أن تكون لديه أسباب شخصية ليحب الناس على أساسها، كان يدعوها ميزان أولئك الناس، بل إن الحب كان يطفح من قلبه فكان يحب الناس دون سبب ويجد أسباباً لا تقبل الجدال تدفعه إلى محبتهم.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

منذ أن قالت ناتاشا بعذ ذهاب پيار، في ذلك المساء، للأميرة ماري بابتسامتها المرحة إنه كان «تماماً، حقاً تماماً كأنه خارج من الحمام، بسترته الرسمية القصيرة وشعره المعنى به»، منذ تلك اللحظة ، استيقظ في أعماق ناتاشا شيء سرّي مجهول منها ولكن لا يمكن مقاومته. ولقد تبدل وجهها واختلفت أماراتها ونظرتها. انبعثت في نفسها قوة حيوية كانت تشتبه في وجودها وآمال في السعادة وأخذت تطالب بنصيبها. ومنذ الليلة الأولى، بدت ناتاشا وكأنها نسيت كل ما اجتازته منذ حين. لم تعد تشكو مرة واحدة في الأيام التالية من وضعها ولا تنوه ولو مرة واحدة بماضيها ولا تخشى أن تبيت المشاريع البهيجة للمستقبل. كانت قليلة الكلام عن پيار. ولكن عندما كانت الأميرة ماري تشير إليه، كانت نار خمدت في نفسها منذ أمد طويل تعود إلى الاتّقاد في عينيها وتنفرج شفتاها عن ابتسامة غريبة.

ولقد أدهش التبدل الذي طرأ على ناتاشا الأميرة ماري بادئ الأمر. ولما عرفت السبب، شعرت بالكآبة. فكرت الأميرة ماري عندما بقيت وحدها تمعن النظر في ذلك التحول: «أتراها كانت تحب أخي محبة سطحية حتى يتيسر لها الآن أن تنساه بمثل هذه السهولة؟» لكنها عندما كانت تجتمع بناتاشا، لم تكن تحقد عليها ولا توجه إليها أي لوم. كانت القوة الحيوية المستيقظة في نفس ناتاشا مستولية عليها بشكل لا يقبل المقاومة حقاً، شكل لم يكن متوقعاً من

twitter @baghdad_library

جانبها نفسها، حتى أن الأميرة ماري بدأت تشعر في حضرتها بأنها لا تملك حق اتهامها حتى ولا سراً في أعماق نفسها.

أما ناتاشا، فكانت مستسلمة لامتلاء كلي وإخلاص لشعورها الجديد حتى أنها لم تكن تحاول إخفاء حلول المرح والابتهاج محل الكآبة والحزن.

وعندما ذهبت الأميرة ماري إلى غرفتها بعد تفاهمها مع پيار، جاءت ناتاشا تستقبلها على العتبة.

سألتها بإلحاح: هل تعلم؟ نعم؟ هل تعلم؟

وارتسم على وجه ناتاشا تعبير مرح وأليم في الوقت نفسه يسأل الصفح عن فرحها.

ـ كنت أريد أن أصغي وراء الباب. لكنني كنت أعرف أنك ستحدثينني بكل شيء.

ومهما بلغت النظرة التي شملت بها ناتاشا الأميرة ماري عن امتناع عن الإدراك عند هذه وإثارة للعطف، ومهما بلغ إشفاقها عليها لانفعالها وقلقها، فإن أقوال ناتاشا آلمتها بادئ الأمر. تذكرت أخاها وحبَّه.

فكرت: «ولكن ماذا أفعل؟ لا يمكنها أن تكون غير ما هي عليه».

وكررت على ناتاشا بلهجة حزينة فيها بعض الصرامة، كل ما قاله پيار منذ حين. ولقد دهشت ناتاشا عندما عرفت بأنه سيسافر إلى پيترسبورغ. رددت وكأنها لا تفهم المعنى:

ـ إلى پيترسبورغ!

لكنها عندما لمحت تعبير الحزن الذي انطبع على وجه الأميرة ماري، خمنت السبب وفجأة انخرطت في البكاء.

قالت:

www.Maktbah.com

ـ ماري، قولي لي ماذا يجب أن أعمل: إنني أخشى أن أكون رديئة سوف أعمل ما تشيرين عليّ به، أعلميني...

ـ هل تحبينه؟

فهمست ناتاشا: نعم.

قالت الأميرة ماري التي غفرت لناتاشا ابتهاجها بالنظر إلى دموعها:

ـ وإذن لماذا تبكين؟ إنني سعيدة من أجلك.

ـ لن يكون الأمر فورياً، بل، فيما بعد... فكري في السعادة التي ستغمرنا عندما أصبح أنا زوجته وتصبحين أنت زوجة نيكولا.

ـ ناتاشا، لقد سألتك من قبل ألّا تتحدثي عن هذا الأمر. إن المسألة تتعلق بك الآن.

وصمتتا كلتاهما.

وفجأة استأنفت ناتاشا: ولكن، لماذا يسافر إلى پيترسبورغ؟

لكنها سارعت تجيب نفسها عن سؤالها قائلة:

ـ كلا، كلا، يجب ذلك. أليس كذلك يا ماري؟ يجب أن يسافر...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الخاتمة

القسم الأول

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

إن القوى الخفية التي تحرك الإنسانية لأننا نجهل قوانين حركتها بقيت على حركتها بعد سبع سنوات إذ رجع محيط التاريخ الصاخب إلى شواطئه فبدا هادئاً.

وعلى الرغم من أن كل شيء بدا ساكناً على سطح هذا المحيط من التاريخ، فإن الإنسانية استمرت مثابرة على حركتها الدائمة كسابق عهدها، فاتخذت جمهرات بشرية كثيرة أو انفرط عقدها وأنضجت أسباباً جديدة لتشكيل حكومات وتجزئتها وأعدت هجرات شعوب.

لم يعد محيط التاريخ يندفع كسابق عهده فجأة من شاطئ إلى آخر: لقد بدأ يغلي في الأعماق. ولم تعد الشخصيات التاريخية تجرف بالأمواج من شاطئ إلى آخر بل بدت الآن تدور في مكانها. فالشخصيات التاريخية التي كانت من قبل على رأس القطعات تعبر عن حركة الجماهير بأوامر حربية وحملات ومعارك، أصبحت تبعث الآن عن التعبير عن تلك الحركة بترتيبات سياسية ودبلوماسية وقوانين ومعاهدات.

ويطلق المؤرخون على هذا النشاط من جانب الشخصيات التاريخية اسم رد الفعل.

والمؤرخون بوصفهم نشاط الشخصيات التاريخية الذي هو سبب ما يسمونه (ردّ فعل) حسب زعمهم، إنما يحكمون على تلك الشخصيات. وكل الأشخاص المعروفين في ذلك العصر من ألكسندر وناپليون ومدام دوشتال

twitter @baghdad_library

وفوسيوس[١] وشيلنغ[٢] وفيخته[٣] وشاتوبريان[٤]، وآخرين، كانوا يمثلون أمام محكمتهم الصارمة، فيبرأون أو يحكم عليهم تبعاً لمساهمتهم في التطور أو في رد الفعل.

وتبعاً للمؤرخين، كان هناك رد فعل يتبدى في روسيا نفسها في ذلك العهد وكان المسؤول الأول عن ذلك ألكسندر الأول نفسه الذي كان دائماً، تبعاً لهم، المحرض الرئيسي للمبادرات المتحررة المتعلقة ببداية حكمه وبخلاص روسيا. واليوم، في الأدب الروسي، ابتداء من الطالب العادي وحتى أوسع المؤرخين علماً، ليس هناك رجل لا يلقي اللوم على ألكسندر الأول بسبب الأخطاء التي ارتكبت في تلك الفترة من عهده.

«كان عليه أن يتصرف على هذا النحو أو ذاك. في هذه المناسبة أحسن التصرف وفي تلك أساء. لقد تصرف تصرفاً رائعاً في بدء عهده وفي عام ١٨١٢ لكنه أساء إذ منح بولونيا دستوراً وأقام الحلف المقدس وأعطى أراكتشييف ملء السلطان وأيد جوليتسين ومذهب التصوف ثم بتشجيعه شيشكوف وفوسيوس. لقد أساء صنعاً إذ اهتم بالتدريبات العسكرية وحل فيلق سيميونوفسكي» إلخ...

ويقتضي لتعداد المظالم التي أحاطه المؤرخون بها باسم علم سعادة البشرية هذا الذين يزعمون امتلاك ناصيته، صفحات وصفحات.

ما معنى تلك المظالم؟

ألم تنجم التصرفات التي يؤيد المؤرخون ألكسندر الأول فيها وأعني

---

(١) بطريرك القسطنطينية أثار انفصال الروم الأكبر عن الكنيسة الرومانية.

(٢) شيلنغ فيلسوف ألماني، مؤلف طريقة المثالية الباطنية.

(٣) فيخته، فيلسوف ألماني، تلميذ كانط، وأستاذ شيلنغ.

(٤) شاتوبريان، كاتب فرنسي، عاش في إنجلترا. (المترجم).

www.Maktbah.com

مذهب التحرر عند بدء حكمه ونضاله ضد ناپليون والثبات الذي أظهره طوال عام ١٨١٢ ثم حمله ١٨١٣ عن المصادر إياها التي صدرت عنها التصرفات التي يذمونها مثل الحلف المقدس وإعادة الملكية إلى بولونيا ورد فعل عام ١٨١٠؟ وهذه المصادر هي التركة، الثقافة، شروط الكينونة، التي جعلت من شخصية ألكسندر الأول على ما كانت عليه.

وعلى ماذا تقوم تلك المظالم على وجه الدقة؟

على الأساس التالي: شخصية تاريخية من وزن ألكسندر الأول. موضوعة على رأس السلطة البشرية. في المركز الباهر الذي تتركز فيه كل الاشعاعات التاريخية. شخصية خاضعة لأقوى تأثيرات العالم. تلك التأثيرات التي لا تفصل عن سلطة الحكم: دسائس، كذب، إطراء، إعماء عن الذات، شخصية يشعر صاحبها في كل لحظة بمسؤوليته عن كل ما يدور في أوروبا، شخصية غير خيالية ولكن حقيقة حية تشبه أي إنسان آخر بعاداته الخاصة وأهوائه وميوله نحو الخير والجمال والصدق، هذه الشخصية أخطأت منذ خمسين عاماً، ليس لأنها كانت محرومة من الفضيلة.

وذمُّ المؤرخين لا ينصب على هذه الناحية، بل لأنه كان صاحب رأي آخر حول سعادة الإنسانية، مختلف عن رأي أستاذ اليوم الذي انصرف إلى العلم منذ حداثته والذي يستودع في دفتر ما قراءات ومحاضرات.

ولكن إذا فرضنا جدلاً أن ألكسندر الأول قد أخطأ منذ خمسين عاماً في وجهات نظره حول سعادة الشعوب، فإننا بالتالي نستطيع أن نفرض كذلك أن المؤرخ الذي يحكم عليه سيبدو، خلال زمن ما، مخطئاً في وجهات نظره حول سعادة الإنسانية هذه بالذات. وهذا الفرض طبيعي لا مراء فيه بقدر ما إذا تتبعنا تطور التاريخ نجد أن وجهة النظر حول السعادة البشرية تختلف عاماً بعد عام ومن مؤرخ إلى آخر لدرجة أن ما بدا لأول وهلة خيراً يصبح بعد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عشرة أعوام شراً والعكس بالعكس بل إننا نجد أكثر من ذلك، آراءَه في التاريخ نشرت في آن واحد متناقضة تماماً حول مدلول الخير والشر فبعضهم يطرون ألكسندر الأول بسبب الدستور الذي منحه لبولونيا ولعقده الحلف المقدس وآخرون يعتبرون هذه التدابير جريمة.

لا يمكن القول عن نشاط ألكسندر الأول ولا عن نشاط ناپليون أنه كان ضاراً ونافعاً إذا تعذر بيان كيف كان، ذلك النشاط لا يروق هذا أو ذاك، فلأنه لا يتفق فقط والمعرفة المحدودة التي اتخذها عن طبيعة الخير وإذا كان الخير بالنسبة إلى بقاء بيت أبي في موسكو سليماً عام ١٨١٢، أو انتصار الجيوش الروسية أو ازدهار جامعة پيترسبورغ أو أي مركز علمي آخر، أو حرية بولونيا أو قوة روسيا أو ذلك النمط من الحضارة الأوروبية المعروف تحت اسم تطور فإنني بالوقت نفسه مرغم على الاعتراف بأن نشاط كل شخصية تاريخية استهدف باستثناء هذه الأهداف، غايات أخرى ذات طابع أعم يفوق حد مفاهيمي.

ولكن لنفترض أن ما يسمونه العلم حاصل على قدرة تحويل كل المتناقضات مالك لوسيلة لا تخطئ لقياس الخير والشر سواء بالنسبة إلى الشخصيات التاريخية أو إلى الأحداث.

لنفترض أن ألكسندر كان قادراً على التصرف في كل ظرف خلافاً لما فعل. لنفترض أنه كان قادراً تبعاً لإرشادات أولئك الذين يتهمونه والذين يزعمون معرفتهم بالهدف النهائي الذي تتوق الإنسانية إليه، لنفترض أنه كان قادراً على اتباع منهاج المصلحة القومية والحرية والمساواة والتطور، وليس هناك شيء أكثر جدة من هذا على ما يبدو، الذي يضعه له مشنعوه اليوم. ولنفترض أن هذا البرنامج كان ممكن التطبيق، جيد الإعداد وأن ألكسندر

www.Maktbah.com

الأول سار وفقاً له ماذا كان يحدث لنشاط الأشخاص كلهم الذين كانوا يعارضون حينذاك التوجيه المتخذ من قبل الحكومة وهو النشاط الذي، تبعاً لآراء المؤرخين، كان مفيداً وخيراً؟ لم يكن ذلك النشاط ليكون وما كانت الحياة لتكون وما كان ليحدث أي شيء.

فافتراض أن حياة البشرية يمكن أن تسير بواسطة العقل إنما هو نكران كل إمكانية للحياة.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

حسب نهج المؤرخين فإن الافتراض بأن الرجال العظام هم الذين يقودون البشرية لتحقيق الأهداف المعروفة، سواء أكانت عظمة روسيا أم عظمة فرنسا أم التوازن الأوروبي أم التطور العالمي أم أي هدف آخر، يجعل تفسير أحداث التاريخ مستحيلاً دون اللجوء إلى مدارك «الصدفة» و«العبقرية».

وإذا كانت غاية الحروب الأوروبية في غرة قرننا عظمة روسيا، فإن هذا الهدف كان قابل البلوغ دون أي من الحروب التي سبقت الغزو ودون الغزو نفسه. ولو كانت الغاية هي عظمة فرنسا، فإنها كان يمكن إدراكها بدون الثورة والملكية. ولو كان الهدف نثر بعض الأفكار، فإن المطبعة كانت قادرة على القيام به أفضل بكثير مما استطاع الجنود. ولو كانت الغاية تطور المدنية، فإن بالإمكان التقبل دون أي صعوبة بأن هناك من الوسائل الناجعة لنشر المدنية أفضل بكثير من إفناء الرجال وثرواتهم.

فلماذا إذن وقعت الأمور على هذا النحو وليس على نهج آخر؟ لأنها وقعت كذلك.

«فالصدفة» خلقت الموقف الفلاني: فاستخدمته «العبقرية» هذا ما يقوله التاريخ. ولكن ما هي الصدفة؟ ما هي العبقرية!

إن كلمتَي: صدفة وعبقرية، لا تعنيان شيئاً ما موجوداً، لذلك لا يمكن تحديدهما؟ إن هاتين الكلمتين لا تعنيان إلا درجة محدودة في مضمار فهم الظاهرات فأنا لا أعرف لماذا حدثت هذه الظاهرة أو تلك وأفكر بأنني

www.Maktbah.com

لا أستطيع دراية السبب وبالتالي لا أستطيع إدراكه فأقول: صدفة وأرى قوة تحدث أثراً فوق النسبة المتفقة مع إمكانيات الإنسان الشائعة فلا أدرك سبب هذا الحدث وأقول: عبقرية.

وبالنسبة إلى قطيع، يجب أن يكون الخروف الذي يقوده الراعي كل مساء إلى حظيرة خاصة ليعلف على حدة. والذي يصبح بالتالي ضعف حجم الآخرين، يجب أن يكون هذا الخروف عبقرياً. أما أن هذا الخروف نفسه الذي بدلاً من أن يمضي كل مساء إلى الحظيرة، يقاد إلى زريبة خاصة ليتلقى علفة خاصة وأن هذا الخروف بالذات عندما يصبح سميناً شحيماً يذبح من أجل لحمه، هذه الواقعة يجب أن تبدو على صورة مقارنة مدهشة للعبقرية ولسلسلة من الصدف الخارقة.

ولكن يكفي للخراف أن تكف عن التفكير في أن ما يقع لها ينجم عن واقع وجوب بلوغها أهدافاً مختارة لفصيلة الخراف. يكفيها أن تتقبل أن لكل ذلك غاية مجهولة منها وحينئذ سترى وحدة وتسلسلاً منطقياً في ما يقع لأحدها بعد تسمينه. وإذا لم تكن تعرف السبب الذي من أجله علف الخروف على حدة، فإنها ستعرف أقله أن كل ما حدث لم يحدث دون سبب وحينئذ لن يعود بها حاجة إلى اللجوء إلى الصدفة والعبقرية.

يكفي أن نفترض بأن غاية هياج شعوب أوروبا مجهولة منا وأننا لا نعرف إلا الوقائع القائمة على شكل مجاز في فرنسا أولاً ثم في إيطاليا وأفريقيا وبروسيا والنمسا وإسبانيا وروسيا، وأن حركة الغرب نحو الشرق والشرق نحو الغرب تشكل جوهر الأحداث وغاياتها، وحينئذ لا تعود بنا حاجة إلى رؤية شيء ما على لون من العبقرية أو الاستثناء فحسب في طبيعة ناپليون وألكسندر، بل إننا لن نعود في حاجة كذلك إلى تصور هذين الرجلين على شكل يختلف عن بقية الرجال. ولا تعود بنا حاجة إلى اللجوء إلى الصدفة لتفسير أسخف الأحداث

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

التي جعلت من هذين الرجلين، ما كانا عليه فحسب، بل نرى كذلك بوضوح أن كل تلك الحوادث التافهة كانت ضرورة لازمة.

فإذا عزفنا عن الاعتراف بالهدف النهائي، فهمنا بجلاء أنه كما لا يمكن أن نتصور لنبتة ما لوناً أو بذاراً أفضل لطبيعتها من اللون والبذار اللذين تنتجهما، كذلك يستحيل علينا أن نتصور رجلين آخرين بماضٍ كامل، يستطيعان أن يجيبا بكل هذه الدقة وحتى في أدق التفاصيل عن المهمة التي كان عليهما الاضطلاع بها.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

في بداية القرن التاسع عشر كان المعنى العميق للأحداث في أوروبا، يكمن في حركة الجماهير الشعبية الأوروبية الحربية، جماهير الغرب نحو الشرق ثم العكس بالعكس. وكانت حركة الغرب نحو الشرق هي الأولى. ولكي يصبح ممكناً للشعوب الغربية أن تدفع تقدمها الحربي حتى موسكو، كان لزاماً: ١ ـ أن تتحد في كتلة حربية على امتداد كبير حتى تصبح قادرة على تحمل صدمة الكتلة الشرقية المحاربة؛ ٢ ـ أن تتنكر لكل تقاليدها ولكل عاداتها؛ ٣ ـ لكي يبلغ هجومها الغاية، وجب أن يكون على رأسها رجل يستطيع أن يبرر لنفسه ولها المداجاة والسلب والمذابح التي لا بدَّ من حدوثها والتي رافقت الحركة.

أولاً، التجمهر القديم للقوات قليل الأهمية انحل في فرنسا جراء الثورة وأبيدت التقاليد والعادات القديمة، وقام تجمهر جديد تدريجاً على نطاق أوسع وبعادات جديدة وتقاليد جديدة وعندئذ تجهز الرجل الذي يجب أن يقوم على رأس الحركة المقبلة ويحمل كل مسؤولية الأحداث التي يجب أن تقع.

وهذا الرجل، عديم البراهين عديم الماضي والتقاليد، المحروم من الاسم بل غير الفرنسي أيضاً، تسلل بمساعدة أشدّ الظروف غرابة على ما يظهر وبين كل أحزاب فرنسا وهي في حالة الغليان وحمل نفسه إلى الصف الأول دون أن يرتبط بحزب منها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وإن جهل مرافقيه وضعف خصومه وتفاهتهم، وقلّة الحياء وضيق فكر هذا الرجل اللامع المغرور وضعته كلها على رأس الجيش. وقيمة جنود الجيش الإيطالي ونفور خصومه من القتال واستهتاره وزهوه الصبيانيين عادت عليه بالمجد العسكري. إن عدداً لا يحصى من «الصدف» تواكبه دائماً. ففقد الحظوة التي نزلت به من جانب المديرين الفرنسيين خدمته والمحاولات التي بدأ فيها لتبديل اتجاهه لا تنجح إذ يرفض عرضه الخدمة في روسيا ولا يتوصل إلى الاستقرار في تركيا. وأثناء الحرب الإيطالية، يصبح مرتين قاب قوسين أو أدنى من نهايته وفي كل مرة ينجو بطريقة غير متوقعة. والجيوش الروسية الوحيدة القادرة على تهديم مجده لا تتقدم في أوروبا نتيجة تدابير دبلوماسية مختلفة ما زال هو فيها.

ولدى عودته من إيطاليا إلى باريس وجد الحكومة في حالة من التفسخ جعلت المساهمين فيها عرضة للتبدد والفناء بشكل لا مناص منه، فتعرض وسيلة من تلقاء نفسها لإنقاذه من موقفه الخطير: بعثة غير مصيبة، منافية إلى أفريقيا. ومجدداً تعود «الصدف» نفسها إلى مواكبته. فمالطا، المشهورة بامتناعها تستسلم له دون أن تطلق رصاصة واحدة، والقرارات الأكثر عرضة للخطر تكلل بالنجاح. فالأسطول العدو الذي لا يدع بالتالي زورقاً واحداً يمر، يوسع المجال لمرور جيش كامل، وفي أفريقيا ارتكبت أسوأ الشناعات ضد شعب شبه أعزل تقريباً، فيجد فاعلو هذه المساوئ ورئيسهم على رأسهم، كل هذا رائعاً وأنه جدير بقيصر وبالإسكندر المقدوني، وأنه خير.

وهذا المثل الأعلى من المجد والعظمة الذي لا يقوم فقط على الظن بأنهم لا يفعلون منكراً، بل كذلك على الافتخار بكل هذه الجرائم التي يرتكبونها بعز وتفسير لها غير مفهوم وفوق طبيعي، هذا المثل الأعلى الذي وجب أن يسوس هذا الرجل ككل المتصلين بمصيره، نضج في الرقعة الأفريقية المتسعة، إذ

www.Maktbah.com

إن كل ما قام به هناك أصاب النجاح. وتنكبه الطاعون. ولم ينسب إليه أي جرم عن تقتيل الأسرى الوحشي: ومغادرته أفريقيا بحرق صبياني لا معنى له وهجران مرافقيه في البؤس عاد عليه بالنفع ومجدداً ترك له الأسطول العدو مجال الإفلات للمرة الثانية وفي تلك الأثناء، عندما كان رأسه ثملاً بنجاح كل جرائمه وصل إلى باريس وهو على استعداد ليلعب دوره ولكن دون أن تكون له غاية محددة وتفسخ الحكومة الجمهورية الذي كان منذ عام مضى يمكن أن يسبب ضياعه، كان قد بلغ مرحلته النهائية، لم تكن صنعته، صنعة البعد عن كل الأحزاب إلا لتبرز مزيته وتخدم علوه.

ليس لديه أية خطة للعمل وهو خائف من كل شيء. لكن الأحزاب تسعى إلى التعلق به وتطالب بمعاونته.

فهو وحده، بالمثل الأعلى من المجد والعظمة الذي خلقه لنفسه في إيطاليا وأفريقيا ومصر، وبعبادته المجنونة لذاته وجرأته في مضمار الجريمة ووقاحته، وهو وحده يستطيع أن يقرر الأحداث التي يجب أن تكون.

إنه الرجل اللازم للمكان الذي ينتظره. وهكذا، بشكل خارج عن إرادته تقريباً، رغم قلة حزمه وافتقاره إلى البرنامج وكل الأخطاء التي يكدسها، جر في مؤامرة تهدف إلى وصوله إلى تبوُّء سدة الحكم ونجحت هذه المؤامرة.

وجروه إلى جلسة من جلسات حكومة المديرين، فذعر وحاول أن يفر ظناً منه أنه ضائع، وتظاهر بالغثيان وألقى خطباً منافية كانت كافية للقضاء عليه. لكن المديرين الفخورين حتى ذلك الحين الأذكياء، شعروا الآن بأن دورهم قد انتهى، ففاهوا هم كذلك، وهم أشد جزعاً منه، بكلمات هي أقل ما يصلح لحفظ السلطان لهم وجر الخراب على هذا الرجل.

إنها «الصدفة» إنها ملايين «الصدف» التي سلمت إليه السلطان وراح كل الناس، وكأنهم خاضعون لكلمة سر واحدة، يساهمون في تدعيم هذا

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

السلطان. إنها «الصدف» التي كوّنت شخصيات مديري فرنسا حينذاك، إنها الصدف التي كوّنت شخصية بول[1] الأول الذي اعترف بسلطانه وهي الصدفة التي دبرت ضده مكيدة قوَّت سلطانه بدلاً من أن تودي به. وهي الصدفة التي سلمته الدوق دانجان ودفعته إلى العمل على قتله غيلة، ساعياً عن هذا السبيل الأقوى من كل السبل الأخرى، إلى إقناع الجمهور بأن له الحق طالما بيده القوة. وهي «الصدفة» التي جعلته يوجه من قواه للقيام بحملة ضد أنجلترا كانت، وبدون شك، ستسبب دماره الكامل، فلا يحقق هذه الغاية أبداً لكنه يقع فجأة على ماك[2] وجماعته النمسويين الذين يستسلمون دون قتال وهي «الصدفة» و«العبقرية» اللتان منحتاه النصر في أوسترليتز، ومن قبيل «الصدفة» كذلك، أن كل الرجال، ليس رجال فرنسا فحسب، بل رجال أوروبا كلها باستثناء إنجلترا التي لم تساهم قط في أي من الأحداث الجارية، كل الرجال رغم هولهم الأصلي وحقدهم على جرائم هذا الرجل، يعترفون الآن بسلطانه وباللقب الذي منحه لنفسه وبمثله الأعلى عن العظمة والمجد الذي يتبارى كل منهم إلى اعتباره شيئاً ما رائعاً ومعقولاً.

وكأن القوات الغربية أرادت أن تجرب سلفاً حركتها المقبلة فاتجهت مرّات عدة نحو الشرق في أعوام ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٧ و١٨٠٩ وكل مرة بأكثر قوة وأوفر عدداً. وفي عام ١٨١١، ذابت الكتلة من الرجال المكتملة في كتلة أخرى هائلة من شعوب وسط أوروبا. وكلما ازدادت هذه الكتلة ضخامة وقوة، ازداد تبرير تصرف الرجل القائم على رأس الحركة. وخلال حقبة العشر سنوات التي أعدت هذه الحركة، دخل هذا الرجل في مفاوضات مع

---

(١) بول الأول، أمبراطور روسيا ابن كاترين الثانية. اغتيل في البلاط عام ١٨٠١ (المترجم).

(٢) جنرال نمسوي استسلم لناپليون مع ٣٠ ألف مقاتل. (المترجم).

www.Maktbah.com

كل الرؤوس المتوجة في أوروبا. وسلطات هذا العالم المسلوبة من سلطانها، لا يمكن أن تعترض على مثل ناپليون الأعلى بالعظمة والمجد، ذلك المثل الخالي من أي معنى، بأي مثل أعلى آخر معقول.

فراحت الواحدة تلو الأخرى، تتهافت على تقديم مشهد تفاهتها إليه فملك بروسيا يرسل زوجته لاستجداء التفاتات الرجل العظيم، وأمبراطور النمسا يعتبر نعمة أن يتفضل هذا الرجل العظيم باستقبال ابنة القياصرة في سريره، وألبا، حارس كنوز الشعوب المقدسة يسخر دينه لرفعة الرجل العظيم، إن ناپليون بالذات لم يعد نفسه لإشغال دوره بقدر ما جرفه من حوله وألجأه إلى احتمال كل مسؤولية الأحداث الحاضرة والمقبلة على عاتقه. فهو لم يرتكب غشاً أو جرماً أو خيانة وضيعة إلا انقلبت في فم من حوله إلى عمل رائع. لم يجد الألمان لإرضائه خيراً من الاحتفال بهزيمتهم في إيينا وأوير ستادت ثم إنه ليس وحده العظيم، بل أسلافه وإخوانه «وأبناء زوجته وأصهاره وإخوان زوجاتهم كلهم عظماء كذلك فكل شيء يساهم في حرمانه من آخر آثار تعقله وإعداده لدورة المرفع». ولما أعد، كانت القوى التي أعدته مهيّأة كذلك!

نشر الغزو قلوعه باتجاه الشرق فبلغ هدفه النهائي الذي هو موسكو وأُخذت العاصمة وأبيد الجيش الروسي إبادة لم يقو مثلها على جيوش الأعداء في الحروب السالفة من أوسترليتز إلى واغرام. وفجأة بدلاً من هذه «الصدف» ونوبات «العبقري» التي حملت ناپليون بكثير من الاستمرار من نصر إلى نصر حتى الهدف المحدد ظهرت سلسلة لا تحصى من «الصدف» العكسية، ابتداء من حالة الزكام في بورودينو وحتى برد الشتاء القارس، والشرارة التي أشعلت النار في موسكو، وبدلاً من العبقرية، ظهرت غباوة ونذالة لا مثيل لهما.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الغزو يتقهقر ويعود إلى الوراء ويفر مجدداً والآن، ودون توقف، أصبحت الصدف ضد ناپليون بدلاً من أن تكون معه.

وقامت حركة عكسية من الشرق نحو الغرب تمثل مجانسات مرموقة مع السابقة، حركة الغرب نحو الشرق. المحاولات الأولية نفسها للشرق ضد الغرب كما في أعوام ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٩ قبل التزعزع الأكبر: تركيز الرجال الهائل نفسه واشتراك شعوب وسط أوروبا نفسه في الحركة والتردد في منتصف الطريق نفسه ومضاعفة السرعة نفسها كلما ازداد الاقتراب من الهدف.

وبلغت الغاية الآخيرة باريس. فدمرت حكومة ناپليون كما دمر جيشه فلم يعد لناپليون نفسه سبب للوجود. فكل تصرفاته أصبحت منذ ذلك الحين منحطة تستدر الشفقة. لكن صدفة جديدة لا يمكن تفسيرها، تتدخل في الأمر من جديد، إن الحلفاء يكرهون ناپليون الذي يتهمونه بأنه سبب تعاستهم. فلما جرد من قوته وسلطانه وثبتت عليه جرائمه وغدره كان يجب أن يظهر لهم كما كانوا يرونه منذ عشرة أعوام وكما رأوه بعد عام آخر: مجرماً خارجاً على القانون. لكن ما من أحد، بصدفة غريبة، رأى ذلك. إن دوره لم ينته بعد فالرجل الذي قبل عشرة أعوام مضت وعام اعتبر مجرماً خارجاً على القانون. أرسل إلى مسافة سفر يومين عن فرنسا، في جزيرة منح فيها السيادة المطلقة، مع حرس وملايين الله يعلم في أي شيء نفعته.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

انحسرت موجات المدّ الكبير وشرعت حركة الشعوب تتعقل في شواطئها وبدأت الحلقات تتشكل على صفحة البحر الهادئ التي طفا فوقها السياسيون الذين تصوروا أنهم هم الذين حققوا هذا الهدوء.

لكن البحر الهادئ ماج فلم يلبث الدبلوماسيون أن اعتقدوا أنهم هم، باختلافاتهم سبب هذا التوتر الجديد من القوى، وتوقعوا حرباً بين ملوكهم وبدا لهم الموقف لا مخرج له. لكن الموجة التي شعروا بارتفاعها لم تنتشر من حيث توقعوا إنها دائماً الموجة إياها، نقطة الانطلاق نفسها، باريس. إنها آخر تفجر للمد المتدفق من الغرب، تفجر عليه أن يحل المصاعب الدبلوماسية ذات الطابع المتعذر حلّه ووضع حد للحركات الحربية في ذلك العهد.

عاد الرجل الذي دمر فرنسا هذه، وحيداً دون أن يكون في حاجة إلى مؤامرة ودون جنود، يستطيع أي حارس غابة أن يطبق على عنقه. ولكن، بصدفة غريبة، لم يطبق أحد على عنقه فحسب، بل إنهم جميعاً يهرعون لاستقبال هذا الرجل الذي كانوا يلعنونه بالأمس، والذي سيلعنونه بعد شهر، استقبالاً حماسياً.

ما زال هذا الرجل ضرورياً لتبرير آخر حركة جماعية.

ولقد أنجزت هذه الحركة.

لعب الدور الأخير وطلب إلى الممثل أن يخلع ثوبه ويمسح ما على وجهه من مساحيق إذ لم تعد بهم حاجة إليه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتمضي بضع سنوات، يلعب هذا الرجل خلالها، في وحدة جزيرته، مسرحية مضحكة مثيرة للعطف، فيدس ويكذب ليبرر أعماله حيث لا نفع في أي تبرير ويظهر للعالم أجمع قيمة ما كانوا يعتبرونه قوة في حين أن يداً خفية كانت تقوده.

وبعد أن أدي الدور، نزع الممثل ثيابه، أخذ المخرج يرينا الممثل.

ـ انظروا إلى الذي آمنتم به! ها هو ذا! هل رأيتم الآن أنه ليس هو الذي كان يوجهكم بل أنا؟

لكن الرجال الذين أعمتهم القوة التي جعلتهم يتماوجون ظلوا طويلاً لا يفهمون ذلك.

والمنطق والضرورة اللذان يمثلان حياة ألكسندر الأول، الشخصية التي كانت على رأس الحركة في الاتجاه المعاكس، من الشرق إلى الغرب، كانا أعظم من ذلك.

ماذا كان يجب على الرجل الذي سيتخذ مكاناً على رأس هذه الحركة كاشفاً الآخرين؟

كان عليه أن يمتلك شعور الحق ويساهم في مشاكل أوروبا ولكن عن بعد، كي لا تعكر المصالح الدنيئة رؤيته. كان عليه أن يطغى بعظمته الخلقية على شركائه، ملوك ذلك الزمان، وأن يكون صائراً على شخصية فتانة محبوبة، وعليه كذلك أن يكون قد تلقى من قبل إهانة شخصية من نابليون. ولقد اجتمعت هذه الشروط كلها في ألكسندر الأول، وكل ذلك، ثمرة «لصدف» لا تكاد تحصى، غرست على طول حياته الماضية، وفي ثقافته وميوله المتحررة وفي المستشارين من حوله وعن طريق أوسترليتز وتيلسيت وإيرفورت.

بقي فاقداً النشاط خلال الحرب الشعبية لأن الحاجة لم تكن تدعو إليه ولكن ما كادت ضرورة حرب أوروبية تبدو، حتى ظهرت شخصيته في

www.Maktbah.com

مكانها في اللحظة المناسبة، فجمع شتات الشعوب الأوروبية كلها وقادها إلى الهدف.

بلغ الهدف ووجد ألكسندر الأول نفسه بعد حرب ١٨١٥ الأخيرة في أوج القوة الذي يمكن لإنسان أن يبلغه. فبأي شكل استغله؟

ألكسندر الأول، معيد السلم إلى أوروبا، الرجل الذي يبحث منذ نعومة أظفاره عن سعادة شعبه، المحرض على التشكيلات التحريرية التي أدخلت إلى وطنه في اللحظة التي، على ما يبدو، كان يملك أوسع سلطة وبالتالي، الوسائل لتحقيق سعادة شعبه، في اللحظة التي بدأ ناپليون في منفاه يضع الخطط الصبيانية المخادعة حول الطريقة التي سيجعل العالم سعيداً لها لو ترك له مجال العمل، في هذه اللحظة بالذات، بعد أن أنهى ألكسندر الأول مهمته وشعر بيد الله عليه، اعترف بالعدم فجأة، عدم تلك السلطة المزعومة، فأسلمها إلى أيدي أشخاص يستحقون الاحتقار وقال ببساطة:

ـ «كلا، ليس لأجلنا، سيدنا، ليس من أجلنا، ولكن من أجل اسمك!» إنني رجل مثلكم فدعوني أعيش كرجل، دعوني أفكر في روحي وفي الله.

وكما أن الشمس، ككل ذرة من الأثير، كرة كاملة في نفسها وبالوقت نفسه ذرة واحدة في اللامتناهي الذي لا يمكن للإنسان بلوغه في أقصى سعته، كذلك يحمل كل شخص في نفسه أهدافاً خاصة به، مع ذلك، فإنه يحملها لخدمة أغراض عامة لا يصل إليها الإنسان.

لقد لسعت نحلة وقفت على زهرة، طفلاً. والطفل يخاف النحل ويقول إن غايته لسع الناس. والشاعر يتأمل النحلة التي تمتص ما في كم الزهرة ويقول إن غايتها امتصاص أريج الزهور. ومربي النحل عندما يلاحظ أن النحلة تجمع غبار الطلع وتحمله إلى الخلية، يقول إن غاية النحلة هي إنتاج العسل له. ومرب آخر درس حياة الثول بأكثر تعمق يقول إن النحلة تجمع غبار

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الطلع لتغذي الفقس الصغير ولكي تربي الملكة، وإن غايتها هي المحافظة على النوع. وعالم النبات يرى أن النحلة تحمل غبار اللقاح من الزهرة ثنائية المسكن إلى الزهرة الأنثى فتلقحها ويرى أن غاية النحل تنحصر في هذا العمل.

وآخر يهتم بانتشار النبت، يرى أن النحلة تساهم فيه فيستنتج هذا البحاثة أن غاية النحل هي هذه. في حين أن غاية النحل الأساسية لا تقتصر على الأولى ولا على الثانية أو الثالثة من الغايات التي استطاع الفكر البشري اكتشافها. وكلما ارتقى الفكر البشري في اكتشاف هذه الغايات، ازداد إدراكه بوضوح كلي أن الغاية الكامنة وراءها لا يمكن بلوغها.

إن شيئاً واحداً ميسور للإنسان: ملاحظة الارتباطات الموجودة بين حياة النحل وظاهرات الحياة الأخرى. وهذا هو الحال بالنسبة إلى الشخصيات التاريخية والشعوب والغايات التي يسعون إليها.

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

إن آخر حدث سعيد وقع للأسرة العجوز، أسرة آل روستوف، كان زواج ناتاشا وبيزوخوف عام ١٨١٣ . لقد مات الكونت إيليا أندرييڤيتش ذلك العام، وكما يحدث دائماً، أدى ذلك الموت إلى تفرق الأسرة.

لقد أبهظت أحداث السنة السابقة، حريق موسكو وفرار آل روستوف من المدينة وموت الأمير أندريه ويأس ناتاشا وموت پيتيا وألم الكونتيسة، كل هذه أبهظ الكونت العجوز. لم يكن يفهم على ما يبدو ولا يحس بقوة لفهم معنى كل هذه الأحداث كان، يطأطئ رأسه العجوز معنوياً وكأنه يتوقع أو يلتمس الضربة التي ستجهز عليه: كانوا يرونه تارة مروعاً ومرتبكاً وتارة ممتلئاً بحماسة ونشاط مصطنعين.

ولقد شغله زواج ناتاشا بعض الوقت من جانبه الظاهري. أعد الحفلات والولائم وعمل جاهداً ليظهر مرحاً. لكن مرحه، بدلاً من أن يكون سارياً كعادته، لم يكن يوقظ إلا الإشفاق في نفوس الذين كانوا يعرفونه ويحبونه.

ولقد هدأ بعد رحيل پيار وزوجته وبدأ يشكو آلامه ثم لم يلبث أن سقط مريضاً ولازم الفراش. ولقد عرف منذ أيام مرضه الأولى، رغم تأكيدات الأطباء، أنه لن يشفى منه. وأمضت الكونتيسة أسبوعين كاملين أمام سريره دون أن تخلع ثيابها. وكلما جرعته الدواء، كان يقبل يدها ويبكي دون أن يتفوّه بكلمة. وفي اليوم الآخر، سأل زوجته وابنه الغائب الصفح وهو ينتحب على تبذيره ثروته، وهي الخطيئة الرئيسية التي شعر بنفسه مذنباً لارتكابها. وبعد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أن تناول وتلقى المسحة الأخيرة، مات بهدوء. وملأت جمهرة المعارف الذين جاؤوا في اليوم التالي يشيعون المتوفى، غرف المنزل الذي استأجره آل روستوف. كان هؤلاء الأشخاص كلهم، الذين كثيراً ما تناولوا الطعام على مائدته ورقصوا في منزله، الذين كثيرا ما سخروا منه، كلهم أصبحوا الآن يشعرون شعوراً موحداً بتبكيت الضمير والتحنان، يقولون كلهم ليبرروا سلوكهم: «نعم، يمكن أن يقال كل شيء، لكنه كان رجلاً ممتازاً. إن أشخاصاً مثله لم يعد ممكناً إيجادهم... ثم، من ذا الذي لا يحمل أخطاء في نفسه؟...».

في الفترة التي بلغت أعماله من الارتباك حداً جعله لا يستطيع أن يتخيّل كيف سينتهي الأمر إذا دام طوال عام آخر، مات الكونت فجأة.

وكان نيكولا مع الجيش الروسي في باريس عندما بلغه نبأ موت أبيه فطلب فوراً إحالته على المعاش. ودون أن ينتظر النتيجة، استأذن وسافر إلى موسكو. وأقيم كشف عن حالة الكونت المادية بعد شهر من وفاته فذهل كل الناس من ضخامة المبلغ الذي شكلته الديون التافهة المختلفة التي لم يكن أحد يتوقع وجودها، لقد بلغت الديون ضعف قيمة ممتلكاته.

أوصى الأقرباء والأصدقاء نيكولا أن يرفض الإرث. لكن نيكولا وجد في ذلك الرفض إهانة لذكرى أبيه المقدسة، لذلك امتنع عن الإصغاء إلى أي نصح وقبل الميراث مع الوعد بتسديد الديون كلها.

وراح الدائنون الذين سكتوا طويلاً، يستوقفهم في حياة الكونت، التأثير غير الممكن تحديده والمعترف بقوته، الذي كان لطيبة الكونت المضطربة عليهم يطالبون بسداد الديون، كلهم، وبشكل مفاجئ. وقامت بينهم، كالعادة، خصومات حول من سيدفع له قبل غيره، وراح الذين بأيديهم أوراق رهن وليس اعتراف بدين، أمثال ميتانكا وغيره، يظهرون أكثر إلحاحاً. لم يتركوا لنيكولا متسعاً للراحة أو الاستمهال، وأولئك الذين أشفقوا على العجوز المسؤول

عن خسارتهم، مع فرض تعرضهم لهذه الخسارة، بدأوا الآن يتكالبون على الوارث الشاب الذي تعهد طائعاً أن يسدد كل ديونهم.

لم يوفق واحد من الوسطاء ولم يقبل أي عرض قدمه نيكولا، فبيعت الأملاك بالمزاد العلني بنصف قيمتها وبالتالي بقيت نصف الديون دون سداد. ولقد قبل نيكولا مبلغ ثلاثين ألف روبل من صهره بيزوخوف ليسدد ما يعترف به من ديون نقدية، ديون حقيقية. ولكي يتجنب إلقاءه في السجن، كما كان دائنوه يهددونه، عاد إلى الخدمة.

استحالت عليه العودة إلى الجيش حيث كان يمكن أن يصبح برتبة زعيم عند أول شاغر، لأن أمه أصبحت شديدة التعلق به، تعتبر أنه غايتها الأخيرة الوحيدة في الحياة. وعلى ذلك، فقد قبل وظيفة في موسكو، رغم زهده في البقاء في المدينة في الجو نفسه الذي كان فيه من قبل ورغم كراهيته للخدمات المدنية. وبعد أن خلع الزي العسكري الذي طالما أحبه، أقام مع أنّا وسونيا في منزل صغير في سيڤتسيف ـ ڤراجيك، وهو شارع ذو منازل متواضع وراء متحف ألكسندر الثالث، باتجاه حاجز دارغو ميلوڤسكايا.

وكان پيار وناتاشا اللذان كانا يسكنان في پيترسبورغ حينذاك، يجهلان حقيقة وضع نيكولا. لقد أخذ هذا يعمل جاهداً بعد اقتراضه المال من صهره، على إخفاء شروطه الحياتية الموقتة. لقد كانت شؤونه المالية سيئة بشكل خاص حتى أنه لم يكن مضطراً إلى أن يقوم بأوده بألف ومائتي روبل، هي كل راتبه، وبحاجات سونيا وأمه فحسب، بل كذلك أن يسهر على أن تعيش أمه بشكل لا يجعلها تشعر بفقرهم. وكانت الكونتيسة عاجزة عن تقبل الحياة بدون الترف الذي اعتادته منذ طفولتها، فكانت في كل مناسبة دون أن تشعر بما تحدثه لولدها من منغصات، تطالب سواء بالعربة التي ما عادوا يملكونها، لتستقدم صديقة، أو بطعام نادر لها أو بخمرة ثمينة لولدها أو بمال لتقدم هدايا مفاجئة لناتاشا وسونيا ونيكولا نفسه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكانت سونيا منصرفة إلى شؤون المنزل، تعنى بعمتها فتقرأ لها وتحتمل نزواتها وكرهها السري، وتساعد نيكولا على أن يخفي عن الكونتيسة العجوز الارتباك الذي كانوا واقعين فيه. وكان نيكولا لا يشعر بأنه مدين نحو سونيا، لقاء كل ما كانت تفعله من أجل أمه، ديناً من العرفان لن يستطيع سداده، فكان يعجب بصبرها وتفانيها لكنه كان يتركها دائماً عند حد ما.

كان يبدو ناقماً عليها من أعماق قلبه لأنها مفرطة الكمال، مفرطة في الامتناع عن اللوم. كانت تملك كل ما يزيد التقدير لكنها لم تكن تستطيع أن تجعل نفسها محبوبة منه. ولقد أدرك نيكولا نفسه أنه كلما سما بها السماك، قلّ حبه لها. ولقد أخذ عليها كلمتها في الرسالة التي وجهتها إليه تعيد إليه حريته أصبح الآن يتصرف تجاهها وكأن كل ما وقع بينهما، نسي منذ أمد طويل، لا يمكن أن يعود بأي حال إلى الحياة.

ازداد مركز نيكولا المالي سوءاً ولم تكن فكرة الاقتصاد من راتبه إلا أضغاث أحلام. لم يكن عاجزاً عن الاقتصاد من راتبه فحسب، بل إنه كذلك اضطر إلى التورط في قروض صغيرة ليرضي متطلبات أمه. كان يرى نفسه في ورطة لا خلاص منها، تسيء إليه فكرة الزواج بوارثة غنية كما كان ذووه يشيرون إليه بها وتنفره. أما المخرج الثاني: موت أمه، فما كان يتوارد إلى ذهنه. لم يكن يرغب في شيء ولم يعد يأمل شيئاً. كان يتلذذ في أعماق نفسه برغبة قائمة شرسة توحي إليه بتقبل مصيره دون تذمر، وأخذ يعمل على تجنب معارفه السابقين الذين كانت رأفتهم وعروض المساعدة التي يقدمونها تجرح كبرياءه وبات يتجنب كل أنواع التسلية حتى في منزله، فلا يهتم إلا بقطع الوقت بفتح «فأل» مع أمه أو بذرع غرفته جيئة وذهاباً وهو صامت يدخن غليوناً إثر غليون. كان يبدو صارفاً عنايته إلى رعاية المزاج السائد في نفسه بعناية الذي لم يكن يشعر بقدرته على حمل عبئه إلا به.

www.Maktbah.com

الفصل السادس

في مطلع فصل الشتاء، رجعت الأميرة ماري إلى موسكو واطلعت من ثرثرات المدينة على وضع آل روستوف، والطريقة التي كان «الابن يضحي بنفسه بها من أجل أمه».

قالت الأميرة ماري في نفسها وهي تشعر بفرح بثقة أقوى من أي وقت مضى بحبها له: «لم أكن أتوقع شيئاً خلافاً لذلك منه» ولقد ظنت أن من واجبها، استناداً إلى علاقات الصداقة بل القربى تقريباً التي تربطها بالأسرة كلها، أن تقوم بزيارة لآل روستوف. مع ذلك، فإنها لمجرد التفكير في ما جرى لها مع نيكولا في ڤورونيغ، كانت تخاف من تلك الزيارة. وبعد أن قامت بمجهود كبير على نفسها، ذهبت لزيارة آل روستوف بعد بضعة أسابيع من وصولها إلى موسكو.

كان نيكولا أول من قابلته إذ كان يجب اجتياز غرفته قبل بلوغ غرفة الكونتيسة. وللنظرة الأولى التي ألقاها عليها، اتخذ وجهه بدلاً من تعبير الفرح الذي كانت تتوقعه، أمارات الجفاء والتعالي التي لم ترها من قبل قط على وجهه. استعلم نيكولا عن صحتها وقادها إلى أمه. وبعد أن جلس خمس دقائق، انسحب متسللاً.

وعندما خرجت الأميرة من لدن الكونتيسة، جاء نيكولا يلحق بها فقادها إلى الردهة بأدب احتفالي مفرط. لم يجب بكلمة واحدة عن الملاحظات التي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أبدتها حول صحة الكونتيسة وكأن نظرته كانت تقول: «ماذا يهمك؟ دعيني بسلام».

قال بصوت مرتفع أمام سونيا بعد أن ابتعدت عربة الكونتيسة وقد بدا عليه عجزه عن كبت سخطه: لماذا جاءت تحوم هنا؟ ماذا ينبغي لها؟ إنني لا أستطيع احتمال أولئك الغبيات الثرثارات وتوددهن!

قالت سونيا التي وجدت صعوبة في إخفاء سرورها:

ـ آه! كيف يمكنك التحدث على هذ النحو يا نيكولا! إنها شديدة الطيبة و«ماما» تحبها كثيراً؟

لم يجب نيكولا بشيء كان يود لو لم يرد ذكر الأميرة قط بعد ذلك. لكن الكونتيسة ما فتئت تتحدث عنها منذ زيارتها وتمتدحها وتلح على ابنها بالذهاب لزيارتها معبرة عن رغبتها في رؤيتها أغلب الأحيان ولكن ينتهي بها الأمر دائماً إلى الانفعال وهي تتحدث عنها.

وكان نيكولا يسعى إلى التسلح بالصمت كلما تحدثت أمه عن الأميرة لكن صمته هذا كان يثير حفيظتها.

كانت تقول: إنها فتاة كريمة جداً فتانة جداً يجب أن تزورها. إن ذلك يتيح لك زيارة بعضهم وبدون ذلك سينتهي بك الأمر إلى السأم.

ـ لكنني لا أنوي زيارتها يا أماه.

ـ لقد كنت راغباً في ذلك أشد الرغبة من قبل، الآن أصبح هذا لا يروقك. حقاً يا عزيزي إنني لا أفهمك. إنك تتضجر فجأة وفجأة، لا ترغب في رؤية أحد.

ـ لم أقل إنني متضجر.

ـ كيف، لقد أعربت لي منذ حين أنك لا تريد رؤيتها، مع أنها فتاة عظيمة

www.Maktbah.com

القيمة كانت دائماً تروقك. والآن، ما هي هذه الأسباب! إنكم تخفون عني كل شيء.

ـ ولكن أبداً يا أماه!

ـ لو أنني كنت أسألك تصرفاً كريهاً لجاز الأمر. لكنني لا أسألك إلا أن تذهب لترد زيارتها. يخيل إليّ أن الآداب تفرض ذلك... لقد رجوت مراراً أن تفعل ذلك. لكنني منذ الآن لن أتدخل في شيء طالما أن لديك ما تخفيه عن أمك.

ـ حسناً، سأذهب طالما أنك تصرين على ذلك.

ـ أنا، سيان عندي. إنني أطالب بذلك من أجلك.

أطلق نيكولا تنهدة وعض على شاربيه ثم نثر أوراق اللعب لكي يجتذب انتباه أمه إلى موضوع آخر.

ولقد تجدد هذا الحديث في الغد واليوم الذي تلاه والأيام التالية.

قالت الأميرة في سرها بعد اللقاء الفاتر غير المتوقع الذي أظهره لها نيكولا بأنها على صواب حينما كانت ترغب في عدم الذهاب إلى زيارة آل روستوف أولاً.

حدثت نفسها وهي تتسلح بالكبرياء لمساعدتها:

ـ لم يكن لي أن أتوقع شيئاً آخر. إنه لا يعنيني بحال. لم أكن أريد إلا رؤية الكونتيسة العجوز التي كانت طيبة دائماً معي والتي أنا مدينة لها بالكثير.

لكن هذه المبررات لم تكن تستطيع تهدئتها: كان هناك نوع من الندم لا يكف عن تهذيبها كلما فكرت في تلك الزيارة. وعلى الرغم من قرارها المكين بعدم العودة إلى زيارة آل روستوف، ونسيان ما حدث، فإنها كانت تشعر دائماً بأنها في موقف قليل الجلاء. وعندما كانت تتساءل عم يعذبها، كانت مرغمة على الاعتراف بإنهاء علاقاتها مع نيكولا. إن اللهجة المهذبة الفاترة التي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

اتخذها تجاهها، غير صادرة عن الشعور الذي يكنه لها، وهي تعرف ذلك تماماً، إنه يخفي شيئاً ما. وهذا «الشيء» هو الذي يجب أن تستجلي غموضه وبانتظار ذلك، كانت تشعر بأنها لن تستقر.

كانوا في منتصف الشتاء وكانت مستقرة في غرفة درس ابن أخيها وهي تراقب درسه عندما جاؤوا يعلنون لها زيارة روستوف. ولما كانت مقررة ألّا تفضح شيئاً من سرها وألّا تظهر أي ارتباك، فقد استدعت الآنسة بوريين ودخلت معها إلى القاعة.

عرفت من النظرة الأولى التي ألقتها على نيكولا أنه لم يحضر إلا لأداء واجب من واجبات اللياقة فوعدت نفسها بحزم بأن تتحفظ بمثل هذا التحفظ الذي ظهر عليه.

تحدثوا عن صحة الكونتيسة وعن أصدقائهم المشتركين وعن أخبار الحرب الأخيرة ولما انقضت الدقائق العشر التي تفرضها اللياقة، والتي يستطيع الزائر اللبق بعدها أن ينهض وينسحب، قام نيكولا لينصرف.

أدارت الأميرة الحديث بمساعدة الآنسة بوريين أفضل إدارة. لكنها في اللحظة الأخيرة، عندما وقف نيكولا، شعرت بإعياء شديد من الكلام عما لا يهمها التكلم عنه، واستولت عليها فكرة حرمانها من أتفه أسباب المرح في الحياة لدرجة أنها لم تلحظ في فترة شرود ونظرتها المضيئة شاخصة إلى الأمام، أنها ما زالت جالسة لا تتحرك وأن نيكولا واقف.

نظر إليها نيكولا ورغب في ألّا يظهر بمظهر الملاحظ شرودها، فقال بضع كلمات إلى الآنسة بوريين ثم عاد ينظر إليها مجدداً. لم تكن تتحرك وكان وجهها الوديع يعبر عن الألم. وفجأة شعر بإشفاق عليها وشعر بإبهام أنه قد يكون هو سبب الألم الذي يفضحه وجهها وود لو يبادر إلى مساعدتها وأن يتفوه بكلمات ودودة، لكنه لم يستطع إيجاد شيء.

www.Maktbah.com

قال: وداعاً يا أميرة.

فعادت إلى نفسها واحمرَّ وجهها ثم تنهّدت بعمق وصاحت وكأنها استيقظت تواً:

ـ آه! عفواً!. إنك ذاهب يا كونت؟ حسناً، إلى اللقاء إذن! ولكن، ماذا بشأن وسادة أمك؟

فقالت الآنسة بوريين التي غادرت الغرفة فوراً:

ـ انتظر، سأحضرها فوراً.

لزم كلاهما الصمت وتبادلا النظر من حين إلى آخر وأخيراً قال نيكولا بابتسامة حزينة:

ـ نعم يا أميرة، يبدو ذلك وكأنه من أمس ولكن، كم من المياه مرت تحت الجسور منذ أن تقابلنا للمرة الأولى في بوغوتشاروڤو. كنا نعتقد حنيذاك أننا تعساء حقاً بينما يا لكثرة ما أدفع لكي يعود ذلك الزمن... ولكن لا يمكن إعادته.

كانت الأميرة تنظر إليه بإلحاح بعينيها المضيئتين وهو يتكلم. كانت تبدو وكأنها تبذل جهدها للتوغل في معنى الكلمات السري التي يفوه بها ذلك المعنى الذي يستطيع أن يكشف لها عن حقيقة شعوره نحوها.

قالت: نعم، نعم. ولكن لا تأسف على الماضي يا كونت. إنني، على قدر ما أستطيع أن أفهم حياتك الحالية، أعتقد أنك تجد متعة أبداً في الذكر طالما أن حياتك الآن ترتكز على التضحية.

قاطعها نيكولا بحدة:

ـ لا أقبل إطراءاتك، إن العكس كل العكس هو ما يحدث وليس لي إلا أن أوجه اللوم إلى نفسي... لكن هذا لا يثير الاهتمام ولا المرح إذا دار الحديث حوله.

twitter @baghdad_library

واستعادت نظرته تعبيرها الفاتر الجاف. ولكن الأميرة ماري كانت قد وجدت الرجل وحده.

ـ كنت أظن أنك ستسمح لي أن أقول ذلك ولقد كنت شديدة القرب منك ومن عائلتك حتى أنني ظننت أنك لن تأخذ مودتي في غير محلها. لكنني أرى أنني كنت واهمة.

وارتجف صوتها فجأة ثم استأنفت وهي تتمالك: لست أدري السبب، لكنك لم تكن من قبل على هذا النحو و.....

ـ إن هناك ألف سبب «للماذا» هذه ـ وضغط على هذه الكلمة ثم قال بصوت خفيض جداً:

ـ أشكرك يا أميرة، إن ذلك شديد القسوة أحياناً.

وهتف صوت سري في نفس الأميرة ماري: «آه! هذا هو السبب! هذا هو السبب! إنني لم أحبب فيه فقط هذه النظرة المرحة الصريحة الطيبة، ولم يكن هذا المظهر الجميل وحده هو ما أحببت، بل خمنت كذلك النفس النبيلة الحازمة القادرة على التفاني. نعم، إنه الآن فقير وأنا غنية... نعم، هذا هو السبب... نعم، لو أن هذا لم يقع...».

ولما تذكرت رقته السابقة ونظرت الآن إلى وجهه الطيب الحزين، أدركت فجأة سبب بروده.

وفجأة قالت وهي تصرخ تقريباً. وتقترب منه لا إرادياً:

ـ لماذا إذن يا كونت، لماذا؟ قل لي لماذا يجب أن تقوله لي.

بقي صامتاً، فاسترسلت:

ـ لست أفهم «لماذاك» يا كونت. لكن ذلك يؤلمني... اعترف لك بذلك. إنك تريد أن تحرمني صداقتي السابقة لا أعرفه وهذا يؤلمني.

وكانت عيناها ممتلئتين بالدموع وكذلك صوتها:

www.Maktbah.com

ـ لقد لقيت النذر التافه من السعادة في حياتي حتى أن كل خسارة تبهظ كاهلي. اصفح عني، الوداع.

وانفجرت باكية فجأة وخرجت من الغرفة.

صاح نيكولا وهو يحاول جاهداً استيقافها:

ـ يا أميرة! امكثي حباً بالله! يا أميرة!

التفتت وتبادلا النظر خلال بضع ثوان بصمت. وفجأة أصبح كل ما كان مستحيلاً ونائياً قريباً، لا مناص منه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السابع

بعد أن تزوج نيكولا الأميرة ماري، في خريف ١٨١٤، ذهب مع زوجه يقيم مع سونيا وأمه في ليسيياغوري.

وخلال أربعة أعوام، استطاع، دون أن يمس ثروة زوجته، أن يسدد ما تبقى من ديون بل سدد دين پيار كذلك بفضل إرث خلّفته له بنت عم له.

وبعد ثلاث سنوات، أي في عام ١٨٢٠، استطاع نيكولا أن يصحح أوضاعه المادية حتى أنه استطاع شراء أرض صغيرة قرب ليسيياغوري وراح يدخل في مفاوضات لاستعادة أرض أبيه في أوترادنواي، وهو ما كان يحلم به.

ولما اتخذ بحكم الضرورة إدارة أملاكه بنفسه وسيلة، كلف بالزراعة حتى أصبحت شاغله المفضل، بل الأوحد. كان نيكولا ملاكاً بسيطاً لم يكن يحب التجديدات وبصورة خاصة، تجديدات الإنجليز التي كانت شائعة حينذاك. وكان يسخر من دراسات فن الزراعة النظرية، لا يحب مرابض تجويد نسل الخيل، ولا منتجات الترف وزراعة الحبوب الغالية، ولا يركز عنايته على ناحية مميزة من نواحي انتفاعه. لقد كانت إقطاعيته، وإقطاعيته كلها هي الماثلة أمام عينيه وليس البعض منها. لم يكن الآزوت أو الأوكسيجين الموجودان في الأرض أو في الهواء هما مما يثيران انتباهه ولا محراث أو مرعى خاصان ولكن الأداة الرئيسية التي تحرك الآزوت والأوكسيجين والمرعى والمحراث، وأعني العامل، الفلاح. وعندما أكب نيكولا على مهمته كملاك

www.Maktbah.com

عقاري واستطاع أن يتأمل عن كثب كل تفصيل، اجتذب الفلاح انتباهه بصورة خاصة ورأى أنه لا يمثل بالنسبة إليه أداة فحسب بل كذلك الغاية الواجب بلوغها. وفي بادئ الأمر، عندما درس الفلاح، حاول أن يعرف حاجته وما يعتبره جيداً وما يراه رديئاً. ولقد كان نيكولا يتظاهر فقط بأنه يتخذ التدابير ويعطي الأوامر. لكنه كان في الحقيقة يتثقف باحتكاكه بالفلاح ويدرس آراءه ومواضيعه وأحكامه على ما هو خير أو شر. وبعد أن تعرّف إلى أذواق الفلاح وميوله، وبعد أن تعلم لغته وأدرك المعنى المستتر فيها وبعد أن تقرّب إليه تقربه إلى قريب، راح يوجهه بنشاط، أي يقوم تجاه الفلاح بالواجبات نفسها التي كان يطالبه بتحقيقها ولقد انتهى انتفاع نيكولا إلى أفضل النتائج.

وعندما اتخذ نيكولا أعباء إدارة ممتلكاته مهمة له، عين، بنوع من التكهن، لكل الوظائف العامة من حكم ووكيل ومساعد، وهم الرؤساء الذين كان الإقطاعيون ينتخبونهم على عهد الرقيق، الرجال أنفسهم الذين كان القرويون سينتخبونهم لو كان لهم الحق، فلم يعد بحاجة إلى إبدال هؤلاء الرؤساء. وقبل أن يحلل خصائص السماد الكيميائية، وقبل أن يعد الـ: «من» والـ: «إلى»، كما كان يحب أن يقول ساخراً، كان يستعلم عن عدد الحيوانات التي يملكها الفلاحون ويزيد تلك الأعداد بكل الوسائل الممكنة. كان يقيم الأسر على أوسع رقعة من الأرض ممكنة دون أن يسمح لها بالتقسيم. أما الكسالى والفاجرون والعمال الرديئون، فكانوا يطاردون وكان يعمل ما بوسعه لإقصائهم عن الاشتراك.

وخلال فترات البذار وحصاد الهشيم، كان يراقب بمثل العناية المفرطة حقوله وحقول الفلاحين. فكان قليل من المالكين يرون حقولهم مزروعة بمثل هذه العناية ومحصودة، وقليل يستخلصون إنتاجاً يضاهي إنتاج نيكولا.

لم يكن يهتم بالخدم الأرقاء وكان يدعوهم «طفيليات» ويترك لهم على

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ما كانوا يزعمون، كل الحرية بل يكثر من تدليلهم. فإذا ما اقتضى الأمر اتخاذ التدابير تجاه واحد منهم، وبصورة خاصة عندما كان يجب معاقبته، كان نيكولا يرتبك ويأخذ رأي أهل المنزل جميعهم ولم يكن يتصرف دون أي تردد إلا عندما يقتضي الحال تقديم مملوك من المنزل للجندية بدلاً من فلاح عامل لم يكن يشك في أي تدبير يتخذه تجاه الفلاحين. كان يعرف أن كل قرار يتخذه، سيلاقي الموافقة العامة.

على أية حال، لم يكن يسمح لنفسه أن يبهظ أحدهم بالعمل أو أن يعاقبه تبعاً لرغبته إلا بقدر ما كان يسمح لنفسه بتخفيف خدمته ومكافأته تبعاً لرضاه الشخصي. ولم يكن يستطيع القول على أي شيء ترتكز القاعدة التي تقرر ما إذا كان يجب أن يعمل أو أن لا يعمل. لكن هذه القاعدة كانت دائماً ثابتة في نفسه لا تتزعزع.

كان غالباً ما يقول بحدة في معرض الكلام عن إخفاق أو عن سوء تصرف ما: «مع شعبنا الروسي هذا» ويتصور أنه لا يطيق احتمال الفلاح.

لكنه كان يحب بكل ما في نفسه من قوة «شعبنا الروسي هذا» يحبه ويحب طرقه في الحياة، ولهذا السبب وحده، أدرك وتبنى الأسلوب الأوحد في الاستغلال الذي يعود على صاحبه بنتائج طيبة.

وكانت الأميرة ماري تشعر بغيرة من حب زوجها هذا وتأسف ألّا تستطيع مشاطرته فيه. لكنها لم تكن تتوصل إلى فهم أفراح عالم غريب عنها إلى هذا الحد وأتراحه. لم تكن تتوصل إلى فهم سبب شدة حمية نيكولا وسعادته عندما يعود من البذار، بعد أن يكون قد استيقظ منذ الفجر وأمضى الصباح كله بين الحقول أو في أرض الدراس، أو في حصاد الهشيم أو الحصاد، ليتناول الشاي معها. لم تكن تدرك سبب حماسته الشديدة عندما يحدثها عن الفلاح الثري (ماتڤيي إيرميشين) الذي أمضى الليل مع عائلته ينقل الحزم

www.Maktbah.com

بجد حتى أنه أول من بدأ الحصاد وأول من جهزت عرمه. ما لم تكن تفهم لماذا يبتسم بمرح تحت شاربيه ويرف بعينيه وهو يروح ويجيء من النافذة إلى الشرفة عندما كان المطر ينهمر مدراراً قوياً فاتراً على خرطاله النامي الذي يكاد يجف، ولا لماذا كان نيكولا يقول إذا ما طردت الرياح سحابة سوداء متوعدة قائمة في موسم الحصاد أو حصاد الهشيم، وعاد من البيدر محمرّ الوجه لاهث الأنفاس، ينضح عرقاً، يفرك يديه مبتهجاً وفي رأسه خليط من الأفسنتين والنعناع: «حسناً، يوم آخر قصير كهذا اليوم، وسيتم إيداع كل شيء في المكادس، حصادي وحصاد القرويين».

بل كانت تعجز أكثر من ذلك عن فهم السبب الذي من أجله يخرج عن طوره رغم كل طيبة قلبه ومبادرته الدائبة إلى إشباع رغباتها، عندما كانت تنقل إليه طلبات القرويين أو القرويات الراغبين في إعفائهم من عملهم ولماذا كان نيكولا «ها» شديد الطيبة يجيبها بإصرار وعناد بالرفض راجياً منها ألّا تتدخل في مثل تلك اللحظات، كانت تدرك أن له عالماً خاصاً به، عالماً يتعلق به بكلف، وأن لهذا العالم من القواعد ما لا تصل هي إلى فهمه.

وعندما كانت أحياناً تجهد نفسها لفهمه فتحدثه عن فضله في الخير الذي يعممه على أتباعه، كان يتوقف ويرد عليها: «ولكن مطلقاً. إن ذلك لا يتبادر إطلاقاً إلى ذهني. إنني لا أحاول قط أن ابني سعادتهم. إن سعادة الغير ليست إلا حلماً شاعرياً وثرثرة بين النساء. إن ما أنا في حاجة إليه، هو ألّا يقع أبناؤنا في الفاقة. وما يجب، هو أن أنمي ثروتنا ما دمت حياً ليس إلا. ومن أجل ذلك، يجب استعمال النظام والحزم، هذا كل شيء!». وهنا يقبض قبضتيه القويتين ويضيف: «يجب كذلك تحري العدالة، وهذا بديهي، لأن الفلاح كان سيئ اللباس جائعاً لا يملك إلا حصاناً هزيلاً، فإنه لا يستطيع أن يعمل لا من أجل نفسه ولا من أجلي».

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولعل نيكولا بسبب امتناعه عن التفكير في أنه يعمل عملاً خيراً للغير باسم الفضيلة، لعله لهذا السبب بالذات كان كل ما يشرع به يؤتي أكله. كانت ثروته تتضخم بشكل واضح والقرويون من الجوار يتوافدون إليه راغبين إليه أن يشتريهم ولقد ظل الشعب طويلاً بعد موته يحتفظ بذكراه: «لقد كان سيداً... الفلاح أولاً وبعده هو لا شك أنه لم يكن متساهلاً. ولكن لا مجال للجدل، لقد كان سيداً».

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

إن ما يعذب نيكولا أحياناً في علاقاته مع مماليكه، وهو الشيء الوحيد، هو انفعاله بالإضافة إلى عادته القديمة كفارس وهي استعمال يده. لم يكن في المرحلة الأولى يجد شيئاً معيباً في ذلك. لكنه في السنة الثانية لزواجه، تبدل رأيه فجأة حول هذه العدالة.

وذات يوم، في فصل الصيف، استدعى من بوغوتشاروڤو الوكيل الذي خلف المتوفى درون وقد اتهم باختلاسات مختلفة وإهمالات. ذهب نيكولا للقائه على المرقاة لم تلبث الصيحات والضربات أن بلغت الردهة إثر أجوبة الوكيل الأولى. ولما رجع لتناول الطعام في المنزل، اقترب نيكولا من زوجته الجالسة أمام نول الوشي مطرقة الرأس وراح يروي لها حسب عادته ما فعله في الصباح، فتحدث عن الوكيل في سياق الكلام. احمر وجه الكونتيسة ماري ثم شحبت وزمت شفتيها ولكن دون أن تتحرك أو أن ترفع رأسها أو تنظر إلى زوجها.

صاح وهو يحتد لمجرد الذكرى: يا له من نذل وقح. ولو أنه كان ثملاً لوضح الأمر...

وفجأة سأل: ولكن، ماذا بك يا ماري؟

رفعت الكونتيسة ماري رأسها وأرادت الكلام لكنها سارعت إلى الإطراق برأسها وزم شفتيها.

ماذا بك؟ ماذا بك يا صديقتي؟

twitter @baghdad_library

كانت الكونتيسة ماري الدميمة، تصبح جميلة كلما بكت. لم تكن تبكي قط بسبب ألم جسماني أو لسأم، ولكن بسبب حزن وإشفاق. وحينئذ كانت عيناها المضيئتان تتخذان فتنة لا تعبر.

ما إن أمسك نيكولا بيدها حتى عجزت عن كبت عواطفها أكثر مما فعلت، فانهارت باكية.

ـ نيكولا، لقد رأيت... إنه مخطئ... ولكن أنت، لماذا علمت... نيكولا!

وغطت وجهها بيديها.

سكت نيكولا واحمرَّ وجهه ثم ابتعد عنها وراح يذرع الغرفة ساكتاً. لقد أدرك سبب دموعها، لكنه كان يستطيع للوهلة الأولى أن يتفق معها في أعماق نفسه وأن يعترف بأن كل ما فعله منذ طفولته ويعتبره كشيء من أكثر الأشياء طبيعة، يستوجب الذم، تساءل: «هل هذا شيء من الشعورية، هل هذا شيء من الشعورية، هل هي قصص تجعل المرء ينام وهو واقف، أم أنها في واقع الحياة؟» ودون أن يحسم الموضوع بنفسه، ألقى نظرة جديدة على وجه زوجته حيث كان الألم والحب يقرآن عليه وفهم فجأة أنها هي التي على حق وأنه كان مذنباً منذ زمن طويل تجاه نفسه.

قال لها بصوت خفيض وهو يقترب منها:

ـ ماري، لن يقع ذلك فيما بعد أبداً، أعدك بذلك.

وكرر بصوت متهدج، صوت فتى يستجدي صفحها: أعدك يا ماري، لن يقع أبداً.

انهمرت الدموع من عيني زوجته بقوة أكثر فأمسكت بيده وقبلتها.

قالت لتبدل الحديث وهي تنظر إلى يده التي تحمل خاتماً يحمل رأس لاوكون: نيكولا، متى حطمت الحجر الثمين؟

ـ اليوم، إنها المسألة نفسها أيضاً! آه! ماري، كفي عن الحديث عن هذا.

www.Maktbah.com

احمرَّ وجهه مجدداً: أمنحك كلمة الشرف أن هذا لن يعود مطلقاً.

وأضاف وهو يظهر الحجر الثمين المحطم:

ـ عسى أن يذكرني هذا بوعدي دائماً.

ومنذ ذلك الحين، ما إن تجعل مناقشته مع وكيل أو مسجل، حتى كانت الدماء تتصاعد إلى رأسه ويبدأ بضم قبضته حتى يبدأ نيكولا بإدارة خاتمه المحطم حول إصبعه ويطرق برأسه أمام الرجل الذي أثار غضبه. لكنه كان كذلك ينسى نفسه مرة أو مرتين خلال العام وحينئذ كان يعود إلى قرب زوجته ويعترف لها ثم تجدد الوعد بأن هذا ستكون المرة الأخيرة.

كان يقول لها: ماري، سوف تحتقرينني حقاً، وإنني لأستحق ذلك.

فكانت الكونتيسة ماري تقول له وهي بادية الحزن، محاولة تعزيته:

ـ ولكن ابتعد مسرعاً عندما تشعر بأنك لم تعد تملك القوة على ضبط أعصابك.

كان النبلاء من أفراد الحكومة يضمرون الاحترام الجزيل لنيكولا ولا يحبونه إلا قليلاً وما كان يعنى بمصالح هذه الطبقة، بحيث كان البعض ينظرون إليه كرجل متكبر، والآخرون يعتبرونه أقرب بالأحرى إلى السذاجة. وكانت العناية بمزرعته تشغل وقته كله، منذ موسم الزراعة في الربيع حتى الحصاد، فإذا جاء الخريف انطلق إلى الصيد بمثل ذلك النشاط الجدي الذي يبديه في العناية بحقوله، وتغيَّب عن الدار حوالى شهر أو شهرين بصحبة قطيع من كلاب الصيد. وفي الشتاء كان يزور القرى البعيدة أو يطالع الكتب. وكانت مطالعاته تنحصر في كتب التاريخ على الخصوص، فيخصص لها سنوياً مبلغاً كبيراً من المال. وكان يتضح من حديثه، أنه يؤسس مكتبة محترمة مقيداً نفسه بقراءة سائر ما يبتاع من كتب.

وكانت تلوح عليه مظاهر الجد عندما يتخذ مجلسه في مكتب عمله

twitter @baghdad_library

مستسلماً لمطالعاته التي كانت إلزاماً بادئ الأمر، ثم أصبحت عنده عادة توفر له في الوقت نفسه لذة خاصة، والشعور بالانشغال بعمل جدي. وإذا استثنينا الأسفار التي يقوم بها بسبب من أعماله، فهو يقضي في الشتاء القسم الأعظم من وقته في داره في أحضان العائلة. وكان يشارك في أمثال تفاصيل حياة زوجته وأولاده اليومية وهو يحس انجذاباً متزايداً إلى ماري، ويكتشف فيها كل يوم كنوزاً روحية جديدة لم يكن يعرفها.

وكانت سونيا تعيش في منزل نيكولا منذ زواجه. وكان نيكولا قد روى لماري قبل زواجهما كل ما جرى بينه وبين سونيا، مهتماً بنفسه، ممتدحاً خصائل الفتاة راجياً ماري أن تكون طيبة ومحبة تجاه ابنة عمه. وكانت الكونتيسة ماري تشعر بما ارتكب زوجها من جرم بحق سونيا، وتشعر بذنبها الخاص أيضاً. وكانت تحسب أنه كان لثورتها تأثير في اختيار نيكولا، فما كانت تضمر لسونيا أي عتاب، بل تود بالأحرى أن تحبها. لكنها لم تكن بعيدة عن حبها فحسب، بل غالباً ما كانت تكتشف أيضاً في نفسها عواطف عدائية تجاهها تعجز عن التغلب عليها.

وذات يوم، تحدثت إلى صديقتها ناتاشا في موضوع سونيا وظلمها لها فقالت لها ناتاشا: أتعلمين، ما دمت قرأت الإنجيل كثيراً، ففيه مقطع ينطبق بالضبط على سونيا.

فسألت الكونتيسة ماري في دهشة: أي مقطع؟

ـ «من معه يعطى ويزاد ومن ليس معه يؤخذ منه»[1]. أتذكرين ذلك؟ من ليس معه، إنها هي. لماذا؟ لست أدري! لعلها بعيدة عن أدنى أنانية، لا أعلم، لكن سيؤخذ منها كل شيء ولقد أخذ كل شيء منها. وإنها لتبعث فيّ أحياناً

---

(١) متى ـ الإصحاح ٢٥. (المترجم).

www.Maktbah.com

الشفقة بصورة فظيعة، ولقد أردت يوماً من صميم قلبي أن يتزوجها نيكولا، ومع ذلك فقد كنت أشعر على الدوام أن ذلك لن يتحقق، إنها «الزهرة العقيم»، كما يوجد مثل هذه الأزهار في شجرة الفريز: إني أرثي لها أحياناً وأحيانا أفكّر أنها لا تشعر بذلك كما نحس نحن.

ورغم أن الكونتيسة ماري أوضحت وقتئذ لصديقتها أنه يجب فهم كلمات الإنجيل هذه بصورة مغايرة، فقد كان يكفيها أن تتطلع إلى سونيا كي توافق على تفسير ناتاشا. وكانت تقول في الحقيقة إن سونيا اعتادت مصيرها «كزهرة عقيم» بدلاً من أن تتألم له وكان يبدو عليها أنها تحب العائلة ككل واحد منها، بالأحرى تحب الأفراد في هذه العائلة، فمثلها مثل القط الذي يتعلق بالدار أكثر من تعلقه بأشخاصها. كانت تعنى بالكونتيسة العجوز، وتداعب الأولاد وتدللهم، وهي أبداً على أهبة القيام بأدق الخدمات التي تستطيع إنجازها. ولكن ذلك كله يؤخذ على أنه أمر مفروغ منه، دون أن يقابل بشيء من الامتنان والعرفان بالجميل.

وكان قصر ليسيياغوري المعاد بناؤه يختلف عنه أيام الأمير الراحل.

فقد كانت الأبنية، المرفوعة في زمن لا بدَّ من أخذ المال فيه في الاعتبار، أكثر من محتقرة. وكان البناء الفخم ذو الأسس الحجرية مصنوعاً من خشب، قد طُليَ باطنه بالجص بكل بساطة. وكانت الغرف الفسيحة ذات الأرض الخشبية البيضاء مؤثثة بكنبات بسيطة ومقاعد كبيرة على درجة عظيمة من القسوة، وبطاولات وكراسٍ مصنوعة من خشب السرو المستمد من الغابات التابعة للملكية بأيدي نجارين من المنطقة أيضاً. ولما كانت الدار فسيحة الأرجاء، فقد كانت تضم غرفاً للخدم وجناحاً خاصاً للمدعوين، وكان أقرباء آل روستوف وپولكونسكي يجتمعون في هذه الدار من حين إلى آخر، فتأتي

twitter @baghdad_library

عائلاتهم بنصابها الكامل، يرافقهم حتى ستة عشر جواداً لجر المركبات وعشرات من الخدم؛ وكانوا يقيمون هناك أشهراً طويلة.

وعدا ذلك فإن حوالى مائة مدعو كانوا ينزلون في الدار يوماً أو يومين أربع مرّات في السنة، وذلك بمناسبة عيد ميلاد سيدي الدار وعيد شفيعهما. أما في غير ذلك من الأوقات، فقد كانت الحياة تجري بانتظام ودونما أي اضطراب بمشاغلها العادية، والاجتماعات حول الشاي، أو في الإفطار والغداء والعشاء التي تقدم جميعاً على ما تنتجه الملكية من مواد غذائية.

www.Maktbah.com

الفصل التاسع

في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٨٢٠، عشية عيد القديس نيكولا الشتوي، كانت ناتاشا تقيم مع زوجها وأولادها عند أخيها منذ بداية الخريف. وكان پيار قد قصد پيترسبورغ حيث تدعوه، على زعمه، مشاغل خاصة تستغرق من وقته ثلاثة أسابيع؛ ولقد انقضت حتى الآن ستة أسابيع منذ رحيله، فهم يتوقعون مجيئه بين لحظة وأخرى.

وفي الخامس من كانون الأول/ ديسمبر، كان ثمة ضيف آخر ما عدا العائلة بيزوخوف، هو صديق نيكولا القديم الجنرال المتقاعد ڤاسيلي فيدوروڤيتش دينيسوف وكان نيكولا لا يعرف أن من واجبه في اليوم السادس من الشهر، وهو يوم الاحتفال الذي سيتدفق الضيوف فيه، أن يخلع سترته الواسعة التترية، ويرتدي بذلة الاحتفال الرسمية، وينتعل حذاء ضيق المقدمة، ويذهب إلى الكنيسة الجديدة التي بنيت تحت إشرافه ثم يتقبل التهاني، ويقود ضيوفه إلى أمام مائدة عامرة ويتكلم عن انتخابات النبلاء، وعن الموسم؛ لكنه كان لما يزل يحس عشية ذلك اليوم، الحق في أن يحيا حسب عاداته، وهكذا قضى الوقت حتى موعد الغداء في مراجعة حسابات وكيل قرية قريبة من ريازان تابعة لملكية ابن أخ زوجته، وكتب رسالتين تتعلقان بأعماله، وقام بجولته على البيادر، والزرائب، والإسطبلات، وبعد أن اتخذ التدابير اللازمة ضد السكر العمومي المتوقع في الغداة، وهو يوم عيد للجميع رجع من أجل الغداء، واتخذ مكانه إلى المائدة الطويلة حيث رتبت الصحون العشرون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الخاصة بأهالي الدار دون أن تسنح له فرصة مبادلة زوجته كلمة واحدة على انفراد. وكان الجميع قد اتخذوا أماكنهم إلى المائدة: أمه، والعجوز بيسلوخا التي ترافقها دائماً وزوجته، وأولاده الثلاثة، ومربيتهم وأستاذهم وابن أخيه مع مربيته، وسونيا، ودينيسوف، وناتاشا وأبناؤها الثلاثة، ومربيتهم، والعجوز ميخائيل إيڤانيتش، مهندس الأمير الراحل، الذي ينهي حياته بطمأنينة في ليسيياغوري.

وكانت الكونتيسة ماري تجلس إلى الطرف الآخر من الطاولة، وما كاد زوجها يقصد كرسيه حتى عرفت من الحركة السريعة التي قام بها بعد أن بسط فوطته كي ينقل كأس الماء وكأس الشراب الموضوعتين أمامه، أنه مضطرب المزاج، الأمر الذي يقع له أحياناً، وعلى الخصوص قبل تناول الحساء، عندما يعود إلى الدار من الحقول مباشرة. وكانت الكونتيسة ماري تعرف هذه الحال الروحية جيداً فإذا كانت هي نفسها حسنة المزاج انتظرت بهدوء حتى يتناول حساءه كي تبدأ الحديث، وتحمله على الاعتراف بأن لا مبرر لامتعاضه. لكنها نسيت تماماً في ذلك اليوم هذه الخطة، وراحت تتألم لرؤيته ممتعضاً منها دونما سبب، وأحست بتعاسة عظيمة تجتاحها. وسألته أين كان، فأجاب عن سؤالها، فعادت تسأله إذا كان كل شيء على ما يرام في الملكية، فكانت لهجته قاسية حين كشر باكتئاب وأجاب بشيء من العنف.

وقالت الكونتيسة ماري في نفسها: «لم أكن مخطئة إذن ولكن ماذا يأخذ علي؟» كان كل شيء في جواب نيكولا يشير إلى امتعاضه منها، فلا يهمه سوى أن يضع حداً للحديث. وكانت تشعر بأن أسئلتها لا تبدو طبيعية، ولا تستطيع مع ذلك امتناعاً عن طرح أسئلة جديدة عليه.

وسرعان ما احتدم الحديث بفضل دينيسوف وشمل الجميع؛ لكن الكونتيسة ماري لم تتحدث بعدئذ إلى زوجها مطلقاً. وعند الانتهاء من الطعام،

www.Maktbah.com

اقترب كل بدوره من الكونتيسة العجوز ليقدم إليها شكره، فقبلت الكونتيسة ماري زوجها وهي تمد له يدها ليقبلها وسألته عن امتعاضه منها فقال:

ـ إن أفكاراً تراودك دائماً، لماذا تريدينني أن أكون ممتعضاً؟

ولكن كلمة «لماذا» في جوابه كانت تعني بالنسبة إلى الكونتيسة: «أجل إني ممتعض ولا أريد أن أقول لماذا».

كان نيكولا يعيش في وئام مع زوجته، بحيث لم تكن سونيا والكونتيسة العجوز، وهما تتمنيان بدافع من الغيرة بعض سوء التفاهم بينهما تجدان ذريعة لتوجيه أي نقد مطلقاً. ولكن بعض التوتر كان يحدث أحياناً، على أية حال، بين الزوج وزوجته، وفي الأحايين، وخصوصاً بعد الأوقات الأكثر سعادة، كان يجتاحهما شعور بالتباعد والنفور وكان هذا الشعور يولد خصوصاً أثناء حمل الكونتيسة ماري، ولقد كانت حاملاً في هذه الأيام.

قال نيكولا بصوت مرتفع ولهجة مازحة، كان يلوح للكونتيسة ماري أنه يتحدث بهذه اللهجة عمداً لإغضابها.

ـ حسناً، أيها السادة والسيدات، إني أقف على ساقي منذ ست ساعات، ومن المؤكد أنه لا بدَّ لي، غداً، من الاستمرار في الوقوف حتى النهاية، أما اليوم فأنا ذاهب أنال قسطاً من الراحة.

وبدون أن يضيف شيئاً خاصاً بالكونتيسة ماري، انتقل إلى المخدع الصغير حيث تمدد على كنبة. وفكرت الكونتيسة ماري: «تلك هي الحال دائماً، فهو يوجه كلمة إلى الناس جميعاً، أما لي فلا يقول شيئاً. إني أرى جيداً أني أنفره، وخصوصاً عندما أكون هكذا»؟ وتطلعت إلى بطنها المتضخم ونظرت في المرآة إلى وجهها المشدود الشاحب، والمصفر حيث تبدو العينان أكبر منهما في أي وقت آخر.

وإذا كل شيء يصعب عليها بصورة مفاجئة: رنين الأصوات وضحكة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

دينيسوف، وأحاديث ناتاشا وبصورة خاصة النظرة السريعة التي رمقتها سونيا بها.

ولقد كانت سونيا على الدوام الذريعة الأولى التي تقع الكونتيسة ماري عليها عندما تكون في ثورة وامتعاض.

وبعد أن أمضت بضع دقائق مع ضيوفها دون أن تفهم شيئاً مما يقولون غادرتهم دون ضجيج واتجهت إلى غرفة أولادها.

وكان الأطفال الراكبون مقاعد ذاهبين إلى موسكو فدعوها لمرافقتهم. جلست، ولعبت معهم، لكن فكرة زوجها وامتعاضه لم تكن تفارقها قط وسرعان ما نهضت وغادرت الغرفة، وهي تسير بحذر على أطراف أصابعها نحو المخدع الصغير.

قالت في سرّها: «لعله لم ينم بعد فأسوي الأمور معه» وكان أندريه الصغير بكر أبنائها، يتبعها وهو يقلدها ويسير مثلها على أطراف أصابعه، لكنها لم تنتبه إليه.

والتقت سونيا في قاعة الاستقبال، سونيا هذه التي تصطدم بها في كل مكان، فيما يخيل إلى الكونتيسة ماري، فقالت لها:

ـ يا عزيزتي ماري، إنه ينام فيما اعتقد: إنه على درجة عظيمة من الإعياء. حاذري فسوف يوقظه أندريه.

فالتفتت الكونتيسة ماري ورأت الصغير الذي يتأثر خطاها، فأدركت أن سونيا على حق ولأنها كانت مخطئة، فقد احمرت وجنتاها وكادت تتفوه بكلمة جارحة لاذت بالصمت لكنها أرادت أن تبرهن أنها لا تأبه لما تقول سونيا فأشارت للصبي أن يتبعها دون ضوضاء، ثم اقتربت من الباب، بينما، اختفت سونيا في الباب المقابل. ودفق من الغرفة، حيث ينام نيكولا، أصداء تنفسه المنتظم الذي تعرف أدق تفاصيله. وكانت ترى تجاهها، وهي تسمع

www.Maktbah.com

هذا التنفس، جبين زوجها المرتفع المغضن، وشاربيه، وكل هذا المحيا الذي كثيراً ما تتأمله وهو ينام في هدأة الليل. وفجأة تحرك نيكولا وسعل فما أسرع أن صاح أندريه الصغير من خلف الباب: «أبتي إن أمي هنا!» فعلا الشحوب وجه الكونتيسة ماري ذعراً وأشارت لابنها أن يلوذ بالصمت فأطاع، فران طوال دقيقة سكون أليم بالنسبة إليها. كانت تعرف كم يكره نيكولا أن يوقظه أحد من نومه بغتةً، تردد في الجانب الآخر من الباب سعال جديد، فتحرك نيكولا مرة أخرى وقال بصوت فيه دلائل الاستياء:

ـ ليس من سبيل إلى الراحة لحظة واحدة؟ أهذه أنت يا ماري؟ لماذا جئت به إلى هنا؟

ـ جئت لألقي نظرة فقط، ولم أر... اعذرني...

فسعل نيكولا وسكت! وابتعدت الكونتيسة ماري عن الباب ورجعت بولدها إلى غرفة الأطفال. بيد أن الصغيرة ناتاشا، وهي طفلة في الثالثة من سنيها جميلة العينين السوداوين، والابنة المفضلة عند أبيها، أسرعت بعد خمس دقائق وقد عرفت من أخيها أن أباها نائم وأن أمها ذهبت إلى المخدع، تبحث عن نيكولا من دون علم والدتها. وفتحت الصغيرة ذات العينين السوداوين الباب بجرأة، وتقدمت من المكتبة بخطوات حازمة على قدميها غير الثابتتين؛ ووقفت هناك تتأمل برهة أباها الذي ينام وقد أدار لها ظهره، ثم تطاولت على رؤوس أصابعها وطبعت قبلة على اليد التي تسند رأس نيكولا، فاستدار إليها وعلى شفتيه ابتسامة حنون.

ومن خلف الباب همست الكونتيسة ماري بذعر: ناتاشا، ناتاشا؛ هلا تركت أباك نائماً؟

فأجابت الصغيرة ناتاشا ببهجة ظافرة: ولكن لا، يا أماه ليست به رغبة في النوم إنه يضحك.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فوضع نيكولا قدميه على الأرض، وجلس على الكنبة وضمّ الصغيرة بين ذراعيه.

قال لزوجته: ادخلي يا ماري.

فدخلت الكونتيسة ماري وجلست إلى جانب زوجها.

قالت بتردد:

ـ لم أكن أعلم أنه يتبعني. ولقد جئت هكذا.

فتطلع نيكولا ممسكاً بابنته الصغيرة بذراعه الواحدة، إلى زوجته وشاهد سيماها المضطربة، فأحاط قامتها بذراعه الطليقة وطبع على شعرها قبلة سريعة.

استفهم من ناتاشا: أيمكن تقبيل ماما؟

فافترت شفتا ناتاشا عن ابتسامة خجول:

قالت وهي تشير بحركة آمرة إلى المكان حيث قبل نيكولا زوجته:

ـ أيضاً!

قال نيكولا مجيباً عن السؤال الذي يعرف أنه يدور في خلد زوجه:

ـ لا أدري لماذا تحسبين أني سيئ المزاج..

ـ لا تستطيع أن تتصور مبلغ تعاستي، وشدة وحدتي عندما تكون على هذه الحال. ليخيل إليّ على الدوام...

فصاح في مرح:

ـ صه، يا ماري، فتلك حماقات، كيف لا تخجلين من نفسك؟

ـ يخيل إلى أنك لا تستطيع أن تحبني، وأني قبيحة جداً... وخصوصاً... الآن... في هذا الو.....

ـ آه! ما أسخفك، إن الجمال لا يصنع الحب، بل الحب هو الذي يصنع

www.Maktbah.com

الجمال إن مالفينا وأشباهها نحبهن من أجل محياهن الجميل، أما بالنسبة إلى زوجتي فلست أشعر بالحب، بل بشيء آخر، ولا أدري كيف أفسر لك ذلك حين لا تكونين هنا، أو يمر ظل بيننا، كما حدث قبل لحظة، فأشعر كأنني ضعت ولم أعد أساوي شيئاً. إليك، هذه الإصبع، هل أحبها؟ كلا لست أحبها ولكن هيا وجربي أن تقطعيها مني!

ـ كلا أنا لست كذلك، لكنني أفهم. إذن فأنت غير ممتعض مني؟

فقال مبتسماً: ممتعض بصورة فظيعة!

وقف، وأمر يده في شعره المشعث وراح يذرع أرض الغرفة بخطواته.

قال فوراً، وقد تمّ الصلح بينهما، فهو مستعد إذن أن يفكر بصوت مرتفع أمام زوجته:

ـ أتعرفين، يا ماري، في ما فكرت؟

لم يسأل نفسه ما إذا كانت مستعدة للاستماع إليه، فذلك لا يهمه كثيراً. ينبغي، منذ أن تراوده فكرة، أن تشاركه فيها أيضاً. وعرض عليها نيته دعوة پيار إلى قضاء الربيع معهم.

وأصغت الكونتيسة ماري إليه، وقدمت بضع ملاحظات، وأخذت بدورها تفكر بصوت مرتفع. كانت تفكر في أبنائها:

قالت بالفرنسية، مشيرة إلى ناتاشا الصغيرة:

ـ كم تحس فيها المرأة منذ الآن. أنتم تأخذون علينا، نحن النساء انعدام المنطق عندنا. ولكن ليكن، منطقنا؛ إني أقول: بابا راغب في النوم فتجيب: كلا إنه يضحك.

ثم قالت وعلى شفتها ابتسامة سعيدة: وإنها على حق.

ـ أجل، أجل.

twitter @baghdad_library

وأخذ نيكولا ابنته بين ذراعيه القويتين ورفعها عالياً ووضعها على كتفه، ثم عاد يذرع أرض الغرفة بخطاه وقد أمسك بها من فخذيها. وكان من الصعب أن نقول أياً من الأب والابنة كان أعظم سعادة وهناء.

همست الكونتيسة ماري بالفرنسية:

ـ اسمع، أنت تتعرض لأن تكون ظالماً. إنك تحب هذه كثيراً.

ـ ماذا تريدين أن أفعل؟... إني أسعى كي لا أظهر ذلك...

وفي تلك اللحظة سمع في الغرفة المجاورة والدهيلز أصوات خطى ثقيلة، شبيهة بالأصوات التي تعلن وصول مسافر من مكان بعيد.

قال نيكولا: وصل شخص ما.

فقالت الكونتيسة ماري وهي تخرج من الغرفة: أنا متأكدة أنه پيار.

واغتنم نيكولا... فرصة غياب زوجه كي يخب بابنته قليلاً، ثم توقف منقطع الأنفاس، ورفع بسرعة الصغيرة الضاحكة عن كتفه وشدها إلى صدره، كانت القفزات التي قام بها من فوره تذكره ببعض الخطوات الراقصة، وحين تأمل الوجه الصغير المدور المشع فرحاً، فكر في ما ستكون عليه حين يصير عجوزاً، وكيف سيخرج بها إلى ما بين الناس ويرقص المازوركا معها، كما كان المرحوم والده يرقص الدانيو كوپر مع ناتاشا.

صاحت الكونتيسة ماري بعد دقائق قليلة وهي تعود إلى الغرفة:

ـ هذا هو يا نيكولا. والآن عادت حبيبتنا ناتاشا إلى الحياة ولو رأيت بأية حمية استقبلته ثم كيف عنفته لتأخره! هيا تعال، تعال سريعاً.

وأضافت أخيراً وهي تبتسم وتنظر إلى الصغيرة المتعلقة بأبيها:

ـ هلا انفصلتما أخيراً!

www.Maktbah.com

فرح نيكولا ممسكاً ابنته من يدها، بينما تباطأت الكونتيسة في المخدع. همست:

ـ أبداً، أبداً لم أفكر أنني يمكن أن أكون على هذه الدرجة من السعادة.

وتألق وجهها بابتسامة، بيد أنها صعدت تنهدةً في الوقت نفسه، ومرّ في نظرتها العميقة، انعكاس حزن صموت، فكان ثمة سعادة أخرى، إلى جانب السعادة التي تحس، سعادة لا تبلغ في هذه الحياة، لكنها تتردد الآونة في ذهنها رغماً عن إرادتها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

في عام ١٨٢٠، كانت ناتاشا، التي تزوجت في الأيام الأولى من ربيع ١٨١٣، قد أنجبت ثلاث بنات وابناً طالما تاقت إليه والذي كانت ترضعه من ثدييها، كانت قد سمنت قليلاً، بحيث كان يصعب على المرء أن يعرف في هذه الأم المخصاب للعائلة، ناتاشا الأيام السابقة، النحيلة والدائبة الحركة. وكانت سيماء وجهها قد اتضحت واتخذت تعبيراً في الوضوح والليونة الهادئة وبارحتها تلك الشعلة من الحياة الملتهبة أبداً، التي كانت تشكل فتنتها في الأيام الغابرة.

إن المرء لا يشاهد منها الآن، في غالب الأحيان، سوى وجهها وجسدها، أما نفسها فصارت غير مرئية؛ لم يعد يرى منها سوى الأنثى القوية، الجميلة وكان لهيب الماضي يعادل الاشتعال فيها، في حالات استثنائية، مثلها اليوم لدن قدوم زوجها، أو حين يقوم أحد أبنائها من الفراش بعد مرض ألم به، أو حين تتحدث مع الكونتيسة ماري عن الأمير أندريه، لم تكن تتحدث قط، عن الأمير أندريه أمام زوجها، مفترضة أنه يغار من الذكرى التي تحفظها عنه، أو حتى يدفعها شيء ما، مصادفة إلى الغناء بعدما أهملته تماماً منذ زواجها. وفي أثناء هذه اللحظات النادرة حيث يتأرث الماضي المهيب في هذا الجسد الجميل اليانع، كانت أشد إغراء منها قبلاً.

كانت ناتاشا تقيم منذ زواجها في موسكو، وفي پيترسبورغ أو في ملكيته الواقعة في ضواحي موسكو، أو عند أمها، يعني عند نيكولا ونادراً ما

www.Maktbah.com

كانت الكونتيسة بيزوخوف الشابة ترى في المجتمعات، وأولئك الذين كانوا يقابلونها هناك ما كانوا يسرون منها كثيراً، فهي بعيدة عن كل ملاطفة ومودة، ولم يكن دافعها إلى ذلك تفضيلها للوحدة، ما كانت تعرف إذا كانت تحبها أم لا، بل كانت تعتقد أن لا، غير أن حملها المتكرر، وواجب إرضاع أطفالها ومساهمتها في كل من لحظات حياة زوجها، هذه الأمور جميعاً كانت تحملها على الابتعاد عن الناس. وكان سائر الذين عرفوها قبل الزواج يدهشون لذلك التبدل الطارئ عليها فكأنه أمر فوق عادي.

وكانت الكونتيسة العجوز وحدها بمظهرها الأمومي، قد فهمت أن سائر انطلاقات ناتاشا ناشئة من مجرد رغبتها في تأسيس عائلة، والحصول على زوج، كما أعلنت ذلك ذات يوم في ماوتراندويه جادة في ذلك أكثر منها مازحة. وكانت تدهش، في قلبها الأمومي، من عجب الناس الذين لا يفهمون ناتاشا، فهي لا تني تردد أنها قد عرفت على الدوام أن ابنتها ستكون زوجة مثالية دائماً.

وكانت تضيف:

ـ سوى أنها تذهب أبعد قليلاً مما ينبغي في حبها لزوجها وأولادها: بل إن ذلك يجانب السخف قليلاً.

ولم تكن ناتاشا تتبع تلك القاعدة الذهبية التي ينادي بها الناس الأذكياء، والفرنسيون بصورة خاصة، القائلة إن الفتاة، إما تتزوج، يجب ألا تتنازل عن مواهبها أو تدفنها بل أن تعنى بشخصها أكثر من ذي قبل، ساعية لإغراء زوجها بقدر ما كانت تجهد لإغراء خطيبها. لكن ناتاشا، على العكس من ذلك، قد أهملت دفعة واحدة سائر فتنها التي كان الغناء أشدها قوة. ولقد أهملت الغناء بسبب وحيد، ألا وهو كونه أفضل فتنة تتمتع بها. ولم تكن ناتاشا تأبه للياقة في سلوكها، أو الرقة في أحاديثها، أو الأوضاع المغرية التي يجب أن تتخذها تجاه

twitter @baghdad_library

زوجها، أو لزينتها، وكذلك لم تكن أكثر اهتماماً بعدم إزعاج زوجها بطلباتها. كانت تتصرف ضد هذه القواعد تماماً، فهي تشعر أن الاغراءات التي كانت غريزتها تحملها على إظهارها من قبل، ستلوح سخيفة مضحكة في عيني الرجل الذي استسلمت له بكليتها. يعني بكل روحها، دون أن تحتفظ بزاوية خفية عليه. وكانت تشعر أن اتحادها مع زوجها ليس مردّه إلى تلك المشاعر الشعرية التي اجتذبته إليها، بل إلى شيء آخر لا يمكن تحديده، لكنه ثابت، صلب، مثله مثل اتحاد نفسها الخاصة بجسدها.

أما أن تتخذ أوضاعاً مسرحية، وتحمل سلالاً وتنشد أغاني غرامية كي تجعل زوجها عاشقاً لها، فذلك عندها أمر غريب مثل تزينها كي تعجب نفسها. أما أن تتزين كي تعجب الآخرين، فلعل ذلك كان يلاقي قبولاً عندها، إنها لا تعرف على وجه الدقة، لكنها لا تجد الوقت له مطلقاً. وفي الحقيقة إن السبب الرئيسي الذي تركت من أجله الغناء، والزينة، والرقة في الحديث، هو حاجتها إلى الوقت الضروري في سبيل هذه الأمور جميعاً.

نحن نعرف أن الإنسان يملك القدرة على الاستغراق بكليته في أي مشاغل مهما يكن تافهاً. ونعلم أيضاً أنه لا يوجد أي شاغل تافه إلا ويتعاظم في الأهمية حتى ما لا نهاية، عندما يتركز الانتباه عليه بصورة كلية.

وما كان يشغل ناتاشا بصورة كلية هو العائلة، يعني الزوج الذي تجاهد للاحتفاظ به كي يكون لها دون شريكة، والمنزل والأطفال الذين يجب حملهم وولادتهم وتغذيتهم وتربيتهم.

وبقدر ما كانت تستغرق، لا بعقلها، بل بكل روحها، وبكل كينونتها، في هذا الشيء المفضل، كان هذا الشيء يزداد أهمية في نظرها، فتبدو لها قواها غير كافية، بحيث لا بدَّ لها من تركيز سائر هذه القوى على النقطة نفسها دون أن تتوصل أبداً إلى تحقيق كل ما يلوح لها ضرورياً لا استغناء عنه.

www.Maktbah.com

وكانت المناقشات والمحاكمات العقلانية عن حقوق الزوجة، والعلاقات بين الزوجين، وحرياتهما وحقوقهما المتبادلة، رغم أن الناس يومئذ لم يكونوا يسمونها «مشاكل» كما يفعلون اليوم، موجودة مثلها هذه الأيام بالضبط، بيد أن هذه القضايا لم تكن تثير اهتمام ناتاشا، وهي بكل تأكيد ما كانت تفهمها.

هذه القضايا في الماضي كما في الحاضر، لم تكن توجد سوى بالنسبة إلى الناس الذين لا يجدون في الزواج سوى اللذة التي يتبادلها الزوجان، يعني عنصراً واحداً من عناصره، وليس معناه الكامل الذي هو العائلة.

هذه المناقشات وهذه المشاكل التي تطرح اليوم، وهي كثيرة الشبه بمسألة معرفة كيف نستخرج أقصى ما نستطيع من لذة وجبة طعام، لم تكن تطرح وقتئذ أكثر منها اليوم بالنسبة إلى الناس الذين يعتبرون أن الغاية من وجبة الطعام هي تغذية الجسد، وأن الهدف من الزواج هو العائلة.

فإذا كانت الغاية من الطعام هي تغذية الجسد، فذاك الذي يتناول في وقت واحد وجبتين من الطعام ربما أحس بمتعة أعظم، بيد أنه لن يبلغ الهدف المطلوب لأن المعدة لا تستطيع أن تهضم وجبتين في وقت واحد.

وإذا كان الهدف من الزواج هو العائلة، فذاك الذي يريد أن تكون له زوجات متعددات، أو تلك التي تطلب أزواجاً كثيرين ربما حصلا على لذة عظيمة، لكنه لن يكون لهما عائلة في حال من الأحوال.

إذا كانت الغاية من الطعام تغذية الجسم والغاية من الزواج تكوين العائلة فالمسألة تعود إذن بكل بساطة إلى الامتناع عن تناول أكثر مما تستطيع المعدة أن تهضم من طعام، وإلى الامتناع عن الاقتران بعدد من الزوجات أو الأزواج أكبر مما تتطلب العائلة، يعني عن الاقتران بعدد من الزوجات أو الأزواج أكبر مما تتطلب العائلة، يعني عدم الاقتران بأكثر من واحدة أو واحد. وكانت

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ناتاشا تحتاج إلى زوج، وقد أعطي هذا الزوج لها. ولقد منحها هذا الزوج عائلة. وهي لم تكن عامية عن ضرورة الحصول على زوج أفضل فحسب، بل لما كانت سائر قوى نفسها لا تسعى سوى لتكريس ذاتها لخدمة زوجها وعائلتها فهي لم تكن تستطيع أن تتصور وما كانت ترى أية أهمية في تصور ما كان يحدث لو كانت الأمور تختلف عنها الآن.

ولم تكن ناتاشا على العموم، تحب الناس، فهي لذلك تفضل مجتمع أهليها الكونتيسة ماري، وأخيها وأمها، وسونيا. كانت تحب مجتمع الكائنات اللائي تستطيع أن تأتي إليهن في ثياب النوم شعثاء الشعر، قادمة من غرفة الأولاد تطلعهن بمحيا سعيد على أحد قمط الرضيع الملوث بالصفرة بدلاً من الخضرة، كي تسمع كلمات مطمئنة تقال لها في موضوع الرضيع الذي أصبحت حالته الصحية تبعث على الارتياح.

وكانت ناتاشا تهمل هندامها بحيث أن أثوابها وزينتها، وكلماتها التي تتفوه بها بغير مناسبة، وغيرتها، كانت تغار من سونيا، ومن المربية، ومن كل امرأة جميلة أو قبيحة، الموضوع العادي لعبث سائر أقربائها وكان الرأي المنتشر أن پيار واقع تحت خف زوجه، ولقد كانت تلك هي الحقيقة. منذ الأيام الأولى لزواجهما، أعلنت ناتاشا له طلباتها. ولقد دهش پيار كثيراً من وجهات النظر الجديدة بالنسبة إليه، التي تبشر بها زوجته حتى تزعم بأن كل لحظة من حياته ملك لها وللعائلة. لقد دهش پيار كثيراً من متطلبات زوجه لكنه سر بها ورضخ لها.

كان خضوع پيار على درجة عظيمة من الكمال بحيث لم يكن يجرؤ لا على مغازلة امرأة أخرى فحسب، بل حتى على محادثتها وهو يبتسم، كما أنه لم يكن يجسر على الذهاب إلى النوادي لتناول العشاء، أو «هكذا» كي يجري الوقت أو أن يصرف المال على أهوائه، أو على القيام بسفرة طويلة سوى من

www.Maktbah.com

أجل أعماله التي تدخل زوجته في عدادها أعمالها في علوم تعلق عليها أهمية قصوى دون أن تفهم شيئاً منها. وفي المقابل، فقد كان پيار يملك كل الحق في التصرف كما يشاء لا في ذاته فحسب، بل في كل عائلته. وكانت ناتاشا جعلت من نفسها عبدة لزوجها حين تكون وحيدة معه، فسائر سكان الدار يسيرون على رؤوس أصابعهم حين يعمل پيار، يعني حين يقرأ أو يكتب في مكتبه وكان يكفي أن يظهر رغبة ما كي تتحقق أمنيته في الحال. كان يكفيه أن يعبر عن رجاء حتى تنطلق ناتاشا فوراً وتنجز رجاءه.

كان المنزل بأسره يسير حسب أوامر الزوج المزعومة، يعني برغبات پيار التي تجهد ناتاشا في سبيل تخمينها. كان أسلوب الحياة، ومكان الإقامة، والعلاقات مع الناس، وروابط الصداقة، ومشاغل ناتاشا وتربية الأولاد، كانت هذه الأشياء، جميعاً مقررة حسب إرادة پيار كما أعلنها، والأكثر من ذلك أن ناتاشا كانت تجهد لتخمين ما يمكن أن ينبثق من الأفكار التي يصوغها پيار خلال أحاديثه. ولقد كانت تصيب دائماً في تخمين هذه الأفكار والرغبات بحيث إذا ما خمنتها مرة تعلقت بحزم بما قد اختارته. وحين كان هو نفسه يحاول أن يذهب ضد رغبته الخاصة، فقد كانت تقاومه بأسلحته نفسها.

وهكذا اضطرت ناتاشا، في ظروف صعبة سيحتفظ پيار بذكراها على الدوام، إثر ولادة طفل بكر هزيل، أن تغير المرضعة ثلاث مرات حتى قد استولى عليها اليأس. وعندئذ أوضح لها پيار نظريات روسو التي كان يؤمن بها، عن استخدام المرضعات المخالف للطبيعة ومضارهن. وهي ولد الطفل الآخر. صمدت ناتاشا رغم معارضة أمها، والأطباء، وزوجها نفسه، وقد هبوا جميعاً يقاومون إرادتها في إرضاعه، الأمر الذي كان يعتبر وقتئذ شيئاً لا مثيل له، بل ضاراً، ومنذ ذلك الحين وهي ترضع سائر أولادها.

وكثيراً ما كان يحدث، في لحظات الغضب، أن يتخاصم الزوجان. لكن

twitter @baghdad_library

بيار يكتشف، بعد الخصام بوقت طويل، وكان ذلك يبعث فيه فرحاً عظيماً، لا في كلمات زوجه بل في أفعالها أيضاً، فكرته الخاصة التي كانت تقاومها. ولم يكن يجد هذه الفكرة فحسب، بل كان يجدها أيضاً وقد عريت من كل المبالغة التي وضعها فيها في حميا النقاش والجدال.

وبعد سبع سنوات من الزواج، اكتسب بيار، وهو فرح، اليقين الحازم أنه لم يكن زوجاً شريراً، وكان يحس ذلك بصورة خاصة لأنه كان يراه منعكساً في زوجه. كان يشعر أن الصالح والرديء في باطنه يشكلان مزيجاً ويقللان من حدتهما. بيد أن ما ينعكس في زوجه كان الشيء الصالح حقاً منه، أما كل ما لم يكن صالحاً تماماً فقد كانت ترفضه. ولم يكن هذا الانعكاس ينشأ عن فترة منطقية، بل عن انعكاس آخر، مباشر وخفي.

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

تلقى پيار، قبل شهرين، رسالة من الأمير ڤيدور، وكان قد استقر عند آل روستوڤ، تدعوه إلى پيترسبورغ لمناقشة قضايا هامة مع أعضاء الجمعية التي كان هو أحد مؤسسيها الأساسيين.

وبعد أن قرأت ناتاشا هذه الرسالة، وكانت تقرأ سائر رسائل زوجها، نصحت له من تلقاء نفسها بالذهاب إلى پيترسبورغ، رغم كل ما يسببه لها غيابه من ألم، كانت تسبغ على سائر القضايا الفكرية والمجردة التي يعنى بها زوجها أهمية عظمى من دون أن تفهم شيئاً منها، وكانت تخشى دائماً أن تكون حجر عثرة في سبيل هذا النوع من النشاط الذي يقوم به. وأجابت عن النظرة الخجولة المتسائلة التي رمقها زوجها بها بعد قراءتها رسالته بأن توسلت إليه أن يذهب، لكن شرط أن يحدد لها بدقة موعد عودته. ومنحته فرصة مدتها شهر واحد.

ومنذ انتهى موعد هذه الفرصة، يعني منذ خمسة عشر يوماً، وناتاشا قلقة باستمرار، حزينة مكتئبة.

كان دينيسوڤ، هذا الجنرال المتقاعد الممتعض من حالته هذه، وقد وصل إلى الدار في هذين الأسبوعين الأخيرين، ينظر إلى ناتاشا بشيء متساو من الدهشة والحزن، كما ينظر المرء إلى صورة كائن عزيز عليه، لكنها قليلة الشبه به وكان كل ما يراه أو يسمعه من فتنة الماضي نظرة ملأى بالضجر، وأجوبة مقتضبة، وأحاديث لا تخرج عن موضوع الأطفال مطلقاً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكان الاكتئاب والامتعاض ينتابان ناتاشا بصورة خاصة، أثناء هذه الفترة حتى تجرب أمها، أو أخاها، أو سونيا، أو الكونتيسة ماري أن يجدوا حججاً تبرر تأخر پيار، وهدفهم في ذلك تعزيتها وتشجيعها.

كانت ناتاشا تقول وهي تتحدث عن هذه المشاغل التي كانت تؤمن بقوة بأهميتها العظمى.

ـ ليست سوى حماقات وسخافات، سائر مشاغل پيار هذه التي لا تؤدي إلى شيء، وسائر هذه الجمعيات البلهاء أيضاً.

وتغدو إلى غرفة الأطفال تعطي ثديها للصغير پيتيا، ابنها الوحيد. ولم يكن في سنته أي إنسان أن يقول لها أشياء معزية عاقلة قدر هذا الكائن الصغير البالغ ثلاثة أشهر من العمر، بينما هو يرتاح على صدرها فتحس بحركة شفتيه وبالأنفاس المترددة من أنفه الصغير. كان يقول لها: «أنت تغضبين، أنت تغارين، أنت تريدين الانتقام منه، أنت خائفة. أما أنا فإني ههنا. وأنا هو، فماذا يلزمك أكثر من ذلك؟» ولم تكن تعرف بما تجيب، فذلك أكثر من الحقيقة.

وخلال هذين الأسبوعين من القلق، ما أكثر ما لجأت ناتاشا إلى الصغير كي تطمئن نفسها. ولقد عنيت به كثيراً، حتى قد أفرطت في تغذيته فوقع مريضاً وأصابها الهلع لمرضه، ومع ذلك فقد كان ذلك بالضبط ما تحتاج إليه، فالعناية التي تقفها عليه تخلصها من قلقها بشأن زوجها.

وكانت ترضع الصغير عندما دقت أصداء عربة پيار لدى وقوفها عند عتبة البوابة، فجاءت المربية العجوز، وهي تعرف كم ستسعد سيدتها الآن، إلى الباب في الحال، دون أن تثير أي ضوضاء، وأطلت منه بوجهها المشعّ.

وسألت ناتاشا في همس سريع، وهي تخاف أن تأتي حركة توقظ الرضيع الملتف في غلائل النوم: أهذا هو؟

فأجابت المربية العجوز بصوت خفيف: أجل، يا عزيزتي، هذا هو.

www.Maktbah.com

فوثب الدم إلى محيا ناتاشا، وأتت قدماها بحركة غير إرادية، بيد أن تلك اللحظة لم تكن أوان القفز والركض، وفتح الطفل عينيه مجدداً وتطلع إليها، فكأنه يقول: «أنت هنا!» ثم عاد يرضع الثدي في كسل.

وسحبت ناتاشا الثدي من فمه بلطف، وأسلمته إلى المربية العجوز وهي تهدهده، ثم توجهت بخطى سريعة نحو الباب. لكنها توقفت عند الباب، فكان ضميرها يؤنبها لما ألم بها من فرح عجول قليلاً إذ تركته، ثم رجعت إليه. وكانت المربية العجوز، مرفوعة المرفق، تمرر الرضيع من فوق حافة مهده.

همست مبتسمة، وصوتها ينم عن تلك الألفة القائمة بينها وبين سيدتها: اذهبي، اذهبي، يا عزيزتي، كوني مطمئنة، اذهبي!

فانطلقت ناتاشا سريعة الخطى، نحو الغرفة الأخرى.

وشاهد دينيسوف، للمرة الأولى، ناتاشا القديمة وهو يمر في تلك اللحظة من المكتب إلى قاعة الاستقبال الكبيرة وغليونه في فمه. كان نور مغتبط، مشعّ متألق، يغمر بأمواج متدفقة محياها المتجلي.

صاحت به وهي تركض: هذا هو!

فأحس دينيسوف أنه سعيد بعودة پيار، رغم أنه لا يكنّ له كثيراً من الحب.

ولما وصلت ناتاشا إلى الدهليز، رأت شخصاً طويل القامة يرتدي معطف الشتاء منهمكاً في رفع الحزام الذي يغطي أنفه. وكانت تردد في نفسها: «هذا هو! هذا هو حقاً! إنه هنا»، ثم اندفعت، وعانقته، والتصقت به بشدة. مسندة رأسها إلى صدره، ثم ابتعدت عنه لتنظر إلى محياه الأحمر السعيد، المغطى بالجليد. «أجل، هذا هو! إنه سعيد، مسرور...».

ولكنها تذكرت فجأة سائر عذابات انتظارها خلال هذين الأسبوعين الطويلين فتلاشى الفرح الذي كان ينير محياها، فعقدت ما بين حاجبيها، وصبت على زوجها سيلاً من العتاب والكلمات المريرة:

twitter @baghdad_library

ـ أجل، أنت مسرور. أنت مسرور جداً، وقد تسليت جيداً... وأنا أثناء ذلك؟.. لو كنت تشفق على الأطفال فقط: إني أرضع، وقد فسد حليبي.... وقد كاد الصغير يلاقي حتفه. أما أنت. فتتسلى، أجل تتسلى...

كان پيار يعرف أنه غير مذنب ما دام لم يستطع مجيئاً بصورة أقل، وكان يعرف أن انفجار الغضب هذا من قبل ناتاشا في غير موقعه، وأنه سيخمد في لحظة على أية حال. وكان يعرف على الخصوص أنه، هو، سعيد مبتهج وكان يود أن يبتسم، لكنه لم يجرؤ على التفكير في ذلك. وساد الهلع ملامحه، وانحنى ظهره، وقال:

ـ لم أستطع! أقسم لك. لكن پيتيا، كيف حاله؟

ـ الآن، هو في حالة حسنة، هيا، تعال! كيف لا تخجل من نفسك؟ لو عرفت إلام صرت أثناء غيابك، والعذاب الذي عانيت...

ـ أنت لست مريضة؟

فأجابت دون أن تفلت يده: تعال، تعال.

وانتقلا إلى جناحهما.

وعندما جاء نيكولا وزوجته يفتشان عن پيار، وجداه في غرفة الأطفال يحمل على راحة يده اليمنى العريضة رضيعه الذي استيقظ، كان آخذاً في تدليله وكان وجه الصغير العريض، بفمه الخالي من الأسنان والمفتوح كل سعته، يحمل ابتسامة مرحة. وكانت العاصفة قد مرت منذ زمن طويل، وشمس مرحة تضيء محيا ناتاشا بينما هي تنظر بحنان إلى زوجها وابنها معاً.

استفهمت: وهل ناقشت الأمير جيداً في سائر القضايا؟

ـ أجل جيداً.

ـ أترى كيف يمسك به، كانت ناتاشا تعني رأسه، لكنه لشد ما أخافني والأميرة، هل رأيتها؟ أصحيح أنها عاشقة ذلك...

www.Maktbah.com

ـ أجل، تصوري...

وفي هذه اللحظة دخل نيكولا والكونتيسة ماري، فانحنى ﭘيار يقبلهما دون أن يترك ابنه، وراح يجيب عن أسئلتهما لكنه كان من الواضح أن الرضيع الصغير، بطاقيته ورأسه المتأرجح، جذب كل انتباه ﭘيار رغم كل ما في الحديث الذي يتبادلونه من أهمية.

قالت الكونتيسة ماري، وهي تنظر إلى الطفل وتلاعبه: ما ألطفه!

واسترسلت تقول، وهي تلتفت نحو زوجها:

ـ هذا ما لا أستطيع أن أفهمه، يا نيكولا. لماذا لا تحس بفتنة هذه الكائنات الصغيرة الرائعة؟

فأجاب نيكولا، وهو يرمي الرضيع بنظرة باردة: لا أفهم شيئاً من ذلك، ولا أستطيع. إنه قطعة من اللحم لا أكثر. هل تأتي، يا ﭘيار؟

فأضافت الأميرة ماري مبررة زوجها: ومع ذلك فليس أب أشد حناناً منه؛ لكنه ينبغي أن يكون لهم أقله سنة واحدة من العمر، وإما....

فقالت ناتاشا: أما ﭘيار، فهو يعرف جيداً كيف يكون مربية أطفال. وهو يدعي أن يده صنفت على قالب تفاهم. انظري بالأحرى...

وصاح ﭘيار فجأة، وهو يضحك: أجل، ولكن ليس من أجل ذلك وحده.

ثم أخذ الصغير، وأعاده إلى المربية العجوز.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

كان كل فرد يحتفظ بعاداته الخاصة كما هي الحال في كل عائلة، وكانت عوالم عديدة مختلفة تعيش في ليسيياغوري. ويتسامح مع ذلك في علاقاته بالآخرين، بحيث كان الكل يذوبون في مجموع متناسق. فإذا ما وقع حادث في ساحة المنزل، فهو فرح أو حزن بالنسبة إلى سائر هذه العوالم على السواء وعلى أية حال، فقد كان لكل من هذه العوالم، بصورة مستقلة عن العوالم الأخرى، أسبابه المخصوصة تماماً التي تجعله يغتبط أو يتألم لهذا أو ذاك من الأحداث.

وهكذا فإن عودة پيار، هذا الحادث المفرح الهام، قد اعتبره الجميع هكذا دون استثناء.

وكان الخدم، وهم أفضل حكام على أسيادهم، لأنهم يدينونهم لا تبعاً لأحاديثهم وتعابيرهم عن عواطفهم، بل تبعاً لأفعالهم وأسلوبهم في الحياة سعداء بعودة پيار لأنهم كانوا يعرفون أن الكونت سيكف بعد الآن عن الذهاب يومياً لتفقد ملكيته، وأنه سيكون أكثر مرحاً ولطفاً، وما عدا ذلك إن كلاً منهم سيتلقى هدية ثمينة بمناسبة العيد.

وكان الأولاد والمربيات مغتبطين بقدوم پيار، فهو نسيج وحده في قدرته على إشراكهم في الحياة العامة، كان هو الوحيد الذي يعرف كيف يعزف على الپيانو هذه القطعة الإسكوتلاندية، المعزوفة الوحيدة التي يعرفها، والتي يزعم

www.Maktbah.com

أنها يمكن أن ترافق سائر الراقصات اللواتي يمكن أن يتصورهن الخيال، دون حساب للهدايا التي يحملها بكل تأكيد للجميع دون تفرقة.

وكان نيكولا الصغير، وله من العمر الآن خمسة عشر عاماً، وهو فتى ذكي، ناحل، كستنائي الشعر المجعد، كثير جمال العينين، مغتبطاً لأن العم پيار، كما كان يناديه، هو عنده موضوع إعجاب وحب جموحين. ولم يجرب أي إنسان أن يوحي إليه بحب خاص لپيار الذي لم يكن يراه إلا في النادر من الأحايين. وكانت الكونتيسة ماري، التي أخذت أمر تربيته على عاتقها، قد جهدت بكل ما أوتيت من قوى كي تحمل نيكولا الصغير على حب زوجها بقدر ما كانت تحبه هي نفسها؛ وكان الصغير يحب عمه في الحقيقة، لكن بشيء غير محسوس من الازدراء، بينما هو يعبد پيار عبادة حقيقية. ولم تكن به رغبة في الصيرورة فارساً، أو الحصول على صليب القديس جورج مثل عمه نيكولا؛ كان يريد أن يكون عالماً، ذكياً، طيباً مثل پيار. وكان وجهه يتألق سعادة على الدوام في حضرة پيار، لكنه يحمر خجلاً ويضيق نفسه عندما يخاطبه عمه. ولم يكن ينطق بكلمة واحدة تسقط من شفتي پيار، ومن ثم يتذكر ذلك وحده أو مع ديسال، ويحاول أن يخمن معنى كل ما سمعت أذناه. وكانت حياة پيار الماضية، وأحزانه حتى عام ١٨١٢، قد شكل عنها صورة غامضة شعرية حسب الأحاديث التي سمعها، ومغامراته في موسكو، ووقوعه في الأسر وأفلاطون كاراتاييف، الذي حدثه پيار عنه، وحبه لناتاشا، التي كان الصبي يحبها أيضاً بعاطفة خاصة، وبصورة خاصة صداقته لأبيه الذي لم يكن يستطيع أن يتذكره، هذا كله كان يجعل من پيار، في عينيه، بطلاً وقديساً.

لقد استنتج الفتى من بعض نقاط الحديث الذي تساقط إليه عن أبيه وناتاشا ومن العاطفة التي تتردد في صوت پيار حين يتحدث عن المرحوم، ومن الحنان المتحفظ والحار الذي تتحدث به ناتاشا أيضاً عنه، استنتج وقد

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

بدأ يستيقظ على عاطفة الحب أن أباه قد أحب ناتاشا وسلمها إلى صديقه عند موته وكان هذا الأب الذي لا يتذكره، يمثل في نظره ألوهية لا يمكن أن تسبغ عليها صورة معينة ولم يكن يفكر فيه إلا ينقبض قلبه وتترقرق دموع الحزن والحمية في عينيه وهكذا فقد كان نيكولا الصغير سعيداً إذن لعودة پيار.

وكان المدعوون سعداء أيضاً، كان پيار بفضل بشاشته، يمكن من أواصر أعضاء الجمعية بأسرها.

وكان سائر الكبار في الدار، بالإضافة إلى زوجته مغتبطين إذ التقوا مجدداً الصديق الذي تتحول الحياة إلى جانبه أخف وطأة وأكثر هدوءاً.

وكانت النساء العجائز مسرورات بالهدايا التي يحملها. وبصورة خاصة بكون ناتاشا ستستعيد مرحها وتذوقها للحياة.

وكان پيار، وهو يشعر بأساليب النظر المختلفة التي ترى إليه بها هذه العوالم المتعددة، يمنح كلاً منها ما كان يتوقع منه.

كان پيار، هذا الرجل الأكثر سهواً ونسياناً بين البشر، قد ابتاع كل ما تشير إليه لائحة وضعتها زوجته، من دون أن ينسى شيئاً من توصيات حماته وصهره ولا قطعة القماش من أجل ثوب پيلوڤا العجوز، ولا الدمى من أجل أبناء أخيه ولقد وجد من الغرابة في الأيام الأولى من زواجه أن تتطلب زوجه منه ألا ينسى شيئاً مما يجب أن يشتري، والأغرب من ذلك أيضاً أنها غضبت بصورة جدية حين نسي كل شيء في رحلته الأولى بعد الزواج. لكنه اعتاد هذا الأمر فيما بعد.

ولم يدرك أن ناتاشا لا تطلب لنفسها ولا توصيه على شيء من أجل الآخرين، إلا عندما يتطوع لذلك من تلقاء نفسه، فقد صار يجد الآونة لذة غير منتظرة، لذة صبيانية بأن يتبضع الهدايا لسائر أهل المنزل، ولم يكن ينسى واحداً منهم قط. وإذا استحق لوم ناتاشا بعد الآن، فذلك لابتياعه أشياء كثيرة

www.Maktbah.com

وبثمن غال جداً أيضاً. لقد كانت ناتاشا، إلى جانب ما يسميه الناس عيوبها، إهمالها لهندامها وزينتها، وهي أمور كان يراها پيار صفات حميدة تجمع البخل أيضاً.

ومنذ أخذ پيار يعيش في سعة مع عائلة تتطلب مصاريف باهظة، وحبه والدهشة مستولية عليه أنه يعرف أقل من قبل بمرتين، وأن أعماله التي ساءت في الماضي، خصوصاً بفضل ديون زوجته الأولى: قد بدأت تتحسن الآن.

كان يعيش بمصاريف أقل لأنه أصبح مرتبطاً بعلاقات عائلية. فقد تنازل عن الزينة الأشد كلفة، ألا وهي ذلك الأسلوب في الحياة الذي يبدله المرء في كل لحظة، ولم يعد يرغب فيه بعد الآن. كان يشعر أن مجرى حياته قد ثبت من اليوم فصاعداً بصورة نهائية حتى وفاته، وأنه لم يعد في طاقته أن يغيره، وبالتالي فإن مجرى هذه الحياة قد قلت تكاليفه.

كان پيار يعرض مشترياته باسم الوجه مرح السيماء. قال وهو يغرد، مثل بائع، قطعة من قماش: ايه! أهي جميلة!

ونقلت ناتاشا، وهي تضع ابنتها البكر على ركبتها، نظراتها المتألقة من زوجها إلى ما يريها إياه بين يديه، وقالت: أهو من أجل السيدة پيلوف؟ رائع!

ولمست النسيج بيدها واسترسلت تقول: هذا يساوي روبلاً على الأقل للمتر الواحد.

فأعلن پيار لها سعره، فصاحت:

ـ إنه غالي الثمن! لكن أشد ما سيكون الصغار مسرورين، وأمي أيضاً!

وأضافت، دون أن تتمكن من كبح ابتسامة علت شفتيها تعجباً بمشط ذهبي مزين باللآلئ، قد انتشر زيه في تلك الأحيان.

ـ لكنك أخطأت إذ ابتعت لي هذا الشيء!

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ إن السيدة أديل قد أجبرتني على شرائه. اشترِ، هيا اشترِ، هذا ما ألحت به عليَّ.

ـ ولكن متى أحمله؟

وزرعته ناتاشا في ضفائرها:

ـ سأحمله يوم آخذ ماشا إلى ما بين الناس. لعل موضته تعود فتنتشر وقتئذ. هيا، فلنذهب.

وبعدما جمعا الهدايا، مرا أولاً بغرفة الأطفال، ثم توجها إلى غرفة الكونتيسة العجوز.

وكانت هذه الكونتيسة تجلس كعادتها مع السيدة پيلوف يلعبان الورق عندما دخل پيار وناتاشا إلى الصالة، ورزمهما تحت إبطهما.

كانت الكونتيسة العجوز قد تجاوزت الستين، وكان شعرها أبيض تماماً، وهي تلبس طاقية من الصوف تؤطر كل محياها. وكان وجهها يغص بالغضون وقد انقلبت شفتها العليا إلى الداخل قليلاً، بينما أظلمت عيناها وتلاشى لونهما.

كانت تحس أنها منسية بصورة غريبة في العالم، لا تتذوق العيش ولا تجد له مبرراً. وذلك منذ وفاة ابنها وزوجها في فاصل قصير من الزمن. كانت تأكل، وتشرب وتنام، وتقعد بين الناس، لكن لا تعيش أبداً. كانت الحياة تتركها لا مبالية تماماً، فهي لا تنتظر منها بعد الآن سوى الراحة وهذه الراحة لا تمكن أن تجدها سوى في الموت ولكن ما دام الموت لم يأت بعد، فلا بدَّ من الاستمرار في الحياة، يعني لا بدَّ من استخدام الإنسان لقواه الحية كأن المرء يلاحظ عندها ما يلاحظ عادة عند الأطفال والأشخاص الذين تقدمت السن بهم كثيراً، وقد بلغ حده الأقصى، ليس في حياتها أي هدف خارجي، ولم يبق منها فيما يبدو سوى الحاجة إلى تحريك ميولها وقابليتها المختلفة. كانت

www.Maktbah.com

في حاجة إلى الأكل، والنوم، والتفكير، والحديث، والبكاء، والاشتغال بأمر ما، والغضب... إلخ، وذلك بمقادير قليلة، لأنها فقط تملك معدة، ودماغاً، وعضلات، وأعصاباً وكبداً. وكانت تنجز ذلك كله دون أن يحثها عليه أي دافع خارجي، وليس مثل الأشخاص المتقدمين في السن من لا يرى وراء الهدف الذي يسعى إليه الهدف الآخر الذي هو بكل بساطة استخدام طاقته. كانت تتحدث بمجرد أنها تحتاج، حكماً، أن تقوم بقليل من العمل كي تشغل رئتيها ولسانها. وكانت تبكي مثل طفل صغير لأنها في حاجة إلى التمخط، وهكذا دواليك. إن كل ما هو غاية عند الكائنات المكتملة القوة لم يكن عندها سوى ذريعة.

وهكذا في الصباح، خصوصاً إذا كانت تناولت طعاماً دسماً في العشية، كانت تشعر بالحاجة إلى الغضب. فتختار لذلك أول ذريعة تقع عليها، ألا وهي صمم السيدة پيولوف.

تقول لها أي شيء كان بصوت خفيض، من طرف الغرفة الآخر فتهمس مثلاً:

ـ اليوم، أظن أن الطقس شديد الحرارة، يا عزيزتي.

وعندما تجيب السيدة پيولوف: «ولكن أجل، إنهم ههنا» فهي تهمهم في غضب إذن: يا إلهي، «لشد ما هي حمقاء وسخيفة».

وكانت الذريعة الثانية لغضبها هي الطباق الذي تتنشقه، والذي تجده تارة كثير الجفاف، وتارة كثير الرطوبة، وتارة خشناً قليل النعومة. وبعد هذه الفترات من الغضب، كانت الصفراء تتدفق إلى محياها، وهكذا كانت الوصيفات يعرفن بدلائل يقينية متى ستعيد پيولوف صماء من جديد، ومتى سيصير الطباق كثير الرطوبة من جديد، ومتى سيصفر لون سيدتهن مجدداً. وكما أنها كانت تحتاج في بعض الأحايين إلى تشغيل صفرائها، كذلك لم

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

يكن لها بد من استخدام الإمكانيات الباقية لها ومن التفكير بحيث أن الألعاب الطويلة بالورق تصلح ذريعة لها في سبيل ذلك. وإما تحتاج إلى البكاء، فتفكر في الكونت المرحوم وإما تحتاج إلى القلق، فتعنى بنيكولا وصحته. وإن كانت تحتاج إلى قول أشياء خبيثة، فالكونتيسة ماري هدف هجومها. إذن وإن كانت تحتاج إلى تمرين أعضائها الصوتية، الأمر الذي يحدث في غالب الأحيان حوالى الساعة السابعة بعدما تأخذ قسطها من الراحة والنوم في النور المعتم لغرفتها، فذريعتها هي إذن تكرار القصص نفسها للمستمعين أنفسهم.

ويدرك سائر المستمعين في الدار حالة السيدة العجوز، رغم أن أياً منهم لم يتحدث عنها. وكانوا جميعاً يبذلون جهدهم لإرضائها. وكانت النظرات الخاطفة ونصف الابتسامات المكتئبة التي يتبادلها نيكولا، وپيار، وناتاشا، والكونتيسة ماري تشهد وحدها أن الجميع يفهمون هذه الحال التي صارت إليها.

بيد أن هذه النظرات، ما عدا ذلك، كانت تقول أشياء أخرى. كانت تقول إن الكونتيسة العجوز قد أنهت مهمتها في هذا العالم. وأنها لم تكن على الدوام كما هي الآن، وأننا جميعاً سنصير مثلها يوماً ما، وأننا سنكون سعداء بالنزول عند رغباتها وأهوائها، وأن نتمالك أنفسنا من أجل هذا الكائن الذي كان عزيزاً جداً في الماضي، والذي كان يطفح حياة من أجلنا في غابر الأيام، والذي صار اليوم باعثاً على الشفقة حتى درجة بعيدة. كانت سائر هذه النظرات تقول:

ولم يكن في الدار سوى الأشخاص الأغبياء تماماً أو الخبثاء، والأطفال الصغار، لا يفهمون ذلك فيتجنبون لهذا السبب الكونتيسة العجوز ويبتعدون عنها.

www.Maktbah.com

الفصل الثالث عشر

كانت الكونتيسة في تلك الحالة العادية حيث تشتد الحاجة إلى ممارسة ذكائها بتمرين من الصبر الطويل، عندما دخل پيار وزوجته إلى الصالة. وهكذا كان من الواضح، بالرغم من تفوهها بالكلمات التي تكررها كلما رجع پيار أو ابنها من السفر:

ـ حسناً: «حان وقت العودة، يا عزيزي؛ لقد انتظرناك طويلاً، وهذا أنت أخيراً. شكراً لله» وكلما تلقت هدية ما! «ليست الهدية التي تسرني، يا صديقي الصغير. شكراً لأنك فكرت أن تأتي بشيء ما لعجوز مثلي» ـ كان من الواضح أن پيار يزعجها في تلك اللحظة إذ يعكر صفو لعبتها التي لم تكن تسير في طريق النجاح وأنهت اللعبة، وعندئذ التفتت صوب الهدايا التي كانت تتألف من علبة لورق اللعب ذات صنع جميل للغاية، ومن كأس فني زرقاء اللون لها غطاء لطيف قد رسمت عليه جماعة من الرعيان، ومن علبة طباق ذهبية يزينها رسم الكونت، قد أوصى پيار عليها عند عميل في پيترسبورغ (وهي ما كانت الكونتيسة تتوق إليه منذ زمن بعيد). ولم تكن بها رغبة في البكاء في تلك اللحظة، ولذا فقد نظرت إلى الصورة بلا مبالاة كي لا تهتم سوى بالعلبة وحدها.

قالت مكررة عباراتها المعتادة: شكراً يا صديقي، لقد منحتني سروراً عظيماً. لكن الأمر الأفضل هو وجودك ههنا بلحمك وعظمك. وإلا، فلا معنى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لذلك كله. أقله يجب أن توبخ زوجتك، فهي عديمة الحس السليم! إنها أشبه بالمجنونة حين تكون غائباً، فهي لا ترى شيئاً ولا تتذكر شيئاً.

واسترسلت تقول: أنّا تيموڤييڤنا، انظري العلبة التي جاءنا ابننا بها.

فأعجبت السيدة پيولوف بالهدايا وأشرقت فرحاً حين رأت قطعة القماش الخاصة بها.

كان ثمة أشياء كثيرة يريد پيار، وناتاشا، ونيكولا، والكونتيسة ماري، ودينسيوف، أن يتبادلوا الحديث في موضوعها، ولا يستطيعون ذلك أمام الكونتيسة العجوز، ليس لأنهم يخفون هذه الأشياء عنها، بل لأنها لم تكن تعرف إلا الشيء القليل مما يحدث حولها، بحيث إذا فتح حديث في حضورها، فهي تبدأ بطرح الأسئلة ذات اليمين وذات اليسار، وتطلب أن يعاد على مسامعها مجدداً ما سبق فقيل لها مائة مرة: إن فلاناً مات، وإن فلاناً تزوج، وهي أمور لم تكن تنجح في تذكرها. وتجمع أهل الدار أثناء ذلك، كما هي العادة، في الصالون حول السماور، حيث اضطر پيار أن يجيب عن عدد كبير من أسئلة الكونتيسة العجوز عديمة النفع، فيقول لها إن الأمير ڤاسيلي قد شاخ، وإن الكونتيسة ماري ألكسيڤنا ما برحت تذكرها وهي ترجوها ألا تنساها، وهكذا دواليك.

واستمر هذا الحديث الذي لا يثير اهتمام أحد، لكن الضروري رغم ذلك، طوال فترة تناول الشاي. وكانت سونيا تجلس إلى جانب السماور، وقد اجتمع سائر أشخاص العائلة الكبار حول الطاولة المستديرة، بينما الأطفال، والمربيات والمربون قد تناولوا نصيبهم من الشاي من قبل، وأصواتهم تصل الآونة من المخدع المجاور حيث تجمعوا. وكان كل يحتل مكانه المعتاد، فنيكولا يجلس إلى جانب المدفأة، أمام طاولة صغيرة يقدم له الشاي عليها.

وكانت ميلكا العجوز، الكلبة العداءة، ابنة ميلكا الأولى، وهي ذات رأس أبيض تماماً تبرز فيه عينان سوداوان كبيرتان، ترتاح على مقعد إلى جانبه. وكان دينيسوڤ، بشعره المصفف، وشاربيه، وسالفيه اللذين وخطهما المشيب، وبزة الجنرال المفكوكة الأزرار التي يرتديها، يجلس إلى جانب الكونتيسة ماري، أما پيار فكان مكانه بين زوجته والكونتيسة العجوز، وكان يروي حديثاً يعرف أنه يهم السيدة العجوز ويمكن أن يفهم منها، فهو يتحدث عن الأحداث السياسية وعن الأشخاص الذين كانوا يشكلون في الماضي حلقة الكونتيسة، حلقة تعج بالحياة والنشاط في أيامها، لكن أعضاءها قد تبعثروا اليوم في مختلف أرجاء العالم، وهم يكملون بقية أيام عمرهم، مثلهم مثلها، يلتقطون الثمرات الأخيرة لما زرعوه في ماضي أيامهم.

وعلى أية حال، فإن معاصري الكونتيسة هؤلاء يشكلون بالنسبة إليها العالم الحقيقي الجدي الوحيد. وكانت ناتاشا تعرف في حيوية پيار أن الرحلة قد أثارت اهتمامه كثيراً، وأن في جعبته أشياء كثيرة يرويها، لكنه لم يجرؤ على المباشرة بذلك في حضرة الكونتيسة العجوز. ولم يكن دينيسوڤ، وهو ليس عضواً في العائلة، بقادر على فهم تحفظ پيار، فهو رغم امتعاضه يعنى كثيراً بالحوادث الجارية في پيترسبورغ، ولا يني يستحث پيار كي يقدم التفاصيل عن القضية الجديدة الخاصة بفرقة سيميونوڤسكي، وأراكتشيڤ، وجمعية الكتاب المقدس. وكان پيار ينحرف أحياناً فيروي قصة ما، لكن ناتاشا ونيكولا يسرعان فيردانه في الحال إلى الحديث عن صحة الأمير إيڤان والكونتيسة ماري أنتونوڤنا.

وسأل دينيسوڤ: هيا، إنما هذا جنون، وغوستر ذاك، وتاتارينوڤا أيمكن أن يستمر هذا الأمر؟

twitter @baghdad_library

فهتف پيار:

ـ أجل، هذا يستمر، وأكثر من أي وقت مضى: إن جمعية الكتاب المقدس[1] هي كل الحكومة الآن.

سألت الكونتيسة العجوز التي أنهت كأسها، فهي تبحث الآن عن حجة تتذرع بها كي تغضب.

ـ عمّ تتحدث، يا صديقي العزيز؟ ماذا قلت؟ الحكومة؟ أنا لا أفهم.

فتدخل نيكولا في الحديث قائلاً، وهو يعرف كيف يترجم الأشياء إلى لغة والدته: لكنك تعرفين جيداً يا أماه، أن الأمير ألكسندر نيكولا ييڤتش غولتسين قد نظم جمعية، وهو لذلك على قدر من القوة فيما يقولون.

فقال پيار:

ـ أراكتشيڤ وغولتسين إنهما كل الحكومة اليوم. وأية حكومة! إنهما يريان المكايد في كل مكان، ويخافان من كل شيء.

قالت الكونتيسة العجوز ممتعضة:

ـ كيف؟ كيف يمكن أن يكون الأمير ألكسندر نيكولا يڤيتش مذنباً؟ إنه رجل كريم للغاية وقد التقيته عند ماري أنتونوڤنا.

ولما رأت أن الجميع يلوذون بالصمت، ازدادت حنقاً وأضافت: في هذه الأيام يريد كل امرئ أن يدين سائر الناس جمعية إنجيلية، أين الشر في هذا؟

ووقفت صارمة الوجه، فنهض الجميع أيضاً، واتجهت إلى مخدعها لتعاود اتخاذ مكانها إلى طاولتها.

ورنت في الغرفة المجاورة، في ملء السكون الأليم الذي ساد المكان،

---

(١) جمعية الكتاب المقدس هي نسخة عن الجمعية العاملة في إنجلترا. وقد حلّت إثر اتهامها بنشر كتب إلحادية. (المترجم).

www.Maktbah.com

ضحكات الأطفال وأصداء أصواتهم، مما لا شك فيه أن شيئاً يبعث على المرح بصورة خاصة قد اجتاح ذلك العالم الصغير.

كان صوت ناتاشا الصغيرة الحاد الفرح يعلو فوق بقية الأصوات:

ـ لقد تم، لقد تم.

فتبادل پيار نظرة مع الكونتيسة ماري ونيكولا، أما ناتاشا فكان لا ينقطع أبداً عن النظر إليها، وافترت شفتاه عن ابتسامة سعيدة.

صاح: يا لها من موسيقى رائعة!

فقالت الكونتيسة ماري: إنها أنا مكاروڤنا قد أنهت الجوربين.

فصاح پيار وهو يقفز من مكانه:

ـ أوه! أنا ذاهب لأرى.

وتوقف عند الباب وقال:

ـ أتعرفين لماذا أحب هذه الموسيقى بصورة خاصة؟ ذلك أنهم أول من يخبرني أن الأمور جميعاً تسير على ما يرام، اليوم وأنا قادم، كان خوفي يتفاقم بقدر ما أقترب من المنزل. وما كدت أدخل الدهليز حتى سمعت أندريوشا يضحك بأعلى صوته، فقلت في نفسي: كل شيء على ما يرام.

فوافق نيكولا على كلامه بقوله:

ـ إني أعرف. وأنا لا أجهل هذا الشعور. لكنه يجب ألا أذهب للاطلاع، فهذان الجوربان مفاجأة يخبئونها لي.

ومر پيار إلى غرفة الأطفال حيث كانت الهتافات والضحكات تزداد رنيناً وسمع صوته ينادي:

ـ هيا أنا ماكاروڤنا، أنت والأطفال، هنا إلى وسط الغرفة. تحت إمرتي واحد، اثنان، وعندما أقول ثلاثة.. أنت، ابق هنا، وأنت بين ذراعي.. مفهوم؟ واحد، اثنان...

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وكان صمت قصير...

ـ ثلاثة!

وملأ الأطفال الغرفة بزمجرة ظافرة وصاحوا:

ـ اثنان، هناك اثنان!

كان ثمة جوربان تحوكهما أنا ماكاروڤنا معاً، بسر لا يعرفه أحد سواها، فإذا اكتملا أخرجتهما الواحد من الآخر بمهابة واحتفال، في حضور الأطفال جميعاً!

www.Maktbah.com

الفصل الرابع عشر

بعد أن قبّل الأطفال والديهم، وتمنوا لأصحاب البيت ليلة سعيدة، انحنى المربون والمربيات وذهبوا بعالمهم الصغير ولم يبق إلا ديسال مع تلميذه، ودعا المربي نيكولا الصغير إلى الخروج بصوت خفيض، فأجاب التلميذ بصوت خفيض أيضاً:

ـ كلا، أيها السيد ديسال، سأطلب من خالتي السماح بالبقاء.

وقال، وقد اقترب من الكونتيسة ماري:

ـ عمتاه، اسمحي لي بالبقاء.

كان وجهه يعبّر عن الرجاء، والانفعال، والحماسة، وتطلعت الأميرة ماري إليه والتفتت صوب پيار، وقالت له:

ـ عندما تكون هنا. فهو لا يستطيع الذهاب.

فأجاب پيار، وهو يمد يده إلى الأستاذ السويسري: سأجيئك به حالاً، يا سيد ديسال عم مساء.

وتوجه مبتسماً، إلى نيكولا الصغير:

ـ يلوح لي أننا لم نلتقِ بعد، نحن الاثنين؟

والتفت إلى الكونتيسة ماري وأضاف: آه: لشد ما أصبح يشبهه، يا ماري.

فسأل الطفل، وقد أصبح قرمزي اللون فجأة، وراح ينظر إلى پيار من أسفل إلى أعلى بعينين تتألقان إشراقاً.

ـ أبي؟

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فأشار پيار برأسه ووصل ما انقطع من حديث مع الأطفال. وتابعت الكونتيسة ماري عملها التطريزي، بينما عينا ناتاشا لا تغادران زوجها لحظة واحدة. وكان نيكولا ودينيسوف قد نهضا، وتناول كل منهما غليونه، وراحا يطرحان الأسئلة على پيار وهما يدخنان ويتناولان الشاي من يد سونيا التي تقف بعناد، ودلائل الحزن على سيماها، قريباً من السماور. وكان الصبي المريض ذو الشعر المجعد والعينين البراقتين قد انزلق في زاوية من الغرفة دون أن يلاحظه أحد، وأدار رأسه ذا العنق الناحل، البارز من ياقة ضيقة، نحو الجهة حيث يقف پيار؛ وكان يرتجف من حين إلى آخر، واقعاً كما يظهر تحت سلطان إحساس قوي جديد، ويهمس بشيء ما بينه وبين نفسه.

كان الحديث يدور في موضوع الإشاعات المنتشرة اليوم، والصادرة عن طبقات الحكومة العليا، التي يجد معظم الناس أن كل أهمية السياسة الداخلية متمركزة فيها. وكان دينيسوف، المستاء من الحكومة بسبب ما أصيب به من فشل في حياته السياسية، يتلقى بفرح أنباء الحماقات التي ترتكب في رأيه، في پيترسبورغ في الوقت الراهن، ويقدم ملاحظات حادة عن كل ما يقدم پيار من تقارير.

فيما مضى، كان يجب أن يكون المرء ألمانياً، أما اليوم فيجب أن يرقص مع تاتارينوڤا والسيدة دي كرودنر[١]، يجب أن يقرأ... ايكهارتشوش وشركته[٢] آه! لو كان يمكن أن نصف ههنا شجاعة بوناپرت: لقد كان يعرف إذن كيف يتدبر أمره كي يكنس سائر هذه الحماقات.

ـ أسألكم ما معنى أن تعطى فرقة سيميونوڤسكي للجندي شوارتز[٣]

(١) كاتب صوفي ترجمت أعماله إلى الروسية.

(٢) صوفية روسية كان لها تأثير دائم في ألكسندر.

(٣) شوارتز، كولونيل صنيعة أراكتشيف الذي لم يكن الأمبراطور يرغب أن يجحد به.

www.Maktbah.com

وكان نيكولا لا يعتبر، رغم عدم إحساسه بالحاجة إلى أن ينظر إلى الأشياء نظرة الشر مثل دينيسوڤسكي، أنه من الواجب والمهم جداً أن يقول كلمته في الحكومة. كان يرى أن تعين فلاناً وزيراً لهذه الوزارة أو تلك، وتعين فلاناً حاكماً عاماً لهذه المقاطعة أو تلك، وأن هذه الكلمة التي تفوه بها الأمبراطور أو تلك الكلمة التي تفوه بها ذاك الوزير هي شؤون ذات أهمية عظمى، فهذا يسأل پيار عنها. وكانت أسئلة هذين المتحدثين لا تسمح للحديث أن يخرج من إخبار هذا النوع من الإشاعات الموثوق بها المعهودة في الطبقات العليا من الجهاز الإداري.

لكن ناتاشا، وهي التي تعرف سائر أحاسيس زوجها وأفكاره، خمنت أن پيار يود منذ مدة طويلة، دون أن يتمكن من ذلك، أن ينتقل إلى موضوع آخر يتحدث عن المسائل الخصوصية التي حثته إلى القيام بهذه الرحلة إلى پيترسبورغ كي يسأل الصفح من صديقه الجديد الأمير فيدور. وهكذا قد أسرعت إلى مساعدته فسألته عن قضيته مع الأمير فيدور.

سأل نيكولا: ما هي القضية؟

أجاب پيار، وهو يدور بنظره حواليه:

ـ الشيء نفسه دائماً. إن الجميع يرون أن الأمور لا تسير باستقامة، وإن هذا لا يمكن أن يدوم، إن واجب كل امرئ شريف أن يفعل في حدود قواه.

فقال نيكولا وهو يعقد ما بين حاجبيه: وما يستطيع الناس الشرفاء أن يفعلوا؟ ماذا نستطيع أن نفعل حقاً؟

ـ حسناً بالضبط..

فقال نيكولا: فلننتقل إلى مكتبي.

وسمعت ناتاشا صوت المربية العجوز وكانت تتوقع منذ فترة طويلة أن ينادوها لإرضاع صغيرها، فذهبت إلى غرفة الأطفال. ولحقت الأميرة ماري

twitter @baghdad_library

بها بينما انتقل الرجال إلى مكتب نيكولا، يتبعهم الصغير نيكولا پولكونسكي دون أن يلاحظه عمه، وذهب ينزوي في الظل، قريباً من النافذة إلى جانب طاولة العمل.

وسأل دينيسوف: إذن ماذا تفعل أنت؟

وقال نيكولا: أوهام دائماً.

وبدأ پيار يقول، دون أن يجلس، وهو يذرع أرض الغرفة بخطاه تارة ويتوقف تارة أخرى، يتابع الإشارات بيديه، بينما ينطلق الصوت من فمه صافراً:

ـ حسناً إليكم رأيي! إن الوضع في پيترسبورغ هو كما يلي: إن الأمبراطور لا يتدخل في أي شيء، على الإطلاق، بل يستسلم للصوفية تماماً، كان پيار، في تلك الفترة، لا يغفر لأي إنسان كونه صوفياً، هو لا يطلب سوى طمأنينته، وطمأنينته لا يمكن أن يوفرها له سوى هؤلاء الناس الذين لا إيمان لهم ولا ناموس، الذين يسطون على كل شيء، ويخنقون كل شيء، أمثال ماغنيتسكي[١]، وأراكتشييف ومن لفّ لفّهما...

وتوجه إلى نيكولا بقوله:

هل توافق أنه، إذا لم تشرف بنفسك على أمور أملاكك، بل كنت لا تسعى سوى وراء الطمأنينة، فإنك بالغ هدفك بسرعة أعظم بقدر ما يكون وكيلك أشد قسوة وعنفاً؟

فأجاب نيكولا: ولكن بلى. لم سؤالك هذا؟

ـ إذن فكل شيء ينهار. في المحاكم تسود السرقة، وفي الجيش العصا، ومشية العرض والمستعمرات العسكرية. إنهم يضطهدون الشعب، ويخنقون

(١) عميد جامعة كازان، أتلف سائر الكتب المشتبه فيها.

www.Maktbah.com

التعليم ويدمرون كل ما هو شريف وفتي. والجميع يعرف أن ذلك لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، الحبل قد توتر حتى الدرجة القصوى، ولا بد أن ينقطع.

لم يكن پيار يقول شيئاً جديداً، بل ذلك هو رأي الناس دائماً منذ كانت الحكومات، وكلما تفحص المرء أفعال أية حكومة كانت. واسترسل يقول:

ـ قلت لهم شيئاً واحداً في پيترسبروغ.

فاستفهم دينيسوف:

ـ من هم؟

فقال پيار بنظرة ذات مغزى:

ـ أنتم تعرفون ذلك جيداً: الأمير فيدور وسائر الآخرين إن نشر التعليم وأعمال الخير شيء رائع من دون شك. إنه هدف مدهش، لكن لا بدَّ من أشياء أخرى في الظروف الراهنة.

وفي هذه اللحظة، لاحظ نيكولا وجود ابن أخيه، فاكفهرّ وجهه، واقترب منه قائلاً: ماذا تفعل هنا؟

فأخذ پيار نيكولا من ذراعه، واسترسل:

ـ ما بالك؟ دعه. قلت لهم: هذا لا يكفي. بل لا بدَّ من شيء آخر في هذا الحين. ما دمتم تنتظرون أن ينقطع الحبل المشدود كثيراً، ما دمتم تتوقعون جميعاً، من لحظة إلى أخرى، انقلاباً محتوماً، فيجب أن نتكاتف بقدر المستطاع أن يتماسك أكبر عدد ممكن منا بالأيدي، وذلك كي نقف في وجه الكارثة العمومية. كل ما هو فتي وقوي يجتذب هناك ويفسد، فهذا يغرونه بالنساء، والآخر بالهبات، والثالث بالغرور أو بالمال. وإنهم ليتنقلون جميعاً إلى المعسكر الآخر. أما المستقلون، مثلك ومثلي، فلم يبق منهم أحد. وإني

twitter @baghdad_library

لأكرر ذلك: وسعوا حلقة الجمعية، وليكن شعاركم لا الفضيلة فحسب، بل الاستقلال والعمل أيضاً.

وقرّب نيكولا مقعداً، وقد نسي ابن أخيه، واستقر فيه والامتعاض بادٍ على سيماه: وكان يسعل، ويعقد حاجبيه أكثر فأكثر بقدر ما يرهف أذنيه لأقوال پيار:

صاح: أجل، ولكن العمل لأي هدف؟ وماذا ستكون علاقاتكم بالحكومة؟

ـ العلاقات؟ ستكون علاقات تعاون. فيمكن ألا تكون الجمعية سرية، وأن تسمح الحكومة لها بالعمل. وهي ليست معادية للحكومة، ما دامت تتكون من عناصر محافظة حقاً. إنها جمعية نبلاء بكل معنى الكلمة. وكل ما تبغي هو منع مخلوق مثل بوغاتشوف من ذبح أولادك وأولادي، ومنع مخلوق مثل أراكتشييف أن يرسلني إلى مستعمرة عسكرية. من أجل هذا فقط نتماسك بالأيدي، وهدفنا الوحيد هو الخير العام والسلامة العامة.

ـ أجل، ولكن جمعية سرية لا يمكن أن تكون سوى معادية للحكومة وضارة بها، ولا يمكن أن ينشأ عنها سوى الشر.

ـ لماذا؟ هل كانت جمعية توغن التي أنقذت أوروپا، ما كانوا يجرؤون بعد أن يفكروا أن روسيا هي التي أنقذت العالم، ضارة؟ ولقد كانت هذه الجمعية جمعية خيرية، كانت المحبة، والتعاون المتبادل. وهذا هو ما يشبه به المسيح على الصليب...

كانت ناتاشا، وقد دلفت إلى الغرفة في ملء هذا الحديث، تتأمل زوجها بغبطة. كانت مبتهجة لا بما يقول، فهذا لا يثير اهتمامها، بل يبدو لها كله بسيطاً تماماً ومعروفاً منذ زمن طويل، كانت تملك هذا الشعور لأنها تعرف ينبوع هذا كله، ألا وهو نفس پيار، كانت مسرورة إذ ترى الحيوية المتدفقة في كل شخصه.

www.Maktbah.com

وكان الصبي الصغير ذو العنق الرقيق المنبثق من ياقته الضيقة، وقد نسيه الجميع، يلتهم بعينيه بشيء من البهجة والحماسة يفوق ما في نظرة ناتاشا إليه. كانت كل كلمة تسقط من فم عمه تلهب قلبه، فيحطم بحركة عصبية من أصابعه، دون أن ينتبه، الشمع والأرياش الموجودة في متناول يده على مكتب عمه نيكولا.

ـ ليس هذا كما تقول مطلقاً! إليك ما كانت الجمعية توغن الألمانية، والاتحاد الذي اقترحه أنا...

فقاطعه دينيسوف بلهجة حاسمة عنيفة:

ـ هيا، أيها الأخ، إنها تصبح لأكلة اللحم المقدد، تلك الجمعية الألمانية. أما أنا فلا أفهم شيئاً منها، ولا أستطيع أن أقول هذه الكلمة جيداً، كل شيء يذهب من سيئ إلى أسوأ، هذا ما أوافق عليه. لكن الجمعية، هذا ما لا أفهمه. كما أنه لا يعجبني. إذا أردت ثورة، فباقٍ معكم.

وتبسم پيار وانفجرت ناتاشا ضاحكة، لكن نيكولا رفع حاجبيه أكثر من ذي قبل وراح يبرهن لپيار أن الانقلاب شيء غير متوقع، وأن الخطر الذي يتحدث عنه لا وجود له سوى في مخيلته. وكان پيار يبرهن له العكس في ذلك. ولما كان يملك فكراً أقوى وأخصب فسرعان ما أحس نيكولا بالغلبة، الأمر الذي ضاعف سخطه، لأنه كان يشعر في أعماق نفسه، بدافع في حدس باطني أكثر منه بدافع من منطق عقلاني، أن فكرته صحيحة بصورة لا شك فيها.

قال وهو ينهض، ويضع غليونه على الطاولة بحركة عصبية، وأخيراً يرميه أرضاً:

ـ اسمع ما سأقول لك، وإن كنت عاجزاً عن برهانه. تزعم أن كل شيء

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عندنا يسير بصورة رديئة، وإنّا نتّجه صوب ثورة جارفة؛ وأنا لا أرى شيئاً من هذا كله؛ وأنت تقول إن القسم مجرد عهد واتفاق، أما أنا فأجيبك هكذا: أنت أفضل صديق لي، وهذا ما تعرفه؛ ومع ذلك، فإذا شكلت جمعية سرية وقمت ضد الحكومة، مهما تكن هذه الحكومة، فأنا أعرف أن من واجبي إطاعتها. وإذا أمرني أراكتشيف في هذه اللحظة أن أهاجمك على رأس فرقة عسكرية وأقتلك، فسوف أفعل دون تردد على الإطلاق. والآن، قل في ذلك ما تشاء.

وساد سكون ثقيل بعد هذه الأقوال المفاجئة. وكانت ناتاشا سباقة إلى الكلام للدفاع عن زوجها بالهجوم على أخيها. وكان دفاعها ضعيفاً أخرق، لكنها توصلت إلى غايتها. واتصل الحديث، بعد أن فقد تلك اللهجة المشبعة بعداء كريه، والتي ختم نيكولا حديثه بها.

وعندما نهض الجميع ليذهبوا لتناول العشاء، اقترب نيكولا پولكونسكي الصغير من پيار، شاحب الوجه، متألق العينين، وسأل:

ـ أيها العم پيار.. أنت... لا... لو كان أبي حياً بعد... أفلا يكون من رأيك؟

وعرف پيار فجأة أي عمل عنيف، خاص، مستقل ومعقد، قد قام في دماغ هذا الطفل وقلبه أثناء الحديث، وأما تذكر كل ما قاله آسفاً أن يكون هذا الصغير قد أصغى إليه. ومع ذلك، لم يكن له بد من الجواب.

ـ أظن أن بلى.

قال ذلك في شيء من الضيق، ثم خرج من الغرفة.

فحنى الصبي الصغير رأسه، وعندئذ رأى للمرة الأولى ما أحدث من أضرار على مكتب عمه، فاحمرت وجنتاه، واقترب من نيكولا.

www.Maktbah.com

قال، مشيراً إلى الشمع والأرياش الممزقة: عفواً يا عماه، أنا الذي ارتكبت هذا...

فانتفض نيكولا في شيء من الغضب.

تمتم، وهو يرمي بقطع الشمع والأرياش تحت الطاولة:

ـ حسناً، حسناً.

واستدار عن الصغير، باذلاً جهداً أليماً فيما يبدو ليكبح جماح غضبه وصاح: لم يكن لك مكان ههنا.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

خلال العشاء، لم يجر الحديث عن السياسة أو الجمعيات السرية بل انتقل، على العكس، إلى الموضوع الذي يحبه قلب ناتاشا، ألا وهو ذكريات عام ١٨١٢ التي أثارها دينيسوف؛ وكان پيار فرحاً متحمساً بصورة غير معهودة وافترق الجميع، أخيراً في صداقة ووئام.

وبعد الطعام، خلع نيكولا ثيابه في غرفته، وأصدر أوامره لوكيل أملاكه الذي كان في انتظاره منذ مدة طويلة، ثم دخل بثياب النوم إلى غرفة النوم فوجد زوجته جالسة إلى مكتبه تكتب.

استفهم:

ـ ماذا تكتبين، يا ماري؟

فاحمرت الكونتيسة ماري. كانت تخاف ألا يفهم زوجها جيداً ما هي في سبيل كتابته وبالتالي لا يوافق عليه.

ولذا فقد كانت تفضل أن تخفي ما تكتب عنه، لكنها حتى كانت سعيدة في الوقت نفسه لأنه اكتشفها أثناء هذه الكتابة؛ فهي مضطرة بالتالي أن تحدثه عنها.

قالت وهي تمد إليه دفتراً أزرق مغطى بكتابتها الكبيرة الثابتة:

ـ إنه مذكراتي.

فأجاب نيكولا بشيء من السخرية وهو يتناول الدفتر منها:

ـ مذكرات؟

www.Maktbah.com

وقرأ فيه بالفرنسية:

ـ «٤ كانون الأول/ ديسمبر. اليوم، حين استيقظ أندريه رفض أن يرتدي ملابسه، فأرسلت السيدة لوزي في طلبي. ولقد تصلب في رغبته الطارئة، فجربت توبيخه لكن ذلك لم يفد سوى في مضاعفة سخطه. وعندئذ قررت أن تتركه على هواه، قائلة له إني لا أحبه بعد الآن، وبدأت أعتني بمساعدة المربية ببقية الأطفال. وبقي فترة طويلة في ستون، كأنه مصعوق، ثم ارتمى عليّ بقميصه، وراح ينشج طويلاً بحيث لم أتمكن من تعزيته. وكان من الواضح أن ما يعذبه أكثر من كل شيء آخر هو كونه أحزنني، وحين أعطيته دفتر علاماته مساء، أخذ يبكي مجدداً بصورة تثير الشفقة وهو يعانقني. ليمكن أن ننال منه كل شيء عن طريق الحنان.

وسأل نيكولا: ما هو دفتر العلامات هذا؟...

ـ إني أضع الآن، كل مساء، علامة سلوك للكبار.

والتقى نيكولا بالنظرة المتألقة المثبتة فيه، وراح يتصفح الدفتر من جديد ويقرأه. كانت المذكرات تروي كل ما يبدو ذا أهمية في عيني الأم في الحياة الطفولية، كل ما يكشف عن خلق الأطفال أو يؤدي إلى تأملات من المرتبة العامة في موضوع مناهج التثقيف. وكان معظمها تفاصيل صغيرة عادية، لكنها تلوح هكذا في نظر الأم، أو في نظر الأب الذي كان يقرأ للمرة الأولى هذه المذكرات التي تدور حول الأطفال وحدهم.

وكان يقرأ فيها، بتاريخ الخامس من كانون الأول/ ديسمبر:

«لقد أساء ميتيا التصرف على مائدة الطعام، وقد أمر أبوه أن تمنع الحلوى عنه. ولم تعط له، يا لهيئته المحزنة وهو يرى الآخرين يأكلون. اعتقد أن العقاب بالحرمان من الحلوى لا ينقل سوى مضاعفة الجشع سأقول ذلك لنيكولا».

ووضع نيكولا الدفتر ونظر إلى زوجه. كانت العينان المتألقتان ترمقانه

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وتسألانه...، أيوافق على المذكرات أم لا يوافق؟، ولم يكن ثمة ريبة: لم يكن يوافق فحسب، بل كان يقف معجباً تجاه امرأته.

كان يفكر: لعل هذا التحذلق كله لم يكن ضرورياً، لعله بدون جدوى. لكن هذا التوتر الفكري الدائم الذي لا يهدف سوى إلى غاية واحدة، ألا وهي خير الأطفال، يلذ له ويرضيه. ولو استطاع نيكولا أن يحلل عاطفته فقد كان يكتشف إذن أن حبه المتين لزوجه، الحنون والفخور في الوقت نفسه، يستند بصورة خاصة إلى تلك الدهشة التي يشعر بها تجاه هذه الحياة الروحية المتدفقة، تجاه هذا الشعور الأخلاقي الرفيع، العصي على إدراكه، المتميز به، العالم الداخلي حيث تعيش بصورة دائمة.

كان فخوراً بأن تكون على هذه الدرجة العظيمة من الذكاء والطيبة، ويعترف بتأخره عليها في عالمه الباطني، لكنه يغتبط أكثر فأكثر لأنها لم تكن، بمثل هذه الروح، ملكه، بل كانت أيضاً جزءاً من ذاته.

قال بلهجة حنون: أوافقك تماماً يا صديقتي.

وأضاف، بعد لحظة من الصمت: لقد أسأت التصرف اليوم. لم تكوني في المكتب حيث تناقشنا مع پيار. ولقد احتددت. لكني لم أكن أستطيع أن أفعل سوى ذلك. إنه طفل صغير حتى لأتساءل، إلام كان سيصير لو لم تكن ناتاشا تضبط عنانه. أتستطيعين أن تتصوري لماذا ذهب إلى پيترسبورغ؟... لقد أسسوا هنالك...

فقاطعته الكونتيسة ماري بقولها: أعرف ذلك. فقد أخبرتني ناتاشا...

فعاد نيكولا يقول، وقد حقد لمجرد ذكرى ذلك النقاش:

ـ آه! تعرفين ذلك! إنه يريد أن نعني بأن واجب كل إنسان شريف هو القيام ضد الحكومة، بينما القسم، والواجب... آسف أنك لم تكوني هناك. ولقد هاجمني جميع الحاضرين، دينيسوف وناتاشا على السواء. إن ناتاشا

www.Maktbah.com

تضحكني. فرغم سيطرتها عليه في أمور العقل والمنطق، فهي لا تجد كلمة واحدة في جعبتها، ولا تفعل سوى تكرار ما يقول.

كان نيكولا يقول ذلك بصوت مرتفع، مستسلماً لميله الجموح إلى انتقاد أولئك الأعز على قلبه والأقرب إليه، ناسياً أن ما يقوله عن ناتاشا يمكن أن ينطبق عليه كلمة كلمة في علاقاته بزوجته.

وقالت الكونتيسة ماري: أجل، لقد لاحظت ذلك.

ـ حين قلت له إن الواجب والعهد فوق كل شيء آخر، أخذ يبرهن لي أن الله يعرف ماذا. آسف إنك لم تكوني موجودة، وإلا فقد كنت بيّنت له ضلاله!

فأجابت الكونتيسة ماري: إنك على حق تماماً. وهذا ما قلت لناتاشا. إن پيار يزعم أن البشر يتعذبون، ويتألمون، ويفسدون، وأن واجبنا هو مساعدة قريبنا، وأنه لعلى حق من دون شك. لكنه ينسى أن ثمة واجبات أسرع تقع على أكتافنا، قد فرضها الله نفسه علينا، وأننا نستطيع أن نعرض حياتنا الخاصة للخطر، أما حياة أطفالنا فلا.

فصاح نيكولا، إن ذلك هو بالضبط ما أفحم پيار به:

ـ أجل، أجل، هذا هو بالضبط ما قلته له. لكنهم انطلقوا في سبيلهم، يتحدثون عن محبة الغريب والمسيحية... وذلك كله أمام نيكولا الذي انزلق إلى المكتب وحطم كل شيء؟

فعادت الكونتيسة ماري تقول:

ـ آه: أتعرف، يا نيكولا، هذا الصغير كثيراً ما يعذبني، إنه صبي غير مألوف. وأخاف أن أهمله بسبب من أطفالي. نحن، إن لنا أبناءنا، وعائلتنا أما هو، فليس له أي إنسان. إنه أبداً وحيد مع أفكاره.

ـ ولكن فلنتركه، أتصوّر أنه ليس ثمة ما تؤنبين نفسك عليه من أجله، مثل ما تستطيع أكثر الأمهات حناناً أن تفعل لأبنائها قد صنعته له، وأنت تصنعينه

twitter @baghdad_library

بعد من أجله، ومما لا شك فيه أني مسرور بذلك، فهو صبي صغير طيب، طيب جداً.

ـ ولقد كان اليوم في نوع من الإشراق وهو يصغي إلى پيار، وهل تستطيعين أن تتصوري هذا: حين وقفنا متجهين إلى غرفة الطعام، رأيت أنه دمر كل شيء على مكتبي، وإذا هو يعتذر عن ذلك في اللحظة عينها! لم أمسك به يقول كذبة واحدة قط. إنه طفل طيب للغاية.

كان يكرر ذلك، رغم أنه، في صميم نفسه، لم يكن يحب ابن أخيه، الأمر الذي يزيده تمسكاً بامتداحه.

قالت الكونتيسة ماري:

ـ ومع ذلك، الأمر مختلف عما إذا كانت أمه موجودة. إني أشعر أن الأمر يختلف، وهذا ما يعذبني. إنه طفل رائع، وأنا أخاف عليه بصورة فظيعة. وأن العيش بين الناس ليفيده كثيراً.

فقال نيكولا: بكل تأكيد، وسرعان ما سيتحقق ذلك، فأنا سأرسله هذا الصيف إلى پيترسبورغ. وأضاف، عائداً إلى الحديث الذي جرى في مكتبه، والذي يثير اضطرابه فيما يبدو:

ـ أجل، هذا صحيح، فپيار لم يكن أكثر من حالم، وهو ما برح كذلك. قولي، ماذا يهمني مما يحدث هنالك، وما إن كان أراكتشيف رجلاً لعيناً. ما عسى أن يهمني ذلك وقد تزوجت، وتراكمت عليّ الديون بحيث تكفي لزجي في السجن، بينما أمي لا ترى أو تفهم شيئاً من ذلك؟ ومن بعد، فهناك أنت، والأطفال، والعمل. وهل أقضي أيامي في الحقول أو في المكتب للذتي الخاصة؟ كلا، لكني أعرف أنه يجب أن أعمل كي تعيش أمي في طمأنينة، وكي أوقع لك ما أنا مدين لك به، وكي لا نترك أطفالنا فقراء كما كنت.

وكانت الكونتيسة ماري تود أن تقول لزوجها إن الإنسان لا يعيش من

www.Maktbah.com

الخبز وحده، وإنه ربما يعلق كثيراً من الأهمية على «أعماله»؛ لكنها كانت تعرف أن ذلك سيكون بدون فائدة وفي غير محله، فاكتفت بأن تأخذ يده وتقبلها. ورأى في هذه الحركة علامة تأييد له، وتأكيداً لأفكاره، فعاود حديثه الشخصي، بعد برهة، بصوت مرتفع:

ـ أتعرفين يا ماري، إن إيليا ميتروڤانوڤيتش، هو وكيل أعمال، قد رجع اليوم من قريتنا في حكومة طاموف، وقال لي إنهم يقدمون منذ الآن ثمانين ألف روبل من أجل الغابة؟

وطفق نيكولا، متأثر الوجه، يشرح لها كيف سيكون في الإمكان، في برهة من الزمن، استرداد أوترادنويه مجدداً «عشر سنوات أُخر، وأترك الأطفال... في وضع ممتاز».

وكانت الكونتيسة ماري تصغي إلى نيكولا دون أن تفلت منها كلمة واحدة مما يقول. كانت تعرف أنه حين يفكر هكذا بصوت مرتفع، فإنه سيعود ليسألها عم قال، وسوف يغضب حين يعلم أنها كانت تفكر في شيء آخر. لكنها كانت مضطرة أن تقوم بجهد عظيم، لأن هذه الأحاديث لم تكن تعنيها على الإطلاق. كانت تنظر إليه إذن. وإذا لم تكن تفكر في شيء آخر، فقد كانت عواطفها في مكان آخر على أية حال. كانت تحس حباً حنوناً مستسلماً لهذا الرجل الذي لن يفهم إطلاقاً كل ما تفهم هي، فهي تزداد حباً له، ربما لهذا السبب بالضبط، بشيء من الحنان اللاهب. وإلى جانب هذا الشعور الذي كان يتملكها ويمنعها من الاهتمام بتفاصيل مشاريع زوجها، كانت أفكار أُخر تجتاز رأسها، غريبة تماماً عما يروي لها. كانت تفكر في ابن أختها، فحديث زوجها عن انفعال الصبي الصغير وهو يصغي إلى پيار قد أثر فيها بقوة.

كانت دلائل مختلفة من خلقه الحساس اللطيف تمر في ذهنها، فتفكر في أفعالها حين تفكر فيه لم تكن تقارن ما بينه وبين أبنائها، بل كانت تقارن

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

عاطفتها تجاهه بالعاطفة التي يثيرها أطفالها في نفسها، فتشاهد في شيء من الأسى أن في العاطفة التي تمنحها للصبي الصغير شيئاً ناقصاً.

وكانت تفكر أحياناً أن سبب هذا الفرق هو السن. لكنها كانت تشعر مع ذلك أنها مذنبة في حقه، فتقطع على نفسها عهداً مخلصاً أن تصلح نفسها وتفعل المستحيل، يعني أن تحب في هذه الحياة زوجها، وأولادها، وابن أختها وسائر أقاربها، مثلما أحب المسيح البشرية. كانت نفس الكونتيسة ماري تتوق دون انقطاع إلى اللانهاية، إلى الأبدي، نحو الكمال المطلق، وبالتالي لم تكن تستطيع أن تطمئن قط. وكان وجهها يحمل الطابع العميق لهذا العذاب الذي تقاسيه نفس يئيد الجسد عليها.

وتطلع نيكولا إليها في تلك اللحظة بالضبط، وقال في نفسه: «يا إلهي! إلام نصير إذا ماتت، ولشد ما أفكر في ذلك دائماً يصير محياها هكذا!». ووقف تجاه الأيقونات، وراح يتلو صلوات المساء.

www.Maktbah.com

الفصل السادس عشر

بدأت ناتاشا تتحدث كما لا يجري الحديث إلا بين الزوج والزوجة، عندما تكون وحيدة مع زوجها، يعني بتخمين الفكرة قبل أن توضع في قالب الكلمات. وبتينك الحدة والسرعة فوق العاديتين، عن طريق غير متطابق لكل قواعد المنطق، دون محاكمات ودون استقراءات، ودون استنتاجات، بل بأسلوب خاص تماماً. وكانت ناتاشا اعتادت كثيراً محاورة زوجها هكذا، بحيث أن العرض الأكيد للخلاف بينهما هو دائماً مشروع پيار بالتعبير عن فكرته بصورة منطقية كانت تعرف بيقين تام، حين يبدأ يبرهن، ويقدم الحجج بمهابة، فتنجرف هي به، وتروح تصنع مثله، كانت تعرف إذن أن المناقشة ستنتهي إلى الخصام بصورة أكيدة.

وما صارا وحيدين حتى اقتربت ناتاشا من زوجها بلطف، متمددة العينين فرحاً، وأمسكت برأسه بصورة مفاجئة، وشدته إلى صدرها وهي تقول: «الآن، أنت لي بكليتك، ولن تفلت مني بعد الآن أبداً!». وفي الحال قام بينهما حديث مناف لسائر قوانين المنطق، ولو لمجرد شموله مواضيع متناقضة تماماً وكانت هذه الطريقة في طرق عدة مواضيع في وقت واحد لا تخل بوضوح الحديث مطلقاً، بل تكشف على العكس، بيقين تام، عن تفاهم الزوجين المطلق.

وكما أن كل شيء، في الأحلام، غير معقول، ومضاد للمنطق، وسخيف باستثناء العاطفة التي تثير تلك الأحلام، كذلك هو تبادل الأفكار هذا حيث

twitter @baghdad_library

المحاكمة لا دخل لها، حيث ليست الكلمات هي التي تتمتع بالوضوح والترتيب، بل العاطفة التي تمليها.

كانت ناتاشا تحكي لپيار كيف يعيش أخوها، وتقول له إنها تتعذب، ولا تستطيع حياة بدون رجلها، وتقول له إنها تزداد حباً للكونتيسة ماري، وكيف تتجاوزها زوجة أخيها في كل مضمار، صلاحاً وطيبة قلب. وكانت تعترف بإخلاص، حين تقول هذه الكلمات، بتفوق ماري عليها، لكنها لا تتساهل في طلبها من پيار أن يفضلها على ماري وعلى سائر النساء الأخريات؛ وكان لا بدَّ له من تكرار ذلك على مسامعها، خصوصاً هذه الآونة إثر رجوعه من پيترسبورغ حيث رأى كثيراً من النساء.

ونزل پيار عند إصرار ناتاشا فروى لها كم من دعوات الغداء والسهرات في پيترسبورغ مع نساء من المجتمع الراقي لم يتمكن أن يطيقها.

قال: لقد فقدت تماماً عادة التحدث إلى السيدات، فليس شيء أكثر ضجراً من ذلك وعلى أية حال، فقد كنت مشغولاً.

فرنت ناتاشا إليه بثبات، وأضافت: إنها الإغراء نفسه، ماري هذه: لشد ما هي تفهم الأطفال! لتقول إنها ترى نفسهم، فالبارحة مثلاً، ركب الهوى رأس ميتيا الصغير.

فقاطعها پيار قائلاً:

ـ إنه صورة عن أبيه.

وفهمت ناتاشا لماذا قدم هذه الملاحظة عن البشر بين ميتيا ونيكولا؛ إنه يأسف لمناقشته مع صهره، ويريد أن يأخذ رأي زوجته في الموضوع.

قالت، وهي تكرر الكلمات التي سمعت پيار يتفوه بها:

ـ أجل، إن لنيكولا هذه الناحية الضعيفة التي تجعله لا يقبل شيئاً لا يقبل الجميع به. لكنني أفهم، فأنت على العكس، تريد أن تنطلق.

www.Maktbah.com

فأجاب پيار:

ـ كلا، بل الأمر الأساسي هو أن الأفكار والمحاكمات تسلية بالنسبة إلى نيكولا، تكاد تكون أسلوباً لتمضية الوقت. لقد أسس مكتبة واتخذ قاعدة لنفسه هي ألا يبتاع كتاباً جديداً قبل أن يقرأ آخر كتاب تلقاه، وسيسموندي وروسو، ومونتسيكيو...

قال ذلك مبتسماً وأضاف، راغباً في تلطيف كلماته: وأنت تعرفين على أية حال كم...

فقاطعته ناتاشا، مشعرة إياه أن ذلك غير ضروري: إذن فأنت تعتقد أن الأفكار تسلية بالنسبة إليه.

ـ أجل، أما بالنسبة إلي، فإن كل شيء آخر هو التسلية. وخلال إقامتي في پيترسبورغ، كنت أرى كل شيء فكأني في حلم. وحين تتملكني فكرة فليس لأي شيء آخر أو في أهمية إذن.

فقالت ناتاشا:

ـ آه! إنني آسفة جداً لأني لم أرك تتمنى للأطفال صباحاً سعيداً! أي واحدة كانت أكثرهن سروراً؟ ليز بكل تأكيد؟

فأجاب پيار: أجل.

واسترسل فتحدث عما يشغل فكره:

يزعم نيكولا أنه لا يجب أن نفكر. أما أنا، فلا أستطيع. هذا إذا استثنينا أني كنت أحس في پيترسبورغ، أنت، أستطيع أن أعترف لك بذلك، أن كل شيء يتعرض للانهيار بدوني، وأن كل واحد يشد الغطاء إلى جانبه. ومع ذلك فقد نجحت في توحيدهم جميعاً، وعندئذ صار فكري بسيطاً جداً وواضحاً جداً. وأنا لا أقول إنه يجب علينا القيام في وجه فلان أو فلان، فقد نخطئ في

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

هذه الحال، إني أقول فقط: تعاونوا، أنتم الذين تحبون الخير، ولتكن رايتكم الوحيدة الفضيلة الفاعلة. إن الأمير سيرج رجل ممتاز وهو ذكي أيضاً.

لم تكن ناتاشا تشك في عظمة فكرة پيار، لكن شيئاً واحداً كان يزعجها، ألا وهو أن يكون ذلك هو زوجها بالضبط «أيمكن أن يكون رجل على مثل هذه الأهمية والضرورة للمجتمع زوجي في الوقت نفسه؟ وكيف أمكن حدوث ذلك؟» وأرادت أن تعبر له عن شكها، فهي تتساءل، مستعرضة في ذهنها سائر الذين يضمر لهم پيار عظيم الاعتبار ولكن من هم إذن الذين يستطيعون أن يقرروا ما إذا كان حقاً أذكى بكثير من الآخرين. ولم يكن يحترم أحداً كما يفهم من أحاديثه، مثل احترامه لأفلاطون كاراتاييف.

صاحت: أتعرف فيمن أفكر! في أفلاطون كاراتاييف. ما عساه يفعل، هو؟ أهو يوافقك؟

ولم يدهش پيار مطلقاً لهذا السؤال، فقد كان يفهم تسلسل أفكار زوجته قال: أفلاطون كاراتاييف؟

واستغرق في التفكير ساعياً بكل إخلاص أن يتصور أي حكم يمكن أن يصوره كاراتاييف في هذا الموضوع، وأخيراً قال:

ـ ما كان يفهم؟ ولكن من يدري؟ لعله كان يفعل!

فقالت ناتاشا بصورة مباغتة:

ـ ذلك يخيف، مبلغ حبي لك. إنه مخيف!

وأجاب پيار، بعد برهة من التفكير:

ـ كلا، لن يوافقني. ما كان يوافق عليه هو حياتنا العائلية لقد كان يود أن يشاهد الجمال في كل مكان، والسعادة والسلام، بحيث أكون فخوراً بأن يرانا، إليك، أنت تشكين في أمر الفراق. ولكن لو تدرين أية عاطفة خاصة أضمر لك بعد الفراق...

www.Maktbah.com

وأرادت ناتاشا أن تعترض: ولكن...

ـ كلا، ليس هذا. أنا لا أنقطع إطلاقاً عن حبك. ولا يمكن لامرئ أن يحب أكثر من هذا؛ ذلك أنه، خصوصاً... حسناً، أجل...

ولم يكمل حديثه، لأن نظرتيهما التقتا، فتبادلتا بقية الحديث.

قالت ناتاشا على حين غرة:

ـ ما أحمق ذلك الحديث عن شهر العسل، والقول إن المرء يكون سعيداً في الأيام الأولى. الأمر على العكس، فالآن نحن أفضل من قبل. لو كنت لا تسافر فقط. أتذكر كيف تخاصمنا؟ وكنت أنا المخطئة دائماً، أنا دائماً ولماذا؟ أنا لا أذكر أبداً.

قال پيار مبتسماً: للسبب نفسه دائماً، الغيرة.

فهتفت ناتاشا:

ـ لا تقل ذلك فأنا لا أطيق سماعه.

واشتعل لهيب بارد في عينيها، وأضافت بعد سكوت قصير:

ـ أرأيتها؟

ـ كلا. وعلى أية حال، فلن أعرفها إذا ما شاهدتها.

وجنحا إلى الصمت.

صاحت ناتاشا، راغبة بصورة بينة في طرد السحابة التي تقترب:

ـ وهل تعرف؟ حين كنت تتحدث في المكتب، كنت أنظر إليك. إنك تشبهها مثل قطرتين من الماء، «الصغير»، هكذا كانت تدعو ابنها. آه! لقد حان الوقت لأذهب وأعنى به... هذا هو الميعاد... لكنه يؤلمني أن أذهب.

ولاذا بالصمت بضع ثوان. ومن ثم وبصورة مفاجئة، التفت كلاهما إلى الآخر وشرعا يتكلمان في وقت واحد. كان پيار يتحدث بلطف وحرارة، وناتاشا بابتسامة عذبة سعيدة. وإما تصادما، فقد توقفا وتراجعا كل أمام الآخر.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ـ إذن، ماذا كنت تريدين أن تقولي؟ تكلمي، تكلمي.

صاحت ناتاشا: كلا، بل أنت الذي يجب أن تتكلم. أما أنا، ما تلك سوى حماقات.

فرجع پيار إلى الموضوع الذي افتتحاه، واستمر يتوسع بلهجة راضية عن نجاحاته في پيترسبورغ. كان يعتقد في تلك الساعة اللحظة أنه مدعو لتوجيه المجتمع الروسي والعالم بأسره في منحى جديد.

ـ كنت أريد فقط أن أقول إن سائر الأفكار التي تؤدي إلى نتائج عظيمة هي بسيطة دائماً. وكانت كل فكرتي تقول إنه كان الناس الأشرار يؤلفون قوة باتحادهم، فما أمام الناس الشرفاء إلا أن يفعلوا مثلهم. وأنت ترين بساطة ذلك.

ـ أجل.

ـ وأنت، ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ لا شيء، لا شيء.

ـ ولكن؟

فأصرت ناتاشا، وعلى شفتيها ابتسامة تزداد اتساعاً:

ـ أقول لك لا شيء. كنت أريد فقط أن أحدثك عن پيتيا. لقد جاءت المربية اليوم لتأخذه، وكان يقتعد ركبتيّ فطفق يضحك، والتصق بي وهو يغلق عينيه فكأنه يريد أن يختبئ. إنه لطيف حتى الدرجة القصوى. وهذا هو يصيح هنا، إلى اللقاء!

وخرجت من الغرفة.

وفي الوقت نفسه، في الطابق السفلي، في غرفة نوم نيكولا پولكونسكي الصغير، كانت الساهرة مشعلة كالعادة، كان الصبي يخاف الظلام، ولم تنجح أية محاولة في تخليصه من هذا الضعف. وكان ديسال ينام مرتفعاً على وسائده

www.Maktbah.com

الأربع، ومن أنفه الروماني ينطلق شخير منظم. وكان نيكولا الصغير، الذي استيقظ تواً متصبباً عرقاً بارداً، جالساً في سريره، يحملق باستقامة إلى الأمام. كان كابوس مريع قد أيقظه، فقد رأى فيما يشاهد النائم أنه يرتدي وعمه پيار قناعين شبيهين بتلك الأقنعة المصورة في مؤلفات پلوتارك، وهما يسيران في مقدمة جيش عظيم. وكان هذا الجيش مؤلفاً من صفوف بيض منحرفة تملأ الهواء مثل هذه الخيوط تتطاير في الخريف ويسميها ديسال خيوط العذراء.

وإلى الأمام منهما كانت الطليعة، المصنوعة من الخيوط نفسها لكنها أقوى بقليل وكان كلاهما، العم پيار وهو، ينطلقان فرحين ويقتربان من الهدف أكثر فأكثر وفجأة، أخذت الخيوط التي تحملها تنحل، وتتشابك، وصارا في وضع خطر. وإذا العم نيكولا إيليتش يقف حيالهما في وضع صارم متوعد.

قال، مشيراً إلى بقايا ريش وشمع يستخدم في ختم الغلافات: «أأنتما اللذان فعلتما هذا؟ لقد كنتما عزيزين عليّ، لكن أراكتشيف أمرني أن أقتل من يتقدم منكما خطوة واحدة إلى الأمام»، وأدار نيكولا الصغير نظره نحو پيار، لكن پيار لم يكن هناك. كان پيار قد صار أباه، الأمير أندريه، ولم يكن لأبيه حدود أو شكل، رغم أن الواقف إلى جانبه كان أباه عينه؛ وإما رآه، أدرك نيكولا الصغير أن الحب يحرمه قواه؛ أحس أنه لا موطن له، ولا قوام، ولا هيكل، كأنه تميع، وكان أبوه يربته ويعزيه. لكن العم نيكولا إيليتش يهاجمهما ويقترب منهما أكثر فأكثر، فتملك الذعر الصبي الصغير واستيقظ من نومه.

فكر في سرِّه: «أبي، كان في البيت صورتان لأبيه على درجة عظيمة من الشبه، ومع ذلك إن نيكولا الصغير لم يتصور الأمير أندريه في صورة بشرية قط، لقد كان أبي إلى جانبي وكان يداعبني. وكان يوافقني، ويوافق العم پيار ومهما سيقوله لي رفاقي فإني فاعله. إن موسيوس شيفولا قد أحرق يده، فلِمَ لا أفعل أنا مثله في حياتي؟ أعرف أنهم يريدونني أن أتعلم، ولست أتعلم.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ولكني سأنتهي من ذلك يوماً، وعندئذ أفعل، ولست أسأل الله سوى شيء واحد، ألا وهو أن يصيبني ما أصاب الرجال العظام الذين يتحدث پلوتارك عنهم، وسوف أصنع مثل صنيعهم، بل سوف أصنع أفضل من صنيعهم. وسوف يعرف جميع الناس ذلك، ويحبونني، ويعجبون بي».

وأحس نيكولا الصغير، فجأة، بالبكاء يغص به حلقه وينقبض له صدره، فانهمرت دموعه مدرارة غزيرة.

قال صوت ديسال: هل تشعر بوعكة؟

فأجاب الصغير، وهو يعاود النوم على وسادته: كلا.

قال في سرّه وهو يفكر في ديسال:

ـ إنه شريف وطيب، وأنا أحبه. وعمي پيار: آه! يا له من إنسان رائع! وأبي؟ أبي.. أجل، سوف أصنع أشياء يكون هو نفسه فخوراً بها...

www.Maktbah.com

القسم الثاني

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

www.Maktbah.com

الفصل الأول

إذا كان غرض التاريخ هو حياة الشعوب فإن الإدراك المباشر ليس لحياة البشرية بل لحياة شعب واحد وحصر هذه الحياة في حدود الكلمات ووضعها لأمور تبدو مستحيلة تماماً.

لجأ مؤرخو الأزمنة القديمة إلى الطريقة نفسها كي يصفوا ويدركوا هذا العنصر الممتنع، ألا وهو حياة شعب من الشعوب. لقد وصفوا نشاط زعمائه، لكن بصورة منعزلة، وكان هذا النشاط يعبر بالنسبة إليهم عن فاعلية الشعب بأسره.

أما السؤالان: كيف كان الأفراد المنعزلون يجبرون الشعوب على الفعل وفق إرادتهم، وماذا كان يوجه هذه الإرادة فإن مؤرخي الأزمنة القديمة قد أجابوا عنهما هكذا: أجابوا عن السؤال الأول بأن أرجعوا إلى إرادة الألوهية أمر خضوع الشعوب لشخص واحد، وأجابوا عن السؤال الثاني مؤكدين أن تلك الألوهية نفسها كانت توجه إرادة المنتخب نحو هدف معين سلفاً.

إذن فقد حلت هذه المسائل، بالنسبة إلى القدماء، بالإيمان باشتراك الألوهية المباشر في القضايا الإنسانية.

لكن التاريخ المعاصر قد رفض، في نظريته: هاتين الفرضيتين.

وكان يمكن أن نعتقد أن التاريخ الحديث، بتخلصه من العقيدة القديمة عن خضوع البشر للألوهية ولغاية معيّنة سلفاً تتجه الشعوب نحوها، قد اختار أن يدرس بدلاً من تظاهرات السلطة، الأسباب العميقة لها. لكن التاريخ

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الحديث لم يفعل ذلك، وإذا كان يرفض المفاهيم القديمة نظرياً، فهذا بتأثرها بالممارسة.

يقدم لنا التاريخ الحديث، بدلاً من شخصيات تتمتع بسلطان إلهي توجهها إرادة الألوهية بصورة مباشرة، إما أبطالاً يتمتعون بصفات غير عادية وفوق إنسانية، وإما بكل بساطة أفراداً لهم قرارات مختلفة، منذ الملوك حتى الصحافيين، وهم يقودون الجماهير ويوجهونها. وبدلاً من الأهداف المعينة قبلاً من لدن الألوهية لبعض الشعوب، العبرانيين، والإغريق، والرومان، في سبيل توجيه خطى الإنسانية، التاريخ الحديث يضع أهدافه الخاصة: سعادة الشعب الفرنسي، والألماني، والإنكليزي، وإذا رفعنا التجريد حتى الدرجة القصوى، فخير حضارة البشرية بأسرها، هذه البشرية التي يحصرها عادة في الشعوب المحتلة للقسم الشمالي الشرقي من الكرة الأرضية.

ولقد رفض التاريخ الحديث معتقدات القدماء دون أن يقدم بديلاً عنها. فإذا المنطق يجبر المؤرخين، الذين زعموا رفض السلطان الإلهي للملوك والقدر القديم، أن يعودوا بطريق أخرى إلى نقطة الانطلاق، ألا وهي الاعتراف: ١ ـ بأن البشر موجهون من قبل أفراد منعزلين، ٢ ـ بأنه يوجد هدف محدد تماماً تسير الشعوب والإنسانية نحوه.

وإن سائر المؤلفات الحديثة التي كتبها المؤرخون، منذ جيبون حتى ياكل رغم اختلافاتها الظاهرية والجدة الظاهرية لنظراتها، أساسها هاتان البديهيتان القديمتان الحتميتان.

فالمؤرخ يصف بادئ الأمر نشاط بعض الأفراد المنعزلين الذين يقودون الإنسانية في رأيه. ولا يحسب بعض المؤرخين في عداد هؤلاء سوى الملوك، والجنرالات والوزراء؛ ويضع مؤرخ آخر، إلى جانب الملوك، الخطباء، والعلماء، والمصلحين، والفلاسفة، والشعراء ومن ثم، فالهدف الذي تسعى

www.Maktbah.com

إليه الإنسانية معروف تماماً من المؤرخ. وهذا الهدف هو عند هذا المؤرخ عظمة الدولة الرومانية، أو الإسبانية، أو الفرنسية، وهو عند ذاك المؤرخ المساواة وحضارة عرق معين من هذا القسم من العالم المسمى أوروبا.

وحدث اضطراب في باريس عام ١٧٨٩ ولقد كبر هذا الاضطراب وماج واتخذ شكل تحرك لشعوب الغرب إلى الشرق. ولقد اتجهت هذه الحركة مراراً صوب الشرق واصطدمت بحركة معاكسة من مرور الشرق إلى الغرب وفي عام ١٨١٢، بلغت حدها الأقصى، موسكو، ورجعت نفسها بتناظر مرموق من الشرق إلى الغرب، خارقة معها في الذهاب والإياب على السواء شعوب أوروبا الوسطى. وقد رجعت هذه الحركة المعاكسة إلى نقطة انطلاقها، باريس، وتوقفت هناك.

وخلال هذه المرحلة التي دامت عشرين عاماً، بقي مقدار عظيم من الحقول نهباً للثوار، وأحرقت منازل وبدلت التجارة وجهتها، وأملق ملايين الناس، أو أثروا، أو تنقلوا، وكان ملايين من المسيحيين الذين يمارسون محبة القريب يتذابحون.

ماذا يعني كل هذا؟ ومن أين صار كل هذا؟ ما الذي كان يدفع هؤلاء الناس إلى إحراق المنازل وقتل أشباههم؟ ما هي أسباب هذه الحوادث؟ أية قوة دفعت هؤلاء الناس إلى مثل هذه الأعمال؟ هذه هي الأسئلة غير الإرادية، الساذجة والمشروعة جداً مع ذلك، التي يطرحها المرء على نفسه عندما يقف تجاه أنصاب المرحلة المنصرمة من هذه الحركة وتقاليدها.

وإنا لنلتفت، في نحل هذه المسائل، صوب عالم التاريخ الذي يهدف إلى أن يكشف للشعوب والإنسانية عن معرفة ذواتها.

ولو كان التاريخ يتقيد بوجهة النظر القديمة، فقد كان يجب له أن يقول: إن الألوهية، كي تكافئ شعبها أو تقتص منه، قد منحت السلطان إلى نابليون

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

وحصلت منه على أداة إرادتها في سبيل إنجاز أهدافها. ويكون هذا الجواب، إذن واضحاً وكاملاً. ويمكننا أن نؤمن ألا أن نرفض الإيمان برسالة ناپليون الإلهية. لكن ذاك الذي يؤمن يتضح له مجمل تاريخ تلك الفترة، بحيث لا يبقى ثمة مجال تناقض على الإطلاق.

بيد أن التاريخ الحديث لا يستطيع أن يجيب عن هذا القرار. فالعالم لم يعد يقبل الفكرة القديمة عن التدخل المباشر للألوهية في أفعال الإنسانية، وبالتالي فلا بدَّ له من تدبير أجوبة أخرى.

وإما يجيب التاريخ الحديث عن هذه الأسئلة يقول لنا: أنتم تريدون أن تعرفوا معنى هذه الحركة وأصولها، وأية قوة أنتجت مثل هذه الأحداث؟ اسمعوا إذن:

لقد كان لويس الرابع عشر إنساناً متكبراً مدعياً بصورة خاصة؛ وكان عنده الخليلات العلانيات والوزراء الفلانيون، وكان يسوس فرنسا بصورة رديئة وكان خلفاؤه رجالاً ضعفاء قد حكموا البلاد، هم أيضاً، بصورة سيئة. كان لهم، هم أيضاً الخلان الفلانيون والمحظيات الفلانيات، وما عدا ذلك فبعض الناس قد كتبوا كتباً في تلك الفترة. وفي أواخر القرن الثامن عشر، اجتمع في باريس قرابة عشرين رجلاً راحوا يقولون إن سائر البشر متساوون وأحرار. ونتج من ذلك أن الناس أخذوا في كل مكان في فرنسا، يقتلون أشباههم ويغرقونهم، ولقد قتل هؤلاء الناس مليكهم، كما قتلوا أشخاصاً آخرين عديدين.

وفي تلك الفترة بالضبط كان في فرنسا إنسان عبقري هو ناپليون. وكان يسجل الانتصارات في كل مكان، يعني أنه كان يقتل عدداً كبيراً من الناس لأنه كان عبقرياً عظيماً. الغد غدا يقتل، ولا ندري السبب، الأفريقيين في بلادهم؛ ولقد قتلهم بصورة رائعة، وكان عظيم الدهاء كثير الذكاء، بحيث استطاع لدى عودته إلى فرنسا أن يصدر الأمر للجميع كي يطيعوه. ولقد أطاعه الجميع.

www.Maktbah.com

وإما جعل نفسه أمبراطوراً، فقد ذهب أيضاً إلى إيطاليا والنمسا، وبروسيا، يقتل البشر. ولقد قتل الكثيرين. ويومذاك كان يحكم في روسيا الأمبراطور ألكسندر الذي قرر أن يعيد النظام كما كان في أوروبا، وكان يحارب ناپليون بسبب ذلك. لكنه صار، في ١٨٠٧ صديقه بصورة مفاجئة، وبقي كذلك حتى عام ١٨١١، حين اختصم وإياه مجدداً، وحين قتل كلاهما، معاً، عدداً كبيراً من الناس مرة أخرى.

وقاد ناپليون ستمائة ألف شخص إلى روسيا واحتل موسكو. لكن الأمبراطور ألكسندر، وقد نصحه شتين وآخرون، وحّد أوروبا بأسرها ضد ذلك الذي يعكر طمأنينته، فإذا سائر حلفاء ناپليون يصيرون فجأة أعداء له، ويهبّون هبّة واحدة ليقابلوا القوى الجديدة التي جمعها ناپليون وانتصر الحلفاء، ودخلوا باريس، وأجبروا ناپليون أن يتنازل عن عرشه، وأرسلوه إلى جزيرة إلبا، لكن دون أن ينزعوا عنه لقبه الأمبراطوري، مبدين مختلف ضروب التكريم لهذا الرجل الذي كان الجميع قبل خمس سنوات يعتبرونه، وسيفعلون ذلك بعد سنة واحدة أيضاً، لصاً خارجاً على القانون، وجعل لويس الثامن عشر، الذي لم يفعل الفرنسيون والحلفاء حتى ذلك الحين سوى السخرية منه، يحكم فرنسا، بينما تنازل ناپليون عن سلطانه، وهو يذرف بضع عبرات أمام حرسه العجوز، وذهب إلى المنفى.

ومن بعد، اجتمع في ڤيينا للتشاور مع رجال دولة ودبلوماسيون ماهرون، وبصورة خاصة تاليران الذي تمكن من الجلوس في تلك الأثناء في مقعد معيّن ومن توسيع حدود فرنسا بهذه الواسطة، وكان من نتاج أحاديثهم أن صيروا الشعوب سعيدة أو شقية. ولكن هؤلاء الدبلوماسيين قد تخاصموا فجأة فإذا هم على استعداد كي يصدروا الأوامر إلى جيوشهم لتتذابح؛ لكن ناپليون رجع إلى فرنسا في ذلك الحين، برفقة فرقة عسكرية فإذا سائر الفرنسيين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الذين كانوا يكرهونه يخضعون له في الحال. وغضب الملوك لذلك، فعادوا يحاربون الفرنسيين. ولقد انتصروا على الجنرال ناپليون ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة وأخذوا يعاملونه فجأة كأنه قاطع طريق. وهناك، بعيداً عن الكائنات العزيزة على قلبه، وعن وطنه الحبيب فرنسا، مات المنفي موتاً بطيئاً فوق إحدى الصخور، جاعلاً من الأجيال اللاحقة ورقة أفعاله الرفيعة. وفي أوروبا، تمكنت الرجعية من الحكم مجدداً، وراحت سائر الحكومات تضطهد الشعوب مرة أخرى.

ولمن العبث أن نحسب أن هذا كله ليس سوى مزاح أو صورة كاريكاتورية للأقاصيص التاريخية. وعلى العكس، فهو التعبير الأشد لطفاً عن هذه الأجوبة المتناقضة التي لا تجيب عن أي سؤال، والتي تقدم لنا التاريخ بأسره، منذ صانعي الأبحاث والقصص عن الدولة المنفصلة، حتى مؤلفي التواريخ العامة أو تواريخ الثقافة. هذا النوع المعاصر الجديد.

وغرابة هذه الأجوبة وسخفها ينشآن عن كون التاريخ يشبه أصمَّ يجيب عن أسئلة لم يطرحها عليه أحد.

وإذا كانت غاية التاريخ هي وصف حركات الإنسانية والشعوب، فالسؤال الأول الذي يتطلب جواباً بالضرورة، والذي يكون كل ما يتبع ممتنعاً عن الفهم بدونه، هو السؤال التالي: ما هي القوة التي تحرك الشعوب؟ وجواباً عن هذا السؤال، يروي لنا التاريخ الحديث بشيء من دلائل الاهتمام، إما أن ناپليون كان يتمتع بقوة عليا؛ وإما أن لويس الرابع عشر كثير التفكير، وإما أيضاً أن هؤلاء أو أولئك من المخالفين قد كتبوا هذه الكتب أو تلك.

وهذا كله شيء ممكن تماماً، والبشرية على استعداد لقبوله، بيد أن السؤال يكمن ههنا هذا كله يمكن أن يكون باعثاً على الاهتمام إذا كنا نريد القول بأن قوة ناپليون، ولويس الرابع عشر، والمؤلفين. ولكننا لا نعترف

www.Maktbah.com

بهذه القوة، ولذا يبتغي، قبل الحديث عن أمثال ناپليون، ولويس الرابع عشر، والمؤلفين، وجود رابطة قائمة بين هذه الشخصيات وتحركات الشعوب.

وإذا كانت قوة أخرى قد اتخذت مكان الألوهية، فيجب أن نوضح قوام هذه القوة، لأن أهمية التاريخ تقوم عليها بالضبط.

ويفترض المؤرخ أن هذه القوة أمر مفروغ منه، وأن الجميع يعرفونها. ومع ذلك وبالرغم من أن الرغبة العامة في افتراض هذه القوة معروفة، فذاك الذي ينقب في عدد كبير من المؤلفات التاريخية يشك رغماً عنه ويتساءل ما إذا كانت هذه القوة، المهدمة بصورة مختلفة جداً من قبل المؤرخين أنفسهم، هي معروفة حقاً منهم جميعاً.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني

إن مؤلفي الترجمات الفردية ومؤرخي الشعوب المنعزلة يعتبرون أن القوة التي تحرك الشعوب هي قوة سلطان خاص بالأبطال والزعماء. وتبعاً لما يسردون من أوصاف، فالأحداث ناتجة من مجرد إدارة أمثال ناپليون وألكسندر، أو بصورة عامة أولئك الأشخاص الذين يصف المؤرخ حياتهم الخاصة. وإن الأجوبة التي يقدمها هذا النوع من المؤرخين عن هذا السؤال المتعلق بالقوة التي تحرك الأحداث المرضية، لكن في حدود معيّنة فقط، ألا وهي أن يكون ثمة لكل حادث مؤرخ واحد. ولا يكاد مؤرخون من قوميات متعددة وآراء مختلفة يشرعون في وصف الحادث الواحد نفسه حتى تفقد الأجوبة المقدمة من قبلهم كل قيمة، لأن كل واحد منهم يفهم هذه القوة لا بصورة مختلفة فحسب، بل في بعض الأحايين بصورة معاكسة تماماً لفهم جاره لها.

ويؤكد الواحد أن الحادث فتسبب عن قوة ناپليون، ويؤكد آخر أنه ناشئ عن قوة ألكسندر، ويؤكد ثالث أنه قوة شخص ثالث، والأكثر من ذلك أن المؤرخين من هذا النوع يناقضون بعضهم بعضاً حتى في التفسيرات التي يقدمونها عن القوة التي يتولد منها سلطان الشخصية نفسها. وهكذا فإن تييرس، وهو بوناپرتي النزعة، يرجع سلطان ناپليون إلى فضيلته وعبقريته، أما لانغري، وهو جمهوري النزعة، فيرجعه إلى سرقاته واحتيالاته حيال الشعب. وبالتالي فإن المؤرخين من هذا النوع، حين يطور كل منهم أطروحته وفرضياته

www.Maktbah.com

الخاصة، يدمرون بذلك مفهوم القوة التي تقوم في أصل الأحداث، ولا يعطون أي جواب عن السؤال الأساسي للتاريخ.

والمؤرخون الذين يعنون بالتاريخ العام، باعتبارهم ينظرون إلى سائر الشعوب، يقبلون كما تشير الظواهر خطل وجهة نظر المؤرخين المختصين في موضوع القوة القائمة في أصل الأحداث. فهم لا يعترفون بهذه القوة كسلطان لاصق بالأبطال والزعماء، بل حاصلة قوى عديدة ذات اتجاهات متعددة. وإما يصنعون حرباً أو غزواً لشعب ما، فإنهم ينقبون عن سبب الحوادث لا في سلطان شخص واحد، بل في الفعل ورد الفعل المتبادلين لعدد كبير من الأشخاص ذوي العلاقة بالحادث المطروح على بساط البحث.

وتبعاً لوجهة النظر هذه، فسلطان الشخصيات التاريخية، المعتبر حاصلة قوى متعددة، لم يعد ممكناً بعد الآن، فيما يبدو، النظر إليه كقوة تكفي ذاتها بذاتها في سبيل إحداث الحوادث. ومع ذلك، إن مؤلفي التواريخ العامة يلجأون إلى هذا المفهوم عن هذا السلطان المعتبر كقوة تكفي ذاتها بذاتها في سبيل إحداث الحوادث، وتسلك تجاه هذه الحوادث سلوك المسبب، ويفهم من عرضهم تارة أن الشخصية التاريخية تتابع زمنها فليست سلطتها سوى حصيلة القوى المختلفة، وتارة أن سلطانها هو القوة التي تخلق الحوادث. ومثال ذلك أن جيرڤينوس، وشوسر، وآخرين أيضاً يبرهنون تارة أن ناپليون هو نتاج الثورة وأفكار عام ١٧٨٩، وتارة يعلنون أن حملة عام ١٨١٢، وكذلك بضعة حوادث تاريخية أخرى لا تروقهم، مسببة فقط عن إرادة ناپليون سيئة التوجيه. وأن أفكار عام ١٧٨٩ نفسها قد قضى عليها، في تطورها، سلوكه الاعتباطي. إن الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة قد صنعت سلطان ناپليون، وسلطان ناپليون قد خنق الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة.

وليس هذا التناقض الغريب مسبباً عن الصدفة. ونحن لا نلقاه لدى كل

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

خطوة فحسب، بل إن الأوصاف التي يقدمها مؤلفو التواريخ العامة إنما تتألف أيضاً من تسلسل حازم لتناقضات مماثلة. وإن هذا التناقض ناشئ عن الواقع التالي، ألا وهو أن المؤرخين من هذا النوع، بعدما ينطلقون في ميدان التحليل يتوقفون في منتصف الطريق.

وفيما نجد الأجزاء المركبة المادية للمركب أو الحصيلة، فيجب تساوي الأجزاء المركبة. وهذا هو بالضبط الشرط الذي لا يلاحظه مؤلفو التواريخ العامة. ولذا لم يكن لهم بد، كي يفسروا الحصيلة، أن يقبلوا، إلى جانب الأجزاء المركبة غير الكافية، قوة جديدة لا تفسير لها تعمل تبعاً للمركب.

وإنَّ المؤرخ الفردي النزعة الذي يصف حملة ١٨١٣ أو عودة آل بوربون إلى العرش، يؤكد بصورة حازمة أن هذه الحوادث مسببة، عن إرادة ألكسندر. لكن جيرڤينوس، وهو مؤلف تاريخ عام، يدحض هذا التأكيد ويسعى أن يبرهن أن حملة ١٨١٣ وعودة البوربونيين إلى العرش مسببان، ما عدا إرادة ألكسندر عن نشاط شتين ومترنيخ، ومدام دو شتال، وتاليران، وفخته، وشاتوبريان وآخرين عديدين. من الواضح أن جيرڤينوس قد جزأ ألكسندر إلى أجزائه المركبة: تاليران شاتوبريان، إلخ: وإن مجموع هؤلاء، يعني العمل المتبادل لشاتوبريان، وتاليران ومدام دو شتال والآخرين لا يساوي الحصيلة، يعني حقيقة خضوع ملايين الفرنسيين للبوربونيين. أما أن شاتوبريان، ومدام دو شتال، وآخرين قد تبادلوا هذه الأحاديث أو تلك، فهذا لا ينشأ عنه سوى علاقاتهم المتبادلة، وليس خضوع ملايين الناس.

وكي نفسر كيف نتج هذا الخضوع من تلك العلاقات، يعني كيف خرج من أجزاء مركبة مساوية للمقدار (ب) حصيلة تساوي (أ.ب)، فالمؤرخ مجبر على قبول تلك القوة التي ينكرها، معرفاً إياها كحصيلة عدة قوى، يعني أنه مجبر على قبول قوة لا تفسير لها ناتجة من المركب. وهذا هو بالضبط ما يفعل

www.Maktbah.com

سائر مؤرخي التواريخ العامة. وإنهم ليقعون في التناقض لذلك السبب أيضاً، التناقض مع مؤلفي التواريخ الخاصة، والتناقض مع أنفسهم.

إن سكان الأرياف، الذين لا يعرفون من أين تأتي الأمطار بالضبط، يقولون تبعاً لرغبتهم في الغيث أو الطقس الجميل: إن الريح قد طردت السحب أم أن الريح قد جاءت بالسحب وهذا هو بالضبط ما يفعله مؤلفو التواريخ العامة. وإنهم يقولون، حين يناسب ذلك نظرياتهم، إن السلطان هو نتيجة الحوادث؛ وحين يحتاجون أن يبرهنوا شيئاً آخر، فإنهم يقولون إن السلطان قد أدى إلى الحوادث.

وثمة مقولة ثالثة من المؤرخين يدعون أنفسهم بمؤرخي الثقافة . ويدعي هؤلاء أحياناً، متأثرين بخطى مؤرخي التواريخ العامة، أن الكتّاب والسيدات هم الذين ينتجون الحوادث. لكن هؤلاء المؤرخين يفهمون أيضاً هذه القوى على صور مختلفة تماماً حين يكتشفونها في «الثقافة» أي في الفاعلية الفكرية. وإن مؤرخي الثقافة حازمون تماماً تجاه أولئك الذين أعطوهم مولداً، يعني مؤرخي التواريخ العامة. لأنه إذا كان في الإمكان أن تفسر الحوادث التاريخية بكون بعض الشخصيات قد ارتبطت بعلاقات متبادلة معيّنة، لم لا نفسرها أيضاً بكون هؤلاء الناس أو أولئك قد كتبوا كتباً معينة. إن هؤلاء المؤرخين يستخرجون، من الجمهرة الضخمة للتظاهرات التي ترافق كل ظاهرة حية، إشارة فاعلية فكرية، ويعلنون أن هذه الفاعلية هي سبب كل شيء آخر. ولكنه بالرغم من سائر جهودهم للبرهان على أن سبب الحوادث قائم في الفاعلية الفكرية، لا بدَّ من مقدار عظيم من الإرادة الطيبة في سبيل الاعتراف بوجود صلة مشتركة بين الفاعلة الفكرية ومحركات الشعوب. ولا يمكننا في أي حال، أن نقبل بأن هذه الفاعلية الفكرية توجه الأمم، لأن بعض الظواهر، كالمذابح الرهيبة للثورة الفرنسية الناتجة من إعلان حقوق الإنسان، والحروب التي

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

لا رحمة فيها والإعدامات الفظيعة الناتجة من بشارة بناموس المحبة هذه الظواهر تناقض تلك الفرضية بصورة مطلقة.

وعلى أية حال، فلنقبل صحة سائر هذه المقالات الفطنة التي يكيلها هؤلاء المؤرخون؛ فلنقبل أن الشعوب مسيرة بقوة عصيَّة عن التعريف تحمل اسم الفكرة ، فالقضية الأساسية للتاريخ تبقى غير محلولة مع ذلك، وإلا فإن قوة جديدة هي الفكرة، تتطلب صلتها بالجماهير فهماً جديداً، تنضم أيضاً إلى قوة الملوك المأخوذة سابقاً في الاعتبار، وإلى التأثير الذي قبله مؤلفو التواريخ العامة سلفاً، والذي هو خاص بالمستشارين والشخصيات الأخرى ويمكننا أن نفهم وقوع الحادث الفلاني، باعتبار أن ناپليون يسيطر على دفة الحكم، ويمكننا كذلك أن نفهم بشيء من التسامح أن يكون ناپليون معضوضاً ببضع التأثيرات الأخرى، سبب بعض الحوادث؛ أما أن العقد الاجتماعي كان نتيجة تذابح الفرنسيين، فهذا ما يعني إدراكنا دون إيضاح للرابطة السببية الموجودة بين تلك القوة الجديدة والحوادث.

إن الرابطة الموجودة بين سائر الأفراد الذين يعيشون في عصر واحد لا يتطرق الشك إليها مطلقاً؛ وهكذا من الممكن أن نجد بعض العلاقة بين فاعلية الناس الفكرية وحركتهم التاريخية، تماماً كما نجد مثل هذه العلاقة بين تحركات البشرية والتجارة، والمهن، وزراعة البساتين، وأي شيء آخر. ولكن كم تتراءى فاعلية بعض الرجال الفكرية، في نظر مؤرخي الثقافة، كسبب كل حركة تاريخية أو التعبير عنها؟ إن هذا لأمر يصعب فهمه. ولم ينته المؤرخون إلى مثل هذه النتيجة إلا بالاعتبارات التالية: ١ ـ إن العلماء هم الذين يكتبون التاريخ؛ ولذا فمن الطبيعي والمستحب بالنسبة إليهم أن يعتقدوا أن فاعلية طائفتهم تبث الحياة في حركة الإنسانية بأمرها، تماماً كما يلذ بصورة طبيعية للتجار، والمزارعين والجنود، أن ينطووا على الفترة نفسها، وإذا لم يعبروا

www.Maktbah.com

عنها ما ذلك إلا لأن كتبة التاريخ ليسوا من عدادهم؛ ٢ ـ إن الفاعلية الفكرية والثقافة، والحضارة، والمدنية، هذه جميعاً مفاهيم مجردة، غير محددة يسهل تحت غطائها حتى الدرجة القصوى استعمال كلمات أشد غموضاً أيضاً بحيث يمكن بالتالي تكييفها مع أية نظرية كانت.

وما عدا الجدارات الباطنية لهذا النوع التاريخي، المفيد من دون شك لشخص ما أو لشيء ما، فتواريخ الثقافة التي راحت تمتص سائر التواريخ العامة يلفت النظر فيها أنها تفضل بصورة جدية حساب العقائد الدينية، والفلسفية، والسياسية، التي تجد فيها أسباب الحوادث؛ ومن ثم لا تكاد تتقدم من وصف حادث تاريخي حقيقي، كحملة عام ١٨١٢ مثلاً، حتى تصفه رغماً عنها كنتاج سلطان معين، وتعلن دون تردد أن أصل هذه الحملة موجود في إرادة ناپليون. وحين يتحدثون هكذا، فإن مؤرخي الثقافة إما أن يتناقضوا دون إرادة لذلك منهم، وإما أن يبرهنوا أن الشكل الجديد الذي أبدعوا لا يفسر الحوادث التاريخية، وأن الطريقة الوحيدة لفهم هذه الحوادث هي العودة إلى ذلك السلطان الذي يتظاهرون بأفكاره.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثالث

يتساءل المرء ما هي الحركة؟ إن القاطرة هي حركة. يقول فلاح ما: إن الشيطان يدفعها. ويقول آخر إن القاطرة تتقدم لأن دواليبها تدور. ويؤكد ثالث أن سبب الحركة هو في الدخان الذي تنفخه الريح وتبعثره.

ولا يمكننا أن نبرهن للفلاح الأول أنه على خطأ، إذ يجب إذن أن نجد الوسيلة الناجعة لكي نقنعه بأن الشيطان غير موجود. أو يبرهن له فلاح آخر أن من يحمل القاطرة على السير ليس هو الشيطان، بل الألماني. والتناقض وحده يمكن أن يثبت لكليهما الخطأ الذي يقعان فيه. لكن ذاك الذي يقول إن الحركة ناشئة عن الدواليب يناقض نفسه، وبما أنه انطلق في طريق التحليل فلا بدَّ له من الذهاب قدماً، وتفسير سبب حركة الدواليب ولن يكون له حق التوقف في البحث عن الأسباب ما لم يصل إلى السبب الأخير لحركة القاطرة، ألا وهو ضغط بخار الماء في المرجل. أما من فسر حركة القاطرة بالدخان الذي تبدده الريح، فقد اتضح له أن تفسير الحركة بالدواليب غير مقنع فلجأ إلى الظاهرة الأولى التي وقع عليها ليجعل منها سبباً.

فالمفهوم الوحيد الذي يستطيع أن يوضح حركة القاطرة هو مفهوم قوة مساوية للحركة الظاهرة.

بالتالي فالمفهوم الوحيد الذي يمكن أن يوضح حركة الشعوب هو مفهوم قوة مساوية لهذه الحركة.

وعلى أية حال، فالمؤرخون المختلفون يفهمون من هذا المفهوم فعل

www.Maktbah.com

قوى متنافرة وليس مساوية للحركة. ويرى البعض فيه قوة لاصقة بالأبطال، كما يرى الفلاح شيطاناً في القاطرة، ويرى آخرون فيه قوة منتجة من قوى أخرى، كحركة الدواليب مثلاً؛ ويرى فيه آخرون أيضاً تأثيراً فكرياً، مثل الدخان الذي تبدده الريح.

وما دمنا لا نكتب سوى تاريخ الشخصيات المنعزلة، ولو كانت قيصراً، أو ألكسندر، أو لوثر، أو ڤولتير، لا تاريخ سائر الأفراد دون استثناء، هؤلاء الذين اشتركوا في حادث ما، فلن يكون من الممكن تفسير تحركات البشرية دون تصور قوة تجبر البشر على توجيه فاعلياتهم نحو غاية وحيدة. ولا يعرف المؤرخون لهذا المعنى سوى قوة واحدة، ألا وهي السلطان.

وهذا المفهوم هو القبضة الوحيدة التي تسمح لتمليك زمام مادة التاريخ كما تُفهم في أيامنا الحاضرة. وأن تحطيم هذه القبضة، دون حيازة أداة أخرى، كما فعل باكل، يعني خسارة آخر إمكانية لبحث مادة التاريخ. وأن استحالة عدم اللجوء إلى مفهوم السلطان يبرهنها على أفضل وجه. ومؤرخو التواريخ العامة أنفسهم ومؤرخو الثقافة على السواء، وهؤلاء الأخيرون يتظاهرون برفض هذا المفهوم ومع ذلك فهم يستخدمونه بصورة لا خلاص منها لدى كل خطوة.

وبما يتعلق بالقضايا المرتبطة بالإنسانية، فقد كان العلم التاريخي، حتى يومنا الراهن، شبيهاً بالنقد المتداول، أكان ورقاً أم معدناً. إن ترجمات الحياة والتواريخ الخاصة هي أنواع من الورق النقدي. ويمكنها الدخول في التداول وتقوم بواجبها دون إلحاق الأذى بأي شخص كان، بل بشيء من الفائدة أيضاً ما دمنا لا نثير مسألة تغطيتها بالذهب. ويكفي ألا نسأل كيف يمكن لإرادة الأبطال أن تنتج الحوادث كي تصير تواريخ أمثال پيترس باعثة على الاهتمام، ومفيدة، بل لا تخلو من الشاعرية أيضاً. ولكنه سرعان ما نشك في القيمة الحقيقية لورق النقد عندما نفكر حتى أية درجة تدفعنا سهولة صنعه إلى إنتاج

twitter @baghdad_library

مقدار أكبر منه، أو إذا أردنا تحويله إلى ذهب. وكذلك فإننا نشك في المعنى الحقيقي للتواريخ من هذا النوع عندما نأخذ في الاعتبار عددها الكبير، أو عندما نتساءل بكل بساطة ما هي القوة التي أثرت في ناپليون، يعني حين نريد أن نستبدل ورق النقد بقيمته المضبوطة من الذهب.

إن مؤلفي التواريخ العامة ومؤرخي الثقافة يشهدون أناساً قرروا، بعدما أدركوا عدم صلاح الأوراق النقدية، أن يصفوا نقداً معدنياً لاستبدالها، وذلك بمعدن لا يملك الثقل النوعي للذهب ويكون ذلك، في الحقيقة، نقداً رناناً، لكنه لن يكون أكثر من رنان؛ ذلك أن الورق النقدي يمكن بعد أن يخدع الجاهلين، أما النقد الرنان الذي لا قيمة له، فلا يمكن أن يخدع أحداً. وكما أن الذهب لا يكون ذهباً حقاً إلا حين يمكن استعماله لذاته، وليس للمقايضة فحسب، كذلك لن يكون مؤلفو التواريخ العامة ذهباً حقاً إلا حين يتمكنون من الجواب عن هذا السؤال الأساسي للتاريخ: ما هو السلطان؟ إنهم يعطون عن هذا السؤال أجوبة متناقضة، بينما زملاؤهم الذين يدرسون الثقافة ينفونه تماماً ويتكلمون عن أشياء مختلفة تماماً. إن استعمال الحجارة مكان الذهب لا يمكن أن يتم إلا بين أناس يريدون عن طيبة خاطر أن يقبلوها على ذلك الاعتبار، أو لا يعرفون أيضاً قيمة الذهب. وكُتب المؤرخين العامين، ومؤرخي الثقافة تلعب دوراً مماثلاً؛ فهم حين لا يعطون أجوبة عن الأسئلة الأساسية للإنسانية، يخدمون كحجارة لعب لغاياتهم الخاصة في الجامعات وعند جمهور القراء، هواة الكتب الجدية فيما يزعمون.

www.Maktbah.com

الفصل الرابع

من المحال على التاريخ أن يخطو خطوة واحدة دون أن يصطدم بالتناقضات، بعد رفض العقيدة القديمة عن الخضوع المفروض من لدن الألوهية، خضوع إرادة شعب لرجل واحد، وخضوع هذه الإرادة للألوهية، إذا لم يختر أحد أمرين: إما الرجوع إلى الإيمان السابق بالتدخل المباشر للألوهية في القضايا البشرية وإما إعطاء تفسير دقيق لهذه القوة التي تنتج الحوادث وتدعي السلطان.

ويستحيل الرجوع إلى التأكيد الأول: فقد قضي على الإيمان. ولذا كان من الضروري تفسير هذا السلطان.

لقد أصدر ناپليون أمره بجمع جيش والانطلاق إلى الحرب. ولقد ألفنا بهذه الطريقة في النظر إلى الأمور حتى درجة بعيدة، بحيث أن مسألة معرفة لماذا ينطلق ستمائة ألف رجل إلى الحرب بكلمة واحدة من ناپليون تبدو لنا سخيفة لا معنى لها. لقد كان يتربع على سدة السلطة، فنفذت أوامره.

ويرضينا هذا التفسير تماماً إذا كنا نؤمن بأن ناپليون يستمد سلطانه من الألوهية ولكنه لا يرضينا حين نرفض أن نصدق ذلك، فيصبح عندئذ من الضروري تحديد طبيعة هذه السلطة التي يملكها رجل واحد على الآخرين جميعاً.

ولا يمكن أن تكون هذه السلطة هي السلطة المباشرة الناشئة عن التفوق الحكمي الذي يكون لكائن قوي على كائن ضعيف، وهو تفوق عماده

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

استخدام القوة الحكمية أو التهديد باستخدامها: وتلك هي سلطة هرقل. وكذلك لا يمكن أن تقوم على التفوق الأخلاقي، كما يعتقد ذلك، بسذاجة بعض المؤرخين الذين يؤكدون أن صانعي التاريخ هم أبطال، يعني رجالاً يتحولون بقوة أخلاقية وذهنية استثنائية تدعى العبقرية. هذه السلطة لا يمكن أن تقوم على تفوق القوة الأخلاقية لأنه إذا تركنا جانباً العباقرة الأبطال من طراز ناپليون الذين يحكم على صفاتهم الأخلاقية بصورة مختلفة، فالتاريخ يبرهن لنا أن أمثال لويس الرابع عشر، ومترنيخ، الذين كانوا يحركون ملايين البشر، لم يكونوا يملكون ما يؤلف القوة الأخلاقية بالمعنى الصحيح، بل كان معظمهم، على العكس من ذلك أضعف أخلاقياً من كل واحد من تلك الجماهير التي كانوا يحكمونها. فإذا كان مصدر السلطة لا يقوم في الصفات الحكمية للمرء الذي يملك السلطة ولا في صفاته الأخلاقية، فلا بدَّ أن يكون قائماً، من دون شك، خارجاً عنه، يعني في علاقته بالجماهير التي يمارس سلطته عليها.

هكذا يرى إلى الأمور علم الحقوق، هذا المصرف للتاريخ، الذي يعد باستبدال التفهم التاريخي للسلطة بالذهب الخالص.

إن السلطة هي مجموع إرادات الجماهير الممنوحة للأشخاص المختارين من قبل الجماهير باتفاق علني أو ضمني. كل هذا واضح في ميدان علم الحقوق، هذا العلم المصنوع من اعتبارات عن كيفية وجوب تنظيم الدولة والسلطة، إذ في حال تمكننا من فعل ذلك. ولكن هذا التعريف للسلطة يتطلب توضيحاً إذا كنا سنطبقه على التاريخ.

وينظر عالم الحقوق إلى الدولة والسلطة كما كان القدماء ينظرون إلى النار، يعني بصفتها شيئاً قائماً في ذاته. أما بالنسبة إلى التاريخ، فالدولة

www.Maktbah.com

والسلطة هما «على العكس، ظاهرتان بكل بساطة، تماماً كما أن النار، بالنسبة إلى الفيزياء ليست عنصراً، بل مجرد ظاهرة».

وينتج من هذا الخلاف الأساسي في وجهات النظر بين التاريخ وعلم الحقوق، أن علم الحقوق يستطيع، أن يتحدث ما شاء عن الأسلوب الذي يجب اتباعه في تنظيم السلطة، وعن طبيعة هذه السلطة التي تُعتبر ثابتة خارج الزمان. لكنه يعجز عن تقديم جواب عن المسائل التي يثيرها التاريخ، المتعلقة بمعنى هذه السلطة التي يغير الزمان في أشكالها.

فإذا كانت السلطة تمثل مجموع إرادات الجماهير الممنوحة لحاكم معين، هل يكون بوغاتشيف ممثل إرادة الجماهير؟ وإذا لم يكن كذلك، فلماذا يكون ناپليون هذا الممثل إذن؛ وكم كان ناپليون الثالث الموقوف في بولون مجرماً، وكم صار المجرمون فيما بعد هم الذين أوقفوا بأمره؟

وفي ثورات البلاط، التي يقوم بها شخصان أو ثلاثة أشخاص، هل تمنح الإرادة الشعبية أيضاً للمختار الجديد؟ وفي النزاعات الدولية، هل تمنح إرادة جماهير شعب ما إلى ذاك الذي غزا هذا الشعب؟ وفي عام ١٨٠٨، هل منحت إرادة عصبة الدين إلى ناپليون؟ وهل منحت إليه إرادة الجماهير الروسية عام ١٨٠٩، بينما كانت جيوشنا المحالفة لفرنسا تسير إلى قتال النمسا؟

يمكننا أن نجيب بثلاث طرائق عن هذه الأسئلة.

١ ـ إما أن نقبل بأن إرادة الجماهير تتجه دائماً دون أي شرط إلى ذاك أو إلى أولئك الذين نختارهم، وبالتالي إن كل تدخل لسلطة جديدة، وكل نضال ضد السلطة الممنوحة من الشعب، يجب أن تعتبر عدواناً على السلطة الحقيقية.

٢ ـ وإما أن نقبل بأن إرادة الجماهير تعطى للحكام في بعض الشروط المعينة والمعروفة؛ وفي هذه الحال، فإن كل تحديد، أو نزاع، أو حتى تدمير

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

للسلطة القائمة ينشأ عن كون الحكام لم ينفذوا الشروط التي منحت السلطة لهم بموجبها.

٣ ـ وإما يجب أن نقبل بأن إرادة الجماهير تمنح للحكام بصورة مشروطة، تبعاً لعقود مجهولة غير محددة، وأن تدخلات السلطات الأخرى، وصراعها وانهيارها، لا تنشأ إلا عن مبالغة أو تقصير من قِبل الحكام في تنفيذ هذه الشروط المجهولة التي تنتقل إرادات الجماهير تبعاً لها من شخص إلى آخر.

ويفسر المؤرخون علاقات الجماهير بالحكام بهذه الطريقة ثلاثية الجوانب.

إن المؤرخين الذين لا يفهمون، في سذاجتهم، مشكلة السلطة، هؤلاء المؤلفين للسير المذكورة آنفاً، هم وحدهم الذين يقبلون فيما يبدو بأن مجموع إرادات الجماهير تمنح لبعض الأشخاص دون أي شرط؛ ولذا فإنهم حين يضعون سلطة ما، يجعلون منها شيئاً حقيقياً ومطلقاً، لا يكون أية سلطة مناهضة سلطة حقيقية تجاهها، بل تهجماً واعتداء على السلطة ليس إلا.

وتوافق نظرياتهم العصور البدائية المسالمة من التاريخ؛ لكنها حين يجري تطبيقها على العصور حيث تعقدت حياة الشعوب واضطربت، وحيث تقوم في وقت واحد سلطات مختلفة تقاتل بعضها بعضاً، فإنها تبدي السيئة التالية: إن مؤرخاً ملكياً يبرهن إذن أن الجمعية التأسيسية، وحكومة الإدارة، وبونابرت، هم جميعاً اغتصبوا السلطة، بينما يبرهن مؤرخ جمهوري وآخر بونابرتي، أن الجمعية التأسيسية بالنسبة إلى الأول، والأمبراطورية بالنسبة إلى الثاني، هما السلطة الحقيقية، وكل شيء آخر هو اعتداء على السلطة. ومن الواضح أن التفسيرات المقدمة من قِبل هؤلاء المؤرخين لا يمكن أن تصلح، بمثل تلك التناقضات، سوى لأطفال صغار العمر.

www.Maktbah.com

ولكن نوعاً آخر من المؤرخين الذين يعترفون بخطل هذا الرأي يزعمون أن السلطة تعتمد على تسليم مجموع إرادات الجماهير للحكام بصورة مشروطة وهكذا لا تملك أية شخصية تاريخية السلطة إلا بقدر ما تنفذ البرنامج الذي وضعته إرادة الجماهير عليها ضمناً. لكن هؤلاء المؤرخين لا يقولون على ماذا يقوم ذلك البرنامج أو إذا تحدثوا عنه، فلكي يناقضوا بعضهم بعضاً بصورة دائمة.

ويوافق هذا البرنامج، عند كل مؤرخ، وجهة نظره عن غاية حركة شعب ما على صورة العظمة، والثروة، والحرية، وثقافة المواطنين في فرنسا أو في دولة أخرى. ولكننا إذا صرفنا النظر بعد الآن عن التناقضات التي يقع فيها المؤرخون في موضوع طبيعة هذا البرنامج، وحتى إذا ارتضينا بأن ثمة برنامجاً مشتركاً بينهم جميعاً، فالوقائع التاريخية تناقض مع ذلك هذه النظرية بشكل دائم تقريباً، فإذا كانت الشروط التي تمنح السلطة بموجبها تقوم في الثروة، والحرية وتطور الشعب، فكم كان حكم أمثال لويس الرابع عشر وشارل الأول؟ ويجيب المؤرخون عن هذا السؤال بأن أفعال لويس الرابع عشر التي كانت منافية للبرنامج قد أصابت نتائجها لويس السادس عشر.

ولكن لماذا لم تقع نتائجها على لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر نفسيهما، ولماذا وقعت بالضبط على لويس السادس عشر، وأخيراً ما هي مدة مثل هذا الانعكاس؟ ليس هناك ولا يمكن أن يكون ثمة أجوبة عن هذه الأسئلة. وكذلك فإنهم يسيئون في هذه النظرية تفسير السبب الذي تستمر السلطة من أجله، طوال قرون عديدة بين أيدي الحكام وخلفائهم ثم تنتقل بعدئذ بصورة مفاجئة، خلال خمسين عاماً، إلى الجمعية التأسيسية، وحكومة الإدارة، ونابليون، وألكسندر، ولويس الثامن عشر، وشارل العاشر، ولويس

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

فيليب، وجمهورية ١٨٤٨، ونابليون الثالث. وفي سبيل تفسير هذه الانتقالات السريعة للسلطة في ملء المضاعفات الدولية، والغزوات والأحلاف، فلا بدَّ للمؤرخين أنفسهم من الاعتراف رغماً عنهم بأن جزءاً من هذه الأحداث ليست مسببة عن التحويل المنتظم لإرادة الجماهير، بل عن الصدفة التابعة تارة لخداع، وتارة للأخطاء، أو وضع دبلوماسي معين، أو ملك، أو رئيس حزب. وهكذا فإن أكثر الأحداث التاريخية، من حروب أهلية، وثورات، وغزوات لم تعد بعد الآن في رأي هؤلاء المؤرخين نتاج تحويل إرادات حرة، بل بالأحرى نتاج الإدارة الموجهة بصورة خاطئة لفرد واحد أو عدة أفراد، يعني مرة أخرى نتائج اعتداءات على السلطة. وبالتالي إن الأحداث التاريخية تقدم من قبل المؤرخين من هذا النوع على اعتبارها نقضاً ومخالفة للنظرية.

هؤلاء المؤرخون أشبه ما يكونون بعالم نباتي يدعي، بعد ما رأى بعض النباتات تنمو بفلقتين، أن كل ما ينبت لا ينمو إلا بفلقتين، وأن شجرة النخيل، والفطر، والسنديانة التي أيضاً، التي بلغت نموها الكامل وهي لا تظهر لنا الفلقتين البدئيتين ليست سوى استثناء للقاعدة العامة.

ويزعم المؤرخون من المقولة الثالثة أن إرادة الجماهير تتجه بصورة مشروطة إلى شخصية تاريخية، لكن شروط هذا الاتجاه نجهلها تماماً. ويقولون إن الشخصيات التاريخية لا تتمتع بالسلطة إلا بقدر ما تنفذ الإرادة التي ألقتها الجماهير على عاتقها.

وفي هذه الحال، إذا كانت القوة التي تحرك شعباً ما تقول لا في الشخصية التاريخية بل في الشعب نفسه، فما هو معنى الشخصيات إذن؟

ويقول المؤرخون: إنهم يعبرون عن إرادة الجماهير، وفاعليتهم تفيد في تمثيل فاعلية الجماهير.

www.Maktbah.com

ولكن سؤالاً جديداً يطرح إذن: هل تعبر كل أفعال الشخصيات التاريخية عن إرادة الجماهير، أو عن أحد مظاهر الإرادة فقط؟ فإذا كانت جميع أفعال الشخصيات التاريخية تعبر عن إرادة الجماهير كما يعتقد البعض فسيرة ناپليون وكاترين الثانية بسائر تفاصيلها المستمرة من إشاعات البلاطات وثرثرتها، تمثل إذن حياة الشعوب نفسها وهذا من السخف الواضح. فإذا كانت فاعلية الشخصيات التاريخية لا تمثل إذن سوى مظهر واحد من حياة الشعوب، كما يقول ذلك بعض المؤرخين الآخرين المزعومين فلاسفة، فالقضية هي تعين ماهية هذا المظهر؛ وعندئذ يصير من الضرورة معرفة فيما تقوم حياة الشعب.

وتجاه هذه المسألة، تخيل المؤرخون من المقولة الثالثة، التجريد الأشد غموضاً والتباساً، الذي نستطيع أن نضع أكبر عدد من الوقائع تحت جناحه، وهم يقولون إن هذا التجريد هو غاية حركة الإنسانية. وإن التجديدات الأكثر عمومية وانتشاراً، والتي يقبلها سائر المؤرخين تقريباً، هي التالية: الحرية، المساواة، التطور، التقدم، المدنية، الثقافة. ويستدير المؤرخون، بعد أن يعينوا أحد هذه المجردات كهدف لحركة الإنسانية، إلى الشخصيات الذين تركوا خلفهم أكبر عدد من الذكريات، من ملوك ووزراء. وجنرالات، ومؤلفين، ومصلحين، وبابوات، وصحافيين، لكن بقدر ما يلوح لهم أن هؤلاء الشخصيات قد عملوا من أجل هذه المجردات أو ضدها. ولما لم يكن ثمة برهان على أن الأهداف التي تنحو صوبها الإنسانية هي الحرية والمساواة، والتطور أو المدنية، ولما لم يكن للرابطة بين الجماهير والحكام والمصلحين أساس إلا الفرضية الاعتباطية القائلة إن مجموع إرادات الجماهير تنصب دائماً على الشخصيات الشهيرة فإن فاعلية ملايين البشر الذين يهاجرون، ويحرقون المنازل، ويتركون الأرض بائرة، ويفنون بعضهم بعضاً لا يؤتى

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

حتى على ذكرها في وصف أفعال عشر شخصيات يحرقون المنازل ولم يعنوا بالزراعة، يقتلون أشباههم.

ويقدم لنا التاريخ برهاناً على ذلك لدى كل خطوة، وهل يفسر غليان الشعوب الغربية في أواخر القرن الأخير ومطامحهم المتجهة نحو الشرق بنشاط لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر، وعشيقاتهم ووزرائهم وبحياة ناپليون، وروسو، وديدرو، وبومارشيه، وسواهم؟

وهل تفسر حركة الشعب الروسي نحو الشرق، نحو قازان وسيبريا، بتفاصيل الخلق المرضي لإيڤان الرابع وبمراسلاته مع كوريسكي؟

وهل تفسر هجرات زمن الحروب الصليبية بسيرة غودفروا، والقديس لويس، وزوجتيهما؟ إن هذه الحركة التي قامت الجماهير بها من الغرب نحو الشرق، دون هدف محدد، ودون زعماء جديرين، لعصابة من الحفاة، مع بطرس الناسك تبقى عصية على الإدراك بالنسبة إلينا. وإن توقف هذه الحركة بعدما أعطى كبار ذلك العصر هدفاً عقلانياً ومقدساً للحروب الصليبية، وهو إنقاذ أورشليم، لأشد امتناعاً عن الفهم، إن البابوات، والملوك، والفرسان، قد استحثوا الشعوب على تحرير أماكن مقدسة؛ بيد أن الشعب لم يتحرك إما تلاشى السبب المجهول الذي حمله قبلاً على الحركة. إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين لا يمكن أن يتضمن كل حياة الشعوب. إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين يبقى تاريخهم الخاص، بينما تاريخ حياة الشعوب ودوافعهم يبقى مجهولاً.

وتاريخ الكُتّاب والمصلحين أيضاً أقل منه إيضاحاً لحياة الشعوب.

ويفسر لنا تاريخ الحضارة، مع ذلك، دوافع كل كاتب أو مصلح وشروط

www.Maktbah.com

حياته وأفكاره. نحن نعرف أن لوثر كان غضوب الطبيعة، وقد ألقى هذا الخطاب وذاك، ونحن نعرف أن روسو كان متشككاً وأنه كتب هذه الكتب وتلك، بيد أننا لا نعرف السبب الذي جعل الشعوب تتذابح بعد الإصلاح، ولماذا حكم الناس بالإعدام بعضهم على بعض إبان الثورة الفرنسية.

وإذا ما جمعنا هذين النوعين من التاريخ معاً، كما يفعل ذلك المؤرخون المحدثون، فإننا لن نحصل أيضاً سوى على تاريخ الملوك والكُتّاب، وليس تاريخ حياة الشعوب.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الخامس

لا تنطوي حياة الشعوب في حياة بعض الشخصيات ما دمنا لا نجد الرابطة التي تربط الشخصيات القليلة وتلك الشعوب. وليست النظرية التي تقول إن هذا الرباط يقوم في وقف مجموع إرادات الجماهير على شخصية معيّنة إلا فرضية لا تؤيدها الحقائق مطلقاً.

ومما لا شك فيه أن في مكنة هذه النظرية تفسير أشياء عديدة في ميدان علم الحقوق، كما أنها لازمة من دون شك في سبيل غايتها الخاصة. قلنا إذا طبقناها على التاريخ، فلا يكاد تحدث ثورة، أو غزوة، أو حرب أهلية، يعني لا يكاد التاريخ يبدأ، حتى تصير هذه النظرية عاجزة عن تفسير أي شيء.

ومهما يكن الحادث، ومهما تكن الشخصية التي تقوم على هذا الحادث، ففي قدرة هذه النظرية أن تزمع دائماً أن تلك الشخصية إنما وضعت في ذلك المكان بمجموع الإرادات الموقوفة عليها.

والأجوبة التي تعطيها هذه النظرية عن القضايا التاريخية أشبه ما تكون بأجوبة امرئ يرى قطيعاً من الغنم أثناء مسيره فلا يأخذ في الاعتبار صفة الكلأ المغايرة في مختلف مناطق الرعي، أو فاعلية الراعي نفسه، فلا يعنى، كي يعير هذا أو ذاك من الاتجاهات التي يسلكها القطيع، سوى بالحيوان السائر في الطليعة.

«يذهب القطيع في هذا الاتجاه لأن الحيوان الذي يسير في المقدمة يقوده، ولأن مجموع إرادات سائر الحيوانات الباقية قد أحيل عليه». هكذا

www.Maktbah.com

يعفي المؤرخون من المقولة الأولى، الذي يقبلون التحويل غير المشروط للسلطان.

«إذا كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتغير، فلأن مجموع إرادة القطيع كله من قائد إلى آخر، حسب مقدرة هذا القائد على قيادة القطيع بصورة أفضل أو أسوأ في الاتجاه الذي اختاره بمجموعهم». هكذا بعض المؤرخين الذين يزعمون أن مجموع إرادات الجماهير الحكام تبعاً لشروط غير معلومة وغالباً ما يحدث للمتفرج، في مثل هذه الحال، أن يتخذ أدلاء له، تبعاً للاتجاه الذي اختاره، أولئك الذين يقومون، منذ حدوث تبدل في الاتجاه الذي يتبعه الجمهور، على جانب القطيع بدلاً من أن يكونوا في طليعته، أو يكونوا في مؤخرته في بعض الأحايين.

«إذا كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتبدل باستمرار، وإذا كان الاتجاه الذي يتبعه القطيع يتبدل أيضاً، فذلك ينشأ عن كون الحيوانات، كي تبلغ هذا الاتجاه المعروف من قبلنا، تضع إرادتها تحت تصرف أولئك الذين نميزهم بين الآخرين؛ وبالتالي لا بدَّ لنا، كي ندرس حركة القطيع، أن نراقب سائر هذه الحيوانات التي نميزها، والتي تسير على جوانب القطيع المختلفة». هكذا يصرح المؤرخون من المقولة الثالثة الذين ينظرون إلى سائر الشخصيات التاريخية، منذ الملوك حتى الصحافيين، على اعتبارهم تعبيراً عن زمنهم.

إن نظرية وقف إرادة الجماهير على شخصية تاريخية ليست أكثر من اجترار للكلمات نفسها، ليست سوى للتعبير عن جوانب المسألة نفسها بكلمات أخرى.

ما هي أسباب الحوادث التاريخية؟ ـ السلطة. ما هي السلطة؟ ـ مجموع الإرادات المنقولة إلى شخص واحد. بأية شروط يحدث هذا النقل؟ ـ بشرط

twitter @baghdad_library

أن يعبر الشخص المنتخب عن إرادة الجميع. وبكلام آخر، فالسلطة هي السلطة. وبمعنى آخر، السلطة كلمة لا ندرك معناها.

لو انحصر ميدان العلم البشري بالفكر المجرد وحده، لكانت الإنسانية تتوصل، بعدما يخضع للنقد تفسير السلطة المعطاة من قبل العالم، إلى هذه النتيجة، ألا وهي أن السلطة ليست أكثر من مجرد كلمة، وهي غير موجودة في الحقيقة. لكن الإنسان يملك، من أجل معرفة الظواهر، أداة أخرى غير الفكر المجرد، وهي التجربة التي يراقب بواسطتها محاكماته التجريدية، وأن التجربة لتثبت أن السلطة ليست كلمة، بل حقيقة.

وإذا تركنا جانباً أنه ليس ثمة وصف لفاعلية البشر الجماعية يستطيع الاستغناء عن تعريف للسلطة، فإن وجود السلطة يثبته التاريخ ومشاهدة الأحداث المعاهدة على السواء.

وكلما وقع حادث ما، نجد ظهور شخص أو عدة أشخاص يتم هذا الحادث بسبب إرادتهم. إن نابليون الثالث يصدر أمره، ينطلق الفرنسيون إلى المكسيك. إن ملك روسيا وبسمارك يصدران أمرهما، فتسير جيوشهما نحو بوهيميا. إن نابليون الأول يأمر، وتسير جيوشه إلى روسيا. إن ألكسندر الأول يأمر، ويخضع الفرنسيون للبوربونيين. إن التجربة تبيِّن لنا أن أي حادث كان يرتبط بإرادة شخص أو عدة أشخاص قد أمروا به.

ويريد المؤرخون، بفضل ما اعتادوه قديماً من مشاهدة تدخل الله في قضايا العالم، أن يقوم سبب كل حادث في إرادة شخص يتمتع بالسلطة، بيد أن هذا الاستنتاج لا تؤكده المحاكمة العقلية ولا التجربة العملية.

من جهة، تبرهن المحاكمة أن التعبير عن إرادة الإنسان، أي كلامه، ليس سوى جزء من الفاعلية الكلية المتظاهرة في حادث ما، الحرب مثلاً، أو الثورة أيضاً. وبالتالي، فإذا لم نعترف بوجود قوة مجهولة فوق طبيعية، يعني بوجود

www.Maktbah.com

المعجزة، فمن المستحيل القبول بأن الكلمات وحدها يمكن أن تكون سبب تحرك ملايين الناس. ومن جهة أخرى التاريخ يبرهن، حتى إذا وافقنا على ذلك، أن التعبير عن إرادة الشخصيات التاريخية لا يؤدي في معظم الحالات إلى أية نتيجة، يعني أن أوامرهم لا تبقى دون تنفيذ فحسب، بل إن عكس ما أمروا به يحدث في بعض الأحيان.

فإذا لم نقبل التدخل الإلهي في القضايا البشرية، فإننا لا نستطيع أن نرى إلى السلطة على أنها سبب للحوادث.

فالسلطة، من وجهة نظر التجربة، ليست سوى علاقة التبعية القائمة بين الإرادة المعبر عنها لإنسان ما، وتحقيق هذه الإرادة من قبل أناس آخرين.

وكي نشرح شروط هذه التبعية، يجب بادئ ذي بدء، أن نرجع مفهوم الإرادة المعبر عنها لا إلى الله، بل إلى إنسان ما.

فإذا كانت الألوهية، كما يقول لنا القدماء تصدر الأوامر وتعبر عن إرادتها، فتعبير هذه الإرادة غير تابع للزمان وغير مسبب عن أي شيء كان، ما دامت الألوهية لا تملك أية علاقة بالحوادث. أما فيما يتعلق بالأوامر المعبرة عن إرادة بشر يتحركون في الزمان ويتماثلون ببعضهم بعضاً، فيجب لنا، كي نفسر العلاقة الموجودة بين الأوامر والحوادث، أن نبيِّن: ١ ـ الشرط الضروري لكل ما يقع، ألا وهو اتصال الحركة في الزمان، والحوادث وأوامر الشخصية المعينة؛ ٢ ـ الشرط الضروري لوجود رابطة بين من يصدر الأمر والذين ينفذونه.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل السادس

إن ما يستطيع أن يؤثر في سلسلة من الأحداث، هو إرادة إلهية مستقلة عن الزمان، تلك الأحداث التي لا بدَّ من وقوعها في بضع سنوات أو بضعة قرون. إن الألوهية وحدها تستطيع بإرادتها غير المشروطة، أن تحدد اتجاه مسير البشرية. أما الإنسان فيفعل على العكس من ذلك، في الزمان ويشارك بنفسه في الأحداث.

وإما حققنا هذا الشرط الأول المهمل عادة، شرط الزمان، فسوف نرى أنه يتعذّر تنفيذ أي أمر كان ما لم يسبقه أمر آخر يسمح بتنفيذه.

لا يظهر الأمر أبداً بتوالد عفوي أو يحتوي في ذاته سلسلة كاملة من الأحداث؛ كل أمر ينشأ بالضرورة عن أمر آخر، وتكون علاقته لا بسلسلة كاملة من الأحداث، بل بلحظة وحيدة في حادث واحد فقط.

فعندما نقول، مثلاً، إن ناپليون أرسل جيوشه إلى الحرب، فإنّا نرجع إلى أمر وحيد، يلفظ في لحظة معيّنة من الزمان، سلسلة من الأوامر المتتابعة المترابطة. لم يكن في مكنة ناپليون أن يأمر بالحملة على روسيا، وهو لم يفعل ذلك قط. لقد أمر ذات يوم بإرسال هذه الأوراق أو تلك إلى ڤيينا، وبرلين، وپيترسبورغ؛ وأمر في اليوم التالي بإرسال هذه المراسيم والمعلومات أو تلك إلى الجيش، والأسطول، ومركز الإدارة، إلخ... إذن فهو قد أصدر آلاف الأوامر المتعلقة بتلك الحلقة من الحوادث التي قادت الجيش الفرنسي إلى روسيا.

www.Maktbah.com

وإذا كان ناپليون لم يكف، طوال فترة سيطرته، عن إصدار الأوامر المستهدفة الحملة على إنكلترا، وبذل في ذلك من الجهد أكثر مما بذل في سبيل أي من مشاريعه الأخرى؛ وإذا لم يجرب مرة واحدة، رغم ذلك كله، أن يحقق مشروعه، بل انهمك في حملته على روسيا التي كانت مخالفتها، كما أكد مرّات عديدة، تعود عليه بالفائدة الجمة، فمردّ ذلك أن أوامره الأولى لم تكن تتناسب مع سلسلة من الحوادث، بينما كانت الأوامر التالية تتجاوب معها.

لا يمكن أن يوضع الأمر موضع التنفيذ ما لم يكن صادراً بصورة يمكن تنفيذه معها. وإن معرفة ما كان يمكن وما كان لا يمكن تنفيذه هو الشيء المستحيل، ليس فقط بالنسبة إلى حملة ناپليون على روسيا حيث يساهم ملايين البشر، بل كذلك بالنسبة إلى أبسط حدث، لأن تنفيذ الأمر يمكن أن يصطدم في كلتا الحالتين بملايين العقبات. وإننا لنجد، مقابل كل أمر تمّ تنفيذه، عدداً من الأوامر الأخرى التي لم تنفذ. فالأوامر المستحيلة لا علاقة لها أبداً بالحوادث ولا يمكن إنجاها، والأوامر القابلة للتنفيذ هي وحدها التي ترتبط بسلاسل من الأوامر الموافقة لسلاسل من الأحداث، وإنها لتنفذ.

فإذا ما تصورنا بشكل خاطئ أن الأمر السابق لحادث ما هو سبب هذا الحادث، فمنشأ ذلك أننا ننسى وقوع الحادث وحقيقة تنفيذ الأوامر التي كانت ذات علاقة به من بين آلاف الأوامر الصادرة، تلك الأوامر التي لم تنفذ لأنه لم يكن في الإمكان تنفيذها وما عدا ذلك، فالمصدر الرئيسي لجهلنا هو أن سلسلة لا حصر لها من الوقائع التافهة، ومثالها كل ما جر الجيوش الفرنسية إلى روسيا، يذوب في العرض التاريخي للحقائق في حدث وحيد وفقاً لنتيجة تلك السلسلة من الوقائع، وبالتالي فإننا نصهر، بصورة متفقة مع ذلك الذوبان، سلسلة كاملة من الأوامر في أمر واحد يعبّر عن إرادة الزعيم.

twitter @baghdad_library

إننا نقول: أراد ناپليون الحملة على روسيا وحققها. وفي الحقيقة إننا لا نجد في أي كان من نشاطه، شيئاً شبيه التعبير عن هذه الإرادة، إننا نرى فقط سلسلة من الأوامر أو في تعبير إرادته، موجهة بصورة على أشد ما تكون من التنوع والالتباس. ولقد استخرج من السلطة اللامتناهية لأوامر ناپليون غير المنفذة سلسلة من الأوامر القابلة للتنفيذ، المتعلقة بحملة عام ١٨١٢، ليس لأن هذه الأوامر الأخيرة تتميز في أي شيء كان على الأوامر السابقة، بل لأن هذه السلسلة من الأوامر تتطابق مع سلسلة الوقائع التي وجَّهت الفرنسيين إلى روسيا، وتلك هي الحال بالضبط حين نصور شخصاً بالاستناد إلى أصل مرسوم فنحن لا نعني إذن كيف ومن أي جانب تنطبق الألوان، بل نمر فقط اللون على سائر ملامح الوجه الذي يصوره ذلك الأصل.

وهكذا، فعندما نأخذ في الاعتبار، في زمن محدَّد، العلاقات بين الأمر والحادث، فإننا نرى أن الأمر لا يمكن إطلاقاً أن يكون سبب الحادث، بل إن ثمة علاقة محددة بينهما.

كيفما نفهم جوهر هذه العلاقة، فلا بدَّ لنا من تحقيق الشرط الثاني الذي لم نتناوله حتى الآن، الخاص بكل أمر صادر لا عن الألوهية بل عن الإنسان، والقائم في أن الإنسان الذي يصدر الأمر يساهم هو نفسه في وقوع الحادث.

وإن هذه العلاقة بين الآمر والمنفذ هي بالضبط ما نسميه السلطة. وهذه العلاقة تقوم يما يلي:

إن البشر كي يعملوا بصورة مشتركة، يتخذون على الدوام في جماعات تبقى فيها العلاقة بين البشر الذين يساهمون في الفعل واحدة، وذلك بالرغم من الفرق القائم بين الهدف المطلوب والعمل الجماعي.

وإما يتحد البشر هكذا، فهم على الدوام تربطهم العلاقة التالية: إن العدد

www.Maktbah.com

الأكبر يقوم بالنصيب الأكبر المباشر، والأقلية الزهيدة، تقوم بالنصيب الأصغر في العمل الجماعي الذي اتحدوا في سبيله.

وفي عداد هذه التجمعات حيث يلتقي البشر سبيل القيام بأفعال مشتركة نرى أن الجيش هو في أوضحها وأكثرها تحديداً.

يتشكل الجيش، بادئ الأمر، من أحط العناصر في التراتب العسكري: الجنود الذين هم العدد الأكبر ومن ثم من أولئك الذين يلحقون بهم في هذا التراتب، الجنود الأولون، والعرفاء، وصف الضباط الذين عددهم أقل من ذلك، حتى القيادة العليا المركزة في فرد وحيد.

ويمكن تشبيه التنظيم العسكري بمخروط يشكل الجنود قاعدته، والضباط المقاطع المسطحة منه، المتناقضة بقدر ما نرتفع نحو القمة التي رأسها هو القائد العام.

الجنود الذين هم الغالبية العظمة يشكلون القسم الأسفل، قاعدة المخروط، وأنه الجندي الذي يضرب ويطعن ويحرق ويسلب، وهو يتلقى الأمر بذلك من رؤسائه دوماً، بينما هو نفسه لا يصدر الأوامر أبداً. وإن صف الضباط، وهم أقل عدداً، لا يقومون بالعمل نفسه إلا في حالات نادرة، لكنهم يأمرون قليلاً. أما الضابط، فيساهم في الفعل بنصيب أقل من ذلك، ويصدر الأوامر أكثر فأكثر. ولا يفعل الجنرال سوى قيادة مسير القوى المسلحة نحو هدف يضعه أمامها، لكنه يكاد لا يلمس السلاح مطلقاً. أما القائد العام، فإنه لا يستطيع مطلقاً أن يساهم في الفعل مباشرة، بل يكتفي بأن يصدر الأوامر باتخاذ التدابير اللازمة المتعلقة بالحركة الكتلية للجيوش. وإن الصلة نفسها بين الأفراد تتكرر في كل مجموعة تجمعت مستهدفة فعلاً مشتركاً، أكان ذلك في ميدان الزراعة أم التجارة، أم أي مشروع آخر. وهكذا، من دون أن نضاعف بصورة مصطنعة مقاطع المخروط أو رتب الجيش أو ألقاب ومراكز

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

دائرة ما، أو أية منظمة عامة، نرى أن ثمة قانوناً يبرز من ذلك كله، ينص على إيجاد العلاقات بين مراكز الرجال المعينين لإنجاز عمل مشترك بحيث ينقص اشتراكهم في القيادة بقدر ما يزداد عددهم ومساهمتهم المباشرة في هذا العمل؛ وفي المقابل، فبقدر ما ينقص نصيبهم من العمل المباشر، ينقص عددهم ويتضاعف اشتراكهم في العمل القيادي، وهكذا بحيث نرتفع من الأسفل إلى الأعلى، حتى شخصية وحيدة وأخيرة توجه، رغم أن نصيبها في العمل المشترك هو أقل من نصيب أي شخص آخر، نشاطها نحو القيادة أكثر من الآخرين جميعاً.

إن العلاقة بين الشخص الذي يقود، وأولئك الذين يخضعون للقيادة هي التي تشكل جوهر المفهوم المسمى سلطة.

ونحن لم نكتشف أن الأمر لا ينفذ إلا عندما يرتبط بالسلسلة الموافقة في الوقائع سوى بإنجاز شروط الزمان التي تتم الأحداث فيها. ولقد اكتشفنا، في تحقيقنا لذلك الشرط الذي ينص على ضرورة وجود رباط بين من يأمر، ومن ينفذ، أن أولئك الذين يصدرون الأوامر يكون لهم النصيب الأدنى، تبعاً لماهيتهم نفسها، في الحادث بمعناه الصحيح، وأن نشاطهم موجّه نحو القيادة وحدها من دون أي شيء آخر.

www.Maktbah.com

الفصل السابع

كل امرئ يقدّم رأيه الشخصي عندما يلوح حدث ما في الأفق، ولا بدَّ دائماً من وجود شخص يقترب رأيه أكثر أو أقل من الحقيقة، بحيث يرتبط الرأي بالحادث في فكرنا ارتباط السبب بالمسبب.

هؤلاء رجال يجرون كتلة من الخشب. كل واحد منهم يعطي رأيه عن كيفية جرّها والمكان الذي يجب أن تصل إليه. وينتهي الرجال من جر الكتلة، فيتبين أن الشيء قد تحقق وفقاً لأقوال واحد من عدادهم. ويفكرون أن هذا الرجل هو الذي قام بدور القيادة. وإليكم الأمر والسلطة حسب شكلهما البدائي: إن من اشتغل بيديه أكثر من الجميع كان أقلهم تفكيراً فيما يصنع. وبالتالي كان أقلهم تفكيراً أيضاً فيما يمكن أن ينتج من الفاعلية المشتركة وفي الأوامر التي يتوجب إصدارها. أما الذي قام بدور القيادة أكثر من سواه، فقد انحصر فعله في الكلام وهو بالتالي كان أقوى الجميع عملاً بيديه.

وبقدر ما يعظم تجمع الناس الذين يوجهون فعلهم نحو هدف واحد، فإن مقولات الرجال الذين تنقص مساهمتهم في العمل العام بمقدار ما يكون نشاطهم موجهاً نحو القيادة تزداد هذه وضوحاً.

حين يعمل الإنسان وحده، يملك دائماً عدداً من الأسباب وجهت في اعتقاده، نشاطه السابق، وهي تبرر نشاطه الراهن وتوجهه في اختيار أفعاله اللاحقة. وإن الجمعيات لتفعل بالصورة عينها، إذ تترك لغير المساهمين

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

في الفعل أمر تصوّر الاعتبارات والمبررات والفرضيات المتعلقة بعملهم المشترك.

راح الفرنسيون يغرقون بعضهم بعضاً أو يتذابحون لأسباب معروفة أو مجهولة منا. وإن هذا الحادث ترافقه مبرراته الخاصة، الموجودة في إرادات الفرنسيين الواضحة، هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون هذا الحادث ضرورياً من أجل عظمة فرنسا، ومن أجل الحرية والمساواة ولا ينتهون من التذابح حتى يترافق هذا الحادث أيضاً مع مبرراته: ضرورة سلطة وحيدة، وضرورة الصمود في وجه أوروبا، إلخ. ويسيرون من الغرب في اتجاه الشرق، وهم يتبعون أشباههم، ويترافق هذا الحادث أيضاً بخطابات عن عظمة فرنسا، وسفالة إنكلترا، إلخ، ويُظهر التاريخ أن هذه المبررات كانت تخلو من الحس السليم، وأنها تتناقض، مثلها مثل قتل الإنسان إثر إعلان حقوق الإنسان، وقتل ملايين الناس في روسيا في سبيل إذلال إنكلترا. بيد أن لهذه المبررات، عند الناس المعاصرين، مغزى ضرورياً.

إن الغاية منها هي تغطية المسؤولية الأخلاقية لمرتكبي هذه الحوادث. فهذه الغايات شبيهة بالمكانس الموضوعة في مقدمة القطارات بغية تنظيف الخط الحديدي، إنها تنظف طريق مسؤولية البشر الأخلاقية. وإن أبسط سؤال يبقى، من دون هذه المبررات، دون جواب لدى تفحص كل حادثة على حدة. كيف يمكن لملايين الناس أن يرتكبوا بصورة مشتركة الجرائم والحروب، والمذابح، إلخ؟

هل يمكننا، في الأشكال المعقدة للحياة الحديثة، السياسية والاجتماعية، في أوروبا أن نتصوَّر أية حادثة لم يقدرها سلفاً الملوك، أو الوزراء، أو البرلمانيون، أو الصحف، ويأمرون بها ويقررون حدوثها؟ أثمة نشاط جماعي لم يجد تبريره في وحدة الدولة، أو الدفاع عن الأمة، أو التوازن الأوروبي، أو

www.Maktbah.com

مصلحة الحضارة؟ إن كل حادثة واقعة توافق بالضرورة رغبة ثم التعبير عنها، وهي تعتبر، من أجل تبريرها، نتاجاً لإرادة واحد أو أكثر من هذه الشخصيات.

ومهما يكن اتجاه سفينة ما، فإننا نجد على الدوام، في مقدمتها، دواراً مائياً ناتجاً من الموجة التي تخترقها. وإن هذه الدوامة، بالنسبة إلى المسافرين على سطح السفينة، هي الحركة الوحيدة المرئية.

ونحن لا نعرف أن كل حركة من حركات الموجة تحددها حركة السفينة، وأن ما يوقعنا في الخطأ هو كوننا نتقدم نحن أنفسنا دون أن نلاحظ ذلك، نحن لا ندرك هذا إذن إلا إذا تمعنا عن قرب لحظة إثر لحظة، في حركة دوامة المياه وقارنا تجربة السفينة نفسها.

ونصل إلى النتيجة نفسها إذا تتبعنا خطوة فخطوة، حركات الشخصيات التاريخية، يعني إذا ما حققنا الشرط الضروري لكل ما يقع من حوادث: اتصال الحركة في الزمان، وإذا لم يغب عن أنظارنا الرباط الضروري القائم بين الشخصيات التاريخية والجماهير.

ومهما يكن من بدّ، فإن الحادث يبدو أنه ذلك الحادث الذي كان متوقعاً ومأموراً به مهما يكن اتجاه السفينة، فالدوامة التي تطرطش عند مقدمة السفينة لا توجد حركتها كما أنها لا تقوي هذه الحركة؛ ومع ذلك فهي تلوح لنا عن بعد لا نابضة بحركة مستقلة فحسب، بل موجهة لحركة السفينة أيضاً.

حين لا يأخذ المؤرخون في الاعتبار إلا هذه التعابير عن إرادة الشخصيات التاريخية التي ترتبط بالأحداث على صورة أو أمر قد افترضوا أن الأحداث تابعة لهذه الأوامر. ولكننا عندما تفحصنا الحوادث نفسها والرابطة التي تجمع بين الشخصيات التاريخية والجماهير وجدنا أن هذه الشخصيات، مثلها مثل أوامرها، هي التي تقع في تبعية الحوادث. والبرهان على ذلك أن الحادث لا يقع، مهما تكن الأوامر كثيرة ومتعددة، وإذا لم يكن ثمة أسباب

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

أخرى؛ ولكن الحادث، مهما يكن، لا يكاد يقع حتى نجد، بين الإرادات التي عبرت عنها شخصيات مختلفة، أسباباً يمكن أن تنسب، تبعاً لمنحاها وزمن وقوعها، إلى الحادث كأوامر أدت إلى وقوعه.

وإما وصلنا إلى هذه النتيجة، فإننا نستطيع أن نجيب بوضوح ويقين عن المشكلتين الأساسيتين للتاريخ:

١ ـ ما هي السلطة؟

٢ ـ ما هي القوة التي تحرك الشعوب؟

١ ـ تنشأ السلطة عن علاقات شخصية معيّنة بشخصيات أخرى. وإن هذه العلاقات منظمة بحيث أن هذه الشخصية تعبر عن عدد أكبر من الآراء والفرضيات والمبررات المتعلقة بالحادثة الجارية بقدر ما تنص مساهمتها في العمل المشترك.

٢ ـ لا تحدث السلطة حركة الجماهير، ولا الفاعلية الفكرية ولا اتحاد فلان أو فلان، كما يعتبر ذلك المؤرخون، بل بفاعلية سائر الذين يشتركون في الحوادث، والذين يتجمعون بحيث، أن الذين يساهمون في الفعل بصورة أكثر مباشرة هم أقل الجميع مسؤولية. والعكس بالعكس.

ومن وجهة النظر الأخلاقية، يبدو أن السلطة هي سبب الحادث؛ ومن وجهة النظر الحكمية، يبدو أن الخاضعين للسلطة هم سبب ذلك الحادث. ولكنه لما كانت كل فاعلية أخلاقية مستحيلة بدون فاعلية حكمية، فأسباب الحادث غير موجودة إلا في اجتماع كلتيهما.

وبتعبير آخر: إن مفهوم السبب لا ينطبق على الظاهرة التي نحن في سبيل تفحصها.

وإننا نصل في آخر تحليل إلى الدائرة الأبدية، إلى هذا الحد الأقصى الذي يبلغه الذهن البشري في ميدان الفكر إذا لم يكن لاهياً في دراسة موضوعه. إن

www.Maktbah.com

الكهرباء مولدة للحرارة، والحرارة تنتج الكهرباء. إن الجواهر تتجاذب، وإن الجواهر تتدافع.

وحين نتحدث عن التفاعلات المتبادلة بين الكهرباء والحرارة، فإننا لا نستطيع القول أين تنشآن؛ نحن نقول إذن إن ذلك يحدث على هذه الصورة المعينة لأنه يبدو لنا مستحيلاً بأية صورة أخرى، لأن ذلك يجب أن يكون هكذا، لأن هذا قانون مطلق. وكذلك الأمر بالنسبة إلى القضايا التاريخية. فنحن نجهل لماذا توجد هذه الحرب أو تلك الثورة، ولا نعرف سوى أن البشر يتحدون في جماعية يساهم كل منهم فيها كي ينجزوا هذا الفعل أو ذاك؛ ونحن نقول إن الأمور هكذا، وإن الأشياء غير معقولة بصورة أخرى، وإن ذلك هو القانون.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

كان يكفي طرح هذا القانون في وضوحه وبساطته لو كانت علاقة التاريخ محصورة فقط بالظواهر الخارجية، وبذلك ينتهي كلامنا. لكن قانون التاريخ يرتبط بالكائن البشري. إن ذرة في المادة لا تستطيع أن تقول لنا مطلقاً إنها تحس بحاجة الانجذاب أو الدافع، وهي لا تستطيع أن تقول لنا أيضاً إن هذا القانون خطأ. أما الإنسان، الذي هو عرَض التاريخ، فيؤكد على العكس بصورة جازمة: إني حر ولست خاضعاً للقوانين.

إن هذا الوجود الخفي لقضية الحرية الإنسانية ينبثق أمامنا لدى كل خطوة يخطوها التاريخ.

ولقد انتهى سائر المؤرخين الجديين، بصورة لا إرادية، إلى هذه المشكلة. وما منشأ سائر تناقضات التاريخ وشكوكه، وتلك الطريق الخاطئة التي يسلكها هذا العالم، سوى من بقاء هذه القضية من دون حل.

فإذا كانت إرادة كل من الأفراد حرة، يعني إذا كان في مكنة كل امرئ أن يتصرف بحرية يعني حسب مزاجه، فمن الواضح أن فعلاً وحيداً حراً يقوم به هذا الشخص بصورة مناقضة للقوانين يقضي قضاء مبرماً على إمكانية وجود أية قوانين بالنسبة إلى الإنسانية بأسرها.

وإذا كان ثمة قانون واحد يسير الأفعال البشرية، فلا يمكن إذن أن تكون ثمة حرية، لأن إرادة كل امرئ يجب عندئذ أن تكون خاضعة لذلك القانون.

ويطرح هذا التناقض مشكلة حرية الاختيار التي تشغل، منذ العصور

www.Maktbah.com

الفصل الثامن

كان يكفي طرح هذا القانون في وضوحه وبساطته لو كانت علاقة التاريخ محصورة فقط بالظواهر الخارجية، وبذلك ينتهي كلامنا. لكن قانون التاريخ يرتبط بالكائن البشري. إن ذرة في المادة لا تستطيع أن تقول لنا مطلقاً إنها تحس بحاجة الانجذاب أو الدافع، وهي لا تستطيع أن تقول لنا أيضاً إن هذا القانون خطأ. أما الإنسان، الذي هو عرَض التاريخ، فيؤكد على العكس بصورة جازمة: إني حر ولست خاضعاً للقوانين.

إن هذا الوجود الخفي لقضية الحرية الإنسانية ينبثق أمامنا لدى كل خطوة يخطوها التاريخ.

ولقد انتهى سائر المؤرخين الجديين، بصورة لا إرادية، إلى هذه المشكلة. وما منشأ سائر تناقضات التاريخ وشكوكه، وتلك الطريق الخاطئة التي يسلكها هذا العالم، سوى من بقاء هذه القضية من دون حل.

فإذا كانت إرادة كل من الأفراد حرة، يعني إذا كان في مكنة كل امرئ أن يتصرف بحرية يعني حسب مزاجه، فمن الواضح أن فعلاً وحيداً حراً يقوم به هذا الشخص بصورة مناقضة للقوانين يقضي قضاء مبرماً على إمكانية وجود أية قوانين بالنسبة إلى الإنسانية بأسرها.

وإذا كان ثمة قانون واحد يسير الأفعال البشرية، فلا يمكن إذن أن تكون ثمة حرية، لأن إرادة كل امرئ يجب عندئذ أن تكون خاضعة لذلك القانون.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

ويطرح هذا التناقض مشكلة حرية الاختيار التي تشغل، منذ العصور القديمة، أدمغة النخبة دون أن تفقد شيئاً من أهميتها الكبيرة.

وتطرح هذه القضية كما يلي: إما ننظر إلى الإنسان كموضوع للملاحظة من أي وجهة نظر كانت: لاهوتية أو تاريخية أو أخلاقية أو فلسفية، فإننا نجد على الدوام قانون الضرورة الحتمي المشترك بين سائر الكائنات الحية. وإما ننظر إليه على العكس من وجهة نظر تجربتنا الصميمة، من وجهة نظر وجداننا، فإننا نحس بالحرية إذن.

فالوجدان هو ينبوع معرفتنا بذاتنا، المنفصلة والمستقلة تماماً عن العقل، ويتمكّن الإنسان، بفضل العقل، أن يراقب نفسه بنفسه لا بواسطة الوجدان.

وبدون وعي الذات لن يفيدنا شيئاً أن نفكر في أية ملاحظة أو أي تطبيق عملي للعقل.

ويجب على الإنسان، كي يفهم ويراقب ويستنتج، أن يعرف نفسه في البدء بصفته كائناً حياً. ولا يعرف الإنسان نفسه كائناً حياً إلا حين يعرف أنه يتحلى بالإرادة، وبتعبير آخر فهو لا يعي سوى إرادته، وهذه الإرادة، ماهية حياته، لا يمكنه أن يتصورها إلا حرة.

وخلال ملاحظاته عن نفسه، إذا أدرك الإنسان أن إرادته موجهة بصورة متصلة نحو الهدف الواحد نفسه، أكان لهذا الهدف ضرورة إيجاد غذائه أم قيام دماغه بالعمل أم أي شيء آخر، فإنه لا يستطيع أن يفسر ذلك لنفسه سوى كتحديد لإرادته. إن ما ليس هو حراً لا يمكن حده، والإنسان يعتبر إرادته محدودة بالضبط لأنه لا يتصورها إلا حرة.

أنت تزعم أنك غير حر. وأنا أستطيع مع ذلك، أن أرفع ذراعي وأخفضها. وإن كل امرئ يفهم أن هذا الجواب غير المنطقي هو برهان على الحرية لا يمكن دحضه.

لكن هذا الجواب منشأه الوعي غير الخاضع للعقل.

www.Maktbah.com

في الحرية فلن يكون عاجزاً عن فهم الحياة فحسب، بل لن يستطيع أيضاً أن يعيش لحظة واحدة.

إنه لا يستطيع أن يعيش، لأن كلاً من جهود الإنسان وكلاً من انطلاقاته، لا يستهدفان سوى زيادة حريته. الغنى والفقر، المجد وعدم الشهرة، السلطة والخضوع، القوة والضعف، الصحة والمرض، المعرفة والجهل، العمل والبطالة، الشبع والجوع، الفضيلة والرذيلة، ليست هذه الأمور جميعاً إلا درجات أكثر أو أقل ارتفاعاً من الحرية.

وإن تصور إنسان محروم من الحرية يعني تصوره محروماً من الحياة.

إذا كانت فكرة الحرية لا تخلو من تناقض سخيف بالنسبة إلى العقل، مثلها مثل فكرة إنجاز فعلين في وقت واحد أو فكرة نتيجة دون سبب، فذلك لا يبرهن سوى كون وجداننا لا يخضع لأحكام العقل.

وإن هذا الوعي لحريتنا، هذا الوعي الذي لا يتزعزع ولا يتدمر، غير الخاضع للتجربة أو للمحاكمة، الذي يعترف به كل المفكرين، ويحس به سائر البشر دون استثناء، إن هذا الوعي الذي لا غنى عنه ليفهم الإنسان هو ما يشكل المظهر الآخر من القضية.

إن الإنسان خليقة إله كلي القوة، كلي الطيبة والصلاح، قادر على كل شيء.

فما هي الخطيئة إذن، هذه التي ينشأ مفهومها عن وعي حرية الإنسان؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم اللاهوت.

تخضع أفعال الإنسان لقوانين عامة لا تتبدّل قد سجلتها الإحصائيات. ففي أي شيء تقوم إذن مسؤولية الإنسان تجاه المجتمع، التي ينشأ مفهومها عن وعي حريته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم الحقوق.

تنشأ أفعال الإنسان عن صفاته الموروثة وعن المحركات التي تحمله

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

على الفعل. فما هو الوجدان ومفهوم الخير والشر في الأفعال التي تسرد عن وعي حريته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم الأخلاق...

إن الإنسان المرتبط بحياة الإنسانية العامة يبدو خاضعاً للقوانين التي تسير هذه الحياة. لكن الإنسان يظهر، بصورة مستقلة عن هذا الرباط، كأنه مطلق الحرية. كيف يجب علينا أن ننظر إلى الحياة الماضية للشعوب والإنسانية؟ أهي نتيجة فاعلية الناس الحرة أم المقيدة؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم التاريخ.

ولم تنتهِ قضية الإرادة الحرة إلى ميدان لا يمكنها حتى أن تطرح فيه سوى في عصرنا المغرور الذي يدعي تعميم المعرفة وبفضل هذه الأداة الكلية القوة لنشر الجهل التي هي المطبعة. وإن غالبية الناس الذين يدعونهم الطليعة، في عصرنا، يعني هذه الجمهرة في الجاهلين، قد حسبوا أنهم وجدوا في أعمال العلماء الطبيعيين الذين لا ينظرون سوى إلى جانب واحد من القضية حل المشكلة كلها.

وإنهم يقولون وينشرون: ليس ثمة نفس أو إرادة حرة، ما دامت حياة الناس تتظاهر بحركة عضلاته، وما دامت العضلات تخضع لأوامر الجهاز العصبي، ليس ثمة نفس أو إرادة حرة ما دام الإنسان قد انحدر عن القرد في زمن غير معروف، ولا يخطر في بالهم مطلقاً أن سائر الديانات وسائر المفكرين، منذ آلاف السنين، لم يعترفوا فحسب، بل لم يفكروا لحظة واحدة في إنكار قانون الضرورة نفسه هذا الذين يكابدون هم كل هذه المشقات كي يثبتوه اليوم بواسطة الفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن. إنهم لا يعرفون أن دور العلوم الطبيعية لا يقوم ههنا سوى في إيضاح جانب واحد من المسألة. وفي الحقيقة إن المناداة بأن الملاحظة، والعقل، والإرادة ما هي إلا إفرازات دماغية، وأن الإنسان الخاضع للقوانين المشتركة قد تمكن في زمن غير معروف أن يتملص

www.Maktbah.com

من الحيوانية السفلى لا تعني سوى تفسير مستحدث لهذه الحقيقة المعترف بها منذ آلاف السنين من قبل الأديان والفلاسفة، ألا وهي أن الإنسان، من وجهة نظر العقل، يرتبط بقوانين الضرورة، بيد أن هذا لا يتقدم بالمشكلة حتى ولا خطوة واحدة نحو الحل المطلوب، لأن لتلك المشكلة وجهاً آخر، مقابلاً، يتركز على وعي الحرية.

فإذا كان الإنسان قد انحدر، في زمن مجهول، من القرد، فإننا نستطيع كذلك أن نقبل خروجه، في زمن معروف، من قبضة من تراب؛ وإن الزمن هو المجهول في الحالة الأولى؛ أما في الحالة الثانية فالمجهول هو أصل الإنسان. بيد أن المشكلة ليست ههنا. المشكلة هي أن نعرف كيف يتحد الوعي الذي يمسكه الإنسان عن حريته بقوانين الضرورة التي يخضع لها. وهذه المشكلة لا يمكن حلها بالفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن، لأننا نلاحظ في الضفدع والأرنب والقرد مجرد فاعلية عضلية وعصبية ليس غير، بينما نلاحظ في الإنسان بالإضافة إلى هذه الفاعلية العضلية العصبية، وجود الوعي.

إن العلماء الطبيعيين والمعجبين بهم الذين يزعمون حلّ هذه المسألة لأشبه بعمال بناء قد تلقوا الأمر بتكليس أحد جوانب كنيسة ما، فهم يغتنمون فرصة غياب رئيس العمل كي يزيدوا، بدافع من فرط الحمية الدينية، في طلي النوافذ والصور والسقالات والجدران التي لم تصبح ثابتة بعد، ثم يسيرون بعملهم لأن سائر أقسام البناء، من وجهة نظرهم كبنائين، قد تلقت الطبقة من الطِلاء نفسه.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

إن التاريخ يعطي مزية، في مسألة الحرية والضرورة، على سائر فروع المعرفة الأخرى التي سعت إلى حلها ألا وهي أن هذه المسألة لا تتعلق بماهية الإرادة البشرية نفسها، بل بتظاهرها في الماضي وفي شروط معروفة.

وفي هذه المسألة يجد التاريخ نفسه، تجاه العلوم الأخرى، في مركز العالم التجريبي حيال العلوم النظرية.

فليس هدف التاريخ إرادة الإنسان نفسها، بل الفكرة التي تشكلها عنه.

وهذا هو السبب في أن التاريخ لا يقف، مثل اللاهوت والأخلاق والفلسفة، تجاه ذلك السر الغامض الذي لا يسبر غوره، سر اتحاد النقيضين، الحرية والضرورة. إن التاريخ يدرس ظاهرات الحياة البشرية التي تحقق فيها، سلفاً، هذا الاتحاد.

ففي الحياة الواقعية، يصير إدراك كل حدث تاريخي وكل فعل إنساني بوضوح ودقة كاملين، ودون أن يظهر فيه أدنى تناقض، هذا رغم ظهوره بعد اكتماله حراً ومحدداً في وقت واحد.

وحين يتوجب حل مسألة اتحاد الحرية والضرورة، وقضية ماهية هذين المفهومين، ففلسفة التاريخ يمكنها ويجب عليها أن تسلك طريقاً معاكسة للطريق التي تتبعها العلوم الأخرى. فالتاريخ ينبغي له، بدلاً من محاولة تعريف مفهومي الحرية والضرورة في ذاتهما قبلاً، ومن ثم إخضاع ظواهر الحياة لهذا التعريف، أن يستخرج من كتلة الظواهر الضخمة المطروحة أمامه، بصفتها مسيرة بالحرية والضرورة، وتعريف هذين المفهومين.

www.Maktbah.com

فبأية صورة تطلعنا إلى أفعال إنسان واحد أو عدة أشخاص، فإننا نجد فيها أثر الحرية الإنسانية من جانب، وأثر قوانين الضرورة من جانب آخر.

وسواء أخذنا في الاعتبار هجرات الشعوب، أو غزوات البرابرة، أو سياسة نابليون الثالث، أو العمل الذي أنجزه شخص ما قبل ساعة واحدة والذي لم يكن سوى اختياره القيام بنزهة في هذا الاتجاه بالأحرى منه في أي اتجاه آخر، فإننا لا نجد في ذلك كله أدنى تناقض فنصيب الحرية والضرورة الذي حدد هذه الأفعال يبدو لنا بكل وضوح.

وتختلف الآراء غالباً حول نصيب الحرية الموجودة في فعل ما، وذلك تبعاً لوجهة النظر الذي نتفحص القضية منها لكن الفعل الإنساني يتراءى دائماً، في جميع الحالات، كمزيج محدد من الحرية والضرورة وإن كل حالة نتفحصها تظهر لنا مقداراً معيناً من الحرية والضرورة اللتين نراهما في هذه الحالة نفسها، وبقدر ما يعظم نصيب الضرورة نرى أن الحرية قد تناقصت وتقلصت.

فعلاقة العنصرين اللذين يزداد أحدهما أو ينقص تبعاً لوجهة النظر تبقى على الدوام متناسبة عكساً.

الإنسان الذي يغرق، فيتعلق بإنسان آخر يسحبه معه، الأم الجائعة التي ينهكها إرضاع طفلها والتي تسرق الغذاء، الرجل الخاضع للانضباط، الذي يقتل تنفيذاً لأمر يتلقاه رجلاً آخر أعزل، هؤلاء جميعاً يتراؤون أقل جرماً، يعني أقل حرية وأكثر خضوعاً لقوانين الضرورة، في عيني الإنسان الذي يعرف أية شروط كانوا يخضعون لها؛ وإنهم يتراؤون أكثر حرية، على العكس، في عيني الإنسان الذي لا يعرف أن ذلك الرجل كان في سبيل الغرق، وأن هذه الأم كانت جائعة، وأن ذلك الجندي كان في الصف، إلخ. وتلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلى رجل ارتكب جريمة قبل عشرين عاماً، وهو يعيش منذ ذلك

twitter @baghdad_library

الحين، في المجتمع، حياة هادئة دون أن يلحق الأذى بأي مخلوق إطلاقاً؛ إنه يبدو أقل جرماً، ويبدو عمله في عيني من يحكم على ذنبه بعد عشرين سنة، أكثر خضوعاً لقوانين الضرورة؛ وإن الجريمة عينها تلوح أكثر حرية في نظر من يتفحصها بعد اقترافها بيوم واحد.

وكذلك الأمر في حال أفعال رجل مجنون، أو سكران، فهي تبدو أقل حرية وأكثر ضرورة عند من يعرف الحالة الذهنية لهؤلاء الناس، وأكثر حرية وأقل ضرورة في عيني من يجهلها. فالحرية والمسؤولية تزدادان وتتناقضان، في هذه الحالات المتنوعة، حسب ما تعظم الضرورة أو تنقص، وتبعاً لوجهة النظر التي نتطلع منها. إننا نجد على الدوام أن الضرورة أعظم حين تكون الحرية ضئيلة، والعكس بالعكس.

وإن الدين، والحس السليم، وعلم الحقوق والتاريخ نفسه تفهم هذه العلاقات بالطريقة نفسها.

وإن جميع الظروف، دونما استثناء، التي تعظم فيها أو تنقص فكرتنا عن الحرية والضرورة ليس لها سوى ثلاثة أسس:

١ ـ علاقات الإنسان الذي ينجز عملاً، بالعالم الخارجي.

٢ ـ بالزمان.

٣ ـ بالحركات التي تدفعه إلى العمل.

الأساس الأول للفحص: العلاقات الأكثر أو أقل وضوحاً لأعيننا، التي تربط الإنسان بالعالم الخارجي، وتفهم المكان المضبوط الذي يحتله كل إنسان بالنسبة إلى وسطه. ومن هنا نرى أن الإنسان الذي يغرق هو أقل حرية وأكثر ضرورة من الإنسان الواقف بثبات على الأرض الصلبة. وكذلك نرى من هنا أن أفعال إنسان يختلط بجمهور كبير من الناس الآخرين في مكان مزدحم، وأن أفعال إنسان مرتبط بقيود عائلته، وخدمته ومشروعه، لهي بكل

www.Maktbah.com

تأكيد أقل حرية وأكثر خضوعاً لقوانين الضرورة من أفعال إنسان وحيد منعزل.

وإذا أخذنا في الاعتبار إنساناً وحيداً، دون الاهتمام بعلاقاته ببيئته، فإن كلاً من أفعاله يبدو لنا إذن حراً طليقاً. ولكننا إذا رأينا إلى أية علاقة كانت من علاقاته بوسطه، إذا رأينا إلى الروابط التي تقيده إلى أي شيء كان: الإنسان الذي يحدثه، الكتاب الذي يقرأه، العمل الذي يشغله، حتى الهواء الذي يحيط به والنور الذي يقع على الأشياء التي يستخدمها، رأينا أن لكل من هذه الشروط صداه، فهو يوجد مظهراً واحداً أقله من مظاهر فاعليته. وبقدر ما نعرف هذه المؤثرات بصورة فضلى، فإن فكرتنا عن حريته تنقص ويزداد شعورنا بخضوعه للضرورة.

الأساس الثاني للفحص: العلاقات الموقتة، الأكثر أو أقل بينة، بين الإنسان والعالم؛ الفكرة الأكثر أو أقل وضوحاً عن المكان الذي تشغله فاعليته في الزمان. ومن هنا يبدو أن سقوط الإنسان الأول، الذي كان مولد الجنس البشري نتيجة له وأقل حرية من دون شك من زواج الإنسان في الأيام الراهنة. وكذلك فإن حياة وفعالية البشر في القرون الغابرة، وهم مرتبطون بي في الزمان، لا يمكن أن تلوح لي على مثل حرية حياة البشر المعاصرين لي، التي لم تبرح نتائجها مجهولة عندي.

وهكذا فإن درجة الحرية أو الضرورة التي ننسبها إلى فعل تابعة لفترة الزمن الأكثر أو أقل امتداداً التي انقضت بين تحقيق ذلك العمل والحكم الذي تصدره بحقه.

فإذا نظرت إلى عمل أنجزته لقوى قبل لحظة في شروط مماثلة تقريباً للشروط التي أنا فيها حالياً، فإن عملي يبدو لي حراً بصورة لا تقبل الجدل. بيد أني إذا حكمت على العمل بعد شهر من إنجازي له حين أكون في شروط مختلفة، فإني أعترف إذن مرغماً أن عدداً كبيراً من الأشياء المفيدة، والمسرة،

twitter @baghdad_library

بله الضرورة، التي نشأ عنها ما كانت تحدث لو لم يكن ذلك العمل. وإذا عدت بالذاكرة إلى عمل أقدم من ذلك، يبعد عني عشر سنوات ونيفاً، فإن نتائجه تظهر لي أشد وضوحاً أيضاً، حتى ليصعب علي أن أتخيّل ما كان يمكن أن يحدث لولا ذلك العمل. وهكذا فبقدر ما تعود الذاكرة بي القهقرى، أو بقدر ما أتقدم إلى الذاكرة في أحكامي، وهذا يؤدي إلى الشيء نفسه، تزداد استنتاجاتي عن حرية أحد أفعالي تردداً وحيرة.

وإننا نجد في التاريخ مثل هذا التقدم تماماً بشأن اعتقادنا بمساهمة الإرادة الحرة في الأفعال البشرية. فهذا الحادث الذي تمّ حديثاً يلوح لنا كعمل لا يتعرض للشك قامت به شخصيات معروفة؛ بيد أن الحادث لا يكاد يبتعد عنا حتى تمنعنا نتائجه الحتمية الواقعة تحت أنظارنا عن رؤية أي شيء آخر سواها بعد الآن. وبقدر ما نعود القهقرى في تفحص الحوادث، تظهر لنا أقل حرية وعضوية.

إن الحرب النسموية البروسية تلوح لنا كنتيجة حتمية لخدع بسمارك، إلخ... وتبدو الحروب النابليونية لنا، مع بعض الشكوك الآن، مسببة عن إرادة بعض الأبطال. بيد أننا نرى حقاً في الحروب الصليبية حادثة تشغل مكاناً محدداً، كان تاريخ أوروبا الحديث يخلو بدونها من كل معنى؛ ومع ذلك فإن كتّاب القرون الوسطى لم يجدوا فيها يومذاك سوى نتيجة لإرادة بعض الأشخاص. وإذا ما نظرنا إلى الغزوات الكبيرة، فإن أحداً لن يعتقد اليوم أن تجدد العالم كان متعلقاً بهدى أتيلا. فبقدر ما تعود إلى الوراء في التاريخ، شكوكنا في حرية فاعلية الحوادث، يزداد قانون الضرورة يقيناً.

الأساس الثالث للفحص: القدر الأكبر أو الأقل المتوافر لنا في إمكانية النفاذ إلى تسلسل الحوادث الذي لا نهاية له، والذي هو من متطلبات عقلنا الحتمية، والذي يجب أن يكون فيه لكل حادث معقول، وبالتالي كل فعل من

www.Maktbah.com

أفعال الإنسان، مكانه المحدد كنتيجة للحوادث السابقة وسبب للحوادث اللاحقة به.

وينتج من ذلك أن أفعالنا وأفعال الآخرين تتراءى لنا أكثر حرية وأقل خضوعاً للضرورة بمقدار ما تزيد معرفتنا للقوانين الفيزيولوجية والبسيكولوجية والتاريخية المستخرجة في الملاحظة التي يخضع الإنسان لها، وبقدر ما ندرس بدقة أعظم السبب الفيزيولوجي والبسيكولوجي لحادث ما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفاعلية الخاضعة للمراقبة تبدو أشد بساطة بقدر ما يكون خلق وفكر الإنسان الذي نعرف أقل تعقيداً.

عندما لا نفهم سبب عمل ما، شرير، أو صالح، أو معتدل بالنسبة إلى الخير والشر، فإننا نميل نحو أن نرى فيه أعظم مقدار من الحرية. وإذا كان جريمة، فإننا نطلب عقابه قبل كل شيء، وإذا كان عملاً فاضلاً غمرناه بالإطراء والمديح، وإذا كان معتدلاً، وجدنا فيه دلالة على قوة الشخصية، والجدة والحرية، ولكننا إذا عرفنا حتى مجرد سبب واحد من أسباب هذا العمل، رحنا نجد فيه إذن مقداراً معيناً من الضرورة، فنحن أكثر تسامحاً عندئذ بالنسبة إلى الجريمة، وأقل حماسة لعمل الخير، نرى مقداراً أقل من الحرية في العمل الذي كان يلوح لنا جديداً مستحدثاً.

فحقيقة نشوء المجرم في وسط من الأشراف يخفف من ذنبه، والتضحية التي يقوم عليها أب أو أم وتترافق بإمكانية المكافأة لأقرب إلى أفهامنا من التضحية التي ليس لها سبب ظاهر، ولذا فهي أقل إثارة لعاطفتنا، وأقل حرية بقدر في أنظارنا. وإن مؤسس عصبة أو حزب يصير أقل إثارة لدهشتنا عندما نعرف كيف وبأي شيء تم تحضير عمله ومهنته. وإذا كنا نملك سلسلة طويلة من التجارب، وإذا كانت ملاحظتنا موجهة بصورة متصلة نحو التفتيش عن العلاقات الموجودة بين الأسباب والنتائج، فإن الأفعال البشرية تبدو لنا أشد

twitter @baghdad_library

ضرورة وأقل حرية بقدر ما نربط بيقين أعظم بين النتائج والأسباب. وإذا كانت الوقائع التي نتفحصها بسيطة، وإذا كنا نملك لدراستها كمية كبيرة من الوقائع المماثلة، فإن الفكرة التي نكونها عن ضرورتها تصبح أكمل إذن. إن عدم أمانة ابن أب شرير، والسلوك الشائن لامرأة وقعت في وسط شرير، وعودة سكير إلى عربدته، هي جميعاً وقائع تبدو لنا أقل حرية بقدر ما تزداد معرفتنا بأسبابها. وإذا كان الرجل الذي نتفحص سلوكه يقف في أسفل درجة من سلم الذكاء، إذا كان طفلاً أو مجنوناً، أو معتوهاً، فإننا نرى فيه إذن، وقد عرفنا أسباب سلوكه وحالة خلقه المنحطة، نصيباً كبيراً من الضرورة ونصيباً ضئيلاً جداً من الحرية بحيث لا نكاد نعرف الدافع الذي يحركه حتى نتمكن من التنبوء بالعمل الذي سينتج من ذلك الدافع.

وعلى هذه العناصر الثلاثة في الفحص يرتكز عدم المسؤولية في الجرم والظروف المخففة المقبولة من قبل سائر التشريعات. فالمسؤولية تبدو أكبر أو أصغر بقدر ما نعرف أكثر أو أقل الظروف التي كان المجرم خاضعاً لها، وتبعاً للفاصل الزمني الأطول أو الأقصر الذي يفصل بين الفعل والحكم، وتبعاً لدرجة المعرفة التي نملكها عن أسباب الفعل.

www.Maktbah.com

الفصل العاشر

إن التعقيد الذي نعطيه للمسؤولية والحرية، ينقص أو يزيد، حسب الرابطة الأشد أو الأضعف بين العقل والعالم الخارجي ودرجة بُعده في الزمان وتبعيته العظمى أو الصغرى للأسباب التي نرى فيما بينها بروز ظاهرة من ظواهر الحياة البشرية.

فإذا أخذنا في الاعتبار حالة امرئ معروفة جيداً علاقته بالعالم الخارجي، الذي يطول بالنسبة إليه الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه حتى الدرجة القصوى، والذي دوافعه واضحة لنا تماماً، فإننا نرى في هذه الحالة المقدار من الضرورة، والمقدار الأقل عظماً من الحرية. أما إذا أخذنا في الاعتبار، على العكس، حالة امرئ أعماله أقل ما تكون تبعية للعالم الخارجي، فإذا كان عمله قد حدث هذه اللحظة بالذات وإذا كانت أسباب هذا العمل غامضة علينا، فإننا نجد أدنى مقدار من الضرورة وأعظم مقدار من الحرية.

ولكننا، في كلتا الحالتين، مهما بدلنا في وجهة نظرنا، ومهما دققنا في رابطة الإنسان مع العالم الخارجي أو اعتبرنا هذه الرابطة ممتنعة على معرفتنا، ومهما أطلنا الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه أو قصرناه، ومهما فهمنا الأسباب أو جهلناها، فإننا لن ننتهي أبداً إلى حرية تامة أو إلى ضرورة تامة.

١ ـ فمهما تصورنا الفرد غير خاضع لأي تأثير خارجي، فلن نتوصل إلى فهم الحرية في المكان. إن كلاً من أعمال الإنسان مشروط بما يحيط به أو بجسده نفسه. إني أرفع يدي وأخفضها. ويبدو لي أن حركتي حرة، لكنني

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

حين أتساءل عم إذا كان في إمكاني أن أرفع يدي في كل الاتجاهات أجد أن حركتي قد تمت في الاتجاه حيث مقاومة الأشياء المحيطة بي وجسدي نفسه هي أقل ما يمكن. فأنا قد انتقيت، من سائر الاتجاهات الممكنة، الاتجاه الذي يكلفني أقل جهد ممكن. وكي تكون حركتي حرة، لم يكن بد من انعدام أية عقبة تماماً. إذن فنحن لا نستطيع أن نتخيل إنساناً حراً إلا خارجاً عن المكان، الأمر المستحيل بكل تأكيد.

٢ ـ ومهما قربنا الحكم على عمل ما من الزمن الذي ارتكب هذا العمل فيه، فإننا لن نستطيع أبداً أن نفهم الحرية في الزمان. وفي الحقيقة، إذا أخذت في الاعتبار عملاً حدث قبل لحظة واحدة فقط، فإني لا أستطيع أن أحكم عليه بالحرية، ما دام مقيداً إلى الوجه الذي صار إنجازه فيه. هل أستطيع أن أرفع ذراعي؟ إني أرفعها، لكنني أتساءل عم إذا كنت أستطيع ألا أرفعها في هذه اللحظة التي انقضت فوراً. وكي أتأكد من ذلك، فأنا لا أرفع ذراعي في الثانية التي تتلو ذلك. بيد أنني لم أرفع في اللحظة نفسها التي تساءلت فيها عم إذا كنت أملك الحرية لذلك. لقد فرق الزمان وما كنت أملك القدرة على الإمساك به، والذراع التي رفعتها الآونة، والهواء الذي قمت بالحركة فيه، لم يعودا، لا ذلك الهواء الذي كان يحيط بي في اللحظة المعينة، ولا الذراع التي أحتفظ بها ثابتة الآن. إن البرهة التي تمت فيها الحركة الأولى لن تعود أبداً، وفي تلك البرهة، لم أكن أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة، ومهما تكن هذه الحركة فلا يمكن أن تكون سوى وحيدة، ومهما يكن من أمر، فكوني لم أرفع ذراعي في الثانية التي أعقبت ذلك لا يبرهن قدرتي على عدم رفعها عندئذ. وما دمت لا أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة في تلك اللحظة المعينة، فهذه الحركة لا يمكن أن تكون حركة أخرى إطلاقاً. فلا بدَّ لي، كي أتصور هذه الحركة حرة

www.Maktbah.com

من شعورها في الوقت الحاضر، عند حدود الماضي والمستقبل، يعني خارج الزمان، الأمر الذي يستحيل حدوثه.

٣ ـ ومهما عظمت صعوبة الوصول إلى السبب، فإننا لم نتوصل إطلاقاً إلى تصور حرية تامة، يعني إلى شعور عدم وجود أي سبب، مهما يكن تظاهر الإرادة في فعل ما نقوم به أو الآخرون غامضاً علينا، فإن أول متطلبات فكرنا هو البحث عن السبب الذي لا يمكن بدونه أن نتخيل أية ظاهرة مطلقاً. إني أرفع يدي كي أقوم بعمل لا سبب له، لكن مجرد إرادتي عملاً يشكل له سبباً في الحال.

وحتى إذا افترضنا امرءاً حراً من أي تأثير، فإننا لن نستطيع أبداً، إذا ما أخذنا في الاعتبار أحد أعماله في اللحظة نفسها الّتي يقوم فيها إنجازه، دون أن نربطه بأي سبب، بل حتى بقبولنا لبقية في الضرورة لا متناهية في الصغر تساوي صفراً، لن نستطيع إذن أن نتوصل إلى فهم حرية الإنسان التامة. ذلك أن كائناً خارجاً عن أي تأثير خارجي، خارجاً عن الزمان ومستقلاً عن كل سبب هذا الكائن لا يمكن أن يكون إنساناً.

وكذلك يستحيل علينا أن نتصور فعلاً بشرياً تغيب فيه الحرية ويكون خاضعاً لقانون الضرورة وحده.

١ ـ مهما تكن تلك معرفتنا بالشروط المكانية التي يخضع لها الإنسان واسعة، فلا يمكن أن تكون كاملة، لأن عدد هذه الشروط لا متناه، تماماً كما أن المكان لا متناه وبالتالي، فما دامت الشرور التي تؤثر في أحد الأفراد غير محددة جميعاً، فليس ثمة ضرورة مطلقة، ويبقى بعدئذ نصيب ما من الحرية.

٢ ـ مهما فعلنا كي يستمر الفاصل الذي يفصل الظاهرة المفحوصة عن اللحظة التي نحكم عليها فيها، فإن الفترة المأخوذة في الاعتبار تبقى محددة

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

على الدوام، بينما الزمان نفسه لا متناه، وبالتالي فلا يمكن أيضاً، من وجهة النظر هذه، أن يكون ثمة ضرورة تامة.

٣ ـ مهما تكن معرفتنا بتسلسل الأسباب التي أدّت إلى فعل معيّن، فإننا لا نبلغ حتى معرفتها التامة ما دام هذا التسلسل لا متناهياً، وبالتالي فإننا لا نبلغ الضرورة المطلقة أيضاً.

وما عدا ذلك، فحتى إذا قبلنا وجود بقية من الحرية لا متناهية في الصغر، مساوية للصفر، فإننا نتحقق في أية حالة كانت، حالة رجل يموت، أو جنين، أو أبله، من الغياب المطلق للحرية، وبذلك نقضي تماماً على مفهوم الإنسان، لأنه حيث لا توجد حرية فالإنسان غير موجود. ولذا كان تصور الفعل الإنساني خاضعاً لقانون الضرورة وحده، دون أي أثر من الحرية، مستحيلاً بقدر استحالة تصور ذلك الفعل حراً بصورة مطلقة.

وهكذا، لكي نعتبر فعلاً إنسانياً أنه خاضع لقانون الضرورة وحده، يجب أن نعترف بأننا نعرف الكمية اللامتناهية من الشروط المكانية، والفترة اللامتناهية لزمن الديمومة، والسلسلة اللامتناهية من الأسباب.

ولكي نتخيل، على العكس، إنساناً حراً تماماً من قانون الضرورة، يجب أن نعتبره بصفته وحيداً، خارج المكان، والزمان، والسببية.

ففي الحالة الأولى، إذا كانت الضرورة ممكنة دون الحرية، فإننا نصل إلى تعريف لقانون الضرورة بالضرورة نفسها، يعني إلى شكل بدون مضمون.

وفي الحالة الثانية، إذا كانت الحرية ممكنة بدون الضرورة، فإننا نبلغ إلى حرية غير مشروطة، خارج الزمان والمكان، والسببية، حرية لن تكون لكونها غير مشروطة أو محددة بأي شيء، سوى محتوى بدون حاوٍ.

وإننا نصل بصورة عامة إلى هذين الأساسين لكل فلسفة: ماهية الحياة العصية على الإدراك، والقوانين التي تعرفها.

www.Maktbah.com

وإليكم ما يقول العقل: ١ ـ إن المكان، مع سائر الأشكال التي صار بها مرئياً، يعني المادة، هو لامتناه ولا يمكن إدراكه بصورة أخرى. ٢ ـ إن الزمان حركة لا متناهية دون لحظة واحدة من التوقف، ولا يمكن إدراكه بصورة مغايرة. ٣ ـ إني خارج أي سبب كان، لأني أستشعر أني سبب كل تظاهرة في حياتي.

إن العقل يعبر عن قوانين الضرورة، والوعي يعبّر عن ماهية الحرية.

إن الحرية غير المشروطة هي ماهية الحياة في وجدان البشر. وإن الضرورة محتوى هي العقل البشري تحت أشكاله الثلاثة.

إن الحرية هي ما نتفحصه، والضرورة هي ما جرى فحصه. إن الحرية هي دون المحتوى، والضرورة هي الحاوي.

ونحن إذ نفصل هذين الينبوعين للمعرفة اللذين هما الواحد بالنسبة إلى الآخر مثل الحاوي والمحتوى، نتوصل بذلك وحده إلى مفاهيم عن الحرية والضرورة تنفي بعضها بعضاً وتبقى ممتنعة عن الإدراك.

ونحن إذ نوحد بينهما نتوصل بذلك إلى تصور واضح عن الحياة البشرية وخارج هذين المفهومين اللذين يحدد أحدهما الآخر في اتحادهما، تماماً مثلما يتحد المحتوى بالحاوي، ليس له أي تصور ممكن عن الحياة.

وكل ما نعرفه عنها لا يعدو كونه علاقة ما بين الحرية والضرورة، يعني بين الوجدان وقوانين العقل.

وكل ما نعرفه عن عالم الطبيعة الخارجي لا يعدو كونه علاقة ما بين قوى الطبيعة والضرورة، أو بين ماهية الحياة وقوانين العقل.

إن القوى الحياتية للطبيعة موضوعة خارجاً منا ومن وجداننا، ونحن ندعوها الثقالة، وقوة العطالة، والكهرباء، والقوة الحياتية، إلخ؛ بيد أن قوة الإنسان الحياتية معروفة عندنا بواسطة وجداننا، ونحن ندعوها الحرية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

والثقالة التي يحسها كل إنسان ممتنعة عن إدراكنا في ماهيتها ونحن لا نستطيع أن نفهمها سوى بقدر ما نعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها، منذ أول فكرة عن سقوط الأجسام حتى قانون نيوتن، وكذلك فإن قوة الحرية التي يحسها الوجدان هي ممتنعة عن الإدراك في ماهيتها أيضاً، وهي لا تصبح مفهومة عندنا إلا بقدر ما نفهم قوانين الضرورة التي تخضع لها، منذ حقيقة موت كل إنسان حتى أكثر القوانين الاقتصادية أو التاريخية تعقيداً.

فكل من معارفنا ليست سوى فعل خضوع من ماهية الحياة لقوانين الضرورة.

وتتميز حرية الإنسان من سائر القوى الأخرى لأننا نعيها، بيد أنها عند العقل، لا تختلف إطلاقاً عن أية قوة أخرى، إن قوة الثقالة، والكهرباء، والجاذبية الكيماوية لا تتميز بعضها من بعض إلا لأن عقلنا قد عرفها كلاً على حدة.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بقوة الحرية؛ إنها لا تتميز، بالنسبة إلى العقل، من قوى الطبيعة الأخرى سوى بالتعريف الذي يمنحها إياه هذا العقل. فالحرية دون الضرورة، يعني دون قوانين العقل التي تحددها، لا تتميز من الثقالة، والحرارة، أي من قوة الإنبات، ما هي سوى إحساس آني غير محدد عن الحياة. وكما أن الماهية غير المحددة للقوة التي أيضاً تحرك الأجرام السماوية، والقوة الحرارية، والقوة الكهربائية، وقوة الانجذاب الكيمائي أو القوة الحياتية تشكل محتوى علم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم النبات، وعلم الحيوان، إلخ... كذلك فإن ماهية القوة الحرية تشكل محتوى التاريخ. ولكن كما أن غاية كل من العلوم هو تظاهر هذه الماهية المحولة للحياة، وأن هذه الماهية بدورها يمكن أن تكون غرض ما وراء الطبيعة فقط، كذلك فإن

www.Maktbah.com

تظاهر الحرية الإنسانية في المكان، والزمان، والسببية، يشكل غرض التاريخ، بينما الحرية هي غرض ما وراء الطبيعة.

ندعو في العلوم التجريبية ما هو معروف عندنا: قوانين الضرورة، وما هو غير معروف عندنا: القوة الحياتية. وليست القوة الحياتية سوى الاسم المعطى للأثر المجهول مما نعرفه عن ماهية الحياة.

كذلك في التاريخ ندعو ما هو معروف عندنا قوانين الضرورة، وما هو غير معروف الحرية. وليست الحرية، بالنسبة إلى التاريخ، سوى التعبير عن الأثر الباقي غير المعروف لما نعرفه من قوانين الحياة البشرية.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الحادي عشر

إن الاعتراف بالحرية البشرية كقوة على قدر كاف من الكبر بحيث يكون لها تأثيرها في الحوادث، يعني أنها لا تخضع لأي قوانين، ليعادل بالنسبة إلى التاريخ الاعتراف بقوة تحرك الأجرام السماوية بالنسبة إلى علم الفلك. ويدرس التاريخ تظاهرات الحرية البشرية في علاقاتها بالعالم الخارجي، وبالزمان، وفي تبعيتها تجاه السببية، يعني أنه يحدد الحرية وفقاً لقوانين العقل، ولذا ما كان يمكن أن يكون عالماً إلا بقدر ما تخضع الحرية لهذه القوانين.

وإن القبول بذلك يعني القضاء على إمكانية وجود أية قوانين، وبالتالي وجود أي علم كان. فإذا كان في مكنة جسم واحد أن يتحرك بحرية، فقوانين كيپلر ونيوتن لم يعد لها وجود إذن، ولم يعد في الإمكان تصور حركة الأجرام السماوية. وكذلك إذا كان ثمة فعل إنساني واحد حر، فليس ثمة إذن أي قانون تاريخي، ويصبح من المستحيل تصور وقائع التاريخ.

وبالنسبة إلى التاريخ، فإن الإرادات الإنسانية تتحرك وفقاً لخطوط يختبئ أحد أطرافها في المجهول، بينما وعي الحرية في اللحظة الراهنة يتحرك، عند الطرف الآخر، في المكان والزمان والسببية.

وبقدر ما يبتعد حقل هذه الحركة في أنظارنا، فإن قوانينها تزداد وضوحاً وإن فهم هذه القوانين وتعريفها يشكلان غرض التاريخ.

وإذا انطلقنا من وجهة نظر العلم الراهن، وإذا سلكنا الطريق التي يتبعها في البحث عن أسباب الظواهر في الإرادة الإنسانية الحرة، فإنه من المستحيل تعريف هذه القوانين. ذلك أنه مهما تكن الحدود التي نعينها للحرية، فإن وجود القانون يصبح محالاً منذ اعترافنا بها كقوة غير خاضعة لقوانين.

www.Maktbah.com

ولن نقتنع باستحالة النفوذ حتى الأسباب بصورة مطلقة إلا بإبعادنا حدود هذه الحرية إلى ما لا نهاية، يعني باعتبارنا إياه كمية لا متناهية في الصغر، وعندئذ يأخذ التاريخ على عاتقه، بدلاً من البحث عن هذه الأسباب، مهمة البحث عن قوانين.

ولقد بدأ هذا البحث منذ زمن طويل، وأن طرائق التفكير الجديدة التي يجب أن يتمثلها التاريخ تنضج بينما التاريخ القديم الذي كان يجزئ أكثر فأكثر أسباب الحوادث يتهدم تلقائياً في الوقت نفسه.

وعلى أية حال، فالعلوم البشرية تسير في الطريق نفسه، إن الرياضيات، هذه العلوم المضبوطة حتى الدرجة القصوى، تهمل طريقة التجزيء المتدرج عندما تبلغ اللامتناهي في الصغر في سبيل الطريقة الجديدة عن تكتيل العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر. وتتنازل الرياضيات عن مفهوم السبب كي تفتش عن قانون. يعني عن خصائص مشتركة بين سائر العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر.

وتفعل العلوم الأخرى الشيء نفسه، وإن بصورة مغايرة. عندما برهن نيوتن قانون الجاذبية لم يقل إن الشمس أو الأرض تملكان خاصة جذب الأجسام الأخرى، بل قال إن سائر الأجسام، من أكبرها حتى أصغرها، تملك خاصة التجاذب، يعني أنه عبر، وقد ترك جانباً سبب حركة الأجسام، عن خاصة مشتركة بين سائر الأجسام، من اللامتناهي في الكبر حتى اللامتناهي في الصغر. وهذا ما تفعله أيضاً العلوم الطبيعية: لقد وضعت الأسباب جانباً كي تبحث عن القوانين. وإن التاريخ يسلك الطريق نفسها. وإذا كانت غايته دراسة حركات الشعوب والبشرية لا وصف مقاطع مخصوصة من الحيوات، فينبغي له أن يبعد مفهوم الأسباب كي يفتش عن القوانين المشتركة بين سائر عناصر الحرية اللامتناهية في الصغر، المتساوية والمتماسكة بصورة متينة لا سبيل إلى حلها.

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر

إن تأكيد دوران الأرض حول الشمس، منذ اكتشاف قانون كوپرنيك وبرهانه قد دمّر كل علم الفلك القديم. كان ممكناً رفض هذا القانون والاحتفاظ بالمفهوم القديم عن حركة الأجسام، بيد أننا إذا لم نرفضه، فقد كان يتراءى من المستحيل الاستمرار في دراسة عوالم بطليموس. ومهما يكن من أمر، فإن عوالم بطليموس قد استمرت دراستها مدة طويلة، حتى بعد اكتشاف قانون كوپرنيك.

ومنذ أن أعلن رجل وبرهن للمرة الأولى أن عدد الولادات أو الجرائم خاضع لقوانين رياضية، وأن ظروفاً جغرافية وسياسية اقتصادية معينة تؤدي إلى هذا الشكل أو ذاك من الحكومة، وأن علاقات محددة بين الأرض والسكان الذين يشغلونها تنتج حركات هؤلاء السكان، منذ ذلك الوقت انهارت القواعد التي بني عليها التاريخ من أسسها.

ومن الممكن رفض هذه القوانين الجديدة والاحتفاظ بوجهة النظر القديمة؛ بيد أنه كان يبدو من المستحيل، دون رفضها، الاستمرار في دراسة الأحداث التاريخية على اعتبارها نتاج إرادة البشر الحرة. ذلك أنه إذا كان هذا الشكل المعين من الحكومة، وهذه الهجرة المعينة للشعوب، مسببين عن هذه أو تلك من الظروف الجغرافية، والقومية، والاقتصادية، فإن إرادة البشر الذين يلوح لنا أنهم أقاموا ذلك الشكل من الحكومة أو أدوا إلى تلك الهجرة التي قامت الشعوب بها لا يعود في الإمكان اعتبارها سبباً فعالاً

www.Maktbah.com

ومع ذلك فإن التاريخ القديم ما زال يدرس إلى جانب القوانين الجديدة، للإحصاء، والجغرافيا، والاقتصاد السياسي، ويقارنها بالفلسفة وعلم طبقات الأرض التي لها مبادئ معاكسة بصورة مباشرة لهذه التأكيدات.

أما عن فلسفة الطبيعة، فقد كان الصراع دامياً بين النظريات القديمة والجديدة. لقد كان اللاهوت يقوم بواجب الحراسة حول المبادئ القديمة ويتهم المبادئ الجديدة بتدمير الوحي. ولكن الحقيقة ما انتصرت حتى تمركز اللاهوت في الأرض الجديدة بما لا يقل عن ثبات عنه قبلاً.

والصراع القائم في عصرنا بين المفهومين القديم والجديد عن التاريخ قد استمر غامضاً، إن اللاهوت لم يزل يقوم بواجب الحراسة حول وجهة النظر القديمة، وهو يتهم دوماً وجهة النظر الجديدة بإنكار الوحي.

وفي كلتا الحالتين تثير المعركة الأهواء وتخنق الحقيقة؛ فمن جهة يظهر الخوف والأسف على البناء الذي أقيم طوال قرون، ومن الجهة الثانية يبدو حب التدمير.

وإن الناس الذين يرفضون الحقائق الجديدة في حقل فلسفة الطبيعة يعتقدون أن قبولهم لهذه الحقائق يعني دمار الإيمان بالله وبخليقة العالم وبمعجزة يشوع بن نون، أما المدافعون عن قوانين كوپرنيك ونيوتن، وڤولتير مثلاً، فقد كان يبدو لهم أن قوانين علم الفلسفة تدمر الدين. ولقد كان ڤولتير يستخدم قوانين الانجذاب سلاحاً ضد الإيمان.

ويبدو اليوم، بالطريقة نفسها بالضبط، أنه يكفي الاعتراف بقوانين الضرورة كي تنهار مفاهيم النفس، والخير والشر، والمؤسسات الحكومية والإكليريكية المبنية عليها.

إن حماة قانون الضرورة يجعلون اليوم، ڤولتير تماماً، من هذا القانون سلاحاً ضد الدين. إن قانون الضرورة في التاريخ، مثله مثل قانون كوپرنيك

twitter @baghdad_library

في علم الفلك بالضبط، لا يدمر المؤسسات السياسية والدينية، بل يزيد أسسها متانة وثباتاً.

فنحن نقع اليوم إذن، في التاريخ، على القضية نفسها التي واجهت علماء الفلك، ويقوم الفرق بين النظريات على قبول أو رفض وحدة مطلقة تستخدم مقياساً للحوادث الظاهرة. وفي الفلك، كانت هذه الوحدة هي ثبات الأرض، وفي التاريخ كانت استقلال الشخص، حرية الإنسان.

وفي علم الفلك، كانت صعوبة قبول حركة الأرض والكواكب الأخرى تقوم في كوننا نتنازل عن الإحساس المباشر بثبات الأرض وبحركة الكواكب، وفي التاريخ تقوم صعوبة قبول خضوع الشخص لقوانين المكان والزمان والسببية في ضرورة التنازل إذن عن الإحساس المباشر الذي يملكه كل شخص عن استقلال نفسه. ولكن، كما أن النظرية الجديدة في علم الفلك تقول: «هذا صحيح، نحن لا نملك إحساساً بحركة الأرض، لكننا نتوصل إلى أشياء غير معقولة إذا اعترفنا بثباتها. أما إذا قبلنا، على العكس، هذه الحركة التي لا نحس بها، فإننا نتوصل إلى قوانين». كذلك تقول النظرية الجديدة في التاريخ: «صحيح أننا لا نملك الإحساس بتبعيتنا، لكننا إذا قبلنا حريتنا فإننا نتوصل إلى شيء غير معقول. أما إذا قبلنا، على العكس تبعيتنا تجاه العالم الخارجي، والزمان، والسببية، فإننا نتوصل إلى قوانين».

ولقد اضطررنا في الحالة الأولى أن نتنازل عن إحساس الثبات في المكان وقبول حركة لا تدركها حواسنا، وأنه يجب علينا في الحالة الراهنة أيضاً أن نتنازل عن هذه الحرية التي نعيها ونقبل تبعية لسنا نشعر بها.

www.Maktbah.com

المحتويات

الجزء الحادي عشر	٧
الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	١٤
الفصل الثالث	١٩
الفصل الرابع	٢٣
الفصل الخامس	٢٩
الفصل السادس	٣٣
الفصل السابع	٣٨
الفصل الثامن	٤٤
الفصل التاسع	٤٧
الفصل العاشر	٥١
الفصل الحادي عشر	٥٦
الفصل الثاني عشر	٦٠
الفصل الثالث عشر	٦٥
الفصل الرابع عشر	٧٠
الفصل الخامس عشر	٧٤
الفصل السادس عشر	٧٩
الفصل السابع عشر	٨٦

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثامن عشر 93
الفصل التاسع عشر 98
الفصل العشرون 104
الفصل الحادي والعشرون 108
الفصل الثاني والعشرون 112
الفصل الثالث والعشرون 116
الفصل الرابع والعشرون 122
الفصل الخامس والعشرون 127
الفصل السادس والعشرون 140
الفصل السابع والعشرون 147
الفصل الثامن والعشرون 153
الفصل التاسع والعشرون 157
الفصل الثلاثون 170
الفصل الواحد الثلاثون 173
الفصل الثاني الثلاثون 179
الفصل الثالث والثلاثون 187
الفصل الرابع والثلاثون 196
الجزء الثاني عشر 203
الفصل الأول 205
الفصل الثاني 211
الفصل الثالث 215
الفصل الرابع 219
الفصل الخامس 226

www.Maktbah.com

الفصل السادس ٢٣١
الفصل السابع ٢٣٦
الفصل الثامن.. ٢٤٢
الفصل التاسع ٢٤٨
الفصل العاشر ٢٥١
الفصل الحادي عشر.................................... ٢٥٦
الفصل الثاني عشر..................................... ٢٦١
الفصل الثالث عشر ٢٦٩
الفصل الرابع عشر..................................... ٢٧٣
الفصل الخامس عشر.................................... ٢٨١
الفصل السادس عشر ٢٨٧
الجزء الثالث عشر ٢٩٥
الفصل الأول.. ٢٩٧
الفصل الثاني ٣٠١
الفصل الثالث ٣٠٤
الفصل الرابع.. ٣٠٨
الفصل الخامس ٣١١
الفصل السادس ٣١٣
الفصل السابع ٣١٨
الفصل الثامن.. ٣٢٢
الفصل التاسع ٣٢٥
الفصل العاشر ٣٣٠
الفصل الحادي عشر.................................... ٣٣٥

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

الفصل الثاني عشر ٣٤١

الفصل الثالث عشر ٣٤٥

الفصل الرابع عشر ٣٥٠

الفصل الخامس عشر ٣٥٦

الفصل السادس عشر ٣٦٠

الفصل السابع عشر ٣٦٤

الفصل الثامن عشر ٣٦٩

الفصل التاسع عشر ٣٧٢

الجزء الرابع عشر ٣٧٥

الفصل الأول ٣٧٧

الفصل الثاني ٣٨١

الفصل الثالث ٣٨٥

الفصل الرابع ٣٨٩

الفصل الخامس ٣٩٤

الفصل السادس ٤٠٠

الفصل السابع ٤٠٤

الفصل الثامن ٤١٠

الفصل التاسع ٤١٤

الفصل العاشر ٤١٩

الفصل الحادي عشر ٤٢٥

الفصل الثاني عشر ٤٣٠

الفصل الثالث عشر ٤٣٤

الفصل الرابع عشر ٤٣٨

www.Maktbah.com

الفصل الخامس عشر ٤٤١
الفصل السادس عشر ٤٤٥
الفصل السابع عشر ٤٤٨
الفصل الثامن عشر ٤٥١
الفصل التاسع عشر ٤٥٤
الجزء الخامس عشر ٤٦١
الفصل الأول ٤٦٣
الفصل الثاني ٤٦٩
الفصل الثالث ٤٧٣
الفصل الرابع ٤٧٧
الفصل الخامس ٤٨٢
الفصل السادس ٤٨٧
الفصل السابع ٤٩١
الفصل الثامن ٤٩٥
الفصل التاسع ٥٠١
الفصل العاشر ٥٠٥
الفصل الحادي عشر ٥٠٩
الفصل الثاني عشر ٥١٣
الفصل الثالث عشر ٥١٦
الفصل الرابع عشر ٥٢٠
الفصل الخامس عشر ٥٢٧
الفصل السادس عشر ٥٣١
الفصل السابع عشر ٥٣٦

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر ٥٤٠
الفصل التاسع عشر........................... ٥٤٨
الفصل العشرون............................... ٥٥٦
الفصل الحادي عشر........................... ٥٥٩
الخاتمة ٥٦٣
القسم الأول ٥٦٣
الفصل الأول.................................. ٥٦٥
الفصل الثاني.................................. ٥٧٠
الفصل الثالث ٥٧٣
الفصل الرابع.................................. ٥٧٩
الفصل الخامس................................ ٥٨٣
الفصل السادس ٥٨٧
الفصل السابع ٥٩٤
الفصل الثامن ٥٩٩
الفصل التاسع................................. ٦٠٥
الفصل العاشر................................. ٦١٤
الفصل الحادي عشر ٦٢١
الفصل الثاني عشر ٦٢٦
الفصل الثالث عشر........................... ٦٣٣
الفصل الرابع عشر ٦٣٩
الفصل الخامس عشر ٦٤٨
الفصل السادس عشر.......................... ٦٥٥
القسم الثاني................................ ٦٦٣

www.Maktbah.com

الفصل الأول........................... ٦٦٥
الفصل الثاني........................... ٦٧٢
الفصل الثالث........................... ٦٧٨
الفصل الرابع........................... ٦٨١
الفصل الخامس........................... ٦٩٠
الفصل السادس........................... ٦٩٤
الفصل السابع........................... ٦٩٩
الفصل الثامن........................... ٧٠٤
الفصل التاسع........................... ٧١٠
الفصل العاشر........................... ٧١٧
الفصل الحادي عشر........................... ٧٢٤
الفصل الثاني عشر........................... ٧٢٦

twitter @baghdad_library

www.Maktbah.com

...أثناء السلم، يعتقد كل إداري أن الفضل في سير كل المواطنين الذين عهد أمرهم إليه يعود إلى قيادته زمام حركتهم ويجد في إيمانه بأنه لا غنى لهم عنه، المكافأة الرئيسة على عمله ومجهوده. وطوال الهدوء الذي يخيم على محيط التاريخ، يعتمد ذلك الربان الإداري وهو على ظهر سابحته الهزيلة، يقدمه على سفينة الدولة، ليتقدم هو نفسه. ويتمكن هذا الربان، وهذا أمر ملموس، أن يعتقد أنه يدفع السفينة التي يرتكز عليها بقواه الشخصية. ولكن إذا ما هبّت العاصفة وأصبح البحر متلاطم الأمـواجِ وجُرحت السفينة، فإن ذلك الوهم يصبح مستحيلاً فالسفينة تتابع سيرها المهيب وحدها مستقلة، وربان السابحة يكتشف أنـه ليس الرئيس، مبعث كل قـوة، بل رجلاً ضعيفاً غير ذي فائدة، تافهاً ومسكيناً.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-614-432-522-3